موسوعة

أسماء الله الحسنى

وصفاته الفضلى

من الكتاب والسنة

المجلد الأول

الدكتور

محمد راتب النابلسي

مؤسسة

الفرسان

للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

موسوعة

أسماء الله الحسنى

وصفاته الفضلى

من الكتاب والسنة

جميع الحقوق محفوظة لدى

مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع

ويحظر نسخ و/أو طبع و/أو تصوير و/أو ترجمة و/أو إعادة صف وإخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه و/أو تسجيله على الأشرطة و/أو وسائل تحميل الصوت أو الصورة و/أو الأقراص المدمجة أو الممغنطة و/أو إدخاله على الكمبيوتر أو قواعد البيانات و/أو استغلاله بأي شكل من الأشكال إلا بموافقة خطيّة من الناشر.

All Rights Reserved ©
Al Fursan Est.
Publishers & distributors

No part of this publication may be reproduced or distributed in any form or by any means, or stored in a database or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

الطبعة الأولى

2014 م /1435 هـ

مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع

الأردن – عمان – العبدلي

هاتف 00962 6 5607386

فاكس 00962 6 5653470

صندوق بريد 240664 عمان 11124 الأردن

Al Fursan Est.
Publishers & distributors
Jordan – Amman – Abdaly
Tel : 00962 6 5607386
Fax: 00962 6 5653470
P.O. Box 240664 Amman 11124 Jordan

E-mail: alfursan111@yahoo.com

الكتاب: موسوعة أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى من الكتاب والسنة

4 مجلدات

المؤلف: الدكتور محمد راتب النابلسي

التخريج والتدقيق: بلال نور الدين

المراجعة النهائية: بلال نور الدين

الخطوط: الخطاط / يعقوب إبراهيم

الإشراف العام: م. حسن صالح

مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

All Rights Reserved ©

ردمك ISBN: 9789957570576

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية: 3 / 1 / 2014

مقدمة الكتاب

الحمد لله الملك القدُّوس السَّلام المؤمن، المهيمن العزيز الجبار المتكبر، الخالق البارئ المصوّر، له الأسماء الحسنى، يُسبِّح له ما في السماوات وما في الأرض، وهو العزيز الحكيم... وبعد:

قبل أكثر من عشرين سنة، تفضَّل الله عليَّ بإلقاء درس أسبوعي في مسجد العثمان بدمشق العامرة، وخلال سنوات عدَّة قمت -ولله الفضل والمنة- بشرح أسماء الله الحسنى في مئة درس، وقد اخترت هذا الموضوع إيماناً مني بأنَّ العقيدة أخطر شيء في الدين، فإن صحَّت صحّ العمل، وسلم الإنسان وسعد في الدنيا والآخرة، وأنَّ الأسماء الحسنى والصفات الفضلى لها موقع الصدارة في العقيدة، لأنَّ أصل الدين معرفة الله، ومن المعلوم أنَّ إحصاء الأسماء الحسنى وجمعها من الكتاب والسنّة، قضية لها من الأهميَّة والمكانة في قلوب المسلمين ما لا تعدلها مكانة، وهو ما تتطلَّع إليها نفوس الموحدين، وتتعلق بها ألسنة الذاكرين، ويرتقي الطالبون من خلالها مدارج السالكين، قال ابن القيم: «فالعلم بأسمائه وإحصاؤها أصل لسائر العلوم، فمن أحصى أسماءه كما ينبغي أحصى جميع العلوم، إذ إحصاء أسمائه أصل لإحصاء كل معلوم؛ لأن المعلومات هي من مقتضاها ومرتبطة بها»[1].

---

(١) بدائع الفوائد، ١/ ١٧١.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَـٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٨٠﴾ [الأعراف:١٨٠].

وقال تعالى أيضاً: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَـٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الإسراء:١١٠].

وقد أذيعت هذه الدروس في كثير من الإذاعات الإسلامية في شتى بقاع العالم مرات عديدة.

ثم صدر كتاب (موسوعة أسماء الله الحسنى) في ثلاثة أجزاء عام ٢٠٠٢، حيث فُرّغت الدروس المسجلة وتم تنقيحها عدة مرات.

وقد طبع الكتاب بضع عشرات من الطبعات، حيث تلقاه القراء في العالم العربي والإسلامي بقبول حسن، كما تلقته الجاليات الإسلامية في العالم الغربي بقبول وثناء.

وقد نقحت الموسوعة في طبعاتها الكثيرة السابقة، وهذا يؤكد ضعف الإنسان فقد كتب القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني يقول: إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابه في يومه إلا قال في غَدِهِ: لو غُيِّرَ هذا لكان أحسن، ولو زيد هذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العِبَر، وهو دليل على استيلاء النقص على معظم البشر[1].

---

(١) استدراك: هذا القول للقاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني (٥٢٩-٥٩٦هـ/ ١١٣٥-١٢٠٠م) بعث به إلى العماد الأصفهاني (٥١٩-٥٩٧هـ/ ١١٢٥-١٢٠١م) الذي انتقده في كلام استدركه عليه. انظر: «شرح إحياء علوم الدين» للإمام المرتضى الزبيدي، ١/ ٣. «أبجد العلوم» لصديق بن حسن القنوجي، ص٥٢. التقسيم السابع، «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» لحاجي خليفة، ١/ ١٤.

وكنت قد طلبت من إخوتي القراء بدءاً من الطبعة الأولى، والطبعات التي تلتها، أن يقدموا لي أثمن هدية وهي ملاحظاتهم القيمة، ونقدهم البنّاء، وأكدت لهم أنه ما من أحد أصغر من أن يَنقُد، وما من أحد أكبر من أن يُنقَد، إلا رسول الله ﷺ وقد استجاب عدد كبير من الإخوة القراء، فأرسلوا رسائلهم من داخل سورية ومن خارجها..

وقد تلقيتها بموضوعية وامتنان، وقد أفدت منها، لأن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «أحب ما أهدى إليّ أصحابي عيوبي»، علماً بأن الذي يقبل النصيحة ليس أقل أجراً من الذي يسديها.

وكنت حينما شرحت أسماء الله الحسنى في الكتاب السابق قد اعتمدت على الحديث الشريف الذي ورد في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ لله تِسْعَةً وتِسْعِينَ اسْماً مِئَةً إلاَّ واحِداً مَنْ أحْصاها دَخَلَ الجَنَّةَ»[(١)]. وما أدرج بعده من أسماء الله الحسنى، وهي ما جمعه راوي الحديث الوليد بن مسلم[(٢)] من الأسماء كتفسير شخصي وباجتهاد منه لحديث الأسماء الآنف الذكر الذي أخرجه البخاري ومسلم، وهي الرَّحمنُ الرَّحيمُ المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلامُ المُؤْمِنُ المُهَيمِنُ العَزيزُ الجَبَّارُ المُتكَبِّرُ الخالِقُ البَارِئُ المُصوِّرُ الغَفَّارُ القَهَّارُ الوَّهابُ الرَّزَّاقُ الفتَّاحُ العَليمُ القَابِضُ البَاسِطُ الخافِضُ الرَّافِعُ المعِزُّ المذِلُّ السَّميعُ البَصيرُ الحَكَمُ العَدْلُ اللَّطِيفُ الخَبيرُ الحَليمُ العَظيمُ الغَفورُ الشَّكُورُ العَلِيُّ الكَبيرُ الحَفيظُ المُقِيتُ الحَسيبُ الجَليلُ الكَريمُ الرَّقيبُ المُجيبُ الواسِعُ الحَكِيمُ الوَدُودُ المَجِيدُ البَاعِثُ الشَّهِيدُ الحق الوَكِيل القَوِيُّ المَتينُ الوَلِيُّ الحَميدُ المُحْصِي المُبْدِئُ المُعيدُ المُحْيي المُميتُ الحَيُّ القَيُّومُ الواجِدُ الماجِدُ الوَاحِدُ الصَّمَدُ القَادِرُ المُقْتَدِرُ المُقَدِّمُ المُؤَخِّرُ الأوَّلُ الآخِرُ الظَّاهِرُ البَاطِنُ الوَالِي المُتَعالِي البَرُّ التَّوابُ المنتَقِمُ

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧)، والترمذي (٣٥٠٦)، وابن ماجه (٣٨٦٠).

(٢) وهي الرواية التي أخرجها الترمذي برقم (٣٥٠٧).

العَفُوُّ الرَّؤُوف مالِكُ المُلْكِ ذو الجَلالِ والإكْرامِ المُقْسِطُ الجَامِعُ الغَنِيُّ المُغْنِي المَانِعُ الضَّارُّ النَّافِعُ النُّورُ الهَادِي البَدِيعُ البَاقِي الوَارِثُ الرَّشِيدُ الصَّبُور.

وقد كنت رجوت الله تعالى أن يمكنني من شرح الأسماء الحسنى في دروس مصورة، بعد أن شرحتها في دروس مسجلة، حتى تأخذ طريقها إلى الفضائيات بعد أن أخذت طريقها إلى الإذاعات، وقد استجاب الله تعالى الدعاء، فيسّر لي شرح الأسماء الحسنى في دروس مصورة حيث درّست الأسماء الحسنى في مسجد الحمد في دمشق، وذلك في درس يومي عقب صلاة الفجر خلال عام ٢٠٠٨، وقد تم تصوير تلك الدروس وعرضها في الفضائيات العربية والمواقع الالكترونية ولله الحمد والمنّة.

ولم أعتمد في هذا الشرح على الأسماء التي جمعها الوليد بن مسلم، والتي اشتهرت على ألسنة الناس فيما بعد، وذلك لوجود اختلاف بين العلماء في ثبوت بعضها مثل (المانع، المعز، المذل ، الضار، النافع ، الرشيد، الصبور) إذ إن أمثال هذه الأسماء لم ترد في الكتاب أو السّنة، ومن المعلوم أنه لا يجوز تسمية الله تعالى بغير ما سمّى به نفسه، فالله تعالى يعزُّ من يشاء ويذلُّ من يشاء، وهذا من أفعاله جل جلاله، ولكن لا يصح تسميته بالمعزِّ أو المذلِّ.

وقد ألف أكثر من عالم في إثبات الأسماء الواردة في الكتاب وصحيح السنة، ومن هؤلاء الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في كتابه (القواعد المثلى) حيث جمع تسعة وتسعين اسماً؛ واحداً وثمانين اسماً من كتاب الله تعالى، وثمانية عشر اسماً من السنة الصحيحة وهي:

الله، الأحد، الأعلى، الأكرم، الإله، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، البارئ، البر، البصير، التواب، الجبار، الحافظ، الحسيب، الحفيظ، الحفيّ، الحقّ، المبين، الحكيم، الحليم، الحميد، الحي، القيوم، الخبير، الخالق، الخلاق، الرؤوف، الرحمن، الرحيم، الرزاق، الرقيب، السلام، السميع، الشاكر، الشكور، الشهيد، الصمد، العالم، العزيز، العظيم، العفو، العليم، العلي، الغفار، الغفور، الغني، الفتاح، القادر، القاهر، القدوس، القدير، القريب، القوي، القهار، الكبير، الكريم، اللطيف، المؤمن، المتعالي،

المتكبر، المتين، المجيب، المجيد، المحيط، المصور، المقتدر، المقيت، الملك، المليك، المولى، المهيمن، النصير، الواحد، الوارث، الواسع، الودود، الوكيل، الولي، الوهاب، الجميل، الجواد، الحكم، الحيي، الرب، الرفيق، السبوح، السيد، الشافي، الطيب، القابض، الباسط، المقدم، المؤخر، المحسن، المعطي، المنان، الوتر.

إلا أن الشيخ ابن عثيمين لم يجزم بكون الحفيِّ اسماً من أسماء الله الحسنى لعدم وروده في القرآن مطلقاً.

وممَّن بحث في الموضوع ذاته الدكتور محمود الرضواني الذي أثبت هذه الأسماء الواردة أعلاه إلا أسماء (العالم، الحافظ، الحفيّ، المحيط) ولكنّه أثبت أسماء أخرى من السنة الصحيحة لم يثبتها الشيخ ابن عثيمين رحمه الله وهي (السّتّير، الرّازق، الدّيان، المالك، المسعّر).

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أنّ أسماء الله تعالى غير محصورة بعدد معين، لقوله ﷺ: «أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك» [الحديث رواه أحمد وابن حبان والحاكم].

وما استأثر الله تعالى به في علم الغيب لا يمكن لأحدٍ حصره، ولا الإحاطة به.

وأما قوله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً مئة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة» فلا يدلُّ على حصر الأسماء بهذا العدد.

ولم يصح عن النبي ﷺ تعيين هذه الأسماء، قال ابن حجر رحمه الله تعالى في «فتح الباري»: ليست العلة عند الشيخين (البخاري ومسلم)، تفرد الوليد فقط، بل الاختلاف فيه والاضطراب، وتدليسه واحتمال الإدراج.

ولما لم يصح تعيينها عن النبي ﷺ فقد اختلف السلف في تعيينها على أقوال عديدة، يجمع بينها الاتفاق على العدد الأكبر من هذه الأسماء لا سيما التي وردت في القرآن الكريم.

وقد اخترت بتوفيق الله، وبعد الاطِّلاع على الدراستين السابقتين اعتماد الأسماء التي أوردها الدكتور محمود الرضواني، وشرحتها في مئتي درس مصوَّر ولله الحمد.

وقد سلكت في شرح هذه الأسماء الحسنى والصفات الفضلى أسلوباً جديداً يعتمد على آيات الله في الآفاق، وعلى آيات الله في النفس البشرية، ويعتمد على أفعال الله الدالة على ألوهيته، ووحدانيته، وكماله، ويعتمد على ما في الكتاب والسنة من تعريفات وشروح لأسمائه جل جلاله، بحيث تغدو آيات الله الكونية، والتكوينية، والقرآنية، مضيئة وموضِّحة لهذه الأسماء، بالإضافة إلى ما ورد عن العلماء والسلف في شرح هذه الأسماء.

وبعد عرض الدروس لمرات عديدة لمعت فكرة هذا الكتاب، وهو (موسوعة أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى من الكتاب والسّنّة) وكانت خطوات إعداده على النحو الآتي:

١- جمع كامل المادة حول شرح الأسماء الحسنى من الكتاب السابق ومن الدروس المصورة الجديدة.

٢- تقسيم الكتاب إلى ثلاثة أقسام موزعة على أربعة أجزاء:

القسم الأول: الأسماء التي ورد ذكرها في القرآن الكريم وعددها ثمانية وسبعون اسماً، وقد رتبتها بحسب ورودها في ترتيب المصحف وهي: الرّحمن، الرَّحيم، الرَّبّ، المالك، القدير، العليم، الحكيم، التَّوَّاب، السَّميع، العزيز، الواسع، الرَّؤوف، الشَّاكر، الإله، الغفور، القريب، الحليم، الحيُّ، القَيُّوم، العليُّ، العظيم، الحميد، الوهَّاب، الوكيل، الرَّقيب، الحسيب، الشَّهيد، العفوُّ، المقيت، القاهر، الخبير، اللطيف، الغنيُّ، المولى، النَّصير، الحفيظ، القويُّ، المجيد، الواحد، القهَّار، الكبير، المتعالي، الوارث، الخلَّاق، البصير، الحقُّ، المبين، الفتَّاح، الشَّكور، المجيب، الغفَّار، الوليُّ، الرَّزَّاق، المتين، البرُّ، المقتدر، المليك، الأوَّل، الآخر، الظَّاهر، الباطن، الملك، القدُّوس، السَّلام، المؤمن، المهيمن، الجبَّار، المتكبِّر، الخالق، البارئ، المصوِّر، القادر، الكريم، الودود، الأعلى، الأكرم، الأحد، الصَّمد.

القسم الثاني: الأسماء التي ورد ذكرها في السنة وعددها اثنان وعشرون اسماً وهي: الجميل، الجواد، الحكم، الحييُّ، الرَّفيق، السُّبُّوح، السَّيِّد، الشَّافي، الطَّيِّب، القابض، الباسط، المقدِّم، المؤخِّر، المحسِن، المعطي، المنَّان، الوِتر، الرَّازق، المسعِّر، المالك، الدَّيّان.

القسم الثالث: بعض صفاته وأفعاله جل جلاله، وهي: الإرادة، العدل، البقاء، عالم الغيب والشهادة، الله نور السماوات والأرض، ذو الجلال والإكرام، الاصطفاء، التسخير، المنع، النفع والضر، فالله خير حافظاً، قائماً بالقسط، البعث، تأخير العقوبة، ذو انتقام، الجمع، الإحصاء، يدبِّر الأمر، يهدي من يشاء، يضلُّ من يشاء، يحيي ويميت، يعزُّ ويذلُّ، يخفض ويرفع، يبدئ ويعيد، يؤتي الحكمة.

٣- تقسيم كلِّ بحث إلى عناوين فرعية بحيث يبدأ كل اسم بعرض الآيات والأحاديث التي ورد فيها الاسم، ومن ثم التعرف على طرف من معنى الاسم، ومن ثم نصيب المؤمن من هذا الاسم، كما وردت في بعض الأسماء عناوين أخرى مثل: (آثار الاسم في الكون، إضاءات على الآيات التي ورد فيها الاسم ومشتقاته) إلى غير ذلك.

٤- التنقيح الشامل لمادة الكتاب لغوياً وشرعياً مع تخريج الأحاديث الشريفة، ونسبة الأقوال والقصص والأشعار إلى أصحابها.

وبذلك يكون هذا الكتاب نتاج أكثر من عشرين سنة من البحث في هذا العلم الجليل، كما أنه نتاج أكثر من ثلاثمئة درس مسجل ومصور ألقيت في مساجد دمشق.

ولا بد من أن أشكر في نهاية المطاف، كل الإخوة الكرام الذين ساهموا بشكل أو بآخر في إخراج هذا الكتاب إلى حيز الوجود، فأنا أحبهم وأجلّهم، وأخص بالشكر (الأستاذ بلال نور الدين) فقد بذل جهداً مشكوراً في هذا الكتاب الجديد، كما أشكر مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع على حرصها على إتقان الإخراج والطباعة، بل أشكر كل من أسهم بشكل أو بآخر في إخراج هذه الموسوعة الجديدة أو التي سبقتها وقد تجاوز عدد طبعاتها عشرين طبعة.

ثم إني أدعو الله جل وعلا أن يجزي عنا سيدنا محمداً ﷺ الذي أرسله الله رحمة للعالمين، بشيراً ونذيراً، خير ما جزى نبياً عن أمته، وأن يجزي صحابته الكرام، وأهل بيته الأخيار، والطيبين الطاهرين، الهادين المهديين، أمناء دعوته، وقادة ألويته، ما هم أهله، وأن يجزي الله والدَيْنا، ومشايخنا، ومن علَّمَنا، ومن له حق علينا، خير الجزاء.

وفي الختام أعوذ بك يا رب أن يكون أحد أسعد بما علمتني مني، وأعوذ بك أن أقول قولاً فيه رضاك ألتمس به أحداً سواك، وأعوذ بك من فتنة القول كما أعوذ بك من فتنة العمل، وأعوذ بك أن أتكلف ما لا أحسن، كما أعوذ بك من العُجب بما أحسن.

الدكتور محمد راتب النابلسي
الثلاثاء ١٢ ربيع الأول ١٤٣٥هـ
الموافق ١٤/٠١/٢٠١٤م

تمهيد

أرجو القارئ الكريم قبل أن يشرع في قراءة موسوعة أسماء الله الحسنى، أن يقرأ هذا التمهيد ليُلِمَّ بعدد من الحقائق المتعلقة بمضمون هذه الموسوعة، كمعنى الإحصاء الذي جعله النبي ﷺ سبباً لدخول الجنة، والدعاء بأسماء الله الحسنى الذي جعله الله تعالى سبباً للاستجابة، وكيف أن الفهم العميق لأسماء الله الحسنى جعله الله تعالى سبباً لفهم القرآن الكريم، وفهمه والعمل به سبب النجاة في الدنيا والآخرة، ومعرفة أسماء الله الحسنى سبب لتعظيم الله المنجّي من عذاب الله، ومعرفة أسماء الله الحسنى سبب للتحرّر من سيطرة العباد وقهرهم، ومعرفة أسماء الله الحسنى باعث قوي على التوبة النّصوح، التي هي سبب لسعادة الدّارَيْن، وهذا ما سأعالجه في هذا التمهيد للكتاب.

* * *

لقد أودع الله في الإنسان قوّة إدراكيّة، وميّزه بهذه القوّة عن بقيّة المخلوقات، وهٰذه القوّة الإدراكيّة تستلزم طلب الحقيقة، فقد خلق فيه حاجة عليا للمعرفة، وما لم تلبَّ هذه الحاجة العليا، وما لم يبحث الإنسان عن الحقيقة، وما لم يبحث عن سرّ وجوده، وعن غاية وجوده، وعن أفضل شيء يمكن أن يفعله في وجوده فقد هبط عن مستوى إنسانيته إلى مستوى لا يليق به.

إنّ أصل الدين معرفة الله، وفضل معرفة الله على معرفة خَلقه كفضل الله على خلقه، وكم هي المسافة كبيرة جداً بين أن تعرف شيئاً من مخلوقات الله وأن تعرف خالق السماوات والأرض، فعَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «فَضْلُ كَلَامِ الله عَلَى كَلَامِ خَلْقِهِ كَفَضْلِ الله عَلَى خَلْقِهِ» [رواه الدارمي في سننه].

فلذلك ما من معرفة تعلو على أن نعرف الله عز وجل:

هناك نقطة مهمّة جداً: يمكن أن تتعرف إلى الله، ويمكن أن تضعف معرفتك بالله، وتكتفي بالتعرف إلى أمره ونهيه، لكنّ الحقيقة الصارخة أنك إذا عرفت الآمر، ثم عرفت الأمر تفانيت في طاعة الآمر، بينما إذا عرفت الأمر، ولم تعرف الآمر تفننت في التفلت من الأمر.

الصحابة الكرام قلّة، وقد وصلت راياتهم إلى أطراف الدنيا، لأنهم عرفوا الله، وحينما اكتفينا بمعرفة أمره، ولم نصل إلى معرفته المعرفةَ التي تحملنا على طاعته كما ترون حال العالم الإسلاميّ اليوم فإننا لسنا ممكَّنين، والله عز وجل يقول: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى ﴾ [النور:٥٥].

نحن لسنا مستخلَفين، ولسنا ممكَّنين، ولسنا آمنين، والكرة في ملعبنا، لأنّ الله تعالى يقول: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾ [مريم:٥٩].

إذاً: الفرق واضح بين الرعيل الأول من الصحابة الكرام الذين عرفوا الله، وطبقوا منهجه، فاستحقّوا وعود الله عز وجل، وبين واقعنا اليوم.

قال بعض العلماء: هناك علم بخلقه، وهو من اختصاص الجامعات في العالم، أية جامعة تذهب إليها فيها كليات العلوم، والطب، والهندسة، والصيدلة، وما إلى ذلك، هذا علم بخلقه، والعلم بخلقه أصل صلاح الدنيا، والمسلمون مفروض عليهم فرضاً كفائياً أن يتعلموا هذه العلوم كي يكونوا أقوياء، لذلك العلم بخلق الله أصل في صلاح الدنيا، والعلم وصف ما هو كائن، هناك ظواهر فلكية، ينتج عنها علم الفلك، وهناك ظواهر فيزيائية، ينتج عنها علم الفيزياء، وهناك ظواهر كيميائية، ينتج عنها علم الكيمياء، وظواهر نفسية خلاصتها علم النفس، وظواهر اجتماعية أنتجت علم

الاجتماع، وهكذا... فالعلم مختص بما هو كائن، وهو علاقة مقطوع بها بين متغيرين، تطابق الواقع، عليها دليل، هذا هو العلم.

وهناك علم بأمره، وهو فرض عين على كل مسلم، ولا بد من أن يتعلمه كلّ إنسان، لتأتي حركته في الحياة مطابقة لمنهج الله عز وجل وهو أصل في العبادة، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦].

وهناك علم به جل جلاله، علم بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، وهذا هو موضوع كتابنا

العلم بأمره وبخلقه يحتاج إلى مدارسة، إلى مدرس، إلى كتاب، إلى وقت، إلى مطالعة، إلى مذاكرة، إلى مراجعة، إلى أداء امتحان، إلى نيل شهادة، ولكنّ العلم به يحتاج إلى مجاهدة.

أنت حينما تلتزم، وحينما تأتي حركتك في الحياة مطابقة لمنهج الله عز وجل عندئذ يتفضل الله علينا جميعاً فيمنحنا وميضاً من معرفته جل جلاله، فلذلك العلم بخلقه يحتاج إلى مدارسة، وعلم بأمره يحتاج إلى مدارسة أيضاً والعلم بخلقه وبأمره أصل في صلاح الدنيا، ومن أجل قوة المسلمين، والثاني أصل في قبول العبادة، لكن العلم به يحتاج إلى مجاهدة، فبقدر ما تضبط جوارحك، بقدر ما تضبط حركاتك وسكناتك، بقدر ما تضبط تطلعاتك وبيتك وعملك، بقدر ما يتفضل الله عليك بأن يمنحك شيئاً من معرفته.

وسائل العلم بالله جل جلاله

أولاً: آياته الكونية: قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩١].

لذلك من أجل أن نعرف الله عز وجل لا بد من أن نتفكر في مخلوقاته، والآية واضحة جداً، وفيها إشارة إلى أن المؤمن يتفكر في خلق السماوات والأرض تفكراً مستمراً، والفعل المضارع ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ يدل على الاستمرار، فمن أجل أن أعرف الله ينبغي أن أتفكر في مخلوقاته.

هذا الكون ينطق بوجود الله ووحدانيته وكماله، وقد قيل: الكون قرآن صامت، والقرآن كون ناطق، والنبي ﷺ قرآن يمشي؛ لأنّ كلَّ ما في الكون يعد مظهراً لأسماء الله الحسنى.

ترى في الكون رحمة، إذاً: الله رحيم، ترى في الكون حكمة، إذاً: الله حكيم، ترى في الكون قوة، والله قوي، ترى في الكون غنى، والله غني.

إن قرأت آية فيها أمر، تقتضي هذه الآية أن تأتمر، وإن قرأت آية فيها نهي، تقتضي هذه الآية أن تنتهي، وإن قرأت آية فيها وصف لحال أهل الجنة تقتضي هذه الآية أن تسعى لدخول الجنة، وإن قرأت آية فيها وصف لحال أهل النار تقتضي هذه الآية أن تتقي النار، وإن قرأت قصة أقوام سابقين تقتضي هذه الآية أن نتعظ، وأن نبتعد عن كل عمل سيء يفعله هؤلاء.

وإذا قرأت آية فيها إشارة إلى الكون، إلى خلق الإنسان، ماذا تقتضي هذه الآية؟ تقتضي هذه الآية أن تتفكر في خلق السماوات والأرض.

ثانياً: النظر في أفعال الله: قال تعالى:﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦)﴾ [النحل:٣٦].

الطريق الثانية في معرفة الله: أن تنظر في أفعاله، فالله عز وجل فعّال لما يريد، وأفعاله متعلقة بالحكمة المطلقة.

ثالثاً: تدبر القرآن الكريم: قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)﴾ [محمد:٢٤].

إذاً هناك آيات كونية تقتضي منا التفكّر، وهناك آيات قرآنية تقتضي منا النظر، وهناك آيات تكوينية (أفعاله) تقتضي النظر وأخذ العبر.

إذا: يمكن أن نرمز إلى الإسلام بمثلث فيه أربع مساحات، المساحة الأولى: مساحة العقيدة، وأخطر شيء في الإسلام العقيدة، لأنها إذا صحّت صحّ العمل، وإذا فسدت فسد العمل.

بالمناسبة، الإسلام يقدم للإنسان تصورات عميقة ودقيقة ومتناسقة للكون والحياة والإنسان، لمجرد أن تقرأ القرآن الكريم فأنت أمام منظومة تصورات عميقة ودقيقة ومتناسقة، تعرف سرّ الحياة الدنيا، ما حكمة المرض؟ ما حكمة المصائب؟ لماذا الموت؟ وماذا بعده؟ من أين جئت؟ وإلى أين أنا ذاهب؟

لذلك إذا شرد الإنسان عن الله، وتوهم أفكاراً معينة، وآمن بها قد يفاجأ مفاجأة صاعقة، أن هذه الأفكار غير صحيحة، أما حينما يؤمن بالله، ويؤمن بمنهجه، والمنهج يقدم له تفسيراً عميقاً دقيقاً متناسقاً لحقيقة الكون، ولحقيقة الحياة الدنيا، ولحقيقة الإنسان عندها يفلح.

المساحة الأولى مساحة العقيدة، فالخطأ في الميزان لا يُصحَّح، بينما الخطأ في الوزن لا يتكرر، فأفضل ألف مرة أن تقع في خطأ في مفردات المنهج من أن تقع في خطأ في أصل التصوّر.

فما من انحراف في السلوك إلا بسبب انحراف في العقيدة، ولو أن العقيدة لا يتأثر بها السلوك فاعتقد ما شئت، ولكن ما من خطأ في العقيدة إلا وينعكس خطأ في السلوك.

المساحة الثانية في المثلث مساحة العبادات، والأصل في العبادات الحظر، ولا تشرع عبادة إلا بالدليل القطعي والثابت، لأن العبادات قربات إلى الله.

والمساحة الثالثة مساحة المعاملات، فسيدنا جعفر ﵁ لما سأله النّجاشيّ عن الإسلام قال: «أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي

الفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الجِوَارَ، يَأْكُلُ القَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللهِ لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الحِجَارَةِ وَالأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الجِوَارِ، وَالكَفِّ عَنِ المَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ اليَتِيمِ، وَقَذْفِ المُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ» [أحمد عن أم سلمة] .

إذاً: الإسلام مجموعة قيم أخلاقية، من هنا قال ﷺ: «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ» [متفق عليه عن ابن عمر] .

فالإسلام بناء أخلاقي، والعبادات الخمس هي أركان هذا البناء لا يقوم إلا بها، لذلك قال ابن القيّم رحمه الله تعالى: الدّين كلُّه خُلُق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين[1] .

المساحة الرابعة مساحة الأخلاق: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم:٤].

ما لم تكن متمسكاً بمكارم الأخلاق، ما لم تكن منصفاً، ما لم تكن متواضعاً، ما لم تكن رحيماً فلن تقطف ثمار هذا الدين.

وإن دراسة أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، لزيادة الإيمان وتقويته، هذه الدراسة تنتمي إلى المساحة الأولى وهي العقيدة بينما تنعكس آثارها الإيجابية على باقي المساحات من عبادة ومعاملة وخلق.

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٣٠٧.

من هنا يقول العالم الجليل ابن القيم رحمه الله تعالى: «العلم بأسمائه وإحصائها أصل لسائر العلوم، فمن أحصى أسماءه كما ينبغي للمخلوق أحصى جميع العلوم»(١).

لو أنّ إنساناً يحمل أعلى شهادة في الفيزياء النووية، فإذا ما انتهى أجله انتهت هذه الشهادة، لكن إذا تعرف إلى الله فإنه ينتفع بهذه المعرفة في حياته وبعد الموت وإلى أبد الآبدين، لهذا كلّ علم ممتع، لكن ما كل علم ممتع بنافع، والعلم النافع قد يكون غيرَ مسعد، إلا أنك إذا تعرفت إلى الله فهو علم نافع ممتع مسعد في الدنيا والآخرة.

«إِنَّ لله تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»

أخرج البخاري في صحيحه، عن أبي هريرةَ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «إنَّ لله تِسْعَةً وتِسْعِينَ اسْماً مئةً إلا واحِداً مَنْ أحْصاها دَخَلَ الجَنَّةَ».

يتضح من هذا الحديث أن أصل الدين معرفته، (فمن أعجب العجب أن تعرفه ثم لا تحبه، وأن تسمع داعيه ثم تتأخر عن الإجابة، وأن تعرف قدر الربح في معاملته ثم تعامل غيره، وأن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض له، وأن تذوق ألم الوحشة في معصيته ثم لا تطلب الأنس بطاعته، وأن تذوق عصرة القلب عند الخوض في غير حديثه، والحديث عنه ثم لا تشتاق إلى انشراح الصدر بذكره ومناجاته، وأن تذوق العذاب عند تعلق القلب بغيره ولا تهرب منه إلى نعيم الإقبال عليه والإنابة إليه، وأعجب من هذا علمك أنك لا بد لك منه وأنك أحوج شيء إليه، وأنت عنه معرض وفيما يُبعدك عنه راغب)(٢).

النبي ﷺ يقول: «من أحصاها»، فالإحصاء يختلف عن العدّ، لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ [مريم:٩٤]، فمن أحصاها فقد استوفاها، أي: أنه لا يقتصر على بعضها، لكن يدعو الله بها كلّها، ويثني عليه بجميعها، فيستوجب الجنّة، أو

(١) بدائع الفوائد١/ ١٦٣.
(٢) الفوائد، ابن قيم الجوزية ١/ ٤٧.

من أطاق القيام بحقّ هذه الأسماء، والعملَ بمقتضاها، وهو أن يعقل معانيها، فيُلزِم نفسه بواجبها، ومن معاني «أحصاها»: أنه عرفها على وجه التفصيل، لأن العارف بها لا يكون إلا مؤمناً، والمؤمن يدخل الجنة، وقيل: أحصاها: يريد بها وجه الله وإعظامه، وقيل: معنى أحصاها: عمل بها، فإذا قال: «الحكيم» مثلاً سَلَّم لله في جميع أوامره، في جميع أفعاله، لأن جميعها مقتضاها الحكمة، وإذا قال: «القدوس»، استحضر كونه منزهاً عن جميع ما لا يليق بجلاله، وقال بعض العلماء: معنى أحصاها، أي: سلك طريق العمل بها، فليوطِّن العبد نفسه على أن يصح له الاتصاف بها، وما كان يختص بالله تعالى: كالجبار والعظيم فيجب على العبد الإقرار بها، والخضوع لها، وعدم التحلي بصفة منها، وما كان فيه معنى الوعد نقف منه عند الطمع والرغبة، وما كان فيه معنى الوعيد نقف منه عند الخشية والرهبة، فهذا معنى أحصاها وحفظها، ويؤيده أن من حفظها عدّاً، وأحصاها سرداً، ولم يعمل بها، يكون كمن حفظ القرآن، ولم يعمل بما فيه، وقال بعضهم: ليس المراد بالإحصاء عدّها ليس غير، لأنَّه قد يعدّها الفاجر، وإنما المراد العمل بها.

وقال أبو العباس بن مَعْدٍ: يحتمل الإحصاء معنيين أحدهما: أن المراد تَتَبُّعها من الكتاب والسنّة، حتى يحصل عليها، والثاني: العمل بها، وتمام الإحصاء أن يتوجه إلى الله تعالى من العمل الظاهر والباطن بما يقتضيه كل اسم من الأسماء، فيعبد الله بما يستحقّه من الصفات المقدّسة التي وجبت لذاته، قيل: من حصلت له جميع مراتب الإحصاء حصل على الغاية، قال أبو الحسن القابسي: أسماء الله وصفاته لا تُعلم إلا بالتوقيف من الكتاب أو السنّة أو الإجماع، ولا يدخل فيها القياس، ولم يقع في الكتاب ذكر عدد معين، وثبت في السنّة أنها تسعة وتسعون، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ﴾ [الأعراف:١٨٠].

قال أهل التفسير: من الإلحاد في أسمائه تسميتُه بما لم يرد في الكتاب أو السنّة الصحيحة. وأشار ابن القيم رحمه الله إلى أن الإحصاء مراتب، وذكر بأنه لو قررنا أن المعنى هو حفظها، فحفظ القرآن الكريم على سبيل المثال معروف ثواب حفظه، كما قال

ﷺ: «مثل الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له مع السفرة الكرام البررة» [رواه البخاري، من حديث عائشة]، فلو افترضنا أنَّ منافقاً حافظٌ للقرآن؛ لكنه لا يُحِل حلاله ولا يحرِّم حرامه، فهل ينفعه حفظه للقرآن؟ وهل تنفعه تلاوته للقرآن؟ فالقرآن حُجَّة للمرء أو عليه، فكذلك هذه الأسماء حينما تكون مجرد حفظ فقط لا ينفعه حفظها، لكن يحفظها، ويتأمل معانيها، ويُلزِم نفسه بمتقضياتها.

* * *

لقد أمر الله تبارك وتعالى عباده بأن يدعوه بأسمائه فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾، وفي القرآن الكريم في مواضع عدة أخبر الله سبحانه وتعالى عن جمع من أنبيائه أنهم يدعونه عز وجل بأسمائه وصفاته، كقوله تعالى: ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء:٨٣]، ونرى ذلك في السنّة، فيما نقل عن النبي ﷺ من أدعية دعا بها، أو أمرنا أن ندعو بها، نجد كثيراً من النصوص فيها الدعاء بالأسماء والصفات، ومن ذلك قوله ﷺ:

«ما أصاب أحداً قط هم، ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكلِّ اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علّمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله عز وجل همه، وأبدله مكان حزنه فرحاً»، قالوا: يا رسول الله ينبغي لنا أن نتعلم هذه الكلمات؟ قال: بلى ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن [رواه أحمد والبزار وأبو يعلى وابن حبان في صحيحه والحاكم بسند صحيح من حديث ابن مسعود].

والدعاء بأسماء الله وصفاته ينبغي أن يتناسب مع ما يدعو به المسلم، كما قال أحد العلماء: «يطلب بكل اسم ما يليق به، تقول: يا رحيم ارحمني، يا حكيم احكم لي، يا رزّاق ارزقني».

وقال ابن القيم: «يسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضياً لذلك المطلوب، فيكون السائل متوسلاً بذلك الاسم، ومن تأمل أدعية الرسل وجدها مطابقة لهذا».

* * *

حين تتأمّل كتاب الله عز وجل لا تكاد تفقد الحديث عن الأسماء والصفات؛ ففي كل سورة من السور، بل في كلّ صفحة من الصفحات، تجد سرداً لأسماء الله عز وجل، أو صفاته، أو حديثاً عن عظمة الله سبحانه وتعالى، وأحياناً تأتي تعقيباً على آية من الآيات في وعد، أو وعيد، أو حكم شرعي أو عن أنبيائه ورسله، أو حديثاً عن المكذبين الضالين، فلماذا هذا الحديث المستفيض في القرآن الكريم عن الأسماء والصفات؟ أليس هذا موحياً بأهمية الأسماء؟ ثم أليس موحياً بأن هناك واجباً آخر ينبغي أن نسعى إلى تحقيقه؟ وألا نقف عند مجرد الإثبات وحده، وهو أمر مهم، بل الانحراف فيه ضلال. ثم إننا كثيراً ما نجد الآيات تختم بالأسماء والصفات، وهي تختم ختماً مناسباً بمعنى ما دلت عليه الآية. وروى عبد الله بن مالك عن الأصمعي قال:

سمع الفرزدق رجلاً يقرأ (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله والله غفور رحيم)، فقال: لا ينبغي أن يكون هذا هكذا! قال: فقيل له: إنما هو (عزيز حكيم) قال: هكذا ينبغي أن يكون.

وروي أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ: (والله حكيم عزيز) والأعرابي لا يحفظ القرآن فقال الأعرابي: ما أراها أُنزلت كما تقول! فقال القارئ: (والله عزيز حكيم) فقال الأعرابي: نعم! عزَّ فلما عزَّ حكم، لهذا تجد ختم الآية مناسباً لمعناها ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [المائدة:٣٨] إذاً ختم الآيات بالأسماء والصفات يعطينا دلالة على الارتباط بين الاسم والصفة، وبين ما سبق في الآية، ثم تجد عجباً حينما تتأمل الفرق بين ما قد يبدو لنا أنها أسماء مترادفة، وهي ليست كذلك، فأحياناً يأتي ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة:١٧٣] وأحياناً ﴿ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٢٥]

وبينهما فرق دقيق، وأحياناً ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء:٢٦] وأحياناً ﴿عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء:١٢] وبينهما فرق دقيق، ولو قرأت في كتب التفسير لوجدت عجباً في ذلك.

* * *

ومعرفة الأسماء الحسنى، والصفات الفضلى سبب لتعظيم الله سبحانه وتعالى، ذلك أنّ المسلم الذي يعلم أن الله حليم كريم، وأنه عزَّ وجل غفور رحيم، وأنه شديد العقاب، بطشه شديد، وكيده متين، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، إذا أراد شيئاً إنما يقول له كن فيكون، وحينما يعلم أن الله سميع بصير، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، حين يعلم هذه الأسماء وتلك الصفات، فإنه يزداد تعظيماً له سبحانه وتعالى، ويزداد خضوعاً له، فيسعد بقربه في الدنيا والآخرة.

* * *

فالمسلم حينما يعلم أسماء الله الحسنى، وصفاته الفضلى، يستهين بالمخلوقين، ويشعر أن المخلوق لا يساوي شيئاً، بل انظر إلى أثر هذا الأمر عند هود ﷺ، حينما عاداه قومه ردَّ عليهم مستهيناً بجبروتهم ﴿قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [هود:٥٣] فعلم هود ﷺ أنهم قوم لا يعرفون إلا منطق التحدي، فقال لهم متحدياً:

﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود:٥٤-٥٦].

إن علمه بأن نواصي العباد بيد الله هو الذي دفعه إلى أن يستهين بجبروتهم وبطشهم. وحين يدرك المسلم أن نواصي العباد بين يدي الله عز وجل يشعر أن المخلوق

لا يساوي شيئاً؛ فلا يمكن أن يتوجه إلى المخلوق، ولا يرجو منه نفعاً ولا نوالاً، ولا يخشى منه منعاً ولا بطشاً.

* * *

حينما يعلم المسلم أن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها، وحينما يعلم أن الله ينزل إلى السماء الدنيا فيقول: هل من سائل فأعطيَه؟ هل من داعٍ فأستجيبَ له؟ هل من مستغفر فأغفرَ له؟ حتى ينفجر الفجر[1]، حينها يقبل على الله عزّ وجل، ويتوب إليه، ويشعر أن الله رحيم رؤوف وأنه سيقبل التوبة.

أرجو الله جل وعلا أن يوفق قرّاء هذه الموسوعة لمزيد من معرفة الله تعالى فهي أصل الدين، ولمزيد من الالتزام بأمره ونهيه، فهو أصل العمل الصالح، وهما أصل سعادة الدارين.

(١) أصل الكلام حديثان في صحيح مسلم.

الأسماء الثابتة في القرآن الكريم

الرحمن

اسم الله الرحمن ورد في القرآن والسنة كما في قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:١].

وفي قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن:١-٤].

وقد ورد هذا الاسم في خمسة وأربعين موضعاً من القرآن الكريم، اقترن في ستة منها باسم الرحيم، ولم يقترن بغيره في بقية المواضع، قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ۝٢٢﴾ [الحشر٢٢].

وقال تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢﴾ [فصلت:٢].

ومما ورد في السنة المطهرة: «الْخَيْلُ ثَلَاثَةٌ فَفَرَسٌ لِلرَّحْمَنِ وَفَرَسٌ لِلْإِنْسَانِ وَفَرَسٌ لِلشَّيْطَانِ، فَأَمَّا فَرَسُ الرَّحْمَنِ فَالَّذِي يُرْبَطُ فِي سَبِيلِ الله فَعَلَفُهُ وَرَوْثُهُ وَبَوْلُهُ وَذَكَرَ مَا شَاءَ الله، وَأَمَّا فَرَسُ الشَّيْطَانِ فَالَّذِي يُقَامَرُ أَوْ يُرَاهَنُ عَلَيْهِ، وَأَمَّا فَرَسُ الإِنْسَانِ فَالفَرَسُ

يَرْتَبِطُهَا الإِنْسَانُ يَلْتَمِسُ بَطْنَهَا فَهِيَ تَسْتُرُ أي أودعت فيه النطفة في بطنه، أي لقح» [أحمد عن ابن مسعود].

وهناك حديث آخر يقول النبي ﷺ: «الخيل ثلاثة، فهي لرجل أجر، ولرجل ستر، ولرجل وزر» [البخاري و مسلم عن أبي هريرة].

أيُّ إنسان يقتني مركبة يستر بها أهله الملتزمين المطبقين لمنهج الله عز وجل فهي له ستر، وهناك إنسان يسخر هذه المركبة لخدمة الناس فله أجر، وهناك إنسان يرتكب فيها المعاصي والآثام فله وزر، فالمركبة إما أنها ستر أو أجر أو وزر.

وفي الحديث القدسي: «أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت له اسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته» [البيهقي عن عبد الرحمن بن عوف].

وفي حديث آخر: «قل أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق وذرأ وبرأ، ومن شر ما ينزل من السماء، ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق يطرق إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن» [رواه أحمد عن عبد الرحمن التميمي].

هذه نماذج من الآيات والأحاديث التي ورد فيها اسم الرحمن منفرداً أو مقترناً بالرحيم.

من معاني اسم الله (الرحمن)

الرحمن في اللغة، صفة مشبهة وهي أبلغ من الرحيم، الرحمة في حقنا ـ بني البشر ـ رقة في القلب تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وتكون بالمسامحة واللطف أو المعاونة والعطف، والرحمة تستدعي مرحوماً فهي من صفات الأفعال، هذا في اللغة.

أما إذا قلنا الله جلّ جلاله هو الرحمن، فالرحمن اسم يختص بالله عز وجل، ولا يجوز إطلاقه في حق غيره، والرحمن سبحانه هو المتصف بالرحمة العامة الشاملة.

الرحمة تفتح باب الرجاء والأمل، وتثير مكنون الفطر، وتبعث على صالح العمل، وتدفع أبواب الخوف والنقمة، وتشعر الشخص بالأمن والأمان، الله رحيم، والله جل

جلاله سبقت رحمته غضبه، ولم يجعل من واسع رحمته إلا جزءاً يسيراً، والله عز وجل يقول: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران:١٥٩]، كلمة رحمة جاءت نكرةً، وهذا تنكير تقليل، والنبي ﷺ أرحم الخلق بالخلق، ومع ذلك: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾.

أما الله عز وجل: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [الكهف:٥٨].

إذاً سبقت رحمته غضبه، ولم يجعل من واسع رحمته إلا جزءاً يسيراً في الدنيا، يتراحم به الناس ويتعاطفون، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها.

هناك حيوان اسمه البطريق، طائر يعيش في القطب الجنوبي، يجتمع حوالي عشرة آلاف بطريق في قارة متجمدة، الرياح الباردة سرعتها مئة كيلو متر في الساعة، والحرارة خمسون تحت الصفر، يجتمعون هناك في هذا الوقت العصيب، الأنثى تضع بيضة، يضعها الذكر على قدميه، ويبقى واقفاً لا يتحرك، ولا يأكل، ولا يشرب أربعة أشهر، لأن هذه البيضة لو وقعت من على رجليه على الثلج لفسدت لذلك يحافظ عليها ويغطيها بفروه أربعة أشهر، ولا يأكل شيئاً، ولا يشرب شيئاً، وفي حوصلته كمية غذاء تكفي هذا المولود الجديد، يضع كمية من الغذاء في فم البطريق الصغير، إلى أن تأتي الأم من البحر وتتولى متابعة العناية بهذا البطريق، شيء لا يصدق أن كائناً يرعى هذه البيضة أربعة أشهر لا يأكل ولا يشرب شيئاً، والله تعالى لم يجعل من واسع رحمته إلا جزءاً يسيراً في الدنيا يتراحم به الناس، ويتعاطفون، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه: «جعل الله الرحمة مئة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه» [البخاري عن أبي هريرة].

«قدم على رسول الله ﷺ بسبي، فإذا امرأة من السبي تبتغي فإذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال النبي ﷺ: أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا والله وهي تقدر على ألا تطرحه، فقال ﷺ: لله أرحم بعبده من هذه بولدها» [البخاري عن عمر بن الخطاب].

حديث بليغ، تصور امرأة على التنور كلما وضعت رغيفاً تأخذ ابنها تضمه وتشمه، هل يعقل أن تطرح هذه المرأة ولدها في التنور؟ الله عز وجل فيما أخبر به النبي ﷺ أرحم بعبده من هذه الأم بولدها.

الرحمة التي دلّ عليها اسم الرحمن رحمة عامة، تظهر مقتضى الحكمة في أهل الدنيا، فمن رحمته أن الله عز وجل أنعم علينا لنذكره، ولكن كثيراً من الناس جاحدون، قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص:٧٣].

نعمة الليل والنهار، لا تُقدَّر بثمن، الإنسان إذا لم ينم اضطربت حياته، وجعل الله الليل سكناً: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ [الفرقان:٤٨].

الرحمة التي دلت عليها هذه الآيات رحمة عامة بالناس أجمعين.

هذا الاسم خصّه تعالى وقرنه باستوائه على العرش، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه:٥].

وفي آية ثانية: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ [الفرقان:٥٩].

وفي الحديث: «فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن» [البخاري عن أبي هريرة].

هل سألت خبيراً عن الله عز وجل؟ هل من علم يعلو على أن تعرف الله؟ أن تعرف خالق السماوات والأرض؟ أن تعرف أسماءه الحسنى وصفاته الفضلى؟

﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ [الفرقان:٥٩].

هذا أمر، وكلُّ أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب، ما لم تقم قرينة على خلاف ذلك.

لا يوجد صفة لها شمول كصفة الرحمة، أنت لطيف لأنك رحيم، كريم لأنك رحيم، منصف لأنك رحيم، أكثر الصفات الكاملة تنبع من الرحمة، لذلك قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران:١٥٩].

والمعنى: يا محمد بسبب رحمة استقرت في قلبك من خلال اتصالك بنا كنت ليناً لهم، فلما كنت ليناً لهم التفوا حولك، ولو كنت منقطعاً عنا لامتلأ القلب قسوة، ولانعكست القسوة غلظة، فانفضوا من حولك، هذه الآية يحتاجها كلُّ أب، كلُّ معلم، كلُّ داعية، كلُّ مدير، كلُّ إنسان له منصب قيادي، تتصل بالله، يمتلئ القلب رحمة، تنعكس الرحمة ليناً، يلتف الناس حولك، فإذا انقطع الإنسان عن الله امتلأ القلب قسوة وانعكست القسوة غلظة فانفض الناس من حوله.

الاسم هو الرحمن، وقد عدَّ بعض العلماء هذا الاسم: اسم الله الأعظم لقوله تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الإسراء:١١٠].

الرحمن كما يقول العلماء: «اسم مشتق من الرحمة»، والرحمة تستدعي مرحوماً كما أنَّ العلم يقتضي معلوماً، وليس هناك مرحوم إلا وهو محتاج، فالإله لا يكون مرحوماً، إنه راحم، أما المخلوق فهو مرحوم لأنه ضعيف، ولأنه عاجز، ولأنه فقير لأن قيامه ليس بذاته بل قيامه بغيره، إذاً هو مرحوم، والعبد مرحوم لأنه عبد، والرب راحم لأنه رب، وأيُّ إنسان خرج عن دائرة العبودية ينسى أنه في حاجة ماسة إلى رحمة الله عز وجل، وهؤلاء الذين قالوا: استغنينا عن رحمة السماء من قبل، جاءتهم سبع سنوات عجاف، ما دمت عبداً فأنت مفتقر إلى الله عز وجل، ما دمت عبداً فلا بد أنك بحاجة إلى الرحمة، اللهم ارحمنا فإنك بنا رحيم، ولا تعذبنا فإنك علينا قدير.

الرحمة التامة والرحمة الناقصة

الرحمة التامة ما توافرت فيها الإرادة والعمل.

الشخص الذي تنقضي بسببه حاجة المحتاج، من غير قصد أو إرادة وعناية بالمحتاج، لا يسمى رحيماً، قد تنقضي حاجتك عن طريق شخص فهذا الشخص ما أراد أن يرحمك، ولا يريد أن يرحمك، ولن يريد أن يرحمك، لكنه بشكل أو بآخر جاءت الرحمة عن طريقه دون أن يدري، وهذه الجهة، ولو أنَّ الرحمة جاءتك عن طريقها، لا تسمى رحيمة لأن من لوازم الرحيم أنه يريد أن يرحم، لذلك قالوا: «رب ضارة نافعة».

أحياناً يسوق الله لك الخير على يدي شخص وهو لا يريد، بل هو يريد أن يوقع بك الأذى، لكن الله سبحانه وتعالى يجعل هذه الإرادة الخبيثة في صالحك، إذاً الشخص الذي تنقضي بسببه حاجة المحتاج من غير قصد ولا إرادة ولا عناية بالمحتاج هذا الشخص لا يسمى رحيماً، من عناصر الرحمة أن فاعلها يريد الرحمة، هذا ينقلنا إلى موضوع مهم وهو أنك أحياناً لسبب ما لا تريد أن ترحم، فلست رحيماً، أجل، لست رحيماً إلا إذا أردت وفعلت.

إذاً: والذي يدعي أنه يريد قضاء حاجة المحتاج ولا يقضيها إن كان قادراً على قضائها لا يسمى رحيماً، لأنه لم يقضِها، ولو أراد إذاً وتمت الإرادة لوفّى بها، وإن كان عاجزاً فقد يسمى رحيماً باعتبار هذا الشعور الإنساني، لكن هذه الرحمة ناقصة لأنها لم تتوج بالعمل.

إذاً من خلال هذا التعريف يتضح أنك لن تكون رحيماً، أي: لن يرضى الله عنك، ولن تكون عندَ الله مقبولاً، ولن تكون عند الله محظياً، ولن يرفعك الله في درجات القرب إلا إذا أردت وفعلت، أردت أن ترحم الناس وفعلت ما أردت، لذلك قالوا: «المعروف بالتمام».

أحياناً تُعَزّي مصاباً، وتتباكى أمامه، وتعبِّر عن مشاعرك الإنسانية ولا تفعل شيئاً وهو مصاب، فما قيمة هذه المشاعر؟! وما قيمة هذه الأحاسيس؟! وما قيمة هذه

الدموع؟! ما قيمة هذه المصافحة الحارة إن لم تفعل من أجله شيئاً؟!لكن ما الذي يأسر قلبه؟ إحسانُك...

فلذلك هذه المشاعر التي يحسُّ بها الإنسان إن لم يتبَعْها عمل طيب مع القدرة عليه فلا قيمة لها، فقيمتها بما يتبَعُها من عمل طيب، هذه المشاعر لا قيمة لها ولا يؤخذ بها يوم القيامة، لذلك:

عَنِ ابْنِ عُمَرَ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «مَنِ اسْتَعاذَ بالله فأعيذُوهُ، وَمَنْ سَأَلَكُمْ بالله فَأَعْطُوهُ، ومَنِ استجارَ بالله فأجيرُوهُ، ومَنْ آتى إلَيْكُمْ مَعْرُوفاً فكافِئوهُ، فإنْ لَمْ تَجِدُوا فادْعُوا لَهُ حَتَّى تَعْلَمُوا أنْ قَدْ كافَأْتُمُوهُ» [سنن النسائي].

أي: إنَّ هذه العبارات الحارة هذه العبارات الرنانة، العبارات الدافئة إن لم يتبَعْها بذل وعطاء وعناية مع القدرة على ذلك فلا قيمة لها، أحياناً يأتي الابن لزيارة أمه يقبِّل يدها ويقبِّل قدمها وينصرف إلى بيته وإلى أولاده وإلى زوجته، ولا يقدم لأُمِّه شيئاً إلا هذه العبارات المعسولة، هذا العمل لا يعتدُّ به، لأنه مبني على موقف ذكي، وليس موقفاً فيه تضحية مادية.

قال العلماء: إنما الرحمة التامة أن تُفيض عطاءَك على المحتاج، أن تريد وأن تفعل حتى تسمى رحيماً.

الله سبحانه وتعالى رحيم، إذا قضيت حاجات الناس، مثلاً لك أقرباء أسبغت عليهم مما أعطاك الله عز وجل، أعطيتهم بعض الحاجات في أوقاتها المناسبة، في أيام الشدة كنت معهم، فهذا الذي يرقى بك عند الله عز وجل.

الرحمة العامة والرحمة الخاصة

الرحمة العامة ما أصابت المستحِقَّ وغيرَ المستحِقِّ، أحياناً تهطل أمطار غزيرة، هذه الأمطار تفيد الناس جميعاً، فهذه الرحمة العامة، لكن الرحمة الخاصة لا ينالُها إلا المستحق.

أضرب لكم مثلاً يقرِّب المعنى، أب له خمسة أولاد، كل هؤلاء الأولاد يأكلون الطعام على المائدة، وكلهم يلبسون ثياباً، وكلهم ينامون على أسِرّة وثيرة وفي غرف دافئة، الأب يعطي كل أولاده بالتساوي فرحمته عامة، لكن أحد هؤلاء الأولاد على قُرب شديد من الأب فهو يَبَرُّ أباه براً شديداً، وإخلاصه لأبيه كبير، وذو وفاء متميز، فالأب أحياناً يخصّ هذا الابن بأشياء خاصة.

مؤمن، وغير مؤمن، تأكل وتشرب، وتستمتع بالطعام والشراب والماء البارد والدفء والبرودة والمناظر الطبيعية، وتستمع بالأهل والأولاد، وفي كل بيت أولادٌ صغار، والآباء يستمتعون بأبنائهم الصغار بحركاتهم وسكناتهم ولكن أن يتجلى الله على قلبك، وأن يملأ قلبكَ نوراً، وأن يقرِّبكَ إليه، هذه رحمة خاصة، هذه لا ينالُها إلا المستحق، فلله في خلقه رحمة عامة ورحمة خاصة، الرحمة العامة ينالها كل الناس، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [البقرة:١٢٦].

يعني أن تستمتع بالحياة، وأن تأكل ألذَّ الطعام، وأن تسكن في بيتٍ مريح، وأن تكون لك زوجة تروق لك، وأن يكون لك دخلٌ وافر، وأن تشعر أنكَ متفوق على الناس، فإياك أن تظن هذه رحمة، لأن الله «يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب»[1]، هذه رحمة عامة ينالُها كلُّ الناس

تأكل وتشرب وتستمتع بالأهل والأولاد والطعام والشراب والبيت المريح والدفء والمكانة والسُّمعة، والتألق، والنجاح، والتفوق، فليسَ هذا إيثاراً في الحقيقة، الإيثار أن يخُصَّكَ الله برحمةٍ خاصة: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يوسف:٢٢].

(١) قطعة من حديث رواه أحمد في مسنده والصحيح أنه موقوف.

الرحمة الخاصة أن يتجلّى الله على قلبك، فتمر عليك ساعة لا تعدلها الدنيا وما فيها، «إني لست مثلكم إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني» [البخاري من حديث ابن عمر].

أيها الأخ الكريم: اسأل نفسك هذا السؤال، عطاؤك من الله من أي نوع، قد يكون العطاء من نوع عطاء قارون، ﴿ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [القصص:٧٦]، وقد يكون عطاؤك من نوع عطاء فرعون، ولكن الحكمة أن يكون عطاؤك من نوع عطاء سيدنا موسى، وسيدنا يوسف: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾ [يوسف:٦].

هناك اجتباء، وهناك تقريب، وهناك مقعد صدق عند مليك مقتدر، وهناك نور يقذفه الله في قلبك، فترى به الخير خيراً والشر شراً، هناك شعور أن الله يحبك، هناك مشاعر لو وزعت على أهل بلد لأسعدتهم.

إن رجلاً من إخواننا الكرام ذهب لأداء فريضة الحج، ولما عاد، قال لي كلمة وأظنه صادقاً فيما يقول، قال لي: والله ليس في الأرض من هو أسعد مني.. إلا أن يكون أتقى مني، وهو فقير ولا يملك من الدنيا شروى نقير، ومع ذلك أقسم بالله أنه ليس في الدنيا من هو أسعد منه إلا أن يكون أحدٌ أتقى منه، هذه الرحمة الخاصة، يعني قد يعطيك المال ويجعل قلبك ممتلئاً بالقلق، قد يعطيك الصحة وتكون أشقى الناس، قد يبوِّئك أعلى مكانة في المجتمع ولا تكون عند الله مقبولاً، حينما قال النبي ﷺ لسيدنا معاذ بن جبل قال: «يا معاذ! والله إني لأحبك» [رواه أحمد].

هذا عطاء ثمين؛ أن يحبك سيد الخلق ﷺ فهنيئاً لك ويقول ﷺ لسعد أيضاً: «يا سعد ارْمِ فداك أبي وأمي» يجمع له أبويه [البخاري من حديث عليّ]، «هذا خالي فليُرِني امرؤ خاله» [الترمذي من حديث جابر].

إذا كانت لك مع الله مودة، سَهَرُ الليالي، غضُّ البصر، إنفاق الأموال، حضور مجالس العلم، في الأجواء الباردة والطرقات الصعبة، حينما تسعى بشدة على رجليك إلى مجلس علم، حينما تتفقد اليتامى والفقراء والمساكين في ظلمات الليل، حينما تشمر وتنهض للعمل الصالح، حينما تقدم شيئاً ثميناً لأخيك المؤمن، كما قال ﷺ: «ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب لي من أن أعتكف في المسجد شهراً» [الطبراني في الكبير والأوسط والصغير من حديث ابن عمر]. هذه الجهود المتتابعة، المتراكمة، الكثيرة المديدة، هذه الجهود تتوج بالسعادة، لو جلست مع أناس مقطوعين عن الله عز وجل لرأيتهم مقهورين، لرأيتهم ضائعين، لرأيتهم شاردين، لرأيتهم حائرين، رأيت أمرهم فُرُطاً، رأيتهم متشككين، رأيتهم متشائمين، رأيتهم متمزقين، ترى الدنيا عندهم عريضة، لكن الله حرمهم من سعادة القُرب.

وما أكثر ما ذكرت هذه الواقعة وكررتها: هذا الذي وقع في منزلق طفيف فوقع في الحجاب عن الله عز وجل، فصار ينتظر مصيبة بحسبما يعلم، فلما تأخرت المصيبة ناجى ربه فقال: يا رب لقد عصيتك ولم تعاقبني، فوقع في قلبه: أن يا عبدي قد عاقبتك ولم تدرِ ألم أحرمك لذة مناجاتي؟!

هذه الجهود لها مردودها الطيب، فمثلاً شاب في مقتبل الحياة من المسجد إلى البيت إلى العمل، في حين أن بقية الشباب في سهراتهم المنحطة وفي أفلامهم الخسيسة وفي مزاحهم الرخيص، وفي لعبهم للقمار، وفي إطلاق كلمات السوء في الطرقات للفتيات، أنت من البيت إلى المسجد ومن العمل إلى المسجد، من تلاوة القرآن إلى حديث رسول الله، ومن خدمة زيد إلى خدمة عبيد، هذا الإنسان مع هذه الجهود الكبيرة، عندئذ يجعل الله قلبه مستقراً لرحماته.

لذلك جاء في الحديث «أولياء الله تعالى الذين إذا رؤوا ذكر الله تعالى» [أخرجه ابن المبارك في الزهد، والنسائي في الكبرى من حديث ابن عباس]، بمجرد أن تقع عينك على مؤمن صادق الإيمان يحس الناظر برعشة في قلبه، كأنه تذكر الله عز وجل، هذا الموضوع يُذكِّرُنا بمعيّة

الله العامة والخاصة ما دُمنا قد تحدثنا عن رحمة الله العامة، العامة موجودة لجميع الناس، العامة أن تتنفس الهواء وتشرب الماء وتأكل الطعام، وتنام على فراش، والقلب منتظم والرئتان والكليتان، والعضلات والأعصاب، والأولاد في البيت والزوجة كذلك والعمل مريح، هذه رحمة عامة، هذه يستوي فيها المؤمن وغير المؤمن في الأعم الأغلب، وقد تجد غير المؤمن متفوقاً كثيراً في هذه الأنواع على المؤمن، ولكن الرحمة الخاصة، حينما يُلقي الله في قلبك نوراً، حينما يُعلِّمُكَ الله، حينما يُلهِمُكَ الله سواء السبيل، حينما يُلْهِمُكَ الله رشدك، حينما يُقيِّض الله لك مَن حولك لتكون معهم في معيّة وفي صحبة طيبة، حينما يجعل الله برَّك في مواقعه وعند أهل الحِفاظ لا عند أهل الجحود، هذه رحمة الله عز وجل، هذا يذكرنا بمعيّة الله العامة ومعيّته الخاصة، وذكرت من قبل أن الله مع كل مخلوق كائناً من كان بعلمه بدليل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد:٤].

مع المؤمن والكافر، والمُلحد، والشقي والسعيد، والعاصي والطائع، والنظيف والطاهر، مع كل هؤلاء، لكن هناك آيات: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [التوبة:١٢٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة:١٥٣].

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ [المائدة:١٢].

الفوز كل الفوز أن تنال معيّته الخاصة، وأن تنال رحمته الخاصة لا رحمته العامة فحسب، لو أن أباً له ابن عاقّ وقاسي الكلمات وحاد النظرات، هو متجهّم دائماً، يردُّ الكلمة بعشر كلمات، يأتي وقت الطعام تقول له بلسان المبغض: اجلس كُلْ، كُلْ لكني

لا أحبك، خُذْ ما تريد، خذ كل هذه الحاجات، لكن الابن البار له مع هذا الإكرام نظرةٌ حانيةٌ من أبيه لا تقدر بثمن، نظرة حانية منه، كلمة رضي الله عنك، هذه من قلب ممتن، هذه لا يعدلها شيء، فليس الفوز في أن تنال رحمته العامة فحسب كأن تستنشق هواء، وتأكل وتشرب وتنام وتتزوج، وتعمل وتكسب المال، هذا قدر مشترك بين جميع الناس، لما روي عن النبي الكريم ﷺ: «إن الله يؤتي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يؤتي الإيمان إلا من أحب»[1] [أخرجه أحمد في «مسنده» من حديث ابن مسعود].

لكنَّ الشيء الذي يجب أن تسعى إليه هو رحمته الخاصة، بأن يُعلِّمَكَ، وأن يُلقي في قلبك نوراً، وأن يُعلِّمَكَ من تأويل الأحاديث، أن يُلهِمَكَ الحِكمة، أن تضع الشيء المناسب بالقدر المناسب في الوقت المناسب في المكان المناسب مع الشخص المناسب، قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة:٢٦٩].

أن يُعلِّمَكَ وأن يؤتيك الحكمة، وأن يرزُقَكَ طيباً، وأن يستعملك صالحاً، وما أكثر ما أذكّر إخوتي وجلسائي بالفكرة التالية: إن رأيتُ إنساناً له عمل شريف يخدم به المسلمين أقول له: «إذ أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك».

لك مهنة شريفة مشروعة، تخدم بها الناس، تتقاضى أجراً معتدلاً، تنصحهم، هذا عمل شريف، وظفك الله في بعض الوظائف الدينية، جعلك تعلم الناس التجويد، فهذا جميل، جعلك تعلم الناس الفقه فهذا أجمل، جعلك تعلم الناس القرآن، وجعل الخير على يديك، فهذه قاعدة، إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك، انظر عملك، هل أساسه الرحمة بالناس أم الإضرار بهم، أساسه بث الأمن في الناس أم سلب الأمن من الناس، أساسه العطاء أم الأخذ، أساسه الطمأنينة أم القلق، أساسه أن ترحم أم أن تقسو؟ هناك أشخاص لو عُرضت عليهم مبالغ فلكية،

---

(١) الصحيح أنه موقوف على ابن مسعود.

على أن يكونوا في أعمال تقوم على إيذاء الناس لا يرضون... بل يقول أحدهم: معاذَ الله، الله الغني، الله الكريم، أنا أعيش على آلام الناس، أنا أبني مجدي على أنقاضهم، أأبني غناي على فقرهم، وأبني طمأنينتي على قلقهم، وأبني حياتي على موتهم؟!... معاذَ الله، الله الغني.

إذاً: الرحمة الخاصة مشروطة بالطاعة والمجاهدة وبذل المال ومعاونة الضعيف ورحمة اليتيم، ومعاونة الأرملة، وتفقّد الجيران وحضور مجالس العلم وغض البصر والذِّكر والتلاوة، هذه قنوات تصلك من خلالها الرحمة الخاصة، وتشعر أنك إنسان متميز، لك عند الله مكانة، هذه المكانة تتبدى في اللُّطف، وفي الحِفظ وفي الرعاية، لذلك قالوا: معية الله الخاصة: النصر والتأييد والحفظ والتوفيق، تشعر بها، تلمسها بيديك، فحينما يكون شخص أثيراً عند شخص ذي مكانة تراه يشعر بشعور عجيب كأنه فوق الناس جميعاً، فهو قريب من شخص مهم، وإذا التقطتْ له صورة بصحبة تلك الشخصية ازدهى نفْساً وتعاظمَ ويقول مثلاً: البارحة كنا معاً على العشاء، فكيف إن كانت لك مع خالق الكون مودة؟ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم:٩٦].

كيف إذا كان اللسان طلقاً في ذكر الله، كيف إذا كان البيان ساطعاً في فهم كلام الله أو في تفسير كلام الله عز وجل، فيا أيها الإخوة القراء الكرام: رحمة الله الخاصة، تحتاج إلى مجاهدة، لذلك قال إبراهيم بن أبي عَبْلَة: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس والهوى»[1].

فروق بين رحمة الله لعباده ورحمة الناس لبعضهم

الإنسان إذا رَحِمَ إنساناً يقول لك: تمزَّق قلبي لمنظره وبؤسه، فقد ترى طفلاً صغيراً واقفاً على قارعة الطريق الساعة الحادية عشرة في البرد الشديد ليبيع الخُبز أو

(١) قال الحافظ ابن حجر في تسديد القوس: هو مشهور على الألسنة وهو من كلام إبراهيم بن أبي عبلة اهـ.

غيره، ألا تشعر برحمة؟ ألا تُحِسُّ بتمزق؟ أين أهله؟ لعلهم محتاجون فالواجب التخفيف عن هؤلاء، وهذه رحمة. إن المسلم إنسان يمتلئ قلبه بالرحمة ويدرك أنه من لا يَرحم لا يُرحم... فإذا شعر رجل أنه سبب في شقاء الآخرين أو أنه يستطيع أن يخفف عن الآخرين آلامهم وبؤسهم ثم لم يفعل هذا الشعور يشقيه إلى الأبد.

التعليق: الإنسان عندما يقف أمام حالة بائسة يُحسُّ أنه يكاد يتفطَّر قلبُهُ، يُحِسُّ أنه يتمزق في أعماقِهِ، يحسُّ بمشاعر رحمةٍ معينة، يا ترى رب العالمين، هل تعتريه هذه المشاعر، لا!! هو منزّه عن هذا لأنه إله، لكنه يرحم كلَّ خلقه.

والشيء الثاني: عندما يرحم الإنسان مخلوقاً معذّباً فإنما يرحمه حتى يريح نفسه مما اعتراه من مشاعر منغِّصة، فهذا ضعف فيه، لكنَّ الله عز وجل يرحم لمصلحة المخلوق لا لمصلحة الراحم، نقطتان مهمتان إن الله سبحانه وتعالى مُنزَّهٌ عن مثل هذه المشاعر التي تعتري الرحيم من بني البشر، وحينما تندفع لرحمة مخلوق فاندفاعك هذا كي تستريح، إذاً هذه الرحمة معلولة، أنت بهذا العطاء تبتغي راحة نفسك، لكنَّ خالق الكون يرحم مخلوقاته ليرحمهم، لا يرحمهم ليتخلص من شعور محض اعتراه، فالله عز وجل منزّه عنه.

الفرق بين الرحمن والرحيم

قال بعض العلماء: الرحمن اسم من أسماء ذاته والرحيم في أفعاله، وبعضهم قال: الرحمن في الدنيا والآخرة، على كلِّ القضية تحتاج إلى تفصيل وإيراد أمثلة، أُم وأب، وابن يده اسودّت، هذا مرض الموات وعلاجه قطع يد الابن، الأُم ترفُض أشدَّ الرفض أن تُقطَع يده، الأب يصر أشدَّ الإصرار على قطع يده فأيهما أشدُّ رحمة؟ الأم تبكي وتصرخ، الأب ساكت مُصِرّ على قطع يده، لأن الأب عالم بالعقابيل والأم مُصِرَّة على عدم قطع يده، والحقيقة أن الأب أشد رحمة لأنه بهذا الضرر المحدود ينفع كامل البدن، فيخلصه من أن يسري الداء ويتفشى في سائر الجسم، أما الأم فرحمتها المؤقتة بابنها قد تودي به وتورده المهالك.

يقول الله عز وجل: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧)﴾ [الأنعام:١٤٧].

تقتضي رحمة الله أن يعالج عباده الشاردين، الله رحمن ومع أنه رحمن يسوق لعباده من الشدائد ما يحملهم على طاعته.

وقد قيل: إن الله يحمي عبده المؤمن من الدنيا كما يحمي الراعي الشفيق غنمه من مراعي الهلكة.

إذن هو يعذبكم كي تؤمنوا وتشكروا، فإذا آمنتم وشكرتم حققتم الهدف من وجودكم، لأن الله سبحانه وتعالى سخَّر هذا الكون تسخير تعريف وتكريم، فأي شيء خلقه الله عز وجل يدلك على الله، وأي شيء خلقه الله عز وجل هو تكريم لك تنتفع به، فهناك هدف نفعي و هناك هدف إرشادي، فالذي عرف الله من خلال هذا الكون حقق الهدف الإرشادي، والذي انتفع بهذا الذي خلقه الله عز وجل حقق الهدف التكريمي.

قال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧)﴾ [النساء:١٤٧].

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥)﴾ [مريم:٤٥].

وفي الحديث: «عجب ربنا من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل» [رواه أحمد والبخاري وأبو داود عن أبي هريرة].

آية أخرى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ﴾ [مريم:٧٥].

وأحياناً تقتضي حكمة الله عز وجل أن يمده برحمة، بعلم، وآية أخرى: ﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤)﴾ [يس:٢٣-٢٤].

وهذا سؤال كبير جداً، يقول أحدهم: يا أخي الله رحيم، وهذه الزلازل وهذه الفيضانات، وهذه المجاعات، وهذه الحروب الأهلية في العالم، وهذا القهر، وهذا الفقر، وهذه الأمراض الخطيرة، يحتار في أمرها المرء، فهذه كلها التي تؤذي عينك مصدرها من الرحمن، لأنَّ الرحمن يشَمل الدنيا والآخرة، الإنسان إذا مرض فهذا من مصائب الدنيا فقط؛ فالفقر مؤلم، والمرض مؤلم، والحرمان مؤلم، والقهر مؤلم، والذُّلُّ مؤلم، أما إذا كان هذا الحرمان سبباً لعطاء مديد، إذا كان هذا الإضرار سبباً لنفع طويل، إذا كان هذا القبض سبباً لبسط كثير، فهذا إذاً ضُرٌّ لمنفعة؛ لذلك إذا رأيت شيئاً مؤذياً فاعلم أن الله سبحانه وتعالى يضرّ لينفع، ويأخذ ليُعطي ويبتلي ليجزي، ويُذل ليُعز، ويقبض ليبسط لذلك أجمل كلمة قالها بعض العلماء: «الشر المطلق لا وجود له في الكون»، ما معنى الشر المطلق؟ الشر الذي يبتغى لذاته.

الأب الطيب العالم الذي يمتلئ قلبه رحمة يصر على قطع يد ابنه، يتلافى الضرر الأكبر بالضرر الأصغر، هذا المثل يجب أن يكون واضحاً جداً عند الإخوة القراء الأكارم؛ كل أنواع المصائب في الدنيا، كل أنواع الرزايا كل أنواع الابتلاءات، هذا كله ضرر أقل تلافياً لضرر أشد، هل هناك آية قرآنية تؤكد هذا المعنى؟ قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة:٢١].

الله عز وجل رحيم ورحمن، رحيم يمتعك بالصحة، رحيم يمنحك المال، رحيم يوفر المأوى، رحيم يبثّ فيك الراحة النفسية، لكنه رحمن ينظر إلى آخرتك فيأخذ بيدك للعمل الصالح، وينظر إلى هذه الحياة الأبدية لتسعد بها، التي سوف تحياها، ولمصلحة هذه الحياة الأبدية ربما يُذهِب كلَّ مالك.

ذات مرة قال لي شخص وأقْسَم: أن له بيتاً تزيد مساحته على خمسمئة متر، وله حدائق يقوم على أمرها والعناية بها موظفون، وما أدخل إلى بيته فاكهة إلا بكميات كبيرة، وعنده طباخ وعنده خدم وعنده حشم وله ثلاث مركبات، وله تجارة واسعة

وعنده معمل ألبسة، وبعد حين رأيته في بعض أحياء دمشق الفقيرة، قال: أنا أنام على طاولة التفصيل وآكل من هذه العلبة، بلا صحن، كيف سُلب ماله كلُّه... قصة طويلة فإزاء هذه الواقعة هل نحن أمام رحمن أم رحيم؟ رحمن، لأنَّ هذا الشيء لمصلحة آخرته، كان لا يصلي، وكان يشرب الخمر، ويعتدي على أعراض الناس باعترافه الشخصي، فأراد الله عز وجل أن يُردَّهُ إليه، سلبه كل المال. والله الذي لا إله إلا هو، كل قصة تسمعها، تعد هي بنفسها بياناً إلهياً، لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾.

فكأن هذه الحادثة تُجسّد هذه الآية، لذا أيها القارئ الكريم إن من الحكمة أن تأتي ربَّك طوعاً، وأن تأتيه راغباً، وأن تأتيه مختاراً، وأن تأتيه بمبادرة منك، أن تأتيه وأنت صحيح، أن تأتيه وأنت شاب، أن تأتيه وأنت ذو مكانة، أن تأتيه وأنت في وظيفتك لا بعد التقاعد، بعد أن ولّت الدنيا وأصبحتَ هرماً، يتنقل من مسجد إلى مسجد لعله يبحث عن مكان مريح، وأنت في كامل عافيتك البدنية والمالية، اغدُ إلى بيت الله، واسعَ إلى مرضاة الله.

رحمن الدنيا والآخرة، من أجل سعادتك في الآخرة قد يصرف عنك الدنيا كلها، والله يعلم وأنتم لا تعلمون، لكن ادعُ الله عز وجل أن يرزقك الدنيا والآخرة، والدعاء القرآني: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة:٢٠١].

إنَّ الله عز وجل يقول: ﴿ مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء:١٤٧].

إن أحد العلماء له كلمة رائعة جداً يقول: «لعلك تقول ما معنى كونه تعالى رحيماً وكونه أرحم الراحمين؟!... والرحيم لا يرى مبتلى ولا مضروراً ولا معذباً ولا مريضاً وهو يقدر على إماطة ما بهم إلا ويبادر إلى إماطته، والرب سبحانه وتعالى قادر على

كفاية كل بلية، ودفع كل فقر وغُمَّة، وإماطة كل مرض، وإزالة كل ضر، والدنيا طافحة بالأمراض والمِحن والبلايا، وهو قادر على إزالتها جميعها»، لماذا لا يفعل؟... هنا السؤال... كم مصيبة في الأرض، كم ضائقة، كم من حالات صعبة جداً، والله قادر وبيده كل شيء، كن فيكون، الجواب: إنَّ الطفل الصغير قد تَرُقُّ له أمه فتمنعه من عمل جراحي، والأب العاقل يحمله عليه قهراً، الجاهل يظن أن الرحيم هي الأم دون الأب، والعاقل يعلم أن إيلام الأب إياه بالعلاج من كمال رحمته وعطفه وتمام شفقته.

الرحيم مع الجهل عدو في صورة صديق، أحياناً يقول الأب: سأدع ابني يسرّ في حياته، فيبعَثُه إلى بلد غربي ويعطيه مالاً وفيراً، أب ميسور: اذهب يا بني وانبسط، هذا عدو... إذا عاد الابن زانياً أو عاد شارباً للخمر أو عاد وهو يحتقر أمَّته، ويرى أن أولئك الذين كان عندهم هم الذين يحيون وحدهم في هذه الدنيا، وانتهى دينه إلى ضياع، فهذا الأب عدو في صورة صديق، وكل إنسان يدعوك إلى أن تستمتع بالدنيا ولكن على حساب طاعة الله عز وجل فهذا عدو بصورة صديق.

لذلك ربنا عز وجل يقسو أحياناً لمصلحة آخرتك، قد يقول قائل: مصيبة، نعم؛ لأنها تصيب الهدف، وأنا أقول دائماً: الله عز وجل إذا أراد أن يداوي مخلوقاً يعلم كيف يداويه ومن أي زاوية أراد أن يداويه، من المكان الصعب، من المكان الحرج، من حيث هو مطمئن، يؤتى الحذر من مأمنه، لا ينفع حذر من قدر.

طبيبُ قلبٍ في أمريكا عدَّ الجريَ هو الوقاية التامة للقلب، وألّفَ كتباً، ودبج مقالاتٍ وأجرى محاضرات وهو يجري في اليوم ساعتين أو أكثر، وكأن الجري إله يحميه من كل مرض، إلا أنه مات وهو يجري.

الجري مفيد جداً، وليس هذا خطأً، لكن حينها ألّهَ الجري، وعدّه هو السبب الكافي والشافي، فالله عز وجل خيّبَ ظنه.

ترى أحياناً إنساناً باختصاصه يصاب، ما هو السبب؟ لأنه متّكل على اختصاصه، متّكل على علمه، متّكل على خبرته، فجاءه من مكان طمأنينته، من مكان أمنه.

الله سبحانه وتعالى خلقك للآخرة، لذلك يمكن أن يضحي لك بدنياك كلها، من أجل آخرتك، لكن أنت إذا كنت مُفلحاً وموفقاً اطلب منه، واضرع إليه أن يجمع لك بين الدنيا والآخرة، ائته طوعاً، ارغب فيما عنده حتى يُطمئِنكَ في الدنيا والآخرة، هذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [البقرة:٢٠١].

إن الآية التالية يجب ألا تبرح أذهانكم، أبداً: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾.

فالله غني لماذا يُفقرك؟ لماذا يضيّق عليك، إنه لا يفعل ذلك إلا حُبّاً بك ورحمة بك ودفعاً بك إلى باب عبوديته.

الكلمة اللطيفة كما قال بعضهم: الألم القليل إذا كان سبباً للذةٍ دائمة ليس شراً بل هو خير.

قالوا: الرحيم هو الذي يريد الخير للمرحوم، وليس في الوجود شرٌّ إلا وضمنه خير، لا يوجد في الكون شرٌّ مطلق.

مثلاً فتح البطن عمل مزعج، إنسان أدخل المستشفى فأحضر الطبيب مشرطاً وفتح اللحم، نفر الدم، أخذتَ الملاقط، لقطتَ الأوعية كلها، أتيتَ بالمشدات شددْتها، دخلتَ إلى الزائدة واستأصلتها، هذا عمل ظاهره فيه قسوة ودماء، ولكن باطنه رحمة، لأنها إذا أُهملت ثم انفجرت حدثت مشكلةٌ كبيرةٌ جداً، إذا أصيب إنسان بالتهاب الزائدة فيبادر ذووه مباشرةً إلى المستشفى، أرحم الناس وأقرب الناس يقول: مباشرةً إلى المستشفى هناك فتح بطن، وقطع، ووصل، وخياطة، وتخدير، طبعاً هذه الرحمة ما دُمتَ تفهم أن كل المصائب التي تأتي هي من نوع فعل الطبيب الرحيم فأنت على حق.

وبعد، هناك سؤال يلح علينا: إن خَطَرَ لك نوع من الشر لا ترى وراءه خيراً، أو خَطَرَ لك أنّ تحصيل ذلك الخير كان ممكناً دون اتباع أساليب الإيلام فماذا تفعل؟!

اتّهم عندئذٍ عقلك القاصر، وقل: أنا فهمي محدود، وعقلي قاصر عن رؤية الغد، مستحيل أن تكون مصيبةٌ بالأرض بلا سبب، أو بلا خير ضمنيٍّ، أو بلا هدف نبيل، أو بلا غاية عظمى، لكن الشر المطلق لذات الشر فهذا شيء لا يمكن أن يكون له وجود في الكون كله، فكل شيء وقع أراده الله، وكل شيءٍ أراده الله وقع، وإرادة الله عز وجل متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته متعلقة بالخير المطلق، والدليل: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران:٢٦].

«بِيَدِكَ الخَيْرُ»، لم يقل والشر، الإعزاز خير، الإذلال خير، إيتاء المُلك خير، سلب المُلك خير، أما إذا قلت: إن هذا الشر لا خير وراءه، قالوا: فإنّ هذا مما تقصر العقول عن معرفته.

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي
ونار لو نفخت بها أضاءت ولكن أنت تنفخ في رماد

إذا آتى الله شخصاً علماً وبصيرةً، وآتاه قدرةً على تفسير المصائب تفسيراً يليق بذات الله عز وجل وأسمائه الحسنى، فهو راضٍ بقضائه وقدره، ويرى يد الله تعمل في الخفاء، ويرى يد الله فوق أيدي الناس، فإذا ابتعد الإنسان عن التوحيد وقع في آلام لا تُحتمل، كما روي أن النبي ﷺ قال: «إذا كانَ أُمَراؤُكُمْ خِيارَكُمْ، وأَغْنِياؤُكُمْ سُمَحَاءَكُمْ، وأُمورُكُمْ شُورَى بَيْنَكُمْ فَظَهْرُ الأرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ من بَطْنِها، وإذا كانَ أُمَرَاؤُكُمْ شِرَارَكُمْ وَأغْنِيَاؤُكُمْ بُخَلاءَكُمْ، وأُمُورُكُمْ إلى نِساءِكُمْ فَبَطْنُ الأرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِهَا» [سنن الترمذي من حديث أبي هريرة].

إن الإنسان إذا لم يوحِّد يقع في شقاء لا نهاية له، والتوحيد ألا ترى مع الله أحداً، وأن ترى كل شيء ينتهي إلى خير، «بِيَدِكَ الخَيْرُ»، وأن تدعو الله عزَّ وجل أن يرحمك في الدنيا والآخرة، وأن يؤتيك في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة.

نصيب المؤمن من اسم الله (الرحمن)

أيها القراء الكرام: من أفضل أنواع الدعاء أن تطلب من الله رحمته، لأن الله خلقنا ليرحمنا، قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود:١١٩].

فمريم بنت عمران دعت باسم الرحمن عندما تمثل لها جبريل بشراً سوياً، وبشَّرها بعيسى قال تعالى: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ [مريم:١٨].

أي إن كنت تقياً تتقي الله، وتخشى الاستعاذة، وتعظمها، فإني عائذة بالرحمن منك، يعني إن كنت تقياً فأنا أستعيذ بالله منك، إن كنت تعرف معنى الاستعاذة، ومعنى أن الله موجود، ويجيبني أستعيذ بالله منك.

النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: ألا أعلمك دعاء تدعو به لو كان عليك مثل جبل أحد دين لأداه الله عنك؟

قل يا معاذ: اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما تعطيهما من تشاء، وتمنع منهما من تشاء، ارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك [رواه الطبراني في الصغير عن أنس بن مالك بإسناد جيد].

ومن الأدعية القرآنية: ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة:٢٨٦].

ومن أفضل الدعاء للوالدين: ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء:٢٤].

كلمة يا رب ارحمني، أو يا رب ارحم فلاناً كلمة واسعة جداً، تبدأ من صحتك، إلى زوجة صالحة، إلى أولاد أبرار، إلى سلامة، إلى راحة نفسية، إلى ثقة بالله، إلى حكمة، إلى سعادة، إلى رضا، يعني عطاء الله المطلق يسمى رحمة الله فاسأل الله عز وجل أن يرحمك.

ثانياً: ينبغي أن يمتلئ قلب المؤمن بالرحمة، الدليل: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران:١٥٩].

من صفات المؤمن أن قلبه رحيم، ومن صفات المنقطع عن الله أن قلبه قاسٍ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٢].

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة:٧٤].

ثالثاً: لا ترقى عند الله إلا إذا كانت الرحمة عامة، أقول لكم كلمة: إن لم ترحم الخادمة في البيت كما لو أنها ابنتك فأنت مقصر، إن لم ترحم زوجة ابنك في البيت كما لو أنها ابنتك فأنت عنصري، بطولة المؤمن أن يرحم كلَّ الخلق، أما كلُّ الناس فيرحمون أولادهم وأهليهم.

وفي الحديث الشريف: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء» [أبو داود عن عبد الله بن عمرو].

وأخيراً فقد جاء في الحديث: «إن أحب أسمائكم إلى الله عبد الله وعبد الرحمن» [مسلم عن ابن عمر].

هذا من جهة التسمية، فقد تسمى به كثير من المسلمين، وعلى رأسهم عبد الرحمن ابن عوف وهو من العشرة المبشرين بالجنة هاجر الهجرتين، وشهد بدراً وأحد، والمشاهد كلَّها مع رسول الله ﷺ.

اللهم ارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء، اللهم ارحمنا فإنك بنا راحم ولا تعذبنا فإنك علينا قادر والحمد لله رب العالمين.

الرحيم

اسم الله الرّحيم ورد في القرآن الكريم وفي السّنّة الصّحيحة، ورد مطلقاً أي غير مضاف، ومعرفاً بـ (الـ) التعريف، ومنوّناً، واسم الله الرّحيم اقترن مع اسم الله الرّحمن في ستة مواضع في القرآن الكريم.

كما اقترن مع اسم التَّواب، والغفور، والرّؤوف، والودود، والعزيز، وذلك لأنّ الرَّحمة التي دلّ عليها اسم الرَّحيم رحمة خاصة، بينما اسم الله الرّحمن يدلّ على الرَّحمة العامّة، للتّوضيح: عندنا مدرسة وعام دراسيّ، في أثناء العام الدراسيّ جميع الطلاب دون استثناء يتمتّعون بميزات عامة، كلُّهم لهم مقاعد، لهم مقاصف خاصّة بهذه المدرسة، لهم أعطيات، لهم تعويضات، وهناك متابعة، فالمقصر يحاسب ويؤدب، ويستدعى والده، العطاءات واحدة للجميع، ويوجد تأديب و متابعة و عقوبات، لكن بعد أداء الامتحان هناك تكريم للناجحين، فاسم الله الرحمن يشمل كل الخلائق، المؤمن، والكافر، والملحد، والمستقيم، والمنحرف، أمَّا اسم الله الرحيم فيشمل الذين آمنوا بالله ورسوله واستقاموا على أمره، وحققوا الهدف الذي من أجله خُلقوا.

لذلك اسم الله الرَّحيم يؤكِّد رحمته الخاصَّة بالمؤمنين، ذكرت من قبلُ أنَّ الأب يُطعم كلَّ أولاده، يكسوهم جميعاً، كلُّ ابن له غرفة خاصَّة، لكنَّ الابن البارَّ له معاملة خاصَّة، فيها ودٌّ، و فيها حبٌّ.

الله عزَّ وجلَّ رحمن في الدّنيا لكلِّ الخلق، لكنّه في الدّار الآخرة رحيم بالمؤمنين.

نأتي إلى الآيات التي ورد فيها اسم الرَّحيم، منها قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾ [الفاتحة:١].

﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢﴾ [فصلت:٢].

الرحمن رحمن الدّنيا، والرّحيم رحيم الآخرة: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾ [يس:٥٨].

كلُّ أنواع المصائب ما هي في الحقيقة إلا معالجة إلهيّة من اسم الرّحمن، رحمن الدنيا، لكن بعد انتهاء الدنيا، ودخلنا في الدّار الآخرة، فالله عز وجل رحيم بعباده المؤمنين الذين استجابوا، وأنابوا، وأقبلوا، وتوكّلوا.

﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾ [يس:٥٨].

﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٤٩﴾ [الحجر:٤٩].

هذا في القرآن الكريم، أما في السنة: «يا رسول الله علمني دعاءً أدعو به في صلاتي، فقال ﷺ: قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم» [البخاري عن أبي بكر الصديق].

«كنا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مئة مرة رب اغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم» [أبو داود من حديث ابن عمر].

من معاني اسم الله (الرحيم)

الرحيم في اللغة من صيغ المبالغة، على وزن (فعيل) بمعنى فاعل، رحيم بمعنى راحم، سميع بمعنى سامع، قدير بمعنى قادر، فالله عز وجل رحيم أي راحم بعباده المؤمنين، إذاً هذا الاسم دلّ على صفة الرحمة الخاصة التي ينالها المؤمنون، فالرحمن الرحيم بُنيت صفة الرحمة الأولى على (فعلان) رحمن، لأن معناه الكثرة، يعني اسم الله الرحمن يشمل كل الخلائق دون استثناء، فرحمته وسعت كل شيء، وهو أرحم الراحمين، وأما الرحيم فإنما ذكر بعد الرحمن لأن الرحمن مقصور على الله عز وجل، لا يمكن أن يسمى إنسان باسم الرحمن، لكن يوجد إنسان رحيم.

﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب:٤٣].

لذلك قال ابن عباس: هما اسمان رقيقان أحدهما أرقُّ من الآخر.

والرحمة الخاصة التي دلّ عليها اسم الرحيم شملت عباده المؤمنين في الدنيا والآخرة، فقد هداهم إلى توحيده، وعبوديته، وهو الذي أكرمهم في الآخرة بجنته، ومَنَّ عليهم في النعيم برؤيته، ورحمة الله لا تقتصر على المؤمنين فقط، بل تمتد لتشمل ذريتهم من بعدهم تكريماً لهم، قال تعالى في نبأ الخضر والجدار: ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [الكهف:٨٢].

إذاً: الرحيم رحمة خاصة بالمؤمنين، وتمتد إلى ذريتهم من بعدهم، والآية الثانية: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الطور:٢١].

قال علماء التفسير ألحقنا بهم أعمال ذريتهم. وفي الحديث الشريف: «أفضل كسب الرجل ولده» [أخرجه الطبراني عن أبي بردة بن نيار].

إذا وفق الله إنساناً إلى تربية أولاده، أعمال أولاده الصالحة، وأولاد أولاده، وأحفاده، وأحفاد أحفاده إلى يوم القيامة في صحيفته، فالإنسان مجبول على حبّ

وجوده، وعلى حبّ سلامة وجوده، وعلى حبّ كمال وجوده، وعلى حبّ استمرار وجوده، واستمرار وجودك يكون بتربية أولادك، التقيت مرة بعالم جليل من علماء دمشق قال لي: عندي ثمانية وثلاثون حفيداً، أربعة عشر منهم أطباء، وأكثر من عشرة أحفاد من حفاظ كتاب الله، أي إن الخير العميم الذي ينال المؤمنين يمتد إلى ذريتهم من بعدهم.

أحد علماء دمشق وهو خطيب من الخطباء الكبار توفي رحمه الله، أُقيم له العزاء في الجامع الأموي، وفي اليوم الثالث وقف ابنه وألقى خطبة كأبيه، فقلت في نفسي: لم يمت ذلك العالم مادام ترك من يخلفه من بعده، فكل إنسان إذا وفقه الله وربى ابنه، فإن الأجر الذي يناله الأب لا يعلمه إلا الله، مرة قابلت شخصاً له ابن صالح جداً، أقسمت له بالله أن هذا الابن الصالح في الميزان المادي أغلى من مليار مليار دولار، لأن هذه الأموال مهما كثرت فإنك تتركها وتموت، أما الابن فيبدأ عطاؤه بعد الموت.

«إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» [مسلم عن أبي هريرة].

أيها القراء الكرام: إن اسمي الله جلّ جلاله الرحمن الرحيم يجتمعان في معنى واحد وهو تعلقهما بالمشيئة، فاسم الله الرحمن اقتضى أن يسوق لعباده بعض العذاب، والدليل: ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الأنعام:١٤٧].

واسم الله الرحيم يقتضي التكريم، اسم يقتضي التأديب في الدنيا، واسم يقتضي التكريم في الآخرة، يفترق الاسمان (الرحمن والرحيم) من جهة تعلقهما بالحكمة، الحكمة تقتضي أن يساق العذاب لمن شرد عن الله في الدنيا، والحكمة تقتضي أن تكون رحمة الله لمن استجاب له في الآخرة.

قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود:١١٩].

خلق عباده ليرحمهم، خلقهم ليسلمهم، خلقهم ليسعدهم، خلقهم ليعطيهم، الله عز وجل بيده الخير.

أسباب تحصيل الرحمة الخاصة

الرحمة الخاصة لها أسباب، أولها في قوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٢].

إذاً طريق رحمة الله طاعة الله ورسوله

وفي آية أخرى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الأنعام:١٥٥].

إذاً تطبيق منهج الله وتقوى الله من أسباب تحصيل رحمة الله الخاصة.

ومن أسباب تحصيل رحمته جل جلاله قوله تعالى: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ﴾ [الحديد:٢٨].

يكفل لكم رحمته مرتين، مرة في الدنيا ومرة في الآخرة، وفي قوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن:٤٦].

جنة في الدنيا وجنة في الآخرة، ويقول ابن تيمية رحمه الله تعالى: «في الدنيا جنة من لم يدخلها لن يدخل جنة الآخرة» إنها جنة القرب.

اسم الله الرحيم يدل على ذات الله، كما يدل على صفة الرحمة الإلهية، فهو يدل على الذات والصفة معاً، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الدخان:٤١-٤٢].

وفي آية ثانية: ﴿ ۞ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [يوسف:٥٣].

بشكل أو بآخر إن لم تقل من أعماق أعماقك ليس في الأرض من هو أسعد مني إلا أن يكون أقرب إلى الله مني، فأنت لم تذق جنة الدنيا، يقول إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى: «لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه -أي من السعادة والسرور- لجالدونا عليه بالسيوف» [البداية والنهاية لابن كثير].

ويقول ابن تيمية رحمه الله تعالى: «ماذا يفعل أعدائي بي؟ بستاني في صدري، إن أبعدوني فإبعادي سياحة، وإن حبسوني فحبسي خلوة، وإن قتلوني فقتلي شهادة، فماذا يفعل أعدائي بي؟»، .

أين وجد سيدنا إبراهيم الجنة؟ وجدها وقد ألقي في النار: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء:٦٩].

أين وجد أصحاب الكهف الجنة؟ في الكهف. أين وجد سيدنا يونس الجنة؟ في بطن الحوت، أي إذا كان الله معك فمن عليك؟

فَلَيتَكَ تَحلو والحَياةُ مَريرَةٌ ... وَلَيتَكَ تَرضى وَالأَنامُ غِضابُ
وَلَيتَ الَّذي بَيني وَبَينَكَ عامِرٌ ... وَبَيني وَبَينَ العالَمينَ خَرابُ
وليت شرابي من ودادك سائغ ... وشربيَ من ماء الفرات سراب
إذا صحّ منك الوصل فالكل هين ... وكل الذي فوق التراب تراب

إن لم تقل أنا أسعد الناس على بيت صغير، ودخل محدود، وعدة علل بالجسم، ومتاعب في الدنيا، مع كل هذه المتاعب والحياة الخشنة إن لم تقل أنا أسعد الناس بمعرفة الله، والإقبال عليه، ومحبته، فأنت لم تذق طعم حلاوة الإيمان، ولم تذق طعم القرب في الدنيا.

وفي آية أخرى ورد فيها اسم الرحيم يقول تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص:١٦].

يتضح من هذه الآية أن الإنسان أحياناً تزل قدمه، لكن الفرق كبير جداً بين من يعصي الله كبراً واستعلاءً واستكباراً ومن يعصي الله غلبة.

﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الطور:٢٨].

فالصحة رحمة، وراحة البال رحمة، والزوجة الصالحة رحمة، والأولاد الأبرار رحمة، والسمعة الطيبة رحمة، والتيسير رحمة، والسكينة رحمة، والتجلي رحمة، والقرار السديد رحمة، والنظرة الثاقبة رحمة، والموقف الحكيم رحمة، والرضا عن الله رحمة، وامتلاك الحكمة رحمة، وامتلاك الرؤية الصحيحة رحمة.

وفي الحديث الشريف: «صلى بنا رسول الله ﷺ على رجل من المسلمين، فسمعته يقول: اللهم إن فلان بن فلان في ذمتك، وحبل جوارك، فقه من فتنة القبر ومن عذاب النار، وأنت أهل الوفاء والحمد، اللهم فاغفر له وارحمه، إنك أنت الغفور الرحيم» [أبي داود عن واثلة بن الأسقع].

يعني من أعظم الأدعية أن تقول في دعائك يا رب إنك أنت الغفور الرحيم، الغفور عفو عما مضى، والرحيم عطاء، أنت أحياناً تنظف الإناء مما علق به من قاذورات، ثم تملؤه شراباً لذيذاً، فالرحيم عطاء والغفور مسامحة.

«اللهم ألف بين قلوبنا، وأصلح ذات بيننا، واهدنا سبل السلام، ونجنا من الظلمات إلى النور، وجنبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا، وقلوبنا، وأزواجنا، وذرياتنا، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، واجعلنا شاكرين لنعمتك، وأتمها علينا» [أبو داود من دعاء ابن مسعود].

ومما ورد في الرحمة الخاصة التي تضمنها اسم الله الرحيم قوله تعالى في شأن موسى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ﴾ [الأعراف:١٥١].

ويقول تعالى عن أيوب عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام: ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٣].

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: «تهجد النبي ﷺ في بيتي فسمع صوت عبّاد يصلي في المسجد، فقال: يا عائشة أصوت عبّاد هذا؟ قلت: نعم، قال: اللهم ارحم عبّاداً» [البخاري عن عائشة].

إذا رحم الإنسان الله عاش في سعادة، عاش في توفيق، عاش في هيبة، إذا أحب الله عبداً ورحمه ألقى محبته في قلوب الخلق.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ﴾ [البقرة:٢١٨].

المؤمن يبذل ماله، ووقته، يربي أولاده، ينصح للمسلمين، يقدم خدماته، لماذا يفعل هذا؟ يرجو رحمة الله، يرجو عطاء الله، أنا أضرب مثلاً بسيطاً لو أن ملكاً كلف معلماً أن يعطي ابنه بعض الدروس، فهذا المعلم أفقه ضيق جداً بعد عشرة دروس قال للابن أين الأجرة؟! قال له: كم تريد؟ قال له: كل درس بألف ليرة، بعد دقيقة جاءه، وقال: هذه عشرة آلاف، لكن هذا المعلم لو لم يطلب من الابن لأعطاه الأب بيتاً، ومركبة، ودخلاً مستمراً، عطاء الملك يتناسب مع الملك، فعندما لا يتحرك الإنسان إلا بالأجر، لا يلقي كلمة إلا بالأجر، لا يقبل أن يؤدي نصيحة إلا بالأجر المسبق، يكون لا يعرف الله، فحياة المؤمن مبنية على العطاء، بالتعبير المعاصر استراتيجيته العطاء، الهرم البشري الكبير يقع على قمته زمرتان، الأقوياء والأنبياء، الأقوياء أخذوا ولم يعطوا، الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا، لذلك المؤمن من أتباع الأنبياء، يبني حياته على العطاء، يسعد إذا أعطى: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإنسان:٩].

علاقة المؤمن بهذا الاسم

علاقة المؤمن بهذا الاسم الرحيم هو امتلاء القلب برحمة الولاء للمؤمنين، ورقة الوفاء لهم التي تدفع إلى حبّ المؤمنين، أنت مسلم، ويجب أن يكون ولاؤك للمؤمنين ولو كانوا ضعافاً وفقراء، وينبغي أن تتبرأ من الكفرة والملحدين ولو كانوا أقوياء

وأغنياء، تجد إنساناً أحياناً يذهب إلى الغرب فيستغرِب، ينتمي إليهم، يتمنى قوتهم، يتمنى نصرهم، يزدري أمته، مثل هذا الإنسان انتهى، لأن أحد أركان الإيمان الولاء والبراء، أن توالي المؤمنين، أن تحمل همهم، أن تتألم لآلامهم، أن يبكيك حالهم المأساوي، لا أن تشمت بهم.

إذاً المؤمن الموحد بهذا الاسم الرحيم ينبغي أن يمتلئ قلبه برحمة الولاء، ورقة الوفاء التي تدفع إلى حبّ المؤمنين، وبغض المنحرفين، وأسوتنا في ذلك هو سيد الخلق أجمعين، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة:١٢٨].

المؤمنون وضعهم لا يرضي الآن، كبا بهم الجواد، اجتمعت عليهم المصائب، أعلن العالم كلُّه حرباً عليهم، وأنت توالي المؤمنين، تدافع عنهم، تحمل همهم، تتألم لآلامهم، تفرح لانتصارهم.

كان النبي ﷺ رحيماً بأصحابه، رفيقاً، حبيباً، قريباً، صديقاً: «أتيت النبي ﷺ في نفر من قومي، فأقمنا عنده عشرين ليلة، وكان رحيمًا رفيقاً، فلما رأى شوقنا إلى أهالينا، قال: ارجعوا، فكونوا فيهم، وعلموهم وصلوا، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم وليؤمَّكم أكبركم» [البخاري عن مالك بن الحويرث].

قال النبي ﷺ ذات يوم في خطبه: «أهل الجنة ثلاثة، ذو سلطان مقسط، متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال» [مسلم عن عياض].

معظم الناس الذين شردوا عن الله خطهم البياني صاعد صعوداً حاداً، وعند الموت هذا الخط الصاعد ينهار انهياراً مريعاً، عند الموت فقد كل شيء، فقد ماله، أهله، مكانته، أولاده، بيته، مركبته، مكتبه التجاري، فقد كل شيء، إلا أن المؤمن خطه البياني صاعد صعوداً مستمراً، والموت نقطة على هذا الخط الصاعد، لذلك حينما أرى إنساناً محسناً في الدنيا أدعو له بهذا الدعاء، أقول له: اللهم اجعل نعم الدنيا متصلة بنعم الآخرة.

اقرؤوا هذه الآية: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف:٣٢].

كان ﷺ يقول: «اللهم لا عيْشَ إِلا عَيْشُ الآخِرَةِ» [من صحيح البخاري عن أنس بن مالك].

يقول لك: شخص معه وكالة مادة غذائية، أرباحه اليومية مليون ليرة، مليون يومياً ماذا يأكل؟ له وجبة طعام صغيرة، هذا هو رزقه، وكسبه سيحاسب عليه، يعني لا تفرح بالكم، افرح برحمة الله عز وجل هكذا علمنا الله: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف:٣٢].

نحن نقبل على الله إذا عرفنا أسماءه الحسنى، والطريقة الفعالة للتقرب منه أن تتخلق بكمال مشتق من كمال الله، فإذ أردت رحمة الله فارحم خلقه، إذا أردت عدل الله كن منصفاً، إن أردت عطاء الله كن معطياً، تقرب إلى الله بكمال مشتق من كماله.

والحمد لله رب العالمين.

الرّب

هذا الاسم ورد في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢].

﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس:٥٨].

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ [سبأ:١٥].

ولعل هذا الاسم هو أقرب الأسماء الحسنى إلى الإنسان، لأن الله عز وجل يربينا، يربي أجسامنا ويربي نفوسنا ويربي عقولنا، عن طريق آياته الكونية، وعن طريق آياته التكوينية وعن طريق آياته القرآنية.

من معاني اسم الله (الرب)

الربُّ في اللغة هو المالك، هو السيِّد، هو المُنعم، هو المربِّي، ولعل أقرب المعاني إلى الإنسان أنه المربِّي، ولا يطلَقُ غيرَ مضافٍ إلا إذا توجه إلى الله تعالى(الرب) أما إذا أُضيف فإنه يتوجه إلى الله تعالى أو إلى عباده، كقولنا: ربُّ الدار، أي: صاحبها.

ويقال: عالمٌ ربَّانيٌّ، أي: راسخٌ في العلم، إنسان ربانيٌّ، أي: كلُّ حياته محصورة في معرفة الله وذكره وخدمة عباده، فالربَّاني هو الذي لا يتحرَّك إلا وفق منهج الله، لا يقف موقفاً، ولا يُعطي، ولا يمنع، ولا يغضب، ولا يرضى، ولا يصل، ولا يقطع، إلا وفق مرضاة الله، وكما يقول سيدنا علي رضي الله عنه: الناس ثلاثة... عالمٌ ربَّانيّ، ومستمعٌ على سبيل نجاة، وهمجٌ رَعاع أتباع كلِّ ناعق، لم يَسْتَضِيئُوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركنٍ وثيق.

لفظ الربّ مشتقٌّ من التربية، فالله سبحانه وتعالى مربٍّ ومدبِّر لخلقه، المربي له صفتان أساسيتان... أنه مُمِدّ، وأنه يرعى، فالذي يمدُّنا بما نحتاج إليه هو ربُّنا، والذي يُمدُّ أجسادنا هو ربُّنا، والذي يربِّي نفوسنا، ويهدينا إلى صراطه المستقيم، ويُلْجئنا إلى بابه هو ربُّنا.

قال العلماء: وإذا أُدخِلت -ال- على كلمة رب اختصَّ الله تعالى بها، الرب هو الله لأنها للعهد، أي: الربّ المعهود ولا ربَّ سواه.

الله سبحانه وتعالى مالك المُلك، مالك المالك والمملوك، فما معنى قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة:٢].

الرب من معانيه أنه خالقٌ ورازقٌ، وكلُّ ربٍّ سواه غير خالقٍ وغير رازقٍ.

الأب يربِّي أولاده، لكن لم يخلقهم ولم يرزقهم، فإذا قلنا: فلان مُرَبٍّ، والأب مرَبٍّ، والمعلِّم مُرَبٍّ، أي: يقدِّم توجيهات، يتابع، يحاسب، يضيِّق، يشدد، يكافئ، يعاقب، أما إذا قلنا: الله ربُّ العالمين، أي: خلقنا وأمدَّنا ووجَّهنا.

لذلك أنت في نعمٍ ثلاث... نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى والإرشاد، أَوْجَدَكَ ولم تكن شيئاً مِن قبل، وأمدَّكَ بما تحتاج إليه، ثم هداك إليه وأرشدك.

والحقيقة أن كل واحد منا، وبشكلٍ موسَّع؛ كل مؤمن يتحدث عن ربوبيَّة الله الشيء الكثير، فيقول لك: فعلت كذا فأدَّبني، فعلت كذا فكافأني، دعوته فاستجاب لي، ظلمت فظُلِمتُ، اعتديتُ فاعتُدي علي، أكلت مالاً مشبوهاً فأتلف الله مالي... كلُّ

واحد فيما بينه وبين الله يعلم أنَّ الله سبحانه وتعالى يحاسبه حساباً دقيقاً، هذه هي التربية الروحية، ففي سورة الفاتحة قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾.

فالله عز وجل قوي، وقدير، وعليم، وجبار، ومتكبِّر، وقاهر، أما أنت فعبد، فالله عز وجل ربُّك وهو الذي خلقك ورزقك ودلَّك عليه... قال الله تعالى حكاية عن سيدنا إبراهيم: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢﴾ [الشعراء:٧٨-٨٢].

نظام الأبوة يوضح معنى الربوبية

يعدُّ نظام الأبوة من أكبر الآيات الدالة على عظمة الله، ذلك أن الأب أو الأم لا تكون سعادتها إلا بسعادة أولادهما، نظام الأبوة يدل على الله، والدك يتمنى أن تسبقه، يتمنى أن تتفوق عليه، لا يسعده إلا سلامتك وسعادتك لذلك قال تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾ [البلد:١-٣].

يعني لو تصورنا أن مؤسسة ضخمة أرادت أن تعين موظفاً، هذا الموظف يخضع للتجريب، في هذه الفترة التجريبية تُحصَى عليه أخطاؤه، فإن كانت بحجم غير مقبول رُفض، لكن لو أن مدير المؤسسة أراد أن يوظّف ابنه، ما الذي يحصل؟ ليس القصد هنا إحصاء الأخطاء، ولكن القصد أن يربي ابنه، فعند كل خطأ يُوَجّهه، يعلمه، يحاسبه، هذا شأن الأب.

ما معنى كلمة رب ببساطة؟ البدهي أن الأب يهيئ لأسرته بيتاً، ثمّ يهيئ لهذا البيت أثاثاً، ويهيئ لهذا البيت طعاماً وشراباً، إن رأى ابنه مريضاً سارع إلى معالجته وأشرف على إعطائه الدواء، وإن رأى بيد ابنه حاجةً ليست له يسأله، يحقق معه، وقد يعاقبه.

يمكن أن نفهم معنى اسم الرب ببساطة من أب عالم، من أب رحيم، من أب يسعى لإمداد أولاده بكل ما يحتاجون، ويسعى لتربية أجسامهم، وتربية عقولهم،

وتربية نفوسهم، وتربيتهم تربية اجتماعية، وتربيتهم تربية بدنية، وتربيتهم تربية جنسية، هذا الأب الحاني العالم الرحيم الذي لا يقلقه إلا مصير أولاده، لا يقلقه إلا سعادتهم، إلا إيمانهم، إلا سموهم، يمكن أن نفهم معنى هذا الاسم من مفهومات الأبوة والبنوة لذلك ليس عجيباً أن يكون نظام الأبوة آية دالة على عظمة الله.

من آثار اسم (الرب) في خلقه

أشار الله عز وجل في آيات كثيرة إلى مفهوم الربوبية قال تعالى: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه:٤٩-٥٠].

أعطاه القوام المنساب، الأجهزة المناسبة، الحواس المناسبة، النسج المناسبة، الخصائص المناسبة، أعطى كل شيء خلقه التام ثم هدى.

لو اخترنا مخلوقاً من أحقر المخلوقات على الإنسان إنه البعوضة، البعوضة في رأسها مئة عين، وثمانية وأربعون سناً في فمها، وثلاثة قلوب في صدرها، قلب مركزي وقلب لكل جناح.

هي بحاجة أن ترى الأشياء لا بألوانها، ولا بحجمها، ولا بشكلها، إنها ترى الأشياء بحرارتها، أعطى الله البعوضة ما يشبه جهاز استقبال حرارياً.

وفوق ذلك فهي تقوم بتحليل دم الإنسان إذ ما كل دم يناسبها تحلل الدم أولاً، ثم تمتصه ثانياً، وقد ينام أخوان على سرير واحد يستيقظ الأول وقد ملئ بلسع البعوض والثاني لم يصب بشيء.

ولأن دم الإنسان لا يسري بخرطومها بسبب لزوجته فهي تميع الدم قبل امتصاصه.

ولكي لا تقتل أثناء امتصاص الدم فإنها تخدر مكان لسعتها.

﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه:٥٠].

وفي خرطومها ست سكاكين، أربع سكاكين تحدث جرحاً مربعاً، وسكينان تلتئمان على شكل أنبوب لامتصاص الدم، وفي أرجلها محاجم إذا وقفت على سطح أملس كالزجاج، وفي أرجلها مخالب إذا وقفت على سطح خشن.

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) ﴾ [طه:٤٩-٥٠].

قس على ذلك قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ﴾ [التين:٤].

أعطاك عينين من أجل أن تدرك البعد الثالث، بعين واحدة ترى الطول والعرض، بينما ترى البعد الثالث من خلال عينين، أعطاك أذنين من أجل أن تعرف جهة الصوت، قد ينطلق بوق مركبة من على يمينك يدخل هذا الصوت إلى الأذن اليمنى قبل اليسرى بفارق واحد على ألف وستمئة وعشرين جزءاً من الثانية، يوجد بالدماغ خاصة تكشف تفاضل الصوتين فيكتشف أن البوق من الجهة اليمنى، فيعطي الدماغ أمراً بالانتقال إلى الجهة اليسرى.

﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) ﴾ [طه:٥٠].

لكل شعرة شريان، ووريد، وعصب، وعضلة، وغدة دهنية، وغدة صبغية.

في شبكية العين مئة وثلاثون مليون عصية ومخروط، مئة وثلاثون مليون بمليمتر وربع يعني بواقع مئة مليون مستقبل ضوئي في كل مليمتر مربع من أجل أن تميز بين ثمانية ملايين لون.

﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) ﴾ [طه:٥٠].

الدماغ يتكون من مئة وأربعين مليار خلية استنادية سمراء لم تعرف وظيفتها بعد.

﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ [الذاريات:٢١].

ينمو عظم الإنسان ويصل إلى الحد المناسب ويتوقف النمو، يعبر العلماء عن هذه الحالة بنوم الخلية العظمية، يكسر العظم بعد سبعين سنة فتستيقظ الخلية العظمية وترمم هذا الكسر.

﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه: ٥٠].

لم يجعل لك في الشعر أعصاب حسٍّ وإلا فأنت مضطر إلى أن تذهب إلى المستشفى وتخدر تخديراً كاملاً كي تحلق شعرك.

نحن نفهم الأشياء فهماً سطحياً، لو تعمقنا في خلقنا لرأينا عظمة الله عز وجل، معنى الرب أعطاك كل ما تملك، الطفل الصغير ليس في حليب أمه حديد، جعل الله في طحال المولود كمية حديد تكفيه لسنتين إلى أن يأكل.

أعطى الطفل الرضيع منعكس المص؛ لمجرد أن يولد يلتقم ثدي أمه ويحكم الإغلاق ويسحب الهواء فيأتيه الحليب.

جهازه الهضمي ممتلئ بمادة شحمية عند الولادة، وفي أول يومين لا يأتيه الحليب بل تأتيه مادة مذيبة للشحم.

الرب جل جلاله أعطاك كل ما تحتاجه من أجهزة، من أدوات، من نسج، من خصائص، ثم هدى، هداك إلى مصالحك، أنت تمشي ولكي لا تقع أودع في أذنك الوسطى جهاز توازن؛ ثلاث قنوات فيها سائل وهناك أشعار فوق السائل فأنت إذا ملت يمنة يبقى السائل مستوياً، يمس الجدار المائل، تتحسس الأشعار، لولا جهاز التوازن لما رأيت إنساناً يمشي على قدمين، والدليل لن تستطيع أن توقف الميت على قدميه، لأنه فقد التوازن، لولا جهاز التوازن لاحتجت إلى قاعدة استناد واسعة جداً للتوازن أثناء وقوفك ومشيك.

هناك قرص لحمي ينزل مع الجنين، في هذا القرص شيء لا يصدق، تجتمع في هذا القرص دورة دم الأم مع دورة الجنين، ولا يختلطان، ولكل دم زمرة، ومعلوم عند الأطباء

أن الدم إذا اختلط بدم من زمرة أخرى ينحل فوراً، لو أن دم الأم والابن اختلطا لماتت الأم والجنين فوراً، لا يختلطان، بينهما غشاء هذا الغشاء سماه الأطباء الغشاء العاقل، يأخذ الأوكسجين من دم الأم يضعه في دم الجنين، وكأنه يقوم بدور جهاز التنفس، ثم إنه يأخذ المواد السكرية من دم الأم فيطرحها في دم الجنين، فيقوم بدور جهاز الهضم، ثم يأخذ الأنسولين من دم الأم فيطرحه في دم الجنين، فيقوم بدور البنكرياس، الآن أصبح عند الجنين سكر وأوكسجين وأنسولين، يحترق السكر عن طريق الأوكسجين بوساطة الأنسولين فالجنين حرارته سبع وثلاثين، ناتج الاحتراق ثاني أكسيد الكربون يأتي الغشاء العاقل يأخذ ثاني أكسيد الكربون من دم الجنين ويضعه في دم الأم، فجزء من تنفس الأم هو ثاني أكسيد كربون الجنين، ثم يأخذ هذا الغشاء عوامل مناعة الأم وينقلها إلى دم الجنين، والغشاء العاقل يختار الغذاء المناسب، البروتين، الشحوم، السكريات، الفيتامينات، المعادن، أشباه المعادن، وكأنه عالم من علماء التغذية وهذه النسب تتبدل ساعياً وينفذها، لذلك سماه الأطباء الغشاء العاقل، ولو سلمت مهام الغشاء العاقل إلى مجموعة أطباء في قمة التفوق لمات الجنين في ساعة واحدة.

كلما ازددت فهماً بآيات الله في خلقه ازددت تعظيماً لله عز وجل وخشية له وخضوعاً له.

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾
[طه:٤٩-٥٠].

الحوت وزنه مئة وخمسون طناً، خمسون طناً دهناً، وخمسون طناً عظماً، وخمسون طناً لحماً، ويُستخرج من الحوت تسعون برميلاً زيت سمك، و يرضع وليده ثلاثمئة كيلو غرام في الرضعة الواحدة.

أنت حينما تتفكر في خلق السماوات والأرض تجد نفسك أمام عظمة الله وكأن التفكر في خلق السماوات والأرض أقرب طريق إلى الله، وأوسع باب تدخل منه على

الله، ولا تنسَ هذه الآية: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه:٤٩-٥٠].

وقال الله تعالى في سورة الرحمن: ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ ﴾ [الرحمن:١٧-١٨].

هناك ظاهرة لا ينتبه لها إلا القليل... افتح تقويماً وقلِّب أوراقه وافتح على يوم الثامن والعشرين من تشرين الثاني مثلاً فتجد أنَّ شروق الشمس عند الساعة الخامسة وسبع دقائق، وهذا التقويم معمول به من خمسين سنة، ويمكن أن يكون من مئة سنة وهو صالح لمليون سنة قادمة، فحركة الأفلاك بمعشار الثانية: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [غافر:٦٤].

فثبات حركة الأفلاك، دليل واضح على أن حركتها وسكونها بيد الله تعالى. حتى إنَّ أضخم ساعة في العالم موجودة في العاصمة لندن -بيج بن- تضبط على نجم، فقد تؤخَّر أو تُقدَّم في السنة عدة ثوانٍ فقط، فعلام تضبط؟ إنها تضبط على نجم معين وهو أدقُّ منها، تضبط عليه، فهو مضبوطة حركته، إذ أمره إلى الله سبحانه، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ فإذا كان للإنسان بيتٌ مشرفٌ على جهة الغرب أو جهة الشرق يقول لك: في الشتاء تشرق الشمس من ههنا، وفي الصيف تشرق من ههنا، فهناك مسافة كبيرة جداً بين المشرقين، فالقوس الذي يسع أقصى هذا المشرق وأقصى ذاك المشرق على مدار الفصول قوسٌ واسعٌ جداً، فهو في آية... ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ ﴾.. هو الذي جعل الشمس تشرق وجعلها تغيب، أما ربُّ المشرقين فيعني النهاية العظمى صيفاً والعظمى شتاءً.

إذا كان بيت الإنسان يطل على الغرب فإنه يرى الشمس تغيب في الشتاء بالاتجاه الغربي الجنوبي، أما في الصيف فاتجاهها غربي تقريباً، السبب في ذلك أن الشمس تكون

في فصل الصيف عمودية، أما في فصل الشتاء فتدخل إلى أقصى الغرب لأنها تكون في هذا الفصل مائلة... فمن جعلها هكذا! لو أنها كانت دائماً عمودية لكنا في صيفٍ دائم، لو أنها مائلة دائماً لكنا في شتاءٍ دائم، أما أن تتنوع بين العمودية والمائلة فهو سبحانه الذي جعلها هكذا.

هذا معنى ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ ﴾، أما إذا قال الله عز وجل: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [المعارج:٤٠].

فكل يوم لها شروق معين، يتحرك على مدار العام من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال وبالعكس، كل يوم لها زاوية تشرق منها.

تربية الله تعالى لنفوس عباده

الآن، انظر إلى الأب الكامل العالم الرحيم الحاني، كيف أنه يتابع أولاده متى جاء؟ متى خرج؟ مَن صديقه؟ لماذا تأخر؟ إنها المتابعة، ماذا قال الله عز وجل عن هذه المتابعة: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد:٣٣].

تصور طبيباً مرّ على مريض، طلب التحليل، وجد الضغط مرتفعاً، يعطي توجيهاً أن أوقفوا الملح مثلاً، يرى أن هناك فقر دم يعطي توجيهاً بإعطائه أدوية فيها حديد، دائماً الطبيب يتابع حالة المريض، وكل نقص أو زيادة في التحليلات هناك قرار يتخذه.

ومن معاني الربوبية أن الله تعالى خالق كل شيء وحده، يتفرد بالخلق ولا خالق إلا الله.

وكمال الخلق يدل على كمال التصرف، وفي هذا الكون آيات باهرات دالة على قيوم الأرض والسماوات.

ولأن الله تعالى رب فهو يربي عباده بسياسة حكيمة فيبدأ بهدايتهم عن طريق الهدى البياني، وأكمل موقف لهذا الهدى البياني أن تستجيب، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال:٢٤].

فإن لم تستجب فهناك تأديب تربوي وهذه هي المصائب في حقيقتها، قال تعالى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [السجدة:٢١].

أما إذا لم يستجب الإنسان عن طريق المصائب فإن الله تعالى يخضعه لمرحلة أقسى إنها الإكرام الاستدراجي، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾ [الأنعام:٤٤].

أما المصائب التي يسوقها الرب لعباده فيحتاج فهمها إلى إيمان، فمصائب المؤمنين مصائب دفع ورفع، فالله عز وجل يسوق لنا من الشدائد ما يدفعنا إلى بابه، وهو غني عن تعذيبنا، لكن النبي ﷺ يقول: «عَجِبَ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى الجَنَّةِ فِي السَّلَاسِلِ» [البخاري وأبو داود، واللفظ لأبي داود عن أبي هريرة].

أؤكد لكم أنك إذا دخلت مسجداً ورأيت فيه جمعاً غفيراً فاعتقد جازماً أن عدداً كبيراً من هؤلاء كان إقباله على الله عز وجل عقب معالجة حكيمة.

مصائب المؤمنين مصائب دفع ورفع، أحياناً لك عند الله مرتبة، عملك لا يكفي كي تنالها، لا بد من أن يسوق الله لك بعض الشدائد حتى يرفع مقامك عنده، إذاً للمؤمنين الآية الكريمة: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة:١٥٦-١٥٧].

مصائب المؤمنين مصائب دفع ورفع، دفع إلى باب الله؛ ورفع لمقام المؤمن عند الله.

لكن مصائب الذين شردوا عنه مصائب ردع أو قصم، هؤلاء زمرة أخرى.

أما الأنبياء فمصائبهم مصائب كشف، إذ هناك كمالات عندهم لا يمكن أن تظهر إلا عن طريق الشدائد، كما أن النبي ﷺ مشى على قدميه إلى الطائف ليدعو

أهلها إلى الله فبالغوا بتكذيبه، وبالسخرية منه، وأغروا صبيانهم أن ينالوا منه، حتى سال الدم من قدميه الشريفتين، وحتى ألجؤوه إلى حائط.

ثم مكنه الله من أن ينتقم منهم، فجاءه ملك الجبال، وقال له: «إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الأَخْشَبَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ الله مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ الله وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» [متفق عليه عن عائشة].

يجب أن نفهم فهماً عميقاً أن ما يسوقه الله عز وجل لعبده المؤمن من مصائب ما هو في الحقيقة إلا رسالة من الله، والدليل في هذه الآية: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [القصص:٤٧].

«من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر»، أوضح هذه المسألة بمثل: لو أن طالباً في الصف الرابع الابتدائي قال لأبيه مرة: أريد أن أترك المدرسة، فالأب ببساطة ما بعدها بساطة قال لابنه: كما تريد يا بنيّ، لا مدرسة، لا وظائف، لا معلم، لا شدة، لا تكليف، شعر أنه أفضل من أي طفل آخر في الأرض، نشأ على العطالة والبطالة، وارتياد الملاهي، ودور السينما، وصحبة الأراذل، فلما كبر وجد نفسه بلا عمل ولا وظيفة ولا شهادة ولا زوجة ولا بيت فحقد على والده، وقال له مرة: يا أبتِ، لمّا قلت لك: لا أريد أن أدرس لَمَ لَمْ تضربني، لما لم تسق لي بعض الشدة، لذلك حينما يكشف الله عز وجل لنا يوم القيامة سرَّ هذه المصائب التي ساقها لنا ليحملنا على طاعته، والإقبال عليه، والنجاة من النار، تذوب نفوسنا محبة له.

حينما تؤمن بالله إيماناً عميقاً تكتشف أن هذه المصيبة وراءها حكمة بالغة.

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن:١١].

أي يهدي قلبه إلى حكمة هذه المصيبة.

الحقيقة أن كلمة (رب)... ذات خصائص جمة؛ فمن خصائص التربية العلم والرحمة، ومن خصائص التربية القدرة، فهو يعلم، وهو على كل شيء قدير وهو رحيمٌ بنا، أما معنى قول الله عز وجل في سورة الفاتحة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ فهو أنه خالق الأكوان وجميع العوالم التي خلقها، فالعلاقة بين خالق الأكوان وجميع العوالم علاقة تربية أي خلقٌ وإمداد وإكرام وعناية، علاقة حب، علاقة عناية، فأحياناً يكون هناك علاقة محاسبة بين شخصين، أو علاقة انتقام، أو علاقة قسوة.

وأوضح مثل: علاقةُ أيةِ أمٍّ على وجه الأرض بابنها علاقة حب، علاقة رحمة، علاقة صلاح، فإذا قلنا: الله ربُّ العالمين، أو ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ أي أنَّ الله سبحانه وتعالى هو خالق الأكوان، وما سوى الله عوالم، والعلاقة بين الخالق والعوالم التي خلقها علاقة رحمة، فالرحمة عطاء فيها علم، وفيها قدرة، وفيها جمال، وفيها لطف، وفيها عناية.

لذلك يقول عامر بن عبد الله: «والله لو كُشِفَ الغطاء ما ازددتُ يقيناً»، والحقيقة أنك لن تكون على نحوٍ يَرضى الله عنك إلا إذا أيقنت بربوبيَّته لك.

لقد سمعت ذات مرة كلمة ما زالت عالقة بذهني.. فقد كان إنسانٌ يصيح في الطريق ويبدو أنَّ لديه مشكلة ما، فصاح غاضباً وقال: إذا لم يكن له أب أليس له رب؟! هذه الكلمة تركت في نفسي أثراً كبيراً، فالمربي هو الله، قد تجد يتيماً تولاَّه الله بالعناية ففاق كلَّ الأطفال الذين ربَّاهم أهلوهم.

من معاني قوله تعالى: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾

وفي الفاتحة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾... وكلمة ربّ العالمين لا تعني أنه ربُّ الإنسان فقط، الإنسان أحياناً ولضيق نظره، ولضيق أفقه، ولمحدوديته يظُنُّ أنَّ الله له وحده، أو له ولإخوانه، أو له ولجماعته، أو له ولمسجده، ألا فاعلم أنّ ربَّنا عز

وجل لكلِّ عباده، لكلِّ المؤمنين فهو ربُّهم، لكلِّ الناس، لكل الحيوانات، لكل النباتات، لكلِّ الجمادات، لكل العوالم، إنه ربُّهم، وهو رب كل شيء.

يقولون: عالَم الحشرات، عالَم النبات، عالَم الأسماك، عالَم الأطيار، عالَم الفضاء الخارجي، عالَم الأرض، عالَم الجبال، عالَم البحيرات، عالَم البحار، كلُّ المخلوقات المتجانسة اسمُها عالَم، واللهُ ربُّ العالمين... ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾.

وفي سورة الأنعام قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝١٦٤﴾ [الأنعام:١٦٤].

ما من كلمةٍ في اللغة أوسع شمولاً وأكثر استغراقاً من كلمة شيء... فالذرة شيء، وجزئيات الذرة شيء، النواة شيء، والكُهيرب -الإلكترون- شيء، المدار شيء، الفيروس شيء، عوامل المرض -وهي أقل من الفيروس- شيء، الشمس شيء، المجرات شيء، الكون شيء، ما من كلمةٍ في اللغة أوسع شمولاً ولا أكثر استغراقاً من كلمة شيء... قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ﴾.

فإذا أردت أن تقيم علاقة طيبة؛ أتُفضِّلُ أن تقيمها مع شرطيّ وتسترضيه، وأنت تعرف أن عمله محدود بساحة من الساحات وهو فقط ينظم شؤون السير، ولا يملك أي شيء آخر، أم تقيمها مع ملك يملك البلاد كلها بخيراتها وبمواردها، وبثرواتها وسائر شؤونها... أيهما تتخذ وليّاً لك؟!! ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ﴾... ليس ربَّ الناس، بل هو رب العوالم، ربُّ المخلوقات جميعاً.

فربما ينام أحد في خيمة في البادية، وقد يخاف من وجود أفعى تتسلل إليه ليلاً، وهذا ممكن جداً في الصحراء، ولا بد أن ينام لأنه متعب مرهق، فينام متوكلاً على الله. وأنت حينما تنام على من تتوكل؟ تتوكل على رب العالمين، هذه الأفعى بيد الله عز وجل

وهو الذي يحول بينها وبينك إن توكلت عليه حق التوكل، وأنت حينما تتعامل مع خالق الكون فكلُّ المخلوقات بيده... ﴿رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

وفي سورة الأعراف قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف:٥٤].

كأنَّ هذه الآية أشارت إلى تعريف الربوبية... أحياناً نصنع طائرة ونبيعُها، فنحن صنعناها. أما أمرها الآن فبيد مَن اشتراها، قد يستخدمها لعدوان، أو يستخدمها لنقل، أو يستخدمها في أعمال الاستطلاع، أو يجعلها على أرض المطار جاثمة، أو يخفيها، الذي اشتراها هو الذي يملك أمرها، نحن صنعناها ثم بعناها، لكنَّ الله سبحانه وتعالى، ولله المثل الأعلى، أي شيءٍ خلقه بيده، بملكوته... ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

هناك معنى آخر... فهذا الشيء الذي خلقه الله عز وجل: صلاحُ أمرِهِ وكل أحواله منوطٌ بخالقه، التوجيه الذي يسعده هو توجيه خالقه، التوجيه الذي يحفظه هو توجيه خالقه... ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ أي ينبغي أن تتبع أمر الذي خلق.

فالمعنى الأول ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ أي خَلقَهُ ويأمرُه دائماً، أي: أمره بيده، تحت سيطرته، في قبضته، في ملكوته.

المعنى الثاني أن هذا الشيء الذي خُلق لا يصلُح ولا يستقيم أمره إلا إن اتبع أمر الذي خلق... ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ ربُّ العالمين هو الذي ﴿لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾.

وقال الله تعالى في سورة التوبة: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة:١٢٩].

﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ هو الرب، أي ما من حركةٍ، ولا سكنةٍ، ولا خفضٍ، ولا إعزازٍ، ولا إذلالٍ، ولا قبضٍ، ولا بسطٍ، ولا سكينةٍ، ولا خوفٍ، ولا قلقٍ، ولا طمأنينةٍ إلا بيده ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي: يكفيني.

إذا أعطينا إنساناً إيصالاً نقدياً مفتوحاً وموقَّعاً وتركنا له الخيار في أن يضع فيه ما يشاء من المبالغ، فلو سجل مليوناً أو ألف مليون أو مليون مليون كلُّه نافذ، أفمن يملك هذه الورقة المفتوحة والذي سجل فيها أكبر رقمٍ حتى لو كان رقماً فلكياً... كمن يفرح بعدد من الليرات التي ترن في جيبه؟ لا يستويان ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ﴾...

فإذا قال المؤمن: «حَسْبِي اللهُ» فأنت مع القوي، ومع الغني، ومع الرحيم، فأنت مع الخالق، ومع القديم، ومع الأبدي، أنت مع من بيده كلُّ شيء... «حسبي اللهُ» ونعم الوكيل.

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [آل عمران:١٧٣].

قرأت عن سيدنا الصديق أنه: ما ندم على شيءٍ فاته من الدنيا قط، لأن الله حسبه، ومن كان الله حسبه كفاه أمر الدنيا كلِّها.

فقد قال الله سبحانه في أهل الكهف: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الكهف:١٣-١٤].

أنت حينما تكون مع إنسان فإن هذا الإنسان محدود مهما علا شأنه، لكن حينما تكون مع الخالق فهو ربُّك وهو ربُّ السموات والأرض، ولن يُسْلِمك لغيره أبداً.

ذات مرة هاجت عاصفة شديدة جداً ولعل سرعتها كانت تزيد على مئة كيلومترٍ فاقتلعت مئات البيوت المحمية... ولكن حدثت حادثة شديدة الغرابة. والمفارقة فيها غريبة، بيتان متلاصقان، فالقوس الأول ملتصق بالقوس الثاني، وهذه البيوت مزروع

بداخلها أشجار ذات ثمار، الثمار في أيام البرد ترتفع أسعارها ارتفاعاً كبيراً، فحجم إنتاج البيت مئتا ألف من الليرات تقريباً، وهذه العاصفة الهوجاء هبَّت فاقتلعت أحد البيتين وأبقت الآخر، والبيتان لأخوين أحدهما صالح والآخر شرير، فالشرير اقتلِع بيته وأُتلف محصوله، وأصبح بيته أنقاضاً على بُعد أمتار من مكانه، وهذا الشيء يكاد لا يصدَّق؛ فالعاصفة عاصفة والمنطقة واحدة بل إن البيتين متلاصقان، ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾.

أي ربُّك الذي يرعاك؛ بيده الرياح، بيده العواصف، بيده الأعاصير، بيده الأمطار، بيده إنبات النبات، بيده مسببات الأمراض، بيده الفيروسات، كل شيء بيده... ﴿لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ﴾ أي إله تعبده يكون دون الله عز وجل، فأحياناً يكون دوناً بدرجة أو بدرجتين أو بثلاث أو بأربع، أما إذا وازنا بين جهةٍ قوية تمحضها ودَّك وخالق الكون فليس هناك نسبة تجمع بينهما ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾... فالله عز وجل فوق الخلق جميعاً، وخلقه لا شيء إزاءه، لذلك قالوا: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾.

الرب هو الله، والربُّ هو المُصْلِح، والربُّ هو السيد، والربُّ هو المدبِّر، والربُّ هو الجابر، الربُّ هو القائم... ويقال لمن قام بإصلاح شيءٍ وإتمامه: ربَّه يرُبُّه فهو ربٌّ له، والرب هو المعبود.

في بعض التفاسير شرحت كلمة «رب العالمين» بما يشعر أنها تعني الثناء المطلق على الله، مثلاً هناك إنسان جلاد، عمله أن يجلد الناس، وهناك مربٍّ، وهناك سارق، وهناك معتدٍ أثيم، أما إذا دخلت إلى مدرسة، فمدير المدرسة ماذا يمثِّل الأذى أم الخير؟ طبعاً الخير، والتربية والتعليم والتهذيب، وتفقُّد الطلاب، ورعايتهم، رعاية سلوكهم

وأخلاقهم وصحتهم وعلمهم ورعاية علاقاتهم الاجتماعية، فمدير مدرسة ومدير مشفى كلاهما منصب خيري فيه خيرية وفيه رحمة، لكن قد يكون السجَّان له وظيفة ثانية قد يجلد، قد يعذب، فعلاقة السجَّان مع السجين علاقة تعذيب لا علاقة رعاية، علاقة ترويع، علاقة قهر.

فالمعنى الذي أريد أن أقوله: كلمة ربِّ العالمين هي ثناءٌ مطلق على الله.. رب العالمين أي: هو خالق، رب العالمين، أي: هو رازق، رب العالمين، أي: مُمِدٌّ، رب العالمين، أي: رحيم، رب العالمين، أي: عليم، رب العالمين، أي: قدير، رب العالمين، أي: محب، رب العالمين، أي: رؤوف، فالخلق والرزق والإمداد والعلم والرحمة والقدرة والحب والإكرام والرأفة كلها جمعت بكلمة رب العالمين.

فقد قال بعض المفسرين: «كلمة رب العالمين تعني الثناء المطلق على الله»، فإذا قلت ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ فإنك تثني على الله عز وجل.

وبعد فتربية الله لعباده تأخذ منحيين اثنين: تربية خلْقيَّة، وتربيةٌ شرعية تعليمية.

فأنت عموماً والجو برد قارس وابنك الذي تحبه بلا معطف، تذهب وتشتري له معطفاً، هذه تربية خَلْقِيَّة، يحتاج إلى غرفة خاصة، يحتاج إلى نفقات، يحتاج إلى كتب، يحتاج إلى أقساط، يحتاج إلى أشياء ثانوية... فتعطيه إياها، هذه كلها تربيةٌ خلقية... لكن إنْ رأيته يكذب فإنك تؤدبه، إنْ رأيته لا يصلي فإنك تأمره بالصلاة، إنْ رأيته يلهو بأشياء سخيفة فإنك تنهاه عنها، أنت الآن عملك شرعي.

يوجد تربية خَلْقِية وتربية شرعية، فربنا عز وجل يربي أجسامنا بإمدادها بما تحتاج إليه، ويربي نفوسنا بتزكيتها لتكون أهلاً لجنته، فتربية الله تربيتان، لذلك ليس لغير رب الناس جهةٌ يمكن أن تشرِّع للعبادة أبداً، العبادة لرب العالمين.

وإليك معنىً آخر... قالوا: الله عز وجل يربي نفوس العابدين بالتأييد، ويربي قلوب الطالبين بالتسديد، ويربي أرواح العارفين بالتوحيد، ويربي الأشباح بوجود

النِّعَم، ويربي الأرواح بشهود الكرم، الأرواح يربيها، والأشباح يربيها بالطعام والشراب، والعارفون يربيهم تربية رفيعة جداً، كلما ارتقى الإنسان يحاسب حساباً دقيقاً، فقد يُحاسَب على ابتسامة.

في مستوى الدكتوراه في بعض الجامعات، إذا أخطأ المتقدم لنيل هذه الشهادة في مناقشته بكلمة يعيد العام ويؤخَّر إلى عام قادم، كلما ارتقى مستواه يحاسب حساباً أدق، فالعارفون بالله لهم حساب دقيق، كلما ارتقى الإنسان في سُلَّم الإيمان يحاسب على الخطرات، وكلما هبط مستواه يحاسب على الكبائر.

أيضاً من معاني الربوبية قالوا: «إصلاح أمور العباد، وهذا مشتق من ربَّيْت الأديم... أربُّه فأنا أصلحه»، فالله سبحانه وتعالى يصلح أمور الواجدين بقديم عنايته، ويصلح أمور قومٍ يستغنون بعطائه، ويصلح أمور الخلق جميعاً.

الآية الكريمة تقول: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [النساء:١١٣].

﴿ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾... ربَّاك وساقك إلى مجالس العلم، ساقك إلى طاعته، ألقى في قلبك محبته، حبب إليك الإيمان وزينه في قلبك، وكرَّه إليك الكفر والفسوق والعصيان، هذه تربية.

إذا كان أب يسمع وابنه تكلم كلمة بذيئة أمامه، فضحك له، فإن الولد يكررها ويتفوّه بما هو أفحش منها وأسوأ، أما إذا تكلم كلمة بذيئة فنهره وزجره، فإن هذا الابن لن يعود إلى الكلام البذيء أبداً، وإذا وجده يقرأ القرآن كافأه وشجعه، فالمكافأة والعقاب تربية، والحق أن أول صفة من صفات المربي، أن يُكافئ المحسن وأن يُعاقب المسيء، وربنا عز وجل بمجرد أن تفكر في التحرُّك نحوه تجده شرح لك صدرك، ألقى في قلبك السكينة والطمأنينة، وتيسرت أمورك وعاملك معاملة جديدة وأشعرك أنه

يحبك، ولمجرد أن ترتكب معصيةً يلقي في قلب العاصي الضيق والكآبة والحيرة، فالله يربينا عن طريق قلوبنا.

عَنْ عائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «يا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ وَطاعَتِكَ» فقيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ الله -قَالَ عَفَّانُ: فَقَالَتْ لَهُ عائِشَةُ:- إِنَّكَ تُكْثِرُ أَنْ تَقُولَ: «يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ وطَاعَتِكَ» قالَ: «وَمَا يُؤْمِنُني! وإِنَّما قُلُوبُ العِبادِ بَيْنَ أُصْبُعَي الرَّحْمَنِ، إِنَّهُ إِذا أَرادَ أَنْ يُقَلِّبَ قَلْبَ عَبْدٍ قَلَّبَهُ -قال عَفَّانُ- بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أصابعِ الله عَزَّ وجَلَّ» [مسند الإمام أحمد].

فأنت حينما تتخذ قراراً حكيماً في صالح إيمانك يشرح الله لك صدرك، وحينما تنحرف قليلاً عن طريق الحق يملأ قلبك ضيقاً وقلقاً وحيرةً؛ فالقضية إذاً دقيقة جداً في بيان مسالك المؤمنين.

قال الله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة:٢٨٦].

قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾
[آل عمران:١٩١-١٩٥].

لا بد من تعقيبٍ أخير على اسم الله: «رب العالمين»، صدِّقوني أنَّ أحدكم إذا شعر أنَّ الله يتابعه، ويحاسبه على حركاته وسكناته، ويعاقبه سريعاً ويؤدِّبه سريعاً فهو في موطن عناية مشددة، أما إذا ارتكب الإنسان المعاصي ولم يحاسبه الله عز وجل ولم يتابعه فاعلموا أنه خارج العناية الإلهية؛ لأنَّ الله علم فيه انحرافاً شديداً، وتمرداً وعتواً وإصراراً على انحرافه فأوكله إلى نفسه، فأحدنا إذا كان الله يؤدِّبه ويحاسبه ويحصي عليه أنفاسه، ويحاسبه على كلمةٍ أو على نظرةٍ، أو على حركةٍ لا ترضيه، ويؤدِّبه سريعاً، فهذا محضُ ربوبية الله عز وجل، وفي هذا الإنسان خير كبيرٌ وهو مطلوبٌ لرحمة الله، والله عز وجل يؤهِّله لرحمته.

عَنْ عَبْدِالله ﷺ: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي مَرَضِهِ، وَهُوَ يُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا، وَقُلْتُ: إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا، قُلْتُ: إِنَّ ذَاكَ بِأَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ قَالَ: أَجَلْ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى، إِلاَّ حَاتَّ الله عَنْهُ خَطَايَاهُ، كَمَا تَحَاتُّ وَرَقُ الشَّجَرِ» [أخرجه أحمد والبُخاري و«مسلم»].

هذه تربية الله لنا، وليعلم كل مؤمن أن المصائب كلَّها لو كُشفت حكمتها لكم لكنتم في درجةٍ من قبولها لا توصف، فأنا أعرف أُناساً كثيرين سببُ توبتهم، وسببُ دخولهم في حظيرة الإيمان، وسببُ سعادتهم وتوفيقهم مصيبةٌ ساقها الله لهم فأرجعتهم إلى الله، قال تعالى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [السجدة:٢١].

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ ﴾... بالدنيا ﴿ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ ﴾... بالآخرة... ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.. فلنفهم: أن الله إذا ساق لنا بعض الشدائد فهذا من أجل أن نتوب إليه، لذلك ورد في القرآن الكريم... ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ﴾... في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة:١١٨].

أي إن الله تعالى ساق لهم الشدائد ليحملهم بها على التوبة، فإذا قلنا: تابوا فتاب عليهم، أي قبل توبتهم، أما إذا قلنا: ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾ أي أنَّ الله ساق لهم الشدائد ليحملهم بها على التوبة.

ملخَّص البحث... إذا ساق الله لأحدنا بعض الشدائد فليعلم علم اليقين أنه مطلوب لرحمة الله، وأن فيه خيراً، وأنه في العناية المشددة... فإذا رأى الطبيب مريضاً مصاباً بالسرطان من الدرجة الخامسة، والمرض منتشر في كل أحشائه، فبماذا ينصح المريض؟ يقول له: ليست هناك مشكلة فكل ما شئت... وإذا سأله المريض عن نوع من حبوب الدواء هل يتناوله؟ فيجيبه: كيف ما تريد وتحب، وعلى حسب راحتك... فتجده متساهلاً معه كثيراً لأنه لا يرجى شفاؤه، أما إذا كان مريضاً بالتهاب في المعدة تجده ثائراً عليه فيما إذا تناول طعاماً غير مناسب، فإذا كان هناك أملٌ في الشفاء فتجد الطبيب يعامله بشدةٍ بالغة، أما إذا لم يكن هناك أملٌ في الشفاء فتجده يترك له الأمور، فإذا كان الله يتابع الإنسان فمعنى ذلك أن الله يحبه وهو في العناية المشددة.

لذلك... إذا أحبَّ الله عبده عجَّل له بالعقوبة... إذا أحبَّ الله عبده ابتلاه، فإن صبر اجتباه، فإن شكر اقتناه... إذا أحبَّ الله عبده جعل له وازعاً من نفسه.

فالمؤمن لا يتضجر ولا يتأفف من تضييقٍ من الله عز وجل، فهذا التضييق محض رحمة، ومحض إكرام، وهو النعمة الباطنة كما فسَّرها المفسِّرون... ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾... في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان: ٢٠].

المالك

اسم الله «المالك» ورد في القرآن الكريم مضافاً، وإن كانت الإضافة تحمل معنى الإطلاق في الملكيّة، ولكنّه ورد أيضاً في السّنّة النّبويّة مطلقاً، فمن القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ [الفاتحة:٤].

وقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ [آل عمران:٢٦].

كل شيء يُملك هو مالكه، أما المُلك فيراد به عالم الشهادة غالباً، أو الحياة الدنيا بصفة عامة، والملكوت يراد به في الأعمّ الأغلب عالم الغيب أو عالم الآخرة، والله عز وجل مالك المُلك والملكوت، يعني مالك عالم الدنيا وعالم الآخرة، مالك عالم الشهادة، وعالم الغيب، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف:١٥٨].

الآن إذا كان الحق سبحانه وتعالى مالكاً لعالم الغيب والشهادة وما فيهما كما بينت الأدلة السابقة، فهو المالك إذاً على سبيل الإطلاق، أزلاً وأبداً.

وقد ثبت ذلك عند مسلم عن أبي هريرة حين ورد اسم «المالك» في الحديث الصحيح مطلقاً، فقد قال ﷺ: «إِنَّ أَخْنَعَ اسم عند الله رجلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَمْلاكِ، لا مالك إِلا الله» [متفق عليه عن أبي هريرة].

من معاني اسم الله (المالك)

«المالك» في اللغة اسم فاعل، وفعله ملك، يملك، فهو مالك، والله عز وجل مالك الأشياء كلّها، مالكها ومصرّفها، في عالم الإنسان قد تملك بيتاً، ولا تنتفع منه.

لكنّ ملكية الله جلّ جلاله مطلقة، مالك الملك، مالك كل شيء خلقاً، وتصرفاً، ومصيراً.

إنّ ملكية الله جلّ جلاله لعالَم الغيب وعالَم الشهادة، للدنيا والآخرة ملكيّة مطلقة، إذاً مالك الأشياء كلّها ومصرّفها على إرادته، لا يمتنع عليه منها شيء، آلاف الأشياء قد نملكها ملكاً ظاهراً ولا نملك التصرّف فيها، لأن مالك الشيء في كلام العرب هو المتصرّف فيه والقادر عليه.

وقد قرأ نافع وحمزة (مَلِكِ يوم الدين) بغير ألف، وقد قرأ عاصم والكِسائيّ: ﴿ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾.

والله عز وجل مالك المُلك، ملكه عن أصالة واستحقاق، لأنه الخالق الحيُّ القيُّوم الوارث، علة استحقاق الملك أمران، الأول: صناعة الشيء و إنشاؤه واختراعه، فالعاقل يعلم عقلاً أن المخترع له براءة الاختراع، والمؤلف له حق الطبع والنشر، وفي الحديث: «من أحيا أرضاً مَيْتَةً فهي له» [البخاري عن عمر بن الخطاب].

والله ما من تشريع حضاري، ما من تشريع يقلب الأرض القاحلة جنة كهذا التشريع.

أرض جرداء حفر إنسان فيها بئراً، واستخرج ماءً، وشجّرها، وزرعها، وسوَّرها، لو طبقنا هذا التشريع النبوي بشكل واسع لانقلبت بلادنا جنات خضراء.

الأمر الثاني: حق التصرف في الملك، قال تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأعراف:٥٤].

ويقول تعالى: ﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف:٥١].

والنبي ﷺ يقول: «كانَ اللهُ ولم يكنْ شيءٌ قَبْلَهُ وكان عَرْشُهُ على الماءِ، ثُمَّ خَلَقَ السماوات والأرضَ، وَكَتَبَ فِي الذِّكرِ كُلَّ شيءٍ» [أخرجه البخاري والترمذي عن عمران بن الحصين].

ولأن الله ملك كل شيء في عالم الشهادة والغيب، فدوام الحياة علة أخرى لاستحقاق الملك، لأن الموت يوجب انتقال الملكية من جهة إلى جهة، أما الله عز وجل فحيّ باقٍ على الّدوام، وهو الوارث الباقي بعد فناء خلقه، فعلّة الخلق، وعلّة دوام الحياة توجبان أن الله مالك كل شيء، أزلاً وأبداً، دنيا وآخرة، شهادة وغيباً.

ومعلوم أنّ كلّ من على الأرض ميّت، كما قال تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

وقوله أيضاً: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [العنكبوت:٥٧].

ولما كانت الحياة وصفاً لذات الله عزّ وجلّ فالله تعالى يقول: ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [آل عمران:١٨٠].

من معاني (مالك الملك) جل جلاله

نعود إلى قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران:٢٦].

المُلك هو الكون. والكون ما سوى الله؛ والكون ممكن الوجود، وما سوى الله هو المُلك. لكنَّ السؤال لِمَ جاء المُلك مفرداً؟ مع أن هناك سماوات، ومجرات، ومذنبات، وثقوباً سوداء، ومسافات بينيّةً شاسعة، والأرض فيها أودية، وجبال وصحراء وسهول وطيور وحيوانات وإنس وجن.

خلقٌ كثير لا يعلمهم إلا الله: في البحار وحدها أكثر من مليون نوع من السمك. كل هذا الكون سماه الله مُلكاً بلفظ المفرد فما حكمة ذلك؟ الحكمة أن الكون كلّه متناسق بعضه مع بعض، كل جزء فيه يعمل للمجموع، لأن الله سبحانه وتعالى صنعه؛ فالحيوان للإنسان، والنبات للحيوان، والتراب للنبات، والماء للتراب، وحجم الأرض يتناسب مع طاقة الإنسان، وسرعتها حول نفسها تتناسب مع إمكاناته وهكذا... أهم كلمة في هذا الكون أنه وحدة متكاملة والله سبحانه وتعالى مالك الملك وأمره نافذ فيه. يقول تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى:٥٣].

قد يسأل سائل: بيَدِ من كانت حتى آلت إليه؟ الحقيقة: هي إليه أولاً وآخراً؛ ولكن أهل الدنيا والمشركين والكفار، والفجار، والمنافقين، وضعاف الإيمان، يرون في الأرض آلهةً كثيرة؛ مراكزَ قوى، وأشخاصاً أقوياء، يأمرون فيُطاعون، ويدمرون، يعطون... يرفعون... يخفضون... أما المؤمن فلا يرى إلا الله في الدنيا، يرى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:١٠].

يرى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣].

يرى أنه: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر:٢].

يرى أنه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤].

يرى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزمر:٦٢].

يرى: ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ ﴾ [هود:١٢٣]. فهذه رؤية المؤمن، لا يرى مع الله أحداً، وهذا هو التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، لكن العصاة والمشركين والكفار يرون أشخاصاً أقوياء إرادتهم نافذة فيحسبونهم أنداداً، أما الحقيقة فهي أنه لا ينفذ في كون الله إلا إرادة الله. ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

﴿ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ﴾ [الرعد:٤١].

﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الكهف:٢٦].

فالمؤمن الصادق لا يرى مع الله أحداً، يرى صوراً ودُمىً تُحرَّك في الخفاء، لكن الله هو كل شيء، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ [الحديد:٣].

لذلك: ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الشورى:٥٣].

حتى الكفار يوم القيامة يرون أن الأمور كلها بيد الله. أما المؤمنون فهم وحدهم الذين يرون هذه الحقيقة في الدنيا، الكفار تغيب عنهم هذه الحقيقة فيرون الأمور بيد زيد أو عبيد.

التابعيُّ الجليل الحسن البصريّ استدعاه والي البصرة عمر بن هبيرة في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، وكان قد جاءه البريد يحمل توجيهاً؛ إنْ نَفَّذه، أغضب الله سبحانه وتعالى، وإن لم ينفذه أغضب الخليفة يزيد، وربما عزله من منصب الولاية. فوقع في حيرة شديدة فسأل الحسن البصري، فأجاب الحسنُ البصري جواباً جامعاً: إنّ الله يمنعك من يزيد، ولكنّ يزيد لا يمنعك من الله. بمعنى أنه إذا غضب أهل الأرض جميعاً عليك والله راضٍ عنك، فلن يستطيعوا أن يفعلوا لك شيئاً يضرّك.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أهدي إلى النبي ﷺ بغلة أهداها له كسرى فركبها ثم أردفني خلفه، ثم سار بي مليّاً، ثم التفت فقال: يا غلام! قلت: لبيك يا رسول الله! قال: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في

الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، قد مضى القلم بما هو كائن، فلو جهد الناس أن ينفعوك بما لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه، ولو جهد الناس أن يضرّوك بما لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، فإن استطعت أن تعمل بالصبر مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع فاصبر، فإن في الصبر على ما تكرهه خيراً كثيراً، واعلم أنّ مع الصبر النصر، واعلم أنّ مع الكرب الفرج، واعلم أنّ مع العسر اليسر» [أخرجه الحاكم في «المستدرك» وقال: هذا حديث كبير عالٍ من حديث عبد الملك بن عمير عن ابن عباس].

فملخص الملخص: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. ومعنى مالك الملك؛ أن هذا الكون العظيم تحكمه إرادة واحدة نافذة فيه هي إرادة الله، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس:٢٤].

أتاها أمرنا -لا أمرهم- يقال مثلاً: الدولة الفلانية عندها قنابل نووية كافية لتدمير الأرض خمس مرات الآن هي في الحضيض، في الوحول، هي الآن متفتتة، كل أنواع السقوط في هذه الدولة، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾ [يونس:٢٤].

فهذا المُلك العظيم؛ فيه إرادة واحدة نافذة؛ هي إرادة الله. بربِّك أيها المؤمن؛ إذا أيقنت هذا اليقين هل تتوجه لغير الله؟ هل تخشى غير الله؟ هل ترجو غير الله؟ هل تطمح إلى غير الله؟ هذا هو التوحيد؛ طرقه كلها تؤدي إلى الله عز وجل.

يقول العلماء: مالك المُلك؛ هو الذي تنفذ مشيئته في مملكته كيف يشاء وكما يشاء؛ إيجاداً وإعداماً، إبقاءً وإفناءً، والمُلْكُ هنا بمعنى المملكة، والمالك؛ بمعنى القادر التام القدرة. والموجودات كلها مملكة واحدة؛ لأنها متناسقة مرتبطة بعضها ببعض فحجم الأرض متناسب مع الإنسان، فمثلاً لو وجدت قفلاً في بيت، ووجدت مفتاحاً في مكان آخر؛ وهذا المفتاح فتح ذاك القفل، تقول: كلاهما من مصنع واحد، طالما هناك انسجام بينهما.

أحياناً يشتري أحدنا قطعة لسيارته، تأتي هذه القطعة في مكانها الصحيح بالميليمترات. معنى ذلك؛ أن المعمل واحد. والذي صنع واحد، والذي أعطى القياسات واحد. فهي وإن كانت كثيرة من وجه؛ إلا أنها وحدة واحدة، الكون كله يعمل بالتنسيق، فالانسجام دليل وحدة الخلق.

هناك كلمة واسع، وهناك كلمة واحد؛ وقد وصف الله ذاته بهما، فما معنى كل منهما: خمسة آلاف مليون إنسان كل واحد يحمل قزحية عين تختلف عن الأخرى؛ من أجل ذلك صنعت أقفال لا تفتح إلا على قزحية العين. لأن إنساناً واحداً في الأرض لا يمكن أن يشبهك في قزحية عينك، معنى ذلك أن الله واسع. كما أن لكل إنسان رائحة جلد لا يمكن أن يشْركَه فيها أحد من الخلق، وأساس عمل الكلب البوليسي رائحة الجسم، ونبْرَة الصوت كذلك؛ إذ لا يمكن أن تتشابه في الأرض نبرتان، فأصبح لدينا قزحية العين، ورائحة الجلد، ونبرة الصوت، وبصمة اليد، وبلازما الدم، كذلك اكتشفوا الآن مليارين ونصف وحدة نسيجية. يعني أن هناك واحداً فقط في الأرض وحدته النسيجية تشبه وحدتك، وبصمة اليد -هذه الأنملة- فيها مئة نقطة بين جزيرة، وخليج، ورأس، ونتوء، وفرع، وغصن، ولو تشابهت سبع صفات في بصمتين لكانتا لإنسان واحد؛ وبصمة اليد توقيع. فهذه الاختلافات كلها تعني أن الله واسع. بالمقابل تجد أن شركة أدوية تصنع دواءً في بلد ما كندا مثلاً؛ فإذا استعمل هذا الدواء شخص من استراليا نفعه هذا الدواء؛ ما معنى هذا؟ إنه يدل على أن الخلق واحد في البنى الأساسية، وفي الخصائص، إذاً هناك وحدة في الخلق. تجد طبيباً درس الجراحة ببلد ما، أمريكا مثلاً يقول في اختصاصه: إن العصب الفلاني على بُعد ٢ سم من مكان كذا... بالتفاصيل الدقيقة ثم يجري عملية جراحية لإنسان ما بالخليج مثلاً في عروقه وأعصابه كما درسها هذا الطبيب في أمريكا، وتكون النتيجة كما لو أجراها لشخص في أمريكا، وأقرب من هذا وجوه البشر فلكل سماته الخاصة به؛ وكل واحد منا له شكل وطريقة في العيش، فهذا يدل على سعة الخلق وحينما تكون الأجهزة واحدة؛ القلب واحد، والرئتان، المعدة، الأمعاء، الشرايين، الأوردة، الأعصاب، العظام، خصائص العظام؛

زمن التحامها، الطبيب مثلاً من مصر ودرس في روسيا، والمريض في إفريقيا والبنية لدى الجميع واحدة. معنى ذلك أنه يوجد قواعد عامة في الجسم.

فالله عز وجل واحد واسع، أما لو قلت لمهندس ما: ارسم لنا بناء فيمكن أن يرسم مخططاً وآخر وآخر ثم يتوقف. ومثل ذلك هندسة السيارات يرسمون شكلاً بيضوياً ثم شكلَ زوايا حادة ثم يعودون للشكل البيضوي. أي أن طاقة الإبداع محدودة عند البشر. أما في صنع الله؛ فإذا نظرت في أنواع أوراق الأشجار في الأرض تجد أموراً لا تصدق؛ أوراقاً إبرية، وأوراقاً دائرية، وأوراقاً مسننة، وأوراقاً مفلطحة، أوراقاً خضراء مشربة بلون آخر مثلاً، وأوراقاً واسعة، وأوراقاً صغيرة، وأوراقاً كبيرة، وتلك تحمل الألوان الجذابة؛ فلو نظرت في أنواع الأوراق، لأخذك العجب العجاب.

أيها القارئ الكريم: الله عز وجل مالك الملك؛ أي: تنفذ مشيئته في ملكه كما قال العلماء. وقيل: مالك الملك؛ هو المتصرف في ملكه كيف يشاء، ولا رادَّ لحكمه، ولا معقب لأمره. والوجود كله من جميع مراتبه، مملكة واحدة لمالك واحد وهو الله تبارك وتعالى.

لو لاحظت البشر في كيفية تملُّكهم لوجدت أصنافاً شتى، فإذا قلنا: فلانٌ يملك هذا البيت وأجَّرَهُ، فهو يملك عينه ولا يملك منفعته، المستأجر تجده يملك المنفعة وليس العين المؤجرة، فإذا كنت تملك المنفعة والعين يعني البيت؛ لكنك قد لا تملك المصير؛ بحيث إنه لو صدر قانون استملاك، فإن البيت يضيع من يدك. فهناك مُلك عين، ومُلك منفعة، ومُلك مصير. أما إذا قلنا: الله مالك الملك؛ فهو مالك الوجود خلقاً، وتصرفاً، ومصيراً، مثلاً: بلد يبيع بلداً آخر مجموعة طائرات. كان المعمل مالكاً للطائرات؛ فلما باعها تملكها شاريها. وأصبحت هذه الطائرات بأمر شاريها. لكن الله عز وجل يقول: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾﴾ [الزمر:٦٢].

كلمة مالك الملك تعني: ما شاء في هذا الملك كان، وما لم يشأ لم يكن، كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع. هذا هو معنى مالك الملك.

قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران:٢٦].

إذا أعطى الله عز وجل الملكَ لإنسان، يعطيه الهيبة؛ فكلهم يخافونه؛ فإذا أراد أن ينزع منه الملك، ألغى هيبته؛ فكلهم يجترئ عليه.

دخل يزيد بن أبي مُسْلم، كاتبُ الحجاج، على سليمانَ بن عبد الملك، فازدَراه ونبَت عينه عنه، فقال: ما رأت عيني كاليوم قطُّ، لعن الله امرأ أجَرَّكَ رَسَنَه، وحكّمك في أمره. فقال: يا أمير المؤمنين! لا تَقُلْ ذلك؛ فإنك رأيتَني والأمر عني مُدْبر، وعليك مقبل، فلو رأيتني والأمر عليّ مقبل، وعنك مُدْبر، لاستعظمتَ مني ما استصغرتَ، واستكبرتَ ما استقللت. وكان يزيد رجلاً دمياً قبيحاً تقتحمه العين، لقد زلت قدمه فنزع الله عنه الهيبة فالإنسان إذا نزع الله منه الهيبة صار شخصاً تافهاً، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران:٢٦].

إذاً الإعزاز خير والإذلال خير، الإعطاء خير والمنع خير، والإيتاء خير والسلب خير؛ فكل هذا خير. وفي الحديث: «عَجَبا لأمر المؤمن! إنَّ أمْرَه كُلَّه له خير، إن أصابتْهُ سَرَّاءُ شكر، فكان خيراً له، وإن أصابتْهُ ضَرَّاءُ صَبَر، فكان خيراً له، وليس ذلك لغير المؤمن» [أخرجه مسلم عن صهيب الرومي].

مثال على ذلك: تجد الأب يقسو على ابنه في الصغر، كي يصنع منه رجلاً في المستقبل، كل هذه الشدة من الأب هي لصالح الابن، وكل هذه الشدة جعلت منه إنساناً متفوقاً.

يقول أحد المفسرين: مالك الملك؛ هو المَلِكُ الحقيقي، المتصرف بها شاء وكيف شاء؛ إيجاداً وإعداماً، إحياءً وإماتةً، تعذيباً ورحمةً، من غير مشارك ولا ممانع.

لكن هناك وقفة عند كلمة مالك الملك، وهي: هل تملك سمعك؟ هل تملك بصرك؟ هل تملك قوتك؟ هل تملك أعصابك؟ هل تملك سيولة الدم؟ هل تملك نمو خلاياك؟ فأنت إذا أصابتك جلطة دموية، أوْدت بحياتك. فهذا بسبب تجمّد نقطة في الدم، وكذلك نمو الخلايا العشوائيّ، إذاً أنت لا تملك شيئاً من جسمك، وإنما يعطيك الله صحّة طيّبة كي تستمتع بها، فهو سمح لك بالاستمتاع بها ولكنه هو المالك لها. فكلمة مالك الملك تعني؛ أنك لا تملك شيئاً، لأنك لو أصبت بخلل بسيط في القلب، أودى هذا بحياتك؛ فأنت لا تملك شيئاً من جسدك، ولا تملك دماغك. كذلك أعرف شخصاً معرفة جيدة وهو من الأفراد المرموقين في البلد، أنه خرج مرة من بيته فنسي عند عودته أين يسكن! حتى تذكر بيت ابنه فدَلَّه ابنه على بيته. فسبحان الله هناك بعض الحالات فيها عِبَر بالغة، مثلاً موت مفاجئ، يموت الإنسان بلا أي سبب. أعرف شخصاً اشتغل لمدة خمسين سنة وجمّع ثروةً طائلة، وبعدها اشترى بيتاً في المَصيف، وأصبح يشتغل إلى الظهر فقط ليتمتع ببيته هذا، وفي أحد الأيام ذهب إلى المصيف وهناك خطر بباله أن يهتف إلى ابنه، فوقع ميّتاً على الأرض دون أي سبب قبل المهاتفة. إذاً لا يمكن للعبد أن يكون مالكاً مطلقاً.

قال سفيان بن عيينة: بينا أنا أطوف بالبيت إذا أنا برجل مُشْرِف على الناس حسن الشَّيب فقلنا بعضُنا لبعض: ما أشبه هذا الرجل أن يكون من أهل العلم! قال: فاتّبعناه حتى قضى طوافه وصار إلى المقام فصلى ركعتين، فلما سلم أقبل على القبلة فدعا بدعوات، ثم التفت إلينا فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قلنا له: وماذا قال ربنا يرحمك الله؟ قال: قال ربكم: أنا الحيُّ الذي لا يموت، أدعوكم إلى أن تكونوا أحياء لا تموتون، ثم أقبل على القبلة فدعا بدعوات ثم التفت إلينا، فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قلنا: ماذا قال ربنا؟ حدثنا يرحمك الله! قال: قال ربكم: أنا الذي إذا أردت شيئاً كان، أدعوكم إلى أن تكونوا بحال إذا أردتم شيئاً كان لكم (وهو إجابة الدعاء). قال ابن عيينة: ثم ذهب فلم نره.

فالإنسان إذا أطاع الله يكون موته تُحفَةً وعرساً، وموته انتقالاً من الدنيا التي هو سعيد بها بمعرفة الله إلى جنة الله في الآخرة، لذلك من الأدعية اللطيفة: اللهم اجعل نعمك علينا متصلة بين الدنيا والآخرة. فالخط البياني للمؤمن في صعود، وموته نقطة على هذا الخط.

لو أنك أعرضت عن الدين وعن الآخرة وعن منهج الله؛ فمهما كسبت من المال ومن المناصب، فكل هذا نهايته قبيحة وتجعلك في قلق. نعم هناك صعود، لكن هناك سقوط بعد الصعود، والموت هو السقوط. لكن المؤمن في صعود ليس بعده سقوط، وهذا الشعور لا يوصف -طمأنينة للمستقبل- المؤمن مطمئن، تمشي في طريق سالكة إلى جنة الله، تمشي على طريق تنتهي بك إلى الجنة. أما أهل الدنيا، فالطريق عريضة، ولكنها تنتهي إلى حفرة سحيقة، وفيها وحوش كاسرة وقلق دائم، لذلك فالمبالغة في النعيم، والمبالغة في الانغماس باللذات؛ عملية تعويض لما يصيبه من قلق وخوف. وهناك من أهل الدنيا من يبالغ بالرفاه والاعتناء بمظاهر الحياة وكأنه سيعيش مئات السنين. هناك قلق وخوف أساسه الشعور بأنّ بَعْدَ هذا الصعود سقوطاً. أما المؤمن فهو مرتاح من هذا القلق؛ لأن حياته صعود بلا سقوط، ونمو بلا تراجع، وسعادة بلا شقاء، وحياة بلا موت.

إن أطعتَ الملك، كنت في معية الملك. وإن أطعت الغني، كنت مع الغني. وإن أطعت القوي، كنت مع القوي. لذلك قالوا: إذا أردت أن تكون أغنى الناس، فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك. إذا أردت أن تكون أكرم الناس، فاتق الله. وإذا أردت أن تكون أقوى الناس، فتوكل على الله. فأنت قوي بالله، وغنيّ بالله، وكريم بالله، وعزيز بالله، أما إن لم تكن مع الله؛ فعزٌّ بعده ذلٌّ، وغنى بعده فقر، حياة بعدها موت، وسعادة بعدها شقاء وهوان.

حينما تؤمن أن الله مالك المُلك، مالك الدنيا والآخرة، مالك عالَم الغيب وعالَم الشهادة، مصيرك إليه، وأمرك إليه، بيده رزقك، بيده حياتك، بيده التوفيق، بيده النصر، بيده النجاح، بيده التفوق، بيده السعادة، بيده الرضا، بيده كلّ شيء، هذا هو التوحيد.

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٣].

أحد أكبر أسباب العذاب النفسي أن تتوهم أن مع الله إلهاً آخر، التوحيد يعطيك الراحة النفسية، التوحيد يعطيك الشجاعة، التوحيد يعطيك عزة النفس، التوحيد يبعدك عن استجداء مديح الناس، التوحيد يجعلك متماسكاً، التوحيد يجعلك عزيزاً.

اجعل لربك كلَّ عز ك يستقر ويثبت
فإذا اعتززت بمن يمو ت فإنَّ عزّك ميّت

ولما ذكر الله ملكيته للأشياء، وأنه هو الذي يمنحها لمن يشاء، ذكر من لوازم المُلك القدرة، فالقدرة من لوازم ملكيته، فالمالك قدير، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران:٢٦].

مرة كنت في بلد عربي، وحدثني طبيب، قال: لي زوجة على وشك الولادة والوضع عسر جداً، فاستشار أعلى طبيب في هذا البلد، فقال له: القضية سهلة، فلما طلب منه أن يستشير غيره أرغى وأزبد، وقال: ليس في هذا البلد كلّه طبيب في مستوى علمي، ثم ارتكب هذا الطبيب خطأً لا يرتكبه طالب طبّ، وقد نُزعت من هذا الطبيب شهادته لأول مرة في هذا البلد العربي منذ استقلاله.

ولو أنك عالم لكن حينما تعزو هذا إليك ينزعه الله منك، والقصص كثيرة، قد يغدو الإنسان فقيراً بعد أن كان غنياً، قد يغدو ضعيفاً ملقى في غياهب السجن بعد أن كان قوياً.

أنت في حاجة ماسة إلى درسين، درس بدر ودرس حنين، في بدر قال الصحابة: الله، فنصرهم، وفي حنين قالوا وهم قمم البشر، ومعهم سيد البشر: نحن فوكلهم الله إلى أنفسهم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا ﴾ [التوبة:٢٥].

اعتدوا بكثرتهم فلم ينتصروا.

من هو سيد أهل العفاف؟ سيدنا يوسف، ماذا قال؟ قال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ [يوسف:٣٣].

من هو سيد الموحدين؟ سيدنا إبراهيم، قال تعالى: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم:٣٥].

فأي شيء يُملك، أو أي شيء تتوهم أنك تملكه يمكن أن ينزع منك.

يقول تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك:١].

سمعك بيده، بصرك بيده، عقلك بيده، يكون الإنسان سيد البيت، أب، أولاد، بنات، أصهار، كنائن، مكانة، تجارة، يختل عقله، يذهب أهله إلى أقرب الناس إليهم يتوسطون لإيداعه في مستشفى المجانين، عقلك بيده، سمعك بيده، حركتك بيده، زوجتك بيده.

النبي ﷺ ماذا يقول؟ قل يا محمد لأصحابك: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف:١٨٨].

فإذا كنت لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً فمن باب أولى أنني لا أملك لكم نفعاً ولا ضراً، سيّد الخلق، وحبيب الحق، وسيّد ولد آدم، الذي اصطفاه على كل الأنبياء والرّسل، والذي أقسم بعمره الثمين، والذي ما خاطبه باسمه أبداً، (يا أيّها النبي)، (يا أيها الرسول)، هذا قمة البشر، ومع ذلك: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾.

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [الأنعام:١٥].

نصيب المؤمن من اسم الله (المالك):

علاقة المؤمن بهذا الاسم اعتقاد وسلوك، فالمؤمن ينبغي أن يعتقد أنه عبد في ملك سيده، وكلما تواضع العبد لربه رفعه، هل هناك من إنسان رفع الله ذكره كرسول

الله؟ وكان في أعلى درجات العبودية لله، علاقة المؤمن بهذا الاسم أن يعتقد أولاً أنه عبد في ملك سيده، مستخلف في أرضه، أمين على ملكه، قد ابتلاه الله فيما أعطاه، أعطاك قوة، أعطاك مالاً، أعطاك ذكاءً، أعطاك طلاقة لسان، أعطاك علماً، أنت ممتحن فيما أعطاك.

الآن هذا الإنسان أيرد الملك إلى المالك، أم ينسب للمخلوق أوصاف الخالق؟

فيتكبر على العباد بنعم الله، ويتعالى عليهم بما منحه الله وأعطاه؟ فالموحد الصادق يتحرى في قوله وفعله توحيد الله في اسمه «المالك»، لا يتوكل إلا عليه، ولا يلجأ إلا إليه، لعلمه أن أمور الرزق بيده، وأن المبتدا منه والمنتهى إليه.

﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾ [الغاشية:٢٥-٢٦].

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس:٣١].

ماذا قال قارون؟ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ ﴾ [القصص:٧٨].

ماذا قال فرعون؟ ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ﴾ [الزخرف:٥١].

ماذا قال أهل وجماعة بلقيس؟ ﴿نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [النمل:٣٣].

ماذا قال إبليس؟ ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف:١٢].

أربع كلمات مهلكات: أنا، ونحن، ولي، وعندي.

المؤمن الموحد لله بهذا الاسم «المالك» ينبغي أن يعرف نفسه، وينبغي أن يعرف حقيقتها، وحقيقة النعم وملكيتها.

سألوا راعٍ يرعى الإبل، لمن هذه الإبل؟ قال: هي لله في يدي، الإنسان مهما عرف نفسه حقّ المعرفة، فإنه إلى المالك الأوحد أذلُّ من كلِّ ذليل.

أعرف رجلاً ذهب إلى باريس وجاء بشهادة عليا، تسلم منصب معاون وزير لوزارة مهمة جداً، ويحمل شهادة عليا، وله زوجة تروق له، ومنزل بأرقى أحياء دمشق، ومركبة فاخرة، فقد بصره، فقال لأحد أصدقائه: والله أتمنى أن أجلس على الرصيف، وأتكفف الناس، وأن يردّ الله لي بصري.

التذلل إلى الله عِزٌّ، يرفع شأنك، يعلي قدرك، يلهمك السداد في القول والعمل، يطلق لسانك، كن عبد الله، فعبد الله حرّ، إن لم تكن عبداً لله فأنت حتماً عبد لعبد لئيم، إن لم تكن عبداً لله تنبطح أمام القويّ، تتذلّل أمامه، أما إن كنت عبداً لله فأنت في عزّ ومنعة.

والمؤمن إذا آمن باسم الله «المالك» يشكره على ما أعطاه وأولاه، ويصبر عند المنع، لذلك قال ابن عطاء الله السكندري: (ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك وإذا كشف لك الحكمة في المنع عاد المنع عين العطاء)

الملك الحقيقي أن تملك نفسك وهواك، والدليل، سيدنا يوسف ماذا قال في القرآن: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ ﴾ [يوسف:١٠١].

بعض علماء التفسير قالوا: حينما تملك نفسك وهواك، فأنت ملِك.

ومرة قال أحد زعماء بريطانيا الذي حقق نصراً في الحرب العالمية الثانية: ملكنا العالم ولم نملك أنفسنا.

أحد الشيوخ قيل له: أوصنا، قال: كن ملكاً في الدنيا تكن ملكاً في الآخرة، قال: وكيف؟ قال: ازهد في الدنيا تكن ملكاً في الآخرة، استغنِ عن الرجل تكن نظيره، احتج إليه تكن أسيره، أحسن إليه تكن أميره.

سُئل الحسن البصري رحمه الله تعالى: بمَ نلت هذا المقام؟ قال: (باستغنائي عن دنيا الناس وحاجتهم إلى علمي) ولو جاء وقت استغنى الناس فيه عن علم العالم، واحتاج هو إلى دنياهم، فقد سقط علمه.

المؤمن يعتقد يقيناً أنَّه مملوك لسيِّده ومالكه جلَّ جلاله فيتواضع لله ويتذلَّل بين يديه ويملك نفسه ويمنعها من الوقوع فيما حرَّمه المالك جلَّ جلاله.

القدير

ورد اسم (القدير) في القرآن الكريم وفي السّنّة النّبويّة، ففي القرآن ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾ [البقرة:٢٠].

وفي قوله تعالى: ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ٥٤﴾ [الروم:٥٤].

وفي قوله تعالى: ﴿۞عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧﴾ [الممتحنة:٧].

وورد أيضاً في أكثر من ثلاثين موضعاً في القرآن الكريم (إن الله على كلّ شيء قدير)، كقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦﴾ [آل عمران:٢٦].

وفي الحديث الشريف في قوله ﷺ: «لا إلهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؛ اللَّهُمَّ لا مانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ» [رواه البخاري ومسلم عن المغيرة بن شعبة].

من معاني اسم الله (القدير)

الله عز وجل قدير، وقدير صيغة مبالغة من اسم الفاعل قادر.وقد اشتقّ اسم (القدير) إمّا من التّقدير، وإمّا من القدرة، فالإنسان يكون عالماً، إذاً: عنده تقدير، و أحيانا يكون قويّاً إذاً: عنده قدرة، وأحياناً تلتقي مع إنسان بأعلى درجات العلم، لكنّه لا يملك أن ينفّذ ما يطمح إليه، وقد تجد إنساناً آخر في أعلى درجات القوّة، ولكن لا يعلم ماذا يفعل، فهو إمّا قوي لا يعلم، وإما عالم لا يقدر.

الإنسان قد يقدِّر إنساناً ولا يحبُّه، وقد يحبُّ إنساناً ولا يقدِّره، يكون الأب، وتكون الأم أحياناً بأعلى درجات الحبِّ، لكن لم يتح لها أن تكون مثقَّفة ثقافة عالية، لها ابن يحمل أعلى شهادة، يحبُّ أمَّه حبّاً لا حدود له، لكن في ميزان العلم لا وزن لها، وقد يلتقي مع عالم كبير لكنَّه لئيم، فيقدّر علمه، ولا يحبُّه، لكن الذات الإلهية بقدر ما تعظّمها فإنّك تحبُّها.

﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الرحمن:٧٨].

بالجلال تعظِّمه، وبالإكرام تحبُّه.

فالله عزَّ وجلَّ قدير، من التَّقدير، يعني أنَّه ذو علم، وقدير من القدرة، فبقدر ما تطمئنُّ إلى علمه فإنّك تطمئنُّ إلى قدرته.

للتقريب: طبيب يتفقّد مرضاه، وقف عند مريض، قرأ اللائحة الطّبيّة، رأى الضغط مرتفعاً، وهو طبيب، أعطى أمراً، وأمره نافذ، أن يوقفوا الملح في الطَّعام، فأمره نابع من سلطته، وقراءة التقرير نابعة من علمه أنَّ الضغط مرتفع، والضغطُ المرتفع خطر، فأعطى أمراً بمنعه من تناول الملح في وجباته الرئيسيّة.

الله عز وجل له قضاء وقدر، القضاء علم، والقدر تقدير، وهذا الاسم يدور مع الإنسان في كل شؤون حياته، الله عزَّ وجلَّ علم من إنسان كبراً، فهيَّأ له معالجة حكيمة، ووضعه في موقف مهين، وحينما يُهان يتألّم أشدَّ الألم، ثم يلقي في رُوعه أنَّ هذه الإهانة

بسبب الكِبر الذي يظهر منك، فالله عز وجل قدير يعلم، وقدير يملك القدرة كي يعيده إلى الصَّواب.

الله عزَّ وجلَّ مع عباده يعلم أحوالهم ويعالجهم، وكما يقول العوام: العين بصيرة واليد قصيرة، هذا شأن الإنسان، وقد يكون الإنسان قديراً، لكنَّه جاهل، قدير جاهل، متعلم ضعيف، لكنَّ الله قدير، قدير بعلمه، قدير بقوَّته.

إذا لُذت به فأنت في مأمن، وأنت في راحة، وأنت في طمأنينة.

إنّ أسماء الله كلَّها حسنى، وصفاته كلّها فضلى، والإنسان في أصل فطرته، مفطور على حبِّ القدير

طبيعة النَّفس تقتضي أنَّها لا تتَّجه إلّا لمن توقن أنَّه يعلم، ويقدر.

والله عزَّ وجلَّ إن تكلَّمت فهو يسمعك، وإن تحرَّكت فهو يراك، وإن أضمرت شيئاً فهو يعلمه، يسمعك إذا دعوتَه، ويراك إذا توجَّهتَ إليه، ويعلم سرَّك وجهرك، وفضلاً عن ذلك فالإنسان لا يتَّجه إلى جهة إلا إذا أيقن أنَّها تسمعه، وأنَّها قادرة على أن تلبِّيه.

لو أن إنساناً بحاجه إلى مبلغ ماليّ فإنّه لا يذهب إلى إنسان فقير مثله، لأنَّ هذا مضيعة للوقت، بل يذهب إلى من يغلب على ظنّه أنّه يملك مالاً يُقرضه.

وأنت أيّها المؤمن تدعو من يسمعك، وتدعو من هو قادر على حلِّ مشكلتك، وتدعو من يحبُّك، فالقويُّ الذي يعاديك لا تتَّجه إليه، بل تتَّجه إلى قويٍّ يريد أن يرحمك، فلمجرد أن تدعو الله عزَّ وجلّ فأنت مؤمن بوجوده، ومؤمن بسمعه وبصره وعلمه، ومؤمن بقدرته ومؤمن برحمته.

لذلك قال تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ [الفرقان:٧٧].

عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر:٦٠].

قَالَ: «الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ» [الترمذي].

تصوَّر شابّاً سيق إلى الخدمة الإلزاميّة، ووالده قائد الجيش، وفي الجيش عريف، ومساعد، وملازم، وملازم أول، ورائد، ومقدم، وعقيد، وعميد، كلُّ هذه الرُّتب مهما علت فهي تحت قبضة أبيه، فإذا هدَّده عريف فبكى فهو غبيٌّ جدّاً.

حينما يؤمن الإنسان بقدرة الله فأيّ قويٍّ هو في قبضة الله، كلُّ ما حولك بيد الله، كلُّ مَن حولك بيد الله، كلُّ مَن فوقك بيد الله، كلُّ مَن تحتك بيد الله، لا يمكن أن يُقبَل خوف وفزع، وهلع وانهيار مع الإيمان بالله، بل إنَّ الإيمان بالله أصلٌ في الصّحّة النّفسيّة، فالتّماسك والقوّة والمعنويّات المرتفعة، ومواجهة الأخطار بثبات، ورباطة جأش كلُّها تحتاج إلى الإيمان. الله عزَّ وجلَّ يريدك أن تثق به، يريدك أن تكون مطمئنّاً لقدرته ورعايته.

إذا توهَّم الإنسان توهُّماً أنَّ الله لا يعلم ما يجري فهٰذا يناقِض إيمانه بالله، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام:٥٩].

وإذا توهَّم أنَّ الله لا يقدر أن يدمِّر أعداءه فهو واهم، وهذا يناقِض إيمانه بالله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

وإذا توهَّم أنَّ الله لا يعنيه ما يجري في الأرض فهو واهم، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف:٨٤].

وإذا توهَّم أنَّ أعداء المسلمين يفعلون شيئاً ما أراده الله فهو واهم، لقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنفال:٥٩].

يجب أن تؤمن أنَّ الله يعلم، وهو قادر، ويعنيه ما يجري في الأرض، وهؤلاء أعداؤه لا يستطيعون أن يتحرَّكوا إلا بإذنه، ولن يتفلَّتوا من قبضته.

إذاً: هناك حكمة بالغة فيما يجري، ولصالح المسلمين، ولكن هذه نعمة من النّعم الباطنة، وليست نعمة ظاهرة، قال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:٢٠].

قدرة الله عزَّ وجلَّ مطلقة، تعلَّقت بكلِّ ممكن، فلو أنَّ الإنسان أصيب بمرض عُضال فيقين المؤمن أنَّ الله على كلِّ شيء قدير، ولو كان وحيداً وأعداؤه كُثُر.

﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء:٦١-٦٢].

سيِّدنا يونُس دخل إلى بطن الحوت، وفي البحر، وفي الليل: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨].

هل من مصيبة أكبر من أن يجد الإنسان نفسه فجأة في بطن حوت؟ وحينما عَقَّبَ الله تعالى على هذه القصة بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

قلبها إلى قانون، لئلا تتوهم أن هذه قصة قد وقعت ولن تتكرَّر، لئلا يغدو كتاب الله تاريخاً، فقد أراده الله قوانين ثابتة لكلِّ زمان ومكان.

وفي كثير من الآيات ورد اسم (القدير) مع اسم (العليم) لأنَّ العلم من لوازم القدرة.

جراح بيده مبضع، أهمّ شيء علمه، هنا عصب، هنا وريد، هنا شريان، فعلم الجرَّاح بخلق الإنسان يجعله قديراً على إنجاح العمليَّة.

والقدرة قد تكون عشوائيَّة، لكن إذا رافقها علمٌ فإنّها تغدو قدرة واعية، هذا في الإنسان، فكيف بالواحد الدّيّان.

لذلك أقول دائماً: إنَّ أمَّة قويَّة خطَّطت لبناء مجدها على أنقاض الشُّعوب، وبناء رخائها على إفقار الشُّعوب، وبناء قوَّتها على إضعاف الشُّعوب، وبناء غناها على إفقار الشُّعوب، وبناء عزَّتها على إذلال الشُّعوب، إنَّ هذه القوَّة الغاشمة نجاح خططها على المدى البعيد يتناقض مع وجود الله: «وَلا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ».

وفي الحديث الشّريف: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني منهما شيئًا أذقته عذابي ولا أبالي» [أخرجه أحمد، وأبو داود وابن ماجة عن أبي هريرة، ابن ماجة عن ابن عباس].

لذلك ورد في بعض الأحاديث: «فَمَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ أَنِّي ذُو قُدْرَةٍ عَلَى المَغْفِرَةِ فَاسْتَغْفَرَنِي غَفَرْتُ لَهُ وَلَا أُبَالِي» [الترمذي عن أبي ذر].

الأصل هو العلم، أن تعلم أنَّ أسماء الله كلّها حسنى، وأنَّ صفاته كلّها فضلى، هناك من يدعو: يا ربِّ لا نسألك ردَّ القضاء، ولكن نسألك اللطف فيه، وهذا الدّعاء فيه إشكال، بل قل: يا ربِّ اصرف عني البلاء كلَّه، اطلب من الله كلَّ شيء.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ [الأحزاب:٣٨].

القدر هو الفعل، والمقدور هو العلم، والله عز وجل عليم قدير.

الله عز وجل يعلم أن فلاناً من الناس مستقيم فيُقَدِّر له توفيقاً، ويطَّلع على إنسان كاذب فيقدِّر له علاجاً، فمجمل القضاء والقدر أنَّ الله يعلم، ويقدِّر لهذا الإنسان ما يناسبه.

وفي الحديث: «ولكل شيء حقيقة، وما بلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه» [أخرجه أحمد، والطبراني عن أبي الدرداء].

نصيب المؤمن من اسم الله (القدير)

اسم (القدير) يملأ النَّفس طمأنينة، وثقة بالله عزَّ وجلَّ.

هو (القدير) وشأن العبد أن يكون مفتقرا إلى الله عزَّ وجلَّ، وأن يعترف بضعفه أمام الله عزَّ وجلَّ.

فما لم يفتقر العبد إلى الله، وما لم يمرِّغ جبهته في أعتاب الله، وما لم يتذلَّل إلى الله فيما بينه وبين الله فلن يستطيع أن يأخذ من كمال الله جلّ جلاله.

ليس مع الإيمان مرض نفسيٌّ، وليس مع الإيمان إحباط، وليس مع الإيمان شعور بالإخفاق، وليس مع الإيمان يأس، هذه كلُّها أعراض الإعراض عن الله عزَّ وجلَّ، أمَّا المؤمن فيعلم علم اليقين أنَّ أمره كلَّه بيد الله، وأنَّ الخير كلَّه من عند الله، وأنَّه لا رافع،

ولا خافض، ولا مُعِزَّ، ولا مُذِلَّ إلا الله، وأنَّه لا معطي، ولا مانع إلا الله، والله عزَّ وجلَّ قبل أن يأمرك أن تعبده طمأنك، فقال: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣].

لا تحلُّ مشكلاتنا بأن نعلم أنَّ الله خالق السموات والأرض فحسب، لا تحل مشكلاتنا إلا بالإيمان بأنَّ الأمر كلَّه بيد الله.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف:٨٤].

﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الكهف:٢٦].

آيات التَّوحيد تملأ النَّفس طمأنينة، هو قدير، وأنت ضعيف، هو أقوى من أعدائك، أقوى من كلِّ قوَّة في الكون، هو خالق السَّماوات والأرض.

﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤].

لو أنَّك رأيت وحوشاً كاسرة جائعة مفترسة مخيفة، لكنَّها مربوطة بأزمَّة محكمة بيد جهة قويّة حكيمةٍ رحيمةٍ عادلةٍ، فعلاقتك ليست مع الوحوش، بل مع من يملكها، ويقدر على حمايتك منها، قال تعالى: ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود:٥٥-٥٦].

عندما يوحِّد الإنسان يمتلئ قلبه أمناً، وأماناً، وتفاؤلاً، وبشراً، الأمر بيد الله، ولا يُعقل ولا يُقبل أن يسلمك الله إلى غيره، ثم يأمرك أن تعبده.

وحينما يُشرك الإنسان يؤتى من مَأمَنِه، وأحياناً يتفوَّق طبيب باختصاصه تفوقًا كبيرًا، وقد يتوهَّم أنَّه لن يصاب بالأمراض التي اختصَّ فيها، فيصاب بمرض من صلب اختصاصه جزاء له على اعتداده بنفسه ونسيانه لربّه، وفي الحديث الشّريف أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ «لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ

المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ اللهمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ» [البخاري عن المغيرة بن شعبة].

لا ينجيك من الله أن تكون ذكياً، ولا أن تكون ذا خبرة عالية، لا ينجيك، من الله أن تكون لك جماعة إسلاميّة، لا ينجيك من الله خطة وضعتها بإحكام، بل ينجيك استقامتك على أمره وإحسانك إلى خلقه.

العليم

هذا الاسم ورد في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، وأول هذه المواضع في كتاب الله قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [البقرة:٣٢].

وقد ورد هذا الاسم مقترناً في الكتاب والسنة بأسماء كثيرة، ورد مع اسم السميع

ومع اسم الحكيم، ومع اسم العزيز، ومع اسم الحليم، ومع اسم الخلاق، ومع اسم القدير، ومع اسم الفتاح، ومع اسم القوي.

أما في السنة، فورد أيضاً في نصوص كثيرة منها ما رواه أبو داود من حديث أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «أعوذُ بِالله السَّميعِ العليمِ من الشَّيطانِ الرجيم، مِنَ هَمْزِهِ ونَفْخِهِ ونَفْثِهِ» [أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي عن أبي سعيد الخدري].

إن تكلم الإنسان فالله سميع، وإن تحرك فالله بصير، وإن أضمر شيئاً فالله عليم.

أقرب شيء إليك قلبك، وخواطرك، وسرّك، وباطنك، والله عز وجل يحول بينك وبين قلبك، وبينك وبين سرّك، وبينك وبين باطنك، بل هو أقرب إليك من حبل الوريد.

من معاني اسم الله (العليم)

«العليم» في اللغة من صيغ المبالغة، وهو على وزن (فعيل) من فعل علم، يعلم، ونقول: هذا الرجل عالم، وعليم، وعلّامة، وصيغ المبالغة تأتي بمعنى الكمّ، أو النوع، فأدقّ شيء الله به عليم، وكلّ شيء الله عزّ وجلّ به عليم.

تعريف العلم

العلم في أوضح تعاريفه: علاقة ثابتة بين شيئين، مقطوع بصحتها، تطابق الواقع، عليها دليل.

مقطوع بصحتها: أي ليست وهماً، ولا شكاً، ولا ظناً

تطابق الواقع: فإن لم تطابق الواقع فهي الجهل بعينه، من هو الجاهل؟

إذا تصورنا أن الإنسان وعاء، وعاء الجاهل ليس فارغاً، لكنّه ممتلئ بمعلومات خاطئة، فالجهل عدم مطابقة الواقع.

حينما يتألّق ضوء أحمر في لوحة البيانات في سيارتك، فإنّ الجهل أن تتوهمه تألقاً تزيينياً، والعلم يقول لك هو تألق تحذيريّ، فالذي يفهم التألّق على أنه تزييني جاهل، وهذه معلومة لكنّها غير صحيحة.

لذلك أخطر شيء في حياة الإنسان كما قال الواحد الديّان: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) ﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤].

طالب توهم أن المعلم قبل الامتحان بيومين وبهدية بسيطة سيعطيه الأسئلة، فما درس أبداً، هو يظن نفسه ذكياً وفالحاً بهذه الطريقة، قبل يومين طرق باب الأستاذ وقدم له الهدية، وطلب منه الأسئلة، فتلقى صفعة على وجهه.

عليها دليل: فإن لم يكن عليها دليل كان تقليداً.

هذا هو تعريف العلم، ونعود الآن إلى اسم العليم، فهناك أسماء الله تعالى يجوز أن يوصف بها الإنسان، من هذه الأسماء اسم «العليم» فسيدنا يوسف قال: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ۝٥٥﴾ [يوسف:٥٥].

وقد قال الله عنه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾ [يوسف:٦٨].

لكن كم هو الفرق بين علم الإنسان وعلم الواحد الديّان؟ شتان بين علم مقيّد محدود، وعلم مطلق بلا حدود، سبحانه وتعالى كامل في علمه، وطلاقة وصفه، علمه فوق كل علم، قال تعالى: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ۝٧٦﴾ [يوسف:٧٦].

فالله عز وجل عليم بما كان، وعليم بما يكون، وعليم بما سيكون، وعليم بما لم يكن لو كان كيف كان يكون، لم يزل عالماً، وعلمه أزليّ وأبديّ، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السّماء، أحاط علمه بجميع خلقه، أحاط علمه بجميع الأشياء، ظاهرها، وباطنها، دقيقها وجلّها.

أعظم كرامة كرامة العلم

الآن سأحدثكم عن حقيقة نحن في أمس الحاجة إليها: ما من مؤمن على وجه الأرض يخطِب ود الله بتوبة، بطاعة، بعمل صالح، بأداء عبادة، بتلاوة قرآن، بإطعام جائع، بإرشاد ضالّ، ما من عبد يخطِب ودّ الله عز وجل إلا كرّمه الله بكرامة، هناك كرامة تيسير، وهناك كرامة توفيق، وكرامة تأييد، و كرامة نصر، و كرامة انشراح صدر، وكرامة أمن، ولكنَّ أعظم كرامة على الإطلاق هي كرامة العلم.

طفل صغير عقب العيد جاء عمّه إلى البيت، قال له: يا عمي أنا أملك مبلغاً عظيماً، مئتي ليرة، كلمة عظيم حينما قالها طفل قدّرناها بمئتي ليرة، فإذا قال مسؤول كبير في دولة عظمى: أعددنا لهذه الحرب مبلغاً عظيماً، فإننا نقدره بمئتي مليار دولار، الكلمة نفسها، قالها طفل فقدّرناها بمئتي ليرة، وقالها مسؤول كبير في دولة عظمى

فقدّرناها بمئتي مليار دولار، فإذا قال ملك الملوك، ورب السماوات والأرض: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء:١١٣].

إذا سمح الله لك أن تتعرف إليه، إذا سمح الله لك أن تعرف أسماءه الحسنى، وصفاته الفضلى، إذا سمح الله لك أن تعرف سرّ وجودك، وغاية وجودك، إذا سمح الله لك أن تعرف حقيقة الدنيا، فإنك تكون بذلك قد حصلت كرامة من أفضل أنواع الكرامات.

أعطى الله عز وجل الملك لمن لا يحبه، ولمن يحبه، أعطى الملك لفرعون وهو لا يحبه، وأعطى الملك لسيدنا سليمان، وهو يحبه، أعطى المال لمن لا يحبه لقارون، وأعطى المال لمن يحبه لسيدنا عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، أما الأنبياء ماذا أعطاهم؟ قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص:١٤].

اسأل نفسك: هل نصيبك من الله من نوع نصيب الأقوياء، أم الأغنياء، أم الأنبياء؟

العلاقة بين اسمي العليم والقدير، واسمي العليم والشكور

هناك اسمان من أسماء الله الحسنى (العليم، القدير) إن تحققا استقمت على أمر الله، إذا أيقنت أن علمه يطولك، وأن قدرته تطولك، تستقيم على أمره، قد تركب مركبة والإشارة حمراء، وأنت مواطن عادي، والشرطي واقف، وقانون السير صارم، لا يمكن أن تخالف، لأن علم واضع قانون السير يطولك، وقدرته تطولك، إذاً لن تعصيه. قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق:١٢].

إذاً بمعرفة اسمي العليم والقدير تستقيم على أمره، وبمعرفة اسمي العليم والشكور تحسن إلى خلقه.

﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء:١٤٧].

هذا العمل الصالح، هذه الصدقة، هذه الخدمة، هذا العطاء يعلمه الله وسيشكرك عليه، إذاً تدفع، بالعلم والقدرة تستقيم، وبالعلم والشكر تحسن، فإذا استقمت وأحسنت حققت الهدف من وجودك.

الفرق بين علم الله تعالى وعلم الإنسان

لو أن رجلاً عبقرياً اخترع آلة فائقة، عظيمة النفع، وجاء من بعده أجيال ودرسوا هذه الآلة، وعرفوا دقائق صنعها، واكتشفوا العلاقات فيما بين أجزائها، واكتشفوا القوانين التي على أساسها بنيت هذه الآلة، علم الجيل اللاحق الذي بحث، ودرس، واستنبط يختلف اختلافاً كلياً عن علم العبقري الذي اخترع الآلة، علم المخترع سبق وجود الآلة، لكن علم الدارس جاء بعد وجود الآلة، وجاء استنباطاً من دقائقها. هذا المثل ضربه الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في كتابه (إحياء علوم الدين).

علم الله سابق للوجود، علم الله أصل للوجود، بينما علم البشر لاحق للوجود، بل هو مكتسب من الوجود، فرق كبير بين علم الله، وعلم خلقه، علمك أيها الإنسان مستنبط من الوجود، مستنبط من القواعد التي قعّدها الله عز وجل، مستنبط من القوانين التي قنّنها الله عز وجل، مكتسب من الخصائص التي خصّصها الله عز وجل، علم الله عز وجل أزليّ أبديّ، أما علمك فحادث وطارئ.

علم الله هو الذي وضع هذه القوانين، هو الذي خصّص هذه الأشياء بخصائصها، هو الذي سنّ هذه السنن.

من قنّن أن البذور لا بدّ منها لاستمرار الوجود؟ لو أن الله خلق مليار، مليار، مليار، طنّ من القمح وانتهى القمح، من أين للإنسان بالقمح؟ فكرة البذور من خلقها؟ فكرة الزواج والإنجاب من خلقها؟ نحن نستنبط لكن الله خلق، وقنّن، قعّد القواعد، سنّ السنن. فرق كبير بين أن توجد شيئاً من العدم، ومن غير مثال سابق، وبين أن تكتشف خصيصة في شيء موجود، من هنا نقول: إنّ الله عزّ وجلّ خلق كلّ شيء من لا شيء وعلى غير مثال سابق.

بل إننا إذا سمّينا الإنسان خالقاً فهذا من المجاز قال الله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون:١٤].

فإذ سميناه خالقاً تجاوزاً فهو صنع شيئاً من كلّ شيء وعلى أكثر من مثال سابق، فالغواصة صنعت تقليداً للسمكة، والطائرة صنعت تقليداً للطائر، بل هناك موسوعة علمية تتحدث عن الطيور فتقول: إن أعظم طائرة صنعها الإنسان لا ترقى إلى مستوى الطائر.

علم البشر لاحق للوجود، كسبي، وعلم الخالق سابق للوجود وسببي، العلم الإلهي سبب وجود الأشياء، تعلّق علمه بهذا الشيء، وتعلّقت إرادته، تعلّقت قدرته، فكان هذا الشيء.

الطائرة تحمل ثمانمئة راكب، ما الذي يحملها؟ إنه الهواء، ومن خلق الهواء وخصائصه؟ إنه العليم جلّ جلاله، أمّا الإنسان فقد صنع وفق خصائص الهواء طائرة، ووفق قوانين الماء باخرة.

حينما أنشأ مهندس قديماً جسراً، فلما جاء الصيف تصدع هذا الجسر، ذلك لأن الحديد تمدد، إذاً استنبطوا أن هذا الحديد يتمدد بالحرارة، واكتشفوا قانون التمدد بالحرارة، فصاروا في المراحل القادمة إذا أقاموا جسراً أو أنشؤوا بناءً يتركوا فواصل تمدد، فنقول: علم البشر كسبي وعلم الله قديم.

وضعوا وقوداً سائلاً في شاحنة، هذا الوقود خاص بالطائرات، فلما سارت هذه الشاحنة تحت الشمس المحرقة، اشتعل هذا الوقود بفعل الشمس المحرقة، إذاً هذا الوقود يمكن أن يشتعل دون أن تمسه النار بفعل حرارة الشمس الملتهبة، لذلك صنعوا لهذه الشاحنة التي تحمل الوقود السائل الخاص بالطائرات طبقة ثانية لتكون عازلاً لحرارة الشمس... فعلم البشر إذاً مكتسب...!

إنَّ كل حقيقة وصل الإنسان إليها، إنما هي عن طريق التجارب، وعن طريق الخطأ والصواب، وأكبر دليل أنك إذا دخلت معرض سيارات وتأملت سيارة صُنعت

عام ألف وتسعمئة واثني عشر، ووازنت بينها وبين سيارة صُنعت في عام ألفين وأربعة عشر، ترى البون شاسعاً؛ العجلات دون هواء، الإضاءة بالفوانيس، علبة تبديل السرعة غير موجودة، سرعة واحدة للمركبة، وازن بين مركبةٍ صُنعت قبل مئة عام تقريباً ومركبة صُنعت قبل عام، تتيقن أن علم البشر علم كسبي، ولكن علم الله أزلي.

إذاً فرق كبير بين أن تقول الله جل جلاله عليم، وفلان عليم.

من آثار اسم الله العليم في خلقه

الكون كله، والكون ما سوى الله أثر من آثار «العليم»، ولنأخذ جسم الإنسان وحده، لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات:٢١].

إنه أقرب آية إلينا، ويمكن من خلال جسم الإنسان أن تصل إلى ملايين الأدلة القاطعة على علم الله.

لو أن الواحد منا وضع على طرف أصبعه شيئاً من لعابه، ومسّ ملحاً، وجاء بمكبّر، هذه الذرّة من الملح تساوي حجم البويضة التي يُخلق منها الإنسان، والحوين المنوي أو النطفة أقل حجماً بكثير (واحد بالمئة من حجم البويضة) وفي اللقاء الزوجي يخرج من الزوج من ثلاثمئة إلى خمسمئة مليون حوين منويّ، وتحتاج البويضة إلى حوين واحد، كيف يدخل هذا الحوين إلى البويضة؟ في رأس الحوين مادة نبيلة مغلّفة بقشرة رقيقة، إذا اصطدم الحوين بالبويضة تتمزق القشرة، والمادة النبيلة تذيب جدار البويضة فيدخل، هذه البويضة تتكاثر إلى عشرة آلاف جزء، دون أن يزيد حجمها، لأنها تسير بقناة فالوب، فلو زاد حجمها لامتنع سيرها، ما الذي يحركها؟ في أرضية هذه القناة أشعار، تتحرك نحو الرحم، تنتقل هذه البويضة إلى الرحم، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور:٣٥].

إنها ذرّة بحجم ذرّة الملح ملقحة بحوين لا يرى بالعين، بعد تسعة أشهر تجد طفلاً، له رأس، وجمجمة، ودماغ، وشعر، وعينان، وأذنان، وأنف، وشفتان، ولسان،

ويدان، ومفاصل، وعظام، عضلات، وجلد، وقلب، وشرايين، وأوردة، ومعدة، وأمعاء، وكليتان، وكبد، وبنكرياس، ما هذا؟!

﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ ﴾ [لقمان:١١].

الدماغ يحوي مئة و أربعين مليار خلية سمراء استنادية لم تعرف وظيفتها بعد، مغطى بأربعة عشر ملياراً من الخلايا القشرية، في الدماغ المحاكمة، وفيه الذاكرة، في الدماغ مركز الرؤية، ومركز السمع، ولا يزال الدماغ عاجزاً عن فهم ذاته، ولم يستخدم معظم العباقرة من إمكانات الدماغ إلا جزءاً يسيراً.

أنت أيها الإنسان تتبدل خلاياك كل خمس سنوات تبدلاً كاملاً، جلدك يتبدل، شعرك يتبدل، عظامك تتبدل، عضلاتك تتبدل، أي شيء في الجسم يتبدل كل خمس سنوات، لأن أطول عمر خلية في الإنسان هي الخلية العظمية وعمرها خمس سنوات، وأقل خلية عمراً خلايا بطانة الأمعاء، وعمرها ثمان وأربعون ساعة، ولحكمة بالغةٍ لا تتبدّل خلايا الدماغ، ولو تبدلت لخسرت اختصاصك، وخبراتك، ومعارفك، وطاقاتك.

أما العين فآية أخرى تدل على العليم جل جلاله، القرنية طبقة شفافّة شفافيّة تامّة، ما السرّ في أن القرنية وحدها من بين كل خلايا الجسم تتغذى بطريقة خاصة، لو غُذيت بالطريقة العامة طريقة الأوعية لرأيت ضمن شبكة ولتعذّرت الرؤية الواضحة، القرنية وحدها تتغذى عن طريق الحلول، أي أن الخلية الأولى تأخذ غذاءها وغذاء جارتها، والغذاء يتسرب عبر الغشاء الخلوي، لولا هذا الاستثناء لما رأيت رؤية شفافة تماماً.

﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ ﴾ [النمل:٨٨].

العصب الشّمّيّ يتفرع إلى عشرين مليون عصب، وفي كل عصب سبعة أهداب، هذه الأهداب مغمسّة بمادة تتفاعل مع الرائحة، مِن تفاعل المادة مع الرائحة يتشكل شكل هندسي، هو رمز هذه الرائحة، هذا الشكل ينتقل إلى الدّماغ، إلى الذاكرة الشّمّيّة،

وفيها عشرة آلاف بند، يعرض هذا الرمز على هذه البنود بنداً بنداً فحيثما كان التطابق اكتشفت أن في الطعام نعنعاً مثلاً، من خلال الرائحة.

وأنت غارق في نومك، يجتمع اللعاب في فمك، تذهب رسالة إلى الدماغ، أن قد زاد اللعاب في الفم، فيأتي أمر من الدماغ للسان المزمار فيغلق فتحة التنفس، ويفتح فتحة المريء، فتبتلع لعابك، وأنت نائم، هذه الآلية من خلقها؟.

هيكلك العظمي فوقه عضلات، وتحته عضلات، وزن الهيكل العظمي مع العضلات التي فوقه تضغط على ما تحته، تحته يوجد عضلات وفيها أوعية دموية، الأوعية تنضغط فتضيق لمعتها، الإنسان وهو يقظ يشعر بالتنميل، ثم يفقد الحسّ، و سبب ذلك أن التروية ضعفت، وأنت غارق في النوم الأوعية ضُغطت، ضاقت لمعتها، قلت التروية، تذهب رسالة إلى الدّماغ، هناك مراكز إحساس بالضغط، يأتي الأمر فتتقلّب، بعد ربع ساعة يأتي أمر معاكس فتتقلّب، قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾ [الكهف:١٨].

تمشي في بستان، ترى ثعباناً، ما الذي يحصل؟ صورة الثعبان تنطبع على شبكية العين إحساساً، ثمّ تنتقل الصورة إلى الدماغ، إلى مركز الرؤية، في مركز الرؤية تُقرأ الصورة في ضوء ملفات الثعبان من أين جاءت هذه الملفات؟ من الدراسة، من قصص سمعتها، من مشاهدات شاهدتها، تتجمع هذه في ملف واحد أو مجلد واحد هو الثعبان، في ضوء هذه الملفات تقرأ هذه الصورة.

والدماغ يدرك الخطر، وهو ملك الجهاز العصبيّ، وله زميلة اسمها الغدّة النخامية، وهي ملكة الجهاز الهرمونيّ، يلتمس الدماغ وهو ملك الجهاز العصبيّ من الغدّة النخاميّة وهي ملكة الجهاز الهرموني أن تواجه هذا الخطر، هذه الملكة عندها وزير داخلية اسمه الكظر تأمره أن يواجه الخطر، فيرسل أمراً إلى القلب، فيرتفع النبض إلى مئة وثمانين نبضة، ويرسل أمراً آخر إلى الرئتين فيرتفع وجيبها، فالخائف يلهث،

ويصدر أمراً ثالثاً إلى الأوعية الدموية المحيطية فتضيق لمعتها، ليتوافر الدم إلى العضلات، فالخائف يصفرّ لونه.

ويرسل أمراً رابعاً إلى الكبد فيطلق كميّة سكر إضافية، فلو فحصنا دم الخائف لكان السكر فيه مرتفعاً.

وأمر خامس إلى الكبد ليفرز هرمون التجلّط، وهذا كله يتم في ثوانٍ معدودة، فالخائف يزداد نبض قلبه، ووجيبه رئتيه، ويصفرّ لونه، ويزداد السّكر في دمه، ويصبح دمه لزجاً.

الرحم يتقلّص قبل الولادة تقلصاً خفيفاً متزامناً لطيفاً، حتى يخرج الجنين من الرّحم، فإذا خرج تقلّص الرّحم تقلصاً حادّاً وقويّاً حتى يغلق آلاف الأوعية الدموية التي انقطعت، لو انعكس التقلّص فكان العنيف قبل الولادة، واللطيف بعد الولادة لماتت الأم وجنينها.

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠﴾ [عبس:٢٠].

بين الأذنين ثقب، والطفل في رحم أمه الدم ينتقل مباشرة من أذين إلى أذين وطريق الرئتين مغلق، لأنه لا يوجد هواء، بعد الولادة يفتح الطريق، تأتي جلطة تغلق هذا الثقب.

هذه ملامح من علم الله في خلق الإنسان فإذا قرأت أن الله عليم فالكون كله، والمخلوقات كلها أثر من آثار علم الله.

أشرف العلوم

وبعد، فها نحن بصدد سؤال يطرح نفسه: ما أشرف العلوم؟ أو كيف تكتسب العلوم شرفها؟

إذا كان عند أحد علم بطريقة كسر أقفال المحال، هل تحس أن هذا العلم شريف؟ لا، فهذا سارق.

إذا كان عنده علم بوسائل تزوير العملة، عنده أجهزة معقدة وآلات تصوير ملونة وورق خاص، ودرس هذا الفن، وعنده كتب وحضر دورات في هذا المجال، فهل تُعظِّمُ هذا العلم، تزوير العملة مثلاً؟!

فلان يعلم عن أمراض القلب أشياء كثيرة، لأن الناس بحاجة إليه، فأنت ترى أن هذا العلم مفيد، فهو أعلى، إذاً فمن أين يكتسب العلم شرفه؟ من شرف المعلوم، فكلما شرُف المعلوم شرُف العلم.

إذا كان عند أحد معلومات دقيقة عن المغنين والمغنيات، وعن أوقات استيقاظهم، وعن أوقات نومهم وعن مسَّاجهم، وعن أغذيتهم، وعن قضاء أيام عطلاتهم، فهل تحترمه؟!

أريد أن أؤكد أنه لا يرتفع العلم إلا إذا ارتفع المعلوم، إذا اعتمدنا هذا المبدأ فما هو أعظم العلوم؟ العلم بالله.

«فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه» [رواه الترمذي من حديث أبي سعيد].

تعلمنا الفيزياء والكيمياء والرياضيات والطب والهندسة والفيزيولوجيا والمورفولوجيا و... إلخ، وعرفنا الله، هذه كلها مخلوقات، والله هو الخالق، إذاً أشرف علمٍ أن تعرف الله؛ لأن شرف العلم من شرف المعلوم ولا موضوع للعلم أعظم من ذات الله عز وجل.

وبعد، فأن تعرف الطريق الموصل إلى الله، علم شريف، أن تعرف أمر الله، علم شريف، أن تعرف الأحكام الشرعية التي استنبطت من القرآن، علم شريف، أن تعرف أمراض القلب وكيف يسمو هذا القلب إلى ربه، هذا علم شريف، إذاً أشرف العلوم أن تعرف الله، ويليها في الدرجة العلوم الموصلة إلى الله، ثم العلوم المباحة التي تقدم النفع للإنسان.

ولتعلم من ثم أن في الكون حقيقة واحدة هي الله، وأي شيء يوصلك إليه فشرفه من شرف غايته، فإذا تعلمت العربية كي تفهم كلام الله بدقة، فشرف هذا العلم مقتبسٌ من شرف الهدف النبيل.

نتابع الموضوع: الإمام الغزالي قال: «هناك علم بالله، وعلم بأمره، وعلم بخلقه»، العلم بأمره وبخلقه علمان شأنهما كشأن أي علم، يحتاجان إلى مدارسة وكتب وإلقاء ودروس، وحقائق وحفظ وتذكّر، وهذه العلوم تبقى في الذاكرة، لكن العلم بالله له طبيعة أخرى، هذا العلم من أثره السمو بالنفس والارتقاء بها إلى الله، العلم بالله لا يأتي بالمدارسة، بل يأتي بالمجاهدة، ولا يبقى في الدماغ بل يسمو بالنفس، ثمنه باهظ ونتائجه باهرة جداً، إذاً العلم بالله أشرف العلوم.

الحديث عن علم الله في القرآن الكريم

أولاً: ورد العلم في القرآن بمعنى إثبات العلم لله، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [لقمان:٣٤].

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

تكلم شاب يوماً عند الشعبي بأمر فقال الشعبي: ما سمعنا بهذا، قال الشاب: كل العلم سمعت؟ قال الشعبي: لا، قال الشاب: فشطره؟ قال الشعبي: لا، فقال الشاب: فاجعل هذا في الشطر الذي لم تسمعه، فأفحم الشعبي.

فمن يحيط بالعلم؟ يظلّ المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل، إذا قلتَ: إني عالم فأنت جاهل، بكل تواضع، بكل صراحة، لذلك أنا أتمنى من الذين لهم رغبات علمية جامحة، ويحضرون مجالس علم، ويحرصون على فهم كلام الله وعلى فهم السنّة المطهرة، أتمنى عليهم إذا تحدثوا عن أنفسهم أن يقولوا: نحن طلاب علم، هكذا الأدب، ولقد سمعت هذه الكلمات من علماء كبار يقول أحدهم: «أنا طالب علم».

المحور الثاني: أن الله عالم قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (٢٥) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧)﴾ [الجن:٢٥-٢٧].

﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨)﴾ [فاطر:٣٨].

المحور الثالث: الله علاّم الغيوب، كلمة علاّم على وزن فعّال، صيغة مبالغة يعني: كثير العلم.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨)﴾ [التوبة:٧٨].

المحور الرابع: الأعلم: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا (٢١)﴾ [الكهف:٢١].

إذاً الله عز وجل أثبت العلم لذاته، ووصف نفسه بأنه عالم، وأنه علام، وأنه الأعلم.

أمية محمد ﷺ وسام شرف بحقه

رئيس جامعة من الجامعات، طُلب منه إحداث قسم دراسات عليا في كلية الشريعة فقال رئيس الجامعة: لماذا الدراسات العليا يا طلاب الشريعة ونبيّكم أميّ، فأجابه عميد الكلية: ولكنه يوحى إليه وحينما يوحى إلينا نستغني عن كل الجامعة، لذلك قال العلماء: الأمية صفة كمال في حق رسول الله ﷺ، وصفة نقص في حق غيره، إذا قلت عن إنسان: هو أميّ يعني أنه جاهل، أما إذا قلت عن النبي الكريم ﷺ: هو أميّ يعني أنه تنزه عن علم البشر، تنزه عن ثقافة عصره، تنزه عن معطيات الأرض، وعلّمه الله.

أحياناً يكون أحد الناس خريج جامعة فيتفاخر قائلا: أنا معي «بورد» من أمريكا، وفلان يقول: معه «إف. آر. إس» من إنكلترا، وآخر يقول: معه «أكريجيه» من السوربون، يعطيها اسماً مفخماً يمطها قليلاً، وبعضهم يفتخر بالأستاذ الذي علّمه، وأشرف على شهادته، فإذا افتخرنا بأن فلاناً أستاذنا، ونحن علّمَنا فلان، ونحن علّمْنا فلاناً، فإني أجلس إلى المثقفين الذين يفتخرون بأساتذتهم، فأقول: فمن علم النبي ﷺ؟! الله سبحانه وتعالى خالق الكون علّمه، فحسبه هذا العلم وذاك الشرف ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء:١١٣].

يـــا أيهـــا الأمـــي حســـبك رتبـــةً في العلـــم أنْ دانـــت لـــك العلـــماء

كذلك؛ يأتي إنسان عبقري ذكي جداً فيقتطف خمسين حديثاً من أحاديث رسول الله ﷺ يدرسها ويحللها ويدرس صياغتها، وبلاغتها، مضامينها، أبعادها، مدلولاتها، ثم يُمنح درجة الدكتوراه، فموضوع شهادته بل حجمها خمسون حديثاً من أحاديث رسول الله ﷺ، أصبح بعدها دكتوراً في الشريعة، يقول: أنا أحمل الدكتوراه، يكتب: دكتور في الشريعة، حتى يعرف الناس قدره.

إذاً: الأمية في حق رسول الله ﷺ كمال، وفي حق غيره نقص، قال الله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت:٤٨].

نصيب المؤمن من اسم العليم؟

قال أبو الجلد: أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء قل لقومك: ما بالكم تسترون الذنوب من خلقي وتظهرونها لي؟ إن كنتم ترون أني لا أراكم فأنتم مشركون بي، وإن كنتم ترون أني أراكم فَلِمَ تجعلوني أهون الناظرين إليكم؟!

وكان وهب بن الورد يقول: خف الله على قدر قدرته عليك، واستحي منه على قدر قربه منك، وقال له رجل: عظني! فقال: اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك.

وكان بعض السلف يقول: أتُراك ترحم مَن لَمْ تَقِرَّ عَيْنَيْهِ بمعصيتك حتَّى عَلِمَ أن لا عينَ تراه غيرَكَ، وقال بعضهم: ابن آدم إنْ كنتَ حيثُ ركبتَ المعصيةَ لم تَصْفُ لك من عَيْنٍ ناظرةٍ إليك، فلَمَّا خلوت بالله وحده صَفَتْ لك معصيتُه ولم تستحي منه حياءَك من بعض خلقه؟ ما أنت إلا أحدُ رجلين: إن كنتَ ظننت أنه لا يراك فقد كفرتَ، وإن كنتَ علمتَ أنه يراك فَلَمْ يَمْنَعْكَ منه ما منعَكَ مِن أضعفِ خلقه لقد اجترأت عليه.

إذا كنت لا تعلم أن الله يراك فهذا ضعف في الإيمان كبير، وإذا علمت أن الله يراك لِمَ جعلت الله عز وجل أهونَ الناظرين إليك، قال الله تعالى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [النساء:١٠٨].

لذلك: اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وقال بعض العلماء: «إنّ حال المراقبة أن تشعر أن الله معك دائماً، وهذا الشعور يورثك الخشية والاستقامة»، ونعود إلى آية طرحناها في هذا الدرس: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق:١٢] ولن تستقيم على أمره إلا إذا أيقنت أن علمه يطولك، وأن قدرته تطولك.

وأخيراً المراقبة: هي التعبد بأسمائه: الرقيب، الحفيظ، العليم، السميع، البصير، فمن عقل هذه الأسماء، وتعبّد بمقتضاها، حصلت له المراقبة.

الحكيم

هذا الاسم ورد في القرآن الكريم في كثير من الآيات، وفي كثير من الأحاديث الشريفة، قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة:١٢٩].

هذا الاسم، ورد مقترناً في أغلب المواضع باسم العزيز، كقوله تعالى: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ ﴾ [آل عمران:٦].

وقد ورد أيضاً مقترناً باسم الخبير، وكذلك باسم العليم والواسع.

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ ﴾ [النساء:١٣٠].

﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الفتح:١٩].

﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الممتحنة:١٠].

﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾ [يوسف:٦].

﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ ﴾ [هود:١].

﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝١٠ ﴾ [النور:١٠].

﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢ ﴾ [فصلت:٤٢].

﴿ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٥١ ﴾ [الشورى:٥١].

«الحكيم» جاءت وصفاً لقرآنه الكريم.

﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ ﴾ [يونس:١]

يعني نظم محكم، هناك إعجاز علمي، بلاغي، بياني، إخباري، تشريعي، يعجز البشر عن أن يأتوا بآية واحدة من آيات الله عز وجل.

أيضاً الحكمة قُرنت بكلمة الكتاب ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ [البقرة:١٢٩].

فإذا قرنت الحكمة بالكتاب فتعني سنة النبي ﷺ ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ القرآن ﴿ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ بيانه وتفصيله، من قبل المعصوم ﷺ.

أما في السّنّة ففي صحيح البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً إلى النبي ﷺ أن النبي ﷺ قال: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا كَمَا خُلِقُوا» ثُمَّ قَرَأَ ﴿ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٠٤ ﴾ [الأنبياء:١٠٤].

«وَأَوَّلُ مَنْ يُكْسَى مِنْ الخَلَائِقِ إِبْرَاهِيمُ وَيُؤْخَذُ مِنْ أَصْحَابِي بِرِجَالٍ ذَاتَ اليَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أَصْحَابِي فَيُقَالُ إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ فَأَقُولُ كَمَا قَالَ العَبْدُ الصَّالِحُ» ﴿ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١١٨ ﴾ [المائدة:١١٨].

من معاني اسم الله (الحكيم)

«الحكيم» في اللغة صيغة مبالغة، على وزن فعيل، بمعنى فاعل، يعني حكيم بمعنى مُحكِم، أحكم الصنعة أتقنها، والفعل حكم يحكم، حكماً، وحكومة.

و «الحكيم» يأتي على عدة معانٍ:

منها الإحاطة، فلان أحكم قبضته على هذا المشروع، أي سيطر عليه، وأحاط به علماً، الإحاطة والمنع، حكم الشيء منعه، وسيطر عليه وأحاط به، حكمة اللجام قطعة من الحديد تُوضَع في فم الحصان فتلجمه.

«الحكيم» الذي يحكم الأشياء، ويحسن دقائق الصناعات ويتقنها، حكيم في صنعته، صنعة متقنة جداً، يقول أحدهم: أحكمته التجارب، أي علمته التجارِب، فأصبحت خبراته متراكمة.

«الحكيم» هو الذي يُحكم الأمر، فيضبطه، ويقضي فيه، وأمره نافذ فيه.

«الحكيم» هو المدرك لدقائق الأمور، يبيّن الأسباب والنتائج.

«الحكيم» هو الحاكم؛ كأن تقول قدير بمعنى قادر، وعليم بمعنى عالم، واستحكم الرجل؛ أي ابتعد عن كل ما يضره في دنياه وآخرته.

الحكيم هو الذي يتنزّه عن فِعل ما لا ينبغي، يعني هو الذي يضع الشيء المناسب بالقَدر المناسب وفي الوقت المناسب وبالمكان المناسب، فهذا معنى الحكيم، إذ لا نستطيع أن ننطق بكلمة ولا حرف زيادة عما يجب، فأحياناً نضع الشيء المناسب ولكن بحجم غير مناسب، وأحياناً أخرى نضع الشيء المناسب بالقدر المناسب وفي وقتٍ غير مناسب، وكذلك أحياناً نضع الشيء المناسب بالقدر المناسب وفي الوقت المناسب وفي مكان غير مناسب، فالحكيم هو الذي يفعل ما ينبغي بالقدر الذي ينبغي وفي الوقت الذي ينبغي وبالمكان الذي ينبغي، فهذا هو الحكيم.

أما الله جل جلاله فهو «الحكيم» يعني أنه متصف بحكمة حقيقية، عائدة إليه، وقائمة به، كسائر صفاته، بحكمته: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الأعلى:٢-٣].

من آثار اسم الله (الحكيم) في خلقه

«الحكيم» هو المحكم لخلق الأشياء على مقتضى حكمته، لماذا جعل الله لنا عينين؟ لِمَ لم تكن عيناً واحدة، بالعين الواحدة ترى الطول والعرض، ترى السطوح ولا ترى الحجوم، أمّا بالعينين فترى البعد الثالث، ترى العمق، فمن حكمة الله عز وجل أنه جعل لنا عينين.

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ ﴾ [البلد:٨].

ومن الحكمة أن جعل لنا أذنين، بأذن واحدة لا تعرف جهة الصوت، أما بالأذنين فيأتي الصوت من جهة اليمين، فيدخل إلى الأذن اليمنى قبل اليسرى، بفارق يساوي ١/ ١٦٢٠ جزءاً من الثانية، فتدرك جهة الصوت.

«الحكيم» لم يجعل في أظافرك أعصاب حسّ، ولو جعل فيها أعصاب حس لاضطررت إلى عملية جراحية لقصّ الاظافر.

«الحكيم» جعل لك قلباً ينبض ذاتياً، ولو ترك النبض إليك فالنوم يعني الموت.

كل شيء في الكون يدل على حكمته جلّ جلاله، وأحد أكبر أسباب الإيمان بالله دليل الحكمة، الطفل الصغير فُتح ثقب بين أذنيه، وهو في رحم أمه اسمه ثقب بوتال، عند الولادة تأتي جلطة من «الحكيم» تغلق هذا الثقب، ولو لم تغلق لمات البشر بـ (داء الزرق)

الفم ليس فيه شعر، لكنّ الأنف فيه شعر، الشعر بالأنف ليصطاد المواد العالقة بالهواء، أما الشعر بالفم فيزعج في الطعام والشراب، الحديث عن الحكمة يحتاج إلى عمر مديد، أحد أكبر أدلة وجود الله عز وجل دليل الحكمة.

الماء ليس له لون، لو أن له لوناً للوّن كلّ أطعمتنا، لخرجنا من جلدنا من هذا اللون، لو أن له رائحة لكانت هذه الرائحة في كلّ ما نأكل، أيضاً لم نحتمل ذلك، ليس له لون، ولا طعم، ولا رائحة، شديد النفوذ، يتبخر بدرجة معينة، لا ينضغط، لو وضعت متر مكعب من الماء وفوقه وزن يزيد على مئة طن فإنه لا ينضغط ولا ميلي واحد، وهذا الماء إذا تمدّد ليس في الأرض قوة تقف في وجهه.

لذلك أحدث طريقة لاقتلاع الرخام أن تحفر أنفاق ضيّقة تملأ بالماء، ويبرّد الماء، فهذا التبريد يدفع هذه الكتلة من الصخر أن تنفصل عن أصل مكانها، خصائص الماء فيها حكمة بالغة، خصائص الهواء، الهواء يحمل بخار ماء، لولا أنه يحمل بخار ماء لما كانت أمطار، ولما كانت حياة.

الدم الذي تنبض به عروقك فيه ملح بنسبة سبعة بالألف إلى ثمانية، إذا قلّت النسبة عن هذا الرقم تنكمش الكريّات ويموت الإنسان، وإذا زادت تنفجر الكريات، من جعل نسبة الملح في الدم ثابتة؟ الفضل لله عز وجل، إذ إن الكلية إذا زادت نسبة الملح في الدم تفرز الزائد، وإذا قلّت تحتفظ وتدخر، فالكلية هي التي تَزِن السائل الدموي أو البلازما بميزان دقيق.

هناك هرمون التجلّط يفرزهُ الكبد، وهرمون التمييع، من إفراز الهرمونين معاً؟ ومن ثبات النسبة بينهما ثباتاً دقيقاً تنشأ ميوعة الدم وسيولته، وقد قيل: لو زاد هرمون التجلط على الحد الذي رسمه الله عز وجل لأصبح الدم كالوحل في الأوردة والشرايين ولمات الإنسان، ولو زادت نسبة هرمون التمييع على حدها الذي رسمه الله عز وجل لنزف دم الإنسان كله من جرح صغير.

لي صديق توفي رحمه الله تعالى، زرته في المشفى، فوجدت أمام فمه لصاقات طبية لا أبالغ قرابة ثمانية سنتمتر، فقلت: خيراً إن شاء الله، قال: عندي نقص في الصفائح الدموية، والصفائح الدموية تماماً مثل أحجار البناء، إذا حصل ثقب في البناء تسده، وهذا سببه رعاف أذهب معه الصفائح لديه، وكلما أزلت اللصاقات فالدم ينزف، إذ لم

يبقَ في دمه صفائح دموية، وفي الميلمتر المكعب عادةً سبع مئة الف صفيحة تقريباً، وهذه الصفائح تسد أي خرق في الأوعية.

إذاً: ما هذه الحِكمة؟ وهذه معلومات قديمة؛ وإخوتنا الأطباء الذين يدرسون حديثاً، يعرفون أشياء عجيبة، إنها حكمة الله الخالق البارئ.

إذاً: معنى الحكيم الذي أحسن كل شيء خلقه، هذا معنى قول الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾ [الملك:٣].

وبعد، انظر ترَ النملة في أكمل وضع، والذبابة بأكمل وضع، والفيل بأكمل وضع، والمجرّة بأكمل وضع، والذرة بأكمل وضع، وأي مخلوق بأكمل وضع هذا معنى الحكيم وهذا هو المعنى الأول، الحكيم المُحكم.

وتفسير هذا الاسم: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾ [السجدة:٧].

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار:٥-٨].

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين:٤].

هذا معنى الحكيم وسِرُّ الحكيم: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان:٢].

﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر:٤٩].

ويسألونك مثلاً: هل قست ضغط عينك؟ ما ضغط العين؟ إنه شيء متقن، إذ بالعين سائل، وهذا السائل لا بد أن يتجدد، فكيف يتجدد؟ يصب عليه مورد وله فتحة في أسفله، فإذا سُدت هذه الفتحة تحتقن العين، ويزداد ضغطها فتضيق لمعة الشرايين المغذية لها، وأطباء العيون يقيسون ضغط العين.

والدقة بالغة جداً، فلقد حدثني أخ طبيب؛ أنهم في أثناء عمليات القلب المفتوح يعطون بوتاسيوم بنسب دقيقة جداً فلو زادت لمات المريض فوراً، وقال لي: لو كنا نقوم بعملية لمريض وشخصت عيناه ومات فقد يقال: هناك خطأ بالبوتاسيوم، أو هناك شوارد بالدم.

إرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة

مقولة دقيقة عميقة قطعية تملأ القلب راحة، واستلاماً، وأمناً، وطمأنينة، كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمة الله متعلّقة بالخير المطلق.

إذ لا يليق أن يقع في ملك الله ما لا يريد، ومعنى أراده الله؛ أي سمح به، قد يسمح بوقوع شيء لحكمة بالغةٍ بالغة، مع أنه لم يأمر، ولم يرضَ، ومعنى الحكمة المطلقة أن الذي وقع لو لم يقع لكان الله ملوماً، وأن الذي وقع لو لم يقع لكان نقصاً في حكمة الله، فالشر المطلق لا وجود له في الكون، بل هو يتناقض مع وجود الله.

متى لا يكون الإنسان حكيماً؟ حينما يأتيه ضغط لا يحتمل، فيتكلم بكلام أو يتصرف بتصرف مناقض للحكمة، وقد يقع تحت إغراء شديد، فيفقد مع الإغراء الحكمة، وقد يكون جاهلاً فيفقد مع الجهل الحكمة، هل يمكن، أو يعقل، أو يقبل أن تكون الصفات صفة الإغراء الشديد، أو الضغط الشديد، أو الجهل، هذه الصفات هل يقبل عقل أن تنسحب على الله عز وجل؟ مستحيل!

إذاً الله عز وجل حكيم حكمة مطلقة.

يقول ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى: «الشريعة عدل كلها، حكمة كلها، مصلحة كلها، رحمة كلها، فأية قضية خرجت من الحكمة إلى خلافها، من المصلحة إلى المفسدة، من الرحمة إلى القسوة، من العدل إلى الجور، ليست من الشريعة، ولو أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل»، ما معنى الدين؟ الدين الذي تدين له النفوس، تخضع له الفطر، تستسلم له العقول، هذا دين الله.

الله عز وجل خالق السماوات والأرض، وكمال الخلق يدل على كمال التصرف فأي شيء لا تقبله الفطر السليمة، ولا العقول الراجحة، هو غير صحيح، لأن الحق دائرة تتقاطع فيها أربعة خطوط، خط النقل الصحيح، وخط العقل الصريح، وخط الفطرة السليمة، وخط الواقع الموضوعي، الحق ما جاء به النقل الصحيح، وليس الضعيف، وقبله العقل الصريح، وليس التبريري، وارتاحت له الفطرة السليمة، وليست المشوّهة، وأقره الواقع الموضوعي، وليس المزوّر هذا هو الحق.

الإنسان نسبي، لكن الله جلّ جلاله مطلق، بمعنى: قاض أصدر ألف حكم، خمسة أحكام ليست عادلة، هو عند الناس عادل، عن غير قصد، لكن في الأعم الأغلب هو قاضٍ عادل، أما الإله العظيم لو ظُلم في ملكه عصفور فليس عادلاً، عدله مطلق، رحمته مطلقة، حكمته مطلقة، فكل أسمائه حسنى، وكل صفاته فضلى.

أذكر قصصاً كثيرة: مدرسة رياضيات أرادت أن تتوظّف، وافقوا لها على عقد في بلد عربي، عُينت في بلدة، المديرة فرزتها لتدريس مادة التربية الإسلامية، اعترضت، لأنها مختصة بالرياضيات، قالت لها المديرة: إما أن تدرسي هذه المادة، وإما أن أُنهي عقدك، دخلت إلى الصف كي تدرس التربية الدينية، الدرس الذي ينبغي أن يُدرس عن حجاب المرأة المسلمة، وهي في الأصل ليست محجبة، قرأت الآيات، تأثرت، أين هي من هذا الحكم الشرعي؟ فبكت، ثم طلبت من الطالبات أن يعفينها من إلقاء الدرس وراجعت حساباتها، وكان هذا التكليف غير الحكيم من قبل المديرة سبب هدايتها، خطأ المديرة وظّف لمصلحة هذه المدرّسة.

فتاة نالت شهادة ثانوية وهي تبحث عن وظيفة، هناك مسابقة لوظيفة معلمة فتقدمت إليها، فطولبت بشهادة صحية فتوجهت إلى مستشفى حكومي لتفحص صدرها، فجاءت النتيجة أنها مصابة بمرض السل! بكت وبكت وبكى من حولها، ومن حولها خافوا من العدوى فابتعدوا عنها، وتركوها تأكل وحدها، وأعطوها أدوات خاصة بها، وتوجّسوا منها خيفة، وازدادت بهذه العزلة ألماً إلى أن قررت أن تتوب إلى

الله وأن تصلي وأن تتحجب، ثم راجع أخوها المستشفى بعد حين، فإذا هم يعتذرون إذ هذه النتيجة ليست لها بل لغيرها، فهي سليمة! خطأ الموظف، إذاً وظفه الله عز وجل كي تتوب هذه الفتاة.

كل واحد منا يعرف آلاف القصص، في حياته، بعلاقاته بمن حوله، بمشاهداته، من خلال أقربائه، لكن معظم هذه القصص يعرف آخر فصل فيها، القصة التي تعرف آخر فصل فيها لا معنى لها إطلاقاً، لكن كل واحد منا أيضاً عنده عدة قصص، من أول فصل إلى آخر فصل، هذه القصص القليلة التي يعرفها من أول فصل إلى آخر فصل تتبدّى فيها حكمة الله، ويتبدى فيها عدله، ورحمته، هذه القصص يمكن أن تروى، لكن كل القصص الأخرى كهذه لكن نحن لا تعرف المقدّمات، كلّ واحد منا في تعامله مع ربه يرى عدله المطلق، رحمته المطلقة، لكن الإنسان أحياناً يرى حادثاً في نهاية المطاف يا ترى ما الحكمة؟ لا يعلم، أما المؤمن شأنه في موضوع الحكمة أنه موقن يقيناً تاماً، قطعياً لحكمة الله، مع أنه قد لا يعرفها.

مرة شخص سألني أنه يوجد شخص جاء إلى السوق ليكسب رزق أولاده، سمع إطلاق رصاص مدّ رأسه فإذا برصاصة تصيب عموده الفقري، ويُشل فوراً، قال لي: ما الحكمة من هذا؟ قلت له: أنا موقن بحكمة الله، لكن لا أعرف تفسير هذا الذي حدث.

بعد عشرين يوماً إنسان من الإخوة الكرام قال لي: لنا جار يسكن فوقنا، اغتصب بيتاً لأولاد أخيه الأيتام، وبذلوا كل ما بوسعهم كي يسترجعوا البيت من عمهم، فرفض فاحتكموا إلى أحد علماء دمشق، واستدعاه، ورفض بوقاحة أن يرد البيت لأولاد أخيه الأيتام قال لهم هذا العالم: لا يليق بكم أن تشكو عمكم إلى القضاء، اشكوه إلى الله، هذا الحدث كان الساعة التاسعة مساءً هو نفسه الذي مدّ رأسه ليرى من أين أتى إطلاق الرصاص فجاءت رصاصة استقرت بعموده الفقري بعد اثنتي عشرة ساعة.

الإنسان المشاهِد يعجب من هذا الذي حدث، لكن لو تعمقت في هذه القصة، وفي فصولها الأولى لعرفت أن كل شيء وقع أراده الله، وأن كل شيء أراد الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

الله عز وجل يقول: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ ﴾ [إبراهيم:٤٢].

يوظف الله عنفهم وظلمهم للخير المطلق، والدليل: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [القصص:٤-٦].

إذاً الشرّ المطلق لا وجود له في الكون لأنه يتناقض مع الخير المطلق، لأنه يتناقض مع وجود الله، فالله عزّ وجلّ يوظّف شرّ البشر لصالح البشر، بل ما من طاغية يطغى، أو يسمح الله له أن يكون طاغية إلا ويوظّف الله طغيانه لخدمة دينه، ولخدمة المؤمنين دون أن يشعر، أو يريد، وبلا أجر، وبلا ثواب.

نصيب المؤمن من اسم الله (الحكيم)

الحقيقة أن الحكمة أكبر عطاء إلهي، أنت بالحكمة تسعد بزوجة من الدرجة الثانية، ومن دون حكمة تشقى بزوجة من الدرجة الأولى، أنت بالحكمة تتدبر معيشتك بدخل محدود، ومن دون حكمة تبدد الأموال الطائلة، أنت بالحكمة تقلب الأعداء إلى أصدقاء، ومن دون حكمة تجعل الأصدقاء أعداء.

لذلك قال تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [البقرة:٢٦٩].

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ [القصص:١٤].

ولقد اجتمعت مرةً مع شخص يحمل شهادة الدكتوراه في التربية والدكتوراه في العلوم الفيزيائية، فحسبته جمع المجد من طرفيه دكتوراه في التربية، ودكتوراه في العلوم الفيزيائية، وفي أثناء اللقاء أخبروني: أنه لا يصلي، وهو في الخمسين، والله الذي لا إله إلا هو سقط من عيني كما يسقط النجم إلى الأرض، أوَ كلُّ هذا العلم وأنتَ لا تصلي؟ فهذا الإله العظيم ألا يستحق أن تعبده؟

يقول الإمام الغزالي: «من عرف جميع الأشياء، ولم يعرف الله عز وجل لا يستحق أن يسمى حكيماً».

وأنا بدوري أُعبِّر عن هذا المعنى على النحو التالي: إن الذكاء ذكاءان، فذكاء جزئي وذكاء شمولي، فهذا من حيث الذكاء الجزئي طبيب متبحّر في العلوم دقيق الفهم لمّاح الحِكم، قوي الحافظة، ولكنه يعصي الله لأنه لم يُفكِّر فيما بعد الموت، ولأنه لم يفكر فيمن خلقه، ولأنه لم يفكر في منهج هذا الخالق العظيم، ولأن لم يطمح إلى مرضاة الله عز وجل، ولأنه لم يرَ عظمة الخلق ولم يرَ من خِلالها عظمة الخالق، فهو مدموغ بالغباء ولو كان من أذكى الأذكياء.

إذاً من الحقِّ أن نقول: هناك ذكاء جزئي يتعلق بالجزئيات، وهناك ذكاء شمولي يتعلق بالكليات، فمن غفل عن ربه وخرج عن منهجه وانغمس في الشهوات، ولو كان في اختصاصه في القمة، وفي فرعه العلمي في الأوج، ولو حصَّلَ أعلى الشهادات، فإن دمغة الغباء سمته الأولى.

الناس على ما هو معروف يهنِّئ بعضهم بعضاً دائماً، فتهنئةٌ بشراء منزل، وتهنئة بنيل منصب، وتهنئة بنيل شهادة علمية، وتهنئة بمولود، وتهنئة بزواج، وتهنئة بشراء مركبة، وتهنئة بسفرة ببعثة إلى خارج بلدك... أما أنا فوالله لا أرى أن كلمة التهنئة تقال على حقيقتها إلا إذا اصطلحتَ مع الله حقاً وصدقاً.

لذلك هناك عقل، وهناك ذكاء، الذكاء متعلق بالجزئيات، إنسان يحمل اختصاصاً نادراً، يحمل اختصاصاً في الفيزياء النووية، في الكيمياء العضوية، في الرياضيات الفلكية، اختصاصات نادرة، تدر على صاحبها أمولاً طائلة، فالذكاء متعلق بالاختصاصات المحدودة أما العقل متعلق بالكليّات.

قد تحمل أعلى شهادة، باختصاص نادر، لكن لأنك لا تصلي، لأنك لا تعرف الله، لأنك لا تعمل لآخرتك فلست عاقلاً، أقول أنت ذكي ولكن لست عاقلاً.

لذلك قالوا: ما كل ذكي بعاقل، تكون عاقلاً إذا عرفت الله، عرفت سر وجودك وغاية وجودك.

«رأس الحكمة مخافة الله تعالى»، إن لم تخف الله عز وجل فأنت لا تعرف من الحكمة شيئاً.

«الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني» [أحمد والترمذي وابن ماجه من حديث شداد بن أوس]، فالعاجز يعيش لحظته، ويعيش حظوظه، وميوله، ورغباته، أما الكيِّس فيعيش حياة ما بعد الموت، يُعِدُّ لها منذ الآن.

«ما قلَّ وكفى خير مما كثُر وألهى» [رواه أحمد في مسنده من حديث أبي الدرداء]، يعني ما يكفيه لا ما يطغيه، ولا ما يلهيه، أجل، ما يكفيه، إذ غاية كل حاجتك أن تكون صحيح البدن مكتفياً، تقطُن في بيت، الحاجات الأساسية فيه موفورة! هذا هو الغِنى، أما أن تفهم الغِنى أن يزداد الرقم الذي تملك، فهذا ليس هو الغِنى.

قال ﷺ: «من أصبح منكم آمناً في سربه معافى في بدنهِ عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها» [ابن ماجه والترمذي من حديث عبيد الله بن محصن الأنصاري].

كُن ورعاً تكن أعبدَ الناس، وكُن قَنِعاً تكن أشكر الناس، و«من حُسن إسلام المرء تركُهُ ما لا يعنيه» [ابن ماجه والترمذي من حديث أبي هريرة]، و«السعيد من وُعِظَ بغيره» [ابن ماجه من حديث عبدالله بن مسعود]، و«الصمت حِكَم وقليلٌ فاعِلُهُ» [البيهقي في شعب الإيمان، موقوف من قول لقمان

الحكيم]، و«القناعة كنز لا يفنى»، و«الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله» [البيهقي في الآداب مرفوعاً وموقوفاً عن عبدالله بن مسعود]، والحقيقة هذه الحِكم مبذولةٌ بين أيدينا، فيمكن أن تشتري كتاباً في الحديث الشريف، فتجد الحكم كلها فيه ولكن بين أن تقتني الكتاب وتقرؤه شيء، وأن تعيش هذه الحِكمة شيء آخر، البطولة أن تعيش هذه الحِكم، وأن تطبقها إلى واقع ومشاعر ومواقف وسلوك.

فالمؤمن الحق حكيم، ومن أين يستقي حِكمَتَهُ؟ من معرفته بالله... فإن كان لديك آلة معقدة جداً، ولديك تعليمات دقيقة عنها فأنت تكون حكيماً لو نفذت هذه التعليمات التي هي من عند الصانع، القضية سهلة جداً، وإذا قرأت القرآن وفهمته، وفهمت السنّة المطهرة فأنت بمجرد أن تُطبّق أمر الله عز وجل وأمرَ النبي ﷺ فأنت حكيم، فمثلاً، غضُّ البصر حكمة بالغة، فأنت إذ غضضتَ بصرك عن محارم الله فلا بد أن تبقى في حياتك امرأة واحدة وليس مسموح لك غير زوجتك والحكمة تقول: إنك تُقبل على هذه الزوجة إقبالاً يجعل الود بينكما متنامياً، فلو كانت لك منافذ أخرى لنشأت في البيت بعض المتاعب الزوجية.

وهناك نقطة مهمة جداً، وهي قاعدة في المنطق وهي: «الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به» فيمكن أن نأتي ببدوي ونعطيه سيارة من أحدث السيارات، وهو سائق ماهر، يتمتع بسرعتها وتكييفها وصوتها الناعم، وبكل ميزات هذا السيارة وهو لا يفقه شيئاً من أساليب صناعتها، واليوم صار عند كل الناس أجهزة متقدمة كثيرة، فالذي عنده مكيّف مثلاً هل يعرف مبدأ عمله؟ إنه يكتفي بأن يضغط المفتاح ثم يقول لك: تكيّفنا، والذي عنده براد هل يعرف مبدأ عمله؟ ومن يركب طائرة وهي خلاصة علم البشرية كلها؛ وكل من سافر فيها يقول لك: حلقنا على ارتفاع أربعين ألف قدم، وأكلنا طعاماً ساخناً، ورأينا الغيوم... فالانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به، فأنت لمجرد أن تطبق أمر الله عز وجل سواء أعرفت حكمتَه أم لم تعرف؟ أتعمقت في تحليلها أم لم تتعمق؟ تقطف ثمارها كلها، هذا الذي أريد أن أقوله لكم... أمَرَك بغض البصر

فأطعت، وأمَرَكَ أن تكون صادقاً، والحكمة كلها في الصدق، وكلما كنت صادقاً عند الناس ارتفع شأنك فشعرت بمكانة الرجل الصادق فأنت رأسُكَ مرفوع.

ذكرت قصة فيما سبق، فيها عبرةٌ بالغةٌ وهي أن سائق سيارة رأى امرأة ملفعة بعباءة فأشارت إليه فوقف، والسيارة من سيارات الأجرة طبعاً، قالت له: خذني إلى المكان الفلاني، وفي منتصف الطريق خلعت ما عليها، وأعطته مبلغاً بالعملة الصعبة كبيراً جداً، وقالت: خذه واقض حاجتي، أخذ المبلغ الضخم وقضى حاجتها وحاجته، وأعادها إلى مكان الانطلاق، وأعطته رسالة، فقرأها وصُدِم، إذ هنأته على أنه أصبح عضواً في نادي الإيدز، إنها مصابة بهذا المرض الخبيث، وتريد أن تنتقم من الناس جميعاً، ومعها عملة مزورة أيضاً، فذهب ليبدل هذا المبلغ بالعملة المحلية، فوقع تحت قبضة العدالة! فقولوا بربكم: أيمكن لمؤمن أن يقع في هذا الفخ؟ ذاك مستحيل، إنه يخاف من الله... ولا بد من صرفها بصورة من الصور.

فأنت حينما تُطبِّق أمر الله حكيم، دون لف أو مواربة أو تعقيدات، الله أمرني ألا أكذب فلا أكذب، وألا أغش فلا أغش، أما تحليلات الغش: فهناك قانون اقتصادي، تروج به الدول الغنية بضاعتها فتعطي قروضاً للدول الفقيرة حتى ينشأ عندها قوة شرائية، ثم بعد ذلك تقع تلك الدولة تحت نير الديون للدول الكبرى فتستغلها أبشع استغلال، لكن المسلم عندما يؤدي زكاة ماله، وكل غني يؤدي زكاة ماله كذلك، فينفرج الفقير ويصير ذا مال ويتمكن من أن يشتري قميصاً وبزّة وحذاء وحاجات زائدة وسيوسع على أهل بيته، دون أن يبتز أحداً أو يحمل أحداً ديوناً، ومن جهة أخرى عندما دفعت زكاة مالك قطفت كل ثمار الزكاة، فالفقير صار بخير وأنت بخير، ونلت ثواب الله الجزيل.

إذاً مَن هو الحكيم؟ هو الذي طبّق تعليمات الصانع، هذا هو الحكيم.

أحياناً يكون له موقف ليس فيه تعليمات، إذ ينشأ ظرف ليس فيه نص آية ولا حديث حول هذا الموقف العارض، فالحكمة تأتيك إلهاماً من الله. إذاً إما أن تكون الحكمة في أساسها نصاً قرآنياً أو حديثاً نبوياً تُطبِّقُهُ فتغدو حكيماً، وإما أن تكون الحكمة

إلهاماً يُلقى في قلبك، لأنك تطلب رضاء الله عز وجل، وتتكلم الكلام المناسب في الوقت المناسب، مع من يناسبُ في المكان المناسب: تعطي وتمنع، وتغضب وترضى، وتصالح أو لا تصالح، فهذه المواقف المتجددة والتي ليس لها بين النصوص نص واضح معلق بها، تصل من الملائكة حينما يلقون في روع الإنسان بعض الإلهامات، قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [القصص:٧].

هذا وحيُ إلهام وليس بوحي رسالة، فأحياناً يقول لك: لمَ ذهبت وأنت لا تعرف؟ فالله عز وجل يسوق لك الخير الكثير من حيث لا تدري، أو يرد عنك أذىً أو شراً من حيث لا تدري أيضاً، فهذه هي الحكمة، فكن مع الله دائماً، فإن واجهت موقفاً فالله عز وجل يُلهِمُكَ الصواب، وهذا عين دعاء الصديق: «اللهم أرني الحق حقاً وارزقني اتباعه، وأرني الباطل باطلاً وارزقني اجتنابه».

إذاً أنت تكون حكيماً باتباع أمر الله وأمر النبي ﷺ، وحينما تشعر بانقباض أو انشراح فهذا نوع من إلهام الله عز وجل لك، والإنسان كلما كان أكثر إيماناً كان أكثر حكمةً، والنبي ﷺ كانت حكمته من أعلى مستوى، لأنه قريب مباشرة من الله عز وجل، ومن الناس من يمشي في طريق مليءٍ بالحفر والأكمات، والحشرات المؤذية، وعلى جانبيه أشجار ثمارها يانعة، فلو أن لديه مصباحاً كاشفاً فهل يمكن أن يخطئ؟ لا إذ بالمصباح الكاشف يرى الحفرة فيتجنبها، ويرى الأكمة فيبتعد عنها، ويرى الثمرة فيأكلها، ويرى الحشرة فيقتلها، فمن أين يأتي الحمق؟ من العمى. قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج:٤٦].

إني لأرى أحياناً أن إنساناً ما يطلّق زوجته بحُمق، وبلا أسباب موجبة في ساعة غضب، وهذا عمى حقاً، فإذاً الحمق أساسه العَمَى وهو يُردي، والحكمة أساسها البصيرة في القلب، ونتائجها لا تردي: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا

﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه:١٢٤-١٢٦].

كان أعمى في الدنيا، فنسي أمر الله فآل إلى زوايا النسيان والإهمال، أما نحن -المؤمنين- فحكمتُنا في اتباع القرآن الكريم، وفي اتّباع السّنّة المطهّرة، وكلما كنّا أكثر إخلاصاً وأكثر ورعاً واستقامةً ألهمنا الله رشدنا.

الحكمة أيضاً جعلت أسلوباً في الدعوة إلى الله.

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ ﴾ [النحل:١٢٥].

يجب أن يكون كلامك حسناً، لأنه دعوة إلى الله.

النبي ﷺ أوتي الوحي، أوتي القرآن، أوتي المعجزات، أوتي الفصاحة، أوتي جمال الصورة، أوتي كل شيء، ومع ذلك يقول الله له أنت أنت يا محمد، على كل هذه الخصائص ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران:١٥٩].

وتجد إنساناً ليس نبيّاً، ولا رسولاً، ولم يؤتَ القرآن، ولم يؤتَ الوحي، ولم يؤتَ المعجزات، وليس فصيحاً، وليس جميل الصورة، ومع ذلك في دعوته غلظة وفظاظة!

فالمؤمن حكيم، والمؤمن يفعل الشيء المناسب في الوقت المناسب، في المكان المناسب، مع الشخص المناسب، فأي مؤمن اتصل بالله عز وجل يشتق منه الحكمة، وكل إنسان طبق تعليمات الصانع يعد حكيماً، وكل إنسان أطاع الله يعد حكيماً، وكل إنسان توجه إلى الله يعد حكيماً، وكل إنسان عمل لآخرته يعد حكيماً، نسأل الله جل جلاله أن يرزقنا الحكمة.

التواب

ورد هذا الاسم في القرآن الكريم في ستة مواضع معرّفاً بـ (الـ) كما في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة:٣٧].

وقد ورد أيضاً في ستة مواضع، منوناً، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [النور:١٠].

أما في السنة فالنبي ﷺ كان يدعو ويقول: «رب اغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم» [الترمذي و ابن ماجه عن عبد الله بن عمر].

من معاني (التواب)

«التوّاب» في اللغة من صيغ المبالغة، على وزن (فعّال) وصيغ المبالغة في أسماء الله الحسنى، تعني الكم والنوع، فهو جل جلاله يغفر جميع الذنوب كماً، ويغفر أكبر الذنوب نوعاً.

واسم التوّاب من فعل تاب يتوب توبة وتوباً يعني رجع، وآبَ بمعنى رجع، وأنابَ بمعنى رجع، وثابَ بمعنى رجع. تقول: ثابَ إلى رُشده. أي: رجع إلى رُشدِه،

وأنابَ إلى ربه وتابَ، أي: رجع، وآبَ، أيّ: رجع، كلُّ هذه الأفعال بمعنى رجع، إذا قلنا: الله تواب، أي: يعود على عباده بالخيرات، ويعود على عباده بالإحسان، ويعود على عباده بالرحمة وبالغفران

أما تعريف التوبة اللغوي فهو: الرجوع عن الشيء إلى غيره، بل هو ترك الذنب على أجمل وجه، وهو أبلغ وجه من وجوه الاعتذار، فالاعتذار على ثلاثة أوجه، عملت عملاً، إما أن تقول لم أفعل هذا، هذا اعتذار، الرواية التي بلغتك ليست صحيحة، لم أفعل هذا، من هنا قال الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجرات:٦].

أو أن تقول: فعلته، ولكن كان قصدي شريفاً، لم أقصد المعنى الذي توهمته، هذا وجه آخر والوجه الثالث تقول فعلت، وأسأت، وقد أقلعت عن هذا الذنب، هذا هو الاعتذار الأسلم، هذه هي التوبة، أن تقول: فعلت، وأسأت، ولن أعود إلى هذا العمل.

أمّا التائب فهو المذنب الذي يسأل ربه التوبة، والتائب هو الله الذي يقبل التوبة، نقول هذا الإنسان المذنب تائب، وهذا الإله العظيم توّاب، أي قَبِل التوبة.

والتوبة مخرج النجاة للإنسان حينما تحيط به خطيئاته. وهي تصحيح المسار، حينما تضله أهواؤه وهي حبل الله المتين، حينما تغرقه زلاته. وهي الصراط المستقيم حينما تنحرف به شهواته.

مخرج النجاة الوحيد هو التوبة، والتوبة هي صمام الأمان.

بعض الأوعية البخارية لها صمام أمان، فإذا ارتفع الضغط كثيراً بدل أن تنفجر هذا الصمام يزيح، والبخار يخرج.

عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي وَالله لله أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالفَلَاةِ وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ

شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ».

التواب يعامل عباده بأعلى درجات الرحمة

يمكن أن تُفتح مدرسة وتكون أنت مديرها، وأن يُسجل الطلاب فيها، وأن يوضع لهذه الثانوية نظام داخلي دقيق جداً، وأن تستقبل الطلاب، وأن تُلقى المحاضرات، وأن تُجرى المذاكرات، وأن تعين مواعيد الفحوص، وأن تُجرى الفحوص، وأن ينجح من يستحق النجاح، ويرسب من يستحق الرسوب، وأنت في أعلى درجات العدل؛ فإذا طلبت علامات الطلاب من مدرسيهم بعدَ شهر من بدء العام، وتابعت المُقصّر، وجئت به، ونصحته فلم يرعَوِ؛ فهددته، وأحضرت وليّه، وضغطت عليه إلى أن غيّر خطته، وضاعف جهوده فإذا هو من الناجحين فأنت الآن في أعلى درجات الرّحمة؛ لكنك لو أهملت هذا الطالب وعاملته وفق النظام الداخلي، فأنت في أعلى درجات العدل، أما إذا تتبعت أحواله وقبل فوات الأوان، ووجّهته ونصحته وضغطت عليه حتى غير أسلوبه، وضاعف جهده فاستحق النجاح فأنت الآن في أعلى درجات الرحمة.

يمكن أن تُرسل ابنك إلى بلدٍ غربي وأن تُعطيه المبلغ الذي يلزمه، وأن تُهمل أخباره، ثم بعد أربع سنوات تفاجأ بأنه قد ضيّع هذا المال على شهواته وأنه لم يدرس أبداً، وعاد بخُفي حنين، فتقول له: يا بني أنا بذلت من أجلك كل شيء، وأعطيتك هذا المبلغ الضخم وضيّعتَه، فأنت في أعلى درجات العدل، ولكنك إذا تتبعت أخباره، وذهبت إليه تارةً واستقدمته تارةً، وقلّلت المصروف تارةً، وهددته تارةً، ورغّبته تارةً، وشجعته تارةً، حتى عاد إليك بعد أربع سنوات وهو يحمل درجة الإجازة فقد عاملته مع العدل بأعلى درجات الرحمة.

قد تعيّن موظفاً تحت التدريب مدة ستة أشهر، فيمكن أن تراقبه فقط فكلما أخطأ سجلتها عليه خطيئة، حتى يصبح حجم أخطائه لا يحتمل فتفصله وأنت في بحبوحة، لأن هذا الفصل كان ضمن مدة الأشهر، فأنت ماذا فعلت؟ عاملته وفق قيم العدل،

فالعقد: ستة أشهر، تحت المراقبة والتجريب؛ ولكنك إذا أردت أن تعامل هذا الموظف بالرحمة، فكلما أخطأ تقول له: لا، هذا لا يصح، وهذا هو الصحيح، فإذا هو يستقيم شيئاً فشيئاً، وبعد حين يعجبك وتتمسك به، شتان بين أن تعامل من حولك بالعدل، وأن تعاملهم فوق العدل بالرحمة.

فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ومنحه العقل، وجعل الكون نعمةً، كلُّ ما فيه يدل على أسمائه الحسنى، وأعطاه العقل، وركّب فيه الفطرة، وزوّده بالشرع، وخيّره وأودع فيه الشهوات، وأعطاه قوّة، فلو تركه إلى أن يأتي أجَلُهُ، فإذا هو من أهل النار. فقد عامله عزّ وجلّ عامله بالعدل، لكنّه لما كان في مقتبل حياته لو أنه اتجه إلى أن يسرق فأدبه الله عز وجل وخوّفَهُ تارةً وأدبه تارةً وضيّق عليه تارةً وجمعهُ مع أهل الحق تارةً، وقبضه تارةً، وشرح صدره أخرى، إلى أن صلح أمر هذا الإنسان وصار من أهل الجِنان، كيف عامله الله عزّ وجلّ؟ بالرّحمة، والمتابعة، الله معك في كل خطراتك، معك في كل حركاتك، معك في كل تصوراتك، معك في كل طموحاتك، معك في سرِّك، معك في جهرك، معك في خلوتك، معك في جلوتك، معك في كل حال من أحوالك، وكل شأن أنت فيه هو معك، وله شأن، كل شأن أنت فيه فلله معك شأن يقابله؛ إن كان شأنك الإعراض فشأنه التأديب، وإن كان شأنك الإقبال، فشأنه التجلّي، وإن كان شأنك العدوان، فشأنه العقاب؛ وإن كان شأنُك الإحسان؛ فشأنه الإكرام، أي: المتابعة، فأنتَ لن تكون رحيماً إلا إذا تابعت من حولك المتابعة اليومية، حتى في الدعوة إلى الله عز وجل، فهناك عالم وهناك مربٍ، فالعالم يُلقي الدرس وانتهى الأمر لا يعنيه المجتهد ولا مَنْ فهم، ولا من استوعب، ولا من لم يستوعب، ولا من طبّق، ولا من لم يُطبق، ولا من تقدّم، ولا من تأخر، ولا من حضر ولا من غاب، ألقى الدرس وانتهى الأمر، فهذا اسمه في عالم التدريس معلّم، لكنَّ المُربي هو الذي يتابع، وذات يوم سألني سائل: فقال إنك تحدثنا عن علم الشريعة وعن علم الطريقة، وعن علم الحقيقة، فالأمر واضح تماماً عندي بين علم الشريعة وعلم الطريقة، ولكن ليس لدي الوضوح الكامل بين علم الطريقة وعلم الحقيقة؟

أردت أن أشرح له فشعرت أن الموضوع دقيق جداً، فأُلهمتُ مثلاً طَرِبَ له، قلت: جبل شامخ فيه تِلال ووديان ومسارب ومداخل، وفي قمته قصر منيف فيه كل شيء تشتهيه النفس، هناك علماء ثلاثة: عالمٌ يُبيّن لك أن في هذا القصر ثلاثمئة غرفة وفيه أبهاء مدفَّأة وفيه تكييف، وفيه من أنواع الطعام ما لذّ وطاب، وفيه حدائق وغرف نوم وثيرة، فهذا العالم يبين لكَ ما في القصر فهذا عالم الشريعة، وقد قال لك: القصر مُدفأ وأنت تشعر بالبرد، فيه طعام نفيس وأنت جائع، والقصر فيه راحة تامة وأنت متعب.

أما عالم الطريقة فهو يعرف طريقاً لهذا القصر من أين تذهب، وفي أي مركبة تركب؟ وكيف تقدم الوثائق عند الحواجز وكيف تصل إلى هذا القصر؟ يبين لكَ طريق الوصول إليه، وأنت واقف في مكانك، لكنَّ عالِم الحقيقة هو الذي يأخذ بيدك ويُدخلك إلى القصر.

كلُّ النعيم وكلُّ الدفء، وكلُّ الطعام الطيب، وكلُّ الفرش الوثيرة، وكلُّ الأمن، وكلُّ المناظر الجميلة، وكلُّ النباتات الرائعة، وكلّ الفواكه الطيبة، كلها في هذا القصر، والذي يأخُذ بيدك ويدخلك إلى هذا القصر، هو المربيّ، والذي يصفُ لكَ الطريق إليه، هو عالم الطريقة، والذي يصف لكَ القصر وما فيه وأنت في مكانك؛ هو عالِم الشريعة، فإذا أردنا ان نبقى في مصطلحات الإسلام فهناك إسلام، وهناك إيمان، وهناك إحسان.

الإحسان أن تدخل لهذا القصر، وأن تستمع بما فيه، وفي الحقيقة هو الهدف الأخير وهو المعول عليه. فالله عزَّ وجل خلقنا للجنة وخلقنا لسعادة أبدية:

﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود:١١٩].

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات:٥٦].

هذا هو الهدف، فمن الممكن أن تُخلق للجنّة، وأن يُعطيك الله العقل والفِطرة، والاختيار والشهوة، والكون والقوة والتشريع، وانتهى الأمر، ترى إنساناً يمشي في طريق متعرّج، في طريق العدوان، في طريق الانغماس في الملذات متنكراً للمنهج الإلهي،

فهذا ينتهي به المصير إلى جهنم، لكن ما الذي يحصل؟ إنَّ ربنا عز وجل لا يدعه هكذا؛ بل يتدخل، يلفت نظره ويُسمعه الحق، فإن لم يستجب فإنه يَسوق له بعض الشدائد فيما بينه وبينه، فإن لم يستجب يرفع مستوى الشدَّة، وسماه الله عذاباً صُعَداً.

والطبيب أحياناً يصف دواءً بمستوى مئتين وخمسين وحدة، فإن لم يستفد المريض يغيره إلى مستوى خمسمئة، فإن لم يستفد تصبح سبعمئة وخمسين، ثم تصبح ألفاً، كلما كان تأثير الدواء ضعيفاً رفع الطبيب مستواه.

توبة العبد بين توبتين من الله تعالى:

توبة العبد إلى ربه تسبقها توبة من الله وتعقبها توبة، فأما التي تسبقها فهي أنه جلّ جلاله فتح لك باب التوبة، وقد يسوق لك من الشدائد ما يدفعك إلى التوبة دفعاً، وأما التوبة التي تعقب توبة العبد فهي أنّه جلّ جلاله يقبل توبتك ويثيبك ويثبّتك عليها.

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة:١١٨].

فما معنى تابَ عليهم؟ تابَ عليهم يعني أنه ساقَ لهم من الشدائد كي يحمِلَهُم على التوبة، فلو تركهم هملاً، وأمدّهم بصحةٍ جيدة وبأموالٍ كثيرة وأمطارٍ غزيرة وبلادٍ جميلة وهم غارقون في شهواتهم، في ملاهيهم، في أفراحهم، في نواديهم، في سُكرهم وانحرافهم في كل الملذات، فلو أن الله عز وجل تركهم هكذا فهو ليس تواباً، ولكن يسوق لهم من الشدائد ليتوب عليهم.

أعرف رجلاً رَبِحَ أرباحاً طائلة، وأراد أن يمتّع نفسه فأزمعَ السفر إلى أمريكا، وكأنه يتمنى أن يفعل فيها ما يشتهيه، وأن يغرق في بحر المعاصي، وهناك شعر بألم شديد في ظهره فتوجه إلى مستشفى، وصوَّر عموده الفقري، فكانت نتيجة التشخيص؛ ورماً خبيثاً في النخاع الشوكي، سمعت من أخيه تتمة الخبر بأنه لم تقوَ قدماه على حمله حينما سمع الخبر، قطع رحلته وعاد إلى الشام ومن مسجد إلى مسجد ومن مجلس علم إلى مجلس إلى أن تاب إلى الله توبةً نصوحاً.

هذا الذي ساقه الله إليه حمله على التوبة، فلو أنه تركه هكذا بصحة جيدة، وقوة ومال وغِنى، وعاد من نزهته الجميلة بعد شهرين أو ثلاثة ليُتابع عمله التجاري، وليُعيد الكرّة في العام القادم إلى أوروبا وهكذا... حتى مات... لكان غير كريم على الله.

أعرف رجلاً ذكياً جداً، لكنه يتفنن بالسخرية من الدين ومن علماء الدين، يعدّ الدين كلَّه خُرافة، فابتلي فجأة بحالةٍ مرضية، وفجأة رأيته في حالة على غير ما أعرفه بها، وهي حالة إنابة، فلما سألته عن حاله قال: أنا وزوجتي منذ سنة تُبنا إلى الله توبةً نصوحاً، وتحجَّبت زوجتي، واستقمْنا على أمر الله، وأنا أحضر عندك في المسجد مجالس العلم منذ ستة أشهر، فرحت له وبه فرحاً شديداً، ثم سألته: ما السبب؟ فقال: لي ابنة أصيبت بمرض خبيث في دمها، وكنت أحبها حبّاً جمّاً، وما زلت أعالجها في هذا البلد وذاك البلد حتى اضطررت إلى بيع بيتي، وفي نهاية المطاف راودني خاطر: أنك لو تبت إلى الله أنت وزوجتك لعلَّ الله يشفيها، فتابا إلى الله وشفاها الله عز وجل، وقبل سنة دُعيت إلى حفل عقد قران ألقيت كلمة في هذا الحفل، وقلت له: أهي هي؟ قال: هي هي.

والله أيها الإخوة القراء: كل حادثة أو واقعة أسمعها أحِسُّ أنَّ رحمة الله عز وجل لا حدود لها، فلو ترك العباد على معاصيهم وانحرافاتهم وشرودهم عن الله عز وجل وانغماسهم في الملذات وأكلِهم المالَ الحرام وتطاولهم على الحقّ، فلو تركهم هكذا لاستحقوا النّار ولأُدخلوها ولكنّه يرحمهم، ومعنى ذلك أنه يتوب عليهم، أي: يسوق لهم من الشدائد ما يحمِلُهم به على التوبة.

هناك رجل همُّه الوحيد أن يُفسد عقائد المؤمنين، وهو يؤمن في كل كُرية في دمه أنه (لا إله)، وأنّ كلّ شيء متعلق بالدين خرافة بخرافة، وهو يجهد في إفساد عقيدة كلّ مؤمن، جاءته بنت صغيرة وأحبّها حبّاً لا حدود له، ارتفعت حرارتها، أخذها إلى الطبيب ووصف لها الدواء وبقيت حرارتها مرتفعة، ومن طبيب إلى طبيب إلى أن قال له أحد الأطباء الكبار: حالة ابنتك نادرة جداً، في المئة ألف من الأطفال الصغار لا تشبه حالتهن حالة ابنتك، هذا مرض مستمر حتى الموت، حرارتها أربعون بشكل

مستمر، وهو يؤمن أنه (لا إله)، فما استطاع تحمّل هذه الصّدمة وبكى وتألم، وبعد حين اختلّ توازنه وصار يأتي بها إلى دائرته وهو شيء غير مقبول لكونه موظفاً، فخاف أن تموت في غيابه فلم يحتمل، تقول زوجته: بعد شهرين أو ثلاثة من استمرار حالتها المتردية قال لها: أريد أن أغتسل، اغتسل وقام ليصلّي، وهكذا قال حسب رواية زوجته، قال مخاطباً ربّه تعالى: يقولون إنّكَ موجود، فإن كنت موجوداً فإما أن تشفي ابنتي وإما أن تميتها وإما أن تميتني وقام وصلّى ركعتين، بكى فيهما بكاءً شديداً وهما أول ركعتين في حياته، وما إن سلّم من صلاته، حتى انخفضت حرارة ابنته، وشفاها الله.

من هذه الأحداث الواقعية الشيء الكثير؛ فمرةً بعد انتهاء درس المساء قال لي شاب: أريد أن أُقابلك، فحدثني وقال: والله يا شيخ ما من معصية تعرفها إلا وأنا اقترفتها، نشأت جاهلاً وعند رجل أكَّدَ لي أنه (لا إله)، سوّل له أن افعل ما شئت، ثم حدثني عن نجاحه في التجارة وعن أرباحه الطائلة وانحرافه وانحطاطه وسفرياته، وقصته قصة طويلة معقّدة إلى أن عاجلته ضربة من الله عز وجل فحطمته فجأة فغدا بلا دخل، واعتورته أمراض وبيلة أصابته وأولاده وزوجته، فلم يعد يملك ثمن الطعام ولا ثمن الدواء، وتابع وصف ظروفه: والله كأنَّ مطرقة تطرُقُ رأسي كلَّ دقيقة، إلى أن مررت بأحد المساجد وسمعت المؤذن يؤذن فدخلت المسجد، وصليت لأول مرة في حياتي، وبكيت بكاءً شديداً، وعاهدت الله على التوبة، فهذه أحداث ووقائع وصلت إلى مسامعي خلاصتها أن الإنسان يجب أن يعلم أنه ما من رجل في الأرض إلا وله مع الله أوضاع وأحوال تنتهي بالإنابة، وهذا معنى اسم الله التوّاب.

وكثير من رواد المسجد سببُ مجيئهم إليه مشكلة كبيرة ساقَها الله إليهم ففزعوا وأنابوا، ورجعوا وتابوا، فقَبِلَهُم الله عزَّ وجل وتجلّى عليهم، وهناك أشخاص أصابهم مرضٌ عُضال، أحدهم خاطب الله عز وجل ضارعاً متوسلاً، وهو في غرفة العمليات لاستئصال الورم الخبيث قال: يا رب أعاهدك إن شفيتني من هذا المرض ألا أعصيك ما حييت، وشفاه الله من هذا المرض فبقي ثابتاً على عهده، فلولا هذا الورم الذي ساقه الله له ما كان ليتوب.

صدقوني أيها القراء الكرام أنّ عشرات بل مئات بل آلاف الحكايات التي انتهت إلى سمعي مصادفة فكيف لو أنني تتبعت الأمر؟ هذا معنى التواب، يعني: ﴿ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾ هي من أجمل آيات البحث، يعني ساقَ لهم من الشدائد ما يحمِلُهُم بها على التوبة، فمن هو الحكيم؟ الذي يأتيه طوعاً، والذي يأتيه وهو في الرخاء؟ هذه هي الحكمة، ولتكن إذاً حكيماً.

وطبعاً بعد المصيبة فالتوبة مقبولة وجيّدة، وبارك الله لكلٍّ من تاب بعد مصيبة، ولكنّ الأكمل والأقوى أن تعرفه في الرّخاء لا في الشّدّة، أن تعرفه وأنت غنيّ، وأنت قويّ.

وهذه آيةٌ ثانية: ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾، يعني إذا جاءت توبة الله قبل توبة العبد فتعني الشدائد التي يسوقها للعبد، وإذا جاءت توبة الله بعد توبة العبد فتعني قبول التوبة، يحملك على التوبة، ثم يقبل توبتك، فأنت بين دافع إلى التوبة وقبول لهذه التوبة.

أنا أتمنى على كل أخ كريم أن يُجري مناقشة منطقية ويسأل نفسه: هل من تقصيرٍ أو انحرافٍ بدر مني وساقَ الله لي شدّة وأعادني إليه بعدها، فما بال أحدنا إذاً ينتظر الشدة أن تقع، إذاً فليعدْ إلى الله بلا شدة وبلا تأديب وبلا مشكلة وبلا مصيبة وبلا تضييق، هذا هو الذكاء، وهذا هو العقل، وهذه هي الحكمة، أما الشباب فليأخذوا العبرة من غيرهم، مما يقرؤون ويسمعون.

هناك شيء آخر: قالوا: الله عز وجل يتوب على عبده ابتداءً، أي: يسوق له من الشدائد ما يحمله على التوبة، وأما تمام التوبة أن يقبَلَها منه وأن يُثبِّته عليها، فمثلاً: لو قال عبد: يا رب أنا تُبتُ إليك، فهذا الذنب لا أقع فيه مرة ثانية، ولم يقل: يا رب ثبّتني، اللهمّ يا مثبّت القلوب ثبّت قلبي على دينك، ثبت قلبي على طاعتك، فلو قال: أنا تبت واكتفى بمقاله هذا، وقال: لم يبقَ عليه شيء بعد ذلك؟ فهذا الذي ينسب التوبة إلى نفسه ويعتدُّ بإرادته وبقدرته على متابعة التوبة ربما ضَعَّفَ الله مقاومته، فوقع في الذنب مرةً أخرى.

لذلك تمام التوبة قبولها والثبات عليها لأنَّ الإنسان إذا تاب من ذنب ثم عاد إليه يختل توازنه وينهار، فلو فعلت هذا الذنب للمرة الألف قبل التوبة أهون من أن تفعله مرة واحدة بعد التوبة، لأنك إذا فعلته بعد التوبة انهارت معنوياتك وشعرتَ كأنّ الطريق إلى الله عز وجل غير سالكة، أمّا الشيء الذي يُلفت النظر فقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ [النساء:٢٧].

أعرابي ركب ناقة عليها طعامه وشرابه، ثم جلس ليستريح فشردت عنه فأيقن بالهلاك فجلس يبكي حتى نام، ثم أفاق فرأى الناقة عند رأسه فمن شدة فرحه اختل توازنه فقال: «اللهم أنت عبدي وأنا ربك» [مسلم، من حديث أنس بن مالك]. وفي رواية يقول ﷺ: «فالله أشد أفرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده» [متفق عليه من حديث عبدالله بن مسعود].

واللهُ عزَّ وجل يريد أن يتوب عليكم، إذا رَجَعَ العبدُ العاصي إلى الله نادى منادٍ في السموات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾.

جالسْ أهل الدنيا، جالسْ أهل الشهوات، جالسْ أهل الفجور، هذا الفاجر وهذا العاصي يتمنى أن يجُرَّكَ إليه حتى إنه يقول لك: ضعها برقبتي، ومَنْ أنت حتى أضع خطيئتي برقبتك؟ ثم يقول: الله توّاب رحيم وغفور رحيم ولا تُدقق فالله لا يدقق فما هذا الكلام؟! هذا ما يقوله الضالّ لمن يضلّ، فاسمع قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ يجب أن تُقدّس هذه الإرادة الإلهية، فالله عز وجل يريد لكَ الخير، كما يريد لك السعادة الأبدية.

هذا الإنسان بعد حين سوف يُعذّب عذاباً لا يُحتمل، بينما هو الآن يركب مرحاً وفرحاً سيّارة، وهناك إنسان بعد حين سينال أعلى مرتبة وهو الآن يمشي على قدميه؛ التقيا في الطريق فمن هو الفائز؟ حسب الظاهر، الذي يركب المركبة الفاخرة، لكن

الفائز بعين العقل هو الذي يمشي على قدميه. تصوروا بيتاً فخماً جداً ثمنه مئة مليون فيه كل دواعي الترف، وله طريق وعلى هذه الطريق إنسان يمشي على قدميه ليتملك هذا البيت، وإنسان آخر يركب مركبة فارهة باتجاه أن يُشنق في ساحة عامة، التقى هذا الذي يركب المركبة مع هذا الذي يمشي إلى هذا البيت على قدميه في الطريق فهنيئاً لمن؟ أما بعيون رؤوسنا، فالتهنئة لراكب السيارة، وأما بعيون عقولنا فالتهنئة لمن يمشي على قدميه، فالأمور بخواتيمها.

﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [إبراهيم:٣٠].

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [البقرة:١٢٦].

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [آل عمران:١٩٦-١٩٧].

﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [النساء:٧٧].

﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ [القصص:٦٠-٦١].

﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [القلم:٣٦].

﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [السجدة:١٨].

﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [القلم:٣٥].

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١)﴾ [الجاثية:٢١].

عزيزي القارئ: معنى: الله تواب يعني يعود بالخير على عباده، فالأمطار من التوّاب عاد بها علينا، والهواء الذي نستنشقه من التوّاب عاد به علينا، وهذه الأجهزة التي تعمل بانتظام من التوّاب عاد بها علينا، وكلّ ما أنعم الله به علينا من التوّاب، فهذا المعنى الأول.

المعنى الثاني: تواب قبل التوبة، بمعنى يسوق لعباده الشدائد: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧)﴾ [الأنعام:١٤٧].

أمثلة بسيطة لو افترضنا أنَّ إنساناً كان منحرفاً فضيّق الله عز وجل عليه وخوّفه، وأرسل له شدائد إلى أن استقام على أمر الله، فذاق طعم القُرب ومعنى الهداية، وشَعَرَ بنعمة الاستقامة فإنه يقول: يا رب لك الحمد على أن سُقت إليَّ هذه الشدائد، والله إني ليسعدني أن أقول لكم من ابتلاهم الله ببعض المصائب: ثقوا بالله بلا حدود أنه سيأتي وقت يكشف لك الله فيه عن سرٍّ هذه المصائب، فإن لم تذب كالشمعة حباً لله عز وجل؛ فهذا الكلام هراء، لكن ما شاء الله أن نقول، وإنما الأحداث تتكلم، واقرؤوا عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ، في أخبارهم وعقابيلها المُثُل الواضحة.

فالإنسان يجب أن يعرف أن الله عزَّ وجل تواب، ومعنى تواب يعني يحبنا، ودائماً نحن في العناية المشددة، في غرفة العناية المشددة تخطيط دائم، يُرى فيه عدد النّبض، والموجات بشكل مستمر، أنت في العناية المشددة، وأحوال القلب والأعراض على الشاشة، فمثلاً: إنسان يسير في الطريق تفكيره مضطرب، فيصطدم بعمود، إلى أين تسير يا عبدي؟ يكون ماشياً بشكل خاطئ، أو نظر إلى امرأة لا تَحِلُّ له فجأة تأتيه الصّدمة، ويُشجُّ رأسه، فالله عزّ وجلّ توّاب، أكَلَ مبلغاً بالحرام فيُضيِّع الله له عشرة أمثاله ويُربيه.

عامل أصلَحَ عُطلاً في سيارة وأخذ من الزبون عشرة أمثال والزبون لا يعرف، فعاتبه جاره فأجابه: هكذا العمل، وفي اليوم الثالث دخلت في عين ابنه نثرة بُرادة فتكلّفَ له ستة عشر ألف ليرة في الجامعة الأمريكية. فذهب الحادث بربحه الحرام بالإضافة إلى التأديب.

أحد تجار الجملة جاءه شخص يريد شراء حاجات من عنده فطلب ست قطع فقط من ألبسة معينة، ولما كان هذا من شأنه أنه يبيع بالجملة فرآها إهانة له، وقال مستهزئاً بالزّبون: أنا لا أبيع بالمُفرَّق، فأقسم بالله من بعدها أنه مضى عليه ثلاثة وعشرون يوماً ولم يدخل إلى محله أو معمله إنسان، فالله عز وجل توّاب.

انظر إلى النحاس كم هو جميل، من كثرة الطَّرقِ أصبح جميلاً، وهكذا المؤمن كلما ازداد عليه الطرق يصبح أديباً، وكلامه يصير مضبوطاً، وليسَ عندَهُ كِبْر ولا تطاول، هذا معنى التأديب الإلهي وهو معنى التواب، أي: يعالجك حتى تصبح نقياً كالمَلَكِ تماماً.

وأقول وأكرر: إن معاملة الله للإنسان مُلخّصة بكلمتين: إما أن تأتيه راكضاً أو أن يأتي بك ركضاً، والله يعلم كيف يأتي بك، ويعلم كيف يخوّفك، ويعرف كيف يجعل ركبتيك ترتجفان، ويعلم كيف تسمع الخبر وتقع مغشياً عليك، فأقبل على الله طائعاً منيباً فهو الأجدى والأسلم.

أعرف رجلاً أسرَفَ على نفسه كثيراً وله جارٌ صالح نصحه فلم يرعوِ، ومات على معاصيه، ثم رؤي في المنام يرتدي ثياباً خشنة قميئة مهترئة ويدور حول بحرة ويقول: نصحني فلان ما انتصحت، يا ليتني انتصحت، لو أنه نصحكم فاسمعوا نصيحته، فالإنسان ما دام قلبه ينبض فالتوبة مفتوحة، وما دام القلب ينبض فالباب مفتوح فأدرك بنفسك رحمة الله فهي قريبة.

قال لي صاحب معمل: قبل عشر سنوات كنت أفقد مالاً، أضع ألفين مثلاً في جيبي ثم لا أجد شيئاً، فهنا عامل يسرقني وبقيت شهراً أراقب، والسرقة مستمرة بالمال والبضاعة، ثم توقفت السرقة وبعد عشر سنوات طرق بابي شاب ملتحٍ قال: أنا فلان

هل عرفتني؟ فقلت: نعم كنت عندنا في المعمل قال: كنت أسرق منك وتبت إلى الله عزّ وجل، وها أنا بين يديك جئت لأردّ لك كل الذي أخذته منك، فقال له: والله نظير هذه التوبة وهذه الأوبة سامحتك، ولك مكان في معملي إذا شئت أن ترجع.

ما دامَ القلب ينبض، فالحل سهل، وكله يُستدرَك ويُصحَّح فممكن أن تؤدي الذِّمم المترتبة عليك سابقاً، وممكن أن تعيد الحاجات إلى أصحابها، كله ممكن فإما أن تأتيه طائعاً، وإما أن يحملك على أن تأتيه راغماً.

فالتوبة الأولى: ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾ يحمل على التوبة، والثانية: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ ﴾ [النحل:١١٩]، يعني قَبِلَ توبتهم، وإذا قَبِلَ توبتهم يعني ثبَّتهم عليها.

تواب، أي: إنه لن يتركنا بل يُريدُنا، نحن مطلوبون إليه، خلقنا ليرحمنا، خلقنا ليسعدنا في الدنيا والآخرة. ففهم أنَّ الحر تكفيه الإشارة، فإذا قصّرت يأتي بك، وأُحسُّ أحياناً أن كثيرين قد تركوا مجالس العلم، ثم لم يمض إلا أشهر حتى عادوا، فلعله حدثت لهم مشكلة فيهرول أحدهم مسرعاً، فابقَ ثابتاً لأن الله يدعوك إليه، ولا تكن كالقارب الصغير شأنه اضطراب باضطراب، ولكن كُنْ كالسفينة الراسخة: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب:٢٣].

التوبة علم وحال وعمل

التوبة علم، وحال، وعمل، الإنسان متى يعالج نفسه من ضغط الدم المرتفع؟ بحالة واحدة، إذا علم أن ضغطه مرتفع، إذا اشترى جهاز ضغط، وقاس ضغطه، ورآه ٢٠-١٢ يعالج نفسه.

إذاً لن تتوب إلا إذا طلبت العلم، وعرفت الحلال والحرام، وعرفت ما ينبغي وما لا ينبغي، وما يجوز، وما لا يجوز، حينها تطلب العلم تقيّم عملك.

إذاً التوبة علم، الذي يطلب العلم يتوب، لأنه اكتشف أن هناك خطأ في دخله، في إنفاقه، في سلوك بنيه وبناته، في بيته، في علاقاته المالية، في هذه الصفقة، أمّا إذا لم يطلب العلم فإنّه يتوهم نفسه مستقيماً، وهو ليس كذلك.

تماماً كإنسان ضعيف باللغة، قرأ النص أمامنا وفي قراءته عشرات الأغلاط، وهو متوهم أن قراءته جيّدة، أما لو درس اللغة العربية لاكتشف أن أخطاءه لا تعدّ ولا تحصى.

إذاً التوبة علم، لابدّ من أن تطلب العلم، لتعرف الحلال والحرام، والخير والشر، والجميل والقبح، فالحسن ما حسّنه الشّرع، والقبيح ما قبّحه الشّرع، فإذا طلبت العلم واكتشفت الخطأ لابدّ من أن تندم، وأن تنفعل، فالندم توبة، لأنه سبقه علم، وسيأتي بعد هذا الندم السلوك.

فالتوبة علم، وحال، وعمل، العلم درست تفاصيل الشريعة، فعرفت الخطأ من الصواب، والحلال من الحرام، والخير من الشر، وما ينبغي، وما لا ينبغي، ثم تأثرت من أخطاء كثيرة أنت واقع بها.

فندمت، الآن المرحلة الثالثة هي العمل، أن تقلع عن هذا الذنب فوراً، وأن تصحح ما مضى، وأن تعقد العزم على أن لا تعود إليه مستقبلاً.

هذا معنى اسم التواب، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن يتوب علينا، «إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السموات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله».

يقول تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ٢٧﴾ [النساء:٢٧].

وقد قال العلماء: ما أمرنا الله أن نتوب إليه إلا ليتوب علينا وما أمرنا أن نستغفره إلا ليغفر لنا، وما أمرنا أن نسأله إلا ليعطينا، وما أمرنا أن ندعوه إلا ليستجيب لنا.

السميع

هذا الاسم ورد في القرآن الكريم في أربعين آية، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة:١٢٧].

﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة:١٣٧].

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران:٣٨].

﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾ [الأنعام:١٣].

﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف:٢٠٠].

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنفال:٤٢].

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [التوبة:١٠٣].

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [الحج:٦١].

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [النور:٢١].

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [لقمان:٢٨].

وقد اقترن هذا الاسم مع اسم العليم في ثلاثين آية، ومع اسم البصير في عشر آيات، ومع اسم القريب في آية واحدة، وقد ورد أيضاً في صحيح البخاري من حديث أبي موسى الأشعري، أنَّ النبيَّ ﷺ، رأى أصحابه يرفعون أصواتهم في الدُّعاء فقال: «أيُها الناسُ اربِعُوا على أنْفُسِكم -أشفقوا- إنكم ليس تدعون أصمَّ ولا غائباً إنكم تدْعُونَ سميعاً قريباً» [أخرجه البخاري و مسلم عن أبي موسى].

وقد روى أبو داود من حديث أبي سعيد الخدري، أنَّ النبيَّ ﷺ كان يفتتح صلاته فيقول: «أعوذُ بالله السَّميع العليم، من الشَّيطانِ الرَّجيم» [أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي عن أبي سعيد الخدري].

من معاني اسم الله (السميع)

السميع؛ صيغة مبالغة، من اسم الفاعل سامع، والفعل سمِع يسمَع والمصدر سَمْع.

وقد يكون السَّمْع صفة ذات، كما يكون صفة فعل، قال تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ [البقرة:٧].

السَّمْع هنا هو الأذن، أيّ صفة ذات، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الأحقاف:٢٩].

الله عزَّ وجلَّ سميع لكلِّ الموجودات، فهو يسمع كلَّ ما سواه، دون حاسَّة أو آلة كبني البشر، إذ ليس كمثله شيء، وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك.

يقول بعض العلماء: «الله جل جلاله سميع؛ أي: لا يعزب عن إدراكه مسموع وإن خفي»، قد يكون صوتاً في النّفس، وقد يكون حديث النَّفْس للنَّفْس، قد يكون خاطرة تَرِدُ على البال، قد يكون تساؤلاً يَرِدُ على الفكر، فأيُّ شيء يخفى على النَّاس فإنّه لا يخفى على الله، فالله سبحانه وتعالى سميع لا يعزب عن إدراكه مسموع وإن خفي، فقد وسع سمعه كلَّ شيء.

وربُّنا عزَّ وجلَّ حينما ينعى على المشركين أنّهم يعبدون من دون الله أصناماً، يقول جلَّ جلاله: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر:١٤].

المعنى المخالف؛ أنَّه من لوازم الإله الذي يجب أن تعبده أن يسمعك، دون واسطة، أحياناً تتّكل على شخص مهمٍّ، إذا ناديته أجابك، إن سألته أعطاك، لك عنده مكانة كبيرة، لكنَّك في بلدة وهو في أخرى، قال لك: هذا رقم هاتفي، لو أنَّ هذا الهاتف معطَّل أو مغلق فلن تستفيد شيئاً، تناديه فلا يسمعك، هو يحتاج آلة ليسمعك بها، إذاً هو محدود بالنسبة لك، أمّا الإله الذي ينبغي أن تعبده، فيسمعك بلا آلة ولا حاسَّة، يسمعك وأنت في أيِّ مكان وفي أيّة حالة، يسمعك إن جهرت وإن أسررت: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾ [مريم:٣].

حدثني أخ أنهى خدمته الإلزامية، وهو لا يملك درهماً واحداً، بحث عن عمل فلم يجد، أعطته أخته قطعة حُلِيّ لها، فباعها واشترى بثمنها بطاقة طائرة، إلى بعض دول الخليج، وسافر إلى هناك، أقسم لي أنه وهو في الطائرة، حدث نفسه حديثاً نفسياً، قال في

نفسه: والله لئن أكرمني الله بهذه السفرة لأبنينَّ لله مسجداً، أقسم بالله هذا الخاطر ما ذكره بلسانه... أخذ الله بيده وعاد إلى بلده، وبنى مسجداً، وصليت أنا في هذا المسجد، قال: هذا المسجد استجابة لنداء خفيٍّ ما ذكرته بلسان: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾.

بإمكانك أن تنادي ربَّك، وأنت ساكت، وشفتاك ملتصقتان، ولا أحد يعلم بهذا النِّداء، هذا الإله الذي يجب أن تعبده، خواطرك مكشوفة، دعاؤك مسموع، طلبك ملبًّى، استغفارك مجاب، توبتك مقبولة.

سيدنا يونس عليه السلام نادى ربَّه في بطن الحوت، والحوت في عمق البحر وفي ظلمة الليل: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨].

يسمعك، وأنت في بيتك وأنت في عملك، وأنت في طائرة، وأنت على ظهر سفينة، وأنت في أعماق الوادي وأنت في غابة وحولك وحوش كاسرة، وأنت في أيِّ وضع يسمعك، إن نطقت وإن سكتَّ، إن ناجيته بخواطرك، وإن ناجيته بلسانك فهو سميع مجيب.

قال العلماء: هو السَّميع بغير جارحة، وقيل وسع سمعه كلَّ شيء، هو الذي يسمع نداء المضطرين، هو الذي يجيب دعاء المحتاجين: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾ [النمل:٦٢].

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وأَبِي هُرَيْرَةَ قَالا: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُمْهِلُ حَتَّى إذا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الأوَلُ، نَزَلَ إلى السَّماءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ؟ هَلْ منْ دَاعٍ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الفَجْر» [صحيح مسلم].

الله سميع لك في كلِّ أحوالك: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٣-٢٢٠].

يراك ويسمعك ويعلم ما في نفسك.

إن تكلمت يسمعك، إن تحرَّكت يراك، إن نطقت أو سكتَّ فإنّه يعلم ما في نفسك، سميع بصير عليم، لا تحتاج إلى طلب ترفعه إليه، ولا إلى حلف، ولا إلى وثيقة ولا إلى شاهد.

إذا كنت في كلِّ حال معي ... فعن حمل زادي أنا في غنى

شخص ذكر لي أنَّه كان يحضّر دكتوراه في بلد غربي، وأستاذه صعب جداً، واختار موضوعاً عويصاً، وأمضى فيه أربع سنوات، ثم وصل البحث إلى طريق مسدودة، وكان بحثاً في الرياضيات، في الفضاء الخارجي، فإن لم يصل هذا البحث إلى معادلة متوازنة فالموضوع كلُّه مرفوض، ومضى له به أربع سنوات، قال لي: ضاقت نفسي في الإقامة بهذا البلد، وحينما تصوَّرت أنّي سأعيد أربع سنوات أخرى كبرُ الأمر عليّ. فجأة خرَّ لله ساجداً، وقال: يا ربِّ، إن كنت تعلم أنني حضرت إلى هذه البلاد لأكتسب علماً أنفع به المسلمين وقد حرَمْتُ نفسي كلَّ المنهيات، وما من بيت في هذه البلاد يخلو من هذه المُلهيات، حَرَمْتُ نفسي هذه الملهيات استحياء من وجهك الكريم، إن كنت عملتُ هذا العمل خالصاً لك فيسِّر لي هذا البحث، وهو إنسان صادق فيما أعلم.

فالله عزَّ وجلَّ ألهمه طريقة جديدة في حلِّ هذه المعادلة، بعد حين وصل بها إلى التَّوازن المطلوب، على حين كان بين الطلاب في مكتبة الجامعة، قال: فلم أملك نفسي إلا أن خررت على الأرض ساجداً شاكراً لله عزَّ وجلَّ، وبهذا حصَّل الدكتوراه، والآن هو أستاذ في الجامعة.

إلهٌ يقول لك: ادعُني أستجب لك فأنا أسمعك، أنت حينما تصلي ألا تقول سمع الله لمن حمده، يعني يا عبدي أنا أسمعك، فإذا قلت له: ربنا لك الحمد ملء السماء وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد، وهو يسمعك، الإله الذي ينبغي أن تعبده ينبغي أن يسمعك، لأنه أمَرَك أن تعبده، والعبادة دعاء، والدليل: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر: ٦٠].

إذاً هو الذي يسمع نداء المضطرين، يجيب دعاء المحتاجين، يعين الملهوفين، يسمع حمد الحامدين، يسمع دعاء الداعين، يسمع دبيب النّملة السّوداء على الصّخرة الصّماء في الليلة الظّلماء، يسمع خطرات القلوب، يسمع هواجس النّفوس، يسمع مناجاة الضّمائر.

إنَّك أيّها الإنسان إن خاطبك شخص وخاطبك آخر تقول له: انتظر أنا إنسان واحد... لكن خالق السموات والأرض لو أنَّ ستة آلاف مليون إنسان الآن دعوه معاً لسمع دعاء كلٍّ واحد منهم.

قال العلماء: «لا تمنعه إجابة دعاء شخص عن إجابة دعاء شخص آخر، لا يشغله سماع مخلوق عن سماع مخلوق آخر».

يا من لا يشغله شأن عن شأن! ولا سمع عن سمع! ولا تشتبه عليه الأصوات، يا من لا تغلطه المسائل! ولا تختلف عليه اللغات! يا من لا يبرمه إلحاح الملحين! ولا تضجره مسألة السائلين، أذقنا برد عفوك وحلاوة مناجاتك.

نحن البشر إمكانياتنا محدودة، حتى إذا تصوّر رجل أنَّ هناك إنساناً يستطيع أن يفعل أشياء عديدة في وقت واحد فهذا وهم، الإنسان في وقت واحد لا يستطيع إلا أن ينصرف إلى شيء واحد، ولكن الذي يبدو للنّاس من أنّ فلاناً يستمع ويتّصل ويأمر وينهى في آنٍ واحد، هذا عنده قدرة نادرة اسمها سرعة التّنقّل من جهة إلى جهة، إنَّ

الإنسان في وقت واحد لا يستطيع أن يستمع إلا إلى شيء واحد، إلا أنَّ الله سبحانه وتعالى لا يشغله سماع دعاء عن دعاء، ولا إجابة دعاء عن دعاء، ولو أنَّ الخلق كلَّهم توجَّهوا إليه، فإنّه يسمعهم جميعاً ويتوجَّه إليهم جميعاً، لكنَّ الإنسان يتوهَّم أنَّه إذا ناجى ربَّه فربُّه لا يستمع إلا إليه، هذا خطأ إذ لا يشغله دعاء عن دعاء ولا سماع دعاء عن دعاء ولا استجابة لعبد عن عبد.

يسمع كل نجوى، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السّماء، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

طبيب بإمكانه أن ينظر إلى جسد المرأة لعلَّة العلاج، فلو شطحت عينه إلى مكان آخر ولا يستطيع أحد في الأرض أن يكشف هذه المخالفة لكنَّ الله وحده يكشفها، أنت جالس في غرفة النَّوم المظلمة، خرجت جارتك إلى الشّرفة، من يستطيع أن يعرف أنّك تنظر إليها أو لا تنظر؟ هي لا تراك أساساً أنت في غرفة مظلمة وهي في الشرفة، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

أحياناً إنسان يُجري عقد نكاح في بلد غربيّ وفق الشّريعة الإسلاميّة تماماً، إيجابٌ، وقبول، ومهر وشاهدان، وعند القاضي، والأمر كلُّه وفق قواعد الشَّرع، لكنّه أخفى في نفسه أنَّه سيطلقها بعد أن ينهي دراسته، من يعلم ذلك؟ هل يستطيع القاضي أن يكشف هذه الحقيقة؟ لكنَّ الله تعالى يعلم خواطر الإنسان، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصّدور، والإنسان حين يعرف أنّه مكشوف أمام الله، ونياته البعيدة مكشوفة، وخطراته مكشوفة، عندئذ يستحي من الله، لذلك هنيئاً لمن أضمر الخير لكلِّ الخلق: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

قال أحد العلماء عن اسم السَّميع: «إنَّ الله سبحانه وتعالى يسمع دعوات عباده، ويسمع تضرُّعاتهم إليه، ولا يشغله نداء عن نداء، ولا يمنعه إجابة دعاء عن إجابة دعاء، وقيل: السَّميع هو الذي يسمع دعوتك عند الاضطرار، ويكشف محنتك عند الافتقار، ويغفر زلَّتك عند الاستغفار، ويقبل معذرتك عند الاعتذار».

خرج أحدهم من المسجد، والنّاس يجمعون مالاً لبناء مسجد آخر، قال لي: والله معي مبلغ محدود لا أملك غيره، مئتا ليرة، هممت أن أضعه ثمَّ قلت: لا، لا أملك غيره، لعلي أحتاج إليه قال لي: وقع في نفسي خطاب من الله: يا عبدي حينما كنت تنفق هل قطعناك من المال؟ قال: فاستحييت وألقيت المئتين في مكان التبرع، ثم قال: والله ما مضى ساعة أو ساعات إلا وجاءني مبلغ لم يكن يخطر على بالي إطلاقاً، لما امتنع شعر أنَّ الله علم بامتناعه، شعر أنَّ هذه الخاطرة من وسوسة النفس الأمارة بالسوء فخالفها.

وللتوضيح فالإنسان ليس مكلَّفاً أن ينفق كلَّ ما يملك، كثيراً ما قد يواجهنا حكم شرعيٌّ كما تواجهنا مواقف شخصيَّة، وهناك نقطة مهمّة من الله عزَّ وجلَّ إذ قال: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [البقرة:١٩٥].

قال المفسرون: لا تلقوا بأيديكم إلى التّهلكة، فالتّهلكة إن أنفقتم كلَّ أموالكم، وكذلك لا تلقوا بأيديكم إلى التّهلكة إن لم تنفقوا، فأنت هالِكٌ مرتين، هالكٌ إن أنفقت المال كلَّه، وهالِكٌ إن لم تنفق شيئاً، لكن هناك حالات خاصَّة ليست حكماً شرعيّاً إنما هي مواقف شخصيّة.

الإنسان قد يتعامل مع النّاس بطريق المؤاثرة، بطريقة البذل، بطريقة التضحية، والله عزَّ وجلَّ لا يخيِّب رجاءه ولا يمنع عنه عطاءه، فإذا ذكرت هذه الواقعة لا لأدعوكم إلى أن تنفقوا كلَّ أموالكم لا... لكنَّ الإنسان قد يواجه موقفاً حرجاً يضطره إلى أن ينفق، وهو لا يملك إلا مبلغاً محدوداً، فإذا أنفقه ليحلَّ مشكلة أخيه، فإزاء هذه الحالات الاستثنائية، الله عزَّ وجلَّ يهيّئ تعويضاً جزيلاً لهذا الذي آثر أخاه، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر:٩].

السَّميع هو الذي أجاب دعوتك عند الاضطرار، وكشف محنتك عند الافتقار، وغفر زلَّتك عند الاستغفار، وقبل معذرتك عند الاعتذار ورحم ضعفك عند الذلَّة والانكسار.

وقيل: السَّميع هو الذي يسمع المناجاة ويقبل الطاعات ويُقيل العثرات.

السَّمع صفة لله عزَّ وجلَّ، يكشف بها كمال موصوفاته، فالله عزَّ وجلَّ كامل كمالاً مطلقاً، إذا وُجِد شخص أمامك، محترم، ذو شخصيّة جذّابة، وسيم الوجه، طليق اللسان، كلما تحدثت معه قال: ما سمعت؛ ارفع صوتك... لقد ضَعُف سمعه، أليس هذا نقصاً في كماله؟

الله جلَّ جلاله من لوازم كمال صفاته أنَّه سميع، لذلك نكشف بسمعه تعالى كمال صفاته، هذه الصفة تكشف حقائق المسموعات، كلُّ شيء يُسمع، فالله جلَّ جلاله يسمعه، وتنكشف له المسموعات انكشافاً تامَّاً ليس بأذن ولا جارحة، نكشف نحن بصفة سماعه كمال ذاته، ويكشف الله بسمعه حالات كلِّ مخلوقاته.

مثلاً: مدير مدرسة، جالس في مكتبه، عنده ثلاثون شعبة وثلاثون مدرّساً، هل بإمكانه أن يستمع إلى كلِّ مدرس؟ ماذا يقول في لحظة واحدة؟ أحياناً يخرج من مكتبه ويدخل إلى أحد الصفوف، إذا دخل يسمع ما يقوله هذا المدرِّس فقط.

لكن لو افترضنا مثلاً، أنَّ مديراً وضع لَوَاقِطَ بكل شُعبة، بحيث إنه إذا أراد أن يستمع إلى ما يقوله فلان في هذه الشعبة، ضغط مفتاحاً يخرج صوت المدرس، نقول: إن هذا المدير معلوماته أدق ومسيطر سيطرة جيدة على المدرسة، لكنَّ المدير نفسه لو استمع إلى شعبة وضغط مفتاحاً آخر يضيع، هناك مسجّلات فيها جهاز مضاعف، هل تستطيع أن تضع في كل جهاز شريطاً وتستمع إلى الاثنين، لا تستطيع، إن استمعت إلى هذا شوّش عليك هذا، وإن استمعت إلى هذا شوّش عليك ذاك، الله عزَّ وجلَّ يسمع جميع خلقه في وقت واحد، وهذا من كمال صفاته.

قال العلماء: «إنّ صفة السَّمع زائدة على العلم» من باب التوضيح فقط، يمكن أن تستمع إلى دقّات قلب مريض، فإذا سمعت هذه الدّقات علمت مقدارها وقوّتها وشدّتها، فأنت الآن تعلم حقيقة قلب هذا المريض، فالعلم واضح.

فلو أنَّ هذا المريض لغته غير عربيّة، وتحدّث عن قلبه، وسمعت ما قال، سماعك لهذه اللغة غير علمك عن وضع قلبه، لو أنَّ المريض حدثك بلغته عن قلبه، فإن لم تكن أنت سميعاً، عِلْمك شيء وسماعك لما قاله عن قلبه شيء آخر، فلذلك العلماء قالوا: «صفة السَّمع صفة زائدة على العلم»، الله عزَّ وجلَّ عليم وسميع وبصير.

الله مُطَّلع على قلب كلِّ مخلوق، ولو أنَّ هذا المخلوق دعا الله بلغة غريبة، إضافة إلى أنَّ الله يعلم ما في قلبه، يسمع قوله بأيّة لغة.

إذا سافر إنسان إلى بلد يجهل لغة أهلها، تراه ضائعاً لا يفهم شيئاً، الصُّحف بهذه اللغة الغريبة بالنسبة له، المجلات بهذه اللغة، الإذاعة بهذه اللغة، كلام النّاس بهذه اللغة، المطعم بهذه اللغة، وهو لا يفقه شيئاً، فالإنسان إذا لم يسمع أو لم يفهم ما سمع، يضعف مركزه، فمن كمال صفات الله أنَّه سميع، وسمعه زائد على علمه جلّ جلاله.

الله عزَّ وجلَّ يدرك كلَّ مسموع وإن خفي صوته، فهو سبحانه وتعالى يسمع سواء أكان السَّمع من قبيل الأصوات أو من قبيل الخواطر.

الإنسان يسمع الأصوات فقط، فإذا لم يكن صوت لا يكون سمع، الأذن تلتقط الموجات الصوتية، هذه الموجات تصيب غشاء الطَّبل بالاهتزاز، هذا الاهتزاز ينتقل إلى الأذن الداخليّة فيسمع الإنسان ثم يُدرك ما سمع، أمّا لو أنَّ الذي أمامك بقي ساكتاً فهل تسمع؟ هو واقف أمامك وهو ساكت لكن يقول في نفسه والله إنّي أحبُّ فلاناً، هذا خاطر، الإله يسمع المسموعات ذوات الأصوات، كما يسمع ما خفي وما لا صوت له.

أحد العلماء، يرى أن الله يسمع، لكن سمعه مُنزّه عن تغيير يعتريه عند حدوث المسموعات، غشاء الطبل ساكن فإذا سمع الإنسان صوتاً قويّاً اهتزَّ الغشاء، ولولا هذا

الاهتزاز لما سمع الصوت، نقول: لقد أصاب هذا الغشاء تغيير اعتراه حتى نقل الصوت، أمّا الله جل جلاله فمُنزّه عن هذا، يعني لا يسمع بتغيير يصيب سمعه، فهذا لا يليق بالله عزَّ وجلَّ.

والله سبحانه وتعالى مقدس عن أن يسمع بأذن أو آلة أو أداة، والسمع في حقه جل جلاله عبارة عن صفة ينكشف بها كمال صفات المسموعات. الله عزَّ وجلَّ يكشف بسمعه أحوال خلقه جميعاً، من دون آلة ولا جارحة ولا اهتزاز ولا تغيّر يعتري سمع الله عزَّ وجلَّ.

قال أحد العلماء: للسَّمع أربعة معانٍ في حقِّ الله عزَّ وجلَّ:

الأول: سمعُ الإدراك ويتعلّق بالأصوات، يؤكِّد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ [المجادلة:١].

خولة بنت ثعلبة كانت تحت أوس بن الصامت، وكانت حسنة الجسم، وكان به لمم فأرادها فأبت، فقال لها: أنت عليّ كظهر أمي، ثم ندم على ما قال، وكان الظِّهار والإيلاء من طلاق أهل الجاهلية، فقال لها: ما أظنُّك إلا قد حرمت عليّ، فقالت: والله ما ذاك طلاق، وأتت رسول الله ﷺ -وعائشة رضي الله عنها تغسل شقَّ رأسه- فقالت: يا رسول الله إنَّ زوجي أوس بن الصامت تزوجني، وأنا شابّة غنيَّة ذات مال وأهل، حتى إذا أكل مالي، وأفنى شبابي، وتفرّق أهلي، وكبر سنّي، ظاهَر منّي وقد ندم، فهل من شيء يجمعني وإياه تنعشني به؟ فقال رسول الله ﷺ: حرمت عليه، فقالت: يا رسول الله والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقاً وإنَّه أبو ولدي وأحبُّ النَّاس إليّ، فقال رسول الله ﷺ: حرمت عليه، فقالت: أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي، قد طالت صحبتي، ونفضت له بطني، فقال رسول الله ﷺ: «ما أراك إلا قد حرمت عليه ولم أومر في شأنك بشيء» فجعلت تراجع رسول الله ﷺ وإذا قال لها رسول الله ﷺ: «حرمت

عليه» هتفت وقالت: أشكو إلى الله فاقتي وشدَّة حالي، وإنَّ لي صبيةً صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليّ جاعوا، وجعلت ترفع رأسها إلى السَّماء وتقول: اللهم! إنّي أشكو إليك، اللهم فأنزل على لسان نبيّك، وكان هذا أول ظهار في الإسلام، فقامت عائشة تغسل شقَّ رأسه الآخر فقالت: انظر في أمري جعلني الله فداءك! يا نبيّ الله! فقالت عائشة: أقصري حديثك ومجادلتك، أما ترين وجه رسول الله ﷺ؟ -وكان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه أخذه مثل السُّبات- فلما قضى الوحي قال لها: ادعي زوجك فدعته فتلا عليه رسول الله ﷺ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ﴾ الآيات.

قالت عائشة: تبارك الذي وسع سمعُه الأصوات كلَّها، إنَّ المرأة لتحاور رسول الله ﷺ وأنا في ناحية البيت أسمع بعض كلامها، ويخفى عليّ بعضه إذ أنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ الآيات [تفسير البغوي، سورة المجادلة]. هذا أول معنى من معاني السَّماع، إنّه سماع الإدراك.

المعنى الثاني: سماع الفهم، فإذا قال أب لابنه «اسمع ما أقول» يعني: افهم، يؤكِّده قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنفال:٢١].

السَّماع هنا معناه الإدراك، والتّفهم، الله عزَّ وجلَّ يعرف وضعك في أدقِّ التَّفاصيل، يعرف ظروفك الصعبة، يعرف العقبات التي أمامك، يعرف الصَّوارف التي تصرفك عن هذا الشّيء أو ذاك، يعرف حجم التَّضحية، سمع دعاءك: يا رب! أنا مضطر، يا رب! استجب لي، هذا كلام، لكن حجم اضطرارك يعرفه الله عزَّ وجلَّ، فالله عزَّ وجلَّ إضافة إلى أنَّه يسمع دعاءك كصوت يعلم حقيقة حالك، فأول سماع سماع الصوت، والسَّماع الثاني سماع الفهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة:١٠٤].

يعني: افهموا.

إذا قال رجل للآخر: انتبه، على كتفك عقرب بصوت واضح وبنبرات حادة، فالتفت إليه بهدوء وقال له: أشكرك على هذه الملاحظة وتلك النَّصيحة، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن يلهمني أن أكافئك، ولم يبادر إلى رميه، أيكون سمع ما قيل له؟... هذا سمع ولم يسمع، سمع صوتاً لكن لم يفقه ما معنى عقرب، لو فهم لقفز ولصرخ، ما دام بقي هادئاً، والتفت بهدوء وشكرك فالمعنى أنَّه لم يسمع بمعنى أنَّه لم يفهم، مع أنَّ الصوت وصل إليه، فهناك سماع صوت، وهناك سماع فهم: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾، أي: لم يفهموا.

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الجمعة:٥].

المعنى الثالث: سَمْع الإجابة وإعطاء ما سئل، كما تدعو: اللهم! اسمع، يعني أجب واعط ما سألتك.

المعنى الرابع: القبول والانقياد، قال تعالى: ﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ ﴾ [المائدة:٤٢].

إذا قال رجلٌ لك: فلان أمانته ضعيفة، فتقول: إذاً لن أُعطيه شيئاً، أنت سمعته وصدَّقته، أحياناً تقول هذا الكلام غير مسموع لا أقبله، معنى سمّاعون للكذب: منقادون إليه مصدِّقون له.

المعنى الأول: سماع الصوت، المعنى الثاني: الفهم والإدراك، المعنى الثالث: الاستجابة، المعنى الرابع: الانقياد، وكلُّ هذه المعاني وردت في كتاب الله عزَّ وجلَّ فيما يتعلق بالسَّمع.

ومما يؤكِّد أن السمع هو الاستجابة قول النبي ﷺ في الدعاء المأثور:

عن عبد الله بن عمرو قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لا يَخْشَعُ، وَمِنْ دُعاءٍ لا يُسْمَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لا تَشْبَعُ، وَمِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَؤُلاءِ الأَرْبَعِ» [سنن الترمذي].

يعني لا يُستجاب له.

عنْ عائِشَةَ أَنَّهَا قَالت: الحَمْدُ لله الذي وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتْ خَوْلَةُ إِلَى رَسُول الله ﷺ تَشْكُو زَوْجَها فكَانَ يَخْفَى عَلَيَّ كَلامُهَا فَأَنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ الآية [رواه النسائي].

عندما قال النّبيّ ﷺ في الطّائف بعد أن دعاهم فكذّبوه، وبعد أن استعانهم فخذلوه، وبعد أن استنصرهم فلم ينصروه، بل أغروا به صبيانهم، وضربوه بالحجارة، فدميت قدماه، رفع يديه إلى السّماء، قال:

«اللهم! إليك أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس... أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملّكته أمري، إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي» [أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، من حديث عبد الله بن جعفر] هذا هو دعاء الطائف.

في الإسراء، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء:١].

بحسب السياق، يتوهَّم الإنسان أنّه ما دام الأمر معجزة، انتقالاً مفاجئاً من مكة إلى بيت المقدس، السّياق يقتضي أن يقول الله عزَّ وجلَّ في خاتمة الآية: إنَّ الله على كلِّ شيء قدير، لكنّه جلَّ جلاله قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ يعني هذا الإسراء وذاك المعراج مكافأة لك وتكريم لك، وتكريم السماء تعويض عن جفوة الأرض، لأنَّ الله سمع دعاءك في الطائف، وجاء قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾.

أحياناً يدعو الإنسان الله عزَّ وجلَّ: «يا رب إني ضعيف، إني مغلوب فانتصر»، وبعد أن تمضي سنة ينصره الله، فكأنَّ هذا النَّصر هو جواب الدُّعاء.

هناك نقطة مهمة، يجب أن توقن بفاعليَّة الدُّعاء، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر:٦٠]، والدُّعاء مقبول والطَّلب معقول، والهدف هو الآخرة أو السَّلامة من الفتن في الدُّنيا، فكلُّ إنسان دعا الله عزَّ وجلَّ يسمعه ويستجيب له.

الله معنا أينما كنّا ويسمعنا؛ في بيتك، وفي أحرج الظروف، وفي أهمِّ المواقف، وفي أحلك الليالي، وفي السَّماء، وفي الأرض، في الطَّائرة، تصعد أطباق الفضاء، وفي الغوَّاصة، تغوص في أعماق البحر، في بيتك، في بستانك، في عملك.

سمعت عن طبيب جرَّاح مشهور، لا يُجري عمليَّة جراحيَّة إلا إذا توضَّأ وصلَّى ركعتين لله عزَّ وجلَّ وفي السُّجود يسأله التَّوفيق، والله سمعت عن هذا الطَّبيب نجاحات يصعب أن نصدِّقها، يُجري جراحات عصبية خطيرة في الدِّماغ.

هكذا يجب أن يكون المؤمن، في كلِّ أعماله، إذا عقد صفقة، قبل أن تشتري هذه الصفقة قبل أن تُقدم على هذا العمل، قبل أن تلقي هذا الدّرس، قبل أن تعقد هذا العقد، قبل أن تتكلَّم. قل: توكَّلتُ على الله، ادعُ الله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ٢٨﴾ [لقمان:٢٨].

نصيب المؤمن من اسم (السميع)

من علم أن الله يسمع كلَّ شيء، هل بإمكانه أن يلفظ كلمةً نابية، لا ترضي الله السّميع جلّ جلاله؟!

يقول شخص في وصف آخر: صاحبتهُ ثلاثين سنة ما سمعت منه كلمة نابية، لم أسمع منه سقطاً أو عواراً، ولا كلمة مرذولة إطلاقاً، من أين جاء هذا الانضباط باللسان، من معرفة المؤمن أنَّ الله يسمعه، لذلك من أدب المؤمن مع الله في اسم السَّميع

حفظُ لسانه من الباطل فلا يتكلم إلا بخير، ومن عرف أنَّ الله تعالى سميع كان من أدبه دوامُ المراقبة، ومطالبةُ النَّفس بالمحاسبة، يجب على العبد أن يعلم أنَّ الله تعالى، لم يخلق له السَّمع إلا ليسمع كلام الله أولاً.

أدب ثانٍ: إنّ هذه الأذن، طريقة عملها مجهولة، يعني اهتزاز وصل إلى طبلة الأذن، نُقل هذا الاهتزاز عبر عظيمات السَّمع إلى الأذن الوسطى، ثم إلى الأذُن الداخليّة، ثمَّ نَقل العصب السَّمعي هذا الأثر إلى الدِّماغ ففهمت الكلام المسموع.

فإذا كان نغم رائع تطرب، وإن كان ضجيجاً تضجر، فما النّغم؟ وما الضّجيج؟ أيُعقل أن تكون عندك ذاكرةٌ سمعيّة تعرف بها أصوات النّاس جميعاً، والدَّليل سماع الأصوات على الهاتف، كلَّما جاءتك مكالمة تعرف مَن المتكلم، مِن أولِّ كلمة يقولها!

لا يوجد إنسان في الأرض نبرة صوته كإنسان آخر، أبداً، قزحيّة العين، ونبرة الصوت ورائحة الجلد وبلازما الدم، بصمة الإصبع، هذه هويّة الإنسان، يُقال: إنَّ بعض الحواسب تقرأ أربع مئة وخمسين مليون حرف، هذا صنع الإنسان، وأنت قد يكون في حياتك مئتا شخص تعرفهم، أحياناً شخص بعيد عنك أكثر من عشرين سنة تسمع صوته فجأةً فتقول له: فلان... معنى ذلك أنَّك سمعته وعرفته، وهذه الأذُن التي تلفت نظر العلماء إلى إتقان صنعتها، لك أذنان من أجل أن تعرف جهة الصوت، لك عينان من أجل أن تعرف البعد الثالث، بعين واحدة بعد واحد، بالعينين ترى العمق، يقول بعض العلماء: «ينبغي للعبد أن يعلم أنَّ الله تعالى لم يخلق له هذا السَّمع إلا ليسمع كلام الله» يجلب آلة من أغلى نوع في العالم وثمنها بالآلاف، فلا يليق أن تستعملها لأشياء رخيصة أو مبتذلة، والإنسان خلق الله له سمعاً فلا يليق به أن يسمع الغناء والكلام البذيء والغيبة والنميمة والإفك والبهتان، والكلام المنحطَّ وذكر العورات، بل هذه الأُذُن ينبغي أن تستمع إلى الحقِّ وإلى كلام الله عزَّ وجلَّ.

عن أبي عامر أو أبي مالك الأشعري قال: «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحِرَ والحرير والخمر والمعازف. ولينزلن أقوام إلى جنب عَلَم ويروح عليهم بسارحة لهم،

يأتيهم -يعني الفقير- لحاجة، فيقولون: ارجع إلينا غداً، فَيُبَيِّتُهُمُ الله، ويضع العَلَمَ ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة» [البخاري].

وعن عبد الرحمن بن غنم أنَّه سمع أبا مالك الأشعريّ عن النّبيّ ﷺ قال: «لَيَشْرَبَنَّ ناسٌ مِنْ أُمَّتِي الخَمْرَ يُسَمُّونَهَا بغَيْرِ اسْمِها، يضرب عَلَى رؤُوسِهِمْ بالمَعَازِفِ وَالقينات، يَخْسِفُ اللهُ بِهِمُ الأرْضَ. ويَجْعَلُ مِنْهُمُ القِرَدَةَ وَالخَنازِيرَ» [ابن ماجه، وابن حبان].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صوتان ملعونان في الدنيا والآخرة: مزمار عند نعمة، ورنّة عند مصيبة» [أخرجه الضياء في الأحاديث المختارة، وهو حسن].

وعن عبدالرحمن بن عوف قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لم أنهَ عن البكاء ولكني نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت عند نغمة لهو، ولعب ومزامير الشيطان، وصوت عند مصيبة؛ لطم وجوه وشق جيوب، ورنة شيطان» [أخرجه الحاكم في المستدرك].

وكتب عمر بن عبد العزّيز إلى مؤدِّب ولده، يأمره أن يربيهم على بغض (المعازف):

«ليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاهي التي بدْؤها من الشيطان، وعاقبتها سخط الرحمن، فإنَّه بلغني عن الثّقات من أهل العلم: أنَّ حضور المعازف واستماع الأغاني، واللّهج بها، ينبت النفاق في القلب كما ينبت العشب الماء، ولعمري لَتَوقِّي ذلك بترك حضور تلك المواطن أيسر على ذي الذّهن من الثّبوت على النِّفاق في قلبه».

الله عزَّ وجلَّ أعطاك سمعاً وأعطاك بصراً، فهل تصدق -من باب حسن الظن بالله- أن إنساناً له عين يغضُّ بها عن محارم الله، تنهمر منها دمعتان من خشية الله، أفتظنّ أنَّ هذا الإنسان يمكن أن يرث عينه أم أنّ عينه هي التي ترثه؟ وفي الدّعاء النّبويّ: «ومتِّعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوَّتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا» [الترمذي عن ابن عمر].

فالإنسان المؤمن ترثه عينه وأُذُنه وقوَّته وعقله، ويستمتع بسمعه إلى آخر لحظة في حياته، يستمع للحقّ، هذا السَّمع يجب أن يكون للحقّ، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ

﴿يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٦٨﴾ [الأنعام:٦٨].

إنّ المؤمن يقول لنفسه: قم... فالمجلس فيه غيبة، فيه كلام بذيء، فيه كلام فارغ، فيه لغو.

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ قالَ قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لا يَذْكُرُونَ اللهَ فِيهِ إلا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمارٍ وَكانَ لَهُمْ حَسْرَةً» [سنن أبي داود].

ينبغي أن تستمع إلى الحقّ، العبد إذا تقرّب من ربه بالنّوافل أحبّه الله فأفاض على سمعه نوراً تنفذ به بصيرته.

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ قالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إليَّ عَبْدِي بشَيْءٍ أَحَبَّ إلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْه، وَما يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الذِي يُبْصِرُ بِهِ، ويَدَهُ التِي يَبْطِشُ بِها، ورِجْلَهُ التِي يَمْشِي بِها، وإنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شيءٍ أنا فاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ يَكْرَهُ المَوْتَ وَأنا أكْرَهُ مَسَاءَتَهُ» [صحيح البخاري].

في سمعه نور، يعني أنّ الباطل لا يسمعه، وكلامٌ يناقض القرآن لا يسمعه، والكلام الفاحش والبذيء لا يسمعه، الغيبة يرفضها، إذ في سمعه نور.

«إني لأعرف حجراً بمكة -كما قال النبي ﷺ- كان يسلم عليّ قبل أن أبعث» [مسلم عن جابر بن سمرة].

اسم السَّميع من أقرب الأسماء إليك لأنّك كلّما ناجيته يسمعك ويستجيب لك، هذا اسم السَّميع، وينبغي أن تعلم أنّه ليس هناك معرفة في الأرض تعلو على أن تعرف الله في أسمائه الحسنى، ما من معرفة في الأرض أعظمُ وأجلُّ وأخطر في حياتك من أن تعرف أسماء الله الحسنى، وهذا اسم السَّميع يؤدّبك ويعلّمك.

العزيز

سنبقى في الصفحات التالية مع اسم «العزيز».

هذا الاسم ورد في كثير من آيات القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحشر:٢٣].

ورد مقترناً بأسماء أخرى: ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحشر:٢٤].

﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأنعام:٩٦].

﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾ [إبراهيم:١].

﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الدخان:٤٢].

﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ ﴾ [ص:٦٦].

﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ ﴾ [ص:٩].

﴿ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾ [هود:٦٦].

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الملك:٢].

﴿عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾ [آل عمران:٤].

﴿عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر:٤٢].

وفي صحيح الجامع الصغير من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن من دعاء النبي ﷺ: «لا إله إلا الله الواحد القهار رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار» [أخرجه النسائي في الكبرى والطبراني عن عائشة أم المؤمنين].

ومن الآيات التي ورد فيها اسم العزيز، قال الله تعالى على لسان سيدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة:١١٨].

إن الآية ختمت على النحو التالي: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾، لأن الإنسان مهما علا شأنه، إذا أراد أن يغفر لأحد زلّته لربّما حُوسب، لربّما سُئل لمَ عفوت عن فلان؟ لماذا لم تكلّفه؟ لمَ تساهلتَ معه؟ لكن الله سبحانه وتعالى إذا غفر فهو العزيز الذي عزَّ فغفر، ولا يُسأل عما فعل ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾.

هذه الآية الأولى في دراستنا، والآية الأخرى هي: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الجاثية:٣٧].

والآية الثالثة: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون:٨].

وهذه آية رابعة: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الصافات:١٨٠].

وإليك آية خامسة حينما قال الشيطان: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [ص:٨٢].

اسم العزيز ورد في آيات كثيرة جداً، اخترت لكم من بين الآيات الكثيرة هذه الآيات.

من معاني (العزيز)

المعنى الأول: العزيز: الذي لا مثيل له، ولا مشابه له، ولا نظير له، مِن فِعلِ عزَّ يَعِزُّ، تقول: عزّ الطعام، أي: أصبح قليلاً وأصبح نادراً، واختصاص عزيز، أي: نادر، خبرة عزيزة، أي: نادرة، معنى عزَّ يَعِزُّ، أي: ندر وجوده، أو لا مثيل له، ولا مشابه له، ولا نظير، اسم العزيز بهذا المعنى من أسماء التنزيه، فهناك اسم تنزيهي، وهناك اسم ذات، وهناك أسماء صفات، وهناك أسماء أفعال.

بشكل أوسع: العزيز الذي لا مثيل له، ولا ندَّ له، ولا نظير له، إذا كان الشيء نادراً، قليل الوجود، ليس متوافراً مع إمكان توافره نسميه عزيزاً، فكيف بالذي يستحيل على العقل أن يصدّق أن له نظيراً، إذاً، الله سبحانه وتعالى لا مثيل له، ولا ندّ له، ولا مشابه له، إذاً هو عزيز، وهذا المعنى الأول.

المعنى الثاني: العزيز هو الغالب الذي لا يُغلب، الإنسان إذا غُلِبَ فليس عزيزاً، يصبح ذليلاً، وقد يبالغ المنتصِر في إذلاله، قد يجري بعض التصرفات ليبالغ في إذلاله، فالغالب الذي لا يُغلب يُسمّى عزيزاً، والعرب تقول في أمثلتها: من عزَّ بزّ، أي: مَنْ انتصر أخذ ما راق له، ومن غلب سلب، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِيَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [ص:٢٣]، أي: غلبني، فالقاهر الذي انتصر، وقد يُغلَب، يسمى عزيزاً، فكيف بالقاهر الذي لا يمكن أن يُغلب؟! فالله سبحانه عزيز بالمعنى الثاني: أي القاهر الذي لا يُغلب، والدليل: ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [يوسف:٢١].

وكأن الله تعالى يقول لك: أنت تريد وأنا أريد، فإذا سلَّمْتَ لي فيما أريد، كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي في ما أريد، أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ لو علم الناس أن الله غالب على أمره، لأطاعوه، ولاتكلوا عليه، ولأقبلوا عليه، ولتركوا سواه.

المعنى الثالث: العزيز هو القويّ الشّديد، من عزَّ يعزّ أي: قوي يقوى، والآية الكريمة: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يس:١٤].

يقولون لك: التعزيز، أي: بعد أن تلقي الدرس، تعززه بالتدريبات، مرحلة التعزيز، أي: ترسيخ المعلومات، وتمكينها، هذا المعنى الثالث.

المعنى الأول: العزيز الذي لا مثيل له، ولا ند له، ولا مشابه له، هذا من أسماء التنزيه.

المعنى الثاني: الغالب الذي لا يغلب هذا من أسماء الصفات.

والمعنى الثالث: القوي الشديد، هذا من أسماء الصفات أيضاً، فالقادر الذي قد يضعُف يُسمَّى عند النّاس عزيزاً، فكيف بالقادر الذي يستحيل أن يضعف؟!، فهذا من باب أولى، إذاً الله سبحانه وتعالى عزيز بهذا المعنى الثالث.

وهناك معنى رابع؛ وربما كان المؤمنون في أمسّ الحاجة لفهم هذا المعنى.

المعنى الرابع: العزيز بمعنى المُعِزّ، كأن تقول: الأليم بمعنى المؤلم، فأنت تقول مثلاً: جرح أليم، أي: جرح مؤلم، من معاني وزن فعيل أن يكون بمعنى اسم الفاعل؛ مُفْعِل. فالعزيز بمعنى المُعِزّ، وهو من صفات الأفعال.

هو الذي يعز: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران:٢٦].

آخر ملوك الأندلس أبو عبدالله محمد الصغير عندما غادر الأندلس سنة ٨٩٧هـ بكى، فقالت له أمه عائشة:

ابـكِ مثـل النســاء ملكـاً مضــاعاً لم تحـافظ عليــه مثـلَ الرجــال

فما قيمة الإنسان إذا تخلى الله عنه؟ قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ (١٨) ﴾ [الحج:١٨].

جزء كبير جدّاً من حياتك متعلق بكرامتك، فإذا كنت مع العزيز أعزك الله:

اجعــل لربــك كــل عــزّ ك يســـتقر ويثبــت

فــإذا اعتــززت بمــن يمــو ت فــإن عــزّك ميّــت

المعنى الخامس: «العزيز» هو الشريف، في كلّ مجتمع هناك فئة من الناس تسمّى في اللغة عِليَة القوم، عزيز، صادق، كريم، أصيل، جواد، صبور، حليم، هؤلاء النخبة من الناس هم أعزّة القوم.

ماذا قالت بلقيس؟: ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ ﴾ [النمل:٨٣].

كلام من؟ كلام بلقيس، ماذا قال الله عز وجل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) ﴾ [النمل:٣٤].

إذاً لدينا خمسة معانٍ لاسم العزيز، الأول: من أسماء التنزيه، الثاني والثالث: من أسماء الصفات، وأما الرابع: من أسماء الأفعال.

هذه هي المعاني اللغوية لكلمة عزيز، أو لاسم الله: العزيز، لكنْ هناك تعريف أدق وأجمل: العزيز؛ الذي يقلّ وجوده، وتشتدّ الحاجة إليه ويصعب الوصول إليه، في

وقت واحد، قد يقل وجود شيء ما، ولكن لا تشتد الحاجة إليه، فهناك معدِن نادر جداً، ومع أنه نادر وقليل وجودُه لكن لسنا بحاجة ماسّة إليه، عندئذ لا يُسمّى هذا المعدن عزيزاً، العزيز يجب أن تتوافر فيه صفات ثلاث: أن يقلّ وجود مثله، وأن تشتدّ الحاجة إليه، وأن يصعب الوصول إليه، قد تشتد الحاجة إلى شيء، ولكنه غير نادر كالهواء، كلنا في أمسّ الحاجة إليه، ولكنّه موجود، قد تشتد الحاجة إلى الماء والماء موجود، ووجوده في بعض البلاد كثير غزير.

إذاً شيء عزيز كأن يقال: عزيز المنال لا يُدرك ولا يُنال، هذه الصفات للشيء الذي يقلّ وجوده، وتشتدّ الحاجة إليه، ويصعب الوصول إليه، هذه الصفات لها صفات نقصان ولها صفات كمال، كلما كثر وجوده قلّت عزته، وكلما قلّت الحاجة إليه قلّت عزته، وكلما سهل الوصول إليه قلّت عزته، والآن كلما قلّ وجوده إلى أن يصبح واحداً، هذه صفة كمال في العزيز، يقلّ وجوده، ويندر وجوده، حتى يصبح واحداً، وتشتد الحاجة إليه فهذه أعلى صفة، ولا تكون إلا لله سبحانه.

شخص ما أحياناً قد يحتاج إليه بعض النّاس، بل قد يحتاج إليه أكثر النّاس، فكلما كثر الذين يحتاجون إليه أصبح عزيزاً، فإذا احتاج إليه كلُّ النّاس فهذا شيء نادر، لا يوجد إنسان يحتاج إليه جميع النّاس، قد تجد ملكاً وتجد إنساناً يعيش في أطراف مملكته يعمل راعياً، مع أنه أحد رعايا هذا الملك لكنّه ليس بحاجة إليه، يأكل ويشرب في خيمته من نتاج هذا الغنم الذي يملكه.

كلما اشتدّت الحاجة إلى الشيء أصبح عزيزاً، وكمال هذه الصفة شيء مهمٌّ جداً أن يحتاج إليه كلُّ شيء في كلِّ شيء، أنا قد أحتاج إلى الطبيب عند المرض، ولكن لا أحتاج إليه عند النّوم، أنا أحتاج إلى سرير عند النوم، وقد أحتاج إلى هذا المدرّس إذا كان ابني ضعيفاً في مادة الرياضيات فأنا بحاجة إليه، أما أن يحتاج إليه كلّ شيء، وليس كلّ الناس فقط، لا بل الناس والحيوان والنبات والجماد والذرّات والمجرّات؛ أي: يحتاج إليه كلُّ شيء في كلِّ شيء.

إذاً الله سبحانه وتعالى عزيز لأن قيام الشيء به، قيام المادة، هذه مادة فيها نواة، وفيها كهارب، وفيها دوران، لولا أن الله سبحانه وتعالى قيّوم عليها لتوقفت، كن فيكون، زل فيزول: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ ﴾ [آل عمران:٢].

أي: إن قوام كلِّ شيء به سبحانه، وهو مصدر حياة كلِّ شيء.

لذلك يكون المؤمن شاباً وقد بلغ الثمانين من عمره، لأنه اختار أن يعرف الله، والله لا نهائيّ، أما إذا اختار شيئاً دنيوياً، ووصل إليه، وأحاط به، فقد انتهت حياته، وصارت مملّة، بطولة المؤمن أنه اختار هدفاً لا نهائياً، فهو شباب دائم، ولو كان هناك ضعف في جسمه، في بصره، لكنّ همّته همّةُ شباب، لأن هدفه كبير، وأنت لا تسعد إلا إذا اخترت هدفاً يتناسب مع بنيتك، أنت مصمم لتعرف الله، أنت مفطور على أن تعرف الله.

فإن اخترت هدفاً آخر محدوداً غير الله انتهيت عند الوصول إلى هدفك، انظر إلى إنسان وصل إلى طموحاته الكبرى مالياً، تجدْه في ملل، يقول لك شيء مألوف، ولحكمة بالغة بالغةٍ بالغة لم يشأ ربنا جلّ جلاله أن يجعل الدنيا تمدك بمتعة مستمرة، بل بمتعة متناقصة، أي شيء كنت بحاجة إليه أو تطمح إليه بعد أن تصل إليه يصبح شيئاً عادياً، أوضح شيء الزواج، الذي لم يتزوج يظن الزواج شيئاً غير معقول، بعد الزواج يجده شيئاً عاديّاً جداً.

الشبكية مئة وثلاثون مليون مستقبِل للضوء ما بين مخروط وعصية تشكّل عشر طبقات، العصب البصريُّ تسعمئة ألف عصب، ما هذه المادة التي تتغير ماهيتها إذا جاءها الضوء؟ إذا تغيرت ماهيتها تولد عن هذا التغير، تيار كهربائي ينقل الصورة إلى الدماغ، أنت محتاج إلى الله عز وجل في عينك، وفي أذُنك، وفي لسانك، وفي دماغك، وفي شرايينك، وأيُّ شيءٍ لم يتجلّ الله سبحانه وتعالى عليه يُصبح لا شيء، فأنت قائم بالله، عظامك، عضلاتك المخططة، والملساء، أعصابك وأجهزتك كلُّها تعمل بأمر الله،

فلو أن الله سبحانه وتعالى حجب عنها تجلياته لأصبح الإنسان جثة هامدة، إذاً يحتاجه كلُّ شيء في كلِّ شيء.

أول صفة: الذي يقل وجود مثله، أما كمال هذه الصفة؛ أن يصبح واحداً، فتشتد الحاجة إليه، وكمال هذه الصفة يحتاجه كل شيء في كل شي، يصعب الوصول إليه، فلا يمكن أن تحيط به ولا الأنبياء، فلا يعرف الله إلا الله، أن تصل إليه اتصال عبودية فهذا ممكن، فاستقم على أمره، واعمل الصالحات، تصل إليه، وهذا هو الوصول، وهذا هو الاتصال.

شاب خطب ابنة عالم اسمها وصال، فهذا العالم قال له: مهر هذه الفتاة أن تحضر هذه الدروس التي ألقيها في مجلسي فحضرها فاستغرق فيها فنسي الفتاة، فأرسلت له كتاباً: يا فلان نسيتنا، فقال: يا وصال كنت سبب الاتصال، فلا تكوني سبب الانفصال.

يمكن أن تصل إليه، أن تصل كعبد، فعليك أن تستقيم على أمره، وأن تفعل الصالحات، أن تذكره كثيراً، وأن تخدم عباده كثيراً، فيمكن أن تصل، أما أن تصل إليه وصول إحاطةٍ وإدراكٍ كامل فهذا مستحيل حتى للأنبياء، فلا يعرف الله إلا الله.

فإذا سألت نفسك، ما معنى العزيز؟ فإنَّ معنى العزيز: هو الفرد الذي يحتاجه كل شيء في كل شيء ويستحيل الوصول إليه، وصولَ إحاطة وإدراك، أما وصولُ عبودية فممكن.

قال بعضهم: العزيز من ضلّت العقول في بحار عظمته، وحارت الألباب دون إدراك نعمته، وكلّت الألسن عن وصف كمالاته، ووصف جماله، هذا المعنى عبر عنه النبي ﷺ فقال:

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ عَنْ عائِشَةَ قالتْ: فَقَدْتُ رسولَ الله ﷺ لَيْلَةً مِنَ الفِراشِ فالتَمَسْتُهُ فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وهُوَ في المَسْجِدِ وهُما مَنْصُوبَتانِ وهُوَ يقولُ:

«اللهمَّ إني أعوذُ برِضاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وبمُعافاتِكَ من عُقُوبَتِكَ، وأعوذُ بِكَ مِنْكَ لا أُحْصِي ثَناءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَما أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ» [صحيح مسلم].

والله إن الحق الثابت أنه من عرف الله زهد فيما سواه، إذا عرفت الله لا يمكن أن تتضعضع لمخلوق، وعندها لا ترى مع عزّة الله عزيزاً، ولا ترى مع قدرة الله قديراً، ولا ترى مع حكمة الله حكيماً...

قال ابن رجب وفي بعض الآثار يقول الله تعالى: «ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء وإن فتك فاتك كل شيء وأنا أحب إليك من كل شيء»

فلو شاهدت عيناك من حسننا الذي ... رأوه لما وَلَّيْتَ عنّا لغيرنا
ولو سمعت أذْناك حسنَ خطابنا ... خلعت ثياب العجب عنك وجئتنا
ولو ذُقتَ من طعم المحبة ذرة ... عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنا
ولو نَسمَتْ من قربنا لك نسمة ... لَمُتَّ غريباً واشتياقاً بقربنا

الله عزيز هذا الذي يتوهم بسذاجة أنه بركعتين وليرتين يدخل الجنة إنسان ساذج غبي، ومن خطب الحسناء لم يغله المهر.

وفي حديث بُكَير بن فيروز قال: سَمِعْتُ أبا هُرَيْرَةَ يقولُ: قالَ رَسولُ الله ﷺ: «مَنْ خافَ أدْلَجَ، ومَنْ أدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ، ألا إنَّ سِلْعَةَ الله غالِيَةٌ، ألا إنَّ سِلْعَةَ الله الجَنَّةُ» [سنن الترمذي].

قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ [آل عمران:٩٢].

وقتك الثمين، زبدة وقتك، قوتك، يجب أن تصرفها كلّها في سبيل الله، مالك الذي جمعته بكدِّك، وعرقِ جبينك، يجب أن تنفقه في سبيل الله، ألا إن سلعة الله غالية، الله عزيز؛ بالمعنى الطبيعي الفطري الله عزيز.

الآن من هو العزيز من العباد في ضوء هذا التعريف؟ الأنبياء أعزّة، لماذا؟ لأن الخلق كلَّهم بحاجة إليهم وإلى علمهم، النبي ﷺ عزيز، لأن ربنا عز وجل علّمه، أودع فيه النبوة، فالأنبياء أعزّة، لأن الله جعلهم أبوابَ رحمته، وأبوابَ فضله، وأبوابَ إحسانه، لهذا إرضاء رسول الله ﷺ هو عينُ إرضاءِ الله، ولهذا قرن الله اسم نبيِّه ﷺ مع اسمه، فالنبيُّ عزيز لأنَّ الناس جميعاً في أمسّ الحاجة إليه، في أمر دينهم ودنياهم.

الملك عزيز: إذا كان مَلِك بيده مقدّرات الأمور كلِّها، بيده كلُّ شيء، فالناس جميعاً يقصدونه كبيرهم وصغيرهم، جليلهم وحقيرهم، فكلما اشتدّت الحاجة إليك فأنت عزيز، إلا إن المؤمن إذا اشتدّت الحاجة إليه يكون عزيزاً، لكنه يكون متواضعاً، وأما غير المؤمن فإذا اشتدّت الحاجة إليه يكون متكبّراً.

سُئل الإمام الحسن البصري وقد سما مقامه بين الناس: بِمَ نِلت هذا المقام؟ وقبل الإجابة أهمس في أذن القارئ الكريم بهذه الكلمة من القلب: لا يمكن أن تعرف الله وأن تطيعه، ثم تكون ذليلاً لأحدٍ أبداً، لأن الله عز وجل يقول: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون:٨].

تكون مع العزيز، وتُذَلّ بعد ذلك، لا، لن يكون هذا أبداً، ألا تقرأ في الدعاء يومياً في قنوت الوتر: إنه لا يذِلّ من واليت، ولا يعزّ من عاديت[1]؟

(١) قطعة من حديث رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه والنسائي والدارمي من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما قال علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهنَّ في قنوت الوتر «اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت، فإنك تقضي ولا يُقضى عليك، إنه لا يذل من واليت، تباركت ربنا وتعاليت» وقوله: «ولا يعز من عاديت» زيادة ثابتة في الحديث كما قال الحافظ في التلخيص.

لن تجد مؤمناً تَعَرَّفَ إلى الله عز وجل، واستقام على أمره، واصطلح معه إلا أراه الله معاملة خاصة، وأشعره من خلالها أنه غالٍ عليه، وأنه يحبُّه، قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الطور:٤٨].

أحياناً كثيراً تدعوه فيستجيب لك، تدعوه فيصرف عنك السوء، تدعوه فيلقي حبك في قلوب الخلق، تدعوه فيلين قلوب أعدائك، تدعوه فيلبيك، تسأله فيعطيك، تقسم عليه فيبرك.

فلما سئل الحسن البصري بمَ نلت هذا المقام؟ قال: بشيئين: باستغنائي عن دنيا الناس، وحاجتهم إلى علمي.

لا تكون عزيزاً إذا كنت طمّاعاً، حينما تطمع تصبح ذليلاً، لمجرد أن تطمع فيما عند الناس تصبح ذليلاً.

لذلك إذا طمعت فيما عند الناس كرهوك، وربّ العزة إذا طمعت فيما عنده أحبّك.

لا تسألنَّ بُنَيَّ آدمَ حاجةً ... وسلِ الذي أبوابُهُ لا تُحجَبُ
اللهُ يغضبُ إن تركتَ سؤالَه ... وبُنَيَّ آدم حين يُسألُ يغضبُ

الإنسان؛ إن سألته حاجة غضب منك، ورب العزة إن لم تسأله غضب منك، لذلك فالنبيّ ﷺ قال: «لا يَنْبَغِي للْمُؤْمِنِ أنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ» قالوا: وكيفَ يُذِلُّ نَفْسَهُ؟ قالَ: «يَتَعَرَّضُ مِنَ البَلاءِ لِمَا لا يُطِيقُ» [سنن الترمذي من حديث حذيفة بن اليمان].

وروي عنه: «ابتغوا الحوائج بعزّة الأنفس، فإن الأمور تجري بالمقادير» [أخرجه تمام في فوائده وابن عساكر عن عبد الله بن بُسر]، ومرّ عمر على رجل من القرّاء متماوت فخفقه بالدرّة، وقال له: «ارفع رأسك يا أخي لقد أَمَتَّ علينا ديننا» ورأى عمر رجلاً طأطأ رقبته في الصلاة فقال: يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك ليس الخشوع في الرِّقاب إنما الخشوع في القلوب.

دخل أبو حنيفة في قضية على الخليفة أبي جعفر المنصور، فأعجبه أن يأتيه هذا العالم الجليل الفقيه الكبير، قال: يا أبا حنيفة لو تغشّيتنا دائماً، نحن في استقبالك نعتزّ بك وأهلاً بك، قال: ولِمَ أتغشّاكم يا أمير المؤمنين، وليس لي عندكم شيء أخافكم عليه، وهل يتغشّاكم إلا من خافكم على شيء، ليس لي عندكم حاجة آتيكم من أجلها.

كلما قطعت طمعك من الناس أعزّك الله، وكلما مرغت جبهتك في السجود لله أعزك الله.

قال مطرّف وابن نافع وغيرُهما، لما قدِم هارون المدينة وجّه إلى مالكٍ البرمكيَّ وقال له: قل له (لمالك) احمل لي الكتاب الذي صنّفته حتى أسمعه منك، فوجد من ذلك مالك واغتمّ، وقال للبرمكيّ: أقرئه السلام وقل له: العلم يُزار ولا يزور، وإن العلم يُؤتى ولا يأتي، فرجع البرمكيّ إلى هارون فأخبره بذلك، فغضب، وأشار عامةُ أصحاب مالك أن يأتي هارون، وقال البرمكيّ للرشيد يبلغْ أهل العراق أنك وجّهت إلى مالك فخالفك! اعزم عليه حتى يأتيك، فإذا بمالك قد دخل فسلم وليس معه كتاب، فقال له هارون في ذلك، فقال مالك: يا أمير المؤمنين! إن الله تعالى بعث إلينا محمداً ﷺ وأمر بطاعته واتّباع سنّته، وأن نرعاه حياً وميتاً وقد جعلك في هذا الموضع لعلمك فلا تكن أول من ضيّع العلم فيضيّعَك الله، لقد رأيت من ليس هو في حسبك ولا نسبك من الموالي وغيرهم يعزُ هذا العلم ويجلُّه ويوقر حملته، فأنت أحرى أن تجل علمَ ابن عمك، ولم يزل يعدّد عليه حتى بكى.

ثم قال له حدثني الزهري وذكر حديث زيد بن ثابت، كنت أكتب بين يدي رسول الله ﷺ (لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله) وابن أم مكتوم عند النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! قد أنزل الله تعالى في فضل الجهاد ما أنزل وأنا رجل ضرير فهل لي من رخصة، فقال رسول الله ﷺ ما أدري. قال زيد وقلمي رطب لم يجفّ حتى غشي النبي ﷺ الوحي ووقع فخذه على فخذي فكادت تندقّ من ثقل الوحي ثم خلا عنه فقال اكتب يا زيد ﴿ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ ﴾، فقال: يا أمير المؤمنين

هذا حرف واحد بعث فيه جبريل والملائكة مسيرةَ خمسين ألف عام حتى أُنزل على نبيّه أفلا ينبغي لي أن أُجلّه وأُعزّه؟ قال، فقال هارون: قم بنا إلى منزلك. فأتى هارون منزل مالك فدخل مالك واغتسل ولبس ثياباً جدداً وتطيّب ووضع مجامير فيها عود وجلس فقال: هات، فقال هارون: تقرأ عليّ؟ ما قرأت على أحد منذ زمان، قال: فأخرِج عني الناس حتى أقرأه عليك. فقال مالك: إن العلم إذا مُنع من العامّة لأجل الخاصّة لم تنتفع به الخاصّة.

قال فكان هارون قد استند إلى جنب مالك، فلما بدأ يقرأ له قال: يا أمير المؤمنين! من تواضع لله رفعه الله. وفي رواية أبي مصعب: من إجلال الله إجلالُ ذوي الشّيبة المسلم. فقام فقعد بين يديه فحدّثه، فلما فرغ عاد إلى مكانه. قال مالك: لما كان بعد مدّة قال لي الرشيد: تواضعنا لعلمك فانتفعنا به، وقال هارون لمالك: إن رأيت أن تأتي ولديّ فتحدّثَهم. قال فما ردَّ عليه مالك شيئاً حتى خلا من عنده، فتولّ إليه فقال: أنشدك الله يا أمير المؤمنين ألا تكون أولَ من أُجري على يديك ذلُّ العلم. قال: وما ذاك؟ قال: أدركتُ أهل العلم يُؤتون ولا يأتون. فقال له: أصبت بل يأتوك.

وخرج مالك؟ فقال هارون: هذا الذي تلومونني فيه ما رأيت رجلاً أعقلَ منه، قلت له آنفاً فلم يردَّ على شيء كراهيةَ أن يخرج منه شيء في ذلك الجمع فلما خلوت خرج لي عمّا في نفسه [ترتيب المدارك وتقريب المسالك].

العالم عزيز يجب أن يزهد فيما عند الناس، يجب أن يكون بعيداً عن دنياهم.

سأل شخص: كيف الطريق إلى الله؟ قال: لو عرفته لعرفت الطريق إليه، كلمة بليغة.

إذا عرفت الله فإنّك تعرف بالفطرة ماذا يرضيه، كيف تُقبل عليه، وكيف تستقيم على أمره، وكيف تضحّي من أجله، وكيف تُؤثره على كلّ شيء، سأل: كيف الطريق إليه؟ فأجابه: لو عرفته لعرفت الطريق إليه، فقال له: لم أفهم كلامك، كيف أعبد من لا

أعرفه، فقال: كيف تعصي من تعرفه، قال الحسن بن أحمد الصفار: سئل الشبليّ وأنا حاضر: أي شيء أعجب؟ قال: قلبٌ عرف ربّه ثم عصاه:

تعـــصي الإلـــه وأنـــت تظهـــر حبّـــه   هـــذا لعمـــري في المقـــال بـــديع
لـــو كـــان حبّـــك صـــادقاً لأطعتـــه   إن المحـــبّ لمـــن يحـــب يطيـــع

سئل شخص: متى عرفت الله؟قال: والله ما عصيته منذ عرفته.

مرة ثانية أهمس في أذنك أيها القارئ العزيز؛ والله الذي لا إله إلا هو لو تعلمت علم الثقلين بنيّة أن تكون ذا شأن في المجتمع، وعصيت الله فيما بينك وبينه، فأنت لا تعرفه، لا تعرفه، لا تعرفه.

من لم يكن له ورع يصدّه عن معصية الله إذا خلا، لم يعبأ الله بشيء من عمله أبداً، لا تنظر إلى صغر الذّنب، ولكن انظر مَنْ اجترأت عليه، لمجرد أن تعصي الله عز وجل يجب أن تعلم علم اليقين أنك لا تعرفه كمال المعرفة.

العلماء ثلاثة كما قال سهل التُستريّ رحمه الله:

عالم بأمر الله تعالى لا بأيام الله، وهم المفتون في الحلال والحرام، وهذا العلم لا يورث الخشية.

وعالم بالله تعالى لا بأمر الله ولا بأيام الله، وهم عموم المؤمنين.

وعالم بالله تعالى وبأمر الله تعالى وبأيام الله تعالى، وهم الصدّيقون، والخشية والخشوع إنما تغلب عليهم، وأراد بأيام الله أنواعَ عقوباته الغامضة ونعمِه الباطنة التي أفاضها على القرون السالفة واللاحقة فمن أحاط علمه بذلك عظُم خوفه وظهر خشوعه.

لو تخيّلنا إنساناً يحمل أعلى شهادة شرعية، وله مئة مؤلف وهو ذو منصب دينيّ خطير، ودخلت عليه امرأة وتأمل فيها وملأ عينيه منها، وعنده مستخدم على الباب، لا

يقرأ ولا يكتب، لكنه قرأ قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور: ٣٠].

فغض هذا المستخدم بصره عنها فهو عند الله عالم، والأول الذي ملأ عينيه من الحرام جاهل.

عَنْ مسروقٍ قالَ: كَفَى بالمرءِ عِلْماً أَنْ يَخْشَى اللهَ، وكَفَى بالمرءِ جَهْلاً أَنْ يُعْجَبَ بعِلْمِهِ [سنن الدارمي].

دع هذه الكلمة حيةً في ذهنك دائماً: لمجرد أن تعصيه فأنت لا تعرفه كما ينبغي.

أدب المؤمن مع اسم الله العزيز

قيل: ما الأدب الذي يجب أن يتحلّى به المؤمن حيال هذا الاسم؟ الله عزيز، ما موقف المؤمن حيال هذا الاسم؟

قال: المؤمن إذا عرف العزيز ينبغي ألا يعتقد أن لمخلوق إجلالاً، نعم هو أديب جداً مع الناس، لكنّه لا يمكن أن يعتقد لمخلوق إجلالاً، أي: يجب أن يحقر الأقدار إزاء قدره، وأن يمحو الأذكار سوى ذكره، قرأ فرقد السبخي في التوراة: «من جالس غنياً فتضعضع له ذهب ثلثا دينه».

لماذا؟ قال: لأن الإيمان ما وقر في القلب، وأقرّ به اللسان، وصدّقه العمل، فإذا أجللتَ غنياً لغناه، أجللته وانحنيت له وأثنيت عليه بما ليس فيه، فقد أذهبت ثلثي دينك، والإيمان ثلاثة أشياء: ما وقر في القلب، وأقر به اللسان، وصدقه العمل، فإذا كان العمل الظاهري تعظيماً لإنسان لا يعرف الله وبدورك عظمته لأنه غني، فالنتيجة إذاً ذهب ثلثا دينك.

«واعلم أن شرف المؤمن صلاته بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس» [الطبراني في الأوسط بسند حسن عن سهل بن سعد].

عند المؤمن عزة لو وزعت على أهل بلدة لكفتهم، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨] المؤمن يرى أنه عبد لله حقاً، وأن الله لن يضيعه، ولن يسلمه، ولن يتخلى عنه، أفلا يكون مع كل هذا عزيزاً؟

عندنا قاعدة ثابتة: أنه إذا عَظَّمَ القلبُ الربَّ صَغُرَ الخلق في عينه، فإذا كان الله ليس عظيماً في عينه كبر الخلق في عينه، هذا امتحان، فلان مثلاً يقولها بملء فمه: سيفعل ويترك، وعنده قدرة على كذا وكذا وكذا، إن كنت مثله فأنت لا تعرف الله إذاً، ما دمت تُجِلُّه كلَّ هذا الإجلال فإنك لا تعرف الله، لأن الله عز وجل لو جمّد قطرة من دمه في أحد شرايين مخه لأصبح مشلولاً، ولو أن الله عز وجل جمّد بعض الدّم في شرايين قلبه لمات بسكتة قلبية، وقضى من فوره، والإنسان كلما ارتقى إيمانه التفت إلى الله أكثر وأكثر، قال تعالى: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾ [يونس:١١].

إذا عرفت أنه المُعِزّ، فلو اجتمع الناس جميعاً على أن يرفعوك درجة لا يستطيعون، أما إذا رفعك الله عز وجل درجة أو أكثر، لا يستطيع أهل الأرض أن يضعوك، ومعلوم: إذا عرفت أنه المُعِزّ لم تطلب العز إلا بطاعته.

قال بعضهم: لو اجتمع الخلق على أن يثبتوا لأحد عزّاً، فوق ما يثبته اليسير من طاعته لما قدروا، لا تُعَزّ إلا بطاعة الله، أعِزَّ أمر الله يعزَّك الله، قال العلماء: لو اجتمع الخلق على أن يثبتوا لأحد ذلاً أكثر من اليسير من المعصية لم يقدروا، هناك عامل واحد يرفعك ويخفضك هو الطاعة والمعصية، كلما أطعته ازددت عزّاً، وكلما هان أمر الله عليك، هنت عليه، ويجب أن يفهم المسلم أن حال المسلمين اليوم: هان أمر الله عليهم فهانوا على الله.

قد يقع الإنسان في خطأ كبير، يظن أن هؤلاء الذين يحسبون بالملايين في العالم الإسلامي يظنهم مسلمين، والمسلم له صفات، فإذا أحسن بهم الظّنّ وهم تاركو الصلاة، ويكذبون، ويأخذون ما ليس لهم عدواناً، وظلماً، وقد يفعلون المعاصي كبيرها

وصغيرها، فقد انزلق فيما هم انزلقوا فيه، هان أمر الله عليهم فهانوا على الله، هاتان الكلمتان تلخصان كل أحوال المسلمين.

أما على المستوى الفردي، فإذا استقمت على أمر الله، وإذا اعتمدت عليه، وتوكلت عليه، فالله سبحانه وتعالى يعاملك معاملة خاصة، أما إذا عصاه الناس فالله سبحانه وتعالى لا بد من أن يؤدبهم، لأنه إذا عصاه من يعرفه سلط عليه من لا يعرفه.

رجل ذهب لأداء فريضة الحج، كان ذا شأن كبير، رافقه عشرات الخدم والحشم، فكان هؤلاء الخدم في أثناء الطواف يبعدون الناس عنه تعظيماً له، حج وطاف وسعى، وانتهى حجه، وعاد إلى بلده، راوي هذه الواقعة عمرو بن شيبة قال: وبعد حين وعند جسر في بغداد رأيت رجلاً يشبه هذا الذي رأيته يطوف، لكن رأيته في حالة زريّة قميئة يمدّ يده للناس، يا ترى أهذا فلان؟ أهو هو؟ ليس هو، دخل الشكّ في قلبه، فتقدم منه فقال: مالك تنظر إليّ، قال: كأنك تشبه فلاناً، قال: أنا هو، فقلت له: ما الذي جعلك في هذه الحال؟ قال: إني تكبّرت في موضع يتواضع الناس فيه، فكان هذا جزائي، فالطواف حول الكعبة ليس فيه كبر، أنا فلان، أنا حجمي المالي كذا، لا كبر في هذا الموقف، في هذا الموقف أنت عبد الله عز وجل ولو كنت ملكاً، قال: ترفعت في موضع يتواضع فيه الناس فوضعني الله في موضع حيث يترفع الناس فيه.

كلما أحاط الإنسان نفسه بهالة من الكِبْر والاستعلاء هانَ وحطَّه الله جزاءً وفاقاً، صفتان لا تقربهما: الكِبْر والظلم، إن الله سبحانه وتعالى يغفر عشرات الذنوب بسهولة، إلا ذنبين يبطش بصاحبهما: الكِبْر والظلم، إلا اثنتين فلا تقربهما أبداً: الشرك بالله، أي: الكبر، والإضرار بالناس، أي: الظلم.

كيف يقول الله عز وجل: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾ [فاطر: ١٠].

أي: العزة كلها له، هو العزيز، ونقرأُ آيةً أخرى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [المنافقون:٨]، يبدو أن هناك تناقضاً بين الآيتين، هكذا يبدو، والجواب: إذا ابتغيت العزةَ بالإقبال على الله والاعتزاز به فأنت عزيز، لكن حينما قال الله عز وجل: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ أي: مهما أردت العزة بغير الله فأنت ذليل، إذا أردت العزّة عن غير طريق طاعة الله، عن غير طريق الاستقامة على أمره، عن غير طريق إعزاز أمر الله، فأنت ذليل.

ويُروى أن امرأة العزيز قالت ليوسف عليه السلام بعد أن ملك خزائن الأرض وقعدت له على رابية الطريق في يوم موكبه، وكان يركب في زهاء اثني عشر ألفاً من عظماء مملكته: سبحان من جعل الملوك عبيداً بالمعصية، وجعل العبيد ملوكاً بطاعتهم له، إن الحرص والشهوة صيّرا الملوك عبيداً وذلك جزاء المفسدين، وإن الصبر والتقوى صيّرا العبيد ملوكاً، فقال يوسف كما أخبر الله تعالى عنه: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٩٠﴾ [يوسف:٩٠].

وقد نسمع ونقرأ عن إنسان كان في أعلى درجات العزّ، فلما بنى عزه على معصية الله جعله الله في أسفل السافلين.

وهناك شيء آخر، فسيدنا يوسف عندما قال: ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢٣﴾ [يوسف:٢٣]، جعله الله عزيز مصر فانظر واعتبر.

والله سمعت حكاية، لولا أن صاحبها حيٌّ يرزق، لما استطعت أن أصدقها: شاب حديث السّنّ عنده دكان صغيرة في حي من أحياء دمشق، وهي حكاية قديمة جداً، يبدو أن فتاة ساقطة تحرّشت به وأغرته، فأغلق محله وتبعها، وكان هذا الشاب لسبب معين قد حجّ في سن مبكرة، وبينما هو في طريق متابعته إياها تذكر حجته فقال: لا والله لا أفسد هذه الحَجَّة، فركب الحافلة وعاد أدراجه إلى البيت، أي: خشي الله وأطاعه، وفي اليوم التالي جاءه أحد وجهاء الحي من جيرانه فقال له: يا فلان هل أنت

متزوج؟ فأجابه: لا والله يا سيدي، قال له: عندي فتاة مناسبة ابعث أهلك ليروها، فقال: ظننت أن في ابنته دمامةً، لأنه هو الذي عرضها عليه، قال: فبعثت بأهلي ليخطبوها فرأوها في أحسن حال فوافقت، وما هي إلا أشهر حتى جعلني شريكه في عمله التجاري وأغلقت المحل السابق وبعته، طبعاً العم توفي، لكنّ الرجل لا يزال حياً يرزق، وغدا من كبار التّجار.

﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ [يوسف:٢٣].

ما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه دنياه، أي شيء تدعه في سبيل الله فلا بد من أن يعوضك الله خيراً منه في دينك ودنياك، أتحبُّ أن تكون عزيزاً؟ أتحبُّ أن تكون مكرّماً؟ أتحبُّ أن تكون محترماً؟ أتحبُّ أن تكون مبجَّلاً؟ بالغ في طاعة الله، كلما أطعته رفعك وكلما خالفت أمره وضعك، فإذا هان أمره عليك هنت عليه، وإذا عظَّمت شعائره أعزّك.

فالذي ذهب إلى المدينة، وزار النبي ﷺ، يعلم ماذا أعني بهذا الكلام، ما من مخلوق على وجه الأرض أعزه الله عز وجل كرسول الله ﷺ، لو أن إنساناً في حرم النبي ﷺ ودخل الملك لما رآه ملكاً، في الحرم النبوي، لو دخل الملوك مجتمعين لا ترى أنهم ملوك في حضرة النبي ﷺ، كان ﷺ إذا دخل عليه العبد وأصابته رعدة يقول: «هون عليك، فإنني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش، كانت تأكل القديد» [ابن ماجه عن أبي مسعود البدري].

أناسٌ يأتونه من أطراف الدنيا فإذا اقتربوا من مقامه يبكون، وقد مضى على وفاته ألف وأربعمئة عام ويزيد، ما هذا السّرّ؟ هل في الأرض كلِّها مخلوق أعزّه الله كرسول الله ﷺ؟ خذ صحابته أمثلة حيّة، سيدنا الصديق ماذا كان يفعل؟ له جيران فقراء، وكان يحلب لهم الشياه، فلما صار خليفة للمسلمين حزن أهلُ هذا البيت لأن منصبه الرّفيع يمنعه أن يحلب لهم الشياه، في اليوم الذي تلا تسلّمه منصب الخلافة طُرِقَ الباب، قالت الأم لابنتها: يا بنيتي افتحي الباب، ثم قالت: يا أمي جاء حالب الشاة،

جاء اليوم أيضاً ليحلب الشاة، ما هذا التواضع؟ وما من صحابي أعزّه الله، وذُكر في القرآن، كسيدنا الصديق.

ملخص البحث، قانونٌ، علاقة طرديّة، كلما زدته طاعة وتعظيماً زادك عزاً، وكلما تساهلت بأمره وقلت: لا تدقق، إن الله غفور رحيم، والدين يسر، وقلت لصاحبك: أنت متشدّد ومتشنّج كثيراً، افعل ما تشاء، ولا بأس عليك، فكلما تساهلت في طاعته، خفضك الله عز وجل وحطّ من شأنك، وبلغت الهوان.

إن هؤلاء الذين علموا الناس؛ الأئمة الكبار كالإمام الشافعي وأبي حنيفة ومن قبلهما الصحابة الكرام، فاسم كل واحد منهم على كل لسان، بذكرهم تتعطر المجالس، عظّموا الله فخلّد ذكراهم.

سيدنا موسى عليه السلام غدا في أوج عزه، وفرعون يهون ويغرق، يقول الله عز وجل: ﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس:٩٠-٩١].

وصدق الله العظيم ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج:١٨].

سيدنا إبراهيم عليه السلام أرادوا به كيداً فقلنا: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء:٦٩].

هذا هو العز، عِزُّ الله لإبراهيم، وموسى، ويوسف، كما علمت.

النبي ﷺ، ما من مخلوق أعزه الله كرسول الله، وسيدنا الصديق، وسيدنا عمر مر بخولة بنت ثعلبة في أيام خلافته... قف يا عمر، فوقف لها وأصغى لها وأطالت الوقوف وأغلظت القول وقالت: هيه يا عمر عهدتك وأنت تسمى عميراً وأنت بسوق

عكاظ... فلم تذهب الأيام حتى سُميت عمر، ثم لم تذهب الأيام حتى سُمّيت أمير المؤمنين فاتق الله في الرعية... فقال لها الجارود: قد أكثرت أيتها المرأة على أمير المؤمنين، فقال عمر: دعها أفلا يسمعها ابن الخطاب وقد سمع الله مجادلتها للرسول ﷺ من فوق سبع سماوات؟!

كان وقّافاً عند كتاب الله فرفعه الله سبحانه.

وكذلك سيدنا عثمان، وسيدنا علي، وبالمقابل أبو جهل ما نهايته؟ ما سُمْعَته؟ ما قيمته؟ وأبو لهب كذلك، هؤلاء صناديد الكفر أين هم؟ أما عكرمة بن أبي جهل فحينما تاب إلى الله تاب الله عليه وأصبح سيدنا عكرمة مع أنّ له جاهلية وكان قد أُهدر دمه وله موقفه المعادي لرسول الله ﷺ.

ما من مخلوق على وجه الأرض إلا ويحبّ وجوده، ويحب سلامة وجوده، ويحبّ كمال وجوده، ويحبّ استمرار وجوده، وجزء كبير جداً من وجودك أن تكون مكرّماً، عزيزاً، مرهوباً، سليماً من كل هُون، وما من شيء يسبب لك الهوان كالمعصية.

فالعفيف عزيز، وحينما يطمع الإنسان بأعراض الناس وينظر إلى نسائهم نظرات ريبة يصبح ذليلاً، الإيمان عفّة عن المطامع وعفّة عن المحارم.

وعفَّة عما في أيدي الناس، وعفَّة عن أعراضهم، لهذا غضُّ البصر من لوازم المؤمن، المؤمن محصَّن من أن يتبع شهوته، وكلما غضَّ بصره زاده الله عزاً، وكلما غض بصره زاده سعادة بأهله، ولا يمكن أن تكون إلا بطاعة الله، يعيشان حياة ثرة غنية، موفقة لأنها أطاعت ربها فيه، وأطاع ربه فيها.

فمطلب العزّة مطلب عام، ما من مخلوق إلا ويتمنى أن يكون عزيزاً، والعزة ثمنها الطاعة، وهذا الكلام موجه إلى الشباب، اصبر على الحرام يأتك الحلال، لا تفكر ولا تسمح لخاطرك أن تَرِد عليه معصية وسوف تُوفّق في عملك وتُوفّق في زواجك، سوف يجعل الله لك مخرجاً، وسوف تُرزق من حيث لا تحتسب، وسوف يرفع الله لك شأنك.

هذه حقائق ثابتة أيها القارئ الكريم، فكل من يبتغي العزّة بغير الله أدركه الهوان، فلو أنّ الإنسان اتخذ الله وليّاً لنجح وأفلح: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [هود:١١٣].

إذا ركنت لإنسان منحرف، رأيته قوياً، ورأيت عنده الدنيا، ورأيت أنك إذا أطعته جاءك خير كثير، إذا ركنت إليه ونسيت الله عز وجل فلن يأتيك الذل إلا من طرفه، لن يأتيك الضيم إلا منه تأديباً لك.

أحياناً يعتزّ الإنسان بقريب له، له شأنه يُفاجأ بعد حين أن هذا القريب يتخلّى عنه، يدخل عليه فيتجاهله، يعرض عليه قضيّة ليساعدَه بها فيقول: لا أستطيع، أنا لا أخالف القوانين أبداً، هذا جزاء الذي ركن إليه. «اطلبوا الحوائج بعزّة الأنفس فإن الأمور تجري بالمقادير».

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ [الفاطر:٢].

وبعد فالوقائع والحوادث التي يمكن أن تروى في موضوع العزة والذلة أكثر من أن تُحصى، وما من واحد من الناس إلا من خلال معارفه وأقربائه، ومحيطه وبيئته يعرف عشرات الحكايات، هذا الشاب الذي استقام على أمر الله رفعه الله في الدنيا قبل الآخرة، فقد أشاح بوجهه عن الحرام فزوّجه الله حلالاً طيباً: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن:٤٦].

قيل: «جنة في الدنيا وجنة في الآخرة، والدنيا قبل الآخرة».

﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الطور:٤٨].

وحسنٌ جداً أن أختم البحث بهذا الأثر أسوقه في هذه العجالة حول اسم: العزيز، «من ابتغى أمراً بمعصية كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى». فأي شيء أردت أن

تناله من خلال معصية يجب أن تعلم علم اليقين أن هذا الشيء ندَّ عنك ونأى، وأي شيء إذا أردت أن تناله عن طريق الطاعة فاعلم علم اليقين أنه اقترب منك ودنا «من ابتغى أمراً بمعصية كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى»، أي: في التجارة لا تكذب تربح، وتكون عند الله صادقاً، وإذا كنت محامياً لا تكذب وسيأتيك دخل وفير، وتكون عند الله صادقاً، كما تكون عند الناس مخلصاً. قال ﷺ: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدق البيعان وبيَّنا بورك لهما في بيعهما.وإن كتما وكذبا فعسى أن يربحا ربحاً ويمحق بركة بيعهما» [رواه الشيخان من حديث حكيم بن حزام]. فهذا الذي يعصي الله لينال دنيا فانية، جاهل أحمق، لا يعرف الله عز وجل، فأضاع الآخرة الباقية..

لأن الله عز وجل وعده حقٌّ ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ [يونس:٣٢] فلتعلم إذاً أن مما وعد الله به المؤمن أن يحفظه، ومما وعد به المؤمن أن يدافع عنه، ومما وعد به المؤمن أن يرزقه، ومما وعد به المؤمن أن يعزَّه، والدليل ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

انظر؛ لو قال الله: العزة للمؤمنين لكان من الممكن أن يُفهم: ولغير المؤمنين قد تكون عزة، أما عندما قال: لله العزة، وجاء الاسم المجرور مقدماً على العزة فأفاد القصر والحصر، العزة وحدها إذاً لله فإذا أردتها فكن مع الله.

كن مع الله تر الله معك ... واترك الكل وحاذر طمعك

وإذا أعطاك من يمنعه ... ثم من يعطي إذا ما منعك؟!..

الواسع

اسم الله «الواسع» ورد في القرآن الكريم مطلقاً، وقد اقترن باسمه العليم بعدة مواضع، منها قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [البقرة:١١٥].

وفي قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة:٢٦١].

وقد ورد هذا الاسم مقيداً، أي مضافاً، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ﴾ [النجم:٣٢].

ولم يرد هذا الاسم في السّنّة النّبويّة الصّحيحة.

من معاني (الواسع)

«الواسع» في اللغة على وزن فاعل، أي اسم فاعل للموصوف بالوُسع، فعله وسع، يسع، سعة، فهو واسع وأوسع الله عليك أي أغناك.

ورجل موسِع يعني مليء بالمال والثراء، يقال إناء واسع، وبيت واسع، وقد يستعمل في الغنى.

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [الطلاق:٧].

وتوسعوا في المجلس، أي تفسحوا، والسَّعة الغنى والرفاهية، فكلمة «الواسع» مشتقة من السَّعة.

والسَّعة تضاف إلى العلم إذا اتَّسَع وأحاط بالمعلومات الكثيرة، وتضاف مرةً أخرى إلى الإحسان وبَسْط النِّعَم.

يقول ابن الأثير: «الواسع وهو الذي وَسِع غِناهُ كلَّ فقير، ورحمته كل شيء»(١) تطلب أحياناً من إنسان مبلغاً من المال يقول لك: هذا فوق طاقتي إذ إن دائرة مالِه لا تتسع لهذا الإنفاق، وأحياناً تطلب من إنسان أن يُعينَك فيقول لك: هذا أمر لا أقدِر عليه، إنه فوق طاقتي ولا تتَّسِع له سُلطتي ووجاهتي، وأحياناً تسأله سؤالاً فيقول لك: لا أدري، هذا لم يبلُغْه علمي، فالإنسان محدود؛ محدود في علمه، ومحدود في قدرتِه وماله وجاهه، وكل إنسان هناك من هو فوقَه.

إلا أن الله سبحانه وتعالى هو الواسع فرحْمَتُه وسِعت كل شيء وغِناه وسِع كلَّ فقير، وإحسانه شمل كلَّ مخلوق، فلا تضيق دائرة علمه عن شيء، ولا تضيق دائرة إحسانِه عن أيِّ شيء، ولا تضيق دائرة قوَّتِه عمّا دونه، فقُوَّته تتعلق بكل ممكن، وإحسانه يتعلق بكل ممكن، وعلمه يتعلق بكل ممكن، لذلك قيل: الواسع هو الذي لا نهاية لسُلطانه، فنحن لا نستطيع تصوُّر اللانهائي، فالطريق لها نهاية، وهذه المجرّة لها نهاية، وهذا الغني مهما عظُم ماله فإنه ينتهي عند رقم معيّن، وهذا الإنسان مهما بلغ من جاهِه هناك شيء لا يستطيعُه، مثلاً؛ أمهر طبيب بالعالَم إذا مات المريض هل يمكنه أن يعيد له الحياة؟ هذا شيء فوق طاقَتِه.

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر ٥/ ١٨٤.

إنّ الطّبيب له علم يُدلّ به إن كانَ للنّاس في الآجال تأخير
حتى إذا ما انتهت أيام رحلتِه حار الطبيب وخانتْه العقاقير

إذاً فالواسع هو الذي لا نهاية لسُلطانه، وبالمناسبة الإنسان مهيّأ ليتعرف إلى الله، إذْ لا تملأ نفسَه إلا معرفةُ الله، وأيُّ شيء دون الله عز وجل يَمَلُّه بعد حينٍ، يحيط به أولاً وينتهي من التفكير فيه؛ لذلك حينما يغفل الإنسان عن الله عز وجل بعد أن تتحدّد دنياه يشعُر بخيبة الأمل، ويشعر بالسأم والضجر لا لشيءٍ إلا لأن نفسه مخلوقة لتعرف اللانهائي وتعرف المطلق، فإذا شغلها بغير المطلق وهو النهائي والمحدود سئمت هذا المحدود وملَّته وضجرت منه، وقد تلاحظ ببساطة أن الإنسان حينما يكون شاباً يعيش بالأحلام، يتصور بيتاً معيّناً، ويتمنى زوجة معينة، ومرْكَبة معينة، فإذا وصل إلى نهاية أهدافِه وتحدّدت حِرْفته وبيته وزوجته ودخْلُه وحُجِّم في آماله وأحلامه ملّ الدنيا، لأنّ النّفس خُلقت لتعرف غير المحدود والمطلق واللانهائي، لكنك شغلْتَها بالمحدود، فالمحدود تسْتَوْعِبه سريعاً وتملُّه.

لن تسعد في الدنيا إلا إذا تطلَّعت إلى الله عز وجل، وإلا إذا كان الهدف هو الله، ولسان حالك يقول: إلهي أنت مقصودي ورِضاك مطلوبي، ما سوى الله يُمَلّ وما سِواه تسأمه النفس، وقد تتبرّم منه فهو محدود، لكنّ النفس متشوّقة أبداً لذلك الواسع الذي لا نهاية لسلطانه، والواسع الذي لا حدّ لإحسانه، فلا يُحَدّ غِناه، ولا تنْفَد عطاياه، ولا يشغله معلوم عن معلوم، ولا شأنٌ عن شأن.

أحياناً يتحدث إليك شخص فتقول لشخص آخر يريد أن يكلمك في أمرٍ ما: انتظر إلى أن ينتهي من حديثه هذا كي أتمكّن من الفهم منك، فلا يتَّسع إدراكك لسماع صوتين معاً، ولا إلى أن تنصرف إلى جهتين، لأن الإنسان غير واسع، أما ربنا عز وجل فمعنى أنه واسع، أي: لا يشغله معلوم عن معلوم، ولا شأنٌ عن شأن، فلو أنّ كل العباد دَعَوْهُ في وقتٍ واحدٍ لسَمِعهم جميعاً، فإذا دعا الإنسان ربَّه استجاب له وسمع دعاءه، هناك من يظن أن الله سمِعه وحدَه، ففي هذه اللحظة التي دعَوْت الله فيها كم

من إنسان دعا الله تعالى؟! فإذا استيقظت إلى صلاة الفجر وذهبت إلى المسجد، وبعد الصلاة دَعَوْت الله، على مستوى البلد الواحد تجد آلاف المصلين في المساجد، وبعد الفجر يقبل المصلون على ربهم بالدعاء، وكلّ إنسان يتوجه إلى الله متوسلاً، وكلهم يسمعهم سبحانه في اللحظة ذاتها، على حين أنّ الإنسان لا يستطيع أن ينصرف إلى جهتين معاً، حتى في علم النفس يقولون: إن الذي يبدو لك أنه يستمع إلى شخصين معاً إياك أن تصدِّق ذلك، وإنما عنده ما يسمى سرعة التحوّل، أما أن يستطيع أن يستوعِب حديثين معاً أو ثلاثة فهذا غير ممكن، ففي سهرة مثلاً تجد كلّ اثنين يتكلمان معاً، فهل تستطيع أن تستوعب ما يقوله كلٌّ من يتحدث؟! إذ إنك لو انصرفت إلى شخصين نسيت الآخرين، لكن الله عز وجل واسع لا يشغله معلوم عن معلوم، ولا شأن عن شأن، ولا حال عن حال.

(الواسع) الذي وسع سمعه جميع المسموعات، ووسع رزقه جميع المخلوقات، فله مطلق الجمال، والكمال، في الذات، والصفات، والأفعال.

وعند البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت:

«الحمد للهِ الذي وسعَ سَمْعُهُ الأصواتَ» [البخاري عن عائشة].

فأنزل الله تعالى على النبي ﷺ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ①﴾ [المجادلة:١].

وقيل: الواسع هو العالم المحيط علمه بكل شيء، أحياناً تركب مركبة فترى كلَّ شيءٍ أمامك مكشوفاً، أما خلفك ممّا دون زاوية النظر فلا تستطيع أن تحيط به، لحكمة أرادها الله عز وجل، أمّا عينا الطائر مثلاً فتُغَطِّيان ثلاثمئة وستين درجة ولكن قد لا تغطي تحته فهذه ثلاثمئة وستون درجة مستوية، والإنسان سمعه محدود، وبصره محدود، وقدرته محدودة وإحسانه محدود.

وقيل: هو الذي وسِع بعِلمه جميع المعلومات، ووسِعت قدرته على كل المقدورات، واسِع الرحمة والغِنى والسلطان والعلم والقدرة والإحسان.

وقيل: هو الذي لا حدود لمدلول أسمائه وصفاته، فاسم الرحيم ليس له حدود، واسم الكريم ليس له حدود، واسم الغني والقوي كذلك، وما معنى الله أكبر؟ أي مهما عرفت عن أسمائه الحسنى فهو أكبر من ذلك.

زيد بن مهلهل بن زيد الطائي قدم على رسول الله ﷺ في وفد طيِّئ سنة تسع، فأسلم وسماه رسول الله ﷺ زيد الخير، وقال له: «ما وُصِفَ لي أحد في الجاهلية فرأيته في الإسلام إلا رأيته دون الصفة غيرك» [الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر: ٢/ ٥١٤].

أحياناً يقول لك صديقك: هذا المكان قطعة من الجنّة تذهب إليه وفي ذهنك تصوّر متنامٍ فإذا بك تجده أقلَّ بكثير مما وُصف لك.

وقال ابن المبارك: ما وُصف لي أحد ورأيته إلا كانت رؤيته دون ما وصف لي إلا حيوة بن شريح فإنّي رأيته فوق ما وُصف لي.

وقال مروان بن محمد: ما رأيت فيمن لقيت أخشعَ من وكيع، وما وُصف لي أحد قطُّ إلا رأيته دون الصِّفة إلا وكيع فإني رأيته فوق ما وُصف لي.

لقد كان أحد الصحفيين يعمل في حقل الإعلام فكان إذا أراد أن يلتقي مع أديب يقرأ له الكثير قبل لقائه به، وهذا الأديب أو الشاعر لا يظن أن هذا الصحفي يعرف عنه الكثير فإذا التقى به وسأله وأجاب جواباً غير علمي يردُّ عليه بتحفظ ويقول: قاله أحد النقاد فينكَمش وينكمش ولما عوتِب هذا الذي يُجري هذه البرامج: لماذا تحرج السائلين بهذه الطريقة؟ قال: لأنني أحب أن أعيدهم إلى حجمهم الطبيعي.

فالإنسان له حجم إلا أن هناك أشخاصاً لهم القدرة على الظهور بأحجام أكبر من أحجامِهم، أما في بعض الظروف الصعبة فإنهم يُحَجَّمون ويعودون إلى حجمهم الأصلي، وكلُّ إنسان له حجم وله سقف، فعندما ذكر ربنا عز وجل مقالة سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة:١١٨].

فلو أننا وقفنا عند قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ يظن المرء أن ختام الآية فإنك أنت الغفور الرحيم، وليس كذلك بل قال: ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ قال بعض العلماء: «ما من إنسانٍ يعفو إلا ويُسأل لماذا عَفَوْت»، هل بإمكان موظف أن يطوي تكليفاً لمكلَّف بضريبة معينة؟ إذا طوى ضريبة وأعْفاه منها كلياً سيُسأل: لماذا أعْفَيْته؟ فالإنسان إذا أراد أن يعفوَ قد يكون عفوُه مأخذاً عليه أما الإله العظيم: ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ لا يستطيع مخلوق أن يسألك لماذا عفوْت عنه؟ ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾.

وكثيراً ما تأتي خواتيم الآيات على غير ما نتوقَّع قال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء:١].

فما دام الذي أسرى بعبده ليلاً فالسياق -فيما يبدو- يتطلب: (وهو على كل شيء قدير)، لكن خُتمت الآية بقوله تعالى: (إنه هو السميع البصير)، لأنَّ النبيّ ﷺ دعا ربّه في الطّائف فقال: «إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي... لك العتبى حتى ترضى» [الطبراني في الكبير عن عبدالله بن جعفر] سمع الله دعاءه بالطائف فكان الرد الإلهي هذا التكريم، أي يا محمد سمعنا دعاءك في الطائف، ورأينا حالك وهذا هو الجواب، أنت الآن مُكرّم، وقد أُريت ملكوت السموات والأرض، وقد نِلْتَ المقام الأول الذي لا يكون إلا لواحدٍ من خلقي، فختام الآيات له معنى دقيق ودقيق.

فمعنى الواسع أن رحمته لا حدَّ لها، وعلمه لا حد له وقدرته لا حد لها، فهذا الاسم إذاً تعلّق بكل أسماء الله كاسم الرحمن قال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الإسراء:١١٠].

اسم الواسع متعلق بكل أسمائه، هو واسع المغفرة، وقيل: الواسع الذي لا حدود لمدلول أسمائه وصفاته؛ واسع العلم وواسع المغفرة وواسع الرحمة وواسع الملك.

بعض العلماء الذين تحدثوا عن أسماء الله الحسنى ذكروا أن الواسع الذي لا نهاية لبرهانه ولا غاية في سلطانه فهو واسع في علمه فلا يَجهل، فأعلم عالم يقول لك مثلاً: غابت فكرة عني، ويؤلف كتاباً وبعد عشر سنوات تكون هناك مؤاخذات في الطبعة الثانية، غابت عنه هذه الحقيقة وهذه الفكرة، حتى الأئمة الكبار فأبو حنيفة النعمان -مثلاً- غاب عنه حديث شريف في مسألة ما ولو اطّلع عليه لأدْلى بحكمٍ آخر غير الحكم الذي حَكَمَ به؛ وفوق كل ذي علمٍ عليم، فالواسع الذي لا نهاية لبرهانه ولا غاية لسلطانه، واسع في علمه فلا يَجهل، وواسع في قدرته فلا يَعجل، والله قدير، والإنسان أحياناً يرى بعض المنحرفين يتحدثون بكلامٍ قبيح، ويتحدَّون الذات الإلهية وينطقون بالكفر، والله جلّ جلاله بقُدرته يسحقهم في ثانية واحدة فهو واسع في علمه فلا يجهل، وواسع في قدرته فلا يعجل، وهو المعطي الذي لا يسأل وهو الكريم فلا يبخل وهو الحليم فلا يعجل.

وقيل: الواسع الذي لا يعزُب عنه أثر الخواطر في الضمائر، أنت قد تتأمل إنساناً وتتأمل قِوامه، ولون جلدِهِ، ولون عينيه ولون شعره، وألوان ثيابه وأناقَتَه، وحركته ونظرته ولفْتَتَه ونبرة كلامه، لكن هل تستطيع أن تكشف بماذا يفكِّر؟ أو ما الذي يخطر بباله؟ لا يمكن، إذاً دائرة معلوماتك محدودة، أما الواسع فهو الذي لا يعزب عنه أثر الخواطر في الضمائر، فكُلُّ الخواطر التي تخطر على بالك هي في علم الله عز وجل.

وقيل: الواسع الذي أفضالُه شاملة وعطاياه كاملة؛ إذا أعطى أدهش، كما قيل: الواسع هو المطلق، فنحن عندنا محدود ومطلق، فما سوى الله محدود، لكن هذا المحدود بالنسبة لنا غير محدود.

فالآن بعد مئات السنين من البحث والتأمل وصُنع المناظير العِملاقة والمراصِد الجبارة هل تصدِّقون أيها القراء الكرام أن بعض عدسات المراصِد يستمر تبريدها خمسة عشر عاماً، هناك مرْصد بأمريكا استمرت مدة تبريد عدساته خمسة عشر عاماً من أجل

أن يمكننا من رؤية الكواكب التي لا تُرى بالمناظير الصغيرة، ومع ذلك يقولون لك: وصلنا إلى مجرَّة تبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية!! تقول لهم: يا تُرى هل هناك مجرة أبعد من هذا؟ يقولون لك: نعم، لكنّ علمنا وصل إلى هذا الحد، فهذا الكون الذي نعيش فيه محدود نظرياً، والله مطلق، والكون بالنسبة إلى الله محدود، بينما هو بالنسبة إلينا غير محدود، فكيف بخالق الكون؟

مثلاً من باب التوضيح وضعنا رقم (واحد) في دمشق ولو وضعنا عند نقطة بدايته صفراً ولفَّ هذا المرء العالم كم سيكون بينه وبين النقطة التي ينتهي إليها والتي هي منطلق بدايته؟ لو أردت أن تحسب هذا الرقم لوجدتْ أنه رقم خيالي، ومع ذلك فهو لا يساوي شيئاً مع اللانهاية، فأكبر عدد على الإطلاق إذا نُسب إلى اللانهاية فهو صفر، موضوع الأبد لا يستطيع العقل إدراكه فالجنة أبدية، والإله لا نهاية له، وما سواه محدود.

قال بعض العلماء: والله يا رب لو تشابهت ورقتا زيتون ما سُميت الواسع، فالأرض تحمل ستة آلاف مليون إنسان، ولنُجْرِ إحصاءً على مستوى بلد واحد، فهل هناك وجهٌ يشبه وجهاً؟ حتى لقد قيل لي: لو جئنا بآلة تصوير ملوَّنة ذات حساسية للألوان التي في البشر فلا تستطيع هذه الآلة أن تظهر الفروق التي بين الأشخاص، إذ إن كل شخص له لون، أما هذه الآلة فقد تظهر مئة شخص بلونين أو ثلاثة فقط، في حين أن كل شخصٍ له لون ونبرة صوت ورائحة جسم وكيمياء دم وهي البلازما وله شكل بالقزحية وله بصمة وزُمرة نسيجية، فأنت لا تشبه في العالم كلِّه إلا واحداً، فالعلماء اكتشفوا الآن مليونين ونصف مليون زمرة نسيجية، إذاً الله واسع؟

تصور كم ورقة نبات في الأرض؟ هناك ورقة إبرية وتلك مسنَّنة.. إلخ، ألف نوع من النبات الذي لا يعد ولا يُحصى، وهذا النبات الذي يوضع في الردهة له خصائصه التي ينفرد بها، فالواسع الذي لا حدود لإبداعه، ونحن إبداعنا محدود، وفي البحر مليون نوع من السمك فهناك سمك بشكل زهور وسمك شفاف ترى أمعاءه

بداخله والآخر أسود فاحِم، وهناك من السمك الذي يلقي سحابة أمامه دفاعاً عن نفسه وهناك الذي يلقي تياراً كهربائياً بقوة ستة آلاف فولت، شيء عجيب، وأنواع الطيور لا تُعد ولا تُحصى، والزواحف والورود، أوضح مثل وجوه البشر كلها ذات أنفٍ وعينين وفم، فهل تستطيع أن تصنع خمسة آلاف مليون وجه دون تكرار؟ هذه البصمة يمكن أن نكبِّرها على مستوى متر مربع، ولو عرضنا خمسة عشر ألف بصمة لا يمكن أن تتشابه بصمتان، والبصمة تحوي مئة نقطة فلو تشابهت سبع نقاط لكانتا لإنسان واحدٍ مع ذلك هناك جزر وفروع وأغصان وخُلجان ورؤوس كل هذا في البصمة، وبعض المجرمين استغلّ هذا الأمر واستأصلها وبعد حين ظهرت البصمة من جديد على النسيج الذي وُضع كرقعة قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ ﴾ [القيامة:٤].

البصمة تقوم عند كل إنسان مقام التوقيع، وهناك الآن بعض الأقفال لا تفتح إلا على قزحية العين نظراً لأنه ليس في الأرض إنسان واحد يشبهك في قزحيَّة العين، إذ ينعدم في الأرض وجود تشابه قُزحيتين لإنسانين، فالواسع لا حدود له، وكل أسمائه لا حدود لها، في حين أن المخلوق محدود.

فالله هو الواسع؛ إذا نظرنا إلى عِلمه فلا ساحل لبحر علومه، وإذا نظرنا إلى إحسانه ونعَمِه فلا نهاية لإحسانه، وكل سَعَة وإن عظمت تنتهي إلى طرف، فأكبر محيط هو المحيط الهادي، فلو ركبته تصل بعد شهرين إلى شاطئ حيث ينتهي المحيط الهادي، والقمر وصل إليه رواد الفضاء وكذلك المشتري وصلوا إليه، فكل شيء مهما بدا لك واسعاً له حدّ ونهاية.

اسم (الواسع) في الآيات القرآنية

ولنا من بعد وقفة مع الآيات الكريمة التي ورد فيها اسم الواسع، قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ [البقرة:١١٥].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ ﴾ [البقرة:٢٤٧].

في الآيتين السابقتين اقترنت السعةُ بعلمه، وكذلك في الآية التالية، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة:٢٦١].

عَلِم إخلاصَك في هذا الإنفاق فهو واسع في عطائه لك، وواسع في علمه فلا يعزب عنه مثقال ذرة، قال تعالى: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ ﴾ [البقرة:٢٦٨].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [آل عمران:٧٣].

هناك معنى عميق الدلالة، ففي الحياة الاجتماعية والوظيفية هناك مناصب؛ فهناك مدير دائرة، وهناك موظف بالدرجة العاشرة وهذا المنصب يقال لك: شُغِل ولا سبيل للارتقاء إليه حتى يُزاح الذي فوقك، فليس من شواغر فالعطاء ليس واسعاً، لكن الله تعالى يَسَع فضله الخلقَ كلَه، فلا يحسد إلا الجاهلُ قال المعافى بن زكريا:

أيا حاسداً لي على نعمتي أتدري على من أسأت الأدب؟!
أسأت على الله في فِعله لأنك لم ترضَ لي ما وهب

فليثق المرء بعطاء ربه وليطلب منه فهو سبحانه واسع عليم، فالإنسان عطاؤه محدود لكنّ الله واسع ولا حدود لفضله، فبَدَل أن تحسد الناس اسْعَ في طلب ما عند الله كما

طلبوا من الله، لذلك قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [آل عمران:٧٣].

فالحسد يتناقض مع فهم الإنسان لاسم الله (الواسع)؛ لأن الحاسد لا يرى ما عند الله من خير عميم.

عن أبي هُرَيْرَةَ قالَ: قامَ رَسُولُ الله ﷺ فِي صَلاةٍ وَقُمْنا مَعَهُ فَقالَ أعْرابِيٌّ وَهُوَ فِي الصَّلاةِ: اللهمّ ارْحَمْنِي ومُحَمَّداً وَلا تَرْحَمْ مَعَنا أحَداً، فَلَمّا سَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ قالَ للأعْرابِيِّ: «لَقَدْ حَجَّرْتَ واسِعاً» يُرِيدُ رَحْمَةَ الله [رواه البخاري].

لو أن الخلق جميعاً كانوا على أتقى قلب رجلٍ في البشر لَوَسِعهم فضل الله عز وجل، كلمة واسع كلمة رائعة جداً؛ والله واسع عليم قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ أي: يعطيه من يشاء من عِباده.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة:٥٤].

لا تحسُد، ولا تتمنّ ما عند أخيك بل اطلب من الله ولا تتمنّ ما فضَّل الله بعض الناس على بعضهم، وأصغِ سمعك لقول الشاعر ففيه معنى رائع في الموضوع الذي نحن فيه:

ملك الملوك إذا وَهَبَ ... لا تسألنّ عن السبب

وأنا عدلْته وقلت:

ملك الملوك إذا وهب ... قُم فاسألنّ عن السبب

الله يعطي من يشاء ... فَقِف على حدِّ الأدب

لا تحسدْ، وإنما تنافس مع أخيك دون أن تحسُده، قال تعالى: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين:٢٦].

لأن فضل الله واسع يؤتيه من يشاء، وقال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ [النور:٣٢].

لو كان إنسان يساعِد الفقراء لضَجِر وتبرّم أحياناً، وقال: كفاكم، لقد سئِمت؛ لأنه ليس واسعاً، ولكنهم لو سألوا الله عز وجل لوجدوا عطاءه واسعاً دافقاً، وقد قال رسول الله فيما يرويه عن ربه تعالى:

«يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وإِنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فسَأَلُوني فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسانٍ مَسْأَلَتَهُ ما نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البَحْرَ، يَا عِبَادِي إنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاها، فمَنْ وَجَدَ خَيْراً فلْيَحْمَدِ اللهَ ومَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ» [رواه مسلم عن أبي ذر].

هناك أشخاص يملكون ثروة طائلة، فهذا الإنسان لو اشترى أفضل منزل وأفضل جزيرة وأفضل يخت، لربما ضاق ذرعاً خوفاً على المال أن ينفد، والنبي ﷺ يقول فيما يرويه عن ربه: «فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسانٍ مَسْأَلَتَهُ ما نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البَحْرَ».

اركب البحر واغمس إبرة فيه وارفَعْها ثم انظر ماذا أخذت من ماء البحر، فهذا الذي أخذته هي الدنيا والبحر هو الآخرة، والله واسع عليم، فالإنسان مهما غنِيَ وتنعَّم وقوِيَ وانغمس في الملذّات والشهوات فكلّ هذا لا يساوي من الآخرة مثقال ذرة، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قالَ قالَ رسولُ الله ﷺ: «لَوْ كانَتِ الدُّنْيا تَعْدِلُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ما سَقَى كافِراً منها شَرْبَةَ ماءٍ» [رواه الترمذي].

وقال تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ [النساء:١٣٠].

فإذا أساء الزوج إساءة بالغة لهذه الزوجة وتفرَّقا فقد يُرْسِل الله لهذه الزوجة المظلومة زوجاً أغنى وألطف وأحبّ، والله واسع عليم.

قال تعالى: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الأنعام:٨٠].

وسِع ربي كل شيء علماً، أي: لا تخفى عليه خافية، فالله يسمع دبيب النملة السمراء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، فهل تستطيع أنت أيها الإنسان أن تسمع دبيب النملة السمراء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء؟ لذلك وسِع ربي كل شيء علماً، وهل تستطيع أن تقرأ خواطر الحاضرين معك؟ والله واسع عليم.

وقد قيل: اقترن اسم (الواسع) باسم (العليم) في كثير من الآيات لئلا يستبعد العبد مضاعفة الأجر، فالله واسع وعليم، يعلم إخلاصك، يعلم طهارتك، يعلم ما تنطوي عليه من نية عالية جداً، يعلم براءتك، فيضاعف لك الثواب، يضاعِف لأنه واسع، وحكمة المضاعفة هو عليم، واسع العطاء، واسع الغنى، واسع الفضل.

ولكن لئلا تتوهم أن كل عطاء يقابله إكرام، فالله عليم، الذي أعطى قد يعطيه الله وقد لا يعطيه لأنه عليم بنواياه، خبير بالبواعث الحقيقية، خبير بالأهداف التي يبتغيها.

كل تلك الآيات تبيِّن سَعَة فضْلِه وسَعَة عِلْمِه، أما هذه الآية فهي تبيِّن سَعَة رحمته قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٥٦].

فهذه الآية مطمئنة، تطمئن إليها النفوس حتى الجانحة منها فلعلها تؤوب، فالله تعالى قال: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍۚ ﴾ فأنت داخِل رحمة الله عز وجل قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾ [طه:٩٨].

وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝٧ ﴾ [غافر:٧].

فالإنسان العالم ليس بيده شيء، والإنسان الرحيم ليس بعالم، أمّا أن تجتمع الرحمة مع العلم فهذا فضل واسع! فهناك رحمة مع جهل، وعلم مع قسوة لكن: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ فاجتماعُهما شيء تسعد به النفوس وتنشرح له القلوب، قد تجد شخصاً من أذكى الخلق لكنه لئيم وقلبه كالصخرة، وأحياناً يقابلك شخص قلبه يفيض بالرحمة ولكنه جاهل فلا هذا يعجبك ولا ذاك، أما أن تجتمع هاتان الخصلتان فهذا من الكمال، قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝٧ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ ﴾ [الذاريات:٤٧].

هذه الآية تتفق مع أحدث نظرية في الكون وهي تمدّد الكون.

الواسِع هو المطلق لا يشغله معلوم عن معلوم ولا شأنٌ عن شأن ولا مسموع عن مسموع ولا دعاء عن دعاء، وسِع إحسانه جميع الخلائق، ولا يمنعه إغاثة ملهوف عن إغاثة غيره، وبعض الأئمة يُرجِّحون أن اسم الواسع جاء عَقِب اسم المجيب، وأنَّ التقدير إذا سأله سائل كيف يمكنه إجابة جميع الخلائق؟ كيف يسمع أصواتهم مرة واحدة؟ وكيف يعلم ضمائرهم دفعةً واحدة؟ وكيف يستطيع تحصيل مراداتهم جميعاً؟ الجواب هو واسع عليم.

قد يسأل المرء نفسه أحياناً كيف أن الله يستمع لجميع المخلوقات ويجيب جميع الخلائق ويعلم كل الضمائر؟ والجواب: إنه واسعٌ عليم، وكأن السَّعة والعلم متعلقان بالمجيب والحديث الشريف:

«إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن ليسعْهم منكم بسطُ الوجه وحسنُ الخلق» [أخرجه الحاكم في «المستدرك» عن أبي هريرة]، المال يضيق ولكنّ الخلق أوسع.

نصيب المؤمن من اسم الله (الواسع)

من أدب التخلّق باسم الواسع: أن يتّسع خلُقُك ورحمتُك لجميع عباد الله؛ فقد يكون عطفك كلُّه لأولادك، وأحياناً لأقربائك وتضيق دائرة رحمتك عن الغرباء، وتحب أسرتك وعشيرتك وقبيلتك، أما المؤمن فكلما ازداد إيمانه اتّسعت دائرة رحمته لكل الخلائق.

عن عائشة رضي الله عنها زَوْجَ النبيِّ ﷺ قالَتْ للنَّبيِّ ﷺ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قالَ: لَقَدْ لَقِيت مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكانَ أَشَدَّ ما لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ العَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يا ليلَ بْنِ عَبْدِ كُلالٍ فَلَمْ يُجِبْني إلى ما أَرَدْتُ، فانْطَلَقْتُ وأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إلا وأَنَا بقَرْنِ الثَّعالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فإذا أنا بسحَابةٍ قَدْ أَظَلَّتْني، فَنَظَرْتُ فإذا فيها جِبْرِيلُ، فَنادَانِي فقالَ: إنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبالِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قالَ: يا مُحَمَّدُ فَقالَ ذلك فيما شِئْتَ، إنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ، فقالَ النَّبيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شيئاً [روه البخاري].

فالنبي ﷺ قال: «اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون» [البيهقي في شعب الإيمان عن عبدالله ابن عبيد]، طبعاً لا بد من باب الموازنة فما منا من أحد لو أساء إليه آخر إساءة بالغة إلا ويتمنى أن يُقطّعه إرْباً إرْباً لكن النبي ﷺ وسِعت رحمته خصومه وأعداءه والذين كذّبوه وسخِروا منه واسْتَخفوا به والذين أغْرَوا سفهاءهم بإيذائه هؤلاء وسِعتهم رحمة النبي ﷺ، فمن أدب التخلق بهذا الاسم أن تتّسع رحمتك لكلّ عباد الله من كلّ الأجناس، والمؤمن أوسع مدى من ذلك فحتى الحيوانات يرحمها؛ إنكم لن تسَعوا الناس بأموالكم فسعُوْهم بأخلاقكم.

أحد العلماء يقول: «تأدُّباً مع اسم الواسِع ينبغي أن تتَّسِع دائرة علمك لأن الله عالم ويحبُّ كلَّ عالم وأن تتسع دائرة إحسانِك ودائرة عَفْوِك لتشمل كل الناس»، فهناك قلب صغير وهناك قلب كبير يتسع لكل الناس ولكل التجاوُزات والحماقات، ولكنّ هناك من ينفجر قلبه ويضيق ويكيل الصاع صاعين، والعوام يقولون: الوعاء الأكبر يتَّسع للأصغر، فأنت كلما كبِرت عند الله اتَّسعت نفسك لكل الخلائق، والكبير يسَعُ الصغير، والحليم يسع الأحمق، والعالم يسع الجاهل، والغني يسع الفقير، فهذا هو التطبيق العملي لهذا الاسم وهو أن تتَّسِع في علمك ورحمتك وإحسانك وعَفْوِك.

الإنسان الواسع يتسع للحسود مثلاً ولغيره، ولكلى من أساء إليه لذلك: قال سهل بن عبد الله: كلم الله موسى بطور سيناء. قيل له: بأي شيء أوصاك؟ قال: بتسعة أشياء، الخشية في السر والعلانية، وكلمة الحق في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنى، وأمرني أن أصل من قطعني، وأعطي من حرمني، وأعفو عمن ظلمني، وأن يكون نطقي ذكراً، وصمتي فكراً، ونظري عبرة.

إذا عرفنا اسم «الواسع» لا نتقاتل، بل نتعاون، لا نتنافس على الدنيا، على النفط، على مصادر المياه، على القمح، هناك معركة مناطق نفوذ، وهناك معركة مياه، وهناك معركة نفط، وكل هذه المعارك غير مقدسة.

الرؤوف

مع اسم جديد من أسماء الله الحسنى، وهو «الرؤوف».

سمّى الله جلّ جلاله ذاته العليّة باسم الرؤوف وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم في أحد عشر موضعاً

ولقد ذكر اسم الرؤوف مع اسم الرحيم في تسعة مواضع في القرآن الكريم[1]

نكتفي بذكر بعضها: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة:١٤٣].

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [البقرة:٢٠٧].

---

(١) البقرة: ١٤٣، التوبة: ١١٧، ١٢٨، النحل: ٧، ٤٧، الحج: ٦٥، النور: ٢٠، الحديد: ٩، الحشر: ١٠.

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [آل عمران:٣٠].

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [التوبة:١١٧].

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ [النحل:٤٧].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الحج:٦٥].

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النور:٢٠].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ ﴾ [الحديد:٩].

﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحشر:١٠].

والملاحظ أن هذين الاسمين وردا معاً في تسعة مواضع لأنهما من طبيعة واحدة.

من معاني اسم الله (الرؤوف)

الرؤوف صيغة مبالغة من اسم الفاعل رائف، وهو الموصوف بالرأفة فعله رأف، يرأف، رأفة، فهو رائف ورؤوف، والرّأفة في حقّ الإنسان تعني أن يمتلئ قلبه بالرِّقة وهي أشدّ من الرّحمة، رحمة، فرأفة، وقيل بل شدّة الرّحمة ومنتهاها هي الرَّأفة، قال

تعالى: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ [النور:٢].

الرّأفة رقّة القلب، وهي مشاعر العطف والرّحمة، ويمكن أن نقول: إن الرّحمة تسبق الرّأفة، والرّأفة منزلة تأتي بعدها، فلان رحيم، فإذا اشتدت رحمته فهو رؤوف، أو إنّ الرّأفة آخر ما يكون من الرحمة، لذلك قُدِّمت الرّأفة على الرّحمة تقديمَ أهميّة في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة:١٢٨].

لذلك قالوا: أرحم الخلق بالخلق رسول الله.

فرأفة النّبيّ ﷺ بأصحابه ما بعدها رأفة، التفّ أصحابه حوله، فدوه بأنفسهم وبأرواحهم لأنه كان رحيماً بهم، أما إذا قلنا: إنّ الله جلّ جلاله رؤوف فهناك معنى آخر؛ يحفظ لهم سمعهم وأبصارهم وحركاتِهم وسكناتِهم، أحد علماء دمشق بدأ بالتعليم في الثامنة عشر وتوفاه الله في الثامنة والتسعين، وكان يُدير مدرسة خرّجت كبار القادة في البلد، هذه المدرسة طبعاً استمرت ثمانين عاماً، كان إذا مشى في الطّريق ورأى شابّاً يقول له: يا بنيّ أنت كنت تلميذي، وكان أبوك تلميذي، وكان جدّك تلميذي، علّم ثمانين عاماً تعليماً إيمانياً شرعيّاً علميّاً وكان منتصب القامة، حادّ البصر، مرهف السّمع، أسنانه في فمه، يُقال له يا سيّدي ما هذه الصّحة التي حباك الله بها؟ يقول يا بنيّ حفظناها في الصّغر فحفظها الله علينا في الكبر، من عاش تقيّاً عاش قويّاً.

الرّؤوف يدل على معنى التعطّف على عباده المذنبين، يفتح لهم باب التوبة أجمعين، ما لم تغرغر النفس أو تطلع الشّمس من مغربها.

«من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه» [أخرجه مسلم عن أبي هريرة].

من دلائل رأفته جلّ جلاله أن الله عز وجل يبسط يده في الليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها.

وهناك نقطة مهمة، فالله عز وجل أعطانا عقلاً، وأقام فينا فطرة، وسخر لنا هذا الكون بسماواته وأرضه، وأعطانا حرية الاختيار، وأودع فينا الشهوات، وأنزل على رسله البينات، والله عز وجل أعطى كل شيء، فالكون مسخر تسخير تعريف وتكريم، والعقل متطابق في مبادئه مع الكون، فطرة سليمة تكشف لك الخطأ، وحرية اختيار تثمّن لك العمل، وشهوة تدفعك إلى الله صابراً أو شاكراً، وقوة فيما يبدو تعينك على تحقيق اختيارك، وشرع يعد ميزاناً على ميزاني العقل والفطرة، وانتهى الأمر، لكن الله فوق كل ذلك، فوق الكون الدال على وجوده وكماله ووحدانيته، وفوق العقل الذي هو أداة معرفة الله، وفوق الفطرة التي هي أداة كشف الخطأ، وفوق الاختيار الذي يثمن العمل وفوق الشهوة التي تدفع إلى الله عز وجل، وفوق القوة التي تحقق بها الرغبات، وفوق الشرع الذي يُعد ميزاناً دقيقاً. فالله جل جلاله رأفةً بعباده يتابعهم ويبين لهم، ويحذرهم، وينذرهم، ويجعل أفعاله مبينةً لشرعه، يعالجهم نفسياً، واجتماعياً، وجسدياً، وأحياناً يسوق لهم المصائب، فيُلقي في قلوبهم الخوف والطمأنينة إنه شديد المحال، وهذه كلها ليصون العبد عن أن يقع في الخطأ.

والإنسان الواعي العاقل الموفق لا يقع في الخطأ ولا يحتاج بعدها إلى معالجة هذا الخطأ، وقد سأل معاوية بن أبي سفيان أميرُ المؤمنين أحدَ دهاة العرب عمرو بن العاص من صحابة رسول الله ﷺ؛ قال: يا عمرو ما بلغ من دهائك؟ قال: والله ما دخلت مدخلاً إلا أحسنت الخروج منه، فقال معاوية: لست بداهية، أما أنا فوالله ما دخلت مدخلاً أحتاج أن أخرج منه.

الرؤوف هو الذي يخفف عن عباده فلا يكلفهم ما يشق عليهم، ولا يخرجهم عن وسعهم وطاقتهم، قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء:٢٨].

وقال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ ﴾ [البقرة:٢٨٦].

ومن دلائل رأفته بعباده جلّ جلاله أنه يصون عباده عن موجبات عقوبته.

الأب أحياناً يضع نظاماً فإذا لم يطبّقه الابن فإنّه يستحقّ عقوبة الأب، لكنّ الأب الأكمل يمنع ابنه من عمل يستوجب عقوبته، والطّبيب النّاجح يمنع المريض من أكلة تستوجب عملاً جراحيّاً، فإذا عصم الله عباده من عمل يوجب لهم عقاباً رأفة بهم فهذا أعلى درجة من الرّحمة، أي حال الله بينه وبين معصية تستوجب عقاباً.

﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الشورى:٢٧].

إذاً ربما أعطاك فمنعك وربما منعك فأعطاك، والدنيا العريضة يمكن أن تكون حجاباً بين العبد وربّه، وأحياناً بعض ألوان الشِّدَّة يمكن أن تسوق العباد إلى باب ربهم فيسعدوا بقربه، وما خلق الله الإنسان ضعيفاً إلا ليفتقر بضعفه فيسعد بافتقاره، ولو خلقه قويّاً لاستغنى بقوته فشقي باستغنائه.

أخ كريم آخر حدثني عن ماضيه ورجاني أن أروي قصته في أحد دروس المسجد، درس في فرنسا، وعاش مجتمع التفلت، فلما قدم إلى بلده، قال: جعلت من بيتي ملهى، كل الموبقات في البيت، وأنا أعتقد أن الحياة هكذا.

﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ [القيامة:٣٦-٤٠].

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون:١١٥].

ثم قال: فجأةً أصبت بمرض عضال، كل شيء أمامي يهتز، وفقدت التوازن والتوافق الحركي، عشرون محاولة كي أمسك بكأس، وعشرون محاولة كي أمسك الملعقة، إنه عدم التوافق الحركي، وعدم التوازن، والأشياء كلها تتحرك وترتجف، وقال لي: لقد التقيت بسبعة وثلاثين طبيباً في دمشق وكلهم عجز عن معرفة هذا المرض، ثم

ذهبت إلى بلد غربي، فقال لي الأطباء: إن هذا المرض يصيب الناس بنسبة واحد على ثلاثة عشر مليوناً، وجاؤوا بطبيب يُعد الأول في العالم في هذا المرض فبقي يعالجني ستة أشهر، ثم قال لي: أنا أعلم الأطباء بهذا المرض، وليس لك علاج إطلاقاً، فعد إلى بلدك أو اذهب إلى الهند فالتقِ ببعض البوذيين لعلك تألف هذا المرض، وانتهى الأمر... عاد إلى الشام، وله قريب اصطحبه إلى بعض دروس المسجد، وبينما هو في حلقة الدرس قال: يا رب إن شفيتني لأصلينَّ، وفي الدرس الثاني قلت في سياق الحديث: إن الله لا يُجرَّب ولا يشارط، فقال من توه: والله يا رب لأصلين، وأول مرة يصلي في حياته في الدرس الثاني، أما حالته المرضية فلا تُطاق، وكل شيء أمامه يتحرك اضطراباً في الصورة، وعدم توافق حركي، ويقسم بالله العظيم أنه عاد إلى البيت، وفجأةً ثبتت الصورة أمامه، ومن شدة فرحه اختل توازنه وصاح، ثم قام ليقف فوقع، فأمسك الكأس فوقع، أما الصورة فقد ثبتت، وبعد حين عاد له التوافق الحركي، والتوازن، وهذا الإنسان هو الآن من طلاب العلم، ومن رواد المساجد! لقد اصطلح مع الله، وتاب توبةً نصوحاً... ويقول: لولا هذا المرض لجعلت بيتي باراً، وجعلته كالنادي الليلي، وكل المعاصي كنت أقترفها ولكنتُ واصلْت رحلة الضلال إلى نهايتها.

الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان:٢٠].

والنعم الظاهرة لا اختلاف فيها، لكن النعم الباطنة هي الشدائد التي يسوقها الله عز وجل للإنسان ليحمله على التوبة، وكم من إنسان اصطلح مع الله عز وجل إثر شدة باطنة، وخوف شديد، ومرض كبير، وضائقة مالية خانقة، وعلى إثر هذه الشدائد تُحل العقد، ويصطلح الإنسان مع الله، فالحيلولة بين الإنسان وأن ينحرف رأفة، أما إذا أصر على الانحراف فمعالجته وهو منحرف رحمة، والله سبحانه وتعالى رؤوف رحيم.

هناك طبيب ينصحك، ويبين لك مضار التدخين، ويعطيك الأدلة، ويطلعك على أحدث الأبحاث، ويبين لك آلية ضرر التدخين مثلاً، فإذا أصر المريض على متابعة هذه العادة السيئة، وأصيب بمرض عضال، فالطبيب نفسه جراح، يجري عملية جراحية، فإذا سمعت نصيحته فقد اتبعت اسم الرؤوف، وإن لم تستجب إلى نصيحته فأنت أمام اسم الرحيم.

ومن رأفة الله بعباده أنك إذا توجهت إلى غيره، واعتمدت على غيره، ووضعت الأمل بغيره، يؤدبك حتى تبقى معه، حتى تبقى موحّداً له، حتى تبقى مقبلاً عليه، حتى تبقى واثقاً به، حتى تبقى متوكلًا عليه.

النبي ﷺ أمره الله أن يقول: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف:١٨٨].

سيد الخلق وحبيب الحق أعلى إنسان في الأرض، ومع ذلك لا أملك لكم نفعاً ولا ضراً، يعني أراد الله أن نتجه إليه، أن نعتمد عليه، أن نقبل عليه، كي نسعد، فرأفته تقتضي أنه يغار علينا، يغار أن نتجه إلى غيره، وإذا اتجهنا إلى غيره أدبنا، لأنه رؤوف بنا ورحيم.

ومن رأفته بك أن يصونك عن ملاحظة الأغيار، فلا ترفع حوائجك إلا إليه، والله عز وجل إن رأى عبداً تعلّق بعبد مثله، فمن رحمته بهذا العبد أن يصونه عن الشرك، ولذلك فالذي تعلقت به يخيب ظنك دائماً، والله يغار عليك أن تتجه إلى غيره وهو فقير، وإذا كان النبي ﷺ لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، والله وحده هو الذي يملك؛ فلذلك من رحمته أن يصونك عن ملاحظة الأغيار، فلا ترفع حوائجك إلا إلى الواحد القهار.

قيل لبعضهم: سل حاجتك، فقال: من وضع قدمه على بساط المعرفة لا يحسن به أن يكون لغير الله عليه منّة.

هشام بن عبدالملك كان في الحرم المكي يطوف فالتقى بسالم بن عبد الله وأراد هذا الخليفة أن يتقرّب من هذا العالم، فقال: سلني حاجتك، قال: والله إني أستحي من الله

أن أسأل في بيته غيره، فلما خرج التقى به خارج الحرم، فقال: سلني حاجتك، قال من حوائج الدنيا أم الآخرة قال: بل الدنيا: فقال له سالم: والله ما سألتها من يملكها أفأسألها من لا يملكها؟!

وقيل لبعض الصالحين: ألك حاجة؟ فقال: لا حاجْة بي إلى من لا يعلم حاجتي، لأن الذي يعلم حاجتي هو الله.

الفرق بين الرأفة والرحمة

الرّؤوف هو الذي يدفع السّوء عن عباده، ويجلب لهم الخير، يحفظ لهم سمعهم، وبصرهم، لكنّ هناك معنى جديداً أنّ اسم الرّؤوف يتعلّق بالوقاية، وأنّ اسم الرّحيم يتعلّق بالعلاج، قبل أن تقع المصيبة الله رؤوف بعباده، إياك أن تقع في هذا الخطأ، لئلا تستحق هذا العقاب، فالرّؤوف رأفته وقائيّة، أما الرحيم فتتجلّى رحمته بعد وقوع المصيبة، بعد أن يقع العبد في ذنب كبير، في أكل مال حرام، الله رحيم به، فالرّحمة بعد الوقوع والرّأفة قبل الوقوع، الرّحمة علاجيّة والرّأفة وقائيّة، الرّحمة تخفيف الألم عن المصاب، بينما الرّأفة هي الحيلولة بين المتعطّف عليه وبين الوقوع في الشِّدَّة.

ولأضرب مثلاً يقرب هذا المعنى: الأب حريص على أولاده ولا سيّما في أيّام الشّتاء أن يصيبهم البرد، وألا يخرجوا من بارد إلى حارّ، أو من حارّ إلى بارد، لئلا يصابوا بأمراض الشتاء، فالحرص البالغ من الأب على ألا يصاب ابنه بمرض هذا من الرأفة، أما حينما يصاب الابن بمرض ويتفطر قلب الأب له رحمة فهذا من باب الرحمة، فالرحمة تخفيف الألم عن مصاب واقع، لكن الرأفة هي الحيلولة بين المتعطف عليه والوقوع في الشدة، فالرّأفة متعلّقة بالوقاية، في حين أن الرّحمة متعلّقة بالعلاج.

ويرى بعض العلماء أن الرّأفة بمعنى الرحمة مع المبالغة، أي شدّة الرحمة، والمبالغة بالرحمة هي الرأفة، وما زلنا في ضرب الأمثال؛ فالأمهات جميعهنّ يعطفن على أولادهنّ، إلا أنّ هناك بعض النساء عندهنّ فرط رحمة بأولادهنّ، أي مبالغة، فبعض الأئمة يرون أن الرأفة شدة الرحمة، أي: هي رحمة في أعلى مستوى.

وأحد العلماء يفرق بين اسم الرؤوف واسم الرحيم، فيقول: واعلم أنه تعالى قدّم الرؤوف على الرّحيم والرّأفة على الرّحمة في الآيات التي تلوناها، وهذا يقتضي وقوع الفرق بينهما، وأيضاً أينما ذكر الله تعالى هذين الوصفين قدّم الرّأفة على الرّحمة، فلا بد من بيان الفرق بين الوصفين، والفرق هو أنّ الرّحيم في الشّاهد إنما يحصل لمعنى في المرحوم من فاقة وضعف وحاجة، والرّأفة تطلق عندما تحصل الرّحمة في الفاعل من شفقة على المرحوم.

والمعنى عميق سأشرحه بعون الله؛ فالباعث على الرّحمة هو المرحوم، وأما الباعث على الرأفة فهو الراحم، والمرحوم هو الإنسان إذا وقع في مصاب شديد يقتضي أن يحتاج المصاب إلى الرّحمة، فالله رحيم، أما هذا المخلوق قبل أن يصاب فمن كمال الله عز وجل، حرصه على سلامته، وهذا الحرص يقتضي الرأفة، فالانطلاق في الرأفة من الله، وفي الرحمة من العبد، وهذا هو الفرق.

فمنشأ الرأفة كمال حال الفاعل في إيصال الإحسان، ومنشأ الرحمة كمال حال المرحوم في الاحتياج إلى الإحسان، فالإنسان إذا احتاج إلى الرحمة فالله رحيم، وأما ربنا عز وجل فلأنه منزه ولأنه كامل يحول بين عبده وبين أن يقع في السوء، فالرأفة من الله والرحمة بسبب مصيبة ألّمت بالعبد.

علاقة المؤمن باسم الله (الرؤوف)

أولاً: يجب أن نُكثر من ذكر هذا الاسم كي نحبَّ الله عزّ وجلّ لأن الله تعالى أسماؤه حسنى، وصفاتُه فُضلى، وكلما ذكرنا أسماءه الحسنى مال القلب إليه واشتاق العبد إلى لقياه، فمن الأدب أن نكثر من ذكر هذا الاسم.

والشيء الثاني: أن نتخلّق بكمالات الله فنحول بين النّاس ومعصية ربهم، ونستخدم الأسلوب الوقائي لا العلاجي، وأقرب شيء إلينا أولادنا، فقبل أن يقع الابن في مشكلة ويمدَّ الأب يده لينقذه، هناك شيء أهمُّ من ذلك، أن تحول بينه وبين أن

يقع في هذه المشكلة، فالتربية الوقائيّة هي التخلق بكمال الله عز وجل، ففرق كبير بين أن تربي ابنك تربية علاجيّة وأن تربيه تربية وقائيّة، هناك فرق بين الرّأفة والرّحمة، لذلك تخلّق بكمالات الرّؤوف وحُلْ بين النّاس وبين أن يقعوا في مشكلة.

وافترض أنّك صاحب محلّ وعندك موظّف، وأمورك غير منضبطة، فخزينة المال ليس لها قفل، وعندما لاحظ الموظّف أنه لا يوجد متابعة وهناك تسيّب، سوّلت له نفسه أن يسرق، فلما سرق وتابع في السّرقة كُشف أمره، وأردت أن تنكل به عندئذ، تريد أن تذيقه الأمرين، وأن تفضحه، وأن تشتكي عليه للقضاء، وأنت الذي ورّطته، فالآن تريد أن تعالجه، وكان الأولى بك أن تحول بينه وبين هذه المعصية، وأن يشعر أن الأمور عندك مضبوطة، حسابات دقيقة، وصندوق يومي، ومبيعات مسجّلة، حينما تضبط الأمور تحول بين النّاس وبين أن يأكلوا مالاً حراماً فأنت بهذا رؤوف، أما عندما ورطته وفضحته فقد حطمته وانتهى الأمر إلى وبال.

هناك إنسان يهمل زوجته ولا يقوم بواجبه تُجاهها، إذ يغيب عن البيت عشرين ساعة، ثم يكتشف أنها خانته، وأنها منحرفة الأخلاق، وعندئذ يريد أن يفعل بها الأفاعيل، لا... أنت لم تكن رؤوفاً بها، بل سيّبت الأمور وأهملت تربيتها حتى وقعت فيما وقعت به، فحطمتها، والتطبيق العمليّ أن تتخلّق بكمالات الله، حُلْ بين الناس وبين أن يقعوا في المعصية، وأن يفسدوا، وهذا من أدب الإنسان مع اسم الرؤوف، والله عز وجل جعلك خليفته في الأرض، لتتخلّق بكمالاته.

والقاعدة أن الإنسان إذا سرق... فالسرقة جريمة ومما روي أن «من اشترى سرقة وهو يعلم أنها سرقة فقد اشترك في عارها وإثمها» [أخرجه الحاكم في «المستدرك» والبيهقي في شعب الإيمان، من حديث أبي هريرة].

هذا الذي يعين الناس على أن يسرقوا لغفلته وعدم انضباطه ليس أقل إثماً منهم، إثمه كإثمهم، لأن أموره غير مضبوطة.

فإذا اتفقت مع شريك بلا عقد ولا تسجيل للشراكة لدى المراجع الرسمية، ولا توثيق، فهذا الشريك سوّلت له نفسه أن يجعلك خارج المحل، فسجل المحل باسمه، وارتكب جريمة الغدر، التي كنت أنت السبب فيها، فلو قيدته بعقد أصولي، موثق في الجهات الرسمية، لما سولت له نفسه أن يغدر بك، فأنت حينما تحول بين الناس وبين أن يقعوا في المعاصي تكون قد تخلّقت باسم الرؤوف. «فتخلقوا بكمالات الله».

فأنت مع أولادك، وطلابك، أو مع صانع في المحل تزيل الحدود بينك وبينه فيتطاول عليك، فتطرده، فلولا أنك رفعت الحجاب وجرأته عليك، لما اجترأ، ولو أبقيته في مكانه وأبقيت نفسك في مكانك لما احتجت أن تطرده وتوقع به الضرر.

وكذلك قد تشتري من بائع، وفي آخر الشهر، تسأله: كم الحساب؟ فيقول: ثلاثة آلاف، فتدفعها دون أن تتأكّد، وفي الشّهر الثّاني لا تتأكّد ولا تقول: أرني الحساب، فسولت له نفسه بعد ذلك فضاعف المبالغ، فمَن الذي حمله على السرقة؟ أنت! فلو أردت أن تحول بين الناس وبين أن يقعوا في المعاصي فعليك أن تتخلّق بأخلاق الرؤوف.

ثالثاً: ينبغي أن يمتلئ قلب المؤمن بالرّحمة والرّأفة التي تشمل عامّة المسلمين وخاصّتهم، هذا القلب إذا امتلأ رحمة أحسن إلى الخلق فارتقى الإنسان عند الله، والقاعدة المهمة أنك إذا اتصلت بالله اكتسبت منه الرحمة، فانعكست الرحمة في المعاملة ليناً، فالتف الناس حولك، وسعدوا بك، وسعدت بهم، وارتقيت بهم وارتقوا بك، فكان المصير الجنة التي خلقت من أجلها، وإذا كان العبد منقطعاً عن الله عز وجل امتلأ القلب قسوة، وانعكست القسوة غلظة، فانفضّ النّاس من حولك، ولم تحقّق الهدف الذي خلقت من أجله.

رحمة الأولاد أودعها الله في طبع الإنسان، لكنّ الرّحمة التي نقصدها في هذا المقام رحمةٌ عامّة، أن ترحم الخلق جميعاً، أن ترحم إنساناً لا ينتمي إليك ولا تنتمي إليه، أن

ترحم طفلاً ليس ابنك، بطولة المؤمن أن الرّحمة التي في قلبه، والتي اشتقها من الله رحمةٌ عامّة، تشمل جميع الكائنات والمخلوقات، الرحمة الخاصّة أودعها الله عزّ وجلّ فيك شئت أم أبيت.

كنت أقول دائماً الوسيلة الفعالة للتقرب إلى الله أن تشتقّ منه كمالاً تتقرّب به إليه، إن اتصلت به تشتقّ الرّحمة، تقرّبْ إلى الله بأن ترحم خلقه، أن ترحم الضّعيف، وقد جاء في الحديث الشّريف: «هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ» [البخاري عن سهل بن سعد].

إن أطعمت الضعيف، سقيته، كسوته، نصرته، آويته، علّمته، زوّجته، يكافئك الله مكافأة من جنس عملك، فينصرك على من هو أقوى منك، والله عز وجل يقول في شأن عباده الموحّدين المؤمنين الذين وحدوه باسم الرؤوف: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد:٢٧].

ولكن لابدّ من تنبيه، لابد أن تكون الرّأفة في موضعها، فالرّأفة في غير موضعها دمار، وهلاك، لو أنّ عندك ابناً تحبّه كثيراً وأُصيب بالتهاب معديّ حادّ، فأمرك الطّبيب أن تمنعه عن الطّعام إلا اللّبن لعدّة أيّام، وأنواع الطّعام في البيت، ويحبه الصّغير، و أنت تحبّ ابنك كثيراً، فإذا أشفقت عليه، ولم تتقيّد بتعليمات الطبيب، انقلبت هذه الحالة المرضيّة في المعدة إلى قرحة، والقرحة تحتاج إلى عمل جراحيّ، فكان من الممكن أن يشفى ابنك بحمية فقط، فالرّأفة في غير موضعها هلاك ودمار، لذلك ينبغي أن تكون الرّأفة في موضعها: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢)﴾ [النور:٢].

إن آمنتم أن الله حكيم، وعدل، ورحيم، وأنّ هذا الحد لصالح المؤمنين، لصالح المسلمين جميعاً، لصالح البشر جميعاً، فلا ينبغي أن ترأف بالزاني الذي جاهر بمعصيته لذلك قالوا: القتل أنفى للقتل.

تماماً كسلّة فيها فواكه، فالحبّة الفاسدة بعد حين تفسد مئة حبّة حولها، فالبطولة أن تعرف متى يجب أن ترحم، ومتى ينبغي أن تقسو: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [النور:٢].

وأوضح مثل: عندما تتسامح الأمّ الجاهلة مع ابنها في مواقف ينبغي أن تكون فيها حازمة، تسامح الأمِّ الجاهلة مع ابنها في مواقف قد تجعله منحرفاً، سارقاً، معتدياً.

يروى أن بعض أصحاب سيّدنا عمر شكوا شدّته فقال وقد بلغته الشّكوى: والله يا أبا ذرّ لو يعلم النّاس ما في قلبي من الرّحمة لأخذوا عباءتي هذه، ولكنّ هذا الأمر لا يناسبه إلا كما ترى.

«ثلاثة لا يدخلون الجنة أبداً الديوث والرجلة من النساء ومدمن الخمر» [البيهقي عن عمار بن ياسر].

مِن هؤلاء الثلاثة الديوث، الذي لا يبالي من دخل على أهله.

هناك تساهل، أعطى أهله حريّة كاملة، قد يزورهم أجنبيّ في غيبته، وقد يقع حبّ، وقد يتطور هذا الحب إلى خيانة، فلا بد من الحزم والمتابعة.

الإنسان مخيّر، فلو اختار السّوء لأدّبه الله من شدّة الرّأفة والرّحمة، فإذا وصل العبد قبل موته إلى قلب سليم فهذا أكبر كسب يناله، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

وقد ورد في بعض الأدعية؛ اللهم أنت الرؤوف وقد انجذبت إليك القلوب بحسن العواطف وأنت الرحيم أحاطت رحمتك بالطائع والمخالف أشرق على قلبي بنور الرؤوف المنّان واجعلني أعطف على جميع بني الإنسان، فأستغفر للمذنبين، وأحب الهدى للكافرين، وأرجو التوبة للعاصين، وأطلب الوسعة للمحتاجين، فأنال قسطاً وافراً من ميراث سيد المرسلين عليه أتم الصلاة والتسليم إنك على كل شيء قدير.

الشاكر

ورد هذا الاسم في القرآن الكريم في موضعين، الموضع الأول قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [البقرة:١٥٨].

والموضع الثاني: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾ [النساء:١٤٧].

ولم يرد هذا الاسم في السنة المطهرة.

من معاني اسم الله (الشاكر)

الحقيقة الأولى: الإحسان إلى المخلوق جزاؤه دنيويّ وأخرويّ:

ما من إحسان يقدم إلى مخلوق كائناً من كان، ما من إحسان يقدم إلى مخلوق عاقلٍ أو غير عاقلٍ إلا سيكافئ الله من أحسن هذا الإحسان في الدنيا أو في الآخرة، وما

أحسن عبدٌ من مسلم أو كافر إلا وقع أجره على الله في الدنيا أو في الآخرة، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تقدِّم عملاً طيباً لأيّ جهة في الأرض، لأيّ كائن في الأرض، ثم لا تجد من الله مكافأة؛ إن في الدنيا أو في الآخرة. فإن كنت مؤمناً بالله وباليوم الآخر كان الجزاء في الدنيا والآخرة، وإن كان الإنسان بعيداً عن الله، مؤمناً بالدنيا، ولم يؤمن بالآخرة كان الجزاء في الدنيا.

إذا تلقيت معروفاً من إنسان، ولأنّك مؤمن، ولأنّك على شيء من الكمال لا تملك إلا أن تشكره، لا تملك إلا أن تبتسم له، لا تملك إلا أن تمتنّ له، لا تملك إلا أن تثني عليه، فكيف بصاحب الكمال المطلق؟ فكيف بخالق السماوات والأرض؟ فكيف بصاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى؟!

الحقيقة الثانية: كيف يشكرك الله عزّ وجلّ؟

أنت حينما يُقدَّم إليك معروف تشكر بلسانك فتقول له: شكراً، جزاك الله عنّي خيراً، والإله العظيم إذا قدّمت إلى أحد عباده معروفاً، تعرفه أو لا تعرفه، فإنه يشكرك.

سيدنا عمر جاءه رسول من معركة نهاوند، وهو السائب بن الأقرع جاءه يبشِّره بالنصر، ثم قال هذا الرسول: يا أمير المؤمنين، مات خلْقٌ كثير، قال: مَن هم؟ قال: إنك لا تعرفهم، فبكى عمر، وقال: وما ضرّهم أنّي لا أعرفهم إذا كان الله يعرفهم، وقد أكرمهم الله بالشهادة وما يصنعون بمعرفة عمر [ابن كثير في تاريخه].

لا يمكن أن يضيع عند الله شيء، مهما تصورت العمل صغيراً، ومهما كانت قيمته تافهة فهو عند الله محفوظ، وإذا أسدي إليك معروف تشكر بلسانك، أو تمتنّ بقلبك، أو تقدّم له مكافأة، أو هدية أو عمل أو تقدّم له خدمة.

هذا الإله العظيم صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى، كيف يشكرك؟ جاءت الآية لتبيّن بالتعبير المعاصر آليّة الشكر، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧].

المعنى الأول: الزيادة إما من نوع العمل الذي قدمته، قدمت مالاً مثلاً، فالله عز وجل شكره لك بأن يزيد لك مالك، قدمت وقتاً، شكر الله لك فبارك في وقتك، قدمت من جهدك، شكر الله لك فسخّر من يقدم لك جهداً، ومستحيل أن تفعل معروفاً دون أن ترى الجزاء.

قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة:٢٦١].

«أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ» [ابن ماجه عن أبي هريرة].

«أنفق بلالُ، ولا تخشَ من ذي العرش إقلالاً» [الطبراني في المعجم الكبير والأوسط بسند حسن عن أبي هريرة].

لاحظ أنّ الإنسان إذا ذهب لعيادة مريض؛ فإنّه حريص حرصاً بالغاً أن يضع بطاقة داخل الهديّة ليعلم المريض وأهلُه من الذي قدّم تلك الهدية، فأنت حريص على أن يعلم مَن قدمت له الهدية أنّها منك، والله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة:٢٧٠].

طمأنك الله عز وجل أنّ أيّ عمل صالح تقدمه لمخلوق كائناً مَن كان إنّما هو في علم الله، ومع الله لا تحتاج إلى بطاقة.

والإنسان يحبّ المال قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ [آل عمران:١٤].

في أصل كيانك فُطرتَ على حب المال، والبشر جميعاً دون استثناء يحبون المال، ولأننا نحب المال كان إنفاق المال عملاً ثميناً، لأنك تنفق شيئاً تحبه.

الإنسان جُبِلَ على طبع، ومعه تكليف، طبعه أن يأخذ المال، والتكليف أن ينفقه، طبعه أن يبقى نائماً، والتكليف أن يستيقظ لصلاة الفجر، طبعه أن يملأ عينيه من محاسن

النّساء، والتكليف أن يغضّ البصر، طبعه أن يخوض في فضائح الناس، والتكليف أن يسكت.

ومن هنا طمأن الله عباده المنفقين فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سبأ:٣٩].

هؤلاء الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ألا تكفيهم هاتان الآيتان، الله يعلم وهو يخلف، وما نقص مال من صدقة: والقصص التي تروى في هذا الموضوع لا تعدّ ولا تحصى، حتى إنّ المؤمن ليخجل من عطاء الله.

يقول سيّدنا عليّ رضي الله عنه (يا بني، العلم خير من المال، لأن العلم يحرسك، وأنت تحرس المال) الإنسان يحرسه الله بالعلم، لكن المال إذا أنفقته في الحسابات يقلّ، لكنّه برحمة الله يزيد، فلذلك نحن قد نُغفِل في حياتنا (حسابات البركة) فإذا أنفق الإنسان ماله بارك الله له فيه، والحدّ الأدنى أنه يرزقه رزقاً سلبياً، ما الرزق السلبي؟ أي يحفظه من أمراض وبيلة، من ظلم ظالم، من مصادرات، من مخالفات، من بطش الأقوياء، من تدمير، من حريق، من خراب، هذا رزق سلبيّ، وأحيانا يبارك الله عزّ وجلّ له في ماله، فيحقق بمالٍ قليل أهدافاً كبيرة، هذا من شكر الله للمحسن، يحفظه، ويبارك له في ماله.

هذان باعثان لإنفاق المال، أن الله يعلم، وأن الله يخلف على المنفق ماله.

حدثني أخ توفي أحد أقربائه، فزار أولاده، وقال لهم: دَيْن أبيكم عليّ، لكنه لا يعلم كم الدين، توقعه بعشرات الألوف، فإذا هو بمئات الألوف أقسم لي بالله أنه دفع مبلغاً قريباً من أربعمئة ألف ليرة، وحدثني عن قصته في صحن المسجد، وبكى، قال: والله بعد أيام جاءني مبلغ من صفقة لبضاعة كاسدة نصيبي من هذه الصّفقة هو المبلغ الذي دفعته.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾ [البقرة:٢٧٠].

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ﴾ [سبأ:٣٩].

المعنى الثاني: أيّ عمل صالح تجاه أيّ مخلوق، كائناً من كان هو قرض حسن لله تعالى، وهناك آية قرآنية، إن قرأها المؤمن اقشعرّ جلده: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ﴾ [البقرة:٢٤٥].

الإله العظيم يقول لك: يا عبدي، أقرضني، اعتنِ بهذا المخلوق، أطعم هذا الجائع، اكسُ هذا العاري، عالج هذا المريض، هناك أصحاب حرف مؤمنون يقدّمون جزءاً من خبراتهم لوجه الله.

حدثني طبيب أسنان أنه جاءته مريضة تحتاج إلى تقويم لأسنانها، وهي معلّمة، ودخْلها محدود جداً، والمبلغ فوق طاقتها، فبعد أن اعتذرَتْ عن متابعة المعالجة لعدم قدرتها على التّكاليف، قال: هل تقبلين هذا التّقويم هدية مني؟ يقسم لي بالله العظيم أنّه أمضى ستة أشهر وكأنّه في الجنّة.

هناك مكافأة من نوع ثانٍ، يكافئك الله بسعادة، بطمأنينة غير المكافأة الماديّة، أنت مفطور على حبّ وجودك، وعلى حبّ سلامة وجودك، وعلى حبّ كمال وجودك، وعلى حبّ استمرار وجودك.

سلامة وجودك بطاعة الله، والطاعة هي الاستقامة، والاستقامة سلبية، والاستقامة يسبقها (ما)، فتقول: ما أكلت مالاً حراماً، ما كذبت، ما غششت، فالاستقامة تحقّق لك السّلامة، أما كمال الوجود فلا تكفيه الاستقامة، لكنّه يحتاج إلى بذل، بذلٍ من وقتك، من مالك، من خبرتك، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف:١١٠].

لو أنّ مجنّداً التحق بقطعة عسكرية، على رأسها لواء أركان حرب، هذا الجنديّ الغرّ لا يستطيع الدّخول على هذا اللواء الكبير بحكم التسلسل العسكري، فأمامه رتب كثيرة قبل أن يصل إلى قائد اللواء، لكنّ هذا المجنّد بإمكانه أن يدخل على اللواء دون إذنٍ إذا وجد ابنه يسبح، وكاد يغرق فألقى بنفسه في الماء وأنقذه.

إذا خدمت إنساناً، أطعمت جائعاً، كسوت عاريا، لبّيت حاجة إنسان، أنت موظف، جاءك مراجع من محل بعيد، ونفقة الإقامة غالية جداً، وجمّدت أعمالك كلّها وخدمته، فالطريق إلى الله أصبحت سالكة.

أنت معرّض كل يوم لتلبية حاجات النّاس، سائل سألك، مريض استعان بك، إنسان ضالّ في الطريق قال لك: أين بيت فلان؟ وهو غريب، فأعَنته على الوصول إلى البيت، والقصص لا تعدّ ولا تُحصى.

إنّ الذين تعاملوا مع الله ذاقوا من الله المكافأة النّفسية بالسّعادة والسّكينة، والمكافأة الماديّة بالعطاء، لذلك حينما يكون الإنسان محسناً، وتأتيه الخيرات من كلّ جانب هذا بسبب إحسانه، وأنت مهمّتك في الحياة أن تعبد الله، ثم تشكره، لأنك إن عبدته فسوف تأتي الخيرات من كلّ جانب.

﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الزمر:٦٦].

اسأل نفسك: ماذا قدّمتُ للأمة؟ إذا قدّمتَ لها صناعة متقنة، صار عملك عبادة، لذلك قالوا: العمل الذي ترتزق منه إذا كان في الأصل مشروعاً، وسلكت به الطرق المشروعة، وابتغيت منه كفاية نفسك وأهلك، وخدمة الناس عامة، والمسلمين خاصة، هذا العمل الحرفيّ المهنيّ لم يشغلك عن طاعة، ولا عن أداة صلاة، ولا عن طلب علم، انقلب إلى عبادة، من هنا فالمؤمن تغدو عاداته عباداتٍ، والمنافق عباداته سيئات.

أي عمل صالح يقدَّم لأيِّ مخلوق كائناً من كان فهو عند الله قرض حسن. إذا قال ملِكٌ لمواطن فقير: أقرضني مئة ليرة، ماذا تفهم منها؟ هل هذا القرض

حقيقيّ؟! لقد أراد أن يعطيه بيتاً، أراد أن يكون لهذا العطاء سبب، وأراد من هذا القرض أن يمتحن محبّته، وأن يكافئه على هذا القرض بمنزل فخم جداً.

﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة:٢٤٥].

أحياناً يكون العمل صغيراً أمامك، تبتسم في وجه موظف عندك، تسأله عن أحواله: كيف حالك يا بنيّ؟

هناك مدير عبوس قمطرير، يدخل إلى مكتبه له هيبة وكهنوت، وهناك مدير عامّ متواضع، فإذا ابتسمت في وجه من يعمل معك، إذا ابتسمت في وجه خادم عندك، سألته عن صحّته، فتبسّمك في وجه أخيك صدقة، أن تميط الأذى عن الطّريق هو لك صدقة، مهما توهمت العمل صغيراً فهو عند الله كبير.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧-٨].

الذي ينفق يوسّع الله عليه في ماله، والذي يدعم الضّعفاء والمساكين يقوي الله عزّ وجلّ مكانته في المجتمع.

والذي يبذل من وقته لخدمة الخلق يبارك الله له في وقته، لذلك أمرنا الله عز وجل أن نؤدي زكاة أموالنا، ومن منّا ينتبه إلى أن الوقت له زكاة، لمجرد أن تؤدي الصلوات في أوقاتها فقد اقتطعت من وقتك الثمين وقتاً لطاعة الله، فالمكافأة على ذلك أن الله يبارك لك في وقتك، فتفعل في الوقت القليل الشيء الكثير.

حدثني أخ أنه دخل محل إنسان، قال: أنا أريد أن تعلمني صنع هذه الحلوى، قال: حباً وكرامة، صنع أمامه طبخة، وقال له: اكتب عندك التفاصيل، وكلّفه أن يصنع أمامه طبخة ثانية، والإنسان من محل بعيد من أقصى القطر، أقسم لي بالله منذ ثلاثين عاماً ما مِن عام إلا ويأتي إليه بهدايا ثمينة، يقول له: أنت فضلك علي كبير.

اسم (الشاكر) من خلال قوله تعالى: ﴿فاذكروني أذكركم﴾

لأن الله سبحانه وتعالى هو الشّاكر، إن ذكرته ذكرك، لكنّ ذكر الله لك غيرُ ذكرك له، ذكر الله لك أكبر من ذكرك له، إنّك إن ذكرته أديت واجب العبوديّة.

لكنّه إن ذكرك منحك نعمة الأمن، قال تعالى: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢)﴾ [الأنعام:٨١-٨٢].

لا يتمتع بنعمة الأمن الحقيقي إلا المؤمن، أما غير المؤمن فقد قال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا﴾ [آل عمران:١٥١].

يمتلئ قلب المشرك خوفاً وفرَقاً، بينما يمتلأ قلب المؤمن أمناً وطمأنينة، وفي قلب المؤمن من الأمن ما لو وُزِّع على أهل بلد لكفاهم، إنها نعمة يختصّ بها المؤمنون.

إن ذكرك منحك نعمة الرضا.

قد يملك الإنسان أموالاً طائلة، ومع ذلك فهو ساخط، بينما المؤمن راضٍ عن الله عز وجل.

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢].

منحك نعمة الحكمة: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩].

منحك نعمة الطّمأنينة، هذه النعم هي من ذكر الله لك.

لذلك قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥].

ذكر الله لك في الصّلاة أكبر من ذكرك له، لأن الله عزّ وجلّ من أسمائه الحسنى أنه الشّاكر، إن ذكرته ذكرك.

بل قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح:٤].

ما من إنسان على وجه الأرض رفع الله ذكره كرسول الله ﷺ، ولكلّ مؤمن من هذه الآية نصيب، بقدر استقامته وإخلاصه يرفع الله له ذكره، ويعلي قدره، ويلقي في قلوب الخلق محبّته.

لمجرد أن تقترب من الله خطوة تجد أن الله عز وجل اقترب منك، لأنه الشاكر يقترب منك.

«فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ» [متفق عليه].

قد تلقي كلمة في مجتمع معين، في سهرة، في لقاء، تتحدث عن الله عزّ وجلّ وتغفل نفسك، وتغفل بطولاتك، وتتحدّث عن ربّك.

«وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً» [متفق عليه].

لمجرد أن تتحرّك نحو الله بصلح، بتوبة، بإنابة، بذكر، بصدقة، بتلاوة قرآن، بفعل طيّب مع مخلوق ما، لمجرد أن تتقرّب إلى الله شبراً يتقرّب الله إليك ذراعاً، ينتظر مبادرة منك، ينتظر حركة منك، ينتظر التفافة منك، ينتظر إقبالاً منك، وهذا الشيء واضح جداً، لمجرد أن تتحرك نحو الله بعمل صالح، بصيام نفل، بصلاة نافلة، بغض بصر، بضبط لسان، بخدمة إنسان، بإطعام جائع، بهداية ضالّ يتقرب الله منك.

صور من شكر الله لعباده في الأحاديث الشريفة:

ورد في الحديث الشريف: «بروا آباءكم تبركم أبناؤكم وعفوا تعف نساؤكم» [المستدرك على الصحيحين عن جابر].

يشكر الله لك برَّك لأبيك بأن يلهم أولادك في المستقبل أن يكونوا بك بررة، وهذا عطاء في الدنيا قبل الآخرة.

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن:٤٦].

فالذي يبرُّ أباه يهيئ الله له أولاداً بررة يطيعونه، يعظمونه، يحترمونه، وهم في خدمته كظلّه.

(وعفّوا تعفّ نساؤكم) والذي يتعفف عن الحرام يكافئه الله بزوجة عفيفة، كما أنّه عفّ عن الحرام فهي تعفّ عن الحرام، لأنّ الله عزّ وجلّ هو (الشّاكر)، يشكر لك برّك بأبيك فيزيدك من فضله عن طريق أولاد بررة هم في خدمتك، ويشكر لك عفّتك عن الحرام بأن يجعل زوجتك عفيفة مثلك.

ومن معاني اسم الله (الشاكر) أنه إذا وصلت رحمك زاد في عمرك ونفى عنك الفقر، لأن الضّمان الاجتماعيَّ في الإسلام أساسه النّسب والجوار، والأحاديث التي توصي بالجار كثيرة جداً، والأحاديث التي توصي بصلة الرّحم كثيرة جداً.

وصلة الرّحم تبدأ بالاتّصال، ولعله اتّصال هاتفيّ، ثم بزيارة، ثم بتفقد أحوال، ثم مساعدة ماديّة أو معنويّة، ثم بأن تأخذ بيده إلى الله عزّ وجلّ، هذه صلة الرّحم التي تزيد في العمر، وتزيد في الرّزق.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ» [متفق عليه].

إن أردت أن ينسأ الله لك في أجلك، ويزيد في رزقك فصل رحمك، هذه من الطاعات التي حضّ عليها النّبيّ ﷺ، لأنّ الله عز وجل شاكر.

أحياناً إنسان له أخت متزوجة في طرف المدينة، ما عنده وقت لزيارتها، لكن لو أنّه زارها ما الذي يحصل؟ تنتعش أمام زوجها، أمام أولادها، لا تنام الليل مِن فرحها،

لذلك هناك أناس يزورون أقرباءهم الأقوياء أو الأغنياء أو اللامعين في الحياة، أما أقرباؤهم المساكين فيهملونهم، ويزورونهم من عام إلى عام.

لو طبقنا صلة الرحم لكنا في حال غير هذه الحال، لذلك إذا أعطيت أقرباءك من مالك، فهذه الزكاة لها أجران عند الله، لك أجر الصدقة، ولك أجر الصلة، ألا تحبُّ أن تنال ثواباً مضاعفاً؟ بل إنّ بعض العلماء يؤكد أنّ الله سبحانه وتعالى لا يقبل زكاة من مسلم، وفي أقربائه محتاجون.

القصد من الزيارة أن تُمَدَّ يد العون، من القويّ إلى الضعيف، ومن الغنيّ إلى الفقير، ومن العالم إلى الجاهل، والأقوى منك ليس بحاجة إليك، يجب أن تزوره طبعاً، ولكنّه ليس بحاجة إليك، مَن الذي في حاجة إليك؟ من هو أضعف منك، فإذا تراحم الناس يرحمهم الله جميعاً، أما إذا تدابروا، ولم يعبأ أحد بأحد سخط الله علينا جميعاً.

ومن معاني اسم الشّاكر قوله ﷺ:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيْخًا لِسِنِّهِ إِلَّا قَيَّضَ الله لَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِنِّهِ» [الترمذي].

لأن الله عز وجل هو (الشاكر)، وإن قدّمت لإنسان عادي معروفاً يتفنن في شكرك، ويبارك هذا العمل، يقول لك: تفضّلت عليّ، وخالق الأكوان صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى أيعقل أن تقدم معروفاً في الدنيا أو في الآخرة ولا يشكرك عليه.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ العَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْرًا، فَشَرِبَ مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ، فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي، فَمَلأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، ثُمَّ رَقِيَ، فَسَقَى الكَلْبَ، فَشَكَرَ الله لَهُ فَغَفَرَ لَهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وَإِنَّ لَنَا فِي البَهَائِمِ أَجْرًا؟ قَالَ: فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ» [متفق عليه].

لعل الله يرحمنا بخدمة مخلوق ضعيف، بخدمة هرّة مريضة، وهناك أشخاص يأخذون هذه الحيوانات المريضة إلى مستوصفات بيطريّة يعالجونها، هناك أناس مغرمون بإطعام الحيوانات.

لذلك حينما تعرف الله تتفنّن في خدمة مخلوقاته، والمؤمن إنسان عظيم، إنسان اصطلح مع الله، اصطلح مع خلقه جميعاً، المؤمن يبني حياته على العطاء، يعيش ليعطي:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخَذَهُ فَشَكَرَ الله لَهُ فَغَفَرَ لَهُ» [متفق عليه].

أحيانا شاحنة كبيرة تقف لإصلاح بعض العجلات، وتضع حجرا كبيرا وراء العجلة، ثم تنطلق والحجر قد يسبب دمار أسرة بأكملها، وهناك إنسان يقف، ويزيح هذا الحجر، فيشكر الله له عمله.

أسأل الله تعالى أن يلهمنا عملاً يستحقّ شكره جلّ جلاله.

الإله

مع اسم جديد من أسماء الله الحسنى، والاسم الذي سنبحر في رحابه من خلال الصفحات الآتية هو: (الإله).

فقد ورد في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، أوّلها قوله تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [البقرة:١٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة:٧٣].

أما في الأحاديث الشريفة فقد ورد هذا الاسم في الدعاء التالي: «... اللهمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ، وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» [البخاري عن ابن عباس].

فـ(الإله) من أسماء الله الحسنى بنص القرآن الكريم، وفي حديث النبي عليه أتم الصلاة والتسليم.

من معاني اسم الله (الإله)

قال علماء اللغة: (الإله) اسم مفعول، بمعنى المألوه، والمألوه أي: المعبود محبةً وتعظيما.

أمّا أصل الفعل فهو أَلِه يأله إلهةً، و(الإله) هو الله، الآن كل ما اتخذ من دون الله معبودا هو إله عند من اتخذه، حينما تخضع لشيء، حينما تطيع شيئاً أو جهةً، حينما تستسلم لها، لو لم تسمِّها إلها فقد جعلتها إلهاً: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية:٢٣].

أيّ جهة تخضع لها، تستسلم لها، تحبّها، تتفانى في طاعتها فهي إلهك، والعياذ بالله.

فالبطولة كلّ البطولة أن يكون إلهك الله، لا أن تكون الشهوة إلهك، لا أن يكون قوي من أقوياء أهل الأرض إلهك، لا أن يكون الشيطان إلهك، لابد من جهة تخضع لها، إن لم تكن عبداً لله فأنت عبد لعبد لئيم، البطولة أن تعبد الله، البطولة أن يكون الله جل جلاله إلهك، بمعنى تخضع له، تحبُّه، تتفانى في طاعته، هو مرجعك، هو الحكم.

من معاني كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)

(لا إله إلا الله) أي لا معبود بحق إلا الله، وبعبارة أخرى: ليس هناك في الكون جهة تستحقّ أن تعبدها إلا الله:

ومن يستحق العبادة إلا الخالق جل جلاله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة:٢١].

هو الرّب، المُمِدُّ، هو من يُمدُّك بالهواء والماء؟ لو أن اجتماعاً على أعلى مستوى في الأرض ضمّ كلَّ الدُّول، واتُّخذ قرار بإنزال الأمطار هل تنزل الأمطار؟ هو الذي يمدّك بالماء، بالهواء، يمدّك بالنّبات، بالطّعام والشّراب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة:٢١].

الخالق يُعبد، والرب يُعبد: اعبد مَن إليه يرجع الأمر كلُّه: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣].

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ» [أحمد].

العبادة علة وجودك في الدنيا، وهي علة واحدة.

للتوضيح: أرسلك والدك إلى بلد غربيّ لتنال درجة الدكتوراه، المدينة كبيرة صاخبة، فيها مسارح، فيها ملاهٍ، فيها حدائق، فيها مكتبات، فيها أسواق، مدينة مترامية الأطراف، وأنت طالب في هذه المدينة، لو سألناك: ما علّة وجودك في هذه المدينة؟ لك في هذه المدينة علّة واحدة، سبب واحد لبقائك فيها، هدف واحد في هذه المدينة؛ أن تنال الدكتوراه، ولذلك أخطر سؤال تسأله نفسك: ما علّة وجودي في الأرض؟

الناس يتحركون وسعيهم شتّى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾ [الليل:١-٤].

هذا يسعى لكسب المال، ثم يفاجأ أن المال ليس بشيء عند الموت.

لكن يا ترى هل هذه الحركة متوافقةٌ مع الهدف؟

ذهب رجلٌ إلى باريس، ونام في الفندق، واستيقظ في صبيحة اليوم الأول، وسأل: إلى أين أذهب؟ ما هذا السؤال؟ نسأله نحن: لماذا أتيت إلى هنا؟ إن أتيت طالباً فاذهب إلى المعاهد والجامعات، وإن أتيت تاجراً فاذهب إلى المعامل والمؤسسات، وإن أتيت سائحاً فاذهب إلى المقاصف والمتنزّهات، متى يصح عملك في مكان ما؟ إذا عرفت سرّ وجودك، وغاية وجودك، لذلك لا شيء يعلو في حياة الإنسان على معرفة سرّ وجوده، وغاية وجوده، وقد تجد إنساناً في أعلى درجات العقل يطلب العلم، يبحث عن عمل صالح يرقى به عند الله، يربّي أولاده تربية صحيحة، يتعامل مع النّاس وفق

منهج الله، هذا عرف سرّ وجوده، وغاية وجوده، لذلك أنت كائن متحرك، ما الذي دفعك إلى الحركة؟

الطاولة لا تتحرك، ليس فيها شهوات، ولا تحِبّ طاولة ثانية أمامها، لا تأكل، ولا تشرب، ليس عندها طموحات، لو تركتها مئات السنين تبقى على ما هي عليه، أما أنت -أيها الإنسان- فكائن متحرك، لماذا؟ لأن الله أودع فيك حبّ الطعام والشراب للحفاظ على الفرد، أودع فيك حاجة إلى الجنس للحفاظ على النوع، أودع فيك حاجة إلى تأكيد الذات، للحفاظ على الذِّكر، هذه الحاجات الثلاث تدفعك إلى الحركة، فأنت كائن متحرك، البطولة أن تكتشف ما إذا صحّت حركتك أو لم تصحّ.

لو أنَّ طالبًا عنده امتحان في آخر سنة، في مادّة أساسية، ومصيره يبني على نجاحه، فما الحركة المناسبة له؟ أن يقبع في البيت، وأن يقرأ الكتاب المقرّر، لو أنّ أصدقاءه الخُلّص أخذوه إلى مكان جميل مطلٍّ على البحر، والجبل فيه نبات أخضر، والطعام نفيس جداً، وهو يحبّهم، لماذا يشعر بانقباض شديد؟ لأن هذه الحركة لا تتناسب مع الهدف القريب.

إذاً: السؤل الثاني: أنت متى تسعد؟ تسعد إذا جاءت حركتك متوافقة مع هدفك.

اسأل تاجراً لا بيع ولا شراء عنده، وهو جالس طول النهار في المحلّ مرتاحاً من عناء العمل، هل أنت سعيد سيقول لك: لا، لأنّ هذه الرّاحة لا تتناسب مع هدف المحلّ التجاريّ.

إذاً: علة وجودنا الوحيدة على وجه الأرض أن نعبده، ولن نسعد إلّا بعبادته: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦].

مفهوم العبادة

والعبادة: غاية الخضوع لله، مع غاية الحب، وبالتعريف المفصل: هي طاعة طوعيّة، ممزوجة بمحبّة قلبيّة، أساسها معرفة يقينيّة، تُفضي إلى سعادة أبديّة.

العلة الوحيدة من وجودك على وجه الأرض بنص القرآن الكريم أن تعبده، أمّا الخاسر فهو الذي لم يحقّق الهدف من وجوده، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤].

يقول لك مغترّاً بقوته: أنا! حياتك متوقفة على قطر شريانك التاجيّ، فإذا ضاق هذا الشريان دخلت في متاعب لا يعلمها إلا الله، وكلُّ مكانتك، وكلُّ حيويتك، وكلُّ نشاطك وهيمنتك، و شخصيتك وحجمك المالي متوقف على سيولة الدّم، فإذا تجمّد الدّم في أيِّ مكان من الدماغ حدث شلل تتوقف مكانة الإنسان على انضباط نموِّ الخلايا، فإذا نمت نموّاً عشوائياً فورم خبيث عافانا الله وإياكم.

فلذلك علة وجودك الوحيدة أن تعبد الله، وليس هناك من جهة في الكون تستحق أن تعبدها إلا الله، وعبادة الإنسان لربه تبدأ من العبادات الشعائرية من صلاة وصيام وحجّ وزكاة، ولا بد أن تنتقل إلى تعاملاته بجميع أشكالها، ثمّ تغدو حركته في الحياة عبادة لأنّه يبتغي بكلّ عمل حتى بطعامه وشرابه وجه الله.

النبي ﷺ سأل أصحابه: «أَتَدْرُونَ مَنْ الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ الله مَنْ لَا لَهُ دِرْهَمَ وَلَا دِينَار وَلَا مَتَاعَ، قَالَ: الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ يَأْتِي بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ عِرْضَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُقْعَدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ» [مسلم عن أبي هريرة].

وفي حديث آخر: «لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا الله عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا، قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ الله، صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا، أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ الله انْتَهَكُوهَا» [ابن ماجه عن ثوبان].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لله حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ» [أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة].

ومنهج الله -ولا أبالغ- يقترب من مئة ألف بند في كلّ شؤون حياتك، بدءاً من فراش الزوجيّة، إلى العلاقات الدَّوليّة.

علة وجودنا في الأرض أن نعبده، وإذا ربحنا الأبد نكون قد ربحنا الربح الحقيقي: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران:١٨٥].

من أنواع العبادة

النوع الأول: **عبادة الهوية**: كلُّ واحد منّا له موقع في المجتمع، فقد يكون غنيّاً، فالغنيّ عبادته الأولى إنفاق المال، بل إن المال مادة امتحانه الأولى، فإما أن ينجح في إنفاق المال في الوجوه التي ترقى به في الآخرة، وإما أن ينفق هذا المال على شهواته ونزواته.

هناك إنسان آخر قويّ يشغل منصباً رفيعا بجرّة قلمٍ يُحقّ حقّاً، ويُبطل باطلاً، بجرة قلم يقرّ معروفاً، ويزيل منكراً، والإنسان كلما علا موقعه في مجتمعه اتسعت رؤيته.

أذكر مرة أنني أتيت إلى دمشق بالطائرة من قبرص، وحينما دخلنا سواحل بلدنا الطيّب رأيت بيروت وطرابلس معاً، على ارتفاع أربعين ألف قدم يتاح لك أن ترى مئة كيلو متر معاً، علمتني هذه الرؤية درساً؛ أنه كلما ارتفع مقام الإنسان تتسع رؤيته، وكلما ارتفع مقام الإنسان تزداد مسؤوليته، معلم في صف مسؤول عن ثلاثين طالبا، لكنّ مدير المدرسة مسؤول عن ثلاثمئة وستين طالبا، لكنّ مدير التربية مسؤول عن محافظة، إلا أن وزير التربية مسؤول عن المناهج في البلاد كلّها، فكلما ارتفع مقام الإنسان ازدادت مسؤوليته، وهذا ما دعا سيّدَنا عمر بن الخطاب إلى أن يقول: «لست خيراً من أحدكم، ولكنني أثقلكم حملاً».

والمسؤول الكبير حينما يتمعن في معنى كلمة مسؤول كبير يجب أن ترتعد فرائصه، لأنه سيُسأل عن كل شيء، سيدنا عمر أدرك هذه المسؤولية، وقال: «والله لو تعثرت بغلة في العراق لحاسبني الله عنها».

دخلت فاطمة بنت عبد الملك على عمر بن عبد العزيز ورأته يبكي في مصلاه، قالت له: «مالك تبكي؟ قال: دعيني وشأني، فلما ألحّت عليه قال: ويحك يا فاطمة، إني قد وُليتُ أمر هذه الأمة، ففكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعاري المجهول، واليتيم المكسور، والمظلوم المقهور، والغريب والأسير، والشيخ الكبير والأرملة الوحيدة، وذي العيال الكثير والرزق القليل، وأشباههم في أطراف البلاد، فعلمت أن الله سيسألني عنهم جميعاً، وأن خصمي دونهم رسول الله، فخفت ألا تثبت حجّتي».

القويُ عبادته الأولى إحقاق الحق وإبطال الباطل، ردُّ المظالم لأصحابها، هذه عبادته الأولى.

أمّا العالم فعبادته الأولى التبيين والتوضيح، وألا تأخذه في الله لومة لائم.

﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ ﴾ [الأحزاب:٣٩].

فلو أن هذا الإنسان الذي تصدى للدعوة خشي غير الله فما تكون النتائج؟ يسكت عن الحق خوفاً منه، وينطق بالباطل إرضاءً له، انتهت دعوته كلياً، لذلك قالوا: كلمة الحق لا تقطع رزقاً، ولا تقرّب أجلاً.

أمّا المرأة، فعبادتها الأولى رعاية الزوج والأولاد.

النوع الثاني: عبادة الظرف: أحياناً هناك ما يسمى بعبادة الظرف، عندك أب مريض، فالعبادة الأولى رعاية المريض، عندك ضيف، العبادة الأولى إكرام الضيف، عندك ابن يحضّر للامتحان، العبادة الأولى أن تهيئ له الجوّ المناسب للامتحان.

النوع الثالث: عبادة الوقت: تروي بعض السير أن عامل سيدنا عمر على أذربيجان أرسل له رسولاً، هذا الرسول وصل إلى المدينة في منتصف الليل، فكَرِه أن

يطرق باب أمير المؤمنين، فدخل إلى المسجد، وما كان فيه إضاءة، سمع رجلاً يبكي ويناجي ربه يقول: يا رب، هل قبلت توبتي فأهنئ نفسي، أم رددتها فأعزيها؟ سأله: من أنت يرحمك الله؟ قال: أنا عمر، قال: أنت أمير المؤمنين؟! يا أمير المؤمنين ألا تنام الليل؟ فقال عمر: «إني إن نمت ليلي كله أضعت نفسي أمام ربي، وإن نمت نهاري أضعت رعيتي».

إن أراد الطرف الآخر إفقار المسلمين فالعبادة الأولى استصلاح الأراضي، وإنشاء السدود، واستخراج الثروات، وتطوير الصناعات من أجل أن نأتي بمال نحلّ به مشكلات المسلمين، وإذا أراد الطرف الآخر إضلالنا فتوضيح معالم الدين، وترسيخ القيم الأخلاقية، ورد الشبهات، وتأليف الكتب والأبحاث هذه عبادة أيضاً، وإذا أراد الطرف الآخر إفسادنا فتأسيس المناشط الإسلامية، وصيانة أولادنا وشبابنا من الفساد الأخلاقي، هذه عبادة أيضاً، وحينما يريد الطرف الآخر إذلالنا يجب أن نضحي بالغالي والرخيص، والنفس والنفيس.

الدعاء باسم (الإله)

سيدنا يونُس وجد نفسه فجأة في بطن حوت: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ﴾ [الأنبياء:٨٧].

في أي عصر، في أي مصر، في أي زمان، في أي مكان، في أي ظرف: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء:٨٨].

الله عز وجل أعطاك حالة نادرة، بل مستحيلة لإنسان يجد نفسه فجأة في بطن حوت في ظلمة الليل، وفي ظلمة البحر، وفي ظلمة بطن الحوت، وينادي ربه في هذا المكان: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨].

الآن أصغوا معي إلى الحديث الشريف: «دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ هُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا مُسْلِمٌ رَبَّهُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ لَهُ» [أحمد عن سعد].

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو عِنْدَ الكَرْبِ يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا الله العَظِيمُ الحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا الله رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَرَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ» [متفق عليه].

معنى ذلك أن الأمر بيد الله وحده والله عز وجل صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى، الله عز وجل كامل كمالا مطلقا، لذلك لا يجتمع حزن مع إيمان بالله، الأمر بيده وحده.

أحياناً تجد إنسانا صالحا جداً، لكن ليس بيده شيء، تقول: مسكين ما بيده شيء، وتجد إنسانا لئيما جداً، لكن بيده كل شيء، معه سلطة قوية، دائماً هناك مفارقة، إما أن ترى إنسانا قويا غير أخلاقي، أو أخلاقيا ضعيفا، وكلاهما لا يرضيك، لأنك بحاجة إلى إنسان بقدرِ ما هو قوي منضبط هو أخلاقي رحيم، هذا شخصية فذّة ونادرة، لذلك ولله المثل الأعلى، الله عز وجل بيده كل شيء، هو القوي، في الوقت نفسه هو الرحيم، هو اللطيف، هو الكريم، لذلك قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨) ﴾ [الرحمن:٧٨].

ومعنى الآية أنك تحبّ هذا الإله العظيم بقدر ما تعظمه.

الإله هو الممدّ وهو الخالق، وكلّ شيء بيده، فلنعبده ولنتوكل عليه.

الغفور

مع اسم جديد من أسماء الله الحسنى، وهو «الغفور» وقد ورد في القرآن الكريم معرّفاً ومنوّناً، معرّفاً بالألف واللام في أحد عشر موضعاً، كما في قوله تعالى: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الحجر:٤٩].

وورد في اثنتين و سبعين آية، منوّناً كما في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [البقرة:١٩٩].

أمّا في السنة: ففي الحديث الشريف عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ الله ﷺ : عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي، قَالَ: «قُلْ اللهمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّك أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ» [أخرجه البخاري].

وفي حديث آخر: عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ الله ﷺ عَلَى رَجُلٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «اللهمَّ إِنَّ فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ فِي ذِمَّتِك فَقِهِ مِنْ فِتْنَةِ القَبْرِ

وَعَذَابِ النَّارِ وَأَنْتَ أَهْلُ الوَفَاءِ وَالحَمْدِ اللهمَّ فَاغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ» [أبو داود].

من معاني اسم (الغفور)

«الغفور» في اللغة، من صيغ المبالغة على وزن فعول، وفعله: غفر، يغفر، غفراً، ومغفرة، وغفراناً، يعني: كثير المغفرة، ولا تنسوا أن الاسم إذا جاء على صيغة المبالغة فإنّه يعني المبالغة كمّاً ونوعاً، فيغفر الذنوب مهما كثرت، ويغفر الذنب الواحد مهما كبر

أمّا أصل الغفر في اللغة فهو التغطية، والستر، وكل شيء سترته فقد غفرته، والمِغْفَر: غطاء الرأس كأن الله عز وجل حينما يغفر الذنب يستره عن صاحبه، لئلا يتعذّب به، إذ إنّ فطرة الإنسان التي فطره الله عليها فطرة سليمة، فإذا أخطأ، أو سبب إيذاء لمخلوق فإنه يتعذّب.

وفي الحديث الشّريف:

سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ إِنَّ الله يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ فَيَقُولُ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا فَيَقُولُ نَعَمْ أَيْ رَبِّ حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ وَأَمَّا الكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الأَشْهَادُ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾ [هود:١٨] [البخاري عن ابن عمر].

إن اسم «الغفور» من أقرب الأسماء الحسنى إلى المؤمن، لأن الإنسان مذنب توّاب، والله عز وجل غفور.

«الغفور» هو الذي يستر العيوب ويستر الذنوب، مهما بلغ الذنب من الكبر، ومهما تكرر من العبد وأراد الرجوع إلى الرب، فإن باب المغفرة مفتوح في كل وقت، ما لم تغرغر النفس، أو تطلع الشمس من مغربها.

اسم الله «الغفور» يدل على دعوة العباد للاستغفار بنوعيه، فهناك استغفار عام واستغفار خاص، أما الاستغفار العام فهو الاستغفار من صغائر الذنوب، وقبائح العيوب، وما يدور من خواطر السوء في القلوب، فالقلب فيه منطقتان، منطقة حديث النفس، ومنطقة الكسب.

شخص سافر وحده إلى مدينة، وطوال الطريق يحدث نفسه: يا ترى هل أزور فلاناً؟ لا، لا أريد أن أزوره، حوار ذاتي، ففي منطقة حديث النفس، قد يأتيك خاطر لا يرضي الله، قد تفكر بإيذاء إنسان، قد تستصغر إنساناً مؤمناً لكنّه فقير، كل خاطر، كل حديث ذاتي لا يرضي الله ينبغي أن تستغفر الله منه، هذا الاستغفار العام، فالله عز وجل تفضل علينا، وعفا عنا فيما حدثنا به أنفسنا، أما إذا انقلب إلى عمل، فهناك استغفار خاص، عن ذنب ارتكبته، أو سلوك فعلته، أو موقف وقفته، أو نظرة نظرتها.

«إنَّ الله تعالى تجاوزَ لأُمَّتِي ما حدَّثَتْ به أنفُسَها، ما لم يَعْمَلُوا به أَو يتكلَّمُوا ما وسْوَستْ به صُدُورها» [أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة].

تأتيني حالات كثيرة بحكم عملي في الدعوة أنّ خواطر تكاد تسحق هذا الإنسان، أقول له اطمئن، إن كنت متألماً من هذه الخواطر فإنها ليست منك، بل من وسوسة الشيطان، فالله عز وجل يتجاوز عن هذه الخواطر، ما لم تنقلب إلى عمل، أما إذا جاءتك هذه الخواطر وارتاحت نفسك لها فهذه منك، هنا الخطر، مع أنك لا تحاسب عليها لكن إذا قبلتها فيمكن أن تنقلب إلى عمل، لذلك نقول يجب أن تستغفر ربك من هذه الخواطر التي ارتحت لها لئلا تنقلب إلى عمل، والمعصية تبدأ بخاطرة، ثم بفكرة، ثم بشهوة، ثم بإرادة، ثم بعمل، فإذا تبعها الإنسان انقلبت إلى عادة وعندئذٍ من أصعب الأشياء أن تدع عادة استحكمت فيك.

فالإنسان المؤمن بحاجة إلى استغفار عام لمحو الخواطر الشريرة النابعة من هوى النفس.

الله عز وجل خلق البشر بإرادة حرة، أنت حر، أنت مخير، لولا أنك مخير لا معنى للجنة ولا للنار، ولا للثواب ولا للعقاب، ولا للسعادة ولا للشقاء.

﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩].

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان:٣].

فالله عز وجل خلق البشر وأعطاهم إرادة حرة.

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة:١٤٨].

وأعلمهم أنه غفور رحيم، و تواب كبير، ليظهر لهم الكمال في أسمائه، وليحقق فيهم مقتضى أوصافه، لتعود المنفعة عليهم أجمعين.

«كُلُّ بَني آدمَ خطَّاءٌ وخيرُ الخَطَّائينَ التَّوابونَ» [الترمذي عن أنس بن مالك].

وعند مسلم من حديث أبي أيوب ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «لو لم يكن لكم ذنوب يغفرها الله لكم لجاء الله بقوم لهم ذنوب يغفرها لهم».

ليس معنى الحديث أن تسارع إلى الذنب، ولكنّ معنى الحديث أن الذي لا يشعر بذنبه هالك، لا يعبأ الله به، يفعل الكبائر، يقول لك ماذا فعلت؟ لم أفعل شيئاً؟ هذا الذي لا يرى ذنبه إطلاقاً.

«لَو لَم تُذنِبُوا» بمعنى لو لم تشعروا بذنوبكم، يسهر سهرة كلُّها غيبة ونميمة، يقول لك ماذا فعلت؟

يأتي الله بقوم إذا أخطأ الواحد منهم بكلمة لا ينام الليل، إذا أكل قرشاً حراماً يحاسب نفسه حساباً عسيراً.

هذا الاسم من أقرب الأسماء إلى المؤمن، لأن العبد من شأنه أن يذنب، ولأن الله تعالى من شأنه أن يغفر، وما أمرك أن تستغفره إلا ليغفر لك، وما أمرك أن تستغفره إلا لأنه علم ضعفك وغفلتك أحياناً، ضعفَك أمام بعض الشهوات، وغفلتك عنه.

من شروط المغفرة

يقول تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر:٥٣].

عندنا بعض التفسيرات اللطيفة لقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الزمر:٥٣] فالله عز وجل لم يقل: قل يا عبادي الذين فسقوا، قل يا عبادي الذين زنوا، قل يا عبادي الذين شربوا الخمر، قل يا عبادي الذين قتلوا، بل قال: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ ففيها تلطف، وفيها سترٌ لحالهم، تذوق الكلمات القرآنية ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾.

الشيء الثاني في الآية كلمة ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ ففيها لفتةٌ بلاغية جميلة موحية جداً، أي: هذا العبد أضافه الله إلى ذاته، تحبباً لعباده؛ تسلية وطمأنة لهم، وإكراماً منه نسبهم إلى ذاته ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ فزينتهم بنسبتهم إلى ربهم، وقبحهم لا يعقل أن يغلب نسبتهم إلى ربهم، لذلك حينما يقول لك الله عز وجل: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ يجب أن تفتخر، يجب أن تطير إلى السماء حباً به وإقبالاً عليه.

والشيء الآخر الذي يلفت النظر في الآية: ﴿أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ لم يقل: في معصية ربهم. لا، بل قال: أسرفوا على أنفسهم، أي: هذه المعاصي ما ضرّوا بها أحداً، بل ضرّوا بها أنفسهم، وذات الله منزّهة عن كل أذى.

«يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً» [رواه مسلم].

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ أي: هو الغفور إن أذنبت أو لم تذنب، فهذه هي صفته الثابتة، هذه صفته القديمة والسرمدية والأبدية.

ثمّ يقول تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الزمر:٥٤-٥٥].

يعني أنه غفور رحيم إن عدت إليه، غفور رحيم إذا تبت إليه، غفور رحيم إذا أنبت إليه، غفور رحيم إذا استغفرته، فإذا أذنبت وأدركت أنك أذنبت وندمت، واستغفرت، وأقلعت، وأصلحت فإن الله غفور رحيم:

وفي آية ثانية: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الحجر:٤٩-٥٠].

غفور بشرط العودة، والتوبة، والإنابة، والإقلاع عن الذنب.

وأما قوله تعالى: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الحجر:٤٩].

فقد روي عن عبدالله بن الزبير رضي الله عنه أن النبي ﷺ مرّ بقوم وهم يضحكون، فقال: تضحكون وذكر الجنة والنار بين أظهركم، قال: فما رئي أحد منهم ضاحكاً حتى مات قال: وفيهم نزلت: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [رواه البزار في مسنده»].

لن يكون الإنسان في حالة نفسيّة سويّة إلا إذا جمع بين الخوف والرجاء، فإذا غلب الخوف فهي حالة مرضيّة، وإذا غلب الرجاء فهي حالة مرضيّة أيضاً، فلاحظ نفسك ووزان بين الحالتين، يوجد في الدم هرمون التجلط وهرمون التميع إذا غلب هرمون التجلط رأيت الدم كالوحل في الأوردة والشرايين فيموت الإنسان فوراً، وإذا غلب هرمون التميع سال الدم كله من ثقب صغير، في كلا الحالين، فالإنسان ميت ولا بد من التوازن الدقيق بين التجلط والتميع، وبعلاقتك مع الله عز وجل يجب أن يكون هناك توازن بين الرجاء والخوف، فأكثر الناس يقول: لا تشدّد فالله غفور رحيم، وهذا رجاء أبله، لو قرأت القرآن لوجدت أن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ

لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾ [النحل:١١٩]، إذا راجعت القرآن الكريم فالآيات التي وردت بموضوع المغفرة آيات كثيرة: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأعراف:١٥٣].

فالتفاؤل والرجاء دون توبة ودون استقامة تفاؤل أبله أحمق، والخوف إلى درجة الانسحاق واليأس من رحمة الله هذا يأس قاتل، ولن تسعد مع الله عز وجل إلا إذا جمعت بين الخوف والرجاء، قال تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٩٠].

﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنعام:٦٣].

قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي﴾ أي: أخبر يا محمد: ﴿أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ أي: أني واسع المغفرة والرحمة لمن تاب وأناب.

قبل العباد جاءت شفاعة النبي ﷺ، وبعد العباد جاءت رحمة الله تعالى، والعبد بين شفاعة ورحمة، هذا من باب التطمين.

علاقة المؤمن باسم الله (الغفور)

أول واجب على المؤمن أن يستغفر الله، فلابدّ من أن تستغفر لأن الله ما أمرك أن تستغفره إلا ليغفر لك، فدوام الاستغفار هو حظك من هذا الاسم.

والنبي ﷺ يقول: «إني لأستغفرُ الله في اليومِ مئة مَرة» [أبو داود عن الأغر المزني].

وقد ننوه أن استغفار النبي له تفسير خاص، فكلما أقبل على الله، وانكشفت له رؤية جديدة، استغفر من رؤيته السابقة، لأنه مهما تعرفت إلى الله، فالله أعظم مما عرفت ولا يعرف الله إلا الله.

جاء العلماء بمصطلح لطيف، هو المغفرة الوقائية، بمعنى أنك إذا كنت متصلاً بالله عز وجل، مستغفراً له الاستغفار العام، فهذه مغفرة وقائية، أنت تستغفر لا لذنب وقع منك، بل لئلا تقع بالذنب.

إذاً يصح أن نقول: أفضل أنواع الاستغفار، الاستغفار الوقائي، يعني دوام الصلة بالله ليكون القلب مستنيراً لئلا تقع في الذنب.

قال بعض العلماء: الأولى أن يستغفر الله صباحاً لما كان منه في الليل وأن يستغفر الله مساءً لما كان منه في النهار.

التطبيق الثاني من تطبيقات اسم الغفور بالنسبة للمؤمن أن تغفر لمن أساء إليك.

هل تعتقد أن هناك إساءة أبلغ، وأعظم من أن يتهم أحد ابنتك الشريفة، الطاهرة، العفيفة بالزنا؟! هذا مِسْطَح، الذي روج حديث الإفك، كان الصديق يحسن إليه، فإذا بمسطح يروج حديث الإفك الذي يمسُّ ابنته السيدة عائشة، فأوقف المعونة عنه، فجاء العتاب الإلهي: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور:٢٢].

فقال أبو بكر رضي الله عنه: «بلى، والله إني لأحبُّ أن يغفر الله لي» وتابع مساعدته له [البخاري عن عائشة].

وهذه قصة نموذجية، كن أكبر من ذنب الآخر، اعفُ عنه فأنت كبير، والإنسان أحياناً يكبر، ويكبر، ويكبر، عند الله، ولا ترى كبره فيتضاءل أمامه كل كبير، ويصغر ولا ترى صغره فيتعاظم عليه كل حقير، الإنسان إذا عفا يكون كبيراً، وإذا انتقم يكون صغيراً.

يقول تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت:٣٤].

هذه أخلاق الدعوة، فالعفو والمغفرة لمن أساء إليك خُلق يرضى الله عنه.

هكذا كان أصحاب النبي، هكذا كان التابعون، هكذا كان تابعو التابعين، هكذا كان السلف الصالح، أما الأحقاد فقد مزّقت الأمة، على مستوى البلاد الإسلامية، على مستوى المدن، على مستوى القرى، على مستوى الأسر، تجد عداوات لا تنتهي بين الأسرة الواحدة.

الإنسان لضعفه أحياناً يسامح، لأنه ضعيف، لا يملك أن يُحاسِب، لكن حينما تعفو عن عدوك وهو في قبضتك، وبإمكانك أن تسحقه، وبإمكانك أن تذيقه ألوان العذاب، وتعفو عنه فهذا العفو يرقى بك عند الله.

لذلك حينما ائتمرت قريش على رسول الله عشرين عاماً، ونكّلت بأصحابه، وحاربته مرات عديدة، ثم وقعوا في قبضته عند فتح مكة، عشرة آلاف سيف متوهجة ينتظرون كلمة من فمه الشريف، قال: «ما تظنون إني فاعل بكم؟ قالوا: أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء» [السيرة النبوية].

المؤمن المتخلق بهذا الاسم لا يرى عورة إلا سترها، ولا زلة إلا غفرها، وإن اعتذر إليه أخ قَبِل منه، وعامله بالإحسان بل يقابل جميع إساءاته بالغفران لأنه صاحب الخلق الرفيع. فالله عز وجل ستّير والمؤمن يستر.

لذلك يصير المؤمن بين الناس كالشجرة الظليلة، تُرجم بالحجارة، وتلقي عليهم الثمار، كن كبيراً، الإنسان الكبير عند الله له مكانة عظيمة.

وقد علمنا النبيّ ﷺ دعاء هو سيد الاستغفار: «اللهمَّ أَنْتَ رَبِّي، لا إِلَهَ إلا أنت، خَلقْتني، وأَنا عَبدُكَ، وأنا على عَهدِكَ ووعْدِكَ ما اسْتَطَعتُ، أَعوذُ بِكَ مِن شَرِّ ما صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعمَتِكَ وأَبُوءُ لك بذنبي فَاغْفِر لي إِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذنوبَ إلا أنتَ» [أخرجه أبو داود عن بريدة بن الحصيب].

ومن رحمة الله بنا هذا الحديث الشريف:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَقُولُ «الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ وَالجُمْعَةُ إِلَى الجُمْعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الكَبَائِرَ» [صحيح مسلم].

هذا من فضل الله، ومن كرمه علينا، أن الصلاة تمحو الذنوب التي ما بين الصلاتين كأنك فتحت مع الله صفحة جديدة، وأن الجمعة تمحو ما كان بين الأسبوعين، وأن رمضان إلى رمضان يمحو ما بينهما.

العبد عبد، والرب رب، العبد شأنه الاستغفار، والربُّ شأنه الغفران، من لنا غير الله؟! مهما أذنبنا فليس لنا إلا الله الغفور.

القريب

مع اسم جديد من أسماء الله الحسنى، وهو اسم (القريب)، وقد ورد هذا الاسم مفرداً غير مقترن بغيره من الأسماء الحسنى، مطلقاً، منوناً، في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ ﴾ [البقرة:١٨٦].

وقد ورد أيضاً مقترناً باسم الله المجيب، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود:٦١].

واقترن باسمه السميع، في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾ [سبأ:٥٠].

وقد ورد في السّنة الشّريفة: عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ ﵁ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فَكُنَّا إِذَا أَشْرَفْنَا عَلَى وَادٍ هَلَّلْنَا وَكَبَّرْنَا ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُنَا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا إِنَّهُ مَعَكُمْ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ تَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَى جَدُّهُ.

من معاني القرب

أولاً: القرب المكاني: فالقريب عكس البعيد، القريب ليس بينك وبينه حجاب، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة:٢٨].

ثانياً: القرب الزمانيّ: قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأنبياء:١٠٩].

ثالثاً: القريب في النسب: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء:٧].

وهناك قاعدة: الأقربون أولى بالمعروف، وهو القرب النسبي، والقرب إلى الفقر، والقرب إلى الإيمان، عندك ثلاثة موازين في دفع صدقتك أو زكاتك، إما أنه أفقر، أو أنه أقرب إلى الإيمان، أو أنه أقرب إليك نسباً.

رابعاً: قرب الحظوة: قد يكون الإنسان قريبا من إنسان يحتلّ مركزاً مرموقاً، بإمكانه أن يدخل عليه بلا استئذان، بإمكانه أن يبوح له بكل شيء، هذا قربُ الحظوة، قال تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الواقعة:٨٨-٨٩].

أما الله تعالى فقريب من خلقه كما شاء، وكيف شاء، هو القريب من فوق عرشه، أقرب إلى عباده من حبل الوريد.

من معاني اسم الله القريب

هذا الاسم له قرب شديد من الإنسان، بمعنى أنك إذا أيقنت أن الله معك فلن تعصيه، بل حينما تشعر أنّ قرب الله قربُ علم، وأنّ قرب الله قربُ قدرة، عندئذ لا يمكن أن تتجاوز أمره.

حينما توقن أن علم الله يطولك، وأن قدرته تطولك، فكيف تعصيه؟ حتى إنه قد قيل: أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان، قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤].

وهذه معية العلم، وهو مع المؤمنين بالحفظ، والتأييد، والنصر، والتوفيق.

وفي آية أخرى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ [الشعراء:٢١٦-٢٢٠].

وفي الحديث الشريف: «الإحسان أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» [مسلم عن عمر بن الخطاب].

أحياناً يكون الإنسان قريباً منك، يلازمك كظلّك، لا يفارقك، مهما يكن محبوباً فإنك تضجر من قربه، ثمّ تقول له: دعني وشأني، فأنت تحتاج من حين لآخر أن تنفرد بنفسك، ومع أن الله معنا في كلّ وقت، وفي كلّ حين، وفي كلّ شأن، لكنّ معيته لطيفة، فلا تشعر بمراقبته، بل تشعر براحة لقربه منك.

إنّ أعلى درجةٍ من الإيمان أن تشعر أن الله معك، وأكبرَ ضمانة للاستقامة أن تشعر أن الله معك، وأكبرَ باعث على الخشية أن تشعر أن الله معك، وأكبرَ مُطمئِنٍ لك أن تشعر أن الله معك.

وفي قصة موسى عليه السلام مع فرعون عبرة وعظة، فوَفق الموازين الأرضية لا أمل في النّجاة، فرعون؛ بقوته، بجيشه، بطغيانه، بحقده، بجبروته، يلاحق نبياً مع عدد قليل من بني إسرائيل، إلى أن وصلوا إلى البحر، وانتهى الأمر.

﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء:٦١-٦٢].

معية الله للمؤمنين معية النصر، معية التوفيق، معية التأييد، معية الحفظ، ومعية الله لأي إنسان كائناً من كان، حتى ولو كان ملحداً فهي معية العلم.

إلا أن المعيّة الخاصة لها ثمن، ولا شيء بلا ثمن.

﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المائدة:١٢].

هو أقرب إليك من حبل الوريد، قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق:١٦].

فهو معنا، يطّلع علينا، يطّلع على خواطرنا، على نوايانا، إذا تكلّمنا فهو يسمعنا، يطّلع على قلوبنا إذا أضمرنا، لا تغيب عنه غائبة، ولا تخفى عنه خافية، هذا الإيمان الذي إن وصلنا إليه نكون قد حققنا تسعة أعشار الطريق إلى الله.

مثل للتقريب: لو زار أحدَهم رجلٌ من علية القوم، من وجهاء الحي، من أقرب النّاس إليه، في الأعمّ الأغلب يرتدي ثياباً جميلة، يجلس جلسة مؤدّبة، ينتقي كلمات مهذّبة، فإذا كان هذا حالنا مع كبراء القوم، فكيف حال المؤمن مع خالق السماوات والأرض؟!

الحقيقة أن الخشوع يحتاج إلى إحساس بالقرب، ودائماً وأبداً يشعر المؤمن أن الله معه، فهو أولاً في طمأنينة، وثانياً في مراقبة.

صدقوا أنّ هناك آياتٍ لا تعد ولا تحصى، الواحدة منها تكفي.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء:١].

أحياناً تدعو الله بقلبك، ولا تحرك شفتيك، ولا تنطق بكلمة، فيستجيب لك جل جلاله.

حدثني رجل، قال لي: انتهيت من أداء خدمتي الإلزامية، ولا أملك من الدنيا شيئاً، أعطتني أختي سواراً من الذهب، فبعته، واشتريت به بطاقة إلى بلاد الخليج، وأنا

راكب في الطائرة أضمرت في قلبي أن إذا أكرمني الله عز وجل سأبني مسجداً في بلدتي، قال لي: والله ما حرّكت شفتاي بهذا الكلام، وبعد أعوام مديدة أنشأ المسجد، وقد صليت في المسجد الذي بناه، وحدثني عن قصته فيه.

فالله عز وجل مطّلع على خواطرك، يمكن أن تدعوه بقلبك.

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ [مريم:٣].

وفي آية ثانية: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى﴾ [البقرة:١٨٦].

وهنا لا بد من التنويه إلى أنّ في القرآن الكريم عدداً ليس بالقليل من الآيات تبدأ بقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ ومنها: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة:٢١٩].

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ﴾ [البقرة:٢١٩].

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ﴾ [البقرة:٢٢٢].

آيات كثيرة هذه صيغتها: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾

ويأتي الجواب: ﴿قُلْ﴾

إلا في هذه الآية: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ﴾

استنبط العلماء أنه ليس بين الله وعبده وسيط أبداً، فإذا قلت: يا رب تبت إليك، يقول الله لك: وأنا قبلت يا عبدي.

يقول لك أحدهم: صلّ لي صلاة استخارة، قل له: الاستخارة بينك وبين الله مباشرة، ولا تكون الاستخارة نيابة وبالوساطة، فالله تعالى قريب.

علاقة المؤمن باسم الله القريب

أولاً: الدّعاء: الدّعاء سلاح المؤمن، وأنت بالدّعاء أقوى إنسان، إن أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله، وإن أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك، إذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتقِ الله.

الدعاء يحتاج إلى عناصر، أن توقن أنّه تعالى موجود أولاً، ويسمعك ثانياً، وهو قادر على تحقيق دعائك ثالثاً، وهو يحبّك رابعاً، من هنا قال تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ [الفرقان:٧٧].

أي لا يكترث الله بكم لولا أنكم تدعونه.

وفي الحديث عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء هو العبادة».

وقرأ: ﴿ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر:٦٠] [رواه الترمذي وقال حسن صحيح].

من أجل أن تكون أيها المؤمن مستجاب الدعوة، من أجل أن يكون الدعاء سلاحَك، من أجل أن تكون أقوى الناس بالدعاء آمن به أولاً، واستجب له ثانياً، عندئذٍ تغدو مستجاب الدعوة.

ويقول تعالى: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الأعراف:٥٥].

مستحيل وألف ألف مستحيل أن تكون معتدياً على خلق الله، وتقول له: يا رب استجب لي، لأن الله عز وجل من خلال هذه الآية يقول لك: لن أستجيب لك، لأنك من المعتدين، ولن تستطيع أن تسأل الله إلا إذا كنت محسناً.

فمن وقع في مخالفة شرعية، وفي أكل مال حرام، وفي تقصير في العبادات، لا يستطيع أن يدعو الله، يدعو الله شكلاً بلسانه، لكنّ قلبه محجوب عن الله عز وجل، وأكبر عقاب يعاقب به الإنسان أنه يحجب عن الله عز وجل.

﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين:١٥].

سيّدنا يونُس ﷺ وجد نفسه فجأة في بطن حوت، حيث يقف المرء في فم الحوت قائماً، ووجبته المعتدلة أربعة أطنان، والإنسان كلّه خمسون كيلو غراماً، وجد نفسه فجأة في ظلمة الليل، وفي ظلمة البحر، وفي ظلمة بطن الحوت.

﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧].

لأنه يحسّ أنّ الله قريب منه.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء:٨٨].

أروع ما في الآية أن التعقيب نقلها من قصة وقعت إلى قانون مستمر (وكذلك ننجي المؤمنين)

فالمؤمن سلاحه الدعاء، إحساسه أن الله قريب منه، وأن الدعاء أقوى ما يميزه عن غير المؤمن، والدعاء له قوّة لا يملكها خصمه.

ثانياً: المراقبة: إنّ أكبر شيء يدفع المؤمن إلى طاعة الله أنه يخاف أن تنقطع الصلة بينه وبين الله، لماذا يستقيم؟ لماذا يحاول أن يكون ورعاً تماماً؟ لماذا يطبق الأمر تماماً؟ لأنه ينعم بصلة بالله، وهي أثمن ما في الحياة.

يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى: «مساكين أهل الدنيا، جاؤوا إلى الدنيا وغادروها ولم يذوقوا أطيب ما فيها، إنها الصلة بالله».

ويقول أيضاً: «ماذا يفعل أعدائي بي؟ بستاني في صدري، إن أبعدوني فإبعادي سياحة، وإن حبسوني فحبسي خلوة، وإن قتلوني فقتلي شهادة، فماذا يصنع أعدائي بي»

ويقول أيضاً «في الدنيا جنة من لم يدخلها لن يدخل جنة الآخرة». إنها جنّة القرب.

فإذا أيقنت أن الله قريب منك، وأنه معك، وأنه مطلع على سريرتك، لأنه يسمع دعاءك، ويرى حركتك، ويعلم ما في قلبك، لا بد من أن تستقيم على أمره، ولا بد من أن تستحي منه.

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «اسْتَحْيُوا مِنْ الله حَقَّ الحَيَاءِ، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالحَمْدُ لله، قَالَ: لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الِاسْتِحْيَاءَ مِنْ الله حَقَّ الحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ، وَمَا وَعَى وَالبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكُرْ المَوْتَ وَالبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنْ الله حَقَّ الحَيَاءِ» [أخرجه أحمد، والترمذي والحاكم، والبيهقي].

إذاً: يجب أن تشعر أنّ الله معك، ومرتبة الإحسان تأتي في أعلى درجة، فمرتبة الإسلام تعني أن تخضع للواحد الدّيّان، أن تخضع جوارحك لمنهجه، أن تؤدّي زكاة مالك، أن تصلّي الفرائض، أن تحجّ البيت، أن تغضّ البصر، أن تكون صادقاً، أميناً، عفيفاً، منجزاً للوعد، راعياً للعهد، هذا هو الإسلام.

﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾ [الحجرات:١٤].

فالإسلام أولاً، وهو خضوع الجوارح والأعضاء لمنهج الله عز وجل، أما الإيمان فأن ينعقد مع هذا الخضوع صلة بالله عز وجل، فتقبل عليه، لذلك فالإيمان يزيد وينقص، يزيد بالإقبال على الله، وينقص بفتور العلاقة معه.

المرتبة الثالثة مرتبة الإحسان، وهذه متعلقة باسم (القريب)، وهي أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

إنه معكم، وأبرز ما يميز المؤمن خشوعه، وأسباب خشوعه إيمانه أن الله معه، وهناك قَصصٌ لا تُعَدُّ ولا تُحصَى تبيّن أنّ النّاس يتفاوتون بإيمانهم، وبقدر إدراكهم بقرب ربهم.

كما قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الواقعة:٨٣-٨٥].

إنسان حضرته الوفاة، أقرباؤه، زوجته، أولاده، إخوته، كلّهم قريب منه، يضعون يدهم على جبينه، وهذا على يده يقيس ضغطه ومع كل ذلك قال تعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ .

لذلك القرب من الله قِمّة التّديّن، قمّة الإيمان أن تكون قريباً من الله، القرب من الله يعني الانضباط، القرب من الله يعني الشّعور بالأمن، القرب من الله يعني الشّعور بالسكينة، القرب من الله يعني الشعور بالسعادة، الشعور بالرضا.

ما من نعمة أعظم عند الله من أن تشعر بالأمن، من أن تشعر أن مصيرك بيد الله، لا بيد زيد، ولا بيد فلان أوعلان، مصيرك بيد الله، رزقك بيده، صحتك بيده، الأقوياء بيده، أعداؤك بيده، أقرب الناس إليك بيده، من له علاقة حميمة معك بيده.

ثالثاً: من ثمرات اسم (القريب) أنه ينصرك، فلا تخشى في الله لومة لائم: حينما أدى الحسن البصري واجب العلماء في التبيين، وسمع الحجاج مقالة الحسن البصري، غضب غضباً شديداً، وتوعده بالقتل، وقال لمن حوله: «يا جبناء والله لأروينّكم من دمه، وأمر بقتله، وجاء بالسيّاف، وأرسل في طلب الحسن، دخل الحسن البصري إلى المجلس، فإذا بالسيّاف، وإذا بالنّطع قد مد، فحرك شفتيه، لأنه يشعر أن الله قريب منه، وإذا بالحجاج يختلف أمره، يقف له، ويقول: أهلاً بأبي سعيد، أنت سيّد العلماء، ومازال يدنيه من مجلسه حتى أجلسه على سريره، وسأله في بعض القضايا، واستفتاه، وضيّفه، وعطره، وشيّعه إلى باب القصر، صُعق السياف والحاجب، فتبعه الحاجب، قال: يا أبا سعيد، لقد جيء بك لغير ما فُعل بك، فماذا قلت لربك؟ قال: قلت: يا ملاذي عند كربتي، يا مؤنسي في وحشتي، اجعل نقمته عليّ برداً وسلاماً كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم».

أنت حينما تشعر أن الله قريب منك تدعوه في أيّ وقت، وفي أيّ مكان، وفي أطباق السماء وأنت راكب بالطائرة، وفي أعماق البحار وأنت في غوّاصة، وعلى سطح الأرض، وعلى أي مكان في الأرض، وفي أي حال.

لذلك الشعور بالقرب من الله شعور مُسعِد، الشعور بالقرب من الله شعور مُطمئِن، الشعور بالقرب من الله يشعرك بالسكينة التي تسعد بها، ولو فقدت كل شيء، وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء.

رابعاً: تتقرب منه جل جلاله: هذا عن قرب الله منك، القرب الذي يعلمه سرَّك ونجواك، القرب الذي يكرمك، بالتوفيق، والتأييد، والنصر، فماذا عن قربك منه؟ هو قريب منك، هل أنت قريب منه؟ متى تقترب من الله؟ قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف:٥٦].

إن كنت محسناً فأنت قريب من الله، الإحسان المطلق، أن تحسن في بيتك، النبي ﷺ يوصيك بالنساء خيراً، أن تحسن إلى أولادك، أن تحسن إلى جيرانك، أن تحسن في عملك، أن تقدم سلعة جيّدة بسعر معتدل، بمعاملة طيبة، الإحسان واسع جداً.

«إنَّ الله تَعالى كَتَبَ الإِحْسانَ على كُلِّ شَيْءٍ، فإذَا قَتَلْتُمْ فأَحْسِنُوا القِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ» [رواه مسلم عن شَدَّادِ بن أوسٍ].

صفة المؤمن أنه محسن، وصفة غير المؤمن أنه مسيء، وشتان بين الإحسان والإساءة، فعمله يقيّم إجمالاً، ففي كلامه محسن، في ابتسامته محسن، في أخلاقه محسن، مع أقرب الناس له، مع زوجته محسن، مع أولاده محسن، مع بناته محسن، فكأن المؤمن في قلوب الخلق، هذا من معاني قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل:١٢٠].

هناك إنسان ليس له عمل صالح أبداً، الناس يستوحشون منه، وهناك إنسان يحبّه الناس جميعاً.

لذلك من علامة حبِّ الله لك أن يلقي محبّتك في قلوب الخلق.

ينـادى لـه في الكـون أنّـا نحبـه فيسـمع مـن في الكـون أمـر محبنـا

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه:٣٩].

يعني جعلت الخلق يحبونك، وهناك إنسان مبغوض، لا يحبه أحد، متكبر، أنانيّ، يحبّ ذاته، يحب أن يأخذ لا أن يعطي، يحب أن يستعلي لا أن يتواضع.

فلذلك صفات المؤمن تؤهله أن يكون محبوباً عند كل الخلق.

إنّ الله تعالى قريب من عباده، ينتظر منهم أن يستجيبوا له، ويتقربوا منه بالإحسان وبصالح العمل ونحن ندعو فنقول: اللهمّ هب لنا عملاً صالحاً يقربنا إليك.

الحليم

الاسم الذي نحن في رحابه «الحليم»، ومعلوم أن من أسماء الله الحسنى ما لا يجوز تسمية الإنسان بها كاسم الرحمن، ومن أسماء الله الحسنى ما يُسمّى الإنسان بها كالرّحيم والحليم، وممّا يلفت النّظر أنّ النّبي ﷺ قال لأشج عبد القيس فيما رواه مسلم من حديث ابن عباس في صحيحه: «إن فيك لَخَصْلَتين يحبهما الله ورسوله الحلم والأناة».

هذا الاسم ورد في آيات كثيرة مقترناً باسم الغفور كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾ [المائدة:١٠١].

وقد ورد أيضاً مقترناً باسم الغني، في قوله تعالى: ﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ ﴾ [البقرة:٢٦٣].

واقترن أيضاً باسم الشكور في قوله تعالى: ﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [التغابن:١٧].

واقترن أيضاً باسم العليم، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾ [الأحزاب:٥١].

وقد ورد هذا الاسم في السّنّة الصّحيحة في صحيح البخاريّ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «كان ﷺ يقولُ عند الكربِ: لا إله إلا اللهُ العظيمُ الحليمُ، لا إله إلا الله رَبُّ العرش العظيم، لا إله إلا الله رَبُّ السماوات وربُّ الأرضِ، لا إله إلا الله رَبُّ العَرشِ الكريم» [البخاري عن ابن عباس].

من معاني اسم (الحليم)

«الحليم» في اللغة صفة مشبهة باسم الفاعل، تطلق على من اتّصف بالحِلْم، والفعل حلُمَ، يحلُمُ، حِلْماً.

أمّا لو قلنا: حلِم، يحلُم، حُلْماً أو حُلُماً فهذه هي الرؤيا التي يراها النائم في نومه.

وصفة الحِلم تعني الأناة، ومعالجة الأمور بصبر، وعلم، وحكمة.

ويقابل الحِلمَ العجلةُ المفسدة لأمور الدّين والدّنيا، ولا يفوتني هنا أن أقول لكم: إن معالجة المسلمين في هذا العصر لبعض المشكلات التي تحيط بهم متسرّعة أحياناً، وهذا ما يسبّب لنا متاعب لا تنتهي، بينما أعداؤنا يفكرون بعقولهم ويخطّطون بهدوء، فالعجلة مفسدة في أمور الدّين والدّنيا.

«الحليم» هو الذي يرغب بالعفو، ولا يسارع بالعقوبة، قال تعالى في وصف سيدنا إبراهيم: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة:١١٤].

أما قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات:١٠١].

أي لديه أناة، وبصيرة، وحكمة من صغره.

أما إذا وُصِف الله جل جلاله بالحِلم فهو الصبور على عباده، يتمهّل، ولا يتعجّل، وهو المعطي لا يُسأل، وهو «الحليم» لا يعجل، بل يتجاوز عن الزلّات، ويعفو

عن السّيئات، فهو سبحانه وتعالى يمهل عباده الطائعين ليزدادوا في الطاعة والثواب، ويمهل عباده العاصين لعلهم يرجعون إلى الطّاعة والصّواب، ولو أنه عجّل لعباده الجزاء ما نجا من العقاب أحد، ولكنّ الله جلّ جلاله هو «الحليم» ذو الصفح والأناة، استخلف الإنسان في أرضه، واسترعاه في ملكه، واستبقاه إلى يوم موعود وأجل محدود، فأجّل بحِلمه عقاب الكافرين، وعجّل بفضله ثواب المؤمنين.

«الحليم» الذي لا يعجّل بالعقوبة، والانتقام، ولا يحبس عن عباده بذنوبهم الفضل والإنعام، بل يرزق العاصي كما يرزق المطيع، وإن كان بينهما تفاضل على مقتضى الحكمة.

الكفار يأكلون أطيب الطعام، ويشربون، ويتمتعون، ويسكنون البيوت الفخمة، ويركبون المركبات الفارهة، ويتزوجون النساء، ويتبجّحون، ويتطاولون، ويتكبّرون، والله يرزقهم.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [فاطر:١٥].

من معاني اسم «الحليم» أن الله سبحانه وتعالى يؤخر العقوبة، السؤال: لماذا يؤخرها؟ لو أنه ألغى العقوبة فهذا ما يعنيه اسم الغفور، أما تأخير العقوبة فهو الحِلم.

لو أنّ الله سبحانه وتعالى عجّل العقاب لكلّ مذنب لما كان حليماً، ولو أن الله أجّل العقاب، ويريد بهذا التأجيل أن يوقع بهذا الإنسان أشدّ العقاب، فهذا ليس حِلماً، بل هو حقد، فالحاقد يضبط أعصابه، ويخطّط لإنزال أشدّ العقاب بهذا الإنسان، أمّا الله عز وجل فيؤخّر العقاب لا ليوقع بهذا الإنسان أشدّ العذاب، ولكن ليعطي هذا الإنسان فرصة لعلّه يرجع، ويتوب، ويستغفر، لعله يندم، فالتأخير ليس حقداً، ولا ضعفاً، لكنّه إمهال، ومنح فرصة لهذا الإنسان لعلّه يرجع إلى الله.

أحياناً يحقد الإنسان لأنّه ضعيف، يكتُم الألم، وأحياناً يحقِد لأنّه قويٌّ، فالضعيف يحقد، والقوي يحقد، ولكنّ الحقد شيء، والحِلمَ شيء آخر.

يتوضّح الأمر من خلال هذا المثل:

أسّسنا مدرسة نموذجيّة فيها أفضل المدرسين، وأفضلُ المناهج، وأحسن الكتب، فيها مرافق راقية جداً، مكتباتٌ، قاعات تدريس، مخابرُ، فيها كلُّ شيء، لو أنّ المدير كان هدفُه تنفيذَ القانون بشكل حرفيّ إذاً فكلّ طالب غاب لأسبوعين يفصل فصلاً نهائيّاً من المدرسة، لكنّ المدير الحكيم، الرحيم، الحليم يتغافل أحياناً عن غياب طالب، وأحياناً يؤخّر العقاب، وأحياناً أخرى يستدعي والد المقصّر، وهذه كلُّها محاولات لإعطاء الطلاب المتغيبين فرصة ليعودوا عن تقصيرهم، فليس الهدف إيقاعَ العقاب بالطلاب، بل إنّ الهدف نشرُ الخير، والعلم، والمبادئ، والقيم، وتخريج قادة لهذه الأمة، فالمدير الحكيم الحليم لا يتّخذ الأخطاء التي يرتكبها الطّلاب مبرراً لفصلهم، وإنهائهم.

هذا معنى «الحليم» يؤخر العقاب كي يعطي المقصر فرصة ليصحّح تقصيره.

وفي آية أخرى تدل على اسم الحليم: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ ﴾ [طه:١٢٩].

يعني: ولولا كلمة سبقت من ربك وأجلٌ مسمّى لكان لزاماً، لولا أنّ الله خلق عباده ليرحمهم، لولا أن الله خلق عباده ليسعدَهم، لولا أن الله خلق عباده لجنّة عرضها السّماوات والأرض، لولا أن الله خلق عباده ليتوبوا إليه، فيقبلَ توبتهم، لولا أنّه خلق عباده ليستغفروه فيغفرَ لهم، لولا أنّه خلق عباده ليسألوه فيعطيَهم، لولا أنّ الله خلق عباده ليرجعوا عن ذنوبهم فيقبلَهم، لولا كلُّ ذلك لعجّل عليهم العقاب.

أوضح مثل: المركبة، ما عِلّة صنعها؟ أن تسير، ولماذا وُضع فيها المِكبح؟ وهو يتناقض مع علة صنعها، كذلك فإنّ علة خلق الإنسان أن يسعده، وأن يرحمه، وأن

يدخله جنّة عرضها السماوات والأرض، ولكن تقتضي الحكمة أحياناً أن يوقفه عند حدّه، أن يعاقبه، أن يردعه، أن يربيه، فالذي يقول: خُلقنا للعذاب إنسانٌ جاهل.

الطّفل حين يجلس على كرسي طبيب الأسنان، لا يحتمل، يبكي، يصرخ، يمسك يد الطبيب، يتحرك حركة غير صحيحة، أما الكبير فإنّه يتألم أشد الألم، لكن بصمت لأنه يعلم أنّ هذا الألم لصالحه.

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ ﴾ .

لكان لزاماً إنزالُ العقاب بهم، لكنّ هذه الكلمة هي الرحمة، هي الإحسان، هذه الكلمة اقتضت أن يؤخّر الله عقابهم لعلهم يرجعون، لعلهم يندمون، لعلهم يراجعون أنفسهم.

يؤكد هذه الحقيقة قوله ﷺ «سبقت رحمتي غضبي» [متفق عليه من حديث أبي هريرة]، «إن رحمتي تغلب غضبي» [الترمذي من حديث أبي هريرة].

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٥٦].

﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [هود:١١٩].

﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [الفرقان:٧٧].

لولا أنكم تعرفونه، وتدعونه في ضوء معرفتكم، ولولا الأمل في أن ترقوا، ولولا الأمل في أن تتوبوا، ولولا الأمل في أن تنجوا، فما يعبأ بكم ربي؟!...، لولا أنه يعبأ بكم لأوقع الهلاك والعقاب والجزاء وانتهى الإنسان إلى بوار.

ما من مسلم إلا وهو يعلم أن صُلْحَ الحديبية، في ظاهره مهانة للمسلمين، لأن فيه تنازلات وهم في حالة قوية، تنازلات أباها الصحابة، ورأوها نوعاً من الذُلِّ ونوعاً من الاستسلام، وقد أدهشهم موقف النبي ﷺ، والنبي ﷺ لما رأى هذا الغليان في صدور الصحابة ولا سيما عمر رضي الله عنه الذي ظن أن في الصلح قبولاً للدنيّة في الدين قال: «إني رسول الله ولن يضيعني الله أبداً» [رواه الشيخان من حديث سهل بن حنيف] ثم جاء الجواب:

﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الفتح:٢٥].

في مكة أُناسٌ آمنوا خفية، آمنوا بقلوبهم وبقوا مع قريش بأجسامهم، هؤلاء يعلمهم الله، لذلك أخّرَ فتح مكة كله، وأمر النبي ﷺ أن يقبل بهذه الشروط التي تبدو مهينة من أجل أن يعطي هؤلاء فرصة كي يؤمنوا، إذاً أنت تتعامل مع الحليم.

«الحليم» من كان صفّاحاً عن الذنوب، ستّاراً للعيوب.

و «الحليم» الذي غفر بعد ما ستر.

و «الحليم» يحفظ الودّ، ويحسن العهد، وينجز الوعد.

و «الحليم» يُسبل ستره على العصاة، ويسحب ذيل عفوه على الفجار.

و «الحليم» هو الذي لا يستخفّه عاصٍ، ولا يستفزّه طغيان طاغٍ.

عمير بن وهب، التقى بصفوان بن أمية بعد معركة بدر، قال: يا صفوان، لولا ديون لزمتني ما أطيق سدادها، ولولا أولاد صغار أخشى عليهم العنت من بعدي، لذهبت وقتلت محمداً، وأرحتكم منه، انتهزها صفوان، وقال له: أمّا أولادك فهم أولادي، ما امتدّ بهم العمر، وأما ديونك فهي عليّ بلغت ما بلغت، فامضِ لما أردت، سقى سيفه سمّاً، وامتطى راحلته، وتوجّه إلى المدينة، فلما وصل إلى المدينة رآه سيدنا

عمر فقال: يا نبي الله هذا عدو الله عمير بن وهب، قد جاء متوشّحاً سيفه. قال: «فأدخله علي». فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلبّبه بها.

وقال لرجال من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث فإنه غير مأمون ثم دخل به على رسول الله ﷺ فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «أرسله». فدنا عمير.

فقال رسول الله ﷺ: «فما جاء بك يا عمير»؟ قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه يعني ولده قال: «فما بال السيف في عنقك»؟ قال: قبحها الله من سيوف وهل أغنت عنا شيئا قال: «اصدقني ما الذي جاء بك»؟ قال: ما جئت إلا لذلك.

قال رسول الله ﷺ: «بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش ثم قلت: لولا دين علي وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمدا فتحمّل لك صفوان بدَينك وعيالك على أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ذلك».

فقال عمير: أشهد أنك رسول الله قد كنّا يا رسول الله نكذّبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان فوا الله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله فالحمد لله الذي هداني للإسلام وساقني هذا المساق. ثم شهد شهادة الحق.

لولا أنّ الله أخّر عقابه لكان مصيره إلى النار، لكنّ الله حليم، لذلك قال بعضهم: إن الله جلّ جلاله علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، علم الله بأن هذا الإنسان ينطوي على خير، فأخّر العقوبة عنه فكان ذلك سبب نجاته، وإسلامه.

إن رجلاً من أصحاب ذي النون المصري، شَعَرَ بضيق، وبتشتت، وشَعَرَ بضياع، فقال: أين قلبي؟ أين ضاع قلبي؟ قلبي في ضياع، وفي طريقه في بعض أزقة المدينة رأى

باباً يُفتح، ورأى أُمّاً تطرد ابنها، وتلقيه خارج البيت، وتُغلق الباب، جلس هذا الطفل يبكي فأين يذهب؟ إلى أي بيت يدخل؟ من يسأل ليطعمه؟ أين ينام؟ فما كان منه إلا أن عاد إلى باب بيته، وجلس على عتبة الباب يبكي ويبكي، وكانت أمه من رحمتها الشديدة به تنظر إليه من ثقب الباب، فما كان منها إلا أن فتحت الباب وأخذت ابنها، ووضعته في حضنها وقالت: يا قرة عيني! يا عزيز نفسي! لا تحملني بمعصيتك على خلاف ما جبلت عليه من الرحمة بك، لو أطعتني لما رأيت مني ما تكره، فصاح هذا الرجل: وجدت قلبي وجدت قلبي.

أيُّ شيء تكرهه ألمّ بك فاعلم أنه محض رحمة من الله، أراد أن يعالجك، أن يقربك إليه، أن يلفت نظرك.

ربنا عز وجل أراد أن يعرِّفنا بذاته، فجعل نظام الأبوة والأمومة وهو في ظاهره أبوة وأمومة وأولاد وتربية ومستقبل، وباطنه أن تتعرف إلى الله من باب المثل.

عودة إلى نظام الأبوة والأمومة، هذا نظام فريد من نوعه، ترى الأب يهمل نفسه أحياناً ويسعى من أجل أولاده، الأولاد يقفون موقفاً قاسياً أحياناً فيه فظاظة، غلظة، كلامٌ قاسٍ، لا مبالاة، عقوق، وقلب الأب وقلب الأم معلّق بأولادهما، وفي أية لحظة قد يعود هذا الابن إلى أبيه تائباً، يعود إليه منيباً فيقبله الأب ويفرح فرحاً كبيراً.

الذي أراه أن نظام الأبوة والأمومة له هدف أكبر من تربية الأولاد أن تتعرف إلى الله من باب المثل، كيف أن الأب لا يحقد، الأم لا تحقد، الأم كل حياتها من أجل أولادها، كل سعادتها في إسعاد أولادها، وحينما رأى النبي ﷺ أماً تقبل ترضع صبياً في السبي فقال لأصحابه: «أترون هذه طارحة ولدها في النار» قالوا: لا، قال: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها» [متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب].

الأب لا يبتعد عن ولده، والأم شاهدها معها، ألا وهو قلبها الرحيم الحاني، فمن أودع في هذا القلب الرحمة؟ تستيقظ عشرات المرات في الليل من أجل وليدها، إن أصاب وليدها مكروه تبكي، تتمنى أن تعطيه من صحتها، من جسمها، من غذائها، إذاً

نظام الأسرة نظام له هدفان، هدف لتربية الأولاد وهدف أكبر بكثير أن تتعرف لطرف يسير جداً من رحمة الله عز وجل.

تُشاهد حادثاً تتجلى فيه رحمة الله كما تتجلّى فيه عناية الله سبحانه، ترى حادثاً مروِّعاً وقد نجا الكُل بعناية الله وقدرته، قد ترى إنساناً في ساعة ضيق شديد فيأتيه الفرج، ويتبدد الكرب، وأحياناً يصل الإنسان إلى درجة اليأس فيأتيه الإكرام، لذلك قيل:

فلَــرُبَّ نازلــة يضــيق بهــا الفتــى ذرعــاً وعنــد الله منهــا المخــرج

ضــاقت فلــما اســتحكمت حلقاتهــا فرجــت وكــان يظنهــا لا تُفــرج

وليست معركة الخندق بخافية عليك أيها القارئ الكريم، إن الله عز وجل يمتحن المؤمنين؛ إيمانهم وصبرهم، ومدى التجائهم إليه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٩-١٢].

لكنه بعد ذلك رحمهم، وأكرمهم، ونصرهم، وأعزهم، ورفع شأنهم، وأحبطَ أعداءهم، بعدما بدا للمؤمنين أن الإسلام انتهى أمره، وأن المعركة مع الكفار ليست معركة نصر أو هزيمة بل معركة حياة أو موت، معركة نكون أو لا نكون، هذا الذي حصل ويحصل في كل معركة حاسمة.

نصيب المؤمن من اسم (الحليم)

إن الله عز وجل حليم... ومعلوم أنَّ الله يحب الكمال، إن الله طيبٌ ولا يقبل إلا طيباً، والله سبحانه وتعالى يحب المحامد، «ليس أحدٌ أحب إليه المدح من الله، من أجل ذلك مدح نفسه، وليس أحدٌ أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش» [رواه مسلم من حديث عبدالله بن مسعود] و«لا أحد أحب إليه المدح من الله» [رواه مسلم من حديث عبدالله بن مسعود] إن

الله يحب الكمال، يحب العمل الذي يُحمد عليه الإنسان، يحبُّ الحلم، يحب الرحمة، يحب الإنصاف، يحب العدل.

والحلم سيّد الأخلاق، ولأن المؤمن حليم فقراره صحيح، والإنسان حينما يغضب لا يرى الحقائق، بل يرتكب حماقات لا يرتكبها الصغار، لذلك جاء في الحديث الشّريف: «لا تَغْضَبْ» [أخرجه البخاري والترمذي ومالك عن أبي هريرة].

وعنْ أبي هُرَيْرَةَ ﷺ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «لَيْسَ الشَّديدُ بالصُّرَعَةِ، إنَّما الشَّدِيدُ الذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ» [متفق عليه].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مالكٍ ﷺ قالَ: مَرَّ النبيُّ ﷺ بامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ فقالَ: «اتَّقِي اللهَ واصْبِرِي» قالتْ: إلَيْكَ عَنِّي فإنَّكَ لَمْ تُصَبْ بمُصيبَتِي، ولَمْ تَعْرِفْهُ فقيلَ لها: إنَّهُ النبيُّ ﷺ، فأَتَتْ بابَ النبيِّ ﷺ فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابينَ فقالَتْ: لم أعْرِفْكَ، فقالَ: «إنَّما الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى» [صحيح البخاري].

فالإنسان إذا غضب غابت عنه الحقائق، وارتكب حماقات يندم عليها أشدّ النّدم.

هدّئ نفسك، عالج الأمور بأناة، وصبر، وعلم، وحكمة، لا تتعجّل، لا تأخذ الأمر بتعجّل، بل بحلم وهدوء، ويحتاج الإنسان إلى هذه الصفة، لاسيما في الأيام العصيبة، في أيام الكوارث، في أيام القهر، في أيام الظلم، في أيام الفقر أحياناً.

الله عز وجل يحبّ الحليم لأنه حليم، وعلاقتنا بهذا الاسم نحن المؤمنين أن نتصف بالحِلم، فما الطريق إلى الحلم؟ وهو سؤال جدير بالإجابة.

ما دامَ الله عز وجل يحب المحامد، ومن محامده أنه حليم، كيف أكون حليماً؟ التفكر في اسم الحليم طريق إلى أن نكون حليمين، وهناك طريق آخر: أن يكون الإنسان متحلّماً، أي: يتصنّع الحلم.

يقول النبي الكريم ﷺ: «إنّما العلم بالتعلّم، والحِلم بالتحلّم، ومن يتحرّ الخير يُعطَه، ومن يتوقَّ الشرَّ يُوقَه» [أخرجه الطبراني عن أبي الدرداء].

الإنسان يتصنّع الحِلم، يضبِط نفسه، يضغط على أعصابه، لا يحرك ساكناً، يعفو، ما دام يتصنّع الحلم فقد دفع ثمن هذا الخُلُق.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ﴾ [النازعات:٤٠].

منعها أن تنتقم، منعها أن تبطش، ضبط نفسه، هذا الضبط هو التحلّم، والتحلّم ثمن الاتصال بالله، بعد الاتصال بالله يكون الحِلم الحقيقي، فالحلم يكون تصنّعاً، وهو الثمن، ويكون تطبّعاً وهو الثمرة، تتحلّم فتقبل على الله، فيقذف الله في قلبك هذا الخلق الكريم، فتغدو حليماً.

لذلك قال الله عز وجل: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران:١٣٤].

فكأن الإنسان المؤمن يمر بهذه المراحل الثلاث، أولاً يكظم غيظه، بعدئذ يعفو في نفسه، بعدئذٍ يقابل الإساءة بالإحسان.

الحلم حارس أمين يحول بين الإنسان وبين حماقات كبيرة، ونقيض الحلم الغضب، والفوران، فالحليم يحمي نفسه من حماقات كبيرة، في ساعة غضب شديد يُطلّق زوجته، يشرّد أولاده، يهدم بيته.

سمعت عن زوجٍ، زوجته جاهلة بأحكام الدين، وقفت عند بائع، من كلمة إلى كلمة، قالت: نحن جيرانك، ولعل الكلمة من الخضوع بالقول ففهم شيئاً آخر من الكلام، فهم أنه يمكن أن يزورها بالبيت، فدخل إلى البيت ساعة غياب الزوج، فاستنجدت بزوجها عن طريق ابنها الصغير الذي قال له: عندنا رجل في البيت يا أبي، جاء زوجها بحالة غضب شديد، أغلق الباب وجاء بالشرطة، وفضح زوجته وطلّقها، ثم استفتاني يريد أن يردها ما الطريقة؟ لقد ارتكب حماقة كبيرة جداً فقد أخطأت الزوجة لكنها بريئة، ولكن خطأك كان أفدح وأشنع، أين أنت من حادثة الإفك وموقف رسول الله ﷺ؟

والنبي ﷺ علمنا لما سمع الخبر المؤلم في قذف السيدة عائشة وكيف بقي شهراً في أشد حالات الحلم وضبط الأعصاب، هذه السيرة كلها دروس، فإذا كان الرجل غير حليم يصبح كالمتفجرات، يفجر نفسه.

روي أن إبراهيم عليه السلام رأى رجلاً مشتغلاً بمعصية، فقال: اللهم أهلكه، فأوحى الله إلى إبراهيم أن يا إبراهيم لو أهلكنا كل عبد عصى لما بقي إلا القليل، ولكن إذا عصى أمهلناه، فإن تاب، قبلناه، فإن أصر أخّرنا العقاب عنه لعلمنا بأنه لا يخرج عن ملكنا.

جاء الطفيل بن عمرو الدوسي إلى رسول الله ﷺ فقال: إن دوساً قد هلكت، عصت وأبت، فادع الله عليهم، فظن الناس أنه يدعو عليهم فقال: «اللهم اهد دوساً وائت بهم» [متفق عليه من حديث أبي هريرة] والطفيل هو الذي قال للنبي ﷺ: إنه قد غلبني على دوس الزنا، فادع الله عليهم [ابن هشام] فالنبي ﷺ ما كان لعّاناً.

طبعاً لو تُرِكَ الأمر إلى الناس لأهلَكَ بعضهم بعضاً، ولكن الله يرحم.

الحلم فضلاً عن أنه حارس أمين يكون سبباً لتكون هادياً وداعياً إلى الله عز وجل، صفة الحلم، والأناة، والتروي من صفات الدعاة إلى الله عز وجل.

قال مالك بن دينار: كان لي جار يتعاطى الفواحش الكثيرة وجيرانه يتأذون منه، ويمقتونه، فشكوا إليّ، فأحضرناه، ونصحناه، إما أن تتوب، وإما أن ترحل، فأبى أن يفعل واحدة منهما، قلنا له: نشكوك إلى السلطان، قال: السلطان يعرفني، قلنا ندعو الله عليك، فقال: الله أرحم بي منكم، فغاظني ذلك، فلما أمسيت قمت وصليت ودعوت عليه، فوقع في قلبي هاتف، لا تدعُ عليه، بل ادعُ له.

من خلق الإيمان أن تدعو للناس بالهداية، يبدو أن هذا الشاب تاب توبة نصوحة وعاد إلى الله، واتفق أن رآه مالك في موسم الحج يطوف ويبكي.

كلما ارتقى إيمانك تدعو للآخر، ولا تدعو عليه، فالنّبي ﷺ حينما كُذب في الطائف، وحينما أغرى أهل الطائف صبيانهم أن يضربوه، وسال الدم من قدمه

الشريفة وجاءه جبريل، وقال: «إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» [البخاري عن عائشة].

الإمام مالك بن دينار: بينما هو يمشي في الطريق رأى رجلاً مخموراً، طرحته الخمرة أرضاً، والزبد على شفتيه، ويقول: الله، الله وهو في حالة الهذيان، فعظم على هذا الإمام أن يخرج هذا الاسم من فم نجس، وتلطف معه، ومسح فمه، وأكرمه على الرغم من سكره، وبعد أن صحا قيل لهذا السكران: أتدري من اعتنى بك واهتمّ بحالك؟ إنه الإمام مالك، يبدو أن هذه العناية اللطيفة بهذا العاصي أثارت حساسيته، ودفعته إلى التوبة.

فالعصاة أحياناً عندهم رِقّة، مغلوبون، يعصون الله ويبكون فالداعية الناجح يتلطف مع هؤلاء، ويحتويهم، ويأخذ بيدهم.

وكان لأبي حنيفة جار مغنٍّ، وهو تارك الصلاة ويشرب الخمر ويلهو بالغناء يومه كلَّه، وكانت أغنيته المفضلة:

أضاعوني وأيَّ فتىً أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

فهذا المغني ملأ الحي صخباً وضجيجاً وآذى الجيران، وذات ليلة لم يسمع صوته، فسأل عنه، قالوا: أُلقيَ القبضُ عليه، فأبو حنيفة النعمان بقدره العظيم وشأنه الجليل توجه إلى الأمير رجاء أن يعفو عنه، الأمير لم يتوقع أن يأتي أبو حينفة بذاته وحين علم قال: ايْذَنُوا له، وأقبلوا عليه وأقبلوا به راكباً ولا تدعوه ينزل حتى يطأ البساط ببغلته، وإكراماً له أفرج عنه وعن كل من ألقي عليه القبض في ذاك اليوم، فساقه أبو حنيفة من يده قائلاً: يا فتى هل أضعناك؟ تقول: أضاعوني وأي فتىً أضاعوا.. فقال: لا، بل حفظت ورعيت جزاك الله خيراً عن حرمة الجوار ورعاية الحق، وكان هذا الموقف سبب توبته، فإذا حلمت على رجل عاصٍ فقد يكون حلمك سبب توبته، أما إذا كفّرته وفسّقته ولعنته وسببته فقد يكون هذا الموقف سبباً لاستطالته في فجوره،

والنبي ﷺ لم يبعث لعاناً حتى نلعن الناس، ولسنا قضاة لنحاسب الناس، ولكننا دعاة إلى الله عز وجل.

إن رأيت عاصياً، بدل أن تعنفه، وأن تحتقره، وأن تشتمه، وأن تعين الشيطان عليه، تلطف به، أره عطفاً، وشفقة، وعندئذٍ تعينه على الشيطان، والفرق كبير جداً بين أن تعين الشيطان على العاصي، وأن تعين العاصي على الشيطان.

وكما قال ابن عطاء الله السكندري: ربّ معصية أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً.

وكذلك سهيل بن عمرو الذي تمنى سيدنا عمر أن يضرب عنقه بالسيف، حين قال له النبي ﷺ اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، قال: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ولكن اكتب: محمد بن عبدالله [متفق عليه]، كان في منتهى الغِلظة والقسوة، وسيدنا عمر همَّ به حينما أسر سهيل بعد معركة بدر فقال: يا رسول الله دعني أنزع ثَنِيَّتَيْ سهيل بن عمرو، يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً، قال ﷺ: «إنه عسى أن يقوم مقاماً لا تذمه» [السيرة النبوية لابن هشام] تسمع منه كلاماً تحمده عليه، والحقيقة أنه قال كلاماً بعد موت النبي يُكتب بماء الذهب حينما ثبت الناس على الدين الحنيف في مرحلة الردة.

أنت لا تعلم، لكن الله يعلم، كن حليماً، تلطف، كن ذا أناة.

نضرع إلى الله عز وجل أن يرزُقنا الحِلم، فهو زين، ونحن نتعلم أسماء الله الحسنى أملاً في أن نتخلّق بها.

الحي

اسم الحي ورد في القرآن خمس مرات، ورد في البقرة في آية الكرسي، وهي سيدة آي القرآن، وأعظم آية فيه، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ (٢٥٥) ﴾ [البقرة:٢٥٥].

الآية الثانية في آل عمران: ﴿ الٓمٓ (١) ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ (٢) ﴾ [آل عمران:١-٢].

الآية الثالثة في سورة طه: ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) ﴾ [طه:١١١].

الآية الرابعة في سورة الفرقان: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا (٥٨) ﴾ [الفرقان:٥٨].

الآية الخامسة في غافر: ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٦٥) ﴾ [غافر:٦٥].

عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ: يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ قَالَ قُلْتُ اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ قَالَ قُلْتُ ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾، قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي وَقَالَ: وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ.

وفي حديث آخر: «اسْمُ اللهِ الأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ وَفَاتِحَةِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ الم اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» [أبو داود من حديث أسماء بنت يزيد].

من معاني اسم الله (الحي)

الحي في اللغة صفة مشبهة، على وجه الثبوت، وفعلها حيّ كما في الآية الكريمة: ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ [الأنفال:٤٢].

الحيّ: اسمٌ من أسماء الله تعالى التي وردت في القرآن الكريم، وفي حديث رسول الله ﷺ، ولا بد من أن نذكر القارئ الكريم بقول النبي ﷺ. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ للهِ تِسْعَةً وتِسْعِينَ اسْماً مِئَةً إلا وَاحِداً مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ» [متفق عليه].

فأنت تتعرف إلى أسماء الله الحسنى، وهذا يؤلف أكبر جزء من عقيدة المسلم، فلا يكفي أن تقول: الله خلق السموات والأرض، لأنّ هذا الإيمان يستوي فيه الناس جميعاً على اختلاف اتجاهاتهم وانتماءاتهم، بل إن المقصرين، بل إن الكافرين، بل إن عُبَّاد الأوثان، بل إن إبليس، اعترف أن الله خلق السموات والأرض، ولكن التفاضل بين المؤمنين يكمن في معرفة أسماء الله الحسنى؛ معانيها ومضامينها.

الإيمان بأن الله خلق السماوات والأرض فحسب لا يكفي كي تستقيم على أمر الله فحجم الإيمان قد يكون أقل من قوة الشهوة.

لذلك يقع الإنسان في المعصية، لكن كلما زاد إيمان الإنسان بوجود الله، وأنه هو الفعال وبيده كل شيء، وهو الكامل وهو الواحد، والمصير كله إليه، وكل شيء بيده، هذا الإيمان كبر حجمه، وأصبح أكبر من شهوات الإنسان؛ لذلك تصعب الاستقامة على ضعيفي الإيمان، وتهون على أقوياء الإيمان، فقوي الإيمان يستقيم بلا جهد أو بجهد بسيط؛ لأنه يرى عظمة الله عز وجل، والله سبحانه وتعالى قال: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر:٢٨].

وكلمة «إنما» تفيد الحصر، مما يعني أن العلماء وحدهم ولا أحد سواهم يخشون الله، إذاً ما من طريق إلى طاعة الله، وإلى خشيته، وإلى الاستقامة على أمره إلا أن تعرفه، فكلما عرفته خشعت له، كلما نمت معرفتك نمت استقامتك، وكأن مؤشر الاستقامة يتحرك مع مؤشر العلم والمعرفة بشكل دائم.

الاسم هو: الحي؛ الحياة نقيض الموت، وشتان بين الحياة والموت، شتان بين إنسان ملء السمع والبصر، يتكلم، يتحدث، يبتسم، يسأل، يجيب، يفكر، يحاكم، ينتقل، يمشي، يعمل، وبين إنسان جثة هامدة ملقى على الطريق، شتان بين الحياة والموت، كما أن هناك فرقاً كبيراً بين الحياة والموت، فهناك فرق كبير بين قلب حي بذكر الله، وقلب ميت ببعده عن الله، قال تعالى: ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [النحل:٢١].

قال تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [فاطر:٢٢].

قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٢٢].

آيات كثيرة تؤكد أن الذي لم يعرف الله عز وجل ميت، وأن القلب يحيا بذكر الله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد:٢٨].

يحيا القلب بذكر الله ويطمئن بذكر الله، والإنسان المعاصر يفقد شيئاً ثميناً جداً وهو الطمأنينة، حوله كل شيء لكن يحيط به ألف خطر، خطر السرطان، ولا بد من فحص دوري، وخطر بقية الأمراض، وخطر الحوادث أيضاً، لذلك تنمو شركات التأمين بنمو القلق في النفوس.

الإنسان دون إله يعبده، دون إله ينيب إليه، دون إله يلجأ إليه، دون إله يحتمي به، ويطمئنه، تصبح حياته جحيماً... أكبر ما فيها القلق، والخوف من المجهول، والخوف من أحداث مستقبلية تظهر فجأة، متى يصاب بهذا المرض؟ لا أحد يدري، وكلما ابتعد الإنسان عن ربه امتلأ قلبه خوفاً.

سبعة وثمانون بالمئة من مواطني البلاد الغربية المتفوقة علمياً وحضارياً، يخاف وهو في البيت، ثمانون بالمئة لا يتجولون بعد غروب الشمس أبداً، ثلاثة وثلاثون بالمئة يرون أن كل قوى السلطة لا تحميهم، يعيشون حياة القلق، حياة العذاب، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾ [قريش:٤].

أطعمك من جوع وآمنك من خوف، والأمن نعمة لا تعدلها نعمة لا يحوزها إلا المؤمن حصراً، والدليل: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام:٨١-٨٢].

الأمن للمؤمنين وحدهم، لذلك إذا آمنت بالله، واستقمت على أمره، ولُذتَ بحماه وأويت إلى جنابه فأول ثمرة من ثمرات الإيمان أن الله يدخلك في رحمته، ويطمئن قلبك.

إن الله يعطي الصحة والذكاء والمال والجمال للكثيرين من خلقه ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين، هذه السكينة خاصة بالمؤمنين، إنكم لترَوْن في قلب

المؤمن من السكينة، والطمأنينة، والرضا بقضاء الله وقدره، والشوق إلى لقياه، والراحة إلى قضائه، ما لو وزع على أهل بلد لكفاهم.

للمؤمن سر، ترى أن دخله أقل من حاجته، وتراه مطمئناً، وهناك من يخزن الذهب والعملات الصعبة، وإذا حدث خطر فله ببلاد أخرى أرصدة ضخمة، ومع كل هذه الأرصدة، ومع كل هذه الإمكانات، ومع كل هذه الاحتياطات، فإن الخوف يأكل قلبه.

لو سألتني عن قانون الخوف، أقول لك: إنه الشرك، قال تعالى: ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [آل عمران:١٥١].

الشرك يعني الخوف، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٣].

فالله عز وجل حيّ، والحيّ نقيض الميّت، ورد في القرآن الكريم كلمة الحيوان، وتعني جنس الحياة، قال تعالى: ﴿ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٤].

أصل الحياة في القرآن يعني الحيوان، أي: هو دار الحياة الدائمة، حياتنا في الدنيا حياة مؤقتة، كل إنسان له عمر، فكل هؤلاء الذين على الأرض بعد مئة عام تقريباً لا ترى منهم أحداً، فالخمسة آلاف مليون إنسان الآن لا تجد بعد مئة عام منهم أحداً في كل القارات الخمس.

قفْ في شرفة بناء وانظر إلى الشارع المزدحم بالسيارات والمشاة، كل هؤلاء سيكونون تحت أطباق الثرى بعد حين، وسوف يطويهم الموت، فحياتنا حياة مؤقتة، أما الحياة الحقيقية، الحياة الأبدية الدائمة، الحياة التي لا موت معها، فهي حياة الدار الآخرة.

سمعت أن بعض الفنانين، ما ركب طائرة في حياته، خشية أن تقع فيموت، اعتنى بنظام غذائه عناية تفوق حد الخيال، يأكل يوماً سمكاً ويوماً دجاجاً، طعامه لحم خفيف، لحم أبيض، ومساءً يأكل الفواكه، ومع كل هذه العناية والحرص، وذلك الحذر فقد مات.

وفي الحديث: «عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به» [رواه الحاكم عن سهيل بن سق وهو حديث حسن].

كل مخلوق يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت.

الليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر، والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر.

حياتنا في الدنيا غير حقيقية، حياة مجازية، حياة مؤقتة، لأنه يعقبها موت، يعقبها زوال، يعقبها عدم.

وبصراحة، يكون إنسان ملء السمع والبصر، متألقاً، ذكياً، قوياً غنياً سيّد بيته، أولاده أمامه متأدبون، وزوجته خاضعة له، فإذا مات.... حزن شديد، بعد أسبوع، ينتهي الحزن، بعد أسبوعين يبتسمون، بعد ثلاثة أسابيع يُرفع الشعار الأسود، بعد شهرين أو ثلاثة وكأنه لم يكن، يقولون إذا ذكِر: المرحوم، لقد انتهى، وكل واحد منا على هذا الطريق وكأنه لم يكن.

الحياة الحقيقية، الحياة الخالية من كل نغص هي في الدار الآخرة، هل منا أحد ليس لديه منغصات؟ هذه سنّة الله في الحياة الدنيا: «إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، من عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى».

استعرض حياة الناس... زوجة جيدة، لكن أولاد سيئون... أو أولاد جيدون وزوجة سيئة، أو زوجة جيدة وأولاد جيدون لكن الدخل قليل، أو دخل كثير ولكن عقم من دون أولاد... أو دخل كثير وله أولاد لكن الصحة متردّية، والمرض يُنغّص حياته.

طبيعة الحياة الدنيا قائمة على المُنغِّصات، لذلك حياتنا الدنيا ليست حياةً أبدية أرادها الله لنا ممراً، أرادها الله لنا معبراً أرادها الله لنا مدرسةً، أرادها الله لنا إعداداً، ما أرادها الله لنا استقراراً ولا ركوناً ولا خلوداً.

فكل إنسان يتحرك حركةً خلاف خلق الله عز وجل يشقى... الحياة الدنيا حياة مفعمة بالمنغصات، هكذا أرادها الله، هكذا خلقت، من أجل ألا تركن إليها، من أجل أن تجعلها منطلقاً ومعبراً، لذلك كان محمد بن كعب يقول: «إن أشقى الناس بها أرغبهم فيها، وإن أزهد الناس فيها أسعد الناس بها، هي المعذِّبة لمن أطاعها والمهلكة لمن اتبعها». اتركها تأتك، أقبل عليها تَفر منك.

لنستعرض ماذا تعني كلمة حياة؛ حياك الله، يعني أبقاك حياً، أحيا الله الأرض، أي أخرج منها النبات، أحياها بالغيث أنزل عليها المطر، الحي في صفة الله تعالى هو الباقي... فإذا قلنا: الله حي يعني حياةً دائمةً، وإذا قلنا: فلان حي فحياته مؤقتة... شيء قد يلفت النظر، قد يشترك الإنسان في صفة مع خالقه؛ الله حي والإنسان حي، ولكن يجب أن نؤمن إيماناً يقينياً أنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١]... كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك... إذا قلت الله حي، يعني حياة دائمة باقية، هو الباقي، فلان حي أي حياة مؤقتة.

النقطة الثانية؛ الحي في صفة الله أنه باقٍ حيٌّ بذاته، أما أنت وأنا وكل واحد منا فهو حي لا بذاته، بل بإمداد الله له، فإذا قطع الله الإمداد صار جثةً هامدة، وهناك ألفُ سبب يسلب الواحد منّا حياته ويجعله خلال لحظة ميتاً.. سكتة دماغية، سكتة قلبية، اضطراب بكهرباء القلب، فإذا انتابتْه نوبة خفقان أذيني شديد يموت باسترخاء القلب، مئة وثمانون ضربة وبعدها يرتخي القلب ثم يموت الإنسان.

الله عز وجل حي بذاته، حياته ليست مستمدة من جهة أخرى نحن حياتنا نستمدها منه، عمر الإنسان بعمر شرايينه، عمره متعلق بقلبه وشرايينه ودسامات قلبه، متعلق بجهازه العصبي، متعلق بعمل الدماغ، متعلق بالكليتين... لو أن البول احتبس في الكليتين

ست ساعات لتوقفت الكليتان، وإذا توقفت الكليتان ينتهي الإنسان، لا يعيش الإنسان ثلاث ساعات دون كبد، إذا تشمع تشمعاً كاملاً خلال ثلاث ساعات يموت الإنسان.

مرةً التقيت مع إنسان شديد الأذى للناس، والأذى في طبعه، قال بعض الشعراء في وصفه، ووصف أمثاله من الناس:

ولو أخذنا لحقن الرقش من دمهم لكان مصلهم يؤذي الثعابينا

ويقول غيره:

رقيقٌ غليظُ القلبِ فظٌّ مقطِّبٌ كثيرُ الأذى بادي البذا جبلٌ وعرُ
نمومٌ زؤومٌ ماكرٌ غيرُ شاكرٍ حقود نقودٌ مائنٌ خائنٌ غمرٌ
ذكيٌّ دقيقُ الفكرِ منتبهٌ لما عناهُ ولكنْ عندَ مصلحتي غرُّ
لئيمٌ متى أُحْسِنْ إليهِ يكافني بسيئةٍ لم ينكتمْ عندَهُ سرُّ
ثقيلٌ خفيفُ الكفِّ فيما ائتمنْتهُ وَثُوبٌ على مالي كما يثبُ النمِرُ
له كلَّ يومٍ فتنةٌ أو شكايةٌ وقالٌ وقيلٌ هكذا ينسلُ الكفرُ
لهُ نهمةٌ في الأكلِ والشربِ ما لها شبيه سوى التنور أكْلَبَهُ السجرُ

فمرة التقيت مع إنسان شعرت أنه يحب الأذى، كلما أوقع الأذى بإنسان شعر بنشوة، أردت أن أعظه وأن أضيق عليه لعله يرعوي، قلت له: إن الله من جنوده السرطان في كل أنحاء الجسم، بدءاً من الجلد إلى الدم إلى العظام إلى الأحشاء، إلى الدماغ... والله من جنده تشمع كبد، ومن جنده الفشل الكلوي، ومن جنده اضطراب النظم، ذكرت له أمراضاً وبيلة، كل مرض ينخلع القلب له، وهؤلاء الذين أمامك كلهم عباده، فإذا أسأت إليهم انتقم منك فانتبه.

المؤمن الصادق، أي إنسان أمامه يراه عبداً لله، دون أن تعرف من هو، فإذا أردت أن تتقرب إلى الله فقدم لهذا الإنسان خدمةً، والله وحده يجازيك. قال تعالى: ﴿مَّن ذَا

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٤٥﴾ [البقرة:٢٤٥].

هذا الإله العظيم، يقول لك: أقرضني، أقرضني بخدمة أحد عبادي، أما الآن من ضعف الإيمان، وانهماك الإنسان في جمع المال، لا يتحرك بلا مال، ولا يردّ لهفة ملهوف إلا بمال.

أحياناً الخدمة تكلفه هاتفاً، يريد مالاً، يتقاضاه مقابل هاتفه مثلاً، وأحياناً الخدمة تكلفه بطاقة، توصية، كلمة، أحياناً تكلفه غض بصر فقط، ولكنه لا يرحمك، لا يرحمك إلا بمبلغ فوق طاقتك، ليس له أجرٌ إطلاقاً، لأنها خدمة بأجر.

اخدم العباد، واحتسب هذا العمل عند رب العباد، أعط العباد مما أعطاك الله ولا تخش لومة لائم؛ أجل لا تخشَ فالله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.

حياتنا غير ذاتية، حياتنا متوقفة على أجهزة كثيرة إذا توقف أحدها نموت... فالإنسان عندما يكون مضطجعاً ويقف فجأة يضطرب جسمه بشكل لا يصدق، يأتي أمر عن طريق شوارد معينة في الدم، تضيق كل شرايين الجزء العلوي في الإنسان، لأن الإنسان إذا كان نائماً ثم وقف فجأةً، فالدم بحكم الجاذبية يهبط إلى الأسفل، فما الذي يبقي الدم في الرأس... لو أن الدم نقص في الرأس لأصيب الإنسان بالدوار ويقع... إذا تقدم الإنسان في السن فإن نهض من السرير قد يصيبه الدوار لأن جهاز ضبط الوقوف بعد الاستلقاء ضعف قليلاً.

كم من جهازٍ في الجسم إذا تعطل أحدها تصبح حياة الإنسان جحيماً لا يطاق، حياتنا ليست من ذاتنا، حياتنا متوقفة على إمداد الله لنا، على حفظه لنا.

فليعلم كل منا أن حياتنا غير أصيلة في وجودها، وحياتنا ليست من ذواتنا، أما في الجنة، فحياة ما بعدها موت، ولا يعروها مرض ولا يخامرها خوف، ولعل الله

سبحانه وتعالى أراد أن يضاعف سعادتنا في الجنة أضعافاً مضاعفة إذا تفضّل الله علينا بدخولها، وإذا قبل منا عملنا، وإذا عفا عنا... فإذا سمح الله لمؤمن أن يدخل الجنة... فالسعادة في الجنة أضعاف مضاعفة، فما كان من أعراض تنتابه في الدنيا كالقلق والخوف والمرض والحزن والانحدار المريع نتيجة تقدّم السنّ ليس له وجود في الجنة إذ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

إذا قلنا: إن الله حي، أي: متصف بالحياة الأبدية، لا بداية لها ولا نهاية لها، هو الباقي أزلاً وأبداً، والحي الذي لا يموت، لأن الذي يجوز عليه الموت حكم عليه بأنه ميّت، قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الزمر:٣٠].

الذي تنتهي حياته إلى الموت هو في حكم الميت، أما إذا مات فعلاً فإنه يسمى مَيْت، مَيِّت، أي: سيموت، ومَيْت: مات فعلاً.

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٢٢].

فكل منا ميّت، أي: محكوم عليه بالموت مع وقف التنفيذ، أما إذا قلنا: فلان مَيْت فالمعنى أنه مات حقيقةً، ونحن إذا قلنا عن أنفسنا أحياء، فحياتنا مزورة، لأنا مَيّتون بأمر الله، ميتون بقضاء الله، ميتون بأصل وجودنا على وجه الأرض، قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

الحي هو دائم الحياة، له البقاء المطلق، الإنسان مهما عاش لا بد من أن يموت، فحياته مقيّدة بعمره، أما من له البقاء المطلق فهو الله عز وجل.

لذلك فالإنسان العاقل يربط مصيره مع الله، ولا يعتنق إلا مبدأ الله ولا ينضم إلا إلى أهل الله، ولا يتحرك إلا وفق الحق، لأن الحق هو الله، وإذا استقام على أمر فهو

الحافظ، وإذا كان في ظل الله فالله هو الذي يؤيده وينصره، فكل إنسان ربط مصيره مع الله فهو السعيد حقّاً، هو الذي يتفوق ويفوز.

الحي هو الذي لم يسبق وجوده عدم ولا يلحق بقاءه فناء، أي إنسان في التاريخ القريب والبعيد ربط مصيره بإنسان، فلما وقع هذا الإنسان وقع معه، ولما انهار انهارَ معه، فمغامرة ومقامرة، أن تربط مصيرك بمصير مخلوق يموت، أما بطولتك وذكاؤك وتفوقك ونجاحك في الحياة فهي أن تربط مصيرك بالحي الذي لا يموت، فكل إنسان لو مات إنسان وكان مع الحي الذي لا يموت فهو لم يمُتْ. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [آل عمران:١٦٩].

أنا لا أنسى في السيرة موقف النبي ﷺ لما خاطب قتلى بدر من الكفار، خاطبهم بأسمائهم واحداً واحداً، يا فلان يا فلان يا فلان: عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ ترك قَتلى بدر ثلاثاً، ثم أتاهم، فقام عليهم، فناداهم، فقال: يا أبا جهل ابن هشام، يا أميَّةَ بن خَلَف، يا عُتبةَ بن ربيعةَ، يا شيبة بن ربيعة، أليسَ قد وجدتُم ما وعدَ ربكم حقّاً، فإني قد وجدتُ ما وَعَدني ربي حقّاً؟ فسمع عمر بن الخطاب قولَ النبي ﷺ، فقال: يا رسولَ الله، كيف يسمعوا؟ وأنَّى يُجيبوا، وقد جيّفوا؟ قال: والذي نفسي بيدِهِ، ما أنتم بأسمع لما أقولُ منهم، ولكنهم لا يقدرونَ أن يجيبوا، ثم أمر بهم فسُحبوا، فأُلقوا في قَليب بدر [أخرجه مسلم].

هم يسمعوني كما تسمعوني أنتم، فالحياة دائمة، والموت عبارة عن ثوب خلعته فقط، أنت أنت، مشاعرك، ثقافتك، ذكرياتك، إقبالك، معرفتك بالله هي هي، إلا أن الثوب الذي تلبسه نُزع عنك وصار هناك ثوب آخر، لذلك خط المؤمن البياني صاعد وحتى عند الموت يبقى صاعداً، وما الموت إلا نقطة على الخط الصاعد.

بصراحة أقول لكم: الزمن ليس في مصلحة الكافر، بل هو في مصلحة المؤمن، فالكافر وضع كل البيض في سلة واحدة، كل أهدافه في الدنيا، كل سعادته في المال

والشهوات والنساء والسهرات والحفلات، كل إنجازه مادي، فكلما تقدم به الزمن ضعفت قدرته على الاستمتاع بالحياة، فحركة الزمن ليست في صالح الكافر، لأن مضي الزمن يضعف قدرته على المتعة، يضعف قدرته على الاستمتاع بالحياة الدنيا، بالطيبات بالطعام، بالشراب، بالنساء، لذلك عنده قلق عميق يخشى الموت، يخشى كل ما يرتبط بالموت.

فالموت لغير المؤمن مخيف جداً، نهاية حتميّة، أما المؤمن فمضي الزمن لصالحه، فكلما امتدّ به العمر قرّبه من سعادته المطلقة، كلما امتدّ به العمر قرَّبه من لقاء الله عز وجل، كلما امتدّ به العمر قرّبه من عرسه، وكلما امتدّ به العمر قرّبه من تحفته التي هي الموت.

ما قولك في أنّ بعض الناس ينخلع قلبه من ذكر الموت؟ على حين أن بعضهم يرجو لقاء الله عز وجل؟! تصور أن النبي ﷺ، لما خيّره جبريل بين أن يبقى حيّاً في الدنيا أو أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى، قال: بل الرفيق الأعلى من الجنة [النسائي في الكبرى، عن عائشة]، ماذا رأى النبي ﷺ؟ فعندما تكون حياة الإنسان استقامةً وعطاءً وخدمةً للناس والتزاماً بالشرع وورعاً، وهو يحيا ليرضي الله عز وجل فالموت عند هذا الإنسان جزء من سعادته العظمى، لذلك هؤلاء الذين يأتيهم الموت وهم على طهارة يأتيهم بأحب الناس إليهم على الإطلاق، وموتهم نوع من السعادة؛ لذلك قال الله عز وجل: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الزمر:٧٣].

إذا دُعيَ شخص إلى وليمة وكان ضيف الشرف الأول، فإنك ترى حُسْنَ الاستقبال، والترحيب، الابتسامة الحارة: يا أهلاً ويا سهلاً، نوّرتم، نحن على شوق لهذا اللقاء، المكان واسع لائق، والماء بارد، وأطباق الطعام فاخرة؛ فهذه صورة لتكريم إنسان لإنسان في الدنيا، فكيف إذا كرَّمك خالق الأكوان؟! وشتان بين تكريم زائل، وتكريم باقٍ أبداً.

لذلك قال تعالى: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [يونس:٢٦].

الزيادة: رؤية وجه الله الكريم، ورد في الأثر أن المؤمن ينظر إلى وجه الله الكريم فيغيب خمسين ألف عام من نشوة النظرة!! قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣].

وأكبر عقاب لأهل الكفر الحجاب، قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [المطففين:١٥].

قال بعض العلماء: «الحي هو الموجود».

وقال بعضهم: «الحي هو الباقي من أزل الأزل إلى أبد الأبد» والأزل هو عمق الوجود ودوامه في الماضي، والأبد هو دوام الوجود وبقاؤه في المستقبل.

وقيل: الحي الذي ليس لحياته زوال والذي لا يموت، والإنس والجن يموتون، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [القصص:٨٨].

وعالم جليل يُعرّف الحي بأنه: «الفعال الذي لا يموت» فالحي الكامل المطلق وهو الذي تندرج جميع المدركات تحت إدراكه.

أحياناً مدير دائرة تمر عليه ألف قضية من وراء ظهره، بذكاء. تمرُّ دون علمه، لا يشعر، ليس عنده إمكانية أن يعرف ما يجري بغير الغرفة التي هو فيها، تأتيه معلومات، مَن داوم ومَن لم يداوم، يتّفق موظف مع مراقب الدوام، يسجله موجوداً في حين أنه مسافر، فأحياناً تجد إنساناً على أعلى درجة من الذكاء وتمر عليه ألف قضية دون أن يعلم.

أحد العلماء يقول: الحي؛ هو الفعال، الدَّرَّاك، يعني على كل شيء قدير وبكل شيء عليم، يعني قدرته متعلقة بكل ممكن، وعلمه متعلق بالواجب والممكن والمستحيل.

مات لبعضهم ابن فبكى عليه حتى عمي فقال بعضهم له: الذنب ذنبك، لأنك أحببت حياً يموت، ولو أحببت الحي الذي لا يموت لما وقعت في هذا الحزن، قال النبي الكريم ﷺ: «لو كنت متخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن خلة الإسلام أفضل» [البخاري، عن ابن عباس].

أعتقد أنه لا يوجد رجلان على وجه الأرض أحب أحدهما الآخر حباً إلى درجة غير معقولة كحبّ أبي بكر لرسول الله ﷺ، عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ صعد أحداً وأبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، فرجف بهم، فقال: «اثبت أُحد، فإنما عليك نبي وصدّيق وشهيدان» [أخرجه البخاري في صحيحه].

وعن أبي سعيد الخدري، قال: خطب رسول الله ﷺ الناس، وقال: «إن الله خيَّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله»، قال: فبكى أبو بكر رضي الله عنه، فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خُيِّر، وكان رسول الله ﷺ هو المُخيَّر، وكان أبو بكر هو أعلمنا. فقال رسول الله ﷺ: «إن من أمن الناس عليّ في صحبته وماله أبا بكر رضي الله عنه، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي عز وجل لاتخذت أبا بكر، ولكنْ أُخُوَّةُ الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سد، إلا باب أبي بكر رضي الله عنه» [أخرجه البخاري في صحيحه].

وقال النبي ﷺ: «إن الله عز وجل بعثني إليكم فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟» [البخاري عن أبي الدرداء].

عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخي وصاحبي» [أخرجه البخاري في صحيحه].

وعن محمد ابن الحنفية، قال: قلت لأبي: أي الناس خير بعد رسول الله ﷺ؟ قال: أبو بكر رضي الله عنه. قلت: ثم من؟ قال: عمر رضي الله عنه. قال: وخشيت أن يقول عثمان رضي الله عنه. قلت: ثم أنت؟ قال: ما أنا إلا رجل من المسلمين. [رواه البخاري في الصحيح، ورواه أبو داود في سننه].

وعن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه» [رواه البخاري].

كل إنسان يضع كلَّ أمله، كلَّ حبه، يعلق كل قلبه بإنسان من دون الله يسقط. لذلك عندما نزلت براءة السيدة عائشة من فوق سبع سموات وفرحت فرحاً شديداً، قالت لها أمها: قومي إلى رسول الله، قالت: لا والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله [البخاري ومسلم من حديث عائشة].

الله هو الموجود، وكلما وحد الإنسان ربّه كثيراً أحبه الله كثيراً، والمؤمن لا يعبأ بأحد، أديب مع الناس كلهم، يحترمهم جميعاً، يخدمهم جميعاً، أما قلبه فلا يعلقه إلا بالله، هذا هو التوحيد، ذكياً ولا تعلق قلبك إلا بالله مباشرةً، وعامل الناس بالإحسان.

هناك حبٌّ في الله وحب مع الله، الحب في الله من كمال الإيمان، فأنا أحب إخواني لأنني أحب الله، أحب أخي المؤمن لأنني أحب الله، أحب زوجتي لأنها مستقيمة لأنني أحب الله أحبها، أما إذا أحببتها مع الله، يعني نفذت أمرها وعصيت الله، إذا أحببت إنساناً مع الله، أرضيته ولم ترضِ الله فقد هويْت منزلقاً، الحب مع الله عين الشرك، والحب في الله من كمال التوحيد، يجب أن تفرق بين أن تحب مع الله، وأن تحب في الله.

محبة النبي ﷺ محبة في الله، محبة أهل الحق محبة في الله، محبة إخوانك في الإيمان محبة في الله، محبة أهلك وأولادك محبة في الله، أما إذا أطعت مخلوقاً وعصيت الخالق، بدافع الحب، فهذا حب مع الله وهو عين الشرك.

وبعد فالإنسان يحب من حوله، يحب زوجته وأولاده وإخوانه، ثم يأتيه ملك الموت، سيبقى في القبر وحيداً، أشد الناس حباً له يشيعه حتى شفير القبر، طبعاً النساء

يودعنه في المنزل، أما أولاده فوداعهم إلى شفير القبر، يلقون عليه النظرة الأخيرة، ولكن بعد أن يُدفن وبعد أن يُهال عليه التراب، وينصرف الناس، من بقي مع هذا الإنسان الحي الذي لا يموت، كأن الله تعالى يقول لعبده حين ينزل القبر: «عبدي! رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولم يبقَ لك إلا أنا، وأنا الحي الذي لا يموت».

أليس من الذكاء أن تقيم علاقات طيبة مع الحي الذي لا يموت لأنك سوف تنفرد معه ولا أحد معك؟! والأهل ينصرفون إلى طعامهم وشرابهم بعد حين، وإلى نزههم ثم إلى متعهم، بعد حين كأنك لم تكن، الأولى أن تحب الله.

يقول لك: أنا من أجل أولادي لم أدفع زكاة مالي، لن ينجو من عذاب الله، ومن أجل ولد معين لم يعدل بين بقية أولاده لقي الله وهو عليه غضبان.

هل من إنسان على وجه الأرض يستأهل أن ترضيه بسخط الله؟!

أعرف آباء كثيرين من أجل بقاء المال مع الذكور يحرمون الإناث ويلقى الله وهو عليه غضبان، فهل أولاده ينفعونه أو يدفعون عنه غضب الله عز وجل؟!

لذلك ليس من مخلوق على ظهر الأرض يستأهل أن ترضيه بسخط الله... في الأرض كلها... أرْضِ اللهَ ولا تعبأ بأحد.

نصيب المؤمن من اسم الله (الحي)

إن أردت أن تتخلق بكمال مشتق من هذا الاسم فلا تكن ميتاً، قال تعالى: ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ﴾ [النحل:٢١].

وقد قال الشاعر عدي الغسّانيّ:

ليس من مات فاستراح بميّت ... إنّما الميّت ميّت الأحياء

ويقول سيدنا علي رضي الله عنه: «مات خزّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة» فالحياة حياة القلب والموت

موت القلب، ترى شخصاً ما فكر بحياته أن يصلي أو يصوم أو يتوجه إلى الله أو يعمل عملاً صالحاً، همه شهوته، إلهه شهوته، هذا ميت، والله عز وجل يقول: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام:١٢٢].

قبل أن نعرف الله نحن أموات: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٖ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [فاطر:٢٢].

فأنت يجب أن تكون حياً حياة القلب، حياة المعرفة، حياة الإيمان، حياة الاستقامة، حياة العمل الصالح، حياة صحبة الصالحين، يجب أن تكون حياً.

ومن ثمرات معرفة اسم الله (الحي) ألا تكون مع الآخر كالميت، يقول لك: المريد كالميت بين يدي مغسله، ويقصدون أن الطالب يجب أن يطيع شيخه طاعة عمياء هذا المعنى غير صحيح. وفي الحديث:

«بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ سَرِيَّةً فَاسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنْ الأَنْصَارِ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، فَغَضِبَ، فَقَالَ: أَلَيْسَ أَمَرَكُمْ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تُطِيعُونِي؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَاجْمَعُوا لِي حَطَبًا، فَجَمَعُوا، فَقَالَ: أَوْقِدُوا نَارًا، فَأَوْقَدُوهَا، فَقَالَ: ادْخُلُوهَا، فَهَمُّوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يُمْسِكُ بَعْضًا، وَيَقُولُونَ: فَرَرْنَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنْ النَّارِ، فَمَا زَالُوا حَتَّى خَمَدَتْ النَّارُ، فَسَكَنَ غَضَبُهُ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ» [متفق عليه].

العقل لا يعطَّل أبداً، أنا أطيع هذا الإنسان وفق منهج الله، قال لي: صلِّ، والله أمرني بالصلاة، قال لي اصدق، الله أمرني بالصدق.

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٖ﴾ [الممتحنة:١٢].

المعصية مقيدة بالمعروف، وليس هناك معصية مطلقة.

احذر أن تكون مع إنسان كالميْت بين يدي غاسله، فالحذر الحذر أن تركن كلية لإنسان ما، ولكن قال سهل بن عبدالله: «أن يكون العبد بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء، لا يكون له حركة ولا تدبير».

فالمؤمن إذا أعطاه، وإذا منعه، وإذا قربه وإذا أبعده... يبقى متعلقاً بربه، فعطاؤه ومنعه لخيره.

كــن مــع الله تــرَ الله معــك واتــرك الكــل وحــاذر طمعــك
وإذا أعطــاك مــن يمنعــه ثــم مــن يعطــي إذا مــا منعــك

ليس لك إلا الله عز وجل، فالمؤمن الصادق بين يدي الله كالميت بين يدي المغسل راض بقضائه، راضٍ بقدره، راضٍ برزقه، راضٍ بعطائه.

كــيفما شــاء فكــن في يــده لــك إن فــرَّقَ أو إن جمعــك
في الــورى إن شــاء خفضــاً ذقتــه وإذا شــاء علــيهم رفعــك
هــذه ملــة طــه خــذ بهــا لا تطــع عنهــا قصــوراً دفعــك
وإذا ضرك لا نــافع مــن دونــه والضــر لا إن نفعــك
إنــما أنــت لــه عبــد فكــن جــاعلاً في القــرب منــه ولعــك
كلــما نابــك أمــر ثــق بــه واحــترز للغــير تشــكو وجعــك
لا تؤمــل مــن ســواه أمــلاً إنــما يسـقيك مــن قــد زرعــك

القيوم

اسم القيُّوم ورد في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وفي آل عمران: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ ﴾ [آل عمران:١-٢].

وفي سورة طه: ﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ﴿١١١﴾ ﴾ [طه:١١١].

وهذا الاسم أيضاً ورد في السنة من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: «...أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم جَالِسًا وَرَجُلٌ يُصَلِّي ثُمَّ دَعَا اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الحَمْدُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ المَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَا ذَا الجَلَالِ وَالإِكْرَام يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم لَقَدْ دَعَا اللهَ بِاسْمِهِ العَظِيمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى...» [أبو داود، النسائي، أحمد عن أنس بن مالك].

من معاني اسم الله القيوم

لنستعرض أولاً معاني القَيُّوم في اللغة؛ فاللغة لها أصول، لها أصل ثلاثي مجرد «قوم» فالقيّم هو السيد المدبر للأمور، سائس الأمور، تقول: قيِّم المكتبة، أي أمينها، وسيِّدها، من بيده أمرها.

ودين القيّمة؛ هو الملة الحنيفيّة التي تتوافق مع الفطرة، والتي تميل النفس إليها، وعلامة أن هذا الدين دين الله أن النفس تميل إليه، وترتاح له، ويتوافق مع فطرتها، ومع خصائصها.

وفي النفس حاجة لا يرويها المال، ولا ترويها رفعة المكانة، ولا ترويها المتع، ولا ترويها الشهرة، لا يرويها إلا الإيمان بالله عز وجل والاطمئنان إليه، مصداق ذلك يشير إليه قول الله عز وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد:٢٨].

توافق النفس مع الدين شيء عجيب، فالإنسان قد يحوز الدنيا بأكملها، لكنّه قلق، ضائع، مشتّت، مبعثر، أما إذا عرف الله عز وجل فقد اطمأنت نفسه وسكنت وارتاحت، وأمِنَت، وتفاءلت، واستبشرت واستشرفت، وارتفعت، وكبرت.

دين القيّمة؛ دين الحنيفية، الذي تميل النفوس إليه، وتركن إليه، ولا بد أنها قائلة: أنا بعد أن عرفت الله عز وجل سعدت بقربه، شعرت بالأمن، شعرت بالطمأنينة، شعرت بالتوازن، وعلامة إيمانك أن تقول هذا الكلام وتردّده في أعماقك.

تصور مركبة صُنعت لطريق معبّدة، فسرت بها على طريق وعرة، أحجار وحفر وأكمات، أصوات تعثر، شيء يتكسّر، فلما انتقلت بها إلى الطريق المعبّدة سارت بسلاسة ونعومة وبلا صوت وبسرعة.

فلذلك: الإنسان سلامته وسعادته بطاعة ربه لأنه مبرمج كذلك، لذلك قالوا دين الإسلام دين الفطرة، الدليل: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الروم:٣٠].

ويوم القيامة مشتق من (قوم) وهو يوم البعث الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين، قال تعالى: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الصافات:٢٤].

هل رأيتم مذنباً يُستجوب وهو جالس؟... أبداً، لا بد أن يقف، ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾، فيوم القيامة لشدّة هوله يقف فيه الناس لرب العالمين، ليُسألوا ويُحاسبوا عن كل صغيرة وكبيرة.

والقَيُّوم؛ مبالغة من القائم بالأمر، فهناك مدير مستشفى أو مدير مؤسسة دوامه من الساعة الثامنة إلى الثانية ظهراً، فهذا قائم على أمرها، ولكن هناك مدير امتزج حبّ هذا العمل مع دمه، فهو يقتني سريراً في مكتبه وينام في مكتبه، يسأل عن كل صغيرة وكبيرة، ويتابع كلّ أمر، ويضبط كل تصرّف، نقول: هذا قَيُّوم؛ مبالغة من قائم، وذو المبالغة في تدبير الأمور وفي تسييرها وفي تنظيمها؛ نصفه بأنه قَيُّوم.

القَيُّوم، هو القائم بنفسه مطلقاً لا بغيره، ما منّا واحد على الإطلاق قائم بذاته، الإنسان لا يدري ماذا يحدث بعد ساعة، ولا بعد دقيقة، لكنّ الله سبحانه وتعالى قائم بذاته، ووجودنا مفتقر إلى إمداده، إلى أن يسمح الله لنا أن نعيش ساعة أخرى، يوماً آخر، أسبوعاً آخر.

وجودنا ليس ذاتياً، لذلك من عدَّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت، الله جل جلاله، هو القَيُّوم، أي قائم بنفسه مطلقاً لا بغيره، هذا شطر المعنى.

الشطر الثاني: يقوم به كل موجود، فكل شيء موجود في الكون قائم بالله، «كن فيكون» «زل فيزول»، إن رأيت الشمس ساطعة فالله سمح لها بذلك، وهي باقية بأمر الله.

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ ﴾ [التكوير:١-٢].

إن رأيت إنساناً أمامك، وهو واقف يحدثك، فلأن الله سمح له أن يبقى حياً، فالله قائم بذاته، وكل موجود قائم به.

لذلك يرتكب الإنسان خطأً فاحشاً إذا قال: أنا! أنت لا شيء، أنت شبح، إذا سمح الله لك أن تعيش يوماً عشته، وإن لم يسمح لك فلن تعيش، هذه الحقيقة مهمة جداً، كان ﷺ إذا استيقظ من نومه يقول: «الحمد لله الذي ردَّ علي روحي وعافاني في جسدي وأذن لي بذكره» [أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة من حديث أبي هريرة وإسناده جيّد].

لذلك المؤمن دائماً يرى هذه الحقيقة؛ أن قيامه بالله، ووجوده بالله، واستمرار وجوده بالله، أنت تتمتع بعينيك، لأن الله سمح لك بذلك، تمتعك بأذنيك، تمتعك بلسانك، تمتعك بفمك، تمتعك بعقلك، بجهاز هضمك، بجهاز دورانك، بدسامات قلبك، بشرايين قلبك، تمتُّعك بكليتيك، تمتعك بكل خلية في جسمك، بإذن الله وإمداده وموافقته.

لذلك أجمل كلمة في تعريف القَيُّوم؛ القائم بنفسه مطلقاً لا بغيره، وهو مع ذلك يقوم به كلّ موجود.

قال العلماء: لا يُتصوّر وجودُ شيء ولا دوامُ شيء إلا به، أجل لا وجود ولا دوام إلا بالله تعالى، فبربكم إذا كان كلّ شيء موجوداً بقَيُّوميَّته، وإذا كان كل شيء مستمراً بقَيُّوميته، فهل علاقتك مع القائم به كلُّ شيء أو مع الذي لا يملك من أمره شيئاً؟ هنا يكون التوحيد.

إذا أرضيت إنساناً «وقيامه بالله» وعصيت الخالق وهو القَيُّوم، عصيت الذي إن أراد له الفناء فني فوراً، وأرضيت الضعيف الفاني فأنت في ضياع؛ لذلك فالحيُّ القَيُّوم، به حياة كل شيء وقيامه. حتى لا يُتصور وجود شيء ولا دوام وجوده إلا به، وقيل: القَيُّوم هو الباقي الذي لا يزول، قيل: هو المقيم للعدل القائم بالقسط، قيل: القائم بنفسه الغني عن غيره الذي لا ينام.

الإنسان المثقف المؤمن، لا يليق به أن يقرأ القرآن هكذا دون تدبّر، يقول قائل: اقرأ آية الكرسي فهي مفيدة، ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ ألا ينبغي أن تعرف من

هو القَيُّوم... يقوم به كل شيء، وكل شيء مفتقر في وجوده واستمراره إليه، يحتاجه كل شيء في كل شيء، فإذا أيقنت بهذه الحقيقة، هل تلتفت إلى القَيُّوم أم إلى الذي يقوم وجوده بالقَيُّوم؟ قطعاً... إلى القَيُّوم...

العلماء قالوا لا يتصور وجود شيء ولا دوام شيء إلا به، لذلك أحمق إنسان، وأغبى إنسان هو الذي يقول: أنا

قالها إبليس: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف:١٢] فأهلكه الله.

ويقول: لي قالها فرعون: ﴿أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ﴾ [الزخرف:٥١] أغرقه الله.

وعندي قالها قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص:٧٨].

ونحن قالها قوم بلقيس: ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ [النمل:٣٣].

القَيُّوم هو القائم بتدبير أمر خلقه، بالإضافة إلى أن وجودك قائم بالله، وإلى أن استمرار وجودك قائم بالله، هناك معنى ثالث... هو القائم برزق العباد، وأنت نائم الأمطار تهطل، الرُّشيم يتحرك، المعادن تنحلّ، والجذر ينمو، والقلنسوة تحفر الصخر، والماء أُذيبت به المعادن، صعد إلى عروق الشجر، انعقد الزهر، نمت الأوراق، انعقد الثمر وأصبح ثمراً يانعاً.

المؤمن إذا أكل تفاحة، أكل عنباً، أكل تيناً، أية فاكهة يأكلها يجب أن يرى يد الله التي صنعتها، أنت ماذا فعلت؟ زرعت البذرة، وسقيت التربة ووضعت السّماد، فمن جعل الرُّشيم ينمو؟ ولا بد من أن نعرف، ضع حبة فاصولياء في قطن مبلل وراقبها، بعد يوم أو يومين ينبت الرُّشيم ثم ينمو السّاق ثم ينمو الجُذير، اضغط على هذه الحبة... تراها فارغة، هذا الغذاء كافٍ لنمو الرّشيم والجُذير، ثم تأخذ الغذاء من التربة، ظاهرة النبات وحدها أكبر آية دالة على عظمة الله.

القطن نبات، السِّواك نبات، الليف في الحمام نبات، الأصبغة نباتات، الأدوية نباتات، الأثاث نباتات، الأشجار المثمرة نباتات، وكذلك الخضراوات والفواكه، فكلمة «نبات» تلفت النظر.

إذاً: القَيُّوم إضافة إلى أنه قائم بذاته، يقوم به كل موجود، يعني ما كل كائن حيٍّ فقط بل كل موجود، الشمس موجودة، القمر، الجبال، البحار... يقوم به كلُّ موجود ويستمر به كلُّ موجود.

والمعنى الإضافي أن الله قائم بتدبير أرزاق العباد.

تأمل في استهلاك العالم في اليوم الواحد من اللّحم. كم هو استهلاك العالم من الماء في اليوم؟ هذا الماء أساسه أمطار وأنهار وينابيع، كم هو استهلاك العالم من الخضار والفواكه؟ يا ترى كم ألف طن من الحمضيات يُنتج في العالم؟ في بلدنا سورية وحدها لدينا ساحل ضيق عندنا تسعون ألف طن من الحمضيات يتم تصديرها خارج القطر فكم إنتاج العالم كله من الحمضيات سنوياً؟... وكم إنتاج العالم كله من الموز؟... معدّل تدفق نهر الأمازون ثلاثمئة ألف متر مكعب في الثانية، هذه المياه من أين جاءت؟ الغابات، الأخشاب التي يستهلكها النجّارون في العالم من أين؟ من الغابات، من أمدَّ الغابات بهذه الأخشاب؟ الله جل جلاله.

أطنان الحديد في العالم من أين جاءت؟ من الفلزات، من أودع في الأرض هذا المعدن النافع؟ قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد:٢٥].

فكل إنسان مدْعو أن يفهم أنّ الله سبحانه وتعالى هو القَيُّوم، ولا بد من فهم واسع وشامل لصفة القَيُّوميّة، فهو الذي يدبّر أمر الخلق كلِّهم بشراً وحيواناً ونباتاً بتأمين أرزاقهم، وحاجاتهم، وزروعهم، ومياههم.

وقال مجاهد: القَيُّوم هو القائم على كلِّ شيء، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الزمر:٦٢].

الخلق كلّهم في قبضته، فقد تتصور أن الأمور متفلّتة، ويبدو لك أنّ فلاناً قلبه قاسٍ، وأنّ يده طولى، وهو سيّد نفسه فالله مالكه، وقياده بيد خالقه، وأوضح آية في هذا، قال تعالى: ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾ [هود:٥٥-٥٦].

حيوان شرس، حيوان مخيف، عقرب، أفعى، هذه الحيوانات المؤذية تتحرك بأمر الله، وكلُّ مخلوق يتحرك بإرادة الله سبحانه وتعالى، وليس له إرادة مستقلة.

وقال بعض العلماء: «القَيُّوم هو القائم على خلقه، بآجالهم وأعمالهم وأرزاقهم»، قال ﷺ: «إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب» [رواه أبو نعيم في الحلية من حديث أبي أمامة وهو صحيح]، قال علي رضي الله عنه: «إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقطع رزقاً ولا يقرب أجلاً» [أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره].

وقيل: «القَيُّوم هو المدبِّر المتولي لجميع الأمور التي تجري في الكون»، فإذا سمعت خبر فيضان، خبر زلزال، خبر إعصار، خبر انهدام، تفشّي مرض، تفشي وباء، حرباً أهلية قامت بين فئتين، أليس لله علاقة بهذا الشيء؟! قنبلة ألقيت على هيروشيما، أليس لله علاقة بهذه القنبلة؟! بلى، وألف بلى!

والقَيُّوم لا شيء يقع في الكون إلا بأمره، ومشيئته، وإرادته وحكمته وقدرته، وعلمه وتدبيره.

قد تتجوّل في الخريف في بستان فترى ورقة زيتون سقطت، فاعلم أيها القارئ أن الله تعالى في القرآن الكريم يقول: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام:٥٩].

فما قولك فيما فوق الورقة، سقوط ورقة يعلمها، سقوط قنبلة، طبعاً هذه أهم، يعلمها، متى يرتاح الإنسان؟... إذا شعر أن الأمر كله بيد الله، وأن الله قادر وعادل ورحيم وحكيم، وأنت في ظله، وأنت في رعايته، منحك الأمن، والأمن نعمة لا تُقدَّر بثمن.

وقيل: القائم على كل نفس بما كسبت، يحاسب كل إنسان حساباً دقيقاً، الغشاش له معاملة، والصادق له معاملة، والخائن له معاملة، والمتقن عملَه له معاملة، وغير المتقن له معاملة.

سمعت عن أخ عمل مهندساً في بعض دول الخليج، أخلص إخلاصاً منقطع النظير، أعطاه من يعمل عنده راتباً فلكيّاً، ثم شعر أنه ينبغي أن يستقر في بلده إلى جوار أمه وأبيه، فترك وعاد إلى بلده، قام بزيارة طارئة لذلك البلد الخليجي لإجراء بعض المعاملات، فعرض عليه من كان يعمل عنده أن يقيم شهراً في الخليج وشهراً في موطنه، وعشرة آلاف درهم في الشهر يقدر بمئة وخمسين ألف ليرة تقريباً، وبيتاً مفروشاً، السبب في كل هذه المغريات والتنازلات استقامته وإخلاصه وتفانيه في خدمة عمله، عن أبي قلابة قال: قال رسول الله ﷺ: «البر لا يبلى، والذنب لا يُنسى، والدّيّان لا يموت» [أخرجه عبدالرزاق في «مصنفه» وهو حديث مرسل عن أبي قلابة].

والنبي ﷺ روي عنه: «الأمانةُ غنًى» [رواه القضاعي في «مسند الشهاب» من حديث أنس بن مالك]، طبعاً من معانيها الضيقة ألاّ يأكل الإنسان مالاً حراماً... ومن معانيها الواسعة، أن تكون أميناً في عملك، أميناً في اختصاصك وأميناً في كل شيء... فمثلاً إنسان لا يحتاج إلى عملية إطلاقاً، يقول له طبيب غير أمين وغير مستقيم: إذا لم تُجْرِ العملية بعد يومين فإنّك ستموت، ويأخذ منه مبلغاً ضخماً، وهو لا يحتاج إليها إطلاقاً، هذا ليس أميناً على اختصاصه.

فموضوع الأمانة موضوع واسع جداً، إذا عمل الإنسان عملاً ليزيد دخله، ولا ينفع الشخص الذي يتعامل معه، فقد خان الأمانة، فأنت إذا كان عندك زجاج (ستة ميليمتر)، وتركبه في مكان يحتاج ثلاثة ميليمترات، من أجل منفعة ذاتية وتقول: هذه

النافذة أنسب بسماكة ستة ميليمترات، وتحمله ثمناً باهظاً وعبئاً ووزناً بلا فائدة، فقد خنت الأمانة. قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [النساء:٥٨].

إذا كنت صاحب صيدلية، فالأدوية كلها أمانة برقبتك، إذا انتهى مفعول دواء لا بد من تنسيقه، أعرف شخصاً اشترى دواء انتهى مفعوله، وكنت أظن أن الدواء الذي ينتهي مفعوله لا ينفع لكنه لا يضر، ثم تبيّن لي أن الدواء الذي ينتهي مفعوله له ضرر كبير جداً، هل تصدقون أنه يصيب الإنسان بالكآبة أحياناً، لما به من مواد مركبة، عندما تفككت أصبحت سامة، لما كانت مركبة كانت نافعة، فأن تبيع دواءً منتهياً مفعولُه، فقد خنت الأمانة.

أنت محامٍ؛ موكّل في قضية، تقدّم مذكرات غير مدروسة، ولم تراجع القوانين، خصمك أقوى منك، وخسرت الدعوى، فأنت خنت الأمانة.

المحامي أمين، الطبيب أمين، هناك أخطاء كثيرة جداً ترتكب من أصحاب الاختصاصات العليا، فهم موثوقون، ولكنهم هدروا هذه الثقة الممنوحة لهم بتقصيرهم.

تبيع خبزاً للناس، فعليك أن تتأكد أن هذا العامل يداه نظيفتان، وبقّال عنده وعاء زيت غالٍ جداً، وجد فيه فأراً، فهل يبيعه للناس؟! إن فعل فقد خان الأمانة.

الدين عظيم فهو رقيب على النفس، يتغلغل الدين إلى أدق التفاصيل، أضرب لكم مثلاً بسيطاً، نموذجياً: أخ من إخواننا كان يصلح محركات، قال لي: قد يأتيني محرّك محروق والشرط خمسة آلاف، أفتحه فأجد عطلاً خارجياً بسيطاً جداً، أصلحه بدقيقة واحدة، ثم يأتي صاحبه في اليوم الثاني وأتقاضى منه خمسة آلاف، هذا قبل أن يعرف الله، لكن بعد أن عرف الله، أصبح يقول لمثل هذه الحالة: اسمح لنا بخمس وعشرين ليرة، فيسأل الزبون متعجّباً؛ ما هذا الكلام قد اشترطت خمسة آلاف! يقول: نعم، لكن تبيّن لي بعد فتح الجهاز وفكّه أنه غير محروق، بل فيه قطعة معطّلة، فأصلحتها وانتهى الأمر.

والله الذي لا إله إلا هو، لا يتبدّى الدين حقيقياً، وجلياً إلا في عملك، الدين الحقيقي لا يتبدى في صلاتك ولا في صيامك، ولا في حَجّك، ولا في عمرتك، إنه يتبدى في العمل.

أن تضع مادة تؤذي أبناءنا الصغار، وأنت صاحب معمل غذائيات... فقد خنت الأمانة، وخسرت معيّة الله تعالى، والله تعالى يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل:١٢٨] الذي يخون الأمانة في صناعته، لا عبرة لا بصلاته ولا بصيامه، فالعبرة أن يستقيم على أمره، إن استقام على أمره، فالصلاة لها معنى، والصوم له معنى، والحج له معنى، لذلك قال تعالى: ﴿ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الصافات:٢٤].

فمن معاني القَيُّوم: القائم على كل نفس بما كسبت، فالشاب المستقيم له معاملة خاصة، له زواج خاص، له مستقبل خاص، وشاب منحرف قبل الزواج، عنده زوجة بلاء من الله، أتته بلاء، لأنه قَبْلَ الزواجِ لم يكن عفيفاً.

إنسان دخله حرام يأتيه البلاء الأعظم كل يوم، يعاني ما يعاني كل حين، وهذا جزاء وِفاقٌ يقول: أنا قلق! طبعاً، لأنك عندما بعت الزبون لم تتقِ الله فيه، لم تراقب الله فيه، عندما بعت هذا الإنسان، لم تتق الله في البيع، فلم تلبث أن جاءك رجل أخافك، إن ربّك لبالمرصاد.

شاب أمين، يتهافت الناس على تشغيله عندهم، وشاب غير أمين يتنافس الناس في صدّه عنهم.

﴿ أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الرعد:٣٣].

وقيل: الحفيظ على كل شيء، كلّ شيء مسجّل عنده، صورة ملونة وصوت، وسوف تُعرض عليك يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء:١٤].

ركبت مع أخ في سيارته، رأيت ورقة لديه فيها صورة السيّارة مع التاريخ والسرعة، قلت له: ما هذه؟ قال: هذه مخالفة، أرسلوها، يوم كذا الساعة كذا في شارع كذا بسرعة كذا، إنسان صنعها، فكيف بخالق الأكوان، قال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾.

إذا كانت كلُّ أعمالنا مسجلة، صوتاً صورةً، وسوف تُعرض علينا عملاً عملاً يوم القيامة، أجب خالقك، ﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [يس:٦٥].

وقيل: القَيُّوم الدائم القيام في تدبير الخلق وحفظهم الدائم، الإنسان أحياناً ينتبه إلى عمله فترة، ويرتاح فترة، ويأخذ إجازة أسبوعين، وتأتي فترات يتعب فيها لا يتابع الأعمال... القَيُّوم بصيغة مبالغة، يعني القائم بتدبير خلقه على الدوام، بمعنى الاستمرار.

وعالم جليل له رأي لطيف في هذا الاسم، قال: «اعلم أن الأشياء تنقسم إلى ما يفتقر إلى محل كالأعراض والأوصاف»، فكلمة أحمر... هذه جوهر أم عرض؟ هذه عرض، فقد تحتاج إلى ضوء يقبل هذا اللون، تحتاج إلى ماء ملون بالأحمر، تحتاج إلى جدار يطلى بالأحمر تحتاج إلى ضوء يخترق سطحاً أحمر، فكلمة أحمر هذه صفة ليست جوهراً، أما إذا قلنا: منضدة فهذه جوهر.

قال: «الأشياء تنقسم إلى ما يفتقر إلى محل كالأعراض والأوصاف»، فيقال: إنها ليست قائمة بنفسها، وإلى ما لا يحتاج إلى محل، نقول: الشمس مثلاً، الشمس جوهر، القمر جوهر، الحصان جوهر.

لكن الحقيقة المهمة هي أن الشيء الجوهري، الذي لا يحتاج إلى محل، هو مفتقر في وجوده إلى الله، طبعاً نحن فيما يبدو لنا، أن هذا الرخام جوهر، أما لونه فهو عرض، هذه السيارة جوهر، لونها سوداء عَرَض، أما عند العلماء الأجلاء وهو الحق، أن

الأشياء التي تتوهمها جوهراً هي في حقيقتها مفتقرة في وجودها إلى الله، إذاً في الحقيقة كلُّه عرَض، لذلك الذين قالوا: الكون كله وهم، شبح، من هنا انطلقوا، أي أن كل شيء قائم بالله.

لذلك فمن هو الذي لا يفتقر إلى ما سواه؟ اسمعوا هذا الشرح ما ألطفه قال: وإن لم يحتج إلى محل «شيء لم يحتج إلى محل»، فإن كان في الوجود موجود تكفي ذاته بذاته، موجود قائم بذاته، ولا قيام له بغيره، ولا يشترط في دوام وجوده وجود غيره، فهو القائم بنفسه مطلقاً، فإن كان كذلك يقوم به كل موجود.

حتى لا يتصور وجود شيء من دونه، ولا دوام وجود شيء من دونه، فهو القَيُّوم لأن قيامه بذاته وقيام كل شيء به... قال: هذا الشيء، هذا الموجود، هذا القائم بذاته الذي يقوم به كل موجود ليس إلا الله.

ليس إلا الله وجوده ذاتي يقوم به كلُّ موجود، ما سوى الله عز وجل، أعراضٌ، وأشباح، وأوصاف، ولا شأن لها.

من أدب المؤمن مع اسم القيوم

قال العلماء: من أدب المؤمن مع اسم القَيُّوم، أن يعوّد قلبه الانقطاع عن الخلق، ما دام يعرف أن كل شيء قائم بالله، يعني إذا دخلت إلى دائرة، ووجدت فيها ألف موظف، لا يستطيع موظف أن يخدمك بشيء إلا أن يأخذ موافقة من المدير، أتتحدث مع أحد؟ عليك بالمدير، ليس لك إلا هذا.

يعني: إذا كان ألف موظف لا يستطيع موظف أن يتكلم كلمة لا بالإشارة ولا بالموافقة، ولا بالحركة، إلا إذا وافق المدير، فهل تتحدث مع هؤلاء؟ وتضيع وقتك معهم؟...

لذلك من أدب المؤمن مع اسم القَيُّوم، أن يعوِّد الإنسان نفسه انقطاعَ قلبه عن الخلق، ما دام يعرف أن الله سبحانه وتعالى، هو القائم والقَيُّوم، لذلك قال بعض العارفين: «حسبك من التوكل ألا ترى لنفسك ناصراً غيره».

أحياناً يقول الإنسان: أنجزتها، عملت خطة محكمة وأفلحت بها، أقسم بالله إني أشعر أن هذا الإنسان تائه، الله سمح لك، الله وفقك، الله جعل الآخرين يغضون نظراً عنك، الله خلق في قلبهم عطفاً عليك، الله حجبهم عن معرفة هذه المخالفة أحياناً، لا تقل: فعلت بنفسي، حتى لو أن واحداً أعانك، فالله سمح له أن يعينك، وألهمه، إما أنه خاف منك، وإما أنه استحيا، وإما أنه عطف عليك، لا تقل: أنا دبّرت أموري.

قال بعض العلماء: «حسبك من التوكل أن لا ترى لنفسك ناصراً غيره، ولا لرزقك خازناً غيره، ولا لعملك شاهداً غيره».

المخلِص لا يحتاج إلى ضجيج، غير المخلص إذا صنع وليمة يقول: هل أعجبكم الطعام؟ يريد أن يستجدي المديح، إذا عمل حفلة دائماً يسأل ليمدحوه، أما المؤمن فلا يطلب على عمله شاهداً غير الله، ولا يرجو غير الله، ولا يعرف أن أحداً ينصره غير الله.

من أدب المؤمن مع اسم القَيُّوم، أن من علم أن الله هو القَيُّوم للأمور استراح من كَدِّ التدبير، وتعبِ الاشتغال بغيره، وعاش براحة النفس، ولم يكن للدنيا عنده قيمة.

يعني ما هو لك لك، وما هو ليس لك ليس لك، والله عز وجل لا ينسى، ولا يغفل، وأمرك بيده، فإذا تيسر فالحمد لله، وإذا تعسر فلا حول ولا قوة إلا بالله.

قال بعضهم: يا رب لستَ محتاجاً إلى أحد، والكل محتاج إليك، يا عليم السر في أغواره، كيف للأسرار أن تخفى عليك؟ كل شيء بك باقٍ دائماً، والذي تقضيه مكتوب لديك، يا مضيء النجم، يا قَيُّوم يا ناقل الأطيار من أيك لأيك.

عَنْ طَاوُوسٍ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قالَ: كَانَ النبيُّ ﷺ إذَا قامَ مِن اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ قالَ: «اللهمَّ لَكَ الحَمْدُ أنْتَ قَيِّمُ السَّمَواتِ والأرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ لَكَ مُلْكُ السَّمَواتِ وَالأرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أنْتَ نُورُ السَّمَواتِ والأرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ...» [أخرجه البخاري].

أحياناً يقال: إنه حدثَتْ خلخلةٌ في طبقة الأوزون، وتفشّى سرطان الجلد إلى أن بلغ سبعين بالمئة، فيخاف الإنسان، ولكن الله موجود، الله عز وجل أليس قادراً على أن يرممها؟ قادر، ولكن دون الإيمان بالله الحياة مخيفة تحمل هم الأوزون المتخلخل، القلق من التلوث، القلق من الأورام، القلق من أمراض القلب، القلق من فشل كلوي، ما هذه الحياة؟... لكن مع الإيمان بالله هناك طمأنينة.

عزيزي القارئ: أحد أكبر مهام الإنسان في الحياة الدنيا أن يعرف الله، ومن أبرز ما يقتضي أن تعرف الله به أن تعرف أسماءه الحسنى، واسم القَيُّوم من أسماء الله الحسنى، وإذا تعمقت في اسم القَيُّوم، تركت الخلق واتجهت إلى الحق، وارتاحت نفسك من القلق، ونجَوْتَ من الاضطراب.

العلي

نحن الآن في رحاب العليّ جلّ جلاله، نتعرف إلى اسم جديد من أسمائه الحسنى لنرقى بهذه المعرفة إليه، ثم نأخذ نصيبنا من هذا الاسم.

هذا الاسم ورد مقروناً باسم العظيم، في موضعين من القرآن الكريم، الآية الأولى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة:٢٥٥].

والآية الثانية: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾﴾ [الشورى:٤].

واقترن هذا الاسم باسم الكبير، في عدة آيات منها قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَـٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج:٦٢].

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ:٢٣].

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر:١٢].

وقال تعالى: ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ [النساء:٣٤].

وورد منكّراً مقترناً باسم الله (الحكيم) في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [الشورى:٥١].

أمّا في السّنّة المطهّرة: فعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ تَعَارَّ مِنْ اللَّيْلِ فَقَالَ حِينَ يَسْتَيْقِظُ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ سُبْحَانَ الله وَالْحَمْدُ لله وَلَا إِلَهَ إِلَّا الله وَالله أَكْبَرُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله العليّ العَظِيمِ ثُمَّ دَعَا رَبِّ اغْفِرْ لِي غُفِرَ لَهُ» [أخرجه أبو داود و ابن ماجه].

وفي السنة أيضاً، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الكَرْبِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا الله العليّ العَظِيمُ لَا إِلَهَ إِلَّا الله الحَلِيمُ الكَرِيمُ لَا إِلَهَ إِلَّا الله رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ لَا إِلَهَ إِلَّا الله رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ» [مسند أحمد].

من معاني اسم الله (العلي)

اسم الله «العليّ» في الأصل من أسماء التنزيه، فأكثر النّاس يؤمنون أنّ الله سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض، وهذا شيء بدهيّ، بل إن كلّ أهل الأرض إلا قلة قليلة منهم لا يؤبه لها تقرّ بوجود الله، بل إن إبليس اللعين أقرّ ببعض ذلك، قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ [ص:٨٢].

﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف:٧٦].

﴿ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الأعراف:١٤].

ما الشّيء الحاسم في الموضوع؟ الشيء الحاسم أن تؤمن بالله «العليّ» العظيم، أن تؤمن بالله «العليّ» الكبير، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ [الأحزاب:٤١].

فالكلمة الأبرز في الآية هي كلمة كثير، لأن المنافق يذكر الله، بدليل الآية الكريمة: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء:١٤٢].

إذاً الأمر هنا لا ينصبّ على الذكر فحسب، ولكنّه ينصبّ على الذكر الكثير.

«العليّ» على وزن فعيل وهو من الصفات المشبهة باسم الفاعل، وفعله علا يعلو علواً، العلوّ في المعنى الماديّ المتبادر هو ارتفاع المكان، أو ارتفاع المكانة، فإذا كنّا في شركة فيها عشرة طوابق، مكتب المدير العام في الطابق الأرضي، لكنّ مكانته في الأعلى، فإما ارتفاع المكان، أو ارتفاع المكانة، وفي الآية الكريمة: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ [البقرة:١٤٨].

في أي مكان كنتم، بل في أيّة مكانة كنتم.

قال أبو العتاهية:

لا تَـأْمَنِ المـوتَ في طَـرْف وفي نَفَـس ... ولـو تمَنَّعْـتَ بالحُجَّـابِ والحَـرَسِ
فـما تـزالُ سِـهَامُ المـوتِ نافـذةً ... في جَنْـبِ مُـدَّرع منّـا ومُـتَّرسِ
مـا بـالُ دينـكَ تَـرْضَى أن تُدَنِّسَـهُ ... وثوبُـك الـدهرَ مَغسـولٌ مـن الـدَّنَسِ
ترجـو النَّجـاةَ ولم تَسْـلُكْ مسَـالِكَها ... إنّ السّـفينةَ لا تجـرِي عـلى يَـبَسِ

إذاً العلوّ: ارتفاع المكان، أو ارتفاع المكانة، أي ارتفاع المجد، والشّرف، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران:].

أعداؤنا بيدهم أموال لا تأكلها النيران، وبيدهم الإعلام، وبيدهم التحالفات، والعالم كلّه معهم، ومع كلّ ذلك إذا كنت مع الله فأنت الأعلى. وفي دعاء القنوت: «إنه لا يذلّ من واليت ولا يعزّ من عاديت» [الترمذي عن الحسن بن علي].

«العليّ» في أسماء الله هو الذي علا بذاته، فوق جميع خلقه، فاسم «العليّ» دلّ على علو الذات والفوقية.

وتعالى عن كلّ صفة لا تليق به، هل يليق به أن يظلم؟!

﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر:١٧].

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [النساء:٤٩].

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء:١٢٤].

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ [العنكبوت:٤٠].

﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء:٤٧].

والله عز وجل تعالى عن أن يشبه خلقه، تعالى عن كل ما خطر ببالك، فكلّ ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك.

و «العليّ» هو الذي علا فلا تُدرك ذاته، ولا تُتصور صفته، وقد قيل: لا يعرف الله إلا الله.

«العليّ» هو الذي تاهت الألباب في جاهه.

«العليّ» هو الذي عجزت العقول عن أن تُدرك كماله، كل هذه المعاني يمكن أن ترد حينما تقول: الله هو «العليّ»، عليّ مكانة، عليّ تنزيهاً، عليّ عزّة، عليّ لا يحيط به أحد، ولن يُدرك ذاته أحد، عليّ بمعنى رفيع القدر، الله سبحانه وتعالى قال عن ذاته العليّة: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج:٦٢].

ما لم تعظّم الله جلّ جلاله فلن تعظّم أمره، فإذا عرفت الآمر، ثم عرفت الأمر تفانيت في طاعة الآمر، أما إذا عرفت الأمر ولم تعرف الآمر تفننت في التفلّت من الأمر.

الله سبحانه وتعالى عالٍ على عرشه بذاته، وبكيفيّة حقيقيّة معلومةٍ لله، مجهولةٍ لنا، فهناك في القرآن بضع آيات تتحدث عن ذات الله، وأكمل موقف للإنسان الموحّد الورع أن يكِل معناها إلى الله تعالى.

يجب أن تعتقد أن عقلك ليس قوة مطلقة في المعرفة، هو كميزان حساس متقنٍ غالٍ في بقالية، ولكنّه مصنوع لوزن ما بين خمسة غرامات إلى خمسة كيلو، ما لم تؤمن أن هذا الميزان مهمته محدودة فلن تنتفع به تماماً، فإذا أردت أن تزِن به سيارتك، فوضعته على الأرض وسرت فوقه، تكون قد حطّمته، هل يعدّ هذا عِلّة في الصّنعة؟ لا، بل هي عِلّة في المستخدم.

لذلك قالوا: عين العلم به عين الجهل به، وعين الجهل به عين العلم به.

وقالوا: العجز عن إدراك الإدراك إدراك.

مثل بسيط: شخص سألك كم لتراً من الماء في المحيط الهادي؟ لمجرد أن تدلي برقم فأنت جاهل ولمجرد أن تقول: لا أعلم فأنت عالم.

إذاً: الذي عليه السلف الصالح، من الصحابة، والتابعين، والأئمة الأجلاء المتبعين، أن الله عالٍ على عرشه بذاته، بكيفية حقيقيّة معلومةٍ لله، مجهولةٍ لنا.

يقترن اسم الله «العليّ» باسمه العظيم في القرآن والسّنّة، ولا سيما حينما يُذكر العرش والكرسي، ففي آية الكرسي وهي كما تعلمون أعظم آية في كتاب الله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة:٢٥٥].

هذه الآيات وغيرها كثير واضحة في إثبات علوّ الذّات، والفوقيّة، لكنّ بعض المفسرين لاسم الله «العليّ» جعلوه دالاً على معنيين فقط من معاني العلوّ، هما علوّ الشأن، وعلوّ القهر، واستبعدوا المعنى الثالث وهو علوّ الذات، والثّابت الصّحيح أن

معاني العلوّ عند السّلف الصّالح ثلاثة دلّت عليها أسماء الله المشتقّة من صفة العلوّ، فاسم الله «العليّ» دلّ على علوّ الذات، واسم الله الأعلى دلّ على علوّ الشأن، واسم الله المتعالي دلّ على علوّ القهر، علو الذات، وعلو الشأن، وعلو القهر. والنّبيّ ﷺ لما سأل الجارية: «... فَقَالَ لَهَا أَيْنَ الله قَالَتْ فِي السَّمَاءِ قَالَ مَنْ أَنَا قَالَتْ أَنْتَ رَسُولُ الله قَالَ أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ» [صحيح مسلم عن معاوية بن الحكم السلمي].

والله تعالى يقول: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [الملك:١٦].

لأنّ السّماء رمز العلوّ، فلا إشكال عند الموحدين العقلاء في فهم حديث الجارية، وقولها إن الله في السماء والأمر واضح جليّ، وأيّ اعتراض على هذا، هو اعتراض على رسول الله ﷺ.

ما لم نؤمن بأن الله عليّ عظيم، وبأنه عليّ كبير، قد لا نطيعه، لأنّ عظمة الأمر من عظمة الآمر، فكلما عظُم الآمر عظم الأمر.

وفي الحديث: «وفضل كلام الله على سائر الكلام، كفضل الله على خلقه» [رواه الترمذي عن أبي سعيد، وقال: حسن غريب]، لو أنّ شخصاً درس أيّ علم أرضي، ودرس أسماء الله الحسنى، ففضل علمه بأسماء الله الحسنى على فضل علمه بمخلوقاته كفضل الله على مخلوقاته، وشرف العلم من شرف المعلوم، أي لا يوجد علم أشرف من أن تعرف الله، لا يوجد علم أشرف من أن تعرف أسماءه الحسنى وصفاته الفضلى.

لذلك فالإنسان حينما يغفل عن الله، يأتي يوم القيامة وقد تقطّع قلبه أسفاً.

﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ٢٤﴾ [الفجر:٢٤].

﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧﴾ [الفرقان:٢٧].

«العليّ» لا يزيده تعظيم العباد، وإجلالهم له شيئاً.

«لو أنَّ أوَّلكم وآخركم وإنْسَكم وجِنَّكم، كانوا على أتْقَى قلب رجل واحدٍ منكم ما زاد ذلك في مُلْكي شيئاً» [أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري].

لو أن إنساناً كان بمستوى معين، إما مالياً، أو أخلاقياً، أو سلوكياً، أو رتبياً، لكنّ الناس يعظمونه كثيراً، هذا التعظيم يرفعه، وهو ليس في هذا المكان، لكنّ التعظيم الشديد رفعه إلى مكان ليس هو فيه، لكن الله سبحانه وتعالى لو أنّ كلّ الخلق سبّحوه، وعظّموه، وبجّلوه، فهذا التسبيح، والتعظيم، والتبجيل، لا يزيده علواً، فهو عليّ بذاته، فالإنسان يعلو بمديح الخلق، لكنّ الله سبحانه وتعالى عليّ بذاته، لا يزيده تسبيح عباده وتعظيمهم له علوّاً.

الإنسان يؤتيه الله أحياناً شيئاً من القوة، فكل من حوله يكون في خدمته؛ العلماء، الأطباء، والخبراء، كلهم في خدمته، يستعين بعقول من حوله، وأحياناً كل عقلك وذكائك لا يقدم لك الشيءَ الكافي في الحياة الدنيا، فأنت عالة على غيرك. فالإنسان له مستوى، فقد يمدحه المادحون، يعظّمه المعظّمون، يثني عليه الناس، يبالغون في الثناء، في المديح، في التعظيم، فيرتفع. هذا الارتفاع مفتعل. يعني ظهر بحجم أكبر من حجمه. هذا المعنى الذي يجري بين الناس لا يليق بالذات الإلهية فمهما عظمه الخلق، ومهما أثنوا على كماله لا يزيده تعظيمهم علواً ولا كبرياءً فهو عظيم بذاته.

فالله عز وجل عليّ بذاته، بينما الإنسان إذا علا فقد يعلو بعقول غيره، وقد يعلو بمستشاريه، لذا فالفرق كبير جداً بين علوّ الله عز وجل، وعلوّ البشر.

أحياناً الإنسان تحس أن له مهابة، فإذا تكلم كلمة واحدة سقط، الإنسان أحياناً يصغر بكلمة أو بسؤال وينكشف بتصرف ما، الإنسان قد يبدو كبيراً ثم يحجم، يقول لك سقط من عيني، هو بالأساس ساقط، لكن توهمت أنه كبير، فلما تكلم كلاماً غير معقول سقط.

يقال: إن ملكاً دخل إلى بستان مرة رأى حصاناً يدور حول بئر، وقد عصب صاحبُه عينيه، ووضع الجلجل في رقبته، استغرب الملك وسأل صاحب البستان: لم عصبت عينيه؟ قال: من أجل ألا يصاب بالدوار، ولم وضعت هذا الجلجل في عنقه؟ قال: إذا وقف أعرف أنه وقف، وما دام الجلجل يُصَوِّتُ فهو يدور، فقال هذا الملك:

فإذا وقف وهز لك رأسه وأوهمك أنه يدور؟ فأجاب هذا البستاني: وهل له عقل كعقلك؟!

وقال بعض العلماء: «إن علو الله تبارك وتعالى يرجع إلى واحد من ثلاثة أمور؛ إلى أنه لا يساويه شيء في الشرف والعزة، فيكون هذا الاسم من أسماء التنزيه، أو إلى أنه قادر على كل شي، والكلّ تحت قدرته وقهره، فيكون هذا من أسماء الصفات، أو إلى أنه يتصرف في الكل بقدرته فهو من أسماء الأفعال»فيمكن أن يكون اسم العلي من أسماء الصفات، ومن أسماء الأفعال، ومن أسماء التنزيه.

وقال بعض العلماء: «العلي؛ هو المتعالي عن الأنداد والأضداد»، للإنسان أنداد، هناك جراح قلب، وهناك جراحو قلب آخرون، اختصاص في الفيزياء النووية، قد يوجد خمسة على شاكلته ومن طرازه، لا يوجد اختصاص في الأرض إلا فيه أنداد. هذا يمثل مثلاً أكبر كتلة نقدية في القطر، وفي بلاد أخرى تجد من هو أغنى منه.

فالإنسان مهما علا له أنداد. مهما ارتفع له أمثال. لكنّ الله عليّ، أي: متعالٍ عن الأنداد والأضداد، لا رتبة فوق رتبته، وجميع المراتب منحطّة عنه.

بعض الأئمة قالوا: لا تفترض مرتبة شريفة إلا والحق جلّ جلاله في الأعلى، إذا شكرت فالله سبحانه وتعالى أصل الشكران، إذا سخوت فالله سبحانه وتعالى أصل السخاء، إذا تكرمت فالله سبحانه وتعالى أصل الكرم، أية صفة من صفات الكمال في بني البشر هي من الله عز وجل، هو أصلها، هو مصدرها.

قال بعضهم: الكون بكل ما فيه لا يزيد على أن يكون مؤثّراً، أو أثراً، أنا حينما أمسك ورقة وأمزقها، هذا الفعل مؤثر، وهذا المنظر أثر، الله عز وجل هو المؤثّر، والكون كلّه أثر، والمؤثّر أقوى وأعلى وأعظم من الأثر.

فالله عز وجل واجب الوجود، وما سواه ممكن الوجود، وواجب الوجوب، هو «العليّ»، أمّا ممكن الوجوب فليس عليّاً، لأنه يمكن أن يوجد، ويمكن ألا يوجد، وإذا وجد يمكن أن يكون على ما هو عليه، أو على خلاف ما هو عليه.

والموجود إما أنّه كامل كمالاً مطلقاً، أو كمالاً نسبيّاً، فالله عز وجل كماله مطلق، إذا قلنا: الله عادل يعني منذ أول الخليقة، وحتى نهاية الدوران في كل العصور والأمصار، لا يمكن أن يظلم عصفوراً، ولا نملة، هذا معنى العدل المطلق، أما القاضي من بني البشر فقد يصدر ألف حكم، عشرة أحكام منها غير عادلة، ليس عن قصد، ولكن عن ضعف، ويُسمَّى عند الناس قاضٍ عادل، فهناك كمال مطلق، هو كمال الله وحده، و كمال نسبي، فالكامل كمالاً مطلقاً هو «العليّ» والذي كماله نسبيّ هو الأقل علواً.

قال بعض العلماء: «العلي؛ هو الذي استحق نعوت الجلالة والكبرياء، وبذلك التفسير لم يزل عالياً علياً».

النفس البشرية مفطورة على حب الأكمل. راقب نفسك؛ إن وُضعت لك عدّة حاجات لتختار أحدها فإنك تختار أجملها، وأحسنها. لو أن دفتراً أسطره مائلة تردّه. لو أن كتاباً ورقاته منثنية تردّه. فلو أن حاجة فيها نقطة تشويه تبدلها. هذه طبائع النفس البشرية. لذلك فهذه النفس البشرية، لا يرويها ولا يُسكِنها ولا يملؤها إلا الكمال المطلق. لذلك فالمؤمن إذا اتّجه إلى الله عز وجل، سكنت نفسه واطمأنّت أما غير المؤمن فلو أنه بنى بيتاً وظن أنه من أجمل البيوت، فإذا رأى بيتاً أجمل منه صغر بيته في عينه.

وبعد؛ فتبديل الأشكال والألوان والألبسة والمركبات وأنماط البيوت والحاجات والأثاث، هذا التبديل السنوي، أو الفصلي، سببه؛ أن الإنسان يحبّ الكمال. وكلما وصل إلى كمال، تاقت نفسه إلى الأكمل، وهو يلهث وراء الأكمل -المادي طبعاً- إلى أن يأتيه الأجل، وهو صفر اليدين من بضاعة الآخرة؛ لكنّه إذا عرف الله وهو في الدنيا؛ فالله سبحانه وتعالى هو الكمال المطلق، هو المطلق في كل شيء.

وإذا كان هناك شخصان؛ قوي وأقوى؛ تميل إلى الأقوى. انظر في مجلس فإذا وجد فيه رجلان؛ الأول أعلم من الثاني. أو أقوى منه، أو أغنى، ترى جميع الحاضرين يتّجهون إلى الأقوى، إلى الأغنى، إلى الأعلى، هذه طبيعة النّفس البشرية، لا تحب الكمال فحسب بل تحبّ الأكمل.

لأضرب مثلاً تفاحتان ناضجتان، ذواتا لون أصفر جميل، واحدة عليها مشحة حمراء، قيل لك: تفضل تأخذ ذات المشحة الحمراء، هذه طبيعة النفس؛ فلذلك يوجد فراغ لا يملؤه إلا معرفة الله، لا يُذهب هذا القلق إلا أن تركن إلى حفظ الله.

الإنسان مهما أخذ الاحتياطات، مهما سد الثغرات، يمكن أن يفاجأ من منطقة أمنه. من المنطقة التي أغلقها والتي ضبطها. ولكنه إذا توكل على الله، كفاه الله كل مؤنة. من توكل على الله كفاه، اعمل لوجه واحد يكفك الوجوه كلها.

نصيب المؤمن من اسم الله (العلي)

من أدب المؤمن مع اسم «العليّ» لا أن يتخلق بهذا الكمال، فهذا كمال في الله، لكنّه في الإنسان نقص، فالمؤمن يتواضع لأنّه في الأصل فقير، جاهل، ضعيف، فإذا ادعى ما ليس له فهو يكذب، إذا ادعى ما ليس له فهو يغش الناس، فالمؤمن من شأنه مع اسم «العليّ» التواضع.

لذلك لمّا فتح النّبيُّ الكريم مكّة المكرمة دخلها مطأطئ الرّأس، حتى كادت ذؤابة عِمامته تلامس عنق بعيره تواضعاً لله عز وجل.

من شأن المؤمن أن يتواضع، لا أن يتعاظم، وقد قيل: اتّضع لا ترتفع، اتّبع لا تبتدع، الورع لا يتّسع.

ممّا لا يليق بالإنسان أن يقول: أنا قوي، أنا غني، أنا أحمل شهادة عليا، قل: أنا طالب علم، قل: الله وفقني، الله أكرمني، الله منحني، الله تفضل عليّ بهذا البيت، تفضل عليّ بهذه الزوجة، تفضل عليّ بهذه الخبرة، بهذه الشهادة، لأن أدب المؤمن مع هذا الاسم «العليّ» أن يتواضع لله تعالى.

يروى أن سيّدنا عمر لما تولّى الخلافة، قال: أيّها الناس إنّ النّاس خافوا شدّتي، كنت خادم رسول الله، وجلواذه، وسيفَه المسلول، فكان يغمدني إذا شاء، وتوفي وهو عني راضٍ والحمد لله وأنا بهذا سعيد، ثم كنت خادم أبي بكر، وجلواذه،

وسيفه المسلول، فكان يغمدني إذا شاء، وتوفي وهو عني راضٍ الحمد لله كثيراً وأنا به أسعد، ثم آلت الأمور إليّ أيها الناس اعلموا أن هذه الشّدة قد أضعفت. وإنما تكون على أهل الفجور والعصيان، أما أهل الإيمان والصلاح فأضع خدي لهم على الأرض ليطؤوه.

أيها الناس خذوا عني خمس خصال، لكم عليّ ألا آخذ من أموالكم شيئاً إلا بحقه، ولكم عليّ ألا أنفق من هذه الأموال شيئاً إلا بحقه، ولكم عليّ ألّا أجمّركم في البعوث، وإذا غبتم في البعوث (أي في الجهاد) فأنا أبو العيال حتى ترجعوا، ولكم عليّ أن أزيد عطاياكم إن شاء الله تعالى، ولست خيراً من أحدكم، لكنني أثقلكم حملاً.

أرأيتم إلى التواضع؟ شأن العبد مع هذا الاسم التواضع، وأنت إذا تواضعت لله يرفعك الله.

لا بدّ أن يجتمع في قلب المؤمن تعظيم لله، ومحبة له، وخوف منه، وهذا درس بليغ للدعاة، إن دعوت إلى الله فيجب أن تنوّع في خطابك الديني، بين التعظيم والحبّ والخوف.

الله عز وجل عليّ عظيم، أما الإنسان فمفتقر إلى الله عز وجل، وهناك درسان بليغان، درس بدر، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران:١٢٣].

أي: مفتقرون، افتقاركم كان أحد أسباب انتصاركم، أما في حنين أنتم، أنتم وفيكم سيد الخلق قلتم: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [التوبة:٢٥].

يستنبط أنك أمام امتحانين، إذا قلت الله تولاك، ونصرك، وأيدك، ووفقك، وألهمك الصواب، ألهمك الحكمة، وإذا قلت أنا بعلمي، باختصاصي، بخبراتي المتراكمة، أنا ابن فلان تخلّى الله عنك، وأوكلك إلى نفسك، فأنت بين التولّي والتخلّي، تقول: الله يتولاك، فإذا قلت أنا تخلّى عنك.

قالوا: «حُكي أن رجلاً قال لمالك بن مغول: اتق الله -فبعض الناس إذا قلت له: اتق الله أخذته العزة بالإثم- لكن لما قيل لمالك: اتق الله، قال من شاهدهُ: فألصق خده بالتراب وقال: سمعاً وطاعة» اقبل هذا الكلام ولو كان من طفل صغير.

يُروى أن الإمام أبا حنيفة رحمه الله تعالى؛ رأى طفلاً صغيراً أمام حفرة فخشي أن يقع الطفل فيها، فقال: احذر يا غلام أن تسقط فيها، وكان هذا الطفل من الفطانة بمكان، قال: بل أنت يا إمام إياك أن تسقط، إني إن سقطتُ سقطتُ وحدي، وإنك إن سقطتَ سقط العالم معك.

ومن ثمرات معرفة اسم الله العليّ أنه يحبك حين تحبّ معالي الأمور، أن تحب الله، لا أن تحب امرأة تموت في حبها، وتنسى ربك، أن تحب الآخرة لا أن تحب الدنيا، أن تحب رضوان الله لا أن تحب المال.

«إن الله كريم يحب الكرم ويحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها» [أخرجه الحاكم عن سهل بن سعد الساعدي].

فالمؤمن يحب معالي الأمور، ويكره سفسافها ودنيها، كلام فارغ، مزاح رخيص، كلام لا يُقدم ولا يُؤخر، تفاخر بالآباء، بالأجداد، الحديث عن بيته، وعن زوجته، وعن أولاده المتفوقين، هذا لا يعني الناس، يعنيهم أن تعرّفهم بالله عز وجل.

الآن حظ آخر من حظوظ العبد مع هذا الاسم العظيم، قال: «ألا يتصور أن له علواً مطلقاً»، قال: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [يوسف:٧٦].

تروي الكتب: أن سيدنا موسى وهو نبي من أولي العزم، قال: ما في الأرض أعلم مني؟ فجاء سيدنا الخضر وعلمه دروساً كثيرة [انظر: السنن الكبرى للنسائي (٥٨١٣)، تفسير ابن كثير، الآيات ٦٠-٦٥ من سورة الكهف].

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الكهف:٦٦-٦٧].

سبحان الله، كلما قال الإنسان: أنا، يحجِّمه الله عز وجل! اعتقد؛ أنه فوق كل ذي علم عليم، فوق كل غني أغنى، وفوق كل قوي أقوى، وفوق كل عالم أعلم، هذا المعنى يجعلك متواضعاً.

لكن قال العلماء استثناءً: «هناك مرتبة ليس فوقها مرتبة على الإطلاق؛ وهي مرتبة النبي ﷺ»، سيد الخلق، وحبيب الحق.

قال بعضهم: «في بعض الأدعية: إلهي، أنت العلي المنزه عن الحدود، والجهات، المقدس عن الأوهام والخطرات، جعلت الشرف الأعلى لمن لجأ إليك، وأعطيت المقام الرفيع لمن توكل عليك».

كن مع «العليّ» ولا تكن مع الدنيّ، كن مع السّرمديّ ولا تكن مع الفاني، كن مع القويّ، ولا تكن مع الضّعيف، كن مع الرّحيم ولا تكن مع القاسي.

العظيم

من أسماء الله الحسنى اسم العظيم.

وقد ورد في القرآن الكريم منفرداً في قوله تعالى:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾﴾ [الحاقة:٣٣].

وقد ورد أيضاً مقترناً باسم الله العلي في موضعين.

الموضع الأول: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة:٢٥٥].

أما الآية الثانية: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾﴾ [الشورى:٤].

وقد ورد الأمر بالتسبيح باسم الله العظيم، قال تعالى:

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة:٧٤].

وقد ورد هذا الاسم في السّنّة المطهّرة في كثير من المواضع، من هذه المواضع ما أخرجه الإمام البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ سُبْحَانَ الله العَظِيمِ سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ».

وفي سنن أبي داود من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ عن النبي ﷺ: «أَنَّهُ كَانَ إِذَا دَخَلَ المَسْجِدَ قَالَ أَعُوذُ بِالله العَظِيمِ وَبِوَجْهِهِ الكَرِيمِ وَسُلْطَانِهِ القَدِيمِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»

من معاني اسم الله (العظيم)

العظيم صفة مشبهة باسم الفاعل لمن اتّصف بالعظمة، الفعل عظُم يعظُم عظماً، يعني كبر واتسع وعلا شأنه وارتفع، ولفلان عظمة عند الناس أي حرمة يعظَّم لها، وأعظم الأمر وعظّمه: فخّمه، والتعظيم: التبجيل، والعظيمة: النّازلة الشّديدة والملمّة الكبيرة، وعظمة العبد: كبره المذموم وتجبُّره، وإذا وصف العبد بالعظمة فهو ذمّ لأن العظمة لله في الحقيقة، وعند البخاري من حديث ابن عمر ﷺ أنّ النّبيّ ﷺ قال: «مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ أَوْ اخْتَالَ فِي مِشْيَتِهِ لَقِيَ الله وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ»

وأية أمة أرادت أن تبني مجدها على أنقاض الشعوب، وادّعت العظمة والكبر والاستعلاء والاستكبار والتغطرس، فمصيرها الهلاك كقوم عاد: ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥].

عاد تفوقت في البنيان: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الشعراء:١٢٨].

وهؤلاء القوم بظاهر الآية تفوقوا في الصناعة إن صحّ التعبير: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الشعراء:١٢٩].

وهؤلاء القوم تفوقوا في الناحية العسكرية، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الشعراء:١٣٠].

وهؤلاء القوم تفوقوا في الناحية العلمية، قال عز وجل: ﴿وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [العنكبوت:٣٨].

الحقيقة أن قوم عاد نموذج للأقوام المستعلية، فقوم عاد تفوقوا في شتى المجالات: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر:٦-٨].

وما أهلك الله قوماً إلا وذكرهم أنه أهلك من هو أشد منهم قوة إلا عاداً حينما أهلكها قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥].

إذا اشترك شيئان في قاسم مشترك، ورجح أحدهما فنسمي الراجح عظيماً. نقول: هذا جسمٌ عظيم... أي: له أبعاد... له طولٌ أطول، وعرضٌ أعرض، وعمقٌ أعمق.

ويمكن أن نقول: فلانٌ عظيمٌ في العلم، أي: يتمتع بعلمٍ غزير، ونقول: فلانٌ عظيمٌ في المال، وفلانٌ عظيمٌ في الملك، وقد نقول: عظيمُ القريةِ أي سيِّدها، والعظيم مشتقٌّ من العظم... والعَظْمُ؛ هو الضخامة والعزُّ والمجد والكبرياء، فالشيءُ العظيم هو الشيءُ القوي، الشيءُ الضخم، الشيءُ العزيز، الشيءُ الماجد، ذو الكبرياء.

أما إذا قلنا: إنَّ الله سبحانه وتعالى عظيم، فمعنى ذلك: أنه عظيمٌ في وجوده. فالجبل موجود، والبحر موجود، والسهل موجود، والإنسان كذلك موجودٌ، والحيوانات موجودة، والنبات موجود، لكن هذه الموجودات جميعاً سبقها عدم، وسوف تنتهي إلى عدم. أما إذا قلنا: إنَّ الله عظيمٌ في وجوده؛ فنعني أنه لا شيء قبله، ولا شيء بعده، هو الحيُّ الباقي على الدوام.

الفناء يتَّصف به الخلق، ولكنّ البقاء من صفات الخالق. الحداثة من صفات الخلق، أما القِدَمُ فمن صفات الخالق. أنت موجود والله موجود، وشتّان بين الوجودين،

فوجود الإنسان يسبقه عدم وينتهي إلى عدم، هو حادثٌ فانٍ، لكنَّ الشيء الأهم أنَّ وجود الإنسان مفتقر إلى شروطٍ لا يملكها، فمن منّا يملك استمرار وجوده؟! فقد قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر:٣٠].

وجود الإنسان متعلِّقٌ بشروط، لو منعت عنه الهواء يموت، لو منعت عنه الماء يموت، ولو منعت عنه الطعام إلى أمدٍ معلوم يموت، لو حرمته من الزوجة يختلّ توازنه، لو حرمته من الأولاد يشعر بالقلق، فوجود الإنسان قائم على غيره، على شروطٍ لا يملكها، لكنّ وجود الله سبحانه وتعالى ذاتيٌّ، لذلك قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾ [الإخلاص:١-٢].

فشتّان بين الوجودين، فالله سبحانه وتعالى عظيمٌ في وجوده، عظيمٌ في علمه، عِلْمُنا في مكان ما، لا يمكن أن يتجاوز الجدران، ماذا يجري في الشارع؟ لا نعلم، ماذا في البيت؟ لا نعلم، علمنا محدود متعلِّق بالحواس الخمس، ومتعلِّق بالحواجز، لكنَّ علم الله سبحانه وتعالى مطلق تعلَّق بكلِّ ممكن فقد قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات:١٦].

علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون. فالله سبحانه وتعالى عظيمٌ في وجوده، عظيمٌ في علمه، عظيمٌ في قدرته، هو على كلِّ شيءٍ قدير، لا يعجزه شيءٌ في السموات ولا في الأرض.

تصور إنساناً ينضوي تحت ظلِّ القدير، هل يخشى قوياً؟ إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ يا ربِّ ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟

الله عز وجل عظيمٌ في وجوده؛ وجودهُ أزليّ أبديّ ذاتيّ. عظيمٌ في علمه؛ بكلِّ شيءٍ عليم... يعلم الظاهر والباطن، ما جلا وما خفي، يعلم دبيب النّملة السّمراء على الصّخرة الصّمّاء في الليلة الظّلماء، إنه بكلِّ شيءٍ عليم.

عظيمٌ في قدرته، فمثلاً بحسب علم الأطباء يقال لك: هذا مرضٌ عضال لا شفاء منه. الإنسان أحياناً يتوجَّه إلى الله عز وجل بالدعاء؛ فتقف هذه الخلايا التي تنمو نموّاً عشوائياً، وينحسر المرض، ويُظهر الله آياته... عظيمٌ في قدرته. عظيمٌ في قهره؛ سبحان من قهر عباده بالموت! قهر الجبابرة، قهر الطّغاة، قهر الذين نازعوه الكبرياء والعظمة.

عظيمٌ في سلطانه، فالله عزَّ وجلَّ سلطانه ممتدٌّ إلى أيِّ مكان، وفي أيِّ زمان ومع أيِّ مخلوق... مدير الدائرة، سلطانه على موظَّفيه في أثناء الدوام، أمّا إذا تغيبوا في البيت فسلطانه عليهم لا يزيد على أن يحسم من رواتبهم، أمّا سلطان الله على الإنسان فمختلف؛ فكلُّ أجهزته بيد الله، وكلُّ أعضائه بيد الله، كلُّ حواسِّه بيد الله، ذاكرته بيد الله، ودسَّامات قلبه، وكليتُه بيد الله، فإذا استيقظ الإنسان صباحاً، ورأى أنه قد سُمح له أن يعيش يوماً جديداً، وأنه معافىً في جسمه، فهذه نعمةٌ لا يعرفها إلا من فقدها، الكليتان تعملان بانتظام، جهاز الهضم بانتظام، البنكرياس يفرز الأنسولين، القلب ينبض ثمانين نبضة في الدقيقة، الدسَّامات في القلب لا تسمح للدم أن يرجع، فإذا رجع الدم إلى القلب فإن أجرة العمليّة الجراحيّة لإصلاح ذلك تكلِّف مبالغ طائلة، وقد تنجح وقد لا تنجح، وقد تُجرَى في القطر أو في خارج القطر، هذا إذا رجع الدّم إلى القلب، فمَنْ ضبط الدّسّامات؟ نحن تحت ألطاف الله عزّ وجلّ.

يقولون: أصيب فجأةً بعمى ألوان... فتجده على إشارة المرور الحمراء ينطلق بسيارته بدلاً من الوقوف، فإذا أصيب الإنسان بعمى الألوان يمنع فوراً من قيادة السيارة، وما أكثر الأمراض، وما أكثر الخلل الذي يصيب بعض الأجهزة، أو بعض الأعضاء، فالله سبحانه وتعالى عظيمٌ في سلطانه.

أنت لكونك جسماً ونفساً تشعر أحياناً بانقباض، وأحياناً ينشرح صدرك، وأحياناً يضيق صدرك، أحياناً تتفاءل، وأحياناً تتشاءم، أحياناً يعرُوك الهمُّ، فإذا قصَّر العبد في العبادة ابتلاه الله بالهمِّ والحزن.

أحياناً تضعُف معنوياتك، تضعُف أمام عدوِّك، وأحياناً يقوِّيك عليه، جسمك بيده، ونفسك بيده، ومن حولَك بيده، وتجارتك بيده، وزوجتك بيده، وأولادك بيده... قال بعضهم: أعرف مقامي عند ربّي من أخلاق زوجتي، فقد تعاملك بلطف وحبّ، وقد يكون غير ذلك.

الله عظيمٌ في وجوده، عظيمٌ في علمه، عظيمٌ في قدرته، عظيمٌ في قهره، عظيمٌ في سلطانه، عظيمٌ في نفاذ حكمه... قد يتمنى الإنسان مثلاً مئات الحاجات والأشياء فلا تتحقق، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى فعالٌ لما يريد، إذا أراد شيئاً يقول: كن فيكون. كلُّ شيءٍ وقع أراده الله، وكلُّ شيءٍ أراده الله وقع، أي أنَّ هذا العظيم، أيُنسى؟ أيُنصَرَف عنه؟ أيُعرَضُ عنه؟

أرى لزاماً عليّ أن أقول هذه الكلمة: لا يليق بالإنسان أن يكون لغير الله. وما أكثر النّاس الذين يعبدون عباداً لله من دون الله، إما أن تكون عبداً لله... فعبد الله حُرّ، وإما أن تكون عبداً لعبدٍ لئيم!!

وأشدُّ الناس خسارةً من ربط مصيره بمصير إنسان، لأنَّ هذا الإنسان لا يملك له نفعاً ولا ضَرّاً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، ولا رزقاً ولا عطاءً ولا حرماناً.

أرسل عدي بن أرطأة أحد عُمّال عمرَ بنِ عبد العزيز إلى سيّدنا عمر بن عبد العزيز رسالةً قال فيها: يا أمير المؤمنين إنَّ أُناساً قِبلي قد اقتطعوا من مال الله عز وجل مالاً عظيماً، لستُ أقدر على استخراجه من أيديهم، إلا أن أمسَّهم بشيء من العذاب، فإن أذنت لي فعلته.

فقال هذا الخليفة الراشد: يا سبحان الله... أتستأذنني في تعذيب بشر؟ وهل أنا لك جُنَّةٌ من عذاب الله؟ وهل رضائي عنك يُنجيك من سخط الله؟ أقمْ عليهم البيِّنة، فإن قامت فخذهم بالبيِّنة، فإن لم تقُم فادعهم إلى الإقرار، فإن أقرّوا فخذهم بإقرارهم، فإن لم يُقرّوا فادعهم لحلف اليمين، فإن حلفوا فأطلق سراحهم، وايمُ الله لأن يلقوا الله بخيانتهم، أهون من أن ألقى الله بدمائهم [انظر المناقب: ١٠٣-١٠٤].

قيل: العظيم عظيمٌ لأنَّ العقول لا تصل إلى كنه صمديَّته. أحياناً يكون الشيءُ عظيماً، لكن يُحاط به علماً، وتُدْرَك أبعادُه، لكن إذا قلت: إنَّ الله عظيم... فإنّ العقول عاجزة عن أن تصل إلى كُنه صمديَّته، لذلك لا يعرف اللهَ إلا اللهُ، وليس هناك نبيٌّ بما فيهم سيِّد الأنبياء والمرسلين ﷺ عرف الله المعرفة المطلقة، إنّه ﷺ أعرفنا بالله؛ لكنَّ اللهَ لا يعرفه إلا اللهُ.

فالعظيم -كما قال بعض العلماء- هو الذي تعجز العقول عن أن تُدرك صمديَّته، وتعجز الأبصار عن أن ترى سُرادقات عزَّته.

الآن هناك نقطة عميقة المعنى جداً... من الممكن أن يحيط البشر إنساناً عادياً بهالةٍ عظيمة، فبعض شعوب آسيا المتخلِّفة يأتي كاهن من كهّانهم بطفل فيسمونه إلهاً، ويحاط بالتعظيم، والإجلال، والإكبار والتقديس،... فصار هذا الطفل عند كبره إلهاً لهم، ويعظّمه الناس، فهو عظيمٌ لأنَّ النّاس عظَّموه، أما هو في ذاته فليس بعظيم، أما إذا قلت: إنَّ الله عظيم؛ فليس ذلك لأنَّ العباد عظَّموه، لكن؛ لأنه عظيمٌ في ذاته، هو مستغنٍ عن تعظيم العباد له، ففي الحديث القدسي:

عَنْ أبي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فيما رَوَى عَنِ الله تَبَارَكَ وتَعالَى أَنَّهُ قالَ: «يَا عِبادِي إنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً فَلا تَظالَمُوا، يَا عِبادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يا عِبادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يا عِبادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إلا مَنْ كَسَوْتُه، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وأنا أَغْفِرُ الذُّنوبَ جَمِيعاً، فاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يا عِبادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يا عِبادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وجِنَّكُم كانوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً، يا عِبادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ كانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذلِكَ مِنْ مُلْكِي شيئاً، يا عِبادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ قامُوا في صَعِيدٍ واحِدٍ فسَأَلُونِي، فأَعْطَيْتُ كُلَّ إنْسانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَما يَنْقُصُ

المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البَحْرَ، يا عِبادِي إنَّما هِيَ أعْمالُكُمْ أُحْصِيها لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إيَّاها، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ» [صحيح مسلم].

أحياناً لسبب ما يُحاط الإنسان بالتعظيم؛ يبدو للناس عظيماً، لكنَّ الله سبحانه وتعالى ليس كذلك، فهو عظيمٌ، سواء أعظَّمه الناس أو لم يُعظِّموه، أعرفوه أم لم يعرفوه، أقدَّسوه أم لم يُقدِّسوه.

فقد تجد إنساناً يقال لك عنه: هذا عظيمٌ في المال، أي: حجمه المالي كبير، اسأل وتحقق عن ماله فتجده مئتي مليون، أصبح محدوداً، أو يبلغ ماله ثلاث مئة، أو أربع مئة، أو ثمان مئة، أو ألف مليون، أو أربعة آلاف مليون، فقد تحدد الرقم، لكن إذا قلت إنَّ الله عظيم، العلماء يقولون: «لا حدود لعظمته».

عظمته لا نهائيَّة. وليس في الإسلام كلمة تُعبِّر عن هذا الإطلاق كقولك: الله أكبر. مهما عرفت من قدرته فهو أكبر، مهما عرفت من علمه فهو أكبر، مهما عرفت من رحمته فهو أكبر، مهما عرفت من سلطانه فهو أكبر، مهما عرفت من جلاله فهو أكبر.

وقيل: العظيم... هو الذي ليس لعظمته بداية، على مستوى البشر يقولون لك: فلان كان لا يملك شيئاً... الآن أصبح عظيماً بماله، وقد كان فقيراً، معنى هذا أن العظمة البشريّة لها بداية... فلان ملك، لقد كان جندياً في بداية أمره مثلاً، فلان دكتور من أساطين العلم، كان جاهلاً من قبل ذلك، فلهذه العظمة بداية، إذا قلت: إنَّ الله عظيم... فليس لعظمته بداية، ولا لجلاله نهاية.

وقيل: العظيم الذي لا تهتدي العقول لوصف عظمته، ولا تحيط بكنهه بصيرة. أي يستحيل أن تحيط بعظمة الله، من المعاني المهمة التي يمكن أن تفسِّر قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [غافر:٥٥].

ما ذنب النبي ﷺ؟ وقد قال تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:٢].

وقد قال تعالى كذلك: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ [التوبة:١١٧].

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ ما الذنب الذي ارتكبه النبي؟! قال بعض العلماء: «هذه خاصَّةٌ برسول الله ﷺ، لأنه كلما عرف جانباً من عظمة الله، استحيا من المعرفة السابقة، وكلما ارتقت معرفته بالله، رأى أنه أذنب في حقِّ الله، حينما عرفه أقلَّ مما ينبغي».

إذا كنت مثلاً ولله المثل الأعلى.. تتصوَّر إنساناً يحمل شهادة جامعية، ثم تُفاجأ بأنه يحمل الماجستير، ظننته يحمل ماجستيراً ثم تفاجأ أنه يحمل دكتوراه، ظننته يحمل دكتوراه ثم تفاجأ بأنَّ له ثلاثين مؤلّفاً، وبعض هذه المؤلَّفات فريدة من نوعها في العالم، فكلما أدركت جانباً من علمه تكشَّف لك علمٌ لا تعرفه، إذاً أنت تشعر أنَّك مقصِّرٌ في معرفته، فربما كان ذنب النبي ﷺ، أنَّه كلّما تكشَّف له جانبٌ من عظمة الله عز وجل، شعر أنَّ معرفته السابقة هي ذنبٌ وقع فيه فلزمه الاستغفار جرّاء ذلك.

ما من مخلوقٍ من بني البشر إلا ما ندر إلا وهو يؤمن بالله، لكنَّ الإيمان الذي يُنجّي هو أن تؤمن بالله العظيم، إن آمنت أنه عظيم؛ استحييت أن تعصيه، وكبر عليك أن تعرض عنه، العبرة أن تؤمن بالله العظيم، إنك إن لم تؤمن بالله العظيم، لن تُطيع الله عز وجل، اسأل هؤلاء الناس الذين يعصون الله عز وجل ليلاً ونهاراً في كسب أموالهم، وفي علاقاتهم بالنساء، وفي عدوانهم على الآخرين، وفي انحيازهم لمصالحهم، اسأل هؤلاء الناس: ألا تؤمن بوجود الله؟ فستجده يقول لك: أعوذ بالله أنا مؤمن.

إذاً كيف تعصيه؟! لأنه ما آمن بالله العظيم... هو آمن بالله؛ لكنه ما آمن بالله العظيم، آمن بأنَّ لهذا الكون خالقاً، لكن ما آمن بالله العظيم، الإيمان بأنَّ لهذا الكون خالقاً؛ هذه ضرورةٌ فطرية، أما الإيمان الكسبيّ الذي يُبنى على جهدٍ بشريّ؛ هو أن تؤمن بالله العظيم، لأنَّ الإيمان بالله العظيم يحملك على طاعة الله العظيم، وأيُّ إيمان لا يحملك على طاعة الله لا يقدِّم ولا يؤخِّر، أرأيت إلى إبليس، أليس عنده شيء من الإيمان؟ فقد قال: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي ﴾ [الحجر:٣٩].

وقال في آية أخرى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [ص٨٢].

لكن هذه المعرفة وهذه الأقوال لم تغنه شيئاً، فقد عصى الله وكفر.

وأحياناً تجد راقصة تقول: إنّ الله قد وفّقها بأداء هذه الرقصة، إذاً فهي مثل إبليس تماماً ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ فهل هذا إيمان؟! هذا إيمان إبليسيّ، أي إنك إن آمنت أنّ لهذا الكون إلهاً فهذا إيمان، لكن لا يرقى بك إلى السعادة؛ لأنّه ما حملك على طاعة الله، كما أنّ إبليس ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾؟!

وفي الآية الأولى ﴿ قَالَ رَبِّ ﴾ ولكنه ما آمن بالله العظيم، فلو أنه آمن بالله العظيم لخشع قلبه لذكر الله.

فالإنسان أحياناً يسأل يا ترى حينما قال ربُّنا سبحانه وتعالى: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴾ [الحاقة: ٣٠-٣٣].

يا ترى لِمَ استحقَّ النار؟ لأنه ما آمن بالله العظيم؟ إن الجواب الشافي أنّه حينما لم يؤمن بالله العظيم فقد هانَ أمر الله عليه، وعصى أمر ربِّه العظيم، فاستحقَّ النار على معصية، وعلى عدوان وعلى انحراف، وعلى إغواء، فإن لم تؤمن بالله العظيم، فلن تطيع الله عز وجل، فالعذاب في النار على المعاصي والآثام، وعلى البغي والعدوان، وهذه نتيجة جهل الإنسان قدْرَ ربّه.

نصيب المؤمن من اسم الله (العظيم)

إن رأيت عظمة الله عز وجل، تلاشت عظمة نفسك. فأحياناً تجد إنساناً يملك مركبة صُنعت في عام ألف وتسعمئة وثمانية وأربعين، فيها كل علّة، فلو رأى مركبة حديثة مصنوعة في عام ألفين وعشرة، ويبلغ ثمنها خمسة وعشرين مليوناً، فهل سيرى نفسه شيئاً بمركبته الأولى؟!

إذا كان يملك بيتاً مساحته مئة متر، تحت الأرض، ولا تدخله الشمس، ودخل إلى بيت مساحته أربع مئة متر، في أرقى أحياء المدينة، وله إطلالة جميلة جداً، وفيه كل أنواع الأثاث الفخم والتزيينات، فهل بعد ذلك يفتخر ببيته؟ ويتطاول قائلاً: بيتي. لا فبيته لا شيء إزاء ما رأى!!

إذا كان يخدم في الجيش، ويحمل رتبة وكيل العرّيف، ثم جلس مع لواء؛ فهل سيقول لك: أنا أخدم في السلك العسكري؟ وأنا وكيل عريف أم سيسكت؟ سيسكت قطعاً.

إذا كان معلماً في قرية، وجلس أمام دكتور في الجامعة، وهو أعلى أستاذٍ في الجامعة، وله خمسون مؤلّفاً، فهل يقول لك هذا المعلِّم: أنا، وعلمي، وأقوم بالتدريس في القرية الفلانيّة، أم سيسكت؟ سيسكت بالطبع!!

بائع متجوِّل قعد أمام عضو غرفة تجارة، وحجمه المالي ثمان مئة مليون فهل سيقول: أنا تاجر؟ ومثله ممرض أمام جرّاحٍ للقلب، والأمثلة كثيرة فالإنسان أمام خالق الأكوان هل يقول لك: أنا؟!

فهذا حال الفناء... إن رأيت الله عظيماً تلاشت ذاتك، فتجد المؤمن متواضعاً لأنه رأى عظمة الله، فلا يقول: أنا، بل تذوب أناه، يا رب! أنت العالم، ونحن الجهلاء، ربِّ! أنت القويّ ونحن الضعفاء، ربِّ! أنت الغني ونحن الفقراء، يا رب! نحن بك.

فأوَّل أدبٍ يتأدَّبُ به المؤمن مع اسم الله العظيم... أنَّ الكبر والاستعلاء والغطرسة والاعتداد بالنفس يتلاشى، وحينما يتلاشى الكبر والاستعلاءُ والغطرسة والاعتداد بالنفس، يزيده الله عزّاً.

فهل تعتقدون أنَّ هناك في الأرض إنساناً أعزَّه الله، ورفع ذكره، وأعلى مقامه كرسول الله ﷺ؟ اذهب إلى المدينة المنورة في أي وقت، فهل من المعقول أن ترى جامعاً يتسع لثلاثة ملايين إنسان، جاؤوا من أقطار الدنيا؛ من باكستان وأمريكا والفلبين،

ومن أستراليا من الصين من الهند وغيرها، جاؤوا ليزوروا هذا الإنسان، فمَنْ هذا الإنسان وماذا أعطاهم؟ يقفون أمامه متأدبين يبكون، أنا لا أعتقد أنَّ في الأرض كلِّها إنساناً رفع الله ذكره وأعلى مقامه وأعزَّه كرسول الله ﷺ، وفي الوقت نفسه لا أعتقد أنَّ إنساناً افتقر إلى الله، وتذلل له، وتلاشى أمامه كرسول الله ﷺ.

فالقضية محيِّرة... كلما ازددت افتقاراً إلى الله، أعزَّك. كلما ازددت افتقاراً وتذللاً وتواضعاً، رفع الله لك ذكرك. النبيُّ ﷺ يُذْكَرُ كلما ذُكرَ الله في قولك: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمداً رسول الله، خمس مرات على مدار الوقت في الأرض كلها.

هل هناك إنسان أقسم الله عز وجل بعمره إلا رسول الله ﷺ: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الحجر:٧٢].

أنت حينما تفتقر لله، حينما تتواضع، وحينما تقول: يا ربِّ! أنا لا أعلم، إنك أنت العليم، أنا ضعيفٌ، في رضاك قوتي، أنا فقيرٌ أغنني، أنا جاهلٌ علِّمني، أنا ضعيفٌ... أنا أضعف خلقك، يا ربِّ أنت الكريم العظيم... يزيدك الله عزّاً.

الأدب الذي ينبغي أن تتأدَّب به مع اسم الله العظيم، أن تشعر بالفناء أمامه. لذلك إن رأيت إنساناً متغطرساً، متكبِّراً معتدّاً بذاته يقول لك: أنا فهو هباء لا يساوي شيئاً... إنَّك لم تؤمن بالله العظيم، لو آمنت بالله العظيم لتلاشت ذاتك، ولضعُفت قواك، ولذلَّت نفسك، وسبحان الله... هذه العلاقة المعكوسة... كلما ازددت تواضعاً، زادك الله عزّاً.

في الأرض كلها ما من فاتح على الإطلاق دخل مدينةً، نكَّلت به سابقاً، وناصبته العداء عشرين عاماً، إلا ويدخلها متغطرساً، متكبِّراً متعجرفاً... فتيمورلنك دخل إلى الشام؛ فأمر أن يُبنى هرمٌ من جماجم الناس، خمسون ألف رأسٍ صفت من رؤوس البشر بعضها فوق بعض، في المكان المسمى الآن برج الروس. ليس هناك غازٍ دخل بلدةً إلا واستباحها، دخل متعجرفاً متغطرساً، إلا النبي ﷺ دخل مكَّةَ فاتحاً، وإن عثنونه -لحيته- ليمس واسطة الرحل، تواضعاً لله عز وجل [السيرة النبوية لابن هشام].

مع كل إنجازاتك قل: هذا من فضل ربي، قل: الله وفَّقني، الله أكرمني، الله سمح لي أن أتكلَّم عنه، الله أطلق لساني، الله أعانني على طاعته، أعانني على تربية أولادي، أعانني على كسب رزقي، أعانني على الاستقامة، هذا واقع، مَنْ قدوتك بهذا؟ سيدنا يوسف فقد قال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف:٣٣].

قد تجد إنساناً ذا شخصيةٍ مرموقةٍ جداً، يقع في شِراك امرأةٍ لا تساوي واحداً بالألف من زوجته!! ويذل وتلوكه الألسن ويعاديه أولاده، ويصبح في الوحل، أين مكانته؟ وأين عقله؟ وأين شخصيته؟

إذاً القضية أن تتأدَّب مع الله بالافتقار إليه، إذا كان الله عظيماً، ينبغي أن تتلاشى نفسك وتفنى. وأوضح مثلٍ على ذلك الصحابة الكرام؛ ففي موقعة بدر قال تعالى عنهم: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران١٢٣].

أذلَّة في العدة والعدد، ثلاثمئة رجل فقط من الصحابة، وقريش القبيلة العريقة القوية، الأبطال الصناديد، الفرسان، والأسلحة، السيوف الخيول... ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾.

أما في حنين... فقد كان أصحاب النبي ﷺ عشرة آلاف، أقوياء عُدّة وعدداً، فقالوا: لن نغلب اليوم من قلة فقال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة:٢٥].

خطيب من نوادر الخطباء ألقى خطبةً في يوم جمعة، رائعةً جداً، ثم نزل ليصلي بالناس، فبعد أن قال: الله أكبر... نسي الفاتحة. فالله قد يُنسيك... ينسيك أهم شيء في الخطبة، أو في الصلاة، فاحذر أن تقول: أنا.

لذلك فالمؤمن الصادق إذا أقدم على عمل يقول: اللهمَّ! إني تبرَّأت إليك من حولي وقوَّتي وعلمي، والتجأت إليك بحولك وقوَّتك وعلمك يا ذا القوة المتين.

لا تؤثِرْ شيئاً على طاعة الله، لا تؤثِرْ شيئاً على مجلس علم، لا تؤثِرْ شيئاً على عمل صالح، على أداء صلاة.

يقول الفضيل بن عياض: «عالمٌ عاملٌ معلِّمٌ يُدعَى كبيراً في ملكوت السماوات. هو بنظر نفسه فقيرٌ جداً، أما في السماء فعظيم».

فأنت قد تكون موظفاً من الدرجة العاشرة... كاتباً...، مراسلاً، موظفاً بسيطاً قد تكون عَلَماً في السماء، قد تكون عند الله عظيماً، وعند الناس قد تكون شخصاً مغموراً، لذلك روي عنه ﷺ: «ابتغوا الرفعة عند الله» [ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق، عن أبي هريرة].

أجل، عند الله؛ لأنَّ مراتب الله عز وجل؛ تنفعك بعد الموت، لكنَّ مراتب الدنيا تفنى عند الموت، فقد يكتبون في النعوات مثلاً... الطبيب الفلاني، أو المهندس، أو عميد أسرتهم؛ فليكتبوا ما يشاؤون، لكنَّ العبرة أن يكون عند الله مقبولاً، أحياناً يكتب في النعوة أكثر من خمسين اسماً كما يكتب آل فلان وفلان وفلان... إلخ، يا ترى هل هو عند الله مقبول؟ إن لم يكن في طاعة الله، إن لم يكن قد عرف الله عز وجل؛ فأولئك لهم صَغارٌ عند الله، فقد قال تعالى: ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الكهف:١٠٥].

روى الإمام البخاري أنَّ النبي ﷺ كان يدعو عند الكرب بهذه الكلمات:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو عِنْدَ الكَرْبِ يَقُولُ: «لا إِلَهَ إِلا اللهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ» [صحيح البخاري].

هذا دعاء النبيِّ ﷺ عند الكرب... وهذا الدعاء فيه علم... فكل شيء بيد الله، فهو القوي الغني العليم الرحيم الغفور التواب المنَّان.

لا إله إلا الله العظيم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب العرش العظيم.

وورد في الحديث القدسيِّ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَقُولُ اللهُ سبحانَهُ: الكِبْرِياءُ رِدائِي، والعَظَمَةُ إِزَارِي، مَنْ نازَعَنِي واحِداً مِنْهُما القَيْتُهُ في جَهَنَّمَ» [سنن ابن ماجه].

أرسلوا مركبة فضائية وسمَّوْها المتحدّي -تشالنجر- وبعد سبعين ثانية أصبحت كتلةً من اللهب، وفي داخلها سبعة رواد فضاء وامرأة، هي قمة في العلم والتقنية ومراجعات قبل إطلاقها وعد تنازلي، وكلّ جهاز مزدوج، سموها المتحدّي... فمن تتحدّون؟ بعد سبعين ثانية أصبحت كتلة من اللهب.

وكلُّكم يرى كيف أنَّ قلاعاً صامدةً جبَّارةً، تهاوت كبيت العنكبوت!! وهناك غطرسة، إنسان فرد يرعب أمَّة بأسرها كما تسمعون في الأخبار، وأنّ واحداً فجّر نفسه فهزَّ الكيان كلّه، فالله عزَّ وجلَّ يقهر المتجبِّر والمتكبر.

عود على بدء، العظيم؛ قد لا تُدركه عامة العقول؛ لكنَّ بعض العقول تدركه، فقل لأحد الناس: ما الذرَّة؟ يقول لك: ذرَّة قمح، ذرة تراب. لا... الذرة؛ شيء كبير جداً، وهو موضوع في علم الفيزياء ذو تعقيد كبير جداً، كل عناصر الكون ذرّات، وهي تتكون من نويّة موجبة الشحنة، وجسيم سالب الشحنة -إلكترون- ومدارات يدور فيها هذا الإلكترون، الذرة: العقول البسيطة لا تحيط بها، أما جهابذة العلوم فتعرف عنها الشيء الكثير.

فالشيء العظيم هو الذي تعرفه بعض العقول... الذي تستحيل أن تحيط به كلُّ العقول.

الأثر الثاني... إن رأيت أنَّ الله عظيم؛ فينبغي أن تُعظِّم أمره، أن تعظِّم شعائره، أن تعظِّم كتابه، أن تعظِّم رسوله ﷺ، أن تعظِّم الذي آمن به، فالناس من يعظِّمون؟ الأقوياء والأغنياء أما المؤمن الضعيف، فيقولون لك عنه: إنه درويش، أي: مغفل، لكن المؤمن الراقي يعظِّم المؤمنين ولو كانوا فقراء، ولو كانوا ضعفاء، النبي سيد الخلق

يروى عنه: «اللهمَّ إليك أشكو ضعف قوّتي، وقلَّة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين! إلى مَن تكلني؟ إلى عدو يتجهمني، أم إلى قريب ملكته أمري؟ إن لم تكن ساخطاً عليّ فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أضاءت له السموات والأرض وأشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تنزل بي غضبك، أو تُحل عليّ سخطك ولك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة لا بك» [الطبراني في الكبير، عن عبد الله بن جعفر].

سيد الخلق ﷺ لما قدم الطائف سخروا منه وضربوه بالحجارة وكذَّبوا دعوته، وقال له أحدهم: يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك، وقال الثاني: ألم يجد الله إنساناً غيرك يبعثه رسولاً؟! وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً، وهؤلاء هم عبد يا ليل ومسعود وحبيب بنو عمرو بن عمير [السيرة النبوية لابن هشام].

إن رأيت أنَّ الله عظيم عليك أن تعظِّمه، تُعظِّم أمره، تعظِّم نهيه، تعظِّم كتابه، تعظِّم نبيَّه ﷺ، تعظِّم المؤمنين، تعظِّم الذين يُلقون العلم على الناس، لا تستخفَّ بهم، لا تنهش أعراضهم، لا تُحقِّرهم، فتجد شخصاً يتلذذ إذا حجَّم إنساناً آخر له دعوة إلى الله، يظُنُّ أنه يفعل شيئاً عظيماً ويقول لك: صغَّرته. ففي الحقيقة هو الصغير، فلو أنه عرف الله لعظَّم أولياءه، فقد قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس:٦٢-٦٣].

فلو كنت راكباً في سيارة عامة وصعد إليها رجل له زيٌّ إسلاميّ أجلسْه مكانك وقف باحترام فأنت تعظِّم الدين ولا تعظِّم شخصاً، فإذا رأيت إنساناً له مظهر ديني، أو مكانة دينية، لا ينبغي لك أن تحقره وتصغّره هذا مما يعاقبك الله عليه، هذا الذي يقع في أعراض العلماء ممن صحت عقيدتهم ومنهجهم يذُمُّهم، يطعن بهم، يصغّرهم دون أن يبالي؛ فيعاقبه الله عقاباً شديداً لتماديه وتطاولِه.

فأولاً يجب أن تعظم الله، تعظم كتابه، ورسوله ﷺ وأمره ونهيه، وتعظِّم شعائره والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحج:٣٢].

وكذلك أن تعظِّم القرآن فهو كتاب الله تعالى، وليكن في مكان عالٍ مرموق في البيت، لا أن تضعه في أماكن مبتذلة، تعظيم المصحف دليل تعظيمك لله. تعظيم الصلاة دليل تعظيمك لله. تعظيم الأمر والنهي دليل تعظيمك لله عزَّ وجلّ، هذا الموقف الثاني الذي ينبغي أن يقفه المؤمن حينما يؤمن بالله العظيم.

بعض العلماء تكلَّموا على أدب المؤمن مع الله العظيم، فذكروا أنَّ من غلب على عقله تعظيم الله عزَّ وجلَّ، خضع لهيبته، ورضي بقسمته، ولا يرضى غيره عِوضاً، ولا يُنازع له اختياراً، ويبذل في رضاه كلَّ مستطاع، لأنَّ من أدرك عظمة ربِّه، صغرت عنده الدنيا بما فيها، فإذا أهمَّه أمرٌ قال: يا عظيم.

في صحيح مسلم من حديث أنس أن رجلاً سأل النبي ﷺ غنماً بين جبلين فأعطاه إياها فأتى قومه فقال: أي قومِ أسلموا فوالله! إن محمداً ليعطي عطاء ما يخاف الفقر.

إن عظَّمت الله عز وجلَّ حقَّ التعظيم، يستوي عندك التبر والتراب، تبذل الشيء الكثير بلا وجل من أجل الله عزّ وجلّ.

وبعد فمن هم العظماء من العباد؟ أنبياء الله، وأولياؤه، والمؤمنون، هؤلاء هم العظماء... أما بيكاسو الرسام الفنان الذي بلغ ثمن لوحته مئة مليون. فليس عظيماً... لأن العظيم ينبغي أن يكون عند الله عظيماً فهناك رسّامون وأصحاب فنون، وملك الحديد في أمريكا، وملك الصلب، وملك البترول وغيرهم عظماء عند أهل الدنيا... لكن العظيم هو النبيّ، والعظيم هو الوليّ. والعظيم هو الذي آمن بالله عز وجل، هؤلاء الذين يستحقون أن تقول عن أحدهم: فلان عظيم.

وفي نهاية البحث فإني أنبه على معنيين اثنين، أن تتلاشى نفسك أمام عظمة الله، وأن تعظِّم أمر الله ونهيه وكتابه ونبيّه وأولياءه، وإذا كان لأحد من الناس دعوةٌ إلى الله عز وجل فلا ينبغي لك أن تطلق لسانك لتنال منه، وهذا من لوازم إيمانك بالله عز وجل.

هذه بعض المعاني التي تدور حول اسم الله العظيم، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بما علَّمنا وأن يُلهمنا الخير والرّشد.

الحميد

ننتقل الآن إلى اسم الله الحميد

وقد ورد في القرآن الكريم في كثير من الآيات، ورد مفرداً كما في قوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحج:٢٤].

وورد مقترناً باسم العزيز في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم:١].

وقد اقترن هذا الاسم باسم الغنيّ، كما في قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر:١٥].

واقترن هذا الاسم باسم الوليّ، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى:٢٨].

واقترن باسم المجيد، كما في قول الله عز وجل: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾﴾ [هود:٧٣].

واقترن باسم الحكيم، في قوله تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصلت:٤٢].

وورد في السنة الصحيحة عند البخاري من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه أنه قال: «سألنا رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله كيف الصلاة عليكم أهل البيت؟ قال: قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد».

من معاني اسم الله (الحميد)

«الحميد» صيغة مبالغة لاسم الفاعل، هذه الصيغة على وزن فعيل، وهذا الوزن يأتي بمعنى اسم المفعول فتقول: جريح أي مجروح، وحميد أي محمود.

وهذا الاسم مشتقٌّ من مادة الحمد، أما كلمة مادة، فهذه كلمة معجمية... أي المعجم مؤلَّف من مواد، فالحمد: حاءٌ، وميمٌ، ودالٌ، هذه مادة الحمد، فيها حَمِدَ، ويحْمَدُ، وحامد، ومحمود، الحميد، هذه كلها مشتقات... فكلمة الحميد مشتقةٌ من مادة الحمد والحمدُ نقيض الذم، تحمده أو تذمُّه، الحمد متعلق بالكمال، والذم متعلق بالنقص، أنت بفطرتك تحمد الكامل وتذمُّ الناقص، فموطن الحمد الكمال، وموطن الذّمّ النّقص، فلأنَّ الله سبحانه وتعالى كاملٌ كمالاً مطلقاً فهو يُحمد، ولأن الإنسان المنحرف ناقصٌ فهو يُذمُّ، فالحمد نقيض الذّمّ، وعلينا ألا ننسى أنّ القرآنَ الكريمَ كلَّه مجموعٌ في الفاتحة، وأن مطلع الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة:٢].

إلا أن الحمد لله ربِّ العالمين... الحمد في هذه الآية مفروغٌ منه، ولكن بعض الناس ضلّت بهم السّبل فجعلوا الحمد لغير الله تعالى، وهذا بيان ذلك:

إنّ الإنسان يشرب كأس الماء، ويأكل الطّعام، ويأوي إلى بيت، ويلتقي مع أهل بيته، هذه نعمٌ لا يختلف فيها اثنان على وجه الأرض، فالجائع يأكل فيشعر أنّ الطّعام

نعمة، والعطشان يشرب الماء البارد فيرتوي ويشعر أنّ الماء نعمة، والمشرَّد إذا أوى إلى بيته يشعر أنّ المأوى نعمة، فهذه النعم لا يختلف عليها اثنان على وجه الأرض، ولكنّ أناساً عزَوا هذه النّعم إلى البقر فعبدوها من دون الله، وأناساً عزوها إلى الشمس، لكنّ الله سبحانه وتعالى هو صاحب الحمد: وإنّ الحمدَ هو الشيء الثابت، والقاسم المشترك، والشيء الذي لا يختلف عليه اثنان... ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾.

المنعم هو الله، فالحمد نقيض الذم، وقيل: الحمد والشكر لا فرق بينهما، والأصح كما يقول علماء اللغة: إنَّ الاختلاف في المبنى، دليل الاختلاف في المعنى... فالشكر غير الحمد.

قيل: الفرق بين المعنيين، أن الحمد يكونُ عن يدٍ وعن غير يد، أما الشكرُ فلا يكون إلا عن يد... ما معنى ذلك؟ أي إذا أسدى إنسان إليك معروفاً، أنت تشكره، أما إذا أسدى إنسان إلى إنسانٍ آخر معروفاً فأنت بفطرتك العالية تقدِّرُ هذا المعروف، فأنت تحمده، مع أن معروفه لم يصل إليك.

فنحنُ نحمدُ صاحب اليد، صاحب الإحسان، نحمدُ الكامل، أصابنا كماله أو لم يصبنا، ونشكرُ الذي أكرمنا، فالشكر متعلّقٌ بنعمةٍ وصلت إليك، أما الحمد فمتعلّقٌ بالكامل وصلت إليك نِعَمُه أو لم تصل.

وقيل: الحمد أعمُّ من الشّكر... فالحمد هو الشّعور المتغلغل في أعماق النّفس بالامتنان.

حدثني رجلٌ مُحسِن، فقال: طفل صغير أصيب بحادث وهو فقير، وهذا المُحسن أجرى له سبع عشرة عمليةً جراحية إلى أن استطاع أن يقف على قدميه، فهذا الطفل الصغير عرف أن هذا الإنسان هو المحسن، عبَّر عن شكره بشكلٍ لا يوصف لهذا المُحسن وهو طفلٌ صغير، فالأجدر بك أيها الإنسان أن تعرف قدر الله الذي أحسن إليك كلّ الإحسان.

وإني أرجو أن أكون صادقاً فيما أقول: أحياناً تشعر أنّ كلّ خلية في جسمك تحمد الله عز وجل، بل إن كُلَّ قطرةٍ في دمك تحمدُ الله عز وجل، تحمده على أن أوجدك، لو لم يوجدْك هل لك عنده شيء؟ أوجدك، وأمدّك، وهداك إليه، أراد أن يسعدك في جنةٍ إلى أبدِ الآبدين، لذلك آخرُ دعواهم أن الحمد لله رب العالمين... كما قال تعالى: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [يونس:١٠].

إن لم يكن الحمدُ متغلغلاً في أعماقِ أعماقِ نفسك، وإن لم يلهج لسانك بالثناء على الله عز وجل ففي الإيمان خلل كبير، لأنك تقرأُ الفاتحة في اليوم زهاء ثلاثين مرّة، وفي كلّ مرّةٍ تقول: الحمد لله ربّ العالمين، فلا بدّ أن تستشعر هذه النعم، إذ أوجدك، وأمدّك، وهداك إليه.

هناك أُناسٌ في بعض البلاد في شرق آسيا يعبدون الجرذان، وأنت تعبد الله الذي خلق الأكوان، وزوّدك بمنهج واضح، والطريق تعرف نهايتها، تعرف ماذا بعد الموت، فالله جلَّ جلاله خلقك ليسعدك، فالحمد من ألزم لوازم المؤمن.

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى، عَنْ صُهَيْبٍ، قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ قَاعِدٌ مَعَ أَصْحَابِهِ إِذْ ضَحِكَ فَقَالَ: «أَلا تَسْأَلُونِي مِمَّ أَضْحَكُ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ الله وَمِمَّ تَضْحَكُ؟ قَالَ: «عَجِبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، إِنْ أَصَابَهُ مَا يُحِبُّ، حَمِدَ اللهَ وَكَانَ لَهُ خَيْرٌ، وَإِنْ أَصَابَهُ مَا يَكْرَهُ فَصَبَرَ، كَانَ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ أَمْرُهُ كُلُّهُ لَهُ خَيْرٌ إِلا الْمُؤْمِنُ» [أخرجه أحمد في مسنده].

الإنسان أحياناً يشربُ كأسَ ماءٍ بارد... كان ﷺ تعظمُ عنده النعمة مهما دقَّت.. ولا بد من قول: الحمد لله، طريق سالكة، والكليتان تعملان بانتظام، والماء موجود، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

أقام إنسان بإحدى دول الخليج لفترة طويلة، وهي قصة قديمة، أراد أن يعود إلى بلده، لم يكن الطريق معبّداً كما هو الآن، فضلَّ الطريقَ في الصحراء، ووجدوه على بُعد

خمسة كيلومترات، وقد مزّق بأظافره جلد وجهه من شدة العطش، ووجدوا زوجته وأولاده في المركبة ميتين.

قطرة من الماء تعدل الحياة، فأنت تشرب الماء الزلال، فإذا شرب الإنسان كأساً من الماء وقال: الحمد لله ربّ العالمين، فهذا من الإيمان... مرةً جاءه رسول من أذربيجان إلى المدينة فأراد الرسول أن يتنعَم بتناول طعام الغداء عند سيدنا عمر -وقد كان خيَّره- أتأكل مع فقراء المسلمين أم تأكلُ في بيتي؟ قال له: في بيتك. فليست هناك نسبة في نظر الضيف بين طعام عمر وطعام فقراء المسلمين! فإذا في بيته الملح والخبز فقط، ففقراء المسلمين يأكلون اللحم الطيِّب، قال: يا أمَّ كلثوم ماذا عندكِ من طعام؟ قالت: والله ما عندنا إلا خبز وملح، قال: فأكل عمر وضيفه هذا الطعام وقال: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا.

عن أبي عبدالرحمن البجلي قال سمعت عبدالله بن عمرو بن العاص وسأله رجل فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم! قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال نعم! قال: فأنت من الأغنياء. قال: فإنَّ لي خادماً، قال: فأنت من الملوك [رواه مسلم موقوفاً].

لست مضطراً إلى أن تغسل كليتيك، ولست مضطراً إلى أن تغيِّر دساماتِ قلبك، وتدفع أجرة العملية مبلغاً طائلاً، فالسعادة عندما يكون الإنسان في صحة جيدة، وعنده قوت يومه.

لذلك ذات مرة سأل ملك وزيره وكان ملكاً جباراً قال له: مَن الملك؟ فقال الوزير: أنت. فقال له الملك: لا... الملك هو رجل لا يعرفنا ولا نعرفه له بيتٌ يؤويه، وزوجة ترضيه، ودخلٌ يكفيه. هذا هو الملك.

النبي ﷺ قال: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، آمِناً فِي سِرْبِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيا» [ابن ماجه، عن عُبيد الله بن محصن الأنصاري].

استيقظتَ فوجدتَ أنَّ أجهزة جسمك سليمة، قمت من فراشك، توضأت، وصليت إذاً أنت ملك، الله عز وجل سمح لك أن تعيش يوماً جديداً، عافاك في بدنك، أذن لك أن تذكره وتشكره.

فالحمد أعمُّ من الشكر... فالحمد يعني أن كيانك، ذرات جسمك، خلاياك، قطرات دمائك كلُّها تشكر الله سبحانه وتعالى:

وجدناك مضطرّاً فقلنا لك: ادعُنا ... نُجبك.. فهل أنت حقّاً دعوتنا؟
دعوناك للخيرات أعرضت نائياً ... فهل تلقى من يحسن لمثلك مثلنا؟
فيا خجلتي منه إذا ما قال لي: ... أيا عبدَ سوءٍ أما قرأت كتابنا؟
أما تستحي منّا ويكفيك ما جرى؟ ... أما تخشى من عُتبنا يوم جمعنا
أما آن أن تقلع عن الذنب راجعاً ... إلينا وتنظر ما به جاء وعدنا

الحمد لله يجب أن يدخل في كيانك كلِّه، يجب أن يتغلغل في ذرات جسمك، في خلاياك، في قطرات دمك، لأن وجودك نعمة، وإمدادك نعمة، وهدايتك نعمة، وأنت نعمةٌ من نِعَم الله عزَّ وجل، وقد قال الله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠].

حتى عندما يصلي الإنسان أية صلاة من الصلوات المفروضة فليحمد الله أن وفّقه لطاعته، فهذه نعمة.

أجل، الهداية نعمة، يقول الله عز وجل: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾ [النساء: ١٤٧].

أي حينما تؤمن وتشكر فأنت تحقق الهدف من وجودك، لأن هذا الكون مسخرٌ لكَ تسخيرين: تسخيرَ تعريف، وتسخيرَ تكريم، إنك إن آمنت حققت المعرفة، وإنك إن شكرت فهذا ردّ فعلك على التّكريم.

الحمد أن ترضى عن الله عز وجل، وقد قال الله تعالى: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ ﴾ [المائدة:١١٩].

قيل: الحزن خلاّق، المصيبة تفتّق العبقريّات، أمّا الرّخاء والنّعيم والطّعام والشّراب فإنه قد يؤدي إلى الخمول والقعود والجمود، فالإنسان يجب ألا يتألّم من المصيبة، لعلّ المصيبة هي الباعث الحثيث إلى الله عزّ وجلّ.

فإنّك لا تكون مؤمناً إلا إذا رأيت أفعال الله كلّها تستحقُّ أن يُحمد عليها، أحياناً يكون الموسم ممطراً، والفواكه رخيصة، والجو لطيفاً، أحياناً غلاء، أو حرّ شديد، أو زلزال، أو فيضان، أو براكين، أو يذيق الله بعض الناس بأس بعض، أفعاله كلُّها يحمد عليها.

كـن عـن همومـك معرضـاً | وَكِـل الأمـور إلى القضـا
وابـشر بخـيرٍ عاجـل | تنسـى بـه مـا قـد مـضى
فلَـرُبَّ أمـرٍ مسـخطٍ | لـك في عواقبـه رضـا
ولـربّما اتسـع المضيـ | ـق وربَّـما ضـاق الفضـا
الله يفعـل مـا يشـا | ء فـلا تكـن معترضـا
الله عـوَّدك الجميـ | ـل فقس عـلى مـا قـد مـضى

وبعد: فالحمد... هو الرضا، والحمد هو الجزاء، والحمد هو قضاء الحق، أن ترضى وأن تُجازَى وتكافأ وأن تقضيَ الحقَّ، هذا من معاني الحمد.

والمحْمَدَة... الخصلة التي يُحْمَد عليها الإنسان، وجمع محمدة محامد، والتحميد: هو حمد الله عز وجل بالمحامد الحسنة وهو أبلغ من الحمد، ومنه الاسم الشريف، محمَّد ﷺ، فهو النّبيّ المحمود الذي كثرت خصاله المحمودة.

فاسمه ﷺ مشتقٌّ من الحمد ووزنه مفعَّل، ومفعَّل صفة تلزم من كَثُر منه فعل ذلك الشيء فمحمَّد مفعَّل لأنه حُمِد مرّة بعد مرّة، كما تقول: كرَّمته فهو مُكرَّم، وعظَّمتُه فهو مُعظَّم، إذا فعلتَ ذلك به مراراً.

والتحميدُ... هو حمدُ الله أو كثرة الحمد، وفلان حَمْدَلَ، أي قال: الحمد لله، سَبْحَلَ، أي: قال: سبحان الله، حَوقَلَ، أي: قال: لا حول ولا قوةَ إلا بالله، دَمْعَزَ، أي: قال: أدام الله عزَّك، حَيْعَلَ، أي: قال: حيَّ على الفلاح، هلَّلَ، أي: قال: لا إله إلا الله، كَبَّرَ، أي: قال: الله أكبر، هذه صيغة النحت في اللغة العربية، الحَمْدَلَةُ هي أن تقول: الحمد لله رب العالمين.

وليعلم كلُّ مؤمن أنه لا بد من الابتلاء، فإن ساق الله لهذا الإنسان مصيبةً، وتلقَّاها بصبرٍ جميل، وقال: الحمد لله رب العالمين، نجح مئة على مئة، والصّبر يكون عند الصّدمة الأولى، لذلك المؤمن -لا سمح الله ولا قدَّر- لو ساق الله له مصيبة، لمجرد أن الله ساقها له يقول: الحمد لله رب العالمين.

الإمام الرازي يرى أن معنى الحميد وهو اسمٌ من أسماء الله الحسنى، هو بمعنى حامد، أي: لم يزل سبحانه بثنائه على نفسه، أي: يحمد نفسه، لماذا يحمد نفسه؟ طبعاً الإنسان لا يحقُّ له أن يحمد نفسه، لأنه ليس له هذه المرتبة، والمؤمن لا يتحدَّث عن نفسهِ أبداً، سيدنا الصديق مرةً أثنى عليه بعض الأشخاص، فدعا دعاء رائعاً، قال: اللهم أنت أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهمَّ اجعلني خيراً مما يقولون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون.

والإنسان المؤمن الصادق لا يمدحُ نفسه أبداً، ولا يحبّ المدح، بل النّاس يمدحونه، أما أنت فلتتهم نفسك دائماً، كلما بالغت في اتّهامها كنتَ موفقاً أكثر، لكنّ الله يمدح نفسه ليعرِّفنا بذاته، ولكي نصل إليه، ولكي نُقبل عليه، ولكي نطمع في مغفرته، ولكي نطمع في عطائه، ويمدح نفسه كي نطمع في جنَّته، فالإنسان الضعيف الحادث الفاني الفقير الجاهل لا ينبغي أن يمدح نفسهُ، ولكن الله حميد بمعنى حامد، يحمدُ نفسه لخلقهِ، لكي يعرفوه يحمد نفسه لخلقه ليقبلوا عليه فيسعدوا بإقبالهم، ويحمد نفسه لخلقه ليتجهوا إليه، ويحمد نفسه لخلقه لينالوا من عطائه... قال الله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [النحل:٦٠].

الإنسان أحياناً يلبس ثيابا لا تدلُّ على غناه، يرى شخصاً يتلوّى جوعاً يقول له: أنا معي اطلب ما تشاء، معي مبلغ كبير اطلب، وسأعطيك، فهل هو يفتخر بهذا القول؟! لا... بل يعرِّف هذا الفقير بأنه قادر على عطائه، فالله عز وجل... حميد، أي: حامد، يحمد نفسه لخلقه كي يعرفوه، وحميد بمعنى محمود، أي: محمودٌ بحمد نفسه وبحمد عباده له، فالله عز وجل محمود، يحمده الخلق كلُّهم.

وقال بعض العلماء: «الحميد هو المحمود، والله تعالى هو الحميد بحمده بنفسه أزلاً وبحمد عباده له أبداً، من قبل أن يخلق الخلق حمد ذاته، فلما خلق الخلق حمده خلقه».

العلماء: «اسم الحميد يرجع إلى صفات الجلالِ والعلوِّ والكمالِ منسوباً إلى الله عز وجل»، الله عز وجل له أسماء جلال، وأسماء كمال، أسماء جمال، وأسماء قهر، فالله عز وجل جبار، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام:١٨].

ومن أسمائه الجميل واللطيف والرحيم، وهناك أسماء جمال، وأسماء جلال، وأسماء قهر، مثل المتعالي والعزيز والمتكبر، فهذا الاسم اسم الحميد منسوب إلى أسماء صفات الجلال والعلوّ والكمال.

قالوا الحميد له معنى آخر: «الحميد هو مستوجِب الحمد ومستحِقُّه».

إذا دعيت إلى وليمة غداء، والطعام نفيس جداً، وعلى المائدة عشرون شخصاً، بعد أن تنتهي من الطعام من تشكر؟ هل تشكر الشخص الذي يجلس بجوارك؟ لا، فهذا مدعو مثلك، أم تبحث عن صاحب الوليمة الذي دعاك وتكلَّف وجاء بهذا الطعام النفيس ودعاك إليه؟ فمن حق الإنسان أن يشكر إنساناً مدعوّاً مثله، من هو المستوجِب الحمدَ في هذه الوليمة؟ إنّه صاحب الدعوة، لذلك الإنسان يسأل من الداعي؟ وعندما ينتهي يقول له: أكل طعامكم الأبرار، فهذا فيما بين الناس بعضهم بعضاً... فمن الذي يستوجب الحمد وحده؟ الله جلَّ جلاله لأنّ كلّ النِّعم من عنده.

قال العلماء: «هو مستوجِب الحمد ومستحِقُّه، وهو أهل الثناء بما أثنى على نفسه الذي يُحمد على كلّ حال».

هناك عبارة شهيرة: الحمد لله الذي لا يُحمد على مكروهٍ سواه.

يُحمد على كل حال، يُحمد على العطاء وعلى المنع، وعلى الرّفعة، وعلى الخفض، وعلى الإعزاز، وعلى الإذلال، يُحمد على كلّ شيء، وأُذكّر أن الله يُذِلّ ليُعزّ، ويُضِرُّ لينفع.

وقيل: «الحميد الذي وفقك لفعل الخيرات ويَحمدُك عليها»... هذا معنى مهم جداً... يُعينك على فعل الخير ويَحمدُك عليه.

وقد قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: إذا أراد ربك إظهار فضله عليك، خلق الفضل ونسبه إليك.

أعطاك مالاً وأَعْطَيتَ من هذا المال، وبعد هذا يحمدُك الله على إنفاقك، والمالُ منه.

ألا ترون في بعض الأحيان، حينما يأخذ الطّفل من والده ثمن الهديّة لأمه، ثم يعطيها لأمه، فنحن نشكر هذا الطفل على هذه البادرة الطيبة، ولكنّ المال من الأب، والأب أثنى عليه، أعطاه ثمن الهديّة وجعله يعطيها لأُمه، فإذا الأبُ يثني على ابنه.

لذلك إذا أراد ربك إظهار فضله عليك، خلق الفضلَ ونسبه إليك، أنت لك الطّلب فقط، يا ربّ! أضرع إليك أن توفقَني أن أدعوَ إليك، فالله تعالى يلهمك ويطلق لسانك، ويجمع الناس حولك، يجعل بعض الأفئدة تهوي إليك، فهذا فضل من الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران:١٥٩].

قال العلماء: «الحميد هو الذي يوفقُك للخيرات ويحمدُك عليها، ويمحو عنك السيئات ولا يُخْجِلك بذكرها»، أي ينسيك إياها... فهل أحد مبرأ من موقف ارتكب فيه

خطأً في زمانه؟ لو لم ينسه لاحترق كلّما ذكره، ولكنه بعد أيام ينساه، فالله عز وجل يُنسيك ويمحو عنك السيئة، ويغفرها لك، ثم ينسيك إياها، من أجل أن تُقبل عليه، هذا هو الحميد، وقيل: «الحميد... هو الحامد بنفسه، المحمود بحمده لنفسه، وبحمد عباده له».

قال ابن القيم: «فإنّه المحمود على ما خلقه وأمر به ونهى عنه، فهو المحمود على طاعات العباد ومعاصيهم وإيمانهم وكفرهم، وهو المحمود على خلق الأبرار والفجار والملائكة والشياطين وعلى خلق الرّسل وأعدائهم، وهو المحمود على عدله فى أعدائه كما هو المحمود على فضله وإنعامه على أوليائه، فكلّ ذرّة من ذرّات الكون شاهدةٌ بحمده» [طريق الهجرتين وباب السعادتين ١/ ١١٣].

يُحمَد على معاصي العباد، فهناك شهوة مستحكِمة، أصبحت حجاباً بين العبد وربّه، فالله عز وجل يسمح له أن يطلقها كي يرتاح ثم يؤدّبه.

إذاً محمود على طاعات العباد، وعلى معاصيهم، وعلى إيمانهم، وعلى كفرهم، أعطاهم حرية الاختيار، المحمود على وجود الأبرار والفجار، كان من الممكن أن يكون الفجّار في كوكب آخر، أو في قارّة أخرى، أو في حقبة أخرى، لكن شاءت حكمة الله أن نجتمع معاً في كلّ العصور، لماذا؟ لأنّ الحقّ لا يقوى إلا بالتحدّي، ولأن أهل الحقّ لا يستحقّون العطاء في الآخرة إلا بصمودهم أمام أهل الباطل، فالمعركة بين الحق والباطل مستمرة، هذا قدرنا، يوم القيامة نحمد الله على أننا كنا في الأرض مع أهل الباطل، وقد تعبنا منهم، وأتعبونا، وضغطوا علينا، واحتلوا، واجتاحوا، وأساؤوا، وظلموا، وقهروا وكانوا سبب عودتنا إلى الله.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص:٤-٦].

إذاً وهو المحمود على وجود الأبرار والفجار، والملائكة الأخيار، والمحمود على إرسال الرسل، ووجود أعدائهم.

إضاءات على بعض الآيات التي ورد فيها اسم الحميد

هذا الاسم العظيم ورد في آياتٍ كثيرة... ورد في سورة البقرة... قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [البقرة:٢٦٧].

قد يعطي إنسانٌ شيئاً ما يكرهه أو تعافه نفسه لفقير، فثوابه معدوم، طعام لم يعد محبباً له، يرسله إلى فقير، أما إذا أعطيت طعاماً نفيساً أو أكلة محببة عندك لإنسان فقير، الله تعالى يقبل عطاءك ويُثيبك عليه، قال تعالى: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾ لا ينسى لك هذا المعروف.

«يا ابن آدم! مرضت فلم تعدْني؟ قال: يا رب! كيف أعودك وأنت ربُّ العالمين؟! قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عُدْتَهُ لوجدتني عنده» [حديث قدسي رواه مسلم من حديث أبي هريرة].

أنت عندما تعطي شيئاً نفيساً لإنسان مؤمن، فقير، جائع، الله عز وجل ﴿ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾... يغنيك، ويحمدك على هذا العمل، لذلك قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾.

وفي سورة هود: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾ ﴾ [هود:٧٣].

إنّ أيّ إنسان دعا إلى الله، وبذل وقته، وماله، وصحّته، وطاقاته، لنشر الحقّ، فهل يضيّعه الله عز وجل وينساه من فضله!،هل يُسلمه لأعدائه؟ يخزيه؟! لا، أبداً قالت خديجة لرسول الله ﷺ: فوالله لا يُخزيك الله أبداً [البخاري ومسلم، من حديث عائشة].

موقف السيدة خديجة أقوى دليل على الفطرة، إن هذه المرأة التي كانت زوجة النّبيّ ﷺ، حينما رأت من النّبيّ ﷺ الصّدق والأمانة، والعفاف، والطّهر، وخدمة

الخلق، كان ﷺ يُقرِي الضيف، يُعين الضعيف، يتصدَّق، يعين على نوائب الدهر، قالت له السيدة خديجة: فوالله لا يخزيك الله أبداً.

هذه الكلمة أرجو أن يُصغي إليها كلّ مؤمن... والله زوال الكون أهون على الله من أن يخزي مؤمناً، أنت آمنت به، واستقمت على أمره، وعاهدته، واصطلحت معه، وتسعى جهدك لطلب رضاه، تتحرى الحلال، تبحث عما يرضيه فهل يخزيك؟... لا والله... فوالله لا يخزيك الله أبداً.

تفاءلوا أيها المؤمنون، النبي ﷺ كان يحب التفاؤل، لا يحبُّ التشاؤم، الله جل جلاله لا يتخلَّى عن المؤمنين، لكن يؤدِّبُهم، يبتليهم، أما في النهاية فيكرمهم، ويعطيهم، الآية الكريمة التي يقشعر منها الجلد... قال الله تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥ ﴾ [الضحى:٥].

معنى ذلك أنك الآن في طور المعالجة، انتظر ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥ ﴾.

قال الله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ۝٧٣ ﴾ [هود:٧٣].

الله حميد، ويحمدكم على عملكم، وهو حامد، أي: يحمد ذاته ويحمد خلقه، إذا أعطوا، وبذلوا، ونصحوا، ضحوا، والتزموا، وصبروا فإن الله يحمدهم، يحمدُ نفسه ليعرفوه، ويحمدهم ليذكروه، وهو محمودٌ في أفعالِه كلِّها.

في سورة إبراهيم قال تعالى: ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ﴾ [إبراهيم:١].

هذا الصراط صراط الله عز وجل، الصراط المستقيم هذا يوصلك إلى العزيز الحميد، العزيز هو الذي لا ينال جانبه، العزيز القوي، العزيز الفرد الواحد الصمد، العزيز الذي لا إله غيره، يحتاج إليه كل شيء في كل شيء ويستحيل الإحاطة به،

عزيزٌ حميد... دقيق المعنى... هو عليٌّ عظيم وفي الوقت نفسه يكافئ على كلِّ معروف.

قد يكون شخصٌ عالي المقام ولعلوّ مقامه، ليس لديه وقت ليَعرف، ماذا قُدِّمَ له؟... أما ربُّنا عز وجل على علوِّ مقامه، وعلى عظمة ذاته، إنّ عباده إذا فعلوا معروفاً حمدهم عليه، إنه عزيزٌ حميد.

وفي سورة الحج: ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحج:٢٤].

أصعب شيء أن تسدي إلى إنسان معروفاً، ثم تفاجأ أنَّ هذا الإنسان تنكَّر لك، وجحد فضلك، وأدار لك ظهر المِجَنّ قال مالك بن فهم الأزدي:

أُعلِّمه الرماية كلّ يوم فلما اشتدَّ ساعده رماني
وكم عَلَّمْتُه نظم القوافي فلما قال قافيةً هجاني
أعلمه الفتوّة كلّ وقتٍ فلما طرَّ شاربُه جفاني

فإذا تعامل الإنسان مع الله، لا تجد عنده مشكلة، لو تعامل مع قويّ، أو مع إنسان آخر، أحياناً يقول لك: أنا أخلصت له، وبذلت من أجله الغالي والرخيص، ومع ذلك كان لئيماً، وكان جحوداً، تنكَّر لي، أدار لي ظهره، لم يعبأ بي، وتخلَّى عني، فهذا شيء لا يُحتمل أن تُسدي إلى إنسان معروفاً، ثم يتنكَّرُ لك... ولقد قال الله تعالى: ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾.

أما إذا أقبلت على الله، فلن يضيِّعك... السيدة هاجر نادتْ زوجها سيدنا إبراهيم لما تركها وولده إسماعيل في وادٍ غير ذي زرع قالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذاً لا يُضَيِّعُنا [صحيح البخاري عن ابن عباس]، هذا هو شعور المسلم أنَّ الله لن يضيّع عبدَه، قال الله تعالى: ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾ [الحج:٦٤].

هذا معنى جديد، هو غنيٌّ عنّا، ومع أنه غنيٌّ عنا يعاملنا معاملةً نحمده عليها.

تجد إنساناً أحياناً يغتني، فيترفَّع، ويتأفَّف، ويستغني، وينسى أقرباءه الفقراء، وينسى جيرانه، فهو إذاً غنيٌّ غير حميد، أما ربنا عزَّ وجلَّ فهو غنيٌّ عنا، وعن عبادتنا، وعن طاعتنا، وعن ذكرنا، وعن ابتهالنا، ومع ذلك لا يعاملنا إلا بما نحمده عليه، الله هو «الغني الحميد. عزيز حميد، حميد مجيد».

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [لقمان:١٢].

هذه «غني حميد» عميقة الدلالة جداً... هو غنيٌّ عنّا ومع ذلك كاملٌ في معاملته، لا يعاملنا إلا معاملة نحمَدُه عليها.

في سورة سبأ قال تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾ [سبأ:٦].

إنّ علينا نحن المسلمين أن ندقق النظر عند كلمة «عزيز حميد، غنيٌّ حميد، حميدٌ مجيد»، وندرك أبعادها وأثرها علينا، وفي سورة فاطر قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ [فاطر:١٥].

آيات قرآنية فيها قوله تعالى ﴿الحمد لله﴾

حمد الله سبحانه وتعالى نفسه في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، من هذه المواضع: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ﴾ [الأنعام:١].

الآية الثانية: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ ﴾ [الأعراف:٤٣].

وفي الحديث: «يا عبادي، كُلُّكم ضالّ إلا مَنْ هَدَيتُه، فاسْتَهدُوني أهْدِكم» [أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري].

﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:٧٣].

فما لم تتوجه إلى الله لمعرفة الحقيقة فلن تصل إليها، لأنّ هذه العين مهما تكن دقيقة لا قيمة لها من دون ضوء يتوسّط بينك وبين المرئي، وكذلك العقل كالعين تماماً لا قيمة له إطلاقاً دون وحي يعينك على فهم الحقيقة:

ومن هذه المواضع: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الكهف:١].

جعل لك منهجاً، افعل ولا تفعل، هناك أحكام، لماذا يعيش المؤمن في سلام؟ لأنه يطبق الأحكام، في حياته حلال وحرام.

وفي آية أخرى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ١١١﴾ [الإسراء:١١١].

علامَ حمد نفسه؟ حمد نفسه على عدم اتخاذ الولد، لأن اتخاذ الولد لا يؤكد صمدية الله عز وجل، الله صمد لا يحتاج إلى أحد، واتّخاذ الولد لا يؤكد صمديّة الله عز وجل، ولا يؤكد غناه عن خلقه، ولا يؤكد ملكه، ولا عبوديتنا له.

واتّخاذ الولد ينافي الألوهية، وينافي الربوبية، وينافي الصمدية.

وفي آية أخرى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾ [إبراهيم:٣٩].

أنت مجبول على حبّ وجودك، وعلى حبّ سلامة وجودك، وعلى حبّ كمال وجودك، وعلى حبّ استمرار وجودك، واستمرار وجودك يكون بولد صالح.

وفي آية أخرى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٨﴾ [المؤمنون:٢٨].

فالله فوق الأقوياء، فوق الظالمين، فوق الطغاة، والطغاة عصي بيده، وفي أي لحظة ينهيهم، ينتقم منهم، يكفّ شرّهم.

﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ﴾ [الزمر:٨٧].

﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ٣٤﴾ [فاطر:٣٤].

نصيب المؤمن من اسم الله (الحميد)

وبعد، مَن الحميد من العباد؟ قال العلماء: من استقامت عقيدته، واستقامت أخلاقه، وأعماله، وأقواله، وأفعاله.

من هو الذي يُحمد على عقيدته وعلى أخلاقه وعلى أعماله وعلى أقواله؟ هو النبيُّ ﷺ، رسول الله ﷺ هو من العباد الحميد، سمّاه الله محموداً، محمودٌ عند ربه، ومحمودٌ عند الخلق، ومحمودٌ عند نفسه، بعد النبي ﷺ يأتي الرُّسل والأنبياء والصدّيقون والأولياء والعلماء، كل واحدٍ منهم حميدٌ بقدر سلامة عقيدته، واستقامة أخلاقه، وصلاح أعماله، وسداد أقواله.

فأنت تُحمد على قدرِ سلامة عقيدتك، واستقامة أخلاقك، وصلاح أعمالك، وسداد أقوالك، فكلما ارتقيت في سلَّم الكمال تحمد على هذا الكمال، أي أنّ هناك علاقة طردية بين الكمال والحمد، من هو الحميد المطلق؟ هو الله عز وجل.

الإنسان كامل في ألف موقف، فتزِلُّ قدمه في موقف ويبقى عند الناس كاملاً، أما ربنا عز وجل فكماله مطلق... إذاً هو الحميد المطلق.

بعضهم يقول: «الحميد من العباد هو من حسنت عقيدته، وأخلاقه، وأعماله، وأقواله، من غير نقص ولا خلل».

قال العلماء: «لم تظهر خصائص اسم الحميد في العباد جليةً، واضحةً في فردٍ في الوجود، إلا النبي ﷺ».

وأجمـل منـك لم تـر قـطُّ عينـي　　　وأكمـل منـك لم تلـد النسـاءُ

قال العلماء: الناس على أطباقٍ ثلاثة في علاقتهم بحمد الله عز وجل، العامة: يحمدونه على إيصال اللّذات الجسمانية. أكل، وشرب، وبيت، وزوجة، ويقول لك: الله مفضّل علينا، العوام يحمدون الله على اللذائذ الحسية... والخواص يحمدونه على اللّذات الروحانية. قرأتَ القرآن، وشعرتَ بتجليات وسكينة، أو صليت صلاة متقنة، شعرت أنك اقتربت من الله، تفتَّقت معانٍ لطيفة حينما قرأت القرآن... هؤلاء الخواص: يحمدونه على اللذات الروحانية إضافة إلى اللذائذ الحسية.

قال العلماء أيضاً: أما خواص الخواص المقربون يحمدونه لأنه أهلٌ للحمد. إما أن تحمده على نعمةٍ حسية، أو على نعمةٍ روحية، أو لأنه أهلٌ للحمد.

قالوا: أدب المؤمن مع الحميد سبحانه... هو أنَّه يمدح الله عزَّ وجلَّ دائماً، ويثني عليه، ويحمده على كل شيء.

ولنمعن النّظر بعد كلّ هذا الشرح فقد قال العلماء: «من حمد الله ولم يتحقَّق من هذه النِّعم حَمِدَهُ تقليداً، فهذا الحمد غير مقبولٍ منه»، ما الدليل؟ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوٓءِ وَالْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة:١٦٩].

هل تحققت من نِعَم الله؟ لذلك الحمد لا يقبل إلا إذا كان عن تحقُّق... فهل تحققت من نعمة الوجود؟ نعمة الإمداد؟ نعمة الهدى والرشاد؟ وإلا حمدك هو الحمد التقليدي.

أنا أحياناً أسأل إنساناً ملحداً أقول له: كيف صحتك؟ يقول: الحمد لله. وهو ملحد ينكر وجود الله، يقول لك: الحمد لله. هذا الكلام لا معنى له إطلاقاً، لا بد من أن تقول الحمد لله، وأنت متحقِّقٌ من نِعَم الله عَزَّ وجل... أوجدك وأمدَّك وهداك إليه.

لذلك كان النبيُّ الكريم ﷺ تعظم عنده النِّعمة مهما دقَّت.

الفرق بين الكافر والمؤمن كبير، فالكافر يشهد النّعمة وينتفع بها، والمؤمن يشهد المُنعم من خلال النِّعمة.

الفرق بين المؤمن والكافر، أنّ الكافر مع النعمة، أما المؤمن فمع المنعم، الكافر يستمتع بالدنيا، بيت فخم وأثاث جميل، وطعام طيب، كل شيء من أعلى مستوى، يستمتع بها أشدَّ الاستمتاع، هو مع النِّعمة، لا مع المُنعم، المؤمن مع المُنعم هذا هو الفرق، وهو فرق صارخ.

قال العلماء: ورد أنَّ داود عليه السلام قال لربه: يا إلهي كيف أشكرك؟ وشكري لك نعمةٌ منك عليّ. أي: إذا شكرتك هذه نعمة جديدة تضيفها إليّ، فقال الله عز وجل لهذا النبي الكريم: الآن شكرتني.

قال موسى: يا رب! كيف يستطيع آدم عليه السلام أن يؤدي شكر ما صنعته إليه؟ خلقته بيدك، ونفخت فيه من روحك، وأسكنته جنّتك، وأمرت الملائكة، فسجدوا له؟ قال: يا موسى علم أن ذلك مني، فحمدني عليه، فكان ذلك شكراً لما صنعته إليه [البيهقي في الشعب عن الحسن].

إذا علمت أنّ هذه النعم من الله وشكرتهُ عليها، اكتسبت نعمة جديدة فقد شكرت الله عز وجل... روي في الأثر القدسي «ابن آدم! إنك إذا ذكرتني شكرتني، وإذا نسيتني كفرتني» [الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة].

آخر كلمة أقولها وأختم بها البحث: الشكر الحقيقي له ثلاثة مستويات، أول مستوى: أن تعرف أنَّ هذه النعمة من الله، هذا مستوى جيد، الأرقى منه أن تقابل هذه النعمة بامتنانٍ وحمدٍ بلسانك وقلبك، أما الثالثة أرقى وأرقى وهي أن تقابل هذه النعمة بعملٍ صالحٍ... والدليل: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ:١٣].

أرجو الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بما علمنا، وأن يلهمنا الخير.

الوهاب

الاسم هو الوهّاب، فهبِ اللهمّ لنا من لدنك رحمةً تسعنا في الدّنيا والآخرة إنّك أنت الوهّاب.

هذا الاسم ورد في القرآن الكريم مطلقاً، معرّفاً في ثلاثة مواضع، منها قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾﴾ [ص:٩].

وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران:٨].

ولم يرد هذا الاسم في صحيح السُّنَّة.

من معاني اسم الله (الوهاب)

الوهّاب في اللّغة صيغة مبالغة على وزن فعَّال من الواهب، وهو المعطي للهبة، والفعل وَهَبَ، يَهَبُ، وهباً، وهبةً، والهبة عطاء بلا عوض.

بادئ ذي بدء، الإنسان عقلٌ يُدرِك وقلبٌ يُحِبُّ، بعقله يعرف الله، وبقلبه يحبُّه، وهذا الاسم كما يرى العلماء متعلّق بالحبّ، وقبل أن أشرح معنى الوهّاب لغةً واصطلاحاً أضرب مثلاً مُنتزعاً من الحياة اليومية:

قد نتعرف إلى شاب فقير جداً يعاني من شظف العيش ومن خشونة الحياة، فلو أن إنساناً اختاره زوجاً لابنته، وابنته هذه مهذّبة متعلّمة مؤمنة طيّعة، ومنحه منزلاً ومتجراً ومركبة، ألا يمتلئ قلب هذا الشاب حبّاً وحمداً وشكراً لهذا الرّجل الذي أنعم عليه بكلِّ هذه النِّعم؟ هذا شأن الإنسان مع من أحسن إليه من العباد، فكيف إذا أحسن إليه ربُّ العباد؟!

«يا داود ذكّر عبادي بإحساني إليهم فإنّ النُّفوس جُبلَت على حبِّ من أحسن إليها وبغض من أساء إليها».

القصد من معرفة اسم الوهّاب أن تحبَّ الله عزَّ وجلَّ، لأنه لا إيمان لمن لا محبّة له، ليس الإسلام حقائقَ ندركها فحسب، بل هو حقائق ومشاعر، أن يكون العقل مُدرِكاً لوجود الله، ولعظمته، ولأسمائه الحسنى، وأن يكون القلبُ مفعَماً بحبِّ الله.

سأضع بين أيدي القرّاء الكرام هذه الحقيقة فأقول: إنّ الذي يحرّك الإنسان هو حبُّه أكثرَ ممّا يحرِّكه عقلُه، فالإنسان بدافع الحبِّ يقدِّم الغالي والرَّخيص والنَّفس والنَّفيس، بدافع الحبِّ يقدِّم كلَّ شيء، بدافع العقل قد يقتنع، وقد يعتقد، وقد يوقن، ولكنّه لا يتحرَّك.

لذلك فالدُّعاة إلى الله يجب أن يخاطبوا العقل والقلب في وقتٍ واحد، ربَّما إذا أحدثوا في العقل القناعة فهذا نصف النَّجاح، أما إذا أحدثوا في الإنسان، بالإضافة إلى قناعة العقل، موقفاً أساسه الحبُّ فهذا كلُّ النّجاح، أنت قبل كلِّ شيء إنسان ذو عقل ولك قلب، العقل إذا أعمَلْته في الكون عرفت الله، وإذا أدركت النِّعم الإلهية أحببته بقلبك، إذا أحببت الله فقد أحسنت التوجّه، لا يُسمى الإنسان إنساناً إلا إذا أحبَّ.

كنّا في الجامعة وقد أُحيل أحد الأساتذة إلى التّقاعد وأقيمت له حفلة طيبة وهو أستاذ علم النّفس، قال هذه الكلمة ولا أنساها: «الإنسان الذي لا يشعر برغبة في أن يُحِبّ ولا يشعر برغبة أن يُحَبَّ فليس من بني البشر»، لا يمكن أن تُسمَّى إنساناً إذا كان قلبُك صخراً، أو إذا كان قلبُك جُلموداً.

إذاً لا بد من أن تُحِبَّ، الشّيء الذي يلفت النّظر هو أنّ أصحاب النبي عليهم رضوان الله، لماذا فعلوا المستحيلات؟ لماذا باعوا أنفسهم ولماذا ضحّوا بكلّ شيء؟ أحدنا لو جُرحت يده أو إصبعُه لصاح ولضمّدها ولاعتذر عن لقاءاته ولأخذ إجازة... سيِّدنا جعفر بن أبي طالب تأتيه في غزوة مؤتة ضربة سيف تقطع يمينه فيُمسك الراية بشماله، تأتيه ضربة سيف أخرى تقطع شماله، فيمسك الرّاية بعضديه إلى أن يخِرَّ شهيداً، ما هذا الحبُّ الذي أدّى بصاحبه إلى التفاني ثم للشّهادة؟!

الخنساء قبل أن تُسلم ملأت الدّنيا صخباً وعويلاً على أخيها صخر، فلما حضرت حرب القادسيّة ومعها بنوها قالت لهم:

يا بنيّ أنتم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين، ووالله الذي لا إله غيره، إنكم لبنو رجل واحد كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم، ولا هجّنت حسبكم، ولا غيّرت نسبكم، وقد تعلمون ما أعدّ الله للمسلمين من الثواب العظيم في حرب الكافرين واعلموا أنّ الدّار الباقية خيرٌ من الدّار الفانية، يقول الله عزَّ وجلَّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران:٢٠٠] فإذا أصبحتم غداً فاغدوا إلى قتال عدوّكم مستبصرين، ولله على أعدائه مستنصرين، فلما أضاء لهم الصّبح باكروا مراكزهم فتقدموا واحداً بعد واحد ينشدون الأراجيز، فقاتلوا حتى استشهدوا جميعاً، فلما بلغها الخبر قالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربّي أن يجمعني بهم في مستقرِّ رحمته، فكان عمر رضي الله عنه يعطيها أرزاق أولادها الأربعة لكلّ واحد منهم مئة درهم حتى قُبض وماتت الخنساء[1].

(١) ذكر الحافظ في الإصابة في ترجمة الخنساء عن الزبير بن بكار عن محمد بن الحسن المخزومي وهو المعروف بابن زبالة.. فذكر قصة الأبناء الأربعة، لكن الحافظ ذكر أن ابن زبالة أحد المتروكين، وقد نسب ابن جرير الطبري في تاريخه هذه القصة إلى امرأة من بني النخع.

زيد بن الدَّثِنَة وهو على مشارف القتل، صلبه المشركون في جذع نخلة، تمهيداً لرميه بالسهام، قال له أبو سفيان: أنشدك الله يا زيد! أتحب أن يكون محمدٌ مكانك؟.. الكلام الشائع الآن: «ألف أمٍّ تبكي ولا أمّي».. أنشدك الله يا زيد أتحبّ أن يكون محمدٌ عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنت في أهلك؟... قال: «والله ما أحب أنّ محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنّي جالس في أهلي» ما هذا الحبُّ؟ اقرؤوا تاريخ الصحابة أيها القرّاء الكرام تجدوا العجب العُجاب، تجدوا تضحيات لا توصف مصدرها حبُّ الله ورسولِه.

سيّدنا الصّديق وهو خليفة رسول الله، من أعماله الطّيبة أنّه كان يحلب شياه جيرانه، يبدو أنه قد توفي الزوج وليس عندهم من يرعى شؤونهم، فكان يقوم يومياً بحلب شياههم، فلما صار خليفة ظنّ الجيران أنه سينقطع عن هذه الخدمة، وفي اليوم التالي طُرِقَ الباب وفتحت البنت، قالت الأم: يا بنيتي من الطارق؟ فقالت البنت: يا أمي جاء حالب الشّاة.... ما هذا؟ رئيس دولة، خليفة رسول الله... الذي ظهر من أعمال الصّحابة شيء لا يصدّق، كأنّه الأساطير، أساسه الحبُّ، لأنّهم أحبُّوا الله عزَّ وجلَّ ورسولَه.

وأنا أقول لكلِّ قارئ كريم: الذي يبذل ويضحّي ويقف عن حدود الله ويتجشّم المشاقَّ في سبيل الله فالذي حرّكه هو الحبُّ، والذي يُسعِده هو الحبُّ، فلن تسْعَدَ إلا إذا أحببت الله عزَّ وجلَّ، والله -سبحانه وتعالى- بابه مفتوح.

هناك شخصيات يُفتح بابها لأناسٍ دون أناس، يقبلون أناساً ولا يقبلون آخرين، يُستَرضَوْن وقد لا يَرْضَون، ولكنّ الله سبحانه وتعالى بابه مفتوح لكلّ الخلق فقد روى الترمذي بسند حسن من حديث صفوان بن عسال رضي الله عنه أنه قال:... فما زال يحدثنا- يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم- حتى ذكر باباً من قِبَل المغرب مسيرة عَرْضِه، أو يسير الراكب في عرضه أربعين أو سبعين عاماً -قال سفيان قِبَلَ الشام- خلقه الله يوم خلق السماوات والأرض مفتوحاً -يعني للتوبة- لا يغلق حتى تطلع الشّمس منه.

إذ تأملنا في اسم الوهّاب بحسب فطرتنا وبحسب جبلّتنا فالقصد أن يمتلئ قلبنا حبّاً لله، فإذا امتلأ قلبنا حبّاً لله رأينا من معاملة الله لنا، ومن تجليه على قلوبنا، ومن التوفيق، ومن السَّداد، ومن الرّشاد ما نعجز عن بيانه، ورأينا من الشّعور بالتّفوق، ومن الشّعور بالفلاح ما لا سبيل إلى وصفه.

إذاً الإيمان أساسه الحبُّ، فلا إيمان لمن لا محبّة له، هذا القلب متى يضطرب؟ من علامة المؤمن أنه إذا ذُكِرَ الله وَجِل قلبُه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال:٢].

هذا من علامة القلب المؤمن بربه، فالإنسان لا يجامل نفسه ولا يتملّق نفسه، بل يتعهد قلبه ويتفحّصه، ويسأل نفسه السؤال الحرج، أنا مَن أُحِبُّ، دائماً دعوى الحب كثيرة فكلٌّ يدّعي وصلاً بليلى، ولما كثُر مدّعو المحبّة طالبهم الله بالدّليل، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران:٣١].

نحن غارقون في النّعم، لاحظ نفسك لو ركبت سيّارة عامّة وبجانبك صديق دفع عنك أجرة النّقل، فإنّك تشكره وتبالغ في شكره وتخجل، وقبل أن تنزل تدعوه إلى البيت، لأنّه دفع عنك مبلغاً يسيراً، لو أنّ إنساناً قدّم لك هديّة فإنك تذوب خجلاً أمامه، تعبّر عن امتنانك وعن شكرك وعن محبّتك وتعده بزيارة، وتدعوه إلى بيتك لأنّه قدّم لك هديّة، هكذا النّفس البشريّة.

فما الفرق بين المؤمن والكافر؟ الكافر يبقى في النّعمة ومع النعمة حبيساً، لكنّك تجد المؤمن ينتقل منها إلى المُنعِم[1].. أيُعقل أن تدخل إلى بيت وأنت في حال جوع شديد وترى طعاماً شهياً؛ ألواناً منوعةً، أطعمة فاخرة، مقبّلات، طعاماً من الدرجة الأولى،

(١) حين خاطب الله بني إسرائيل قال: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ﴾ [البقرة:٤٧]، وحين خاطب هذه الأمة قال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ﴾ [البقرة:١٥٢].

ومن بعده الحلويات والفواكه، وتأكل بنهم ثم تنتهي من الطعام وتتجه نحو الباب وتخرج، أهكذا شأن الإنسان؟ لاحظ نفسك لو أن أحداً دعاك إلى طعام فقبل أن تنتهي من الطعام تقول له: «أكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة» ثم تقول له: نعمة دائمة، أو أكرمتنا أكرمك الله، وأسأل الله أن يديم عزَّك وأن يبارك فيك وأهلك، تتفنَّنُ بالعبارات شكراً وامتناناً، وتذوب استحياء... لماذا إذا جاءتك نعمة من إنسان تذوب استحياء؟ وإذا أنعم الله عليك بنعم لا تُقدَّر تبقى صامتاً غافلاً!!!

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾﴾ [البلد:٨].

ترى ابنك الصغير، ترى أهلك، ترى إخوانك، ترى الغابات، ترى الأشجار، ترى الأزهار، ترى مَن تحب، ترى معالم الطبيعة، ترى الألوان، ترى الأشخاص، تسير في الطريق مرتاحاً مطمئناً، الطريق واضحة أمامك، تقرأ، تطَّلع، تُطالع، تنظر، تستمتع: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾﴾ [البلد:٨-٩].

تتكلم وتعبّر عن مشاعرك وعن أحوالك وعن قناعاتك، تقول: قرأت اليوم مقالة كذا، تعبّر عن تفسير آية، عن قصة ممتعة، تتصدّر المجالس، تتحدّث مع أهلك وأولادك.

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾.

علمونا في الجامعة في كلية التربية أن الإنسان حينما يولد لا يملك إلا منعكساً واحداً، منعكس المصّ، صُنعَ الله الذي أتقن كلَّ شيء، لو فرضنا أنّ أحدهم مسَّته جمرة لِفافة تبغ، فإنّه يسحب يده قبل أن يفكر، فإذا جاء تنبيه عصبيّ بالحرارة فالأمر لا يأتي من الدماغ بل من النّخاع الشوكيّ، هذا يسمونه المنعكس الشرطيّ، فالإنسان حينما يولد ليس لديه إلا منعكس شرطيّ واحد، ولولا هذا المنعكس لما كنّا، ولما عاش إنسان، فلمجرد أن يولد الطِّفل يُعطى ثدي أمه يضع شفتيه على ثديها، يُحكِم شفتيه على حلمة الثدي، ولو سمح للهواء أن يمرّ لما استطاع الرَّضاعة، لا بدّ من إحكام شفتيه على

حُلمة الثدي، وبعدئذ يسحب الهواء، هذا منعكس معقّد جداً، حينما يولد الإنسان تجده مزوّداً بهذا المنعكس.

وما سوى ذلك من المنعكسات والمفهومات لا وجود له في هذه الفترة، يصف الطفل الصغير كل رجل أنه أبوه، بعد حين يقول: عمو، فصل أولاً بذهنه بين مفهوم الوالد ومفهوم العم، أول فترة كلُّ رجلٍ أب، وبعد ذلك يظهر عنده مفهوم الرّجل، ثم يفصل مفهوم الرّجل عن مفهوم العمّ والوالد، كيف تنشأ هذه المفاهيم؟ يقول: شجرة فيتصوّر الطّفل معنى الشّجرة، لا يتصوّر برتقالة ولا جوزة، يتصوّر مفهوماً مجرداً، لو تتبّعنا كيف تتشكّل في الدماغ المفهومات والمصطلحات؟ كيف يتعامل الإنسان ويفكّر؟ كيف يتعامل بالرّموز؟ عالم قائم بذاته!!

مئة وأربعون مليار خلية سمراء في الدماغ لم تُعرف وظيفتها بعد، فالدّماغ عاجز عن فهم ذاته، فالفرق بين المؤمن والكافر أنّ المؤمن ينتقل من النّعمة إلى المُنْعم، وغير المؤمن من الكفار والفُسَّاق والفُجّار يستمتعون بالنعم أعلى استمتاع، ولكنهم غفلوا عن المنعم، وغَفْلَتُهم عن المُنعم سوف تودي بهم إلى النّار إلى أبد الآبدين، أما المؤمن فيفكر من أين هذه النعمة، كل امرئٍ متزوج يدخل إلى بيته فيلقى زوجة لها مشاعر ولها تفكير، يجد الطعام جاهزاً والبيتَ نظيفاً هذه هبة من الله عزَّ وجلَّ لا تُقدَّر بثمن.

الإنسان في ساعة غفلة يقول: أنا تزوجت، وأنا تعبت وسعيت بكدّ يميني، وعرق جبيني، وأسَّست هذا البيت وفرشْته، وجمعت مهراً، اخترت فلانة، كلها نِعَم يراها ولا يرى المنعم، فهذه هي الغفلة عن الله عزَّ وجلَّ، هذه الزوجة هدية قدَّمها الله لك، وهذا الطفل الذي يملأ بيتك سروراً وسعادةً مَن جعله بهذه النفسيّة اللطيفة؟ مَن جعله بريئاً؟ لو كان الطفل الصغير يتعامل معك تعاملَ الكبير فلن تحبَّه، إذا تكلمت معه كلمة، خاصمك شهراً.. لكنّك قد تؤنّبه وتوبّخه وبعد قليل يُقبل عليك ويُقبِّلك، من جعل الطفل بهذه النفسيّة من الصّفاء وبهذه الذاتيّة الشفَّافة، مَن جعل الطفل بهذا الحبِّ والهاً قلبُه بأمّه وأبيه؟ إنّه الله عزَّ وجلَّ، إنّه الوهّاب. وفي الحديث الشّريف:

«إن أولادكم هبة الله لكم، هدية الله لكم، يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ، فهم وأموالكم لكم إذا احتجتم إليها» [البيهقي عن عائشة].

وفي القرآن الكريم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [الأنعام:٨٤].

أيّ إنّ الابن هبة من الله عزّ وجلّ فإذا كان صالحاً فهذه نعمة بالغة.

في مجال علم النفس أجريت تجربة مفادها أنّ حياة الإنسان النفسيّة أساسها الدّماغ، هكذا يقول العلماء، فوجدوا طفلاً دماغه سائلٌ، حالة نادرة، فصار يبكي فلما جاءت أمه سكت، معنى ذلك أن في الإنسان نفساً، هذه النفس حتى الآن لا يستطيع أحد أن يكشف حقيقتها، أساساً «الإنسان ذلك المجهول» عنوان كتاب شهير محوره: أن العالم الآن ما عرف إلا شيئاً طفيفاً عن طبيعة الجسد، أما طبيعة النفس فما تزال سرّاً مجهولاً، قال الله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء:٨٥].

تعصي الإله وأنت تُظهر حبَّه ... هذا لعمري في المقال شنيع
لو كان حبُّك صادقاً لأطعته ... إنّ المحبَّ لمن يحبُّ مطيع

قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران:٣٨].

وَهَبَ، فعل ماض، يهب فعل مضارع، هَبْ فعل أمر، أيعقل أن إنساناً يأمر الله عزَّ وجلَّ؟! علماء البلاغة قالوا، الأمر إذا كان من أدنى إلى أعلى فهو دعاء، فإذا كان من شخص مساوٍ إلى مساوٍ فهذا التماس، مثلاً... أنت موظف من المرتبة الأولى جالسٌ إلى الطّاولة، وأمامك في الغرفة نفسِها موظّف من المرتبة الأولى أيضاً لستَ رئيسَه، ولا هو رئيسُك قلت له: رجاءً، أعطني المسطرة مثلاً، هذا ليس أمراً ولا دعاءً، هذا التماس، فمن مساوٍ إلى مساوٍ: التماس، لكن لو وجّهت أمراً وأنت معلّم إلى طالب أو من ضابط

ذي رتبة عالية إلى مرؤوسه فهذا اسمه: أمر، إذاً يخرج فعل الأمر عن معناه الحقيقي إلى الالتماس والدعاء وغير ذلك.

﴿ رَبِّ هَبْ لِي ﴾.. معنى هب لي هذا دعاء، وَهَبَ يَهَبُ هَبْ، صار الفعل من حرفين، أحياناً يأتي الأمر حرفاً واحداً، وقى يقي قِ، قاف فقط: هذه القاف فعل أمر، وفَى يفي فِ، الفاء فعل أمر[1].

والسؤال الآن: ما اسم الفاعل من هذا الفعل وهب؟...إنّه واهب، لكن ربنا وهَّاب، وهي صيغة مبالغة لاسم الفاعل.

أعطاك رجل قلم حبر، هذا اسمه واهب... وإذا أعطاك مركبة قال لك: هذه هدية، هذا لم يعد في نظرك واهب بل وهَّاب، عندما يكون العطاء كبيراً نقول: وهّاب، وإذا كان العطاء يومياً متنوعاً أو كبيراً نستخدم صيغة مبالغة اسم الفاعل ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ [آل عمران:٨].

ماذا وهبنا الله؟ أول شيء وهبنا الله إياه هو نعمة الوجود، في سجّلات النفوس في دائرة الأحوال المدنية: فلان بن فلان مقيم في مكان كذا، فأنت موجود، لك اسم في السّجّلات، فمن وهبك نعمة الوجود؟ إنّه الله عزَّ وجلَّ.

إذاً أنت متمتّع بوجودك، متمتّع بصحّتك، متمتّع بالطّعام، بالشّراب، متمتّع بزواجك متمتّع ببيتك، لك عمل، لك شأن جماعي، وجودك مَن وهبك إياه؟ الله عزَّ وجلَّ وهبك نعمة الوجود، أوجدك وأمدّك بكلّ شيء.

مرةً لفت نظري حديقة ألغيت وقد ثبتوا سور حديد على الحجر، ولما أرادوا إعادة فتحها قصّوا الحديد قصّاً، سألت نفسي سؤالاً: لماذا قُصَّ الحديد؟ لماذا لم يُنزع من

---

(١) ومنها كذلك: دِ: للأمر بدفع الدية، وش: للأمر بشوي الطعام...، وعِ: ليكون المستمع واعياً: وكِ: لكوي الملابس، ولِ: للأمر بتولي ولاية... وهكذا...

مكانه نزعاً؟ فلما سألت قالوا: قصةُ أهون ألف مرة من نزعه، لأنه مثبت بالرصاص، فلو أن الله عزَّ وجلَّ لم يخلق الرصاص، هل تستطيع أن تُعامِل الحديد مع الحجر؟

خلق ماءً، لا لونَ له ولا طعمَ ولا رائحة، لو كان للماء لونٌ لضاق الإنسان بحياته، لو كان الماء حلواً لأصبح الطعام وكلُّ شيء حلواً، لو كان الماء لزجاً، بماذا يغسل الإنسان جسده وأشياءه؟! لكن جعله الله سائلاً لا لون له ولا رائحة ولا طعم، لو كان الماء يتبخر بدرجة مئة... تنظّف البيت في الشتاء فيبقى الماء على أرض المنزل وجدرانه إلى الصيف حتى يتبخر، وهذه مشكلة حقاً، فالماء يتبخر بدرجة أربع عشرة، اسفح كأس ماء في غرفة بعد ساعتين يتبخر، وكذلك ترى أن الماء يغلي بدرجة مئة، لو كان يغلي بدرجة خمسمئة مثل الزيت لحُرِق الطعام في أثناء الطبخ.

من أعطى الماء خواصّه؟ يغلي بدرجة مئة، يتبخّر بدرجة أربع عشرة، له سيولة عجيبة يسري في أدقّ المسامات ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾.

أنتحدث عن الكون كلِّه؟ أنتحدث عن العين؟ عن الأذن؟ جاؤوا بإنسان وضعوا له في صيوان أذنه شمعاً فلم يعد يعرف من أين يأتي الصوت، هذا الصيوان لو أنك درسته دراسةً هندسية، فيه سطح بكلّ اتّجاه فمن حيث جاء الصوت فإنه يواجه سطحاً يعكسه إلى الداخل، ولتتأكد ضع يدك فوق الصيوان ترى أنّ الصوت قويٌّ عندك، فالصيوان يتلقى الأمواج ويعكسها إلى الداخل.

مَن أعطاك ذاكرة صوتية، فتعرف الأصوات حتى من خلال الحديث بالهاتف؟ وإذا سحقت قطع زجاج تحت الباب، تنزعج وتخرج من جلدك، فهذا اسمه الضجيج، وتطرب لصوت العصفور، وهذا اسمه النَّغم ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾.

من جعل الطّعام ذا رائحة طيّبة، لو جعل الله الطعامَ المفيدَ ذا رائحة كريهة والطعامَ غيرَ المفيد ذا رائحةٍ طيّبة، فكيف يحلو عيشك، كاللحم إذا تفسخ له رائحة لا تطاق ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ كيفما تحرّكت أيها الإنسان، وجودك، المواد التي حولك، حواسُّك، كلُّ هذه نعم من لدن الوهّاب.

من وهبنا الشّمس؟ تدفع ثمن البيت مئة ألف زيادة إن كان ذا جهة قبليّة، والبيت الشمالي أرخص بمئة ألف، هذه الشمس لا تنطفئ جذوتها، قالوا: إنّ عُمُرَها خمسةُ آلاف مليون سنة، وطمأننا العلماء قالوا: ستبقى خمسة آلاف مليون سنة أخرى! ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾.

من جعل القمر في السّماء تقويماً، ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء:١٢]، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾.

مَن جعل الرّياح تتحرك، تنشط، وتُنعش الإنسان، تتبدّل الأجواء بفضل حركتها فيزول ما علق فيها من تلوّث أو غبار أو روائح كريهة، فتحريك الرّياح من نعم الله العظمى؟

تخزين المياه: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الحجر:٢٢].

مرةً أجرينا حساباً درسنا من خلاله أنّ كلَّ إنسان لو أراد أن يخزِّن احتياجه مِن الماء لمدّة سنة تقريباً لاحتاج إلى خزّان يعادل مساحة بيته تماماً، فإذا كان بيتك مئة متر مربع فإنك تحتاج إلى خزّان سَعته مئة متر مكعب، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

تخزين المياه في الينابيع شيء يلفت النظر، صنعوا خزان ماء لتخزين مياه «نبع الفيجة» في دمشق، قلّدوا به تقليداً عمليَّة التّخزين الطبيعي، تحت الأرض أربع مئة متر عمقاً لا ضوء ولا صوت ولا شيء، من خزّنَ هذه الأمواه؟ (أمواه جمع مياه). ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾.

إذا قال رجل لآخر: وهبتك هذا الكتاب بمئة ليرة، هذا الحكم في الشرع عقد بيع، ما دام قال له: وهبتك هذا الكتاب بمئة ليرة، فهذا عقد بيع، ولا عبرة لكلمة وهبتك، وإذا قلت: بعتك هذا الكتاب بلا ثمن، هذا عقد هبة، فما تعريف الهبة إذاً،

«تمليك بلا عوض» لذلك بعض الناس حتى يتهربوا من ضريبة انتقال الملكية، صاروا يقبضون الثمن سراً، ويصرحون بالهبة، فانتبهت الدولة ووضعت ضريبة على الهبة، فهذا ليس هبة، هذا بيع غير مصرَّح به، الهبة تمليك بلا عوض.

إذا كان للرجل ابنٌ متديّن خلوق بارٌّ بوالديه خدوم لطيف مهذَّب، فإذا قال: أنا تعبت في تربية ابني كثيراً، ربيته وعلمته وحرصت عليه، أهذا الكلام صحيح أو خطأ؟ أنا أقول: إن هذا الكلام خطأ، لأنه نسي الوهّاب، قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام:٨٤].

فإذ أعطاك الله ولداً بلا عوض فهذا هبة من الله، وقد تكون أعظم إنسان قوةً وحزماً وعلماً، فيأتيك ولد يحيّرك ويجعل حياتك شقاءً، وكثير من الأشخاص في أعلى مستوى من العلم وأبناؤهم ضالّون، سمعت عن إمام مسجد من أكبر المساجد إذا ذُكِّر بابنه يبكي، ابنه منحرف انحرافاً شديداً، والأمر ليس بيد الإنسان بل بيد الله سبحانه، فإذا وهب الله لرجل ابناً صالحاً مطيعاً بارّاً فلا بدّ أن يسجد شكراً لله عزَّ وجلَّ، فلا يعزو صلاح ابنه وطاعتَه وبرَّه لذكائه «أنا أب ناجح، أنا متابع لابني» إذا كان الابن منحرفاً فمهما كنت قريباً منه فقد يتفلّت منك، فكلمة: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ﴾ تعني أنّ هذا عطاءٌ بلا عِوض، فأنت لم تقدم شيئاً، أنت تلقّيت هذه الهبة من الله عزَّ وجلَّ.

إذاً الهبة عبارة عن التمليك بغير عوض، والوهّاب: صيغة مبالغة من وهب، بناءً على هذا التعريف هل يصح أن نقول: إن فلاناً وهب فلاناً؟ أتصدق أن إنساناً في الأرض كلِّها يعطي شيئاً بلا عوض؟ لنفرضه مؤمناً كبيراً فعِوضُه الثواب من الله عزَّ وجلَّ، يطمع برضاء الله عزَّ وجلَّ، أيقدم شيئاً بلا مقابل؟ أينطلق إلى خدمة الناس بلا مقابل؟ أيسعف المريض بلا مقابل؟ أيدرّس حسبة، أو يخطب حسبة؟ أو يخدم بيت الله حسبة؟ ثم يقول: لا أريد شيئاً، أأنت مصدق أنه لا يريد شيئاً؟!

لو أن رجلاً قال لمعلّم: أعطِ هذا الطالب دروساً خاصّة، وخذ على كل درس ألف ليرة، تأخذها مني، ولا تأخذ شيئاً منه، لكنّه أخيراً أخذ من الطالب مئة ليرة مقابل كلّ درس، فلما أخذ مئة من الطالب فَقَد حقَّه عند الأول.

فالذكيُّ لا يطلب الأجر من النّاس، بل يطلب الأجر من ربّ النّاس، فهل تصدّق أنّ إنساناً يفعل شيئاً بلا عوض؟ أعلى عوض أن تطلب رضاء الله عزَّ وجلَّ، أن تطلب جنّته، أن تطلب ما عنده، أن تطلب توفيقه، إذاً لا بد من عوض.

فلا يصح أن نقول: فلان وهب إلا مجازاً، لكن الإنسان أحياناً يهب شيئاً وبنيّته المديح، فهذا هو العوض، ثناء النّاس عليه هو العوض، أحياناً يجود أمام النّاس فيقدم مبلغاً ضخماً لجمعيّة خيرية، ويتمنى أن يشيد الناس بكرمه، يقول: أنا قدّمت، أنا أعطيت وبذلت، يريد عوضاً، إذاً تمليك بلا عوض، لا يكون حقيقةً إلا من الله عزَّ وجلَّ.

وشيء آخر، إذا وهبك إنسان شيئاً فمن الواهب الحقيقيّ، فمن ألقى في قلبه أن أعطِ فلاناً؟ الله عزَّ وجلَّ.

لا تظنَّ أن إنساناً يعطي شيئاً إلا والله عزَّ وجلَّ قد ألقى في قلبه الدافع... أحياناً تكون أمام موظف يقول لك: موافق، فإذا أردت الحقيقة فهذه من الله، فإذا كان الله يريد أن يؤدبك يخلق لك ألف عقبة، تحتاج المعاملة إلى توقيع، تحتاج إلى تصديق من السفارة في الدّولة الفلانيّة مثلاً، قال لي رجل: ثمان وثلاثون شاحنة أُنزلت بضاعتها أرضاً لأنها غير مصدَّقة من السَّفارة.

فإذا قدّم إنسان لك معونة يجب أن تعتقد اعتقاداً جازماً أن الله عزَّ وجلَّ ألقى في رُوع هذا الموظف أن يتساهل معك، ألقى عطفاً عليك في قلبه ألقى رغبةً بمساعدتك.

بناءً على هذا ألا أشكر الموظف؟ لا بد من شكره، فإذا قدم أحدهم لك خدمةً ولم تشكره فهذا موقف غير أخلاقيّ، لأنه أيضاً خدمك باختياره، لذلك قال ﷺ: «مَنْ لم يَشْكُرِ الناسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ» [رواه الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي هريرة].

إن هذا الإنسان خدمك، وهو واعٍ وعاقل، وخدمك بمحض اختياره فلا بد مِن شكره، لكن الله عزَّ وجلَّ ألقى في رُوعه، ودفعه لخدمتك، فيجب أن تشكر الله أولاً على أنه ألقى في قلبه رغبةً في خدمتك، وأن تشكر هذا الإنسان ثانياً على أنه خدمك مختاراً، والنبي الكريم ﷺ يقول: «مَنْ اسْتَعاذَ بالله فأعيذُوهُ، وَمَنْ سألَكُمْ بالله فأعْطُوهُ، ومَنِ اسْتَجارَ بالله فأجيرُوهُ، ومنْ آتى إلَيْكُمْ مَعْرُوفاً فكَافِئُوهُ، فإنْ لَمْ تَجِدُوا فادْعُوا لَهُ حتّى تَعْلَمُوا أنْ قَدْ كافَأْتُمُوهُ» [رواه النسائي بسند صحيح من حديث ابن عمر].

وللإيضاح أقول: المسلمون يعرفون كلمة؛ الله يجزيك الخير، وأكثرَ الله خيرك، هذا شكر ناقص، فإن قدَّم لك إنسان خدمة يجب أن تقدم له خدمة مقابلها، أما إذا كنت عاجزاً ولا تملك، فمقبول منك أن تقول: جزاك الله عني خيراً، وهذه كبيرة جداً، إذا كنت فعلاً عاجزاً عن رد جميله، عاجزاً عن مقابلة هديته بهدية، عاجزاً عن مقابلة خدمته بخدمة، إذا كنت فعلاً عاجزاً وقلت له: «جزاك الله خيراً» فمقبولة منك.

روى الترمذي والنسائي بسند صحيح من حديث أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ قال: «من صُنِعَ إليه معروف فقال لفاعله: جزاك الله خيراً فقد أبلغ في الثناء».

إياك أن تظنَّ أنَّ الشُّكر على نعمة يكفي بكلمة تقولها مثل: «أكثر الله خيرك، فضلت»، وإنما إذا خدمك إنسان خدمة وأنت تقدر على ردّها فلا بد من رد الجميل بمثله إن استطعت إلى ذلك سبيلاً، فانظر ماذا فعل رسول الله ﷺ في مثل هذا الحال.

وعلمنا رسول الله ﷺ من موقفه عليه السلام مع سيدنا ربيعة بن كعب الأسلمي، فسيدنا ربيعة خدم النبي ﷺ. وبعد حين قال له: يا ربيعة سلني حاجتك، فقلت لنفسي: سبحان الله نبي الله، رسول الله، ألا يستحق أن تقدم له خدمات بلا مقابل، لقد رآها ديناً عليه[1]، هذا هو الكمال وصدق الله العظيم: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

---

(١) الحديث رواه مسلم بلفظ: كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي: سل فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة... الحديث، والقصة بتمامها رواها الطبراني في الكبير من رواية ابن إسحاق.

واحذر أن تذكر أفعالك الطيبة للآخرين، ولا تنسَ كلَّ فعل طيِّب أُسدِيَ إليك، فإذا خدمت إنساناً فالكمال يقتضي أن تنسى هذا المعروف، وكأنك ما فعلته، فأنت فعلتَه مع الله عزَّ وجلَّ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان:٩].

أما إذا خدمك أحدٌ خدمة فلا تنس فضلَه، «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»، مع اعتقادك أن هذا الذي جاءك عن طريق فلان هو حقيقة من الله عزَّ وجلَّ، أولاً ألهمه، ثانياً سمح له، ثالثاً مكَّنه، فلو ألهمه وما سمح له «يقول لك: العين بصيرة واليد قصيرة» وأحياناً إنسان يحب أن يخدمك، فلا يقدر، يقول لك: «لم أستطع»، هو راغب في خدمتك، ألهمه ولم يسمح له، فإذا قدّم إنسان لك خدمة فهذه يجب ألا تُنسى، كما قال ﷺ: «من أسلم على يد رجل فله ولاؤه» [رواه الطبراني والدارقطني والبيهقي بسند حسن من حديث أبي أمامة].

الإنسان يعطيك حاجة ينتهي أثرها بانتهاء الحياة، أما إذا ساق لك الله الهدى عن طريق إنسان، فقد أسدى لك نعمةً يستمرُّ أثرها فيك وفي ذريتك إلى أبد الآبدين، فربنا عزَّ وجلَّ قال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الشورى:٢٣].

فالذي ألقى في روع الإنسان أن يخدمك هو الله، والذي مكَّن هذا الإنسان من أن يخدمك هو الله، المُلهم هو الله والفعّال هو الله.

ألم يمرَّ معك أن إنساناً خدمك وتعجّبت لماذا خدمك، بلا معرفة سابقة معه، وكان معك هيّناً ليّناً، يسّر لك أمرك، فيه سماحة وتساهل، ألم يمرَّ بك هذا، فالله ألهمه، هو الملهم وهو الممكّن وهو الفعّال، إذاً موقفك السليم، بادئ ذي بدءٍ، أن تقول: يا ربِّ لك الحمد.

السيدة عائشة رضي الله عنها لما نزلت الآيات بتبرئتها قال لها أبوها: قومي إلى رسول الله... قالت: لا والله! لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله [متفق عليه من حديث عائشة]. فالنبي ﷺ لم يقل شيئاً، الأصل أن الله عزَّ وجلَّ هو الذي برَّأها، كذلك رجلٌ قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، قال: جعلت لله نداً؟ ما شاء الله وحده [البخاري في أدب المفرد من حديث ابن عباس].

قال بعض العلماء: «الوهّاب من يكون جزيل العطاء والنَّوال، كثير المنِّ والأفضال»، قال بعضهم: المَنُّ يفسد المَنَّ.

قالوا: الوهّاب من يكون جزيل العطاء والنّوال، كثيرَ المنِّ والأفضال واللطف والإقبال، يعطي من غير سؤال، ولا يقطع عن العبد فضله في كلِّ حال.

والوهّاب من يعطيك بلا وسيلة، وينعم عليك بلا سبب ولا حيلة.

والوهّاب هو الذي يعطي بلا عوض، ويميت بلا غرض.

نحن عبيد لله عزَّ وجلَّ، وكل ما نحن فيه فضل من الله عزَّ وجلَّ، فيجب أن تعلم علم اليقين أنَّ كل نعمة أصبحتَ بها فمن الله، وكلكم يعلم أنَّ الشُّكر ثلاث مراتب، أول مرتبة أن تعلم أن هذه النعمة من الله هذا أحد أنواع الشكر، وأن يمتلئ قلبك حمداً لله، وهذا هو النوع الآخر، وأن تنطلق إلى خدمة العباد، وهذا أرقى أنواع الشكر، قال الله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الرحمن:٦٠].

يعني: يا عبدي! إذا استقمت على أمري، وخدمت عبادي، ودللتهم عليَّ، ورعيتهم، ونصحتهم، وعاونتهم، وتكرّمت عليهم، فقد أحسنت لعبادي، فهل أنساك من إحساني؟ هل جزاء إحسانك يا عبدي إلا أن أُحسن إليك؟! فالله شكور.

إذا لم يعاين المؤمن من الله معاملة طيبة جداً، وأنها تكريم له من الله، بل رأى أنها نظير استقامته وإخلاصه وخدمته، فعنده إذاً خلل كبير وإخلاصه ضعيف جداً، فمن علامة الإيمان أن ترى ما أنت فيه من نعمة من آيات الله الدالة على فضله، وإن أنت

خدمت عباده فإذاً لك عون الله سبحانه، «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» [رواه مسلم من حديث أبي هريرة].

هناك آية ثانية، قال الله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرعد:١١].

الوقائع والأحداث التي تؤكد أن الله وهّاب كثيرة جداً في كلِّ مكان وكلِّ زمان، لكن حادثة وقعت لأحد إخوتنا الكرام يعمل في محلٍ دخله قليل جداً لا يكاد يكفيه، له أخ مؤمن فَقَدَ عمله، فَقَدَ دخله كلياً، فشكا له همَّه، فقال له: تعالَ واعمل معي، وخذ نصفَ الرِّبح، أقسم لي وهو صادق أنه في أول شهر ربح عشرة أمثال الدّخل السابق ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾.

لذلك «أنفق بلال! ولا تخشَ من ذي العرش إقلالاً».

لكن إياك أن تؤثر الخلق على الله، فتنفق من دينك إكراماً للناس فهذا ليس هبة، لا ينبغي أن تؤثر جهة دون الله على الله، والخير كله في المؤاثرة.

الشبلي أحد العلماء سأل بعض أصحاب أبي علي الثقفيّ، قال: أيُّ اسم من أسماء الله تعالى يجري على لسانك؟

قال: الوهّاب، لأنّ أول هبات الله عزَّ وجلَّ هي وجودك.

الله عز وجل يهب العطاء في الدنيا، يهب مالاً، يهب قوة، يهب وسامة، يهب ذكاءً، يهب حكمةً، الله عز وجل يهب العطاء في الدنيا ابتلاءً، فالحظوظ وُزعت في الدنيا توزيع ابتلاء، قال تعالى: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ [الملك:٢].

وسوف تُوزع في الآخرة توزيع جزاء، قال تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء:٢١].

مراتب الدنيا مؤقتة، الموت ينهي قوة القويّ، وضعف الضعيف، ووسامة الوسيم، ودمامة الدميم، وصحة الصّحيح، ومرض المريض، ينهي كلَّ شيء، لكنّ مراتب الآخرة أبديّة سرمديّة، مراتب الدنيا لا تعني شيئاً وقد تعني العكس: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام:٤٤].

عطاء الله في الدنيا عطاء ابتلاء، فالمال ليس نعمة ولا نقمة، إنّه عطاء موقوف على طريقة إنفاقه، إن أنفقته في طاعة الله فهو نعمة، وإن أنفقته في معصية الله فهو نقمة، القوّة إن سُخِّرت لإحقاق الحق فهي نعمة، وإن سُخِّرت للطّغيان والعدوان فهي نقمة، كلُّ حظٍّ من حظوظ الدنيا يمكن أن يكون نعمة ترقى بها أو دركاتٍ تهوي بها.

لذلك فالله عز وجل يهب الحظوظ في الدنيا هبة امتحان، ويهب العطاء الكبير في الآخرة هبة جزاء، في الدنيا ابتلاء وفي الآخرة جزاء.

ليتعلق العبد بربه عند النّداء والرّجاء، ويسعد بتوحيده بين الدُّعاء والقضاء، هذا أعظم فضل وأكبر هبة وعطاء، وإذا أدرك العبد حقيقة الابتلاء، واستعان بالله على تحقيق الرجاء كان موفّقاً وناجحاً.

«عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن. إن أصابته سراء شكر وكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك لغير المؤمن» [أخرجه أحمد في مسنده عن صهيب].

من الآيات التي تتحدث عن الهبة، وعن الوهاب: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ ﴾ [مريم:٥].

هذا ما يسمى اليوم بالعمل المؤسساتيّ، دعوة ناجحة ينبغي أن تستمر بعد وفاة الداعية، أن تستمر بتربية أناس على أعلى مستوى يتابعون دعوته، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان:٧٤].

وهذا يكون إذا أحسن الإنسان اختيار زوجته وفق منهج الله، تسرّه إن نظر إليها، وتحفظه إن غاب عنها، وتطيعه إن أمرها.

أنت في الدنيا ممتحن في بندين كبيرين، البند الأول فيما أعطاك، والبند الثاني فيما سلب منك، الذي أُعطيته أنت ممتحن به، أعطيت المال مادة امتحانك عند الله عز وجل المال، سلبت منك بعض الصّحة هذا الذي سُلِب منك امتحان آخر، أنت ممتحن فيما أعطاك الله، ممتحَن فيما زوى عنك، من هنا جاء في بعض الأدعية:

«اللهم ما رزقتنا ممّا نحب فاجعله عونا لنا فيما تحب، وما زويت عنا ما نحب فاجعله فراغا لنا فيما تحب»

نصيب المؤمن من اسم الله (الوهاب):

علاقة المسلم بهذا الاسم أن يتصف بالكرم، فالله وهّاب، وأنت أعطِ ممّا رزقك الله: «أنفق، أنفق عليك» [متفق عليه عن أبي هريرة].

«أنفق بلالا ولا تخشى من ذي العرش إقلالا» [أخرجه برموز السيوطي عن بلال، وعن أبي هريرة، عن ابن مسعود].

من خصائص المؤمن وقد آمن بالله الوهّاب أن يكون كريماً معطاءً سخيّاً، لذلك جاء في الحديث: «لا يحل لأحد أن يهب هبة ثم يرجع فيها إلا من ولده، فمن فعل ذلك فمثله كمثل الكلب يأكل ثم يقيء ثم يعود في قيئه» [أبو داود عن ابن عباس].

حظّ المؤمن من هذا الاسم أن يبذل لله وفي سبيل الله مما آتاه الله عزَّ وجلَّ، من علمه، من خبرته، من وقته، من عضلاته، من جهده، من مكانته، من جاهه، هذا الذي يُستفاد من هذا الاسم.

الوكيل

ورد هذا الاسم في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران:١٧٣].

هذا هو الموضع الوحيد في القرآن الكريم الذي ورد فيه الاسم مطلقاً معرفاً بالألف واللام.

لكن ورد في مواضع أخرى مقروناً بمعاني العلو، والعلو يزيد الإطلاق كمالاً على كمال، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام:١٠٢].

وعند البخاري من حديث ابن عباس: (حسبنا الله ونعم الوكيل) قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران:١٧٣].

والنّاس في هذه الأيام قد جمعوا ليقفوا وقفة واحدة ضدَّ المسلمين، وكأنَّ حرباً عالمية ثالثة معلنةً على هذا الدين.

وفي سنن الترمذي أن النبي ﷺ قال: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَقَدْ الْتَقَمَ صَاحِبُ الْقَرْنِ الْقَرْنَ وَحَنَى جَبْهَتَهُ وَأَصْغَى سَمْعَهُ يَنْتَظِرُ أَنْ يُؤْمَرَ أَنْ يَنْفُخَ فَيَنْفُخَ قَالَ الْمُسْلِمُونَ فَكَيْفَ نَقُولُ يَا رَسُولَ الله قَالَ قُولُوا حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الْوَكِيلُ تَوَكَّلْنَا عَلَى الله رَبِّنَا» [الترمذي عن أبي سعيد الخدري].

من معاني اسم الله الوكيل

من أسماء الله الحسنى الوكيل، وهو القَيِّم الكفيل بأرزاق العباد. وهو: القائم بأمور عباده يُدير أمورهم ويتولَّى شؤونهم ويسخِّر ما يحتاجون إليه، أو هو الذي أوكِل إليه كلُّ أمر بمعنى إليه يُرْجَعُ الأمرُ كلُّه.

وقيل: الوكيل هو المتولّي بإحسانه أمورَ عباده المتَّقين، الموكول إليه كلُّ أمرٍ من أمورهم لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة:٢٥٧].

لذلك قالوا: من توكّل على الله تولّاه وكفاه، ومن استغنى به أغناه وأرضاه، وفي تعريف آخر: الوكيل هو المَوْكول إليه أمورُ العباد ومصالحُهم، فمثلاً قد يقول إنسان: الأمر بيَد من؟ يقال: بيَد فلان تجاوزاً، فهو الرّجل القويُّ، وهو الآمر والنّاهي، وهو الذي يقرِّر وهو الذي يوافق ويرفض ويسمح ويمنع ويعطي ويأخذ.

فالوكيل: الموكول إليه أمورُ العباد ومصالحُهم، والمتصرِّف فيها كما يشاء، وعباد الرحمن أوْكلوا إلى الله أمورهم، واعتمدوا على إحسانه لعَجْزِهم عن تحصيل مهمّاتهم، وهنا معنى جديد إذ يجد المرء نفسه أحياناً عاجزاً عن متابعة هذه القضية في المحاكم، لأنّه يجهل القوانين وأساليب رفع المذكّرات وأسرارها فلذلك يوكّل محامياً، يقول: أنا

وكيلي فلان، فالوكيل إمَّا بمعنى أنَّ الله سبحانه وتعالى يتولّى أمرَ العبادِ كلِّهم، أو أنّه يتولّى أمر عبادِه المتَّقين يرضيهم ويُغنيهم ويكفيهم، أو لأنّ الله عزَّ وجلَّ لعَجْز عباده عن تحصيل شؤونهم وإدراك مصالحهم فهم يوكِّلونه في شؤونهم التي يعجزون عنها دائماً، وهذه المعاني كلُّها يحتملها اسم الوكيل.

نعم إنّه المتولّي لشؤون عباده يصرِّفها كيف يشاء، لذلك قالوا: إذا تولى الله عبده بجميل العناية كفاه كلَّ شُغل وأغناه عن كل غَيْرٍ، فهو الكافي لمن توكّل عليه، فإذا اتَّجه العبد إلى الله متوكِّلاً تولّاه بحُسن رعايته فإذا استقام ختم له بجميل ولايته، لعلَّ أحداً يقول: تعريفات الوكيل أكثرها متداخل ومتشابك، فالمؤمن من خصائص إيمانه أنّه يكِل أموره إلى ربّه ويعتمد عليه ويطمئنُّ لقربه، والإنسان في أصله ضعيف، وضعفه سبب سعادته، لو أنَّ الله خلقه قوياً لاستَغنى بقوّته فشَقي باستغنائه، لذا خلقه ضعيفاً ليفتقر إليه بضعفِه فيسعدَ بافتِقارِه.

إنّ الله جلّ جلاله ما أمرنا أن نتكّل عليه إلا ليَكْفِينا أمرَنا كلَّه، والعجيب أن يواجِه الإنسان الصِّعاب ولا يتوكَّل على الله، ولحكمةٍ بالغةٍ أرادها الله عزَّ وجلَّ فالحياة مُفْعَمة بالمقلِقات والمخاوف، والإنسان فوقه ألف سيفٍ وسيف؛ مَن يدري ماذا سيكون حالُه بعد حين؟ ومن يملِك هذه الخلايا ألّا تنمو نموّاً عشوائيّاً؟ ومن يملك هذه الدسَّامات أن تبقى تعمل بانتظام؟ ومن يملك هذا الدّماغ ألّا تتجمَّد فيه خثرةٌ فتُعطِّلَ بعض فاعليَّة الإنسان؟ من يدري ماذا سيكون؟ هذه المخاوف، وهناك مقلقات متعلِّقة بالرِّزق والأولاد والأهل والعمل وكسب الرِّزق، لماذا شُحِنت الدّنيا بالمخاوف؟ من أجل أن تَفِرَّ إليه وتعتمد عليه وتثِق به وأن تُقْبِلَ عليه، وأن تُدفَع إلى باب عبوديّته وأن تكون عبداً له منيباً مفتقراً.

ولنعلمْ جميعاً أنّنا لسنا في دار مُقام بل نحن في دار انتقال، ونحن في ممرٍّ ولسنا في مَقرٍّ وفي حياة إعدادٍ لحياة أبدية، فالنَّعيم المطلق والسّعادة التّامَّة والطَّمأنينةُ التي لا يخالِجها قلقٌ والصَّحَّة التي لا يساورها مرض هي في الجنَّة فقط، نحن في دار إعداد وفي

حياةٍ دنيا خلقت لتكون مدرسةً لحياةٍ أبديّة خالدة، لذلك ليس عجيباً أن تكون الحياة مقلِقة وعلاجُها أن تلتجئ إلى الله حيث الأمن والطّمأنينة والرّاحة والتّوازن، إذا قلت في اللغة: أوْكَلت أمري إلى الله، أي: ألجأته إليه؛ هذا الأمر الذي أخافني أو هذا الأمر الذي أقلقني وعجزت عن حلِّ مشكلتِه أحلته على الله سبحانه وأوْكَلْتُه إليه.

قال بعض العلماء: دَبِّر فأنا لا أُدبِّر، وقال أبو الحسن النُّميريّ الأندلسيّ يُناجي ربه:

إذا كنــتَ في كــل حــالٍ معــي فعــن حمْــلِ زادي أنــا في غِنــى
فــأنتم هــو الحــقُّ لا غــيْرُكم فيــا ليــت شِــعري أنــا مــن أنــا

الذي أراه أنَّ طبيعة الحياة شاءها الله أن تكون دارَ التواء لا دارَ استواء، ومنزل ترَحٍ لا منزل فرَحٍ، ودارَ بلاءٍ وتعبٍ ونصبٍ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ ﴾ [الانشقاق:٦].

شاءها كذلك من أجل أن تلتَجئ إليه وأن تُقْبِل عليه وأن تعتمِد عليه وأن تتوكَّل عليه.

وَكَلْتُ أمري إلى الله، أيْ: ألجأْتُه إليه، إذا كانت للإنسان قضية صغيرة ومفتاحها بيده فإنّه لا يسأل أحداً ولا يسْتعِينُ بأحد، لو أنّ كلَّ الأمور نقدِر عليها ولا تُعْجِزُنا لاستغنينا عن الله عزَّ وجلَّ، ولو أنّ الأمور أصغرُ من طاقتنا ومن تدبيرنا حينها لا يَشعر الإنسان بحاجة إلى الله عزَّ وجلَّ، لكنّه محتاج إليه دائماً، وهذه الحاجة تحتاج إلى إعمال عقل، أما حينما تأتي الأمور أكبر مما نستطيع فإنّنا نعجز عن مواجهة الأمر، وحينما نجد أنفسنا أمام شبح مشكلة كبيرة وحقل ألغام وأنّنا أضعف من أن نواجِه عدواً، ما حكمة هذه المصاعب المتكررة وهذه المتاعب في الحياة الدنيا؟ قد يقول أحدُكم: لماذا هذه الصعوبات يا ربِّ؟ لماذا الإنسان تحت سيوفٍ مشرَّعة كثيرة؟ فتارةً يقلقُ على صحَّتِه، وتارة على دخْله، وتارة على مستقبل أولاده، وتارة على مستقبل بناته، لماذا هكذا يا

رب؟ الجواب أنه تعالى أراد أن تلجأ إليه وأن تُقْبِل عليه وأن تَفِرّ إليه وأن تُساق إلى باب العبودية إليه، وأن تكون موَكِّلاً له وأن يكون وكيلاً لك، وأراد أن تَنْعُم بظلِّ الاستسلام له والإقبال عليه، فوَكَلْتُ أمري إلى الله، الجأْتُه إليه واعتمدْت عليه.

لذلك قالوا: إنَّ المتوكِّلَ على الله هو الذي يعلم أنَّ الله كافِلٌ رزقَه وأمرَه، الحقيقة أنَّه لا يمكنك أن تتوكَّل على إنسانٍ ضعيف، ولا يمكن أن تُوَكِّل إنساناً جاهِلاً لا يستطيع أن يكتُب اسمَه في دعوى عويصة في قصر العدل، بل تبحث عن أمهَرِ المحامين وعن محامٍ مخلِص ويتمتع بكفاءة عالية جداً، هذا شأنك مع محامٍ في قضية عويصة، فلذلك أنت لا تستطيع أن تتوكَّل على الله إلا إذا عرفته، وقد يقولُ أحدكم: أنا أتوكل على الله؛ لا؛ بل هذا مجرد ادّعاء، فإنك إن لم تتعرف إلى أسماء الله الحسنى، وإن لم تعرِف قدرته التي تتعلَّق بكل ممكن، وإن لم تعرف حكمته ورحمته وعدالته وقدرته فإنّك لا تتوكَّل عليه حقيقة، فأصل التَّوكُّل أن تعرفه، فالإنسان من خلال معاملاته وممارساته يثق بأشخاصٍ عِدَّة ويقول لك: فلان يُعتمد عليه فإذا سافر سلَّمه العمل في متْجره أو معمله، هناك قبض ودفع وهناك موظَّفون ومشكلاتٌ ماليّة، يقول لك: فلان يُعتَمد عليه، فهل رأيت صاحب معملٍ ضخم يعتمد على موظّف أحمق أو موظّف ضعيف التّفكير ومحدود الأُفُق؛ مستحيلٌ فأنت لَن تتوكَّل إلا على القويّ، ولن تتوكّل إلا على العليم، لن تتوكّل إلا على القدير، ولن تتوكّل إلا على الخبير؛ فلذلك التوكُّل أساسه معرفة الله عزَّ وجلَّ، والإنسان الشّارد والتّائه ربما يضع ثقته بإنسان، وإذا دَعوْته إلى التوكُّل على الله لا يستجيب، كيف؟ إن الله تعالى قال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [القلم:٤٢].

أنت إذا دعوْت إنساناً يعاني من مشكلة أو من مرضٍ أو من خطر أو من قضية وقلت له: توكَّلْ على الله، فلن يفهم عليك، ربما يُجامِلك ويقول: توكَّلت! لكنَّه في الحقيقة غير متوكِّل؛ لأنه لا يعرف أنَّ النَّاس جميعاً بيد الله، وأنَّ الأقوياء جميعاً في قبضته، وأنَّ خواطر العباد بيده، قد تقف أمام إنسان يُلقي الله في رُوعه أن سهِّلْ له الأمر على

خلاف عادَتِه، إنسان يُعقِّد الأمور ويقيم الحواجز وينصب العقبات في وجوه الآخرين، لكنَّك تجده من ألطف الناس معك مع أنك لا تعرفه ولا يعرف اسمك، فلماذا وقف هذا الموقف الليّن؟ وماذا ألقى الله في قلبه؟ لذلك قال ﷺ: «إنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّها بَيْنَ إصْبَعَيْنِ مِنْ أصابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ واحِدٍ يُصَرِّفُهُ حيثُ يشاءُ» ثُمَّ قالَ رسولُ الله ﷺ: «اللهمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنا على طاعَتِكَ» [رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو].

أحياناً إذا أراد الله أن يؤدِّب مخلوقاً فيبعث الله إنساناً طيِّباً يتصدَّى له، ويقيم النكير عليه ويُكبِّر الأمور ويقيم الحواجِز ويضع العقبات؛ فيقول: هذا غريب! ليس هذا من أخلاق هذا الشخص، فاعلم إذاً أنّ العباد حتى خواطِرهم ومشاعِرهم وتصوُّراتهم وحتى رغبتهم في الخير أو الشرِّ بيد الله عزَّ وجلَّ فإذا كنت مع الله فالله معك، لذلك أقول دائماً هذه المقولة: يا رب ماذا فقد من وَجَدك وماذا وجد من فقدَك؟ وإذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ أريد أن أقف وقفة مُتأنِّية عند هذه المقولة؛ لن تستطيع أن تتوكَّل على الله إلا إذا عرفْتَه، وأن تتعرف إلى الله فهذا أكبر إنجاز في حياتِك؛ لأنك موجود في الحياة الدنيا من أجل أن تعرف الله لذلك إن عرفته توكلت عليه ووكَّلْت أمرك إليه، فلن يستطيع من أراد أن يتوكَّل حقيقةَ التَّوكُّل إلا بعد أن يعرف الله، قد تجد إنساناً يخاف من إنسان أشدَّ من خوفِه من الله لأنَّه لا يعرف الله.

إذا توكلت على الله خدمك أعداؤك، وإذا اعتددت بنفسك قد يتطاول عليك أبناؤك.

آخر رحلة لطائرة (الكونكورد) من باريس إلى واشنطن، في أرض المطار قطعة حديديّة صغيرة، سببت احتراق الطائرة بأكملها، مع أربعمئة و خمسين راكباً.

أحياناً الله عز وجل يهلك على أتفه سبب، وأحياناً يحفظ لأتفه سبب، والأخطار قائمة فإذا كنت معه نجاك من هذه الأخطار.

ربما تفسر كلمة «الوكيل» بالكفيل، هذا معنى إضافي، لكنَّ «الوكيل» أعمُّ من الكفيل، فكلُّ وكيلٍ كفيلٌ، لكن ما كلُّ كفيلٍ بوكيل.

وقد ورد عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال: «لو أنكم توكَّلون على الله حق توكُّله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بِطاناً» [الترمذي عن عمر بن الخطاب].

الوكيل إما أن يتوكَّل لبعض الأمور كما يحدث بين النَّاس والتي يسمُّونها وكالة خاصة مثلاً وكالة في بيع بيت فقط، وكالة في قبض مبلغ، أو في تحصيل، وكالة في مُخاصمة، كلُّ هذا يسمى وكالة خاصَّة، وأحياناً تكون الثِّقة بالغة جداً بين شخصين فيوكِّله وكالة عامَّة، الموَكَّل وكالةً عامة بإمكانه أن يبيع كل أملاكك وبإمكانه أن يطلِّق زوجتك، بالمناسبة الوكالة العامة خطيرة جداً؛ فهذه امرأة تمِلك آلاف الدونمات وكَّلت محامياً قال لها: اجْعَليها وكالة عامة وهي لم تفهم ما قال لها: فجعلتها وكالة عامّة، كل الأراضي سجَّلَها باسمه ولا تزال الدعوة قائمة بينه وبينها حتى الآن منذ عشر سنوات، فالإنسان قبل أن يوقِّع وكالة عامة يجب أن يفكر، أن يعد للمليون فالقضية ذات أبعاد خطيرة، على كلٍّ هناك وكالة خاصّة ووكالة عامّة ومع ذلك فالوكالة العامّة تبقى وكالة محدودة، فهل يستطيع الموكِّل أن يقبض روح الإنسان؟ طبعاً لا، لكن الله تعالى هو الوكيل المطلق، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام:١٠٢].

بيده حياتك ورزقك، وبيده من فوقك ومن تحتك، وبيده أقرب الناس إليك وأبعد الناس عنك، والذي يحبُّك والذي لا يحبُّك، وبيده دقائق جسمك وأجْهِزتك، والله على كلِّ شيء وكيل، لذلك ليس الوكيل المطلق إلا الله، وليس من بني البشر من هو وكيل لك في أمورِك كلّها، لكنَّ الله وكيل لك في كلِّ الأمور، ووكيل لك في كلِّ الظروف، والمتوكِّل في كلِّ حياتِك.

هناك نقطة أخرى في الوكالة وهي أنّه يمكن أن يكون فلان ليس متوكِّلاً أمرك، لكنّك باختيارك وكَّلْتَه، ليس هذا الشأن مع الله عزَّ وجلَّ، لكنَّ الله شئت أم أبيْت، أحْببت أم كَرِهت، رضيت أم لم ترْضَ، أمرك كلُّه بيده تعالى، قد يوكِل إنسان آخرَ وكالة محدثة، أنا وكَّلت فلاناً، أمّا قبل أن أُوَكِّله لم يكن وكيلاً لي، فأنا الذي أحدثت هذه

الوكالة، لكن الله سبحانه وتعالى متوكِّل لكلِّ أمور العباد وكالةً مطلقة، وهو على كل شيء وكيل وهذا المعنى الثاني.

أما المعنى الثالث: فالوكيل إما أن يؤدّي المهمة على أتمِّ وجه وإمّا ألّا يؤدّيها، وكم من إنسانٍ خاب ظنّه في محامٍ وكّله قضيةً فخسرها، قد يقول: إن قدراته ضعيفة، وإنّه لم يهتمَّ اهتماماً كافياً أو ما قدَّمَ المذكّرات القويّة أو اتفق مع الخصم، إذاً قد توكّل إنساناً فيخيِّب ظنّك، لكنّك إذا وكّلت الله ربَّ العالمين فهو الوكيل الحقُّ الذي يغنيك ويرضيك ويكفيك، أرجو الله تعالى أن نتعامل مع هذا الاسم تعامُلاً حقيقيّاً لأنّه لا ينبغي أن تعرف معنى الوكيل وما تعريف الاسم فحسب، فالقضية أكبر من ذلك، المهمُّ أن تَكِلَ إليه أمرك، لا يوجد مؤمن على الإطلاق بإخلاص شديد وبصدقٍ بالغ وكّل إلى الله شأناً من شؤون حياته إلا ويتولّى الله أمره.

دخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز في مرضه الذي مات فيه فقال له: يا أمير المؤمنين! إنّك فطمت أفواه ولدك عن هذا المال وتركتهم عالةً، ولا بد من شيء يصلحهم، فلو أوصيت بهم إليّ أو إلى نظرائك من أهل بيتك لكفيتك مؤنتهم إن شاء الله، فقال عمر: أجلسوني! فأجلسوه، فقال: الحمد لله، أبالله تخوّفني يا مسلمة؟ أمّا ما ذكرت من أنّي فطمت أفواه ولدي عن هذا المال وتركتهم عالةً فإني لم أمنعهم حقاً هو لهم ولم أعطهم حقاً هو لغيرهم وأمّا ما سألت من الوصاة إليك أو إلى نظرائي من أهل بيتي فإنَّ وصيتي بهم إلى الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولّى الصّالحين، وإنّما بنو عُمَرَ أحدُ رجلين: رجلٍ اتقى الله فجعل الله من أمره يسراً ورزقه من حيث لا يحتسب، ورجلٍ غيّر وفجر فلا يكون عمر أولَ من أعانه على ارتكابه، ادعوا لي بنيَّ، فدعوهم وهم يومئذ اثنا عشر غلاماً فجعل يصعّد بصره فيهم ويصوّبه حتى اغرورقت عيناه بالدمع ثم قال: بنفسي فتية تركتهم ولا مال لهم، يا بنيَّ! إنّي قد تركتكم من الله بخير إنّكم لا تمرُّون على مسلم ولا معاهِدٍ إلا ولكم عليه حقٌّ واجب إن شاء الله يا بني ميّلت رأيي بين أن تفتقروا في الدنيا وبين أن يدخل أبوكم النار فكان أن تفتقروا إلى آخر الأبد

خيراً من دخول أبيكم يوماً واحداً في النَّار قوموا يا بنيَّ! عصمكم الله ورزقكم، قالوا: فما احتاج أحدٌ من أولاد عمر ولا افتقر.

وذُكِر أنَّ أبا جعفر المنصور قال لعمرو بن عبيد: عِظْنِي، قال: بما رأيتُ، أو بما سمعتُ؟ فقال: بل بما رأيتَ، فقال: توفي عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- وخلَّف أحد عشر ابناً، وبلغت قيمة تركته سبعة عشر ديناراً، فكُفِّن بخمسة دنانير واشتُري له موضعُ قبرِه بدينارين، وأصاب كلُّ واحد من أولاده ثمانيةَ عشر قيراطاً، ومات هشام ابن عبد الملك وخلّف أحد عشر ابناً فحصل لكل واحد من ورثته مما خلّفه عشرةُ آلاف دينار، فرأيت رجلاً من أولاد عمرَ بنِ عبد العزيز قد حُمل على مئة فرس في سبيل الله، ورأيت رجلاً من أولاد هشام يسأل النّاس.

فأحياناً الإنسان يَكِل إلى الله أمر أولاده وهو على فراش الموت أو يكل إلى الله أمر بناته أو صحّته، وقد أعجزه العلاج وكاد ييأس، وقد يتألم ويقول: يا رب توكّلت عليك وفوَّضت أمري إليك أنت أعلم وأنت أرحم وأنت أكرم وأحكم، هذه الحال إذا توكَّلت على الله حقيقة -والله- سترى العَجَب العُجاب وسوف ترى أنك أقوى الناس.

لذلك قالوا: إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكَّل على الله، وإذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتّقِ الله، وإذا أردت أن تكون أغنى الناس فكُن بما في يَدَي الله أوْثق منك مما في يديك، فالذي يتوكل على الله هو أقوى إنسان، والدّعاء سلاح المؤمن وكلنا ضعفاء، ولكنك قويٌّ بالله وغنيٌّ بالله وكريم بالله، فأنت كريم بطاعة الله وغنيٌّ بالاعتماد على الله وقويٌّ بتوكُّلِك على الله؛ لذلك ما توكّل على الله أحدٌ وخيَّب ظنَّه وما توكَّل على الله أحدٌ إلا وكفاه وأرضاه وأكرمه.

إضاءات على الآيات التي ورد فيها اسم (الوكيل)

وها نحن مع الآيات التي ورد فيها هذا الاسم العظيم، يقول ربُّنا سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران:١٧٣].

يقولون: فلان يتآمر عليك ويكيد لك ويُدبِّر لك لا تنجو منه، وفلان يوغِر صدر رؤسائك عليك، فقل: حسبنا الله ونِعم الوكيل؛ ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ۝١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ۝١٧٤﴾ [آل عمران:١٧٣-١٧٤].

ألا تكفينا هذه الآية، مهما شعرت أنّ النّاس يكيدون لك السُّوء وأنّهم لك بالمرصاد ويأْتمرون عليك قل: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ۝١٧٣﴾.

لمّا نزل النبي ﷺ من الطّائف وقد ردّه أهلها شرَّ ردٍّ، وقد كذّبوه وسخروا منه وأوْغروا صدور سُفهائهم فضربوه، قال له زيد بن حارثة الصحابي الجليل: يا رسول الله! كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك؟ فقال ﷺ: «يا زيد! إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً، وإن الله ناصِر دينه ومظهر نبيه» [زاد المعاد، لابن القيم: ٣/ ٣٠]، يوم جاءت الأحزاب قال تعالى: ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠﴾ [الأحزاب:١٠].

وقال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ۝٢٣﴾ [الأحزاب:٢٣].

موضوع التَّوكُّل لا يبدو جلياً واضحاً ولا يظهر أبلجَ إلا في الشَّدائد، وأمّا في حال الرخاء فلا يظهر التّوكُّل، فإذا كان الإنسان له دخْل وصحّة وأموره مُيسَّرة أنّى يقول: يا رب توكَّلت عليك؟ مستحيل! فالله عزَّ وجلَّ إذا أراد أن يسمع صوت عبده المؤمن يسوق له شبح مصيبة، من أجل أن يركض إلى الله ويلجأ إليه؛ لذلك هذا الاسم لا يبدو إلا في الشدائد، هذا لغير المؤمن أما المؤمن فيتوكَّل على الله في جميع أحواله، في الرّخاء وفي الشَّدائد، والمرء في الشِّدَّة تُعرف حقيقة إيمانه أو ضلاله وكفره، كما يعرف

يقينه من شكّه. وكذلك قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام:١٠٢].

هذا معنى جديد، فالله على كل شيء رقيب ومالِك فاعبُدوه لأنه على كل شيء وكيل، متوكِّل أمره ورقيب عليه ومالِكٌ لناصيتِه، وهذا هو معنى قوله الله تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود:٥٥-٥٦].

آية ثالثة قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾ [هود:١٢].

فالأمر بيد الله وما عليك إلا أن تُبلِّغ والباقي على الله، فالذي يستجيب يوفِّقه الله والذي لا يستجيب يؤدِّبه الله، وأنت ما عليك إلا أن تُبلِّغ أمر الله كما أمرك.

وهذه آية أخرى، قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾ [يوسف:٦٦].

هنا بمعنى أن الله عزَّ وجلَّ شهيد على ما نقول. المعنى الأول مالك الأمور، والمعنى الثاني الرقيب، والمعنى الثالث الشاهد.

وفي سورة الزمر قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزمر:٦٢].

لا يمكن أن يتفلّت شيء من قبضة الله، فقد تجد إنساناً مُتفلِّتاً ومخيفاً ويثير الرُّعب بين النَّاس ولكنَّه في قبضة الله -هذا هو الإيمان الصحيح- الوحوش الفتّاكة والأشخاص العتاة والشريرون هؤلاء كلُّهم بيد الله عزَّ وجلَّ، لا يسمح لهم أن يفعلوا ما يفعلونه إلا بمشيئته وأمره، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾ [الأحزاب:٣].

الله جلّ جلاله يطلب منّا أن نتّخذه وكيلاً فهو ربُّ المشرق والمغرب قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل:٩].

عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ فقالَ المَقْضِيُّ عَلَيْهِ لَمَّا أَدْبَرَ: حَسْبِيَ اللهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ، فقالَ رَسُولُ الله ﷺ: «رُدُّوا عَلَيَّ الرَّجُلَ» فَقَالَ: «مَا قُلْتَ؟» قالَ: قُلْتُ: حَسْبِيَ اللهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ فقال رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَلُومُ عَلَى العَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بالكَيْسِ، فإذا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: حَسْبِيَ اللهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ» [رواه الإمام أحمد].

مثال ذلك طالب دَرَسَ ورَسَبَ فقال: حسبي الله ونِعم الوكيل، هذا قوله صواب وصحيح، فقوله تعالى: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ لا تقولها إلا إذا بذلت كل شيء تملكه، وبعد كلِّ هذا البذل والجهد لم تنجح عندئذ قل: حسبي الله ونعم الوكيل، ولا تقل: حسبي الله ونعم الوكيل قبل أن تستنْفِد الجهد. إذا لم يدرس وقال حسبي الله ونعم الوكيل، أي: كان كسولاً فقال: حسبي الله ونعم الوكيل، وأهمل تربية أولاده فانحَرفوا فقال: حسبي الله ونعم الوكيل، وما عالج ابنه فتفاقم المرض فقال: حسبي الله ونعم الوكيل، فكلُّ هذا الكلام غير مقبول إطلاقاً، إذاً لا تقل: حسبي الله ونعم الوكيل حتى تستفْرِغ جميع جهدِك، وتستوْفي كلَّ عملك عندئذٍ قل هذا الكلام، قال تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ [النمل:٧٩].

هذه نقطة عميقة المعنى في بحثنا، فتوكَّل على الله لأنّك على الحقِّ المبين، وهذا يعني أنّك إذا كنت منحرفاً ومعتدياً ومسيئاً ومجانِباً للحقِّ فلا يصحُّ منك التّوكُّل؛ فأحد أسباب التوكل أن تكون على الحقِّ المبين.

شيء آخر قال تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [إبراهيم:١٢].

معنى ذلك أنك إذا عرفت الله واندفعت في مشروع ينبغي أن تتوكَّل عليه، فمن لوازِم معرفته واستقامتك أن تتوكَّل عليه.

قال ذو النون المصري: «التَّوكُّل ترك تدبير النَّفس والانخلاع من الحول والقوة». وقال شقيق البلخيّ: «التَّوكُّل أن يطمئن قلبُك لوَعْدِ الله»، فإذا وعدك الله بالتّوفيق والرّزق والحياة الطّيّبة، فعلامة التَّوكُّل أنَّك مطمئنٌّ لهذا الوعد، فأنت إذا وعدك إنسان قويٌّ فقد تقول: هل من المعقول ألا يُنْجز الوعد؟! أما إذا وعدك الله بحياةٍ طيّبة ووعدك بالنّصر واليُسر والتّوفيق والنّجاح، فمن علامة التَّوكُّل الاطمئنانُ لوعد الله.

وقال بعض العلماء التّوكُّل: «الاشتغال عما لك بما عليك» وقال بعضهم: «قلوب الزاهدين أوعية للتوّكل»، وقال بعضهم: «التَّوكُّل انقطاع المطامِع»، فالذي يطمع بما ليس له فهو غير متوكِّل، أما المتوكِّل فهذا الذي يرضى بما قسمه الله له، فهذا من علامات التَّوكُّل، توكَّل على الله حتى يكون هو مؤنِسَك ومعلّمَك وموضِعَ شكواك فإنّ النّاس لا ينفعونك ولا يضرونك؛ لذلك قال سيدنا يعقوب: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [يوسف:٨٦].

كلّما عظم إيمان المرء لا يشكو همَّه إلا إلى الله، وكلما ضعف إيمانه تجدْه كثير الشكوى، فهذا الذي يشكو همومه إلى كلِّ من يلقاه ضعيف الثِّقة بالله ضعيف الإيمان، إذاً توكَّلْ على الله حتى يكون هو مؤنِسك ومعلِّمك وموضِع شكواك فإن الناس لا ينفعونك ولا يضرونك.

الآن موازنة سريعة بين من يتوكل على مخلوق ومن يتوكل على الله، إذا توكَّلت على مخلوق طالبك بالأجر وقد يخونك وقد لا يُفْلِح وقد يكون أضعفَ من المهمَّة التي وكَّلْتَه بها، أما إذا توكَّلت على الله فإنه يعطيك الأجر، تُوَكِّل إنساناً فيُطالِبك بالأجر وإن كان مخلصاً فقد لا يستطيع، وإن كان يستطيع فهو لا يُخْلِص، وقد يخون وقد ينحاز إلى خصْمِك، أما إذا توكَّلت على الله عزَّ وجلَّ فالله تعالى يعطيك الأجر ويكفيك ويرضيك ويُكرمك.

وفي هذا الحديث الصحيح: «توكل الله بحفظ امرئ، خرج في سبيل الله، لا يخرجه إلا الجهاد في سبيل الله، وتصديق بكلمات الله حتى يوجب له الجنة، أو يرجعه إلى بيته، أو من حيث خرج» [أحمد عن أبي هريرة].

ومن دعوات المكروب: «اللهمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ» [أبو داود عن أبي بكرة].

والنبي ﷺ يخاطب فاطمة يقول: «يا فاطمة ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به؟ أن تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين» [أخرجه الحاكم عن أنس بن مالك].

نصيب المؤمن من اسم الله الوكيل:

أولاً: أن توقن بعلمه، وبقدرته، وبرحمته، وبمحبته، هذا التوكل، واثق أنَّ الله بيده كلُّ شيء، وأنَّ الله قادرٌ على كلِّ شيء، وأنَّ الله يحبُّ أن يرحمك، وأن الله يحبك، عليم، قدير، حكيم، رحيم، شرط التوكل أن تعرفه، فاجتهد أن تعرفه من أجل أن تتوكَّل عليه، هذه مرحلة إيمانية، آمنت به الإيمان الذي يحملك على التوكل عليه.

ثانياً: أن تأخذ بالأسباب، هنا المشكلة الكبرى في العالم الإسلاميّ، توكُّلٌ بلا أخذٍ بالأسباب، المسلمون ينتظرون معجزة يقضي الله بها على عدوهم، هذا مستحيل، لا بد من أن تعدَّ للأعداء عدَّتهم.

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم﴾ [الأنفال:٦٠].

فالتَّوكُّل إيمان بالله، إيمان بقدرته، إيمان برحمته، بعلمه، بحكمته، بمحبته، ثم أخذ بالأسباب وكأنها كلُّ شيء، هذا الأخذ بالأسباب برع به الغربيون، واعتمدوا على الأسباب وألَّهوها، فوقعوا في الشرك، وتركه المسلمون، فوقعوا في المعصية، يجب أن تتوكل عليه بعد أن تعرفه وأن تأخذ بالأسباب.

لا بدّ من التنويه إلى أن التوكُّل محلُّه القلب، أما الأعضاء فينبغي لها أن تسعى.

«إِن الله يَلُومُ على العَجْز» [أخرجه أبو داود عن عوف بن مالك].

التَّوكُّل الحقيقيُّ أن تأخذ بالأسباب وكأنّها كلُّ شيء، ثم تتوكَّل على الله وكأنَّها ليست بشيء، أنت مسافر سفراً طويلاً بمركبتك، ما هو التَّوكُّل؟ أن تراجع هذه المركبة جزءاً جزءاً، المحرك، الزيت، المكابح، أن تراجع كلَّ شيء، وأن تكون جاهزة في أعلى جاهزيّة، وبعد ذلك تقول من أعماق أعماق قلبك: يا رب أنت خير حافظاً، من السَّهل أن تأخذ بالأسباب وتعتمدَ عليها وتنسى الله، أو أن تؤلِّه الأسباب كما يفعل الغرب، ومن السهل أيضاً ألا تأخذ بها وتتوهّم أنّك متوكّل على الله.

النَّبيُّ ﷺ كان من الممكن كما نقله الله نقلة إعجازيّة من مكَّة إلى بيت المقدس على البراق، أن ينتقل إلى المدينة، لكن أعطانا درساً لا يُنسى، هيّأ من يأتيه بالأخبار، هيّأ من يمحو الآثار، هيّأ من يأتيه بالزّاد، غيّر طريقه، أقام في غار ثور أياماً ثلاثة، هيّأ راحلة، هيّأ خبيراً، أخذ بالأسباب كليّة، فلما وصلوا إليه توكَّل على الله، قال: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما» [أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أنس بن مالك].

عليك ألا تتوكَّل توكُّلاً ساذجاً، هناك توكُّل اسمه تواكل، هناك توكُّل الكسالى، وهناك توكُّل الجهلاء، الإسلام يرفض هذا التَّوكُّل، عمر رضي الله عنه لقي ناساً من أهل اليمن، فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن المتوكِّلون، فقال: بل أنتم المتواكلون، إنّما المتوكِّل الذي يلقي حبَّه في الأرض ويتوكَّل على الله عزَّ وجلّ [ابن أبي الدنيا، التوكل].

ثالثاً: أن تستسلم للنهاية، أنت توكلت عليه ثقة وعلماً، وأخذت بالأسباب، الآن الله عز وجل ييسر أو لا ييسر، يسمح أو لا يسمح، يجيب أو لا يجيب، أنت راض عن الله عز وجل، العلم أولاً والأخذ بالأسباب ثانياً، والرضا بقضاء الله وقدره ثالثاً.

عزيزي القارئ، موضوع التوكل موضوع كبير جداً وذكرنا ما ينبغي أن يُذْكر في هذا الحيز المحدود، لكن نرجو الله تعالى أن تُترجم هذه الحقائق إلى مشاعر وتصرفات وإلى مواقف؛ لأن الاستفادة الحقيقية من دروس أسماء الله الحسنى أن نتعامل مع الله

بطريقة أفضل وبمستوى أكبر وأن نتعامل مع الله بمعرفةٍ أساسها الطَّاعة والاستسلام لله عزَّ وجلَّ.

أيها الإخوة: ما من اسم أقرب إلى العبد من اسم الوكيل وهو على كل شيء وكيل، لذلك وكِّلِ الله وارتح ونم وأرح أعصابك ووكِّلْه وابتعد عن هذه المقلقات، فتوقُّعُ المصيبة مصيبةٌ أكبر منها، أنت من خوف الفقر في فقرٍ ومن خوف المرض في مرضٍ، والمتوكِّل على الله عزَّ وجلَّ سوف يرى أنَّ الله كفاه وأغناه وأرضاه.

الرقيب

هذا الاسم ورد في القرآن الكريم منوّناً مطلقاً، غير مضاف، وقد ورد مقترناً بمعاني العلو والفوقية، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾ [الأحزاب:٥٢].

وقد ورد هذا الاسم مقيّداً، في قوله تعالى عن سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة:١١٧].

وفي آية ثالثة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١].

أمّا في السُّنَّة فقد جاء في الحديث الشّريف: «فأقول كما قال العبد الصالح عيسى ابن مريم: وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ

وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ، إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ» [البخاري و مسلم عن ابن عباس].

نستفيد من هذه الآية التي ذكرها النبي ﷺ في حديثه الشريف أن تقييم العباد من شأن رب العباد وحده، فلا تجشّم نفسك متاعب تقييم العباد فهذا من شأن رب العباد.

وعند أبي داود من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه علّمنا خُطبة الحاجة، قال: «علّمنا رسولُ الله ﷺ خُطبَة الحاجة: إنَّ الحمدَ لله. نستعينه ونستغفره. ونعوذ به من شرور أنفسنا. مَنْ يهد الله فلا مُضِلّ له. ومن يُضْلِلْ فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا» [أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي عن عبد الله بن مسعود].

تمهيد عام

لو أنّك التقيت في بيت صديق لك مع رجلٍ لا تعرفه فإنّك تسأله: مَن الأخ الكريم؟ فيقول لك: فلان بن فلان، فهل يكفي هذا لكي تعرفه حقّاً؟ إنك سألت عنه كي تعرف كلَّ شيء، فذكر لك اسمه فقط، تسأله إلى أيِّ مستوى دراسي وصلت؟ وكذلك تحبُّ أن تعرف شيئاً عن ثقافته، أو عن اختصاصه، أو عن سِنِّه، أو عمله، وهل هو متزوج؟ وكم ولداً عنده؟ وأين يسكن؟ فإن عرفت ذلك فقد توفرت لك معرفته شيئاً ما؟ فإذا قلتُ لك: إنَّ الله -جل جلاله- خالق السموات والأرض، فهذا لا يكفي؛ فأنت تحبُّ أن تعرف أسماءه وصفاته، فما من موضوع يعلو على موضوع أسماء الله الحسنى، إذْ رأس الدين معرفة الله عزَّ وجلَّ ولكن كيف تعرفه؟ هل تردد اسمه فقط؟ لا، بل لا بد من أن تتعرف إلى أسمائه وصفاته الحسنى، فلذلك مشروعية هذا البحث أنه لا يكفي أن تعرف أن الله خلق السموات والأرض، فإنَّ هذه الحقيقة يعرفها كلُّ الناس حتى بعض الكفّار، بل عُبّاد الأصنام، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت:٦١].

فالمطلوب ليس أن تعرف أن الله خلق السموات والأرض فحسب، وإنما المطلوب أن تتعرَّف إلى أسماء الله الحسنى؛ فهذه هي مشروعية هذا البحث الذي يُعد في الدعوة إلى الله كالرّأس من الجسد.

والاسم الذي نحن بصدد دراسته الآن هو (الرَّقيب)، فالرَّقيب اسمٌ من أسماء الله الحسنى. وإنَّ المؤمن إذا آمن بهذا الاسم، انعكس هذا الإيمان على سلوكه انعكاساً واضحاً صارخاً؛ فأنت إذا شعرت أنَّك مُراقَب فلا بد من أن تنضبط، فشعور الإنسان بأنه مُراقب، ولو من جهة أرضية، ولو من إنسان من بني جلدته لكنَّه أقوى منه، يجعله منضبطاً، يحسب كلّ حركة من حركاته؛ فكيف إذا أيقنت أنَّ الله جل جلاله هو الرَّقيب! قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء:١].

أيُّها القارئ الكريم، أحياناً تكون العقبةُ عقبةَ معرفةٍ، لأنَّ فطرة الإنسان تُعينه إذا عرف، فحُبُّ السَّلامة، وحُبُّ الفوزِ والكسب في الإنسان، كافِيان لحَملِهِ على طاعة الله فيما لو أيقن أنَّ الله رقيبٌ عليه، فالمراقبة حالٌ ذكره العلماء كثيراً؛ هذا الحال يُشعِرك أنَّ الله معك دائماً، وفي الحديث الشّريف أنّ رسول الله ﷺ قال: «... فقال رجل: و ما تزكية النفس؟ فقال: أن يعلم أن الله عز وجل معه حيث كان» [البيهقي في السنن].

من معاني اسم الله (الرقيب)

الرَّقيب في اللغة، على وزن فعيل بمعنى فاعل. أي الموصوف بالمراقبة، فعله رقَب، يرقُب، رقابة، أمَّا الرَّقابة فتأتي بمعنى الحفظ، والحراسة، والانتظار، مع الحذر والتَّرقُّب.

وفي القرآن الكريم: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي﴾ [طه:٩٤].

الرَّقيب في اللغة بمعنى المُنتظِر، قال تعالى: ﴿وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ٩٣﴾ [هود:٩٣].

﴿ وَٱرْتَقِبُوٓاْ ﴾ أي: انتظروا، فالرَّقيب هو المُنتظِر. ورقيب القوم هو الحارس الذي يُشرف على مراقبة العدوّ. ورقيب الجيش: طليعته. والرَّقيب هو الله الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١ ﴾ [النساء:١].

إذا أيقنت أنَّ الله يعلم، فقد حُلَّت كلُّ مشكلاتك؛ ألم يقل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ۝١٢ ﴾ [الطلاق:١٢].

فالله اختار من بين أسمائه اسمين فقال: ﴿ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ۝١٢ ﴾ فإذا علمت أن الله يعلم، فبدافع فِطرتك، وبدافع حُبك لذاتك، وبدافع رغبتك في السَّلامة والكسب والتفوُّق، تستقيم على أمره.

زرتُ مرَّةً محلّاً تجاريّاً كي أشتري بعض الحاجات فلم أجد حاجتي، فقال لي صاحب المحلّ: حاجتك موجودة ولكن في الطّابق الرابع، فوجدت محاسِباً يجلس إلى طاولة وأمامه آلة تصوير، فقد وضع صاحب المحل جهاز مراقبة عليه، فهذا العامل لا يستطيع أن يتحرَّك ولا أن يأكل ولا أن يتمطَّى لأنَّه مراقَب من طرف هذا الشَّخص، كما أنَّ مديرية المرور تكتب أحياناً: الطَّريق مراقَب ليلتزم السّائقون بالسّرعة المحدّدة، فالمراقبة هي التي تجعل الإنسان يقِظاً حذِراً.

في الإدارات الحديثة صار البناءُ كلُّه وحدة صوتيَّة ومرئيَّة، فبإمكان المدير أن يرى كلَّ الموظفين، دخلت بعض المعامل فوجدت كلَّ الغرف مفصولاً بينها بألواح زجاج فقط، فالمدير العام يرى كلَّ الموظفين؛ ولكنَّ المراقبةَ من الإنسان شيء والمراقبةَ من الواحد الدَّيَّان شيء آخر. لذلك بعض العلماء أشاروا إلى حال المراقبة، المؤمن الراقي يشعر دائماً أن الله يُراقبه، وأنه تحت المراقبة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤ ﴾ [الفجر:١٤].

فالرَّقيب هو المنتظِر؛ والرَّقيب هو الحارس؛ ورقيب الجيش هو طليعته؛ والرَّقيب هو الله تعالى الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء. قال أبو بكر: «ارقبوا محمداً ﷺ في أهل بيته» [رواه البخاري] أي: راقبوا وانتبهوا أن تؤذوه في آل بيته واحفظوه فيهم؛ والرَّقيب كذلك هو الخَلَف يقال: نِعم الرَّقيب أنت لأبيك، هذه كلّها معاني الرَّقيب؛ والترقّب، أي: الانتظار، وارتَقَبه: رَصَده، والرَّقُوب الدَّوام على وجه الحفظ، يقال: رقَبتُ الشيءَ، أرقبه: إذا راعيته وحفظته ورصدته، والرَّقيب من الناس الموكَّل بحفظ المُتَرَقَّب، ويقال للملَك الذي يكتب الأعمال ويحفظ الأقوال: رقيب، وفي القرآن الكريم: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [ق:١٨].

والرَّقيب: العليم، وراقبْتَ الله إذا علِمتَ أنَّه مطَّلع عليك فراعيْتَ حقَّه، هذا كلُّ ما ورد في اللغة عن معنى الرَّقيب ولا بأس من تكرار ذلك لمزيد الفائدة، فهو الذي ينتظر، والحارس، وطليعة القوم، والخَلَف، والرَّاصد، والراعي، والحافظ، والملَك الموَكل بكتابة الأعمال، وحفظ الأقوال هو الرَّقيب.

إذا قلنا: الله هو الرَّقيب؛ فماذا تعني هذه الجملة؟ أي أن الله هو الذي يعلم أحوال العباد ويعُدّ أنفاسهم. والله الذي لا إله إلا هو، وأنت مستلقٍ على فِراشك لو خَطر لك خاطر أنْ غداً سأفعل كذا، يجب أن تؤمن وأن تعلم وأن تعتقد اعتقاداً جازماً قطعيّاً، أن هذا الخاطر اطَّلع الله عليه، ولا يستطيع من العباد أياً كان أن يفعل ذلك، إذْ لو أنَّك رأيت شخصاً مستلقياً على فراشه فلا يمكنك أن تقرأ أفكاره، الله ستر أفكارك وأحوالك عن الناس. والنَّاس لهم الظاهر، لكنَّ الله هو الخبير بالسَّرائر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ [ق:١٦].

إنَّ هذا الاسم من أقرب الأسماء إلى المؤمن؛ إنَّك إن اعتقدت أنّ الله هو الرَّقيب فمن اللوازم القطعية للإيمان بهذا الاسم الاستقامةُ على أمره؛ ومتى استقمت على أمره؛ انتهى كلُّ شيء لقوله تعالى: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾ [النساء:١٤٧].

فيُمكنك عند إرادة حقيقة هذا الاسم أن يكون سبب سعادتك الأبدية، آمنت أنه يراقبك، فاستحييت منه، ولَزِمت أمره؛ فسَعِدت في الدنيا والآخرة. فقد يكون اسم الرَّقيب وحده وأثره الإيجابي فيك سببَ سعادة الدَّارين؛ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ۝١ ﴾ [النساء:١]، فالمؤمن في بيته مُراقَب، وفي عمله مُراقَب، وهو يعالج المريض مُراقَب، وهو يرفع مذكَّرة للقاضي مُراقَب؛ فمثلاً إن كنت محامياً أتقنت عملك ودافعْت عن هذا الموكِّل دفاعاً قوياً، وراجَعت القوانين كلَّها؛ وإن كنت طبيباً عالجتَ هذا المريض معالجة مُتقنة، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ۝١ ﴾ والله الذي لا إله إلا هو لو أنَّ الإنسان عرف الله حقَّ المعرفة، لحاسب نفسه حساباً عسيراً، لأنه تعالى مُطَّلِع عليه.

إذا كان طبق فاكهة موضوعاً أمام جماعة من الناس، أليس من تمام المراقبة أن تؤثر أخاك وتجعل الحبَّة الكبيرة له؟ لأنك تحت مراقبته في تفكيرك وحركتك، لكنَّ الله تعالى لطيف في رقابته ومعاملتك، أحياناً تكون مع شخص فتتضايق نفسك منه، لكنَّ الله معك دائماً، ودون أن يُزعِجك، وهو معك بلطفه فمن أسمائه اللطيف، فهو معك في بيتك، وعملك، وسفرك، وحضَرك، وفي خلوتك، وجلْوتك، ومع زوجتك، وأولادك، وعند كل كلام تقوله معك يراقبك لكنه لطيف.

الرَّقيب في حق الله؛ هو الذي يعلم أحوال الناس ويعدُّ أنفاسهم؛ وقيل: الحفيظ الذي لا يغفل، والحاضر الذي لا يغيب؛ قد تعرف بعض الأشخاص الأقوياء فتكون لديك أرقام هواتفهم، وربما تقع في حرجٍ في وقت ما فإذا اتَّصلت بأحدهم فيقال لك مثلاً: لقد سافر، فيُسقَط في يدك، وذاك هاتفه مغلق، وأنت في أشدِّ الحاجة إليه، فتأكل أصابعك لسوء حظك، لكنَّك لو اعتمدت على الله فهو دائماً معك في السَّراء والضَّراء، قل: يا رب، يقلْ لك: لبَّيْك عبدي. لن تحتاج بهذا إيصالاً أو قَسَماً أو مذكَّرة أو شهادة، قال تعالى: ﴿ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ۝٧ ﴾ [طه:٧].

اعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك؛ هذا مقام الإحسان. فاسم الرَّقيب يرفعك إلى مقام الإحسان، اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، والإنسان

يستحيي؛ في كل أسرة من أُسَرِنا هناك كبير القوم متقدِّم في السِّنِّ ومثقَّفٌ أحياناً، ذو وجاهة ومعتدلٌ وحليم، لو أنَّ هذا الإنسان زارك في العيد، كيف تستقبله؟ كيف تحدِّثه؟ وكيف تجلس معه؟ إنه من عِلْية القوم، فتجد أنك تراقب نفسك في الكلام؛ وتنتقي أفضل الثياب، وتجلس جلسة مؤدَّبة فيها توقير، إذا كان كلُّ هذا مع إنسان مثلِك فكيف مع الواحد الدَّيَّان؟ فكلما ارتقى مقام الإنسان دخل في حال المراقبة مع الله عزَّ وجلَّ؛ فهو الحفيظ الذي لا يغفل والحاضر الذي لا يغيب، العليم الذي لا يَعزُبُ عنه شيء من أحوال خلقه، قال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحاقة:١٨].

الإنسان مكشوف؛ إذ لا شيء يمكنك أن تخفيه عن الله عزَّ وجلَّ، أما عن البشر فأنت تخفي عنهم ألف شيء وشيء، تخفي عنهم ألف شعور، وألف فكرة، وألف قضيَّة، وألف سرٍّ، تبقى صامتاً ولا يعلم أحد شيئاً عنك أحياناً، لكن تكلُّمك وصمتك عند الله سواء، وبَوْحُك وكِتمانك عند الله سيَّان، إعلانك وإخفاؤك عند الله سواء لأنَّه رقيب.

وقيل: الرَّقيب؛ هو الذي يرى أحوال العباد ويعلم أقوالهم؛ وقيل: الذي يراقب عباده، ويُحصي أعمالهم، ويحيط بمكنونات سرائرهم، ولا يغيب عنه شيء. هذا من معاني اسم الرَّقيب، والإنسان إذا تحقق من اسم الرَّقيب، كان في حالٍ آخر، يستحي من الله عزَّ وجلَّ.

وقال بعضهم: الرَّقيب: هو المطلّع على الضمائر، والشَّاهد على السَّرائر، والرَّقيب يعلم ويرى، ولا يخفى عليه السِّرُّ والنَّجوى.

وقال بعضهم: الرَّقيب: الحاضر الذي لا يغيب، بل رقابتُه قديمة مستمرة. ولهذا قيل: الرَّقيب الذي يسبق علمه جميع المحدثات، وتتقدَّم رؤيته جميع المكونات.

إضاءات على الآيات التي ورد فيها اسم (الرقيب)

ومن ثَمَّ فاسم الرَّقيب ذكره الله في القرآن الكريم في ثلاثة مواطن: ففي فاتحة سورة النساء قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا

﴿زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء:١].

والله الذي لا إله إلا هو لو لم يكن في القرآن الكريم إلا الآيتان التاليتان لكَفَتا.

رجل جاء ليتعلَّم من النَّبي ﷺ فانتهى إلى قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة:٧-٨] فقال: يكفيني هذا وانصرف، فقال النبي ﷺ: «انصرف الرجل وهو فقيه»(١).

فوالذي نفسي بيده أكاد أقول: إنَّ هذه الآية وحدها تجعل الإنسان فقيهاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ هل تستطيع أن تكذب مع هذه الآية؟ وهل تستطيع أن تُدلِّس؟ وأن تغُش؟ وأن تحتال؟ وأن توهِم؟ وهل تستطيع إيذاء الخلق؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾، إذا كنت مراقباً من قِبَل مخلوق تجد أنَّك تتجنَّب كلَّ ما يؤدي للهلاك فكيف إذا كنت مراقباً من قِبَل الخالق؟

مقام المراقبة يصل بك إلى سعادة الدَّارين الدنيا والآخرة.

والآية الثانية ذكرت في سورة المائدة على لسان سيدنا عيسى عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة:١١٧].

---

(١) قال العراقي في تخريج الإحياء: أخرجه أبو داود والنسائي في الكبرى وابن حبان والحاكم وصححه من حديث عبدالله بن عمرو قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: أقرئني يا رسول الله... الحديث وفيه: فأقرأه رسول الله ﷺ إذا زلزلت حتى فرغ منها فقال الرجل: والذي بعثك بالحق! لا أزيد عليها أبداً ثم أدبر الرجل فقال رسول الله ﷺ: «أفلح الرويجل أفلح الرويجل» ولأحمد والنسائي في الكبرى من حديث صعصعة عم الفرزدق أنه صاحب القصة فقال: «حسبي لا أبالي أن لا أسمع غيرها».

والآية الثالثة: في سورة الأحزاب، قال تعالى: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴾ [الأحزاب:٥٢].

تُروى قصة مشهورة ذكرها الإمام الرازي: أن أحد الشيوخ كان له جمْع من التلاميذ، وكان قد خصَّ واحداً منهم بالعناية الزائدة، فسأله بقية التلاميذ عن سبب عنايته الزَّائدة به، وذلك لشدَّة غيرتهم من هذا التلميذ الصغير، وقالوا له: لماذا تخصه بهذه العناية؟ فقال: سأبيِّن لكم ذلك؟ أعطى لكل واحدٍ منهم طائراً وقال له: اذبح هذا الطائر حيث لا يراك أحد؛ فمضَى كل واحدٍ منهم إلى جهةٍ ثم رجع إلى شيخه وقد ذبح الطائر، ما عدا ذلك التلميذ الصغير، فقد رجع إلى شيخه والطائر في يده، وقال: أنت يا سيدي أمرتني أن أذبح الطائر حيث لا يراني أحد، ولم أجِد موضِعاً لا يراني الله فيه، فالتفت الشيخ إلى بقية التلاميذ وقال: من أجل هذا خصصته بمزيدٍ من العناية.

أما تستحي منا ويكفيك ما جرى ... أما تخشى من عُتْبنا يوم جمْعِنا
أما آن أن تُقلِعْ عن الذنب راجعاً ... إلينا وتنظر ما به جاء وَعْدنا
فيا خجلتي منه إذا ما قال لي ... أيا عبد سوءٍ أما قرأت كتابنا

نصيب المؤمن من اسم الله (الرقيب)

ذكر الإمام الرازي أنَّ حظَّ المؤمن من اسم الرَّقيب: مراقبة العبد لنفسه وأساسها أن يعلم أنّ الله مطَّلع على نياته وقلبه ودخائل نفسه، وأن يستحضر من مراقبة الله له أنّ الله تعالى معه دائماً، ويراقبه في كل أحواله وحركاته وسكناته وقال: هذه المراقبة مفتاح كل خير، لأنَّ العبد إذا أيقن أنَّ الحق مراقِب لأفعاله، مُبصِر لأحواله، وسامع لأقواله، مُطَّلع على ضمائره وخفاياه، خاف عقابه في كلِّ حال، وهابه في كل مجال، علماً منه بأن الرَّقيب قريب، وهو الشاهد الذي لا يغيب، ولذلك قال أحد العلماء: إن الرَّقيب الذي هو من الأسرار قريب، وعند الاضطرار مجيب.

قال أحد العلماء حينما عقد بحثاً حول مقام المراقبة قال: إن أدب المؤمن مع الله الرَّقيب؛ أن يعلم أن الله رقيبه وشاهده في كل شيء، ويعلم أنَّ نفسه عدوة له، وكذلك الشَّيطان اللعين عدوٌّ متربِّص، وهما ينتهزان منه كل فرصة حتى يحملاه على الغفلة والمخالفة؛ وعليه أن يأخذ حِذره منهما، ويسدَّ عليهما المنافذ والمداخل، حتى لا يقع في فخٍّ واحدٍ منهما، هذا هو أدب المؤمن مع الله في اسم الرَّقيب.

ومن أدب المؤمن في هذا المجال أن يراقب نفسه وحِسَّه وأن يرقب حتى أنفاسه، ويجعل عمله خالصاً لربه بنيَّة طاهرة في أعماله، ويراقب ربَّه في أخيه فلا يُظهر عيْبه.

ويقول ابن عطاء الله السكندري عن اسم الرَّقيب: أفضل الطاعات مراقبة الله على الدوام وفي كل الأوقات.

وقال أبو حفص: إذا جلستَ للناس فكُن واعظاً لنفسك وقلبك ولا يغرنَّك اجتماعهم عليك؛ فإنهم يراقبون ظاهرك، والله رقيب على باطنك.

فالمؤمن الصَّادق؛ يرى أنَّ الله معه، ويراقبه، ويحاسِبه فيَسْتحي منه، فالمحبُّون لله عزَّ وجلَّ لهم أحوال مع الله لا تُوصف، مناجاتهم له وتأدُّبهم معه، فهناك من يتزيَّن قبل أن يصلي لأنه سيقف بين يدي الله عزَّ وجلَّ، قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأعراف:٣١].

وفي الحديث الشَّريف: «إذا صلَّى أحدكم فليلبس ثوبيه، فإنَّ الله أحق من تُزُيِّن له» [البيهقي في السّنن الكبرى عن ابن عمر].

أنا لا أقول هذا انتقاداً لأحد، لكنك تجد بعض الناس يأتي إلى المسجد بأقلّ ثياب عنده، في حين عند أقل حفلة تجده يرتدي أجمل الثياب، المسجد بيت الله، ويوم الجمعة عيد وأنت ضيفه، ومن السنّة الاهتمام بهذا اليوم، بهذا العيد.

يُروى أن عبد الله بن عمر مرَّ بغلام يرعى غنماً فأشار لإحدى الشياه وقال: بعِني هذه الشاة يا غلام، فأجاب الغلام: إنها ليست لي. فقال ابن عمر: قل لصاحب الغنم:

إن الذئب أكل واحدةً منها، فقال الغلام: فأين الله؟ أقول تعليقاً على هذه القصَّة: إنَّ هذا الغلام الراعي وضع يده على جوهر الدين، وأدرك بحسِّه جوهر الدين، ولو أنَّ ثقافته محدودة، فهذا راعٍ وقد تجد إنساناً عنده مكتبة من أربعة جدران، بحيث تعجب لحجمها وتقول: هذا عالِم كبير. فوالله لو أكل درهماً حراماً فلا قيمة لكلِّ هذا العلم؛ ولكنَّ هذا البدويَّ الراعي قال: أين الله؟ نحن بحاجة في هذه الأيام إلى أشخاص كهذا الراعي، بحاجة إلى وَرَع، وإلى مسلم يقيم الإسلام حقيقةً؛ إلى بيت مسلم، وزوج مسلم، وزوجة مسلمة، وأولاد مسلمين، وإلى صدق، وأمانة، وإخلاص دون غش، ولا كذب، ولا تدليس، هذا النموذج وهو ساكت يُعَدُّ أكبر داعية، والذي يصيح في النَّاس صباحاً ومساءً يا أيها الناس اتقوا ربكم؛ وهو لا يتقِّي ربه؛ فهذا أكبر منفِّر؛ فالإنسان المستقيم والملتزم والتَّقيُّ، ولو كان ساكتاً، هو أكبر داعية؛ والفصيح المتكلِّم، والمتحدِّث اللَّبِق؛ والخطيب المفوَّه؛ إن لم يكن ورِعاً، فهو أكبر منفِّر؛ فالقضية عند الله في الصدق، والإخلاص، والتطبيق؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ۝١﴾، هل يمكن لمؤمن يعمل خبَّازاً أن يدخل إلى دورة المياه ولا يُغسِّل يديه بعد خروجه؟ المؤمن لا يفعل هذا؛ لأنَّ العجين سيصبح خطراً على الناس، الأمر الذي جعل المؤمن يتصرف هكذا، هو الوازع الداخلي، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ۝١﴾.

أذكر أنني ألقيت يوماً في المسجد درساً حول الأمانة وقلت: ليس الأمين الذي يؤدي ما عليه إذا كان هناك إيصال، أو سند، أو شهود، أو حساب ثابت، فهذا سلوك مدني، لأنه إذا لم يؤدِّ فالطرف الآخر أقوى منه لوجود السند، ودعوى، وقضاء، وتشهير، أما الأمين عند الله؛ فهو الذي يؤدي ما عليه دون أن يكون مُداناً في الأرض. ولقد جاءتني ورقة وأنا ما زلت في المسجد قال فيها صاحبها: والله يا أستاذ أدّيت عشرين مليون ليرة لورثَةٍ، وهم لا يعلمون عن هذا المبلغ شيئاً إذ مات أبوهم والمبلغ عندي، لأن الله رقيبٌ عليه؛ هذا هو المؤمن، وهناك آباء كثيرون أموالهم في مكان لا يُعلِمون بها أولادهم ولا أزواجهم؛ فإذا مات فجأةً مات معه السّرّ؛ هناك أُناس كثيرون

يعانون من هذا، ويقولون: مات والدنا ولا نعلم عن أمواله شيئاً؛ فالذين لديهم أموال غيرهم إذا كانوا من الذين فقهوا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١ ﴾ سيأتون إلى الورثة بالمال ويقولون: هذا مال أبيكم.

هذا هو الإيمان، الإيمان يصنع المعجزات، لو أننا شعرنا أن الله رقيبٌ علينا لاستقامت حالُنا جميعاً؛ هل يستطيع بقّال مؤمن إذا وقعت فأرة في صفيحة زيت أن يبيع الصفيحة؟ لا يستطيع! هل تستطيع أن تُخفيَ عيب بضاعتك؟ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١ ﴾، هل يمكن أن تضع مادةً مسرطنة لغِذاء حتى ترفع ثمنه؟ لا تستطيع، وهل تستطيع أن تضع هرمونات لنَبْتة كي تكبر بسرعة حتى يكون ثمنها مضاعفاً؟ هذه مادة مسرطنة لا يمكن استعمالها إلا تهريباً؛ لو آمنّا بهذا الاسم لأُلغِيَ الغش من حياتنا جميعاً؛ وهل يستطيع المحامي أن يقدِّم مذكَّرة للقاضي وهو يعلم أن مُوَكِّله كاذب؟ لا يستطيع، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١ ﴾، وهل يستطيع الطَّبيب أن يرى من المرأة موضعاً غيرَ الموضع الذي تتألَّم منه المريضة؟ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١ ﴾، لقد رأيت أطباء ملتزمين يقومون بوضع رداء فيه فتحة صغيرة على المريض كي يُشَخِّصوا موضع الألم فقط، هل تستطيع إن كنت مؤمناً وكنت في بيتك وحيداً، وخرجت جارتك تنشر غسيلها بالشرفة المقابلة لك، وهي بثياب متبذلة، وهي في النور وأنت في الظل ولا يراك أحد؛ هل تستطيع أن تنظر وأنت تتذكر قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١ ﴾.

أخ يحضر مجالسنا وهو يعمل في دائرة؛ كان يحضر مجلس علم قصير في كثير من أيام العمل، وفي آخر الشهر طلب إجازة لمدة ستة أيام من رئيسه وقال: لقد استهلكت هذه الإجازة فقال: كيف؟ قال: لأنّني كنت أحضر في بعض الأيام درساً قصيراً عقب صلاة الظهر فجَمعت هذه الساعات فإذا هي بمُعدَّل ستة أيام؛ فوقع رئيسه في دهشة وإعجاب، من هذا النموذج من الشباب ثم قال لي: والله يا أستاذ: لما قَدِمت لحضور الدَّرس القادم وجدت رئيسي في العمل حاضراً درس المسجد. هذه هي التربية الراقية؛

تقديم طلب إجازة جعل المدير العام يحضر مجلس علم، هكذا الدين كلما ازددت مراقبة الله كنت أكثر ورعاً، وأقول لكم مرّة ثانية: يمكنك أن تكون أكبر داعية في الأرض وأنت ساكت؛ وذلك بأمانتك؛ واستقامتك وإتقان عملك.

هناك أطباء من إخواننا أجروا عمليات معقدة جداً، وبعض العمليات لهم فيها أجر كبير، وبعضها الآخر لا يتقاضون عليها أجراً، أسمع عنهم أن عنايتهم بالفقراء لا تقل فتيلاً ولا قطميراً عن عنايتهم بالذي سيدفع مئتي ألف أجرَ العملية، إذاً بعض العمليات مجانية وذلك لفقر أصحابها، العناية واحدة والإتقان واحد؛ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١ ﴾، وهل يمكن لمدرِّس مؤمن أن يهمل التلاميذ من أجل ضآلة الرَّاتب؟! لذلك هذا الاسم يمكن أن يُطبّق في الكثير من الحالات، إذا آمنتم أن الله رقيب فسينعدم الغش والكذب.

العلماء يرون أنَّ المراقبة حال يصير العبد فيه ذاكراً الله بقلبه؛ إنْ شُغل لسانُه، لأن الله مطلّعٌ عليه دائماً؛ وشعور العبد أن الله مطلّعٌ عليه سموٌّ وارتقاء إلى الله؛ فلتكن أيها القارئ الكريم من أهل المراقبة.

سئل بعض القوم: بمَ يستعين الرجل على غضِّ بصره عن المحظورات؟ ففي الطّريق بعض النساء يُبرزن أحسن ما في أجسامهنَّ وتراهنّ عاريات من الطراز الأول، فكيف تغضّ بصرك؟ قال: لعلْمه أن رؤية الحق تعالى سابقة على نظره؛ علمُك أن الله يراقبك هذا أسبق من نظرك إلى الحرام؛ فبهذا تغض بصرك وتستحي من الله، وكثير من صالحي العباد لا يجتمعون مع امرأة في مصعد واحد، وينتظر عودة المصعد أو يصعد الدرج ماشياً لأنَّ المؤمن عفيف؛ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١ ﴾.

الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك. والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤ ﴾ [العلق:١٤].

قال عبد الله بن المبارك لرَجل: راقِبِ الله تعالى فقال: كيف ذلك؟ قال: كن أبداً كأنك ترى الله تعالى، (اللهم! اجعلني أخشاك حتى كأنني أراك أبداً)، وبعضهم كان

يدعو بهذا الدعاء: إلهي أنت الرَّقيب لحركات الأكوان، العليم بخطرات قلوب الإنس والجان، أشرِقْ على قلبي بنور اسمك الرَّقيب، حتى تتزكى نفسي فتتحلى بالتقريب، وامنحني عيوناً تراقب نِعَمك الظاهرة، وتلاحظ أسرارك الباهرة.

فحال المراقبة حال تام وارتقاء إلى الله، إذا وصلْت إليه أوْصلك إلى الجنَّة، وسعدت في الدنيا والآخرة، لأنَّ من لوازم هذا الحال الاستقامةَ على أمره، والاستقامةُ على أمر الله سبب الجنَّة.

الحسيب

هذا الاسم ورد في القرآن الكريم مطلقاً في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾ [النساء:٨٦].

فالله سبحانه وتعالى من فوق عرشه حسيب باسمه وبصفته، له الكمال المطلق في محاسبته لخلقه، وله الكمال المطلق في علوِّ شأنه، وقد ورد هذا الاسم أيضاً مقيَّداً في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾ [النساء:٦].

من معاني اسم الله (الحسيب)

«الحسيب» على وزن فعيل وهذا الوزن من صيغ المبالغة، والفعل، حَسَبَ، يحسُبُ، حساباً وحُسباناً، ولكن دقة اللغة في حَسِبَ ويحسِبُ، ظنّ، ويظنّ، وفي حسَب يحسُب، عدّ يعُد وفي حسُب يحسُبُ، أي كان ذا حَسَبٍ.

واسم الفاعل حاسب، وصيغة المبالغة حسيب، حينما نصف إنساناً بأنه يحاسِب غيره فهو حاسب (اسم فاعل)، لكنّ الله حسيب.

من معاني الحسيب: المكافِئ، ومن معانيه أيضاً: الاكتفاء؛ والمكافئ هو المثيل، نقول: فلان حسيب فلان، أي: مكافِئه ومثيله ونِدُّه؛ والحسيب أيضاً: الذي يكفي، من الاكتفاء، فالله -سبحانه- هو الكافي تقول: أكرمني فلان وأحسبني، أي: كفاني، وأعطاني فوق ما أريد. وتقول: حسبي الله ونِعْمَ الوكيل، أي: أن الله سبحانه وتعالى كافيني؛ أما حُسبانك على الله: بمعنى حِسابُك على الله؛ فالمعنى الأول: المكافِئ. والمعنى الثاني: الكافي. والمعنى الثالث: المحاسِب. من النِّدِّيَّة والمِثليَّة، ومن الاكتفاء، ومن الحِساب. ويكون معنى الحسيب في حق الله تعالى في أعمق معانيه: الكافي؛ تقول: حسبي الله ونِعْم الوكيل، أي: يكفيني ولا أحتاج إلى غيره. فالعباد كلُّهم لو أطاعوا الله عزَّ وجلَّ، كَفاهم أمر دنياهم وآخرتهم.

والحسيب: هو السيِّد الذي عليه الاعتماد. وليس في الوجود حسيبٌ سواه. فقد تعتمد على إنسان يحبُّك، ولكنَّه ضعيف لا يستطيع أن يُنجيك ممَّا أنت فيه، وقد تعتمد على إنسان قويٍّ، ولكنَّه لا يحبُّك. وقد تعتمد على إنسان قويٍّ ويُحبُّك، ولكنَّك لا تصِلُ إليه.

﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [فاطر:١٤].

فمن اعتمد على غير الله، ضلّ، ومن اعتمد على غير الله، ذلّ. ومن اعتمد على ماله افتقر، ومن اعتمد على عزِّ إنسان، أُذِلّ.

اجعل بربك كل عزِّ ك يستقرُّ ويثبت
فإذا اعتززت بمن يموت فإنَّ عِزَّك ميِّتُ

الحسيب: الكافي. والحسيب: النِّدُّ. والحسيب: المحاسِب. وليس في الوجود حسيب سواه، فأقوى قَوِيٍّ في الدُّنيا لو اعتمدت عليه، ربَّما توفَّاه الله وأنت بأمسِّ الحاجة إليه، وربما تغيَّر عليك فجأةً بلا سبب، وربما تنكَّر لك. لذلك من الشِّرك؛ أن تعتمد على غير الله، كلمة حسبي الله ونِعم الوكيل، أي: أنّ الله يكفيني وهو القويُّ. هو

الرَّزَّاق، هو الغنيُّ، هو العليم، هو الكريم، هو السَّميع، هو المجيب، هو الرَّؤوف، هو الرَّحيم، هو المُعطي، هو المانع، هو الرَّافع، هو الخافض، حسبي الله ونِعم الوكيل، أي: أنّ الله يكفيني.

مثلاً: إذا تعيَّن إنسان بوظيفة دوامها ثماني ساعات، وراتبه الشَّهريُّ ثلاثة آلاف ليرة؛ فهذا لا يكفي للعيش، تجده يبحث عن عَملٍ آخر، وعن طريقة أخرى لكسب المال فهذا المال لا يكفيه، إذاً يبحث عن جهةٍ أخرى. لكنّك إذا اعتمدت على الله كفاك، وأغرقك بالنَّعيم، وطمأنك، كفاك وشَرَّفك، كفاك ورفعك، كفاك وأعزَّك، فكلمة حسبي الله ونعم الوكيل من أفضل الأذكار، وهي من أذكار النبي ﷺ. فإذا سعى الإنسان لجهة ولم يوفَّق فيها؛ ماذا يقول؟ حسبي الله ونِعم الوكيل. وإذا سلك طريقاً ثم رآه مسدوداً؛ فماذا يقول؟ حسبي الله ونِعم الوكيل. والمؤمن يرضى بقضاء ربه، ويعلم علم اليقين أنَّ هذا الطريق ليس في صالح آخرته، لذلك وضع الله أمامه العراقيل والنَّبيُّ ﷺ علَّمنا، فقد كان إذا رأى ما يحبُّ قال: «الحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصَّالحات» وإذا رأى ما يكره قال: «الحمد لله على كلِّ حال» [ابن ماجه، عن عائشة] ليس في الوجود حسيبٌ سواه.

﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ [يونس:٣٢].

إذ إنَّه لا جهة غير الله تُغني، إمَّا أن تكون مع الله فأنت المكتفي، وإما أن تبتعد عنه فأنت في فقرٍ دائم. وأنت من خوف الفقر في فقر. وأنت من خوف المرض في مرض. وتوقُّع المصيبة مصيبةٌ أكبرُ منها. حسبي الله ونِعم الوكيل، وليس في الوجود حسيبٌ سِواه.

وقالوا: الحسيب هو الذي انتهى إليه كل شَرَفٍ في الوجود، وهذا معنى رابع تقول: فلان حسيب نسيب، بمعنى مُشرَّف ومكرّم. فأول معنى للحسيب: النِّدُّ. والمعنى الثاني: الكافي. والمعنى الثالث: المحاسِب. والمعنى الرابع: الشَّريف. يكفيك شَرَفاً أن تنتسب إلى الله، قال تعالى: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ﴾ [إبراهيم:٣١].

ملاحظة: هذه الياء ياء الإضافة وليست ياء النَّسب، ياء النسب كقولك (دمشقيٌّ) نسبةً إلى دمشق، والله أعلم.

وإذا قلنا: ياء نَسَب، أي: منسوب إلى الله عزَّ وجلَّ، أي: نسبة تشريف وتكريم، قال تعالى: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [إبراهيم:٣١].

وقال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان:٦٣].

فأنت منسوب إلى ذات الله عزَّ وجلَّ نسبك الله إليه وشرَّفك وكرَّمك قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء:٧٠].

فالله صانك فلا تتبذّل. ورفعك فلا تسقط. وشرَّفك فلا تسفُل. وأعزَّك فلا تذِلّ. وأعطاك فلا تنصرفْ عنه، ولا ترجُ غيره، ولا تتوجهْ إلى سواه.

وقيل: الحسيب الذي يحاسِب عباده على أعمالهم، وهذا المعنى مرّ قبل قليل؛ يحاسِب الطائعين فيُثيبهم على طاعتِه، ويحاسب العاصين فيُجازيهم على معصيتهم، وهو حسيب كلِّ إنسان، فالله هو المحاسِب، وحسابه دقيق، ويحاسب على أدق الدقائق، وعلى أدق الكلمات، وعلى أدق الذَّرَّات قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة:٧-٨].

وإذا أيقنت أنه سيُحاسبك فلا بد أن تخاف منه، وإذا خِفت منه استقمت على أمره، وإن استقمت على أمره أقبلت عليه، وإن أقبلت عليه سَعِدت بقُربه، وإذا سعدت بقُربه اسْتغنيت عن الدنيا وما فيها بعد أداء الأسباب، ومن عرف الله زهِد فيما سواه. الحسيب: النِّد. والحسيب: الكافي. والحسيب: المحاسب. والحسيب: الشريف. وكل هذه المعاني لها وجوه تليق بجلال الله وذاته.

بعض العلماء ذكر أنَّ الحسيب فيه ثلاثة وجوه: الأول: أنه الكافي، والعَرَب كانت تقول: نزلت بفلانٍ فأكرمني ما كفاني. سألت امرأةٌ يزيدَ بن المهلب أن يُعطِيَها من ماله فأعطاها وأجْزَل؛ فقال له من في حضرته: لقد كان يكفيها القليل وهي لا تعرِفك، فقال هذا الأمير: إذا كان يرضيها القليل، فأنا لا أرضى إلا بالكثير. وإن كانت لا تعرفني، فأنا أعرِف نفسي.

فإن قلت الله حسيب: بمعنى يُعطيك عطاءً عظيماً، إذا عاش الإنسان ثلاثاً وستين سنة، وأطاع فيها الله عزَّ وجلَّ فهو عاش كعُمُر النبي ﷺ وفي الأربعين تاب إلى الله تعالى واستقام فيكون قد أطاع الله تعالى ثلاثاً وعشرين سنة فإنّه يستحقُّ جنَّة إلى أبد الآبدين؛ فما معنى جنَّة إلى أبد الآبدين؟ وما معنى الأبد؟ العقل لا يمكن أن يتصوّر معنى الأبد، ذلك لأنه لا يفهم إلا حجماً معيّناً، ووقتاً معيَّناً؛ أما الأبد فلا يفهمه. بعض المجرَّات تبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئيّة، والضّوء يقطع في الثَّانية الواحدة ثلاثمئة وستين ألف كيلومتر تقريباً، فإذا كان أحدنا في الأرض وافترض أنّ هناك رقم (واحد) في الأرض، وأنَّ هناك أصفاراً إلى هذا النَّجم فما قيمة هذا الرقم؟! هذا الرقم قيمته صفر إذا قيس إلى ما لا نهاية، وهذا الأبد في النعيم ثمنه أن تطيع الله سنوات معدودة فقط، وهذا هو معنى المُعطي فهو يعطي ويُجزل في العطاء. خلقك لجنة عرضها السموات والأرض؛ على أن تُطيعه في هذه الحياة الدنيا. ومن نعمته أنَّه ما حرمك شيئاً وكلُّ شهوة أوْدَعها فيك، جعل لك طريقاً نظيفاً للتَّمتُّع بها، فسبحانه وتعالى ما حَرَمنا النساء بل أمرنا أن نتزوَّج. وما حرمنا المال بل أمرنا بالعمل، وحرَّم عليك الكذب، والزنا، والخمر، والمعاصي التي لا تليق بالإنسان؛ فهذه الطاعات ثمنها الجنّة، إذاً هو الكافي يُعطي فيكفي.

يقول سيدنا علي رضي الله عنه: يا بني ما خيرٌ بعده النار بخيرٍ، وما شرٌّ بعده الجنَّة بشرٍّ، وكلُّ نعيم دون الجنة محقور، وكلُّ بلاء دون النَّار عافية. فالعطاء في الدّنيا لا يمكن أن يُسمَّى عطاءً؛ لأنه ينتهي بالموت، فكلُّ إنسانٍ له قريب وصديق وجار ثم تراه جثة هامدة وبعد ساعتين في القبر. أين غرفة النوم؟ وسيارته ومكانته؟ ومنجزاته؟ كل هذا

انقطع، أيُّها القرَّاء الكرام: لا يمكن أن يُسمَّى عطاء الدنيا بالنسبة إلى عطاء الله في الآخرة عطاءً؛ لأنها عَرَضٌ حاضر يأكل منه البَرُّ والفاجر، والآخرة وعْد صادق يحكم فيه ملِك عادل.

عَنْ سَهْلِ بْن سَعْدٍ قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيا تَعْدِلُ عِنْد الله جَناحَ بَعُوضَةٍ ما سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ ماءٍ» [رواه الترمذي].

هذا كلام مَنْ؟ كلام مَن لا ينطق عن الهوى، فإذا رأى أحدنا بيتاً ضخماً جداً، أو مركبة فخمة جداً، أو بستاناً رائعاً، أو مركزاً تجارياً كبيراً، وقال: هنيئاً له فقد عظّم شيئاً حقيراً، قال تعالى واصفاً قارون ومن اغترَّ به عندما خرج على قومه في زينته: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [القصص:٧٩-٨٠].

فالحسيب: هو الكافي فإذا قلت: حسبيَ الله ونِعم الوكيل؛ يكفيك مؤونة الدنيا والآخرة، ويكفيك كلَّ الهمِّ، مهما ضاقت عليك السُّبُل ومهما أُحْكِمت حولك الحلقات.

ولَــرُبَّ نازِلــةٍ يضـيق لهــا الفتــى ... ذَرْعــاً وعنـــد الله منهـــا المَخــرجُ
ضـــاقت فلــما اســتحكمت حلَقاتهـــا ... فُرِجـــت وكنـــت أظنُّهـــا لا تُفْــرَجُ

وقيل:

كُـــن عـــن همومـــك مُعْرِضـــا ... وَكِـــل الأمـــور إلى القضـــا
وابْشِـــر بخَـــيْر عاجِـــل ... تنســـى بـــه مـــا قـــد مـــضى
فَلَـــرُبّ أمـــر مُسْــخِطٍ ... لـــك في عواقِبـــه رِضـــا
ولـــربما اتســـع المضـــيق ... وربـــما ضـــاق الفضـــا
الله يفعـــل مـــا يشـــا ... ء فـــلا تكـــن مُعْترِضـــا
الله عَـــوَّدك الجميــــ ... ــل فَقِـسْ عـلى مـا قـد مـضى

أنْ تقول: حسبي الله ونِعم الوكيل، وتردد ذلك، هذا ذِكْر بمعنى الله يكفيني. صحّتك بيده، وزوجتك بيده، الأقوياء بيده، والضُّعفاء بيده، ومن فوقك بيده، ومن تحتك بيده، طعامك بيده، ورزقك بيده، فإذا قلت: حسبي الله ونِعم الوكيل، قرَّتْ نفسك وانتهى الأمر.

الثاني: الحسيب، أي: المحاسِب. فالله يحاسِب خلقه يوم لِقائه فهو تعالى يحاسُبهم في الدنيا ليُرَبيهم، ويحاسِبهم في الآخرة ليُجازيهم؛ حساب الدنيا تربية، وحساب الآخرة جزاء. هناك قصص كثيرة أسْمعها من أهل الصّلاح والعلم.

ذكر لي أخ عنده معمل ألبسة، قال: علم أحد إخواننا من المسجد أنَّ عندي معمل ألبسة فطلب مني ستَّ قطع، فاعتذرت منه بطريقة غير لائقة لأنني لا أبيع إلا بالجملة، وكأنني شعرت بالهوان، فالكميَّة التي طَلَبها قليلة ولا تملأ العين، فذكر لي هذا الأخ أنَّه مضى عليه شهر تقريباً ما رأى زبوناً واحداً عنده في المعمل، عقاباً له على هذا الصنيع، والله حاسَبَه على هذا الكِبر وهذا الازدراء للآخرين.

وذكر لي أخ من إخواننا عن إنسان كَبرَ وكبر حتى ملك عدداً كبيراً من الطائرات المدنيَّة والفنادق، ولما تشوّفتْ نفسه، قال: لقد وصلت عالياً وأنا حدودي السماء، ولم يمضِ على كلامه اللحظات حتى سُحب من تحته البساط، وشُدّ الحبل، وقُبضت روحه. فالله يحاسب، وهذا المعنى الثاني. فأول معنى: الله يكافئ. والمعنى الثاني: الله يحاسب. فعلى الإنسان أن يضبط لسانه وجوارحه ودخْله وماله وكلَّ حركاته لأن الله يحاسب (حسيب) والصّواب: أنّه كلّما كبر عقلنا ونما إدراكنا يجب أن يزداد خوفنا من الله، وكلّما صغر المرء أمام ربه فالله يعظِّمه أمام الخلق ويعلي شأنه، وكلَّما صغُرنا وتواضعنا وافتقرنا وأعلنَّا عبوديّتنا لله عزَّ وجلَّ، وقلنا: يا ربّ أنا من دونك لا شيء، أنا من غير علمك جاهل، أنا من دون عونك ضعيف، وأنا فقير، أنا الأدنى يا رب وأنت الأعلى، وأنت الكريم، وأنت الغنيُّ، وأنت القويُّ، وأنت العالم، كلما أعلنت عن ضعفك وافتقارك وعبوديّتك رفعك الله، وكلما قلت: أنا وأنا خفضك الله عزَّ وجلَّ.

ذُكر أن رجلاً في أوروبا قال متحدّياً: إذا حمل هذا الصفصاف إجاصاً عندها أُعزل من مركزي، وبعد أيام عُزل، فجاء الناس ووضعوا ثمار الأجاص فوق الصفصاف. الله حسيب.

من النَّاس من يكون حِسابه يسيراً إذا كان مؤمناً، فهو من أهل النعيم الدائم. ومنهم من يكون حسابه شديداً على الفتيل والقِطمير وهم البعيدون عن الله.

حدثني محامٍ كان موكّلاً في جريمة قتل، قال لي: بعد سنوات عديدة صدر الحكم على هذا المتّهم بالإعدام، قال لي: لمّا أبلغته الحكم تلقّاه بأعصاب باردة، وهو يؤكد لي طوال هذه المحاكمة أنه بريء من هذه الجريمة، قال لي: هذا الوضع أثار فضولي، فأردت أن أحضر إعدامه، الآن بدأت القصة، صعد إلى الخشبة التي سوف يعدم عن طريقها، وقال: أنا بريء من هذه الجريمة، ولكنّي قتلت رجلاً قبل ثلاثين عاماً، كنت رئيس مخفر في أحد أحياء دمشق، وجاء ضابط فرنسيّ أيام الاستعمار الفرنسي، أعطاني رجلاً سينفّذ فيه حكم الإعدام غداً، أودعته في الإسطبل وقفلت الباب، صباح ذلك اليوم افتقدته، فإذا به قد هرب، فمن شدة خوفي من هذا الذي أعطاني هذا الإنسان، أخذت بدوياً من الطريق وبعت ناقته، وأودعت ثمنها في جيبي، ووضعته مكان هذا الرجل، في اليوم الثاني أخذوه وأعدموه، مضى على هذا الحادث ثلاثون عاماً، واتُّهم بجريمة هو منها بريء وانتهت هذه التهمة بإعدامه.

والحسيب هو: الشريف، تقول: هذا بيت حَسَب ونَسَبٍ بالتعبير الشائع. ومن هو الشريف حقيقة؟ هو الذي لا يرتكب المعاصي، ولا يبخل ولا يكذب ولا ينافق ولا يذلُّ ولا يغتاب، فكلما تنزَّه الإنسان عن المعاصي صار شريفاً وليس الأمر كما في بعض البلدان التي تتوارث الشَّرف، بعض الأسر لا يتزوّجون إلا من أشراف أسرتهم أو قبيلتهم، يقول ابن الورديّ:

لا تقـــل أصـــلي وفصـــلي أبـــداً إنـــما أصـــل الفتـــى مـــا قـــد حصـــل

شرف الإنسان بطاعته لله، وفي الحديث الشريف: «شرف المؤمن صلاته بالليل، وعزه استغناؤه عما في أيدي الناس» [رواه الحاكم عن سهل بن سعد، وصححه].

فاعلم إذاً أنّ شرفك بطاعتك لله ولا شيء آخر. فالحسيب هو الشريف. والشريف: الذي له صفات الكمال والجمال والجلال. وبعض العلماء قال: «الحسيب هو الذي يكفي بفضله، ويصرف الآفات بطَوْله»، وقيل: هو الذي إذا رُفِعتْ إليه حوائج قضاها وإذا حكم بقضية أبرمها وأمضاها، وقيل: هو الذي يعد عليك أنفاسك ويصرف بفضله عنك بأسك.

«الحسيب» يحصي أعداد المخلوقات وهيئاتِها، يضبط مقاديرها وخصائصَها، يحصي أعمال المكلفين في مختلف الدَّواوين، يحصي أرزاقهم، أسبابهم، أفعالهم، مآلهم، أحوالهم.

فالله عز وجل حسيب بالمفهوم الشمولي، عليم، حسيب، يحاسِب، وحسابه واقع لا محالة.

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الحجر:٩٢-٩٣].

أتعجب ممن يترنم بكلمة: مسؤول كبير! والله لو علم معناها لارتعدت فرائصه.

يقول سيدنا عمر: والله لو تعثرت بغلة في العراق، لحاسبني الله عنها، لِمَ لم تصلح الطريق لها يا عمر؟

عمر بن عبد العزيز رحمه الله دخلت عليه زوجته فاطمة بنت عبد الملك فرأته يبكي، قالت له: مالك تبكي؟ قال لها: دعيني وشأني، فلما ألحّت عليه، قال: ويحك يا فاطمة إني ولّيت أمر هذه الأمة، فرأيت المريض الضائع، والفقير الجائع، والشيخ الكبير، والأرملة الوحيدة، وذا العيال الكثير، والرزق القليل، والمأسور، والمظلوم، وأمثالهم في أطراف البلاد، فعلمت أن الله سيسألني عنهم جميعاً، وأن خصمي دونهم رسول الله، فخفت ألا تثبت حجتي فلهذا أبكي.

إضاءات على الآيات التي ورد فيها اسم (الحسيب)

قال تعالى: ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٦) ﴾ [النساء:٦].

فإذا كنت وصياً على يتيم وله مال وكنت في حاجة، فلك أن تأكل منه بالمعروف، والعلماء قالوا: «الأكل بالمعروف: أن تأخذ حاجتك أو أجر المِثل أيُّهما أقل»، فإذا كان مع اليتيم مئة ألف وأعْمَلْتها في التجارة ورَبِحت عشرة آلاف تعطي خمسة لصاحب المال وخمسة لك، فأنت إن كان يكفيك أربعة فلا تأخذ خمسة، فإذا كان يكفيك خمسة عشر ألفاً ونصيبك خمسة تأخذ الخمسة فقط، هذا إن كنت فقيراً، أما إذا كنت غنياً فعليك أن تستعْفِف. واذكر ولا تنس من الذي سيُحاسبك؟ ومن الذي يعلم ما إذا كنت غنياً أو فقيراً؟ هناك من تجده يحتمي بمال اليتيم ويضعه في التجارة، فإن ربحت تلك التجارة وضع ماله فيها، وإن لم تربح يبقى ماله بعيداً عن الخسارة، ويدّعي أن مال اليتيم ذهب في التجارة، هذا لا يجوز، والنبي ﷺ قال: «لا تقي مالك بماله» [ابن ماجه، عن عبد الله بن عمرو]، لا تجعل ماله دريئة أو حَقْل تجارب. تجد تُجاراً يتَّجرون بأموال غيرهم، فإن كانت هناك صفقة تجارية ولم يكونوا واثقين منها، اشتغلوا بأموال الآخرين ويقولون لك: هذه قسمة ونصيب، والتجارة رِبْح وخسارة، ولم تربح هذه الصفقة، وإن ربحت أدخَل ماله في هذه الصفقة، فمن الذي يعرف هذه الحقائق؟ هو الله، الحسيب الذي يحاسب، هناك حالات بالتجارة، وهناك حالات علاقة بالنساء، وحالات اجتماعية، فلو كان تعاملك مع أذكى إنسان على الأرض فلن يكْشِف نياتك، ولا تصرفاتك في كثير من الأحيان، ولكنَّ الله يعلم فالخلفيّات الخَفيَّات والحقائق لا يعلمها إلا الله.

عندما يؤمن الإنسان أن الله رقيبُه، يصبح لديه دِقَّة في معاملاته تكاد تكون خياليَّة، ويجعل كل شيء في الحسبان.

فالله هو الحسيب المحاسِب قالوا: لا تُحاسِب، اللهُ المحاسب.

رجل كانت له أخت عانِس تسكن معه في بيته، وكانت زوجته تبالغ في إهانتها، فقال: كنت جالساً مرة على سرير، وزوجته إلى جانبه، وأراد أن يشرب الماء، فرَكَل أخته برجله وقال لها: أحضري لي كأساً من الماء، فبَكت من شدَّة إهانته لها أمام زوجته، وفي اليوم التالي سافر إلى مدينة حَلَب وفي الطريق وقع له حادث سير أُصيب برِجْلِه اليمنى، فقُطعت من أعلى الفَخِذ، لقد كانت الرِّجْل التي ركل بها أخته ليُهينها أمام زوجتِه. فإذا عتا الإنسان وتجبَّر؛ وأكل أموال الناس بالباطل، فالله هو الحسيب الكبير، وكلما ازداد عقلك وإدراكك ازداد خوفك من الله، المؤمن يَنْخَلع قلبه خوفاً من الله.

مرةً قال لي أحدهم متحدّياً: أنا لا أخاف من الله، فأردت أن أُحجّمه وقلت: يا بني الفلاَّح أحياناً يأخذ ابنه الصغير معه إلى الحَقل، ويَضعه بين سنابل القمح، فيمرُّ ثعبان بجانبه فيضع الطفل يده على الثعبان؛ لماذا لا يخاف منه؟ لأنه ليس لديه إدراك؛ فكلما ضعُف الإدراك ضعف الخوف، وكلما ازداد الإدراك ازداد الخوف. وأحياناً تجد الطبيب يُبالغ بغسل الفاكهة وذلك من شدَّة ما يراه كلَّ يوم من الجراثيم والأعراض الإنتانيَّة والالتهابات المعويَّة والإسهالات وأنواع الأمراض؛ فهذا الذي يراه يدعوه إلى المبالغة في التَّنظيف والتَّعقيم؛ فكلما ازداد العلم ازداد الخوف من الله. والله محاسب. وهذا أحد كبار صنَّاع الحلويات في بلد عربيّ، كان يصدِّر طائرة كل اليوم إلى دول الخليج محمَّلةً بالحلويات، دخل يوماً إلى مصنعه ولم يُعجبه صنيع أحد العُمّال، فأخذ تلك العجينة ووضعها على الأرض وعجنها بقدميه ليُعلِّم الصُّنَّاع عرْك العجين، فقال له العامل مُنبِّهاً: إنك تلبس حذاءً، فأجابه: وماذا... على النَّاس أن يأكلوا من تحت قدميّ؟ بعد شهرين قُطعت رجلاه اليمنى واليسرى، وهو الآن مقيم في بريطانيا، والوقائع كثيرة لا تعدُّ ولا تحصى، وأنا أذكر وقائع وأحداثاً عادية، ولو أنَّ الإنسان لديه قدرة على البحث والتنقيب والدرس لرأى العجب العُجاب. اعمل ما شئت؛ واعلم أنَّ حساب الله في الدنيا حساب تربويّ. أما حسابه تعالى في الآخرة فهو حساب جزائيٌّ، في الدُّنيا يحاسب ليُربي أما في الآخرة فإنه يحاسب ليُجازي.

الآية الثانية قال تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (٨٦) ﴾ [النساء:٨٦].

فمشاعر الذين يردُّون التَّحيَّة يعلمها الحسيب وحدَه، هل هي تحيَّة إسلاميَّةٌ دينيَّة أم هي صدرتْ من كِبر أو تواضع أو ردٍّ جميل، أم هي صدرتْ من كراهية أو محبّة أو خداع؟ هناك أشخاص لديهم القدرة على التَّمثيل، قدرة كبيرة جداً، قالوا عن الدبلوماسيَّة: هي التَّعبير عن أسوأ النيات بأجمل الألفاظ. وهي أحد تعريفاتها اللاذعة. من الممكن أن تكون لك ابتسامة شكليَّة، ومصافحة حارَّة وأن تغدر بهذا الذي تصافِحه؛ فهذا السَّلام؛ وراءه محبَّة أو غَدْر؟ أو إخلاص؟ أو انتقام؟ أو طعن في الظَّهر؟ أو كراهية؟ فمن يعرف ويعلم هذه الحقيقة؟ وكلُّ إنسان يقدِر على الابتسامة، ولكنَّ النّيّات لا يعلمها إلا الله، لذلك جاءت الآية الكريمة: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (٨٦) ﴾.

بعد ردّ التحية، طبعاً معظم الناس يلقون السلام ويردّون السلام، لكن النيّات والخلفيّات والحيثيّات وما بين السطور هذه لا يعلمها إلا الله.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) ﴾ [الأحزاب:٣٩].

فإذا خشي الإنسان الله وحده، وتحمَّل المشاقّ، وتجشَّم المتاعب، لأنه خشي الله وحده، وبلَّغ رسالته، ولم يعْبأ برضاء الناس. فمن الذي يعرف حجم تضحيته؟ وحجم ما يعاني؟ طبعاً من السّهولة أن تُرضي النّاس، وأن تنجوَ منهم، وأن تُسْمِعهم ما يحِبّون. لكنّك إذا كنت صادقاً ومُخْلِصاً، ونطقْت بالحق، ولم تأخذك في الله لومة لائم، فربما أتعبك النّاس وثاروا عليك وانتقدوك وطعنوا فيك؛ والله هو الذي يعلم حجم تضحيتك، لذلك قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ (٤٧) ﴾ [الأنبياء:٤٧].

الله يعلم أدّق الأعمال، وأدّق الذّرّات والنّقير، والقِطمير، والفتيل، والنقير: رأس النواة المذبب، والقِطمير: غشاؤها، والفتيل: الخيط بين فَلْقَتيْها، فلا تُظلمون فتيلاً ولا قطميراً ولا نقيراً ولا ذرّة ولا مثقال ذرّة من خردل ولا ظُلم اليوم، وما كان الله ليظلمهم، فالله حسيب، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾ [آل عمران:١٩].

قال تعالى: ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ﴾ [البقرة:٢٨٤].

إن تكلمتَ أو لم تتكلم، وإن أبحتَ أو لم تُبح، وإن ذكرت أو لم تذكر، فالله سبحانه وتعالى سيحاسبك، وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [آل عمران:١٧٣].

فمهما تقلَّب عليك الناس، ومهما اجتمعوا وتآمروا فقل: حسبي الله ونعم الوكيل. فكلُّهم بيد الله عزَّ وجلَّ قال تعالى: ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ ﴾ [هود:٥٥-٥٧].

مهما اجتمع الناس على أن يضروك، وعلى أن يوقِعوا بك الألم، فقل: حسبي الله ونعم الوكيل، أنت أقوى منهم بالله. يكفينا شرفاً هذه الآية: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الأنفال:٦٤].

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [التوبة:٥٩].

من أحبنا أحببناه، ومن طلب منا أعطيناه، ومن اكتفى بنا عما لنا كنا له وما لنا، قل: حسبي الله، يكفيني الله، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ [الطلاق:٢-٣].

يكفيه، فإذا كان لشخص قضيّة في القضاء، وكانت معقّدة، وصارت مداخلات كثيرة، وخصمه قويّ، فإذا قال: حسبي الله ونعم الوكيل؛ فالله هو الذي يدافع عنه، وإذا شعر ببوادر مرض خطرٍ عظيم، وقال: حسبي الله ونعم الوكيل، فالله يزيح عنه المرض قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الشعراء:٨٠].

وهذا من أنواع الذِّكر الرَّاقي جداً. أن تقول حسبي الله ونعم الوكيل، يا ربِّ التجأت إليك، واحتمَيْت بك، واستعنت بك على من يعاديني، وتوكّلت عليك، وأنت حسبي ورجائي وذخري وملاذي.

إن الله عزَّ وجلَّ أمر النبي ﷺ أن يقول: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [التوبة:١٢٩].

وقد أُمرنا أن نقول هذا الذكر سبع مرات. فعن أم الدرداء عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «من قال إذا أصبح وإذا أمسى: حسبي الله لا إله إلا هو، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم، سبعَ مرَّات كفاه الله ما أهمَّه صادقاً كان أو كاذباً» [أبو داود].

وبعد فنحن تطالعنا نقطة دقيقة في الموضوع؛ يقول أحد العلماء: «إن كفاية الرب لعبده أن يكفيَه في جميع أحواله وأشغاله، وأجلّ هذه الكِفايات ألا يُعطيَه إرادة الأشياء»، بل إنّ هذه الكلمة: ربِّ خِر لي واختر لي هي أرقى درجةٍ من أنواع التَّوكُّل. يَسِّر لي ما فيه صلاح في ديني ودُنياي، وهو دعاء الاستخارة، ألم يقل النبي ﷺ ذلك:

عَنْ جابِرِ بْنِ عبدالله رضي الله عنهما قالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُعَلِّمُنا الاسْتِخارَةَ في الأُمُورِ كُلِّها كَما يُعَلِّمُنا السُّورَة مِنَ القُرْآنِ يَقُولُ: «إذا هَمَّ أَحدُكُم بالأمْرِ، فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ

غَيْرِ الفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلِ: اللهمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلا أَقْدِرُ، وتَعْلَمُ وَلاَ أَعْلَمُ، وأَنْتَ عَلامُ الغُيُوبِ، اللهمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هذا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي ومَعاشِي وعاقِبَةِ أمرِي -أَوْ قالَ: عاجِلِ أَمْرِي وآجِلِهِ- فَاقْدِرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فيه، وإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذا الأَمْرَ شَرٌّ لِي في دِيني ومَعاشِي وعاقِبَةِ أَمْرِي -أَوْ قالَ: في عاجِلِ أَمْرِي وآجِلِهِ- فاصْرِفْهُ عَنِّي، وَاصْرِفْنِي عَنْهُ واقْدُرْ لِيَ الخَيْرَ حَيْثُ كانَ، ثُمَّ أَرْضِنِي. قالَ: ويُسَمِّي حاجَتَهُ» [رواه البخاري].

فإذا علم العبد أنَّ الله هو الذي يكفيه، لم يرفع حوائجَه إلا إليه. ويُعاب من يشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم. إذا أيقنت أنَّ الله وحده هو الذي يكفي، فإنّك لا تسْألُ غيره. فإن الله سبحانه وتعالى سريع الإجابة لمن انقطع إليه، إذاً أنت مُتَّجِه إلى الله تعالى بكلِّيتك، ولا تُعلِّقْ أملك بمن دونه فهو سريع الإجابة. وتوكَّلْ في جميع أحوالك عليه. فأمَّا إذا كانت حاجتك في حق الله خيراً محْضاً كطلب الهداية، والاستقامة، والرِّزق الحلال، والكفاية، فهذا الطلب يُجاب فوراً لأنه في حق الله، وأما إذا طلبت الدنيا فهناك وضْعٌ آخر لعلَّها لا تنفعك، لعلها تؤذيك وتُبْعِدك فلذلك قد يجيبك وقد لا يجيبك، فالأدعية المتعلِّقة بالآخرة سريعة الإجابة. ومن علِم أن الله كافيه لا يستوحش من إعراض الخلق ولا يأنسُ بهم.

يذكر أحد العلماء في اسم الحسيب؛ أن من كان الله له حسيباً، كفاه، والكِفاية التي يحتاج الإنسان إليها كفاية دوامِ وجوده، وليس في الوجود شيء هو وحده كافٍ لشيءٍ إلا الله سبحانه وتعالى، يحتاجه كلُّ شيءٍ في كلِّ شيء. ليس في الكون إلا الله وحده هو الذي يكفي كلَّ الخلائق.

فإنَّه وحده كافٍ لكلِّ شيء لا لبعض الأشياء. وحده كافٍ يحصل به وجود الأشياء، ودوام وجودها، وكمال وجودها، فإذا أردت الوجود، ودوام الوجود، وسلامة الوجود، وكمالَ الوجود، فقل: حسبي الله ونعم الوكيل. إذا رأيت أنَّ الرَّضيع يرضع من والدته؛ فاعلم أن الله أودع في قلب هذه الأم الرَّحمة وأسَالَ من ثدييها

الحليب، ولولا ذلك ما كان هذا الطفل مَكْفِيّاً بأمِّه، فإذا بدا لك أن الطفل مكفيٌّ بأمه فهذه كفاية الله له.

نصيب المؤمن من اسم الله (الحسيب)

من أدب المؤمن مع ربه؛ أن يعلم أن الله سيحاسبه غداً على الكبير والصغير، ويطالبه بالنقير والقِطمير، من وراء علم العبد بهذا يحاسِب نفسه إذا عَلِم أنه سيحاسَب، سيحاسِب نفسه قبل أن يحاسبَه غيرُه، ويطالب قلبه بالقيام بالحقوق قبل أن يطالبه سواه، ومتى راقب العبد معنى الحسيب، وتجلّى له نور القريب، انبثق في قلبه نور، فإذا نفسه تُحاسِبه على تقصيره في الطاعة، وتُذكِّره بحساب يوم القيامة.

أرسل رجل مؤمن طعاماً إلى البصرة عن طريق وكيل وقال: بع الطعام بسعر يومه. ولما وصل هذا الوكيل إلى البصرة استدعى التُّجار ونصحوه أن يؤخِر البيع أسبوعاً فقط؛ ويرتفع السِّعر فأخر أسبوعاً وربح أرباحاً طائلة، وبشَّر موكِّله بهذه الأرباح، وجاء الجواب: ادفع الثمن كلَّه لفقراء البصرة فقد دخل على مالي الشبهة؛ فهو حبس الطعام ليزداد سعره فصار مُحتكراً «والمحتكر ملعون» [ابن ماجه، عن عمر بن الخطاب] هذا قول رسول الحسيب ﷺ، وقال: «لا يحتكر إلا خاطئ» [أبو داود، من حديث معمر بن أبي معمر].

غلام لحسان بن أبي سنان كتب إليه أنَّ قصب السكر قد تَلِف فاشترِ السكر، فذهب إلى السوق واشترى السُّكر، وبعدها ربح ثلاثين ألف دينار. وبعد ربحه تذكر أنَّ هذا الذي اشترى منه السكر ما علِم أن السكر أصابته آفة، فباعه بهذا السعر البخس، فقال له: يا هذا قد جاءتني رسالة من غلامي أن قصب السكر أصابته آفة فأَقِلْ هذه البَيْعة، فقال له: أنت الآن قد بلَّغتني، فقال له: كان ينبغي أن أُبلِّغك قبل هذا، وبطلَ شرائي للبضاعة، فقال البائع: قد سامحتك على هذا، فقال: لن أقبل ولا أنام الليل إلا إذا أقلتني من هذه البضاعة.

فكان سلفنا الصالح يحاسبون أنفسهم حساباً عسيراً، وهذا رجل تزوج امرأة ثم تزوج عليها خُفية، فلما عَلِمت الأولى سكتت ثم مات زوجها، فأرسلت نصيب ضرَّتِها

من الإرث، فقالت لها ضرَّتها: والله لقد طلقني قبل أن يموت وليس لي عنده شيء. وذاك الراعي قال له ابن عمر رضي الله عنهما: بِعني هذه الشاة، فقال: ليست لي، فقال له: قل له: ماتت، فقال: والله إني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت له: إنها ماتت أو أكلها الذئب لصدقني، فأنا أمين عند صاحب هذه الشاة ولكن أين الله؟ هكذا كان السلف.

إذا حاسبنا أنفسنا حساباً دقيقا على الزلّات والهفوات وعلى مستوى القِرش والدريهمات، سلمنا وسعدنا. كان عمر بن عبد العزَّيز رحمه الله إذا كلمه شخص بقضية شخصية يُطفئ السِّراج الذي يوقد من بيت المال، وهذا عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه رأى إبلاً سمينة فقال: لمن هذه الإبل؟ فقالوا: هي لابن عمر، قال: ائتوني به، فقال: لمن هذه الإبل؟ فقال: هي لي اشتريتها بمالي الحلال، وبعثت بها إلى المرعى لتسمن، فماذا فعلت؟ فقال عمر: ويقول الناس: ارعوا هذه الإبل فهي لابن أمير المؤمنين، اسقوا هذه الإبل فهي لابن أمير المؤمنين، وهكذا تَسْمن إبِلُك يا ابن أمير المؤمنين، بِعْ هذه الإبل، وخُذ رأس مالك، ورُدّ الباقي إلى بيت مال المسلمين.

وَيُرْوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ وَإِنَّمَا يَخِفُّ الحِسَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا» [الترمذي عن شدّاد بن أوس].

فالله سبحانه وتعالى حسيب يحاسب وحسيب يكفيك؛ يكفيك أمر الدنيا والآخرة، وحسيب يُشرِّفك إذا عرفته ويرفع لك قدْرك، فهذا البحث إن فهمناه وعملنا به، نكُنْ قد استفدنا منه، لأنَّ العلم في الدين ليس هدفاً لذاته، وإنما هو وسيلة لسموِّ النفس بالعمل به، فكلمة حسبي الله ونعم الوكيل تقال عند كل هم وحزن، وعند كل موقف عدواني، أو عند ناس تآمروا عليك فقل: حسبي الله ونعم الوكيل. والله هو الذي يدافع عنك أقوى دفاع، ويرفعك ويُعْلي قدرك وينصرك على خصومك؛ حسبي الله ونعم الوكيل. فالذين عارضوا النبي صلى الله عليه وسلم أين هم؟ في مزبلة التاريخ أبو لهب، وأبو جهل، وأمية بن خلف. والذين أيّدوه ونصروه أين هم الآن؟ في روضات

الجنات، فإياك أن تكون في خندقٍ معادٍ للدين! وأن تتجاوز الحد إياك وإياك! الله عزَّ وجلَّ حسيب ورقيب وخبير. قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام:١١].

وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل:٦٩].

أحياناً المُكذِّب الضالّ المنحرف المعتدي والطاغي يمهِله الله لحكمة يريدها، وأحياناً يبطش به سريعاً لحكمة يريدها، فإذا أُخِّر الجواب وتأخر الجزاء جاءت «ثم» كما في الآية الحادية عشرة من سورة الأنعام، وإن جاء سريعاً ذكرت الفاء التي تفيد التعقيب كما ذكرت في الآية التاسعة والستين من سورة النمل.

ومن أدعية هذا الاسم: إلهي أنت الكافي لمن ركن إليك، القدير والمُتكفِّل لكل من توكل عليك، أنت أسرع الحاسبين، وغوث الطالبين، أشهِدني نور اسمك الحسيب، فأحاسِب نفسي قبل أن أُحاسب، وأُطالبها بالقيام بالواجب قبل أن أُطالب، وحقِّقنا بسِر قولك: حسبنا الله ونعم الوكيل، واجعلني ممن اهتدى سواء السبيل، وخلِّقني بمعنى اسمك الحسيب فأقوم بحوائج إخواني من بعيد وقريب.

ومن ثمرات معرفتك بالحسيب جلّ جلاله أنّه إذا ربَّيت أولادك فاكفِهم، وإن أطعمت الفقير فاكفِهِ، وإن أعطيت زكاة مالك فأعطِ الفقير حتى يكتفي، الإمام الشافعي يرى أن تعطى كفاية العمر كلِّه، وأبو حنيفة يرى أن تعطى كفاية عام. إذا أعطيت فاكْفِ، وأعطِ عطاءً جزيلاً.

يا رب اجعلني ممن اهتدَى سواء السبيل، وخلِّقني باسمك الحسيب فأقوم لإخواني بحوائجهم من بعيد وقريب؛ حتى أتحقق بالشرف والحسب إنك على كل شيء قدير.

الشهيد

هذا الاسم ورد في كثير من النصوص القرآنية كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾ [سبأ:٤٧].

وفي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت:٥٣].

وقد ورد مقيداً في آيات كثيرة كما في قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء:١٦٦].

كما ورد في السنة الصحيحة، في صحيح البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنه مرفوعاً يقول ﷺ: «ألا وإنه سَيُجاءُ برجال من أُمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: يا ربِّ أصحابي، فيقول: إنَّك لا تدري ما أحدثوا بعدَك، فأقول كما قال العبد الصالح: وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ، إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ قال: فيقال لي: إنَّهم لم يزالوا مرْتَدِّينَ على أعقابِهِمْ منذ فارقتَهم» [أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن عبد الله بن عباس].

من معاني اسم الله الشهيد

الشهيد صيغة مبالغة، من اسم الفاعل الشاهد، على وزن فعيل، والفعل شهِد، يشهَد، شهوداً، وشهادة، والشُّهود هم الحضور مع الرؤية والمشاهدة، الحضور الذين رأوا بأعينهم الذي وقع.

فمعنى شَهِدَ، أي: حضر، شهد هذا الحفل فلان، أي: حضره. شهد هذه الصفقة فلان، أي: حضرها. شهد هذه الوليمة أي: حضرها. فالشَّهيد: هو الذي يشهد أي: يحضُر... والذي يحضُر يعلَم، والذي يعلَم يُعلِم.

الشهادة هي الإخبار بما شاهده المرء، شهد فلان على فلان بحق فهو شاهد وشهيد، والشاهد يلزمه أن يبيِّن ما علمه على الحقيقة، وهو واجب يرقى إلى مستوى الفرض.

وفي الحديث: «ألا أُنبِّئكم بأكبر الكبائر - ثلاثاً - قلنا: بلى يا رسولَ الله، قال: الإشراكُ بالله، وعقوقُ الوالدين، وكان متكئا فجلس فقال: وشهادة الزور ثلاثا أو قول الزور» [البخاري عن أبي بكرة].

والشهادة هي الحُكم، فقد جاء النبي ﷺ إلى بيت أبي السائب وهو مسجّى على السرير، فسمع امرأة من وراء الستر تقول: «رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله فقال النبي ﷺ: وما يدريك أن الله أكرمَهُ؟ فقلت: بأبي أنت يا رسول الله، فمن يكرمه الله؟ فقال: أمّا هو فقد جاءه اليقين والله إني لأرجو له الخير. والله ما أدري وأنا رسول الله ما يُفعَلُ بي؟ قالت: فوالله لا أُزَكِّي أحداً بعده أبداً يا رسول الله فأحْزَنني ذلك، فَنِمْتُ، فرأيتُ لعثمان عينا تجري، فجئت رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك، فقال: ذلك عمله» [أخرجه البخاري عن أم العلاء الأنصارية].

فالذي يحكم على الآخرين حكماً قطعياً على مستقبلهم في الجنة أو في النار وقع في معصية كبيرة، سماها العلماء التألّي على الله، اعلم علم اليقين أن تقييم الأشخاص من

شأن الله وحده، وليكن قدوتك سيِّدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المائدة:١١٨].

أما أن الله جلّ جلاله شهيد فهو الرقيب على خلقه أينما كانوا، حاضر، شهيد، أقرب إليّهم من حبل الوريد، يسمع ويرى وهو بالمنظر الأعلى، وعلى العرش استوى فالقلوب تعرفه، والعقول لا تكيفه.

وهو سبحانه فوق عرشه على الحقيقة، وبالكيفية التي تليق به، وشهادته على خلقه شهادة إحاطة شاملة كاملة.

الشَّهيد جلّ جلاله هو الذي شهد لنفسه بالوحدانية والقيام بالقسط، كما قال الله عز وجل: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٨].

الشَّهيد اسمٌ من أسماء الله الحسنى، والنبيُّ ﷺ وهو سيدُ الخلق، وحبيبُ الحق سمّاه الله في كتابه الكريم شاهداً وشهيداً، فقد قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأحزاب:٤٥].

وقال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء:٤١].

والذي يعطي ويهب أثمن ما يملك في سبيل الله، وفي ساحات القتال، يُسمَّى شهيداً... والجود بالنفس أقصى غاية الجود، والله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم حينما حدّثنا عن بذل المال والنَّفس في سبيله قدَّم المال على النفس فقد قال تعالى: ﴿ وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال:٧٢].

في معظم الآيات التي تحدثت عن البذل، جاء بذل المال مقدَّماً على بذل النفس لأنه أسهل، وفي آية واحدة، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم ﴾ [التوبة:١١١].

هنا تقديم أهمية، قضية بيع قطعي فبدأ بالأهمِّ فالمهمِّ.

إذاً...هناك معانٍ ثلاثة تُستفاد من كلمة شهيد؛... حضر، وعَلِم، وأعلَم. فالله سبحانه وتعالى بهذا المعنى شهيد، مع كلِّ مخلوق بعلمه، فقد قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد:٤].

﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾... إن كنتم في أطباق الجو، أو تحت أمواج الماء، أو في الصحراء، أو على ظهر اليابسة، في المدن، في السفر، أينما كنت فالله معك. قال العلماء: هذه معيَّةٌ عامة، أي أنَّ الله جلَّ جلاله مع المخلوقات بعلمه.

وقالوا: وهناك معيَّةٌ خاصة فقد قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنفال:١٩].

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة:١٩٤].

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال:٤٦].

معيَّة الله الخاصة أي: معهم مؤيِّداً، وناصراً، وحافظاً، وموفِّقاً. إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان الله عليك فمن معك؟ فلا أحد معك، أقرب الناس إليك يتنكَّر لك، لكنّ الله معكم مؤيِّداً، معكم ناصراً، معكم موفِّقاً، معكم حافظاً، فقد قال تعالى: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [يوسف:٦٤].

دخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز في المرض الذي مات فيه فقال له: يا أمير المؤمنين! إنك فطمت أفواه ولدك عن هذا المال، وتركتهم عالةً، ولا بد من شيء يصلحهم، فلو أوصيت بهم إليّ أو إلى نظرائك من أهل بيتك لكفيتك مؤنتهم إن شاء الله، فقال عمر: أجلسوني، فأجلسوه، فقال: الحمد لله، أبالله تخوِّفني يا مسلمة؟ أمَّا ما ذكرت من أني فطمت أفواه ولدي عن هذا المال وتركتهم عالة، فإني لم أمنعهم حقاً هو لهم، ولم أعطهم حقاً هو لغيرهم، وأما ما سألت من الوصاة إليك أو إلى نظرائك من أهل بيتي، فإن وصيّي فيهم الله الذي نزل الكتاب وهو يتولّى الصالحين،

وإنما بنو عمر أحد رجلين: رجل اتقى الله، فجعل الله من أمره يسراً ورزقه من حيث لا يحتسب، ورجل غيَّر وفجر فلا يكون عمر أولَ من أعانه على ارتكابه، ادعوا لي بنيّ، فدعوهم، وهم يومئذ اثنا عشر غلاماً فجعل يصعِّد بصره فيهم ويصوِّبه حتى اغرورقت عيناه بالدمع ثم قال: بنفسي فتية تركتهم ولا مال لهم، يا بنيّ! إني قد تركتكم من الله بخير إنّكم لا تمرُّون على مسلم ولا معاهِد إلا ولكم عليه حقٌّ واجب إن شاء الله يا بني ميلت رأيي بين أن تفتقروا في الدنيا، وبين أن يدخل أبوكم النار، فكان أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيراً من دخول أبيكم يوماً واحداً في النار. قوموا يا بنيّ عصمكم الله ورزقكم، قالوا: فما احتاج أحد من أولاد عمر ولا افتقر.

وذكر أن أبا جعفر المنصور قال لعمرو بن عبيد عظني، قال: بما رأيتُ، أو بما سمعتُ؟ فقال: بل بما رأيتَ، فقال: توفي عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- وخلَّف أحد عشر ابناً، وبلغت قيمة تركته سبعة عشر ديناراً، فكفِّن بخمسة دنانير، واشتري له موضع قبره بدينارين، وأصاب كلُّ واحد من أولاده ثمانية عشر قيراطاً، ومات هشام ابن عبد الملك، وخلَّف أحد عشر ابناً فحصل لكل واحدٍ من ورثته مما خلَّفه عشرة آلاف دينار، فرأيت رجلاً من أولاد عمر بن عبد العزيز قد حُمل على مئة فرس في سبيل الله، ورأيت رجلاً من أولاد هشام يسأل الناس.

فالله عز وجل يكون مع المؤمن حافظاً ومؤيِّداً وناصراً وموفِّقاً، وما توفيقي إلا بالله ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤﴾ [يوسف:٦٤] وقال تعالى: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ﴾ [آل عمران:١٦٠].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢﴾ [الأنفال:٦٢].

أيَّد... ونصر... وحفظ... ووفَّق، هذه هي المعيَّة الخاصة، إلا أنَّ المعية الخاصة مشروطة فقد قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ [المائدة:١٢].

إذاً؛ معنى شهيد أي: معك... روي في الآثار أن الله تعالى قال: «يا موسى أتحبُّ أن أكون جليسك؟» قال: كيف ذلك يا رب وأنت ربُّ العالمين؟! قال: «أما علمت أنني جليس من ذكرني، وحيث التمسني عبدي وجدني».

إن ذكرته فهو معك.

كـن مـع الله تـرَ الله معـك ... واتـرك الكُـلَّ وحـاذر طمعـك
وإذا أعطـاك مـن يمنعـه ... ثـم مـن يعطـي إذا مـا منعـك

الشَّهيد مع كل مخلوق بعلمه، ومع المؤمن بتوفيقه، وحفظه، وتأييده، ونصره... فهو شهيد، قال تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾ [طه:٤٥].

فرعون، كان قَتْلُ الإنسان عنده كقتل ذبابة، ولكنَّ الله تعالى قال لكلٍّ من سيدنا موسى وأخيه هارون: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [طه:٤٦].

وكل مؤمن إن شعر أنَّ الله معه، يشعر بقوَّة لا حدود لها.

قال الصديق لرسول الله ﷺ وهما في الغار: يا رسول الله: لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا. فقال: «يا أبا بكر ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما؟» [البخاري ومسلم، من حديث أنس بن مالك] وهي معية الله عز وجل، أفضل الإيمان؛ أن تعلم أنَّ الله معك حيثُ كنت.

إذاً الشَّهيد هو معك... معك علماً إذا كنت مخلوقاً عاديّاً. ومعك حافظاً، وناصراً، وموفِّقاً، ومؤيِّداً، إن كنت مؤمناً، أو صابراً، أو متَّقياً.

من لوازم الشَّهيد؛ أنه يعلم... ومن لوازم الشَّهيد؛ أنه يُعلِم. حَضَرَ، عَلِم، يُعلِم... هو حاضرٌ مع كل مخلوق، في كل زمانٍ ومكان، وهو عالمٌ به.

قال بعض العلماء: «الشَّهيد؛ الأمين بشهادته، الأمين في أداء شهادته» أي: شهادة دقيقة جداً، فالإنسان قد يحضر ويقول لك: والله لم أشعر ماذا فعلوا، كنت معهم ولكني غفلت عنهم. إذا كان الله عز وجل شهيداً فلا تخفى عليه خافية، ولا حركة، ولا سكنة،

ولا خاطر، ولا صراع أبداً، فنفوس العباد مكشوفةٌ له، فقد قال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ [الأنفال:٢٤].

﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦﴾ [ق:١٦].

وبعد، فإلى المعنى الفرعي الآن: الشَّهيد؛ الأمين في شهادته، أي: لا يغيب عن علمه شيء، بالغ الغاية في علمه بالأمور الظاهرة. فهو شهيد حاضر، وشهيد يَعلم، والآن الشَّهيد يُعلِم... فقد قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران:١٨].

هنا السؤال كيف يشهد؟... إنسان من جنس البشر، يشهد لك بلسانه؛ فيقول لك: أنا كنت في المكان الفلاني، وفعلاً حدث ما حدث، يشهد لك بلسانه؛ ولكنَّ الله جلَّ جلاله كيف يشهد لك؟ ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

قيل: عرفت الله بنقض العزائم. الإنسان الغافل الشارد المشرك؛ يأخذ بكلِّ الأسباب ويعتمد عليها، ويظنُّ أنَّ الأمور تجري على ما يريد، ثم يُفاجأ أنَّ الله أبطل كلَّ مسعاه...

ألا ترون في كلِّ مكانٍ وزمان؛ أنَّ الله يشهد لخلقه ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: بالتعبير المألوف -لا حيلة لِذَكِيٍّ مع الله-، النجاح بالتوفيق لا بالذكاء. نجاح الإنسان بتوفيق الله، وتوفيق الله باستقامته على أمره، فالله يشهد.

وأمثلة على ذلك... أب توفِّي وترك خمسة أولاد، أكبر الأولاد أخذ كلَّ الثروة، كيف يشهد الله ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يوفِّقُ المظلومين ويمحق الظالم، أما بحسب قوانين الأرض، فالذي استولى على كلِّ المال يجب أن ينمو كلُّ هذا المال عنده، والذي حُرِمَ منه، يجب أن يعيش فقيراً بائساً، يشهد الله للناس أنَّ الأمر بيده.

هو أخذ المال كلَّه... أتلف الله المال وأتلف صاحبه، والذي حُرِمَ منه وليس له إلا الله وفَّقه الله، وكم من أخٍ استولى على كلِّ الثروة، ثم عمل عند إخوته فيما بعد أجيراً فقد أتلف الله ماله كلَّه!! وعلى هذا فقس، يشهد الله لخلقه ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، فالأمر بيده.

تجد الأقوياء... يأتيهم بأس الله -جلَّ جلاله- ويدمِّرهم جميعاً والضعفاء ينصرهم. الأغنياء إن أدّوا زكاة مالهم، يبارك لهم في مالهم، وإن لم يؤدُّوا الزكاة يُمحق مالهم.

الإنسان أحياناً لا يملك من الدنيا شيئاً، لكن يملك استقامته، فالله عز وجل يكرمه ويعلي مكانه، يرزقه، ينصره، يؤيِّده. فعندما ينصر ربنا إنساناً ضعيفاً وفقيراً، نَصْرُ الله لهذا الضعيف الفقير شهادةٌ من الله لخلقه؛ أنَّ الأمر بيده، ليس بالمال، ولا بالسلطان، ولا بالذكاء، لا بالحسب، ولا بالنسب، ولكن بطاعة الله عز وجل.

وها أنا ذا أوضح معنىً مهمّاً؛ هناك في الحياة قواعد مادية، هذه القواعد المادية تُخرق، فمثلاً: بحسب الحسابات المادية لو أقرضت مئة ألف قرضاً ربوياً واستعدتها مئة وعشرين وهذه حسابات الآلة الحاسبة، فهذا ربح ولكن الله قال: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [البقرة:٢٧٦].

أقرضت إنساناً مئة ألف... وبحسب التضخُّم النقدي رُدّت لك أقلّ بعشرين ألف، لكن ربنا عز وجل بألطافه الخفية يحفظ المال، ويُنمِّي المال، ويحفظ صاحب المال، يحفظ له أهله، وأولاده وصحَّته، ويؤيِّده، ينصره، يوفِّقه، فقد قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ﴾ [البقرة:٢٤٥].

معناها أنَّ الله شهيد أي: يشهد. أي: يحضر، وحاضر، وعالم والآن يُعلم، يُعلمنا أن الأمر بيده، لا بذكائكم ولا بأموالكم ولا بأحسابكم ولا بأنسابكم ولا بتجمعاتكم ولا بكلِّ ما تملكون، الأمر بيد الله، الله مع المحسن ومع الطائع ومع المستقيم ينصره ويؤيده لأنه شهيد ويشهد لنا.

يعني أقرب الأمثلة التاريخية... النبي ﷺ أخرجه قومه إلى المدينة؛ فقريش أقوى قبيلة في الجزيرة... وكذلك فقريش لديها أموال وفيها أبطال وفيها عتاد وفرسان وعدد، والنبي ﷺ ضعيفٌ مستضعف.

لم يستطع إنقاذ عمار بن ياسر من التعذيب يقول: «صبراً آل ياسر فإنَّ موعدكم الجنة» [أخرجه الأصبهاني في حلية الأولياء، عن عثمان بن عفان]. لا يستطيع أن يتدخل، وعندما هاجر هُدر دمه، لمن كانت العاقبة؟

فما معنى أنَّ الله شهيد؟ أي أنَّ قريشاً بخيلها وصولتها وقوَّتها وفرسانها ومؤامراتها، وشدة بأس رجالها؛ دمَّرها الله عز وجل، ونصر النبي ﷺ... وهذا الشيء يتكرر.

أي أنَّك إذا أردت أن تكون أقوى الناس، فتوكَّل على الله. فالله عز وجل شهيد... حاضر، عالِم، مُعلِم... شهيد، يشهد لك.

فمثلاً... تجد شاباً مستقيماً يعرف الله ويخافه، ويتحرَّى الحلال، ويرجو رضا الله، ويخاف سخطه، لا يعصيه، يغُضُّ بصره، يضبط لسانه، يضبط سمعه وبصره، لكنه فقيرٌ، وتجد شاباً آخر ذا قوة ومنعة ومال وأهل ودعم، الله عز وجل ينصر المستقيم، ويُدمِّر المنحرف. ما معنى ذلك؟ إنَّ الله يشهد... ألم يقل الله عز وجل: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الجاثية:٢١].

هذا كلام ربنا، وقال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل:٩٧].

فهذا قانون سماويٌّ، زوال الكون أهون على الله من أن يُضيِّع مؤمناً. إنَّ هذا الإنسان القويَّ الكافر المنحرِف، الذي يخطِّط لمستقبلٍ رائع. تحقيق ما خطَّط له على المدى البعيد يتناقض مع وجود الله؛ لذلك يُفاجأ الإنسان بأحداث مذهلة.

فقِلاع عُمِّرت سبعين عاماً، تهاوت كبيت العنكبوت. أليس هذا من فعل الله عز وجل؟ ليريكم آياته؟ الله شهيد يشهد لنا ﴿ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ العوام يستخدمون هذه الكلمة: «ما في غير الله... الله كبير»، فهذه الكلمات لها مدلول عميق.. يقولون: لا إله

إلا الله، هو المعطي، هو القابض، هو الباسط، هو الرازق، هو الحفيظ...إلخ، فهذه الكلمات لها مدلول عميق، فليس هناك سوى الله، فهناك إنسانٌ قويٌّ جداً ويُؤتى من مأمنه... قال الله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [البروج:١٢].

الشَّهيد: هو الحاضر الذي لا يغيب عنه شيءٌ في ملكه... فقد قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت:٥٣].

قال لي ذات مرة أحدهم كلمة أعجبتني كثيراً قال: الحمد لله على وجود الله، ووجوده يفوّت على أهل المكر مكرهم، فأحياناً تجد إنساناً لئيماً يتجاهل إمكاناتك، يتجاهل عطاءاتك، يتجاهل ميّزاتك، يضايقك ولكنَّ الله شهيد، اصنع المعروف مع أهله ومع غير أهله، إن أصبت أهله أصبت أهله، وإن لم تُصب أهله فأنت أهله.

إذا كنت تعلم أنَّ الله يعلم، فليست هناك مشكلة إطلاقاً. يكفيك أنَّ الله يعلم... فأحياناً يكون للإنسان عملٌ عظيمٌ لكنه لا يظهر. ويُعتَّم عليه بشكل مقصود، فإذا أحضر لم يعرف وإذا غاب لم يفتقد، ولكن الله شهيد.

فإذا كان الله شهيداً، فليست هناك مشكلة... الحمد لله على أنه يشهد كلَّ شيء ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾، فلو افترضنا أنَّ موظفاً... والمدير العام الذي بيده ترفيعه، وزيادة رواتبه، ودعمه، وتقليده المناصب العليا، يعلم إمكانات هذا الموظف، ويعلم عطاءاته، ويعلم دقَّته في عمله، فإذا كان الحاجب لا يعرف... نقول: عرف أم لم يعرف فذلك لا يضيره في شيء.

فأجمل كلمة قالها سيدنا عمر رضي الله عنه عندما جاءه رسولٌ من معركة نهاوند، فقال: حدثني ماذا حدث؟ قال له: والله مات خلقٌ كثير. فقال له: من هم؟ فذكر له بعض الأسماء. فقال له: من أيضاً؟ فقال له: إنك لا تعرفهم. بكى عمر وقال: ما ضرَّهم أني لا أعرفهم إذا كان الله يعرفهم [ابن كثير في تاريخه].

أنت عملت عملاً طيباً، والناس لم يقدِّروك... ولم يقدِّروا عملك ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾، فعلامة المخلص؛ أنه لا يبحث عن تقدير الناس، ولا عن انتزاع إعجابهم، بل يهمّه أنَّ الله يعلم وانتهى كلُّ شيء، لسان حاله يقول: إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي.

هو شهيد حاضر ويعلم... قال العلماء: إذا كان العلم مطلقاً فهو العليم... شهيد يعني عليم علماً مطلقاً، أما إذا أُضيف إلى الأمور الباطنة فهو الخبير، أما إذا أُضيف إلى الأمور الظاهرة فهو الشَّهيد.

الله يشهد ما ظهر، وخبير بما بطن، ويعلم ما ظهر وما بطن.

العلم مطلقاً عليم، العليم بظواهر الأشياء شهيد، وببواطنها خبير.

بعض العلماء يقول: «الشَّهيد؛ الذي لا يغيب عنه شيء، ولا يعزُب عنه مثقال ذرةٍ في الأرض ولا في السماء، مطّلعٌ على كلِّ شيء، مشاهِدٌ له، عليمٌ بتفاصيله».

فأنت أحياناً تلتقي مع مدير عام بمؤسسة يعرف الأمور الكبيرة، أما دقائق ما يجري فلا يعرفها، ويقول لك: ليس عندي علم. لكن مقام الألوهية يقتضي أن يعلم كلَّ التفاصيل، أخفى خواطر الإنسان يعملها الله.

أحياناً الإنسان يعلن عن شيء ويُبطن خلافه. فيزوره شخص ويعلن أنَّ لهذه الزيارة سبباً، كأن يقول: لقد بلغني عنك أنك مريض، ويكون قد أتى في الحقيقة لأن له ديناً عنده، وليطالبه به، فأظهر بذلك شيئاً وأخفى شيئاً آخر... ولكن الله عز وجل يعلم السرَّ وأخفى، يعلم ما أعلنت، ويعلم ما أسررت، ويعلم ما خفي عنك... ما خفي عنك أنت ذاتك والله سبحانه وتعالى هو الشَّهيد؛ لأنه يشهد على الخلق يوم القيامة.

وبعد، فأحدث طريقة في التحقيق أن تصوِّر المخالف وأن تعرض عليه الصورة، فانتهى الأمر بذلك ولا يستطيع أن يتكلم بكلمة واحدة، يقولون له: أنت في الوقت الفلاني وفي الشارع الفلاني خالفت. فلو قلت لهم: لا... لم أكن هناك. أظهروا لك

صورة سيارتك، وهذا هو التاريخ، وهذا هو الشارع. فينتهي كلُّ شيء... فإذا عُرض على الإنسان عمله مصوَّراً، يصمت.

فقال بعض العلماء: «الله شهيد، يشهد لعباده يوم القيامة، يُشهدهم أعمالهم»... وهذا معنى جديد.. يُشهدهم أعمالهم فقد قال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء:١٤].

هذه أعمالك، طلَّقت ظلماً، قبضت هذا المال ظلماً، دلَّست بهذه الصفقة، أخفيت هذا العيب، أكلت هذا المال ولا يحقُّ لك أن تأكله، سهرت في المكان الفلاني، أطلقت بصرك في المكان الفلاني، كلُّ الأعمال، وبالتعبير الحديث أعمالك مسجَّلة على هيئة فيلم ملونٍ وناطقٍ مع التاريخ والساعات والمكان والزمان. ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾... هذا معنى جديد؛ يُشهِدكَ أعمالك يوم القيامة.

لذلك، إن علمت أن الله يراقبك؛ فهذا أكبر دافعٍ لك على طاعة الله... قال الله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأحزاب:٥٢].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحج:١٧].

بالمناسبة؛ هل تصدِّق أنه من أجل أن تعلم؛ أن الله يعلم؛ هو علَّة وجودك على وجه الأرض، فقد قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق:١٢].

في الحقيقة؛ أسماء الله تسعة وتسعون، لكنَّ الله اختار من أسمائه كلِّها اسمين يتعلقان بالعلم والقدرة. إن علمت أن الله يعلم: وأنه سيحاسب، وأنه قوي، لا بد من أن تستقيم على أمره.

أنا أضرب أمثلة كثيرة؛ هل من الممكن وأنت راكب مركبتك والإشارة حمراء، والشرطي واقف معه دراجة، وسيارة الضابطة واقفه وفيها ضابط، والقانون صارم،

والعقوبة شديدة، وأنت إنسان عادي ليس لك قوة... هل يمكن أن تتجاوز الإشارة؟ لا، فهذا شيء مستحيل، إن علمت أن الله يعلم، وسيحاسبك؛ مستحيل أن تعصيه؛ فإن عصيته فلضعف في علمك أنه يعلم، أو لضعف في علمك أنه سيحاسبك، أما إذا أيقنت أنه يعلم وسيحاسبك، لا يمكن أن تعصيه.

لو حللت المعصية تحليلاً علمياً... الإنسان يتجاوز الإشارة الحمراء الساعة الثالثة في الليل يقول لك: لا يوجد أحد لأن الذي يحاسبك لا يعلم، وينطلق بسيارته غير عابئٍ بالإشارة الحمراء إذا كان أقوى من الشرطي ومن رؤسائه، أما إذا كان ضعيفاً، والشرطي يقف أمامه، هل يستطيع أن يتجاوز الإشارة؟ لا، هذا قانون نفسي... أي أنت لو علمت أن الله يعلم، ولا تخفى عليه خافية... وأنه سيحاسبك -لا بد من أن يحاسبك- لا يمكن أن تعصيه، فالله عز وجل شهيد، حاضر، عالم، يُعْلِم.

إضاءات على الآيات التي ورد فيها اسم الشهيد

ذُكِرَ اسم الشَّهيد في القرآن الكريم تسع عشرة مرة... الله سبحانه وتعالى يقول في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾ [النساء:٣٣].

كُلُّ حادث، وكُلُّ أمر، الله عز وجل شهيد، ويعلم، وسيفصل بين خلقه يوم القيامة. فأحياناً يكون الإنسان طليقَ اللسان، ولديه قوة حجّة؛ ولو بالباطل فيقنع الآخرين، مثل هؤلاء إذا كانوا منحرفين في حياتهم وكانوا معتدين على الآخرين؛ الله عز وجل يسلبهم هذا السلاح، يقول تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم ﴾ [يس:٦٥].

الله عز وجل شهيد... وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [فصلت:٢١].

وقال تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣) ﴾ [النساء:٣٣].

فبربِّكم، إذا كنت بحضرة إنسان من علية القوم، فهل تتكلم بأية كلمة أمامه؟ إذا زارك ضيفٌ من علية القوم، وهو شخصٌ محترمٌ، عالمٌ، عميد الأسرة مثلاً، مكانته كبيرة، منصبه رفيع، أخلاقه عالية، أي أنه شخصٌ متفوّق؛ إن في علمه، أو في مرتبته، أو إلى آخر الصفات... فهو ضيفك وأنت أمامه، فهل تتكلّم بأية كلمة؟ هل من الممكن أن تتكلَّم بكلمات بذيئة أمامه؟ أيمكن أن تخاصم أهلك أمامه؟ أيمكن أن تُطلق لسانك بالسباب أمامه؟ إنسان من جنسك ولكن له مكانة، فأنت إذا أيقنت أن اللهَ على كُلِّ شيءٍ شهيد وهو معك فلا يمكن أن تفعل، فأحد أكبر أسباب الانضباط شعور الإنسان أن الله معه... أفضل إيمان المرء أن يعلم أنَّ الله معه حيث كان، ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣) ﴾ أي كان رقيباً عليكم.

وفي آل عمران يقول تعالى: ﴿ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) ﴾ [آل عمران:٩٨].

بعضهم يقول لك: دبَّرت الأمر وعملت كلَّ ما ينبغي وأوقعته في الفخّ، أخفيت عليه العيب، مرّتْ البضاعة بالرغم من العيب الخطير الموجود فيها! يظنُّ نفسه ذكياً، والله عز وجل يقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣) ﴾، ﴿ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) ﴾ أي: شهيد، حاضر، يعلم يُعْلِم، سيجازي، فمعنى ذلك أنك لم تكن ذكياً.

والله آلاف الوقائع والحوادث، إنسان ظن أنَّ هذا العمل يخفى على الله فعله، وظنَّ نفسه ذكياً ثم كُشف ودفع ثمنه غالياً، ولقي جزاء عمله، ودمَّره الله عز وجل، معنى ذلك أنَّه لم يكن ذكياً.

أقول هذا مراراً... الانحراف عدوان؛ فقد يستمر ذلك إلى حين، أما دائماً فلن يستمر، لا بد من أن يكشفه الله، وأن يلقى صاحبه جزاء عمله في الدنيا قبل الآخرة، وهذا من آيات الله، هذا من دلائل قدرته عز وجل، فقد قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [يوسف:٥٢].

سيدنا عيسى -عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والسلام- في سورة المائدة يقول الله سبحانه وتعالى سائلاً إياه ثم يجيب: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المائدة:١١٧-١١٨].

في سورة النساء: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [النساء:٧٩].

فهذا محمد ﷺ، كذَّبوه في الطَّائف، وسخروا منه، وردّوا دعوته، وأغروا سفهاءهم به، آذوه، وضربوه. وجاء بعد الطائف حادث الإسراء والمعراج، رفع الله نبيَّه إلى أعلى عليين، أعلمه أنه سيدُ الخلق وحبيب الحق... قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء:١].

سمع دعاءك ورأى ما جرى لك في الطائف، وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ ﴾ [الأنعام:١٩].

أحيانا الإنسان يجهِّز شهوداً أقوياء، يقول لك: فلان يعرف الموضوع، وفلان كان حاضراً، وفلان معي منه إقرارٌ، وفلان كتب لي تصريحاً، ولكن هناك أقوى من كلِّ هذه الشهادات؛ وهي أن يشهد الله لك أنَّك مستقيم ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ ﴾، إذا شهد الله لك أنك على الحق فهذه أكبر شهادة.

ويقول تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ [يونس:٦١].

وأنت تصلِّي يعلم الله أنك تصلي، وتقرأ القرآن، تسبِّح، تذكر، تستغفر، تغُضُّ البصر، تأمر بالمعروف، كلُّ عملك في علم الله، وهو يشهد عملك... لكن الله يشهد بما أنزله إليك، أنزله بعمله والملائكة يشهدون ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾. يكفي أن الله يشهد، وفي سورة يونس: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي ٱلْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [يونس:٤٣].

وقال تعالى: ﴿ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [يونس:٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [التوبة:٩٤].

وقال تعالى: ﴿ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ [الأنعام:٧٣].

أي: يشهد لما ظهر، ويعلم لما ظهر ولما بطن... وقد قال تعالى: ﴿ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [التوبة:١٠٥].

وقال تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ ﴾ [الرعد:٨-٩].

وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ﴾ [السجدة:٦].

وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الزمر:٤٦].

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الحشر:٢٢].

وقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الجمعة:٨].

ملخَّص هذا الاسم الجليل أن الله معكم أينما كنتم، معكم بعلمه، ومعكم بتأييده، إن كنتم على طاعته، معكم بعلمه، ومعكم بنصره وحفظه وتأييده وتوفيقه؛ إن أقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وآمنتم برسله، وعزَّرتموهم، وأقرضتم الله قرضاً حسناً.

من لوازم أنَّه معكم أنه يعلم ما تفعلون، يعلم ظاهر العمل، وباطن العمل. ونيات صاحب العمل ومؤدَّى العمل، وخلفيَّة العمل، عملك بكلِّ تفاصيله، وملابساته، وخلفياته، وأهدافه، ومراميه، في علم الله عز وجل.

ثم هو يُنبئك عن عملك في الدنيا والآخرة، ينبئك عن ذاته، يشهد لك أنه لا إله إلا هو، أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد.

إذاً شهيد... يعلم، وشهيد... يُعْلِم، ينبئك أنه لا إله إلا الله، وينبئُك عن عملك بحبِّه لك، فإذا كان هناك شخصٌ مستقيمٌ يشهد الله له أنه مستقيم من خلال التوفيق، وإذا كان إنسان ماله حرام، يشهد الله له بأنَّ ماله حرام من خلال التدمير... يدمِّر له ماله. فقد قال تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه:١٢٤].

المعيشة الضنك، شهادة الله للمنحرف؛ بأنَّ هذا القرآن كلامه، ثم هو يشهد لك عن ذاته، وعن أفعاله، وعن كلامه، ويشهد عملك في الدنيا والآخرة، إذاً هو سبحانه حاضر... ويعلم... ويُعْلِم، هذا هو الشَّهيد.

نصيب المؤمن من اسم الله الشهيد

الله هو الشَّهيد يشهد عملك فلا بد أن تكون مخلصاً فيه لوجهه، وعلامة المخلص أن عمله لا يختلف أمام الناس وبينه وبين نفسه، ليس هناك مسافة بين خلوته وجلوته، ولا بين سره وجهره.

المؤمن واضح ولا يوجد عنده موقف مزدوج، موقف معلن، وموقف حقيقي.

المخلص لا يزداد عمله مع المدح، ولا ينقص مع الذم، إن مدحته يبتغي وجه الله، إن ذممته يبتغي وجه الله.

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٦٢].

والمخلص يعود عليه من الله السكينة، رفعت عملاً إلى الله تبتغي فيه وجه الله عاد من الله عليك راحة نفسية، سمِّها سكينة، سمِّها راحة، سمِّها انشراحاً، لأن الله عز وجل حبب إلينا الإيمان، وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر و الفسوق والعصيان.

والله عز وجل يشهد للمخلص إخلاصه، حينما يوفقه، وحينما يسعده، وحينما يأخذ بيده.

ومن تطبيقات هذا الاسم أنّك إذا كنت مدير مؤسسة، مدير مستشفى، مدير جامعة، مدير مدرسة، صاحب شركة، فينبغي أن تكون دقيقاً في جمع الحقائق، ينبغي أن تعلم كلَّ شيء، ينبغي أن تدير هذا العمل إدارة ذكية، ينبغي أن تعرف من حولك، وينبغي أن تحاسب.

أدب المؤمن مع هذا الاسم... إذا علمت أنَّ الله معك، وأنه شهيدٌ عليك، وأنه يسمع كلامك، ويرى حركتك ويعلم باطنك؛ لا بد من أن تتأدب معه. فالأدب مع الله من نتائج إدراك العبد أنه يوقن أنَّ الله على أفعاله شهيد.

العفو

ورد اسم العفُوّ في القرآن الكريم في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ [النساء:١٤٩].

وفي آية ثانية: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء:٩٩].

وفي آية ثالثة: ﴿۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾ [الحج:٦٠].

وفي السّنّة الصّحيحة: «قلت: يا رسولَ الله إنْ وَافَقْتُ ليلةَ القَدْرِ، ما أَدْعُو به؟ قال: قُولي: اللهم إنك عَفُوٌّ كَرِيمٌ تُحِبُّ العَفْوَ فاعْفُ عَنِّي» [الترمذي عن عائشة].

من معاني اسم الله (العفو)

فالله سبحانه وتعالى فتح لعباده باب التَّوبة، هو يعلم أنَّ عباده يصيبون ويخطئون، يُقْبِلون ويُدْبِرون، يُحْسنون ويُسيئون، ذلك لأنَّ الله سبحانه وتعالى ركَّب فيهم

الشهوات، وما ركَّب فيهم الشهوات إلا ليرقوا بها إلى الله، لكنَّ هذه الشهوة إن لم يصحبْها نورٌ من الله عزَّ وجلَّ ومنهجٌ قويمٌ تهتدي به فإنَّها مُدَمِّرة، فالشهوات قوةٌ محرِّكة، أو قوةٌ مدمِّرة.

إذاً لا بد من أن تكون التَّوبة من أجل أن تُرمِّم الخلل، ولو تصوَّرنا أنَّ الله سبحانه وتعالى لم يفتح باب التَّوبة، ووقع مسلم في إساءة فماذا يفعل؟ يزدادُ إساءةً، يفجر، لأنه أَيِسَ من رحمة الله، لهذا يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر:٥٣].

أعظم ما في هذا الدِّين أنَّ الإنسان مهما بلغت إساءته، ومهما بلغت معاصيه ومهما تفاقمت ذنوبه، ومهما شرد عن ربِّه، ومهما انغمس في المعاصي فبمجرد أن يقول: يا ربِّ لقد تُبت إليك. يقول الله عزَّ وجلَّ: لبَّيك عبدي وأنا قبلت.

فباب التَّوبة مفتوح لمن غلبته نفسه، لمن زلَّت قدمه، لمن طُمِست بصيرته، لمن آثر الشَّهوة فباب التوبة مفتوح... ماذا يُكمِّل فكرة أنَّ هذا الباب مفتوح؟ يكمّلها أنَّ الله عفوّ... لولا أنه عفوٌّ ما فتح باب التوبة.

في القرآن آيات كريمة تتحدث عن التوبة، منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾ [النساء:١٧].

الأكمل والأولى والأصحّ والأصوب أنَّه لمجرَّد أن يقع الإنسان في ذنب يجب أن يتوب فوراً إلى الله عزَّ وجلَّ ﴿ مِن قَرِيبٍ ﴾ فكلما قلَّت المسافة الزمنية بين الذنب والتوبة كانت التَّوبة أسهلَ، وكلَّما جهِل الإنسان أنَّ هذا ذنب كانت التوبة أسهل، فإذا علم أنَّه ذنب وفعله، ثم إذا فعله تراخى عن أن يتوب كانت التوبة أصعب، التوبة تسهُل إذا ضاقت المسافة الزمنية بين الذنب والتوبة، وتسهُل إذا رافقها جهل، قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٤)﴾ [الأنعام:٥٤].

لأن الله عفوٌّ كريم فتح لعباده باب التَّوبة، فالإنسان ليس له عذر في التَّراخي عن توبته، فمهما ارتكب من ذنوب فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨)﴾ [النساء:٤٨].

يغفر كلَّ الذنوب دون الشرك بالله ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ وقد قال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)﴾ [الزمر:٥٣].

ولا يعرف قيمة التَّوبة إلا من ذاق طعم التَّوبة، حينما يتوب إلى الله يشعر أنَّ الله قبله، وأنَّ الله أنسى حافظيه والملائكة وبقاع الأرض كلَّها خطاياه وذنوبه.

العفو اسمٌ من أسماء الله الحسنى، مشتق من العَفْو، وهو: القصدُ لتناولِ الشيء.

يقال: عافاهُ... واعتفاهُ، أي: قصده..والعافون: القاصدون، القاصدون باب الكريم يقال لهم: عافون.

والمعنى الثاني: يقال: هذا من عفوِ مالي، أي: من حلاله وأطيبه.

والمعنى الثالث: أعطيته عفواً، أي من غير سؤال.

والمعنى الرابع: عفا مال فلان، أي كثُر.

والمعنى الخامس: العافي هو الذي يمحو ويزيل، ومنه قولهم: عفت الرياح الآثار إذا محتها وأزالتها، والعفو محو الذنوب، وفي الدُّعاء الذي يدعوه ﷺ حين يصبح وحين يمسي: «اللهمَّ إني أسألك العفو والعافية» [أبو داود، وابن ماجه، من حديث ابن عمر]. أي: ترك العقوبة والسلامة.

وفي قاموس تاج العروس: العفو أقلُّ من الصفح، لأنَّ الصفح أبلغ من العفو، والصفحُ لا تأنيب معه، قد أعفو عن إنسان وأؤنِّبه. فقد يعفو إنسان ولا يصفح.

أحياناً يكون للإنسان في جهة من الجهات صحيفة مسجَّلةٌ فيها سيئاته وسلبياته فإذا أُحرِقت، أو شُطبت، أو طُويت، أو أهمِلت، انتهى الأمر وغدا أبيض الصحائف، العفوُّ هو الذي يمحو السيئات.

لذلك فالمؤمن الصادق يُحدِثُ عند كلِّ ذنبٍ توبةً، وكلما ارتقى الإنسان تقِلُّ ذنوبه عدداً وتقلُّ حجماً، فإذا ارتقى أكثر يكادُ يبتعدُ عن مقارفة الذنوب كليَّة إلا ما كان عن غير قصد أو عن زلةٍ لم تكن متعمَّدة.

العفوُّ هو الذي يمحو السيئات، ويتجاوز عن المعاصي، وهو قريبٌ من اسم الغفور، ولكنه أبلغ منه، فإنَّ الغفَّار، يُنبئ عن السّتر، على حين أنَّ العَفُوَّ يُنبئُ عن المحو، ذنب غفره الله ولم يعاقب عليه، هو غفور، أما عفوٌّ فأبلغ من المغفرة فقد أنساه لصاحبه، ومحاه من ذاكرته، محاه من صحائفه.

المغفرة... ذنبٌ وقعت فيه لكن ربُّنا سبحانه وتعالى لم يُعاقبك عليه لأنه غفور، أما العفو فأبلغ من الغفور، فهذا الذنب لعلَّه يؤلِمك، لعلك إذا تذكّرته تستحي من الله، لعلَّه يُقلقك... العفوُّ محا هذا الذنب كليةً من صفحة نفسك. فلو أن صحيفة مملوءة بالذنوب وكل ذنب له عِقاب، نكتب في أسفلها: صاحب هذه الذنوب لا يُعاقب... هذه هي المغفرة، أمَّا أن نأخذ هذه الصحيفة ونمزِّقها ونُلغي وجودها، فهذا هو العفو، فالمغفرة ألا تعاقب على ذنب، أما العفو فأن يُمحى هذا الذنب من صفحة نفسك ومن ذاكرتك، فسيِّدنا يوسف عندما التقى بإخوته الذين كادوا له حينما كان صغيراً، وألقوه في غيابة الجُبِّ، وأرادوا له أن يموت، فعندما التقى بهم ماذا قال؟

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾

[يوسف:٩٢].

هذه مغفرة... لكن عندما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّاۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [يوسف:١٠٠].

﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ ﴾ ولم يقل من الجبِّ، الآن هل غفر لهم أم عفا؟ لقد عفا.. لأنه ما أراد أن يُذكِّرهم بعملهم، فقد تجاهل عملهم كليّةً، لو ذكَّرهم بعملهم ولم يعاقبهم لكان غفوراً، لكنّه لم يذكِّرهم بعملهم إطلاقاً، وهذا من فضل الله عزَّ وجلَّ هو عفوٌّ وغفور؟

أحد العلماء يرى أن العفوَ له معنيان... «المعنى الأول هو المحو والإزالة»... عفت الديار إذا درست، فقد كان العرب ينصبون خيامهم في الصّحراء، وهذه الخيمة يحفرون حولها خندقاً لئلا يدخل الماء إليها إذا هطلت الأمطار، ويسمّون هذا الخندق النُّؤى، فإذا ارتحل العرب من مكان إلى مكان بقيت آثار الدِّيار على شكل مستطيلات، ودوائر، ترمز إلى الخنادق التي حُفرت حول الخيام، بعد حين تأتي الرياح فتعفوها أي تمحو آثارها... وهذا هو أصل معنى العفو.

وعلى هذا فالعفو في حقِّ الله تعالى إزالة آثار الذنوب، أي: تذكُّرها، وتذكُّر الذَّنب قد يحجب عن الرَّبِّ، ولو أنَّ الله لم يُعاقب، لكن لمجرَّد أن تذكر ذنبك تستحي من ربِّك، فمن أسماء الله الحسنى أنه عَفُوٌّ يُنسيك هذا الذنب، وهذه من رحمة الله بنا.

فهل هناك أحد لم يقُل كلمةً غير مناسبة طوال حياته؟ يقول لك: ظللت أسبوعاً كلّما ذكرت هذه الكلمة ذبتُ خجلاً... وبعد ذلك نسيها، فلو أنها بقيت ماثلةً أمامه لأهلكت صاحبها، فمن رحمة الله بنا أنّنا ننسى، والنسيان رحمة كبيرة جداً، فأحياناً يقف موقفاً حرجاً ويتكلم كلمةً غير لائقة، و يسمع كلمة قاسية، جارحة، فيقول لك: لم أنم الليل... فكم ليلةً لم ينم الليل؟ ليلةً واحدة فقط، وفي الليلة الثانية تذكَّرها ولكنَّه نام، وفي الليلة الثالثة نسيها جزئيّاً، وبعد أسبوع نسيَها تماماً.

لو أنَّ المواقف المحرِجة، والكلمات الجارحة، والمواقفَ المهينة التي ساقها الله للإنسان رحمةً به لا ينساها أبداً لأهلكتهُ، لكنَّ الله عزَّ وجلَّ يُنسي، النسيان من العفوّ، ومن دلائل عفوه أنه يُنسيك هذا الماضي.

لذلك فالعفو في حق الله تعالى إزالة آثار الذُّنوب بالكليَّة، فيمحوها الله من ديوان الكِرام الكاتبين، فلو افترضنا أنَّ إنساناً له صحيفة أعمال سوداء، ومن يشرف على هذه الصحائف أراد أن يُكرِمه فماذا يفعل؟ يأتي بهذه الإضبارة فيحرقها أمامه، فلم يبقَ أصل لهذه الذنوب فقد انتهت إلى فناء، وهذا للتقريب.

فالله سبحانه وتعالى يمحو ذنوب العبد التائب من ديوان الكرام الكاتبين، أي: الملائكة الذي يكتبون، ولا يُطالبه بها يوم القيامة، ويُنسيهم إياها، حتى من جذر قلوبهم كي لا يخجلوا عند تذكُّرها، ويُثبِّت مكان كلِّ سيئةٍ حسنة قالْ تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان:٧٠].

المعنى الثاني في حق الله تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَاۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة:٢١٩].

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَۗ ﴾ العفوَ، أي: الفضل، فالله عزَّ وجلَّ يمحو ذنوب عباده ويتفضَّل عليهم بفضله، هذا أسموه التخلية والتحلية، التَّطهير والتَّعطير، العفو والرحمة، يمحو ويُكرم، يطهِّر ويعطِّر، يشفي ويزكِّي... إذاً للعَفْو معنيان؛ معنى سلبي، ومعنى إيجابي، السلبي المحو، والإيجابي العطاء.

أحياناً يغسل الإنسان كأساً لها رائحة كريهة مثلاً، أو فيها بقايا طعام، أو بقايا شراب، فإن غسلها جيداً وبعد أن غسلها ملأها شراباً طيِّباً فهذا من معاني العفو... فالعفو لا يعني أنه محا الذنوب، وستر العيوب فقط، لا... بل أعطاك من فضله ما شاء

فوق ما محا، هذا معنى جديد للعفو، أي: عفا محا، وعفا أعطى، هذا من عفوِ مالي... أي: حلالهِ وطيِّبِهِ، أعطيته عفواً... أي من دون سؤال، فمن معاني العفو العطاء، والمعنى السلبي المحو، والمعنى الإيجابي العطاء.

وقال بعضهم: «العفو هو أن تزول عن النفوس ظلمة الزلاَّت برحمته، ووحشة الغفلات عن القلوب بكرامته»، وقيل: «العفو الذي أزال الذنوب من الصحائف، وأبدل الوحشة بفنون اللطائف»... إزالة، وعطاء.

أحد الأئمة يقول: «العفوُّ هو الذي يمحو آثار الذنوب، ويُزيلها بريح المغفرة، فهو يمحو الذنوب من ديوان الحفظة، حتى إنّه يُنسيها من قلوبهم ومن قلوب المذنبين... أو هو الذي يترك المؤاخذة على الذنوب ولا يُذكِّر بالعيوب».

هذه كلُّها من معاني العفو... فما عليك إلا أن تقول يا رب لقد تُبت إليك... فإذا قال العبد: يا ربِّ وهو راكع. قال الله: لبَّيك يا عبدي. وإذا قال العبد: يا ربِّ وهو ساجد. قال: لبَّيك يا عبدي، فإذا قال العبد وهو عاصٍ: يا ربِّ تبتُ إليك وأنا عاصٍ. قال: لبَّيكَ ثم لبَّيك ثم لبَّيك.

فلتوضيح الفكرة... الأب إن كان عنده أولاد أبرار طائعون وواحد منهم كان شارداً وعاقاً، فَفَرَحُ الأب برجوع ابنه إليه وتوبته إليه أضعاف مضاعفة عن فرحه بهؤلاء الأبرار، لأنهم سلكوا الطريق الصحيح وانتهى الأمر إلى خير، أما هذا الشَّارد فيتألَّمُ الأب له أشدَّ الألم، فإذا عاد فرح الأب بعودته، ومن هنا روي عنه ﷺ: «وَاللهِ للهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالفَلَاةِ وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ» [مسلم عن أبي هريرة].

وفي الحديث: «يُدنى المؤمن من ربه حتى يضَع عليه كنَفَه، فيقرِّرُه بذنوبه: تَعْرِفُ ذَنْبَ كذا وكذا؟ فيقول: أعرف ربِّ، أعرفُ، فيقول سَتَرْتُها عليك في الدنيا، وأغْفِرُها لك اليومَ، ثم تُطوى صحيفةُ حسناته» [البخاري عن ابنُ عمرَ].

إضاءات على بعض الآيات التي ورد فيها اسم (العفو)

اسم العفوُّ ورد في القرآن الكريم في آياتٍ كثيرة، ومن هذه الآيات قال تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء:٩٩].

كلمة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾... أو ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [النساء:١٧]. هذه الكينونة تفيد أنَّ أسماء الله الحسنى قديمةٌ قدم الله عزَّ وجلَّ منذ أن كان الله كان عفوّاً غفوراً... منذ أن كان الله كان عليماً -حكيماً... منذ أن كان الله كان على كل شيءٍ قديراً، أي أنَّ أسماءه متلازمةٌ مع وجوده.

وقال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء:١٤٩].

وقد قيل: تخلَّقوا بكمالات الله. فإذا كان الله عفوّاً فيجب أن تكون أنت عفواً، إذا كان الله حليماً يجب أن تكون أنت حليماً فقال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ أي أنت ما تقرَّبت إلى الله بمثل أن تتخلَّق بكمالات الله.

وفي سورة الحج قال تعالى: ﴿۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾ [الحج:٦٠]، أي: حينما يُظلَم الإنسان.

وفي سورة المجادلة قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [المجادلة:٢].

هل أدركتم حكمة تلازم اسم العفوّ مع الغفور كثيراً؟ الغفور لم يعاقبك، أما العفو فقد أنساك الذنب كلَّه، وهذا منتهى الإكرام ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾﴾.

قال العلماء: ورد اسم العفوّ مع اسم الغفور، وورد مع اسم القدير، ولله المثل الأعلى فالإنسان أحياناً لا يستطيع أن يعفو، فهناك من هو أقوى منه يحاسبه ويؤاخذه، فإن كان هناك من لا يستطيع أن يعفو، فإن الله عزَّ وجلَّ قال: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾... أي: قدير أن يعفو عن كلِّ الذُّنوب، فقد قال تعالى: ﴿ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ ﴾، ولذلك ورد في قوله تعالى على لسان سيدنا عيسى: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المائدة:١١٨].

أي: أنَّك لو غفرت لهم فلا تستطيع أيَّة جهة في الكون أن تسأل: لِمَ غفرت لهم؟ لأنَّ الله سبحانه وتعالى إلهٌ عظيم، ومن شأن الإله العظيم ألا يُسأل عما يفعل، فالله وحده قديرٌ أن يعفو عنك دون أن يُسأل.

وهناك نقطة بالغة الأهمية في طريق الإيمان، يقول لك إنسان أحياناً: أنا قد تبت إلى الله من هذا الذَّنب، لكن عندما تكون هناك توبة عقب توبة ويعقبها توبة عن الذَّنب نفسه، فتضعف ثقة الإنسان بنفسه، وربما وقعت بينه وبين الله جَفوة، والإنسان حكيم نفسه، فإذا وقع انهدامٌ بينه وبين الله، أو جفوةٌ بينه وبين الله فما العمل؟ أمعنوا النظر فيما سأقوله:

إنسان ارتكب إساءة في حقِّ إنسان، فما دامت هذه الإساءة قد ارتكبها ولم يستسمح فهي حجابٌ بينه وبين هذا الإنسان، لو أنه قدَّم له هديةً ثمينة ففي الأعمِّ الأغلب أنَّ هذه الهديَّة تُنسي الذي أساء إليه تلك الإساءة، فماذا حدث؟ حدث ترميم وجبر، وإعادة توازن، وإعادة علاقات، وحدث محو... وهذا معنى مهم جداً ويحتاج إليه كلُّ مؤمن.

قال ﷺ: «اتَّقِ اللهَ حيثُما كُنتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ» [الترمذي، عن أبي ذر].

السيئة هل ينبغي أن نتوب منها أم نتبعها بحسنة؟ فأحياناً الإنسان يقع في الذنب نفسه مرةً أو مرتين، ففي المرة الثانية يخجل ولو تاب، فما الذي يُذهب عنه الخجل؟ أن

يُتبعها بحسنة. فعوِّدوا أنفسكم أيها المؤمنون أنَّ كلَّ ذنب وقعت فيه عن غير قصدٍ بإمكانك أن تتبعه بعملٍ صالح، وهذا العمل الصالح يُنسي صاحبه هذا الذنب، واعتقد أن العمل الصّالح الذي قام به سيفرحه.

فإذا أحرم الإنسان عند الحج بعمرةٍ ثم تمتَّع إلى الحج، فعليه هدي جبرٍ، أما إذا جمع بين الحج والعمرة قارناً فعليه دم شُكرٍ، لأنَّ الله قد قوّاه ومكَّنه من أن يعتمر ويتابع إحرامه إلى الحج ثم يحُجّ، وهذا قارن وعليه دم شكرٍ، أما إذا اعتمر ثم تحلل من عمرته ولبس الثياب المخيطة وتعطَّر وأكل وشرب وحلق رأسه واغتسل وقصَّ شعره وأظافره، وفي اليوم الثامن من ذي الحجة أحرم بالحج، فيقال هذا متمتِّع، والمتمتِّع عليه هديٌ، هديُ جبرٍ... والقارن عليه هدي شُكرٍ... وسائر الكفَّارات في الإسلام هدفها أنَّ هذا الشرخ الذي وقع، وهذه الهوَّة، واختلال التوازن الذي وقع يرمَّم بهذه الصدقة.

وقد ورد أنَّ الإمام أبا حنيفة رحمه الله تعالى ألزم نفسه أن يتصدق بدينار ذَهَبٍ عن كلِّ يمينٍ يحلفها صادقاً بها، لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿ وَاحْفَظُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [المائدة:٨٩].

فأهم شيء في هذا البحث أنَّ الله عزَّ وجلَّ عفوّ، وغفور، فالغفور لا يُعاقب... والعفو يُنسي الذنوب، لكن حينما تزلُّ القدم بك مرةً أو مرتين في الذَّنب نفسِه ينشأ بينك وبين الله حجاب، وهذا الحجاب ما الذي يَهتكه؟ العمل الصالح.. فعوِّد نفسك أن تعمل العمل الصالح كلَّما غفلت، أو أخطأت، أو تسرَّعت، أو تكلَّمت كلمةً قبيحة، أو فعلت شيئاً لا يُرضي الله عزَّ وجلَّ.

لذلك قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [هود:١١٤].

وعَنْ أبي ذَرٍّ أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «سِتَّةَ أيَّام ثُمَّ اعْقِلْ، يا أبا ذَرٍّ مَا أقولُ لَكَ بَعْدُ» فَلَمَّا كَانَ اليَوْمُ السَّابعُ قَالَ: «أُوصيكَ بتَقْوى الله فِي سِرِّ أمْرِكَ وَعَلانيَّتِهِ، وإذا أَسَأْتَ فَأَحْسِنْ، وَلا تَسْأَلَنَّ أحَداً شَيْئاً وَإنْ سَقَطَ سَوْطُكَ، وَلا تَقْبِضَنَّ أمَانَةً، ولا تَقْضِ بين اثنين» [أخرجه أحمد في مسنده].

وعَنْ مُعاذِ بْنِ رِفاعَةَ بْنِ رَافِعِ الأنْصَارِيِّ عَنْ أَبيهِ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ قالَ: سَمِعْتُ أبا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رضي الله عنه يَقُولُ عَلَى مِنْبَرِ رَسُولِ الله ﷺ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ، فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ حينَ ذَكَرَ رَسُولَ الله ﷺ، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ، ثُمَّ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ فِي مثل هَذَا القَيْظِ عَامَ الأَوَّلِ: «سَلُوا اللهَ العَفْوَ وَالعافِيَةَ وَاليَقِينَ فِي الآخِرَةِ وَالأُولَى» [أخرجه أحمد في مسنده].

وكان سيِّدنا عمر رضي الله عنه إذا أصابته مصيبةٌ كان يقول: الحمد لله ثلاثاً، الحمد لله إذ لم تكُن في ديني، والحمد لله إذ لم تكُن أكبر منها، والحمد لله إذ أُلهمتُ الصبر عليها.

نصيب المؤمن من اسم الله (العفو)

وبعد هذا الشرح الواضح فمن التخلُّق بأخلاق العفو... أن تعفو عمن ظلمك، وأن تُعطي من حرمك، وأن تصل من قطعك، هذه أخلاق المؤمنين فقد قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت:٣٤-٣٥].

سيِّدنا الصديق... إنسان افترى على ابنته السيدة عائشة رضي الله عنها كذباً في حديث الإفك... فهل هناك إساءةٌ أشدُّ من أن يُسيء الإنسان إلى عِرض أخيه، وهي بريئةٌ وطاهرةٌ وعفيفةٌ؟ ومع ذلك روَّج مِسْطَح هذه القصة وأشاعها في المدينة، وتأخَّر

الوحي في تبرئة السيدة عائشة ثلاثين يوماً، والنبيُّ ﷺ لا يدري ماذا يفعل، وسيدنا الصديق كان يُحسن لهذا الإنسان، فلما وقع في هذه الإساءة الكبيرة الإجرامية نوى أن يَكُف عن الإحسان إليه، فجاء قول الله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النور:٢٢].

فقد ورد في الأثر:

عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الإفْكِ مَا قَالُوا فبرّأها اللهُ مِمَّا قَالُوا كُلٌّ حَدَّثَنِي طَائِفَةً مِنَ الحَدِيثِ فأنْزَلَ اللهُ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ ﴾ العَشْرَ الآياتِ كُلَّها فِي بَرَاءَتِي، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَكانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ لِقَرابَتِهِ مِنْهُ: وَالله لا أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئاً أَبَداً بَعْدَ الذِي قَالَ لِعائِشَةَ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ الآيَةَ، قالَ أبو بَكْرٍ: بَلَى وَالله إِنِّي لأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي فَرَجَعَ لى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ وَقَالَ: وَالله لا أنزِعُها عَنْهُ أَبَداً [البخاري: ٦٦٧٩].

وعاد إلى ما كان عليه وهذا شيء عظيم، إنسان روَّج الخبر السَّيِّئ عن ابنته وأرجف في المدينة، ثم يُعاتبه الله لماذا كفَّ عن مساعدته؟ هكذا أخلاق المؤمنين... ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ﴾.

الحقيقة أنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يأمرنا أن نعفو عن المسيء فحسب، بل أمرنا أن نُحسن إليه، فقد قال تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤].

﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾.

وكذلك الآية الكريمة: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي

بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت:٣٤-٣٥].

من كان حظُّه عظيماً من الاتصال بالله عزَّ وجلَّ فليحمد الله كثيراً، فسبحان الله عندما يعفو الإنسان عن أخيه يملأ الله قلبه أمناً وإيماناً، أما حينما ينتقم منه فإن الله يملأ قلبه خوفاً وجفوةً، فالمنتقم يعاقبه الله عزَّ وجلَّ، باللعنة والطرد من رحمته وجفوة قلبه والقلق الذي يأكل قلبه، أما الذي يعفو يملأ الله قلبه أمناً وإيماناً فما دمت قد عفوت عنه اشتريته، ولأن يربح الإنسان إنساناً خيرٌ له من أن يربح الدنيا وما فيها.

فالإنسان حينما تعفو عنه تربحه... فسيِّدنا محمّد ﷺ أمر بقتل بضعة أشخاص يوم فتح مكة لأنهم أساؤوا إساءةً ما أساءها أحدٌ قبلهم إلى الإسلام وإلى دين الله عزَّ وجلَّ، منهم عكرمة بن أبي جهل [السيرة النبوية لابن هشام: ٤/ ٤١]... ثم جاء عكرمةُ مسلماً تائباً مستغفراً، فالنبي ﷺ بالغ بإكرامه، وقال له: «مرحباً بالراكب المهاجر» قال ذلك ثلاث مرات [أخرجه الحاكم في المستدرك، والترمذي، عن عكرمة بن أبي جهل].

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله كم نَعفُو عن الخادم؟ فَصَمَتَ، ثم أعاد عليه الكلام، فصمت، فلما كانت الثالثة قال: «اعفُ عنه في كل يوم سبعين مرة» [أبو داود عن عبد الله بن عمر].

أنا أرى أن الإنسان إما أن يكون إنسانياً أو عنصرياً، معنى عنصريّ أي يرى لنفسه ما ليس لغيره، ويرى على غيره ما ليس عليه، فهذا الخادم إنسان له مشاعر، له كرامة، له حاجات، ما دمت تعامله كإنسان فأنت إنسانيّ ولو كان خادماً، الخادم عبد من عباد الله جعله الله تحت يديك، وما لم يعامل الخادم كما يعامل الابن فأنت عنصري.

حينما يرى الزّوج أنّ له ما ليس لزوجته فهو عنصريّ، حينما تعامل زوجة ابنتك في البيت معاملة لا ترضاها لابنتك فأنت عنصريّ، عندما تميز نفسك على غيرك فأنت عنصري، المؤمن إنساني يعرف للناس حقهم، يعرف لمن حوله حقه ولو كان تحت يده.

وهناك سؤال يتردد: متى أعفو عمن ظلمني؟ ومتى أطالب بحقّي؟

إذا غلب على ظنك أن عفوك عنه سيصلحه فينبغي أن تعفو عنه، قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠].

أمّا إذا غلب على ظنّك أنّ عفوك عنه يزيده غياً وظلماً وطغياناً واستخفافاً فالأولى أن تطالب بحقك وفق ضوابط الشّرع.

فالخلاصة أنّ هذه الأسماء الحسنى يجب أن تزيدنا حباً بالله عزَّ وجلَّ وتخلُّقاً بالأخلاق الحميدة.

المقيت

سمىّ الله جلّ جلاله ذاته العلية في القرآن الكريم باسم «المقيت»، فقد ورد في موضع واحد في القرآن الكريم، وهو قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [النساء:٨٥].

من معاني اسم الله (المقيت)

«المقيت» في اللغة اسم فاعل، للموصوف بالإقاتة، فعله الرباعي أقات، وأصل الفعل، قات، يقوت، قوتاً، والقُوت: ما يُمسك الرَّمق من الرِّزق، وما يُقيت الإنسان، ويقيم أَوَدَه، وما يجعله يقف على قدمَيه، وما يعينه على مزاولة نشاطه، هذا هو القوت، فالخبز من القوت، والحليب من القوت، لكنَّ بعض أنواع الفاكهة ليس من القوت، هناك طعام أساسيّ وهناك طعام ثانويّ، فالطّعام الأساسيُّ هو القوت، والله سبحانه وتعالى من أسمائه المُقِيت.

بعضهم قال: القوت هو ما يقوِّم بَدَن الإنسان من الطعام، ويجعله قائماً. قال ابن عباس رضي الله عنه: المُقِيت هو المقتدر؛ لأنَّ هذا الإنسان يحتاج إلى طعام، والذي خَلَقه خلق

له الطَّعام، وخلق له توافُقاً بين الطَّعام وجسمه، وخلق أجهزةً في جسمه تأخذ هذا الطَّعام وتمتصُّه، وتستفيد منه. هناك عمليَّة خلق، وعملية توافق، وعملية استقبال. لذلك فالمُقِيت هو المقتدر علماً وقوة، فهذا الحليب الذي تُنتجه البقرة آليَّته معقدة جداً، خليَّة الغُدَّة الثديية يمرُّ فوقها أوعية شعريَّة فيها دم، فتختار من بين فَرْثٍ ودمٍ - وكأنّها كائن عاقل - من بين الكريات الحمراء ومن بين البولة السَّائلة التي في الدَّم، العناصرَ الأساسيَّة من بروتينات، ومواد دسمة ومواد شحميَّة، ومواد مقويَّة، ومعادن، ليكون الحليب منها. فالذي جعل هذه الكائنات قادرة على إنتاج هذا الحليب، ثم جعل هذا الحليب متوافقاً مع جسم الإنسان، ثم أوجد أجهزة في جسم الإنسان تستقبل هذا الحليب، وتهضمه، وتمتصُّه، وتجعله طاقةً هو الله المُقِيت.

فالأغذية متوازنة بدقة بالغة، الطِّفل الصَّغير إذا ماتت أمُّه قبل أن تُرْضِعه، أو طُلِّقت، أو خافت على رشاقتها فلم تُرْضِعه! وأسقَيْناه حليب البقر المعقَّم، فهناك مضاعفات خطيرة قد تحدث معه في المستقبل، لأنَّ المادة البروتينيَّة في حليب البقر أربعةُ أمثال ما تحْتَمله أجهزة الطِّفل الصَّغير لذلك يصاب بآفات قلبيَّة، وآفات وعائيَّة، وآفاتٍ في الكبد والكليتين، وتُعزَى بعض الآفات القلبيَّة والوعائيَّة والكبديَّة والكَلَويَّة؛ إلى أنَّ الطِّفل حُرِم الرَّضاع من أمِّه، هل تصدِّق أيُّها القارئ الكريم أنَّ حليب الأم يتبدَّل تركيبه في أثناء الرَّضعة الواحدة؟ والآن كلُّ معامل أغذية الرُّضع، تُكتَب على عَبْواتها: لا شيءَ يعدل حليب الأم، إذاً هناك تقدير وقدرة وعلم وحفظ.

فالمُقِيت هو المقتَدر إذ إنه خلق ووفَّق، وأفاد، خلق الطعام، ووفّق بينه وبين خصائص الجسم، وهيَّأ له أجهزةً تمتصُّه لتستفيد منه. فابن عباس يقول: المُقِيت هو المقتدر.

أبو عبيدة يقول: المُقِيت هو الحفيظ، ما الذي يحفظ لك هذا الجسم؟ إنّه الطَّعام والشَّراب، فلو انعدم الطَّعام لأدّى ذلك إلى الموت. فمِنْ أسماء الله المُقِيت؛ وهو الذي يخلق القوت، ويحفظ الإنسان بالقوت، وهو الذي يقتدر بعلمه وقُدرته على خلق

القوت المناسب، وملاءمته مع الجسم، وتهيئة أجهزة الجسم لامتصاصه. فالمُقِيت: الحفيظ. والمُقِيت: المقتدر علماً وقدرةً. والمُقِيت: هو الذي يخلق القوت.

وقيل: المُقِيت هو الذي يعطي أقوات الخلائق. فلو تفكَّر الإنسان وسأل نفسه: كم من دابَّة تُذبح يومياً لتوفير طعام البشريَّة؟ فلو قدّرنا نصيب الإنسان بخمسين غراماً من اللَّحم علماً أن عدد سكَّان العالم ستةُ مليارات نسمة تقريباً فكم يكون التقدير؟ ومن المحاصيل الزراعية كم طنّاً؟ بلادنا المتواضعة التي عدد سكانها خمسة وعشرون مليوناً أنتجت ثلاثة ملايين طن. فماذا نقول عن بلاد مثل الصين التي عدد سكانها مليار ومئتا مليون؟ وماذا نقول عن بلاد مثل الهند التي عدد سكانها مليار وخمسة وأربعون مليوناً؟ وكم تُنتج من قمحٍ ولحم وخضراوات وفواكه؟ مَن خلق ومَن أبدع وهيّأ؟ إنّه المُقيت جلَّ جلاله

وقيل: المُقِيت: هو الذي خلق الخلق وساقَ لهم الأقوات. لو أنَّ أحداً أعطاك سيَّارة ومنعك من شراء الوقود لها فلن تستفيد منها شيئاً! إذ إنَّه من لوازم عطاء هذه المركبة إعطاء الوقود من أجل أن تسير بها، فالمُقيت هو الذي خلق الخلق، وساق لهم الأقوات. فما دام قد خلق، فقد رزق. والشيء الدقيق في المعنى والمدلول قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الروم: ٤٠].

لم يقل ثم يرزقكم بل قال: ثم رزقكم بالفعل الماضي طمأنَةً للخلق. كأنَّك أرسلت إنساناً إلى بلد أجنبيٍّ، وأمَّنت له ما يحتاج إليه لمدة خمس سنوات دُفعة واحدة سَلَفاً حتى يطمئنَّ؛ فجاء الفعل ماضياً؛ الله الذي خلقكم ثم رزقكم. فالمُقِيت هو الذي خلق الخلق، وساق لهم الأقوات. وهذه الغَنَمة التي خُلقت لنا، وكلُّ شيء فيها ننتفع به؛ بدءاً من صوفها، إلى جِلدها، إلى لحمها، إلى شحمها، إلى دُهنها، إلى عظمها، إلى أحشائها، إلى قرنيها، إلى رأسها؛ فكل شيء في هذه الدابَّة ينتفع الإنسان به، وهي مخلوقة للإنسان خِصِّيْصَى، ومخلوقة كي تتوالد بسرعة كبيرة، وتحوي أجهزة كأجهزة الإنسان

تماماً، من أجل أن يُعلّمه الله ماذا في أحشائه لتكون وسيلة للتعرف إلى جسم الإنسان من خلالها.

وقيل: المُقيت: ساقَ قوت الأشباح، وقوت الأرواح. والأشباح جمع شبح وهو الجسم لأنه فانٍ، والأرواح: المقصود بها هنا النُّفوس. كما أنَّ هناك أقواتاً للأجساد؛ فهناك أقوات للنُّفوس، والنَّفس قُوْتُها يكون بالاتصال بالله عزَّ وجلَّ، قوتُها بالسكينة التي يُنزِلها الله على قلوب المؤمنين، وبشعورها بأن الله راضٍ عنها، وبمعرفتها بربها، وبالعمل الصالح الذي تتألق به؛ هذا هو قوت النَّفس. فكلمة قوت، وكلمة مُقيت دفعَت بنا إلى قَفْزة من قوت الأشباح إلى قوت الأرواح؛ من قوت الأجساد إلى قوت النُّفوس، ومن الطَّعام والشَّراب إلى العلم، ومن الفواكه إلى السَّكينة، ومن الماء إلى التجلّي الإلهي الذي يهبط على القلب فَيَمْلؤه سعادةً. قالوا: المُقِيت هو الذي خلق الخلق، وساق إليهم الأقوات، وأوْصَل إليهم الضروريات والكماليات، ورَزَقَ قوت الأرواح وقوت الأشباح. وقيل: المُقِيت هو المُتكفّل. أحياناً الإنسان يُطعِم ولكنه ليس مسؤولاً، ولا مُكلَّفاً، ولا مُلزَماً؛ لكنَّ الله عزَّ وجلَّ قال: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾ [هود:٦].

و﴿عَلَى﴾ تفيد الإلزام الطوعي الذاتي والله عزَّ وجلَّ ألزم نفسه برزق العباد؛ ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ فهو المتكفل بإيصال الأقوات إلى الخلق.

وذكر الرَّازي أنّ المُقِيت: هو من شَهِد النَّجوى فأجاب، وعلِم البَلْوى فكَشف واستجاب.

فالمُقِيت هو الذي يخلق القوت، والمُقِيت هو الذي يحفظ الإنسان من الجوع، ومن الهلاك جوعاً، والمُقِيت هو الذي خلق قوتاً يناسب الجسد، وخلق في الجسد أجهزةً تستقبل القوت، وجعل توافُقاً عجيباً بين بنية الإنسان ومكوِّنات الغذاء. يقال أحياناً: هذا الحليب متوافق مع السِّن الفلانية؛ فهو مدروس مع البروتينات والشحوم

والفيتامينات، فصار هناك اقتِدار أساسه العلم والقدرة. وصار هناك حفظ وإطعام ثم هناك قوت القلوب.

وقوت القلوب، أي: معرفة علاّم الغيوب، والاتصال بالله عزَّ وجلَّ. وقوت القلوب الأمن الذي يملأ الله به قلبَ عبده المؤمن، والمؤمن ممتلئ قلبُه أمْناً،وممتلئةٌ نفسُه سكينةً ورضاً واطمئناناً؛ هذا هو قوت القلوب. ومعلوم أنَّه تمرُّ على الإنسان فترات يذهب أين يشاء، ويأكل ما يشاء، ويستمتع بطيِّبات الحياة الدُّنيا، ومع كلِّ هذا الاستمتاع يشعر بجوعٍ روحيٍّ، يريد أن يتَّصل بالله، وأن يرضى الله عنه، فإشباع الجسد لا يُغْني الرُّوح شيئاً، فروحك ونفسك بأمسّ الحاجة إلى قوتٍ خاصٍّ بها. فلو أنَّ شخصاً صلى صلاةً متقنَة بخُشوعها، وانهمرت دموعه في الصلاة، أو قرأ القرآن فشَعر بسعادةٍ كبرى؛ فإنَّه يشعر بالرِّيّ، ويشعر بالاكتفاء، وأنَّ الله عزَّ وجلَّ قَبِله، وأقبل عليه، وتجلَّى على قلبه، وأنزل على قلبه السكينة، وتطمئنُّ نفسه إلى أنه حفظه وغَفَرَ له وقرَّبه، وهذا هو قوت القلوب.

وهذا مثلٌ آخر أقرب إلى الأفهام؛ لو أنَّ أباً في البيت، وَفَّرَ لابنه ألوان الطعام، وألوان الألبسة، لكنَّه لا ينظر إلى ابنه إطلاقاً ولا يكلِّمه فهل يكتفي هذا الابن بالطعام الذي يأكله في البيت، وبالشراب اللذيذ، وباللباس الجيّد؟ لا يرضيه ذلك ولا يُسعده، لأنّ الابن بحاجةٍ إلى ابتسامة من أبيه، وإلى كلمة عطف، وبحاجة إلى أن يضع الأبُ يده على كَتِف ابنه، وإلى أن يضُمّه؛ فالضَّمُّ ليس طعاماً، كما أنه بحاجة إلى أن يقَبّله أبوه، والتقبيل ليس طعاماً.

ووضع يده على كتِفِه ليس طعاماً، والابتسام في وجهه ليس طعاماً، أليس الطفل الصغير بحاجة ماسَّةٍ إلى قوت من نوع آخر، يسميه المربُّون: أن يستَقِيَ الحنان من أمه وأبيه، وأن تضُمَّه أمُّه إلى صدرها، وأن يضعه أبوه في حِجْرِه، وأن يبتسم في وجهه، وأن يضاحكَه، وأن يداعِبه، وأن يلاعِبه، فهذه حاجة أساسيَّة عند الإنسان. وكلما ارتقى الإنسان تصبح حاجته إلى هذا القوت المعنويِّ أشدَّ من حاجته إلى القوت الماديِّ.

والإنسان عندما يقوى إيمانه لا يرى سعادةً أكبرَ من أن يشعر أنَّ الله تعالى يحبُّه، وأنه في عَين الله ورعايته وتوفيقه، إذاً ما أحْوجنا إلى قوت القلوب.

وحينما يفتقر القلب إلى القوت فإنَّه يتصحّر لأنَّ الحياة منعدمة، أحياناً البكاء يجعل الإنسانَ يشعر بسعادة، وإنَّ أرقى بكاءِ الإنسانِ أن يبكي بكاءَ الرَّحمة، ادْخُلْ إلى عالم الإيمان وإلى عالَم القرب من الله فستشعر بظلال رحمة الله ورأفة حنانه. كنت أدعو في بعض الأدعية: اللهم أخرجنا من وُحول الشهوات إلى جنات القربات، القرب جنَّة؛ العِفَّة والاستقامة والصِّدق والأمانة والضبط وأداء العبادات وتلاوة كتاب الله، هذا قرب، وهذه جنَّة، فإذا أكل الإنسان أطيب طعام حتى امتلأ بطنه، ونال من المباحات ما يشاء، ثم لا يلبث أن يشعر بالفراغ ويشعر بالملل والسأم؛ لأنَّ هذه الدنيا صغيرة ولا تملأ قلب الإنسان، ولا تملأ نفسه اللامتناهية؛ فهذه لا يملؤها إلا القرب من الله عزَّ وجلَّ. إذاً فالقوت قوتان؛ قوت للقلوب، وقوت للأجسام. فقُوت الأجساد الطعام والشراب، وقوت القلوب معرفةُ الله والإقبال عليه والقرب منه، أما علمت أنَّ أكبرَ عقاب يُعاقَب به الإنسان يوم القيامة ورد في قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ﴾ [المطففين:١٥].

هذا أبٌ على مودَّة بالغة مع ابنه فلو قال له يوماً: اخرج ولا تُرني وجهك! ألا ترى أن هذا القول هو أكبر عقاب للذي يملك إحساساً، والذي يعرف نفسه أنه عزيز حبيب.

إضاءات على الآيات التي ورد فيها اسم (المقيت)

ورد اسم المُقِيت في القرآن الكريم مرّة واحدة في سورة النساء قال تعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا (٨٥) ﴾ [النساء:٨٥].

أي حفيظاً ويحفظ أعمال عباده كلَّها. ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً ﴾ فإن دَلَلْتَ إنساناً على الله، أو دَلَلْتَه على أخ مؤمن، أو عرَّفته إلى أخ صادق، شفعْتَ شفاعةً حسنة،

أي: نَتج عنها خيرٌ عميم، ﴿ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً ﴾: دلّلته على معصية أو مخالفة أو على أسلوب لا يُرضي الله في التّعامل، شفعْتَ له شفاعة سيئة، قال تعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾ له: اللام هنا لام الملكية: ﴿ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ﴾، سيَدفع نصيبه من هذا الأذى الذي سبّبه بشفاعتِه ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾ أي أنَّ الله عزَّ وجلَّ يعلم كل شيء، ويُسجّل كل شيء، ويحفظ كل شيء، ويحفظ لك شفاعتك الحسنة أو شفاعتك السيئة. أحياناً تجد شخصاً ينصح آخر أن يرسِل ابنه إلى بلد أجنبيّ، وابنه مراهق وفي مقتَبل العمر وهناك فساد كبير، فالذي يحصل للابن في تلك البلاد في صحيفة من نصح، لذلك قال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف:٢٨].

فأيُّ نصيحة تؤدِّي إلى المعصية؛ فهذه هي الشَّفاعة السّيئة، وأية نصيحة تؤدي إلى منفعة؛ فهي الشَّفاعة الحسنة، قال تعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [النساء:٨٥].

فإذا نصحت أحداً أن يحضر مجلس علم فكل خير يتأتّى من هذا المجلس في صحيفة الناصِح، ونصحتَ آخر بتركيب أكبر قياس من الصّحون الفضائية حتى يحصل على مئتي محطة تلفزيونية، فكل سقوطه في الليالي الطويلة وراء هذه الأجهزة في صحيفة الناصح.

أما مادة (القوت) فقد وردت مرَّة واحدة في سورة فصلت: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت:١٠].

أربعة أيام، أي: أربعة فصول؛ لولا مَيْلُ المِحوَر لما كان هناك فصول! لو أنَّ الأرض محورها عمودي على مستوى دورانها لكانت الفصول ثابتةً، هنا صيف سرمديّ لوجود شمس، والأشعة هنا عمودية، وهنا خريف وربيع سرمديان إلى الأبد، أمّا ميل

الأرض على محورها، والشمس مستقرة عليها من جهة معينة، هنا عمودية فهنا صيف، وهناك مائلة شتاء، فلما عكست الآية صارت هنا عمودية، وهناك مائلة، فميْل المحور جعل تقلّب الفصول وهذا هو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

وبعض العلماء فرّقوا بين اسم المُقِيت، واسم الرَّزَّاق قالوا: «المُقِيت: هو خالق الأقوات، وموصِلها إلى الأبدان وهي الأطعمة، وإلى القلوب وهي المعرفة، قوت القلوب المعرفة وقوت الأبدان الأطعمة؛ خلقها ووفّقها وأوصلها وانتفع الجسم منها»، عملية معقّدة. أحياناً تكون أمامك علبة لحم لكنَّك لا تستطيع أن تفتحها فأنت لم تستفِد شيئاً، لكنَّ الطَّعام الذي خلقه الله عزَّ وجلَّ يتوافق بشكل عجيب مع حاجات الجسم، وبشكلٍ أشد عَجَباً مع طبيعة الأجهزة التي تستقْبِله.

قال العلماء: «إن المُقِيت هو خالق الأقوات، وموصِلها إلى الأبدان وهي الأطعمة، وإلى القلوب وهي المعرفة»، إلا أنه أخص من الرزّاق، إذ الرزق يتناول القوت وغير القوت قال تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة:٨٢].

ومن معاني المُقِيت ما يُكتفى به في قِوام البدن؛ أَكَلَ لُقمتين فشبع واستطاع أن يمشي، فهو بهذا الطعام استطاع التحرك.

ومعنى مقيت؛ أي: مستولٍ على الشيء قادر عليه. تقول: مقيت على هذا البيت بمعنى مُتَمَلِّك زِمامه، أو مُطَّلِع عليه وقادِر على فهم كل خباياه. فإما قدرة، أو عِلم، أو حفظ، أو إطعام.

وقال بعض العلماء: «المُقِيت بمعنى الرزَّاق إلا أنه أخص منه»، فأنواع البهارات هذه ليست قوتاً؛ ولكنها تُحسِّن الطَّعْم. وهناك مكسّرات وهي كذلك ليست طعاماً. أنواع الفواكه كذلك، فهناك أنواع لذيذة الطَّعم؛ ولكنَّها ليست قوتاً، ولكنَّها مبالغة في الإكرام. وهذا من معاني اسم الله (الودود). ويمكن أن تنْطوي الأطعمة الأساسية تحت

اسم المُقِيت. يمكن أن يدعوك شخص إلى الطَّعام، ويُعطيك نوعاً واحداً، ويمكنه أن يضع لك أنواعاً من حلويات، ومقبلات، وأزهاراً على الطاولة؛ هذا كلُّه يزيد على حاجة الإنسان. فتفيأت على مائدته ظلَّ المُقِيت وظلّ الودود. فهناك أطعمة تنطوي تحت اسم الودود وهناك أطعمة تنطوي تحت اسم المُقِيت.

نصيب المؤمن من اسم (المقيت)

وها قد وصلنا إلى موضوع أدب العبد مع اسم المُقِيت. ما علاقتنا بهذا الاسم الجليل؟

الأدب الأول ألا نأكل إلا الحلال الطَّيِّب؛ فالله يُطعِمنا، فلا ينبغي لك أن تأكل إلا الحلال الطَّيِّب.

هناك قاعدة: لدينا شيء حرام لذاته، وهناك شيء حرام لغيره؛ فأكْل الإنسان لحمَ الخنزير، هذا حرام لذاته، أي: لذات الخنزير. وأن يأكل لحم الغَنَم سرقةً هذا حرام ولكن ليس لذاته وإنما لغيره. فالحُرْمة الأولى حُرمة لذات الشيء، والحُرمة الثانية حُرمة لغير ذات الشيء وإنما لطريقة تناوُلِه. وإن كان الطَّعام الذي خلقه الله قد خصَّنا به، إلا أنَّنا لا يجوز أن نأكل منه إلا إذا كان حلالاً بكَسْبٍ صحيح مشروع.

فمن أدب المؤمن مع اسم المُقِيت ألا يتناول إلا الحلال الطيب؛ ليرتفع عند الله ذِكره، ويعظم أجره. هناك أثر يقول: أطِب مطْعَمك تكن مُستَجاب الدعوة.وفي الحديث: «.....ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ» [مسلم عن أبي هريرة].

فالمال الذي بحَوْزَتِك ينبغي أن يكون حلالاً. فإذا كان حلالاً، تشتري به طعاماً، عند الله هو طيِّب. وإذا أكلت طعاماً طيِّباً حلالاً من كسب مشروع، خالٍ من الكذب، والغِش، والتدليس، والاحتِكار، ليس فيه تغيير مواصفات، ولا إيهام، ولا حلْف

كاذب، إذا كان الأصل حلالاً -مادةً وطريقةً- طيِّباً؛ عندئذٍ قد طاب مطْعَمك وتكون مسْتَجاب الدعوة.

رُوي أن سفيان الثوري كان يتحرّى الحلال من الرِّزق، حتى كان أولاده يعانون من الفقر فجاءه رجل موسِر بصُرّة مالٍ وقال له: إنَّ هذا مالٌ حلال، ورجاه أن يقبله منه، فقبِله سفيان، وبعد قليل ردّ المال إلى صاحِبِه، فقال أحد أبناء سفيان لأبيه: يا أبتِ أليس لك أولاد بحاجة إلى هذا المال؟ فقال له سفيان: أتُريد أن تأكل وتتنعّم وأبوك يُسْأل عنه يوم القيامة؟

أكاد أقول: إن تسعة أعشار الدين أن يكون الرِّزق حلالاً. فأيُّ كسبٍ للمال؛ المادة التي نتعامل بها مشروعة، والحديثُ فيه صدق، ووفاء بالوعد، وأمانة في الثمن، ونصيحة للمشتري، ولا تدليس، ولا غِش، ولا كذب، ولا احتيال، ولا مُبالغة، ولا تغيير مواصفات، وكلُّ شيء مشروع، هذا كله صيَّر المال الذي تكسبه مالاً حلالاً، وينفعك نفعاً لا حدود له، ويبارِك الله لك فيه برَكَةً ما بعدها بركة.

هناك أدب آخر، ذكر بعض العلماء أن من أدب هذا الاسم أنه إذا أتاك الغداء أن تشهد المُنعِم من خلال النِّعمة؛ فكلنا نأكل لكن إذا جلس الإنسان ليأكل ورأى كأس شاي: مَن خلق الشَّاي بهذا الطّعم الطَّيِّب؟ ومن خلق السُّكر؟ ومن جعل الماء صافياً؟ ومن خلق النار نوقِدها لتحضير الشاي؟ وهذا الخبز: من خَلَق القمح؟ وهذا الجُبن، وهذا اللبن، وهذا الزيتون من خلقه؟ شجرة مباركة. أكلتَ أرزاً من خلق هذا المحصول؟ أكلتَ فاكهةً، فمن الذي أنعم بها؟ والمؤمن دائماً لا يرى حين جلوسه إلى المائدة إلا نعمة الله؛ وهذا شعور راقٍ جداً، ولذلك يبدأ الإنسان بالبَسملة، ويحمد الله على هذا الطَّعام الذي خلقه الله له وزوَّده به، فإذا انتهى توسل بحمد الله أن يديم النِّعم عليه.

أحياناً: الإنسان، مئة ألف ليرة لا تساوي عنده رغيفَ خبز، فالإنسان أساس حياته الطَّعام والشَّراب؛ فإذا حُرِمَهما وكان معه المال الوفير فهذا لا يساوي عنده شيئاً. إذا كان الإنسان في الصحراء وكاد يموت جوعاً حانت منه التفاتة فرأى بركَة ماءٍ عن

بُعدٍ فأشرق في نفسه نور الأمل، فلما وصل إليها شرب حتى ارتوى. ثم حانت منه التفاتة فإذا بكيسٍ مملوء، كاد يفقد عقله من شدة فَرَحه، ظن أن فيه خبزاً، فلما فتحه لم يجد فيه إلا لآلئ فصاح وأسفاه هذه لآلئ! إذ إنه كان يتمنى الخبز. فاللؤلؤ بالمدينة له قيمة، أما إذا كان بالصحراء وكاد يموت عطشاً؟ فكأس الماء لا يعدِلُهُ شيء، حتى إن الواعظَ ابن السمّاك قال لهارون الرشيد: يا أمير المؤمنين بكم تشتري هذا الكأس من الماء إذا مُنِع عنك؟ قال: بنصف ملكي، قال: فإذا مُنِع عنك إخراجه؟ قال: بنصف ملكي الآخر، فهناك نِعم تبدو بسيطة لا أحد يعرف قيمتها؛ فهناك ماء تشربه، وهذا الماء يخرج فضلات بيُسرٍ بلا انحباس. وهناك طعام تأكله، وهذا الطعام تتمثّله ويخرج بلا انحباس، فتَلَقّي الطعام والشراب، وخروج الطعام والشراب بيسر هذه نعمة لا يعرفها إلا من فقدها.

إذاً: من أدب هذا الاسم؛ أنه إذا أُتي لك بطعام فإنّك تشهد المُقِيت الواسع، ومتى عَشِقَتْ روحُك المُقِيت فَنِيْتَ في أنواره، واجتَهَدْتَ في أذكاره، فتأكل الطعام ويتجلى لك واسِع الإكرام.

النبي ﷺ علّمنا أن نأكل ببطء، وأن نأكل ونذكر الله مع الأكل. لأنَّ الإنسان إذا ذكر الله وهو يأكل شكر نِعَمه العظيمة، أحياناً يشتهي الغنيُّ أن يأكل طعاماً إذ يرى أفقر الناس هم الذين يأكلونه، إذا أصيب شخص بالتهاب المفاصل مُنِع من أكل الحمص والفول، وبعض أنواع اللحوم عندئذٍ يرى صحن الحمّص أثمن صحن في الطعام، فحينما يُمنع، ويشتهيه. لذلك عندما يأكل الإنسان دون قيود فليشكرْ؛ فهذه نعمة لا يعرفها إلا من فقدها.

فالمؤمن إذا جلس ليأكل ينتقل من النعمة إلى المُنعِم، ومن القوت إلى المُقِيت. ومن هذا الإكرام إلى المُكرِم.

من التخلّق بهذا الاسم الكريم؛ ألا تطلب حوائجك إلا من الله تعالى، لأنَّ خزائن الأرزاق بيدِه. فعلى الإنسان أن يسأل ربه حاجته كلّها، فهناك أشخاص تهون

عليهم نفوسهم، ويبذلون ماء وجوههم لغير الله عزَّ وجلَّ، لكنَّ المؤمن لا يسأل إلا الله عزَّ وجلَّ.

وفي الإسرائيليات أن موسى عليه السلام قال: يا رب! إنه ليعرض لي الحاجة من الدنيا فأستحي أن أسألك، قال: سلني حتى ملح عجينك وعلف حمارك.

فأول أدب من اسم المُقِيت أن تتحرى الحلال الطيب، والأدب الثاني؛ أن تنتقل من القوت إلى المُقِيت، ومن النعمة إلى المُنعِم، والأدب الثالث؛ ألا تسأل حاجتك إلا الله تعالى.

بعض العلماء يذكرون أنواعاً من القوت؛ منهم من جعل اللهُ قوتَه في المطعومات؛ فهذا يعيش ليأكل. حياتُه كلها طعام وشراب. ومنهم من جعل اللهُ قوتَه في الطاعات وهمّه طاعة الله عزَّ وجلَّ. ومنهم من جعل اللهُ همّه وقوتَه في المكاشفات والمشاهدات. فهناك إنسان يأكل، وآخر يُطيع، وآخر يُقْبِل، فالإقبال قوت، والطاعة قوت، والطعام قوت. وقد قال ﷺ: «أبيت يطعِمني ربي ويسقيني» [متفق عليه من حديث أبي هريرة]. لكنه طعام من نوع آخر. برَبِّكم هناك جلسات -وأنا أعرف ذلك- مباركة وطيبة وفيها تجلٍّ تنصرف منها وأنت منتعِش، وأنت في أعلى درجات السعادة فهذا قوت. قال ﷺ: «لا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللهَ عزَّ وجلَّ، إلا حَفَّتْهُمُ المَلائِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ» [رواه مسلم من حديث أبي هريرة].

فهذه الجلسات التي فيها ذكر الله وفيها صفاء وإخلاص وتواضع هي من القوت الذي ذكره بعض العلماء.

قال بعض العلماء: «القوت ذِكْر الحيّ الذي لا يموت»، وعلماء آخرون قالوا: «إن الله جعل أقوات عِباده وخلقه مختلفة؛ منهم من جعل قوته الأطعمة والأشربة على اختلاف أنواعها، وهم الآدميون وبعض الحيوانات. ومنهم من جعل قوته الطّاعةَ والتسبيح وهم الملائكة. ومنهم من جعل قوته المعاني والمعارف وهؤلاء هم أولو الألباب، وفي العقل نظام يجمع المحاسن كلها».

بقي أن نعلم أن العبد إذا اشتغل بطاعة الله عزَّ وجلَّ، سخَّر له من يعينه على تأمين حوائجِه كلِّها. وأما من شُغِل بشهواته، أوْكَله الله إلى ذاته. فالإنسان المشغول بذكر الله عزَّ وجلَّ قوتُه موفور وحاجاته مُيَسّرة. وهم في مساجدهم والله في حوائجهم، وأما الذي يشتغل بشهواته، فإن الله يَكِله إلى ذاته -والإنسان ضعيف- وعندئذٍ يقع في حَيْرة وشُغلٍ وعناء، يقول ﷺ في بعض أدعيته: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً» وفي رواية: كفافاً [متفق عليه من حديث أبي هريرة].

ليس معنى هذا أنَّه يسأل الله الفقر، لكن معنى هذا أنّه يريد رزقاً يغطِّي كلَّ حاجاته، دون أموال طائلة يحار في إدارتها، تشغله عن الله عزَّ وجلَّ، فما قلّ وكفى، خير مما كثُر وألهى.

هذا مكان مناسب للتوضيح أن هناك فرقاً بين الرزق والكسب، فالرزق ما انتفعت به، هذه الوجبة التي أكلتها، هذا السرير الذي تنام عليه، هذه المركبة التي تركبها، هذه الثياب التي ترتديها، هذا رزق، ما انتفعت به مباشرة أمَّا الكسب فهو حجمك الماليّ، الرَّصيد، الأموال المنقولة، وغير المنقولة، هذه لم تنتفع بها أبداً لكنَّك محاسب عليها، فرق كبير بين الرزق والكسب.

لذلك في الحياة الدنيا الرِّزق له سقف، لو أنّ معك مئة مليار ماذا تأكل؟ وجبة طعام، كم ثوباً ترتدي؟ ثوباً واحداً، على كم سرير تنام؟ على سرير واحد، كم مركبة تركب في وقت واحد؟ مركبة واحدة، هذا هو الرِّزق، ما تنتفع به مباشرة، لكنَّ الكسب ما حصَّلته في عمر مديد، وجعل لك حجماً مالياً كبيراً، هذا الكسب محاسبٌ عليه كيف اكتسبته؟ وكيف أنفقته؟ مع أنك لم تنتفع به.

لذلك إذا سألتُ شخص، وقال لي: الحمد لله، الله كافيني، حاجتي مؤمَّنة، رزقي يغطي حاجاتي، أقول له: إذاً أصابتك دعوة رسول الله.

«اللهم من أحبني فاجعل رزقه قوتاً - كفافاً» [أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة].

وعن عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «كَفَى بالمَرْءِ إثْماً أنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ» [رواه أبو داود].

فأكبر إثم؛ أن تُضَيّع أولادك، وأن تضَيِّع نفوسهم، فلا تُعَرِّفهم بربهم، وأن تُضَيِّع أجسادهم فتُهْمِل إطعامهم وكِسْوتهم ومُعالجتهم، فالعناية بالأولاد من أجَلِّ العبادات.

لذلك فأيُّ أب في الأرض يرتاح إذا شبع أولاده، ولبسوا، وكانوا في بحبوحة، لكنَّ الأب المؤمن يتميز من بقية الآباء أنه يقلق لحال ابنه الإيماني، يتمنّى أن يكون ابنه مؤمناً، يدعوه إلى الصلاة.

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه:١٣٢].

إذا جاء الأب مساء لا يكتفي أن يسأل زوجته أأكل الأولاد، يقول لها: أأكلوا؟ هل صلوا العشاء؟

سيدنا عمر رضي الله عنه لما طُعن، وكان على وشك مفارقة الحياة، الشيء الذي أقلقه أنه قال: هل صلى المسلمون الفجر؟

فأنت -أيها الأب- ما الذي يقلقك على أولادك؟ صحتهم؟ كسوتهم؟ تفوقهم الدراسي فحسب؟ أمَا يقلقك دينهم؟ وصلاتهم؟ واستقامتهم؟

وروى ابن ماجة أن رسول الله ﷺ قال: «مَن أَطْعَمَهُ الله طعاماً فَلْيَقُلْ: اللهمَّ بارِكْ لنا فيه، وأطعِمنا خيراً منه، ومن سَقاهُ الله لبنا، فليقل: اللهمَّ بارك لنا فيه وزِدْنَا منه، فإنه ليس شيءٌ يُجْزِئ من الطعام والشراب إلا اللبنُ» [ابن ماجه عن ابن عباس].

هذه مشتقات الألبان من أعظم الأرزاق الإلهية.

هل تملُّون مشتقات الألبان؟ يومياً تأكلها ولا تملُّها، بخلاف أيِّ طعام آخر، فالنّبيّ ﷺ إذا شرب اللبن قال: «اللهم زدنا منه».

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ إِنِّي مَجْهُودٌ فَأَرْسَلَ إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ فَقَالَتْ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أُخْرَى فَقَالَتْ

مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى قُلْنَ كُلُّهُنَّ مِثْلَ ذَلِكَ لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ فَقَالَ مَنْ يُضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ رَحِمَهُ اللهُ فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ قَالَتْ لَا إِلَّا قُوتُ صِبْيَانِي قَالَ فَعَلِّلِيهِمْ بِشَيْءٍ فَإِذَا دَخَلَ ضَيْفُنَا فَأَطْفِئِ السِّرَاجَ وَأَرِيهِ أَنَّا نَأْكُلُ فَإِذَا أَهْوَى لِيَأْكُلَ فَقُومِي إِلَى السِّرَاجِ حَتَّى تُطْفِئِيهِ قَالَ فَقَعَدُوا وَأَكَلَ الضَّيْفُ فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ قَدْ عَجِبَ اللهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ.

فأنزل الله قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر:٩].

أيها القراء الكرام: كل يوم ثلاث وَجْبات وعندها تعرّف إلى المُقِيت ولا يشغلنّك القوت عن المُقِيت، وبكل مجلس علم هناك مقيت، أنت في البيت تأكل الطعام والشراب؛ يجب أن ترى أن هذه مائدة الله عزَّ وجلَّ. والأكمل أن تُفكّر في كلِّ أنواع الطَّعام كيف خُلِقت؟ وكيف نَمَت؟ وكيف طُبِخت؟ وكيف عُولِجت؟ فالنِّعمة تعبِّر عن المُنعِم، والقوت عن المُقِيت.

وإذا دخلت المسجد؛ فهناك قوت آخر. العلم قوت القلوب والاتصال بالله قوت، والعمل الصالح قوت. فالله عزَّ وجلَّ يُقيت الأشباح بالطعام، ويقيت الأرواح بالعلم والمعرفة ونحن عالَةٌ على المُقِيت جلّ جلاله، خَلقنا وخلق لهذا الفم ما يملؤه، وخلق أنفسنا وخلق لهذه الأنفسِ ما يُسْعِدها، فنحن بين لذة الطعام، ولذة القُرب من الله عزَّ وجلَّ. وهذا الاسم المُقِيت يدور مع الإنسان ما دام حياً. لذلك كان النبي ﷺ يعظِّم النِّعمة وإن دقَّت، وكلما عرفت اسم المُقِيت تحترم هذه النِّعمة التي بين يديك، وروي أنه رأى كِسْرَةً ملقاة فأخذها فمسحها ثم أكلها ثم قال: «يا عائشة أكرمي كريماً فإنها ما نفرت عن قوم قطُّ، فعادت إليهم» [ابن ماجه، عن عائشة]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم:٧].

وقال تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم:٣٤].

فإن الخلق عاجِزون عن إحصائها؛ فلأن يكونوا عاجزين عن شكرِها من باب أولى لأنَّ الإحصاء أسهل، فلو جاءتك مئة هدية في مناسبةِ وِلادة، جلوسك ربع ساعة يكفيك لكتابة كل ما جاءك من هدايا، أما أن تردَّ على كلِّ هديَّة بثمنٍ يقابِلها؛ فهذه تحتاج إلى جهد كبير. فالله عزَّ وجلَّ أشار إلى أننا عاجزون عن إحصاء النِّعم، بل إننا عاجزون عن إحصاء نعمةٍ واحدة، فلأن نكون عاجزين عن شكرِها من باب أولى.

القاهر

مع اسم جديد من أسماء الله الحسنى، وهو اسم (القاهر)، وقد سمّى الله تعالى نفسه (القاهر) في كتابه الكريم.

وقد ورد هذا الاسم في موضعين فقط في القرآن الكريم في سورة الأنعام، ولم يرِد في السّنّة، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام:١٨].

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام:٦١].

من معاني اسم الله (القاهر)

القاهر في اللغة اسم فاعل مِن قَهَرَ يقهَر قهراً فهو قاهرٌ، وقهرت الشيء غلبته، وعلوت عليه مع إذلاله بالاضطرار، تقول: أخذتهم قهراً، أي من غير رضاهم، وأُقهرَ الرَّجلُ إذا وجدتَه مقهوراً، أو صار أمره إلى ذلٍّ، وإلى صغار، وعند الترمذي من حديث

أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال في شأن يأجوج ومأجوج: «قَهَرْنَا مَنْ فِي الأَرْضِ، وَعَلَوْنَا مَنْ فِي السَّمَاءِ قَسْوَةً وَعُلُوًّا» .

النقطة المهمّة في هذا الاسم: أنَّ الله كامل، لا يقهر إلا الظالمين، والمنحرفين، والمتغطرسين، وحينما يرى الإنسان غطرسة لا تحتمل، وعلوّاً في الأرض لا يحتمل، وسفكاً للدّماء لا يُحتمل، وانتهاكاً للحرمات لا يُحتمل، ثمّ يرى قوّة بطشت، وأنهت هذا الظّلم، وذاك العدوان، فإنّه يرتاح أشدَّ الرّاحة، وهذا من معاني اسم (القاهر).

فلذلك يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء:٨١].

القاهر يقهر أكبر قوّة تظنّها لا تُقهر، لذلك قالوا: عرفت الله من نقض العزائم، وفي حالات كثيرة ترى إنسانا متغطرسا جبّارا، يتلذّذ بقتل الأبرياء، وانتهاك الحرمات، يتلذّذ بهدم البيوت، ثم يقهره الله تعالى إما بالمرض أو بالموت أوبالذلّ.

فالله جلَّ جلاله له أسماء جلال، وله أسماء كمال، والإنسان بطبعه يحبُّ القويَّ، يحبُّ أن يكون مع القويِّ، يحبُّ أن يكون تابعاً لقويٍّ، أن يعتز بالقويِّ، أن يلجأ إلى القويِّ، وأسماء الله كلُّها حسنى، وصفاته كلُّها فُضلى.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].

نحن في حياتنا اليوميَّة قد نجد صديقاً طيِّباً جدّاً، لكنَّه ضعيف، نعجب بطيبه، ولا يعجبنا ضعفه، وقد نجد إنساناً قوياً، لكنَّه ليس بطيِّب، فلا تعجبنا قوّته مع خبثه، ولا يعجبنا طيب هذا الإنسان مع ضعفه، فمتى نُعجب بإنسان؟ إذا كان في الوقت نفسه من القوّة بحيث لا يستطيع أحد أن ينال منه، ومن الطِّيب والكمال بحيث تتعلَّق النُّفوس به، هذا هو الكمال؛ أن تكون قويّاً، وأن تكون كاملاً.

﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ [التغابن:١].

هناك إنسان له الملك، لكن ليس له الشكر، وإنسان له الشّكر، لكن ليس له الملك، فلذلك الكمال البشريُّ يتعلق بالكمال الإلهيِّ، وأجمل شيء في حياة المؤمن أنّه مع

القويِّ، وأنَّه مع الغنيِّ، وأنَّه مع العليم، وأنَّه مع الرَّحيم، وانتماء المؤمن إلى الله عز وجل انتماء حقيقيٌّ.

الإنسان أحياناً يكون ابن ملِك، فكيف يشعر؟ بلد فيه مؤسسات، فيه وزارات، فيه جيش، فيه شرطة، لأنه ابن الملك يشعر باعتزاز، يشعر أنَّ قوَّته من قوَّة الملك، يشعر أنَّ كرامته من كرامة الملك، هذا شعور المؤمن مع الله عزَّ وجلَّ.

لا بدَّ من أن تحبَّ، وهذا من طبيعة البشر، ولكنَّ البطولة أن تعرف من تحبُّ، ومن توالي، ومن تعظِّم، المؤمن يحب الله، ويتعامل مع الخلق جميعاً، وقلبه لله عزَّ وجلَّ.

فالنَّبيُّ ﷺ يقول: «وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلَامِ» [الترمذي عن أبي سعيد الخدريّ وقال: حسن صحيح].

فالمؤمن يعتزُّ بالله، الله عز وجل هو (القاهر)، لكنّه كامل، لا يقهر إلا الظَّالمين، فقد تلتقي بقويٍّ يقهر الطَّيبين، ينتقم من المؤمنين، لكنّ الله عزّ وجلّ كامل كمالاً مطلقاً.

هو القاهر، لكنَّه رحيم، قوي لكنَّه عَدْل، قويٌّ لكنَّه حكيم، فالقوَّة مطلوبة مع الكمال، والذي نلاحظه أحياناً أنَّ العالم الإسلامي معه وحي، معه حقٌّ، معه قرآن، معه تعليمات الصَّانع، لكنّه ضعيف.

لذلك انصرف النَّاس عن المسلمين لأنهم ضعاف.

الإنسان يحبُّ الله، لأنَّ الله كامل وقاهر، فمن كماله جلَّ جلاله أنّه لا يقهر الطيبين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود:٥٦].

حيثما جاءت (على) مع لفظ الجلالة فتعني الإلزام الذاتي.

﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦].

(القاهر) سبحانه وتعالى هو الغالب على جميع الخلائق، وهو يعلو في قهره وقوَّته، فلا غالب ولا منازع، بل كلُّ شيء تحت قهره وسلطانه.

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المؤمنون:٩١].

هو الواحد الأحد الفرد الصمد، المتفرد بالقوة والجلال، القاهر فوق عباده.

الله عز وجل حينما قال عن نفسه: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾.

أي هو الذي قهر كلَّ شيء، وخضع لجلاله كلُّ شيء، وذلَّ لعظمته وكبريائه كلُّ شيء.

لذلك فأيُّ إنسان ينازع الله كبرياءه وعظمته يقصمه الله.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ» [أبو داود].

وفي ضوء هذا الحديث نفهم واقعنا اليوم، فهناك أمَّة قويَّة جدًّا، تملك من الأسلحة ما لا يوصف، تفردت بقيادة العالم، لا تنطوي على كمال إطلاقاً، تخطِّط لبناء مجدها على أنقاض الشُّعوب، وبناء رخائها على إفقار الشُّعوب، وبناء عزِّها على إذلال الشُّعوب، وبناء غناها على إفقار الشُّعوب، فأن تنجح خططها على المدى البعيد، هذا لا يتناقض مع عدل الله فحسب، بل مع وجوده.

«الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ»

ومن لوازم اسم الله القاهر أنّ له العلوَّ والغَلبة، فلو فرضنا وجود إلهين اثنين مختلفين، ومتضادَّين، وأراد أحدهما شيئاً خالفه الآخر فلا بدَّ عند التنازع من غالب وخاسر، فالذي لا تنفذ إرادته هو المغلوب العاجز، والذي نفذت إرادته هو القاهر القادر.

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾.

وهو الذي قهر كلَّ شيء، وخضع لجلاله كلُّ شيء، وذلَّ لعظمته وكبريائه كلُّ شيء، وعلا على عرشه فوق كلِّ شيء.

قال بعض العلماء: (القاهر) أي المذلِّل، المستعبد لخلقه، العالي عليهم، وإنما قال: فوق عباده، لأنه وصف تعالى نفسه بقهره إيَّاهم، ومن صفة كلِّ قاهرٍ شيئاً أن يكون مستعلياً عليه، فمعنى الكلام إذاً غالبُ عبادِهِ المُذلُّ لهم إذا طغوا، وبغوا، وفسدوا، العالي عليهم بتذليله لهم وخلقه إياهم فهو فوقهم بقهره إياهم، وهم دونه.

فلذلك الحياة مع الإيمان بالله حياة رائعة فيها عزٌّ، فيها قوة، فيها راحة، فيها استسلام، فيها رضا، فيها طاعة.

سيدنا موسى مع أتباعه حينما كانوا في اتّجاه البحر، وراءهم فرعون بجبروته، بقوته، بأسلحته، بحقده، ولكلِّ عصر فرعون.

﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء:٦١-٦٢].

تعلّموا من الأنبياء العظام ثقتَهم بالواحد الدّيّان، تعلموا منهم اعتزازهم بالله عزَّ وجلَّ.

في غار حراء، قال الصّدّيق ﷺ: يا رسول الله لقد رأونا، قال: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟» [أخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي عن أنس بن مالك].

ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ [الأعراف:١٩٨].

والمقولة التي يرددها معظم المسلمين: سبحان من قهر عباده بالموت، وقد ورد في بعض الأحاديث الشريفة: «بادِرُوا بالأعمال سبعا: هل تُنْظَرون إلا فَقْرا مُنْسيا، أو غِني مُطغيا، أو مَرَضا مُفسِدا، أو هَرَما مُفنِدا، أو موتا مُجْهِزا، والدجالَ؟ والدَّجّالُ شَرُّ غائب يُنتظَرُ والساعةَ؟ والساعةُ أدْهَى وأمرُّ» [أخرجه الترمذي والنسائي عن أبي هريرة].

هل يمكن أن يستيقظ الإنسان كلَّ يوم كاليوم السابق إلى ما شاء الله؟ مستحيل وألف ألف مستحيل!

سبحان من قهر عباده بالموت، لأن الموت يُنهي كلَّ شيء، ينهي قوَّة القويِّ وضعف الضَّعيف، يُنهي غنى الغنيِّ وفقر الفقير، يُنهي وسامة الوسيم ودمامة الدَّميم،

يُنهي صحَّة الصحيح ومرض المريض، الهدى نعمة مستمرة بعد الموت، وما سوى الهدى نعمة منقطعة عند الموت وتأكد أن أي نعمة وهبك الله إيَّاها ليس معها الهدى تنتهي عند الموت، وليست عطاءً، لأنَّ كرم الله عز وجل لا يمكن أن يكون بنعمة منقطعة، نعم الله الحقيقيَّة مستمرَّة بعد الموت.

وأحياناً يُقهر المرء بالمرض، وأحياناً يُقهر بالفقر، وقد يقهر بالغنى المطغي، كان مستقيماً فانحرف، هذا قهر أيضاً.

والقاهر من أسماء الله الحسنى، يقهر الجبابرة، يقهر الظالمين، يقهر المتجبرين لذلك في بعض الأدعية التي نقرؤها في القنوت: «اللهم اهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت، وتولنا فيمن توليت، وبارك لنا فيما أعطيت، وقنا واصرف عنا شر ما قضيت، فإنك تقضي بالحق ولا يقضى عليك» [أخرجه أبو داوود، والترمذي، والنسائي عن الحسن بن علي بن أبي طالب].

فلذلك كلُّ البطولة أن تتمتَّع بنعمة تُسعدك بعد الموت، أمَّا نعم الحياة الدنيا فتنتهي عند الموت، من بيت إلى قبر، من منصب إلى قبر، من انغماس في اللّذات إلى قبر، أما المؤمن فنعمه مستمرة بعد الموت، وهي متنامية، فالبطولة والتّوفيق والذَّكاء أن تبحث عن نعمة ليس الموت نهايةً لها. يقول سيدنا عليٌّ رضي الله عنه: «فلينظر ناظر بعقله أن الله أكرم محمدا صلى الله عليه وسلم أم أهانه حين زوى عنه الدنيا، فإن قال: أهانه، فقد كذب، وإن قال: أكرمه فلقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا».

نصيب المؤمن من اسم الله (القاهر)

ما الخُلق الذي ينبغي أن تتخلَّق به انطلاقاً من هذا الاسم؟

أولاً: الله هو القاهر فاخضع له، لأنَّك في قبضته، وأقلّ خلل في صحّتك يجعل الحياة جحيماً لا يُطاق.

كنت مَرة عند طبيب، جاءه اتِّصال هاتفيّ، من مريض قال له: أيّ مكان في العالم تريد للعلاج، وأيّ مبلغ، قال له: والله لا أمل، الورم في الدرجة الخامسة، لا أمل، فالمرض يقهر، لكنَّ أصعب قهر هو أن يقهرك إنسان.

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [الأنعام:٦٥].

فالموقف الكامل ما دام الله يقهر كل إنسان أن تكون خاضعاً له، أن تكون في طاعته، أن تكون محبًّاً له، فهو يقهر ليربِّي.

نحن في قبضة الله، والإنسان كلُّ مكانته، وهيمنته، وسيطرته، وقدرته منوطة بقطر شريانه التاجي، وكلُّ مكانته وهيمنته وسيطرته منوطة بسيولة دمه، وكلُّ مكانته وهيمنته وسيطرته منوطة بنموِّ خلاياه، فإذا نمت نموّاً عشوائيّاً فقد تنتهي حياته.

نحن في قبضة الله عز وجل، أحيانا حادث سير ينهي حياة الإنسان، والأصعب ألاّ تنتهي حياته، بل يصبح مشلولا طول حياته، فنحن تحت رحمة الله، نحن في قبضته، فما دام الله قاهراً فينبغي أن ننصاع له، أن نؤمن به، أن نستقيم على أمره، أن نعمل صالحاً.

والنّصيب الثاني للمؤمن من هذا الاسم: لا تكن ضعيفاً، لا تكن خنوعاً، لا تكن مستسلماً، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الشورى:٣٩].

استمدَّ من الله القوة.

هناك إنسان يضعف عن أن يأخذ حقه، يضعف لأقلّ تهديد، أما المؤمن فيعتز بالله. ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة:٥٤].

لكن لا تَكِل له الصاعَ أصوعاً. ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى:٣٩-٤٠].

أما أروع ما في الآية: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠].

فإذا غلب على ظنِّك أنَّ عفوك عن هذا الذي أساء إليك يقرِّبه إلى الله فاعفُ عنه، وأجرك على الله.

أحيانا سائق سيارة يمشي بأعلى درجات الانضباط، فقفز طفل أمام السيارة، ودُهس، الأب يقرّر أن يقيم عليه دعوى، وأن يضعه في السِّجن، لكنَّ معطيات الحادث أن السَّائق بريء وفقير، والخطأ من الابن، لكن تسبَّب هذا السَّائق في موت الطِّفل الصغير، قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ .

أما إذا كان أرعن ويتحدَّى النَّاس فلا بد من معاقبته، ليرتدع غيره.

الخبير

اسم الخبير أيها الأخوة ورد في الكتاب والسنة وفي نصوص كثيرة، ففي القرآن الكريم ورد معرفاً، و مقترناً بثلاثة أسماء، باسم الحكيم في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام:١٨].

ومع اسم اللطيف في قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام:١٠٣].

ومقترناً مع اسم العليم في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم:٣].

وقد ورد هذا الاسم منوّناً غير معرَّف في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب:٣٤].

أمّا في السنة ففي صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها: قال ﷺ مخاطباً عائشة رضي الله عنها: لَتُخْبِرِينِي أَوْ لَيُخْبِرَنِّي اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ.

من معاني اسم الله (الخبير)

الخبير في اللغة على وزن فعيل، هذا الوزن يدل على المبالغة، إذاً الخبير من صيغ المبالغة فعله خَبَرَ يَخبُرُ خُبرَاً، وخبرت بالأمر أي علمته، وهناك من أعلمني به، وخبرته أي عرفته على حقيقته بالعمق، بالخلفيات، بالبواعث، وفي صحيح مسلم من حديث أبي موسى الأشعري أنه سأل السيدة عائشة رضي الله عنها قال: فما يُوجب الغسل؟ قالت: على الخبير سقطتَ. أي إنك سألت خبيراً بهذا الموضوع.

الخبير هو الذي يعلم كلَّ شيء ولا يغيب عن علمه صغيرة ولا كبيرة، وهو العالم بكُنْه كلِّ شيء، ومطَّلع على كلِّ دقيقة مهما دقَّت أو خفيت، العليم بدقائق الأمور لا تخفى عليه خافية، يعلم الدَّاء والدَّواء، العليم بظاهر الأشياء وبواطنها، بشكلها وحقيقتها، وبجلائلها ودقائقها، بما تراه عينك وبما يخفى عنها، يقول أحد العلماء: الخبير هو الذي لا تعزُب عنه الأخبار الباطنة، ولا يجري في الملك والملكوت شيء إلا بعلمه، ولا تتحرَّك ذرَّة ولا تسكن إلا بعلمه، ولا تضطرب نفس ولا تطمئنُّ إلا بعلمه، وقيل: الخبير الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السَّماء، ولا تتحرَّك حركةٌ ولا تسكن ساكنةٌ في السَّماء والأرض إلا يعلم مستقرَّها ومستودَعها. لكن قد يسأل سائل: أليس هذا هو العليم؟ هذا كلُّه يمكن أن يكون شرحاً لاسم العليم فما لنا نتحدث عن اسم الخبير بما يشبه اسم العليم؟ الحقيقة أنَّ العلماء فرقوا بين العليم والخبير.

فالخبير هو الذي يخبر الشيء بعلمه لكن الخبرة أبلغ من العلم لأنها علم وزيادة، فالخبير بالشيء من علمه وقام بمعالجته وبيّن خصائصه وجربه وامتحنه فأحاط بتفاصيله الدقيقة وألمّ بخصائصه اللصيقة ووصفه على حقيقته، فالعلم نظريٌّ والخبرة عمليَّة.

فالخبير يفيد معنى العليم، ولكنَّ العليم لا يفيد معنى الخبير، لذلك اسم الخبير هو عليم ومع العلم شيء آخر، وسوف أوضِّح عن طريق الأمثلة الفرق بين العليم والخبير، وهناك آية في القرآن الكريم ورد فيها اسم الخبير، وسأجعلها أساساً لهذا البحث، وقد ورد في القرآن لفظ الخبير خمساً وأربعين مرة في خمس وأربعين آية فقال

تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾ [البقرة:٢٣٤].

لو أنَّني أمسكت هذا الكأس ووضعته في هذا المكان، أنتم جميعاً رأيتم أنَّني نقلته من مكان لآخر، فهذا هو العلم، ولكن لماذا نقلته؟ ما الدوافع التي حملتني على نقله، وما الخواطر التي خطرت ببالي حين نقلته، وماذا أبتغي بنقله، وما الباعث على نقله، علمُك أنه انتقل من مكانٍ لآخر هذا يسمى علماً. أمَّا إذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾ فهذا يعني أنَّه يمكن أن تعمل عملاً لا يشكُّ أحدٌ من الخلق أنَّه عمل طيِّب، وتكون النِّيَّة ليست طيِّبة، فالله خبير بما تعمل، قد تدَّعي شيئاً وأنت على خلافه، وقد تريد شيئاً في الظَّاهر، ولكن في الباطن لا تريده، وقد ترحِّب بشخصٍ وأنت تُبْغِضه، وقد تَغضب منه وأنت تحبّه، حقيقة العمل ومؤدَّى العمل هي للخبير، فهو الذي يعلم ذلك، فالخبرة هي العلم بدقائق الأمور وببواطنها وبواعثها وبأهدافها البعيدة وبما يخالج فاعلها من مشاعر.

آية ثانية: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ [البقرة:٢٧١].

من باب الطُّرفة نقول: أسرة تزورها ذات يوم من أيام الشتاء صديقة الزوجة وتجلس مع الزوجة في غرفة مجاورة، يقول الزوج: تعالي إلى هنا فالغرفة هنا أدفأ، يا ترى هل هذا الذي ذكره هو الحقيقة، أم أنّ هناك شيئاً يخفيه ولا نعلمه؟ فالله خبير بالأعمال بحَجمها وتفاصيلها، وبواعثها وأهدافها وأبعادها وبمقاصدها وخلفياتها وجزئياتها التي لا يعملها إلا الله، فالله هو الخبير، قال تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [آل عمران:١٥٣].

قد تجد إنساناً يعمل عملاً طيباً، وربما ساق الله له بعض المصائب فتقول: لِمَ أصيب وأعماله طيِّبة؟ أنت لا تعلم لأنَّ الله هو الخبير، لم يَسُق الله له هذا الحادث إلا لحكمة بالغةٍ ورحمةً به، فالله بما تعملون خبير، مثلٌ آخر؛ طبيب له الحقُّ أن يرى موضع الألم من المرأة، لكنَّه إن نظر إلى موضع آخر لا تشكو منه فهل على وجه الأرض جهة تكشف خيانة بصره؟ لا... إلا الله، قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ [غافر:١٩].

وقال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحديد:٢٢].

فإذا أرسل الله عزَّ وجلَّ مصيبة فلا تحزنوا لمجيئها، ولا تفرحوا بما آتاكم، فالله خبير بما تعملون، حكمة الله اقتضت أن يرسِل إليكم هذه المصيبة، إنسان صالح هو في حركة انتقال من بيته إلى مسجده وبالعكس، رزقه الله تعالى مبلغاً كبيراً من المال، هل سيبقى على حاله أم يتغيَّر؟ هذا لا نعلمه، لكنَّ الله يعلمه، فالله خبير بما تعملون، عَلِم ما كان وعلمَ ما يكون وعلمَ ما سيكون وعلمَ ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، إنَّ من عباد الله من لا يصلحه إلا الفقر فإذا أغناه أفسد عليه دينه، وإنَّ من عباد الله من لا يصلحه إلا الغنى فإذا أفقره أفسد عليه دينه، فمن الذي يعلم حقيقة النَّفس؟ كنت مرَّة في طريقي فرأيتُ جداراً منهاراً بسبب هبوب عاصفة هوجاء بلغت سرعتها مئة وثمانين كيلومتراً في الساعة، فهذا الذي بنى الجدار هل يعرف السُّرعة التي ينهدم بها الجدار؟ لا يعرف، ونحن إذا أردنا أن نعرف لا بد من التجارب، فبعض المعامل من أجل أن تعرف مقاومة الآلات، تضعها في ظروف صعبة بمركَبة تنتقل بسرعة مئة كيلومتر وأمامها جدار من الإسمنت المسلّح، طبعاً يحتالون على أن تنطلق من غير سائق، تصطدم بهذا الجدار، فيختبرون مقاومة هذا المعدن وهذا الهيكل على سرعة مئة كيلومتر، ماذا فعل بها هذا الصَّدم الشديد؟ وإلى أي مكان وصل هذا الصَّدم، ويبنون على هذه التجربة خبرتهم! إنَّ الإنسان الذي صنع هيكل مركبة وغلّفها وهيَّأها، لا

يعرف في حال اصطدامها بجدار مدى تأثير الجدار فيها إلا بعد الاختبار، فنحن لا نعلم إلا بالتجرِبة، فخبرة الله قديمة، وخبرة الإنسان مكتسبة، والدليل على ذلك أنَّ خلق الإنسان لم يطرأ عليه أيّ تغيير منذ خلقه الله سبحانه وتعالى. فالبشر من العصور القديمة وحتى الآن لم يطرأ تغيير على خلقهم. ولكنَّنا إذا نظرنا إلى سيارة صنعت سنة ألف وتسع مئة مثلاً، ترى بينها وبين التي صنعت سنة ألفين مثلاً بَوْناً شاسعاً غير معقول، فالقطار الأول الذي صنع قديماً ألزمتهم الجهات المسؤولة أن يمشي إنسانٌ أمامه كي يحذر الناس منه حينما يسير؛ فسرعته كانت تعادل سرعة الإنسان أما الآن فالقطار ينطلق بسرعة ثلاث مئة وستين كيلومتراً في الساعة، والتطورات ما زالت تأتي بالجديد، فالإنسان خبرته مكتسبة وحادثة، أما الله فخبرته قديمة بدليل أن كل شيء خلقه الله خلقه منذ اللحظة الأولى في أبدع صورة وفي أكمل حال وما زال على صورته وحاله. قال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [النمل:٨٨].

مرة كنت عند أحد إخواننا الكرام الذين يعملون في إصلاح السيارات، ورأيت عندهم قطعة ميكانيكية مُلقاة على الأرض، فقلتُ: ما قصة هذه القطعة؟ فقال: جاءَت وجبة مركبات فيها هذه القطعة، وبعد عشرة آلاف كيلومتر من استعمال المركبة، تكسَّر من هذا المكان وأشار إليه، ويوجد فيها منطقة ضعيفة، والذي صنع هذه الآلة لم يكن يتخيَّل أنَّ هذا المكان ضعيف على التحمّل وبذلِ الجهد، ومنها علمت أنَّ كلَّ تعديل يطرأ على مركبة أو على آلة فهو دليل نقص في الخبرة، والنقص في الخبرة يتلافونه في العام القادم! فالتّحديثات التي تطرأ على خبرة الإنسان دليل على أن خبرته ناقصة ومكتسبة وحادثة، أما خلق الله الكامل والذي لا يزال كاملاً وسيبقى كاملاً فهو دليل على أن خبرة الله قديمة، حليب الأم مثلاً فقير إلى الحديد وهو معدن أساسي جداً في تكوين خضاب الدم، لو فحصنا طحال وليد رضيع نجد أنَّ فيه كمية حديد تكفيه عامين إلى أن يتمكن من أكل غذاءٍ منوّعٍ، فمن فعل هذا؟ الخبير، ولماذا جُعل ثقب بين

الأُذين والأذين في القلب، كشفه العالم بوتال وهذا الثقب وظيفته أنه ما دام الطِّفل في بطن أمه ولا يحتاج هواء ولا يتنفس والرّئة معطلة، لذلك بدل أن يدور الدم إلى الرئة ويعود إلى الأُذين ينتقل من أُذين إلى أُذين، وحينما يولد الطفل تأتي جلطة لتغلق هذا الثّقب، وعندها تنتقل الدورة التي كانت من الأذين إلى الأذين فتصبح من الأذين إلى الرئة كل هذا من صنع الخبير، لماذا لا نجد في أظافرنا وشعورنا أعصاباً حسيَّة؟ فلو كان الأمر كذلك لاحتجنا إلى الذهاب إلى المستشفى لتقليم أظافرنا وقصّ شعورنا ولاحتجنا إلى تخدير. فهذا هو الخبير الذي أعطى كلَّ شيء خلقه، إذ لم يجعل أعصاب الحسِّ في الأظافر ولا في الشَّعر، ولكنَّه جعل أعصاب الحسِّ في العظام! فإذا انكسر العظم تألّم الإنسان أشدَّ الألم، فالشعور بالألم أربعة أخماس العلاج! كذلك لو نظرت في خلق الإنسان وفي خلق الحيوان والنبات لرأيت العجب العجاب، لو ترك الفلاح الشجرة بلا سقيا ما الذي يحصل؟ ستستهلك هذه الشجرة ماء الورق ثم ماء الغصن ثم ماء الفروع ثم ماء الجذع ثم ماء الجذور، وآخر ماء تستهلكه هو الماء الذي في آخر الجذر، فلو كانت الشجرة تستهلك الماء ابتداءً من الجذور لماتت كل الأشجار لمجرد توقفنا عن سقياها مرة واحدة، ولكن الله رحمةً بنا جعل الدورة معاكسة، ولماذا ينكمش الماء إذا بردناه؟ أما إذا وصل إلى درجة أربعة فيزداد حجمه، هذه الظاهرة لولاها لما كانت حياة على سطح الأرض، كلُّ هذا من فعل الخبير، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة:٨].

حتى العدل مع الكافر قُربة إلى الله، قد تقرّبه إلى الإيمان حينما تعدل مع الكافر، فهل كان هذا ابتغاء مرضاة الله أو خوفاً من الإنسان؟ من يكشف ما إذا كان هذا الإحسان صادراً عن خوف من الناس أو عن ابتغاء مرضاة الله؛ هو الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾، وفي آية آخرى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنعام:١٨].

وقوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) ﴾ [الأنعام:١٠٣].

لو احتال طبيب أسنان على قلع ضرس طفل فمهما يهوِّن على الطِّفل ومهما يداعبه فإنَّ الطِّفل يشعر بالألم، إما بألم الحقنة المخدِّرة أو بألم الضرس مباشرة، لكنَّ الله الخبير إذا أراد تبديل أسنان هذا الطفل فهل يتألم؟ هل يشعر بسقوط أسنانه اللبنية وتبديلها؟.

ويقول الله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦) ﴾ [التوبة:١٦].

الخبير هو الذي يعلم البواعث والخواطر، يعلم الخلفيَّات والملابسات، ويعلم حقيقة كلِّ شيء، ويعلم الاحتمالات، فنحن البشر لا نعلم حقيقة الشَّيء إلا بالتَّجارِب، حتى إذا أردنا صنع دواء نزرعه في الجراثيم كي نتعرف إلى مدى مفعوله، إما أن يقتل تلك الجراثيم فهو فاعل، وإما أن تبقى حيَّة كما كانت فهو غير فاعل، فعلوم البشر كلُّها أساسها التجربة، لذلك سمُّوه بالعلم التجريبي لكن علم الله وخبرته لا يفتقر إلى التجربة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣)﴾ [الحج:٦٣].

آية أخرى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠)﴾ [النور:٣٠].

فهذا الذي يغض بصره أمام الملأ ويتصنَّع ثم إذا خلا بنفسه مدَّ بصره إلى الحرام، هل يستطيع أحد أن يعرف إخلاص هذا المرء ورياءه؟ لا أحد ولكنَّ اللطيف الخبير أعلم بحاله من نفسه، لذلك قال تعالى في آخر الآية ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) ﴾.

نصيب المؤمن من اسم الله الخبير

إذا علمت أنَّ الله يعلم وهو خبير بسِرِّك وجهرك وسريرتك وعلانيتك وخَلْوَتك وجلْوَتِك وبواعثك وخواطرك ومقاصدك وخلفياتك، والمؤدَّى الذي تبتغيه من عملك، وعلمت أنَّ الله خبير وأنَّك في قبضته، فما التطبيقات العملية لهذا الاسم؟ أنت مكشوف أمامه ولا تخفى على الله منك خافية، علانيتك كسرِّك، وجهرك كسِرِّك، فهذا يجعلك تستقيم على طاعته، ولا تخشى معه أحداً آخر، وهذه هي أول ثمرة للإيمان باسم الخبير، يقول أحد الأئمة: من أدب المؤمن مع اسم الخبير أنَّه مَن عرف أن الله خبير بأفعاله وأقواله وأعماله كان محترزاً في أقواله وأعماله وواثقاً بجميع اختياره، وأنه ما قُسم له لن يفوته، وما لم يُقسم له لن يُدركه، إذاً أولُ ثمرة هي الاستقامة والرضا والاستسلام، ومن أدرك وأيقن «اسم الخبير» يرى أنَّ جميع الحوادث من الله سبحانه وتعالى، فتهون عليه الأمور بخلاف من يضيف بعض الحوادث إلى الحقِّ وبعضَها إلى الخلق، وأنَّه هو الفعال لما يريد، وكلُّ الأمور بيده، من خلال هذا نقول: إنك إذا تيقّنت من اسم «الخبير» وأنَّه المطَّلع على سرِّك وهو عليم بخفيِّ أمرك وما في صدرك، يكفي لرفع همتك إليه واستحضار حاجتك في قلبك من غير أن تنطق بلسانك وهي فكرة دقيقة جداً، عِلْمكَ أن الله مُطَّلِعٌ على قلبك يجعلك تناديه نداءً خفياً كما فعل سيدنا زكريا ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ [مريم:٣].

هناك معنى آخر للخبير، فأنت في دنياك تتحرَّك، وهناك أهداف ووسائل سمح بها الشَّرع لكسب المال، وهناك وسائل غير مشروعة، فقد يبدو لك أنَّ هذه الوسائل التي لم يسمح بها الشَّرع أسرع ونتائجها أضمن وهدفها أكبر، وتتوهَّم أنَّ الطريق التي رسمها الله لك طريق طويلة وهزيلة، فيُقبل هذا الإنسان الجاهل على وسيلة غير مشروعة من أجل كسب المال فيُفاجأ بتَلَف ماله؛ لماذا يا رب؟ فمن أجل الوصول إلى دخْلٍ وفير أنت مكلف بتطبيق منهج الله، فالنجاح ليس بالذكاء وإنما بالتَّوفيق، والتوفيق بالطاعة، فالذي يسرع إلى وسيلةٍ غيرِ مشروعة ظناً منه أنَّها موصلة قبل

المشروعة فهو واهم لأنَّ الله خبير، وهو الذي أمرك بالإقبال عليه، وأنَّ الانغماس في الشهوات شقاوة، وأنَّ كلَّ السعادة بطاعة الله، فكلُّ من اتَّبع الخبير يسعد، قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨)﴾ [الكهف:٢٨].

فحينما تسلك منهج الله فإنّك تقطف الثّمار اليانعة، وحينما تحيد عن منهج الله تندم أشدَّ النَّدم لأنَّك أسأت الظَّنَّ بالخبير، فيما يخص الآلات الثمينة والمعقَّدة وعظيمة النفع تعتقد بالبداهة والفطرة دون توجيه أنَّ الذي صنعها هو الوحيد الخبير بها، ولذلك تحتاج إلى كُتيِّب، فإذا كان هذا في شأن هذه الآلة، فما بالك في شأن نفسك التي تحوي أسراراً وخفايا لا يعلمها إلا الله، فهي تحوي أفكاراً وشهواتٍ وروحاً وجسداً وميولاتٍ وغرائزَ وطموحاتٍ وقيماً ومبادئَ وكلُّها أمور معقَّدة جداً، أفلا يجعلنا هذا نقول: إنَّ لهذه النفس منهجاً يوجهها ويسددها، إنه منهج الله ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾ [الملك:١٤].

وفي آية ثانية: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤)﴾ [فاطر:١٤].

أي ما من جهة ينبغي أن تُتَّبع تعليماتها إلا الصانع وهو الله عزَّ وجلَّ.

فالأمر الإلهي علاقته بنتائجه علاقة علميَّة، علاقة سبب بنتيجة، أضرب مثلاً أنت تركب مركبة تحمل عشرة أطنان، وصلت إلى جسر كتب عليه الحمولة القصوى خمسة أطنان، من الحمق والغباء أن تتلفت يمنة ويسرة لترى إن كان هناك شرطة تراقبك، فليس الموضوع موضوع شرطيّ ومخالفة، الجسر نفسه سيعاقبك، وستسقط في النّهر إن سرت فوقه بهذه الحمولة، فالعلاقة بين السير فوق هذا الجسر بعشرة أطنان وسقوط الجسر علاقة علمية.

حينما تفهم أمر الله الخبير على أنَّ العلاقة بين الأمر أو النّهي من جهة، والنَّتائج من جهة أخرى علاقة علمية؛ علاقة سبب بنتيجة، تكون قد عرفت الخبير.

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾.

أحد العلماء الكبار تكلم عن حظ العبد من اسم الخبير فقال: يجب أن يكون العبد خبيراً بأحواله وبإيمانه وخبيراً بمشاعره وأحوال قلبه، والخفايا التي يتَّصف بها قلبه، وخبيراً بإخلاصه واستقامته، فأقرب شيء منك جسمك ونفسك، فلا بد أن تكون خبيراً بقلبك؛ هذه الخواطر التي تأتيك أمِن قلبك أم من نفسك أم من الشيطان؟ وهل هي وساوس أم إلهامات؟ وهل هذا العمل باعثه الإخلاص أم الرِّياء؟ فينبغي أن تكون خبيراً بأحوالك ونفسك وقلبك، وكسبِك للمال وإنفاقِه، فاسم الخبير يقتضي أن تكون خبيراً بما أنت عليه؛ لأنَّ أول حركة لمعرفة أي مشكلة، هي أن تعرف أنَّها مشكلة ثم تحدِّدها، إذ إنَّك لا تترك عملاً إلا إذا علمت أنَّه ذنب، فقبل أن تترك الذُّنوب ينبغي أن تعلم ما الذُّنوب؟ فأول خطوة نحو إصلاح النفس أن تعرفها وتعرف حقيقتها وألا تنخدع بها.

ما زلنا في الحديث عن حظِّ العبد من اسم الخبير، قال عالم جليل: يجب أن يكون العبد خبيراً بما يجري في عالمه، وعالمُه هو قلبه وبدنه والخفايا التي يتصف بها القلب من الغش والخيانة والتَّطواف حول العاجلة، وإضمار الشر وإظهار الخير والتجمُّل بإظهار الإخلاص مع الإفلاس، ولا يعرف ذلك إلا صاحب خبرة بالغة قد خبر نفسه ومارسها وعرف مكرها وتلبيسها فحاذرها وشمَّر لمعاداتها، فذلك العبد جدير بأن يسمى بين العباد خبيراً، لذلك من عرف أن الله خبير كان بزمام التقوى مشدوداً وعن طريق المنى مصدوداً، وقال أحدهم: من أراد عزّاً بلا عشيرة، وهيبةً بلا سلطان، وغنىً بلا فقر، فليخرج من ذل المعصية إلى عزِّ الطاعة، وقال بعض العلماء: لا ينال الحظ الأوفر من هذا الاسم «الخبير» إلا من كان خبيراً بدسائس نفسه بصيراً بخدائع حسِّه، يعرف الفرق بين خطرات الشيطان وإلهامات المَلَك، بصيراً بإلهامات الرحمن ووساوس الشيطان، وبعض العلماء لهم دعاء يتعلق باسم الخبير، يقول هذا العالِم الجليل: إلهي أنت الخبير بالدقائق والبصائر، والمطَّلِع على السرائر، والناظر إلى الضمائر، تجلّ لي بنور

اسمك الخبير بلا حول مني ولا تدبير، حتى أكون خبيراً بالأمور الغائبة عن الجهَّال، وأنجو من الشرك الخفيِّ وما هو أخفى في الأقوال والأعمال، ويتجلَّى لي مولاي الخبير نِعْم المولى ونِعْم النصير، لذلك فإليك الآية الكريمة: ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ﴾ [طه:٧].

فمضمون هذه الآية: من لوازم خبرته أنه يعلم ما خفي عنك.

أيها القارئ الكريم: هذا الاسم له تطبيقان أساسيان:

الأول: أن تعلم أنك مكشوف أمام الله، لا تخفى على الله منك خافية.

الثاني: أن تكون أنت خبيراً بأحوالك وخواطرك وقلبك وإيمانك ووساوسك وإلهامات الملائكة، فأنت خبير، وتعلم أنَّه خبير، عندئذ تتحقق لك الفائدة من هذا الاسم الجليل.

فهرس

مقدمة ٥
تمهيد ١٣
الرحمن ٢٧
الرحيم ٤٩
الرب ٥٩
المالك ٨١
القدير ٩٧
العليم ١٠٥
الحكيم ١٢١
التواب ١٣٧
السميع ١٥٣
العزيز ١٧١
الواسع ١٩٥
الرؤوف ٢١١
الشاكر ٢٢٥
الإله ٢٣٧
الغفور ٢٤٧
القريب ٢٥٧
الحليم ٢٦٩
الحي ٢٨٣
القيوم ٣٠١
العلي ٣١٨
العظيم ٣٢٩
الحميد ٣٤٧
الوهاب ٣٦٧
الوكيل ٣٨٧
الرقيب ٤٠٣
الحسيب ٤١٧
الشهيد ٤٣٥
العفو ٤٥٣
المقيت ٤٦٧
القاهر ٤٨٣
الخبير ٤٩١

موسوعة

أسماء الله الحسنى

وصفاته الفضلى

من الكتاب والسنة

المجلد الثاني

الدكتور
محمد راتب النابلسي

مؤسسة
الفرسان
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

موسوعة

أسماء الله الحسنى

وصفاته الفضلى

من الكتاب والسنة

جميع الحقوق محفوظة لدى

مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع

ويحظر نسخ و/أو طبع و/أو تصوير و/أو ترجمة و/أو إعادة صف وإخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه و/أو تسجيله على الأشرطة و/أو وسائل تحميل الصوت أو الصورة و/أو الأقراص المدمجة أو الممغنطة و/أو إدخاله على الكمبيوتر أو قواعد البيانات و/أو استغلاله بأي شكل من الأشكال إلا بموافقة خطيّة من الناشر.

All Rights Reserved ©
Al Fursan Est.
Publishers & distributors

No part of this publication may be reproduced or distributed in any form or by any means, or stored in a database or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

الطبعة الأولى
2014 م /1435 هـ

مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع
الأردن – عمان – العبدلي
هاتف 00962 6 5607386
فاكس 00962 6 5653470
صندوق بريد 240664 عمان 11124 الأردن

Al Fursan Est.
Publishers & distributors
Jordan – Amman – Abdaly
Tel : 00962 6 5607386
Fax: 00962 6 5653470
P.O. Box 240664 Amman 11124 Jordan

E-mail: alfursan111@yahoo.com

الكتاب: موسوعة أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى من الكتاب والسنة
4 مجلدات
المؤلف: الدكتور محمد راتب النابلسي
التخريج والتدقيق: بلال نور الدين
المراجعة النهائية: بلال نور الدين
الخطوط: الخطاط / يعقوب إبراهيم
الإشراف العام: م. حسن صالح

مؤسسة
الفرسان
للنشر والتوزيع
جميع الحقوق محفوظة
All Rights Reserved ©

ISBN: 9789957570576 ردمك
رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية: 3 / 1 / 2014

اللطيف

هذا الاسم ورد في سبع آيات من القرآن الكريم، أولها في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام:١٠٣].

وقال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك:١٤].

ولم يقترن اسم اللطيف إلا باسم الخبير، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب:٣٤].

وورد مقيّداً في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف:١٠٠].

وكذلك في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى:١٩].

وقد ورد هذا الاسم في السُّنة في صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أنَّ النبي ﷺ قال لها: «لَتُخبِرِيني أو لَيُخبِرَنِّي اللطيف الخبير».

من معاني اسم الله (اللطيف)

اللطيف في اللغة صفة مشبَّهة باسم الفاعل على وزن (فعيل)، والفرق بين اسم الفاعل والصفة المشبَّهة باسم الفاعل؟ أنَّ الصِّفة المشبَّهة باسم الفاعل تلازم صاحبها، فتقول: فلان طويل أي إنّه طويل دائماً، أمّا لو قلت: فلان داخل، فالدخول طارئ وقد يدخل مرة واحدة، فاسم الفاعل يدل على الحدوث والانقطاع، والصِّفة المشبَّهة باسم الفاعل تدل على الثَّبات والدَّوام.

لكن لا بدّ من تنويه وهو أنَّ الأصل في اللغة المعنى، فإذا قلنا: الله عز وجل خالق، فهو ليس خالقاً لمرَّة واحدة، بل يخلق ما يشاء، وخلقه مستمر على الدّوام.

واللطف في الشَّيء رِقَّته، واستحسانه، وخفَّته على النَّفس، أو احتجابه وخفاؤه.

وفي صحيح البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت في حادثة الإفك: ولا أَشْعُرُ، وهو يريبُني في وجَعي: أَنِّي لا أرى من النبي ﷺ اللُّطْفَ الذي كنت أرى منه حين أشتكي.

يقال: لطف به وله، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى:١٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف:١٠٠].

الله لطيف بعباده ولهم، رفيق بهم، يرحمهم، قريب منهم، يعامل المؤمنين بعطف ورأفة وإحسان، ويدعو المخالفين إلى التوبة والغفران مهما بلغ بهم العصيان، فهو لطيف بعباده، يعلم دقائق أحوالهم ولا يخفى عليه شيء مما في صدورهم.

سيدنا لقمان قال لابنه وهو يعظه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦﴾ [لقمان:١٦].

يعلم دقائق الأمور، أدقّ التفصيلات، البواعث الخفية، المقاصد البعيدة، النوايا البعيدة، المشاعر، الخواطر، لكنّه لطيف.

اللطيف هو الذي ييسر لعباده أمورهم، يوفقك في زواجك، في شراء بيت، في تجارة رابحة، بطولتك ألا تعزو الفضل إلا إليه، أنت حينما تقول: الله وفقني، الله أكرمني، الله مكنني، الله أعطاني، الله تفضل عليّ، الله يسّر لي أمري، فهذا ليس من باب التواضع، بل من باب الحقيقة، لذلك قال تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [هود:٨٨].

فلا يتحقق شيء على وجه الأرض إلا بتوفيق الله.

إذاً اللطيف هو الذي ييسر للعباد أمورهم و يستجيب منهم دعاءهم، فهو المحسن إليهم في خفاء و ستر، من حيث لا يعلمون فنعمه عليهم سابغة ظاهرة، لا يحصيها العادُّون، و لا ينكرها إلا الجاحدون.

أنت كرم من الله، منحك نعمة الإيجاد: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان:١].

ثمَّ منحك نعمة الإمداد، أعطاك هواء، أعطاك ماء، أعطاك مأوى، أعطاك علماً، أعطاك طلاقة لسان، عندك زوجة، عندك أولاد، عندك أصهار، كلُّ هذه النعم بفضل الله عزَّ وجلَّ، إذاً هذا معنى من معاني اللطيف.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج:٦٣].

واللطيف هو الذي يرزقهم بفضله، فهذا يتقن الخط، وهذا يتقن قصَّ الشعر، وهذا يتقن التَّعليم، وهذا يتقن الهندسة، وهذا تاجر، والآخر مزارع، وكلُّ واحد مكّنه الله من عمل ويسّره له.

وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ۝١٩﴾ [الشورى:١٩].

كما أنَّه يحاسب المؤمنين حساباً يسيراً بفضله ورحمته ويحاسب غيرهم من المخالفين وفق عدله وحكمته.

ومن معاني اللطيف أنَّه خفيّ قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الكهف:١٩].

ينبغي ألا يراه أحد، ألا يعلم به أحد، أنت جالس في بيتك، مع زوجتك وأولادك، والله معك أينما كنت لكن بلطف، وإنَّ من أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان.

إذاً الله عز وجل لا يُرى في الدنيا لطفاً منه وحكمة ويرى في الآخرة إكراماً ومحبة، احتجب عنا في الدنيا لطفاً وامتحاناً ورأيناه في الآخرة إكراماً وإحساناً.

ولو رآه الناس في الدنيا جهاراً لبطلت الحكمة وتعطلت معاني العدل، لذلك قال الله عز وجل عن رؤية الناس له في الآخرة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة:٢٢-٢٣].

أضرب هذا المثل: لو أنَّ صاحب المحل وراء الطَّاولة لا يغادر مكتبه و لو لثانية، و المكان الذي فيه المال بقبضته، وعنده موظف أراد اختبار أمانته، فهل يستطيع اختباره دون أن يغيب عن مكتبه؟! لكن لو خرج صاحب المحل من المحل و أبقى الدُّرج مفتوحاً و جلس في المحل المقابل بمكان لا يراه الموظف، الآن يمتحن الموظف، لذلك قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم:٤٢].

لو أن الله عز وجل يُرى في الدنيا، وكلُّ ذنب وراءه عقاب مباشر فالكل يستقيمون، ولكن لا قيمة لهذه الاستقامة.

فالله عزَّ وجلَّ ما أراد أن تكون علاقة عباده به علاقةَ قهر، بل أرادها علاقة حب.

لذلك لو أنَّ الله ظهر في الدنيا لأُلغي التكليف، وألغيت البطولات، وألغي الثواب، وألغي العقاب، لا يمكن أن نُمتحن، لا يمكن أن نستحقَّ الجنَّة، لا يمكن أن يكون لنا ثواب، لا يمكن أن نرقى إلا إذا كنا مخيَّرين، إلا إذا كان بالإمكان أن تعصيه وأنت معافى.

من هنا قال الله عز وجل عن رؤيته في الدنيا: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ ﴾ [الشورى:٥١].

حتى كليمه موسى، كلمه الله من وراء حجاب، وقال تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٠٣].

موجود، لكن لا تراه، اعبده كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، هذه مرتبة الإحسان و في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «تعلَّموا أنَّه لَنْ يَرى أحدٌ منكم ربَّه حتى يموتَ» [رواه مسلم عن عمرُ بن ثابت الأنصاريُّ].

في الدنيا ليس هناك رؤية وأية دعوى برؤيته افتراء و كذب، لأن الدنيا خلقت للابتلاء، أما الآخرة فهي دار الجزاء.

الدنيا دار تكليف أما الآخرة فدار تشريف، الدنيا دار عمل أما الآخرة فدار جزاء، في الآخرة يُكشف الغطاء و يرفع فيها الحجاب، و يلطف الله بالموحدين عند الحساب قال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [ق:٢٢].

قال تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس:٢٦].

قال علماء التفسير: الزيادة رؤية وجه الله الكريم.

وإذا قلنا: الله لطيف بعباده، فالله عزَّ وجلَّ معك يسمع صوتك، ويعلم ما في قلبك، وما في رأسك من أفكار وطموحات، وصراعات، وآراء، ومعتقدات، وتصورات وتخيلات، ويعلم ما في قلبك من هموم ومتاعب وآلام وضغوط من خوف ومن قلق،

ومع ذلك وجوده معك محببٌ، تصوّر لو أن إنساناً لازَمَ إنساناً... جلس فجلس معه، مشى فمشى معه، دخل إلى بيته فدخل معه، أكل فأكل معه، فإن بقي يلازمه خمسة أو ستة أيام يخرج من جلده، ويقول له صائحاً: إليك عني، انصرف بعيداً، وقد رأينا أنه لم يتكلم بأيّة كلمة، ولم ينتقد، ولم يعترض، ولم يطلب منه طلباً ما؛ إنَّ ذلك الشخص بملازمته لك عبء عليك، لكنَّك تعلم أنَّ الله معك دائماً، ولكن لا تُحسُّ بوجوده، فوجوده محبَّب إليك، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد:٤].

﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة: ٧].

تعني كلمة لطيف، أن الله عزَّ وجلَّ من اللطف بحيث لا تراه ولا تسمعه؛ ولكن تراه بعقلك، وهذا أحد المعاني لكلمة لطيف، لهذا جاء في الحديث الصحيح:

عن أبي هُرَيْرَةَ قال كانَ النبيُّ ﷺ بارزاً يوْماً للناسِ فأتاهُ جِبْرِيلُ فقالَ ما الإيمانُ؟ قالَ: «الإيمانُ أن تُؤمِنَ بالله وملائكتِهِ وكُتُبِهِ وبِلقائِهِ ورُسُله وتُؤْمِنَ بالبَعْثِ»، قال: ما الإسلامُ؟ قال: «الإسلامُ أنْ تَعْبُدَ اللهَ ولا تُشْرِكَ بِهِ شيئاً، وتُقيمَ الصلاةَ، وتؤدِّيَ الزكاةَ المَفْروضَةَ، وتَصُومَ رَمَضانَ، قال: ما الإحسانُ؟ قالَ: «أنْ تَعْبُدَ اللهَ كأنَّك تراه، فإنْ لم تكن تراهُ فإنَّهُ يَراكَ» [رواه مسلم].

إذاً: المعنى الأول أنَّ الشَّيء الصَّغير الذي لا يُحَسُّ به لأنَّه بعيد، أو لصِغره يسمى لطيفاً، ولمَّا كان الله سبحانه وتعالى منزَّهاً عن الجسمية ليس بجسم ولا صورة، ولا متبعِّض ولا متجزِّئ، ولا متحيِّز، كل ما خطر ببالك فالله خلاف ذلك، لا يُسأل عنه؛ متى كان؟ لأنه خالق الزمان، منزّه عن الجسمية والتحيز في كل مكان مع كل شيء بعلمه، محيط بكل شيء علماً، وعلمه مع كل شيء، وفوق كل شيء، وإلى جانب كل

شيء، وما معنى الحيّز؟ مثلاً هذا الكأس يشغل حيزاً في الغرفة، وله وزن وارتفاع وقُطر وقد حجز على الطاولة مكاناً، وفي الفراغ مكاناً وله وزن؛ هذا هو الحيز، فربنا عزَّ وجلَّ ليس بمتحيز، أي: لا يشغل حيزاً.

إذاً إذا قلت: الله لطيف يعني أن الله عزَّ وجلَّ لا يشغل حيّزاً، وليس بجسم ولا صورة، ولا متبعّض ولا متجزِّئ ولا متحيّز، إلى آخر هذا التعريف.

ولما كان الله منزّهاً عن الجسمية لم يحسَّ به فأطلقوا اسم الملزوم له على اللازم، فوصفوا الله تعالى بأنه لطيف بمعنى أنه غير محسوس وكونه لطيفاً بهذا الاعتبار، فهذا الاسم من صفات التنزيه، أي: سبحانه أن يكون له جسم، أو أن يكون متحيزاً، سبحانه أن يحيط به زمان.

إذاً: اسم اللطيف من أسماء التنزيه، فهو معك لكن بلا شعور، لا تُدرِكُه الأبصار لأنه لطيف وهو يُدرِك الأبصار.

وأحياناً تعمل عملاً لا يُرضي الله فتُحاسب عليه بعد قليل حساباً عسيراً؛ وأحياناً تفكر في عمل لا يُرضي الله، تجد الله عزَّ وجلَّ قد عاقبك، لأنه عَلِمَ ما في نفسك، إنه لطيف لا تُحِس بوجوده، فوجوده ليسَ ثقيلاً عليك، لكنه موجود، يحولُ بين المرء وقلبه، ويعلم السر وأخفى، ومعنى: (وأخفى)، أي: وعَلِمَ ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، إنَّه يعلم لِمَ وكيف، وماذا، وعلامَ، وهذه أحوالك أيها الإنسان يعلمها الله دون أن تراه، فالله لطيف، ولطيف اسم تنزيه، وفي الوقت نفسه لطيف لكنه موجود معك، فخواطرك ومشاعرك وأحاسيسك وطموحاتك وصراعاتك وآلامك، وضيق نفسك كلُّه معروف عنده لكن دون أن تشعر به.

إنَّ المؤمن ما دام يعبُد الله وكأنَّ الله يراه فإنَّه يكون متأدِّباً حتى ولو كان في خلوته، وهو لا يرى الله بعينيه لكنَّه يراه بعقله، فالمؤمنون وهم في فرشهم يتأدبون مع الله عزَّ وجلَّ، ويجب أن تكون حركته كلُّها أدباً، حتى إذا دخل الخلاء له دعاؤه، وحتى إذا دخل الحمام له موقف فيه أدب، لأنَّ الله يراقبه.

فكلما ارتقى إيمانك تشعُر أنَّ الله معك... «يا موسى! أتحب أن أكون جليسك، قال: وكيف هذا يا رب؟ قال: أما علمت أنني جليس من ذكرني وحيثما التمسني عبدي وجدني».

وبعد، فكم من مصلٍّ يقول: سَمِعَ الله لمن حمده، فهل عرفت معناها، يعني يا عبدي أنا أسمعك، فاحمدني، فإن قلت: سمع الله لمن حمده، فأنا أسمعك وأصغي إليك، فلذلك إذا صليت فاعلم أنك بين يدي الله عزَّ وجلَّ.

ترى الإنسان يعتني بمظهره عناية مطلقة إذا دُعيَ لمقابلة مسؤول مثلاً، وهو إنسان مثله، يموت، ويجوع، ويعطش، ويتعب، ويغضب، فكيف إذا وقف بين يدي الواحد الديّان؟ فليعلم أنَّ الله لطيف، موجود ولكن لطيف، وجوده لطيف وليس ثقيلاً، هذا المعنى الأول.

المعنى الثاني: اللطيف هو العالِمِ بدقائق الأمور وغوامِضِها. ويقال: فلان لطيف اليد إذا كان حاذقاً في صنعته، ومهتدياً إلى ما يُشكِل على غيره، وعلى هذا التفسير يكون الله لطيفاً بمعنى أنه عليم.

وقد تفهم الأمر بشكل ظاهري لا بخباياه، ولا بخلفيَّاته ولا بتحليلاته العميقة، ولا بالدوافع الخفيَّة لهذا الأمر، فالإنسان كلَّما ارتقى علمُه فهم البواطن وفهم السَّرائر، وما بين السُّطور، بل يفهم الدَّافع الحقيقيَّ.

أضرب مثلاً بأشخاصٍ غير مستقيمين: في أيام الشتاء جاءت صديقة زوجته، وهو جالس في غرفة الجلوس والمدفأة مشتعلة، فقال لها ولزوجته: تعالين إلى هنا، أدفأ لكُنَّ، وهل حقاً أدفأ لَهُنَّ؟ أم له هدف أبعد من ذلك، أن يطلِعَ على هذه المرأة صديقة زوجته، من يعلم هذا الشيء؟ الله عزَّ وجلَّ يعلم السِّرَّ وأخفى.

وما معنى لطيف يعني يعرف دوافعك الحقيقية، وهذه المواقف الملتوية والسِّرَّ، والحِكمة، وهو الذي يعلم دقائق الأمور، وبواطِنها وخلفيات الأشياء، وحقيقة كل أمرٍ، ويعلم ما خَفِيَ على معظم الناس.

فالذي يعلم بواطن الأمور ودقائقها وخفاياها، ومؤدَّياتها ومضاعفاتِها وما ينجم عنها وما أساسها، وما سِرُّها، وما أسبابها الحقيقيَّة هو اللطيف هذا معنى ثانٍ، اسم اللطيف يعني الذي يعلم كل شيء مهما دق وخفي.

المعنى الثالث: اللطيف هو البَرُّ بِعِبادِهِ الذي يلطف بهم من حيث لا يعلمون، ويهيئ مصالحهم من حيث لا يحتسبون، فاليوم حَرٌّ شديد مثلاً، فربنا عزَّ وجلَّ يهيئ لأهل هذه البلدة إنضاج فاكهتهم، وهم لا يعرفون، وبعد شهر ترى هذه الفاكهة معروضة في الأسواق بوضع جيِّد وجميل وطعم طيِّب ولذيذ، فمن أنضجَ هذه الفاكهة طوالَ هذه المدَّة؟ إنّه الله عزَّ وجلَّ، إنَّه لطيف بعباده، فساعة حرّ، وساعة برد، وساعة ماء غزير، وساعة ماء قليل، وأنت لا تدري فاللطيف بعباده هو البَرُّ بهم، والذي يلطف بهم من حيث لا يعلمون ويهيِّئ مصالحهم من حيث لا يحتسبون، ومنه قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩﴾ [الشورى:١٩].

لكن المعنى الرابع وهو من أروع المعاني التي قالها الغزاليُّ رحمه الله، أنَّ اسم اللطيف الذي يعلم دقائق الأمور، وينقل عبده من حال إلى حال بلطف عجيب.

فهذا الطِّفل الصغير يجب أن يغيِّر أسنانه، لأنَّه لو نبتت له أسنان نهائيَّة ثابتة وفمه صغير جداً، فمنظره مُنَفِّر، فأسنانه كبيرة، والفم صغير، ولو نبتت له الأسنان وهو يلتقم ثدي أمِّه فيمكن أن يؤذيها أذى مؤلماً لا تحتمله، فهذا الطِّفل يكون في السنة الأولى دون أسنان ثم تنبت له أسنان لبنيَّة، ومن بعد، ربنا عزَّ وجلَّ يُبدِّل لهذا الطفل أسنانه، فالله لطيف، ولا يوجد طبيب في الأرض يستطيع أن ينزع سناً لطفل دون أن يبكي، حتى إنَّ حقنة المخدر مؤلمة جداً، فيبكي منها، ولكنَّ ربنا عزَّ وجلَّ يذيب هذا السن شيئاً فشيئاً ثم يأكله الطِّفل مع اللقمة ولا يشعر بشيء، فمعنى لطيف كما قال الإمام الغزالي: «هو من يعلم حقائق المصالح وغوامضها، ثم يسلك في إيصالها إلى مستحقها سبيل الرِّفق دون العنف».

وأحياناً قد يُكرِهُك الله على شيء ما، ليس فجأةً، بل بالتدريج، خلال خمس سنوات مثلاً، وتأتيك منه بعض المتاعب، أزاح عنك خمساً بالمئة من محبته، وبعد أسبوعين تأتي متاعب جديدة فيزاح بالمئة عشر، وبعد أسبوعين متاعب جديدة بالمئة خمس عشرة، وبعد شهرين أو ثلاثة تقول: زهقت روحي، ولم أعد أطيق ذلك، فهناك شيء غير صحيح قد تعلقت به، فربنا عزَّ وجلَّ نزعه منك شيئاً فشيئاً بلطف.

على هذا النحو تم تحريم الخمرة؛ إذ كان العرب متعلِّقين بها تعلُّقاً شديداً، فلو أمرهم أن يتركوا الخمرة بآية واحدة فربما ارتدَّ بعضهم، أو نصفهم عن الإسلام، لكنَّ الله لطيف، قال: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [النحل:٦٧].

ألطف إشارة إلى أنَّ الخمر رزق ولكنَّه ليس حسناً، فقال: تتخذون منه سَكَراً، مادة مُسكِرة، ورزقاً حسناً، تظنون أنَّه حسن وهو مسكِر فليس بحَسَن، هذه أول إشارة، وبعد ذلك قال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ﴾ [النساء:٤٣].

يعني: إن شربْتَ فلا عليك، ولكن دعه عند الصلاة، وبعد ذلك قال: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ [البقرة:٢١٩].

المنافع للذين يتَّجرون بها ويعيشون على دخلها، ثم يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة:٩٠].

فهو سبحانه لطيف حرَّمها بالتدريج، وكذلك قد يذهب شاب إلى الجامع فيسمع درساً ووعظاً، يقول: والله إنَّه درس جميل، وأريد أن أداوم عليه، ويكون مقيماً على

عشرين أو ثلاثين معصية، وربنا للطفه لا يذكِّره بها كلِّها، لكنَّ اللطيف يذكِّره بواحدة منها بين الحين والحين، هذه حرام، وهذه حرام، فلا حول ولا قوة إلا بالله، لقد كنت جاهلاً، فلعله يتركها؟؟ ولو أعطيناه القائمة بالمعاصي كلِّها لترك الدِّين كلَّه، ولكنَّ اللطيف تدرَّج به واحدة واحدة، وبعد ستة أو ثمانية أشهر، ترك هذه وهذه وهذه، وربنا يسخِّر له شخصاً يُذكِّرُهُ بالأشياء بلطف، فهذه حرام يا أخي وهذه لا يجوز أن تأتيها، وهذا اللقاء لا يجوز، وهذا البيع فيه شبهة وهذه البضاعة لا يحل الاتِّجار بها فهي محرمة شرعاً، أتتاجر بطاولات نرد؛ فإليك حديث النبي ﷺ فقال:

عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عن أبيهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «مَنْ لَعِبَ بالنَّرْدَشِيرِ فكأنَّما غَمَسَ يَدَهُ في لَحْمِ خِنْزِيرٍ ودَمِهِ» [رواه مسلم].

وبالتدريج ربُّنا يعالج الأمور، فربُّنا لطيف في العلاج، والإنسان أحياناً يغلب رجاؤه على خوفه، وربُّنا لطيف يخوِّفه، وأحياناً يغلب خوفه على رجائه، وربنا لطيف يطمئنه.

العلم الدقيق مع التدريج في العمل، هذا هو الاسم الجامع المانع لاسم اللطيف، ويستحقُّه من يعلم حقائق المصالح وغوامضها، ثم يسلك في إيصالها إلى مستحقها سبيل الرِّفق دون العنف، حين يجتمع له هذا العلم. وإليك مثلاً: إنَّ الوالد إذا ارتكب ابنه مخالفة للشَّرع أو للأخلاق، يمكن أن يعاقبه بعنفٍ وقوَّة، ولكن الأجدى أن يتابعه، ويراقبه، ويشجِّعه، ويكافئه، ويعاقبه، ويُعرِض عنه، ويراوح في كلِّ ذلك، وبعد شهرين أو ثلاثة يستقيم طواعية وقناعة، فأنت نقلته من حال التلبُّس بهذه المخالفة إلى حال التوبة منها بطريقة لطيفة دون أن تُحطِّمَهُ، أو تجرحه، أو تَسحَقَهُ، أو ترضَّه رَضّاً ودون ألم وعنف، والمربي المؤمن لطيف، ينقل من يعالجه، ويربيه من درجة إلى درجة بالرِّفق واللطف.

دخل رجل إلى المسجد فأحدث جلبة وضجيجاً يريد أن يدرك الركعة، فلما انتهى قال ﷺ لهذا الذي أحدث جلبة وضجيجاً: «زادك الله حِرصاً ولا تعد!» [أخرجه

البخاري، من حديث أبي بكرة] لقد ترفق به، ولذلك «إن الله تعالى رفيق يحب الرفق، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف» [أخرجه مسلم، من حديث عائشة] إذاً علموا ولا تعنفوا، فإن المعلم خير من المعنف.

ومن لطف الله بعباده، أنه أعطاهم فوق الكفاية، وكلّفهم دون الطاقة، خمس صلوات، كل صلاة ثلث ساعة، عشرون دقيقة، أي: مئة دقيقة من أربع وعشرين ساعة، ولو كلّفَكَ خمسين صلاة لما استطعت! ثلاثون يوماً تصوم في السنة فلو كلفك ستة أشهر صياماً متتابعة لما أطقت.

الله لطيف بأوامره، لطيف بخلقه، فلو كانت هذه التفاحة تحتاج إلى أدوات لتأكلها لشَق الأمر على الناس جميعاً، فأنت بسكين تأكلها، ولو كانت البيضة تحتاج إلى مفتاح ولم تجد المفتاح لأتعبت الحياة أهلها، لكن على طرف الصحن تكسرها.

عنقود العنب تريد أن تسحبه نحو الأسفل فينسحق بيديك، ولكن بالعكس له مفصل، الله لطيف، إذا عملت حركة معاكسة باتجاه العنقود يصير بيدك، تُمسك الدّراقة تصبح بحركة في يدك، فربنا عزَّ وجلَّ لطيف، الفاكهة لها طعم ولها شكل، ولها قِوام مقبول مع الأسنان، ولو كانت التفاحة بقِوام الصخر تماماً فما الطريقة إلى أكلها؟ إننا نحتاج إلى مطحنة حجر كي نصنع عصير تفاح، إذ لا نقدر على أكلها، فالتفاحة قِوامُها هشّ ممكن أن تأكلها بسهولة.

الذي دبّر الأمور هو الحكيم، والذي أوجدها هو الجواد، والذي رتبها هو المصوّر، والذي وضع كل شيء في موضعه هو العدل، أما الذي لم يترك فيها دقائق إلا وعرفها فهو اللطيف، واللطيف هو الذي أعطى العباد فوق الكفاية وكلفهم دون الطاقة، واللطيف الميسر لكل عسير الجابر لكل يسير، واللطيف من وفق للعمل في الابتداء وختمه بالقبول في الانتهاء، واللطيف هو الذي وليَ فستر، وأعطى فأغنى، وأنعم فأجزل، وعلم فأجمل.

مظاهر اسم الله (اللطيف) في الكون

الحقيقة التي أرجو أن تكون واضحةً في ذهن كلِّ مؤمن؛ هي أنَّ الكون كلَّه في أصل خلقه خُلِقَ وسُخِّر للإنسان تسخيرين: تسخيرَ تعريف، وتسخير تكريم، فالمرء قد يشرب الكأس من الماء، فيروي العروق ويذهب الظمأ، ولكن هذا الماء خُلق لهدف أكبر من أن تشربه، خُلق لكي تعرف الله من خلاله، فمن جعل الماء لا لون له ولا طعم ولا رائحة؟ ومَن جعله ذا خاصية عالية في النفوذ؟ ومن جعله يتبخر في درجة منخفضة جداً؟ ومن جعله يحلّ المواد الكثيرة؟ ومن جعله قِوام الخليَّة الحيَّة؟... إلخ؟

فإذا عرفت -أيها المؤمن- اللهَ من خلال الماء فقد حقَّقت الهدف الكبير من خَلْقِ الماء، أمَّا إذا شربت كأس الماء وارتويت منه، ثم أغلقت دون عقلك الأبواب فقد حققت الهدف الصغير؛ فالهدف الكبير أن تعرف الله من خلال الماء والهواء والطعام، وأن تعرفه من خلال نفسك التي بين جنبيك، وأن تعرفه من خلال ابنك، ومن خلال كل شيء حولك، هذا كله بيَّنه النَّبي ﷺ في حديث موجز قصير جامع مانع، حينما رأى الهلال...

حَدَّثَنا قَتادَةُ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ النبيَّ ﷺ كانَ إذا رأى الهِلالَ قال: «هِلالُ خيرٍ ورُشْدٍ، هِلالُ خيرٍ ورُشْدٍ، هِلالُ خيرٍ ورُشْدٍ، آمنتُ بالذي خَلَقَكَ» ثلاث مراتٍ، ثم يقولُ: «الحمدُ لله الذي ذَهَبَ بشهرِ كذا وجاءَ بشهرِ كذا» [أخرجه أبو داود].

إذا وقفت أمام بائع أزهار وتأملت اسم الجميل، من خلال جمال الزهرة، وتأملت هذه الرائحة الفواحة العَطِرة، ورأيت في الزهرة تناسق الألوان وأنت تعلم علم اليقين أن هذا الزهر لا يؤكل، وإنما خُلِقَ خصيصاً لإمتاع عينك وأنفك، إذاً هذا من إكرام الله عزَّ وجلَّ لك، فإذا عرفته شكرته وعظَّمته.

لو قرأت كتاباً عن العسل، وتملَّكك العجب العُجاب من هذه النحلة: تلك الحشرة الاجتماعية، ذات النظام البديع، في مجتمعها الذي هو أرقى من المجتمعات

البشرية، فأيُّ مجتمع بشري، يعرف فيه كلُّ مواطِنٍ ما له وما عليه، من حقوق وواجبات؟ إن النظام لدى مجتمع النحل مهمٌّ جداً، إذ لا ترقى إليه التنظيمات البشرية، إذ كلُّ شيء في وقته وموقعه ومكانه وزمانه، فأرقى المجتمعات البشرية لا ترقى إلى مستوى النِّظام الاجتماعيِّ عند النَّحل أو النمل.

أجل، إذا قرأت كتاباً عن النحل، وشعرت أن الخالق جلَّ وعلا أبدع في خلق النحل، أدركك الخشوع وربما انهمرت عينك بالدموع، فأنت حققت الهدف الأكبر من خلق النحل ولو لم يكن دخلك يسمح لك أن تشتري شيئاً من العسل، أما الذي أكل العسل حتى امتلأت حجراته وخلاياه منه، ولم يفكِّر في هذه المادة التي أكرَمَ الله بها الإنسان فقد عطَّلَ الهدف الأكبر واستفاد من الهدف الأصغر.

إذاً اتفقنا على أن الكون مُظهِر لأسماء الله الحسنى... وما دمنا نطوف حول اسم اللطيف، فهل ترى في الكون ما يدل على أنه لطيف؟... نعم فالهواء يحيط بنا من كل جانب، نستنشقه، ولو حرّكناه لشعرنا بوجوده، يحمل طائرة وزنها ثلاث مئة وخمسون طناً، منها مئة وخمسون: هيكل الطائرة ومئة وخمسون: الوقود، وخمسون: الركاب مع الحاجات؛ فالهواء يحمل ثلاث مئة وخمسين طنّاً فهو إذاً شيء عجيب جداً.

وحينما تدخل المركبةُ الفضائيَّة في الغلاف الجويِّ فإنّها تصبح كتلةً من اللهب لاحتكاكها به، ومع ذلك فإذا كنت على سطح الأرض فالهواء لا يُرى وليس له صوت إذا كان ساكناً، فهو موجود وكأنه غير موجود فلا يحجب الرؤية، وترى أخاكَ من خلاله، وتسمع صوته، إذاً الهواء لطيف، وربنا عزَّ وجلَّ يقول: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ۝١٩﴾ [الشورى:١٩].

﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك:١٤].

إسم اللطيف له معانٍ كثيرة، أحد هذه المعاني أنَّ الشَّيء الصَّغير الذي لا يُحَسُّ به لصغره يسمى لطيفاً، مثلاً: ائتِ بمذياع، أدِرْ مؤشره إلى إذاعة من الإذاعات، تستمع إلى

نشرة الأخبار، أين هو الكلام؟ إنه موجود في الجو المحيط، وبهذا الجهاز اللاقط التقطته، فهل تستطيع أن ترى بعينك موجات الإذاعة؟ لا تراها بعينك، ولا تسمعها دون جهاز استقبال؟ وهل لها وزن؟ لا، ولها رائحة؟ لا، إذاً موجات الإرسال لطيفة، وموجودة والدليل استماعك لها من الجهاز الذي بين يديك، فإذا أزحت عنك الجهاز فإنك لا ترى شيئاً، ولا تسمع شيئاً ولا تشمُّ شيئاً، إذاً هذا الإرسال موجود ولكن بلطف.

الإرسال موجود ولكن بلطف، والهواء موجود ولكن بلطف،أما الهواء فإنه إذا تحرّك بسرعة تزيد على ثمان مئة كيلومتر في الساعة، فلن يُبقي هذا الإعصار شيئاً على سطح الأرض، وقد قرأت أنَّ في أمريكا إنساناً عنده دار فخمة جداً، وله سيارة من الوزن الثقيل، وأصاب هذه المدينة إعصار، فعثر على محرك سيارته بعد خمسة كيلومترات من داره، ولم يجد أي أثر لا للدار ولا للمركبة وهذا نتيجة حركة الهواء!! أمَّا إذا سكن فلطيف جداً، إذ لا تراه بعينك، وليس له رائحة، ولا صوت ولا حِسّ.

وهذا الماء، لو أخذت منه نقطة ووضعتها تحت المجهر، وكبَّرْت النقطة مئات المرات لرأيت فيها عشرات، بل مئات، بل ألوف الكائنات الحية، في حين يبدو أمامك ماء صافياً عذباً فراتاً رائقاً. لكنَّ الكائنات التي فيه غير ضارَّة، وهي كائنات لطيفة، وما معنى لطيفة؟ أي: هي من الصِّغر بحيث لا تراها من لطفها، فهذا معنىً من معاني لطيف.

الفاكهة الكبيرة على الأرض و الفاكهة الصغيرة التي لا تؤذي على الشَّجر، لو أنَّ البطيخ على الشجر لكانت مشكلة، الله لطيف.

لو أن الأرض تفلتت من جاذبية الشمس، أردنا أن نعيدها نحتاج إلى مليون مليون حبل فولاذي، و قطر الحبل خمسة أمتار، معنى حبل فولاذي قطره خمسة أمتار أي يقاوم من قوى الشد مليوني طن، أيّ إنَّ الأرض مرتبطة بالشمس بقوة تساوي مليون مليون ضرب مليوني طن من أجل أن تحرف الأرض في مسيرتها حول الشمس ثلاثة ميلي كلَّ ثانية، أين هي قوى التّجاذب؟ موجودة بيننا، هل يستطيع إنسان في الأرض أن يبني بناء من مئة طابق دون علاقة بالأرض.

قوى التجاذب قوى مذهلة، وهي أحد أكبر الأدلة على لطف الله عز وجل، قوى جبارة تربط الكواكب ببعضها بعضاً، و مع ذلك لا تراها وأنت تمشي خلالها.

نصيب المؤمن من اسم الله (اللطيف)

عندما يعرض الإنسان لمعالجة بحث يجب أن يعود إلى الأهداف الكبرى، يحدِّدها أولاً كأن يشير إلى الهدف العام من بحثه، وإلى الهدف الخاص، لأنَّ الباحث أحياناً تَزِلُّ قدمه وينحرف عن الهدف الكبير، وتشغله فروع البحث فتستأثر باهتمامه وينسى الغاية الأهمَّ في معالجته للبحث المعنيِّ به، وقد تضيع الفكرة الرئيسة على القارئ، ونحن هنا مع أحد أسماء الله الحسنى، فالبحث مُهّم والغاية سامية، وحذرنا من الانسياق وراء الفروع قائم إن شاء الله.

إن شرف العلم من شرف المعلوم، وهذه الحقيقة أكررها كثيراً في كتابي، فإذا درست موضوعاً حقيراً أو تافهاً أو سخيفاً، فهذه الدراسة، وتلك التمحيصات والتحقيقات والمتابعات بجملتها سخيفة لماذا؟ لأنَّ الموضوع تافه، وكلما شَرُفَ الموضوع شرُف العِلم.

والسؤال المُلح دائماً: هل يوازَن خالق مع مخلوق؟ أو قديم مع حادث؟ أو كامل كمالاً مطلقاً مع ناقص؟ لا، وحينما يتعرف المرء إلى أسماء الله الحسنى يتعرف إلى خالق الكون، وقد يسأل سائل: وما علاقتي بأسماء الله الحسنى؟ فأقول: أصل الدين معرفته.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

فأنت أيُّها الإنسان خليفة في الأرض ولن تحقِّقَ هذه الخِلافة إلا إذا اصطبغت بصبغة الله عزَّ وجلَّ، فإذا عرفنا جانباً من أسماء الله الحسنى فينبغي أن نتساءل: ما حظُّ المؤمن من معرفة هذا الاسم؟

أمَّا حظُّ العبد من هذا الاسم فهو الرِّفقُ بعباد الله، واللطف بهم في الدعوة إلى الله.

﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [طه:٤٣-٤٦].

دخل أحدهم على الرشيد وقال له: سأعِظُكَ بغِلظَة، قال له: ولِمَ الغِلْظَة يا أخي؟ لقد أرسل الله من هو خير منك إلى من هو شرٌّ مني، أرسل موسى وهارون إلى فرعون فقال لهما: فقولا له قولاً ليناً.

فإذا عرفت شيئاً سيئاً فاستره، وكن لطيفاً، وإذا تحركت نحو فعل شيء فكن بهذه الحركة لطيفاً، وإذا أردت إحداث شيء فاجعل لهذا الشيء برنامجاً لا يُثقل على صاحبه، فالنبي ﷺ كان في قمة النشوة في صلاته مع ربه، ووراءه أصحابه، فسمع بكاء طفل صغير، فعلى غير عادته قرأ آية قصيرة رحمة بهذا الطفل، واختصر الصلاة وسلّم، وفي الصحيحين والمسند من حديث أنس رضي الله عنه: إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد أن أطولها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي مما أعلم من شدة وجد أمه ببكائه... فإذا دعوت إلى الله عزَّ وجلَّ فكُنْ لطيفاً وليناً ورحيماً.

إذا استُفتيت في أمر و كان في الأمر سَعة فأفتِ بالرخصة و خذ نفسك بالعزيمة، ولا يمكن أن تتقرب إلى الإله الطيف إلا إذا كنت لطيفاً مع خلقه.

وقال بعض المحققين: العارف إذا أمر بالمعروف أمر برفقٍ ناصحٍ لا بعنفٍ معسرٍ، وكيف وهو مستبصر بلطف الله تعالى.

وخلاصة بحثنا أنه إذا كان الله لطيفاً في علمه، لطيفاً في وجوده، لطيفاً في تصرفاته فاشتقَّ منه هذا اللطف.

الغني

هذا الاسم ورد في القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام:١٣٣].

قد يكون الإنسان رحيماً لكنَّه فقير، فيتحرَّق قلبه رحمة بالناس ولا يستطيع مساعدتهم دائماً، أو مساعدتهم جميعاً، لأنَّه فقير، لكنَّ عظمة الله عزَّ وجلَّ أنَّه غنيٌّ ورحيم معاً، فغناه ورحمته تعطيان الإنسان كلَّ ما يحتاجه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد:٣٨].

وغالباً ما يقترن اسم الغنيّ باسم الحميد، كما في قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾ [الحج:٦٤].

هو غني عن عباده، لكنَّه يعاملهم معاملة يحمدونه عليها، فهناك إنسان غنيٌّ يظنّ أنّه لا يحتاج إلى أحد، فتراه فظّاً، غليظاً، مستكبراً، مستعلياً، أمَّا خالق السماوات

والأرض، الذات الإلهية الكاملة، فغنيٌّ، ومع غناه فهو كامل، فما أروع أن يجتمع الغنى مع الكمال.

فالله عزَّ وجلَّ حميد، مع أنَّه غنيٌّ عن عباده، لو أنَّ كلَّ من في الأرض كفروا فلا يحتاج إليهم أبداً، ومع ذلك يعاملهم معاملة كاملة يحمَدونه عليها.

واقترن اسم الله الغنيّ باسم الحليم، قال تعالى: ﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ ﴾ [البقرة:٢٦٣].

غنيٌّ عن عباده لكنَّه يُمِدُّهم بالطَّعام والشَّراب والهواء، ويمدُّهم بكلِّ ما يحتاجونه وهم يعصونه.

واقترن اسم الله الغنيّ باسم الكريم، قال تعالى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل:٤٠].

فهناك غنيٌّ بخيل، وقد قيل: العدل حسن لكنَّه في الأمراء أحسن، والسَّخاء حسن لكنّه في الأغنياء أحسن، والصَّبر حسن لكنّه في الفقراء أحسن، والتَّوبة حسن لكنّها في الشَّباب أحسن، والحياء حسن لكنّه في النِّساء أحسن.

وورد هذا الاسم في الحديث الشريف: «اللهم أنت الله، لا إله إلا أنت، أنتَ الغنيُّ، ونحن الفقراء، أنزِلْ علينا الغيث واجعلْ ما أنزلت لنا قوة وبلاغاً إلى حين» [أبو داود عن عائشة].

من معاني اسم الله (الغني)

الغنيُّ في اللغة صفة مشبَّهة باسم الفاعل، لمن اتَّصف بالغنى فعله غني غنىً، واستغنى واغتنى فهو غنيٌّ، لكنَّ الحقيقة المهمّة أنَّ غنى الإنسان نسبيّ، وفي هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ﴾ [الزخرف:٣٢].

إنسان يشعر بألم في صدره فيقلق أشدَّ القلق، وقد يكون غنيّاً كبيراً ويذهب إلى طبيب القلب، وهو في أعلى درجات التَّواضع له، ويسأله بكلِّ أدب: هل أحتاج إلى عمل جراحيّ؟ هل هذا الألم عابر، أو مستمرّ؟ هل هذا الألم يدل على خطر قادم؟ فهذا الغني الكبير يقف أمام الطبيب في أعلى درجات الأدب والتَّواضع والافتقار إلى علم هذا الطَّبيب، إذاً في هذا الموقف هذا الغنيُّ مفتقِر إلى هذا الطَّبيب، هو غنيٌّ لكنَّه الآن مفتقر إلى علم الطَّبيب.

طبيب القلب نفسُه، يستمع إلى صوت غير طبيعيٍّ في محرِّك سيارته، فيقلق أشدَّ القلق، ويذهب إلى اختصاصيّ السيّارات سائلاً: هل هذا مؤشِّر على وجوب تبديل المحرِّك؟ هذا الطَّبيب المتفوِّق يقف أمام هذا الإنسان بتواضع بالغ، وكلُّ إنسان متفوقٌ في شيء فهو غنيّ فيه، لكنّه مفتقر إلى أشياء كثيرة.

والحظوظ وُزِّعت في الدنيا توزيع ابتلاء، فهذا ممتحَن بالغنى، وذاك ممتحَن بالفقر، وثالث ممتحَن بالوسامة، ورابع ممتحَن بالدَّمامة، وآخر ممتحَن بالصِّحة، فكلُّ ما آتاك الله فأنت ممتحَن فيه، وسوف ينظر الله ماذا تعمل؟ هل تتَّخذ الصِّحَّة أساساً للمعصية والإثم؟ أم تتَّخذها لخدمة الخلق؟ هل تتَّخذ وقت الفراغ للانحرافات التي لا ترضي الله؟ أم تتَّخذ وقت الفراغ لطلب العلم؟ لذلك من أدعية النّبيّ ﷺ: «اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب، اللهم وما زويت عني مما أحب فاجعله فراغاً لي فيما تحب» [الترمذي عن عبد الله بن يزيد الخطميّ الأنصاري].

وغنى الإنسان نسبيّ من زاوية أخرى، إذ كلُّ ما يملكه منوط بقُطر شريانه التَّاجي فإذا ضاق هذا الشّريان دخل في متاعب لا تنتهي، وقد ينجو، وقد لا ينجو، إذاً ليس غنيّاً، وهذا الغنيُّ، كلُّ مكانته، وقوّته منوطة بسيولة دمه، فإذا تجمَّدت قطرة دم في أحد أوعية دماغه أصيب بالشَّلل، أو فقد الذّاكرة، أو السّمع، أو البصر، أو الحركة، إذاً ليس غنيّاً.

أعرف شخصاً جاء بشهادة عليا، وصل لمنصب مهمّ، له مكانة، وعلم، وزوجة، وبيت فخم، ودخلٌ كبير، فقد بصره، فلما زاره أحد أصدقائي، قال له: والله أتمنّى أن

أجلس على الرَّصيف، وأتسوّل، وليس عليّ إلا هذا المعطف، وأن يردَّ الله لي بصري، إذاً ليس هناك غنيّ حقيقة، والغنيُّ هو الله.

وقد قال سيّدنا عليّ رضي الله عنه: الغنى والفقر بعد العرض على الله.

أما قبل العرض على الله فلا يعدُّ الغنيُّ غنيّاً، ولا الفقيرُ فقيراً، بل إنّ الغنى الحقيقيَّ هو غنى العمل الصالح، فسيُّدنا موسى عليه وعلى نبيّنا أفضل الصَّلاة والسَّلام حينما سقى للفتاتين ابنتي شعيب عليه السلام، قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤﴾ [القصص:٢٤].

فيجب أن تَعدَّ نفسك غنيّاً إذا أكرمك الله بعمل صالح، إذا سخَّرك لخدمة خلقه، إذا كنت مفتاحاً للخير، مغلاقاً للشر، إذا بثت في النَّاس الطَّمأنينة، والأمن، والسَّكينة، إذا أطعمت جائعهم، وكسوت عاريهم، وعالجت مريضهم، وآويت مشرَّدهم، وأنصفت مظلومهم.

أمّا الغنى في ذات الله عزَّ وجلَّ فإذا تعلَّق بالمشيئة فهو من صفات الأفعال كقوله تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ [التوبة:٢٨].

وهناك ملمح لطيف في الآية، أوضِّحه بالمثل التالي:

إنسان يبيع الخمر في مطعم من أعلى مستوى، ثمَّ أراد أن يتوب، فلما تاب انخفض دخله إلى العُشر، هذا الانخفاض له حكمة بالغة جداً، فقد أراد الله جلَّ جلاله أن يجعل لهذا القرار البطوليِّ ثمناً يدفعه، وبهذا الثَّمن يرقى يوم القيامة.

لكن بعد حين يفتح الله عليه أبواب الرِّزق. فلابدّ من امتحان، وهذا الملمح مستنبط من كلمة (سوف) في الآية فعطاء الله قد يتأخر بعد التَّوبة، وذلك لتحقيق الامتحان.

وإن لم يتعلَّق الغنى بالمشيئة، فهو صفة من صفات الذات.

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران:٩٧].

وكقوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر:١٥].

الغنيُّ سبحانه هو المستغني عن الخلق بذاته، وبصفاته، وبسلطانه، والخلق جميعاً فقراء إلى إنعامه، وإحسانه، فلا يفتقر إلى أحد في شيء، بل كلُّ مخلوق مفتقِر إليه في كلِّ شيء، وهذا هو الغنى المطلق، وهو الغنى الحقيقيُّ، وغنى الإنسان غنى مجازيّ، فهو غنيٌّ بماله، لكنّه مفتقر إلى الصِّحة، مفتقِر إلى التوفيق، مفتقِر إلى النَّصر وهكذا.

والغنيّ أيضاً هو الذي يُغنِي من يشاء من عباده بحكمته، وأيُّ غنيٍّ سوى الله فغناه نسبيٌّ، مقيّد، مجازيٌّ، فلا غني على الحقيقة إلا الله.

أحد أكبر أغنياء بريطانيا، دخل إلى غرفة أمواله، فأغلق الباب عليه خطأ، وكان كثير الأسفار، فظنَّه أهله مسافراً، بدأ يصرخ ويصرخ إلى أن أشرف على الموت، فجرح إصبعه، وكتب بدمه على الحائط: أغنى إنسان في بريطانيا يموت جوعاً.

مهما بلغ المخلوق في غناه، فهو فقير إلى الله، لأنَّه المنفرد بالخلق والتقدير، والملك والتدبير، هو المالك لكلِّ شيء، خلقاً، وتصرُّفاً، ومصيراً.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ وَقَالَ يَدُ الله مَلْأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَقَالَ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَبِيَدِهِ الْمِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ» [متفق عليه عن أبي هريرة].

والنَّبيُّ ﷺ قال فيما رواه عن ربِّه تبارك وتعالى: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي

صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ» [مسلم عن أبي ذر].

ولكن... قد نرى شحّاً في الأمطار، وقد نرى قلّة في المحاصيل، وقد نرى قِصراً في العُمُر، وقد نرى مرضاً، والحقيقة أنّه من المستحيل أن يكون تقليل الله عز وجل تقليلَ عجز، أما نحن البشر فنقلّل تقليلَ عجز فإذا كان الماء قليلاً، فإننا نقطع الماء ساعات طويلة كلَّ يوم، وإذا كانت المحاصيل قليلة فإنّنا نرفع الأسعار، إلا أنَّ الله جلَّ جلاله إذا قلّل فتقليله تقليل تأديب، قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحجر:٢١].

وفي آية ثانية: ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الشورى:٢٧].

وقد اطلعت على مجلّة علميّة رصينة، قرأت فيها بحثاً عن اكتشاف سحابة في الفضاء الخارجي، يمكن أن تملأ محيطات الأرض ستين مرّة في اليوم بالمياه العذبة.

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف:٩٦].

﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ [الجن:١٦-١٧].

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ [المائدة:٦٦].

أحد العلماء يرى أنه من معاني الغني: هو الذي لا تعلّق له في ذاته. أي أن ذاته لا تتعلق بشيء. فأنت متعلق بالحرارة وبالبرودة مثلاً... فإذا كان البرد شديداً؛ فأنت

بحاجة إلى مِعطف، وإذا كان الحرُّ شديداً؛ فأنت بحاجة إلى جهاز تكييف، وإذا كنت جائعاً؛ فأنت بحاجة إلى الطَّعام، وإذا كان هناك عطشٌ؛ فأنت بحاجة إلى ماء، وإذا كنت بلا مأوى؛ فأنت بحاجة إلى بيت، وبحاجة إلى سرير، وإلى أن تنام. فقد ترى سيارة ثمنها ملايين، وقد انقلبَتْ على جانب الطريق؛ والسبب أنَّ السائق قد نام؛ وحاجته إلى النوم أودت به في هذا الحادث؛ فأنت محتاج للنوم، محتاج إلى الطعام، وإلى الشراب، وإلى جو مريح، وإلى هواء، وإلى ثياب، وإلى مأوى، وتحتاج إلى زوجة.

فالإنسان يعتاد الحياة الزوجية فتُؤنسهُ زوجته وتخدمه، تحضر له طعامه، أي: تُعدّ له ما يأكل، وتغسل له ملابسه، وهي تحسن عشرته كذلك، فإذا سافرتْ أو مرضت يقول لك: تغيَّرت حياتي. فأنت مفتقر إلى زوجة. مفتقر إلى طفل... يقول: هذا الطفل ملأ البيت بهجة. فأحياناً لا ينجب الزوجان؛ فتجد البيت أصبح كهفاً مظلماً، فالأطفال لهم ضجيج ولهم لعب ولهم مطاليب، لكن يملؤون البيت فرحةً.

فكم حاجة أنت تحتاج إليها؟ تحتاج إلى زوجة، وإلى ولد، وأن تشرب، وأن تأكل، وأن تنام، وتحتاج إلى ثياب، وأن تأكل شيئاً ذا مذاق حلو، أو لكأسٍ من الشاي لتشربه، وتحتاج إلى فاكهة لتأكلها، فلو مكثت شهراً من غير أن تأكل الفاكهة، تشعر بحاجتك الأساسية إليها، فأنت محتاج إلى مليون حاجة، أما الغني الحقيقي فإن ذاته لا تتعلق بشيء، فأنت مربوط بأشياء لا تقدَّر ولا تحصى.

مثلاً معك كميَّة من الذَّهب، فتجدك متتبِّعاً للأسعار هل غلا الذهب أم هبط سعره؟ وإذا اشتريت بضاعة فتسأل نفسك هل هناك في السوق منافس لك؟ وما هي أسعار البضاعة؟ وأنت بحاجة إلى أن تربح، فيومياً لديك آلاف الحاجات، لكنَّ الغنيَّ الحقيقي هو الذي لا يتعلقُ بشيء... ذلك هو الله ففي الحديث القدسي:

«لَوْ أنّ أوَّلَكُم وَآخِرَكُمْ، وَإِنسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنكُمْ، مَا زَادَ ذلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبَادِي لَوْ أنَّ أوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً» [صحيح مسلم، عن أبي ذرٍّ].

وقيل: من تعلَّق بغيره فهو محتاجٌ إليه.

وقيل: الغنيُّ؛ هو الذي لا يحتاج إلى شيء، وهو المستغني عن كلِّ شيء، المفتقِر إليه كلُّ شيء.

وقيل: الغنيُّ؛ هو الغنيُّ بذاته عن العالمين، المتعالي عن جميع الخلائق في كلِّ زمنٍ وحين، الغنيُّ عن العباد، المتفضِّل على الكلِّ بمحض الوداد.

الغنيّ؛ هو الذي يعطي الغنى لعباده، إما أن يعطيهم الكفاية؛ أي: أغناهم عن السؤال، أو يُغني بعض عباده عن بعض... فالحقيقة أنَّ الحوائج لله، لا تكون إلا لله، فعندما يهبها لك ربُّنا عز وجل من خلال رزقٍ تملكه أعزَّك. أما إذا جعلك تحتاج إلى إنسان أذلَّك... لذلك في الدعاء تقول: «اللهمَّ اجمعنا عليك وفرِّقنا عليك، اللهم لا تجعل حوائجنا إلا إليك».

ربُّنا سبحانه وتعالى هو المغني بمعنى: أعطى كلَّ شيءٍ خَلْقَهُ ثم هدى، أعطاك قدمين تمشي بهما، أعطاك سمعاً، أعطاك بصراً، أعطاك حركة، أعطاك يداً، مفاصل، أصابع، رسغاً، مرفقاً كتفاً، أعطاك جهازاً للهضم، جهازاً للأمعاء، جهاز دوران، جهاز إفراز، أعطاك هيكلاً عظمياً ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ﴾ [طه:٥٠] أي: كل ما يصلحك، أعطاك إدراكاً وذاكرة ﴿ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه:٥٠].

والغنيّ؛ هو الذي أفاض الغنى على عباده، وسهَّل لهم المراد، وما من غنىً في الوجود، إلا وهو من جناب الحقِّ ممدود، الغنى الحقيقي من الله عز وجلَّ... وهو المغني لأوليائه من كنوز أنواره... وبذا فقد انتهينا إلى نوع ثانٍ من الغنى؛ فقد أغناك بالعلم.

فقد أطلعني أخ على مجلة فرنسية، فيها صورٌ عن مقاطعة في الهند، يعبدون الجرذان، وتبيِّن الصورة معبداً ضخماً وأكثر من ثلاثمئة جرذٍ يعطونهم الحليب، اللبن، القمح، البرغل، يأكلون مع الجرذان في طبقٍ واحد... امرأة تضع على رأسها خماراً والجرذان يقفون على رأسها وكتفها، يعبدون الجرذان كآلهة! وهو تحقيق علمي، موثَّق.

فهل ذلك ممكنٌ؟ نعم، عند من يزيغ عن الحق والفطرة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥] فهناك من يعبد البقر وأشياء أخرى، ولكن الله عرَّفك بذاته، لتعبده هو، فهو الذي خلقك، تعبد خالق الكون، خالق السموات والأرض... وهناك من يعبد البقر، أو الشجر، أو الحجر، أو الشمس، أو يعبد القمر... والله سبحانه وتعالى كرَّمنا وأغنانا عن هذه الخرافات، وعن هذه السخافات، وعن هذه التُّرَّهات.

إما أن يُغنيك بالدنيا، وإما أن يُغنيك بمعرفته، يُغنيك بتقريبك إليه، يُغنيك بإلقاء النور في قلبك، يُغنيك بأن يُعطيك رؤيةً صحيحة، فتكون لك حكمةٌ بالغة، وسدادٌ في الأقوال، وصوابٌ في الأفعال؛ هذا هو الغِنى.

الحقيقة إذا أردنا أن نصل إلى ملخص الدرس... الغنيّ؛ هو الذي أغنى عبده بمعرفته... فأنت غني بمعرفة الله، أغناك بمنهجه، بين يديك منهجٌ صحيحٌ مئة بالمئة، فليس لديك مفاجأة. أغناك بالقرب منه، أغناك بإلقاء النور في قلبك، أعطاك رؤيةً صحيحة، وحكمةً بليغة.

وبعد، فالله هو المغني، غنيٌّ ويعطي الغنى لمن يشاء. لكن الغنى الحقيقي أن تعرفه، فسيدنا ربيعة بن كعب خدم النبي ﷺ أياماً عديدة، قال له: «يا ربيعة سلني فأعطيك» قال له: أنظرني حتى أنظر. بعد أيام قال له: «ماذا يا ربيعة؟» قال: إني أسألك أن تدعُوَ الله أن يجنِّبني من النار ويدخلني الجنةَ فقال له: «من أمرك بهذا؟» قال: «ما أمرني به أحد، ولكني علمت أن الدنيا منقطعة فانية، وأنت من الله بالمكان الذي أنت منه، فأحببت أن تدعو الله لي» [الطبراني، عن ربيعة بن كعب]، ما قيمة الدنيا؟ أنا أريد شيئاً دائماً في الجنة، أن أكون معك في الجنة.

وفي صحيح مسلم عن ربيعة بن كعب الأسلمي، قال: كنت أبيتُ مع رسول الله ﷺ، فأتيته بوَضوئه وحاجته، فقال لي: «سَلْ» فقلت: أسألك مرافقتَكَ في الجنَّة، قال: «أو غير ذلك؟» قلت: هو ذاك، قال: «فأعِنِّي على نفسك بكثرة السجود» [انظره مطولاً في: مسند الإمام أحمد (١٦٥٧٨، و١٦٥٧٩)].

فلذلك الغنى الحقيقي أن تصل إليه، أن تعرفه، أن تُقبل عليه، أن تلوذ بحماه، أن يكون قلبك مهبطاً لتجلِّياته، يطمئنك، يكرمك، يوفِّقك، يقرِّبك منه، يسعدك، وفي سورة النور قال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النور:٣٣].

﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ فالزواج ليس شيئاً سهلاً فمن عنده بيتٌ وزوجة، ورزق وأبناء، والبيت فيه ما فيه من نِعَم، فالله إذاً أغناك بهذه الزوجة؟ وجعلها ستراً لك فلا تَقْسُ عليها كثيراً، ولا تقرِّعها فهي هدية الله إليك، لا تكفر بنعمة الله، الزواج نعمة، هناك من يزعج زوجته حتى يجعلها تترك البيت! هذه نعمة الله فلا تضيّعها.

وأحياناً تجد امرأة ولها زوج، وعندها أولادٌ، تعمل أعمالاً منفِّرة إلى أن تُطلَّق فهذه كفرت نعمة الزواج!! ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ أحياناً يغنيك بالمال، تحصل على شهادة فتعيَّن في وظيفة، وتحصل على راتبٍ في آخر كل شهر، فلا تمدَّ يدك لأحد، أو تتقن مهنة تدر عليك دخلاً وفيراً، فأغناك الله بالمال، وأغناك بالعلم... وأغناك بالصحة، فكل أعضائك سليمة، أغناك بزوجة، أغناك ببيتٍ ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾، وفي سورة النجم قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ۝٤٨﴾ [النجم:٤٨].

أي أعطى... وفي سورة الضحى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الضحى:٨].

قال بعض العلماء: «إغناء الله لعباده على قسمين؛ منهم من يغنيه الله بتنمية الأموال وهم العوام -يقولون لك: الله متفضل، ويضع يده على جبينه بعد أن يقبِّلها- ومنهم من يغنيه بتصفية الأحوال وهم الخواص».

وهذا الأخير هو الغني الحقيقي قريب من الله، عنده علم وعنده حكمة وعنده شفافية، فالنبيُّ ﷺ وقف خطيباً على نخلة، قطعت له نخلة فخطب عليها، فلما صنعوا له منبراً، ووقف ليخطب على المنبر حنَّت النخلة إليه، فوضع يده عليها إكراماً لها [انظر البخاري: ٩١٨، ٢٠٩٥، ٣٥٨٤، ٣٥٨٥].

وقال: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يُسلِّم علي قبل أن أبعث» [مسلم، عن جابر بن سمرة].

عَنِ الحَسَنِ بْنِ سَعْدٍ مَوْلَى الحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ جَعْفَرٍ قالَ: أَرْدَفَنِي رَسُولُ الله ﷺ خَلْفَهُ ذَاتَ يَوْمٍ، فَأَسَرَّ إِلَيَّ حَدِيثاً لا أُحَدِثُ بِهِ أَحَداً مِنَ النَّاسِ، وَكَانَ أَحَبُّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ لِحَاجَتِهِ هَدَفاً أَوْ حَائِشَ نَخْلٍ، قَالَ: فَدَخَلَ حائِطاً لِرَجُلٍ مِنَ الأنْصارِ فإذا جَمَلٌ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْناهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ فَسَكَتَ، فَقَالَ: «مَنْ رَبُّ هَذا الجَمَلِ لِمَنْ هَذَا الجَمَلُ؟» فَجَاءَ فَتًى مِنَ الأنْصارِ فَقَالَ: لِي يا رَسُولَ الله فَقَالَ: «أَفَلا تَتَّقِي اللهَ فِي هَذِهِ البَهِيمَةِ التِي مَلَّكَكَ اللهُ إِيَّاهَا؟ فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وتُدْئِبُهُ» [سنن أبي داود].

فالله عز وجل قد يعطيك شفافية، فتتفاعل مع المخلوقات، وتتناغم مع الكون، وتتذوّق الجمال، جمال الفجر، جمال الشجر، جمال البحر، أن تتذوّق الجمال فهذا غنى، أحياناً يكون لديك نفس واسعة الصدر عندك قلب كبير، وعندك مشاعر وأحاسيس رقيقة، وعندك رضاً، وعندك حلم وتوازن فهذا غنى.

تجد شخصاً عنده الكثير من المقتنيات الثمينة، ويملك بيتاً فخماً ولكنه إذا غضب، يصبح مثل الوحش، فهذا فقيرٌ، أحمق، أرعن. الحلم غنى، الحكمة غنى، معرفة الله غنى، وطاعتك لله غنى؛ أن تصلي الصلوات الخمس غنى، أن تصوم رمضان غنى، العوام يغنيهم الله بتنمية الأموال، والخواص بتصفية الأحوال.

معاني الغنى

الغنى ضدُّ الفقر، وله معانٍ عديدة... أحدها عدم الحاجة إطلاقاً، وليس ذلك إلا لله تعالى. فالله وحده الذي لا يحتاج إلى أحد، بل إنَّ الله وحده يحتاج إليه كلُّ شيء في كلِّ شيء. غنيٌّ عن خلقه، آمنوا، كفروا، أحسنوا، أساؤوا، قدَّروا، لم يُقدِّروا، عرفوا، جهلوا، جحدوا، ألحدوا، غنيٌّ عن خلقه، فقد قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ [إبراهيم:٨].

فشأن المخلوق أنَّه يحتاج إلى ربِّه في كلِّ شيء، وشأن الرَّبِّ أنَّه لا يحتاج إلى أحد.

الغنيُّ هو الذي لا يحتاج إلى أحد، وهذه ليست إلا لله. أمَّا العبد فإنَّه يحتاج، إلَّا أنَّه إذا احتاج إلى ربِّه بقي عزيزاً، أمَّا إذا احتاج إلى عبيده كان ذليلاً لهم.

الإمام الحسن البصري من كبار التابعين وله هيبةٌ لا توصف، له مكانةٌ عليَّة، سُئِلَ مرةً: بِمَ نِلت هذا المقام؟ قال: باستغنائي عن دنيا الناس، وحاجتهم إلى علمي.

أما إذا تعلَّم الإنسان العلم الشرعي، ثم احتاج إلى دنيا الناس واستغنوا عن علمه، فهذا منتهى الذُّلِّ.

والحقيقة أنَّ المؤمن إذا أقبل على الله عزَّ وجلَّ أغناه الله عن خلقه، فيشعر أنَّه غنيٌّ عن المطامع، كما يشعر أنَّه غنيّ عمّا في أيدي النَّاس، لا يشتهي ما لا يجد.

وقد ورد في الأدب الكبير لابن المقفع «لي صديقٌ كان من أعظم الناس في عيني، وكان رأسَ ما عَظَّمه في عيني، صِغرُ الدنيا في عينيه، كان لا يشتهي ما لا يجد، ولا يُكثر إذا وجد» وقد قيل: خذ من الدنيا ما شئت وخذ بقدرها همّاً ومن أخذ من الدُّنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتفه وهو لا يشعر.

الله غنيّ... لا يحتاج إلى خلقه. والمؤمن باتصاله بالله عز وجل يشتقُّ من هذا الاسم قيماً أصيلة، فيصبح غنيَّاً عن النَّاس، لا ينظر إلى ما عندهم ولا يطمع بما في أيديهم، ولكنّ بعض النَّاس يدخل إلى أحد البيوت، فتجده ينظر إلى كلِّ ما فيه من أشياء ويسأل: كم ثمن هذه التُّحفة؟ ومن أين اشتريت هذه؟ وكيف حصَّلت هذه؟ تشعر بضعفه وتشعر بدنوّه، وهناك إنسان لا يأبه لكلِّ هذه المظاهر، فالمؤمن المتَّصل بالله يستغني، يشعر بغنى.

دخلوا على سيدنا أبي عبيدة عامر بن الجراح، وكان قائد الجيوش الإسلاميَّة في بلاد الشام، رأوا في غرفته قدر ماءٍ مغطىً برغيف خبزٍ، وجلداً يجلس عليه، وسيفاً معلَّقاً في الحجرة. قيل له: يا أبا عُبيدة ما هذا؟ قال: هو للدُّنيا وعلى الدُّنيا كثير، ألا يُبلِّغنا المقيل.

ازهد بما في أيدي الناس، يحبَّك الناس... ارغب بما عند الله، يحبَّك الله، فالله إن أحببت ما عنده أحبَّك، وإن زهدتَ بما في أيدي الناس، أحبَّك الناس.

فالغني هو الله الذي لا يحتاج إلى أحد، وجوده وغناه ذاتي أما الإنسان فهو يحتاج؛ لكن بين أن يحتاج الله عزَّ وجلَّ، ويحتاج إلى ما عنده، وبين أن يحتاج إلى خلقه فالهوَّة عميقة. إذا احتاج إلى ما عند الله علا، وإن احتاج إلى خلقه دنا، وقد قيل: احتج إلى الرجل تكن أسيره، استغنِ عنه تكن نظيره، أحسن إليه تكن أميره.

عَنْ سَلَمَةَ بْنِ عُبَيْدِ الله بْنِ مِحْصَنٍ الأَنْصَارِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ: رَسُول الله ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافىً فِي جَسَدِهِ، آمِناً فِي سِرْبِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا» [سنن الترمذي].

لا تنسوا... أنْ خذ من الدنيا ما شئت، وخذ بقدرها هماً. إذا كان لديك آلة بسيطة فإصلاحها سهلٌ، أما إذا كانت تعمل بالحاسوب وتعطَّلت، ولا يوجد من يصلحها لك، يستولي عليك الهمّ، فكلما كانت الآلة شديدة التعقيد، فإصلاحها يكون صعباً وهمّاً أكبر... هذه قاعدة... خذ من الدُّنيا ما شئت وخذ بقدرها همّاً.

تجد غنياً بعيداً عن الله، به كبرٌ، وغطرسة، واستعلاء، وتأفف... وأحياناً تجد غنياً على حجمه المالي الكبير متواضعاً، قريباً منك... العظمة أن تكون مستغنياً عن الناس؛ وأنت معهم، تصغي إلى حديثهم، تتعاطف مع مشكلاتهم، يعنيك ما يعنيهم، يؤلمك ما يؤلمهم، ترجو لهم ما ترجو لنفسك. وهذه صفة عالية جداً، الأنبياء كانوا مع الخلق، يمشون في الأسواق، يعيشون معهم، لذلك قالوا: هناك برجٌ عاجيٌّ فكري، وهناك برجٌ عاجيٌّ أخلاقي... فالبرج العاجي أصلاً مذموم... يقولون لك: فلان يعيش في برج عاجي، أي أنه ليس واقعياً، بعيدٌ عن هموم الناس، إذا ابتعدت عن هموم الناس وعن حياتهم اليومية، وعن مآسيهم، وعن آلامهم، وعن طموحاتهم فأنت في برجٍ عاجيٍّ فكري. أنت تعيش في الأحلام وهذا لا يليق بالمؤمن. أما إذ ابتعدت عن سقطاتهم وانحرافاتهم ومعاصيهم فأنت في برجٍ عاجيٍّ أخلاقي.

فالمؤمن ينأى بأخلاقه عن سقطات مجتمعه، أما بفكره فإنه يعيش معهم؛ يألم لألمهم... سيدنا عمر جاءته هديةٌ من أذربيجان، فقال لرسول عامل أذربيجان: ما هذه؟ قال له: هديةٌ... طعامٌ أهداه إليك عاملك على أذربيجان، ففتح العلبة، فوجد فيها طعاماً نفيساً جداً. فسأل رسول عامله على أذربيجان: هل يأكل عندكم عامة المسلمين هذا الطعام؟ قال: لا، هذا طعام الخاصة. أخرجها من فمه وقال: قل لصاحبك: كيف يعنيك أمر المسلمين إن لم تأكل مما يأكلون؟ حرامٌ على بطن عمر أن يذوق طعاماً لا يطعمه فقراء المسلمين، خذ هذه الهدية ووزعها على فقراء المسلمين. ولم يأكل منها شيئاً.

سيدنا عمر حينما كانت مجاعة في المدينة، ترك اللحم أربعة أشهر، فقرقر بطنه فخاطبه قال: قرقر أيها البطن أو لا تُقرقر، فوالله لن تذوق اللحم حتى يشبع منه صِبْيةُ المسلمين.

المعنى الأول... أن الله هو الغني، أي هو الذي لا يحتاج إلى أحد. شأن الخالق أنه غنيٌّ عن خلقه، وشأن المخلوقات أنهم مفتقرون إلى ربِّهم. لذلك قالوا: الربُّ ربٌّ، والعبد عبدٌ. شأنك يا رب أنك غنيٌّ عنا، وشأننا أننا مفتقرون إليك، لكن ما أحلى وما أجمل وما أكرم أن تفتقر إلى الله، وما أصعب وما أقسى أن تفتقر إلى عبدٍ لئيم.

سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه سُئل ما الذُّلُّ؟ قال: أن يقف الكريم بباب اللئيم ثم يرُدُّه. ثم قال: والله والله مرتين لحفر بئرين بإبرتين، وكنس أرض الحجاز في يوم عاصفٍ بريشتين، ونقل بحرين زاخرين بمنْخَلين، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين، أهون عليَّ من طلب حاجةٍ من لئيمٍ لوفاء دين.

وبعد فالمؤمن غنيٌّ بالله، عبارة في الفقه تُعجبني... هل يجوز أن تُعطي طفلاً صغيراً زكاة مالك وله أبٌ غني؟ قد يقول القائل: هذا طفل ليس معه مال، لا يملك قرشاً واحداً في جيبه. يجيب الفقهاء عن هذه المسألة: الطِّفل الصَّغير الفقير غنيٌّ بغنى أبيه. فما دام أبوه غنياً فهو غنيٌّ، ولو سحبنا هذه القاعدة على موضوع بحثنا هذا فالمؤمن

فقير لكنَّه غنيٌّ بالله، غنيٌّ بربِّه، لذلك تجد أحياناً إنساناً مطمئناً ويقول لك: أنا أملك كذا من المال أو معي كذا من الأسهم، فالرد المناسب الرائع: كن بما في يدي الله، أوثق بما في يديك.

فأحياناً تجد إنساناً معتمداً على توفيق الله وعلى حفظه، ومتوكلاً عليه ويثق بما عند الله، هذا أغنى ممن يملك ملايين كثيرة.

المعنى الثاني من معاني الغنى: قِلَّة الحاجات، وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الضحى:٨].

أي أنَّ الإنسان محتاج إلى طعام، إلى شراب، إلى مسكن، إلى ثياب، إلى أوانٍ، إلى سرير، الإنسان يحتاج إلى آلاف مؤلَّفة من الحاجات، مثلاً لو اشترى بيتاً فمَلَكهُ وهو مفروش، وعنده مركبة مثلاً، وله محل تجاري مورداً لرزقه، ويملك بيتاً في المَصْيف، عنده ألبسة كثيرة جداً ولديه مال سائل؛ هذا بالمعنى الثاني غني، فبيته ملكه، وعنده وقود للتدفئة، وعنده أجهزة ومركبة وطعام، ومال سائل. لكن هذا يحتاج إلى طبيب، ويحتاج إلى معلّم لابنه لكنَّ حاجاته قليلة، أما أكثر الحاجات لديه فموجودة.

فإذا أغنى الله رسوله ﷺ هل يعني هذا أن النبي الكريم ﷺ لم يعد محتاجاً إلى الله؟! الحاجة إلى الله ثابتة، ودائمة، ثم إنَّ النبي ﷺ أشار إلى هذا المعنى بأسلوب آخر فقال:

«لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ، وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ» [صحيح البخاري، عن أبي هريرة].

فأحياناً الإنسان يكون لديه نفسٌ عظيمة تبتغي الوصول إلى الله، وأمور الدنيا عندها ثانويَّة، فهو مستغنٍ عن دنيا النَّاس؛ لكنه مفتقرٌ إلى فضل الله، هذا شأن الصديقين، والمؤمنين الكبار، فالغنى غنى النفس.

أحياناً تجد شخصاً ذا نفس عفيفة، تقول له: هل يلزمك شيء من المكان الفلاني؟ يقول لك: شكراً. لا يطلب شيئاً، وتجد شخصاً يقول لك: إلى أين أنت مسافرٌ؟ أحضر

لي كذا وكذا. فلا يترك إنساناً إلا ويسخره، وقد يحرجه ويشقّ عليه، فكلما قلّت طلباتك، ارتقى مقامك. حتى النبي الكريم ﷺ قال: «أَعْظَمُ النِّساءِ بَرَكَةً أَيْسَرُهُنَّ مؤونَةً» [مسند الإمام أحمد، عن عائشة].

حين توفي أحد شيوخ الأزهر قديماً، لفت نظري تحقيقٌ كتب عنه وعن بيته وهو شيء مدهش، فهو يسكن في بيت صغير، فكم قدّر ما تحت يده من ميزانية؟ تحت يده مبالغ كبيرةً جداً جداً، ويسكن في بيت في الطابق الرابع، وقد أجرى عمليتين في ركبتيه، بسبب التهاب المفاصل، ولم يتمكّن من أن يبدِّل بيته، ذا المساحة الصغيرة والمرتفع بالنسبة إليه. عنده غنى نفس، وهذا هو الغنى، وفيه عفَّة، وخرج في جنازته عدد كبير من المشيِّعين.

فالغنى غنى النفس، فالإنسان المؤمن يستغني بالله؛ فلا يحتاج لشيء ما دام عنده طعامٌ يأكله، وشرابٌ يشربه، ولباسٌ يستره، وبيتٌ يسكنه ويؤويه فقد حاز الدنيا بحذافيرها.

المعنى الثالث: الغني؛ الذي عنده الشَّيء الكثير من متاع الدنيا، فهو يملك بيتين أو ثلاثة، وسيارتين أو ثلاث، ومئة من التحف والمقتنيات وكلّها أجنبية الصنع، والكثير من الأحذية والملابس من الدرجة الأولى.

وكخلاصة: المعنى الأول للغنى ألا نحتاج إلى أحد... من هو الغني المطلق؟ هو الله وحده... شأن الله أنه لا يحتاج إلى أحد، شأن العبد أنه يحتاج، إن احتاج إلى الله عز وجل علا، وإن احتاج إلى خلقه دنا.

المعنى الثاني: قلَّة الحاجات... عنده كلُّ شيء، حاجاته قليلة، لكنه يحتاج إلى طبيب لأسنانه، ولو كان معه ملايين! يحتاج إلى طبيب صحة، إلى مدرّس لأولاده، يحتاج إلى صاحب مهنة معينة لإصلاح خللٍ طرأ في بيته.

المعنى الثالث: أن تكثُر مقتنياتك، وألفت النَّظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾ [النساء:٦].

إذاً أيها المؤمن فلتقلل من مقتنيات الدنيا لديك.

﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾، اليهود حينما سمعوا قول الله عز وجل تعاظمتْ أنفسهم الخبيثة، سقطوا في مستنقع الضلال، قال تعالى: ﴿ مَّن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٤٥].

قالوا: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ [آل عمران:١٨١].

فقال الله عز وجل: ﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا ﴾.

آيات ورد فيها اسم (الغني)

ورد اسم الغنيِّ في القرآن الكريم في مواطن كثيرة، قال تعالى: ﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَاللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ ﴾ [البقرة:٢٦٣].

أي: إنَّ الله عزَّ وجلَّ غنيٌّ عن صدقةٍ يتبعها أذى، هذه الصَّدقة لك وليست لله، أمرك أن تدفعها من أجل أن تقبل عليه، فإن أتبعتها بالمنِّ والأذى؛ فلا قيمة لها، هو غنيٌّ عنك، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ۚ وَاعْلَمُوٓا أَنَّ اللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾ [البقرة:٢٦٧].

أيضاً... غنيٌّ عن صدقةٍ تكرهها... أكلةٌ عافتها نفسك، وتصدَّقت بها... فالله غنيّ عن هذه الصدقة، أمرك أن تُعطي مما تحبُّ؛ من أجل أن تقبل عليه، من أجل أن ترقى عنده، فإن فعلت ما لا تُحب، فهو غنيٌّ عن هذه الصدقة، وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ الْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [آل عمران:٩٧].

فإن أردت الحجَّ فأهلاً وسهلاً بك، وإن كنت لا تريد أن تحجَّ حرمت نفسك الخير.

وفي سورة يونس قال تعالى: ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ [يونس:٦٨].

الإنسان يتمنى ولداً حتى يُعينه في الكِبَر، وهذه هي سنَّة الله في خلقه. فتجد الشَّاب يصعد سلَّم البناء قافزاً كل عشر درجات معاً، وبعد فترة يصعد درجة درجة، ثم يضع رجله فوق الدرجة ويرتاح دقيقتين، ثم ينقل رجله الأخرى ويرتاح كذلك دقيقتين، ثم بعد ذلك لا يستطيع الصعود؛ فينتقل إلى بيت أرضي غير مرتفع، فالله عزَّ وجلَّ غنيٌّ أمَّا الإنسان فمفتقِر.

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ فنحن بحاجة إلى أولاد لأن الإنسان فانٍ، وبابنه يشعر بامتداد أثره، فالابن يُعوِّض نقص أبيه، فإذا لم يكن قد درس، فيكون حريصاً على أن يُدرِّس ابنه. وإذا لم يتجِّر يقول لك: لا أريد أن أجعله موظفاً. وإذا لم يكن الأب متعلِّماً للغة من اللغات، يقول لك: أريد أن أعلِّم ابني اللغة. فالإنسان أحياناً يعوض نقصه بابنه، ويحقق فيه امتداده، وذلك لأنه فانٍ؛ فيقول لك: هذا من أثري، يخلفُني، ذِكْرٌ لي بعد أن أموت. فالإنسان بحاجة إلى ولد... ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ ليس بحاجة إلى ولد.

وفي سورة إبراهيم يقول تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ [إبراهيم:٨].

وقال تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحجرات:١٧].

وقال تعالى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾ [محمد:٣٨].

وفي سورة العنكبوت قال تعالى: ﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [العنكبوت:٦].

يقول لك: يا أخي أنا صليت التراويح كلها في رمضان؛ فهذه لك... دفعت نصف مالي صدقة، فهذه لك، قرأت ختمة قرآن؛ فهذه كذلك لك ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ۝١٢ ﴾ [لقمان:١٢].

وقال تعالى: ﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝٢٦ ﴾ [لقمان:٢٦].

وفي سورة فاطر قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝١٥ ﴾ [فاطر:١٥].

أنت مفتقر إلى عين، مفتقر إلى سمع، مفتقر إلى توازن، مفتقر إلى كليتين تعملان. ذهب شخص لغسيل كليته فقالت له الممرضة: لا تشرب الماء طوال هذا الأسبوع؛ فالجهاز معطَّل عن العمل. فهل من السهل أن يمتنع الإنسان عن شرب الماء؟ عندك كلية تعمل بصمت، لا تحتاج إلى الانتظار في الدور، ولا إلى أجرة تدفعها، ولا ضجيج ولا فتح شرايين، وغسيل الكلية مرتين في الأسبوع كل اثنين وخميس وباستمرار، ألستَ غنياً؟ ألستْ سعيداً؟

الغدة النخامية وزنها نصف غرام؛ تفرز اثني عشر هرموناً أحد هذه الهرمونات يحقق توازن السوائل، فتشرب في اليوم أربعة أو خمسة أكواب من الماء وتقوم بإخراجها، فلو اختلَّت هذه الغدة فإنّك تحتاج لشرب أربعة صفائح من الماء، فلا تستطيع مغادرة صنبور الماء ولا الحمام وهذا يصبح عملك كل يوم وليلة! فهل أنت غنيّ؟!!

قال لي أحد الإخوة: زارني طبيب فلما جلس في الغرفة وأخذ بالحديث وضع يده على مفتاح الكهرباء، وضغط عليه فانطفأت الثريا وقال له: هكذا الإنسان كبسة على الزر وتنتهي حياته... أنت وأموالك ومكانتك وصلاحيَّاتك؛ بكبسة زر، وينتهي كل

شيء، سكتة دماغية، فيصبح في عداد الأموات! فأين بيته الفخم؟ ومركبته الفخمة؟ ومنصبه الرفيع؟ وأين مكتبه التجاري؟ وأين وجوده الصارخ بالمجتمع؟ فهل أنت غني؟! أم أنت فقير؟!! أنت فقير إلى شرايين مرنة، لو تصلَّبت، تنتهي حياتك وتموت، فقير إلى شرايين مفتوحة، ولو أغلقت؟ يقول الطبيب مثلاً: خمسة شرايين مسدودة؛ فلا بد من عملية قلب مفتوح، فهل أنت غني؟ نعم، أنت غني ولكن بفضل الله وحفظه!!

قال لي شخص: فجأةً اهتزت الصورة أمامي لمسافة عشرين سنتيمتر، كل الصور من حولي اهتزت، وفقدت التوازن الحركي، ولا بد من إنسان يسير بي، كذلك فقدت التوافق الحركيّ، فلا أستطيع الإمساك بكأس، وإن أردت ذلك ذهبت يدي لمكان آخر! ذهب إلى فرنسا مكث فيها ستة أشهر ولا أمل في الشفاء... صورة مهتزَّة، فقد التوافق الحركي، وفقد التوازن نقص... فهل أنت غني؟ فكم من ضرورات أنت بحاجة لها؟

من كان له خبرة في الطب، ونظر إلى التحاليل وقرأ: أسيد أوريك مرتفع، وكوليسترول زائد، وكذلك الشحوم الثلاثية، والمفاصل متيبسة، والغضاريف مهترئة، فكيف تكون غنياً؟ فالإنسان فقيرٌ!! لمن؟ لله سبحانه، كلما عرف ضعفه يصبح متواضعاً، فليس الإنسان غنيًّاً ولكنَّه يتواضع، ولكن أنت فقيرٌ حقيقة والله هو الغني، وإن اعترفت بفقرك أصبحت غنياً. أغناك الله وأمدَّك بقوةٍ وبحيويةٍ، وأعطاك عافيةً، وأعطاك ذاكرةً، ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل:٥٣].

توفي منذ فترة أحد إخواننا، قال لي ابنه: خرج من معمله ذات يوم ولم يستطع التعرف إلى بيته، وضاع عنه لمدة ساعة، أصيب بمرض فَقْدِ ذاكرة جزئي، وليست الذاكرة كلّها ولكن فقد عنوان بيته، وبعد ساعة من البحث عن بيته لم يجده! لكنّه تذكَّر بيت ابنه فذهب إليه وقال له: يا بنيّ، أين بيتي دُلني عليه! لي قريبة في أعلى درجات الذكاء، وفجأةً فقدت الوعي، دخل عليها ابنها وهو أقرب الناس لها، فقالت له: من أنت؟! فهل أنت غني؟ لا بل مفتقر، فالله هو الغني وأنت الفقير. إن عرفت فقرك أغناك الله، وإن ادعيت الغنى أفقرك الله، قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ

﴿ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر:١٥]، وقال: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد:٣٨].

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحديد:٢٤].

﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ فأحياناً والعياذ بالله يكون الإنسان ضعيف التفكير، يحضر دروس العلم أول مرة ثم يعتادها، ويلتقي مع إخوان مؤمنين فيُسرَّ فتتغير حياته كلها، فيصلي، ويقرأ القرآن، ويستقيم ويغُضُّ بصره ويدقق في تحصيل دخله وإنفاقه ويعيش في جنة. ويأتي إنسان بشكل مقصود أو غير مقصود فيُسيء له، فيريد أن ينتقم منه، فيترك الدروس كلَّها ويترك الصلاة. فأين ذهب عقلك؟ إذا أساء إنسان لك والجامع مفتوحٌ للجميع، فليس عندنا اصطفاء في الجامع، والباب مفتوحٌ لمن يحضر، فإذا أساء شخص لك؛ فإنك تترك الصلاة والدروس وتدبر مولياً لأنَّ أحد الأشخاص أساء له، فأين عقلك؟ وأين رشدك؟

فإذا كنت طالباً في كلّيّة الطّبّ، وعلّقت آمالاً كبيرة على هذه الكليّة. وأساء لك أحد الطلاب، فهل تهجر الكلية وتخرج منها؟! وكل مستقبلك في هذه الكلية؟ فستصبح طبيباً، وتفتح عيادة ويأتيك المرضى، وتأخذ ألوفاً مؤلفة، إذا أساء إليك أحد الطلاب تدمّر حياتك، لو أساء لك أستاذ، فلن تترك، ولو أساء لك عميد الكلية فلن تترك، هذا المؤمن ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾ [الممتحنة:٦].

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء:١٨].

نصيب المؤمن من اسم الله (الغني)

من أدب المؤمن مع اسم الغنيّ: أنَّ من عرف أنَّ الله تعالى هو الغنيُّ المغني، استغنى عن كلِّ شيء بالاعتماد عليه.

مـــا لي ســوى فقــري إليــك وسـيلةٌ فبالافتقـــار إليـــك ربي أضرع
إذا كنـــت في كـــلِّ حـــالٍ معـــي فعـــن حمـــل زادي أنـــا في غنـــى

من أدب المؤمن مع الله عزَّ وجلَّ أن تعتمد عليه وحده.

من مسالك التخلُّق باسم الله الغنيّ، أنَّ التخلُّق بالغنيّ يناسبه إظهار الفاقة والفقر إلى الله تعالى أبداً.

فأنت في الأصل فقير، الله هو الغني، فإذا أنجزت إنجازاً ما، فقل: هذا من فضل الله. وإذا نجحت لا تقل «ذاب لب مخّي» لا... ليس كذلك بل قل: الله وَفَّقَنِي وأعانني ونجحت. أسست عملاً ما ونجحت، فلا تقل: أنا خططت له وجمَّعت خبرات متراكمة، لا... لا تقل ذلك بل قل: الله عز وجلَّ وَفَّقَني، وسمح لي أن أنجح في هذا العمل. فأنت في الأصل فقير، فإذا عزوت الغِنى إلى ذاتك، فأنت مخطئ، وإذا عزوت الفضل إلى الله، فأنت قد تأدَّبت مع الله الغني لفقرك في الأساس. وكلما افتقرت إلى الله، زادك غنىً، وكلَّما تذللت إليه، زادك عزاً. فهذه العملية معكوسة، كلما خضعت إليه زادك رفعاً.

قال العلماء: التخلُّق بالمعنى العميق لاسم الغني... أن تكون بما في يدي الله، أوثق منك بما في يديك، وأن تُحسن السخاء والبذل لعباد الله تعالى، أن تثق بالله، وأن تُغني من حولك، الله غني ومُغنٍ، أن تستغني بالله عمَّن سواه، وأن تُغني من حولك، أعطِ... فمن لوازم التخلُّق بأخلاق الله عزَّ وجلَّ؛ أن تُعطي. كما أنَّ الله يُغني عباده، أنت أغنِ من حولك.

فإذا كنت تملك معملاً، أو مشروعاً؛ فإذا كان العاملون عندك في كفاية، ووسعت عليهم واشتروا بيوتاً، وتزوَّجوا فهل هذا غلط؟ تجد من يقول لك: لحم هذا من

خيري، لا... فإذا أغنيت من حولك فأنت أغنى إنسان، أنت تعرف الله عز وجلَّ، بعض الناس يحبون أن يكون كلُّ من حولهم أغنياء ويعطوا حتى لا يبقى فقير.

كثير من الإخوان لديهم معامل ومؤسسات. فإذا زوَّج هذا، ووفر لهذا بيتاً، وأعطى هذا مساعدة، إن رزقه الله مولوداً، وهذا لديه مشكلةٌ أو نزل به مرضٌ فأجرى له عملية على حسابه الخاص، فهذا صواب. كما أنَّ الله مغنٍ فتأدَّب مع هذا الاسم وأغنِ من حولك، فتكون أنت أغنى الناس، ولن تضام.

لذلك كتطبيقٍ سريعٍ لهذا الاسم... كلما استغنيت عن الناس، شعرت براحة نفسية. كلما استغنيت عما في أيدي الناس، أحبَّك الناس. كلما استغنيت عن أموالهم، وعن عطاءاتهم، وعمّا يخصُّونك به، شعرت بكرامة. أمعن النَّظر في هذه الأقوال الثلاثة... احتج إلى الرجل تكن أسيره، استغنِ عنه تكن نظيره، أحسن إليه تكن أميره. لذلك من بعض الأدعية اللطيفة: اللهمَّ لا تجعل حوائجنا إلا إليك، ودُلَّنا بك عليك.

المولى

هذا الاسم ورد في القرآن الكريم، مطلقاً ومضافاً، فالله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأنفال:٤٠].

وفي آية ثانية: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الحج:٧٨].

وفي آية ثالثة: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾ [محمد:١١].

ويقول تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [التوبة:٥١].

من معاني اسم الله (المولى)

هذا الاسم ينقلنا إلى موضوع مهمٍّ، وهو الحاجة إلى التَّديُّن، إنّها حاجة في أصل فطرة الإنسان، لأنَّ الإنسان خُلِق ضعيفاً، وهذه نقطة ضعف في أصل خلقه، ولكنَّها لصالحه؛ كهذه الوصلة الضَّعيفة في الآلات الغالية جداً، فلو جاء تيار شديد لساحت،

وانقطع التيار، وسلم الجهاز، فطبيعة ضعف الإنسان لصالحه، خُلق ضعيفاً ليفتقر في ضعفه، فيسعدَ بافتقاره، ولو خُلق قويّاً لاستغنى بقوته، فشقي باستغنائه، قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [فاطر:١٥].

وأحياناً يغتني الإنسان أو يقوى فينسى ربه، قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق:٦-٧].

مع أنّه ضعيف، ومع أنّ أيَّ خلل في جسمه يجعل حياته جحيماً، أحياناً قد يقوى بماله أو بمنصبه أو بعلمه المادي فيطغى.

إذاً: من فضل الله علينا، ومن نعمته العظمى أننا ضعاف، ومع الضّعف يكون الافتقار إلى الله، ومع الافتقار إلى الله سعادةٌ وأيُّ سعادة، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران:١٢٣].

أما في حُنين: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [التوبة:٢٥].

ومن نقاط ضعف الإنسان أنّه عجول، قال تعالى: ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾ [الإسراء:١١].

فهو يريد الشَّيء السَّريع، يريد المتعة الآنيَّة، لذلك يعيش معظمُ الناس لحظتهم، يستمتعون، وينسون آخرتهم، ينسون مغادرة الدنيا، والبطولة لا أن تعيش الماضي، أو أن تتغنى بالماضي، ولا أن تعيش الحاضر، لكنَّ البطولة والعقل والذكاء أن تعيش المستقبل، وفي المستقبل مغادرة الدنيا، وأخطر حدث في حياة الإنسان المغادرة، وما من إنسان أشد عقلاً مِن هذا الذي يعدُّ لهذه السَّاعة التي لا بدَّ منها، الإنسان عجول، يحبُّ البيت الواسع، والمركبة الفارهة، والزَّوجة الجميلة، ولو أضرَّ هذا بآخرته.

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾ [الإسراء:١١].

لذلك حينما يختار الإنسان هدفاً بعد الموت يرقى عند الله، لأنّه عاكس طبعه، ومعظم الناس يبحثون عن مُتَع آنيَّة، وعن مكاسب وقتيَّة، يعيشون لحظتهم، ولا يعيشون مستقبلهم والكيّس العاقل من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنّى على الله الأمانيّ.

إذاً: البطولة أن تعيش المستقبل، وأخطر حدث في المستقبل مغادرة الدنيا.

نقطة ضعف ثالثة في حياة الإنسان، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾ [المعارج:١٩].

أمّا معنى الهلع فقد شرحته الآيات اللاحقة، قال تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج:٢٠-٢١].

إذا شعر الإنسان أنَّ ورماً بسيطاً قد أصابه فإنّه يقلق وقد لا ينام الليل إلى أن يتأكد ما إذا كان ورماً حميداً أم خبيثاً.

ولولا أنَّه هلوع لما تاب تائب إلى الله، ولولا أنَّه هلوع لما اقتيد الإنسان إلى باب الله عزَّ وجلَّ، ولولا أنَّه هلوع لما اصطلح مع الله، فالله عزَّ وجلَّ جعله بهذه الصفة لتسهُل توبته، وتسهُل عودته إلى الله، وليصطلح مع الله.

الإنسان حريص على سلامته وعلى رزقه، فأيُّ شبح مصيبة لاحَ له في الأفق يهدِّد سلامته، أو يهدِّد رزقه ينخلع قلبه له، إذاً: الله عز وجل يسوقه إلى بابه، يسوقه إلى التوبة، يحمله على التوبة، يقوده إلى الصلح مع الله عز وجل.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج:٢١].

فهو حريص على ما في يديه، وهذا الحرص يرفع مقامه عند الله إذا ما تخلى عن حرصه وأنفق مما آتاه الله.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران:١٤].

لأنَّ هذه الأشياء محبَّبة إلينا فبإنفاقها يرقى الإنسان، إذاً: هذه نقاط أساسيَّة في أصل خلق الإنسان وهي لصالحه، هذه النقاط الثلاث هي سبب كبير في حاجته إلى التَّديُّن، وأيُّ إنسان على وجه الأرض بحاجة إلى التّدين، حتى الذي يعتقد اعتقادات خاطئة، حتى الذي يعبد الحجر والشمس والقمر، ويعبد أشياء من دون الله، الدافع الأساسيّ للتديّن أنّه ضعيف، فالبطولة وأنت بحاجة ماسَّة إلى التَّديُّن أن تعبد الإله الحقيقيَّ، أن تعبد خالق السماوات والأرض، أما الذين عبدوا من دونه وثناً وشمساً وقمراً وحجراً فهم في الواقع يبحثون عن شيء يطمئنهم.

﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنفال:٤٠].

أنت بحاجة إلى مولى، بحاجة إلى مرجع، بحاجة إلى مربٍّ، بحاجة إلى سند، بحاجة إلى من يدعمك، بحاجة إلى من تتوكل عليه، بحاجة إلى من يُطَمْئِنُك، بحاجة إلى جهة قويَّة تحتمي بها من شرور أعدائك، هذا شيء طبيعيٌّ جدّاً في الإنسان، إلا أنَّ المؤمن وصل إلى الإله الحقيقيِّ، وصل إلى خالق السماوات والأرض، وصل إلى مَن بيده كلُّ شيء، وصل إلى من بيده مصائر الخلائق، والله عزَّ وجلَّ ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ﴾ [هود:١٢٣].

فلا بدَّ أن تعتقد أنَّ الله هو المعطي وحده، وهو المانع، وهو الخافض، وهو الرافع، وهو المعزُّ، وهو المذلُّ، وهو الناصر، وهو المغني، وهو الرازق، هذا هو التَّوحيد، وما تعلمت العبيد أفضلَ من التوحيد، التوحيد ألا ترى مع الله أحداً، التوحيد أن ترى يد الله تعمل وحدها، التَّوحيد أن تتَّجه إلى الله، وهو نعم المولىٰ، هو عليم، لا تحتاج مع الله إلى إيصال، ولا إلى حلف يمين، هو يعلم، وبعضهم قال: الحمد لله على وجود الله،

أعداؤك بيده، أقرب النَّاس إليك بيده، فإذا أحبَّك الله سخَّر لك أعداءك ليخدموك، وإذا تخلَّى الله عنك يتطاول عليك أقرب النَّاس إليك، وهذا معنى: لا إله إلا الله.

مثلٌ للتوضيح: تصوَّر ابناً له أب موقَّر جداً، عالم، أخلاقيٌّ، وضعه الماديّ جيِّد جدًّا، وهذا الأب حريص على ابنه حرصاً لا حدود له، هيَّأ له غرفة خاصة، تابع تربيته الأخلاقيَّة، تربيته الإيمانيَّة، تربيته الدينيَّة، تربيته العلميَّة، تربيته الاجتماعيَّة، تربيته النفسيَّة، تربيته الجسميَّة، وضعه في أفضل المدارس، هيَّأ له أفضل المدرسين، اهتمَّ بصحَّته، اهتم بعاداته، وتصوّر في المقابل ابناً لا أب له، وأمُّه مشغولة عنه بالأسواق، وهو في الأزقَّة ومداخل الأبنية، من مخفر إلى مخفر، من مكان إلى مكان، عنده تُهَمٌ كثيرة أخلاقيَّة، وماليَّة، وازن بين هذين الشَّابين، شابٍ بأعلى درجات الانضباط والكمال، وشابٍّ بأسوأ درجات التفلُّت والانحلال.

اقرؤوا الآية الآن: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١١﴾ [محمد:١١].

فالمؤمن له مرجع يعود إليه، له كتاب يقرؤه، هذا حرام، وهذا حلال، لك إله تدعوه في الليل، لك إله عظيم تسأله فيجيبك، تستغفره فيغفر لك، تتوب إليه فيتوب عليك، في حياتك منظومة قيم، هناك شيء حلال وشيء حرام، شيء ممكن وشيء غير ممكن، شيء مباح وشيء مكروه، شيء واجب وشيء مستحسَن، أنت تعيش بمنظومة قِيم، وهذا من فضل الله علينا.

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ١٨﴾ [السجدة:١٨].

﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٥ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ٣٦﴾ [القلم:٣٥-٣٦].

﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ٦١﴾ [القصص:٦١].

من نعم الله الكبرى أن يكون الله عزَّ وجلَّ وليَّك، قال تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنفال:٤٠].

آية تملأ قلبك طمأنينة: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة:٢١٦].

إذا فتح الله عليك باب الحكمة في المنع عاد المنع عينَ العطاء، فربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك فعَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ؛ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» [أخرجه مسلم].

الله عزَّ وجلَّ يتولَّى أمرنا، وقد تضيق علينا الدُّنيا، وأحيانا تشحُّ السَّماء، فيقيم المسلمون صلاة الاستسقاء، ويلجؤون إلى الله، أحياناً يأتي شبح مرض، فيكون سببَ توبة نَصوح، أحياناً يأتي شبح فقر، هذا الفقر يسوقنا إلى باب الله، بطولتك أن تفهم حكمة الله في المصائب، البطولة أن ترى حكمة الله في أفعاله.

نعم المولى، وقعت في مأزق فدعوته، إذاً هو موجود أولاً، ثانياً يسمعك، ثالثاً قادر على أن يلبيك، رابعاً يحبك، فهو موجود وسميع، وقدير ورحيم.

﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الشعراء:٦١].

فرعون من ورائهم، والبحر من أمامهم. ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء:٦٢].

سيّدنا يونُس كان في بطن الحوت: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨].

ويقول تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ﴾ [التوبة:١٥].

أنت حينما تطيع الله عزَّ وجلَّ، وحينما تعبده يُنشىء لك حقاً عليه وهو ألا يعذِّبك، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ﴾ [المائدة:١٨].

لو أنَّ الله قبِل دعواهم لما عذَّبهم، لأنَّ الله لا يعذِّب أحبابه.

المؤمن يتمتع بأمن لا يتمتع به أحد، والدليل: ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢)﴾ [الأنعام:٨١-٨٢].

لو أنَّ الآية: أولئك الأمن لهم، أي لهم ولغيرهم، لكنّ الله تعالى قال: (أولئك لهم الأمن) وهذه عبارة قصر وحصر.

ويتمتَّع المؤمن بالحكمة: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [البقرة:٢٦٩].

ويتمتَّع المؤمن بالرضا، فلذلك حينما يسوق الله الإنسانَ إلى بابه عن طريق مصيبة، أو شبح مصيبة، أو ضيق، أو عدو جاثم على صدره، أو شبح فقر، أو شبح مشكلة، فهذه في الفهم الإيماني نعمة باطنة: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ﴾ [لقمان:٢٠].

حينما يتابعك الله عزَّ وجلَّ، وحينما يُخضعك لتربيته فأنت في خير عميم، وأنت في نعمة كبرى، إذا كنت ضمن العناية المشدَّدة فأنت في نعمة كبرى، لكنَّ المصيبة الكبيرة أن يتابع الله نعمه على عبده، وهو يعصيه، المصيبة الكبيرة أن تكون خارج العناية الإلهيَّة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [محمد:١١].

أحياناً يشدِّد عليهم، أحياناً يضيِّق عليهم، أحياناً يُسلِّط عليهم عدوَّهم.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ (٤)﴾ [القصص:٤].

ثمّ يقول تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةً وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [القصص:].

لذلك إذا كنت ضمن العناية المشدَّدة فالله يتولّى أمرك، وإذا تولَّى الله أمرك فأنت في نعمة كبرى من الله عزَّ وجلَّ.

إذا أخطأت جاء العقاب، أو أسرفت في الإنفاق جاء التقتير، أو استعليت على إنسان جاء التأديب، لأنَّ الله مولاك، نعم المولى ونعم النَّصير، هو مولانا، وعلى الله فليتوكَّل المتوكِّلون.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ ﴾ [البقرة:٢٥٧].

واسم (المولى) يقودنا إلى موضوع معيّة الله لعباده، وقد فرّق العلماء بين معيَّة الله العامَّة ومعيَّته الخاصَّة، فأمّا المعيّة العامّة فقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [الحديد:٤].

أي: معكم بعلمه، مع أيّ مخلوق؛ مع المؤمن، ومع الكافر، أمَّا إذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنفال:١٩].

فهذه هي المعيَّة الخاصَّة، أي هو معهم بالتأييد والنَّصر، والحفظ والتَّوفيق، وإذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ ويا رب ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد مَن فقدك؟

نصيب المؤمن من اسم الله (المولى)

إذا كان الله تعالى مولى الذين آمنوا فلا بدّ للمؤمن الحقّ أن يوالي مولاه جلّ جلاله، وما دام الله معه بعلمه فينبغي أن يكون مع ربه بطاعته.

والحديث الشَّريف الآتي يبيّن طريق تحقيق الولاء لله تعالى ويبيّن كذلك ثمراته، يقول النَّبيّ ﷺ فيما أخرجه الإمام البخاريّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: إِنَّ الله قَالَ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ...» [البخاري].

إذاً قبل أن يقف جاهل في خندق مُعادٍ للحقِّ، ينبغي أن يعلم مَن هو الطرف الآخر.

إنَّ الإنسان في الحياة المدنيَّة، وقبل أن يتطاول على إنسان يمثِّل الحكومة يعدّ للمليون، فإذا تطاول الإنسان على دين الله، وعلى شرع الله، ووصل إلى الأشياء المقدَّسة في حياة المسلمين فلينتظر الحرب من الله عزَّ وجلَّ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ...».

وإليكم المفهوم القرآني للوليِّ، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس:٦٢-٦٣].

إنَّ أيَّ مؤمن يجب أن يكون وليّاً لله. فلو لُخِّص الدِّينُ كلُّه في كلمتين لكانت الأولى: أنَّك آمنت بالله، والكلمة الثانية: أنَّك تتقي أن تعصيه، لذلك يمكن أن تضغط رسالات الأنبياء كلها في كلمتين: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥].

لذلك قال العلماء: «نهاية العلم التوحيد، ونهاية العمل التقوى»، فإذا وحدت الله، واتقيت أن تعصيه فقد حقَّقت الهدف من وجودك، وقد وضعتَ يدك على حقيقة الدِّين.

الآن لا معنى لأن تعرف الله من دون أن تتقرَّب إليه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الكهف:١١٠].

تتمة الحديث القدسيِّ الشَّريف: «... وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ...» [البخاري عن أبي هريرة].

الفرائض أولاً، أداء الفرائض مقدَّم على أيِّ شيء، أعظم قربة إلى الله أن تؤدِّيَ الفرائض:

ما معنى فريضة؟ أي أنَّ سعادتك تتوقف عليها.

للتقريب: كيف نقول: إنَّ استنشاق الهواء فريضة، لأنَّ حياة الإنسان متوقِّفة على استنشاق الهواء.شرب الماء فريضة، لأنَّ حياة الإنسان متوقِّفة على شرب الماء.فتناول الطعام، وشرب الماء، واستنشاق الهواء فرائض، بمعنى أن حياة الإنسان متوقِّفة عليها.

أما الحرام فهو الذي يحرم النَّفس من سعادتها وسلامتها، وحينما تفهم أوامر الدين أنَّها ضمان لسلامتك، وليست حداً لحرِّيتك تكون فقيهاً، فإذا رأيت لوحة كتب عليها: «ممنوع التجاوز، حقل ألغام»، فأنت لا تشعر أن واضع هذه اللوحة أراد أن يقيِّد حرِّيَّتك، بل تعلم علم اليقين أنَّه أراد أن يضمن لك سلامتك.

«وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ»

أول مراتب القرب من الله أداءُ الفرائض، والفريضة ما تتوقف عليها سعادتك وسلامتك.

عندنا أشياء في الدين حدِّيَّة، وعندنا أشياء نسبيَّة، فتركُ المحرمات حدِّيٌّ، لا تفاوت في ذلك ولا تفاضل، فالذي نهانا عنه النَّبيُّ ﷺ يجب أن ننتهي عنه كليَّاً.

كمستودع الوقود السَّائل، له صفة سلبيَّة وصفة إيجابيَّة، الصِّفة السلبيَّة أنَّه مُحْكَم، والإحكام حدِّيٌّ، أمّا عدم الإحكام فنسبيّ، الاستقامة حدِّيَّة، لا تقبل التَّفاوت، لذلك «إنَّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين» [رواه مسلم]، فأقلّ ممرض في المستشفى مع أعلى طبيب في المستشفى لابد من تعقيم الإبرة، أما العلم فمتفاوت، فالفرق كبير جدّاً بين الممرض والطَّبيب، أمَّا من حيث تعقيم الإبرة فلو أراد طبيب متفوق جداً أن يعطي إنسانا حقنة فلا بد من تعقيمها، ولو جاء ممرض ليعطيه هذه الحقنة فلا بد من تعقيمها بقواعد ثابتة وحدية، فالاستقامة حدِّيَّة، والأعمال الصالحة متفاوتة.

«وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ»

معنى ذلك أن العلاقة مع الله واضحة، الله عز وجل يحبُّ من يتقرَّب إليه، وأحياناً يكون التَّعامل مع جهة مزاجيَّة صعباً جدَّاً، إذ ليس لها قاعدة تضبط تعاملها مع الآخرين، لكنَّ التَّعامل مع ربِّ العالمين سهلٌ جدَّاً.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران:١٥٩].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة:١٩٥].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة:٢٢٢].

ولو أنَّ الإنسان مشى إلى الله خطوة مشى الله إليه خطوات، لمجرد أن تفكر أن تتقرَّب إلى الله فالله عزَّ وجلَّ يملأ قلبك سعادة، و طمأنينة، ورضا، وهناك تجاوب سريع جداً من الله عز وجل، بل إنَّ الله ينتظرك.

النبي ﷺ قدّم صورة رائعة جداً لأعرابي ركب ناقته: «لله أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللهمَّ أَنْتَ عَبْدِي، وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ لله أفرح بتوبة عبده من ذلك البدوي بناقته» [متفق عليه].

وإذا أحبَّك الله فلا تعبأ بشيء آخر، إذا أحبَّك الله ألقى محبَّتك في قلوب الخلق، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ [طه:٣٩].

«فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ»

الإنسان يستمع إلى ملايين الموضوعات في حياته، أمَّا المؤمن فسمعه منضبط بالمنهج الإلهيِّ. فمستحيل وألف ألف مستحيل أن تستوعب الباطل، فحياتنا لا تكفي

لاستيعاب الباطل، لأن الباطل متعدِّد، لكن بين نقطتين لا يمر إلا مستقيم واحد، حاول أن تمرِّر مستقيما آخر فإنّه يأتي فوقه تماماً، فالحقُّ لا يتعدَّد، والله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام:١٥٣].

لهذا قيل: المعركة بين حقين لا تكون، لأن الحق لا يتعدد، والمعركة بين حق وباطل لا تطول، لأن الله مع الحق، أما المعركة بين باطلين فلا تنتهي.

حياتنا جميعاً لا تكفي لاستيعاب الباطل، ويمكن أن تمضي عشر سنوات أو عشرين سنة في دراسة فئة ضالَّة، والفئات الضَّالَّة تنتظمها قواعد تأليه الأشخاص، وتخفيف التكاليف، واعتماد نصوص موضوعة، ونزعة عدوانيَّة، لكن من السهل جدَّاً أن تستوعب الحق في عمر معتدل.

الإنسان يستمع إلى ملايين المقولات، فيغربلها، هذه الفكرة خلاف القرآن، هذه الفكرة خلاف الحديث الصحيح، هذه الفكرة خلاف المنهج، فالأصل كتاب الله، هو الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

«فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الذي يسمع به وَبَصَرَهُ الذِي يُبْصِرُ بِهِ»

لو أنَّ إنسانا نظر إلى بناء يأخذ بالألباب، لكنَّ صاحبه تاجرُ مخدرات، جمعه من مال حرام، فإنه لا يحترم صاحب هذا البناء، بل يحتقره لأن عنده ميزاناً، لذلك فالمؤمن منضبط، سمعه منضبط، وبصره منضبط، الأشياء لها صورة ولها حقيقة، يمكن أن يجلَّ إنساناً دخله محدود جداً من حلال، ويحتقر إنساناً بنى مجده على أنقاض النَّاس، أو على حياة الناس، أو على أمن الناس، أو على خوف الناس، فالآن تقييمه للأشياء مبنيٌّ على نور ألقاه الله في قلبه، فيقيّم الأشياء بميزان الشّرع، بمنظومة قيم ومبادىء.

«فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ التِي يَبْطِشُ بِهَا» .

لا يتحرَّك حركة إلا وفق منهج الله، إن أعطى أَعطى لله، وإن منع مَنع لله، وإن رضي رَضي لله، وإن غضب غَضب لله، وإن وَصل وصل لله، وإن قطع قَطع لله، هكذا.

«ورِجْلَهُ الَتِي يَمشِي بِهَا»

لا تقوده رجله إلا إلى عمل صالح، أو أمر بالمعروف، أو نهي عن المنكر، أو لارتياد بيوت الله، أو لإصلاحٍ بين شخصين، فحركته كلُّها في سبيل الله.

«وَإِنْ سَأَلَني لَأُعْطِيَنَّهُ وَلئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ»

فإذا التجأ المؤمن إلى الله عزَّ وجلَّ فإنّ الله يلبيه فوراً، فهو مستجاب الدَّعوة.

المؤمن تحت رعاية الله، وحفظه، وتأييده، ونصره، يتولاه بالرعاية، يتولاه بالحفظ، يتولاه بالتأييد، يتولاه بالمعالجة، فلذلك من أقرب أسماء الله الحسنى إلى المؤمن اسم المولى.

النصير

هذا الاسم ورد مطلقاً معرّفاً في آيتين.

الآية الأولى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنفال:٤٠].

والآية الثانية: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج:٧٨].

وورد هذا الاسم أيضاً في دعاء النَّبيِّ ﷺ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا غَزَا قَالَ: «اللهمَّ أَنْتَ عَضُدِي وَنَصِيرِي، بِكَ أَحُولُ، وَبِكَ أَصُولُ، وَبِكَ أُقَاتِلُ» [الترمذي وأبو داود].

من معاني اسم الله (النصير)

(النّصير) على وزن (فعيل) صيغة مبالغة، وصيغ المبالغة تعني شيئين؛ مبالغةَ الكمِّ، ومبالغةَ النَّوع، أي مهما يكن العدوُّ قويًا فالله هو النّصير، ومهما يكن الأعداء كُثُراً فالله سبحانه وتعالى هو النّصير.

وما من اسم يحتاجه المسلمون اليوم كهذا الاسم وقد تكالب عليهم أعداؤهم، لكن هذا النَّصر له قواعد وشروط.

أول تلك القواعد أنَّ النَّصر من عند الله، وحينما يتوهَّم المسلمون أنَّ النَّصر من عند زيد أو عبيد فقد وقعوا في وهمٍ كبير، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنفال:١٠].

﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ﴾ [آل عمران:١٦٠].

وإذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ ولكن هناك نصرٌ استحقاقيٌّ، فالمؤمن حينما يكون على ما يرضي الله وينتصر، فهذا هو النَّصر الاستحقاقيُّ، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ﴾ [آل عمران:١٢٣].

كان أصحاب النبيِّ ﷺ من الافتقار ومن الاستقامة ومن التوحيد ما جعلهم يستحقون نصر الله عزَّ وجلَّ.

ولكنَّ النّصر له ثمن، وثمنه الإيمان والإعداد: الإيمان الذي يحملك على طاعة الله - والإعداد المتاح فقط.

أمّا الشرط الأول فقد جاء في عدّة آيات: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾ [الروم:٤٧].

هذا كلام خالق الأكوان، وزوال الكون أهون عند الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [غافر:٥١].

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾ [النور:٥٥].

البند الأول في ثمن النّصر هو الإيمان الذي يحمل على طاعة الله، أمّا الإيمان الذي لا يحمل على طاعة الله فلا قيمة له أبداً.

أمّا البند الثاني فهو الإعداد، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠].

ومن رحمة الله بنا أنّه كلّفنا أن نعدَّ القوَّة المتاحة، وليس القوّة المكافئة. وهذا مستنبط من قوله تعالى: ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم﴾ .

عندما أؤمن الإيمان الذي يحملني على طاعة الله، وحينما أعد لأعدائي العدَّة المتاحة عندئذ أكون قد دفعت ثمن النَّصر، وما لم يُدفع ثمن النَّصر فإنّه بعيد المنال، وهذه هي الحقيقة المرَّة التي هي أفضل ألف مرَّة من الوهم المريح، إذن النَّصر من عند الله، وله ثمن، والثمن له بندان الأول الإيمان، والثاني الإعداد.

فإذا آمنّا ولم نعدَّ فلن ننتصر، وإذا أعددنا ولم نؤمن فلن ننتصر، لذلك قالوا: الإيمان والإعداد شرطان كل منهما لازم غير كاف، وما لم يتحقَّق الشَّرطان معاً فلن يكون النَّصر.

حينما نتعامل مع الله وفق قواعده القرآنيَّة، ووفق نواميسه نقطف الثَّمرة، أما إذا تعاملنا مع الله تعاملا ضبابيّاً مزاجيّاً، ولم ندفع الثَّمن المطلوب فلن ننتصر.

لم ينتصر المسلمون في أُحُد النّصر المطلوب، لأنّهم عصوا، ولو أنّهم انتصروا لسقطت طاعة رسول الله ﷺ.

ولم ينتصروا في حنين لأنّهم وقعوا في شرك خفيٍّ، فقالوا: لن نُهزم مِن قلَّة، إذًا: إمّا لسبب سلوكيٍّ في أُحد، أو لسبب اعتقاديٍّ في حنين، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة:٢٥].

نستنبط من غزوة أحد وغزوة حُنين أنَّ هناك درسين بليغين، الأول: حينما تقول: الله، يتولاك الله عزَّ وجلَّ، وحينما تقول: أنا، يتخلى عنك، وهذا الدرس نحتاجه كل يوم، بل كل ساعة، قل: أنا بعلمي، واختصاصي النادر، وخبراتي المتراكمة، ومالي العريض، وجاهي الكبير، يتخلّ الله عنك، قل: الله، في زواجك، في عملك، في حرفتك، حينما تقابل عدوّاً يتولّاكَ الله.

فالنَّصر الأول هو النَّصر الاستحقاقيُّ، وندفع ثمنه إيماناً مترجماً إلى التزام، إلى وقوف عند الحلال والحرام، إلى فعل ما ينبغي، إلى تطبيق منهج الله، إلى أن يرانا الله حيث أمرنا، ويفتقدنا حيث نهانا، وإعداداً للقوَّة المتاحة.

فالتَّوكل من دون إعداد تواكل، وهو معصية، أن تقول: يا رب، توكلت عليك، ولا تفعل شيئا، سيدنا عمر وجد رجلاً معه جمل أجرب، قال: «يا أخا العرب، ما تفعل بهذا الجمل؟ فقال: أدعو الله أن يشفيه، قال: هلَّا جعلت مع الدعاء قطراناً».

ورأى سيدنا عمر أناسا يتكفَّفون النَّاس في الحجِّ، قال: مِن أنتم؟ قالوا: نحن المتوكِّلون، قال: كذبتم، بل أنتم المتواكلون، المتوكل من ألقى حبَّة في الأرض، ثم توكَّل على الله.

ويمكن أن ينسحب هذا على جميع شؤون حياتنا، فالتَّفوُّق في العمل يحتاج إلى الأخذ بالأسباب، ويحتاج إلى التَّوكل على الله، وكلاهما شرط لازم غير كاف، والمسلمون في معظمهم لا يأخذون بالأسباب، بل يتوكَّلون توكُّلاً لا يرضي الله، سماه العلماء التواكل، وهناك من أخذ بالأسباب وألّهها، ونسي الله، واعتمد عليها فأخطأ السَّبيل، والطَّريق الأمثل أن تأخذ بالأسباب وكأنَّها كلُّ شيء، ثم تتوكَّل على الله وكأنَّها ليست بشيء، ومن السَّهل أن تأخذ بالموقف الحادِّ، كأن تأخذ بالأسباب وتنسى الله، أو أن تتواكل على الله، ولا تأخذَ بالأسباب، فإن أردت أن تنتصر في أيِّ معركة حقيقةً أو مجازاً فلابد أن تأخذ بالأسباب وكأنَّها كلُّ شيء، وأن تتوكَّل على الله وكأنَّها ليست

بشيء، وقد قال النبيّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَلُومُ عَلَى العَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالكَيْسِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ» [أبو داود].

أن نستسلم، أن نيئس، أن نحسَّ بالإحباط، أن نقول: انتهينا، فهذا نُلام عليه، هذا يأس، واليأس كفر، هذا تشاؤم، والتشاؤم ليس من صفات المؤمن.

هناك معارك قتاليَّة، معارك تنمية، معارك بناء، سمِّ أي قضية أو مشكلة في حياة المسلمين معركة، والانتصار في هذه المعركة يحتاج إلى شرطين، كل منهما شرط لازم ليس كاف، أن تأخذ بالأسباب وكأنَّها كل شيء، وأن تتوكَّل على الله وكأنَّها ليست بشيء، وكأنَّ الطريق الأمثل طريق ضيّقة عن يمينها وادٍ سحيق وعن يسارها وادٍ سحيق، إنك إن أخذت بالأسباب، ونسيت الله، واعتمدت عليها، وألهتها وقعت في وادي الشرك، وهناك تأديب من الله، على من اعتدّ بغير الله، وإن تركت الأسباب وادّعيت التوكّل على الله فقد وقعت في المعصية، ولا بدّ من تأديب.

هناك نصر آخر سمّاه العلماء النّصر التّفضُّلِيّ، ودليله الآية الكريمة: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [الروم:٢-٤].

فالرُّوم أهل كتاب، وأهل الكتاب مشركون، ومع ذلك انتصروا، فهذا النَّصر ليس استحقاقيّاً، ولكنّه تفضليٌّ، والنَّصر التفضليُّ يعني أنَّ المنتصِر ليس كما ينبغي في إيمانه بالله تعالى والتزامه بأمره، لكنَّ حكمة الله اقتضت أن ينتصر، لذلك أثبت الله للصحابة الكرام وهم نخبة البشر فرحهم بهذا النصر.

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [الروم:٤].

لكن هناك نصر ثالث، إنّه النَّصر المبدئيُّ: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾﴾ [البروج:٤-٧].

أصحاب الأخدود لم ينتصروا بالمقياس التقليديِّ، لكنَّهم انتصروا نصرا مبدئيّاً، لأنَّهم ثبتوا على إيمانهم بالله.

ومن هذا النوع نصر ماشطة بنتِ فرعون:

عنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَمَّا كَانَتْ اللَّيْلَةُ الَّتِي أُسْرِيَ بِي فِيهَا أَتَتْ عَلَيَّ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ فَقُلْتُ يَا جِبْرِيلُ مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ فَقَالَ هَذِهِ رَائِحَةُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ وَأَوْلَادِهَا قَالَ قُلْتُ وَمَا شَأْنُهَا قَالَ بَيْنَا هِيَ تُمَشِّطُ ابْنَةَ فِرْعَوْنَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ سَقَطَتْ الْمِدْرَى مِنْ يَدَيْهَا فَقَالَتْ بِسْمِ الله فَقَالَتْ لَهَا ابْنَةُ فِرْعَوْنَ أَبِي قَالَتْ لَا وَلَكِنْ رَبِّي وَرَبُّ أَبِيكِ الله قَالَتْ أُخْبِرُهُ بِذَلِكَ قَالَتْ نَعَمْ فَأَخْبَرَتْهُ فَدَعَاهَا فَقَالَ يَا فُلَانَةُ وَإِنَّ لَكِ رَبًّا غَيْرِي قَالَتْ نَعَمْ رَبِّي وَرَبُّكَ الله فَأَمَرَ بِبَقَرَةٍ مِنْ نُحَاسٍ فَأُحْمِيَتْ ثُمَّ أَمَرَ بِهَا أَنْ تُلْقَى هِيَ وَأَوْلَادُهَا فِيهَا قَالَتْ لَهُ إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً قَالَ وَمَا حَاجَتُكِ قَالَتْ أُحِبُّ أَنْ تَجْمَعَ عِظَامِي وَعِظَامَ وَلَدِي فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ وَتَدْفِنَنَا قَالَ ذَلِكَ لَكِ عَلَيْنَا مِنْ الْحَقِّ قَالَ فَأَمَرَ بِأَوْلَادِهَا فَالقُوا بَيْنَ يَدَيْهَا وَاحِدًا وَاحِدًا إِلَى أَنْ انْتَهَى ذَلِكَ إِلَى صَبِيٍّ لَهَا مُرْضَعٍ وَكَأَنَّهَا تَقَاعَسَتْ مِنْ أَجْلِهِ قَالَ يَا أُمَّهْ اقْتَحِمِي فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ فَاقْتَحَمَتْ» [مسند أحمد].

لذلك فالأمَّة في حاجة لمن يدفع ثمن مبادئه ولو غالياً، ولو أنَّ كلَّ إنسان أخذ بالرُّخص فلن نجد في الأرض بطولات أبداً.

هذا هو النَّصر المبدئيُّ؛ بأن يموت الإنسان على مبدئه ولا يساوم عليه.

وأقول لكم بكلِّ صراحة: إنَّ بعض المسلمين وقعوا في الإحباط واليأس، إذ هناك امتحانان صعبان:

الامتحان الأول: أن يقوِّي اللهُ الكافر حتى يقول ضعاف الإيمان: أين الله؟ **والامتحان الثاني:** يظهِر الله آياته حتى يقول الكافر: لا إله إلا الله.

نحن الآن في الامتحان الأول، وهو صعب جداً، الطرف الآخر قوي ومتغطرس، ويفعل ما يقول، فبعض المؤمنين ضعفوا، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران:١٣٩].

ويحضرني في هذا الموضوع حديث شريف:

عَنْ أَنَسٍ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، آمَنَّا بِكَ، وَبِمَا جِئْتَ بِهِ، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الله يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ» [الترمذي].

فالله عزَّ وجلَّ جعل قلب الإنسان بيده، يملؤه أمنا، أو يملؤه خوفاً، يملؤه سعادة، أو يملؤه ضيقاً وانقباضاً، أراد الله أن يعلمه أنّك إن اتخذت قراراً صحيحاً سليماً بالتَّوبة إلى الله، والصُّلح معه، وطاعته فإنّه يملأ قلبك رضا وسعادة، وتفاؤلاً وسروراً، وكأن الله بارك لك هذا القرار، وأعانك عليه، والدليل: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات:٧].

﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر:٢٢].

وفي المقابل: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه:١٢٤].

وهذه معونة من الله عزَّ وجلَّ، فالقرار الحكيم معه سرور، وانشراح، وراحة نفسيَّة، وطَمأنينة، وإقبال، وتألُّق، والقرار الخاطئ معه انقباض وتشاؤم وكآبة، بل إنَّ كلَّ ما يعانيه البشر من ضياع وتفلُّت وتشاؤم وإحباط ما هي إلّا أعراض لمرض واحد، هو الإعراض عن الله.

أمّا علاقة هذا الحديث بالنَّصر، فهي أنَّ هذا الذي تراه قوياً، طاغية، قلبه بيد الله تعالى.

الإمام الحسن البصري من كبار التابعين، وقد أدَّى أمانة العلم، وبيّن ما ينبغي أن يبيّنه، فبلغ الحجّاج ما قاله الحسنُ، فقال لجلسائه: «يا جبناء، والله لأسقينّكم من دمه»، وأمر بقتله، وجاء بالسياف، وأمر بإحضاره ليقطع رأسه أمام مَن حوله، جيء بالحسن البصري، ودخل على الحجاج، ورأى السّياف، فحرَّكَ شفتيه، فإذا بالحجّاج يقول له: أهلاً يا أبا سعيد، أنت سيِّد العلماء، ومازال يدنيه، ويقرِّبه حتى أجلسه على سريره، واستفتاه، وعطّره، وأكرمه، وشيَّعه إلى باب قصره، فتبعه الحاجب، قال: يا أبا سعيد، لقد جيء بك لغير ما فعل بك، فماذا قلت لربك؟ قال: قلت له: «يا ملاذي عند كربتي، يا مؤنسي في وحشتي، اجعل نقمته عليَّ برداً وسلاماً كما جعلت النَّار برداً وسلاماً على إبراهيم».

هذا الذي تخافه قلبه بيد الله، هذا القوي الذي يتمنى إفناءك قلبه بيد الله، قد يملؤه الله هيبة منك، فالله نصير، لأن قلوب الذين حولك بيد الله عزَّ وجلَّ، ألم يقل هود عليه السلام: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود:٥٥-٥٦].

فإذا كان الله معك خدمك أعداؤك، وإذا كان الله عليك تطاول عليك أقرباؤك.

(النصير) قد ينصرك على المرض، وقد ينصرك على العدو، وقد ينصرك على كل معركة تخوضها بأوسع معاني المعارك، فهو نعم المولى ونعم النصير.

حينما تدعو الله عزَّ وجلَّ، وتقول: يا نصير انصرني، فهو موجود، ويسمع، ويقدر، ويحبُّ أن يرحمك، ولن تدعو جهة إلا إذا أيقنت بوجودها وعلمها، وقدرتها ورحمتها، لذلك قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ [الفرقان:٧٧].

حينما تقول: الله أكبر، فهو أكبر من كل قويٍّ، أكبر من كل جبَّار، قال تعالى: ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الشعراء:٦١].

فرعون بحقده وجبروته، وأسلحته وجيشه يتبع شرذمة من بني إسرائيل مع سيِّدنا موسى، وصلوا إلى البحر، لا أمل بالنَّجاة، قال تعالى: ﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء:٦٢].

وسيِّدنا يونُس، وهو في بطن الحوت ولا أمل بالنجاة، والإنسان يمكنه أن يقف في فم الحوت على قدميه، ووجبته الغذائيَّة أربعة أطنان، والإنسان وزنه ثمانون كيلو، قال تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨].

وأروع ما في الآية أنَّ الله قلب القصَّة إلى قانون، بقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ .

وقد وصف الله مكر الأعداء فقال: ﴿ وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾ [إبراهيم:٤٦].

ثمّ يقول تعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ﴾ [آل عمران:١٢٠].

كلُّ آلاتهم، كلُّ أسلحتهم، كلُّ أموالهم، كلُّ أقمارهم الصناعية، كلُّ حاملات طائراتهم، لا قيمة لها إذا تحقق الصبر مع التقوى.

وفي المحصّلة: الطَّاعة مع الصَّبر سبيل إلى النَّصر، أمَّا المعصية مع الصَّبر فليس بعدها إلا القبر.

الحفيظ

ورد هذا الاسم مطلقاً في قوله تعالى عن هود عليه السلام: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾ [هود:٥٧].

وفي قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ [سبأ:٢١].

وقد ورد أيضاً مقيَّداً في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾﴾ [الشورى:٦].

ولم يرد هذا الاسم في السُّنَّة.

من معاني اسم الله (الحفيظ)

الحفيظ في اللغة صيغة مبالغة من اسم الفاعل الحافظ، الحافظ اسم فاعل وصيغة المبالغة منه «الحفيظ» والفعل حفظ، يحفظ، حفظاً.

وحفظ الشَّيء يعني صيانته من التَّلف والضَّياع، ويستعمل الحفظ في العلم على معنى الضَّبط، وعدم النّسيان، أو تعاهد الشّيء وقلة الغفلة عنه، وقوم حفَّاظ هم الذين رُزقوا حفظ ما سمعوا وقلّما ينسون شيئاً.

والذَّكاء شيء، والذَّاكرة القويَّة شيء آخر، لكن بينهما منطقة مشتركة فكلُّ ذكيٍّ لابدّ من ذاكرة تعينه في استرجاع الحقائق، وكلُّ من يملك ذاكرة قويَّة فهو على شيء من الذَّكاء.

والحافظ و «الحفيظ» أيضاً هو الموكَّل بالشيء يحفظه، ومن ذلك الحَفَظَة من الملائكة كما في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:١١].

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الانفطار:١٠-١١].

ويقال: حفظ المال والسرَّ حفظاً: رعاه وصانه، واحتفظ بالشيء لنفسه، يعني خصَّها به، والتَّحفُّظ قلَّة الغفلة في الأمور والكلام.

«الحفيظ» سبحانه وتعالى هو العليم، المهيمن، لا تغيب عنه شاردة، ولا واردة ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر:١٩].

هو الرَّقيب على خلقه ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر:١٤].

ومن لوازم حفظه أنّه يعلم كلَّ شيء، ولا يغيب عنه شيء، لا يعزُب عنه مثقال ذرة في ملكه.

و«الحفيظ» هو الذي يحفظ أعمال المكلفين، حركاتهم، وسكناتهم محفوظة عنده، قال تعالى: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار:١١-١٢].

يدوِّنون على العباد أقوالهم، وخطراتهم، وحركاتهم، وسكناتهم، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾ [الشعراء:٢١٧-٢١٨].

حركاتك، وسكناتك، وخطراتك، وكل جزئيات حياتك، محفوظة عند الله عزَّ وجلَّ.

وهو «الحفيظ» يحفظ على عباده أسماعَهم، وأبصارَهم، وجلودَهم، لتشهد عليهم يوم اللقاء.

﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم﴾ [فصلت:٢٠].

و«الحفيظ» يحفظ من يشاء من الشَّرِّ، والأذى والبلاء، ويحفظ أهل الإيمان والتَّوحيد، ويعصمهم من الهوى وشُبُهات الشيطان، ويحول بين المرء وقلبه من الوقوع بالعصيان.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥].

لا حول ولا قوة إلا بالله، لا حول عن معصيته إلا به، ولا قوَّة على طاعته إلا به.

و «الحفيظ» هو الذي يهيِّئ الأسباب بتوفيقه إلى الطَّاعة والإيمان، يحفظك من الوقوع في العصيان، ويمدك بالأسباب التي تعينك على الطاعة والإيمان.

ثبت من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يدعو ويقول: «اللهم احفظني بالإسلام قائماً، واحفظني بالإسلام قاعداً، واحفظني بالإسلام راقداً، ولا تشمت بي عدوا حاسداً، اللهم إني أسألك من كل خير خزائنه بيدك، وأعوذ بك من كل شر خزائنه بيدك» [أخرجه ابن حبان والحاكم وصححه].

لكنَّ النَّبيَّ ﷺ يقول: «والشَّرُّ لَيسَ إليكَ» [أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن علي بن أبي طالب].

هذا يعني أنّ الشَّرَّ نسبيٌّ، وليس هناك شرٌّ مطلق، فالشَّرُّ المطلق يتناقض مع وجود الله، فالمصيبة قد تعدُّ شرّاً بالنسبة إليك حاليّاً، لكنَّها بالنسبة إلى مآلك ومستقبل حياتك تعدُّ خيراً، فالله عزَّ وجلَّ يوظِّف الشَّرَّ النِّسبيَّ للخير المطلق.

مثل للتَّوضيح: مركبة من أحدث المركبات، قادها صاحبها وهو شارب للخمر، نزل في الوادي، فتحطَّمت، هذا المنظر المشوَّه للمركبة سببه أنّه أُسيء استخدامها، فنقول: هذا الشَّرُّ ناتج عن مخالفة التعليمات.

الشَّرُّ ناتج عن إنسان أعطاه الله حرية الإرادة، أعطاه الشهوات، لكنّه لم يتحرك وفق منهج الله، لو تحرك وفق منهج الله لما كان شرٌّ.

الملح مادة مهمَّة جدًّا، فإذا وضعت في الحلويات فلا يمكن أكلها، والمواد التي صنعت منها الحلويات مفيدة، أما حينما أُسيء استخدام الملح ووضع في الحلويات فهذا هو الشَّرُّ النِّسبيُّ، فالشَّرُّ سلبيٌّ لا يحتاج إلى صانع، بل يحتاج إلى إنسان مخيَّر تحرك بقوَّة شهوته دون ضابط من شرع، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص:٥٠].

معنى ذلك أنّ الذي يتبع هواه وفق هدى الله عزَّ وجلَّ لا شيء عليه.

و «الحفيظ» هو الذي حفظ السماوات والأرض بقدرته، قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة:٢٥٥].

فالله حفيظ لمخلوقاته أي أنه يبقيها على حالها، لغاياتها، وينظِّم ترابط العلل بالمعلولات، هذه قوانين، أي هناك سبب، وهناك نتيجة، من نظَّم علاقة الأسباب بالنتائج؟ هو الله عزَّ وجلَّ، الله تفضَّل علينا بملايين القوانين الثابتة، لتنظِّم حياتنا، التمدُّد قانون، وأثناء البناء تراعي هذا القانون، فالبناء لا يتصدَّع، لو لم يكن هناك قوانين فالحياة لا تُعاش، تصبح شاقَّة جدًّا.

ذكر الغزاليُّ رحمه الله تعالى أن الحفظ الإلهيَّ على وجهين، الوجه الأول إدامة وجود الموجودات، وإبقاؤها، ويضادُّه الإعدام، فالشيء الموجود محفوظ، فالحفظ يعني البقاء، الله عز وجل أبقى الشمس شمساً، والقمر قمراً، والنجوم نجوماً، أبقى الماء ماءً، والهواء هواءً، أبقى المعادن معادن، أعطاها خواص، وخواصها ثابتة.

والله تعالى هو الحافظ للسماوات والأرض والملائكة والموجودات التي يطول أمدها والتي لا يطول.

القمح مثلاً وجد في الأهرامات، من ستة آلاف عام فلما زُرع نبت، والقمح فيه رشيم، والرُّشيم كائن حي، معنى هذا أنّ الكائن الحيَّ عاش ستة آلاف عام، وهناك أشياء عُمُرها سريع، أقصر خلية في جسم الإنسان عمرها ثمان وأربعون ساعة، وهي خلايا زغابات الأمعاء، وأطول خلية في جسم الإنسان عمرها خمس سنوات، وهي الخليَّة العظميَّة، يعني أنت أيها الإنسان تتجدّد كلياً كل خمس سنوات، عدا خلايا الدماغ وخلايا القلب.

إذ كلُّ المعلومات والأفكار والخبرات والمهارات والذواكر في الدماغ، ولو أنها تبدَّلت لفقد الإنسان كلَّ اختصاصه، وجميع المشاعر والأذواق في القلب، فالله تعالى يحفظ لنا خلايا الدّماغ والقلب.

الوجه الثاني للحفظ: أن الحفظ صيانة للمتقابلات والمتضادَّات بعضها عن بعض، فالماء يطفئ النار، فهما متضادَّان، من الذي يحفظ للماء وجوده وللنَّار وجودها؟ إنّه الله عزَّ وجلَّ.

وقد جمع الله عزَّ وجلَّ بين هذه المتضادَّات المتنازعة، في سائر العناصر والمركَّبات، وسائر الأحياء كالإنسان، والحيوان، والنَّبات.

ومن زاوية أخرى: الإنسان مفطور على حُبِّ وجوده، وعلى حبِّ سلامة وجوده، وعلى حبِّ استمرار وجوده فكم من التدابير التي يتَّخذُها للحفاظ على نفسه أو ماله، أو للحفاظ على صحَّته، أو للحفاظ على أولاده. وهذا يعني أنَّه يبذل جزءاً كبيراً من نشاطه في الدُّنيا في سبيل الحفاظ على وجوده، أو على سلامة وجوده، أو على دخله أو على صحته، أو على مُكتسباته، أو على ما بيده، فالحفاظ على الشَّيء لا يقِلُّ أهميّة عن تحصيله، فالإنسان يُحصِّل شيئاً ويُحافظ عليه، فنشاط الحِفاظ على ما أنت فيه لا يقل عن نشاط تحصيل هذا الذي تريده، فالإنسان حينما يحاول أن يحافظ على حياته أو على

سلامته أو على صحته أو على أولاده في حياته أو بعد مماته، حينما يحاول الحفاظ على دخله وإنتاجه وعلى بيعه ومكانته وسمعته، فهو يعمل وفق غرائزه ودوافعه.

تحصّل هذا الدخل وتحافظ عليه، تُحصّل هذه اللياقة البدنيّة وتحافظ عليها، تُحصّل هذه السُّمعة وتحافظ عليها، بل إنَّ نشاط المحافظة على الشَّيء ربما كان أكثر من نشاط تحصيله، فالإنسان أحياناً يصل إلى مرتبةٍ ومنصبٍ ويبذل أربعة أخماس وقته في الحِفاظ على هذا المنصب، وكأنَّ هذا الحفاظ أصبح شُغلَه الشَّاغل، لذلك فالإنسان حينما ينسى الله عزَّ وجلَّ، أو حينما ينسى اسم الله الحفيظ، أو حينما ينسى أن الله هو الحافظ أولاً وآخراً، حينما يتجاهل أن الحِفظ بيد الله وحده وأنه مهما كنت ذكياً، ومهما كنت أريباً، ومهما كنت ذا خبرة عريقة، مهما أخذت من الاحتياطات، مهما اتَّخذت من الأسباب، مهما أقمت من السُّدود، مهما حصَّنت نفسك، إذا أراد الله بك شيئاً فلا بُدَّ أن يصل إليك، فالحفاظ الحقيقيُّ لا يكون بأخذ الأسباب وحدها، بل بأخذ الأسباب والاعتماد على الله عزَّ وجلَّ، فكم من إنسان دُمِّرت حياته من خطأٍ بسيط في صحَّته.

سمعت عن إنسان مرض وكان مرضه قابلاً للشفاء، ليس مرضاً عُضالاً، علاجه ممكن، وهناك أدويةٌ فعَّالة في شفائه، ذهب إلى صيدلانيّ، فكان غائباً عن عمله، وترك مكانه موظَّفاً، فأعطى الموظَّف لهذا المريض دواء آخر، وقيل له: ضع الحبَّة تحت لسانك، تفاقم هذا المرض حتى كاد يودي بحياته. مهما كنت ذكيّاً فأنت بحاجة إلى حفظ الله.

وحينما يتجاهل الإنسان اسم الله الحفيظ، فإنّه يقع في سوء فعله: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [يوسف:٦٤].

﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾، حينما يأخذ الإنسان بأسباب الحفظ الماديَّة وينسى أن مُسبِّب الأسباب هو الله عزَّ وجلَّ، حينما يأخذ بالأسباب الماديَّة للحفظ ويأتيه بأس الله

من حيث لا يحتسب مما يجعل حياته كلَّها جحيماً لعلَّة تصيب جسدَه، فمثلاً شخص حصّل أعلى الشّهادات وتزوج امرأةً غربيَّة تروق له، وعاد بها إلى بلده، ووصل إلى أرفع المناصب، ثم فَقَدَ بصره فزاره صديق له، فقال له: والله يا فلان أتمنى ألاّ أحمل هذه الشهادة، وألا أكون متزوجاً، وأن أقوم على قارعة الطريق أتكفَّف الناس، وأن يردَّ الله إليّ بصري!

﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ﴾، الإنسان عُرضة لأخطار لا تنتهي في الدنيا والوقائع بين أيديكم، تجد إنساناً بأعلى درجات الذَّكاء، رجل يمشي على يمين الطّريق، فصدمته سيَّارة كان سائقها نائماً، وأصيب في عموده الفقري ممّا أدّى إلى شلل كامل طوال حياته، فمن يحميه ويحفظه من الغوائل؟ فالله خير حافظاً، فلا بدَّ من التَّوكُّل حقّاً.

مثلاً كيف يُحصِّن المال؟ يجب أن يُحصَّن المال لا بوضع أقفال، وأقفال ذات أرقام... لا. ففي مراسيل أبي داود عن الحسن مرسلاً «حصنوا أموالكم بالزكاة».

يجب أن تحفظ المال كما بيَّنَ لك الله وبيَّن الطريق لحفظه، وليس كما يصل إلى علمك من أساليب معقَّدة جداً مبنية على التكنولوجيا، تكتفي بها وتترك الصّدقات.

سمعت عن رجلٍ يعمل في تجارة الذَّهب، استورد صندوقَ حديدٍ من إحدى قارات الأرض، وله مواصفات تحتاج إلى كُتيِّب لوصفها، واستطاع أُناس أن ينزلوا إلى دكانه بالليل وأن يثقبوا الصندوق من سقفه، وأن يأخذوا كل ما فيه، فقد اعتمد على هذا الصندوق في حفظ ماله ونسي الله تعالى، وحينما ينسى المرء الله عزَّ وجلَّ ويأخذ بكلِّ أسباب حفظ الصّحة ويعتمد عليها يأتي عَطَب غير متوقَّع، وهناك عشرات الأمراض بل مئات الأمراض حتى الآن لا تُعرف أسبابها، يقال لك: فقر دم غير مُصنَّع، يعني معامل كريات الدم التي في نِقي العظام توقفت فجأةً بلا سبب عن صنع كريات الدم، وعندها يحتاج الإنسان كلَّ أسبوع إلى ستمئة سنتمتر من الدَّم ما دام حيّاً أو يموت، إنَّ كل الذكاء والاحتياطات لا تُجدي مع هذا المرض، وهذا المرض ليس له أسباب، فلو أخذ الإنسان بكلِّ أسباب الصَّحة إلا أن هناك أمراضاً ليس لها أسباب ماديَّة.

رأيت شخصاً دنياه في أعلى درجة، ومع ذلك أصابه نموٌّ زائد في دماغه، وانتهى إلى موت عاجل، فأنا أتمنى أن نستوعب جميعاً معنى اسم الحفيظ، فما لم يتولَّ الله جلَّ في عُلاه حِفظَ صحَّتك وحِفظ سُمعتك وحِفظ أهلك وحِفظ مالك فالخطر ماثل، أحياناً إبريق شاي يُحرِّكه طفل فيسكبه على وجهه، فيصبح هذا الطفل مصدر شقاء لأسرته طوال عمره، فمهما حافظت على ما تملك؛ من الأشياء الماديَّة والمعنويَّة، وتجاهلت اسم الحفيظ، فاعتمادك على أسباب ماديَّة اعتماد عجز وضياع.

شخص في أعلى درجات نجاحه الدنيويِّ، وله عدَّة مشاريع متنوعة في البلدة وأرباحها كبيرة في أعلى مستوى، وصحته في غاية السلامة، وهو ذو مكانة اجتماعية وعلاقات رفيعة، حوله أعوان وأتباع وجيش من المنتفعين، مكانة وتعظيم وجاه وأرباح، وكل ستة أشهر يذهب إلى أوروبا وينزل في أجمل فنادقها، حدث شيء قد لا يخطر على البال وهو أنه أراد أن يُصلح قطعة كهربائية، فقال له عامل الكهرباء: سأضعها لك في مكان مرتفع فهي أجمل، فأجازه في رفعها، في اليوم التالي اضطُر إلى أن يتعامل معها، فصعد على الكرسي لعُلُوِّها، فانكسر الكرسي فوقع على مقعدته فنقل إلى المستشفى وبعد حوالي ثمانية عشر يوماً كان في عِداد الموتى، وترك ثروة ضخمة، فهذا دُمِّرت حياته لأتفه الأسباب.

حصِّن نفسك من المصائب بالاستقامة، هناك نقطة عميقة الدلالة جداً وهي: يؤتى الحَذِرُ مِن مأمنه، ومن آيات الله العظيمة، أن طبيباً مختصاً بالهضم والأمور مدروسة عنده بعمق وفهم، فليكن آيةً للناس، أصيب بقَرْحَة وما نجا منها، بل أودت به، هناك طبيب مقيم في بلد غربي، وهو مؤمن بأهمية الجري يوميّاً، والجري نافع ورياضة ممتازة وجيِّدة، وأنا معه بهذا، يجري كل يوم ساعتين، كتب مقالاً وأجْروا معه مقابلات وكان يظنُّ نفسه أنه آخر إنسان يموت بالقلب، فإذا مات كل من حوله فسيكون آخرهم، لأنه يجري كلَّ يوم، وجعل اعتماده على الجري دون الله تعالى، فأصيب بنوبة قاسية جداً وهو يجري، فكان فيها حتفه، لقد أخطأ إذ وكَل أمره للجري

والرِّياضة، وجعله بديل حفظ الله عزَّ وجلَّ، وهذا لا يغني من الله شيئاً، يمكن أن تجري وتلعب الرِّياضة وتنظِّم طعامك وتجتنب المواد الكيماويَّة، يمكن أن تعتني بصحتك إلى أعلى درجة، وهذا كلُّه صحيح بل مطلوب، لكن لا يعني ذلك أن تنسى الله عزَّ وجلَّ، أن تنسى أن الله هو الحافظ. وملخص الملخص: اعقل وتوكَّل.

دخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز في مرضه الذي مات فيه فقال له: يا أمير المؤمنين! إنَّك فطمت أفواه ولدك عن هذا المال، وتركتهم عالةً، ولا بد من شيء يصلحهم، فلو أوصيت بهم إليّ أو إلى نظرائك من أهل بيتك لكفيتك مؤنتهم إن شاء الله، فقال عمر: أجلسوني، فأجلسوه، فقال: الحمد لله، أبالله تخوِّفني يا مسلمة؟ أما ما ذكرت من أنّي فطمت أفواه ولدي عن هذا المال وتركتهم عالة، فإنِّي لم أمنعهم حقاً هو لهم، ولم أعطهم حقاً هو لغيرهم، وأمَّا ما سألت من الوصاة إليك أو إلى نظرائك من أهل بيتي، فإن وصيتي بهم إلى الله الذي نزل الكتاب وهو يتولّى الصَّالحين، وإنَّما بنو عُمر أحد رجلين: رجلٍ اتَّقى الله فجعل الله من أمره يسراً ورزقه من حيث لا يحتسب، ورجلٍ غيَّر وفجر فلا يكون عمر أولَ من أعانه على ارتكابه، ادعوا لي بنيّ، فدعوهم، وهم يومئذ اثنا عشر غلاماً، فجعل يصعِّد بصره فيهم ويصوِّبه حتى اغرورقت عيناه بالدَّمع ثم قال: بنفسي فتيةٌ تركتهم ولا مال لهم، يا بَنيَّ! إنِّي قد تركتكم من الله بخير، إنَّكم لا تمرُّون على مسلم ولا معاهِد إلا ولكم عليه حقٌّ واجب إن شاء الله، يا بَنيَّ! ميَّلت رأيي بين أن تفتقروا في الدنيا وبين أن يدخل أبوكم النار، فكان أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيراً من دخول أبيكم يوماً واحداً في النار، قوموا -يا بنيَّ- عصمكم الله ورزقكم، قالوا: فما احتاج أحد من ولد عمر ولا افتقر [العقد الفريد لابن عبد ربه].

وذُكر أنَّ أبا جعفر المنصور قال لعمرو بن عبيد: عظني، قال: بما رأيتُ، أو بما سمعتُ؟ فقال: بل بما رأيتَ، فقال: توفي عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- وخلَّف أحد عشر ابناً، وبلغت قيمة تركته سبعة عشر ديناراً، فكُفِّن بخمسة دنانير، واشتري له موضع قبره بدينارين، وأصاب كل واحد من أولاده ثمانية عشر قيراطاً، ومات هشام

ابن عبد الملك وخلَّف أحد عشر ابناً، فحصل لكل واحد من ورثته مما خلفه عشرة آلاف دينار، فرأيت رجلاً من أولاد عمر بن عبد العزيز قد حمل على مئة فرس في سبيل الله، ورأيت رجلاً من أولاد هشام يسأل الناس.

حدثني رجل أثق به أنَّ إنساناً كثيرة أملاكه، من معامل إلى محالّ تجاريَّة إلى مزارع إلى بيوت في المصايف، إلى بيوت على شاطئ البحر، توفيَ، وكان هدفه الأكبر تأمينَ المال لأولاده من بعده، ترك أموالاً لا تأكلها النِّيران، والقصة طويلة جداً، فخلال سنتين تكفَّف أولاده من بعده، إذ عقدوا صفقةً كبيرة جداً مع شخص خارج القطر وشحنوا البضاعة واختفى الشخص، واضطروا إلى الاقتراض من جهات أخرى ثم عجزوا، لكن المهمَّ كما أنَّ الله عزَّ وجلَّ قادر، وأنَّه إذا أعطى أدهش، كذلك فهو إذا سلب أدهش، من كلِّ شيء انقلب حالهم إلى لا شيء.

أوجز للقراء الكرام: لن تستحقَّ حفظ الله عزَّ وجلَّ إلا إذا طبّقت منهجه، فهناك مظلة فإذا طبقت منهج الله عز وجل فأنت تحت مظلة رعاية الله عزَّ وجلَّ في الدُّنيا ثمَّ في الآخرة.

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبي ﷺ قالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ: الإمامُ العادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ في عِبادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ في المَساجِدِ، وَرَجُلانِ تَحابَّا في الله اجْتَمَعا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذاتُ مَنْصِبٍ وَجَمالٍ فَقالَ: إنِّي أخافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ فأخفَى حَتَّى لا تَعْلَمَ شِمالُهُ ما تُنْفِقُ يَمينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خالِياً فَفَاضَتْ عَيْناهُ» [متفق عليه].

إنَّ أخشى ما أخشاه أن أخرج عن ظِلّ الله عز وجل، كيف تخرج؟ بالمعاصي، إذا كنتَ مستقيماً فأنتَ في ظِلّ الله، أنت في حِفظه، أنت في رعايته، ولا ينسى أحد قولَ الله تعالى: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأنفال:١٩].

هذه معيّة خاصة، وليست معيَّةً عامة، معك بالحِفظ، معك بالتأييد، معك بالتَّوفيق، معك بالرِّعاية، معك بالإكرام، تُحِسّ بشكل صارخ أنَّ الله يُحبُّك، وأنَّ الله يحفظُك، وأنَّ الله يُلهِمُك، وأنه يوفِّقُك، وأنه يُسدد خُطاك، وأنه مُنطِقُكَ بالحق، وأنَّه يرفع لك شأنك، ويرفع لك ذِكرك، هذه تلمسها لمس اليد، بل إني أقول: إن ارتباط المؤمن بالإيمان، هذا الارتباط الشديد ليس لأن أفكاره في الإيمان مُقنعة، أجل هي مقنعة، والعقيدة صحيحة، والأفكار سليمة، والأمور واضحة، لكنَّ الذي يَشُدُّكَ إلى الله عزَّ وجلَّ ليس وضوح الأفكار، ولا دقة البراهين، بل هذه المعاملة التي عاملك الله بها بعد أن اصطلحت معه، فأراك من فضله ومن لُطفه ومن عنايته ومن حِفظه ومن توفيقه.

فلذلك شعورك بالحفاظ على ما في يديك هو شعور طبيعيٌّ وهذه فطرتك، لكن السلوك للحفاظ على ما في يديك لن يجعلك تنحو منحىً مادياً، كأن ترى أنَّه لا بد من وضع الأقفال، ولا بد من تَمَلُّق فلان، فبقائي في وظيفتي بهذا المكان مرهون برضاء المسؤول عني، فما الذي يرضيه؟ معصية الله، إذاً سأعصي الله من أجل أن يرضى حتى أبقى في وظيفتي، وهذا هو الجهل، وهو الذي يقع فيه معظم الناس، هو يريد أن يحافظ على ما بيده عن طريق إرضاء النَّاس، يرضيه ويعصي الله، فتَجِدُّ ظروف لم تكن في الحسبان، وتقلِب الموازين، ويغضب ذاك المسؤول عنه من غير سبب، ويخسر الدُّنيا والآخرة.

لذلك أكرر هاتين الكلمتين: من آثر دنياه على آخرته خسرهُما معاً، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهُما معاً، لكن حتى أكون واقعياً ربنا عزَّ وجلَّ -وهذا يُعرف من طريق تعامل ربِّ العزَّة مع العباد- أحياناً يُغلِق لك كلَّ الأبواب إلا طريقاً واحداً مسموحاً وهو غير مشروع، هنا الامتحان، إذ كلُّ الأبواب التي تُرضيه مغلقة وبابٌ واحد لا يُرضيه مفتوح على مِصراعيه، فماذا تفعل؟ هنا الامتحان. فإن قلت: لن أعصي الله ولو قُطعت إرْباً إرْباً فأنت هكذا يا عبدي؟ وأنا لن أتخلى عنك، وسأقلب لك كلَّ الموازين بحيث سيغدو عدوك صديقَك، وسأُيسّر لك أعمالك وستأتيك الدنيا وهي راغمة؛ لأنك آثرت طاعتي على الدُّنيا، عندئذ تأتيك الدُّنيا وهي راغمة.

في الأسواق قوانين بين التجار، إذ هناك طريقة في البيع شائعة متعارف عليها وتحفظ بها مالك وتربح، لكن ربما كان في هذه الطريقة شُبهَة في الدِّين، فأنت إذا أردت تطبيق قواعد الدِّين في التَّعامل بهذه الطريقة تخسر، فاحذر أن تضحي بعلاقتك بربك وتأخذ بأساليب الناس الملتوية. فتخسرَ كل شيء.

شخص أُعطي أرضاً فسأل عالماً فقال: يا بنيّ هذه ليست لك، هذه لفلان من الناس، وهي غير مشروعةٍ لك، اذهب إلى صاحبها واشتر الأرض منه، فذهب إليه وطلب شراءها منه، وقال له: قال لي معلّمي: يحرُم عليّ أخْذُها، وليس معي ثمنها الآن إلا أنَّ معي حلي زوجتي أبيعه وأقترض، واطلب أنت ما تريد ثمناً لهذه الأرض، فنظر إليه وقال له: يا بنيّ لقد بعت من أراضيّ أربعمئة دونم، وما جاءني أحد كما جئت أنت، فاذهب وهذه هدية مني لك خذها حلالاً، إن موقفه الورع جعل هذه القطعة من الأرض حلالاً له.

وليُصغِ الإنسان سمعه لهذه الكلمة: زوال الكون أهون على الله من أن تدع شيئاً مخافةً منه ثم يضيِّعك الله عزّ وجلَّ، زوال الكون أهون على الله من أن تقف موقفاً فيه مرضاة الله عزَّ وجلَّ ثمّ يتخلَّى عن نصرتك. يا رب أنا لا أعصيك ومهما بلغ الثمن لن أعصيَك. أتفعل هذا عن طيب خاطر وتضيع؟ لا والله، لذلك توجد قوانين مستنبطة من التعامل اليوميّ، فهذا الذي توهّم أن بقاءه في هذا المكان منوط بإرضاء فُلان وفلان، وجعل إرضاءه عن طريق معصية الله عز وجل، فهذا الذي أرضيتَه وأسخطتَ الله عزَّ وجلَّ فلا بد من أن يَسخط الله عليك ويُسخِط ذاك الإنسان عليك، وإذا أغضبت إنساناً من أجل طاعة الله، فلا بد من أن يرضى الله عنك وأن يُرضِي عنك هذا الإنسان، ومن آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً، فموضوع الحفظ يلخِّصه قولُ الله عزَّ وجلَّ إذ يقول في مُحكم كتابه: ﴿ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف:٦٤].

قد يسافر الإنسان فهل يضمن أثناء سفره ألا يصاب ابنه بحادث سيارة مثلاً؟ هل يضمن ألا يقع خلل في بيته؟ هل يضمن عدم دخول شخص معتدٍ إلى بيته في غيابه؟ وهل وهل وهل...؟ أما المؤمن فإنه إذا أزمع السفر دعا بهذا الدعاء: «اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل والمال»(١) تشعر أن أعصابك تخدَّرت، لأن الله يملك البيت، يحفظ مالك وأولادك وأهلك وكلَّ شيء، ترى كيف حفظ الله لك ولدك من حادث خطير، لا تقل: نجا بأعجوبة، بل هذا حِفظُ الله عزَّ وجلَّ، قال تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤﴾.

لتعلم أنَّ ما عند الله لن تناله إلا إذا اتَّبعت منهجه، حفظ المال بتأدية الزكاة، حفظ الجوارح بطاعة الله، عين تغضُّ عن محارم الله، عين تبكي من خشية الله هل ترثها؟ لا بل ترثك، فهناك فرقٌ بين أن ترثها وبين أن ترثك.

عَنْ خَالِدِ بْنِ أبِي عِمْرَانَ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ قَالَ: قَلَّمَا كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتَّى يَدْعُوَ بِهَؤُلاءِ الدَّعَواتِ لأَصْحَابِهِ: «اللهُمَّ اقْسِمْ لَنا من خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وبَيْنَ مَعَاصِيكَ، ومِنْ طاعَتِكَ ما تُبَلِّغُنا بِهِ جَنَّتَكَ، ومِنَ اليَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنا مُصيباتِ الدُّنْيا، ومتِّعْنا بأسْماعِنا وأبْصارِنا وقُوَّتِنا ما أَحْيَيْتَنا واجْعَلْهُ الوَارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَأْرَنا عَلَى مَنْ ظَلَمَنا وانْصُرْنا على مَنْ عادانا، ولا تَجْعَلْ مُصيبَتَنا في دِينِنا، وَلا تَجْعَلِ الدُّنْيا أكْبَرَ هَمِّنا، وَلا مَبْلَغَ عِلْمِنا، وَلا تُسَلِّطْ عَلَيْنا مَنْ لا يَرْحَمُنَا» [أخرجه الترمذي في سننه].

فالمؤمن ما دام لسانه ينطق بالحقِّ، وبصره ينظر إلى آيات الله لا إلى عورات المسلمين، وسمعه يستمع به الحقَّ، ما دام المسلم هكذا، فأغلب الظنِّ أن الله سبحانه وتعالى يحفظ

---

(١) قطعة من حديث عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سَفَرٍ، كبر ثلاثاً ثم قال: «سبحان الذي سخر لنا هذا، وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، اللهم! إني أسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم! هون علينا سفرنا هذا، اللهم اطوِ لنا البعدَ، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل والمال» [رواه أبو داود في السنن]. وزاد مسلم في صحيحه: «اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل».

له هذه الجوارح فهناك حالة تُسمَّى حالة الأمن، المؤمن يشعرُ بأنَّ الله عزَّ وجلَّ لن يُضيِّعه. هذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الأنعام:٨١].

إذاً: ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ﴾، الأب دائماً حريص على أولاده حرصاً لا حدود له، لكن لو حصل خلل في الخلايا الداخليَّة ونمت هذه الخلايا نمواً عشوائيّاً، فالأب ماذا بيده أن يفعل؟ بيده أن يتألَّم فقط، أمَّا الإله فكلُّ شيء بيده، ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ﴾ فالذي يحفظ هو الله عزَّ وجلَّ.

أقسم لي رجل بالله كان يقود سيارته بسرعة عالية في طريق طويلة، ونام ورأى مناماً، واستيقظ في الوقت المناسب قبل أن يواجه حادثاً مُروِّعاً مدمِّراً، إذ أنقذه الله من التّردِّي في الهاوية.

﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يوسف:٦٤].

فإذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان الله عليك فمن معك؟ تلاحظ أنَّ من حِكمة ربنا عزَّ وجلَّ أنَّه من اعتمد على ذاته واتَّكل على نفسه، من اعتمد على ذكائه، على ماله، على معارفه، على أصدقائه، على اتِّصالاته. مثل هذا الإنسان بأتفه الأسباب يُدمَّر.

وقد قيل: أوحى الله عز وجل إلى داود: وعزتي ما من عبد يعتصم بي دون خلقي أعرف ذلك من نيته، فتكيده السموات بمن فيها والأرض بمن فيها، إلا جعلت له بين ذلك مخرجاً، وما من عبد يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته، إلا قطعت أسباب السماء بين يديه، وأرسخت الهواء من تحت قدميه، وما من عبد يطيعني إلا وأنا معطيه قبل أن يسألني، ومستجيب له قبل أن يدعوني، وغافر له قبل أن يستغفرني.

لذلك أقوى شيء يشدُّك إلى الدِّين معاملة الله لك بعد أن تصطلح معه؛ إذ تشعُر أنَّك ضمن عناية وتوفيق وإلهام وتسديد وحفظ وتأييد ونصرة، فالله يُلهمك مثلاً ألا تسافر لوجود هلاك بذاك السفر. تجد إنساناً قبل يوم من الاجتياح سحب كلَّ ماله وجاء إلى منطقته، على حين أن غيره خسر كلَّ ماله لأنَّه تركه في البلد الذي حصل فيه الاجتياح، حصل كل ذلك بفارق يوم واحد فقط، من ألهمه؟ الله عز وجل ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

كفار قريش أليست معارضتهم لرسول الله كان هدفها الحفاظَ على ما هم فيه؟ هذا أمر واقعي، وليس من باب القيل والقال، فزعماء قريش حينما عارضوا النّبيَّ ﷺ وكفروا به وكادوا له وأخرجوه وحاربوه، واضطهدوا أصحابه، أليس من أجل أن يحافظوا على مكانتهم في مكَّة وعلى زعامتهم وعلى أموالهم وعلى شأنهم في الجزيرة؟ ما الذي حصل؟ إنهم دُمروا وإنهم قُتِّلوا وإنهم مُزِّقوا وإنهم شُرِّدوا، من الذي انتصر عليهم؟ رسول الله ﷺ وأصحابه الذين اتبعوه، وهذا شيء متكرر دائماً يؤكده قوله تعالى: ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [الأعراف:١٢٨].

الأمور تدور وتدور ولا تستقرُّ إلا على تكريم المؤمن وحفظه، ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾. بعد كل هذا الإيضاح لا بد من الوقوف عند معاني الحفيظ. إن هذا الاسم له معنيان:

المعنى الأول: حفيظ بمعني عليم: فالله لا ينسى، حفيظ لا ينسى، كلُّ أعمالك وكلُّ أقوالك وكلُّ مواقفك وكلُّ عطاءاتك وكلُّ منعك وكلُّ الصِّراعات التي في ذهنك، كل ما أنت فيه محفوظ عند الله عزَّ وجلَّ، الآن تجد من يقول لك: الملفّ سحبناه ونجوتَ من المخالفة بعد أن سحبنا الضبط، وانتهت المشكلة، أو إنَّ الملفَّ اختفى وضاع، فمثلاً الآن هناك حاسوب وعن طريقه تصدر النتائج الجامعية فممكن لشخص أن يمحو كل النتائج لخمسة آلاف طالب، فلو افترضنا أن شخصاً محا كل

ذاكرة الحاسب فأين الطلاب ودراساتهم ونجاحاتهم؟ لقد ضاع كلُّ شيء، فممكن أن يكون إنسان أذكى من إنسان آخر يسحب الوثيقة أو يسحب الملفَّ أو يسحب التقرير أو يسحب الضبط، أما الله عزَّ وجلَّ فحفيظ فلا توجد قوة لإلغاء ما عنده، فكلُّ محفوظ ومسجَّل عنده. فهنا شعورك أنَّ أعمالك كلَّها مسجَّلة، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ﴾ [آل عمران:١٨١].

وما قولك: إن الله عز وجل يوم القيامة يعرِض أعمالَك كلَّها عليك بصُوَرها، بوقائعها، هذا معنى قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ ﴾ [المطففين:٩].

مرقوم من الرَّقْمِ وأصل الرَّقم الكتابة، وقيل: مرقوم أي: بيِّن ظاهر الكتابة، أو له علامة يُعرف بها، أي: مُعلَّم، فكُلُّ مخالفة وصورتها. فأبلغ طريقة في المخالفات المروريّة تأتي بالتنبيه، فيقال لك: عليك مخالفة، ثم تراجع ليعطوك الصورة، ألم تكن في هذا الطريق؟ هذه سيارتك وهذه صورتها وهذا الضبط، فأرقى أنواع الضبط أن تأتي المخالفة مع الصورة، ﴿ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ ﴾ أو مُرَقَّم يستحيل أن تُنزع منه صفحة، مثل المالية، هذا الدفتر صفحاته كذا، توقيعه كذا، بعت بيعاً ثم تقول سأنزع هذه الصورة، هذا لا يمكن إذ إنك ستجد صفحةً عند موظف الماليَّة، فما قولك: إنَّ الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة يعرض عليك كلَّ أعمالك، لماذا وقفت هذا الموقف؟ ﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الصافات:٢٤].

قد تكون أعمال لها مظهر مقبول، لكن مخبؤُها غير مقبول، فربُّنا عزَّ وجلَّ يُطلعك على مخبئك، على نياتك، على حقيقتك، هذا معنى حفيظ، أي: عليم، كلُّ أعمالك مسجَّلة، الله حفيظ يعني كلُّ شيء عنده مسجَّل، يعلم كلَّ شيء وربُّنا عزَّ وجلَّ يقول عن نفسه: ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ﴾ [طه:٥٢].

فالله سبحانه لا ينسى أبداً، فالحِفظ الأول ضد السهو والنسيان، وهو يعود إلى معنى العلم، فهو تعالى حفيظ للأشياء بمعنى أنه يعلمها جُملةً وتفصيلاً علماً لا يتبدَّل ولا يتغيَّر، لا بالزوال ولا بالسَّهو ولا بالنِّسيان، هذا المعنى الأول فأنت تعامُلُكَ مع الله عز وجل على أنه حفيظ، لو أدّيت مبلغاً لجهة وسُجِّل لك في قيودها، هذا الموقف مُسجَّل، فمثلاً الابتسامة مسجَّلة، فإن ابتسمت ابتسامة في وجه إنسان خائف وطمْأنته فهذه مسجَّلة، إنسان اعتذر إليك وأنت قويٌّ فقلت له: لا عليك، أنا أودُّك ولك مكانة عندي، طمْأنْته وارتاح، نام المسكين مطمئناً فهذه مسجَّلة، ابتسامتك، عطاؤك، منعك، كرمك، تضحيتك، هذه كلُّها أعمال مسجَّلة. وهذا هو المعنى الأول.

المعنى الثاني: الحفيظ، أي: ضد التضييع: الأول ضد النسيان، والثاني ضد التضييع، فمعنى حفيظ، أي: الله عزَّ وجلَّ لا يُضيّع المؤمن بل يحفظ له عملَه ويكافئه عليه في الدنيا والآخرة، فالمستقيم موفّق، ومن يغضُّ بصره عن محارم الله كذلك، فالمكافأة سعادة زوجيَّة، من يضبط لسانه فسُمعتُه عالية، من يضبط جوارحه يحفظها الله له، اطَّلعَ على استقامتك وعلى عملك وسجَّله لك، هذا هو المعنى الأول، كافأك عليه؛ إذاً عِلْمٌ ومكافأة، أما المعنى الثاني فهو أنه حفظ لك نتائج هذا العمل، فلذلك يبشِّر الله عزَّ وجلَّ في القرآن المؤمنين: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [فصلت:٣٠].

إن هذه المعاني تنقسم إلى قسمين: الحفاظ في الدنيا والحفاظ في الآخرة أن يحفظ لك دينك، تجد شخصاً له بداية رائعة ثم انتكس وترك الصلاة وانغمس في المعاصي والموبقات، لذلك إبراهيم عليه السلام قال: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [إبراهيم:٣٥].

فإذا لم ينتكس الإنسان، وإذا لم تزلَّ قدمه، وإذا لم يعتقد عقيدةً زائغة، ولا تعلّق بأهل الكفر فهذا من فضل الله عليه، فالإنسان إذا قطع مرحلةً بعيدة في مسيرة حياته

وهو محافظ على إيمانه وعلى استقامته وعلى صلته بالله عزَّ وجلَّ وعلى نقائه وعلى طُهره وعلى إخلاصه فهذه نعمة كبيرة جداً، كم من شخص بدأ بداية مشرقة ثم انتكس، يؤكد هذا قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [الإسراء:٨٠].

أناس كثيرون يدخلون مداخل شتى وهم صادقون، فإذا دخلوا هذه المداخل وتألَّقت أمامهم الدنيا أغرتْهم وحرفتهم وساقتهم إلى الضَّلالات وخرج كاذباً، لقد دخل صادقاً وخرج كاذباً، دخل مخلصاً وخرج خائناً، دخل مطيعاً وخرج عاصياً، دخل متعبِّداً وخرج متكبِّراً؛ فلذلك طلب منك ربُّك أن تدعوه قائلاً: ﴿ رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [الإسراء:٨٠].

البطولة لا أن تدخل بل أن تخرج، فممكن أن يُدَلَّ شخص على مسجد فيرجع إلى الله، شيء جميل، تجده انسجم وتأثر وتفاعل، عارض طفيف واجهه فترك الدِّين كلَّه؛ زوجته لم تنسجم مع هذا الدِّين المعقّد بزعمها فترك دينه من أجل زوجته، هذا خرج مخرجاً كاذباً، دخل صادقاً فخرج كاذباً.

فإذاً أحد معاني الحفيظ أن يحفظ الله لكَ دينك، أن تسلَم عقيدتك من الشبهات ومن الشرك الخفيّ ومن عقيدةٍ زائغة، وأن تسلم لك جوارحك من المعاصي والآثام، أن يسلم لك دخلك من الشبهات، لهذا سيدنا يوسف قال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف:٣٣].

إذاً يجب أن ينشأ عندك طلب من الله دائم، يا رب احفظ لي ديني واستقامتي وإخلاصي لك، ونقائي وحبّي لك ولأنبيائك وللمؤمنين، وباعد بيني وبين حبِّ أهل الدنيا والكَفَرة والمفسدين، والمؤمن متواضع، يقول لك: نسأل الله أن يُتمم لنا بخير.

محمد بن عبد الله بن عَمْرَوَيْه ويُعرف بابن عَلَم قال سمعت عبد الله بن أحمد بن حنبل يقول: لما حضرت أبي الوفاة جلست عنده وبيدي الخرقة لأشد بها لحييه، فجعل

يعرق ثم يفيق ثم يفتح عينيه، ويقول بيده هكذا: لا بعد، ففعل هذا مرة وثانية، فلما كان في الثالثة قلت له: يا أبة! أيَّ شيء هذا؟ قد لهجت به في هذا الوقت تعرق حتى نقول: قد قبضت، ثم تعود فتقول: لا لا، فقال لي: يا بني ما تدري! قلت: لا، قال: إبليس لعنه الله قائمٌ حذائي عاضٌّ على أنامله، يقول لي: يا أحمد فُتَّنِي، فأقول له: لا، بعد، حتى أموت [سير أعلام النبلاء للذهبي].

فالإنسان معرَّض لخطر الفساد تحت خطر إغراء الدنيا، أما إذا قال: أنا لا أخطئ، ولن أدع هذا الطريق، فلعل فيه كِبراً مما قد تَزلّ القدم معه، إذاً معنى الحفيظ أن يحفظ الله لك إيمانك وعقيدتك واستقامتك ورغبتك في الحق، لهذا سيدنا عمر رضي الله عنه قال: «ما ابتليت ببليَّة إلا كان لله عليَّ فيها أربع نعم: إذ لم تكن في ديني، وإذ لم أُحرَم الرضا بها، وإذ لم تكن أعظم، وإذ رجوت الثواب عليها» [بدائع السلك في طبائع الملك لمحمد بن علي الأندلسي الغرناطي]، هذا هو الكلام العميق، الحمد لله ما شربت خمراً، وما ارتكبت معصية، وما كفرت وما نافقت، المال ليس له قيمة عندئذ.

هناك نقطة مهمّة جدّاً، وهي أنَّ الإنسان إذا كان دينه غالياً على قلبه ونفسه وأراد الله عزَّ وجلَّ أن يمتحنه بمصيبة فحينها ليس من مانع إذا قال: إنّ ديني سليم والحمد لله إذ لم تكن المصيبة في ديني وهذه أكبر نعمة، قد تجد شخصاً ليس عنده مشكلة، ولكنَّه يشرب الخمر، ليس لديه مشكلة في دخله، ومعمله، وفي حياته اليوميّة وفي صحّته وأولاده، لكنَّه لا يصلي، هناك من ليس لديه أية مشكلة في الدنيا لكنه يعتقد أنَّ الدِّين كلَّه خرافة. هذه مصيبة، بل هي كبرى المصائب.

توفي قبل أيام شخص، قال مَن يعرفه: إنه خلال اثنين وخمسين سنة ما دخل إلى المسجد إلا مرَّة واحدة، دخل ليُصلَّى عليه. هذه مصيبة، قَدِمَ على مجهول، فالحمد لله إذ لم تكن في ديني، فهذا شيء مهم جداً ما دامت القضية في الدنيا، فالدُّنيا زائلة أمَّا في الدِّين فمشكلة كبيرة، «والحمد لله إذ لم تكن أعظم»، هناك مصيبة في سيارتك والسَّيّارة تُصلّح، احترقت غرفة نرمّمها ونَدهنها، وهذه أهون مما لو كانت المشكلة بابنه أو

بزوجته أو بصحته، «والحمد لله إذ ألهمتُ الصبر عليها»، وكان شريح يقول: «إني لأصاب بالمصيبة فأحمد الله عليها أربع مرات: أحمده إذ لم تكن أعظم مما هي، وأحمده إذ رزقني الصبر عليها، وأحمده إذ وفقني للاسترجاع لما أرجو فيه من الثواب، وأحمده إذ لم يجعلها في ديني» [البيهقي، شعب الإيمان]. الصبر نعمة، فالصابر يعني أنه عالِمٌ يعلم أنَّ الله عزَّ وجلَّ صاحب الأمر كلِّه، أفعاله كلُّها حكيمة، فيها عدل وفيها رحمة وفيها لُطف وفيها تكريم ورأفة، يا رب لك الحمد، هكذا شئتَ وأنا راضٍ بقضائك، ووردت آيات كثيرة فيما يخص حفظ الدين: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الإسراء:٧٤].

إذاً فالله ثبَّته، ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة:٦٧]، ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ [آل عمران:٨]، ﴿ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ ﴾ [طه:٢٥-٢٦]، هذه كلُّها أدعيةُ القرآن، أي أنت إذا كنت مؤمناً ومستقيماً وصادقاً ومحبّاً للحقِّ، لك مجالِسُكَ العلمية اطلبْ من الله عز وجل أن يحفظها عليك، في إحدى الحجج التي أكرمني الله بها وأنا في الطواف قلت: يا رب أنا أضعف خلقك شرَّفتني بخدمتك وخدمة عبادك، إن علمت صدقي في هذا فاحفظها لي واحفظني لها، يا رب احفظ هذه الدعوة، وإن علمت خلاف ذلك فعالجني قبل أن أموت. فالإنسان لا بدَّ أن يسأل الله عزَّ وجلَّ، يسأل الحفيظ أن يحفظ له إيمانه، دينَه وتألقه.

والله أعرف رجلاً: طيلة عشرين سنة أو خمس وعشرين وهو ينتمي إلى طريق الإيمان، فأغرته امرأة وسقط سقوطاً مريعاً، وترك الصلاة، وجاءته المصائب من كلِّ جهة، ما حُفظ له دينه.

المعنى الثاني: أن يحفظ لك دُنياك، أهم شيء صحَّتك، وجودك، سلامتك، أهلك، أولادك، ومالك، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأنبياء:٤٢].

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ ﴾ [الرعد:١١].

﴿ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٤ ﴾ [التغابن:٤].

من يكلؤكم؟ من يرعاكم؟ لا أشكُّ أنَّ كلَّ واحد منَّا كان على خطر أنقذه الله منه، يقال أحياناً: كان بيننا وبين الموت المحقَّق دقيقة واحدة، كدنا نهلك لولا أنَّ لطف الله بنا، فهذا حفظُ الله عزَّ وجلَّ.

هناك معنى ثالث وهو أنَّ الله عزَّ وجلَّ إذا خلق الشَّيء، فاستمراره يحتاج إلى حفظٍ من الله عزَّ وجلَّ، والدَّليل: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤١ ﴾ [فاطر:٤١].

فأنت مخلوق، وبقاؤك بيد الله عزَّ وجلَّ، بقاء السموات بيد الله، بقاء الشَّمس بيد الله، بقاء الأرض بيد الله، بقاؤها على خط سيرها بيد الله، لأنها إن زالتا ما يمسكهما من أحد من بعده؟ هذا معنى الحفيظ فلا بد من أن تستسلم لله عزَّ وجلَّ، وأدقُّ ما في البحث أنَّك مفطور على حُبِّ وجودك، وسلامة وجودك، وكمال وجودك، واستمرار وجودك، وجزءٌ كبيرٌ من نشاطِك منصرف إلى الحفاظ على ما أنت فيه، فإذا سلكت وسائل الحفاظ الماديَّة وغاب عنك اسم الله الحفيظ الذي بيده كلُّ شيء فقد أخطأت الهدف وضللت الطَّريق، ولن تنال حفظ الله عزَّ وجلَّ إلا إذا طبَّقت منهجه، لذلك لا ينفع حذر من قدر، ولكن ينفع الدُّعاء ممَّا نزل وممَّا لم ينزل، فادعوا الله عبادَ الله.

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ قالَ: قالَ النبيُّ ﷺ: «إذا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِراشِهِ فَلْيَنْفُضْ فِراشَهُ بِدَاخِلَةِ إِزارِه، فإِنَّهُ لا يَدْرِي ما خَلَفَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ: باسْمِكَ رَبِّ وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فارْحَمْها، وإِنْ أَرْسَلْتَها فاحْفَظْها بِما تَحْفَظُ بِهِ عِبادَكَ الصَّالحينَ» [رواه البخاري].

فالإنسان إذا نام بين حالتين: إما أن يستيقظ من نومه ويبقى حيّاً، وإما ألّا يستيقظ، لأنَّ الله أمسك نفسه، أي: أخذ روحه، لذلك علَّمنا رسولنا ﷺ أن نسأل الله عند النَّوم أن يرحمنا إذا أمسك بنفوسنا، أي: قبض أرواحنا ونحن نيام وأن يحفظنا بما يحفظ عباده الصالحين، إذا أرسل نفوسنا بعد النوم، أي: أبقانا أحياء وأيقظنا من نومنا.

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ قالَ: كانَ رَسولُ الله ﷺ يقولُ: «اللهمَّ أصْلِحْ لِي ديني الذي هُوَ عِصْمَةُ أمْرِي، وأَصْلِحْ لِي دُنْيايَ التي فيها مَعاشِي، وأَصْلِحْ لي آخِرَتِي التي فيها مَعادِي، واجْعَلِ الحَيَاةَ زِيادَةً لِي في كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ المَوْتَ رَاحَةً لِي من كُلِّ شَرٍّ» [رواه مسلم].

نصيب المؤمن من اسم الله (الحفيظ)

إنَّ أكبر أسباب حفظ الله للمؤمن أن يكون مع الله.

كن مع الله ترَ الله معك ... واترك الكل وحاذر طمعك
وإذا أعطاك من يمنعه ... ثم من يعطي إذا ما منعك

متى تحافظ على استقامتك؟ متى تسعى للحفاظ على ما أنت فيه؟ حينما تصل من خلال الدِّين إلى شيء ثمين، فتذوق طعم القرب، وطعم الحب، وطعم الإقبال على الله، هذه النَّتائج الباهرة التي يحصِّلها الإنسان هي التي تحمله على طاعة الله.

فالإنسان حينما يصلي صلاة شكليَّة، وحينما يصوم صياماً شكليّاً، وحينما يؤدي العبادات أداء شكليّاً لأنه ليس مستقيماً على أمر الله، يزهد في الدين، فلا يبالي أصلَّى أم لم يصلِّ، لا يبالي أأطاع الله أم لم يطعه، لأنه محجوب بالمعاصي، محجوب بالعيوب، محجوب بالذنوب، أما إذا أخلص الصدق مع الله، وأطاع الله، وأقبل على الله فإنّه يصل إلى النّتائج المرجوة، عندئذٍ يحافظ عليها، فيحفظه الله، لا بدّ من أن تقدِّم شيئاً، أمّا أن يتوهم الإنسان أنَّ بإمكانه أن يأخذ كلَّ شيء، دون أن يقدِّم شيئاً، فهذه سذاجة، هذا الذي تقدمه هو طاعة الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب:٧١].

كلُّكم يعلم أنَّ بلوغ القِمَّة شيء يحتاج إلى جهد كبير، لكنَّ البطولة لا أن تصل إلى القمة فحسب، بل أن تبقى فيها، أناس كثيرون في ساعة من ساعات الإقبال على الله يتألقون، ثم لا يتابعون سيرهم إلى الله، عندئذٍ يتراجعون، هذا الوضع الذي يتكرر أحياناً، يُقبل ثم يُدبر، يتألّق ثم يخبو، يتحرك ثم يسكُن، هذا الوضع لا يرضي الله عزَّ وجلَّ، وفي الحديث الشّريف.

«أحبَّ الأعمال إلى الله أدْوَمُها وإنْ قلَّ» [أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي ومالك عن عائشة أم المؤمنين].

ومن تطبيقات هذا الاسم أنَّ الله حفيظ بمعنى لا يخفى عليه شيء، فالبطولة أن تصفِّي قلبك من كلِّ شيء لا يرضي الله، طهِّر قلبك من كلِّ حقد، من كل احتيال، من كل كراهية.

الله حفيظ، يحفظ عباده، وأنت أيّها المؤمن اشتقَّ من هذا الكمال كمالاً تتقرّب به إلى الله، احفظ من حولك، احفظ أولادك، احفظ دينهم، احفظ عقيدتهم، احفظ عباداتهم، احفظ دراستهم، احفظهم بكل ما تملك حتى يكرمك الله عزَّ وجلَّ بحفظهم بعد موتك.

ألا تتمنى أيّها المؤمن أن يحفظك الله تعالى إذاً اعمل بوصية نبيّك محمّد ﷺ:
«احفظ الله يَحْفَظْك» [أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عباس].

القوي

سمّى الله جلّ جلاله ذاته العليَّة باسم «القوي» في كثير من النّصوص القرآنيّة، وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم معرفاً بالـ، مقترناً باسم الله العزيز في موضعين، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ۝٦٦﴾ [هود:٦٦].

وفي قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ۝١٩﴾ [الشورى:١٩].

وورد أيضاً منوَّناً في خمسة مواضع منها قوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٧٤﴾ [الحج:٧٤].

أمَّا في السُّنَّة فقد ورد عن عائشة رضي الله عنها أنّها قالت عن يوم الخندق: «وبعث الله عز وجل الريح على المشركين فكفى الله عز وجل المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً» [رواه أحمد عن عائشة].

من معاني اسم الله (القوي)

القويُّ في اللغة صفة مشبهة للموصوف بالقوّة، وقد قوي، وتقوّى قوّة فهو قويّ، يقال: قوّى الله ضعفك أي أبدلك مكان الضعف قوّة، فالقوّة نقيض الضعف، والوهن، والعجز، وهي الاستعداد الذاتي، والقدرة على الفعل، وعدم العجز عن القيام به، قال تعالى لسيدنا موسى (عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام) عن الألواح: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف:١٤٥].

أي خذها بقوّة في دينك وحجّتك، وقال جلّ جلاله لسيدنا يحيى عليه السلام: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم:١٢].

أي بجدٍّ، وعون من الله تعالى.

الله جلّ جلاله هو القويّ بل هو القويّ وحده، ولا قويَّ سواه، وكلُّ قوّة في الأرض في الذّوات والأشياء مستمدَّة من قوّة الله، تأييداً للمؤمنين، أو استدراجاً لغير المؤمنين، أو تسخيراً للجمادات، لحكمة بالغةٍ بالغة عرفها من عرفها، وجهلها من جهلها

القويّ سبحانه وتعالى هو الموصوف بالقوّة، والإنسان في أصل فطرته يعجب بالـ «القوي»، اجلس بمجلس، هناك عشرة رجال، أحدهم قويٌّ جداً يتمتع بمنصب رفيع، تجد الحاضرين كلَّهم تنعقد أبصارهم عليه، ينظرون إليه، يسألونه، خطف الأبصار كلَّها لأنَّه قويّ، و هناك إنسان آخر خطف الأبصار كلَّها لأنّه غنيّ، وهناك إنسان أنيق جداً، وسيم الطلعة، وجهه لطيف، النَّاس كلُّهم ينظرون إليه، فالجمال، والكمال، والنوال كلها تجلب الأنظار، فكيف إذا علمت أنَّ كلَّ جمال في الكون مسحة من جمال الله، وكلَّ كمال في البشر مسحة من كمال الله؟

إذاً الله جلّ جلاله لا يغلبه غالب، ولا يرد قضاءه رادٌّ، ولا يمنعه مانع، ولا يدفعه دافع، وهو القويُّ في فعله، القادر على إتمامه.

هو القويُّ في بطشه، هناك طاغية يتفنّن في إذلال العباد، ثمّ تأتي قدرة الله عزّ وجلّ فيبطش به، فترتاح النفوس، وسبحان من قهر عباده بالموت، مطلق المشيئة والأمر في مملكته، والله هو القويّ سبحانه، لا يعتريه ضعف أو قصور، قيّوم لا يتأثر بوهم أو فتور، ينصر من نصره، ويخذل من خذله.

القويّ هو كامل القدرة على كلِّ شيء، الذي لا يستولي عليه العجز في حال من الأحوال، والموصوف بالقوَّة المطلقة.

القويّ هو المتناهي في القوَّة، الذي تتصاغر كلُّ قوَّة أمام قوَّته، فزلزال تسونامي يساوي مليون قنبلة ذرية، هناك جزر انزاحت، هناك حديث طويل عن هذا الزلزال هذا مثل لقوَّة الله عزَّ وجلَّ.

يتضاءل كلُّ عظيم عند ذكر عظمته.

القويُّ هو الذي له كمال القدرة والعظمة، ولا يعجزه شيء، قال العلماء: القويُّ غالب لا يُغلب، يُجير ولا يُجار عليه، فقوّته فوق كلِّ قويٍّ، ما قولك أن تكون مع هذا «القوي»؟ هل تخشى أحداً؟

هل ترتعد فرائصك؟ إذا كنت مع القويّ فأنت قويّ.

والإنسان يُعجب بالقوَّة، ويتأثَّر بالكمال، وأحياناً يتأثَّر بالقوَّة وأصحابها، فالله سبحانه وتعالى يجمع في أسمائه بين الكمال والجلال، فقد قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمن:٧٨].

قد تجد مجموعة صفات أساسها الرَّحمة، كاللطف، والشفقة، والعناية، والحرص، وهناك أسماء أساسها القوة كالقهار، والجبار، والقويّ، والمتين، فالإنسان كما يتأثر تأثُّراً بالغاً بالكمال الإلهي، فهو أيضاً يتأثر تأثراً بالغاً بالجلال الإلهي، لأنَّ الإنسان ضعيف، وكل إنسان ضعيف يميل إلى أن يحتمي بقويّ.

من يعبد الشمس، أو يعبد البقر، أو يعبد إلهاً كبوذا، إنّما يفعل ذلك لأنَّ الإنسان مفطور على تعظيم القويّ، ولأنَّه ضعيف لا تركن نفسه إلا إلى قويٍّ، فإذا ضلَّ الإنسان عن الله القويِّ يلجأ إلى ما يتوهَّم أنَّه قويٌّ، فالحاجة إلى التَّديُّن حاجة أساسيَّة.

لك صديق قويٌّ تطمئنُّ إليه، وتقول: معي رقم هاتفه، وتشعر أنَّ أية مشكلة ستُحلُّ عن طريقه، وهذا بالطَّبع شِركٌ وجهل وخطأ، وعليك أن تشعر أنَّك عبدٌ لقويٍّ، عبد لغنيٍّ، فالله الذي تعبده بيده كلُّ شيء، الذي تعبده إليه مرجع كلِّ شيء، الذي تعبده قادرٌ على كلِّ شيء، الذي تعبده غنيٌّ وقويٌّ وحكمٌ عدلٌ، فهذا سرُّ توازن نفسيَّة المؤمن لأنَّه يركن إلى القويِّ.

المؤمن ضعيف بنفسه ولكنَّه قويٌّ بربِّه، وهذه القوَّة ليست ذاتيَّة ولكنَّها مستمدّة من قوَّة الله، المؤمن غنيٌّ بغنى الله، مطمئنٌّ لأنَّ الله طمأنه، متوازنٌ لأنَّ الله بشرّه... فلذلك اسم القويّ يبعث في النَّفس الطَّمأنينة.

أحياناً تكون علاقة الإنسان مع شخص ضعيف، يقول له: والله لم أستطع خدمتك، فقد كان بودّي أن أفعل ولكن عيني بصيرة ويدي قصيرة، فلا بدَّ لمعاملتك من موافقة الجهة الأعلى، ولكنَّها لم تتوافر لديّ، فأنت معتمِد عليه وواضع كلَّ الثِّقة فيه، وتعتقد أنَّه يستطيع أن يقوم لك بهذه الخدمة، ولكنَّه اعتذر لأنَّه ضعيف فصغُر في عينيك، وما عُدت تعتزُّ به.

أما إذا اعتزَّ الإنسان بالله عزَّ وجلَّ فهو أقوى الأقوياء، فهو ملك الملوك ومالك الملوك، فليس من الصَّعب أن تكون عبداً لله القويّ، اصدق في التَّوجُّه إليه، واعتمد عليه وحده، وعندئذٍ أنت قويٌّ من قوَّة الله، غنيٌّ من غنى الله عزَّ وجلَّ.

قال العلماء: مادة القوَّة تدلُّ على شدَّةٍ خلافَ الضعف، فالقويّ عكسُ الضعيف، ورجلٌ شديد القِوى، أي: شديد أسر الخلق.

أحياناً تركب مركبة ومعك خمسة أشخاص في طريق صاعدة صعوداً شديداً ولكنها تسير، معنى ذلك أن المحرِّك قويٌّ، أحياناً تجد في الميناء البحري رافعة ترفع

حاوية كبيرة زنة عشرين أو ثلاثين طناً فالرَّافعة قويَّة، وأحياناً ترى باخرة تبلغ حمولتها مليون طنٍّ كبعض ناقلات النَّفط، تسير بمحرِّك جبَّار.

تجد آلات تقوم بهدم بناء بأكمله، هذه أمثلة أمامنا، ولكن هذا الجبل من يزحزحه؟ تجد بعض الجبال تؤخذ منها الرِّمال، فمنذ أربعين سنة يؤخذ منه يوميّاً عشرات الحمولات وما يزال شكله كما هو، في محافظة السويداء يوجد جبل نادر في القطر يمدُّنا برمل مفرَّغ مثل الإسفنج، وأعرف أنه منذ أكثر من عشرين سنة تعبأ منه كل يوم مئة سيارة من الرمال السوداء والجبل ما يزال كما هو، فمن يستطيع أن يزحزح جبلاً؟

توجد شركة في ألمانيا قامت بنقل بناء كان يجب أن يُهدم، فقامت هذه الشركة بتقديم عرضٍ وهو نقل هذا البناء بنصف كلفة بنائه، فقامت بفصل الأساسات ورفعها على عجلات وربطت المجاري وأسلاك الكهرباء والهاتف وبشرط أنَّ السكان لم يغادروه! ونقل ثلاثين متراً وهذا البناء مؤلَّف من ستة طوابق، فهذه الشركة العملاقة التي قامت بهذا العمل تشعر بأنها شركة جبَّارة، وهذه الأمثلة أرضية.

لكن حينما ترى أنَّ الأرض تدور بسرعة ألف وستمئة كيلومترٍ في الساعة، فهذه الكرة الأرضية من يديرها؟ ومنذ كم من السنين؟ والشمس تتسع لمليون وثلاثمئة ألف كرة من حجم الأرض، والشمس والمجموعة الشمسية كلُّها نقطة على درب التبانة ودرب التبانة مجرَّة على شكل عضلة، تراها في أيام غياب القمر كسحابة بيضاء في السماء على شكل مغزلي وهذه هي مجرتنا، والمجموعة الشمسية بأكملها بجميع كواكبها كالأرض والمشتري وعطارد والمريخ والزهرة وبلوتو وزحل... وإلى آخره نقطة على هذه المجرَّة، فمن يدير هذا الكون؟ فأنت مع القويِّ... الذي بيده كلُّ شيء.

والقوَّة تدلُّ على القدرة التَّامَّة.

الإنسان يحمل علبة مكعبة الشكل طولها مثلُ عرضها مثلُ ارتفاعها ويبلغ ضلعها ستين سنتيمتراً، أما لو حمَّلْناهُ علبة بداخلها مواد ثقيلة فتجده لا يقوى على

حملها، ولو حمل إنسان صندوقاً من الحديد ووزنه ثلاثمئة كيلوغرام فتجد نفسك قد عظَّمته كيف حمله؟ ولو أنَّ صخرة مكعبة الشكل، طول ضلعها خمسة أمتار، وطلبت من إنسان أن يزحزحها فلن يستطيع، فهذا فوق طاقته، فما بالك بالجبال؟... جبال الهيمالايا مثلاً يبلغ ارتفاعها ٨٨٨٢م، ولها قاعدة تغوص تحت الأرض أربعة وعشرين ألف متر، فجميع الجبال ثلثها فوق الأرض وثلثاها تحت الأرض، فمن خلق هذه الجبال؟ ومن ألقاها في الأرض رواسي أن تميد بكم؟ من جعلها أكناناً؟ من جعلها أوتاداً؟ ومن جعلها مصدَّاتٍ للرياح؟ من جعلها مستودعاتٍ للمياه؟ من جعلها قمماً عاليةً ذات مناخ لطيف؟ إنّه الله عزَّ وجلَّ.

الإنسان عندما ينسى الله ويخضع لقويٍّ من بني البشر ويمحضه كلَّ ودِّه، وكلَّ ولائه وهو ليس على حقٍّ، يكون هذا الإنسان قد ضيَّع نفسه وباعها بثمنٍ بخس، أمَّا إذا عرف الله وجعل كلَّ طاقاته لله عزَّ وجلَّ فيكون قد عرف قيمة نفسه... أساساً ما عرف قيمة نفسه إلا من باع نفسه لله، لأنه أحسن الاختيار.

قال العلماء: «القوة تدلُّ على القدرة التامة، والمتانة تدلُّ على شدة القوة».

أحياناً نريد قوَّة تحمل طاولة صغيرةً مثلاً، القوَّة تدلُّ على القدرة التّامّة، أما لو رفعت هذه الطاولة رافعة قدرتها أن ترفع خمسين طناً، فإنَّ هذه القوَّة تكون تامَّة ومتينة، تامَّة أي كافية لإنجاز هذا العمل، أما عندما يكون معها احتياطيٌّ يبلغ مئة ضعف فتكون متينة عندها.

إلا أنَّه في المصطلحات الحديثة نقول: المتانة والقساوة، فالقساوة هي تحمُّل قوى الضغط، أمَّا المتانة فهي تحمُّل قوى الشَّدِّ، فلو وضعنا يدنا فوق مكعب من الفخَّار وضغطنا، فإذا كُسِر نقول: إنَّ قوى الضغط الواقعة عليه عالية وكبيرة جداً حتى إنَّ هذا المكعب سحق، أما إذا كان لدينا خيط وأردنا أن نمتحن متانته فإننا نشدُّه فإذا قُطع نقول متانته ضعيفة، فالقساوة تحمل قوى الضغط، أما المتانة فتحمُّل قوى الشَّدِّ.

لا بدَّ من وقفة قصيرة عند عظمة الخالق لا تخطر على بالك وهي أنَّ أسنانك فيها قوَّة بالغة، فميناء الأسنان هو ثاني أقسى عنصر في هذا الكون بعد الماس، لا يزيد عليه في قساوته إلا الماس، وهذا الإنسان خُلق من ماءٍ مهين، هذا الماء صار عظاماً قاسية وصار ميناء قاسياً.

إذاً: تمام القوة أن تؤدي مهمتها، أما متانة القوة فأن تكون هذه القوة بالغة الشدة، فالله تعالى من حيث إنه بالغ القدرة تامُّها قوي، ومن حيث إنه شديد القوة متين، إذاً هو قويٌّ متين، فكلمة قوي، أي: تعلقت قوَّته بكلِّ ممكن، فكلُّ شيء ممكنٍ قدرتُه تغطيه، وقوته شديدة أي: متينة.

الله -جلَّ جلاله- صاحب القدرة التَّامَّة بالغة الكمال، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ ﴾ [هود:٦٦].

فالضَّعيف ليس عزيزاً، الضعيف تضعف عزَّته أمام أيِّ شيء، فقد يخجل الإنسان أحياناً فخجله ضعف، وإذا لم يعرف يصغر ويضعف، وإذا لم يتمكَّن من حمل شيء يصغر، وإذا توقَّفت آلته أمام عقبةً كأداء يصغر، أما العزَّة فألا ينالك أحد، فمعنى ذلك أنت عزيز، فمن لوازم العزَّة القوَّةُ، فالله سبحانه وتعالى قويٌّ عزيز.. ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ ﴾... ولا ننسى أن كلمة (هو) تفيد الحصر والقصر.

وقيل: القويّ هو المتناهي في القوَّة التي تتصاغر كلُّ قوةٍ أمام حضرته، ويتضاءل كلُّ عظيمٍ عند ذكر عظمته، فالله تعالى أعطى الملائكة قوَّةً كبيرة يستطيع الملَك بها أن يقتلع الجبال ويقلب المدن.

فمن الممكن أن يأتي إعصار على أمريكا ويدمِّر مدينة بأكملها ولا يُبقي فيها شيئاً، فقد قرأت عن إعصار قبل ثلاثين عاماً بلغت سرعته ألف كيلومترٍ وهو من أعتى أنواع

الرياح أتى على مدينة، وكان فيها بناء ضخم ومتين، فصاحبه لم يجد أثراً لبنائه، وقد وجد محرِّك مركبته بعد أكثر من خمسة كيلومترات من موقع البناء.

وأحياناً المياه تدمِّر كلَّ شيء، والنَّار تحرق كلَّ شيء، تجد حريقاً في الغابات قضى على مئتين وخمسين دونماً، أو على ألفين وخمسمئة دونم، فالله عزَّ وجلَّ قويٌّ.

ومن الغريب أنَّ الأشياء الأساسيَّة في حياتنا تنقلب إلى قوى مدمرة، فالهواء مثلاً أساسيٌّ في حياتنا ينقلب إلى مدمِّر كالرياح العاتية، والماء أساسي في حياتنا وقد ينقلب إلى قوَّة مدمِّرة.

فقد ذكر الله تعالى في القرآن عن العفريت الذي أتى بعرش بلقيس ملكة سبأ من اليمن إلى سيِّدنا سليمان في بيت المقدس فقال تعالى: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل:٤٠].

عندما أرادوا إنشاء السَّدِّ العالي بمصر، كانت البحيرة خلف السَّدِّ ستغمر معبداً كبيراً بالمياه، فتعاونت أكثر من سبعين دولةً على نقل هذا المعبد بما فيه بعد أن قُطِّع على شكل مكعبات، واشتركت في ذلك شركات عملاقة، وبروافعها العملاقة تم نقله من مكانه إلى مكان آخر، فقلت: سبحان الله هذا عرش بلقيس نقل من سبأ في اليمن إلى بيت المقدس في أقلّ من لمح البصر، وهذا ما يذكره القرآن الكريم، لهذا فالملائكة والجنُّ أُعطوا قدرات تفوق حدَّ الخيال، لذلك قال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الرحمن:٣٣].

لماذا بدأ بالجن؟ قال: لأن الجنَّ أقدر من الإنس على خرق السموات والأرض، والنَّبيُّ الكريم ﷺ -كما روى الترمذي من حديث عائشة- أنه رأى جبريل قد سد الأُفق، فالملائكة أوتوا قدراتٍ عالية المستوى ومع ذلك يخشون سطوته سبحانه، ويرعدون من هيبته.

وقيل: القويّ «هو الذي له كمال القدرة والعظمة»، له كمال القدرة لا يعجزه شيء، فأحياناً تجد رافعات تقف أمام عقبة كأداء، أو تجد سياراتٍ في طريق شديدة الصعود تقف ولا تكمل الطريق، وآلات تعجز عن متابعة المهمّات، والله بالغ القدرة لا يُعجزه شيءٌ في السموات ولا في الأرض، فأنت مدعوٌّ لأن تكون عبداً للإله القويّ، فإذا كنت عبداً له كنت قوياً بقوّته.

قال العلماء: «غالبٌ لا يُغلب، يجير ولا يُجار عليه، فقوَّته فوق كلِّ قوَّة».

قد تجد في الحروب الحديثة دولة قويَّة عندها من الأسلحة المتطوِّرة فتأتي دولة أقوى منها تحيِّد أسلحتها كلَّها، يكون لديها سلاح ذو فاعليَّة شديدة جدّاً، كأن يقولوا مثلاً: قنبلة تركَّب من أشعة الضوء المركَّز -أشعة الليزر-، أو قنابل عنقوديّة أو قنابل ذكيّة، فهذه الدول المالكة للأسلحة الفتّاكة تتفوق على الدول الأقلِّ منها قوَّةً، إذاً الدَّولة الضعيفة ليست عزيزة. لكنَّ الله: «غالب لا يُغلب، يجير ولا يُجار عليه، فقوَّته فوق كلِّ قوة».

وقيل: «هو الذي لا يلحقه ضعفٌ في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله».

ألا ترون إلى مصارِعين أشدّاء، رياضيين، عدّائين، ففي الرياضة الكثير من الفروع، انظر إلى هذا البطل في سنِّ الثمانين تجد ظهره قد انحنى ويده ترتجف، ويصعد درجات السلم درجة درجة، فقد كان في بلاد الشام رجلٌ قويٌّ إذا أمسك عربة يجرُّها حصانان قويان وشديدان يوقفها، وقد حدثني رجل توفي -رحمه الله- كان يركب في مركبة عامة وصعد إلى جانبه هذا البطل الشديد فرجا السائق أن يوقف له المركبة أمام بيته لأنه لا يقوى على أن يمشي مسافة عشرة أمتار، رجاه رجاءً طفوليّاً، أين قوَّته؟ لقد تلاشت.

إضاءات على بعض الآيات التي ورد فيها اسم (القوي)

اسم القويّ جاء في سبع آيات... الآية الأولى في سورة هود قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ ﴾ [هود:٦٦].

أنا أركِّز على كلمة «هُوَ» أي هو وحده القويّ العزيز، فما بال الأقوياء في الأرض؟ قوَّتهم مستمدَّة من قوة الله، فلو تخلَّى عنهم لأصبحوا ضعفاء.

أضرب لكم مثلاً على ذلك: في معامل الحديد توجد رافعات تعمل بالجذب الكهربائيّ المغناطيسيّ، سطح مربع كبير جداً محاط بوشيعة كهربائيّة يمرُّ بها تيّار كهربائيّ، فيمكن أن تحمل عشرة أطنان من الحديد، ولسهولة العمل في هذه المعامل تنتقل الرافعة من مكان إلى مكان، ويكفي أن تسري الكهرباء في الأسلاك فتحمل عشرة أطنان، والعامل في هذه الرّافعة لو ضغط على زرّ في أقلّ من عشر المليمتر يفصل الكهرباء عن هذه الخطوط فتجد كل ما علق في الرافعة يسقط، وذلك عن طريق عملية الضّغط على الزّرّ.

الله عزَّ وجلَّ قويٌّ، وإذا منح القوّة لأشخاص فبأي ثانية يجعلهم ضعافاً، لا يقدرون على شيء، إنَّ الله هو القويّ، فقوّة الأقوياء من قوته، وفي أيّة لحظةٍ يسلبهم هذه القوّة، والله إذا أعطى أدهش وإذا سلب فتَّش.

جاء في الآية الكريمة كلمة «ربك» التي تذكرني بأنها أقرب اسم للإنسان، فالرب هو الذي يربيك، هو الذي يرعاك، هو الذي يربي جسدك، ويربي روحكَ، ويربي نفسك، ويعطيك ويمنعك، ويقلبك على أحوال شتَّى، إن ربك الذي يربيك هو وحده ﴿هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾. فاطمئن، فتوكل عليه، والتفت إليه، وأقبل عليه، وأخلص له، ولا تلتفت إلى أحدٍ سواه، لأنهم لا شيء إلى جانبه.

والآية الثانية في سورة الشورى كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾ [الشورى:١٩].

ربي ما أعظمك! سبحانك! يا قويُّ! يا لطيفُ! هناك قويٌّ غير لطيف، أعماله كلُّها قاسية... أمّا ربّنا عزَّ وجلَّ فمع أنّه قويٌّ عزيز فإنَّه لطيفٌ بعباده، فالهواء لطيف، والماء لطيف، والأرض فيها لطف إلهيٌّ كبير، وإذا أراد ربّنا عزَّ وجلَّ أن ينزع سنَّ طفل

دون أن يشعر بأيِّ ألم على الإطلاق ينزعه وهو يأكل، يراه في فمه مع لقمة الطَّعام، أمَّا إذا أراد أيُّ طبيب أن ينزع سنَّ طفلٍ فلا بدَّ من أن يؤلمه، فالله لطيف.

فالماء له سيولة عالية جداً ولكنَّه مدمِّر أحياناً، والهواء لا تراه بعينك ولكنَّه يحمل طائرة وزنها ثلاثمئة وخمسون طنّاً، فالهواء يحملها... فاللطف الإلهي واضح في كلِّ شيء.

وفي سورة الأنفال قال تعالى: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأنفال:٥٢].

في الآيتين الأولى والثانية القويّ ورد مع العزيز، فيها تناسب، أمَّا في هذه الآية فقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ﴾ عقابه أليم لأنه قوي، والإنسان لا يخاف تهديد الضعيف... فقد قال جرير:

زعم الفرزدقُ أن سيقتلُ مربعاً أبشر بطولِ سلامةٍ يا مربعُ

إذا هدَّدك إنسان ضعيف فلا تعبأ بتهديده، أمَّا القويّ إذا هدد فهذا شيء مخيف... ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ﴾... لا تعاند من إذا قال فعل.

وقد قال تعالى في سورة الحج: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج:٤٠].

وقال الله تعالى في سورة الحج أيضاً: ﴿ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الحج:٧٤].

قال بعضهم: «عرفت الله من نقض العزائم»... أحياناً جهة في الأرض قويَّة جداً ترتِّب وتخطِّط وتحكِم، فإذا كلُّ إحكامها وخطَّتها وتدبيرها يذهب هباءً منثوراً.

فالإنسان في حركته اليوميَّة في الحياة يجب أن يُدخل في حساباته أنَّه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

فقريش جاءت على بكرة أبيها ومعها حليفاتها من القبائل، جاؤوا ليستأصلوا الإسلام في معركة الخندق، فالمسلمون لم يحاربوا أحداً، ولكن الله أرسل على عدوِّهم ريحاً عاتيةً اقتلعت خيامهم وقلبت قدورهم وأطفأت نيرانهم فلم يحتملوا، هذه الرياح وما نتج عنها قد قال تعالى فيها: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب:٢٥].

في برمودا مثلث إلى الآن هو سرٌّ، طائرات عملاقة تطير فوقه فتسقط في المياه بلا أي خبر يعرف عنها، بواخر عملاقة تدخل فيه فتختفي، وحتى الآن لا يزال هذا المثلث سرّاً من أسرار الأرض، كل ما قيل من تحليلات فهي غير كافية لما يجري في هذا المثلَّث، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾.

وموضوع قوَّة الله -عزَّ وجلَّ- أكثر ما تبدو في الحروب، فتجد أنه على الرَّغم من الإعداد الشَّديد للحرب يخسرها طرفٌ دون آخر لأسبابٍ تافهة.

يحضرني خاطرة: الحروب ثلاثة: حربٌ لا تكون، وحربٌ لا تطول، وحربٌ لا تنتهي... الحرب بين حقَّيْن لا تكون، فالحق لا يتعدَّد، والحرب بين حقٍّ وباطلٍ لا تطول لأنَّ الله مع الحقِّ، والحرب بين باطلين لا تنتهي لدخول العوامل الأرضيَّة: الأقوى والأذكى ومن عنده سلاح أكثر جدوى هو المنتصِر.

وقد قال تعالى في سورة غافر: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾ [غافر:٢٢].

وقد قال تعالى في سورة الحديد: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد:٢٥].

تجد أحياناً سريراً معلقاً على سلاسل، آخر السلسلة يوجد قطعة على شكل حرف (S) قطره أقل من أربعة مليمترات يُحمل هذا السَّرير وعليه خمسة أشخاص وهو يتحرَّك، ألا تعجب لهذا الحديد الذي يحمل هذا الوزن؟ المصاعد الكهربائية تعلَّق بالفولاذ المضفور وهو متين جداً، هذا هو الحديد الذي أنزله الله فيه بأس شديد ومنافع للناس.

وقد قال تعالى في سورة المجادلة: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة:٢١].

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾... كتب لإقناع عباده أن هذا شيء ثابت... نحن في حياتنا الشيء المكتوب ثابت، يقول لك: معي عقد، أو معي إيصال، أو معي سند، معي تصريح، معي إقرار، كلُّ شيء مكتوب ثابت، أما الشَّفهيُّ فضعيف.

وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ [البقرة:١٦٥].

الإنسان غير المؤمن قد يخضع لقويٍّ لتأثُّره بالقوَّة ولا يخضع لله، يتأثَّر بقوَّة الجمال فيخضع لهذا الجمال ولا يخضع لله، يتأثر بقوَّة العطاء فيخضع لمن أعطاه ولا يخضع لله.

فهذا الذي عصى الله من أجل النَّاس، من أجل الأقوياء، أو الكرماء، أو من أجل المتع الرَّخيصة... هذا الذي عصى الله من أجل النَّاس لو كان يعلم قبل أن يعصيه أنَّ القوَّةَ لله جميعاً، قوَّة العطاء من عند الله، وقوَّة الجمال من عند الله، وقوَّة كلِّ شيءٍ من عند الله، لو كان يعلم هذا حق العلم لما عصاه.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾ [الكهف:٣٩].

انظر إلى عبارة ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾.

عن عبد الله بن علقمة بن وقَّاص عن علقمة بن وقاص قال: إنّي عِند معاوية إذ أذّن مؤذِّنه فقال معاوية كما قال مؤذِّنه حتى قال المؤذِّن: حيَّ على الصلاةِ قال: لا حولَ ولا قوَّةَ إلا بالله، فلما قال: حيَّ على الفلاحِ قال: لا حول ولا قوَّة إلا بالله (ولا حول ولا قوة إلا بالله قيل معناه لا حول عن المعصية ولا قوة على الطاعة إلا بتوفيق الله. وقيل: الحول الحركة تقول: حال الشخص إذا تحرك، فالمعنى لا حركة ولا استطاعة إلا بمشيئة الله).

وقال بعد ذلك ما قال المؤذن، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول مثل ذلك [رواه النسائي].

أنت بحاجة إلى قوَّة على طاعته... ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ قال الله تعالى على لسان يوسف: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [يوسف:٣٣].

أنت بحاجة إلى قوة على طاعته، لا قوة إلا بالله، لا قوة على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة إلا بالله، الله هو القويّ، وكلُّ الأقوياء يستمدُّون قوّتهم من الله عزَّ وجلَّ.

قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [فصلت:١٥].

وقد قال الله تعالى في سورة الذاريات: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات:٥٨].

يرزق لأنه قويٌّ، فالضَّعيف لا يرزق.

نصيب المؤمن من اسم الله (القوي)

نستفيد من هذا الاسم أنَّ الإنسان المؤمن إذا عرف قوَّة الله تواضعَ، فلا يجتمع كِبر مع معرفة قوَّة الله عزَّ وجلَّ، أنت لا شيء إزاء قوَّة الله عزَّ وجلَّ، فكلما تمّت معرفتك

بقوّة الله تلاشت قدراتك أمام قوّته، فأصبحت متواضعاً، والتَّواضع علم، والمتواضع يعلم أنّ حجمه لا شيء وأنّ الله هو كلُّ شيء.

إذا عرف قدرة الله -عزَّ وجلَّ- وقوَّته فإنّه يتواضع له فيزيده الله قوّةً إلى قوّته، أما إذا وضعه الله في مكانٍ قويٍّ واعتدَّ بقوَّته فالله -عزَّ وجلَّ- يجعله مثلاً في الضعف ليتَّعِظ العباد به، ويجعله عبرة لغيره.

إن الإنسان أحياناً يعتدُّ بقوَّته أو بماله أو بعمله، فإذا به يعتدُّ بقوَّته وينسى قدرة الله عليه وفي الحديث الشّريف يقول الرَّسول ﷺ «اعلم أبا مسعود! لله أقدر عليك منك عليه» [رواه الترمذي].

وقف رجل أمام الحجَّاج فقال له: أسألُك بالذي أنت بين يديه أذلُّ مني بين يديك، وهو على عقابك أقدر منك على عقابي، فما كان إلا أن عفا الحجَّاج عنه.

ثم لنذكر المعنى الثاني... إذا نسيت قدرة الله عزَّ وجلَّ جعل الله هذا القويّ المتعالي عبرةً لخلقه، فمن أجل أن تزداد قوّةً إلى قوّتك اعرف حجمك الحقيقيَّ وتواضع لله عزَّ وجلَّ، واعترف أمامه بضعفك يزدك قوةً إلى قوّتك.

حينما تعزو فضل الله إلى الله تكون قويّاً، وحين تعزو فضل الله إلى ذاتك، وهذا خطأ كبير، تكون ضعيفاً، سرّ قوتك أن تفتقر إلى الله، لولا أنَّ الله تفضَّل عليك، لولا أنَّ الله مكّنك، لولا أنَّ الله أعطاك، لولا أنَّ الله سمح لك، لولا أنَّ الله وفقك، لولا أنَّ الله نصرك، لولا أنَّ الله حفظك، لولا أنَّ الله أمدَّك فلست شيئاً مذكوراً.

قبل أن تدخل إلى عيادتك، إلى مكتبك الهندسيّ، إلى مكتب المحاماة، إلى محلّك التّجاريّ قل: اللهم إني تبرأت من حولي وقوّتي وعلمي، والتجأت إلى حولك وقوّتك وعلمك يا ذا القوَّة المتين.

وبعد ذلك: إذا كنت مطيعاً لله، فهذا سبب قوّتك، وإذا كانت هناك معصية فهذا سبب ضعفك، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧١].

إنّ سبب قوّتك أن تكون مطيعاً لله، مطبقاً لمنهج الله، لأنَّ الله سبحانه وتعالى إذا رآك في طاعة أمدَّك بالقوَّة، والهيبة، والتّوفيق، أمدَّك بالحفظ، والتأييد، والنّصر، ومن ابتغى أمراً بمعصية كان أبعد مما رجا، وأقرب مما اتقى.

ما من اسم من أسماء الله الحسنى إلا وله تطبيقات، ففي الحقيقة عندما يتعرّف الإنسان إلى الله عزَّ وجلَّ يسلك سلوكاً صحيحاً، فيصبح كلامه سديداً، وحركته أديبة، وطاعته لله متينة، وإخلاصه شديداً لأنّه عرف الله، وأصل الدين معرفة الله عزَّ وجلَّ، والإنسان إذا عرف الله عرف نفسه، أما إذا جهل ربَّه فقد جهل سرَّ وجوده وغاية وجوده، فتتجاذبه قوى الأهواء وترديه صريعاً.

اللهمَّ أعطنا ولا تحرمنا، أكرمنا ولا تهنا، آثرنا ولا تؤثر علينا، أرضنا وارضَ عنا، وصلَّى الله على سيدنا محمدٍ النبيِّ الأميِّ وعلى آلهِ وصحبه وسلَّم.

المجيد

المجيد اسم من أسماء الله الحسنى، ورد في القرآن الكريم، وفي السُّنَّة المطهّرة، قال تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴾ [هود:٧٣].

وقال تعالى: ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج:١٥-١٦].

أمّا في السّنّة فقد ورد في الحديث الشّريف الذي رواه أَبُو حُمَيْدٍ السَّاعِدِيُّ رضي الله عنه أَنَّهُمْ قَالُوا يَا رَسُولَ الله كَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم:

«قُولُوا اللهمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مجِيدٌ» [البخاري].

من معاني اسم الله (المجيد)

المجيد في اللغة من صيغ المبالغة على وزن فعيل، وإسم الفاعل ماجد، وفعله مَجَدَ، يمجُد، مجداً.

والمجيد هو الكريم المِفضال، وقيل: إن جُمع في الإنسان شرفُ الذَّات إلى حسن الفِعال سُمِّي مجيداً.

مثلاً: إنسان درسنا نسبه فإذا هو ينتمي إلى أرقى أسرة لكنَّ أفعاله سيئة فلا يسمى ماجداً، لأن رسول الله ﷺ يقول: «من بَطَّأَ به عملُه، لم يسرع به نسبه» [مسلم، من حديث أبي هريرة]. إنسان آخر أعماله طيِّبة لكن لا نعرف أصله ولا الأسرة التي ينتمي إليها ولا ماضيه. فهو إذا ماجد، أسرع به عمله، ولو بَطَّأَ به نسبه. شرف الذات إذا قارنه حسن الفعال سمي مجداً، والمجد هو المروءة والسخاء والكرم وكرم الفعال.

المجيد سبحانه وتعالى، هو الذي علا وارتفع بذاته، له المجد في أسمائه، وصفاته، وأفعاله، ومجده بيّن في جماله جلَّ جلاله، وسَعته، وعلوِّه، واستوائه على عرشه، وفي الحديث الشّريف: «إنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجمال» [أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن عبد الله بن مسعود].

وفي الحديث أيضاً: «حِجَابُه النُّورُ، لو كَشَفَهُ لأَحْرَقتْ سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصرُه من خلقه» [مسلم عن أبي موسى].

هذا جمال الذات، أمَّا كيفيَّته فأمرٌ لا يدركه أحد، إذ عين العلم به، عين الجهل به، وكل شيء خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، والعجز عن إدراك الإدراك إدراك، وليس عند المخلوقين منه إلا ما أخبر به عن نفسه، من كمال وصفه، سبحانك لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، ومن مجد ذاته أنَّه استوى على العرش، فهو العلي بذاته على خلقه، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥].

الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والعرش أعلى المخلوقات، والله جلّ جلاله فوق ذلك محيط بالخلائق والكائنات، ويعلم ما هم عليه.

«فإذا سألتُم الله فاسألوه الفِرْدَوس، فإنه أوسطُ الجنة وأعلى الجنة، وفوقَه عرش الرحمن، ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة» [البخاري عن أبي هريرة].

ومن كمال مجده الكرسيّ، وقد خصَّه بالذِّكر دون العرش في أعظم آية في كتاب الله، فقال: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة:٢٥٥].

لقد بيّن الله جلّ جلاله في كتابه الكريم من كمال وصفه وسَعة ملكه لمن أعرض عن طاعته، وعن توحيده في عبادته، أن مُلك من أشركوا لو بلغ السماوات السبع، ولو بلغ الأراضين كلَّها وما فيهن، وما بينهم، على عرضهنَّ، ومقدارهنَّ، وسعة حجمهنَّ، لا يمثِّلن شيئاً في الكرسيِّ، الذي تحت قدم الملك، فما بالك بعرشه ومجده، وما بالك باتِّساع ملكه.

هذا الإله العظيم ألا يُخطَب وُدُّه؟ ألا تُرجى جنَّته؟ ألا تُتَّقى ناره؟

وفي الحديث الشّريف: «ما السّماوات السَّبع مع الكرسيِّ إلا كحلْقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسيِّ كفضل الفلاة على الحلقة» [ابن حبان عن أبي ذر].

وصحّ عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً أنّه قال: «الكرسيُّ موضع قدميه والعرش لا يقدر قدرُه» [رواه الحاكم و الدارمي عن ابن عباس].

أمَّا مجد أوصافه، فله علوُّ الشّأن، لا ندَّ له، ولا نظير، ولا شبيه له، ولا مثيل، فالمجد وصف جامع لكلِّ أنواع العلوِّ التي يتَّصف بها المعبود، فهو العليُّ العظيم، لأنَّ أيَّ معبود سواه إذا علا مجده بعضَ الخلق، واستقرَّ له الملك، فإنَّه مسلوب العظمة، وأيُّ عظيم سواه مسلوب العظمة في علوِّه، الأقوياء يمرضون، وينامون، ويموتون، أو لغلبة غيره على ملكه، فأيَّة عظمة لعلوِّ المخلوق وهو يعلم أنَّ قدرته محدودة وأيّامه معدودة؟! أيستحقُّ المخلوق أن يكون معبوداً؟!

ومن لوازم الإيمان أن نمجِّد الله سبحانه وتعالى، وأن نذكر الله ذكراً كثيراً، وأن نحبَّه حبَّاً عظيماً، وأن نخضع له، بل إنَّ قِمَّة الإيمان أن نعبده، والعبادة طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينيَّة، تُفضي إلى سعادة أبديَّة.

وقبل أن نتعمق بشرح هذا الاسم، ينبغي أن نعلم أنَّ النَّفس البشريَّة مفطورةٌ على حبِّ الكمال، وأنَّ أسماء الله الحسنى كاملة، فكمال الله عزَّ وجلَّ وفِطرة النَّفس التي فُطرت على حبِّ الكمال يتوافقان.

فلذلك لا يطمئنُّ الإنسان، ولا تُقْبِل نفسه على الله إلا إذا رأى في الله الكمال المطلق، أمّا الإنسانُ فكمالهُ نسبيّ، فقد يصيب كثيراً ويخطئ قليلاً، ويبقى عند النَّاس كاملاً، لكنَّ الله سبحانه وتعالى كماله مطلق، فالشَّرُّ المطلق لا وجود له، لأنَّه يتناقض مع وجود الله، لكنَّ الشرَّ النِّسبيَّ يوظِّفه الله سبحانه وتعالى للخير المطلق.

فالمجيد اسمٌ مشتقٌّ من المجد، والمجد في لغة العرب نهاية الشَّرف، نهاية السُّموّ، نهاية الرِّفعة، نهاية الكمال، يقال: رجلٌ ماجد، أي: رجلٌ شريف له آباء متقدِّمون في الشرف.

كلمة الماجد معناها من حيث النسب؛ أنّه ينتمي إلى أشرف أسرة، ومن حيث السلوك؛ كثير الخير، مِفضال، معطاء، فربُّنا عزَّ وجلَّ كماله مطلق وفعله خير كلُّه.

والمجيد في حقِّ الله تعالى المتناهي في الكمال والعزِّ، ونفس الإنسان تحبُّ الكمال، لذلك فالنَّفس الإنسانيَّة لا يملؤها إلا معرفة الله، فلو أنَّها اختارت غير الله، اختارت ما دون الله، فإنَّها ستبقى في اضطراب، لا تسكن، ولا تستريح.

يمرُّ الإنسان في حياته بحالات متنوعة، يطلب المال مثلاً فإذا بلغه وجمعه سقط من عينيه وأصبح شيئاً تافهاً، يطلب اللذائذ فإذا اقتنصها صغرت في عينه، أما إذا طلب الله سبحانه وتعالى ومهما جدَّ في الطَّلب فإنه يبقى سعيداً إلى أقصى درجة لأنَّ الله لا نهائيّ، لأن الله كماله مطلق.

الشَّاب يوصف بأنه يعيش أحلاماً، وهو شاب في مقتبل العمر يتصوَّر بيته، ويتصوَّر زوجته، ويتصوَّر عمله، واختصاصه ومكانته، فهو ما يزال شاباً، ويسعده

الحلم، وتسعده الآمال، فإذا وصل إلى حدوده القصوى، أي إذا تزوج، أو توظّف، أو اختار هذه الحرفة دون تلك، وزاول العمل فيها فإنَّ حياته أصبحت مغلقة محدَّدة، هذا بيته، وهذه زوجته، وهؤلاء أولاده، وهذا دخله، وهذه مكانته، وتلك حرفته.

ومن ثمَّ يشعر بالفراغ، كما يشعر بالرَّتابة، لذلك فالنَّاجحون في الحياة الماديَّة من عجيب أمرهم أنّهم ينصرفون بعد أن وصلوا إلى النَّجاح إلى الميسر أحياناً لأنَّ حياتهم أصبحت مملَّة، بلغوا قِمَّة النجاح، ماذا بعد النجاح؟ لا بد من التغيير.

فالإنسان إذا نجح في عمله، وفي زواجه وكان بعيداً عن الله عزَّ وجلَّ معرفةً وسلوكاً، فإنَّه يبحث عن لذائذ مستجدة، فلذلك تراه ينحرف انحرافات خطيرة لا لأنه يحبُّها، بل لأنَّه يجدِّد من خلالها حياته كما يظنّ.

أما المؤمن فإذا عرف الله عزَّ وجلَّ فمعرفتُه بالله تملأ نفسه إلى أبد الآبدين لأنَّ النَّفس لا نهائيَّة، لا يملؤها إلا المطلق، أمَّا المحدود فلا يملؤها، فهي أكبر، فالدُّنيا بكلِّ لذائذها محدودة، فالشيء الثّابت أنَّ الإنسان يشتري بيتاً واسعاً، في الأسبوعين الأولين أو الثلاثة يسعد به أشدَّ السعادة، أمَّا بعد حين فيغدو لا معنى له، يتزوّج أجملَ امرأة، ثمَّ لا يلبث أن يركب أفخر مركبة، وبعد حين تجده في سأم وفتور وتناقص، لأنَّ الأشياء الدّنيويّة محدودة، والنَّفس لا محدودة، فإذا طلبت السعادة في المحدود فلن تجدها، وما سوى الله محدود، كلُّ شيء ما سوى الله يخبو بريقه، تتناقص لذَّته، تتناقص ثمرته.

إذاً إن أردت الله فأنت في سعادةٍ متنامية، وإن أردت ما سوى الله فأنت في سعادةٍ متناقصة، إذاً فالمشكلة ليست مع الشاب فقط، بل ومع كلِّ إنسانٍ ولو بلغ كهولته وتوضَّحت معالم حياته وتحدَّدت، إنَّ نفسه لا نهائيّة، فإن أراد المحدود وتعلَّقت نفسه به، وقع في الحيرة وفي الضَّجر، فإمّا أن ينحرف، وإمّا أن يهديه الله إليه.

فالمجيد في حقِّ الله تعالى هو المتناهي في الكمال والعزِّ، له الجمال في الأوصاف والأفعال، الذي يعامل عباده بالكرم والجود ويتجلّى لهم بنور الوداد، ماجد وذاته

ماجدة، أفعاله كريمة، مودّته لعباده بالغة، ومن كلمات الدعاء: اللهم أنت المجيد، الفعال لما يريد، نسألك الأمن يوم الوعيد.

ومن الحقائق التي لا تخفى أنَّ الإنسان إذا أحبَّ شيئاً تغنَّى به، فإذا أنت أحببت صديقاً فلتراقب نفسك خلال شهر مثلاً، فأينما جلست تتحدَّث عنه وأنت لا تشعر، فمن أحبَّ شيئاً تغنَّى به، ومن أحبَّ الله تغنَّى بكماله، والثناء على الله عزَّ وجلَّ مسعِد، الله عزَّ وجلَّ عنده كلُّ شيء يسعدك فيه، إذ أقبلت عليه أسعدك.

الدُّعاء وسيلة، والدُّعاء غاية، هو وسيلة لأنّه سلاح بيدك، أمّا كونه غاية فلأنّك لمجرد أن تدعو الله وتتصل به فأنت أسعد النّاس، فإذا كان إقبالك على الدّعاء ضعيفاً يخلق الله لك حاجةً عنده من أجل أن تدعوه فإذا دعوته اتّصلت به وسعدت بقربه.

المجيد هو واسع الكرم، الغنيُّ المغني.

أنت ماذا فعلت من أجل الله الذي سخَّر لك الوجود، أعطاك الحواسّ الخمس، أعطاك العقل، أعطاك الأعضاء، أعطاك زوجة أبدعها لك أجمل إبداع وأحسنه، أعطاك بيتاً، وأولاداً ومكانةً، أمدك بكلّ ما تحتاج ثم هداك إليه... فأنت ماذا قدّمت؟ قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان:١].

أنت موجود فقد قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار:٧-٨].

وجعلك مكرَّماً... دخلت إلى مشتل فواجهتني لوحة يبلغ ارتفاعها أمتاراً، ورأيت فيها صفاً فيه ثلاثون صورة عرضاً، وفيه تسعون صورة طولاً، كلُّ صورة تمثّل نوعاً من النبات خلقه الله تعالى خصِّيصَى لك لتمتّع عينيك بهذا النبات، هذا النبات نبات زينة لا يؤكل ولا يشرب لكنّه مخلوقٌ لتُمتّع عينيك به، أنواع لا تعدُّ ولا تحصى،

كم نوع من الورود ومن نباتات الزينة، من ألوان الأطعمة، من ألوان الفواكه، من أنواع الأطيار، هذا كلُّه مخلوق للإنسان فقد قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠ ﴾ [الإسراء:٧٠].

تجد الإنسان أحياناً يسأل نفسه: الله عزَّ وجلَّ منحك نعماً كثيرة... نعمة الإيجاد والإمداد والهدى والإرشاد، أنت ماذا فعلت لخلقه؟... أكبر سؤال ينبغي أن تسأل نفسك عنه ماذا فعلت من أجل ربي؟ ماذا فعلت إرضاءً لربي؟

والماجد هو المغني، أي: غني مُغْنٍ، أمَّا في بني البشر فهناك غنيٌّ غير مغنٍ، حريصٌ على المال يكدسُهُ أكداساً، يعيش فقيراً ليموت غنياً، وهذا من أندم الناس، فالمال قوة، ومن خلاله يمكن أن تصل إلى أعلى درجات الجِنان.

ذات مرة سألني أخٌ سؤالاً: هل هناك من حرج في أن ننفق على معيشتنا أموالاً طائلة بغير حساب، ما دمنا نؤدِّي زكاة أموالنا، لا نقترف إثماً؟ فقلت: أنا لن أجيبك بكلمة واحدة بنعم أو لا، بل سأذكر لك مثلاً:

لو أنَّ إنساناً معه مئة مليون، وعلم أن شركة استثمارية تعطي على الليرة الواحدة (مثلاً) ملياراً -وهذا الكلام كلام افتراضي- رَبِحَ بكل ليرة ملياراً، وأنت معك مئة مليون، فهل تغامر وتشتري بأربعين مليوناً سيارة، وبستين مليوناً بيتاً وتمكث دون أكل؟ أم أنَّك تشتري بيتاً بعشرة ملايين ليرة، وسيارة بمليونين، وتضع باقي المبلغ بالاستثمار، فالأرباح مغرية، وكلُّ ليرة تربح ملياراً؟ إنَّ الذي معه كتلة نقديَّة يمكنه أن يعيش حياة معقولة مكرّمة، ثم إذا كان عنده فائض من ذاك المال فلينفقه في طاعة الله، فهذا الفائض في الآخرة. كلُّ ليرة منه بمليار، كلُّ ليرة تعود عليه بألف مليار، كلُّ ليرة بمليار مليار هذا في الآخرة، فهل من المعقول أن أستهلك الفائض النقدي كلَّه في النفقة اليومية؟ القضية تجاريَّة، الذي يمتلك كتلة نقديّة زائدة من الممكن أن يصل بها إلى الجنَّة إلى أعلى عليين.

فللإنسان حقٌّ أن يأكل ويشرب ويسكن ويركب باعتدال وما زاد على حاجاته، بإمكانه أن ينفقه في مرضاة الله، وسيرى اللقمة إذا أطعمها فقيراً في سبيل الله كجبل أحدٍ يوم القيامة، فهذه اللقمة الواحدة إذا أطعمتها معوزاً، فلو قلت إذاً إنّ الليرة أعطَتْ ملياراً ربحاً فإنَّ الكلام معقول، حجم جبل مقابل حجم لقمة يفوق المليار.

فالماجد المغني هو الله، والله عزَّ وجلَّ إذا أعطى أدهش، فقد أعطاك صحّة... يقول لك الطبيب: هذا الدسَّام مثلاً ثمنه ثمانون ألفاً، تكلفة العملية أربعمئة وخمسون ألفاً، زرع كبد سبعة ملايين، زرع كلية ثمانمئة ألف... فإذا عافاك الله عزَّ وجلَّ، فأنت إذاً تملك ألف مليون وأنت ماشٍ على رجليك، حواس خمس، جهاز هضم، وجهاز دوران، وجهاز تنفس، وجهاز طرح الفضلات، وجهاز تصفية، وأعصاب، وعضلات، وهيكل عظميّ، وعقل في رأسك، جلد سليم، معنى ذلك أنَّ ثمنك يعدل ألف مليون، فإذا أنعم الله عزَّ وجلَّ عليك بالصحة فقد أعطاك شيئاً ثميناً، والصحة تنتهي عند الموت، فعلى قَدْرِ ما كنت معتنياً بصحتك يتحاشى عنك المرض إلى حين، إلا أنَّ الموت لا بد آتٍ ذات يوم.

قرأت ذات مرة أن مغنياً لم يركب طائرة في حياته، خوفاً من أن يموت في حادث طيران، أَكْلُهُ أكلٌ مدهشٌ فيوماً يأكل سمكاً، ويوماً يأكل دجاجاً، ويأكل مساءً فواكه متنوعة، أعتقد أنه عاش إلى التسعين، لكن بعد كلِّ هذا العمر، مات، ولقد قرأت عنه مقالة أن عنايته بصحته لا توصف، شيء مثل الخيال، ومع ذلك مات، معنى ذلك أن الموت يأتي على كل إنسان حتى الأصحاء، فما الذي يبقى؟ العمل الصالح، لذلك أعظم نعمة، نعمة الهدى، ثم الصّحّة، ثم الكفاية، لذلك قال ﷺ: «... مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعافًى فِي جَسَدِهِ، آمِناً فِي سِرْبِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا» [سنن ابن ماجه من حديث عبيد الله بن محصن الأنصاري].

والمجيد أي: رفيع الشرف، المنتهي بالمجد والكمال، واسع العطاء الغني، المغني.

سيدنا سعد بن عبادة كان يقول: اللهم هب لي حمداً ومجداً، لا مجد إلا بفعال، ولا فعال إلا بمال، اللهم لا يصلحني القليل، ولا أصلح عليه.

بعض الناس مقاومته هشّة فإذا أغناه الله يعصيه على الفور، أي إنّه على الدخل الكبير يرتكب الموبقات، أما على الدخل المحدود فمستقيم، إلا أنَّ الآية الكريمة تعطيك قاعدة عامة وثابتة، قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الشورى:٢٧].

معنى ذلك أن الله عزَّ وجلَّ إذا قلَّل، فإنّه يقلِّل تقليل تأديب لا تقليل عجز، إذا وجدتَ الأمطار قد شحَّت، والموارد قد قلَّت، والأعمال أصبحت عسيرة، والأمور غير ميسرة، معنى ذلك أنه تضييق من الله عزَّ وجلَّ، وهذا التقليل لا يمكن أن يكون تقليل عجز إلا أنَّه تقليل تأديب.

إذا قطعوا مرافق الماء عن بيوتنا فالسبب أنَّ المياه غير كافية، هذا تقليل عجز، إذا قطعت الكهرباء في اليوم ساعة، معنى ذلك يوجد عجز، أما إذا قلَّل الله عزَّ وجلَّ الموارد فلا يمكن أن يكون عجزاً، لأن الله عنده خزائن كل شيء: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾ [الحجر:٢١].

فإذاً يؤدِّب الله عباده، فهذا الصحابي الجليل سعد بن عبادة قال داعياً: اللهم! هب لي حمداً ومجداً، لا مجد إلا بفعال ولا فعال إلا بمال، اللهم لا يصلحني إلا هو ولا أصلح إلا عليه.

فإذا رأيت إنساناً عظيماً وليس له عمل صالح فإنَّ عظمته فارغة، العظمة أساسها العمل العظيم، لا مجد إلا بفعال ولا فعال إلا بمال.

وبعد فإذا رجا إنسان ربَّه أن يكون غنيّاً ليكون بهذا المال ماجداً انقلب هذا الطلب إلى عبادة، فلو أنَّ شخصاً يبحث عن مال وهدفه إذا اغتنى أن يبني مسجداً، أو يبني معهداً شرعياً، أو يطعم الفقراء، أو يكرم الأيتام وينشئ داراً للأيتام (مَبَرَّةً) مثلاً

وينفق إنفاق الطَّامع برحمة الله ويرجو وجهه، أو يعلِّم الطلاب على حسابه لكي يصبحوا دعاة، فإذا كان هذا هدفه فعمله عبادة، وأيُّ عبادة.

التقيت مرة بإنسان بينما كنت في زيارة إحدى المحافظات، فوجدت مسجداً قد أنشئ حديثاً على الساحل، فأعجبني ودخلت وصليت فيه، ثم دعاني هذا الإنسان إلى مكتب له في المسجد، فقال لي: أنا الذي بنيت هذا المسجد، حدثني عن قصته فسمعت كلاماً غريباً قال لي: لما أنهيت الخدمة الإلزامية من حوالي عشرين سنة، وكنت والله، لا أملك درهماً ولا ديناراً فأخذت من أُختي سوارها وبعته بثلاثمئة ليرة وسافرت إلى إحدى دول الخليج، وبينما أنا في الطائرة ما تكلمت بلساني إلا أنَّه قد خطر في بالي خاطر: لو أنَّ الله جبر خاطري في هذه السفرة لأبنينَّ لله مسجداً، أقسَم بالله إنه لم ينطق هذا بشفتيه، ثم قال لي: وأكرمني الله عزَّ وجلَّ إكراماً منقطع النظير، ثمَّ رجعت إلى بلدي واشتريت أرضاً مساحتها خمسة دونمات، وتقدمت بطلب رخصة فلم أحصل عليها، قالوا: المنطقة غير منظَّمة ثم قابل المحافظ الذي قال له: عمِّر ولا بأس عليك، ثم قال: وبكلِّ بساطة عمّرنا مسجداً كبيراً ضخماً وهو الذي صليت فيه قبل قليل، طلب بصدق النيّة فالله أعطاه، فإذا طلب أحد مالاً من الله لكي يعمِّر مسجداً أو لينشئ معهداً شرعياً، أو ليبني داراً للأيتام، لينفق على طلاب علم ولكي ينشر الدعوة إلى الله، هذا الغني آل أمره إلى عبادة، ولم يكن غنى مطغياً أو غنىً منسياً لأنه أدّى حقَّ الله في المال، لأنَّ المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف... والمال قوَّة، لكن هذا المال يحتاج إلى نية ويحتاج إلى إيمان، والإيمان يُفرز نية عالية، والنيّة العالية تحوِّل طلب المال إلى عبادة.

أما إذا كان همُّ الإنسان أن ينشئ بيتاً ضخماً، وأن يشتري سيّارة فارهة ويستقلّها زهواً، فهذه ليست عبادة بل هي حبٌّ للدنيا.

ومن دعاء علي رضي الله عنه: اللهم! صن وجهي باليسار، ولا تبدل جاهي بالإقتار، فأسترزق طامعاً رزقك من غيرك وأستعطف شرار خلقك، وأُبتلى بحمد من أعطاني، وأفتتن بذم من منعني، وأنت من وراء ذلك كلّه وليُّ الإجابة والمنع.

فإذا أتقن الإنسان عمله، أتقن مصلحته، أتقن تجارته، أتقن صناعته، أتقن وظيفته، أتقن طبّه، أتقن هندسته، وجاءه دخل كبير وحلَّ مشكلات النَّاس به فهو في أعلى درجات العبادة، إنَّه مستقيم، طاهر، ورِع، كسب مالاً وزوَّج شاباً واشترى بيتاً لإنسان فقير آواه به، حل مشكلة إنسان، وفَّق بين زوجين، آوى إنساناً عليه دعوى إخلاء مثلاً، فتاة أمَّن لها بيتاً وبعد هذا تقدم لها شاب ليتزوجها، أحياناً تجد البنت إذا ملكت بيتاً فإنها على الفور تتزوَّج، إذا كنت ميسور الحال وعندك بنتٌ مستقيمة وطاهرة نقية وتقدم لها شاب لا بيت عنده ولا يملك ثمنه فاشتر لها بيتاً وزوجها، فهناك آباء أعجب من أفعالهم كثيراً.

قال لي أخ: أنا أمّنت بيتاً لهذه البنت فإذا تقدم أحد خطبها وتزوجها فله هذا البيت، ولم يمضِ إلا وقت قليل حتى تزوّجت، وحُلّت مشكلة شابين بحاجة إلى زواج، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه...

«... وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُربَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ القِيَامَةِ...»
[صحيح البخاري، من حديث عبدالله بن عمر].

فإذا طلب أحد المال من الله تعالى ليحلَّ به مشكلات المسلمين نقول له: نِعم الطلب طلبك، وهذا عملٌ من أرقى الأعمال وأرجاها عند الله تعالى.

ذكر الله عزَّ وجلَّ اسمه المجيد في القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [البروج:١٥]. وقال عن كتابه الكريم: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾ [ق:١] فالقرآن كتاب الله، كتابنا المقرر حدِّث عنه ولا حرج، حدِّث عن نظمه، وعن إعجازه، وعن تشريعه، وعن أخباره، وعن حلاله وعن حرامه، وعن وعده، وعن وعيده، وعن صوره، وعن مشاهد يوم القيامة فيه، وعن قَصص أنبيائه، هذا الكلام كلام الله عزَّ وجلَّ.

فالله عزَّ وجلَّ قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام:١].

وقال أيضاً: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف:١].

الكون كله في كفَّة والقرآن في كفَّة وهو بين أيدينا، والله الذي لا إله إلا هو لو وقفت عند حروفه حرفاً حرفاً لوجدت العجب العجاب، لو وقفت عند حركات الحروف لوجدت العجب العجاب.

قال تعالى: ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ ﴾ أي: الشَّريف، فلله الشَّرف والمجد والعلوُّ والعظمة في ذاته وصفاته وأفعاله، ووصف الله تعالى قرآنه بأنه مجيد لكثرة فوائده، فالمجيد في صفة الله يدل على كثرة إحسانه وأفضاله، والمجيد هو الشريف بذاته، الجليل بأفعاله، الجزيل بعطائه، البالغ المنتهى في الكرم، وقيل: المجيد المتناهي في الشرف في ذاته وصفاته وأفعاله، وهو الجليل في نعوته والجميل في ملكه وملكوته.

جاء اسم المجيد في آيات أخرى فالله عزَّ وجلَّ في سورة هود قال: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ۝٧٣ ﴾ [هود:٧٣].

أيّ إنّه كثير العطاء ﴿ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ۝٧٣ ﴾.

فإذا تعرَّف الإنسان إلى الله واستقام على أمره فإنّه يهديه سُبُل السلام، فهناك أزمات طاحنة... ويوجد دعاء للنبي ﷺ يقول فيه: «اللهم! إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحوُّل عافيتك، وفُجاءة نِقمتك، وجميع سخطك» [رواه مسلم من حديث عبدالله بن عمر].

أحياناً يقع البلاء فجأةً، ويداهم المرض العُضال فجأةً.. فاللهم إنا نعوذ بك من فجاءة نقمتك وتحوُّل عافيتك، وجميع سخطك... أحياناً تكون المفاجأة في الأولاد، أو المفاجأة في الزوجة، ففي حياة الكافر والعاصي مفاجآت، وأخبار كالصواعق.

أما المؤمن فالله عزَّ وجلَّ يهديه سُبُل السلام، فهو في سلام مع نفسه، وفي سلام مع من حوله، وفي سلام مع ربِّه، وفي سلام مع مستقبله: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة:٥١].

المؤمن في سلام، لن تجد عنده مفارقات وأخباراً صاعقة، ذات مرةٍ دُعينا من قبل أحد الإخوة لمزرعة، وقال لي: هذه مزرعة عمِّي، وبينما نحن في المزرعة دخل عمُّه ولم

يسلِّم على الموجودين جميعاً وعددهم ثلاثون رجلاً، ولكنني ضقت ذرعاً من تصرُّفه هذا، فقال لي هذا الأخ: عمّي حضر من المشفى الآن حيث كان يقوم بتكرير دمه وغسل كليتيه. فلا تؤاخذه على تصرُّفه فهو لم يعد يرى بعينيه من كثرة الألم، والغسيل كل أسبوع مرة، يمشي دون أن يرى أحداً أو يحس بأحد، فالهمُّ حجبه عن النّاس كلِّهم.

فقد يصاب الإنسان بمصيبة في جسده أو ماله أو عياله مما يجعله لا يرى شيئاً مما حوله، فإذا طمأنك الله عزَّ وجلَّ وقال لك: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨] فلا تخف، فأنت موضع عنايتنا، فأحياناً تجد أن الله عزَّ وجلَّ يلقي في قلبك الطمأنينة وتشعر بالثقة، وتشعر بأنَّ العناية تحوطك، فاحمد الله على نعمائه فالله قال: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾... فهل هذا شيء قليل أن يعتني الله بك ويدافع عنك ويطمئنك ويُلقي السكينة في قلبك والسعادة، فهل هذا قليل؟ والثمن بيدك وهو طاعته، فأطعه وانظر متدبراً في قول القائل:

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا … فإنَّا منحنا بالرضا من أحبَّنا
ولُذ بحمانا واحتم بجنابنا … لنحميك مما فيه أشرار خلقنا
وعن ذكرنا لا يُشغِلَنَّك شاغلٌ … ولا تنسنا واقصد بذكرك وجهنا
وسلِّم إلينا الأمر في كلِّ ما يكن … فما القرب والإبعاد إلا بأمرنا

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ٧٣﴾.

عطاؤه لا حدود له، فالله عزَّ وجلَّ أحياناً يعطي الإنسان قليلاً من الدنيا قد يختلُّ توازنه بسببه، كأن يعطيه بيتاً جميلاً، زوجةً جميلة، تجارة رابحة، فكيف إذ أعطاك الله الجنّة... ولنمعن النظر في هذا الكلام، إذا ذهبنا إلى السّاحل، وقبضت أصابعك وأشرت بالسَّبابة وقمت بغمسها في مياه البحر وسحبتها بعد ذلك فانظر مقدار ما حملته وما تعلَّق بها من ماء... يقول النبي الكريم ﷺ: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه في اليم، فلينظر بِمَ ترجع» يعني التي تلي الإبهام [رواه أحمد والطبراني، من

حديث المستورد بن شداد]، الدنيا بقصورها، بنسائها، بمركباتها، بأماكنها الجميلة... ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما أخذ المخيط غُمِس في البحر من مائه.

«... أَعْدَدْتُ لِعِبادِي الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ...» [صحيح البخاري من حديث أبي هريرة].

لذلك الموت عند المؤمن تُحفته وعُرسُه، لأنه دخل الجنَّة وقد رأى مقامه فيها ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ فالله يهيئ لنا ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، إذا أكرمنا بالجنة فهناك كل ما لا يتصوَّره العقل، الثمن طاعته فقط.

وفي سورة البروج قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج:١٤-١٦].

فلا إرادةَ فوقَ إرادةِ الله أبداً، فالله هو المريد، هو القادر، هو الفعَّال، هو الحكم، هو العدل، لا رادَّ لما أمر، ولا معقِّب لحكمه.

وهناك آية ثالثة قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج:٢١-٢٢].

معنى قرآن مجيد، أي: كثير الخير، إن قرأته، إن تعلَّمت أحكام تلاوته، إن فهمته، إن طبَّقته، إن تعلَّمت منه، لا حدود لفضائل القرآن، لذلك من أوتي القرآن ورأى أنَّ أحداً أُوتي خيراً منه فقد حقَّر ما عظَّمه الله، ومن تعلَّم القرآن متَّعه الله بعقله حتى يموت.

نصيب المؤمن من اسم الله (المجيد)

المؤمن ولأنَّه عرف الله، فكلّ حياته عطاء، يعطي من وقته، ومن جهده، ومن ماله، ومن خبراته، يعطي كلَّ شيء، فالأنبياء أعطوا ولم يأخذوا، إلا أنَّ هذا العطاء أساسه إيمان، يُعِدُّه صاحبه لاجتياز عقبات الآخرة، فالمؤمن طموح جداً، فإذا خدمك إنسان خدمة وقال لك: أريد عليها مئة ألف، هناك أشخاص يأخذون الأجر المكافئ لجهدهم تماماً، فإنه يعرف قيمة جهده يقول لك: إن هذه العملية تكلِّف أربعمئة وخمسين ألفاً،

لو افترضنا أن إنساناً فعلها لوجه الله. أيُّهما أكثر طموحاً؟ الثاني الذي فعلها لوجه الله؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ يعطيه عطاء لا يخطر على قلب بشر يوم القيامة، فأساس الإيمان مبنيٌّ على العطاء لا على الأخذ، تعيش وتأكل وتشرب وتزوِّج أولادك، أمَّا أساس إيمانك فأن تعطي مما أعطاك الله، لذلك قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة:١-٣].

أي إنَّ أحد أركان حياة المؤمن، أحد سماته الأساسية، أحد ركائز حياته ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ لكنَّك تعامل الكريم، يعطيك عطاءً لا يصدَّق، أولاً: يعطيك في الدنيا رحمته وهي تشمل الصّحّة، وتشمل راحة البال، وتشمل الرّفعة، والطَّمأنينة والثقة بالمستقبل، أمَّا الكافر فكثيراً ما ترتعد فرائصه خوفاً من تقلُّبات الأيام وعثرات الزمان، مهما كان غنيّاً، فحسبه بؤساً أن سَلَبَهُ نعمةَ الأمن فقد قال تعالى: ﴿فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٨١ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ۝٨٢﴾ [الأنعام:٨١-٨٢].

الله يعطيك المال وقد يأخذ منك نعمة الأمن، ويأخذ منك نعمة راحة البال، يأخذ منك نعمة الطمأنينة، يأخذ منك السعادة، تعيش في لذائذ متناقصة تعقبها كآبات متنامية.

فالله عزَّ وجلَّ قال: ﴿وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ۝٣٢﴾ [الزخرف:٣٢].

﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ﴾ [فاطر:٢].

ومن تخلَّق باسم المجيد، فيجب أن يكون كريماً في جميع الأحوال مع ملازمة الأدب، فمن المستحيل أن ترى مؤمناً بخيلاً... بل تجده كريماً يعطي ولا يضنُّ بعلمه ولا بخبرته.

حدَّثني أخ وهذه القصة منذ ثلاثين عاماً... عنده محل لصناعة الفرنية «الكاتو»، دخل عليه شخص من أقاصي الجزيرة وببساطة قال له: أتعلمني صنع الكاتو؟ فقال له: على العين، تفضَّل إلى الداخل، وقام بعمل العيارات والأوزان المناسبة أمامه، وطبخها

أمامه وبعد أن انتهى من العمل طلب منه أن يقوم بعمل مثلها أمامه... ثم أقسم هذا الأخ... أنه منذ ثلاثين سنة وإلى الآن يزوره ذاك الأخ ويحضر له هدية من بلدته، فقد أسس محلاً هناك في بلده وأخذ الله بيده ولم ينسَ الفضل لثلاثين سنة فيحضر له كلَّ سنة هديَّة ثمينة.

الإيمان أساسه العطاء، وقد حدثني طبيب متخصص في الأورام الخبيثة قال لي: جاءت امرأة شابَّة في ريعان الشباب مصابة بمرض خبيث في الحنجرة وكادت تختنق، ولا أمل في شفائها، وقد قامت مع ذويها بزيارة مستشفيات وعيادات عدّة جامعات، والكلُّ أجمعوا على أنه لا أمل بشفائها، قالوا لزوجها: لا أمل في شفائها... ولكن بعد أن غادر العيادة رجع إلى الطبيب ليحاول مرةً أخرى وقال له: أنا سوف أقوم بإجراء محاولة أخيرة، ولكن الأمل ضعيف جداً، وأقاموا في فندق قريب وأجرى الطبيب للمرأة جلسات أشعة يومياً، وبعد حين تحسنت حالها، وبعد ثمانية أشهر تقريباً بدأ شبح هذا المرض الخطير يتراجع، ثم أذن الله بشفائها وعافاها وأنجبت الأولاد... وهذه القصة منذ أكثر من خمسٍ وعشرين سنة... ويقول الطبيب لي: كل سنة يأتي الزوج إلى الطبيب بخروفين وصفيحة من السمن. فقال له الطبيب أخيراً: والله لقد رددت الجميل بالجميل الكثير فوفيت، بل أكثرت، فيقول له الزوج: والله لئن مت أنا، فأولادي من بعدي يتابعون هذا العمل وفاءً منا لحسن صنيعك.

فقد كان ميؤوساً من شفائها ولم يتقاضَ الطبيب شيئاً على علاجها، وكان هذا الزوج فقيراً جداً وأغناه الله بعد ذلك، ونظير علاجه وخدمته طيلة ثمانية أشهر وتراجع المرض وشفاء الزوجة بفضل الله ومَنِّهِ، ولم ينس الزوج هذا الفضل، فإذا كان الفضل لإنسان فَلَمْ ينسه الزوج ﴿ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ [البقرة:٢٣٧] فكيف إذا كان الفضل لله عزَّ وجلَّ؟

فأنت أيها المؤمن إذا عرفت أن الله ماجد ومجيد، أي: غنيٌّ مُغنٍ، متناهٍ في الشرف والرِّفعة والمجد، وهو يعطي عطاءً لا نهائيّاً، إذاً فَتَخلَّقْ بكمالات الله.

فحظ العبد من هذا الاسم أن يعامل الخلق بالصفح والإحسان، والعفو والإكرام، واللين والبشاشة، وتجنُّب الشِّقاق، وأن يعطي من ماله للفقراء، وأن يتواضع مع الخلق، أن يرفق بالضعفاء، وأن يعامل النَّاس كأنهم أهله وجيرانه.

فأنت عليك أن تتخلّق بكمالات الله... بالمناسبة دائماً عندما نضع قطعة من الحديد تحت أشعة الشمس، تكتسب منها شيئاً، الحرارة مثلاً، ثم ضع هذه القطعة في البراد تجدْها باردة، معنى ذلك أنَّ هذه القطعة اكتسبت من هذه الثلاجة البرودة كما اكتسبت من الشّمس السّاطعة الحرارة... أنت إذا اتصلت بالله فلا بدَّ أن تكتسب شيئاً!! فقطعة حديد لا يعقل إن وضعتها تحت أشعة الشمس ألّا تكتسب الحرارة، وإن وضعتها في ثلاجةٍ ألّا تكتسب البرودة، وأنت إذا اتصلت بالله ألا يجب أن تكتسب منه شيئاً؟ فالصلاة التي هي عماد الدين وعصام اليقين ودُرَّة الطّاعات، وأعظم القُربات، هذه الصلاة من أجل أن تكتسب الكمال من الله، لا يمكن أن تكون صلاتك صحيحة وتكون بخيلاً، معنى ذلك أنّك غير متصل بالله كما ينبغي، لا يمكن أن تكون الصلاة صحيحة وتكون جباناً، لا يمكن أن تكون الصلاة صحيحة وأنت حقود، هذا شيء مستحيل حقد، جبن، بخل، لؤم، قسوة، قلب قاسٍ لا يرقّ للناس، هذا كلُّه يتناقض مع الصلاة.

فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ [العنكبوت:٤٥].

فلذلك إذا اتصلت بالله يجب أن تشتقَّ لنفسك من اسمه صفة الكرم، فإنك إذا خرجت من البيت ساعياً لعملك فالتقيت بإنسان وسألك أجبته، و طلب إعانة أعنته، أو وجدته ضالّاً فهديته، أو وجدته فقيراً فأغنيته، همّك الأول أن تسعد خلق الله عزَّ وجلَّ.

أضربُ أمثلة من واقع الحياة... أنت راكب في سيَّارة عامّة وبجانبك صديق فدفعت عنه، فهل يظل ساكتاً ولا يتحرك نحوك شاكراً، أم يبتسم ولا يقول لك شكراً؟

فهل من المعقول أن تدفع عنه بهذه السيارة العامة ولا يلتفت لك شاكراً، مهما كان لئيماً، مهما كان عديم الإحساس، مهما كان جلفاً، وهل من الممكن أن تدفع عن إنسان بمركبة عامة ولا يبتسم لك ويقول لك شكراً؟! وهل من الممكن أن تهدي إنساناً هدية ويأخذها ويضعها بجواره ويقول لك: خير. ويبقى صامتاً، لا بل سوف يقول لك: شكراً لقد كلَّفت نفسك من أجلي... إنك لن تجد إنساناً تصنع معه معروفاً، إلا ويكون له ردُّ فعل حميد نحوك، لن تجد إنساناً مهما كان لئيماً، مهما كان موقعه منك وقدَّمت له شيئاً إلا ويقدِّم لك شيئاً بالمقابل، فلو قلتَ له كلمة طيبة، لردَّ عليك بكلمة طيبة، لو ابتسمت له ابتسامة، سيبتسم لك ابتسامة مثلها، لو صافحته مصافحة حارَّة لردَّ بمصافحة حارَّة مثلها أو أحسن منها.

فخالق الأكوان ذو الكمال المطلق إذا أنت خطبت ودّه بالتوبة، وخطبت ودّه بالطاعة، خطبت ودّه بالعمل الصّالح، إن خطبت ودّه بالإحسان إلى خلقه، وجدت جزاء ذلك عنده، فهل من الممكن أن تتقرب إلى الله ولا تجد ردَّ فعل من الله؟! فإذا أحسن الإنسان إلى خلق الله سوف يجد في نفسه الطّمأنينة، والسّعادة، والتّوفيق، والحفظ، والتأييد، سوف يجد تكريماً، والتكريم شيء استثنائيّ، شيءٌ مستثنى من معاملة عامّة النّاس، مستثنى من القواعد العامّة التي تحكم البشر، هذه الكرامة دليل أن الله قبل هذا العمل. ألَمْ يقل النبي ﷺ: «إِنَّ الصَّدَقَةَ لَتُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ وتَدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ» [سنن الترمذي، من حديث أنس بن مالك].

التّعامل بهذا الدّين تجارة رابحة... كيف تكون التجارة؟ ما أكثر ما يكون فيها من جهد ونشاط؟ بدءاً من شراء المحل، وتزيين المحل، وترتيب المحل، وتعيين الموظّفين، وشراء مستودعات، وفتح اعتمادات، واستيراد بضاعة، وعرض البضاعة، ومندوب مبيعات، ومندوب مشتريات، والتّسويق، وبعد هذا قبض ثمن البضاعة ثم صفقة ثانية وثالثة... إلخ. هذا النّشاط الطّويل العريض إذا لم ينتهِ بربح فهو سلوك مضحك لا معنى له، للتجارة هدفٌ واحد هو تحقيق الرّبح، فإذا لم يتحقّق الرّبح فكلُّ هذا النشاط لا معنىً له، جهد ضائع وهو جهد غير ذي معنى.

فلو طبقنا ذلك على الدين... قرأنا قرآناً، صلينا وصمنا وحججنا وزكّينا، وحضرنا مجالس العلم، وكانت عندنا مكتبة إسلاميّة، والكتاب الفلاني لابن فلان، وغيره لفلان الفلاني وهكذا، والطبعة حديثة، أحاديث الكتاب مخرَّجة، هذا الكاتب رد عليه فلان هذا هو النشاط الديني، بين مطالع ومؤلّف واستماع إلى أشرطة، بين حضور مجالس للعلم وبين أداء الصلوات؛ هذا النشاط كلّه إجمالاً، إذا لم ينتهِ بك إلى أن تتّصل بالله وأن تسعد بقربه فلا معنى له إطلاقاً.

الدين اليوم لدى الكثيرين من المسلمين ثقافة وفلكلور وتقاليد وعادات، وعاطفة جوفاء وهم بذلك يخدعون أنفسهم ويوردونها الموارد الآسنة، أمّا حينما تتّصل بالله وتقطف ثمار القرب، وتجني سعادة القرب والطُّمأنينة، فعندئذٍ أنت متديّن، ولن تستطيع أن تتصل بالله إلا إذا كنت مستقيماً على أمره، هذا هو بيت القصيد، لكي لا يضيِّع الإنسان وقته، ولكي يتحرّك العبد حركة ناجحة، وكي لا يبدد نشاطه في حركة غير نافعة، عليه أن يدرك حقيقة علاقته بالله تعالى ثم يخلص له العبادة.

ملخص الملخص يجب أن تعرفه وأن تستقيم على أمره حتى تسعد بقربه، هذه هي العبادة فقد قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦].

تعرفه، تطيعه، تسعد بقربه، وانتهى الأمر إلى رضوان الله ولا شيء غير ذلك.

ومن أدب المؤمن مع هذا الاسم، أن ترتفع همَّته عن الخلائق، فما دام الله كمالُه مطلق وعطاؤه مطلق، فدع الخلق إلى الخالق، دعهم، تجد الإنسان المنافق والمنحرف أرضيّاً مع الناس، أمّا المؤمن فهو تارك الناس، وملتفت إلى ربِّ الناس، هناك شيء أساسي في حياته. فالله هو الأصل والغاية.

أحياناً تدخل إلى دائرة لتقابل المسؤولَ، وقد تجد في الممشى مئة شخص، وخمسين باباً مفتوحاً وخمسين موظَّفاً جالساً لا تريد أحداً منهم، لكن تريد المدير العام فقط، هدفك واحد فقط، وكل هؤلاء الذين في دربك تتجاوزهم، والمؤمن كذلك هدفه الوصول إلى الله تعالى.

فعلاقة المؤمن بهذا الاسم: أن ترتفع همَّته عن الخلائق مع تعلُّقه بمولاه، فمن عرف أنَّ الله هو الماجد المجيد سمت همته إليه واعتمد عليه في كلِّ الأمور، أي أنّ المؤمن ربَّاني، والمنافق شيطاني.

الحديث القدسي: «... إنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً، فَلا تَظَالَموا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يا عِبادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يا عبادي كُلُّكُمْ عَارٍ إلا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ...، يا عبادي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إنسانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذَا أُدخِلَ البَحْرَ، يَا عِبَادِي إنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً، فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ» [صحيح مسلم، من حديث أبي ذرٍّ].

أخلاق المؤمن نحو هذا الاسم: أن يقصد وجه الله الكريم لأنه المغني وحده، وأن يُحسن للمخلوقات تأسياً بكمالات الله، فاتَّجِهْ إلى الله وحده وأكرم خلقه إن كنت قد آمنت بهذا الاسم الجليل.

الواحد

ورد هذا الاسم في قوله تعالى: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٣٩ ﴾ [يوسف:٣٩] .

وفي قوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم:٤٨].

وفي قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ۝١٦ ﴾ [الرعد:١٦].

وفي الأعمّ الأغلب اقترن اسم الله الواحد باسمه القهّار، لأنّ علوّه علوُّ قهر: هو وحده قهر كلَّ متكبّر، لذلك ما أهلك الله قوماً إلا ذكَّرهم بأنَّه أهلك من هو أشدُّ منهم قوة، إلا قوم عاد حينما أهلكهم قال: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ ﴾ [فصلت:١٥].

فيا أيها المؤمن، حينما تعبد الواحد القهَّار فأنت أقوى الأقوياء، تعبد خالق السماوات والأرض، الواحد القهَّار معك، وإذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك، أنت بالدُّعاء أقوى إنسان، وأنت إذا كنت مع الواحد القهّار فأنت عزيز.

وورد في السُّنَّة الصَّحيحة، عَنْ ابْنِ بُرَيْدَةَ قَالَ حَدَّثَنِي حَنْظَلَةُ بْنُ عَلِيٍّ أَنَّ مِحْجَنَ بْنَ الأَدْرَعِ حَدَّثَهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ دَخَلَ الْمَسْجِدَ إِذَا رَجُلٌ قَدْ قَضَى صَلَاتَهُ وَهُوَ يَتَشَهَّدُ فَقَالَ اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ يَا الله بِأَنَّكَ الْوَاحِدُ الأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ أَنْ تَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ قَدْ غُفِرَ لَهُ ثَلَاثًا. [سنن النسائيّ]

وفي حديث آخر، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ:

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَصْحَابِهِ أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَقَالُوا أَيُّنَا يُطِيقُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ الله فَقَالَ الله الْوَاحِدُ الصَّمَدُ ثُلُثُ الْقُرْآنِ. [البخاري عن أبي سعيد].

وفي حديث ثالث: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ والسماوات وَبَرَزُوا لله الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، قلت أين الناس يومئذ قال ﷺ: على الصراط». [مسلم و أحمد عن عائشة]

من معاني اسم الله (الواحد)

الواحد في اللغة اسم فاعل، للموصوف بالوحدانيّة أو الواحديّة، وحّده توحيداً جعله واحداً.

«الواحد» أول أرقام الحساب، وهو يدل على الإثبات، فنقول: في البيت رجل واحد، أمّا (أحد) فللنفي، نقول: دخلت البيت فما رأيت فيه من أحد.

وفي اللغة الواحد هو المتوحّد الذي لا يخالط الناس ولا يجالسهم، والتّوحيد أن تؤمن بالله إلهاً واحداً لا شريك له.

«الواحد» هو الله سبحانه وتعالى، القائم بنفسه، المنفرد بوصفه، الذي لا يفتقر إلى غيره، يحتاجه كلُّ شيء في كلِّ شيء ولا يحتاج إلى شيء، الذي لا يفتقر إلى غيره أزلاً

وأبداً، وهو الكامل بذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، هو سبحانه وتعالى كان ولم يكن معه شيء، لا شيء قبله، ولا شيء بعده، ومازال بأسمائه وصفاته واحداً أولاً قبل خلقه، وجود المخلوقات لم يزده كمالاً كان مفقوداً، أو يزيل نقصاً كان موجوداً، فالوحدانيّة قائمة على معنى الغنى بالنفس، والانفراد بالكمال، وبكمال الوصف.

قال ابن الأثير: «الواحد» في أسماء الله تعالى هو الفرد الذي لم يزل وحده، ولم يكن معه آخر.

«كانَ الله ولم يكن شيءٌ قَبْلَهُ، وكان عَرْشُهُ على الماءِ، ثُمَّ خَلَقَ السماوات والأرضَ، وَكَتبَ فِي الذِّكرِ كُلَّ شيء» [البخاري عن عمران].

وقال تعالى: ﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف:٥١].

الله سبحانه وحده الذي خلق الخلق بلا معين، ولا ظهير، ولا وزير، ولا مشير، فإنه وحده منفرد بالملك، وليس لأحد في ملكه شرك كما قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سبأ:٢٢].

والواحد هو الفرد الذي لم يزل وحده ولم يكن معه أحد من قبلُ، ولا يزال وحده إلى أبد الآبدين، واحدٌ قبْلاً وبعْداً أزَلاً وأبداً، الله سبحانه وتعالى لم يرضَ بالوحدانيّة لأحدٍ غيرِه، وفي اللغة أيضاً واحدٌ في هذا الباب، واحدٌ في هذا العلم، واحدٌ في هذا الفنِّ، واحدٌ في هذه الخبرة، الواحدُ في اللغة التقدُّم في العلم أو البأْس أو غير ذلك؛ أي: التَّفوُّق، هناك معنيان يليقان بالله عزَّ وجلَّ الوحدانية والتفوق، هو وحده، وواحدٌ لا شريك له، وقبل أن نمضي في الحديث عن هذا الاسم العظيم، نذكر ما قد ورد في الآثار من أنَّه اسم الله الأعظم، هناك واحدٌ وهناك أحد، الله جل جلاله واحد أحد، واحد لا شريك له، وأحدٌ لا مثيل له؛ لا شريك: واحد، ولا مثيل: أحد، فهو واحد أحد فرد صمد.

والعدد أحياناً يأخذ معنيين: معنىً كمياً ومعنىً نوعياً؛ تقول: فلان ترتيبه الرابع في صفّه، فكلمة الرابع لا تعني أنّ عدد طلاب الصّفّ أربعة، ولكنَّ ترتيبه هو الرابع، وهو المعنى النَّوعي للعدد، أمَّا إذا قلنا: جاء أربعة أشخاص فهذا المعنى الكمِّيّ، فإذا قلنا: الله واحد، أي: لا شريك له، وإذا قلنا: الله أحد، أي: لا مثيل له، فكأنّ «أحد» تشير إلى المعنى النّوعيّ، وكأنَّ «واحد» تشير إلى المعنى الكمِّيِّ.

هناك رأي لبعض العلماء في التفريق بين واحد وأحد، فإذا قلت: ما في الدار أحد يعني ليس فيها لا واحد ولا اثنان ولا ثلاثة فإذا نفيت الأخد نفيت العدد الذي بعده، أما إذا قلت ما في الدار واحد فقد يكون هناك أربعة هذا فرق في استخدام كلمة واحد وأحد، ثم شيء آخر ذو بُعد واضح وهو أنك لا تقول: رجل أحد، فكلمة أحد اختصَّ الله بها.

على كلٍّ التَّوحيد مشتقٌّ من الواحد، وكلُّ مؤمن يعلم أنَّه ما تعلَّمت العبيد أفضل من التوحيد، والتّوحيد نهاية العلم، وفحْوى دعوة الأنبياء جميعاً، لكنَّ التَّوحيد توحيدان: توحيدُ ربوبيّة وتوحيد ألوهيّة، فتوحيد الرُّبوبيَّة أن تشهد أنَّ الله سبحانه وتعالى واحد في ملكه، وهو الذي خلق ورزق وأعطى، وهو الذي منع والذي رفع، وهو الذي خفض وهو الذي قبض وبسط وهو الذي أعزَّ وأذلّ، هذا توحيد الربوبية، لا رازق، ولا معطيَ ولا مُحْيِيَ، ولا مُميتَ، ولا مدبِّرَ لأمر الكون كلِّه ظاهراً وباطِناً إلا هو، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولا تتحرَّك ذرَّة إلا بإذنه ولا يحدث حادث إلا بعلمه، ولا تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا يعزب عنه مثقال ذرَّة في الأرض ولا في السَّماء، ولا أصغر ولا أكبر إلا أحصاها علمه وأحاطت بها قدرته ونفذت فيها مشيئته واقْتَضَتْها حكمتُه، فتوحيد الربوبية أن تؤمن أنَّه الواحد في تدبيره وفي ملكه.

أمَّا توحيد الألوهيَّة فأن تعبده ولا تعبد أحداً معه، توحيد الرّبوبية رؤية، لكن توحيد الألوهية أن تعبده وحده، والدين رؤية وعبادة؛ علم وعمل؛ عقيدة وسلوك.

هناك رأي آخر عند بعض العلماء لتوحيد الرُّبوبيَّة وهو أن تعتقد أنَّ لهذا الكون خالقاً واحداً، أمَّا توحيد الألوهيَّة فأن تعتقد أنَّ الله تعالى هو المستحِقُّ وحده للعبادة، فهو المسيِّر وهو المعزُّ والمذلُّ والمحيي والمميت.

نحن أمام حقيقتين: أن نشهد أنَّ الله واحد في ذاته واحد في صفاته وواحد في أفعاله، وأنَّه الخالق والرازق، والمحيي والمميت، وأنَّه المعطي والمانع والرافع والخافض والقابض والباسط.

أحد أكبر مصادر الشَّقاء في الحياة الدُّنيا ألا تكون موحِّداً قال تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٣].

ما الذي يُعذِّب الإنسان؟ أن يرى أمره بيدِ عدوِّه وأنَّه ضعيف وخصْمُه قويٌّ وهو حاقِدٌ عليه. وما الذي يُريحه. أن يرى أمره بيد الرَّحيم وبيد إلهٍ عدلٍ وبيد القدير وبيد الغنيّ وبيد الرؤوف، ما الذي يريحك إذا كنت محقّاً؟ يريحك أن يكون القاضي عادلاً، تقول مثلاً: أنا لا أُبالي فالقاضي يحكم بالحقّ وأنا محِقٌّ، وما الذي يُريحك وأنت موظّفٌ في دائرة؟ أن توقِن أن المدير العام مُنصِف لا يُلقي بالاً للوشاية، يتحقَّق بنفسه، والذي يُريح الإنسان أن يرى أنّ أمره بيد الله، وأنَّ الله لا يمكن أن يقول لك: يا عبدي اعبُدني وأمرك بيد غيره، وحينما يكون أمرك بيد غير الله فأنت مضطر إلى أن تعبد غير الله أما حينما يقول الله لك: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [هود:١٢٣].

فهذا يعني أنَّه لم يأمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك بأنَّ أمرك كلَّه بيده.

هذه الحقيقة لا أفتأ أُكرِّرُها إلى آخر يوم من حياتي؛ لأنَّ القرآن الكريم كلَّه يدور حولها قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف:١١٠].

انظر إلى نفسك ما الذي يقلقك؟ إنّه ضعف التّوحيد والإشراك بالله، وما الذي يخيفك ويقبض قلبك؟ إنّه الإشراك ولا أقول: الجليّ فقط بل الخفيّ أيضاً، وما الذي يُزعِجك؟ أن تعتقد أنَّ زيداً بيده أمرك وهو لا يحبُّك، وأن تعتقد أنَّ رزقك بهذه الجهة وربما تغضب عليك، لذلك حينما توحِّد ترتاح أعصابك وتذهب عنك الشِّدَّة النَّفسيَّة، وترى أنَّك بيد أرحم الرَّاحمين.

هذه العين تُريك أناساً أقوياء يفعلون ما يقولون، والله عزَّ وجلَّ لا يمكن أن تراه بعينك في الدّنيا بل تُدْرِكه بعقلك، فالإنسان بلا جهدٍ عقليٍّ يرى شركاء مع الله بل إنَّ العالم كلَّه الآن يقول: إنَّ هذه الدَّولة قويَّة لأنَّ معها سلاحاً نَوَوياً، وبيدِها مصير العالم، فالعين الظَّاهرة تُريك الأقوياء من البشر، ولكنَّ العقل الراجح مع التَّأمل والتَّفكر والتَّدبُّر والقراءة وحضور مجالس العلم يُريك الواحد الأحد، ألم يقل الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس:٢٤].

هناك دولة لها من القنابل النّوويَّة ما تستطيع أن تُدمِّر الأرض خمس مرات، لا أُنكِر أن هذه العين ترى الأقوياء من البشر، لكنَّ عقلك وإيمانك وتفكرَّك وتدبُّرك لآيات الله يُريك أنَّه جلَّ جلاله بيده كلُّ شيء؛ رؤية التَّوحيد تحتاج إلى جهد وإلى إيمان بكتاب الله وإلى يقين. واعلم أنَّ رؤية التَّوحيد لها ثمن، أمَّا رؤية العين فلا ثمن لها، وكلُّ إنسان إذا رأى بعينه يقول لك: هذا قويٌّ وذاك غنيٌّ، لكنَّك إذا قرأت القرآن، وهو كلام خالق الأكوان وفهمت آياته وتدبَّرْته وصدَّقْته، ورأيت الحوادث كيف تجري؛ فإنّك تستنبط أنَّ كلَّ الأقوياء عِصِيٌّ بيد الله عزَّ وجلَّ يُحرِّكها كيف يشاء، قال تعالى على لسان نبيه هود: ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود:٥٥-٥٦].

إذا وقفت عند إنسان ولك عنده حاجة وهو أقوى منك فيجب أن تؤمن أنَّ خاطِره وقلبه وعينه وطريقة تفكيره وكلَّ ما يُلقى في رُوعه من إلهامات إنّما هي بيد الله وحده، فإذا أراد الله أن يرحمك ألقى في قلبه العطف عليك، وإذا أراد أن يؤدّبك ألقى في قلبه قسوةً عليك: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه:٣٩].

من الذي ألقى في قلب امرأة فرعون محبّة ذاك الطفل حينما رأت طفلاً صغيراً في التابوت؟ إنّه الله، قال تعالى: ﴿ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [القصص:١٢].

فمن الذي حرَّم على هذا الطفل كلَّ هذه المراضِع؟ هو الله، هذا تحريم منع وليس تحريم تشريع، أمّا حينما جاءت أمه التَقم ثدْيَها، فالله عزَّ وجلَّ من خلال قصة سيِّدنا موسى وسيِّدنا يوسُف يُريك أنّ الفعل بيده وحده. والله الذي لا إله إلا هو أحياناً أستمع إلى قصّة أشعر أنّها غذاءٌ لقلبي لأنّها في دلالتها تشير إلى أنَّ الله بيده كلُّ شيء، وقد يظهر فعل الله للنّاس جميعاً وأحياناً يمتحن الله عبده بأن تظهر أفعال القويّ جليّة واضحة ويتبادر لذهنك أنَّ هذا الإنسان يفعل ما يقول، فأين الله؟ هذا امتحان لضِعاف التوحيد، وأحياناً تبدو لك أفعال الله صارخة، فقد تسمع أنّ حريقاً التهم ثلاثين محلاً تجارياً ولم يسلم إلّا محلّ تجاريّ واحد، شيء واضح جداً أنَّ صاحب هذا المحلِّ يدفع زكاة ماله. في إحدى السنوات جاءت حمْلَة الجراد، وأعتقد أنها في الثلاثينيات، فأكلت الأخضر واليابس وأتى الجراد على كل البساتين إلا واحداً في الغوطة إذ بقي كأنَّه قطعةٌ من الجنة بأشجاره وأوراقه، فلما سألوا صاحب البستان قال: أنا أدفع زكاة مالي. إذاً أحياناً ترى فعل الله صارخاً، وأحيانا ترى فعل الإنسان صارخاً، والله في كل الأحوال هو الفعَّال، لكن يَمتَحِن ضِعاف التوحيد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ [طه:١٥].

أحياناً يتمُّ شفاء ذاتيٌّ لمرض عُضال في حين أنَّ الأطباء جميعاً أجمعوا على أنَّ هذا الإنسان لا محالة ميّت، مرض خبيث من الدرجة الخامسة؛ تصوير وتحليل ومخابر

وخمسة أطباء؛ فإذا بالمرض ينحسر شيئاً فشيئاً ويعود المرء سليماً صحيحاً كما كان من قبل، فهذا فعل الله المباشر فالله جلَّ جلاله هو الفعَّال لما يريد.

الحكم بأنَّ الله تعالى هو الواحد يكون بالقول والعلم وبالإشارة بالإصبع، ففي الصلاة تقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

التّوحيد كما قال علي رضي الله عنه «أن تعلم أنّ كلَّ ما خطر ببالك أو توهمته في خيالك أو تصوَّرته في حال من أحوالك فالله جل جلاله وراء ذلك»، والتَّوحيد أن تعلم أنَّ الله واحد في ذاته وواحد في صفاته وواحد في أفعاله، ووحدانيته تشمل هذه المعاني كلَّها، وهو واحد لا شريك له وبصفاته متفرّد بها، وهو الرحمن ولا رحمن سواه، أمَّا أفعاله فهو القهَّار ولا قهَّار سواه، واحد في ذاته لا إله غيره، وواحد في صفاته لا رحمن غيره، وواحد في أفعاله لا قهَّار غيره، وواحد في ذاته لا يتجزّأ ولا يتناهى ليس بمتجزِّئٍ ولا بمتبعِّضٍ، فالله واحد، لكنَّك تجد أشياء من جزءين أو ثلاثة فهناك آلات تُفكِّك، لكنَّ الله واحد في صفاته لا يشبِهه شيء وهو لا يُشبِه شيئاً، وواحد في أفعاله لا شريك له.

وقال بعض العلماء: «الواحد هو الذي تناهى في سُؤْدَدِه، فلا شبيه له ولا شريك يساويه»، وقال بعض العلماء أيضاً: «الواحد هو الذي يكفيك من الكلِّ والكلُّ لا يكفيك من الواحد، يحتاجه كلُّ شيء في كلِّ شيء».

لو أنَّ ستة آلاف مليون إنسان ودُوَلَ الأرض كلَّها وقِواها أرادوا بك سوءاً وكنت مع الله فالله يكفيك كلَّ شيء، هو الذي يكفيك من الكُلِّ والكُلُّ لا يكفيك من الواحد، ولو أنَّ قِوى الأرض وأسلحتهم أرادوا بك خيراً لن تستطيع أن تنجُوَ من عذاب الله، لذلك كنت أردِّد لكم دائماً أنَّ الحسن البصري رضي الله عنه، حينما سأله والي البصرة عمر بن هبيرة عن توجيهٍ أتاه من يزيد بن عبد الملك، وكان تنفيذ هذا التوجيه يغضب الله عزَّ وجلَّ فقال: ماذا أفعل؟ فقال له الحسن: «إنَّ الله يمنعك من يزيد ولكنَّ يزيد لا يمنعك من الله»، فمهما احْتميْت بقويٍّ فهذا القوي لا يمنعك من الله، لكنَّك إذا احْتَمَيْت بالله فإنَّه يمنعك من أقوى الأقوياء، وهذا هو التَّوحيد.

وقيل: «التّوحيد، أي أنَّ الله هو الأحد المنفرد بإيجاد المعدومات والمتوحّد بإظهار الخَفِيَّات»، فالإنسان يصنع شيئاً من شيءٍ؛ طاولة من خشب ومركبةً من حديد، لكنّ الله تعالى يوجِد كلَّ شيء من لا شيء، وهذا الفعل لا يستطيعه إلا الله.

وقيل: «التّوحيد أن ترى أنّ الله واحد في ملكه لا يُنازِعه أحد وفي صفاته ولا يشبهه أحد»، وقيل: «الواحد هو الذي لا ثاني له في الوجود فهو المنفرد ذاتاً وصفات وأفعالاً بالألوهيّة والرّبوبيّة والأزليّة والأبديّة».

إضاءات على الآيات التي ورد فيها اسم (الواحد)

إليكم هذه الآيات الكريمة التي ورد فيها اسم الواحد، قال تعالى: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [البقرة:١٣٣].

يجب أن نشعر أنَّ إله إبراهيم هو إلهنا، وأنَّ إله نبيِّنا ﷺ هو إلهنا، وأنَّ إله الصّحابة الذين نصرهم على أعدائهم هو إلهنا، وأنَّ الله تعالى الذي وعدنا بالتَّمكين بالأرض وبالاستخلاف وبالأمن هو إلهنا، وهو في السماء إله وفي الأرض إله، وفي الأزل وفي الأبد، كيفَ أنَّ الله سبحانه نصر المؤمنين وجعل رايتهم تُرفْرف في مشارق الأرض ومغارِبها؟ هو الله. وهذه آية أخرى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [البقرة:١٦٣].

وهذه آية ثالثة: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ ﴾ [النساء:١٧١].

وفي الأنعام يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأنعام:١٩].

وفي سورة يوسف: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ ﴾ [يوسف:٣٩].

قد يموت الأب وهو يملك معملاً ويخلِّف خمسة أولاد، وهؤلاء الأولاد يتسلّمون هذا المعمل، فالموظَّف الذي عندهم يتلَّقى الأمر من فلان وفلان، أمَّا إن كان للمعمل مدير واحد فالآمر واحد والمسؤولية محدّدة، ومشكلة المشاكل أن يكون لك عدَّة رؤساء تتلّقى منهم الأمر فتقع في حيرة؛ من تُرضي؟ ومن تُغضِب؟ وتهتم بأمر من؟ وتُهمِل أمر من؟ وممّن تقترب؟ وعمّن تبتعد؟ فكلُّهم أقوياء وكلُّهم يأمرونك، هذا مَثَل تقريبيّ، ولو تعامل الإنسان في الحياة الدنيا مع جهاتٍ عديدة لتمزّقت نفسه؛ إن أرضى فلاناً غضِب فلان وإن أعرض عن فلان استشاط الآخر غيظاً فيبقى في حَيرة من أمره، لكن لو كان الأمر بيد واحد لصار التَّعامل سهلاً جداً، لذلك أحد أسباب نجاح المؤمن في حياته عدم التشتت والتمزق والتَّبعْثر فكلُّ قِواه مجمَّعةٌ لإرضاء إله واحد، وفي الحديث الشّريف: «مَنْ جَعَلَ الهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا هَمَّ آخِرَتِهِ كَفَاهُ الله هَمَّ دُنْيَاهُ وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ الله فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ» [سنن ابن ماجة عن عبد الله بن مسعود].

قال الشاعر:

فَلَيْتَـك تحلـو والحيـاة مريـرة وليتـك تـرضى والأنـام غِضـاب
وليـت الـذي بيني وبينـك عـامر وبينـي وبـين العـالمين خـراب
إذا صـحَّ منـك الوصـل فالكـل هَـيِّن وكـلُّ الـذي فـوق الـتراب تـراب
فيـا ليـت شربي مـن ودادك صـافياً وشربي مـن مـاء الفـرات سراب

تجد بعض الأحيان إنساناً شديد الحرص على سُمعته وكرامته؛ لكنّه قد يواجه مواقف مؤذية ففلان لا بدّ أن يعتذر منه والآخر لا بد أن يَدْعُوَه وثالث ورابع.... إلخ، فهذا ذلٌّ وتمزّق، إنما الإرضاء هو إرضاء الرَّبِّ سبحانه وتعالى، ويحاول أن يرضِيَ من رضيَ تحت مظلّة الشّرع لذلك قال سفيان الثوري: من عرف نفسه لم يضرَّه ذمُّ النَّاس

له، هو يحرص على سمعته لكنَّه لا يتمزَّق حينما يُتَّهم ظلماً، فأمُّنا عائشة رضي الله عنها اتُّهمت ظلماً والله برَّأها، والنبي الكريم ﷺ اتُّهم بأنه ساحر وشاعر وكاهن ولكنَّ الله نصره وأعلى مقامه.

قال تعالى: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ ﴾.

قال تعالى: ﴿ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾ [الرعد:١٦].

وفي سورة إبراهيم قال تعالى: ﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [إبراهيم:٤٨].

قد يجد المرء في نفسه أنَّه أقوى الأقوياء وينسى أنَّ الله فوقه، والله سبحانه وتعالى يقهره، فالله عزَّ وجلَّ قهَّار.

قال تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [إبراهيم:٥٢].

المشكلة؛ التَّبَعْثُر بين أقوياء، المؤمن لا يرى مع الله أحداً وعليه أن يرضيه وكفى وقال تعالى: ﴿ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ [النحل:٢٢].

ورحمةً بعباده وإرشاداً لهم، قال تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ ﴾ [النحل:٥١].

تقول له: هذا حرام فعله، وذاك حرام بيعه، فيقول: أبي يريد هكذا! فهذا قد اتخذ أباه إلهاً، وذكر لي أخ أنهم في محلهم يزن العامل بدل الأوقية مئة وخمسين غراماً

ويتقاضون ثمن مئتي غرام، وإذا تكلمت طردني أبي!! فهذا هو الغشّ، وأحياناً يجعل المرء زوجته معبودَه وهو لا يدري، يخاف أن تغضب فلا يُعارِضها ولو أمرته بمعصية! قال تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ ﴾.

وأحياناً يرضي الإنسان من هو أقوى منه ويعصي الله، فهذا يعني أنّه اتخذ إلهين اثنين، حينما ترضي مخلوقاً وتعصي الله فقد اتّخذت إلهين، أنا لا أقول إنك قلت «هذا المرء هو إله» ولكنّك عاملت هذا المخلوق كما عاملت الإله، لكن أستحلفك بالله أيها القارئ الكريم وهذا مثل منتزع من واقِعنا لو كنت في خدمة إلزامية وأمرك العريف بأمر ثم أمرك اللواء بأمر آخر مخالف ونفَّذت أمر العريف فماذا تكون النتيجة؟ أليس حُمقاً؟ فما بالك بمن يطيع المخلوق ويعصي الخالق، فهذا المخلوق لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، نبينا سيِّد الخلق وحبيب الخلق ﷺ والله يعلمه، ومن خلال تعليمه تتعلم الأمة، أمره الله تعالى أن يقول: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف:١٨٨].

ولو انتزعت حكماً من لسان رسول الله ﷺ ولم تكن محقاً ماذا يكون مصيرك يوم القيامة؟! عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قالَ: «إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ الحَنُ بحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئاً بقَوْلِهِ، فَإِنَّما أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فلا يَأْخُذْها» [رواه البخاري ومسلم].

هذا هو الحق، وقال تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف:١١٠].

لو أنّ طبيباً ماهراً وأقبل النّاس على عيادته، يقول لك: ليس لك عندي موعد إلا بعد ثلاثة أشهر، وهناك أشخاص أقوياء لا أمل لك بمُقابلَتِهم، أما ربنا تعالى فيقول: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾.

الآية واضحة في معناها ودلالتها، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً، فأنت بحاجة إلى توحيد واستقامة وعملٍ صالح كي تجد نفسك مع الله، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنبياء:١٠٨].

أي ماذا تنتظرون؟ أنت بحاجة إلى موافقة ولا بد لك من سفرٍ، والسفر ضروري جداً، ومعروض عليك صفقة بالملايين، صعدت الطابق ووقفت على باب مدير الهجرة ثم انصرفت تتذلل لغيره، أليس هذا هو الحمق؟ فليس لك أن تذهب إلى من هو دون المدير وتريق ماء الوجه أمامه؟ فكيف بالله؟ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ أي ماذا تنتظرون؟ أنى تصرفون وأنى تؤفكون وما لكم كيف تحكمون؟ قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الحج:٣٤].

وقال تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٦].

ديننا دين توحيد، وفي سورة الزمر قال تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ [الزمر:٤].

وفي سورة غافر قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر:١٦].

نصيب المؤمن من اسم الله (الواحد)

عَنْ عَاصِمِ بْنِ ضَمْرَةَ السَّلُولِيِّ قَالَ: قَالَ عَلِيٌّ ﷺ: ألا إنَّ الوَتْرَ لَيْسَ بِحَتْمٍ كَصَلاتِكُمُ المَكْتُوبَةِ وَلَكِنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَوْتَرَ ثُمَّ قَالَ: «أَوْتِرُوا يَا أَهْلَ القُرْآنِ أَوْتِرُوا فإِنَّ الله وَتْرٌ يُحِبُّ الوَتْرَ» [رواه مسلم والترمذي].

أي يحب القلب المنفرد بمحبته تعالى، فالله لا يقبل العمل المشترك ولا القلب المشترك، فالعمل المشترك لا يقبله والقلب المشترك لا يُقْبِل عليه.

والدعاء: اللهم إني أسألك أن تملأ قلبي بحُبِّك حتى لا يكون لي همٌّ ولا شغل سِواك، فما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، أنا أغنى الأغنياء عن الشرك:

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ بُرَيْدَةَ الأَسْلَمِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلاً يَدْعُو وَهُوَ يَقُولُ: اللهمّ إِنِّ أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ الأَحَدُ الصَّمَدُ الذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ، قالَ: فَقَالَ: «والذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سَأَلَ الله بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ الذي إِذا دُعِيَ بِهِ أَجابَ، وإِذا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى»، قَالَ زَيْدٌ: فَذَكَرْتُهُ لِزُهَيْرِ بْنِ مُعاوِيَةَ بَعْدَ ذَلِكَ بِسِنِينَ [رواه الترمذي وغيره].

والحقيقة أن هذا البحث في التوحيد بحث ثمين، والتوحيد علم جليل مقتبسٌ من اسم الله الواحد، ونحن ديننا دين توحيد، ونبينا ﷺ واحد، وإلهنا واحد، والحق واحد، وهناك نقطة عميقة المعنى والدلالة وهي أنَّ الله عزَّ وجلَّ ذكر النور مفرداً وذكر الظلمات جمعاً قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة:٢٥٧].

والله تبارك وتعالى ذكر الصراط واحداً وذكر الانحراف متعدداً قال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام:١٥٣].

فالمنهج واحد، والطريق إلى الله واحد، فالوحدانية مقتبسة من أن الله واحد، ومنهجه واحد، والطريق إليه واحد، ومهما تباعد المسلمون في أقطارهم فقِبْلَتُهم واحدة، قال تعالى في وصْفِه بعض المنحرفين: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [النساء:١١٥].

ولتعلم أيها المؤمن أنَّ سبيل المؤمنين واحدة، فالمسلم يحبُّ الله ورسوله ﷺ ولا يكذب ويغضُّ بصره ويحبُّ الخلق جميعاً ويرحمهم، وقّاف عند كتاب الله، ورحيم بأهله، ولا يأكل مالاً حراماً، وهذا حال المؤمنين حيثما وجدوا، لقد صار واضحاً ومعلوماً أنَّ ربّنا واحد، وإلهنا واحد وكتابنا واحد، والطريق المستقيم واحد، والنُّور واحد، والقِيَم واحدة والمبادئ واحدة، والأهداف واحدة، وممّا يجمعنا أُمَّةً واحدة أنّ القِبلة واحدة، ألا تعجب أنّ كلَّ مسلم في الأرض يتجه إلى مكانٍ واحد، فينبغي علينا أن نتوحّد في تآخينا ولا نتدابر، فإذا تفرَّقنا فنحن أشقى النَّاس وأهونهم.

وبعدُ فإن موضوع التوحيد هو الدّين كله، وأختِم البحث بهذه المقولة: ما تعلَّمت العبيد أفضل من التوحيد، والتوحيد نهاية العلم، والتقوى نهاية العمل.

القهّار

سمّى الله جلّ جلاله ذاتَه العليَّة بهذا الاسم في كثير من نصوص القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ١٦﴾ [الرعد:١٦].

أما ورود هذا الاسم في السُّنَّة المطهَّرة، ففي حديث عائشة رضي الله عنها أنَّها قالت: قلت: يا رسول الله: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ والسماوات وَبَرَزُوا لله الوَاحِدِ القهّار، قالت: فقلت أين النَّاس يومئذ يا رسول الله؟ قال: على الصِّراط» [مسلم عن عائشة].

وورد أيضاً في صحيح الجامع الصَّغير أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم كان إذا تضوَّر قال: «لا إله إلا الله الواحد القهّار ربُّ السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفَّار».

تضوَّر من الليل: تقلّب من جنبٍ إلى جنب أثناء النوم.

من معاني اسم الله (القهار)

«القهار» على وزن فعَّال، وهي من صيغ المبالغة، مبالغةِ اسم الفاعل، قهر، يقهر، فهو قاهر، اسم فاعل، وقهَّار صيغة مبالغة، وصيغ المبالغة دائماً تعني مبالغة الكمِّ، فهو يقهر الطُّغاة مهما كثروا، و يقهر أكبر طاغية مهما بلغ.

أما الفرق بين القاهر و «القهّار» فالقاهر هو الذي له علوُّ القهر، بأي مكان، بأي مؤسسة، بأي دائرة هناك رجل قوي، قد يكون هو المدير العام، وقد يكون إنساناً آخر، لكنّ هناك شخصاً أمره نافذ، لا أحد يستطيع أن يعارضه، هذا الرجل بمعنى «القهار»، أي إرادته نافذة.

فالله قاهر لأنَّ له علوَّ القهر الكليِّ المطلق على جميع المخلوقات، وعلى اختلاف تنوُّعهم، فهو القاهر فوق عباده، والبطولة أن تكون مع القويِّ، فإذا كنت مع القوي فأنت قويٌّ، وإذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكَّل على الله، لكنَّ التَّوكل على الله لا يكون إلا بأن تكون مستقيماً على أمره، فإذا أردت أن تكون أقوى الناس قاطبة فتوكّل على الله، إذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثقَ منك بما في يديك، إذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتقِ الله.

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

وأسماء الله الحسنى لا تتغير في مستوياتها، فالطَّبيب أحياناً يكون لديه معلومات محدَّدة فيعالج مريضاً في ضوء معلوماته، وبعد حين ينال شهادة أعلى فتصبح معالجته أعمق في ضوء ما كسبه من علم جديد، فكلَّما ارتقى علمه ارتقى مستوى معالجته، فهذا ينطبق على الإنسان، لكن لا يجوز أن ينطبق على الذّات الإلهيَّة، فأسماء الله الحسنى لا تفاوت فيها، فقد يأتي اسم غير مبالغ به كالقاهر، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام:٦١].

وقد يأتي بصيغة المبالغة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر:١٦].

فأسماء الله الحسنى إذا وردت بصيغة المبالغة فالمقصود منها التكرار وليس النوع لأن مستوى أسماء الله الحسنى لا يتبدَّل.

فالله عز وجل حكيم في خلق النملة وفي خلق المجرة، حكيم، بالنسبة نفسها، في خلق أصغر المخلوقات وفي خلق أكبرها، عليم بكل شيء، أسماؤه من حيث المستوى ثابتة لا تتبدَّل، فإذا تبدلت فبحسب المخلوقات لا بحسب الخالق، ولكن إذا ورد اسم مبالغ به فهو لمبالغة التكرار.

الإنسان أحياناً يحارب عدواً ويقهره، وقد لا يتمكن أن يقهر عدواً ثانياً أو ثالثاً، أمّا ربُّنا الواحد القهّار فيعني أنَّ كلَّ المخلوقات مقهورة بالنسبة إليه، وبشكل دائم ومستمر.

قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [يوسف:٢١].

والله غالب على أمره، هذا مغزى قصة سيدنا يوسف عليه السلام، هذا المغزى الموجَز، والقصَّة بأكملها في تفصيل هذا المغزى.

قصة أخرى يتجلى فيها اسم القهّار، سيِّدنا موسى مع فرعون، فرعون الذي أراد أن يذبح أبناء بني إسرائيل جميعاً ليمنع تحقُّق رؤيا قد رآها، وهي أن طفلاً من بني إسرائيل سوف يقضي على ملكه، فالله عز وجل قهره بأنَّ الطِّفل الذي سيقضي على ملكه ربَّاه في قصره، والحقيقة أنَّ كلَّ أفعال الله عزَّ وجلَّ تصدر عن أسمائه، أو أن أفعاله كلَّها فيها أسماؤه كلُّها، وهذا ما يدعو إلى تفسير بعض الآيات التي ورد الحديث فيها عن ذات الله بضمير المفرد وبعض الآيات التي ورد الحديث فيها عن أفعال الله بضمير الجمع.

﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ ﴾ [طه:١٤].

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ ﴾ [ق:٤٣].

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الإنسان:٢٣].

فإذا جاء الضَّمير مفرَداً فللتعبير عن ذات الله، وإذا جاء جمعاً فللتعبير عن أنَّ أسماء الله الحسنى جميعَها واردةٌ في أفعاله، وأحياناً ربُّنا عزَّ وجلَّ يجمع أسماءه بإيجاز، فمثلاً: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الرحمن:٧٨].

فالجلال صفة تُشعر بالعظمة، والإكرام صفة تُشعر بالعطاء، فأنت في حياتك اليومية قد تتعامل مع إنسان تعظِّمه ولا تحبُّه وقد تتعامل مع إنسان تحبُّه ولا تعظِّمه، والبطولة أن تجمع بين التعظيم والمحبَّة، فربُّنا -عزَّ وجلَّ- هو في جلال ورفعة وعظمة وعلوِّ شأن وكبرياء وجبروت وقهر وقدرة وغنىً، وهو كذلك رحيم لطيف ودود كريم عفوٌّ غفورٌ، هناك أسماء متعلقة بالجلال، وهناك أسماء متعلقة بالإكرام، وقد وردت هذه الأسماء في آيتين، قال الله تعالى: ﴿ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرحمن:٢٧].

﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الرحمن:٧٨].

روى الترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث أنس رضي الله عنه قال: كنت جالساً مع النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد ورجل يصلي فقال: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، المنّان بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم! أسألك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لقد دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سُئل به أعطى».

يقول الله عز وجل: ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الشورى:٥٣].

الإنسان يعجب!! هذا كلام الله، فَلِمَ يقول الله: ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الشورى:٥٣] ألا إلى الله تصير الأمور، فهي أين كانت؟ بيد من كانت؟ فإذا قلنا: صار الأمر في هذا الموضوع إلى زيد يعني أن زيداً لم يكن الأمر بيده من قبل؛ فالواقع أنَّ معظم الناس في غفلة عن الحقيقة، فعامَّة النَّاس يرون أنَّ الأمر بيد الأشخاص، وأنَّ

القرار بيد فلان، أو صانع القرار فلان، وفلان هذا يفعل، يقولون مثلاً: «إذا رفعك فلان يرفعك إلى السماء، وفلان إذا غضب جعلك في أسفل سافلين»، هذا كله شرك، هذا الوهم الأعمى، ففي يوم القيامة جميع المخلوقات ترى أن الملك لله الواحد القهّار، لكن في الدنيا لا يرى هذه الرؤيا إلا المؤمن أما في الآخرة فهذه الرؤية عامَّة شاملة.

وفي كتاب «المستطرف» للأبشيهي أنَّ كعب الأحبار وجد كلمات مكتوبة في التوراة فكتبها وهي: «عبدي خلقت لك السموات والأرض ولم أعْيَ بخلقهن، أيعييني رغيف أسوقه إليك كلَّ حين. لي عليك فريضته ولك عليَّ رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك. وعزتي وجلالي إن لم ترض بما قسمته لك فلأسلِّطن عليك الدنيا، تركض فيها ركض الوحش في البرية ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي، وكنت عندي مذموماً».

هذا الأثر يعطي معنى القهّار، أمر الله هو النافذ، الأمور كلُّها تدور وتدور، ولكنَّ أمر الله هو النافذ كيفما دارت الأمور ومهما تقلَّبت.

هناك أشخاص يقرؤون بعض الكتب، التي تتحدث عن مكر اليهود في العالم، يقولون لك: هذا المخطط يهوديّ.

اليهود بشر يخططون ويمكرون، وهم من أخبث خلق الله مكراً وخداعاً، ولكنَّ الفعل ليس إليهم، الفعل فعل الله، فإذا آمنت بأنهم فعَّالون، وأنَّ كلَّ ما يجري في العالم من تخطيطهم فقد ألَّهتهم وأنت لا تدري، لكن أحياناً يقع في الأرض شيء ممَّا خططوه فهم خططوه وقل: إنَّ خطَّة الله استوعبت خطَّتهم، فالله عزَّ وجلَّ قد يوظِّف مكرهم في تأديب بعض العباد بدليل قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنعام:١٢٩].

حينما تقول: فلان يفعل، فقد وقعت في الشِّرك وأنت لا تدري، والصَّواب أن تقول: والله غالب على أمره ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون.

القهر في اللغة يعني الغلبة، قهره أي: غلبه، أو صرف الشيء عن طبيعته، وهي طبيعةٌ قويَّة قهريَّة، وجعلته ضعيفاً على سبيل الإلجاء، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾ [الضحى:٩].

لعلك تعلم أيها القارئ العزيز أن لله عز وجل أسماء ذات وأسماء صفات وأسماء أفعال، وقد قال العلماء: القهر قدرة على وصف مخصوص، كما أن الرحمة إرادة على صفة مخصوصة، والقاهر هو القادر على منع غيره أن يفعل بخلاف ما يريد، فالقدرة صفة لله عز وجل في ذاته، قدرة على نحو مخصوص يمنع الآخرين عن أن يفعلوا ما يريدون، مشيئته هي النافذة، أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، واسم القهّار له علاقة وشيجة بالتوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

فإذا قلنا: إن اسم القهّار هو قدرةٌ على نحو مخصوص من أسماء الذات، إذا قلنا: هو فعلٌ يمنع الآخرين عن أن يفعلوا ما يريدون فهو من أسماء الأفعال.

قال بعض المحققين: إنه قهار للعدم، فالعدم ما سوى الله عزَّ وجلَّ، ما سوى الله كان عدماً فأوجده الله فهو ممكن، وهذا الشيء الموجود بقدرة الله عز وجل لا يستمر وجوده إلا بقدرة الله، قال الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝٤١﴾ [فاطر:٤١].

السموات والأرض هذا تعبير قرآني عن الكون، الكون كلُّه كواكب ونجوم ومجرَّات، الكون كلُّه يتحرَّك، ولو لم يكن متحرِّكاً لأصبح الكون كلُّه كتلة واحدة والدليل أنَّ هناك قوى التجاذب بين الكواكب والنّجوم والمجرَّات والمذنبات، فالنَّجم الأكبر يجذب الأصغر، وهذا الجذب يتناسب مع الكتلة ومع مربع المسافة، والقانون معروف «جداء الكتلتين مضروب بمربع المسافة» هذه قوة الجذب، قوة الجذب لا تُرى بالعين كما لو جئت بمغناطيس، ووضعت مسماراً، وحركت المغناطيس يتحرك المسمار، فهناك قوة جذب، وقوى التجاذب هذه أودعها الله في الكون لحكمة بالغة، فلو لم

يتحرّك الكون لأصبح كتلة واحدة، فالكوكب الأكبر يجذب الأصغر، فما الذي يمنع؟ فمثلاً أمسك وعاء ماء وحركه حركة دائرية سريعة فإنك تستغرب!! فحينما كان في الأعلى وفيه ماء فلماذا لا ينزل الماء؟ فقوة النبذ تمنعه من النزول، وكثير من الآلات أساسها القوة النابذة كتجفيف الثياب في الغسالات، وآلات عصر الفواكه... إذاً مع الدوران تنشأ قوة نابذة، هذه القوى النابذة تكافئ القوى الجاذبة، فلولا أن الكون يتحرك لأصبح كلُّه كتلة واحدة.

الأرض تدور حول الشمس منذ ملايين السنين ولم تنجذب إلى الشمس قال الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر:٤١].

معنى: ﴿أَن تَزُولَا﴾، يعني: أن تنحرف كلٌّ منهما عن مسارها، والذي قهر هذه النجوم وجعلها تبقى على مسارها هو الله عَّز وجلَّ، فالله عزَّ وجلَّ قهَّار للعدم، فهذا الشيء الذي خلقه أصله لا شيء، إذاً هو أصله العدم سبقه العدم وينتهي إلى فناء، كل شيء يسبقه العدم وينتهي إلى فناء فهو ممكن، أما الله سبحانه وتعالى فهو واجب الوجود، لا أول له ولا آخر له، هو الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية.

ربنا سبحانه وتعالى قهار للعدم، بمعنى أن هذا الممكن ممكن بقدرة الله، وممكن بإمداد الله، وممكن بتسيير الله، وفي أي لحظة يوقف الله عز وجل عن هذا الممكن تجليه وإمداده ينعدم الممكن، هذا معنى قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

يعني قيام كل شيء في الكون بالله عز وجل.

أول معنى يستفاد من معاني القهر أن الله عز وجل قهر الممكن، وجعله قائماً، جعله مستمراً، جعله موجوداً، قال الله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه:٤٩-٥٠].

لو تُرك وحده لكان معدوماً، فكأنَّ جوهر الممكن هو العدم ولولا قدرة الله القاهرة في الممكن لما كان هذا الممكن موجوداً.

فأنت وجودك بالله عز وجل، والدليل أجهزة الإنسان، دماغه مثلاً مئة وأربعون مليار خلية، الإدراك، الإحساس، الذاكرة، المحاكمة، التّصور، التّخيل، الغدد الصّماء، كلُّ هذه الأجهزة أساسها أنَّ الله عزَّ وجلَّ يُمدّك، وينقطع الإمداد عن الإنسان عند الموت.

وازن بين إنسان في أوج نشاطه، يتحرّك، يفكّر، يحاكم، يتصرّف، يرى، يسمع، يشمّ، يلمس، يأخذ مواقف، ينشئ مشاريع، يترك بصمات في المجتمع وبين جثة هامدة، الفرق بين الجثة الهامدة وهذا الإنسان الممتلئ نشاطاً وحيويةً هو الإمداد الإلهي، هو القهّار، الله عز وجل قهر المادة فجعلها تفكّر، وتسمع وتعقل وترى وتشمّ وتبصر وتمشي وتتحرك وتغضب وتفرح وتحزن، لو أن إنساناً وضع على ميزان قبل أن يموت بدقائق ومات فلا يخسر عند الموت شيئاً من وزنه، هي قوة الله عز وجل، هذه الروح هي سرُّ حياته، ولما سلبت منه عاد إلى ماديّته فقط.

قال بعض المحققين: القهّار للعدم والوجود، لأن الممكن لو ترك وحده لكان معدوماً، فكأنَّ ماهية الممكن تقتضي العدم إلا أنّه سبحانه وتعالى منزَّه، يقهر هذه الحالة ويبدِّل العدم للوجود.

مثلاً الشمس عمرها خمسة آلاف مليون سنة، هذا عمر مديد، وللشمس طاقة لا تخبو، هل عندنا على الأرض مصدر طاقة لا يخبو؟ شخص ملأ خزان الوقود في سيارته بعد مئتي كيلومتر ينفد، أمّا هذه الشمس فهي من خمسة آلاف مليون عام لا تنفد ولا تنتهي، هذا المعنى الأول، يعني بدّل العدم وجوداً واستمراراً إلى حين.

المعنى الثاني: إنَّ أصغر كوكب في الفلك أضعاف جرم الأرض، ثم إنَّ هذه الأفلاك مع ما فيها من كواكب يمسكها الله تعالى بقدرته معلقةً في الهواء كما قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر:٤١].

بعض العلماء يقولون: في الحياة أربع مواد أساسيَّة هي الماء والهواء والنّار والتّراب، وهذه كلها متنافرة والله سبحانه وتعالى بقوته القاهرة ألَّف بينها، من معاني قهره أنَّه ألَّف بين المتنافرات، فأنت لا تستطيع أن تجعل البحر يحترق، والبحر ماء، لكنَّ ربَّنا عزَّ وجلَّ قال: ﴿ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ﴿٦﴾ ﴾ [الطور:٦] سجر النار يعني أشعلها، كيف؟ أنت بالماء تطفئ النار، لكنَّ هذا الماء مكوّن من هيدروجين وأكسجين، الهيدروجين من أشدِّ العناصر احتراقاً، والأكسجين من أشدِّ العناصر مساعدةً على الاحتراق، والمحصِّلة ماء يطفئ النار، فالله عزَّ وجلَّ بقدرته يجعل من هذا البحر ناراً، فمن معاني قهر الله عزَّ وجلَّ أنَّه يؤلف بين الأشياء المتنافرة، وهذه العناصر الماء والهواء والنَّار والتُّراب كلُّها متنافرة ومع ذلك تأتلف في المخلوقات. وهذا هو المعنى الثالث.

شيء آخر، إن الرُّوح جوهر لطيف، روحانيّ نورانيّ والبدن جوهر كثيف مظلم وبينهما منافرة عجيبة، ومع ذلك أسكن الله الروح في هذا الجسد بقهره.

مثلاً إن كان لديك معدن تريد صقله؛ فيقال لك: إنَّ هذا المعدن لا يلتحم بلحام ألمنيوم يحتاج إلى لحام خاص، فهل يلتحم الألمنيوم بلحام حديد؟ طبعاً لا؛ لأنهما متنافران، فالله عزَّ وجلَّ جعل الروح نورانيَّة خفيفة سماويَّة، وجعل الجسم مُنشدّاً للأرض، ومع ذلك ألَّف بينهما في هذا الإنسان، فالإنسان جسد ونفس، أحياناً تتلألأ نفسه ويبدو هذا على وجهه، وأحياناً تظلم نفسه، ويبدو هذا على وجهه. فالإنسان كائن فيه عنصر سماويّ وعنصر أرضيّ، لكنَّه أخلد إلى الأرض واتبع هواه، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [التوبة:٣٨].

يعني اتَّجهت نحو الأرض، اتجهت نحو الشهوات، نحو الدنيا.

المعنى الرابع من معاني القهّار: أنَّ الله تعالى يذلُّ الجبابرة والأكاسرة تارةً بالأمراض، فترى ملكاً من كبار الملوك عقيماً وهو يحبُّ زوجته، فهو يدفع ألوف الملايين على أن تنجب فلا تنجب.

ملك ثانٍ يصاب بمرض، ولا يشفى منه ولو بذل الغالي والرخيص، فمن معاني القهّار أنَّ الله قهر العباد كلَّهم بالموت، لا نبي ولا رسول، ولا قوي ولا غني، ولا صحيح، ولا مريض ولا فقير، ولا رفيع ولا وضيع، ولا ملك ولا وزير، إلا ويموت ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزمر:٣٠] والنبي ﷺ يقول: «لا إله إلا الله إن للموت سكرات» [رواه البخاري وأحمد من حديث عائشة].

الله تعالى يذل الجبابرة والأكاسرة تارةً بالأمراض وتارة بالنكبات وأخيراً بالموت.

المعنى الخامس: إن العقول مقهورة عن الوصول إلى كنه صمديته والأبصار مقهورة عن الإحاطة بأنوار عزَّته، فإياك أن تقول: أنا أدرك عظمة الله لأنَّ من معاني الإدراك الإحاطة، فإذا أمسكت شيئاً صغيراً تعرف طوله وعرضه ووزنه، عقلك يصل إلى الله، لكنَّك لا تستطيع أن تحيط به، لأن الله عزَّ وجلَّ لا يعرفه إلا الله، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾ [الإسراء:٨٥].

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:٢٥٥].

عقلك يصل إليه وتعرفه بالقدر الذي يشاء، فعقل الإنسان مقهور عن إدراك كنه صمديَّته، فالإنسان العاقل لا يطمع أن يجيب عن كل سؤال متعلق بالله عزَّ وجلَّ فليس معناه أنَّه جاهل.

سأل إنسانٌ آخر عن البحر فقال: هذا البحر كم يساوي من الليترات؟ نظر إليه وقال: هذا أمر بسيط ثمانية وستون مليون وسبع مئة وستة وستون لتراً، فهذا يكون

جاهلاً ما دام أعطى رقماً، قال لك: كم لتراً حجم هذا البحر؟ وليس لديك حجوم ولا مقاييس لأعماق البحار، فلو سُئلت: كم حجم هذا البحر؟ فإذا أعطيت رقماً كنت جاهلاً، وإذا قلت: لا أدري كنت عالماً، كلمة لا أدري هي العلم، وكلمة أدري هي الجهل، لذلك قالوا: عين العلم بالله هو عين الجهل به، وعين الجهل به هو عين العلم به، فكلما قلت: أدري، وكل سؤال له عندي جواب، وأنا أعلم كلَّ شيء، فهذا دليل قطعي على أنَّك لا تعلم، هذا ما يتعلق بذات الله عز وجل، فلا أحد يمكن أن يحيط بها.

المعنى السادس: ربُّنا قهَّار فهناك حوادث لا تعلم كنهها فقل: سبحان الله! لا أدري ما حكمتها.

بلد وقع فيه زلزال قُتِل فيه تسعون ألفاً، هناك حكمة، ولكن لا أعرفها، فعقلي قاصر عن إدراك الحكمة، ليس من المفروض أنَّه كلَّما وقع أمامي مشكلة أن أعطي التفسير البسيط، قد يكون التفسير البسيط ساذجاً، فإذا قلت: إنهم أصيبوا بسبب معاصيهم، فهذا الكلام ليس عامّاً، فالمؤمن أحياناً يُبتلى، فالأكمل ألا تدَّعي أنَّك تعرف كلَّ شيء، ولا تعرف خباياه، فمثلاً مرض الإيدز إن قلت: إنه بسبب انحراف السلوك الأخلاقي وهو عقاب عاجل للعصاة، للفجار، ممكن، لكن هناك أشياء صعب تفسيرها، فمثلاً: لماذا هذا الشعب فقير؟ لعل الله عز وجل اقتضت حكمته ذلك.

المعنى السابع والشامل، إن جميع الخلق مقهورون لمشيئته، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:٢٥٥].

مثلاً عندك مئة جهاز في البيت كهربائيات، وعندك مفتاح الكهرباء الأساسي فإذا أغلقته فسوف تتوقف كلُّ الأجهزة، البرّاد والغسّالة... إلخ، فالقوى المحرِّكة بيد الله عزَّ وجلَّ، لا يستطيع إنسان أن يتحرَّك إلا بمشيئة الله، إذاً هو القهّار، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وبالجملة لا ترى شيئاً سواه إلا مقهوراً له تحت أعلام عزَّته، ذليلاً في ميادين صمديَّته، هناك معانٍ أخرى للقهَّار، بعض العلماء يقول: «القاهر هو الذي قهر نفوس

العابدين»، ولله المثل الأعلى تكون فتاة جميلةٌ جداً، والخاطب غارق إلى قمة رأسه في حبِّها، فتتحكَّم فيه لجمالها، وكذلك صاحب القوّة كقوّة المال، يتحكم في الضعفاء، لذلك قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [البقرة:١٦٥].

كل القوى مصدرها من الله عزَّ وجلَّ، إذا أقبلت على الله تسعد أضعاف ما يسعد من أحبُّوا أناساً من بني جنسهم، إذا أقبلت على الله تغنى أضعاف ما يحس به الأغنياء في الدنيا، إذا أقبلت على الله تشعر بقوةٍ أضعاف ما يشعر بها الموالون للأقوياء.

القهّار هو الذي قهر نفوس العابدين فحبسها على طاعته، العباد لما أقبلوا على الله، وصلوا، سعدوا، فحبسوا أنفسهم على طاعته، فالله قهرهم بجماله، قهرهم بكماله، قهرهم بتجليه، فالمحب لم يعد يريد من الدنيا شيئاً.

فما مقصودهم جنات عدن ولا الحور الحسان ولا الخيام
سوى نظر الحبيب فذا مناهم وهذا مطلب القوم الكرام

شاب تعرَّف على فتاة في دمشق فخاف أهله أن يقع في شباكها فأرسلوه إلى بلد أجنبي بعيد جداً ليدرس في الجامعة، وأعطوه قسط الجامعة، وكان مبلغاً كبيراً، أنفق كلَّ هذا المبلغ على مكالمات هاتفيَّة ليتصل بها، فهي قهرته بجمالها.

فلو عرفت الله عزَّ وجلَّ لقهرك جماله، ولقهرك كماله، فالقهّار هو الذي قهر نفوس العابدين فحبسها على طاعته، وهو الذي قهر قلوب الطالبين فآنسها بلطف مشاهدته.

نصيب المؤمن من اسم الله (القهار)

إنَّ المؤمن حقاً يعرف القهّار، فمتى يكون ذلك؟ إذا عرف حجم عبوديته، فمن عرف نفسه عرف ربه، ومن عرف ربه عرف نفسه، كلمة سأفعل كذا وكذا، وسأعطي وسأمنع، هذا كله يبتعد عنه المؤمن لأنه يتنافى مع اسم الله القهّار.

ولكن يمكن أن يكون المؤمن قهاراً بمعنى خاص، أن يقهر شهوته، وأن يقهر متعلَّقات شهوته، لأنَّ شهوته هي أعدى أعدائه، فإذا قهر ميله وشهوته وهواه فمعنى ذلك أنه انتصر على ذاته، هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات:٤٠-٤١].

فكلُّ إنسان ينساق مع شهواته وميوله وأهوائه، يتكلّم كلاماً لا يرضي الله عزَّ وجلَّ، يغتاب الناس، يأخذ ما ليس له، فمعنى ذلك أنه ينساق مع شهواته ومع رغباته، فهو مقهور لشهوته.

إذاً عليك أن تقهر شهوتك التي هي أعدى أعدائك، إن فعلت هذا فقد حققت في نفسك هذا الاسم العظيم، بهذا الاسم تعرف ربك، وبهذا الاسم تتخذ السبيل إلى طاعته ومحبته ومرضاته.

الكبير

ورد هذا الاسم مقترناً باسم المتعالي في قوله تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩ ﴾ [الرعد:٩].

وقد ورد أيضاً مقترناً باسم العليِّ في عدَّة مواضعَ منها قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٦٢ ﴾ [الحج:٦٢].

وقد ورد أيضاً في السّنّة الصحيحة في صحيح البخاريّ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النّبيَّ ﷺ قال: «إذا قضى اللهُ الأمرَ في السماءِ ضرَبت الملائكةُ بأجنحتها خُضْعانا لقوله، كأنه سِلْسِلةٌ على صفوان فإذا فُزِّعَ عن قلوبِهِمْ قالوا: ماذا قال ربُّكُمْ؟ قالوا للذي قال: الحقَّ، وهو العليُّ الكبيرُ، فَيسمعُها»

منْ معاني اسم الله (الكبير)

الكبير من صيغ المبالغة على وزن فعيل، كبِر يكبَر كبراً فهو كبير، والكِبَر نقيض الصّغر، وكبُر بالضّمّ أي عظُم.

كلمة كبير تستخدم للأشياء المتّصلة والأشياء المنفصلة، ويكون الكبر في اتّساع الذّات وعظمة الصّفات، فقد ترى إنساناً صغير الجسم، قصير القامة، ناتئ الوجنتين، غائر العينين، مائل الذقن، أحنف الرجل، وهو إنسان كبير، وقد ترى إنساناً عظيم الهيئة، طويل القامة، عريض المنكبين، وهو عالم كبير، قال تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةً فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِ﴾ [البقرة:٢٤٧].

وقال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ٥٨﴾ [الأنبياء:٥٨].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ٥٢﴾ [الفرقان:٥٢].

فسمّى الله تعالى جهاد الدعوة إلى الله، جهاد تعليم القرآن، جهاد تبين السنة، جهاد تبين الأحكام الفقهيّة، جِهَاداً كَبِيراً، والجهاد على مستويات، أولها جهاد النّفس والهوى، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت:٦٩].

لذلك أثر عن إبراهيم بن أبي عبلة أنّه قال حينما عاد من غزوة: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهادِ النفس والهوى.

والجهاد الثاني هو الجهاد الدعوي.

ثم الجهاد البنائيّ ويعني أن تسهم في بناء الأمة، أن تكون لك بصمة في الحياة.

ثم الجهاد الرابع وهو الجهاد القتالي نصرة للدين وإعلاء لكلمة الله في الأرض

لا تنظر إلى صغر الذنب ولكن انظر على من اجترأت. لهذا قالوا: ذنب المنافق كالذّبابة بينما ذنب المؤمن كجبل جاثم على صدره، وكلّما عظُم الذّنب عندك صغُر عند الله، وكلّما صغُر عندك عظُم عند الله، فهناك مذنب وهناك من يضيف إلى ذنبه ذنباً آخر وهو عدم الاهتمام بهذا الذنب.

«وإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً» [الترمذي عن أبي هريرة].

والكبير هو الذي كبر وعلا في ذاته، قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥].

روي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ما السماوات السبع والأرضون السبع في يد الله إلا كخردلة في يد أحدكم.

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧].

وهو الكبير في أوصافه، فلا سميَّ له ولا مثيل ولا شبيه له ولا نظير، قال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم:٦٥].

وهو الكبير في أفعاله فعظمة الخلق تشهد بكماله وجلاله قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر:٥٧].

وهو سبحانه وتعالى متَّصف بالكبرياء ومن نازعه ذلك قصمه وعذّبه، لأن الله عز وجل يقول: «الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ» [أبو داود، ابن ماجه، أحمد عن أبي هريرة].

لو اجتمعت قوى الأرض وتضافرت وتعاونت وتآمرت على أن تفسد على الله هدايته لخلقه فإنها لا تستطيع، لا تقلقوا على هذا الدين، إنّه دين الله، بل ينبغي أن نقلق على أنفسنا ما إذا سمح الله لنا أو لم يسمح أن نكون جنوداً له.

المعنى الأول المتبادر لاسم الكبير أنّه في مقابلة الصّغير، هذا شيء صغير، وهذا شيء كبير، وهذا أكبر... إلى آخره، قاسيون جبل، لكنّك إذا وازنته بجبل الشّيخ فجبل

الشّيخ أكبر، وإذا وازنت جبل الشّيخ بجبال الألب، فجبال الألب أكبر، وإذا وازنت جبال الألب بجبال الهملايا فجبال الهملايا أكبر.

الكبير يقابله الصغير... موظّف بسيط في دائرة لا بأس به، لكنّه أمام المدير العام صغير، والمدير العام أمام الوزير صغير، هناك مراتب في السلطة، يوجد موظّف عنده صلاحيّات وموظّف صلاحياته أكبر، معلّم الصّفّ أمام المدير صغير، مدير المدرسة أمام مدير التّربية صغير، لأنّ مدير التربية يشرف على محافظة بأكملها، ومدير التربية أمام وزير التربية صغير، فالكبير بهذا المعنى: ما يقابل الصغير.

إنسان يملك مئة ألف، هو أمام صاحب المليون صغير، ومبلغ المليون أمام المئة مليون صغير، ومبلغ مئة المليون أمام الألف مليون صغير، لكنَّ هذا المعنى لا يستقيم في ذات الله عزَّ وجلَّ لأن الله عزَّ وجلَّ تعالى عن المقدار والحجميّة، ليس له مقدار وليس له حجم، فالله منزّه عن أن يكون له حيّز أو جهة أو مقدار أو حجم؛ ليس بمتجزِّئ ولا مُتبعِّض ولا بمُتناهٍ، وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك.

إذاً: ما معنى الكبير في حق الله عزَّ وجلَّ؟ قالوا: هناك الكبير في الدرجات العقلية، فمثلاً قد تلتقط صورة لمجموعة أشخاص، وقد يكون أقوى إنسان بهذه الدائرة، أو أقوى إنسان بهذه المجموعة، وزنه خمسة وخمسون كيلو، وإلى جانبه معاونه ووزنه مئة وثلاثون كيلو فأيهما الكبير؟ الصغير بحجمه هو الكبير، إذاً عندنا كبير بحسب الحجم وبحسب الوزن، وعندنا كبير بحسب القوّة وبحسب العلم، فربنا عزَّ وجلَّ إذا قلنا: كبير، تعالى عن أن يكون له حيز أو حجم أو مقدار، لكنَّ الله سبحانه وتعالى هو الكبير المطلق، المنزّه عن النّقائص سبحانه، ليس كمثله شيء.

المعنى الثاني لكلمة كبير: يعني كبير بمعنى أنه كَبرَ عن مشابهة المخلوقات، يعني الله عزَّ وجلَّ أكبر من أن يشبه خلقه، وأكبر من أن يشبهه أحد من خَلْقه، وكلّ ما يخطُر ببالك فالله بخلاف ذلك، كلمة كبير في حق الله عزَّ وجلَّ أنّه ليس كمثله شيء، هو أكبر من ذلك.

لذلك لا يجوز مثلاً أن يظهر النبيّ ﷺ ولا غيره من الأنبياء في عمل فنيّ، لأنّ الذي سيقوم بدوره إنسان عاديّ، والنّبيّ أكبر من ذلك، وأعظم من ذلك، هنا معنى الكبير يعني مُنزّه عن أن يشبه خلقه.

أمّا الأكبر؛ فيعني أنّ الله عزّ وجلّ هو أكبر من كلّ خلقه، وهنا شيءٌ بديهي، لكنّ الإنسان قد يتجه إلى بعض المخلوقين تعظيماً لهم، فإذا أخبرناهم أن الله أكبر من هذا الذي تعبدونه أو تعظمونه من دون الله فليس القصد أن نقيم موازنة بين الله وخلقه، ولكنّ القصد أن نصرف هذا الإنسان عن الشّرك إلى التّوحيد، وعن الاتجاه إلى ما سوى الله ونصرفه فقط إلى الاتجاه إلى الله عزّ وجلّ، وأنّ كلّ مَنْ دونه لا يوازن به، فإذا ذكرنا معنى الكبير من هذه الزاوية فلِكيْ نوحّد الله ولا نُشرك به شيئاً.

لكن المعنى الآخر، كلمة الأكبر، يعني أكبر مما عرفت، فمهما تعرّفت إلى الله عزّ وجلّ فهو أكبر مما تظنّ، مهما تخيّلت قدرة الله عزّ وجلّ فهي أكبر مما تخيلت، مهما تصورت رحمة الله عزّ وجلّ فهو أكبر رحمةً مما عرفت، هذه كلمة «الله أكبر».

نحن نبدأ الصلاة بقولنا: الله أكبر، أي: إذا أردت أن تصلي وساورتك وساوس وانشغلت بها، فإلى أين أنت ذاهب؟ الله أكبر، فمثلاً إذا دخل الإنسان -فرضاً من باب التمثيل- إلى غرفة وزير، فإنّ رفعةَ منصبه، وكِبَرَ شأنه يدعو مَن عنده إلى النظر إليه لا إلى سواه، أي أنه قلّ ما تجد إنساناً في حضرة عظيم يتشاغل عنه بسبحة أو بجريدة أو بحاجة، أو بنظر إلى أطراف الغرفة، فإذا كنت في حضرة إنسان له قيمة فلا بدّ أن تتّجه إليه، فهذا معنى قول: «الله أكبر» أي: اتّجه إلى الله عزّ وجلّ، والمعنى الأعمق من ذلك أنّه جلّ جلاله أكبر ممّا عرفت.

من قوانين النّفس الإنسانيّة أنّها لا تُقبل إلا على كبير، وإلا على عظيم، لا تختار إلا الكبير، لا تُعجَب إلا بالعظيم، هذا من خصائص النّفس البشريّة، لذلك حينما يتعرّف الإنسان إلى الله عزّ وجلّ ترتاح نفسه لأنّ فطرتها كذلك، اختارت الكبير، اختارت الملك، اختارت العظيم، اختارت الرّحيم، اختارت القويّ، اختارت العليم،

اختارت السَّميع، هذا معنى قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف:١٨٠].

هناك توافق بين خصائص النَّفس البشريَّة وأسماء الله الحسنى بمعنى أنَّ في جِبلَّتِكَ تعظيماً للكبير، والله هو الكبير، وأنّ في جِبلَّتِكَ ميلاً إلى الرحيم، والله هو الرحيم، وأنّ في جِبلَّتِكَ إقبالاً على الكريم، والله هو الكريم، فكلُّ أنواع الاضطراب وأنواع الضياع وأنواع التَّشتُّت تتبدَّدُ إذا تعرَّفْتَ إلى الله عزَّ وجلَّ وتطمئنُّ بعدها نفسُك، هذا معنى قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد:٢٨].

وإنّي لأقول دائماً وأُردِّد: ما من إنسان على وجه الأرض إلا ويبحث عن شيئين: سلامته، وسعادته، ولو عَلِمَ الإنسان أن جِبلّتَهُ، وطبيعته، وخصائص نفسه، ومبادئ تركيبه، قائمةٌ على حُبِّ الكمال، والله هو الكامل كمالاً مطلقاً، لاتَّضحت له الحقيقة، وانتهى كلُّ إبهام، فما الذي ينفّر النَّفس؟ أن تتوقَّع الكمال في جهة ثم تُفاجأ بأنَّها ليست أهلاً لذاك، هؤلاء الذين يتعلّقون بأشخاص ادّعوا الكمال وهم ليسوا كذلك يصابون بنكسةٍ كبيرةٍ جدّاً في حياتهم، لكن إذا تعلّق الإنسان بالله عزَّ وجلَّ لن يُفاجأ بأنَّ الله ليس كما اعتقد فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ [المدثر:٥٦].

وقال سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المدثر:٥٤].

فالدِّين يُذكّر بأصول الفطرة ويجلِّيها، فالسيَّارة مثلاً، مصنَّعة لتسير على طرق معبَّدة، كلُّ شيء فيها منتظَم، ترتاح في قيادتها، ترتاح في تحريكها، تتملَّك زمامها، إذا هي سارت على طريق معبَّدة، فإنَّها صنعت لهذا الطريق، وصُنع هذا الطريق لها، لكن حينما تخرج عن الطرق المعبدة، تشعر باضطراب، بخلل، باختلال توازن، بأصوات، بعثرات، بمتاعب لا حصر لها، أريد أن أقول: إذا عرف الإنسان اللهَ عزَّ وجلَّ اهتدى

إلى فطرته، ووجد نفسه، وقال بعض الحكماء: وجدتُ نفسي حينما تعرفت إلى ربّي، خصائص النَّفس أساسها أنّها تطمئنُّ إذا عرفت العظيم، لاحظ نفسك، في مجلس مع أشخاص متعدّدين، وفيهم شخص متكلّم متألّق ذكيٌّ قويٌّ، فإنَّك تجد نفسك طوال السَّهرة متجهاً إليه وأنت لا تدري، قد تُغفل كلَّ الحاضرين، قد لا تعبأ بهم، قد لا تنظر إليهم، فإذا أيقنتَ أنَّ الله هو الكبير وهو العظيم وهو الرَّحيم وأنَّ أسماءه كُلَّها حسنى توجَّهت إليه وحده، ما الدِّين في حقيقته إلّا التفات إلى الله عزَّ وجلَّ، ومن الكافر إلا الذي أعرض عن الله وتوجّه إلى ما سِواه، هذا متّجه إلى دنيا يصيبها، أو امرأة ينكِحها، أو مالٍ يجمعه، أو منصبٍ يُحصِّله، أو وَجاهة يحقّقها، وهذا المؤمن متّجهٌ إلى الله عزَّ وجلَّ.

قال تعالى: ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ﴿٢١﴾ ﴾ [الإسراء:٢١]. فالممرِّض غير الطَّبيب، والجنديُّ غير اللواء، والبائع المتجوِّل غير التَّاجر الكبير، فالتُّجّار درجات، وأهل العلم درجات: ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ﴿٢١﴾ ﴾.

أمّا يوم القيامة فعدد الدَّرجات أكبر، والمسافات بين الدَّرجات أكبر، نحن في الدنيا يستوي عظيم الشأن مع حقير الشأن في الطَّعام والشَّراب فكلُّنا تُشبِعُهُ لقيمات، كلّنا يرتاح إذا دخل غرفة دافئة في الشّتاء، هناك قواسم مشتركة كثيرة جداً بين أنواع الناس وأقسامهم، ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ يبيِّن أنَّ مراتب الآخرة كثيرة جداً ومتفاوتة جداً، ومراتب الدّنيا لا تعني شيئاً لقرب زوالها وتحولّها، لكنّ مراتب الآخرة تعني كلَّ شيء لدوامها وبقائها، مراتب الدّنيا تحول وتزول بالموت، عند الموت يستوي الغنيّ والفقير، يستوي الصَّحيح والمريض، يستوي الوسيم والدّميم، يستوي القويُّ والضَّعيف، يستوي كبير القوم وصغيرهم، يستوي سراةُ الناس وصعاليكهم، إذاً هذه الدَّرجة التي تبوّأها لا تعني شيئاً، لأنّها لا تدوم، وقد يكون عظيم الشأن في الدنيا فقيراً عند الله، وقد يكون عظيم الشأن عند الله في حياة خشنة، ودخله محدود، بيته صغير، وعياله كُثُر، زوجته

ليست كما يريد، قد يكون ذلك، ولكنَّ علوَّ الدَّرجات في الآخرة يعني المقام السامي، إنّما تعني مرتبته الحقيقيّة عند الله عزَّ وجلَّ، إنّما تعني الخلود في هذه المرتبة إلى أبد الآبدين، لذلك قال تعالى: ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ ﴾.

عنِ ابْنِ عُمَرَ قالَ: بَيْنَما نَحْنُ نُصَلِّي مَعَ رَسُولِ الله ﷺ إِذْ قالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: اللهُ أَكْبَرُ كَبيراً، وَالحَمْدُ لله كَثيراً، وسُبْحَانَ الله بُكْرَةً وأَصيلاً، فقالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنِ القائِلُ كَلِمَةَ كَذَا وكَذَا؟» قالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: أنا يا رَسُولَ الله قالَ: «عَجِبْتُ لَها فُتِحَتْ لَها أَبْوابُ السَّماءِ» قالَ ابْنُ عُمَرَ: فَما تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ ذَلِكَ [صحيح مسلم].

هذه الكلمات كلمات الإسلام كلمة «أشهد أن لا إله إلا الله»، كلمة «سبحان الله»، كلمة «الله أكبر»، كلمة «لا حول ولا قوة إلا بالله»، كلمة «إن شاء الله»، هذه الكلمات لها معانٍ عظيمة، لكنَّ النّاس مع استخدام هذه الكلمات استخداماً كثيراً دون علم بمضمونها أفقدوها معناها، فيقول: إن شاء الله، إذا أراد أن يُخلف وعده، أو أراد ألا يُسدِّد ما عليه من دين!!

كلمة «الله أكبر» تقولها إذا رأيت مثلاً آلة عظيمة صنعها الغرب، فقد قلتَها في معرض التعجب، هذه ليس من شأنها أنْ تُقال في هذا الموطن، بل إذا رأيت آية من خلق الله عزَّ وجلَّ واستعظمت خالقها فإنّك تقول: الله أكبر، هذه الكلمات التي نردِّدها الله أكبر، سبحان الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، هذه لو عرفنا معناها حقيقة لكُنّا في حال غير هذه الحال؛ لذلك ربُّنا عزَّ وجلَّ يقول: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف:٤٦].

ما الباقيات الصالحات؟ قال بعضهم: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، فإذا قرأت الآية شعرت أنّ مَنْ عنده مالٌ كثير أو جاهٌ عريض أو حياةٌ ناعمة،

فكلُّ هذا شيء تافه أمام: الله أكبر، سبحان الله والحمد ولا إله إلا اله والله أكبر؟....
نعم لأنّك إذا قلت: سبحان الله حقيقة فقد سبّحته، وإن قلت: الحمد لله حقيقة فقد حمدته، وإن قلت: الله أكبر فقد كبَّرته، وإن قلت: لا إله إلا الله فقد وحَّدْته، فإذا سبحته وحمدته ووحَّدته وكبَّرته فقد عرفته، وإذا عرفته عرفت كلَّ شيء، وسعدت بهذه المعرفة إلى الأبد، وهذه لا يدانيها متاع الدّنيا كلُّه ولو كثر.

أيها القارئ الكريم، الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الجاثية:٣٧].

إنَّ الله عزَّ وجلَّ وصف نفسه أنَّه كبير، وأنَّه عظيم، وبأنَّ له الكبرياء، وإذا أمرنا أن نُكبِّره، وإذا أمرنا أن نُعظِّمه، فإنّما ذلك لكي نَسعَدَ به ونُقبل عليه، وكي نُحقِّق الهدف من خلقنا.

أحياناً قد ترى إنساناً يتحدث عن نفسه تيهاً وازدهاءً من أجل أن يتكبّر على من حوله، من أجل أن يتيه عليهم، لكنَّ الله سبحانه وتعالى إذا قال: وهو الكبير المتعال، وله الكبرياء في السموات والأرض، وإذا أمرنا أن نُكبِّرُهُ تكبيراً: ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ ﴾ [المدثر:٣].

فما ذلك إلّا لنعرف قدره ومن ثمّ نسعد بهذه المعرفة.

قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾ [التوبة:٧٢].

وقال تعالى: ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [العنكبوت:٤٥].

حقّاً ما قيل: إنّه لا يكبر عليكم شيء ما دامت كلمتكم: الله أكبر، فأنت قد تكذب لأنّك تخاف من إنسان كبير، ففي حياة كلِّ إنسان شخص بإمكانه فيما يبدو أن

يفعل وألا يفعل، وأن يعطيك أو أن يمنعك، أنت شئت أم أبيت لك حجم مالي محدود، لك حجم في القوّة محدود، لك حجم في المراتب الاجتماعية محدود، هناك من هو أقوى منك، هناك من هو أكثر منك مالاً، هناك من هو أعظم منك جاهاً، فأنت كلّما واجهت من هو أكبر منك، من هو أعظم منك، من هو أشدُّ منك قوةً، من هو أبرع منك حيلةً، من هو أسمى منك درجةً في العلم، وقلت: الله أكبر فأنت اتّجهت إلى من هو أكبر منه.

وقف مرّةً رجل بين يدي الحَجَّاج وكان مقدِماً على قتله، فقال هذا الرجل: أيّها الأمير؛ أسألك بالذي أنت بين يديه أذلُّ مني بين يديك، وهو على عقابك أقدرُ منك على عقابي إلا نظرت في أمري نظرَ من يرى بُرئي أحبَّ إليه من سقمي، فعفا عنه.

إنَّه لا يكبر في نفسك شيء ما دامت كلمة «الله أكبر» هي شعارك، أحياناً يكبُرُ المرض، فإذا قلت: الله أكبر، فهذا يعني أنَّ الله قادر على شفائك التّام من هذا المرض، أحياناً يكبر عدوّك، فإذا قلت: الله أكبر صَغُرَ هذا العدوّ، وإذا قلت: الله أكبر صَغُرَ هذا المرض، وإذا قلت: الله أكبر فإنَّ حيلَة خصمك المحكمة تُخفق، لذلك أنت معك سلاح لو عرفت قيمته لكنت في أعلى عليين، ولكنَّ البلاء يكمن في أننا نردّد بعض الكلمات، ولسنا في مستوى مضمونها؛ تقوىً ويقيناً بل تقال جوفاء مفرّغة من مضمونها.

نصيب المؤمن من اسم الله (الكبير)

قال العلماء: «حظُّ العبد من هذا الاسم أن يجالس العلماء، ويصاحب الحكماء، ويخالط الكبراء».

أنت إنسانٌ لك شخصية، وهذه الشّخصية لها خصائص، لك علم، لك مشاعر، لك خبرات، لك ذكريات، لك تجارب، فإذا صاحبت من هو دونك فهذا شيء، وإذا صاحبت من هو في مستواك فذاك شيء آخر، وإذا صاحبت من هو فوقك فذلك شيء ثالث.

التّوجيه: «جالس العلماء، وصاحب الحكماء، وخالط الكبراء» لتقتبس منهم، فإذا صاحبت من هو في مستواك فليس في إمكانك أن تستفيد منه، وليس في إمكانه أن

يستفيد منك، ندٌّ لندٍّ، فأنت إذا صاحبت من هو في مستواك يمكن أن تمضي معه وقتاً ممتعاً، ولكن ربما لن تستفيد منه شيئاً، تستمتع في الجلوس معه دون أن تستفيد منه، لأنّه في مستواك وأنت في مستواه، خبراتكما مشتركة، معلوماتكما مشتركة، لكنّك إذا صاحبت مَن هو فوقك في العلم أو في المعرفة أو في القدر أو في الكمال، أو في الخبرة في الحياة، فإنّك تستفيد منه، ما دام الإنسان مجبولاً على حُب العظيم أو حب الكبير، إذاً عليك أن تصاحب من تراه ثقةً وأهلاً لصحبتك فتستفيد من علمه تارةً، ومن أدبه تارةً، ومن خبرته تارةً، ومن أسلوبه في الخطاب تارةً أخرى، هذه بعض التوجيهات بالنسبة لحظ العبد من هذا الاسم.

وقال المحقّقون: العلماء على ثلاثة أقسام؛ العلماء بأحكام الله فقط، فقيه متفوق بالفقه، فأيُّ سؤالٍ طرحته عليه، يجبْك: لقد ورد في حاشية كذا وفي المصنف الفلاني مَع الحكم الشرعي لهذا السؤال، هذا اسمه عالم بأحكام شرع الله فقط، إذاً هؤلاء العلماء هم أصحاب الفتوى، إذا أردت أن تستفتي في شيء فاذهب إليهم، لأنّهم متفوّقون في معرفة أحكام الشريعة.

وهناك علماء بذات الله تعالى فقط، يعرف الله عزَّ وجلَّ ويعرف أسماءه الحُسنى، يعرف صفاته الفُضلى، يعرف عَظَمَةَ الله عزَّ وجلَّ، مستقيمٌ على أمره، مقبلٌ عليه، فهؤلاء الذين عَلِموا طرفاً عن ذات الله فقط هم الحكماء، إذاً هناك علماء وهناك حكماء، ولقد سبق أن قلت: من ازداد علماً ولم يزدَدْ هدىً لم يزدد من الله إلا بُعداً، يعني نما علمه الشرعي ولم تنمُ معرفته بالله عزَّ وجلَّ، ولم تَرقَ عبادته إلى المستوى المطلوب فقصّرَ في معرفة الله، وفي طاعته وتفوق في الأحكام الشرعية، من ازداد علماً ولم يزدد هدىً لم يزدد من الله إلا بُعداً. لا بد من أن تتحرّك على خطين اثنين، على خط معرفة الله ومعرفة أمره، وما أكثر ما ذكرت وكرّرت وأنا أتحدث أو أكتب في هذا الموضوع، هناك عالمٌ بالله، وهناك عالمٌ بأمره، وهناك عالمٌ بخلقه.

أمّا العلماء بخلق الله عزَّ وجلَّ فهم العلماء المشهورون في الفيزياء وفي الكيمياء والرياضيات والفلك والتاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع، وفي هذه العلوم البحتة كالرياضيات التطبيقية والكيمياء العضوية وما إلى ذلك.

العلمُ بخلق الله شيء، والعلمُ بالله شيء، والعلمُ بأمره شيء، وعلامةُ العلم بأمره أنّك تجيب عن أي سؤال متعلّق بأمره، وأما العلمُ بذاته فعلامته طاعتك له، وحينما تعصي الله عزَّ وجلَّ فأنت لا تعرفه.

فالعلماء هم الذين عرفوا الأحكام الشرعية، وهم الذين يُقصَدون في الفتوى، والحكماء هم الذين عرفوا الله عزَّ وجلَّ، وعلامة معرفتهم لله طاعتهم له وإقبالهم عليه، ووصولهم إليه، أمّا أجمل ما في الموضوع فهو قول العلماء: إنّ الكبراء هم الذين عرفوا أحكام الله؛ الأحكام الشرعية وعرفوا ذاته العلية، هؤلاء هم الكبراء.

أَخْبَرَنا زَيْدٌ العَمِّيُّ عَنْ بَعْضِ الفُقَهاء أَنَّهُ قالَ: «يا صَاحِبَ العِلْمِ اعْمَلْ بعِلْمِكَ وأَعْطِ فَضْلَ مالِكَ، واحْبِسِ الفَضْلَ مِنْ قَوْلِكَ إلا بشيءٍ مِنَ الحَدِيثِ يَنْفَعُكَ عِنْدَ رَبِّكَ، يا صَاحِبَ العِلْمِ إنَّ الذِي عَلِمْتَ ثُمَّ لَمْ تَعْمَلْ بِهِ قاطِعٌ حُجَّتَكَ ومَعْذِرَتَكَ عِنْدِ رَبِّكَ إذا لَقِيتَهُ، يا صاحِبَ العِلْمِ إنَّ الذِي أُمِرْتَ بِهِ مِنْ طَاعَةِ الله لَيَشْغَلُكَ عَمَّا نُهِيتَ عَنْهُ مِنْ مَعْصِيَةِ الله، يا صاحِبَ العِلْمِ لا تَكونَنَّ قَوِيّاً في عَمَلِ غَيْرِكَ ضَعيفاً في عَمَلِ نَفْسِكَ، يا صَاحِبَ العِلْمِ لا يَشْغَلَنَّكَ الذِي لِغَيْرِكَ عَنِ الذِي لَكَ، يا صاحِبَ العِلْمِ جالِسِ العُلَماءَ وَزاحِمْهُمْ وَاسْتَمِعْ مِنْهُمْ وَدَعْ مُنازَعَتَهُمْ، يا صَاحِبَ العِلْمِ عَظِّمِ العُلَماءَ لِعِلْمِهِمْ، وَصَغِّرِ الجُهَّالَ لِجَهْلِهِمْ ولا تُباعِدْهُمْ وَقَرِّبْهُمْ وعَلِّمْهُمْ» [سنن الدارمي].

الكبير من النّاس هو الذي عرف الله حقَّ المعرفة، وأقبل عليه حقَّ الإقبال، وعرف أحكامه التكليفيّة حقَّ المعرفة، فقد حصَّل المجد من طرفيه، إنّك إذا رأيت عالماً بالله ومعلوماتُه في الشريعة ضعيفة قد لا تُعجب به، وإن رأيت عالماً في الشريعة ومعرفته بالله ضعيفة قد لا تُعجب به، لكنّك إن رأيت من يجمع بين العلم بالله والعلم بأحكام

الشريعة فهذا من الكبراء، وقديماً قالوا: من تفقّه ولم يتحقّق، فقد تفسّق، ومن تحقّق ولم يتفقّه فقد تزندق.

فإذا تركت علم الشريعة جانباً، ولم تستقم عقيدتك، واعتمدت على التأمُّل فقط ربما نطقت بما هو زندقة أو بما يشبه الزندقة، وإذا تعرّفت إلى أمر الله فقط ولم تعرف عظمته فربما خالفت أمره.

فنحنُ بين أنموذجين، أنموذج أتقن أحكام الشريعة وغفل عن أحكام الحقيقة، ونموذج عرف الحقيقة وما عرف الشريعة، لكنّ الكبراء هم الذين عرفوا الحقيقة والشريعة، تحقّقوا وتفقّهوا، عرفوا أحكام الله التكليفيّة، وعرفوا ذاته العليّة، فهذا حظ العبد من هذا الاسم.

إنّه جلّ جلاله ذو الكبرياء، والكبرياء عبارة عن كمال الذات، وكمال الذات، أي: كمال الوجود، وكمال الوجود يرجع إلى شيئين اثنين، دوامه أزلاً وأبداً، فكلُّ وجود يسبقه عدم فليس كاملاً، وكلُّ وجود ينتهي إلى عدم فليس كاملاً، نحن كما نسمَّى في علم التّوحيد (حادث) لأنّه سبقنا عدم، وسيأتي بعدنا العدم، أمّا الله تعالى فكلّ شيء هالك إلا وجهه، فالكبير ذو الكبرياء، والكبرياء كمال الذات، وكمال الذات هو كمال الوجود، وكمال الوجود يرجع إلى شيئين؛ دوامه أزلاً وأبداً، أمّا الثّاني فوجوده ذاتيّ، وسبب كلِّ وجود، أمّا وجود مخلوقاته فليس ذاتيّاً، بل متوقِّف على مشيئته، كُنْ فيكن، زُلْ فيزول، ما شاء اللهُ كان وما لم يشأ لم يكن.

وبعد، فإن الوقوف عند هذا الاسم على مخلوقاته يجلّي الأمر واضحاً، وهو مما يعين على فهم البحث: فمن تطبيقات هذا الاسم على العباد القول مثلاً: فلان كبير، الحقيقة هنا معنى عميق الدّلالة جداً، فكلمة «كبير» إذا وصف بها الإنسان فليس الكامل في ذاته بل الذي تسري كمالاته إلى غيره، هنالك عنصر خامل، وعنصر مشعٌّ، وعنصر فاعل وعنصر منفعل، من هو الكبير من الناس، فمثلاً عالمٍ لكن ما عَلَّمَ أحداً، كامل ما كَمَّلَ أحداً، فهذا ليس كبيراً، أمَّا إذا كنت عالماً ووصل علمُك إلى الآخرين

فأنت كبير عند الله عزَّ وجلَّ، إذا كنت كاملاً وسرى كمالُك إلى الآخرين، يعني تخلَّقوا بأخلاقك، وتعلَّموا من علمك، أي: إذا فاض الإناء على غيره فهو الكبير، هذا معنى آخر من معاني الكبير من العباد.

إذاً الكبير الكامل في نفسه المُكمِّل لغيرِه، العالم في نفسه المعلِّم لغيره، أنت إذا بقيت وحدك ولو كنت في أعلى مستوى فلست كبيراً عند الله، يعني باللغة الواقعية أنانيّ، أنت حصَّلت معرفة واكتفيت بها، أنتَ نلت كمالاً واكتفيت به، لكن أين كمالُكَ؟ إنْ لم يسرِ هذا الكمال إلى الآخرين؟ لذلك فالشّيء الذي يلفت النّظر أنّ الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾ [العصر:١-٣].

«تواصوا بالحق»، يعني أنَّ هناك جزءاً كبيراً من نشاط المؤمن هو الدعوة إلى الله، فمثلاً: رجل مؤمن إيماناً عالياً وزوجته جاهلة، عاصية ويقول: أنا لا علاقة لي بها، هي وشأنها، ألست مؤمناً؟ وآخر يدّعي الإيمان ولا يُعنى بأولاده، ولا يهتمّ بإيمانهم، ولا يهتمّ باستقامتهم، شيءٌ لا يُصدّق، هو مؤمن إيماناً عالياً وله شريك لا يصلّي، وشارد وتائه، وترضى به، وتسكت عنه، ولا يقلقك أمره، إذاً: فلست عند الله كبيراً، لن تكون عند الله كبيراً إلا إذا سرى عِلمُكَ، وسرَتْ أخلاقُكَ، وسرت دعوتُكَ إلى الآخرين، هذا المعنى الذي ذكره بعضهم فيما تنطوي عليه كلمة كبير من العباد.

شيءٌ آخر مهم: هو أنَّ الله عزَّ وجلَّ حينما يراك تُعظِّمُهُ ولا تخاف من خلقه فأنت عنده مقرّب، لكنه إذا رآك ترتعد فرائصك أمام كلِّ إنسان وتنسى الواحد الدّيّان، تسعى إلى إرضاء النّاس وتنسى ربَّ النَّاس، تخشى النَّاس ولا تخشى الله، فأنت عند الله صغير.

أحياناً يكون الإنسان مسلماً وموحِّداً، لكنَّه يخاف مما يخاف النّاس دائماً، ويقول: ما هذه الحياة كلُّها خوف؟ إذاً هذا الذي يخاف وماله حرام ودخله حرام وأفعاله منحرفة لا بد أن يخاف، وله أن يخاف، لكنَّ المؤمن إذا ظنَّ أنَّ الله سيعاملُهُ كما يعامِل

أهل المعصية والفجور فقد وقع في سوء الظَّنِّ بالله عزَّ وجلَّ، أنت تقع في سوء الظّنّ بالله إذا ظننت أنَّ الله سيعامل المؤمن كما يعامل الفاسق، وإني أقول: إذا خِفتَ أن تعامَل كما يعامَل الفاسق الفاجر، فهذا الخوف عقوبة لك على سوء ظنّكَ بالله، الله عزَّ وجلَّ يحبُّكَ أن تعتمد عليه، يحبُّك أن تثق به، يحبُّك أن تتوكَّل عليه، كما يحبُّك أن تعتزَّ به.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٩].

يجب أن يُرافق الإيمانَ معنويات عالية، يرافق الإيمان ثقة بالله عزَّ وجلَّ، يرافق الإيمان شعور بالتفوق، رأوا أحد أصحاب رسول الله ﷺ، يمشي مشية كأنها مشية كِبر، فقالوا: أكِبْرٌ في الإسلام؟ قال: لا، هذا عزُّ الطاعة، حينما تطيع الله عزَّ وجلَّ يجب أن تعتزَّ بطاعتك... يقول أحدهم: أنا لا أشرب الخمر لأنَّ لديّ قرحةً في المعدة، لا، بل يجب أن يقول: لا أشرب لأنَّ هذا شراب محرّم في ديني، أتستحي بأمر الله عزَّ وجلَّ؟ فهذا المسلم الذي يخاف الله عزَّ وجلَّ يذكر للناس ألف مسوغ ومسوغ لعدم شربه الخمر، على أنه مصاب بقرحة ونحو ذلك، ولا يجرؤ أن يقول: هذا حَرَّمَه الله عزَّ وجلَّ، وأنا ملتزم، فهو مهزوم، ولكن إذا قلت: أنا لا أشرب لأنَّ الله حرّمَ شُربَ الخمر، وافعلوا ما تريدون انتهى الأمر، ارتقيت في مدارج عزَّة الإيمان.

المقصود أن تعتزَّ بالله، أن تثق به، أن تعتمد عليه، أن تتوكَّل عليه، هذا إذا كنت تراه كبيراً، هذا إذا كانت كلمتك (الله أكبر) حقيقة فأنت تقول: (الله أكبر) في الصلاة، وتسمع الله أكبر كلَّ يوم خمس مرات في الأذان، وتقول: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، في كلِّ حركة من حركات الصلاة، لذلك ذكرت مراراً وأكدّت على ما ذكرت: إنَّ الذي يقول: (الله أكبر) ويطيع مخلوقاً ويعصي خالِقَهُ فكأنّه ما قالها ولا مرّة، ولو قالها بلسانه مئة ألف مرة، إذا قلت: (الله أكبر) وخشيت الناس ولم تخشَ الله فما قلت: الله أكبر ولا مرّة، إنّ الذي نسعى إليه، أن نَدَعَ الشكليات، والكلمات الجوفاء والكلمات المستهلكة، وأن نعود إلى أصل الدّين وإلى جوهر الدّين، من عصى خالِقَهُ، وأرضى مخلوقاً فما قال:

الله أكبر ولا مرّة ولو ردّدها بلسانه مئة ألف مرة، فإن أرضى زوجتَه مثلاً وعصى ربه، فما قال: الله أكبر، الحقيقة بلا مجاملة وبالكلمة بالصريحة: إن رأيت رضاها أكبر عندك من رضاء الله عزَّ وجلَّ فلا حظَّ لك أبداً مما قلت، وحينما تطيع مخلوقاً وتعصي خالقك، فقد رأيت رضاء هذا المخلوق أكبر عندك من رضاء الله، وهذا واقع الكثيرين، لكن حينما تقول: الله الكبير، ولا أفعل سوءاً ولو قُطِّعتُ إرباً إرباً، فالآن قلت: الله أكبر.

فما جدوى أن تقول: الله هو الكبير والمتكبّر والكبير المتعال والعلي الكبير وذو الكبرياء، والكبير الذي تعالى عن أن يشبه خلقه والكبير هو في الدرجات العقلية، فما جدوى كلِّ هذه المعلومات المهمّة عن اسم الكبير ما دُمتَ تتجه إلى المخلوق وتنسى الخالق، لذلك علامة المؤمن ألا تأخذه في الله لومةُ لائم، ولا يرى أحداً أكبر من الله، وإذا قال: الله أكبر فهو فعلاً أقوى الناس، لأنك إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكّل على الله، لذلك هناك امتحانات دقيقة في الحياة، خلاصتها أنَّ الله عزَّ وجلَّ يضعُكَ أمام ظرفٍ صعب، قد تُغلَقُ الأبواب كلُّها في وجهك، ثمّ يُفتح باب واحد، باب معصية، فإذا قلت: ماذا أفعل لا حول لي ولا قوّة، وأرجو الله ألا يؤاخذني، معنى ذلك رأيتَ حاجتك إلى هذا الشيء أكبرَ من رضوان الله تعالى، ويجب أن تتذكّر الآية التي قرآناها قبل قليل: ﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران:١٥].

هل تعلمون ما سياق هذه الآيات؟ الحديث عن الجنة، يعني بعد أن ذَكَرَ الله لنا في القرآن الكريم الحديث عن الأشجار وعن الجنات التي تجري من تحتها الأنهار وعن أنهار اللبن وعن أنهار العسل المصفى وعن الحور العين، عن الولدان المخلدين، وعن كلِّ ما في الجنة من مباهج قال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢] أي: إذا كان الله راضياً عنك، وإحساسك بهذا الرِّضا أكبر عندك من كلِّ شيء، فهذه أكبر غاية يسعى إليها المؤمن ويرجوها عند الله سبحانه.

وبعد فإن آخر ما يجب عليّ الإشارة إليه: إذا شعرت أن الله راضٍ عنك، فهذا الشعور أكبر غاية تتحقق لك في الأرض، كنتُ مرةً أقول؛ حينما قال الله عزَّ وجلَّ، وحينما قرر في كتابه الكريم أنه رضي عن أصحاب رسول الله ﷺ، فقال تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الفتح:١٨].

قلت عندها: والله ما في الأرض كلِّها لا في قديم الزمان ولا في حديثه ولا في المستقبل، ولا في كل القارات، ولا في شتّى المجالات ولا في كل المناحي، من مرتبة أعظم من أن يرضى الله عنك، وما جدوى أن يرضى عنك المخلوقون جميعاً ولم يرض الله عنك؟!!

﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾ [الغاشية:٢٥-٢٦].

ما ينفعك أن يرضى الناس جميعاً عنك، وما ينفعك أن تكون مُعظَّماً عند النّاس كلِّهم، ولست عند الله عظيماً؟ فرضا النّاس إلى زوال ولكن رضا الله باقٍ أبداً.

﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [الأنعام:١٢٤].

﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الكهف:١٠٥].

﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [المطففين:١٥].

﴿ وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا

كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس:٥٩-٦٥].

ما قيمة الدنيا كلِّها لو أنّك كنت تملك الدنيا بحذافيرها وليس لك عند الله شأن؟! سمعت عن شركة من الشركات الكبرى في العالم عندها فائض، هي في حيرة من أمر توظيفه؛ أربعة آلاف مليون دولار فائض نقدي عند شركة سيارات، لا تعرف كيف توظّفه، لو أنَّ الدّنيا كلّها لك، لو أنّ هذه الشركة لك، لو أنّ القارات الخمس بما فيها من مصانع هي ملك لك ولم يكن الله عنك راضٍ فما قيمة الدّنيا كلِّها؟!

أنت أيها المؤمن قد تكون من عامّة النّاس في الحياة الاجتماعيّة، فإذا كنت تعرف الله عزَّ وجلَّ وكان الله راضياً عنك، فأنت عند الله عظيم الشّأن، وعن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «إن أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذ، ذو حظ من الصلاة أحسن عبادة ربه، وأطاعه في السر، وكان غامضاً في الناس، لا يشار إليه بالأصابع، وكان رزقه كفافاً، فصبر على ذلك، ثم نَقَر بإصبعيه فقال: عجلتْ منيته، قَلَّتْ بواكيه، قَلَّ تراثه» [رواه أحمد والترمذي وابن ماجه].

قد تكون طالباً، قد تكون موظّفاً في الدرجة العاشرة، قد تكون مساعد كاتب، قد تكون صاحب محل صغير مساحته متر بمتر، لكنّك تعرف الله ومستقيم على أمره فأنت عند الله عظيم، لذلك حينما قال إبراهيم بن الأدهم: «والله لو يعلم الملوك ما نحن فيه من السعادة لقاتلونا عليها بالسيوف»، والله كلامه صحيح، لو كُشف الغطاء وعَلِم ملوك الأرض ما أنت فيه من مرتبة عليّة عند الله لنافسوك وقاتلوك.

أمّا أهلُ الدنيا فهانَ أمرُ الله عليهم فهانوا على الله، ترى حياته تافهة عند الله، لم يبالِ في أي أوديتها هلك، تراه يموت ميتة سيئة بشعة حقيرة، يقول ﷺ: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء» [رواه الطبراني وصححه الألباني] يموت كالجيفة، يموت وهو يعصي الله، يموت ولا يدري به أحد، لكنَّ المؤمن له عند الله شأنٌ كبير.

الله هو الكبير، وأنت أيها الإنسان قد خُلقت له، فالتّراب للنّبات والنّبات للحيوان والحيوان للإنسان والإنسان لمن؟ للواحد الدّيّان، قال تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٥٦].

لا يليق بك أيّها الإنسان أن تكون لغير الله، لا يليق بك أن تُجيَّر لغير الله، لا يليق بك أن تُحسب على غير الله، لا يليق بك أن تكون لإنسان، إنّك للواحد الدّيّان، ولمجرد أن تخضع لإنسان وأن ترى خيرك بيده وشرَّك بيده فقد عصيت الإله العظيم، وهبطت إلى مستوى لا يليق بك.

بطولتك أن تكون لله، أنت له ولست لغيره، تتعامل مع المخلوقين، أمّا قلبك فلله وحده، وفي الحديث الشّريف: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أَخِي وَصَاحِبِي» [أخرجه البخاري عن عبد الله بن عباس].

يجب أن تكون كبيراً، كبيراً بعلمك، كبيراً بأخلاقك، فالكبير لا يكذب، والكبير لا يبخل، والكبير لا يخدع، والكبير لا يجبُن، والكبير لا يظلم، والكبير لا يحقد.

يكبر الإنسان ويكبر ويكبر ولا ترى كبره فيتضاءل أمامه كلُّ كبير، ويصغر هذا الإنسان ويصغر ويصغر ولا ترى صغره فيتعاظم عليه كلُّ حقير.

إذا تحدثتُ عن اسم الله الكبير فمن أجل أن نعرف الكبير، ومن أجل أن نطيعه، ومن أجل أن نكون عنده من المقرّبين، ورأسُ القربى عند الله عزَّ وجلَّ طاعته، آخر كلمة أقولها في بحثي هذا، قال عمر: يا سعد لا يغرَّنَّك أنَّه قد قيل: خال رسول الله ﷺ فالخلق كلُّهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابة إلّا طاعتهم له.

طاعتك عند الله هي كلُّ شيء، وهي التي تحدِّد مكانتك عند الله عزَّ وجلَّ، والمؤمن يعلم أنَّ الله كبير، يجب أن تعتزَّ بالله عزَّ وجلَّ وأن تثق بالله وأن توقن بأنَّ لك معاملةً خاصة، لقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية:٢١].

المتعالي

ورد اسم (المتعالي) في القرآن الكريم في موضع واحد، وهو قوله تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾ [الرعد:٩].

وقد ورد أيضاً في السُّنَّة المطهَّرة بسند صحيح عند الإمام أحمد، من حديث عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه قال: «قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾ قرأ هذه الآية وهو على المنبر، فقال: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٧﴾ [الزمر:٦٧].

فقال ﷺ: يقول الله جلا وعلا: أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا المتعال -يمجِّد نفسه- قال: جعل رسول الله ﷺ يردِّدها حتى رجف به المنبر، حتى ظنَّنا أنَّه سيخِرُّ به»

من معاني اسم الله (المتعالي)

المتعالي اسم فاعل، من تعالى يتعالى فهو متعالٍ، وهو أبلغ من الفعل علا، وفي اللغة العربية: كلُّ زيادة في المبنى يقابلها زيادةٌ في المعنى، فحينما أقول: سأعطيك هذا

المبلغ في المستقبل هناك معنى، أمّا إذا قلت: سوف أعطيك فهناك معنى آخر، فسوف أطول أمداً.

التعالي؛ الارتفاع وقد يكون من تقول له: تعالَ في الطابق الأسفل، وأنت في الطابق الأعلى، فهذا العلوُّ علوُّ مكانة، أي: ارتفع إليَّ.

المتعالي سبحانه وتعالى هو القاهر لخلقه بقدرته، وهو المستعلي على كلِّ شيء بقدرته، والمتعالي على كلِّ شيء: أي قد أحاط بكل شيء علماً، وقدرةً، وقهراً، وخضعت له الرِّقاب في كلِّ شيء، ودان له العباد طوعاً وكرهاً.

والمتعالي هو الكبير، فكلُّ شيء تحت قهره، وسلطانه وعظمته، ولا إله إلا هو ولا ربَّ سواه، لأنَّه العظيم، وليس هناك من هو أعظم منه، تعبد خالق السماوات والأرض، من بيده الأمر: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود:١٢٣].

من إذا قال لشيء: ﴿كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس:٨٢].

من في قبضته السماوات والأرض، فإذا عرفت الله زهدت فيما سواه، وإذا عرفت الله كنت عزيزاً، قوياً، شجاعاً، إذا عرفت الله عرفت كلَّ شيء.

وفي القرآن جمعان لكلمة العبد، وهما العباد والعبيد، العباد جمع عبد الشكر بينما العبيد جمع عبد القهر، فكلُّ إنسان كائناً من كان، حتى الكافر والملحد والفاجر والعاصي في قبضة الله.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت:٤٦].

أمَّا الذي تعرَّف إلى الله، وأقبل عليه، وأحبَّه، وتقرَّب إليه، فنقول: هذا عبد الشّكر، وجمعه عباد.

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣].

الواحد منَّا لا يضمن أن يبقى حيَّاً لثانية واحدة، فنحن جميعاً في قبضة الله، أمّا المؤمن فقد تفضَّل الله عليه بالإيمان، فهو يعلم أنَّه في قبضة الله، بينما غير المؤمن توهَّم أنّه قويٌّ، وفي أيَّة لحظة يقبض الله روحه، فإذا هو خبر بعد أن كان شخصاً كبيراً.

المتعالي سبحانه وتعالى هو الذي ليس فوقه شيء في قهره وقوّته، فلا غالب له ولا منازع له، بل كلُّ شيء تحت قهره وسلطانه، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام:١٨]،

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام:٦١].

لكنَّ النَّاس يتوهمون أنَّ في الأرض قوّةً جبّارة يخافونها، والحقيقة أنّ كلَّ هذه القوى الجبّارة التي نراها على شبكية العين إنّما هي هي بيد الله.

نصيب المؤمن من اسم الله (المتعالي)

حينما نقول: تعالى الله، أي تنزّه عن كلِّ نقص، والمؤمن يجب أن يتعالى عن كلِّ نقص بإيمانه، ويجب أن يَعلم ما ينبغي أن يُعلم من الدّين بالضرورة، ولنأتِ بمثل:

لو أنَّ مظليّاً يريد أن يهبط بمظلّة، هناك معلومات كثيرة يمكن أن يجهلها، شكل المظلة: مربع، مستطيل، بيضوي، دائري، عدد الحبال، أنواع الحبال، ممَّ صنعت هذه الحبال، كلُّ هذه المعلومات لو أنَّه غفل عنها فإنّه يصل الأرض سالماً، إلا أنَّ معلومة واحدة إذا غفل عنها فإنّه ينزل ميتاً، إنَّها طريقة فتح المظلَّة، فإذا غفل عن هذه المعلومة فقد أودى بحياته، نسمّي هذه المعلومة بالنسبة للمظليّ: معلومة يجب أن تُعلم بالضرورة.

والدين واسع جداً، هناك تاريخ التشريع، وهناك الفقه المقارن، لكن هناك معلومات لا بدّ من أن يعلمها: أركان الإيمان، الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب، والرسل والقضاء والقدر، وما إلى ذلك، وأركان الإسلام: الصوم، والصلاة، والحج، والزكاة، والأحكام الفقهيّة المتعلّقة باختصاصه.

فالتَّاجر بأمسِّ الحاجة أن يتعلّم أحكام البيع والشراء، والطبيب أحكام الطّبّ، والزوج أو الزوجة أحكام الزواج، والحقوق، والواجبات.

إذاً هناك في الدين حقائق لابدّ من أن تُعلم بالضرورة، والمؤمن يجب أن يتعالى عن كلِّ نقص في إيمانه، لأنَّ العلم كما قال العلماء: أصل حياة الإنسان، يقول الإمام الشافعي رحمه الله: «فإذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم».

إذاً حينما تبحث عن الحقيقة، وحينما تعمل وَفقها، وحينما تصبر على البحث عنها، والعمل بها، وتطبيقها، والدعوة إليها، تكون قد حققت الهدف من وجودك، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر:١-٣].

إذاً المؤمن يتعالى عن أيِّ نقص في إيمانه، ولو أنَّ أيَّ نقص في الإيمان لا يقابله سلوك منحرف، لما كان هناك إشكال يُذكر، ولكن لأنَّ أيَّ نقص في الإيمان ينعكس سلوكاً خاطئاً فلا بد من ترميم النّقص والتعالي عليه.

إذاً كما أن الله سبحانه وتعالى، تعالى عن كلِّ نقص، والمؤمن يستكمل طلب العلم، ليكون السلوك صحيحاً يفضي به إلى جنة عرضها السماوات والأرض، هذا من حيث ما ينبغي أن يُعلم بالضرورة.

وهناك فرض عين على كلِّ مسلم أن يعرف سنَّة النّبيّ ﷺ القوليّة، وسيرته العمليّة.

إذ كلُّ أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب، ما لم تقم قرينة على خلاف ذلك، والذي ضيَّع بعض المسلمين توهُّمهم أنَّ الإسلام عبادات شعائرية، صوم وصلاة، وحج، وزكاة، ليس غير، ولكنّ الدين منهج واسع جداً، يبدأ بالعلاقات الزوجية، وينتهي بالعلاقات الدوليّة، يقول تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧].

وها قد أُمرنا أن نأخذ ما أتانا النبي، وأن ننتهي عمّا عنه نهانا، فبربكم كيف نأخذ ما آتانا، وننتهي عما عنه نهانا، إن لم نعرف ما آتانا، وما الذي عنه نهانا؟ وما لا يتمُّ الفرض إلا به فهو فرض.

أرأيت إلى الوضوء؟ إنَّه فرض، لأنَّ الصلاة فرض لا تتمُّ إلا به، إذاً معرفة سنَّة النبيّ ﷺ فرض عين على كلِّ مسلم.

إذاً ينبغي أن نعلم سنَّة النبيّ ﷺ القوليّة، ما الذي يمنع أن يكون في كلِّ بيت كتاب في الأحاديث الصحيحة نقرؤها، ونطبقها، هذا من لوازم معرفة أحكام هذا الدين.

وينبغي أن نعرف سيرته، وهذا فرض عين على كلِّ مسلم أيضاً، لقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب:٢١].

كيف يكون النّبيّ ﷺ أسوةً لنا إن لم نعرف سيرته؟ كيف كان في بيته؟ كيف كان مع زوجته؟ كيف كان مع أولاده؟ كيف كان مع جيرانه؟ كيف كان مع أصحابه؟ كيف كان في سلمه؟ في حربه؟ في حِلِّه؟ في ترحاله؟ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ جعله أسوة لنا.

إذاً ينبغي أن نعرف سيرته لنتأسّى به، فالمؤمن يتعالى عن كلِّ نقص في معرفة سنّة النّبيّ ﷺ القوليّة، ومعرفة سيرته العمليَّة.

ويجب أن يتعالى المؤمن عن كلِّ نقص في عباداته، وقد سأل النّبيّ ﷺ أصحابه: «أَتَدْرُونَ ما المُفْلِسُ؟ قالوا: المفْلسُ فينا من لا درهم له ولا متاع. قال: إن المفْلسَ مَنْ يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شَتَمَ هذا، وقذفَ هذا وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطَى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فَنِيَتْ حَسَناتُهُ قبل أن يُقْضى ما عليه، أُخِذَ من خطاياهم فطُرِحَتْ عليه، ثم يُطْرَحُ في النار» [أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة].

لا يمكن أن تقطف ثمار الصلاة إلا إذا سبقتها استقامة والتزام، فالمؤمن يتعالى عن كلِّ نقص في فهمه للعبادات.

«لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا الله عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا، قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ الله، صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ الله انْتَهَكُوهَا» [ابن ماجة عن ثوبان].

لذلك مليار وخمسمئة مليون مسلم لا وزن لهم في الأرض، ليست كلمتهم هي العليا، ليس أمرهم بيدهم، للطرف الآخر عليهم ألف سبيل وسبيل، لماذا؟ لأن أمر الله هان عليهم فهانوا على الله.

فالمؤمن يتعالى عن أي نقص في عباداته، هذه الصلاة، فماذا عن الصيام؟

«مَن لم يَدَعْ قولَ الزُّورِ والعمَلَ بِهِ، فَلَيسَ لله حاجة فِي أَن يَدَعَ طَعَامَهُ وشَرَابَهُ» [أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة].

فماذا عن الزكاة؟

﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [التوبة:٥٣].

ما لم نستقم على أمر الله فلن نقطف من ثمار الدين شيئاً، والمؤمن الصادق يتعالى عن أي نقص في فهمه للعبادات.

المؤمن إذا آمن باسم المتعالي فإنّه يتعالى عن الظّلم، لأنّ الظّلم ظلمات يوم القيامة.

«يا عبادي إني حَرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي، وجعلتُه بينكم محرَّما، فلا تَظَالموا» [أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري].

هذا الذي يظلم لا يعرف الله عزّ وجلّ، ولو علم أنَّ الله تعالى سيحاسبه لما ظلم، هناك ظلم يبدأ في البيت، كم من زوج يظلم زوجه؟ وكم من ابن يظلم أباه؟ وكم من أخ يظلم أخاه؟ وكم من ربِّ عمل يظلم موظفاً عنده؟ فحينما يكون ظلم في المجتمع يتخلَّى الله عنا، والدليل قول النبي ﷺ: «فإنما تُرزقُونَ وتُنصرون بضعفائكم» [أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي عن أبي الدرداء].

هذا الضعيف إن أطعمته إذا كان جائعاً، كسوته إن كان عارياً، علّمته إن كان جاهلاً، آويته إن كان مشرّداً، أنصفته إن كان مظلوماً، عالجته إن كان مريضاً، عندها يتفضَّل الله على من أعانه بمكافأة من جنس عمله، فينصره على من هو أقوى منه.

الله عزَّ وجلَّ هو الكبير المتعالي تعالى عن كلِّ نقص، وأنت أيها المؤمن يجب أن تترفع عن أي نقص في عقيدتك، وفي عبادتك، وفي معاملاتك، عن أيِّ نقص في فهم سنّة رسول الله ﷺ، عن أي نقص في فهمك لسيرته العمليّة، عن أي نقص في التّوحيد، والتّوحيد شيء مصيريّ، ينعكس سلوكاً منحرفاً، إن لم تُستكمَل أركانه.

والمؤمن يتعالى عن كل السَّفاسف.

«إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها ويكره سفسافها ودنيها» [أخرجه الطبراني عن حسين بن علي].

المؤمن في أفق معرفة الله، في أفق الدعوة إليه، في أفق خدمة عباده، في أفق الأعمال الصالحة، في أفق تطهير قلبه من كل دنس.

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

والقلب السليم هو القلب الذي سلم من شهوة لا ترضي الله، وسلم من تصديق خبر يتناقض مع وحي الله، وسلم من عبادة غير الله، وسلم من تحكيم غير شرع الله.

إذاً: كما تقول: يا رب يا متعال، وتعالى الله الملك الحقُّ عن كلِّ نقص، عن كلِّ ما لا يليق به، وأنت أيها المؤمن تَرفع عن الجهل في أمر دينك، تَرفع عن الجهل في أمر عبادتك، ترفع عن الجهل في أمر نبيك ﷺ، ترفع عن أن تظلم، ترفع عن أن تحبط عملك بجهل كبير.

أيّ: تقرّب إلى الله بكمال مشتقٍّ منه، لأنَّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].

الوارث

ورد هذا الاسم في القرآن الكريم على سبيل الإطلاق والتّعظيم، معرَّفاً، كما في قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [القصص:٥٩].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحجر:٢٣].

وقد ورد في دعاء سيّدنا زكريّا عليه وعلى نبيّنا أفضل الصّلاة والسّلام: ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٩].

من معاني اسم الله (الوارث)

الوارث اسم فاعل للموصوف بالوراثة من غيره، يقال: ورث فلان أباه يرِثه وراثة وميراثاً، والوراثة في حقّنا: انتقال المال أو الملك من المتقدّم إلى المتأخّر.

الوارث هو الباقي، لأنّنا في حياتنا الدُّنيا نعرف أنَّ الذي لم يمُت هو الوارث، ولأنَّ الله سبحانه وتعالى حيٌّ باقٍ على الدَّوام فهو الوارث، وكلُّ ما بيدك مصيره إلى الله.

قد تقول: إنَّ هذا البيت ملكي، هذا كلامٌ فيه مجاز، فالبيت لله حقيقة، وقد سُئل أحد الأعراب وهو يقود قطيعاً من الإبل: لمن هذه الإبل؟ قال: لله في يدي.

واعلم -أيُّها المؤمن- أنَّ كلَّ شيء تحت يدك من بيت ومتجر ومركبة وممتلكات ليست لك، إذا أردت الكلمة الصحيحة التوحيديّة التي ليس عليها مأخذ فقل كما قال هذا الأعرابيُّ: لله في يدي.

بعض الأبنية يكتبون عليها: الملك لله، حينما تشعر أنَّ يدك على ممتلكاتك وعلى مالك يدُ أمانة، وليست يدَ ملك، فهذا الشعور يجعلك تتّصف بنفسيَّة من سيُحاسَب، هذا المال وُضع بين يديك مؤقتاً لينظر الله كيف تعمل، وأنت مستخلَفٌ فيه، وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى فقد قال الله تعالى: ﴿ ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمۡ وَأَنفَقُوا لَهُمۡ أَجۡرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾ [الحديد:٧].

أنت أمين صندوق مؤتمنٌ عليه، والله مطّلعٌ عليك سيحاسبك وسيُنبِّئك بما عملت.

وكلُّ شيءٍ في حوزتك مصيره إلى الله، وهو الوارث.

الوارث سبحانه وتعالى هو الباقي بعد فناء خلقه... هذا المعنى نشعر به في حياتنا الدُّنيا، ندخل إلى بيت في أعلى المستويات وصاحبه تحت التراب، أولاده هم الذين يستمتعون بهذا البيت، فهم الورثة، وإذا تابعنا نجد أنَّ أحفاده يرثون آباءهم، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فالوارث هو الباقي.

حدثني أحدهم عن إنسان من أهل العلم يملك مكتبة نادرة في بيته. له صديقٌ حميم رجاه أن يستعير كتاباً لليلةٍ واحدة فلم يوافق، لأنَّ الكتاب أغلى عليه من أولاده، هذا الصَّديق الحميم أقسم بالله العظيم أنَّه بعد موت هذا العالم رأى الكتاب ملقى في

الطّريق، كيف كان صاحب هذه المكتبة حريصاً على كتبه، فلما مات أصبح الكتاب ملكَ أهله، لم يعبؤوا به فألقوه.

الشّيء بالشّيء يُذكر... أتمنى على كلِّ أخٍ مؤمن عنده مكتبة أن يحرص حرصاً لا حدود له على تعليم أولاده لئلا تُوضع هذه المكتبة في مكان مهمل من البيت، ولئلا تصبح يوماً من سقط المتاع، فتلقى خارج البيت على نحوٍ ما، حبِّب إليهم الكتاب ولا تجعلهم أعداءً له، كثيرٌ من الأسر تجد أنَّ المثقَّف الوحيد فيها هو الأب، وكلُّ من حوله يناهضون الكتاب، عوِّدهم أن يقرؤوا، اجعل القراءة متعةً في البيت، إنَّ أرقى هوايةٍ يهواها الإنسان هوايةُ القراءة، لأنّك بالقراءة تأخذ عصارة عقول النّابغين، عقل النّابغ كلُّه في مئة صفحة، فإذا قرأتها اطَّلعت على خبراته ورشفت من رحيق عصارة عقله فأخذت الكثير.

عود على بَدء... الوارث هو الباقي بعد فناء خلقه، وهو الوارث لجميع الأشياء بعد فناء أهلها فقد قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم: ٤٠].

تدبَّر معي هذه القصة التي تكاد تكون من نسج الخيال؛ ذلك أنَّ أغنى أغنياء العالم يضع سبائكه الذهبيَّة في صناديق على مستوى غُرف، وأنَّ الغرفة لها باب حديدي، وهذا الباب محكم الإغلاق، دخل إلى غرفته يوماً وأُغلق عليه الباب خطأً، وهو رجل لا يكاد يلقي عصا الترحال فظنَّ أهله أنَّه مسافر، فمات من الجوع وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة جرح أُصبعه وكتب على الحائط بدمه: أغنى رجل في العالم يموت جوعاً.

نمضي معاً في رحاب قصة أخرى واقعيَّة: رجل ركب ناقته ليقطع بها الصحراء، فضلَّ الطريق ونفد طعامه وزاده وشرابه، وأيقن بالهلاك، ثم لمح عن بُعدٍ واحةً فأشرق في نفسه نور من الأمل، هُرع نحو الواحة فإذا فيها بركة ماءٍ، شرب منها حتى ارتوى ثم تولَّى إلى الظلِّ، حانت منه التفاتة فإذا كيسٌ إلى جانب البركة فسُرَّ به سروراً عظيماً وهو يحسب أنَّ فيه خبزاً ليأكل ففتحه فقال: واأسفاه هذه لآلئُ... ما قيمة اللآلئ في الصحراء. وهو يحتاج إلى رغيف خبز لا يقدَّر ثمنه بمال الدنيا.

والإنسان ضعيفٌ أمام الله عزَّ وجلَّ، كلُّ شيءٍ تملكه قد يتلاشى أمام شربة ماء، وقد وصف الله تعالى نفسه بأنَّه الوارث من حيث إنَّ الأشياء كلَّها صائرةٌ إليه، فماذا نفهم من قوله تعالى: ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الشورى:٥٣].

بيد من كانت الأمور حتى قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾؟ أجاب العلماء: بأنَّ الأمور كلَّها بيد الله دائماً، فقد قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [هود:١٢٣].

ولكنَّ أهل الدنيا الذين انقطعوا عن الله عزَّ وجلَّ وانطمست بصيرتهم يرون أنَّ الأقوياء في الدُّنيا بيدهم الأمور كلُّها، هم يعبدونهم من دون الله، هم يرون أنَّ الأقوياء بيدهم أسباب الحياة، أمَّا يوم القيامة فهؤلاء الذين انقطعوا عن الله عزَّ وجلَّ وتوهَّموا أنَّ الأمر بيد الأقوياء يرون أنَّ الأمر بيد الله عزَّ وجلَّ، فأنْ يصير الأمر بيد الله يوم القيامة؛ بمعنى أنَّ هذا الإنسان الجاهل كان يتوهَّم أنَّ الأمر بيد زيدٍ أو عُبيد، أمَّا يوم القيامة فلا يرى الأمر إلا بيد الله عزَّ وجلَّ.

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحديد:١٠].

﴿ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾... بالمناسبة... النبي ﷺ لم يُورِّثْ درهماً ولا ديناراً، ولكن ماذا ورَّث؟ ورَّث هذا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظٍّ وافر.

لذلك فالإنسان حينما يكون حظُّه من الدنيا مالاً كمال قارون نقول له: إنَّ الله أعطى قارون المال وهو لا يحبُّه، ثم سلبه منه فجأةً وما انتفع به، فقد قال تعالى: ﴿ فَخَسَفْنَا

بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ [القصص:٨١].

وحينما يكون نصيبك من الدنيا كنصيب فرعون نقول لك: إنَّ الله أعطى الملك لفرعون وهو لا يُحبُّه، وسلبه منه فجأةً حينما غرق وقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فما نفعه إيمانه هذا ولا نفعه ملكه... في قوله تعالى: ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس:٩٠].

لكنَّ الله تعالى إذا أحبَّك أعطاك في الدنيا من مثل ما أعطى الأنبياء، فقد قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يوسف:٢٢].

فإذا كان نصيبك من الدنيا علماً صحيحاً، معرفة بالله عميقة، فكراً نيّراً، قلباً طاهراً، استقامة على أمر الله، عملاً طيباً، إخلاصاً لله، هذا الذي نال من الله عزَّ وجلَّ أكبر نصيب لأنَّه نال من ميراث النبي ﷺ.

ألا تسمع أنّ بعضهم إذا أرادوا الثَّناء على عالم يقولون عنه: هذا وارث محمَّديّ. أي ورث عن النبي ﷺ العلم، والحكمة، والعمل... فينبغي أن يكون كلُّ واحدٍ منَّا وارثاً محمديّاً، يأخذ من ميراث النَّبيّ ﷺ وهو العلم، وفي الحديث: «إِنَّ العُلَماءَ وَرَثَةُ الأَنْبِياءِ إِنَّ الأَنْبِياءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينارًا وَلَا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ» [سنن الترمذي وأبي داود].

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّه مرَّ بسوق المدينة فوقف عليها فقال: يا أهل السُّوق ما أعجزكم؟ قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟ قال: ذاك ميراث رسول الله ﷺ يقسم وأنتم هاهنا لا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه؟ قالوا: وأين هو؟ قال: في المسجد، فخرجوا سراعاً إلى المسجد ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا فقال لهم: ما لكم؟ قالوا: يا أبا هريرة فقد أتينا المسجد فدخلنا فلم نرَ فيه شيئاً يُقسَم! فقال لهم أبو هريرة: أما رأيتم في

المسجد أحداً؟ قالوا: بلى، رأينا قوماً يصلّون، وقوماً يقرؤون القرآن وقوماً يتذاكرون الحلال والحرام، فقال لهم أبو هريرة: ويحكم فذاك ميراث محمد ﷺ [رواه الطبراني في الأوسط إسناده حسن].

قد يأتي إنسان من مكان بعيد ويستغرق منه الطريق ساعة ليحضر مجلس علم، ليتلقى في المسجد بعضَ ميراث النبي ﷺ معنى ذلك أنّه أخذ بحظٍّ وافر، أخذ من ميراث النّبيّ ﷺ.

من جماليّات القرآن الكريم أنَّ الله عزَّ وجلَّ كلّما أشار إلى شيء يعقِّب بجملة هي قانون محكَم، فقد قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القصص:١٤]. فلقد أعطاه حكماً وعلماً، وهذا شيء ثمين وجميل.

أجل، شيء جميل، لكن ماذا قال الله بعدها؟ ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾... فهذا قانون، أي إذا أردت أن تنال علماً وحكماً فكن محسناً، فثمن العلم والحكمة الإحسان.

قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحديد:١٠].

وقال أيضاً: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحجر:٢٣].

لذلك ينادي ربُّنا جلَّ جلاله يوم القيامة: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾... فيجيب الخلائق جميعاً: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾... فقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر:١٦].

إذا كنت في الدُّنيا على صلةٍ محكمةٍ مع الله عزَّ وجلَّ وهو راضٍ عنك وأنت مُحِبٌّ له متفانٍ في خدمة خلقه فهذا هو الفوز العظيم، أن يكون لك مكانٌ عند الله عزَّ وجلَّ فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾ [القمر:٥٤].

والله هذا هو الفوز العظيم، هذا هو الفلاح، هذا هو النَّجاح، هذا هو التَّفوُّق، هذا هو التألُّق، هذه هي البطولة. قال ابن الوردي:

لـيس مـن يقطـع طُرقـاً بطـلاً إنَّـما مـن يتقـي الله البطـل

في معجم تاج العروس: الوارث صفةٌ من صفات الله تعالى وهو الباقي الدَّائم بعد فناء الخَلْق، وهو يرث الأرض ومن عليها، وما عليها، للعاقل ولغير العاقل.

يجول في خاطري قصَّة سأرويها: رجل من أصحاب النّشاطات الصّناعيّة الكبيرة، له ثروة طائلة جداً، وقد رأيت قصره في بعض المدن الشماليّة عام أربعة وسبعين وتسعمئة وألف، في ذاك الوقت كان ثمنُه خمسةً وثلاثين مليوناً، وتبلغ قيمته الآن عشرات الأضعاف، وقد توفِّي في عمر الثانية والأربعين وكان مديد القامة، دفن في قبرٍ ولعله كان صغيراً فما اتسع القبر لقامته المديدة فاضطُرَّ الحفار إلى أن يدفعه في صدره، فأصبح رأسه مع جسمه يشكل زاوية قائمة وهو الذي يملك أفخم قصر في إحدى مدن الشمال، بلاط أرضيّاته من الرخام الشَّفاف، وهو من أغلى أنواع الرخام، لمن هذا المنزل الفخم؟ لغيره، وبعد غيره؟ ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾.

معنى ذلك أنَّ يدك على كلِّ شيء يدُ أمانة؛ فهذا معنى مهمٌّ جداً، البيت مؤقَّت، والمركبة مؤقّتة، والمتجر كذلك مؤقَّت، كلُّ شيء تحوزه يداك فيدك عليه يدُ الأمانة، يد الاستخلاف والله ينظر كيف تعمل، وفي النِّهاية هذا كلُّه يؤول إلى الله عزَّ وجلَّ... لأنَّ الله عزَّ وجلَّ هو المالك الحقيقيُّ، وملكه أوسع أنواع الملكيّة، إذا قلنا: الله هو المَلِك، أو المالك، مالك خلقاً، ومالك تصرُّفاً، ومالك مصيراً.

هو الذي خلق، وهو المتصرِّف ومصير كل شيء إليه، فهذا هو المالك، نحن نملك تملُّكاً مجازياً، قد تشتري بيتاً وتؤدي ثمنه نقداً، والبيت فخم وأنت لم تَبْنِه، بل بُني بيد غيرك، قد تنتفع به، وقد لا تنتفع به، إمّا أن تتركه وإمّا أن يتركك.

«دخل عمر رضوان الله عليه على النبي ﷺ وهو على سرير قد أثر في جنبه فقال: يا رسول الله! لو اتخذت فراشا أوثر من هذا، فقال يا عمر: ما لي وللدنيا وما

للدنيا ولي؟ والذي نفسي بيده ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها» [الترمذي عن عبد الله بن عمر].

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٩].

والله عزَّ وجلَّ سمح لذاته العليَّة أن يوازنها مع خلقه في عدّة مواضع، فمن هذه المواضع... ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون:١٤].

ومن هذه المواضع أيضاً: ﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأنعام:٦٢].

في بعض أجهزة الحواسب يقرأ الحاسب أربعمئة وخمسين مليون حرف في ثانية، أمَّا الحواسب الشخصيَّة التي بين أيدي النَّاس فهي تقرأ مليون حرف في الثانية، هل هناك حسابٌ أسرع من هذا الحساب؟ ومع ذلك ربُّنا عزَّ وجلَّ لعلمه أنَّه سيكون هناك حواسب ذات سرعات عالية سمح لذاته العلية أن يوازنها مع خلقه فقال: ﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾... هذا الذي يأخذ الحديد من فلزّات الأرض، ويجعله صفائح ويشكِّله على شكل مركبة، وهذه المركبة تزوّد بمحرِّك وعجلات وأبواب وفرش وكهرباء وتكييف... إلى آخره من المستلزمات، هذه المركبة سمَّى الله سبحانه صانعها -مجازاً- خالقاً.

قال تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾... فأقرب شيء أن توازن بين كلية صناعية وكلية طبيعية، الكلية الصناعيّة حجمها كبير ولها صوت، ومن أجل أن تنقِّي الدّم من البول تحتاج إلى ثماني ساعات، أمّا الكُلية الطبيعيّة فحجمها كقبضة الكفِّ فيها طريق طوله مئة كيلومتر وتعمل بصمت تامٍّ وأنت مستلقٍ، وأنت تمشي،وأنت تركب،وأنت نائم، وأنت يَقِظ، وأنت تحاضر في الناس وهي تعمل، والدَّم يمرُّ في هذه الكلية خمس مراتٍ في اليوم يقطع طريقاً يزيد على مئة كيلو متر وأنت لا تدري، وازن بين كلية طبيعيّة وكلية صناعيّة.

وازن بين آلة تصوير والعين، آلة التَّصوير تريك الصُّور صغيرة، أمَّا عينك فتريك الأشياء بحجمها الحقيقيّ، فتريك الجبل جبلاً، وملوَّناً، العين تدرك الفرق بين درجتين

من ثمانمئة ألف درجة من لونٍ واحد، فلو أخذنا لوناً واحداً وقمنا بتدريجه ثمانمئة ألف درجة فالعين السليمة تدرك الفرق بين كلِّ درجتين، ربُّنا عزَّ وجلَّ قال: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

وازن بين الحاسب وذاكرة الإنسان... فقد قال بعض العلماء: ذاكرتنا بحجم حبَّة من حبوب العدس، هذه الذّاكرة تتّسع لسبعين مليار صورة، الإنسان الذي يعيش سبعين سنة تقريباً مخزَّن في ذاكرته سبعون مليار صورة كلُّها جمعت في مكان مقدارُهُ حبَّة العدس، فهذا خلق الله، ولو نظرنا إلى أيِّ أرشيف حوى ما حوى من إضبارات لوجدنا معلومات قليلة موضوعة في حجم كبير، وتحريكها بالغ الصعوبة، هذه الذّواكر الموجودة في الدماغ مفروزة، ذاكرة سمعية، ذاكرة بصرية، ذاكرة شمّيّة، ذاكرة ألوان، ذاكرة أرقام، ذاكرة وجوه، وهذه الحيزات في الذاكرة في مكان قريب كثير الاستعمال، وهناك مكان متوسِّط، ومكان بعيد، وهناك مكان تُمحى فيه المعلومات، إنَّ الذاكرة وحدها من آيات الله الدَّالَّة على عظمته، فوازن بين أرشيف، أو دفتر، أو حاسوب، والذاكرة البشريَّة.

وفي مجال الإرث كذلك فقد وازن ربُّنا عزَّ وجلَّ بينه وبين خلقه فقال: ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

تحضرني قصة خلاصتها أنَّ أحد الأشخاص في الشَّام ترك مبلغاً ضخماً يبلغ الألف مليون، أحد الورثة نصيبه من هذا الميراث تسعون مليوناً، فترك محلَّه التّجاريّ، وبدأ يسعى من دائرةٍ إلى دائرة ليأخذ براءات الذّمّة وينهي أمور الماليّة والتّركات، وهو في زحمة العمل من دائرة إلى أخرى، ومن مكتب إلى مكتب، ومن مستشار إلى مستشار ليحصل على هذا المبلغ الضَّخم البالغ تسعين مليوناً، وفي أحد الأيام دخل إلى الحمّام فوافته المنيَّة فيه قبل أن يقبض درهماً واحداً... فهل هذا وارث حقّاً؟ إنه لم يستطع أن يتنعَّم بمال مورِّثه إطلاقاً.

ومن الورثة من يستمتع بالمال عدد سنين، وفي النّهاية ما من وارثٍ إلا وسيموت، لأن كلّ مخلوقٍ يموت ولا يبقى إلا ذو العزّة والجبروت، أمّا الله عزَّ وجلَّ فهو خير الوارثين.

أصبح لدينا ثلاث موازنات: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾، ﴿ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾... ﴿ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

مع قصة أخرى مفادها أنَّ إنساناً اشترى بيتاً مع أخته مناصفةً، ودفع كلُّ طرفٍ الثّمن بالتّمام والكمال، إلا أنَّ البيت سُجِّل باسم أخته لأنّها هي المعنيَّة في الجمعيّة التّعاونيّة، وكان ثمن البيت في البدء خمسمئة ألف فأصبح ثمنه بعد حين ثمانية عشر مليوناً، وتعمل أخته في المحاماة، فقالت له: لا بدَّ من أن تأخذ مليوناً واحداً وأن تخرج إلى بيت آخر فالبيت باسمي، فخرج منه لكن مرغماً... فهي ذات قوّة وتعرف دخائل القوانين، فأخرجته بطريقةٍ -في ظنها- ذكيَّةٍ قانونية، وعنده أكثر من أربعة عشر ولداً فشرّدتهم بين أهل زوجته، وأهله، وبقيت وحدها في البيت... وسارت عجلة الأيام مسرعة وأصيبت بمرضٍ خبيث في أمعائها وعانت منه شهرين ثم توفيت وأخوها هو وارثها الوحيد، فرجع إلى البيت وأولاده معه واستأثر به، فالله عزَّ وجلَّ قال: ﴿ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

أحد العلماء يرى أنَّ الوارث هو الذي ترجع إليه الأملاك بعد فناء المُلاَّك، إذ هو الباقي بعد فناء خلقه، وإليه مرجع كلِّ شيءٍ ومصيرُه، وهو القائل إذ ذاك: ﴿ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ ﴾ وهو سبحانه المجيب: ﴿ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾.

إذا وقف أحدنا أمام سوق طويل وقرأ الأسماء على الصّفّين وغاب خمسين سنة، سوف يجد الأسماء كلّها مختلفة، فقد تسلّم هذه المحالَّ أشخاص جدد، كل خمسين سنة يتبدَّل الأشخاص ويأخذ الورثة الجدد، الأراضي، والمزارع، والمحالَّ، والبيوت من واحد إلى آخر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

يتوهم الأكثرون أنَّ لأنفسهم مِلكاً، وينكشف لهم في ذلك اليوم حقيقة الحال أنَّ الملك ليس لهم لكنّه للواحد القهّار.

المؤمن يرى وهو في الدنيا ما سوف يراه جميع الناس عند الموت، هذه هي بطولته... والله لو كُشِف الغطاء ما ازددتُ يقيناً... المؤمنون الرّاسخون الكبار يرون وهم في الدّنيا الحقائق قبل كشف الغطاء، أمّا غير المؤمنين فهم هنا في الدّنيا في أوهام وفي ضلالات، أمّا إذا انكشف الغطاء فقد بدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) ﴾ [الزمر:٤٧].

أؤكِّد ما قلته... إنَّ حكمة المؤمن أنّه يرى الحقائق قبل فوات الأوان، يراها في الوقت المناسب فينتفع منها، وأمّا كلُّ الناس فبعد فوات الأوان يرون جميع الحقائق قال تعالى: ﴿ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) ﴾ [يونس:٩١].

وقال تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨) ﴾ [الأنعام:١٥٨].

فطوبى لمن يرى أنَّ كلَّ ما في يديه مستخلَفٌ فيه، محاسَب عليه، وأنَّ الله سبحانه وتعالى ينظر ماذا يفعل به، لذلك يحاسب نفسه حساباً شديداً قبل أن يحاسبه الله تعالى، أمّا الجاهل فهو الذي يظنُّ أنَّ الذي بين يديه ملكه وحصّله بجهده وعرق جبينه، فهو في هذا كقارون الذي قال: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) ﴾ [القصص:٧٨].

قال تعالى: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) ﴾ [القصص:٨١].

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ ﴾... فهو يدّعي أنَّ عنده خبرات متراكمة، وقد حصَّلت هذا المال بجهدي وبذكائي، وبخبراتي، وبمتابعتي، وغاب عنه أنَّ الله سبحانه وتعالى وفَّقه، وهناك من هو أذكى منه ولم يحصِّل هذا المال، قال أبو تمام:

ولو كانت الأرزاقُ تجري على الحِجا هلكن إذاً من جهلهنَّ البهائِمُ

فالحكمة أن ترى الشَّيء قبل أن تصل إليه، أو أن تصل إلى الشَّيء بعقلك قبل أن تصل إليه بجسدك، أن تعيش المستقبل، فهذا كلُّه صائرٌ إلى الله عزَّ وجلَّ.

الإمام الرازي يقول: «الوارث: مالك جميع الممكنات وهو الله سبحانه وتعالى، ولكنّه بفضله جعل بعض الأشياء ملكاً لبعض عباده، فالعباد إنْ ماتوا وبقي الحقُّ سبحانه وتعالى، فالمراد أنَّ الذي يكون وارثاً هو الله جلَّ جلاله»، أي أنَّ الله عزَّ وجلَّ مالك الملك، كل شيء يُملَّك هو مالكه، وهبه لك ليمتحنك، إذاً هو ملك الله في يدك، وهذا الجواب أبلغ جواب.

وقال بعضهم: «الوارث هو الذي تسربل بالصمديَّة بلا فناء، وتفرَّد بالأحديَّة بلا انتفاء».

وقيل: «الوارث الذي يرث بلا توريث أحد، الباقي الذي ليس لملكه أمد»، وذكر بعض العلماء: «الوارث هو الباقي بعد فناء الخلق».

ويقول بعض العلماء: «الوارث هو الذي تفرَّد بالأحديَّة بلا انتهاء»، أي: وارثٌ واحدٌ أحدٌ وليس له وارثٌ، يرث كلَّ خلقه وليس له وارث، وتسربل بالصمدية بلا فناء الذي لا يرثه أحد.

إضاءات على بعض الآيات التي ورد فيها اسم (الوارث)

اسم الوارث ومشتقاته ورد في مواضع عدّة من كتاب الله ففي سورة الحجر قال تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحجر:٢٣].

وفي سورة مريم قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [مريم:٤٠].

وفي سورة القصص قال تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [القصص:٥].

فهنا معنى جديد... إن الأرض لله يورثها عباده الصالحين، أحياناً الله عزَّ وجلَّ يورث الممتلكات لعباده الصالحين إذا استقاموا على أمره.

والوارث هو الذي أورث المؤمنين ديار الكافرين في الدّنيا، كما قال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأحزاب:٢٧].

والوارث هو الذي أورث المؤمنين مساكنهم في الجنَّة، وفي الدّعاء للميت: اللهم أبدله أهلاً خيراً من أهله، وداراً خيراً من داره، وجيراناً خيراً من جيرانه، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ﴾ [الزمر:٧٤].

إنسان درس في الجامعة، ونال الدكتوراه، وفتح عيادة، وفتح الله عليه دخلاً وفيراً، وعاش في بحبوحة، مسكن فخم، وزوجة، وأولاد، ومكانة اجتماعية، إذا مرّ أمام الجامعة ماذا يخطر في باله؟ يقول: لولا هذه الجامعة والتحاقي بها، و دراستي فيها، ونيل الدكتوراه، ما كنت بهذه البحبوحة.

الله تعالى جعل العمل الصالح في الحياة الدنيا ثمناً للآخرة، فالإنسان وهو في الجنَّة يقول: لولا أن الله جاء بنا إلى الدنيا، فتعرَّفنا إلى الله، وتعرَّفنا إلى أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، تعرَّفنا إلى عظمته، أطعناه، عبدناه، أدّينا الصلوات الخمس، صمنا رمضان، حججنا بيت الله الحرام، أنفقنا من أموالنا، حضرنا مجالس العلم، لولا أنَّ الله

أورثنا الأرض، وفي الأرض تعرفنا إلى الله، وتبنا إليه، واصطلحنا معه، وقدّمنا الأعمال الصالحة، لما كنّا في الجنة، وهذا من معاني قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾.

وفي آية أخرى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف:١٢٨].

حين يكون الإنسان مؤهّلاً لإدارة الدّنيا يعطيه الله الدّنيا، فإن لم يكن مؤهّلاً لها لا يعطيه إيّاها.

فالدّنيا تصلح بالكفر والعدل، ولا تصلح بالإيمان والظّلم، يقول ابن تيمية رحمه الله: إنَّ الله ينصر الأمّة الكافرة العادلة، على الأمّة المسلمة الظّالمة.

وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف:].

هذا المعسكر الكبير العملاق، الذي دام سبعين عاماً، يرفع شعار لا إله أين هو الآن؟ من حاربه؟ لقد تداعى من الدّاخل.

﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء:٨١].

ويقول تعالى: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنبياء:٨٩].

بطولة المؤمن لا أن يموت وتنتهي دعوته، بطولة المؤمن أن يكون حوله دعاة على شاكلته، هذا ما يسمى اليوم العمل المؤسساتي، العمل المؤسساتي لا يتأثر بموت أصحابه، العمل المؤسساتي حضارة، لا يتأثر بموت أصحابه، وأول من أشار إلى هذا العمل المؤسساتي سيدنا زكريا.

﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩﴾ [الأنبياء:٨٩].

كان يبتغي الولد مع انقطاع الأسباب، فدعا ربه فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾ [مريم:٣-٧].

ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ۝١٠٥﴾ [الأنبياء:١٠٥].

قال بعض العلماء: لعل معنى الصالحين غير المعنى المتبادر، الصّالحون أيّ الصّالحون لإدارتها، إذا أقاموا العدل يملكونها ولو كانوا كفاراً، وإذا ظلم المسلمون بعضهم بعضاً يخسرونها، ولو كانوا مؤمنين.

والنبيّ ﷺ يقول في دعائه: «اللهمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيك، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَك، وَمِنَ اليَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصيباتِ الدُّنيا، وَمَتِّعْنا بأسْماعِنا وأبْصارِنا وقُوَّتِنا مَا أحْيَيْتَنا، واجْعَلْهُ الوَارِثَ مِنَّا، واجْعَلْ ثَأْرَنا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا، وانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنا فِي دِينِنا، وَلا تَجْعَلِ الدُّنْيا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلا مَبْلَغَ عِلْمِنا، وَلا تُسَلِّطْ عَلَيْنا مَنْ لا يَرْحَمُنَا» [سنن الترمذي، من حديث ابن عمر].

إذا فقد الإنسان بصره قبل أن يموت فمن ورث الآخر؟ هو ورث بصره، إذا فقد سمعه قبل أن يموت فهو ورث سمعه، أمَّا إذا استمتع ببصره وبسمعه وعقله وقوَّته إلى أن مات فهذه هي التي ورثته، ومتِّعنا اللهمَّ بأسماعنا، وأبصارنا، وقوَّتنا، وعقولنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا.

وفي بعض الأدعية: إلهي! أنت الوارث للعباد، المتجلِّي بهذا السرِّ لأهل الوداد، أشرق على قلبي نور اسمك الوارث الدائم حتى أرى الكلَّ لك وأقبل عليك بقلبٍ

هائم، ورِّثني يا رب! علوم أنبيائك، ومواهب أهل سمائك، ورثني أرض العبودية في نفسي حتى أتكمَّل، إنّك على كلِّ شيءٍ قدير، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

نصيب المؤمن من اسم الله (الوارث)

من علاقة المؤمن بهذا الاسم، أولاً أن يتَّقي الله في حقوق الإرث، هناك حديث يقصم الظهر.

«إن الرجل ليعمل، وإن المرأة لتعمل بطاعة الله ستين عاماً، ثم يحضرهما الموت، فيضران في الوصية، فتجب لهما النار» [أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي هريرة].

صائم، مطبّق لكلِّ العبادات، لكن حرم البنات، كتب هذا المحلَّ الضّخم لابنه، وعنده أربع بنات، توهّم أنّه إذا أعطى البنات انتقل المال إلى أُسر أصهاره، وهل أنت مشرِّع؟ لقد تولّى الله بذاته توزيع الإرث، كثير من الأسر المسلمة يحرمون البنات، الأخ الأكبر يأخذ وكالة عامة من أخواته البنات، ويتولّى الثّروة بأكملها، وتحت سمع الأب وبصره.

علاقتك بهذا الاسم الوارث أن تتقي الله في الإرث، أن تعطي كلاً حقَّه، الابن البار يأخذ كالابن العاق، والعاق كالبار، شأنهما مع الله، ولو حرمت العاقّ لزدته عقوقاً.

ومن علاقة المؤمن بهذا الاسم الوارث أن تشعر أنَّ الذي بين يديك ليس لك، بل هو صائر إلى غيرك، يدك عليه يد الأمانة، وأنت مستخلف فيه، وعليك أن تحاسب نفسك حساباً عسيراً، لأنَّ الله ملكك ما ملكك لينظر ماذا ستفعل.

كنت في بلد عربي مكتوب على قصر الأمير عبارة رائعة: لو دامت لغيرك ما وصلت إليك، اجعل هذا شعاراً.

يدك على ما تملك يد الأمانة، الملكيّة مؤقّتة، أنت ممتحن في هذا المال، ممتحن في هذا المنصب، ممتحن في هذا البيت، ممتحن في هذه المركبة.

ينبغي أن يوقن المؤمنْ من أجل أن تتوضّح علاقته بهذا الاسم الوارث أنَّ الله هو الذي يقسم الأرزاق، وأنَّ الميراث الحقيقيَّ هو ميراث العلم والأخلاق، وأكبر شيء تقدِّمه لأولادك أن تعرّفهم بالله، وتحملهم على طاعته.

علاقتنا بهذا الاسم... أن تشعر أنَّ الذي بين يديك ليس لك صائرٌ، بل هو صائر إلى غيرك، يدك عليه يد الأمانة، وأنت مستخلفٌ فيه، وعليك أن تحاسب نفسك حساباً عسيراً لأنَّ الله ما ملَّكك ما ملَّكك إلا لينظر ماذا ستفعل.

اسم الوارث يجعل علاقة الإنسان بما في يده علاقة الاستخلاف لا علاقة التملُّك.

اللهمَّ أعطنا ولا تحرمنا، أكرمنا ولا تُهنَّا، آثرنا ولا تؤثر علينا، أرضنا وارضَ عنا، وصلَّى الله على سيدنا محمدٍ النبيِّ الأميّ وعلى آلِهِ وصحبه وسلَّم.

الخلاّق

اسم (الخلّاق) ورد مطلقاً يفيد المدح والثّناء على الله عزَّ وجلَّ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الحجر:٨٦].

وفي قوله تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾ [يس:٨١].

من معاني اسم الله (الخلاق)

«الخلّاق» صيغة مبالغة لاسم الفاعل (الخالق) وهو اسم من أسماء الله الحسنى أيضاً وسيأتي الحديث عنه في الصفحات القادمة، والمبالغة في أسماء الله الحسنى تعني الكمَّ، والكيف.

فالله عزَّ وجلَّ خالق، وخلّاق، يخلق ما يشاء، أمّا الكمُّ فقد أشير إليه في قوله تعالى: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ ﴾ [النساء:١٣٣].

وأمَّا النوع فأُشير إليه من خلال كلمتي (أتقن، أحسن) في قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [النمل:٨٨].

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾ [التغابن:٣].

الخلّاق جلَّ جلاله خلق من لا شيء كلَّ شيء، على غير مثال سابق، لكنَّ الله جلَّ في علاه سمح للإنسان أن يُعطى هذا الاسم مجازاً، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون:١٤].

فالإنسان أحياناً يصنع طاولة، يصنع شيئاً من كلِّ شيء، وعلى مثال سابق، فالمواد الأوليَّة كلّها يأخذها من الأرض، والفكرة يراها بعينه.

الله عزَّ وجلَّ أودع في جسم الإنسان كلية بحجم البيضة، صغيرة، تعمل بصمت، بلا ضجيج، بلا تكلفة، تعمل ليل نهار، وأنت نائم، وأنت تمشي، وأنت تتحرَّك، وأنت مسافر، وأنت مقيم، وكل كلية فيها عشرة أضعاف حاجتك، فالكليتان فيهما عشرون احتياطاً، أمَّا الكلية الصناعيَّة فهي كحجم الطَّاولة، يجب أن تستلقي على السَّرير، لساعات، وأن تدفع مبالغ طائلة، وأن تترك عملك ثلاث مرات في الأسبوع، وأن تتألم، هذه كلية صناعيّة، وتلك كلية طبيعيّة.

آلة التَّصوير، تحوي عشرة آلاف مستقبل ضوئي في كلِّ ميليمتر، بينما في العين مئة مليون مستقبل ضوئي.

﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

نظام الزوجيَّة مطبَّق في كلِّ شيء، في النبات. ﴿ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ [الرعد:٣].

تصوَّر لو لم يكن هناك بذور، وخلق الله لنا مليارات الأطنان من القمح، ثمَّ استُهلكت جميعُها! في النَّبات بذور، والبذرة بالقوة تغدو أشجاراً، في جسم السمكة مبيض، فهي ملايين البيوض، وكلُّ بيضة سمكة، هذا عطاء الله.

اسم الخلّاق يعني إتقان الصنعة، كما أنّه يعني الخلق اللانهائيَّ، فكلُّ شيء يخلقه الله عزَّ وجلَّ لا حدود لخلقه، وأمّا ما يُشاع عن أزمة مياه حيناً، وعن أزمة غذاء حيناً آخر، فكلام غير واقعيّ، قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحجر:٢١].

وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الجن:١٦].

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف:٩٦].

من ناحية أخرى، يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ [البقرة:٢١].

هذا مفهوم الرُّبوبيَّة، عطاء، الله عزَّ وجلَّ، خلق الكون، خلق الإنسان، خلق الحيوان، خلق النَّبات، هذا عطاء الله عزَّ وجلَّ، منحك نعمة الإيجاد، منحك نعمة الإمداد، أمدَّك بالهواء، بالماء، بالنبات، بالحيوان، وأمدَّك بمقوِّمات حياتك، هذا معنى الرَّبِّ؛ خلق وأمدَّ، لكنَّه أرسل إليك رُسُلاً، افعل ولا تفعل، أمر، ونهي، حلال وحرام، وهذا مفهوم التَّشريع، مفهوم الإلوهيَّة.

والبشر في الأعمِّ الأغلب لم يختلفوا على مفهوم الرُّبوبيَّة، حتى الذين عبدوا الأوثان قال تعالى فيهم: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزمر:٣٨].

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر:٣].

إبليس آمن بالله خالقاً، قال: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأعراف:١٢].

والحكمة بالغةٍ بالغة ربط الله تعالى بين مفهوم الرّبوبيّة، ومفهوم الألوهيَّة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة:٢١].

الأمّ قد تقول لابنها: يا بنيَّ والدك لا يرضى أن تتأخّر خارج البيت، يغضب أشدَّ الغضب، إنَّه يطعمنا، يكسونا، يحبّنا، أيّ إنها أعطته مبرر الطَّاعة وهو العطاء.

فالجهة التي ينبغي أن تطيعها هي الجهة الخالقة، الخالق وحده ينبغي أن تطيعه، الخالق وحده ينبغي أن تنصاع لأمره.

هذه البقرة معمل، يقدِّم لك الحليب، وهو أحد أسباب الغذاء، بلا صوت، بلا ضجيج، بلا تلوث، تأكل الحشائش فتعطيك الحليب، فتصنع منه مشتقات الألبان.

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس:٢٤-٣٢].

نصيب المؤمن من اسم الله الخلاق

اسم الخلّاق ينقلنا إلى عبادة من أرقى العبادات، إنّها عبادة التّفكّر، وهي حظُّ المؤمن من اسم الله الخلّاق، والأصل فيها قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩١].

أودع الله سبحانه وتعالى في الإنسان قوّة إدراكيَّة، ونصب له كوناً ينطق بكلِّ تفاصيله بوجود الله، ووحدانيَّته، وكماله، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة:٧].

والله عزَّ وجلَّ جعل التَّفكُّر بآياته الكونيَّة والتكوينيَّة والقرآنيَّة سبيلاً إلى معرفته، قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ [الجاثية:٦].

أي ليس هناك من طريق للإيمان بعظمة الله كالتَّفكُّر في آياته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ﴾ [النحل:١٠٤].

الكون متحرِّك، ولولا أنَّه متحرِّك وبناء على قانون الجاذبيَّة لاجتمع الكون كلُّه في كتلة واحدة، ولكن حركة الكوكب تنشأ عنها قوَّة نابذة تكافئ القوَّة الجاذبة، فالمحصِّلة حركة مع سكون، أو سكون حركيٌّ، شيء متحرِّك ويبدو ساكنًا.

الأرض متحرِّكة، تقطع في الثانية ثلاثين كيلومترا تقريباً، ففي السَّاعة الواحدة نقطع مئات ألوف الكيلو مترات، هذا شيء من مسلَّمات العلم الفلكي: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾.

حينما يعوِّد الإنسان نفسه بأن يجول في آيات الله الدالة على عظمته فإنّه يزداد معرفة بالله، لأنَّ الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام:١٠٣].

ولكن العقول تصل إليه، فإذا كان بُعْد أقرب نجم ملتهب عنا أربعَ سنوات ضوئيّة، ولو أنَّ طريقاً معبّداً أنشئ لهذا الكوكب، ومعنا مركبة أرضية، وسرعتنا ١٠٠ كم/ سا فإنّنا نحتاج إلى خمسين مليون عام لنصل إليه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨].

وكلمة (إنما) تعني أنَّ العلماء وحدهم ولا أحد سواهم يخشى الله.

إذا كانت الشمس تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرة، وجوف الشمس يتَّسع لمليون وثلاثمئة ألف أرض، وبين الأرض والشمس مئة وستة وخمسون مليون كيلو متراً، وهناك نجم صغير أحمر اللون في برج العقرب اسمه قلب العقرب يتَّسع للشَّمس والأرض مع المسافة بينهما.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [غافر:٦٤].

هذا الإله العظيم يُعصى؟ ألا يُخطب ودُّه؟ ألا تُرجى جنته؟ ألا تُخشى ناره؟

تصوَّر أنَّ كلَّ عناصر الكون يحكمها قانون الانصهار، وكلَّما ارتفعت الحرارة ازدادت سرعة الذّرّات، فأخذ الجسم أو العنصر شكلاً، من الحالة الصلبة إلى الحالة اللزجة، إلى الحالة المائعة، إلى الحالة الغازيَّة، إذاً فالكون كلُّه إمَّا صلب، أو مائع، أو غاز، لكنّك ترى طاولة صلبة، ومقعداً وثيراً ليّناً، وماء تشربه، وهواء تستنشقه، من الذي خلق كلَّ عنصر في الأرض بدرجة انصهار مختلفة، لولا هذا التفاوت في درجات الانصهار لكان الكون كلُّه في حالة واحدة.

وزن الإنسان على الأرض ستون كيلو مثلاً، بينما يزن على القمر عشرة كيلو فقط، من خلق الأرض بحجم يتناسب معنا؟ هذا من نعم الله الكبرى، أنَّك موجود على كوكب وزنك فيه معتدل، لكن على كوكب آخر -فرضاً- قد يكون الوزن ستين مليون كغ، صارت الحركة أشغالا شاقة إذاً: من جعل هذه الأرض متناسبةً مع حاجاتك؟

لو أنَّ سرعة الأرض عالية جداً، فليل ساعة، ونهار ساعة، إذاً لاضطربت الحياة، لو أنَّها بطيئة، إذاً الليل شهر، والنَّهار شهر،

فدوران الأرض على محور ليس موازياً لمستوى دورانها ينشأ منه الليل والنهار، ولو أنَّ الأرض تدور حول الشَّمس على محور عموديٍّ على مستوى دورانها، إذاً هنا الصيف إلى أبد الآبدين، وهناك الشّتاء إلى أبد الآبدين، وليس هناك فصول.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت:٣٧].

قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف:١٠٥].

الهواء طبقة فوق الأرض، سمكها خمسة وستون ألف متر، والهواء يتحرّك مع الأرض، ولو أنَّ حركة الهواء منفصلةٌ عن حركة الأرض لنشأت أعاصير على سطح الأرض سرعتها ألف وستمئة كم/ سا.

وبعض الأعاصير في أمريكا تقترب سرعتها من خمسمئة كم/ سا فلا يبقَى شيء على وجه الأرض، تُدمِّر مدنًا بأكملها.

الهواء وسيط، ولولا الهواء لما سمعت كلامي، هو ينقل لك الدفء، والحرارة، والصوت.

من الذي خلق الماء، لا لون له، ولا طعم، ولا رائحة. ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠].

لو أن الفكر انطلق في التفكر في خلق السماوات والأرض لعرف الله، هذا الإله العظيم ينبغي أن يُخطب وده، وهذا الإله العظيم ينبغي أن يُطاع فلا يُعصى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران:١٠٢].

البصير

وورد هذا الاسم «البصير» في أكثر من خمسين آية، ورد معرفاً بالـ، وورد منوّناً، وورد مقترناً باسم السميع والخبير، وورد غير مقترن، فمن الآيات التي ورد فيها اسم «البصير» معرّفاً قوله تعالى في مطلع سورة الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء:١].

وورد هذا الاسم أيضاً منوناً في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الحج:٧٥].

هذا الاسم ورد أيضاً في السنة الصحيحة: «إِنَّكُم لا تَدْعُونَ أَصَمّا، ولا غائِبا، إنكم تَدْعُونَ سَمِيعا بَصِيرا» [أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة].

من معاني اسم الله (البصير)

البصير: صيغة مبالغة، والمبالغة في اللغة تعني مبالغة الكم، ومبالغة النوع، أنت أحياناً تنظر إلى جهة واحدة، وليس في الإمكان أن تنظر إلى جهتين معاً، لكن الله

سبحانه وتعالى ينظر إلى كل الخلائق من دون استثناء ويرى أدقَّ شيء، ومهما خفي على الناس لا يخفى عليه.

الله جل جلاله هو «البصير» المتصف بالبصر، و «البصير» صفة من صفات ذاته، تليق بجلاله، في علم العقيدة يجب إثباتها من دون تمثيل، ولا تكييف، ولا تعطيل، ولا تحريف، نفوض معنى البصير إلى الله عز وجل، لا نجسد، ولا نعطل، إن ألغينا أنه بصير تجرأنا عليه، وإن مثلنا بصره كبصرنا وقعنا في خطأ كبير.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١].

كل ما خطر ببالك فالله تعالى بخلاف ذلك، الله عز وجل يبصر جميع الموجودات في عالم الغيب والشهادة، يرى الأشياء كلها مهما دقت أو عظمت، مهما خفيت أو ظهرت.

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ [غافر:١٩].

البصر: هو العين، أو حاسّة الرُّؤية، وقيل: البصر هو النُّور الذي تُدرَك به المُبْصَرات، ومعلوم أنَّ العين مهما تكن حادَّة النَّظر ومهما يكن الشَّيء واضحاً فلا بدَّ من وسيط من النُّور يتيح للعين أن ترى، ويمكن أن تُسحب هذه الحقيقة على العقل، فالعقل مهما كان حادَّ الذَّكاء، ومهما كانت الأمور واضحة وضوح الشَّمس، فلا بدَّ من نور إلهيٍّ يكشف لهذا العقل حقيقة الأشياء، لذلك قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال:٢٩].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد:٢٨].

ودون هداية الله، دون وحي السماء، دون خطاب الله للبشر، فإنّ العقل يَضِلُّ ويُضِلّ، وينحرف ويُحرِف.

أزمة العالم أنهم اعتمدوا على العقل البشري وحده، وغفلوا عن وحي السماء، لذلك العالم يعاني ما يعاني، يعاني من الحروب، من القتل، من الظلم، من سوء توزيع الثروة، العقل البشري دون وحي السماء قاد إلى هذه المهالك.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات:١٣].

لا ليقتل بعضكم بعضاً، لا ليستغل بعضكم بعضاً، لا ليقهر بعضكم بعضاً، لا ليمحق بعضكم بعضاً، البشر من دون وحي السماء كما ترون.

والبصر أيضاً نفاذ الحقيقة في القلب، والبصيرة قوَّة القلب المدركِة للحقائق، نقول: فلان ذو بصيرة أي: في قلبه قدرة على كشف الحقائق، والمُبصِر هو العالم والحاذق، والتبصُّر هو التَّأمُّل والتَّعرُّف والثَّبات في الدِّين.

قبل أن نمضي في التَّعرف إلى هذا الاسم العظيم ينبغي أن نوضِّح هذه الحقيقة، وهي أنَّ مشكلة معظم النَّاس هي في انحراف الرُّؤية وفي خطأ الرُّؤية، لأنَّ الإنسان في الأصل مفطور على حبِّ ذاته وحبِّ وجوده، كما يحبُّ سلامة وجوده، ويحبُّ كمال وجوده، كما يحب استمرار وجوده، فكيف يسلك طريقاً فيه هلاكه؟ فكيف يقترف المعاصي والآثام؟ فكيف يُهلك نفسه بمعصية ربه؟ يُهلكها لأنَّه رأى خطأً أنَّ المعصية مغنماً لا مَغْرَماً، لأنَّه رأى خطأً أنَّ كسب هذا المال من طريق غير مشروعة ربح له، فالإنسان يحبُّ ذاته، فحرصه على سلامة وجوده، وحرصه على كمال وجوده، وحرصه على استمرار وجوده، يقتضي أن يقوم بطاعة الله عزَّ وجلَّ ولا يتوانى.

هؤلاء الذين يقترفون المعاصي والآثام، وهؤلاء الذين يرتادون الأماكن المحرَّمة، لماذا ارتادوها؟ لماذا أقبلوا على المعصية؟ لأنَّهم توهَّموا أنَّها تُسعدهم، ولو عرفوا أنَّ طاعة الله عزَّ وجلَّ هي وحدها التي تسعدهم وأنَّ الإقبال عليه هو الذي يطمئنهم لما سلكوا هذه الطريق الآثمة.

فما الفرق بين مؤمن مستقيم على أمر الله، وعاصٍ تفلّت من أمر الله؟ إنّها الرُّؤية.

سيِّدنا يوسف حينما دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [يوسف:٢٣]، ما الذي جعله يحجم عن اقتراف هذه المعصية؟ إنّها رؤيته لما تنطوي عليه من هلاك ومن بُعد عن الله عزَّ وجلَّ، فهذا الذي إذا دعته امرأة ذات منصب وجمال أقبل على هذه المعصية ما الفرق بينه وبين الطائع؟... الرُّؤية فقط... إنْ صحَّت رؤيتك صحَّ عملك، وإن صحَّ عملك، سعدت في الدّنيا والآخرة، وإن انحرفت رؤيتك فسد عملك وإن فسد عملك هلكت في الدّنيا والآخرة، أكاد أقول: إنَّ الفرق الوحيد بين الشقي والسعيد، بين المستقيم والمنحرف، صحة الرؤية أو خطأ الرؤية.

لذلك كان عمر ﷺ يدعو: «اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه».

إنّ أحدنا حينما يرى أنَّ المعصية مهلِكة له، وأنَّ الطّاعة مغنمٌ له، هذه نعمة، والله الذي لا إله إلا هو لا تُقدَّر بثمن؛ لا تُقدَّر بثمن أن ترى الحقَّ حقَّاً، لأنَّ هناك من يرى الباطل حقاً، ومن يرى الحقَّ باطلاً، أمَّا أن ترى الحقَّ حقَّاً، وترى الباطل باطلاً فهذه من كبرى النِّعم.

وبعد فأنت بحاجة إلى إرادة قويّة تحملك على اتّباع الحقِّ وترك الباطل، رؤية وإرادة، أرنا الحق حقاً، والباطل باطلاً.

في الكون ملايين من البشر ترى الحقَّ باطلاً، وترى الباطل حقّاً، فإذا جاءت رؤيتك مطابقة لمنهج الله، فرأيت الحقَّ حقّاً والباطل باطلاً، فهذه نعمة دونها الكثير من النِّعم.

من عادتي أنني إذا رأيت شاباً مؤمناً مستقيماً، فإنني أقول له: أعظم نعمة أنت فيها هي نعمة الهدَى، أنَّ رؤيتك صحيحة، أنَّ في قلبك نوراً يريك الحقَّ حقّاً والباطل

باطلاً، والإنسان إذا اتصل بالله ولاذ بالله، وانطلق لتنفيذ أمر الله، فإنّ الله يلقي في قلبه النُّور.

ففي اللغة إذاً؛ البصر هو العين، والبصر حاسة الرؤية، والبصر نور يقذفه الله في القلب، والبصر هو النور الذي يتوسط بيننا وبين المبصَرات، والبصر قوة القلب في كشف الحقيقة، والبصير والمبصر هو العالم الحاذق، والتبصّر هو التّأمّل والتّعرّف والثّبات على الدّين، هذا ما جاء في معاجم اللغة حول كلمة البصير.

ومن بعد فاسم البصير من أسماء الله الحسنى، وهو المبصر لجميع المبصَرات، وكلُّ ما في الكون فالله سبحانه وتعالى يبصره، وكلُّ المبصَرات ربُّنا عزَّ وجلَّ بصير بها.

البصير؛ هو الذي يشاهد الأشياء كلَّها، ظاهرَها وخفيَّها، والبصر في حق الله تعالى عبارة عن الصّفة التي ينكشف بها كمال نعوت المبصَرات؛ الشيء إذا انكشف لك انكشافاً تامّاً فقد أبصرته، قد ينكشف لك ظاهره، إذا انكشف لك ظاهره فأنت لم تدرك كمال صفته.

قد تأتي بقطعة ماس ثمنها نصف مليون ليرة فتضعها في الوحل ثم تضعها في الشمس فتبدو لك كَدَرة، فإذا رأيت ظاهرها ظننتها كدرة، لذلك كمال الإبصار أن ترى حقيقة الشيء.

لذلك قالوا: الإبصار هو الصّفة التي ينكشف بها كمال نعوت الأشياء، هذه الماسة التي يزيد ثمنها على نصف مليون ليرة، إذا غمستها في وحل ثمَّ جففتها تبدو لهذه العين كدَرَة، أمّا البصير فهو الذي تنكشف له كمال صفات الأشياء؛ أنت بهذه العين تراها كَدَرة، لكن كمال اسم البصير يراها ماسة، وفرق كبير بين الرؤيتين.

وهذا يعني أنَّ الله عزَّ وجلَّ يعرف كلَّ شيء، لا يخفى عليه شيء، أما نحن فنرى ظاهر الأشياء، لكنَّ باطنها، وحقيقتها محجوبة عنّا، وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يحكم بالظاهر والله يتولّى السّرائر.

اسم البصير؛ يدلُّ على الصّفة التي ينكشف بها كمال صفة المبصرَات، لو افترضنا أنَّ إنساناً قصير القامة أسمر اللون أحنف الرّجل ناتئ الوجنتين غائر العينين مائل الذقن، وقد يكون أعلم علماء الأرض في علم من العلوم، فأنت إذا نظرت إلى شكله رأيته إنساناً قميئاً، لكن لو علمت ما ينطوي عليه من علم لأكبرته أعظم إكبار، فإذا نظرت بعينك إليه فأنت لم تكشف كمال صفات هذا الإنسان، أما إذا أدركت علمه وأخلاقه، أكبرته وأعظمته، طبعاً هذا ورد في التاريخ عن أحد التابعين وهو الأحنف ابن قيس وصفه من وصفه فقال: كان قصير القامة أسمر اللون مائل الذقن أحنف الرجل، غائر العينين، ناتئ الوجنتين، ليس شيء من قبح المنظر إلا آخذ منه بنصيب، وكان مع ذلك سيد قومه، إذا غضب غضب لغضبته مئة ألف سيف لا يسألونه فيمَ غضب؟

لو أنَّ واحداً من النَّاس نظر إلى الأحنف بن قيس، فرأى فيه هذه الصفات التي لا تُرضي، فظنَّ أنَّه شخص عاديٌّ، فهل أدرك بعينه هذه كمال صفات هذا التَّابعيّ الجليل؟!

معنى اسم البصير؛ صفة لله عزَّ وجلَّ تنكشف بها كمالات نعوت الأشياء، بصير يعلم كل شيء، يبصر كلَّ شيء، ظاهر الشيء وباطنه وخلفيته، وما ينطوي عليه، أحياناً إنسان يضرب يتيماً، والله عزَّ وجلَّ قال: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ ﴾ [الضحى:٩].

والنبي ﷺ يقول: «أدن اليتيم منك وألطفه وامسح برأسه، وأطعمه من طعامك، فإن ذلك يلين قلبك ويدرك حاجتك» [البيهقي في شعب الإيمان، عن أبي الدرداء].

ولكن قد يضربه، هذا حينما يضرب اليتيم كأنه ارتكب معصيةً، كأنه سقط من عين الناس، لكن إذا ارتكب هذا اليتيم عملاً قبيحاً يقتضي الحال أن يضربه ليؤدِّبه، وعن أسماء بن عبيد، قال: قلت لابن سيرين: عندي يتيم؟ قال: اصنع به ما تصنع بولدك، اضربه ما تضرب ولدك [البخاري في الأدب المفرد].

إنسان راقٍ جداً وعنده يتيم اقترف معصية كبيرة، فأراد أن يؤدِّبه فضربه، لو أنَّ إنساناً نظر إليه وهو يضربه لاحتقره.. هذا يتيم كيف تضربه؟ لكنَّ الله نظر إلى نيّته

الطيّبة، فالمعنى أنَّ الله بصير، تنكشف له بهذه الصفة كمال صفات هذا الضارب، هو يضربه لله، يضربه ليؤدّبه، يضربه ليحمله على الاستقامة.

البصير إذاً هو المبصر لجميع المبصَرات، والبصير هو الذي يشاهد الأشياء كلها ظاهرها وخفيها، والبصر في حقّه تعالى عبارة عن الصفة التي تنكشف فيها كمالات نعوت الأشياء.

وقيل: البصير هو المُبصِر، المتَّصف بالبصر لجميع الموجودات، فيعلم تعالى جميع المبْصرات تمام العلم، وتنكشف له تمام الانكشاف.

نحن نسعد كثيراً حينما نعلم أنَّ الله يعلم النيّات، يعلم سلامة صدرك، يعلم حبَّك للخير، يعلم أنَّ هذا الخطأ لا تقصده، يعلم أنَّ هذا الوضع الحرِج الذي وقعت فيه لا تريده، يعلم أنَّ هذه الكلمة التي قلتها لم تكن تريد أن تقولها، أنت حينما تعلم أن الله يعلم حقيقة كلِّ شيء، هذا مما يسعدك، لأن الله قال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق:١٢].

يجب أن تعلم أن الله يعلم، وحينما تعلم أن الله يعلم ترتاح نفسك.

مثلاً: إنّ الموظَّف يجلس وراء الطاولة سبع ساعات ثم يخرج ليقف على الشّرفة لدقيقة واحدة، يراه المدير العام يقف خلف النافذة، فيغضب ويثور. حالة غريبة، سبع ساعات وراء الطاولة يعمل، فلما وقف دقيقة واحدة خلف النافذة دخل المدير العام فرآه منشغلاً عن عمله فعنّفه، لأنَّه لا يعلم حالهُ طوال سبع ساعات بل رآه واقفاً خلف النافذة فلامهُ.

فالإنسان علمه ناقص، لكنَّك مع الله مطمئنّ مرتاح لأنَّه يعلم سلامة صدرك، يعلم أنّك ما أردت هذا الذي حصل، يعلم أنّك تُكِنُّ للنّاس كلَّ خير، يعلم أنّك بريء من هذه التّهمة.

قال أحدهم لي مرةً: الحمد لله على وجود الله، والحمد لله على علم الله، هو موجود ويعلم، الله عزَّ وجلَّ لا يحتاج إلى إيصال يثبت حقّاً، ولا إلى شهادة، ولا إلى حلف يمين، ولا إلى بيّنة.

الله عزَّ وجلَّ بصره كامل، ينكشف باسم البصير كمال صفة المبصر، وهذا مما يسعد الإنسان أيّما سعادة.

كم من إنسان مظلوم متّهم تهمة هو بريء منها، على نطاق الأسرة أحياناً يقول كلمة هو لا يقصدها تفسَّر تفسيرات أخرى، يفعل فعلاً لا يريده، مصادفةً يفسَّر تفسيرات أخرى، لكنَّ الضمانة العظيمة هي أنَّ الله يعلم.

وبالمناسبة، رحم الله عبداً جبَّ الغيبة عن نفسه، ولنضرب أمثلةً فالنبي ﷺ جاءته السيدة صفية إلى معتكَفه، أراد أن يوصلها إلى البيت، مرَّ رجلان من الأنصار قال النبي الكريم: «على رِسْلِكما»، وقفا، قال: «إنها صفية بنت حيي»، قالا: سبحان الله! يا رسول الله!، قال: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، فخشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً» [سنن أبي داود عن صفية].

صحيح أنَّ الله يعلم لكنَّك مكلف أن تبيّن، أن توضّح، الله جل جلاله يعلم، لكن لا يكفي أن تقول: الله يعلم، ثم تضع نفسك موضع التّهمة، لا يكفي أن تقول: الله ناظر إليّ، وأنت في وضع تُتَّهم فيه، هذا ليس من السّنّة، يجب أن تعلم أنَّ الله يعلم، ويجب أن تدفع عن نفسك كلَّ الشُبُهات.

لو دخل رجل إلى بيت فيه امرأة لا تحلُّ له، ليست من محارمه، وهو أنقى من ماء الثلج، وهو في طهر الملائكة، وجودك في بيت مع امرأة موقف متّهم فيه، لا تفعل هذا، الخلوة محرمة في الإسلام، لذلك سدُّ الذرائع باب عظيم. هناك مواقف لا شكَّ أنك طاهر ومستقيم ومتملّك لزمام نفسك، لكن أي موقف يضعك موضع التهمة، فالشّرعُ يأمرك أن تبتعد عنه، أحياناً تدخل إلى محلٍّ تجاريٍّ لا يوجد فيه أحد، يجب عليك أن تخرج فوراً، لئلّا تكون في موضع متّهم فيه.

لذلك أروع شيء أن تطيع الله في خلوتك، لأن طاعة الله في خلوتك علامة إخلاصك وصدقك.

العبرة أن تطيعه في خلوتك كما تطيعه في جلوتك، أن تطيعه سرّاً كما تطيعه علانيةً، يشاهد ويرى ولا يغيب عنه ما في السموات العُلا ولا ما في الأرض وما بينهما ولا ما تحت الثرى، وهو الحاضر الذي لا يغيب.

إنسان يغادر مركز عمله، إذا كان مديراً لمعمل أو إذا كان مدير مستشفى أو مدير ثانوية، بعض الموظّفين قد ينصرفون قبل الدوام، فالمدير عليه أن يكون في مكان عمله، الإنسان إذا كان موجوداً يرى، أما إذا غاب فلا يرى. لكنّ الله سبحانه وتعالى حاضر لا يغيب.

إضاءات على بعض الآيات التي ورد فيها اسم (البصير)

ورد اسم البصير في كتاب الله في واحد وخمسين موضعاً. ففي البقرة: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾ [البقرة:١١٠].

وبعد وفي ضوء فهمنا الدقيق في الصفحات السابقة لمعنى البصير، يعني هذا العمل له ظاهر وله خلفية وله باطن وله نية، له ملابسات، سبحانه وتعالى بصير بما تعمل، يعني يُبصر حجم عملك، مقدار تضحيتك مقدار الصراع النفسي الذي سببه هذا العمل، إن الله بصير به، بصير بكل أبعاده، بكل منحنياته، بصير بخلفياته، بصير بملابساته، بصير بأهدافه، بصير ببواعثه، هذا معنى بصير.

أما أنت فتبصر عملاً أمامك، كأن ترى إنساناً يضرب ابنه، أما النيات والبواعث والأهداف والمقاصد والخلفيات والصراعات والتضحيات، هذا العمل لا يعلم حجمه إلا الله، ولا يعلم مقدار التضحية التي كانت من أجله إلا الله، ولا يعلم المتاعب التي تحملها صاحبه إلا الله، فربنا حين يقول: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد:٤].

يعني بصير بحجم أعمالكم، ونياتكم وبواعثكم ومقاصدكم وأهدافكم وتضحياتكم، والصراعات التي في أنفسكم.

وفي قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾.

يعني يا محمد سمعنا قولك في الطائف، ورأينا معاناتك، وهذا ردنا، وأنت سيد الأنبياء والمرسلين، وسيد ولد آدم أجمعين.

وقال تعالى: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [آل عمران:٢٠].

هناك إنسان يكذب وإنسان لا يكذب، إنسان مغلوب على أمره، إنسان متأثر، والله بصير بالعباد جميعهم.

قد يُلقي إنسان كلمة على جمع غفير فإن صدى هذه الكلمة في علم الله، هذا صدَّق، وهذا استهزأ، وهذا لم يبال، وهذا ارتعدت فرائصه، وهذا خاف.

﴿ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [المائدة:٧١].

وفي الإسراء: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الإسراء:١٧].

مرة وقفت في سفح جبل قاسيون، ونظرت إلى مدينة دمشق ممتدةً يمنةً يسرةً شمالاً وجنوباً شرقاً وغرباً، فهذه البيوت بطوابقها، بأقبيتها، ماذا فيها من طاعات أو معاصٍ؟ من يعلم؟ الله وحده.

منظر هذه المدينة من سفح الجبل مدينة هادئة وادعة أبنية مضاءة متلألئة. لكن داخل البيوت يا ترى أهناك صلوات أم موبقات؟ هل هناك نكاح أم سفاح؟ من يعلم؟... الله الذي يعلم.

وقد يسكن إنسان في مدينة وهو لا يعلم ما فيها، هو مؤمن يرتاد بيوت الله عزَّ وجلَّ، له إخوة كرام، يحسن الظن بجميع الناس، لكن حجم المعاصي في أي بلدة، حجم الموبقات، الذين يشربون الخمر، الذين يقترفون جريمة الزنى، من يعلم ذلك؟ لا أحد إلا الله.

وما كنت أصدق في حياتي أن امرأة في مكان رفيع كأنها ملكة تعقد مؤتمراً صحفياً يُبَث في جميع أنحاء العالم تقول: لقد زنيت مع فلان، فنحن في أي عصر نعيش؟! قال تعالى: ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [النحل:٢١].

يعني امرأة مرشحة لتكون ملكة في بلاد الغرب، تعقد مؤتمراً صحفياً وعلى كل أجهزة الإعلام، وقد بُثت كلمتها في محطات الفضاء وهي تقول للناس: إنني خنت زوجي وزنيت مع فلان... سبحان الله كم بيننا وبين أهل الفسق والفجور من مسافات شاسعة، البيت المسلم بيت شريف، بيت طاهر، بيت نقي، فالإنسان لو زلَّت قدمه يجب أن يستر نفسه.

﴿ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾ [غافر:٢٠].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾ [غافر:٥٦].

وفي سورة الملك: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ [الملك:١٩].

وفي الحديث: «أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت» [رواه الطبراني في الأوسط، عن عبادة بن الصامت]، وأرقى حالات المؤمن أن يشعر أنه تحت مراقبة الله عزَّ وجلَّ.

أفضل حالات المؤمن أن يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإن الله يراه، يعني أن تشعر أن الله يراك، هذه درجة في الإيمان عالية جداً، أن تشعر دائماً أن الله معك، أن الله معك في خلوتك وفي جلوتك وفي مجلسك، وعند ذكرك ونطقك، وفي سفرك وفي حضرك، هذا الشعور المستمر من نِعَم الله العظمى وهو درجة من درجات الإيمان العالية.

أحد العلماء يرى: أن البصير هو الذي يشاهد ويرى حتى لا يعزُب عنه ما تحت الثرى.

إبصاره منزّه عن أن يكون بحدقة أو أجفان، مقدّس عن أن يرجع إلى انطباع الصور والألوان كما ينطبع في حدقة الإنسان؛ فإن ذلك من التأثر والتغيير المقتضي للحادث المنزَّه عنه القديم.

لا يُعقل ولا يليق بالله عزَّ وجلَّ أن يبصر بحاسة ولا بأداة ولا بتغير، يعني الشبكية إذا سقط عليها ضوء تحدث الرؤية، وتعريف الصورة؛ هي مجموعة نقاط متفاوتة في الإضاءة، لو أتيت بصورة وكبرتها، ترجع إلى نقاط، وكلما كثرت هذه النقاط كانت الصورة أكثر وضوحاً، لكنها في الحقيقة نقاط متفاوتة في الإضاءة، فهذه الصورة إما منبع ضوئي أو منعكس ضوئي إذا وقع على حدقة العين وانكسر إلى الشبكية، فانطبعت عليها، الشبكية فيها مادة كيميائية، تتأثر بالضوء، وتأثرها بالضوء يشكل تياراً كهربائياً، هذا ينتقل عبر العصب البصري إلى الدماغ، وفي الدماغ تكشف حقيقة الصورة.

بشكل مختصر، في العين مئة وثلاثون مليون عصية ومخروط، هذه العصيات والمخاريط فيها مواد كيماوية، تتأثر بالضوء، فإنْ تأثرَتْ تَشَكَّلَ تيارٌ كهربائي هذا التيار ينتقل عبر العصب البصري إلى الدماغ. الصورة تنطبع على شبكية العين إحساساً وتنتقل إلى الدماغ فتفسر هناك إدراكاً بحسب المفهومات السابقة، فالإنسان متى يرى، يرى الصورة التي هي مجموعة نقاط مضيئة أو متفاوتة في الإضاءة هذه تؤثر في تركيب

العصيات والمخاريط، من هذا التأثر والتأثير يتشكل تيار كهربائي، هذا التيار يسري عبر العصب البصري إلى الدماغ، في الدماغ تُفسر هذه الصورة في ضوء المفهومات السابقة، والمعنى أنه لو لم يحدث تغيير في شبكية العين والعصيات والمخاريط، ولو لم يحدث تأثر هذه المواد الكيماوية بالضوء لما انتقلت الصورة.

الله جل جلاله منزَّه عن أن يبصر بحاسة أو أداة أو تغيير في ذاته، وإذا نُزِّه الله جل جلاله عن ذلك كان البصر في حقه عبارة عن الصفة التي تنكشف بها كمالات المبصرات، صفة في ذات الله زائدة على علمه، تُكشف بها حقيقة كمالات صفات الأشياء. فالله تعالى ليس كمثله شيء، له عين هو أعلم بها والإيمان بها واجب والسؤال عنها بدعة.

نصيب المؤمن من اسم الله (البصير)

وبعد كل هذا الإيضاح فما الأدب الذي ينبغي أن نتأدب به حيال هذا الاسم العظيم؟ الله عزَّ وجلَّ بصير، ولأنك إنسان مكرّم، مخلوق مكرّم، قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء:٧٠].

لأنك مخلوق مكرم، والله بصير ومن فضله وتكريمه لك مَنَحك حاسة البصر، لماذا أودع الله فيك هاتين العينين؟

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ ﴾ [البلد:٨].

العين السليمة لو درَّجنا لوناً أخضر أو أحمر أو أي لون آخر ثمان مئة ألف درجة، العين السليمة تدرك الفرق بين درجتين.

والعين السليمة تبصر مباشرة دون معالجة للأفلام، الفيلم يحتاج إلى تظهير، العين تبصر مباشرة، وتدرك الشيء بحجمه الحقيقي، انظر إلى الجبل تراه بحجمه الحقيقي، كذلك إذا نظرت إلى صورة الجبل مصوَّراً فإنك تراه بحجم أربع سنتمترات. أما العين فهي تدرك الشيء بحجمه الحقيقي.

هذه العين فيها مطابقة والمطابقة شيء لا يصدق، ففي علوم الفيزياء هناك العدسة البلورية: لو وضعنا أمامها شمعة وخلف هذه العدسة في محرقها لوحة، لا ينطبع خيال الشمعة على اللوحة إلا في مكان واحد فقط، فلو أزحناها قليلاً أصبح الظل أو المرتسم على هذه اللوحة غير واضح، إذا غيرنا مكان الشمعة نحتاج إلى تعديل مكان اللوحة لأنه تغيَّر المحرق لكن العدسة التي أودعها الله في الإنسان عدسة مرِنة، فإذا رأيت الشيء يتحرك فبدلاً من أن تحرك الشبكية، فإن العدسة يزداد احديدابها أو يَقِلّ، هناك عضلات اسمها عضلات هدبية، تضغط على هذا الجسم البلوري فتزيد احديدابه أو تقلله، هذه العضلات تزيد الاحديداب أو تقلله بالمكرونات.

وبعد هذا الشرح يطالعنا سؤال كبير، كيف ضُغط هذا الجسم حتى جاء الخيال على الشبكية؟ من حسب المسافة بينك وبينه؟... هل رأيته أولاً ثم حسبت المسافة؟ لا، إن رأيته فقد رأيته، وإن لم تره كيف حسبت المسافة؟ عملية المطابقة في العين من أعظم الأدلة الدالة على وجود الله وعلى عظمته، يعجز عن فهمها العلماء، المطابقة، ضمن ستة أمتار، لذلك الإنسان إذا سكن في مدينة مكتظة يضعف بصره، يحتاج إلى نظارات، أمّا أهل البادية فالعين عندهم مستريحة دائماً لأنها تنظر إلى مسافات بعيدة فلا تحدّها أو تقف دونها حواجز تضعفها.

هذه العين سميت كريمة الإنسان لأن الله كرَّمه بها، لماذا خلقها الله له؟ ليرى بها العورات؟! ليرى بها الموبقات؟! ليرى بها المحرمات؟! ليرى بها النساء الكاسيات العاريات؟! أم ليرى بها آيات الله الدالة على عظمته، فالعين التي تغضّ عن محارم الله، والعين التي تحرس في سبيل الله، والعين التي تنهمر منها الدموع من خشية الله هذه عين شريفة طاهرة مقدسة، الله سبحانه وتعالى في الأعم الأغلب لا يُفجعك بها «اللهمَّ مَتِّعْنَا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا واجعله الوارث منا ما أحييتنا» [الطبراني في الدعاء من حديث ابن عمر].

يعني أي عين تغض عن محارم الله وتبصر آيات الله، وتسبح الله وتكبّره وتحمده، هذه العين المرجو من الله أن يحفظها لك إلى نهاية الحياة.

إذاً من أدبنا مع اسم البصير الذي منحنا نعمة البصر أن نستخدم العين في أن نبصر بها آيات الله الدالة على عظمته.

قيل: من كان نظره عبرة، ويقظته فكرة، وكلامه ذكراً فهو مؤمن، هذا أول شيء، يجب أن تستخدم العين في رؤية آيات الله الدالة على عظمته، الشيء الثاني: يجب أن تعلم أن الله يبصرك، الذي خلق نعمة البصر ألا يبصر؟... قال تعالى: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾ [البلد:٦-١١].

الآية عميقة المعنى جداً، أيحسب أن لم يره أحد وهو يرى، فالذي خلق لك البصر ألا يراك؟ أيحسب أن لم يره أحد؟ ألم نجعل له عينين يبصر بهما؟ فالذي خلق لك العينين يراك حين تقوم، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ [الشعراء:٢١٧-٢٢٠].

وهنا أيضاً نقطة أخرى مهمّة جداً، المؤمن الكامل لا يستهين بنظر الله إليه واطّلاعه عليه، قال بعضهم: لا تجعل الله أهون الناظرين إليك، فالإنسان يكون أحياناً أمام شخص فيحسّن نفسه، يرجّل شعره، يتعطر، وإذا دخل إلى بيته يرتّبه، لأنه يستحي منه، فلماذا يقارف الإنسان معصية وهو يعلم أن الله يراه، فكأنه جعل الله أهون الناظرين إليه.

وقد قيل: من أخفى عن غير الله ما لا يخفيه عن الله فقد استهان بنظر الله إليه، إحدى ثمرات الإيمان أن تشعر أن الله معك وهو ناظر إليك.

قال أبو الجلد: أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء قل لقومك: ما بالكم تسترون الذنوب من خلقي وتظهرونها لي، إن كنتم ترون أني لا أراكم فأنتم مشركون بي، وإن كنتم ترون أني أراكم فلمَ تجعلوني أهون الناظرين إليكم.

وكان وهب بن الورد يقول: خف الله على قدر قدرته عليك واستحِ منه على قدر قربه منك، وقال له رجل: عظني! فقال له: اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك.

وكان بعض السلف يقول: أتراك ترحم من لم يقر عينيه بمعصيتك حتى علم ألا عين تراه غيرك، وقال بعضهم: ابن آدم! إن كنتَ حين ركبتَ المعصية لم تَصْفُ لك من عينٍ ناظرة إليك، فلما خلوت بالله وحده صَفَتْ لك معصيتُهُ ولم تستحِ منه حياءك من بعض خلقه، ما أنت إلا أحد رجلين: إن كنت ظننت أنه لا يراك فقد كفرتَ، وإن كنت علمتَ أنه يراك فلم يمنعك منه ما منعك مِن أضعف خلقه لقد اجترأت عليه.

دخل بعضهم غيضة ذات شجر فقال: لو خلوت ههنا بمعصية مَن كان يراني؟ فسمع هاتفاً بصوت ملأ الغيضة: ألا يعلم مَن خَلَقَ وهو اللطيف الخبير.

راود بعضهم أعرابية وقال لها: ما يرانا إلا الكواكب! قالت: أين مُكَوْكِبُها؟

رأى محمد بن المنكدر رجلاً واقفاً مع امرأة يكلمها فقال: إن الله يراكما، سترنا الله وإياكما. وقال الحارث المحاسبي: المراقبة علم القلب بقرب الرب.

وسئل الجنيد بم يستعان على غض البصر؟ قال: بعلمك أن نظر الله إليك أسبق إلى ما تنظره. وكان الإمام أحمد ينشد:

إذا ما خلوتَ الدهرَ يوماً فلا تَقُلْ ... خلوتُ ولكنْ قُلْ عليَّ رقيبُ
ولا تحسَبَنَّ الله يَغفُلُ ساعةً ... ولا أنَّ ما يخفى عليه يغيبُ

وكان ابن السَّماك ينشد:

يا مُدمِنَ الذنبِ أما تستَحِي ... والله في الخلوةِ ثانيكا
غَرَّكَ مِن ربك إمهالُهُ ... وسَتْرُهُ طولَ مساوِيكا

مقترف المعصية إن علم أن الله يعلم فهو مجترئ وخاسر، وإن علم أن الله لا يعلم فهو جاهل وكافر، لأن الله يعلم.

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ قالَ: كانَ النَّبيُّ ﷺ بارِزاً يَوْماً للنَّاسِ، فأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: مَا الإيمانُ؟ قَالَ: «الإيمانُ أَنْ تُؤْمِنَ بالله وَمَلائِكَتِهِ وكُتُبِهِ وبِلِقائِهِ ورُسُلِهِ وتُؤْمِنَ بالبَعْثِ» قالَ: مَا الإسْلامُ؟ قالَ: «الإسلامُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَلا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً، وتُقيمَ الصَّلاةَ، وتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ، وتَصُومَ رمَضَانَ» قالَ: ما الإحْسانُ؟ قالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ...» [صحيح البخاري].

وإذا عرف الإنسان أن الله تعالى هو البصير وكان الإنسان عاقلاً زيّن باطنه بالمراقبة، وزين ظاهره بالمحاسبة.

وكان بعض السلف يقولون: إذا عصيت مولاك فاعصه في موضع لا يراك فيه.

يقول الزمخشري:

يا من يرى مدَّ البعوض جناحها ... في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى مناط عروقها في نحرها ... والمخَّ من تلك العظام النُّحَّل
امنن عليّ بتوبة تمحو بها ... ما كان مني في الزمان الأوّل

دعا بعضهم فقال: «إلهي أنت البصير بعيوبي، الخبير بذنوبي، المطلع على سري، بيدك زمام أمري، أسألك أن تجعل في قلبي نوراً، وفي بصري نوراً لأشاهد حقائق الأشياء، وأتأدب معك بالظاهر والخفاء. إلهي اجعلني لك من المشاهدين، وفي حماك من القائمين، إنك على كل شيء قدير».

وهناك أدعية كثيرة تتعلق باسم البصير، والآية الكريمة: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)﴾ [الأنعام:١٠٣].

أرجو الله سبحانه وتعالى أن يجعل من هذه الموضوعات في أسماء الله الحسنى قفزة نوعية في معرفة الله، والحقيقة أنك إن آمنت أن الله خالق السموات والأرض دون أن تتعرف إلى أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، هذا الإيمان لا يرقى بك إلى النجاة ولا إلى السعادة، ومن أجلّ معطيات العلم أن تتعلم أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، وتتعرف إليها، وتهتدي بها.

الحق

هذا الاسم العظيم ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾ [المؤمنون:١١٦].

وفي قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾ [الأنعام:٦٢].

وفي قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ ﴾ [الحج:٦].

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم أنه إذا قام إلى الصلاة في جوف الليل قال: «اللهم أنت الحقُّ، ووَعْدُكَ الحقُّ، ولقاؤكَ حَقٌّ، وقَولك حَقٌّ، والجنَّةُ حَقٌّ، والنَّارُ حَقٌّ، والنَّبيُّونَ حَقٌّ، ومحمدٌ حَقٌّ، والساعةُ حَقٌّ» [أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن عبد الله بن عباس].

من معاني اسم الله (الحق)

الحقُّ في اللغة اسم فاعل، فعله حقّ يحق حقاً، يقال: حققت الشيء، أحقّه حقاً، إذا تيقنت أنَّه موجود، فالحقُّ هو الشيء المستقرّ، والموجود، والثابت.

والحقُّ بمعنى المطابقة، كلامه حق يعني طابق الواقع، إنسان ارتكب عملاً جئنا بشاهد شهد، نقول شهادته حق، لأنها مطابقة للواقع.

والحقُّ الشيء الثابت، والحق الذي لا يزول، و الحق هو العدل، والحق خلاف الظلم، والاعتقاد بالحق الشيء المطابق للواقع.

«الحق» في القرآن الكريم له استعمالات كثيرة، الحق هو الإسلام لأنه دين الواحد الديان.

و «الحق» هو العدل.

﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء:٥٨].

و «الحق» هو الحكمة، العمل الحكيم عمل حق، والصدق، والوحي، والقرآن، والحقيقة، وأيضاً الحساب والجزاء: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور:٢٥].

الله عز وجل هو الحق، لأنه متصف بالوجود الدائم، لا شيء قبله، ولا شيء بعده.

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد:٣].

هو الباقي على الدوام إلى أبد الآبدين.

الحق هو المتصف بالوجود الدائم، وبالحياة والقيوميّة. والبقاء، فلا يلحقه زوال، ولا فناء، وكلُّ أوصاف الحق كاملة جامعة للكمال والجمال والعظمة والجلال، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾ [الحج:٦٢].

بربكم كم ملة وكم اتجاه وكم طائفة ظهرت في الأرض؟ كلها تلاشت والإسلام باقٍ كالطود الشامخ، لأن الإسلام حق، وأي فرقة ضالة باطلة.

و «الحق» هو الذي يحقّ الحقّ بكلماته، لذلك قال تعالى: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يونس:٨٢].

وفي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ﴾ [الأنعام:٧٣].

وفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور:٢٥].

هنيئاً لمن كان مع الحق، والويل لمن كان مع الباطل، هنيئاً لمن كان مع الثابت، والدائم، والباقي، والكامل، و الحق نقيض اللعب.

لا بد من ضرب الأمثلة: معك جهاز كهربائي، وبحاجة إلى طاقة كهربائية، توجهت إلى مأخذ كهربائي ووضعت فيه الشريط، فالآلة لم تتحرك، فهذا المأخذ ليس فيه كهرباء إذاً، فتوجهت إلى مأخذ آخر ووضعت فيه الشريط فدارت الآلة، المأخذ الأول باطل، والثاني حق... فما معنى الحقّ إذاً؟...

الحقيقة أن الله هو الحقّ، وإذا توجّهت إلى غيره فلن تجد شيئاً بل سراباً في سراب، ووعودٌ كاذبة، وأقوال فارغة، وكلمات طنانة، لكنها هراء وهواء، وإذا توجهت إلى الله عز وجل وجدت كلَّ شيء، فأول معنى من معاني الحقّ هو الشيء الموجود، وأول معنى من معاني الباطل الشيء المعدوم، والإنسان إذا وعدك وعداً ونفّذ وعده فوعده حق، فإن لم يُنفِّذ فوعده باطل، وإذا توهمت أن الجِنّ بإمكانهم أن يفعلوا كذا وكذا فهذا مجرّد وهم.

الحقّيقة أن الله سبحانه وتعالى ما أعطى الجن قوةً خارقة خياليّة أبداً، فاعتقادك أن الجنَّ بإمكانها أن تفعل، وأن تؤذي، وأن ترفع، وأن تخلِّص، فهذا اعتقاد باطل، لأنه لا

يُطابق الحقيقة، وإذا قُلت مثلاً: فلان بإمكانه أن يفعل شيئاً خارقاً فأنت مخطئ، إذ هو في الحقيقة عبد مثلك لا يستطيع أن يفعل شيئاً من ذلك، فقولُك باطل، فالشيء الموجود والاعتقاد بوجودِهِ والاعتراف بوجودِهِ، هذا هو الحقّ، والشيء المعدوم أن يتوهَّم الإنسان أن هذا الشيء موجود، وهو ليس بموجودٍ فهذا الوهم باطل، وأن تعتقد أن هذا الشيء موجود وهو غير موجود فهذا اعتقاد باطل، وإذا قلت: إن هذا الشيء موجود وهو غير موجود فهذا قول باطل، والصواب أن الحقّ هو الموجود، والباطل هو المعدوم، والاعتقاد الحقّ حينما يوافق الواقع فهو حقٌّ وإذا خالف الواقع فهو باطل، والقول الحقّ حينما يوافق قولك الموجود فقولك حق، وحينما يخالف قولك الموجود فالقول باطل.

وأخطر ما في الحياة أن تتجه إلى جهة لا تملك شيئا، وأخطر ما فيها أيضاً أن تعتقد اعتقاداً غير صحيح ليس له مرتكز واقعي أبداً، وأخطر كلام تقوله أن تنطق بشيء لا يرتبط بالواقع، فما الذي ضيّعَ الناس؟ إنّه الباطل، وقد تعتقد اعتقاداً وبعد سنين طويلة ينكشف للعالم كلِّه أنه اعتقاد باطل، وأن هذا المبدأ غير صحيح، وأن هذا المبدأ ما حقق نفعاً للإنسان، بل زاده شقاءً.

فإذا كنت مع الحقّ فأنت في سعادة كبيرة، لأنك مع الثابت ومع الموجود، وهذا ملخص الفكرة، أو هذه هي الخطوط العريضة لها.

والشيء الموجود إمّا أن يكون واجب الوجود أو ممكن الوجود، فالخالق لا بد أن يكون موجوداً، ولا يمكن إلا أن يكون موجوداً، والعقل لا يقبل هذا الإتقان البالغ في الخلق دون إلهٍ خالق، ودون إلهٍ مبدع، ودون إلهٍ خبير، حكيم،عليم، قدير، فالموجود واجب الوجود، أما الممكن فهو ما كان ممكن الوجود، فنحن مثلاً ممكن أن نكون أو لا نكون، ولا يكون وجودنا حقاً إلا إذا شاء الله أن نكون، ولذلك ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠

بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٢﴾ [إبراهيم:٢٢].

وعدُ الشيطان باطل، والشيطان يخوّفك، وتخويفه باطل وأحياناً يَعِدُكَ بالفقر، ووعده باطل، والقضية ليست قضية فكرة تتعلمها بل القضية قضيةٌ مصيرية، فإن كان لك -مثلاً- مبلغ كبير جداً في مدينة بعيدة، ولن تقبضه إلا من الساعة الثانية عشرة حتى الساعة الواحدة من يوم السبت، وهذا المبلغ إذا قبضته يحل كلَّ مشكلاتك، فإن توجهت إلى المحطة، وركبت قطاراً يوصلك إلى تلك المدينة، وصلت إلى غايتك، لكنك قد تخطئ وأنت راكب في هذا القطار عشرات الأخطاء ولكن ما دام هذا القطار في طريقه إلى وجهتك وسوف تصل إلى هذه المدينة قبل الساعة الثانية عشرة، فأنت في الحقّ، أما إذا ركبت قطاراً متجهاً إلى مدينة أخرى في مسار معاكس فهذا القطار باطل لأنه لن يوصلك إلى هدفك، إنه قطار ولكن يتجه بك إلى عكس هدفك، وأنا أحاول أن أبدد كل حيرة من أجل توضيح هذا الأمر لأنه دقيق وعميق جداً، وقد يحتاج الإنسان لتوضيح الحقائق إلى ضرب الأمثلة.

الله هو الحقّ، وهذا الكون حقٌّ لأنَّ الله خلقه، وكذلك لأنه موجود فهو حق، ولكن هذا الشيء ممكن الوجود، فيمكن أن يكون ويمكن ألا يكون، لكن أن تعتقد بوجود الله سبحانه وتعالى فاعتقادُكَ حق، وأن تُقِرَّ بوجودِهِ فإقرارُكَ حق، وإذا اعتقدتَ بأنَّ زيداً من الناس بإمكانه أن ينفعك فاعتقادُكَ باطل أو بإمكانه أن يضرَّكَ فاعتقادُكَ باطل، وإذا قلت هذا فقولك باطل، فصار الموجود هو الحقّ، والاعتقاد بالوجود هو الاعتقاد الحقّ والإقرار بالوجود هو الإقرار الحقّ، وهذه الفكرة النيّرة تقودنا إلى فكرةٍ أخرى، بأنَّ الحقّ في الكون لا يتعدّد، بل إن الحقّ واحد، لقوله تعالى: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس:٣٢].

فإن اعتقد أحدٌ خِلاف ما في هذا القرآن فهو بالدليل القطعي ضالٌّ، وعليه أن يقيل عثرة نفسه.

وإذا اعتقد أن الأجل بحسب العناية بالصحة -والعناية بالصحة واجب- فإذا اعتقد أن الأجل متعلّق بذلك فهذا اعتقادٌ باطل، لأنّ الإنسان لا يموت إلا إذا انتهى أجله.

أخٌ كريم من إخواننا الكرام حدثني قصة، فقال: أنا وُلدتُ في بيتٍ، ولي عمّانِ، فوالدي له غرفة، وعمي له غرفة، وعمي الآخر له غرفة، وفي الساعة الرابعة من يوم الثلاثاء ولدت في غرفتنا، والغرفة الملاصقة لها هي غرفة عمي، وفيها زوجته، وقد أصيبت بمرض عضال خطير، واستُدعي أربعة أطباء لمعالجتها، ومن غرائب الموافقات أن الأطباء الأربعة اتفقوا على أنها لن تعيش أكثر من ساعة، فأنا ولدت، وكبرت، وترعرعت، ودخلت المدرسة، وتخرجت فيها، وعملت مع والدي، وتوفي والدي، وتزوجت، وانتقلت من بيت إلى بيت، واشتريت آخر بيت وهو الذي أسكنه وأقيم فيه، وأصبح عمري خمسة وأربعين عاماً وجاءت زوجة عمي لتزورني قبل أيام، فرغم قول الأربعة أطباء أنها ستموت بعد ساعة، فلقد عاشت بعد ذلك خمسة وأربعين عاماً.

إنّ الطبيب له علم يدلّ به ... إن كان للناس في الآجال تأخير
حتى إذا ما انتهت أيام رحلته ... حار الطبيب وخانته العقاقير

عزيزي القارئ؛ هل تعرف من الحكيم؟ الحكيم هو الذي يأتي اعتقادُهُ مطابقاً للواقع، ويأتي حديثه مطابقاً للواقع، وتأتي حركاته مطابقة لمنهج الله عز وجل، ولنا مثل في آلة غالية الثمن، معقدة التركيب، عظيمة النفع، وأنت حريص حرصاً لا حدود له على أن تستعملها وفق تعليمات الشركة، فكيف بك وأنت المخلوق الأول؟

إذاً: كلمة (حق) ذات شأن خطر، وإني لأتمنى على كل أخ أن يراجع نفسه وحقيقة أفكاره عن الدين ليتبين هل هي صحيحة؟ وهل معتقداته صحيحة؟ وهل تصوّراته عن الله صحيحة؟ وهل معتقده بالنبي ﷺ صحيح؟ وهل آراؤه في القضايا المعاصرة صحيحة؟

ذكرت ذات مرةً أنه قد جرت حرب أهلية في بلد مجاور دامت أربعة عشر عاماً، وانتهت -والحمد لله- هذه الحرب الأهلية، ويمكن وقد مضى عليها زمن، أن تُفسر

تفسيراً عربياً فنقول: هذا البلد أصبح ساحة صراع للقوى العربية، ويمكن أن تُفسر هذه الأحداث الدامية تفسيراً طائفياً، كما يمكن أن تُفسر تفسيراً دولياً، إنه مركز مالي قوي جداً نافَسَ مراكِز أخرى، ويمكن أن تُفسر تفسيراً قرآنياً، دينياً، إلهياً، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل:١١٢].

هذا التفسير الديني، تفسير خالق الكون لما حدث، فأي هذه التفاسير هو الحقّ؟ إنه التفسير الديني.

إذاً: إذا توجهت إلى تفسيرات أخرى فتكون في باطل، لقد حصل زلزال، فهُدمت مدينة بأكملها، هناك تفسير ساذج إذ يقال: إنه مجرّد تصدّع بالقشرة الأرضية أو التواءات داخلية، فهذا تفسير علميّ صحيح، لا يتناقض مع التفسير الديني، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود:١١٧].

فلن تكون بطلاً إلا إذا استطعت أن تتعرف إلى الحقّ، وأن يكون اعتقادك حقاً، وأن يكون كلامُك حقاً، وأن تكون حركتُكَ حقاً.

وإذا كنت تعاني من مشكلات، وفسّرت هذه المعاناة بقلّة الحظّ، فهذا تفسير باطل، وهناك تفسير آخر أن تقول: لي حُسّاد كثيرون رموني بحسدهم، وهذا تفسير باطل أيضاً، لأنه لا يستطيع أحد أن يَضُرَّ أحداً، إلا إذا كان مستحقّاً أو غافلاً، ولكن إذا قلت ما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يعفو الله عنه أكثر، فهذا التفسير حق، وأنت في اليوم الواحد أمام آلاف المقولات الباطلة، فالبطولة أن تتعرف إلى الحقّ وأن تعتقد الحقّ، وأن تنطق بالحقّ، ولن تكون على حقّ إلا إذا عرفته، ولن تعتقد به، ولن تنطق به إلا إذا عرفته، لذلك أصل الدين معرفة الله.

ومثلاً عن أصحاب الصنعات، فلو افترضنا أن إنساناً تصرّف في صنعته تصرُّفاً خاطئاً، فنقول: إن هذه الطريقة باطلة، ولو أشاد إنسان بناءً على الشاقول، فسوف

نقول: هذا البناء حق لأنه سيستمر، ولو أشاد بناء بلا شاقول فنقول: هذا البناء باطل، لماذا؟ لأنه سيسقط وينهار. فما هو الحقّ إذاً؟ هو الشيء الموجود، ولكن يجب أن نضيف إلى ذلك شيئاً فعندما قال ربنا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾ [الحجر:٨٥].

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الروم:٨].

وآية: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص:٢٧].

الباطل: هو الشيء الزائل، والحقّ: هو الشيء الموجود الثابت، ومن معاني الحقّ الشيء الموجود الثابت، والآن سنضيف شيئاً، الموجود حق، أما الدرجة الأعلى، فدائم الوجود، وهناك أعلى من ذلك، ولا موجود آخر معه، إنه واحد في وجوده، ثم انتهينا إلى درجة أعلى: كامل في وجوده. فهو دائم وواحد وكامل، هذه حقائق ثابتة عن الله عز وجل.

الله موجود، بل هو أبدي الوجود، لا شيء بعده، وهو واحد في وجوده، وكامل في وجوده، فإذا عرفته بهذه الصفات فقد عرفت كلَّ شيء، وإن فاتتك هذه المعرفة فاتك كلُّ شيء، ووالله ما حصَّلتَ شيئاً، ولو ملكت أموال الدنيا، أو ارتقيت إلى أعلى مكانة في الحياة، ولو حصّلت كلَّ الشهوات وما عرفتَ الحقّ، فلست بشيء، لأنَّ وجودكَ ليس ذاتياً، فلو كان وجودُكَ ذاتياً فليس هناك مانع، لكن وجودك مرتبط بالله سبحانه وتعالى، فإذا شاء الله أن يُلغي وجودك فعندئذٍ ينتهي أمرك كلُّه.

لقد كنّا مدعوين إلى حفلٍ في دمشق، والذي دعاني وقدم لي بطاقة الدعوة أحد إخواننا الأكارم، فتوجهت إلى مكان الحفل، وفي مدخله رجال عديدون يقفون لاستقبال المدعوين، صافحتهم واحداً واحداً، وسألت الذي دعاني في الطريق: من

الذي أشرف على هذا الحفل؟ قال لي: عمي فلان والد زوجتي، قلت له: أين عمك؟ قال: هو في الداخل فلما دخلت، رأيت رجلاً مكتمل الرجولة، يرتدي الثياب الأنيقة، مورّد الوجه، نشيطاً، ولم أكن أعرفه من قبل، فرحّبَ بي ترحيباً حاراً، وأفاض، فدخلت إلى مكاني في الحفل، وكان أحد الإخوة الأكارم يلقي كلمة، وفي أثناء إلقاء كلمته، تحرك اثنان من المدعوين، فما فهمت لِمَ تحركا، ثم ألقيت كلمتي التي استغرقت عشرين دقيقة، وبعد أن أنهيت كلمتي، جاء رجل وهمس في أذني هذا الذي استقبلك قد توفي، وما استمع إلى كلمتك.

لا تعجب فأنت ممكن الوجود، والدليل أن الله أنهى وجوده بثانية، فقد كان ينتظر أن ألقي كلمة، فما استمع إليها، وبعد أن دخلت وقع ومات، ونحن والله لم نُصدِّق، أُنهِيَ الحفل، وذهبنا إلى المستشفى، ودخلنا إلى غرفة العناية المشددة فإذا هو مسجى، قد فاضت روحه إلى بارئها، فأنت لست واجب الوجود بل ممكن الوجود، وأنت لست حقاً، فالله هو الحقّ ولو كنت حقاً لسرى عليك قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة:٨٦-٨٧].

نعم. إنني مدين، وكلنا مدينون.

وإذا هطلت الأمطار عمّت الفرحة وشملت العباد والبلاد، لكن لو أنَّ السماء انحبست، فما مصيرنا، وما وجودنا؟ إذ ستجفُّ الآبار والأنهار، والنباتات تصير إلى الذبول واليبس، والسؤال الذي يطرح نفسه، هل وجودنا ذاتي؟! نحن وجودنا متعلِّق بمشيئة الله وبالمطر، وبكل شاردة وواردة، وبكل صغيرة وكبيرة.

وكم يكون هذا الإنسان غبياً إذا ظنَّ أنه موجود، وأنه يعمل، وأنه يكسب المال، فهذا هو الباطل، وهو اعتقاد باطل، فأنت كُلما تعرفت إلى الله صَغُرَت نفسك في عينك، وكَبُرَ في عينك الله سبحانه وتعالى، فمن هو المؤمن إذاً؟ الذي لا يرى إلا الله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:١٠].

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنفال:١٧].

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود:١٢٣].

قد تسأل: لماذا يتكلم فلان بما ليس مقتنعاً به؟... لأنه لم يرَ أنَّ الله هو كلُّ شيء، فلعله رأى الله عظيماً، كما رأى فلاناً عظيماً، فهو يرى أنّ زيداً وعبيداً وفلاناً بإمكانهم أن يفعلوا، ويرفعوا ويخفضوا، وينفعوا ويضرّوا، وكلما نقص توحيدك ازداد شِركُك، فاعتقادك غير صحيح.

﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود:٥٥-٥٦].

فالقضية أخطر بكثير من أننا استمعنا إلى محاضرة معانيها مقنعة، مؤثرة، هادفة ثم تفرّقنا إلى بيوتنا، فالأمر يتعلق بحياة أبدية، هل أنت على حق وهل اعتقادُك حق، وهل تصوراتك حق، أو أفعالُك حق، ومواقِفُك حق، وهل أعطيت بالحقّ أم بالباطل؟ وهل منعت بالحقّ؟ وغضبت بالحقّ؟ ورضيت بالحقّ؟

هناك غضب بالحقّ، ورضا بالحقّ، وإعطاء بالحقّ، وصِلة به أو قطيعة، وحينما تعرف الحقّ وأنه أبدي الوجود، وأنه واحد في وجوده، وكامل في وجوده، ولا موجود سواه، وإليه المصير، فعندئذ تقطع كلَّ العلائق مع أيٍّ كان، وتتجه إلى الخالق، فالقضية أخطر بكثير من أن الإنسان حضر مجلس علم، وأخطر بكثير من أنّه صلى ركعتين ودفع ليرتين، لأنّ الأمر أمر مصير أبديٍّ، والقضية قضية حق أو باطل قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس:٣٢].

وشيء آخر: ثم اعلم أيّها القارئ العزيز أنك لو اعتقدت اعتقاداً ليس قطعياً، إذ سألك سائل: هل أنت مؤمن بالجنة؟ فقلت: والله أغلب الظن أنّ هناك جنة، فهل

علمت أن هذا اعتقاد باطل، ولن يغنيك شيئاً وهل أنت مؤمن أنَّ الله عز وجل سيسألك عن كل صغيرة وكبيرة؟ فقلت: لن يُحاسِب، ولن يحاسبنا إلا على قدر عقولنا... فهذا اعتقاد باطل أيضاً، وهل أنت مؤمن بقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾ [الزمر:١٩].

فالله سبحانه يخاطب النبي ﷺ، أي: يا محمد - ﷺ - أفمن حقت عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار؟!

وقد تقول كما يقول بعضهم: لقد حكى لنا فلان حفظه الله؛ أن رسول الله ﷺ لن يدخل الجنة حتى يُدخل كلَّ عصاة أمته، فنحن إذاً -والحمد لله- مصيرنا معروف، فهذا اعتقاد باطل، وإن هي إلا أمانيّ، وإن هم إلا يظنون، ولا بد من مراجعة حساباتك، إذ الإنسان أحياناً ومن خلال دروس متقطّعة في المساجد ومن خلال خُطب غير موثوقة ومن خلال أقوال في جلسات غير صحيحة، يتسرّب الباطل إلى ذهنه وعند ذلك سوف يتصرّف بالباطل، فمثلاً لِمَ تغشُّ يا فلان؟ فيقول: أنا عندي أولاد والنفقات باهظة فماذا أفعل؟ فهذا كلام باطل، إذ غاب عن ذهنه أن الله هو الرزّاق ذو القوة المتين، وأنّ لكل حسنةٍ ثواباً، ولكل سيئةٍ عقاباً، فأولى بك وأجدر أن تُنقّح عقيدتك من كل غلط: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف:٢٤].

فتبادر إلى القول: هذا نبي وقد همَّ بالزنا، وإن هذا اعتقاد باطل، وهذا التفسير للآية باطل ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾، ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ ثم تقف، ثم تقرأ: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾، فهذا من التفسير الحقّ، عن الأنبياء.

الله عز وجل يلقي نوراً في قلب المؤمن يريهِ الحقّ حقاً والباطل باطلاً.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ [السجدة:١٣].

فيجب أن تفهم القرآن فهم حق وليس فهم باطل، وأن تفهم كلام النبي فهم حق: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ» [صحيح مسلم].

ماذا يعني بهذا الحدث؟ هل نسارع إلى اقتراف الذنوب؟ ليس هذا هو المعنى... المعنى إذا بلغتم درجة لم تشعروا بذنوبكم فأنتم موتى، لَذَهَبَ الله بكم، فإذا ارتكب الإنسان المعاصي ولم يشعر بشيء فهو ميت، أما المؤمن فيملأ ليله ونهاره بالعمل الصالح.

فيجب عليك أن تكون عقيدتك صحيحة، عن الله عز وجل، والله قال: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران:١٥٤].

وهناك خلق كثير أكثر أفكارهم عن الله ورسوله مغلوطة، وأكثر تصوراتهم ومعتقداتهم وفهومهم خاطئة، فمثلاً يقولون: إن رسول الله كان ماشياً في الطريق فطرق باب زيد، ففُتِحَ الباب، وبدت زوجته زينب من دون ثياب وقد وصل شعرها إلى أسفل ظهرها فأُعجب بها النبي ﷺ وقال: سبحان الله، سبحان مُقلِّب القلوب!.. من قال لك إن هذه القصة صحيحة؟ من قال هذا؟ فهل يفعل هذا نبي عظيم؟ فأنت إن كنت مؤمناً فلن تفعله، لذلك فهذه الخرافة باطلة، مدسوسة دساً على الإسلام ونبيه.

أما عن النبي داود فيقولون: عنده تسعٌ وتسعونَ امرأة، وأحبَّ زوجة أحد قوّاده، فقال: قدموه في الحرب لعله يموت ونأخذ زوجته، فعاتبه الله عز وجل وقال: يا داود أعرض عن الهوى، هذا تفسير غير صحيح، والصواب أن سيدنا داود انشغل بعبادته عن حل مشكلات الخلق، فأرسل الله له ملكَين تسوَرا المحراب، وافتعلا خصومة وسمع من الأول ولم يسمع من الثاني، وقال للأول متسرعاً: قد ظلمك، ليعود إلى مصلاه، فالهوى الذي نهي عنه هوى رفيع، هواه في الإقبال على الله عز وجل فيجب أن تُفسّر التفسير الذي يليق بالأنبياء، ويليق بهذا الدين العظيم، ونحن نريد أن نعتقد اعتقاداً صحياً، ونقول قولاً صحيحاً، وأن نُطبّق تطبيقاً صحيحاً لنكون على الحقّ.

وأعود فأقول: الحقّ؛ هو القول المطابق للواقع، بدليل أنك لا تقبل كلاماً غير صحيح، لا يطابق الواقع، إذ هناك دجّالون كثيرون، يزخرفون القول فيدّعون مثلاً أن هذه علاقتها مع زوجها سيئة، فيقولون لها: إنك تحتاجين إلى خروف أسود وأبيض، تذبحينه لكي يحبك، فهذا كلام باطل، كلُّه دجل وكذب، وليعلم كل مسلم أن بين أظهرنا كتاب الله القرآن الكريم، فلنأخذ بما فيه، إذ به انتصر الصحابة وفتحوا الأمصار، ونشروا الإسلام، لو أن مريضاً يشكو آلاماً مبرِّحة في المعدة، وزار طبيباً، فقال له انتظر، ونصب حبلاً في العيادة، وصعد يمشي عليه فرأى المريض أعمالاً خارقة، وهو مريض ويحتاج إلى دواء وعلاج، فماذا يستفيد إذا سار الطبيب على حبل وكان بهلواناً؟!

سردت هذه الأمثلة وأطلت لأننا بحاجة إلى علاج، وإلى راحة نفسية وإلى توازن، وإلى سعادة وإلى حقيقة ثابتة لا تكشف الأيام أنها زائفة، ويمكن أن يعتقد المرء اعتقاداً ما إلى أمدٍ طويل وفي النهاية يظهر أن هذا الاعتقاد باطل، ولا أساس له من الصحة، وما سبَّبَ إلا دمار المسلمين، إذاً الله هو الحقّ.

لا بد أن يعرف المسلم أن اعتقاده إذا كان مطابقاً للواقع فهذا الاعتقاد حق، وأنَّ قولَه إذا كان مطابقاً للواقع فهذا حق.

وما قولك إذا ركب أحدهم سيارة، فقيل له: لِمَ هذا الضوء، وما فائدته؟ وهو ضوء صدر عن ساعة الزيت، فأجاب: إنه يتألق لِيُسليك في الطريق، وليس له غاية أخرى، فهذا التفسير صحيح أم غلط؟ وهل التصديق صحيح أم غلط؟ وهل الكلام صحيح أم غلط؟ كله غلط، لأنَّ هذا الضوء لو تألق وبقيت ماشياً لاحترق المحرك، فيكفلك خمسين ألفاً، أما لو تألّق ووقفت مباشرة فيُكلِّفُكَ مئة ليرة فقط.

يجب أن تكون معلوماتك، وتصوراتك، واعتقادك، ومواقفك، وعطاؤك ومنعك، وصلتك وقطيعتك، وغضبك وسرورك، كلُّه بالحقّ، والنبي ﷺ كان يمزح ولا يقول إلا حقاً، فيمكن أن تمزح ولكن مزح حق، لا خدشاً لمشاعر إنسان، ولا تحقيراً لأحدٍ، ولا تحقيراً لِحرفة أو مهنة، ويمكن أن تروي طُرفة ممتعة وأنت صادق وبحق، فالنبي ﷺ كان يمزح، ولا يقول إلا حقاً.

كلمة «حق» أتمنى أن تكون واضحة، وفي القرآن وردت مئات المرات، والله هو الحقّ، أما معنى إحقاق الحقّ، وأنَّ كل ما سِوى الله لا وجود له إلا بالله، وفي أية لحظة إذا أراد الله لشيء أن يزول فإنه يزول، كن فيكون، زُل فيزول، إذاً ما سوى الله ممكن الوجود وإذا وُجِدَ فبالله، وإذا استمر فبالله، وإذا انتهى فبالله، وهناك دعاء للنبي ﷺ: «أنا بك وإليك» [رواه مسلم من حديث علي بن أبي طالب].

معنى أنا بك: يعني قائم بك، والله سبحانه يقول: (قل اللهم مالك الملك) وكل شيء يُمَلَّك فالله مالكه فعينك ملكه، وأنت ترى بها ما دام قد سمح لك أن ترى بها، وفي أية لحظة لو شاء أن تفقدها لفقدتها بلا سبب فالله حق.

والسمع يُمَلَّك، والأصل أن الله مالكه، واللسان يملَّك، حدثني أخ قال لي: في مشفى الأمراض العقلية، هناك مهجع خطير جداً، هذا المهجع نزلاؤه عراة كما خلقهم الله عز وجل، يمزقون كلَّ ثيابهم، ويأكلون من نجاساتهم ودمائهم وشعورهم، أي شيء يوضع في هذا المهجع يُتلف، أقوياء البنية، لكنَّ عقولهم معطلة، فأنت لك مركز، ولك عمل، وتتقن حرفة، وأنت قائم بالله، فلو أخذ ما أوهب انتهيت، وبيتك أنت عمَّرته، ورتبته وزيّنته فلو صار في عقلك خلل، فأهلك يطرقون أبواب المسؤولين حتى يسمحوا لهم أن يضعوك في مستشفى الأمراض العقلية، ويتوسلون ويرجون، في حين كنت أنت الأب وأنت مالك البيت، وأنت الذي اشتريته ورتبه، لكنك الآن سلبت ما تملك، وفي أية لحظة قد يفقد الإنسان عقله، أو يفقد بصره، أو سمعه، وأنت عندك كليتان تعملان بانتظام، وإلى الآن لم يعرف الطبّ سبب هبوط وظائف الكليتين الفجائي، فجأةً تقف الكليتان عن العمل، فتصبح الحياة جحيماً لا يُطاق، فتحتاج إلى غسيل كلَّ أسبوع مرتين، وكلَّ مرة سبع ساعات، مرة بهذه اليد ومرة بالأخرى، ومرة بالقدم، ويبقى بالمئة عشرون من حمض البول (الأوريه) بالدم، تسبب لك مواقف عصبية صعبة ونرفزة وضيق نفس، أين آمالك، هل تملك كليتيك؟ لا والله، وهل تملك دسام القلب؟ لا والله، وهل تملك الشرايين التاجية وأن تبقيَها واسعة؟ وعندما تضيق تمشي مترين فتقع ولا تستطيع أن تُكمل سيرك.

قال لي أخ: كنت أصعد إلى الطابع الرابع بسهولة فصرت إلى الثالث أتعب، ثم إلى الثاني، ثم إلى الأول، ثم بعد درجتين أتعب، أجريت له عملية بكلفة مليون وما نجحت، فهل أنت تملك شرايين قلبك؟ لستَ بمالِكها، وهل تملِك البنكرياس لتعطيك الأنسولين بشكل منتظم؟ إنك لا تملكه، وإذا قصَّرَ بواجبه هرولت مستغيثاً: أدركوني. أدركوني.

حياتك مرهونة بسلامة الطحال بحيث لا يزيد نشاطه، والأنسولين ألاّ ينقص، والدسام ألا يخطئ والشريان ألا يضيق، والكلية ألا تقف، والأعصاب والعضلات، واعلم أن نقطة دم في الدماغ تسبب الشلل، وأنتَ لا تملِكُ شيئاً: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران:٢٦].

وأما عن وجودك أيها الإنسان وسعادتك، فأحياناً يعطيك الله الدنيا مع الانقباض، فكل المال ليس له قيمة، ولو أعطاك المال وسَلبَ منكَ الطمأنينة فحياتك في قلق، ولو أعطاك المال وسَلَبَ منك الصحة، أو الاستقرار والشعور بالأمن، فحياتك لا قيمة لها، قال تعالى: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام:٨١-٨٢].

أهم ما في حياتك أن تعرف الحقّيقة! ابتدأتُ الحديث معك أن لو كان لديك آلة وأنت مضطرٌّ إلى تشغيلها، وهي تحتاج إلى طاقة كهربائية، فتوجّهت إلى مأخذ لا طاقة فيه، فهذا المأخذ باطل، ثم توجهت إلى آخر فكان المأخذ الآخر صالحاً، إذاً هو حق، فالحقّ الشيء الموجود، بل هو دائم الوجود، وواحد في وجوده، وكامل في وجوده، فهو دائم واحد كامل، واعتقادك هذا حق، واعترافك هذا حق.

لذلك أعود فأقول: إن (الحقّ)؛ كلُّ قول وافق الواقع بدليل، أما بلا دليل فهو تقليد فإذا قال أحدهم: أشهد ألّا إله إلا الله، فحقيقة الكلام حق، وما الدليل؟ إنه لا يعرف، فهذا كلام بلا دليل، فالحقّ أن يأتي كلامك مطابقاً للواقع مع الدليل.

وبعد، لو كان اعتقادكَ بالحقّ اعتقاداً غير قطعيٍّ، فلا قيمة له، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة:٢].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝١٥﴾ [الحجرات:١٥].

فلو كان في اعتقادك ارتياب، أو تردّد، أو عدم قطع، أو كان اعتقادك بالشيء ثلاثين بالمئة فما دون فهذا اسمه وهم، وإن كان اعتقادك خمسين أو حول خمسين بالمئة فهذا اسمه شك، وإذا كان اعتقادك سبعين بالمئة فما فوق فهو ظن، ولو كان اعتقادك تسعين بالمئة فهذا أطلقوا عليه «غلبة ظن»، أما إذا كان مئة بالمئة، فهذا هو الحقّ وإيمانك بالجنة والنار والحساب لا بد أن يكون قطعياً، وأن المُرابي سوف يمحقُ الله ماله وأن الزاني سوف يفتقر، وأن الذي يُطلق بصره لا بد أن يشقى في بيته، وأنَّ الذي له مال حرام سوف يُتلفه الله، أن هناك وقفة بين يدي الله عز وجل، فإذا اعتقدت بهذه الأمور اعتقاداً قطعياً جازماً مئة بالمئة، فأنت على حق، فالحقّ لا يقبل الظنَّ، ولا غلبة الظنِّ ولا الشكَّ ولا الوهم، قال المعري:

زعم المنجّم والطبيب كلاهما ... لن تُبعث الأجساد قلت إليكما
إن صحَّ قولكما فلست بخاسر ... أو صحَّ قولي فالخَسار عليكما

هذه عقيدة باطلة: إذا كان هناك آخرة نجونا، وإن لم توجد فما خسرنا شيئاً، فهذا ليس ديناً، بل هو شك؛ وعدم تصديق بكلام الله.

الحقّ لا يتحمّل وهماً ولا شكّاً ولا ظنّاً ولا غلبة ظن، ولا يناسبه إلا القطع.

أكرر: الحقّ هو كل قول مقطوع به، موافق للواقع، وأي قول خالف الواقع فهو باطل فيمكن أن تنفي عن الدين آلاف الأفكار، وآلاف المعتقدات الزائفة، وآلاف القصص الباطلة، وكل شيء خالف الواقع كذلك...

عزل سيدنا عمر سيدنا خالداً، هذا الذي خاض مئة معركة أو زهاءها وفي كل هذه المعارك كان منتصراً، ففي كثير من كتب التاريخ يقول مؤلّفوها: كان بينهما حزازات في الجاهلية، فلما صار خليفة شفى غليله وعزله! أهكذا كان أصحاب رسول الله؟! لو كانوا كذلك والله الذي لا إله إلا هو ما خرجوا من مكة، ولم يفتحوا مصراً واحداً.. وأنت تسمع تفاسير كثيرة جداً حول عزل عمر لخالد رضي الله عنهما ولقد عثرت أخيراً على تفسير حق، جاء سيدنا خالد إلى سيدنا عمر، فقال له، يا أمير المؤمنين لِمَ عزلتني؟ فقال: والله إني أحبك يا أبا سليمان، فقال: لِمَ عزلتني؟ فقال: والله إني أحبك، فقال: لِمَ عزلتني؟ قال: والله ما عزلتك يا ابن الوليد إلا مخافة أن يُفتتن الناس بك، لكثرة ما أبليت في سبيل الله.

«كاد الناس يظنون أنك أنت الذي تنصرهم، خفت على العقيدة، فأردت أن أريهم أنني لو عزلتك... يبقى النصر ما دمتم مؤمنين»، هذا التفسير للحادثة يليق بسيدنا عمر، ويليق بسيدنا خالد، وهذا تفسير حق.

وأحياناً تقرأ تفاسير للأحداث وتقرأ قصصاً غير صحيحة وغير معقولة، فتهتز بها الصورة المتألقة للصحابة الكرام، وهذا من عمل الشيطان وأهل الزيغ والباطل.

إذاً: الحقّ لا يقبل الشك ولا الوهم ولا الظن ولا غلبة الظن، ولا يقبل إلا القطع.

ونسمع من يقولون في زماننا: إن هذا الكلام واقعي إلى حدٍّ ما! فقولهم: «إلى حدٍّ ما» ليس حقاً، بل يحمل كل معاني الشك، وواقعي بالمئة ثمانين فليس حقاً، وواقعي بالمئة خمسين فليس حقاً، وواقعي نوعاً ما، فليس حقاً، الحقّ واقعي مئة بالمئة، دائماً وأبداً.

وهو ما كان مقطوعاً به، وموافقاً للواقع، وعليه دليل، ولو ألغي الدليل لصار تقليداً، لو اعتقدت تقليداً فعقيدتك غير مقبولة.

وإذا قبلنا التقليد بالعقيدة، كأن يقول لك إنسان: الله عز وجل ليس رحيماً وهذه الكوارث والمصائب والأمراض دليل على ذلك، فتقول: صحيح وأنا سأقلدك الآن،

فإذا كان يوم القيامة، فيقول لك الله عز وجل: لِمَ اعتقدت أنني غير رحيم؟ تقول: يا رب أنا قلدت فلاناً هو قال كذلك فصدقته، فيقال لك: أين عقلك؟ لذلك لا يمكن أن تقبل من الإنسان العقيدة بالتقليد، فلا تقبل بلا دليل، ولا ترفض بلا دليل، بل عود نفسك المنهج العلمي، فإن حدثك أحد بقصة، فقل: ما مصدرها؟ وإذا كنت ناقلاً فالصحة، وإذا كنت مدّعياً فالدليل، ولا يُبنى شيء على أغلب الظن: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ۝٦﴾ [الحجرات:٦].

الحقّ يحتاج إلى دليل، وإلى مطابقة للواقع، وإلى قطع، فإذا استطعتَ أن تراجع كلَّ أفكارِك وكُلَّ معتقداتِك وكلَّ تصوراتِك حتى تجعلها كلَّها مطابقة للواقع قطعية الثبوت وعليها دليل فأنت من الفائزين، وإنَّ هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم، كما روي عنه ﷺ: «يا ابن عمر! دينك دينك إنما هو لحمك ودمك، فانظر عمن تأخذ، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا» [الخطيب في الكفاية في علم الرواية عن ابن عمر].

فالله هو الحقّ، وكلامه هو الحقّ، والجنة حق، والنار حق، والحساب حق، والعذاب حق، والصراط حق، والحوض حق، وغضُّ البصر حق، فما معنى حق؟ أي لو طبقته عملياً لقطفت ثماره، والأمانة حق، فلو كنت أميناً لوثِقَ الناس بك، فالأمانة غنى، وأي شيءٍ تُطبِّقُهُ، تقطف ثمارَهُ، فالوقت ثمين وغال والحياة لا تحتمل إلا التطبيق، وإن كنت من رواد المساجد، فإن لم تطبق ما تتعلم فلن تقطف شيئاً، وتكون كلُّ حركاتك عشوائية، والتطبيق هو الجانب العملي، قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ﴾ [التوبة:١٠٥]. وهذا الكلام مؤداه خطير، فمؤداه أن تتعامل مع الدين تعاملاً جدياً، تصل إلى الغاية والهدف.

ثم انظر ملياً فحينما تقول: إن في الدار الآخرة حياة أبدية والحياة الدنيا زائلة، فهل عملك يتوافق مع اعتقادك؟ قد يكون الاعتقاد حقاً، ولكن التطبيق باطل، وهل تقبل من طبيب أن يقول لك: إياك والدخان فإنه سرطان في الرئة، وضيق في الشرايين، وجلطة، وهو يُدخن أمامك، فهذا كلامه باطل، ولو كان يوقن بما يقول ما فعل هذا.

نصيب المؤمن من اسم الله (الحق)

الله تعالى هو الحقّ، ومعنى هو الحقّ؛ أي إنّه لا بد أن يظهر الحقّ، وإن كنت على حق فلا بد أن ينصرك ولو بعد حين، أما إن كنت على باطل فلا بدَّ أن يخذلَك ولا بد أن يفضحك، فكُنْ مع الحقّ أبداً، وإلا فهناكَ خذلان وفضيحة، ولكن الله عز وجل يُرخي الحبل، ومعنى يرخي الحبل، أي يتركك إلى أمد بعيد لتفعل ما تشاء وأنت سالم، وتتصرف باختيارك، ولو عاجلك بالعقوبة عند كل خطيئة لاستقمت ولكنّ استقامتك ليست عن حبٍّ لله عندئذ، ولا عن طاعةٍ له، بل تستقيم خوفاً منه، وعندئذ أنت لست مخيّراً بل مسيّرٌ، ومعنى مخيّر، أي: يمكنك أن تأكل مالاً حراماً وتستمتع به سنوات طويلة، وبعدئذ تلقَى العقوبة المروعة، وقس على ذلك الشيء الكثير من الحرام.

قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾﴾ [التكاثر:٥-٧].

كذلك إذا رأيت دخاناً وراء جدار فستحكُم مئة بالمئة أنه لا دُخان بلا نار، ثم ذهبت خلف الجدار، فرأيت لسان اللهب، فمشاهدة الدخان عِلمُ اليقين، وعندما وقعت عينك على ذات النار فهذا عين اليقين، فإن قربت يدك منها فلسعتك بحرارتها فهذا حق اليقين، الحقّ مئة بالمئة وهو يقين، علمُ اليقين وعين اليقين وحقُ اليقين. ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾.

إذاً لا بد أن نتعرف إلى الحقّ، ولا بد أن نعتقد حقاً، وأن نقول حقاً، وأن نسلُكَ المنهج الصحيح لنكون على حق وحتى نستحقّ أن يرفعنا الله عز وجل، وحينما يُحقّ الله الحقّ يسمح لعباده الطائعين أن يرتفعوا، وليس سوى الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص:٨٨].

إذاً المُلَخَّص الذي ينطق بالحقّ هو: يا رب! ماذا فَقَدَ من وَجَدَكَ وماذا وجد من فقدك؟! وإذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك.

وهناك في الكون حقيقة واحدة وهي الله، كل شيء يُقرِّبُ منها فهو حق، وكل شيء يُبعِدُكَ عنها فهو باطل، فعليك أن تعرف الله، وأن تعرف منهجه، وأن تُطبقه، وهذا هو الحقّ، وما سوى ذلك كلُّه باطل، والمؤمن يرى بأمِّ عينه، أنّ الباطل قد يصمد سبعين عاماً، وبعدئذ يتهاوى كبيت العنكبوت، لأنه باطل، فالفكرة باطلة، والمبدأ باطل، والتطبيق باطل، وإذا رأيت بأم عينك جداراً بُني بلا شاقول، فالمهندس لا بد قائلٌ: إن الدار سينهار لا محالة، لأن بناءه باطل: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء:٨١].

إن الباطل من صفاته الثابتة أنه زَهوق، وإن كان الاعتقاد باطلاً فهو زهوق وإن كان السلوك باطلاً فهو زَهوق.

أنتم تعلمون حينما يقام معرض لأسبوعين، معظم الأجنحة إن كان الوقت صيفاً تُنشأ من القماش، أو من ورق مقوّى، من مواد رخيصة جداً، فالمدّة قصيرة، لكن حينما نبني جامعة، قد يستغرق بناؤها عشر سنوات، هذا البناء وُجد ليبقى، وله هدف كبير، هدفه الكبير إنشاء قادة للأمة، نشر العلم، تخريج علماء، أطباء، علماء نفس، علماء اجتماع، علماء تربية، علماء رياضيات، تخريج مدرسين، موجهين، اختصاصيين، خبراء في المعامل، هذا البناء له هدف كبير، له هدف عظيم، له هدف نبيل.

الحق الشيء الهادف، المرتبط بأهداف نبيلة، والعابث شيء ليس له هدف.

إنسان يلعب النرد حتى الساعة الثالثة ليلاً، هل ازداد علماً؟ أو ازداد قرباً؟ أو ارتقى مستواه؟ أو ازداد دخله؟ إنه مضيعة للوقت، فلعب النرد شيء عابث.

أما أن تعكف على كتاب ديني فتقرأه، فهو شيء هادف، حينما تأتي إلى مسجد لتحضر درس علم فهذا شيء هادف، مقدّس، أما حينما ينطلق الإنسان إلى ملهى، فشيء عابث.

الملخص أن الله سبحانه وتعالى هو الحقّ، وكلامه هو الحقّ ووعده هو الحقّ، ووعيده هو الحقّ، وأفعاله هي الحقّ. وينبغي للمؤمن أن يتعرف إلى الحق وأن يقول ويفعل حقاً وأن يقترب من الحق ويبتعد عن اللعب والعبث.

المبين

ورد هذا الاسم في القرآن الكريم في آية واحدة، قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور:٢٥].

وقد ورد معرّفا بـ (ال) مثلاً: راشد اسم علم، أما إذا عرفت الاسم لقلت: جاء الراشد، أنت تريد أن تؤكد اتصاف هذا الإنسان بالرّشد، فحين يعرّف اسم العلم يقصد منه مع التعريف دقّة اتّصاف صاحب الاسم بصفته.

هذا الاسم يفيد المدح والثناء، والعبد عبد والرب رب، شأن العبد الافتقار، وشأن الرب المدح والثناء، لكن لو أن غنياً تواضع، وقال لمن يسأله عطاءً: أنا لا أملك شيئًا، ليس هذا المقام مقام تواضع، مقام أن تذكر له أنك يمكن تساعده، فشأن الله المدح والثناء، وشأن العبد الافتقار.

من معاني اسم الله (المبين)

المبين اسم فاعل من أبان، أظهر، أما بائن فمِن الفعل (بان)، وهو فعل لازم، واسم فاعله بائن، أما أبان: فاسم فاعله مبين.

ويقال: بانت المرأة؛ انفصلت عن زوجها، وفي الطلاق الثالث تكون البينونة الكبرى.

و (المبين) هو الواضح: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأعراف:١٠٧].

السحرة جاءوا بأنابيب، وطلوها على شكل ثعبان، ووضعوا فيها زئبقًا، ثم وضعوها على مكان ساخن، فتمدّد الزئبق، فتحرّكت هذه الأنابيب المطاطية ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [الدخان:١٠-١١].

وحينما يرى الإنسان أنه خسر الأبد، وخسر الآخرة قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الزمر:١٥].

الخسارة الحقيقية أن تخسر الله، أن تخسر الجنة، أن تخسر الأبد.

البيان أرقى أداة اتصال بشري، فلو فرضنا دولة فيها نظام، لكن ما فيها لغة، وأراد حاكم هذه البلدة أن يمنع التجوّل، ماذا يفعل؟ يحتاج إلى شرطي لكل مواطن يدفعه إلى البيت، لكنّه يصدر بلاغا في أربع كلمات لا تجد بعد ذلك إنسانا في الطريق.

«وإن من البيان لسحرا» [أخرج مالك أحمد والبخاري وأبو داود والترمذي عن ابن عمر].

يقول الله جلَّ جلاله في سورة الرحمن: ﴿الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ ﴾ [الرحمن:١-٤].

البيان هو الإفصاح والتعبير والكشف والإبانة والتوضيح، ولأنَّ البيان يطرد الشيطان؛ وضِّحْ، بيِّنْ، فصِّلْ، ونوِّهْ، واشرح: ائتِ بالدليل.

البيان هو إظهار المقصود بأبلغ لفظ، وهو الفهْم وذكاء القلب، بل إنَّ صفة البيان من امْتنان الله عز وجل على الإنسان، ومن أخصِّ خصائص الإنسان البيان والقدرة على التعبير، والتعبير عن الأفكار وعن التصورات والمشاعر وعن العواطف، والتعبير

عن الحاجات وعن الطموحات، وكلُّ ما يعْتلج في نفْس الإنسان من أفكار وتصورات وأهداف، ومن مشاعر وعواطف وخواطر يمكن أن يعبِّر عنها، فالبيان من أخص خصائص الإنسان، فيمكن أن يعبِّر عنها بلسانه، ويمكن أن يعبِّر عنها بقلمه، ويمكن أن يصغي إليها بأُذُنه، ويمكن أن يفهمها بعقله، فإذا كان الكلام إلقاءً وتلقِّياً بقيَ محصوراً في المتعاصرين، أما إذا كُتِب وقُرِئَ انتقل من جيلٍ إلى جيلٍ، ومن أمةٍ إلى أمة، ومن قارةٍ إلى قارة، لذلك قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾.

ثمانيةٌ وعشرون حرفاً يمكن أن يُصنع منها بلايين الكلمات، وملايين وملايين الأفكار والمشاعر والمقولات.

الحقيقة أن هذا الاسم فيه وصف للذات، فالله سبحانه وتعالى بائن؛ أي ظاهر، من بان واسم الفاعل من هذا الفعل بائن.

أما إذا بيّن الله للناس آياته فهو (المبين)، وهذا وصف للأفعال، فاسم (المبين) بين أن يكون وصفاً للذات، وأن يكون وصفاً للأفعال.

والمبين جل جلاله يبيّن للنّاس آياته لعلهم يعقلون ويتفكّرون ويشكرون ويهتدون، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾ [البقرة:٢٤٢].

هناك آيات كونية، وهي خَلْق الله عز وجل، وهناك آيات تكوينية هي أفعاله، وهناك آيات قرآنية أي كلامه، فمن أجل أن نعرفه، ومعرفة الله أصل الدين ينبغي أن نتفكر في آياته الكونية، وأن ننظر في آياته التكوينية، وأن نتدبر آياته القرآنية.

لو وقفنا وقفة متأنية عند آياته الكونية، فالله سبحانه وتعالى يأمرنا أن ننظر في السماوات والأرض، وكما تعلمون كلُّ أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب ما لم تقم قرينة على خلاف ذلك.

من بعض آياته الكونية: أن بين الأرض وأقرب نجم ملتهب أربع سنوات ضوئية، والضوء يقطع في الثانية الواحدة ٣٠٠ ألف كم تقريباً، فإذا كان لهذا النجم طريق سالكة، ومعنا مركبة أرضية، وسرنا بسرعة مئة في الساعة، لو قسمنا المسافة على مئة يكون الجواب كم ساعة تستغرق الرحلة، لو قسمنا الناتج على ٢٤ ساعة نجد كم من يوم تستغرق الرحلة؟ لو قسمنا الناتج على ٣٦٥ نجد كم من عام، من أجل أن نصل إلى أقرب نجم ملتهب إلى الأرض بمركبة أرضية نحتاج إلى خمسين مليون عام، متى نصل إلى نجم القطب الذي يبعد عنا ٤٠٠٠ سنة ضوئية؟ بل متى نصل إلى مجرة المرأة المسلسلة التي تبعد عنا مليوني سنة ضوئية، ومتى نصل إلى بعض المجرات التي اكتشفت حديثاً، وتبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية، إذا فتحت كتاب الله، وقرأت قوله تعالى: ﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الواقعة:٧٥-٧٦].

فالموقع يعني أن صاحب الموقع قد لا يكون في الموقع، لأن هذا النجم، أو هذه المجرة، أو هذا النجم الذي يبعد عنا عشرين مليار سنة كان في هذا المكان، وأرسل ضوءه إلى الأرض، وبقي الضوء يقطع في الفضاء الخارجي مسافة يستغرق قطعها عشرين مليار سنة، أين هو النجم الآن؟ ليس في هذا المكان، سرعته تقترب من سرعة الضوء.

أما آياته التكوينية فهي أفعاله.

تصوروا فرعون، وما أدراكم من فرعون، بجبروته، بقوته، باستعلائه، باستكباره، بقسوته، بظلمه، بطغيانه، هذا فرعون وراء سيدنا موسى بقوته، سيدنا موسى معه أصحاب قليلون من بني إسرائيل، وصلوا إلى ساحل البحر: ﴿قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الشعراء:٦١].

احتمال النجاة صفر، فرعون بأسلحته، بحقده، بطغيانه، باستعلائه، باستكباره، وراء نبي كريم مع قليل من بني إسرائيل.

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢﴾ [الشعراء:٦١-٦٢].

والقصة معروفة لديكم، حيث إن هذا النبي الكريم ضرب البحر بعصاه فأصبح طريقاً يبساً، سار فيه موسى ومن معه، تبعهم فرعون، وكان موسى قد خرج من الطرف الآخر، وفرعون في منتصف البحر، فغرق، وكان إغراق فرعون آية من آيات الله عز وجل.

وهذه القصة لنا من أجل ألا نيأس، من أجل أن نثق بالله عز وجل، وأن الله سبحانه وتعالى لا يتخلّى عن عباده المؤمنين.

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾ [آل عمران:١٣٩].

هذه آية من آياته التكوينيّة، قال تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١١﴾ [الأنعام:١١].

هؤلاء الذين عارضوا النبي الكريم كأبي لهب وأبي جهل، أين هم الآن؟ في مزبلة التاريخ، هؤلاء الذين وقفوا معه أين هم؟ في أعلى عليين.

﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١١﴾.

وفي آية أخرى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٦٩﴾ [النمل:٦٩].

أحياناً يأتي التدمير سريعاً، وقد يأتي متأخراً لحكمة أرادها الله عز وجل، فآياته الكونية أُمرنا أن نتفكر فيها، وآياته التكوينية أُمرنا أن ننظر فيها.

بقيت آياته القرآنية فقد أُمرنا أن نتدبر آياته القرآنية، والقرآن الكريم يُقرأ قراءة صحيحة، وفق قواعد اللغة، لأن هذا القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، وإن أمكن

ينبغي أن يُقرأ وفق أحكام التجويد، هذا مندرج تحت قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة:١٢١].

ثم ينبغي أن نفهمه، ثم ينبغي أن نتدبره، ما الفرق بين أن نفهمه وأن نتدبره؟ أن نفهمه أي نفهم المعنى الذي أراده الله عز وجل وفق علم الأصول، أما التدبر فتقول: أين أنا من هذه الآية؟ هل أنا مطبق لها؟ مثلاً يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران:١٥٩].

هل أنا متوكل؟ فالمؤمن الصادق حيث ما قرأ آية في كتاب الله يسأل نفسه: هل أنا مطبق لها؟ هذا هو التدبر، وأعلى شيء في تلاوة القرآن الكريم التطبيق، إذاً: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة:١٢١].

بدءاً من تلاوته وفق أحكام اللغة العربية الصحيحة، ثم قراءته وفق علم التجويد، ثم فهمه، ثم تدبره، ثم تطبيقه.

إضاءات على الآيات التي ورد فيها البيان

البيِّنة هي الدلالة الواضحة، قال تعالى: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾﴾ [البينة:١].

وفي هذه الآية إشارةٌ إلى مجيء سيدنا عيسى عليه السلام؛ البيِّنة؛ الدلالة الواضحة عقلية كانت أو محسوسة، وفطرية كانت أو واقعية، وكلُّ مثقّف يعلم أن هناك دليلاً فطرياً ودليلاً عقلياً ودليلاً نقلياً ودليلاً واقعياً.

الحقُّ دائرة يتقاطع بها خطّ النقل مع خط العقل مع خط الفطرة وخط الواقع، الحق الذي ينبغي أن تعتقد به جاء به النقل الصحيح، وأيّدَهُ العقل الصريح، واطمأنَّتْ إليه الفطرة السليمة، وأكّدَه الواقع الموضوعي؛ الحقُّ هو الذي ينبغي أن تعتقده وتؤمن به وأن تدافع عنه، وأن تُفنيَ شبابك من أجلِهِ وأن تستهلك عمُرَك الثمين في سبيله؛ هو

الذي جاء به النقل الصحيح، وأقَرَّهُ العقل الصريح، واطمأنّت إليه الفطرة السليمة، وأكَّدَه الواقع الموضوعي. والحق هو الله، ومن أسمائه جل جلاله الحق، الله جل جلاله خلق الكون، فالكون خلْقُهُ، وأنزل القرآن، والقرآن كلامُهُ، وجبل النفوس جِبِلَّةً خاصة، فالفِطرة ما جبلنا عليه، والعقل مقياسٌ أوْدعَهُ في الإنسان وخلق الواقع على نظام دقيق، فالواقع خلْقُه، والقرآن كلامه، والعقل أداةٌ أودعها فينا، والفطرة جبلَّة جُبِلْنا عليها، فالحقّ هو الذي يأتي به النقل الصحيح مع العقل الصريح مع الفطرة السليمة مع الواقع الموضوعي.

سُمِّيَ الكلام بياناً لأنه يكشِف عن المعنى المقصود؛ مثلاً طفلٌ صغير دخل دبّوس في ثيابه الداخلية فبكى بُكاءً مُرّاً، فحار أهلُهُ في سبب البكاء ساعاتٍ طويلة، أطْعموه فلم يقبل، وسَقَوْهُ فلم يقبل، وحملوه فلم يسكت؛ لو قال: إنَّ في جِسْمي دبوساً انْزعوه مني لانتهى الأمر، عِوَض أربع ساعاتٍ من البكاء، لكنّ الطفل الصغير لا يُبين ولا يستطيع أن يُعَبِّر عن حاجاتِهِ إلا بالبُكاء، والبكاء لغةٌ ضبابية عامة؛ فهو يبكي يا ترى أجائِع هو أم عطشان أم متألِّم أم أصابه مَغْص هضمي؟ لا ندري؛ فالبيان من أخص خصائص الإنسان.

وقال بعضهم: التبيان هو الكشف والإيضاح والتبيين والتثبّت، وقد وردت مادة البيان والإبانة في مواطن من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ ﴾ [البقرة:١٥٩].

الإنسان أحياناً يتوهَّم جهْلاً أو تجاهُلاً أو تقصيراً في البحث العلمي أو غباءً؛ يتوهَّم أن الدين لا يقوم على أي أساس، بل إن كلَّ شيءٍ سوى الدين لا يقوم على أساس؛ لستم على شيء ولستم على حقيقة ولا على بيِّنة، ولستم على دليل ولا على برهان إلا بالدين، من أخصِّ خصائص الإنسان أنه يملك الحجة البالغة، والدليل القاطع، ويتحرَّك وفْق مبادئ، ويتَّجِهُ نحوَ أهداف ثابتة، ولا يمكن أن يُفاجَأ المسلم في وقتٍ من

الأوقات بأنه اعتقد خطأً ما دامت عقيدتُهُ مستمدَّةً من كتاب الله وسُنّة رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

يقولون أحياناً: إنَّ فلاناً إيمانُهُ في قلبِهِ ولا يستطيع أن يجهر بِهِ؛ ما قيمة هذا الإيمان إذا بَقِيَ على شاكلةِ أُناسٍ متفلِّتين؟! وقال: أنا إيماني في قلبي! هذا كلام غير مقبول، إن الإيمان إذا استقرّ في القلب حقيقةً لا بد أن يُعبِّر الإنسان عن وجودِهِ بكلامٍ ينطِقُهُ، أو بسلوكٍ يسلكُهُ، أو بدعوةٍ ينشرها، أو بعملٍ يمارسُهُ، أو بصداقةٍ يُنشئها، أو بخيرٍ يفعلُهُ، وعلامة الإيمان التحرُّك، والإيمان حركة ولا يوجد مؤمن سكوني، والمؤمن لا يكون سلبياً، وليس هناك مؤمن لا يرجو هداية الخلق، ولا يبحث عن طريقٍ يُعرِّف الناس إلى ربِّهم، لذلك ما إن تستقرَّ حقيقة الإيمان في قلب المؤمن حتى يعبِّر عن إيمانِهِ بحركة وبدعوةٍ وكلام ونُصْح وأمرٍ ونهي وإعطاء ومنعٍ وصلة وقطيعة وولاءٍ وبراءٍ، فلا بدَّ من حركة قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ۚ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأنفال:٧٢].

لذلك أنْ تكتُم علماً ولا تُبيِّنَهُ، يعني أنك وقعت في كبيرةٍ من الكبائر؛ فكتمان العلم أمر خطير، وربنا عز وجل وصف دُعاتَه الصادقين بصفةٍ واحدة، وهذه الصفة تُغني عن آلاف الصفات؛ فالداعية الصادق لا يخشى إلا الله، فلو خَشِيَ أحداً غير الله لتكلَّم بالباطل إرضاءً لمن يخافُهُ، ولسكت عن الحق خوفاً ممن يخافُهُ، فإذا تكلَّم بالباطل وسكَتَ عن الحق ماذا بقِيَ من دعْوَتِهِ إلى الله تعالى؟! قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأحزاب:٣٩].

أذكر مرةً أني قرأتُ خبراً واحداً لكنَّهُ معبِّر؛ وذو دلالة بالغة، عمر بن هبيرة والي البصرة جاءَهُ كتابٌ من الخليفة يزيد بن عبد الملك يأمُرُه بشيءٍ لا يُرضي الله عز وجل،

وكان عنده الإمام الحسن البصري من الأئمة الأعلام ومن التابعين؛ ووقع هذا الوالي في حيرة، أَيُنفِّذ أمر يزيد ويُغضب الله عز وجل؟ أم يرفُض أمر يزيد فيرضي الله ويُغضِب يزيد؟ ولعلهُ يَخْلَعُهُ من عمَلِه، فاستشار الإمامَ الحسن البصري، فقال هذا الإمام كلمةً تُكتَبُ بماء الذهب، قال: «إنَّ الله يمْنَعُك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله»، وفي الحديث الصحيح:

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ عَلِمَهُ ثُمَّ كَتَمَهُ، الجِمَ يَوْمَ القِيامَةِ بِلِجامٍ مِنْ نارٍ» [رواه الترمذي].

لكن بالمقابل لو سُئلت عن شيءٍ وأنت لا تعْلَمُهُ قل: لا أدري بملء فمِك ولا تخجل، لأنّ نصف العلم لا أدري، أحمد بن سنان قال: سمعت عبد الرحمن بن مهدي قال: كنا عند مالك فجاءه رجل فقال: جئتك من مسيرة ستة أشهر حمَّلني أهل بلادي مسألة قال: سل، فسأله عنها، فقال: لا أُحسن، قال: فأي شيء أقول لأهل بلادي؟ قال: تقول: قال مالك لا أُحسن.

كُنْ موضوعياً فهذا النبي ﷺ حينما كان يُسْأل عن أمر أو مسألة لم ينزل عليه الوحي فيها لا يجيب وهو سيد العلماء وسيد الخلق.

لذلك قال العلماء: «أمانة الأنبياء أمانة التبليغ، أما أمانة العلماء فأمانة التبيين».

وفي الآية الكريمة قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة:١٨٥].

عَنْ عَبْدِ الرحمنِ بْنِ عَمْرٍو السُّلَمِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ العِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ قَالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ الله ﷺ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْها العُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْها القُلُوبُ، قُلْنا: يا رَسُولَ الله إنَّ هذه لَمَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَماذا تَعْهَدُ إلَيْنا؟ قالَ: «قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى البَيْضاءِ لَيْلُها كَنهارِها، لا يَزِيغُ عَنْها بَعْدِي إلا هالِكٌ، وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اختلافاً كَثيراً، فَعَلَيْكُمْ بِما عَرَفْتُمْ

مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ وإنْ عَبْداً حَبَشِيّاً، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، فإنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الأنِفِ حَيْثُمَا انْقِيدَ انْقَادَ» [رواه أحمد].

فللمؤمن ميزة قد يغْفَل عنها، أنت على الحق، ومعك الدليل، والحجةُ القاطعة، وأنت تستنير بنورٍ من الله، وتقرأ الوحي الذي أُنزِل على النبي ﷺ والوحي نِداء السماء إلى الأرض، فأنت حينما تجلس إلى آلةٍ بالغة التعقيد وتحاوِل أن تفهمها من خلال تحريك الأزرار قد تُعْطِبُها، وقد لا تفهم حقيقة عمَلِها ولا طريقة استعمالِها ولا طريقة إيقافِها ولا طريقة صيانَتِها، وقد تسأل فتأتيك أجوبةٌ متناقضة، وقد تأتيك التعليمات فلا تفْهَمُها، وقد تسأل مَن عنده مثل هذه الآلة ويغْفَل عن بعض حركاتِها، أما إذا جلسْت إلى مُختَرِعِها وصانِعِها وسألتَهُ فجوابه صحيح، حقٌّ مئةً بالمئة.

لذلك هناك علوم تجريبية، وعلوم دينية أصْلُها الوحيُ، فالوحيُ قطْعيٌّ في صحته لأنه من عند الله عز وجل ولا يُنَبِّئُك مثل خبير، أحد الأطباء وهو من العلماء استنْبَط من حديث رسول الله ﷺ أنَّ للإنسان أن يشرب ما شاء مع الطعام من قول النبي ﷺ:

«ما مَلأَ آدَمِيٌّ وِعاءً شَرّاً مِنْ بِطْنٍ، حَسْبُ الآدَمِيِّ لُقَيْماتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فإنْ غَلَبَتِ الآدَمِيَّ نَفْسُهُ، فثُلُثٌ للطَّعامِ، وثُلُثٌ للشَّرابِ، وثُلُثٌ للنفَسِ» [رواه ابن ماجه من حديث المقدام ابن معدي كرب].

وبقي هذا الطبيب وهو أستاذٌ جامعي يؤكِّد لطلابه خلال عشرين عاماً أنه لا مانع من شرب الماء مع الطعام بالقدر الذي تريد، على حين أن بقية الأطباء يرَدِّدون نظرية درسوها في الجامعات الغربية، من أنّ شرب الماء مع الطعام يمدِّد العصارات الهاضمة ويُضعِف الهضم، فلا بد من أن تنتظر ساعاتٍ ثلاث حتى تشرب من الماء كما تشاء، وهذا الأستاذ الذي استنبط من حديث رسول الله هذه الحقيقة يدافع عن رأيه بشكل مختصر.

فالنبي ﷺ لا ينطِق عن الهوى، إن هو إلا وحيٌ يوحى، والنبي ﷺ ينطق عن الوحي والله الخبير. إلى أن ثبتَ علمياً قبل سنوات وقد نُشر هذا في مجلة أبحاث

علمية مرموقة جداً، أن شُرب الماء مع الطعام يعين على الهضم، فمهما أكثرت من شرب الماء فلا يضرّك ذلك، لأنه يحثّ العصارات الهاضمة على الإفراز، والطعام إذا تخلّله الماء أمْكن للعصارات الهاضمة أن تتغلغل في كلِّ أنحائِه وأن تُعين على هضمه، فالأصل هو الوحي فكُلُّ شيءٍ يخالف الوحي فيه خطأٌ؛ بدت لك حقيقتُهُ أو لم تبْدُ؛ فالمؤمن يصدِّق الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨ ﴾ [البقرة:١١٨].

المشكلة في حلقة مفرغة، فالجاهل ينتظر أن يهديَهُ الله وأن تأتيه معجزة، وأن يرى الله جهْرةً، وأن يرى كتاباً أُنزل من السماء، وأن يرجِع ميتٌ من قبرِهِ فيُحدِّثه.

الحقيقة بيّنها الله، وانتهى الأمر إلى ما هو في وضوح الشمس، والكون كلُّه ينطق بعظمة الله، وبوحدانية الله، وبكمال الله، والقرآن كلُّه ينطق أن كلام الله من خلال إعجازِهِ، والقرآن ينطق أن هذا الذي جاءَهُ الكتابُ هو رسول من عند الله، فالله بيَّنَ وانتهى الأمر إلى غاية الوضوح، قال تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ١٣ ﴾ [الليل:١٢-١٣].

فالله هدى الناس، وبقي أن تستجيبوا أنتم.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤ ﴾ [الأنفال:٢٤].

بقي لك أن تستجيب؛ هداك بالكون، وأعْطاك العقل، وجبَلَك على فطرةٍ سليمة، وجعل الحوادث كلَّها تؤيِّد كلامه في القرآن، بل إن حوادث الكون تأويلٌ للقرآن الكريم، النقطة الدقيقة هنا أنَّك إذا أردت الهدى وجَدْتَهُ في كلِّ شيء، وإذا أعْرَضْت عنه لم تجِدْهُ في أوْضَح الأشياء، فهناك من عاش مع النبي ﷺ؛ ألَمْ يرَ النبيَّ

ﷺ وكمالَهُ ومنطِقَهُ وأخلاقَه ومعجزاته؟ ألَمْ يقرأْ هذا الكتاب الذي أُنزل عليه؟ ومع ذلك لم يؤمن، وقد يأتي إنسان في آخر الزمان، ولم يرَ النبي ﷺ ولم يجلس إليه ولم يستمِع إلى أقوالِهِ ولم ير معجزاتِه والنورانيات التي كانت تُشِعُّ منه ﷺ، ومع ذلك يؤمن به، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [يونس:٩٧].

والحقيقة أنَّ الإنسان كلما ارتقى يخافُ بعقلِهِ، وكلما هبط مستواهُ يخافُ بعيْنِهِ، فالحيوان يخافُ بعينِهِ، والإنسان الذي أنْكر إنسانيته وعطّل عقله، لا يخافُ إلا بعينه، والكافر متى يَفْزع؟ حينما يأتيه ملك الموت، ومتى يخاف؟ حينما يقترب أجلُهُ، ومتى يضطرب؟ حينما تأتيه المصيبة، أما وهو في البَحْبوحَة والرخاء فلا يُبالي إطلاقاً بهذا الحق؛ لذلك فالذي يخاف بعَيْنِه أقل مرتبةً من الإنسان الذي يخاف بعقله، أما الذي يخاف بعقلِهِ فهو الإنسان العاقل.

وأما الأمر الثاني فقد قال تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة:٢١٩].

هناك معنى مهمّ جداً، أحياناً يتناول الإنسان مادة أولية ليُصَنِّعها، فهو لا ينتفِعُ بها إلا إذا صَنَّعها، فالخشب مثلاً: لو اشترى إنسان شجرة ووضَعها في البيت ماذا يفعل بها؟ إنَّ هذه الشجرة تُشرح إلى ألواح، وتصنّع قطعة أثاث يستخدمها وتُطلى بطلاء جميل، فهناك مواد أولية كثيرة جداً ليست لها قيمة بذاتها إلا إذا صُنِّعَت، وبعض النبات لا يؤكل إلا إذا طُبِخ، فهذه الآية لها معنى مهمّ، يقول الله عز وجل: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾.

وفي آية أخرى ورد فيها البيان والتبيين: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ

أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [المائدة:٨٩].

يجب على المؤمن أن يتناول هذه الآيات وأمثالها بالدراسة والتفكر فيها، كي يعقلها ويستفيد منها، ولتكون متكأً للوصول إلى الله عز وجل.

إذاً عليك مهمة، فالشمس موجودة وكلُّ إنسان يرى الشمس ساطعة، لكنك محتاجٌ إلى أن تُفكِّر فيها كآية من آيات الله، بل إنَّ بعض الحيوانات حينما تميل الشمس للغروب تتجه إلى اصطبْلِها؛ البقر والدّواب والأنعام حينما تميل الشمس إلى الغروب تتجه إلى اصطَبْلِها، معنى ذلك أنّ الحيوان يُدْرِك أن الشمس مالَتْ للغروب، أما الإنسان فعليه أن يُفكِّر مَنْ خَلَقَها ومن كوَّنها ومَن رفعها ومَن جعلها مُلْتَهِبة؟... ويدرك أنها مصدر حرارة للأرض وإنارة: ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾.

ومعلوم يقيناً أن هناك في الكون آياتٍ لا تُعَدّ ولا تُحصى، وأينما التفت المرء وسار واتجه وجلس ونظر رأى الآيات تحيط به من كلِّ جانب، لذلك فالعبرة أن تعكف على هذه الآيات وتفكِّر فيها، ومن هنا قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [آل عمران:١٩٠].

هناك آيةٌ تحمل العظَةَ، والدلالة واضحة جداً في سورة النساء، يقول الله تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النساء:٢٦].

البيان الإلهي من ثمرات إرادة الله عز وجل؛ أحياناً الإنسان يضرب ابنه ولا يريد أن يضربه، وأحياناً يتناول الدواء وكان يتمنى ألا يتناولَهُ، فليس كلّ فعل متوافقاً مع الإرادة، فالإنسان يفعل أشياء مضطراً لكن هذه الآية دلالتها واضحة جداً؛ فالله يريد ليبين

لنا، وليعرفنا، وينقلنا من الجهل إلى العلم، ويُخرجنا من الظلمات إلى النور، ومن الضياع إلى الوجدان، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الشقاء إلى السعادة: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [النساء:٢٧].

يقول له: لِمَ لا تُصَلي يا أخي؟ فتجد الجواب: إلى أن يهديَني الله، فهذا الكلام مضحك، وغير علمي، فالله عز وجل خلقَك ليهديَكَ.

الذي أراه أن الله سبحانه وتعالى رحمةً بعباده ينوِّعُ لهم أساليب الهدى، وأوْدَعَ فيهم العقول ليهتدوا، وأوْدَعَ فيهم الفِطَر السليمة لتكون مقياساً لهم لأعمالهم، وسخَّر لهم السموات والأرض؛ ليكون هذا الكون مظهراً لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، وجعل أفعاله متطابقة مع أقوالِهِ كي يحصل الانسجام في الكون، فالله وعد المُرابي بحرب، قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ ﴾ [البقرة:٢٧٩].

تجد دائماً وأبداً الذي يجمع المال الحرام يدمِّر مالَهُ، تَوافُقُ أفعالِ الله مع كلامه شيءٌ مهم جداً، قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل:٩٧].

حياة المؤمن طيبة، وهو شيء جميل ينوّه الله تعالى إليه في القرآن وتؤكّده الدراسة الميدانية، فإذا اجتمعتَ مع الشباب المؤمن تجدُهُم حقاً يعيشون حياةً طيبة، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه:١٢٤].

لو تتبَّعْتَ أحوال أهل الدنيا لَوَجَدْتهم يعيشون معيشةً ضنكاً، تطابُقُ أفعالِ الله مع كلامِهِ نوع من البيان، فالكلام نظري والتطبيق عملي.

ويقول الله عز وجل: ﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَـٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَـٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة:١٥-١٦].

كلمة سلام؛ فالسلامُ مريحٌ جداً، والسلام الذي أرادَهُ الله عز وجل هو السلام الذي من أسمائِهِ تعالى، لأن الله جل جلاله أصل كلِّ سلامٍ في الأرض والإنسان قد يسْلم مع نفْسِهِ فهو مطمئنٌ إليها، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَـٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر:٢٧-٣٠].

والإنسان قد يكون في سلامٍ مع من حوله، وعلاقاته واضحة، وصادقٌ، وأمين، وليس بينه وبين من حوله مشكلةٌ، ومُرْتاح البال، وهو في سلامٍ مع كل من يلوذ به، والإنسان المطيع في سلامٍ مع ربِّه.

من أسماء الله المُبين يبين بأقواله وأفعاله وأنواره وتجلِّيه وخلقِهِ والفِطَر والعقول، والله عز وجل يُعلِّمنا دائماً، ومن هنا قال بعض العلماء تفسيراً لهذه الآية ولهم فيها وجهة نظر، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾ ﴾ [البقرة:٢٨٢].

يفهمها بعض المسلمين على الشكل التالي: إنْ اتَّقَيْتم الله يعلِّمكم، فلو كان المعنى هكذا، لجاء النص على الشكل التالي: واتَّقوا الله يعلمكم الله، جواب الطلب، أما الآية واتقوا الله ويعلمكم الله؛ يعني: لِمَ لا تتقون الله؟ والله يعلِّمكم دائماً، يعلِّمكم بالوحي والعقول والفِطَر وخلقه وأفعاله وبآلاف الطرائق.

وفي سورة المائدة يقول الله عز وجل: ﴿ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [المائدة:٧٥].

والحقيقة أن التناقض بين ما يعتقدُهُ الإنسان وبين سلوكِهِ لا يُحتمل، تجد أناساً يستمعون إلى خطبة في مسجد، أو إلى كلمة في عقد قِران، أو إلى موعظة بمناسبة وفاة ويتأثرون بها آنيّاً، فإذا انطلقوا إلى بيوتهم كأن لم يسمعوا شيئاً، وهذا شيءٌ مريع، أن تسمع للحقِّ وأن تفعل عكْسَهُ، أن تأتي إلى بيت الله، تستمع إلى الآيات والأحاديث والأحداث، وتهمل بيتك ويكون على خلاف ما أمر الله تعالى، وأن تطلب العلم ولا تعمل به، وأن تتزَيّا بزيِّ المسلمين ولا تفعل ما يفعل المسلمون، وأن تدَّعي أنك مؤمن ولم تُدرك حقيقة الإيمان؛ فهذا هو الذي ورد في هذه الآية، قال تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾، أي: ينصرفون عما فيها من بيان وإيضاح لحقائق الإيمان.

وفي سورة الأنعام قال تعالى: ﴿ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ ﴾ [الأنعام:١٥٧].

شيءٌ عظيم ومفيد جداً أن الله سبحانه وتعالى أنزل كتابه على النبي ﷺ وفيه كلُّ الحق وفيه البينات والنور والمنهج؛ ثم من العجيب جداً ألا يأخذ منا كلام الله تعالى مأْخذَ التطبيق.

وفي سورة الأعراف قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ ﴾ [الأعراف:١٨٤].

من هو المجنون؟ هو الذي عصى الله تعالى، فالمجنون الذي نراه في الطريق ليس مجنوناً، هذا مُبْتلى بعُصاب ذِهني أو بمسٍ شيطاني، لكنَّ المجنون حقيقةً هو الذي عصى الله تعالى، لذلك قال تعالى: ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ ﴾ [القلم:٢].

وقال تعالى: ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [هود:٢٨].

المؤمن على شيءٍ من الهدى، والمؤمن مُنْغَمِسٌ في رحمة الله تعالى، لكن هذه الرحمة عُمِّيَت عن الخلق، والخلق ماديون يقيِّمون كلَّ شيءٍ بمقياس مادي، فأنت مهما كنت على خلقٍ عظيمٍ، وعلم غزير، أو على معرفةٍ بالله، أو على إخلاصٍ شديد، فلا تُقَيَّم إلا من خلال دخْلِك عند هؤلاء المادِّيين.

وفي سورة يوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾﴾ [يوسف:١].

المُبين يعني: الواضِح؛ ولذلك ليس من المناسب أن تفهم كلام الله فهماً لم يرده الله، علماً بأن القرآن الكريم نزل بلغة العرب وبلسانٍ عربيٍّ مبين؛ هناك أُناسٌ يتعامون عن المعنى الجليِّ الواضح ويصرفون عنه النظر، ويبحثون عن معانٍ لا تُدرَك إلا بشقِّ الأنفس أو بالتكلف الذي لا يُحتمل، ومن أخطاء المفسِرين أن تُؤوّل الآية لغير ما تُفصِح عنه، فهذه التأويلات التي ما أنزل الله بها من سلطان هي التي شتَّتت المسلمين وفرَّقتهم، مع أن هذا القرآن نزل بلسان عربيٍّ مبين؛ بعض القراءات المعاصرة فسَّرت قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف:٤٦].

البنون: البناء هل في العالم العربي من يفهم كلمة البنون أنها تعني البناء؛ المال والبنون زينة الحياة الدنيا، وهذا القرآن نزل بلغة العرب، فينبغي أن نفهمه وفق لغة العرب.

وفي سورة النحل قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [النحل:٦٤].

هناك اختلاف أساسُهُ نقْص المعلومات، وهذا اختلافٌ طبيعي، لكن الوحيَ يحْسُمُ هذا الأمر، قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ

﴿بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة:٢١٣].

وهناك اختلاف أساسُه البغي والحسد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران:١٩].

الاختلاف الأول طبيعي؛ وهو الاختلاف القائم على نقص المعلومات، أما الاختلاف الثاني فهو قَذِر أساسُهُ الحسد والبغي والعدوان، أما الاختلاف الثالث فاختلافٌ محمود، وهو التنافس في حقل الدين وفي دائرة الحق، وفي سورة النور قال تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النور:١٨].

الحق واضح، لكنّ الناس في الدنيا نِيام وإذا ماتوا انتبهوا، وعند الموت يُكشف الغطاء قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢].

وفي سورة النمل قال تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ [النمل:٧٩].

أيها المؤمن لا تَخَفْ، فإن النبي ﷺ خاطب عدي بن حاتم فقال له: «يا عدي! هل رأيت الحيرة؟ فإن طالت بك حياة لترين الظّعينة ترتحل من الحِيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله، ولئن طالت بك حياة لَتُفْتَحَنَّ كنوز كسرى، ولئن طالت بك حياة لترينَّ الرجل يُخْرِجُ مِلءَ كفه من ذهب أو فضة يطلب مَن يقبله فلا يجد أحداً يقبله منه، وليلقينَّ اللهَ أحدُكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له، فليَقُولَنَّ: ألم أبعث إليكَ رسولاً فيبلغَكَ؟ فيقول: بلى. فيقول: ألم أعطك مالاً وأُفْضِلْ عليك؟ فيقول: بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن يساره فلا يرى إلاّ جهنم، اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة» قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من

الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترونّ ما قال النبيّ أبو القاسم ﷺ: «يخرج ملء كفه» [رواه البخاري من حديث عدي بن حاتم].

فتوكَّل على الله إنك على الحق المُبين، وعلامة المؤمن الصادق لو أن الناسَ جميعاً تنكَّروا للدين ولم يعبَؤوا به ولم يلتزموا بتعاليمه، يكفيه أنه على الحق المُبين، والإنسان العاقل لا يأخذ بالكثرة، بل هدفه الحقّ ولو قلَّ ناصروه، قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام:١١٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ۖ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾﴾ [النجم:٢٨].

وقال تعالى في سورة الحديد: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الحديد:١٧].

فالآيات تحتاج إلى تفكُّر وإعمال عقل، والآيات إنْ صحّ التعبير مواد أوليّة تحتاج إلى تصنيع، ولا بد أن تُصنِّعَها بعقلِك وبفكرِك، ولا بد أن تتفكَّر فيها أو أن تتذكرها، قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة:١٦-١٩].

أحداث العالم كلِّه تتجه لتأكيد ما في القرآن.

لا يغيب عن بالِكم أن العالم فيما سبَقَ شرْقاً وغرباً؛ كان شرقاً يؤمن بالمجموع والقيود، وغرباً يؤمن بالفرد والحرية، والآن الشرق والغرب عادا إلى الإسلام قهْراً لا عبادةً، واضطروا إلى أن يعودوا إلى أصول الدين؛ فمثلاً هناك بلادٌ طويلةٌ عريضةٌ عاتيةٍ بعيدة حرَّمت الخمر، والآن في بعض الجامعات تُحرِّم الاختلاط بين الطلاب والطالبات،

فكلما تقدم العلم ونضج في البشرية اتجه قهراً إلى تعاليم الدين لا إيماناً ولا تعبُّداً، لذلك الشرق والغرب عادا إلى وسطية الإسلام، والشرق عاد مقهوراً لا مخيّراً، والغرب سيعود كذلك، وسوف تروْن بعد حين أن هذا الدين الإسلام العظيمَ هو دين المستقبل قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة:٣٣].

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ [القيامة:١٨-١٩].

حتى الآيات الكونية في القرآن الكريم، كلما تقدم العلم تكشَّفت للعلماء حقائق الإعجاز القرآني العلمي.

نصيب المؤمن من اسم الله (المبين)

المؤمن يدعو الله تعالى باسمه المبين ويتخلّق بهذا الاسم الجليل فيبيّن العلم ولا يكتمه، ويبيّن للنّاس فلا يوقعهم في الشّكّ والرّيبة.

لذلك فإنّ النبي ﷺ حينما كان مع زوجتِه صَفِيَّة مرّ به صحابيان أنصاريان في الطريق فقال: «على رِسْلِكما إنها صَفِيَّة»، فقالا: سبحان الله! يا رسول الله؟ قال: «إنَّ الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما سوءاً» [رواه البخاري من حديث صفية].

«البيان يطْرد الشيطان». وأنا أعرِف أناساً كثيرين مشكلتهم في صمْتِهم؛ يسكت ولا يوضِّح، قد يكون بريئاً وطاهِراً وسليم الصدر، حَسَن النيَّة، لكنّ صمْتَهُ الدائم يثير حوْله الشُّبُهات؛ إذاً وضِّحْ، بيِّنْ، ولا تجعل للشيطان سبيلاً.

أنت مسافر، وكلّفت أخ زوجتك بتفقّدها في غيبتك، بلّغ الجيران، أنا مسافر، وسيأتي أخو زوجتي يتفقد شؤون أخته، لئلا يظنّ النّاس أنّ هذا الإنسان غريب دخل إلى بيتك في غيبتك، لذلك لا تضع نفسك موضع التّهمة، ثم تلوم الناس إذا اتّهموك.

البطولة أنّ كلَّ عمل يقتضي تفسيرين يجب أن تبتعد عنه، وإن كنت مضطراً فبيّن ماذا تريد من هذا العمل، هذه من صفات المؤمن، يبيّن، فكلّما بيّنت أزلت الشكوك، وأبعدت نفسك عن التّهم، والمؤمن حريص على سمعته، وعلى كلام الناس في غيبته، ورحم الله عبداً جبّ المغيبة عن نفسه.

من أدعية هذا الاسم الجليل: اللهم أنت المُبين للحق، والهادي إليه، والموفِّق لاتباعِه، فاجعل بين أيدينا نوراً من قُرآنِك وهدايةً من بيانِك، فإنك أنت الحقّ المُبين.

وليس هناك أسْعَد من إنسانٍ عرف الحق، ونعْمةُ الهدى أعظم نعمة، بل إن بعض العلماء قالوا في تفسير قوله تعالى: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [المائدة:٦].

قالوا: تمامُ النعمة الهدى، فاللهم اهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت، وتولنا فيمن توليت، وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفتاح

سمّى الله ذاته العليّة بالفتّاح في نصٍّ واحد من النصوص القرآنية؛ وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [سبأ:٢٦].

ولم يرد هذا الاسم في السّنّة.

من معاني اسم الله (الفتاح)

الفتَّاح على وزن فعَّال، وصيغة فعَّال من صيغ مبالغة اسم الفاعل، وحينما يصاغ اسم الله عز وجل الفتَّاح، صيغة مبالغة فالمعنى أن الله عز وجل يفتح كلَّ الأبواب ويفتح ما استعصى من الأبواب، إمّا مبالغة تكثير أو مبالغة نوع فقد يستعصي باب على الخلق، فالله سبحانه له ولغيره فتّاح.

قد يصاب الإنسان بمرض عضال، والأطباء جميعاً أعطوا قرارهم، لا شفاء لهذا المرض، لا أمل يُرجى من هذا المريض، لا بد أن يموت المريض بعد أيام، ولا تُجدي

معه العملية، ولا ينفعه أن يسافر إلى بلاد الغرب، ولا أن يفعل، ولا أن يدع، باب الشفاء أُغلق وأُرْتِج وأحكم الإغلاق، وتواترت آراء الأطباء بذلك.

أعرفُ صديقاً لي أنجب مولوداً بولادة عَسِرة، سُحب الجنين من رحم الأم بآلة تُستخدم في الولادة العسرة، حينما وضع الجهاز على رأسه وسحب أصيب دماغه بخلل، فصار هذا الطفل الصغير كلما مضى وقت قليل ينتفض، فسأل صديقي هذا أول طبيب فقال له: هذه إصابة في الدماغ، ولا بد أن يكون هذا الطفل مستقبلاً أعمى، أو أبله أو مشلولاً، قلنا: هذا الطبيب حديث عهد بالعلم، فسألنا أشهر طبيب أطفال في دمشق يُعرف برسوخ قدمه في مجال طبِّ الأطفال، فقال الكلام نفسَه، ما أضاف ولا أنقص، سألنا طبيباً ثالثاً ورابعاً وخامساً ثم أُدخِل الطفل مستشفى الأطفال، وآراء الأطباء وأقوالهم لم تتغير، لأنّ الاختلاجات أساسها إصابة الدماغ، وإصابة الدماغ لا شفاء منها، لأنَّ الخلية العصبية لا تنمو وهذه قاعدة طبيّة معروفة.

لو أن الأعصاب تنمو لمات الإنسان ألماً، فمن رحمة الله بالإنسان المصاب بهذه الإصابة أن أعصابه لا تنمو، فالأطباء جميعاً أجمعوا على أن هذا المولود قد يكبَر ويبقى أبله أو مشلولاً أو أعمى، وصدقوني أن أباه كان يتمنى أن يموت طفله، لأن موت الطفل الصغير أهون بكثير من أن يكبر على هذه الحالة، ثم أُخِذَ إلى طبيب آخر، وهذا الطبيب على شيء من الإيمان، قال: لعل الله يشفيه، فأجرى تخطيطاً للدماغ، وأعطى الدواء وما هي إلا ستة أشهر حتى صار الطفل سوياً كغيره من الأطفال الأسوياء لا شيء يقلق في صحته، الآن عمره اثنتا عشرة سنة ويتحرك ويلعب وهو متفوق في دراسته، فهل في الأمر سرّ؟ نعم: إن الله هو الفتّاح، لقد أغلقوا كلَّ الأبواب، وربُّنا عز وجل فتح باب الشفاء.

المعنى البسيط إما أن يفتح كلَّ باب، يفتح لك باب الرزق، يفتح لك باب العمل، يفتح لك باب الزواج، يفتح لك باب الراحة النفسية، يفتح لك باب التوفيق، يفتح لك باب الطمأنينة، يفتح لك باب العمل الصالح، يفتح لك باب الدعوة إلى الله.... أو أنَّ أحد الأبواب التي استعصت على كلّ طبيب مثلاً يفتحه الله عز وجل.

إذاً فتّاح صيغة مبالغة اسم الفاعل الفاتح، يفتح ما أُغلق من الأبواب أو ما استعصى من الأبواب، أو يفتح كلَّ باب، قال الله تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ [فاطر:٢].

يفتح باب رحمته، وما يمسك فلا مرسل له من بعده، فإذا أمسك ليس في الأرض كلِّها قوة تستطيع أن تفتح، وإذا فتح ليس في الأرض كلِّها قوَّة تستطيع أن تغلق، قوى الأرض مجتمعةً ليس في إمكانها أن تفتح ما أغلقه الله ولا أن تغلق ما فتحه الله، قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾.

إذاً الأمر بيد الله وحده، وإذا أيقنت أن الأمر بيد الله وحده لا بد أن تتجه إليه، هذه الآية تترك صدىً طيباً جداً في نفس المؤمن، ما يفتح الله للناس من رحمة فلا مُمْسِك لها، علاقتك محصورة مع الله عز وجل، ما سوى الله أشباح، لا تقدِّم ولا تؤخر، إن النبي ﷺ وهو سيد الخلق وحبيب الحق وهو النبي الرسول الذي يُوحى إليه، وهو أكرم الخلق على الله، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ [الأعراف:١٨٨] قل لهم يا محمد: لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً، فإذا كان النبي ﷺ لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فلأن لا يملك لغيره من باب أولى، الله هو الفتَّاح.

كلمة يرددها الصالحون كلما التقوا بإنسان متوثب، متفتح، مندفع، يقال لهذا الشاب: «فتح الله عليك فتوح العارفين» فهي كلمة متنوعة النتائج، الله يفتح لك باب رزق، الله يفتح لك باب علم، الله يفتح لك باب قرب، الله يفتح لك باب رُقيّ، الله هو الفتَّاح.

الآية الأولى إذاً، قوله تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾.

الفتَّاح له معنى آخر مستنبط من قوله تعالى: ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأعراف:٨٩].

أحياناً الأمور تشتبك، قوى تتصارع، فلان يدَّعي أنه على حق، وفلان يكيل التُّهم للآخرين بغير حساب، الآخرون يكيلون له الصاع صاعين، ترى الحياة صراعات وتبادل تهم، تبادل تهاترات، توزيع ألقاب سيئة أو راقية، من عنده قول الحق؟ من الذي يعرف حقيقة هذا الإنسان بالضبط؟ إنّه الله عز وجل، فمعنى الفَتْح هنا معنى آخر معنى الحُكْم ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا ﴾.

يعني كلٌّ يدعي أنه على حق، كلٌّ يكيل للطرف الآخر التُّهم، هو مؤمن والآخرون كفّار، هو مستقيم والآخرون منحرفون، هو قريب والآخرون ضالّون، فمن هو الحَكَم، مَن صاحب الكلمة الفاصلة؟ من هو الذي يقول: أنتم على حق وأنتم على ضلال؟ الله عز وجل هو الفتَّاح، هذا المعنى الثاني مستنبط من قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

ما علاقتك بهذا المعنى من هذا الاسم، فإن كنت على حق فلا تخف لأن الله هو الفتَّاح، قد يقول الناس عنك الأقاويل، قد يتهمونك بتهم لا أساس لها من الصحة، إذا كنت على حق لا تخف، ولا تنسَ قوله تعالى: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ [النمل:٧٩].

﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنعام:٩١].

إذا آمنت أن الله هو الفتَّاح وهو الحكم، هو الذي يرفع ويخفض، هو الذي يكشف الحقائق، هو الذي يُجلي الأمور، هو الذي يزيل الالتباس، هو الله عز وجل الذي بيده الخير كلُّه، إذا آمنت بأنه هو الفتَّاح فلا تقلق، ولو أنَّ الناس أساؤوا فهمَك، ولو أن الناس أساؤوا الظنَّ بك، ولو أنهم اتهموك تهماً باطلة لأسباب تافهة، لا تخف، من عرف نفسه ما ضرَّته مقالة الناس فيه.

ما الذي يُقلق الإنسان في زمننا هذا؟ يقلقه أنه متمزِّق بين جهات عديدة؛ موظّف في شركة بل في معمل له عشرة أرباب عمل، شركة فيها عشرة شركاء في معمل كبير وهو موظف عندهم، ولو أنّ هؤلاء الشركاء متفقون متفاهمون، فعلى الرغم من ذلك فكلّ شريك سيعطي هذا الموظف أمراً مناقضاً للآخر، الأول تعالَ، الثاني اذهب، الأول كن غداً في المكتب، الثاني سافِر، الأول تأخَّرْ بعد الغداء، الثاني تعال بعد الظهر واذهبْ باكراً، هذا إذا كانوا متفاهمين، فكيف إذا كانوا متخاصمين، فكيف إذا كانوا شركاء متشاكسين، فالحياة عندئذٍ لا تطاق.

الإنسان المشرك أو غير المؤمن أو ضعيف الإيمان حياته ممزقة، كذلك الموظف الذي مر بنا فهو بين أن يُرضي رئيسه وأن يُرضي مرؤوسه، بين أن يُرضي زوجته، إن أرضى من حوله في العمل تغضب امرأته، وإن أرضاها يغضب شركاؤه، وإن أرضى جيرانه يغضب الله عز وجل، وإن امتنع عن حضور هذه الحفلة أغضب أقرباءه، حياة كلُّها تعب ونصب وهو مشتت، لكن المؤمن يعلم أن الفتَّاح هو الله، هو الحكم، إذا أرضى جهة واحدة استراح، وفي الحديث الشريف:«من جعل الهموم همّاً واحداً همّ آخرته كفاه الله همّ دنياه، ومن تشعّبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبالِ الله في أيِّ أوديتها هلك» [سنن ابن ماجة عن عبد الله بن مسعود].

ولا تنسوا قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٣].

أحد أكبر عذابات النفس أن تشرك بالله، أن تدعوَ مع الله إلهاً آخر، ليس معنى أن تدعو مع الله إلهاً آخر أن تقول: فلان هذا إله فحسب، بل أن تعامله كما تعامل الإله، أن تعتمد عليه، أن تتكل عليه، أن تُعلِّق عليه الآمال، أن تطيعه وتعصي خالق الأكوان، هذا معنى أنك اتّخذته إلهاً.

المعنى الأول: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ ﴾ [فاطر:٢] الأبواب المغلقة كثيرة، قد يقال لك: الأبواب كلُّها مغلقة، الطرق كلُّها غير سالكة، كلما اتجهتُ إلى جهة أُغلق

الباب في وجهي، هذا تعبير يستعمله عامّة الناس، من هو الفتّاح؟ هو الذي يفتح لك الأبواب المغلقة أو الأبواب المستعصية، أو الأبواب الكثيرة إنه الله الفتّاح، وحينما يَطْهُر الإنسان، حينما تصبح سريرته سليمة، حينما يستحق الإكرام تأتيه الدنيا وهي راغمة.

إذا كنت في المستوى الذي يستحقُّ الإكرام، إذا سرت في موجبات رحمة الله عز وجل تأتيك الدنيا وهي راغمة، وفي هذا الحديث الذي رواه ابن ماجه بسند صحيح عن عبد الرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان عن أبيه:

قالَ خَرَجَ زَيْدُ بْنُ ثابِتٍ مِنْ عِنْدِ مَرْوَانَ بِنِصْفِ النَّهارِ قُلتُ: ما بَعَثَ إليْهِ هَذِهِ السَّاعَةَ إلا لِشَيْءٍ سَأَلَ عَنْهُ، فَسَالتُهُ، فَقالَ: سَأَلَنا عَنْ أَشْياءَ سَمِعْناها مِنْ رَسُولِ الله ﷺ، سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «مَنْ كانَتِ الدُّنْيا هَمَّهُ، فَرَّقَ اللهُ عَلَيهِ أَمْرَهُ، وجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيا إلا ما كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ نِيَّتَه، جَمَعَ اللهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِناهُ في قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيا وهِيَ رَاغِمَةٌ».

ما تعلق أحد بحب الدنيا إلا أُصيب منها بثلاث: شغل لا ينفكُّ عناه، وأمل لا يُدرك منتهاه، وفقر لا يُدرك غناه، لكن حال المؤمن كما قال الله: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ ﴾ [هود:٣].

متاع المؤمن حسن، تلفّه راحة نفسية تامة، ولديه أمل بجنة عرضها السموات والأرض، ولكن متاع الكافر كلّه قلق، ينوبه شعور بالمستقبل المجهول، شعور قاتل بأنه مُقدِم على مجهول، ولا سيما الموت المتربص به، قال الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [البقرة:١٢٦].

أجابه ربنا: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾ ما الفرق إذاً بين متاع المؤمن ومتاع الكافر؟ متاع المؤمن تتخلله راحة نفسية يمازجها شعور

بأن الله عز وجل ادَّخر له نعيماً كبيراً في الآخرة، أما الكافر فإنه وفي قمّة استمتاعه في الدنيا يشعر بقلق من مجهول أقلّه الموت، أقلّه أن تُسلب منه هذه النعمة، لذلك الدعاء الذي أدعو به وأكرر: «اللهم إنا نعوذ بك من عضال الداء ومن شماتة الأعداء ومن السلب بعد العطاء» قاصمة الظهر أن يُسلب منك شيء قد نلته من الله عز وجل، فالله عز وجل، من إكرامه للمؤمن يجعل خير عمره آخره، يتعبه في أول حياته ولكن يريحه في آخره، أما أهل الدنيا فيُعزُّهم في مقتبل حياتهم ثم يأتي العقاب والذلُّ والهوان والفقر.

«اللهم! اجعل خير عمري آخره، اللهم! اجعل خواتيم عملي رضوانك، اللهم! اجعل خير أيامي يوم ألقاك» [أخرجه الطبراني في الأوسط، من حديث أنس].

﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأعراف:٨٩].

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ [فاطر:٢].

كلمة فتح باللغة تعني أن هناك شيئاً مغلقاً، فهل تقول لإنسان: افتح هذا الباب وهو مفتوح؟! كلمة ليس لها معنى، فأنت لا تقول: افتح إلا لما هو مغلق، إن أُغلق باب بوجهك يجب أن تذكر اسم الفتَّاح، حتى لو ضاعت مفاتيحك، لو ضاعت محفظتك، لو ضاع شيء ثمين.

حدثني أخ قال: كنت ذاهباً إلى ميناء اللاذقية لتخليص بضاعة، ومعي مستندات كثيرة جداً، وهناك أشخاص كلّفوني بإيصال مستندات لهم إلى بعض الموظفين في الميناء، محفظة كلُّها مستندات، ذهبت إلى مركز انطلاق المركبات لأركب، تفقدت هذه المحفظة الممتلئة بهذه المستندات لبضاعة وصلت إلى اللاذقية فلم أجدها، أقسم بالله؛ إن الدم جفَّ في عروقه، قال: اصفرَّ وجهي، بضائع بالملايين له ولزملائه، قال: وقفت على مدخل المركز وأدعو يا فتاح، قال: وقفت ساعة كاملة لا أجد عندي حلاً، وألغيت سفري، فما عدت أذكر السيارة التي أقلتني إلى المركز، ثم دعوت بدعاء شديد وبدعاء

فيه إلحاح، وقفت أمامي سيارة، فقلت لنفسي: أذهب ماشياً على الأقدام ولا أريد الركوب، قال له السائق: ألست الذي ركبت معي قبل قليل؟ ثم قال: خذ هذه المحفظة فهي لك، ببركة الدعاء، عادت المحفظة، هو لم يعد يتذكر في أية سيارة ركب، ولكن السائق بيد الله عز وجل، وإذا أراد الله عز وجل للسائق أن يعود يلهمه العودة، ويلقي عطفاً في قلبه، أو يلقي فيه خوفاً منه، قال لي بعد ساعة، وقفت أمامي السيارة، وظننتها تعرض عليّ الركوب، فأشرت للسائق أن اذهب، لكنه قال لي: ألست الذي ركب معي قبل ساعة؟ قلت له: بلى. أليست هذه محفظتك؟ فتلقفتها منه وكدت أطير فرحاً، وعدت إلى الحياة من جديد.

إذاً فكلمة فتح تعني أنّ هناك شيئاً مغلقاً، والفتّاح صيغة مبالغة لِلْكَمّ والنوع، فقضية مستعصية جداً تدعو بـ: يا فتاح يا عليم، أبواب كثيرة يا فتّاح يا عليم. ومنه قوله تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ ﴾ [القمر:١١].

يعني أنها كانت مغلقة، يقولون في النشرة الجوية: منخفض متمركز في قبرص اتجاهه نحو القطر، توقع هطول أمطار غزيرة، تتلبد السماء بالغيوم ولا تنزل أمطار، تعاد الكرَّة بعد يومين، توقع هطول أمطار، توقع هطول أمطار، أسبوعاً أولاً، أسبوعاً ثانياً، وثالثاً ورابعاً، مضى أيلول والتشرينانِ لم تنزل أمطار، توقع هطول أمطار لا أمل بنزول أمطار، ومن بعد توقع هطول أمطار بإذن الله، وبعدها: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ ﴾، يعني أن السماء مغلقة ومفتاحها بيد الله عز وجل.

والفتح في الحرب الظَّفر، فالبلاد المفتوحة، كانت مغلقة محصنة، جيوش، قوى، فُتحت الأبواب كلُّها للمسلمين، أصبحت بلاداً إسلامية، هذه البلاد كانت محتلة من قِبَل الرومان ففُتحت للمسلمين.

كذلك من معاني الفتَّاح، هو الحاكم بين الخلق، لأنه كلما استغلق أمر خلافي بينهم يفتحه الله عز وجل.

ولدينا معنى آخر لكلمة فتح، هناك فتحٌ لكبار المؤمنين، أي أن المؤمن أحياناً يفتح الله عليه يلقي في قلبه نوراً، يلقي في قلبه معرفة، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥﴾ [الأنعام:٧٥].

أحياناً تشعر أنك لم تكن ترى فأصبحت ترى، رؤيا قلبية، أحياناً يرى الإنسان أنّ تجارته تروج مع الكذب، ويربح الكثير فهذا أعمى البصيرة، إلى أن يرى أن الصدق وحده هو الذي ينجيه، هذه رؤيا قلبية، يرى أن الاستقامة في الحياة هي سبب الكرامة، هذه رؤيا، بعض الناس يكذب ويغش ويخدع، ويظن نفسه ذكياً، لأنه أعمى القلب، فما هو الفتح بالمعنى الجديد؟ الفتح أن يفتح الله على بصيرتك، أن يكشف الله على بصيرتك، أن يجعل بصيرتك صافيةً ترى بها الخير خيراً والشرَّ شرَّاً.

إذاً بعض العلماء قالوا: «الفتَّاح هو الذي فتح قلوب المؤمنين بمعرفته، وفتح على العاصين أبواب مغفرته، فإن كان عاصياً فالله عز وجل يفتح له باب المغفرة، وإن كان مؤمناً يفتح له باب معرفته».

إذا سألت نفسك عما كنت عليه قبل خمس سنوات من الآن، هل مشاعرك النفسية في المستوى ذاته أم صرت تشعر أن لك رؤية جديدة ولك الآن بصيرة نافذة، لك إدراك أعمق، لك قيم أمتن؟ إن كنت تغيرت عما كنت عليه فهذا هو الفتح، كلما كشف لك عن بعض الحقائق فقد فتح عليك، إلى أن يفتح عليك الفتح المبين.

المؤمن يتفاوت مع المؤمن باليقظة والغفلة، فهناك مؤمن أغلب وقته في غفلة، مؤمن بالله ولكن في غفلة، أما المؤمن الأرقى، أكثر وقته مع الله عز وجل، دائماً يدعوه، يستعيذ به يرجَوه، يهتدي بهديه يستلهمه، والله عز وجل يتجلّى على قلبه، يلقي في قلبه نوراً، يلقي في قلبه معرفةً، هذا معنى الفتح.

الكثير من العوام، إذا فتح محلاً بشارع فيه رواج شديد مثلاً، والبضاعة ألبسة نسائية، والنساء كاسيات عاريات مائلات مميلات، وعنده موظفون غارقون في المعاصي والآثام، يكتب على محله التجاري: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ١﴾ [الفتح:١].

هذا هو الفتح؟! أن تربح، أن تبيع النساء الكاسيات العاريات، وأن تدير معهن أحاديث ماجنة تدعو إلى المعصية، هذا هو الفتح المبين؟ هذا الذي يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً.

الله عز وجل فتح للنبي ﷺ مكة المكرمة فتحاً، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، هذا هو الفتح حقاً وحقيقة.

إذاً الفتَّاح الذي فتح قلوب المؤمنين بمعرفته، وفتح للعاصين أبواب مغفرته، وقيل الفتَّاح: الذي يعينك في الشدائد وينيلك وجوه الزوائد، يعينك في الشدة وفي الرخاء يرفعك، يعطيك عطاءً زائداً، إذاً هو فتاح.

بعضهم قال: الفتَّاح هو الذي يفتح أبواب الخير على عباده، ويسهل عليهم ما كان صعباً، هذا الفتح يكون تارةً في أمور الدين، يقول لك أحدهم: لديّ كتاب أقرؤه، ولكني لا أفهم ما فيه، صعب، بعد حين يفتح الله على قلبه، فيقرأ ويفهم، يقرأ ويتعمق، يقرأ ويستمتع، يقرأ ويفقه، يقرأ ويحفظ، يقرأ ويتكلم، فأجرى الله الحكمة على لسانه، ولكنه سلك طريق العلم والتعلّم طبعاً، أول الأمر يقول: هذا كتاب لا أفهمه كأنني أنحت في صخر، ما هذا الكتاب، أقرأ القرآن لا أفهمه أبداً، أقرأ الحديث لا أفهمه، ثم وافاه وقت آخر فبدأ يفهم وبدأ يتعمق وبدأ يطرح أسئلةً، وبدأ يتلقى أجوبة، بدأ يحفظ، بدأ يتمتع، بدأ يدعو.

إذاً فالله هو الفتَّاح، يفتح عليك أبواب العلم، يفتح عليك أبواب الحكمة فتنطلق على لسانك، فإذا أخلصت لله أنطق الله لسانك بالحكمة، فأول أنواع الفتح يفتح عليك في أمور الدين وهو العلم، ويفتح عليك في أمور الدنيا، تكون فقيراً فيغنيك، تكون ضعيفاً فيقويك، تكون مظلوماً فينصرك على أعدائك، تكون مكروباً فيزيل هذه الكربة ويحل محلها الفرحة، لذلك فالإنسان إذا كان بعيداً عن الله عز وجل لا يمكن أن يسعد، قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه:١٢٤].

إنه الانقباض، سل أهل الدنيا، سل أصحاب مئات الملايين، سل من يملكون ألوف الملايين، سل من أوتي قوةً لا حدود لها، من أوتي مالاً كمال قارون، سلوهم أيها القراء الكرام، أستحلفكم بالله، قد يقولون: نحن أشقى الناس، قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) ﴾.

ماذا يعني فتّاح، يفتح لك باب الأنس به، يفتح لك باب الإقبال عليه، يفتح لك باب الرضوان، يفتح على قلبك باب الرضا، ترضى أن تسكن في غرفة ونصف تحت الأرض، وتقول: الحمد لله، وتدخل على رجل بيته خمس مئة متر، ثمنه ثلاثون مليون ليرة، يقول لك: السوق كاسدة، وخسارة هذه السنة كذا مليون، يعني تدني مستوى أرباحه كذا مليون، وعنده مال يكفي الأولاد والأحفاد، تراه معكراً، أما الفقير فقد فتح الله عليه باب الرضا، فتح الله عليه باب السكينة باب الشكر، الصحة طيبة والحمد لله، أنا أسعد الناس، وهذا الذي ما عرف الله عز وجل دائماً في ضيق وضنك وسخط على الله عز وجل ولو حاز الملايين.

إذاً يفتح لك باب الدين بفتح باب العلم على قلبك، أو يفتح لك باب الغنى إن كنت فقيراً، إن كنت ضعيفاً يفتح لك باب القوة، وإن كنت مريضاً يفتح لك باب الصحة، إن كنت مكروباً يفتح لك باب الفرحة. قال المؤيد في دين الله:

يا رب أنت المرتجي ومن سواك أرتجي
أم هل سواك فاتح لكل باب مرتج

قيل: الفتَّاح هو الذي يفتح على النفوس باب توفيقه، قال تعالى: ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) ﴾ [هود:٨٨].

قال بعض العلماء: «لا يمكن أن يحدث شيء في الكون إلا بتوفيق الله تعالى»، فحينما بنوا سفينة الفضاء: (شالنجر) ومعناها المتحدي، أرادوا أن يجربوا تجربة فريدة،

أن يخرج إلى الفضاء الخارجي لمدة تسعة أشهر أو سنة سبعة رجال وامرأة كي تنجب المرأة وهي في الفضاء، وأعدوا لكل شيء عدّته، ولكلّ جهاز في المركبة جهازان للمراقبة، وقد ضبط الجهاز بعدّ تنازلي محكم جداً وأطلقت المركبة إلى الفضاء وسماها أهل الدنيا المتحدي هذه المركبة بعد سبعين ثانية، أصبحت كتلةً من اللهب، فالله ما فتح عليهم، أغلق دونهم باب التوفيق، فلذلك ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾.

فإذا فتحتَ محلاً تجارياً، أو أسست معملاً، أو أسست مدرسة، إن أزمعت الزواج، فقُل: يا فتاح وتخلَّ عن ذاتك، ولا تقل: أنا خبير سأستخدم كل خبرتي وسأستشير، وسأسأل محامياً.

أعرف رجلاً، متبرماً دائماً، مشمئزاً دائماً، جمع وطرح وضرب وانتهى رأيه إلى أنه إذا باع معمله، وبيته، ومحله التجاري بالملايين، ووضع ماله هذا في بنك في أوروبا والفائدة بالمئة ثمانية عشر، يعيش في أوروبا ملكاً، ثم نفّذ الخطة، باع المحل وباع المعمل وباع البيت وباع السيارة، ثم أخذ تأشيرة خروج، وذهب إلى السويد، في باله أن يضع الأموال في المصرف ويشتري بجزء منها بيتاً وسيارة فخمة، ثم يعيش على فوائد المبلغ في بحبوحة، فماذا جرى؟ إن البنك يطلب وثائق معينة لوضع المبلغ لديه، والمبلغ كبير جداً فوضعه باسم شخص آخر، إما قريب له أو صديق له هناك، وفي اليوم التالي سأله إعادة المبلغ، قال له: مَن أنت؟ لا أعرفك وأنكره، كل ثروته ضاعت بساعات قضاها، لتأمين وثيقة معينة، وفي اليوم التالي أنكره، فأين الذكاء؟!

هذه أبقِها في بالك، مع الله لا ينفع ذكاء، قال ﷺ: «لا يغني حذر من قدر» [أخرجه الحاكم في المستدرك من حديث عائشة] ولكن ينفع الدعاء مما نزل ومما لم ينزل، ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ لن يقع شيء إلا بأمر الله.

نصيب المؤمن من اسم الله الفتاح

وبعد فما علاقتك بهذا الاسم؟

أولاً هذه الآية لا بد للمؤمن أن يفهمها كما أراد الله عز وجل: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام:٥٩].

فلو أنه قال: ومفاتح الغيب عنده، هل تغير المعنى؟ هو سبحانه قال: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ ﴾، هل يستفاد معنى آخر من تقديم عنده؟ نعم، فلو قال: ومفاتح الغيب عنده، فقد تكون عند غيره أيضاً، أما إذا قال: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ ﴾ فالتقديم فيه قصر، فالغيب لا يعلمه إلا الله، وعنده مفاتح الغيب وحده والعوام يقولون كلمة صحيحة: «الذي عند الله ليس عند العبد»، مرَّ وقت قال الناس فيه: انحبست الأمطار، جفاف دائم، ففي عامٍ مضى بعض ضفاف نهر بردى زُرعت، والناس في الغوطة استيأسوا من أن ترجع هذه الأنهار متدفقة كعادتها، فهم في جفاف مستمر، فجأة تدفق نهر بردى بشكل كبير وبكميات دافقة ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ ﴾ والناس خاب ظنهم، فلو قال الطبيب: لم يبقَ هناك أمل في المريض، فلا تصدق، وقل:

إن الطبيب له علم يدلُّ به   إن كان للناس في الآجال تأخير

حتى إذا ما انتهت أيام رحلته   حارَ الطبيب وخانته العقاقير

على حسب عمر الإنسان، فإذا انتهى عمره وقال الطبيب: لا يوجد أمل، فلا أمل فيه فلا أمل حقاً، أما إذا كانت هناك بقية في حياه فقد أخطأ الطبيب.

أذكر طبيباً قال عن مريض: بعد أربع ساعات ينتهي عمره، اشترى أهله السواد وكتبوا النعي، ثم شفاه الله عز وجل، هذا الإنسان عاش ثلاثين سنة بعدها والطبيب مات بعد اثني عشر عاماً ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ ﴾، ليس من باب التكذيب، ولكنَّ الطبيب يتكلم بحسب علمه، أمّا ما سيكون فلا يعلمه إلا الله عز وجل، فمثلاً: هناك بلاد في الشرق آمنة مطمئنة رخاء مال، بترول، غنى، من يصدق أنها مع رخائها تلتهب فيها نيران الحروب، ليس هذا في الحسبان.

لبنان في عام ١٩٧٤ كان جنة الله في الأرض، الأمن والرخاء والبذخ والترف، كل ما في العالم في هذا البلد، من يصدق أن الدمار يغطيه والذين زاروه يصفونه بأنه صار قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً.

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ هناك تفسيرات إلهية، نحن نفهم التفسيرات الأرضية، على أنها صراع، حرب أهلية، مشكلة عربية، دولية، ولكنَّ هناك فهماً دينياً آخر، قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل:١١٢].

دائماً اعتمِد التفسير القرآني للأحداث، هناك تفسير أرضي معين، هناك تفسير من زاوية معينة، تفسير عربي، تفسير دولي، هناك تفسيرات كثيرة جداً، حتى هناك تفسير نسائي لأحداث لبنان، قلن: «أصابتها عين» فالصواب أن تعتمد التفسير الديني، قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

لبنان وغير لبنان، شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ هذه الآية إذا فهمتَها تكذّب الدجالين، والكهان، والسحرة، والمنجمين، والأفاكين، تسمع في هذا العصر أنه في كل بلد متقدم جداً هناك فلكيٌّ أو عرّافٌ يأتيه كبار الشخصيات يسألونه عن مستقبلهم المالي مثلاً، أو الإداري أو السياسي، فلو قرؤوا هذه الآية لامتنعوا عنهم وعلموا كذبهم.

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾.

انتهى الأمر، ووضحت الرؤية، فلمجرد أن تسأل إنساناً عن الغيب فأنت لا تعرف الله، ولمجرد أن تطرح سؤالاً على كاهن، تأكد أنك لا تعرف الله، والدليل قوله ﷺ: «من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه فقد كفر بما أُنزل على محمد» [رواه الإمام أحمد والحاكم بسند صحيح من حديث أبي هريرة]، كلّ هذا القرآن بصدقه، ووضوحه، ورؤيته الصحيحة، الصافية تتغافل عنه، والله سبحانه يقول: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأنعام:٥٠].

﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [الأعراف:١٨٨].

﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الجن:٢٥-٢٧].

﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ هذا موقف الإنسان المؤمن، هذه الآية خطيرة جداً، قد تطالع مقالة تتحدث عن تنبّؤات عام كذا من الأعوام الميلادية؛ فتسمع بعض الصحفيين وبعض المفكرين يتنبؤون بما سيكون في المستقبل، مثل هذه المقالات لا تُقرأ لأنه ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ﴾ إلا إذا كان تنبؤاً لا من باب الجزم بل من باب التكهين حسب معطيات الحاضر، كاحتمال أن العالم مقبل على أزمة معينة، مقبل على كذا، ولكن عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، هذه الآية إذا فهمتها استرحت من اللهاث حول سلبيات كثيرة واطمأنت نفسك.

قالوا: «ما مضى فات، والمؤمَّل غيب، ولك الساعة التي أنت فيها»، أنت لا تملك إلا وقتك الحاضر، في هذا الوقت بالذات بإمكانك أن تتوب.

كانت تحضر عندنا في المسجد أخت كريمة، منذ ستة عشر عاماً، ولها صهر بعيد عن الدين بُعداً شديداً، بل إنه ينكر وجود الله عز وجل، فكانت تدعو ابنتها أن تدعوَ زوجها لدرس المسجد، وقد دعته لأكثر من عامين، ليحضر ولو درساً واحداً لكن دون جدوى، قال: ذات مرة دخلت ابنتها إلى الدرس ففرحت فرحاً شديداً، قالت لها: أزوجك معك؟ قالت: نعم، كادت ألاَّ تصدق، هذا الرجل حضر درسين وبعدها أصابته أزمة قلبية، ونُقل إلى المستشفى على شكل إسعاف، هو على الحمّالة، قال لأولاده: كل شيء قلته لكم في الماضي باطل، الحق هو ما جاء في القرآن... لا أنسى هذه الكلمات، ربّى أولاده على شاكلته على أنه لا إله، حضر درسين ووافته المنية، وهو على فراش الموت قال لأولاده، وله ولد مهندس، قال: كلُّ شيء قلته لكم باطل، الحق هو ما جاء في القرآن، نرجو الله أن يقبله ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾.

لماذا قال بعض العلماء: إن الحج على الفور؟ من أين انطلقوا؟ لأن الإنسان لا يعرف متى يموت، ما دام الحجُّ فرضاً على المستطيع، فحينما تصبح مستطيعاً يجب أن تحجَّ، لأن العمر ليس بيدك، قال ﷺ: «تَعَجَّلُوا إِلَى الحَجِّ - يَعْنِي: الفَرِيضَةَ- فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لا يَدْرِي مَا يَعْرِضُ لَهُ» [رواه الإمام أحمد بسند حسن من حديث ابن عباس مرفوعاً].

أي ما يعرض له من مرض أو مشكلة، أو موت مفاجئ. قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سبأ:٢٦].

علاقتك بهذا الاسم أن تسعى جاهداً كي يفتح الله على قلبك باب العلم، والشيء الثاني أن تفتح أنت على العباد باب خيراتك، لا تكن قابضاً، ولتكن باسطاً.

الشكور

من أسماء الله الحسنى الشكور، وقد ورد هذا الاسم مقترناً باسم الغفور في موضعين، الأول في قوله تعالى: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ [فاطر:٣٠].

والثاني في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فاطر:٣٤].

وقد ورد هذا الاسم مقترناً باسم الحليم في قوله تعالى: ﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [التغابن:١٧].

إن وقعت في الذنب فهو غفور، وإن عملت عملاً طيباً فهو شكور، وإن زلّت القدم فهو حليم.

من معاني اسم الله (الشكور)

الشّكُور في اللغة على وزن فعول، وفعول من صيغ المبالغة من اسم الفاعل شاكر، فعله شكر، يشكُر، شكراً، وشكوراً، وشكراناً، وأصل الشكر الزيادة، والنَّماء، والظُّهور، وحقيقة الشُّكر الثَّناء على المحسِن بذكر إحسانه.

الحقيقة أن تعرف أنّ الله خلق السموات والأرض وكفى، فأنت إذاً ما عرفته حقّ المعرفة، لأنَّ الإيمان بوجود الله يكاد يكون قاسماً مشتركاً بين الناس كلِّهم جميعاً قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان:٢٥].

حتى الذين عبدوا الأصنام قالوا: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر:٣].

إذا أقررت بوجود الله عز وجل، فأنت لم ترتفع عن أيِّ مستوى من مستويات الناس العاديين، ولكنَّ معرفة الله تقتضي أن تعرف أسماءه وما من معرفة لها علاقة وشيجة بحياتك الدنيا وبمآلك إلى الآخرة كمعرفة أسمائه الحسنى، فكلما ازددت معرفة به ازددت حباً له، وازددت استقامة على أمره، وازددت عملاً صالحاً تتقرّب به إليه، وازدادت سعادتك في الدنيا والآخرة.

إذاً شيء في غاية الأهمية أن تتعرف إلى الله من خلال أسمائه الحسنى، اسم الشَّكُور ثابت بالقرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فاطر:٣٤].

الشَّكُور صيغة مبالغة من شكر ودائماً صيغ المبالغة إذا اقترنت بأسماء الله الحسنى فتعني إما عدد الشّكر أو حجم الشُّكر، أما حجم الشُّكر؛ فأنت قد تعيش في الدنيا لسنوات معدودات، سنوات قد تزيد على الستين سنة أو السبعين، فإذا أطعته في هذه السنوات المعدودات فإنّه يَهَبُك حياةً أبدية لا تنقضي، وكلمة (أبد) قد لا ننتبه إلى معناها، وها أنا ذا أُخاطب الإخوة الرياضيين، الذين يدرسون الرياضيات، لو أن «واحداً» في دمشق ووضعنا أصفاراً وبين كل صفرين ميلمتر، وتابعنا الأصفار إلى حمص إلى حماة إلى حلب إلى أنقرة إلى موسكو إلى القطب الشمالي إلى المحيط الهادي إلى القطب الجنوبي إلى إفريقيا إلى... إلى... حتى عادت هذه الأصفار حول الأرض إلى أن

استقرت على شمال «الواحد»، هذا الرقم كم هو؟ هذا الرقم «واحد» في دمشق والأصفار حول الأرض، لو وُضِعَ هذا الرقم صورة لكسر عادي، وفي مخرج الكسر إشارة اللانهاية، هذا الرقم يساوي صفراً في الرياضيات، يعني: أي رقم مهما بدا لك كبيراً إذا قيسَ إلى اللانهاية فهو صفر، فأنت إذا عشت في الدنيا سنوات معدودات، وفي هذه السنوات المعدودات أطعت الله عز وجل، ونهيت نفسك عن الهوى، وضبطت جوارحك، وحرّرت دخلك، وتعرّفت إلى الله، وجلست في مجالس العلم، وتلوت القرآن وفهمت القرآن، ودعوت إلى الله، وأنفقت من مالك ومن جاهك ومن علمك وجاء الأجل، إذا قِستَ هذه السنوات المعدودة إلى الحياة الأبديّة فأنت ما فعلت شيئاً، فمعنى «شكور» أنه يعطيك على الشيء القليل الشيء الكثير.

أيعقل أن تدفع ربع ليرة، لتشتري بها محالَّ شارع تجاريّ في وسط المدينة؟ الطوابق والمخازن والمستودعات، هل من الممكن شراؤها بربع ليرة؟ أؤكد لكم أنَّ كل عمل الإنسان إذا قيسَ بما أعدَّ الله له من نعيمٍ مقيم، والله إنه أقلّ من هذه النسبة.

انظر في هذه الشركات الكبرى في العالم، فقد سمعت عن شركة عندها فائض، هم في حيرة من توظيفه، مليار دولار، فائض ليس له وظيفة يوظَّف بها، هناك شركات كبرى في العالم ميزانياتها وأرباحها بقَدَر ميزانيات مجموعة دول، هذه الشركة هل تُشترى بليرة؟ ها أنا ذا أقول ودون أن أبالغ: إن ما أعدَّه الله للمؤمن من نعيم مقيم نظير ما يُقدمه من طاعةٍ لله في الدنيا، كالنسبة بين ما قدّم وما سيأخذ، وهي لا تتعدى أن تكون كمَن يشتري إحدى أكبر الشركات في العالم بليرة سورية.

هذا معنى «الشَّكُور»، صيغة مبالغة لاسم الفاعل، إنه يعطي اللانهاية، يعطي الأبد.

مرةً سمعت أن بعض القضاة في بلد معين ليس لهم رواتب، بل لديهم أوراق نقدية مفتوحة، أيَّ مبلغ يريده القاضي يأخذه، لو طلب مبلغاً فلكياً يأخذه فوراً، معنى «الشَّكُور» إذاً، أنه يعطي الشيء الذي لا نهاية له، الذي لا حدود له. عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «قالَ اللهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبادِي الصَّالِحِينَ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ» [صحيح البخاري].

الحقيقة أنّ هذا الكلام نقرؤه ونردده كثيراً، ولكن لو وقفنا عند مدلول هذه الكلمة، كل واحد منا له دائرة مشاهدات، فأنت مثلاً إلى أين ذهبت؟ تقول: ذهبت إلى لبنان وإلى الأردن، وذهبت إلى الحج، وذهبت إلى مصر وإلى قبرص، فقط؟ أجل، فقط.

وقد تجد شخصاً يعرف أمريكا، يعرف اليابان، يعرف روسيا، يعرف إفريقيا، وشخص آخر يعرف جنوب شرقي آسيا أيضاً، وتجد آخر ذهب إلى أستراليا، وغير أولئك من ذهب إلى القمر.

على كلٍّ دائرة المشاهدات إذا قيست بدائرة المسموعات فلا تعدُّ شيئاً، سمعت بالمريخ ولكن لم تذهب إليه، وسمعت بالمشتري وسمعت بنجم القطب، وسمعت بألاسكا، وسمعت بسيبيريا وسمعت بالقطب الشمالي، دائرة المشاهدات إذا قيست بدائرة المسموعات فهي لا شيء، أما دائرة الخواطر فقد يخطر ببالك جبل طوله من هنا إلى الشمس، هذا خاطر، ما دام الخاطر ليس له واقع فالقضية سهلة، قد يخطر ببالك إنسان إذا وقف على الأرض اقترب من القمر، طوله ثلاث مئة ألف كيلومتر، هذا خاطر.

فعندما حدثنا النبي ﷺ عن ربه في الحديث القدسي قال: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» [متفق عليه من حديث أبي هريرة]، هذا معنى «الشَّكُور»، نظير ثلاث وستين سنة عشتها، انقضى خمسها حتى أصبحت مكلفاً، يعني هذه السنوات المعدودة كل يوم خمس صلوات، كلما رأت عينك امرأةً غضضت البصر عنها، وكلما لاحَ لك مبلغ من شُبهة قلت: معاذ الله إني أخاف الله رب العالمين، يعني مجموعة صلوات ومجموعة أيام صمتها، ومجموعة مواقف خِفت فيها من الله عز وجل، فاستحققت هذا العطاء الكبير. وربنا عز وجل قال: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الإنسان: ٢٠].

أحدهم قال لي: كنت ببلد أجنبي، ودعانا مدير الشركة إلى قصره، فشُدهنا إذ رأينا ما يفتن العقل والنظر، دخلنا في غابة بقيت السيارة منطلقة ربع ساعة في هذه الغابة المحيطة بقصره، في حين يحتاج المرء في بلدان كثيرة إلى بيت مساحته مئة متر، يأوي إليه، في حين أن الغابة مساحتها مئات الكيلومترات، غابة صنوبر وبالمنتصف

قصر كبير، بل ملك كبير، قصر وحوله حديقة مترامية، غابة صنوبر، فربنا عز وجل قال: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

الله سمَّى ما أعد لك في الجنة ملكاً كبيراً، هذا معنى «الشَّكُور»، شيء لا يُقدّر بثمن، مقابل شيءٍ قليل جداً قدمته نلت به شيئاً كثيراً.

والمعنى الآخر لكلمة «شكور» هو المعنى العددي، يعني لا يمكن أن تقدم شيئاً لله عز وجل إلا ويشكرك عليه.

حينما علم أبو لهب بميلاد النبي ﷺ أعتق ثويبة، فقيل: إنه يخفف عنه العذاب كل يوم اثنين[1]، وأنه أعتق هذه الجارية فرحاً بميلاد النبي ﷺ، كل شيء محفوظ عند الله سبحانه، ولو أنقذت نملة، قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾ [النساء:١٤٧].

قد تخدم شخصاً، الخدمة لا يمكن أن يشكرك عليها إلا إذا عرفها، مثلاً، كأن تزور مريضاً، فتحمل هدية وتتوجه إليه، في مدخل البيت أخذها منك ابنه، ولم يبلغه، ثم جلست عند المريض فهل يعقل أن يشكرك هذا المريض؟! إنه لم يدرِ بالهدية، فكيف يشكر وهو لا يعلم، لذلك ربنا عز وجل يقول: ﴿ مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾ فهو يعلم، يعلم أي عمل مهما بدا صغيراً، لو أنقذت فراشةً، لو رحمت إنساناً، لو أمَّنت إنساناً خائفاً، أو هدَّأت من روع إنسان خائف، لو طمأنت إنساناً، لو أطعمت إنساناً جائعاً، كل شيء محفوظ عند الله، فكلمة «شكور» إما لحجم «الشُّكر» وإما لعدد مرات الشُّكر، وهي مبالغة اسم فاعل.

قال العلماء: معنى «الشَّكُور»، في اللغة: الشُّكر في الأصل الزيادة، فلان شكير، أي: عياله صغار، وشكير الشجر ما نبت في أصلها من القضبان الصغار، وناقة شكيرة

---

(١) قال ابن حجر في الفتح [٩/ ١٨٠] وذكر السهيلي أن العباس قال: لما مات أبو لهب رأيته في منامي بعد حول في شر حال فقال: ما لقيت بعدكم راحة إلا أن العذاب يخفف عني كلَّ يوم اثنين، قال: وذلك أن النبي ﷺ ولد يوم الاثنين، وكانت ثويبة بشرت أبا لهب بمولده فأعتقها.

وشَكْرى إذا كانت ممتلئة الضرع، وشكرت الأرض إذا كثر النبات فيها، ودابة شكور إذا أظهرت من السِّمَن فوق ما تُعطى من العلف، وكل نبت يكتفي بالماء القليل فهو شكور، هذا ما ورد في كتب اللغة عن كلمة شكور.

أما الشكر في حق العباد فله طريقان، ويمكن أن نضيف لهما طريقاً ثالثة، شكر باللسان، وشكر بالعمل، نقول: لن يكون الشكر لا باللسان ولا بالعمل إلا إذا عرفت النعمة، أساس الشُّكر المعرفة، إذاً أنت تعرف ثم تشكر، لا تشكر ما لم تعرف.

فشكر العمل، مثلا: هناك شخص قدم لك بيتاً، فهو إذاً قدّمَ لكَ شيئاً ثميناً، أو كنتَ واقعاً في ورطةٍ كبيرة فأنقذك منها، ثم رأيت ابنه في الطريق، فإذا قدمت لهذا الصغير قطعة حلوى فهذه الحلوى في الحقيقة شُكر لوالده، فأنت عبّرت عن امتنانك من أبيه بإكرام ابنه، هذا بشكل مبسط.

لذلك فالمؤمن إذا أسدى للعباد خدمات، أو إذا رحم العباد أو أكرمهم، طمأنهم، أطعمهم، أسقاهم، كساهم، رحمهم، حينما تُسدي معروفاً إلى مخلوق كائناً من كان، لقِطة، لجروٍ صغير، فقد ترى حيواناً قد مرض وتأخذه إلى مشفى بيطري أو إلى طبيب بيطري فإذا أردت الحقيقة فهذا هو عين الشُّكر، لأنك تُعبّر عن شُكرِكَ لله عز وجل وعن امتنانك له بخدمة مخلوقاته، وإذا أردت أن تعرف سرَّ العمل الصالح في الدنيا، ولماذا يعمل المؤمن الأعمال الصالحة، ليس لها تفسير إلا أنها تعبير عن شكر العبد لله عز وجل من خلال خدمة عباده، إذا نصحت زبائنك نصيحةً صادقة، فهذا شكر منك لله، إذا رحمت الناس، إذا عطفت عليهم، إذا أنصفتهم، إذا خففت من مآسيهم، إذا مسحت جراحهم، إذا أمّنتهم من خوفهم، إذا قدمت لهم المعونة، إذا فعلت أي عمل صالح هو في الحقيقة تعبير عن امتنانك لله عز وجل من خلال عباده، ومألوف عند الناس على نحوٍ واضح جداً أن تكرمَ الأب من خلال إكرام الابن، إذا رأيت رجلاً تحبُّه يصحبه ابنه فيمكنك -حدّاً أدنى- أن ترحب بالابن، كيف أنت يا عم؟ ما اسمك؟ بأي صف؟ وإذا كانت معك قطعة حلوى أعطيته إياها، إذا وجدت لديك قلماً ثميناً، وهذا الإنسان له فضل عليك أعطيته القلم، وهذا طبيعي جداً، وهو شكر عملي حقاً.

تريد شيئاً يريح قلبك، تريد لهذا الإنسان الذي أكرمك، أن تعبّر عن امتنانك له، فتلقى أمامك ابنه وتكرمه، الله عز وجل غنيٌّ عن العالمين، يُطعِم ولا يُطعَم، مستحيل أن تقدم هدية إلى الله لكن ليس أمامك إلا عباده، كلُّهم عباده، حتى الكفار، حتى الذين أنكروا وجوده هم عباده، إذا أحسنت إليهم فهذا عمل خيرٍ عند الله محفوظٌ، فإن كنت طبيباً وجاءك مريض، والمريض تعرفه غير مؤمن بالله ولا دين له، فهذا عبد الله أمامك يجب أن تقدِّم له كلَّ شيء، كل ما في إمكانك لأنَّه عبد لله.

مَثَل آخر في مجال الحيوان، فإذا وجدت حيواناً يحتاج إلى أن يأكل، فتطعمه، نعرف أُناساً يطعمون الطيور ويشعر أحدهم بلذّة عارمة وبسعادة، فيشتري كميَّةً من الحبوب، التي تصلح للطيور يضعها على السطح فترى مئات الطيور تسقط على السطح وتأكل يقول: كأني أتغذى، شعور نبيل سام، هؤلاء مخلوقات لله عز وجل، لذلك فالمؤمن وهو يقود مركبته يحرص حرصاً كبيراً على ألا يؤذي بها مخلوقاً، فمثلاً لو قتل غنمة لقطع أصحابها عنقه، ويقطعون عليه الطريق، ثمنها ثمانية آلاف، يغرمونه الثمن. لكن إذا قتل كلباً لا أحد يُحاسبه، ترى في الطرقات منها عشرات مقتولة، أما المؤمن فهو يعلم أن هذا الكلب حتى لو لم يكن ملكاً لأحد، ولو لم يكن هناك من يحاسبه عليه، سوف يحاسبه الله عليه، لذلك فالمؤمن يحرص حرصاً بالغاً ألا يدهس حيواناً، وإذا وقع منه من غير قصد يبادر إلى أداء صدقة فلعلَّ الله سبحانه وتعالى يعفو عنه.

هذا هو الشُّكر، فالشُّكر بالأفعال أن تعمل عملاً صالحاً مع كل مخلوق، وأنا أؤكد أنك إن خدمت المسلمين فقط أو إن خدمت المؤمنين فقط فهذا أرقى وأجدى عند الله تعالى، أما أن تخدم إخوانك ممن تلتقي بهم في المسجد، فهذه نظرة ضيقة جداً ولا تُرضي الله كثيراً، بل يجب أن تخدم الخلق عامة.

عن أبي موسى رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

«لن تؤمنوا حتى تراحموا» قالوا: يا رسول الله! كلُّنا رحيم قال: «إنه ليس برحمة أحدكم صاحبَه ولكنَّها رحمة العامة» [رواه الطبراني].

حدثني أخ قال: رجل مُنعَم يركب سيارته الفخمة يمشي في طريق بين مدينة وأخرى، رأى شاباً راكبا درَّاجة أصابها خلل، والرجل له مكانته التجارية والاجتماعية، وقف وأصلح له الدّرّاجة، فكان هذا العمل سبب هداية الشاب وإيمانه، وأصبح من أخلص إخوانه.

إذاً، هذا هو الشُّكر؛ الإسلام نظرته أمميّة، وليست نظرته ضيّقة، هذا مسلم وذاك غير مسلم، هذا مؤمن وذاك غير مؤمن، هذا من إخواننا وهو من جماعتنا، هذه كلها عنجهيَّة جاهلية، إذا كنت فعلاً تعرف الله فهؤلاء جميعاً عبيده.

والله الذي لا إله إلا هو ما من مخلوق ترحمه إلا شكر الله لك، بغيّ، والبغيّ معروفة، رأت كلباً يأكل الثرى من العطش فسقته فشكر الله لها وغفر لها [انظر صحيح البخاري (٣٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٥)]، والحديث الشريف:

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قالَ:

«بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فاشْتَدَّ عَلَيْهِ العَطَشُ فَنَزَلَ بِئْراً فَشَرِبَ مِنْهَا ثُمَّ خَرَجَ فإذا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ، فقالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذا مِثْلُ الذِي بَلَغَ بِي، فَمَلأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ ثُمَّ رَقِيَ فَسَقَى الكَلْبَ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ» قالوا: يا رسولَ الله، وإنَّ لَنا في البَهائِمِ أجْراً قالَ: «في كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ» [صحيح البخاري].

ذات مرة رأيت في مزرعة سمكاً، صاد بعض من في المزرعة من هذا السمك وأرادوا فوراً أن ينظفوها، بحجة أنها تستغرق وقتاً طويلاً لتسكن، قلت: فما المانع أن تنتظر ولا تعذب مخلوقاً؟ انتظر حتى تسكن الأسماك، هو يريد أن يفتح البطن وهي حيّة، فهذا تعذيب لبعض خلق الله، أشاهد أحياناً بائع دجاج يذبح الدجاجة ويلقيها فوراً في ماء يغلي، قبل أن تموت، إنّ هذا خطأ يحاسب الله عليه، فاحذر، قال تعالى:
﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الحج: ٣٦].

لماذا الدين ضروري؟ هذا مخلوق، قدّم جسمه لك، فوق هذا المعروف تلقيه حياً في الماء المغليّ، ففي الحديث الشريف:

عَنْ شَدَّادِ بنِ أوْسٍ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إنَّ اللهَ كَتَبَ الإحْسانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فإذا قَتَلْتُمْ فأحْسِنُوا القِتْلَةَ، وإذا ذَبَحْتُمْ فأحْسِنُوا الذِّبْحَةَ، وَلْيُحِدَّ أحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ» [صحيح مسلم].

هذا هو الشُّكر.

إذا عرفت الله عز وجل ورأيت فضله عليك، فقد عرفت كيف تتعامل مع مخلوقاته أياً كانت، اقرأ هذه الآية مثلاً: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء:١١٣].

أوجدك من عدم، عمرك الآن ثلاثون سنة، افتح كتاباً قد طبع سنة ألف وتسع مئة وثمانيةٍ وخمسين، فأثناء صفِّ الحروف أين كنت أنت؟ أكان لك وجود؟ أكان لك ذكر؟ أكان لك حجم؟ أكان لك جُرم؟ أكان لك أهمية؟ لم تكن موجوداً أصلاً، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان:١].

فأنعَمَ الله عليك بنعمة الوجود، وأعطاك صورة، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [غافر:٦٤].

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد:٨-١٠].

إن العبد إذا أطاع ربه، ثم إنّ الرّبّ جل جلاله كافأه على طاعته، كان ذلك شكراً للعبد، فكيف بالجزاء الأوفى الذي سيجزي الله به عباده؟! فهذا يعني أن الله شكور.

والشكر المُفسَّر بالثناء، يعني إذا عملت عملاً طيّباً فلك الجنة، أنفقت من مالك فلك جنة عرضها السموات والأرض، أنفقت من وقتك أنفقت من خبرتك من علمك، عاونت، أخلصت، أتقنت عملك، ونصحت للمسلمين، يعني قدمت الحد

الأدنى، كأن تكون لك مهنة تتقنها ثم تعمل العمل بإتقانٍ وتأخذ أجراً معتدلاً، فالحد الأدنى أن تنفع المسلمين بطريقة ما.

فالحد الأدنى أن تتقن عملك، وأن تتقاضى ثمناً معتدلاً، والحد الأعلى حدِّث ولا حرج، تطعم الطعام، تعين الضعيف، فليس كل مصلٍّ يصلي، إنما يتقبل الله الصلاة ممن تواضع لعظمته، وكف شهواته عن محارمه، ولم يصرَّ على معصيته، وأطعم الجائع وكسا العريان ورحم المصاب وآوى الغريب كل ذلك له.

هذا الاسم العظيم ورد في السنة بالمعنى، ففي صحيح البخاري ومسلم يقول الله عز وجل:

«أَنا عند ظَنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، وإن ذكرني في مَلأٍ ذكرتُه في مَلأٍ خيرٍ منه، وإن تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرا تَقَرَّبْتُ إِليه ذِراعا، وإن تقرَّب إِلَيَّ ذِرَاعا اقْتَرَبتُ إِليه باعا، وإِن أَتاني يمشي أَتيتُه هَرْوَلَة» [البخاري و مسلم عن أبي هريرة]

لمجرد أن تتحرك نحو الله، أن تتقرب إليه، وأن تخطب وده، أن تغضَّ بصرك، أن يصدق لسانك، أن تُحسن إلى فقير، أن ترعى يتيماً، أن تنقذ حيواناً صغيراً من الهلاك، لمجرد أن تتقرب إلى الله بعمل، والله عز وجل يردُّ عليك بالإحسان، بالقبول، كيفما تحرَّكت، أيَّة حركة نحو الله، ترى الرد سريعاً وإيجابياً، وأضعافاً مضاعفة، وما من أخ كريم، إلا وله مع الله تجربة، إن أنفق من ماله يضاعف الله له أمواله، إن أعان ضعيفاً أعانه الله على من هو أقوى منه، إن أطعم مسكيناً غمره الله من فضله.

حدثني أخ والقصة قديمة منذ ثلاثة عقود تقريباً في أثناء أحداث لبنان قال: جئت من «الهامة» فرأيت رجلاً واقفاً في ضاحية «دُمر» أيام البرد الشديد حاملاً طفلاً صغيراً يلفه بسترته، وبجانبه امرأة، وكانت الساعة الثانية عشر ليلاً، فقلت: أوصلهم لدارهم، وإذا بالطفل حرارته مرتفعة جداً، وهذان أبواه أتيا من لبنان أثناء أحداث لبنان، سكنا في بيت في (دمر) ولا يعرفان أحداً في الشام، قال: أركبتهم بالسيارة وأخذتهم إلى طبيب مناوب عالج الصغير واشترينا الدواء من صيدلية مناوبة، ذهبنا إلى

مشفى لأعطي الطفل إبرة، وانتهينا الساعة الرابعة صباحاً، بقيت أسبوعين أو ثلاثة مغموراً بسعادة لا تُوصف.

قصة ثانية: لي صديق من لبنان، سكن في دمشق، وضعه المادي جيد جداً، ارتكب حادثاً مرورياً مع سيارة سورية، صاحب المركبة يُفترض أن يغضب، وأن يثور، وأن يتكلم الكلام القاسي، وأن يشتم، نظر إلى المركبة اللبنانية، وقال له: لا مشكلة، سامحك الله، رغم أنه يحتاج مبلغاً لإصلاح السيارة، هذا الأخ اللبناني انهمرت دمعة على خده، ما فهمت تفسيرها، إنسان ميسور مالياً فرح أنّه وفّر خمسة آلاف! سألته لماذا تأثرت لهذا الموقف؟ قال لي: أنا قبل سنتين في بيروت صدم سيارتي إنسان مركبته سورية، ومعه نساء محجبات، ما أردت أن أزعجه وهو في نزهة، قلت له: سامحك الله!

يقول بعضهم: والله نحنُ نريد السعادة، السعادة بين يديك، إذا أردت أن تَسعَد فأسعد الآخرين، كل واحد منا يذوق لذّة الأخذ، هو يقبض المال فيفرح ويمرح، ولكن قليل من ذاق لذة العطاء، العطاء له لذة أكبر، العطاء تمسح به جراح أسرة، فمثلاً شخص لهفان تحلُّ له مشكلته، بلا مأوى أمّنت له بيتاً، بلا زوجة ساعدته على الزواج، أو رجل مريض دللتَهُ على طبيب مُخلص لا يَغشُّهُ، لا يبتزّ أمواله، له قضية بالقضاء دللتَهُ على محامٍ صادق.

لا تعرف طعم السعادة حقاً إلا إذا خدمت الناس.

مرةً سمعت متهجداً، يقول: يا رب لا يحلو الليل إلا بمناجاتك، ولا يحلو النهار إلا بخدمة عبادك.

على المسلم أن يزور مريضاً أو أن يقدم معونةً: «ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجةٍ أحب إليّ من أن أعتكف في المسجد شهراً» [رواه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج بسند حسن عن ابن عمر]. الشُّكر الثاني: أيها الإخوة أن تُثني على الله: يا رب أنت اللطيف، أنت الرحيم، أنت القوي، أنت الغني، أنت الرؤوف، يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، يا غفّار الذنوب، يا ستّار العيوب، أنت الذي تعطي ولا تسأل، تحلُم ولا تعجل.

لسانك ينطلق: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله، يعني إذا أثنيت على الله، هذا شُكر أيضاً.

يا ربِّ لقد خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شرّ ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعفُ عني، اللهم إني أسألك موجبات رحمتك.

أن ينطلق لسانك بذكر الله، بالثناء عليه، يا رحمن الدنيا والآخرة، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له السموات والأرض، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أعوذ بك من أن تنزل بي سخطك أو أن تحل عليّ غضبك، لك العتبى حتى ترضى، لكنَّ عافيتك هي أوسع لي.

إذا رأيت مؤمناً من غير روّاد مسجدك، ورأيته مستقيماً محباً لله إن لم تحبه فلست مؤمناً، لِمَ تُعمّق انتماءك فقط لجماعتك؟ إذن أنت طائفي، أنت عُنصري محدود الأفق، بل عليك أن تنطلق إلى الناس جميعاً... فالدعوة عامة...

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ عَمْرٍو السُّلَمِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ العِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ قَالَ: وَعَظَنا رَسُولُ الله ﷺ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا القُلُوبُ، قُلْنا: يا رسولَ الله إنَّ هذِهِ لَمَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذا تَعْهَدُ إلينا قال: «قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى البَيْضَاءِ، لَيْلُها كَنَهارِها، لا يَزِيغُ عنْها بَعْدِي إلا هَالِكٌ...» [أخرجه أحمد في«مسنده»].

الإسلام للناس جميعاً، يجب أن تعمل تحت ضوء الشمس، لا معميات في الإسلام، كل شيء واضح، خالق الكون هذا كتابه وهذا منهجه، وهذه سُنّة نبيه ﷺ، فأنا أُلِح ألا يقتصر العمل الطيّب على من يلوذ بك أو ممن تعرف من العباد، لا.. بل خيرك للنّاس كافّة، ولا تدري في أيّة لحظة يُشرق في نفس هذا الإنسان الذي أسديت إليه الجميل؛ فهذا هو الإيمان، لعلَّ الله عز وجل يهدي بك وأنت لا تدري.

كان لأبي حنيفة النعمان جارٌ مغنٍّ، تارك صلاة، شارب خمر، لا ينيمه الليل وهو يغني:

أضاعوني وأيَّ فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

ذات ليلة لم يسمع أبو حنيفة غناءه في البيت المجاور، يعني أن المغني لديه عارض عرض له، تفقّده فوجده في السجن لقضية ما، فذهب إلى مدير السجن وشفع له، مدير السجن لم يُصدّق، وجد الإمام الأعظم عنده في المكتب، فأطلق إكراماً له كلّ من أُلقي القبض عليهم في تلك الليلة، وهو في طريقه قال له: يا فتى هل أضعناك... هل نسيناك؟! فكان هذا المعروف سبباً لتوبته.

اجتهادك وبطولتك ليس في إسداء خدمةٍ إلى مؤمن فحسب، المؤمن سويٌّ مثلك، تجلس إلى مؤمن فتقول: لقد أقنعته، وهو مقتنع أصلاً قبل أن تؤثّر فيه، إذا كنت بطلاً فأقنع إنساناً تارك صلاة، تُقنع إنساناً عنده شكوك بالله عز وجل، هنا البطولة، أن تُدخل إلى المجتمع المؤمن عنصراً جديداً، تجلس إلى عدو للدين عنده شبهات، ولا يعبأ بالعلماء، ولا يعبأ بالدين تقنعه، تحلم عليه، وتعطيه الأدلة القطعية، ويرى منك خُلُقاً حسناً، لمدة شهر أو شهرين أو ثلاثة فيشرح الله صدره، ومن بعد يصلي ثم يتوب، ويأتي إلى المسجد، ويعتاد المساجد وحلقات العلم، فهذه البطولة حقاً وليست البطولة أن تُفسد الناس على شيوخها، ولا الشيوخ على تلاميذها لا، فأنت مهمتك أن تُحدث عنصراً جديداً في المؤمنين، البطولة على قدر المشقة وبحجم العمل الإيجابي النافع.

مرة ذكرت كلمة قالها رجل يدعو إلى الله عز وجل، قال لتلميذه: يا بني، السليم لا يحتاجُ إليك، يحتاج إليك السقيم السيئ، فالفهيم والذكي والمتفوق والورع والتقي والنقي، إذا حدثته عن الله فأبكيته فماذا فعلت؟ عنده مشاعر ولديه عواطف صادقة فلما ذكّرته تأثّر، أما إذا كنت تستطيع أن تجلس مع البعيدين والمنكرين والمتشككين تمنحهم من علمك وأدلتك وحجتك، وتزيل عنهم كل الشبهات وتأخذ بيدهم درجة درجة، مرحلة مرحلة تأخذ بيدهم، تعينهم، تكرمهم، حتى يحبوك، وترقى بالعليل والسقيم إلى السعادة فهذا العمل طيّب مشكور.

وبعد، فإن الشُّكر يكون بالثناء، فالربّ سبحانه وتعالى إذا اثنى على عبده فقد شكره، أن تثني على الله في مجالسك والناس يحبونك لأحاديثك هذه ويمدحونك في

غيبتك، هذا شُكر الله لك، إذا أحسنت للعباد أحسن الله إليك: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠ ﴾ [الرحمن:٦٠].

والإمام الغزالي له كلمة، قال: «إذا كان الذي أخذ فأثنى شكوراً فالذي أعطى وأثنى أولى أن يكون شكوراً».

فالذي قبض المال قال: شكراً، والذي أعطاك، وبعد أن أعطاك وسمع ثناءك أثنى عليك، أيهما أحق أن يكون شكوراً أكثر، فالله سبحانه وتعالى الذي أعطى هو الشَّكُور، فالذي أخذ فأثنى على الله يُعدُّ شكوراً، أما الذي أعطى وأثنى مرتين هذا هو الشَّكُور الحق، مرةً أكرمه بعطاءٍ مادي، ومرةً أثنى عليه عند الخلق.

روى الشيخان وأحمد حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال يقول الله عز وجل: «إن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم».

أنت تكلّمت بين خمسة طلاب أو ستة، والله عز وجل جعل ذكرك بين ثلاث مئة رجل، فلما ذكرت قام أحدهم وتكلّمَ عليك كلاماً تعطّرَ المجلس بذكرك، الله شكور، أنت أثنيت على الله أمام خمسة أشخاص من عامة الناس، والله عز وجل أثنى عليك أمام عِلْيَةِ القوم، «لا يذكرني عبد في نفسه إلا ذكرته في ملأ من ملائكتي، ولا يذكرني في ملأ إلا ذكرته في الرفيق الأعلى» [الطبراني بسند حسن من حديث معاذ بن أنس].

هذا هو الشَّكُور، إن عملت يعاملك بالإحسان فهو شكور، وإن تحدثت عن الله عز وجل يعاملك بالعرفان فهو شكور.

الشكر يتوجه لمن؟ إما إلى الخالق وإما إلى المخلوق، ومن ثم فشكر الخالق مستحيل، أي: أنك يستحيل عليك أن توفيه حقَّه بشكرك له، لماذا؟ قالوا: لأن شُكر النعمة مشروط بمعرفة هذه النعمة، وما دامت معرفة النعمة مستحيلة فالشُّكر مستحيل، والدليل: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٨ ﴾ [النحل:١٨].

انظر إلى نعم الله عليك، فإذا أردت أن تجري إحصاء: فالطحال والكلية والكظر ومركز التوازن، ومركز توازن السوائل، مراكز عديدة في جسمك، وبإيجاز: إنك إن تعدَّ نعمة الله عليك لا تحصها.

ما دام يستحيل عليك أن تعرف نعمة الله كما هي؛ إذاً يستحيل أن تشكر الله حقَّ الشُّكر، لهذا قال النبي ﷺ: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»(١).

الثانية: الشُّكر نعمة من الله، فأنت تشكُر على نعمة والشُّكر نفسه نعمة، فأنت في نِعم، يا رب كيف أشكرك وشُكرك لا يتم إلا بنعمة منك جديدة، إذاً أنت مفتقر إلى أن تكون شاكراً لله عز وجل.

هناك نقطة مهمّة: رؤية النعمة نعمة، الله عز وجل يعطيك مع استغنائه عنك، لكنك تشكُرُهُ مع افتقارك إليه، وشتان بين هذا وذاك، وهناك أدلة كثيرة على أنه يستحيل أن تشكُر الله كما ينبغي، لكن أخذُ القليل خير من ترك الكثير، وما دام مستحيلاً أن تشكُر الله كما ينبغي فلذلك قل: يا رب! لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، يا رب! ليس في قدرتي أن أشكرك كما ينبغي لكن أشكرك بقدر ما أعلم وبقدر ما أستطيع.

آخر ما ينبغي شدُّ أفكار القارئ إليه في الموضوع يتلخّص بالسؤال التالي والإجابة عنه: أسدى مخلوق إليك نعمة فلمن الشُّكر؟ الجواب: لله فقط، فهذا المخلوق الذي أكرمك مِن خلقه، أعطاه الله عز وجل قوةً وحياةً، والله عز وجل هو الذي سمح له أن يخدمك، كما ألهمه أن يخدمك، بماذا خدمك؟ أعطاك مثلاً طعاماً، مَن خلق الطعام؟ الله عز وجل، أعطاك مالاً، وهذا المال قيمته بقيمة مشترياته، مَن خلق النِّعم؟ الله عز وجل، أعطاك طعاماً كيف تأكل الطعام؟ تحتاج إلى أجهزة؟ إذاً الذي خلق والمُنعِم هو الله، والذي أَلهَمَهُ هو الله، والذي مَكَّنَهُ هو الله، والذي خَلَقَ النِّعمة التي هي

---

(١) قطعة من حديث رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان وهو يقول: اللهم! إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصي.. الحديث

موضوع عطائك هو الله، والذي مكّنَكَ من أن تستفيد من هذه النعمة هو الله، إذاً الشُّكر لله عز وجل، ولكن هذا المخلوق ما دام مُخيّراً، إذاً يستحق أن تشكُرَهُ بعد الله عز وجل، وكيفية الشكر لا أن تقول: لله وفلان، بل قُلْ: لله ثم لفلان.

هذه (ثم) ضرورية جداً، الحمد لله على هذه النعمة التي أنعم الله بها عليّ ثم الشكر لفلان الذي جاءتني عن طريقه، لهذا قال ﷺ: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ» [الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري].

لو افترضنا أنه جاءك معروف من جماد، رجل ماشٍ في طريق مرَّ بشرفة من إسمنت ومشى تحتها فوقع حجر من آخر البناء عليه، هذه الشرفة تَلَقَّت الحجر، لولا هذه الشرفة لهلك، فهل يشكر الشّرفة، هذه شرفة جامدة لا تعقل، إذا جاءك خير من جماد أو من حيوان أو من مخلوق غير مكلَّف فالشُّكر لله فقط، أمّا إذا جاءك خير من مخلوق مكلّف مخيّر، قلت: إنَّ الله سخَّرَهُ لي، فهذا منتهى الوقاحة ومنتهى الجحود، إذا جاءك الخير من إنسان مكلّف يجب أن تشكُرَ الله لأنه خَلَقَهُ، وألهَمَهُ، وسَمَحَ لَهُ، ومَكَّنَه، وخَلَقَ الله النِّعمة التي بين يديه، وجعلك تنتفع بها، كلُّه لله، لكن ما دام مخيّراً، وقدّمَ لك هذه النِّعمة باختياره، إذاً نزجي له الشُّكر ثانياً بعد الله عز وجل.

وبعد، وقفة أخيرة في الموضوع وهي لطيفة؛ موازنة بين نعمة أسداها الله إليك ونعمة أسداها زيد إليك، قالوا: أولاً: إن إنعام الأمير مكدّر من وجوه، أحدها: أنَّك ربما احتجت إلى شيء ولا يعطيك إيّاه لأنَّه محتاج إليه، مرّة كنت في الحج احتجتُ إلى ماء، فسألت حاجّاً قال: والله يلزمني الماء، فمعه حق لأنَّ الماء يلزمه، فأنت قد تطلب من إنسان شيئاً هو بحاجة إليه، وإن كنت في المطار مثلاً وأردت أن تكتب بطاقة وليس معك قلم، فتقول لواحد: إذا سمحت أريد قلمك، يقول لك: أحتاجُ إليه والله، فأنت إذا طلبت من إنسان حاجة قد يكون هو محتاجاً إليها فلا يعطيك إياها، أما إذا سألت الله عز وجل، فإنه يلبّيك ولا يمنعك، وهذا أول فرق.

الأهم من ذلك أنه يمكن لفلان أن يعطيك، ولكنَّ فلاناً ليسَ حاضراً الآن، فأنت مسافر وهو في الشام وعطاؤه مستحيل لبُعد المسافة بينكما، أمَّا الله فهو معك دائماً، هذه

النقطة الثانية. النقطة الأولى قد يكون الشخص قادراً على العطاء، لكن هذا الشخص يحتاج إليه قبلك، النقطة الثانية: أنك قد لا تستطيع أن تصل إلى هذا المنعم لسبب ما.

النقطة الثالثة؛ أنك إذا قصّرتَ مع إنسان فإنه يقطع عنك فوراً، لكن كما قال نبينا ﷺ: «ليس أحد أصبر على أذىً سمعه من الله تعالى، إنهم ليدعون له ولداً ويجعلون له أنداداً، وهو مع ذلك يرزقهم» [متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري].

والأمير إذا أعطى يقول لك: اللحم الذي على أكتافك من خيري! صاحب معمل عنده أجير، يمنُّ عليه، وإذا أعارَهُ بزة، فإنه يمنُّ عليه بها أمام الناس، ويفضَحُهُ أمام الناس، كأن يقول له: حافظ عليها ولا تفسدها.

فأول نقطة أن الأمير قد لا يعطي لأنه بحاجة لهذا الشيء، وقد لا تستطيع أن تصل إليه، وإذا قصّرتَ في خدمته حَرَمَكَ هذا العطاء، وقد يمنُّ عليك.

الشَّكُور الذي إذا نَوَّل أجزل، وإذا أطيع بالقليل قبل، وهو الذي يقبل القليل ويعطي الجزيل، وهو الذي يقبل اليسير من الطاعات ويعطي الكثير من الدرجات.

ومن شكر الله سبحانه وتعالى، أنه يجازي أعداءه بما يفعلونه من خير، أعداؤه الذين كفروا به، بل الذين أنكروا وجوده، بل الذين تفلتوا من منهجه، بل الذين انغمسوا في ملذات محرَّمة، يجازيهم إذا فعلوا الخير، فلا يضيّع عليهم ما يعملونه من إحسان، وهم من أبغض الخلق إليه، لن تفعل شيئاً ويضيع عليك أجره.

أما الحديث الذي يؤكّد هذا المعنى، فما رواه عمرو بن العاص رضي الله عنه:

«تَقُومُ السَّاعَةُ والرُّومُ أَكْثرُ النَّاسِ، فقال له عمرو بن العاص: أَبْصِرْ ما تقول: قال: أقول ما سمعتُ من رسولِ الله ﷺ، قال: لئن قلتَ ذلك إنَّ فيهم لَخِصالاً أربعاً، إنَّهُم لأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَة وأَسْرَعُهُم إفَاقَة عند مُصِيبة، وأَوْشَكُهُم كَرَّة بعد فَرَّة، وخَيْرُهُم لِمِسْكِين ويَتِيم وضَعِيف وخَامِسَة حسنة جَميلة: وأَمْنَعُهُم منْ ظُلْمِ المُلُوك» [أخرجه مسلم].

يفكرون، يخطّطون بهدوء، بينما تثور شعوب أخرى، وتهوج، وتموج، ثم تخمد.

هذا الرّسام الذي رسم، المفروض أن نتلقى هذا بهدوء، وأن نخطط لتعريف الغرب برسول الله، يصورون الشعوب حينما تهوج وتموج، ويسخرون، أما الذكاء والعقل أن نخطط، أن نُعرف الناس بهذا النبي الكريم، أن نطبق سنته، حتى يأخذ الناس فكرة عن هذا الدين العظيم، من هم الذين أساؤوا للنبي ﷺ؟ أنا أرى أن المسلمين هم أول من يسيء إليه، إذ لم يطبقوا سنته، أكلوا المال الحرام، اعتدوا على بعضهم بعضاً، سفكوا دماء بعضهم بعضاً، فالعالم الآخر يراهم متخلفين، يظن أن هذا دينهم، نحن أسأنا إلى نبينا ابتداء، فكان ردّ فعل الغرب أن أساؤوا إليه.

هؤلاء الغارقون في المعاصي والآثام، الذين يعتدون على شعوب الأرض، يعاملون شعوبهم معاملة تفوق حدّ الخيال، مع أنهم أعداؤهم، مع أنه يبغضهم لكنّه يشكرهم على هذه الأفعال.

أيُّ إنسان، مؤمن، أو غير مؤمن، مستقيم، أو غير مستقيم، إذا قدّم عملاً صالحاً لمن حوله، فالله عز وجل يشكره عليه، لا يمكن أن يضيِّع عليك عملاً طيباً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق، و لو أن تبتسم في وجه أخيك.

ما أحسن عبد من مسلم أو كافر إلا وقع أجره على الله في الدنيا أو في الآخرة.

نصيب المؤمن من اسم الله الشكور

يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾ [إبراهيم:٥].

يجب أن تكون أيها المؤمن صبّاراً شكوراً، أي ينبغي أن تشتقّ من كمال الله كمالاً تتقرّب به إليه، ينبغي أن تكون صبّاراً شديد الصبر عند المصيبة، شديد الشّكر عند العطاء، فأنت بين حالين، حالٍ تتمنى ألا يكون فكن صبوراً، وحالٍ تتمنى أن يدوم فكن شكوراً.

والإيمان نصف صبر، ونصف شكر، وقال ﷺ: «عَجَبا لأمر المؤمن! إنَّ أمْرَه كُلَّه له خير، إن أصابتْهُ سَرَّاءُ شكر، فكان خيراً له، وإن أصابتْهُ ضرَّاءُ صَبَر، فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن» [أخرجه مسلم عن صهيب الرومي].

أروع ما في هذا الإيمان العظيم أنّك في كلِّ الأحوال مع الله؛ إن كانت الأمور على خلاف ما تشتهي فأنت صبور، وإن كانت وفق ما تشتهي فأنت شكور.

«يا عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخِرَكم، وإنسَكم وجِنَّكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيتُ كُلَّ إنسان مسألتَهُ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما يَنْقُص المِخْيَطُ إذا أُدخِلَ البحرَ -ذلك لأن عطائي كلام، واخذي كلام- فمن وَجَدَ خيراً فليَحْمَدِ الله ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ» [أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري].

ويقول تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الإسراء:١٩].

المؤمن شكور، أي شيء قُدم له، أي خدمة، أي هدية يشكر عليها إما بلسانه، أو بقلمه، أو برسالة، أو بابتسامة، أو بعمل طيب، أو بهدية، من صفات المؤمن أنَّ النعمة تعظم عنده مهما دقّت، إنسان قدّم لك شيئاً، لابدّ من أن تشكر، لابدّ من أن تعبر عن شكرك له، بأي طريقة، أمّا شكر العبد على الحقيقة فهو إقرار القلب بإنعام الرب، ونطق اللسان عن اعتقاد الجنان، وعمل بالجوارح والأركان.

وللشّكر مستويات وأولها أن تعزو النّعمة إلى الله، والمستوى الثاني أن يمتلئ القلب محبة لله.

أمّا المستوى الثالث وهو أرقى المستويات فأن تقابل نعم الله عز وجل بخدمة عباده، أن تنصح لهم، أن تحسن إليهم، أن تخلص لهم، أن ترعى فقيرهم، أن تعين ضعيفهم، أن تطعم جائعهم، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ:١٣].

الشكر بأعلى درجاته عمل صالح، إنسان قدم لك خدمة كبيرة، تقول له: شكراً، لا يكفي هذا.

«من صنع إليكم معروفاً فكافئوه» [النسائي و أحمد عن عبد الله بن عمر].

كافئ المعروف بمعروف، الهدية بهدية.

في الحديث: «تهادوا تحابوا» [مالك في الموطأ عن مالك بن عطاء الخراساني].

حقيقة الشُّكر الغيبة عن شهود النعمة بشهود المنعم.

الدول البعيدة العلمانية ماذا ترى بعينيها؟ النعمة فقط، وكل شيء عندها ثمين وله ثمن لكن المؤمن ماذا يرى؟ المُنعم، وملخّص الدرس كله، أنك إذا استطعت أن تتجاوز النعمة إلى المُنعم فأنت شكور.

يسمع أحدنا النشرة الجوية أن هناك منخفضاً، وأمطاراً، وثلاثون ميلمتر من الأمطار نزل، فهو في النشرة مع النعمة وفي النعمة، أما المؤمن فيقول: يا رب لك الحمد، فهو مع المنعم.

المجيب

سمّى الله جلّ جلاله ذاته العلية باسم المجيب على سبيل الإطلاق، وورد هذا الاسم معرفاً في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الصافات:٧٥].

وقد ورد أيضاً منوّناً، في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود:٦١].

ولم يرد هذا الاسم في السُّنّة.

من معاني اسم الله المجيب

المجيب اسم فاعل، وفعله أجاب، يجيب، فهو مجيب، فهو اسم فاعل من الفعل الرباعي على صيغة المضارع، بعد إبدال حرف المضارعة ميماً مضمومة، وكسر ما قبل الآخر.

والإجابة: صدى الكلام، أو ترديده، أو المحاورة في الكلام، هناك حوار، وهناك جدال، والفرق بينهما واضح، الحوار شيء جيد جداً، أما الجدال فشيء مذموم، والإجابة: ردُّ السؤال.

وعند البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت في حديث الإفك:

«فوجدتُ عِقْدِي بعد ما اسْتَمَرَّ الجيشُ، فجئتُ منزلَهم وليس فيه أحد - ومنهم من قال: فجئتُ منازلهم وليس بها منهم دَاعٍ ولا مجيبٌ» [أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن عائشة].

وفي اللغة: الإجابة والاستجابة بمعنى واحد، قال تعالى: ﴿ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحقاف:٣١].

فالاستجابة والإجابة بمعنىً واحد، إلا أن الإجابة فِعلها رباعي، والاستجابة فِعلها سداسي؛ أجاب، أو استجاب. والمجيب اسمٌ من أسماء الله الحسنى له معنيان:

المعنى الأول: الإجابة.

المعنى الثاني: أن يُعطي الله السائل مطلوبه.

فإذا سألت إنساناً يجيبك. وإن سألته حاجةً، يعطيك. فإما أن تكون الإجابة بيانيَّةً، وإما أن تكون الإجابة عطاءً؛ إجابة بيانيةٌ، وإجابةُ عطاء، معنيان من معاني الاستجابة التي وردت اسماً من أسماء الله الحسنى.

والمجيب في حق الله تعالى: هو الذي يقابِل مسألة السائلين بالإسعاف، فأنت في العلاقات الاجتماعية. لو سألت إنساناً يسمع ويرى ويتمتَّع بأخلاقٍ عالية لو سألته شيئاً لا بد أن ترى استجابةً؛ أو اعتذاراً أو ترحيباً أو وعداً أو بياناً: فالاستجابة صفة من صفات الإنسان، لكنّها اسم من أسماء الله الحسنى، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة:١٨٦].

لا أُبالِغ إن قلت: إن أكثر ما يحتاج إليه الإنسان في الدين هو الدعاء، حينما يدعو ربه، يعلم أنه سميعٌ، وحينما يدعو ربه يعلم أنه بصير، وحينما يدعو ربه يعلم أنه قدير، وحينما يدعو ربه يعلم أنه رحيم، وحينما يدعو ربه يعلم أنه عفوّ، فبالدعاء يتوجّه الداعي إلى معانٍ كثيرة، فأنت حينما تسأل، تسأل غنياً، وحينما تسأل، تسأل قوياً. وحينما

تسأل، تسأل رحيماً، وتسأل مُحِباً. فلو أنّ هناك شخصاً لا يحبك فإنك لا تسأله، لو أنّه ضعيف لا تسأله، ولو أنّه فقير لا تسأله، لو أنّه عدو لا تسأله، ولو أنّه حاقد لا تسأله؛ إذاً من تسأل؟ تسأل من يسمع، تسأل من يحبّك، تسأل من يقدر على إجابة طلبك، تسأل من يستجيب لك، تسأل من يُبصر حالك. من يعلم ومن يسمع، وبمجرد دعائك لله يعني أنك تعرفه. والإنسان له إحساس عام. فأحياناً يمشي في طريق يسأل عن شخص، فتجده يسأل البقال إذْ يقول: هذا الذي يسكن هنا لا بد من أن يتردَّدَ على هذا البقال. فأنت لا تسأل إنساناً عابراً في الطريق، وإنما تسأل بقالاً. فراقِب نفسك حينما تسأل؛ تجد أنك تسأل مَن يعلم، ومن يبصر ومن يسمع، والذي يقتَدِر، والغني، والرحيم، المحب، العفوّ.

فلذلك: المجيب اسم من أسماء الله الحسنى. وزوال الكون أهون على الله من أن تدْعُوَه فلا يستجيب لك، واستجابته لك، إما أن يُطمئنك، وإما أن يعطيك، وإما أن يُلْقي في رُوْعِك أن هذه الحاجة لا تناسِبك، قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إذا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفراً خَائِبَتَيْنِ» [رواه الترمذي من حديث سلمان الفارسي].

والمجيب في حق الله تعالى: هو الذي يقابِل مسألة السائلين بالإسعاف. مثل أضربه لكم كثيراً وأردّدهُ، لو أنك في زمن الشتاء، وترتدي ثياباً سميكةً ومُحكمةً، وتحمل بيَدك اليمنى حاجةً ويسألك الطفل الصغير كم الساعة؟ أنت مضطرّ إلى أن تضع حاجتك على الأرض لتَرى الساعة وتجيبه، فهذا طفل صغير يسألك فتشعر بالواجب أن تُجيبه، وأنت إنسان في قلبك ذرّة من الرحمة لا تعدل شيئاً بالنسبة لرحمة الله، ولا تستطيع إلا أن تجيبه؛ هو طفلٌ وقد يسألك ترَفاً أو عبثاً، وعن غير حاجة، إذا كان فيك أيُّها الإنسان ولو ذرّة كمال لا تستطيع إلا أن تجيب، فكيف بخالق الأكوان وبالواحد الديان؟

لذلك المجيب في حق الله تعالى: هو الذي يقابِل مسألة السائلين بالإسعاف، ويقابل دعاء الداعين بالإجابة، ويقابل ضرورة المضطرين بالكفاية.

بل إنّ من معاني المجيب أنّه يُنعِم قبل النِّداء، الأب الرحيم المقتدر والغني إن رأى ابنه بحاجة إلى مِعطف في أيام البرد، هل ينتظر الأب أن يسأله ابنه شراء هذا المِعطف؟ يشتريه له ويعطيه إياه قبل أن يسأله. فمن معاني المجيب أنه يُنعِم قبل النداء، ويتفضل قبل الدعاء. ولكن لماذا أحياناً يتأخّر العطاء إلى ما بعد الدعاء؟ هنا نقطة عميقة الدلالة جداً مفادها أن الله تعالى يحبُّ أن تدعُوَه، وأن تلجأ إليه، وأن تتصل به، وأن تناجِيَه، وأن تُمرِّغ وجهك في أعتابِه، ويحبُّ أن يُسْعِدك بالاتصال به؛ فيَجْعل حاجتك وسيلة لهدف هو الاتصال والتعبّد. وهذه نقطة مهمة جداً، قد يُحْوِجك إلى شيء وقد يخيفك من شيء، وقد يلوح لك شبح مصيبة من أجل أن تسأله، وتفزع إليه، وتتصل به، وتلوذ بحِماه، ومن أجل أن تُصلي وتدعوه، ومن أجل أن ترجوه؛ لأنك بهذا الدعاء، وذاك الاتصال، وهذا الرجاء تسعد، وإجابة السائل هي الوسيلة.

إنّ التضرّعَ في الدعاء هو الهدف، فأحياناً تمسك بيَدك حاجةً يحبُّها ابنك الصغير وتلوّح بها، والقصد من هذا أن يأتي إليك، فإتْيانه إليك هو الهدف، والحاجة هي الوسيلة. فإذا فهِمت على الله قصده في إسعادك رأيت المصائب وسائل والاتصال بالله هو الهدف. فالله خلقك ليُسعِدك، وهو تعالى يعلم حاجة المحتاجين قبل سؤالهم، والدليل: خلقنا وخلق ما نحتاج إليه، هل تعلم مكوِّنات الحليب؟ إنها تتوافق توافقاً تاماً مع حاجة الإنسان! وهل تعلم أن مكونات الحنطة تتوافق توافقاً تاماً مع حاجة الإنسان؟ وهل تعلم أن جوّ الأرض الطبيعي يتوافق توافقاً تامّاً مع حاجة الخلق؟ وهل تعلم أنَّ حجم الأرض الذي يقتضي لك وزناً في الأرض، يتوافق توافقاً تامَّاً مع أنسب حالة تعيشها؟ الأرض مَلأى بكل ما تحتاج إليه؛ فأنت تحتاج إلى معادن تنصهر بدرجة معيَّنة كالرصاص، وتحتاج إلى معدن يتمدد عند التبريد من أجل أن تعامل الحديد مع الحجر، وتحتاج إلى معدن خفيف ومتين من أجل أن تصنع منه بعض الأواني والأدوات، وتحتاج إلى معدن ثمين يكون قِيَماً للأشياء. وتحتاج إلى معدن كثيف ومتين كالحديد. فلو درست حاجات البشر كلَّها لعرفت أنّ الله علمها ووفَّرها لهم قبل أن يخلقهم. وأنت بحاجة إلى أزهار تبعث فيك البهجة، فخَلَق لك أنواعاً منها لا يعلمها

إلا الله. وبحاجة إلى مادة تُرمِّم جسمك، خلق لك اللحوم والحيوانات التي ذلَّلها لك؛ فهذا كلُّه قبل أن تسأله. فكِّر في ظاهرة النبات فأنت بحاجة إلى أن تنظِّف أسنانك، خلق لك الخلّة والسواك. وبحاجة إلى أن تنظِّف جسمك، فخلق لك اللِّيف الطبيعي. وبحاجة إلى ظلٍّ ظليل، فخلق لك أشجار الزينة. وبحاجة إلى نبات يكون حدّاً بينك وبين جارك، فخلق لك النّبات الحدوديّ. وبحاجة إلى الفواكه كي تتنعَّم بها فخلق لك الفواكه بأنواعها التي لا تُعدُّ ولا تُحصى. وبحاجة إلى أولاد يؤنسون وحشتك فشرع لك نِظام الزواج. وبحاجة إلى زوجة تكمِّل وجودك فخلق الذكر والأنثى.

فهذه كلُّها حاجات خلقها لك قبل أن تسأله إياها. أنت بحاجة إلى ماء وإلى هطول أمطار، خلق المسطحات المائية الواسعة، أربعة أخماس الأرض بحار، وخلق الشمس وجعلها قريبة بعيدة -فالمجال لا يتسع لذكر كلِّ شيء- ولو أمضيت حياتك كلَّها في تعداد النِّعم التي خلقت لك وأنت لا تعلم، ومن قبل أن تُخلق، لعرفت ما معنى أن الله يعلم ما تحتاج إليه قبل أن تسأله. هو مجيب ومن معاني مجيب أنه يجيبك قبل أن تسأله! والشواهد حول هذا الموضوع تفوق الحصر؛ الطفل الصغير يشرب الحليب من ثدي أمه، وحليب الأم ليس فيه حديد، وهو محتاج إلى الحديد من أجل تكوين خِضاب الدم، إذاً أودع الله في طحال الوليد كمية حديد تكفيه سنتين إلى أن يأكل! والوليد بحاجة إلى رضعات تذيب الشحوم التي أودعها الله في جهازه الهضمي؛ فأول أربع وعشرين ساعة من عمر الطفل يأخذ من ثدي أمه مادة ليست حليباً، ولكن هي مادة مذيبة تذيب الشحوم التي في جهازه الهضمي. أنت بحاجة إلى دورة دم داخلية قبل أن تولد، الله جعل ثقب بوتال بين الأُذينين؛ فالدورة الدموية داخلية. فحينما يولد الطفل الصغير يحتاج إلى هواء تأتي جلطة تُغلِق هذا الثقب فتنتقل الدورة من دورة صغرى إلى دورة كبرى فبيَدِ من هذا؟ أنت بحاجة إلى قلب يدفع الدم وبحاجة إلى أوردة وشرايين مرِنة ليندفع الدم فيها، فالله جل جلاله يجيب قبل أن تسأل: كل ما في الكون مسخّر للإنسان؛ والدليل قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الجاثية:١٣].

الكون كلُّه مسخّر لك بدْءاً من الأرض وانتهاءً بالمجرات، مسخَّر لهذا الإنسان الذي قَبِل حمْل الأمانة، قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب:٧٢].

فهو يعلم حاجة المحتاجين قبل سؤالهم. يخلق الأطعمة والأقوات، وييسِّر الأدوات والآلات الموصِلة إلى جميع المهمات. فهذه البقرة بحاجة إلى حليبها فكيف تستفيد منها؟ لا بد من أن تكون مذلّلة، كيف تعلم أنها مذلّلة؟ تصاب أحياناً بمرض التوحّش فتقتل الإنسان مما يضطر صاحبها إلى قتْلِها ليمنع أذاها عن الناس. إذاً هي مذلّلة ويجب أن تعلم أنها مذللة، خلق ثقب بوتال بين الأُذينين وينبغي أن تعلم أن هناك ثقباً يؤدي وظيفة خطيرة والجنين في رحم أمه فهناك حالات نادرة يبقى فيها الثقب مفتوحاً، وهذا المرض اسمه داء الزَّرَق، والطفل عندها يموت بعد حين، لكن الله تعالى له حِكم، وله أحكام، له خلق، وله تربية، ولم يخلق الخلق عبثاً.

وقيل: إن المجيب هو الذي يقابل الدعاء بالقبول، والسؤال بالعطاء، تدعوه فيقبلُك، تسأله فيُعطيك، بدأنا البحث ببيان أن اسم المجيب يعني شيئين: الإجابة عن دعاء، والعطاء عن سؤال. تدعو فيجيبك وتسأل فيُعطيك. ثم إن الله سبحانه وتعالى يجيب دعاء المضطرين؛ فهذا المضطرُّ من له غير الله؟ لا شك أنّ كلَّ إنسان يمرُّ بحالات اضطرار شديدة، ويكون فيها على أحَرّ من الجمر؛ يا رب، يا الله، قال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [النمل:٦٢].

إنه المجيب، فلا تخيبُ لديه آمال الطالبين. قيل: هو الذي يجيب دعاء الداعين ويكشف ضرورة الطالبين، وحول هذه الكلمات آلاف وآلاف الوقائع والأحداث، بل إني متيقن أنه ما من واحد من خلقه، إذا كان صادِقاً مع ربه، مؤمناً بوجوده وبأسمائه الحسنى ووحدانيته، إلا وله تجربة مع الله. دَعَوْته فأجابك، وسألته فأعْطاك. والإنسان حينما يعاني من مشكلة، وحينما تحلّ به محنة، لو سألت العارفين بالله ما حكمتها؟ هذه المحنة التي تحِلُّ بالإنسان المؤمن لا بد من أن تنقله نقْلةً نوعية على محورين؛ محور معرفته،

ومحور محبّتِه. فكل محنة فيها نقلة، فعلى محور محبته تزداد حباً له وعلى محور المعرفة تزداد معرفة. وهذه فيما أعتقِد هي الحكمة العظمى في سَوْق المصائب للناس ولا سيما للمؤمنين. أنت في درجة فإذا أراد ربك أن ينقلك نقلةً إليه، يرسِل إليك مشكلة، تدعوه، وتسأله وتتوسل إليه، وتلوذ به، وتستعيذ به، وتلجأ إليه من أجل أن يجيبك، فإذا أجابك تقول: لقد سمعني وهو يُحِبني وها هو ذا قد أكرمني، ها هو قد استجاب لي.

أيها القارئ الكريم، إنّ المحنة وراءها نقلة نوعية على محور معرفته، وعلى محور محبَّتِه. فوراء كل محنة هناك معرفة جديدة، ومحبة جديدة. والله عز وجل رب العالمين، يُقَلِّب حال عِباده من حال إلى حال، ومن مقام إلى مقام، ومن منزلة إلى منزلة، ومن درجة إلى درجة، إلى أن يصل به إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه.

إضاءات على بعض الآيات التي فيها معاني الإجابة والاستجابة

قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [هود:٦١].

هو في السماء لكنَّك إذا دعوْته فهو معك بعلمه وقدرته، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الزخرف:٨٤].

أنت لا تنادي بعيداً، لا تنادي إلا قريباً، لا تنادي إلا من يسمعك، لا تنادي إلا من يقتدر على أن يجيبك ﴿ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾.

وفي سورة الصافات: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الصافات:٧٥].

أحياناً يضع ذو حاجة ثقته بإنسان، يزوره ويعرض عليه حاجته، يخرج صفر اليدين، وخاليَ الوِفاض، يخيِّب ظنه، قد يعتذر إليه بأسلوب لطيف، أو بأسلوبٍ قاسٍ، على كلٍّ ليس هناك بأس إلا أنه قد خاب ظني، وندِمت على تلك الزيارة. أما الله عز وجل فيقول: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾، نِعم الذي يجيب هو الله عز وجل، وقال تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ

ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران:١٩٤-١٩٥].

وفي سورة الأنبياء قال تعالى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء:٨٣-٨٤].

وكتعليق سريع على هذه الآية فقد يتبادر لبعض الناس أن يقول: هؤلاء أنبياء؛ وبدوري أقول: فما داموا أنبياء فهم من جنس البشر، وضرب الله الأمثال بهم لتعلم أنَّ إجابتك كإجابتهم إذا تحقق شرط السؤال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف:١١٠].

ولولا أنهم بشر، وتجري عليهم كل خصائص البشر، لما كانوا سادة البشر، لماذا ذكر الله لنا قصصهم؟ لسببٍ بسيط وهو الاقتداء بهم، والسَّيْر على منهجهم، واقتفاء أثرهم، وأن تجعلهم قدوةً لك. قال تعالى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء:٨٣-٨٤].

ما الذي يمنعك إذا مسّك الضر؛ أن تصلي قيام الليل، وأن تقول: يا رب إني مسَّنِيَ الضر، وأنت أرحم الراحمين. أنت تخاطب مَنْ بيده ملكوت السموات والأرض، وكل الجهات التي في الأرض بيده ناصيتُها، أجلْ، بيَده، قال تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ﴾ [هود:٥٦].

قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء:٨٤].

فالله عز وجل هو وحده أهلٌ أن تسأله؛ أجَلْ، أهلٌ أن تسأله، وأن تدعُوَه، وأن ترجُوَه، وأن تحطّ رحالَكَ عنده، وأن تُعلّق الآمال عليه، وأن تستجير به، وأن تلوذ به، وأن تستعيذ به، هو وحده الأهل. وحينما تضع الثقة في غيره. الله جل جلاله غيرةً عليك ومحبةً لك، يلقي في قلب الذي وضعت الثقة به أن يُخيِّب ظنك تأديباً لك، وفي سورة النمل: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل:٦٢].

وفي سورة الأنفال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال:٩].

وفي سورة البقرة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة:١٨٦].

أيها القراء الكرام: قوله سبحانه: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾. فيجب أن تؤمن أولاً بوجوده، وكماله، ووحدانيّته، وأن تؤمن بأسمائه الحسنى. وهذه الأبحاث من صُلْبِ العقيدة الصحيحة. ما من بحث أنت بأمسّ الحاجة إليه مثل أن تعرف الله عز وجل، كي تُقْبل عليه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

وقد وردت في كتاب الله آيات تبدأ بكلمة يسألونك قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء:٨٥].

وقال تعالى: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ [البقرة:٢١٩].

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [البقرة:٢٢٢].

أكثر من عشر آيات وردتْ بهذه الصيغة (يسألونك) ثم يأتي الجواب مبدوءاً بكلمة (قلْ)، إلا هذه الآية الوحيدة، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾.

قالوا: لأنه في الدعاء ليس بين العبد وربه حِجاب، وليس بين العبد وربه وسيط، وليس بين العبد وربه وسيلة، هو قريب سميع مجيب، ما عليك إلا أن تسأله. لكن من أجل أن تعرف ماذا تسأله؛ عليك أن تؤمن به أولاً، وأن تستجيب له ثانياً، -حتى تُحسِن أن تسأله، وحتى يستجيب لك ثالثاً. وقال ربكم ادعوني أستجب لكم. وبالمناسبة ما أمرك أن تدعُوَه إلا ليستجيب لك. يتوهَّم بعض الناس ويقولون: دعَوْنا كثيراً ولم يستجب لنا، والمشكلة أنك ما دَعَوْته كما يريد، مثلاً قال تعالى: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الأعراف:٥٥].

أحياناً تدعو الله عز وجل دون تضرّع، وبصوتٍ جهير هدفك أن تُسمِع الناس، فأنت اعتديت على شرط التضرع، وشرط الخُفْيَة، واعتديت على خلقِه، أنى يُستجاب لك؟ لذلك الذي يعتدي على خلق الله دُعاؤه لا يُستجاب. والذي يأكل مال الحرام دُعاؤه غير مُستجاب، الذي مطعمه حرام، ومشربه حرام، وغُذِّيَ بالحرام، أنّى يُستَجاب له؟ وأنا أبيّن هذه الشروط؛ أن يكون الدَّخْل حلالاً، وعدم الاعتداء، وعدم الجهر بالدعاء، قال تعالى: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

لذلك شرط إجابة الدعاء: صدق الإيمان والولاء، فالله حكيم في إجابته، قد يعجل أو يؤجل، على حسب السائل والسؤال، أو يلطف بعبد فيختار له ما يناسب الحال، أو يدخر ما ينفعه عند المصير والمآل، لكن الله تعالى يجيب عبده حتماً، ولا يخيب ظنه أبداً، كما وعد وقال وهو أصدق القائلين.

وفي الحديث الشريف: «ما من رجل يَدْعُو اللهَ بِدُعَاءٍ إلا استُجِيبَ له فإمَّا أنْ يُعَجَّلَ له في الدنيا وإمَّا أنْ يُدَّخَرَ له في الآخرة وإمَّا أنْ يُكَفَّرَ عنه من ذُنُوبِهِ، بِقَدْرِ مَا دَعَا ما لَمْ يَدْعُ بِإِثم، أو قَطيعةِ رَحِمٍ، أو يَسْتَعْجِلْ قالوا: يا رسولَ الله، وكيف يَسْتَعجِلُ؟ قال: يقول: دَعَوتُ رَبي فما استَجَابَ لي» [متفق عليه عن أبي هريرة].

ومن شروط الدعاء: أن رسول الله ﷺ قال: «القلوب أوعية، وبعضها أوعى من بعض، فإذا سألتم الله عز وجل أيها الناس، فسلوه وأنتم موقنون بالإجابة فإن الله لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل» [أخرجه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر].

من آداب الدعاء: أن يتخير وقت الدعاء، الذي ندب إليه النبي ﷺ، كيوم عرفة، وفي جوف الليل، وقبل الفجر ودبر الصلوات المكتوبة.

«إذا مضى ثلث الليل أو نصف الليل نزل إلى السماء الدنيا جلّ و عزّ فقال: هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من داع فأجيبه؟» [البخاري و مسلم عن أبي هريرة].

من آداب الدعاء: ألا يتعجل الداعي في دعائه، بمعنى يقول: دعوت فلم يستجب لي، وألا يجهر بالنداء اتقاء للفتنة والرياء، وأن يحذر من التجاوز والاعتداء.

ومن آداب الدعاء: أن يكون المسلم متواضعاً، هيّناً، ليّناً، مجيباً لدعوة إخوانه.

وتعدُّ حالة عدم استجابة الدعاء مصيبة كبيرة، ومن أدعية النبي ﷺ: «اللهمَّ إني أعوذ بك من العجْزِ، والكَسَلِ، والجُبنِ، والبُخْلِ والهَرَم، وعذاب القبر، اللهمَّ آتِ نَفسي تَقْوَاها، وزَكِّها أَنت خَيرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنتَ وَلِيُّها ومولاها، اللهمَّ إني أعوذ بك من علم لا ينفعُ، ومن قَلبٍ لا يَخشَع، ومن نَفسٍ لا تشبع، ومن دعوة لا تُستَجَاب لها» [أخرجه مسلم والترمذي والنسائي عن زيد بن أرقم].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) ﴾ [غافر: ٦٠].

هناك في الآية ما يلفت النظر، الإنسان على حَسَبِ تصوّره، فالله سبحانه لم يقل: إن الذين يستكبرون عن دعائي، بل قال: عن عبادتي؛ لأن الدعاء هو العبادة. والعبادة كلُّها في الدعاء، بل إنَّ الدعاء مخ العبادة، وهو أفضل ما في العبادة.

يقول تعالى: ﴿يَسْئَلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن:٢٩].

للتوضيح: طبيب مرّ على مريض أخذ لائحة الفحوصات، وجد الضغط مرتفعاً، أعطى أمراً بإيقاف الملح في الطعام، والطعام دون ملح لا يستساغ، ولكن هذا قرار الطبيب، لأن شأن هذا المريض ارتفاع الضغط، فالموقف المناسب أن تمنعه من الملح.

وجد الضغط معتدلاً جداً، وجسم المريض بحاجة إلى غذاء دسم فأمر أن يُطعم أطيب الطعام.

فأنت إن كان شأنك مع الله الطاعة فقرار الله الإكرام، وإن كان شأنك مع الله لا سمح الله ولا قدر المعصية فشأن الله معك التأديب.

أنت مقبل، والقرار الإلهي هو التكريم، جزء من المال حرام، فالقرار الإلهي تطهير مالك من هذا المال الحرام، أنت متواضع شأن الله عز وجل أن يكرمك، أن يرفع شأنك،هناك تكبر، شأن الله عز وجل أن يحجّمك، أنت منفق شأن الله أن يرزقك، أنت مقتّر شأن الله أن يضيق عليك ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ .

إن أردت أن يكون الله لك كما تريد فكن له كما يريد.

وقد ورد في الأحاديث الصحيحة في استسقائه ﷺ، ونحن نعاني الجفاف أحياناً، لكن الطريق إلى الأمطار الغزيرة لا نسلكها، النبي ﷺ ثبت في الأحاديث الصحيحة أنه استسقى ربه فقد كان النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة فقال:

«فقام الناسُ، فصاحوا، فقالوا: يا رسولَ الله، قَحَطَ المطر، واحمَرَّت الشجرُ، وهلكتِ البهائِمُ، فادْعُ الله أن يَسْقِيَنَا، فقال: اللهم اسْقِنا -مرتين- وايْمُ الله، ما نرى في السماء قَزَعة من سحاب -سماء صافية، جو حار- وايْمُ الله، ما نرى في السماء قَزَعة من سحاب، فنشأتْ سحابة فأمطرت، ونزل عن المنبر فصلَّى بنا، فلما انصرف لم تَزَلْ تُمْطِرُ

إلى الجمعة التي تليها، فلما قام رسولُ الله ﷺ يخطُب في الجمعة التالية، صَاحُوا إليه: تهدَّمت البُيُوتُ، وانقطعتِ السبلُ، فادْعُ الله يَحبِسْهَا عنا، فتبسَّم رسولُ الله ﷺ، ثم قالَ: اللهم حَوالَينا ولا عَلينا وتَكشَّطت المدينةُ، فجعلت تُمْطِرُ حولها، ولا تَمْطُرُ بالمدينةِ قطرة، فنظرتُ إلى المدينة وإنها لَفِي مثْلِ الإكليل» [أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي ومالك عن أنس بن مالك].

والله الذي لا إله إلا هو لو طبقنا صلاة الاستسقاء كما أراد الله، وكما بيّن النبي ﷺ لكنا في وضع آخر.

وقد وردت الاستجابة في القرآن لغير الله قال تعالى: ﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الشورى:٢٦].

أنت مؤمن دُعيت إلى الله، فاستجبت. وإلى عملٍ صالح، فاستجبت. وإلى إقامة الصلاة، فصَلّيت. وإلى دفْع الزكاة، فزكَّيت. وإلى حجِ بيت الله، فحججت. وإلى مساعدة زيْدٍ أو عُبَيْد، ففعلت، الاستجابة وردت في كتاب الله منسوبةً لغير الله، قال تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾.

وفي سورة الرعد قال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الرعد:١٨].

أما أجمل آية متعلقة بالاستجابة فهي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال:٢٤].

أنتم حينما تُدْعَون إلى طاعة الله، فإنما تُدْعَون إلى الحياة. والمؤمن قبل أن يعرف الله ميِّت قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [فاطر:٢٢].

وقال تعالى: ﴿ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ ﴾ [النحل:٢١].

قال عدي بن الرعلاء الغساني:

ليس من مات فاستراح بمَيتٍ إنما الميت ميِّت الأحياء

الميت الحقيقي: هو الذي يتمتع بأعلى درجات الصحة، لكنَّ قلبه ميت، لا يعي خيراً، ولا يستجيب، لا يذكر الله، لا يعطي لله، ولا يمنع لله، ولا يحبُّ لله، ولا يُبغض لله، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤ ﴾ [الأنفال:٢٤].

وليعلم كلُّ مؤمن أن استجابة الله بالعطاء، وإجابته للدعاء على أنواع كثيرة؛ أحياناً ربنا عز وجل لحكمةٍ يريدها يجيب العبد قبل أن يَدعُوَه، بمعنى أنّه يتفضل عليك لتُقبِل عليه، هو الذي بدأ، إذ إن المرء يغفل ويلهو فإذا أتاه فضل من الله من غير سؤال، تجد الذي معدنه طيِّب حينما يغمره الله تعالى بفضْلِه يستجيب، فهو إما أن تدعُوَه فيُعطيك، وإما أن يُعطيَك لتدْعُوَه.

فقد يأتي الدعاء قبل العطاء وقد يأتي العطاء قبل الدعاء فإن كان الدعاء قبل العطاء، فالمبادرة منك. وإن كان العطاء قبل الدعاء، فهذه حكمة بالغة أراد الله أنْ يمتَحِنك بها. فتُطيعُه ليُكرِمك، وأحياناً يُكْرِمك لتُطيعَه. ربما ضيَّق على عباده الحال ابتلاءً وامتحاناً ورفْعاً لدرجاتهم بصبرهم وشكرِهم في السراء والضراء. فهو تعالى يستجيب بعد الضيق أو يُكرِم قبل الدعاء.

قال بعض العلماء: حتى إذا يئسوا تداركهم بجميل عوائده وآلائه، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠ ﴾ [يوسف:١١٠].

ابن النحوي يوسف بن محمد التلمساني نظم قصيدة بدأها: باشتدِّي أزمةُ تنفَرِجي قال فيها:

اشـــتدّي أزمَـــةُ تَنفَرجـــي قـــد آذَنَ لَيْلُـــكِ بـــالبَلَجِ
وَظَـــلامُ اللَّيـــلِ لَـــهُ سُرُجٌ حَتَّـــى يَغشَـــاهُ أَبُـــو السُّـــرُجِ
وسَـــحَابُ الخَـــيرِ لَـــهُ مَطَـــرٌ فـــإذا جـــاءَ الإِبَّـــانُ تَجِـــي
وَفوائِـــدُ مولانـــا جُمَـــلٌ لِـــسُرُوحِ الأنفُـــسِ والمُهَـــجِ
وَلَهَـــا أَرَجٌ مُحْـــيِي أَبَـــداً فاقصُـــدْ مَحْيَـــا ذاكَ الأرجِ
فَلَـــرُبَّما فـــاضَ المَحْيَـــا ببِحُـــورِ المَـــوجِ مِـــنَ اللُّجَـــجِ
وَالخَلْـــقُ جَمعيـــاً فِي يَـــدِهِ فَـــذَوُو سَـــعَةٍ وذَوُو حَـــرَجِ
ونُـــزُولُهم وَطُلُـــوعُهُمُ فَعَـــلى دَرَكٍ وَعَـــلَى دَرَجِ
وَمَعائِشُـــهُم وعَـــواقِبُهُم لَيسَـــت في المَـــشي عَـــلى عِـــوَجِ
حِكَـــمٌ نسِـــجَت بيَـــدٍ حَكَمَـــتْ ثُـــمَّ انتَسَـــجَتْ بالمُنْتَسَـــجِ
فـــإذا اقتَصَـــدَتْ ثُـــم انعَرَجَـــتْ فبِمُقتَصِـــدٍ وبِمُنعَـــرِجِ
شَـــهِدت بعَجائِبهـــا حُجَـــجٌ قامَـــت بـــالأمرِ عَـــلى الحِجَـــجِ
وَرِضـــاً بقَضـــاءِ الله حَجـــاً فَعَـــلَى مَركُوزَتِـــهِ فَعُـــجِ
وإذا انفَتَحَـــت أبـــوابُ هُـــدَى فاعْجِـــلْ لخَزائِنِهـــا وَلِـــجِ
وإذا حاوَلْـــتَ نِهايَتَهـــا فاحـــذَرْ إذْ ذاكَ مِـــنَ العَـــرَجِ
لِتَكُـــونَ مِـــنَ السُّـــبَّاقِ إذا مـــا جِئـــتَ إلى تِلـــكَ الفُـــرَجِ

والأمور إذا ضاقت اتَّسعت. أحياناً تضيق:

ضـــاقت فلـــما اســـتُحكِمت حلقاتهـــا فُرِجـــت وكنـــت أظنّهـــا لا تُفْـــرَج

الحكمة؛ أن تفهم عن الله؛ أن تفهم عن الله حِكمته؛ أن تفهم عن الله كماله؛ أن تفهم عن الله رحمته. لكن الله يضمن للعبد إجابة الدعاء بما يعلم أنه خير للعبد بحَسَب عِلمه، لا بحسب علمك. في الوقت الذي يريده الله، لا في الوقت الذي يريده العبد.

فأنت لا تعلم والله يعلم. وأنت لا تعرف ما يناسبك والله يعلم المناسب. دَعْوَتُك له أمر مرغوب؛ لكن لا ينبغي لك أن تحدد متى يستجيب لك؛ فهذا سوء أدبٍ مع الله، يستجيب لك في الوقت المناسب، وبالقدر المناسب، وفي الطريقة المناسبة، فما عليك إلا أن تدعُوَه وكفى.

الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ [البقرة:٢١٦].

حدّثني أخ أنه كان مسافراً من بلدٍ إلى بلد، يدرس في كلية الطب وحجمه صغير نسبياً، ركِب في سيارةٍ عامة ليَذهب إلى بلدِه فقال لي: جاء رجلان ضخما الجثة فتح أحدهما باب السيارة، وحملني ووضعني على الأرض، وركِب هو وزميله مكاني. يقول هذا الأخ: تألّمت ألماً لا حدود له، وما تمنّيت في حياتي أن أكون مجرماً إلا تلك الساعة، إذ إن هذا هو منتهى الإهانة والقسوة. ثم قال: وبعد ساعة ركبت السيارة الثانية، وأنا في الطريق إلى بلدتي كانت هناك تلة صغيرة، فرأيتُ تلك السيارة قد تدهورت وكلّ الركاب قد ماتوا، ثم قال: في ثانية واحدة انقلب حِقدي إلى شكر قال تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾.

نصيب المؤمن من اسم الله (المجيب)

أما التطبيق العملي لهذا الاسم؛ فيا أيها العبد، يجب أن تعلم أن الله مجيب، وينبغي أن تعلم أن الله تعالى دعاك إلى طاعتِه، وأنت تدعوه ليُرْضيك، فإن أجبت دعاءه، أجاب دعاءك. أي: كن لي كما أريد، أكن لك كما تريد. دعاك إلى طاعته، وأن تدعوه إلى حاجَتِك. استجِب ليستجيب. كن له كما يريد، ليكن لك كما تريد. أنت تريد وأنا أريد؛ فإذا سلَّمت لي فيما أريد، كفَيْتُك ما تريد. وإن لم تُسَلِّم لي فيما أريد، أتعَبْتُك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال:٢٤].

أجِب دعاء الله، وأجِب دعاء الناس أيضاً. دعاك أحد الخلْق، وضع أمله فيك، وضع ثِقَته فيك، كُنْ ممّن يتخلّق بكمالات الله، قال الفرزدق يصف زين العابدين رضي الله عنه:

ما قال لا قطّ إلا في تشهده لولا التشهد كانت لاؤه نَعَمُ

ما قال: لا، قطّ في حياته، فإذا وثِق أحدٌ فيك، ووضَع أمله فيك، وطمع فيك، هذا هو تطبيق الاسم مع الناس.

قال: فإذا سألك أحدٌ فلا تزجُره فإن الله تعالى يقول: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ [الضحى:١٠].

حظ المؤمن من هذا الاسم أيضاً؛ أن يقضِيَ حوائج الطالبين، ليقضيَ الله حاجَتَه. والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه. عبادي إن أردتم رحمتي، فارحموا خلقي.

الإمام أحمد يقول: «اللهم كما صُنْتَ وجهي عن السجود لغيرِك، فَصُن وجهي عن مسألة غيرِك، ولا يقدر على كشف الضرِّ وجلب النفع سواك»، ومن الأدعية الواردة عن سيدنا عليٍّ رضي الله عنه: اللهم صُن وجوهنا باليسار ولا تبذِلها بالإقتار، فنسأل شرّ خلقِك، ونُبْتَلى بحمد من أعطى وذمّ من منع، وأنت من فوقهم وليّ العطاء، وبيدك وحدك خزائن الأرض والسماء.

يقول العلماء: «إن العبد ينبغي أن يكون مجيباً لربِّه تبارك وتعالى أولاً فيما أمره به ونهاه، وفيما ندبَهُ إليه ودعاه، ثم لعباده فيما أنعم الله عليه بالاقتدار، وفي إسعاد كلِّ سائلٍ بما يسأله، وفي لُطْفِ الجواب إن عَجَزَ عن الإجابة»، فأنت اسْتَجِب للناس؛ دعاك، أجِبْهُ. سألك، أعْطِهِ. فإذا طُلِب منك شيء لا تستطيع تنفيذه ماذا تفعل؟ رُدّه رداً لطيفاً. قل له: والله أتمنى أن أخدمك وأُلَبِّيَ حاجَتَك، فالردّ اللطيف إجابة.

النقطة المهمة أنك لا تستعْظِم شيئاً تسأله الله، فالله عز وجل لا يُعْجِزُه شيء، فهل يمكنني أن أشتريَ بيتاً؟ وهل يمكن أن أصبح داعية؟ وهل يمكنني أن أحصل على شهادةٍ عُليا؟ وهل يمكنني أن أصبح في منصب رفيع؟ كل هذا ممكن. ولا تستعظم السؤال إطلاقاً، فالله على كل شيء قدير، قال صلى الله عليه وسلم: «إذا سألت فاسأل الله وإذا

استَعَنت فاسْتَعِن بالله» [الترمذي، عن ابن عباس]. وفي الحديث الشريف: «إن الله -حيي كريم يستحي من عبده أن يرفع إليه يديه ثم لا يضع فيها خيراً» [الحاكم عن أنس].

من أدعية هذا الاسم؛ إلهي أنت المجيب لمن دعاك، والمغيث لمن ناداك، تنصِف المظلوم من الظالم؛ لأنك فوق الكل حاكِم. إلهي إن نفسي ظلمت روحي، فحَجَبَتْها عن الأنوار ومَنَعَتْها من الأسرار، فانصُر الروح على النفس، بفضلك، وأسْعِدها في رياض وصلِك. إلهي لا تردّ الدعاء فأنت المجيب، ولا تؤاخِذنا بما فرَّطنا فمن دعاك فلا يخيب، واجعَل لنا نوراً مورُوثاً من نور اسمك المجيب، فنسْتَجيب بأمرِك ونقوم بشُكرِك وذِكرِك إنك على كل شيء قدير.

وأخيراً، أعتقد أن هذا الاسم ولا أُبالِغ من أقرَب الأسماء إلينا؛ اجعل عنده كلَّ حاجاتك. حُطّ رحالَكَ عنده. الزَمْه واسْأَله وتذلّل له ومرِّغ جبهتَك في أعتابِه فهو السميع المجيب، فلا تنْسَوا أنّ المجيب اسم من أسماء الله الحسنى وينبغي أن يكون في قلبك دائماً.

الغفّار

مع اسم جديد من أسماء الله الحسنى، وهو «الغفّار». وقد سمّى الله سبحانه وتعالى نفسه بهذا الاسم على سبيل الإطلاق، مقروناً باسمه تعالى العزيز، في ثلاثة مواضع، كما في قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾﴾ [ص:٦٦].

وقد ورد مطلقاً منوّناً دون اقتران باسم آخر في قوله تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح:١٠-١٢].

وفي السّنة الشّريفة: عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا تَضَوَّر من الليل؛ قال: «لا إله إلا الله الواحد القهار، رب السماوات والأرض وما بينهما؛ العزيز الغفار» [ابن حبّان].

من معاني اسم الله (الغفار)

«الغفار» في اللغة من صيغ المبالغة، على وزن فعّال، أي كثير المغفرة، كمّاً ونوعاً، والفعل غفر، يغفر، غفراً، ومغفرةً، وأصل المغفرة التغطية والستر.

«الغفار» سبحانه وتعالى هو الذي يستر الذنوب بفضله، ويتجاوز عن عبده بعفوه، فمن كمال الله عز وجل أنه يسامحك بهذا الذنب فحسب، لكنه يستره عليك أيضاً.

الإنسان أحياناً يتكلم كلمة غير لائقة، فإن لم ينسها فإن حياته تصبح جحيماً لا يطاق. فالله عز وجل يغفر ويستر عنك هذا الذنب، ومن نعم الله الكبرى أنك تنسى.

أما إذا كان العبد موحّداً فذنوبه تحت مشيئته الله وحده، فالله عز وجل طليق الإرادة إن شاء عفا لحكمة بالغةٍ بالغةٍ بالغة، وإن شاء أدب، ويعفو بعدها، فالله عز وجل لحكمة بالغة قد يعفو من دون تأديب، وقد يؤدب فيعفو، أي شأنك مع الله أن تثق بكماله، وأن تثق بحكمته، وأن تثق بمحبته.

﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) ﴾ [الزمر:٦٦].

فأنت عبد، ومهمتك أن تطيعه.

﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ ﴾ .

وانتظر الخير، وانتهى الأمر.

(الغفور) و«الغفّار» قريبان في المعنى من بعضهما، لكن «الغفار» أبلغ من الغفور، الغفور من يغفر الذنوب العظام، أما «الغفار» من يغفر الذنوب الكثيرة، الغفور للذنوب العظام، أما «الغفار» فللذنوب الكثيرة، يعني غفور للنوع، وغفار للكم، هذا هو الفرق بين الغفور و«الغفار».

قال بعض العلماء: «الإنسان إذا عصى الله عز وجل وُصف في القرآن بأنه ظالم وبأنه ظلوم، وبأنه ظلّام» قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) ﴾ [فاطر:٣٢].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب:٧٢].

وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [آل عمران:١٨٢] وقال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [فصلت:٤٦]. وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ق:٢٩].

وظَلاَّم صيغة مبالغة. وفي حق الله تعني أنه لا يظلم، فجميع عباده ينعمون بعدالته.

فإذا كان العبد ظالماً فالله غافر، وإذا كان ظلوماً فالله غفور، وإذا كان ظلّاماً فالله سبحانه وتعالى غفّار، بأية صفة أتى بها العبد المعصية فهناك اسم لله عز وجل يقابل هذه المعصية.

النقطة المهمّة في هذا الاسم أن صفات الإنسان متناهية، ومعنى متناهية: أنّ الإنسان إذا فعل ذنباً فذنبه له حجم، وقع في معصية، ومعصيته لها حجم أيضاً، فمهما تكن المعاصي والذنوب فإنها متناهية تنتهي عند حدّ معيّن، لكنّ مغفرة الله عز وجل ليست متناهية ولا حدود لها، وغير المتناهي يغلب المتناهي، إذاً، لا يقنط من رحمة الله عز وجل إلا الكفور، لا يقنط من رحمة الله عز وجل إلا الجهول، لا يقنط من رحمة الله عز وجل إلا الجحود.

إذا كان ذنبك متناهياً، ومغفرة الله عز وجل ليست متناهية، فمن الغباء والحمق والجهل والجحود وقلة العلم أن تيأس من رحمة الله، لذلك، فاليائس كافر، اليائس جاهل، اليائس جاحد.

هناك شيء آخر بالنسبة لهذا الاسم أن الآيات التي وردت في فعل المغفرة وردت مرة بصيغة الماضي، قال تعالى: ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [ص:٢٤-٢٥].

ووردت أيضاً بصيغة الفعل المضارع قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [النساء:٤٨].

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٥].

ووردت بصيغة الأمر الذي يفيد الدّعاء، قال تعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [آل عمران:١٩٣].

ووردت بصغية المصدر قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٨٥].

﴿ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٦﴾ ﴾ [الرعد:٦].

أي يغفر لك ما مضى، ويغفر لك الآن، ويغفر لك في المستقبل، وهو ذو مغفرة، بأي زمن كنت هو غفّار، لأي ذنب فعلت هو غفّار، إن كان الإنسان ظالماً فالله غافر وإن كان ظلوماً فالله غفور، وإن كان ظلّاماً فالله عز وجل غفّار، وإن فعل الذنب في الماضي غفر الله له، وإن فعله الآن يغفر الله له، وما سيفعل من ذنب في المستقبل فإن الله عز وجل يغفر بعد الانكسار والدعاء، بأي شكل وبأي زمن فإن الله سبحانه وتعالى غفور رحيم.

قال تعالى: ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة:٣٩]، ما معنى توبة الرّبّ إذا سبقت توبة العبد؟ وما معنى توبة الرّبّ إذا تأخرت عن توبة العبد؟

إذا سبقت توبة الرّبّ توبةَ العبد، أي: إن الله عز وجل ساق له من الشدائد والمحن والمصائب ما دفعه إلى التوبة، فما أكثر التائبين على أثر مصيبة نزلت بهم، الله عز وجل تاب على العبد قبل أن يتوب، أي: ساق إليه الشدائد والمحن والبلايا بحيث يحمله على التوبة، وفتح له باب التوبة وإذا قال الله عز وجل: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ﴾ [المدثر:١١-١٤].

فحينها جاءت كلمة «ذرني» يعني يا محمد إن لم يستجب فلان لك فدعه لي، فأنا أسوق له من الشدائد ما أحمله على التوبة، فالله عز وجل من رحمته أن يسوق لك إنساناً لطيفاً يقدم لك نصيحة هادئة رقيقة بينك وبينه، يدعمها بالآيات والأحاديث والقصص، فأنت إما أن تستجيب وإما ألا تستجيب، فإن لم تستجب فالله سبحانه وتعالى عنده من الوسائل والأساليب والأدوية والطرائق والمضايقات والشدائد ما يدفعك إلى بابه دفعاً، فأيهما أرقى لك أن تأتيه طائعاً أو أن تأتيه مكرهاً، هذا ما فسره النبي ﷺ: «عجبت لأقوام يساقون إلى الجنة في السلاسل وهم كارهون» [الطبراني عن أبي أمامة وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة وسنده حسن].

فأنت أخوف ما يجب أن تخاف منه، أن تدعى إلى الله عز وجل دعوة هادئة لطيفة فيها ستر بينك وبين أخ كريم ينصحك بغض البصر، بتحليل الدخل، بترك الظلم، بترك العدوان، ثم لا تستجيب له، فإنك إن لم تستجب فالله سبحانه وتعالى كفيل أن يسوق للإنسان من الشدائد ما يحمله على التوبة، هذا معنى التوبة، إذا سبقت توبة الرب توبة العبد ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾ [التوبة:١١٨]، أما إذا جاءت توبة الرب بعد توبة العبد فهي قبول التوبة ﴿ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [المائدة:٣٩] أي: يقبل توبتهم.

إن الإنسان إذا قرأ عن المغفرة فإنه يجد الله واسع المغفرة، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال فيما روى عن الله تعالى أنه قال: «يا عِبادِي! إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي،

وجعلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً فَلا تَظالَموا، يا عِبادِي! كُلُّكُمْ ضالٌّ إلا مَنْ هَدَيْتُهُ فاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يا عِبادِي! كُلُّكُمْ جائعٌ إلا مَنْ أطْعَمْتُهُ فاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يا عِبادي! كُلُّكُمْ عارٍ إلا مَنْ كَسَوْتُهُ، فاسْتَكْسُونِي أكْسُكُمْ... يا عِبادي! لوْ أنَّ أوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وإنسَكُمْ وجِنَّكُمْ قامُوا في صَعيدٍ واحِدٍ فسَألُونِي فأعْطَيْتُ كُلَّ إنسانٍ مَسْألَتَهُ ما نَقَصَ ذلكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَما يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البَحْرَ، يا عِبادي! إنَّما هِيَ أعْمالُكُمْ أُحْصِيها لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إيَّاها، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فلْيَحْمَدِ اللهَ ومَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ» [صحيح مسلم من حديث أبي ذرٍّ].

معنى هذا الحديث القدسي؛ أن الإنسان إذا عاد إلى الله طواعية ضَمِنَ حفظ الله له وتأييده وإكرامه، فإذا أبى ولم يستجب عندئذ سيأتيه العذاب من حيث لا يشعر، لذلك ربنا عز وجل يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال:٢٤].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [التوبة:٣٨-٣٩].

إن لم تأته طائعاً دفعك إلى بابه دفعاً.

وفي بعض الأدعية المأثورة: يا من أظهر الجميل! وستر القبيح! يا من لا يؤاخذ بالجريرة! ولا يهتك الستر! يا عظيم العفو! يا حسن التجاوز! يا واسع المغفرة! يا باسط اليدين بالرحمة! يا صاحب كل نجوى! ويا منتهى كل شكوى! يا كريم الصفح! يا عظيم المن! يا مبتدئ النِّعم قبل استحقاقها! يا ربنا! ويا سيدنا! ويا مولانا! ويا غاية رغبتنا! أسالك يا الله أن لا تشوي خلقي بالنار

لذلك قال عبد الله بن محمد القحطاني في نونيّته:

والله لــو علمــوا قبــيح سريــرتي ... لأبــى الســلام عــليَّ مــن يلقــاني
ولأعرضــوا عنــي وملّــوا صــحبتي ... ولبــؤت بعــد كرامــة بهــوان
لكــن ســترت معــايبي ومثــالبي ... وحلمــت عــن ســقطي وعــن طغيــاني
فلــك المحامــد والمــدائح كلهــا ... بخــواطري وجــوارحي ولســاني

شريكان، لو اطلع الأول على ما يدور في خلد الثاني لترك شراكته، لو اطّلع الزوج على ما يدور في بال زوجته لطلقها، ولو اطلعت الزوجة على ما في ذهن زوجها لتركته، لو اطلع الأب على ما يدور في بال ابنه عند تفكيره بموت أبيه لكرهه، يقول الابن لأبيه أحياناً: أعطني يدك لتقبيلها، وفي باله خاطر آخر، لو اطلع الأب على ما يجول في خاطر ابنه لكرهه وطرده، فالله عز وجل جميل الستر.

أنت في حصن حصين، فكل خواطرك الداخلية وكل المشاعر وكل الأفكار وكل الطموحات، هذه كلها مستورة، فهذا من معنى المغفرة، أي: ستر عن الناس العيوب الفكرية.

والمعنى الثاني: أن المؤمن في الجنة يستر الله عنه ذنوبه، فلو أن المؤمن اطلع على جاهليته لاحترق، وهذا شيء فوق طاقة البشر لأنه مع الكمال المطلق، لو أن مؤمناً تاب إلى الله توبة نصوحاً وغفر الله له، فإذا تذكر ما فعل في الجاهلية قضم أنامله على تفريطه، فمن رحمة الله بالمؤمن أنه يستر عنه عيوبه، وهذا ما فسره بعض العلماء في سر فناء الجسد، إن هذه الصور في الذاكرة فإذا فني الجسد بقيت النفس، النفس طاهرة مقبلة مطهّرة معطرة مرتبطة بالكمال الإلهي، أحد المؤمنين له جاهلية وتاب، إذا تذكر جاهليته، وكيف كان، وفي أي مستوى كان، وفي أي منطق، وفي أية مخالفات، وفي أية معاصٍ يحترق، يحرقه كماله، هذا في الدنيا.

قالوا: لا بد للمؤمن من ذلَّة أو قلَّة أو علَّة، فما الذلة؟ هذه ذلة الجاهلية التي كانت قبل أن يتوب إلى الله عز وجل، لو أن الإنسان إذا تاب من معصيته، وشفيت

نفسه منها، ثم تذكرها فإنها تحرقه أسفاً لتفريطه في الدنيا، فمن رحمة الله بالمؤمنين أنه في الجنة يستر الله عنه ذنوبه كلها، أبداً لا يرى شيئاً، ربّنا عز وجل في سورة غافر قال: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾ [غافر:٣].

قال بعض المفسرين: «غافر الذنب إكراماً، وقابل التوب إنعاماً، وشديد العقاب بالكافرين، وذي الطول، أي: ذي العطاء الكبير للسابقين والمقربين».

في الآية تجد ثلاثة أسماء وصفات من أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى للمؤمنين واسماً واحد للكافرين، فربنا عز وجل غافر الذنب، وقابل التوب، ذي الطول شديد العقاب، فقال: غافر الذنب لمن ظلم نفسه، وقابل التوب للمقتصد، وذي الطول للسابق، فبعض المؤمنين مقصرون مخالفون، وبعضهم مستقيمون، وبعضهم متفوقون، فربنا عز وجل للمقصرين غافر الذنب، وللمقتصدين قابل التوب، وللسابقين ذي الطول، وللكافرين؛ شديد العقاب، لماذا كانت صفة واحدة من صفات الله عز وجل للكافرين لأن الكفر ملة واحدة فماذا بعد الحق إلا الضلال، الكفر واحد، أما الإيمان فمراتب.

بعضهم قال: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ يمحو هذه السيئة من دفتر أعمالك، وأما الغفور فيمسحها عند الملائكة، وأما الغفار فينسيك هذا الذنب، فإما أن تمحى من دفترك، وإما أن ينساها الملك، وإما أن تنساها أنت، هذا منتهى الكرم، أن تأتي يوم القيامة وليس لك جاهلية، وليس لك ذنب، كمال في كمال، لذلك تسعد في جنة الله التي عرضها السموات والأرض إلى أبد الآبدين.

إذا تاب الإنسان في سن مبكرة هذا رائع جداً، ولكن إذا عرف الله في سن متأخرة فلا مانع، فضل الله كبير.

والحكاية التي أرددها كثيراً ولا أنساها؛ أحد شيوخ الأزهر الكبار رأى خطيب مسجد شاباً فتمنى أن يكون مثله، والرجل عمره آن ذاك خمسة وخمسون عاماً، رجل من صعيد مصر أميّ لا يقرأ ولا يكتب، لكن لا تنسوا أن مراتب الله العليا لا لمن سبق،

ولكن لمن صدق، فساق دابته إلى القاهرة، وسأل عن الأزعر، وهو يقصد الأزهر، وكان المسؤول رجلاً صالحاً، قال له: يا أخي اسمه جامع الأزهر، وليس جامع الأزعر، فتح الله عليك فتوح العارفين، وهذه الحكاية سمعتها من أحد العلماء، ثم قرأتها في كتاب وهي ثابتة، وتكاد لا تصدق، هذا الإنسان الأمي الصعيدي الجاهل الذي تمنى على الله أن يكون عالماً وشيخاً جليلاً، وساق حماره إلى الأزعر!! وصوبه له ذاك البائع، توجه إلى هذا المسجد، وتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن، وما زال يتقلب في مراتب العلم حتى عاش ستة وتسعين عاماً، ولم يمت إلا وهو شيخ الأزهر، ففي الخامسة والخمسين تاب هذا العبد إلى الله وهو في سن الشيخوخة، فإذا ناجى ربه كان يقول: يا رب لقد أبطات في المجيء إليك، تأخرت كثيراً...

وإذا تاب المرء، وذاق طعم التوبة يقول لك: قلبي يتلظى حرقة، كيف أمضيت هذا العمر في معصية الله عز وجل، بعد أن ذاق طعم الطهر، طعم القرب، طعم الإقبال على الله، طعم العمل الصالح، طعم العلم، طعم الشرف، يقول: يا ليتني عرفت الله قبل هذه السن، في المناجاة كان يقول: يا رب لقد أبطأت في المجيء إليك، فوقع في قلبه أن يا عبدي لا تقل هكذا، إنما أبطأ في المجيء إليّ من مات ولم يتب، ما دام قد بقي يوم واحد فإنك تستطيع التوبة، ما دام القلب ينبض فالأمل كبير، كلما بكرت كان أفضل لكن إنما أبطأ في المجيء إليّ من مات ولم يتب.

نصيب المؤمن من اسم (الغفار)

وبعد، فنحن كوننا عبيداً ما علاقتنا بهذا الاسم؟ الله غفار؟ وأنت أيها الإنسان... ألا تنسى أخطاء الآخرين؟ ألا تغفرها؟

قال العلماء: حظ المؤمن من اسم الغفار أن يستر من غيره ما يستره الله منه، أدق حق يعنيك من اسم الغفار أن تستر من إخوانك المؤمنين وغير المؤمنين ما ستره الله منك.

أتى عمرَ رضي الله عنه رجلٌ فقال: إن ابنةً لي كنت وأدتها في الجاهلية فاستخرجناها قبل أن تموت فأدركت معنى الإسلام فأسلمت ثم أصابها حدٌّ من حدود الله فأخذت

الشفرة لتذبح نفسها وأدركناها وقد قطعت بعض أدواجها فداويتها حتى برأت، ثم أقبلت بعد توبة حسنة وهي تخطب إلى قوم أفأخبرهم بالذي كان؟ قال عمر رضي الله عنه: أتعمد إلى ما ستره الله فتبديه؛ والله لئن أخبرت بشأنها أحداً لأجعلنك نكالاً لأهل الأمصار، أنكحها نكاح العفيفة المسلمة.

فأنت بوصفك مؤمناً لك أخ صديق زلّت قدمه، ووقع في معصية، وعلمتها أنت فلا ينبغي أن تذكرها لأحد إذا كنت مؤمناً، وعرفت اسم الغفار، كما أن الله غفر لك وتاب عليك يجب أن تغفر لإخوانك، وأن تستر ذنوبهم، وما يعرفه كثير من المسلمين أن: «الذنب شؤم على غير صاحبه، إن عيره ابتلي به، وإن اغتابه إثم، وإن رضي به شاركه».

لك أخ وقع في ذنب إن تكلمت عن ذنبه فقد اغتبته، وإن عيرته ابتليت به، وإن رضيت منه هذا الذنب شاركته في الإثم، إذا بلغ أحدنا أن أخاه أكل مالاً حراماً فيكفي أن يقول: «جيد ما فعل، استطاع أن ييسر معيشته» فهو بهذه الكلمات يأثم معه، فثناؤه على معصيته، واستحسانه لعمله مشاركة في الإثم، واحتقاره بقوله: كيف فعل هذا؟ سوف يبتلى بهذا الذنب لأنه عيره به، وذكرُ معصيته للناس استغابة له، هذا كله على من لم يفعل الذنب فكيف بالذي فعل الذنب؟

فمن تغافل عن المقابح وذكر المحاسن فهو ذو نصيب عظيم من الفضل، عوّد نفسك أن تكون إيجابياً، عوّد نفسك أن تذكر في الناس النواحي الإيجابية والمحاسن، في تعاملك مع الناس تغافل عن عيوبهم وأبرز محاسنهم، يحبوك، ومن الناس من يتغافل عن المحاسن كلها. وفي بعض الأدعية:

«اللهم! إني أعوذ بك من جار سوء إن رأى خيراً كتمه، وإن رأى شراً أذاعه، اللهم إني أعوذ بك من إمام سوء، إن أحسنت لم يقبل، وإن أسأت لم يغفر».

من أقبح تصرفات الإنسان أن يستر الجميل، ويذكر القبيح، وأن يستر المحاسن، ويظهر القبائح، أما المؤمن فإنه يتغافل عن القبائح، ويبرز المحاسن، والعرب تقول: الشرف معوان.

لك ابن تعرفه صادقاً أثنِ على صدقه، من الآباء من يبحث عن الغلط في ابنه ويقول: أنت كذا وأنت كذا، دوماً يزرع اليأس في ابنه، ألا يحمل ابنك أية ميزة؟!

قال أبو ذر: قلت: يا رسول الله! ماذا ينجي العبد من النار؟ قال: الإيمان بالله. قلت: يا نبي الله! إن مع الإيمان عمل.

قال: يرضح مما رزقه الله، قلت: يا رسول الله! أرأيت إن كان فقيراً لا يجد ما يرضح به؟ قال: يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر. قلت: يا رسول الله! أرأيت إن كان عييا لا يستطيع أن يأمر بمعروف و لا ينهى عن منكر؟ قال: يصنع لأخرق. قلت: أرأيت إن كان أخرق لا يستطيع أن يصنع شيئا؟ قال: يعين مغلوبا.

قلت: أرأيت إن كان ضعيفا لا يستطيع أن يعين مظلوما؟! فقال: ما تريد أن تترك في صاحبك من خير؟! تمسك الأذى عن الناس [الترمذي].

ليس من إنسان كلُّه مساوئ ولا ميزة له، عندك موظف مقصر لكنه أمين، قل له: أنا مسرور من أمانتك، شخص دخل على النبي ﷺ، دخل المسجد ليلحق ركعة مع رسول الله فركض، وأحدث ضجة وجلبة وصخباً وضجيجاً، وشوش على الصحابة صلاتهم فالنبيُّ الكريم ﷺ ماذا فعل؟:

عَن أبي بَكْرَةَ أَنَّهُ انْتَهَى إلى النبيِّ ﷺ وهُوَ راكِعٌ فَرَكَعَ قَبْلَ أنْ يَصِلَ إلى الصَّفِّ ثم مشى إلى الصف، فَذَكَرَ ذلِكَ للنبيِّ ﷺ فقال: «زَادَكَ اللهُ حِرْصاً ولا تَعُدْ» [صحيح البخاري].

كان أحد أمراء الأندلس شاعراً، قال ذات مرة، وهو في حديقة قصره: «نثر الريح على الماء زرد» ولم يتمكن من إكمال البيت، وكانت وراءه جارية قالت له: «يا له درعاً منيعاً لو جمد» أعجب بذكائها وشاعريتها فتزوجها، ثم أصبح هذا الإنسان ملكاً من ملوك الأندلس، وهو ابن عباد، وعاش معها حياة ناعمة، اشتهت مرة حياة الفقر

فأرادت أن تسير في الطين فجاء بالمسك والكافور، فجبلهما بماء الورد وقال: هذا طين امشِ عليه، وحدث خلاف ذات يوم بينهما، فماذا كانت النتيجة قالت هذه الجارية التي أصبحت ملكة وأكرمها إكراماً ما بعده إكرام قالت له: ما رأيت منك خيراً قط، فأجابها: ولا يوم الطين؟! ثم جاء ابن تاشفين من إفريقيا وحارب ملوك الطوائف وقضى عليهم، وأودعهم في السجن، وساءت حاله، وله قصيدة تبكّي كلَّ إنسان.

لك زوجة صالحة، لا تكثر من ملامتها، عندك ابن لا تكثر من ملامته وذمه، ألا يحمل أية ميزة؟ لقد حطمته، هذه الزوجة ألا تحمل أية ميزة أليست شريفة؟ إذا ذهبت إلى عملك ألست مطمئناً لعفتها وشرفها، فالإنسان المؤمن لا يغفل عن ميزات الناس، النبي الكريم رأى صهره أبا العاص بن الربيع مع الأسرى، أتى ليقاتل رسول الله يوم بدر، فهو صهره، زوج ابنته زينب، لم ينسَ أنه صهر ممتاز فقال: «ما ذممنا صهر أبي العاص» [أورده ابن سعد في الطبقات الكبرى].

أرقى شيء في صفات الإنسان أن يكون منصفاً، حولك زوجة، أولاد، إخوان، أصحاب، وجيران، وأتباع، وموظفون، أنت تعلم ميزاتهم صراحةً، وتعرفها حق المعرفة اذكرها لهم من حين لآخر، يحبوك جميعاً، عندئذٍ يتقبلون منك أية ملاحظة وأي نقد، وقد قال ﷺ لأبي بكرة: «زادك الله حرصاً ولا تعد».

أنت كونك مؤمناً يجب أن تظهر الجميل، وأن تستر القبيح، أما تصيّد الأخطاء وتصيُّد العيوب فليس هذا من أخلاق المؤمنين، بل هذا من أخلاق أهل الدنيا.

يروى أن سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام مرّ بجيفة كلب ولا أعتقد أن في الأرض أبشع لا في المنظر ولا في الرائحة من الجيفة، فقال الحواريون: ما أنتن ريحها! فقال عليه السلام: بل قولوا: ما أشد بياض أسنانها! ألم أقل لكم أحسنوا المحضر! لعل مغزى هذا الخبر: لن تكون أباً ناجحاً، ولا معلماً ناجحاً، ولا داعياً ناجحاً، ولا تاجراً ناجحاً، ولا مدير معمل ناجحاً، ولا مدير مستشفى ناجحاً، إلا إذا عرفت ميزات الذين حولك، ذكرتها وقدرتها، وبعدئذ وجه لهم ما شئت من النصائح

فيقبلونها منك، أما إذا غفلت عن ميزاتهم، وتتبعت أخطاءهم فهذا مما يبعدهم عنك وينفرهم منك.

على كلٍّ هذا ما استطعت بيانه حول هذا الاسم من أسماء الله الحسنى، وأسأل الله التوفيق دائماً، وكما يعلم القارئ الكريم: لا يعرف الله إلا الله، وقد ذكرنا بعض الآيات والأحاديث التي وردت حول اسم الغفار، ويجب أن يدفعنا اسم الغفار جميعاً إلى طلب المغفرة من الله عزَّ وجل على الدوام.

اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنا[1]، ولقد كان هذا الدعاء من أحب الأدعية إلى النبي ﷺ فلنكثر منه الحين بعد الحين.

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله أرأيتَ إن علمتُ أيَّ ليلةٍ ليلةُ القدر، ما أقول فيها؟ قال: قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني [رواه أحمد وابن ماجه والترمذي وصححه].

الولي

هذا الاسم ورد مطلقاً معرفاً في قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾ [الشورى:٩].

وفي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى:٢٨].

وقد ورد هذا الاسم مقيداً (أي مضافاً) في نصوص كثيرة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف:١٩٦].

وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [المائدة:٥٥].

وورد في السنة الصحيحة، كما في البخاري من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال: «سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول جهارا غير سِرّ: إن آل أبي ليسوا بأوليائي، إنما وَلِيِّيَ اللهُ وصالحُ المؤمنين ولكن لها رحم أَبُلُّهَا بِبلالها» [البخاري من حديث عمرو بن العاص].

أي أصِلُها بصلتها التي أُمرت بها، فالولاء شيء والواجب شيء آخر.

ولائي، محبتي، إخلاصي، تعاوني مع المؤمنين، يقول ﷺ: «لا تُصَاحِبْ إلا مُؤْمِنا، ولا يأكُلْ طَعَامَكَ إلا تَقِيّ» [أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري].

أنت لا ترتاح إلا مع المؤمن لأنه صادق، متواضع، منصِف، رحيم، متعاون، تتعامل مع المؤمن بالولاء، وتتعامل مع الآخر ولو كان قريباً بالواجب.

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لقمان:١٥].

هناك واجبات، وهناك حقوق، يجب أن تصله، أن تحسن إليه، أن تقدّم له ما يحتاج لأنه أبوك، أمّا إذا كان الأب مؤمناً فيجتمع له الولاء والواجب، ينبغي أن يكون ولاؤك لله، ولرسوله، وللمؤمنين، وينبغي أن تؤدي واجبك لكل من يلوذ بك، شئت أم أبيت.

«إِن آل أبي ليسوا بأوليائي، إنما وَلِيِّيَ اللهُ وصالحُ المؤمنين ولكن لها رحم أَبُلُّهَا بِبلالها» [البخاري من حديث عمرو بن العاص].

هذا الكلام مفاده: أن المؤمن يتمتع بما يسمى بالولاء والبراء، يوالي المؤمنين، يحمل همَّهم، ينصرهم، يتعاون معهم، يتألّم لألمهم، يسعد لسعادتهم، يفرح لنجزاتهم، يدافع عنهم، أما أقرباؤه فلهم حق عليه، يؤدي هذا الحق بالتمام والكمال، لكنَّ قلبه مع المؤمن، هناك حالات كثيرة جداً، أن إنساناً تعرف إلى الله، واستقام على أمره، ومن حوله من أقربائه ليسوا كذلك، يؤدي لهم واجب القرابة لكنّ ولاءه للمؤمنين، هذا موقف متوازن، معتدل، هذا موقف تؤدَّى فيه الحقوق، أما قلبك فلا تملكه، قلبك مع المؤمنين، قلبك مع الصادقين، مع المتواضعين، مع المنصفين، مع المحبين لله ولرسوله.

من معاني اسم الله الولي

الوليّ في اللغة، صيغة مبالغة من اسم الفاعل الوالي، فعله ولي، يلي، ولاية.

والوليُّ هو الذي يلي غيره، بلا فاصل، يعني ليس بينهما أحد، إنسان جالس بمكان فمن جلس إلى جانبه تماماً فهو الوليّ الذي يليه، ويكون هذا التقارب في المكان، أو النسب.

ويطلق الوليّ على الوالد، والناصر والحاكم وأولي الأمر، والسيد.

أما الولاية فهي تولي الأمر كقوله تعالى: ﴿ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ ﴾ [البقرة:٢٨٢].

من يتولى أمرك، من يدير شؤونك، من يرعاك، من ترجع إليه، من تستشيره، من تعتمد عليه، وعند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إذا صنعَ لأحدكم خادمُهُ طعاماً، ثم جاءه به وقد وليَ حرَّه ودخانه، فليُقعده معه فليأكل» .

لك خادم صنع لك طعاماً، فليأكل معك، من تواضع النبي ﷺ أنّه كان يأكل مع الخادم.

ابن القيم رحمه الله تعالى، يرى أنّ ولاية الله جلّ جلاله لخلقه ولايتان، ولاية عامة، وولاية خاصة، فالولاية العامة هي ولاية الله لشؤون عباده، وتكفله بأرزاقهم، وتدبيره أحوالهم.

بستان فيه شجر التفاح، الشجرة السابعة، الغصن الرابع، التفاحة الخامسة، هذه لفلان، قُسمت له، وفلان مخير، إمّا أن يشتريها بماله الحلال، وإما أن يأكلها ضيافة، وإما أن تقدّم له هدية، وإما أن يتسوّلها، وإما أن يسرقها، وهي له، لكن طريقة وصول رزق الإنسان باختياره.

أما هذا الشيء الذي أكله أو انتفع به فهو في الأصل له، إما أن يأكله حلالاً فيرقى أو أن يأكله حراماً فيسقط.

الولاية العامة تقتضي العناية، والتدبير، وتصريف الأمور، وتدبير المقادير، فالله من فوق عرشه قريب من عباده، هو معهم بعلمه، يرى ما يفعلون، يسمع شكواهم، يعلم أحوالهم، والآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق:١٦].

أما الولاية الخاصة: فهذه تعني المؤمنين، ولاية الله للمؤمنين ولاية حفظ، وفي الآية الكريمة: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة:٥١].

أيها الأخ المؤمن، أيها المستقيم على أمر الله، يا من تخطب ودّ الله، يجب أن تؤمن يقيناً أنَّ الله لن يتخلّى عنك، ولك معاملة خاصة، يؤكد هذا آيات كثيرة: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾ [القصص:٦١].

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية:٢١].

أتمنى أن يكون واضحاً لديكم أن وعد الله فوق كل ظرف، بأي بلد متقدم، متخلف، غني، فقير، في شدة عامة، في غلاء، في وضع صعب، إذا وعد الله المؤمن بحياة طيبة فلا بد من أن يصل إليها.

إذاً الله عز وجل يدبر حياة المؤمنين من ولايته الخاصة، المؤمن ينصره الله.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [غافر:٥١].

﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات:١٧٣].

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم:٤٧].

﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء:١٤١].

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النور:٥٥].

﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى﴾ [النور:٥٥].

وعدك بالحفظ.

﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [يوسف:٦٤].

وعدك بالتأييد، وعدك بالتوفيق.

﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾ [هود:٨٨].

لا يتحقق شيء في الكون إلا بمشيئة الله، الولاية الخاصة ولاية نصر، وتأييد، وحفظ، وتمكين.

المعنى الأول للوليّ هو المُتوَلِّي، والمتولي هو الذي يقوم بالأمر كوَلي اليتيم يرعاه بدراسته وصحته وجسمه وغذائه وطعامه وأخلاقه وعلمه، أيُّ خلل يسارع إلى معالجته، يعطيه ويحفظه ويوَلِّيه، الوليّ من الفعل تولى، وتولى الأمر: دَبَّرَهُ وأقام عليه، إذ يستحيل أن يكون الابن في دمشق مثلاً والأب في لندن ويربي الأب ابنَه تربيةً جيِّدة، فالقرب من لوازم الوليّ؟ أجل، القرب، ولا تستطيع المرأة أن تربي أولادها وهي غائبة عنهم، لا طعام ولا عناية ولا غسيل ولا نظافة ولا تربية ولا دراسة، فالوليّ هو المُرَبِّي

الذي يتولّى شؤون عبده كلِّها، حاله كحال الصحة، فإذا خالف الإنسان منهج صحته هناك أجهزة الإنذار، لا يموت مباشرة، فأجهزة الإنذار تنبهه، هذا أهمل أسنانه تأتيه آلام، فالآلام جرس إنذار مبكّر، فربنا عز وجل تولى تربية أجسامنا؛ فهذا النسيج اللحمي يلتئم حسب الظاهر من تلقاء نفسه، لكن لولا أن الله سبحانه وتعالى خلقه بطريقة يلتئم بها لما التأم، هل سمعت مرةً أن شخصاً كسرت سيارته والتأم الكسر وحده؟! هل يتم هذا في عالم السيارات؟ أما في عالم البشر فممكن، إذ وظيفة الطبيب العظمي أن يضع العظمة بجانب العظمة وانتهى دوره، ويتولى الله جل في علاه أن تلتئم العظمَتان، إذ الخلايا العظمية بعد اكتمال نمو الإنسان تنام وتدخل في سُبات: ثلاثين سنة، خمسين سنة، فإذا حصل كسر تستيقظ ويلتئم الكسر، فالله هو الوليّ، يتولى أمورك، يعتني بك ويربيك، ويلاحظ أحوالك: إقبالك وإدبارك وانحرافك واستقامتك وإخلاصك ورياءك؛ بل إن الإنسان يعالج في كل ثانية، لا يحدث شيء على وجه الأرض إلا بحكمة مطلقة وخير مطلق ومعالجة مطلقة، وهذا هو معنى ﴿ ٱللَّهُ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وهو ولي كُلِّ خَلْقِه حتى الكافر، فالكافر يتولاه الله تعالى ولكن بطريقة أخرى.

الوليُّ هو المتولّي لأمور خلقه، القائم على تدبير ملكه، الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، كما قال سبحانه: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ [الحج:٦٥].

مثل بسيط: كتلتان مغناطيسيتان، وضعناهما على مستوٍ، وجئنا بكرة فولاذية وضعنا هذه الكرة بينهما، في مكان لو أزحته واحد من مئة من المليمتر تنجذب هذه الكرة الحديدة إلى إحدى الكتلتين، أما في مكان وسط هندسي دقيق جداً تتوازن جاذبيات كلّ كتلة فتبقى في مكانها، هذه حالة، الكتلتان متساويتان في الحجم، لو كتلة أكبر وكتلة أصغر الحساب صار أدق، يجب أن تكون في مكان بين الكتلتين لكن ليس في المنتصف، في مكان يتناسب مع جذب الكتلة الأكبر، وجذب الكتلة الأصغر، لو كانت

ثلاث كتل، لكان الأمر أصعب، لو أنّها خمس كتل متفاوتة في الحجم، وأنت يجب أن تضع كرة حديدية بين هذه الكتل فالحسابات لا تنتهي، وقد يكون شيئاً مستحيلاً، وإن كانت هذه الكتل في الفراغ شيء أعلى، شيء أدنى، شيء أقرب، شيء أبعد، شيء أكبر، شيء أصغر، هذا يسميه العلماء التوازن الحركيّ.

هكذا الكون، مجرات، وكواكب، ونجوم، وكبير، وصغير، وكثيف، وغير كثيف، والمحصلة توازن حركي، هذا من آيات الله الدالة على عظمته.

المعنى الثاني لكلمة ولي: الناصر، قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [التوبة:٧١].

ينصر بعضهم بعضاً، وقوله تعالى: ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [فصلت:٣١].

أي: ننصركم على عدوكم في الدنيا والآخرة، وأولياء السلطان: أنصاره، فالمعنى الأول: الوليّ هو المربي الذي يتولى أمر عباده جميعاً، والمعنى الثاني الوليّ: الناصر.

قال بعضهم: الوليّ من نصر أولياءه وقهر أعداءه، والوليّ بحُسن رعايته منصور، والعدو بحكم شقاقه مقهور، والأمور تدور، وحياتنا لا تستقر إلا بنصر المؤمن وقهر الكافر، فالعبرة بالاستقرار، المؤمن يُبتلى لكن لا تستقر حياته إلا بإكرام الله له، والكافر تجده مشتتاً ولا تستقر حياته إلا على الهلاك، إذا أردت الجواب الدقيق فراقب شيخوخة مؤمن وشيخوخة كافر، المؤمن كلما تقدمت سنه ازداد عقلاً وعلماً ونوراً ومكانة بين أولاده وإخوانه وجيرانه ومجتمعه، جالسْه وانظر إلى وجهه، فلعل مجالسة العلماء قربة إلى الله، انظر طيبَ سريرته، وانظر إلى علاقاته الطيبة، تراه عفُوّاً سمحاً كريماً متواضعاً، ثم انظر إلى إنسان أمضى عمره في الشهوات، انظر إلى شيخوخته، وإذا بلغ أرذل العمر.

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ [النحل: ٧٠].

لذلك لا يُعتَمد على فترة الشباب لأن المعوّل عليه خريف العمر، هناك رجل صالح ذهب إلى المدينة المنورة ليجاور النبي ﷺ، قيل: رأى النبي ﷺ في منامه يقول له: عملك في بلدك خير من مجاورتي، إذا جاورتني تسعدُ ولا ترقى وتوقف عملك، في الحج نسعد جداً عند رسول الله ﷺ، أما في بلدنا فنعمل الصالحات فنرقى، هناك نأكل وننام ونزور ونبكي، ونعود إلى بلدنا، لكن في بلدنا نعين على الإنفاق، فهناك أماكن يسعد بها الإنسان ولا يرقى، وأماكن يرقى ويسعد فعاد إلى الشام وأسس مدرسة دينية وهي موجودة حتى الآن، وعلَّم فيها ثمانين عاماً حتى كان يقول لبعض تلاميذه: يا بني كان أبوك تلميذي، كان جدّك تلميذي، وعاش ستّة وتسعين عاماً بقامة منتَصبة، وبصرٍ حاد، وسمع مرهف، وأسنان منتظمة، ونشاط في الجسد، وقوّة في الروح، وكل من سأله: ما هذه الصحة يا شيخ؟ يقول: يا بني هذه جوارح حفظناها عن معاصي الله في الصِّغر، فحفظها الله علينا في الكبر! لا أظن أن إنساناً غضّ بصره عن محارم الله إلا حفظ الله له عينيه، وما أصغى بأذنيه لكلام الله ولكلام النبي العدنان ﷺ إلا حفظ الله له سمعه، وآخَرُ سار إلى المساجد يحفظ الله له رجليه، وذاك أنفق بيده اليمنى صان الله يديه، واعلم أنه ما من عثرة ولا اختلاج عِرق ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم وما يعفو الله عنه أكثر، فالوليّ بحُسن رعايته منصور، والعدو بحكم شقاقه مقهور، وهناك إنسان يموت وهو غارق في الشهوات والزنى والانحراف، فإذا أمضى حياته في المعاصي يكون هيِّناً على الناس.

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الدخان: ٢٩].

أمّا المؤمن فهو غالٍ على الله عز وجل وعلى الناس، وفي الحديث الشريف: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء». مرةً كنت متجهاً إلى سوق الحميدية وجدت

شخصاً ميتاً، غِبْتُ ست ساعات ورجعت ولم يأتِ قاضي التحقيق بعد. ومرة كنت في تعزية وجلس أمامي عالم جليل سألته عن صحته وحاله ثم قام من التعزية وخرج فشاهده شخص لا يعرفه -واحتراماً لهذا العالم- أوصله بالسيارة إلى بيته، وبيته في الطابق الرابع وبعدها صعد ودخل بيته وغيَّر ثوبه، وأسلم روحه إلى ربه، فلو أراد أن يستأجر مركبة لما وصل، فسبحان الله ذاك مات في الطريق وهذا مات بفراشه، وتجد من يموت بالمرحاض، قال ﷺ: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء» [الطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة]، ألا تريد شيخوخة منوَّرة؟ وشيخوخة فيها وقار، خالية من خرف فكن ولي الله، أسمعُ قِصصاً عن المتقدِّمين في السن، زوجته تعيِّره وأولاده يقولون له إذا تكلم: اصمت! لقد سمعنا هذه القصة منك آلاف المرات، ويصبح عبئاً عليهم، فهذا لم يحفظ نفسه وجوارحه في الصِّغَر، لذا فاحْفظها في الصَّغَر يحفظْها الله عليك في الكِبَر، فمن عاش تقياً عاش قوياً. زرت عالِماً عمره خمس وثمانون سنة ما يزال قوياً، يذهب إلى عمله كل يوم، وله عمل رسمي فهنأته على نشاطه وسلامة جسمه، وهناك بعض العلماء في مصر عاش مئة ونيّفاً ويتمتَّع بأعلى درجات الصحة، فالقاعدة: الأتقى هو الأقوى، والعاقبة للمتقين، والقضية واضحة تماماً، من تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت، حدثني طبيب أنَّ مريضاً أصيب بضيق في الشرايين والحلُّ هو أن يُكثر الناس الكلام معه كي يفكر فإذا فكر توسعت الشرايين وتغذى الدِّماغ، أما قارئ القرآن والمصلي فيحدث معهما نشاط ذهني من هذه الصلاة فقلما تجد إنساناً مصلياً ومن المكثرين لقراءة القرآن يصل إلى درجة الخرف.

والمعنى الثالث: المُحِبُّ، والدليل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧].

أي: يحبهم، إذاً هو يرعاكم وينصركم ويحبكم، لكن لو فتحنا كتب اللغة على معنى الوليّ لوَجدنا أن الوليّ يُطلق على المُعتِق والمُعْتَق، أي: على السيِّد والعبْد في وقت واحد، وعلى الناصِر وعلى الجار، وعلى ابن العم وعلى الحليف وعلى القيِّم بالأمر، فهذه

المعاني المتباعدة المختلفة أليس لها خيط يضمها جميعاً؟ قالوا المعنى الذي يجمعها جميعاً؛ الوليّ: القريب، والدليل حينما قال الله عز وجل: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ [القيامة:٣٤].

ومعنى أولى لك فأولى، أي: اقترب منك ما أنذرك الله به، أو قاربك ما يهلكك ويكاد أن يتحقق، أيضاً قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [التوبة:١٢٣].

فكل معاني الولاية تصل فيما بينها أواصر معنى واحد يجمعها، وهو أن الله جل في عُلاه مع عباده والدليل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد:٤].

هذه المعية العامة وقوله تعالى: ﴿مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [التوبة:٣٦].

هذه المعية الخاصة، موضوع القرب يحتاج إلى تفصيل.

إذا أمسك أحدهم مذياعاً موصولاً بمأخذ كهربائي، وضمه إلى صدره، وجعله بين جوانحه، واشتد عليه، أيهما أقرب إلى المذياع الشخص الذي ضمه بين جوانحه، أم الكهرباء التي يعمل بها؟ لا شك أن الكهرباء التي تغذيه هي الأقرب ولذلك: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق:١٦].

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ فمهما شعرت أنَّ زوجتك أو ابنك، أو جارك أو شريكك قريب، فالله عز وجل أقرب إليك من نفسك.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال:٢٤].

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ فالمراقبة أساسها الشعور أن الله معك، أحياناً في الصيف يرتدي الإنسان قميصاً داخلياً، فإذا طُرق بابه، فأول شيء يفعله أن يرتدي عباءته لأنه يستحي أن يظهر أمام الضيف بقميص داخلي. من أرقى

أحوال المؤمن حال المراقبة، فيوقن أن الله معه في خلوته وجلوته وفي سفره وحضره، والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، هذا هو حال المؤمن مع الله، هو حال الإحساس أنَّ الله معه يستحي من الله عز وجل، أخرج عبد الرزاق في «مصنفه» عن ابن جريج قال: بلغني أن النبي ﷺ خرج فإذا هو بأجير له يغتسل في البَراز -أي في الفضاء الخالي من الشجر ونحوه- فقال له النبي ﷺ: «لا أراكَ تستحيي مِن ربك، خذْ أجارَتَكَ لا حاجةَ لنا بك».

بلغني أنه في بعض الدول التي تؤمن أنه (لا إله) والتي أزالها الله، أن طالباً جامعياً ذهب ليدرس في جامعتها فوجد مراحيضها بلا حواجز، فمئة طالب يدخلون إلى هذا البهو الكبير، يقضون حوائجهم بعضهم أمام بعض، والحمامات كذلك كلُّهم لا يستحيون من الله، فالإنسان يظهر حياؤه في ستر عورته، ويحرص على أن يظهر أمام الناس بأجمل مظهر، أما هذا الذي لا يبالي ولا يرعوي فهو إنسان لا يستحي من الله، قال له: «لا أراك تستحيي من ربك خذ أجارتك لا حاجة لنا بك»، فالله قريب وهو الوليّ الحميد، تُوكل تربية ابنك إلى معلم يكون قاسياً، يضربه ضرباً مبرِّحاً أو بالعكس يهمله، قد يكون هناك معلم يدخل إلى الصف يُلقي درساً ولا يعطي وظيفة، فالطالب طيلة السنة مستمع، والمعلم ألقى الدروس، والطلاب في وادٍ وهو في وادٍ، ما أمسك بيده قلماً ولا شرح بيتاً شعرياً مثلاً، فهذا الطفل لا تنمو قدراته العلمية، إذ نمو العلم بالممارسة، فهذا ولي غير حميد.

إضاءات على بعض الآيات التي ورد فيها اسم (الولي)

الله سبحانه وتعالى وليّ الذين آمنوا، والحياة كما ترون محفوفة بالمخاطر، يمكن أن تنقلب حياة الإنسان إلى كتلة من الشقاء لأتفه الأسباب، فمن هي الجهة التي تحمي المؤمن وتحفظه وتربيه وترشده وترعاه وتؤيده وتنصره وتدافع عنه وتوقظه وتلفت نظره؟ الله هو الوليّ، هذا الاسم ورد في القرآن الكريم في آيات كثيرة، أول هذه الآيات

وأوضحها: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٧].

يعني أن صاحب الأسماء الحسنى هو خالق الكون الربُّ المسيِّر العليم الحكيم الرحيم الغني القوي، هذه الذات الكاملة، هذه الذات التي لا حدود لقدرتها ولا لرحمتها ولا لقوتها ولا لغناها، الله هو ذاته على علوِّه وعظمته وجلاله، الله وليُّ الذين آمنوا، مثلاً يمكن أن يكون في قصر العدل آلاف المحامين إلا أنّ أربعة أو خمسة منهم في قِمّة هؤلاء، إذا سألت واحداً له قضية: مَن محاميك؟ يقول لك: فلان يذكر اسمه بملء فمه ويفتخر، المحامي الفلاني اللامع القدير المتمرّس الخبير القوي صاحب الحجة صاحب الاطلاع هو وكيلي، ألا تكفينا آية؟ ألا تكفينا هذه الآية أنك إذا آمنت وإذا استقمت كان خالق الكون وَليَّك، خالق السموات والأرض، هل لك خصوم؟ كلُّهم بيده، حركتهم وأفكارهم وخططهم وقوتهم وأسلحتهم، كلُّها بيد الله عز وجل، فإذا كنت مع الله عز وجل فمن يستطيع أن يقف في وجهك؟! من يستطيع أن يكيد لك؟ من يستطيع أن ينال منك؟ من يستطيع أن يقهرك؟ من يستطيع أن يحيف عليك؟ ألا تكفينا هذه الآية؟

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة:٢٥٧].

ما عليك إلا أن تؤمن، دعونا نقترب من طبيعة الحياة، هذا الذي له صلة بشخص قويٍّ يعتزّ به، ويثني عليه، ويحتمي به، ويهدّد به، ويستعلي به، ويتطاول به، يقول لك: معي رقم هاتفه، وهو الذي قال لي: خبّرني عند كل بادرة، والله عز وجل الذي رفع

السموات بغير عمدٍ يقول لك: إذا آمنت بي فأنا وَلِيُّك، وأنا أُدافع عنك، وأنا أنصرك، وأنا أحفظك وأُؤيِّدك، وأنا أحميك وأنت بعيني وأنت برعايتي.

﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الطور:٤٨].

الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور. الكفر ظلمات بعضها فوق بعض، متاهات تُرّهات أضاليل أكاذيب حقائق مزوَّرة، أفكار هدامة، تناقضات، تمزّقات، أفكار مهترئة لا تقف على قدميها، هذا هو الكفر أباطيل وظلمات، المعاصي ظلمة، الكفر ظلمة، الشرك ظلمة، فهذا مشرك عاصٍ ملحد فاسق منافق منحرف دجال أناني، قال تعالى: ﴿ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ [النور:٤٠]، أمّا المؤمن فيخرجه الله من الظلمات إلى النّور، نور الحق، نور الهدى، نور المنهج، نور معرفة حقيقة الحياة، وحقيقة الكون وحقيقة الإنسان وماذا قبل الدّنيا؟ وماذا في الدنيا؟ ماذا بعد الدنيا؟ هذه الآية: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ ﴾ [البقرة:٢٥٧].

تشير إلى أنه لا بد لك من ولي، فإما أن يكون الله وليَّك، وإما أن يكون الشيطان وليَّك، إما أن تتحرك بإلهام الملائكة من الله، وإما أن تتحرك بوساوس الشياطين، فلا بد أن تكون عبداً، عبداً لله أو عبداً لعبدٍ لئيم، تجد الذين استنكفوا عن عبادة الله أذلهم الله أمام من هم أصغر منهم وحقرهم أمام الآخرين، فإما أن يكون الله وليك، أو لا بد أن يكون الشيطان وليَّك، فالشيطان يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا يعلمون، ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ ﴾ [آل عمران:١٧٥] يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً.

سيدنا يوسف ماذا فعل به إخوته؟ ألقَوْه في غيابة الجب، تآمروا على قتله، حسدوه، ضاقت نفوسهم به، ومع أن الله عز وجل مكّنهم أن يضعوه في غيابة الجب، ومع أن الله عز وجل أقدرهم على أن يضعوه في قعر بئر، لكن انظروا إذا كان الله وليَّ

المؤمن كيف يكون المصير؟ صار عزيز مصر هذا الذي أُلقي في البئر ليموت يقيناً، كيف أنَّ الله الهَم قافلة وأحوجها إلى الماء، وأرسلت واردها، فأدلى دلوه.

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [يوسف:١٩].

قال: يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة، وباعوه في مصر، واشتراه العزيز وقال لامرأته: أكرمي مثواه. إذا تولى الله عز وجل أمرك، فوالله الذي لا إله إلا هو لا تستطيع قوى الأرض مجتمعةً أن ينالوا منك، وإذا تخلى الله عنك فإنّ الحياة تنقضي على أتفه سبب، يموت حَتْفَ أنْفِه، ماذا قال سيدنا يوسف حينما توجَّه إلى الله جل وعلا؟، قال: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يوسف:١٠١].

﴿ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾، فيا أخي المؤمن ناج ربك، قل له: يا رب ليس لي رب إلا أنت، أنت وليّي، حسبي الله ونِعم الوكيل، لا حول ولا قوة إلا بالله، رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً، أليس لك مع الله ساعة مناجاة وابتهال وتضرع وخشوع وإقبال ودعاء؟ هكذا ناجِهِ وتوسل إليه، لا تعتمد على زوجتك ولا على ولدك ولا على أخيك ولا على صديقك ولا على صحتك ولا على مالك.

تجد طبيباً ذا اختصاص بجهاز الهضم من الطراز الأول مصاباً بقرحة؛ لأنه يتوهم أنه طبيب يعلم ما ينبغي وما لا ينبغي، اعتمد على علمه ولم يعتمد على الله عز وجل، فأصيب في اختصاصه، وهذا من حكمة الله عز وجل.

أيها القراء الأكارم؛ أكاد أقول: هناك حالتان لا ثالث لهما: -وأنا والله أعني ما أقول- أنت بين حالتين: إما أن يتولّى الله أمرك، وإما أن يكلك إلى نفسك: يتولى الله أمرك إذا كنت عبداً له وافتقرت إليه وتوكلت عليه وأقبلت عليه، ويتخلّى عنك أو

يكِلك إلى نفسك إذ قلت: أنا. ولا أدلَّ على ذلك من قصتين شهيرتين عظيمتين قرآنيتين لمعركتين من معارك رسول الله ﷺ: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [آل عمران:١٢٣].

وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [التوبة:٢٥].

أنت في عملك وفي بيتك وفي اختصاصك ومع زوجتك وجيرانك ومع دراستك وكسبك للمال، حينما تعتمد على الله يتولى الله أمرك، وحينما تعتمد على نفسك يكلك الله إليها، قال سيدنا يوسف: أنت وليي في الدنيا والآخرة، دعاء لطيف، والمؤمنون ماذا يقولون؟

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة:٢٨٦].

الإيمان ليس كلاماً تسمعه ولا أفكاراً تتوهمها ولا طقوساً تؤديها، الإيمان اعتقاد يقيني واتصال بالله، وأن تكون حسن العلاقة مع الله عز وجل، تسأله وتناجيه تدعوه وتتوكل عليه ترجوه وتستغفره.

﴿ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَـٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأنعام:٦٢].

ما معنى كلمة الحق؟ أي: لا مولى بحق إلا الله، فالناس لضعف إيمانهم ولشركهم الخفي يعتقدون أنَّ زيداً أو عُبيداً قويٌّ ويدْعَمُهم ويأخذ بيدهم ويحفظهم، هذا وليٌّ باطل، الوليّ الحقُّ هو الله جلَّ في علاه. أيُّ جهة دون الله إذا اتخذتها ولياً فأنت مبطِل، لأنَّ الذي اتّخذته ولياً باطل، والباطل لا يقوم على قدميه، إنّه زائل ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ

ٱلْحَقِّ﴾ اسمعوا قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد:١١].

مثلهما مثل طفلين: أحدهما بلا أب ولا أم ولا مال ولا بيت، ينام في الطرقات والحدائق، قلبه ممتلئ خوفاً، وآخر له أب مقتدر وعالم وغني، وللطفل غرفة خاصة به، إذا مرض فإنّه يُؤخذ فوراً إلى الطبيب، ويقدَّم له أحسن دواء وأرقى مستشفى، إذا لم يحرز قصب السبق في الرياضيات يوفر له أساتذة يأتونه إلى البيت، هذا الطفل له أب وليٌّ يقوم عليه، والآخر دون أب ولا أم ولا جهة تحميه، حالته تعيسة جداً، هذا معنى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد:١١].

ولله المثل الأعلى، فالكافر لا وليّ له لأنه رفض أن يكون الله وليَّه وأدار ظهره للدين والقرآن، والحياة كلُّها مفاجآت؛ تجد إنساناً بأعلى مكان وأعلى مرتبة، وفجأةً يصبح أشلاء، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد:١١].

وقوله تعالى: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف:١٠١].

الله ولي الخلق جميعاً صالحهم وطالحهم، مؤمنهم وكافرهم، ولايته للصالحين إكرامهم، وولايته للكافر تربيته وتأديبه، والدليل: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأنعام:١٤٧].

وفي آية أخرى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾ [الشورى:٩].

فالله هو الوليّ، وهذه تعني شيئاً في علم البلاغة، هذه تعني القصر، أي: لا وَليَّ إلا الله، فمن اتخذ غير الله ولياً بقي بلا ولي؛ لأن ما سوى الله لا يسمى ولياً.

ويقول تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشورى:٢٨].

تحوي هذه الآية معنىً إضافياً، فأول آية ﴿ هُوَ ٱلْوَلِىُّ ﴾ أي: لا ولي إلا الله، أما الآية الثانية فهي ﴿ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ ﴾ تشير هذه الآية إلى أن ولاية الله مطلقة في كمالها، مثلاً قد تجد أماً مهملة وأباً مهملاً ومقصراً، أما الله عز وجل إذا تولى مؤمناً فولايته مطلقة في كمالها وصوابها.

ويقول جلّ جلاله: ﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الجاثية:١٩].

الولاية هنا مجازية لا بمعناها الحقيقي وإنما بمعناها المعاكس، أي: الظالمون يورِّط بعضهم بعضاً في التهلكة والهلاك، قال الله عز وجل: ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ والمتقون هم الطائعون، فالله يتولى المتقي، والظالم يتولى الظالم، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾ [محمد:١١].

آية أخرى: ﴿ إِنَّ وَلِۦِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٩٦].

إذا جاء التولي مع الصالحين كان ذلك تولياً بالإكرام، أما إذا لم يكن الإنسان صالحاً فإن الله يتولاه بالمعالجة.

آية أخرى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المائدة:٥٦].

إذا نظرت في التاريخ طالعك: أبو جهل وأبو لهب وأمية بن خلف؛ هؤلاء ما مصيرهم؟ قُتلوا في بدر ثم قذفوا في البئر، وخاطبهم النبي ﷺ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أنّ رسولَ الله ﷺ ترك قَتلى بدر ثلاثاً، ثم أتاهم، فقام عليهم، فناداهم، فقال:

«يا أبا جهل بن هشام، يا أميَّةَ بن خَلَف، يا عُتبةَ بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، أليس قد وجدتُم ما وعدَ ربكم حقاً؟ فإني قد وجدت ما وَعَدني ربي حقاً» فسمعَ عمر بن الخطاب قولَ النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، كيف يَسمعوا؟ أو أنَّى يُجيبوا، وقد جَيَّفُوا؟ قال: «والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم، ولكنهم لا يَقدرونَ أن يُجيبوا»، ثم أُمر بهم فسُحبوا، فأُلقُوا في قَليب بدر [أخرجه مسلم].

والنبي ﷺ وأصحابه الكرام رفعهم الله مكاناً علياً، انظر عبر التاريخ فكل الذين والوا الله ورسوله أكرمهم الله عز وجل ورفع قدرهم وحفظهم، والذين وَالوا الشيطان أُهلكوا ودُمِّروا وأصبحوا في مزبلة التاريخ، إذاً هي إحدى المنزلتين، إما في سجل الخالدين وإما في مزبلة التاريخ، الذي وقف مع الحق ونصر دين الله عز وجل نصره الله عز وجل: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يونس:٦٢-٦٤].

ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم، لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فالله يعطيك في هذه الدنيا بعض النفحات وبعض التجليات وبعض المؤانسات، والرصيد يوم القيامة.

﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ﴾ [آل عمران:١٨٥].

لكن لهم البشرى في الحياة الدنيا، والدليل: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن:٤٦].

فالأولى في الدنيا، إذاً ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ﴾ [يونس:٦٤].

الآية الأخيرة: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران:١٠٣].

فبفضل تولية الله للمؤمنين صاروا أولياء متحابين بعدما كانوا أعداء متباغضين.

وكذلك قوله: ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [النساء:٤٥].

فالله عز وجل إذا تولى أمر قوم كفاهم، ولقد تقوم ذات يوم بزيارة طبيب ثم تقول: والله ما استفدت شيئاً، أريد طبيباً آخر، أو توكل محامياً فلا يعجبك فتريد آخر، لكن إذا تولاك الله تعالى فهو الذي يطمئنُك.

نصيب المؤمن من اسم الله (الولي)

حظُّ المؤمن من هذا الاسم أن يكون وليّاً لله عز وجل، وتعريف الوليّ هو: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [يونس:٦٢-٦٣].

فإذا كنت تحبّ أن يكون الله وليّك؟ فكن وليّه بالإيمان به والاستقامة على أمره، وعندها يصبح خالق الكون وليّك.

تشعر أن الله هو الذي ساق لك هذا وصرف عنك هذا، وفرّج عنك وضيّق عليك... فأنت مؤمن لشعورك أن الله هو مربيك، لا لأنَّ الإيمان منطقي فحسب. كما يحلو لبعضهم أن يدَّعي، حدثني أخ أنه ذهب متنزهاً يومَ جمعةٍ، ومن عادته حضور درسِ عِلْمٍ في هذا اليوم، ففقد في رحلته هذه وثائق سيارته ومبلغاً من المال، لقد ربّاه الله ولقّنه درساً، والنبي ﷺ يقول: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ» [متفق عليه من حديث عائشة]، أفضل خروج تخرجه من بيتك هو أن تتجه إلى مجلس علم، إذا خرجت من بيتك متجهاً إلى مجلس علم، أتُحِبّ أن يكون الله وليّك؟ إن كان كذلك وضعت الملائكة لك أجنحتها رضاً بما تصنع، وهذا ملخَّص مفيد إن شاء الله تعالى.

الحياة ممتلئة بالمخاطر ومخيفة، وفيها منزلَقات؛ زرتُ صديقاً لي في بيته وهو في أوج صحته وفي أعلى درجات الترف، بعد يومين شعر بضيق التنفس فإذا به يعاني من مرض خطير، فالإنسان بلحظة تصبح حياته جحيماً، إذا كنت صالحاً وألمَّ بك مرض فقل الحمد لله، لكن المصيبة أن تكون غارقاً في المعاصي والشهوات، وحقوق العباد متعلقة برقبتك ويداهمك المرض العضال، فهذه الصحابية الجليلة وهي امرأة من بني دينار أصيب أبوها وزوجها وأخوها بمعركة أُحد، وهي تقول: ما فعل رسول الله! أرونيه حتى أنظر إليه! حتى رأته بأم عينيها فقالت: يا رسول الله! كل مصيبة بعدك جَلَلٌ [ابن هشام بسند حسن إلى سعد بن أبي وقاص].

فإذا كنت مستقيماً على شرع الله، دَخْلُك حلال، وتغضُّ بصرك، وتخشع في صلاتك، وتتلو كتاب ربك، ولك مجلس علم، فكل مصيبة بعد هذا تهون، لي قاعدة ألتزمها في حياتي خلاصتها أنني لا أيأس: فإذا وقعت مشكلة أقول: هذه لا تتعدى اليومين إن شاء الله، وهذه لا تتعدى ساعة، فكل حال يزول مع الزمن، فكلُّ مصائب الناس تجد أولها صعباً وآخرها سهلاً، مات شخص تحزن عليه وبعد شهرين تنساه، أُذكِّر القارئ الكريم: إذا كنت مع الله كان الله معك.

وإذا أردت أن يكون الله وليَّك يجب أن تكون وليَّه، وكي تكون ولياً لله فالقضية سهلة جداً؛ إذ يكفي أن تكون مؤمناً به ومستقيماً على صراطه.

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [يونس:٦٢-٦٣].

تواجه الشاب عدّة عقبات فيما يخص مستقبله، هل هو مشرق أو عابس مكفهرّ؟ هل زواجه ناجح؟ هل ذريته صالحة؟ إذا كان هذا الشاب مؤمناً بالله فإنه يقول: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [التوبة:٥١].

كلمة هو مولانا لها معنى عميق، أي: لن يصيبنا إلا الخير، فما دام الله هو مولانا فلن يصيبنا إلا الخير.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [التغابن:١٣].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فصلت:٣٠-٣٢].

أهمُّ شيء في بحثنا هذا أن تكون ولياً لله، حتى تستحق أن يكون اللهُ وليَّك، والحياة مزرعة الآخرة، بها ترقى، وليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته، فهذا الذي ينسحب من الحياة دراسة وعملاً، وهو عبء على الآخرين فهو ليس كاملاً في إيمانه، ولا من ترك آخرته لدنياه، أهمل الآخرة وغاص في الدنيا ثم فوجئ بالموت ولكن من أخذ من كليهما فإن الأولى مطية للثانية.

الرَّزَّاق

ورد هذا الاسم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات:٥٨].

وفي الحديث عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: أَقْرَأَنِي رَسُولُ الله ﷺ: «إِنِّي أَنَا الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ» [الترمذي].

من معاني اسم الله الرزاق

الرزّاق صيغة مبالغة، وإذا جاء اسم الله عز وجل بصيغة المبالغة فمعنى ذلك أنه يرزق العباد جميعاً مهما كثر عددهم، ويرزق الواحد منهم رزقاً وفيراً إذا شاء وبلا حدود، إما على مستوى مجموع المرزوقين، وإما على مستوى كميّة الرزق، وإذا أعطى أدهش.

وقال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٠].

ومن دعاء سيدنا داود عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، اللهم يا رازق البُغاث ارزقنا، (للبغاث حكاية)، ولا بأس من التعريف بها للقارئ الكريم: البغاث من فراخ الغراب، أضعف أنواع الطير، والمثل العربي الشهير: «إن البغاث بأرضنا يستنسر»، لشدة ضعفنا فإن البغاث وهو أضعف الطيور غدا حيالنا كالنسر[١].

البغاث فرخ من فراخ الغراب فإذا انفقأت البيضة عنه خرج البغاث أبيض كالشحمة، يعني قطعاً من الشحم، فإذا رآه الغراب أنكره لبياضه، لأن الغراب أسود اللون، فيسوق الله تعالى له بعض الحشرات يتغذّى عليها إلى أن ينبت ريشه ويسودّ لونه عندئذ يتعرف عليه الغراب.

فمن أغرب هذه القصص أن فراخ الغراب وهي البغاث عبارة عن شحمة بيضاء لا تقوى على شيء، والله سبحانه وتعالى يسوق لها الرزق، إذاً ورد في بعض الأدعية: يا رازق البغاث في عشه ارزقنا.

والحقيقة أن من الخطأ والسذاجة أن تحصر الرزق في الطعام والشراب، قال سبحانه: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران:٣٧].

فقال العلماء: «رزق الأبدان بالأطعمة ورزق الأرواح بالمعرفة»، والمعرفة أشرف الرزقَين، فإذا خصك الله بدخل وفير أكلت به أطيب الطعام، وخصَّ عبداً آخر برزق المعرفة، فاعلم علم اليقين أن العبد الآخر أكثر حظوةً عند الله منك، لأنه منحه رزق النفوس، رزق الأرواح وهي المعارف، قال الله عز وجل: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القصص:١٤].

---

(١) انظر مجمع الأمثال للميداني، ١/ ١٢.

هذا هو الرزق... وقد ورد في بعض الأحاديث: «أبيت يطعمني ربي ويسقيني» [متفق عليه من حديث أبي هريرة] وكأن النبي ﷺ استعمل كلمة الطعام والشراب للرزق الروحي وهو أشرف أنواع الأرزاق.

أخي القارئ الكريم، هذه بشارة: من أسباب سَعة الرزق الصلاة.. ما الدليل؟ قال الله عز وجل: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه:١٣٢].

استنباط من الآية لطيف جداً، فإذا أردت أن يزداد رزقك لن أقول لك: صلِّ، فأنت مصلٍّ، إنما أقول لك: أتقن صلواتك، فالخشوع من فرائض الصلاة لا من فضائلها، وربنا عز وجل حينما أثنى على المؤمنين، قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون:١-٢].

ومن آداب العبودية أن يرجع العبد إلى ربه في كل ما يريد، في الأشياء النفيسة وفي الأشياء الخسيسة، هذا من آداب العبد مع الله عز وجل، أن يرجع إليه في كل شيء خسيساً كان أو نفيساً، أي: إن الله يحب من العبد أن يسأله شسع نعله إذا انقطع، اسأله الأشياء الخسيسة كما تسأله الأشياء النفيسة... إذا أضعت مكان موعد اللقاء مثلاً فاستفد من الواقعة التالية:

ذكر لي أحد الإخوة أنه توجه إلى المدينة المنورة للزيارة، ونسي العنوان الذي سوف يتوجه إليه، فدعا الله في الطريق فساقه إلى البيت بشكل يسير، بينما إنسان آخر بقي عشر ساعات ضائعاً عن مكان البيت.

إذاً اسأله الأشياء الخسيسة كما تسأله الأشياء النفيسة، وهذا من تمام العبودية لله عز وجل.

وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليسأل أحدكم ربه حاجاته كلها، حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع» [رواه الترمذي].

الدليل... سيدنا موسى ﷺ ماذا سأل الله؟ قال: ﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ ﴾ [الأعراف:١٤٣]، فهذا من الأسئلة النفيسة من أرقى الأسئلة، ولما جاع قال: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤ ﴾ [القصص:٢٤]، وهذا دليل على أن العبد يجب أن يسأل ربه كلّ شيء.

سيدنا علي ﷺ يقول: «لستَ مطالباً بطلب الرزق ولكنك أُمرت بطلب الجنة» فما الذي فعلته؟ تركت ما أمرت بطلبه وطلبت ما أُمرت بتركه، وهذا انحراف من الإنسان لقلة ثقته بربه، والله سبحانه وتعالى ضمن لهم الرزق بأدلةٍ كثيرة، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨ ﴾ [الذاريات:٥٨].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٤٠ ﴾ [الروم:٤٠].

﴿ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٥١ ﴾ [الأنعام:١٥١].

﴿ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ٣١ ﴾ [الإسراء:٣١].

أدلة كثيرة... قال الله تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ٢٣ ﴾ [الذاريات:٢١-٢٣].

إذاً ربنا سبحانه وتعالى طمأننا بأنه تكفّل لنا رزقنا، ومع ذلك يجهد الناس ويبيعون دينهم بعرض من الدنيا قليل من أجل الرزق، تكّفل لنا بالرزق، وأمرنا أن نسعى للدار الآخرة، فقال: ﴿ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩ ﴾ [النجم:٣٩].

ما الذي يحصل، إنَّ الذي كُلِّفت في طلبه، توانيت في طلبه، والذي ضمنه لك سعيت إليه.

إذاً أقبلوا على ما كُلِّفتم ودعوا ما ضُمِن لكم، قال سالم بن أبي الجعد حدثت أن عيسى عليه السلام كان يقول: اعملوا لله، ولا تعلموا لبطونكم، وإياكم وفضول الدنيا! فإن فضول الدنيا عند الله رجز، هذا طير السماء يغدو ويروح ليس معه من أرزاقه شيء، لا يحرث ولا يحصد ويرزقه الله، فإن قلتم: إن بطوننا أعظم من بطون الطير، فهذه الوحوش من البقر والحمير تغدو وليس معها من أرزاقها شيء لا تحرث ولا تحصد يرزقها الله [أخرجه ابن أبي الدنيا].

إنسان توفي أخوه وترك له خمسة أولاد ليس لهم مورد رزق، فصار يبكي، ثم التقى بشيخه فقال له: ما بالك يا ولدي قال: توفي أخي وترك لي خمسة أيتام، قال: ألم يترك لهم شيئاً؟ قال: بلى شيئاً يكفيهم سنة، قال: جيد، حينما تنتهي هذه المؤونة ابدأ بالبكاء، فيروى أن هذا الرجل توفي قبل أن ينتهي الرزق بثلاثة أشهر.

أعرِفُ شخصاً سيُهدم منزله، لسبب تنظيمي، فضج وزمجر وأرعد، وتمزق وبكى واستعطف، وقد وُعِدَ وَعْداً قطعياً بتأمين بيتٍ لائق به، رغم كل الوعود والمواثيق بقي مضطرباً وضَجِراً ومات بعد أشهر عدة قبل أن يُهدم بيته.

الإنسان لا ينبغي له أن يهتم للشيء أكثر مما ينبغي، فالله الرزّاق موجود.

قال بعض العلماء: «الرزّاق من غذّى نفوس الأبدان بتوفيقه، وحلّى قلوب الأخيار بتصديقه»، دائماً الرزق رزقان: رزق الأبدان، ورزق النفوس، فإذا أحرزت النفس قوتها اطمأنت.

وبعض العلماء فسر القوت برزق الأرواح، يعني إذا صليت صلاةً وأعجبتك، إذا صليت وبكيت، إذا قرأت القرآن وخشع قلبك تطمئن، فالمعنى أنك قريب من الله عز وجل، وأن هناك حياة ونبضاً، وأن هناك شيئاً من الإخلاص فيك ولذلك خشعت، إذاً إذا أحرزتِ النفس قوتها اطمأنت، بالمعنيين الأول والثاني.

قال بعض العلماء: «الرزاق من خص الأغنياء بوجود الرزق»، ترى بين يدي الغنيِّ المالَ الكثير، يأكل ما يشتهي، يشتري أجمل بيت، يقتني أجمل أثاث، يذهب إلى أي مكان يشاء، يختار أجمل مركبة، يختار أجمل الثياب، يختار أجمل الأماكن، قال: «الرزاق هو الذي خص الأغنياء بوجود الرزق، وخص الفقراء المؤمنين بشهود الرزّاق».

أعطاك طعاماً وأعطى الغني طعاماً وشراباً وبيتاً ودخلاً ومركبة وأعطى الفقير المؤمن شهود الرزّاق، إما أن تجد الأرزاق، وإما أن تشهد الرزاق، المجموع ثابت، هناك نظرية رائعة جداً، معناها لو جمعت كل شيء أعطاك الله إياه وجمع الآخَرُ كل شيء أعطاه الله إياه لكان مجموع الاثنين واحداً، فإذا أخذ منك بعض البحبوحة عوضك عنها ببعض التجلي، وإذا أغرقك في النعيم المادي حرمك من نعيم القرب.

فهناك توازن يعبّر العلماء عنه؛ بأن المجموع واحد ثابت، وهناك نظرية أخرى ليست في المعنويات بل في الماديات، فلو أعطى الإنسان علامة للزوجة، وللبيت علامة، وللدخل علامة، ولوظيفته علامة، ولصحته علامة، ولوسامته علامة، تجد أن معظم الناس ينالون مجموع علامات واحداً، لكن متفاوتة فيما بينها، مثلاً ثماني علامات على الزوجة، اثنتان على الأولاد، خمس على الرزق فالمجموع خمس عشرة، اثنتان على الزوجة ثمانٍ على الأولاد خمس على الرزق المجموع خمس عشرة، عشر على الرزق ثلاث على الزوجة اثنتان على الأولاد المجموع خمس عشرة، فلو أمعنت النّظر فإنك ترى من له دخل أقل من حاجته منعماً براحة البال التي لا يحلم بها من آتاه الله رزقاً وفيراً، «من جعل الهموم هماً واحداً هم المعاد كفاه الله هم دنياه، ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبالِ الله في أي أوديته هلك» [ابن ماجه بسند حسن عن الأسود بن يزيد] وروي عنه ﷺ: «من أخذ منها فوق ما يكفيه أخذ من حتفه وهو لا يشعر» [رواه الديلمي في الفردوس من حديث أنس].

وهذا شيء آخر عن الرزق، فالرزق عزيزي القارئ هو ما يُنتَفع به: المال ينتفع به، العلم ينتفع به، الخلق ينتفع به، شعور القلب بالطمأنينة ينتفع به.

جاء رجل إلى حاتم الأصم، فقال: من أين تأكل؟ فقال: من خزائنه، فقال الرجل: أيلقي الله عليك الخبز من السماء، فما هذا الكلام؟ قال: لو لم تكن الأرض له لألقى علي من السماء الخبز، يرزقني من الأرض، هكذا تجد أن الإنسان حينما يطلب الرزق من الله عز وجل فيسوق الله له الرزق، فقد يلتقي أحدهم مصادفة بإنسان عاطل عن العمل فيسأله: أتعمل؟ يقول: لا، يقول له: هناك عمل في مكان كذا، وعند فلان، فاذهب إليه.

الموضوع طويل وله آلاف الشواهد، قد ترزق من حيث لا تحتسب، قد ترزق بسبب تافه جداً، قد ترزق بنظرة، قد ترزق برسالة جاءتك خطأً، قد ترزق ببضاعة كاسدة.

الشيء الذي يلفت النظر حقاً: أنك إذا علمت أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين أفردته بالقصد، الناس أحياناً يتجهون إلى زيد، إلى عُبيد، إلى فلان، إلى هذه الجهة يطمعون ليأخذوا، ولكن إذا علمت أن الله وحده هو الرزاق فإنك تفرده بالقصد ولا تسأل أحداً سواه، تكسب العزة والكرامة والطمأنينة والحظوة عند الله عز وجل بتفويضك الأمر إليه، وصدق التوجه والتوكل عليه.

قيل لإنسان آخر: من أين تأكل؟ قال: من خزائن مَلِكٍ لا تدخلها اللصوص، ولا يأكلها السوس، خزائن الله عز وجل مفتوحة، وخزائنه مملوءة، وخزائنه فيها كلُّ شي، والدليل قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحجر:٢١].

من أسخف النظريات أن يقول كثير من علماء الغرب الماديين وغيرهم: إن موارد الأرض تشحّ شيئاً فشيئاً، وإن الأرض مهددة بمجاعة، إن ازدياد السكان ازدياد هندسي، «مالتوس» يقول: الانفجار السكاني سيوقع الناس بمجاعة كبيرة، هذه كلها كلمات من لا يعرف الله عز وجل، لأن كل تقتير أو تقليل في الرزق هو تقليل من نوع التأديب لا من نوع العجز، والإنسان وحده إذا قتّر فعن عجز فيما بين يديه، أمّا الإله إذا قلل فلغاية التأديب فقط.

همَّ رجلٌ من السلف بالسفر فكره جيرانه سفره، فقالوا لزوجته: لم ترضين بسفره ولم يدع لك نفقة؟ قالت: زوجي عرفته أكّالاً وما عرفته رزاقاً، ولي رب رزاق، يذهب الأكّال ويبقى الرزاق.

فمن الأخطاء الشائعة أخطاء في التوحيد، يقولون: فلان «معيل» أي: عنده عائلة كبيرة، والصواب: فلان مُعال وليس مُعيلاً، المُعيل هو الله عز وجل، والناس كلهم على مائدة الرحمن.

كما قلت قبل قليل: إن الله عز وجل خصّ الأغنياء بوجود الأرزاق، وخص الفقراء بشهود الرزّاق، فمن شهد الرزّاق ما ضره ما فاته من الأرزاق، من علامة المؤمن أنه إذا عرف الله وصل إليه، ما تألم على شيء فاته من الدنيا قط، إذا تألمتَ ألماً شديداً، وإذا احترق القلب حرقة لاذعة على شيء فاتك من الدنيا فهذه علامةٌ على أنك لا تعرف الله، وأنك ما وصلت إليه، فلو وصلت إليه لما تألمت، ولما حزنت على شيء فاتك من الدنيا إطلاقاً، وقد قيل: إن سيدنا الصديق ﷺ ما ندم على شيء فاته من الدنيا قط، أحياناً تجلس مع إنسان تحس قلبه يحترق حسرةً وندماً لأن هذه الأرض باعها ثم ارتفع ثمنها إلى مئة ضعف، متألم ألماً شديداً لا حدود له، بل إن معظم الأمراض اليوم أمراض القلب والشرايين وأمراض المعدة وأمراض الأعصاب وأمراض الأوعية، هذه الأمراض أكثرها بسبب الآلام والندم، دائماً يتألم، أما إذا شهدت الرزاق ما ضرك ما فاتك من الأرزاق.

ومن عرف أن الرزاق واحد قصده ولم يسأل أحداً سواه، عن سفيان بن عيينة قال: دخل هشام الكعبة فإذا هو بسالم بن عبد الله فقال: سلني حاجة، قال: إني أستحيي من الله أن أسأل في بيته غيره، فلما خرجا قال: الآن فسلني حاجة، فقال له سالم: من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟ فقال: من حوائج الدنيا قال: والله! ما سألت الدنيا من يملكها فكيف أسألها من لا يملكها.

هذا العِزّ عزُّ التعفف، فما أجمل أن يعطي الغني الفقير، والأجمل من ذلك أن يتعفّف الفقير عن مال الغني، وأن يقول: الحمد لله.

قال بعض العلماء: «كما أن الله لا شريك له في خلقه، لا شريك له في رزقه، وكما أنه لا إله إلا الله، أيضاً لا رازق إلا الله». يقولون دائماً: إذا أعطى أدهش.

ولو كانت الأرزاقُ تجري على الحِجا هلكنَ إذنْ مِنْ جهلهِنَّ البهائمُ

قد ترى إنساناً ذكياً جداً رزقه قليل، وقد تجد إنساناً في منتهى البساطة والسذاجة رزقه وفير، فالمعنى أن الرزق له عامل آخر غير عامل الذكاء وعامل السعي، لكن ليتيقن كل إنسان أن للرزق علاقةً بالاستقامة، العوام يفهمون أن هذا الرزق مكتوب ولا حيلة لأحد في كسبه ودفعه، هذا الكلام صحيح من جانب واحد، فالله يقول: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦)﴾ [الجن:١٦].

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦)﴾ [الأعراف:٩٦].

روي عن رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه» [أخرجه أحمد في مسنده، وابن ماجه من حديث ثوبان] إذا أردنا أن نوضح هذه الحقيقة، مثلاً إذا رأيت أن ابنك ليس أهلاً لتملك المال، فإنك تعطيه الحد الأدنى، تعطيه مبلغاً يسيراً يكفي حاجاته الضرورية، أما إذا كان ابنك من أهل الصلاح، ورعاً واستقامةً واتزاناً وحكمةً تقول له: أبقِ معك الخمس مئة ليرة ولا شيء عليك، أما أن تعطي خمس مئة لولد آخر قد يذهب لأماكن لا ترضي الله عز وجل فلا يصح، بل تعطيه ثمن شطيرة وأجرة ركوب سيارة، الحد الأدنى... لذلك قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧)﴾ [الشورى:٢٧].

الفكرة خطيرة ومهمة جداً، التقليل تقليل تأديب لا تقليل عجز، أو الأصح من ذلك التقليل تقليل حكمة لا تقليل حاجة.

يروى في بعض الكتب أن سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، سأل الله في مناجاته، قال: يا رب إني لتعرض لي الحاجة الصغيرة أحياناً، أفأطلبها منك

أم أطلبها من غيرك؟ فأوحى الله إليه: لا تسأل غيري، أي: إنّ الإنسان أحياناً يحتاج شيئاً بسيطاً فليسأل الله حاجته كلَّها صغيرها وكبيرها، فهل هناك رزاق سواه؟ فمرةً حدثني طبيب ناشئ، افتتح عيادة في الريف، ووالدته مريضة في دمشق، وهو يحتاج إلى مبلغ معين، فتوجه إلى الله سبحانه يسأله ذلك المبلغ، فعلى خلاف العادة أتاه مريض وراء مريض... إلى أن اجتمع المبلغ بكامله.

تترتب على الإنسان أحياناً مدفوعات... فليقل: يا رب أنا محتاج فقير لعطائك فأعطني، عوِّد نفسك الطلب من الله، فإذا رأيت الزوجة متصلبة برأيها فقل: يا رب! رأيت الشريك مزعجاً... فقل: يا رب! لطِّفْه.... وجدت الابن منحرفاً... يا رب! أدِّبه... وجدت العمل مزعجاً... قل: يا رب! بدّله، عوِّد نفسك أن تسأل الله عز وجل كلَّ شيء، قال: يا رب! إني لتعرض لي الحاجة الصغيرة أفأسألها منك أم أطلبها من غيرك؟ فأوحى الله تعالى إليه: لا تسل غيري.

أحياناً الإنسان يقول لأخيه المؤمن حفظاً لماء وجهه وإكراماً له: إياك أن تسأل أحداً غيري، فكلما سنحت لك حاجة تعالَ إليّ وخذها مني، هذه منتهى المودة، فإنك إذا أحببت إنساناً حباً شديداً، فإنك لا ترضى أن يبذل ماء وجهه لزيد وعُبيد من الناس، فإنك تقول له: إياك وأستحلفك بالله أية حاجة تعرض لك فائْتِ إليّ، وكأن الله عز وجل لشدة حرصه علينا وحبه لنا يقول لنا: لا تسألوا غيري.

عفان بن مسلم قال: قال لي حماد بن سلمة -الذي قال فيه الإمام أحمد: إذا رأيت الرجل يغمز حماد بن سلمة فاتهمه على الإسلام-: ألح المطر علينا سنة من السنين وفي جواري امرأة من المتعبدات لها بنات أيتام فوكف السقف عليهم فسمعتها تقول: يا رفيق ارفق بي! فسكن المطر، فأخذت صرة فيها عشرة دنانير وقرعت بابها فقالت: اجعله حماد بن سلمة فقلت: أنا حماد وقد تأذيتِ بالمطر فقلتِ: يا رفيق ارفق بنا! فما بلغ من رفقه بك؟ فقالت: سكن المطر وادفأ الصبيان وجفف البيت، قال: فأخرجت الدنانير وقلت: انتفعي بهذه، فإذا صبية عليها مدرعة من صوف تستبين خروقها قد

خرجت علي، وقالت: ألا تسكت يا حماد! تعترض بيننا وبين ربنا ومولانا؟ ثم قالت: يا أماه قد علمنا أنا لما شكونا مولانا أنه سيبعث إلينا بالدنيا ليطردنا من بابه، وألصقت خدها بالتراب ثم قالت: أمّا أنا وعزتك لا زايلت بابك وإن طردتني.

ثم قالت يا حماد! رد عافاك الله دنانيرك إلى الموضع الذي أخرجتها منه، فإننا رفعنا حوائجنا إلى من يقبل الودائع ولا يبخس المعاملين.

أحياناً ينالك الخير من الله مباشرة وفي ذلك عزّ، إذ لا أحد له عليك مِنَّة، وأحياناً أنت تشتكي، فإذا اشتكيت لمؤمن قد يرقّ لك قلب هذا المؤمن، لكن الآن سيأتيك العطاء لا من الله مباشرة بل عن طريق هذا المؤمن، فإذا اشتكيت إلى كافر يشمت بك، وقد يعطيك، لكن هذا منتهى الإهانة أن يعطيك عن طريق كافر، فإذا كان هناك منظر يهز أعمق مشاعري أن أرى مؤمناً يتذلل أمام كافر، يبذل ماء وجهه، يتشكى، يتضعضع.

إنَّ الذي يحرّك الإنسان حبُّه أكثر مما يحركه عقله، فالإنسان بدافع الحب يقدم الغالي والرخيص والنفس والنفيس، بدافع الحب يقدّم كلَّ شيء، بدافع العقل قد يقتنع، وقد يعتقد، وقد يوقن، ولكنّه لا يتحرك.

لذلك فالدعاة إلى الله يجب أن يخاطبوا العقل والقلب في وقت واحد، ربما إذا أحدثوا في العقل القناعة فهذا نصف النجاح، أما إذا أحدثوا في الإنسان، بالإضافة إلى قناعة العقل، موقفاً أساسه الحب فهذا كلُّ النجاح، أنت قبل كل شيء إنسان ذو عقل ولك قلب، العقل إذا أعمَلْته في الكون عرفت الله، وإذا أدركت النعم الإلهية أحببته بقلبك، وإذا أحببت الله فقد أحسنت التوجّه، لا يُسمى الإنسان إنساناً إلا إذا أحبَّ.

مرةً كنا في الجامعة وقد أحيل أحد الأساتذة إلى التقاعد وأقيمت له حفلة طيبة، وهو أستاذ علم النفس، قال هذه الكلمة ولا أنساها:

«الإنسان الذي لا يشعر برغبة في أن يُحِب ولا يشعر برغبة أن يُحَب فليس من بني البشر»، لا يمكن أن تُسمَّى إنساناً إذا كان قلبك صخراً، أو إذا كان قلبك جلموداً.

إذاً لا بد من أن تُحِبَّ، الشيء الذي يلفت النظر هو أن أصحاب النبي ﷺ عليهم رضوان الله، لماذا فعلوا المستحيلات؟ لماذا باعوا أنفسهم؟ ولماذا ضحوا بكل شيء؟ أحدنا لو جرحت يده أو إصبعه لصاح ولضمدها ولاعتذر عن لقاءاته ولأخذ إجازةً... سيدنا جعفر تأتيه ضربة سيف تقطع يمينه فيُمسك الراية بشماله، تأتيه ضربة سيف أخرى تقطع شماله فيمسك الراية بعضديه إلى أن يخِرَّ شهيداً، ما هذا الحب الذي أدى بصاحبه إلى التفاني ثم للاستشهاد؟!

هناك من يقول: «لا أطلب من مولاي غير رضاه»، أي: لا أطلب من الله إلا رضاه ومحبته، وإذا كان شيءٌ حقير أطلبه من أهل الدنيا.

ولكن روي في الحديث: «لِيَسْال أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ حَتَّى يَسْأَلَهُ الْمِلْحَ، وحَتّى يَسْأَلَهُ شِسْعَ نَعْلِهِ إذا انْقَطَعَ» [أخرجه الترمذي عن ثابت البناني مرسلاً].

إن الله عز وجل يرزق الأرواح والسرائر كما يرزق الأشباح والظواهر، أؤكد لك إذا أنت صليت صلاة صحيحة، أو إذا أكرمك الله بالحج مثلاً فاعلم أن هذا رزق عظيم ساقه الله تعالى إليك، فأحدهم وقف في عرفات وبكى حتى انتشى، وبعضهم بقي شهراً في نشوة هذا البكاء، أو هذا القرب أو هذه الرحمة، إذا صلى فرض صلاة وشعر أن هذه الصلاة أدّاها بخشوع، وهذه هي الصلاة التي أرادها الله عز وجل، وشعر فيها بخشوع، وفتح الله عليه في فهم ما تلا من قرآن، هذه أرزاق، إذا صام رمضان صياماً مقبولاً وشعر أن صيامه كان صحيحاً، ليس فيه معاصٍ، كان منيباً إلى الله فيه، وصلى التراويح بنشاط، هذا فوز عظيم. إذ تحرَّى رضا الله والالتجاء إليه وسعد بالقرب منه.

قال العلماء: إن الله يرزق الأرواح والسرائر كما يرزق الأشباح والظواهر، وأرزاق القلوب الكشوفات والمعاني، كما أن أرزاق الأجساد الغذاء والأحاظي، (جمع حُظوة)، الكشوفات، أي: إنّ المؤمن يرى ما لا يرى الآخرون، عنده رؤية، عنده شعور، يعرف جوهر الحياة، يعرف أين كان وإلى أين المصير، يعرف أثمن ما في الحياة.

أحياناً الإنسان يضيع وقته بأشياء تافهة، وأحياناً يمضي وقته بأشياء ثمينة، وهذا أيضاً رزق، هناك نقطة أخرى، وهي عكس اليسر في الرزق، أي: العسر في الرزق بالنسبة إلى بعض الناس قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر:١٥-٢٠].

تراه ذكياً، يحمل شهادة عليا ودخله قليل، ليس له وظيفة ولا عمل، هذا بتقدير الله عز وجل فكما أن الله عز وجل، يضيّق على العبد رزقه المادي أحياناً يضيق عليه رزقه الروحي، يصلي صلاة لا معنى لها جوفاء ليس فيها خشوع، يشرد في الصلاة، قال لي شخص يعمل محاسباً: إذا وقعت في غلط بالمحاسبة فلا أذكر الصواب إلا في الصلاة، وقد تكون حسابات لم تسجل سهواً، فإذا صلى ذكرها في الصلاة، قال مكرراً: بالصلاة كل المشكلات تأتي إلى خاطري، فمعناها: هناك سد، كما أن الله عز وجل يضيق على العبد رزقه المادي أحياناً يضيق عليه رزقه الروحي، هذا التضييق له تفسيران، الأول أن هناك معصية، هناك مخالفة، هناك تقصير، هناك حقوق لم تؤدِّها، هذا حجاب، نعوذ بالله من أن نتردى فيه، كل معصية لها حجاب.

وهناك تفسير آخر، قد تكون مستقيماً على أمر الله لكن هذا التضييق سببه التعطيش وصلتَ لمرتبة أنت راغب بأن تبقى فيها، والله عز وجل أراد لك أن ترتقي عن هذه المرتبة، فكيف تنتقل من مرتبة إلى مرتبة، يحجب الله عنك الأحوال والمواجيد والتجليات، فتضجر وتقلق، وتخاف ثم تشمر وتعمل الصالحات، تصعد درجة، تعيش فيها فترة لا بأس بها ثم تألفها وترضى بها، لكن الله لا يرضى لك في هذه الحالة أن تستمر، فيحجب عنك الأحوال، فلا صلاتك صلاة، ولا ذكرك ذكر، ولا تلاوتك تلاوة، قلب متصحّر، حالٌ فيه ضيق واشمئزاز.

هو مستقيم، ولكن لا شفافية ولا أحوال ولا سرور ولا تجلِّيات، فيدفعه هذا إلى أن ينطلق إلى المزيد من العمل الصالح فيرفع المستوى فيقفز قفزة تبلغه أعلى درجة أرادها الله له بهذه الطريقة، إذاً هذا تفسير قد يضيق الله على عبده رزق الأرواح ليندفع بعد ذلك إلى الأرقى.

أنت كونك مؤمناً، إن سعدت بقربك من الله عز وجل فأنت مؤمن ورب الكعبة، وإذا كانت نشوتك وسرورك وطلاقتك وراحة نفسك وجدتها بإقبالك وقربك، فهذه علامة إيمانك، أما إذا تألقت عيناك وتورّد خداك وانطلق لسانك لأرباح حققتها أو لمكسب وصلت إليه فهذه علامة أخرى، فمن أنت؟ أَمِنْ أهل الدنيا أم من أهل الآخرة؟ إذا سرك عطاء البشر فأنت من أهل الدنيا، أما إذا سرك عطاء الله عز وجل فأنت من أهل الآخرة.

قال أحدهم: دخلت على داود الطائي فرأيته منسبطاً، وكنت إذا دخلت عليه أراه منقبضاً، المؤمن إذا أنكر قلبه وضعفت صلته بالله عز وجل يصبح كاليتيم، تراه هادئاً، تسأله: ما الخبر، خير إن شاء الله؟ يقول: لا شيء، قال الحسن البصري: إذا تلوت القرآن وذكرتَ الله عز وجل وصليت ولم تجد بشراً وانشراحاً فاعلم أنك محجوب، قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين:١٥].

ذاك حجاب الآخرة، ولكن هناك في الدنيا حجاب، إذا شعرت أنك محجوب انتبه وابحث عن السبب، لعلك مقصر، لعلك معتدٌّ بنفسك، لعلك مستغنٍ عن الله، لعلك وقع في نفسك سوء ظن بالله وأنت لا تدري، لعلك وقعت في سوء ظن بالنبي ﷺ وأنت لا تدري، فإذا شعرت أن بينك وبين الله حجاب فابحث عن السبب، وإياك أن يزداد الحجاب، والحجاب يرق ويثخن، فإذا كان الحجاب كثيفاً فالمشكلة خطيرة جداً، كما قال سيدنا عمر: «تعاهد قلبك»، يعني راقب قلبك، راقب أحوالك، راقب طمأنينتك، لو أن إنساناً استيقظ بعد صلاة الشمس فإذا لم يشعر بانقباض فحالته خطيرة جداً، لكن إذا شعرت بانقباض شديد وألم وشعور بالخزي والعار من الله عز

وجل وشعور بالضياع فهذه مشاعر إيمان وصلاح، أما إذا قال: مثل بعضها، ماذا جرى؟ فهذه أيضاً مشكلة كبيرة جداً.

«دخلت على داود الطائي فرأيته منبسطاً، وكنت إذا دخلت عليه أراه منقبضاً فقلت: أي شيء حالك؟ فقال سقاني البارحة شرابَ أُنسِهِ فأردت أن أجعل اليوم يوم عيد»، يعني صار له صلة بالله، أقبلَ على الله، وشعر بنشوة الاتصال، هذا أجمل ما عنده، فقال: أردت أن أجعل ذلك اليوم يوم عيد، لذلك إذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السموات والأرض: أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله.

نشوة المؤمن في تقربه من ربه، أرجو أن يتسع صدرك لهذه الكلمة، إذا سعد الإنسان في الدنيا فهذه علامة سلبية خطيرة فليحذر، الأهم والأولى أن تسعد بالله، وفي هذا الإيجابية والفلاح، والحقيقة الأخرى التي لا بد من التذكير بها: أن الإنسان لا يمكن أن يسعد إلا بالله، إذا سعد إنسان بها سوى الله فهذا شتاته وهوانه!! فالقرآن كلام الله، وربُّنا عز وجل قال: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه:١٢٤-١٢٦].

سأل رجل: ما بال الملوك والأغنياء فالدنيا كلُّها بأيديهم؟ كل شيء عندهم، وكذلك الأغنياء؟ والجواب: ضيق القلب، في قلوبهم من الضيق والتبرّم والشقاء ما لو وزع على أهل بلد كفاهم، لذلك فالله عز وجل قد يعطيك الدنيا، ويأخذ منك راحة قلبك، وقد يعطيك راحة القلب، ويسلب الدنيا منك، فالعبرة أن يكون قلبك غنياً بالله عز وجل.

قال: سقاني البارحة شراب أنسه فأردت أن أجعل من ذلك اليوم عيداً، فقلت: أتأذن لي أن أحمل لك طعاماً حتى تفطر؟ فقال: لست أشير إلى هذا، وشتان بين شراب يدار على الكف وشراب يكون في موجب لطف وروية كشف، هناك شراب مادي وهناك شراب معنوي.

إذاً الرزاق هوا لله عز وجل.

نصيب المؤمن من اسم الله (الرزاق)

وأخيراً فما علاقتنا بهذا الاسم؟ وهذه خلاصة مهمة جداً، أولاً عليك أن ترضى بقسمة الرزاق بدءاً من أمك وأبيك، فأنت ابن فلان وفلانة، هذا تقدير الله عز وجل.

عليك أخي المسلم أن ترضى بوالديك لأن هذا منتهى الحكمة، ويجب أن ترضى بشكلك، فالله أقامك بهذا الشكل، طول، قصر، وسامة، دمامة، صحة، ضعف، هكذا أقامك الله، فإذا اعترضت على الله فلست مؤمناً، يجب أن ترضى عن اختيار الله لك من أي رجل وامرأة كان سبب وجودك، وبأي شكل كان وجودك، وأن ترضى عن رزقك وعن زوجتك، فالله اختار لك هذه الزوجة، أكثر الأشخاص غير المؤمنين يمضي كلَّ حياته في عذاب، يقول: لم أُوفّق في هذه الزوجة، فالله اختارها لك، علم فيك خيراً فضمّها إليك لعلك تهديها إلى الله، انظر إلى المؤمن عنده حُسْن ظن بالله، لو أن الله ساق له ولداً سيئاً لا يتبرم، يقول: إن الله عز وجل هكذا اختاره لي، ولو كانت زوجه امرأة سيئة، رضي باختيار الله له.

هذا يعني أن ترضى عما رزقك الله.

والمعنى الثاني: أن تجعل يدك على مالك يد الرجل الأمين على مال الله، وأن تجعل مالك خزانة ربك، يدك على المال يد الأمانة لا يد الملك، قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان:٦٧].

إذاً المعنى الأول من معاني الرزق أن ترضى بما قسمه الله لك، وإذا رضيت بما قسمه الله لك تكن أغنى الناس، أما المعنى الثاني: فأن تجعل مالك مال ربك وأنت عليه أمين، ولستَ مالكاً.

المتين

ورد هذا الاسم معرّفاً في آية واحدة في القرآن الكريم، وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات:٥٨].

وقد ورد هذا الاسم أيضاً في السنة من حديث عبد الله بن مسعود حينما قال: «أَقْرَأَنِي رسولُ الله ﷺ إِنِّي أَنَا الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ» [أخرجه أبو داود والترمذي].

من معاني اسم الله المتين

المتين في اللغة صفة مشبهة باسم الفاعل، للموصوف بالمتانة، والمتين هو الشيء الثابت في قوته، أحياناً يوجد قوّة طارئة تزول، أما القوة الثابتة الأبدية فتعني المتانة، الشيء الثابت في قوته، الشديد في عزمه وتماسكه، والواسع في كماله وعظمته، ومتن، يمتن، متانة، أي قوي مع صلابة واشتداد.

ويلحق بمعنى المتين معنى الثبات، والامتداد، ويكون المتين بمعنى الواسع.

الآن المتن من كل شيء ما صلب ظهره، والجمع مُتون، تقول متن الحديث وأصل المادة في اللغة يدل على صلابة الشيء مع امتداد وطول، والمتن المنطقة الصلبة من الأرض، والمرتفعة، أرض متينة أي صلبة ومرتفعة.

والمتين الشيء الممتدّ الطويل مع الإحكام، ومع القوة.

فإذا قلنا الله جلّ جلاله هو المتين فهو كامل القوة، الذي بلغت قدرته أقصى الغايات، ولا يعجزه شيء لا في الأرض ولا في السماوات، قوة ثابتة، قوة مستمرة، قوة ممتدة، في أي مكان، وفي أي زمان.

والله هو المتين هو القوي في ذاته، الشديد الواسع، الكبير المحيط، فلا تنقطع قوته ولا تتأثر قدرته.

والله هو المتين هو القوي الشديد، المتناهي في القوة والقدرة، الذي لا تتناقص قدرته.

والله هو المتين الذي لا يلحقه في أفعاله مشقة، أنت قوي لكن هناك حدود لقوتك، بعد جري مسافة معينة مثلاً تصاب بالإعياء، أمّا إذا قلنا: إنّ الله هو المتين، فيعني أن قدرته بالغة الشدة، لا نهاية لها.

وقد وصف الله تعالى كيده بأنه متين فقال جل من قائل: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم:٤٥].

الكيد على إطلاقه هو التدبير في الخفاء بقصد الإساءة والابتلاء، أو المعاقبة والجزاء، إذا قلنا كيد فهو تدبير ليس في العلن، ليس نهاراً جهاراً، ليس على ملأ من الناس، الكيد تدبير في غرفة في قبو، في مكان مظلم، بعيد عن الناس، الكيد على إطلاقه هو التدبير في الخفاء، بقصد الإساءة والابتلاء، أو المعاقبة والجزاء، وقد يكون عيباً مذموماً إذا كان بالسوء في الابتداء.

إنسان قوي، يريد أن يأخذ ما ليس له، وخطط لذلك، هذا كيد يوصف بالسوء أو يُذَمّ، لأنه بدأ بالسوء، وقد يكون محموداً، مرغوباً إذا كان مقابلاً لكيد الكافرين والسفهاء إذا عُزي الكيد إلى الله فهو تدبير حكيم، عادل، حماية للمؤمنين، أما إذا عُزي الكيد إلى البشر تكون جهة قوية، تخترع مشكلة، أزمة، في بلد معين تطمع في ثرواته، تثيرها، ثم تحتل هذا البلد، هذا كيد الكافر كيد يوصف بالذّمّ والانحراف.

فإذا كان الكيد عند إطلاقه كمالاً في موضع، ونقصاً في موضع آخر، فلا يصح إطلاقه بحق الله دون تخصيص.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥)﴾

الله عز وجل من سننه أنه يهدي عباده، لأنه تعهد بهداية عباده، وحيثما جاءت كلمة على مع لفظ الجلالة فهي تعني الإلزام الذاتي.

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل:٩]. يعني على الله أن يبين سبيل القصد.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (١٢)﴾ [الليل:١٢]. أي ألزم ذاته العلية بهدى خلقه، حتى لو أن إنساناً فيه بذرة من الخير فإنّه يُسمِعُه الحق قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال:٢٣].

في العلوم الحديثة... الحبال التي تقاوم قوى الشّدّ تسمى متينة، وأمتن عنصر في الأرض هو الفولاذ المجدول -المضفور- فهو متين لذلك تُرفع به المصاعد وتُعلَّق عليه الغرف المتحركة التي تسير بين الجبال -التليفريك- لمتانته، فهو يقاوم قوى الشّدّ، إنّ الشّيء القاسي يقاوم قوى الضغط، وأقسى عنصر هو الماس، وبعده ميناء الأسنان، فالقساوة مقاومة قوى الضغط، والمتانة مقاومة قوى الشّدّ، فما الحكمة من قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥)﴾؟ أي كأنَّ الإنسان مربوط بحبلٍ متين لا يمكن أن يُتفلّت منه مهما تحرك، مهما قوي، مهما ذاع صيته، أو كثر ماله، مهما تألقت صحته، إنه مربوطٌ بحبلٍ متين ففي أية لحظةٍ يشدُّ الله الحبل، فالإنسان إذاً في قبضة الله عز وجل.

وفي الدّعاء النّبويّ: «اللهمَّ إنِّي أعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وفُجاءَةِ نِقْمَتِكَ، وجَميع سَخَطِكَ» [رواه مسلم، من حديث ابن عمر].

تجد أشخاصاً كثيرين أحدهم في تمام صحته فجأةً يشعر بشيء ينمو نمواً طارئاً وغير عادي، يسارع إلى الطبيب فيجد هذا الشيء ورماً، فهل يا ترى هذا الورم خبيث أو حميد، فيحلل فتظهر النتيجة أنه ورم خبيث في أماكن مميتة بلا سبب.

فالإنسان تحت رحمة الله عز وجل فإذا لم يكن مصطلحاً معه ومطيعاً له، ومنيباً، ومقبلاً، ومخلصاً، ومشتاقاً، ويقدِّم من الأعمال الصالحة ما تمكِّنه عند الله فمشكلته مع الله خطيرة.

إذاً: أصل المادة في اللغة يدلُّ على صلابةٍ في الشيء مع امتدادٍ وطول، فيمكن لسنتيمترٍ مكعبٍ واحدٍ من الإسمنت أن يحمل تقريباً في الحالات الخاصة خمسمئة كيلو غرام، أما على قوى الشد فلا يتحمَّل أكثر من خمسة كيلو غرامات شداً، فالإسمنت ضعيفٌ على الشّدّ ويحتاج إلى تسليح، أما على الضغط فهو قاسٍ ويتحمَّل ضغوطاً عالية جداً، إذاً فلا بد من إسمنتٍ مسلَّح، فالحديد ضمن الإسمنت ليقاوم قوى الشد، والإسمنت نفسه ليقاوم قوى الضغط، هذا معنى من معاني قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾... أي إن كل واحدٍ منا شاء أم أبى في قبضة الله دائماً، شعر أو لم يشعر أحسَّ أو لم يحسّ، أدرك أو لم يدرك... ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾... والمَتْنُ: ما صلب من الأرض وارتفع.

المتن: المنطقة الصُّلبة في الأرض المرتفعة، نقول: أرضٌ متينة، والمماتنة: المباعدة في الغاية... أي أنَّ هدفه بعيد، تشعر أنَّ المتين الشيء الممتد الطويل مع الإحكام، ومع القوة، ومع المتانة، وسار سيراً مماتِناً أي شديداً وبعيداً.

والمتين على وزن فَعيل... اسم فاعلٍ مبالَغٌ به مشتقٌ من المتانة، وهي شدة الشيء واستحكامه وصلابته.

أحياناً من الممكن أن تضع في بناء عشرة أطنان من الحديد، أو تضع خمسة أطنان منه أو ثلاثة أطنان، فإذا كان بداخله شوائب فحْميَّة مثلاً لا يصبح متيناً فيضاعفون الكمية، أما إذا كان خالياً من الشوائب الفحمية فالحديد متين، ويكفي أقلُّ كمية ممكنة منه وحسب المخطط لتوضع في البناء، فإذا لم يتقن الإنسان عمله وأنتج حديداً غير متين وغير متقن وبه شوائب، فيكلِّف البناءُ ثلاثة أضعاف ثمن الحديد حتى يطمئن المهندس إلى قوة البناء، وقد حَمَّل صاحب البناء ثلاثة أمثال الثمن لعدم متانة الحديد، وأذكِّر بأن إتقان العمل جزءٌ أساسيٌّ من الدين، وقال ﷺ: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه» [رواه البيهقي في شعب الإيمان من حديث عائشة].

إذن: إتقان العمل جزءٌ من الدين.

تذاكرتُ مع صديق لي وجودَ كسادٍ عند بعض الحرفيين، وتوقف أعمالهم أحياناً، قلت: فأما المتقن فعمله لا يتوقف، كلُّ حرفة لها درجات ومستويات، فتجد شخصاً من الدرجة الأولى، أو الثانية، أو الرابعة، أو الخامسة.. وهكذا... فالذي في الدرجة الأولى لا يتوقف عن العمل إطلاقاً لأن الطلبات عليه أشدُّ وأكثر من الوقت المتاح له، وكلما تدنّت درجة الإتقان فكساد عمله أكثر والطلب عليه قليل ويعاني عندئذٍ من بطالة، يشتغل أسبوعاً ويتوقَّف شهراً، فهذه بطالة مقنَّعة، وعندئذٍ دخله لا يكفيه، وهذه قاعدة... فإتقاننا للعمل هو الذي يسبب التفوُّق، وأنت أمعن النظر في الأمر فهذه سنَّة الله في خلقه، وأينما ذهبت فالمتقن متفوِّق ويعمل عملاً مستمراً، والمتقن دخله كبير وفي بحبوحة، فالإتقان سبب من أسباب زيادة الرزق.

وبالمناسبة... فإن أهم موضوع بعد حياة الإنسان هو رزقه، فهناك أولويات للإنسان... فأول شيء سلامته، فإذا كان صحيحاً من كل الأمراض فقد حقق السلامة، وبعد السلامة الرزق، والإنسان إذا أيقن أن الله سبحانه وتعالى لا يسمح لمخلوقٍ أن يتدخل في شأن الحياة والرزق اطمأنَّ قلبه، فهذه الروح التي أودعها الله في الإنسان لا يمكن لمخلوقٍ كائنٍ من كان أن ينزعها منه، أما إذا بدا لك بالعين المجردة أن فلاناً قتل

فلاناً فالمقتول قُتل في أجله، ففي علم العقيدة: المقتول يقتل في ساعة أجله لا في أجلٍ قبل ساعة أجله، فأمر الحياة منوطٌ بالله عز وجل، وأمر الرزق منوط بالله عز وجل.

أخطر شيء في وجودك حياتُك ورزقُك، فالحياة والرزق أمران مقطوع قضاء الله فيهما عن أن يتسلَّمهما إنسان، ولو بدا لك أنَّ هذا الإنسان قويٌّ أو أمره نافذ، ولو بدا لك أنه يفعل ما يريد، إلا أنَّ الحقيقة أن أمر الحياة وأمر الرزق لم يُتح لمخلوقٍ أن يتسلَّمهما أو يتصرف فيهما، فلهذا قالوا: كلمةُ الحقِّ لا تَقطَعُ رزقاً ولا تُقرِّبُ أجلاً.

وبعد فإن المتين كما قلنا قبل قليل: مشتقٌّ من المتانة وهي شدة الشيء واستحكامه وصِلابته، وقيل: المتين هو الشديد، يقال: هو متين القِوى، أي: شديد القِوى.

ومن المجاز أن نقول: رأيٌ متين، خطبةٌ متينة، مقالةٌ متينة، أي: متماسكة، فقد يكون الأسلوب قوياً فيقال لك: التراكيب متينة، أي: مشدودة، متراصّة، محكمة، فتشعر بتركيب قوي، وأحياناً تجد التركيب ضعيفاً مهلهلاً غير محكم، وهذا استخدام مجازي للمتانة... ومن المجاز: رأي متين.

وقيل: المتين بمعنى القوي، فهو على ما يشاء قدير.

إذا قلنا: إن الله قويٌّ متين... أي: لا يحتاج في إمضاء حكمه إلى جندٍ أو مدد، ولا إلى معينٍ أو عضد... ولا إلى من يسانده... لأن الله سبحانه وتعالى قويٌّ بذاته، متينٌ بذاته.

وبالمناسبة... فالإنسان يحبُّ القوي ويلتفت إليه، فالله سبحانه وتعالى صاحب الأسماء الحسنى، فمن القوة قويّ، ومن الغنى غنيّ، ومن الحكمة حكيم، ومن الرحمة رحيم، ومن اللطف لطيف، فكلما اشتدت معرفتك بأسماء الله الحسنى اشتدَّ حبُّك له، وقد ورد: «أرجحكم عقلاً أشدُّكم لله حباً».

وقيل: «المتين هو كامل القوة، الذي بلغت قدرته أقصى الغايات، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السموات».

وقيل: «المتين بالغ الشدة، فالله شديد القوة والقدرة، والله متمٌّ قدرته، وبالغٌ أمره».

وقيل: «المتين المتناهي في المتانة، يؤثّر في الأشياء ولا تؤثّر فيه الأشياء».

نصيب المؤمن من اسم الله (المتين)

ماذا يعني أن نعرف أنَّ الله قويٌّ متين؟ قال العلماء: إذا عرفت أنَّ الله قويٌّ متين وأنَّ الأمر كلَّه بيده قطعت الرجاء عمن سواه، فانظر إلى الذي يهلك الناس؟ الناس يحتاجون بعضهم إلى بعض، فيقفون على أبواب اللئام، فقد سئل سيدنا علي رضي الله عنه: ما الذّلّ؟ قال: أن يقف الكريم بباب اللئيم ثم يردُّه.

ويقول رضي الله عنه: «والله والله مرتين لحفر بئرين بإبرتين، وكنس أرض الحجاز في يومٍ عاصفٍ بريشتين، ونقل بحرين زاخرين بمنخلين، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين، أهون عليَّ من طلب حاجةٍ من لئيمٍ لوفاء دين».

ولئن عرف الإنسانُ: أنَّ الله هو القوي... فلسوف تتبدد أمام ناظريه كلُّ العقبات. ومعنى القوة واسع فسيح؛ فالقوة لله جميعاً، حتى القوة في الجمال، والقوة في العطاء، والقوة في العلم، وحتى القوة في الحكمة، فأعلى الصفات المتعلقة بأسماء الله الحسنى قد توصف بالقوة... فحينما تعلم علم اليقين أن الله قويٌّ متين تقطع الرجاء من غيره.

والحقيقة المُرَّة... أن يرجو الإنسان غير الله فالطريق عندئذٍ إلى الله مسدود، وأحياناً لحكمة بالغة ما دامت هناك منافذ أرضية فالطريق إلى الله مسدود، ومتى تلتجئ إليه؟ حينما تُغلق الأبواب كلُّها، فأحياناً يطرق الإنسان أول باب فيجده مغلقاً، والثاني كذلك مغلقاً، والثالث والرابع مغلقين فيضجر، عندئذٍ لا يجد إلا الله ملجأً له، فهو إذا كان عاقلاً فمنذ البداية يجب أن يعلم أنه لا إله إلا الله... لكن بسبب ضعف الإيمان في قلبه، وضعف التوحيد في عقيدته يتجه إلى زيد وإلى عبيد، وإلى فلان أو علاَّن فيجد أنّ الطرق جميعَها مغلقة، فيخيب ظنُّه بالناس جميعاً، فيلجأ بعد ذلك إلى الله.

تُروى قصة فيها موعظة في أيام العهد العثماني... عن إنسان في دمشق افتقر الافتقار الشديد، فضاقت به السُّبُل ولم يجد قوت يومه، وكان له قريب يعمل في منصب رفيع جداً لدى السلطان العثماني في عاصمة الخلافة العثمانية اسطنبول، فخطر في نفسه أن يذهب إليه ليعمل هناك في وظيفة معينة فتحلّ بذلك مشكلته، فذهب إلى اسطنبول ودخل على قريبه فرحَّب به، وكتب قريبه استدعاء إلى السلطان لتعيين هذا القريب في منصب جيد، وكلما دخل على السلطان يرى هذا الاستدعاء غير ممهورٍ بخاتم السلطان فيضعه أعلى الأوراق فيفاجأ بعدم توقيع السلطان له، لأكثر من أسبوعين وهو ينتظر، وكان يبدو أنَّ هذا الموظف الكبير على شيء قليل من التوحيد وسلامة الاعتقاد، فذهب إلى قريبه وتجهَّم عليه وأسمعه كلاماً قاسياً، وأن الضيافة ثلاثة أيام لا مثل هذه المدة فكفاك هذا واذهب عنا... فحينها سمع الضيف هذا الكلام القاسي، وهذا الطرد البشع، خرج من بيت قريبه هائماً على وجهه وهو يبكي فقد كان هذا القريب أمله الأخير... لكن هذا القريب أرسل وراءه خادماً يتبعه ليعرف أين سيذهب، فذهب إلى خان -فندق- ولكن المفاجأة أن السلطان في اليوم التالي وافق على المعاملة المقدمة ووقَّع عليها، فاستدعاه وأبلغه النتيجة بأن قضيَّته قد حُلَّت.

وتفسيرها أن كل هذه الأيام كان هذا الضيف الذي أتى من الشام يعلِّق الآمال كلَّها على قريبه، ونسي الله، لذلك لم يُلهَم السلطان أن يوقِّع على الكتاب، فلما طرد هذا المسؤول قريبه شرَّ طردة، وقطع الأمل منه لجأ إلى الله عز وجل، وعندما أخلص رجاءه إلى الله أُلهم السلطان أن يوقِّع على الكتاب.

فالموعظة في هذه الواقعة مهمةٌ جداً... كلما علّقت الأمل على إنسان خاب ظنك، لأن الله يغار أن تعلِّق الأمل بغيره، أن تعتمد على غيره، أن تنقاد إلى غيره، أن تريق ماء وجهك لغيره، فالمؤمن فيما بينه وبين الله ليبالغ في التذلل، أما فيما بينه وبين الناس فليبالغ في العزة، أنت مع الناس عزيزٌ، أما فيما بينك وبين الله فأنت ذليل تقطّعت بك الأسباب، وهذا شأن المؤمن، فقد قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة:٥٤].

فالإنسان مع الله يتذلّل ويمرِّغ جبهته في التراب، أما حينما يقف أمام إنسان فلْيَقِفْ عزيز النفس؛ لذلك رأى النبي ﷺ أبا دجانة في أُحُدٍ يمشي متبختراً، فقال ﷺ: «إنها مشية يبغضها الله إلا في هذا الموضع» [رواه الطبراني في الكبير، عن خالد بن سليمان بن عبدالله بن خالد بن سماك بن خرشة، عن أبيه، عن جده].

المؤمن لا ينبغي له أن يضعف أمام كافر، أن يتوسّل إليه، أن يتضعضع له... من جلس إلى غنيٍّ فتضعضع له ذهب ثلثا دينه.

إذاً أول تطبيق عملي لهذا الاسم... ما دام الله هو القوي المتين اقطع الأمل ممن سواه، فلا تجد مؤمناً صادقاً إلا وله مناجاة لله عز وجل يناجيه، يسترضيه، يستغفره، يتوب إليه، يسأله... إن الله يحبُّ من عبده أن يسأله حاجته كلها... إنَّ الله يحبُّ من عبده أن يسأله مِلح طعامه... إن الله يحبُّ من العبد أن يسأله شسْعَ نعله إذا انقطع... مَن لا يدعوني أغضب عليه، إنَّ الله يحبُّ الملحِّين بالدعاء.

وفي بعض الأدعية: إلهي أنت المتين المعين، تمدُّ الوجود بالقوة، وتجعل أحبابك في حصنٍ حصين، أعطنا متانةً في أجسامنا نصبر بها على الطاعة، وامنحنا قوةً في قلوبنا نكن بها مع السنّة والجماعة، أعطنا مدداً من غيب قدرتك نهزم به النفس والشيطان والكفار وأهل العصيان إنك على كل شيءٍ قدير.

يقولون: مَن علم أنَّ مولاه على كل شيءٍ قدير قطع الرجاء ممن سواه، وأفرد له سرَّه، كما قال الخليل إبراهيم عليه السلام... ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾... أراد أني سهَّلت طريقهم إليك، وقطعت رجاءهم عمن سواك، ثم قال: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: شغلتُهم بخدمتك خاصةً، وأنت أولى بهم مني ومنهم... لذلك قال: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: إذا احتاجوا إلى شيء ذللت عبادك لهم فإنك على كل شيءٍ قدير.

وهذا في الآية الكريمة: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم:٣٧].

الإمام الجُنيد قال: سمعت السريَّ يقول: إنَّ في قُرى بغداد أولياء لله تعالى لا يعرفهم الخلق، كنت أدور في قرى بغداد لعلي أرى منهم واحداً، فقال له الإمام الجُنيد: هيهات أن تراهم، ولكن كن منهم تراهم وأنت في بيتك.

من تطبيقات هذا الاسم أنَّ اللائق بالإنسان ألا يغترَّ بقوته لأنه أمام قوة الله بلا حول ولا قوة، بل يطالبه الأدب بإظهار الضعف أمام ربِّه القوي مهما كان المرء غنياً بقوته، وأنت مهما كنت قوياً، مهما كنت صحيحاً، يجب أن تظهر ضعفك أمام الله عز وجل.

سيدنا عمر كان يوماً على المنبر يخطب وهو أمير المؤمنين، فجأةً قطع الخطبة وقال: يا ابن الخطاب -يخاطب نفسه- كنت ترعى غنيماتٍ على قراريط لبني مخزوم. فهذا الكلام ليس له معنى إطلاقاً وليس له علاقة بالخطبة، فلما نزل سأله عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: يا أمير المؤمنين ما حملك على ما قلت؟!! قال: قالت لي نفسي وأنا أخطب: أنت أمير المؤمنين، ليس بينك وبين الله أحد فأردْتُ أن أعرِّف نفسي حقيقتها.

فإذا كنت ضعيفاً وربُّك قوي متين فلا تخف. فأنت عبد القوي، عبد المتين، وإذا أعطاك ربّك قوة فكنت قوياً، والقوة لله وحده فلا تغتر بقوّتك لأنَّ الله -عز وجل- كما يدهش في العطاء يدهش في الأخذ.

فكان سيدنا عمر يقول: اللهم كبرت سني وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مُضَيِّع ولا مُفَرِّط.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا اشتكيت فضع يدك حيث تشتكي ثم قل: بسم الله أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد من وجعي هذا، ثم ارفع يدك، ثم أعد ذلك وتراً»

[رواه الترمذي والحاكم من حديث أنس بن مالك].

والآن لديّ تعليقٌ أتمنى أن تمعن النظر وتقلبه معي قالوا: هذا الاسم؛ اسم المتين لا يتعارض مع سعي الإنسان ليكون قوياً لأن الله عز وجل يقول: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنفال:٦٠].

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾... أي أن ضعفك وتذللك وافتقارك، وعبوديتك، وتمريغ وجهك في التراب تواضعاً لله عز وجل، فليكن هذا فيما بينك وبين الله، أما أمام أهل الدنيا، أمام المنحرفين، أمام المشركين فيجب أن تظهر قوياً فقد قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الشورى:٣٩-٤٠].

قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾، والنبي ﷺ يقول:

«الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى الله مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِالله وَلا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ الله وَما شاءَ فَعَلَ، فإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ» [صحيح مسلم من حديث أبي هريرة].

«رحم الله امرأً أراهم اليوم من نفسه قوةً» روي أنه قالها ﷺ لأصحابه في عمرة القضاء [السيرة النبوية لابن هشام، وانظر فقه السيرة، لمحمد الغزالي].

هذا افتقارك فيما بينك وبين الله، الصحابة كانوا في الليل رهباناً، أما في النهار فهم فرسان، أما إذا تمسكن الإنسان أمام الناس وأظهر الضعف أمامهم فحنَى ظهره مثلاً... فقد باء خاسراً مهزوماً. وفي عهد عمر بن الخطاب كان من حنى ظهره علاه عمر بالدّرة وقال له: ارفع رأسك يا أخي فقد أمتَّ علينا ديننا.

فالإنسان ينبغي أن يسير رافع الرأس، ينبغي أن يظهر أنه قوي، أما فيما بينه وبين الله فإنه يتذلّل.

يروى أن سيدنا عمر كان شديداً جداً حتى إن الناس اشتكوا شدّته، فجاءه أبو ذر وقال له: إن الناس هابوا شدَّتك يا أخي. فقال له: والله يا أبا ذر لو يعلم الناس ما في قلبي من الرحمة لأخذوا عباءتي هذه، ولكن هذا الأمر لا يناسبه إلا كما ترى.

إذاً: «المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف، وفي كل خير».

يذكر الإمام البخاري: في باب قول الله تعالى: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ﴾ [البقرة:١٩٧] أن من صفة أصحاب رسول الله ﷺ أنهم كانوا أهل قوة، [البخاري، من حديث عائشة] وطريق القوة والمتانة هو طريق الله، لأنَّ الكتاب الإلهي حبل الله المتين، ودينه هو الدين المتين.

«إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكَّل على الله، وإذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يد الله أوثق منك بما في يديك، وإذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتقِ الله».

تجد الإنسان أحياناً من ضعف إيمانه ومن ضعف توحيده يعلِّق الآمال بالآخرين، ويعلِّق الآمال بكفار، يريقُ ماء وجهه دونهم، ويتذلل لهم، ويتمسكن أمامهم، فيسقط من عينهم، وقد سقط من عين الله قبل أن يسقط من أعينهم.

لأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض فتتحطم أضلاعه أهون من أن يسقط من عين الله.

قال العلماء: ويعاب عليك أن تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم:

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

فكلما قوي إيمان الإنسان يصبح عزيزاً، ويصبح رافع الرأس، وكلما قوي إيمانه زاد اعتماده على الله وهو أهل التقوى وأهل المغفرة، وقال تعالى: ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا

يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ [الطلاق:٣].

اللهمَّ! أعنّا على دوام ذكرك وشكرك وحُسْن عبادتك، وارزقنا الشوق إلى لقائك ولذة النظر إلى وجهك الكريم، اللهمَّ! أرنا الحقَّ حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين، وصلَّى الله على سيدنا محمدٍ النبي الأمي وعلى آلهِ وصحبه وسلَّم.

البرّ

هذا الاسم ورد في القرآن الكريم مطلقاً يفيد المدح والثناء على الله جل جلاله في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الطور:٢٨].

من معاني اسم الله البر

البَرُّ سبحانه وتعالى هو العطوف على عباده، ببرّه ولطفه، فهو أهل البرِّ والعطاء، يحسن إلى عباده في الأرض والسماء.

روى البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: قال الله عز وجل: «أنفقْ أُنفِقْ عليك» [البخاري عن أبي هريرة].

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يدُ الله ملآى، لا يَغيضُها نفقة، سحَّاء الليل والنهار -يعني مستمرة في الليل والنهار- وقال: أرَأيتم ما أنْفَقَ منذُ خلق السماوات والأرضَ؟ فإنه لم يَغض ما بيده وكان عرْشُه على الماء، وبيده الميزانُ، يَخفِضُ ويَرفَعُ» [البخاري عن أبي هريرة].

البَرُّ هو الصادق في وعده، الذي يتجاوز عن عبده، وينصره ويحميه.

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر:٧٤].

فهذه الوعود التي وعد الله بها عباده المؤمنين، زوال الكون أهون على الله من ألا تتحقق، من الذي يعدك؟ رب السماوات والأرض، خالق السماوات والأرض، إله السماوات والأرض.

البَرُّ هو المحسن إلى عباده، الذي عمّ بره وإحسانه جميع خلقه، فما منهم من أحد إلا وتكفل الله برزقه.

قال أبو السعود: البَرُّ كثير الرحمة، الذي إذا عُبد أثاب، وإذا سُئل أجاب، وفي الحديث: «إِنَّ مِن عِبادِ الله مَنْ لَوْ أَقْسَمَ على الله لأَبَرَّه» [البخاري عن أنس بن مالك].

«رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بالأبواب لو أَقْسَمَ عَلَى الله لأَبَرَّهُ» [أخرجه مسلم عن أبي هريرة].

هذه الكلمة باؤها مثلَّثة... ومعنى ذلك أنك تقول: بَرٌّ، وبُرٌّ، وبِرٌّ، فالبُرُّ هو القمح... والبِرُّ هو الإحسان.. والبَرُّ هو اليابسة في الأصل، أما البَرّ إذا كان اسماً من أسماء الله الحُسنى فهو بالفتح، أي: فاعل البِرّ، والبِرُّ هو الإحسان، أي: المحسن، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٨﴾ [الطور:٢٨].

أي: هو المحسن.

البِرُّ هو الصلة، إسداء المعروف، المبالغة في الإحسان، البَرُّ هو المُحسن، فلان بارٌّ بأبويه إذا كان محسناً لهما، البَرُّ من الخلق من تتوالى منه أعمال البِرّ، فهناك مبالغة فمن تتوالى منه أعمال البِر مِن الخلق يسمى بَرّاً، أما إذا كان هذا الاسم منسوباً إلى الله عزَّ وجلَّ فالبرُّ هو مطلق الإحسان.

البِرّ بالكسر... الصلة والإحسان، فلان يبَرُّ والديه، أي: يصلهما بإحسانه، وفلان يبَرُّ رحمه، أي: يصلهم، والصلة: العطاء مع اتصال، عطاء مع زيارة.

ما زلنا في كلمة البِر، والبَر، والبُر... اسم الله تعالى البَرُّ... أي: المُحسن، لأنَّه يعطي البِر ويعين عليه وهو الإحسان، والحجُّ المبرور هو الذي لا يخالطه شيءٌ من المآثم، والنبيُّ ﷺ يقول:

«العُمْرَةُ إلى العُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُما، وَالحَجُّ المَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزاءٌ إلا الجَنَّةُ» [متفق عليه من حديث أبي هريرة].

أي حجٌّ لم يخالطه إثم، ولا رفث، ولا فسوق، ولا جدال، هذا هو الحجُّ المبرور، ليس له ثوابٌ إلا الجنة فقد قال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة:١٩٧].

ومن معاني البِرّ التّقوى فقد قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [المائدة:٢].

وقيل: البر التوسُّع في فعل الخير، وقيل اسمٌ جامعٌ لكلِّ الطاعات، ولكلِّ أعمال الخير المقرِّبة إلى الله، أو اسمٌ جامعٌ لمرضيِّ الخصال، فالتقوى اسمٌ جامعٌ لكلِّ الطاعات، اسمٌ جامعٌ لكلِّ القُربات، اسمٌ جامعٌ لكل الخصال الفاضلة، اسمٌ جامعٌ لكلِّ الأفعال المرضية... والبر هو التقوى، وفي قاموس تاج العروس.. البرُّ: خيرُ الدنيا والآخرة.

خيرُ الدنيا ما يُيَسِّره الله تعالى للعبد من الهدى والصِّحة وراحة البال والطمأنينة والرزق النفسي، وفيها من السرور والسعادة والهيبة، وفيها الزوجة الصالحة والأولاد الأبرار والدخل الحلال.

وخير الآخرة... الفوز بجنة الله وما فيها من النعيم المقيم، النعيم الدائم، ومن حورٍ عين، ومن وِلدانٍ مخلَّدين، من جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، من فواكه وهم مكرمون، وفيها النظر إلى وجه الله الكريم، والفوز برضوان الله عز وجل الذي هو أكبر

من كلِّ شيءٍ في الجنة، فقد قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة:٧٢].

فالبِر اسم جامع لخيريّ الدنيا والآخرة.

النبيُّ ﷺ حينما قال: «عليكم بالصّدق فأنّ الصّدق يهدي إلى البرّ وإنّ البرّ يهدي إلى الجنّة، وما يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ ويتحرّى الصدق حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله صِدِّيقاً...» [متفق عليه من حديث عبد الله ابن مسعود].

عليكم بالصدق، فإنَّ الصدق يهدي إلى البر، وأرقى أنواع الصدق أن تكون صادقاً مع الله، ثم يلي ذلك أن تكون صادقاً مع نفسك، ثم يلي ذلك أن تكون صادقاً مع الناس.

أن تكون صادقاً مع الله... فإنَّك إذا عاهدته على التوبة ألا تنتكس بعد التوبة، وإذا عاهدته على الطاعة ألا تعصيه بعد العهد، وإذا قبَّلت الحجر الأسود في بيته العتيق وذرفت عنده الدموع، وعاهدته وقتها ألا تعصيه في بلدك، الصدق أن تنفِّذ هذا العهد.

إنَّ الصدق يهدي إلى البر... أي إلى الصلاح، إلى خيري الدنيا والآخرة، إلى الخير المطلق.

قال العلماء: زمزم هذا النبع الذي تفضَّل الله به على السيدة هاجر وعلى المسلمين من بعد ذلك، يسمى هذا النبع برَّةَ... لكثرة منافعها وكثرة مائها وسعة خيراتها.

وفي مصنف عبد الرزاق، عن ابن جريج، قال: أُخبرتُ عن سعيد بن جبير: أنه سمَّى زمزمَ فسمَّاها: زمزمَ، وبَرَّةَ، ومضنونة.

البَرّ أبلغ من البارّ... نقول مثلاً علاَّمةٌ وعالم، العلاَّمة أبلغ، البرُّ أبلغ من البارّ إن كانا بمعنى واحد وهو المحسن، فلو قلنا: فلان بارٌّ بوالديه. وأما إذا قلنا: فلان بَرّ، أي: تتالى بِرُّه، وتوالى إحسانه، وكثر عطاؤه، وكثر خيره وطاب، فالبَرُّ أبلغ من البارّ.

أما البَرُّ في حقِّه تعالى فهو فاعلُ البِرِّ والإحسان، يحسن إلى عباده بالخير، فالله عز وجل لماذا خلق الخلق؟ خلقهم ليسعدهم، خلقهم ليحسن إليهم، خلقهم ليكرمهم، أصل الخلق إحسان.

مشروع الكون كلُّه هذه الإحسان، فقد قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [هود:١١٩].

فالبَرُّ... في حقِّه تعالى، أي: فاعل البِرِّ والإحسان، يحسن إلى عباده بالخير.

وأحد العلماء يقول: «البَرُّ... المحسن بالبِرِّ المطلق»، فأحياناً المصيبة إحسان فتجد إنساناً شارداً غافلاً تائهاً ومنحرفاً، والله عزَّ وجل بَرّ، أي: إحسانه مطلق يسوق له بعض الشدائد ليحمله على التوبة، وإذا حمله على التوبة وتاب إليه قبله وأكرمه، فكلُّ مصائب الدنيا تنطوي تحت اسم البَر.

طفل يتيم تُوفِّي والده وله جار محسن، لمحه مرَّةً يسرق فاكهةً من دكان، فأمسك بيده وعنَّفه ووبَّخه وذكَّره بالقيم الأخلاقية وصار يتابعه، إلى أن انضبط هذا الطفل وتابع دراسته وكبرت سنُّه ونجح في حياته، فبقي سنواتٍ عديدة يقول: لولا هذا الإنسان المُحسن الذي أدَّبني ونبَّهني وراقبني وعنَّفني ما كنت فيما أنا عليه.

وكذلك يكشف الله سبحانه وتعالى لعبده المؤمن يوم القيامة عن كلِّ شيءٍ ساقه له في الدنيا من متاعب، لا شكَّ أنَّ هذا الإنسان يذوب من شدة الامتنانِ إلى الله عز وجل، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الطور:٢٨].

لا أريد أن أطيل في هذا الموضوع، لكن كل مسلم يعلم لولا أنَّ الله تداركه باللطف، وبالتأديب أحياناً، وبالتخويف أحياناً، أحياناً مرضٌ يبدو أنَّه عُضال، أحياناً فقرٌ مدقع، أحياناً إنسانٌ قاهر يضيِّق عليه، هذه كلُّه تضييقاتٌ تنطوي على الرحمة، ويؤكد هذا قول الله عز وجل: ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الأنعام:١٤٧].

قيل: البَرُّ... هو الذي لا يصدر عنه القبيح. وقد ذكر الإمام الرازي أقوالاً: «البَرُّ... هو الذي منَّ على المريدين بكشف طريقه، وعلى العابدين بفضله وتوفيقه».

أي أن عابداً منَّ الله عليه بقبول العبادة، وأن سالكاً إلى الله يسَّر له الطريق إليه، وأنّ إنساناً أراد الإحسان مكَّنه من الإحسان، والبَرُّ هو المحسن يعطي كلًّا سؤله، فقد قال تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الإسراء ٢٠].

قيل: «البَر... هو الذي منَّ على السائلين بحسن عطائه، وعلى العابدين بجميل جزائه».

وقيل: «البَر... الذي لا يقطع الإحسان بسبب العصيان».

إذا قال العبد: يا رب وهو راكع. قال له الله: لبيك يا عبدي، فإذا قال: يا ربِّ وهو ساجد. قال له: لبَّيك يا عبدي. فإذا قال: يا ربِّ وهو عاصٍ. قال الله له: لبَّيك ثم لبَّيك ثم لبَّيك.

وأنت حينما ترى أمّاً لها ابنٌ شارد عنها بعيد، ولها أولاد بَررة معها دائماً، كلُّ قلبها مع الشارد، كلُّ تعلُّقها مع الشارد، فإذا عاد هذا الشارد إليها فيوم عودته عيد عندها وأيُّ عيد، لذلك الله عز وجل كما روي في الحديث الشريف: «لله أشدُّ فرحاً بتوبة عبده من العقيم الوالد ومن الضالِّ الواجد، ومن الظمآن الوارد» [ابن عساكر في أماليه عن أبي هريرة].

وقيل: «البَر.. هو الذي يحسن إلى السائلين بحسن عطائه، ويتفضَّل على العابدين بجزيل جزائه، لا يقطع الإحسان بسبب العصيان، وهو الذي لا يصدر عنه القبيح، وكلُّ فعله مليح».

مرَّةً ثانية... البَر هو الله عز وجل، أما البِر فهو خير الدنيا والآخرة، لذلك من الأدعية اللطيفة: اللهمَّ اجعل نِعَم الآخرة متَّصلة بنِعَم الدنيا، فهناك حالات رائعة جداً... كإنسان متَّعه الله بالصحة، ومتَّعه بالعمر المديد، ومتَّعه بالحب، فلما توفي انتقل

إلى الجنة، هذه النعم العظيمة في الآخرة اتصلت بنِعَم الدنيا، لأنَّ الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء:١٤٧].

إضاءات على الآيات التي ورد فيها البر ومشتقاته

اسم البَر ورد في القرآن مرَّةً واحدة فجاء في سورة الطور: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور:٢٨]، ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ﴾ هم في الجنة الآن ويتحدثون عن ربِّهم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ في الدنيا ﴿نَدْعُوهُ﴾. أي: برٌّ رحيمٌ في الدنيا والآخرة.

وردت مشتقّات هذا الاسم في سورة مريم، في قوله تعالى: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ [مريم:١٤].

وفي السورة نفسِها ورد على لسان سيّدنا عيسى: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ [مريم:٣٢].

معنى ذلك أن الإنسان إذا أراد الله تأديبه في حياة أمِّه ربما كان بعض هذا التأديب لأمِّه.

أي إنَّ جزءاً من إكرام الله لك في حياة أُمِّك من أجل أُمِّك، لأنَّ الله إذا أدَّب عبده في حياة أُمِّه فإن نصف التأديب لأمِّه.

فأحياناً أبٌ يتألَّم من ابنه فيدعو عليه، فإذا استجاب الله دعاءه تألَّم ألماً أشدَّ... فلا تتمنّ ذلك... ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾.

شعور الأب حينما يكون ابنه شارداً منحرفاً، شقياً، بعيداً عن الدين شعور أسىً لا يوصف، فقد يتألَّم ألماً يوجعه ويقعده، لو أنَّ الدنيا كلَّها بيديه وأنفقها من أجل أن

يصلُح ابنه لفعل، فمن رزقه الله ابناً صالحاً، وطاهراً، منيباً، مصلياً، عفيفاً، سلوكه حسن، هذا الأب عليه أن يُقبِّل الأرض شكراً لله عز وجل.

سبحان الله فالإنسان كلما تذلّل إلى الله ارتقى عند الله، أخ كريم له مشكلة كبيرة جداً، فلجأ إلى قيام الليل، يصلي قيام الليل وفي السجود دعا ربَّه لحلِّ هذه المشكلة، والقصة من أغرب القصص حُلَّت بشكل هيّن ولا عنت فيه، وقد ذكر لي التفاصيل ومن غير المعقول أن تُحَلَّ بهذه الطريقة، ومن شدة تأثُّره وبينما هو يجلس في المسجد قام وسجد لله عز وجل شكراً.

فالمؤمن إذا أصابه خير، أو له مشكلة حُلَّت، له قضية فُرجت، أو شبح مصيبة أزيح عنه، أو شيء ناله، وقام وسجد سجدة الشكر فهذا من مكارم الأخلاق، فقد تأثّرت... قام وسجد وشكر الله على حلِّ هذه المشكلة ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾.

وردت مشتقات هذا الاسم في آيةٍ ثالثة في سورة عبس قال الله تعالى: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس:١٥-١٦].

فالبَر، أي: المحسن، مطلق الإحسان... يجوز أن تقول: فلان بَرٌّ سعيد وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ خطب يوم فتح مكة فقال:

«يا أيُّها النَّاسُ! إنَّ اللهَ قَدْ أذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ وَتَعَاظُمَها بآبائِها، فَالنَّاسُ رَجُلانِ: بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى الله، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى الله، وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ، وَخَلَقَ اللهُ آدَمَ مِنْ تُرابٍ، قَالَ اللهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات:١٣]» [رواه الترمذي].

قال العلماء: يجوز أن تقول فلان بَر... فالعبد يكون براً بقدر ما يفعل من البر، وأفضل إنسان عليك أن تبرَّه أبوك وأمُّك ومن علَّمك ومن زوَّجك، فقد أتألَّم أشدَّ الألم

من صهر يناصب عمَّه العِداء، فقد زوَّجك ابنته وربَّاها عشرين سنة، أطعمها وسقاها وأكرمها وعالجها وأدّبها وأعطاها لك هدية، فليس لك همٌّ بعد ذلك إلا إغاظته؟! فهذا منتهى اللؤم.

لذلك قالوا: أبٌ أنجبك، وأبٌ زوَّجك، وأبٌ دلَّك على الله.

أبٌ أنجبك... الأب النسبي، وأبٌ زوَّجك... وهو عمُّك والد زوجتك، وأبٌ دلَّك على الله وهو من أخذ بيدك إلى الهداية، فهذه الزوجة التي عندك في البيت، وهذا أبوها فإن أسأت إليه أسأت إليها، فليس هناك إنسان إلا وهو يحبّ أمَّه وأباه، فإذا أسأت إلى أُمِّها وإلى أبيها أسأت إليها، فإذا أردتها أن تموت في حبِّك وأنت تسيء إلى أُمِّها وأبيها فهذا فعل إنسان غبي، واعلم أنها لن تحبّك، فإذا أردت أن تُكافئها على إخلاصها بإخلاصٍ أكرم أبويها، قال مالك بن فهم الأزدي:

أُعلِّمه الرماية كلَّ يوم   فلما اشتدَّ ساعده رماني
وكم علَّمته نظم القوافي   فلما قال قافيةً هجاني

إن لم يكن في الإنسان خير لأمِّه وأبيه ولمن علَّمه ولمن زوَّجه فليس فيه خير لأحد، لأنَّ هؤلاء لهم فضلٌ كبير.

سيدنا عبد الله بن رواحة عندما رأى صاحبيه قد استُشهدا في مُؤْتة قال:

يا نفس إلا تُقتلي تموتي   هذا حمام الموت قد صليتِ
إن تفعلي فعلهما رضيتِ   وإن تولَّيتِ فقد شقيتِ

لو حسبنا الوقت الذي قال فيهما البيتين لكان عشر ثوان، إذن تردد عشر ثوان في بذل روحه.

قال رسول الله ﷺ: «أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قتل شهيداً، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قتل شهيداً». ثم صمت النبي ﷺ حتى تغيرت وجوه

الأنصار وظنوا أنه كان في عبد الله بن رواحة بعض ما يكرهونه قال: «ثم أخذها عبدالله ابن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيداً». ثم قال: «لقد رفعوا إليَّ في الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب رأيت في سرير عبد الله بن رواحة ازوراراً عن سريري صاحبيه فقلت: بم هذا؟ فقيل لي: مضيا وتردد عبد الله بن رواحة بعض التردد. ومضى»

[رواه الطبراني ورجاله ثقات من حديث عبد الله بن الزبير].

درجته نزلت لتردده لعشر ثوانٍ... ثم مات شهيداً، إحسان الله كبير جداً، فإذا ترددت في خدمة إنسان بإنفاق، أو بصدقة، أو ترددت بأداء صلاة، أو بحضور مجلس علم فهذه مشكلة كبيرة.

والله جلَّ جلاله يقول: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة:٨].

هذه الآية عميقة المعنى، فقد تلتقي في عملك وفي محيطك، وقد تلتقي مع أقربائك بنماذج لا يُناصبونك العِداء، ولا ينكرون عليك تديُّنك، بل إنهم أضعف من أن يتمسَّكوا بما أنت عليه، هؤلاء يُقدِّرونك لكنهم ليسوا ملتزمين، لم يصطلحوا مع الله بعد، لم يقبلوا عليه، لكنّهم لا يُناصبونك العداء، بل يقدِّرون فيك هذا الاتجاه الطيب، هذا التديُّن الصادق، مثل هذه النماذج من الناس من الجريمة أن تُسيء إليهم، هؤلاء يقدِّرون، منصفون، وهم غير ملتزمين، فلا تعنِّفهم، لا تناصبهم العِداء، استمل قلوبهم إليك، لقوله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

أن تبرُّوهم، أي: أن تُحسنوا إليهم، فإذا لم يكن يصلّي ولكنه لا يُعاديك، أنت إن أحسنت إليه حملته على الصلاة، أنت إن أحسنت إليه حملته على حضور مجلس علم، أنت إن أحسنت إليه حملته على الطاعة.

أن تجد إنساناً غير ملتزم لكنَّه لا يعاديك ويقدِّر فيك تديُّنك، يُكبِر فيك استقامتك، لكنَّه لم يصطلح بعد مع الله، هذا النموذج ينبغي أن تُحسن إليه، وينبغي أن ترعاه، ينبغي أن تُمِدَّ إليه يد المساعدة، ينبغي أن يرى فيك تواضُعاً، وانفتاحاً وإحساناً، لأنه قد ورد: أن يا داود ذكِّر عبادي بإحساني إليهم فإنَّ النفوس جُبِلت على حبِّ من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها.

وإنَّ كثيراً من المؤمنين ممن هم في أرقى مستويات الإيمان، سبب إيمانه، والتفاته إلى الله وإقباله عليه موقفٌ أخلاقي من مؤمنٍ، فإنه يوم كان متفلِّتاً، وغير ملتزم التقى بمؤمن، فأحسن إليه، وتلطَّف معه، وأكرمه، فانشرح قلبه للإيمان.

فقد قرأت قصة عن عدة فتيات في بلد عربي اشتُهرن بالفن، فهؤلاء الفتيات تُبن إلى الله عز وجل وتحجَّبن واصطلحن معه، وشكَّلن مجتمعاً صغيراً واعتزلن الفن، إحدى اللواتي لم تستقمن ولم تصطلح مع الله ولم تتُب بعد، تاقت إلى أن تعرف حياة هؤلاء النسوة اللواتي اصطلحن مع الله، فذهبت لزيارتهن... والنقطة المهمّة في هذه القصة أنهنّ رحبن بها واستقبلنها ورأت بأُمِّ عينها مجتمع الصدق والوفاء والحب والاستقامة والطهر والعفاف والالتزام، ولأنَّهُنَّ استقبلنها ورحَّبن بها وأرينها ما هنَّ عليه من تواصل، ومن حب، ومن وئام، ومن مودَّة، ومن عفاف، ومن طهر، انضمَّت إليهن، حينما طرقت بابهُنّ لم تكن ملتزمة، لو رفضنْها وطردنْها لبقيت شاردةً، بعيدةً في سكة التّيه والضلال.

لو أنّ إنساناً ليس ملتزماً أراد أن يزورك، أراد أن يلتقي بك، أراد أن يرى على أيِّ شيءٍ أنت، فينبغي أن تفتح له صدرك وأن تُرحِّب به، وينبغي أن يرى من كمالك ومن تواضُعك، ومن كريم خصالك، ومن حبِّك له، هذا الموقف الأخلاقي هو الذي سوف يجُرُّه إليك، هذا الموقف المتواضع هو الذي يحمله على التوبة، ورحم الله أبا الفتح البستي إذ قال:

أحسن إلى الناس تستعبدْ قلوبهمُ فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

أنت لم تكن ملتزماً وقد منَّ الله عليك، واصطلحت معه، وأقبلت عليه، ألا تُحبُّ أن يكون الخير عاماً؟ كيف كنت بعيداً عن الالتزام وجاء أناسٌ تقرَّبوا منك وحملوك على طاعة الله؟ كما فُعِل بك افعل مع غيرك، كما ذكَّرك الله، ذكِّر غيرك، كما أحسن الله إليك أحسن إلى عباده، كما أنعم الله عليك بنعمة الهدى كن سبباً في هداية عباده، لا تكن مغلقاً، لا تكن محدوداً، لا تكن متعصِّباً، لا تكن متشنِّجاً من هؤلاء غير الملتزمين، فماذا يحدث لو رأوا منك الكمال؟

أبو حنيفة النعمان له جار كان يغني طوال الليل، بحيث يعكّر على الإمام ليله، ولا يستطيع أن ينام، ويقول:

أضاعوني وأيَّ فتىً أضاعوا ليوم كريهةٍ وسداد ثغر

أُلقي القبض عليه، فذهب أبو حنيفة إلى السجن يشفع له، فلما رأى الأمير عيسى بن موسى أبا حنيفة النعمان بمهابته يأتي ليشفع لجاره؛ فأطلق سراح من معه في السجن في تلك الليلة إكراماً له، وفي طريق العودة إلى البيت قال: يا فتى هل أضعناك؟ تقول دائماً: أضاعوني وأيَّ فتىً أضاعوا فهل أضعناك؟ فكان هذا الموقف الأخلاقي سبب توبته.

عن أنس رضي الله عنه أن غلاماً من اليهود كان يخدم رسول الله ﷺ فمرض فأتاه رسول الله ﷺ يعوده فقعد عند رأسه فقال له: أسلم، فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطع أبا القاسم فأسلم، فخرج رسول الله ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار» [رواه البخاري] فكانت هذه العيادة سببَ إيمانه، وإسلامه واصطلاحه مع الله.

فالبطولة لا أن تكون مكافئاً فحسب، ففي الحديث: (ليس الواصل بالمكافئ، ولكنِ الواصلُ الذي إذا قُطعت رحمُه وصلها) [البخاري عن عبد الله بن عمرو]

بطولتك لا أن ترُدَّ على زيارةٍ بزيارة، أو هديةٍ بهدية، أو لقاءٍ بلقاء، أو وليمةٍ بوليمة، فليس لك فضل بذلك، أمّا البطولة فأن تبادر، ألم يروَ عن النبي ﷺ:

«أمرني ربِّي بتسع... خشية الله في السرِّ والعلانية، وكلمة العدل في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى، وأن أصل من قطعني، وأُعطي من حرمني، وأعفو عمن ظلمني» [أورده ابن الأثير في جامع الأصول، وقال: أخرجه رزين].

قال تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

أَنْ تَبَرُّوهُمْ، أي: أن تحسنوا إليهم، وما دمنا في هذا الموضوع أذكر لكم آيةً أخرى، يقول الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة:٨].

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ﴾ لا تحملنَّكم عداوة قوم... وأعداؤكم هم الكفار.. على ألا تعدلوا معهم ﴿ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾، إن عدلتم معهم قرَّبتموهم إلى الله، وتقرَّبوا منكم، أمّا إن ظلمتموهم فقد أبعدتموهم عن الله.

فلو أن إنساناً يصلِّي وأساء لنفَّر الناسَ من دينه، ولو أنّه يصوم وأساء لنفَّر الناس من دينه، إنسان يؤدي زكاة ماله، لو أساء لنفَّر الناس من دينه، فأنت إما أن تكون مقرِّباً، وإما أن تكون منفِّراً، إما أن تكون جامعاً، وإما أن تكون مفرِّقاً.

وفي سورة آل عمران قال تعالى: ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾ [آل عمران:٩٢].

«البرُّ»... مطلق عطاء الله، إحسانه لكم في الدنيا، إحسانه لكم في الآخرة، سعادةٌ تملأُ القلب، صحةٌ تحفظ الإنسان، هيبةٌ تعين الإنسان على معيشته، كلُّ أنواع الخير تنطوي تحت كلمة البر ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾... أي إذا توهَّمت أنَّ الجنَّة ركعتان تؤدِّيها ودرهمان تنفقها وانتهى الأمر عند ذلك الحدّ، وافعل بعدها ما تريد فأنت مخطئ كلَّ الخطأ، إنَّ سلعة الله غالية، فاسمع قول الله تعالى: ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ

حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ الشيء النفيس، الوقت الثمين، المال الذي جمعته من كدِّك الحلال، الشيءُ الذي بذلت جهداً للوصول إليه، هذا ينبغي أن تُنفقه... ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾.

نصيب المؤمن من اسم الله البر

قالوا: من أدب المؤمن مع هذا الاسم العظيم... أن تكون أعماله كلُّها خيِّرةً، أي: يتخلّق بأخلاق هذا الاسم، إن فعل هذا غُرست محبَّته في قلوب العباد.

ألوان برِّ الله لعباده كثيرة... قال بعض العلماء: «سبحان ربي المنَّان، الذي منَّ على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكِّيهم ويعلِّمهم الكتاب والحكمة، والذي منَّ على المؤمنين بأن جعلهم من أصحاب اليمين، وهو الذي ألهمهم القيام بالأعمال الصالحة، وهو الذي رزقهم القبول، وقبول أحسن ما عملوا، وهو الذي يتجاوز عن سيئاتهم».

قال العلماء: حظُّ العبد من هذا الاسم البَر أن يكون مشتغلاً بأعمال البِر، كما قال العلماء «تخلَّقوا بكمالات الله».

الله عز وجل بَر... أي: محسن، أنت ينبغي أن تشتغل بأعمال البِر، وقد جمع الله أعمال البِر في آيةٍ واحدة في سورة البقرة، قال الله تعالى: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة:١٧٧].

﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾ لا بد من أن تقتطع من وقتك وقتاً كي تؤمن بالله.

فالجانب الاعتقادي ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾.

أما الجانب العملي فأوّله البذل... ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾.

أما العبادات الشعائرية ﴿ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾.

وأما العبادات الأخلاقية... ﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾.

ولعل النبي ﷺ مستلهماً هذه الآية قال:

«عليْكُمْ بالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلى البِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ ويَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله صِدِّيقاً، وَإِيَّاكُمْ وَالكَذِبَ، فإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلى الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ العَبْدُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله كَذَّاباً» [رواه مسلم من حديث عبد الله بن مسعود].

قال العلماء: من شرط البر أن تبذل الأحسن... كما قال الله تعالى: ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾.

﴿ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾، أحياناً أغلى شيءٍ عليك الوقت يجب أن تنفقه في سبيل الله، أحياناً أغلى شيءٍ عليك مكانتك يجب أن توظِّفها في خدمة الحقّ.

قال العلماء: من تخلُّق العبد بهذا الاسم أن يكون مشتغلاً بأعمال البر واستباق الخيرات... وهناك معنى سلبي... وألا يضمر الشرَّ لأحد وألا يؤذي أحداً، فإنَّ البَر هو الذي لا يؤذي.

روي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «البرُّ لا يبلى، والذنب لا يُنسى، والديَّان لا يموت، اعمل ما شئت كما تَدين تُدان» [أخرجه عبد الرزاق في مصنفه عن أبي قلابة مرسلاً].

أي أنَّ المؤمن معطاء، وغير المؤمن أخَّاذ، المؤمن بالتعبير الحديث اتخذ قراراً استراتيجياً أن يُعطي... يُعطي من وقته ومن ماله ومن خبرته، والكافر رغبته مبنيَّة على الأخذ.

ما زلنا في الحديث عن أدب المؤمن مع اسم البَر... قالوا: المؤمن متى عرف أنَّ الله هو البَرُّ الرحيم ينبغي أن يكون باراً بكلِّ أحد كما يقول أحد العلماء، لا سيما بوالديه لحديث: «رضا الربِّ في رضا الوالدين، وسخطه في سخطهما» [الطبراني في الكبير عن ابن عمرو].

حُكي عن موسى عليه السلام لما كلَّمه ربُّه رأى رجلاً في أعلى مكانةعند الله فتعجَّب من علوِّ مكانته، فقال: يا رب... بِمَ بلغ هذا العبد ذاك المكان!؟ فقال: إنَّه كان لا يحسُد عبداً من عبادي على ما آتيته، وكان بَرّاً بوالديه.

قالوا: من كان الله بارّاً به عصم عن المخالفات نفسه، وأدام بفنون اللطائف أُنسه، ووفَّر في طريقه اجتهاده، وجعل التوفيق زاده، وجعل قصده سداده، ومنبع سلوكه إرشاده، وأغناه عن أشكاله بأفضاله، وحماه عن مخالفته بيمن إقباله.

هذا الاسم متعلِّق بالإحسان، بالحركة، فأحياناً تجد المؤمن له خصائص عقائدية، أو خصائص أخلاقية، وكذلك خصائص سلوكية.

والسّنّة المطهّرة أكدت أن البِر حسن الخلق، وكأنّ الدين مجموعة أخلاقية، هذا الذي قاله ابن القيم رحمه الله تعالى: الإيمان هو الخلق، من زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان.

لذلك قال النّواس رضي الله عنه: «سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن البِر والإثم، فقال صلى الله عليه وسلم البر: حسن الخلق، والإثم: ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس».

الإيمان أساس الفضائل، ولجام الرذائل، وقوام الضمائر، وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم ذلك في مجموعة من أحاديثه الصحيحة فقال: «وإن أحسن الناس إسلاماً أحسنهم خلقاً، وإن خير الناس إسلاماً أحسنهم خلقاً» [أخرجه أبو يعلى والطبراني عن جابر بن سمرة].

«وأن خير ما أعطي الإنسان خلق حسن» [أخرجه الطبراني عن أسامة بن شريك].

«مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي مِيزانِ المؤمِنِ يَوْمَ القِيامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ» [أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي الدرداء].

«إِنَّ المؤمنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ القَائِمِ» [أخرجه أبو داود عن عائشة أم المؤمنين].

«إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة» [أخرجه الطبراني عن أنس بن مالك].

وكما قال ﷺ: «الخلق الحسن يذيب الخطايا كما يذيب الماء الجليد، والخلق السوء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل» [أخرجه الطبراني عن عبد الله بن عباس].

من أعظم البِر برُ الوالدين، كما قال تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ [مريم:١٤].

باراً بوالديه، يعني هذان اللذان كانا سبب وجودك، إن لم تكن وفياً لهما فلن تكون وفياً لأحد، من أعظم الأعمال بر الوالدين، لذلك قال تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء:٢٣]. فرفع بر الوالدين إلى مستوى عبادته.

أنواع البِر لا تُعدُّ ولا تُحصى، فهناك المساكين والفقراء، وهناك العناية بالأيتام والأرامل، وهناك معاونة العجزة، وأيضاً هناك الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، وتعليم العلم، وتعلُّم العلم، فأنواع البرّ لا تعدُّ ولا تحصى، فالاسم حركي، أي أنّ هذا الاسم متعلِّق بأعمالك الصالحة، ولا تنسَ أن حجمك عند الله بحجم أعمالك الصالحة، وأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأحقاف:١٩].

المقتدر

سمّى الله نفسه بالمقتدر وقد جاء الاسم مطلقاً منوّناً في آيتين، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢)﴾ [القمر:٤١-٤٢].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)﴾ [القمر:٥٤-٥٥].

فالإنسان أحياناً يصل إلى الرفعة عند الناس، لكن هذه الرفعة زائلة، يموت فينتهي كل شيء، الموت ينهي كل شيء، ينهي قوة القوي، وضعف الضعيف، ووسامة الوسيم، ودمامة الدميم، وغنى الغني، وفقر الفقير، ينهي صحة الصحيح، ومرض المريض، ولكن الذي عرف الله، واستقام على أمره، وتقرب إليه، له يوم القيامة ثواب كبير: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)﴾.

ويقول تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥)﴾ [الكهف:٤٥].

أنت إذا عرفت الله فأنت مع القوي، أنت مع القادر، أنت مع القدير، أنت مع المقتدر.

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الزمر:٦٧].

من معاني اسم الله المقتدر

المقتدر لغة اسم فاعل من اقتدر، يقتدر، اقتداراً، فهو مقتدر، وهو أكثر مبالغة من القادر والقدير، المقتدر الوسط في كلِّ شيء، ويقال: رجل مقتدر الخلق أي وسطه معتدل، ليس بالطويل ولا بالقصير.

و«المقتدر» على الشيء هو المتمكّن منه تمكّنَ إحاطة وقوة تامتين، والمهيمن عليه بإحكام كامل وقدرة فائقة.

قال البيهقي: المقتدر هو تامُّ القدرة الذي لا يمتنع عليه شيء، أحياناً يكون الحاكم قوياً مقتدراً في بلده طبعاً، أما في بلاد أخرى فليس له عليها أي سلطة، فقدرته ليست كاملة، يقول تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾ .

أي ما عرفوه حقّ معرفته، وما عظّموه حقَّ تعظيمه.

قَدّره أي عرفه، من التقدير، وقَدّره من التعظيم، ومنها ليلة القدر: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ [القدر:١].

لذلك إذا قدرت ربك وعرفته في هذه الليلة المباركة فهذا خير لك من ألف شهر، من ثمانين عاماً فيها عبادة جوفاء، أما هذه الليلة التي عرفت فيها الله عز وجل تعدل عند الله أن تعبده ألف شهر.

المقتدر من الاقتدار، وهو الاستيلاء على كلِّ ما أعطاه الله حظاً من قدرة.

«المقتدر» يقتدر على أقوى الأقوياء.

والمقتدر هو المتمكن من الفعل بلا واسطة، أنت متمكن أن تصل إلى حلب، ولكن بواسطة سيارة، متمكن أن تصل إلى أمريكا لكن بالطائرة، متمكن أن تجلب الماء، لكن بعد حفر بئر، فالإنسان يعتمد على الوسيلة، وهذا أحد أسباب ضعفه، الإنسان ليس من شأنه كن فيكون، هناك شح مياه، لا يملك الإنسان قراراً بإنزال المطر، أمّا الله عز وجل فقراره كن فيكون، زل فيزول.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾.

فالعلّة الغائيّة لا تليق بجلال الله عز وجل، نحن -البشر- مقهورون بالوسيلة، نخترع ميكروسكوب كي نرى ما لا تراه عيننا، فنحن رأينا الأشياء الدقيقة بواسطة.

المقتدر هو الذي يقدِّر الأشياء بعلمه، وينفذُّها بقدرته، فعلمه مطلق، وقدرته مطلقة.

فالمقتدر يجمع دلالة اسم الله القادر والقدير معاً، اسم الله القادر هو الذي يقدِّر المقادير بعلمه، وعلمه هو المرتبة الأولى لقضائه وقدره، والله قدّر كلَّ شيء قبل تصنيعه وتكوينه، ونظّم أمور الخلق قبل إيجاده وإمداده، فالقادر يدل على التقدير.

أمّا القدير فهو الذي يخلق بقدرته المطلقة وفق علم سابق، أحياناً يكون هناك تخطيط محكم جداً، ثمّ يأتي التنفيذ مطابقاً للتخطيط مئة بالمئة.

إذاً المقتدر فيه معنى العلم المسبق، القطعي، المطلق، الكامل، ومعنى القدرة القوية، المطلقة التي تنفّذ هذا التخطيط.

أحياناً يخطّط الإنسان، لكن لا يستطيع أن ينفذ، نقول عن أعدائنا: ما كلُّ شيء خططوه استطاعوا تنفيذه، إذاً قدرتهم ليست تامة، إمّا أنّ تقديرهم كان خاطئاً، أو أن التقدير جيد، لكن نشأت مستجدات لم تكن في الحسبان، الآن أعداء المسلمين الأقوياء

فقدوا الحسم، كانوا فيما مضى يخطّطون، وينفّذون، ويحسمون الأمر لصالحهم، وانتهى الأمر، الآن يخططون، يبدؤون في التنفيذ، تنشأ مستجدات تحول بينهم وبين التنفيذ، إذاً ليسوا مقتدرين، والله وحده هو المقتدر، فإذا كنت معه فمن يستطيع أن يصل إليك؟ من يستطيع أن ينال منك؟ إذا كنت مع القوي فأنت القوي.

فالمقتدر بدايته من التقدير، ونهايته من القدرة.

إذاً المقتدر: إما من القدرة أو من التقدير، وفرقٌ بين القدرة والتقدير، فالقدرة هي القوّة، أمّا التقدير فمتعلّق بالعلم والمهارة، فلذلك جاء في بعض المعاجم أنَّ القدير والقادر والمقتدر من أسماء الله عز وجل، يكونان من التقدير ويكونان من القدرة.

فمثلاً يجب على الطبيب أن يضع مبضع الجرّاح في هذا المكان بالذات، لو أخّره قليلاً لانقطع العصب، ولشُلَّ الإنسان، فوضع هذا المشرط في المكان المناسب من التقدير... أما أن يحتاج الشيء إلى قدرةٍ قادرة... هذا من القدرة، فاسم القادر والقدير والمقتدر ترد إلى موضوعين ومنهما اشتقت، من موضوع التقدير، ومن موضوع القدرة.

وهناك فرق آخر بين القادر والمقتدر، فالقادر هو الذي يقدر على إيجاد المعدوم وإعدام الموجود.

ومعلومٌ أن الكون كلَّه ممكن الوجود، فالذي أوجد الممكن هو الله عز وجل، والذي سينهي هذا الممكن هو الله عز وجل، هو قادرٌ على إيجاد المعدوم، وإعدام الموجود.

أما المقتدر فهو الذي يقدر على إصلاح الخلائق على وجهٍ لا يقدر عليه إلا الله، فأحياناً تشعر بمشكلة ليس لها حلٌّ، لكنَّ الله سبحانه وتعالى عنده حلُّها، فهو مقتدر على أن يصلح الخلائق على وجهٍ لا يستطيعه إلا هو.

عندنا قاعدة لغوية وهي أنَّ كلَّ زيادة في المبنى زيادة في المعنى، فالقادر... أربعةُ حروف وهي: قاف، ألف، دال، راء، اسم فاعل.

أما المقتدر... فهي خمسةُ حروف، فالمقتدر حروفها أكثر إذاً معناها أوسع، والعلماء قالوا: هي مبالغة من اسم القادر، فماذا تعني المبالغة إذا نُسبت إلى الله عز وجل؟ أي أنَّ الله عز وجل على كلِّ شيءٍ قدير مهما تعددت الأشياء، وقدير على أكبر شيء مهما كبر، فإما المبالغة مبالغة عدد، أو مبالغة نوع.

فإذا قلنا إنَّ الله عز وجل فعَّال لما يريد... فعال صيغة مبالغة أي مهما كان الفعل كبيراً يفعله الله، ومهما كانت الأفعال كثيرة يفعلها الله كلَّها، أما اسم المقتدر فيفيد معنى القادر مبالغةً وأكثر تعظيماً، المقتدر هو المستولي على كلِّ شيء، المقتدر على جميع الممكنات، صاحب القدرة العظيمة، المسيطر بقدرته البالغة على خلقه، المتناهي في الاقتدار.

فمثلاً... هل هناك في الأرض قوةٌ مهما كبرت تستطيع أن تزيح جبلاً مئة كيلومتر؟! فلو طلبنا من أكبر جهة هندسية أن تنقل لنا جبل قاسيون بأكمله من دمشق إلى حلب هل تستطيع؟ مستحيل، أما الله عز وجل فيقول: كن فيكون... قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأعراف:١٤٣].

فالله على كل شيء قدير.

وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر:٦٧].

فقد قرأت مقالة عن بناء في ألمانيا مؤلَّف من عشرة طوابق، ولا بد من أن يُهدم ليُشَقَّ شارع مكانه، فجاءت شركة وعرضت على صاحب البناء أن تأخذ منه نصفَ تكاليف البناء وأن تنقل البناء إلى مكان آخر، وقد نقلوه ثلاثين متراً، وبالفعل تمّ نقله فهذا شيء يكاد لا يصدَّق، وشعرنا باندهاش ما بعده اندهاش من أجل بناء مؤلَّف من عشرة طوابق، نقلوه ثم قاموا بوصل المياه والكهرباء بعد أن حرَّكوه على أسطوانات وهيؤوا له أساسات، وبذلك تم نقل البناء وأخذوا نصف تكاليفه.

أما الله عز وجل فهو على كل شيء قدير، ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾.

وفي مجال السفن البحرية، فهناك الآن سفنٌ حمولتها مليون طن، فقد قرأت عن بعض السفن أنّ قوتها تبلغ أكثر من ثلاثة آلاف حصان، وهناك سفن تأخذ الفلزات من قارة استراليا وتقوم بتصنيعها في الطريق وتنقلها إلى قارةٍ أخرى وهي مصنَّعة، هذه السفن العملاقة التي هي كالجبال، موج بسيط يجعلها كريشةٍ في مهبِّ الريح، فبعض الأمواج يبلغ ارتفاعها أكثر من ثلاثين متراً، بارتفاع بناء، فهذه قدرة الله عز وجل.

أما في مجال الزلازل... فهل تعلم أن مدينة بأكملها ابتلعتها الأرض بفعل الزلزال في أربع ثوان؟!... فمدينة بالمغرب اسمها أغادير وهي مدينة سياحية وساحلية جميلة جداً، وفيها من الفسق والفجور ما لا يوصف كنوادي العراة وغير ذلك من الموبقات. أصابها زلزالٌ وخلال أربع ثوانٍ أصبحت تحت الأرض، وأبرز بناء فيها فندق من أضخم الفنادق في العالم ومؤلَّف من ثلاثين طابقاً، أصبح الفندق بأكمله تحت الأرض وبقي اسمه الذي على الطابق الأخير كشاهدٍ على هذا الفندق.

ففي ثانية واحدة تجد مدينة استغرق بناؤها خمسين عاماً يبتلعها الزلزال فيما يشبه لمح البصر، ألا فلتعلم إذاً أنَّ الله مقتدر وأن قدرتَهُ غير متناهية.

ويقولون عن مثلث برمودا: إن سفناً عملاقة دخلت إليه فاختفت وليس لها أثر، وكذلك الطائرات دخلت في محيطه فسقطت وليس لها أثر، وحتى الآن يصعب عليهم تفسير ذلك، ولا أحد يعلم ما سر هذا المثلث الواقع في المحيط الأطلسي -شمال شرق جزر الأنتيل- وهناك أشياء يتحدَّى الله بها عباده.

مدينة كان يسكنها الرومان حينما كانوا في أوج قوَّتهم وسيطرتهم على العالم، تقع بالقرب من سفح أحد جبال إيطاليا اسمه فيزوف، يطل على هذه المدينة، ثار في سفح الجبل بركان أرسل رماداً بركانياً حرارته ثمانمئة درجة وسمكه ثمانية أمتار غطى المدينة

بأكملها بمن فيها كما غطى شوارعها وبيوتها وقصورها وحمَّاماتها، بدأ هذا البركان يثور بعد الظهيرة والطعام على الموائد، وعندما غطى هذا الرماد البركاني هذه المدينة مات كل شيء فيها، ولكن بعد حين أصبح هذا الرماد صخرياً وبعد مئة عام جاؤوا بهذه الصخور وثقبوها فوجدوا في داخلها فراغات فحقنوها بالجبس السائل، ولما جفَّ هذا الجبس وجدوا أشكال الناس فيه، فأمٌّ مثلاً تنحني على ابنها، كما وجدوا أنواع الطعام الموضوعة على الموائد، أُناسٌ دفنهم البركان، وعلائم الهلع على وجوههم، استطاع العلماء بهذه الوسيلة أن يروا حالة مدينةٍ أهلكها الله دفعةً واحدة، حتى إن بعض النساء يأخذن الحلي ليضعنها في صدورهن حفاظاً عليها ظناً منهن أنهن سيبقين على قيد الحياة، وعندي مقالات واضحة جداً تتحدث عن هذا الزلزال وفيها تلك الصور، فقدرة الله عز وجل لا نهاية لها.

المقتدر عظيم القدرة المسيطر بقدرته البالغة على خلقه، المتمكِّن بسلطانه.

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الكهف:٤٥].

انظر إلى صور الأعاصير في أمريكا، فتجد إعصاراً يأتي على مدينة بأكملها فيها معامل وأبنية وحدائق ومتنزَّهات وفيها آليات ومركبات، هذه المدينة على سعتها وضخامتها يذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، فسرعة الهواء ثمانمئة كيلومتراً في الساعة، نحن بحمد الله ليس في بلادنا رياحٌ مثل هذه الرياح والأعاصير المدمِّرة التي لا تبقي على شيءٍ أتت عليه إلا جعلته كالرميم، هذه كلُّها من آيات الله عز وجل... ﴿ فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [القمر:٤٢].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القمر:٥٤-٥٥].

وقال تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾.

أوسع كلمة على الإطلاق في شمولية معناها كلمة شيء، ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [الإسراء:٤٤]، وهنا قال تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾، ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾ [البقرة:٢٨٢] و ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [البقرة:٢٠].

وفي سورة الزخرف قال تعالى: ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزخرف:٤٢].

فإذا شعر الإنسانُ أنَّ أحداً قادر عليه تعامل معه بالحسنى، فكيف إذا شعرت بأنَّ الله في كلِّ ثانية مقتدر عليك؟

المقتدر من معانيها التقدير، فحاسة البصر لها حساسية معينة فلو زادت هذه الحساسية لرأيت البكتريات في الماء فلم تشرب الماء، لرأيت هذا الجلد أخاديد، ونتوءات، وحفر، وغابات من الشعر، فلا تستطيع أن تنظر إلى إنسان، قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ [القدر:٤٩].

لو أنَّ الموجة الصوتية لا تتخامد لكانت الحياة في الأرض لا تحتمل، أصوات أمواج البحر في كلِّ مكان، كلُّ أصوات الأرض تصل إلى كل أنحاء الأرض، لكن لحكمة بالغةٍ أنَّ الموجة الصوتية تتخامد، هذا المكان فيه هدوء، الشارع التحتي فيه ضجيج، الضجيج لا يصل إلى هنا، الموجة الصوتية تتخامد، بينما الموجة الكهرطيسية لا تتخامد.

أرسلوا مركبة إلى المشتري، سارت بأسرع سرعة صنعها الإنسان، أربعون ألف ميل في الساعة، بقيت تمشي ست سنين، إلى أن وصلت إلى هناك، وأرسلت رسائل عن طريق الموجات الكهرطيسية، هذه الموجات لا تتخامد، حكمة الله من تخامد الموجة الصوتية أن تستمر الحياة في الأرض.

﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ [القمر:٤٩].

إن الإنسان قد تُجرح يده، فإذا تناول طعاماً فيه حمض شعر بلذعة في يده، معنى ذلك أن الأعصاب مقدّرة تقديراً دقيقاً جداً.

ولو أنَّ عتبة السمع ازدادت لسمع الإنسان حركة أمعائه ولم ينم الليل كله، فإذا وضع الإنسان إصبعه بإذنه انتقل الصوت عن طريق العظام فيجد دوياً كأنَّ معملاً بجسمه.

فالعين لها قدرٌ معلوم، والأذن لها قدرٌ معلوم، وحساسية الجلد لها قدرٌ معلوم... ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾.

نصيب المؤمن من اسم الله المقتدر

قال العلماء: من أدب المؤمن مع ربِّه المقتدر أن يستحضر قدرة الله دائماً أمامه.

عَنْ أَبي مَسْعُودٍ الأَنْصارِيِّ قالَ: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلاماً لِي فَسَمِعْتُ مِنْ خَلْفِي صَوْتاً: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، للهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ»، فَالْتَفَتُّ فَإِذَا هُوَ رَسُولُ الله ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ الله، فَقَالَ: «أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ، أَوْ لَمَسَّتْكَ النَّارُ» [صحيح مسلم].

أوقف الحجاجُ رجلاً بين يديه ليقتله، فقال له الرجل: أسالك بالذي أنت بين يديه أذلُّ مني بين يديك، وهو على عقابك أقدر منك على عقابي، أن تعفو عني.

فعندما يتحرَّك الإنسان ويعلم دائماً أنَّ الله على كل شيء قدير، يكون في حركته رحمة.

كان ﷺ يعلِّم أصحابه الاستخارة في الأمور كلِّها كما يُعلِّم السورة من القرآن يقول: «... إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بالأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الفَرِيضَةِ ثُمَّ لِيَقُلِ: اللهمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ...» [صحيح البخاري من حديث جابر بن عبدالله].

أي: أستعين بقدرتك على تحقيق هذا الأمر... وأطلبُ منك أن تجعل لي يا رب قدرةً على المطلوب لأني ضعيف.

ذكرت هذا الحديث لقول النبي ﷺ: «أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم»، فالإنسان ضعيف والله هو القدير.

المؤمن إذا كان مع المقتدر فإنّه يشعر بالقوة، فالمؤمن ضعيف كأيّ إنسان لكنّه يستمدُّ قوّته من المقتدر، إذاً لا ينافق، إذاً لا يتضعضع أمام القويّ والغنيّ، يشعر بقوة فيرفع رأسه عالياً، يشعر بقوّة لأنّ مصيره بيد الله، ولأنّ الله جلّ جلاله لم يسلِم الأعمار والأرزاق لبني البشر، فالعمر والرزق بيد الله وحده.

قال الحجاج لسعيد بن جبير: سأقتلك، قال له: والله لو علمت أن حياتي بيدك لعبدتك من دون الله، ولكن حياتي بيد الله.

لمجرد أن تؤمن أنّ حياتك بيد الله، فإنّك ترفع رأسك عالياً، ولا تنافق، ولا تنبطح، ولا تتذلّل، ولا تتضعضع.

«من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه» [البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود] .

فإذا كنت مع المقتدر شعرت بالقوة، والمؤمن يشعر بقوته التي يستمدّها من الله، إنّه واضح، سريرته كعلانيته، وسرّه كجهره، وخلوته كجلوته.

«تركتكم على بيضاء نقية، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا ضال» [أحمد وابن ماجه والحاكم عن العرباض بن سارية].

تشعر بالقوة إذ كنت مع المقتدر، ومن جهة أخرى تشعر بالضعف أمام المقتدر، إذا كنت مع المقتدر تشعر أنّك في حماه، تشعر أنّ قدرته تحميك، أنّ قدرته تحول بينك وبين أعدائك، الإحساس بالقوّة من لوازم الإيمان بالمقتدر، وأنت أمام المقتدر ضعيف، والضعف يجعلك متواضعاً.

المؤمن له حالان، حالة تواضع لأنه رأى عظمة الله عز وجل، وحالة قوّة لأنه استعان بالله، فإذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكّل على الله.

هذان المعنيان ضروريان جداً، الإنسان أحياناً تغيب عنه قدرة الله فيتحرّك بحمق وغباء، فالله عز وجل يؤدّبه أشدَّ التأديب.

وأيُّ إنسان لا يدخل الله في حساباته يكون أغبى الأغبياء، وأحمق الحمقى.

هناك أناس كثيرون لضعف إيمانهم، ولضعف معرفتهم بالله، وهم أقوياء يتحرّكون بغطرسة، وكبر، واستعلاء، وقد يبطشون، ثم يفاجؤون أنَّ الله يبطش بهم.

أمّا أثر هذا الاسم في عبودية اللسان فيظهر حينما يعلّق الموحّد أفعاله على مشيئة الله، فيقول: أفعل هذا إن شاء الله، هو عازم على التنفيذ لكنّه ربط مشيئته بمشيئة الله، يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الكهف:٢٣-٢٤].

وقد علَّمنا النبيّ ﷺ موقف الموحِّد فيما وقع ومضى من الأحداث: «فلا تَقُل: لو أنّي فعلتُ لكان كذا وكذا، ولكن قل: قَدَّر الله وما شاءَ فَعَل فإن لو تفتحُ عَمَلَ الشيطان» [أخرجه مسلم عن أبي هريرة].

آخر كلمة أقولها في موضوع اسم المقتدر: إن عرفت قدرته وقدره خضعت له، واستعنت به، واعتمدت عليه، وتوكَّلت عليه، فأصبحت أقوى الأقوياء، وإن عرفت قدرته صَغُرت نفسك ووقفت عند حدِّها، وافتقرت إليه وتحققت عبوديَّتك، فأنت تعبده إن عرفته، وتستعين به إن عرفته، وهذا ملخَّص اسم المقتدر.

المليك

هذا الاسم ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القمر:٥٤-٥٥].

وقد ورد أيضاً في السنة الصحيحة حيث إنَّ أبا بكر رضي الله عنه، قال: يا رسول الله مُرني بشيء أقوله إذا أصبحت، قال: «قُلِ اللهمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، عالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَشْهَدُ أَن لا إلهَ إلاَّ أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَشَرِّ الشَّيْطانِ وَشِرْكِهِ. قالَ: قُلْها إذَا أَصْبَحْتَ، وَإذَا أَمْسَيْتَ، وَإذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ» [رواه الترمذي].

من معاني اسم الله المليك

المَلِك يحكم ولا يملك، والمالك هو الذي يملك ولا يحكم، هناك إنسان مالك لأرض، ولكن ليس له حقّ التّصرف فيها، وهناك إنسان ملِك، هذه الأرض يحكمها ولكنّه لا يملكها، لكنَّ الله جل جلاله ملك ومالك، يملك ويحكم، والمُلك في الدنيا،

والملكوت في الآخرة، المُلك في عالم الشهادة، والملكوت في عالم الغيب، والله جل جلاله مالك المُلك والملكوت.

والمليك مِلك ومالك، وصاحب الملك والملكوت، والمليك يملك كل شيء، خلقاً، وتصرفاً، ومصيراً.

للتوضيح: قد تملك المنفعة، ولا تملك الرّقبة، وقد تملك الرّقبة، ولا تملك المنفعة، وقد تملكهما معاً، ولا تملك المصير، ولكنّ الله جلَّ جلاله يملك كلَّ شيء خلقاً، وتصرُّفاً، ومصيراً.

معمل طائرات حربية يصنع طائرة، صنعها وباعها، الآن أمرها بيد مَن؟ بيد من اشتراها، فقد تقصف بلاداً لا يرضى صانع الطائرة أن تُقصف، لكنّها خرجت من يديه.

لكن ولله المثل الأعلى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الزمر:٦٢].

يملك ويحكم.

﴿ لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ ﴾ [الأعراف:٥٤].

قد تصنع طائرة، وقد تأتمر بأمرك، ولكن قد تفاجأ بأنها سقطت، فأنت لا تملك مصيرها إذاً.

المليك صيغة مبالغة، تدل على كمال الملكية ودوامها أزلاً وأبداً، فهو جلّ جلاله في أعلى درجات الملك، وهو يملك كلَّ شيء.

الله عز وجل مليك، بمعنى أنّه مالك لكلِّ شيء يُملّك، يملك الحياة، فهو الذي يهب الحياة، وهو الذي يأخذها.

هناك قصة قبل أكثر من عشر سنوات: تحطّمت نافذة طائرة متّجهة من السعودية إلى باكستان، وكان إلى جانب هذه النافذة امرأة من باكستان معها ولدان صغيران،

فخرجا من نافذة الطائرة، والطائرة مضغوطة ثمانية أمثال حاجتها من الهواء، الموت محقّق، الشيء الذي لا يُصدَّق أنّ الطفلين بقيا حيّين، لأنهما سقطا إلى جانب صياد، فرأى شيئاً من السماء يسقط، تتبع الشيء فإذ هما طفلان، أخذهما إلى القارب وأبلغ السلطات، وبلغت السفارة في باكستان، وجاءت الأم وأخذت ولديها.

الله عز وجل واهب الحياة، وهو الذي يأخذ الحياة بأقلّ سبب، وهناك قصص لا تعدُّ ولا تُحصى في مثل هذا.

قد يتمتع الرجل بأعلى درجات الصحة، ولا يشكو من شيء، وفي ثانية واحدة يصبح خبراً على الجدران، فلذلك الله مالك الحياة، ومالك الرزق.

وَلَو كانَتِ الأَرزاقُ تَجري عَلى الحِجا هَلَكنَ إِذَن مِن جَهلِهِنَّ البَهائِمُ

إنسان يتمتّع بأعلى درجات الذكاء، ورزقه محدود جداً، وإنسان أقلُّ ذكاء منه بكثير وله رزق وفير، فالله مالك الحياة، ومالك الرزق، مالك السمع والبصر والقوّة، وقد جاء في الحديث أَنَّ ابْنَ عُمَرَ قَالَ: قَلَّمَا كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتَّى يَدْعُوَ بِهَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ لِأَصْحَابِهِ: «اللهمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنْ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا، وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلْ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا» [الترمذي].

من تكريم الله للإنسان أن يمتّعه بسمعه وبصره، وعقله وقوّته ما دام حيّاً، من يملك نموَّ الخلايا؟ إذا نَمت الخلايا نموّاً عشوائياً ينتهي الإنسان، من يملك الشرايين؟ من يملك مرونتها؟ الله جل جلاله، مَن يملك سيولة الدم؟ الله جل جلاله، مَن يملك مَن حولك؟ الله جل جلاله، مَن يملك مَن فوقك؟ الله جل جلاله، مَن يملك مَن دونك؟ الله جل جلاله، إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ يا رب، ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟

إنّ أخاً أظنّه صالحاً، ولا أزكي على الله أحداً، قال كلمة خطيرة، قال: الدراهم مراهم، تحل بها كلُّ المشكلات، فأدّبه الله بأن أدخله السّجن المنفرد، وبقي فيها سبعة وستين يوماً، وفي كلِّ يوم يخاطب نفسه معاتباً: الدراهم مراهم؟!

المليك بيده كلُّ شيء، بيده حواسك، بيده نشاطك وقدرتك، بيده زوجتك، بيده أولادك، إذا رضي الله عنك خدمك عدوُّك، وإذا غضب عليك تطاول عليك أقرب الناس إليك.

والمليك ملّكنا حرية الاختيار، قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩].

وقال أيضاً: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان:٣].

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام:١٤٨].

جيء لسيدنا عمر بشارب خمر، فقال: «أقيموا عليك الحد، قال: والله يا أمير المؤمنين، إن الله قدر عليّ ذلك، فقال: أقيموا عليه الحد مرتين، مرة لأنه شرب الخمر ومرة لأنه افترى على الله، قال: ويحك يا هذا إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار».

أعطانا كوناً ينطق بكماله، وبوجوده، ووحدانيته، أعطانا وقتاً هو غلاف عملنا، أعطانا منهجاً تفصيلياً يهدينا إلى سواء السبيل، ثم أعطانا حرية الاختيار، وعند الموت تستردّ هذه الحرية فالله تعالى هو مالك وملك يوم الدين.

فالمليك ملّكك الحرية، وعند الموت استردّها منه. يقول تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ﴾ [الأنعام:١٥٨].

وأنت حيٌّ تُرزق والقلب ينبض، والنَّفس يخرج، يمكن أن تفعل كلَّ شيء، يمكن أن تتوب من كلِّ الذنوب، يمكن أن تصلح كلَّ العيوب، يمكن أن تفتح مع الله صفحة جديدة.

فرعون الذي قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ (٢٤)﴾ [النازعات:٢٤].

والذي قال: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص:٣٨].

أكفر كفار الأرض عند الموت قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس:٩٠].

إذاً: أهل الأرض قاطبة عند الموت تُكشف لهم الحقائق.

﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ (٢٢)﴾ [ق:٢٢].

إذاً: خيارنا مع الإيمان ليس خيار قبول أو رفض، بل خيار وقت، فلا بد من أن نؤمن في الوقت المناسب، أن تتصدق وأنت صحيح شحيح، أن تؤمن وأنت في مقتبل العمر، أن تؤمن والدنيا بين يديك. أن تؤمن وأنت في أتمِّ درجات القوة، أن تؤمن وأنت غني، أمّا عند الموت فما من إنسان على الإطلاق إلا وتُكشف له الحقائق التي جاء بها الأنبياء.

يقال: ابدأ من النهاية، والمؤمن الصادق يبدأ من الموت، إذا بدأ من الموت أفلح في حياته، يقول: هذا العمل سأحاسب عليه، هذا الدخل مشبوه سوف أحاسب عليه، هذا الطلاق لا يرضي الله سأحاسب عليه، حينما تبدأ من النهاية تبدأ من وقفتك بين يدي الله عز وجل، عندئذٍ تستقيم على أمره.

ومن معاني المليك: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢا﴾ [الفتح:١١].

التوحيد فحوى دعوة الأنبياء، هل يعقل أن تضغط مضامين دعوة الأنبياء جميعاً بآية واحدة؟

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥].

أيّ خلل في أجهزتك يجعل حياة الإنسان جحيماً لا يطاق، فجأة خثرة في الدماغ تصيبه بشلل، وفي مكان بفقدِ البصر، وفي مكان بفقدِ الذاكرة.

قبل أن تقول كلمة، قبل أن تَصِل، قبل أن تقطع، قبل أن تغضب، قبل أن ترضى، قبل أن تبتسم، قبل أن تتجهّم، هل جهّزت جواباً لله عزَّ وجلَّ؟

نصيب المؤمن من اسم الله المليك

حينما تعرف أنَّ الله بيده كل شيء تتجه إليه وحده، تعلّق الأمل عليه، لا تعلّق أملاً على غيره، لا تضعضع إلا في أعتابه.

«اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس؛ فإن الأمور تجري بالمقادير» [أخرجه تمام وابن عساكر عن عبد الله بن بسر].

وحينما تعرف المليك تسعى لمقعد صدق عنده وحده وتعتمد مقاييسه وتعرض عن مقاييس خلقه المصطنعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر:٥٤-٥٥].

فالبشر لهم مقاييس، يُكْبِرون الغني، يُكْبِرون القويَّ، يُكْبِرون الوسيم، يُكْبِرون الذّكيّ، لكنّ خالق البشر من خلال القرآن الكريم يعتمد قيمة العلم، وقيمة العمل، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩].

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١].

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ [الأنعام:١٢٣].

والقرآن الكريم من عند الخالق العظيم، اعتمد قيمة العلم والعمل، بينما أهل الدنيا اعتمدوا القوة والمال، والوسامة والذكاء، والبطولة أن تأتي مقاييسك وفق مقاييس القرآن، لا وفق مقاييس البشر، لذلك: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى الله لَأَبَرَّهُ» [رواه مسلم].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى الله لَأَبَرَّهُ» [رواه الترمذي].

فالبطولة أن تكون صاحبَ: ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ .

والطريق إلى ذلك أن تكون من المتقين، تطيع الله فلا تعصيه، وتذكره فلا تنساه، وتشكره فلا تكفره.

الأوّل

ورد هذا الاسم في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد:٣].

وورد في السّنّة الصحيحة، أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم أَنت الأولُ فليس قبلك شيء، وأنت الآخِرُ فليس بَعدَكَ شيء، وأنت الظَّاهِرُ فليس فوْقَكَ شيء، وأنت الباطِنُ فليس دُونَك شيء، اقْضِ عنا الديْنَ وأَغْنِنا من الفقرِ» [أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة].

من معاني اسم الله الأول

الأوّل: هو الذي يترتّب عليه غيره، شيء يُبنى على شيء، ونتيجة تؤسَّس على مقدمة، هذا المعنى الجامع، أما التفاصيل: فالأول هو المتقدِّم زمانَه، المحّرم، ثمّ صفر، ثم ربيع الأول وهكذا، فالأوّل هو الذي يأتي أولاً زماناً يعني التّقدُّم زماناً.

المعنى الثاني؛ التَّقدم رتبةً، فلان الأول على طلاب الصف، فلان الأول في التّجارة، فلان الأول في الصناعة، الأول في العلم، هذا التّقدم تقدُّم رُتَبِيٌّ ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ① عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ② خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ③ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ④﴾ [الرحمن:١-٤].

لا يُعقل أن يُعلِّم الإنسان القرآنَ قبل أن يُخلق، فهذا التقديم تقديم رُتَبِيٌّ وليس زمنيّاً.

المعنى الثالث، المتقدِّم مكاناً، أنت في الطريق إلى حلب، حمص قبل حماة، وحماة قبل حلب، فحمص أولاً وحماة ثانياً وحلب ثالثاً، إذاً هناك تقدّم زمنيّ وتقدّم مكانيّ وتقدم رُتَبِيٌّ.

المعنى الرابع التَّقديم في الترتيب، وهذا يُستخدم في الصناعة ترتيب المحرِّك أولاً، ربطه بالعجلات ثانياً، ربطه بالكهرباء ثالثاً، إذاً هناك أولويّة في الزّمان، أولويّة في المكان، أولويّة في الترتيب، أولوية في الرّتبة، هذه المعاني الأربعة مستفادة من معنى الأوَّل.

أمَّا إذا قلنا: الله هو الأوّل، فمعناه أنَّ الله سبحانه وتعالى لم يسبقه في الوجود شيء، لكن لا ينبغي أن تقول: زماناً، لأنَّ الزّمن من خلق الله، لم يسبقه في الوجود شيء، هذا هو الذي ينبغي أن نقوله في شرح معنى اسم الله الأول.

هناك معنى آخر متعلِّق بالله عز وجل؛ الأول هو الذي لا يحتاج إلى غيره، فكلُّ شيء يحتاج إلى غيره فليس أولاً، المنضدة تحتاج إلى خشب، إذاً ليست هي الأول، الخشب يحتاج إلى أن ينبت، إذاً ليس هو الأول، النبات يحتاج إلى بذر، ليس هو الأول، البذر يحتاج إلى نبات يخرج منه، النبات ليس هو الأول، فكل شيء يحتاج إلى غيره ليس أولاً.

فالمعنى الثاني إذاً: هو الشيء الذي لا يحتاج إلى غيره، هذا معنى الأول بالنسبة لله عز وجل.

المعنى الثالث: الشيء المستغني بنفسه في وجوده، لو أنَّ شيئاً يفتقر في استمرار وجوده إلى شيء آخر ليس أولاً، المادة الأوليّة سبب استمراره، ما دام هناك شيء يعين

على استمرار الوجود، فهذا الشيء ليس أولاً، المادة الأولية هي الأول، فثلاث معانٍ مستفادة من اسم الله العظيم الأول هو أنه لم يسبق وجودَه شيء، والثاني لا يحتاج إلى غيره، والثالث المستغني بنفسه، فهذه الثلاثة تشكّل معنى الأول.

النبي ﷺ قال: «كان الله ولم يكن شيء غيره» [البخاري من حديث عمران بن حصين].

كان هنا فعل ماض تام، لو قلنا: كان الجو صاحياً، فكان فعل ماض ناقص، أمَّا كان الله: فهو فعل تام، إذاً هذه كان التامة الكاملة التي تحتاج إلى فاعل، وتكون بمعنى وُجِدَ، أما كان الناقصة فلا تعني حدوث عمل.

بالمناسبة، الورقة، إذا مزّقتها، هذا التمزيق حدوث عمل، الفعل التام يدل على حدوث عمل، أما الفعل الناقص فلا يدل على حدوث عمل، يدل على زمن فقط، إذا قلت: الجو صاح، هذا تركيب اسمي، أمّا إذا قلت: كان الجو صحواً، ماذا أضفت؟ المضي فقط، كان الناقصة لا تفيد حدوث العمل، تفيد مضي الزمن فقط، الجو ممطر، كان الجو ممطراً البارحة، فكأن «كان» شدت هذا التركيب الاسمي إلى الماضي شداً، أمّا إذا دلت على حدوث عمل فقد أصبحت كان التامة إعرابها فعل ماضٍ تام، تحتاج إلى فاعل مرفوع، كان الله، وجد الله، الله لفظ الجلالة فاعل، ومن ذلك قوله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، -حيثما وجدت- وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن» [الترمذي من حديث أبي ذر].

النبي ﷺ قال: «كان الله ولم يكن شيء غيره»[1]، والحقيقة، هذا الاسم العظيم ورد في كتاب الله عز وجل في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد:٣].

(١) عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال: دخلت على النبي ﷺ وعقلت ناقتي بالباب فأتاه ناس من بني تميم فقال: «اقبلوا البشرى يا بني تميم». قالوا: قد بشرتنا فأعطنا، مرتين، ثم دخل عليه ناس من أهل =

من معاني هذا الاسم أنّك مهما أوغلت في النهاية فإنّك ستصل إلى الله، فالله وراء كل شيء، وسبب كلِّ مسبَّب، فهو الأول والآخر، أحياناً يقع حدث ما سببه؟ سبب آخر مادي فما سبب هذا السبب؟ سبب آخر مادي من مسبب الأسباب؟ الله وهو الأول، إذا تحركت نحو الوراء بسلسلة يجب قطعاً أن تنتهي إلى الله، هو الأول.

إنسان حرَّك يديه، كيف حرَّكهما؟ لأنه حيّ، من أعطاه الحياة؟ الله جل جلاله، إذاً هو الأول.

حصل زلزال: من أحدث هذا الزلزال؟ هذا الزلزال نتيجة اضطراب القشرة الأرضية، من جعلها تضطرب؟ الله هو الأوّل. لذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح:١٠].

بالمناسبة هذا المعنى له تطبيق رائع، الإنسان أحياناً يُصاب بمصيبة؛ فمن ضعف توحيده، أو لضيق أفقه، يصبُّ جام غضبه على من جاءته هذه المصيبة على يديه، لو تعقّل، لو كان توحيده أقوى لرأى يد الله هي التي عملت في الخفاء، لرأى يد الله فوق أيديهم.

لذلك ربنا عز وجل قال: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان:١٧].

= اليمن فقال: «اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذا لم يقبلها بنو تميم». قالوا: قد قبلنا يا رسول الله! قالوا: جئناك نسألك عن هذا الأمر قال: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء وخلق السماوات والأرض». فنادى منادٍ ذهبت ناقتك يا ابن الحصين، فانطلقت، فإذا هي يقطع دونها السراب فوالله لوددت أني كنت تركتها [رواه البخاري].

قال ابن حجر رحمه الله تعالى: تنبيه! وقع في بعض الكتب في هذا الحديث: كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان، وهي زيادة ليست في شيء من كتب الحديث.

أن تصبر على ما أصابك، فإن ذلك من عزم الأمور، هناك آية أخرى: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى:٤٣].

هذه اللام (لمن عزم الأمور) هي اللام المزحلقة، وهي لام التوكيد، فهنا في الآية توكيد، معنى ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ يعني قضاء وقدر جاء على يد إنسان، الإنسان أحياناً ينقم على هذا الإنسان الذي أجرى الله على يديه هذه المصيبة.

فلو افترضنا -لا سمح الله ولا قدر- أن طفلاً وقع من الشرفة، نزل ميتاً، الأب يتألّم أشدَّ الألم، وقد يتفطَّر قلبه، لكن يحقد على من؟ يقول: هذا قضاء وقدر، أمّا لو أنَّ سائقاً قتل طفلاً، الأب في ساعة غفلة، في ساعة غضب شديد ولنقص في توحيده يصبُّ كلَّ نقمته على هذا السائق، إذا عرف أن الله هو الأول في كل حادث، هو المسبب، هو مسبب الأسباب، طبعاً يأخذ حقَّه لكن لا يحقد، لأنَّ الحقد من لوازم الشرك.

هناك رجل يملك محلاً تجاريّاً، اختلف مع أحد موظفي المحل، هذا الموظف يعرف الدخائل والمخارج، فأبلغ بعض الجهات عن بضاعة غير نظامية، فضُبطت المستودعات، وغُرِّم بمبلغ كبير جداً، غرامة لهذه المخالفة الجمركية، فصاحب هذا المحل، بساعة من ساعات الغضب، أخرج مسدساً وأطلق النار على هذا الموظف فأرداه قتيلاً فأودع في السجن ثلاثين عاماً، لو كان موحِّداً لما رأى هذه المصيبة من هذا الشخص، بل رأى يد الله فوق يديه، وأنَّ الله هو الأول، هو مسبب الأسباب، ولعلَّ الله عز وجل يعوضه عن خسارته، ولعل الخسارة وقعت لذنب اقترفه.

الخلاصة أنك إذا آمنت أن الله بيده كلُّ شيء، هو الأول، لا تحقد على أحد، كما لو أنَّ إنساناً تلقى ضربةً بعصاً، فهل يحقد على العصا؟ أم على الذي ضربه؟ العصا لا تقدم ولا تؤخر، ويجب أن تعلم أنَّ الناس جميعاً، حتى الأقوياء، وحتى الأشرار إنما هم عصي بيد الله عز وجل، ألم يقل الله عز وجل على لسان نبيه: ﴿ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾ [هود:٥٥-٥٦].

وهذه الآية لها معنى مهمّ، يعني إذا كانت مجموعة وحوش كاسرة مربوطة بأزمَّةٍ بيد إنسان عظيم رحيم عادل منصف حكيم، فأنت ينبغي أن تخاف من هذه الوحوش أم من الذي يملك ناصيتها؟

فالكافر المشرك ضعيف الإيمان يخاف من الوحوش، والمؤمن يخاف من الذي يملك أزمَّتها، فإذا اصطلح معه أبعدها عنه، أما إذا عصاه، فسوف يرخي لها أزمّتها وتصل إليه، هو الأول والآخر والظاهر والباطن.

ويقول تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠)﴾ [الواقعة:٦٠].

يعني لم يسبقنا في الوجود أحد، وما نحن بمسبوقين، كان الله ولم يكن معه شيء، وسيدنا علي رضي الله عنه، سئل: «متى كان الله؟» فأجاب إجابةً رائعة: «ومتى لم يكن».

هو الأوّل بكل ما سواه، المتقدِّم على كلِّ ما عداه، فكلُّ ما سوى الله يأتي بعد الله، من دون الله، هو الأول، والمتقدم على كل ما عداه هذه الأولوية ليست بالمكان ولا بالزمان، ولا بأيِّ شيء في حدود العقل أو العلم.

يقول بعض العلماء: «الله سبحانه ظاهر باطن في كونه أولاً، هو الأول أظهر من كل ظاهر، لأن العقول تشهد أن المحدثات لها موجد متقدم عليها وهو سابق الوجود».

فكونه تعالى أولاً واضح جداً من هذه الجهة، أنّ كلَّ شيء محدَث له محدِث، كلَّ شيء موجود له موجِد، فمن بديهيات العقل: أنَّ الموجِد قبل الموجود، وأن المُحْدِث قبل الحادث، وأن الخالق قبل الخلق، وأن المدبِّر قبل المدبَّر وأن الرازق قبل الرزق.

وهو الأول أبطن من كل باطن، لأنك إذا توغلت في الشيء وتوغلت فيه...إلخ، تصل إلى الله، هو الأول أظهر من كل شيء وهو الأول أبطن من أي شيء.

قال: كل ما أحاط به عقلك وعلمك فهو محدود بعقلك وعلمك فيكون متناهياً، فمثلاً؛ نجمة تبعد عنا أربع سنوات ضوئية، مسافة بعيدة جداً نحتاج لقطعها في مركبة

أرضية إلى خمسين مليون عام، هناك نجم أبعد فنجد نجم القطب يبعد عنا أربعة آلاف سنة ضوئية، هناك نجم أبعد بعدُه عنّا عشرين مليار سنة ضوئية، يا ترى هذا المجرة هي حدود الكون؟ لا... والشيء اللطيف أن هذه المجرّة التي اكتشفت حديثاً، والتي تبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية، كانت في هذا المكان الذي وصل إلينا منه ضوؤها قبل عشرين مليار سنة ضوئية، أين هي الآن؟ لا يعلم إلا الله.

كلُّ شيء نرصده بالمراصد فالمكان غير حقيقي، مثلاً مجرّة كانت في مكان، وأطلقت شعاعاً، هذا الشعاع سار بسرعة ثلاثمئة ألف كيلومتر، وصل إلينا بعد عشرين مليار سنة ضوئية، هذا النجم أين صار الآن؟ هل تصدِّقون أنَّ بعض المجرَّات سرعتها تقترب من سرعة الضوء، سرعتها مئتان وأربعون ألف كيلومتر في الثانية، الضوء سرعته ثلاثمئة ألف كيلومتر في الثانية تقريباً، فإذا كان هذا النجم تحرّك بسرعة مئتين وأربعين ألف كيلومتراً في الثانية، وكان بهذا المكان قبل عشرين مليار سنة، فأين هو الآن؟ أين حدود الكون؟ مهما تخيلت الكون واتساعه، فهو عقلاً محدود، لماذا هو محدود لأنه من دون الله، حادث، والحادث متناهٍ، أما الله عز وجل فهو غير متناهٍ.

هناك مشكلة اجتماعية ونفسية ودينية في آنٍ واحد، الإنسان يشعر بما يسمى سعادة، أو يتوهم السعادة ما دام شاباً لأنه يتحرك نحو المجاهيل، يريد شهادة عليا، أخذ شهادة عليا، أحاط بعلومها واستوعبها ثم سئِم منها، بحث عن زوجة، تزوج، أنجب أولاداً، اشترى بيتاً، اشترى مركبة، أكل، تنزّه، ثمَّ شعر بالملل، لماذا؟ لأنّ النّفس فطرها الله فطرةً عالية، فطرها على أن تسعى للانهائي، فإذا قبلت بالنّهائي سئمت.

تجد حقيقةً أنّ الإنسان بعد الأربعين يغلب عليه السأم، أكل أطايب الطعام حتى شبع، تنزه، وساح في العالم، فلم يعد لديه شيء جديد، كلُّه مكرّر، صباحاً جلست للطعام ففوجئت بطعام لم تره من قبل وبطعام ما عرفته سابقاً، وفي اليوم التالي كأس شاي، قطعة جبن، وبيض، وبعد؟ فما هو الجديد في الطعام؟ لم يعد من جديد فهذه الخضر الموجودة، والطبخ، والفاكهة، والسرير سرير، والنوم نوم، والأكل أكل، يعني

حياة رتيبة تنتهي إلى سأم، فهذه النفس البشرية، بالأساس مخلوقة على أن تتجه إلى المطلق، فإذا قنعت بالمقيد فلن ترضى، فهي أكبر من كل قيد، لذلك تشعر بالسأم.

وإذا كانــــت النّفــــوس كبــــاراً تعبــــت في مرادهــــا الأجســــام

مثل بسيط: إنسان ذو طاقات كبيرة جداً، ضَعْهُ في مكان بلا عمل يتضجر ويتمزّق، طاقته كبيرة والعمل محدود، أما حينما يلتجئ الإنسان إلى الله، فإنّ السأم يتبدّد لأن الله عظيم، لا نهائي، لذلك أقول وأصر على ما أقول: المؤمن لا يشيخ إطلاقاً، شاب دائماً، ما الشباب؟ الشباب أن تكون أهدافك أكبر من حياتك، أن تكون أهدافك نبيلة تضيق بها حياتك، فأنت في شباب دائم، أما إذا كانت أهدافك كلُّها ماديّةً، الأشياء المادية محدودة، أنت أكبر من المادة.

فلذلك منهومان لا يشبعان، طالب علم وطالب مال. فإذا أردت أن تشيخ وألا تهرم وأن تكون في شباب دائم فاتّجه إلى الله، واجعل الله عز وجل مقصودك، ورضاه مطلوبك، اجعل هدفك الآخرة فأنت في شباب دائم ومتجدد.

حتى الناجحون في حياتهم، وحتى الأعلام المتألقون، في الصناعة، في التجارة، في العلوم، في مراكز القوى، أيُّ إنسان متألّق، ما دام حياً فأهدافه الماديّة أصغر من طاقته الكبرى، فالإنسان الوحيد الذي يسعد طوال حياته هو إنسان اتّجه إلى الله، الله لا نهائيّ.

قال بعض العلماء: «الأوّل في وصفه تعالى بمعنى القديم الأزليّ لا ابتداء له» وقيل: «الأول بلا ابتداء الموجود بذاته قبل وجود مخلوقاته وكان الأول لأنّه كان موجوداً ولا شيء معه»، يعني مهما أوغلت في القدم، مثلاً نحن نعيش في القرن الواحد والعشرين، توغل في القرن العشرين، القرن التاسع عشر، الثامن عشر، السابع عشر، السادس عشر، الخامس عشر، الرابع عشر، القرن السابع، الثالث، الثاني، الأول، ما قبل التاريخ إلى نشوء العالم، أين تصل؟ إلى الله هو الأول، هو الذي أنشأ العالم، كان الله ولم يكن معه شيء.

قالَ أَبُو حَازِمٍ سَمِعْتُهُ مِنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ صَاحِبِ رَسُولِ الله ﷺ يقولُ: قالَ رَسُول الله ﷺ: «بُعِثْتُ أنا وَالسَّاعَةَ كَهذِهِ مِنْ هَذِهِ أَوْ كَهَاتَيْنِ» وَقَرَنَ بَيْنَ السَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى [صحيح البخاري].

لو انتهت الحياة الدنيا، ماذا بعد الحياة الدنيا؟ الله، هو الأول والآخر، لو تحركت نحو الماضي الله هو الأول نحو المستقبل الله هو الآخر.

اسم الله الأوّل يعني مطلق القبلية، فالله عز وجل علمه مطلق، ورحمته مطلقة، أحياناً قاضٍ يحكم ألف حكم، عشرة أحكام منها غير عادلة، لا عن قصد، ولكن عن خطأ، ونقص معلومات، عند البشر هذا القاضي الذي حكم ألف حكم، منها عشرة أحكام غير عادلة يُسمّى عند الناس عادلاً، لأن الإنسان ليس مطلقاً، أما الإله فلو ظُلم عصفورٌ في ملكه فليس عادلاً، عدله مطلق، رحمته مطلقة، حكمته مطلقة، غناه مطلق، قدرته مطلقة.

والأولويّة في الأشياء مرجعيتها إلى الله، خلقاً، وإيجاداً، وعطاءً، وإمداداً.

نصيب المؤمن من اسم الله الأول

يجب أن تسعى أيها الإنسان إلى أن تكون أوّلاً في كل حقل، أول في بيتك أب ناجح، أول في عملك، طبيب ناجح، مهندس ناجح، صناعي ناجح، تاجر ناجح، في عمل الخير ناجح، في أداء العبادات ناجح، ما دام الله أولاً، وأنت عبده، وقد أمرك أن تتخلق بكمالات مشتقة من كمالات الله، فلابدّ من أن تكون أولاً في اختصاصك، تعلَّم كلَّ شيء عن شيء وشيئاً عن كلِّ شيء، لا بدّ لك من اختصاص تتعمّق فيه كثيراً.

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾ [المؤمنون:٦١].

المؤمنون مع الأوائل، وفي آية ثانية: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء:٩٠].

من توجيهات النبي: أن تحرص في الصلاة على الصّفّ الأول، من أجل أن تكون أولاً احرص على الصف الأول.

ومن توجيهات النبي: احرص على أن تصلي الصلاة في أوّل وقتها.

مرة تكلمت بكلمة قناعتي بها بلا حدود: الآن إن لم نكن متفوقين في دنيانا، فلا يحترم ديننا، بلاد متخلفة، نسب الأمية عالية جداً، نسب الفقر عالية جداً، نسب البطالة عالية جداً، نسب العنوسة عالية جداً، في قائمة الاستيراد اسم هذه البلاد في الأوج، في المقدمة، تستورد كلَّ شيء، و في قائمة المصدرين هي في أسفل القائمة، بأس هذه الأمم بينها، تتقاتل، وتسيل الدماء، وبين أطيافها ٩٥٪ قواسم مشتركة، بينما أعداؤها يتعاونون، وبينهم خمسة بالمئة قواسم مشتركة، بأسها بينها، وسلمها لأعدائها، هذه الأمة بهذا الوضع لا يمكن أن يصغي إليها أحد.

لذلك قالوا: الإسلام الآن محجوب بالمسلمين، المسلمون معهم أعظم دين، لكنّهم أسوأ مسوق لهذا الدين، وغير المسلمين معهم الباطل لكنّهم مسوِّقون ناجحون لباطلهم.

فلذلك ما لم تكن أوّلاً لا يحترم دينك، يجب أن تكون الأوّل.

المسلمون أفراداً متفوقون جداً، تذهب إلى بلاد بعيدة، هذا البناء الشامخ بناه مهندس مسلم، لأن الله سبحانه وتعالى وزع الذكاء بالتساوي على كل الشعوب، في كل أمة أذكياء بقدر ما عند أمة أخرى متفوقة أذكياء، لكن الأمة المتخلفة لا تهتم بأذكيائها فتدفعهم إلى الهجرة.

سيدنا إبراهيم، ماذا قال: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام:١٦٣].

سيدنا محمد: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف:٨١].

سيدنا موسى: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف:١٤٣].

وفي أمر إلهيّ واضح: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ [الأنعام:١٤].

الدنيا ماضية، فانية، زائلة، اعمل عملاً لتكون في الدنيا شيئاً مذكوراً، اعمل عملاً لتكون حديث الناس، قدم شيئاً لهذه الأمة، اخرج من ذاتك.

ما دمنا نقدِّس اسم الله الأول فيقتضي هذا التقديس أن تكون أولاً في عملك، وفي بيتك، وفي اختصاصك، وفي كلِّ شيء.

الآخر

ورد هذا الاسم في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد:٣].

وقد ورد أيضاً في السنة الصحيحة، أن النبي ﷺ كان يدعو ويقول: «اللهم أَنت الأولُ فليس قبلك شيء، وأنت الآخِرُ فليس بَعدَك شيء، وأنت الظَّاهِرُ فليس فوْقَك شيء، وأنت الباطِنُ فليس دُونَك شيء، اقْضِ عنا الديْنَ وأَغْنِنا من الفقرِ» [أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة].

من معاني اسم الله الآخر

الآخر اسم فاعل لمن اتصف بالآخرية، والآخر يقابل الأول، والآخر لما بقي من المدة الزمنية، كقولنا جاء في آخر الوقت، والرقم الذي يلي الأول هو الآخر في الأرقام العددية، أو ما يلي الأول في البعدية والنوعية، أو لما بقي في المواضع الأرضية، هذه كلها

معان عليها شواهد من كتاب الله، ولكن نكتفي بشاهدين، الآخر الذي يقابل الأول قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ [المائدة:١١٤].

و«الآخر» لما بقي من المدة الزمنية في قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران:٧٢].

الله الآخر المتّصف بالبقاء، والآخريّة، هو الآخر الذي ليس بعده شيء، والآخر الباقي بعد فناء خلقه.

﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨].

لكن هناك إشكاليّة في الموضوع، إذ إنّ آيات كثيرة تؤكد أنّ المؤمنين في الجنة خالدون قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الطلاق:١١].

فكيف نجمع ونوفق بين أنّ الله هو الآخر وليس بعده شيء، وأنّ المؤمنين في الجنة خالدون فيها أبداً؟ الله عز وجل باقٍ وليس بعده شيء، ببقائه هو، لكن إذا أراد الله للمؤمنين أن ينعموا في جنة إلى أبد الآبدين فهؤلاء باقون بإبقاء الله لهم، وفرق كبير بين أنّ الله باقٍ ببقائه الذاتي، وبين أن يكون المؤمنون في الجنة إلى أبد الآبدين، يتّضح الأمر أكثر من خلال المثال الآتي:

النّبيّ ﷺ على عظم شأنه، وعلوّ مقامه، وهو سيّد الخلق، وحبيب الحق، وسيد ولد آدم، لا يعلم الغيب، إذ لا يعلم الغيب إلا الله، وأيُّ إنسان، وأية جهة، تدعي أنها تعلم الغيب، قل لها بملء فمك: أنتم كاذبون، لا يعلم الغيب إلا الله، وعلى الرغم من أن هذا العصر عصر علم، وعصر تنوير، هناك خرافات، وهناك مشعوذون، وهناك دجل لا يعلمه إلا الله، فالغيب لا يعلمه إلا الله.

ولكن هناك أحاديث كثيرة تتحدث عن أشراط الساعة، كيف نوفق بين أن النبي الكريم لا يعلم الغيب، وبين أنّه تحدّث عن أشراط الساعة؟

النبي ﷺ لا يعلم الغيب، لكن إذا تحدّث عن المستقبل فبإعلام الله له.

ومن معاني هذا الاسم أيضاً أن أمور الخلائق تنتهي إليه، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ۝٥٣﴾ [الشورى:٥٣].

معظم الناس الذين لم يكن إيمانهم توحيدياً يتوهّمون، أن الأمر بيد فلان، أو فلان، أو فلان، يتعاملون مع شركاء لله عز وجل، يوم القيامة يتّضح لكلِّ الخلائق أن الأمر بيد الله، أما المؤمن وهو في الدنيا يعلم علم اليقين أن الأمر بيد الله، إلا أن عامة الناس الذين لم يكن إيمانهم إيماناً تحقيقياً، توحيدياً، مع إيمانهم بالله يرون في الأرض آلهة، من بني البشر، بيدهم مصائر الشعوب، بيدهم قصف هذه المدينة أو عدم قصفها، مثلاً، فالإنسان إذا عاش بجو الشرك فالحياة لا تطاق، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ۝٢١٣﴾ [الشعراء:٢١٣].

أي إنَّ أحد أكبر عذابات الإنسان أن يرى مع الله إلهاً آخر، شيء لا يحتمل، حالة الإحباط أساسها ضعف التوحيد، حالة الخوف أساسها ضعف التوحيد، حالة اليأس أساسها ضعف التوحيد.

كثيراً ما يأخذ أكبر الأخوة المال كلَّه، إخوته صغار وأخواته بنات متزوجات، وله هيمنة عليهم، أعطوه وكالة عامة، اغتصب كلَّ أموال الأب، والله عز وجل هو الآخر والمصير إليه.

سمعت قصّة عن إنسانة تعمل في حقل القضاء، وهناك جمعيّة سكنيّة تتيح لمن في القضاء أن يشتري بيتاً بسعر مخفض، وبالتقسيط فسجّلت اسمها، ولا تملك كامل الثمن، دخل أخوها معها مناصفة، والبيت باسم الأخت، ارتفع سعره حوالي خمسين ضعفاً، فقالت له: اخرج من البيت، والبيت باسمي، لم يترك وسيلة يرجو أخته أن تبقيه في البيت، هي أقوى منه بالقانون، لأن البيت باسمها، فلم تُجْدِ كلُّ المحاولات،

فأخرجته من البيت، يقول لي ابن أخيها: عمتي مريضة، قلت: ما المرض؟ قال لي: ورم خبيث بأحشائها، بعد شهر، قال لي: توفيت، وعاد البيت إلى أخيها.

﴿ أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الزخرف:٧٩].

الله هو الآخر، هو مع المظلوم، قد يكون الزوج ظالماً، يطلّق امرأته طلاقاً تعسفياً، يهيئ الله لهذه المرأة زوجاً صالحاً يكرمها، ويحميها، وينسيها الأول، ويهيئ للثاني زوجة تعدُّ نقمة.

بطولتك أن تخشى الله، بطولتك أن تخاف منه، بطولتك أن تعلم علم اليقين أنَّ الأمر بيده، هو الآخر.

حدثني إنسان، ذاهب إلى المطار مع سائق، هذا السائق أراد أن يقطع يدي كلب صغير، جالس على طرف الطريق، ليظهر مهارته في القيادة، لم يقتله، دهس يديه فقط، هذه تحتاج إلى مهارة كبيرة جداً، وأطلق ضحكة هستيرية، يقسم لي بالله هذا الأخ، قال لي: بعد أسبوع في المكان نفسه أصاب العجلة عطل، رفع المركبة في الرافعة، وسحب العجل، وقعت المركبة فوق العجلة، والعجلة فوق رسغيه، فإلى أن وصل إلى المستشفى اسودت يداه، فلابدّ من قطعهما، أقسم لي بالله بعد أسبوع كانت يداه مقطوعتين.

لكن... إياكم، ثم إياكم، ثم إياكم أن تتوهّموا أنّ كل مسيء يعاقب في الدنيا، الله عز وجل يعاقب بعض المسيئين، ردعاً للباقين، ويكافئ بعض المحسنين تشجيعاً للباقين، قد يقول قائل: فلان فعل كذا وكذا وما أصابه شيء، نحن لسنا في دار جزاء، نحن في دار ابتلاء، لكن من رحمة الله بنا كي يردعنا عن الإساءة، وكي يشجعنا على العمل الصالح، يكافئ بعض المحسنين في الدنيا. ويعاقب بعض المسيئين.

الآخر هو الباقي سبحانه بعد فناء خلقه، ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

الإنسان العاقل يربط مصيره بمصير الأزليّ الأبديّ، الباقي الآخر، أمّا لو ربط مصيره بأيِّ شيء آخر فإنَّ هذا الشيء الآخر سيفنى.

قال العلماء: الآخر هو الباقي بعد فناء خلقه، الإنسان يعيش ويتعلّم، يكسب المال، يسكن ويأكل ويتحرّك ويسافر، ثم تُكتب نعوته، ثم يوضع في القبر وهو صندوق العمل.

قال بعضهم: الآخر الدائم بلا نهاية، عندنا قلق عميق، فالإنسان قد تكون حياته منتظمة، حقق نجاحات في حياته، هناك موت، هناك نهاية لهذا النجاح، لكن كلُّ عصر له تجّار وصنّاع وموظفون وأقوياء وأغنياء وأذكياء عاشوا، ترفّهوا، أكلوا، شربوا، تمتّعوا، ثم طواهم الرّدى.

قف أمام سوق الحميديّة في دمشق، وعُدْ بذاكرتك إلى المحالِّ التي على الصفين قبل ستين عاماً فكلُّ أصحاب هذه المحالِّ لم يكونوا فيها قبل ستين سنة، وبعد ستين عاماً في الأعمِّ الأغلب هناك عدد آخر من الناس في هذه المحالِّ، البيوت، المتنزّهات، المدن الساحلية، كان فيها الرومان، قبلهم الآشوريون، الآراميون، بعدهم العرب المسلمون، جاء الصليبيون، جاء المسلمون، الله هو الآخر.

يقول أحد العلماء: «اعلم أن الأول يكون أولاً بالإضافة إلى شيء والآخر يكون آخراً بالإضافة إلى شيء، وهما متناقضان، فلا يتصور أن يكون الشيء الواحد من وجه واحد بالإضافة إلى شيء واحد أولاً وآخراً جميعاً».

ليس من المعقول أن تكون هذه اليد قبل الكأس، هي يد واحدة، وتكون بعدها -أي: بعد الكأس- أيضاً فهذا شيء خلاف المنطق، شيء مضاف إلى شيء، وهذا الشيء نفسه مضاف إلى شيء آخر، إلى الشيء نفسه، الأول مضاف أول، والثاني مضاف آخر، هناك تناقض عقلي، حلَّ هذا الإشكال على النحو التالي؛ قال: هما متناقضان فلا يتصور أن يكون الشيء الواحد من وجه واحد بالإضافة إلى شيء واحد أولاً وآخراً، يعني هذا

المسجد هناك في الجهة الشرقية شجرة، هي قبله، هي نفسها أيمكن أن تكون بعده؟ مستحيل هذا يتناقض مع مبدأ الهوية بالمنطق! شجرة واحدة أول وآخر لا يصح.

فما دام الأول يجب أن يضاف إلى شيء، والآخر يجب أن يضاف إلى شيء، فينبغي أن يكون هذا الشيء شيئين، الأول بالنسبة لكذا وآخر بالنسبة لذلك.

يمكن أن نقول: هذا الكأس قبل الكتاب، وهذا الشريط بعد الكتاب، أما هذا الكأس قبل الكتاب وقبل الشريط هو ممكن، فإذا اختلف المضاف إليه يمكن أن نجمع بين الأول والآخر، الكأس بعد الشريط وقبل الكتاب واحد، أما شيء واحد مضاف مرةً إضافة أولوية ومرة أخروية لمضاف إليه واحد فهذا الشيء يرفضه العقل.

قالوا: إذا نظرت إلى تركيب الوجود ولاحظت سلسلة الموجودات المرتبة فالله تعالى بالإضافة إليها أول، إذا نظرت إلى الموجودات الله تعالى أول الموجودات، إذ الموجودات كلُّها استفادت الوجود منه، فالله أوجدها، فهو أوّل، وأمّا هو فموجود لذاته، وما استفاد الوجود من غيره، الله عز وجل وجوده ذاتي، أما وجود الكون كلِّه فيستفاد من وجود الله عز وجل، فالوجود ليس ذاتياً، وجود معلول بالموجِد، أما وجود الله عز وجل، فوجوده ذاتي.

فهناك أحداث ومسالك، فهو آخر، في نهاية المطاف تجد الله أمامك، إذا أضفنا إلى الموجودات فهو الأول، أما إذا أضفنا إلى الحركة فهو الآخر، نهاية المطاف، نهاية السعي، نهاية الحياة، نهاية كل عمل الله جل جلاله.

إذ هو آخر ما يرتقي إليه العارفون، وكل معرفة تحصل قبل معرفته فهي مرقاة إلى معرفته، لذلك قالوا: نهاية العلم التوحيد، مهما تعلمت، مهما درست، نهاية النهاية التوحيد، وأعلى مرتبة علمية أن تعرف الله فهو آخر بالإضافة إلى السلوك، بالإضافة إلى الموجودات فهو أول، منه المبدأ أولاً وإليه المرجع والمصير آخراً.

هذا المعنى له علاقة بحياتنا، إنسان سافر وتاجر وجمع مالاً، أسس أعمالاً، ونجح، وتألق مصيره إلى الله: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الغاشية:٢٥].

اذهب أين شئت: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) ﴾ [البقرة:١٤٨].

هو الآخر، يجوز أن تركن إلى إنسان، تركن إلى جهة، تركن إلى جماعة، تركن إلى مالك تركن إلى قوتك، في النهاية أنت مع الله، مصيرك إليه.

عالم جليل يقول: «الأول في وصفه القديم الأزلي، الذي لا ابتداء له، والآخر في وصفه بمعنى لا انتهاء له، ولا انقضاء لوجوده هو الأول بإحسانه، والآخر بغفرانه، الأول بالهداية، والآخر بالرعاية».

الإمام الرازي يقول: «الأول والآخر؛ فذكر عدة عبارات منها: الأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء، الأول لعرفان القلوب، والآخر لستر العيوب، الأول قبل كلِّ شيء، والآخر بعد كلِّ شيء، الأول قبل كلِّ شيء بالقدم والأزليّة، والآخر بعد كلِّ شيء بالأبدية والسرمدية، الأول مبدي كلِّ أول، والآخر مؤخِّر كل آخر، الأول بالوجود والقِدَم، والآخر للتوجيه عن الفناء والعدم».

يعني أينما ذهبت وأوغلت في القدم فهو الأول، وأينما سعيت وتحركت وطرت وغصت وسافرت وتخطيت فهو الآخر، الإنسان أين ومتى مات فمصيره إلى الله.

الأول بالخلق، والآخر للرزق، الأول بلا مطلع، والآخر بلا مقطع، الأول هو الذي ابتدأ بالإحسان، والآخر هو الذي تفضل بالغفران، هذه كلها معانٍ فرعية تستفاد من الأول والآخر.

نصيب المؤمن من اسم الله الآخر

قال العلماء: من أدب المؤمن مع هذا الاسم الآخر، أن يُكثر من ذكر هذا الاسم حتى يتجلّى لقلبه نور الظّاهر، وأن يفر من دار الفناء إلى دار البقاء.

رثى أبو البقاء الرندي مملكة الأندلس فقال:

لكـلِّ شيء إذا مـا تـمَّ نقصـان فـلا يُغَـرَّ بطيـب العيش إنسـان
هـي الأمـور كـما شـاهدتُها دولٌ مَـن سرَّه زمـن سـاءته أزمـان
وهـذه الـدار لا تُبقـي عـلى أحـد ولا يـدوم عـلى حـالٍ لهـا شـان

دعا بعضهم فقال: إلهي أنت الآخر لك البقاء، وأنت الدائم والجموع هباء، فاجعل لنا قسطاً من نور اسمك الآخر، فيحيي به الظواهر والسرائر فلا نشهد إلا الباقي بالباقي، ولا نصل إلا إلى مقام العالي الراقي.

ودعا بعضهم فقال: «يا كائناً قبل أن يكون شيء، والمكوِّن لكلِّ شيء، والكائن بعد ما لا يكون شيء، أسألك جنّة الخلد ودوام النّعيم».

الظاهر

هذا الاسم ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد:٣].

وقد ورد أيضاً في السنة الصحيحة، في دعاء النبي ﷺ:

... اللهمَّ أنْتَ الأوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شيءٌ، وأنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شيءٌ، وَأنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شيءٌ، وأنْتَ الباطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شيءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأغْنِنا مِنَ الفَقْرِ» [صحيح مسلم].

من معاني اسم الله الظاهر

الظّاهر؛ اسم فاعل لمن اتّصف بالظهور، والظُّهور هو العلوُّ والارتفاع، قال تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف:٩٧].

أيّ إنّهم ما استطاعوا أن يعلو عليه لارتفاعه.

و «الظاهر» من الغلبة، والنصر، قال تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف:١٤].

والظاهر من السّند والدّعم، يقول ﷺ: «خَيْرُ الصَّدَقَةِ ما كان عن ظَهْرِ غِنى» [أخرجه البخاري وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة].

والظهور؛ البيان وبدوُّ الشَّيء الخفيِّ، والظّهر ما غاب عنك، نقول هذا الإنسان الصالح يقرأ القرآن عن ظهر قلب، أي لا ينظر في المصحف.

والمظاهرة: المعاونة، قال تعالى: ﴿وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ﴾ [الممتحنة:٩].

أيّ: أعانوا على إخراجكم.

أمَّا إذا قلنا: الله جل جلاله هو الظَّاهر فهو المنفرد بعلوّ الذات والفوقيّة، وعلوّ الغلبة والقهريّة، وعلوّ الشّأن وانتفاء الشبيه والمثليّة، هو الظاهر في كل معاني الكمال، هو المبين لحججه الباهرة وبراهينه الظاهرة.

ولكن....لو أنَّ الله مكّن الأعداء إلى أبد الآبدين، لوقع اليأس في صفوف المؤمنين، ولو أنّه قوّى المؤمنين إلى أبد الآبدين لظهر النّفاق في الأرض، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠].

الله عز وجل هو الظَّاهر، سيدنا نوح يجد نفسه فجأة في بطن حوت، والإنسان لقمة واحدة في طعام الحوت، في ظلمة بطن الحوت، وفي ظلمة البحر، وفي ظلمة الليل.

﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء:٨٧].

سيدنا موسى مع قليل من بني إسرائيل، أمامهم البحر، وراءهم فرعون، بقوته، بأسلحته، بحقده، بجبروته.

﴿ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الشعراء:٦١].

﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء:٦٢].

ضرب البحر بعصاه، فأصبح الطريق يبساً.

تروي الروايات: أنَّ فرعون رأى في منامه أنَّ طفلاً من بني إسرائيل سيقضي عليه، فاتّخذ قراراً ببساطة بالغة بذبح أبناء بني إسرائيل دون استثناء وأيّة قابلة لا تخبر عن وليد ذكر فإنّها تقتل مكانه، وانتهى الأمر.والذي حصل أنَّ الطفل الذي سيقضي عليه رباه في قصره.

﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [القصص:٨].

الله عز وجل ظاهر، ينصر بأدنى سبب.

سيدنا إبراهيم، سمح الله عز وجل أن يقبضوا عليه، وكان بالإمكان ألاّ يصلوا إليه، وسمح أن يحاكموه، وسمح أن يتّخذوا قراراً بإحراقه، وجمعوا ناراً عظيمة، وألقوه في النار، لكنّ الله عز وجل هو الظاهر.

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنبياء:٦٩].

الظّاهر في اللغة من الظُّهور، وهو بدوُّ الشيء الخفيِّ، شيء خفي ظهر يُقال له: ظاهر، والظّاهر أيضاً هو الغالب.

المعنى الأول من فعل: بدا، أي: ظهر، والمعنى الثاني: الغالب من فعل غَلَب يغلِب، قال تعالى: ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الصف:١٤].

أي أصبحوا غالبين، والظّاهر كذلك هو: الشّيء الخارجيّ خلاف الباطن: الشيء الدّاخلي، والظّهر: الرّكاب التي تحمل الأثقال على ظهورها، فلان عنده ظهر؛ أي: عنده دابة يحمل عليها، والظّهير هو القويّ.

الظاهر

هذا الاسم ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد:٣].

وقد ورد أيضاً في السنة الصحيحة، في دعاء النبي ﷺ:

... اللهمَّ أنْتَ الأوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شيءٌ، وأنْتَ الآخِرُ فَلَيْس بَعْدَكَ شيءٌ، وَأنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شيءٌ، وأنْتَ الباطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شيءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأغْنِنا مِنَ الفَقْرِ» [صحيح مسلم].

من معاني اسم الله الظاهر

الظّاهر؛ اسم فاعل لمن اتّصف بالظهور، والظُّهور هو العلوُّ والارتفاع، قال تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف:٩٧].

أيّ إنّهم ما استطاعوا أن يعلو عليه لارتفاعه.

و «الظاهر» من الغلبة، والنصر، قال تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف:١٤].

والظاهر من السّند والدّعم، يقول ﷺ: «خَيْرُ الصَّدَقَةِ ما كان عن ظَهْرِ غِنى» [أخرجه البخاري وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة].

والظهور؛ البيان وبدوُّ الشّيء الخفيِّ، والظّهر ما غاب عنك، نقول هذا الإنسان الصالح يقرأ القرآن عن ظهر قلب، أي لا ينظر في المصحف.

والمظاهرة: المعاونة، قال تعالى: ﴿وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾ [الممتحنة:٩].

أيّ: أعانوا على إخراجكم.

أمَّا إذا قلنا: الله جل جلاله هو الظَّاهر فهو المنفرد بعلوّ الذات والفوقيّة، وعلوّ الغلبة والقهريّة، وعلوّ الشّأن وانتفاء الشبيه والمثليّة، هو الظاهر في كل معاني الكمال، هو المبين لحججه الباهرة وبراهينه الظاهرة.

ولكن....لو أنَّ الله مكّن الأعداء إلى أبد الآبدين، لوقع اليأس في صفوف المؤمنين، ولو أنّه قوّى المؤمنين إلى أبد الآبدين لظهر النّفاق في الأرض، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠].

الله عز وجل هو الظَّاهر، سيدنا نوح يجد نفسه فجأة في بطن حوت، والإنسان لقمة واحدة في طعام الحوت، في ظلمة بطن الحوت، وفي ظلمة البحر، وفي ظلمة الليل.

﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء:٨٧].

سيدنا موسى مع قليل من بني إسرائيل، أمامهم البحر، وراءهم فرعون، بقوته، بأسلحته، بحقده، بجبروته.

النفوس، وشيء يُثَبِّتُ الإيمان في القلوب، وأحياناً يبدو لنا أنَّ زيداً أو عبيداً يفعل ما يريد، وكأنّه يتصرّف وحده، أيضاً هذا امتحان آخر، هذا امتحان لضعاف الإيمان، أحياناً يضعف إيمانهم فيقولون: أين الله؟ وأحياناً تقع بعض أفعال الله عز وجل صارخةً جليّةً فيقولون: لا إله إلا الله.

فمثلاً مركبة فضائيّة أُتقنت إتقاناً خيالياً، سُمّيت المتحدّي، أطلقت، بعد سبعين ثانية أصبحت كتلة من اللهب، العالم كلُّه مؤمِنُه وكافره يشعر أنَّ هذا فعل الله.

باخرة صُنعت في عالم ألف وتسع مئة واثني عشر، وكتب عنها أنّ هذه الباخرة لا يستطيع القدر إغراقها، لأنها صنعت من طبقتين وهناك أبواب عرضيّة، فأيُّ خلل أصاب جدارها الخارجي، فإقفال الأبواب الداخلية، يمنع تسرُّب الماء إليها، وضع في هذه الباخرة أجمل ما في العالم من أثاث ومن ثريّات ومن مسابح ومن مطاعم ومن ملاعب ومن مقاصف، ومن غرف من الدرجة الممتازة، ورَكِب في هذه الباخرة أغنياء أوروبا، رجال أوروبا الأغنياء الأثرياء ونساؤهم، اتجهت في أول رحلة لها فيما أذكر من بريطانيا إلى بوسطن، وفي أول رحلة من رحلاتها ارتطمت بجبل ثلجيٍّ في عرض المحيط فغرقت وانشطرت شطرين، ثمّ عُثر عليها في أعماق المحيط، لأنَّ القدر لا يستطيع إغراقها حسب ما يدَّعون، أغرقها الله تعالى من أول رحلة.

الإنسان يشعر أحياناً أنَّ فعل الله ظاهر، وأحياناً لحكمة يريدها الله عز وجل يبدو فعل البشر أنّه هو الظَّاهر وأنَّ الإنسان هو الفعَّال، لكنَّ الله سبحانه وتعالى هو الفعَّال دائماً، هذا ما يراه المؤمن، لكن ضعاف الإيمان إذا بدت قدرة الله صارخة يكتفون بأن يقولوا: سبحان الله، وإذا بدت قدرة البشر خارقة يتزلزلون وينكمشون ويضعفون، لكنَّ الحقيقة أنَّ الظَّاهر هو الله جل جلاله، الغالب على أمر الخلق.

الظَّاهر هو العليم بما بطن، والظَّاهر هو الذي ظهر فوق كلِّ شيء وعلا عليه، وقيل: عُرف بطريق الاستدلال العقلي مما ظهر لهم من آثار أفعاله وأوصافه.

يعني لو افترضنا أنَّ مكواة كهربائية، وُضع شريطها في المأخذ الكهربائي فلم تسخن، الاحتمالات في الفكر؛ ليس هناك كهرباء في البيت، نظرتَ فإذا المصباح متألق، فالمعنى أن تيار الكهرباء متصل، سألْتَ يا ترى في المأخذ خلل؟ جئت بآلة أخرى وضعتها في المأخذ فعملت هذه الآلة، فمن أين الخلل؟ من المكواة، جئت بشريط آخر وصلته بالمأخذ فعملت، أين الخلل؟ حصراً في الشريط.

الفكر نفى انقطاع التيار عن البيت لوجود مصابيح متألقة، نفى أن يكون الخلل في المأخذ لاستعماله في آلة أخرى، نفى أن يكون الخلل بالمكواة لأنها عملت بشريط آخر، إذاً الخلل محصور في الشريط، هذه محاكمة عقلية إلا أنّه كأنك ترى هذا الحادث رأي العين، لشدة المنطقية والنتيجة الحتمية وكأنّ هذا الشيء ظاهر.

فالله سبحانه وتعالى بمحاكمة بسيطة توقِن أنّه موجود، أحيانا يفتح الإنسان آلة يرى فيها توصيلات، وصمّامات، ولوحات توصيل، العقل لا يتصور دقتها، يعني لو قطعوا الإنسان المنطقي إرباً إرباً هل يصدق أن هذه الآلة صُنعت وحدها؟

قاموس لاروس من أضخم المعاجم في اللغة الفرنسية وهناك مطبعة فيها حروف إفرنسية، فلو جئت بمتفجرة وفجرت المطبعة هل يعقل أن ينتج من تفجير هذه المطبعة قاموس لاروس.

بصراحة أقول: لو أنَّ مطبعة بالحروف العربية وهي من المطابع الحديثة، جئنا لها بورق وجئنا بحروف وجئنا بحبر وجئنا بمتفجرة وفجرنا المطبعة، هل يُعقل أن ينتج عن هذا الانفجار معجم المورد مثلاً، معجم القاموس المحيط، مختار الصحاح المواد مرتبة وفق ترتيب الحروف الأبجدية كل الكلمات أُرجعت إلى الأصل الثلاثي المجرد ثم رُتِّبت ثم بُدئ بالفعل الماضي فالمضارع فالأمر، فالمصادر كلها السماعية والقياسية، ثم المشتقات بدئت باسم الفاعل، اسم المفعول، اسم المكان، اسم الزمان، اسم الآلة، الصيغة المشبهة باسم الفاعل ثم الأمثلة من كتاب الله، من السنّة، من الشعر، هل بمقدور الانفجار أن يفعل هذا؟!

فالخلق والكون أدقُّ من ذلك بكثير، في العين مئة وثلاثون مليون عصية ومخروط، والعصب البصريُّ مؤلَّف من تسع مئة ألف عصب، لكل عصب ثلاثة أغمدة، وفي الدماغ مئة وأربعون مليار خلية سمراء لم تُعرف وظيفتها بعد، وفي المعدة خمسة وثلاثون مليون غدة هاضمة، والأمعاء الدقيقة تتجدَّد كلَّ ثمان وأربعين ساعة، والقلب يضخُّ في اليوم ثمانية أمتار مكعبة بدسّامات وشرايين وأوردة، والغدّة النُّخاميَّة لا يتجاوز وزنها نصف غرام تعطي اثني عشر أمراً هرمونياً مسيطرة على كلِّ غدد الجسم، من صنع هذا الحُوين وتلك البويضة، كيف انقسمت، كيف تشكلت الأجهزة؟ محاكمة بسيطة جداً ترى أنّ الله وراء كلِّ شيء، من أودع في هذا الإنسان الطباع؟ من أودع فيه حسَّ الجوع؟ وحس الشبع؟ الرغبة إلى الطرف الآخر؟ هذا معنى اسم الظاهر، يعني يُعرف وكأنَّه ظاهر بالاستدلال العقلي، يعرف معرفة يقينية وكأنه ظاهر للعيان.

العوام لهم كلمة لطيفة، يقولون لك: الله عز وجل «لم يُر بالعين ولكن بالعقل عُرف»، بالعقل نرى الله عز وجل.

وقيل: هو الظاهر وجودُه لكثرة دلائله، وهو البادئ بالأدلة عليه، فلا يمكن أن يجحده جاحد، لذلك يوم القيامة يقسم الذين جحدوه وأنكروا وجوده، أنهم ما أشركوا، ولا كفروا، ولا جحدوا، اقرأ قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنعام:٢٣-٢٤].

موضوع الجحود، جحود الله عز وجل، حالة مَرَضية شاذة نادرة، عملية مكابَرة بالمحسوس، وهو الظاهر بحُجَجه الباهرة وبراهينه المنوَّعة، يعني أنَّ الماء لو أنّه كان على التبريد ينكمش شأنه شأن أي عنصر لما كانت حياة على الأرض، ولانعدمَت الحياة نهائياً.

قال العلماء: لقد خلق الله كلَّ الكائنات لتظهر آثار قدرته فيها، وهو سبحانه وتعالى ظاهر عليها من جميع الجهات، يقال: إن هذه المشكلة لم نستطع أن نسيطر عليها،

فالثقب في طبقة الأوزون حتى الآن لم يستطع البشر أن يسيطروا عليه، فيروس الإيدز حتى الآن البشر جميعاً، الدول العظمى بإمكاناتها المالية الضخمة، بعلمائها، بمخابرها، ببحوثها، كل هذه الدول تقف مكتوفة اليدين أمام أضعف فيروس عُرف على وجه الأرض، لم نستطع أن نسيطر عليه، ولو تمكنوا من أن يسيطروا عليه لكلَّف علاج المريض الواحد مبلغاً فلكياً، لأن هذا الفيروس يحير، يغير شكله، يظهر وكأنه كرية بيضاء، عناصر الدفاع في الجسم تأنس به وكأنه واحد منها، فإذا دخل إليها دمرها جميعاً وهو أضعف خلق الله.

لذلك من أعمق الكلمات وأوضحها أن يقال: الكون كلُّه بما فيه ومن فيه مظهر لمظاهر أسمائه وصفاته وعلاماته، كلُّ الكون يدلُّ على الله، كلُّ الكون بمجراته، بالسماوات، بالأرض بالنبات بالحيوان بالأطيار بالأسماك بالإنسان، بالطعام بالشراب، لذلك أكبر وظيفة للكون أن تتعرَّف إلى الله من خلاله، ولو لم تستفد منه، لكن الذي استفاد من هذا الكون ولم يتعرف إلى الله من خلاله ما حقق الهدف من وجوده.

وقيل في الاسم الظاهر: «هو المتجلي بأنوار هدايته وآياته، المتنزِّه بمعاني أسمائه وصفاته»... هدايته واضحة، وآياته واضحة، أمّا أسماؤه وصفاته فالعقول تعجز عن إدراكها، فهو ظاهر بهدايته وآياته، باطن بأسمائه وصفاته... مهما تحدثت عن أسماء الله الحسنى، لا يعرف اللهَ إلا اللهُ، ولا الأنبياء، ولا سيد الأنبياء لا يستطيع أن يحيط بالله، أعلى معرفة على الإطلاق معرفة النبي ﷺ، إلا أنها معرفة ولكنها ليست المعرفة المطلقة... سبحانك لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك... فالظاهر هدايته وآياته، والباطن أسماؤه وصفاته.

قال العلماء: لا ترى ذرّة في الوجود إلا وهي ناطقة بوحدانية المعبود، ولا ترى فاضلاً متخلّقاً بصفات الرجال إلا وتشهد عليه أنوار صفات الكبير المتعال... كلُّ الخير من الله، كلُّ الكمال من الله، كلُّ الأعمال الصالحة بتوفيق الله، بإلهام الله، مصدر الكمال في الكون هو الظاهر.

قالوا: الظاهر لا يخفى على كلِّ متأمل، أيُّ إنسان أراد الحقيقة فالله يظهر له.

قالوا: هو الظاهر فلا يخفى على كل متأمل، الظاهر لعيون الأرواح والكون مملوء بالجمال محلّى بالكمال، وكلُّ شيء فيه ينادي: أشهد أن خلاّقي ذا الجلال.

الناس جميعاً وفي حالات كثيرة يرون أفعال الله صارخةً كالشمس في رابعة النهار، لأنه ظاهر.

فمثلاً مرة هبَّت رياح عاتية على منطقة زراعية فدمّرت ما يزيد على مئة بيت زراعي، النّاس جميعاً فيها على اختلاف مللهم ونحلهم ومشاربهم بفطرتهم، فالسيئ هو الذي دُمِّر بيته، والمستقيم هو الذي حفظه الله عز وجل، وكأن هذه الرياح مسيّرة، من أغرب المصادفات أن بيتين متلاصقين، يعني جسم البيتين متصل، لأخوين من أم وأب، الأول صالح والثاني طالح، جاءت الرياح العاتية فقلعت بيت الطالح، وقلعت معه النباتات المحيطة به، والبيت الملاصق له نجا من الدمار... فعل الله ظاهر.

أحياناً ترى أرضَين متجاورتين، الأولى قمحها نام نماءً رائعاً والثانية قمحها هزيل النماء، والتربة واحدة والنهر واحد، والزراعة فيها بشروط موحدة، ولكن هذا ينوي أن يعطي أولاد أخيه الأيتام من محصوله، فبارك الله له في محصوله، وهذا في نيته أن يأكل على صاحب الأرض بعض الغلّة فدمر الله غَلّته، فعل الله ظاهر... محاكمة بسيطة تشعرك أنّ الله عز وجل ظاهر كأنّك تراه، لذلك صح في الحديث أنّ مرتبة الإحسان تعني أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

نصيب المؤمن من اسم الله الظاهر

الله عزّ وجلّ هو الظّاهر، وما عليك إلا أن تطلب معرفته فقط، أن تريد الوصول إليه، أن ينشأ في قلبك رغبة صادقة للوصول إليه، هو ظاهر، لكنَّ حبَّ الدنيا يعمي ويُصِمّ، الشهوات حُجُب، أمّا إذا أزيحت الشهوات فهو ظاهر.

الله عز وجل ظاهر وأنت أيّها المؤمن ينبغي أن يكون إيمانك ظاهراً صارخاً، أنا لا أصدق أن الذي يدلُّ على المؤمن صلاته، وصيامه، وحجه، وزكاته، فحسب، لكن تدلُّ على المؤمن صفاته، تفكيره، مبادئه، قيمه، عطاؤه. المؤمن ظاهر بإيمانه، بمبادئه، بقيمه، بورعه، باستقامته.

فكما أنَّ الله ظاهر في خلقه، وفي أفعاله، فالمؤمن ظاهر في مبادئه وفي قيمه.

الباطن

هذا الاسم ورد في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد:٣].

وقد ورد أيضاً في دعاء النبي ﷺ: «وأنت الباطِنُ فليس دُونَك شيء» [أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة].

من معاني اسم الله الباطن

الباطن اسم فاعل، والبطن في كل شيء جوفه، والباطن خلاف الظاهر والله تعالى يقول: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل:٧٨].

والشيء الباطن المحتجب عن الأنظار.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام:١٥١].

الله عز وجل باطن لأنه احتجب بذاته عن أبصار الناظرين لحكمة أرادها من الخلائق أجمعين، من أجل الابتلاء.

لو فرضنا امرأة تمشي بأبهى زينة، وهناك إنسان يحمل سلاحاً، يقول لإنسان آخر: إن نظرت إليها أقتلك، هل ينظر إليها؟! أمّا أن تكون امرأة تمشي بأبهى زينة وهناك ناظر مؤمن بالله، يمنعه النّصّ فقط من أن ينظر إليها فهذا شيء آخر.

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور:٣٠].

الشهوة محسوسة، ملموسة، أمام عينك، المرأة الجميلة، البيت الجميل، المركبة الفارهة، الطعام الطيب، المال الوفير محسوس، تدركه بحواسك الخمس، أمّا الآخرة فهي خبر.

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [الضحى:٤].

لماذا يستحقّ المؤمن الجنّة؟ لأنّه صدّق الله، أمّا أحاسيسه كلُّها ففي الدنيا، الدنيا خضرة نضرة، الدنيا محسوسة.

صدّق الله بالغيب، لم يرَ الجنة، ولم يرَ النار، آمن بالغيب فاستحقَّ الجنة، قال تعالى:

﴿الم ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة:١-٣].

لو أنَّ الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، لو أجبرهم على أفعالهم لألغيت الجنة والنار، والثواب والعقاب، ألغي كل شيء، ألغي التكليف، ألغيت الأمانة.

كل بطولة الإنسان أن يأتي ربه مختاراً، بمحض اختياره، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة:١٣].

يعني: يا عبادي لو أنني أريد أن ألغي اختياركم، لو أنني أريد أن ألغي تكليفكم، لو أنني أريد أن ألغي حملكم للأمانة، لو أنني أريد أن تكون طاعتكم قسراً، لفعلت هذا، ولكن هذا الهدى الذي يأتي قسراً لا قيمة له.

بربكم، لو أنّ رئيس جامعة أجرى امتحاناً لطلاب جامعة، وزّع أوراقاً طُبع عليها طبعاً الإجابة الكاملة، والعلامة الكاملة، مئة بالمئة، قيل للطالب اكتب اسمك واخرج هل لهذا النجاح قيمة؟!

الله عز وجل باطن لا يُرى، لكن كل ما في الكون يدل عليه، واحتجب عن رؤية عباده ليمتحنهم، سأوضّح بمثال:

أنت صاحب محلٍّ تجاريٍّ، تفتح المحلَّ بيدك صباحاً، وتجلس وراء الطاولة وأمامك مكان للأموال، وعندك موظف، يا ترى هذا الموظف أمين أو خائن؟ ما أتيح لك أن تمتحنه، أنت وراء الطاولة، دخلت أول داخل، وخرجت آخر خارج، والمفتاح بيدك والمال معك، لكن متى يمكن أن تمتحنه؟ إذا خرجت من المحل إلى محل آخر وراقبته، هو الآن وحده، والمال بين يديه، أنت تراه وهو لا يراك، راقبته ساعات طويلة لم يأخذ قرشاً من مكان المال، متى أتيح له أن يمتحن؟ إذا توهّم أنّك لا تراه.

الباطن، هو المحتجب عن عيون خلقه، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأعراف:١٤٣].

الباطن محجوب عن عين الرأس، ظاهر لعين القلب.

إذاً مستحيل وألف ألف مستحيل أن يرى الإنسان ربّه في الدنيا، لأن أجهزته، خصائصه، حواسّه لا تحتمل أن ترى الله، لكنَّ طبيعة الإنسان في الجنة تختلف عن طبيعته في الدنيا، في الجنة يمكن أن ترى الله ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴿٢٣﴾ ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣].

بعض العلماء يقول: «إنه باطن من حيث إنَّ كُنْه حقيقته غير معلوم للخلق»، يعني لا يستطيع الخلق مجتمعين أن يصلوا إلى كُنه حقيقته، هو باطن، لذلك قال بعض علماء التوحيد: «عين العلم به عين الجهل به، وعين الجهل به عين العلم به».

إذا سُئلت عن ذات الله، فإذا قلت: لا أدري فأنت العالم، وإن قلت: أدري فأنت لا تعلم، لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

هذا معنى الباطن، كنه حقيقته محجوبة عن الخلق.

معنى آخر؛ باطن، أيّ: أنَّ الأبصار لا تحيط به، كما قال تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [الأنعام:١٠٣].

المعنى الرابع؛ باطن يعلم ما بطن، الإنسان له ما ظهر والله عز وجل يعلم ما ظهر وما بطن، والإنسان أحياناً يكون ممثّلاً بارعاً، وقد يجوز تمثيله على الأذكياء، بنو عامر أتوا النبي ﷺ وطلبوا منه سبعين داعية وعالماً ليُعلّموا قومهم، وأرسل النبي ﷺ معهم سبعين صحابياً ليُعلموهم، وفي الطريق ذبحوهم، بقي النبي ﷺ ثلاثين صباحاً يدعو عليهم في الصلاة [انظر صحيح البخاري (٤٠٨٨)، ومسلم (٢٧٧) (٢٩٧) حديث أنس بن مالك]، النبي ﷺ لا يعلم الغيب، والنبي ﷺ له الظاهر، لكنَّ الله يعلم الظَّاهر والباطن.

فأنت إذا لم تعرف الباطن فلست مؤاخذاً، أحد أصحاب رسول الله ﷺ في إحدى المعارك، كان على وشك أن يقتل مشركاً، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، فقتله، فلما بلغ النبي ﷺ غضب غضباً شديداً: فقال: يا رسول الله! إنما قالها متعوذاً، فقال ﷺ: «هلا شققت عن قلبه؟» [مسلم، عن أسامة بن زيد] وقال: «إني لم أومر أن أنقّب عن قلوب الناس ولا أشقَّ بطونهم» [البخاري ومسلم، من حديث أبي سعيد الخدري]، هذا موقف الإنسان الحقيقي، أنت لك الظاهر.

الباطن: محتجب عن عيون خلقه.إدراك كنهه مستحيل، الأبصار لا تحيط به، ويعلم ما بطن.

والباطن حَجَب الكافر عن معرفته ورؤيته، وحجب المؤمنين في الدنيا عن رؤيته.

شيء عظيم المنال، الشيء الثمين ليس في متناول الأيدي، الجوهرة الثمينة موضوعة في صندوق محكم الإغلاق، فالله عز وجل باطن يعني عزيز، فالإنسان إذا لم يطلبه، ولم يطعه، وما جهد من أجل معرفته فلن يصل إلى شيء، الله عز وجل عزيز، سلعة الله غالية، هناك أشياء مبتذلة، كلُّ إنسان يشتري قصّة ويقرؤها، لكن ليس كل إنسان بإمكانه أن يحمل شهادة دكتوراه، يحتاج إلى أكثر من عشرين سنة دراسة، أمّا أن يشتري قصة فممكن، أن يقيم حفلاً ممكن، وأن يشتري بيتاً ممكن، وأن يقوم بنزهة ممكن، هذا شيء مبتذَل، لكن ليس كلُّ إنسان يمكنه أن ينال دكتوراه؟ فهذا يحتاج إلى جهد كبير.

وقيل: الباطن في حقيقة ذاته، فلا تدركها العقول، ومع شدة ظهوره احتجب عن إدراك الحواس، وقيل تنزّه في علوِّ كبريائه فلا تحيط به بصائر المقربين الأطهار، وهو الظاهر بأسمائه وصفاته وأنوار آياته، والباطن في حقيقة ذاته عن جميع مخلوقاته.

والظَّاهر إشارة إلى معرفتنا البديهية بالله عزّ وجل، كلُّ النَّاس في الأرض يقولون لك: الله. فقد يكون شخص عادي معرفته محدودة جداً، يرى شخصاً منحرفاً يتردّى فيقول: الله لم يوفقه، الله حطمه. فكلمة الله على كلِّ لسان.

ففي اسم الظّاهر إشارة إلى معرفتنا البديهية، إنَّ الفطرة تقتضي في كلِّ ما نظر إليه الإنسان أنه تعالى موجود، المعرفة الفكرية تقتضي أن الله موجود وهذا الظاهر، وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله، لكن بعض العلماء قال: «مثل طالب معرفته مثل من طوَّف في الآفاق في طلب ما هو معه. ذهب إلى أقصى الدنيا شرقاً وغرباً يبحث عن شيء وهو معه»، فالله عز وجل ظاهر، أما كلمة الباطن فهي توجب معرفته الحقيقية.

فالمعرفة الظاهرة قد لا ترتبط باستقامة، شأنه شأن الناس جميعاً وربما كلمة الله يقولها الإنسان في اليوم ألف مرة، «الله يعطيك العافية» مثلاً، كلمة الله تدور على كل لسان، إلا أن الباطن تعني معرفة الله المعرفة الحقيقية التي تحملك على طاعته.

فالحقيقة، مقياسك الدقيق فيما إذا كانت معرفتك بالله صحيحة وجيدة أو لا، التطبيق العملي فالمعرفة التي تحمل صاحبها على طاعة الله، هي المعرفة الحقيقية.

سيدنا الصديق قال: «العجز عن إدراك الإدراك إدراك»، يعني أن تصل إلى معرفة حقيقة الله هذا شيء مستحيل، فعجزك عن الوصول إليها أحد أنواع الإدراك، أحد علامات الإدراك أن تقول لا أدري، إذا كان الموضوع متعلقاً بذات الله عز وجل.

قيل: ظاهر بآياته باطن بذاته، كلام لطيف، جميل جداً.

ظاهر لأنه محيط بالأشياء مدرك لها، باطن من أن يُحاط به.

يروى عن سيدنا عليّ رضي الله عنه، أنه قال: «تجلّى الله لعباده من غير أن يروه، وأراهم نفسه من غير أن يتجلّى لهم» ومعرفة ذلك تحتاج إلى فهم ثاقب.

أحياناً أراهم نفسه بعقولهم، أيُّ إنسان أعمَل عقله بالكون وصل إلى الله ببساطة، وأحياناً يتجلّى على قلوبهم بالسكينة من غير أن يروه، يتجلّى عليهم ولا يرونه، ويرونه بعقولهم ولا يتجلّى عليهم، هذا معنى الظاهر والباطن عند سيّدنا عليّ رضي الله عنه.

يقول أحد العلماء: كما ذكرت في بحث سابق لا يقبل العقل أن يكون الله ظاهراً مضافاً إلى شيء، وباطناً مضافاً إلى الشيء نفسه، فهذا الشيء نفسه مثلاً يكون أول هذا وآخر هذا مستحيل، هو إما أنه هنا وإما أنه هناك، فإذا قلت: أول هذا وآخر هذا وهذا واحد فقد وقع تناقض، العقل مفطور على مبدأ الهوية، أي: عدم التناقض، فلا بد من أن يكون أول شيءٍ وآخر شيء آخر، وأيضاً هنا في الظاهر والباطن، ظاهر بالنسبة إلى شيء باطن بالنسبة إلى شيء آخر.

يعني ظاهر للعقول باطن مستحيل أن تدركه الأبصار.

قال بعضهم: الله تعالى باطن إن طلبته عن طريق الحواس، لكنه ظاهر إن طلبته عن طريق العقول والاستدلال، ظاهر وباطن.

يقول أحد العلماء: «الظاهر في وصفه سبحانه تعالى بمعنى القاهر»، ظهر فلان على فلان، أي: قدر عليه وقهره، «والباطن في وصفه عز وجل بمعنى العليم بخلقه المدبر لأحوالهم»، الظاهر للعقول السليمة بآياته وبراهينه ودلائل توحيده، والباطن

المتعزّز على القوم المحتجب عنهم حتى أنكروا وجوده وجحدوه، ظاهر للعقول السليمة باطن متعزز عن القوم إن لم يدفعوا ثمن هذه الرؤيا.

قيل: ظاهر بنعمته، باطن برحمته.

وقيل: ظاهر بالكفاية باطن بالغاية.

وقيل: ظاهر بالقدرة على كلِّ شيء باطن عالم بحقيقة كلِّ شيء.

وقيل: ظاهر لكلِّ شيء بالدلائل اليقينية، الباطن عن مظاهر الجسمية، فسبحان من احتجب عن خلقه بنوره وخفي عليهم بشدَّة ظهوره.

هناك معنى لطيف جداً ذكره العلماء، وهو أن قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان: ٢٠].

الإنسان كثيراً ما يتألم من المصيبة، وقد تكون المصيبة نعمة باطنة، النعمة الظاهرة؛ المال، الصحة، الوجاهة، راحة البال، الأمن الطمأنينة، الزوجة الأولاد، هذه كلها نعم ظاهرة، ولكن هذه النعم الظاهرة لا ترقى بالإنسان، الحُزن خلاَّق، أما الراحة فمثبِّطة، الراحة والمورد والطعام والشراب وراحة البال، الأمن والطمأنينة، هذه لا تخلق عظماء.

فهناك كلمة رائعة جداً «الحزن خلّاق»، العبقريات أحياناً تتفجّر بالأحزان، والهموم، فالله عز وجل له نعمتان... ترى شخصاً في بحبوحة، كسول، بارد، مشاعره باردة، صلاته جوفاء، معرفته سطحية، اتصاله بالله شبه معدوم، صفاته غير مقبولة، تأتيه مصيبة مخيفة، يدعو الله، يلجأ إليه، يصلي قيام الليل، يتوسّل إليه، يبالغ في طاعته، يقدم صدقات، لولا هذه المصيبة ما تألّق هذا التألّق، لولا هذه المصيبة ما سعى إلى الله هذا السعي، لولا هذه المصيبة ما جدَّ إلى الله هذا الجدّ، فهذه المصيبة نعمة باطنة.

وأنا لا أبالغ إن شاء الله، أعتقد أن ثلثي رواد المساجد المصطلحين مع الله الذين أحبهم الله وأحبوه، كان انطلاقهم إلى الله بسبب مصيبة ألّمت بهم فحملتهم على التوبة،

فهذه نعم أم ليست نعماً؟ بل نعم باطنة، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾.

احفظوا هذه الكلمة؛ «الحزن خلاق»، أحياناً ينشأ طفل يتيم، لا أب، ولا مال، وله أخ قاس وضعه بعمل مرهق، وطالبه بدراسة متعبة والأستاذ من جهة يطالبه، وصاحب العمل من جهة أخرى، والأب غير موجود، والأخ يمنُّ بعطائه، فهذا الطفل قد يصبح عبقرياً... وبالمقابل انظر إلى ولد آخر، كلُّ شيء موفّرٌ له، الأكل الشرب، ترى صفاته النفسية خسيسة جداً؛ لأنّه ما ذاق طعم الفقر، ذاق طعم الغنى وحده، فلذلك؛ الله جل جلاله قاله: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾.

هذه الآية من أعمق الآيات، وهي تبثُّ الفرح في قلب المؤمن، عليك ألّا تتألّم من المصيبة، لعلّ الفقر هو المنطلق إلى الله، لعلّ المرض هو سبب التوبة، لعلّ شبح هذه المصيبة سبب إقبالك على الله هذه نعمة باطنة، والله عز وجل إذا أراد أن يعالج الإنسان يعرف كيف يعالجه، يأتيه من مأمنه، يأتيه من مكان طمأنينته، من مكان قوّته، بل يأتيه من حيث لا يحتسب.

فالظاهرة ما نقف عليها، والباطنة لا نعرفها، من هنا قال تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) ﴾ [النحل:١٨].

النعم الظاهرة والباطنة لا تحصى.

قالوا: النعم الظاهرة النصر على الأعداء بالعدد، والنعم الباطنة النصر على الأعداء بالخوف، فالله عز وجل أحياناً يسبغ عليك هيبة يخاف منك عدوك، أحياناً تكون قوياً فعلاً، فإما أن ينصرك بقوة ظاهرة وإما أن ينصرك بقوة باطنة.

وبعد فهذه كلمات واعية فالإنسان مظهر لاسم الظاهر، ومظهر لاسم الباطن فالإنسان بجسمه مظهر نور الظاهر، وبروحه مظهر نور الباطن.

نصيب المؤمن من اسم الله الباطن

متى أكثر العبد من ذكر اسم الباطن خشعت نفسه، وأدرك أنه عاجز بالكليّة فيعطف عليه الحق، يعني كلما ذكرت اسم الباطن وافتقرت إليه عطف عليك الله عز وجل.

ومن عرف الله الباطن فإنّه يتجاوز الصورة إلى الحقيقة، لو دخلت لبيت تاجر مخدرات مساحته سبعمئة متر، في موقع رائع، بأثاث يصعب وصفه، ودخلت لبيت موظف مستقيم، مؤمن، طاهر، خمسة وأربعون متراً، بأثاث متواضع، ببيت رخيص، بحيٍّ شعبيّ، عود نفسك أن تحترم صاحب هذا البيت المتواضع لأنه مستقيم، ما بنى مجده على أنقاض الناس، عوّد نفسك أن تحتقر تاجر المخدرات، مع هذا البيت العظيم، لأنَّ هذا البيت بني على تدمير الأسر، كلُّ أسرة فيها شاب وقع في المخدرات دُمرت، عود نفسك أن تتجاوز الصورة الظاهرة إلى الحقيقة الباطنة، لذلك لا تقيّم جهة في الأرض إلا إذا ضممت الآخرة إلى الدنيا، عوّد نفسك أن تضيف الآخرة إلى الدنيا، ثم وازن، ماذا قال الله عن قارون؟

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص:٧٩-٨١].

عوّد نفسك أن تقيّم تقييماً حقيقياً لا تقييماً ظاهرياً، قال تعالى: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [التوبة:٥٥].

وأختم بنصّ الحديث الشّريف الذي دعا فيه النبيّ ﷺ الله تعالى بأسمائه الحسنى الأول والآخر والظّاهر والباطن

عَنْ سُهَيْلٍ قالَ: كَانَ أَبو صَالِحٍ يأْمُرُنا إذا أرادَ أَحَدُنا أَنْ يَنامَ أَنْ يَضْطَجِعَ عَلى شِقِّهِ الأَيْمَنِ ثُمَّ يقولُ: «اللهمَّ رَبَّ السَّمواتِ وَرَبَّ الأرْضِ وَرَبَّ العَرْشِ العَظِيمِ رَبَّنا

وَرَبَّ كلِّ شَيْءٍ، فالِقَ الحَبِّ وَالنَّوَى، ومُنْزِلَ التَّوْرَاةِ والإنْجيل وَالفُرْقانِ، أعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شيءٍ أنْتَ آخذٌ بناصِيتِهِ، اللهمَّ أنْتَ الأوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شيءٌ، وأنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شيءٌ، وَأنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شيءٌ، وأنْتَ الباطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شيءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأغْنِنا مِنَ الفقْرِ» وكان يَرْوِي ذلك عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ [صحيح مسلم].

المَلِك

إن من أسماء الله الحسنى: المَلِك، و«إن لله تسعةً وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة» [رواه البخاري من حديث أبي هريرة]، وقد ورد هذا الاسم في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحشر:٢٣].

وقال تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ [الفاتحة:٤].

وقُرئت: ﴿مَلِك يوم الدين﴾[1].

---

(١) قرأ عاصم والكسائي ويعقوب وخلف ﴿مالك﴾، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وحمزة وأبو عمرو وأبو جعفر يزيد بن القعقاع ﴿مَلِكِ﴾. انظر: «معجم القراءات» للخطيب، ١/٨-١٢.

وفي صحيح مسلم عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ قَالَ: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا، وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ العَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ، وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ، اللهمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّي، وَأَنَا عَبْدُكَ...» [أخرجه مسلم وأبو داود و الترمذي والنسائي].

وفي صحيح مسلم أيضاً أن النبي ﷺ يقول: «يَنْزِلُ الله تعالى إلى السماءِ الدُّنيا كُلَّ لَيلةٍ حين يَمضي ثُلُثُ الليلِ الأولُ فيقول: أَنَا الملكُ، أنا الملكُ، مَنْ ذَا الذي يدعوني فأستجيب له» [أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود و الترمذي ومالك عن أبي هريرة].

من معاني اسم الله الملك

المَلِك من أسماء الذات، ويمكن أن يكون من أسماء الأفعال، ويعني القدرة على التصرّف، ومعناه المتصرِّف.

الله تعالى ملك بل هو مالك الملوك، ومعنى هذا: أن أي شيء يُملَّك: فمالكه الله سبحانه وتعالى، وقال بعض العلماء: الملك هو الذي يحكم ولا يملك، والمالك هو الذي يملك ولا يحكم، والله سبحانه وتعالى مالك وملك ومليك.

قد يملك الإنسان الشيء ولا ينتفع به، وليس من حقِّه أن يتصرَّف فيه، وأحياناً ينتفع به ويتصرّف فيه ولا يملكه، وأحياناً يملك الشيء وينتفع به، ويتصرّف فيه، ولكنّ المصير ليس إليه.

مثال: بيت يملكه إنسان ملكاً حرّاً شرعياً، يسكنه، ويملكه، وينتفع به، فإن صدر قرار استملاك فلا يكون مصيره إليه، إذاً إذا قلنا: إن الله سبحانه وتعالى هو مالك الملك فهو يملك الشيء، ويتصرف به، ومصيره إليه، فتكون أعلى درجات الملكية هي ملكية الله سبحانه وتعالى.

سئل أعرابي يملك قطيعاً من الإبل: لمن هذه؟ قال: لله في يدي، فالمؤمن الصادق: بيته، متجره، سيارته، خبرته، مكانته، شهاداته، يراها بملك الله عز وجل.

مثال: أعلى طبيب في اختصاصه، إذا تجمدت خثرة في دماغه، يفقد ذاكرته فمصيره إلى مستشفى المجانين، إذاً مَن مالك الملك؟ الله سبحانه وتعالى.

هذه العين التي ترى بها، من مالكها؟ الله سبحانه وتعالى، هذه الأذن، هذا اللسان، هذه الحركة، هذه القوة، أيْ: مِن لوازم الإيمان أن ترى أنّ كلَّ شيء بحوزتك هو ملك لله عز وجل سمح لك أن تتصرّف به.

فبيتك لله في يدك، ومتجرك لله في يدك، ومركبُك لله في يدك.

الآن إذا قلنا: فلان مَلِك، هل نقصد بها حقيقةً أم مجازاً؟ العلماء قالوا: لا يمكن أن يملك حقيقةً إلا الله، وأيُّ وصف للملكية لغير الله، فهو على سبيل المجاز فقط، لأنَّ الملك هو الذي يستغني في ذاته وصفاته عن كلِّ موجود، فهل من ملك يستغني في ذاته عن كلِّ موجود؟ ألا يستنشق الهواء، ألا يشرب، ألا يأكل، ألا يشعر بحاجته إلى النوم، ألا يخاف، ألا يحزن، ألا يتمنى أن يكون له أعوان كثر، إذاً أيُّ إنسان مفتقر في وجوده وفي صفاته إلى إنسان آخر، لا يمكن أن يكون مِلِكاً حقيقياً، الملك الحقيقي هو الله -عز وجل-، وإذا سمينا فلاناً ملكاً فهو من باب المجاز.

المَلِكُ الحقيقي الذي يستغني في ذاته وصفاته عن كلِّ موجود ويحتاجه كلُّ موجود، بل لا يستغني عنه شيء في شيء، لا في ذاته ولا في صفاته، فهو ملك في ذاته في وجوده، في صفاته، مستغنٍ عن كلِّ شيء، بحاجة إليه كلُّ شيء، هذا هو الوصف الدقيق للملك ولا يستحقّه إلا الله عز وجل، إذاً الملك الحقيقي هو الله، وكلُّ من يصف نفسه: أنه ملك، أو مالك هذه الدار، أو مالك هذه الدكان، أو مالك هذه التجارة، أو صاحب هذه الشركة، هذا من باب المجاز، اعرف حجمك الحقيقي، رحم الله عبداً عرف حدَّه فوقف عنده.

الله سبحانه وتعالى: مالك مُملِّك، والشخص الذي لا يستطيع أن يملِّكَك فليس مَلِكاً، فمن لوازم هذا الاسم أن الله مالك مملِّك، والدليل: قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) ﴾ [آل عمران:٢٦].

قال بعضهم: المَلِكُ: الذي ملك قلوب العابدين فأقلقها، ومَلَكَ قلوبَ العارفين فأحرقها، والحقيقة أن الإنسان منذ أن عرف الله عز وجل، أو منذ أن بدأ في معرفة الله، دخل في دوَّامة الحب، أصبح مشغولاً، أصبح عظيماً، بعد أن كان تافهاً، فالمؤمن قلق، لا ينزاح عنه قلقه، حتى يلقى الله عز وجل، هل اللهُ راضٍ عني؟ هل عملي وفق ما يرضي الله؟ هل الله يحبني؟ هل في عملي إخلاص؟ هل في عملي زيغ؟ هل هناك ما أرجوه غير الله عز وجل؟

المَلِكُ مَنْ إذا شاءَ مَلَّك، ومن إذا شاء أهلك: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) ﴾ [البروج:١٢].

إذا أعطى أدهش، وإذا حاسب فتّش، أعطانا قبل سنوات أمطاراً غزيرة أخرجتْ سبعين ضعفاً عن إنتاج السنوات السابقة من القمح، وإذا انحبست أمطار السماء، فَمَنْ في الأرض كلِّها يستطيع أن يصدر قراراً بإنزال المطر؟! حتى ولو اجتمعت الأمم كلُّها، والمجالس كلُّها، والقيادات كلُّها، وإذا انحبست الأمطار مات الزرع، وتبعه الضَّرع، وتبعه الإنسان.

فنحن عبيد، لأننا مفتقرون إلى ماء السماء: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ (٣٠) ﴾ [الملك:٣٠].

اللهُ سبحانه وتعالى المَلِكُ، من إذا شاء ملّك، وإن شاء أهلك، الملك الحق من لا ينازعه معارض، لا معارضون، لا مُشَوشون منتقدون، ولا يمانعه ناقد، فهو في تقديره منفرد، وبتدبيره متوحِّد، ليس لأمره مردٌّ، ولا لحكمه ردّ، والمَلِكُ من دار بحكمه الفلك.

ذكر الله تعالى في آية واحدة خمسة بنود للملكية، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران:٢٦].

المعنى الأول: فَسَّرَ العلماء المُلْكَ أنَّه ملك الآخرة، كما فسَّروه أنَّه ملك الدنيا، فإذا كنت مؤمناً، مستقيماً، صادقاً مخلصاً، لك عمل طيب فأنت ملك، ولكن مِن ملوك الدار الآخرة، يوم لا ينفع مال، ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم؟ وسيّدنا علي يقول: «الغنى والفقر بعد العرض على الله»، وقال سبحانه: ﴿ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ ولكن ما معنى: من تشاء؟ إذا قال الله عز وجل: ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [البقرة:٢١٣] ما معنى: يهدي من يشاء؟ يعني: من شاء الهداية هداه الله، ﴿ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم:٤]: من شاء الضلالة أضله الله، فالهداية والضلالة، أصلهما هداية جزائية، أو ضلال جزائي، مبني على هداية أو ضلال اختياريين، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الصف:٥].

تؤتي الملك من تشاء: تؤتي الهداية من شاءها، وتنزع الملك ممن تشاء: رفض الدين، رفض رحمة رب العالمين، رفض وعده العظيم، أراد الدنيا، أراد شهواتها، ينصرف الإنسان إلى الملاهي، إلى شهواته، إلى معاصيه، إلى انحرافاته.

بالمناسبة مُلْك الدنيا: يؤتيه الله لمن يحب ولمن لا يحب، وأما مُلك الآخرة فلا يؤتيه إلا لمن يحب.

المعنى الثاني: ملك الدنيا، الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الأنعام:١٦٥].

مَن مَلَّكَكَ هذا البيت؟ الله سبحانه وتعالى، لمن كان هذا البيت؟ لفلان، كيف باعه؟ ضاقت به الأمور فباعه، من الذي جعلك خليفة له في هذا البيت؟ الله سبحانه وتعالى، هذا العمل من ولاّك إياه؟ الله سبحانه وتعالى: لماذا عُزِلَ فلان؟ بحكمة الله وتقديره، إذاً المعنى الآخر: تؤتي الملك مَنْ تشاء، المعنى الدنيوي الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾ ما الحكمة؟ لماذا أعطى فلاناً ومنع فلاناً؟ وملّك فلاناً ونزع من فلان؟ لماذا رفع فلاناً وخفض فلاناً؟ الجواب: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود:٧] يمتحنك بالغنى وبالفقر، بالصحة وبالمرض، بالقوة وبالضعف، فإذا كان هذا العبد متمرداً فما الجواب؟ قال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ﴾ فإذا كان طائعاً فما الجواب؟ ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ [طه:٨٢].

إذاً: جعلكم خلائف الأرض، ووزّع الحظوظ توزيع ابتلاء، وسوف تُوَزَّعُ في الآخرة توزيع جزاء، إذاً هو مالك الملك: إما أن يُمَلِّكك ملك الآخرة، أو ملك الدنيا، أو ملك الآخرة والدنيا.

ما أحسن الدّين والدّنيا إذا اجتمعا ... وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

﴿ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ دخلنا في باب العز والذل، هنالك شيء مهمٌّ جداً: إذا أعزك الله سخّر لك أعداءك، وإذا أراد الله أن يذلّ عبداً ما، أذلّه أقرب الناس إليه، ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ [الحج:١٨].

اجعل لربك كل عزّ ... ك يستقرُّ ويثبُت

فإذا اعتززت بمن يمو ... ت فإن عزّك ميّت

إذاً من لوازم أن الله مَلِك أنه هو الذي يُعِزّ وهو الذي يُذِلّ، فكن مع العزيز.

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا ... فإنّا منحنا بالرضا من أحبنا

ولـــذ بحماناـــا واحـــتَم بجنابنـــا لنحميــك ممـــا فيــه أشرار خلقنـــا

بيدك الخير، إذاً فالذلُّ خير، ونزع المُلكِ خير، ولكن يُسمَّى شرّاً من وجهة نظر الإنسان.

تولج الليل في النهار، تصريف الكون، تسيير الكون، الأرض تدور حول الشمس، بمدار إهليلجي بيضوي، مَنْ يجعلها على مسارها تماماً؟ هل في الكون كلِّه قوّةٌ تستطيع أن تجعلها على مسارها لو خرجت؟ إنها إن خرجت انتهت، وجذبتها كواكب أخرى!!

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر:٤١].

يمسكها على مسارها، إذا خرج القطار عن سِكَّته، طفل رضيع أو نملة صغيرة أو ذبابة حقيرة هل بإمكانها أن تعيده إلى السّكّة؟ ﴿ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ ﴾ من جعل الأرض تسير في الثانية ٣٠ كم؟ مَن جعلها تدور في الساعة ١٦٠٠ كم؟ مَن جعلها بهذا الحجم؟ من جعل بُعْدَها عن الشمس بهذه المسافة؟ هذا من اسم الله: الملك.

﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ [آل عمران:٢٧].

ظاهرة توالد الإنسان، تكاثر الحيوان، ظاهرة النبات، وتكاثره، ﴿ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾: بذرة الزيتون تبدو لك قطعة من الخشب لكنّ فيها شجرة بقوّة هذه البذور، هذه أنماط الحياة، دورة الحياة، الشجرة يابسة في الشتاء كأنها خشب، يأتيها الربيع فإذا هي خضراء.

مرة طلب سيدنا عمر من سيدنا عمرو بن العاص أن يصف له مصر وكان بليغاً، قال:

«يا أمير المؤمنين! مصر طولها شهر، وعرضها عشر، (يعني طولها مسيرة شهر وعرضها مسيرة عشرة أيام)، يخط وسطها نهر ميمون الغَدَوات، مبارك الرَّوْحات، يا أمير المؤمنين بينما هي عنبرة سوداء (ترابها أسود اللون لخصوبته) إذا هي درَّة بيضاء (طوفان النيل) إذا هي زبرجدة خضراء، فتبارك الله الفعَّال لما يشاء» [النجوم الزاهرة لابن تغري بردي].

وصف مصر في الشتاء، وفي فيضان النيل، وفي الربيع، والصيف، وصف طولها، ووصف عرضها.

إذاً مِن معاني الملك أنّه يقلِّب الليل والنهار، ويخرج الحيَّ من الميت، ويخرج الميِّت من الحي.

آخر بند في المُلْكية: ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ قد يرزق الإنسان الضعيف، وقد يُفقِر القويَّ الذكيَّ، لذلك التّجار يقولون: ليس عند الله تاجر ذكي، ومن دعاء المؤمنين على الكافرين «اللهم اجعل تدميرهم في تدبيرهم» فالكافرُ يدبر فإذا هو يدمر نفسه. «ولا ينفع ذا الجد منك الجد»(١).

هناك سؤال: هل يَمْلِكُ العبدُ بالتمليك، لو أنَّ إنساناً ملَّكَك شيئاً هل تملكه، كيف نناقش هذه الفكرة؟ مالك هذه الدار، هذه المركبة، تملَّكَ بالثبوتيات تملكاً كاملاً، هذا كلام نقوله نحن، لكنْ هناك غلط كبير في هذا الكلام، العلماء قالوا بالحرف الواحد: الأصح أن الإنسان لا يملك! لماذا؟ لأن استقلاله بالتصرف في شيء ما فرع من كونه مستقلاً في نفسه، فإذا كان العبد لا استقلال له في نفسه، وذاته البتة، فكيف يكون مستقلاً في تصرّفه في غيره؟ ولهذا قال ربنا عز وجل مُعلماً رسوله ﷺ ومن بعده عباده:

(١) من دعاء النبي ﷺ. ففيما رواه البخاري ومسلم من حديث المغيرة بن شعبة أن النبي ﷺ كان يقول في دبر كلِّ صلاة مكتوبة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللهم! لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد».

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ [الأعراف:١٨٨].

إذا كان النبيُّ ﷺ لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، أفيملك النفع والضرَّ للآخرين، الجواب: لا، مِن باب أولى، إذا كنتُ عاجزاً عن هداية ابني! فهل بإمكاني أن أهدي ابنك؟ مستحيل! لذلك فالكلام القطعي والثابت أن الله سبحانه وتعالى هو المَلِك الحقيقي، وأن الإنسان إذا ملك فملكيَّتُه مجازية، فمثلاً؛ قد يقول لك مستخدم في وزارة الخارجية: والله عيَّنَّا فلاناً سفيراً! هذا كلام مجازي، إنَّ الذي عين فعلاً ليس المستخدم بل الوزير، أما في الحقيقة المطلقة: الذي مَلَّكَ هذا الإنسان هذا المنصب، هو الله سبحانه وتعالى.

العبد مثلاً متى يكون مسافراً؟ إذا سافر سيده، ومتى يكون مقيماً؟ إذا أقام سيده، هل للعبد استقلال في حركته عن سيده؟ لا، إذاً كلام قطعي: يجب أن تشعر وأنت تملك أوراق الملكية للبيت أن هذا البيت ملك الله عز وجل، وفي أية لحظة يمكن أن تبيعه. قد يتعطل جهاز في الجسم، فيقال لك: هذه العملية تكلفتها ثمان مئة ألف ليرة ومصاريف سفر وإقامة، وبالعملة الصعبة، والنتيجة بيتك ثمن للعملية، فتعرضه للبيع، فسبحان مالك الملك.

ومثل آخر: كلية تكلفة زراعتها مليون ليرة، وكلُّ شيء تملكه ثمن لهذه العملية، صمام القلب كلفته نصف مليون ليرة، فالإنسان إذا عافاه الله فهو غنيّ بالمعنى الحقيقي.

يقول تعالى: ﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [النحل:٧٥].

إذا كان العبد مملوكاً لا يقدر على شيء، فهل يكون مالكاً؟ أي: متصرّفاً في ملك الآخرين، هذا مستحيل! لكن ما بال الآية الكريمة تقول: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤﴾ [الروم:٤].

فتبصَّر يا أخي المؤمن، الأمر دائماً بيد الله فكيف نفسر قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الانفطار:١٩].

الآن، الأمر لله، وفي آية أخرى: ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ ﴾، وفي آية أخرى: ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَـٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأنعام:٦٢].

وفي آية أخرى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [القصص:٧٠].

وفي الدنيا لمن الحكم؟ أليس الحكم لله؟ بلى.

مثال آخر: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [هود:١٢٣].

وكما يقول الله تعالى: ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الشورى:٥٣].

بيدِ مَنْ كانت إذاً؟ هنا العلماء وقفوا وقفة رائعة، قالوا: الحقيقة أنَّ الأمر بيد الله من قَبلُ ومن بَعدُ، والحقيقة أن الحكم لله دائماً، والحقيقة أنه إليه يرجع الأمر كلُّه دائماً، لكن الكفار، الغافلون، الشاردون، الضعاف؛ يرون أنَّ الأمر بيد زيد أو عبيد في الدنيا، والحكم بيد فلان والأمر بيد علان، أما إذا كان يوم الدين فكلُّ الخلائق قاطبة ترى أن الأمر بيد الله، وأن الحكم لله، وأنه إلى الله تصير الأمور، فالحكمة أنْ ترى هذا الشيء في الوقت المناسب.

إذاً حتى الكفار والشاردون، وحتى أعتى الكفرة، سوف يرون أنّ الأمر بيد الله، وأنَّ الحكم لله، وأنَّه إليه يرجع الأمر كلُّه، ولكنهم في الدنيا لا يرون الله عز وجل، يرون

أولياء من دونه، يرون مراكز القوى في الحياة، وهم يعبدونها من دون الله، ويوم القيامة يرون الحقيقة.

إذاً القضية قضية وقت فقط، إما أن ترى الحق في الوقت المناسب قبل أن يفاجئك الموت، أو لا بدَّ أن تراه يوم القيامة فتكون الحسرة وأيَّة حسرة، إذاً الحكمة لا أن تنتظر إلى أن ترى مع الآخرين الحقائق، الحكمة أن ترى الحقيقة في الوقت المناسب، كي تستفيد منها.

هناك شيء آخر: لماذا لا يكون العبد مالكاً مطلقاً؟ قيل: لأنه لا يستغني عن كلِّ شيء: فلو افترضنا أنّ ملكاً عظيماً يستغني عن كلِّ أفراد رعيته، فهل يستغني عن الهواء أو عن الماء أو عن الطعام أو عن الزواج؟ لذلك حين طلب هارون الرشيد الخليفة العباسي الذي ترامت أطراف دولته إلى أقاصي الدنيا، كأسَ ماء، قال له ابن السّماك وكان واعظاً ذكياً: يا أمير المؤمنين! بكم تشتري هذا الكأس لو مُنع عنك؟ قال: بنصف ملكي، قال: فاشرب هنيئاً، فلما شرب قال: أرأيت لو منعت خروجه بكم كنت تشتري؟ قال: بنصف ملكي الآخر، قال: إن ملكاً قيمة نصفه شربة ماء وقيمة نصفه الآخر بولةٌ، لخليق ألّا يُتنافس فيه، فبكى الرشيد [البداية والنهاية ١٠/ ٢١٥، تاريخ بغداد ١٤/ ٨ تاريخ الخلفاء ٢٩٣ وابن السماك: محمد بن صبيح أبو العباس الواعظ].

في بعض متاحف القاهرة فرعون من فراعنة مصر الكبار اسمه توت عنخ آمون كُشفت مقبرته بأكلمها، كما دُفن معه طبعاً من الذهب والحلي والأغراض ما لا سبيل إلى وصفه، ولكن وقفت عند نقطة واحدة: أن هذا الملك مات شاباً في الثامنة عشرة من عمره، حيث إن التابوت قصير جداً، والجثة قصيرة جداً، قلت وقتها: سبحان الله! مهما كان الإنسان مالكاً، ولديه من الثروات ما لديه تبقى الحياة بيد الله عز وجل، فمصر كلُّها كانت بيده، مقدرات مصر كلُّها بيده، ومع ذلك توفاه الله في الثامنة عشرة من عمره، فالمقبرة عامرة بالذهب، وبشتى أنواع الحلي، وبأشياء تحار فيها العيون، ومع

ذلك مات في سن مبكرة، فما أغنى عنه مالُه، ولا رَدَّ الموت ملكه، إنه مُلك، ولكنه عارية.

قال بعض الأمراء لبعض الصالحين وقد التقيا يوماً: سلني حاجتك؟ فقال له الصالح: إليَّ تقول؟! قال الأمير: نعم، قال الصالح: لي عبدان هما سيّداك، قال الأمير: ومن هما؟ قال الصالح: الحرص والأمل؛ الحرص على الدنيا والأمل المديد هما عبدان عندي، وهما سيداك، فقد غلبتُهما وغلبَاك، وملكتُهما وملكاك، فالإنسان يكون ملكاً إذا سيطر على شهواته.

عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: خرج عطاء بن يسار وسليمان بن يسار حاجين من المدينة ومعهما أصحاب لهما حتى إذا كانوا بالأبواء نزلوا منزلاً فانطلق سليمان وأصحابه لبعض حاجتهم وبقي عطاء بن يسار قائماً في المنزل يصلي.

فدخلت عليه امرأة من الأعراب جميلة فلما رآها عطاء ظنَّ أن لها حاجة، فأوجز في صلاته ثم قال: ألك حاجة؟ قالت: نعم! قال: ما هي؟ قالت: قم فأصب مني فإني قد وَدِقْت ولا بعل لي... فقال: إليك عني لا تحرقيني ونفسك بالنار.

ونظر إلى امرأة جميلة فجعلت تراوده عن نفسه ويأبى إلا ما يريد، قال: فجعل عطاء يبكي ويقول: ويحك! إليك عني! قال: فاشتد بكاؤه فلما نظرت المرأة وما داخله من البكاء والجزع بكت المرأة لبكائه، قال: فجعل يبكي والمرأة بين يديه تبكي! فبينما هم كذلك إذ جاء سليمان من حاجته. فلما نظر إلى عطاء يبكي، والمرأة تبكي، بكى لبكائهما لا يدري ما أبكاهما، وجعل أصحابهما يأتون رجلاً رجلاً، كلما أتى رجل فرآهم يبكون جلس يبكي لبكائهم لا يسألهم عن أمرهم حتى كثر البكاء وعلا الصوت، فلما رأت الأعرابية ذلك قامت فخرجت.

ولبث سليمان بعد ذلك وهو لا يسأل أخاه عن قصة المرأة إجلالاً له وهيبة، قال: وكان أسنَّ منه.

قال: ثم إنهما قدما مصر لبعض حاجتهما فلبثا بها ما شاء الله فبينا عطاء ذات ليلة نائم إذا استيقظ وهو يبكي، فقال سليمان: ما يبكيك يا أخي؟ قال: فاشتد بكاؤه، قال: ما يبكيك يا أخي؟ قال: رؤيا رأيتها الليلة قال: وما هي؟ قال: لا تخبر أحداً ما دمت حياً، رأيت يوسف النبي عليه السلام في النوم فجئت أنظر إليه فيمن ينظر إليه فلما رأيت حُسنه بكيت، فنظر إليَّ في الناس فقال: ما يبكيك أيها الرجل؟ فقلت: بأبي أنت وأمي يا نبي الله! ذكرتك وامرأة العزيز وما ابتليتَ به من أمرها وما لقيتَ من السجن وفرقة يعقوب فبكيتُ من ذلك وجعلت أتعجب منه! قال: فهلا تعجَّبت من صاحب المرأة البدوية بالأبواء؟ فعرفت الذي أراد فبكيت واستيقظت باكياً.

قال سليمان: أي أخي! وما كان من حال تلك المرأة، فقصّ عليه عطاء القصة، فما أخبر بها سليمان أحد حتى مات عطاء فحدّث بها بعده امرأة من أهله. قال: وما شاع هذا الحديث بالمدينة إلا بعد موت سليمان بن يسار رضي الله عنهما.

هذا هو الملك الحقيقي عندما تطيع الله عز وجل.

ويروى أن امرأة العزيز قالت ليوسف عليه السلام بعد أن ملك خزائن الأرض وقعدت له على رابية الطريق في يوم موكبه وكان يركب في زهاء اثني عشر ألفاً من عظماء مملكته: سبحان من جعل الملوك عبيداً بالمعصية، وجعل العبيد ملوكاً بطاعتهم له، إن الحرص والشهوة صيرا الملوك عبيداً وذلك جزاء المفسدين، وإن الصبر والتقوى صيرا العبيد ملوكاً، فقال يوسف كما أخبر الله تعالى عنه: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠﴾ [يوسف: ٩٠].

فالحقيقة هي: مَن تحقق مِن ملك سيده فكأنه ملك كلَّ ملكِ سيده.

حُكي عن شقيق البلخي أنه قال: كان ابتداء توبتي أن رأيت غلاماً في سَنَةِ قحطٍ يمرح زهواً والناس تعلوهم كآبة، فقلت له: يا هذا ما هذا المرح؟ ألا تستحي؟ أما ترى

ما فيه الناس من المحن؟ فقال: لا يحقّ لي أن أحزن ولسيدي قرية مملوكة أدخر فيها كلَّ ما أحتاج، فقلت في نفسي: إن هذا العبد لمخلوق ولا يستوحش، لأن لسيده قرية مملوكة ومولاه مخلوق فقير، فكيف يصحُّ أن أستوحش أنا وسيدي مالك الملوك، فانتبهت وتبت -لقَّنه الغلام درساً في التوبة- واستمع إلى بعضهم يقول: دبِّر أو لا تدبر، فالمدبر هو الله سبحانه:

كن عن همومك معرضاً ... وكِلِ الأمور إلى القضا
وابشر بخيرٍ عاجل ... تنسى به ما قد مضى
فلربَّ أمر مسخِط ... لك في عواقبه رضا
ولربما اتسع المضيـ ... ـق وربما ضاق القضا
الله يفعل ما يشا ... ء فلا تكن معترضا
الله عوّدك الجميـ ... ـل فَقِسْ على ما قد مضى

ومن رائق الشعر قولهم:

ولرُبَّ نازلةٍ يضيق بها الفتى ... ذرعاً وعند الله منها المخرجُ
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها ... فُرجت وكنت أظنُّها لا تُفرجُ

سمعتُ أنه نزلت في إيطاليا في عام من الأعوام أمطارٌ في ليلة واحدة تعادل أمطار العام بأكملِهِ وفي لحظة واحدة، فإن الله عز وجل قادر على أن يرزقنا مطراً غزيراً فيصبح المعدل فوق المعدل الطبيعي، ولو تأخر المطر، فالأمر بيد الله عز وجل، لكن لا تنسوا أنَّ تقليل الله عز وجلَّ للماء تقليل تأديب لا تقليل عجز.

نصيب المؤمن من اسم الله الملك

من آداب الإيمان أن يوقن العبد بأن الله هو الملك وحده، أن يكون العبد بما في يَدَيِ الله أوثق منه مما في يديه، وإذا أردْت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله

أوثق منك مما في يديك، وإذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكّل على الله، وإذا أردت أن تكون أكرم الناس منزلةً فاتق الله.

كان حاتم الأصم صائماً يوماً، فلما أمسى قُدِّم إليه فطوره، فجاء سائل فدفع ذلك الفطور إليه، فحُمِلَ إليه في الوقت ذاته طبق عليه كل ألوان الأطعمة، فأتاه سائل آخر فدفع إليه كلَّ ذلك، ففتح بصره فإذا دنانير في الوقت نفسه بين يديه، فلم يتمالك أن صاح: الغوث مِن الخَلَفِ، وكان في جيرانه من يسمى «خَلَفاً»، فتسارع الناس إليه وقالوا: يا أخي؟ لِمَ تُؤذي الشيخ؟! وما زالوا به حتى جاؤوا به إلى الشيخ وقالوا: هذا خَلَف جاءك معتذراً، فقال: إني لم أَعْنِهِ أبداً إنما عجزت عن شكر الله عز وجل على ما يعاملني به من الخَلَف، فكلما أنفقت شيئاً أعطاني الله خيراً منه.

عن أنس قال: بينما عائشة في بيتها إذ سمعت صوتاً في المدينة فقالت: ما هذا؟ فقالوا: عير لعبد الرحمن بن عوف قدمت من الشام تحمل من كلِّ شيء، فكانت سبع مئة بعير، فارتجّت المدينة من الصوت، فقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قد رأيت عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حَبْواً».

فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف فقال: إن استطعت لأدخلنها قائماً، فجعلها بأقتابها وأحمالها في سبيل الله[1].

---

(١) رواه أحمد والبزار بنحوه والطبراني وفيه عمارة بن زاذان ضعفه النسائي والدارقطني. وقد شهد عبدالرحمن بن عوف بدراً والحديبية وشهد له رسول الله ﷺ بالجنة وصلى خلفه.
قاله الإمام الذهبي في السير (١/ ٧٧)، وقال: وبكلِّ حالٍ فلو تأخر عبدالرحمن بن عوف للحساب ودخل الجنة حبواً على سبيل الاستعارة وضرب المثل فإن منزلته في الجنة ليست بدون منزلة علي والزبير.

من عرف أنَّ الملك هو الله وحده: أَنِفَ أن يتذلّل لمخلوق؛ وقال بعضهم: أيجمل بالحرِّ أن يتذلل للعبيد وهو يجد من مولاه ما يريد؟! اطلبْ تُعطَهْ، كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، أيليق بك وقد عرفت أنَّ الله هو الملك وحده، ولا ملك سواه أن تتذلّل لسواه؟ مَنْ عرف الله لم يحتج إلى عَوْنِ المخلوقين وفتنتهم، وبذا تستغني عن الناس، وقد قيل: الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس.

عن أبي الحسين الحمادي القاضي قال: سمعت الفتح بن شخرف يقول: رأيت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في النوم فقلت له يا أمير المؤمنين أوصني، قال لي: «ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء وأحسنُ من ذلك تيه الفقراء على الأغنياء» قال: فقلت له: زدني فأومأ إليَّ بكفه فإذا فيه مكتوب:

قد كنت ميتاً فصرت حياً ... وعن قليل تصير ميتا
أغنى بدار الفناء بيت ... فابن بدار البقاء بيتا

وإذا وثقت بالله عز وجل فالله تعالى لا يخيبك، ومن جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه.

وكان أميّة الشاميّ يقول: «ألا إن المطيع لله ملك في الدنيا والآخرة»، وقيل لبعض الشيوخ: أوصني، فقال: كن ملكاً في الدنيا تكن ملكاً في الآخرة، فقال: وكيف أفعل ذلك؟ قال: ازهد في الدنيا تكن ملكاً في الدنيا، واستغنِ عن الرجل تكن نظيره، واحتج إليه تكن أسيره، وأحسن إليه تكن أميره، فإن كنت ملكاً في الدنيا كنت ملكاً في الآخرة.

سئل الحسن البصري: بِمَ نلت هذا المقام؟ قال: باستغنائي عن دنيا الناس، وحاجتهم إلى علمي.

ومن عرف الله الملك كان ملكاً حقيقياً، والمُلْك الحقيقي هو أن يَمْلِكَ الإنسان هواه ولا يَمْلِكُه هواه، والذي أُعتِق من أَسْرِ نفسه، وليس مُلْكاً لنفسه، قال تعالى: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يوسف:١٠١].

هذه الآية عميقة جداً: سيدنا يوسف يصف بأنَّ الله قد آتاه الملك: أيَّ مُلْكٍ آتاه؟ لم يكن أميناً على خزائن الأرض فحسب، بل آتاه الله كذلك الملك الحقيقي، فهذا الملك الذي يؤتيه الله لمن يشاء، ملك زائل، وليس مزية يفتخر بها، فما الملك الحقيقي؟ هو أنه مَلَكَ نفسه، لمجرد أن قال: معاذ الله... حينما دعته امرأة ذات منصب وجمال، حينما قالت: «هيت لك» قال: «معاذ الله»، هذا هو الملك الحقيقي، الملك الذي لا يزول، الملك الذي تسعد به إلى الأبد، أن تملك نفسك ولا تَمْلِكُك، أن ينقاد لك هواك ولا تنقاد له، إذا انقاد لك هواك وسيطرت عليه فأنت ملك، إذا سيطرت على نفسك فأنت ملك، إذا ملكت زمام نفسك فأنت مَلِك، إذا سيطرت على شهواتك فأنت ملك، إذا قُدْتَ نفسك إلى طريق الخير والسعادة فأنت ملك، أما إذا قادتك نفسك إلى الضلال والشهوات والمعاصي والآثام فأنت مملوك، إذا قادك عقلك أنت ملك، إذا قادك هواك فأنت مملوك، وشتان بين أن تكون مَلِكاً وأن تكون مَمْلوكاً.

أحد أكبر زعماء أوروبا، في الحقبة السابقة، والذي حقق انتصاراً ساحقاً في الحرب العالمية الثانية، له كلمة لا أنساها، قال: ملكنا العالم... ولم نملك أنفسنا، نحن ضعاف أمام أنفسنا. شخصية كبيرة تغريه امرأة تعمل معه، تنهار نفسه أمام فتنتها. إذاً أنت مملوك، كل أهل الدنيا عندهم نقطتا ضعف مدمِّرتان: المال والنساء، أي: يملك أشياء كثيرة وله اطّلاع واسع، له قدرات عجيبة، ومع ذلك المرأة والدرهم والدينار تمتلكه، إذاً هو مملوك.

عن أبي هريرةَ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينارِ وعَبْدُ الدِّرْهَمِ» [سنن ابن ماجه].

المملوك من كان في خدمة المال، ولم يجعل المال في خدمته، المال أصلاً مُسخَّر لك، لكنك سُخِّرت له، فأنت عبد له، تعس عبد الفرج، تعس عبد البطن، تعس عبد الخميصة (أي: الثوب) أي: أنت مملوك.

إذا قرأتم هذه الآية ترنموا بها: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ ﴾ [يوسف:١٠١] الملك الحقيقي أن تملك نفسك لا أن تملكك، أن ينقاد لك هواك لا أن تنقاد له، أن تسيطر على شهواتك، أن تكون مع الحقّ حيث كان الحقُّ، أن تكون وقّافاً عند كتاب الله، أن تعترف بالحقِّ الذي لغيرك عليك، وإن كان مُرّاً، هذه هي البطولة الحقيقية.

علاقة الإنسان بهذا الاسم أن يملك نفسه عند الغضب، وفي الحديث الشريف: (ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب) [متفق عليه].

عند العقبات الكأداء، عند الصوارف المغرية، والمؤمن رجل مبدأ، المؤمن رجل قيم، لأنه اتصل بالملك، فملك نفسه، وأعظم مرتبة تملكها أن تملك نفسك، وأكبر سيئة تصيب الإنسان أن يتفلت من منهج الله، أن يثيره موقف استفزازي يخرجه عن طوره وعن مبادئه وعن قيمه.

قال سفيان بن عيينة: بينما أنا أطوف بالبيت إذ أنا برجل مشرف على الناس حسن الشيب، فقلنا بعضنا لبعض: ما أشبه هذا الرجل أن يكون من أهل العلم، قال: فاتبعناه حتى قضى طوافه وصار إلى المقام فصلى ركعتين، فلما سلم أقبل على القبلة فدعا بدعوات ثم التفت إلينا فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قلنا له: وماذا قال ربنا؟ قال ربكم: أنا الملك أدعوكم إلى أن تكونوا ملوكاً، ثم أقبل على القبلة فدعا بدعوات ثم التفت إلينا فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قلنا له: وماذا قال ربنا يرحمك الله؟ قال: قال ربكم: أنا الحي الذي لا يموت، أدعوكم إلى أن تكونوا أحياء لا تموتون، ثم أقبل على القبلة فدعا بدعوات ثم التفت إلينا فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قلنا: ماذا قال ربنا؟ حدثنا يرحمك الله! قال: قال ربكم: أنا الذي إذا أردتُ شيئاً كان، أدعوكم إلى أن تكونوا بحال إذا أردتم شيئاً كان لكم، قال ابن عيينة: ثم ذهب فلم نره.

كأن الله عز وجل يقول للإنسان حين يدخل القبر: «عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبقَ لك إلا أنا، وأنا الحي الذي لا يموت».

قال: ألم تسمع ربك يقول: أنا الحي الذي لا أموت، فإن أطعتموني جعلتكم أحياء لا تموتون في جنة عرضها السموات والأرض، أنا الملك الذي لا أزول، هلموا أطيعوني أجعلكم ملوكاً لا تزولون، ملوك الدار الآخرة، أنا الملك الذي إذا أردت شيئاً قلت له كن فيكون، هلموا أطيعوني أجعلكم كذلك، أي: كلما دعوتموني أجبكم، كلما سألتموني أعطيتكم، أنا عند ظنكم: «ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه».

هذه بعض التعريفات والآداب والحدود في شأن اسم الله الملك.

فهرس

اللطيف	٥
الغني	٢٣
المولى	٤٧
النصير	٦١
الحفيظ	٧١
القوي	٩٥
المجيد	١١١
الواحد	١٣١
القهار	١٤٧
الكبير	١٦١
المتعالي	١٨١
الوارث	١٨٩
الخلاق	٢٠٧
البصير	٢١٥
الحق	٢٣٣
المبين	٢٥٣
الفتاح	٢٧٥
الشكور	٢٩١
المجيب	٣١١
الغفار	٣٢٩
الولي	٣٤٣
الرزاق	٣٦٥
المتين	٣٨١
البر	٣٩٥
المقتدر	٤١٣
المليك	٤٢٥
الأول	٤٣٣
الآخر	٤٤٥
الظاهر	٤٥٣
الباطن	٤٦٥
الملك	٤٧٥

موسوعة

أسماء الله الحسنى

وصفاته الفضلى

من الكتاب والسنة

المجلد الثالث

الدكتور

محمد راتب النابلسي

مؤسسة

الفرسان

للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

موسوعة

أسماء الله الحسنى

وصفاته الفضلى

من الكتاب والسنة

جميع الحقوق محفوظة لدى
مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع

ويحظر نسخ و/أو طبع و/أو تصوير و/أو ترجمة و/أو إعادة صف وإخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه و/أو تسجيله على الأشرطة و/أو وسائل تحميل الصوت أو الصورة و/أو الأقراص المدمجة أو الممغنطة و/أو إدخاله على الكمبيوتر أو قواعد البيانات و/أو استغلاله بأي شكل من الأشكال إلا بموافقة خطيّة من الناشر.

All Rights Reserved ©
Al Fursan Est.
Publishers & distributors

No part of this publication may be reproduced or distributed in any form or by any means, or stored in a database or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

الطبعة الأولى
2014 م /1435 هـ

مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع
الأردن – عمان – العبدلي
هاتف 00962 6 5607386
فاكس 00962 6 5653470
صندوق بريد 240664 عمان 11124 الأردن

Al Fursan Est.
Publishers & distributors
Jordan – Amman – Abdaly
Tel : 00962 6 5607386
Fax: 00962 6 5653470
P.O. Box 240664 Amman 11124 Jordan

E-mail: alfursan111@yahoo.com

الكتاب: موسوعة أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى من الكتاب والسنة
4 مجلدات
المؤلف: الدكتور محمد راتب النابلسي
التخريج والتدقيق: بلال نور الدين
المراجعة النهائية: بلال نور الدين
الخطوط: الخطاط / يعقوب إبراهيم
الإشراف العام: م. حسن صالح

مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع
جميع الحقوق محفوظة
All Rights Reserved ©

ISBN: 9789957570576 ردمك
رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية: 3 / 1 / 2014

القُدُّوس

الاسم الجليل من أسماء الله الحسنى الذي نحن بصدده في الصفحات التالية هو اسم «القُدُّوس»، ورد هذا الاسم في آيتين قرآنيتين، ورد في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحشر:٢٣].

وورد في قوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾ [الجمعة:١].

أمّا في السنة الصحيحة، ففي صحيح مسلم، من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان: «يقولُ في رُكوعِهِ وسُجُودِهِ: سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، ربُّ الملائِكَةِ والرُّوحِ» [أخرجه مسلم، وأبو داود، والنسائي عن عائشة].

وفي حديث آخر أنه ﷺ إذا هب من الليل يقول: «سبحان الملك القدوس» [أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان عن أُبي بن كعب].

من معاني اسم الله القدوس

القُدُّوس: على وزن فُعُّول، وهو من القدس، والقُدُس: الطهارة والتقديس هو التطهير، والأرض المقدسة: الأرض المطهَّرة، وسميت الجنَّةُ حظيرة القُدُس، لأنها مطهَّرة من آفات الدنيا، وسُمي سيدنا جبريل روح القُدُس، قال تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ ﴾ [النحل:١٠٢].

لأنه مطهر من كل عيوب التبليغ، لا ينسى، ولا يغيّر، ولا يبدّل، ولا يضيف، ولا يحذف، ولا يبالغ، لأنّه مطهّر من كلِّ عيوب التبليغ.

القداسة هي الطهارة والبركة، والبركة الخير الكثير، قدّس الرجل ربَّه إذا عظمه، وكبّره، وطهَّر نفسه بتوحيده وعبادته

وفي قوله تعالى حكايةً عن الملائكة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ [البقرة:٣٠].

ما معنى: ونقدس لك؟ يعني يا ربِّ! نحن نطهِّر أنفسنا، ونقدِّسها كي نكون أهلاً للإقبال عليك، وهذه مهمة الإنسان في الدنيا، يجب أن يُقَدِّس نفسه كي ينال معقد صدق، عند مليك مقتدر.

كلكم يعلم أنه إذا دُعي إلى حفل كريم، أو إلى لقاء خطير، أو إلى مقابلة كريمة، كيف يعتني الإنسان بمظهره، بثيابه، بألوان ثيابه، بكلِّ حركاته وسكناته، فلذلك الملائكة يقولون: ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) ﴾ [البقرة:٣٠].

هل تصدِّقون أن مهمة الإنسان في الدنيا؛ أن يطهِّر نفسه كي تغدو مؤهلة لتكون في جوار الله في الجنة، لأنَّ الله طيِّب، ولا يقبل إلاّ طيِّباً.

الإنسان يطلي بيته، يرى مثلاً أنَّ مدخل البيت يحتاج إلى تعديل فيعدّله، يرتب غرفة الاستقبال، يزيِّن مركبته، يتأنّق في لباسه لماذا؟... هذا منظر الخلق... والله تعالى ينظر إلى قلوبنا. قال ﷺ: «إِنَّ الله لا ينظرُ إِلى صوركم وأَموالكم، ولكن ينظر إِلى قلوبكم وأعمالكم» [أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة].

إذاً يجب أن يكون شغلك الشاغل أن تطهِّر نفسك؛ كي يُسمح لك أن تكون مع النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، يوم القيامة، وحَسُنَ أولئك رفيقاً.

الأقوياء في الدنيا، أيُّ إنسان أعلن لهم الولاء يقبلونه ولا ينتبهون إلى سلوكه، أيُّ إنسان رفع صورتهم يقبلونه، أيُّ إنسان أرسل لهم برقية تأييد يقبلونه، لكنَّ الواحد الدّيّان، إن لم تكن مستقيماً، إن لم تكن طاهراً، رحيماً، منصفاً، متواضعاً لا يقبلك، الولاء للأقوياء شيء، والولاء لله عز وجل شيء آخر.

«إن الله طيِّب، لا يقبلُ إلا طيباً» [أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة].

القداسة هي الطهر، والله عز وجل لا يقبلك إلا إذا كنت طاهراً، من الذنوب ومن العيوب معاً.

التقديس نفي واثبات، يجب أن تنفي عنه كلَّ ما لا يليق به، نفياً مجملاً، وتثبت له ما أثبته لنفسه إثباتاً مفصّلاً، هو غفور رحيم، واحد أحد، فرد صمد، كبير متعال، يجب أن تفصِّل في إثبات الكمالات له، ويجب أن تجمل في نفي العيوب عنه، وهذا من التقديس.

النقطة المهمة في هذا الاسم، أنه جاء في تعريف هذا الاسم الجليل: أنَّ القُدُّوس هو المنزَّه عن كل وصف، من أوصاف الكمال البشري، شرح هذا الكلام: أنَّ الإنسان حينما أدرك ذاته، رأى في نفسه كمالات ونواقص؛ العلم كمال، الحلم كمال، الصبر كمال، السمع، البصر، الإرادة، الحياة هذه كمالات... الجهل نقص، العمى نقص، الصمم نقص، الخرس نقص، اللؤم نقص، الحقد نقص، الضجر نقص... فالإنسان رأى أنَّ

هناك كمالات، وهناك نواقص، فلما أراد أن يثني على الله عز وجل نسب إلى الله عز وجل الكمالات التي يعرفها هو، إن الله سبحانه وتعالى «القُدُّوس» منزهٌ عن الكمالات التي يتصورها الإنسان لنفسه، فكلُّ ما خطر ببالك عن الله فالله بخلاف ذلك، قال تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى:١١].

الله عز وجل ليس كالأب، ولا كالمعلم، إنه سبحانه أعظم من ذلك، هل الله رحيم كما يرحم الأب ابنه؟ لا... فالأب أحياناً يرحم ابنه رحمة دون علم فيورده المهالك، لكن الله رحيم عليم، فرحمته سبحانه وتعالى مرتبطة بعلم.

لذلك لما أراد الإنسانُ أن يثني على الله عز وجل فقد أثنى عليه بصفات الكمالات البشرية، والله سبحانه وتعالى «قُدُّوس»، أي: منزَّه عن كلِّ وصف من صفات الكمال البشري، إنه سبحانه أعظم من ذلك، هو منزَّه عن صفات كمال الناس، ومن باب أولى منزَّه عن صفات النقائص، بل إنَّه منزَّه عن كلِّ صفة تُتصوَّر للخلق، كلُّ شيء تصوره الإنسان عن الله عز وجل فهو منزَّه عن هذه الصفات.

فمثلاً: من معاني «الله أكبر»، أنّ كل ما عَرفتَ عن الله عز وجل، فالله أكبر من ذلك، أكبر مما عرفت، هذا معنى، كذلك فإن «القُدُّوس» منزَّه ومقدَّس عن كلِّ صفة يمكن لإنسان أن يتصوَّرها، إنّه منزّه ومقدَّس عن كلِّ صفة تشبه صفات الإنسان وتماثلها، ولولا أنَّ الله سبحانه وتعالى سمح للإنسان أن يصفه بصفات كمال البشر، لكان وصفه بصفات كمال البشر ذنباً من الذنوب، تقول: الله رحيم، تقول: الله عادل، الله لطيف، الله حليم، إذا قلت: الله حليم؛ فلعله يدور بخَلَدك أن الإنسان قد يحلم، فقد يُستفز فلا يغضب، هذا حلم الإنسان، والله تعالى قُدُّوس عن هذه الأوهام، وعن هذه الصفات.

عالم قال لآخر: يا فلان، ألا تشتاق إلى الله عز وجل؟فقال: لا والله لا أشتاق إليه، قال الآخر: ما هذا الكلام؟! فأجابه: متى غاب عني حتى أشتاق إليه؟!

ومــــن عجـــبٍ أني أحـــنُّ إلـــيهم وأســأل عــنهم مــن أرى وهــم معــي

وآخر يسأل: يا إمام متى كان الله؟ قال: ومتى لم يكن؟... متى لم يكن حتى تقول لي: متى كان الله؟

الآن مرحلة أخرى القُدُّوس هو المنزَّه عن كلِّ وصف يدركه الحسُّ، عن كلِّ تصوُّر يتصوَّره الخيال، أو يسبق إليه الوهم، أو يختلج به الضمير، أو يقضي به التفكير... أمَّا أن تقول: منزّه عن العيوب والنقائص، فهذا أمر مفروغ منه.

بربك! لو كنت في حضرة إنسان عظيم، وقلت له: يا سيدي حَدَّثْتُ الناس عنك، قال: فماذا قلت لهم؟ قال: قلت لهم: إن جنابك لست بكاذب! ما هذا؟ أيقبل هذا؟ هل تمدح ملكاً بأنه ليس كاذباً؟ قال العلماء: هذا من ترك الأدب، ألم ترَ في الملك شيئاً إيجابياً، حتى نفيت عنه الكذب، وهناك قاعدة: إنّ نفي الشيء أحد فروع تصوره، إذا نفيت عن جهة نقيصةً، إذاً بالإمكان أن تقع منه هذه النقيصة، نفي الشيء أحد فروع تصوّره، إذاً من ترك الأدب أن تقول: الله سبحانه وتعالى منزّه عن النقائص، منزّه عن العيوب، وتقف، هذا من ترك الأدب.

من تعريفات اسم «القُدُّوس» أن القُدُّوس مَن تقدَّستْ عن الحاجات ذاتُه، أما أنت فمحتاج، أنت فقير، كلُّ شخصيتك، وعلمك وذكائك، وقوَّة هيمنتك على الناس، وجلَدك، كلُّ هذه الصفات تتلاشى أمام شربة ماء في ساعةِ ظمأ.

قال ابن السماك: يا أمير المؤمنين بكم تشتري هذا الكأس إذا مُنِعَتْ عنك؟ قال: بنصف ملكي، قال: فإذا مُنع إخراج الماء؟ قال: بنصف ملكي الآخر.

أنت مُحتاج إلى الهواء، فلو مُنع منك الهواء لاشتريته بكنوزِ الدنيا.

هذا الذي كان يقطع الصحارى، يجتاز الصحراء على ناقة عليها زاده وطعامه وشرابه، تعب من السفر، جلس ليستريح فنام، فلما أفاق لم يجد الناقة وعليها طعامه وشرابه، وهو في عرض الصحراء، فأيقن بالهلاك، من شدة البكاء أخذته سنة من النوم،

أفاق فرأى عن بُعد شجرةً، فأشرق في نفسه نور من الأمل، هرعَ نحو الشجرة، فإذا إلى جانبها بركة ماء شرب منها حتى ارتوى، ثم تولّى إلى الظّل، فإذا كيس مملوء، ففرح به فرحاً عظيماً، وهو يحسب أن فيه خبزاً، ولكنْ يا للأسف، لقد فتح الكيس فلم يجد فيه إلا لآلئ، فصاح: وا أسفاه هذه لآلئ، اللآلئ لها قيمة في المدينة؟ لو كان في الكيس خبز! أما وقد منع منه الخبز يقول: وا أسفاه هذه ليرات ذهبية. ماذا أفعل بها في الصحراء؟

في الحرب العالمية الثانية كما سمعت: الرغيف بيع بليرة ذهبية.

إذاً فالإنسان ضعيف، مفتقر إلى الهواء، مفتقر إلى الماء، مفتقر إلى الخبز، مفتقر إلى الأهل، مفتقر إلى من يؤنسه، مفتقر إلى من يحبُّه، أنت فقير في الأصل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر:١٥].

القُدُّوس: مَن تقدَّستْ عن الحاجات ذاته، فهو صَمَد، وتنزَّهتْ عن الآفات صفاته.

والقُدُّوس: من تقدس عن مكان يحويه، وعن زمان يبليه.

القُدُّوس عزيز لا يرتقي إلى تصويره وَهْمٌ، ولا يطمع في جواز تقديره فَهْم، ولا تنبسط في ملكه يد من دون تقدير.

هو قدُّوس في ذاته، لكنَّهُ يقدّس عباده الطائعين.

أقول لكم هذه الكلمة: فلان مقدَّس، المقدَّس هو الطاهر، تقديس بلا طهارة كلام فارغ، فلان مقدَّس، أي: مستقيم، عفيف، طاهر، سليم الصدر، نيّاته طيبة، ليس في قلبه غلٌّ، ولا حقد، ولا غشٌّ، ولا تخونه عينه، ولا يسبقه لسانه، ولا يعطي أذنه لهجر القول، لا يُقدَّس الإنسان إلا إذا تنزَّه عن النقائص.

والقُدُّوس مَنْ قدَّس نفوس الأبرار عن المعاصي، وأخذ الأشرار بالنواصي.

القُدُّوس من قدَّس قلوب أوليائه؛ فكلُّ إنسان له قلب صنوبري، لا أعتقد أن إنساناً على وجه الأرض ليس له قلب، لكنْ هناك قلب كالجوهر وقلب كالحجر.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)﴾ [الأعراف:١٧٩].

لكنِ كلما اقترب الإنسان من الله عز وجل، صار ذا قلبٍ كبير، ذا قلب صافٍ، قلبٍ ممتلئ حبّاً لله عز وجل.

الفرق كبير جداً بين قلب وقلب، قلب يلامس السماء رفعة، وقلب يلامس الحضيض ضَعَةً، قلب كالجوهر صفا ماؤه ورقّ، وقلب عكر كَدِر، فالقلوب أنواع، ومحصلة إيمانك كلّه هذا القلب: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

القلب السليم كما ذكر ابن القيم رحمه الله هو القلب الذي لا يشتهي شهوة لا ترضي الله، ولا يصدِّق خبراً يتناقض مع وحي الله، ولا يعبد غير الله، ولا يحتكم إلا لله.

إنسان يقول لك: هذه القضية لا تحلُّ عند المشايخ، بل في القضاء، يقول لك: أحتكم إلى القضاء والقانون، أمّا إن كان القضاء يحمي خصمه فإنّه يلجأ إلى الدين ويأتي إلى المشايخ، إذاً هو مع مصلحته وليس مع الحقّ.

امرأة مسلمة في بلد غربي إذا نشب خلاف بينها وبين زوجها ترفع الأمر إلى القضاء ولا ترفعه إلى القاضي المسلم في المركز الإسلامي، لأنها إذا رفعت قضيتها له يحكم لها بالمهر فقط، أما إذا رفعت قضيتها إلى قاض غربي يحكم لها بنصف أملاك زوجها.

لا بد أن يسعى الإنسان إلى تطهير قلبه من كل درن، وأن يسعى إلى تحليته بكلِّ كمال.

قال العلماء: القُدُّوس مَن قدَّس قلوب أوليائه عن السكون إلى المألوفات، الإنسان مستهلَك، طعامه، وشرابه، وبيته، وأولاده، ورزقه، ودكانه ومتجره، ومعمله،

ووظيفته، ومكانته، وصحته، وقلبه، وشرايينه، مستهلَك، فهموم الدنيا تستهلكه، لكنَّ قلبَ العابد مُستَهلِك وليس مستَهلَكاً، يستهلك الدنيا بمعرفة الله، ولا يسمح لها أن تستهلكه، المؤمن يقود هواه ولا ينقاد له، المؤمن يسيطر على نفسه، ولا يسمح لها بالسيطرة عليه، المؤمن يحتكم إلى القيَم ويحكِّمها، ولا يسخّرها، ولا يسخَرُ منها، المؤمن له مرتبة أخلاقية لا يهبط عنها، وله مرتبة علمية لا يزيغ عنها، وله مرتبة جمالية، المؤمن شخصيّة فذّة.

قال العلماء: القُدُّوس من طهَّر نفوس العابدين بإبعادهم عن دنس المخالفات واتّباع الشهوات، والقُدُّوس من طهّر قلوب الزاهدين من حبِّ الدنيا، والقُدُّوس من طهّر قلوب العارفين مما سواه... طهر قلوب العابدين، وطهّر قلوب الزاهدين.

فالعابدون متّصفون بطاعة الله، مقبلون على عبادته، متحرِّقون إلى الإقبال عليه.

والزاهدون مقيمون على الاكتفاء بوعد الله، معرضون عما يوجب التهمة من ضمان الله كفايتَهم.

إذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك مما في يديك.

إذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله، إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكَّل على الله، ربنا عز وجل قال: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ [النمل:٧٩].

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٩].

مشاعر القهر، مشاعر الخنوع، أحاسيس الذل، لا يعرفها المؤمن الذي يعرف أنَّ أمره كلَّه بيد الله، وأن الله صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى.

لذلك، النبي الكريم ﷺ كان يقول عند الكرب: «لا إله إلا الله العليم الحكيم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض رب العرش الكريم» [متفق عليه من حديث ابن عباس].

لا إله إلا اللهُ كلُّ شيء بيدك يا رب، وأنت رحمن رحيم...

لذلك لا يحزن قارئ القرآن، قارئ القرآن لا يمكن أن يحزن، لأنه يعلم -من خلال القرآن- أنَّ الأمر كلّه بيد الله، كن فيكون، أمّا عند الإنسان فكلُّ أمر محدود، وكلُّه شحيح، أمَّا ربنا عز وجل ففضله واسع عظيم.

العارفون إذا قاموا قاموا بالله، وإن نطقوا نطقوا بالله، وإن سكتوا سكتوا لله، فكيفما دارت أوقاتهم، وتغيّرت أحوالهم، فالغالب على قلوبهم ذِكر الله عز وجل.

أَوَ مؤمن أنت؟ أوَ عاهدت الله عز وجل؟ في السراء والضراء، في الغنى والفقر، في الصحة والمرض، في عمل وبلا عمل، في زواج وبلا زواج، لك بيت أو بلا بيت، فلعلّ الله أن يصلك: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب:٢٣].

قال بعض العارفين: أذاقنا الله مما أذاقهم شمّة، إنّه وليّ كلِّ نعمة.

أجل، طعم القرب، فمن ذاق عرف، إنّ الحديث عن القرب شيء، والذوق شيء آخر، وفرق كبير جداً بين أن تقول: ألف مليون دينار ذهبي، وبين أن تملكها.

القُدُّوس يقدِّس من شاء من خلقه، وفق مراده وحكمته، لذلك ورد في الحديث الصحيح: «إن الله لا يقدِّس أمة لا يأخذ الضعيف حقه» [أخرجه الحاكم عن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب].

يقول ﷺ: «إنّما أَهلك الذين قبلكم: أنّهمْ كانوا إذا سَرقَ فيهم الشَّريفُ تَركُوه، وإذا سَرَقَ فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ. وَأَيْمُ الله لَوْ أنَّ فاطمةَ بنْتَ محمدٍ سَرَقَت لقطعتُ يَدَهَا» [أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن عائشة أم المؤمنين].

نصيب المؤمن من اسم الله القدوس

من عرف هذا الاسم طهَّر نفسه عن متابعة الشهوات، فإذا كنت تَطمع أن تكون مع الله دائماً، فعليك أن تنزِّه نفسك عن الذنوب والعيوب، وعمّا سوى الله كي يقبلك علاَّم الغيوب.

إذاً من عرف هذا الاسم فلا بد من أن يطهِّر نفسه عن متابعة الشهوات، لعله يقارب مرتبة الإحسان: اعبد الله كأنك تراه، خوفاً، حباً، فإن لم تكن تراه فإنه يراك... وهذا حال المراقبة.

قال العلماء: مَن عرف هذا الاسم طهَّر نفسه عن متابعة الشهوات، وطهَّر ماله عن الحرام والشُّبُهات، ومن عرف هذا الاسم طهَّر وقته عن دنس المخالفات... قال أبو حازم لسليمان بن عبد الملك: احرص على أن يراك حيث أمرك، وأن يفقدك حيث نهاك، في وقت مجلس العلم أين أنت؟ في بيت الله... في وقت صلاة الجمعة أين أنت؟... فيما بين الفجر والشمس أين أنت؟ على السرير أم في مصلاك؟ يجب أن يراك حيث أمرك، وأن يفقدك حيث نهاك، في هذه الطرقات المزدحمة بالنساء الكاسيات العاريات، هل أنت في هذا الطريق؟ لا والله، أنت في بيت من بيوت الله.

كما قال العلماء: مَن عرف هذا الاسم طهَّر وقته من دنس المخالفات، وطهر قلبه من مسلك الغفلات، وطهر روحه من فتور المساكنات.

فالمساكنات أن يركن إلى الزوجة، ويركن إلى أولاده، أن يؤثرهم على مرضاة الله عز وجل... يقولون: ابقَ قاعداً معنا الآن، كفاك دروس علم، يركن إلى الأهل والأولاد، يركن إلى نزهة أعاقته عن مجلس علم، لكن من عرف هذا الاسم طهَّر نفسه عن متابعة الشهوات، طهر ماله عن الحرام والشبهات، طهر وقته من دنس المخالفات، طهر قلبه من مسالك المخالفات، طهر روحه من فتور المساكنات، طهر سرَّه من الملاحظات والالتفاتات.

روى ابن خزيمة في صحيحه عن محمود بن لَبيد قال: خرج النبي ﷺ فقال: «أيها الناس إياكم وشركَ السرائر»، قالوا: يا رسول الله وما شرك السرائر؟ قال: «يقوم الرجل فيصلي فيُزَيِّنُ صلاته جاهداً لما يرى من نظر الناس إليه فذلك شرك السرائر».

لا تلاحظ الخلق أبداً، لاحظ الخالق، هؤلاء لا ينفعونك أبداً، أنت لك عند الله مكانة، لا يرفعها مدح المادحين، ولا يخفضها ذمُّ الذّامّين.

أضرب لك هذا المثل، وأنا أردّده كثيراً: معك كيلو معدن، هو ذهب، ظنّه النّاس معدناً خسيساً، فلن تضارَّ فيه، وثمنه موجود، وأمّا لو كان معك كيلو من المعدن الخسيس، بذكاء بارع، وطلاقة لسان، وقدرة إقناع، أقنعت الناس أنّه ذهب، فلن ينفعك إقناعك لهم شيئاً، إن اقتنعوا بأن الخسيس ذهب فإنّك لا تربح، ولا إن اتهموك بأن ذهبك خسيس تخسر، خيرك منك وشرُّك منك.

قال أهل العلم: هذا الذي عرف اسم القُدُّوس لا يتذلَّل لمخلوق، ولا يتضعضع أمام غنيٍّ، قال فرقد السبخي:

قرأت في التوراة:

من أصبح حزيناً على الدنيا أصبح ساخطاً على ربه عز وجل.
ومن جالس غنياً فتضعضع له ذهب ثلثا دينه
ومن أصابته مصيبة فشكا إلى الناس فإنما يشكو ربه عز وجل.

حسناً؛ هذه النفس التي عبدتْ ربَّها، هذه النفس التي أقبلتْ عليه سبحانه، أيليق بها أن تتذلَّل لمخلوق؟... وقد عرفتْ اسم القُدُّوس، هذه النفس التي تقدَّست بمعرفة الله لا يمكن أن تتذلَّل لمخلوق، لذلك من جلس إلى غني فتضعضع له (أي: تمسكن له) ذهب ثلثا دينه.

عن عثمان بن عفان قال: لقد اختبأت عند ربي عشراً: إني لرابع أربعة في الإسلام وما تَغَنَّيْتُ ولا تمنيت، ولا وضعت يميني على فرجي منذ بايعت رسول الله ﷺ، وما مرت عليّ جمعة منذ أسلمت إلا وأنا أعتق فيها رقبة إلا ألا يكون عندي فأعتقها بعد ذلك، ولا زنيت في جاهلية ولا إسلام... لقد صارت يده مكرَّمة مقدسة عنده.

المؤمن له معاملة خاصة عند الله عز وجل والدليل: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ ﴾ [الأنبياء:٨٧].

وتعقيب ربك على هذه القصة صيّرها قانوناً: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٨].

والله هذه الآية وحدها تملأ النفس إشراقاً، تملأ النفس طمأنينةً، تملأ النفس عزة، تملأ النفس كرامةً، ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

قال العلماء: هذا الذي عرف اسم القُدُّوس ومَن هو؟ لنْ يتذلَّل لمخلوق بهذه النفس التي تقدَّست بمعرفة الله عز وجل!! مستحيل أن يُذلّ نفسه إلاّ لله سبحانه.

وهذا الذي عرف اسم القُدُّوس لا يعظِّم مخلوقاً بالقلب الذي به شهده، هذا القلب الذي عظَّم الله عز وجل يستحيل أن يعظِّم مع الله أحداً؟

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [التوبة:٦٢].

إنّ إرضاء رسول الله هو عين إرضاء الله.

كما قال العلماء: هذا الذي عرف اسم القُدُّوس حقيقةً يجب ألا يبالي بما فقده بعدما وجده، إنها حقيقة واضحة.

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب
إذا صحَّ منك الوصل فالكلُّ هيِّن ... وكلُّ الذي فوق التُّراب تراب

قرأت مرةً عن سيدنا الصديق رضي الله عنه كلمةً لا أنساها، مفادُها: أنه ما ندم على شيءٍ فاته من الدنيا.

وبعد: فلا يرجع مَنْ قَصَدَهُ قبلَ الوصول إليه، بعدما قَصَدَه.

أنت قصدت الله عز وجل، يجب ألّا يثنيك شيء، لا مشكلة ولا خطر، ولا وهم، ولا تهديد، ولا فقر، أبداً، هذا هو الصدق، صدق التوجُّه.

قال أهل الفهم: مِن آداب مَن عرف هذا الاسم أن تسمو همّته، إلى أن يطهّره الله من عيوبه.

عنده عيوبٌ في نفسه، لكن الحقيقة المريحة أن عيوب الجسد تنتهي مشكلتها عند الموت، مهما كانت الآفات، والأمراض، فمثلاً أحدهم يده مصابة، والآخر بصره ضعيف، وثالث آلام في ظهره، إذا جاء مَلَك الموت يُنهي كل المشكلات، ولا يبقَ أثرٌ لأية مشكلة أبداً.

كلُّ أمراض الجسد تنتهي عند الموت، وكلُّ أمراض القلب تبدأ عند الموت، الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا.

انغماس الإنسان في شهواته وهو في الدنيا تحجُبُه عن النظر في عيوبه، لكنه حينما يُحال بينه وبين شهواته تظهر عيوبه فتحرقه.

روي في الأثر «إن العار ليلزم المرء يوم القيامة، حتى يقول: يا رب لإرْسالُك بي إلى النار أهون عليّ مما ألقى، وإنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب» [الحاكم عن جابر].

آلام النفس، آلام الندم، الشعور بالخيبة، الشعور بالخسارة الكبرى، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦)﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٦].

قال أهل العلم: من آداب من عرف هذا الاسم أن تسمو همته إلى أن يطهّره الله من كل عيوبه، وأن يطهّره من دنس كلِّ عاهاته، في جميع حالاته، ويطهّر قلبه من كلِّ كدراته، وأن يرجع إلى الله تعالى بحُسْن الاستجابة في جميع أوقاته.

قالوا: فإن من طهَّر لسانه عن الغيبة، طهَّر الله قلبه عن الغيْبَةِ عنه، ويصبح قريباً منه، ومن طهَّر لله طرفه عن النظر بالريبة، طهَّر الله سرَّه عن الحجاب.

إذا حجب الإنسان بصره عن المحرمات، كَشَفَ الله عن بصيرته، فإذا أطلق بصره حجب عن بصيرته.

وإذا طهر لسانه عن اغتياب الناس، قرّبه الله إليه.

وملخص هذا: ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠].

يعني نطهّر أنفسنا كي نستحق أن نكون معك يا رب، في جنتك مع أوليائك، مع المؤمنين، مع الأنبياء، مع الصديقين، مع الشهداء، مع الصالحين.

أنت كن عند الأمر والنهي، والله يتولاّك، قف في الصلاة متخشّعاً لعل الله يتجلّى عليك، حاول أن تصلي مع أولادك، لعلّ الله يهديهم سواء السبيل، طهّر ظاهرهم لعل الله يطهّر باطنهم، لك الظاهر والله يتولى السرائر.

لا تيأس، لو رأيت الإنسان في أدنى دركات المعصية أو في أشدها، فالصُّلح مع الله ممكن بلمحة.

«إذا رجع العبد إلى الله، نادى منادٍ في السموات والأرض أن هنّئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله».

وإليكم هذه الكلمات فاحفظوها:

ألا يتمنى أحدنا أن يكون كذلك، وجه كالشمس منير، قلب مستنير، سعة في الرزق، قوة في البدن، محبة في قلوب الخلق؟!

أحد العلماء بمصر عاش مئة وثلاثين سنة... ورجل من علماء دمشق رحمهم الله تعالى عاش ستاً وتسعين سنة، ويروي عنه تلامذته أنه كان مستقيم القامة، حاد البصر، مرهف السمع، أسنانه في فمه، خدوده متوردة، قوي البنية، كلما سُئل: ما هذه الصحة؟ يقول: يا بني حفظناها في الصغر، فحفظها الله علينا في الكبر والقصة ذكرها ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم.

اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا، وقوتنا ما أحييتنا.

قال ابن عباس: «إن للحسنة ضياءً في الوجه ونوراً في القلب وقوةً في البدن وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سواداً في الوجه وظلمة في القلب ووهناً في البدن ونقصاً في الرزق وبغضة في قلوب الخلق» وقال عثمان بن عفان: «ما عمل رجل عملاً إلا ألبسه الله رداءه إن خيراً فخير وإن شراً فشر» قال ﷺ: «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه» [رواه الإمام أحمد في مسنده من حديث ثوبان].

والذنب والسيئة سببُ هوانِ العبد على ربه، وسقوطه من أعين خلقه... هان أمر الله على الناس فهانوا عليه.

اتق الله باجتناب المحرَّمات تكن من التوابين، وتورَّع عن اقتحام الشبهات تكن من المتطهرين، وازهد فيما زاد على قدر الضرورة تنجُ من الحساب الطويل، وأقبل على خدمة مولاك تَنَلِ الثواب الجزيل.

السلام

ورد هذا الاسم في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحشر:٢٣].

وفي صحيح البخاري، أن النبي ﷺ يقول: «فإن الله هو السلام» [البخاري عن عبد الله بن مسعود].

وفي صحيح مسلم كان ﷺ إذا انصرف من صلاته قال: «اللهم أنْتَ السَّلامُ، ومِنكَ السَّلامُ، تَبارَكتَ يا ذَا الجلالِ والإكرَام» [رواه مسلم عن ثوبان].

وكان ﷺ يكثر من ذكر اسم «السلام»، وفي صحيح الجامع الصغير: «إنَّ اسم السلام من أسماء الله تعالى فأفشوه بينكم» [أخرجه الطبراني عن أبي هريرة].

من معاني اسم الله السلام

يقول العلماء: هذا الاسم معناه أنَّه جل جلاله ذو السَّلامة، كأن تقول: الرَّضاع من الرَّضاعة، هذا الاسم أساسه اللغوي «السَّلامة»، ومعنى السلامةِ أنّ ذاته جل

جلاله سلمت من كلِّ عيب، وسلمت صفاته من كلِّ نقص، وسلمت أفعاله من كلِّ شرٍّ، ولكن لا بدَّ من وقفة متأنيّة عند بعض العبارات، سلمت ذاته من كلِّ نقص، وسلمت صفاته من كلِّ عيب، وسلمت أفعاله من كلِّ شرٍّ، أليس في الأرض شرور؟ فكيف يقول العلماء في شرح هذا الاسم العظيم من أسماء الله تعالى: سلمت أفعاله من الشَّرِّ؟

في الإجابة عن هذا السؤال، بادئ ذي بدء أعلق أهمية كبرى على هذه النقطة، لأنك إذا فهمتها -أيها القارئ العزيز- فهماً صحيحاً أحسنت الظَّنَّ بالله عز وجل، وحسن الظَّنِّ بالله ثمن الجنة، لقد سلمت أفعاله سبحانه عن الشّرّ المطلق، فما الشر المطلق؟ هو الذي نفعله لذاته، فمثلاً إذا كان عند الإنسان التهاب حادٌّ في الزّائدة الدّودية، ألا يمسك الطبيب الجرّاح الذي نرجوه أن يجري لنا هذه العملية؟!! ألا يمسك هذا الطبيب المشرط ويشقُّ اللحم، وينبجس الدم، وذلك بعد أن يُخدِّر هذا الإنسان؟ فبعد أن ينتهي مفعول التخدير، ألا يتألم هذا الإنسان؟ هل أردنا أن نجرحه حبّاً بجراحته؟ هل أردنا أن نقطع هذا اللحم حباً بإيقاع الأذى؟ أم أن هذا الطبيب الرحيم البارع أمسك المشرط، وفتح البطن ليستأصِل هذه الزائدة الملتهبة، وفي استئصالها يكون الشفاء والراحة؟ أمّا إذا جاء إنسان ليطعن آخر بالسّكّين بلا سبب وبلا ذنب نقول: هذا فَعلَ الشّرّ المطلق، أي: أوقع فيه الأذى لذات الأذى، أما حينما يُفْتح جدار البطن لتُستأصل هذه الزائدة الملتهبة، فهذا ليس شرّاً مطلقاً؛ هذا هو الشّرُّ الذي من أجل الخير، هذا هو الألم الذي من أجل الراحة، فتحُ الجلدِ هنا جرى من أجل راحة النفس، فلذلك حينما نقول: من معنى اسم الله السّلام أنّه ذو السّلام؛ والسّلام من السّلامة.

إذاً أفعال الله منزَّهة عن الشر المطلق، أما حينما يُوقع الإنسانُ الشّرَّ لذات الشر فهذا شرٌّ مطلق.

بناءً على ما سبق يجب أن نعتقد ويجب أن نؤمن أنه ليس في أفعال الله سبحانه شرٌّ مطلق.

أجل، ليس في أفعاله سبحانه شرٌّ مطلق، ولكن هناك شرور لا يعلمها إلا الله، وهذه الشرور لا بد منها من أجل إحداث النتائج الطيبة.

خُلِقَ الإنسان ليسعدَ إلى الأبد، فإذا انحرف عن هدفه فلا بدَّ من تصحيح مساره، لا بدَّ من معالجته، لا بدَّ من دفعه، لا بدَّ من ردعه، لا بدَّ من فعل شيء يدفعه إلى هدفه النبيل، فالذي يؤمن بأنَّ في فعل الله شروراً مطلقة، وأنَّه سبحانه يوقعها لذاتها، فهذا لا يعرف الله كما ينبغي، لقول الله عز وجل: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) ﴾ [آل عمران:٢٦].

مثلاً: هل في الأرض كلِّها أب، إن رأى ابنه مارسَ انحرافاً، أو اقترف ذنباً خطيراً، كأن يكون قد اختلس شيئاً ليس له، أو اغتصب مالاً ليس له، أو كذب كذبة أدّتْ إلى فسادٍ ما، أو اعتدى على أخيه، فهل في الأرض كلِّها أب يقف مكتوف اليدين؟ ألا يعالجه؟ ألا يوبّخه؟ ألا يضربه؟ ألا يحذّره؟ ألا يقرِّعه؟ وهل في الأرض كلِّها أب يتقدّم من ابنه الحبيب، الذي لم يفعل شيئاً أبداً، ويوقع به الأذى حبّاً بالأذى؟ هذا الأب منزَّه عن ذلك، الأب البسيط الذي لا يملك من الرحمة والحكمة إلا شيئاً يسيراً منزّه عن هذه الصفة.

إذاً الشر المطلق لا وجود له في أفعال الله سبحانه، وكلما كان الانحراف أشدَّ كان العلاج أقسى.

هذا أول تعريف، فإن الله جل جلاله من أسمائه السلام، سلمت ذاته من العيوب، وسلمت صفاته من النقص، وسلمت أفعاله من الشر المطلق، إنّ كل شر يوقعه الله سبحانه في خلقه، وتراه أعينكم هو شرٌّ موظَّف لمصلحة الإنسان البعيدة أو القريبة.

مثال ذلك: قد يَفْقِدُ الإنسان ماله كلَّه، وقد يُصاب بمرض عضال، فيذهب المال في العلاج، فهذا الفقد للمال، وهذا المرض العضال، في نظر صاحبه شرٌّ خطير، ولكن

حينما يُخلق الإنسان لسعادة أبدية، ويكون هذا العلاج في خدمة عودته إلى الله عز وجل، وقد تَلِف المال لهذه الغاية النبيلة فهذا هو الخير البعيد.

المعنى الثاني لاسم «السلام»: أي: ذو السَّلامة لعباده، فليس في الوجود كلِّه سلامة إلا معزوّة إليه.

الآن أدخل في موضوع مهمٍّ؛ وأرجو أن نسلك معاً في فهم أسماء الله الحسنى منهجاً واضحاً جداً، دعونا من التعاريف النظرية؛ كونُك إنساناً هل تستطيع أن تكتشف في هذا الكون حوادث، آيات، أدلة، تؤكد أن الله سلام؟ أنا سعيت ببعض الشواهد المنتزعة من حياتنا، من أجسامنا مِمّا حولنا لأؤكد أنَّ هذا الكون كلَّه ما هو إلا تجسيد لأسماء الله الحسنى، وما هو إلا مظهر لصفاته الفضلى.

مثلاً: الإنسان إذا كسرت عظامه كيف تلتئم؟ لا أحد يعرف، إلا أن الخلية العظمية حينما تصاب بالعطب، والعظام حينما تنمو في بدايتها تنمو إلى أن تصل إلى حدٍّ رسمه الله لها لأن الله عز وجل باسط وقابض.

ومن رحمة الله بنا أنَّ الإنسان ينمو، فإذا بلغ في نموه الحدَّ المعتدل المقبول يقف النمو، وهناك مرض خطير جداً، هو أن الإنسان أحياناً ينمو دون توقف، إنه مرض العملقة الذي تنمو فيه العظام بلا توقف، فمن رحمة الله عز وجل توقُّف نموِّ العظام عند حدٍّ معين، وقال العلماء: هذه الخليّة العظميّة تهجع وتنام، وقد يمضي على نومها أربعون عاماً، فإذا كُسِر عظم في إنسان استيقظت هذه الخلايا، وأعادت بناء ذاتها، والتأمت مع أخواتها ونحن لا ندري، وإني لأتساءل: لو أنَّ العظم لا يلتئم فماذا نفعل؟ فالتئام العظم ذاتياً يجسد اسم الله السلام، الله عز وجل خلقك في أحسن تقويم، وخلق في طبيعة الجسم إمكانية الترميم والالتئام والشفاء.

أنت إذا سرت على قدميك اللطيفتين، فما الذي يضمن لك ألا تقع؟ -جهاز للتوازن أودعه الله في أذنك الداخلية، حيث ثلاث قنوات، في كلٍّ منها سائل، وفيها

أهداب، فإذا مِلْتَ على أحد محوريك ارتفع السائل في مكان دون الآخر، وهذه الأشعار الدقيقة أحست بالميل فأعطت أمراً إلى الدماغ كي تعود إلى ما كنت عليه، لولا هذا الجهاز الذي أودعه الله في الأذن الداخلية لاحتاج الإنسان إلى قدمٍ قطرُها سبعون سنتمتراً، تكوِّن لديه مركزاً واسعاً يستند إليه، إذاً من أجل سلامتك جعل الله لك هذا الجهاز، جهاز التوازن في الأذن.

الله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان، في عظامه، من داخلها أعصاباً حسية بالغة الحساسية، لماذا؟ لماذا في نقي العظام أعصاب حسٍّ ليس لها وظيفة فيما يبدو، فإذا كُسِرَ العظم فشدَّة الألم تُبقي العظم على حالته لأنَّ إبقاءه على حالته يعني ثلاثة أرباع العلاج، فجعل الله في نقيِّ العظام ذلك العصب الحسيَّ البالغ الحساسية، من أجل سلامتك لأن اسمه «السلام».

وأعصاب الحس في الأسنان، من أجل أن تبادر إلى طبيب الأسنان فتعالج أسنانك قبل أن تفقدها كلَّها، فهذا العصب الحسي البالغ الحساسية في أسنان الإنسان من أجل سلامة الأسنان، وهو تجسيد لاسم الله «السلام».

جهاز المناعة، وهو حديث العالم اليوم، جيش عظيم أودعه الله في الدم: «الكريات البيضاء»، بعض هذه الكريات تستطلع أحوال العدو، وبعض هذه الكريات تصنع المصل المضاد، بناءً على استطلاع الكريات المستطلعة، وبعضها تأخذ هذا السلاح، المضاد الحيوي، وتقاتل به الجرثوم وأنت لا تدري.

من أجل سلامتك أودع الله فيك جهاز المناعة، هذه الكريات البيضاء التي بعضها لاستطلاع بنية العدو، ومراكز ضعفه، وبعضها لتصنيع المصول، وبعضها لمحاربة الجرثوم إذا دخل معتدياً على جسم الإنسان، وما مرضُ الإيدز الذي هو شغل العالم الشاغل إلا ضعف في جهاز المناعة، فمن أجل ماذا خلق الله جهاز المناعة في الإنسان؟ من أجل سلامتك، إذاً هذا يجسد اسم الله «السلام».

القلب: جعل الله عز وجل فيه مركزَ تنبيهٍ كهربائي خاصّاً به، ما من عضلة في جسم الإنسان إلا وتأتمر بعصب حسيٍّ، وعصب محرِّك، فالعصب الحسيُّ ينقل إحساس المحيط إلى الدماغ، والعصب المحرِّك ينقل أوامر الدماغ إلى العضلات، وهذه من بديهيات التشريح، كلُّ عضلات الجسم تتحرَّك بأمر الدماغ، فالشلل من أين؟ من الدماغ، إذا تضيّق شريان في الدماغ في منطقة الحركة يصاب الإنسان بالشلل، إلا عضلة القلب، أجل، إلا هذه العضلة، فقد زودها الله جل جلاله بمركز توليد كهربائي خاص بالقلب؛ لأنَّ القلب خطِر جداً، وأن هذا المركز، مركز التوليد، إذا تعطل فهناك مركز آخر يعمل بعده مباشرة. والدول المتقدمة جداً عندها أجهزة توليد كهرباء احتياطية، فلو أنَّ مراكز التوليد الأساسية أصابها خلل أو عطب عندئذٍ تعمل المراكز الاحتياطية، في القلب ثلاثة مراكز توليد كهرباء خاصة بالقلب، إذا تعطل الأول يعمل الثاني، وإذا تعطل الثاني يعمل الثالث، لماذا خلق الله هذه الاحتياطات؟ من أجل «سلامتك».

قال لي طبيب متخصص في الكليتين: لو أننا جئنا بمِبضع الجراح واستأصلنا الكلية الأولى، وجئنا إلى الكلية الثانية، واستأصلنا تسعة أعشارها بالمبضع، فإن عشر الكلية الثانية يكفي لتصفية دم الإنسان، إذاً الله عز وجل من أجل سلامتك أعطى كليتيك عشرين ضعفاً عن حاجتك، هذا من أجل سلامتك، فإذا قرأت اسم الله «السلام»... علمت أنه زودك بوسائل السلامة، هذا كلُّه من معاني اسم الله السَّلام جل جلاله.

الأوعية: أوردة وشرايين، ولحكمة، أرادها الله عز وجل، جعل الشرايين في داخل الأعضاء، والأوردة في الظاهر، لأنَّ الشريان موصول بالقلب مباشرة، فإذا أصابه جرح فقد الإنسان دمه كلَّه، لأنه مثل المضخة، ولو أنَّ إنساناً فُتح شريانه هل تدري ما يكون؟ قال لي طبيبٌ جراحُ أوعية: في أثناء بعض العمليات حينما يُفتح الشريان وإلى أن نُغلقَهُ بملقط، فإن الدم يصل أحياناً إلى سقف الغرفة لشدة الضغط، فهذا الشريان الذي أودعه الله في الإنسان حفاظاً عليه وضماناً لسلامة صاحبه جعله في الداخل وجعل الأوردة في الخارج، فعندما تأخذ حقنة في العرق، هذه ليست في

الشريان، ولكن في الوريد، من جعل الشرايين في الداخل والأوردة في الخارج؟ الله تبارك وتعالى السلام ضماناً لسلامتك.

عندما يجوع الإنسان لدرجة أنّه يكاد يموت جوعاً، أنت إنسان عندك مواد غذائية؛ عندك مثلاً بقول، حبوب، وعندك دهون، فأنت مهما أوتيت من علم عظيم، هل بإمكانك أن تحول هذا القمح إلى مواد دهنية، أو إلى لحم؟ هذا شيء فوق طاقة الإنسان، ولكن الجسم مزود بآلية عجيبة جداً، بإمكانه أن يحول المواد النشوية إلى مواد دهنية عند الحاجة، فهذه المرونة في تحويل المواد من أجل سلامتك، والإنسان عندما يجوع يستهلك شحمه، وحينما يجوع بعد ذلك يستهلك عضلاته، في بعض حالات المجاعات تُستَهلَك العضلات، لا يبقى في يده إلا جهازه العظمي وعليه الجلد، العضلات المخططة هذه تستهلك وتذوب، ماذا قال هذا الفتى الشاب درواس بن حبيب لهشام بن عبد الملك حينما دخل مجلسه فغضب هشام حينما رأى حدثاً في مجلسه وقال لحاجبه: ما شاء أحد أن يدخل عليّ إلا دخل حتى الصبيان، فاستأذن واقفاً وقال له: «أيها الأمير: إن للكلام نشراً وطيّاً، وإنه لا يعرف ما في طيّه إلا بنشره، ثم أردف قائلاً: أصابتنا ثلاث سنين: سنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة دقَّت العظم» فأول شيء يُستهلك في الإنسان شَحْمُه، وبعد ذلك تُستهلك عضلاته إلا عضلة القلب، مَنْ أبدع هذا الإبداع؟ الإنسان إذا أردت أن تميته جوعاً يستهلك كل عضلاته إلا عضلة القلب ضماناً لسلامته.

بل إن في مخزون الإنسان الغذائي مخزوناً لا يُستهلك إلا عند المجاعات، الإنسان يجوع، ما معنى أنك جائع؟ يعني أنَّ مخزونك في الكبد نقص، المخزون الغذائي في الكبد لا في الشرايين فلو فحصت دم إنسان جائع لوجدت النِّسب كلَّها نظامية في دمه، ولكنَّ المخزون في الكبد هو الذي نقص، هذا كلّه من أجل سلامة الإنسان، وهذا معنى «ذو السلامة».

شيء آخر؛ الإنسان حينما ينام، وزن جسمه الذي فوق عظمه يضغط على العضلات التي تحت العظم، هذا الضغط يسبب ضيقاً في الأوعية وفي التروية، أودع الله

في الإنسان مراكز تتنبه بالضغط، فإذا تنبهت هذه المراكز لضغط الجسم عليها، ولضيق الأوردة والشرايين، وضعف التروية، فالدماغ عندئذٍ يأمر الجسم، وأنت نائم، بالتقليب من شقٍّ إلى شقٍّ، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الكهف:١٨].

والتقليب ذات اليمين وذات الشمال، مرة إلى اليمين ومرة إلى الشمال، لئلا تقع من على السرير، هذا من أجل سلامتك.

في فمك وأنت نائم لعاب، فهذا اللعاب في الفم، إذا ازداد أعطى تنبيهاً للدماغ، والدماغ بدوره يأمر البلعوم فيغلق طريق القصبة الهوائية، ويفتح طريق المعدة فيتسرب هذا اللعاب إلى المعدة، وأنت نائم، هذا من اسم الله السلام.

فمثلاً إن الله عز وجل جعل أخطر عضو عندك هو «الدماغ»، أين وضعه؟ في الجمجمة، ماذا جعل فيه؟ أغشية بعضها فوق بعض، وماذا جعل بين الدماغ وعظام الجمجمة؟ جعل سائلاً، ما وظيفة هذا السائل؟ هذا السائل يمتصُّ الصدمات، إذا تلقى إنسان ضربة على رأسه أو وقع على جمجمته، وإذا فسرنا الضربة بارتجاج في السائل، فهذه الضربة أو هذا الضغط يوزع على سطح السائل كلِّه، فإذا أثَّر الضرب لا يتجاوز عشر الميليمتر فلا يتأثر الدماغ كثيراً، فالله جعل الدماغ في صندوق محكم، وجعل الصندوق له مفاصل ثابتة، هذه المفاصل الثابتة تمتص بعض الصدمات، لولا هذه المفاصل المتعرجة والمتداخلة لانكسرت جمجمة الإنسان لأقل ضربة، أما هذه المفاصل فإنها تتداخل تداخلاً متكيّفاً مع شدّة الضربة، فكلما تعرضت الجمجمة لصدمة تتداخل العِظام بعضها مع بعض، ثم تعود لمكانها، هذا من أجل سلامتك.

أين جعل النخاع الشوكي، وهو أخطر شيء في الإنسان؟ في العمود الفقري.

أين جعل القلب؟ في القفص الصدري.

أين جعل الرحم؟ في الحوض: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [المؤمنون:١٣]. الرحم يقع في الوسط الهندسي تماماً من جسم المرأة.

أين جعلت معامل كريات الدم الحمراء وهي أخطر معامل في جسم الإنسان؟ في نِقْي العظام، أترون كيف هي السلامة؟!

أين وضعت العين؟ في المحجر، العين جَعَلَ الله سبحانه لها محجراً يقيها الصدمات، ولو تلقى الإنسان ضربة على وجهه، فالضربة لا تصل إلى العين، لأنها في حصن، في كوة المحجر، فالعين في المحجر، والدماغ في الجمجمة، والنخاع الشوكي في العمود الفقري، والقلب في القفص الصدري، ومعامل كريات الدم الحمراء، في نقي العظام، والرحم في الحوض، ما هذا الإحكام البديع؟ إنه عمل صانع بديع الصنع.

لماذا جعل الله عز وجل أنف الصغير الرضيع غضروفياً قاسياً؟ لئلا يتطامن (ينحني فيُغلق) فيختنق الطفل في أثناء الرضاعة، كلما كبر الطفل أصبح هذا الغضروف ليناً، هذا من حكمة الله عز وجل.

هذا الرحم إذا تقلص، فتقلُّصُه من أجل سلامة المرأة، فماذا يحصل؟ يتقلّص تقلُّصاً لطيفاً، هذا هو الطلق، فإذا خرج الطفل إلى خارج الرحم، تقلَّص الرحم تقلُّصاً حادّاً قاسياً، لماذا؟ قيل: لأن الطفل حينما خرج من الرحم تقطَّعت عشرات ألوف الأوعية الشعرية، فلو تقلَّص تقلُّصاً ليناً لماتت الأم من النزيف، والطبيبة المشرفة على الولادة تجسُّ الرَّحم، فإذا كان صلباً صخرياً تعدُّ الولادة سليمة، ولو أنَّ هذين التقلصين عُكِسا لماتت الأم ولمات وليدها، لو جاء التقلص عنيفاً لاختنق الوليد، ولو جاء رخواً لماتت الأم، فمن أجل سلامة الأم، وسلامة وليدها كان التقلص الأول ليناً، متزامناً متسارعاً والتقلص الثاني عنيفاً، حاداً قاسياً من أجل سلامة المرأة ووليدها.

والله، لو بقينا ساعات كثيرة، أياماً عديدة، وأشهراً مديدة، وسنوات طويلة، لما انتهينا من اسم الله «السلام» إذا أردنا أن نأخذ مدلولاته من خلق الإنسان ومن خلق الحيوان، ومن خلق النبات.

هذا الحوين الذي خلقه الله في الخصيتين، يتم خلقه خلال ثمانية عشر يوماً، هذا الحوين يخزن في الخصيتين وتعطَّل فاعليته، فإذا خرج ليستقر في الرحم، فحالما يبدأ بالانطلاق من مكان مخزنه تبدأ فاعليته، ولولا هذه الصفة لكان كلُّ الرجال عقيمين، يأتي العقم لأنَّ هذا الحيوان له عمر، وعمره عشر ساعات، فإذا صنع في الخصيتين ولم يستهلك يموت، إذاً يُصنع، ويتم صنعه، ويُخزَّن، وتُعطَّل فاعليته، فإذا انطلق من مخزنه ليستقرَّ في الرحم بدأت فاعليته، وعاش عشر ساعات إلى أن يستقرَّ في البويضة، هذا إبداع مَنْ؟ إبداع الله عز وجل «السلام».

فأنا أتمنى أيها القارئ الكريم وقد دخلنا في شرح أسماء الله الحسنى، أتمنى أن ننحو في فهم هذه الأسماء منحى يوازي التعاريف النظرية والشواهد العملية، وأن نفكر تفكيراً ذاتياً حراً في بعض مظاهر خلق الإنسان وخلق الحيوان وخلق النبات.

هذه الشجرة التي عمرُها خمسون سنة، وأنت تأكل منها زيتوناً كلَّ سنة لها إبداع، إبداعها أنك إذا غبت عنها وليس هناك مطر في السماء تستهلك ماء أوراقها، فإذا استهلكت ماء أوراقها، كأنها تقول لك: يا صاحبي أنا عطشى، فأوراقها ذبلت، فإذا ترك أحدنا شجرة دون سقي فأول ماء تستهلكه ماءُ أوراقها، فتجد الأوراق قد ذبلت، فإذا لم تُسقَ فإنها تستهلك ماء أغصانها، فإذا لم تسق تستهلك ماء فروعها، فإذا لم تسقَ تستهلك ماء جذعها، فإن لم تسق تستهلك ماء جذورها، وهذا آخر ماء تستهلكه، ثم تغدو حطباً للإحراق.

لو أن الأمر عُكِس في تلك الشجرة، وتركت الشجرة دون سقي مدة أسبوعين لماتت، لأنها بدأت باستهلاك ماء الجذر، ويبس الجذر، ومن ثم ماتت الشجرة، إذاً من جعل هذه الشجرة تستهلك ماء أوراقها أولاً، من أجل أن تبادر إلى سقايتها؟ هذا خلق الله للشجرة إنه «السلام».

هذا النُّسُغ الصاعد، هناك أوعية صاعدة وأوعية هابطة في الشجرة، فحينما تنمو هذه الشجرة تنمو عرضياً، وربما ضيّق نموها العرضي من سَعة أوعيتها، لذلك هذه

الأوعية ذات الخطورة البالغة للشجرة مدعّمة بألياف حلزونيّة لئلا ينمو القشر ولحاء الشجرة على حسابه، من أبدع هذا؟ الله سبحانه وتعالى.

هذه البذرة التي جعلها الله عز وجل آية تقاوم الموت سنوات وسنوات، فمثلاً أخذوا قمحاً من الأهرامات مضت عليه حقب مديدة وزرعوه فنبت، بذرة القمح كائن حي فيها رُشيم، يعيش هذا الرشيم ستة آلاف عام تقريباً، زرعت هذه البذور فنبتت، الذي أراه أن أيَّ شيء في الكون من النبات إلى الحيوان إلى الإنسان من تدبير «السلام».

ثم إنَّ الماء آية صارخة: فإذا جُمِّدَ الماء وزادت كثافته غاصَ في أعماق البحار، وانتهت الحياة من على سطح الأرض، لكنَّ الماءَ هو العنصرُ الوحيد في الكون الذي إذا برَّدناه قلَّت كثافته وزاد حجمه فَطَفَا، لو أنه انعكس الأمر، لأصبحت البحار كلُّها متجمّدة، ولانعدمَ البخر، وانعدم المطر، ومات الزرع، ومات الحيوان، وتبعه الإنسان، هناك خاصة واحدة ألفتُ النظر إليها: ائت بالماء وبرده فينكمش إلى أربع درجات مئوية فوق الصفر، وبعدها تنعكس الآية ويزداد حجمه، هذا من اسم السلام من أجل سلامتنا، وحينما يزداد حجم الماء يفتت التربة، فالتربة أساسها صخري، وبهذا الماء أصبحت مفتتة، إذاً فاقرأ معي قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾ [الطارق:١١-١٢].

إذاً فازدياد حجم الماء عند التبريد هو الذي جعل الصخر تراباً من أجل سلامة الحياة، فإذا أردنا أن نعرف أسماء الله الحسنى من هذا المنحى، من هذا الطريق، فهو طريق رائع جداً، وواسع جداً، وفي متناول كلِّ إنسان، وأيُّ واحد بإمكانه بدءاً من كأس الماء إلى رغيف الخبز إلى أعضائه وأجهزته وخلاياه وأنسجته عليه أن يعرف أن اسم الله «السلام» واضح في خلقه، بل في طعامه وشرابه، ربنا عز وجل قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾ [الملك:٣].

فكلُّ خلقه متقن: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ [القمر:٤٩] وقال سبحانه: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه:٤٩-٥٠].

هجرة الطيور سنوياً تتمُّ من أجل سلامتها، تقطع الطيور سبعة عشر ألف كيلومتر، تطير بعض أنواع الطيور ستاً وثمانين ساعة دون توقف، هل في الأرض كلِّها طائرة بإمكانها أن تطير ستاً وثمانين ساعة دون أن تتزوَّد بالوقود؟! ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾.

السَّمكة زودها الله بجهاز تعرف فيه أين هي من سطح الماء، فإذا أمسكت سمكة وجدت في ثلثها الأعلى أنبوباً تحت الحراشف، هذا الأنبوب مفرَّغ من الهواء، هي في أعماق البحر كلما هبطت نحو الأسفل ازداد الضغط على هذا الأنبوب، وهكذا جهاز الضغط في كلِّ الغوَّاصات، كلُّ سمكة جهَّزها الله بجهاز ضغط، تعرف أين هي من سطح الماء، كلّما نزلت تعرف عمق ما وصلت إليه، من أجل سلامتها.

انظر إلى كلِّ الحيوانات الأهلية التي هي من حولنا تر أنَّ سلامتها عجيبة، هذا كلُّه من اسم السلام.

إذاً؛ إمّا أنه سلمتْ ذاته من العيب وسلمت صفاته من النقص، وسلمت أفعاله من الشر، أو أنه ذو سلامة لخلقه، فليس في الوجود كلِّه سلامة إلا وهي معزوّة إليه، أو سَلِمَ المؤمنون من عذابه، أو هو ذو سلامة على أوليائه.

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النمل:٥٩].

سلمت ذاته، وسلم خلقه من كلِّ أذى ومن كلِّ ضرر.

العلماء قالوا: إنَّ سلامة ذاته من العيوب والآفات؛ يعني أنَّ هذا الاسم من صفات التنزيه، وسلامه على أوليائه، فهذا الاسم من أسماء الذات، فإن أعطى السلامة

للمؤمنين فهذا من أسماء الأفعال، وسلامه إذاً إما من صفات التنزيه، وإما من صفات الذات، وإما من صفات الأفعال.

ومن معاني هذا الاسم، أنَّ ذكر الله عز وجل يورث الأمن والطمأنينة والسلامة، والدليل قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد:٢٨].

في القلب وحشة، في القلب خوف، في القلب قلق، لا يسكن هذا القلق، ولا تسكن هذه الوحشة، ولا يأنس القلب إلا بذكر الله، وأنا أهمس في آذان القراء الأعزاء بهذه الكلمة: ابحثوا عن كلِّ شيء، وفي كلِّ شيء، فليس في الأرض كلِّها شيء يمنحكم سعادة إلا أن تذكروا الله، روي في الحديث: «إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد إذا أصابه الماء»، قيل: يا رسول الله! وما جلاؤها؟! قال: «كثرة ذكر الموت وتلاوة القرآن» [البيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن عمر].

إذاً من أسماء الله السلام؛ إنك إذا ذكرته شعرت بالسلام، إنك إذا ذكرته زال عنك الخوف، إنك إذا ذكرته زالت عنك الوحشة، إنك إذا ذكرته أَنِستَ به، إنك إذا ذكرته اطمأننت إليه.

البعيدون عن الله عز وجل يأكل قلوبَهم الخوفُ، يختلُّ توازنهم، ينسحقون، لأنهم أشركوا بالله ما لم ينزِّل به عليهم سلطاناً، فألقى الله في قلوبهم الرُّعب، أمّا قلب المؤمن فهو مطمئن دائماً.

إذاً أعود وأكرر أنَّ من أسماء الله «السلام»؛ إذا ذكرته يمنحك السلام، إذا ذكرته يمنحك الاطمئنان، إذا ذكرته تشعر بالقرب منه، إذا ذكرته تشعر أنه يدافع عنك، وأنك في رعايته، وفي حفظه، وفي تأييده، وفي توفيقه.

من معاني اسم «السلام»؛ أنك إذا اتصلت بالله عز وجل طهّرت نفسك من العيوب، وهنا ندخل في معانٍ عميقة، وأول معنى أن ذاته جل جلاله تنزهت عن كلِّ عيب، وصفاته تنزهت عن كلِّ نقص، وأفعاله تنزَّهت عن كلِّ شرٍّ، من المعاني

الأخرى: أنه ذو سلامة، أي: يمنح السلامة لعباده، إما في خلقهم، كما تحدثنا قبل قليل، وإما في نفوسهم، فذكر الله يورث الأمن والطمأنينة والسلامة.

وبعد، فالاتصال بالله ينقِّي النفس من عيوبها، من البخل، من الشحِّ، من الحقد، من الضغينة، من الحسد، من الكبر، هذه الصفات الذّميمة التي يشقى بها الإنسان فإذا اتصلْتَ بالله عز وجل تتنزّه أنت عنها، إذاً هو ذو سلام في جسمك، أعطاك أعضاءَ وأجهزة، وأعطاك خلايا وأنسجة، ودقَّة بالغة في جهازك العظميِّ، والعصبيِّ، والعضليِّ، والدوران، والشرايين والأوردة، وإذا كنت خائفاً وذكرته بثَّ في قلبك السلام، فإذا اتصلت به طهَّرك من كلِّ العيوب والآثام، وجعلك طاهر النفس، بفضل اسم السلام.

إذاً في تجارتك يهديك سُبُل السلام، وفي زواجك يهديك سُبُل السلام، وفي علاقاتك بجيرانك يهديك سبُل السلام، هذا معنى السلام، فأنت إذا طبقت أمر القرآن الكريم، واجتنبت نهيه أوصلك في كلِّ موضوع، وفي كلِّ شأنٍ إلى السلام، والله يدعو إلى دار السلام وهي الجنة، فالسلام مريح جداً، فإنك تعيش في طمأنينة، وتعيش براحة، وتحسُّ أن الله خالق الكون معك لا يتخلّى عنك، ولا يُسْلِمُك إلى عدوِّك، يدافع عنك، ويحفظك، ويؤيّدك، وينصرك فقد قطفت الثمار يانعة بعد أن دفعت الثمن، قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ ﴾ [المائدة:١٢].

إذاً، مِن معاني السلام أنَّ ذكر الله يورث الأمن والسلام، من معاني السلام أن الاتصال بالله عز وجل يكسب السلامة من العيوب والنقائص والأدران، ويحول دون الحماقات والحقد والحسد والضغينة، والعلوِّ في الأرض والكبر، فهذه الصفات الذميمة المهلكة إذا اتصلْتَ بالله عز وجل نقّاك منها.

ومن معاني السلام أيضاً أنك إذا طبَّقت شرعه يهديك سُبُل السلام كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩].

أي: إذا طبّقت الشرع يعطيك السلامة في الدنيا، وإذا أقبلت على الله يعطيك سلامة النفس، وإذا أطعته في كل مناحي حياتك يعطيك سلامة الآخرة، قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ﴾ [الحشر:٢٣].

تصاحب أحياناً شخصاً شريراً، أو تشاركه في بعض أعمالك فيدمّر حياتك، وقد يتزوج إنسان امرأة شريرة فتنتهي به إلى دمارٍ.

وفي هذا السياق حدثني شخص فقال: إنه رأى امرأة في الملهى فأعجبته فتزوجها، بعد أن تزوجها نشب خلاف بينه وبينها فهي ليست منضبطة، قلت ألومه: من أين أخذتها؟ من أين تزوجتها؟ ثم ذهب إلى بيت أهلها، استرضاها، فلما استرضاها أبت إلا أن تسجِّل عليه مبلغ مئة ألف ليرة لترجع إليه، رجعت إليه شكلاً، وأقامت عليه دعوى، واتفقت مع المُبَلِّغ، وأخذت التبليغ من مبلِّغ المحكمة ولم تبلغه لزوجها، ومضت مدة الدعوى، وأصبح الحكم قطعياً، ثم سيق الزوج إلى السجن بتهمة التخلُّف عن دفع المهر المقدَّم، هكذا مجريات القضاء، فلما علم ذلك حاول قتلها وقتل أمها وأختها في ليلة واحدة، وقتل نفسه، إصابتهم لم تكن قاتلة، أُخذوا للمستشفى ونَجَوْنَ من الموت، الأم وابنتها وأختها، أما هو فأمسى تحت الثرى، فليس للإنسان سلام إذا تزوج امرأة أعجبته وليست على ما يرضي الله، وهذه قصة واقعية حدثت في دمشق قبل فترة وجيزة.

أما إذا التزم أحدنا شرع الله عز وجل فإنه سبحانه يبارك له في زواجه، وفي عمله، وفي رزقه، وفي صحته، وفي أولاده، فيهديهم سبل السلام.

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩].

﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [طه:١٢٣].

يجب عليك أن تعرف أنَّ السَّلامة كلَّها في أن تكون مع الله، السلامة كلَّها في أن تكون وفق أمر الله، السلامة كلَّها في معرفة الله، السلامة كلَّها في عبادته، السلامة كلَّها في فهم كتابه، السلامة كلَّها في تنفيذ شرعه، السلامة كلَّها في الالتزام بما أمر واجتناب ما عنه نهى.

إضاءات على بعض الآيات التي ورد فيها السلام

وبعد، فقد وردت كلمة السلام في القرآن بمعنى آخر، قال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [يونس:٢٥].

فما هي دار السلام؟ إنها الجنة، فليس فيها نغَص ولا حسد، ولا يطاردك فيها مرض أو قلق، ولا يعتريك فيها خوف أو منازعة من أحد، ولا حروب فيها ولا اضطهاد، ليس فيها من هذا كلّه شيء البتّة.

﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس:٢٥-٢٦].

هذه إذاً دار السلام، نِعْمَ الثواب، وحسنت مرتفقاً.

كذلك فإن السلام ورد في آية أخرى، قال سبحانه: ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ ﴾ [الواقعة:٩٠-٩١].

فالله سبحانه وتعالى يخبرك عن سلامة أصحاب اليمين، إنهم يقولون: الصحة جيدة والسعادة كبرى، فهم في سلام وهم في الجنة حيث النعيم المقيم.

وورد أيضاً في قوله تعالى: ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾ [مريم:١٥].

قال سفيان بن عيينة[1] -رحمه الله تعالى-: أوحش ما يكون المرء في ثلاثة مواطن؛ «يوم يولد». فقد كان في الرحم مسروراً ومستريحاً من المتاعب والمشكلات وخرج إلى الدنيا، إنه انتقل من مكان ضيق إلى مكان واسع غير مألوف لديه.

«ويوم يموت» يدع كلَّ شيء، زوجته وأولاده، وبيته وغرفة نومه، ومكتبته ومركبته، ومحله التجاري وقد كان لديه يوم في الأسبوع يجتمع فيه مع أصحابه وأصدقائه، وكانت له رغباته وميوله، فلما توقف قلبه نقلوه إلى القبر، وهذا خروج بلا عودة.

هو الذي زيَّن البيت واعتنى بترتيبه، وله فيه مكتبته وغرفته الخاصة، يضع فيها حاجاته الشخصية وبعض الهدايا المهداة إليه، يتمنى أهله أن يفتحوا درجه فلا يسمح لهم في حياته، لكنه عندما انتقل إلى ربّه فتحوا الدرج الذي كان محظوراً عليهم مَسُّهُ، وأخذوا السيارة، والمحل التجاري، وباعوا واشتروا، ثم نسُوهُ بعد حين، وهكذا تجري الوقائع هذا يوم يموت.

وأما «يوم يبعث حياً».

- قالت عائشة ﵂: ذكرتُ النار فبكيتُ فقال رسول الله ﷺ: «ما يبكيك؟» قالت: ذكرتُ النارَ فبكيت، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟

- فقال رسول الله ﷺ: «أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحدٌ أحداً: عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أو يثقل، وعند الكتاب حين يقال: ﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ ﴾ [الحاقة:١٩] حتى يعلم أين يقع كتابه أفي يمينه أم في شماله أم من وراء ظهره؟ وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم» [رواه أبو داود في «سننه»].

---

(١) نصه بتمامه: أوحش ما يكون العبد في ثلاثة مواطن، يوم يولد فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم، قال: فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا فخصه بالسلام عليه.

فهناك تقع عين الأم على ابنها فتقول له: يا ولدي، ألم أجعل لك بطني وعاء، وصدري سقاء، وحجري وطاء، فهل من حسنة يعود عليَّ خيرُها؟ يقول: آه يا أماه إنني أشكو مما أنت منه تشكين.

سيدنا يحيى عليه السلام: وسلام عليه يوم وُلد، فكان أصعب يوم لديه، ومثل ذلك يوم يموت، ويوم يُبعث حياً، فأمّنه الله تعالى إذ قال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم:١٥].

نصيب المؤمن من اسم الله السلام

وبعد، فما واجب المؤمن بالنسبة لهذا الاسم؟ وإنك لتعلم أنّ المؤمنَ الحق من سلم من المخالفات الشرعية سراً وعلناً، وبرئ من العيوب ظاهراً وباطناً فواجبه أن يكون سلاماً لغيره، قال الله عز وجل: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام:١٢٠].

ومن كان سليماً من الذنوب، بريئاً من العيوب، بلغ غاية السلام والسلامة، ولتكن علاقاتنا على هذا النحو باسم السلام، ليتحقق لنا معنى الآية الكريمة: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

القلب السليم هو القلب البريء من الشّكّ والشّرك، أمّا من يكون قلبه مؤر-جحاً فأمره إلى بوار، كحال من يقول:

زعم المنجم والطبيب كلاهما ... لا تحشر الأجساد قلت: إليكما
إن صحَّ قولكما فلستُ بخاسرٍ ... أو صح قولي فالخسار عليكما

ونضرع إلى الله أن تكون أمورنا كلُّها صواباً، وأما ما سبق فليس إيماناً وإنما هو ارتياب وشك: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات:١٥].

فالسليم من برئ قلبه من الشك والشرك، ومن النفاق والشقاق والرياء والمداهنة، ومن سلمت نفسه من الشهوات، وسلم عقله من الشبهات، فلا شبهات في عقله، ولا

شهوات في نفسه، وألقى الشّكّ والشّرك والنّفاق والشّقاق والرّياء والمداهنة جانباً، بل جعلها تحت قدميه.

وبعد، فهذا واجب المؤمن نحو ربه من حيث اسم السلام، أما حقّه على الله فهذه أهم نقطة في البحث.

لقد آمنتَ وفكرت في الكون وتعرفت إليه، واستقمت على أمر الله، وحضرت مجالس علم، وضبطت شهواتك، وضبطت جوارحك، وغضضت بصرك عن محارم الله، نزّهت أذنك عن سماع الغناء، لم تختلط مع النساء الأجنبيات، كنت ملتزماً، ولم تخالف الشّرع فما لك عند الله بعد، فاسمع راشداً ما قال العلماء في هذا الموضوع، لقد قالوا:

أيُّ عبد طبق أمر الله عز وجل، وأقبل عليه، فحق المؤمن على الله أن يُسَلِّمَهُ في الدنيا من المؤذيات، وأن ينيله ما فيها من الخيرات.

فالمؤمن زوجته صالحة، أولاده أبرار، رزقه في بلده، سمعته طيبة نظيفة، وأخلاقه عالية، محمود السيرة ومحبوب، هذه كلُّها من ثمرات الاستقامة، والله عز وجل اسمه السلام، يسلِّمك من المؤذيات، ويمنحك الخيرات، وهذه سلامة الدنيا.

فما سلامة الدين؟ يسلِّم عقلك من البدع والشبهات، ويسلِّم قلبك من الهوى والشهوات، فلا تلتفت إلا إلى الله، ثم إنّ النّبيّ ﷺ يقول: «المسلمُ من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده» [أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمر].

وقد يتبادر إلى الذهن أنّه لا يؤذي المسلمين، وهذا مطلوب بلا ريب، ولكن هناك معنى أعمق وهو أنّ المسلم الحقيقيَّ من سلمت سمعة المسلمين من لسانه ويده، فالمسلم إذا آذى مسلماً مثله يقول هذا المسلم: فلانٌ آذاني، أما إذا آذى غير مسلم فإنّه يقول: المسلمون فعلوا معي كذا، يترك الذي ناله بالأذى وينقل التهمة إلى دين الإسلام، إذ إنّ قلة قليلة جداً من الناس يعطون أحكاماً موضوعية، لكنَّ الكثرة الكثيرة يطلقون أحكاماً عامة.

فإذا تخلّقت باسم الله السَّلام فلا تسبِّب للمسلمين إذا عاملت غير المسلمين سمعة سيئة، لا بلسانك، ولا بيدك، قلة قليلة من المسلمين تسيء التّصرف إساءة بالغة مع غير المسلمين، فيطلقون أحكاماً عامة على كلِّ المسلمين، وكأنَّ هذا الدين قد حُجب بأتباعه، إن كنت تقيم في بلد غربي، وكتبت تصريحاً كاذباً، أو احتلت، أو أخذت ما ليس لك، أنت بهذا العمل لا تسيء إلى نفسك، بل تسيء إلى مجموع المسلمين، وقد تصل الإساءة إلى دين الإسلام، فكلُّ مسلم ينبغي أن يعدَّ نفسه سفير المسلمين.

أرأيت إلى السفير، يتأنّق في ملبسه، يضبط كلامه، يضبط حركاته وسكناته، لأنه في هذا البلد يُمثِّل أمّته، فأيُّ خطأ يرتكبه ينسحب على دولته، والمؤمن الصادق يحمل هذا الشعور، لا يسبب سمعة سيئة للمسلمين من خلال تصرُّفاته.

لو أن الجاليات الإسلامية في العالم كانت مسلمة حقيقة، وطبّقت منهج الله عز وجل، لكان موقف الغرب من المسلمين غير هذا الموقف، لكن يرون مسلماً يحتال عليهم، يقدِّم تصريحاً كاذباً، يفعل شيئاً لا يرضي الله.

ما دمت قد آمنت باسم السَّلام فيجب أن تكون مصدر سلام لمن حولك. وقد ورد أنّ شرّ النّاس من خافه النّاس اتّقاء شرِّه.

إذا آمنت باسم «السلام» فبُثَّ الطَّمأنينة فيمن حولك، لا تكن مقلقاً لهم، لا تكن مصدر رعب لهم، لا تبثَّ الرُّعب في قلوبهم.

ومن تطبيقات هذا الاسم أن يسلك المسلم في حركته اليومية سبل السلام، إذا أقمت زواجك على منهج الله وغضضت بصرك عن محارم الله، وأدّيت واجب الزوجة، وأعطيتها حقها، فقد سلكت في زواجك سبل السلام، وإذا اعتنيت بأولادك وربَّيتهم، وغرست فيهم العقيدة الصحيحة، فقد سلكت بهم سبل السّلام.

يقول الله عز وجل: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [المائدة:١٦].

هل هناك حالة أعظم من أنك في سلام مع الله، في سلام مع نفسك، في سلام مع أهلك، مع أولادك، مع جيرانك، مع زبائنك، حينما تطبق منهج الله تكون في سلام معهم، في أيّة حرفة حينما تصدق وتنصح، فأنت في سلام، ولك مكانة كبيرة.

ومن آمن باسم الله السّلام فإنّه يفشي السلام، ويحيي إخوانه بتحية الإسلام، يقول ﷺ: «إنَّ اسم السلام من أسماء الله تعالى فأفشوه بينكم» [أخرجه الطبراني عن أبي هريرة].

إذاً فهي دعوة لي ولك أن نقهر النفس، وأن نتعالى على كلِّ شهوة، وأن نكون في سلام مع أنفسنا أوّلاً حتى يسلم المسلمون من لساننا ويدنا، وأن نسلك سبل السلام، باتباع منهج الله تعالى.

المؤمن

ورد هذا الاسم في القرآن الكريم في موضع واحد في الآية الكريمة: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحشر:٢٣].

من معاني اسم الله (المؤمن)

المؤمن اسم فاعل مِن آمَن، يؤمن، فهو مؤمن.

إنَّ أيَّ ملِك من ملوك الأرض لا يرضى أن يلقَّب أحد أفراد رعيته بلقبه، وهو من بني البشر؛ يأكل كما نأكل، ويشرب كما نشرب، وينام كما ننام، وله جسم، ويعطش، ويجوع، ويغضب، ويثور، ويمرض، ويموت، فلا فرقَ بين الملك وأحد رعاياه من حيث التكوين الجسمي، ومع ذلك تأبى عزَّته، ويأبى كبرياؤه أن يُلقَّب أحد من أفراد رعيّته بلقبه، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى سمانا بعد أن عرفناه، وطبقنا أمره سمانا مؤمنين، والمؤمنون جمع مؤمن، وسمى نفسه المؤمن، كما في الآية السّابقة

لكن هذا الاسم يحتاج إلى وقفة، الله عز وجل مؤمن، ولكن مؤمن بماذا؟ نحن مؤمنون بالله، ونحن مؤمنون برسول الله ﷺ، مؤمنون باليوم الآخر، فالله عز وجل مؤمن بماذا؟ قالوا: المؤمن اسم فاعل من فعل أمِنَ يأمن أمناً وأماناً، فعل «أمن» له معنيان:

المعنى الأول: التصديق، وهناك آية تؤكِّد ذلك قال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ [يوسف:١٧]. فقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ ﴾ هذا من التصديق.

المعنى الثاني: وهو الأمن، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴾ [قريش:٤].

فاسم الله تعالى المؤمن مأخوذ من التصديق أو من الأمن؟ وكيف نفهم هذا الاسم بالمعنى الأول؟

في الحقيقة: إن الإنسان قد يعرف ذاته، وقد لا يعرف ذاته، فإذا لم يعرف ذاته، وخاض في شيءٍ، ولم يكن عنده علم به، ولا من مقدوره، فإنّه يخسر خسارة كبيرة، نقول له: لو عرفت ما عندك لما دخلت في هذه الورطة، فهذا الذي يقدم على شيء ليس في مقدوره، ولا يعرف حقيقة ما عنده فهو يجهل حقيقة إمكاناته، ولا يعرف ذاته، لكن هناك من يعرف ذاته حقَّ المعرفة، فتأتي الأفعال كلُّها وفق معرفته، هذا مثل ضربته لكم لتوضيح الحقائق، فمن أوَّل معاني المؤمن أن الله سبحانه وتعالى يعرف ذاته، ويعرف أسماءه، ويعرف كلَّ ما عنده، هذا المعنى الأول.

المعنى الثاني: أن الله سبحانه وتعالى يصدِّق رسله، بعث النبي محمداً ﷺ رسولاً، صدقه، أي: جعل الناس يصدقونه بالمعجزة، بعث موسى عليه السلام نبياً وصدقه، أي: جعل الناس يصدِّقونه بالمعجزة، أرسل سيدنا عيسى عليه السلام رسولاً فأعطاه معجزة كي يصدقه الناس بها، إذاً المعنى الثاني الصدق، أي: كلُّ شيء وعد الله به المؤمنين يأتي

فعله مصداقاً لوعده، وعدك بالحياة الطيبة فإذا عشت الحياة الطيبة، فقد صَدَقك، بمعنى أن فعله جاء مصداقاً لوعده، أن يأتي فعل الله -عز وجل- مصداقاً لوعده، يصدِّق أنبياءه، أي: يعطيهم الدلائل، ويجعل الناس يصدقونهم، يعطي المؤمن دلائل، أنت أيها الأخ الكريم تقرأ القرآن ما الذي يجعلك تتشبَّث وتتعلق وتتمسك به؟ لأن الأحداث التي تعيشها تأتي كلُّها مصدِّقة لهذا القرآن، إذا استقمت في البيع والشراء شعرت براحة ووفَّر الله لك دخلاً طيباً، وساق الناس إليك، وإذا كنت أميناً رفع الله اسمك بين الناس، فأيُّ وعدٍ وَعَدَك الله به، فإذا أنت نفّذت ما أنت مأمور به تأتي الحوادث كلُّها لتصدِّق لك هذا الوعد، أو لترى أن هذا الوعد صادقاً، فمن معاني المؤمن أنه يجعل أنبياءه مُصَدَّقين، يدعمهم بالمعجزات، يجعل قرآنه مُصدَّقاً، بمعنى أنك إذا آمنت به وعملت عملاً صالحاً أذاقك الحياة الطيبة، فما الذي جعلك تصدِّق كلامه؟ هذه الحياة الطيبة، إذا اهتديت بهدى الله عز وجل في كل مناحي حياتك ترى أنَّ الحوادث كلَّها تصدِّق ما جاء به القرآن الكريم، إذاً الله عز وجل مؤمن، أي: يجعل عباده مُصدِّقين، لأن أفعال الله عز وجل كلَّها تأتي مصداقاً لوعده ولوعيده، قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ [الحج:٣٨].

لا بدَّ من أن تشعر بأنَّ هناك حالات كثيرة تواجهك فيُقيِّضُ الله لك إنساناً لا تعرفه يدافع عنك بإلهام من الله عز وجل، وحينما يقول الله عز وجل: ﴿ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه:١٢٣]، تشعر أنَّكَ مهتدٍ، وأنَّ لك رؤية صحيحة، وأنَّ لك بصيرة نافذة، وأنَّ تفسيرك للحوادث صحيح؛ لأنَّك اتَّبعت أمر الله عز وجل فجاءت الحوادث مصداقاً لما قاله الله عز وجل.

وهذا معنى من معاني المؤمن، والحقيقة كما قلت قبل قليل: إنّ أروع ما في الدين أنه يعطيك تفسيراً للكون والحياة والإنسان، ومهما عشت، ومهما تبدَّلت الظروف، ومهما ظهرت معطيات جديدة، ومهما ظهرت أحداث جديدة فكلُّها ضمن تأويل الله

عز وجل لهذا الكون والحياة والإنسان، فأنت حينما تقرأ القرآن لن تُفاجَأ بحادث لم يرد معك في القرآن، فلو أعطيْتَ تفسيراً لظاهرة من الظواهر، قد تُفاجَأ بعد حين أنَّ هناك حدثاً أبطل نظريتك، وما أكثر ما جاء العلم بنظريات، ثم جاءت الحوادث فأبطلتها، أما إذا قرأت القرآن وهو من عند الله عز وجل لن يأتي حادث يكذب ما قرأت في القرآن، هذه نقطة دقيقة جداً، فالقرآن أنزل قبل أكثر من أربعة عشر قرناً، والعلم تطوّرَ تطوُّراً كبيراً جداً، ومعطيات القرآن صحيحة وثابتة منذ أن خُلقت البشرية وإلى ما قبل خمسين عاماً في كفّة، ومنذ خمسين عاماً إلى الآن حدث تطور علمي رهيب جداً تجده في الكفة الأخرى، ومع كلِّ هذا التطور فليس في العلم حقيقة تخالف هذا القرآن.

معنى ذلك أنك إذا قرأت القرآن تطمئن، لأن مجريات الأمور وما يحدث في الكون والمجرات والأنواء والنبات والحيوان والإنسان، كلُّ هذه الحركات تأتي مصدقّة لكلام الله عز وجل، فالله مؤمن، أي: كلامه يجعلك تصدِّقه، لأنَّ أفعاله تصدِّق كلامه، وهذا معنى من معاني المؤمن.

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة ﵁ أن الصحابة الكرام كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: «يَا رَسُولَ الله، صَدَّقَ الله حَدِيثَكَ» [متفق عليه].

ويوم الأحزاب قال ﷺ: «صَدَقَ الله وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ» [متفق عليه عن ابن عمر].

فإذا تراءى لنا أنَّ بعض الوعود لم تُحقَّق لنا فلنعلم علم اليقين أنّنا السبب، لأننا ما قدمنا ثمن وعود الله عز وجل، وعود الله عز وجل لها ثمن، وزوال الدنيا، بل زوال الكون أهون على الله مِن ألاّ يحقق وعوده للمؤمنين.

فإذا وعدك الله بحياة طيِّبة، برزق وفير، بحياة آمنة، وعدك بالسكينة، وعدك بالحكمة، هذه الوعود لزوال الكون أهون على الله من ألاّ تحقق، لكن إن لم تُحقَّق فنحن السبب، يجب أن نتهم أنفسنا، فالله غنيٌّ عن تعذيبنا، والآية واضحة: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء:١٤٧].

وإليك معنى آخر: هو أنَّ الله سبحانه وتعالى يَهَبُ الأمن للإنسان، فلو أنَّ الحديد مثلاً تارة يكون قاسياً وتارة يكون ليِّناً، فإنك تُنْشِئ البناء وأنت خائف، لعلَّ هذا الحديد بعد حين يصبح ليناً فيتداعى البناء، لقد جعل الله للحديد خصائص ثابتة دائماً، فإذا وضعت هذا الحديد مع الإسمنت، وأشَدْت البناء، وسكنت في الطابق التاسع مثلاً فإنك تنام مطمئناً، فما الذي جعلك تطمئن؟ ثبات صفات الحديد، ولو أنَّ صفات الحديد تبدلت لانهارَ البناء.

فيمكن أن نقول: ثبات خصائص المواد هو الذي يهب الأمن للناس، ثبات حركة الأرض، هذا الجامع شُيِّد منذ سنوات عديدة، فلو أنَّ هناك اهتزازاً في أثناء الدوران لكانت كلُّ هذه الأبنية قابلةً لأن تنقضَّ وتنهار، فالأرض تتحرك بسرعة ثلاثين كيلومتراً في الثانية، وهناك سكون رهيب، ومن أجل أن تعرف قيمة السكون الحركي يأتي الزلزال أحياناً على مدينة بأكملها، ويصبح عاليها سافلها بثوانٍ قليلة، إذاً حركة الأرض مع سكونها واستقرارها جاءت مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النمل:٦١].

أعطاك الأمان، واشتريت بيتاً في الطابق العاشر، وتعرف أنه بيت مستقر، أما لو كان هناك اهتزاز لانعدم الأمن، ثم إنَّك لو اشتريت بذوراً تنبت نوعاً من النبات، ولا تستقيم الحياة لو لم يكنْ في الأرض ثبات، وقمت بزراعة البطيخ مثلاً، وكان الإنتاج بندورة لاختلطت الأمور، وفسدت الحياة، فثبات البذور حيث كلُّ بذر له خصائصُهُ نِعمة ومِنَّة وأمان.

هناك شيء آخر غير الثبات، فهناك آلاف الأنواع لكلِّ نبات: هذا النوع إنتاجه مديد، وهذا النوع إنتاجه مبكر، وهذا النوع إنتاجه صناعي، وهذا النوع للنقل، وهذا للاستهلاك، وهذا للمائدة، أما هذا فإنه يقاوم أمراضاً معينة... فحتى البذر نفسُه له خصائص والخصائص ثابتة، فما الذي يهبك الأمن وأنت تزرع؟ ثبات الخصائص.

إذاً يمكن أن نقول: إنَّ ثبات خصائص المواد هو الذي يهب الإنسان الأمن، الشمس تشرق دائماً من الشرق فليس في شروقها مفاجآت، وليس لها دعاء شروق، يا رب الشمس لم تظهر اليوم أظهرها لنا! طمأنك، الشمس دائماً تشرق، ودائماً تغيب، والأرض دائماً تدور، ويكفي أن تأخذ ورقة من التقويم وأن تقرأ: الفجر الساعة الخامسة وثماني عشرةَ دقيقة والشمس تشرق الساعة السادسة وثلاثين دقيقة، هذه الحقيقة في التقويم منذ متى؟ منذ خمسة وستين عاماً ولمئة سنة قادمة، ولألف سنة قادمة، ولمئة ألف سنة قادمة، إلى أن تنتهي الدنيا، دقة ما بعدها دقة على مستوى الدقائق والثواني.

أرض بأكملها تدور حول الشمس، وهناك نجوم تُضبَط عليها الساعات الشهيرة في العالم «بيج بن»، يقول القائل: ضبطت ساعتي على ساعة «بيج بن»، فإذا كانت هذه الساعات التي في أيدينا نضبطها على هذه الساعة الشهيرة «بيج بن»، لكن هذه الساعة الشهيرة كيف تُضبَطُ؟ تُضبط على حركة المجرَّة.

إذاً ثبات الدوران، ثبات السرعة، ثبات الحركة، ثبات الزاوية، هذا يعطي الإنسان النظام الثابت ويجعل فيه الأمن، إذاً من الممكن أن نقول: صفات المواد الحديدية ثابتة، شخص اشترى سواراً ذهبياً ودفع ثمنه عشرين ألفاً، بعد فترة تبدل نوع المعدن أصبح معدناً خسيساً، والله هذه مشكلة، لكن الذهب ذهب على الدوام، ومثله في الثبات الحديد، والفضة فضة، والقصدير قصدير، والألمنيوم ألمنيوم، ثبات صفات المعادن هذه تهب الأمن للإنسان، وهذه نعمة لا نعرفها لأنها مألوفة، لذلك يقولون: شدة القرب حجاب؛ لأن هذه النعمة مألوفة جداً، كأنها لم تكن مع أنها نعمة عظيمة.

من أسماء الله عز وجل «المؤمن» فهو «المؤمن» إذا قرأت كتابه جاءت الحوادث كلُّها مصداقاً لكلامه، ومؤمن يهب الأمن للإنسان عن طريق ثبات صفات المواد.

ثبات الأنظمة، قانون الحركة ثابت، التمدد ثابت، قوانين الجسم كذلك ثابتة، فأنت تجد طبيباً في آخر الدنيا يصنع دواءً يستعمل في طرف آخر من أطراف الدنيا، هذا الدواء يؤثِّر في الجسد حيثما كان، ما معنى ذلك؟ أي: إنَّ كلَّ أجساد بني آدم من بنية

واحدة، فهناك أمن وأمان. مثلاً؛ القلب؛ تجد طبيباً ذهب إلى أمريكا درس عن القلب، فلو ذهب إلى إفريقيا، إلى آسيا، إلى استراليا، إلى أوروبا، إلى أي مكان في العالم وفتح قلباً وجد شرايينه وأعصابه ومراكزه الكهربائية كلَّها بدقَّة تامَّة، هذا الثبات يكفي أن تُشَرِّح إنساناً واحداً، فكل إنسان إذا عالجته تكون بنيته وأعصابه وأوردته وشرايينه وعضلاته وفق هذا الأُنموذج، ومع هذا أيضاً ثباتُ الأنظمةِ، وثباتُ خصائصِ المواد، فأحياناً يجعل الله عز وجل للمواد مُضادات، فالنار محرقة، والماء يُطفئ النار، أي: أعطاك لكلِّ شيء خَطِرٍ ما يقضي على خطره، وهذا يطَّردُ في كل شيء، في الأدوية -مثلاً- هناك وباء نباتي فله أدوية بإمكانها أن تقضي على هذا العنكبوت أو على هذا الفطر أو على هذه الحشرة، فالله عز وجل من أسمائه المؤمن، لأنَّه يهب الأمن للإنسان.

الألم سماه العلماء جهاز إنذار مبكر، فالإنسان يتلف سنُّه جزئياً فيتألم ألماً شديداً فيذهب إلى الطبيب فيصون هذه السّنّ، لو لم يكن هناك عصب يصاب لما أحس الإنسان بالألم، ولما كانت هناك وقاية لهذا السن، إذاً الألم من أجهزة الإنذار المبكر، فكل خطر من أخطار الدنيا جعل الله له وقاية.

إذا استعان الإنسان بالله عز جل يقيه من زلات المعاصي، لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥].

لذلك قال وهيب بن الورد: «والله لو أن السماء من نحاس والأرض من رصاص واهتممت برزقي لظننت أني مشرك»، والحقيقة لو أردت أن ترى الفرق الجوهري بين حياة المؤمن وحياة غير المؤمن، لوجدت أن الصفة الأساسية المميزة هي الأمن، قال تعالى: ﴿ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٨١﴾ [الأنعام:٨١].

تجد قلوبَ أهل الدنيا فارغة، عرضة للمخاوف، عرضة للمقلقات، عرضة للذعر، لتوقع المصيبة، لكن ربنا عز وجل إذا آمنت به ملأ قلبك اطمئناناً، ملأ قلبك استقراراً، ملأ قلبك رضاً بقضائه، ملأ قلبك معرفة بكماله، هذا كلُّه من اسم المؤمن.

وهناك أمر آخر: كيف تأمن عذاب الله في الآخرة؟ لقد أعطاك الكون، وأعطاك العقل، وأعطاك الفطرة، وأعطاك الشهوة، وأعطاك الاختيار، وأعطاك القوة، وهذه كلُّها مقوِّمات النجاة في الآخرة، تشعر أن الله عز وجل إذا أقبلت عليه تأمن القلق، وتأمن المرض، وتأمن الضيق، وتأمن التعب، وتأمن الخوف، فالله سبحانه وتعالى مصدر أمنٍ وأمانٍ للبشر، بعض الجهات تُقْلِقك، ولكن من شأن الله المؤمن، أنّك إذا فوضت أمرك إليه، واتَّبعت أمره ونهيه فأنت في أمن وسلام، فهذا المعنى الذي يليق بالله عز وجل فيما يتعلق بالمؤمن.

عن الأحنف بن قيس أنه قال: قال الخليل بن أحمد: «الناس أربعة: رجل يدري ويدري أنه يدري فذاك عالم فخذوا عنه. ورجل يدري وهو لا يدري أنه يدري فذاك ناسٍ فذكِّروه. ورجل لا يدري وهو يدري أنه لا يدري فذاك طالب فعلموه، ورجل لا يدري وهو لا يدري أنه لا يدري فذاك أحمق فارفضوه».

أنا أختار منهم من يدري ويدري أنه يدري أنَّ اللهَ عز وجل مؤمن.

والمعنى الثاني من التصديق: أي شيء وعدك الله سبحانه وتعالى به في القرآن فزوال الكون أهون على الله من أن تأتي الأحداث مخالفة لما وعدك به، وعدك بالنصر، والنصر واقع لا محالة، وعدك أن يدافع عنك، وعدك أن يحفظك، وعدك أن يرزقك، وعدك أن يطمئنك، وعدك بالأمن، وعدك بالتمكين، وعدك بتمكين دينك، وعدك بالاستخلاف، وعدك أن يكون معك.

المعنى الثالث: أنه يهب الأمن، وبشكل بسيط نذكر العين، فإذا قدت مركبتك في النهار تشعر بأنك مطمئن لأن مدى الرؤية بعيد جداً، أما في الليل فيوجد الانبهار والأضواء فتشعر بقلق، فالقيادة في الليل يرافقها القلق، وفيها مفاجآت، فالضوء الموجود في المركبة لا يكشف كلَّ شيء، ومداه محدود، فكلما كانت الرؤية أطول كان الأمن أكثر، إذاً، فالله سبحانه أعطاك العين كي ترى طريقك، كما أعطاك الأذن، فإذا سمعت حركة في الليل فالأذن تكشفها، فالسمع المرهف أحد وسائل الأمان، والعين

إحدى وسائل الأمان، وكذلك الشم، فإذا أصدر الطعام رائحة كريهة فمعنى هذا أن الطعام فاسد، فجعل الأنف فوق الفم كي يحصل لك الأمن الغذائي، أعطاك يداً تدفع بها الضُّرَّ، أعطاك رِجلاً تنتقل بها من مكان إلى آخر، هذه كلُّها لتحقق الأمن لك، وهذا معنى آخر من معاني المؤمن.

والحقيقة أننا بعد كلِّ بحث لا بد من أن نسأل أنفسنا هذا السؤال، يا رب، أنت المؤمن، وأنا ما علاقتي بهذا الاسم؟ أنت المؤمن فكلُّ الحوادث وكل الأفعال جاءت مصداقاً لقرآنك، شيءٌ مريح لي ويؤكد علاقتي بالله المؤمن، وهذا معنى أول.

والشيء الثاني وهبتنا الأمن يا رب، وهبتنا الحواس، وهبتنا الأجهزة، وثبات خصائص المواد وثبات الأنظمة، كلُّها وسائل أمان تؤكد سلامة علاقتي بالله المؤمن أيضاً.

قال لي طبيب قلب: لو كان قلب إنسان نحو اليمين وقلب إنسان آخر نحو اليسار وقلب بمكان آخر لالتبسَت الأمور علينا، درس هذا الطبيب القلب بأمريكا، وعرف أن مكانه نحو اليسار، وعند إجراء العملية لأحد المرضى وجد القلب على اليمين هذه واقعة لم يدرسها لأنها شاذة! بينما للبشر كلِّهم بنيةٌ واحدة حتى على مستوى الأعصاب الدقيقة جداً، وهذا يعطينا قدراً كبيراً من الأمن، وكما قلت قبل قليل عن الأرض: وإنّ دورانها حول نفسها وحول الشمس ثابت، شروقها وغروبها ثابت، لكن الأمطار لم يجعلها ثابتة، بل جعلها متبدلة، هذا من أجل ألا ننساه، من أجل أن نصلي له، من أجل أن نتوب إليه من ذنوبنا، ربنا عز وجل ثَبَّتَ أشياء وحرك أشياء، ثَبَّت دورة الأرض حول نفسها ودورتها حول الشمس، وثبَّت الشروق والغروب، وثبَّت القمر، وثبَّت الأنظمة والبذور والخصائص والبنى، هذه كلُّها ثبَّتها، وجعل الرزق بيده، فجعل الرزق وسيلة كي تعود إليه، وكي تقبل عليه، وكي تتوب إليه من ذنبك، هذا معنى جليل، جدير فهمه.

إن الله عز وجل هو المؤمن، وسمّى عباده الطائعين مؤمنين، وهذا شرف لهم وفي ذلك فليتنافس المتنافسون وحسبك قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ [المؤمنون:١].

هو ملك الملوك، ومع ذلك سمح لك أن تسمي نفسك مؤمناً، وهو المؤمن؛ مؤمن بذاته أولاً، ثانياً تأتي أفعاله كلُّها مصدِّقة لأقواله، فأنت إذا قرأت القرآن لا تخشى المفاجآت ولا تخشى أن تأتي الأحداث خلاف القرآن فتنفضحَ أمام الناس، إنك لا تخشى إذا اعتقدت بما قاله الله عز وجل أن تأتي حقيقة علميّة في المستقبل تكشف لك خطأ هذه الآية، أعوذ بالله، هذا شيء مستحيل، لأن الله عز وجل مؤمن، أفعاله تأتي مصداقاً لأقواله.

المعنى الثالث: يهبك الأمن: إنْ في حواسك، وإن في أجهزتك، وإن في أعضائك، إن في طعامك وشرابك، حتى في الهواء ثبات، وهو شيء ثمين موفور، إن في ثبات خصائص المواد، إن في ثبات طريقة النبات، إن في بنية الأشياء، إن في عملها بل وفي كلِّ شيء، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ [القمر:٤٩].

وبعد، فلا بد من سؤال وجيه يطرح نفسه: كيف نوفق بين اسم المؤمن، وأن الله سبحانه وتعالى يقذف الخوف في قلوب العباد، هو مصدر أمن للخلق، وفي الوقت نفسه قد يملأ قلوبهم خوفاً؟!

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [القصص:٢١].

وجواب ذلك دقيق جداً؛ فالإنسان إذا أمن اطمأن للدنيا، ونسي الله عز وجل، وركن إليها، فأعجبه ماله، وأعجبته قوته، وأعجبته مكانته، وأعجبه عيشه، وشعر أنَّ الدنيا مديدة، وأنه في مركز قويٍّ، وبذا فقد أمن دنياه، واطمأن لها، وعاش في غفلة عن آخرته، فما علاجه؟ أن يقذف الله في قلبه الخوف، فإذا خاف هذا العبد التجأ إلى الله عز وجل، ونجا من غفلته، فهو يخيفك كي يؤمنك، ويفقرك كي يغنيك، ويمنعك كي يعطيك، ويضرك كي ينفعك، ويُذِلّك كي يعزّك.

فمثلاً قالوا: ابتلاك ببعض صحتك، وأسقمك ليرحمك بعافيته فقال أبو الطيب:

لعل عتبك محمود عواقبه ... وربما صحَّت الأجسام بالعلل

وعن أبي هُرَيْرَةَ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يقولُ يومَ القِيامَةِ: يا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قالَ: يا رَبِّ كَيْفَ أعُودُكَ وأنْتَ رَبُّ العالَمِينَ، قالَ: أمَا عَلِمْتَ أنَّ عَبْدِي فُلاناً مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أمَا عَلِمْتَ أنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ...» [صحيح مسلم].

فإن أخذ بعض صحتك فذلك ليعوضك عما أخذ منك بشيء من رحمته، تزور المريض المؤمن فتجد نفسه صافيةً جداً وجهه متألقاً، إنه قريب من الله عز وجل، أسقمه قليلاً، وأعطاه الرحمة بديلاً، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي، يضرّ لينفع ويذل ليعز، ويخفض ليرفع، ويمنع ليعطي، ويخيف ليطمئن، فإذا ابتعد الإنسان عن ربه، وشرد عن شرعه امتلأ قلبه خوفاً، وهذا الخوف هو الدافع الذي يدفعه إلى العودة إلى رحاب الشرع ومحجة الإيمان.

المؤمن جلّ جلاله هو من أمنه الناس ألا يظلم أحداً من خلقه، والإنسان لا يطمئن إلا إذا وحّد، ورأى أنَّ الأمر بيد الله وحده.

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣].

ما لم تر أن يد الله تعمل وحدها، ما لم تر أنَّ الله بيده كلُّ شيء، ما لم تر أن الله هو الفعال، هو المعطي وحده، هو المانع، هو الرافع، هو الخافض، هو المعزُّ، هو المذلُّ، ما لم توحّد فلن تستطيع أن تطمئن إلى وعود الله، ولن تخاف من إنذاراته.

عندها تؤمن يقيناً أنَّ المؤمن لا يمكن أن يُظلم مخلوق في ملكه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء:٤٠].

وفي آية ثانية: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [النساء:٤٩].

وفي آية ثالثة: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء:١٢٤].

ويقول تعالى: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء:٤٧].

عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنْ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ» [أخرجه مسلم والترمذي].

وهناك آية عميقة المعنى، وهي قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وهذه الصيغة تنفي أكثر من عشرة أفعال، سمّاها علماء اللغة نفي الشأن، لو سألت إنسانا من علية القوم الله: هل أنت سارق؟ وقال لك: لا، فالإجابة غير صحيحة، يقول لك: ما كان لي أن أسرق، أيّ إنّه من المستحيل أن أفكر، أو أن أدعم، أو أن أرضى، أو أن أفعل.

لكن قد يقول قائل: وهذه الحروب؟ وهذه الاجتياحات؟ وهذا الفقر؟ وهذه المجاعات؟ وهذا الزلزال؟ وهذا الفيضان؟ وهذا البركان؟ كيف نفسر ذلك؟ الجواب: لا يمكن أن تستطيع إثبات عدل الله بعقلك، إلا في حالة مستحيلة، أن يكون لك علم كعلم الله، ولكن تستطيع أن تؤمن أشدَّ الإيمان بعدل الله المطلق حينما تصدِّق ما جاء به القرآن.

لن تستطيع أن تؤمن بعدل الله بعقلك وحده، لأنَّ عقلك محدود المهمة.

ثمّ إنَّ هذه الدنيا أمام الآخرة لا تساوي شيئاً، فإذا وعد الله عز وجل المظلوم بالجنة، فيلزم منه عدم الظلم، قال تعالى: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر:١٧].

لا يليق بعطاء الله العظيم أن يكون في الدنيا فقط، فالموت ينهي قوة القوي، ينهي ضعف الضعيف، ينهي غنى الغني، وفقر الفقير، ينهي وسامة الوسيم،ودمامة الدميم، ينهي صحة الصحيح، ومرض المريض، ينهي كلَّ شيء، لا يليق بعطائه أن يكون في الدنيا فقط.

المؤمن هو الذي يجير المظلوم من الظالم، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ [المؤمنون:٨٨].

نصيب المؤمن من اسم الله المؤمن

إنّ أوّل نصيب للمؤمن من اسم الله المؤمن أن يكون مؤمناً حقّاً.

والمؤمن هو المصدِّق، آمن أي صدّق، وتعني كلمة مؤمن الذي ينفذ الأمر بحذافيره، صدَّق الآمر في أمره فأتمر، والدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [يوسف:١٧].

أيّ: ما أنت بمصدِّق.

فالمؤمن هو المصدِّق، والمؤمن المنفّذ، والدليل الحديث الشّريف: «أَتَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِالله وَحْدَهُ؟ قَالُوا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: شَهَادَةُ أَلَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ» [متفق عليه عن ابن عباس].

للتّوضيح: لو أنّك قلت لواحد من الناس: على كتفك عقرب، فبقي هادئاً، والتفت نحوك، وابتسم، وقال لك: أشكرك على هذه الملاحظة، وأسأل الله أن يمكّنني أن أكافئك عليها، فهو ما سمع ما قلت له، لو سمع ما قلت له لقفز، وصرخ، وخلع معطفه.

فعلاقتك بالمحيط وفق هذا القانون، إدراك، انفعال سلوك، فإن سمعت كلاماً، ولم تدرك فحواه لا تنفعل، وإن لم تنفعل لا تتحرَّك.

إذا أدرك أحدنا حقيقة يوم القيامة، وأنَّ كلَّ عمل تعمله سوف تحاسب عليه لا يمكن إلا أن تطيع الله، قال تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم:٤].

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنفال:٢١].

لو زرت طبيباً، وعالجك، وكتب لك وصفة طبّيّة، لك أن تقول له: شكراً لك على هذا الاهتمام، وأنا معجب بعلمك، وأرجو الله أن يمكّنني أن أكافئك على هذا الاهتمام، لمجرد أنك لم تشترِ الدواء، فأنت كذّبت علمه عملياً، والمجاملات ليس لها قيمة، إن لم تشترِ الدواء، وإن لم تستعمل الدواء وفق تعليماته فأنت مشكّك في علمه.

أخطر شيء في حياة المسلمين التكذيب العملي، ولا تجد في العالم الإسلامي مسلماً واحداً يقول لك: ليس هناك آخرة، لكن هناك التكذيب العملي، تلاحظ كسب الإنسان، كسب ماله، إنفاق ماله، بيته، عمله، علاقاته، حلُّه، ترحاله، أفراحه، أتراحه، لا يلتزم بها بمنهج الله، ولأنه لا يلتزم فهو مكذِّب عملياً بالآخرة.

وما إن تستقرَّ حقيقة الإيمان في نفس المؤمن إلا وتعبر عن ذاتها بحركة، المؤمن حركيٌّ، الإيمان السكونيُّ غير صحيح، ما لم يجدك الله في مكان أمرك أن تكون فيه، ما لم يفتقدك في مكان نهاك الله عنه، ما لم تتحرك، ما لم تعطِ، ما لم تلتزم، ما لم تطبق، ما لم تجعل من حركتك وفق منهج الله، فالإيمان غير مكتمل.

مؤمن تعني مؤمنًا مصدّقاً ما جاء به القرآن الكريم، وطبَّق أوامر القرآن الكريم، وصدَّق ما جاء به النبي الكريم، وطبق سنة النبي الكريم، الإيمان تصديق وتطبيق، الإيمان اعتقاد وسلوك، الإيمان ما أقره اللسان، وصدقه العمل، وآمن به القلب.

أنت مؤمن: فأول شيء يجب عليك أن تفعله أن تأتي أفعالك كلُّها مصداقاً لأقوالك، فلا يليق بك أن يكون لديك ازدواجية، ولا أن يكون عندك شيء داخلي،

وشيء خارجي، وشيء تعتقده، وشيء تقوله بعكسه، فهذا اهتزاز واضطراب في نفسك وسلوكك، وربنا عز وجل يقول: ﴿وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الأنعام: ١٢٠].

ظاهرك الذي يطَّلع عليه الناس: أنك مستقيم؛ صلاة، صوم، حج، زكاة، لكن باطنك قد يكون فيه: الحسد، الكبر، الحقد، الضغينة، هذه كلُّها من بواطن الإثم، إذاً أنت مؤمن يجب أن يأتي عملك مصداقاً لقولك بالضبط، يجب أن تكون موحِّداً، ليس لك ظاهر وباطن، وليس لك سريرة وعلانية، ولا موقف معلن وآخر غير معلن، وبكلمة موجزة ليس لدى المؤمن ازدواجية، فأنت مؤمن يجب أن تأتي أفعالك كلُّها مصداقاً لأقوالك.

أما الشيء الثاني فيجب أن يأمنك الناس:

عن أبي شُرَيْح أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «والله لا يُؤْمِنُ والله لا يُؤْمِنُ والله لا يُؤْمِنُ» قيلَ: ومَنْ يا رسولَ الله؟ قالَ: «الذي لا يَأْمَنُ جارُهُ بَوائِقَهُ» [صحيح البخاري].

هناك أشخاص مخيفون، فإذا تكلمت كلمة مؤذية لمسامعهم مثلاً فلن تنام الليل خوفاً من عاقبتها، ولا بدَّ للمؤمن من أن يكون مصدر أمن، فلا يأتيك من طرفه ضرر أو أذى أو مكيدة أو غدر أو قنص، فهو مصدر أمان، تنام ناعم البال، مطمئن النفس، مرتاح الضمير، حتى ولو زلَّت قدمك أمامه، ولو تكلمت بكلمة غير لائقة أمامه فلن يتَّخذ منك موقفاً، وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: «يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار» [متفق عليه عن أبي هريرة].

ومع ذلك تجد الناس يعصونه جهراً وهو يسترهم، والعبد ينسى، وربي لا ينسى، يعصونه جهراً ويسترهم ويرزقهم ويحفظهم، وهذا شأن الله مع عباده، وأنت أيها القارئ الكريم مؤمن فأول صفة من صفاتك أنه ينبغي أن يأتي فعلك مصداقاً لقولك، وأن تلغي من حياتك الازدواجية: الظاهر والباطن، العلانية والسريرة، أن تكون في جلوتك كخلوتك، أجل هذا هو المعنى الثاني: أن يأمن جانبك الناس كلُّهم.

فمثلاً زوَّجْتَ ابنتك لمؤمنٍ فلا تخاف أن يجيع ابنتك، ولا تخاف أن يظلمها، ولا تخاف أن يفضحها، ولا تخاف أن يضربها، المؤمن لا يأتي من جانبه إلا كل خير، إنْ شاركتَ مؤمناً فأنت مرتاح مطمئن، لا تخاف أن يتلاعب بالحسابات، ويزوِّر لنفسه حساباً خاصاً، يعقد صفقة من وراء ظهرك، لا تخاف، أصلحت جهازاً عند مؤمن فلا تخاف أن يبدِّل هذه القطعة بقطعة أخرى وأنت لا تدري، يأخذ القطعة الجيدة ويعطيك قطعة رديئة، يخدعك ويغشك، إن المؤمن مأمون الجانب في صنعته، في حديثه، في عمله، في مهنته، في حرفته، في زواجه، في شراكته، هكذا المؤمن يكون مأمون الجانب.

عن أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمونَ مِنْ لِسانِهِ ويَدِهِ والمُؤمِنُ مَنْ أَمِنَهُ الناسُ عَلَى دِمائِهِم وأَمْوالِهِمْ» [سنن الترمذي].

لا تخشَ أن ينكر عليك المبلغ، إذا ائتمنته عليه، أو أقرضته إياه، ولا يخطر لك هذا في بالٍ أبداً، لا تخشى أن ينكر عليك مالك أو يخفر ذمته نحوك ولو لم يكن معك إيصال، فذمته أمينة مصونة، إذ يخاف الله عز وجل، إذاً أنت مؤمن تؤمن بقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحشر:٢٣].

فالله مصدر أمان للعباد في أفعاله، وفيما أعدَّ لهم في الآخرة، قال تعالى: ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الحجر:٤٨].

فأنت مؤمن، إذا ذكرت لك جهنم على مسمعك، أو وُصِفت لك فإنك تتقيها بالتفكر وبالعمل الصالح، وبطاعة الله عز وجل، وفي الإقبال عليه خدمةً للخلق، وبالبذل والتضحية والإخبات، والخوف، والرجاء مما يجعلك في منجاةٍ من عذابها إن شاء الله.

وكذلك المؤمن مأمون الجانب، جارك يطمئن لك، من يعاملك يطمئن لك فتنصحه، لا تكذب عليه، ولا تغشُّه، أتعطيه الحاجة وقد انتهى مفعولها وزوَّرت التاريخ؟

لا، أنت مأمون، الأنبياء مأمونون على رسالة السماء، والمؤمن مأمون على ما اؤتمن به، ابنتك أمانة عنده، زوجتك أمانة، أولادك أمانة، وهكذا، لكن الشيء الذي أئتمناه عليك عزيزي القارئ أن تبادر فتدعو الناس إلى الله عز وجل، بحيث يأمنوا عذابه يوم القيامة، ولتعلم أن هذه صنعة الأنبياء، وهذا أعظم أمن، فأعظم عمل ترجو ثوابه عند الله تعالى أن تحول بين الناس وعذاب جهنم، بأن تعرفهم بالله عز وجل، فإذا عرفوا الله واستقاموا على أمره وعملوا الصالحات كان نهجك نهج الأنبياء وكنت المؤمن حقاً، وهذه هي صنعة الأنبياء كما نوّهت من قبل فتكون سبباً لنجاة الناس من النار، واعلم أنهم إذا استقام إيمانهم، واستقامت أمور آخرتهم على ما ذكرنا، استقام لهم أمر دنياهم وسعيهم فيها.

وبعد فأنت لأنك مؤمن لا بد من أن تأتي أفعالك مصدقة لأقوالك، ويجب أن يأمن الناس جانبك، أي: أنت مأمون فلا مفاجآت من قبلك، ولا غدر ولا إيقاع ولا خيانة.

نسمع كل يوم آلاف القصص عن غدر الناس بعضهم لبعض، كما نسمع مئات القصص عن خيانة الشركاء لشركائهم، وعن خيانة الأزواج لزوجاتهم أو بالعكس وعن أفعال يندى لها الجبين، وعن غدر وإيقاع للأذى، فليس هذا من أخلاق المؤمن، لأن المؤمن جانبه مأمون.

إذاً أريد منك أيها القارئ الكريم أن تجمع بعض الآيات الكونية عن خلق الإنسان، وعن خلق الحيوان، وعن خلق النبات مما يبعث الطمأنينة في القلب، بعد إدراك ما فيها من إشارة إلى قدرة الله عز وجل؛ بحيث توقظ فيك مواطن الاعتبار والاتعاظ فتزداد إيماناً بـ «المؤمن».

وأنا أرشد القارئ الكريم إلى أن هذه الأسماء الحسنى ما هي إلا تعاريف وهي بذلك موضوعٌ صغير جداً، وأما كأدلة عليها من الكون فهي موضوع كبير جداً، موضوع له آفاق واسعة لا تنتهي، لأنَّ الكون كلَّه يؤكِّد أسماءه الحسنى.

أن تؤمن بوجود الله عز وجل، يعني أنك لم تفعل شيئاً، لأنَّ الشيطان نفسه قال حينما خاطب الله عز وجل: ﴿رَبِّ﴾، وفي آية أخرى قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾، فعبارة الشيطان

تدلُّ على إيمانه بالله، ومع ذلك فهو رأس الكفر كلِّه، فإن آمنت بوجود الله فقط -دون أن تتعرف إلى وحدانيته، إلى ربوبيته، إلى أُلوهيته، إلى أسمائه الحسنى، إلى صفاته الفضلى، إلى مناحي عظمته- فهذا ليس كافياً، أن تؤمن بالله خالقاً وكفى، ليس كافياً، فإنَّ ربنا سبحانه وتعالى قال عن المشركين: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [العنبكوت:٦١].

فالمشركون إذاً: يعترفون بأنّ الله خالق الكون، ولكنَّهم يشركون بالله أولاً، وينكرون البعث ثانياً.

فمن لوازم الإيمان بالله، أن يتعرَّف الإنسان إلى أسماء الله الحسنى، فأحياناً قد تعرف أنّ فلاناً جارٌ لك، وهذا غير كافٍ، بل تحب أن تعرف عنه تفصيلات، كأن تعرف شيئاً عن مستوى علمه، وشيئاً عن أخلاقه، عن أعماله، عن تفوُّقه، هذا فيما بين الناس، فلا تكون المعرفة صحيحة إلا إذا تضمَّنت بعض التفاصيل ممّا يعطيك فكرة واضحة، وإنّه من باب أولى أن يكون الإيمان بالله عز وجل أساسه معرفة أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى.

والحقيقة الملموسة؛ أنَّ الكون كلَّه تجسيدٌ وإظهار لأسماء الله الحسنى، كلُّ أسماء الله تبدو لك من خلال الكون، أمَّا ذات الله عز وجل فلا نستطيع أن ندركها، لقول الله عز وجل: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٠٣].

أن ترى ذات الله أمر مستحيل، لكنَّك تستطيع أن تتعرَّف إلى ذاته من خلال خلقه، فالكون يدلُّ على المكوِّن، والنِّظام يدل على المنظِّم، والتسيير يدل على المُسيِّر، والماء يدل على الغدير، والأقدام تدل على المسير، والبعر يدل على البعير، فَسماءٌ ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ألا تدلّان على الحكيم الخبير؟

وبعد، فلماذا يجب أن نعرف الله؟ كي نعبده، ولماذا نعبده؟ كي نسعد بقربه في الدنيا والآخرة، لأنَّ الله سبحانه وتعالى في الأصل خلقنا ليسعدنا، ولا نسعد إلا به، ولا

نسعد إلا إذا كان عملنا طيباً، ولن يكون عملنا طيباً إلا إذا تعرفنا إلى عظمته حقيقةً، لذلك قال ربنا عز وجل في وصف بعضِ أهل النار: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾﴾ [الحاقة:٣٣].

أي يجب أن تعرف عظمة الله، إن لم تعرف عظمة الله فلا بدَّ أن تخترق حدوده، ولا بد من أن تتجاوز أوامره، أما إذ عرفت عظمة الله عز وجل فقد عبدته حقّ عبادته.

فالقضية كلُّها تتلخَّص في أهمية أن تعرف مَن هو الله، كي تطيعه، وتقبل عليه، وترجو ما عنده، وتخاف وعيده، ولن تخاف وعيده، ولن ترجو ما عنده، ولن تقبل عليه، ولن تسعى إليه، ولن تستسلم لقضائه، ولن ترضى بحكمه إلا إذا عرفته، إذا عرفته رضيت بقضائه، ورأيت حكمةً ما بعدها حكمة، ورأيت علماً، ورأيت رحمة ولطفاً وعطفاً وعدلاً، فكلما عرفته استسلمتَ له، وأقبلت عليه، وخضعت له، وائتمرت بأمره، وانتهيت عما نهى عنه، وأقبلت على عبادته، وخدمتَ عباده، فنحن يجب أن نعرف الله، أما أن يقال فقط: الله خالق الكون، فهذه معرفة بسيطة لا تقدم ولا تؤخر، وهذه المعرفة لا تحجزك عن محارم الله، هذه المعرفة في مجموعها لا تحملك على طاعة الله، فأن تقول: الله خالق الكون، ولك مخالفات كثيرة، وأن تقول: الله خالق الكون، ولك انحرافات عديدة، وأن تقول: الله خالق الكون، ولك طموحات دنيوية مديدة، فهذه مغالطة صريحة، أما إذا عرفت مَن هو الله؟ وهذا هو الهدف من هذا البحث، وأن تزداد معرفتنا بالله يوماً بعد يوم، لأنّه كلّما ازدادت هذه المعرفة ازداد الخشوع والطاعة، والخوف والإقبال، والاستسلام والرضا، والانصياع والفداء، والتضحية والإخلاص، أيّ: إنَّ حجم عملك بحجم معرفتك، وحجم سعادتك بحجم عملك، أي: أنَّ الدِّين كلَّه يمكن أن يلخص بثلاث كلمات: معرفة، طاعة، سعادة، على قدر معرفتك تطيع الله عز وجل، وعلى قدر طاعتك تسعد به.

إذاً هذه الأسماء الحسنى لا ينبغي أن نقف عند تعريفاتها فقط، بل يجب أن نملك عشرات، بل مئات، بل ألوف الأدلة النابعة من الكون على هذه الأسماء، لذلك فمن

علامة معرفتك بالله عز وجل أن ينطلق لسانك في الحديث عن أسمائه ساعات طويلة، وأن تتحدث عن اسم اللطيف، أو عن اسم الرحيم، أو عن اسم الملك، أو عن اسم القدوس، أو عن اسم السلام، فالذي أرجوه وأتمناه أن يمارس المسلم بنفسه بحثاً ذاتياً، وأن تكون له جولات في هذا الكون ليكتشف من هذا الكون الأدلة الناصعة على أسماء الله، والأولى أن نبقى نجول في كل فترة أو في كل حين مع اسم من أسماء الله الحسنى.

وإذ أختم هذه المطالعة لهذا الاسم «المؤمن» فإليك هذه الخلاصة: الله مؤمن؛ يعرف ذاته، وأفعاله تأتي مصدقة لأقواله، فأنت إذا آمنت بالله، وقرأت كتابه لن تفاجأ بحوادث مخالفة لما في كتابه، الشيء الثابت يهبك الأمن من خلال خَلقه، ومن خلال أفعاله، فأنت مؤمن ينبغي أن تكون على صفتين، أولاً: أن تكون أفعالك مصدقة لأقوالك، وثانياً: أن يأمن الناس جانبك. وإذا رأيت نقيض الأمن وهو الخوف، فهو يخيفك كي يؤمنك، يأخذ منك ليعطيك، يخفضك ليرفعك، يذلُّك ليعزَّك، وهكذا فكل أمرِك عنده عاقبته إلى خير.

المهيمن

هذا الاسم لم يرِد إلا في القرآن الكريم، وفي موضع واحد، في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحشر:٢٣].

من معاني اسم الله المهيمن

المهيمن اسم فاعل اشتقاقاً، مِنَ الفعل هيمن يهيمن هيمنة.

من معاني المهيمن: الرَّقيب الشَّهيد الذي يعلم السرَّ وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يعلم ما ظهر وما بطن، يعلم ما يعلن المرء وما يُسِرُّ، يرى الأشياء ويرى ما خلف الأشياء، يرى الظَّاهر ويرى الباطن.

ومن لوازم اسم المهيمن؛ القدرة التَّامة على تحقيق مصالح العباد علماً وقدرةً، ففي بني البشر من يعلم ولكنَّه لا يقدر، وفي بني البشر من يقدر ولكنَّه لا يعلم، ومن لوازم اسم المهيمن صفة ثالثة هي: المواظبة والاستمرار، قد تعلم ولا تقدر، حيث

يقول العوام: «العين بصيرة، واليد قصيرة»، وقد تقدر ولا تعلم، فالإنسان قد يكون قويّاً قادراً يتمتع بأعلى درجات القوة، ولكنه لا يعلم، وقد تعلم وتقدر، وهذا النوع في بني البشر نادر الوجود؛ أن يعلم وأن يقدر، ولكنه لا يضمن المستقبل. قد يكون المرء على علم بما يجري تحت يديه وعلى علم بما يجري حوله، وهو واثق بأن يده تطول كلَّ هذا الذي تحت سلطانه، ولكن لا يدري ماذا يكون من نتائج في المستقبل، أمَّا إذا قلنا: «المهيمن» اسم من أسماء الله الحسنى فمن لوازم المهيمن أنَّه يعلم، ولا نهاية لعلمه، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فلو أنَّ طبيباً فحص مريضةً تشكو من بعض أعضائها، واسترق النظر إلى عضو آخر فهذه خيانة، وليس في الأرض كلِّها من يعلم هذه الخيانة إلا الله، يعلم خائنة الأعين، أي: يعلم السرَّ، علم ما كان، وما يكون، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، يعلم السرَّ وما يخفى عنك، يعلم الجهر وما تعلنه، يعلم السر وما تخفيه عن الناس، ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ [طه:٧]، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [الحديد:٤] في خواطركم، في صراعاتكم، في نياتكم في طموحاتكم، في حركاتكم، في سكناتكم، في سرِّكم، في جهركم، في بواطنكم، في علانيتكم، يعلم كلَّ شيء.

بالمناسبة إن الإنسان لا يستطيع أن يهيمن إن لم يعلم تلك المعلومات والملابسات المحيطة بموضوعه قبل أن يباشره، لا يستطيع إنسان أن يهيمن على شيء ما، مهما كان ضيِّقاً محدوداً إن لم يعلم بكلِّ ذلك، يقولون: فلان تقصَّى الحقائق، يقولون: بثَّ العيون، كيف تملك القرار إن لم تملك الحقيقة؟ المهيمن يعلم.

ولكن ما نفع العلم إذا كنت لا تقدر، ها أنت تعلم مثلاً ولا تقدر، المهيمن يعلم وهو يقدر، ولا يعجزه شيء، ولا نهاية لتعلُّقات قدرته، كلُّ الممكنات؛ أيّ: كلُّ ما سوى الله من ضمن قدرته، ولكن قد تعلم ما أنت بصدده، وقد تملك، ولكن لا تعلم ما سيكون في الغد، قال تعالى في مجال الاقتدار: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٤٤﴾ [النور:٤٤].

وقال تعالى في مجال العلم: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [آل عمران: ١٤٠].

فالنبي ﷺ كان إذا سافر يقول: «اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل»[(١)].

هل تعتقدون أن هذه الصفة التي يقررها الحديث يمكن أن تكون في إنسان ما، كأن يكون معك في السفر وفي الوقت نفسه يكون خليفتك في بيتك وأهلك وأولادك، مستحيل؛ إما أن يكون معك وإما أن يكون في بيتك، لذلك قالوا: هاتان الصفتان لا تجتمعان إلا لله عز وجل، هو معك بالحفظ والرعاية والتوفيق والتسديد والنصر والتأييد، وهو في البيت مع أولادك معية علم وقدرة ورعاية في غيبتك، يحفظهم من كل مكروه، هو معك وهو خليفتك في البيت.

أقول: إنه من النادر أن يجتمع لإنسان العلم والقدرة، ففي المجتمعات البشرية أفراد تفوقوا في العلم، ولكنْ يدُهم قصيرة عاجزة، وأفراد تفوقوا في القدرة، ولكن علمهم محدود، لكن لو أنه، فرضاً، اجتمع لإنسان، وهذا شيء نادر جداً، كمال العلم مع كمال القدرة، فإنَّ رؤية المستقبل تنقصه حقاً، قد يأتي من هو أقوى منه فينتزع ما بيده، وقد يأتي من هو أذكى منه، أو قد يأتي من هو خبيث ماكر فيسلبه ما بين يديه.

إذاً قد يجتمع لديك العلم والقدرة، ولا تملك المستقبل، ولكن إذا قلت: الله مهيمن معنى ذلك: أنه يملك العلم الكامل.

---

(١) قطعة من حديث رواه مسلم والترمذي بسند صحيح من حديث عبدالله بن سرجس، وتتمته: «اللهم اصحبنا في سفرنا، واخلفنا في أهلنا، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، ومن الحور بعد الكَوْرِ، ومن دعوة المظلوم، ومن سوء المنظر في الأهل والمال» [اللفظ للترمذي].

﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [الحجرات:١٦].

والقدرة الكاملة ولا نهاية لتعلقات علمه، ولا نهاية لتعلقات قدرته، وليس في الكون جهة أخرى تشاركه في الحكم ألا تسمع قوله: ﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الكهف:٢٦].

لو كان في الكون آلهة غير الله لفسدتا، ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون:٩١]، ليس لجهة أخرى أن تنافس، أو تسيطر، أو تقاوم، أو تنازع، أو تُفسد، لذلك إذا اتّكلت على المهيمن فهو الذي يعلم، والذي يقدر، ويعلم ما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، وليس كمثله شيء.

فالمهيمن؛ ذو علم لا نهاية له، وقدرة تامة، ومواظبة واستمرار، هذا معنى المهيمن، ولكن هناك أربعة معانٍ فرعية تضفي على هذا المعنى شيئاً نفيساً جداً.

المعنى الأول: إذا كان الله هو المهيمن ففي معاني هيمنته الحب والشفقة، فأحياناً تقف الأم حول سرير ابنها المريض وهي تلاحظ حركاته وسكناته، هذه الوقفة الحانية المشفقة وقفة علم، ووقفة سيطرة، ولكنها بدافع نبيل، بدافع الشفقة والعطف والحنان، فإذا قلنا: فلان مهيمن بدافع الحقد وبدافع العنجهيّة والغطرسة والقوة والانتفاع والمناجزة وما إلى ذلك، فهذا استبداد وبطش، إنْ وصف الإنسان بأنه مهيمن فالمعاني متعددة، وقد تنعكس سلباً وإيجاباً، أما إن وصف الله عز وجل بأنه مهيمن فمن معاني هيمنة الله عز وجل حبه وعطفه على عباده، مع ملاحظة المعنى الأساسي للاسم، والنبي ﷺ رأى امرأة من السبي، إذا وجدت صبياً في السبي أخذته، فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال ﷺ: «أترون هذه طارحة ولدها في النار؟» فقلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه. فقال: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها» [متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب]. ونحن نعلم أن النار حق وإحراقها حق ولهيبها حق، ولكن هذا شيء متعلق بذات الله عز وجل.

فهيمنة الله عز وجل هيمنة ممزوجة بعطفٍ وحب وشفقة ورحمة وحرص على سعادتك وعلى آخرتك وعلى مستقبلك، فالمعنى الأساسي الأول علم وقدرة وديمومة، أما أحد المعاني الفرعية للهيمنة: فالحب والشفقة.

فلان مهيمن على هذا المستودع، أي: أمين عليه لا يدع حاجة تخرج منه بلا علم، وبلا تسجيل، وبلا مراقبة، وبلا محاسبة، هذه هيمنة الأمانة.

ولِنَدَعِ المعنى الأولَ هيمنةَ الشفقة كالأم على ابنها إلى:

المعنى الثاني: هيمنة الأمانة، لذلك من معاني المهيمن الحافظ: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [يوسف:٦٤].

ومعنى مهيمن: أنك إذا كنت مع الله عز وجل، واعتقدت بوجوده، وأردت أن تحاور إنساناً فأنت المنتصر، الحوادث كلّها تأتي مصدِّقة لك، كل إنسان يطرح نظرية أو يطرح فرضية أو يطرح مذهباً أو يطرح فكرة أو يطرح تفسيراً أو يطرح تحليلاً أو يطرح عقيدةً والوقائع العملية تثبت العقيدة التي جاء بها القرآن، فإذا كنت أنت مع القرآن فأنت المهيمن وأنت المنتصر.

أن تقول مثلاً: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ [البقرة:٢٧٦].

يمحق الله الربا، هذه آية كريمة وهذه عقيدتك، فالمرابي يقول لك العكس: أيعقل أن أجمد المال دون أن أضعه في مصرف لأتقاضى عليه فائدة مجزية أعيش بها؟ أنت -بوصفك مؤمناً- تطرح أنَّ الله عز وجل يمحق الربا، وهذا المُعرض يطرح نظرية أخرى وهي أن الإنسان لا بد من أن يستثمر ماله، الأيام تدور والوقائع تتجدّد، فإذا بهذا المرابي يُمحَق ماله، من الذي هيمن في هذا الموضوع؟ أنت: أنت عندما اعتقدت أن المرابي يمحق ماله، والأيام أكدت هذه الحقيقة فأنت المهيمن، أنت تعتقد أن الإنسان إذا

غضَّ بصره عن محارم الله أورثه الله نوراً في قلبه(١)، وانعكس هذا في حياته الزوجية، يقول لك آخر: لا، هذه العين يجب أن تستمتع، فهذا الجمال قد خُلِق لنا، فلا بد من إطلاق البصر، وأن تملأ العين من هذه المناظر الحسنة الجميلة، تقول له: لا، ورأيك خطأ، هذا أمر إلهي، وهذه آية قرآنية، تدور الأيام فإذا بهذا الذي يمضي نهاره كلَّه في الطرقات يملأ عينيه من الحرام قد حاد عن طريق العزّة والكرامة، من الذي هيمن في هذا الموضوع؟ أنت الذي هيمنت عندما جاءت الوقائع تؤكِّد ما تعتقد من أن هذا أمر إلهي، أنت إذا اخترت فتاة ولم تخترها إلا لدينها وعفافها وشرفها وصلاحها وأسرتها الصالحة، وآثرت دينها على الجمال وعلى المال وعلى الحسب وعلى النسب وعلى الوجاهة في الدنيا، فأنت انطلقت من منطلقٍ أن هذا العمل هو طاعة لله عز وجل. قال سبحانه: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ [البقرة:٢٢١].

أما ذاك الآخر فقد انطلق من شهوته وقال: الزوجة يجب أن تكون مِلْءَ العين جمالاً وفتنة كما أحب وأشتهي، ولا قيمة لدينها، تدور الأيام، وإذا بك ترى هذا الذي اختار المرأة الصالحة لصلاحها ودينها ترى حياته الزوجية مستقرة وسعيدة ومفعمة بالمودة والمحبة، تتنامى سعادته، ويبارك الله له في هذه الزوجة، ويرزقه الأولاد وفيهم قرّة العين، أما الذي آثر الجمال على الدين فحياته قطعة من جحيم، فمن الذي هيمن في نهاية الموضوع؟ المؤمن، لذلك ربنا عز وجل يقول: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص:٨٣].

---

(١) ولذلك ذكر الله تعالى آية النور عقيب آيات غض البصر، وكان شاه بن شجاع الكرماني لا تخطئ له فراسة وكان يقول: من عَمَّر ظاهرَه باتباع السنّة، وباطنه بدوام المراقبة، وغَضَّ بصرَه عن المحارم، وكفَّ نفسه عن الشهوات واعتاد أكل الحلال لم تخطئ فراسته.

إذاً هذه معانٍ فرعيةٌ صحيحةٌ من معاني المهيمن؛ أن هيمنة الله عز وجل هيمنة حب وشفقة، وأن هيمنة الله عز وجل هيمنة حفظ وأمانة.

ومن معاني هيمنة الله عز وجل كذلك أن الله سبحانه يصدقك بأفعاله.

ومن معاني أن الله مهيمن أنك أنت المنتصر، وكلامك هو الصواب، واعتقادك هو الصحيح، والأفعال تأتي مصدقة لك، هذا معنى المهيمن كاسم من أسماء الله الحسنى، إذاً الهيمنة العلم الكامل، العلم التام، والقدرة التامة، والاستمرار والمواظبة هذه المعاني الأساسية.

أما المعاني الفرعية فهيمنة حب، لا هيمنة غطرسة وعنجهية وسيطرة، كما يكون الإنسان، هيمنة محافظة على المهيمَن عليه، أمين مستودع لا تأخذه في الله لومة لائم، وهيمنة تصديق لكل ما جاء به القرآن، هذا الجانب النظري من معنى المهيمن، علم وقدرة واستمرار، شفقة وحفظ وتصديق.

والآن أسوق بعض الأمثلة للإيضاح: هناك وقائع وشواهد وحقائق تعمِّق مفهوم هذا الاسم ومدلولاته.

سيدنا موسى حينما قال الله له ولأخيه هارون: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه:٤٣-٤٤].

فرعون؛ وما أدراكم ما فرعون؟ الذي ذبح أبناء بني إسرائيل واستحيا نساءهم، فمن يجرؤ على أن يخاطبه، وعلى أن يبين حقيقة دعواه الزائفة في أنه إله، من يجرؤ؟

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾ [طه:٤٥-٤٨].

إنني معكما أسمع وأرى، وفرعون بيدي، إذاً إذا آمنت أنَّ الله هو المهيمن تستسلم ويرتاح قلبك، تطمئن نفسك، يستقرُّ فؤادك، ترتاح أعصابك، الأمر بيد الله بعلمه وبقدرته، كلُّ الخلق بيده ويعلم السّرّ وأخفى.

خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية العامريين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري. لما خلا بعضهم ببعض قالوا: لن تجدوا محمداً أقرب منه الآن فمَن رجل يعلو على هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيرحنا منه؟ فقال عمرو بن جحاش بن كعب: أنا! فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم فانصرف عنهم. فأنزل الله تعالى فيه وفيما أراد هو وقومه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المائدة:١١].

من الذي أخبره أن يتحول عن هذا المكان؟ الله عز وجل، هم اتفقوا في غرفة محكمة الإغلاق قال ابن إسحاق: ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد، اتفقوا على ذلك والله عز وجل أخبره، معنى مهيمن هنا أنه علم ما يقولون.

عمير بن وهب كان شيطاناً من شياطين قريش وكان يؤذي رسول الله ﷺ وأصحابه ويلقون منه عناء وهم بمكة وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى أصحاب بدر قال: فذكروا أصحاب القليب بمصابهم، فقال صفوان بن أمية: والله ما في العيش خير بعدهم، فقال عمير بن وهب: صدقت، والله! لولا دَين عليَّ ليس عندي قضاؤه، وعيالي أخشى عليهم الضّيعة بعدي لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإنَّ لي فيهم ابني عندهم أسير في أيديهم، قال: فاغتنمها صفوان فقال: عليَّ دينك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أُسوتُهم ما بقوا، لا يسعهم شيء نعجز عنهم، قال عمير: فاكتم عني شأني وشأنك قال: أفعل! ثم أمر عُمير بسيفه فشحذ وسُمَّ، ثم انطلق إلى المدينة، فبينما عمر رضي الله عنه بالمدينة في نفر من المسلمين يتذاكرون يوم بدر وما أكرمهم الله به وما أراهم

من عدوهم إذ نظر إلى عمير بن وهب قد أناخ بباب المسجد متوشِّح السيف فقال: هذا الكلب عدوّ الله! عمير بن وهب ما جاء إلا لشرٍّ، هذا الذي حرض بيننا وحزرنا للقوم يوم بدر، ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! هذا عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه قال: فأدخله، فأقبل عمر حتى أخذ بحِمالة سيفه في عنقه فلببه بها، وقال عمر لرجال من الأنصار ممن كان معه: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الكلب فإنه غير مأمون ثم دخل على رسول الله ﷺ وعمر آخذٌ بحمالة سيفه في عنقه، فقال: أرسله يا عمر! ادنُ يا عمير! فدنا، فقال: أنعموا صباحاً -وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم- فقال رسول الله ﷺ: قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، السلام تحية أهل الجنة، فقال: أما والله يا محمد إنْ كنت لحديث عهد بها، قال: فما جاء بك؟ قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا إليه، قال: فما بال السيف في عنقك؟! قال: قبحها الله من سيوف فهل أغنت عنا شيئاً؟ قال: اصدقني ما الذي جئت له؟ قال: ما جئت إلا لهذا، قال: بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر فتذاكرتما أصحاب القليب من قريش فقلت: لولا دَيْن عليّ وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحمل صفوان لك بدينك وعيالك على أن تقتلني، والله حائل بينك وبين ذلك، قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذِّبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان فوالله! إني لأعلم ما أنبأك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم تشهَّد شهادة الحق، فقال رسول الله ﷺ: فقهوا أخاكم في دينه، وأقرِئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره، ثم قال: يا رسول الله: إني كنت جاهداً على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله، وإني أحب أن تأذن لي فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله وإلى الإسلام لعل الله أن يهديهم، وإلاّ آذيتُهم كما كنت أؤذي أصحابك في دينهم، فأذن له رسول الله ﷺ فلحق بمكة وكان صفوان حين خرج عمير بن وهب قال لقريش: أبشروا بوقعة تنسيكم وقعة بدر، وكان صفوان يسأل عنه الرّكبان حتى قدم راكب فأخبره بإسلامه، فحلف ألا يكلمه أبداً، ولا ينفعه

بنفع أبداً، فلما قدم عمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام، ويؤذي من خالفه أذىً شديداً، فأسلم على يديه ناس كثير [رواه الطبراني مرسلاً وإسناده جيد].

خولة بنت ثعلبة كانت تحت أوس بن الصامت وكانت حسنة الجسم، وكان به لمم فأرادها فأبت، فقال لها: أنت عليّ كظهر أمي، ثم ندم على ما قال، وكان الظّهار والإيلاء من طلاق أهل الجاهلية، فقال لها: ما أظنُّك إلا قد حرمت عليّ، فقالت: والله ما ذاك طلاق وأتت رسول الله ﷺ - وعائشة رضي الله عنها تغسل شقَّ رأسه-- فقالت: يا رسول الله! إنَّ زوجي أوس بن الصامت تزوجني وأنا شابة غنية ذات مال وأهل حتى إذا أكل مالي وأفنى شبابي وتفرّق أهلي وكبر سني ظاهر مني، وقد ندم، فهل من شيء يجمعني وإياه تنعشني به؟ فقال رسول الله ﷺ: حرمتِ عليه، فقالت: يا رسول الله والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقاً، وإنه أبو ولدي وأحبُّ الناس إليّ، فقال رسول الله ﷺ: حرمتِ عليه، فقالت: أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي، قد طالت صحبتي ونفضت له بطني، فقال رسول الله ﷺ: ما أراك إلا قد حرمتِ عليه ولم أومر في شأنك بشيء. فجعلتْ تراجع رسول الله ﷺ، وإذا قال لها رسول الله ﷺ: حرمت عليه، هتفت وقالت: أشكو إلى الله فاقتي وشدة حالي وإن لي صبية صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليَّ جاعوا، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول: اللهمَّ إني أشكو إليك، اللهم فأنزل على لسان نبيك، وكان هذا أول ظهار في الإسلام، فقامت عائشة تغسل شقَّ رأسه الآخر فقالت: انظر في أمري جعلني الله فداءك يا نبيَّ الله، فقالت عائشة: اقصري حديثك ومجادلتك أما ترين وجه رسول الله ﷺ؟ -وكان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه أخذه مثل السبات- فلما قضى الوحي قال لها: ادعي زوجك فدعته فتلا عليه رسول الله ﷺ: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ ﴾ [المجادلة:١] الآيات.

قالت عائشة: تبارك الذي وسع سمعه الأصوات كلَّها إن المرأة لتحاور رسول الله ﷺ وأنا في ناحية البيت أسمع بعض كلامها ويخفى عليّ بعضه إذ أنزل الله: ﴿ قَدْ

سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾[1] [المجادلة:١].

فكان عمر بن الخطاب عملاق الإسلام، كلما مرّ بخولة بنت ثعلبة، كان ينزل عن دابته، إجلالاً لها ويقف أمامها بأدب ويستمع لها، فقال له أحدهم: أنت أمير المؤمنين وتستمع لهذه المرأة؟ قال: كيف لا أستمع لها وقد استمع الله لها من فوق سبع سموات، معنى هذا أن الله مهيمن، ويسمع كلَّ شيء.

وكذلك، سيدنا موسى قال لفرعون: أنا رسول الله، وكلمة فرعون تعني في وقته أعظم إنسان، ودولته أعظم دولة، وحضارته أعظم حضارة، وهو الذي قال: أنا ربكم الأعلى، وجمع السحرة كلهم، ووعدهم بالعطايا وبالمناصب، من أجل أن يقهروا سحر موسى، كما يدّعون، قال تعالى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه:٦٦-٦٩].

من انتصر؟ سيدنا موسى، فالله مهيمن على كلِّ شيء.

هذه كلها شواهد قرآنية ونبويّة على اسم المهيمن، علم وقدرة واستمرار، هيمنةُ شفقةٍ وهيمنةُ حفاظٍ وهيمنةُ تصديق.

أما سيدنا إبراهيم فقد جاءه جبريل، وقد أوقد قومُه ناراً عظيمةً، جمعوا حطباً أياماً وأسابيع فأوقدوها، وأركبوه المنجنيق وقذفوه كي يسقط في وسطها، هم مسيطرون

---

(١) أخرجه ابن ماجه والبيهقي في السنن والحاكم وابن أبي عاصم في السنّة وعبد بن حميد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي بلفظ: يا رسول الله أكل شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، فما برحت حتى نزل جبرائيل بهؤلاء الآيات، واللفظ لابن ماجه في الطلاق.

مهيمنون، بيدهم كلُّ شيء، ألسنتهم تردد: مَنْ أشدُّ منّا قوة؟ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت:١٥]، ثلاث كلمات، يا نار كوني برداً وسلاماً، ولو لم يقل: سلاماً لمات إبراهيم من البرد، ولوجدوه مجمَّداً، ولكنه أضاف: وسلاماً، وقال: على إبراهيم، ولو لم يقل: على إبراهيم لانعدم وجود النار في الأرض، ولأصبحت النار لا تحرق إلى يوم القيامة، ثلاث كلمات: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأنبياء:٦٩-٧٠].

من المهيمن؟ الله عز وجل.

وكذلك، أُمُّ موسى، أعطني أُمّاً تستطيع أن تضع ابنها، فلذة كبدها في صندوق، وتلقيه في اليمّ، الله عز وجل أمرها بأمرين، ونهاها نهيين، وبشرها ببشارتين: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [القصص:٧].

أرضعيه وألقيه في اليم، هذان أمران، ﴿ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ﴾ وهذان نهيان، البشارتان: ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾، فهذا الصندوق من سَيَّرَهُ إلى شطِّ فرعون؟ إنه الله يعلم ويسيطر، وحينما فُتح الصندوق من ألقى حبَّه في قلب امرأة فرعون؟ الله عز وجل، إذاً فالله مهيمن.

هذه القصص كلُّها تؤكد أسماء الله الحسنى، سيدنا يونس؛ لا أعتقد أنه مهما ضاقت الأمور بأحد في الدنيا، لا أعتقد أنَّ هناك مصيبة على وجه الأرض تفوق أن يكون المرء في ظلمة بطن الحوت، مع ظلمة البحر، مع ظلمة الليل، أجل في ظلمة بطن الحوت، فإذا فتح الحوت فمه جمع أربعة أطنان من السمك كوجبة عشاء معتدلة، ورضعته الواحدة لوليده ثلاث مئة كيلوغرام من الحليب، فثلاث رضعات تساوي ألف كيلوغرام تقريباً، كلَّ يوم يحتاج إلى طن حليب، والحوت تقريباً وزنه مئة وخمسون

طناً، فجوفه غرفة، وسيدنا يونس نبي عظيم، فجأة وجد نفسه في ظلمة بطن الحوت وفي ظلمة الليل، وفي ظلمة البحر.

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٧].

يا ترى، هل في بطن الحوت جهاز فاكس أو جهاز تلكس أو هاتف محمول أو جهاز إشارة أو ما يشبه ذلك؟ ليس في بطنه شيء من هذا، إلا أنه نادى في الظلمات: أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين: ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٨].

ألا ترتاح نفسك إلى هذه القصة؛ التي خُتِمت ببشارةٍ لكلِّ مؤمن: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ ففي أيِّ عصر، وأيِّ زمان، وفي أيِّ مصر، وفي أيِّ ظرف مهما يكن شديداً، الله مهيمن، أنت كن مع المهيمن، وارتح مطمئناً إلى سلامة المصير.

انظر إلى الطفل الصغير وهو في حضن أمِّه لا يتكلم بشيءٍ إطلاقاً، الأب يجهد لتأمين الحاجات، ولتأمين الأدوات المدرسية، والابن مرتاح يريد الكرَّاسة الفلانية والفلانية والفلانية، يلقي الأمر بالطلبات المتلاحقة وهو مرتاح، والأب يتمزَّق لتأمين هذه الأغراض، فإذا كان الشخص مع المهيمن فهو مع من على كلِّ شيء قدير.

نعود إلى موضوع المهيمن، فإنَّ سيدنا زكريا لم يتكلم، وإنما: ﴿ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ﴿٣﴾ ﴾ [مريم:٣].

جرب، ابقَ صامتاً، واطلب من الله طلباً بصدق وبإخلاص، وليكن الطلب معقولاً من خيري الدنيا والآخرة، تجد أن الله استجاب لك، معنى هذا أنه سمعك وعلم سرَّك، فالقضية من الله لا تحتاج إلى رفع الصوت...

﴿ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ﴿٣﴾ ﴾ [مريم:٣].

نداؤه الخفي اخترق السَّبعَ الطباق، فاستجاب الله لسيدنا زكريا، لأن الله مهيمن.

في غزوة حنين، أصحاب النبي ﷺ الذين خاضوا معه بدراً وأُحداً والخندق والمشاهد الأخرى، خاض أصحاب رسول الله ﷺ هذه الغزوات وغيرها وهم ساكتون لم يتكلموا إطلاقاً، بل هي مناجاة داخلية وصلت إلى الله وعلم بها: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ [التوبة:٢٥].

قالوا في سرائرهم: لن نغلب اليوم من قِلَّة[١]، عشرة آلاف صحابي، ومعهم رسول الله، بعد أن فتحوا مكة، ودانت لهم الجزيرة من طرفها إلى طرفها الآخر ومع ذلك:

﴿ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [التوبة:٢٥].

الله المهيمن، علم إعجابكم بأنفسكم فألقى في قلوبكم الخوف، وقلوبكم في يدي الله، إما أن يملأها خوفاً، وإمّا أن يملأها طمأنينة.

ففي مسلم والمسند من حديث ابن عمر: «إنَّ قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرِّفه حيث شاء»، الله مهيمن.

الأمر كلُّه بيد الله، سيدنا رسول الله في غار ثور، وهو في طريق الهجرة إلى المدينة وسيدنا الصديق إلى جانبه، قال: يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى موطئ قدمه لرآنا، فقال: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟! [متفق عليه من حديث أبي بكر الصديق].

---

(١) قال ابن إسحاق: وزعم بعض الناس أن رجلاً من بني بكر قالها - يعني: «لن نغلب اليوم من قلة» وفي مسند أحمد بسند حسن من حديث صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال -في يوم حنين-: إن نبياً فيمن كان قبلكم أعجبته كثرة أمته فقال: لن يروم هؤلاء شيء... الحديث.

الله مهيمن، يحفظ أعظم شيء بأتفه سبب، الله مهيمن، وأحياناً يُهلِك إنساناً بأتفه سبب، يحفظه بأتفه سبب، ليظهر لك كمال قدرته عز وجل.

في غزوة الأحزاب، الجزيرة العربية كلُّها اجتمعت على حرب محمد ﷺ، واليهود خانوا عهده معه، وانكشف ظهره، وبقي للإسلام ساعات، بقي الإسلام قضية زمن، إلى أن قال أحدهم: أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته، الله عز وجل أرسل رياحاً عاتية أطفأت نارهم، واقتلعت خيامهم، وقلبت قدورهم، وكفى الله المؤمنين القتال، الله مهيمن، كلُّ شيء بيده، الرياح بيده، وصدق الله العظيم: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر:٣١].

منخفض جوي يمنع الرؤية بيده، رياح عاتية تعطِّل حركة الآليات بيده، القلوب بيده، يلقي فيها الخوف أو الثّبات، كلُّ شيء بيده، باخرة من أضخم البواخر في العالم بُنيت سنة ألف وتسع مئة واثنتي عشرة، وقد بنيت طبقتين فلو ثُقبت طبقة فالجدار الآخر يبقى سالماً ويمنع غرقها، بنيت بلا زوارق نجاة ثقةً بأنها لن تغرق. طُبِعَت نشرة تُعرِّف بهذه الباخرة الجبارة الفاخرة، وكُتب في هذه النشرة: إنَّ القدر لا يستطيع إغراق هذه الباخرة، إنّها من أفخر البواخر في العالم، قيل: فيها من الأثاث ومن الثريات ومن الفضيّات ما لا سبيل إلى وصفه، المطاعم والصالات والأبهاء والغرف والمسابح... فهي مدينة عائمة، وفي أول رحلة من رحلاتها ركب فيها أغنى أثرياء أوروبا، ويقال: إنّ حليَّ النساء تُقدَّر بمئات الملايين، وفي عرض البحر ارتطمت بجبل ثلجي فشقَّها شطرين، وأرسلت إشارات الاستغاثة فظنّ كلُّ من حولها من البواخر أنَّ هذه الإشارات تعبير عن احتفالات تدشين السفينة وغرق جميع ركابها، وقبل سنة كما أذكر قرأت بحثاً في «مجلة العربي» عثروا على مكانها، ورأيت صوراً لها في قاع البحر، هذه الباخرة تدعى «التيتانيك»، قال وقتها أحد القساوسة: هذا درس السماء إلى الأرض.

قبل سنوات، دولة متقدمة جداً ممن يقول أهلها: مَنْ أشدُّ منّا قوة؟ صنعوا مركبة فضائية، ومن المقرَّر أن تبقى في الفضاء سنة تقريباً، سبعة روّاد فضاء مع امرأة، والخطَّة أن تحمل هذه المرأة في الفضاء من أحد الرواد، وأن تبقى في الفضاء تسعة أشهر، وأن تلد في الفضاء، ومعهم طبيب مُوَلِّد في المركبة، ليكون أول مولود يولد في الفضاء، وسمُّوا هذه المركبة: شالنجر، أي: المتحدي، بعد سبعين ثانية من إطلاقها أصبحت كرة من اللهب، من المهيمن؟ ألم يقوموا بالعد التنازلي؟ ألم يضبطوا الأجهزة جهازاً جهازاً؟ أين المهيمن؟ الله سبحانه وتعالى، كن مع المهيمن واسترح.

حدثني صديق لي أنه زار بستاناً في أحد أطراف دمشق؛ والبستان مؤلَّف من قطعتين لأخوين شقيقين، وكان قمح الأخ الأول نامياً نمواً عجيباً، وقمح الآخر نموه ضئيل جداً، وهذا الصديق مؤمن يعرف الله عز وجل، فجاء للأول واستحلفه، لماذا بستانك هكذا زرعه نام نمواً عجيباً؟ قال: والله أعتني به كما يعتني أخي ببستانه، بل إن الذي يقوم على البستانين مُرابع واحد، إذاً فما السر؟ قال: لي أخ آخر متوفى، وله أولاد أيتام، ونويت في سرّي أن أعطي أولاد أخي الأيتام نصف غلَّة هذا البستان، أما الثاني منهما فهو على عكس الأول، هذه القصة تؤكد أن الله علم نية هذا البستاني فضاعف له غلته[1]، وعلم نية الآخر فأنقصها إذاً المهيمن يعلم ويفعل.

---

(١) في مسلم والمسند من حديث أبي هريرة... بينما رجل بفلاة من الأرض فسمع صوتاً في سحابة يقول: اسقِ حديقة فلان، فتنحى ذلك السحاب، فأفرغ ماءه في حرة، فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله فتتبع الماء، فإذا رجل قائم في حديقته يحول الماء بمسحاته، فقال له: يا عبدالله ما اسمك؟ قال: فلان، بالاسم الذي سمع في السحابة فقال له: يا عبدالله! لِمَ تسألني عن اسمي؟ قال: إني سمعت صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسقِ حديقة فلان لاسمك، فما تصنع فيها؟ قال: أما إذا قلت هذا فإني أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه، وآكل وعيالي ثلثاً، وأرد فيها ثلثاً.

وكذلك صديق آخر حدثني عن مجموعة مزارع في أطراف دمشق، وهنالك بعض الرعاة الذين عندهم قطعان غنم يأتون بها لهذه المزارع لتشرب، فيطرد أصحاب المزارع، كل راعٍ يأتيهم مع غنمه، من هذه المزارع، مزرعة واحدة تستقبل أيَّ راعٍ، وتسقي الغنم بنفس طيبة، أقسم لي رجل في هذه المنطقة أن سبع مزارع جفَّت آبارها إلّا هذا البئر حصراً، والعائد لهذه المزرعة، ولم يكتفِ بأنه سمح للرعاة، بل بنى أحواضاً كي ترتاح الغنم في أثناء شربها، لقد اشترى أحواضاً إكراماً لها، الله مهيمن: النبع بيده، والمركبة الفضائية شالنجر بيده، و«تيتانيك» السفينة الضخمة بيده، والسحاب بيده، والبواخر بيده، والحوت بيده، كلُّ شيء بيده، فأحياناً قد يكون الإنسان حائراً تائهاً في مكان ناءٍ، فيخرج عليه ثعبان، وهذا الإنسان مؤمن على الأعم الأغلب فتجد الثعبان واقفاً ولا يتحرك نحوه، بل يتسلل بعيداً عنه، وأحياناً تجد كلباً عقوراً جائعاً حائراً من شدة الجوع قضى أياماً عديدة في بؤسه وجوعه، فإذا واجه إنساناً تقياً يقف ساكناً كأن لم يرَ شيئاً، روى الحاكم والبزار بسند صحيح عن سفينة مولى رسول الله ﷺ قال: ركبت البحر فانكسرت سفينتي، فركبت لوحاً فطرحني اللوح في أجمة فيها الأسد، فأقبل إليّ يريدني، فقلت: يا أبا الحارث أنا سفينة مولى رسول الله ﷺ فطأطأ رأسه، وأقبل إليَّ فدفعني بمنكبه حتى أخرجني من الأجمة ووضعني على الطريق، مفظننت أنه يودعني. فمن المهيمن؟ الله عز وجل.

الله عز وجل يقول: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢﴾ [الزمر:٦٢].

إذاً لله هيمنة، وهو المسيطر،كلُّ شيء خلقه اللهُ مسيطِرٌ عليه، وما خلق شيئاً وتركه هملاً، لذلك: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢﴾ [الزمر:٦٢].

الحريق شأنه مخيف، ومداهمته عمياء، فقد ينشب حريقٌ في بعض أسواق المدينة ويأكل الأخضر واليابس في معظم الحوانيت إلا حانوتاً واحداً، تلتفُّ النار حوله ولا تحرقه... الله المهيمن وبيده النار.

قبل خمسين عاماً زحف جراد على هذه البلدة فأكَلَ الأخضر واليابس، أخبرني رجلٌ؛ توفي رحمه الله، كان مكلَّفاً بضبط هذا الأمر ومراقبة أصحاب البساتين في مقاومة الجراد، قال: رأينا الأشجار بلا قشر، الجراد أكل أوراقها وثمارها وقشرها الخارجي، ولكننا فوجئنا ببستان كأنه روضة من رياض الجنان، دخلنا إليه وطلبنا صاحبه، فقلنا: ما الذي نرى من أمر بستانك؟ فقال: أنا أستعمل دواء، فامتلأنا غضباً وغيظاً منه، أعندك دواء وتمنعه عن المسلمين، قال: نعم يا سيدي، فهذا الدواء لا يستعملونه، هو الزكاة، وأنا أزكي عن غلال هذا البستان، في كل موسم من مواسم العام.

هذه مشاهدات من واقع الناس وحياتهم، آلاف بل ملايين، وكلُّ شيء بيد الله عز وجل، فالحكمة أن تعرف الله وأن تعرف أنه هو المهيمن، إذا عرفته مهيمناً انقطعت آمالك ممن سواه، لا تتوسَّل إلى غيره، أنت فيما بينك وبينه في منتهى الخضوع، في منتهى التذلل، في منتهى الافتقار، إذاً أنت في جانبك الأمن كله.

أما حالك مع الناس فأنت عزيز، إذا لم تعرفه مهيمناً، وظننت بأن زيداً مهيمن، تصبح أمام زيد كالطفل الصغير، تبالغ في التذلل له، ويبالغ في إهانتك، وتبالغ في الخضوع له، ويبالغ في إهدار كرامتك لذلك [كما قرأ فرقد السبخي في التوراة]: «من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه».

وهذه الفقرة الثالثة في بحثنا، ففي الفقرة الأولى التعاريف النظرية لاسم المهيمن، كمال العلم وكمال القدرة والاستمرار، وهيمنةُ الله هيمنةُ حبٍّ وشفقة ورحمة، وهيمنة حفاظ، وهيمنة تصديق، وكانت الفقرة الثانية قد تناولت التعاريف الفرعية، ثلاث فقرات بالتعريف الأساسي، وثلاث إضاءات فرعية على هذا التعريف، هذا القسم النظري، والقسم العملي والشواهد، وهو موضوع الفقرة الثالثة:

أخ كريم أصيب قلبه بآفة، والأطباء هنا في دمشق أجمعوا على أنه لا بد له من إجراء عملية في بلد أجنبي، ذهب إلى هناك، وبينما هو مستلقٍ على سرير الفحص،

اغرورقت عيناه بالدموع وقال: يا رب! هذا القلب من صنعك، وأتمنى ألا يُفتح وبكى، فأجري الفحص الأول، وتتابعت الفحوص، وكانت النتيجة أن الله شفاه بما يسميه الأطباء «شفاءً ذاتياً» الشرايين الفرعية التي كانت مسدودة من الذي قام بفتحها؟ يد من فتحتها؟ الله مهيمن على قلبك.

وهذه الكُلْية توقفت عن العمل، لماذا توقفت؟ من أوقفها؟ ومن حركها؟ الله مهيمن، تأكد أن الأعصاب والكليتين والقلب والرئتين والشرايين والمعدة والأمعاء والقنوات الدائرية والسمع والبصر واللسان كلُّ أعضائك بيد الله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) ﴾ [آل عمران:٢٦].

هذه الخلايا من الذي يمنعها من أن تنمو نمواً خبيثاً؟ الله عز وجل، ليس هنالك سبب واضح للسرطان حتى الآن، إنسان بأتمِّ قوته وبأتمِّ صحته وبأتمِّ نشاطه، غذاء منتظم، رياضة، حركة، وفجأة ينمو الخبيث في جهة ما بجسمه.

من المهيمن على هذه الخلايا؟ يمنعها من أن تنمو نمواً خبيثاً أو ألا تنمو، إنه الله عز وجل.

حتى الزوجة بيد الله عز وجل، الإمام الفضيل بن عياض يقول: «إني لأعصي الله فأعرف ذلك في خلق دابتي وجاريتي»، أياماً تجدها ملاكاً. سبحان الخالق، ملاكاً من السماء، وأياماً تفكر بهذه الساعة المشؤومة التي عرفتها بها، شأنها بيد الله عز وجل: يليِّن قلبَها أو يقسِّي قلبَها، يجعلها مطواعة، أو عنيدة بيد الله عز وجل.

حتى الأولاد: حالهم الشيء نفسه، وزبائنك ورؤساؤك في الدائرة، ومتبوعوك، ومركبتك إذا أثنيت عليها، وأثنيت على صانعها، ونسيت الله أثناء حديثك عنها، فإنها تتعطل، وتقطعك في الطريق، أمرها بيد الله عز وجل، أما الزلازل فالإنسان إزاءها مقيَّد مكبَّل، وأما الجراثيم فالنبي ﷺ قال: «لا عدوى» [متفق عليه من حديث أبي هريرة].

لكن هناك عدوى، ما معنى هذا الحديث؟ أي: إياك أن تعزو هذا الفعل إلى زيد أو عبيد، يجب أن يُعزى المرض إلى الله عز وجل، فإذا أذن الله لها فإن هذه الجراثيم تفعل فعلها، وإن لم يأذن فلا تفعل أبداً.

نصيب المؤمن من اسم الله المهيمن

المؤمن إذا أردناه أن ينتفع بهذا الاسم يجب أن يعرف أحوال نفسه، وأن يعرف نفسه حقيقة، هل هي مريضة؟ هل فيها انحراف، أو كِبْر، أو عُجْب، أو غرور، أو لديها رغبة في تجاوز حدودها، ورغبة الجموح والشرود؟ هل إيمانه بالله كافٍ أم غير كافٍ؟ يجب أن يعلم أحوال قلبه، أحوال نفسه، أن يعلم دخله أهو حلال أم حرام؟ وإنفاقه للمال، تعامله مع الآخرين، جوارحه مدى انضباطها، أحوالك مرضية عند الله أم غير مرضية، وهل أنت مستقيم أم غير مستقيم، وهل في علاقاتك انحراف؟ أعندك تقصير بالحقوق؟ يجب أن تعلم كلَّ ذلك، ولن تعلم إلا إذا حضرت مجالس العلم، لأنَّ «العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم ومن يتحرَّ الخير يعطه، ومن يتوقَّ الشرَّ يوقه» [رواه الدارقطني في الأفراد بسند حسن من حديث أبي هريرة، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي الدرداء].

هذه حرام، وهذه حلال، هذا يجوز أو لا يجوز، وهذه صفة مذمومة، وهذه صفة ممدوحة، فأنت من حضور مجالس العلم تعلم، فإذا تعلمت فقد حققت ثلث اسم المهيمن، ومن ثم يجب أن تسعى كي تطهِّر نفسك من آفاتها، والجوارح من المعاصي، تطهير القلب مما سوى الله، تطهير الفكر من عقائد زائغة، من خرافات، من أوهام، من خزعبلات، من حيل، من تزوير.

أجل أعود لأقول: ينبغي أن تطهِّر عقلك من كلِّ عقيدة زائغة، وتطهر جوارحك من كلِّ معصية، وعليك أن تطهِّر قلبك مما سوى الله، فهذا من تطبيق اسم المهيمن، أي: إن المرء راقبَ قلبَه وأشرف على أغواره وأسراره، واستولى على تقويم صفاته وهيئاته، وقام بمراقبتها على الدوام.

إذاً يجب أن تعلم أحوالك، يجب أن تقوّم أفعالك، يجب أن تثبت على هذه الاستقامة، أنت عاهدت الله عز وجل على العلم والإصلاح والثبات.

الأرقى من ذلك أن تَدعُوَ إلى الله، وأن تعلم أحوال إخوانك، وأن تسعى إلى تقويمهم ما استطعت، وأن تبقى على عهدك مع الله من خلال تعاملك معهم.

وأنْ تصلح نفسك، فهو من معاني قوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١) ﴾ [الأنفال:١].

وبعد، فأصلح نفسك، كيف تصلحها، إن لم تعرف أمراضها؟ إن لم تعرف انحرافاتها؟ إن لم تعرف تقصيرها؟ إن لم تعرف أدرانها؟ إن لم تعرف مشكلاتها؟ إن لم تعرف مخالفتها؟ المعرفةُ أساس في كلِّ سلوك أو عمل، إذاً فأنت تحتاج إلى علم كي تعرف، وإلى إرادة كي تُصَحِّح، وإلى صدق كي تستمر، إذا فعلت هذا فقد انتفعت من اسم المهيمن.

وبعدُ، ما دام الله يراقبك، فما موقفك أنت وهو الرقيب عليك، الحياء من الله، من تطبيقات اسم المهيمن أن تستحيي من الله، فالله يراقبك، ولتعلم أيضاً أن الله قوي، يجب أن تتوكل عليه، لا شريك له، ويجب أن تثق بالمستقبل، إذاً تفوِّض الأمر إلى الله عز وجل: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ (١١) ﴾ [الرعد:١١].

ثلاثة تطبيقات هي: أن تعلم أحوال قلبك، وأحوال نفسك، وأحوال عقيدتك، فتصوراتُك وقِيَمُك يجب أن تصحّحها، لا بد من حضور مجالس العلم، أن تملك إرادة قوية كي تصلح اعوجاجك، كي تقيّم جوارحك على طاعة الله، وأن تتحلّى بالصدق حقاً كي تستمرَّ على هذا، علم وإرادة وصدق هذا أول تطبيق.

أما التطبيق الثاني: فما دام الله شهيداً عليك فيجب أن تستحي منه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾ [النساء:١].

وما دام الله مسيطراً فيجب أن تتوكل عليه، إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله، وما دام الله واحداً ولا شريك له، وقد قال لك: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١)﴾ [الرعد:١١].

إذاً يجب عليك أن تثق بالمستقبل، وتثق بالله عز وجل، وأنك ما دمت لم تُغَيِّر فلن يُغيَّر، وما دمت على طاعته قائماً فأنت من خير إلى خير، ومن درجة عليا إلى درجة أعلى، ومن منزلة إلى منزلة أسمى، ومن رقي إلى رقي أَرْضَى.

ومن تطبيقات اسم المهيمن أنّك إذا كنت في موقع قيادي، وأقلُّ موقع قيادي أن تكون أباً، إن كنت أباً فما فوق ذلك، إلى أن تكون على رأس أمّة، فلن تكون مهيمناً هيمنة حبٍّ وشفقة إلا إذا كانت معك المعلومات الكاملة، من صديق ابنك؟ لماذا تأخر البارحة؟ أين كان في هذه الساعة؟ إن لم تملك المعلومات فلن تستطيع أن تسيطر عليه، وإذا قلتُ: سيطرة فإنّي أعني بها سيطرة الحبِّ والشفقة، لا سيطرةَ القوّة والاستعلاء.

المعلومات الصحيحة أساس القرار الصحيح، وأيُّ قرار خاطئ فهو مستند إلى معلومات غير صحيحة، فلذلك لن تستطيع أن تحكم قيادة هذه الإنسان إلا إذا كانت المعلومات عنه صحيحة، يسمونها الآن تقصّي الحقائق، قبل أن يُتَّخذ قرار، تُرسَل لجان إلى موقع المشكلة لتقصّي الحقائق، عوِّد نفسك أن تتقصى الحقائق.

﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧)﴾ [النمل:٢٧].

هذه صفة يحتاجها أولياء الأمور، يحتاجها أيُّ إنسان في أيِّ موقع قيادي، والأب في موقع قياديّ، والمعلِّم في موقع قياديٍّ، لا بدَّ من معلومات صحيحة، أمّا الإنسان الذي تجري من تحته المياه وهو لا يدري، فلن يكون مهيمناً على أسرته.

وإذا كنت في موقع قياديٍّ فيقتضي ذلك المتابعة، أعطيت أمرًا، إن لم تتابع هذا الأمر فلا قيمة له، ففي الدّول النامية أوامر لا تُعدُّ ولا تُحصى، وكلُّها لا تنفَّذ ولا تُتابع.

إن لم تكن أعلم ممن حولك فلن تهيمن، فطبيب من الدرجة العاشرة لن يستطيع أن يدير مستشفى فيها عمالقة من الأطباء، لأنه أقلّ علماً منهم، قال الله عز وجل: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء:٣٤].

لأنك أعلم من زوجتك، لأنك أتقى منها، لأنك أبعد نظراً منها تهيمن. فهذه قوامة تكليف لا تشريف.

والهيمنة قدرة فإن لم تملك خطة عمليّة لحلِّ مشكلة في جزئياتها فلن تكون مهيمناً.

وإن لم تملك لمن تديره أن تحقِّق طموحاته فلن تكون مهيمناً، فالأب الذي لا يعمل، أو عملُه قليل، ودخله قليل جداً، وكلُّ طموحات أولاده ليست عنده، قد ينصرف عنه الأبناء إلى غيره، إلى أصدقائهم الأغنياء، أمّا إذا كنت تعمل، ولك دخل معقول جيِّد تحقِّق به طموحات أولادك فتبقى مسيطراً عليهم، فالعمل في بعض معانيه عبادة.

حينما تعمل، ولك دخل معقول تحقِّق به حاجاتِ مَن حولك مِن زوجة وأولاد، عندئذٍ تملك أسباب السيطرة عليهم، وأنا لا أتحدث هنا إلا عن فقر الكسل، ففقر القدَر صاحبه معذور، وفقر الإنفاق صاحبه مشكور، أمَّا فقر الكسل فمذموم صاحبُه.

وإن لم تكن العلاقة بينك وبين من تديره علاقة حب وشفقة فلن تهيمن.

فالمهيمن إذا كان كاملاً، وقلده مَن هيمن عليهم تقليداً صحيحاً فله أجره وأجر مَن قلَّده، في المقابل إن لم يكن المهيمن ملتزماً، كان يدَّخن مثلاً، وقلّده مَن حوله فعليه وزره ووزر الذي قلّده.

سيدنا عمر كان إذا أراد إنفاذ أمر جمع أهله وخاصته، وقال: إني قد أمرت الناس بكذا، ونهيتهم عن كذا، والناس كالطير، إن رأوكم وقعتم وقعوا، وايم الله، لا أوتينّ بواحد وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العقوبة لمكانه مني، فصارت القرابة من عمر مصيبة. ويقول تعالى مخاطباً نساء النّبيّ وهنّ في موضع هيمنة وقوّة: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النساء:٣٢].

وفي المقابل: ﴿ ۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ ﴾ [الأحزاب:٣١].

هذا اسم المهيمن أرجو الله سبحانه وتعالى أن أكون قد وُفِّقت إلى توضيح تعريفاته وتطبيقاته وشواهده، كما أرجو أن ينفعك الله بها أيها القارئ فهماً وعملاً.

الجبّار

اسم الجبَّار ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحشر:٢٣].

وقد ورد في السنة، ففي صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ: «يَأْخُذُ الجَبَّارُ سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضَهُ بِيَدِهِ، وَقَبَضَ بِيَدِهِ، فَجَعَلَ يَقْبِضُهَا وَيَبْسُطُهَا، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الجَبَّارُ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟...»

تتداخل أحياناً صفات الإنسان مع صفات الخالق، فلا بد من التوضيح بأن هناك صفات إذا نُسبت للخالق فهي صفات كمال، أما إذا نُسبت إلى المخلوق فهي صفات نقص، فإذا وصفنا إنساناً بأنه جبَّار فهذه صفة نقص فيه، لأنَّ وجود الإنسان مستعار، وهو مستمدٌّ من الله عز وجل، خُلق الإنسان ضعيفاً، خُلق الإنسان عجولاً، خُلق الإنسان هلوعاً، هذا الإنسان الذي يوصف بأنَّه جبَّار هل بإمكانه أن يضمن استمرار حياته ثانية واحدة؟ عشرات الأشخاص كلَّ يوم يموتون بسبب وبلا سبب، ومع تقدُّم

العلم يقول الطبيب: سكتة دماغية، أو سكتة قلبية، أو هبوط مفاجئ في وظائف الكليتين، أو تشمُّع في الكبد، ونحن بين أظهرنا أشخاص كثيرون، كانت لهم آمال عريضة جداً، كلُّ هذه الآمال تبدَّدت؛ لأنَّ خللاً طفيفاً جداً أصاب أجهزتهم.

شابٌّ كان في السّنة الرابعة في كليَّة الطِّبِّ، وكان من أذكى الطلاب، ومن أصحِّهم جسماً، ومن ألينهم عوداً، يتمتَّع بصفات في شبابه نادرة، ومن أسرة ميسورة، فجأة شعر بوهن في جسمه، وبضعف في قواه، وبدا اصفرار في وجهه، الطبيب الأول قال: هناك فقر في الدم، وكذلك أكد الطبيب الثاني، بأن هناك فقراً في الدم ليس لهذا الفقر أسباب، شاب في ريعان الشباب، من أسرة ميسورة، أي فقر دم هذا؟ ثم اكتشف في النهاية، أن في طحاله نشاطاً زائداً.

الطّحال مستودع للدم، ومعمل احتياطي لكريات الدم، ومقبرة لكريات الدم الميتة، ففي الثانية الواحدة يموت في جسم الإنسان مليونان ونصف كرية دم، هذه الكريات التي ماتت تذهب إلى الطحال، وفي الطحال، وبطريقة اقتصادية، تهدم هذه الكريات، وتعاد إلى أصول تكوينها: حديد، وهيموغلوبين، الحديد يرسل ثانية إلى معامل كريات الدم الحمراء، في نقي العظام، ليعاد تصنيعه، والهيموغلوبين يذهب إلى الكبد ليشكِّل الصفراء، أُخذت خزعة من طحال هذا الشاب وأُرسلت إلى بلد غربيٍّ متقدِّم، فكان الجواب أنَّ الطّحال يقوم بنشاط زائد يأخذ الكرية الحمراء الميتة ويحللها، ويأخذ الكرية الحية ويميتها ويحللها، فأصبح هناك نقص مستمر في كريات الدم الحمراء، وانتهى أجله، ومات في ريعان الشباب، فإذا قال أحدهم جهلاً وكبراً: أنا! فإننا نقول له: من أنت؟! فالطّحال لأنه عمل بنشاط أكبر، كان سبباً في إنهاء حياة الإنسان.

شخص آخر أصيب بمرض نادر؛ فقر دم لا مُصَنَّع، أي: إنّ معامل كريات الدم الحمراء تكفُّ ذاتياً عن صنع هذه الكريات، وهذا المرض العضال مجهول الأسباب، ويعدُّ سبباً في إنهاء حياة الإنسان، وهناك الهبوط المفاجئ في وظائف الكليتين، وهو مرض عُضال يجعل حياة الإنسان جحيماً لا يطاق، وهناك التشمُّع في الكبد... فالإنسان

لا تستمرُّ حياته بلا كبد أكثر من ثلاث ساعات، وهناك نقطة دم تتجمَّد في بعض شرايين المخ، في مكان ما يصاب الإنسان بالصمم، في مكان آخر يصاب الإنسان بالعمى، في مكان ثالث يُصاب بفقد الذاكرة، في مكان رابع يصاب بالشلل، فهذا الذي يقول كبراً: أنا... هو أحمق، لمجرد أن يقول: أنا، فإذا وُصف الإنسان بأنه جبَّار، فهذه صفة ذمٍّ في الإنسان، لأنَّ وجود الإنسان مفتقر إلى إمداد الله عز وجل، وجود الإنسان تابع لمشيئة الله، قوة الإنسان تابعة لمشيئة الله، محاكمة الإنسان تابعة لمشيئة الله، عقل الإنسان تابع لمشيئة الله، فإذا قلنا: فلان جبَّار فإننا نصفه بالحمق، لأنّه يدَّعي ما ليس له، يدَّعي حجماً ليس له، يدَّعي قوة ليست قوَّته، أمَّا إذا وصفنا خالق الكون الواحد الأحد، الفرد الصمد، الحيَّ القيُّومَ، الذي لا رادَّ لحكمه، إذا وصفنا خالقَ الكون بأنّه جبَّار فهذه صفة مدح، وصفة تنزيه من جهة، وصفة من صفات الذَّات لله عز وجل.

ويقاس على ذلك... إذا قلنا: فلان متكبِّر، فهذه صفة ذم، أما إذا قلنا: الله عز وجل متكبر، فهذه صفة مدح، الإنسان إذا تكبَّر فإنَّه يتكبَّر بغير حقٍّ، أمَّا ربُّنا عز وجل فمتكبِّر لأنَّه كبير فعلاً، لأنه عظيم، لأنه قويٌّ، لأنه خالق، لأنه ربٌّ، لأنه مسيِّر.

أردت من هذه المقدمة أن يتقبل القارئُ فكرة أن يتّصف إنسان بصفة، فَنَعُدُّها ذمَّاً، وأن يوصف خالق الكون بهذه الصفة، فنعدُّها مدحاً.

نحن في حياتنا عندنا شيء من هذا القبيل، يوصف الرجل بأنه كريم مدحاً، وتوصف المرأة بأنها كريمة ذماً، لأن المرأة إذا بذلت من مال زوجها دون إذنه، وأتلفت ماله... هذه ليست صفة مدح في المرأة، إنها صفة ذمّ، نَصِفُ إنساناً أحياناً بالجرأة، وهو في موقع، وقد تكون هذه الجرأة في موقع آخر تهوُّراً وحمقاً.

من معاني اسم الله الجبّار

الجبَّار صيغة مبالغة مِن الجابر، والجابر هو الموصوف بالجبر، والجبر من جبر، يجبر، والجبر إصلاح الشيء بالقهر.

واسم الجبَّار له معانٍ عدة:

المعنى الأول: الجبَّار هو العالي الذي لا يُنال، نقول: نخلة جبَّارة لارتفاعها، فلا نستطيع قطف ثمرها، نقول: ناقة جبَّارة يصعب أن نركبها، والله سبحانه وتعالى يقول في قرآنه الكريم: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المائدة:٢٢].

أي: أقوياء أشدَّاء، لا يرحمون ولا يلينون.

أمّا إذا قلنا: فلان جبَّار، أيّ: إنّه إنسان لا يتواضع، متعاظِم، متكبِّر، لا ينقاد إلى أحد، ولكن تأكّدوا أن هذا الذي يصف نفسه بأنه جبَّار، أو يتصرف على أنه جبَّار، أي: متعاظم متكبر، لا ينقاد إلى أحد، لا يخضع لأحد، لا يتواضع أبداً، مثل هذا الإنسان، لا بد أن يقصمه الله عز وجل قصماً، لذلك ترون وتسمعون في كلِّ زمان وفي كلِّ مكان عن جبَّار من جبابرة الأرض قصمه الله عز وجل، وجعله عبرة لمن يعتبر، لأنَّ الكبرياء والعظمة من صفات الله عز وجل، فإذا جاء مخلوق حادث ضعيف، ونازع الله هذه الصفات، قصمه الله عز وجل[1]. قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [غافر:٣٥].

الجبَّار هو الله عز وجل لأنه لا تناله الأفكار، ولا تحيط به الأبصار، ولا يصل إلى كنهه عقول العقلاء، كلُّ من بحث في أسماء الله الحسنى إلى يوم القيامة، لا يستطيع أن يحيط بذات الله عز وجل، كلُّ ما كُتب لم يكن سوى عملية تبسيط، وعملية تقريب، وعملية توضيح، أمّا أن تستطيع أن تحيط بالله عز وجل فهذا شيء مستحيل، لذلك

(١) روى البخاري في الأدب المفرد والطبراني بسند صحيح من حديث فضالة بن عبيد أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا تسأل عنهم: رجل ينازع الله إزاره ورجل ينازع الله رداءه فإن رداءه الكبرياء وإزاره العز، ورجل شك من أمر الله، والقنوط من رحمة الله».

الجبَّار هو الله عز وجل الذي لا تناله الأفكار، ولا تحيط به الأبصار، ولا يصل إلى كنهه عقول العقلاء.

لذلك من الجهل، والتَّنطُّع، والتطاول أن تظنَّ أنه بإمكانك أن تفهم كلَّ شيء عن الله، هذه فكرة مغلوطة، فعينُ العلم به عين الجهل به، وعين الجهل به عين العلم به، والعجز عن إدراك الإدراك إدراك، أي: إذا قلت: لا أعلم عن الله إلا في حدود ضيِّقة جداً فأنت عالم، هذه صفة علم فيك، إذا قلت: لا أعلم فأنت العالم، أما إذا أردت أن تقنع الناس ببساطة أنه بإمكانك أن تعرف كلَّ شيء فهذا دليل عجز، **هذا المعنى الأول** من معاني اسم الجبَّار الإله العظيم التي لا تناله الأفكار، ولا تحيط به الأبصار، ولا يصل إلى كنهه عقول العقلاء، وهو من صفات التنزيه.

﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ﴾ [الرعد:٤١].

أحياناً يصدر حكم من محكمة الصلح الأولى، الذي حُكم عليه يَستأنف، فيصدر حكم من محكمة الاستئناف، الذي حُكم عليه يستأنف، في محكمة النّقض، أمّا الله تعالى فلا غالب لأمره.

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف:٢١].

فإذا كنت مع الجبَّار، فأنت القوي، المستقبل لك، إذا كنت مع الجبَّار فأنت المنتصِر، إذا كنت مع الجبَّار تدور الأيام، ولا تستقر إلا على رفعة شأنك، لأنَّ مشيئة الله نافذة في كلِّ خلقه، ولا تنفذ فيه مشيئة أحد، يُجبر كلَّ أحد، ولا يُجبره أحد.

والجبَّار هو الجبروت، كمالك الملك والملكوت، يقول ﷺ: «سبحان ذي الجبروت والملكوت، والكبرياء، والعظمة» [أخرجه أبو داود والنسائي عن وف بن مالك].

واسم الجبار من أسماء التعظيم، ففي الحديث الشريف: «الكبْرِياءُ ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدا منهما قذَفْتُهُ في النار» [أخرجه مسلم وأبو داود عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة].

المعنى الثاني: مستمدٌّ من القول المشهور: ما عُبِدَ الله في الأرض بأفضل من جبر الخواطر، تقول: جبرت العظم: أصلحته، المجبِّر: هو الذي يجبر العظم، الجبَّار بهذا المعنى هو: المصلح للأمور، كلما حصلت مشكلة، فإذا ما تهدَّم شيء، أو افتقر إنسان، أو تضعضع إنسان، خالق الكون، رب العالمين، هو الجبَّار يرأب الصدع، ويلمُّ الشّمل، ويغني الفقير، ويجبر الكسير، ويعطي المحروم، ويرفع الذليل، لذلك كلما جئت الله عز وجل خاضعاً منكسراً جبر كسرك، ولمَّ شعثك، ورأب صدعك، وأغنى فقرك، ورفع شأنك، هذا معنى آخر للجبَّار: المصلِح.

المصلِح للأمور، تقول: جبرت الكسر إذا أصلحته، وجبرت الفقير إذا أنعشته فهو جابر، أما الجبَّار فهو كثير الجبر نوعاً وكماً، تقول مثلاً: جبَّار، لإنسان أعطى مئة رجل فقير، لم تقل له: جابر بل: جبَّار؛ لأن عطاءه شمل مئة إنسان، أما إذا أعطى إنساناً واحداً عطاءً كبيراً فهو أيضاً: جبَّار، فالمبالغة مبالغة عدد أو نوع، على كلٍّ الجبَّار هو المصلِح إنْ جبر الفقير أغناه، وإن جبر المريض شفاه، وإن جبر الذليل أعزَّه، وإن جبر الضعيف قوَّاه، وإن جبر الخائف أمَّنه، فالجابر هو المصلح والجبَّار كثير الإصلاح؛ كمّاً ونوعاً، هذا هو المعنى الثاني.

إذاً قل: يا جبَّار، يقول التُّجار: يا جبَّار! لأن بيع البضاعة عند التاجر جبر، وربنا عز وجل ما ذكر من صفات التجارة إلا صفة واحدة فقال: ﴿ وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ﴾ [التوبة:٢٤].

ما من منظر يتفتّت له قلب التاجر كأن يرى بضاعته مكدَّسةً في المستودع، ولا أحد يسأله عنها، لذلك... الله عز وجل عندما ذكر التجارة ذكر الشيء المؤلم عند التاجر، إذاً يا جبَّار! أي: يا رب اجعل هذه البضاعة نافقة، وحبب الناس بها، واجعلهم يقبلون عليها.

«يا جابر كلِّ كسير».

فالحزانى في كنف الله، والحزانى معرضون للرحمة، وفي الحديث:(إن الله يحب كلَّ قلب حزين) . [رواه الطبراني والحاكم عن أبي الدرداء]

أي إذا كان المرء في خصومة، وكان قوياً، واستعمل قوَّته في الظلم، فليس رابحاً، وليس منتصراً، لأن هناك جبَّاراً أعلى سوف يقصمه، وفي الحديث: (بئس العبد عبد تخيل واختال، ونسي الكبير المتعال، بئس العبد عبد تجبر واعتدى، نسي الجبَّار الأعلى، بئس العبد عبد سها ولها، ونسي المقابر والبلى، بئس العبد عبد عتا وطغى، ونسي المبتدأ والمنتهى). [رواه الترمذي عن أسماء بنت عميس الخثعمية]

أما إذا كان هذا المرء هو الجانب الأضعف فالجبَّار سيرحمه.

الجبَّار الذي يقصم الظالم، والجبَّار الذي يرحم المظلوم، فإذا كنت الجانب الأضعف كان الله معك، الله مع الضعيف، والله هو الجبَّار، سيجبر كسر الضعيف، وهو الجبَّار سيقصم الظالم.

زوجان تخاصما، أحدهما تجاوز حدوده، هنيئاً لمن كان الأضعف، هنيئاً لمن كان مظلوماً، لأنَّ الله مع المظلوم في الزواج، وفي الشراكة، وفي أيِّ تعامل.

أب غني... ترك إرثاً كبيراً، وترك أولاداً... وأحد أولاده كبير قويٌّ، والآخرون صغار ضعفاء، الكبير استطاع بذكاء، أو بحيلة، أن يأخذ معظم الثروة له، وأن يخصَّ إخوته الصغار بشيء قليل، لا يسمن ولا يغني من جوع، الله جبَّار، يصلح الأمور ويقصم الجبابرة، فما زال أحد إخوته الصغار يوفقه الله عز وجل، ويمده، وما زال الله عز وجل يضعف الكبير، ويفقره، ويسدُّ الطرق في وجهه إلى أن اضطر الكبير أن يبيع الصغير كلَّ ما أخذه من أبيه غصباً، ثم اضطرُّ الكبير أن يعمل عند الصغير محاسباً ومثل هذه القصص كثيرة جداً.

الجبَّار يقصم الظالم، والجبَّار يرحم المظلوم، فالله جبَّار على الظالمين، جبَّار للمظلومين، جبَّار على الأقوياء، جبَّار للضعفاء، جبَّار على المتكبِّرين، جبَّار للمتذللين.

فالجبَّار المصلِح لكلِّ الأمور، المظهِر لدين الحقِّ، الميسِّر لكل عسير، الجابر لكل كسير، وهذه صفة من صفة أفعال الله عز وجل، إنَّها صفة فعل.

المعنى الثالث: الجبَّار بمعنى أنَّه جبره على كذا، أي: أكرهه على ما أراد، بمعنى أجبره، الله عز وجل جبَّار، أي: مشيئته هي النافذة، أنت تريد، وأنا أريد، والله يفعل ما يريد، فرعون قال: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النازعات:٢٤]، ﴿ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي ﴾ [القصص:٣٨]، رأى في المنام أن طفلاً من بني إسرائيل سوف يقضي على ملكه، فبدل أن يتوب إلى الله عز وجل، وأن يعود عن غيِّه، وعن ظلمه، وعن كِبره، وعن ادعائه، خطر في باله أن يقتل كلَّ أبناء بني إسرائيل، وهكذا فعل، لا تستطيع قابلة في عصره أن تخفي عن رجاله مولوداً ذكراً وُلد لبني إسرائيل، فإذا أخفت ذلك قتلت هي مكانه... يذبِّح أبناءهم.

أما هذا الذي سيقضي على ملكه؛ فقد ربَّاه في قصره، الله عز وجل الجبَّار قهره، وهو يغرق قال: ﴿ ۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يونس:٩٠].

إخوة يوسف أرادوا به كيداً، فجعلوه في غيابات الجب، أي: أرادوا أن يقتلوه، ما الذي حصل؟ دخلوا عليه وهو عزيز مصر قال: ﴿ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف:٩٠] ويقول الله عز وجل موضحاً مغزى هذه القصة: ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [يوسف:٢١]، هذه قصة ثانية.

إذاً الله جبَّار فقد أحبط مسعى إخوته الذين أرادوا أن يجعلوه في غيابة الجب، وأرادوا أن يقتلوه، ثم صار عزيز مصر، إذاً الله جبَّار.

قوم إبراهيم أرادوا أن يحرقوه، وأن ينتهوا منه، والأمر بيدهم، هم أقوياء، وجاؤوا بالنار، وأضرموها، وألقوا إبراهيم عليه السلام فيها، وكان من الممكن أن يتفلّت من أيديهم، كان من الممكن ألاَّ يعثروا عليه، كان من الممكن أن تأتي أمطار غزيرة فتطفئ نارهم، كان من الممكن ألا يعرفوا من كسر هذه الأصنام، لكن أراد الله عز وجل أن يعرفوا أنّه كسرها، وهو فتى، وأوقدوا النيران، واشتعلت النيران، وألقوه في النار، الله جبَّار... قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠)﴾ [الأنبياء:٦٩-٧٠].

النبي صلى الله عليه وسلم ائتمروا على قتله، قاطعوه، نكّلوا بأصحابه، ثم دخل عليهم فاتحاً، وهم رهن إشارة منه، لو أعطى إشارة لقُتِلوا جميعاً قال: «ما تظنون أني فاعل بكم؟» فقالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم فقال: «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم»[1] الله جبَّار.

في غزوة الخندق ضاق الأمر على النبي وأصحابه إلى أن ظن بعض أصحاب النبي أن الأمر قد انتهى، وتكلم قوم بكلام قبيح فقال معتب بن قشير: يعدنا محمد كنوز قيصر وكسرى، وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى حاجته!! ما الذي حصل؟ هبَّت الرياح العاصفة، فقلبت قدورهم، واقتلعت خيامهم، وأطفأت نيرانهم، قال تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥)﴾ [الأحزاب:٢٥].

(١) وفي المسند وسنن الترمذي: قال رجل لا يعرف: لا قريش بعد اليوم، فنادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمن الأسود والأبيض إلا فلاناً وفلاناً ناساً سماهم، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦)﴾ [النحل:١٢٦] فقال رسول الله: نصبر ولا نعاقب.

إذاً المعنى الأول من معاني الجبَّار: الشيء العالي الذي لا يدرك، فهو من أسماء التنزيه، أي: من المستحيل بأن تحيط بالله عز وجل، حتى الأنبياء لم يعرفوا الله المعرفة المطلقة، عرفوا جانباً من كمال الله عز وجل، عرفوا طرفاً من أسمائه، فلا يعرف الله إلا الله.

المعنى الثاني للجبَّار: المصلح، الضعيفَ يجبره، الكسيرَ يجبره، المظلومَ يجبره، الفقيرَ يجبره.

أما المعنى الثالث: فهو الذي يجبر جميع الخلق على مشيئته، وعلى إرادته.

والله لقد سمعت قصة مؤثرة: رجل معروف بالغنى الفاحش يعمل في تجارة ناجحة جداً، ورائجة جداً، ويحصل منها على أرباح طائلة، خطب ابنته شاب مهندس، أخلاقي، دخله دخل مهندس، رفضه لفقره، لكنَّ رفضه كان باستعلاء، وبكبر، وبغطرسة، هذه التجارة الرائجة، أساسها قانون، هذا القانون، أوقف العمل به، فجأة توقَّفت تجارته، فجأة أصبح تحت طائلة المطاليب، هذا التاجر الغنيُّ، تراجعت تجارته شيئاً فشيئاً إلى أن أصبح بحاجة إلى مصروف يومه، ثم توسَّط لدى بعضهم أن يقنع الشاب المهندس أن يطلب ابنته مرة ثانية، وتزوجها هذا المهندس، وقد وفقه الله عز وجل في عمله، ثم عمل العم عند صهره المهندس موظفاً، الله جبَّار.

الله الجبَّار، مع الضعيف المظلوم المقهور، ومع الكسير الحزين المستضعَف، الله عز وجل معه دائماً يؤيده، وينصره، ويوفِّقه، أقول أنا أعرف من هو المظلوم، ومن هو الظالم من مستقبل الشريكين، فالذي وفقه الله عز وجل هو المظلوم، والذي قصمه الله، هو الظالم في الأعمِّ الأغلب.

الزوجان؛ طُلِّقت امرأة من زوجها وهو يدَّعي أنها زوجة سيئة، وهي تدَّعي أنه زوج سيئ، في المستقبل إذا وُفِّقت بزوج صالح أكرمها ووُرِّط الزوج بزوجة سيئة أزعجته، معنى ذلك أنه كان ظالماً لها.

ويُروى -والقصة رمزيّة- أنَّ رجلاً كان جالساً مع زوجته يأكلان الدجاج، طرق الباب طارق، قامت الزوجة لتفتح الباب فكان بالباب رجل سائل، ورغبت

الزوجة أن تعطيه شيئاً من الطعام، فنهرها زوجها وقال: اطرديه، دارت الأيام وطُلِّقت هذه من زوجها، وخطبها إنسان ميسور الحال، وهما جالسان يأكلان هذا الطعام نفسه، ولحكمة بالغة طرق الباب، فانطلقت لتفتح الباب، فاضطربت، قال زوجها: من الطارق؟ قالت: سائل، قال: لماذا اضطربتِ، قالت: أتدري من السائل؟ إنه زوجي الأول، قال: أتدرين من أنا؟ أنا السائل الأول، الله هو الجبّار.

وفي كلِّ زمان وفي كلِّ مكان وفي كلِّ عصر وفي كلِّ مصر تجري مثل هذه القصص، غني يفتقر، فقير يغتني، ضعيف يقوى، قويٌّ يضعُف، كم من إنسان كان في قبضة إنسان، يذيقه ألوان الإهانة والعذاب، فجأة وقع هذا القويُّ في قبضة المستضعَف، فالإنسان المؤمن لو أنّ الدنيا أقبلت عليه، فإنَّه لا يتكبر، ولا يتجبَّر، ولا يتعجرف.

والحقيقة؛ كما أن الله عز وجل يعطي المال بحجم كبير، فيدهش، ويأخذه دفعة واحدة، فيُدهش.

قصة وقعت منذ سبعين عاماً تقريباً، كان هناك طبيب نسائي جبَّار، لا يوجد في دمشق غيره، لا يخرج من العيادة إلا بليرة ذهب وعربة، لتنقله، لعدم وجود السيارات في زمنه، لا بد من دفع الليرة الذهبية ولو كانت المريضة فقيرة، ذكر لي بعضهم أنَّ بعض الناس يضطرون لبيع الفراش من تحت المريضة ليعطوه الليرة، ولادة عسِرة، وطبيب وحيد في البلد، ولا يخرج من بيته إلا بليرة ذهب وعربة.

بنى بناءً في أرقى أحياء دمشق، والبناء موجود الآن وهو من أندر الأبنية، بعد ما بناه أصيب بالفالج، تحمَّلته زوجته زمناً يسيراً ثم أمرت زوجته أن يوضع في قبو البناء، فوضعوه في القبو، وكانت تبعث له الطعام مع الخادمة، فيسألها عن زوجته فتقول له: قلت لها ولا أدري لم لا تحضر، وقد طلبها أول مرة، والثانية، والثالثة، وحينما تطلُّ عليه زوجته بعد طلبه الملحّ تُسمعه أقسى الكلمات، وتغيب عنه، بقي مشلولاً ثماني سنوات، ويقدَّم له الطعام عن طريق الخادمة، وبسبب من الرائحة الكريهة التي تفوح من القبو

أمرت زوجته أن ينقل إلى بيت بعيد ليبقى هذ البناء أنيقاً، وبعيداً عن رائحته الكريهة وعن صراخه، وهو الذي بنى هذا البناء وزيَّنه وزخرفه.

الله جبَّار، لم يكن هذا الطبيب يرحم المرأة الفقيرة، فيُباع الفراش من تحتها، ليأخذ الليرة الذهبية.

وكلُّ إنسان يتجبَّر، ويتحكَّم بالناس؛ بعلمه حيث يقول: لا يوجد غيري في هذا الاختصاص، أو بماله، أو بقوته، فليعلم أنَّ الله جبَّار.

والله جبَّار مع الضعيف ضدَّ القويِّ، مع المظلوم ضد الظالم، ومع الفقير ضد الغني الظالم، وليس كلُّ غنيٍّ بظالم.

فالله عز وجل جبَّار، هذا هو المعنى الثالث جبره على كذا، أي: أكرهه على ما أراد.

الجبَّار: هو الله عز وجل الذي أجبر الخلق على ما أراد وحملهم عليه، أرادوا أم لم يريدوا، أحبوا أم لم يحبوا، أي: لا يجري في ملكه إلا ما يريد، ولا يحصل في كونه إلا ما يشاء، ينفذ مشيئته على سبيل الإجبَّار، ولا تنفذ فيه مشيئة أحد، سبحان من تنزه عن الفحشاء، وسبحان من لا يجري في ملكه إلا ما يشاء.

بعضهم قال: «الجبَّار من لا يرقى إليه وَهْمٌ، ولا يشرف عليه فهمٌ، ولا يلحقه إدراك، ينفذ أمره في كلِّ شيء، ولا ينفذ فيه أمر شيء، من أصلح الأشياء بلا اعوجاج، وأمر بالطاعة بلا احتياج».

إلا أنَّ الجبَّار عند فئة الجبرية، وهي فئة عقيدتها فاسدة، له معنى غير صحيح ويناقض القرآن الكريم، هي تتصور أو تتوهم أن الله يجبر عباده على أفعالهم، وأنَّ الإنسان كريشة في مهب الريح.

هذه العقيدة تتناقض مع كمال الله، فكيف يجبر الله عبداً من عباده على معصية ثم يحاسبه عليها؟ هذه عقيدة أهل الشرك، قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ

أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١٤٨].

فلو ألغينا حرية الاختيار في الإنسان لألغينا الثواب والعقاب، ألغينا الجنة والنار، ألغينا حمل الأمانة، ألغينا التكليف، ألغينا كلَّ شيء، قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩].

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان:٣].

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة:١٤٨].

أصل التكليف أنك مخير، يقول سيدنا الحسن رضي الله عنه (لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة، إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلَّف يسيراً، ولم يكلِّف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً).

نصيب المؤمن من اسم الله الجبار

فبعد توضيح المعنى العميق للجبَّار هل للإنسان علاقة مع غير الله عز وجل، هل يوجد جهة غير الله عز وجل أهل لأن تسأل وأن تُخشَى؟

قال أحد العلماء: «يا رب عجبت لمن يعرفك كيف يرجو أحداً غيرك، وعجبت لمن يعرفك كيف يستعين على أمر بأحد غيرك، وعجبت لمن يعرفك كيف يلتفت إلى أحد غيرك».

وإذا كان الإنسان جبَّاراً بالمعنى المذموم، لا بد من أن يقصمه الله عز وجل، لكن يمكن للإنسان أن يكون جبَّاراً من زاوية واحدة، فمن لم يكن أسيراً لحبِّ المال، والجاه، لأنَّ كلَّ إنسان يحب المال، يصبح حبُّ المال نقطة ضعف فيه، أصبح ضعيفاً، يقولون:

فلان مفتاحه المال، فلان تعظمه، يلين معك، هذا يحب الجاه، فكلُّ إنسان أسير للمال أو الجاه هذا إنسان ضعيف، فإذا تنزّه الإنسان عن حبِّ المال، وحبِّ الجاه، أصبح جبَّاراً بالمعنى الذي يليق بالإنسان، لم يبقَ إنساناً ضعيفاً تستطيع أن تملك مفتاحه.

فالمؤمن مفتاحه الحقُّ لا يُوصل إليه لا بالمال ولا بالمديح، لا تصل إليه إلا بالحقِّ، فإذا كان هناك مؤمن أحبَّ أن يتخلّق باسم الجبَّار لا بمعنى المتكبر، ولا بمعنى القهار، ولا بمعنى الذي ينفذ مشيئته، بل بمعنى أنَّه ليس محتاجاً إلى مديح ولا إلى ثناء ولا إلى مال.

فعند كلِّ شخص مهما يكن قوياً، نقطتا ضعف؛ المال والنساء، ولا يوجد إنسان يتآمر على إنسان إلا بهاتين النقطتين، إما بامرأة تغريه فيسقط، وإما بمال يأخذه حراماً فيسقط، فإذا كان الإنسان محصّناً من المال والنساء، لا يستطيع أعداؤه النيل منه فقد فاز.

فالجبَّار من الناس الذي يجبر الخلق بهيئته وصورته وأمانته وصدقه وعفته واستقامته على أن يقتدوا به، يفيد ولا يستفيد، ويؤثّر ولا يتأثّر، هذا هو النبي ﷺ، بلغ من الكمال درجة أنه يعطي ولا يأخذ، ينفع الخلق كلّهم ولا ينتفع منهم، يؤثّر فيهم ولا يتأثر، روى مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ غنماً بين جبلين، فأعطاه إياه، فأتى قومه، فقال: أي قوم! أسلموا، فوالله! إن محمداً ليعطي عطاء ما يخاف الفقر.

إذاً الجبَّار إذا أمكن لإنسان أن يكون كريماً فعليه أن يتنزّه عن حب المال، وعن حب المديح والجاه.

المتكبر

هذا الاسم لم يرد إلا في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ ﴾ [الحشر:٢٣].

وفي السنة الصحيحة، روى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية وهو على المنبر، قال: ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر:٦٧].

قال النبي الكريم ﷺ: يقول الله عز وجل: «أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا المتعال» فجعل النبي ﷺ يرددها، حتى رجف به المنبر، حتى ظننا أنه سيخُرّ به.

من معاني اسم الله المتكبر

لا بدَّ للمؤمن من أن يعرف الله، ومعرفة أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى جزء من معرفته، إنّه موجود وإنّه واحد وإنّه كامل، وإني أكرر فأقول: لا بدَّ من معرفة أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى لقول النبي ﷺ: «إنَّ لله تِسْعَةً وتِسْعِينَ اسْماً مِئَةً إلا وَاحِداً مَنْ أحْصاها دَخَلَ الجَنَّةَ» [متفق عليه من حديث أبي هريرة].

ولكنَّ الحقيقة أنَّ الله سبحانه وتعالى لا يعرفه إلا الله، هذه حقيقة يجب أن تكون واضحة لنا، لا يعرف الله إلا الله، ونحن إذا أردنا أن نعرفه فشأننا كمن يأخذ مخيطاً ويغمسه في مياه البحر ثم لينزعه فلينظر بم يرجع؟ هذا تشبيه ورد في الحديث الشريف قال ﷺ: «ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما أخذ المِخْيَط غُمس في البحر من مائه» [الطبراني بسند صحيح عن المستورد].

فإذا كانت معرفة الله سبحانه وتعالى بحراً فمعرفة الإنسان لله عز وجل لا تزيد على ما يحمله المخيط إذا غمس في مياه البحر، ولكن كما قال سيّدنا علي رضي الله عنه: «أخذ القليل خير من ترك الكثير».

وبعد: فهل بالإمكان أن نضرب بعض الأمثلة كي نتعرَّف إلى اسم الله عز وجل المتكبِّر أو غيره؟ أيجوز أن نضرب أمثلة منتزعة من حياتنا من أجل توضيح بعض الحقائق؟

أجل، يجوز ولله المثل الأعلى، سآتيكم بالدليل، الدليل هو أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يعرِّفنا بذاته فقال: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨)﴾ [الروم:٢٨].

ربنا سبحانه وتعالى من أجل أن يعرفنا بأنه لا إله إلا الله ولا شريك له ولا أحد يشركه في حكمه ضرب هذا المثل، إذاً يمكن أن أضرب بعض الأمثال لمعرفة أسماء الله الحسنى، والسبب أن الاسم الذي نحن بصدده الآن هو المُتكبِّر، وكلمة المُتكبِّر إذا أطلقت على إنسان تنفر النفس منه، ولكنَّ المُتكبِّر هو الله سبحانه وتعالى.

إنسان بحاجة ماسّة إلى مئة ألف ليرة ليجري بها عمليّة جراحيّة تحدِّد مصيره في الحياة، قال الأطباء: لا بدَّ من إجراء هذه العمليَّة ولا بدَّ منْ هذا المبلغ، وهو لا يملكه، توجَّه إلى رجل من أقربائه فقال: أمعك هذا المبلغ؟ قال: نعم معي هذا المبلغ، وهو كاذب، وتوجَّه إلى إنسان آخر من أقربائه وسأله السؤال نفسه قال: أمعك هذا المبلغ؟

قال: نعم معي وهو صادق، فالذي قال: نعم معي هذا المبلغ ولا يملكه فهذا الرجل يكون ناقصاً، ويدَّعي ما ليس عنده، والثاني لو أنه قال لقريبه: لا ليس معي شيء وتواضع يعدُّ ناقصاً، بل يجب أن يقول: معي هذا المبلغ وخذه.

فالتكبُّر في الله كمال، وفي العبد نقص، لأنَّ الله خالق الأكوان بيده ملكوت كلِّ شيء، إذا أراد شيئاً فإنما يقول له: كن فيكون، وإليه يرجع الأمر كلُّه، لا نهاية لعظمته، لا نهاية لكماله، لا نهاية لعلمه، لا نهاية لقوَّته، فإذا تكبَّر الله سبحانه وتعالى فلأنَّه عظيم، وهذا ينقلنا إلى اسم آخر من أسماء الله الحسنى وهو اسم المؤمن يعرف نفسه، إذا كنت تحمل أعلى شهادة في اللغة العربية وجلس إلى جانبك إنسان يحمل الإعدادية، وقرأ نصاً على سمعك، فإذا في قراءته أغلاط كثيرة، وأنت مهما كنت متواضعاً ألا تعرف أنك في اختصاصك متفوق، وتحمل الدرجة العلمية، وأن هذه القراءة كلُّها أغلاط؟ بلى تعرف هذا وذاك، ومعرفتك حقيقة مسلّم بها.

إذاً، بادئ ذي بدء إذا قال الجبان: أنا شجاع، فهذه صفة نقص في حقه، وإذا قال البخيل: أنا كريم، فهذا الكلام نقص في حقِّه، وإذا قال الجاهل: أنا عالم، فهذا نقص في حقه، أما إذا قال العالم: أنا عالم وسأجيبك عن سؤالك رحمة بك فهذا كمال، وإذا قال الشجاع: أنا شجاع، وسأدافع عنك فهذا كمال، وإذا قال الكريم: أنا كريم، وخذ هذا المال فهذا كمال.

فعندما نقول: إنَّ الله متكبِّر فهو اسم من أسماء الكمال، وعندما تقول: فلان متكبِّر فالتكبُّر صفة نقص في الإنسان، هذه الحقيقة الأولى.

المُتكبِّر هو الذي يرى الكلَّ صغيراً بالنسبة لذاته، ولا يرى العظمة والكبرياء إلا لنفسه، فينظر إلى غيره نظر الملوك إلى العبيد.

الله خالق السموات والأرض، بيده ملكوت كلِّ شيء، إليه يُرجع الأمر كلُّه، إذا أراد شيئاً فإنما يقول له: كن فيكون، فإذا كان الله متكبراً فهو يعرِّف ذاته، وهذا يتصل باسم آخر من أسمائه الحسنى، ألا وهو المؤمن.

ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «قَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: الكِبرِياءُ رِدائي، والعَظَمَةُ إزَارِي، فمَنْ نازَعَني واحِداً مِنْهُما قَذَفْتُهُ في النَّارِ» [سنن أبي داود من حديث أبي هريرة].

وفي رواية: «الكبرياء ردائي، فمن نازعني ردائي قصمته» [أخرجها الحاكم في «المستدرك» من حديث أبي هريرة].

بعض العلماء يقول: «المُتكبِّر من الكبرياء وذو الكبرياء هو الملك». قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [يونس:٧٨].

فالمُتكبِّر هو الملك الذي لا يزول سلطانه، والعظيم الذي لا يجري في ملكه إلا ما يريد، وهو الله الواحد القهار، هذا معنى من معاني المُتكبِّر.

معنى آخر: المُتكبِّر من الكبير والعظيم لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف:٣١].

ومعنى أكبرنه، أي: عظَّمنه، ومعنى قطَّعن أيديهن كما قال العلماء: جرحن أصابعهنَّ.

الله متكبر، أي: كبير ليس لكبريائه نهاية، وهو عظيم ليس لعظمته غاية، هذا المعنى الثاني من معاني المُتكبِّر.

والمعنى الثالث: المُتكبِّر هو الذي تكبَّر عن ظلم العباد، والمُتكبِّر هو الذي انفرد بالكبرياء والملكوت، وتوحَّد بالعظمة والجبروت، والمُتكبِّر هو الذي بيده الإحسان ومنه الغفران، والمُتكبِّر الذي ليس لملكه زوال ولا لعظمته انتقال.

وبعد فمن معاني المُتكبِّر؛ العظيم ذو الكبرياء، وأصل التكبُّر الامتناع وعدم الانقياد، الله سبحانه وتعالى طليق الإرادة، والمُتكبِّر هو الذي تكبَّر وترفَّع عن كلِّ نقص، وتنزَّه عن كلِّ ما لا يليق به، المتعالي عن صفات خلقه أيضاً.

إذاً... لا بد من أن نعرف الله لأننا إذا عرفناه أطعناه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر:٢٨].

لا يصح عملنا إلا إذا عرفناه، ولا نسعد في الدنيا والآخرة إلا إذا صح عملنا، ثلاث فقرات لا بد من أن نعرفه، فإذا عرفناه أطعناه، وإذا أطعناه سعدنا بقربه في الدنيا والآخرة.

إذاً... المُتكبِّر هو المتعالي عن صفات خلقه، كامل في ذاته، كامل في صفاته، كامل في أفعاله.

تكبُّره وكبرياؤه ورفعته وعلاه ومجده وثناؤه وعلوُّه وبهاؤه، كلُّ ذلك إخبار عن استحقاقه لنعوت الجلال وتنزُّهه عن النَّقائص والآفات.

طبعاً لا يعرف اسم المُتكبِّر إلا من جال فكره في الكون، يقول بعض العلماء: «إن في الكون من المجرات ما يزيد على مليون مليون مجرة، وفي كل مجرّة ما يزيد على مليون مليون نجم، وإنَّ بين الأرض والقمر ثانية ضوئية واحدة، والضوء يقطع في الثانية ثلاث مئة ألف كيلومتر، وبين الأرض والشمس ثماني دقائق، وبين الأرض وأقرب نجم ملتهب أربع سنوات ضوئية»، فإذا أردنا أن نقطع هذه المسافة بسيارة لاحتجنا إلى ما يقرب من خمسين مليون عام، ذلك إذا ركب الإنسان مركبة واتجه نحو أقرب نجم ملتهب في الكون من الأرض، يحتاج إلى ما يقارب خمسين مليون عام، فما قولكم بنجم القطب الذي يبعد عنا أربعة آلاف سنة ضوئية؟ تضرب بألف، أي: خمسين مليون ضرب ألف، أي: خمسين ألف مليون عام لنجم القطب، أربعة آلاف سنة ضوئية، فما قولكم بالمجرة المسلسلة تلك المجرة الصغيرة التي تبعد عنا مليوني سنة ضوئية، فما قولكم بأحدث مجرة اكتشفت تبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية؟ قال تعالى: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [الواقعة:٧٥-٧٦].

يقول الإنسان: أنا، من أنت؟ تأمَّل في هذه المسافات، هذه المجرة كانت في هذا المكان قبل عشرين مليار سنة ضوئية ولا يعلم مكانها الآن إلا الله.

ذكرت من قبل في دراسة بعض الأسماء الحسنى: أنَّ بين الأرض والشمس مئة وستة وخمسين مليون كيلومتر، وأنَّ الشمس تكبر الأرض بمليون وثلاث مئة ألف مرة، وأن في برج العقرب نجماً صغيراً أحمر اللون متألِّقاً اسمه قلب العقرب يتَّسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما، إذاً الله المُتكبِّر، فخلقه مظهر لكبريائه.

لقد ذكرت، وأكرر أن الكون مظهر لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، لا تدركه الأبصار، ولكنَّ الكون بين أيدينا وهو يجسِّد ويظهر عظمة الله عز وجل قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت:٥٣].

من منَّا يصدِّق أنَّ في اللقاء الزوجي الواحد يوجد ثلاث مئة مليون حوين تنطلق من الرجل، وعلى كلِّ حُوين ملايين المعلومات المبرمجة، وهذه المورثات لا تُرى إلا بالمجهر، خلايا الدماغ مئة وأربعون مليار خلية سمراء اللون لم تُعرف وظيفتها بعد، في الشبكية مئة وثلاثون مليون عصية ومخروط من أجل تحقيق الرؤية الدقيقة.

من منا يصدق أن الإنسان إذا ذهب إلى شمال الأرض إلى القطب المتجمد الشمالي حيث الحرارة سبعون درجة تحت الصفر بإمكانه أن يرتدي معطفاً يلفُّ به جسمه جيداً ليقيه قسوة البرد هناك، ويستعين بكلِّ ما يقيه البرد، وأن يضع الأشياء التي تقيه البرد، لكن ليس بإمكانه أن يغطي عينيه؟ فإذا لامس الهواء الخارجي ماء العين فلن يتجمد البتّة، فمن منع ماء العين من التّجمُّد؟ هو المُتكبِّر، المنزَّه عن النقائص فعلاً وصفةً، تفكَّرْ في خلق الله، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩١].

من منا يصدق أن في دماغ الإنسان خاصيّة بالغة التعقيد حيث يحسب تفاضل وصول الصوت إلى الأذنين، يصل الصوت إلى الأذن اليمنى إذا كان الصوت من جهة

اليمين قبل الأذن اليسرى بواحد على ألف وست مئة وخمسة وعشرين جزءاً من الثانية، والدماغ يحسب هذا التفاضل، ويعرف الإنسان عندئذٍ جهة الصوت، ولولا هذا الجهاز لما عرفت جهة الصوت أبداً، حقاً هو المُتكبِّر.

أسماء الله عز وجل نعرفها من خلال الكون، من خلال هذه الآيات الدالة على عظمته، كل منا عنده مستودع للوقود السائل، فسَعة المتر المكعب خمسة براميل من منا يصدق أنَّ القلب يضخ في اليوم الواحد ثمانية أمتار مكعبة؟ وأنَّ قلب الإنسان الذي يعيش في عمر متوسط يضخ ما يملأ أكبر ناطحة سحاب في العالم؟!

من منَّا يصدِّق أنَّ في الكبد وظائف تزيد على خمسة آلاف وظيفة؟! وأنَّ الإنسان دون كبد يعيش ثلاث ساعات فقط؟!... إذا أردتُ أن أمضي في الحديث عن معجزات الله عز وجل وعن إعجاز الله في خلقه فالأمر لا ينتهي، لكن الله تعالى لخص هذا كلَّه حيث قال: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات:٢١].

جسمك -عزيزي القارئ- جهاز إيضاح، أعضاء جسمك على اختلافها أعظم وسيلة إيضاح مستمرة، لو أمضيت حياتك الدنيا كلَّها تفكُّر في عظمة خلق الإنسان لما عرفت الله عز وجل حقَّ المعرفة، ولكن الله سبحانه أحالك لتعرف عنه بعض المعرفة إلى ذاتك فقال: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

هذا الذي يتكبَّر وهو من بني البشر كم هو ظالم لنفسه؟ الله سبحانه وتعالى تلطَّف بنا حينما جاءت هزَّة أرضية خفيفة جداً، لو أنَّها كانت أشدَّ لكانت أخبارنا في الآفاق، مثلاً: ثمانون ألف قتيل، سبعون ألف جريح تحت الأنقاض، أبنية متهدِّمة، لكنها كانت خفيفة حسب مقياس ريختر دون خمس درجات، ولو كانت أشدَّ حسب مقياس ريختر لكنَّا غير موجودين في هذا المجلس، فعلى أيِّ شيء نتكبر، نحن نحيا ونعيش بلطف الله عز وجل، مدن رائعة، مدن جميلة جداً أصبحت أثراً بعد عين في ثوانٍ، فعلام الكِبر؟

حينما انحبست أمطار السماء، وأصبحت كأس الماء عزيزة، وهُدِّدْنا بكأس الماء أن نفقدها، فهل في الأرض كلِّها جهة تستطيع أن تتَّخذ قراراً بإنزال الأمطار؟ لكن الله سبحانه وتعالى تلطَّف بنا وأكرمنا وأرانا من آياته، إنه هو المُتكبِّر فمن نحن؟

مـا لي سـوى فقـري إليـك وسـيلة فبالافتقـــار إليـــك ربي أضرع
مـا لي سـوى قرعـي لبابـك حيلـة فلـئن رددت فـأيَّ بـاب أقـرع

أنت في أعلى درجات العبودية مفتقر إلى الله عز وجل، وأنت في أوج قوتك وأوج صحتك وأوج علمك يجب أن تكون مفتقراً إلى الله سبحانه وتعالى، إذا أقدمت على عمل فقل: اللهم إني تبرأت من حولي وقوتي، والتجأت إلى حولك وقوتك، يا ذا القوة المتين.

فقد كان ﷺ إذا غزا قال: «اللهم أنت عضدي، وأنت نصيري، بك أحول، وبك أصول، وبك أقاتل» [رواه أحمد، وأبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث أنس].

من منّا يصدق (أذكر هذه الأمثلة لأوقظ بعض الناس من غفلتهم وشرودهم فإنه لا يصحُّ للإنسان أن يتكبَّر فإذا تكبَّر فهو أحمق) أنّ نقطة من الدم لو تجمَّدت في بعض شرايين المخِّ في مكان يصاب بالشلل، كان معززاً مكرماً، خفيفاً ظلُّه على الآخرين، وفجأةً أصبح جسداً ملقىً على السرير، واهناً خائراً، فأقرب الناس إليه يتمنى موته، علامَ الكبر؟ هذه النقطة لو تجمدت في مكان آخر لفقد الإنسان ذاكرته.

حدثني أخ كريم توفي والده، وقبل وفاته فقد ذاكرته، خرج من معمله، وبيته في حيِّ المهاجرين، وبقي يبحث عن بيته نصف ساعة لم يعرف بيته، من أنت بلا ذاكرة؟ إذا فقدت ذاكرتك فأنت ذرّة هباء في الهواء.

دخل ابنٌ على أبيه وهو صيدلاني، قال: من أنت؟ قال: أنا ابنك يا أبتِ، قال: لا أعرفك، إذاً نقطة ما في مكان بالدماغ أفقدته ذاكرته، وإذا وقعت بمكان غيره أصبح لا يبصر، كلُّ ما في الدنيا من جمال توارى واختفى، فلا ألوان، ولا جبال خضراء، ولا بحار زرقاء، ولا طفل جميلاً، لقد توارى وراء ظلمة عينيه كلُّ الجمال.

فالإنسان إذا غضَّ بصره عن محارم الله، وإذا باتت هذه العين خاشعة لله، فأغلبُ الظن أن الله سبحانه وتعالى لا يفجعه بها.

أحد علماء دمشق الكبار علّم ثلاثة أجيال، كان إذا رأى أحداً في الطريق يقول له: يا بني كنت أنت تلميذي، وكان أبوك تلميذي، وكان جدك تلميذي، بدأ بالتعليم في السنة الثامنة عشرة من عمره وتوفي في الثامنة والتسعين، وكان مستقيم القامة حاد البصر مرهف السمع وأكرمه الله بأن زوجته عاشت مثله، كان يقال له: يا سيدي! ما هذه الصحة؟ يقول: يا بني حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر، من عاش تقياً عاش قوياً، ألا تحب أن يكون خريف عمرك زاهياً جداً؟ إذا أردت أن تكون كريماً على الله فاتقِ الله، إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله، إذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك.

انظر إلى معامل كريات الدم الحمراء في نقيِّ العظام هناك مرض خطير اسمه فقر الدم اللامصنّع، هذه الخلايا هذه المعامل في نقيّ العظام تصنع في كلِّ ثانية مليونين ونصف المليون كرية دم حمراء، أحياناً تتوقّف عن العمل بلا سبب وهذا المرض اسمه فقر الدم اللامصنع، لماذا الكِبر؟ مليون خطر يهددك، ماذا تفعل؟

أعرف إنساناً كان من أولي اليسار وله مكانة مرموقة في البلد فَقَدَ بصره فدخل عليه أحد أصدقائه فقال له: والله يا فلان، أتمنى ألا أحمل هذه الدكتوراه، وألا أكون في هذا المنصب، وألا أكون في هذه البحبوحة، وأن أقبع على الرصيف أتكفّف الناس، وأن يردَّ الله إليّ بصري، هذه نعمة يجب أن نحفظها بطاعة الله عز وجل.

من أين يأتي هذا الورم؟ الإنسان بكامل صحته فجأة تضطرب الخلايا في نموها فتكون القاضية!! هاتان الكليتان أحياناً تتوقفان فجأة عن العمل، مرض اسمه هبوط مفاجئ في وظائف الكليتين، إذن عليه أن يغسل كليتيه في المستشفى مرتين كلَّ أسبوع، وهذا أمر لا يُحتمل... إذاً علام التكبر؟ هل تملك كليتيك؟ هل تملك قلبك؟ هل تملك دسامات القلب؟ هل تملك الشريان التاجي المغذّي للقلب؟ هل تملك أن تبقى الأوعية

في الدماغ واسعة لا تضيق؟ هل تملك أعصاب الحس ألا تتلف وألا تلتهب؟ هل تملك ألا تتكلس مفاصل الإنسان فيصبح قطعة واحدة؟

هناك أمراض كثيرة جداً فعلام الكبر؟ هل تملك هذا اللسان؟ وأنت نائم يزداد لعباك في فمك فيذهب تنبيه إلى الدماغ بأنَّ كمية اللعاب في الفم قد ازدادت ويجب تفريغها، فيأمر الدماغ لسان المزمار فيفتح الطريق إلى المريء فيسقط اللعاب في المريء وأنت نائم، كذلك وأنت نائم يقلّبك الله ثمانياً وثلاثين مرة تقريباً، وأنت لا تدري ذات اليمين وذات الشمال، لكي لا تقع عن السرير، هذه نِعَم الله عز وجل، تأمَّل فيها فتحبَّ الله عز وجل، وتبادر إلى طاعته، لا تنظر إلى صغر الذنب، ولكن انظر على من اجترأت.

فهذا ثقب بوتال في القلب لو لم يغلق ماذا نفعل؟ يحتاج الابن عند ولادته لمبلغ ضخم أجرة عمل جراحي من أجل إغلاق هذه الفتحة، إنها فتحة بين الأذينين، هكذا قال لي بعض الأطباء، فتأتي جلطة تغلقها، يد مَنْ داخل القلب؟ يد مَنْ جاءت وأغلقت هذه الفتحة المعروفة بـ «ثقب بوتال»؟ لو بقيت مفتوحة لبقي الطفل أزرق اللون، لأنَّ الدم ينتقل من أذين إلى أذين ولا يتصفى عن طريق الرئتين.

الإنسان يأتيه مولود كامل الخلق فيقول: يا رب لك الحمد، أمَّا لو كانت فيه زرقة لاحتاج إلى عمل جراحي يكلِّف مبلغاً كبيراً، فماذا نفعل؟ علام الكِبر؟

الله عز وجل قادر أن يجعلك تبيع بيتك ومتجرك من أجل عملية جراحية واحدة، علام الكِبر؟

أنا أؤكد على موضوع الكِبر فهو في حق الله كمال، وفي حق العبيد نقصان.

أعرف صديقاً لي توفي بمرض اسمه نقص في الصفيحات الدموية، الإنسان دون صفيحات دموية ينزف دمه كلُّه من ثقب إبرة، يوجد في الدم هرمون للتجلط وهرمون للتميُّع، ونتيجة توازن هرمون التميّع والتجلط يبقى هذا الدم بهذا الشكل المائع السائل، لو زادت نسبة هرمون على الهرمون الآخر لأصبح الدم وحلاً في الأوعية، ولو

زاد الثاني لأصبح الدم مائعاً، من الذي نظم؟ وأنت نائم ومرتاح، ربنا عز وجل لم يوكِل الأمر إليك بل أراحك منه.

فكرت بعملية التنفس، فلو أنّ الإنسان يُكلَّف بالتنفس، لما استطاع أن ينام فيُلغى النوم كليّاً.

تكلمت مع أخ طبيب فقال لي: هذا مرض يقع أحياناً، بسبب تعطُّل مركز التنبيه النوبي في البصلة السيسائية، وله دواء الآن راقٍ جداً ومرتفع الثمن كثيراً، يجب أن يأخذ كل ساعة قرصاً من هذا الدواء على مدى ساعات الليل، فيضع المنبهات لتوقظه، ويستيقظ بواسطة المنبه كلَّ ساعة ليأخذ قرص الدواء، ثم يعود إلى النوم، أهذه حياة؟ إذاً عملية التنفس جارية وأنت لا تدري، فنم وارتح، التنفس بيد الله وكذلك القلب والرئتان والحركات، فالحديث عن إعجاز خلق الإنسان يطول، فكلما ازداد الإنسان علماً ازداد تواضعاً، والدليل قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨] فالعلماء وحدهم ولا أحد سواهم يخشى الله عز وجل، فكن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً، ولا تكن الخامسة فتهلك.

يقول الإمام الغزالي: «العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً»، فما من قيمة اعتمدها الله عز وجل بين خلقه إلا قيمة العلم. هناك مجموعة قيم يتفاضل بها الناس فيما بينهم المال والصحة والوسامة والقوة والذكاء، أما قيمة العلم فقد اعتمدها الله عز وجل في القرآن فجعلها قيمة وحيدة للترجيح بين خلقه فقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر:٩].

فتبارك الذي قسم العقل بين عباده أشتاتاً، إن الرجلين ليستوي عملهما وبرّهما وصومها وصلاتها، ويختلفان في العقل كالذرة جنب أحد، وما قسم الله لعباده نصيباً أوفر من العقل واليقين.

لذلك «ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي: يا ابن آدم أنا فجر جديد وعلى عملك شهيد فتزود مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة».

وصالح المري روى عن الحسن أنه وصف الإنسان بأنه بضعة أيام كلما انقضى يوم انقضى بضع منه.

فالمُتكبِّر هو الله وهي صفة كمال فيه، أما التكبر عند الإنسان فهي صفة غباء وجهل ونقص فيه فالحذر، الحذر، ورحم الله امرأً عرف حده فوقف عنده.

نصيب المؤمن من اسم الله المتكبر

من عرف الله المتكبّر تواضع له وتذلّل على أعتابه وتقرّب إليه بخدمة عباده.

النبي ﷺ يقول: «وإِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حتَّى لا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ ولا يَبْغِي أحدٌ عَلَى أَحَدٍ» [صحيح مسلم من حديث عياض].

وهل تصدِّق أيها القارئ الكريم أنَّ النبي ﷺ يقول: «لا يَدْخلُ الجَنَّةَ مَنْ كانَ في قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» [صحيح مسلم من حديث عبدالله بن مسعود].

لأنَّ الكبر يتناقض مع العبودية لله عز وجل، أنت عبد وهو ربٌّ، فإذا نازعته رداءه وإزاره قصمك كما ورد في الحديث الشريف الذي مرَّ ذكره.

في الحديث الآخر يقول ﷺ: «مَنْ تَوَاضَعَ لله دَرَجَةً رَفَعَهُ اللهُ دَرَجَةً حتَّى يَجْعَلَهُ في عِلِّيِّينَ، ومَنْ تَكَبَّرَ عَلَى الله دَرَجَةً وضَعَهُ اللهُ دَرَجَةً حتَّى يَجْعَلَهُ في أَسْفَلِ السَّافِلِينَ» [أخرجه أحمد في مسنده].

النبي ﷺ حينما دخل مكة دخلها مطأطئ الرأس حتى كادت عمامته تلامس عنق بعيره تواضعاً لله عز وجل.

قال عبد الله بن أبي بكر -كما يروي ابن إسحاق-: «وإن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من فتح، حتى إن عثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل».

ودخل عليه مرةً رجلٌ فأخذته رعدة فقال: «هوِّن عليك فإني لست بملِك إنما أنا ابن امرأة من قريش كان تأكل القديد» [ابن ماجه من حديث أبي مسعود].

قال أحد العارفين بالله في المناجاة: يا رب بماذا أتقرَّب إليك، فوقع في قلبه: أن يا عبدي تقرب إليّ بما ليس فيّ، فقال: يا رب وما الذي ليس فيك، قال: الذلُّ والافتقار وهو من أقرب الأبواب إلى الله عز وجل ومن أنجحها أن تأتيه طائعاً.

أطـع أمرنـا نرفـع لأجلـك حجبنـا ... فإنَّـا منحنـا بالرضـا مـن أحبنـا
ولُـذْ بحمانـا واحـتمِ بجنابنـا ... لنحميـك ممـا فيـه أشرار خلقنـا
وعـن ذكرنـا لا يشـغلنَّك شـاغل ... وأخلـص لنـا تلـقَ المسـرَّة والهنـا
وسـلِّم إلينـا الأمـر في كـلِّ مـا يكـ ... ـن فـما القـرب والإبعـاد إلا بأمرنـا

* * *

كـن مـع الله تـر الله معـك ... واتـرك الكـلَّ وحـاذر طمعـك
ثـم ضـع نفسـك بالـذلِّ لـه ... قبـل أنَّ الـنَّفس قهـراً تضـعك
كـيفما شـاء فكـن في يـده ... لـك إن فـرَّق أو إن جمعـك
في الـورى إن شـاء خفضـاً ذقتـه ... وإذا شـاء علـيهم رفعـك
وإذا ضرَّك لا نـافع مـن ... دونـه والضـرُّ لا إن نفعـك
وإذا أعطـاك مـن يمنعـه ... ثـم مـن يعطـي إذا مـا منعـك
لـيس يوقيـك أذاه أحـد ... وإن استنصـرت فيـه شـيَّعك
إنـما أنـت لـه عبـد فكـن ... جـاعلاً في القـرب منـه ولعـك
فُـزْ بوصـل إن تـراه واصـلاً ... واقبـلِ القطـع إذا مـا قطعـك
كلـما نابـك أمـر ثـق بـه ... واحـترز للغـير تشـكو وجعـك
لا تؤمِّـل مـن سـواه أمـلاً ... إنـما يسـقيك مـن قـد زرعـك

ليـت لـو تشـعر مـاذا كنـت مـن — قبـل مـا مـولى المـوالي اخترعـك
كنـتَ لا شيء وأصـبحت بـه — خـيرَ شيء بشـراً قـد طبعـك
تابعـاً كـن دائـماً أنـت ولا — تتمنـى أنَّـه لـو تبعـك
ودعِ التـدبير في الأمـر لـه — واصـنع المعـروف مـع مـن صـنعك
واحـتفظ حرمـة مـن يبصـر إن — رمـت فعـلاً أو تنـادي سَـمِعَك

قال مطرف بن عبد الله: لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً أحب إليّ من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً، وفي الحديث الذي رواه البزار بسند جيد عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر منه العجب».

شأن الرب أنه متكبر، حتى يقبل عباده عليه، وشأن العبد أن يكون متواضعاً مفتقراً حتى يستحق تأييد الله له.

الخالق

هذا الاسم ورد في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحشر:٢٤].

وورد أيضاً في مسند الإمام أحمد من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: غَلَا السِّعْرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، لَوْ سَعَّرْتَ، فَقَالَ: «إِنَّ الله هُوَ الخَالِقُ القَابِضُ البَاسِطُ الرَّازِقُ المُسَعِّرُ...» [مسند أحمد].

وفي حديث آخر: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» [أخرجه الطبراني عن عمران بن حصين والحكم بن عمرو الغفاري].

من معاني اسم الله الخالق

الخالق اسم فاعل، من خلق، يخلق خلقاً، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ﴾ [السجدة:٧].

وقد يأتي الخلْق بمعنى المخلوق، قال تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان:١١].

أي هذه مخلوقات الله.

أعطاك الله عزَّ وجل كِلية بحجم البيضة، تعمل بصمت، بينما صنعَ الإنسانُ كِلية صناعية بحجم الطاولة، وتحتاج أن تستلقي على السرير لساعات، في الأسبوع ثلاث مرات، ومع ذلك فالدم لا يصفَّى تصفية تامة، بل تبقى بعض المواد الضارة ممّا يسبّب ضيقاً وألماً، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى جعل لك هذه الكِلية التي تعمل بانتظام، وبلا صوت، وبلا اقتطاع من وقتك: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾.

إنَّ أعلى آلة تصوير رقمية احترافية، في الميلميتر المربع منها عشرة آلاف مستقبل ضوئي، بينما تجد في الميليمتر المربع من شبكية العين مئة مليون مستقبل ضوئي.

من معاني الخلق إبداع الشيء من غير أصل، ولا مثال سابق، وإيجاد شيء من لا شيء.

والخلق يأتي بمعنى تقدير الأمور، وتنفيذها.

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ [المؤمنين:١٤].

وكلُّ مخلوق خلقه الله تعالى يمرّ بأربعة مراحل:

المرحلة الأولى: علم الله السابق، هناك علم أزلي، وعلم الله السابق تقدير كلِّ شيء قبل تصنيعه، وتنظيم الأمور قبل إيجادها بعلم الله السابق.

والمرحلة الثانية: مرحلة الكتابة، كتب ما يخصُّ كلَّ مخلوق في لوح محفوظ، وفي هذا اللوح تفاصيل كل شيء، إيجاداً، ونشأة، وإعداداً.

والمرحلة الثالثة: مرحلة القدر، وهي مرتبة تقابل مرتبة المشيئة.

والمرحلة الرابعة: مرحلة خلق الأشياء على خصائصها.

ومن الآيات التي تتحدث عن اسم «الخالق» قول الله عز وجل: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحشر:٢٤].

فكلمة: «الله» عَلَم على الذات، أي: إنّ الله سبحانه وتعالى هو الذات الموجودة الواحدة الكاملة، وأسماء الله الحسنى على كثرتها تعود إلى أصول ثلاثة، الله موجود، والله واحد، والله كامل... فالله موجود، والله واحد، واحد في ذاته وواحد في صفاته وواحد في أفعاله، أما وإن الله كامل فأسماؤه كلها حُسنى وصفاته كلها فُضلى، لذلك لا غرابة إذ قال أحد العلماء «يا رب لا كربَ وأنت الرّبّ» فالله موجود، واحد.

أصعب ما في الحياة أن يتبعثر الإنسان بين جهتين، فيكون له رئيسان، هذا يأمره بكذا، وذاك يأمره بكذا، ولقد حدثني أحد الأصدقاء فقال: معمل يملكه ثلاثة شركاء، والثلاثة إخوة، فالعُمّال تمزقوا، فهذا الأخ يعطي أمراً ويجب أن يُنفّذ، وذاك الأخ يعطي أمراً آخر ويجب أن يُنفّذ، والأخ الثالث يعطي أمراً ثالثاً قد يتناقض أو قد لا يتسع وقت هذا العامل لتنفيذ الأوامر الثلاثة، فتضطرب الأمور، وقد ذكر الله عز وجل هذا في كتابه الكريم، فقال: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الزمر:٢٩].

ولماذا يشقى بعض الناس في الحياة؟ لأنهم موزّعون بين جهات عديدة، إذ عليه أن يُرضي زوجته، وأن يُرضي أمه، وأن يُرضي من فوقه في العمل، وأن يُرضي فلاناً الذي يُهدّده، فهو يتبعثّر، لكنّ المؤمن يُرضي جهة واحدة، وهذه الجهة الواحدة هي القويّة، وبيدها كلُّ الجهات، ومن هنا قال رسول الله ﷺ: «من جعل الهموم هماً

واحداً هم المعاد كفاه الله سائر همومه، ومن تشعّبت به الهموم من أحوال الدنيا لم يبالِ الله في أيِّ أوديتها هلك» [ابن ماجه عن ابن مسعود].

اسألوا الأطباء فمعظم الأمراض لها أسباب نفسيّة، ومعروف عند عامة الناس أنَّ القرحة أساسها أزمات نفسية، وأمراض القلب في معظمها مردُّها إلى أزمات نفسية كذلك، وهناك أمراض تصيب الجهاز العصبي أسبابها أزمات نفسية أيضاً، والأمراض النفسية في أصلها مشكلات يعانيها الإنسان، كما أنَّ لديَّ معلومات حديثة مفادها؛ أن هناك دراسات تؤكد أن معظم الأمراض العضوية لها أسباب نفسية، وحينما يحاول الطِّبُّ أن يفصل بين الأمراض العضوية والنفسية يقع في ضلال كبير، حتى إن بعض أصدقائي حدثني أنه ذهب إلى بلد غربي لإجراء عمليّة جراحية في قلبه، فقال: دَخَلَتْ عليَّ ممرضة، نسّقت الأزهار في غرفتي، وبينما هي تُنسّقها سألتني: ما مرضك؟ قلت لها: عملية دسام في القلب، قالت: من الذي سيجري لك هذه العملية؟ قلت: فلان، فدهشت، وقالت: فلان؟! قلت: نعم، قالت: فلان قبل أن يجري لك هذه العملية، أجرى آلاف العمليات المماثلة وكلُّها ناجحة، ولم يخفق في واحدة، قال: والله اطمأننت وارتحت، ما دام هذا الطبيب الذي اخترته ليجري هذه العملية من أمهر الأطباء في هذه البلدة ومن أشهرهم ومن أنجحهم، فارتاحت نفسي، لكنّه فوجئ وهو يسدد قائمة الحساب، أن القائمة تتضمن مبلغاً كبيراً مقابل رفع معنويات المريض عن طريق هذه الممرضة، وهي ليست ممرضة بل هي عالمة نفس، وظيفتها أن ترفع معنويات المريض، من أجل أن تستفيد العضويّة من ثقة الإنسان في الشفاء.

وهذا الارتباط الوثيق بين النفس والجسد هو أحدث ما يبحث عنه الطب اليوم، فلماذا كان المؤمن سعيداً؟ لأنَّ علاقته مع جهة واحدة، ولا يحتاج معها إلى حلف يمين، لا يحتاج معها إلى إيصال، ولا إلى شاهد، فالله مُطَّلع، على ظاهرك وباطنك وحقيقتك ونياتك ومطامحك، وألخص الأمر كلَّه بالعبارة الآتية: الإيمان صحة وعافية، والمؤمن تبدو صحته طيبة، والسبب أنّه موحِّد، قال الله تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٣].

جهة واحدة تستحق العبادة، والحبَّ، والإخلاص، وأن تعمل لها، وأن تفني شبابك من أجلِها، وأن تبذل كلَّ عمرك في سبيلها، هي الذات الإلهية، لذلك لما قال ربنا عز وجل: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ [المدثر:٥٦].

أي هو أهل أن تفني شبابك من أجله، وأن تمضي كلَّ حياتك في خدمته، وأن تنفق مالك في سبيله، وأن تبذل كلَّ ما تملكه في رضاه، وألخصّها بكلمة واحدة: تضحية صادقة لكنها مجزية.

ولذلك فالإنسان عندما يستهلك نفسه استهلاكاً رخيصاً وينحدر إلى خريف العمر وهو قادم على حياة مجهولة، لا يملك من نقدِها شيئاً، وقد أمضى حياته كلَّها في أشياء لا تنفعه في آخرته، فهو في ضياع؛ فندائي صدى لنداء الله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة:٢١].

الجهة الوحيدة التي تستحقُّ الطاعة والعبادة والإخلاص والحبَّ هي الله، فأنا لا أعتقد أنَّ في الأرض رجلين تحابّا كسيدنا الصديق وسيدنا رسول الله ﷺ، ومع ذلك ماذا قال ﵇؟ قال: «لو كنت متّخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن أخي وصاحبي» [رواه البخاري من حديث ابن عباس]. وعن جندب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أيها الناس! إنه قد كان لي فيكم إخوة وأصدقاء، وإني أبرأ إلى الله أن يكون لي فيكم خليل، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، وإن ربي اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً» [رواه مسلم والنسائي في الكبرى].

فأقول لك: سرُّ السعادة أنك تعمل لوجه واحد، فتُرضي جهةً واحدة وتبحث عن خالق عظيم فتمحضه كلَّ نفسك، قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر:٢٤].

ومن ثم تطالعنا حقيقة أخرى: هو وحده «الخالق»، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ [فاطر:٣].

عندما تحاوَرَ سيدنا إبراهيم مع النَّمرود قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت، فردَّ عليه متنطعاً: أنا أُحيي وأميت قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٨].

فكان النمرود الغباءَ كلَّه، والضلال والضياع والكفر.

وحينما تشحُّ الأمطار وتنحبس السماء، أقول لمن حولي: هل في الأرض كلِّها جهة بإمكانها أن تجتمع، وأن تتّخذ القرار بإنزال المطر؟ فليس لأحد حيلة إلا أن يجأر بالدعاء إلى الله عز وجل، والضراعة لاستنزال رحمة الله سبحانه وتعالى، إذاً هو الله الخالق.

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾ [يس:٨١].

أما صيغة «الخلاّق»، فهي صيغة مبالغة لاسم الفاعل، يعني كثير الخلق وعظيم الخلق، إذ ترى مجرة بُعدُها عنّا ستة عشر ألف مليون كيلومتر، ونجم قلب العقرب، يتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما، وأربعة أخماس الكرة الأرضية بحر، وبعض أعماقه تزيد على عشرة آلاف متر، إنه شيء مخيف، واصعد إلى بعض الجبال، جبال الهمالايا مثلاً، يهولك ارتفاعها. انظر إلى بعض الحيوانات، فالحوت الأزرق، وزنه مئة وخمسون طناً، ويستخرج منه تسعون برميلاً من زيت السمك، يستخرج من حوت

واحد، فيه من اللحم خمسون طناً ومن الدهن خمسون طناً تقريباً، وأحشاؤه خمسون طناً، أليس الذي خلق هذه المخلوقات بقادر أن يخلق مثلهم؟

﴿ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾.

غزارة الأمازون، ثلاث مئة ألف متر مكعب في الثانية، يمتد مجرى هذا النهر في البحر بما يزيد على خمسة وثمانين كيلومتراً دون أن تختلط مياهه بمياه المحيط، ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾ [لقمان:١١]، ترى محرك ماءٍ بسيطاً يملأ الفضاء صخباً وضجيجاً، وقد يفسد عليك نزهتك، وإذا كنت في مزرعة واحتجتَ إلى ماء، وأدرت المحرك فإنه يفسد عليك سكون المزرعة وجمال الطبيعة، قال الله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [النمل:٨٨].

كتل السحاب تتحرك محملة بألوف الأطنان، ومع ذلك تمر بلا صوت، بل فيها الهدوء والبشرى، قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾ [الروم:٤٦].

وقال الله تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون:١٤].

وهذه الآية ذات معانٍ كثيرة، فمن بعض معانيها أن الإنسان أحياناً يصنع شيئاً يكون في البداية بسيطاً، لكنَّه كلَّما ارتقى علمه وارتقت خبرته يكمُل عمله، وأكبر دليل انظر إلى مركبة صُنعت في عام ألف وتسع مئة وإلى مركبة صُنعت في عام ألف وتسع مئة وتسعين، فإنه لا يوجد نسبة للمقابلة، الأولى، فانوسان بالأمام ومستودع زيت وسِراج، تفتح باب البلور وتُشعِل الفانوس بالثقاب، من أجل أن ترى طريقك في الليل، والعجلات دون هواء، والتشغيل من الخارج بالمحرك، وحركة واحدة والمزمار هوائي؟! هذه صناعة عام ألف وتسع مئة، وبعض نماذجها موجود الآن في المتاحف، وانظر إلى مركبة عام ألف وتسع مئة وتسعين فتفهم شيئاً كثيراً من أن الإنسان ارتقت

صناعته وتكاملت أعماله، لضعف خبرته، إذاً فخبرته مكتسبة، لكن انظر إلى خلق الإنسان، هل هناك إنسان مُعَدَّل؟ إنسان نمط تسعين أو ثمانين، ليس إلا نوع واحد ودون أي تعديل، لأنَّ علم الله قديم وخبرته قديمة، فما من مرة حمل أب ولده من يده فانخلعت يده، فالصنعة متقنة، والأربطة محكمة تماماً تحمل الجسم بالكامل، قال سبحانه: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان:١١].

﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ فإذا كنت تريد أن توازن بينَ ما يصنعه الإنسان وصنعة الواحد الديّان فإنك ترى فرقاً كبيراً، فأنجح طبيب أسنان إذا أراد أن يقلع لطفل سناً فلا بد من إبرة تخدير باللثة، ويبكي الطفل ويشتم ويتمرد، وأبوه يهدّئه، أما عندما يقلع الله ضرساً لطفل صغير كيف يقلعه؟ يسقط مع الأكل، فقد ذاب جذر السن شيئاً فشيئاً، وانقطع العصب، ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ فالعين المجردة تفرق بين درجتين من ثمان مئة ألف درجة باللون الواحد، فلو درَّجنا اللون الأخضر ثمان مئة ألف درجة وجدنا العين السليمة تفرِّق بين كلِّ درجتين.

إذاً: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾، وازن بين آلة التصوير والعين، ترَ فرقاً كبيراً جداً، فمتى أُخذت المسافة والسرعة والفتحة؟ هناك فتحة وسرعة ومسافة، فعينك بشكل عفوي وبشكل آلي تقيس المسافة، والعضلات الهدبية تضغط على الجسم البلوري ضغطاً بحيث يتقوّس تقوُّساً يجعل الخيال على الشبكية؛ هذه المطابقة، وهي من أعقد العمليات في العين، فكلُّ إنسان ينظر إلى شيء دون ستة أمتار يحتاج إلى مطابقة، فالمطابقة، أنَّ هذا الشيء لو اتجه نوره إلى العدسة لوقع الخيال إما بعد الشبكية أو قبلها، فحتى يقع خيال ظلِّ الشيء على الشبكية لا بد أن نعدل احديداب الجسم البلوري إما ضغطاً أو بسطاً، فهذه العضلات الهدبية فيها علم كبير جداً، تُرى كم ميكروناً تضغط حتى يقع الخيال على الشبكية؟ أعتقد أن عملية مطابقة العين من أعقد العمليات في جسم الإنسان، ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأعراف:٥٤].

طائرة تُباع من مصنع لدولة ما، فالمصنع لا علاقة له بحركة الطائرة، ها هي ذي تقصف مدينة، وتنقضُّ على قرية، والمعمل باعها وانتهى أمره ولا علاقة له بها، لكن ربنا عز وجل ما من شيء خلقه إلا وأمرُه بيده، قال سبحانه: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

والحقيقة أنَّ القرآن الكريم كتاب العمر، وهو الكتاب المقرر، وأنا أتمنى على القراء الكرام إذا قرؤوا القرآن ومرّت بهم كلمة الخلق فليبحثوا عن العلاقة بينها وبين ما قبلها وما بعدها، على جناح السرعة.

﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ ﴾ خالق الكون هو الله رب العالمين، عَلَمٌ على الذات، صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى، خالق كل شيء، أي لا خالق آخر خلق أي شيء، هو خالق كل شيء فاعبدوه، هذا المعنى الإيجابي، أما المعنى السلبي ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ استفهام إنكاري بمعنى النفي، أي: لا خالق غيره تعالى.

ولكن...كيف يقول الله عز وجل: ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون:١٤].

ويقول في آية أخرى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [فاطر:٣].

في الآية الأولى يثبت الله عز وجل أنَّ هناك خالقين كثيرين، لكنَّ الله أحسنُهم، وفي الآية الثانية يقول: هل من خالق غير الله؟ فينفي عن طريق الاستفهام الإنكاري أن يكون في الكون خالق غير الله.

فالإنسان حينما يقرأ القرآن قراءة أوليَّة، ولا يتعمّق في العلم ولا يسأل أهلَ الذِّكر، وحينما يقف عند آية من الآيات المتشابهة ولا يحاول أن يسأل عنها فقد يشعر أنَّ في القرآن تناقضاً، ولذلك فهؤلاء المستشرقون الذين درسوا ما في الشرق من شرائع وثقافات، هؤلاء قالوا: إن في القرآن تناقضاً، وهذه نظرة ساذجة أوليّة لا تقف على قدميها، فالعلماء المحققون قالوا: إذا قال الله عز وجل: تبارك الله أحسن الخالقين، أي: إنّ إنساناً أخذ مواد أولية من الأرض وصنع منها شيئاً، يسمى خالقاً مجازاً، فتعريفه كما يلي: الإنسان خالق إذ يصنع من أشياء موجودة شيئاً على مثال سابق، فإذا قلت: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾، فهؤلاء الذين يصنعون نماذج في بعض محال الألبسة، ويضطرون إلى صنع تماثيل يضعون عليها الألبسة، فهذا التمثال إن كان من شمع أو من جِبس أو من أية مادة، اجعله إلى جانب إنسان من لحم ودم ولاحظ الفرق بينهما، فهذا إنسان فيه حياة وله فكر وقلب ومشاعر وهو ذكي، يستنبط ويحاكم، ويفكر، ويتفاعل، ويغضب، ويخاف، ويرجو، وله أوعية وشرايين وأعصاب، وعضلات ودماغ وجهاز عصبي، فإذا وازنت بين من يصنع هذا التمثال كي توضع عليه الألبسة، ومن يخلق هذا الإنسان من لحم ودم، فقل: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾.

وإذا رأيت وردةً طبيعية تفوح برائحة زكية، تشعر أن قلبك قد هفا إليها، وإن باقة ورد تُضفي على المكان أنساً وفرحاً وسروراً، وإذا دُعي الإنسان إلى عقد قِران رأى الأزهار، وهذه النباتات طيّبة الرائحة بألوان مختلفة، ولا تعرفون قيمة التلوين إلا من خلال صنع الحكيم... فالفراشات والأزهار هي الأساتذة لمهندسي التلوين، فلو نظرت إلى مركبة حديثة جداً، فإنك تجد ألوانها مقتبسة إمّا من زهرة أو من فراشة، يقول العوام: هذا أصفر غير جميل وهذا لون زهري جميل جداً، لكن يمكن تدريج اللون الواحد إلى ثمان مئة ألف درجة والعين البشرية تفرّق بين كلِّ درجتين، وإذا وضعت في بيتك ورداً صناعياً، فبعد أسبوع تضيق ذرعاً به، وتجد الإنسان بعد فترة أمسك بهذا الورد ووضعه في سلة المهملات، إذ لا يحتمله، على الرغم من منظره الجميل وحجمه

الكبير وألوانه الزاهية، فالفرقُ كبيرٌ بين الورد الطبيعي والورد الصناعي، وانظر إلى عين صُنعت لتكون وسيلة إيضاح، وإلى العين البشرية، ففيها مئة وثلاثون مليون عصية ومخروط، فالعصب البصري وحده مؤلف من تسع مئة ألف عصب، فإذا وازنت بين العين وآلة تصوير، وبين وردة طبيعية ووردة صناعية، وتمثال من شمع وإنسان حقيقي، فمجال الموازنة كبير جداً.

إذاً فلا غرابة أن يسمى الإنسان خالقاً لأنَّه صنع من أشياء موجودة شيئاً على مثال سابق، فإذا قلت: ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر:٣] تفهم من هذه الآية أنه إذا عُزي الخلق إلى الله فالمعنى أنّه يخلق شيئاً من لا شيء على غير مثال سابق، وشتّان بين الخلق على غير مثال سابق ومن دأبه التّقليد لمثال سبق.

فليس في الكون كلِّه إلا الله يستطيع أن يصنع شيئاً دون شيء على غير مثال سابق، أما إذا قلت: إن الإنسان يخلق شيئاً فتجد حقيقته واضحة في قول الله عز وجل: ﴿ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ ﴾ [آل عمران:٤٩].

أجل؛ كهيئة الطير وليس طيراً ومن طين، لا من لحم ودم وروح، إذاً لا تناقض بين الآيتين، إذ قال تعالى في الأولى: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ بينما قال تعالى في الثانية: ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾ [يس:٨١]، يعني خلق الجبال وخلق المجرات، أي: إما كثرة الخلق عدداً، وإما عظمة الخلق نوعاً، وهذا معنى الخلاّق.

﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [الأعراف:٥٤] مما يُطمئن الإنسان أن الذي يخلقه الله عز وجل يبقى رهن أمره، فأنت اطمئن أنَّ كلّ من حولك وما حولك بيد الله عز وجل.

والآية الثانية ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ [آل عمران:٥٩] فالتراب موجود قبل الخلق، والخلق هو «التقدير»، أي: قدّر

كمية تراب معينة بنوعيتها وخصائصها وطريقتها، وأسلوبها معين، فهنا من خلال آيات كثيرة جداً يأتي الخلق بمعنى التقدير.

ومعلوم أن المراد من قوله ﴿كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ هو الإيجاد من العدم، إذاً: خلقه من تراب ثم قال له: كن فيكون، إذاً الإيجاد من العدم شيء والخلق شيء آخر.

بل إنَّ بعض العلماء يُفسِّر قوله تعالى: ﴿ لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ أي خلق: قدر، ثم أمر: كن فيكون يعني أوجد من عدم.

الفرق بين الخالق والبارئ والمصوّر

يقول تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٤].

ولله المثل الأعلى ولكن للتقريب، مهندس خطّط لبناء على الورق، وعِلمُه كلُّه وضعه في هذه الخريطة، الخريطة تضم: خريطة الأساسات، فالطابق الأول والطابق الثاني والدعائم الاسمنتية، والشُّرُفات وكلُّه على الورق، فالخلق تقدير، أما البارئ فهو الموجِد من عدم، كن فيكون، والآن جاء دور المتعهِّد فحفر الأساسات وصبَّها، وأشاد الطابق الأول فوضع الإسمنت السائل فوق الحديد المسلَّح إلى أن قام البناء، فالخلق هو التقدير، والبارئ هو الذي أوجد من عدم.

لكنَّ البناء على الهيكل منظره قبيح جداً، فلا بدَّ من عمل آخر وهو إعطاء هذا البناء الشكل المقبول، فجاء دور الطَّيَّان ثم البلَّاط، وأتى دور عامل الكهرباء وزيَّن الشرفات، والجدران من الداخل والخارج، فصار البناء جميلاً جداً، فبين أن تضع العلم كلَّه في أصل البناء، ثم أن تبنيه وتعطيه صورةً محببة، وهذا هو تفسير قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾، المصوِّر يدلُّ على إعطاء الصورة الخارجية، فالذي عنده أطلس تشريح، يرى فيه إنساناً له عضلات، وهو منظر مخيف، فعضلات الوجه

بالعشرات، ويرى إنساناً كلُّه أعصاب، وآخر كلُّه أوعية، وهناك صورة هيكل عظمي، وانظر إلى الإنسان في آخر وضع بعد كسوته بالجلد تجده جميلاً، وانزع الجلد عنه فهناك المنظر المخيف، فربنا أعطاه صورة جميلة ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾.

وإن شاء الله تعالى لنا عودة أخرى لهذا الموضوع في الصفحات القادمة، وبشكل موجز فالخالق هو المقدِّر، والبارئ هو الذي يُوجِد من عدم، والمصوِّر هو الذي يعطي الصورة المناسبة لكل مخلوق، فهذا الإنسان خُلق بعلم، فالقلب والعظام كلُّها خُلقت بعلم، وبعد العلم هناك إيجاد، وبعد الإيجاد هناك صورة أعطاها الله هذا المخلوق كالبناء تماماً.

الفرق بين الخلق والفطر

يقول تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [فاطر:١]، لاحظ الطفلة الصغيرة ما الذي تفعله؟ دع بُنْية جسمها وأعضائها وأنسجتها وأشكالها وخطوطها، فلها بُنية خاصة، وميول خاصة، دعني أطلق عليها البنية النفسية، فهي تميل إلى تربية الأولاد، فقد تضع وسادة على يدها وتربت عليها، أما الطفل فقد يركب قضيباً يتّخذه حصاناً يعدو به، فلماذا اختار الطفل لعبة الحصان؟ واختارت الفتاة وسادة جعلت منها رمزاً لوليد على يدها، هذا يعني أنَّ البُنى النفسية مختلفة وهذه هي الفطرة.

الإنسان هلوع، عجول، ضعيف:

﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾ [المعارج:١٩-٢١].

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾ [الإسراء:١١].

﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأنبياء:٣٧].

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء:٢٨].

وفي بعض الآثار: (يا داود ذكر عبادي بإحساني إليهم، فإن النفوس جُبلت على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها)

هذه بنية نفسية، وبُنى جمع بنية، وللبنية النفسية خصائص، فالغنمة لها خصائص بجسمها وعضلاتها وجلدها وصوفها، وهذه البنية الجسمية. ولها خصائص بنفسيتها، يقال «مثل الغنمة» أي: مطواعة، مذلّلة، قال الله تعالى: ﴿ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [يس:٧٢].

فأنت ترى أنها تنساق مع صاحبها إلى حيث يريد وكيفما يريد، وطبيعة الغنم أنها تجتمع بعضها مع بعض فلا يستطيع راعٍ أن يجمع خمسين كلباً بعضهم مع بعض فكلٌّ واحد في جهة، أما قطيع الغنم فيجتمعون، هذه بُنى نفسية، انظر إلى البقرة، وانظر إلى الجمل، يقال لك الجمل حقود، والحصان وفيٌّ، فخصائص نفس المخلوق من الفطرة، أما خصائص جسمه فمن الخَلْق، أعود فأكرر: إنَّ الشَّيء المتعلِّق بجسمه وأعضائه وتشريحه ووظائفه من الخلق، وأمَّا الذي يتعلَّق بخصائص نفسيَّته فهذا من الفطرة لذلك قال تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم:٣٠]، فالثَّعلب ماكر، والجمل حقود، وهكذا كلُّ حيوان له خصائصه، وهناك حيوانات أهلية وحيوانات متوحشة، وحيوانات مفترسة، وحيوانات وديعة، وربنا قال: ﴿ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

والخلاصة إذاً: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [فاطر:١] فهذا يبرز أن الله سبحان أعطى كلَّ مخلوق خصائص نفسية في التعامل مع الآخرين، وأمَّا الخلق فيبرز الخصائص المادية التي جعلها لكلِّ مخلوق، والخلق تقدير، والبَرءُ هو الإيجاد من عدم، والتصوير هو إعطاء الشيء الصورةَ التي أرادها الله -سبحانه- له

نصيب المؤمن من اسم الله الخالق

إنّ من عرف الخالق فإنّه يتوجه إليه وحده بالعبادة، يقول الله عز وجل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [البقرة:٢١].

يُفهم من هذه الآية أنَّ الخالق وحده، ولا أحد سواه ينبغي أن تعبده، فإذا توجه الإنسان إلى غير الخالق فقد ضلَّ سواء السبيل، والخالق وحده هو الذي إذا عبدته سعدت بعبادته، وإذا عبدته نجوت من عذابه، وإذا عبدته أفلحت في حياتك، وفُزت بعد مماتك، ودخلت الجنة وسعدت فيها إلى الأبد.

في المعنى المألوف اليوم أنَّ الصانع هو الجهة الوحيدة التي يمكن أن تعطي تعليمات التشغيل، فمثلاً لديك آلة، فما الجهة المخوّلة والوحيدة والتي لها الحقُّ في أن تُصدر تعليمات التشغيل؟ إنه الصانع، فلو أنَّ آلة ثمينة تملكها، واتّبعت في تشغيلها جهةً غير جهة الصانع فقد أفسدتها، وأعطبتها، وأضعفت مردودها وخسرتها، فببساطة بالغة، يقول العقل: لا يُعبَد إلا الصانع، أي لا يُتَّبع إلا الصانع، ولا يُطاع إلا الصانع ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ ﴾ لماذا؟ ألا يعلم من خلق، فهو عليم خبير حكيم يعرف طبيعة هذه النفس، وما يصلحها وما يفسدها، وما يسعدها وما يشقيها، وما يرفعها وما يخفضها، وما يطمئنها وما يخيفها، إنه هو الخبير، قال الله تعالى: ﴿ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ﴿١٤﴾ ﴾ [فاطر:١٤].

أي إنسان واعٍ مَلك جهازاً له قيمته يحرص على سلامته، ويسأل الخبراء المتخصصين دون غيرهم، فقد تشتري سيارة، وتراها ذات مظهر أخّاذ، ولكن تخاف أن يغدر بك البائع، وتسأل قبل شرائها خبيراً، فتقول له: انظر لي هذه السيارة ما قوّتها؟ وما طبيعة محرِّكها؟ ما وضعها العام؟ وما سلامة هيكلها؟ إذاً أنت في أمورك التي تتعامل معها يومياً تبحث عن الخبير، وتبحث عن العليم، وربنا عز وجل قال: ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ﴿١٤﴾ ﴾، فمثلاً في الحياة الزوجية، قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ﴿١﴾ ﴾ [الطلاق:١].

أولاً نهى الرجال عن أن يُخرِجوا زوجاتهم من بيوتهن إذا طُلّقن، ونهى النساء عن أن يخرُجْنَ دون إذن أزواجِهن إذا طلّقن طلاقاً رجعياً، لأنه عليم بطبيعة النفس البشرية، فالرجل والمرأة كلاهما ذو ميل فطري نحو صاحبه، والنفس قد تهدأ فورتها بعد حين، فإذا ابتعد الزوج عن زوجته، تفاقمت الأمور ودخلت جهات كثيرة على خط العلاقة الزوجية، وربما أفسدتها، فإذا بقيت الزوجة في بيت زوجها فأكبر مشكلة في يومين أو ثلاثة تتضاءل بإذن الله، أمَّا إذا خرجت الزوجة إلى بيت أهلها غاضبة فأصغر مشكلة تغدو كبيرة إذا تناولتها ألسنة كثيرة، فتفسد ما بقي صالحاً، فلذلك هذا قانون وضعه الخبير، والصانع والعليم والخالق، قال: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [النساء:٣٤].

فإذا كنت أفضل علماً وخلقاً وورعاً وتقى وقد أنفقت من مالك على زوجتك فلك القوامة، وإذا أردت أن تُفلح في إصلاح ما انخرق بينكما فعُد إلى كتاب الله ففيه الخير والفلاح، لقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء:٩].

ففي أي موضوع... حتى في شأن صحتك، وعلاقتك الخاصة جداً، وكسب رزقك، وفي شأن شيخوختك، عليك بهذا القرآن ففيه الهدى:

يقولون: «من جمع القرآن، متعه الله بعلمه حتى يموت».

وقد استرعى نظري أحد الأطباء وهو يُعالج مريضاً مصاباً بتضيّق شرايين الدماغ، فصار إلى الحركة البطيئة، فقال هذا الطبيب عليكم أن تحدثوه، قلت: وما السرُّ في ذلك؟ قال: إذا حدثتموه اضطرَ أن يُجيب، فإذا أراد أن يجيب تنشَّطت خلايا الدماغ وتوسَّعت الشرايين في الدماغ.

فدماغ المصلي وقارئ القرآن، والعابد لله عز وجل، في نشاط دائم، هل أذّن الظهر؟ وهل دخل الوقت؟ وكم ركعة؟ أول ركعة، الثانية، الثالثة، الأولى مع قراءة، الثالثة بلا قراءة، فهو في نشاط دائم، فإذا قرأ القرآن هنا إدغام، وهنا إظهار، وهنا إخفاء، وهنا قلقلة، وهنا مد طبيعي، فالذهن متَّقد دائماً ليس ذلك فحسب وإنما يهتمُّ بما هو أعمق من ذلك فهو يحاول أن يفهم معاني الكلمات ومعاني الآيات، فالإنسان إذا قرأ القرآن فهو في نشاط دماغي دائم، إذاً «من جمع القرآن متعه الله بعقله حتى يموت». قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [طه:١٢٣]، لا يضلُّ عقله، ولا تشقى نفسه.

﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [البقرة:٣٨]، لا يندم على ما فات ولا يخشى مما هو آت.

ونحن ندور حول هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [البقرة:٢١].

فأنت ليسَ لك حقٌّ أن تتبع إنساناً بعيداً عن الله عز وجل، إياك أن تستشير في أمورك شخصاً بعيداً عن كتاب الله، مقطوعاً عن الله عز وجل، لقوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف:٢٨].

﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾ [لقمان:١٥].

إذاً: الجهة الوحيدة في الكون التي تستحق أن تطيعها، وأن تعبدها هو الخالق جل وعلا، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

وقد ذكرت من قبل أن الإنسان إذا تولى جهات أخرى يصاب بهزَّات تبعثره، وخيبة أمل تمزِّقه، وإحباط يدمِّره، لأن أية جهة أخرى قد لا تعطيك الحقيقة، أو قد تعطيك الحقيقة مزوّرة، أو تنقل إليك فكرة مغلوطة لا يؤكدها الواقع، ولا يخفى على أحد أنَّ طمأنينة المرء وسعادته تكمن في أن يعتقد ما صحّ نقله، وما قَبِلَهُ العقل، وما أكّدتُه الفطرة، ما أيّده الواقع، واقعٌ ونقل وعقل وفطرة، هذا هو الحق، فإذا انطلقت في حياتك وفي حركتك اليومية وفي نشاطك من نقل صحيح وعقل راجح ومن واقع موضوعي وفطرة سليمة، وإذا اجتمعت لديك هذه الخطوط الأربعة في دائرة واحدة فأنت مع الحقّ، والذي يكون مع الحقّ لا يخيب ظنُّه ولا يحبط عمله ولا ينقطع رجاؤه ولن يُفاجأ بحدث لم يكن متوقعاً.

وفي آية أخرى قال الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٠٢].

فالله سبحانه؛ يحتاجه كلُّ شيء في كلِّ شيء فاعبدوه، فلنلاحظ أنَّ أمر العبادة كثيراً ما يأتي في القرآن الكريم بعد اسم الخالق، ﴿ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾، ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ﴾.

البارئ

ورد هذا الاسم في القرآن الكريم في موضعين اثنين، الأول في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ ﴾ [الحشر:٢٤].

وفي آية أخرى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ ﴾ [البقرة:٥٤].

ولم يرد في السنة.

من معاني اسم الله البارئ

البارئ اسم فاعل، من فعل برأ، يبرأ، برءاً، يعني خلق، فهو البارئ أي الخالق، ولكن اختلاف الاسمين يعني أنَّ الخالق يختص بمعانٍ معينة، و البارئ يختص بمعانٍ أخرى.

في القرآن الكريم كلمات إذا جاءت مجتمعة فلها معنى، وإذا جاءت منفصلة بعضها عن بعض فلها معنى آخر، مثلاً: الفقراء والمساكين، هاتان الكلمتان إذا اجتمعتا تفرقتا، وإذا تفرقتا اجتمعتا، أي إذا ذكر الله في القرآن كلمة المساكين فقط، فالمقصود

عندئذٍ: الفقراء والمساكين، أما إذا ذكرت كلمة الفقراء والمساكين معاً فالفقراء صنف والمساكين صنف، وبناءً عليه إذا وردت كلمة خالق وحدها معزوّة إلى الله عز جل فهو الذي يوجِد من العدم على غير مثال سابق، أما إذا قال الله عز وجل: هو الله الخالق البارئ المصور، صار «الخلق» هو التقدير، و«البَرء» هو الإيجاد من عدم و«التَّصوير» إعطاء الصورة.

وقيل: البارئ هو الخالق على صفة معينة، أما برأ، يبرأ، برءاً، فمعناها سلم من كل نقص، وعيب، ومرض، قال ﷺ: «إنَّ لكلِّ دَاء دَوَاءً، فإذا أُصِيبَ دواءُ الدَّاءِ بَرَأَ بإذن الله» [أخرجه مسلم عن جابر بن عبد الله] [أخرجه الطبراني عبد الله بن مسعود]

البَرء خلق الشيء على صفة تناسب علَّة وجوده، فالله عز وجل أمرنا بالتَّجمُّل، فلم يخلق في الشَّعر عصب حس، لو خلق في الشَّعرة عصب حسٍّ لكنا كالوحوش، لأنَّ الحلاقة تعني عملية جراحية مع تخدير تام، فالله عز وجل خلق كلَّ شيء على صفة تناسب علة وجوده.

لذلك ما كلُّ مخلوق مبروء، لكن كل مبروء مخلوق، خلق اليد، لولا هذا المفصل كيف نستخدمها؟ ينبغي أن نأكل كالقطط، ننبطح ونأكل عن طريق الفم مباشرة فخلق اليد، وخلق المفصل على صفة نستعين بها على طعامنا وشرابنا، خلق الرُّسُغ يدور دورة كاملة، خلق الأصابع، فالبارئ خلق الشيء على نحو يحقق الهدف من وجوده.

إنسان يشدُّ ابنه من يده، لو لم تكن هذه الأربطة تتحمّل وزن الجسم لخُلعت يده، خلق اليد، لكن على نحو لو حملت ابنك من يده فالأربطة تتحمل الوزن بأكمله، وقد تحمله بعنف في ساعة غضب إذاً يجب أن تحمل ضعف الوزن.

ومن الفروق بين الخالق و البارئ أنَّ الإنسان أعطي صفة الخلق في قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون:١٤].

إلا أن الإنسان خلق شيئاً من كلِّ شيء، على مثال سابق، كما مرَّ معنا، لكنَّ الله البارئ خلق كلَّ شيء من لا شيء على غير مثال سابق.

البارئ اسم ذات، من الفعل اللازم برأ من كلِّ نقص وعيب، فهو البارئ هذا من أسماء التنزيه، أما اسم فعل من فعل أبرأ أي وهب الحياة للأحياء، بل خلق الأشياء صالحة ومناسبة للغاية التي أرادها، أي أظهر المقدور وفق سابق التقدير.

الأوعية الشريانية عميقة، ضغطها عالٍ جداً، والأوردة تعيد الدم إلى القلب، الضغط فيها ضعيف وهي خارجية، الرَّحِم يتقلَّص تقلُّصاً لطيفاً قبل الولادة، أمّا بعد الولادة فإنّه يتقلَّص تقلُّصاً مفاجئاً عنيفاً جداً، فيصبح الرحم كالصخرة، فيه عشرة آلاف وعاء دموي انقطعت، لئلا يقع النزيف بهذا التقلص الحادّ فيوقف النزيف، لو أنّ الآية عكست لمات الجنين بالضغط، وماتت الأم بالنزيف، فالبارئ خلق كلَّ شيء على نحو مناسب جداً.

المخلوق وُلد الآن، وليس هناك قوّةٌ في الأرض تعلِّمه كيف يمصُّ ثدي أمّه، لكنّ البارئ زوَّده بمنعكس آلي، ما إن يولد الجنين وتلامس إصبع الممرضة فمه حتى يمصّها، خلق البارئ الشيء على نحو يناسب علَّة وجودك.

هذه البويضة تمشي في أنبوب فالوب، من المبيض إلى الرحم، هي كرة كذرَّة الملح، كيف تمشي في قناة فالوب؟ في أرضية القناة أشعار تتحرّك فتنقلها، لولا هذه الأشعار لما وُجد إنسان.

المعدة لحم، والإنسان يأكل اللحم ويهضمه؟ فكيف لا تهضم المعدة نفسها؟!

الهواء يحمل طائرة وزنها ثلاث مئة وخمسون طنّاً، ومع ذلك فهو هواء لطيف تمشي خلاله ولا تراه.

قـــل للهــــواء تحسُّـــــه الأيـــــدي ... ويخفى عن عيـون النـاس مـن أخفـاك؟
قـــل للنبـــات يجـــفُّ بعـــد تعهُّـــد ... ورعايـــة مــــن بالجفــــاف رمــاك؟
وإذا رأيـــت النبــــت في الصــــحراء ... يربــو وحــده فاســـأله مـــن أربــاك؟
وإذا رأيـــت البـــدر يســـي نـــاشراً ... أنــــواره فاســـــأله مــــن أسراك؟

واسأل شعاع الشمس يدنو وهي أبعد كلِّ شيء ما الذي أدناك؟

بعد الشمس عنا مئة وستة وخمسون مليون كيلو متر، فإذا جلست في الشمس فإنّك تشعر بالدفء.

وإذا رأيت النار شبّ لهيبها فاسأل لهيب النار من أوراك؟
وإذا ترى الجبل الأشم مناطحاً قمم السحاب فاسأله من أرساك؟

من جعل ثلث الجبل فوق الأرض، وثلثيه تحت الأرض، فكانت الجبال أوتاداً.

وإذا ترى صخراً تفجّر بالماء فاسأله من بالماء شقّ صفاك؟
وإذا رأيت النهر بالعذب الزلال جرى فاسأله من الذي أجراك؟

نبع الفيجة في دمشق يعطي ستة عشر متراً في الثانية، تكفي أهل دمشق، مستودعات هذا النبع تصل إلى حمص، وإلى سيف البادية.

﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الحجر:٢٢].

وإذا رأيت النهر بالعذب الزلال جرى فاسأله من الذي أجراك؟
وإذا رأيت البحر بالملح الأجاج طغى فاسأله من الذي أطغاك؟
وإذا رأيت الليل يغشى داجياً فاسأله من يا ليل حاك دجاك؟
وإذا رأيت الصبح يسفل ضاحياً فاسأله من يا صبح صاغ ضحاك؟
ستجيب ما في الكون من آياته عجب عجاب لو ترى عيناك؟

الصوص في البيضة، كيف يخرج؟ ينمو له نتوء مؤنَّف صغير مدبَّب على منخاره، هذا النتوء يكسر القشرة، ويخرج، بعد حين هذا النتوء يضمر ويتلاشى.

العين أنسب مكان لها بالمحجر، الدماغ في الجمجمة، والنخاع الشوكي في العمود الفقري، والقلب في القفص الصدري، والرحم في عظم الحوض، ومعامل كريات الدم الحمراء في نقي العظام.

البارئ خلق المخلوقات على نحو يحقِّق سلامة وجودها، والغاية من خلقها، قال تعالى: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل:٨٨].

هذا الاسم شرحته آية كريمة في القرآن الكريم، قال الله عز وجل: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝٢﴾ [الأعلى:١-٢].

فالبارئ خلق على نحو خاص، لصالح هذا الشيء، لتحقيق مصلحة راجحة، فهذا الذي خلقه سوَّاه مع وظيفته، فجاءت وظيفته بأعلى درجة من الكمال.

عندنا كواكب، وعندنا نجوم، الكوكب منطفئ، والنَّجم ملتهب، نسمي الكواكب والنجوم معاً الأجرام السماوية، الأجرام السماوية تتحرَّك، كل نجم في السماء، وكل كوكب يتحرك، يتحرك بمسار مغلق حول كوكب آخر، لماذا خصّ الله خلق الكون بحركة دائمة، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝١١﴾ [الطارق:١١].

فُهمت في وقت ما على أن السماء ترجع بخار الماء مطراً، يصعد بخار الماء إلى السماء يرجع مطراً، وفُهمت في وقت آخر على أن الأمواج الكهرطيسية تردُّها طبقة في الجو اسمها الأثير، إلى الأرض، ثم فُهمت على أنَّ كل جرم سماوي كوكباً كان أو نجماً يتحرَّك بمسار مغلق، ويرجع إلى مكان انطلاقه.

لأنه لو أنه خلقه على نحو ساكن وبحسب قانون الجاذبية لاجتمع الكون كلُّه في كتلة واحدة، لأن الكتلة الأكبر تجذب الأصغر، لكن ومن خلال الحركة تنشأ قوة نابذة تكافئ القوة الجاذبة فيبقى الكون بهذا التوازن الرائع.

برأ الكون على نحو متحرك، ولو خلقه على نحو ساكن لاجتمع الكون كلُّه في كتلة واحدة.

شيء آخر: الأرض تدور، لو أنَّها تدور حول محور يوازي مستوى دورانها حول الشمس لانتهت الحياة، لأن الوجه المقابل للشمس فيه النهار إلى أبد الآبدين، والوجه الآخر فيه الظلام إلى أبد الآبدين.

لو أن الأرض تدور على محور متعامد على مستوى دورانها، لألغيت الفصول الأربعة.

إذاً الله عز وجل البارئ جعل الأرض تدور على محور لا يوازي مستوي دورانها، عندئذٍ تلغى الحياة، وليس عمودياً على مستوى دورانها عندئذٍ تلغى الفصول الأربعة، ولكنه برأها على نحو أنها تدور على محور مائل.

الماء يتجمد بدرجة الصفر، بعض المعادن ينصهر بدرجة مئة، وكلُّ عنصر في الأرض له درجة انصهار، ودرجة تجمد، تصوَّر أنَّ كلَّ هذه العناصر تتجمَّد في درجة واحدة، وتنصهر في درجة واحدة، إذاً الكون كلُّه إمّا أنَّه غار، أو سائل، أو صلب.

عندك محلٌّ تجاري، له باب حديديٌّ، و أرضيّته من حجر، كيف تعامل هذا الحديد مع الحجر؟ تحتاج إلى قطعة حديد مغروسة في الحجر، كيف يُثبَّت الحديد بالحجر؟ لا حلَّ إلا بمعدن وسيط، ينصهر بدرجة مئة، وإذا تجمد ازداد حجمه، إنّه الرّصاص، يسكبون الرصاص فإذا برد الرصاص زاد حجمه، عندئذٍ تثبت قطعة الحديد في الحجر.

البحار مساحتها أربعة أخماس الأرض، لولا هذه النسبة والتناسب بين مساحة البر والماء لما كان هناك أمطار.

من خلق الهواء يحمل بخار ماء، لو أنَّ الهواء لا يحمل بخار ماء لما كانت هناك حياة، هو يحمل بخار ماء متناسباً مع حرارة الماء والهواء، أي عندما يحمل بخار ماء بدرجة عالية يحمل كمية كبيرة، يصل لمنطقة باردة فيتخلى عن الكمية الزائدة.

﴿خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢)﴾

نصيب المؤمن من اسم الله البارئ

إذا انطلقت في الحياة العملية، ورأيت زيداً وعُبيداً، وحوادث وأفعالاً، ونسيت أن الله هو الذي يخلق كلَّ هذا، ويفعله، وتجري به إرادته، فعندئذٍ نقول لك: أنت

فهمت معنى البارئ، ولكن لم تعش هذا الاسم ولم تفكر به، وبعد فإن السعادة الكبرى الحقيقية، ليست في فهم تعريفات هذه الأسماء، ولكن في أن تعيشها، ولا يمكن لك ذلك إلا إذا اجتهدت وجاهدت نفسك وهواها، وفي ممارسة العمل الصالح وبذل الغالي والرَّخيص والنَّفس والنَّفيس، وعندئذ تُقبِل على الله عز وجل، وإذا أقبلت عليه فإنَّه يلقي في قلبك المعرفة والسكينة والطمأنينة، وعندئذ ترى الله في كلِّ شيء.

لا أريد أن يبقى البحث كما يقولون أكاديمياً، أي: معلومات وتعريفات أملأ بها صفحات الكتاب، بل أريد أن يعيش أحدنا هذه الأسماء، وهذا ينقلنا إلى أنَّ المعلم يختلف عن المربي، فالمعلم إنسان يلقي على الناس حقائق، وأدلة، ومعلومات منظمة، ومبوبة، ومرتبة، ومصنفة مع أدلة قطعية، ونقلية، وعقلية، وواقعية، وفطرية، والبحث منظم ومبوّب، ومبرمج، فهو والله موضوع لطيف، ولكن الذي يسعى إلى أن يصطبغ بصبغة هذا العلم، والذي يسعى؛ ليكون في مستوى هذه الأسماء؛ وأن تمتزج بها نفسه لا أن يفهم تعريفاتها فقط، هو المربي، فأنت أيها القارئ الكريم حاول إذا علّمت الناس أن تكون مربياً؛ لأن كل مربٍّ هو في الأصل معلم، لكن المعلم وحده لا يكفي لملء فراغ النفوس والأفهام، فالكلمة الأخيرة إذاً ترتكز حول اسم البارئ بين أن تفهم تعريفه النظري، أو أن تفهم هذا الاسم، وأن تعيشه مدى الحياة.

لقد ضربت على هذا مثلاً، مفاده أن الإنسان إذا قرأ قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب:٧١].

وهذا أخ مستقيم على أمر الله، وله صديق غارق في معصية الله، لكن هذا الصديق ذو بحبوحة كبيرة، ويغبطه صديقه المستقيم على ماله ورخائه وصحته الجيدة، ولكن المستقيم يعاني من كذا وكذا، ويذكره إخوة له صادقون معه: أنت مستقيم وهو غير مستقيم، وتقول: هنيئاً له!!، فإذاً هذا وإن قرأ هذه الآية مرات ومرات: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾، ولم يعِش مفهومها، ولا تأثر بمعناها، فما فهم منها شيئاً.

إن الفرق كبير جداً بين أن تفهم أسماء الله الحسنى بحدودها وتعريفاتها، والفرق بينها وبعض الأدلة وأقوال العلماء فيها، وبين أن تعيش هذه الأسماء، فإذا تأملت الكون وعرفت الله عز وجل وبذلت جهداً كبيراً في طاعته، وفي التقرّب إليه فقد عاد عليك ذلك بالخير الكثير، وهو أنَّ الله يملأ قلبك غنىً، ونَفْسَكَ بصيرةً، وترى عندئذٍ ما لا يراه الآخرون، وتسمع ما لا يسمعون، فهذا هو التمييز، فإذا أردنا أن نُقرر حقيقة وهي أن هذه الأسماء الحسنى ينبغي ألا نكتفي بفهم مدلولاتها وحدودها، وأبعادها وتعريفاتها وما تعنيه في المعاني العامة والخاصة، ولكن ينبغي أن نعيشها ونمتزج بها.

وعن عائشة أنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا نظر في المرآة يقول: «اللهُمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي فأَحْسِنْ خُلُقِي» [رواه البيهقي في «الدعوات الكبير»، ورواه أحمد دون قوله: كان إذا نظر في المرآة].

فلأشكرنَّك ما حييت وإن أمت فلتشكرنَّك أعظمي في قبرها

فإذاً ليشكر الإنسان الله عز وجل على أن أعطاه قواماً ورأساً فيه سمع وبصر وفم ولسان وأنف، وهذا الخَلْقُ السوي الكامل من نِعَمِ الله عز وجل كذلك، حتى إذا جاءه مولود ورآه كامل الخِلقَة فهذا من فضل الله عز وجل أيضاً.

فأسماء الله الثلاثة الخالق والبارئ والمصور، أسماء متلازمة متآلفة في غايتها تجمع بينها آصرة واحدة هي العلاقة الوشيجة لعملية الخلق؛ خلقاً وبرءاً وتصويراً.

المصور

ورد هذا الاسم في القرآن الكريم في آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الحشر:٢٤].

من معاني اسم الله (المصور):

الخالق -كما مرَّ معنا- يخلق كلَّ شيء من لا شيء، على غير مثال سابق، بينما المخلوق إذا عُزي إليه الخلق كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنين:١٤].

فهو يصنع شيئاً من كلِّ شيء، وعلى مثال سابق، أمَّا البارئ فهو الخالق، لكن على نحو معيَّن فيه الحكمة البالغة.

أمَّا المصوِّر فمرحلة ثالثة، فهو جلَّ جلاله خلق كلَّ شيء من لا شيء، وعلى غير مثال سابق، والذي خلقه خلقهُ على نحو كامل، يُنتفع به، ثمّ إنَّ هذا الشيء الذي خلقه على نحو معين أعطاه صورة.

للتَّوضيح: البناء يكون في الأصل على الهيكل، ثمّ بعد ذلك يُكسى ليُنتفع به، بعد الكسوة يُزيَّن، بالطِّلاء الخارجيِّ، والرُّخام، والزّجاج، إلى غير ذلك.

من الآيات التي تؤكِّد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف:١١].

أحياناً تطَّلعون في بعض الصور المدرسيّة التّوضيحيَّة على صورة إنسان على شكل عضلات فقط، منظره مخيف، يأتي هذا الجلد الأملس المشدود، شيء رائع جداً، فالجمال كلُّه في هذه الصورة.

وفي آية أخرى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر:٦٤].

الإنسان متناظِر، يكفي أن يأخذ الخيّاط طول اليد اليمنى، فاليسرى مثلها تماماً، لوجود التناظر، والجلد له لون خاصٌّ، والعين لها لون خاصٌّ، والشعر له لون خاصٌّ وطبيعةٌ خاصّةٌ.

انظر إلى ابنك الصغير، بهذا الجمال الأخّاذ، مَن صوَّره بهذه الصورة؟ عيون متناظرة، واسعة، خدٌّ أسيل، فيه تورّد أحياناً، شعر بلون رائع.

وفي آية ثالثة: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦)﴾ [الانفطار:٦].

والله سبحانه وتعالى يخاطب قلبك هنا، ثمَّ يخاطب عقلك فيقول: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨)﴾ [الانفطار:٧-٨].

لا شكَّ أن بعضكم ممن تقدَّمت به السن، رأى من قبلُ المركبة التي صنعت في عام ألف وتسعمئة وعشر، التشغيل من الأمام، والإضاءة بفانوس يُضاء يدويّاً، والبوق آلة بدائية تعمل على ضغط الهواء، والعجلات ليس فيها هواء، وليس هناك ماصَّات للصدمة، والمحرِّك له حركة واحدة، وازن بين هذه المركبة، ومركبة حديثة، الفرق يكاد لا يُصدَّق، هذا يعني أنَّ خبرة الإنسان تتنامى، لكن هل سمعتم أنَّ إنساناً في الأربعينيات كان بوضع معيّن، ثمّ تمّ تعديله في الخمسينيات؟!

المصوِّر اسم فاعل مِن صوَّر، يصوِّر فهو مصوِّر، والمصدر: تصوير.

ومعنى صوّر الشيء لغةً: جعل له شكلاً خاصّاً معروفاً.

أب عنده عدَّة أولاد، ولكلِّ ولد صورة، من حيث اللون، الطول، شكل الوجه، لون الشّعر، فجعل الله للشيء شكلاً خاصاً معروفاً.

وصوَّر الشيء: قطَّعه، وفصَّله، وميّزه عن غيره.

ليس هناك في ستة آلاف مليون على سطح الأرض إنسانٌ يشبه الآخر، لا بشكله، ولا بطوله، ولا بلونه، ولا بملامح وجهه، ولا بطريقة مشيه، ولا بطريقة كلامه، ولا بنبرة صوته.

نحن نحتال على هذا الأمر في صناعاتنا فنعطي رقماً للقطعة، المركبة لها رقم، الرقم يميّزها، أمَّا الله عز وجل فيعطيك ملامح خاصَّة.

وصوّر الشيء: جعله على شكل متصوَّر، أمَّا الذات الإلهية فكلُّ ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف:١٤٣].

أمَّا مخلوقات الله عز وجل فبإمكانك أن تتصوَّرها.

الله هو المصوِّر صوّر المخلوقات بشتَّى أنواع الصور، فهناك صور جليَّة، وصور خفيَّة، فأنت تمسك كأس الماء لتشربه، ماء صافٍ عذبٌ زلال، لو وضعت هذا الماء تحت مجهر لرأيت ملايين البكتيريات، فالصورة الجليَّة أنه ماء صافٍ، والصورة الخفيَّة أنَّ هذا الماء فيه ملايين البكتريا النافعة والضرورية.

الصّورة الظاهرة جلد أبيض، صقيل، جميل، رائع، لو وضعت هذا الجلد على مكبّر، أو على مجهر إلكتروني، فإنَّك ترى التّلال، والوديان، والحفر، وأفواه البراكين، والشَّعر كأنَّه غابة، إذاً هناك صورة ظاهرة، وصورة حقيقيّة، فالله عز وجل صوَّر المخلوقات بشتَّى أنواع الصور.

وبطولة المؤمن أنَّه لا يتعلَّق بالصّورة الظاهرة، لا يُؤخذ ببيت فخم اشترِي بمالٍ حرام، لا يُؤخذ بمركبة فارهة، ركبها صاحبها، وقد ابتزَّ أموال الناس، هناك صورة ظاهرة، وصورة خفيّة، وصورة حسيّة، وصورة عقليّة.

حدثني أخ له أستاذ في الجامعة تقاعد، وانحنى ظهره، وضعف بصره، وكان في وضع صعب في آخر حياته، دخل إلى مسجد فرآه يصلي، فهرع إليه، وسلم عليه بأدب جمٍّ، صديقه معه، قال له: مَن هذا؟ قال له: هذا عميد كليّتنا، هذا مِن أعلم علماء النحو، هذا كذا، وكذا، فالصُّورة الظاهرة إنسان متقدِّم في السِّنِّ، منحني الظهر، يرى بصعوبة، يمشي بصعوبة، لكن هذا في حقيقته أكبر عالم في اختصاص معين.

ومن معاني المصوِّر: أنَّ الله يبدع صور المخلوقات، ويزيّنها بحكمته، ويعطي كلَّ مخلوق صورته.

قال لي أحدُهم: ذهبتَ إلى بلاد الغرب فماذا رأيت؟ قلت له: والله على شبكيّة العين إذا كان في الأرض جنَّة فهي هناك، الطرقات، الأبنية، الحدائق، وسائل المواصلات، المطاعم، المقاصف، شيء يصعب تصوُّره، لكن في الدماغ قد تغدو تلك البلاد جهنم.

فبطولتك لا أن تتعامل مع ما ترى، بل أن تتعامل مع الحقيقة المُرّة، وقد تكون الحقيقة المُرة أفضل ألف مَرة من الوهم المريح.

فالحظوظ موزعة في الدنيا توزيع ابتلاء، وتوزيع امتحان، وسوف توزع في الآخرة توزيع جزاء.

كان ﷺ إذا أراد أن يصلي في بيته، لا تتسع غرفته لصلاته ونوم زوجته، لا بد من أن تنزاح جانباً حتى يصلي، وهو سيِّد الخلق، وحبيب الحق، أمينُ هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، دخل بعض الصحابة إلى بيته في الشام، غرفة فيها قِدرٌ مغطاة برغيف خبز، وسيفه معلَّق، وعلى الأرض جلد غزال يجلس عليه، قال له: ما هذا؟! قال له: هو للدنيا، وعلى الدنيا كثير، ألا يبلِّغنا المقيل.

﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ ﴾ [الإسراء:٢١].

قد يكون مع شخص تسعون مليارًا، وغيرُه ما معه ثمن لقمة طعام، وقد يكون بإمكانه أن يقصف هيروشيما بأمر، ويقتل ستمئة ألف إنسان في ثلاث ثوانٍ، وغيره لا يستطيع أن يتحرّر من سجنه: ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ ﴾.

إنسان بأعلى درجة من الغنى، وغيرُه فقير جداً، وإنسانٌ صحيح وغيره مريض، وإنسان قوي وغيره ضعيف، وإنسان وسيم وغيره دميم، وإنسان ذكي جداً وغيره محدود: ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ ﴾ .

اقرؤوا تتمة الآية: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ٢١﴾ [الإسراء:٢١].

درجات الدنيا مؤقتة، ودرجات الآخرة أبدية.

﴿ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ١٨٥﴾ [آل عمران:١٨٥].

كان ﷺ يقول: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة» [أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أنس بن مالك].

فالعبرة لا أن تكون غنيّاً أو قويّاً، العبرة أن تنجح في امتحانك، فإذا نجحت في امتحانك فقد نلت الدرجات العلا، هذا الشيء يسعُ جميع الناس، كلُّ إنسان بحسب ما أقامه الله عز وجل، قد ينجح، ويتفوّق، وقد يصل إلى أعلى درجات الجنة، والإنسان له ظروف، له إمكانات، له قدرات، له بيئة، عاش في عصر معين، عاش في ظروف وضغوط معينة، هناك عقبات وصوارف، هذا المعنى يؤكّده النبيُّ ﷺ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالقَابِضِ عَلَى الجَمْرِ» [أخرجه الترمذي].

يتساءل الإنسان عن سباق أحمق بين الناس، يسعى أحدُهم جهده لجمع أكبر ثروة ماليّة، ويضحّي بدينه، ومبادئه، وقيمه، ويكذب، ويبتزُّ أموال الناس، ثم يموت،

يسعى إلى أن يكون في أعلى درجات الانغماس في الملذَّات، وبعد أن يصل إلى هذا الهدف يأتيه ملك الموت.

تصوَّر سيارات متسابقة، في نهاية المطاف حفرة ما لها من قرار، الكبيرة سقطت، والصغيرة سقطت، والحديثة سقطت، والقديمة سقطت، ما هذا السباق!.

من هنا قال ﷺ: «بادِرُوا بالأعمال سبعا: هل تُنْظَرون إلا فَقْرا مُنْسيا، أو غِني مُطغيا، أو مَرَضا مُفسِدا، أو هَرَما مُفنِدا، أو موتا مُجْهِزا، والدجالَ؟ والدَّجَّالُ شَرٌّ غائب يُنتظَرُ والساعةَ؟ والساعةُ أدْهَى وأمرُّ» [أخرجه الترمذي والنسائي عن أبي هريرة].

فنحن جميعاً، ولا أستثني أحدًا في الأرض هل يمكن أن نستيقظ كلَّ يوم كاليوم السابق إلى ما شاء الله؟ لا بدَّ من مفاجأة، فقد ينشأ فقر طارئ، أو غنى يؤدي إلى طغيان، إلى غير ذلك.

وممّا يتَّصل باسم المصوِّر أنَّ النبي ﷺ يقول: «إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَجْتَنِبْ الوَجْهَ، فَإِنَّ الله خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ» [أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة].

الله عز وجل صوَّر آدم، أعطاه صورة، وجعل له سمعاً، والله سميع، وجعل له بصراً، والله بصير، وجعل له علماً، والله عليم.

هذه الصفات يصحُّ إطلاقها في حقِّ الذات الإلهية، ويصحُّ إطلاقها في حقِّ الإنسان، فهناك إنسان عالم؟ والله عز وجل عليم، وهناك إنسان سميع؟ والله سميع، لكن كلُّ ما خطر في بالك فالله بخلاف ذلك.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١].

يقول ابن تيمية رحمه الله: (ما من شيئين إلا بينهما قدر مشترك، وقدر فارق، فمن نفى القدر المشترك فقد عطَّل، ومن نفى القدْر الفارق فقد مثّل) الله عز وجل وصف ذاته العليَّة ببعض الصفات، وصف نفسه بأنه سميع، فإذا نفيت أن يكون له سمع فقد

عطَّلت اسمًا من أسمائه، وإذا شبَّهت سمعه بسمع الإنسان فقد مثَّلته، فالصفات المتعلقة بالذات الإلهية ممنوع أن تلغيها، وممنوع أن تجسدها، وينبغي أن تفوِّض الأمر إلى الله.

لكن من الصفات المشتركة التي قد يُفهم منها قول النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ على صورَتِهِ».

إن الله عز وجل مريد، يفعل ما يريد.

﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [يوسف:٢١].

﴿ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [هود:١٠٧].

والإنسان لكرامته عند الله جعله مختاراً.

﴿ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴾ [الكهف:٢٩].

﴿ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإنسان:٣].

﴿ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ ﴾ [البقرة:١٤٨].

هذه الصفة التي وصف بها نفسه منحها للإنسان، لكرامته عنده.

الله عز وجل فرد واحد أحد، صمد، ومنحك بعضاً من هذه الصفة، فليس في أهل الأرض من آدم إلى يوم القيامة إنسان يشبهك.

لك قزحية عين لا يشبهك فيها إنسان آخر، ولك رائحة جلد تنفرد بها من بين ستة آلاف مليون، ولك نبرة صوت ليس على وجه الأرض إنسان يشبهك بها، ولك بصمة يد وهي هوية وتوقيع، ولك زمرة نسيجيَّة، لا يمكن أن يكون في الأرض إنسان زمرته كزمرتك، وثبت أخيراً أن نطفة الإنسان يتميَّز بها عن كلِّ البشر.

وهو جل جلاله بديع السماوات والأرض.

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ [البقرة:١١٧].

وجعلك مبدعاً، وفتح لك آفاقاً.

والله عز وجل هو المشرِّع، لكن سمح لك أن تشرِّع جزئياً، عن طريق فهمك للنَّصِّ ظنيِّ الدِّلالة، فلو أنَّ كلَّ النُّصوص قطعية الدِّلالة فلن تجد مجتهداً، ولا فقيهاً.

نصيب المؤمن من اسم الله المصور

إذا صنعت شيئاً فاجعله بصورة حسنة، والعالم الغربيُّ برع في هذا، بضاعته متقنة جداً، وجميلة جداً، ولها غلاف رائع، فإذا صنعت شيئاً ينبغي أن تصنعه وفق صورة حسنة، اجعل الإتقان والجمال في صنعتك.

أحيانا يكون الجمال، لكن بغير إتقان، اعتناء بغلاف الكتاب فقط، والكتاب مصوَّر تصويراً عشوائيَّاً، وهناك صناعة كبيرة جداً ظاهرها جميل، وباطنها غير متقَن، هذا يعد غشَّاً، وأنا أقول: اجعل الإتقان والجمال باطناً وظاهراً لما تقدِّمه للناس من صناعة، أو إنتاج.

وفي الحديث الشَّريف: «إنَّ الله يحبُّ إذا عمل أحدُكم عملاً أن يتقنه» [أخرجه أبو يعلى عن عائشة أم المؤمنين].

إذاً: إتقان الصنعة جزء من الدين، وهناك عدم إتقان يودي بحياة إنسان، فقد لا تتقن معالجة مريض، ولا تبلِّغه أنَّ هذا الدواء يسبِّب حساسيَّة، وقد تكون حساسيَّة قاتلة، وقد لا تنتبه فتعطي دواء لكبير، والمريض طفل صغير.

النبي ﷺ قال لأصحابه: «إنكُم قادِمُونَ على إخوانكم، فَأَصْلحُوا رِحَالَكُم، وأصلحوا لِبَاسَكُم، حتى تكونوا كأنَّكم شَامَةٌ في النَّاسِ» [أخرجه أبو داود عن ابن الحنظلية سهل بن الربيع].

لماذا غير المؤمن أنيق جداً؟ وثيابه جيدة؟ وألوانه متناسبة؟ وبيته جميل؟ مكتبته جميلة؟ لماذا يُهمل المؤمن مظهره أحياناً؟

لا أقول: اشترِ ثياب غالية، بل ثيابك العادية البسيطة اجعلها نظيفة، واجعل بينها تناسقاً فقط، محلُّك التِّجاريّ نظِّمه، فقد تدخل محلاً، أو صيدلية، فلا تجد دواء في محله، أكوام في الأرض، تنفر نفسك من هذه الصيدلية، وصاحبها مسلم، أنت مسلم يجب أن تكون في أعلى درجة من الأناقة، والشكل الحسن، لذلك فالصورة الحسنة، والعناية بالجسم، وباللباس، وبالبيت، وبمكان العمل، وبالمركبة، هذه من لوازم المؤمن.

الحقيقة أنَّ الجمال حاجة أساسيَّة في الإنسان، والإنسان يرتاح لبيت نظيف، ألوانه متناسقة، ليس معنى هذا أن تكون غنيّاً، لكن يرتاح الإنسان لبيت ليس فيه حاجات غير مستعملة، تجد أحياناً مئة حاجة في البيت لا تُستعمل، لكنّها عبء، منظرها عبء، فكلما جعلت البيت بسيطاً وأنيقاً، ونظيفاً ارتاحت نفسك في البيت.

إنّ الأب الذي يعتني بالبيت يشدُّ أبناءه إليه، وإذا كان البيت مهملاً جداً ينفر الابن منه، وأكثر أوقاته في الطريق مع رفاقه، لأنَّ البيت غير مريح، فالعناية بالبيت حكمة بالغة من الأب، والعناية بالبيت تجذب الابن إلى البيت.

ومن أدعية النبي ﷺ إذا سجد: «اللهمَّ لَكَ سَجدْتُ، وبِكَ آمَنْتُ، ولَكَ أسلَمتُ، وأنْتَ رَبِّي، سَجَدَ وَجْهي لِلَّذي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ، وَشَقَّ سَمعَهُ وبَصرَهُ تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ» [أخرجه النسائي عن جابر بن عبد الله].

وإذا وقف أمام المرآة، ورأى خلقه، كان يقول: «الحمد لله الذي حسَّن خَلقي وخُلقي» [أخرجه أبو يعلى عبد الله بن عباس].

القادر

سمّى الله ذاته العليّة بالقادر في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [المرسلات:٢٣].

وقد ورد الاسم معرّفاً على وجه المدح والكمال والتعظيم في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [الأنعام:٦٥].

وعند الإمام أحمد من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أنّه قيل: «يا رسول الله! كيف يحشر أهل النار على وجوههم؟ قال: إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر أن يمشيهم على وجوههم» [أحمد عن أنس بن مالك].

من معاني اسم الله القادر

القادر في اللغة اسم فاعل، من فعل قَدر، يقدِر، ويقدُر، قدْراً، والتقدير التروية والتفكير في تسوية الأمور، ويقال قَدْرتُ لأمر كذا إذا نظرت فيه ودبّرته، وقايسته.

القادر سبحانه وتعالى، هو الذي يقدِّر المقادير في علمه، وعلمه هو المرتبة الأولى في قضائه وقدره، فالله عز وجل قدّر كلَّ شيء قبل صنعه. فالبناء الشامخ العملاق، يبدأ بخريطة.

والقادر هو الذي نظّم أمور الخلق، قبل إيجادهم وإمدادهم، لذلك فإن القدَر عند علماء العقيدة مبني على التقدير والقدرة، هناك علم وهناك قدرة، فبدايته في التقدير، قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ [الأحزاب:٣٨].

قدر مقدور، مخطط له، يسبقه علم، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق:٣].

من التقدير، ومن ثمّ إنّ القادر هو الذي يقدِّر المقادير قبل الخلق والتصوير، لكن نحن -البشر- حينما نبني بناء، نأتي بكذا ألف متر من البلاط، لكن لا يوجد إنسان على وجه الأرض، ولا يوجد مهندس يقدر أن يقول لك نحتاج إلى ثلاثة و ثمانين ألف متر وسبع بلاطات، هذا التقدير فوق طاقة البشر، لكنّنا نشتري كمية من البلاط، قد تزيد أو تنقص، أمّا أن يأتي تقدير المساحة مناسباً مئة بالمئة فهذا فوق طاقة البشر.

والقضاء والقدر يتّضح جليّاً في هذا الحديث الصحيح، لما رجع عمر رضي الله عنه عن البلد التي فيها الطاعون: «فقال أبو عُبَيْدَة بنُ الجراح رضي الله عنه: أَفِرارا من قَدَرِ الله؟ فقال عمر: لو غيرُكَ قالها أبو عُبَيْدَة؟ نعم نَفِرُّ من قَدَرِ الله إلى قَدَرِ الله، أرأيتَ لو كانت لك إبلُ، فَهَبَطَتْ وَادِيا له عُدْوَتَان: إحداهما خِصْبَةٌ، والأخرى جَدْبة أليس إن رَعَيْتَ الخِصْبَةَ رَعَيْتَها بقَدَرِ الله، وإن رعيتَ الجَدْبة رعيتها بقدر الله؟ نعم نَفِرُّ من قَدَرِ الله إلى قَدَرِ الله فجاء عبد الرحمن بن عوف - وكان مُتغيبا في بعض حاجاته - فقال: إن عندي من هذا عِلما، سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إذا سمعتم به بأرض: فلا تَقْدَمُوا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها: فلا تخرجوا فِرارا، قال: فَحَمِدَ الله عمرُ بن الخطاب، ثم انصرف» [أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود ومالك عن عبد الرحمن بن عوف].

المرض قدر الله، والصحة قدر الله، نفرُّ من المرض عن طريق الأدوية إلى قدر الله وهو الصّحة.

إن رعت إبلك هذه الأرض الجدباء فإنّها ترعاها بقدر الله، وإن رعت هذه الأرض المخصبة فإنّها ترعاها بقدر الله، ونحن نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله.

القضاء هو الحُكْم، والقدَر هو التقدير، فحينما يحكم الله على عبد بالانحراف عن منهجه فإنّه يقدِّر له تدبيراً حكيماً ليردَّه إليه، قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢١﴾ [السجدة:٢١].

نقول: يطَّلع الطبيب على مؤشرات ضغط الدم لدى مريض، فيرى الضغط مرتفعاً، يعني ١٦-١٨، الاطلاع على ضغط الدم المرتفع هذا قضاء (حكم) الآن الطبيب يتّخذ قراراً، يمنع المريض من تناول الملح، ويعطيه دواءً مدرّاً بمقادير محدّدة، هذا القدر.

الطّبيب نفسه بعد حين اطّلع على مؤشر الضغط لدى هذا المريض فرآه طبيعياً، هذا هو القضاء، هذا هو الحكم، فقال: أوقفوا حمية الملح، وقدّموا له طعاماً مع الملح، ويخفّض مقدار الدواء المُدِرِّ، هذا هو القدر.

«لكل شيء حقيقة وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه» [أخرجه الطبراني عن أبي الدرداء].

هذا الدين العظيم حاجتنا إليه كحاجتنا إلى الهواء، يجب أن نبّسطه، ويجب أن نطبّقه حتى نقطف ثماره.

التقى مسلم بريطاني أسلم حديثاً بالجالية البريطانية فقال: أنا لا أصدق أن يستطيع العالم الإسلامي اللحاق بالغرب على الأقل في المدى المنظور لاتساع الهوّة بينهما، ولكنني مؤمن أشدَّ الإيمان أن العالم كلَّه سيركع أمام أقدام المسلمين لا لأنّهم أقوياء، ولكن لأنَّ خلاص العالم في الإسلام، ولكن بشرط -هنا الشاهد- أن يُحسنوا فهم دينهم، أن يُحسنوا تطبيقه، أن يُحسنوا عرضه على الطرف الآخر.

إضاءات على بعض الآيات التي ورد فيها اسم القادر ومشتقات القدرة

القادر من مادة القدرة، فهو قادر ذو قدرةٍ ومَقْدِرَة، ففي سورة الأنعام قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام:٩١].

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾... أي: ما وصفوه حقَّ صفته. وقدَرَهُ، أي: عرف قَدْرَهُ، قَدَرَهُ من التقدير، قَدَرَهُ من التعظيم، ومنها ليلة القدر فقد قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾﴾ [القدر:١-٢].

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنعام:٣٧].

والسؤال الذي يفرض نفسه الآن هو: لماذا ينبغي للإنسان أن يعرف الله، وأن يحبَّه؟ لأنه قادر... فالإنسان يحب القوي، وأذكر مثلاً توضيحياً منتزعاً من حياة الناس، فإذا كان هناك إنسان قويٌّ تجد الناسَ ملتفّين حوله ويصادقونه، ويدعونه إلى ولائمهم ويهدونه الهدايا من أجل أن يطمئنوا إلى أنهم على صلةٍ معه.

فالإنسان يزيل عن نفسه الخوف والقلق باعتماده على قوي من بني البشر، فكيف إذا كان اعتماده على الله خالق البشر، الحقيقة: إن الإنسان يحبُّ القويَّ. والقويُّ محترم، وأقوى الأقوياء هو الله عز وجل، لذلك سرُّ قوة المؤمن لا لأنه قوي، هو أضعف الضعفاء، لكنّه يحتمي بقوي.

فأحياناً تجد طفلاً صغيراً لا تستطيع أن تتكلم معه بكلمة قاسية أو بحرفٍ واحدٍ لأنَّ أباه كبير، وإن الطفل ضعيف يمكن أن تضربه لكنك تخشى والده، فهذا الطفل قويٌّ بأبيه لا بذاته، فالمؤمن سرُّ قوّته أنه يستمدُّ قواه من قوة الله، فإذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكَّل على الله.

لو احتككت مع مؤمن ترى معنوياته عاليةً جداً، فما سرُّ ذلك؟ لا أحد من الناس يدعمه، وليس معه مال كثير يعتمد عليه، وليس حوله أناس يتّكئ عليهم، فما سر قوّته؟ سرُّ قوّته اتكاله على الله، فإذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكَّل على الله.

فتصوَّرْ جيشاً ضخماً على رأسه قائد فذّ، وفي هذا الجيش ابن القائد، برتبة جندي عادي، علاقة الابن مع الأب متينة جداً، فهذا الجنديُّ الذي أبوه قائد الجيش لا يخشى أحداً في هذا الجيش كلِّه مهما علت الرُّتب؟

فحال المؤمن مع الله أنه يرى ويعلم أنَّ كلَّ الخلق بيد الله، وهو مع الله، فسرُّ معنوياته العالية آتيةٌ من هذه النقطة، فقد قال تعالى على لسان أحد أنبيائه: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ ﴾ [هود:٥٦].

وهكذا صار واضحاً أنَّ الإنسان إذا شعر بالقوة يقوى على خصمه، ويقوى على شهواته، ويقوى على أعدائه، أمّا إذا شعر بالضعف فيصبح منافقاً، فمع الضعف نفاق، ومع الضعف كذب، ومع الضعف مجاملة، وكلام الضعيف كلامٌ مخزٍ، تجده يتصاغر، يتذلّل، يخنع، الخنوع والتذلل والشعور بالنقص والخوف وبذل ماء الوجه سببه الشعور بالضعف، لو كنت مع الله لرفعت رأسك دون كبر، ودون استطالة على أحد، ودون عدوان، ولكنك تشعر أنَّ الله معك وأنَّ الله لن يتركك ولن يسلمك إلى خصومك.

ومعنى القادر أي ذو القدرة التامة الذي لا يُعجزه شيء، ولا يتقيَّد بأسبابٍ أياً كانت. هو المقدِّرُ بقضائه، المدبِّر لشؤون الكون بقدره وحكمته، فقد قال تعالى: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [المرسلات:٢٣].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنعام:٦٥].

قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾ [الإسراء:٩٩].

إنَّ الله عز وجل أخبرنا أنه سوف يعيد خلقنا، وسوف تعرض علينا أعمالنا كلُّها عملاً عملاً بكلِّ تفصيلاتها، وسوف نحاسب على هذه الأعمال إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ، فإذا أنكرنا يوم البعث وأنَّ الله سيحيي من في القبور، فهذا من ضعف تفكيرنا.

وفي سورة الأحقاف قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأحقاف:٣٣].

وفي سورة يس أيضاً قال تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾ [يس:٨١] فيجب أن نؤمن أن الله سيعيد خلقنا وسيحاسبنا، وهذا أكبر رادع للإنسان يحميه من أن ينحرف.

وفي سورة القيامة قال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ [القيامة:٤٠].

وفي سورة الطارق قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [الطارق:٨].

تلاحظ أيها المؤمن أن أكثر أسماء القادر وردت في قدرته على إحياء الموتى وبعث من في القبور، ليحاسب الإنسان على أعماله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

أما القادرون جمع قادر فقد وردت في كتاب الله أربع مرات ففي قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ﴾ [المؤمنون:١٨].

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ ﴾... بقدر حكيم، بقدر دقيق... ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾. تجد بلداً كلُّ قيمتِهِ بأنهارِهِ فإذا جفَّت الأنهار انتهت قيمة هذا البلد، مثلا: دمشق كلُّها ما قيمتها لولا نبع الفيجة؟ هذا النبع الذي يمدُّها

بالماء على مدار العام ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ۝١٨ ﴾ فالله عز وجل قادر على أن يعطي وقادر على أن يأخذ، فإذا أعطى أدهش وإذا أخذ أدهش.

﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ۝٩٥ ﴾ [المؤمنون:٩٥].

أي أنَّ الله عز وجل وعد المستقيم بحياة طيبة، ووعد المنحرف والمعرض بمعيشةٍ ضنك، والله قادر على أن يُحقق وعده ووعيده لأنَّ الفعل بيده، فلذلك أحد الأدلة الكبرى على أحقية القرآن الكريم أنَّ أفعال الله كلَّها تطابق أقواله في كتابه، مطابقة أفعاله لأقواله شهادةٌ منه بأنَّ هذا الكلام كلامه، وقال تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ ﴾ [المعارج:٤٠].

قادرون على كلِّ شيء... فالله عز وجل تعلَّقت قدرته بكل شيء.

إذا توجّهنا بسؤال إلى أطباء كثيرين فهناك أمراضٌ عُضال لا يُرجى شفاؤها، وليس في علم الطب ما يشير إلى أنها تشفى، وهناك حالات كثيرة تجد معها أنَّ المرض قد تراجع بلا سبب، ألم يقل الله عز وجل على لسان سيدنا إبراهيم: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ ﴾ [الشعراء:٧٨-٨٠].

لي صديقٌ قد أصيب بورم خبيث في الرئتين وحكايته هذه منذ عشرين سنة تقريباً، وأُخذت خزعة من رئته إلى كل المخابر حتى إنه قد أرسلت منها قطعة إلى بريطانيا للتحليل، وجاء التشخيص: مرضٌ خبيث من الدرجة الخامسة، ولا أمل في شفائه من مرضه أبداً إلا بزرع رئةٍ في أمريكا، ونجاح العملية نسبته عشرون في المئة، وتكلفة هذه العملية ثمن بيته الذي يسكنه ولا يملك غيره، وقد عاصرت القضية، والذين فحصوا وحللوا وصوَّروا وشخصوا أعرفهم معرفةً تامة وكان قرارهم جميعاً أنه لا أمل في الشفاء، لكن المرض تراجع بعد حين تلقائياً وشُفي المريض. وكيف تراجع هذا المرض تلقائياً والمريض الآن في صحة جيدة ولا يشكو شيئاً والحادثة منذ عشرين عاماً.

إذا اعتقدت جازماً أن الله على كلِّ شيءٍ قدير في كل موضوع؛ يعطيك، يغنيك، يقوِّيك، ويحفظ، يؤيِّدك، ينصرك، يشفيك يحميك، إن اعتقدت ولم يساورك شك أن الله على كل شيءٍ قدير، فأنت في كنف الله ورحمته ورعايته، وإن تعلَّقت به، وقطعت الآمال من سواه، وتوجَّهت إليه وأعرضت عن الخلق، هذا هو الدين، فالدين هو التوحيد الخالص وأن تقطع أملك من الخلق وأن تعلِّق أملك بالحق، أن تيأس من المخلوقين، وأن تتطلع إلى رب المخلوقين.

الإنسان له قدرة، ولكنَّها ناقصة، ولماذا جعلها الله ناقصة؟ ليكون مفتقراً في ضعفه، سعيداً بافتقاره، لو جعله قوياً لاستغنى بقوَّته فشقي باستغنائه... فالإنسان ضعيفٌ، فقد تجد إنساناً ملء السمع والبصر، خثرةٌ دموية في بعض شرايينه تجعله مشلولاً، وخثرةٌ أخرى تجعله أعمى، وخثرةٌ ثالثة يفقد ذاكرته، فالإنسان ضعيف.

فلذلك الإنسان المؤمن لا يفتأ يقول: إن شاء الله، وإن جاءه خير قال: هذا من فضل الله، وإن نجح في عمله... هذا بتوفيق الله، وإن رزقه الله مالاً... هذا من كرم الله، وإن أدَّبه الله عز وجل... هذا من رحمة الله، هذا هو حال المؤمن.

الإنسان قدرته محدودة يكمِّلها بأدوات، والأدوات لا تفعل فعلها إلا أن يأذن الله لها.

فالنبي ﷺ يقول فيما رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر رضي الله عنه: «لِكُلِّ داءٍ دَوَاءٌ».

«لكلِّ داءٍ دواء»... فتصور مريضاً يُعاني من مرضٍ قرأ هذا الحديث فبماذا يشعر؟ يشعر بالثقة... القضية سهلة، فكلُّ داءٍ خلقه الله خلق له دواءً، إذا قرأ هذا الحديث طبيب يشعر بالتقصير، إذا كانت هناك أمراضٌ حتى الآن لم يكتشف لها دواء فهذا من تقصير الإنسان، فهذا الحديث يحثُّ الطبيب على أن يكتشف الدواء ويطمئن المريض بأن لمرضه دواءً، ثم يقول ﷺ: «فإذا أُصيب دواء الداء بَرَأ بإذن الله»، ففلاح الطبيب بتوفيق الله له أن يصيب في تشخيص المرض ووصف الدواء.

ليطمئن المريض وليثق الطبيب فإذا أُصيبَ دواءُ الداءِ، أي إذا شُخِّص المرض تشخيصاً صحيحاً وصف الدواء وصفاً صحيحاً.

فإذا أصيب دواء الداء بَرَأ... لكن بإذن الله... فالله عز وجل لا يسمح للدواء أن يفعل فعله إلا بإذنه.

إن الله أعطى الإنسان قدرةً ناقصة ليفتقر... إن الإنسان خلق هلوعاً... إن الإنسان خلق عجولاً... وخلق الإنسان كذلك ضعيفاً، وبهذه القدرة الناقصة يفعل ويفعل ويطغى، هذا الإنسان الضعيف الذي لا يملك زمام نفسِهِ ولو ساعة، لا يعرف فيها ما سيكون، يتحدى ويطغى ويتكبَّر ويقول ويفعل ويقتل بلا رحمة، كما نرى من أعدائنا الألداء كيف يقتلون الأبرياء والصغار، الإنسان على ضعفِهِ يجرم ويطغى، فكيف إذا كان قوياً؟

لهذا قيل: سبحان من قهر عباده بالموت، فالموت يحل مليون مشكلة.

ويقول الله عز وجل: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر: ٢١].

الله تعالى غنيّ، لكن هناك جفاف، فما معناه؟ هذا التقليل في الأمطار تقليل تأديب لا تقليل عجز في بلد إفريقيّ واحد، ينزل من الأمطار في ليلة واحدة أربعمئة ميليمتر، أيّ ضعف ما ينزل من الأمطار في العام كلِّه في دمشق على سبيل المثال. ونهر الأمازون كثافته ثلاثمئة ألف متر مكعب في الثانية، إنّه جلّ جلاله إذا أعطى أدهش.

نصيب المؤمن من اسم الله القادر

قال العلماء: ومن أدب المؤمن مع اسم القادر أن يستشعر حال ذكره هذا الاسم قدرة الله وتقديره وحكمته وتدبيره، فيشعر بعبوديّته وضعفه.

أنت أيها الإنسان بحاجة ماسّة لأن تعرف من هو الله عز وجل؟ من أجل أن تعرف من أنت أمامه؟ أنت لا شيء... فالذي يقول: أنا وأنا وينسى الكبير المتعال فقد

سها وتعالى بغير حق، بئس العبد مَنْ سها ولها ونسي المبتدى والمنتهى، بئس العبد عبدٌ عتا وتجبَّر ونسي الجبار الأكبر.

فإذا عرف الإنسان القدير وعرف القادر تحجَّم، وإذا عرف عبوديته وافتقاره فعندئذٍ يرقى.

ومن عرف القادر جلَّ جلاله فإنّه لا يخنع، ولا يستسلم، ولا ينبطح، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الشورى:٣٩].

هو متواضع لله، يمرِّغ جبهته في أعتاب الله، لكن لا يضعف أمام خصمه.

لكن لا يوجد تطاول، ولا عدوان، لا يوجد بغي، ولا طغيان.

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى:٤٠].

من هنا جاء في الحديث: «إن الله لا يقدس أمة لا يأخذ الضعيف حقه من القوي» [أخرجه الحاكم عن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب].

أمة ليس فيها عدل، هذه أمة عند الله ليست مقدسة، يروى أنه عقب الحرب العالمية الثانية سأل زعيم بريطاني وزراءه واحداً واحداً، سأل وزير الصناعة، كيف الوضع عندك؟ قال له: المعامل كلها مدمَّرة، سأل وزير الزراعة؟ قال له: الحقول محروقة، سأل وزير الخزانة؟ قال له: الخزانة فارغة، فسأل وزير العدل، كيف العدل عندك؟ قال له: العدل عندي بخير، قال له: كلنا إذاً بخير.

يمكن أن نمرَّ بأزمات طاحنة، ونبقى أمَّة قويّة، أما إذا ذهب الحقُّ والعدل فقد انتهينا عند الله.

إذا كنت مع القادر تشعر بالقوة، وإذا عرفت قدرة الله عز وجل تشعر بالضعف أمامه، فهناك معنيان ضروريان... أحياناً تغيب عن الإنسان قدرة الله عز وجل، فيظلم الناس ويعتدي عليهم ويتحدَّاهم، ويأخذ ما في أيديهم ويُهينهم، فيأتي عقاب الله الرادع

له، فالإنسان إن اعتزَّ بالله شعر بالقوة، وإن رأى قوة الله شعر بالضعف أمامه فتأدَّب بأدبه، فأنت بحاجة إلى أن تعرف قدرة الله كي تقف عند حدِّك، رحم الله عبداً عرف قدره فوقف عنده ولم يتعد طوره.

أحياناً ترى إنساناً يتطاول ويطغى ويعتدي، وكأنَّ الله غير موجود إطلاقاً، وربنا عز وجل يقول: ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢﴾ [البروج:١٢].

فالذي يتحرّك وكأنَّ الله غير موجود هو إنسان غبي وأحمق وجاهل، لأن الله سبحانه وتعالى سيبطش به وسيُحجِّمه وسيوقفه عند حدِّه، أنت بحاجة إلى أن تعرف القادر من أجل أن تعتزَّ به وتقوى به، وأن تستمدَّ منه القوة، نعم؛ أنت بحاجة، وأقولها مرةً ثانية لتعرف الله القادر كي تتحجَّم وكي تقف عند حدِّك وكي لا تتعدى طورك.

الكريم

اسم الكريم ثابت بنصِّ القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار:٦-٨].

واقترن اسم الكريم باسم الغنيِّ، في قوله تعالى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل:٤٠].

في عالم البشر قد تجد الغنيَّ شحيحاً بخيلاً، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج:١٩-٢١].

لكنَّ الله جل جلاله غنيٌّ كريم، قد تجد إنساناً كريماً لكنه فقير، وقد تجد إنساناً غنياً لكنَّه بخيل، فأن يجتمع الغنى مع الكرم فهذا من أرقى الصفات.

وورد في السّنّة من حديث عليٍّ رضي الله عنه أنَّه قال: «قال لي رسول الله ﷺ: يا علي ألا أعلمك كلمات إن قلتهن غفر الله لك، قال: قل: لا إله إلا الله العلي العظيم، لا إله إلا الله الحليم الكريم، لا إله إلا الله سبحان الله رب العرش العظيم» [الترمذي عن علي].

وفي حديث آخر: «إن ربكم تبارك وتعالى حييّ كريم يستحي أن يرفع العبد يديه فيردهما صفراً» [الطبراني في الكبير من حديث ابن عمر مرفوعاً].

وفي الدعاء النبويّ: «اللهم إنك عَفُوٌّ كَرِيمٌ تُحِبُ العَفْوَ فاعْفُ عَنِّي يا كَرِيّم» [أخرجه الترمذي عن عائشة أم المؤمنين].

ومن دعاء النبي ﷺ الذي إذا دخل المسجد: «أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسُلطَانِهِ القديم، من الشيطان الرجيم قال: قد قلتَ؟ قال: نعم، قال: فإذا قال ذلك قال الشيطان: حُفِظَ مني سائرَ اليوم» [أخرجه أبو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص].

من معاني اسم الله الكريم

الكريم صفة مشبَّهة باسم الفاعل، لمن اتَّصف بالكرم، والكرم نقيض اللؤم، والفعل كرُم الرجل كرَماً وكرامة، فهو كريم، والمرأة كريمة، والجمع كُرَماء.

وقبل أن نصل إلى ما تعنيه كلمة كريم في حق الله جل وعلا نريد أن نبدأ الحديث بما تعنيه كلمة كريم في التعامل اليوميِّ، فكلمة كريم نستخدمها كثيراً، قال العلماء: كلُّ صفة محمودةٍ تُسمَّى كرماً على خلاف ما يظنّه معظم النَّاس، من أنَّ فلاناً كريم يعني أنَّه يُعطي، وعطاؤه كثير.

فكلمة كريم شاملة واسعة: فالحِلم كرم، السَّخاء كرم، اللّطف كرم، الصَّبر كرم، المروءة كرم... فالكرم يعني أيّة صفة حميدة يتَّصف بها الإنسان، بل إنَّ الصفات الحميدة كلَّها تُلخَّص بكلمة واحدة هي الكرم، على حين أنَّ الصِّفات الخسيسة كلّها تُلخَّص بكلمة واحدة هي اللؤم.

فالخسيس لئيم، والمتكبِّر لئيم، والجَحود لئيم، والذي يرفع ذاته على أكتاف الآخرين لئيم، والبخيل لئيم، كلُّ الصفات الخسيسة تجمعها كلمة لئيم، وكلُّ الصفات المحمودة تجمعها كلمة كريم، فالنَّاس رجلان؛ كريمٌ ولئيم.

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته   وإن أنت أكرمت اللئيم تمرَّدا

* * *

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتدَّ ساعده رماني
وكم عَلَّمْتُهُ نظم القوافي فلمَّا قال قافية هجاني

والواقع يثبت أنَّ الناس رجلان «فالمؤمن غرٌّ كريم، والفاجر خبٌّ لئيم»، هكذا قال ﷺ [(١)].

فليس معنى كريم أنَّه الذي يعطي العطاء الكثير فقط، بل إنَّ الحليم كريم، اللطيف كريم، الرحيمَ كريم، الصافي كريم، الودودَ كريم، المُنصفَ كريم، ومنه قولهم: حَجَرٌ كريم: مثل اللؤلؤ، الماس، الياقوت، المرجان.

محمَّد بشر، وليس كالبشر بل هو ياقوتة والنَّاس كالحجر

فالياقوت حجر لكنَّه كريم، والماس حجر لكنَّه كريم، وقد سُئل ﷺ من أكرم الناس؟ قال: «أتقاهم» [متفق عليه من حديث أبي هريرة].

ومن معاني الكريم من كان كريم النسب، من هو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم؟ إنَّه سيِّدنا يوسف عليه السلام، قال ﷺ: «الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم يوسُف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» [أخرجه البخاري من حديث ابن عمر].

أو نقول: فلان كريم الطَّرفين، يعني أمُّه كريمة وأبوه كريم، فقد حاز الشَّرف من طرفيه، من طرف أمِّه وأبيه.

من معاني الكريم من كان ذا صورة حسنة، والدليل قول الله عز وجل حينما وصف سيدنا يوسُف، قال الله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [يوسف:٣١].

---

(١) الغر في كلام العرب: هو الذي لا غائلة ولا باطن له يخالف ظاهره ومن كان هذا سبيله أمن المسلمون من لسانه ويده وهذه صفة المؤمنين. والحديث أخرجه أبو داود والترمذي وأحمد في «مسنده» من حديث أبي هريرة.

فالكرم يُستعمل بمعنى النسب الشريف، ولا يُتحدَّث عن شرف النسب إلا بعد معرفة الله وتطبيق منهجه، فإذا تحدثنا عن النَّسب فقط؛ فقد يعني نسب الدنيا المتعارف عليه عند الناس، فأبو لهب بن عبد المطلب عمُّ النبي ﷺ؛ والقارئ الكريم يعرف من أبو لهب: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ [المسد:١-٢].

لا نتحدث عن النَّسب إلا بعد الإيمان، فإذا أضيف النَّسب إلى الإيمان فهو نور على نور، أمَّا قول الشاعر:

جمال الوجه مع قبح النفوس كقنديل على قبر المجوسِ

إنَّما يعزِّز المعنى من أنَّ المرء جميل الخِلقة، لا بد له من خُلُق ودين يجمِّله كذلك، فتتم الصورة حسنة صافية.

والكريم في اللغة هو الشَّيء الحسن والنفيس، والشَّيء الواسع، والفرق بين الكريم والسَّخيِّ أنَّ الكريم كثير الإحسان دون سؤال، وأنَّ السَّخيَّ كثير الإحسان عند السُّؤال.

والكرَم: السَّعة، والعظمة، والشَّرف، والعزَّة، والسَّخاء عند العطاء.

الكريم هو الذي كرّم الإنسان عندما حمل الأمانة، كرّمه وشرَّفه، واستخلفه في الأرض، واستأمنه في ملكه، وفضَّله على كثير من خلقه، قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ [الإسراء:].

والكريم هو الذي بشّر عباده المؤمنين بالأجر الكريم الواسع، والمغفرة الواسعة. قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [الأنفال:٤].

وفي آية أخرى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم:٣٢].

ويقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦].

والكريم هو الجواد المُعطي، الذي لا ينفد عطاؤه، ولا ينقطع سخاؤه، الذي يعطي ما يشاء لمن يشاء، إذا أعطى أدهش، وكيف يشاء، بسؤال وبغير سؤال، هو الذي لا يمنّ إذا أعطى، فيكبر العطيّة بالمنِّ.

أمَّا المقام الكريم؛ فهو الجنة، فلا تعب هناك ولا نَصَب ولا خوف ولا حزن ولا حسد ولا تباغض، ولا شيء يُزعج، ومن كان ذا مقامٍ كريمٍ في الجنة فقد فاز حقَّاً.

ومن معاني الكريم؛ الشَّيء العزيز، الذي تشتدُّ الحاجة إليه، ويقلُّ وجوده ولا يُستغني عنه، والدَّليل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات:١٣].

والكريم: الشَّيء الذي تكثُر منافعُه، قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [النمل:٢٩].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [الواقعة:٧٧].

كتاب كريم؛ كلُّه منافع، كلُّه فوائد، كلُّه حقائق، كلُّه توجيهات صائبة، كلُّه خيرات، كلُّه بركات، إذاً معنى القرآن الكريم صار واضحاً: لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، القرآن الكريم ليس فيه باطل ولا غلط، ليس فيه خلل ولا تناقض، وليس فيه مخالفة للواقع، ولا ضعف في أسلوبه، ولا غثاثة، ليس فيه معالجة سريعة، ولا معالجة متناقضة، قرآن كريم، خلا من كلِّ شائبة، فالمعنى الذي يجمع كلَّ هذه المعاني، الكرم، قرآن كريم أي: خلا من كلِّ عيب.

كذلك، نقول: ناقة كريمة، أي: غزيرة اللبن، درُّها كثير، والنبي ﷺ حينما أرسل سيدنا معاذاً إلى اليمن، قال له:

«إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْماً أَهْلَ كِتابٍ، فإذا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إلى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إلا اللهُ وأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله، فإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَواتٍ في كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فإِنْ هُمْ أطاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنيائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرائِهِمْ، فإِنْ هُمْ أطاعُوا لَكَ بِذلِكَ فإيَّاكَ وكَرَائِمَ أَمْوالِهِمْ، واتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ، فإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وبَيْنَ الله حِجابٌ» [أخرجه البخاري].

كرائم أموالهم؛ يعني إن كان عنده بقرة يحرص عليها حرصاً شديداً فدعْها له، وخذ بقرة أخرى يختارها لك هو، لا كما يفعل بعض الناس، يأخذ ما يعجبه، وهذا يتعارض مع السنّة الشريفة، فالسنّة كما قال له: «إيّاك وكرائمَ أموالهم».

وسُمِّيَ العنبُ كرْماً لأنها فاكهة كثيرة الخير، ظلٌّ ظليل، وثمار يانعة، وقطوف دانية، وغذاء جيد، وفاكهة محبّبة.

أحياناً ينصب الناس خياماً على مداخل البيوت؛ هذه الخيام من حين لآخر تتمزَّق، تعصف بها الرياح، تُتلفها الأمطار، ولكنَّ أناساً يزرعون الكرم على مداخل البيوت، فهذا الكرم ظل ظليل وفاكهة دانية ويانعة ومفيدة وما شاكل ذلك.

وإذا قلنا: مكارم الأخلاق، فذلك يعني أفضلها وأحسنها وأرفعها وأسماها... فهناك إذاً مكارم الأخلاق، والكرم وهو العنب، وهناك ناقة كريمة كثيرة الدَّرِّ، وهناك الكتاب الكريم، كثير الفوائد، وهناك الأحجار الكريمة الصافية من كلِّ شائبة، وهناك العزيز، الشَّيء النَّادر، وهناك مقام كريم، وهناك الجمال الصوريُّ: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف:٣١].

فإذا قلت: قرآن كريم فهو كتاب الله، فالله سبحانه وتعالى كماله مطلق وكلامه كمال مطلق، وفضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه.

الآن إذا وصفنا الله سبحانه وتعالى، كما وصف هو نفسه، بأنَّه الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾ [الانفطار:٦].

معنى هذه الآية أنَّ الإنسان قد يغترّ بالله فيظنُّ بالله غير الحق ظنَّ الجاهلية، قد يظنُّه لا يحاسِب ولا يعاقِب ولا يأخذ حقَّ الضعيف من القوي، ولا حقَّ الفقير من الغني، كما لو ظنَّ المتَّهم أنَّ القاضي يأخذ رِشوة فيحكم للظالم ويضيّع حقَّ المظلوم ثم يُفاجأ أن القاضي عادل ونزيه وورع، إذا ظنَّ الإنسان بالله غير الحق ظنَّ الجاهلية فقد اغترَّ بربِّه.

الكريم، هو المنزّه عن كلِّ عدم وعن كلِّ نقص، العزيزُ الذي لا إله غيرُه.

هذا الكلام يُلخّص بصفات ثلاث، وجوده ووحدانيّته وكماله، فالله كريم يعني موجود وواحد وكامل.

الكريم؛ هو الذي يبتدئ بالنِّعمة من غير استحقاق، تفضَّل علينا وأوجدنا دون أن يكون لنا حقٌّ في أن نُوجد، ليس لنا حقٌّ عنده بل تفضَّل علينا وأوجدنا، فنعمة الإيجاد ابتدأها الله دون استحقاق منَّا، أنت مسؤول، وعندك موظَّف، وأخلص إخلاصاً شديداً وقدّم جهداً طيباً، ربما تكافئه، فهذه المكافأة، جاءت منك ليس ابتداءً ولكن عَقِبَ إحسانه وإخلاصه، مقابل شيء فعله، أمَّا الكريم الحقيقي، الكريم المطلق هو الذي يبتدئ بالنعمة دون استحقاق، أوجدنا دون اختيار، ودون طلب. ويتبرع بالإحسان من غير سؤال.

فإذا قلت: يا كريم العفو، قد يعفو عنك شخص، ومن حين لآخر يقول لك: لا تنسَ أنك فعلت كذا، ثم بعد حين يذكِّرك: أنت فعلت كذا؟ فتقول: نعم.. جزاك الله خيراً عفوت عني، من حين لآخر يذكِّرك بمساءتك، لكنَّك إذا قلت: يا رب، يا كريم العفو، فعفو الله عز وجل ليس معناه أن يُلغي العقاب فحسب، وليس معناه أن يُنسي الناس ذنبك أيضاً، ولكن عفو الله معناه، أن ينسيك ذنبك، يعني أنت صاحب الذنب،

ومن كمال عفوه عنك أنَّه ينسيك ذنبك. وقد ورد «إذا تاب العبد توبةً نصوحاً أنسى الله حافظيه وملائكته، وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه»، وأنساه هو نفسه ما فعل.

المؤمن -من كرم الله عز وجل- له جاهليّة، وقد ينسى أنَّ له جاهلية، فيعيش في جو لطيف، والله عز وجل يكرمه، هذا معنى كريم العفو.

ومن معاني الكريم أنَّه يستر الذُّنوب ويُخفي العيوب، إنسان قد يلقى من إنسان آلاف الأعمال الطيبة، فإذا عثر ذات مرةٍ على نقص لديه، تشبَّث به وأظهره وأذاعه بين الناس، لذلك «اللهم إني أعوذ بك من جار سوء، إن رأى خيراً كتمه، وإن رأى شرَّاً أذاعه، اللهم إني أعوذ بك من إمام سوء، إن أحسنت لم يقبل، وإن أسأت لم يغفر».

لكنَّ الكريم يغفر الذنوب ويستر العيوب، حتى قال عبد الله بن محمد القحطاني:

والله لو عرفوا قبيح طويَّتي لأبى السلام عليَّ من يلقاني
ولأعرضوا عني وملُّوا صحبتي ولبُؤت بعد كرامةٍ بهوان
لكنْ سترت معايبي ومثالبي وحَلِمْتَ عن سقطي وعن طغياني

فربُّنا عز وجل يُظهر من عبده الكرم الجميل ويستر القبيح، فإذا قلت: يا ستَّار العيوب، يجب أن يقشعرَّ جلدك، لأنَّ الله سبحانه وتعالى إذا ستر ستر حقَّاً، أمَّا الإنسان فلا بدَّ من أن يذكر هذا العيب بأن يهمسه بأذن إنسان آخر يقول: انتبه، هذا الرجل فيه من العيوب كذا وكذا... فهو بذلك ما ستره بل شهَّر به، لكن جميل الستر هو الله سبحانه وتعالى.

ومن المعاني الجميلة أنَّ الكريم يتغافل، الكريم لا يغفل ولكنَّه يتغافل، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

ويُحكى عن حاتم الأصمّ أنه جاءته امرأة فأثناء صعودها درج السّلم صدر منها صوت كريه فخجلت خجلاً لا حدود له، فلما اقتربت منه، قال: ما اسمك يا أختي؟

قالت له: فلانة، قال: لم أسمع، قالت له: فلانة، قال: لم أسمع، ارفعي صوتك، فأنا سمعي ضعيف، فقالت هذه المرأة لأختها: لم يسمعنا، ولهذا سُمّي حاتماً الأصم وليس بذي صمم.

الكريم يتغافل، واللئيم يتَّبع العيوب.

الكريم يتغافل واللئيم يتَّبع ويتحرَّى، والكريم إذا استغفره عباده غَفَرَ لهم، ولا يذكّرهم بأنواع معاصيهم وقبائحهم وفضائحهم.

مرةً وقفت بمنطقة مشرِفة على دمشق، بيوت كثيرة، متقاربة، متراصَّة، تعدُّ الشَّام خمسة ملايين نسمة، تلوت قوله تعالى: ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الإسراء:١٧].

هذه البيوت لا يعلم ما فيها من طاعات أو من معاصٍ إلا الله، ومع ذلك يرزقهم ويعافيهم: «ليس أحد أصبر على أذى سمعه من الله تعالى، إنهم ليدعون له ولداً وإنه ليعافيهم ويرزقهم» [متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري]، والكريم إذا أتاه عباده بالطاعات اليسيرة قابلهم بالثواب الجزيل.

إنسان يطعم لقمة، هذه اللقمة تصبح يوم القيامة كجبل أُحد، لا أعتقد في الدنيا أن أحداً يقدِّم ليرة ويأخذ بدلاً منها خمسة آلاف مليون ليرة، بالآخرة تأخذ أكثر، أعطيت شيئاً يسيراً، قمت ببعض الطاعات أنفقت بعض مالك، ضبطت شهواتك، التزمت طريق الحق، فأعطاك الجنة وما فيها، قال تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٣].

الله الكريم جعل هذا العبد الحقير، هذا العبد الضعيف، هذا العبد الذليل يرتفع، أجل، رفعه فقال: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [البقرة:٤٠].

فهل لنا عهد؟ من كرم الله عز وجل أنه خاطبنا، وحينما خاطبنا علّل أوامره، وتعليل الأوامر إكرامٌ لنا، قال تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ

ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [العنكبوت:٤٥].

الإنسان القويُّ قد يعطي أمراً لإنسان ضعيف دون تعليل فيقول: افعل كذا فقط ولكن الله عز وجل حينما أمرنا ذكر لنا التعليل كرماً منه وطمأنةً لنا، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [البقرة:١٨٣].

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [التوبة:١٠٣].

فلذلك جعلنا أهلاً لمعاهدته فقال: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾.

الله كريم، والكريم جعلنا أهلاً لمحبته، قال تعالى: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة:٥٤].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾ [مريم:٩٦].

الله الكريم أعطانا الدنيا كلَّها، والدليل قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [البقرة:٢٩].

أمَّا الهواء، فهل الهواء في قائمة النِّعَم عندكم؟ أجل، نعمة بلا ثمن فأنت تستنشق الهواء في أيِّ مكان، وكذلك الماء، هذا الذي تدفعه ثمن الطعام، هذا شيء رمزي، من منكم يُصدِّق أنه يدفع ثمن التفاح؟! هذا ثمن خدمة التفاح، فالتُّفاح ليس له ثمن، فهذا الفلاح الذي اعتنى بهذا البستان وسقاه وسمّده وقطف الفواكه وجاء بها إلى السوق، فأجرته ثمن كيلو التفاح، أما التفاح فلا يُقدّر بثمن إذ هو من الله عز وجل.

والآخرة أيضاً ملّكها لعباده المؤمنين، وسخَّرَ الله سبحانه وتعالى ما في السموات والأرض جميعاً منه، تسخير تكريم وتسخير تعريف.

الكريم هو الذي يعطي من غير مِنّة، من الصعب أن ترى إنساناً يعطيك بلا مِنّة، بل يقول لك: «لحم كتفك من خيري، أنا فضلت عليك، أنا أنقذتك من الهلاك، أنت كنت لا شيء». لكن العطاء مَن الله سبحانه وتعالى من غير مِنّة.

ولا يحوجك إلى وسيلة، أحياناً لا تعطي الشخص حتى تستنفد طاقاته: قدّم طلب أولاً، هات بطاقتك الشخصيّة، اذهب واحضر بعد أسبوع، تعالَ بعد يومين، سنجري تحقيقاً، يكره العطاء لشدة التحقيقات وكثرة التأجيلات والتأخيرات والتعقيدات والوثائق، أمّا الكريم فلا يحوجك إلى وسيلة، والكريم لا يُقنِّط العصاة من توبة، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر:٥٣].

الكريم؛ إذا أعطى أجزل، وإذا عُصي أجمل.

الكريم؛ هو الذي لا تتخطّاه الآمال... أحياناً يأتيك إنسان ويعرض عليك حاجته، يتذلل، ويبذل ماء وجهه، فتردُّه بعدها، يمحوك من قائمته، ويلغيك من مخيلته، لأنك خيّبت أمله، لكن لا تجد إنساناً يسأل الله عز وجل صادقاً ويخيِّبه فهذا مستحيل، لا تتخطّاه الآمال... إذا أولى فضلاً أجزله ثم ستره، فالإنسان الكريم إذا أعارك لباساً من ملابسه، فقد يقول لك أمام الناس: البسها ارتدِها لا شيء عليك، يفضحك أمام الناس، كثيراً ما تلاحظ مثل ذلك على شخص أعطى حاجة لإنسان آخر، أو أعاره إياها، فيمنُّ بها أو يعرّض بآخِذِها.

والكريم دائم المعروف كثير النَّوال، ذو الطَّول والإنعام، يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء، هذه كلُّها أوصاف قرآنية.

وإنَّ الله حَيِيٌّ كريم، ومن حيائه وكرمه أنَّه يستحيي من عبده إذا رفع يديه أن يردَّهما خائبتين.

«وما قال عبد قط: يا رب، ثلاثاً، إلا قال الله: لبيك يا عبدي» [الديلمي عن أبي هريرة].

بل إنَّ الكريم يغضب على من لا يسأله، قال ﷺ: «إن الله الكريم يحبُّ الكرماء، جواد يحب الجَوْدَة، يحبُّ معالي الأخلاق ويكره سفسافها» [ابن عساكر بسند صحيح عن سعد بن أبي وقاص].

سفساف الأمور يعني أن يرى شخصاً سخيفاً، والموضوع المعالَج سخيف جداً وهو بخيل وأناني، ومحور حياته مصالحه، هذه سفساف الأمور، أما إذا اطَّلع على قلبك فرآه قلباً يهتمُّ بعامة المسلمين وقضاء حاجاتهم فهذا من مكارم الأخلاق، فالله عز وجل لا ينظر إلى صوركم، فهذا طويل وذاك قصير، هذا عيونه كبيرة، وذاك عيونه صغيرة، هذا ناتئ الوجنتين، والآخر غائر العينين، هذا حواجبه متصلة وغير منفصلة، خدُّه أسيل.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسولُ الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلى صُوَرِكُمْ وأَمْوالِكُمْ ولَكِنْ يَنْظُرُ إِلى قُلُوبِكُمْ وأَعْمالِكُمْ» [صحيح مسلم].

قالوا: الكريم الذي لا يبالي كم أعطى، ولا لمن أعطى، بل إنَّ الكريم مَن إذا رُفعت حاجة إلى غيره لا يرضى.

أحياناً يقصد شخصٌ إنساناً كريماً فيقول له: إياك أن تسأل أحداً غيري، حاجتك عندي مضمونة، فهذه أعلى درجة في الكرم، أنا أغضب لو سألت غيري.

تصوّر إنساناً محتاجاً، والأمر كلُّه بيد الله عز وجل، يقف أمام إنسان ضعيف حقير، لئيم يتذلَّل له، يبذل ماء وجهه أمامه، ثم يردُّه، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى أكرم الأكرمين، فلذلك الكريم من إذا رُفعت حاجة إلى غيره لا يرضى.

الكريم من إذا جُفي عاتب وما استقصى، وعدك أحدهم أن يزورك، لم يأتِ، عاتبتَه، قال لك: ابنتي كانت مريضة، ثم اتَّصلت بجاره فقال: صحيح كانت ابنته مريضة، هذا اسمه استقصاء، هو استحيا منك فقدّم عذراً، مِن الكرم ألا تستقصي الأمر، بل الاستقصاء في هذه المواقف مثلبة.

إنسان اعتذر منك فقل في نفسك: جاءني أخي متنصِّلاً من ذنبه، فأقبل منه محقّاً كان أو مبطلاً، هناك أشخاص، عندهم نفسٌ طويل، فكلَّما اعتذر إنسان إليهم يتَّبعون

الأمر ويلاحقونه؛ يقولون: ظَهَرَ كذاباً، ابنته غير مريضة، هو نسي الموعد واستحيا منك فاعتذر بمرض ابنته، فالكريم؛ من إذا جُفي عاتب ولم يستقصِ.

حديث أسرَّهُ النبي إلى بعض أزواجه، فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرَّف بعضه وأعرض عن بعض، لن تكون كريماً إلا إذا غضضت البصر عن تسعة أشياء، وحاسبت على العاشر، كثرة العتاب تورث البغضاء، فالكريم عَرَّفَ بَعْضَه، وأعرض عن بعض.

الكريم؛ لا يُضيّع من لاذَ به، ولا يضيِّع من التجأ إليه، الملخَّص يجب أن تعتمد على الله وحده، وأن تلتجئ إليه، وأن تُعلِّق عليه كلَّ الآمال، وأن تقطع آمالك من البشر جميعاً، إذا كنت ترغب في أن تسعد في الدنيا والآخرة، فحيثما تعلَّقت بالبشر، واعتمدت عليهم وعقدت عليهم الآمال خيَّبوك.

رجلٌ له صديق تولَّى منصباً رفيعاً، عرضت له حاجة، فذهب إليه، فأقسم بالله أنه وقف أمام مكتبه، ولم يقل له: تفضل استرح، وعندما سأله عما يريد قال: كذا، قال: «مع عدم الموافقة» فهل أصابه مرض قصر البصر، فلم يعد يرى؟ لكنَّ الكريم يُغنيك عن الوسائل والشُّفَعاء، واعلم أن المعروف بتمامه، أن تكرم إنساناً عفواً وسماحة، دون أن تمُنَّ عليه، دون أن تضعه أمام عقبات تعجيزيّة. الكريم من إذا هجرته وصلك.

أحياناً تجد إنساناً بائساً مهتزّاً فقيراً مثلاً، أموره مضطربة، متداخلة، فتنفر نفسه من الدين، تراه يترك الصلاة، لكن الله عز وجل لا يدعه، فقد يُكرمه رغبةً في جبر خاطره، فيحلُّ مشكلته، ويريه مناماً طيباً، فالعبد هَجَرَ لكن الله عز وجل وصل.

الكريم من إذا هجرته وصلك، إذا مرضت عادك، إذا عدت من سفر زارك، إذا افتقرت أحسن إليك، فمن أعمق معاني الكرم، أنَّ الكريم من بني البشر إذا رفعت إليه حاجة عاتب نفسه، لِمَ لم يبادرْ إلى قضائها قبل أن تسأله هذه الحاجة؟

أحياناً يكون لك أخ وافتقر، وكانت حالتك المادية جيدة، وهذا الأخ له كرامته ومكانته وعِزتُهُ ولكنه افتقر، يجوز أن يُسحق سحقاً ولا يسألك، لكن ربما سألك، فاعلم علم اليقين عندئذٍ أنك لما أحوجته إلى أن يسألك فقد أسأت إليه.

إذا كنت كريماً فعلاً فعليك أن تتقصّى شؤون إخوانك وأقربائك، وأخواتك ولا تُحوجهم إلى أن يسألوك، فالكريم من إذا رُفِعت إليه حاجةٌ عاتب نفسه لِمَ لمْ يبادرْ إلى قضائها قبل أن يسأل.

نصيب المؤمن من اسم الله الكريم

وبعد، فما حظ العبد من هذا الاسم؟ قال العلماء: قد يتَّصف العبد بأنه كريم، هذا العبد الكريم إن ألحّ عليه أحد بطلب، أو زارهُ وبقي في زيارته ثلاث ساعات مثلاً، فإنه يتأفَّف ويتضايق، ويسكت، ثم لا يلبث أن يقول للزائر: عندي موعد، فإذا ألحَّ عليه بالطلب مرات عديدة يضجر، وقد ينهره، وقد يقسو عليه، إذ لا يمكن أن يكون الإنسان كريماً كرماً مطلقاً، فكرم الإنسان كرم نسبي، ألا هكذا فلتعلم، لكنَّ الكريم كرماً مطلقاً هو الله وحده، إن الله يحب المُلحِّين في الدعاء. أحضِرْ لي إنساناً واحداً يحبُّ من يُلحُّ عليه... بل سيقول: يا أخي أضجرتني، سأخرج من جلدي منك، يا أخي اذهب عني.

هذا الإنسان الكريم، أما الله عز وجل «فليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء» [البخاري في «الأدب المفرد»، وابن ماجه من حديث أبي هريرة]، «من لم يسأل الله يغضب عليه» [البخاري في الأدب المفرد، والترمذي من حديث أبي هريرة]، الإنسان كي يكون كريماً يجب أن يتجاوز عن ذنوب المسيئين، ويجب أن يوصل النفع إلى جميع الخلق، أحياناً ترى بلداً متقدِّماً والمواطن في هذا البلد يحيا أرقى حياة، له حقوق كثيرة جداً، الطّعام، الشّراب، المسكن، أنواع الأطعمة، الخيرات، الحريّات، لكن هذا البلد المتقدِّم الذي يوفر لمواطنيه حياة رفيعة المستوى، ينهش بلحوم بقية الشعوب، إذاً هؤلاء ليسوا كرماء، هؤلاء أنانيون، إذ بنوا أمجادهم وحضارتهم ورفاه شعبهم وغِنى أبنائهم وتوافر الحاجات عندهم على نهب ثروات الآخرين، وعلى قهر الآخرين، هؤلاء ليسوا كرماء، لن تكون كريماً إلا إذا عمَّ نفعك كلَّ الناس وكلَّ الخلق حتى الحيوانات.

عندهم في المداجن؛ إذا كان إنتاج الصيصان أكثر مما هم بحاجة إليه يضعونه في حرّاق ويتلفونه، هكذا في أوروبا، نعم، هكذا التعليمات.

هل يفعل هذا مسلم؟ صوص يُسبِّح الله عز وجل تحرقه، ماذا عمل؟ اجعله ينمو واذبحه وكلْه، واستفد منه ولك أجر بهذا العمل، أما أن تحرقه فهذا هو اللؤم كلُّه.

لن تكون كريماً إلا إذا عمَّ خيرُكَ الناس جميعاً، وأنا أقول لكم: والله إذا أسأت إلى مجوسيٍّ، أو إلى عابد صنم أو إلى مُلحد، والله هذه الإساءة إثمها كإساءتك لمسلم، لأنَّ هذا عَرف الدين من خلال إساءتك أنه عدوان، فأبعدته عن الدين بهذه الإساءة.

الكريم من بني البشر صفوح عن الذنوب، ستّار للعيوب، تارك للانتقام، مسبغ للإنعام.

سمعت حادثة أنَّ إنساناً كان على وشك أن يلقي كيس القمامة في الحاوية، فرأى كيساً فيه حركة، دُهش، أخذ الكيس المتحرك ففتحه فإذا فيه طفل قد وُلد حديثاً، يبدو أنه أُلقي منذ نصف ساعة، أخذه إلى البيت، ثم أسرع به إلى المستشفى، ووضعه في الحاضنة، واعتنى به، إلى أن أصبح هذا الجنين طفلاً، أدخله المدرسة، حتى أنهى الابتدائية، ثم الإعدادي ثم الثانوي، سمعت أنه اعتنى به عناية كبيرة، والخبر انتهى إليَّ هكذا، فلو أنَّ هذا الإنسان تابع العناية، حتى تخرج طبيباً مثلاً، وطلب اختصاصاً فأرسله إلى بلد متقدم وجاء بشهادة عليا، ثم اشترى له عيادة، زوَّجَهُ ابنته، أعطاه رأس مال، هذا الإنسان الذي لقي كلَّ هذا الإنعام، ما موقفه ممن أنعم عليه؟

هذه الحادثة ذكَّرتني بموقف الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة، لما رأى صاحبيه قد استُشهدا وهو على وشك موت سريع جداً قال:

يا نفس إلا تقتلي تموتي   هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت   إن تفعلي فعلهما هديت

قال رسول الله ﷺ: أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قُتل شهيداً، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قُتل شهيداً، ثم صمت النبي ﷺ حتى تغيرت وجوه الأنصار وظنوا أنه كان في عبدالله بن رواحة بعض ما يكرهونه قال: «ثم أخذها عبدالله

ابن رواحة فقاتل بها حتى قُتل شهيداً». ثم قال: «لقد رفعوا إليّ في الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب فرأيت في سرير عبد الله بن رواحة ازوراراً عن سريري صاحبيه فقلت: بم هذا؟ فقيل لي: مضيا وتردد عبد الله بن رواحة بعض التردد ومضى» [رواه الطبراني ورجاله ثقات].

وعودة إلى هذا الجنين الذي كان في الحاوية، إذ بعد ما أصبح طبيباً، وبينما وهو راكب سيارة، شاهد عمه الذي التقطه من الحاوية، قال له: يا بني أوصلني إلى البيت، تردد خمس ثوان، ثمّ قال له: نعم، تفضل، هذا التردد إجرام بحقِّ هذا العم، كان في الحاوية وكان موته محققاً، صنع منه طبيباً يحمل شهادة علْيا، فهذا مع إنسان فكيف بخالق الأكوان؟

فلذلك حقُّ الله كبير كبير، قال الله سبحانه وتعالى في حقِّ المنافقين: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [التوبة:٨٤].

فحينما اقترب أجل النبي ﷺ أسرَّ إلى سيدنا حذيفة سرّاً إذ ذكر له سبعة عشر اسماً، وقال له: هؤلاء إذا ماتوا لا تصلّوا عليهم، لأنَّ الله نهانا عن أن نصلي عليهم، هكذا الآية: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

فسيدنا حذيفة أمين سر رسول الله ﷺ، ثم جاء سيدنا الصديق خليفة من بعده، ثم مات سيدنا الصديق، وجاء سيدنا عمر من بعده، سيدنا عمر عملاق الإسلام، الخليفة الراشد، ثاني الخلفاء الراشدين، جاء إلى حذيفة وقال له: يا حذيفة أنشدك الله هل ذكر اسمي بينهم... والله ما قالها تمثيلاً، لا والله، والله قالها صادقاً، قال له: أنشدك الله هل ذكر اسمي بينهم، وذلك لعِظَم حق الله عليه، فقد خاف الله أن يكون قد زلَّت قدمه، ثم قال: لعلي مقصر، لعلي منافق، لو عثرت بغلة في العراق

لحاسبني الله عنها، جاءه ليلاً من أذربيجان رسول، كره أن يطرق بابه ليلاً، جاء إلى المسجد فرأى رجلاً يصلي ويبكي، ويقول: يا رب هل قبلت توبتي حتى أهنئ نفسي، أم رددتها حتى أعزيها قال له: من أنت؟ قال: أنا عمر، قال: ألا تنام الليل، قال له: يا أخي إن نمت ليلي كلَّه أضعت نفسي أمام ربي، وإن نمت نهاري أضعت رعيتي، في الصباح خيَّره، أتحبُّ أن تأكل مع فقراء المسلمين أم تحبُّ أن تأكل عندي؟ قال: لا بل آكل عندك، ذهب به إلى بيته فما وجد عنده إلا الخبز والملح فقط، ثم قال له: ما الذي جاء بك إلينا؟ قال: جئتك بهذه الهدية من أذربيجان، علبة فيها حلوى، قال: أو يأكل عندكم هذا الطعام عامة المسلمين، قال: لا، هذا طعام الخاصة، الطبقة الراقية، الغنية، فأرسل كتاباً إلى عامله على أذربيجان عنَّفَه فيه، وقال له: كل مما يأكل عامة المسلمين؟ وقال له: أعط هذه الهدية لفقراء المسلمين في المدينة، وحرام على بطن عمر أن يذوق طعاماً لا يطعمه فقراء المسلمين.

ورأى عمر إبلاً سمينة في الطريق، فقال: لمن هذه الإبل؟ قالوا: هي لابنك عبد الله، قال: ائتوني به، قال له بقسوة: لمن هذه؟ قال: هذه إبلي اشتريتها بمالي، وبعثت بها إلى المرعى لتسمن. فهل أخطأت أو أسأت؟ فقد اشتريتها بمالي، وأُسمِّنُها لأبيعها وأرتزق بها، قال له: ويقول الناس: ارعوا هذه الإبل فهي لابن أمير المؤمنين، اسقوا هذه الإبل فهي لابن أمير المؤمنين، وهكذا تسمن إبلك يا ابن أمير المؤمنين.

ثم قال له: بع هذه الإبل، وخذ رأس مالك، وردَّ الباقي لبيت مال المسلمين.

ومرةً بينما هو جالس مع أصحابه، قال أحدهم: والله ما رأينا من هو خيرٌ منك بعد رسول الله ﷺ، أحدَّ إليهم النظر، حتى كاد أن يسحقهم بنظراته، إلى أن قال أحدهم: لا والله لقد رأينا من هو خير منك. قال: من هو؟ قال: أبو بكر، فقال رضي الله عنه: كذبتم جميعاً وصدق... عدَّ سكوتهم كذباً، قال: والله كنت أضل من بعيري، وكان أبو بكر أطيب من ريح المسك.

هذا الذي سأل أحد عمّاله، قال: ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب؟ قال: أقطع يده، قال له: إذاً، من جاءني من رعيتك جائع أو عاطل فسأقطع يدك، إن الله قد استخلفنا على خلقه لِنَسدَّ جوعتهم، ونَسترَ عورتهم، ونوفر لهم حِرفَتَهُمْ، إن وفيناهم ذلك تقاضيناهم شُكرها، إن هذه الأيدي خُلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً، فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية.

هذا الخليفة الذي قال لسيدنا حذيفة: أنشدك الله هل ذكر اسمي بين أسماء المنافقين؟ قال: لا، ولا أزكي أحداً بعدك. استحيا سيدنا حذيفة، هذا هو الكرم.

هذا الاسم الإلهي العظيم، علينا أن نتخلّق بأخلاق الله، هذا الكرم، أن تصل من قطعك، وأن تعفو عمن ظلمك، وأن تعطي من حرمك، وأن يكون صمتك فكراً، ونطقك ذكراً، ونظرك عبرةً.

وبعد، فإني أسوق إليكم بعض القصص: إنَّ سيدنا موسى حينما ناجى ربه، قال: يا رب، إنه لتعرض إلي الحاجة أحياناً فأستحيي أن أسألك، أفأسأل غيرك؟ فأوحى الله إليه أن يا موسى لا تسأل غيري، وسلني حتى ملح عجينك وعلف شاتك.

ربنا عز وجل يحب الملحين، لِمَ لا تسألوه في السجود في صلاة السحر؟ لِمَ لا تسألوه حاجاتكم كلَّها؟

حُكِيَ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه جاءه إنسان ليلة يسأله حاجة، فقال: يا غلام ارفع السراج، ولما رفع السراج، قال: سلني حاجتك، لماذا فعل هذا؟ قال: لئلا أرى في وجهه ذُلَّ السؤال حتى لا يُحرج، فلا يستحيي إن عرفنا من هو، هذا من كرم سيدنا علي.

وكذلك أحد العلماء، كان لا يناول الفقير شيئاً بيده، بل يضعه على الطاولة ثم يقول له: خذه. لئلا تكون يده عُليا ويد الفقير سفلى.

يحكى عن أحد الصالحين أنه قال: خرجت يوماً فرأيت جنازةً يحملها أربعة من الزنج، ولم يكن معهم رجل آخر، قلت: سبحان الله، سوق البصرة وجنازة رجل مسلم

لا يشيّعها أحد فلأكوننَّ خامسهم، «إذا رأى رجل جنازة ومشى فيها فهذا حسن، وله أجر ولو لم يعرف صاحبها المحمول، وليتبعها حتى القبر، فلعله إذا فتح النعش، ورأى ماذا فُعل بهذا الميت وكيف وُضع في القبر، وكيف أهيل التراب عليه، أن يعتبر»، فتتبع الجنازة، ثم قال: فمضيت معهم فلما وضعوها بالمصلى، قالوا لي: تقدَّم. قلت: أنتم أولى، قالوا: كلُّنا سواء لا نعرفه، حتى دفنوه، وصليت عليه، وقلت لهم: ما القصة؟ قالوا: اسأل هذه المرأة، فهناك امرأة واقفة بعيداً فلما سألتها، قالت: هذا ابني كان مذنباً، وقال لي: يا أمّاه إذا متُّ فلا تُخبري بوفاتي جيراني لئلا يشمتوا بي، وضعي رجلك على خدي وقولي: هذا جزاء من عصى الله، فإذا دفنتيني فارفعي يديك إلى الله تعالى وقولي: إني راضية عنه.

تقول هذه المرأة: فما رفعت يدي إلى السماء حتى شعرت أنه يقول بلسان فصيح: انصرفي يا أماه فقد قدمت على رب كريم... هذا سِرّ القصة.

فإذا كان الإنسان يخاف الله عز وجل ويستحي منه فهذه فضيلة، أمَّا الأكمل للإنسان أن يكون بالرخاء تائباً منيباً مستقيماً وباب رحمة الله واسع.

أرجو الله سبحانه وتعالى أن يتغمَّدنا برحمته، وأن يلهمنا أن نكون كرماء لأنه كريم، والكريم بالمعنى الموجز ما كان خالياً من كل شائبة فكتاب كريم، ومقام كريم، ورب كريم، وإنسان كريم، ومؤمن كريم.

إنّ الكذب والنميمة والغيبة وتتبع العورات هذه كلُّها تقدح بكرم الإنسان، بل ليسمح لي القارئ الكريم أن أقول: إن هذه المثالب سلبت صاحبها كلَّ فضل وكرم، وأبقت عليه اللؤم وخزي الأحدوثة.

الودود

هذا الاسم ورد معرّفاً ومنوّناً، معرّفاً في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾ [البروج:١٤-١٦].

ومنوّناً في قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود:٩٠].

ولم يرد في السّنّة.

من معاني اسم الله الودود

وَدَّ الشيء وُدّاً، ووِدّاً، ووَدّاً، فهذه كلمة مثلَّثة، تأتي على ثلاث حركات ولكنَّها هنا بمعنى واحد.

ولها عدّة معان: **الأوّل** التمنّي، قال تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ﴾ [البقرة:٩٦].

الثاني: الودّ؛ بمعنى المحبَّة، كما في قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة:٢٢].

الثّالث: الودّ بمعنى المعية، والمرافقة، والمصاحبة، وهو لازم من لوزام المحبة، إن أحببت إنساناً راقبته، صاحبته، كنت معه، كنت كظلّه، فمن المعاني الفرعيَّة الناتجة عن الحب: الملازمة.

عن عبدالله بن عمر: «أن رجلاً من الأعراب لقيه بطريق مكة، فسلم عليه عبدالله، وحمله على حمار كان يركبه، وأعطاه عمامة كانت على رأسه، فقال ابن دينار له: أصلحك الله إنهم الأعراب، وإنهم يرضون باليسير، فقال عبد الله: إن أبا هذا كان وداً لعمر بن الخطاب (كان ملازماً له) وإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: إنَّ من أبَرِّ البرِّ صِلَةَ الرجل أهلَ وُدِّ أبيه» [مسلم عن عبد الله بن عمر].

من فضل الله عز وجل أنَّه أتاح للابن أن يكون بارّاً بوالديه بعد موتهما، حينما يصل الرجل أهل ود أبيه، حينما ينفذ عهد أبيه، حينما يصلِّي على أبيه صلاة الجنازة، حينما يدعو له في كلِّ صلاة، هذه من مسلكيات البرِّ.

الودود على وزن فعول، من صيغ مبالغة اسم الفاعل، واسم الفاعل: وادّ، والمصدر هو الودُّ، إذاً اسم الودود أصله من الودِّ، فماذا تعني كلمة ودّ؟

الودُّ هو الحبُّ، ولماذا سمِّيَ الحُبُّ حُبّاً؟ لأنّه مأخوذ من حَبَب الأسنان، وحبب الأسنان صفاؤها وبياضها ونقاؤها، وأسنان بيض ناصعة نظيفة نقية صافية، فالذي يحبُّ الله عز وجل من خصائصه الصَّفاء والنَّقاء والطُّهر والإخلاص.

والحُبُّ من أحبَّ البعيرُ؛ أي: استناخ، فالمُحبُّ خاضع لمحبوبه؛ فنأخذ من حبب الأسنان الصّفاء والنّقاء، ونأخذ من أحَبَّ البعيرُ، أي: أناخ؛ أي: خضع، فإنَّ المُحب لمن يحبُّ مطيع، المُحَب: مستعل، والمُحِب خاضع، والمحِب متواضع، والمُحب مُتذلِّل، والحُبُّ

هو القرطُ، والقرط ما تضعه النساء من الحليِّ في آذانهنّ، ومن شأن القِرط أنّه دائم التقلقل، فالمُحِب يتقلّب في اليوم الواحد من عشرين إلى أربعين حالاً، أمَّا هذا الذي يلزم حالاً واحدة فهو منافق؛ فالمحِب يتقلَّب من الخوف إلى الرجاء، إلى السكينة إلى القلق إلى السرور إلى السعادة إلى الشعور بالخطر إلى القلق على محبوبه، وما دام هناك حياة فله حركة، أمَّا الميت فهو ساكن، والذي مات قلبُه تسكُن أحواله، والمنافق يمضي عليه أربعون عاماً ولا يتغيَّر، حالُه حال السُّكون، لكنَّ الحياة فيها غليان، وفيها تقلّب وفيها تغيّر من حال إلى حال. فالحُبُّ؛ إذاً من معانيه: القرط، ومن شأن القرط التقلقل والتَّحرُّك.

والحَبّ؛ من الحبَّة التي تُنبت شجرة، فالحَبُّ له ثمار يانعة مثلُ كلمة طيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كلَّ حين.

وهذا يعني أنك إذا أحببت الله، فحُبُّكَ لله عز وجل بذرة تنبت شجرة وارفة الظِّلال يانعة الثمار باسقة الأغصان، خيرها دائم وظِلُّها، كلُّ هذه المعاني، الصَّفاء والنَّقاء والخضوع والتذلّل والتقلقل والنَّماء والخير العميم، أي: كلُّ هذه المعاني مستفادة من الحُبِّ، لكنَّ السؤال المهمَّ: هل الودّ هو الحبُّ؟ وما الفرق بينهما، وهل في اللغة اسمان مختلفان لمسمّىً واحد؟ أم أنَّ الاختلاف في المبنى دليل اختلاف المعنى؟ لا شكَّ أن هناكَ فرقاً بين الحُب والود، الحبُّ ما استقرَّ في القلب، والودُّ ما ظهر على السلوك، فإن كنت تُحبُّ فلانا فمشاعر الميل نحوه هي الحبُّ، وابتسامتك في وجهه هي الودُّ، وإذا قدَّمت له هديةً فهي ودٌّ، أو أعنته في مشكلة فهي ودٌّ، أو عدته في مرض فهي ودٌّ، أو أعطيته هديةً في زواجه فهي ودٌّ، أو نصحته فذلك ودٌّ، فالمشاعر الداخليَّة هي الحبُّ، والظواهر المادية هي الودُّ، فكل ودود محبٌّ، وليسَ كلُّ مُحبٍّ ودوداً.

ويمكن لإنسان أن ينطوي على محبَّة، ولا تظهر في سلوكه، وكلُّ ودودٍ مودَّته أساسها مشاعر الحبِّ في قلبه، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ﴾.

كلُّ هذا الكون تودُّدٌ من الله إلى الإنسان، فالكون والمجرَّات والسماوات والأرض، والشمس والقمر، والأمطار، ومليون نوع من السمك، ودٌّ، وتسع مئة ألف

نوع من الطيور ودٌّ، والآلاف المؤلفة من أنواع الأزهار بشتّى الأشكال والروائح ودٌّ، وأنواع الفواكه ودٌّ، وهذا الطفل الصغير الذي يملأ البيت حيوية وُدٌّ، وهذه الزوجة التي خُلقت تكريماً للرجل، وهذا الزوج الذي خُلق تكريماً للمرأة وُدٌّ، وهذا الصوف الذي خلقه الله لنا ليقينا برد الشتاء وُدٌّ، وأيُّ شيء سُخِّرَ لهذا الإنسان هو في الأصل وُدٌّ، والخلق، والكون كلُّه قد سخره الله لهذا الإنسان تسخير تعريف وتكريم، فالوَدود هو الذي ينقل حبَّه إلى سلوك.

وهنا تطالعنا حقيقة ملموسة وهي أنَّ الإنسان إذا أحبَّ فإنّه يميل، فإذا ابتعد المحبوب ألَمَّ بالمحبِّ ألم، وهذا ألمُ الفِراق، وما من إنسان يودِّع محبوباً في المطار إلا ويبكي، وما من أُم يفارقها ابنها إلا وتبكي، فهل يصحُّ هذا المعنى بالنسبة إلى الله عز وجل؟!

إنَّ علماء التوحيد قالوا: «لا، فالميل الذي من شأنه الضعف والتَّحسُّر والألم، هذا لا يصدق على الله عز وجل، ولكنَّ الإنسان إذا أحبَّ أحسن، وإذا أحبَّ خضع، وإذا أحبَّ تذلَّل»، فالإنسان هكذا يفعل، ولكنَّ الله إذا أحبَّ أحسن ورحم وأكرم، فحُبُّ الله عز وجل للمؤمنين ثابت في القرآن الكريم والدليل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة:٥٤].

محبَّة الله عز وجل للمؤمن تعني حِفظه، وتأييده، ونصره، وإكرامه، وإنزال الرحمة على قلبه، وإنزال السكينة، وإغناءَه بكل ما يحتاج، هذا هو الحبُّ الإلهيُّ، أمَّا حُبُّ الإنسان لله عز وجل فيعني الميل، فإذا جفاك ربك وأبعدك عن أنوارِه شعرت بألم لا يطاق.

فما حبُّنا سهلٌ ولكن من ادَّعى ... سهولته قلنا له قد جهلتنا
فأيسر ما في الحبِّ للصبِّ قتله ... وأصعب من قتل الفتى يوم هجرنا

والإنسان إذا أحبَّ الله مالَ إليه، وخَلَدَ إلى ظِلِّهِ وإلى أنوارهِ وإلى تجلِّياته وإلى سكينته، وإلى الشعور بأن الله يحميه ويحفظه، لكنَّ حب الله للإنسان يعني التأييد والنَّصر والحفظ، وما شاكل ذلك، أمَّا الوُدُّ فهو ما يتجسَّد به الحبُّ، وهذه مقدمة أظنُّها ضرورية ومفيدة.

ونتجاوز المقدِّمة الآن إلى المعاني التفصيليَّة لمعنى الودود فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤ ﴾.

الودود بوزن فَعول، والفعول هنا بمعنى فاعل، الوادّ: الذي يُكرم عباده، والذي تُعَدُّ نِعَمُهُ مظهراً لِحُبهِ لعباده، فأنت مثلاً وعلى نحو بسيط إذا أحببت إنساناً، ورأيت على ظهره نملة، فإنك تُنَحِّيها عنه، وإذا أحببت إنساناً ورأيته يرتجف برداً فإنك تعطيه معطفك، وإذا أحببت إنساناً، ورأيته بحاجة إلى شيءٍ ما فإنَّك تقدِّمه له، فالودُّ هو المظهر المادي للحبِّ، وربنّا عز وجل هو الغفور الودود.

كلُّ هذا الكون مظهر لحبِّه، وكلُّ هذا الكون نوع من أنواع الودِّ الإلهيّ، إنه تودَّدَ إلينا بهذا الكون. ومن أجل ألا نبتعد عن هذا الموضوع كثيراً، فهذه الدّوابُّ ألا تأكل طوال حياتها الشعير فقط، فهو بالنسبة لها المقبلات وهو الحلويات وهو الفواكه، وليس لها غير الشعير والأعشاب، أمَّا الإنسان فيمكن أن يأكل إلى شهر كلَّ يوم لوناً من الطعام، ويمكن أن يتذوّق أنواعاً كثيرة من الفواكه، ويمكن أن يشمَّ الأزهار.

وإذا دخلنا إلى محلِّ عطورات فشيء يأسِر ويدهش، إذ منها ألوف الأنواع، وكلُّها في الأصل من خلق الله عز وجل، فهذا الياسمين وهذا البنفسج وهذا الورد، وكلُّ أنواع الروائح عطاء فيضٍ من خلق الله عز وجل.

خلَقَ هذه الروائح الطيبة، وخلق هذه الحاسَّة التي تشتمُّ من خلالها هذه الروائح الطيبة، إذاً: خَلَقَ الشيء، وخَلَقَ الجهاز المستقبِل له، وخَلَقَ هذه النِّعمة وخَلَقَ ما يستقبِلُها، فهذا هو الودُّ.

إذاً: هنا الودود يعني الوادّ، والودود هو الذي يتودَّد إلى عباده بالنِّعم، فإذا صحَّت الرؤية واستيقظَ القلب وتفتّحَت البصيرة، رأيت أنَّ كلَّ هذا الكون ما هو إلا تودُّدٌ من الله إلى هذا الإنسان.

والآن أنت حينما تصلِّي وتصوم وتحجُّ، وحينما تغضُّ من بصرك وتتصدَّق، وتكون أميناً، وتنصح المسلمين، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتنفق من مالك، كلُّ هذه الأفعال من اعتقادات إلى عبادات إلى معاملات إلى آداب، هي في حقيقتها تودُّدٌ إلى الله عز وجل، هو تودَّد إلينا بالكون، وأوجدنا بالخلق، وسخَّر لنا هذا الكون، وأعدّ لنا جنَّة عرضها السموات والأرض، ونحن نتودَّد إليه بالإيمان به، وبعبادته وطاعته، وامتثال أمره، وترك ما نهى عنه، وبالتخلّق بأخلاق نبيّه وبالبذل والعطاء، ويكون الكون كلُّه من قبل الله تودُّداً إلى هذا الإنسان، وكلُّ أعمال الإنسان الصالحة هي في حقيقتها تودُّدٌ إلى هذا الخالق العظيم ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ﴾ أي الوادُّ؛ الذي يتودَّد إلى عباده بنعمه.

أسألك بالله عزيزي القارئ، لو دعاك أحدهم إلى بيته، ورأيت هذا البيت مُدفَّأً مسبقاً إكراماً لك، والماء العذب الزلال المُعطّر بماء الزهر، والأرائك، والمشروبات اللذيذة المتقنة والطعام النفيس العطر، والورود والهدايا، ألا تذوب حُبّاً له، ألا تشكره من أعماقك، ثم ألا تقول له: والله يا أخي، فضَّلت عليَّ، والإنسان عبد الإحسان، ولماذا تستحيي إذ أدى إنسان عنك الأجرة في سيارة؟ طوال الطريق تبقى مستحيياً منه: وتقول يا أخي والله أكرمتني... كلُّها من أجل مبلغ زهيد، أو إن جاءك إنسان مهنّئاً ومعه هدية، تحار كيف تُكرمه، ولماذا هذا الإحساس بفضل الإنسان؟ وهذا الفضل الإلهي، وأوّلُه أنّه خلقك من لا شيء، ألا يستحقُّ منك كامل الاهتمام، قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ ﴾ [الإنسان:١].

هذا الفضل الإلهيُّ دون إحساس، ودون شكر، هل قلت من أعماق أعماقك: يا رب لك الحمد على أن خلقتني؟ يا رب لك الحمد على أن عرّفتني ذاتك، يا رب لك

الحمد على أن أعنتني على طاعتك، ثم يا رب لك الحمد على أن نوّرت قلبي بنورك، ويا رب لك الحمد على أن ألهمتني أعمالاً صالحة، فالله يقول لك: أنا سأسمع؛ فقل وتكلم لأسمعك، ألا تقول له: سَمِع الله لمن حمده، ألا تفعل هذا في الصلاة ألا تقول: سَمِعَ الله لمن حمده، يعني يا عبدي أنا أسمعك فيما تقول، ربَّنا لك الحمد، يا رب لك الحمد ملء السماوات والأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد، يا رب لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، فما نَشَأَ بقلب الإنسان من شعور عميق بالحمد فلله عز وجل، واذكروا دائماً أنَّ كلَّ هذا الكون تودُّد إليك.

مرةً سافرت إلى الحجِّ، فانتظرني أخ بالمطار، وأخذني إلى بيته، وخصَّص لي سائقاً وسيارة، وأنزلني بأفخم فندق في مكة المكرمة والمدينة المنوَّرة، وأقام دعوتين أو ثلاثاً، ودعا إليها عشرات الأشخاص، وقدَّم معروفاً لا أنساه حتى الموت، وكلَّما جاء إلى الشام أحار كيف أُكرمه، وكيف أُقدِّم له الهدايا وأدعوه، وهو إنسان استضافني عشرة أيام في موسم الحج.

فالنِّعم الإلهية على هذا الإنسان تترى لا حصر لها، فعندما يدخل إلى الخلاء يُفرغ مثانته، دون آلام، ولا حصر بالبول، ولا صراخ، ولا إسعاف إلى المشفى، هذه نعمة عظيمة، بدأت بذكرها لأنَّ كثيراً من الناس غافلون عنها، فهل من مدَّكر.

والقلب يعمل بانتظام، والدّسّام يعمل بانتظام، الأوردة والشرايين والمعدة والأمعاء والكبد والكليتان، وجهاز التنفس والأعصاب، والإنسان يتمتع بنعمة عقله في رأسه، وهذه من نِعم الله العظمى.

فكلُّ هذا الكون تودُّد لهذا الإنسان ويجب أن يكون لسان حال المؤمن: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام:١٦٢].

فحياتي كلُّها، ووقتي كلُّه، وطاقتي ومالي وإمكانياتي وعلمي وأولادي، وبيتي في خدمة عبادك، ومهنتي في خدمة عبادك، ومالي امتثالاً لأمرك وإيماناً بك، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾.

فأنت لم تكن شيئاً مذكوراً، خلقك تنعم من أول لحظة بهديتين نفيستين: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد:٨-١٠].

فأول هدية أنَّه حينما يولد الإنسان يلهمه الله عز وجل عملية بالغة التعقيد هي المصُّ، الآن وُلد، وخلال دقائق يضع شفتيه على حلمة الثّديّ، ويُحكم إغلاقَها، ويسحب الهواء، فلولا أنَّ الله يُلهمه هذا السلوك المعقَّد لما كنَّا على وجه الأرض جميعاً.

والهدية الثانية؛ هي الأم، مَن هذا الكائن؟ إنَّها الأم؛ آية من آيات الله؛ فوجودها من أجل ابنها، وأعصابها وإدراكها ومشاعرها إنها تتفاعل مع ابنها تفاعلاً عجيباً، وكأنَّ هناك اتصالاً دائماً.

فالأمُّ هديّة، والأب هدية، وقد قال لي رجل: أنا خادم مخلص بلا أجرة، فما أريد في هذه الدنيا سوى طعامي وكسائي، إنني أتعب من أجل أولادي، فالأب خادم لأولاده، يشقى ليسعدوا، ويريد توفير بيت لأحد أبنائه مثلاً، يسعى ليزوّج آخر وهكذا... فالأب هدية، والزوجة هدية والأولاد هدية.

هذا الهواء، وهذا الماء العذب الزلال، ففي كل ثانية تستهلك دمشق ستة عشر متراً مكعباً من مياه عين الفيجة، ماءً مُصفّى عذباً فراتاً، فالماء هدية من الله عز وجل.

وما تقول في أنواع الفواكه أيضاً؟ وكذلك منحك الله عقلاً فأتقنت أعمالك وسعدت به، فإتقان العمل كرامة، ولك دخل ثابت، فهذه حِرفة، وكلٌّ له اختصاص، فهذا طبيب وهذا مهندس، فلذلك بحثنا هذا شامل شمولاً كبيراً جداً، فكلُّ الكون تودُّدٌ من الله إليك، ويجب أن تكون حياتك ومماتك، ونُسُكُكَ وعبادتك، ومالك لله، قال أحدهم لشيخه: يا سيدي كم الزكاة؟ فقال: يا بني أعندكم أم عندنا؟ قال: ما هذا السؤال؟ مَن نحن ومَن أنتم؟ قال: عندكم اثنان ونصف بالمئة، أما عندنا، أهلَ الحب فالعبد وماله لسيده.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

أول معنى هو يودُّكم، بهذه الصحة، بالنِّعم، بالماء، بالطعام، بالشراب، بالفواكه، بالأسماك، بالأطيار، وأحياناً ترى أسماك زينة، وليست للأكل، ومنها أسود ومنها أخضر ومنها خيوط فانظر هذه الأسماك، لماذا خُلقت؟ من أجلك؟ ومن أجل أن تستمتع بمنظرها فقط، وهذه العصافير الجميلة لماذا خُلقت؟... وهذه الأصوات الرائعة لماذا خُلقت؟ وهذه الرّوائح الزكيّة لماذا خلقت؟ وهذه الورود، اطّلعت على كتاب من ثمانية عشر مجلداً، وفي كلِّ صفحة صورة وردة، ثمانية عشر جزءاً، كلُّ صفحة فيها صورة لنوع من أنواع الورود فلمن هذا؟ أعطوا الدابة وردة فأكلتها، فالذي أعطاها الوردة هو الغبيّ، فهذه للشّمّ وليست للأكل.

وفي الشّتاء في غرفة الجلوس تحبُّ أن تستمتع بنباتات ضمن الغرف لا تحتاج في نموِّها إلى شمس، وهي تنمو وتتنامى، وهي جميلة إنها نباتات صالونات، وهناك نباتات للمياه، ونباتات للحقول.

ثلاث مئة نوع عنب، التّفاح أنواع منوّعة، أخ من إخواننا كان في إفريقيا، أحضر لي موزتين، من غينيا لِمَ هاتان؟ قال: هاتان لأجل القلي، ما هذا الكلام!! هذا للطبخ فقط، وعلى حين أنَّ الموز عندنا فاكهة للأكل، وعندهم للطبخ، ذقتها فوجدتها لا تؤكل نيئة، قليناها مثل البطاطا فهي طيّبة شهيّة، فكم نوعٍ خلق الله من الموز؟ والقمح ثلاثة آلاف وخمس مئة نوع.

أنواع البرتقال، منها غزير ماء، ومنها ناشف، وحلو وحامض كبير وصغير وماوردي، كلُّها مودَّةٌ من الله عز وجل، والنَّوع الواحد من الفاكهة أنواع منوَّعة، هذه المودَّة.

والمعنى الثاني؛ كونه ودوداً، أي: يخلُق المودَّة بين خلقه، فمن ألقى حُبَّ الأبناء في قلوب الأمهات؟ ادخلْ مشفى الأطفال فإنَّك ترى منظراً يُبكي، فالأم البدويّة تبكي من أجل ابنها، والسافرة، والمثقّفة، والجاهلة، والمؤمنة المحجبة كلّهنَّ يبكين، إنّه نمط واحد، فكلُّ هؤلاء الأمهات أودع الله في قلوبهنَّ محبّةً تجاه أبنائهنّ.

إذاً، أحد معاني كلمة: «ودود»؛ أنّه يخلق الودَّ بين عباده، الأب أب، والابن ابن، والأخ أخ، والزوجة زوجة، كلُّهم يتوادّون فيما بينهم، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم: ٢١].

من خلق هذه المودة؟

لي قريب كان مسافراً خارج القُطر لأربع أو خمس سنوات وعنده في كلّ سنة إجازة شهر، ويأتي كل سنة ليتزوج، فلا يُوفَّق، وتنتهي إجازته، ثم يعود ويسافر، وبعد أن أمضى سنوات عدة توتّر توتُّراً شديداً، ما هذه الظروف المعاكسة؟ يقول: هذا البيت لأهله مشكلة، ولهذه الفتاة مشكلة، وهذه لا تناسب، وفي السنة الرابعة وفي آخر يوم بالإجازة وجد فتاة مناسبة، فأحبَّ ألا يغادر إلا وقد عُقِدَ العقد، إذ والدته تعرّفت إليها عصراً، فتواعدوا في اليوم التالي ظُهراً أن يأتي موظَّف المحكمة ليعقد القران، إقلاع الطائرة الساعة الرابعة عصراً فحدثوني أنَّ هذه الفتاة حينما خرجت بعد أن عُقد قرانها على هذا الشاب وسافر زوجها قد بكت بكاءً شديداً! البارحة كان يوم الخطبة إنه يوم غريب، مداه أربع وعشرون ساعة إلا أنه كان يوماً عجيباً، وفي اليوم التالي كان الوداع فبكت هذه الزوجة وبكت، ولم يمضِ على العقد إلا سويعات، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

المودَّة هنا سلوك يُعبَّر به عن الحبّ، فالحبُّ شعور داخلي، يعبَّر عنه بابتسامة، بثناء، يعبَّر عنه بمعاونة، بشكر، يُعبَّر عنه بهدية، فإذا كانت المرأة ملء عين زوجها وضمن طموحه أحبَّها، وإذا أحبَّها عبر عن هذا الحب بسلوك لطيف، ابتسامة، محبة، معاونة، هدية، وكذلك المرأة إذا كان زوجها ملء عينها، قوي، وكريم، يدافع عنها أحبّته، وتعبِّر عن حبِّها له بالمودَّة، بخدمته، والبحث عن ما يرضيه.

لكن ولأنَّ هذه المؤسسة؛ العلاقة الزوجية، وهي أقدس علاقة على وجه الأرض وجدت لتبقى، فإن لم يكن سبب بقائها المودة تأتي الرحمة لتكون سبباً آخر لبقائها، كم من امرأة افتقر زوجها، فعملت وأنفقت عليه؟ وكم من زوج أصيبت زوجته بمرض عضال فخدمها أعلى خدمة إلى آخر لحظة في حياتها؟ هذا الزواج الإسلامي شيء عظيم مبني على الودِّ والرحمة، أو عليهما معهاً.

فالمعنى الأول أنَّ الله يودك، والمعنى الثاني يخلق المودة بين خلقه، تدخل إلى سهرة في بيت أهلك فترى مودَّة، منها مزاح ومعاونة، والإنسان كائن اجتماعي، فمن خلقه هذا الخلق؟ يقول لك: سهرنا إلى ساعة متأخِّرة، مسرورين بما بينهم من مودَّة، وأحياناً بحسب السن وبحسب الحِرفة، تجلس مع أطباء يتحدثون عشر ساعات عن حرفتهم مسرورين، ومع المهندسين الشيء نفسه، مع المدرسين، يقول لك مزهواً: الدرس الفلاني أتقنته، والطلاب أعجبوا به، اجلسْ مع التجار يقولون لك: هذه الصفقة ممتازة، وهذه لم تربح، وهذه أرباحنا فيها كانت خيالية، كلُّ مجتمع له حديث ممتع وله ترتيبات، فهذه هي المودّة، خلق بين عباده الودَّ.

المعنى الثالث بمعنى فعول: أي: إن الله سبحانه وتعالى يتودّدُ عبادُه إليه، وهو يتودّد إلى عباده، وهو يخلق المودّة في قلوب عباده بعضهم لبعض، فعباده يتوددون إليه، فهذه ثلاثة معانٍ للودِّ، من الله إلى عباده، ومن العباد إلى ربهم، وبين العباد فيما بينهم. لهذا روي عنه ﷺ: «أفضل الأعمال بعد الإيمان بالله: التودُّدُ للنَّاس» [الطبراني في مكارم الأخلاق عن أبي هريرة].

وأعقلُ عمل، وأحكمُ عمل، وأذكى عمل يفعله المؤمن بعد أن يؤمن بالله أن يتودَّد إلى الناس، حتى يسري الحقُّ إليهم، قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) ﴾ [آل عمران:١٥٩].

بينما كان الرَّشيد يطوف في البيت الحرام إذ عرض له رجل فقال: يا أمير المؤمنين إني أريد أن أكلِّمك بكلام فيه غلظة، فقال الرشيد: لا، ولا نعمت عين قد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شرٌّ مني فأمره أن يقول قولاً ليناً [البداية والنهاية ١٠/ ٢١٧].

الإمام الرازي كان من كبار العلماء، إنه الفخر الرازي، وله هيبة كبيرة، وله موكب فخم، وقد كان في درسٍ من دروسه، فخرج من المسجد، ثياب أنيقة ومعه تلاميذه، ووجهه منير متألِّق مهيوب، فرآه يهوديٌّ، فقير مسحوق، جوع ومرض وفقر، فنظر هذا الرجل إليه وقال له: يا هذا يقول نبيكم: «الدّنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[1]، فأيُّ سجن أنت فيه وأيُّ جنّة أنا فيها؟ فقال له الإمام الرازي: يا هذا ما أنا فيه إذا قيس إلى ما أعدَّ الله للمؤمن فأنا في سجن، وما أنت فيه إذا قيس بما أعد الله للعصاة من عذاب فأنت في جنّة، حقاً إنه جواب مفحم، أي: ما أنا فيه من هذا العِزّ إذا قيس إلى ما وعدني الله به من جنة عرضها السموات والأرض فأنا في سجن.

انتقال المؤمن من الدنيا إلى الآخرة كما ينتقل الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا، فالجنين يعيش في سبع مئة وخمسين سنتمتراً مكعباً بالضبط، والرحم تجويفه قبل الحمل زهاء سنتمترين مكعبين، وكأنه لا يوجد تجويف، بل عبارة عن عضلة على شكل إجاصة، وحجمه في أثناء الحمل أو بأعلى نسبة سبع مئة وخمسين سنتيمتراً مكعباً، والإنسان إذا وُلد ثم كبر وتجوَّل يقول لك: والله كنا في أمريكا واستغرق سفرنا عشر ساعات طيراناً، كان محبوساً في سبع مئة وخمسين سنتمتراً، ثم طار في الأجواء، فكيف ينتقل الإنسان من ضيق الرحم إلى سَعة الدنيا، قالوا: المؤمن حينما يموت ينتقل من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ولهم فيها ما تشتهي الأنفس وتلذُّ الأعين: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا

(١) الحديث رواه مسلم وأحمد والترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ۝٥٨ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٥٩﴾ [يس:٥٥-٥٩].

هذه هي البطولة، أن يأتي هذا اليوم وأنت في منجاة، وأنت من أهل الجنة، نسعى كلُّنا ونجتهد، ونحضر دروس علم، ونغضّ بصرنا ونخاف من الله، ونضبط ألسنتنا، ونضبط جوارحنا، ونقرأ القرآن ويخدم بعضنا بعضاً، حتى يأتي هذا اليوم الذي نسعد فيه.

الودود يحبُّ عباده، يرضى عنهم، يغفر لهم، يرحمهم، يتوب عليهم، يستجيب دعاءهم، يتقبّل أعمالهم، يوددهم إلى خلقه، فإذا أحبك الله ألقى محبتك في قلوب الخلق، فهو ودود.

لذلك لا تتوهَّم أنَّ الخلق إذا أحبّوك فبجهدك، وبذكائك، وبحنكتك، بل ألقى الله في قلوب الخلق محبّتك، إذا أحب الله عبداً ألقى محبته في قلوب الخلق، والدليل قوله تعالى: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي﴾ [طه:٣٩].

وأحياناً الله عز وجل يلقي بغض إنسان في قلوب الخلق، لا أحدَ يحبُّه، يكون على مستوى عالٍ من الذكاء، والجمال والمال والقوّة ولا يحبُّه النّاس.

الله الودود يحبُّ رسله، وأولياءه، يتودَّد إليهم بالمغفرة، بالتوبة، باستجابة الدعاء، يرضى عنهم.

﴿۞لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨].

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ۝٩٦﴾ [مريم:٩٦].

تشعر بمودة مع الله عز وجل، تشعر أن الله يحبك، تشعر أن الله يؤثرك.

هناك معنى آخر: يجعل لهم مودَّة فيما بينهم، لا يستطيع شيء في الأرض أن يقوِّضها.

﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال:٦٣].

وفي الحديث الشّريف: «إِنَّ اللهَ إذا أحبَّ عبدا دعا جبريلَ، فقال: إني أحبُّ فلاناً فأحِبَّه، قال: فيُحِبُّه جبريلُ، ثم ينادي في السماءِ، فيقول: إنَّ اللهَ يحبُّ فلاناً فأحِبُّوه، فيحبُّه أهل السماء، ثم يوضَعُ له القَبولُ في الأرض» [البخاري عن أبي هريرة] .

الوُدُ بين المؤمنين من خلق الله عز وجل، وعلامة هذا الوُدِّ أنَّك لكلِّ المؤمنين وأنَّ كلَّ المؤمنين لك، يؤلمك ما يؤلمهم، يُسعدك ما يُسعدهم.

السّرّ العميق في الودِّ بين المؤمنين أنَّ هناك تقاطعات لا تنتهي في شخصياتهم، يعني أنت مؤمن وأخوك مؤمن، أنت تتمتع بحياء، وأخوك يتمتّع بحياء، أنت تتمتع بضبط لسان، وأخوك يتمتع بضبط لسان، أنت تنفق مالك في وجوه الخير وهو كذلك، أنت ترحم من حولك وهو كذلك، فكلما كثرت المشتركات بين المؤمنين ازداد الحب بينهم، بل كلما ازدادت التقاطعات بين شخصيتين تعلَّق كلٌّ منهما بالآخر، لأن القواسم المشتركة والتقاطعات في سمات الشخصين، أو المؤمنين كثيرة جداً، إذاً العلاقات متينة جداً، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠].

ابن عباس يُعرِّف الودود بأنه الحبيب، المجيد، الكريم، ولله عز وجل الودود يؤيد رسله، ينصر عباده الصالحين بمعيته الخاصة. فلا يُخيِّب رجاءهم، ولا يردُّ دعاءهم، وهو عند حسن ظنِّهم به.

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤].

وهو الودود لعامّة خلقه، بواسع كرمه، وسابغ نعمه، يؤخِّر العقاب عنهم، لعلَّهم يرجعون إليه.

قال ابن القيم: أمَّا الودود ففيه قولان، أحدهما: أنّه بمعنى فاعل، الذي يحب أنبياءه ورسله والمؤمنين، والثاني بمعنى مودود أي محبوب، أنَّ الله سبحانه وتعالى هو وحده يستحقُّ أن تعبده، ويستحق أن تحبَّه.

وبعد، فهناك سؤال لا بدَّ منه: هل الودُّ هو الرَّحمة؟ فهمنا أنّ الودّ هو الحبُّ والحبُّ مشاعر داخليَّة تنتقل إلى سلوك مادي، هذا هو الودّ، الود والمحبة وجهان لشيء واحد، يمثل الإخلاص والعبادة، من الداخل إخلاص ومن الظاهر طاعة، فالشعور الداخلي حب، والسلوك العمليُّ مودة.

وهل هناك فرق بين المودة والرحمة؟ إنَّه لفرق كبير، فالرَّحمة متعلِّقة بمخلوق ضعيف، بمخلوق يستجير، وبإنسان مريض وبإنسان معذَّب، بإنسان فقير، فأنت ترحمه! أما الود فليس للضعيف، فأنت حين تعطي إنساناً ما شيئاً من الأشياء دون أن يسألك، فابتداءً هذا هو التودُّد وأحياناً يطرق بابك إنسان، فيتوسَّل إليك ويقول: أقرضني أرجوك أسعفني، اقبلني عندك ضيفاً، أو أوصلني إلى هذا المكان، أو ارحمني خذني إلى الطبيب الفلاني، فهذا إنسان مستجير، وأنت إذا فعلت ما يناسب فما اسمك؟ اسمك رحيم، وذاك مخلوق ضعيف استجار بك، أما إذا زُرتَ صديقاً في أوج صحّته وقوَّته وشبابه، ومكانته، وأعطيته هديّة بمناسبة زواجه، وهو لم يستجر بك، فالودُّ ابتداءً، وأمّا الرحمة فيسبِقُها طلب في الغالب، والودُّ لغير الضعيف، والفقير والمستجير، هناك فرق بين الودِّ والرحمة، فربنا عز وجل حينما خلقنا كان ودوداً، ونحن لم نكن موجودين، فهو خلقنا وأكرمنا وأنعم علينا، مودَّته لنا ابتداءً وهي أرقى بكثير.

حُكي عن العباس صاحب شرطة المأمون قال: دخلت يوماً مجلس أمير المؤمنين ببغداد وبين يديه رجل مكبَّل بالحديد، فلما رآني قال لي: عباس! قلت: لبيك يا أمير المؤمنين! قال: خذ هذا إليك فاستوثق منه واحتفظ به وبكِّر به إليّ في غد، واحترز عليه كلَّ الاحتراز، قال العباس: فدعوت جماعة فحملوه ولم يقدر أن يتحرَّك، فقلت في نفسي معْ هذه الوصية التي أوصاني بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب إلا أن

يكون معي في بيتي فأمرتهم فتركوه في مجلس لي في داري، ثم أخذت أسأله عن قضيته وعن حاله ومن أين هو، فقال: أنا من دمشق، فقلت: جزى الله أهلها خيراً، فمن أنت من أهلها؟ قال: وعمن تسأل؟ قلت: أتعرف فلاناً؟ قال: ومن أين تعرف ذلك الرجل؟ فقلت: وقع لي معه قضية! فقال: ما كنت بالذي أعرِّفك خبره حتى تعرِّفني قضيَّتك معه، فقال: ويحك كنت مع بعض الولاة بدمشق، فبغى أهلها وخرجوا علينا، حتى إن الواليّ تدلى في زنبيل من قصر الحجاج وهرب هو وأصحابه وهربت في جملة القوم، فبينما أنا هارب في بعض الدروب وإذا بجماعة يعدون خلفي، فما زلت أعدو أمامهم حتى فتُّهم، فمررت بهذا الرجل الذي ذكرته لك، وهو جالس على باب داره، فقلت: أغثني أغاثك الله! قال: لا بأس عليك ادخل الدار، فدخلت فقالت زوجته: ادخل تلك المقصورة فدخلتها، ووقف الرجل على باب الدار، فما شعرت إلا وقد دخل والرجال معه يقولون: هو والله عندك، فقال: دونكم الدار ففتِّشوها حتى لم يبقَ سوى تلك المقصورة وامرأته فيها فقالوا: هو ههنا فصاحت بهم المرأة ونهرهم فانصرفوا، وخرج الرجل وجلس على باب داره ساعة وأنا قائم أرجف ما تحملني رجلاي من شدة الخوف، فقالت المرأة: لا بأس عليك، فجلست فلم ألبث حتى دخل الرجل، فقال: لا تخف قد صرف الله عنك شرَّهم وصرت إلى الأمن والدَّعة إن شاء الله تعالى، فقلت له: جزاك الله خيراً فما زال يعاشرني أحسن معاشرة وأجملها، وأفرد لي مكاناً في داره ولم يحوجني إلى شيء، ولم يفتر عن تفقد أحوالي فأقمت عنده أربعة أشهر في أرغد عيش وأهنئه إلى أن سكنت الفتنة وهدأت وزال أثرها، فقلت له: أتأذن لي في الخروج حتى أتفقَّد حال غلماني؟ فلعلي أقف منهم على خبر فأخذ علي المواثيق بالرجوع إليه، فخرجت وطلبت غلماني، فلم أرَ لهم أثراً فرجعت إليه وأعلمته الخبر، وهو مع هذا كلِّه لا يعرفني ولا يسألني، ولا يعرف اسمي ولا يخاطبني إلا بالكنية، فقال: علام تعزم؟ فقلت: عزمت على التَّوجُّه إلى بغداد، فقال: القافلة بعد ثلاثة أيام تخرج وها أنا قد أعلمتك، فقلت له: إنّك تفضّلت عليّ هذه المدة ولك عليّ عهد الله أني لا أنسى لك هذا الفضل، ولأوفينَّك مهما استطعت، قال: فدعا غلاماً له أسود، وقال له: أسرج الفرس

الفلاني ثم جهّز آلة السفر، فقلت في نفسي: أظنُّ أنَّه يريد أن يخرج إلى ضيعة أو ناحية من النواحي، فأقاموا يومهم ذلك في كدٍّ وتعب، فلما كان يوم خروج القافلة جاءني السَّحَر وقال لي: يا فلان! قم فإنَّ القافلة تخرج الساعة وأكره أن تنفرد عنها، فقلت في نفسي: كيف أصنع وليس معي ما أتزوَّد به ولا ما أكري به مركوباً؟ ثم قمت فإذا هو وامرأته يحملان بقجة من أفخر الملابس وخفّين جديدين وآلة السفر ثم جاءني بسيف ومنطقته فشدَّهما في وسطي ثم قدم بغلام فحمل عليه صندوقين وفوقها فرش ودفع إليّ نسخة ما في الصندوقين وفيهما خمسة آلاف درهم وقدَّم إليّ الفرس الذي كان جهَّزه وقال: اركب، وهذا الغلام الأسود يخدمك ويسوس مركوبك، وأقبل هو وامرأته يعتذران إليّ من التقصير في أمري، وركب معي يشيِّعني، وانصرفت إلى بغداد وأنا أتوقَّع خبره لأفي بعهدي له في مجازاته ومكافأته، وأشغلت مع أمير المؤمنين فلم أتفرَّغ أن أرسل إليه من يكشف خبره، فلهذا أنا أسأل عنه، فلما سمع الرجل الحديث، قال: لقد أمكنك الله تعالى من الوفاء ومكافأته على فعله ومجازاته على صنيعه بلا كلفة عليك ولا مؤنة تلزمك، فقلت: وكيف ذلك؟ قال: أنا ذلك الرجل وإنما الضّرّ الذي أنا فيه غيّر عليك ما كنت تعرفه، ثم لم يزل يذكر لي تفاصيل الأسباب حتى أثبت معرفته، فما تمالكت أن قمت وقبَّلت رأسه ثم قلت له، فما الذي أصارك إلى ما أرى؟ فقال: هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التي كان في أيامك فنسبت إليّ، وبعث أمير المؤمنين بجيوش فأصلحوا البلد وأُخذت أنا وضُربت إلى أن أشرفت على الموت، وقُيِّدت وبُعث بي إلى أمير المؤمنين، وأمري عنده عظيم، وخطبي لديه جسيم، وهو قاتلي لا محالة، وقد أُخرجت من عند أهلي بلا وصية، وقد تبعني من غلماني من ينصرف إلى أهلي بخبري، وهو نازل عند فلان، فإن رأيت أن تجعل من مكافأتك لي أن ترسل من يحضره لي حتى أوصيه بما أريد فإن أنت فعلت ذلك فقد جاوزت حدَّ المكافأة، وقمت لي بوفاء عهدك قال العباس: قلت: يصنع الله خيراً، ثم أحضر حدَّاداً في الليل فكَّ قيوده، وأزال ما كان فيه من الأنكال وأدخله حمام داره، وألبسه من الثياب ما احتاج إليه، ثم سيَّر من أحضر إليه غلامه، فلما رآه جعل يبكي ويوصيه، فاستدعى العباس نائبه، وقال: عليّ بالفرس

الفلاني والفرس الفلاني والبغل الفلاني والبغلة الفلانية حتى عدّد عشرة ثم عشرة من الصناديق ومن الكسوة كذا وكذا ومن الطعام كذا وكذا، قال ذلك الرجل: وأحضر لي بصرّة فيها عشرة آلاف درهم وكيساً فيه خمسة آلاف دينار وقال لنائبه في الشرطة: خذ هذا الرجل وشيّعه إلى حد الأنبار فقلت له: ذنبي عند أمير المؤمنين عظيم، وخطبي جسيم وإن أنت احتججت بأني هربت بعث أمير المؤمنين في طلبي كلَّ من على بابه فأُرَدّ وأقتل فقال لي: انج بنفسك ودعني أدبّرْ أمري، فقلت: والله ما أبرح من بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك فإن احتجت إلى حضوري حضرت، فقال لصاحب الشرطة: إن كان الأمر على ما يقول فليكن في موضع كذا، فإن أنا سلمت في غداة غد أعلمته، أو إن أنا قتلت فقد وقيته بنفسي كما وقاني بنفسه، وأنشدك الله! ألا يذهب من ماله درهم وتجتهد في إخراجه من بغداد، قال الرجل: فأخذني صاحب الشّرطة وصيّرني في مكان أثق به، وتفرّغ العباس لنفسه وتحنّط وجهّز له كفناً، قال العباس: فلم أفرغ من صلاة الصبح إلا وأرسل المأمون في طلبي ويقولون: يقول لك أمير المؤمنين: هات الرجل معك، وقم، قال: فتوجَّهت إلى دار أمير المؤمنين فإذا هو جالس وعليه ثيابه وهو ينتظرنا، فقال: أين الرجل؟ فسكتُّ، فقال: ويحك أين الرّجل؟ فقلت: يا أمير المؤمنين اسمع مني! فقال: لله عليّ عهد لئن ذكرت أنّه هرب لأضربنّ عنقك! فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين! اسمع حديثي وحديثه، ثم شأنك وما تريد أن تفعله في أمري، قال: قل! فقلت: يا أمير المؤمنين كان من حديثي معه كيت وكيت وقصصت عليه القصة جميعها، وعرفته أنني أريد أن أفيَ له وأكافئه على ما فعله معي، وقلت: أنا وسيدي ومولاي أمير المؤمنين بين أمرين، أمام ما فعله معي إمّا أن يصفح عني فأكون قد وفيت وكافأت، وإمّا أن يقتلني فأقيه بنفسي وقد تحنَّطت وها كفني يا أمير المؤمنين، فلمّا سمع المأمون الحديث قال: ويلك! لا جزاك الله عن نفسك خيراً، إنّه فعل بك ما فعل من غير معرفة وتكافئه بعد المعرفة والعهد بهذا لا غير، هلا عَرَّفتني خبره فكنا نكافئه عنك ولا نقصِّر في وفائك له، فقلت: يا أمير المؤمنين إنه ههنا قد حلف ألا يبرح حتى يعرف سلامتي فإن احتجت إلى حضوره حضر، فقال المأمون: وهذه منه أعظم من الأولى، اذهب الآن

إليه فطيِّب نفسه وسكِّن روعه، وائتني به حتى أتولّى مكافأته، قال العباس: فأتيت إليه وقلت له: ليزل خوفك، إنّ أمير المؤمنين قال: كيت وكيت، فقال: الحمد لله الذي لا يحمد على السّراء والضّرّاء غيره ثم قام فصلّى ركعتين ثم ركب وجئنا، فلما مثُل بين يدي أمير المؤمنين أقبل عليه وأدناه من مجلسه وحدَّثه حتى الغداء وأكل معه وخلع عليه وعرض عليه أعمال دمشق فاستعفى، فأمر له المأمون بعشرة أفراس بسروجها ولُجمها وعشرة أبغال بآلاتها وعشرة آلاف دينار وعشرة مماليك بدوابهم، وكتب إلى عامله بدمشق بالوصية به وإطلاق خراجه، وأمره بمكاتبته بأحوال دمشق، فصارت كتبه تصل إلى المأمون، وكلما وصلت خريطة البريد وفيها كتابة يقول لي: يا عباس هذا كتاب صديقك، والله تعالى أعلم.

استرعى نظري في القصة، أنه أكرَمَكَ وهو لا يعرِفُك، هذه هي المودّة، أما أنت فإكرامك له الآن ردٌّ جميل لا أكثر، أنت مدين له ولو قدَّمت نفسك مكانه لما فعلت إلا القليل، هو أعطاك الحياة، فقد كنت مقتولاً، وأدخلك إلى البيت ودافع عنك وأعطاك كلَّ شيء أربعة أشهر واعتذر إليك وهو لا يعرفك، الأولى أبلغ من الثانية، قال له: مهما فعلت فلن تكافئه وأنا سأكافئه، البرُّ لا يبلى، والذنب لا يُنسى، والديّان لا يموت، اعمل ما شئت كما تدين تُدان.

نصيب المؤمن من اسم الله الودود

حظّ العبد من هذا الاسم أن يتودَّد إلى العباد، فهنا طفل تودّد إليه، وهناك كبير تودَّد إليه، وأكبر منك عامله بالاحترام، وأصغر مِنكَ فبالرحمة، وبمستواك فبالإحسان، هذا هو المؤمن، يجعل من إحسانه طريقاً إلى الدعوة إلى الله عز وجل.

لكنَّ الإنسان إذا ما أحسَّ فضل الله عز وجل ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾﴾ [البلد:٨] وفي سورة أخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار:٦-٨]، وقال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾

مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ [عبس:١٧-٢٣].

ماذا ينتظر الإنسان وماذا يفعل؟ وما الذي منعه أن يتوب إلى الله؟ وما الذي يمنعه أن يصلي؟ وأن يذكر الله عز وجل، وأن يفعل الخير مع الناس جميعاً.

لا يعرف طعم الإحسان إلا المُحسن، وسيدنا عمر كان يمشي ذات ليلة في المدينة مع سيدنا عبد الرحمن بن عوف، فلما رأى قافلة في أطراف المدينة وقد نام أصحابها، قال لصاحبه: تعال نحرسها لوجه الله إنهم تُجّار ومعهم متاع وبضاعة فبكى طفل صغير، فقال لأمِّه: أرضعيه، سكت الطفل، ثم بكى، فقام إليها وقال: أرضعيه، أسكتته ثم بكى، فغضب وقام إليها وقال: يا أمَةَ السوء أرضعيه، قالت: يا هذا ما شأنك بنا؟ إنني أفطمه وعمر لا يعطينا العطاء إلا بعد الفطام، «العطاء يعني التعويض العائلي في زماننا»، يقول سيدنا عمر وقد ندّت منه صيحة، وضرب رأسه وقال: ويحك يا ابن الخطاب كم قتلت من أطفال المسلمين، فأصدر أمراً فورياً أن العطاء يبدأ ساعة الولادة، ثم صلى الصبح وما سمع أصحابه من قراءته شيئاً لشدة بكائه، وكان يقول: يا رب هل قبلت توبتي فأهنِّئ نفسي، أم رددتها فأعزيها؟

ومن عرف الودود فإنه يودُّ أولياءه ويتبرّأ من أعدائه، فالمؤمن الصادق من لوازم إيمانه أنَّه يوالي المؤمنين، ولو كانوا فقراء، وضعفاء، والمؤمن الصادق من لوازم إيمانه أنه يتبرأ من الكفرة، والضالين، والمشركين ولو كانوا أقوياء وأغنياء، قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمًا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ﴾ [المجادلة:٢٢].

والمؤمن إذا عرف الودود فإنَّه يحبب الله إلى عباده، فكما أن الله يحبب المؤمنين إليك، فموقفك الأخلاقي أن تحبّب الله إلى عباده.

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن عباس، أن رسول الله ﷺ روي عنه أنه قال: «إن داود عليه السلام قال فيما يخاطب ربه عز وجل: يا رب! أي عبادك أحب إليك أحبُّه بحبك؟ قال: يا داود أحبّ عبادي إليَّ نقي القلب، ونقي الكفين، لا يأتي إلى أحد سوءاً، ولا يمشي بالنميمة، تزول الجبال ولا يزول، أحبني وأحب من يحبني، وحببني إلى عبادي، قال: يا رب! إنك لتعلم أني أحبك وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى عباد؟! قال: ذكرهم بآلائي وبلائي وبنعمائي، يا داود! إنه ليس من عبد يعين مظلوماً، أو يمشي معه في مظلمته، إلا أثبت قدميه يوم تزل الأقدام».

أنت إن ذكَّرت النَّاس بنعماء الله فإنَّك تحبِّب الله إلى عباده، وإن ذكَّرتهم ببلاياه بالبلاء، والشدة،فإنَّك تخوِّفهم أن يعصوه، وإن ذكّرتهم بآلائه العظيمة فإنَّهم يعظمونه، إذاً لابدّ من أن يجتمع في قلب المؤمن تعظيم، وحب، وخوف.

المُحسن أسعد الناس، وقد قرأت كلمة في مجلَّة: «إذا أردت أن تسعد فأسعد الآخرين».

عزيزي القارئ اذكر دائماً: الله عز وجل ودود، ويحبُّك أن تكون ودوداً.

الأعلى

ورد اسم الأعلى في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى:١].

من معاني اسم الله الأعلى

الأعلى اسم تفضيل، وفعله علا يعلو، وهو مشتق من العلو، ويقابل العلوَّ السفل، علويٌّ وسفليٌّ، والعلوُّ من الارتفاع.

والعلوُّ بالمعنى المجازي: ارتفاع المكان، أو ارتفاع المنزلة، فقد تجد في دائرة عشرة طوابق، الموظفون في كلِّ الطوابق، وقد يكون المدير العام في الطابق الأول، لكن منزله هو أعلى من هؤلاء جميعاً. فإمَّا علوٌّ مكانيٌّ، وإمَّا علوٌّ رُتَبِي. والأعلى من أسماء التنزيه، فالله جل جلاله تعالى عن كل صفة لا تليق به، تعالى عن أن يشبه خلقه، تعالى عن كلِّ ما خطر ببالك؛ فالله بخلاف ذلك.

والأعلى هو المنزَّه المقدَّس عن جميع أنواع النقص، هو البالغ غاية العلو في الرتبة، فلا رتبة لغيره إلا وهي منحطة عنه، قال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [الإسراء:٤٣].

يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم:٤٢].

لو قلت لك: إيَّاك أن تصل إلى الشمس، فهذا كلام ليس له معنى، لأنَّك لن تستطيع أن تصل إلى الشمس، والنَّهي لا معنى له، إذ لا يكون النهي حقيقيّاً إلا إذا كان بالإمكان أن يقع المنهيُّ عنه، كأن أقول لك: لا تتأخر، فالنهي يعني أنَّ المنهيَّ عنه يمكن أن يقع.

فإذا قال الله عز وجل: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم:٤٢].

فمعنى ذلك أنَّه قد يبدو لبعض البشر، أنَّ الله غافل عما يعمل الظالمون، والإله العظيم له امتحان صعب، يقوّي أعداءه، إلى أن يفعلوا ما يريدون فيما يبدو لقاصري النظر، إلى أن يقول ضعيف الإيمان: أين الله؟

تجد بلادا إسلامية مضطهدة، مسلوبَة الإرادة، أمرها ليس بيدها، ليست كلمتها هي العليا، تعوم على ثروات هائلة، لها موقع استراتيجي رائع، ومع ذلك حرب عالمية ثالثة معلنة على هذا الدين في كلِّ أنحاء الأرض، فالإنسان في ساعة ضعف قد يتوهم أن الله غافل، فيأتي الجواب: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾.

إذاً حينما نقرأ قوله تعالى: سبح اسم ربك الأعلى، يعني نزِّهه، مجِّده، فيجب أن تنفي عن الله عز وجل الأعلى كلَّ نقص متوهَّم، واسم الأعلى يدلُّ على أنّ كلّ شيء

أعلى في حكمته، كلُّ شيء وقع أراده الله، وكلُّ شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، فالذي وقع لو لم يقع لكان الله ملوماً، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [القصص:٤٧].

هذه المصائب التي تترى على المقصرين، على المذنبين، على الشاردين، على الغافلين، لو أنَّ الله عز وجل لم يضيِّق عليهم ولم يعالجهم فإنّهم سوف يقولون يوم القيامة لربّهم: لِمَ لم ترسل لنا مصيبة تعيدنا إلى طريق الحقّ. فالرسول في الآية هنا هو المصيبة.

كمال الخلق يدل على كمال التصرف، في الخلق إعجاز، في خلق السماوات والأرض، في خلق الإنسان، في خلق الحيوان، في خلق الأطيار، في خلق الأسماك، النباتات شيء معجز، أيعقل أن يكون هذا الإعجاز في خلقه لا يقابله كمال في تصرفاته؟

ومن معاني الأعلى أنَّ الله عز وجل لا تدركه الأبصار، ولكن تصل إليه العقول، كما لو أنَّك تركب مركبة يمكن أن تقلّك إلى البحر، لكن لن تستطيع بهذه المركبة أن تخوض أمواج البحر، فالعقل مرتبط بالواقع.

والثّابت الصّحيح أن معاني العلوّ عند السّلف الصّالح ثلاثة دلّت عليها أسماء الله المشتقّة من صفة العلوّ، فاسم الله العليّ دلّ على علوّ الذات، واسم الله الأعلى دلّ على علوّ الشأن، واسم الله المتعالي دلّ على علوّ القهر.

نصيب المؤمن من اسم الله الأعلى

من علم أنَّ الله تعالى هو الأعلى توجّه إليه وحده وأخلص له العبادة، وترك الأدنى، كما لو أنَّ لإنسان مشكلة في مؤسسة وهو يعلم يقيناً أنَّ حلَّها عند أعلى مرتبة في المؤسسة وهو الوزير مثلاً، فإنَّه لا يتوجَّه إلى أي موظَّف مهما علا شأنه ورتبته، وإنَّما يبذل جهده في الوصول إلى الوزير والطَّلب منه، هو لا يبذل ماء وجهه لموظَّف يعلم أنَّه

لا يقدِّم ولا يؤخِّر ويعلم أنَّ الحلَّ ليس عنده، والمؤمن يعلم أنَّ الأمور كلَّها بيد الأعلى لذا تجده عزيز النَّفس، يطلب حاجته ممَّن يملكها، ولا يبذل ماء وجهه أمام الأقوياء أو الأغنياء.

ومن دعا الله باسمه الأعلى كان نصيبه من ذلك شعوره بالضَّعف فيتواضع لخالقه الأعلى ويسبِّح باسمه وينزّهه عن كلِّ ما لا يليق به، ويسعى في طلب رضاه، والتزام أمره واجتناب نهيه.

الأكرم

هذا الاسم ورد في أوّل سورة أُنزلت من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [العلق:١-٥].

من معاني اسم الله الأكرم

الأكرم اسم تفضيل من الكرم، والكرم ضدُّ اللؤم.

الأخلاق لها مفردات مثل: الشجاعة، أو الصبر، أو الحلم، وتحمل بعض الصفات الإنسانية معانٍ جامعة، فمثلاً صاحب المروءة كريم، عفيف، شجاع، يلبّي حاجة الضعيف، ذو نجدة، يبادِر إلى إغاثة اللهفان، أمّا اللؤم والعياذ بالله، فهو بخل وجُبْن وكِبْر وأَثَرَة وقسوة ودناءة.

قال سيدنا علي بن أبي طالب: والله والله مرتين لحفر بئرين بإبرتين، وكنس أرض الحجاز في يومٍ عاصفٍ بريشتين، ونقل بحرين زاخرين بمنخلين، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين... أهونُ عليَّ من طلب حاجةٍ من لئيمٍ لوفاء دين.

هل تعلمون ما هو الذل؟ الذُّلُّ أن يقف الكريم عند باب اللئيم ثم يردُّه، أنت كريم احتجت إلى لئيم فالأمر لا يحتمل، وهناك أناس كرام لا يسمح أحدهم لنفسه أن يقف موقف ضعفٍ أمام لئيم ولو ضاعت منه الدُّنيا بأكملها.

فإذا كنت واقفاً على إشارة المرور الحمراء فانتظر دقيقتين حتى تلوح الخضراء، خيرٌ لك من أن تقف موقفاً أمام إنسانٍ سيحاسبك بقسوة إن خالفت، الإنسان المؤمن كريم، لا ينبغي للمؤمن أن يُذِلَّ نفسه، اطلبوا الحوائج بعزَّة الأنفس فإنَّ الأمور تجري بالمقادير، ومن جلس إلى غنيٍّ فتضعضع له ذهب ثلثا دينه.

روي أن رجلاً من الأنصار جاء إلى النبي ﷺ يسأله فقال: لك في بيتك شيء، قال: بلى: حِلْس نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقدح نشرب فيه الماء، قال: ائتني بهما، قال: فأتاه بهما فأخذهما رسول الله ﷺ بيده ثم قال: (من يشتري هذين؟) فقال رجل: أنا آخذهما بدرهم، قال: (من يزيد على درهم؟) مرتين أو ثلاثاً قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين. فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصاريّ وقال: اشترِ بأحدهما طعاماً فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قدّوماً فَأْتِنِي به، ففعل، فأخذه رسول الله ﷺ فشدَّ فيه عوداً بيده وقال: (اذهب فاحتطِب ولا أراك خمسة عشر يوماً) فجعل يحتطب ويبيع، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم فقال: اشترِ ببعضه طعاماً وببعضها ثوباً، ثم قال: هذا خير لك من أن تجيء والمسألة نكتةٌ في وجهك يوم القيامة، إنَّ المسألة لا تصلح إلا لذي فقر مدقع أو لذي غُرم مفظع أو دمٍ موجع [رواه أبو داود وابن ماجه، عن أنس بن مالك].

العلماء فسروا هذا الموقف... أنَّ الإنسان إذا قلق على أهله فإنَّه يضعف إنتاجه، أمَّا حينما يوفِّر الطعام لأهله فإنَّه يعمل وينتج.

النبي ﷺ قال له: «اشترِ بأحدهما طعاماً فانبذه إلى أهلك واشترِ بالآخر قدُّوماً واذهب فاحتطب»، عاد بعد سبعة أيام وقد جمع عشرة دراهم، قال: «هذا خيرٌ لك من أن تجيء والمسألة نكتة في وجهك يوم القيامة»، علَّمه درساً في التَّعفُّف عن المسألة، كما علَّمه أنَّ عليه أن يقرع أبواب الرزق التي شرعها الله لعباده.

فالإنسان إذا فتح على نفسه باب مسألةٍ، فتح الله عليه باب فقرٍ. لأنَّ الذي أعطى غيرك سوف يعطيك... فالذي يلفت نظري أنَّ شاباً مؤمناً تكون الطرق كلُّها أمامه مغلقة، فيطرق باب الله تعالى قائلاً: يا ربّ! الأمر بيدك وقد تعلَّق قلبه ورجاؤه بالله فهل يردُّه الله خائباً؟ لا. لن يردَّه الله إلا موفوراً.

قال لي أخ كريم: صلَّيت قيام الليل ودعوت الله من أعماقي أن يرزقني كي أتزوَّج، وذكر لي: أنَّه يملك محلاً في أطراف المدينة لتصليح مكيفات، ولكنَّه لا يطرق باب محلّه زبُون واحد، وتابع قائلاً وأنا على أحر من الجمر أريد الزواج، وخطبت فتاة صالحة وممتازة، لكنها تنتظر مني أن أعطيها شيئاً، وأن أخطبها رسمياً، وأن أعقد العقد، وأيقنت ألا ملجأ ولا ملاذَ إلا الله، فهو الملجأ والملاذ ولا أحدَ سواه، فقمت ذات ليلة وصلّيت ركعتين في جوف الليل، وسألت الله في السجود أن يرزقني رزقاً حلالاً طيباً كي أتزوَّج، ولم يلبث وهو يقصُّ القصَّة أن بكى، وقال: والله خلال مدة عشرين يوماً حصلتُ على سبعين ألف ليرة من المحلِّ نفسه، ثم قال: وتهافت الزبائن على المحل بعضهم لتصليح جهازه أو لتركيب أجهزة جديدة وجرى بيع كثير، وكان قد مضى على المحلِّ مفتوحاً سنتان، وكانت أموري خلالها بائسة، ثم بالدعاء والابتهال فتح الله ما كان مغلقاً، والأمر بيد الله عز وجل.

إن الحديث الذي أذكِّر به دائماً هو قوله ﷺ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَوْلا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لأَمَرْتُهُمْ بالسِّوَاكِ مَعَ الوُضُوءِ، ولأَخَّرْتُ العِشَاءَ إلى ثُلُثِ اللَّيْلِ أَوْ نِصْفِ اللَّيْلِ، فإذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ أَوْ نِصْفُ اللَّيْلِ نَزَلَ إلى السَّماءِ الدُّنْيا جَلَّ وعَزَّ فَقَالَ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأُجِيبَهُ؟» [مسند الإمام أحمد].

لأيام طويلة ربنا عز وجل ولحكمةٍ بالغة يُقَطِّعُ آمالك من الخلق، فإذا يئست منهم فتح لك بابه، فأنت كن ذكياً ألمعياً واتّجه إليه مباشرةً ولا تطرق باب الخلق أصلاً.

إذاً: الكرم ضدُّ اللؤم... والكرم: فِعلُ ما ينبغي لا لغرض.

أكثر الغربيين أذكياء جداً قد ينتزعون إعجابك بدقَّة مواعيدهم، وبإتقان صنعتهم، لكنَّ غرضهم الربح، غرضهم التنمية بالتعبير الاقتصادي الحديث، غرضهم رفع مستوى الأرباح، لذلك يعتنون جداً بصناعتهم وبتجارتهم وبمواعيدهم وبإتقان منتجاتهم. هم يفعلون ما ينبغي ولكن يفعلونه لغرض... أمَّا الكرم فهو أن تفعل ما ينبغي لا لغرض، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان:٩].

فمن وهب المال لجلب النفع، أو لدفع الضُرّ، أو للخلاص من ذمٍّ فليس بكريم، وبعد، إذا عمل الإنسان عملاً بطوليّاً، كأن يقول لك: هذا لأغراض انتخابيّة، فهذا ليس بطوليّاً... وفي العالم كلِّه إذ عمل إنسان عملاً بطولياً فهو بمقياس النّاس عمل إنساني، ما الذي يفرغه من مضمونه؟ أنه لأسبابٍ انتخابيَّة فقط، إذا تداعى العمل وهوى صاحبه، فهذا معنى إحباط العمل... أمَّا المؤمن فإنَّه يفعل الأعمال الصالحة ابتغاء مرضاة الله لا لمديحٍ ولا لثناءٍ ولا لمكافأةٍ ولا لذكرٍ يجري بين الناس.

والعلماء قالوا: من وهب المال لجلب نفع أو دفع ضرٍ أو خلاصٍ من ذمٍّ فليس بكريم... وأكرمه إكراماً، أي: عظَّمه ونزَّهه، والكريم هو الصَّفوح عن الذنب، والكرم إذا وصف به إنسان فهو اسمٌ لأخلاقٍ عديدة وأفعالٍ محمودة تظهر منه، اسم جامع كالمروءة، في حين أن اللؤم اسم جامع لمفردات من الأخلاق الخسيسة، فاحذر اللؤم فإنه صفة مرذولة، وكن كريماً، فإن الكرم صفة من صفات الله الحميدة.

قالوا: الكرم يقترب من الحريَّة، الحريَّة صفة مديح، والإنسان إذا خضع لنزواته فليس حرَّاً بل هو عبد، كما في الحديث الشَّريف:

عَن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «تَعِسَ عَبْدُ الدّينارِ وَالدِّرْهَمِ وَالقَطِيفَةِ وَالخَمِيصَةِ، إنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وإنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ» [رواه البخاري].

فالإنسان أحياناً يخضع لنزواته، إذاً هذا ليس حرّاً، بل هو عبدٌ، الإنسان يخضع لعصبيّته الضيّقة، فابنه في نظره على حقٍّ ولو كان أسوأ الناس، ورفيق ابنه على باطل ولو كان أحسن الناس، وهذا الشّيء يظهر عند النساء أيضاً، فتثني إحداهنَّ على ابنتها وتمدحها، وترى أنّ ابنتها ليس أرقّ ولا أحسن منها بين بنات الناس، وحينما تتزوّج هذه البنت يبدو منها ما لا تُحمَد عقباه، فهذه المرأة ليست إذاً حرّة، لأنها تزوِّر الحقائق بدافع من عصبيةٍ ضيّقة.

من الحرُّ؟ الذي ينطق بالحقيقة ولو أنها مُرّة. من الحرّ؟ الذي يُنصف النّاس من نفسه، فكلمة حرٍّ، أي: لا يخضع لهوى، لا يخضع لنزوة، لا يخضع لضغط، لا يخضع لفقر، لا يخضع لطمع، الطمع أذلَّ رقاب الرجال، كاد الفقر أن يكون كفراً، الإنسان يحبُّ عشيرته، وأبناء مِلّته، وأبناء جلدته، يحبُّهم إلى درجة الكذب والنفاق، ويكره أعداءه إلى درجة الظلم ويجحِف بحقِّهم، من الحرّ؟ الذي ينطق بالحقِّ ولو كان مرّاً.

إلا أنَّ العلماء قالوا: «الحريَّة تُقال في المحاسن الصغيرة والكبيرة، والكرم لا يقال إلا في المحاسن الكبيرة، كمن ينفق مالاً في تجهيز جيشٍ في سبيل الله»...، حينما جهَّز عثمان ابن عفان رضي الله عنه الصحابيُّ الجليل جيشَ العسرة بأكمله قال رسول الله ﷺ: «ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم» [رواه الترمذي، من حديث عبد الرحمن بن سمرة]، فالنّبيُّ ﷺ كان يقدِّر المعروف.

أحياناً يقدِّم إنسان خِدمات إلى المسجد مثلاً، أو يقدِّم خِدمات لدعوة، يقوم بعمل طيب، يسهم في خدمة الآخرين، فالله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وأنا لا أنسى أبداً الآية الكريمة التي تذكر أنَّ امرأة عمران وهبت ما في بطنها محرَّراً لله تبارك وتعالى، قال سبحانه: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٥].

إذاً مَن الحرُّ؟ قد يقال: فلان حرٌّ إن صدرت عنه محاسن صغيرة وكبيرة، ولكن لا يقال له كريم إلا إن صدرت عنه المحاسن الكبيرة، كمن ينفق ماله في تجهيز جيش بأكمله، كمن يتحمَّل ديّات القتلى ويحقن دماء المسلمين، هذا عمل جليل.

أما النقطة المهمّة في دلالتها ومعناها فهي أنّه ليس المهم أن تقرأ الآية وتردّدها بلسانك كثيراً، لكن المطلوب منك أن تمعن النَّظر في معانيها... قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات:١٣].

﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾... أعلاكم مكانةً عند الله وأشرفكم وأقربكم إلى الله أتقاكم... المعاني مفهومة واضحة، فهل عملت بها؟

الله -عزَّ وجلَّ- يعلمك أنَّ المقياس عنده التقوى، أي: الطاعة، قال الله تعالى: ﴿ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب:٧١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ﴾.

أتحبُّ أن تكون عند الله أكرم الناس؟ أطعه... الشيء بين يديك مبذول، آلاف الناس لن تستطيع أن تصل إليهم، ولن تستطيع أن تخطب ودَّ أحدهم، ولن تستطيع أن تقابله، فالأبواب دونه مغلقة، لكنَّ الله جل جلاله خالق الكون يقول لك: ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾، فأيُّ إنسان يطيع الله عز وجل الله يقرّبْه ويرفعْ له مكانته، أما إذا وصف الله عز وجل بالكرم، فإنما هو اسمٌ لإحسانه وإنعامه المتلاحق.

جاء اسم الأكرم في قوله تعالى في سورة العلق: ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ ﴾ [العلق:٣-٤]، أي هو أكرم الأكرمين، هو المعطي، هو المسعد، هو المحسن، وكثير من الناس -والعياذ بالله- لا يرون إحسان الله.

أحياناً تؤدِّي عن إنسان أجرة الركوب في السيارة تكرمة له، فتجده طوال الطريق يشكرك بعبارات مترادفة وهو مسرور منك كأن يقول لك: جزاك الله الخير، ويعيدها لك عدة مرات من أجل ليرات أكرمته بها.

فالذي يمنحك نعمة الوجود بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، نعمة الإيجاد، نعمة الإمداد، نعمة الهدى والرشاد، خلق لك من جنسك امرأة هديةً لك هي آية سكن ومودة ورحمة، آواك في بيت، أطعمك ألوان الطعام، خلق لك أنواع الفواكه، رزقك ابناً يملأ عليك البيت فرحاً وسروراً، زوّدك أجهزة دقيقة، فقد قال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ [البلد:٨-١٠].

فهذا الذي خلق كلَّ هذه النعم ألا يستحقُّ أن تشكره، أن تذكره.

وفي سورة الرحمن أيضاً آية ثانية: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

أي أن الله عز وجل هو المكرِّم، هو الكريم، هو المعطي، منحك كلَّ النِّعم، أمَّا هذا الإنسان الجاهل الغافل فهو مسكين إذ يعزو هذه النعم إلى غير الله، فيعزوها تارةً إلى ذكائه.

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص:٧٨].

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الزخرف:٥١].

وقد يعزوها إلى مهارته في العمل أو حسن حظِّه.

والإنسان ينبغي أن يعلم حقيقة الألوهية... فالكون كلُّه عطاءٌ من عطاءاته... فأنا أذكر ذلك كثيراً... فهل من الممكن أن تصدِّق أنَّ هناك مليون مليون مجرة، وفي كل مجرَّة مليون مليون نجم، أي لو كتبنا رقم واحد وأمامه أربعة وعشرون صفراً فما هذا الرقم!!! إنه رقم خيالي وكل هذه الكواكب والنجوم مسخَّرةٌ للإنسان، الله عز وجل قال:

﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [لقمان:٢٠].

فإذا قرأ أحدكم قوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) ﴾، ألا يشعر برعشة، بخفقان، بجلد يقشعر، بقلب يخفق... ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) ﴾.

الدِّين أساسه الحب، إذا أُلغي الحب من الدين صار الدّينُ ثقافة، وطقوساً، وفلكلوراً، وعادات، وتقاليد، ومعلومات، ومشاعر، وكتباً وهكذا، أمّا إذا كان في الدين حُبٌّ فإنه يفعل كلَّ مستحيل.

النبي ﷺ قال لفاطمة: «ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به أن تقولي إذا أصبحتِ وإذا أمسيتِ: يا حيُّ يا قيُّوم برحمتك أستغيثُ، أصلح لي شأني كلَّه، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين» [النسائي والبزار، من حديث أنس بن مالك].

قال تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

قال العلماء: المؤمن يُجلُّ الله فلا يعصيه، ويطيعه فلا يخالفه لأنَّه ذو الجلال والإكرام وذو العظمة والكبرياء، الكافر يقف عند النعمة، ويعمى عن المنعم، والمؤمن يتجاوزها إلى المنعِم.

النبي ﷺ كانت تعْظُم عنده النعمة مهما دقَّت، والمؤمن يتقلَّب في نعم الله، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «أحبُّوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحبِّ الله، وأحبوا آل بيتي لحبي» [رواه الترمذي من حديث ابن عباس].

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن عباس، أن رسول الله ﷺ روي عنه أنه قال: «إن داود عليه السلام قال فيما يخاطب ربه عز وجل: يا رب! أي عبادك أحب إليك أحبُّه بحبك؟ قال: يا داود أحبّ عبادي إليَّ نقي القلب، ونقي الكفين، لا يأتي إلى أحد سوءاً، ولا يمشي بالنميمة، تزول الجبال ولا يزول، أحبني وأحب من يحبني، وحببني إلى عبادي، قال: يا رب! إنك لتعلم أني أحبك وأحب من يحبك،

فكيف أحببك إلى عباد؟! قال: ذكرهم بآلائي وبلائي وبنعمائي، يا داود! إنه ليس من عبد يعين مظلوماً، أو يمشي معه في مظلمته، إلا أثبت قدميه يوم تزلُّ الأقدام».

ذكِّرهم بآلائي كي يُعظِّموني، وذكِّرهم بنعمائي كي يحبُّوني، وذكِّرهم ببلائي كي يخافوني.

فالملخَّص: أنَّه لا بدَّ من أن يجتمع في قلب المؤمن تعظيمٌ لله وخوفٌ منه، وحبٌّ له، تعظيم بالآلاء... وتخويف بالمصائب... ومحبَّة بالنِّعم.

كأس من الماء تشربه وطريق الخروج سالكة نعمة كبرى، فلو كان غير سالك فآلام حصر البول لا تُحتمل، فيلزمه الذهاب للإسعاف في الساعة الثالثة ليلاً لفتح مجرى البول، أكلت طعاماً... والطريق سالكة نعمة أخرى كبرى، أيضاً لو كان هناك انسداد... قال تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد:١٥].

﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾... فالأمعاء ليس بها إحساسٌ لا بالحرِّ ولا بالبرد، فلو وضعت فيها ماءً يغلي فلا إحساس عندها، أمَّا آلام الضغط داخلها فإنها لا تُحتمل، إذا أكلت طعاماً وكان الطريق سالكاً، مشيت متوازناً. فلو اختلَّ جهاز التوازن لاحتجت إلى عصا لتمشي مستعيناً بها، فأنت تمشي متوازناً، والأجهزة تعمل بانتظام، والحواس الخمس سليمة... فهذه من نعم الله العظمى.

إضاءات على الآيات التي ورد فيها اسم الله الأكرم

هذا الاسم ورد في أوَّل سورة أُنزلت من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق:١-٥].

أودع الله عز وجل في الإنسان قوّةً إدراكيَّةً يتميز بها من بقيَّة المخلوقات، ولأنَّه أودع فيه قوّةً إدراكيَّةً أصبحت عنده حاجة إلى المعرفة، وهذه الحاجة يمكن أن تُوصف بأنَّها حاجةٌ عليا، إذ هناك حاجات دنيا متعلقة بالأرض وهناك حاجة عليا متعلقة بالسماء، إذ رُكِّب الملك من عقل بلا شهوة، ورُكِّب الحيوان من شهوة بلا عقل، ورُكِّب الإنسان من كليهما فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾ [البينة:٧].

وإن طغت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان، فالله عز وجل سخَّر لهذا الإنسان الكون كلَّه، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣].

وأمره أن يقرأ أيّ: يتعلَّم، وطلب العلم فريضة على كل مسلم، وهذا العلم أنواع، قال تعالى: اقرأ باسم ربك، فما لم ينقلك العلم إلى معرفة ربِّك فليس علماً، العلم ما هداك إلى الله، العلم ما عرَّفك بهذا الإله العظيم، العلم ما حملك على طاعته، العلم ما دفعك إلى التقرُّب إليه، العلم ما هداك إلى سرِّ وجودك، العلم ما هداك إلى غاية وجودك، لذلك: اقرأ، أمَّا المفعول به فهو محذوف وحينما يُحذف المفعول يُطلق الفعل، اقرأ في الكون، فالكون قرآن صامت، واقرأ في القرآن فهو كلام الخالق، واقرأ في سيرة النبي ﷺ فهو قرآن يمشي، اطلب العلم، فما لم يطلب الإنسان العلم فلن يؤكِّد إنسانيَّته.

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾ [العلق:١-٢]

يمكن أن نسمِّي القراءة الأولى قراءةَ البحث والإيمان. فالعلم مرتبط بالإيمان وما لم ينقلك العلم إلى الإيمان فليس علماً، وقد يكون ذكاءً ليس غير، لذلك قالوا: ما كلُّ ذكيٍّ بعاقل، إنسان عنده دماغ يمكن أن يفهم دقائق الأشياء، فاختصَّ باختصاص نادر، وجلب له هذا الاختصاص دخلاً كبيراً فلكيّاً، هذا ذكيٌّ جداً، لكن ما لم تعرف سرَّ وجودك، وغاية وجودك، ما لم تعرف الخالق والربَّ والمسيِّر، ما لم تعرف أسماء الله

الحسنى وصفاته الفضلى فلست عاقلاً، العاقل من عرف الله، وأرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً.

وفي بعض الأدعية: يا رب ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟ إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ (١)﴾ [العلق:١] .

تجاوز الحاجات الدنيا إلى الحاجة العليا، ابحث عن الحقيقة، اعمل بها.

إذاً لا بدَّ من أن تبحث عن الحقيقة، ولا بدَّ من أن تتحرَّك وفق الحقيقة، ولا بد من أن تدعو إلى هذه الحقيقة، وقد يكون هناك عقبات وقد تكون هناك صوارف فلا بد من الصبر، قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ (١) إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ (٢) إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ (٣)﴾ [العصر:١-٣].

إذاً أول قراءة ينبغي أن تقرأها قراءة البحث والإيمان، ابحث عن الحقيقة، ابحث عن الذي خلقك، تساءل لماذا خُلقت؟ لماذا أنا في الدنيا؟ ما العمل العظيم الذي ينبغي أن أفعله؟ ماذا بعد الموت؟ ماذا قبل الموت؟ من أين وإلى أين ولماذا؟ ابحث.

العلم ما انتهى بك إلى الإيمان، فإن لم ينتهِ بك إلى الإيمان فهو ذكاء فقط، والذَّكاء ينتهي عند الموت، أمَّا العلم الذي أراده الله حينما قال الله عز وجل: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ [الزمر:٩].

فهو أن تتعرَّف إليه، وأن تتعرَّف إلى منهجه، وأن تحمل نفسك على طاعته، وأن تبذل الغالي والرَّخيص والنَّفس والنَّفيس، هذه القراءة الأولى قراءة البحث والإيمان.

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ (١)﴾ [العلق:١].

أقرب آية لك نفسك التي بين جنبيك، قال تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ (٦)﴾ [الطارق:٥-٦].

هذا الماء الدافق ثلاثمئة مليون حوين، تحتاج البويضة إلى حُوين واحد، قال تعالى: ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۝٨ ﴾ [الطارق:٦-٨].

﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ ﴾ [عبس:٢٤].

أمر إلهي لذلك هذه قراءة، اقرأ ولتنتهِ قراءتك إلى معرفة ربك، اقرأ ولتنتهِ قراءتك إلى معرفة سرِّ وجودك وغاية وجودك.

وهناك قراءة ثانية متعلِّقة باسم الله الأكرم، قال تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ﴾ [العلق:٣].

ماذا منحك؟ نحن موجودون لو اطَّلعت على كتاب نُضِّدت حروفه قبل تاريخ ميلادك، أثناء تنضيد حروف هذا الكتاب أنت من؟ لا شيء، قال تعالى: ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝١ ﴾ [الإنسان:١].

ليس لك أي اسم بأي مكان، لم يكن لك وجود، إذاً الله عز وجل أكرمك أي منحك أكبر عطاء أنَّه أوجدك، منحك نعمة الإيجاد، أوجدك وأودع فيك حاجات، أودع فيك حاجة إلى الهواء، والهواء موجود بنسب رائعة لو أنَّ هذه النِّسب تغيَّرت لاحترق كلُّ ما في الأرض، منحك نعمة الإيجاد، ومنحك نعمة الإمداد، وهذا الكون سخَّره لك.

سخّره لك تسخيرين تسخير تعرف وتسخير تكريم، كلُّ شيء في الأرض مسخَّر لك تسخيرين، تسخيرَ تعريف وتسخيرَ تكريم.

فإذا قرأت كتاباً عن العسل الذي فيه شفاء للناس فدمعت عينك من خشية الله، وقد لا يتاح لك أن تلعق لعقة عسل واحدة، لكنَّك إذا عرفت الله من خلال العسل فقد حققت الهدف من العسل أنَّه عرَّفك بالله، والذي يأكل العسل ليلاً ونهاراً ولم يفكِّر في هذا الشراب الذي جعله الله شفاء للناس فقد عطَّل أكبر هدف من خلق العسل، تأكَّد أنَّ أيَّ شيء في الأرض له وظيفتان، له مهمتان، سُخِّر لك تسخيرين

تسخير تعريف وتكريم، تماماً كما لو قدّم لك صديق هاتفاً فيه خصائص مذهلة من اختراعه، دون أن تشعر ينطوي قلبك على شعورين، شعور الإعجاب بهذا الاختراع وشعور الامتنان بأنّه هدية.

هذا الكون مُسخَّرٌ لنا تسخيرين، تسخير تعريف وتسخير تكريم، ردُّ فعل التعريف أن تؤمن، وردُّ فعل التكريم أن تشكر، فإذا آمنت وشكرت، فقد حقّقت الهدف من وجودك فإذا حققت الهدف من وجودك توقَّفت المعالجات الإلهية، قال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء:١٧٤].

لذلك ينبغي أن تكون قراءتك للكون قراءة شكر وعرفان لربّك الأكرم.

القراءة الأولى بحث وإيمان، القراءة الثانية شكر وعرفان، منحك نعمة الإيجاد، منحك نعمة الإمداد، يوجد هواء، يوجد ماء عذب زلال، يوجد زوجة، يوجد أولاد، يوجد طعام، شراب، فواكه، معادن، كلُّ شيء، لذلك القراءة الثانية قراءة شكر وعرفان، وما لم يمتلئ قلبك شكراً لله فأنت بعيد عن الإيمان.

الله هو الأكرم، وممّا أكرمنا به البيان، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن:١-٤].

بالبيان يتواصل الناس أرقى تواصل، بالبيان تتكلّم فتعبِّر عن أفكارك ومشاعرك، بالكلام تنتقل العلوم من إنسان إلى إنسان، ومن جيل إلى جيل بالكتابة، ومن أمة إلى أمة بالترجمة، لذلك: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾ [العلق:٣-٤].

الأكرم جل جلاله منحك نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى والرشاد، هداك إلى مصالحك، أعطاك قدمين لطيفتين لكن يقابلهم جهاز توازن، لولا جهاز التوازن لما أمكنك أن تمشي على قدميك، فالميت لا يقف.

ثم هداك بالوحي، جاءك وحي من السماء، بيّن لك من أنت، أنت المخلوق الأول، ولماذا خلقت؟

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات:٥٦].

ثمَّ تأتي هداية التوفيق، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ [الكهف:١٣].

ثمَّ هداك إلى الجنة، قال تعالى: ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ ﴾ [محمد:٥].

أمّا القراءة الثالثة فهي قراءة الوحي والإذعان ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق:٥].

فأيُّ شيء عجز عقلك عن إدراكه أخبرك الله به، أخبرك الله عن الماضي السحيق وعن بداية الخلق وعن المستقبل البعيد، وأخبرك عن سرّ وجودك وعن غاية وجودك وأخبرك عن ذاته العلية.

هناك قضايا تصنَّف مع المحسوسات، وأداة اليقين بها الحواس الخمس، واستطالاتها كالميكروسكوب والتليسكوب مثلاً.

هناك موضوعات تصنَّف مع المعقولات، فأيُّ شيء غابت ذاته وبقيت آثاره، فأداة اليقين به العقل وهذه تسمى المعقولات، فالكون كلُّه ظاهر لكلِّ إنسان ويمكن أن تقرأ فيه بل إنَّه قرآن صامت ولكن أداة اليقين في المعقولات هو العقل البشري، فالكون مظهر لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، والقرآن الكريم إعجازه يدلُّ عليه، والقرآن الكريم يدلُّ على النَّبيِّ ﷺ لأنه جاء به.

لكن هناك قضايا غابت عينها وغابت آثارها ولا سبيل إلى العقل أن يؤمن بها إلا أنَّه يتلقَّى الخبر الصادق كالإيمان بالجنِّ والملائكة، هذه إخباريَّات، فإذا جاء في الوحيين الكتاب والسنة خبر عن الله عز وجل فهو عندنا يقينيٌّ.

نصيب المؤمن من اسم الله الأكرم

من عرف الله الأكرم فإنه يستخدم ما أكرمه به في طاعته وخدمة عباده، ويعلم أنَّ هذا الإكرام لا يكون إكراماً حقيقة إلا إذا سُخِّر في مرضاة الله تعالى، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾ [الفجر:١٥].

هذه مقولته، هو يتوهَّم أحياناً أنَّ الله إذا أمدّ إنساناً بالمال، وهذا الإنسان ليس على طاعة الله فهي علامة محبَّة له، وهذا فهم غير صحيح.

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦﴾ [الفجر:١٦].

جاء الرّدّ الإلهي: كلا ليس كذلك يا عبادي، ليس عطائي إكراماً مطلقاً ولا منعي حرماناً، عطائي ابتلاء وحرماني دواء، هل يعدّ المال نعمة؟ هل تعدّ الصحة نعمة؟ هل يعدّ الأولاد نعمة؟ هل تعدُّ المكانة العليَّة في المجتمع نعمة؟

هذا المال إذا وُظِّف في العمل الصالح، وفي طاعة الله أصبح نعمةً حقيقيَّة، أما إذا وُظِّف في نشر الباطل للتمتع بالمتع الرخيصة التي حرمها الله، فهذا المال ليس نعمة، يقول بعض الصحابة: حبذا المال أصون به عرضي وأتقرَّب به إلى ربي. بإمكانك أن تطعم جائعاً، أن تكسو عارياً، أن تعلّم جاهلاً، أن تؤوي مشرداً، أن تعالج مريضاً، بإمكانك أن تعيش في قلوب الآخرين، المال نعمة إذا وُظِّف في طاعة الله:

«لا حَسَدَ إِلاّ في اثْنَتَيْنِ: رَجلٌ آتاهُ الله مَالاً فَهُوَ يُنْفِقُ منهُ آنَاءَ اللّيْلِ وآنَاءَ النّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ الله القُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللّيْلِ وَآنَاءَ النّهَار» [البخاري عن أبي هريرة].

المال موقوف على طريقة إنفاقه، إذا استعنت بالصحة على طاعة الله فهي نعمة كبيرة فإذا استعان الإنسان بصحَّته على معاصي الله فالصّحّة نقمة، إذا أعطاه بصراً حادّاً فتتبع به عورات المسلمين، ونظر إلى عورات النساء، فهذا البصر نقمة، وإذا آتاه الله عينين فرأى بهما آيات الله الدالة على عظمته وغضَّ بصره عن محارم الله، فالبصر نعمة.

كلُّ شيء نعمة ونقمة، فإذا وُظّف في طاعة الله فهو نعمة وإذا وُظِّف في المعاصي والآثام فهو نقمة، لذلك سئل الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: أندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين؟ فقال: لن تمكَّن قبل أن تُبتلى، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبۡتَلِينَ ۝٣٠﴾ [المؤمنون:٣٠].

فهذه الحظوظ وُزِّعَت في الدنيا توزيع ابتلاء، أنت ممتحن فيما أعطاك، ممتحن فيما زوى عنك، ممتحن بالمال إن كنت غنياً، وممتحن بقلّته إن كنت فقيراً، ممتحَن بالصّحّة إن كنت صحيحاً، ممتحَن بالمرض إن كنت مريضاً، وفي الدّعاء: «اللهمَّ مَا رَزَقْتَنِي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ» [الترمذي عَنْ عَبْدِ الله بْنِ يَزِيدَ الخَطْمِيِّ الأَنْصَارِيِّ].

أعطيتني صحة يجب أن أستهلكها في طاعتك، أعطيتني مكانة اجتماعية يجب أن أكون آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، أعطيتني منصباً رفيعاً يجب أن يكون هذا المنصب الرفيع في إحقاق الحق وإبطال الباطل، أعطيتني زوجة يجب أن آخذ بيدها إلى الله عز وجل، أعطيتني أولاداً يجب أن أربيهم تربية ترضى بها عني.

«....وَمَا زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغًا لِي فِيمَا تُحِبُّ»

المؤمن الصادق يسعى إلى أقصى درجة فإن انتهى به السعي إلى هذا الدّخل فإنّه يرضى به، ويصرف وقته في طاعة الله.

هل هناك شخصٌ ليس له ميِّزة؟! هذا يتقن الرياضيات، وآخر يتقن العلوم، وثالث اللغات، وهذه امرأة تتقن الطَّبخ مثلاً، إنها امرأة أصيبت بمرضٍ خبيث في دماغها وشفاها الله عز وجل فنذرت لله عز وجل أن تعمل صالحاً، فقيرة لا تملك من حطام الدنيا شيئاً، فاستأجرت غرفة وصارت تطبخ الطعام الشّهيَّ النفيس وتبيعه للأسر الغنيَّة التي تحبُّ أن تأكل طعاماً بيتياً، وبالربح صارت تعالج المرضى، هذا مثل حيٌّ وناطق... امرأة لا تملك إلا فنَّ الطبخ، وظّفت هذه القدرة في العمل الصالح، وبدأت تسدِّد نفقات عمليات وخِدمات للفقراء المرضى فقد تقرَّبت إلى الله بطبخها.

هل يوجد إنسان ليس له ميزة؟؟ امرأة عمران ماذا تملك؟ تملك ما في بطنها قالت: ربِّ إني نذرت لك ما في بطني محرراً.

في مجتمعنا أخ محامٍ، وأخ طبيب، وأخ مهندس، وأخ مدرِّس، وإنسان حالته المادية جيِّدة، وإنسان عنده قدرة على الإقناع، وإنسان عنده خبرات معينة، فالحياة تحتاج إلى تعاون، قدِّم شيئاً ما لله عز وجلَّ ولا تعجز.

عن بشير ابن الخصاصية السدوسي قال: أتيت رسول الله ﷺ أبايعه، فاشترط علي أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وتصلي الخمس، وتصوم رمضان، وتؤدي الزكاة، وتحج البيت، وتجاهد في سبيل الله فقلت: يا رسول الله أمَّا اثنتان فلا أطيقهما: الزكاة فوالله مالي إلا عشر ذود (ذود: جمال) هنَّ رِسْلُ أهلي وحمولتهم، وأمَّا الجهاد؛ فيزعمون أنه من ولَّى الدُّبُر فقد باء بغضب من الله فأخاف إذا حضرني قتال خشعت نفسي (أي: فزعت) فكرهت الموت، فقبض رسول الله ﷺ يده وحرَّكها وقال: لا صدقة ولا جهاد فبم تدخل الجنة؟ فبايعته عليهن كلِّهن [رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط].

والله أنا أحياناً أكون ممتنَّاً جداً ومسروراً من بعض الإخوة إذ يقول لي أحدهم: أنا محام إذا اتَّصل بك أخ فقير له قضية فابعثه إليّ، ويقول لي آخر: أنا محلِّل في مخبر إذا علمت بأخٍ فقير يريد أن يحلِّل فأنا جاهز، أنا طبيب لو أرسلت لي أخاً فقيراً أعالجه مجاناً، وذات مرةٍ أخ من إخواننا الكرام جرَّاح، قال لي: أنا مستعد أن أستقبل أي أخٍ يريد إجراء عملية، بعثنا له أول أخ عمل له عملية بالمشفى وفي الدرجة الثانية ونجحت العملية، بعثنا له أخاً ثانياً وأخاً ثالثاً، فهذا أدَّى زكاة اختصاصه وجزاه الله خيراً كثيراً، فيجب أن نتوسَّع في مفهوم الزكاة، فهناك زكاة مال، وهناك زكاة وقت، وزكاة خبرة... إلخ.

لنا قريب عنده محل للحلويات في دمشق، وهذه القصة منذ ثلاثين سنة، دخل لمحله شخص أرمني، قال له: هل تعلمني صناعة الفرنيَّة (الكاتو)؟ فاستجاب له: ولبّى طلبه وعمل أمامه طبخة -خلطة- وأدخلها إلى الفرن وقال له: اكتب الكميَّات والمعايير، ثم كلَّفه أن يقوم بعمل طبخة واحدة أمام صاحب المحل، فعمل طبخة أمامه، ثم أقسم صاحب المحل: والله يا أستاذ منذ ثلاثين سنة وكلَّ سنة يزورني ذاك الشخص ويحضر لي هدية من القامشلي ويقول: كلُّ هذا الخير من فضلك... لم يَضِعْ معه المعروف... هذا ماذا فعل؟ أدَّى زكاة خبرته، ومن الممكن أن تؤدِّي زكاة مالك، زكاة وقتك بدرس علم، زكاة خبرتك علِّم. بعث شخص ابنه لمحل بدون أجر ليعلمه الصنعة فلم يعلِّمه، بل كان صاحب المحل عندما يريد أن يصلح المحرِّك يقول له: اذهب خارج المحل، لم يعلِّمه خوفاً من أن ينافسه ذات يوم... علِّمه يا رجل، والله هو

الرزاق، أدِّ زكاة خبرتك، أدِّ زكاة مالك، أدِّ زكاة وقتك، أدِّ زكاة صحتك، أعن المرضى، أدِّ زكاة وقتِ فراغِك، أعن الضعفاء.

الله عز وجل هو الأكرم لكن ومن يُهِنِ الله فما له من مُكْرِم، فإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردَّ له، فإذا أراد الله بإنسان أن يهينه فإنّه يتطاول عليه أقرب الناس إليه، وإذا أراد الله إعزاز إنسان جعل أعداءه في خدمته دون أن يشعروا.

﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج:١٨].

إذا أحبَّك الله ألقى محبَّتك في قلوب الخلق، وإذا لم يحبَّك الله ألقى بغضك في قلوب الخلق، الحياة توفيق إلهي والتّوفيق بالطاعة، ومن هاب الله هابه كلُّ شيء ومن لم يهب الله أهابه الله من كلِّ شيء.

كـــن مـــع الله تـــر الله معـــك   واتـــرك الكـــلَّ وحـــاذر طمعـــك

وإذا أعطـــاك مـــن يمنعـــه   ثـــم مـــن يعطـــي إذا مـــا منعـــك

اللهم أعطنا ولا تحرمنا، أكرمنا ولا تُهنّا، آثرنا ولا تؤثر علينا، أرضنا وارضَ عنا، وصلَّى الله على سيدنا محمدٍ النبي الأميّ وعلى آلهِ وصحبه وسلم.

الأحد

هذا الاسم ورد في القرآن الكريم في سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص:١-٤].

وقد ورد أيضاً في السنة الشريفة الصحيحة، فقد أخرج ابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ سمع رجلاً يقول:

«اللهمَّ إِني أسألُكَ بأني أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ، لا إلهَ إلا أنتَ، الأحَدُ الصَّمَدُ، الذي لم يَلِدْ ولم يُولَدْ، ولم يكن له كُفُوا أَحَدٌ، فقال ﷺ: والذي نفسي بيده لقد سأل اللهَ باسمه الأَعظَمِ، الذي إِذا دُعِيَ به أجابَ، وإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى»

من معاني اسم الله الأحد

الأحد من مشتقات الواحد، فالواحد مفتتح العدد، إذ أوّل عدد هو واحد، أمّا الأحد فهذه للنفي، تقول: ما جاء من أحد، أمّا الواحد فللإثبات، تقول: جاء واحد من

القوم، الواحد لا شريك له، لكنَّ الأحد لا مِثْل له، الواحد من حيث الكمِّ، أمَّا الأحد فمن حيث النَّوعُ.

قال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم:٦٥].

السَّمِيّ: المشابه، و كلُّ ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك.

أمَّا الأحديَّة فقالوا: هي الانفراد ونفي المثليَّة، والانفراد لذاته، وصفاته، وأفعاله.

من معاني الأحد أنَّه يحتاجه كلُّ شيء في كلِّ شيء، وليس محتاجاً إلى شيء، فوجوده ذاتي، أمَّا الإنسان فعبد لله، ووجوده معتمِد على إمداد الله له.

وقد ورد في القرآن جمعان لكلمة عبد وهما عبيد وعباد، والفرق بينهما أنّ العبيد جمع عبد القهر، أمَّا العباد فجمع عبد الشكر، قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت:٤٦].

بينما عبد الشكر تجمع على عباد. ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء:٦٥].

فأيُّ إنسان ولو كان ملحداً، كافراً، فاجراً فهو عبد لله، بمعنى أنَّ حياته متوقفة على إمداد الله له، فلو توقَّف القلب فأملاكه مهما بلغت تنتقل إلى غيره، كان رجلاً فأصبح خبراً، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ [المؤمنون:٤٤].

حتى العتاة، الطغاة، المستكبرون، الملحدون، الكافرون هم عبيد لله قهراً، وكلُّ مكانتك الاجتماعية مبنيَّة على ذاكرتك، وهناك حالات فقدِ الذاكرة، كلُّ مكانتك الاجتماعية مبنيَّة على حركتك، وأقلُّ خثرة من الدَّم في أحد شرايين الدماغ تنهي الحركة، كلُّ مكانتك الاجتماعية، من عقلك، والعقلُ قد يذهب فجأة.

أيُّ إنسان مهما كان قويّاً، ومهما كان متجبِّراً فهو عبد لله قهراً، هذه عبودية القهر، لكنَّ المؤمن حينما عرف الله، وأحبَّه، وأقبل عليه، وأطاعه، وتقرَّب إليه فهذا عبد لله أيضاً من نوع آخر، هذا عبد الشكر.

الأحد يستحيل أن تحيط به، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:٢٥٥].

علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

قال بعض العلماء: ما بين دفتي المصحف وصف للواحد الدّيّان، وأمر وخبر، وسورة الإخلاص تعريف بالله، فهي ثلُث القرآن.

في هذا الكون حقيقية واحدة أحديَّة هي الله، الحقُّ كلُّ ما يؤكد وجود الله، ووحدانيته، وكماله، والحق كُلُّ عمل تتقرَّب به إلى هذه الحقيقة الوحيدة الأحديّة.

إذاً اعتقادًا: كلُّ ما يؤكِّد وجود الله ووحدانيته، وكمالَه فهو الحقُّ، وسلوكاً: كلُّ عمل يقرِّب إليه فهو الحقُّ، هذا كلام شموليٌّ، وأمَّا الباطل فكلُّ ما يغفل هذه الحقيقة العظمى الأحديَّة أنَّ الله موجود، وأنَّ الله واحد، وأنَّ الله كامل، فهو الباطل، أيُّ توجُّهٍ إلى غير الله، أيُّ تشريع صادر عن غير منهج الله، أيُّ تقييم لعمل بعيد عن منهج الله، أيُّ شيء يبتعد بك عن الله، فهو الباطل، بل أي عمل يبعدك عن الله أو يجعل حجاباً بينك وبين الله فهو باطل.

الله عز وجل أحد، فرد صمد، لم يلد، ولم يولد، هو الحقيقة الأحديَّة، ولا شيء سواه، فما سواه خاضع له، فأيّ فكر، أيّ كتاب، أي تأليف، أيّة قصة، أي عمل، أيُّ طرح، أيُّ تفسير، يؤكد وجود الله، ويؤكد وحدانيته، ويؤكد كماله فهو الحق، وأيُّ إغفال، أو إبعاد عن هذه الحقيقة فهو الباطل، وأيُّ عمل يقرّب إليه فهو السلوك الحق، وأي عمل يحجب عنه فهو السلوك الباطل، وهذا تعريف جامع مانع للحقِّ والباطل.

الآن... كلُّ عمل، أو كلُّ تصوُّر ينطلق من منهج الله فهو الخير، وكلُّ عمل، أو تصوُّر يناقض منهج الله عزَّ وجلَّ فهو الشّرّ، وإن بدا على شبكية العين ممتعاً، أو نافعاً، لكن في المآل يعدُّ شرّاً.

إذاً: الخير ما جاء به وحي السماء، وما ناقضه فهو شرٌّ، وإن بدا للناس ممتعاً أو مريحاً، أو كسباً لهم.

الجمال الحقيقي كلُّ ما اشتُقَّ من الله عز وجل، من تصوُّر، أو موقف، أو عمل فهو الجمال الحقُّ، وهناك جمال الأخلاق، وجمال التواضع، وجمال الوفاء، وجمال الرحمة، فأيُّ سلوك، وأيُّ تصوُّر لم يؤخذ من منهج الله عز وجل، بل أيّ سلوك تفلت من منهج الله فهو القبح بعينه، هذه الحقيقة الأحديَّة هي ميزان الحق، والخير، والجمال.

ولكن لا بد من وقفة متأنيَّة: ما الحقُّ؟ الحقُّ لابس خلق السماوات والأرض، فكلُّ شيء خلقه الله عز وجل حقٌّ، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [التغابن:٣].

فالحقُّ مشى مع كلِّ شيء خلقه الله، ولابس خلق السماوات والأرض.

ويقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ﴾ [ص:٢٧].

الحقُّ نقيض الباطل، فالباطل هو الشَّيء الزائل، فأي شيء باقٍ على الدوام إلى أبد الآبدين فهو الحقُّ، وأيُّ شيء زائل هو الباطل، وقد قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء:٨١].

وزهوق على وزن فعول، وفعول من صيغ المبالغة، وإذا بالغنا في الشّيء فالمبالغة تتَّجه إلى الكمِّ والنوع، إذ إنَّ أكبر باطل زائل، كما أنّ صنوف الباطل مهما تنوَّعت فهي زائلة.

إذاً: الحقُّ هو الباقي، فكم من مذهب وضعي ظهر في الأرض؟ كم من إيديولوجيات مِن صنع الإنسان ظهرت، ثم انتهت، بل ثم أصبحت في الوحل؟ لأنها باطلة، أمَّا هذا الدين العظيم، ومع أنَّ العالم كلَّه في قاراته الخمس يحاربه، بل إن حرباً عالمية ثالثة أُعلنت على هذا الدين وهو شامخ كالطود، وهو يزداد نمواً، بل هو الدين الأول نموَّاً.

هذا الذي دعا بعض العلماء الغربيين الذين هداهم الله إلى الإسلام، وقد زاروا جالية إسلامية في بريطانيا، أن يقول: أنا لا أصدق أن يستطيع العالم الإسلامي اللحاق بالغرب على الأقل في المدى المنظور، لاتِّساع الهوَّة بينهما، ولكنني مؤمن أشدَّ الإيمان أنَّ العالم كلَّه سيركع أمام أقدام المسلمين، لا لأنَّهم أقوياء، ولكن لأنَّ خلاص العالم في الإسلام، بشرط أن يحسنوا فهم دينهم، وأن يحسنوا تطبيقه، وأن يحسنوا عرضه على الطرف الآخر.

ويقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الأنبياء:١٦].

اللعب هو العبث، هو عمل بلا هدف، كاثنين جلسا ليلعبا النَّرد إلى الساعة الثالثة ليلاً، ماذا ينتج عن هذا؟ عمل بلا هدف، تضييع للوقت، بتعبير آخر قتل للوقت، أمَّا لو قرأت كتاباً، لو التحقت بجامعة، وقرأت الكتاب المقرَّر، وفيه امتحان، ونجحت، وأخذت شهادة، الشهادة فيها تعيين، والتعيين فيه دخل، الدخل معه زواج، الزواج معه بيت، وعمل.

إذاً: الحقُّ نقيض الباطل، والباطل الشّيء الزائل، الحق إذاً الشيء الثابت والباقي والدائم.

الحق نقيض اللعب، واللَّعب هو العبث، والعبث عمل بلا أثر مستقبليّ.

حين يشتري الأب سيارة صغيرة لابنه، ويمضي وقتاً طويلاً في تحريكها فوق أثاث البيت، يرافق هذا التحريك صوت منه يدلُّ على صعوبة الطريق، هذه السيارة الصغيرة تملأ عالمه كلَّه، فلو أخذتها منه فإنَّه يبكي، حينما يصبح طبيباً، ويُذكَّر بأعماله ألا يضحك على نفسه؟

من صفات اللعب أنك إذا تجاوزته رأيته صغيراً، هذا لعب، وقت ضائع، عمل لا طائل منه، عمل لا هدف له، عمل لا جدوى منه.

فلذلك جاء في الحديث: «إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها، ويكره سفسافها ودنيها» [أخرجه الطبراني عن حسين بن علي].

نصيب المؤمن من اسم الله الأحد

بطولة الإنسان وذكاؤه وعقله في أن يربط نفسه بالحقِّ، بالله الواحد الأحد، فإذا ربط نفسه بالحقِّ فله مستقبل في الدنيا والآخرة، أمَّا إذا ربط نفسه بالباطل، فما دام هذا الباطل قائماً فإنَّه ينعم به، فإذا أزيح الباطل انتهى معه، فكلُّ الذكاء، وكلُّ البطولة، وكلُّ النجاح، وكلُّ الفلاح، وكلُّ التوفيق، أن تربط نفسك مع الحقِّ الأزليّ الأبديّ، الثَّابت الباقي في الدنيا والآخرة.

هؤلاء الذين وقفوا مع النّبيِّ الكريم في محنته، في أقسى أيام الدعوة، أين هم الآن؟ في أعلى عليين، أسماؤهم في لوحة الشرف، وهؤلاء الذين انضموا للباطل القويِّ الغنيِّ، أين هم الآن؟ في مزبلة التاريخ.

الله عز وجل واحد أحد، فرد صمد، والحقيقة الإلهية حقيقة أحدية، وأيّ تصور، وأيّ فكر، وأيّ طرح يؤكِّد وجود الله ووحدانيته وكماله فهو الحق، وأيُّ سلوك يقرِّب إليه فهو الحقُّ، وأيُّ إغفال لهذه الحقيقة الأحديَّة فهو الباطل، وأيُّ سلوك يُبعد عنها فهو الباطل، من هنا كانت البطولة أن تكون مع الحقِّ، وأن تكون مع الشيء الثابت.

يروى أن أحد خصوم أبي حنيفة النعمان التقى به عند أبي جعفر المنصور، أراد هذا الخصم أن يوقع أبا حنيفة في حرج كبير، قال له: إذا أمرني الخليفة أن أقتل إنساناً، أأقتله أم أتريث؟ فلعلّه مظلوم؟ فسأله: هل الخليفة على الحقِّ أم على الباطل؟ قال له: على الحقّ، قال له: كن مع الحق، فلما خرج قال: أراد أن يقيِّدني فربطته.

ولأنَّك مخلوق لمعرفة الله، مخلوق لجنَّةٍ عرضها السماوات والأرض، فأنت في أصل الخلق لا نهائي، فلا شيء يملؤك إلا الله، وقد تختار وظيفة، بعد أن تصل إليها تملّها، تختار المال بعد أن تحوزه تملّه، كلُّ شيء سوى الله مُمِلٌّ، وكلُّ شيء سوى الله يخبو لمعانه، وكلُّ شيء سوى الله لا يمكن أن يمدَّك بسعادة مستمرة، بل متناقصة، هكذا شاءت حكمة الله.

هؤلاء الذين بلغوا كلَّ أهدافهم المادية، يعيشون بحالة ملل، وسقم، لأنّ نفس الإنسان مفطورة على معرفة الله.

وحينما تختار هدفاً أرضياً، فما دام بعيداً عنك لعلك تحلم به، فإذا وصلت إليه انتهى، وهذه مشكلة الناجحين في الحياة.

ليس ثمَّة أصعب من إنسان يعيش بلا هدف، إن ربطت نفسك مع الحقِّ فأنت مع الله، أنت مع الباقي، الأزلي، الأبدي، الذي كلُّ شيء بيده، وإن لم تصل لهذه الحقيقة فقد تستمتع بالمال أحياناً، بالمرأة أحياناً، بقصر، ببيت، بمركز، بمنصب، هذه الأشياء بعد أن تصل إليها تفقد لمعانها، ويخبو بريقها، وتشعر أنها أصغر بكثير ممّا كنت تتوقَّع.

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤].

هناك فراغ في النفس لا يملؤه المال، لا يملؤه المنصب، لا تملؤه الزوجة الجميلة، لا يملؤه إلا معرفة الله.

فكن مع الواحد الأحد الفرد الصمد، فمن كان مع الله كان الله معه.

الصمد

ورد اسم الصَّمَد في سورة الإخلاص: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص:١-٢].

وقد ورد هذا الاسم أيضاً في السنة النبوية الصحيحة في عدة مواضع، منها: «أنا الأحَدُ الصَّمَدُ الذي لم يَلِدْ ولم يُولَدْ، ولم يكن له كُفُوا» [البخاري عن أبي هريرة].

و: «قال النبي ﷺ: أَيَعْجِزُ أحدُكُم أَن يقرأ ثُلث القرآن في ليلة؟ فشقَّ ذلك عليهم، وقالوا: أَيُّنا يُطيق ذلك يا رسولَ الله؟ فقال: الله أحد، الله الصمد ثلثُ القرآن» [البخاري عن أبي سعيد الخدري].

و:«خرج إِلينا رسولُ الله ﷺ، فقال: أقرأُ عليكم ثلث القرآن؟ فقرأ: قُلْ هُوَ الله أَحَد، الله الصمَدُ... حتى ختمها» [مسلم عن أبي هريرة].

و: «كان رسولُ الله ﷺ يوتر -يعني يقرأ في صلاة الوتر- بـ: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى، و: قُلْ يَا أَيُّها الكَافِرُونَ، و: قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ» [أبو داود عن أُبيّ بن كعب].

من معاني اسم الله الصَمد

الصَّمَد صفة مشبهة لمن اتَّصف بالصمدية، والفعل صمد، يصمد، صمداً.

الصَّمَد: القصدُ. وفي حديث معاذ بن عمرو بن الجموح في قتل أبي جهل قال: فصمدتُ له حتى أمكنتني منه غِرّة، أي: ثبتُّ له وقصدته وانتظرت غفلته [النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير].

هذا المعنى الأول في اللغة... الصَّمَد: القصد... صمدتُ له: قصدتُه... والصَّمَد كذلك: السيِّدُ المطاع الذي لا يُقضى دونه أمر، سيِّد متمكِّن، مطاعٌ، أمره نافذ... وأصمد إليه الأمر: أسنده إليه.

ويقول بعض علماء اللغة: «إنَّ الصَّمَد في اللغة له وجهان: أنه فعلٌ بمعنى مفعول»... أي: مقصود، صمدتُ إليه، أي: قصدته، أو هو المقصود، أي: السيدُ المقصودُ. المصمود في الحوائج، أي: المقصود في الحوائج. فإذا أحبَّ الله عبداً جعل حوائج النَّاس إليه، أي: أتاح له أسباب العمل الصالح.

هناك شخص يتملَّص من كلِّ عمل، يتملَّص من كلِّ عبء، يتملَّص من كلِّ موعد، يتملَّص من كلِّ بذل، ومن كلِّ عطاء، يأخذ ولا يُعطي، وإذا أردت أن تعرف ما إذا كنت من أهل الدنيا، أو من أهل الآخرة، فاسأل نفسك السؤال الآتي: ما الذي يُفرحك؟ أن تعطي أو أن تأخذ؟

أهل الدنيا يفرحهم أن يأخذوا، وأهل الآخرة يفرحهم أن يُعطوا. وهذا مقياسٌ مهمٌّ، حتى إنَّ العرب في لغتهم يصفون الذي يُسعده العطاء بكلمة أريَحِيّ. هو أشدُّ كرماً من الكريم؛ يرتاح في العطاء. يعطي ليستريح، فإذا كنت من أهل الإيمان فاعلم أنَّ المؤمن حياته مبنيَّةٌ على العطاء، وغير المؤمن حياته مبنيةٌ على الأخذ.

والذي يعطي فإن الله جلَّ جلاله يعطيه، «أنفق بلالُ ولا تخشَ من ذي العرش إقلالاً» [البيهقي في شعب الإيمان، عن أبي هريرة]. «أنفق، أُنفق عليك» [البخاري، عن أبي هريرة].

وهناك في القرآن الكريم آيات عديدة تقرِّر أنَّ كلَّ نفقةٍ يعوِّضها الله أضعافاً مضاعفة فقد قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾ [سبأ:٣٩].

هذا كلام خالق الكون. فالصَّمَد؛ بمعنى المصمود، أي: المقصود في الحوائج كلِّها. وإذا أحبَّ الله عبداً جعل حوائج الناس إليه. والمؤمن لا يتأثَّر لو طُرِق بابه في

اليوم مئة مرة، لو اتصلوا به عشرات المرّات، لو تزاحم الناس على بابه لا يتأثَّر؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى قادر على أن يجعلك تأخذ، على أن يجعلك تقف ذليلاً أمام باب إنسان لئيم، فإذا مكَّنك الله؛ أعطاك صحَّةً، وأعطاك مالاً، وأعطاك مكانةً، وأعطاك شيئاً يمكن أن تنفقه، لا تبخل به، لأنَّ الله سبحانه وتعالى يقرُّك على النعم ما بذلتها، فإذا منعتها منعها عنك. والعرب تقول: بيتٌ مصمود: إذا قصده الناس في حوائجهم.

تجد في الأسر رجلاً يسمونه الآن عميدَ الأسرة، يقصده كلُّ أطراف الأسرة في زواجهم، في أعمالهم، في وظائفهم، في حلِّ مشكلاتهم، في كلِّ ما من شأنه أن يتدخَّل من أجله، هذا الإنسان محترم.

وقال بعض متأخِّري اللغة: الصَّمَد هو الأملس من الحجارة الذي لا يقبل الغبار، بمعنى صقيل، ولا يدخله شيءٌ ولا يخرج منه شيء، لا دخول ولا خروج ولا استقرار... هو الصَّمَد.. هذا كلُّه معنى كلمة الصَّمَد في اللغة.

أما الصَّمَد إذا كان وصفاً لله عزَّ وجلَّ، أو كان اسماً من أسمائه، فقال العلماء: الله سبحانه وتعالى صمدٌ؛ لأنَّ الأمور أُسندت إليه، يعني الأمور رجعت إليه وهذا المعنى ورد في القرآن الكريم، فقد قال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود:١٢٣].

أحياناً تجد في دائرة أو مؤسسة أو معمل أو مدرسة، رجلاً قوياً لا يستطيع أيٍ موظَّف أن يبتَّ في قرار، أو يتّخذ أيَّ قرار، ما لم يرجع إليه فالأمر كلُّه بيده، خيوط كلِّ الموضوع مجموعةٌ بيده، فالله سبحانه وتعالى إذا قلنا: إنه الصمد؛ أي إنَّ الأمور كلَّها أصمدت إليه، أي أسندت إليه.

فما قولك إذا كان الأمر كلُّه بيد الله، أتسأل غير الله؟ أو هل تتوجّه إلى غير الله؟ أتعلّق الأمل على غير الله؟ أتخاف من غير الله؟!

فقد سألني أحدهم مرَّة: ما الذي يقوّي توجُّهي إلى الله؟ قلت له: التوحيد. ما الذي يقوّي إخلاصي؟ التوحيد، ما الذي يقوي عزيمتي؟ التوحيد. ما الذي يبعدني عن الشرك؟ التوحيد. وما تعلَّمت العبيد أفضل من التوحيد. وكلُّكم يعلم أن المصحف كلّه من دفته إلى دفته، من فاتحته إلى سورة الناس؛ كلّه حول التوحيد والدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف:١١٠].

هذا هو الدين... بل إنَّ فحوى دعوة الأنبياء جميعاً دون استثناء هو التوحيد، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥].

الدين كلُّه قائم على عقيدة التوحيد والعبادة؛ وحِّد واعبدْ، تفز في الدنيا والآخرة، بذلك تجمع المجد من كلِّ أطرافه.

الصَّمَد في وصف الله تعالى؛ هو الذي أسندت الأمور إليه، فلم يقضِ فيها غيره. وهو الذي يُصْمَدُ إليه في الحوائج، أي: يقصد. الأمور راجعةٌ إليه... إذاً هو المقصود كنتيجة طبيعية.

فأنت على نحو طبيعيٍّ وعفويٍّ، إذا دخلت إلى دائرة بحاجة إلى موافقة على طلب، تسأل بيد من هذه الموافقة؟ فإذا قيل: إنها بيد المدير العام؟ فلا يمكن أن تبذل ماء وجهك لغيره، ولا يمكن أن تسأل غيره؛ لأنك أيقنت أنَّ الأمر بيد فلان، ما دام الأمر بيده أنت قصدته. من أين يأتي القصد؟ من التوحيد... إن وحّدت، تتجه إلى الله.

لكن أقول: بعض الآيات والأحاديث إدراكها سهل، وشرحها سهل، لكن أن تعيشها فهنا بيت القصيد، أجل أن تعيشها.. فيا ترى هل هناك مشكلة مزلزلة عشتها؟ فأن ترى أن فلاناً هو الذي أوقعك بها، أو فلاناً من الناس هو الذي خلَّصك منها، فهذا هو الشرك، فأفكار التوحيد أفكار سهلة وليست معقَّدةً، أما الممارسات، فهذه تحتاج إلى جهد كبير.

التوحيد محصِّلة جهودك الكبيرة في طريق الإيمان. فأحياناً يقال لك عن سعر العملة...؛ إن محصِّلة الإنتاج الزراعي، والصناعي، والتجاري، وترشيد الاستهلاك، والقدرة على جلب رؤوس أموال من بلاد أخرى، ورواج المبيعات، والثروات الباطنية، كلُّها عوامل مهمة تدخل في تحديد سعر العملة. كذلك كلُّ عوامل الإيمان محصِّلتها التوحيد. وقال العلماء: «الصَّمَد؛ هو الدائم الباقي بعد فناء خلقه»، فقد قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

وقال بعض العلماء: «هو الذي خلق الأشياء كلَّها، ولا يستغني عنه شيء».

بحسب تركيب الجسم المعقَّد جداً فسلامته وعافيته معجزة؛ فالقلب وما به من دسّامات، وأذينين، وبطينين، ومراكز توليد الكهرباء، والأوعية، والشرايين، والأوردة، والكبد، والبنكرياس، والغدد الصماء ومفرزاتها -بنسب دقيقة جداً- وبلازما الدم... قلت: والله، المعجزة أن يستيقظ أحدنا معافى ولا يشكو من شيء... فهذه هي المعجزة، من شدة تعقيد الجسم ودقّته، فأن يسلم جسم الإنسان من المرض فهذه المعجزة، وتفسير هذه المعجزة لدى الإنسان أن يعلم أن الله الذي خلقه هو ذاته الحافظ، وأن الجسم لا يستغني عن خالقه.

أي نسبة تتغيَّر تصبح معها الحياة لا تطاق، لو أنَّ الكلية قصَّرت في وظيفتها تزداد نسب الحموضة في الدم، ومن مضاعفاتها ضيق، وتوتُّر عصبي، وردود فعل عنيفةٌ جداً.

الملح إذا زاد، يؤثر في الدم، وإذا أصبح الدم لزجاً، يتجمَّد فوراً. والتجمُّد يعني الشلل، أو فقد البصر، أو فقد الذاكرة، فالإنسان شديد التعقيد، فهو إذاً شديد الحاجة إلى الله، الله هو الذي خلق الأشياء كلَّها لا يستغني عنه شيء. الإنسان يربي ابنه وعندما يكبر يستقلُّ عن أبيه، وقد يغدو أقوى من أبيه، وقد يغدو أغنى من أبيه، وقد يصبح أبوه بحاجةٍ إليه. لكنَّ الله الذي خلق كلَّ شيء، وكلُّ هذه الأشياء لا تستغني عنه.

أحد العلماء له تعريفات أخرى لاسم الصَّمَد يقول: «الصَّمَد؛ هو العالم بجميع المعلومات»... هذه إشارة دقيقة... فالإنسان إذا نقصته المعلومات ضعف وضعفت قوَّته، فأحد أسباب القوة؛ المعلومات الدقيقة. فالإنسان إن كان يحتلُّ موقعاً قيادياً؛ وإذا كانت معلوماته غير دقيقة، أو ناقصة، أو غير كاملة، يضعف مركزه، فأحد أسباب القوة؛ ألا يغيب عنك شيء. وهذه صفةٌ لله عزَّ وجلَّ، فالإنسان قد يعلم شيئاً وقد تغيب عنه أشياء.

فقل لمن يدَّعي في العلم فلسفةً ... حفظت شيئاً وغابت عنك أشياءُ

فالله سبحانه وتعالى من خلال معاني اسم الصَّمَد: أنه يعلم كلّ شيء، ولا يخفى عليه شيء.

وقيل: الصَّمَد؛ هو الحكيم... أولاً: يعلم كلّ شيء، لكن مع هذا العلم أفعاله فيها حكمة، فالحكمة هي أحد الأدلة الكبيرة على وجود الله... فقد يكون هناك أشياء

متراجحة... فإذا أنت خاطبت إنساناً فهل من الممكن أن ترفع الصوت إلى درجة ليسمع من بُعدِ مئتي متر؟ فلا يكون هناك حكمة. أو أن تهمس همساً من على بُعد خمسة أمتار بحيث لا يسمعك، فلا بد من أن ترفع الصوت إلى درجة ليصله. فتعيير الصوت بحيث يصل إلى السامع دون أن يتجاوزه كثيراً، ودون أن يقصِّر عنه؛ هذه هي الحكمة. فالحكمة؛ وضع الأشياء في أماكنها. والحكمة؛ أن تفعل الشيء المناسب، في الوقت المناسب، في القدر المناسب، للشخص المناسب على الشكل المناسب، فالله سبحانه صمد، هو حكيم...

وقال: الصَّمَد؛ «هو السيِّد الذي عظم سؤدُده»، أي: مجدُه.

وقيل: الصَّمَد... «هو الخالق للأشياء، فإنَّ كونه سيِّداً يقتضي ذلك».

فعندما يقرأ الإنسان في صلاته: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الصَّمد:١-٤].

هذه المعاني كلُّها ينبغي أن ترد على ذهنه وقلبه. فالإنسان يتدبَّر في كلام الله عز وجل، ويتأمل في المعاني التي يقرؤها فيخشع قلبه، ويرقى إلى الله عز وجل بهذه المعاني.

قيل: الصَّمَد؛ «هو المقصود إليه في الرغائب، المُستغاث به عند المصائب». وقيل: الصَّمَد؛ «الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد».

الإنسان يشاء ولا يفعل، لأنه لا يستطيع، الله عز وجل وصف ذاته بقوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾ [البروج:١٦]، لكن قد يريد الإنسان تحقيق قضية ولا يستطيعها، قال أبو الطيب المتنبي:

ما كلُّ ما يتمنى المرءُ يدركه ... تجري الرياح بما لا تشتهي السفنُ

أما الله عز وجل فهو: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾ [البروج:١٦].

فقد تجد إنساناً يحبُّك ولك عنده مكانة كبيرة، وتلجأُ إليه فيقول لك: والله لا أستطيع، كان بإمكاني قبل هذا الوقت، كان هناك شاغر وظيفيّ وقد سُدّ هذا الشاغر،

كان هناك شخص أعرفه وقد نُقِل من منصبه، على أنك أثيرٌ عنده لكنَّه يعجز عن مساعدتك.

الدين أساساً صلة بالله. التجاء إلى الله. وغير المؤمن يلتجئ إلى إنسان، يعني إمَّا أن تكون عبداً لله، وإما أن تكون عبداً لعبد الله. فالله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وما دام يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ولا معقِّب لحكمه ولا رادَّ لقضائه إذاً؛ هو المقصود، هو القوي، هو الغني، هو القهار.

وقال بعض العلماء: «الصَّمَد هو الماجد الذي لا يتمُّ أمرٌ إلا به»، وقيل: الصَّمَد... «الكبير، الذي ليس فوقه أحد».

ففي ذات مرَّة سُئل أحدهم فقالوا له: هل هناك من هو أكبر منك؟ فقال: نعم، والأكبر هناك من هو أكبر منه؟ وأكبر وأكبر وهكذا... والله هو أكبر من الجميع. وأنا مع الله. فالأكبر؛ هناك من هو أكبر منه. فإن كنت عالماً؛ فهناك أعلم منك، وإن كنت قوياً، فهناك أقوى. وإن كنت غنياً، فهناك أغنى. أما الكبير الذي ليس فوقه أحد، فهو الله؛ بالقدرة والعلم والغنى، فإذا كنت مع الله، فأنت أقوى الناس، وأنت أغنى الناس، وأنت أعلم الناس.

وقيل: الصَّمَد... «الكامل في كلِّ الصفات، فيدخل فيه الكمال في العلم والقدرة والحكمة والغنى».

وقيل الصَّمَد... «الذي يحتاج إليه كلّ أحد، وهو مستغنٍ عن كلِّ أحد».

الإنسان الغني يحتاج إليه الناس، وهو محتاج إلى الناس من أجل أن يأكل، ومن أجل أن ينام، مهما كنت غنياً فأنت بحاجة إلى كلِّ الناس، بحاجة إلى من يقدِّم لك رغيف الخبز، بحاجة إلى من يمسح لك سيارتك، بحاجة إلى من يمدِّد لك الكهرباء في البيت، فالغنيُّ يحتاج إليه الناس، ولكنه في المقابل يحتاج إلى الناس. أما الصَّمَد فهو الذي يحتاج إليه كلُّ مخلوق؛ وهو مستغنٍ عن كلِّ أحد، يحتاج إليه كلُّ أحد، وهو مستغنٍ عن كلِّ أحد.

وقيل: الصَّمَد... «هو الذي تقدَّست ذاته عن إدراك الأبصار والعِيان... وتنزَّه جلاله عن أن يدخل تحت الشرح والبيان»، فالأبصار والحواس لا تستطيع أن تُدركه، هذا الصَّمَد والشرح مهما كان لا يوفي جلاله، وقيل: -كما قلت قبل قليل- الباقي بعد خلقه لا يموت، ولا يورث، هو الذي يرث الأرض ومن عليها، الأبدي، الذات الكاملة.

وقيل: الصَّمَد... «الذي لا ينام، ولا يسهو، ولا يغفو».

أحياناً تجد شاحنة (برّاداً) -ثمنه عشرون أو ثلاثون مليوناً- وتجده منقلباً على قارعة الطريق، وسبب ذلك أن السائق قد نام وهو يقود السيّارة، والنوم سلطان قهره، ولكنَّ الله تعالى قال يصف نفسه: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وقيل: «إنَّ الصَّمَد هو الذي يصمد إليه في الحوائج، ويقصد إليه في الرغائب»، وقال بعضهم: «الصَّمَد هو الذي لا يزول أبداً».

هذه المعاني كلُّها مما وردت في أثناء الكتب التي تحدَّثت عن أسماء الله الحسنى، أو فسَّرت كلامه جلَّ جلاله، كلُّ هذه المعاني تشير إلى اسم الصَّمَد.

الله عز وجل وصف نفسه بهذا الاسم ليكون مقصد عباده. أحياناً يسأل الإنسان قوياً، لكنَّ القويَّ لا يرغب في أن يلبي الحاجة، فقد يحرج لكي يُلبّي لك حاجتك، لكن الله عز وجل عندما قال لعباده: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ أي اقصدوني، إذاً هناك فرقٌ بين الله جلَّ جلاله، وبين العبد فالله يغضب عليك إن لم تسأله:

لا تسألنَّ بُنَيَّ آدم حاجةً   وسل الذي أبوابه لا تحجبُ

فالله يغضب إن تركت سؤاله   وبُنَيُّ آدم حين يُسأل يغضب

الله قال لك: أنا صمد، أي: اسألني، وهذا معنى قول النبي الكريم ﷺ في الحديث الصحيح:

عَنِ الأَغَرّ قَالَ: أَشْهَدُ عَلَى أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ أَنَّهُمَا شَهِدَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُمْهِلُ حَتَّى يَذْهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ، ثُمَّ يَنْزِلُ فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ

سَائِلٍ؟ هَلْ مِنْ تائِبٍ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ؟ هَلْ مِنْ مُذْنِبٍ؟ قالَ: فَقَالَ: لَهُ رَجُلٌ حَتَّى يَطْلُعَ الفَجْرُ؟ قالَ: نَعَمْ» [مسند الإمام أحمد].

وهنا يقول بعض العلماء: الله جلَّ جلاله اختار هذا الاسم لذاته، ليقصده عباده في المهمات في دنياهم وفي دينهم.

يقولون لك: دنيا... نعم ولكن هناك دنيا ضرورية للآخرة؛ ففي الدعاء الصحيح: «اللهم اصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، واصلح لي آخرتي التي فيها معادي» [رواه مسلم، عن أبي هريرة].

نعم، أصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا: إذا كانت صحة الإنسان طيِّبة، و كان ذا مال يكفي حاجاته، وله أهل محصَّن بهم، وله أولاد، فهذه دنيا لكن صالحة، لذلك ما ورد في الدعاء اشتمل على صلاح الدنيا والآخرة: اصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها مردُّنا.

قال بعض العلماء: «إنَّ من أراد ان يتحلّى بكمالات الصَّمَد، فليقلل من الأكل والشرب، وليترك فضول الكلام، ويداوم على ذكر الصَّمَد».

ألم نقل قبل قليل: الصَّمَد هو الذي يحتاج إليه كلُّ شيء، وهو مستغنٍ عن كلِّ شيء. فكلَّما كان الإنسان شرهاً يريد أن يأكل، وأن يلبس، وأن يسكن، وأن يتزوَّج، وشرهاً للشهوات ابتعد عن التخلُّق بأخلاق الصَّمَد، لكن يقول أحد الأدباء في تصوير بعض العقلاء:

لي صديق كان من أعظم الناس في عيني، وكان رأس ما عظَّمه في عيني، صغر الدنيا في عينيه. أي أن تتأدَّب بهذا الأدب؛ تصغر الدنيا في عينيك، فكان خارجاً عن سلطان بطنه... كيف؟ قال: لا يشتهي ما لا يجد، ولا يُكثر إذا وجد... كلام فيه معيار دقيق... كان لا يشتهي ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد، تجد المؤمن مؤونته خفيفة، ظله خفيف، وحاجاته خفيفة. بل إن النبي ﷺ وصف الزوجة الصالحة بأنها قليلة المؤونة؛ أي طلباتها قليلة تقنع بالقليل. ففي الحديث:

عَنْ عائِشَةَ عَنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «أعْظَمُ النِّساءِ بَرَكَةً أيْسَرُهُنَّ مؤنَةً» [مسند الإمام أحمد].

والله أعرف رجالاً كثيرين جداً دمَّرتهم زوجاتهم. زوجاتهم حملنهم على أكل المال الحرام، وكُشِفوا وسُرِّحوا وعوقبوا وسجنوا؛ هذا معنى قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ [التغابن: ١٤].

تحمله على كسب المال الحرام. أمَّا عادة النساء في السلف فكانت تقف إحداهنّ كلَّ يوم مودِّعةً زوجها قبل ذهابه إلى عمله وتقول له: يا فلان، اتَّقِ الله بنا فنحن بك، نصبر على الجوع، ولا نصبر على الحرام.

نصيب المؤمن من اسم الله الصمد

من أراد أن يتحلَّى بكمالات الصَّمَد فليقلل من الأكل والشرب وليترك فضول الكلام، أي: الهذر... فمن كثر كلامه كثر خطؤه... فكان صاحب هذا الأديب خارجاً عن سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يُكثر إذا وجد، وكان خارجاً عن سلطان الجهالة، فلا يتكلَّم بما لا يعلم، ولا يماري فيما علم، وكان لا يُدلي بحجةٍ إلا إذا رأى قاضياً فهماً، وشهوداً عدولاً، وكان يُرى ضعيفاً مستضعفاً، فإذا جدَّ الجد فهو الليثُ عادياً.

فالتخلُّق بكالات الصَّمَد... أن تُقلل تعلُّقك بالدنيا، أن تُقلل تعلُّقك بمغرياتها، قالوا: دخلت امرأة على سوق من أرقى الأسواق في بعض المدن، فالأصناف التي فيها لا تُعدُّ ولا تُحصى، قالت هذه المرأة: يا إلهي كم هي الحاجات التي لا يحتاج إليها الإنسان!!

يقولون لك: فلان فقير، الفقير له بيت وفيه حاجاته الأساسية، ولكنَّ مقياس الفقر والغنى عند الناس الكماليات؛ الأشياء الثانوية، فعندما يقنع الإنسان بالقليل يكون غنيّاً.

وكثيراً ما قلت: هناك فقر القدر، وهناك فقر الكسل... فقر الكسل مذموم، لكنَّ فقر القدر معذور. وهناك غنى البطر وهناك غنى الكفاية، اسعَ لغنى الكفاية لا لغنى البطر. واقبل فقر القدر، وارفض فقر الكسل... الفقر الذي أسبابه الكسل يجب أن ترفضه؛ لأنَّ علوَّ الهمَّة من الإيمان. أما الفقر الذي أسبابه القدر فيجب أن ترضى به؛

لأنَّ هذه مشيئة الله. إن سعيت إلى المال فلا تسعَ إلى غنى الترف والبطر، بل اسعَ إلى غنى الكفاية: «طوبى لمن هدي للإسلام وكان عيشه كفافاً» [الترمذي، عن فضالة بن عبيد] «قد أفلح من أسلم ورزقَ كفافاً وقنَّعه الله بما آتاه» [مسلم، عن عبدالله بن عمرو].

ومَنْ تخلَّق بكمالات الصَّمَد؛ عليه أن يُكثر من ذكر الصَّمَد. مِن أحبِّ السور إلى النبي ﷺ سورة الإخلاص... وقد ورد في بعض الأحاديث أنها تعدِل ثلث القرآن [البخاري عن أبي سعيد الخدري]، فنلاحظ في شهر رمضان أن الإنسان لتركه الطعام والشراب تصفو نفسه، ألم يقولوا: البطنة تذهب الفطنة؟

ومما نستفيد من اسم الصَّمَد؛ أنَّ المؤمن يعرف جيداً أنَّ الله هو الذي يُطعِمُ ولا يُطعَم... فإذا كان الله وحده هو الذي يُطعم؛ توجَّه إليه وتوكَّل عليه، وارغب فيما عنده وايْئِسْ مما في أيدي الناس.

من عرف أنَّ الله دائمٌ لا يزول، زهد في حطام الدنيا. كلنا نرى رأي العين أن الإنسان عندما يغتني، فكلُّ هذا المال يخلفه وراء ظهره لا يستطيع أن يأخذ منه شيئاً إلى القبر... فإذا توقَّف القلب قال الطبيب لأهله: لقد انتهى ومات، وعظَّم الله أجركم، فكتبوا النعوات وقاموا بتشييعه إلى مثواه الأخير، تخلّت عنه الدنيا فتخلى عنها حتى أخص الأشياء التي كانت له امتنعت عنه كغرفته وأثاثه ومقتنياته الشخصية، فإذا علم الإنسان أن الله حيٌّ لا يموت، وأنَّ الله لا يزول، وأنَّ الله باقٍ على الدوام، وأنه الباقي بعد فناء خلقه، تعلق به وحده لأنه الباقي وغيره فان.

هذا إذاً موضوع الحوائج... فلا تتعلّق بالفاني، ولكن تعلَّق بالباقي. فهناك بيوت جميلة جداً وهناك أذواق رفيعة، الإنسان يشتهي أن يسكنها ولكنها هل تدوم؟! فلا بد من أن يخرج منها أُفقيّاً... مرةً واحدة ولا يعود أبداً. والمشكلة أن توازن بين البيت والقبر فهناك تجد بوناً شاسعاً. وهذا هو مصير كلِّ حيٍّ، فإذا عرف الإنسان أنَّ اللهَ صمدٌ، بمعنى أنه المقصود، يقصده. وإذا أيقن أنَّ الله هو الصَّمَد بمعنى الباقي، لا يتعلقُ بالفاني، وطبعاً هذه الأشياء مهمةٌ جداً في فهم البحث وفي سلامة التوجّه والسلوك.

وبعد فالتطبيق العملي نتيجة هذه التعريفات... فعندك ما هو باقٍ وعندك ما هو فانٍ، فمن تعلَّق بما سوى الله، فالمآل مؤلمٌ جداً؛ وهو أنه يفارقه مهما عاش، وتاركه قهراً. «عش ما شئت فإنك ميِّت... وأحبب من شئت فإنَّك مفارقه» [الطبراني في الأوسط، عن سهل ابن سعد]، إن أحببت هذه الزوجة، لا بد من وقتٍ تفارقها، أو تفارقك. إذاً كما قال ﷺ: «لو كنت متَّخذاً من العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام أفضل» [الطبراني في الأوسط، عن عائشة].

أما الأدب الثالث... من أدب المؤمن مع هذا الاسم ألا يقصد بحوائجه غير الله، وألا يُعوِّل إلا على الله. ألا يقصد إلا الله، وألا يضع الآمال إلا بالله؛ وهذا معنى قول علي رضي الله عنه: «لا يخافنَّ العبدُ إلا ذنبه، ولا يرجونَّ إلا ربّه».

الاستدلال الرابع: أن يتخلَّق الإنسان بهذا الاسم، فيجعل نفسه مقصوداً من قبل الناس للخير، معيناً لهم على حوائجهم، أي إنّ الإنسان إذا فتح بابه واستقبل أصدقاءه وإخوانه وأحبابه وأقرباءه وجيرانه، وقام بحلِّ مشكلاتهم، وأعانهم على حياتهم، ووفّق بينهم، وزوَّج عزبهم، وأصلح فيما بينهم، فإذا كان مقصوداً في حوائج الناس يلبّي حاجاتهم ويقوم بإسدائها لهم، فقد تخلَّق بهذا الاسم. ويقول ﷺ: «أحبُّ الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً، ولأن أمشيَ مع أخ في حاجة أحبُّ إليّ من أن أعتكف في هذا المسجد، (يعني مسجد المدينة) شهراً، ومن كفّ غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه أمناً يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى أثبتها له أثبت الله قدمه يوم تَزِلُّ الأقدام» [الطبراني، عن ابن عمر]، وقال: «إن سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل» [الطبراني عن ابن عباس].

إن الإنسان إذا تفكَّر في خلق السموات والأرض، يرى جانباً من عظمة الله عز جل، وقد يرى أسماءه الحسنى وصفاتِه الفُضلى، ظاهرةً في الكون، ظهوراً بيِّناً واضحاً، فالله سبحانه وتعالى يحتاج إليه كلُّ مخلوق، يحتاج إليه كل شيء في كلِّ شيء، إذاً هو

المقصود، وهو باقٍ على الدوام. إذاً تعلَّق بالباقي لا بالفاني. وكلما خففت من شهواتك ومتطلباتك ورغباتك، اقتربت من خالقك. وكلما فتحت بابك للناس لتقضي حوائجهم، تخلَّقت بهذا الاسم... أربعة تطبيقات عملية لهذا الاسم الصَّمَد عرفناها: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

ونرجو الله أن يوفقنا لنعيشها عملاً وواقعاً.

الأسماء الثابتة في السّنة النبويّة

الوتر

ورد اسم الله تعالى الوِتر في أحاديث صحيحة منها قوله ﷺ: «لله تِسعَةٌ وَتِسْعُونَ اسْما، مِائة إلا واحِداً، لا يَحفَظُهَا أحَدٌ إلا دَخَلَ الجَنَّة، وهو وِتْرٌ، يُحِبُّ الوِتْرَ» [أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة].

حفظ الاسم يعني أن تتعرف عليه، وتتخلَّق بخُلُقٍ مستَمدٍّ منه، وتجعل من هذا الخُلق وسيلة إلى الله تعالى، فالله عز وجل رحيم، ويمكن أن تتقرَّب إليه بأن ترحم عباده، وهو محسِن، ويمكن أن تتقرَّب إليه إن كنت محسِناً، والله عز وجل كريمٌ، ويمكن أن تتقرَّب إليه إن كنت كريماً.

وفي صحيح مسلم، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «وَإِنَّ الله وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ» [مسلم عن أبي هريرة].

بمعنى أن الله سبحانه وتعالى واحدٌ لا شريك له، وأحدٌ لا ندَّ له.

وعند الترمذي من حديث عَلِيٍّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ الله وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ، فَأَوْتِرُوا يَا أَهْلَ القُرْآنِ».

من معاني اسم الله الوتر

الوِتر هو الفرد، أو ما لم يتشفَّع من العدد، فالسبعة عدد وتر، والتّواتر هو التّتابُع، قال تعالى: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾﴾ [الفجر:٣].

الله هو الوِتر لأنَّه واحد لا شريك له، وأحدٌ لا مثيل له. والشَّفع هم جميع الخلق، فالإله واحد والخلق كثيرون.

البشر خُلقوا أزواجاً، خُلقوا شفعاً، فالرجل في أصل تركيبه مفتقِر إلى الزوجة، والمرأة في أصل تركيبها مفتقِرة إلى الزوج.

إذاً: شأن العباد أن يكونوا شفعاً، وشأن الله أن يكون وتراً، فالله واحد، والخلق كثُر.

قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم:٢١].

لماذا يسكن الزوجة لزوجته؟ ولماذا تسكن الزوجة لزوجها؟ أي تميل إليه، ويميل إليها، ومن أنجح أنواع الزواج ما كان كلُّ طرف فيه قرّةَ عينٍ للطرف الآخر، يسكن إليها، لأنّه يكمِّل بها نقصه، وتسكن إليه لأنها تكمِّل به نقصَها، هي تكمِّل به نقصها القيادي، وهو يكمِّل بها نقصه العاطفي.

لذلك فإنَّ أيَّ مجتمع يسعى لتزويج الشَّباب بالشابات، فهو مجتمع متكامل صحيٌّ، أما حينما تُهاجَم الأسرة، وتُقوَّض أركانها، وحينما يُدعَى إلى التفلت، وإلى قضاء هذه الشهوة عبر الحرام، وعبر القنوات الأخرى فإنَّ مجتمعاً بأكمله ينهار، فتشريعات السماء تدعم الأسرة، وتشريعات الأرض تدعو إلى التَّفلُّت.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات:١٣].

الإنسان شأنه الشَّفع، شأنه أن يكون مع آخر، الإنسان لا يستقرُّ إلا إذا تزوَّج، هذا شأن الخلق، لكن شأن الحقِّ أنَّه واحد أحد فرد صمد.

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ [الإخلاص:٣].

﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾ [الجن:٣].

الله عز وجل مكَّنك من اختصاص، من حرفة، من قدرة، من مهارة، وأحاجك إلى آلاف الحاجات، أنت بحاجة إلى طبيب يداويك، بحاجة إلى معلِّم يعلِّم أولادك، بحاجة إلى خيَّاط يخيط لك ثيابك، بحاجة إلى خبَّاز يخبز لك الخبز، بحاجة إلى فلّاح يفلح لك الأرض، بحاجة إلى من يصنِّع لك الأدوات، أنت بحاجة إلى من يصنِّع لك الأثاث، تتقن حاجة، وتحتاج إلى ألف حاجة.

إذاً: قهرك أن تكون مع أخيك الإنسان، أنت مفتقر إلى زوجة، وفضلاً عن ذلك مفتقِر أن تعيش في مجتمع، أنت مدرِّس، طبيب، مهندس، لكنّك بحاجة إلى خيَّاط، بحاجة إلى سبّاك، بحاجة إلى بلّاط لبيتك، بحاجة إلى نجّار، بحاجة إلى حدّاد، حاجات الإنسان لا تعدُّ ولا تُحصى، وكلُّ حاجة هي خبرات متراكمة، وتطوّرات، وصناعات.

إذاً: الله عز وجل جعلك مفتقراً إلى المجتمع، تشترى خبزاً، وهناك مَن فلح الأرض، ومَن زرع القمح، ومَن اعتنى بالقمح، ومَن سمَّد القمح، ومَن سقى القمح لأشهر عديدة، هناك مَن حصد القمح، هناك مَن درس القمح، هناك مَن طحن القمح، هناك مَن خبز العجين، هناك مَن قدَّم لك الخبز، أنت مدرِّسٌ مثلاً، أمَّا هذا الرغيف فقد اشتغل به آلاف الأشخاص حتى وصل إليك.

إذاً: شأن الخلق أنهم مفتقرون إلى بعضهم، لكن الله شأنه أنه واحد أحد، فرد صمد.

يقول تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥].

لا يمكن أن يلتقي فرد من بني البشر مع فرد آخر إلا بإذن الله، لا يسمح الله لدواء أن يؤثِّر في الإنسان إلا بإذن الله، لا يسمح لهذا العقرب أن يلدغ إنسانًا إلا بإذن الله.

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ» [أخرجه الإمام أحمد].

ويقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:٢٠].

أنت بحاجة إلى طعام، وعلامة بشريَّتك أنك مفتقر إليه، الأنبياء مفتقرون في وجودهم إلى الطعام، بل مفتقرون إلى ثمن الطعام، لذلك يمشون في الأسواق. يقول الله عز وجل: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات:٤٩].

هذه آية مطلَقة، والمطلق على إطلاقه، حتى الذرَّة، هناك كهارب مشحونة سلبياً، ونواة مشحونة إيجابياً.

لو أنَّنا أبعدنا إنساناً عن أخيه الإنسان، وقطعنا عنه الأخبار، وقطعنا عنه الليل والنهار، فإنَّه يختلُّ توازنه خلال عشرين يوماً.

الأصل في الإنسان أنَّه اجتماعيٌّ، من شأنه الاجتماع والافتقار إلى أخيه الإنسان، وربنا جل جلاله واحد أحد، فرد صمد.

المسلمون اليوم بحاجة ماسَّة إلى قيم حضاريّة هي في أصل ديننا، لكنّنا غفلنا عنها، من هذه القيم: الانتماء للمجموع، وأخطر مرض يصيب المجتمع الانتماء الفرديّ.

إنسان مضطجع تحت شجرة تفّاح، قد قُطفت ثمارها كلُّها، لكن بقيت تفاحة واحدة لم ينتبه إليها من قطف الفواكه، ومعه منشار شجر، فنشر هذه الشجرة، فوقعت على الأرض ليأكل هذه التفاحة، هذا هو الانتماء الفردي.

من أجل مصلحته المحدودة يقضي على مصالح المجتمع، من أجل شهواته المنحطَّة يدمِّر أمَّة، أخطر شيء في المجتمع الانتماء الفردي، وأعظم شيء الانتماء الجماعي، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة:٢].

فالتعاون أصل في ديننا، وهو خصيصة ثابتة عند أعدائنا، وهذه الخصيصة أحد أسباب قوّتهم.هم يتعاونون، وبينهم خمسة بالمئة من القواسم المشتركة، ويبحثون كلَّ يوم عن وسيلة لتقارب مجتمعاتهم، ونحن نتقاتل، وبيننا خمسة وتسعون بالمئة من القواسم المشتركة، وهذه وصمة عار بحق الأمة.

ومن معاني الوِتر أنّه جلَّ جلاله واحد في كماله. فالشَّفع مخلوقاته، وصفاتهم متنوعة، بل متناقضة، هناك بخيل، وكريم في بني البشر، مستقيم ومنحرف، صادق وكاذب، أمين وخائن، لكنَّ الله سبحانه وتعالى أسماؤه كلُّها حسنى، وصفاته فضلى، متوحِّد بكماله، بينما خَلقه متنوعون بصفاتهم.

نصيب المؤمن من اسم الله الوتر

الله يحبُّ الوتر، فيحب أن تكون متفوِّقاً، والنَّبي ﷺ طلب النُّخبة، طلب التّفوُّق، فعَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «اللهمَّ أَعِزَّ الإِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ، بِأَبِي جَهْلٍ، أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، قَالَ: وَكَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَيْهِ عُمَرُ» [الترمذي].

ولما أسلم حمزة توقَّف إيذاء قريش لرسول الله وأصحابه، ولما أسلم عمر صلَّى المسلمون في بيت الله الحرام.

إذاً: المطلوب أن تكون متفوِّقاً، لا أن تكون رقماً سهلاً، وهناك ملايين أتوا إلى الدنيا، تزوّجوا، وأنجبوا أولاداً، وماتوا، ولم يعلم بهم أحد، لكنَّ القلَّة القليلة في العالم تفوَّقوا، وتركوا أثراً كبيراً في مجتمعاتهم.

سيِّدنا محمد ﷺ واحد، جاء إلى هذه الدنيا، وغادرها بعد ثلاثة وستين عاماً، وعمَّ الهدى الأرض، ألم تسأل نفسك مرة: ماذا فعلت؟ ما الأثر الذي تركته في الدنيا؟ هل كنت في قلوب الناس.

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل:١٢٠].

فالله عز وجل ينتظرك أن تكون متفوقاً، أن تكون رقماً صعباً.

لا تكن إنساناً عاديّا من الملايين، لا تكن إنساناً من الهمج الرعاع، سيدنا علي رضي الله عنه يقول: يا بنيّ، النَّاس ثلاثة: عالم ربانيٌّ، ومستمِع على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كلِّ ناعق، لم يستضيؤوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق، فاحذر أن تكون منهم.

لا تكن مع هذه الملايين التي شردت عن الله، لا تكن مع الملايين التي عبدت شهوتها من دون الله، لا تكن مع الملايين التي عاشت لتأكل، لا تكن مع الملايين التي جعلت شهوتها إلهها.

عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالقَطِيفَةِ وَالخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ» [البخاري].

لا تكن مع الملايين التي غفلت عن الله، لا تكن مع الملايين التي عاشت لحظتها، ولم تذكر ماذا بعد الموت، لا تكن مع الملايين التي عبدت المال من دون الله.

أيعقل أن يقسم الله عز وجل بعمر النبي؟! قال تعالى: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) ﴾ [الحجر:٧٢].

كم من شابٍ في الأرض في القارات الخمس، لو كان بخلوة مع امرأة بارعة الجمال، ودَعته إلى نفسها، بل أجبرته، كم من شاب يأبى ذلك؟

سيدنا يوسف قال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ [يوسف:٢٣].

إذاً: سيدنا يوسف تفوّق، والأكثرية يرونها مغنماً كبيراً، بينما المؤمن يراها بُعداً عن الله عز وجل.

كأنما النبي ﷺ حينما يقول: «وَإِنَّ الله وِترٌ يُحِبُّ الوِتْرَ».

فإنَّه يعني كن مع القلَّة المتفوِّقة، كن مع القلَّة التي عرفت ربها، كن مع القلَّة التي أعطت ربها كلَّ ما عندها، كن مع القلَّة التي تركت أثراً في الحياة.

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٦٢].

مرة سألت طلاباً: من يذكر لي اسم تاجرٍ عاش في دمشق عام ألف وثمانمئة وسبعة وستين، وله علامة تامة؟ لم يجب أحد، قلت لهم: وأنا أيضاً لا أعرف، لكن من منَّا لا يذكر سيدنا عمر؟ سيدنا خالداً؟ هؤلاء العظام تركوا بصماتٍ واضحةً في الأرض.

كن مع القلَّة المتفوِّقة، كن مع الذين أحدثوا في الحياة أثراً كبيراً، كن مع الذين عاشوا في قلوب الملايين، كن أمّة كما كان سيدنا إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾.

لا تكن رقماً سهلاً، أيّ إنسان إذا بدل قناعاته برقم من المال فقد انتهى، أما المؤمن فرقم صعب، لا يساوم، ولا يبيع مبادئه.

أودع الله في الإنسان حاجة إلى الطَّعام والشَّراب حفاظاً على جسمه، أو على شخصه، أو على فرديته، وأودع فيه حاجة إلى المرأة، وأودع في المرأة حاجة إلى الرجل، حفاظاً على النوع، ولولا هذه الشهوة التي أودعها الله فينا لما كان هناك حياة، فتجد الإنسان يسعى جاهداً، يعمل ليلاً ونهاراً ليجمع مبلغا يتزوّج به امرأة، يشتري بيتاً، يستأجر بيتاً، يجهد جهداً كبيراً، وهذه حاجة أساسية، والفتاة ومعها كلُّ الحقِّ تنتظر خاطبًا، يرعاها، يحفظها، يدافع عنها، يكون ملءَ سمعها وبصرها، هي تنتظر، وهو يبحث، لأنَّ الله أودع فينا دافعاً إلى الجنس، وهذا الدافع إلى الجنس قوي جداً، فإن لم يتحرَّك في القنوات الشرعية تحرَّك في القنوات غير الشرعية، إن وُضعت العراقيل أمام الشباب في زواجهم فإياك أن تظن أنك توقف هذه الحاجة، بل تستمر، ولكن في الحرام، يقول صلى الله عليه وسلم:

«إذا جاءكم مَن تَرضَون دينه وخُلُقَه فأنكحوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير» [أخرجه الترمذي عن أبي حاتم المزني].

أما الحاجة الثالثة، فهي تأكيد للذات، أن تكون متميزاً، أن تكون نجماً، أن تكون شيئاً مذكوراً، أن تكون مُهمًّا، أن يُشار إليك بالبنان، أن يتحدَّث النَّاس عنك، هذه الحاجة قد تُلبَّى في الحق، وقد تُلبَّى في الباطل.

قد يجمع الإنسان أموالاً طائلة، وينفقها على ملذاته، وشهواته، وبيته، ومركبته وحماقاته، وأسفاره، فيصبح حديث الناس، وإنسان آخر: ﴿دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت:٣٣].

فإنَّه يصبح حديث الناس أيضاً، لكنَّ هناك فرقاً بينهما، هذه الحاجة الثالثة تأكيد الذات تدفعك أن تكون متفوِّقًا، لا أن تكون رقمًا بسيطًا، لا أن تكون مع دهماء الناس، لا أن تكون إنسانًا لا يأبه به أحد، همُّه بطنه، أو همُّه فرجه، أو همُّه ثوبه، أو همُّه مسكنه، أو همُّه شهواته.

لا تكن شخصًا عاديًا، لا أحد ينتبه إليك، اعمل عملاً، قدِّم خدمة لأمتك، حلَّ مشكلة من مشكلات أمَّتك، أتقن عملك، وقدِّم للناس بضاعة جيدة بسعر معتدل.

يحبُّك الله أن تكون شيئًا مذكورًا، أن تحقِّق إنجازًا للأمَّة، وكلُّنا يقول: رحم الله صلاح الدين الأيوبي، انتصر على جيوش جرَّارة، وفتح القدس، ورفع رأسنا عاليا، والعالم كلُّه يقول: رضي الله عن سيدنا خالد، الذي خاض مئة معركة، وما في جسمه موضع شبر إلا وفيه طعنة برمح، أو ضربة بسيف.

الجميل

ورد اسم الجميل في صحيح مسلم من حديث ابن مسعود ؓ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «لا يَدْخُل الجَنَّةَ مَنْ في قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، فقال رجلٌ: إن الرجلَ يُحبّ أن يكون ثوبُه حسناً ونعلُه حسنةً، قال ﷺ: إنَّ الله جَمِيلٌ يُحِبُّ الجمالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ».

وفي مسند الإمام أحمد عن عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ، وَلَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي لَيُعْجِبُنِي أَنْ يَكُونَ ثَوْبِي غَسِيلًا وَرَأْسِي دَهِينًا، وَشِرَاكُ نَعْلِي جَدِيدًا، وَذَكَرَ أَشْيَاءَ، حَتَّى ذَكَرَ عِلَاقَةَ سَوْطِهِ، أَفَمِنْ الكِبْرِ ذَاكَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: لَا، ذَاكَ الجَمَالُ، إِنَّ الله جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ، وَلَكِنَّ الكِبْرَ مَنْ سَفِهَ الحَقَّ، وَازْدَرَى النَّاسَ» .

لو أنَّ عندك كميَّة قليلة من اللبن، وجاءك ضيوف كُثر، فإنّه يمكنك أن تضيف لهذا اللبن خمسة أضعافه ماءً، ويكون شراباً سائغاً، لقد تحمَّل هذا اللبن خمسة أضعافه

ماء، لكنَّه لا يتحمّل قطرة بترول واحدة، فإن أُضيفت إليه قطرةٌ واحدةٌ من البترول فإنَّه يفسد، لأنَّ البترول يتناقض في طعمه مع اللبن، أمَّا الماء فلا يتناقض، كذلك الكِبر فإنَّه يتناقض مع العبودية لله تعالى.

والكبر؛ بطر الحقِّ أي ردّ الحق، وغمط الناس؛ أي أن تبخسهم مكانتهم، والكِبر معصية إبليس، قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة:٣٤].

فلمجرد أن يردَّ الإنسان الحق، وأن يرفضه، وأن يتعنت، وأن يركب رأسه، وأن تأخذه العزة بالإثم، فهذا هو الكبر، ولمجرد أن تحتقر الناس، وأن تستهين بهم، وأن ترى نفسك فوقهم، فهذا كِبْرٌ.

وفي الحديث: «بِحسْبِ المْرِء مِنَ الشرّ أنْ يَحْقِرَ أخاهُ المُسْلمَ» [رواه الترمذي، عن أبي هريرة].

أمّا التَّجمُّل المعتدل المباح فليس كبراً، فالله يحبُّك أن تكون أنيقاً، ذا ثياب نظيفة، متعطِّرا، شَعْرُكَ مرجَّل.

من معاني اسم الله الجميل

الجميل مأخوذ من الجمال، وهو الحُسن في الخَلْق والأخلاق.

إنَّ الإنتاج العقليَّ والشعوريَّ للبشرية لا يزيد على علمٍ وفلسفة وفن، فالعلم ما هو كائن، والفلسفة ما يجب أن يكون، والفنُّ ما هو ممتع، فمِن الفن ما هو مباح، كأن تكون أديباً، أو أن يكون الفعل جميلاً فهو الكمال.

الإنسان فُطر على حبِّ الكمال، وحبِّ الجمال، وحب النَّوال، فالإنسان يحبُّ الجميل، فقد يكون الطِّفل جميل الصورة، يدع في قلب أبيه تعلُّقاً شديدا، وأحياناً يكون العطاء خالصا كريماً، فالإنسان يحبُّ المحسِن.

فالكبر ردُّ الحق، وازدراء الناس، أمّا أن تكون أنيقا، أن يكون بيتك مرتَّباً، منظَّماً، فيه تناسب ألوان، أن تكون مركبتك نظيفةً، أن يكون ثوبك حسناً، أن يكون كلامك فصيحاً، أن تكون تصرفاتك رائعةً، فهذا هو الجمال.

كلّما ذكرنا الجمال ننطلق إلى تصوُّر جمال الشكل فحسب، لكن أحياناً هناك أعمال وتصرفات تستمع إليها فتبقى شهراً غارقاً في نشوتها، لأنّها جميلة.

هناك مواقف فيها وفاء، مواقف فيها رحمة، مواقف فيها إنصاف، مواقف فيها حبٌّ، هذه المواقف جميلة جداً، وقد يكون الذي يفعلها ليس جميلاً.

ورد في صفة الأحنف بن قيس، أنّه كان قصير القامة، أسمر اللون، غائر العينين، ناتئ الوجنتين، أحنف الرِّجل، ليس شيء من قبح المنظر إلا وهو آخذ منه بنصيب، وكان مع ذلك سيد قومه، إذا غضبَ غضب لغضبته مئة ألف سيف، لا يسألونه فيم غضب؟ وكان إذا علم أنَّ الماء يفسد مروءته ما شرب، هذا كمال رائع جداً مع دمامة لا توصف.

لذلك جمال الرجل، بفصاحته، جماله في أخلاقه، جماله في كرمه، جماله في تواضعه، جماله في رحمته، لعلَّ المرأة تتوهَّم أنَّ كلَّ قيمتها في جمالها الجسديِّ، وهذا خطأ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ» [متفق عليه].

يجب أن نحرِّر مفهوم الجمال مما تراكم في أذهان النَّاس أنَّه جمال الشكل فقط، هناك مواقف جميلة، أحيانا تعيش مع امرأة في أعلى درجة من الوفاء، والحب، والتفاني والخدمة، تسعد بها أيّما سعادة، وقد يعيش المرء مع امرأة بارعة الجمال يكرهها من أعماقِ أعماق قلبه، لأنَّ جمال الأفعال من أعلى مستويات الجمال.

وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم كَانَ يَقُولُ: «اللهمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي فَأَحْسِنْ خُلُقِي» [أحمد].

وقال بعض الشعراء:

جمال الجسم مع قبح النفوس ... كقنديل على قبر المجوس

إنسان جميل الصورة، أنيق الثياب جداً، تكلَّم كلاماً بذيئاً، فقال له أحدهم: إمَّا أن تتكلم وَفق ثيابك، أو البس وَفق كلامك، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ، وَلَا يَدْخُلُ رَجُلٌ الجَنَّةَ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ» [أحمد].

الإمام الغزالي عدّ من آفات اللسان أكثر من عشرين آفة، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: «كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ، وَنَحْنُ نَسِيرُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الجَنَّةَ، وَيُبَاعِدُنِي عَنْ النَّارِ، قَالَ: لَقَدْ سَأَلتَنِي عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللهَ وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ البَيْتَ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ المَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، قَالَ: ثُمَّ تَلَا: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿يَعْمَلُونَ﴾، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ كُلِّهِ، وَعَمُودِهِ، وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، قَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ» [أخرجه الترمذي].

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: «حَكَيْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ رَجُلًا فَقَالَ: مَا يَسُرُّنِي أَنِّي حَكَيْتُ رَجُلًا، وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ صَفِيَّةَ امْرَأَةٌ، وَقَالَتْ بِيَدِهَا هَكَذَا، كَأَنَّهَا تَعْنِي قَصِيرَةً، فَقَالَ: لَقَدْ مَزَجْتِ بِكَلِمَةٍ لَوْ مَزَجْتِ بِهَا مَاءَ البَحْرِ لَمُزِجَ» [رواه أبو داود والترمذي وأحمد].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ لَا يَرَى بِهَا بَأْسًا يَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا فِي النَّارِ» [الترمذي].

والكلمة الطيبة صدقة، وقد ترقى بكلمة رقيّاً لا يعلمه إلا الله، كلمة تواضع، كلمة مؤانسة، كلمة اعتراف بالحق، هذا كلُّه في ميزان حسنات الإنسان.

وهنالك صبر جميل، قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥﴾ [المعارج:٥].

هناك صبر مع الضيق، مع التوتر، كأن الإنسان مرجل يغلي، مع كلام قاسٍ، هذا ليس صبراً جميلاً، يجب أن تصبر صبراً جميلاً.

وهناك صفح جميل، قال تعالى: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ۝٨٥﴾ [الحجر:٨٥].

فإذا سامحت إنساناً فلا تذكرْه بخطئه.

أيُّها أخطر؛ أن يتآمر إنسان على إنسان فيضعه في السجن، أم يضعه في البئر؟ البئر فيها موت محقّق، وإخوة يوسف وضعوه في البئر، والموت محقق، أما امرأة العزيز فوضعته في السجن، ولما التقى يوسف بإخوته قال: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾ [يوسف:١٠٠].

المؤمن إذا فعل خيراً ينساه، وإذا فُعل معه خير لا ينساه حتى الموت.

وهناك هجر جميل، وقد سئل ابن تيمية رحمه الله عن الصبر الجميل، والصفح الجميل، والهجر الجميل، فقال: الهجر الجميل هجر بلا أذى، والصفح الجميل صفح بلا عتاب، والصبر الجميل صبر بلا شكوى.

الله عز وجل جميل وجماله على أربع مراتب، جمال الذات، وجمال الصفات، وجمال الأفعال، وجمال الأسماء، أسماؤه كلُّها حسنى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ [الأعراف:١٨٠].

وصفاته كلُّها صفات كمال، وأفعاله كلُّها حكمة.

قال ابن القيّم رحمه الله: (الشريعة عدل كلُّها، رحمة كلُّها، حكمة كلُّها، مصلحة كلُّها، وأية قضية خرجت من الحكمة إلى خلافها، ومن العدل إلى الجور، ومن المصلحة إلى المفسدة، فليست من الشريعة، ولو أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل).

حتى إن علماء العقيدة قالوا: (الحسن ما حسَّنه الشرع، والقبيح ما قبَّحه الشرع).

جمال ذاته جل جلاله لا يدركه أحدٌ في الكون، فلا يعرف الله إلا الله، لكنَّ جمال الصفات يدلُّ على جمال الذات، فأفعاله الجميلة تدلُّ على جمال صفاته، وجمال صفاته يدلُّ على جمال ذاته، وأنت ترى أفعاله، ترى الربيع، ترى العصفور، ترى الوردة، ترى الزهرة، ترى طفلاً جميل الصورة، هذه كلُّها أفعاله.

تأكل طعاماً طيِّباً، مَن أودع في الطعام هذا الطعم؟

يهبُّ نسيم عليل فتنتعش به، مَن ساق هذا النسيم؟

ترى مرجا أخضر، مَن أعطاه هذا اللون الجميل؟

ترى السماء زرقاء، البحر صافيا، الجبال خضراء، الأطفال الذين وهبهم الله مسحة جمال، وهناك إنسان قد يفتن بابنه من جماله، هذه كلُّها أفعاله، أفعاله تشير إلى صفاته، وصفاته تشير إلى ذاته.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:١٦٥].

عصى الله من أجل امرأة، فتنه جمالها، عصى الله من أجل المال، والمال جميل يعطيك بيتاً جميلاً واسعاً، له إطلالة، يعطيك مركبة فارهة، يدعك تختار أجمل زوجة، ثم اكتشف متأخراً أنَّ القوَّة قوّة الجمال والكمال والنوال جميعها لله تعالى.

هذا الإنسان حينما يجهل حقيقة الواحد الديان، يجهل أسماء الله الحسنى، وصفاته الفضلى، حينما يغويه جمال بعض المخلوقات، ويعصي الله من أجل جمال امرأة، أو جمال قصر، أو جمال مركبة، أو جمال موقع، فيظلم نفسه، ويستحق اللعنة، والبعد عن الله عز وجل، يُخاطب: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:١٦٥].

وكلمة القوة هنا واسعة جداً، هناك قوة الجمال، هناك قوة العلم، هناك قوة المال، صاحب المال قوي، وصاحب العلم قوي، والجميل قويٌّ يأخذ جماله الألباب، هؤلاء

الذين عصوا ربهم، وخسروا آخرتهم من أجل جمال مخلوق لو عرفوا أنَّ هذا الجمال مسحة من جمال الله عز وجل، ولو أنَّهم تعرفوا إلى الله لكانوا مع أصل الجمال.

الجميل يتجلَّى على بعض مخلوقاته، فإذا هو جمال أخّاذ، فالذي ينظر إلى الورود والرياحين والنباتات يأخذه العجب العجاب، إن الله سبحانه وتعالى يتجلَّى على هذه المخلوقات باسم الجميل.

الله عز وجل، هو أصل الجمال، فإذا منح الله العبد مسحةً من الجمال تعلَّق الخلقُ به، فكيف بأصل الجمال؟

في صحيح مسلم من حديث أَبِي مُوسَى قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ الله ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ: «إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ القِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ» [مسلم].

هناك من يتوهَّم أنَّ المؤمن فاتته مباهج الدنيا، وأنَّه باستقامته حرم نفسه أشياء كثيرة، لكنَّ العكس هو الصحيح، فإن الله يتجلَّى على قلب المؤمن تجلياً، سمّه إن شئت رحمة، وسمِّه إن شئت سكينة، هذا التجلِّي يُسعده ولو فقد كلَّ شيء، ويشقى بفقده ولو ملك كلَّ شيء.

أيُعقل أن يكون الذي في بطن الحوت نبيٌّ كريم، وهو يناجي ربَّه بقوله: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [الأنبياء:٨٧].

فيتجلَّى الله عليه وينقذه، وأنَّ النبي ﷺ كان في أسعد حالاته وهو في غار ثور، وأنَّ إبراهيم تجلَّى الله عليه وهو في النار، هذه السعادة التي تلقى في قلب المؤمن يشقى الإنسان بفقدها ولو ملك كلَّ شيء.

في نفس الإنسان فراغ لا يملؤه المال، ولا يملؤه جمال الأرض، الأقوياء والأغنياء يعيشون حياة ناعمة جداً، بيوتهم قطعة من الجمال، مركباتهم، مائدتهم، مَن

حولهم، ومع ذلك هم أشقى الخلق، لأنهم ابتعدوا عن الله عز وجل، وحينما تؤمن أنَّ كلَّ السعادة باتصالك بالله تسعد.

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد:٢٨].

سعادتك المطلقة باتصالك بالله، لأنه جميل، ولأن الجمال جزء أساسيٌّ في حياة الناس، والشقاء كلُّ الشقاء في البعد عن الله، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه:١٢٤].

قال بعض العلماء: ما بال الأقوياء والأغنياء أشقياء؟ فجاء الجواب: نعم، شقاؤهم ليس في نقص المال، ولكن في ضيق القلب.

يتجلَّى الله على قلب المؤمن باسم الجميل فإذا هو في جنَّة، يقول ابن تيمية رحمه الله: (في الدنيا جنَّةٌ من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة) ويقول مالك بن دينار: (مساكين أهل الدنيا، جاؤوا إلى الدنيا وغادروها، ولم يذوقوا أطيب ما فيها، قيل له وما أطيب ما فيها؟ قال: محبَّة الله عزّ وجلّ).

حينما ترى أناساً مجتمعين في ملهى فهم رأوا سعادتهم في هذا المكان، ولو كُشف لهم أنهم إذا أقبلوا على الله كانوا في نشوة ما بعدها نشوة، وفي سعادة ما بعدها سعادة، لسفهوا أعمالهم، ولاحتقروا ذواتهم.

أنت تتعامل مع الله، مع ذات كاملة، مع قويٍّ، مع جميل، مع غنيٍّ، مع قدير، مع رحيم، مع لطيف.

مستحيل وألف ألف الف مستحيل أن يكون هناك شقاء في الدنيا مع معرفة الله، إنَّهما لا يجتمعان أبداً، ولا أقول: إن المؤمن إذا كان مع الله كان في بحبوحة، قد يكون في يسر، وقد يكون في عسر، وقد يكون في فقر، وقد يكون في مرض، لكن لأنه مع الله فهو في سعادة لا تُوصف.

حينما يختار الإنسان هدفاً محدوداً، والإنسان في أصل خلقه لا نهائي، لا يملأ طموحه إلا الله، فإذا اختار هدفاً أرضياً؛ اختار المال، يسعى إليه جاهداً، فإذا حصَّله، وأحاط به يكتشف حقيقة مُرّة؛ أنه شيء، و ليس كلَّ شيء، فإذا اقترب من مغادرة الدنيا يراه لا شيء.

قد يُقبل الإنسان على المرأة في مقتبل حياته، إن كان شارداً عن الله يظنُّها كلَّ شيء، في منتصف حياته هي شيء، وليست كلَّ شيء، في وقت مغادرة الدنيا يراها ليست بشيء.

ما من شيء في الدنيا يمكن أن يمدَّ الإنسان بسعادة متنامية، ولا بسعادة مستمرة، بل بسعادة متناقصة، والدليل أنَّ الإنسان قد يشتري بيتاً يلفت النظر، بعد شهر أصبح كأيِّ بيت آخر، وقد يقتني مركبة من أعلى مستوى، بعد حين تصبح هذه المركبة شيئاً عادياً، كلُّ ما يحيط بالإنسان من مظاهر الجمال المادي يخبو بريقه بعد حين، وهذا الاهتمام يضعف، هذه الدهشة تقلّ إلا إذا أردت أن تعرف الله.

الأصل في الموضوع أنك تتمتع بنفس طموحة لا يملؤها إلا معرفة الله، أما إذا اخترت هدفاً أرضياً فهذا الهدف ما إن تصل إليه حتى يبدأ الملل والسأم، لذلك انظر إلى أهل الدنيا الناجحين في حياتهم، بعد أن ينجحوا تصير حياتهم مملَّة، لأنَّ النجاح أصبح مألوفاً، لكنهم إذا اختاروا الذات الكاملة، إنهم إن اختاروا الله عز وجل فهم في شباب دائم.

إن أردت أن تعرف الله فأنت في طريق السعادة، من هنا نؤمن أن المؤمن لا يشيخ أبداً، بل هو شاب دائماً.

الإسلام جميل، وربنا جميل، ويحبُّ الجمال، لكنَّ بعض المنحرفين يفهمون من هذا الموضوع شيئًا آخر ما أراده الله، يفهم أن يتعلق بالمرأة، يطلق بصره في الحرام، ويخالف الواحد الدّيّان ويقول: «إنَّ الله جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ».

الجمال له معانٍ لا تنتهي، له معانٍ حسية، وله معان أخلاقية، هناك فعل جميل، هناك إنسان قوي، ومتواضع، إنسان غني وسخي، إنسان متفوق في علمه، ومع ذلك يحبه مَن حوله، وهذا كلُّه من الجمال.

إن أقلّ الجمال الجمال الحسيُّ، لكنَّ اتساع المفهوم يشمل كلَّ شيء، فهناك كلمة جميلة، والأدب فن جميل.

مثلاً قال أحدهم: تكاثرت عليّ المصائب، هذا كلام عاديّ، لكنَّ المتنبي قال:

رمـــاني الـــدَّهر بـــالأرزاء حتـــى فـــؤادي في غشـــاء مـــن نبـــال
فصـــرت إذا أصـــابتني ســـهام تكسَّـــرت النِّصـــال عـــلى النِّصـــال

وهناك صوت جميل، ففي الحديث: «فَقُمْ مَعَ بِلَالٍ فَالقِ عَلَيْهِ مَا رَأَيْتَ فَلْيُؤَذِّنْ بِهِ، فَإِنَّهُ أَنْدَى صَوْتًا مِنْكَ» [الترمذي وأبو داود].

مرَّ سيدنا عمر رضي الله عنه على أناس يشعلون النار، فقال: السلام عليكم، يا أهل الضوء، ولم يقل: السلام عليكم يا أهل النار.

جاءت امرأة تشكو زوجها إلى سيدنا عمر، وقد أهملها إهمالاً كلياً، قالت: يا أمير المؤمنين، إن زوجي صوّام قوّام، انظر إلى الأدب، وهي تشكو زوجها.

نصيب المؤمن من اسم الله الجميل

من عرف الله الجميل كان جميلاً في حياته، جميلاً في ثيابه، في بيته، والجمال لا يعني الفخامة، ولا البذخ، ولا الترف ولا الإسراف.

قد يكون في البيت مسحة جمالية، بيت مريح، المكتب التجاري فيه مسحة جمالية، الدكان فيها مسحة جمالية، الثياب فيها ألوان متناسقة، لماذا ترى الجمال الصارخ في الطرف الآخر، وفي بلاد أخرى؟ وهم بعيدون عن الله بُعد الأرض عن السماء، لماذا هناك الجمال، وعندنا الإهمال؟ هذه مشكلة كبيرة، يجب على المؤمن أن يتجمَّل.

قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ لَنَا: «إِنَّكُمْ قَادِمُونَ عَلَى إِخْوَانِكُمْ فَأَصْلِحُوا رِحَالَكُمْ وَلِبَاسَكُمْ حَتَّى تَكُونُوا فِي النَّاسِ كَأَنَّكُمْ شَامَةٌ فَإِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لَا يُحِبُّ الفُحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ» [أخرجه أحمد].

المؤمن نظيف، وذو أذواق عالية في حياته، والأذواق العالية تجذب الناس إليه، أما إذا أهمل ثيابه، أهمل مركبته، أهمل بيته، أهمل دكانه فإنَّ النَّاس يفرُّون منه.

أحيانا تدخل إلى دكان صاحبها مؤمن، فترى النظافة، والترتيب، والنظام، فتؤخذ به، وأحيانا تجد إنساناً مقصِّراً، في دكانه فوضى، وغبار، وإهمال، هذا شيء منفِّر، وأهل الدنيا اكتشفوا هذه الحقيقية، فتأنَّقوا في حياتهم، وتأنَّقوا في نظام حياتهم، هذا التأنق وهذا الجمال في حياتهم يجذب الناس إليهم، تذهب إلى بلاد بعيدة فترى عناية بجمال البلاد منقطعة النظير.

الإنسان بحاجة ماسَّة إلى الجمال، وهذا مودع في أصل فطرة الإنسان، فإذا لبّى هذه الحاجة، وتخلَّق بكمالات الله سعد في دنياه.

«إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ» [رواه مسلم عن ابن مسعود].

تغدو حياتنا جميلة، تغدو حياتنا براقة، ما الذي يمنع أن نعتني بمساجدنا؟ بنظافة مساجدنا، بأناقة مساجدنا، ما الذي يمنع أن نعتني ببيوتنا؟

دخلت مرَّة إلى بيت متواضع بشكل لا يوصف، لكن لا تجد فيه خطأ جمالياً، لا شيء فيه يمكن أن تنتقده، مع أنه بيت متواضع جداً، أنا أرى أنك إذا اعتنيت بدنياك عناية تجذب الناس إليك فهذا جزء من الدين، النبي ﷺ كان نظيفا، كانت ثيابه حسنة، يتعطَّر دائماً.

وفي بعض أدعية النبي ﷺ: عن عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: صَلَّى بِنَا عَمَّارُ ابْنُ يَاسِرٍ صَلَاةً فَأَوْجَزَ فِيهَا، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ القَوْمِ: لَقَدْ خَفَّفْتَ، أَوْ أَوْجَزْتَ الصَّلَاةَ، فَقَالَ: أَمَّا عَلَى ذَلِكَ فَقَدْ دَعَوْتُ فِيهَا بِدَعَوَاتٍ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ، فَلَمَّا قَامَ

تَبِعَهُ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ، هُوَ أُبَيٌّ، غَيْرَ أَنَّهُ كَنَى عَنْ نَفْسِهِ، فَسَأَلَهُ عَنْ الدُّعَاءِ، ثُمَّ جَاءَ فَأَخْبَرَ بِهِ القَوْمَ:

«اللهمَّ بِعِلْمِكَ الغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الوَفَاةَ خَيْرًا لِي، اللهمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الحَقِّ فِي الرِّضَا وَالغَضَبِ، وَأَسْأَلُكَ القَصْدَ فِي الفَقْرِ وَالغِنَى، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَاءَ بَعْدَ القَضَاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ العَيْشِ بَعْدَ المَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللهمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ» [النسائي، أحمد].

الحييّ

ورد اسم الحييّ في السّنّة، في قوله ﷺ: «إن الله عز وجل حليم حييٌّ ستّير يحبُّ الحياء والستر فإذا اغتسل أحدكم فليستتر» [رواه أبو داود عن يعلى بن أمية].

وقد ورد هذا الاسم مطلقاً مراداً به العلميَّة دالاً على كمال الوصفيَّة، يقول ﷺ: «إنَّ ربَّكم تبارك وتعالى حييٌّ كريم يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردَّهما صفراً» [أخرجه أبو داود عن سلمان الفارسي].

أي إن الله تعالى يستحي من عبده إذا سأله ألا يجيبه، إذا دعاه ألا يلبيه، إذا استغفره ألا يغفر له، إذا تاب إليه ألا يتوب عليه، لذلك قالوا: ما أمرنا أن نتوب إليه إلا ليتوب علينا وما أمرنا أن نستغفره إلا ليغفر لنا وما أمرنا أن نسأله إلا ليعطينا.

اسأله ما يرضيه، اسأله ما يقربك إليه، اسأله خير الدنيا والآخرة، اسأله أن تعرفه، اسأله أن تستقيم على أمره، اسأله عملاً صالحاً تتقرَّب به إليه، اسأله العلم لأن كرامة العلم أعظم كرامة.

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء:١١٣].

البطولة أن تسأله بقدر كرمه، أن تسأله بقدر غناه، أن تسأله بقدر محبته لك، أن تسأله لأنَّه على كلِّ شيء قدير.

من معاني اسم الله الحيي

الحييُّ هو المتَّصف بالحياء، والحياء صفة خُلُقيَّة رقيقة لطيفة تمنع النفس أن تقترف شيئاً مناقضاً لما هو معروف عندها.

فقد سمَّى الله تعالى الأعمال الطيبة التي تنسجم مع الفطرة معروفاً، لأنَّ الفطر السليمة في أصل خلقها تعرفها، فالحياء أن تمتنع عن فعل شيء تعرفه فطرتك السليمة بداهة وابتداءً.

إذ ما أمرنا الله بشيء إلا وفطرتنا وجبلتنا ترتاح إليه، وما نهانا عن شيء إلا وفطرتنا وجبلَّتنا تنفر منه.

لذلك سُمِّيت الأعمال الطيبة معروفاً، وسمي الشيء الذي تأباه الفطر السليمة منكراً، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [الروم:٣٠].

أي: إنَّ إقامة وجهك للدين حنيفاً هي فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، وقال تعالى: ﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ ﴾ [الحجرات:٧].

الإنسان حينما يصطلح مع الله فإنَّه يصطلح مع فطرته، فيرتاح، وهذه الراحة لا تُوصف، بعد أن يتوب الإنسان كأنَّ جبالاً أُزيحت عن صدره، صار خفيفاً، انسجم مع فطرته، تماماً كمركبة من أرقى الأنواع سرت بها في طريق وعرةٍ، هذه المركبة مصنَّعة للطريق المعبَّدة، لذا فإنَّك لا تكتشف ميزاتها إلا في الطريق المعبّدة؛ سهولة في الحركة،

نعومة في الصوت، سرعة في المشي، أمَّا إذا سرت بها في طريق وعرة؛ كلُّها صخور وأكمات فإنَّها تتكسَّر.

الله عز وجل حييٌّ، وهذه صفة من صفات الله عز وجل، واسم من أسمائه، هو حييٌّ في ذاته وفي صفاته وقد فطرنا على الحياء فالإنسان إذا كان وقحاً يسقط من عين نفسه، ينهار داخلياً، بذيء اللسان، قاسي الكلمات.

يقول ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت» [أخرجه البخاري عن ابن مسعود].

الإيمان علامته الحياء، فالذي لا يستحي لا خير فيه ولا جدوى منه ولا أمل في صلاحه.

لكن لابد من التفريق بين الحياء وهو فضيلة والخجل وهو مرض نفسيٌّ، قد يخجل الإنسان من المطالبة بحقه، من النّطق بكلمة الحق، هذا مرض، والخجل يعدّ نقيصة في شخصية الإنسان، لكنَّ الحياء فضيلة، أنا أستحي ولكني أطالب بحقي بأدب، أنا أستحي ولكنني لا أستحي من الحق.

المؤمن يتعامل مع جهةٍ واحدة هي الله عز وجل، المؤمن يخاف الله وحده ولا يعبأ بكلام الناس، وإرضاء الناس غاية لا تدرك، ومن أرضى الناس جميعاً فهو منافق، الناس أحياناً يضحُّون بطاعتهم لربهم مراعاة لسمعتهم بين الناس وهذا خطأ كبير، فإذا لم تستح من الله وكان عملك صحيحاً وفق المنهج تبتغي به رضوان الله عز وجل، فاصنع ما تشاء، وهذا معنى ثان للحديث.

الحياء وصف لكمال الله عز وجل، فالله عز وجل ذات كاملة وحياؤه لا يتعارض مع حكمته، ولا يتعارض مع بيان الحق، ولا مع بيان الحجة، والمؤمن حيي يشتقُّ حياءه من كمال الله عز وجل، لكنَّ حياءه لا يمنعه أن يدلي بالحجة وأن يصدح بالحق وأن يقول الحق ولو كان مرّاً، فإذا منعه شيء ما أن ينطق بالحق أو أن يكون منصفاً فهو نقيصة في الإنسان يمكن أن تسمى الخجل.

وفي الحديث: «إن الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا اله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان» [أخرجه مسلم عن أبي هريرة].

التوحيد ألا ترى مع الله أحداً، أن ترى أن يد الله تعمل وحدها، التوحيد أن تؤمن بقوله تعالى: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الكهف:٢٦].

التوحيد أن تجعل علاقتك بالله وحده، أن تعمل لوجه واحد عندئذ يكفيك الهموم كلَّها، التوحيد ألا تدعو مع الله إلهاً آخر، قال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ [الشعراء:٢١٣].

التوحيد أن ترى أنَّ كلَّ الخلق لا شيء أمام إرادة الحق، كلما زاد التوحيد زاد الكمال، كلما زاد التوحيد زادت الخشية، كلما زاد التوحيد زادت الطاعة، كلما زاد التوحيد ازداد الأمن في قلب الإنسان، قال تعالى: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام:٨١-٨٢].

التوحيد هو الذي ينجِّي بل إن نهاية العلم التوحيد ونهاية العمل التقوى، فإذا وحدت واتقيت الله جمعت طرفي المجد، نهاية العلم أن توحده ونهاية العمل أن تتقيه، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥].

فالإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا اله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق.

حجر قد يسبب حادثاً مروِّعاً، تقف وتزيحه إلى جانب الطريق، هذا إيمان، حينما تعمل عملاً تبتغي به وجه الله فهذا تعبير عن إيمانك.

الإيمان حركة، لا يوجد إيمان سكوني، لا يوجد إنسان مؤمن معجب بالإسلام، الإعجاب السلبي ليس إيماناً، النمط الساكن غير الحركيّ ليس إيماناً، ما إن تستقرَّ حقيقة الإيمان في نفس المؤمن حتى تعبِّر عن ذاتها بحركة نحو الخلق، فالإيمان حركة، الإيمان عمل، الإيمان إيجابية، الإيمان عطاء، لذلك: وأدناها أن تميط الأذى عن الطريق، أن تعمل عملاً صالحاً، أن تطعم جائعاً، أن ترشد ضالاً، أن تنصح، أن تنطق بالحق، والحياء شعبة من الإيمان، فمن لا حياء له لا إيمان له، ومن لا إيمان له لا حياء له، والعلاقة ترابطية بين الحياء و الإيمان.

نصيب المؤمن من اسم الله الحيي

يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ [الأحزاب:٥٣].

يجب أيها المؤمن إن أردت أن تتقرَّب من الله بكمال الله، بالحياء، يجب ألا تستحي من الحق، إن استحييت من الحق فهذا ليس حياء بل هو خجل والخجل نقيصة في الإنسان.

عوِّدْ نفسك أن تكون جريئاً، سيدنا عمر كان يمشي في الطريق، فرأى غلماناً يلعبون فلما رأوه وكان ذا هيبة عظيمة تفرَّقوا إلا واحداً منهم وهو عبدالله بن الزبير بقي في مكانه بأدب، لفت نظره فلما وصل إليه قال: أيُّها الغلام لمَ لمْ تهرب مع من هرب؟ قال: أيها الأمير لستَ ظالماً فأخشى ظلمك، ولستُ مذنباً فأخشى عقابك، والطريق يسعني ويسعك.

رجل تأتيه ابنة أخيه زائرة بثياب فاضحة فيستحي أن ينصحها! قل لها: يا بنيتي هذه الثياب لا تليق بك ولا بأبيك ولا بأسرتك، قال تعالى: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ﴾ [المائدة:٧٩].

سيدنا عمر كان بين أصحابه فقال له أحدهم: والله ما رأينا خيراً منك بعد رسول الله، فتغيَّر لونه وأحدّ فيهم النظر، إلى أن قال أحدهم: لا والله لقد رأينا من هو خير

منك، قال من هو؟ قال الصديق، قال عمر ﷺ: كذبتم جميعاً وصدق، عدّ سكوتهم كذباً، كنت أضلَّ من بعيري وكان أبو بكر أطيب من ريح المسك.

تجلس أحياناً في مجلس فيأتي ذكر أخيك بسوء، من يتهجم عليه وأنت تعلم علم اليقين أنه بريء من هذه الصفة، هل تبقى ساكتاً؟! بل دافع عنه فهذا واجبك، فالحياء لا أن تستحي من النطق بالحق بل أن تستحي من فعل المنكرات.

يقول أبو سفيان لهرقل في حواره معه: فوالله لولا الحياء من أن يؤثروا عليّ كذباً لكذبت، الحياء يردع، والحياء ضمانة.

وقد قيل: العدل حسن لكن في الأمراء أحسن، والحياء حسن لكن في النساء أحسن، والسَّخاء حسن لكن في الأغنياء أحسن، والصبر حسن لكن في الفقراء أحسن، والتوبة حسن لكن في الشباب أحسن.

فالشاب ألزم ما يلزمه التوبة، والمرأة ألزم ما يلزمها الحياء، والغنيُّ ألزم ما يلزمه السَّخاء، والفقير ألزم ما يلزمه الصبر، والأمير ألزم ما يلزمه العدل.

حياء الشَّرع هو الحياء الذي يحفظ للعبد استقامته، ففي الحديث عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «اسْتَحْيُوا مِنْ الله حَقَّ الحَيَاءِ، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالحَمْدُ لله، قَالَ: لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الإِسْتِحْيَاءَ مِنْ الله حَقَّ الحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكُرْ المَوْتَ وَالبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنْ الله حَقَّ الحَيَاءِ» [أخرجه أحمد، والترمذي والحاكم، والبيهقي عن عبد الله بن مسعود].

البطولة أن تبدأ من النهاية، ابدأ من الموت ثم اعمل، تؤسّس عملاً، تدرس، تنال الدكتوراه، تؤسس شركة، ولكن لأنك بدأت من الموت فأنت تراقب الله عز وجل.

الحياء أن تستحي من الله أن تعصيه، أن تستحي من الله أن تستخدم جارحة من جوارحك في معصية الله، الحياء أن ترى أن الله معك.

السِّتِّيرُ

ورد اسم السِّتِّير في السّنّة، في قوله ﷺ: «إن الله عز وجل حليم حييٌّ ستّير يحبُّ الحياء والستر فإذا اغتسل أحدكم فليستتر» [رواه أبو داود عن يعلى بن أمية].

وفي سنن البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «إن الله ستير يحب الستر».

من معاني اسم الله الستير

السِّتِّير في اللغة على وزن فعِّيل، وهذه الصيغة من صيغ المبالغة، فالله تعالى يستر الذنوب مهما كثرت، ويستر أكبر فضيحة.

السِّتِّير من شأنه حبُّ السَّتر والصون والحياء، يروي ابن قدامة في كتابه (التوابون) أنَّ سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام استسقى ربه، فقال الله له: يا موسى، إنَّ فيكم من يبارزني بالمعصية منذ أربعين سنة، فبشؤم ذنبه حرمتم القطر من السماء، فقال: من كان يعصي الله فليغادرنا، فما غادره أحد، وبعد حين نزلت الأمطار كأفواه القرب، قال: يا رب، مَن هذا الذي كان يعصيك؟ قال: عجبتُ لك يا موسى، أستره عاصياً، وأفضحه تائباً؟!

الستر يأتي بمعنى المنع والابتعاد عن الشيء، فقد ورد في الحديث الصحيح أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: «جَاءَتْنِي امْرَأَةٌ مَعَهَا ابْنَتَانِ تَسْأَلُنِي، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدِي غَيْرَ تَمْرَةٍ وَاحِدَةٍ فَأَعْطَيْتُهَا فَقَسَمَتْهَا بَيْنَ ابْنَتَيْهَا، ثُمَّ قَامَتْ فَخَرَجَتْ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَحَدَّثْتُهُ فَقَالَ: مَنْ يَلِي مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ شَيْئًا فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ» [متفق عليه].

إذاً: الستر هنا بمعنى البعد، فتربية هذه البنت تربية صالحة تبعدك عن النار.

السِّتِّير سبحانه وتعالى، يحب الستر، ويبغض القبائح، ويأمر بستر العورات، ويبغض الفضائح، ويستر العيوب على عباده، وإن كانوا بها مجاهرين، ويغفر الذنوب مهما عظمت، طالما كلُّ عباده موحِّدون.

السِّتر في اللغة ما يُستر به، وهو اسم... وجمعه أستار، وسَتَرَ الشيء أخفاه فانستر، فعل انستر فعل مطاوع: سَتَرَ... ينْسَتِرُ... انْسَتَرَ، قَبِل أن يُستر، تستَّر، أي: تغطَّى، السِّتر هو الحياء، يقال: ما لفلانٍ سِتْرٌ ولا حِجْر، أي: لا حياء ولا عقل، السِّتْر هو الحياء، فلان لا يسْتتر من الله بستر؛ أي: لا يستحيي من الله بنوعٍ من الحياء، والسِّتر هو العقل، من كان عقله برأسه تصرَّف بحكمةٍ فحجب عن الناس مغيبته... والسِّتارة... ما يُسْتَتر به من شيءٍ كائناً ما كان، وفي الحديث الشريف: أن من أغلق باباً أو أرخى ستراً فقد وجب المهر ووجبت العدة [البيهقي في السنن الكبرى، عن زرارة بن أوفى، مرسلاً].

قال أبو حنيفة وأصحابه، قالوا: إذا خلا بها خلوة صحيحة يجب كامل المهر والعدة، دخل بها أو لم يدخل بها؛ لما رواه الدارقطني عن محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «من كشف خمار امرأة ونظر إليها فقد وجب الصداق دخل بها أو لم يدخل بها». وقال عمر: إذا أغلق باباً وأرخى ستراً ورأى عورةً فقد وجب الصداق وعليها العدة ولها الميراث. وعن علي: إذا أغلق باباً وأرخى ستراً، أو رأى عورةً فقد وجب الصداق [روى ذلك الدارقطني في سننه].

وفلانٌ هتك سِتر فلان... أي أطلعه على معايبه، والاستتار: الاختفاء، وفي التنزيل قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ﴿٩٠﴾﴾ [الكهف: ٩٠].

السِّتِّير في حقِّ الله تعالى كثير السّتر لعيوب عباده، فسبحان الله... الإنسان العادي من شأنه أن يظهر القبيح ويخفي المَليح، وقد روي أن النبي ﷺ دعا فقال:

«تعوذوا بالله من ثلاث فواقر: جار سوء إن رأى خيراً كتمه، وإن رأى شراً أذاعه؛ وزوجة سوء إن دخلت عليها لسنتك، وإن غبت عنها خانتك؛ وإمام سوء إن أحسنت لم يقبل، وإن أسأت لم يغفر» [أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، من حديث أبي هريرة].

عن الهيثم بن عدي الطائي قال: حدثنا مجالد عن الشعبي قال: لقيني شريح فقال: يا شعبي، عليك بنساء بني تميم، فإني رأيت لهن عقولاً. قال: وما رأيت من عقولهن؟ قال:

أقبلت من جنازة ظهراً، فمررت بدورهم، فإذا أنا بعجوز على باب دار، وإلى جنبها جارية كأحسن ما رأيت من الجواري، فعدلت فاستسقيت، وما بي عطش. فقالت: أي الشراب أحب إليك؟ فقلت: ما تيسَّر، قال: ويحك، يا جارية إيتيه بلبن، فإني أظن الرجل غريباً، قلت: من هذه الجارية؟ قالت: هذه زينب بنت جرير إحدى نساء بني حنظلة، قلت: فارغة هي أم مشغولة؟ قلت: بل فارغة. قلت: زوّجنيها. قالت: إن كنت لها كفئاً، فمضيت إلى المنزل لأقيل، فامتنعت مني القائلة، فلما صليت الظهر أخذت بأيدي إخواني من القراء الأشراف، فتقدمت إلى أهلها وطلبتها منهم فزوجوني، وعندما دخلت عليها، صليت ركعتين أسأل الله من خيرها، وأعوذ بالله من شرها، ولما انتهيت من صلاتي وسلمت إذا هي من خلفي تصلي بصلاتي، فلما خلا البيت دنوت منها، فقالت على رسلك أبا أمية: إني امرأة غريبة فبين لي ما تحب فآتيه وما تكره فأزدجر عنه، فقلت: أحب كذا وأكره كذا، ونحن جميع فلا تفرقي، وما رأيت من حسنة فانشريها وما رأيت من سيئة فاستريها؛ وقالت شيئاً لم أذكره: كيف محبتك لزيارة الأهل؟ قلت: ما أحب أن يملني أصهاري. قالت: فمن تحب من جيرانك أن يدخل دارك آذن لهم، ومن تكرهه أمنعه؟ قلت: بنو فلان قوم صالحون وبنو فلان قوم سوء.

قالت: فبتُّ يا شعبي بأنعم ليلة، ومكثت معي حولاً لا أرى إلا ما أحب. فلما كان رأس الحول جئت من مجلس القضاء، فإذا بعجوز تأمر وتنهى في الدار. فقلت: من هذه؟ قالوا: فلانة ختنك، فسُرِّي عني ما كنت أجد، فلما جلست أقبلت العجوز، فقالت: السلام عليك أبا أمية. قلت: وعليك السلام، من أنت؟ قالت: أنا فلانة ختنك، قلت: قربك الله، قالت: كيف رأيت زوجتك؟ قلت: خير زوجة، فقالت لي: أبا أمية، إن المرأة لا تكون أسوأ حالاً منها في حالين، إذا ولدت غلاماً أو حظيت عند زوجها، فإن رابك ريبٌ فعليك بالسوط، فوالله ما حاز الرجال في بيوتهم شراً من المرأة المدللة. قلت: أما والله لقد أدبت فأحسنت الأدب ورضت فأحسنت الرياضة، قالت: تحب أن يزورك أختانك؟ قلت: متى شاؤوا. قالت: فكانت تأتيني في رأس كلِّ حول توصيني تلك الوصية، فمكثت معي عشرين سنة لم أعتب عليها في شيء إلا مرة واحدة، وكنت لها ظالماً، أخذ المؤذن في الإقامة بعدما صليت ركعتي الفجر، وكنت إمام الحي، فإذا بعقرب تدب، فأخذت الإناء فأكفأته عليها، ثم قلت يا زينب، لا تحركي الإناء حتى آتي. فلو شهدتني يا شعبي، وقد صليت ورجعت فإذا أنا بالعقرب قد ضربتها. فدعوت بالقسط والملح، فجعلت أمغث أصبعها وأقرأ عليها بالحمد والمعوذتين.

الشاهد من هذا الكلام: وما رأيت من حسنةٍ فانشريها، وما رأيت من سيئةٍ فاستريها.

وإنّ من أرقى صفات المرأة المؤمنة أنها سِتِّيرة، فالإنسان في بيته أحياناً يغضب، وأحياناً يفتقر فلا تجد بين يديه مالاً فيأكل أخشن الطعام، وأحياناً ينضغط من الخارج فينفجر في الداخل، والمرأة المؤمنة لا تفضح زوجها، لا تنشر أحواله ولا تتحدث عن أفعاله بين الناس، لا تعطي الناس أسوأ صورة عن زوجها، المرأة المؤمنة ستِّيرة، يروى عنه ﷺ:

«إنّي أكره المرأة تخرج من بيتها تجر ذيلها تشكو على زوجها» [رواه الطبراني في الأوسط والكبير، من حديث أم سلمة] وصحَّ عنه ﷺ أنه قال: «لا ينظر الله تبارك وتعالى إلى امرأةٍ لا تشكر لزوجها وهي لا تستغني عنه» [رواه الطبراني والحاكم والبيهقي عن عبد الله بن عمرو].

«لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه قاتلك الله فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا» [رواه الترمذي، عن معاذ بن جبل].

فالسِّتِّير في حقِّ الله تعالى كثير الستر لعيوب عباده قال تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الشورى:٣٤].

نصيب المؤمن من اسم الله الستير

من كمالِ ربنا عز وجل أنه يظهر الحسن ويستر القبيح، لكن الإنسان من لؤمه يظهر القبيح ويستر الحسن، فالمؤمن كلما اقترب من الله يتخلق بالكمالات الإلهية، الله ستِّير، والمؤمن ستِّير، يستر العيوب.

فأدبُ الإسلام يدعو المؤمن إلى أن يستتر ولا يجاهر بالمعصية، كلُّكم يعلم أن هناك عاصياً، وأن هناك فاجراً، فالعاصي مثلاً كالذي يفطر في رمضان بينه وبين نفسه، فمن الفاجر إذاً؟ الذي يفطر في الطريق أمام الناس، إذا جاهر المرء بالمعصية فالمجاهر فاجر، والفاجر لا غيبة له، لأنه لا يستحي من هذه المعصية فهو يذكرها للناس، هو يُري الناس معصيته... وقد قيل: «إذا بُليتم بالمعاصي فاستتروا».

على من يقع حدَّ الرجم؟ يقع على الزانية الفاجرة التي استطاع أربعة من الرجال أن يَرَوها وهي تزني، أي أنها لا تُبالي، فحدُّ الرجم ليس على الزانية المحصنة فحسب، بل على الزانية المحصنة التي تمكِّن أربعةُ رجالٍ من أن يروها وهي تزني، ما اسمها إذاً؟ فاجرة... فقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاؤُا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [المائدة:٣٣].

﴿إِنَّمَا جَزَاؤُا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا﴾ هل من فسادٍ أشد من أن يزني رجل محصن له زوجة وأولاد بامرأةٍ محصنة لها زوجٌ وأولاد جهاراً حتى تمكِّن الشهود من أن يروها وهي تزني؟ إذاً: «إذا بُليتم بالمعاصي فاستتروا».

وقد نعى القرآن الكريم على الذين لا يستترون من غيرهم أو من جوارحهم فقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فصلت:١٩-٢٤].

قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يس:٦٥].

يُروى أنَّ النبي ﷺ استأجر أجيراً فرآه يغتسِلُ عُرياناً بالبراز لا يستتر بستر فقال له ﷺ: «أراك لا تستحيي من ربك، خذ أجارتك لا حاجة لنا بك» [رواه عبد الرزاق في مصنفه عن ابن جريج].

الإسلام أمر بالتستُّر في مواضع، منها التستُّر عند الغُسل، وعند اللقاء الزوجيّ، وعند قضاء الحاجة.

النبيُّ ﷺ قال: «إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ حَلِيمٌ حَيِيٌّ سِتِّيرٌ يُحِبُّ الحَيَاءَ وَالسَّتْرَ، فإذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَتِرْ» [رواه أبو داود والنسائي وأحمد عن يعلى بن أمية].

فالإنسان كلما اقترب من الإيمان ازداد تستُّراً، وكلما تفلَّت من قواعد الشرع قلَّ تستُّره، ولقد جاءتنا مظاهر من الغرب بعيدة عن ديننا وأعرافنا وتفشَّت في بعض الناس فتجد مثلاً إنساناً يسافر من بلد إلى بلد آخر ببنطال قصير، ويمكن أن يخلع معظم ثيابه أمام الناس.

وقد ورد في الحديث الصحيح عن أبي هريرة أن النبي ﷺ يقول: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إلا المُجاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ المُجاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلاً ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ

سَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ فَيَقُولَ: يَا فُلانُ عَمِلْتُ البَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْهُ» [متفق عليه].

أليس في بيوت المسلمين الفتيات الشابات يقمن بثيابٍ رقيقة أمام إخوتهن، وهناك إخوةٌ يقومون بثياب داخلية أمام أخواتِهِمْ، وأمام أمَّهاتهم وآبائهمْ، هذا التبذُّل في البيت فيما بين الإخوة، وفيما بين الأخوات، وفيما بين الإخوة والأخوات، وفيما بين الآباء والأبناء، والأبناء والآباء، والبنات والأمهات، هذا مخالفٌ للشرعِ، كلما ازداد إيمانك ازداد التسترُّ، وكلما بعُد المرءُ عن الإيمان تفلَّت من السِّتر، وإنَّ من المجون والجنون أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح فيقول: يا فلان عمِلت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربُّه ويكشف هو سِتر الله عنه.

من أخطر الأعمال أن يُحدِّث الناس بعضهم بعضاً ما لا ينبغي لهم أن يتحدثوا به، الأسرار الزوجية أسرار مصونة لا ينبغي أن تشيع، في أكثر من مجتمع يتحدَّث الأزواج عن زوجاتهم وعن لقاءاتهم، وتتحدَّث الزوجات عن أزواجِهنَّ وعن لقاءاتِهنَّ، وهذا من أكبر المعاصي، لأنَّ هذا ينبغي أن يبقى سراً بين الزوجين.

ذكرت سابقاً أن امرأةً تعمل في الفن في بلدٍ غريب وهي امرأة فاسقة فاجرة، لكنها تكلَّمت بصدق حين سُئِلت عن شعورها وهي على خشبة المسرح -وقد حفظت كلامها لدقته البالغة- قالت: إنَّ شعوري شعور الخزي والعار، وهو شعور كلِّ امرأةٍ تعرض مفاتنها على الناس، إنَّ الحبَّ يجب أن يبقى بين الزوجين وفي غرفٍ مُغلَقة.

فموضوع السِّتر إذاً؛ أنه كلما تفلَّت الناس، وكلَّما اقتربوا من طباع الغرب وعاداته وكلَّما تغذُّوا بالثقافات الغربية التي تأتيهم عبر الصحون التي على أسطح المنازل، وكلَّما تفلَّتوا من ثيابهم في بيوتهم، وكلَّما تفلَّت الإنسان من ثيابه كان هناك احتمال الانزلاق، فحينما يأمر الشرع الحنيف ألا تظهر امرأةٌ على أُختها بملابس فوق الركبة فهناك حكمةٌ بالغة، حتى بين الأخوات، حتى بين البنت وأمِّها، هناك حدود، أما إذا رفعنا الحدود فربما انزلق الناس إلى ما لا يُحتمل.

فالشرع ليس قيوداً لحرية الإنسان، ولكنه ضمانٌ لسلامته، تماماً كما لو كنت في مكان ورأيت لوحةً كتب عليها: انتبه حقل ألغام، فهل تعدُّ هذه اللوحة تقييداً لحريَّتك، أم ضماناً لسلامتك؟ إنها ضمانٌ لسلامتك، أنا لا أتكلَّم من فراغ فبحكم عملي في الدعوة إلى الله تأتيني قضايا كثيرة، حتى إن هناك فواحش ظهرت بين المحارم بسبب التفلُّت.

أقول هذا الكلام لأن هناك أخطاراً بدأت تهدد المسلمين، فأكبر شيء يجرُّ الإنسان إلى المعاصي موضوع النساء، وموضوع المال وقد أكثرت من ذكر هذا والتذكير به من قبل في أبحاث عدة.

وفي الصحيحين، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إلا المُجاهِرِينَ، وإِنَّ مِنَ المُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلاً ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ فَيَقُولَ: يَا فُلانُ عَمِلْتُ البَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ ويُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْهُ» [متفق عليه].

فإذا تفضَّلَ الله عز وجل بستره على عبدٍ في الدنيا فإنَّ هذا السِّتر يستمر إلى يوم القيامة.

وروى البخاري في صحيحه قال:

حَدَّثَنَا ابْنُ أَخِي ابْنِ شِهَابٍ عَنْ عَمِّهِ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو إِدْرِيسَ عَائِذُ الله أَنَّ عُبَادَةَ ابْنَ الصَّامِتِ مِنَ الَّذِينَ شَهِدُوا بَدْراً مَعَ رَسُولِ الله ﷺ وَمِنْ أَصْحَابِهِ لَيْلَةَ العَقَبَةِ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: «تَعَالَوْا بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لا تُشْرِكُوا بِالله شَيْئاً، وَلا تَسْرِقُوا وَلا تَزْنُوا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ، وَلا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى الله، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذلكَ شَيْئاً فَعُوقِبَ بِهِ فِي الدُّنْيا فهو كَفَّارَةٌ، وَمَنْ أَصابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً فَسَتَرَهُ اللهُ فَأَمْرُهُ إِلى الله إِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ وإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، قالَ: فَبَايَعْتُهُ عَلَى ذَلِكَ» [رواه البخاري].

لو أنَّ إنساناً اقترف معصية فليس مكلَّفاً أن يبلِّغ عن هذه المعصية أحداً، فإذا لم يكتشف أحد هذا الذنب فمعنى ذلك أنَّ الله أسبل عليه ستره، وإنه ليقترفُ معصيةً كبيرة حينما يفضح نفسه.

فإذا اقترف الإنسان ذنباً فليس مكلّفاً شرعاً أن يُبلِّغ عن نفسه، ما دام لم يدرِ به أحد؛ ومعنى ذلك أنَّ الله أسبل عليه ستره، فإذا فضح نفسه كأنَّه ارتكب معصيةً جديدة... هذا حكم شرعي، أنت لست مكلّفاً أن تفضح نفسك ما دام الله قد سترك.

وهذه معلومة أخرى: إنْ لم تكن ممَّن يُكلَّف بتنفيذ أمر الله، فأنت إنسانٌ عاديٌّ لست كالإمام، فإذا اقترف إنسان آخر معصيةً أمامك لست مكلّفاً أن تُبلِّغ عنه، أما الإمام فإذا بَلَّغَهُ أحد أنه قد انتُهك حدٌّ من حدود الله فلا عفا الله عنه إن عفا عن مقترف ما يوجب الحد، فالإمام له موقفه، والمؤمن له موقف آخر، فالمؤمن ليس مكلّفاً أن يفضح نفسه ولا أن يفضح غيره، أما الإمام فإذا بَلَغَهُ عن أحد أنه قد اقترف ما يوجب الحدَّ فلا عفا الله عنه إن عفا.

لذلك ورد في البخاري:

عَنِ ابْنِ شِهَابٍ أَنَّ سَالِماً أَخْبَرَهُ: أَنَّ عَبْدَ الله بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَخْبَرَهُ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قالَ: «المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ وَلا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجة أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُباتِ يَوْمِ القِيَامةِ. وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ» [رواه البخاري].

وهذا الذي بلَّغ النبي عن إنسان زنى، فقال ﷺ: «يا هزّالُ! لو سترته بثوبك كان خيراً لك» [رواه أحمد، عن نعيم بن هزال].

فهذا حكم شرعي... ليس القصد أن تقطَّع الأيدي ولا أن يُجلد الناس، فالقصد أن تكون الحدودُ الشرعية رادعةً للمسلمين، لذلك حينما يطالب الشرع بأربعة شهود رأوا حالة الزنا رأي العين، فالهدف منه أن يكون هذا الحدُّ رادعاً.

ومما يدلُّ على محبَّة الله السِّتِّير إخفاء الذنوب والمعاصي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور:١٩].

أي أنَّ هذا الذي يحبُّ أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا له عذابٌ أليمٌ في الدنيا والآخرة... ماذا فعل؟ لم يفعل شيئاً إلا أنه تمنَّى أن تشيع هذه الفاحشة، معنى ذلك أنَّه في خندق المنافقين، لو كان في خندق المؤمنين لآلمه هذا الأمر أيَّما إيلام، فلمجرَّد أنَّه رضي أو تمنَّى أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا فله عذابٌ أليم. فقد قال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران:١٢٠].

قيل في هذه الآية: «هذه الآية تأديبٌ لمن سمع شيئاً من الكلام السيئ، فقام بذهنه منه شيءٌ وتكلم به».

إن سمعت قصة لا تليق بمؤمن فلا ينبغي لك أن تروِّجها، ولا ينبغي لأحد أن ينقلها، ولا ينبغي أن يفرح بها، إن فرحت بها ففي الإيمان خلل، وإن روَّجتها فقد سببت فتنة لا يعلم مداها إلا الله، ومتى تنتهي... ففي بعض الأحيان خطأ بسيط قد ينتهي بجريمة.

أنا ذكرت لكم نقلاً عن أحد مخابر التحليل أن إنساناً استراب بابنته، واعتراه شك نحوها، فطلب منها إجراء تحليل. فالموظف في هذا المخبر وقعت منه العينة فانكسرت فخاف من سيده فكتب نتيجة التحليل حمل إيجابي، فلما جاء الأب مساءً وتلقَّى النتيجة أنها إيجابية فذهب وقتل ابنته مع أن النتيجة غير صحيحة والبنت بريئة... فهؤلاء الذين يسمعون قصةً لعلها كاذبة، إذا نقلها وروَّجها فما أدراك أن تقع جريمة من أجلها، فقضايا الأعراض خطيرة جداً، فلذلك هؤلاء الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات حدّهم أن يجلدوا ثمانين جلدة، وأن يفقدوا حقَّهم المدني، فلا تُقْبَل شهادتهم أبداً لعِظَم حقِّ المرأة المؤمنة عند الله.

هناك معنىً آخر ذكره بعض العلماء؛ وهو أن الذي يفعل شيئاً قبيحاً ويحدِّث الناس به فكأنه أراد أن تفشو الفاحشة في الذين آمنوا، ألم تسمعوا بالقول: رحم الله عبداً جبَّ الغيبة عن نفسه.

وبعد... فهذا معنى آخر: إنسان فعل فاحشة، والفاحشة انتقلت وشاعت وسرت بين الناس، ما الذي حصل؟ إن هذا العمل القبيح شاع بين الناس، وكلما شاعت الفواحش استمرأها الناس، وأقبلوا عليها ولم يروا بها شيئاً خطيراً.

عَنْ ثَوْبَانَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لا تُؤْذُوا عِبادَ الله، وَلا تُعَيِّرُوهُمْ، وَلا تَطْلُبُوا عَوْرَاتِهِمْ، فإِنَّهُ مَنْ طَلَبَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ طَلَبَ اللهُ عَوْرَتَهُ حَتَّى يَفْضَحَهُ فِي بَيْتِهِ» [مسند الإمام أحمد].

هناك أشخاص -والعياذ بالله- همُّهم تتبع العورات، قنص الزلاَّت، همُّهم أن يصطادوا في الماء العكر، أن يبحثوا عن فضيحةٍ فيشيعوها، هؤلاء يتتبعون عورات الناس... من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته حتى يفضحه في عقر داره.

وقد قال ﷺ حينما أمر أن يستر الإنسان ذنبه، كما في حديث أبي اليَسَرِ قالَ: أَتَتْنِي امْرَأَةٌ تَبْتَاعُ تَمْراً، فقُلْتُ: إنَّ فِي البَيْتِ تَمْراً أَطْيَبَ مِنْهُ، فَدَخَلَتْ مَعِي في البَيْتِ، فأَهْوَيْتُ إِلَيْها فَقَبَّلْتُها، فأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ قالَ: اسْتُرْ عَلَى نَفْسِكَ وَتُبْ وَلا تُخْبِرْ أَحَداً، فَلَمْ أَصْبِرْ فَأَتَيْتُ عُمَرَ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ فقالَ: اسْتُرْ عَلَى نَفْسِكَ وَتُبْ ولا تُخْبِرْ أَحَداً، فَلَمْ أَصْبِرْ، فأَتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ فقالَ: «أَخلَفْتَ غَازِياً في سَبيلِ الله في أَهْلِهِ بِمِثْلِ هَذَا»، حتَّى تَمَنَّى أَنَّهُ لَمْ يَكنْ أَسْلَمَ إلا تِلْكَ السَّاعَةَ، حَتَّى ظَنَّ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النارِ، قالَ: وَأَطْرَقَ رَسُولُ الله ﷺ طَويلاً حَتَّى أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ ﴾ إلى قَوْلِهِ ﴿ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [هود:١١٤] [سنن الترمذي].

وعَنْ جُبَيْرِ بْنِ أَبِي سُلَيْمَانَ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعَمٍ قالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ يَقُولُ: لَمْ يَكُنْ رَسُولُ الله ﷺ يَدَعُ هَؤُلاءِ الدَّعَوَاتِ حِينَ يُمْسِي وَحِينَ يُصْبِحُ «اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ

العَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ، اللهمَّ إنِّي أسْأَلُكَ العَفْوَ وَالعافِيَةَ في دِيني ودُنْيايَ وأهْلِي ومَالِيَ، اللهمَّ اسْتُرْ عَوْرَتِي»، وقالَ عُثْمانُ بن أبي شيبة في روايته: «اللهم استر عَوْرَاتِي وآمِنْ رَوْعاتِي، اللهمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ ومِنْ خَلْفِي، وعَنْ يَميني وعَن شِمالِي ومِنْ فَوْقِي، وأعُوذُ بعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي» [سنن أبي داود].

وإني لأعتقد أن المؤمن الصافي حينما يسمع قصة ويكتمها يشعر بسعادةٍ لا يعلمها إلا الله، فالنفس تميل للفضائح، الإنسان يميل إلى أن يُضحك الناس فيقول: هل سمعتم فلاناً ماذا فعل؟ هل عرفتم لماذا طلق زوجته؟ هل عرفتم فلاناً عندما صاحب فلاناً كيف خانهُ مع زوجته؟ هذه قصص يراها مرضى القلوب ممتعة، ويحبُّ الناس أن يرووها ويتحدثوا بها في مجالسهم، دائماً التكليف يتناقض مع طبع الإنسان، لكنَّ الفطرة تتوافق مع التكليف، عندما ينفذ الإنسان أمر الله عز وجل يشعر في البداية بمجاهدة، أما حينما ينتصر على نفسه فإنها ترتاح... فالتكاليف سمَّاها الله تكاليف لأنها ذات كُلفة، أما الأعمال الكاملة والصالحة فهي تتوافق مع الفطرة، فالتكاليف تتناقض في البداية مع الطبع المتعلِّق بالجسم، وتتوافق في النهاية مع الفطرة المتعلقة بالنفس، لذلك المستقيم لعلَّ جسمه يتعب، أمَّا نفسه فمرتاحة.

عَنْ حَفْصِ بْنِ عَاصِمٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «كَفَى بِالمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ» [رواه مسلم].

والنبي ﷺ يعلِّمنا أن إنساناً يحدثك بحديث، ولم يقل لك: هذا الحديث أمانة، لكن سمع خطوة نعال وراءه مثلاً فالتفت، فالتفاته تعني أنَّ هذا الحديث أمانة لا ينبغي نشره، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ بِالحَدِيثِ، ثُمَّ التَفَتَ فَهِيَ أَمَانَةٌ» [أبو داود والترمذي].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِالله قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «المَجَالِسُ بِالأَمَانَةِ...» [أبو داود وأحمد].

أعظم ما عند المؤمنين أنَّهم مجتمع ستّير، وأحقر ما في مجتمع التفلّت أنّه مجتمع فضائحي، أساسه الفضائح، وبعض الإعلام اليوم أساسه الفضائح.

من الأدعية المتعلقة باسم السِّتِّير: اللهمَّ! أنت الحليم السِّتِّير، وأنت عالم الغيوب والأسرار، أمدُّ إليك يدي تحت ستار الليل وقد مدَّ الليل أستاره، ومددتَ لعبادك يَد الحليم الغفار، فاستر اللهمَّ عورتي، وامحُ حوْبتي، وآمن روعتي، وشدَّ من عزيمتي، فإني أستحيي منك، يا غفار الذنوب! وسِتِّير العيوب! بضعفي أمام قوتك، وعجزي أمام قدرتك، أسألك العفو والصفح، والمغفرة والرضوان يا ذا الجلال والإكرام.

أرجو الله سبحانه وتعالى، أن يكون لنا من هذا الاسم (السِّتِّير) مبدأ وأن نطبِّق هذا المبدأ «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس».

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ» [سنن الترمذي].

قال ﷺ: «من ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة» [رواه أبو داود في سننه عن عبدالله بن عمر].

إن موضوعَ الستر أحد أخلاق المؤمن الأساسية، والله عز وجل هو السِّتِّير، فالله عز وجل من شأنه أن يظهر الحسن ويخفي القبيح، والإنسان المؤمن يتخلَّق بكمالات الله، ويقتدي برسول الله ﷺ، والإنسان الكافر والعاصي يبحث عن العيوب ويُخفي الصفات الطيبة في غيره، فهو قنَّاص، فحينما يعثر على خطيئة كأنه عثر على كنزٍ ثمين فيأخذها ويفضح نفسه أو غيره بها وينشرها في الناس.

فأنت مؤمن ستِّير، تستُر على إخوتك أخطاءهم، حتى النصيحة إن كانت أمام ملأ كانت فضيحة، لا تكون النصيحة نصيحةً إلا إذا كانت بينك وبين أخيك... فإذا أحببت أن تنصح فيجب أن تختار الوقت المناسب والمكان المناسب، أما إذا نصح الناصح أمام ملأٍ فربما انقلبت النصيحة فضيحة وابتعد عن اسم السِّتِّير.

فأحياناً يخطب شاب فتاة ثم تُفسَخُ هذه الخطبة، فتجد معظم الناس يتكلمون على أشياء كانت وأشياء لم تكن حتى يسوِّغوا انسحابهم من هذه الخطبة، ما كان ينقصهم لو قالوا كلاماً موجزاً: ليس هناك من نصيب، والله؛ هم أحسن منا ولكن لا يوجد نصيب، لا تدخل في الأعراض والأخطاء.

فكلَّما ارتقى الإنسان في مراقي الإيمان يُظهر الحسن ويُخفي القبيح، وكلّما هبط يُظهر القبيح ويُخفي الحسن.

المقدم

ورد هذا الاسم في السنة الصحيحة ففي صحيح البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قام من الليل يتهجّد فقال:

«اللهمَّ رَبَّنا لك الحمدُ، أنْتَ قَيِّمُ السماوات والأرضِ ومَن فِيهنَّ، ولك الحمدُ أنت نورُ السماوات والأرضِ ومن فيهن، ولك الحمدُ، أنتَ مَلِك السماوات والأرضِ ومن فيهن، ولك الحمدُ، أنت الحقُّ، وَوَعْدُكَ الحقُّ، ولقاؤكَ حَقٌّ، وقَولك حَقٌّ، والجنَّةُ حَقٌّ والنَّارُ حَقٌّ، والنَّبيُّونَ حَقٌّ، ومحمدٌ حَقٌّ، والساعةُ حَقٌّ، اللهمَّ لك أسلمتُ، وبِك آمَنتُ وعليك توكلتُ، وإليك أَنبتُ، وبكَ خَاصَمتُ، وإِليكَ حاكمتُ، فاغفر لي ما قَدَّمتُ، وما أَخَّرْتُ، وما أسررتُ، وما أَعلَنتُ، أنت المقَدِّمُ وأنت المؤخِّرُ، لا إِلهَ إلا أنت، ولا إله غَيرُكَ» [البخاري ومسلم عن عبد الله بن عباس].

وإذا سلَّم من الصلاة قال:

«اللهمَّ اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت وما أنت أعلم به مني، أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر، لا إله إلا أنت» [ابن خزيمة عن علي بن أبي طالب].

من معاني اسم الله المقدم

المقدِّم اسم فاعل، من فعل رباعي مضعف، قدَّم، يقدِّم، فهو مقدِّم، والمصدر تقديم، وعند البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «من صام رمضانَ إيمانا واحتسابا غُفِرَ له ما تقدَّم من ذَنْبِهِ» [أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة].

القَدَم: كلُّ ما قدَّمت أيها الإنسان من خير أو شر وتقدَّمت لفلان فيه، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾ [يونس:٢].

العمل الصالح الذي قدَّمته ابتغاء وجه الله هو قدم.

لو أنَّ شخصاً سأل نفسه هذا السؤال المحرج: أنا آكل وأشرب، لكن ماذا قدَّمت من عمل بين يدي ربي يوم القيامة؟ هناك آلاف النشاطات لمصلحتك، لتحسين معيشتك، للحفاظ على منصبك، آلاف النشاطات تصبُّ في النهاية لصالحك، أمّا العمل الصالح فخالص لا تبتغي به إلا وجه الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ [الكهف:١١٠].

فأنت بالاستقامة تسلم، وبالعمل الصالح تسعد، وبتربية أولادك يستمر وجودك.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الحجر:٢٤].

أي علمنا المستقدمين منكم في الطاعة، من بادر إلى هذه الطاعة، من بادر إلى إنفاق ماله في سبيل الله، من بادر إلى الإصلاح بين اثنين، من بادر إلى رعاية الأيتام، فالعمل الصالح الذي تبادر إليه يصنفك مع المستقدمين.

الله تعالى هو المقدِّم يقدِّم ويؤخِّر وفق مشيئته، وإرادته، وحكمته، فالتقديم من أنواع التدبير الذي يتعلق بفعل الله جلّ جلاله، تدبير الله عز وجل أن يقدِّم زيداً، أو أن يؤخِّر عبيداً، هذا من تدبير الله عز وجل، وهذا التقديم على نوعين، تقديم كوني، وتقديم شرعي، أمّا التقديم الكوني فكما في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف:٣٤].

فالذي يموت قبل الآخر يعد مقدَّماً للموت، والذي يؤخَّر بعد الآخر يعدُّ متأخِّراً في الموت.

والله عز وجل يقول: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سبأ:٣٠].

حينما تؤمن إيماناً قطعياً أنَّ حياتك بيد الله، ولها موعد لا يتقدَّم ولا يتأخَّر، ترتاح نفسك، وتصبح شجاعاً، وتصبح عزيزاً ولا تتذلل أمام إنسان، ولا تتضعضع أمام قوي أو غني، الأمر بيد الله، حياتك بيده، والموت بيده.

وهو المقدِّم يقدِّم بعض خلقه على بعض، بناء على حكمة في الابتلاء، يقدِّم نبياً على نبيّ، يقدِّم صحابياً على صحابيّ، يقدِّم مؤمناً على مؤمن، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران:٣٣].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران:٤٢].

وقال جلّ جلاله عن طالوت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة:٢٤٧].

هذا اصطفاء، يصطفي نبياً على نبي، ولياً على ولي، قوياً على ضعيف، غنياً على فقير، الله عز وجل يقدم ويؤخر.

أمَّا التقديم الشرعي فهذا متعلق بمحبة الله لفعل دون فعل.

«إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها ويكره سفسافها» [أخرجه الطبراني عن حسين بن علي].

الله قدَّم في محبته معالي الأمور، فأنت أيها المؤمن هل تحمل هماً كبيراً؟ هل تحمل همّ المسلمين؟ هل تعيش الدعوة إلى الله؟ هل تعيش مصالحك الذاتية أو تعيش

خصومات سخيفة بين الناس؟ أو تعيش القيل والقال، وابتزاز الأموال، وإضاعة الوقت؟

فالله تعالى أحبَّ أعمالاً فقدَّمها في الثواب، وأبغض أعمالاً فأخَّرها في الثواب، يقول ﷺ: «إنَّ الله وملائِكَتَه يُصَلُّون على الصفِّ المقدَّم، والمؤذِّنُ يُغْفَرُ له بمدِّ صوته ويصدِّقُه مَنْ سمعه مِن رَطْب ويابس، وله مثل أجرُ مَنْ صلَّى معه» [أخرجه النسائي عن البراء بن عازب].

وفي صحيح مسلم: «لو يعْلَمُونَ -أو تعلمون- ما في الصَّفِّ الأوَّلِ لكانت قُرْعة» [مسلم عن أبي هريرة].

و: «أتِمُّوا الصفَّ المُقدَّم، ثم الذي يليه، فما كان من نقْص فليَكُن في الصف المؤخَّر» [أبو داود عن أنس].

والله قدّم تجهيز الميت على أي شيء آخر، قال: «أسْرِعوا بجنائزكم، فإن تكُ صالحة، فخير تقدِّمونها وإن تَكُ سوى ذلك فَشَر تضعونه عن رقابكم» [أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي ومالك عن أبي هريرة].

فالمقدِّم هو الله جل جلاله الذي يقدِّم الأشياء، ويضعها في مواضعها على مقتضى حكمته، وعلى مقتضى الاستحقاق، فمن استحقَّ التقدُّم قدَّمه الله، ومن استحقَّ التأخُّر أخَّره الله.

الله عز وجل يقدِّم استحقاقاً، ويؤخِّر استحقاقاً، الذي قدمك فيه في الأعمّ الأغلب عن استحقاق، والذي أخرك فيه في الأعمّ الأغلب عن استحقاق، وقد يقدِّم تفضُّلاً، تشجيعاً لك، وقد يؤخِّر حكمةً، فلو جاءتك الدنيا كما تتمنى لربما كانت حجاباً بينك وبين الله، وإذا حرمك منها لحكمة بالغةٍ بالغة ربما كان هذا الحرمان باعثاً لك إلى الله، إذاً ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك، وإذا كشف لك الحكمة في المنع عاد المنع عينَ العطاء.

شاءت حكمة الله -جل جلاله- أن يكون الناس درجاتٍ في حياتهم الدنيا قال تعالى: ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [الإسراء:٢١].

من حيث الشكل؛ أشكال متباينة، ومن حيث المال؛ مستويات متباينة، من حيث القوة؛ مستويات مختلفة، من حيث الذكاء؛ مستويات متفاوتة، فربنا عز وجل قدَّم إنساناً وأخَّر إنساناً.

إنَّ الإنسان مكلَّف، وهو مخيَّر فيما كُلِّف، لكنه مسيَّر في أشياء كثيرة، فالإنسان مسيَّر من حيث والداه، من حيث مكان ولادته، من حيث زمن ولادته، من حيث قدراته من حيث إمكاناته، أشياء كثيرة قدرها الله عز وجل على الإنسان، لكن يجب أن يعلم الإنسان علماً يقينيّاً أنَّ هذا الذي قدَّره الله عليه لصالحه، وإذا كُشف الغطاء اخترتم الواقع، فالإنسان إذا صدَّق الله عز وجل وعلم أنَّ حكمة الله حكمةٌ مطلقة، وأنَّ حكمته تقتضي أنَّ كلَّ شيءٍ لو كان على غير ما كان عليه لكان نقصاً في حكمة الله، إذا أيقن بهذا يرضى ويستسلم.

قد يفضِّل الله -عز وجل- إنساناً بالشكل، وقد يفضّله بالذكاء، وقد يفضّله بالمال، أو يفضِّله بالقوة، أو يفضِّله بأن يكون ابناً لملك، أو يكون ابناً لإنسان فقير، فالله عز وجل يقدِّم ويؤخِّر، إمَّا أنه يقدِّم رتبةً أو أنه يقدِّم زمناً...، فقد نجد أنفسنا في يوم واحد نذهب لنعزي أناساً في ميت، وفي اليوم نفسه قد نذهب ونهنئ أناساً آخرين بمولودٍ جديد، من قرَّر أنَّ هذا الذي توفَّاه الله اليوم مثلاً وُلِد قبل هذا الذي ولد اليوم بسبعين سنة؟ تقديم زمني، وتقديم رُتبي، فالله عز وجل هو المقدِّم وهو المؤخِّر.

إذا أيقنت بحكمته، وإذا أيقنت برحمته، وإذا أيقنت بعدالته فإنَّك تستسلم وترضى.

«التقديم كما قال بعض العلماء ضدُّ التأخير، والمقدِّم لغةً هو الذي يقدِّم الأشياء ويضعها في موضعها، فمن استحقَّ التقديم قدَّمه»... وبعد فلدينا معنى جديد وهو أن الله يقدِّم استحقاقاً، ويؤخِّر استحقاقاً، يقدِّم رتبةً استحقاقاً ويؤخِّر رتبةً استحقاقاً، ويوجد مع التقديم حكمة، ومع التقديم عدالة، ومع التقديم علم.

والله تعالى هو المقدِّم الذي قدَّم الأحباء بخدمته... فهل من الممكن أو من المعقول أن إنساناً خطب ودَّ الله عز وجل ولا يقدِّمه الله؟! إنسان أطاع الله والله لا يقدِّمه؟ فإذا لم يقدِّم الله عز وجل الطائعين فقد استوى عند الناس الطائع والعاصي، فالطائع عندئذ فقد الباعث والحافز، والعاصي فقد الرادع، وإذا لم يقدِّم الله الطائع ولم يؤخِّر العاصي، وإذا لم يقدِّم المحسن ولم يؤخر المسيء، وإذا لم يقدِّم المستقيم ولم يؤخر المنحرف، وإذا لم يقدِّم الرحيم ولم يؤخر القاسي... فالرحيم يملُّ من عمله والمنحرف يستمرئ عمله.

لذلك هناك في علم التربية قاعدة أساسية... ما لم يُكافأ المحسن ويعاقب المسيء فالأمور تصبح فوضى. على مستوى مدرسة، على مستوى مشفى، على مستوى معمل... فمثلاً يتأخَّر عامل كلَّ يوم ساعة ولا يعاقب، وعامل ينضبط أشدَّ الانضباط ولا يُكافأ! بعد حينٍ نجد المنضبط يتفلَّت والمقصِّر يزداد تقصيراً.

فكأن اسم المقدِّم مرتبطٌ باسم المربي... والله يقدِّم، فهل من المعقول أنَّك شابٌّ مستقيم ولا يقدِّمك؟ ليس هذا معقولاً بل يقدِّمك ويكرمك، فالله عز وجل قال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:١-٤].

فهل تجد إنساناً على الأرض يُذكر مع الله إلا رسول الله ﷺ؟ ألا تقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله؟ ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾... كلمة محمد ﷺ الآن في العالم كم إنسان يذكرها؟ ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ تُذكر في الأذان خمس مرات كلَّ يوم ملءَ الجو وفي الصلاة عند كلِّ تشهُّد ملءَ النفْس.

... الله تعالى هو المقدِّم الذي قدَّم الأحباء بخدمته... أجل لقد قدَّمهم، يريد الله من المؤمنين أن تكون معنوياتهم عالية، لقد ذهب النَّبيّ ﷺ إلى الطائف بعد أن أخرجته مكة وكذَّبته ونكَّلت بأصحابه، ذهب إلى الطائف يستنصرهم فكذبوه وردّوا

دعوته وسخروا منه وأغروا سفهاءهم بإيذائه، فلما أراد أن يعود إلى مكة ويدخلها قال له سيدنا زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم مكة وهم قد أخرجوك؟ فقال: «يا زيد، إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً، وإن الله ناصر دينه، ومظهر نبيِّه» [زاد المعاد لابن القيم].

حينما كان في طريقه إلى الهجرة تبعه سُراقة بن مالك قال: كيف بك يا سُراقة إذا لبست سواري كِسرى [أعلام النبوة للماوردي]، معنى ذلك أن النبي ﷺ واثقٌ من نصر الله عز وجل، فأنت أيُّها المؤمن يجب أن تؤمن أنك إذا استقمت على أمر الله، وإذا أحببته وإذا أخلصت له، وإذا أقبلت عليه فلا بد من أن يُقدِّمك، هكذا حكمة الله، وهذه عدالته، وهكذا رحمته.

قال العلماء: «الله تعالى هو المقدِّم، قدَّم الأحباء بخدمته، وعصمهم من معصيته». وقال بعضهم: «المقدِّم هو الذي قدَّم أحبابه وأسعدهم بالفهم والحِكم، والذي قدَّم العارفين على الجاهلين». فالله عز وجل قال: ﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر:٩].

ليس هناك نسبة... فهل يكون الطائع كالعاصي، أو أن تجد إنساناً مستقيماً كالمنحرف، فالله يقدِّم المستقيم ويدافع عنه.

فقد حدَّثني أخ يعمل في دائرة له مدير غير ملتزم إطلاقاً، لكنه يحترم هذا الموظَّف أشدَّ الاحترام لأنه ملتزم، ويتورَّع هذا المدير عن أن يرتكب مخالفة للشرع أمام هذا الموظَّف... ففي ظاهر الأمر أنَّ هذا موظف بسيط، والمدير لا شكَّ أنَّه أعلى مرتبة منه، فانظر إلى الأعلى يحترم الأدنى لدينه، فالله قدَّمه، فبدينك واستقامتك قد تكون مكانتك أعلى من مرتبتك.

قد يكون هناك في البيت شاب مستقيم، وله أربعة أو خمسة إخوة متفلتون يأتون في ساعة متأخرة ليلاً لهم أصدقاء وأصحاب منحرفون، هذا الشاب الورع المستقيم له مكانة في البيت لا تقلُّ عن مكانة والده، هذا مقدَّم... الله قدَّمه، كلُّ إنسان في عمله وفي حيِّه وفي أسرته إذا كان مستقيماً له اتصال بالله عز وجل، الله يقدِّمه الله، هو المقدِّم.

قال العلماء: قدَّم العارفين على الجاهلين وفتح لهم أبواب اليقين، قدَّم العلماء على الجهلاء، وجعلهم نجوم الاهتداء، قدَّم رسول الله ﷺ بدءاً وختاماً.

سيدنا عمر رضي الله عنه عندما وقف على المنبر ليخطب بعد أن تولَّى الخلافة نزل درجة، وقال: ما كان الله ليراني أضع نفسي في مقام أبي بكر... معنى ذلك أنَّ مقام أبي بكر محفوظ أشدَّ الحفظ.

قدَّم الله عز وجل رسولَ الله ﷺ على كلِّ الرُّسُل والأنبياء، قال تعالى مخاطباً رسله وأنبياءه: ﴿ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ ﴾ [آل عمران:٨١].

قدَّمه ليلة الإسراء حيث صلَّى بجميع الأنبياء... أريد أن أستخلص من هذا الشرح أنَّ لك مكانةً عند الله بحجم عملك الصالح، هذه المكانة تنالها بعدالةٍ مطلقة، لا يمكن أن يستوي عند الله إنسانان متفاوتان في عملهما أبداً، إذا كان عملك أصلح فمرتبتك أعلى، ورعك أكثر فمرتبتك أعلى، محبَّتك أسمى فمرتبتك أعلى، استقامتك أشدّ فمرتبتك أعلى، فقد قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٣٣].

كلُّ واحد منَّا له عند الله مرتبة... له درجة، له مكانة من خلال هذه المكانة يعامَل، قد نرى إنساناً أثيراً عند الله وقد نرى إنساناً هيِّناً على الله، فالكفار لهم صغارٌ عند الله... قال تعالى: ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الكهف:١٠٥].

فالله يقدِّم... وإذا قدَّم الله فالأمر عجيب، وإذا ألقى محبَّتك في قلوب الخلق فهذه سعادة كبيرة جداً الإنسان المؤمن كيفما تحرك يكون محبوباً، كيفما مشى يكون محترماً، في غيبته يُثنى عليه، وفي حضرته يُثنى عليه، فالله قدَّمه... لماذا قدَّمه؟ لعمله الصالح، لطهارته، قدَّمه لإخلاصه وقدمه لاستقامته، فالله هو المقدِّم.

قال تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٢٩) ﴾ [ق:٢٨-٢٩].

أتظن أن الله عز وجل يظلمك؟! أو يبخسك عملك؟! أو يضعك في مكانة تستحق أعلى منها؟! أو يطمس لك تألُّقك؟ هذا شيء مستحيل، أنت بعلمك وعملك وإخلاصك واستقامتك تحتلُّ عند الله مرتبةً تتناسب مع أحوالك.

فمثلاً... أتجد إنساناً قوياً جداً، وتقول له: افعل بي ما تشاء؟ لا يمكن، فلعل عندك أخطاءً سابقة، فينتقم منك انتقاماً شديداً، أما سيدنا هود فقد قال لقومه: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦)﴾ [هود:٥٥-٥٦].

الإنسان يمتحن مكانته عند الله بالدعاء، يقع في أزمة وفي شدة، فيدعو الله بإخلاصٍ شديد، فإن استجيب له فمعنى ذلك أنَّ له شأناً عند الله، كما قيل: ابتغوا الرفعة عند الله.

بعض الناس يبتغي الرفعة عند الخلق... يُحسِّن بيته، يزيِّن بيته، ويشتري أثاثاً فخماً ويركب مركبة فارهةً، ويرتدي ثياباً قشيبة غالية، ويزهو بثيابه وبمركبته وببيته، هو يحاول أن ينتزع إعجاب الناس بهذه المظاهر الفارغة، يسعى ليسمو مكانةً عند الناس، ومن علامات آخر الزمان أنَّ قيمة المرء متاعه.

عشرة أشخاص يملكون مركبات من مصنع واحد لكن يتباهون، فالإنسان ينتزع مكانته فقط من مركبته، من موقع بيته، من مساحة بيته، من ثيابه وهذا كلُّه من علامات تخلُّف المجتمع، القول الرائع النافع: «ابتغوا الرفعة عند الله».

سُلَّمُ الرفعة عند الله بيد كلِّ إنسان، فهو بيدك... ألا تستطيع أن تقيم الإسلام في بيتك؟ ألا تستطيع أن تقيمه في عملك؟ ألا تستطيع أن تضع متعَ الدنيا ومغرياتها تحت

قدميك إرضاءً لله عز وجل؟ ألا تستطيع أن تكون صادقاً، ألا تستطيع أن تصلي الصلوات على وقتها؟ ألا تستطيع أن تضبط لسانك؟ أنْ تضبط جوارحك، أن تربي أولادك؟ سلّم الرفعة إلى الله بيد كلِّ واحد، فالعاقل من ابتغى الرفعة عند الله، إن هذه الرفعة تراها شيئاً لا يُقدَّر بثمن حينما ينتهي الأجل، قال تعالى: ﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [يس:٢٦].

الله هو الذي يقدِّم... أنت تُقدِم على الله فيقدِّمك، إذا أخلص الإنسان لله ألقى الله في قلب الناس محبته وهيبته، من اتقى الله هابه كلُّ شيء، والإنسان إذا ازورَّ عن الله، وأعرض عنه انتزع هيبته من قلوب الخلق، تطاولٌ، مزاحٌ رخيص، يمزح معه مَن هو دونه، وقد ينال من كرامته.

المؤمن لا يبتغي الرفعة في الدنيا بل يبتغي الرفعة عند الله، لكنَّ الله عز وجل أجلّ وأكرم من أن يكافئه في الآخرة فحسب، ويدعه في الدنيا هيناً، فالدنيا تأتيه وهي راغمة تكرمةً له من ربه.

قال ﷺ: «ما نفعني مالٌ قطُّ، ما نفعني مالُ أبي بكر» [أحمد في مسنده، من حديث أبي هريرة].

وقال ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً... ولكن أُخُوَّةُ الإسلام، لا تبقين في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر» [متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري].

وعن عمر: أبو بكر سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ [سنن الترمذي].

فالله قدَّمه... ما أخذ رسول الله ﷺ من أحدٍ ماله كلَّه إلا أبا بكر.

وقال ﷺ: «إن من أمنِّ الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر...» [البخاري، من حديث أبي سعيد الخدري].

لذلك أنت حينما تعتمر تقف أمام مقام النبي ﷺ ثم تقف أمام مقام سيدنا الصديق ثم أمام مقام سيدنا عمر.

الله قدّمها.. في كل مجتمع مقدَّم ومؤخَّر، الله يقدِّم الطائع، فقد تجد إنساناً يعمل بلا ضجيج، وهؤلاء الأتقياء الأخفياء يعملون بصمت، يعملون بلا ضجيج، يبذلون جهوداً كبيرة، يعلِّمون، يتصدقون، يمسحون عن الناس جراحاتهم، هؤلاء قد تراهم في الظل وفجأةً يتقدمون... فالله قدَّمهم، الله هو المقدِّم وهو المؤخِّر.

حتى في عملك إذا كنت من المحبوبين عند الله يقدِّمك في عملك، يلهمك من الأساليب التي لا يلهمها غيرك، يلهمك تصرُّفات لا يعرفها الآخرون، يدافع عنك في غيبتك فهو المقدّم، يقدِّمك.

ورد عن سفيان الثوري: من قدَّم على أبي بكر وعمر أحداً فقد أزرى على اثني عشر ألفاً من أصحاب رسول الله ﷺ توفي رسول الله وهو عنهم راضٍ [السنّة لأبي بكر الخلال].

بعض العلماء يقول: «المقدم والمؤخر... هو الذي يقدم من شاء ويؤخر من شاء على بابه».

ففي بعض الأيام يفتح لك بابه، وفي بعضها الآخر يغلقه، وأحياناً يحجبك، وأحياناً يفتح قلبك، ويتجلَّى عليك، أو لا يتجلَّى، هو المقدم والمؤخر.

فأنت لا تكن عبد الفتح بل كن عبد الفتاح، فالله إذا فتح فاحمد الله على ذلك، وإن لم يفتح فأنت مستقيم ولا تضجر، لا يفتح، تعطيشاً لك، ثم يفتح عليك فتحاً كبيراً، يضر لينفع، يأخذ ليعطي، ويذل ليعز، ويقبض ليبسط.

أحيانا يكون الإنسان صادقاً مع الله صدقاً من مستوى عالٍ، فالله يقدِّم له قدرات تتناسب مع هذا الصدق.

فلدينا سؤال له جواب وهو: لم أعطى الله فلاناً قدرات عالية ولم يعطها لفلان؟ يكون هذا المعطَى له طلبٌ عالٍ جداً، الشاب إذا كان طموحاً جداً فإنَّه يعطَى إمكانات تتناسب مع طموحاته، فالله إذا أخَّر وقدَّم فالتقديم أولاً متعلِّق بتطلعات الإنسان

ومتعلِّق بحكمة وعدالة، فقد تشعر بإنسان في نفسه طموحات عالية جداً، هذه الطموحات تحتاج إلى قدرات عالية فيمنح هذه القدرات، هذه القدرات قُدِّم بها ولكن لم يقدم بها ظلماً، أو تخصيصاً لا معنى له، بل قُدِّم بها لسببٍ يعلمه الله عز وجل، فكن أديباً مع الله عز وجل.

فإذا قدَّم الله عليك إنساناً في باب الخير فمعنى ذلك أنَّ صدقه أكبر من صدقك، ومعنى ذلك أن الله عنده علم أن هذا الشخص له قدم صدق عند ربه أعلى مما تتحلى أنت به، من صدق.

قال العلماء: «هو الذي قدم الأبرار وأخّر الفجار، قدم الأبرار وشغلهم به، وأخّر الفجار وشغلهم بالأغيار».

فإذا استرذل الله عز وجل عبداً شغله بالدنيا، حتى لكأنه يعيش في قنوات المجاري، أما إذا أحب الله عبداً شرَّفه بمعرفته، فالنبي الكريم ﷺ منزلته بالأُفق الأعلى، وهناك من يعيش في تفاهات الناس وقصصهم وخلافاتهم وصراعاتهم، في قلبه حسد وغيرة، ويدخل فيما لا يعنيه، فإذا غضب الله على إنسان شغله بتوافه الأمور، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾ [المؤمنون:٣-٤].

اللغو كلُّ حديث فيما سوى مرضاة الله، إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها ودنيَّها، فليلاحظ أحدنا ما الذي يشغله؟ قد تشغله معرفة الله وخدمة الخلق، ونشر الحق والأمر بالمعروف، وقد تشغله هموم المسلمين، وقد يشغله بيته، وأثاث بيته وطلبات زوجته ونزوات أولاده، فمن كان هذا مستواه فهو بالرثاء جدير، فكلما كبر الإنسان عند الله عز وجل تكبر همومه وكلما صغر يصبح شغله الشاغل في تفاهاتٍ لا تقدِّم ولا تؤخِّر.

أحد العلماء يقول: «المقدِّم والمؤخِّر هو الذي يقرِّب ويبعد، يقرِّب أحبابه، ويبعد أعداءه».

فأكبر عقاب يناله أعداؤه منه أنَّه يلعنهم، يحجبهم، وأكبر مكافأة ينالها أحبابه أنه يتجلى على قلوبهم.

وهو جل جلاله يقدِّم أنبياءه وأولياءه بتقريبهم وهدايتهم، ويؤخِّر أعداءه بإبعادهم وضرب الحجاب بينه وبينهم.

نصيب المؤمن من اسم الله المقدم

ما دام الله عز وجل يقدِّم، فأنت أيُّها العبد ألا تستطيع أن تتخلَّق بالكمالات التي تليق بك؟ أنت أمام ألف خيار ما الذي ينبغي أن تقدِّمه؟ وما الذي يجب أن تؤخِّره؟ المؤمن الصادق يقدِّم أعمال الآخرة، ويؤخِّر أعمال الدنيا.

إذا كان منهمكاً في عمل ودخل وقت الصلاة، فإذا أخر الصلاة وتابع العمل فقد تخلَّف عن أن يكون الأول عند الله، أمَّا إذا قدَّم عمل الآخرة وأخَّر عمل الدنيا فيكون قد عرف قيمة الدنيا، وعرف أنَّها مزرعة الآخرة، فكن ممن يقدِّم الأعمال الصالحة ففيها رفعة شأنك، ومن آثر الآخرة على الدنيا خسر الدنيا والآخرة.

هناك أشخاص أرى نفسي معجباً بهم ففي حياتهم أولويات، مثلاً حفاظه على أوقات صلواته، طلبه للعلم، طاعته لله عز وجل، فقد برمج حياته كلَّها وفق هذه الأهداف، ووقته الزائد يصلح فيه شأن دنياه، فلن يؤثر نزهة على صلاة الجمعة؟ ولن يقدِّم جلسة تافهة على مجلس علم؟ دنياه مرتبتها الثانية في كلِّ أحواله، يؤثر مرضاة ربه على سائر متطلباته.

أنت أمام خيارات كثيرة، يجب أن تقدِّم ما كان لله ورسوله، أن تقدِّم ما كان للآخرة، تلاحظ بائعاً مثلاً لديه زبون فيهتم به اهتماماً بالغاً، فلو طلب منه شخص خدمة لله، فما دام عنده تجارة رابحة، يقول له: «مشغول ليس لدي فراغ»، أي هو بحسب رؤيته أنَّ هذه التجارة تأتيه بربح وفير، وأما السائل فلربما يدعو له، فماذا سيجني من الدعاء؟ أمَّا لو عرف قيمة حياته الدنيا وعرف أنها مزرعة الآخرة، لأقبل على العمل الصالح أكثر من إقباله على الرِّبح المادي.

وثق أنَّ هناك أشخاصاً يقدِّمون خِدمات لله دون أن يرجوا من الناس أجراً، وإذا عملوا فأعطيتهم أجراً لتألَّموا أشدَّ الألم، ولسارع قائلاً لك: أنا فعلت هذا لله، لا أريد جزاءً ولا شكوراً.

قال لي يوماً أخ كريم... لديه أزمة في قلبه، يحتاج إلى عملية، تكلِّف مبلغاً ضخماً، تلقى اتصالاً هاتفياً من امرأةٍ محسنة، قالت له: اتَّصل غداً بالطبيب الفلاني إنه سيجري لك العملية مجاناً، وهناك إنسان آخر يقيم احتفالاً يكلف ملايين ليزهو أمام الناس ويضنُّ أن يتصدَّق بمئة ليرة.

الذي قدَّم العمل الصالح كان مقدَّماً عند الله، والذي قدَّم شهواته على أعماله الصالحة كان مؤخَّراً عند الله، فالله سبحانه وتعالى يقدِّم ويؤخِّر.

في الحقيقة يجب أن يكون مسارك في الحياة واضحاً جلياً... فكثيرة هي المقاييس المادية، فإنسان يتقدَّم بماله، يتقدَّم بمرتبته، أحياناً يتقدَّم بنَسَبه، أو بقوَّته، يتقدَّم بذكائه، يتقدَّم تقدماً مبدئياً، أو تقدُّماً مؤقتاً، فإن لم يكن مطيعاً لله أخَّره الله، هذا التقديم تقديم امتحان، أو تقديم استدراج، إن لم يكن في مستوى هذا التقديم أخَّره الله عز وجل، إمَّا أن يؤخره بفضيحة، أو بكفِّ يدٍ، أو بإهمالٍ وازدراء، أو بخطأٍ فاحشٍ يرتكبه يُعاقَب عليه، أما المؤمن فدائماً خطُّه البياني صاعدٌ صعوداً مستمراً...

فالكافر قد يصعد خطُّه البياني صعوداً حادّاً ليسقط بعدها سقوطاً مريعاً، أمَّا المؤمن فصعود خطّه منتظمٌ بطيءٌ مستمرٌّ، وهذا الصعود إلى أبد الآبدين، الله مقدِّم ومؤخِّر، يقدِّم أناساً ويؤخِّر أناساً.

كلُّكم يعلم قصة سيدنا عبد الله بن رواحة عندما عيَّنه النبي ﷺ قائداً ثالثاً لجيش مؤتة، وكيف أنَّ القائد الأول سيدنا زيد تقدَّم وأخذ الراية فقاتل بها حتى قُتل، وقد قال عنه النبي ﷺ: إني لأرى مقامه في الجنة، وكيف أنَّ سيدنا جعفراً رضي الله عنه أخذ الراية بَعْدَهُ وتقدَّم بها فقاتل حتى قُتل، وقال عنه النبي ﷺ: وإني لأرى مقامه في

الجنة، وتروي بعض الروايات أن القائد الثالث سيدنا عبد الله بن رواحة لما رأى صاحبيه قُتلا في وقت قصير تردَّد في أخذ الراية، وقال:

يـــا نفـــسُ إلا تُقـــتلي تمـــوتي   هـــذا حِمـام المـــوت قـــد لَقيـــتِ
إن تفعـــلي فعلهـــما رضـــيتِ   وإن توليـــتِ فقـــد شَـــقيتِ

حدَّث النبي ﷺ أصحابه عن سيدنا زيد وسيدنا جعفر ثم سكت. قال أصحابه من الأنصار: يا رسول الله ما فعل عبد الله بن رواحة؟! قال: ثم أخذها عبد الله بن رواحة، فقاتل بها حتى قُتل شهيداً ثم قال: «لقد رفعوا لي في الجنة فيما يرى النائم على سُررٍ من ذهب، فرأيت في سرير عبد الله ازوراراً عن سريري صاحبيه فقلتُ: عَمَّ هذا؟ فقيل لي: مضيا وتردد عبد الله بن رواحة بعض التردد [حلية الأولياء، للأصبهاني] فالله يقدِّم ويؤخِّر.

المؤمن إذا أراد أن يتخلَّق بكمالات الله، يقدِّم أمور الآخرة على أمور الدنيا... فقد تجد إنساناً مستعداً لأن يترك صلاة ومجلساً للعلم لإصلاح آلة تافهة في بيته... أليس كذلك؟ أو يترك صلاة ومجلس علم لاستقبال ضيف بسيط حديثه فارغ، يستحي أن يقول له: لدي الآن درس وهيا نذهب معاً إلى المسجد لسماعه.

المؤمن إذا أراد أن يتخلق بكمالات الله فإنَّه يقدِّم أعمال الآخرة على أعمال الدنيا، ففي حياته أولويات... تلاحظ أن أصحاب الأعمال الناجحين أحدهم يمضي وقتاً معيناً يقرأ جريدة، ويشرب كأساً من الشاي، لكن إذا جاءه زبون ترك الجريدة وترك كأس الشاي، وقام بإقناع الزبون بالشراء... معنى ذلك أن هذا المحل تجاريٌّ وأساسه الربح، فإذا جاء زبون يجب أن نهتم جميعاً به، وليس من المعقول أن ينتظر الزبون حتى تنتهي المقالة التي نقرؤها؟ لا أحد يفعل ذلك، كلُّنا نقدِّم الأهم على المهمِّ، وإذا أنت فعلت ذلك فمن باب أولى أن تقدِّم الأهم على التافه، فأمور الدنيا تافهة.

قمنا بتشييع جنازة يوماً ودخلنا إلى المقبرة، قلت لمن كان إلى جانبي: كل هؤلاء الموتى ماتوا وفي دفاترهم قوائم لأعمال طويلة وكثيرة لم تنتهِ بعد.

الإنسان يُنتزع من بيته، من عمله، لم يفرغ بعد من إعمار بيته، أو لم ينتهِ من دراسته الجامعية، فكلٌّ هؤلاء الموتى تركوا الدنيا وتركوا همومها ومتاعبها، كما تركوا قوائم أعمال لم تُنجز بعد... فعلى الإنسان أن يقدِّم الآخرة على الدنيا.

أنت مؤمن وينبغي أن تشتق من كمال الله كمالاً تتقرب به إليه، أنت رئيس دائرة، مدير مستشفى، رئيس جامعة، صاحب شركة، عندك موظفون، يجب أن تقدِّم، لكن من تقدِّم؟ المؤمن يقدِّم بمقاييس موضوعية، وغير المؤمن يقدِّم بمقاييس انتمائية، والدول المتقدِّمة جداً والقوية جداً تقدِّم بمقاييس موضوعية، والدول المتخلفة تقدم بمقاييس انتمائية.

المؤخر

ورد هذا الاسم في السنة الصحيحة ففي صحيح البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قام من الليل يتهجّد فقال:

«اللهمَّ رَبَّنا لك الحمدُ، أَنْتَ قَيِّمُ السماوات والأرضِ ومَن فِيهنَّ، ولك الحمدُ أنت نورُ السماوات والأرضِ ومن فيهن، ولك الحمدُ، أنتَ مَلِك السماوات والأرضِ ومن فيهن، ولك الحمدُ، أنت الحقُّ، وَوَعْدُكَ الحقُّ، ولقاؤكَ حَقٌّ، وقَولك حَقٌّ، والجنَّةُ حَقٌّ والنَّارُ حَقٌّ، والنَّبيُّونَ حَقٌّ، ومحمدٌ حَقٌّ، والساعةُ حَقٌّ، اللهمَّ لك أسلمتُ، وبِك آمَنتُ وعليك توكلتُ، وإليك أَنبتُ، وبِكَ خَاصَمتُ، وإِليكَ حاكمتُ، فاغفر لي ما قَدَّمتُ، وما أَخَّرْتُ، وما أسررتُ، وما أَعلَنتُ، أنت المقَدِّمُ وأنت المؤَخِّرُ، لا إِلهَ إلا أنت، ولا إله غَيرُكَ» [البخاري ومسلم عن عبد الله بن عباس].

وإذا سلَّم من الصلاة قال: «اللهمَّ اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت وما أنت أعلم به مني، أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر، لا إله إلا أنت» [ابن خزيمة عن علي بن أبي طالب].

من معاني اسم الله المؤخر

المؤخِّر عكس المقدِّم، والفعل أخَّر، يؤخِّر، والمصدر تأخير، وقد ورد عند البخاري من حديث عمر بن الخطاب:

«لَمَّا مَاتَ عبدُ الله بن أُبيٍّ بن سَلول ودُعيَ له رسولُ الله ﷺ لِيُصليَ عليه، فلما قامَ رسول الله ﷺ وَثَبْتُ إليه فقلتُ: يا رسولَ الله أتُصلِّي على ابن أُبَيٍّ وقد قال كذا وكذا يوم كذا وكذا؟! أُعَدِّدُ عليه قولَهُ، لئن رجعنا إلى المدينة ليخرج الأعز منا الأذل، فتبسَّمَ رسولُ الله ﷺ، وقال: أَخِّرْ عَني يا عُمَرُ فلما أَكْثَرْتُ عليه قال: أما إني خُيِّرْتُ فاخترتُ لو أَعلمُ أَني إن زدتُ على السبعين يُغْفرْ له، لَزِدْتُ عليها.

فصلَّ عليه رسوله الله ﷺ، ثم انْصرَفَ، فلم يَمكُثْ إلا يسيرا حتى نزلت الآيتان: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [التوبة:٨٤].

«قال: فعجبتُ بعدُ من جُرْأَتي على رسول الله ﷺ يومئذٍ والله ورسولُهُ أعلم، فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق، ولا قام على قبره، حتى قَبَضَهُ اللهُ» [أخرجه البخاري والترمذي والنسائي عن عمر بن الخطاب].

أخّر عني أي ابتعد عني، وفي الحديث: «ما سُئِلَ النبيُّ ﷺ يومئذ عن شيءٍ قُدِّمَ ولا أُخِّرَ، إلا قال: افْعَلْ، ولا حَرَجَ» [البخاري عن ابن عمر].

هذه في الحج.

وفي حديث آخر: «كان النبي ﷺ إذا ارتحل قبل أن تزيغ الشمس أخر الظهر إلى وقت العصر ثم يجمع بينهما، وإذا زاغت صلى الظهر ثم ركب» [البخاري عن أنس بن مالك].

الله جل جلاله هو المؤخِّر أي هو الذي يؤخِّر الأشياء فيضعها في مواضعها، إمَّا تأخيراً كونياً أو تأخيراً شرعياً، فعن أم حبيبة أنها قالت:

«اللهمَّ أَمتعني بِزَوجي رسولِ الله ﷺ، وبأَبي أبي سفيان وبأَخي معاوية، فقال النبي ﷺ: سَالتِ الله لآجالٍ مَضروبة، وأَيَّام مَعدودةٍ، وأرزاقٍ مقسومة، لن يعَجِّلَ شيئاً منها قبل حِلِّه ولا يُؤَخِّرَ، ولو كنْتِ سأَلتِ الله أَنْ يُعِيذَكِ من عذابٍ في النَّار وعذابٍ في القبرِ كان خيراً وأفضلَ» [مسلم عن ابن مسعود].

إذاً هناك تأخير كوني، فلان ولد قبل فلان فهو مقدَّم، وفلان جاء بعد فلان فهو مؤخَّر، فالتقديم والتأخير الكونيُّ متعلِّق بالآجال.

امرأة قدَّمها بالجمال، وأخَّر امرأة أخرى بالجمال، أمَّا المؤخرة في الجمال فقد قدمها في العلم، هذا التقديم والتأخير الكوني، أمَّا الشرعي فمن أمثلته أنّه شرع لنا أن نقدِّم الإفطار مباشرة، أن نؤخِّر السحور.

فكما ورد من حديث أبي عطية أنه قال: «دخلتُ أنا ومسروق بن الأجدع على عائشةَ أمِّ المؤمنين فقلتُ: يا أمَّ المؤمنين، رَجُلانِ من أصحاب محمد ﷺ، أحدهما يعجِّلُ الإفطار، ويعجِّل الصلاة، والآخرَ يؤخِّرُ الإفطارَ ويؤخِّر الصلاةَ، قالت: أيُّهما الذي يُعجِّل الإفطار ويعجِّل الصلاةَ؟ قال: قلنا: عبد الله بن مسعود، قالت: كذا كان يصنع رسولُ الله ﷺ» [مسلم عن أبي عطية].

هذا تأخير شرعي، وهو متعلِّق بالأعمال.

من معاني المؤخر في حقِّ الله تعالى كما يقول العلماء: الذي يؤخِّر المشركين... القتلى المشركون في بدر... جعل النبي ﷺ يناديهم بأسمائهم، وأسماء آبائهم: يا فلانُ بن فلان، ويا فلان بن فلانُ، أيَسُرُّكم أنَّكُم أطعتُم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وَعَدنا ربُّنا حقاً، فهَل وجدتم ما وعدَ ربكمْ حقّاً؟ فقال عمر: يا رسولَ الله، ما تُكلِّم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال النبيُّ ﷺ: والذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ، ما أنتُم بأسمعٍ لما أقولُ منهم. قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قولَهُ، توبيخاً، وتصغيراً، ونقيمة، وحسرة، وندماً [البخاري ومسلم من حديث أنس عن أبي طلحة].

الله أخّرهم... ماتوا حتفَ أنوفهم، ماتوا كالجيف، أما أصحابه الكرام فقد تألَّقوا كالنجوم.

فنحن نذكر اسم سيدنا عمر مئات المرات، ونترضى عنه كلَّ يوم وكلَّ ساعة، وفي كلِّ مسجد، وفي كلِّ بلد إسلامي... استحقَّ ثناء الخالق والمخلوقين، على حين أنَّ هناك من استحقَّ لعنة الله والملائكة والناس أجمعين كأبي جهل وأمثاله.

المؤخِّر في حقِّ الله تعالى هو الذي يؤخِّر المشركين، ويرفع المؤمنين، يؤخِّر العصاة، ويرفع الطائعين.

روى ابن المبارك قال: حدثنا جرير بن حازم قال: سمعت الحسن يحدث، يقول: حضر الناس باب عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفيهم سهيل بن عمرو وأبو سفيان ابن حرب وأولئك الشيوخ من قريش، فخرج آذِنُه فجعل يأذن لأهل بدر: لصهيب وبلال وعمار وأهل بدر وكان يحبهم، وكان قد أوصى بهم، فقال أبو سفيان: ما رأيت كاليوم قط، إنه ليؤذَن لهؤلاء العبيد ونحن جلوس لا يلتفت إلينا! فقال سهيل بن عمرو: -قال الحسن: ويا له من رجل ما كان أعقله- أيها القوم إني والله قد أرى الذي في وجوهكم، فإن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم، دُعي القوم ودُعيتم، فأسرعوا وأبطأتم، أمَا والله لما سبقوكم به من الفضل أشدُّ عليكم فوتاً من بابكم هذا الذي تتنافسون فيه، ثم قال: أيُّها القوم إنَّ هؤلاء القوم قد سبقوكم بما ترون ولا سبيل لكم -والله- إلى ما سبقوكم إليه! فانظروا هذا الجهاد فالزموه عسى الله عز وجل أن يرزقكم شهادة.

قال الحسن: فصدق والله! لا يجعل الله عبداً له أسرع إليه كعبد أبطأ عنه [المستدرك للحاكم].

الله قدَّم بلالاً وصهيباً وأخّر أبا سفيان... أسلم متأخراً ورضي الله عنه، ولكن ليسوا سواءً، فمن خاض ضدَّ رسول الله المعارك أكثر من عشرين سنة ثم بعد ذلك أسلم، كَمَنْ قام بنصره منذ البداية؟! فهناك فرقٌ كبير جداً بينهما، ولكلٍّ حسابه.

إذاً... يؤخِّر المشركين، ويقدِّم المؤمنين، ويؤخِّر العصاة ويقدِّم الطائعين.

ومن معاني المؤخِّر أنَّه يؤخِّر العقوبة لحكمةٍ بالغة، قد يكون إنسانٌ مرتكباً لمعصية، ومتلبساً بها ولكن في علم الله فيه خير، لو أنَّ الله عاقبه بمعصيته لأهلكه، فالله عز وجل يعلم حقيقة نفسه فيؤخِّر عنه العقوبة فلعله يتوب، فيكون التأخير منه سبحانه لحكمةٍ بالغة.

مصائب المنحرفين، والعصاة، نوعان... مصائب قصمٍ، ومصائب ردع، القصم كما قال الله عز وجل عن قوم نوح: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [هود:٣٦].

هناك أشخاصٌ في علم الله لا يهتدون، لذلك يقصمهم الله عز وجل، أشخاص فيهم بقية خير، فالله عز وجل يسوق لهم بعض الشدائد ليرجعهم لكن لا يقصمهم، فالله يقدِّم هلاك إنسان ويؤخِّر هلاك إنسان، لذلك أخَّر فتْحَ مكة قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الفتح:٢٥].

أناس مؤمنون ضعفاء خافوا أن يُعلنوا إيمانهم في مكة، فالله عز وجل أخّر فتح مكة ومنع الصحابة الكرام من قتال أهل مكة إكراماً لهؤلاء.

والله تعالى يقدِّم العقوبة أو يؤخِّرها، يقدِّم المكافأة أو يؤخِّرها.

أحياناً قد يقدِّم الله المكافأة لإنسان، فيرتاح ويقعد ويتوانى ويتكاسل، وأحياناً يؤخِّر الله لإنسان المكافأة فييأس... ولحكمةٍ أرادها الله يقدِّم المكافأة أو يؤخِّرها، يقدِّم العقاب أو يؤخِّره... فمن أسمائه المقدِّم والمؤخِّر.

والآية التي تؤكِّد تأخير العقاب هي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النحل:٦١].

كل شيء خلقه الله تعالى فهو الكمال المطلق، وأيُّ عدول عن فطرة الخالق سيكون نحو الأسوأ، وفي الحديث أنَّ رسول الله ﷺ: «رأى في أصحابه تأخرا، فقال لهم: تقدَّمُوا فأتمُّوا بي، وليأتَمَّ بكم مَنْ بَعْدَكم، ولا يزالُ قومُ يتأخرُونَ حتى يؤخِّرُهم الله» [مسلم عن أبي سعيد الخدري].

هو المؤخر حينما تأخّرت، فتأخير الله هو تجسيد لرغبتك في التأخر.

فالتأخير هنا تأخير جزائيّ مبنيٌّ على تأخُّر اختياري.

نصيب المؤمن من اسم الله المؤخر

قال العلماء: متى أشرق في قلبك نور اسمه المؤخِّر، صرت في كلِّ الأمور متدبِّراً فتؤخِّر كلَّ ما أخَّره الله.

فالله يقدِّم ويؤخِّر... وأنت أيُّها المؤمن من لوازم تأدُّبك مع اسم المؤخِّر أن تقدِّم أهل الإيمان، وأن تؤخِّر أهل الدنيا، فإذا دعي الإنسان العادي من قبل إنسانٍ غنيٍّ تراه يلبّي الدعوة مئة في المئة، أمَّا إذا دُعي من قِبَل إنسان فقير يسكن في أطراف المدينة فإنَّه يعتذر متعلِّلاً بعمله وانشغاله وبعدم فراغه وأنه محمي عن الطعام... تلبية دعوة الأغنياء والأقوياء من الدنيا، وتلبية دعوة المؤمنين من الآخرة، قال ﷺ: «لو دُعِيتُ إلى كُراعٍ لأجَبْتُ، ولو أُهديَ إليَّ كُراعٌ لقَبِلتُ» [البخاري، من حديث أبي هريرة].

والنبي ﷺ بهذه المناسبة حضَّنا على تلبية الدعوة فقال: «فمن لم يأتِ الدَّعوة فقد عصى الله ورسوله» [رواه مسلم، من حديث أبي هريرة].

وروي أيضاً:

عَنْ نَافِعٍ قَالَ: قَالَ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ: قَالَ رَسولُ الله ﷺ: «مَنْ دُعِيَ فَلَمْ يُجِبْ فَقَدْ عَصَى اللهَ وَرَسُولَهُ، وَمَنْ دَخَلَ عَلَى غَيْرِ دَعْوَةٍ دَخَلَ سَارِقاً وَخَرَجَ مُغِيراً» [سنن أبي داود، من حديث عبدالله بن عمر].

دُعي أحد الصحابة ذات مرَّة إلى وليمة فقال: إني صائم، فقيل له: اذهب معنا، وصلِّ وقت طعامنا، وقال ﷺ: «إذا دُعي أحدكم إلى طعام، وهو صائم، فليقل: إني صائم» وفي رواية قال: «إذا دعي أحدكم فليجب، فإن كان صائماً فليُصَلِّ، وإن كان مفطراً فليطعم» [رواه مسلم، من حديث أبي هريرة].

معنى ذلك أنّه ليس القصد من الدعوة أن تملأ البطن، القصد من الدعوة أن تلتقي بإخوانك، أن تجتمع إليهم، أن تذْكُر الله معهم، يعني أنك لو كنت صائماً فلبِّ الدعوة وإن لم تأكل شيئاً، فإذا كان الهدف الأكل فليس للدعوة أيَّة قيمة في أن يلبي صائمٌ الدعوة، وأما إذا كان الهدف اللقاءَ مع إخوانك وأن تتذاكر معهم أمور الدين فالأكل أصبح شيئاً ثانوياً، فإذا كنت صائماً فلبِّ الدعوة واجتمع إليهم وادعُ وقت الطعام.

عن أبي سعيد الخدري قال: صنعت لرسول الله ﷺ طعاماً فأتاني هو وأصحابه فلما وُضع الطعام، قال رجل من القوم: إني صائم فقال رسول الله ﷺ: «دعاكم أخوكم وتكلف لكم» ثم قال له: «أفطر وصم مكانه يوماً إن شئت» [البيهقي في السنن الكبرى بإسناد حسن].

إذاً المؤمن يقدم أهل الإيمان ودعوة أهل الإيمان.

سرّني أن أحد الأشخاص وصل إلى منصب رفيع جداً، وزاره أستاذه وهو رجل علم ودين، فنزل من الطابق الثالث وفتح له باب السيارة وبالغ في توقيره أمام الناس، وإن من إجلال الله إجلال ذي الشيبة المسلم.

فأنت عندما تقدِّم أهل الإيمان تنعشهم، ألم يقل رسول الله ﷺ: «إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم، رضاً بما يصنع» [ابن حبان في صحيحه، من حديث صفوان بن عسال]، أنت عندما تتخلَّق بكمالات الله، تقدِّم المؤمن وتجله، وإذا وجدت فاسقاً أو فاجراً تؤخِّره، تأخيرك إياه له معنى ردع له وتحجيم لحاله، أما أكثر الناس فيعظمون أهل الدنيا، ويثنون عليهم.

ولقد سمعنا عن أدباء في بلدٍ عربيٍّ مسلم من خلال كتاباتهم أنهم كانوا زُناة في أوروبا، والآن يوصف بأنه الأديب الكبير، المسرحي الكبير، فهذا إنسان غير ملتزم بقيم دينه، مقترف لأكبر المعاصي، فأنت أيها المؤمن عليك أن تتخلق بكمالات الله، أن تقدم المؤمنين، أن تقدم الورعين، أن تقدم الأتقياء، وأن تؤخر أهل الدنيا العصاة، الفساق، لأن الله عز وجل كما روي عن رسول الله ﷺ يغضب إذا مُدح الفاسق في الأرض [البيهقي في شعب الإيمان، من حديث أنس].

أي إذا مدحت فاسقاً فإنك قلبت الأمور رأساً على عقب، ابنك يعرفه مثلاً منحرفاً، يعرف بيته متفلتاً، وأنت تثني عليه أمام ابنك، وابنك في الصف السابع... تقول عنه: ما شاء الله فهم وذكاء ولباقة وعلم وأدب وأسرة راقية ونسب مع أنه لا يصلي، سلوكه منحرف وكلامه أحياناً بذيء، والابن يراه أمامه، فهذا المديح لأشخاص ينبغي أن يؤخَّروا استهتار منك وهدر للقيم، يجب أن تقدم أهل الإيمان، وكلُّ إنسان يقدِّم أهل العلم وأهل الإيمان، يكون ذا إيمان قوي، وإذا وَجَدَ إنساناً عاصياً ومنحرفاً وفاجراً أخّره.

لذلك من السنّة ألا تحترم المبتدع، فالإنسان المبتدع عقيدته فاسدة، ويروِّج فكراً منحرفاً، ويروّج ضلالات. تحترمه وتعظمه وتبجله وتثني عليه؟ أنت أحدثت في الناس فتنة وبلبلت الأمور، فإن الله ليغضب إذا مُدح الفاسق.

من تطبيقات هذا الاسم: يجب أن تقدم المستقيم المؤمن الورع، فإذا كانت قيمنا مادية، نقدم الأغنياء، ونقدم الأقوياء، أما إذا كانت قيمنا إسلامية نقدم أهل العلم، نقدم أهل الفضل، نقدم الورعين، الطائعين.

عَنْ عائِشَةَ أَنَّ قُرَيْشاً أَهَمَّهُمْ شَأْنُ المَرْأَةِ المَخْزُومِيّةِ التِي سَرَقَتْ فَقَالُوا: مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ الله ﷺ؟ فَقَالُوا: ومَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إلا أُسَامَةُ حِبُّ رَسُولِ الله ﷺ؟! فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ الله» ثُمَّ قامَ فَاخْتَطَبَ فَقَالَ: «أَيُّها النَّاسُ إِنَّما أَهْلَكَ الذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إذا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ،

وَإذا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعيفُ أقامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَايْمُ الله لَوْ أنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَها» [صحيح البخاري].

هذا هو ديننا، لو أن فاطمة بنت محمدٍ سرقت لقطعت يدها.

لذلك فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم... فالنبي ﷺ روي عنه: «اللهمَّ! لا تجعل لفاجر عندي نعمة أكافيه بها في الدنيا والآخرة» [أخرجه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، من حديث معاذ بن جبل].

لا تخضع لكافر، لا تقبل منه عطاء أو نحوه كأن يقوم بإيصالك بمركبته ويستعلي عليك، فأنت عزيز، أما إذا كان مؤمناً فلا مانع من ذلك، لكن إذا كان إنساناً منحرفاً ومتفلِّتاً يمنّ عليك ويتفضَّل عليك أن تقبل عطاءه؟ فلا تقبل منه شيئاً.

قال العلماء: من أدب المؤمن مع اسم المؤخِّر... أن يؤخر حظوظ نفسه، وأن يؤخر نزواتها، أن يؤخر أهواءَها. قال عبد الرحيم البرعي:

لا تتبــع الــنفس هواهـــا ... إن اتبـــاع الهـــوى هـــوان
واخجلتـــي مـــن عتـــاب ربي ... إنْ قـــال لي أسرفـــت يـــا فـــلان
إلى متـــى أنـــت في المعـــاصي ... تســير مرخـــى لـــك العنـــان
عنـــدي لـــك الصـــلح وهـــو بـــرِّي ... وعنـــدك الســـيف والســـنان
تـــرضى بـــأن تنقـــضي الليـــالي ... ومـــا انقضـــت حربـــك العـــوان

يجب أن تؤخر حظوظ النفس، وقد ذكرت كثيراً: ضع حظوظ نفسك تحت قدميك، إذا كنت تحب الله ورسوله.

قال أبو مريم السلولي لسيدنا عمر: أتحبني؟ فقال له: لا والله لا أحبك حتى تحب الأرض الدم. فقال له: وهل يمنعك بغضك لي من أن تعطيني حقي؟ قال له: لا والله، قال: فلا ضير إذاً. إذن هو يعطي الحق لأصحابه؟

الإنسان يوم القيامة يُنبَّأ بما قدم وأخر... مثلاً استحق على هذا الإنسان زكاة ماله وبيته يحتاج إلى طلاء، فإذا قدم أداء زكاة ماله فهو مؤمن، أما إذا قدم طلاء بيته على أداء زكاة ماله، فقد أخّر ما ينبغي أن يقدِّمه، وقدَّم ما ينبغي أن يؤخِّره... يُنبأ الإنسان يومئذٍ بما قدَّم وأخَّر.

بعض الناس قد يقدِّم مصالحه الشخصية على دينه، ويقدِّم دخلاً مشبوهاً على نزاهته، يقدِّم شيئاً ينفعه في دنياه لكن يغضب ربه، ينبأ الإنسان يومئذٍ بما قدَّم وأخَّر.

قد يقدِّم شهوته على طاعة ربه، يُقْدِم على كسب مال غير مشروع ويقدِّمه على طاعة ربِّه، وكل إنسان يوم القيامة يُنبَّأ بما قدَّم وأخَّر، هذا قدَّمته وهذا أخَّرته، هذا فضَّلته وهذا أهملته، هذا أعطيته وهذا منعته، هذه الشهوة فعلتها خلاف منهج الله، وهذه الطاعة تركتها خلاف منهج الله، فقد قال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ [القيامة:١٣-١٥].

قال الله عز وجل: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء:٣٤].

فإذا قدَّم الله الرجال في قيادة الأسرة، وجعلهم قوامين على النساء، فأيُّ إنسان يقدِّم المرأة في القوامة فقد قدَّم ما أخره الله، وأيُّ إنسان يؤخِّر الرجل في القوامة فقد أخَّر ما قدَّمه الله، فالمؤمن يقدِّم ما قدَّمه الله، ويؤخِّر ما أخره الله.

وفي آية ثانية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الحجرات:٢].

هذه الآية في حياة النبي لها معنىً معين، لكن بعد انتقال النبي إلى الرفيق الأعلى فهناك معنى آخر، أنت حينما ترفع صوتك فوق صوت السنة، وترى أن هذه السنة لا تصلح لهذه الأيام، هذه السنة تصلح لعصر الصحراء والجمل، لا تصلح لعصر

الحواسيب والفضائيات، حينما تتهم السنة أنها لا تلبي حاجات العصر فقد رفعت صوتك فوق صوت النبي، إذا قدَّمت شيئاً لا يرضي الله على سنة رسول الله، قدَّمت ما أخَّره الله.

ينبغي للمؤمن باسم المؤخِّر أن يحذر من تقديم ما أخَّره الله، ولو اجتمع الخلق على تقديمه، فهل من المعقول أنَّ مصمم أزياء كافراً، يصمِّم أزياء فاضحة لنساء المسلمين، ونحن خاضعون لهذا المصمّم، قدّمنا إنساناً لا وزن له عند الله ورجحت مكانته على شرع الله القاضي بالتستر.

المؤمن يقدِّم ما حقُّه التقديم، ويؤخِّر ما حقُّه التأخير، والمؤمن يتخذ مقاييس متوافقة مع مقاييس القرآن.

رجل أعرفه زكاة ماله تقدَّر بعشرة آلاف وأربعمئة و خمسين ليرة، ضغطت عليه زوجته من أجل طلاء البيت، وتجديده، وعليه زكاة يجب أن يؤديها، فقدَّم طلاء البيت على دفع زكاة ماله، له مركبة، صار معه حادث، يقسم لي بالله: كلفة إصلاح المركبة وطلائها، وثمن القطع قدِّر بعشرة آلاف وأربعمئة و خمسين ليرة بالضبط، هو قدَّم طلاء البيت استجابة لضغط زوجته على أداء الزكاة وهي فرض فعاقبه الله عز وجل بحادث، دفع هذا المبلغ الذي يساوي الزكاة تماماً على إصلاح مركبته ديناً.

فلذلك إذا قدم الإنسان ما حقه التأخير أو أخّر ما حقُّه التقديم فإنّ الله تعالى يؤدبه إذا كان مؤمناً، فالبطولة أن تقدم ما قدمه الله، وأن تؤخر ما أخره الله، وأن ترعى حق الله وحق الناس، وأن تأتي مقاييسك متوافقة مع مقاييس القرآن الكريم، عندئذٍ تكون قد استفدت من اسمي المقدّم و المؤخِّر.

من أدعية النبي ﷺ أنه كان يدعو ويقول:

«رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وإِسْرَافِي فِي أَمْرِي كُلِّهِ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللهمَّ اغْفِرْ لِي خَطَايَايَ، وعَمْدِي وجَهْلِي وهَزْلِي، وكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللهمَّ اغْفِرْ لِي مَا

قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ، وأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، وأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [صحيح البخاري من حديث أبي موسى الأشعري].

قدِّم كل ما يُرضي الله وأخِّر شهوتك وكل ما لا يُرضي الله، تكن من أسعد الناس في الدنيا والآخرة.

المسعّر

ورد هذا الاسم في حديث صحيح في سنن الترمذي عَنْ أَنَسٍ قَالَ:

«غَلَا السِّعْرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، سَعِّرْ لَنَا، فَقَالَ: إِنَّ الله هُوَ الْمُسَعِّرُ القَابِضُ البَاسِطُ الرَّزَّاقُ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ القَى رَبِّي وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَطْلُبُنِي بِمَظْلِمَةٍ فِي دَمٍ وَلَا مَالٍ».

من معاني اسم الله المسعر

المُسَعِّر اسم فاعل، من فعل رباعي، سعَّر يسعِّر فهو مسعِّر.

ويقال: سعّر يسعِّر تسعيراً وتسعيرة، أي وضع سعراً محدداً لهذه السلعة، وقولك: سعّر النار؛ أي أشعلها، والآية الكريمة: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ۝٩٧﴾ [الإسراء:٩٧].

﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢﴾ [التكوير:١٢].

والمُسَعِّر هو سبحانه وتعالى، لأنه يزيد الشيء، ويرفع من قيمته، أو من تأثيره، أو من مكانته، أو يخفض من قيمته أو تأثيره أو مكانته، يقول الله عز وجل: ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الفتح:١٣].

اسم المُسَعِّر يدلُّ على ذات الله، وعلى صفة التسعير، يقول أبو هريرة رضي الله عنه: حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكلُّ أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن ورجل يقتتل في سبيل الله ورجل كثير المال، فيقول الله للقارئ ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي قال بلى يا رب قال فماذا عملت فيما علمت قال

كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار فيقول الله له كذبت وتقول له الملائكة كذبت ويقول الله بل أردت أن يقال إن فلانا قارئ فقد قيل ذاك، ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد قال بلى يا رب قال فماذا عملت فيما آتيتك قال

كنت أصل الرحم وأتصدق فيقول الله له كذبت وتقول له الملائكة كذبت ويقول الله تعالى بل أردت أن يقال فلان جواد فقد قيل ذاك

ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله فيقول الله له في ماذا قتلت فيقول أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت فيقول الله تعالى له كذبت وتقول له الملائكة كذبت ويقول الله بل أردت أن يقال فلان جريء فقد قيل ذاك ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتي فقال يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة [أخرجه مسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة].

العلم ما أفضى بك إلى قانون، والقانون هو علاقة ثابتة بين متغيرين، مقطوع بصحتها، تطابق الواقع، عليها دليل، فإن لم تطابق الواقع كان الجهل، وإن لم يكن عليها دليل كان التقليد، وإن لم يكن مقطوعاً بصحَّتها كان الوهم والشَّكُّ والظَّنُّ.

فالعلم يقينيٌّ، شموليٌّ، مطّرد.

إذاً: في الكون قوانين كثيرة، وهذه القوانين ثبّتها الله عز وجل، كي تستقرَّ حياتنا، ألوف القوانين، الفيزيائية، والكيميائية، والفلكية، وخصائص المواد، ثابتة من آدم إلى يوم القيامة.

مثلاً: يمكن أن تقول: في عام ٢٧٠٠ - في يوم ٢٨ شباط تشرق الشمس في الرابعة والنصف، لأن دورة الأفلاك ثابتة، بالثواني، الحديد له خصائص، أنشأنا بناء من مئة طابق، لو أنَّ الحديد يغيِّر خصائصه لانهار البناء، تشتري سبيكة ذهبية بمبلغ كبير جداً، لو أنَّ الذهب يغير خصائصه لفقدت هذه السبيكة قيمتها.

هناك نِعم لا تُعدُّ ولا تُحصى، قوانين ثابتة، تزرع فاكهة معينة، ثم تأتي الثمرة من هذه الفاكهة، لأن قوانين الإنبات ثابتة، وقوانين الأفلاك ثابتة، وقوانين الدوران ثابتة، وقوانين الليل والنهار ثابتة، وخصائص المواد ثابتة، وقوانين الزراعة ثابتة، هذه نعمة لا تعدلها نعمة، فكل هذه القوانين ثابتة مطّردة، شاملة، لا تتغير، ولا تتبدل، وهي محل اتفاق في العالم كلِّه، فقانون التمدد لا علاقة له بالسياسة، في الشرق، والغرب، والشمال، والجنوب، وقديماً وحديثاً، في بلد متخلف، وفي بلد متقدم، القانون هو القانون، هناك نِعم لا تعد ولا تحصى منها ثبات القوانين لتكون حياتنا مستقرة.

ولكن لحكمة بالغة حرَّك الله بعض القوانين، من هذه القوانين الرزق، هذا قانون متبدِّل، وكذلك الصحة، والإنسان حريص على صحته حرصاً لا حدود له، وحريص على رزقه حرصاً لا حدود له، ولعل الحكمة من ذلك أنَّ الله عز وجل يريد أن يكون الرزق والصحة وسيلتين من وسائل التربية.

الطاولة مثلا صنعت لاستخدام لا يزيد على بضع مئات من الغرامات، لكن يمكن أن يقف عليها ستة أشخاص، معنى ذلك أن فيها ألف ضعف احتياطيّ عن استعمالها، إذاً يمكن أن تعيش مئات السنين كما هي، لأنه فيها احتياطًا على مهماتها ألف ضعف.

كان من الممكن أن يكون لكلِّ جهاز في جسمنا، ولكلِّ عضو ألف ضعف احتياطاً، فلا مرض، والإنسان بالتعبير المعاصر سريع العطب، خثرة في الدماغ تنهي حياته، أو سكتة قلبية، فكان من الممكن لإنسان أن يعيش مليون سنة كما هو شاب تماماً، لكن شاءت حكمة الله أن يكون المرض، والصحة متبدلة.

بالتعبير الاقتصادي: الكمُّ له علاقة بالسِّعر، فأحيانا تكون كميات المحاصيل كبيرة جدّاً، فينخفض السعر، وأحيانا يكون الكمُّ قليلا، فيرتفع السعر، إذاً الله تعالى هو المسعِّر.

فالله عز وجل ثبَّت أشياء كثيرة، وحرَّك بعض الأشياء، من أجل أن يربينا، لأنَّ الإنسان في الأصل خُلِقَ هلوعاً، وهذا ضعف في أصل خلقه، وهو ضعف لصالحه، من أجل تربيته، لو لم يكن الإنسان هلوعاً لما تاب بعد شدّة، ولما اصطلح مع الله بعد عسر، لأن العسر يقلقه، والشدة تقلقه، والخوف يقلقه، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المعارج:١٩-٢٢].

الإنسان أحياناً يسعد بصحته، فإذا لاح له شبح مرض لجأ إلى الله، وهذا من فضل الله علينا.

وخلق ضعيفاً ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء:٢٨].

لأنه إذا كان ضعيفاً افتقر في ضعفه، فسعد بافتقاره، ولو خلقه الله قوياً لاستغنى بقوته فشقي باستغنائه.

أحياناً يكون الإنسان قويّا، وغنيا، يتوهم أنه مستغنٍ عن الله، وكلُّ إنسان يعتدّ بحجمه المالي، أو بصحته، أو بمكانته، أو بقوَّته، أو بمنصبه، لحكمة بالغةٍ بالغة يؤتى الحذر من مأمَنه، من جهة أمنه، من جهة ثقته، من جهته قوته، وقد قيل: عرفت الله من نقض العزائم.

الله تعالى هو المُسَعِّر بيده الرزق، الأمطار بيده، زرت بلدا في إفريقيا فوجدت أنَّ ما يهطل من أمطار في الليلة الواحدة يساوي أمطار دمشق في عامين، وفي أماكن أخرى فيضانات مهلكة، وفي أماكن الريح مدمِّرة.

بالتعبير المستخدم حديثاً: الخيارات التي عند الله لا تعد ولا تحصى، الشيء الثمين جداً الذي هو قوام الحياة كالهواء يغدو مدمراً، والماء مدمر، فقلّته مدمرة، وكثرته مدمرة، بحكمة حكيم، وقدرة قدير، وعلم عليم.

ما من نشاط يمارسه الإنسان أوسع من نشاط البيع والشراء، فالبيع والشراء أوسع نشاط بشري، أنت مضطر أن تشتري طعامك وشرابك، وأن تشتري لباسك، وحاجاتك، وأجهزتك، فالبيع والشراء عمل مستمر يومي، وأخطر ما في البيع والشراء السِّعر.

لذلك كان سيدنا عمر ﵁ يسأل الولاة: كيف الأسعار عندكم؟ لأن رحمة الله تتجلى في الأسعار، وقد تجد كلَّ شيء متوفِّرا، لكنَّ الأسعار فوق طاقة المشتري.

والنّبيّ ﷺ لم يسعِّر لئلا يظلم البائع، فأحيانا يكون السعر أقلَّ من الكلفة، فإذا باع الحاجة بسعر أعلى من الكلفة قليلاً فلأنه تحت سيف القانون، وأحيانا التسعير ظالم، وأحياناً يكون الاستيراد ممنوعاً، ولو سُمح باستيراد السلعة لعاد إلى السعر الطبيعي، إلى القانون الذي يسمونه قانون العرض والطلب.

في الإسلام مئات الأحاديث التي تمنع الغش، والاحتكار، والإيهام، والتدليس، ومعاصي البيع والشراء لا تُعدُّ ولا تُحصى، لو أننا تلافيناها جميعاً، واستقمنا على أمر الله جميعاً لفوجئنا أنَّ السعر أصبح معتدلاً في كلِّ شيء، لأنَّ السعر بيد الله، بحسب الكمِّ وبحسب الحاجة، الكمُّ والحاجة يتداخلان، ويتفاعلان فيشكلان السعر، وهناك مواد كثيرة كان ممنوعاً استيرادها فبلغت سعراً خياليّاً، فلما سُمح باستيرادها أخذت سعراً طبيعياً جداً، وهو سعر السوق كما يسمونه، ففي السوق عرض وطلب، أما إذا منعت شيئاً، أو احتكرته، أو أوهمت الناس بشيء، أو دلست عليهم فالسعر يغلو عندئذٍ.

فالإسلام حرص حرصاً شديداً على أن يبتعد المسلم عن كلِّ المعاصي في البيع والشراء، فإذا ابتعد كان السعر طبيعياً، ولا يحتاج إلى تسعير.

إن الدراسة المطولة حول هذا الموضوع تؤكِّد أنَّ وليّ أمر المسلمين في مناسبات معينة، في أيام الشدة، في أيام الحروب، من حقه أن يسعِّر، حفاظاً على مصالح المسلمين، هذا الاستثناء لا يلغي القانون، القانون أن الله هو المُسَعِّر، لكن أحياناً تكون أزمات اقتصادية طاحنة، وهناك مخزون كبير جداً من هذه البضاعة، لكنه رهن الاحتكار وعدم البيع، وهذه معصية كبيرة.

من منَّا يصدِّق أنَّ المشتري أحيانا يعدُّ محتكِراً، فهناك سلعة مثلاً لها إنتاج معين، فأنت حين تشتري الحاجة الطبيعية لك فسعرها معتدل، وحين يكون هناك قلق، وتشتري خمسة أضعاف حاجتك، فالمشتري هو المحتكر، لأنه ساهم بفقد البضاعة، وبرفع سعرها.

الوعي الاقتصادي مهم جداً، في الأزمات إذا أقبل الناس على شراء سلعة معينة يرتفع سعرها، إلى درجة جنونية.

الأصل أنَّ الله هو المُسَعِّر بشرط أن يُنفى الاحتكار، أن يُنفى التدليس والغش، والإيهام، وهناك مئات المعاصي التي نصَّ عليها النبي ﷺ في البيع والشراء، مثل تلقِّي الركبان، يخرج الإنسان إلى ظاهر المدينة يتلقى مَن يحملون بضاعة إلى المدينة، هم لا يعلمون السعر، يوهمونهم بسعر معين، فيبيعون، ويعودون إلى بلدتهم، لكنهم اشتروا البضاعة بنصف قيمتها، لذلك تلقي الركبان منهي عنه، الإيهام منهي عنه، التدليس منهي عنه، الاحتكار منهي عنه، الغش منهي عنه، فإذا تلافينا كلَّ هذه المعاصي في البيع والشراء فوجئنا أنَّ السعر طبيعي، سعر أساسه العرض والطلب، أساسه الكمية، والحاجة.

قد يأتي صقيع فيتلف محاصيل مخيفة بالمليارات، والصقيع إذا استمر ستَّ ثوانٍ بدرجة معينة قد يُتلف المحصول كلَّه، وتسودّ الثمار كلُّها، قال تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ [القلم:١٩-٢٠].

ويقول تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ⑯ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن:١٦-١٧].

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦].

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة:٦٦].

أما المعاصي فتؤدي إلى الجفاف، وكلما قلَّ ماءُ الحياء قلَّ ماء السماء، وكلما رخص لحم النساء غلا لحم الضأن، وكلما اتسعت الصحون على السطوح ضاقت صحون المائدة، الرّزق كما قال عنه النبي ﷺ في حديث ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَا يَزِيدُ فِي العُمْرِ إِلَّا البِرُّ، وَلَا يَرُدُّ القَدرَ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ» [ابن ماجه].

قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾ [طه:١٣٢].

بيت تُؤدّى فيه الصلوات الخمس، بيت فيه معالم الإيمان، يُتلى فيه القرآن هو بيت مرزوق، ومحل تجاري ليس فيه معاص ولا آثام، فيه غض بصر، فيه ضبط لسان، هذا المحل التجاري مرزوق، والرزق متعلق بالاستقامة.

الله هو المُسَعِّر، وإذا أعطى أدهش، وإذا حاسب فتش، والخيارات التي بيد الله عز وجل لا تعدُّ ولا تحصى.

الله عز وجل له فعل تكويني، وأمر تكليفي، وهو المسعِّر بفعل تكويني: الأمطار بيده، الإنتاج بيده.

شحت الأمطار في دمشق إلى درجة حتى إن الخبراء في حوض دمشق قالوا: دمشق مقدِمة على جفاف، والله حدثني طبيب عضو في هذه اللجنة، قال لي: يمكن أن

يموت النبات كلُّه، في العام القادم نزلت أمطار لم ينزل مثلها من خمسين عامًا، فتفجرت ينابيع كثيرة قد جفّت من عشرين سنة.

لا يمكن أن يكون تقليل الله تقليل عجز، نحن أحياناً نقلل الكهرباء، تقليل عجز، المولدات معطلة، هناك نقص في الطاقة الكهربائية، لكن خالق الأكوان حينما يقلل، فهو تقليل تأديب فقط، لقول تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحجر:٢١].

النقص في المياه تأديب، الفيضانات تأديب، نقص الرياح تأديب، اشتداد الرياح تأديب، فالعبرة أن نستفيد مما يحصل، لأنه من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر.

فالله عز وجل له فعل تكويني في التسعير، وله فعل تكليفي، إذ منعك من الغش، منعك من الاحتكار، منعك من التدليس، منعك من الكذب بالبيع والشراء.

أمَّا إذا كان الناس في رخاء وفي بحبوحة، والمواد موفورة، والناس في غنى، وسعَّر ولي الأمر أسعارا متدنيّة فهذا يعيق الناس عن أرباحهم، وهذا ظلم، من هنا تبين أن النبي ﷺ رفض أن يسعِّر، لما قيل له: «يَا رَسُولَ الله، سَعِّرْ لَنَا، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ هُوَ الْمُسَعِّرُ» .

حينما يكون البائع جشعاً، ويريد أن يربح أرباحاً طائلة، ويحتكر المواد، ويقلل على الناس بغية ارتفاع الأسعار، ومضاعفة الأرباح، حينئذٍ يتدخل ولي الأمر لرحمة الناس، ولتوفير المواد فيسعِّر.

إذاً: التسعير الذي يؤدّي إلى الظلم حرَّمه النبي ﷺ، أمَّا التدبير الحكيم الذي يؤدي إلى إيصال المواد إلى المستهلك الفقير بغية أن تقوم حياته على شكل معقول فقد أقرَّه الفقهاء استثناء من هذا الحديث.

فقد ذهب جمهور الفقهاء إلى حرمة التسعير في الأحوال العادية استناداً على الأدلة السابقة، وذهب الحنفية وبعض المالكية ووافقهم ابن القيم وابن تيمية إلى جواز التسعير في حالات غلاء الأسعار وفي الحالات الاستثنائية الطارئة

نصيب المؤمن من اسم الله المسعر

يقول الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله سعِّر، فقال: بل أدعو [أخرجه أبو داود عن أبي هريرة].

وكان الرجل إذا أسلم علَّمه النبي الصَّلاة، ثم أمره أن يدعو بهؤلاء الكلمات: «اللهمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَاهْدِنِي وَعَافِنِي وَارْزُقْنِي» [مسلم عن أبي مالك الأشجعي عن أبيه].

فكلُّ دعاء بالرزق إنّما هو دعاء باسم المُسَعِّر، كأن تقول: اللهم ارزقني.

والنبي ﷺ كان يدعو فيقول: «اللهمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يَنْفَعُنِي حُبُّهُ عِنْدَكَ، اللهمَّ مَا رَزَقْتَنِي مِمَّا أُحِبُّ، فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ اللهمَّ، وَمَا زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغًا لِي فِيمَا تُحِبُّ».

ومن عرف أنّ الله تعالى هو المسعِّر اختار مهنة شريفة، فالرزق من الله، وقد فرق العلماء بين الكسب والرزق، فالرزق ما انتفعت به فقط، كالثوب الذي تلبسه، والطعام الذي تأكله، والسرير الذي تنام عليه، أما حجمك المالي فهو كسبك، الكسب مال جمعته، ولم تنتفع به، بل ستُسْأل عنه يوم القيامة، من أين اكتسبته؟ وفيمَ أنفقته؟

وحينما يصح دخلك يستقيم الطريق إلى الله عز وجل، لأن تسعة أعشار المعاصي في كسب الأموال والعلاقة بالنساء، ولو جمعنا الأحكام لوجدنا أن تسعة أعشارها متعلقة في موضوعين: موضوع كسب المال، وموضوع العلاقة بالنساء، لذلك أحكام الشريعة واسعة جداً في هذين الموضوعين.

ولا بد من تنويه إلى قضية وهي: أن الرزق الحلال صعب، وأن الرزق الحرام سهل، ولو عُكست الآية، لو أن الكسب الحلال سهل جداً، والكسب الحرام صعب جداً لأقبل جميع الناس على الحلال، لا طاعة لله، ولا حباً له، ولا ابتغاء مرضاته، ولكن طلباً للأسهل، لذلك شاءت حكمة الله أن يكون الرزق الحلال صعباً، والرزق الحرام سهلاً.

أحياناً يعمل إنسان عاماً بأكمله، يشتري بضاعة، يعرضها، يوزعها، يبيعها، بعضها نقداً، وبعضها ديناً، يجمع ثمنها، يدفع مصاريفها، يعين موظفين، في النهاية قد يربح وربما لا يربح، وأحياناً يغض الإنسان بصره عن مخالفة تؤذي المسلمين، فيأخذ الملايين رشوة مقابل ذلك، فالحرام سهل، أما الحلال فصعب، لذلك البطولة أن تكسب المال الحلال، ولو كان صعباً.

الدنيا مفعمة بالامتحانات، فقد يعرض على إنسان عمل بدخل كبير، لكن هذا العمل لا يرضي الله، قد يبنى على مضرة الآخرين، قد يُبنى على أخذ أموالهم بالباطل، فأي عمل قادك إلى معصية الله فهو خسارة لا تعدلها خسارة، وأي عمل مهما يكن دخله قليلاً إذا كان في مرضاة الله كان ربحاً كثيراً، لذلك كان الرجل إذا أسلم علّمه النبي ﷺ الصلاة، ثم أمره أن يدعو بهؤلاء الكلمات: «اللهمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَاهْدِنِي وَعَافِنِي وَارْزُقْنِي» [مسلم عن أبي مالك الأشجعي عن أبيه].

وفي كسب الرزق يقول ﷺ: «رَحِمَ اللهُ رجلاً سَمْحاً إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقْتَضَى» [أخرجه البخاري عن جابر بن عبد الله].

وفي الحديث الشريف: «التَّاجِرُ الأمينُ الصَّدُوقُ: مع النَّبيِّينَ والصِّدِّيقين والشُّهداء» [أخرجه الترمذي عن أبي سعيد الخدري].

لأن التاجر يحقق لك أكبر حاجة في حياتك؛ موادك الأولية، طعامك، شرابك، ثيابك، وأنت إنسان تحتاج مليون حاجة، فهذا الذي يقدمها لك بنوعية جيدة، وبسعر معتدل هو داعية إلى الله دون أن يشعر، لذلك أكبر قطر إسلامي في العالم إندونيسيا فتح

عن طريق التجار، لا سلاح، ولا حرب، ولا جيوش، تاجر صدوق أمين، فلا تستهن بهذه الحرفة، التي تلبي حاجات الناس.

من عرف الله المسعّر دعاه وطلب منه الرزق، والتاجر الذي يعرف أن الله هو المسعِّر يتقي الله في زبائنه ويوفِّر لهم البضاعة الجيدة بالسعر المعتدل ويتقرّب إلى الله بخدمتهم ومساعدتهم.

القابض

ورد هذا الاسم في السنة الصحيحة، يقول ﷺ: «إنَّ الله هو المُسَعِّرُ، القابضُ، الباسط، الرازق، وإني لأرجو أن ألقى اللهَ وليس أحدٌ منكم يُطَالبني بِمَظْلَمَةٍ في دَمٍ ولا مَالٍ» [أخرجه أبو داود والترمذي عن أنس بن مالك].

من معاني اسم الله القابض

القابض اسم فاعل، فعله قبض، يقبِض، والمصدر قبض، وقبضة، والقبض خلاف البسط، وهو في حقِّ الإنسان جمع الكفِّ على الشيء، وهو من أوصاف اليد وفعلها، والقبضة ما أخذتْ بجمع يدِك كلِّه، يمكن أن تملأ كفك بالقمح، فنسمي كمية القمح التي استوعبتها يدك قبضة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ [طه:٩٦].

وقد ورد عند مسلم من حديث إياس بن سلمة عن أبيه:

«غَزَوْنا مع رسولِ الله ﷺ حُنَيْنا، فلما وَاجَهْنَا العدوَّ تقدَّمْتُ فَأَعْلُو ثَنِيَّة، فاستقبلني رجل من العدوِّ، فأرميه بسهم، فتوارى عني، فما دَرَيْتُ ما أصنعُ؟ ونظرتُ

إلى القوم، فإذا هم قد طلعوا من ثنيَّة أخرى، فَالتَقَوا هم وأصحابُ النبي ﷺ، فولّى أصحابُ النبيِّ ﷺ، فأَرجعُ مُنْهَزِما وعليّ بُردَتان، مُتَّزِر بإحداهما، مُرْتَد بالأُخرى، فاستَطْلَقَ إزَاري، فجمعتُهُما جميعاً، ومَرَرْتُ على رسولِ الله ﷺ مُنهزما، وهو على بغلته الشَّهباءِ، فقال: لقد رأى ابن الأكوع فَزَعا، فلما غَشُوا رسولَ الله ﷺ نزل عن بغلته، ثم قبض قَبْضَة من ترابِ الأرض، ثم استقبلَ به وجوهَهم، وقال: شاهَتِ الوجوه، فما خلق الله منهم إنسانا إلا مَلأ عينيه ترابا بتلك القبضة، فَوَّلوْا مُدبرين، فهزمهم الله عز وجل» [مسلم عن إياس بن سلمة عن أبيه].

والقبض يأتي بمعنى تأخير اليد، وعدم مدِّها، وفي الحديث الشَّريف: «أن امرأة مدت يدها إلى النبي ﷺ بكتاب فقبض يده، فقالت يا رسول الله مددت يدي إليك بكتاب فلم تأخذه، فقال: إني لم أدرِ أيد امرأة هي أو رجل» [النسائي عن عائشة].

فمصافحة الرجل للمرأة الأجنبية محرَّمة فقد ذهب الحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنابلة، في الرواية المختارة إلى تحريمها، وقال الحنابلة: وسواء أكانت من وراء حائل كثوب أو نحوه أم لا، واستدلَّ الفقهاء على تحريم مصافحة المرأة الأجنبية بحديث عائشة رضي الله عنها قالت: «مَا مَسَّتْ يَدُ رسول الله ﷺ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ» [أخرجه مسلم عن عائشة].

والقبض: قبولُك المتاع، رأيتَ المتاع فتسلّمته، ولو لم تحوِّله إلى مكانه، صار تقابضاً، والقبض أيضاً تحوُّل المتاع إلى حرزك، أي إلى مستودعك، فالقبض قد يكون بالعين، رأى البضاعة، تفحَّصها بعينه، فقبضها، وقد يكون القبض بأن ينقلها إلى مستودعه، وصار الشيء في قبضتي، أي في ملكي، وقُبض المريض إذا توفي أو أشرف على الموت.

«أرسلتْ بنتُ النبيِّ ﷺ إليه: إن ابناً لي قُبض، فائتنا» [البخاري عن أسامة بن زيد].

وقال تعالى في وصف المنافقين: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧].

أي يبخلون، أي يقبضونها عن النفقة والصدقة، فلا يؤتون الزكاة.

أما الله جلّ جلاله فهو القابض الذي يمسك الرزق وغيره من الأشياء عن العباد بلطفه وحكمته.

يقبض الأرواح عند الممات بأمره وقدرته، ويضيّق الأسباب على قوم، ويوسّع على آخرين ابتلاءً وامتحاناً، وقبضُه تعالى وإمساكُه وصفٌ حقيقيٌّ، لا نعلم كيفيته، يؤمَن به على ظاهره وحقيقته، لا نمثّل، ولا نكيّف، ولا نعطّل، ولا نحرّف، فالإيمان بصفات الله فرع من الإيمان بذاته، والقول في صفاته كالقول في ذاته، لأننا ما رأينا الله تعالى وما رأينا لذاته مثيلاً، فهو أعلم بكيفية قبضه وبسطه، وإمساكه وأخذه، فنؤمن بما أخبر الله جلّ جلاله بلا تمثيل ولا تعطيل، وهكذا كان اعتقاد الأمة في جميع الصفات والأفعال، قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر:٦٧].

وقد ورد: «إنَّ الله تباركَ وتعالى خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبضَةٍ قَبضها مِنْ جَميع الأرضِ، فجاءَ بَنو آدَمَ على قدر الأرض، منهم الأحمرُ، والأبيَضُ، والأسوَدُ، وبين ذلك، والسَّهلُ والحَزْنُ والخَبيث، والطَّيِّبُ» [أبو داود عن أبي موسى الأشعري].

ويقول الله عز وجل: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٤٥].

القبض لغةً هو الأخذ؛ فكلُّ أمرٍ ضيقه الله عز وجل فقد قبضه، ثم علينا أن نتحول إلى بعض أبواب القبض، فالمعنى الأول: الرزق، قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٢].

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الروم:٣٧].

فلا تقل: فلان ذكي، وثان عنده خبرات في التجارة رائعة جداً، وثالث خطط، ورابع مقتدر، وآخر صاحٍ، فالله عز وجل يقبض ويبسط ويرزق ويسلب ويعطي ويمنع، فإذا أراد الله سبحانه أن يرزقك ألهمك الوسائل والأساليب والموضوعات والمواقف والتحركات المناسبة للربح، وإذا أراد أن يقبض وكنت غنياً فقد سرت في طريق الإفلاس وأنت لا تدري، وإذا أراد ألا يرزقك لحكمة أرادها، سَدَّ في وجهك كلَّ الأبواب، إذ قد تكون ذكياً جداً إلا أنك في هذا العمل تسلّم المحل، وفي ذاك العمل تلغي الشراكة.

فإذا قال الله عز وجل: ﴿ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٤٥]

أو قال الله عز وجل: ﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ ﴾ فاعلم علم اليقين أن الله هو الرزاق، وهو الذي يمنع الرزق ويسلبه. والعوام يقولون: إذا أعطى أدهش وإذا حاسب فتش، لكن أيها القارئ الكريم إياك أن تظن أن القبض فيه معنى البخل، فإذا تحدثت عن أن الله يقبض، فليس إذا قبض قبض بخلاً، بل يقبض عن حكمة وقدرة وعلم وتقدير، ويبسط عن إكرام وتوسعة وامتحان، فبسطه إكرام أو امتحان وقبضه معالجة أو وقاية، والدليل قول الله تعالى: ﴿ ۞ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الشورى:٢٧].

إذاً المعنى الأول متعلق بالرزق، وأما المعنى الثاني فمتعلق بالسحاب، قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الروم:٤٨].

هذا السحاب ينتشر في السماء كما يشاء الله عز وجل، وقد يقبضه عن قوم ويبسطه لقوم، مطرة واحدة في منطقة ما ثمانون ملم في ليلة واحدة، ومنطقة أخرى ملم واحد، معنى هذا قبض عن هؤلاء وبسط لأولئك.

والمعنى الثالث، يقبض ويبسط في الأنوار والظلال، قال تعالى فيما يتحدث عن الليل والنهار: ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الفرقان:٤٦].

أين النهار إذا جاء الليل، وأين الإشراق والوضوح؟ وأين الليل إذا جاء النهار؟ تكون في وحشة وفي خوف وفي قلق، فتشرق الشمس فتحس بالراحة، وبالأُنس والطمأنينة، إذاً يقبض ويبسط، يقبض النور ويبسطه.

والمعنى الرابع: أن الله عز وجل يقبض الأرواح، فإذا قبض روح العبد أماته، وإذا بسطها أحياه، فالأرزاق والسحب والظلال والأنوار والأرواح يقبضها ويبسطها.

والمعنى الخامس يتعلق بالأرض أيضاً، فهو -سبحانه وتعالى- يقبضها، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر:٦٧].

فبسط الأرض: أنه جعل الدنيا صالحة لحياتنا، وقبضها: أي أنهى عملها ووظيفتها، فهي مستقرٌّ ومتاعٌ إلى حين.

والمعنى السادس: أن الله سبحانه وتعالى يأخذ الصدقات، أي: يقبضها؛ لذلك قال ﷺ: «إِنَّ العَبْدَ إذا تَصَدَّقَ مِنْ طَيِّبٍ تَقَبَّلَها اللهُ مِنْهُ وأَخَذَهَا بيَمِينِهِ، ورَبَّاها كَما يُرَبِّي أَحَدُكُمْ مُهْرَهُ أَوْ فَصيلَهُ، وإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَصَدَّقُ باللُّقْمَةِ، فَتَرْبُو في يَدِ الله -أَوْ قالَ: في كَفِّ الله- حَتَّى تكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ فَتَصَدَّقُوا» [مسند الإمام أحمد من حديث أبي هريرة].

لكن الموضوع الحساس الذي نحتاجه جميعاً هو أن الله سبحانه وتعالى يقبض القلوب ويبسطها... والخوف والرجاء للمستقبل، فأنت دائماً تخاف من الله عز وجل أو ترجوه، والقبض والبسط للحاضر، فالمؤمن الصادق بين حالتي القبض والبسط.

والحقيقة إذا قبض الله عنك الأحوال الطيبة، شعرت بالوحشة، وبالضيق، وبالحرمان، وشعرت أنك مردود، ثم شعرت أنك مرفوض، ضن الله عليك بالتجلي،

فقد تلوت القرآن وما شعرت بتجلٍّ، وقمت إلى الصلاة وما شعرت بخشوع، ثم أردت أن تذكر الله عز وجل فما شعرت برغبةٍ، فهذه الحالة ما اسمها؟ إنها حالة قبض، يعني أن تحس أن الله عظيم، وأن الله جلَّ جلاله كبير ومتعالٍ، ومن أنت حتى يتجلّى الله عليك، فالله عز وجل مربٍّ، فإذا بسط الله للإنسان الأحوال والسرور والانشراح والأنس واستمر هذا الحال الطيب، تراه بعد حين يقصِّر في عباداته ويتهاون في صلواته، ويتكاسل في أعماله الصالحة، أما حينما ينتابه القبض، فيكون مع القبض الضجر والضيق عندئذٍ يفزع إلى الله سبحانه ليعود إلى حالة الانشراح، إذاً مع القبض الخوف ثم القلق، ويعقب ذلك إنابة إلى الله يمازجها الرجاء والأمل.

إذاً فربنا عز وجل يعالج المؤمن، ولكن هذا الكلام أقوله للمستقيم، أما غير المستقيم فتعروه حالة انقباض لا معالجة لها، بل هي نتيجة طبيعية لمعاصيه، وكل معصية معها انقباض، حتى إن علماء النفس قالوا: إن المنحرفين يشعرون بكآبة.

والآن يسمي علماء النفس الأمراض الشائعة الوبائية في الشباب أمراض الكآبة، وأسبابها الانحراف عن الفطرة العالية التي فطروا عليها، وكل إنسان مفطور فطرة عالية فإذا انحرف عنها وأساء وتعدى وبنى متعهُ الرخيصة على حقوق الآخرين شعر بالانقباض والكآبة، وهذه خارج درسنا فأنا أتحدث عن المؤمنين المستقيمين الورعين، إذ أحياناً تصيبهم حالة الانقباض، وهذه حالة نسميها علاجاً من الله عز وجل، فالله عز وجل يقلِّب المؤمن بين القبض والبسط، فتراه أحياناً متفائلاً، طليق اللسان، واضح السرائر، بشوش الوجه، وتشعر أنه مبسوط الأسارير والصدر والنفس، وأنه سعيد، يمشي واثقاً من مشيته، ويتحدث واثقاً من حديثه، وهذه الحالة اسمها حالة البسط، فالله عز وجل تجلى على قلبه باسم الجميل، إذ جمَّله فأحس بالجمال، والسعادة.

ولكن هناك منزلق، فعندما يشعر المؤمن أنه قريب من الله ومتفوق وفالح وناجح وفائز، والناس مساكين ضعيفون، ضعيفو الهمة والعزيمة، ومقصّرون، وغارقون في المعاصي، وبعيدون منقطعون ملعونون، وهو وحده في سعادة، وهذا الشعور بالانبساط

يصاحبه أحياناً انزلاق، وعُجب، أو كِبْر أو تعالٍ أو استطالة على الآخرين فالعلاج حالة أخرى مضادة وهي القبض، فتراه بعد أيام مستكيناً، فتقول له: خير! ماذا بك؟ فيقول: الحمد لله، لقد كان يمشي قفزاً على الطريق، ويقول: الحمد لله، وهو الآن متضايق ولا يعرف السبب إذ لا معصية ندّت منه ولا ذنباً اقترف.

والكلام مُوجَّه للمؤمنين، فإذا كان الكلام لغير المؤمنين فنقول له: لَمَّا عصيت الله عز وجل أشعرك بالضيق، وخالفت فطرتك فشعرت بالكآبة وهذا مرض، وليس من إنسان مؤمن يرتكب إثماً أو معصيةً إلا ويشعر أن الأرض لا تسعه على اتساعها، قال الله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة:١١٨].

فهؤلاء الذين أمر النبي ﷺ أصحابه ألا يكلموهم ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه، فحالة القبض للعاصي والمنحرف والمقصر.

ولو افترضنا أن الوالدة الجليلة طلبت منك حاجةً في منتصف الليل «دواء» مثلاً، فقلت لها: لا أستطيع فإنني أشعر بحاجة إلى النوم، أو ليس هناك صيدلية تفتح أبوابها في هذا الوقت المتأخر، فهذا السلوك يبعث على الشعور بالذنب ويورث صاحبه كآبة، فإذا قصّر الإنسان في أداء واجباته، أو ارتكب معصية أو إثماً أو خرج عن خط الاستقامة أو اغتاب، أو أطلق لسانه في أعراض الآخرين، أو أكل ما ليس له، أو نظر إلى ما لا يحق له أن ينظر إليه، فإذا وقع في معصية أو مخالفة شعر بالقبض، وهذا القبض قبض المعصية.

وأنا أقول: إن الإنسان إذا أطاع الله عز وجل وشعر بأنه تفوق وفاز، وأن الله يحبه، وأن الله يقربه، وأن الله تجلّى على قلبه، فقد ينزلق مع هذا الحال الذي ألمّ به حال البسط، فيستعلي على الناس، فيعتز بنفسه، ويعجب، وعندئذ علاج هذا الانزلاق حالة

مضادة هي القبض، فتراه ساكتاً، أو يتلعثم لسانه إذا تكلم، فيشعر بضيق، ويقوم ليصلي فلا يشعر بطمأنينة، ويقرأ القرآن فلا ترتاح نفسه، فهذه الحالة علاج رباني لمن أعجب بنفسه، وتاه على عباد الله، واستطال باستقامته، هذه حالة القبض.

أما البسط، فحيناً يتألم ويتضايق، ويشعر بالوحشة، ويتضجر قلبه، فقد ينزلق مع القبض إلى حالة مرضية وهي اليأس، فإذا شارف اليأس جاءت حالة مضادة وهي البسط، فاعلم أيها القارئ الكريم أنك بين حالتين؛ القبض والبسط، لأن الله هو القابض وهو الباسط، فإذا كان القبض يناسبك قبضك، قبض الأحوال عنك، وضيّق عليك الدنيا وأشعرك بالسأم والضجر، وبالوحشة والبُعد إذ أبى أن يتجلى على قلبك، وإذا اقتربت مع القبض إلى اليأس تجلى على قلبك فأشعرك بالقرب والأنس والسرور والانشراح، فأنت أيها المؤمن بين حالتي القبض والبسط، فما العلاج؟ العلاج أنك إذا استحققت من الله حالة البسط، فإياك أن تنزلق منها إلى الغرور أو إلى الاستعلاء أو الإعجاب أو أن تستطيل على عباد الله.

إذاً ربُّ العالمين هو ربُّ النفوس إذ يربّي الأجساد بإمدادها بالمواد، ويربّي النفوس بتقليبها من حال إلى حال، قال الله تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٣-٢٢٠].

فأنت أيها المؤمن تتقلب من حال إلى حال، من حالة بسط إلى حالة قبض، وإلى بسط وإلى قبض، فأنت موضوع عناية الله عز وجل وتربيته، فلذلك استسلم.

أما إذا جاءك القبض إثر معصية أو مخالفة أو عدوان أو انحراف، فهذا قبض المعصية، وهذا موضوع آخر أشرت إليه من قبل، فأية معصية يعقبها إحساس بالكآبة، وهذه هي الفطرة.

وربنا عز وجل أودع فيك العقل لتعرفه، وأودع فيك هذه الفطرة العالية لتعرف خطأك.

فبالعقل تعرف ربك وبالفطرة تعرف خطأك، إذ ينتابك الانقباض...

وعَنِ النوَّاسِ بنِ سِمْعانَ الأنْصارِيِّ قالَ: سَأَلْتُ رَسولَ الله ﷺ عَنِ البرِّ والإِثْمِ فقالَ: «البِرُّ حُسْنُ الخُلُقِ، والإِثْمُ مَا حاكَ في صَدْرِكَ وكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ» [صحيح مسلم].

واعلم أن معك ميزاناً، إذا كذب الإنسان أو اعتدى أو خان أو نظر نظرة لا تحق له أو استطال بلسانه أو... إلخ، فإنه يشعر بالانقباض، وهذا ينتابه إذا كان فيه إحساس.

وأحياناً تنطمس الفطرة، ويتعطل الميزان، فهذا الإنسان لا يعي الخير: عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قالَ: «إِنَّ المُؤْمِنَ إذا أَذْنَبَ، كانَتْ نُكْتَةٌ سوْداءُ في قَلْبِهِ، فإِنْ تاب ونَزَعَ واسْتَغْفَرَ، صُقِلَ قَلْبُهُ، فإِنْ زَادَ زَادَتْ، فَذَلِكَ الرَّانُ الذِي ذَكَرَهُ الله في كِتابِهِ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين:١٤]» [سنن ابن ماجه].

فالمعاصي تِلوَ المعاصي والمخالفات تلو المخالفات والانغماس في الدنيا والتطاول على خلق الله وترك العبادات وترك الذكر، وهذا كله ينتهي إلى قلب مغلف: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [البقرة:٧].

فإذا امتلأ القلب من حب الدنيا، فليس هناك محلٌّ لشيء آخر فيه، إذاً خُتم القلب ختماً حُكمياً، فالقبض والضيق والوحشة الناتجة عن المعاصي هذه علاجها الطاعات والتوبة، أمّا القبض الذي ليس له سبب ظاهر لمن يمشي في طريق الإيمان فهو معالجة إلهية لطيفة له، وقد قال العلماء: «إنه على المؤمن أن يصبر حتى تنجلي هذه الحالة بتقدير الله عز وجل».

وهناك تعريف لطيف جداً للقابض ذكره القشيري، يقول: «القابض الذي ملك زمام كلِّ شيء»، ومن معاني القابض القدير، فأحياناً أنت لا تستطيع أن تدسَّ الحزن في

قلب إنسان إذا كان سعيداً، ولو كلمته لا يبالي بكلامك، لكن ربنا عز وجل قدير، ومعنى قدير أنه ملك زمام كلِّ شيء، يقبض ويبسط كيف يشاء، يقبض العقل، فلا يفهم المقبوض شيئاً، ويقول لك: ما فهمت.

دخل طالب مغرور الامتحان، فجاء سؤال حول مؤتمر برلين في التاريخ، قال: بقيت ساعة وأنا أفكر أين عقد هذا المؤتمر؟ وهو اسمه مؤتمر برلين، وعقد في برلين..! أحياناً يرى الشيء على خلاف ما هو عليه في مواقف الامتحان، فالإنسان إذا اعتزَّ بعقله وتاه بذكائه يرتكب حماقات يترفع عنها الحمقى، ليُرِيَهُ الله عز وجل أنه هو القابض، يقبض عنك الفهم، ويقبض العقل فلا يفهم، ويقبض القلب فلا يغنم، تراه يقول: «ضاق قلبي»، هذه المشاعر ليس لها سبب واضح، فالبيت واسع، والزوجة ممتازة، والأولاد أصحاء، والدخل يسير فلا مشكلة، ويقول: «ما أكثر ما يضيق قلبي، وأكاد أموت ضيقاً» فتقول له: قلبك بيده، هو الذي يسعدك وهو الذي يقبض عنك كلَّ سعادة. وقد ملك زمام كلِّ شيء، إذْ يقبض العقل فلا يفهم، ويقبض القلب فلا يغنم.

وهناك قلب كبير، مفعم بالسعادة والرضا والإشراق الرباني، وقلب متصحر، كالصخر لا يرحم ولا يلين ولا يتأثر ولا يبكي، وإن يقبض الله القلب فلا يغنم وإن يقبض الصدر فلا يفرح، وإن يقبض الرزق فلا يمنح، «فيقول: أرْمِي بالطلب يميناً فيرتد شمالاً»، وهذا أحد الشعراء ترك لبنان إلى أمريكا، فقال:

أغــرِّب خلــف الــرزق وهــو مشــرِّق وأقســم لــو شرَّقــت راح يغــرِّبُ

فإذا أراد الله عز وجل ألا يرزقك فلو ذهبت إلى أقصى الدنيا، ولو ذهبت إلى بلاد الغنى فإنك تعيش فيها فقيراً، وقد يرزقك في بلدك في أصعب الظروف، لأنه هو الرزاق، هذا هو الإيمان.

قالوا: ويقبض الروح فلا تفرح، فيأتي «التشاؤم والسوداوية» ويقبض النفس فلا تمرح، ولا يفرُّ من حكمه وقضائه خلق من خلقه، حكيم في فعله وتقديره، لذلك قال ربنا عز وجل: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [الأعراف:١٨٣].

كلمة (متين) هذه صفة الأجسام التي تتحمل قوى الشد، وأما القساوة فصفة الأجسام التي تتحمل قوى الضغط، فالماس قاسٍ، أما الفولاذ المضفور فمتين، ولذلك فبعض الحبال العظيمة تحمل الجسور الكبيرة «التلفريك» (وسيلة مواصلات بين الجبال) مثلاً على أي شيء يُحمل؟ على حبال من الفولاذ المضفور، فالفولاذ المضفور من أمتن المعادن والماس من أقساها، وربنا -عز وجل- وصفَ كيدَهُ بأنه متين، وكأن الله -عز وجل- شبه كيده بحبل متين لا يمكن أن يُقطع والكافر مربوط به، ولكن هذا الحبل مرخى فالكافر يتوهم أنه طليق، فهو يتحرك ويؤذي ويتكلم ويتبجّح ويتفلسف ويتحدى ويتطاول، ويوقع الأذى بزيد وعُبيد وهو يظن أنه يعمل ما يشاء. ويظن أنه على كل شيء قدير، وفي لحظة واحدة يشد الله الحبل المتين فإذا هو في قبضته، وهذا هو معنى القابض في قول الله عز وجل: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ ﴾.

ومعنى القابض يمكن أن يغلق عليك عقلك، وأن يجعل قلبك متصحراً، وأن يصيِّر نفسك سوداوية المزاج متشائمة، وهناك حالات كآبة تدفع أصحابها إلى الانتحار، لكن المؤمن بالله عز وجل في منجىً من ذلك.

وهذا رأي آخر للقشيري، قال: «القبض والبسط حالان يهذب الله بهما الذاكرين» فأَحَدُ إخواننا الكرام عنده معمل متواضع، وأخ آخر عَلِمَ أن هذا المعمل لفلان، في اليوم التالي ذهب إليه، وهو معمل يصنع ألبسة، يبيع بالجملة، وهذا الأخ دخل إلى المعمل وطلب ست قطع، فكأن هذا الطلب أهان صاحب المعمل، فقال: أنا لا أبيع مفرقاً، فودَّعه شاكراً، وانصرف خجلاً، فيقول صاحب المعمل: لقد مرَّ علينا ثلاثة عشرون يوماً وما دخل معملي إنسان ليشتري! أما الآن فأبيع ولو قطعة واحدة، وهذا تأديب الله عز وجل! تتكلم كلمة في غير موضعها فيحجبك عنه أسبوعاً، يتفجر صدرك ضجراً، فإذا كان هناك تقصير أو تجاوز، فيأتي القبض، وما القبض إلا دليل على أن الله رفضك، أي: رفض عملك، ورفض التصرف الذي بدر منك، فما أقبل على قلبك بعد ذلك، وما تجلّى عليك، وهذا لمن عنده حساسية بالغة.

وهناك ميزان توزن به السيارات، تصعد فوقه فيسجل عشرين طناً، وهذا الميزان لا يزن أوقية بن، ولا خمسة غرامات ذهب ولا ماسة ثلاثين قيراطاً، وإذا وضعت عليه كيساً وزنه مئة كيلو فلا يتحرك، وهناك أشخاص عندهم ميزان غير حساس، وهو لا يفكر بربه أبداً، وهذا الإنسان وأمثاله ليس موضوع بحثنا الآني.

أما المؤمن فبعد اللطف التام والوجهة إلى الله عز وجل يملك حساسية مفرطة، فإذا شعر أن قلبه في الصلاة منقبض غير خاشع أدرك أن في تصرفاته شائبة، فلعله فاه بكلمة جارحة، أو خطر في باله خاطر سوءٍ، أو أساء الظن بالله عز وجل، أو لعلّهُ جرّح كرامة شخص، أو كسر قلباً بريئاً، أو أومأ إيماءة مشبوهة. ولذلك أقسم ربنا عز وجل في القرآن الكريم بالنفس اللوامة، فهناك نفس مطمئنة، هي نفس الأتقياء الصديقين، أهل الإحسان، وهناك نفس أمارة بالسوء: هي نفس العصاة، أما نفس المؤمن فلوّامة، وهي دائماً في حساب مع ذاتها عسير، تقرّعه، تعنفه، لعلي تكلمت كلمة لاذعة، أو منعت عطاءً أو أسأت أدبا وتصرفاً، فهو دائماً في معاتبة مع ذاته ومحاسبة مع نفسه، وهذا معنى النفس اللوامة.

قال العلماء: القبض والبسط حالان يهذب بهما عباده الذاكرين، ويفتح بهما عليهم أبواب العلم والحكمة، فإذا هجم القبض على أحدهم فإنه يهجم على صدره من أبواب الجلال وحكمة الكبير المتعال، وتكثر الخواطر فيشتد الخوف، ويتذوق العبد جلال الله عز وجل، فتمنع الذات الإلهية عن العبد ويشعرها بالجلال، وإذا اشتد عليه هذا الحال، أي: لطف الله به، فعند ذلك المقدار الذي يطيقه ينفرج صدره بالبسط، وإذا هجم عليه حال القبض وشعر بالخوف فالله عز وجل حكيم لا يكلّفه ما لا يطيق، بل يعطيه قدراً من القبض يطيقه، وعندئذ يغشاه حال البسط، وهذا كلام يتوجه إلى أناس لهم خبراتهم مع الله، ولهم صفاؤهم ولطفهم، ولهم صدقهم وحرصهم على طاعة الله، بل لهم ورعهم، وعندئذ يصبح قلبهم ميزاناً وحساساً، ونرجو من الله عز وجل أن نملك هذا الإحساس.

أما قلنا: هناك ميزان لا يتأثر ولا يتحرك ولا بمئة كيلو، إنَّه معدٌّ ليزن حجماً كبيراً ثقيلاً، كسيارة شاحنة، لكن هناك ميزان، تراه عند الصائغ فيوقف المروحة أثناء وزن الذهب؛ لأن الهواء الصادر عنها يغير كفَّة الميزان، وهناك موازين تزن بها ورقة مثلاً فيتحرك مؤشره، فوزنه دقيق، ولو كتب على الورقة كلمة واحدة لرجحت الكفة بوزن المداد الذي على الورقة، فكلما ارتقى المؤمن دقَّ ميزانه، فقل لي: ما مستوى ميزانك أقل لك من أنت، وما مستوى إيمانك؟

الميزان الدقيق دائماً له حساسية: زائد ناقص درجة، ولو افترضنا أن عندنا ميزان حرارة غالياً جداً، وقسنا عليه ميزان حرارة رخيصاً فإنه يتغير درجة، فنقول: حس هذا الميزان زائد ناقص درجة، وحس هذا الميزان زائد ناقص غراماً، فكلما اشتد الحس قلَّ الخطأ، والمؤمن كلما ارتقى أصبح عنده ميزان حساس جداً في محاسبته نفسه.

قال الحسن البصري رحمه الله: «أيسر الناس حساباً يوم القيامة الذين حاسبوا أنفسهم لله عز وجل في الدنيا، فوقفوا عند همومهم وأعمالهم، فإن كان الذي هَمُّوا لَهُمْ مَضَوْا، وإن كان عليهم أمسكوا، وإنما يثقل الحساب على الذين أهملوا الأمور فوجدوا الله قد أحصى عليهم مثاقيل الذر فقالوا: ﴿ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ ﴾ [الكهف:٤٩]» [أورده البيهقي في «شعب الإيمان»].

وعن يحيى بن المختار عن الحسن قال: إن المؤمن قوام على نفسه لله عز وجل، وإنما خفَّ الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا... وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة، إنَّ المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول: والله إني لأشتهيك! وإنك لمن حاجتي! ولكن والله ما من صلة إليك، هيهات هيهات حيل بيني وبينك، ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: ما أردت إلى هذا مالي ولهذا؟ والله! لا أعود لهذا أبداً إن شاء الله.

إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم، إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله عز وجل، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وبصره ولسانه وجوارحه.

وقال بعضهم: أنت بين أن يقيك وبين أن يبقيك، وهو القابض الباسط، والقابض الذي يقبض الصدقات من أربابها فيربيها، والباسط الذي يبسط النعمة وينميها ويهنيها، إذ يقبض الصدقات ويبسط النعم.

والقابض هو الذي يخوفك من فراقه، والباسط الذي يؤمنك بعفوه وإطلاقه، والإمام الغزالي يقول: «القابض الباسط من العباد من ألهم بدائع الحكم وأوتي جوامع الكلم»، فمثلاً، أنت داعية فإذا حدثت الناس عن رحمة الله وكرمه وعطائه وعفوه، وقلت: لا تخافوا يا إخواني! فالقضية سهلة والله غفور رحيم، ولا يسعنا إلا عفوه وكرمه، ومن نحن أمام عفو الله، فإذا جعل كل دعوته الجانبَ المُشرِقَ، أيكون حكيماً؟!

تحدثنا عن الله عز وجل كيف يقبض الأرواح ويبسط الحياة، ويقبض الأرزاق ويوسعها، ويقبض القلوب أو يفيض عليها من جلاله وجماله.

نصيب المؤمن من اسم الله القابض

والسؤال الملحُّ بعد كلِّ هذا؛ أنت مؤمن فما علاقتك بهذا الاسم؟ أي إذا دعوت إلى الله عز وجل فيجب أن تجري موازنة بين أن تطمِّع الناس برحمة الله وأن تيئسهم من جنته، فاليأس مرض والطمع مرض، فإذا ذكرت الجانب الرحماني فقط وعفوه وكرمه وتجاوزه وحلمه، ولم تذكر عذابه وعقابه وإيلامه وما عنده من عذاب مقيم فلست محسناً، ولست حكيماً في ذلك، إذاً اجمع بين القبض والبسط حتى في دعوتك إلى الله عز وجل، لأن الإنسان بحسب ما تُلقِّنه، وبحسب ما تغذيه يعوجّ أو يستقيم.

عَنْ عَبْدِ الله بنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ في هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعاً، فدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ» قَالَ: فَقَالَ -وَالله أَعْلَمُ-: «لا أَنْتِ

أطْعَمْتِها وَلا سَقَيْتِها حِينَ حَبَسْتِيها، وَلا أنْتِ أرْسَلْتِها فأكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الأرْضِ» [صحيح البخاري].

ويفهم من ذلك أن النبي ﷺ قد خوفنا.

عن أبي هُرَيْرَةَ قالَ: قَالَ رَجُلٌ: يا رَسُولَ الله إنَّ فُلانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صلاتِها وصِيامِها وصَدَقَتِها غَيْرَ أنَّها تُؤْذِي جيرانَها بِلِسانِها، قالَ: «هِيَ في النَّارِ»، قالَ: يا رَسُولَ الله فإنَّ فُلانَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِها وصَدَقَتِها وصَلاتِها، وإنَّها تَصَدَّقُ بالأثْوارِ مِنَ الأقِطِ ولا تُؤْذِي جِيرانَها بِلِسانِها، قالَ: «هِيَ في الجَنَّةِ» [مسند الإمام أحمد].

وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ قالَ: جاءَ رُجُلٌ إلى رَسولِ الله ﷺ فقالَ: يا رَسُولَ الله أرَأَيْتَ إنْ جاءَ رَجُلٌ يُريدُ أخْذَ مالِي؟ قالَ: «فَلا تُعْطِهِ مَالَكَ» قالَ: أرَأَيْتَ إنْ قاتَلَنِي؟ قالَ: «قَاتِلْهُ» قالَ: أرَأَيْتَ إنْ قَتَلَنِي؟ قالَ: «فَأَنْتَ شَهيدٌ» قالَ: أرَأَيْتَ إنْ قَتَلْتُهُ؟ قالَ: «هُوَ في النَّارِ» [صحيح مسلم].

فأنت تقرأ أحاديث النبي ﷺ فتعجب، فأحياناً تخاف خوفاً شديداً، وأحياناً تسمع النبي ﷺ يطمئنك ويبشرك ويلقي عليك من رحمة الله عز وجل الشيء الكثير؛ ليجعلك بين الخوف والرجاء، وهذا أسلوب الحكيم.

فأنت أيّها الداعية اقتد بالنبي ﷺ، وهناك دعاة كلُّ حديثهم عن جهنم، ودعاة كلُّ حديثهم عن الجنة وعن الحور العين، فهؤلاء بهذا الحديث -وحده- أخطؤوا، وهؤلاء بهذا الحديث وحده أخطؤوا، وكما أن الله قابض باسط فيجب أن تكون مرةً في دعوتك تخوِّف عباد الله من معصيته ومرةً تحببهم في طاعته.

ورد في بعض الآثار: «قال داود فيما يخاطب ربَّه: يا رب! أي عبادك أحب إليك أحبه بحبك؟ قال: يا داود! أحبُّ عبادي إلى تقي القلب، نقي اليدين، لا يأتي إلى أحد سوءاً ولا يمشي بالنميمة، تزول الجبال ولا يزول، أحبني وأحب من أحبني وحببني إلى عبادي، فقال: يا رب! إنك لتعلم أني أحبك وأحب من يحبك فكيف أحببك إلى عبادك؟ قال: ذكرهم بآلائي وبلائي ونعمائي».

هنا الدِّقة: «ذكرهم بآلائي»، بهذه الآيات الدالة على عظمتي كي يعظموني، وذكرهم بنعمي كي يحبوني، وذكرهم ببلائي كي يخافوني، إذاً لا بد من أن يجتمع في قلب المؤمن تعظيم لله من خلال الكون، ومحبةٌ له من خلال النعم، وخوفٌ منه من خلال النقم.

وأحياناً يريك ربنا إنساناً مصاباً بمرض خبيث، أو توقف كليتين فحياته جحيم ففي كلِّ أسبوع تُغسل فيه الكليتان مرتين فيشعر بانقباض شديد، هناك أمراض وأوبئة وأمراض عضالة، وفقر شديد، والله عز وجل قد يمنع عطاءه حتى يندفع الفقير إلى أن ينقِّب في القُمامة.

وهناك حالات كثيرة، يتجاوز فيها الإنسان حدّه، يؤذي مخلوقاً من مخلوقات الله عز وجل فربنا عز وجل يكلِّفه الثمن باهظاً، فمن حوله يرتدعون، ويخافون، فإذاً هذا البلاء بلاء ردعي، وهذا الإكرام إكرام تشجيعي، ولكنَّ العطاء الكامل يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران:١٨٥].

وبعد، إن الله سبحانه إذا أكرم إنساناً في الدنيا فهذا إكرام تشجيعي له ولغيره، وإذا عاقب إنساناً فهو عقاب ردعي له ولغيره، فإذاً يجب أن يكون في القلب حب لله عز وجل وخوف منه وتعظيم له.

قد يمنع عنك، والمنع عطاء، وقد يعطيك، والعطاء بلاء، لذلك قال ابن عطاء الله: (ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك) قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة:٢١٦].

هناك حقيقة مهمّة؛ وهي أنَّ الشيء الذي مُنعت عنه، إنّما منعك عنه الله، ثمَّ خلق الأسباب التي تُبعد هذا الشيء عنك، فالمؤمن يؤمن بأنَّ الله هو القابض، فلا يحقد على من حرمه.

إيمانك بأنَّ الله هو القابض وحده يُبعدك عن الحقد، فلا تحقد ولا تنافق، التوحيد يعطيك شخصيَّةً قويَّةً، إذ إنَّ علاقتك مع الله وحده.

ومن آثار الإيمان باسم القابض حسنُ التوكل على الله، قد تصلي فلا تشعر بشيء، تقرأ القرآن فلا تشعر بشيء، تذكر الله فلا تشعر بشيء، هناك انقباض، هناك حجاب، عندها تتوجَّه إلى الله: يا رب ماذا فعلت؟! أيَّ كلمة تفوهت؟! أيَّ ظن أسأت؟! هذا يؤكِّد أنَّ الله يربِّي عباده؛ يربِّيهم بالقبض والبسط.

قد تجد شخصاً مرتاحاً، سعيداً، متفائلاً، مشرقاً، يقول لك: أنا متفائل جداً، لا أحد أسعد مني، يكون وضعه الماديّ عاديَّاً جداً، الله وهبه الله زوجة صالحة، ومأوى صغيراً، ورزقاً يكفيه، وهو رغم ذلك أسعد الناس.

وهناك إنسان عنده بيوت لا يعلمها إلا الله، قصور، مركبات، مكانة، قوة، ويقول لك: لست مرتاحاً، إنِّي منقبض.

زار أحدهم إنساناً حجمه المالي أربعة مليارات، قال لي: شكا لي ضيقه وضجره وتأففه من أهله، من بيته، من تجارته، من أوضاع البلد، قال لي: لم أستطع أن أقف على قدمي بعد هذا الكلام.

من مفارقات الحياة أن امرأة طرقت بابه لمساعدة شهرية، فلما زار بيتها، قال لي: البيت صغير جدّاً ومتواضع إلى أبعد حدٍّ، ولا يمكن لإنسان أن يسكن فيه، وهذا البيت فيه سرور، فيه راحة نفسية، الأولاد ثيابهم نظيفة، وصاحب البيت يحمد الله عز وجل، قال لي: مفارقة عجيبة، إنسان حجمه أربعة مليارات، شكا لي لدرجة أنني لم أستطع أن أقف على قدمي، والمرأة شكرت لله أنه أعطاها زوجاً، وأولاداً، أراد هذا الرجل أن يعطيهم ألفي ليرة شهرياً فقالت له الأم: لا، ألف واحدة تكفينا!

قال ملك لوزيره من الملك؟ قال له: أنت، قال له: لا لست أنا، الملك رجل لا نعرفه ولا يعرفنا، له بيت يؤويه، ورزق يكفيه، وزوجة ترضيه.

أمّا الكآبة التي يشعر بها معظم الناس فهي عقاب الفطرة، لخروج الإنسان عن مبادئ فطرته، وهذا اسمه التربية النفسية للمؤمن.

العُجب بالذات أحد أسباب القبض، ينتبه لمكانته، لمنصبه، لحجمه المالي، لذكائه، لأناقته، لثيابه الغالية جداً، لخضوع الناس له، حينما ينتبه لمكانته ولذكائه، ولخبراته، ولحجمه المالي، وسلطته يُحجب عن الله عز وجل، والإنسان كلما اقترب من الله يشعر بسعادة.

أحد أكبر أسباب القبض الشرك، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٣-٢٢٠].

ومن ثمرات الإيمان باسم الله القابض دعاؤه بدعاء النبيّ ﷺ:

«اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما بعدت ولا مباعد لما قربت، اللهم إني أعوذ بك من شر ما أعطيتني، ومن شر ما باعدت عني» [أخرجه أبو داود عن أُبيّ بن كعب].

الباسط

ورد هذا الاسم في السنة الصحيحة في قول النبي ﷺ: «إنَّ الله هو المُسَعِّرُ، القابضُ، الباسط، الرازق» [أخرجه أبو داود والترمذي عن أنس بن مالك].

من معاني اسم الله الباسط

الباسط اسم فاعل، فعله بسط، يبسُط، والمصدر بسْطٌ، وانبسط الشيء على الأرض اتَّسع، وامتدَّ، وتبسَّط في البلاد أي سار فيها طولاً وعرضاً، وبسيط الوجه: متهلِّل الوجه.

والبسيط هو الرجل منبسط اللسان، وبسط إليّ يده بما أحبُّ أو بما أكره: وصل إليّ، وفي الآية: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾ [المائدة:٢٨].

وبسْطُ الكفِّ تُستعمل تارةً للطلب، كقوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ ﴾ [الرعد:١٤].

وتارةً للأخذ، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام:٩٣].

وتارةً للصولة والضرب، كقوله تعالى: ﴿وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢﴾ [الممتحنة:٢].

وتارةً للبذل والعطاء، قال تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة:٦٣].

وبسْطُ اليد في حقنا نحن -البشرَ- معلوم المعنى والكيفية، أمَّا في حق الله جل جلاله فمعلوم المعنى فقط، لكنَّه مجهول الكيفية.

والله جلّ جلاله هو الباسط؛ يبسط الرزق لعباده بجوده ورحمته، ويوسعه عليهم ببالغ كرمه وحكمته، فيبتليهم على ما تقتضيه مشيئته وحكمته، فإن شاء وسَّع، وإن شاء قتَّر.

أمسكت مرَّة سنبلةً أصلُها حبَّةُ قمح واحدة، أنبتت هذه الحبَّة خمساً و ثلاثين سنبلة، عددت إحدى السنابل فإذا فيها خمسون حبة، ضربت خمساً و ثلاثين بخمسين، فإذا هي ألف وسبعمئة و خمسون حبة، وكلُّها من حبَّةٍ واحدة، الباسط في الرزق يعطي بلا حساب.

قارون وسّع الله عليه رزقه فقال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٨].

هذا كلام يقوله بعض الناس، بجهدي، بكدِّ يميني وعرق جبيني، بخبراتي المتراكمة، بانتمائي إلى أسرة قوية... إلخ.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٧٨﴾.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ [القصص:٧٩].

هذه حاجة عند ضعاف النفوس، أن يظهر ما عنده، كي يستعلي على الآخرين، وهذه صفة مذمومة.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [القصص:٧٩-٨٢].

الشاهد في الآية ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ﴾.

وفي الحديث الشريف: «مَن سَرّه أن يَبْسُط الله له في رزقه، وأن يَنْسَأ له في أَثره فليصل رحمه» [أخرجه البخاري والترمذي عن أبي هريرة].

وقد فسَّر العلماء هذا الحديث، أنَّ الإنسان قد يفتح محلَّه التجاريَّ ساعة، فيربح مليوناً، وقد يفتح محلَّه عشر ساعات ويربح مئة ليرة فقط، فالزمن ليس له قيمة، بل القيمة كلُّها في الربح، وكذلك فإنَّ قيمة العمر ليست بمدّته، بل هي بعطائه.

ولما كان يوم أُحد وانكفأ المشركون قال ﷺ: «اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم يوم القيامة والأمن يوم الخوف، اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين» [أحمد عن ابن رفاعة الزرقي].

والباسط هو الذي يبسط يده بالتوبة لمن أساء، وهو الذي يملي لهم فيجعلهم بين الخوف والرجاء، فقد قال ﷺ: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ يبْسُطُ يدَهُ باللَّيْلِ ليتوبَ مُسيءُ

النهار، ويبسُطُ يدَه بالنَّهار ليتُوبَ مُسيء الليلِ، حتى تطْلُعَ الشمسُ من مغرِبِها» [مسلم عن أبي موسى الأشعري] .

الباسط جلَّ جلاله يبسط النعمة فينميها، فهو يقبض الصدقات، ويبسط النعم، والقابض هو الذي يخوِّفك من فراقه، و الباسط يؤمِّن بعفوه وإطلاقه.

فالإنسان يسعد بطاعة ربه، ويشقى بمعصيته، قال تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد:٢٨].

الله عز وجل يقبض القلوب بإعراضها عنه، ويبسطها بإقبالها عليه، ففي الكون حقيقة واحدة، إن تقربت من الله سعدت بأيِّ ظرف تعيشه، وإن ابتعدت عنه تشقى بأيِّ ظرف تعيشه، وهذا ملخص الملخص.

فالمؤمن يتقلب بين نوازع الخير، قرينه من الملائكة يأمره بالخير، يهتف له بطاعة ربه، حتى يصبح قلبه مثل الصفا، لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، وهذا هو البسط الحقيقي.

لا أجد أن كلمة هنيئاً لك يستحقها إلا من عرف الله، نحن ألفنا أن نهنئ إنساناً بشراء بيت، بشراء مركبة، بتأسيس شركة، بالزواج، ألفَ الناس أن يهنئ بعضهم بعضاً بهذه المناسبات، لكنَّ الحقيقة الصارخة أنه لا يمكن أن تكون التهنئة حقيقية وصحيحة إلا بطاعة الله.

أنت حينما تُقبل عليه يقذف في قلبك نوراً ترى به الحقَّ حقَّاً، والباطلَ باطلاً، والخيرَ خيراً، والشرَّ شرَّاً، هذا النور تؤكِّده نصوص قرآنية؛ منها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾ [الحديد:٢٨].

وكان رسول الله يقول في دعائه:

«اللهم اجعل في بصري نوراً، واجعل في سمعي نوراً، واجعل في لساني نوراً، واجعل في قلبي نوراً، واجعل عن يميني نوراً، واجعل عن شمالي نوراً، واجعل أمامي نوراً، واجعل من خلفي نوراً، واجعل من فوقي نوراً، واجعل من أسفل مني نوراً، واجعل لي يوم لقاءك نوراً وأعظم لي نوراً» [البخاري عن ابن عباس].

ما من عمل تقوم به دون استثناء إلا وقبله رؤية دفعتك إليه، ما من إنسان يتحرك حركة، يتكلم كلمة، يبتسم، يمنع، يقطع، يصل، إلا وراء عمله رؤية، فبطولة المؤمن أن تكون رؤيته صحيحة، الله نوّر قلبه، إنه ينظر بنور الله، ينطق بتوفيق الله.

نصيب المؤمن من اسم الله الباسط

المؤمن ينبغي أن يشكر عند البسط، وأن يصبر عند القبض، والله عز وجل يقلّب حال المؤمن، من بسط إلى قبض، حينما يطيع الله كثيراً، ويقبل عليه ويخطب ودّه، ويحسن إلى خلقه، ويتقن عباداته، ويتلو كتابه، يتجلى الله عليه باسم الباسط، وحينما يتساهل في الاستقامة، ولا يتقن عبادته يؤدبه الله باسم القابض.

يقول سيدنا علي: إن للنّفس إقبالاً وإدباراً، فإن أقبلت فاحملها على النوافل، وإن أدبرت فاحملها على الفرائض.

أُتي عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بطعام وكان صائماً فقال: «قُتِلَ مُصْعَب بنُ عُمَيرٍ وهو خيرٌ مني، فكُفِّنَ في بُرْدَة: إن غُطِّيَ رأْسُه بَدَتْ رجلاه -وإن غُطِّي رجلاه بَدَا رأسُه، وقُتِلَ حمزةُ، وهو خيرٌ مني، ورُوِي: أَو رجلٌ آخَرُ شَكَّ إبراهيم، فلم يُوَجد ما يُكفَّنُ به، إلا بُرْدَة، ثم بُسِطَ لنا من الدنيا ما بُسِطَ، أو قال: أُعطينا من الدنيا ما أُعطينا وقد خشيتُ أن يكون قد عُجِّلَتْ لنا طَيِّبَاتُنا في حياتنا الدنيا، ثم جعل يبكي، حتى ترك الطعام» [البخاري عن عبد الرحمن بن عوف].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فوالله مَا الفقرَ أَخْشى عليكم، ولكني أخشي أَنْ تُبْسَط الدُّنيا عليكم كما بُسِطَتْ على من كان قبلكم، فَتَنافَسُوها كما تَنافسوها وتُهْلِكَكُمْ كما أَهْلَكَتْهُمْ» [البخاري عن عبد الرحمن بن عوف].

قد يتألم المؤمن ويتضايق، ويشعر بالوحشة، ويتضجر قلبه، فقد ينزلق مع القبض إلى حالة مرضية وهي اليأس، فإذا شارف اليأس جاءت حالة مضادة وهي البسط، فاعلم أيها القارئ الكريم أنك بين حالتين؛ القبض والبسط، لأن الله هو القابض وهو الباسط، فإذا كان القبض يناسبك قبضك، قبض الأحوال عنك، وضيَّق عليك الدنيا وأشعرك بالسأم والضجر، وبالوحشة والبُعد، وإذا اقتربت مع القبض إلى اليأس تجلَّى على قلبك فأشعرك بالقرب والأنس والسرور والانشراح، فأنت أيها المؤمن بين حالتي القبض والبسط، فما العلاج؟ العلاج أنك إذا استحققت من الله حالة البسط، فإياك أن تنزلق منها إلى الغرور أو إلى الاستعلاء أو الإعجاب أو أن تستطيل على عباد الله.

المؤمن باسم الله الباسط، يشكر الله تعالى في حال البسط في الرزق ويداوم على الطاعات في حال انشراح الصدر، ويقبل إلى الله تعالى الباسط تائباً منيباً مقبلاً غير مدبر.

الرزاق

ورد هذا الاسم في السّنّة الصحيحة، يقول ﷺ: «إنَّ الله هو المُسعِّرُ، القابضُ، الباسطُ، الرازق» [أخرجه أبو داود والترمذي عن أنس بن مالك].

وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم مقيَّداً في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [المائدة: ١١٤].

من معاني اسم الله الرازق

الرَّازق اسم فاعل، وفعله رزق، يرزُق، والمصدر رِزْق، والرِّزْق: ما يُنتفَع به.

فقد فرَّق العلماء بين الرِّزق والكسب، فالشيء الذي تأكله، والثِّياب التي تلبسها، والبيت الذي تسكنه، هذا هو الرِّزق الذي انتفعت به، أمَّا الرَّصيد أو الحجم المالي فهذا هو الكسب الذي لم تنتفع به، ولكنَّ الكسبَ سوف تُحاسب عليه كما تُحاسَب على

الرِّزق؛ من أين اكتسبته؟ وكيف أنفقته؟ مع أنَّك لم تنتفع به، فالذي يملك ألف مليون يأكل وجبة محددة، ويرتدي ثياباً واحدة، وينام على سرير واحد، وطاقته في الاستمتاع بالحياة لها سقف.

والرِّزق هو العطاء، واسترزقه: طلب منه الرِّزْق، وقد يُسمَّى المطر رزقاً، لأنَّ المطر يُنبت النبات، فالرِّزق من آثار المطر.

ويقول تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة:٨٢].

قد تهطل أمطار غزيرة، فنستمع إلى من يقول: هناك منخفض متمركز فوق قبرص في طريقه إلينا وهذا سبب الأمطار ويكتفي بذلك، دون أن ينسب النعمة إلى المنعِم، هذا رزق الله، هذا فضل الله، هذه رحمة الله، ثمَّ نعزو الرزق إلى أسباب أرضيَّة.

وقد ورد في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ عقب ليلة مطيرة قال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر. فأما من قال: مُطِرْنا بفضل الله ورحمته: فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب وأما من قال: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كذا وكذا: فذلك كافر بي، مؤمن بالكواكب» [أخرجه البخاري ومسلم عن زيد بن خالد الجهني].

هناك من ينسب ما يجري إلى أسباب أرضيَّة فقط، كزلزال دمَّر كلَّ شيء، ثمَّ يقول لك: اضطراب في القشرة الأرضية فقط.

الإنسان أحياناً يرفض التفسير العُلويَّ، الإلهيَّ، التوحيديَّ، ولا يقبل إلا التفسير الأرضيَّ الشِّركيَّ.

فلابد من أن نعزو الأسباب إلى مسبِّب الأسباب، إلى خالق السماوات والأرض، كي نتعامل معه، ونصطلح معه.

والأرزاق نوعان، أرزاق ظاهرة كالأقوات للأبدان، انظر إلى سوق الخضر، كميَّات من الفواكه، كميَّات من الخضروات، المحاصيل، والقمح، والغنم، أرقام فلكية،

كلُّها رزق العباد، وهناك أرزاق باطنة، هي المعارف والإيمان، كإنسان رزقه الله عز وجل فهماً بكتاب الله، وهذا رزق.

والعلم هو أعلى أنواع الرزق، يقول تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء:١١٣].

فالله عز وجل أعطى المال لمن لا يحبُّ، وأعطاه لمن يحبُّ، أعطى المال لقارون وهو لا يحبُّه، وأعطاه لسيدنا عثمان وهو يحبُّه، أعطى الملك لفرعون وهو لا يحبُّه، وأعطاه لسيدنا سليمان وهو يحبُّه، لكنَّ الذين يحبُّهم وهم الأنبياء، قِمم البشر ماذا أعطاهم؟ قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص:١٤].

فإذا وهبك الله رزقاً ممّا وهبه لأحبابه، فاشكر الله عز وجل، هناك في الأرض من يعبد الجرذان، وهناك من يعبد ذكَر الرجل، و هناك من يعبد موج البحر، وهناك من يعبد البقر، و هناك من يعبد الشمس والقمر، وهناك من يعبد الحجر، لكنَّ الله سبحانه وتعالى أكرمنا بأن نعبد خالق السماوات الأرض.

الله جلّ جلاله هو الرازق، يرزق الخلائق أجمعين، وهو الذي قدّر أرزاقهم، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ﴾ [الروم:٤٠].

قد ترسل ابنك إلى بلد أوربيٍّ للدراسة، وحتى يطمئنَّ فإنَّك ترسل له مصروفه لستِّ سنوات دفعة واحدة، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ﴾.

لم يقل: ثم يرزقكم

فالله عز وجل الرَّازق تكفَّل باستكمال الرزق ولو بعد حين، وكلُّ إنسان له عند الله رزق لكن في وقت معين، قال ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا الله وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ فَإِنَّ نَفْساً لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا فَاتَّقُوا الله وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ خُذُوا مَا حَلَّ وَدَعُوا مَا حَرُمَ» [أخرجه ابن ماجه عن جابر بن عبد الله].

اختر حرفة شريفة، اختر حرفةً فيها نفع للناس، ليس فيها ابتزاز لأموالهم، وليس فيها إلقاء الرعب في قلوبهم، اختر حرفة ينتفع بها من حولك، ولا تختر حرفة تبني دخلك فيها على أنقاض الناس، لأنَّ ألصق شيء بالإنسان رزقُه، وحرفته، وزوجته، فالمركبة تُبدَّل، والبيت يُبدَّل، أمَّا زوجته أمُّ أولاده، وحرفته، فلا تبدَّلان بسهولة، فإن كانت الحرفة مخالفة لمنهج الله فهذه مشكلة تجعلك في حجاب دائم عن الله تعالى.

يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ ﴾ [فاطر:٣].

قال بعض العلماء: الرّزق اسم يشمل الإنسان وغير الإنسان، لكنَّ هذه الكلمة تعمُّ رزق الدنيا والآخرة، دخول الجنة رزق، النجاة يوم القيامة رزق، العلم في الدنيا رزق، اشتقاق الكمال من الله رزق، الحلم رزق، الورع رزق، قد تجد إنساناً دخله محدود، لكنّه يتمتع بعلم غزير، يتمتع بسمعة طيبة، يتمتع براحة نفسية، يتمتع بتوفيق من الله عز وجل، أو يتمتع بدعوة كبيرة، حجم المال صغير جداً، لكنَّ حجمه عند الله كبير جداً.

والله عز وجل قد يرزق الإنسان مكانة، وبهذه المكانة تُحلُّ مشكلات كبيرة.

ويقول تعالى: ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود:٦].

جاءت (على) قبل لفظ الجلالة، ومعنى ذلك أنَّ الله ألزم نفسه ذاتياً برزق المخلوقات.

لو دخل معلِّم إلى الصفِّ، وقال: أيُّها الطلاب لكم عندي هدية، فهذا شيء، أمَّا لو قال: ما من طالبٍ في هذا الصف إلا وله عندي هديّة، فهذه العبارة تشمل كلَّ الطّلّاب؛ حتى الطالب الغائب، وحتى الذي لم يُتَحْ له أن يأخذها الآن، فكلمة (مِنْ) تفيد استغراق أفراد النوع.

فلو أنَّ نملة تمشي على صخرة صمَّاء، في ليلة ظلماء، فعلى الله رزقها، وعْلٌ يعيش في قِمم الجبال، وهناك ينابيع مياه في قمم الجبال، يوجد في إندونيسيا ثلاث عشرة جزيرة، ما من جزيرة إلا وفيها نبع ماء عذب، وهذا من آيات الله الدالة على عظمته.

حتى الطعام الحرام الذي يتناوله الإنسان إنَّما هو من الله ولكنّه سيُحاسب عليه، مثلاً: بستانٌ فيه شجر تفاح، وفي الشجرة السابعة، الفرع الثالث، الغصن الرابع، تفاحة، وهي رزق لزيد، وزيدٌ قد يشتريها بماله، وقد يأكلها ضيافة، وقد يأكلها هدية، وقد يسرقها، وقد يتسولها، فالبطولة أن تأكل رزقك الذي كتبه الله لك من طريق مشروعة.

زارني أخ متقدم بالسنِّ، قدَّمتُ له ضيافة متواضعة، فأمسك أول لقمة من هذه الضيافة، وقبل أن يأكلها قال: سبحان من قسم لنا هذا، ولا ينسى من فضله أحداً.

اعتقد هذا الاعتقاد، الله عز وجل لا ينسى من فضله أحداً، هو خلقك، تكفَّل لك بالرِّزق، تكفَّل لك بالزواج، تكفَّل لك بالعمل، فلا تضجر، ولا تقلق، ولا تيأس، ولا تتشكَّ.

رزق الأبدان بالأطعمة، ورزق الأرواح بالمعرفة، والمعرفة أشرف الرِّزقين، فإذا خصَّك الله بدخلٍ وفير أكلت به أطيب الطعام، وخصّ عبداً آخر برزق المعرفة فاعلم علمَ اليقين أنَّ العبد الآخر أكثرُ حظوةً عند الله منك، لأنَّه منحه رزق النفوس، ورزق الأرواح، وهي المعارف، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القصص:١٤].

وقد قال النبي ﷺ: «أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني» [مسلم عن أبي هريرة].

يكون بعض الإخوة في مجلس مبارك؛ فيه نور وسرور ومودَّة، فيه محبة وذكر لله، فيقول لك أحدهم: جلست جلسة لا أنساها مدى الحياة، وفي مجلس آخر طعام نفيس، بأنواع منوعة، ويقول لك: لم أسرَّ.

وقال بعض العلماء: الرازق من غذَّى نفوس الأبدان بتوفيقه، وحلّى قلوب الأخيار بتصديقه.

نصيب المؤمن من اسم الله الرازق

من علم أنَّ الله تعالى هو الرازق اتّجه إليه وحده بطلب الرِّزق، واتّخذ الأسباب التي جعلها الله سبباً لزيادة الرزق، وأوَّل سبب من أسباب الزيادة التقوى، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣].

وكلمة (مخرجاً) توحي أنّ أبواب الأرض كلَّها أُغلقت، يقدِّمُ طلباً فلا يُوافق له، يقدِّم بعثة فيأتي الجواب بالرّفض، يبحث عن عمل فلا يجد، يحاول أن يستأجر دكاناً فلا يستطيع، الأبواب كلُّها مغلقة، ولحكمة بَالغةٍ يكون هذا الامتحان الصعب؛ يغلق الله كلَّ أبواب الأرض، ويفتح لك أبواب السماء، فالإنسان المؤمن لا يقنط ولا ييأس، بل يتَّجه إلى الله، ويتقيه ويصطلح معه فيجعل الله له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب.

ومن أسباب زيادة الرزق: صدق التوكل على الله، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

لكنَّ التَّوكُّل من عمل القلب، وليس من عمل الجوارح، والمسلمون حينما تخلفوا في فهم دينهم جعلوا التوكل بالجوارح، فلا يفعل أحدهم شيئاً، ثمَّ يقول: سلمت أمري إليك يا رب، ولا يتحرَّك ولا يسعى، مع أنَّ الله عز وجل يقول: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ ﴾ [التوبة:١٠٥].

وفي الحديث: «إن الله يَلُومُ على العَجْز، ولكن عليكَ بالكَيْس، فإذا غَلَبَك أَمر، فقل حَسبيَ الله ونعم الوكيل» [أخرجه أبو داود عن عوف بن مالك].

لا يسعى، ولا يتحرك، ولا يدرس، ولا يستطلع، ولا يفعل شيئاً إلا أنه يقول: توكَّلت على الله.

سيِّدنا عمر رأى أناساً يتكففون الناس في الحج، قال: من أنتم؟ قالوا: نحن المتوكِّلون، قال: كذبتم، المتوكِّل من ألقى حبَّة في الأرض ثم توكَّل على الله.

ورأى رجلاً مع جمل مريض، قال: يا أخا العرب ماذا تفعل بهذا الجمل؟ قال: أدعو الله أن يشفيه، قال له: هلّا جعلت مع الدعاء قطراناً؟ أي: دواء.

تأخذ بالأسباب وكأنها كلُّ شيء، ثم تتوكَّل على الله وكأنها ليست بشيء، عندك سفر طويل، ومعك مركبة، تراجعها مراجعة كاملة، تراجع العجلات، المكابح، الزيت، تراجع كلَّ شيء، وحينما تكون جاهزة تتوجَّه من أعماق قلبك إلى الله.

الغرب أخذ بالأسباب واعتمد عليها وألهها، ونسي الله فوقع في الشرك، ونحن ندعي أننا مؤمنون، لم نأخذ بها أصلاً، وتوكَّلنا على الله توكلاً ساذجاً أي تواكلاً فوقعنا في شرّ عملنا.

أحد أسباب زيادة الرزق صلة الرحم، يقول ﷺ: «مَن سَرّه أن يَبْسُط الله له في رزقه وأن يَنْسَأ له في أَثَره فلْيَصِلْ رحمه» [أخرجه البخاري والترمذي عن أبي هريرة].

الإنسان حينما يتفقد أخواته البنات، المتزوجات، يتفقد من يلوذ به، والتَّفقُّد يعني أن تزورهم، أن تتفقَّد أحوالهم المعيشية، والتربوية، والدينية، وأن تمدَّ لهم يد العون، وأن تأخذ بيدهم إلى الله، وصلة الرحم من أعظم الأعمال، وكأنَّ هذه الصلة صلةُ الغني للفقير، والقوي للضعيف، والعالم للجاهل.

ومن أسباب زيادة الرزق الشُّكر، قال تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم:٧].

ما دمت تشكر نعم الله، فهذه النعم لن تزول بإذن الله، بل تزيد، وأنت حينما تدخل بيتك، فتقول: يا رب لك الحمد آويتني بهذا البيت، لك عمل فتقول: يا رب لك الحمد أكرمتني بهذا العمل، معك شهادة عليا فتقول: يا رب لك الحمد يسَّرت لي هذه الدراسة، أمامك زوجة، تحبُّك وتحبُّها ملء السمع والبصر فتقول: يا رب لك الحمد

أكرمتني بهذه الزوجة، فأنت حينما ترى نعم الله، وتشكر الله عليها فهذه النعم لن تتحوَّل عنك إن شاء الله، بل سوف تزيد، وبالشكر تدوم النعم، يقول تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم:٣٤].

هل يمكن أن أعطيك ليرة واحدة، وأقول لك: عدَّها، ما هذا الطلب؟ كيف أعدُّ ليرة واحدة؟ معنى الآية لو أمضيت حياتك في معرفة بركات نعمة واحدة فلن تستطيع، فلأن تكون عاجزاً عن شكرها من باب أولى.

والاستغفار والتوبة من أسباب زيادة الرزق، قال تعالى: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا (١٠) يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا (١١) وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّـٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا (١٢)﴾ [نوح:١٠-١٢].

بيت تؤدَّى فيه الصلوات، محلٌّ تجاريٌّ تؤدَّى فيه الصلوات، أيُّ مكان تؤدى فيه الصلوات فهذا مكان له رزق خاص، والدليل: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ (١٣٢)﴾ [طه:١٣٢].

قد نجد محلاً تجارياً مرزوقاً، الموظفون جميعاً يصلون، صاحب المحل يصلي، لا يوجد مخالفات شرعيَّة، لا يوجد إطلاق بصر في المحرمات، هناك انضباط، مثل هذا المحل أصحابه يؤدون الصلاة شكراً لله عز وجل، وصاحب المحل يتقي الله في البيع والشراء، هذا المحل له معاملة خاصة.

أحد أسباب زيادة الرزق الصدقة، قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ (٢٤٥)﴾ [البقرة:٢٤٥].

وفي الحديث: «أنفق بلالُ ولا تخش من ذي العرش إقلالاً» [أخرجه الطبراني عن بلال].

وفي حديث آخر: «يا ابن آدم، أنفقْ أُنفِقْ عليك» [أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة].

بالصدقة تستدرُّ الرِّزق من الله عز وجل.

ومن أسباب زيادة الرّزق قراءة القرآن الكريم، يقول ﷺ: «إن البيت الذي يقرأ فيه القرآن يكثر خيره، والبيت الذي لا يقرأ فيه القرآن يقلُّ خيره» [أخرجه البزار عن أنس ابن مالك].

والشيء الذي يلفت النظر أنك إذا وسعت على عيالك في الإنفاق فإنَّ الله عز وجل يكافئك برزق وفير، وفي الحديث: «ليس منا من وسع الله عليه ثم قتَّر على عياله» [الديلمي عن عائشة].

من تمام الطاعة لله، أنَّ الله إذا وسَّع عليك فوسِّعْ على أهلك، لبِّ حاجتهم المشروعة دون إسراف، دون تبذير، دون خيلاء.

الزواج يحتاج إلى إنفاق كبير، يحتاج إلى تأسيس البيت، إلا أنّ النبيَّ ﷺ يقول: «ثلاثة حقّ على الله عَوْنُهم: المجاهدُ في سبيل الله، والمُكَاتِبُ الذي يريد الأداءَ، والناكحُ الذي يريد العَفَافَ» [أخرجه الترمذي والنسائي عن أبي هريرة].

فالنكاح أحد أسباب زيادة الرزق.

والهجرة من أسباب زيادة الرزق، إنسان مقيم ببلد غربي، دخله فلكيٌّ، له مركبة فارهة، بلاد جميلة، حريات كاملة، حاجاته مؤمنة، لكن هناك فسق وفجور لا يعلمه إلا الله، فخاف على أولاده، فأنهى أعماله، وعاد إلى بلده، والبلاد النامية فيها متاعب كثيرة، فرص العمل قليلة، بيوت غالية جداً، فضحَّى بكلِّ ميزات العالم الغربيِّ، ووضع هذا تحت قدمه، وعاد إلى بلده صوناً لأولاده، وأسرته، ولمستقبل بناته، هذا الذي هاجر في سبيل الله حقٌّ على الله أن يغنيه، يقول تعالى: ﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ [النساء:١٠٠].

أخوة كُثر كانوا في أعلى دخل في البلاد الغربية، لكن خافوا على بناتهم وعلى أولادهم، فعادوا إلى بلدهم، فعانوا من شدة في بادئ الأمر ولكن بعد ذلك فتح الله

عليهم أبواب الرزق الواسعة، مكافأة لهم على خوفهم على أولادهم وعلى بناتهم، وعلى دينهم.

إذاً: نصيب المؤمن من اسم الرّازق أن يقدِّم لله تعالى أسباب الرّزق وأن يسعى في الأرض وليعلم بعدها يقيناً أن الرزق مكتوب وأنه سيصل إليه، فلا تسلك إلا السبل المشروعة في الوصول إلى رزقك المقدّر.

الدَّيَّان

عَنْ عَبْد الله بْن أُنَيْسٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ:

«يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ، أَوْ قَالَ: العِبَادُ عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا، قَالَ: قُلْنَا: وَمَا بُهْمًا؟ قَالَ: لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مِنْ قُرْبٍ: أَنَا المَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ، وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ حَقٌّ حَتَّى أَقُصَّهُ مِنْهُ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ وَلِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عِنْدَهُ حَقٌّ حَتَّى أَقُصَّهُ مِنْهُ، حَتَّى اللَّطْمَةُ، قَالَ: قُلْنَا: كَيْفَ وَإِنَّا إِنَّمَا نَأْتِي الله عَزَّ وَجَلَّ عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا؟ قَالَ بِالحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ» [أحمد في المسند بسند حسن].

من معاني اسم الله الديان

الدّيّان على وزن فعّال مبالغة لاسم الفاعل الدائن، وفعله دانَ يدين، أي جازى يجازي، ويوم الدّين هو يوم الجزاء.

فالدّيّان سيحاسب عن كلِّ الذنوب مهما كثرت، وسيحاسب عن الذنب مهما كبر، قال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٣ ﴾ [الحجر:٩٢-٩٣].

الدَّيَّان صيغة مبالغة على وزن فعَّال وصيغة المبالغة إذا اقترنت باسمٍ من أسماء الله الحسنى فلها معنى خاص، وصيغُ المبالغة في أسماء الله عز وجل لا تعْني الذي نحن نعْنيه؛ تقول: بالغ فلان، أي: أعطى الأشياء حجماً زائداً، وفلان يزيد على الحقيقة أشياء كثيرة، أمَّا المبالغة في حقِّ الله عز وجل فهي التعظيم؛ التعظيم الكميُّ والتعظيم النوعيُّ.

الدَّيَّان هو الذي يدين له الخلق أجْمعون.

والدِّين هو الجزاء والمكافأة، والدِّين هو العبادة، والعبادة غاية الخضوع لله عزَّ وجلَّ مع غاية الحبِّ، وكلُّ إنسانٍ عبدٌ لله عز وجل بمعنى أن ناصيتَهُ بيد الله عز وجل، وأنه مقْهورٌ في وجودِه وفي استمرار وجودِهِ وفي سلامة وجودِه وفي كمال وجودِه لله عز وجل؛ وجودُهُ متوقِّفٌ على إمداد الله له، وكذا استمرار وجودِه وسلامة وجودِه متوقِّفان على حفظ الله له، وكمال وجودِه متوقِّفٌ على إكْرام الله له.

إذاً عَبْدُ القهْر هو العبْد الذي لا يملِك من أمرِهِ شيئاً، والعبد الذي هو في قَبْضَة الله، أقرب شاهِد لهذا الكلام أنَّ نقطةً من الدم إذا تجمَّدت في أحد أوعية الدماغ انقلبت حياة الإنسان إلى جحيم وصار طريح الفراش؛ وإذا تجمَّدت في مكانٍ آخر فإنَّه يفقِد ذاكِرَتَهُ ولا يعرف أولاده، وفي مكانٍ ثالث يفقِد سمعه وبصرَه، فالإنسان لا يملِك شيئاً، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٦ ﴾ [آل عمران:٢٦].

فهذا عبد القَهْر فمن هو عبْد الشكر؟ هو الذي عرف الله ابتداءً، وعرف منهجَهُ اكتساباً، وأقْبل عليه شوقاً، وخضع لأمره عبودية، فهذا عبْد الشكر، وعبد الشكر يُجمع على عِباد، قال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۝٦٣ ﴾ [الفرقان:٦٣].

أما عبد القهر فيُجمع على عبيد، قال تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [فصلت:٤٦].

والدِّين: الطاعة والحساب، قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾ [الغاشية:٢٥-٢٦].

من الذي يُحاسَب؟ المقهور، أمَّا القاهِر فلا يُحاسَب؛ الموظَّف إذا فرغ صندوقُهُ فإنَّه يحاسَب لأنه مقهور، يحاسَب و قد يوضَعُ في السجن، فالذي يحاسَب مقهورٌ دائماً، فالدِّين الطاعة والحساب والقَهْر، والدِّين الغلَبَة والاستعلاء، والدِّين المِلَّة والمذهب، تقول: فلانٌ دينُهُ الإسلام؛ هذا ما ورد في معاجم اللغة حول كلمة الدِّين؛ الجزاء والمكافأة والعبادة والطاعة والحساب والقهر والغَلَبَة والاستعلاء والمِلَّة، أما الدَّيَّان فهو القهَّار والحافظ وهو القاضي:

إذا جــار الأمــير وحاجِبــاهُ وقــاضي الأرض أسْرَفَ في القضــاء
فوَيْــلٌ ثــم وَيْــلٌ ثــمّ ويْــلٌ لقــاضي الأرض مــن قــاضي السماء

قال تعالى: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [البروج:١٢].

الإنسان حينما يتوهَّم أنه طليق وأنه يفعل ما يريد، ففي ثانيةٍ واحدة تجده في قبضة الله.

ومعنى الدَّيَّان: الذي لا يُضيِّعُ عملاً، بل يجزي عليه بالخير أو الشرّ.

فأيُّ عملٍ له جزاء ولو كان ابتغاء الدنيا فلَهُ جزاء في الدنيا؛ أيُّ عملٍ على الإطلاق صالحاً كان أم طالحاً، صغيراً أو كبيراً، لو أنَّ الإنسان ترفَّق بنمْلةٍ وهو يتوضَّأ فنجَّاها من الغرق فهذا العمل له جزاؤُهُ، ولو رأى قشَّةً في المسجد فحَمَلها ووضعها في جيبه فهذا العمل له جزاؤُهُ، ولو أنه قبَّل ابنه فهذا العمل له جزاؤه، الدَّيَّان هو الذي لا يُضيِّعُ عملاً، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾ [محمد:٣٥].

البرّ لا يبْلى، والذنب لا يُنسى، والدَّيّان لا يموت، اعمْل ما شئت كما تدين تُدان، كنت مرةً مع أحد الأصدقاء ارتكب حادث سير، خلاصته أنه رجع إلى الوراء دون أن ينتبه وكانت وراءه سيارة فدخل في مقدمتها، وكسر مصابيحها، وأتْلف بعض أجزائِها، فنزل صاحب السيارة التي ضُرِبَت فنظر إليه ثم قال: أنا أُسامِحُك فاذهب وشأنَكَ مع السلامة؛ لم أفهم سرّ ما جرى! فإذا بي أرى من صديقي دمْعةً تنحدر على خدَّيْه، فقلت: لعله رجُلٌ ميسور الحال سامحك، هلاّ وفَّرْت على جيبك ألف ليرة أو الفَيْن؟ فقال: ليس الأمر كذلك، بل إنني قبل عامين كنت في بلدٍ مجاور فصدمَتْ مركبةٌ سيارتي وأصابَتْها بالعطب، كان صاحب المركبة الصادمة رجلٌ ديِّن ومعه زوجتُهُ محجبة، وكذا بناتُهُ، فما أردت أن أُفسِد عليهم نزهتَهم فقلت له: انطلق مع السلامة فأنا أُسامِحُك. فذاك العمل لم يضع ثوابه بل بعد عامين جنيت ثواب ما قدمت، وهو ما رأيتَه الآن! وعلى هذا فقِسْ.

البرِّ لا يبْلى، والذنب لا يُنسى والدَّيّان لا يموت، اعمل ما شئت كما تدين تُدان، وما أكْرَمَ شابٌّ شيخاً لسِنِّهِ إلا سخَّر الله له من يُكرِمُهُ عند سِنِّه، فهذا شابٌّ وقف بمركبةٍ عامة لشيخ كبير، قد تدور الأيام ويمضي على هذا الحادث خمسون عاماً، ولا بد من أن يقف يوماً شابٌّ بغاية الأدب لهذا الشيخ الذي كان شاباً، ويُقدِّم له آيات التبجيل والاحترام؛ بل إن القَرْض يؤدى أضعافاً، وما قوْلُكم إنَ الله سبحانه وتعالى وصف كلّ عملٍ صالحٍ على الإطلاق تجاه أي مخلوقٍ كائناً من كان بأنه إقراضٌ لله عز وجل قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة:٢٤٥].

حدثني أخٌ أنه جَهِد في إنقاذ حياة هرةٍ من الموت، وفي اليوم التالي كاد ابنُهُ يسقُط تحت مركبةٍ وتشْطُرهُ شطرين، لكنَّ إنساناً اندفع من محلٍّ تجاري قريب فأمسك ابنه وأنْقذه من الحادث، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ [فصلت:٤٠].

﴿ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ﴾ هو فعل أمرٍ يفيد التهديد، فكلُّ شيءٍ له ثمن، وكُلُّ عملٍ له جزاء، إنَّ لكلِّ حَسَنةٍ ثواباً ولكلِّ سيئةٍ عقاباً، وما من عثْرَةٍ ولا اختلاجِ عِرْقٍ ولا خدْشِ عودٍ إلا بما قدَّمت أيديكم وما يعفو الله عنه أكثر، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى:٣٠].

لكننا نرى حوادث كثيرة متفرِّقة لا نعلم خلفياتها ومقدِّماتها، ولا نعلم الفصول الأولى من هذه القصة، وقد تنتهي هذه القصة بحادث مؤلم وبمصابٍ كبير أو بإتلاف مالٍ، وقد تنتهي بتدمير إنسان، ولكن لو أنَّ لك نَفَساً طويلاً ومتابعةً مستمرة؛ وتقَصَّيْتَ أحوال ما يصيب الناس، لوجدت العجب العُجاب، ولوجدتَ يد الله تعْمل في الخفاء، ولوجدْت يد الله فوق أيديهم قال تعالى: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأنفال:١٧].

قال العلماء: «الدَّيَّان في صفة الله عز وجل هو: المجازي، والذي لا يُضَيِّع عملاً، بل يجزي بالخير والشر»، وقيل: «هو فعَّال، من الفعل دان: دانَ الناس يدينهم أيْ قَهَرَهم على الطاعة»، وهذا القَهْر قَهْرٌ تَرْبَوي، فلو افترضنا: ابن مُشاكِس وأبٌ حازم وهذا الأب حمل ابنه على الدراسة إلى أن صار إنساناً ذا مكانة مرموقة في المجتمع، والأب من رحمته الشديدة حمل ابنه على طاعته، فهذا الحَمْل مؤداه إلى الخير، عندئذٍ ينقلب الشعور بالقهر إلى شعورٍ بالرضا والامتنان.

وفي حديث ابن عمر: «اللهم دِنْهُم كما يدينوننا» [أورده ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث]، أي اجْزِهم بما يُعاملون به مَن قبلَهم، طبعاً كلمة: مالك يوم الدين كلمة كبيرة جداً، فيوم الدين يوم الدَّيْنونة، وأسماء الله الحسنى كلُّها محقَّقة في الدنيا. أما عدل الله فيحقّق في الدنيا ويبدو أشدّ جلاءً في الآخرة؛ هناك تسوية حسابات، وهناك غنيٌّ وفقير، وهناك مستغِلّ ومستَغَل؛ ومحتال ونصاب وطاغية، وظالم ومظلوم، وهناك من يغتصب

أموال الناس، وهناك من يغتصب أعراضهم؛ ويحتال عليهم بذكائه أو بقوَّتِهِ؛ والمؤدَّى واحد إما احتيالاً أو قهراً؛ فهذا الذي أخذ ما ليس له متى سيُحاسَب؟

سمعتُ مرةً من أحد الدعاة مثلاً أعْجَبَني؛ لو أنَّ أحداً كان في مسرحية ثم أُرْخِيَ السِّتار قبل انتهاء فصولها فإنَّك لا تجد أحداً قام من مكانه، لماذا؟ لأنه ما انتهت المسرحية فكل بداية لها نهاية، وكل مقدمة لها نتيجة؛ وهذا الذي اغتصب وسرق أموال الناس بالباطل متى توزن له الأعمال؟ إنها توزن يوم الدين؛ حيث توفَّى كل نفس ما كسبت، هذا اليوم إذا غَفَلْنا عنه فنحن أشقى الأشقياء، قال تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ [الفاتحة:٤].

هناك سؤال وهو: أليس الله هو مالك الدنيا؟ وهل معنى مالك يوم الدين أنه لا يملِك الدنيا؟ الجواب: لا. فهو تعالى يملِك الدنيا والدين والآخرة، لكن في الدنيا تجد من يدَّعي أنَّه مالِكُها، فهناك من يدَّعي أنَّ الأمر بيد فلان، وأساساً معظم الذين وقعوا في الشِّرك الخفيّ يَرَوْن الناس ولا يروْن الله عز وجل، ويرون أنَّ الأقوياء بيدهم الحلّ والعقد والعطاء والمَنْع والإعْزاز والإذلال، وبيدهم الحياة والموت فيما يبدو لهم، وهناك مَن يدَّعي أنَّ الأمر بيده في الحياة الدنيا وهو المشرك، لكن في الآخرة لا يستطيع أحدٌ أن يدَّعي أنَّ الأمر بيدِه، هناك آيةٌ تُشْبِهُ هذه الآية، قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الشورى:٥٣].

بحسب الظاهر، إن الأمور صارتْ إلى الله؛ فبِيَدِ من كانت؟ كانت بيد الله أيضاً، فما معنى هذه الآية إذاً؟ في الدنيا الأمر بيد الله وحْده وليس لأحد من الأمر شيء، إلا أن هناك في الدنيا من يدَّعي أنَّ الأمر بيدِه. أما في الآخرة فيبدو الأمر جَلياً أنه بيد الله عز وجل، ولا أحد يستطيع أن يدَّعي أنَّ الأمر بيدِهِ فهي قضيةٌ نسْبيَّة.

إذاً مالك يوم الدين يومٌ لا يمْلِكُهُ أحدٌ. أما في الدنيا فقد تجد إنساناً قُتِل وآخر قُهِر وذاك أُخذ مالُهُ والقويُّ هو الذي أخذ ماله؛ أو قتل أو قهر... إلخ، والقوي هو

الذي قهره... هناك في الدنيا قد تجد من يدَّعي أنَّ الأمر بيدِه، أما في الآخرة فلا يستطيع أحدٌ أنْ يدَّعي أنَّ الأمر بيدِه، فهو مالك يوم الدين، وهناك قراءة (ملِكِ يوم الدين) فالمالك هو الذي يمْلك ولا يَحْكم، والملِك هو الذي يحكُم ولا يمْلِك، والله مِلِكٌ ومالِك يَمْلِك ويحكُم، أنت أحياناً تنتفع بشيء ولا تملِكُ رقبته، وقد تملِكُ رقبتَهُ ولا تنتفِع به، والشيءُ الثالث أنك قد تملكه وتنتفع به ولا تملك مصيره، لكنَّ الله سبحانه وتعالى مالك يوم الدين وملك يوم الدين، ويملِك كل شيءٍ خلقاً وتصرُّفاً ومصيراً.

وهذا ابن عباس رضي الله عنهما يفسِّر معنى قول الله عز وجل ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ فيقول: لا يملك أحد في ذلك اليوم شيئاً كمُلْكِهم في الدنيا، حيث كانوا يضعون أيديهم على الكثير ويمتلكونه، ويوم الدين يوم الحساب للخلائق، وهو يوم الآخرة، يدينُهُم بأعمالهم، إن خيراً فخيرٌ وإن شراً فشرٌ إلا من عفا الله عنه.

العلماء يقولون: «تخصيص المُلك بيوم الدين لا ينْفي ما عداه»، وهذه نقطة مهمة جداً فإذا قلنا: الله مالك يوم الدين لا يعني أنه لا يملِك الدنيا، لكن في هذا اليوم يتَّضِح لكل إنسان أنه تعالى مالك يوم الدين، أما في الدنيا فيتَّضِح للمؤمنين فقط أنَّ الله مالك الدنيا، فما الفرق بين المؤمن والمشرك؟ المؤمن يرى أن الله وحْده هو الفعَّال، ولكنَّ المشرِك يرى أنَّ آلهةً كثيرةً تفعل ما تريد.

في الحديث الشريف عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول: «يأخذ الجبار سماواته وأرضه بيده وقبض بيده فجعل يقبضها ويبسطها ثم يقول: «أنا الجبار أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟» قال: ويتميّل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن يمينه وعن شماله حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى إني لأقول: أساقط هو برسول الله صلى الله عليه وسلم؟ [مسلم وابن ماجه واللفظ له].

كان في الأندلس ملِك شهير جداً، كان ملِكاً على أكبر مقاطعة في إسبانيا، اسمُهُ المعتمد بن عبَّاد وكان ذا عِزٍّ وشأنٍ وسلطان، وكان ذات يوم يتمشى في حديقة قصره

فرأى بِرْكَة ماء وقد أثَّرت فيها الريح فشَكَّلَت خطوطاً متعارضة وكأنها زَرَد (كأنها حديد مزرود)، فقال هذا الملك وكان شاعراً: نَسَجَ الرِّيح على الماء زرد، فلما أراد أن يُتَمِّمَ البيت ما استطاع، وتعَثَّرتْ به شاعِرِيَّتُهُ وكانت وراءهُ جارية فقالت له:

نســـج الـــرِّيح عـــلى المـــاء زرَد أي دِرْع لقتـــال لـــو جمَـــد

فأُعجب بها وتزوَّجَها وأكْرمها أيَّما إكرام، فقد صارت زوْجة ملِك، واشْتَهَت يوماً أنْ تعيش حياة الجواري كما كانت قبل أن يتزوجها الملك، وأنْ تدوس في الطين فجاء لها بمِسْكٍ وكافور ومزجهُما بماء الوَرْد، وجعل من المِسْك والورد طيناً، وقال: هذا هو الطين فدوسي فيه، ثم جاء ملِك من ملوك إفريقيا اسمه يوسف ابن تاشفين وغزا إسبانيا ووضع كلَّ ملوك دويلات إسبانيا العربية في السجن (ملوك دول الطوائف)، والتاريخ يروي هذه القصة فهذا الملِك صار سجيناً وصار فقيراً ومُعذَّباً، وشَكَتْ بناتُه الجوع، وزوجَتُهُ العري، وضاقَتْ به هذه الجارية ذرعاً إلى أن صارت تقسو عليه، وقالت له مرةً: ما رأيتُ منك خيراً قط، فقال لها: ولا يوم الطين؟! فاسْتَحْيَت وسكَتَتْ.

لهذا في بعض الأحاديث أن النسوة اللاتي رآهن ﷺ أكثر أهل النار هُنَّ مَنْ يَكْفُرْنَ العشير إذا أحْسَنْتَ إلى إحداهُنّ الدهر كلّه ثم رأتْ منك شيئاً قالت: لم أرَ منك خيراً قطّ [انظر صحيح البخاري الحديث (٢٩) عن ابن عباس]؛ وإنْ قُلْتَ لها كلمة قاسية فلن تنْساها إلى الأبد، أما كلُّ الإكرام فإنها تنْساه، أجل تنساه المرأة التي ما عرفتْ ربَّها، وأيُّما امرأةٍ لا تشكر لزوجِها -وهي لا تستغني عنه- لم ترِحْ رائحة الجنَّة.

عن ثوْبان عن النبي ﷺ قال: «المُخْتَلِعاتُ هُنَّ المُنافِقاتُ»، ورُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «أيُّما امْرَأَةٍ اخْتَلَعَتْ مِنْ زَوْجِهَا مِنْ غَيْرِ بَأْسٍ، لَمْ تَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ» [سنن الترمذي].

وروي أن النبي ﷺ قال: «إني لأبغض المرأة تخْرج من بيتها تجر ذيلها تشكو زوجها» [رواه الطبراني، عن أم سلمة]. ومن صفات المرأة المؤمنة أنها سِتِّيرة.

وفي القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ ﴾ [البقرة:٢٤٧].

فالإنسان يوصف بأنَّهُ ملِك وفي الحديث قال ﷺ:

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الأنْصَارِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ أَنَساً رضي الله عنه يَقُولُ: دَخَل رَسُولُ الله ﷺ عَلَى ابْنَةِ مِلْحَانَ فَاتَّكَأَ عِنْدَهَا ثُمَّ ضَحِكَ فَقَالَتْ: لِمَ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ الله؟ فَقَالَ: «نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي يَرْكَبُونَ البَحْرَ الأخْضَرَ فِي سَبِيلِ الله، مَثَلُهُمْ مَثَلُ المُلُوكِ عَلَى الأسِرَّةِ» فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله ادْعُ الله أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: «اللهمَّ اجْعَلْهَا مِنْهُمْ» ثُمَّ عَادَ فَضَحِكَ فَقَالَتْ لَه: مِثْلَ -أَوْ مِمَّ- ذَلِكَ؟ فَقَالَ لَهَا: مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَالَتِ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: «أَنْتِ مِنَ الأوَّلِينَ وَلَسْتِ مِنَ الآخِرِينَ» [صحيح البخاري].

هناك سؤال وهو: كيف نقول: مالك يوم الدين ويوم الدين لم يأتِ بعْد؟ يجيب الإمام القرطبي عن هذا السؤال فيقول: اعْلم أنَّ مالكاً اسم فاعل مِن مَلَكَ يَمْلِكُ، واسم الفاعل في كلام العرب قد يُضاف إلى ما بعْده وهو بمعنى الفعل المستقبل، ويكون ذلك عندهم كلاماً سديداً معقولاً صحيحاً كقولِك: هذا ضارِبُ زيدٍ غداً، أي: سيضربُهُ غداً، واللغة الدارجة كذلك تشير إلى هذا المعنى.

إذاً إذا قلنا: مالِك يوم الدين، أي إنَّ الله جلَّ جلاله حينما يأتي ذاك اليوم فلا مالِكَ سواه، وعلى كلٍّ: إنَّ لكلِّ سيئةٍ عقاباً، ولكلِّ حسنةٍ ثواباً، واعملوا ما شئتم فالبر لا يبْلى والذنبُ لا يُنسى والدَّيَّان لا يموت، اعمل ما شئت كما تدينُ تدان، والدَّيَّان هو الذي لا يضيع على مخلوقٍ عملَهُ.

لي صديق يقيم ببلدٍ عربي له قريبٌ حالُهُ وسط من حيث التدين والأخلاق والاستقامة، وله أولاد أقلُّ من الوسط من حيث البِرّ، وهذا القريب أصيب بمرضٍ

قبل وفاتِه، فرأى الناس من بر أبنائِهِ به الشيء الذي لا يُصَدَّق، فلا هو يستحق هذا البر، ولا أولادُهُ في هذا المستوى الراقي؛ فمن الذي جعلهم يُقْبِلون على خِدْمَتِهِ إقبالاً عظيماً؟ فهو وسَطٌ في تديُّنِه واستقامتِهِ وفي أُبُوَّتِهِ، وأولادُهُ أقلّ من الوسَط في أخلاقِهم وتديُّنِهم، أما حينما مرض مرضاً عُضالاً فقد أقْبلوا على خدمتِهِ إقبالاً مُنْقَطِع النظير، حتى أصبحت خدمتهم له مضرب المثل!... فهذا الصديق بقي أشهُراً يُحَلِّل هذا الموضوع إذ يصعُبُ تفسيرُه. فكان تفسير هذا الخبر أنَّ هذا المريض كان باراً بأبيه فبرّه أولاده، البِرّ لا يبْلى والذنب لا يُنسى.

كلُّ عملٍ له جزاؤُهُ إنْ خيراً فخيرٌ، وإنْ شراً فشر، الدَّيَّان هو الذي يدين خلْقه أي يُخْضِعُهُم أو يُجازيهم ويُكافِئهم أو يحْمِلهم على طاعَتِه أو يُحاسِبُهم، فالله سبحانه وتعالى هو المحاسب، والشيء المهم أنَّ الله تعالى له أوامِر تكليفية وأوامر تكوينية.

والدّيّان يقيم عليك الحجة والبرهان.

فالقاضي العادل يحاكم المذنب محاكمة أصولية، ويدينه بأخطاء ثابتة، فحينما يحكم عليه بعقاب أليم فهذا العقاب مبرَّر، وبطولة القاضي أن يقدِّم له الدليل على أنه مذنب، قال تعالى: ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء:١٤].

الديان هو الذي خضعت له الخلائق خضوع إقرار، وخضوع قوة.

قد يكون الإنسان قويّاً، ولكن ليس معه حجَّة، فهذا قمعيٌّ، و قد تكون معه حُجَّة، ولكنَّه ضعيف، لا يستطيع أن يأخذ الحقَّ من القوي إلى الضعيف.

أمَّا ربنا عز وجل فقويٌّ، والحجّة قائمة منه على عباده، قال تعالى: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ [الأنعام:١٤٩].

نصيب المؤمن من اسم الله الديان

المؤمن الذي يعرف الله الدّيّان، يدين نفسه ويحاسبها حساباً عسيراً في الدنيا، وقد روي في الحديث الشريف:

عَنْ أَبِي يَعْلَى شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، ثُمَّ تَمَنَّى عَلَى الله» [رواه ابن ماجه والترمذي].

دان نفْسَهُ، أي: ضَبطَها وأخْضعَها، وألزَمَها كلمة التقوى، وحمَلَها على طاعة الله وجعلها مستقيمةً.

العاجز يقول لك: نسأل الله تعالى أن يرحَمنا وأنْ يغْفِر لنا ونحن مقصِّرون، ونحن عبيد إحسان ولسنا عبيد امتحان، ولا تَسَعُنا إلا رحمة الله عز وجل، يقول هذا وهو كلامٌ حقٌّ لكن يُراد به الباطل؛ فهو لا يخاف الله، ولا ينْزَجر ولا يأْتَمِر بها أمر الله، ولا يحمِل نفْسَه على طاعة الله ولا يحْرِص على رضوانِه، وهو يُطلق لشهواتِهِ العِنان ويُرْخي لنفسِه الحبل، وهذا هو العاجز الذي أتْبعَ نفْسَه هواها وتمنى على الله الأماني، الكَيِّس من دان نفْسَه.

السَّمَكات الثلاث التي رآها أحدُ الصيادَيْن، فقد توعَّد أنْ يرجِع مع صديقِه ليصطاد هذه السمكات، فسَمِعت السمكات قَوْلَهُما، قال كاتب القصة: إحدى هذه السمكات كيِّسَة، والثانية أكْيَسُ منها، والثالثة عاجزة، أما أكْيَسُهُنَّ فإنها ارتابَتْ وتخوَّفَتْ وقالت: العاقِل يحْتاط للأمور قبل وقوعِها، ثم إنها لم تُعرِّج على شيءٍ حتى خَرَجَت من المكان الذي يدخل منه الماء من النهر إلى الغدير، فَنَجَتْ. وأما الكيِّسَة الأقل عقْلاً وذكاءً فَبقِيَت في مكانِها حتى عاد الصيادان، فذَهَبتْ لتخرج من حيث خرجت صديقَتُها فإذا بالمكان قد سُدَّ، فقالت: فَرَّطْت وهذه عاقبة التفريط، غير أن العاقل لا يقْنَط من منافع الرأي، ثم إنها تماوَتَت فَطَفَتْ على وجه الماء فأخذها الصياد ووضَعها على الأرض بين النهر والغدير ريثما ينتهي فيأخذها، فوَثَبَت في النهر فَنَجَتْ. وأما العاجزة فلم تزل في إقْبالٍ وإدْبار حتى صيدَتْ. وهذه السَّمَكات الثلاث تمثل ثلاثة نماذج بشرية؛ إنسان يحتاط للأمور قبل وقوعِها، وإنسانٌ يحتاط لها حين وقوعِها وإنسان لا يحتاط لها لا قبل وقوعِها، ولا حين وقوعِها، ولا بعد وقوعِها.

قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف:٢٨].

روي عَنْ عَوْفِ بْنِ مالِكٍ أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ، فَقَالَ الْمَقْضِيُّ عَلَيْهِ لَمَّا أدبَرَ: حَسْبِيَ اللهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «رُدُّوا عَلَيَّ الرَّجُلَ»، فَقَالَ: «ما قُلْتَ؟» قالَ: قُلْتُ: حَسْبِيَ اللهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ فقالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ يَلُومُ عَلَى العَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بالكَيْسِ، فإذا غَلَبَكَ أمْرٌ فَقُلْ: حَسْبِيَ اللهُ ونِعْمَ الوَكيلُ» [رواه أحمد].

«إنَّ اللهَ يَلُومُ عَلَى العَجْزِ»، الخُنوع والاستسلام والضعف وعدم السعي وعدم التدبير، وهذا النَّمط الكسول والمُسْتَسْلِم والمُسْتَخْذي، هذا النمط يلوم الله عليه: «إنَّ اللهَ يَلُومُ عَلَى العَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بالكَيْسِ، فإذا غَلَبَكَ أمْرٌ فَقُلْ: حَسْبِيَ اللهُ ونِعْمَ الوَكيلُ».

لو أنَّ إنساناً أُصيب بمرضٍ شديد جداً قبل الامتحان فماذا يفعل؟ هذا قدر الله عز وجل، ولا تقل: حسبيَ الله ونِعْم الوكيل إلا إذا غُلِبْت على أمْرك؛ على الإنسان أن يسعى وليس عليه إدراك النجاح. والله هذا الحديث وحْدَهُ لو فَهِمَهُ المسلمون في شتى أقْطارِهم ولو فهموا أبْعادهُ لكانوا في حالٍ غير هذه الحال، وينتفي عندئذٍ عنهم الكَسَل والتَّواكُل والاستسلام والانهزام والخُنوع والخضوع؛ ليس بيدك من الأمر شيءٌ، وإنها بيد الله كلُّ شيءٍ، فإذا كنت مع الله كان الله معك، وإذا اسْتَعَنْتَ به أعانك، وإن اسْتَنْصَرْتَهُ نصَرك، وإنْ اسْتَهْدَيْتَهُ هداك، وإن اسْتَرْشَدْتَهُ أرشَدَك، وإنْ اسْتَلْهَمْتَهُ الهَمَك:

أوحى الله تعالى إلى داود: ما من عبد يعتصم بي دون خلقي، أعرف ذلك من نيته، فتكيده السموات بمن فيها، إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من عبد يعتصم بمخلوق دوني، أعرف ذلك من نيته، إلا قطعت أسباب السماء بين يديه،

وأهويت الأرض من تحت قدميه، وما من عبد يطيعني إلا وأنا معطيه قبل أن يسألني، وغافر له قبل أن يستغفرني.

لذلك قالوا: إذا كان الله معك فَمَن عليك؟ وإذا كان الله عليك فمن معك؟!

أكثر الناس الآن يعيشون وقْتَهُمْ ولحْظَتَهم ويوْمَهُمْ وساعَتَهم ويُعْطون أنفُسَهُم ما تشْتَهي، أما الغد فلا يُفكِّرون فيه إطْلاقاً؛ فمن علامات العاقل الفذ أنَّهُ يعيش الغد، ومن علامات الأقل عَقْلاً أنَّهُ يعيش الحاضر، ومن علامات الجاهِل أنَّهُ يتغَنى بالماضي كما قال بعض شعراء بكر بن وائل:

ألهى بني تغْلِبٍ عن كلِّ مكْرُمَةٍ   قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثوم

فالجاهِل يتغنّى بالماضي والأقلُّ عقلاً يعيش لحظتَهُ، والعاقِل جداً يعيش المستقبل.

لذلك هناك من يخطط لمستقبله، وهناك من تكون حياتُه ردود فعلٍ دائماً، يكون الفعل من خَصْمِهِ ويُفرَض عليه مكان وزمان الفعل، ومُهِمَّتُهُ ردّ الفعل؛ فهو إنسانٌ ضعيف لا يخطِّط للمستقبل، أمّا المؤمن فإنه يعيش المستقبل وساعةَ فِراق الدنيا، هذه الساعة التي يغْفَل عنها الناس، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [ق:٢٢].

أما الصالحون فقد قال أحدهم: والله لو كُشِفَ الغِطاء ما ازْدَدت يقيناً.

فالمؤمن يعيش المستقبل والمصير، وهذه الساعة التي لا بد منها ما نجا منها أحدٌ، لا نبيّ ولا ملِك ولا غنيّ ولا قويّ ولا ضعيف ولا صحيح ولا مريض ولا عاجز ولا وسيم ولا دميم... فالمؤمن يستعدُّ لساعة الموت بالعمل الصالح؛ بإنفاق علمه وماله ووقته وعضلاته وخبراته وطاقاته وبكلِّ ما يملك؛ يستعدُّ لهذه اللحظة كي يكون القبر روضةً من رياض الجنة، فإن لم يستعدَّ للقبر أصبح القبر حُفرةً من حفر النار، قال تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [غافر:٤٦].

وهذا أخٌ كان له أُختٌ عانِس ويبالغ في إهانتِها هو وزوجته، وينفجر أمام أولادِهِ وزوجتِه عليها ويؤنبها، وهذه الأخت صابرة ليس لها إلا هذا الأخ، وفي إحدى الليالي كانت جالسة على الأرض وهو على كرسي وزوجتُهُ إلى جَنْبِهِ، فأراد أن يشرب كأس ماء فَرَكَلَ أُخته برِجْلِه وقال: ائتِني بكأس ماء، وفي اليوم التالي سافر فوَقَعَ ضحية حادث فقُطِعَتْ رِجْلُهُ التي ركل بها أخته من أعلى الفَخِذ، فالله هو الدَّيَّان، وهذا رجل آخر كان يقود مَرْكبة في الطريق، فوَجَد كلْباً صغيراً يقْبَع على حافة الطريق، ففكَّر هذا السائق أن يُجَرِّب براعَتَهُ في القيادة فقَطَع يدي الكلب دون أن يقْتُلَهُ، وأطْلق ضحكةً هستيرية، أَقسَم لي رجل أعْرِفُهُ وهو عندي صادِق -وكان يركب مع هذا الإنسان- أنه في الأسبوع الثاني، وفي اليوم نفسه من الأسبوع التالي انفجرت معه عجلة السيارة فأوْقَفَها على الطريق ليُصلحها، ورفع السيارة بجهاز الرَّفْع وفَكَّ العجلةَ، وفي أثناء فكِّ العجلة من مكانِها اخْتَلَّ جِهاز الرفْع ووقعت السيارة على يدَيْهِ عند الرسغين، وإلى أنْ وصل إلى المستشفى اسوَدَّت يداه فاضْطُرَّ الطبيب إلى قَطْعِهما؛ الله الدَّيَّان، وهو الواحد الدَّيَّان، والبِرُّ لا يبْلى، والذَّنْبُ لا يُنسى، والدَّيَّان لا يموت، اعْمل ما شئت كما تدينُ تُدان.

المنَّان

ورد اسم المنَّان في السّنّة المطهرة، في سنن أبي داود، من حديث أنس ﷺ، أنَّه كان مع رسول الله ﷺ رجلٌ يصلي، ثم دعا، فقال:

«اللهمَّ إني أَسأَلُكَ بِأنَّ لَكَ الحمدَ، لا إلهَ إلا أنْتَ، المَنَّانُ، بَديعُ السَّمَواتِ والأرضِ، ذو الجَلالِ والإِكْرَام، يا حَيُّ يا قَيُّومُ، فقال رسولُ الله ﷺ لأصحَابِهِ: أَتدرونَ بِمَ دَعَا؟ قالوا: اللهُ ورسولُهُ أعلم، قال: والذي نفسي بيده، لَقَدْ دَعا الله باسمه الأعظم، الذي إِذَا دُعِيَ به أَجَابَ، وإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى» [أبو داود] .

وقد اختلف العلماء في اسم الله الأعظم، فقال بعضهم: الرحمن، وقال بعضهم: الرحيم، وقال بعضهم: المنّان، وقال بعضهم: هو الله، وهناك من العلماء من يجتهد أنَّ اسم الله الأعظم هو الاسم الذي أنت بحاجة إليه، فإذا كان العبد مريضاً فاسم الله الأعظم بالنسبة إليه هو الشافي، وإذا كان العبد فقيراً فاسم الله الأعظم هو الرّزّاق، وإذا كان العبد ضعيفاً فاسم الله الأعظم هو القويّ.

من معاني اسم الله المنان

المنَّان صيغة مبالغة، مِن الفعل منّ يمُنّ مَنّاً، ومنّ، يمنُّ، أي قطع يقطع، ومنّ عليه، أي أحسن وأنعم عليه، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾ [القلم:٣].

أي غير محسوب، أو غير مقطوع، أو غير منقوص، والمنَّة؛ النعمة الثقيلة.

قدَّم إنسانٌ لإنسان هدية بألف ليرة، وهذا عمل طيب، أمَّا أن يعطيك بيتاً، ومركبة، وأرضاً، ورأس مالٍ، بلا مقابل، فهذا عطاء كبير بمقياس البشر.

فالمنُّ هو النعمة الثقيلة، ولا تكون حقيقة إلا لله عز وجل، لأنَّ الله سبحانه وتعالى منحك نعمة الإيجاد، أوجدك، ولم تكن شيئاً مذكورا، منحك نعمة الإمداد، منحك نعمة الهدى والرشاد، فالنعم العظيمة، النعم الجليلة، هي نعم الله عز وجل.

وأكبر نعمة يمكن أن تصل إليها هي نعمة الهدى، لأنَّ المال عرض حاضر، يتوقَّف القلب فتصبح كلُّ أموالك المنقولة وغير المنقولة للورثة، في ثانية واحدة كان إنساناً ملء السمع والبصر فأصبح خبراً على الجدران، كان إنساناً فصار جُثَّةً، وأحيانا يسافر الإنسان راكباً فيرجع بضاعة في صندوق، فلذلك لا يليق بكرم الله أن يكون عطاؤه منقطعاً، والدنيا دار انقطاع، فالموت ينهي غنى الغني، وفقر الفقير، ينهي قوّة القويِّ، وضعف الضعيف، ينهي وسامة الوسيم، ودمامة الدَّميم، ينهي صحة الصحيح، ومرض المريض.

الدنيا دار بلاء وانقطاع، ينتقل الإنسان من كلِّ شيء إلى لا شيء، كان بتوقيع على دفتر الأوراق النقدية يمنح مليارات، فأصبح ملفوفاً بكفن.

فالمنن هي النعم الثقيلة، ولا تصح حقيقة إلا بنعم الآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧١﴾ [الأحزاب:٧١].

فالمنَّان هو الذي يقدِّم لك نعمة ثقيلة، ولكنَّ هناك مَن يمنّ عليك، فيقول لك مثلاً: لحم كتفك من خيري، وهذا منٌّ بالقول، وهو مستقبَح؛ ولكنَّ العلماء أجازوه في حالة نادرة، حينما تُكفَر النعمة.

وفي الحديث: «ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي» [أخرجه الطبراني عن عبد الله بن عباس].

وقد قال الشاعر:

أعلّمه الرّماية كلّ يوم فلمّا اشتدّ ساعده رماني
وكم علّمته نظم القوافي فلمّا قال قافية هجاني

فالمنّ بالفعل لا يليق إلا لله، أمَّا المنّ بالقول فيفعله معظم السفهاء، قال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤].

المنّان هو الله عز وجل، ذو الهبات العظيمة، والعطايا الوافرة، الذي ينعم، ويبدأ بالنّوال قبل السؤال.

للتقريب: أبٌ كريمٌ، قويٌّ، غنيٌّ، ابنه بحاجة إلى ثياب جديدة، الكمال المطلق يقتضي أن يشتري له هذه الثياب دون أن يسأله، فمن كمال الله عز وجل أن يعطي قبل السؤال.

ويقول تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾﴾ [المدثر:٦].

لا تمنن من أجل أن تستكثر الرّدّ.

أحياناً يدّعي إنسانٌ الذكاء، يقول: أنا الآن أخدمه، لكنَّ لي مصلحة معه، أنتظر في وقت ما أن أستردَّ منه هذه الخدمات عطاءً كبيراً، لكنَّ الله سبحانه وتعالى يمنحك كلَّ شيء، ولا يطالبك بشيء.

وقد روى الإمام البخاري رحمه الله تعالى حديثاً رائعاً عن معاذ بن جبل قال: كنت ردف النبي ﷺ.

«قال يا معاذ: هل تدري ما حقُّ الله على العباد؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم -سأله ثانية وثالثة- قال: فإن حقَّ الله على العباد: أن يعبدوه» [أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن معاذ بن جبل].

أنت -حينما تعبد الله تؤدي واجب العبودية، وهذا من حق الله عليك.

القسم الثاني من هذا الحديث يملأ القلب أمناً وأماناً، يملأ القلب طمأنينة، يملأ القلب ثقة بالله عز وجل، كيف بإله عظيم يعطي إنساناً ضعيفاً حقاً عليه؟!

ثم قال: «يا معاذ بن جبل، قلتُ: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: هل تدري ما حقُّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك قال: يا معاذ حقُّ العباد على الله إذا هم عبدوه ألا يعذِّبهم»

المنّ هو العطاء الثقيل في حجمه، وسيّدنا موسى قال: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص:٢٤].

سقى للفتاتين، فقدّم عملاً صالحاً، وهذا هو الخير، أمّا في الدنيا فهناك شركات عملاقة، ميزانياتها أكبر من ميزانيات دول، أهم شيء أن عطاء الله الذي يليق بكرمه لا ينتهي عند الموت، بل يبدأ بعد الموت.

«ولو كانت الدنيا تَعْدِلُ عند الله جَناح بعوضة ما سَقَى كافراً منها شَربة ماءٍ» [أخرجه مسلم وأبو داود عن جابر بن عبد الله].

ومما منَّ علينا به المنّان ما ورد في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران:١٦٤].

إنّ أكبر عطاء منَّ الله به علينا هو هذا النبي العظيم، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس:٥٨].

ويقول تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران:١٦٤].

فالرسول بشر، ولولا أنَّه بشر لما كان قدوة لنا، يشتهي المرأة، يشتهي المال، يشتهي الراحة، يشتهي السلامة، لولا أنَّ النبيَّ ﷺ بشر، تجري عليه كلُّ خصائص البشر لما كان سيِّدَ البشر.

الله عز وجل له آيات قرآنيّة، وله آيات كونية، وله آيات تكوينية.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [الجمعة:٢].

يزكيهم، يطهِّر نفوسهم من الأدران، فلا يوجد مؤمن كذّاب، لا يوجد مؤمن محتال، لا يوجد مؤمن لا ينجز الوعد، لا يوجد مؤمن لا يقيم العهد، لا يوجد مؤمن يقسو، والإيمان هو الخلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان، يقول تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ [الأعلى:١٤].

أذكِّركم بقول سيدنا جعفر للنجاشي لمّا سأله عن الإسلام قال: «أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه» [أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن أم سلمة أم المؤمنين].

إن حدثك فهو صادق، إن عاملك فهو أمين، إن استثيرت شهوته فهو عفيف.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة:٢].

والحكمة هي السّنّة، ففي الكتاب تجد أحكاماً كليّة، وفي السّنّة تجد أحكاماً تفصيلية، يقول ﷺ: «تَرَكْتُ فيكُمْ أَمْرَيْنِ لنْ تَضِلُّوا ما تَمَسَّكْتُمْ بها: كتابَ الله، وسنّة رسولِهِ» [أخرجه مالك عن مالك بن أنس].

نصيب المؤمن من اسم الله المنان

الله عز وجل منَّان، وأنت أيّها المؤمن هل تعطي أو تأخذ؟ ما الذي يسعدك أن تعطي أو أن تأخذ؟ إن كان الذي يسعدك أن تعطي فأنت من أهل الآخرة، وإن كان يسعدك أن تأخذ فأنت من أهل الدنيا.

حينما تُعطي يجب أن تذوب لله شكراً، لأنه سمح لك أن تعطي، والعطاء والأخذ لا علاقة لهما بالذكاء، فقد تجد إنساناً قِمَّة في الذكاء، وهو مضطر أن يبذل ماء وجهه ليأخذ، وقد تجد إنساناً قِمَّة في الذكاء، ومع ذلك فهو فقير، يضطر أن يسأل، ويتذلّل، وإنسان آخر أقلّ ذكاء، وأقلّ فهماً، لكنَّ الله رزقه، فإذا أعطيت فيجب أن تذوب شكراً لله أنّه سمح لك أن تعطي، ولم يُلجئك إلى أن تأخذ.

قدّم أحد المحسنين مرَّة بيتاً في موقع جيّد جداً لمشروع خيري، القائمون على هذا المشروع الخيري أقاموا له حفلاً تكريمياً، وكلُّ المتكلمين أثنوا على إحسانه وعطائه إلا رجلاً واحداً قال كلاماً آخر، قال له: أيها المحسن الكبير، كان من الممكن أن تكون أحد المنتفعين بجمعيتنا، وأن تقف في رتل طويل تنتظر دورك لقبض مبلغ يسير، ولكنَّ الله أكرمك بأنك تُعطي ولا تأخذ.

ومن عرف أنّ الله وحده هو المنَّان فإنّه لا يمنّ على عباد الله بما قدّم، فهناك إنسان يفعل خيراً ولا ينساه، ويذكِّر من أحسن إليه بإحسانه على الدوام، وهذا ليس من شأن المؤمن.

ومن المنّ القولي ما ورد في قوله تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ [الحجرات:١٧].

الله منّ عليكم بالعطاء، وأنتم تمنون بالقول، والمنّ القولي مستقبَح، وهو يذهب أجر العمل الصالح، فإن فعلت خيراً فيجب أن تنساه إلى الأبد، وكأنك لم تفعل شيئاً، والأكمل أنّه إذا فُعل معك معروف فينبغي ألا تنساه ما حييت، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ [البقرة:٢٣٧].

أكمل موقف لمن أحسنت إليه ألا ينسى هذا الفضل، وأكمل موقف لمن أحسن أن ينسى، المحسِن يجب أن ينسى، والمحسَن إليه ينبغي ألا ينسى.

ومن أخلاق المحسِن أنّه لو ذكر إنسانٌ فضله فإنّه يقول: لله المنّة، والفضل، ولمّا قال النبي ﷺ للأنصار: «ألم تكونوا ضلالاً» .

لم يقل فهديتكم، بل قال: «فهداكم الله بي» .

فإذا أراد جل جلاله إظهار فضله عليك خلق الفضل ونسبه إليك، والتَّواضع موقف موضوعي، وليس موقف مجاملة.

المنّان هو الله تعالى، والمؤمن يعطي ممّا أعطاه الله تعالى، ولا يمنّ على عباد الله، بل لسان حاله دائماً ما قاله الأنصار لسيدنا محمد: المنُّ لله ولرسوله.

المالك

اسم الله «المالك» ورد في القرآن الكريم مضافاً، وإن كانت الإضافة تحمل معنى الإطلاق في الملكيّة، ولكنّه ورد أيضاً في السّنّة النّبويّة مطلقاً، فمن القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾ [الفاتحة:٤].

وقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ ﴾ [آل عمران:٢٦].

كل شيء يُملك هو مالكه، أما المُلك فيراد به عالم الشهادة غالباً، أو الحياة الدنيا بصفة عامة، والملكوت يراد به في الأعمّ الأغلب عالم الغيب أو عالم الآخرة، والله عز وجل مالك المُلك والملكوت، يعني مالك عالم الدنيا وعالم الآخرة، مالك عالم الشهادة، وعالم الغيب، قال تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ [الأعراف:١٥٨].

الآن إذا كان الحق سبحانه وتعالى مالكاً لعالم الغيب والشهادة وما فيهما كما بينت الأدلة السابقة، فهو المالك إذاً على سبيل الإطلاق، أزلاً وأبداً.

وقد ثبت ذلك عند مسلم عن أبي هريرة حين ورد اسم «المالك» في الحديث الصحيح مطلقاً، فقد قال ﷺ: «إِنَّ أَخْنَعَ اسم عند الله رجلٌ تَسَمَّى مَلِك الأَمْلاك، لا مالك إلا الله» [متفق عليه عن أبي هريرة].

معنى اسم الله (المالك)

«المالك» في اللغة اسم فاعل، وفعله ملك، يملك، فهو مالك، والله عز وجل مالك الأشياء كلّها، مالكها ومصرّفها، في عالم الإنسان قد تملك بيتاً، ولا تنتفع منه.

لكنّ ملكية الله جلّ جلاله مطلقة، مالك الملك، مالك كل شيء خلقاً، وتصرفاً، ومصيراً.

إنّ ملكية الله جلّ جلاله لعالَم الغيب وعالَم الشهادة، للدنيا والآخرة ملكيّة مطلقة، إذاً مالك الأشياء كلها ومصرّفها على إرادته، لا يمتنع عليه منها شيء، آلاف الأشياء قد نملكها ملكاً ظاهراً ولا نملك التصرّف فيها، لأن مالك الشيء في كلام العرب هو المتصرّف فيه والقادر عليه.

وقد قرأ نافع وحمزة (مَلِكِ يوم الدين) بغير ألف، وقد قرأ عاصم والكِسائيّ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ .

والله عز وجل مالك المُلك، ملكه عن أصالة واستحقاق، لأنه الخالق الحيُّ القيُّوم الوارث، علة استحقاق الملك أمران، الأول: صناعة الشيء و إنشاؤه واختراعه، فالعاقل يعلم عقلاً أن المخترع له براءة الاختراع، والمؤلف له حق الطبع والنشر، وفي الحديث: «من أحيا أرضاً مَيْتَةً فهي له» [البخاري عن عمر بن الخطاب].

والله ما من تشريع حضاري، ما من تشريع يقلب الأرض القاحلة جنة كهذا التشريع.

أرض جرداء حفر إنسان فيها بئراً، واستخرج ماءً، وشجّرها، وزرعها، وسورها، لو طبقنا هذا التشريع النبوي بشكل واسع لانقلبت بلادنا جنات خضراء.

الأمر الثاني: حق التصرف في الملك، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف:٥٤].

ويقول تعالى: ﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ [الكهف:٥١].

والنبي ﷺ يقول: «كانَ الله ولم يكن شيءٌ قَبْلَهُ وكان عَرْشُهُ على الماءِ، ثُمَّ خَلَقَ السماوات والأرض، وكَتَبَ فِي الذِّكرِ كُلَّ شيء» [أخرجه البخاري والترمذي عن عمران بن الحصين].

ولأن الله ملك كل شيء في عالم الشهادة والغيب، فدوام الحياة علة أخرى لاستحقاق الملك، لأن الموت يوجب انتقال الملكية من جهة إلى جهة، أما الله عز وجل فحيّ باقٍ على الدّوام، وهو الوارث الباقي بعد فناء خلقه، فعلّة الخلق، وعلّة دوام الحياة توجبان أن الله مالك كل شيء، أزلاً وأبداً، دنيا وآخرة، شهادة وغيباً.

ومعلوم أنّ كلّ من على الأرض ميّت، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

وقوله أيضاً: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [العنكبوت:٥٧].

ولما كانت الحياة وصفاً لذات الله عزّ وجلّ فالله تعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران:١٨٠].

من معاني (مالك الملك) جل جلاله

نعود إلى قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران:٢٦].

المُلك هو الكون. والكون ما سوى الله؛ والكون ممكن الوجود، وما سوى الله هو المُلك. لكنَّ السؤال لِمَ جاء المُلك مفرداً؟ مع أن هناك سماوات، ومجرات، ومذنبات،

وثقوباً سوداء، ومسافات بينيّةً شاسعة، والأرض فيها أودية، وجبال وصحراء وسهول وطيور وحيوانات وإنس وجن.

خلقٌ كثير لا يعلمهم إلا الله: في البحار وحدها أكثر من مليون نوع من السمك. كل هذا الكون سماه الله مُلكاً بلفظ المفرد فما حكمة ذلك؟ الحكمة أن الكون كله متناسق بعضه مع بعض، كل جزء فيه يعمل للمجموع، لأن الله سبحانه وتعالى صنعه؛ فالحيوان للإنسان، والنبات للحيوان، والتراب للنبات، والماء للتراب، وحجم الأرض يتناسب مع طاقة الإنسان، وسرعتها حول نفسها تتناسب مع إمكاناته وهكذا... أهم كلمة في هذا الكون أنه وحدة متكاملة والله سبحانه وتعالى مالك الملك وأمره نافذ فيه. يقول تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى:٥٣].

قد يسأل سائل: بيَدِ من كانت حتى آلت إليه؟ الحقيقة: هي إليه أولاً وآخراً؛ ولكن أهل الدنيا والمشركين والكفار، والفجار، والمنافقين، وضعاف الإيمان، يرون في الأرض آلهةً كثيرة؛ مراكزَ قوى، وأشخاصاً أقوياء، يأمرون فيُطاعون، ويدمرون، يعطون... يرفعون... يخفضون... أما المؤمن فلا يرى إلا الله في الدنيا، يرى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:١٠].

يرى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣].

يرى أنه: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر:٢].

يرى أنه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤].

يرى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزمر:٦٢].

يرى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود:١٢٣]. فهذه رؤية المؤمن، لا يرى مع الله أحداً، وهذا هو التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، لكن العصاة

والمشركين والكفار يرون أشخاصاً أقوياء إرادتهم نافذة فيحسبونهم أنداداً، أما الحقيقة فهي أنه لا ينفذ في كون الله إلا إرادة الله. ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرعد:٤١].

﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الكهف:٢٦].

فالمؤمن الصادق لا يرى مع الله أحداً، يرى صوراً ودُمىً تُحرَّك في الخفاء، لكن الله هو كل شيء، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣].

لذلك: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى:٥٣].

حتى الكفار يوم القيامة يرون أن الأمور كلها بيد الله. أما المؤمنون فهم وحدهم الذين يرون هذه الحقيقة في الدنيا، الكفار تغيب عنهم هذه الحقيقة فيرون الأمور بيد زيد أو عبيد.

التابعيُّ الجليل الحسن البصريّ استدعاه والي البصرة عمر بن هبيرة في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، وكان قد جاءه البريد يحمل توجيهاً؛ إنْ نَفَّذه، أغضب الله سبحانه وتعالى، وإن لم ينفذه أغضب الخليفة يزيد، وربما عزله من منصب الولاية. فوقع في حيرة شديدة فسأل الحسن البصري، فأجاب الحسنُ البصري جواباً جامعاً: إنّ الله يمنعك من يزيد، ولكنّ يزيد لا يمنعك من الله. بمعنى أنه إذا غضب أهل الأرض جميعاً عليك والله راضٍ عنك، فلن يستطيعوا أن يفعلوا لك شيئاً يضرّك.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أهدي إلى النبي صلى الله عليه وسلم بغلة أهداها له كسرى فركبها ثم أردفني خلفه، ثم سار بي مليّاً، ثم التفت فقال: يا غلام! قلت: لبيك يا رسول الله! قال: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، قد مضى القلم بما هو كائن، فلو جهد الناس أن ينفعوك بما لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه، ولو جهد الناس أن

يضرّوك بما لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، فإن استطعت أن تعمل بالصبر مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع فاصبر، فإن في الصبر على ما تكرهه خيراً كثيراً، واعلم أنّ مع الصبر النصر، واعلم أنّ مع الكرب الفرج، واعلم أنّ مع العسر اليسر» [أخرجه الحاكم في «المستدرك» وقال: هذا حديث كبير عالٍ من حديث عبد الملك بن عمير عن ابن عباس {].

فملخص الملخص: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. ومعنى مالك الملك؛ أن هذا الكون العظيم تحكمه إرادة واحدة نافذة فيه هي إرادة الله، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢٤ ﴾ [يونس:٢٤].

أتاها أمرنا -لا أمرهم- يقال مثلاً: الدولة الفلانية عندها قنابل نووية كافية لتدمير الأرض خمس مرات الآن هي في الحضيض، في الوحول، هي الآن متفتتة، كل أنواع السقوط في هذه الدولة، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا ﴾ [يونس:٢٤].

فهذا المُلك العظيم؛ فيه إرادة واحدة نافذة؛ هي إرادة الله. بربِّك أيها المؤمن؛ إذا أيقنت هذا اليقين هل تتوجه لغير الله؟ هل تخشى غير الله؟ هل ترجو غير الله؟ هل تطمح إلى غير الله؟ هذا هو التوحيد؛ طرقه كلها تؤدي إلى الله عز وجل.

يقول العلماء: مالك المُلك؛ هو الذي تنفذ مشيئته في مملكته كيف يشاء وكما يشاء؛ إيجاداً وإعداماً، إبقاءً وإفناءً، والمُلْكُ هنا بمعنى المملكة، والمالك؛ بمعنى القادر التام القدرة. والموجودات كلها مملكة واحدة؛ لأنها متناسقة مرتبطة بعضها ببعض فحجم الأرض متناسب مع الإنسان، فمثلاً لو وجدت قفلاً في بيت، ووجدت مفتاحاً في مكان آخر؛ وهذا المفتاح فتح ذاك القفل، تقول: كلاهما من مصنع واحد، طالما فيهما انسجام.

أحياناً يشتري أحدنا قطعة لسيارته، تأتي هذه القطعة في مكانها الصحيح بالميليمترات. معنى ذلك؛ أن المعمل واحد. والذي صنع واحد، والذي أعطى القياسات

واحد. فهي وإن كانت كثيرة من وجه؛ إلا أنها وحدة واحدة، الكون كله يعمل بالتنسيق، فالانسجام دليل وحدة الخلق.

هناك كلمة واسع، وهناك كلمة واحد؛ وقد وصف الله ذاته بهما، فما معنى كل منهما: خمسة آلاف مليون إنسان كل واحد يحمل قزحية عين تختلف عن الأخرى؛ من أجل ذلك صنعت أقفال لا تفتح إلا على قزحية العين. لأن إنساناً واحداً في الأرض لا يمكن أن يشبهك في قزحية عينك، معنى ذلك أن الله واسع. كما أن لكل إنسان رائحة جلد لا يمكن أن يشْركَه فيها أحد من الخلق، وأساس عمل الكلب البوليسي رائحة الجسم، ونبْرَة الصوت كذلك؛ إذ لا يمكن أن تتشابه في الأرض نبرتان، فأصبح لدينا قزحية العين، ورائحة الجلد، ونبرة الصوت، وبصمة اليد، وبلازما الدم، كذلك اكتشفوا الآن مليارين ونصف وحدة نسيجية. يعني أن هناك واحداً فقط في الأرض وحدته النسيجية تشبه وحدتك، وبصمة اليد -هذه الأنملة- فيها مئة نقطة بين جزيرة، وخليج، ورأس، ونتوء، وفرع، وغصن، ولو تشابهت سبع صفات في بصمتين لكانتا لإنسان واحد؛ وبصمة اليد توقيع. فهذه الاختلافات كلها تعني أن الله واسع. بالمقابل تجد أن شركة أدوية تصنع دواءً في بلد ما كندا مثلاً؛ فإذا استعمل هذا الدواء شخص من استراليا نفعه هذا الدواء؛ ما معنى هذا؟ إنه يدل على أن الخلق واحد في البنى الأساسية، وفي الخصائص، إذاً هناك وحدة في الخلق. تجد طبيباً درس الجراحة ببلد ما، أمريكا مثلاً يقول في اختصاصه: إن العصب الفلاني على بُعد ٢ سم من مكان كذا... بالتفاصيل الدقيقة ثم يجري عملية جراحية لإنسان ما بالخليج مثلاً في عروقه وأعصابه كما درسها هذا الطبيب في أمريكا، وتكون النتيجة كما لو أجراها لشخص في أمريكا، وأقرب من هذا وجوه البشر فلكل سماته الخاصة به؛ وكل واحد منا له شكل وطريقة في العيش، فهذا يدل على سعة الخلق وحينما تكون الأجهزة واحدة؛ القلب واحد، والرئتان، المعدة، الأمعاء، الشرايين، الأوردة، الأعصاب، العظام، خصائص العظام؛ زمن التحامها، الطبيب مثلاً من مصر ودرس في روسيا، والمريض في إفريقيا والبنية لدى الجميع واحدة. معنى ذلك أنه يوجد قواعد عامة في الجسم.

فالله عز وجل واحد واسع، أما لو قلت لمهندس ما: ارسم لنا بناء فيمكن أن يرسم مخططاً وآخر وآخر ثم يتوقف. ومثل ذلك هندسة السيارات يرسمون شكلاً بيضوياً ثم شكلَ زوايا حادة ثم يعودون للشكل البيضوي. أي أن طاقة الإبداع محدودة عند البشر. أما في صنع الله؛ فإذا نظرت في أنواع أوراق الأشجار في الأرض تجد أموراً لا تصدق؛ أوراقاً إبرية، وأوراقاً دائرية، وأوراقاً مسننة، وأوراقاً مفلطحة، أوراقاً خضراء مشربة بلون آخر مثلاً، وأوراقاً واسعة، وأوراقاً صغيرة، وأوراقاً كبيرة، وتلك تحمل الألوان الجذابة؛ فلو نظرت في أنواع الأوراق، لأخذك العجب العجاب.

أيها القارئ الكريم: الله عز وجل مالك الملك؛ أي: تنفذ مشيئته في ملكه كما قال العلماء. وقيل: مالك الملك؛ هو المتصرف في ملكه كيف يشاء، ولا راد لحكمه، ولا معقب لأمره. والوجود كله من جميع مراتبه، مملكة واحدة لمالك واحد وهو الله تبارك وتعالى.

لو لاحظت البشر في كيفية تملُّكهم لوجدت أصنافاً شتى، فإذا قلنا: فلانٌ يملك هذا البيت وأجَّرَهُ، فهو يملك عينه ولا يملك منفعته، المستأجر تجده يملك المنفعة وليس العين المؤجرة، فإذا كنت تملك المنفعة والعين يعني البيت؛ لكنك قد لا تملك المصير؛ بحيث إنه لو صدر قانون استملاك، فإن البيت يضيع من يدك. فهناك مُلك عين، ومُلك منفعة، ومُلك مصير. أما إذا قلنا: الله مالك الملك؛ فهو مالك الوجود خلقاً، وتصرفاً، ومصيراً، مثلاً: بلد يبيع بلداً آخر مجموعة طائرات. كان المعمل مالكاً للطائرات؛ فلما باعها تملكها شاريها. وأصبحت هذه الطائرات بأمر شاريها. لكن الله عز وجل يقول: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٞ ٦٢﴾ [الزمر:٦٢].

كلمة مالك الملك تعني: ما شاء في هذا الملك كان، وما لم يشأ لم يكن، كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع. هذا هو معنى مالك الملك.

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦﴾ [آل عمران:٢٦].

إذا أعطى الله عز وجل الملكَ لإنسان، يعطيه الهيبة؛ فكلهم يخافونه؛ فإذا أراد أن ينزع منه الملك، ألغى هيبته؛ فكلهم يجترئ عليه.

دخل يزيد بن أبي مُسْلم، كاتبُ الحجاج، على سليمانَ بن عبد الملك، فازدَراه ونَبَت عينه عنه، فقال: ما رأت عيني كاليوم قطُّ، لعن الله امرأ أجَرَّكَ رَسَنَه، وحكّمك في أمره. فقال: يا أمير المؤمنين! لا تَقُلْ ذلك؛ فإنك رأيتَني والأمر عني مُدْبر، وعليك مقبل، فلو رأيتني والأمر عليّ مقبل، وعنك مُدْبر، لاستعظمتَ مني ما استصغرتَ، واستكبرتَ ما استقللت. وكان يزيد رجلاً دميماً قبيحاً تقتحمه العين، لقد زلت قدمه فنزع الله عنه الهيبة فالإنسان إذا نزع الله منه الهيبة صار شخصاً تافهاً، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران:٢٦].

إذاً الإعزاز خير والإذلال خير، الإعطاء خير والمنع خير، والإيتاء خير والسلب خير؛ فكل هذا خير. وفي الحديث: «عَجَبا لأمر المؤمن! إنَّ أمْرَه كُلَّه له خير، إن أصابتْهُ سَرَّاءُ شكر، فكان خيراً له، وإن أصابتْهُ ضَرَّاءُ صَبَر، فكان خيراً له، وليس ذلك لغير المؤمن» [أخرجه مسلم عن صهيب الرومي].

مثال على ذلك: تجد الأب يقسو على ابنه في الصغر، كي يجعل منه رجلاً في المستقبل، كل هذه الشدة من الأب هي لصالح الابن، وكل هذه الشدة صنعت منه إنساناً متفوقاً.

يقول أحد المفسرين: مالك الملك؛ هو المَلِكُ الحقيقي، المتصرف بما شاء وكيف شاء؛ إيجاداً وإعداماً، إحياءً وإماتةً، تعذيباً ورحمةً، من غير مشارك ولا ممانع.

لكن هناك وقفة عند كلمة مالك الملك، وهي: هل تملك سمعك؟ هل تملك بصرك؟ هل تملك قوتك؟ هل تملك أعصابك؟ هل تملك سيولة الدم؟ هل تملك نمو خلاياك؟ فأنت إذا أصابتك جِلطة دموية، أوْدت بحياتك. فهذا بسبب تجمّد نقطة في

الدم، وكذلك نمو الخلايا العشوائيّ، إذاً أنت لا تملك شيئاً من جسمك، وإنما يعطيك الله صحّة طيّبة كي تستمتع بها، فهو سمح لك بالاستمتاع بها ولكنه هو المالك لها. فكلمة مالك الملك تعني؛ أنك لا تملك شيئاً، لأنك لو أصبت بخلل بسيط في القلب، أودى هذا بحياتك؛ فأنت لا تملك شيئاً من جسدك، ولا تملك دماغك. كذلك أعرف شخصاً معرفة جيدة وهو من الأفراد المرموقين في البلد، أنه خرج مرة من بيته فنسي عند عودته أين يسكن! حتى تذكر بيت ابنه فدَلَّه ابنه على بيته. فسبحان الله هناك بعض الحالات فيها عِبَر بالغة، مثلاً موت مفاجئ، يموت الإنسان بلا أي سبب. أعرف شخصاً اشتغل لمدة خمسين سنة وجمَّع ثروةً طائلة، وبعدها اشترى بيتاً في المَصيف، وأصبح يشتغل إلى الظهر فقط ليتمتع ببيته هذا، وفي أحد الأيام ذهب إلى المصيف وهناك خطر بباله أن يهتف إلى ابنه، فوقع ميِّتاً على الأرض دون أي سبب قبل المهاتفة. إذاً لا يمكن للعبد أن يكون مالكاً مطلقاً.

قال سفيان بن عيينة: بينا أنا أطوف بالبيت إذا أنا برجل مُشرِف على الناس حسن الشَّيب فقلنا بعضُنا لبعض: ما أشبه هذا الرجل أن يكون من أهل العلم! قال: فاتّبعناه حتى قضى طوافه وصار إلى المقام فصلى ركعتين، فلما سلم أقبل على القبلة فدعا بدعوات، ثم التفت إلينا فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قلنا له: وماذا قال ربنا يرحمك الله؟ قال: قال ربكم: أنا الحيُّ الذي لا يموت، أدعوكم إلى أن تكونوا أحياء لا تموتون، ثم أقبل على القبلة فدعا بدعوات ثم التفت إلينا، فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قلنا: ماذا قال ربنا؟ حدثنا يرحمك الله! قال: قال ربكم: أنا الذي إذا أردت شيئاً كان، أدعوكم إلى أن تكونوا بحال إذا أردتم شيئاً كان لكم (وهو إجابة الدعاء). قال ابن عيينة: ثم ذهب فلم نره.

فالإنسان إذا أطاع الله يكون موته تُحفَةً وعرساً، وموته انتقالاً من الدنيا التي هو سعيد بها بمعرفة الله إلى جنة الله في الآخرة، لذلك من الأدعية اللطيفة: اللهم اجعل نعمك علينا متصلة بين الدنيا والآخرة. فالخط البياني للمؤمن في صعود، وموته نقطة على هذا الخط.

لو أنك أعرضت عن الدين وعن الآخرة وعن منهج الله؛ فمهما كسبت من المال ومن المناصب، فكل هذا نهايته قبيحة وتجعلك في قلق. نعم هناك صعود، لكن هناك سقوط بعد الصعود، والموت هو السقوط. لكن المؤمن في صعود ليس بعده سقوط، وهذا الشعور لا يوصف -طمأنينة للمستقبل- المؤمن مطمئن، تمشي في طريق سالكة إلى جنة الله، تمشي على طريق تنتهي بك إلى الجنة. أما أهل الدنيا، فالطريق عريضة، ولكنها تنتهي إلى حفرة سحيقة، وفيها وحوش كاسرة وقلق دائم، لذلك فالمبالغة في النعيم، والمبالغة في الانغماس باللذات؛ عملية تعويض لما يصيبه من قلق وخوف. وهناك من أهل الدنيا من يبالغ بالرفاه والاعتناء بمظاهر الحياة وكأنه سيعيش مئات السنين. هناك قلق وخوف أساسه الشعور بأنّ بَعْدَ هذا الصعود سقوطاً. أما المؤمن فهو مرتاح من هذا القلق؛ لأن حياته صعود بلا سقوط، ونمو بلا تراجع، وسعادة بلا شقاء، وحياة بلا موت.

إن أطعتَ الملك، كنت في معية الملك. وإن أطعت الغني، كنت مع الغني. وإن أطعت القوي، كنت مع القوي. لذلك قالوا: إذا أردت أن تكون أغنى الناس، فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك. إذا أردت أن تكون أكرم الناس، فاتق الله. وإذا أردت أن تكون أقوى الناس، فتوكل على الله. فأنت قوي بالله، وغنيّ بالله، وكريم بالله، وعزيز بالله، أما إن لم تكن مع الله؛ فعزٌّ بعده ذلٌّ، وغنى بعده فقر، حياة بعدها موت، وسعادة بعدها شقاء وهوان.

حينما تؤمن أن الله مالك المُلك، مالك الدنيا والآخرة، مالك عالَم الغيب وعالَم الشهادة، مصيرك إليه، وأمرك إليه، بيده رزقك، بيده حياتك، بيده التوفيق، بيده النصر، بيده النجاح، بيده التفوق، بيده السعادة، بيده الرضا، بيده كلّ شيء، هذا هو التوحيد.

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٣].

أحد أكبر أسباب العذاب النفسي أن تتوهم أن مع الله إلهاً آخر، التوحيد يعطيك الراحة النفسية، التوحيد يعطيك الشجاعة، التوحيد يعطيك عزة النفس، التوحيد

يبعدك عن أن تستجدي مديح الناس، التوحيد يجعلك متماسكاً، التوحيد يجعلك عزيزاً.

اجعل لربك كل عزك يستقر ويثبت فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزّك ميّت

ولما ذكر الله ملكيته للأشياء، وأنه هو الذي يمنحها لمن يشاء، ذكر من لوازم المُلك القدرة، فالقدرة من لوازم ملكيته، فالمالك قدير، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران:٢٦].

مرة كنت في بلد عربي، وحدثني طبيب، قال: لي زوجة على وشك الولادة والوضع عسر جداً، فاستشار أعلى طبيب في هذا البلد، فقال له: القضية سهلة، فلما طلب منه أن يستشير غيره أرغى وأزبد، وقال: ليس في هذا البلد كلّه طبيب في مستوى علمي، ثم ارتكب هذا الطبيب خطأ لا يرتكبه طالب طبّ؛ وقد نُزعت من هذا الطبيب شهادته لأول مرة في هذا البلد العربي منذ استقلاله.

ولو أنك عالم لكن حينما تعزو هذا إليك ينزعه الله منك، والقصص كثيرة، قد يغدو الإنسان فقيراً بعد أن كان غنياً، قد يغدو ضعيفاً ملقى في غياهب السجن بعد أن كان قوياً.

أنت في حاجة ماسة إلى درسين، درس بدر ودرس حنين، في بدر قال الصحابة: الله، فنصرهم، وفي حنين قالوا وهم قمم البشر، ومعهم سيد البشر: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا ﴾ [التوبة:٢٥].

اعتدوا بكثرتهم فلم ينتصروا.

من هو سيد أهل العفاف؟ سيدنا يوسف، ماذا قال؟ قال: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ [يوسف:٣٣].

من هو سيد الموحدين؟ سيدنا إبراهيم، قال تعالى: ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [إبراهيم:٣٥].

فأي شيء يُملك، أو أي شيء تتوهم أنك تملكه يمكن أن ينزع منك.

يقول تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك:١].

سمعك بيده، بصرك بيده، عقلك بيده، يكون الإنسان سيد البيت، أب، أولاد، بنات، أصهار، كنائن، مكانة، تجارة، يختل عقله، يذهب أهله إلى أقرب الناس إليهم يتوسطون لإيداعه في مستشفى المجانين، عقلك بيده، سمعك بيده، حركتك بيده، زوجتك بيده.

يقول تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف:١٨٨].

فإذا كنت لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً فمن باب أولى أنني لا أملك لكم نفعاً ولا ضراً، سيّد الخلق، وحبيب الحق، وسيّد ولد آدم، الذي اصطفاه على كل الأنبياء والرّسل، والذي أقسم بعمره الثمين، والذي ما خاطبه باسمه أبداً، (يا أيّها النبي)، (يا أيها الرسول)، هذا قمة البشر، ومع ذلك: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾.

﴿ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأنعام:١٥].

علاقة المؤمن باسم الله (المالك)

علاقة المؤمن بهذا الاسم اعتقاد وسلوك، فالمؤمن ينبغي أن يعتقد أنه عبد في ملك سيده، وكلما تواضع العبد لربه رفعه الله، هل هناك من إنسان رفع الله ذكره كرسول الله؟ وكان في أعلى درجات العبودية لله، علاقة المؤمن بهذا الاسم أن يعتقد أولاً أنه عبد في ملك سيده، مستخلف في أرضه، أمين على ملكه، قد ابتلاه الله فيما

أعطاه، أعطاك قوة، أعطاك مالاً، أعطك ذكاءً، أعطاك طلاقة لسان، أعطاك علماً، أنت ممتحن فيما أعطاك.

الآن هذا الإنسان أيرد الملك إلى المالك، أم ينسب للمخلوق أوصاف الخالق؟

فيتكبر على العباد بنعم الله، ويتعالى عليهم بما منحه الله وأعطاه؟ فالموحد الصادق يتحرى في قوله وفعله توحيد الله في اسمه «المالك»، لا يتوكل إلا عليه، ولا يلجأ إلا إليه، لعلمه أن أمور الرزق بيده، وأن المبتدا منه والمنتهى إليه.

﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية:٢٥-٢٦].

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس:٣١].

ماذا قال قارون؟ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ﴾ [القصص:٧٨].

ماذا قال فرعون؟ ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ﴾ [الزخرف:٥١].

ماذا قال أهل وجماعة بلقيس؟ ﴿نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [النمل:٣٣].

ماذا قال إبليس؟ ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف:١٢].

أربع كلمات مهلكات: أنا، ونحن، ولي، وعندي.

المؤمن الموحد لله بهذا اسم «المالك» ينبغي أن يعرف نفسه، وينبغي أن يعرف حقيقتها، وحقيقة النعم وملكيتها.

سألوا راعٍ يرعى الإبل، لمن هذه الإبل؟ قال: هي لله في يدي، الإنسان مهما عرف نفسه حقّ المعرفة، فإنه إلى المالك الأوحد أذل من كل ذليل.

أعرف رجلاً ذهب إلى باريس وجاء بشهادة عليا، تسلم منصب معاون وزير لوزارة مهمة جداً، ويحمل شهادة عليا، وله زوجة تروق له، ومنزل بأرقى أحياء

دمشق، ومركبة فاخرة، فقد بصره، فقال لأحد أصدقائه: والله أتمنى أن أجلس على الرصيف، وأتكفف الناس، وأن يردّ الله لي بصري.

التذلل إلى الله عز، يرفع شأنك، يعلي قدرك، يلهمك السداد في القول والعمل، يطلق لسانك، كن عبد الله، فعبد الله حرّ، إن لم تكن عبداً لله فأنت حتماً عبد لعبد لئيم، إن لم تكن عبداً لله تنبطح أمام القويّ، تتذلّل أمامه، أما إن كنت عبداً لله فأنت في عزّ ومنعة.

والمؤمن إذا آمن باسم الله «المالك» يشكره على ما أعطاه وأولاه، ويصبر عند المنع، لذلك قال ابن عطاء الله السكندري: (ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك وإذا كشف لك الحكمة في المنع عاد المنع عين العطاء)

الملك الحقيقي أن تملك نفسك وهواك، والدليل، سيدنا يوسف ماذا قال في القرآن: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ ﴾ [يوسف:١٠١].

بعض علماء التفسير قالوا: حينما تملك نفسك وهواك، فأنت ملِك.

ومرة قال أحد زعماء بريطانيا الذي حقق نصراً في الحرب العالمية الثانية، ملكنا العالم ولم نملك أنفسنا.

أحد الشيوخ قيل له: أوصنا، قال: كن ملكاً في الدنيا تكن ملكاً في الآخرة، قال: وكيف؟ قال: ازهد في الدنيا تكن ملكاً في الآخرة، استغنِ عن الرجل تكن نظيره، احتج إليه تكن أسيره، أحسن إليه تكن أميره.

سُئل الحسن البصري رحمه الله تعالى: بمَ نلت هذا المقام؟ قال: (باستغنائي عن دنيا الناس وحاجتهم إلى علمي) ولو جاء وقت استغنى الناس فيه عن علم العالم، واحتاج هو إلى دنياهم، فقد سقط علمه.

المؤمن يعتقد يقيناً أنّه مملوك لسيِّده ومالكه جلَّ جلاله فيتواضع لله ويتذلَّل بين يديه ويملك نفسه ويمنعها من الوقوع فيما حرَّمه المالك جلَّ جلاله.

المحسن

ورد هذا الاسم في السنة النبوية، فقد ورد عند الطبراني من حديث أنس رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا حكمتم فاعدلوا، وإذا قتلتم فأحسنوا، فإن الله عز وجل محسِن يحبُّ الإحسان» .

من معاني اسم الله المحسن

المحسِن اسم فاعل، فعله أحسن يحسِن، والمصدر إحسان، والحُسن ضدُّ القبح، وحسَّن الشيء: زيَّنه.

وإحسان الله لعباده يبدأ من الخلق، قال الله عز وجل: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ [السجدة:٧].

جعل لك عينين، ولولا العينان لما أدركت البعد الثالث، أنت بعين واحدة ترى بعدين سطحين، لكنَّك بالعينين ترى البعد الثالث؛ ترى العمق.

وجعل لك أذنين، وبأذن واحدة يصل الصوت إليك، لكنّك بالأذنين تعرف جهة الصوت.

وجعل العين في محجر لتكون في حرز حريز، وجعل النخاع الشوكي في العمود الفقري، وجعل معامل الكريات الحمراء في نقيِ العظام.

وجعل الرحم في عظم الحوض. أمّا الدماغ فموضوع في صندوق عظمي هو الجمجمة، وبين الدِّماغ والصندوق سائل، هذا السائل من أجل امتصاص الصدمات، فلو أنَّ طفلا وقع على رأسه فهذا الاهتزاز الشديد الناتج عن الصدمة يوزِّعه السَّائل على كامل مساحة الدماغ، فيبقى الطفل سليماً.

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ [السجدة:٧].

وليس في الشعر أعصاب حسٍّ، من أجل أن تهذِّب شعرك دون مستشفى، ولولا أنَّ الشعر خالٍ من أعصاب الحسِّ لاضطُرَّ الإنسان إن أراد أن يقصَّ شعره إلى تخدير شامل.

قرنية العين جعلها شفَّافة، إذاً: لابد من أن تُغذَّى قرنية العين بطريقة فريدة، لا عن طريق الأوعية، بل عن طريق الحلول، من أجل أن تكون الرؤية شفافّةً شفافية مطلقة.

هو محسن في خَلقه، محسن في الأجهزة، محسن في الحواسّ، محسِن في قوام الإنسان.

﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِىٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٍ ۝٤﴾ [التين:٤].

انظر إلى التفاحة بحجم مناسب، وبقوام مناسب، وبرائحة مناسبة، وبشكل مناسب، وبمحتويات مناسبة، فيها حديد، فيها سكر، فيها معادن، فيها كالسيوم، فيها مغنزيوم.

تصوَّر الإنسان بلا شعر أو بلا جلد، تصوَّر الإنسان بلا جهاز توازن، عندها يحتاج إلى قاعدة استناد تزيد على سبعين سنتيمترًا حتى يبقى واقفاً.

في جسمك جهاز مناعة؛ وهو عبارة عن جيشٍ بكلِّ معاني الكلمة، فيه خمس فرق: فرقة الاستطلاع؛ ومهمَّتها استخباريَّة فقط، يدخل الجرثوم إلى الجسم فتتَّجه كريات بيضاء من فرقة الاستخبارات، وتأخذ (شفرة الجرثوم) ولا تقاتله، تأخذ هذه (الشفرة) إلى مركز صنع المصول، إلى مركز معامل الدفاع في العقد اللمفاوية، وتعطي العقد تركيب الجرثوم، وصفاته الكيماوية، هذه المراكز معامل أسلحة تصنِّع المصل المضادَّ لهذا الجرثوم، المعامل أو العقد اللمفاوية تشكِّل معامل للسلاح، والفرقة الاستطلاعية تشكل جهاز المخابرات في الجسم، وهناك فرقة المقاتلين، وهي الفرقة الثالثة، هذه الفرقة تحمل المصل المضاد، وتتجه إلى الجرثوم فتقاتله، وينشب بينهما قتال، وقد ينتصر الجرثوم، وقد لا ينتصر.

عندنا فرقة رابعة، وهي فرقة الخِدمات، هذه الفرقة تنظِّف أرض المعركة، وتدفن الجثث، وأحياناً يرى الإنسان كتلة بيضاء في جلده، وما هي إلا أثر معركة مع الجراثيم في جسم الإنسان.

هناك فرقة أخرى خامسة، وهي فرقة تكتشف الخلية السرطانية في وقت مبكر جداً وتلتهمها، وفي الإنسان ملايين الخلايا السرطانية، لكن لكلِّ خلية سرطانية قامع يمنعها أن تكون فعَّالة.

لو أن ثقب الأذن كان أوسع بقليل فإنَّ الطفل دون أن يشعر يخرق غشاء طبله، لكنَّ ثقب الأذن أضيق من أيِّ إصبع، بل من أصغر إصبع.

يحمل الإنسان ابنه، والأربطة مدروسة بحيث تحمل جسم الطفل، وقد يكون الأب غضبان فيحمله بعنف، والوزن عندها يتضاعف، لكنَّ وزن الإنسان متناسب مع

متانة الأربطة التي في ذراعه، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾ [التغابن:٣].

هذا الفرخ الذي في البيضة، ينشأ في منقاره نتوء مؤنَّف حادٌّ يكسر بهذا النتوء البيضة، فإذا خرج منها ضمر هذا النتوء، هل هناك من إحسان أكثر من ذلك؟

انظر إلى طعامك، لو أنَّ المحاصيل كالقمح والشعير والعدس والحمص تنضج تباعاً كالفواكه، فهذا شيء لا يُحتمل، لكنَّ المحاصيل تنضج في وقت واحد. لو أنَّ الفواكه تنضج في وقت واحد لكان شيئاً غير محتَمل، حقل البطيخ يعطيك لتسعين يوماً على مدى أشهر الصيف، كلُّ الفواكه والخضروات تنضج تباعاً، ولو أنَّ كلَّ الفواكه يبدأ نضجها في وقت معين لكان الأمرُ صعبًا، لكن تبدأ بفاكهة معيّنة، بعد شهر فاكهة ثانية، وهذا من الإحسان.

البقرة تعطيك من الحليب ما يفوق ثمن الطعام، لو أنها تعطيك من الحليب أقلّ من ثمن الطعام فلا أحد يقتني بقرة، لو أن الدجاجة تعطي في الشهر بيضة واحدة لكانت مكلفة، وأصبحت غير اقتصادية، كلُّ يوم لها بيضة، وطعام الدجاج لا يساوي الإنتاج الذي ينتجه من البيض، وهذا من الإحسان.

والحُسنى هي الجنة، والإنسان خلق للجنّة، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل:٥-٧].

صدَّق أنه مخلوق للجنة، وقد سمّى الله الجنة ﴿الحُسْنَى﴾، لأن فيها الكمال المطلق.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ [ق:٣٤].

الدنيا دار تكليف، والآخرة دار تشريف، الدنيا دار عمل، الآخرة دار جزاء، وعندما تنجح في امتحان الدنيا وتكون محسِناً عندها تستحقُّ الجنة.

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [يونس:٢٦].

فالذي صدَّق أنه مخلوق للجنة يتّقي أن يعصي الله، ويبني حياته على العطاء.

﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ ﴾ [الليل:٨-٩].

الذي كذَّب أنَّه مخلوق للجنة، واعتقد أنه مخلوق للدنيا استغنى عن طاعة الله، وبنى حياته على الأخذ، وأنت ببساطة يمكن أن تكتشف ما إذا كنت من أهل الدنيا أو من أهل الآخرة، فإذا أسعدك أن تأخذ، وتتوهَّم أنك ذكي جداً حينما تأخذ ما ليس لك فأنت من أهل الدنيا، أمَّا إذا أسعدك أن تعطي فأنت من أهل الآخرة.

وفي الحديث الشريف يقول ﷺ: «الإِحسَانُ أَنْ تعبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ» [مسلم عن عمر].

لاحظ نفسك إن جاءك ضيف مِن علية القوم، فهو على فهم، وعلى علم، وعلى قوّة، وعلى تفوّق، وعلى أخلاق، جاءك زائراً، هل يعقل أن تجلس أمامه بثياب متبذلة؟ هل يعقل أن تجلس أمامه، وتضع رجلاً على رجل؟ لا تستطيع، هل يعقل أن تجلس أمامه وتعبث بالسُّبحة، لا تستطيع، هل يعقل أن تقول كلاماً لا يليق؟ لا تستطيع.

أنت أمام إنسان من علية القوم تضبط كلامك، تضبط جلوسك، تضبط ثيابك، تضبط حركتك، وهو إنسان دخل إلى بيتك فتلاقيه بالنظر إلى جهة واحدة، لأنه ليس من أدب الضيف أن يزيغ البصر عنه.

أفضل حالة من حالات المؤمن أن تشعر أنَّ الله معك، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «اسْتَحْيُوا مِنْ الله حَقَّ الحَيَاءِ، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالحَمْدُ لله، قَالَ: لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الِاسْتِحْيَاءَ مِنْ الله حَقَّ الحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكُرْ المَوْتَ وَالبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنْ الله حَقَّ الحَيَاءِ» [الترمذي].

حينما تشعر أنَّ الله معك، وأنَّ الله يراقبك، فهذه درجة من الإيمان عالية جداً، هذه الدرجة تقتضي الانضباط، وحينما تشعر أنَّ علم الله يطولك، وأنَّ قدرته تطولك فلا يمكن أن تعصيه، بل تكون عندئذٍ محسناً.

ويقول تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ ﴾ [النحل:٩٠].

أنت مأمور بالعدل، ومأمور مع العدل بالإحسان، وهناك مشكلات تحلُّ بالإحسان لا بالعدل.

أحيانا يكون للإنسان جارٌ سيئ جداً، يستطيع أن يقطع لسانه، لا بالمِقصِّ، بل بالإحسان، فالإحسان يسكت، وأنا أنصح إنسانا عنده جار سيئ أن يقدِّم له هدية.

نصيب المؤمن من اسم الله المحسن

ينبغي للمؤمن أن يكون محسناً، ولن تستطيع أن تقبل على الله إلا إذا كنت محسناً، يقول لك أحدهم: لا أخشع في الصلاة، قل له: إن كنت محسناً فإنَّك تخشع في الصلاة.

قال الله عز وجل: ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ [لقمان:٢٢].

كما أن الله أحسن إليك، فمنحك نعمة الإيجاد، ومنحك نعمة الإمداد، ومنحك نعمة الهدى والرشاد، فينبغي أن تكون محسِناً، وكلمة محسن هي ألصق صفة بالإنسان المؤمن، محسِن في كلامه، فلا بذاءة، ولا تهجُّم، ولا سخرية، ولا فحش، ولا طُرَف قبيحة محرجة تُحمّر الوجه، محسن في تصرفاته، محسن في زيارته، محسن في قيادة مركبته، محسن في تنظيم عمله، محسن في تربية أولاده، محسن في علاقاته، محسن في مواعيده، محسن في دعواته، محسن في أفراحه، محسن في أحزانه.

هناك إحسان في إدارة الوقت، إلغاء الروتين إحسان، تخفيف الأعباء عن المواطن إحسان، وهذا يشمل الأنظمة التي تنظِّمها الدولة.

الإحسان صفة الواحد الديان، وكلُّ إنسان مؤمن ينبغي أن يشتقَّ هذه الصفة من الله عز وجل، والإحسان صفة جامعة مانعة، فكما أنك تكتشف إحسان الله من خلال خلقه، فيجب أن تكون محسناً تُجاه الخلق.

فالزوج يجب أن يكون محسِناً لزوجته، قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء:١٩].

والعامل محسِن في عمله، ومن معاني الإحسان الإتقان، يقول ﷺ: «إن الله يحب من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه» [الجامع الصغير بسند حسن عن عائشة].

كما أنَّ الله محسن فينبغي أنت أيها المؤمن أن تتخلَّق بهذا الكمال، فيكون عملك مشمولاً بالإحسان، فإن أعطيت فأعطِ دون أن تمنَّ، وإنْ عاقبت فعاقب دون أن تحقِد، وإنْ عملت فاعمل عملاً متقناً، وإن زرت فكن متواضعاً، لا تصغِّر دنيا هذا الإنسان في نظره إن كان فقيراً، بل انقله إلى الآخرة.

والإحسان مطلوب حتى مع الحيوانات وحتى لو اضطررت لقتلها فيجب أن تكون محسِناً، فالتعذيب ممنوع، لو رأيت عقرباً يجب أن تقتله بضربة واحدة، أمَّا أن تعذِّبه فهذا مناقض لمنهج الله عز وجل.

وقد ورد من حديث شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ الله ﷺ: قَالَ: «إِنَّ الله كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ» [مسلم في صحيحه].

الإحسان أن يأتي فعلك كاملاً، لو أنَّك دعوت إنساناً إلى طعام مثلاً فقد علّمنا القرآن آداب الدعوة، فقال عز وجل: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ [الذاريات:٢٦].

سيِّدنا إبراهيم راغ، أي انسلّ خفية، فهو لم يستأذن الضيف في إحضار الطعام، لأنَّ الضيف قد يستحيي فيما لو استُؤذِن، جاء بالطعام سريعاً، وهذا من كمال الدعوة، ثمّ إنّه جاء بطعامٍ طيّب، قال تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ٦٩﴾ [هود:٦٩].

ومعنى حنيذ: سمين أو مشوي نضيج.

﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٢٧﴾ [الذاريات:٢٧].

وهنا أدبان آخران؛ قد يكون طبق الطعام بعيداً عن الضيف، فيستحي أن يتمطّى ليصل إليه، يجب أن تقرِّب إليه الطعام، وهناك إنسان يضع الطعام أمام الضيف، أو يضع الفاكهة أمام الضيف، ولا يدعوه إلى تناول الطعام، والضيف يستحي أن يمدَّ يده قبل أن يُدعى.

إذاً: كمال الإحسان في الدعوة ألا تستأذن الضيف في إحضار الطّعام، وأن يأتي الطعام سريعاً، وأن يكون الطعام طيّباً، وأن يقرَّب الطعام إلى الضيف، وأن يُدعى إلى تناوله.

سمعت عن قاضٍ أمر بحجز إنسان، والمحامي طلب إطلاق سراحه، فلم يستجب القاضي ولم يقتنع، قدَّم المحامي طلباً ثانياً، وطلباً ثالثاً، ورابعاً، وخامساً، ولم يستجب القاضي، فموكِّلو المحامي عزلوه، وعيّنوا محامياً جديداً، فقدّم المحامي الجديد طلباً لإخلاء سبيل موكِّله، فبدا للقاضي أن يطلق سراحه، ولكنّه إن فعل يسيء للمحامي الأول، فقال: ائتوني بالمحامي السابق ليقدِّم طلب إخلاء سبيل حتى أُخلي سبيله، هذا منتهى الإحسان.

إذا زرت أختك يجب أن تمتّن علاقتها بزوجها، عن طريق الثناء على زوجها، على أخلاقه، لا على دخله، لا تقل: كم دخله؟ هل يكفيكم هذا المبلغ؟ هذه إساءة، الإحسان أن تلاحظ نفسك على الخطرة، على النظرة، على الكلمة، على الابتسامة.

ويقول تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص:٧٧].

الله عز وجل كان حليماً معك حتى اهتديت، فإذا كان عندك زوجة لم تستقم على أمر الله فاصبر عليها، لا تأخذها بالعنف.

ومن أدعيته ﷺ: «اللهمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي فَأَحْسِنْ خُلُقِي» [أحمد عن ابن مسعود].

إذاً: نصيب المؤمن من اسم الله (المحسن) أن يكون محسِناً، بالمفهوم الواسع للإحسان، وأن يتذكر إحسان الله إليه حتى يشكره حقَّ شكره.

الشَّافِي

ورد هذا الاسم في السّنّة الصحيحة؛ عَنْ عائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنَّ رَسُولَ الله ﷺ كانَ إذا أتَى مَرِيضاً أوْ أُتِيَ بِهِ قَالَ: «أَذْهِبِ البَاسَ ربَّ النَّاسِ، اشْفِ وَأَنْتَ الشَّافي، لا شِفاءَ إلاّ شِفَاؤُكَ، شِفاءً لا يُغادِرُ سَقَماً» [رواه مسلم].

من معاني اسم الله الشافي

الشَّافي اسم فاعل وفعله شفى يشفي، والمصدر شفاء، والشِّفاء في اللغة: البُرْء من المرض، يُقال: شفاه الله يشفيه، واشتَفى: افْتَعَلَ منه، فللمبالغة في الشفاء نقول: اشْتفى؛ ومن هنا نقول: مشفى ومستشفى.

سبب المرض في الأصل من الإنسان؛ لأنَّ الله عز وجل يقول حكاية عن سيدنا إبراهيم: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء:٧٨-٨٠].

قال الذي خلقني وأطعمني، ولم يقل: الذي أمْرَضني؛ بل قال: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الشعراء:٨٠].

فنسب إبراهيم عليه السلام المرض لنفسه، وهذا من أدب إبراهيم عليه السلام مع ربّه، لكنّه لا يخلو من إشارة لطيفة إلى أنَّ سبب المرض من الإنسان نفسه.

أصل المرض خروج عن منهج الله، وإن صحّ أن نقول: هناك مرض للأجسام ومرض للقلوب، فالمَرَضان مرض الأجسام ومرض القلوب أصلهما خروج عن منهج الله، لأن الله تعالى كاملٌ كمالاً مطلَقاً فإذا خلق شيئاً خَلَقَه كاملاً ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ [الملك:٣]، من الذي يُخطئ؟ ومن الذي يُفسد؟ ومن الذي يطغَى؟ ومن الذي يظلم؟ ومن الذي يسيء؟ هو مخلوقٌ أَوْدَعَ الله فيه الشهوات ليرقى بها صابِراً تارةً وشاكِراً تارةً أخرى إلى رب الأرض والسموات، وهذه الشهوات إذا أُودِعت في مخلوق ولم يكن هذا المخلوق متصلاً بالله ولم يَسِر على منهج الله يفسُد.

فالشيء الجامد إذا وضعته في مكانٍ لا يتحرَّك، فليس ضرورياً أن يعلم هذا الشيء الجامد، أما إذا مشى ولم يكن هناك مِقْوَد فالدَّمار حتمي، وما الذي يحرِّك الإنسان؟ إنَّها شهواته؛ والإنسان مندفع لتلبية حاجاته وشهواته، وهذا الاندفاع يشبِه الحركة، إنَّه اندفاع دون منهج يسير عليه ودون مِقْوَدٍ وهو العلم، ودون اتصال بالله وهو الهدى، وهذه الحركة دون نهج ودون هدى ستُدَمِّر صاحبها، إذاً الإنس والجن وحدهما اللذان أَوْدَعَ الله فيهما حرية الاختيار وأودع فيهما الشهوات، اقرأ قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب:٧٢].

وفي آيات آخرى تجد الجنَّ تشترك مع الإنسان في حمل الأمانة، هذان المخلوقان تحمَّلا الأمانة، والأمانة نفسُ الإنسان؛ وعليه أن يُزَكِّيها وكيف يزكيها؟ بتعريفها بالله

وحمْلِها على طاعته، فالدِّين يحمل جانباً سلوكياً وآخر معرفياً وثالثاً جمالياً، الجانب المعرفي هو السبب والجانب السلوكي هو الأصل والجانب الجماليُّ هو الثمرة.

﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [هود:١١٩].

هذا المخلوق (الإنسان) فيه شهوات وفيه اختيار ولكن مع هذه الحرية أعطاه الله عقلاً، بمنزلة ميزانٍ حساس، وأعطاه فوق هذا الميزان ميزاناً مهيمِناً هو الشرع، فأرسل إلينا الأنبياء ومعهم الكتب، على الرغم من وجود أنبياء وكتب وشريعة وعقل، ومع كلِّ هذا وضع الإنسان كلَّ شيء وراء ظهره وانطلق مع شهواته بلا منهج وبلا هدى وبلا كتاب منير فَفَسَد، ومن مقتضيات حياة الإنسان أنَّ فساده مُحتَمَل لذلك هيَّأ له شِفاءين، هيَّأ له القرآن الكريم شفاءً لنفسه، وهيَّأ له الأدوية شفاءً لجسمِه، فالشِّفاء يقتضي المرض، والمرض في الأصل خروج عن منهج الله عز وجل.

فإذا قلنا: إنَّ هناك أمراضاً كالضغينة والحقد والكبر والكراهية والأَثَرَة والجحود والإجحاف والظلم، فهذه كلُّها أمراض القلب، وهناك مقولةٌ رائعة وهي: إن أمراض القلب ليست بأمراض، بل هي أعراض لمَرَضٍ واحد ألا وهو الإعراض؛ إن أعْرَضْت عن الله عز وجل تكشَّفت أمراض القلب، فكلُّ أمراض القلب وكلُّ الصفات الخسيسة في الإنسان هي أعراضٌ لمرضٍ واحد هو الإعراض عن الله، فالإنسان ما لم يتَّصل بالله عز وجل فلن تزكوَ نفسُه، قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس:٩-١٠].

فلو أنَّه أعرض عن الله ولم يطبِّق منهجه وشَرَدَ عنه شروداً بعيداً، فعندئذ تكون نفسُه قد تعلَّقت بشهواتٍ وأُصيبت بأمراض، والقرآن الكريم شفاءٌ لهذه النفس، فإذا قرأ القرآن عاد إلى الله وسار على منهجه، كذلك هذا الجسم حينما يُخالِف منهج الله عز وجل المتمثِّل بتوجيهات النبي ﷺ في التعامل مع الجسم يمرَض، وما خلق الله داءً إلا وخلق له دواءً.

والشيء الذي يجب أن يكون واضِحاً أنَّ أمراض القلب أخطر من أمراض الجسم، لأنَّ أمراض الجسد مهما تفاقَمت ومهما كانت خطيرةً فإنّها تنتهي عند الموت، والموت يُنْهي كلَّ ما له علاقة بالجسم، ويُنْهي المرض ويُنْهي الصحة ويُنْهي القوة ويُنْهي الضعف ويُنْهي الغِنى ويُنْهي الفقر ويُنْهي الوسامة والدمامة ويُنهي الذكاء والغباء... يُنْهي كلَّ شيء، إلا أنَّ أمراض النفس خطورتُها وآثارها تبدأ بعد الموت، من هنا قال الله عز وجل: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

فالقلب له في حياة المؤمن شأن كبير، والقلب يصفو ويتعكّر ويسمو ويسفُل ويكبُر ويضعُف؛ يكبُر القلب ولا ترى كِبَره فيتضاءل أمامه كلُّ كبير، ويصغر القلب ولا ترى صِغَره فيتعاظم عليه كلُّ حقير، قلبٌ صفا وآخر انحرف، وقلب اسْتَعْلى، وقلب كان في تجلِّيات الله عز وجل، وقلبٌ عرف الله، فلذلك من الأقوال الشهيرة لسيدنا عمر رضي الله عنه: «تعاهَدْ قلْبَك» انظر إلى قلبِك على ماذا ينطَوي، إنَّ أعلى درجات الإيمان أن تتعامل مع الله مباشرة وأن تنظر إلى الله عز وجل وهو ناظِرٌ إلى قلبك؛ هل فيه غِلٌّ لأحد؟ وهل فيه حِقدٌ لأحد؟ وهل فيه ضغينة وكراهية وكِبْر واستعلاء وأَثَرَة وعجْرَفة؟ فكُلما طهُر القلب تجَلَّى عليه الرّبّ، وصدِّقوني أنه أسعد الناس من كان قلْبُه موْصولاً، يُقال مثلاً: إن فلاناً له قلب كبير، أي: قلبٌ موصولٌ بالله، ومعنى موصول أنّ القلب اصْطَبَغ بصبغة الله، تجد أنَّ من علامات المؤمن إذا رأيْتَه تذكّرت الله، «أولياء الله تعالى إذا رُؤوا ذُكر الله تعالى» [الحكيم الترمذي بسند صحيح من حديث ابن عباس].

وإذا عاملْتَه أحْبَبْته وحَدِّث ولا حرج عن تواضُعِه وعن لُطْفِه وعن حيائه وعن كَرَمه وبذْلِه وعن عطائِه وعن حُبِّه وعن غيْرَته.

بعضهم قال: «الشّفاء هو الدَّواء لأنَّه أحد نتائج الدواء»، تقول العرب: رعينا الغَيْث، والغيْث لا يُرْعى ولكن رَعَيْنا كلأً سبَّبَه الغيث.

فبعضهم قال: الشفاء هو الدواء نفسُه، ثم وُضِع موضِع العلاج والدواء، أما استشْفى فتعني طلب الشفاء.

ولولا أنَّ الله سبحانه و تعالى جلّت حكمته جعل للأمراض أعراضاً لما أمكن الشِّفاء منها، قال تعالى: ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ ﴾ [النجم:١٦].

وهذه الآية واسعة جداً، إذ لولا الأعراض لما اهتدى الإنسان إلى مرضه.

لذلك تعدُّ أخطر الأمراض الأمراضُ التي لا أعراض لها، كالأورام أحياناً.

الإنسان له بنية موحَّدة، أيُّ إنسان في أيِّ زمان و مكان بنيته التشريحية واحدة، فقد يدرس الطبيب الطبَّ في أمريكا، و يعالج المرضى في الصين، و لولا هذا التوحد في بنية الإنسان التشريحية لما أمكن أن نتابع الطب في بلد، وأن نعالج المرضى في بلد، وأن نصنع الدواء في بلد، وأن نستخدمه في بلد، وهذا كلُّه ينضوي تحت اسم الله الشافي.

هناك قوانين ثابتة في الجسم، منها أنَّ النُّسُج تلتئم إذا تمزَّقت، فالتئام النسج من رحمة الله بنا، يُجرح الإنسان فيأتي الطبيب ويخيط هذا الجرح وبعد حين يلتئم الجلد.

الخلية العظمية قد تنام ستين عاماً، فإذا كسر عظم اليد مثلاً فإنَّ هذه الخلايا تستيقظ وتلتئم، وما دور طبيب العظميّة إلا أن يضع العظمة على العظمة فقط.

الاحتياط الذي جعله الله في بعض الأجهزة يدلّ على اسم الشَّافي، فالكلية مثلاً فيها احتياط كبير، حيث يستطيع الإنسان أن يعيش بكلية واحدة.

القلب إذا أُجريت له عملية جراحة وأوقفناه عن طريق التبريد، وبعد انتهاء العملية يُعطى القلب صعقة فيعود و يعمل، لو أنَّ القلب إذا توقف لا يعمل لانتهى العمل الجراحيُّ كلُّه، فالله سبحانه و تعالى الشَّافي سمح له أن يعمل بعد أن تأتيه صعقة كهربائية، ولولا هذه القاعدة لألغي الطب في شأن جراحة القلب.

يقول أطباء جراحة القلب: إنَّ في القلب شرياناً يبدو أنه لا فائدة منه، لكن حينما تُسَدُّ بعض الشرايين يؤخذ هذا الشريان وهو من أمتن الأوعية، ويوضع مكان الشريان التالف، وكأنَّ الله سبحانه و تعالى و ضع في جسم الإنسان بعض قطع الغيار، وهذا من تمام خلق الله عز وجل.

الكبد يقوم بمئات الوظائف، وكلُّ خلية من خلايا الكبد تقوم بكلِّ وظائفه، فلو تشمَّع الكبد، وجاء الطبيب الجراح واستأصل أربعة أخماس الكبد، فالكبد يعيد بناء ذاته في ستة عشر أسبوعاً، ذلك لأنَّ كلَّ خلية في الكبد تقوم بكل وظائف الكبد.

والوظائف الفيزيولوجية في جسم الإنسان تؤكد اسم الله الشافي، الجسم عضو نبيل يستجيب للدواء إذاً الله شافٍ، ما أوقع المرض فينا إلا أن يكون المرض أداة قرب من الله عز وجل و يأتي بعده الشفاء، فالله عز وجل شافٍ، هناك أدوية مبطئة للنظم، هناك أدوية موسعة للشرايين، هناك أدوية مقوية لعضلة القلب، هناك أدوية تعطي الإنسان راحة نفسية، هناك أدوية مهدئة، هناك أدوية مسكنة.

إضاءات على الآيات التي ورد فيها الشفاء

ورد ذِكْر الشفاء في مواطِن كثيرة من كتاب الله فقال تعالى في سورة التوبة: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [التوبة:١٤].

معنى ذلك أنَّ المؤمن حينما ينتصر الحق ويعلو، وحينما يُهزم الباطل ويسقط، ترتاح نفسه، وهذه هي فطرة الإنسان السليمة.

والقرآن سماه الله عز وجل شفاءً لما في الصدور، أحياناً تجد أنَّ الكفار أقوياء وأغنياء ويعيشون حياةً فوق التصور، وهم مستهْتِرون ولا يطيعون الله ولا يصلُّون ويأكلون الربا ويزنون، ومع ذلك بِلادهم جميلة وهم أغنياء ومعيشتهم فيما يبدو راقية وفيها هناءة ورغد، فهذا المنظر يُحْدِث اخْتِلال توازن، وإذا فَتَحْتَ القرآن سمعت الله عز وجل يقول: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ [آل عمران:١٩٦-١٩٨].

وتفتح القرآن وتجد قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) ﴾ [الأنعام:٤٤].

فترتاح عندئذٍ وتستعيد توازنك، تفتح القرآن الكريم تجد قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) ﴾ [إبراهيم:٤٢].

فترتاح كذلك، ترى أن الدنيا جميلة ونضرة وخضِرة وكلُّ شيء فيها مُغرٍ فإذا فتحت القرآن الكريم تجد قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) ﴾ [محمد:٣٦].

فالله نبّهك، وكلُّ الأمراض التي تنشأ في نفس الإنسان يعالجها القرآن ويحُلُّها، أحياناً يكون الإنسان في بدايته لا يملك شيئاً؛ لا مالاً ولا بيتاً ولا عملاً ولا دخْلاً، ويبدو أن الطرق مسدودة أمامه، ولكنه مستقيم في سلوكه مع الله، فتبعث الآيات في نفسه الآمال الكبار عن طريق الثقة بربه الذي بيده الخير، ثم يقرأ القرآن فيجد قوله تعالى يزيده تفاؤلاً وسكينة: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾ [النحل:٩٧].

فيطمئن ويقرأ قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١) ﴾ [النساء:١٤١].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) ﴾ [آل عمران:١٣٩].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) ﴾ [فصلت:٣٠].

وهذا كلُّه شفاءٌ لما في الصدور، وقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ [القصص:٦١].

أيَّة آيةٍ تقرؤها تجد أنَّها تشفي النفس من بعض أمراضِها، فربّنا عز وجل جعل هذا القرآن شفاءً لما في الصدور قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يونس:٥٧].

فالذي أنزل الشِّفاء هو الشَّافي، المؤمن متوازن والمؤمن ليست عنده مشكلات فكرية، ولو أنه رأى كافِراً قوياً ورأى مؤمناً ضعيفاً، ولو أنه رأى منحرفاً غنياً ورأى مستقيماً متقشِّفاً فله موازين خاصة، قد تجد موازين الناس تدعو للانقباض، فهناك من يرى أنَّ المال هو الذي يثقل الميزان، وكذلك الطيش والقوة الرعناء، أمَّا عند الله فالعمل الصالح فيه رجاحة الميزان.

لما سقى سيدنا موسى للمرأتين ابنتي سيدنا شعيب ماذا قال؟ قال تعالى: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [القصص:٢٤].

ففُهِم من هذه الآية أنَّ الغِنى عند الله غنى الأعمال الصالحة، وأنَّ الفقر هو فقرُ الأعمال الصالحة. والحقيقة أن حجْمَك عند الله لا بحجم أموالِك ولكن بحجم أعمالك، والعُمُر لا قيمة له إلا بمضمونِه الصالح، قد تعيش عمراً قصيراً مفعماً بالأعمال الصالحة، وقد يعيش آخر عمراً مديداً فارغاً من العمل الصالح؛ فهذه كلُّها موازين، والإنسان حينما يختلُّ ميزانه يقع في المتاهات والضيق والتشاؤم والحيرة والاضطراب.

وفي سورة النحل قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [النحل:٦٨-٦٩].

قال ابن القيم: «هناك شفاءان: شفاء النفوس كلام الله؛ وشفاء الأبدان العَسَل»، لكن لو أن الله عز وجل قال: فيه الشفاء للناس لصار العسل شفاء من كلِّ مرض، أما

وقد جاء الشفاء نكرة ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾؛ يعني شفاءٌ من بعض الأمراض التي تصيب الناس. وعلى كلٍّ العسل كما يقولون: صيدلية ثانية، فعدد الفيتامينات والمعادن والأنزيمات التي في العسل لا تعدُّ ولا تحصى، ومع ذلك ربنا عز وجل قال: ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾، وفي سورة فصلت قال تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ [فصلت:٤٤].

فقارئ القرآن لا يحزن، ومن تعلَّم القرآن متَّعه الله بعقْلِه حتى يموت؛ والقرآن الكريم لا يقِلّ في عظمته عن عظمة الكون قال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾ [الأنعام:١].

وقال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴿١﴾ ﴾ [الكهف:١].

فهذا كتابنا المقرر ومنهجنا ودستورنا وحبل الله المتين والصراط المستقيم والعمل بأمره ونهيه يرفعنا إلى أعلى عِليين، قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت:٤٤].

المعنى المُخالِف لهذه الآية أن المؤمن ينادَى من مكانٍ قريب، إذاً أحد أسباب فهم كلام الله أن تكون قريباً من الله، وإن كان الإنسان بعيداً عن الله فماذا يكون حاله مع القرآن؟ ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ ﴾.

أما إذا كان قريباً من الله عز وجل فإنَّه يفهم كلام الله كما أراد الله، فعلى الإنسان أن يُشَمِّر ليكون قريباً من الله عز وجل حتى يفهم عن الله تعالى كلامه، ومن هنا قال

بعض أصحاب النبي ﷺ: «أوتينا الإيمان قبل القرآن»، قال ابن عمر: لقد عشت برهة من دهري وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن وتنزل السورة على محمد ﷺ فيتعلم حلالها وحرامها وما ينبغي أن يقف عنده منها كما تعلمون أنتم القرآن.

وعن جندب بن عبد الله قال: «كنا مع النبي ﷺ نحن فتيان حزاورة فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن فازددنا به إيماناً» فإذا اتصلت بالله عز وجل وأقبلت عليه وقرأت القرآن كنت قريباً من المعاني التي أرادها الله عز وجل، القرآن مع ذلك لا تنقضي عجائبه.

بمناسبة الحديث عن العسل، فقد ورد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فقال: إِنَّ أَخِي اسْتَطْلَقَ بَطْنُهُ -يعني أصيب بإسهال شديد- فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «اسْقِهِ عَسَلاً» فَسَقَاهُ ثُمَّ جَاءَهُ فَقَالَ: إِنِّي سَقَيْتُهُ عَسَلاً فَلَمْ يَزِدْهُ إِلا اسْتِطْلاقاً، فَقَالَ لَهُ: ثَلاثَ مرَّاتٍ، ثُمَّ جَاءَ الرَّابِعَةَ، فَقَالَ: «اسْقِهِ عَسَلاً» فَقَالَ: لَقَدْ سَقَيْتُهُ فَلَمْ يَزِدْهُ إِلا اسْتِطْلاقاً فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «صَدَقَ اللهُ وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ» فَسَقَاهُ فَبَرَأَ [رواه مسلم].

قرأت مقالةً علمية لطبيب متفوِّقٍ جداً في تحليل هذا الحديث أن الإسهالات الإنتانية يكون الدواء المناسب لها المواد السكرية، ففي بداية الأمر يزداد البطن إسهالاً إلى أن تذهب هذه المواد التي سببت الإنتان، بعدئذٍ تُمسك الأمعاء ما فيها، ويعود الوضع إلى الشكل الطبيعي، فقال رسول الله ﷺ: «صدق الله، وكذب بطن أخيك».

هذا الحديث يمكن أن نقيس عليه أشياء كثيرة، مثلاً الله عز وجل قال: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي الصَّدَقَٰتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦)﴾ [البقرة:٢٧٦].

لو قال لك واحدٌ: أنا دفعْت صدقاتٍ كثيرة وأنا فقير وما عوَّض الله عليَّ، نقول له: صدق الله العظيم وكذبْت أيها الإنسان، لأن زوال الكون أهْوَن على الله من ألا يحقق وعده للمؤمن.

أحد العلماء قال: من دعا إلى الله ولم يُوَفَّق فكأنَّه يُكذِّب قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ (٥١)﴾ [غافر:٥١].

إذا دَعَوْت إلى الله بصدقٍ وإخلاص وطبَّقْت منهج الله وكانت السريرة كالعلانية، فلا بد من أن تُوَفَّق فإن لم تُوَفَّق فقد صدق الله، وابحث عن خلل في دعْوَتِك وفي نفسك.

فإذا كان هناك خلل فإمَّا في النيات وإما في المنهج، وحاشا أن يكون في منهج الله عز وجل أيُّ خلل، وقبول الأعمال منوط بشرطين:

- أن تكون خالصة لله تعالى أولاً.
- ثم أن تكون وفق السنة.

فإن كانت خالصة ولم تكن وفق السنّة فعليك أن تراجع حساباتك، وإن كانت وفق السنّة ولم تكن خالصةً فعليك أن تُراجِع حساباتك، وأنا أقول لكم كلاماً دقيقاً فأنتم مؤمنون ولا أُزكي على الله أحداً، وكل واحدٍ منكم من طموحاته أن يستخدمه الله تعالى في نشر الحق، وأن يُجْرِيَ الخير على يديه وأن يستخدمه ويستعمله في الخير، فإذا تحرَّكْت حركةً سريعةً ومكثفة ولم تلقَ نجاحاً في الدنيا يجب أن تعزوَ عدم النجاح إلى ذاتك.

فإذا لم تنْجَح الدعوة ابْحث عن الخلل وعن التقصير لعلَّ هذا يذكرنا بموقف نبيِّنا ﷺ يوم بدر؛ وهو سيد العالمين وسيد الخلق وأقرب الخلق إلى الله، فقد وقف قُبيْل المعركة ورفع يديه إلى السماء حتى بدا بياض إبطَيْه أو حتى وقع الرِّداء من أعلى مِنْكبيْه، كما روى ذلك عمرُ بنُ الخطابِ قال: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ الله ﷺ إلى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ الفٌ وأَصْحَابُهُ ثلاثُمِئَةٍ وتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلاً فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ الله ﷺ القِبْلَةَ ثُمَّ مدَّ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: «اللهمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللهمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللهمَّ إنْ تُهْلِكْ هَذِهِ العِصابَةَ مِنْ أَهْلِ الإسْلام لا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ»، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَادّاً يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ القِبْلَةِ حَتَّى سَقَطَ رِداؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَالقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ ثُمَّ التَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ وَقَالَ: يا نَبِيَّ الله كَفَاكَ مُناشَدَتُكَ رَبَّكَ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال:٩] فَأَمَدَّهُ اللهُ بالمَلائِكَةِ [رواه مسلم].

وقد يسأل سائلٌ أيكون الصديق أكثر ثقة بالله من رسول الله ﷺ؟! كيف نُفسِّر هذا الموقف إذاً؟ النبي ﷺ مُتأدِّبٌ مع الله أشد التأدّب، وكان النبي ﷺ يخشى أن يكون هناك تقصير في الإعداد؛ وهو يعلم أنَّ الأمر بيد الله لكن النبي ﷺ خشِيَ أن يكون هناك تقصير في الإعداد لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال: ٦٠].

وبعد فإني أتمنى على الله أن تكون هذه الحقيقة واضحة تماماً؛ العمل لا يُقْبل إلا بشرطين: الشرط الأول أن يكون خالِصاً، والشرط الآخر أن يكون صواباً، فخالصاً ما ابتُغِيَ به وجه الله، وصواباً ما وافق السنّة.

دَعَوْتَ إلى الله فلم تنجح معك الدعوة، أمعن النَّظر في نياتك؛ مَن طَلَبَ العلم ليجاري به العلماء أو ليُماري به السفهاء أو ليصرِف وجوه الناس إليه أدخله الله النار، قد تقول وأنت صادق: أنا أعلم نفسي حق المعرفة إنني أنْطوي على نية طيبة خالصة إذاً الخلل في المنهج، لعلك خالفْت منهج رسول الله ﷺ فلم تنجَح الدعوة، فكلُّ إنسان إذا عزا عدم نجاح الدعوة إلى الله، وادَّعى أنه كان خالِصاً لله فهو يُكذِّب قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾.

المؤمن نقاد، وأول نقْده يجب أن يتجه إلى ذاته، وكل إنسانٍ يتعامى عن أخطائه يتداعى وينتهي، والنجاح أُمثِّله بقمة جبل، فبُلوغ القمة صعبٌ جداً، فلا بد من جُهْدٍ كبير وعرقٍ غزير ولا بد من اجتياز عقبات متلاحقة وصعود طويل عسير ومُثبِّطات عظيمة، لو أنك استطعت أن تصل إلى قمة الجبل فهذا إنجاز كبير، فهل أنت بطل؟ لا، إذ إنّ بطولَتك أن تبقى في القِمَّة، لأن فيها طرقاً زَلِقةً بحكم منحدراتها تجعلك إن لم تحزم أمرك في الحضيض في ثوانٍ معدودات؛ فاحذر الغرور والكِبَر وعدم الانصياع للحق.

فالله هو الشّافي والمُعافي، والحقيقة أن كلمة الشفاء تتعلق بالمرض والإنسان يمرض حينما يستهين بصحة جسده، وحينما ينْحَرِف في تعامله مع ربه فرحمة الله عز

وجل تقتضي أن يعالجه، هو الشَّافي فالله سبحانه وتعالى يشفي ويُعافي، والمصلي ماذا يقول في الصلاة: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ [الفاتحة:٦-٧].

فلم يقل: غير الذين غَضِبْت عليهم، إنما قال: غير المغضوب عليهم ولا الضالين، فالإنسان ينْحرِف فيغضب الله عليه ويستقيم فيُثْنى الله عليه.

وفي سورة يونس قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٧﴾ [يونس:٥٧].

ألا فاعلم أيها المؤمن أن: من أوتِيَ القرآن فظن أن أحداً أوتيَ خيراً منه فقد حقَّرَ ما عظَّمَه اللهُ، فالذي يُؤْتَى القرآن تلاوةً وفهْماً وتفسيراً وتطبيقاً فقد بلغ قِمَّة المجْدِ، لأن السيدة عائشة رضي الله عنها سُئلت عن أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: «كان خلقه القرآن» [رواه مسلم]، قال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ۝٦٣﴾ [الفرقان:٦٣].

تابع هذه الآيات تجد أنها أخلاق عباد الرحمن فتخلق بأخلاقهم.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال:٢].

اقرأ القرآن وابحث عن أوصاف المؤمنين فإذا كانت هذه الأوصاف منطبقةً عليك فاشْكر الله عز وجل وإلا فابحث عن الخلل.

النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا عاد مريضاً يدعو له ويقول كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها أنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم كانَ إذا أَتى مَرِيضاً أَوْ أُتِيَ بِهِ قالَ: «أَذْهِبِ الباسَ رَبَّ النَّاسِ، اشْفِ وَأَنْتَ الشَّافي، لا شِفاءَ إلاّ شِفاؤُكَ، شِفاءً لا يُغادِرُ سَقَماً» [رواه مسلم].

أنت الشَّافي وحْدَك، وربَّما عز وجل أحياناً يشفي مريضاً بمرضٍ عُضال وقد كان مُسْتَعْصياً، ولحكمةٍ بالغةٍ ورحمةٍ غامرةٍ يشفي هذا المريض شفاءً ذاتياً على الرغم من أن مرضَهُ عُضال، فمن أجل ماذا؟ من أجل ألا تعتقد أن الدواء هو الشَّافي، إذ إنَّ الشَّافي هو الله، فالله عز وجل يسمَح للدواء أن يفعلَ فِعْلَه، فكلُّ مريضٍ نَسِيَ الله وبحثَ عن الدواء فقد عصى الله.

ومعنى آخر من معاني الشفاء: لو أنَّ إنساناً كان منحرِفاً ثم تاب إلى الله عز وجل فقد شفاه إذا أقبل عليه تائباً، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام:١٢٢].

التوبة تُحيي القلب، فالله شافٍ، ويشفي جسدك ولو أُصيب بأيِّ مرضٍ، ويشفي قلبك من كلِّ مرضٍ، فما عليك إلا أن تبادر إليه وتأوي إليه مستسلماً، قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الذاريات:٥٠].

نصيب المؤمن من اسم الله الشافي

الشَّافي جل جلاله يشفي أجسادنا ويشفي قلوبنا، والمؤمن الذي يعلم أنَّ الله هو الشَّافي يتّجه إليه وحده طالباً منه الشِّفاء، ولكنَّه لا يترك الأخذ بأسباب الشِّفاء، لأنَّ الشافي جل جلاله قد أمره باتّخاذ الأسباب، إلا أنّه يأخذ بها دون أن يعتمد عليها، والنبي ﷺ يقول: «لكلِّ داءٍ دواءٌ، فإذا أُصيب دواءُ الداءِ بَرَأَ بإذنِ الله عزَّ وَجَلَّ» [رواه مسلم من حديث جابر بن عبدالله].

وهذا الحديث وحده يُعَدّ من أعظم الأحاديث الشريفة، لأنَّه ذو صلة بكلِّ الأمراض قاطبة، فلو سمِعه طبيب ولم يهتدِ إلى تشخيص بعض الأمراض فإنّه يتّهم نفسه بالتقصير، فكأنَّ هذا الحديث يدفع العلماء والأطباء إلى البحث عن الدواء، ولأنَّ الله عز وجل يقول فيما أخبرنا عنه النبي ﷺ: «لِكُلِّ داءٍ دَوَاءٌ» فإذا سمع هذا الحديث

أيُّ مريض وقرأه فإنَّه يمتلئ قلبه أمَلاً بالله عز وجل أن يشفيه، فما من داءٍ خلقه الله إلا وخلق له دواء.

قال العلماء: فإذا أُصيب دواء الداء؛ أي إذا وُفِّق الطبيب إلى تشخيص المرض أولاً ثم وُفِّق الطبيب إلى اختيار الدواء المناسب ثانياً بَرِئَ، ولكن لا بد من أن يأذن الله عز وجل، فالمريض ارتبط من جهةٍ بالعلم والبحث والدراسة الجادة، وأن هذا المرض له دواء في مخابر الباحثين والعلماء، وارتبط بالله عز وجل لأنه إذا أُصيب دواء الداء بَرِئ، ولكن بإذن الله، فلا بد من أن يأذن الله حتى يبْرأ المريض.

وما عليك إلا أن تتصل به وأن تتجه نحوَه وأن تُخْلِص له، هو الشَّافي يشفي جسدك ويشفي قلبك، شفاء الجسد مُريحٌ في الحياة الدنيا، لكنَّ شفاء القلب سبب سعادة المرء إلى أبدِ الآبدين. ومن هنا تتجلى أهمية الدعاء الشريف: «اللهم! اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولّني فيمن تولّيت» [رواه الأربعة عن الحسن بن علي].

أحياناً أشْعُر أن الشفاء يخلُقه الله خلقاً، كما أن المرض يُخْلق، فقد تجد المرْءَ بعد مرضٍ عُضال يعود كما كان قبل المرض فلا شفاء إلا شفاء الله سبحانه.

اسم الشَّافي اسمٌ عظيم، وأنا لا أُقلِّل من قيمة شفاء الجسم، لأن الإنسان يحيا بهذا الجسد، واحفظ قوله ﷺ في دعائه الشريف: «واجْعَلْه الوارث منا» [رواه الترمذي، من حديث ابن عمر]، ولكنَّ شفاء القلب قِمَّة أنواع الشفاء، وهذا الشفاء سبب سعادة المرء إلى أبد الآبدين، فالبطولة أن يكون قلبك معافىً من كل أمراضِه، لأن القلب المريض لا يستطيع أن يُقْبِل على الله عز وجل.

الرفيق

ورد هذا الاسم في السّنّة الصحيحة، ففي صحيح البخاري ومسلم من حديث عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ، إِنَّ الله رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ» [مسلم].

من معاني اسم الله الرفيق

الرَّفيق هو اللطيف، والرَّفيق هو الذي يرافقك، والرَّفيق هو الذي يتصرَّف برِفق، يقول الله عز وجل: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد:٤].

معكم بعلمه، والإنسان لا يحتمل أن يكون معه إنسانٌ بشكل دائم، لكنَّ الله معنا بلطف دون أن نشعر.

رحمته لعباده رفق، ومغفرته لعباده رفق، وقبول توبته من عباده رفق.

ما من جهة يمكن أن تكون معك في سفرك، وتستخلفها في بيتك إلا الله، ومن أدعية النبي ﷺ ما ثبت عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا سَافَرَ فَرَكِبَ رَاحِلَتَهُ قَالَ:

«اللهمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ، اللهمَّ اصْحَبْنَا بِنُصْحِكَ، وَاقْلِبْنَا بِذِمَّةٍ، اللهمَّ ازْوِ لَنَا الأَرْضَ، وَهَوِّنْ عَلَيْنَا السَّفَرَ، اللهمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ» [الترمذي، أبو داود].

قال بعض العلماء: «الرَّفيق هو اللطيف بعباده، القريب منهم»، فالله عز وجل يحول بين المرء وقلبه، هو أقرب إليك من حبل الوريد، أقرب إليك من خواطرك، وما من إنسان يدخل على إنسان اختصاصيٍّ في الطّبِّ أو الهندسة أو المحاماة إلا ويحتاج إلى أجرة، إلا أنك إذا لجأت إلى الله فإنَّه يتولاك دون عوض ولا مقابل، لأنَّه رفيق بك.

لذلك فإنَّ الذي يعصي ربه في رابعة النهار، نهاراً جهراً، وينسى أن الله معه، وأن الله يراقبه، هذا ليس بكامل الإيمان، لذلك من أرقى مستويات الإيمان أن تؤمن أن الله معك، قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٧-٢٢٠].

وفي الحديث الشريف الذي روته أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها:(فكانت آخر كلمة تكلم بها ﷺ اللهمَّ الرَّفيق الأعلى) [متفق عليه].

أمّا آثار لُطف الله في مخلوقاته فكثيرة ومن أمثلتها:

الطفل الصغير له أسنان لبنيَّة، وهذه الأسنان تسقط دون ألم، وما من طبيب أسنان إلا وهو مضطرٌّ أن يعطي المريض مخدِّراً حتى يقلع السِّنَّ، أمَّا الطّفل فيتفاجأ بسنِّه مع لقمة طعامه، وهذا نوع من اللطف، الهواء لطيف، يحمل الطائر، بل إنَّه يحمل

طائرة وزنها ثلاثمئة وخمسون طنّاً، وأنت تمشي ضمن الهواء، وتستنشق الهواء، ولا ترى الهواء.

والله عز وجل رفيق في أفعاله، لذلك يقدِّر لعباده أرزاقهم، ويهديهم لما يصلحهم، فالإنسان ينام، فتتباعد الخلايا العصبية، والسيالة في النوم لا تتخطى الفراغ، فينام مرتاحاً، أمَّا إذا كان الصوت عالياً جداً فهذا الصوت العالي يوقظه.

هداك الرَّفيق إلى مصالحك، جعل في العظم عصباً حسيَّاً، فإذا حدث كسر فالألم الشديد الذي لا يحتمل يجعلك تدع العظم المكسور كما هو، وأن تدعه كما هو فهذا أربعة أخماس معالجته.

هو رفيق بنا، ببنية أجسامنا، بوظائف أجسامنا، الإنسان يتوضأ براحة، لكن لو وضعت ماء بارداً على ظهره فإنَّه لا يحتمله، فأعصاب الحسِّ في الأماكن المكشوفة التي تقتضي التنظيف الدائم ضعيفة جداً، وفي الأماكن المستورة قويَّة جداً.

هذا المرفق لولاه كيف تأكل؟ لابد أن ينبطح الإنسان كالهرَّة ليأكل، لكنَّ له مرفقاً، وهذا المرفق يوصل الطعام إلى فمك، وإلا ليس هناك طريق ثان.

البطيخ ينمو على الأرض، ولو كان ينمو على الأشجار فقد تقتل حبَّة البطيخ إنساناً.

تأكل تفاحة، طعمها طيب، ورائحتها طيبة، وحجمها معتدل، وقوامها يتناسب مع الأسنان، وفيها فوائد.

نصيب المؤمن من اسم الله الرفيق

الحلم رفق، والمعالجة بحكمة من الرفق، والعفو من الرفق، والمغفرة من الرفق، والتسامح من الرفق.

وفي الحديث الذي مرَّ بنا (إن الله رفيق يحبُّ الرِّفق في الأمر كلِّه) يحبُّ الرِّفق في تربية الأولاد، يحبُّ الرِّفق في معاملة الزوجة، يحبُّ الرِّفق في التَّعامل التِّجاريّ.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «رَحِمَ الله عَبْدًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ، سَمْحًا إِذَا اشْتَرَى، سَمْحًا إِذَا اقْتَضَى» [صحيح البخاري].

من صفات المؤمن أنَّه رفيق لطيف، وإذا كان معك فظلُّه خفيف، لا ينتقد، لا يحاسب، لا يقسو، المؤمن ليِّن العريكة، يألف ويُؤلف.

الفرق بين المؤمن وغير المؤمن جوهريٌّ وكبير جداً، تُعامِل المؤمن فتراه لطيفاً، ترى ظلَّه خفيفاً، تراه سمحاً، تراه عَفوّاً، متسامحاً.

وعَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ» [مسلم].

توصَّل إلى أهدافك بالرفق، انصح، عظ موعظة حسنة، جادل بالتي هي أحسن.

لا تكن فظّاً غليظ القلب، النبي ﷺ وهو سيد الخلق، وحبيب الحق، وسيد ولد آدم، أوتي المعجزات، أوتي الوحي، كان جميل الصورة، كان فصيح اللسان، كان رحيماً، كان حليماً، كان متواضعاً، ومع كلِّ هذه الصفات يقول الله له: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [آل عمران:١٥٩].

فكيف بإنسان ليس نبياً، ولا رسولاً، ولا يُوحى إليه، وليس فصيحاً، وليس جميل الصورة، وليس رحيماً... ومع ذلك فهو فظٌّ غليظ القلب؟!

إذا دخلت إلى البيت فقل: السلام عليكم، إذا أردت أن توجِّه ابنك فقل: يا بني، هذا الشيء يؤذيك، أنا ناصح أمين لك، دون أن تضرب وتشتم وتقسو.

إنّ صفات المؤمن متميّزة، البيت الذي فيه رفق فيه حبٌّ وهدوء، فيه راحة نفسية، فيه أولاد ينشؤون نشأة صحية، يرون أباهم وأمهم على وفاق، وعلى وئام.

أولا: ينبغي أن يكون الإنسان رفيقاً بنفسه، فقد يفعل من الأعمال ما لا يحتمل تبعتها، فنفسك مطيتك إلى الله فارفق بها، وهناك أعمال تسبِّب بعدًا عن الله، وأعمالٌ تسبِّب حجاباً بينك وبين الله، فارفق بنفسك، ولا تحمّلها ما لا تطيق، فهذا الذي يستقيم على أمر الله عز وجل، هذا الذي يقف عند حدود الله، هذا الذي يتقرَّب إلى الله يُسعد نفسه بالقرب إلى الله، أما إذا عمل أعمالاً لا ترضي الله فقد أقام باختياره وبفعل يده حجاباً بينه وبين الله، فحمّل نفسه من آلام البعد وجفوة المعصية ما لا يطيق. فأول حظ من حظوظ المؤمن من هذا الاسم أن استقامته على أمر الله تجعل الطريق إلى الله سالكة، إذًا: هو ينعم في جنة القرب، وفي الدنيا جنَّة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، يقول تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾ [محمد:٦].

الإنسان يسعد بقربه من الله، فإذا فعل بعض المعاصي والآثام، أو إذا قصَّر في بعض الحقوق كان الحجاب بينه وبين الله، فحمّل نفسه مالا تطيق، ومن ناحية ثانية قد يحمِّل الإنسان نفسه من العبادات ما لا يطيق.

فعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ، قَالَ: «مَنْ هَذِهِ؟ قَالَتْ: فُلَانَةُ، تَذْكُرُ مِنْ صَلَاتِهَا، قَالَ: مَهْ، عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ، فَوَالله لَا يَمَلُّ الله حَتَّى تَمَلُّوا، وَكَانَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَادَامَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ» [متفق عليه].

وعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «سَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَاعْلَمُوا أَنْ لَنْ يُدْخِلَ أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ الجَنَّةَ، وَأَنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى الله أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ» [متفق عليه].

افعل من العبادات ما تستطيع أن تستمرَّ عليه، أمَّا هذا الذي يفور، ثم يضعف، وخطُّه البيانيُّ صاعد صعوداً حادّاً، ثم يهبط هبوطاً مريعاً، فليس هذا من الحكمة.

فالإنسان له مجلس علم يحافظ عليه، له أذكار يحافظ عليها، له تلاوة قرآن يومية يحافظ عليها، والاستمرار ينشأ عنه حالة اسمها التراكم، تراكم العبادات، تراكم الأذكار، تركم التلاوات، هذه تفعل فعلاً عجيباً، وتقرِّب المرء من الله عز وجل.

أول بنود الرفق: ارفق بنفسك، لا تحمّلها من المعاصي والآثام ما لا تطيق، لا تجعلها في جفوة عن الله عز وجل، ولا تحمّلها من العبادات ما لا تطيق، عندها تكون هناك نكسة.

حتى في الإنفاق، قال تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة:١٩٥].

أنفق في سبيل الله، لأنَّك إن لم تنفق تُلقِ بنفسك إلى التهلكة، وقال بعض المفسرين: أنفق في سبيل الله، فإنك إن أنفقت مالك كلَّه تلقِ نفسك في التهلكة، ورسول الله ﷺ لم يقبل من صحابي ماله كلَّه، إلا الصديق فقط.

تهلك إن لم تنفق، وتهلك إن أنفقت مالك كلَّه.

ثمَّ إنَّ أقرب الناس إليك زوجتك، هذه رفيقة العمر، هذه شريكة العمر، ينبغي أن ترفق بها، إنَّها أولى الناس بحسن معاملتك، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ» [متفق عليه].

فالإنسان بحكمة يسعد بزوجة من الدرجة الخامسة، ومن دون حكمة، وعن طريق العنف يشقى بزوجة من الدرجة الأولى، لذلك فإنَّ أكبر عطاء إلهي هو الحكمة، قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩].

ومما ذكره العلماء في قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء:١٩].

ليست المعاشرة بالمعروف أن تمتنع عن إيقاع الأذى بها، بل أن تحتمل الأذى منها.

والحبُّ تصنعه أنت بيدك، بابتسامه، بإلقاء سلام، بالتسامح، بالمعاونة، عَنْ الأَسْوَدِ قَالَ: سَالتُ عَائِشَةَ: مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْنَعُ فِي أَهْلِهِ؟ قَالَتْ: «كَانَ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ، فَإِذَا حَضَرَتْ الصَّلاَةُ قَامَ إِلَى الصَّلاَةِ» [البخاري].

كان يكنس داره، ويرفو ثوبه، ويحلب شاته، وكان في مهنة أهله، فمعاونة الزوجة برفق شيء رائع جداً، بل إن النبي ﷺ جعل الخيرية في البيت، فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي» [الترمذي].

يمكن لأخلاق الإنسان خارج البيت أن تنضوي تحت مصلحته، لطفه وأناقته، وسلامه وابتسامته جزء من عمله، حتى ينتزع إعجاب الناس، ويحقِّق مصالحه، لكن في البيت لا رقابة عليه، فبطولة المؤمن أن يكون في البيت رفيقاً بأهله، محتمِلاً لبعض أخطائهم، قال تعالى: ﴿وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق:٦].

كان ﷺ إذا دخل بيته بسَّاماً ضحَّاكاً، وكان في مهنة أهله، وهذا نوع من الرفق، وكمال الإنسان يتبدى أوضح ما يتبدى في بيته، وينبغي أن تكون بيوتات المسلمين جنَّة بالودِّ، فلو جئت بطعام نفيس، لو أسكنتهم بيتاً فخماً، هم يريدون مودَّتك، يريدون ابتسامة، يريدون الحبَّ، أطعمها طعاماً خشناً، وكن لطيفاً معها أفضل ألف مرة من أن تطعمها طعاماً نفيساً ثم تقسو عليها، ومن سعادة المرء أن يحبَّ زوجته، لأنها حليلته، ولأنها أمُّ أولاده.

وينبغي أن تكون رفيقاً بأولادك، علِّم ولا تعنِّف، استخدم المكافآت بدل العقوبات، لا تقل: لو أنَّ ابناً لم يصلِّ الفجر سوف أضربه، بل قل: من صلى معي الفجر فسوف أكافئه بمبلغ من المال أو بهدية، اجعل العلاقة بينك وبين أولادك علاقة طيبة، لا شكَّ أنَّ كلَّ أب يحبُّ أولاده، لكنَّه يقسو عليهم اجتهاداً، وهذا خطأ كبير، حتى إنَّ

الأمَّ التي ترضع ابنها، برقَّة ولطف فمن نتائج هذا الإرضاع أخلاق رضية، أما إذا أرضعته بعنف فربما كان هذا الإرضاع سبباً في قسوته.

ومن الرِّفق الرِّفق بالوالدين، قال تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الإسراء:٢٣].

عطف جلَّ جلاله الإحسان بالوالدين على عبادة رب العالمين، فرفع البرَّ بهما إلى أعلى مستوى.

إذًا: لابد من الترفُّق في معاملة الوالدين، حتى لو عصيتهما في معصية لله فينبغي أن تترفق في عدم تلبية رغبتهما لا بعنف ولا بقسوة.

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ ﴾ [لقمان:١٥].

صدِّقوا أنَّ الذي يموت والداه وهما راضيان عنه فإنَّه يشعر بسعادة طول حياته، لأنه أدَّى واجبه بالكمال والتمام.

ومن الرِّفق أن ترفق بمن جعلهم الله تحت إمرتك، فلو كنت مديراً وتحت يدك عشرة موظفين، هؤلاء أتباعك، وأنت موكَّل بهم، والحديث الذي ينخلع القلب له قوله ﷺ: «اللهمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ» [مسلم عن عائشة].

قد يحمّل المدير العام الموظفين شيئاً لا يُطاق، يطالبهم بأشياء فوق طاقاتهم، ويمنع عنهم الإضافات، ويحمّلهم مالا يطيقون.

في الامتحانات قد يكون مستوى السؤال فوق طاقة الطلاب، تجد البيوت فيها مآسٍ، لأن المدرِّس أحيانا يرى بطولته في وضع أسئلة تعجيزية، وهذا خطأ كبير، وهذا المدرِّس غير رفيقٍ بطلابه.

سيدنا عمر سأل واليا أراد أن يمتحنه، قال له: ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب؟ قال: أقطع يده، قال له عمر: إذًا إن جاءني مِن رعيتك مَن هو جائع أو عاطل فسأقطع يدك، إن الله قد استخلفنا عن خلقه لنسدَّ جوعتهم، ونستر عورتهم، فإن وفَّينا لهم ذلك تقاضيناهم شكرها، إنَّ هذه الأيدي خلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً، فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية.

المعطي

ورد هذا الاسم في السّنّة الصّحيحة، عَنْ مُعَاوِيَةَ ﵁ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ يُرِدْ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَالله الْمُعْطِي، وَأَنَا القَاسِمُ، وَلَا تَزَالُ هَذِهِ الأُمَّةُ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ الله وَهُمْ ظَاهِرُونَ» [متفق عليه].

من معاني اسم الله المعطي

المعطي اسم فاعل من الفعل الرباعي أعطى، يعطي، والمصدر إعطاء، وفي الحديث: «وَاللهُ الْمُعْطِي وَأَنَا القَاسِمُ» .

مثال ذلك: الأصل أنَّ هذا الماء من عطاء الله، نحن وضعناه في خزَّانات، وسُقناه إلى البيوت بأنابيب، ووزّعناه بقوارير، هذا عمل ثانويٌّ، لا يعدُّ من صلب الماء، فالماء منحة من الله عز وجل، وكلُّ شيء الأصل فيه أنه عطاء من الله، ونحن قمنا بعرضه، بتعليبه، بتغليفه، بإيصاله إلى المستهلِك، أمَّا الأصل فإنَّ الله هو المعطي.

والمُعطي جل جلاله أعطانا النعم الكبرى الصارخة، أعطانا نعمة الإيجاد، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان:١].

أنت موجود، لك كيان، لك اسم، لك زوجة، لك أولاد، لك بيت، لك مكانة، عندك قناعات.

أحياناً أتصفَّح كتاباً، وأطَّلع على تاريخ تأليفه، فإذا كان تاريخ التأليف قبل ولادتي فإنني أتَّخذ موعظة كبيرة، إذ أسأل نفسي: أين كنتِ في هذا التاريخ؟ ليس لي اسم في الأرض كلِّها.

منحك الله نعمة الإيجاد، ثمَّ أمدَّك بما تحتاجه، أعطاكَ جهاز تنفس، جهاز هضم، هناك ماء، وطعام، ولحوم، وخضراوات، ومحاصيل، وأنت بحاجة إلى طرف آخر فخلق المرأة من أجلك، وخلقك من أجلها، فأنجبت أولاداً ملؤوا البيت فرحة، إذاً: منحك نعمة الإيجاد، ومنحك نعمة الإمداد، ثمَّ منحك نعمة الهدى والرّشاد.

أحياناً يُشَقُّ الطَّريق، بعد حين توضَع الشاخصات، هنا منحدر زلق، وهنا تقاطع خطر، وهنا الطريق ضيقة، فهذه الشاخصات هداية للسائقين، فبعد أن منحك نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، منحك نعمة الهدى والرشاد.

وأعطاك هذا الكون وهو بنصِّ القرآن الكريم مسخَّر للإنسان تسخير تعريف وتكريم، قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية:١٣].

والمسخَّر له أكرم من المسخَّر، الإنسان سُخِّر له ما في الكون، فهو المسخَّر له، وهو أكرم عند الله من الشيء المسخَّر، والإنسان هو المخلوق المكرَّم المكلَّف.

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ [الأحزاب:٧٢].

لأنه قَبِل حمل الأمانة، كان المخلوق الأول تكريماً وتكليفاً، قال سيدنا علي رضي الله عنه: رُكِّب المَلَك من عقل بلا شهوة، ورُكّب الحيوان من شهوة بلا عقل، ورُكّب الإنسان من كليهما، فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة، وإن سَمت شهوته على عقله أصبح

دون الحيوان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧﴾ [البينة:٧].

وفي المقابل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٦﴾ [البينة:٦].

بين أن تكون أرقى من الملائكة، وأن يكون الإنسان الذي كفر بربه دون أحقر حيوان والفرق كبير جداً.

لو أنَّ إنساناً قدّم لك جهازاً متطوّراً جدّاً، وفيه قفزة نوعية بخصائصه، وهو من اختراعه، فقدَّمه لك هدية، يجب أن ينتابك شعوران، شعور التعظيم له على هذا الإنجاز العلميِّ الكبير، وشعور الامتنان، لأنَّه قدّمه لك مجّاناً، ولأنّ الله سبحانه وتعالى سخَّر للإنسان الكون بما فيه تسخير تعريف وتكريم، فردُّ فعل التعريف أن تؤمن، وردُّ فعل التكريم أن تشكر، ولمجرد أنَّك آمنت وشكرت فقد حقَّقت الهدف من وجودك، وإذا حُقِّق الهدف من الوجود تتوقَّف كلُّ أنواع المعالجة والتأديب، يقول تعالى: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ﴾ [النساء:١٤٧].

وفي الحديث القدسيّ يقول الله تعالى:

«يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ البَحْرَ فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ الله عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ» [رواه مسلم عن أبي ذر].

لا تعتب على أحد، بل لُمْ نفسك على تقصيرك، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ۝٣٠﴾ [الشورى:٣٠].

المعطي جل جلاله يعطينا نعماً دنيوية، كالصحة، والقوة، والمال، والجمال، ويعطينا نعماً إيمانية، كالسكينة، والأمن، والرضا، والسعادة، يعطينا نعماً لا تعدُّ ولا تُحصى، لكنَّ نعم الله عز وجل ما كان منها في الدنيا فإنَّه ينقضي بانقضاء الدنيا.

يقول الله عز وجل: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر:١٥-١٦].

جاء الجواب مع الردع: ﴿كَلَّا﴾ [الفجر:١٧].

يا عبادي، ليس عطائي إكراماً في الدنيا، ولا منعي حرماناً، عطائي ابتلاء، وحرماني دواء.

فالله سبحانه وتعالى يعطي الصحة، والذكاء، والقوة، والجمال، والمال للكثيرين من خَلقه، ولكنَّه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين، يعطيك نعماً إيمانيَّة، يعطيك الرضا، فأنت راضٍ عن الله، راضٍ عن نفسك، بمعنى أنك قبلت قضاء الله وقدره، راضٍ عمّا نزل بك من مِحنٍ، ليقينك القطعيِّ أنَّ هناك حكمة بالغة وراءها.

حينما نؤمن أنَّ كلَّ شيء بقضاء من الله وقدر، وأنَّ الإيمان بالقدر يذهب الهمّ والحزن، نكون قد عرفنا حقيقة العطاء، فعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ» [أخرجه أحمد في مسنده].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى الله مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِالله، وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ الله، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ» [رواه مسلم].

ليس في قاموس المؤمن كلمة (لو).

يقول تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ [العنكبوت:٤٥].

مِن معاني هذه الآية أنَّ ذِكركَ لله عز وجل أكبر من كلِّ شيء، وأنَّ الله يذكرك، لكنَّ ذكر الله لك أكبر من ذكرك له، فإذا ذكرته فقد أديت واجب العبودية، لكنَّه إذا ذكرك أعطاك الأمن، والأمن نعمة خاصة بالمؤمنين.

﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟﴾ [آل عمران:١٥١].

أما المؤمنون: ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام:٨١-٨٢].

إن ذكرك منحك الحكمة.

﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [البقرة:٢٦٩].

ذكر الله لك يمنحك السكينة، سعادة ما بعدها سعادة، لا يعرفها إلا من ذاقها، إذا ذكرك الله عز وجل أعطاك الرضا.

والعلم أعظم عطاء يعطيه الله لعبده، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء:١١٣].

لأن الله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان قوَّة إدراكيَّة، وما لم يبحث عن الحقيقة، وما لم يطلب العلم فقد هبط من مستوى إنسانيته إلى مستوى لا يليق به.

كرامة العلم أعظم كرامة عند الله، فإذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم.

يقول تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾ [المجادلة:١١].

فالله سبحانه وتعالى اعتمد في القرآن الكريم العلم والعمل قيمتين مرجِّحتين بين خلقه، فبطولة الإنسان أن تأتي مقاييس التفوق عنده كما هي في القرآن.

الناس في الدنيا يعظِّمون الأغنياء والأقوياء، لكنَّ القرآن الكريم بيّن لنا أن رتبة العلم أعلى الرتب، قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩].

هناك علم بخلقه، وعلم بأمره، وعلم به، العلم بخلقه وبأمره يحتاجان إلى مدارسة، إلى كتاب، وإلى معلّم، وإلى شهادة، وإلى امتحان، لكنَّ العلم به يحتاج إلى مجاهدة.

والبطولة ألا يكون طلب العلم في أوقاتك الهامشية، بل يجب أن يكون طلب العلم جزءاً من خطَّتك في الحياة، لأنَّ هناك إنسانا بحسب فراغه يطلب العلم، لكنْ عنده أشياء أساسيّة لا يعلو عليها شيء، أمّا المؤمن فطلب العلم جزء أساسي من حياته، ولا يعلو عليه شيء، وقد قال سيدنا علي رضي الله عنه: يا بنيّ، العلم خير من المال، لأنَّ العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، يا بنيّ، مات خُزّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة.

في الإنسان حاجات سفلى، وحاجات عليا، فالحاجة العليا الكبيرة هي طلب العلم، وما لم يطلب الإنسان العلم فإنَّه لا يرقى إلى مستوى إنسانيته، والإنسان دون علم وُصِف في القرآن الكريم بأنه: ﴿كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤)﴾ [الفرقان:٤٤].

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة:٥].

﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف:١٧٦].

بل قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون:٤].

والله سبحانه وتعالى قد يمنع ليعطي، ويأخذ ليعطي، ويخفض ليرفع، ويذلُّ ليعزَّ، لأنَّ الإنسان قبل حمل الأمانة، فإنَّ قصَّر في حملها، جاءت المعالجة الإلهيَّة.

لو أنَّ الله سبحانه وتعالى لم يربِّ عباده فإنَّ مصير معظمهم إلى النار، لكن هذا ربّاه بمرض، وهذا بقلق، أو بشبح مصيبة، أو بضيق، والله عز وجل يسوقنا إلى بابه سوقاً، وهذا من نِعم الله عز وجل علينا.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ القِيَامَةِ: «يَا ابْنَ آدَمَ، مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟ يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟» [أخرجه مسلم].

وهذا يؤكِّد أنّ الله عز وجل حينما يأخذ من الإنسان بعض صحّته فإنَّه يعوِّضه أضعافاً مضاعفة من القرب والسكينة.

«أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟»

الله عز وجل يأخذ ليعطي، يمنع ليعطي، يخفض ليرفع، يضر لينفع، هذه الأسماء الأولى أن تذكر مَثْنى مَثْنى.

ويدخل التّوحيد في معنى العطاء، لأنَّه لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، فعلاقتك إذاً مع الله، وقد قال ابن عطاء الله السكندري: ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك، وهذا من معاني قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

فالمصائب والحرمان والمتاعب نِعَمٌ باطنة.

سيدنا سعد بن أبي وقّاص إذا دخل على النبي ﷺ كان يداعب، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله قَالَ: أَقْبَلَ سَعْدٌ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَذَا خَالِي، فَلْيُرِنِي امْرُؤٌ خَالَهُ» [الترمذي].

وفدَّاه بأبيه وأمه، فقال: «ارْمِ سَعْدٌ فِدَاكَ أَبِي وَأُمّي» [أخرجه الشيخان عن علي بن أبي طالب].

وبعد وفاة رسول الله ﷺ قال له عمر كلمة توحيد، قال له: يا سعد، لا يغرنَّك أنه قد قيل: خال رسول الله، فالخلق كلُّهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعته.

أحياناً تأتي المصيبة فتكون سبب الهداية، وحينما تكشف لك حكمتها تذوب كالشمعة محبَّة لله، يقول تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157) ﴾ [البقرة:].

يجب أن تؤمن إيماناً قطعياً أن المصائب نِعَمٌ وعطاء، وأنَّ الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين، وأنَّ المصائب تعني أنك ضمن عناية الله، وأن المصائب تعني أنك ضمن رحمة الله، يقول تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴾ [الأنعام:١٤٧].

وممَّا تقتضيه رحمة الله.

﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (147)﴾ [الأنعام:١٤٧].

فإذا كُشفت لك الحكمة في المنع عاد المنع عين العطاء.

وفي آية ثانية: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۚ﴾ [التغابن:١١].

يهدي قلبه إلى حكمة المصيبة.

حينما تؤمن أنك بعين الله، وبعنايته، وبرعايته، وبحكمته، وأنَّ الذي ساقه إليك محض محبة، ومحض حكمة، ومحض خير فإنَّك ترضى عن الله.

كان أحدهم يطوف حول الكعبة ويقول: يا رب، هل أنت راضٍ عني؟ كان وراءه الإمام الشافعي، قال له: يا هذا، هل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى عنك؟ قال

له: سبحان الله! مَن أنت يرحمك الله؟ قال له: أنا محمد بن إدريس، قال له: كيف أرضى عن الله، وأنا أتمنى رضاه؟ قال له: إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله، والدليل: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة:١١٩].

عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ؛ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» [مسلم].

أحيانا يمضي الإنسانُ سنوات طويلةً في الدراسة في بلد أجنبي، ولا دخل له، ووالده فقير، فيشتغل هذا الطالب في مطعم، أو يشتغل حارساً، ويدرس في النهار، وضعه المنظور مؤلم جداً، لكن هذا مستقبله مشرق جداً، حينما ينال الشهادة، ويعود إلى بلده، ويعيّن بمنصب رفيع، وله دخل وفير، وله مكانة اجتماعية، ينسى كلَّ التعب الذي أصابه، قال تعالى: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥﴾ [الضحى:٥].

وهذه الآية لرسول الله ﷺ، ولكنها تنسحب على كلِّ مؤمن بقدر إيمانه واستقامته وإخلاصه.

إضاءات على الآيات التي ورد فيها عطاء الله تعالى

قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠﴾ [طه:٤٩-٥٠].

أعطى الله كلَّ شيء خلقه أي أعطاه الخلق الكامل.

كما في قوله ﷺ: «أَعْطُوا الأَجِيرَ أَجْرَهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ» [ابن ماجه عن ابن عمر].

لم يقل: أعطوه أجراً، بل أجره الذي يعادل جهده، أجره الذي يحقّق له كرامته.

إذاً أعطاه خلقه الكامل المناسب له، قال تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين:٤].

الأنف فيه عشرون مليون عصب شمٍّ تقريباً، ينتهي كلُّ عصب بسبعة أهداب، والهدب مغمَّس بمادة تتفاعل مع الرائحة، فتشكِّل شكلاً هندسياً، هذا الشكل هو رمز الرائحة، يشحن إلى الدماغ؛ إلى الذاكرة الشمّية، وعندنا عشرة آلاف بند، وهذا الشكل الهندسيُّ يعرض على الذَّاكرة الشَّمّيّة إلى أن يتوافق مع شكل الرائحة فتقول: هذه رائحة النعناع مثلاً، فالشمّ آلية معقدة جداً.

وضع الله عز وجل في لبّ السّنّ عصباً حسيّاً، فإذا بدأ النَّخر، ووصل إلى العصب فإنّك لا تنام الليل، فتسارع إلى الطبيب، ولولا هذا العصب لخسر الإنسان أسنانه دون أن يشعر، فالعصب الحسيُّ جهاز إنذار مبكر.

وأنت غارق في النوم يجتمع اللعاب في فمك، فتذهب رسالة إلى الدماغ، أنَّ اللعاب زاد على حده، فيأتي أمر من الدماغ، يفتح البلعوم لسان المزمار، يغلق القصبة الهوائية، يفتح المريء فتبلع ريقك، وأنت نائم.

البروستات تقع بين مجرى البول ومجرى ماء الحياة، عند اللقاء الزوجي تفرز مادة مطهّرة، ومادة مغذية، ومادة معطرة.

﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠) ﴾ [طه: ٥٠].

ويقول تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩) كُلًّا نُّمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) ﴾ [الإسراء: ١٨-٢٠].

قد يختار إنسان احتراف الغناء، ثم يموت، وتبقى أغانيه تصدح إلى يوم القيامة، وقد يختار إنسان القرآن، ثم يموت، وتبقى تلاوته تذاع إلى يوم القيامة.

هناك إنسان بنى مسجدا، وآخر بنى ملهى، والإنسان مخيَّر، فاختر ما شئت، وافعل ما شئت، لكن كلُّ شيء له حسابه عند الله تعالى.

ويقول تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ [الكوثر:١].

إنَّ أيّ عطاء ينتهي بالموت فليس عطاءً، لكنَّ عطاء الله عطاء أبديٌّ مستمر.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨﴾ [هود:١٠٨].

كلّ إنسان لا بد أن ينتقل من بيت إلى قبر، والبيت معتنى فيه جداً، فيه زوجة وأولاد، وغرفة ضيوف، وغرفة جلوس، مطبخ، حمام، مركبة واقفة عند الباب، نزهات، فإذا توقَّف القلب وُضع الإنسان في القبر، فماذا في القبر؟!

الذكاء والتوفيق والعقل أن تعيش المستقبل، لا أن تعيش الماضي، ولا أن تعيش الحاضر، فالذي يعيش الماضي غبيٌّ، لأنه ما مضى فات والمؤمَّل غيب، ولك الساعة التي أنت فيها، والذي يعيش المستقبل هو أعقل العقلاء، ماذا في المستقبل؟ مغادرة الدنيا، ماذا أعددنا لهذه الساعة؟ الجنة عطاء غير محدود، لكن ما الخسارة؟ قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥﴾ [الزمر:١٥].

إنسان باع بيته، وباع معمله، وباع بيت المصيف، وباع بيتاً على البحر، وباع كلَّ أدواته ومركباته، وفقَد هذا المبلغ بطريقة أو بأخرى، يشعر بخسارة لا تُحتَمل، أمَّا الآخرة فالخسارة فيها أشدّ، خُلق الإنسان للأبد فخسر الأبد، من أجل سنوات معدودة أمضاها في المعاصي والآثام.

كن مع الله تر الله معك واترك الكل وحاذر طمعك
وإذا أعطاك من يمنعه ثم من يعطي إذا ما منعك

نصيب المؤمن من اسم الله المعطي

الأقوياء أخذوا ولم يُعطوا، والأنبياء أعطَوا ولم يأخذوا، والمؤمن يبني حياته على العطاء، يقول تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦﴾ [الليل:٥-٦].

بنى حياته على العطاء، فالعطاء سمة عميقة من سماته، فيعطي من وقته، ويعطي من ماله، ويعطي من خبرته، ويعطي من قوَّته في سبيل مرضاة الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة:٢٤٥].

فأيّ عمل صالح فهو في حقيقته قرض لله عز وجل.

عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ قَالَ: «آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكِ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ، قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ، قَالَ: فَأَكَلَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، قَالَ: نَمْ، فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ، فَقَالَ: نَمْ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، قَالَ سَلْمَانُ: قُمْ الآنَ فَصَلَّيَا، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: صَدَقَ سَلْمَانُ».

أنت تتلقى من الله العطاء، لكن ينبغي أن تتخلق بهذا الكمال الإلهي، أن تعطي، لذلك كان ﷺ يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، المؤمن كريم، والكرم أحد أساسيات إيمانه، لأنه أيقن أن الدنيا ممرٌّ للآخرة، وأنَّ ثمن الآخرة هو العمل الصالح، وأنَّ حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، فبقدر تضحياتك ترقى عند الله.

الله عز وجل يحاسبك على زوجتك، عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: «دَخَلَتْ عَلَيَّ خُوَيْلَةُ بِنْتُ حَكِيمِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ حَارِثَةَ بْنِ الأَوْقَصِ السُّلَمِيَّةُ، وَكَانَتْ عِنْدَ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ، قَالَتْ: فَرَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ بَذَاذَةَ هَيْئَتِهَا، فَقَالَ لِي: يَا عَائِشَةُ، مَا أَبَذَّ هَيْئَةَ خُوَيْلَةَ! قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، امْرَأَةٌ لَا زَوْجَ لَهَا، يَصُومُ النَّهَارَ، وَيَقُومُ اللَّيْلَ، فَهِيَ كَمَنْ لَا زَوْجَ لَهَا، فَتَرَكَتْ نَفْسَهَا، وَأَضَاعَتْهَا، قَالَتْ: فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ فَجَاءَهُ، فَقَالَ: يَا عُثْمَانُ، أَرَغْبَةً عَنْ سُنَّتِي؟ قَالَ: فَقَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، وَلَكِنْ سُنَّتَكَ أَطْلُبُ، قَالَ: فَإِنِّي أَنَامُ وَأُصَلِّي، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَنْكِحُ

النِّسَاءَ، فَاتَّقِ الله يَا عُثْمَانُ، فَإِنَّ لِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِضَيْفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَصَلِّ وَنَمْ» [أحمد].

حقوق العباد مبنية على المشاححة، وحقوق الله مبنية على المسامحة، فالزوجة لها حق، والابن له حق، وأنت أيها الطبيب هذا المريض له حق عندك، يجب أن تنصحه، وأنت أيها المحامي هذا الموكّل له حق عندك، وأنت أيها المدرس هذا الطالب له حق عندك.

«فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ»

لكن في النهاية من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله، فقد استكمل الإيمان، فعطاء المؤمن يكون وفق مبادئه، يعطي لله، ويمنع لله، يرضى لله، ويغضب لله، يصل لله، ويقطع لله، ليس عنده عمل عشوائيٌّ، وعادات وتقاليد مسيطرة عليه، يتحرَّك وفق مبادئ وقيم.

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ لله، وَأَبْغَضَ لله، وَأَعْطَى لله، وَمَنَعَ لله فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ» [أبو داود].

وفي الحديث: «أنفق، أنفق عليك» [متفق عليه].

والله عز وجل يسترضى بالصدقة، وهذه خبرة عند المؤمنين، والله عز وجل حينما ترجو منه شيئاً، وتتوسَّل لهذا الرجاء بصدقة تنفقها على نية التوفيق، أو تحقيق ما تصبو إليه، فالله عز وجل يُسترضى.

إذاً: كما أن الله أعطاك نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمى الهدى والرشاد فينبغي أن تبني حياتك على العطاء، والناس على اختلاف مللهم ونحلهم، وانتماءاتهم وأعراقهم وأنسابهم وطوائفهم لا يزيدون على رجلين؛ رجلٍ عرف الله فانضبط بمنهجه، وأحسن إلى خلقه، وبنى حياته على العطاء فسعد في الدنيا والآخرة، ورجلٍ غفل عن الله، وتفلت من منهجه، وأساء إلى خلقه، وبنى حياته على الأخذ فقط فشقي وهلك في الدنيا والآخرة.

السَّيِّد

ورد هذا الاسم في السُّنَّة المطهَّرة، يقول مُطَرِّفُ بن عبد الله بن الشِّخِّير: «قال أبي: انطلقتُ في وفَدِ بني عامر إلى رسولِ الله ﷺ فقلنا: أنتَ سَيدنا؟ فقال: السَّيِّد الله، قلنا: وأفضلُنا فَضلا، وأعظمُنا طَوْلا، فقال: قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يَستَجْرِيَنَّكم الشيَطان» [أخرجه أبو داود عن مُطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير].

من معاني اسم الله السيد

السَّيِّد لغة: صفة مشبَّهة للموصوف بالسّيادة، أصله ساد يسود فهو سيْوِد، قلبت الواو ياءً، وأدغمت في الياء، فأصبحت سيِّد، والسَّيِّد على الإطلاق هو الله، لأنَّه مالك الملك، بل مالك الخلق، ولا مالك للخلق سواه، هو سيِّد الخلق، لأنَّه مالك أمرهم، وبأمره يعملون، وعن قوله يصدُرون، يملكهم ملكاً مطلقاً، خلقاً، وتصرُّفاً، ومصيراً، وقد يُوصف الإنسان بأنَّه سيِّد، لكن مع الفارق بين الخالق والمخلوق.

لذلك فإنَّه لمزلق خطير أن يعظِّم الناس بعضهم بعضاً، فالنّبيُّ ﷺ وهو سيِّد الخلق، وأحبُّ الخلق إلى الله، وسيِّد ولد آدم، يقول: «السَّيِّد الله».

أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه كان مع أصحابه في جلسة، فقال أحدهم: والله ما رأينا خيراً منك بعد رسول الله، فغضب وأحدّ فيهم النظر، إلى أن قال أحدهم: لا والله، لقد رأينا من هو خير منك، فقال: من؟ فقال: أبو بكر، قال: كذبتم جميعاً وصدق، والله كنت أضلّ من بعيري، وكان أبو يكر أطيب من ريح المسك، فعدّ رضي الله عنه سكوت أصحابه على قول من قال: ما رأينا خيراً منك بعد رسول الله؛ عدّ سكوتهم كذباً.

ويقول ﷺ: «إذا رأيتم المدّاحين فاحثوا في وجوههم التراب» [مسلم عن المقداد].

وفي حديث آخر أنَّ رجلاً مدح آخر عند النبيِّ ﷺ فقال له: ويحك قطعت عنق صاحبك، قطعت عنق صاحبك مراراً [مسلم عن عبد الرحمن بن أبي بكرة].

والنهي عن المدح في الحديثين محمول على خشية الفتنة على الممدوح، وعلى المبالغة في المدح، أما المدح بغير مبالغة لمن تؤمن في حقه الفتنة فلا بأس به.

وحينما انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى قال الصديق قولاً يلفت النظر: من كان يعبد محمَّداً فإنَّ محمَّداً قد مات.

كلما تذلَّلت لله رفعك الله، وكلَّما كنت عبداً له أعزَّك، وكلَّما مرَّغت وجهك في أعتابه رفعك، وليس من إنسان على وجه الأرض رفع الله ذكره كما رفع ذكر رسول الله، لقد أقسم خالق السماوات والأرض بعمره، فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر:٧٢].

ولم يخاطبه باسمه، بل قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ﴾ [الأحزاب:٥٩].

﴿۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧].

ولقد كان رسول الله ﷺ أكثر الناس عبودية لله تعالى، وأكثرهم تواضعاً له.

لا بدَّ أن نعرف قدر النبي ﷺ، وهذا لا يعني أن نخرجه عن بشريَّته، يقول ﷺ: «إنما أنا بشر، أرضى كما يرْضى البشر، وأغْضَبُ كما يغضب البشر» [أخرجه مسلم عن أنس بن مالك].

ولولا أن النبي بشر، تجري عليه كل خصائص البشر، لما كان سيد البشر، هو بشر يقول ﷺ: «لقد أُخِفْتُ في الله ما لم يُخَفْ أَحدٌ، وأُوذِيت في الله ما لم يُؤذَ أحد، ولقد أتى عليَّ ثلاثون من يوم وليلة، ومالي ولبلال طعامٌ إلا شيء يُواريه إِبطُ بلال» [أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك].

ولقد سمح الله جل جلاله للنبيِّ الكريم ﷺ بهامش محدود جداً للاجتهاد، فإذا اجتهد وأصاب أقرَّه الوحي على اجتهاده، وإن كان الأولى بخلاف ما اجتهد الوحي صحَّح له هذا الاجتهاد، كقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٣].

قال بعض العلماء: هذا الهامش الاجتهادي الضيِّق جداً الذي سمح الله له به من أجل أن يكون هناك فرق بين مقام الألوهية، ومقام النبوة، وهذا من حكمة الله عز وجل.

لِمَ لا يكون أحدنا شيئاً مذكوراً؟ لِمَ لا يكون أحدنا بطلاً؟ لِمَ لا ينتصر على بشريته؟ فالنبي ﷺ كان بشراً لكنه كان سيِّد البشر.

إذاً العلاقة عكسية، كلما تواضعت لله رفعك، وكلما تكبرت وضعك، كلما قلت: الله، تولاك الله، فإذا قلت: أنا تخلَّى عنك.

المسلمون في أشد الحاجة إلى هذا الدَّرس، تقول: الله فيتولاك الله، تقول: أنا بخبرتي، بقوتي، بجماعتي، بأسرتي، بمالي، بسطوتي، بسلطتي، بمنصبي، فيتخلَّى الله عنك.

النبي ﷺ قِمَّة البشر وأصحابه نخبة البشر، ومع ذلك لم ينتصروا في أُحد، لأنهم عصوا، فلو انتصروا لسقطت طاعة رسول الله، وفي حنين لم ينتصروا لأنهم وقعوا في شرك خفي.

ولو أنهم انتصروا لسقط التوحيد، فإذا عامل الله أصحاب رسول الله الذين بذلوا الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، إذا عامل الله أصحاب رسول الله، وهم قمم في

مجتمعاتهم هكذا، لماذا نطمع أن يأتينا النصر على طبق من ذهب، ونحن غارقون في المعاصي والآثام؟

﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد:٧].

ويجوز إطلاق السّيّد على الإنسان، لكن دون إطلاق، والنبيُّ ﷺ قال لبني قريظة: قوموا إلى سيدكم يعني سعداً [البخاري عن أبي سعيد].

فالإنسان سيد سيادة مقيدة، نسبية، بل مجازية، وأما الآية الكريمة التي تؤكد هذه السيادة المطلقة فهي قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣].

كل مخلوق مهما كان قوياً، ولو كان ملحداً، ولو كان كافراً، فهو عبد لله، هو عبد القهر، فإن لم يكن عبداً لله، فهو شاء أو أبى سيكون عبداً لعبد لئيم، ومن كان عبد الله فهو حر.

نصيب المؤمن من اسم الله السيد

تقرَّبْ إلى الله، تقرَّبْ إلى السَّيِّد المطلق، بأن تكون سيِّداً في قومك، متميِّزاً بأخلاقك، بوفائك، بحلمك، برحمتك، بتواضعك.

في كل مجتمع، هناك شخص كبير، أكبر من أكبر مشكلة، له قلب كبير، يتضاءل أمامه كلُّ عظيم، وهناك إنسان صغير جداً له قلب صغير يعظم عليه كلُّ حقير.

السَّيِّد من بني البشر هو الشَّريف، الذي تأبى نفسه أن يفعل منكراً، والفاضل الذي يتفضَّل بما عنده على الآخرين، الكريم، المِعطاء، الحليم، الصبور، الذي يتحمَّل أذى قومه.

إذاً يمكن أن يُوصَف الإنسان بأنَّه سيِّد حينما يتحلَّى بمكارم الأخلاق.

فالإنسان لا يكون سيِّداً إلا إذا كان أخلاقيّاً، كريماً، رحيماً، حليماً، متواضعاً، ودوداً، صادقاً، أميناً، فالسيادة قمَّة في الأخلاق، السيادة رحمة، السيادة أن تحمل هموم من حولك.

هناك إنسان يهتمُّ بنفسه فقط، والأرقى منه من يهتمُّ بأسرته، والأرقى من هذا وذاك من يهتمُّ بأقاربه، والأرقى من هؤلاء جميعاً من يهتمُّ بأهل بلده، لكنَّ النبي ﷺ كان يحمل همّ البشرية كلِّها، كان يقول: «لو تعلمون ما أعلمُ لضَحِكتم قليلاً، ولبَكَيْتمْ كثيراً» [أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أنس بن مالك].

فكلما ارتفع مقامك تتسع دائرة اهتمامك، فالذي يخرج من ذاته ليحمل همّ المسلمين، ليخفف عنهم أعباءهم، ليدعوهم إلى الله عز وجل، ليبيِّن لهم، له عند الله مقام كبير.

الطيب

ورد هذا الاسم في السنة المطهرة، ففي الحديث الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الله طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا...» [مسلم].

من معاني اسم الله الطيب

الطَّيِّب صفة مشبّهة للمتّصف بالطيب والفعل: طاب يطيب، والمصدر طِيْب، تقول: ما أطيبه، أي ما أجمله، ما أزكاه، ما أنفسه، ما أحلاه، ما أجوده، والله جل جلاله طيِّب في ذاته، طيِّب في أسمائه وصفاته، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه:٨].

والله طيِّب في خَلْقه، قال تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٨٨].

والله تعالى هو الطَّيِّب، بمعنى أنَّه قدّوس منزَّه عن النقائص والعيوب، وقد طيَّب الدنيا للموحدين، فألهمهم رشدهم، وأحياهم حياة طيِّبة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧].

وطيَّب الآخرة، فجعلها خالدة لروّادها، إلى أبد الآبدين.

والطَّيِّب أحلَّ لعباده الطَّيِّبات، قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [الأعراف:١٥٧].

إذ كلُّ شراب مسموح به، لكنَّه جل جلاله حرَّم عليك من الشّراب ما كان مسكِراً، مئات الأنواع من اللحوم حلال طيِّب، وحرَّم عليك لحوماً قليلة كلحم الخنزير، فالمحرَّمات بالنسبة إلى المحلّلات قليلة جدّاً.

وكأن الطَّيِّب تطيب النفس به، إنسان اشتهى المرأة، فتزوَّج، هذه الشهوة يمكن أن يصل إليها من طريق مشروعة، لأنَّه ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناةً نظيفةً تسري خلالها، يقارب زوجته، ويصلي قيام الليل، ويبكي في الصلاة، لأنَّه وفق المنهج.

أحببتَ المال، اكسبه من طريق مشروعة، تتزوَّج وتشتري بيتًا، تنجب أولاداً تسعد بهم، تأكل طعامًا طيِّباً من دخلٍ مشروع. تصوَّر إنساناً جائعاً جداً، وأمامه طعام من لحم مشويّ مع مقبّلات، طعام نفيس جداً، وطيِّب جداً، اللحم نفسه لو تركته في الهواء ساعاتٍ طويلةً، والجوُّ حارّ فإنَّه يتفسَّخ، ويكون له رائحة لا تُحتمل؛ تكاد تخرج من جلدك من نتنها.

قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة:١٠٠].

الكثرة لا تحيل الخبيث طيّباً، والكثرة لا تجعل المحرَّم حلالاً، وكثرة الباطل لا تجعله حقّاً، فلا تَقُل: أنا مع مجموع الناس، قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦].

كن مع الأقليَّة المؤمنة، كن مع الأقليَّة الملتزمة، كن مع الأقليَّة الوقَّافة عند كتاب الله وسنَّة رسوله.

هناك إنسان طيّب طاهر صادق متواضع أمين، إن حدَّثك فهو صادق، إن عاملك فهو أمين، إن استثيرت شهوته فهو عفيف، قال الله عز وجل: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران:١٧٩].

الله عز وجل عنده امتحانات، تكلَّم ما شئت، ادَّعِ ما شئت، لكنَّ الله متكفِّل أن يجعلك في ظرف يكشف حقيقتك، وهذا هو الابتلاء، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المؤمنون:٣٠].

وهناك أماكن طيبة، وبلدة طيبة، ما صفات البلدة الطَّيِّبة؟

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ خِيَارَكُمْ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ سُمَحَاءَكُمْ، وَأُمُورُكُمْ شُورَى بَيْنَكُمْ فَظَهْرُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ بَطْنِهَا، وَإِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ شِرَارَكُمْ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ بُخَلَاءَكُمْ، وَأُمُورُكُمْ إِلَى نِسَائِكُمْ، فَبَطْنُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِهَا» [الترمذي].

البلدة الطَّيِّبة التي يكون فيها أمراء طيبون، وأغنياء سمحاء، والأمر شورى بين أهلها.

وكذلك الإنفاق يجب أن يكون من الطيِّبات، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ [البقرة:٢٦٧].

هناك كسب طيِّب بتجارة مشروعة، وهناك نادٍ ليلي دخلُ صاحبِه كبيرٌ، وهناك ملهى وتجارة مخدرات ورشوة، ومكاسب كثيرة جداً لا ترضي الله عز وجل.

وهناك كلام طيِّب وكلام خبيث، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾ [إبراهيم:٢٤-٢٥].

قد تنتهي الكلمة بالإنسان إلى طاعة الله وإلى التوبة، وإلى الصلح مع الله، فما من شيء أعظم عند الله من كلمة الحق، قل الحق ولا تخشَ في الله لومة لائم، وكلمة الحقِّ لا تقطع رزقا، ولا تقرِّب أجلاً، الكلمة الطَّيِّبة تطير في الآفاق، والكلمة الخبيثة تطير في الآفاق، لذلك: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ

رِضْوَانِ الله لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ الله بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ الله لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ» [البخاري].

يقول لك أحدهم: أنت أخلاقيٌّ لأنك ضعيف، وأنت ضعيف لأنك أخلاقيٌّ، هذه كلمة خبيثة تزهِّد الناس بمكارم الأخلاق، لكن أنت قوي، لأنك أخلاقي، وأخلاقي لأنك قوي، وليس هناك خُلق أساسه الضعف، بل تعفو عن مقدرة، وتعطي عطاء من لا يخشى الفقر.

وهناك المساكن الطَّيِّبة في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ [الصف:١٢].

ومن الأحاديث الصحيحة قول النبي ﷺ: «إِنَّ الله لَمْ يَفْرِضْ الزَّكَاةَ إِلَّا لِيُطَيِّبَ مَا بَقِيَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ» [أبو داود عن ابن عباس].

فالمال الذي تؤدَّى زكاته يطيب، يبارَك فيه، تنتفع به، يحفظه الله، يسلم من التلف، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ [التوبة:١٠٣].

تطهِّر الغنيَّ من البخل، والبخل مرض خبيث يصيب النفس، كما أنَّ الورم الخبيث يصيب الجسم، وقد يكون قاضياً، كذلك الشُّحُّ مرض خبيث يصيب النَّفْس، فأندم الناس من عاش فقيراً ليموت غنياً، وأكبر عقاب للبخيل أنَّ من حوله يتمنون موته، فإذا أصابته وعكة وجاء الطبيب، وقال لأقربائه: قضية بسيطة، ينزعج الأولاد جداً، وكأنَّهم يريدونها قاضية! الزَّكاة تطهِّر الغنيَّ من الشُّحِّ، تطهِّر الفقير من الحقد، فيرى أنَّ الغنيَّ يعطف عليه، يعطيه من ماله، وتطهِّر المال مِن تعلُّق حقِّ الغير به.

إذا بقي في المال حق للفقير، ولم يؤدَّ لربما تلف المال كلُّه.

لأنَّ الله طيِّب، فقد طيَّب مالك، أنفقته بيسر، فبارك لك الله فيه، انتفعت به، وسلم من المصادرة، ومن التلف، ومن الحريق، والله عزَّ وجلَّ كما أنَّه إذا أعطى أدهش، كذلك؛ إذا أخذ أدهش.

وفي حديث آخر عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، وَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ» [البخاري].

أنت أيها المؤمن، إذا اصطلحت مع الله، وتبت إليه، وأقبلت عليه، وطبَّقت أمره، واجتنبت نهيه، وأحسنت إلى خلقه، عندها تكون طيِّبا، قال تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ﴾ [الزمر:٧٣].

أي: أصبحتم طيبين.

إنَّ محصلة معرفتك بالله، محصلة طاعتك له، محصلة إقبالك عليه، محصلة عملك الصالح أن تكون في النهاية طيِّباً، لأنَّ الجنَّة لا يدخلها إلا الطَّيِّب:

هناك بيت طيِّب، ليس مكشوفاً على أماكن لهو، أو أماكن منحرفة، وزوجة طيبة، وصديق طيب ينفعك، ويعينك على فعل الخير.

وفي صحيح البخاري: «الحَمْدُ لله كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ» .

ومن أدعية النبي ﷺ: «اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا» [أحمد عن أم سلمة].

هناك أعمال مقدَّسة، وأعمال فيها خير، وأعمال فيها نفع للناس، وأعمال فيها هداية، وهناك في المقابل أعمال أساسها ابتزاز أموال الناس، أو إلقاء الرعب في قلوبهم، فهذا رزق طيب، وذاك كسب خبيث.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ ﴾ [البقرة:١٦٨].

تصيب المؤمن من اسم الله الطيب

لا يتجلَّى الله سبحانه وتعالى على إنسان إلا إذا كان طيِّباً لأنَّه جلَّ جلاله ذاتٌ كاملة، بإمكان المسلم أن يقف في الصلاة، وأن يركع، ويسجد، ولكن إن لم يكن طيِّباً فلن يتجلَّى الله عليه، ولن يلقي في قلبه النور، ولن يمنحه القرب، بينما الأقوياء ببساطة بالغة يمكن أن تتقرَّب إليهم برفع صورة لهم فرضاً، أو بكتاب، أو بثناء، أو بكلمة تلقيها في حضرتهم، ولا يشترط بعدها أن تكون طيِّباً أخلاقيَّاً، لكنَّ الإله العظيم لا يقبلك إلا إذا كنت طيِّباً، لا يقبلك إلا إذا كنت ورعاً، لا يقبلك إلا إذا كنت طاهر السريرة، لا يقبلك إلا إذا كنت مستقيماً.

لك أن تفعل كلَّ شيء في الحقل الديني، أمَّا أن تشعر بقرب من الله عز وجل، وأنت لست طيِّبا، بل فيك خبث واحتيال وكذب ودجل ونفاق، فهذا لن يكون، فلن تستطيع أن تصل إليه إلا إذا كنت طيِّباً ورعاً مستقيماً طاهراً ملتزماً، والفرق صارخ بين أتباع الأنبياء وأتباع الأقوياء، أتباع الأنبياء يسعون إلى الكمال، لأنَّ الله تعالى لا يقبلهم إلا إذا كانوا كذلك، ولا يتجلَّى عليهم، ولا يمنحهم توفيقه، ولا يمنحهم تأييده، ولا يمنحهم قربه إلا إن كانوا طيِّبين.

بينما أتباع الأقوياء يرفعون شعارات فقط، يرفعون صوراً، يتكلمون بالمديح، لكنَّهم في علاقاتهم ليسوا كما ينبغي.

أتباع الأنبياء شيء، وأتباع الأقوياء شيء آخر، الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا، الأنبياء ملكوا القلوب، الأنبياء عاشوا للناس، أما الأقوياء فأخذوا ولم يعطوا، الأقوياء ملكوا الرقاب، الأقوياء عاش الناس لهم، والناس جميعاً تبع لقويٍّ أو نبيٍّ.

كالأب تماماً يطعم كلَّ أولاده، و لكنَّ له ابناً صالحاً مستقيماً طاهراً بارّاً، فمودَّة الأب لهذا الابن كبيرة، لكنَّه يطعم الكلَّ ويسقيهم.

والإنسان يأكل ويشرب من خيرات الله، لكن أن تتصل بالله، أن تذوق طعم القرب منه، أن يلقي في قلبك نوراً، أن تكون مسدَّداً موفَّقاً راشداً، فهذا يحتاج إلى طُهْر.

وهذا من معاني قوله ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الله طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا...» .

وفي الحديث عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَجَدَ تَحْتَ جَنْبِهِ تَمْرَةً مِنْ اللَّيْلِ فَأَكَلَهَا فَلَمْ يَنَمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَقَالَ بَعْضُ نِسَائِهِ: يَا رَسُولَ الله، أَرِقْتَ الْبَارِحَةَ، قَالَ: إِنِّي وَجَدْتُ تَحْتَ جَنْبِي تَمْرَةً فَأَكَلْتُهَا، وَكَانَ عِنْدَنَا تَمْرٌ مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ فَخَشِيتُ أَنْ تَكُونَ مِنْهُ» [أحمد].

أنت لا تعلم حينما تكون طيِّباً ماذا ينتظرك من الله عز وجل، ينتظرك التوفيق، والنصر، والتأييد، تنتظرك السكينة، والسعادة.

بإمكانك أن تفعل كلَّ شيء، تذهب إلى الحج، تصوم رمضان، تصلي الفرائض، فإن لم تكن مستقيماً فلن تقطف ثمار هذه العبادات، لأن الله طيِّب ولا يقبل إلا طيِّباً، فهذا الذي يأكل أموال النَّاس بالباطل، يعتدي على أعراض الناس، هذا الذي يقول كلاماً لا يرضي الله عز وجل ليس طيباً، لذلك لن يستطيع أن يقطف من ثمار العبادات شيئاً.

تريد أن تخطب ودَّه كن طيباً، تريد أن تنال رضوانه كن طيِّباً، تريد أن يتجلَّى على قلبك كن طيِّباً، تريد أن تخشع في الصلاة كن طيِّباً، تريد أن يقبل صيامك كن طيِّباً، تريد أن يقبل حجَّك كن طيِّباً.

أعظمُ ما في المؤمن أنَّ سريرته كعلانيته، وأنَّ خلوته كجلوته، وأنَّ باطنه كظاهره، ليس عنده ازدواجيَّة أبداً، لأنه طيِّب، ما يفعله في البيت يفعله أمام الناس، ما يفعله أمام الناس يفعله في البيت، ليس عنده شيء للاستهلاك الخارجي، وممارسة خاصة في خلوته أو مع أسرته.

ومن تطبيقات هذا الاسم أن ينفق الإنسان من أجود ماله، بعض التّجّار يعطون الفقراء ملابس باليةً، وفي الحديث: «إِنَّ الله طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا» .

ويقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ ﴾ [البقرة:٢٦٧].

معنى تيمّموا أي تتحرَّوا الخبيث.

ومن تطبيقات هذا الاسم ألا تبخل على نفسك وعلى عيالك بالطَّيِّب، إذا وسَّع الله عليك.

ومن تطبيقات هذا الاسم: يقول تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور:٢٦].

عندك بنت حفظت كتاب الله، معها شهادة عليا شرعية، يأتيك تاجر جاهل، عنده بيت وسيارة، لكن لا يقدّر علمها، بل يهينها، وأحياناً يحتقر علمها، ويسيء إليها إساءة بالغة!

من التطبيقات العملية إذا كان عندك بنت صالحة مؤمنة محجبة مثقفة ثقافة عالية حافظة لكتاب الله فلا تفرط فيها، لا يغرينّك المال، هذه الفتاة الطَّيِّبة تحتاج إنسانا يقدّر علمها.

لكنَّ أعظم عمل طيِّب تقوم به أن تعرف الله، إنك إن عرفته عرفت كلَّ شيء، وإن غفلت عنه غفلت عن كلِّ شيء، يا رب، ماذا فقَد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟ وإذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟

الحكم

هذا الاسم ورد في السنة النبوية الصحيحة عن الرَّبيعِ بْنِ نَافِعٍ عَنْ يَزِيدَ يَعْنِي ابْنَ المِقْدَامِ بْنِ شُرَيْحٍ عَنْ أبيهِ عَنْ جَدِّهِ شُرَيْحٍ عَنْ أبيهِ هَانِئٍ أَنَّهُ لَمَّا وَفَدَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ مَعَ قَوْمِهِ سَمِعَهُمْ يَكْنُونَهُ بأَبِي الحَكَمِ، فَدَعاهُ رَسُولُ الله ﷺ فقالَ: «إِنَّ اللهَ هُوَ الحَكَم وَإِلَيْهِ الحكَم، فَلِمَ تُكْنَى أَبَا الحَكَمِ»؟ فَقَالَ: إِنَ قَوْمِي إذا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ، فَرَضِيَ كِلا الفَرِيقَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا أَحْسَنَ هَذَا، فَمَا لَكَ مِنَ الوَلَدِ؟» قَالَ: لِي شُرَيْحٌ وَمُسْلِمٌ وَعَبْدُ الله، قَالَ: «فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ»؟ قُلْتُ: شُرَيْحٌ، قالَ: «فأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ» [سنن أبي داود].

فقد كان ﷺ ينادي أصحابه بأحب الأسماء إليهم وكان يغيِّر بعض الأسماء، كما قال لزيد الخيل: بل زيد الخير.

من معاني اسم الله الحكم

أصل الحَكَم المنعُ. وحكمه، أي: منعه. والحَكَمةُ: هي الحديدة التي تمنع الفرس من الفساد والجري الشديد ومخالفة راكبه.

الحَكَم من صيغ المبالغة، واسم الفاعل حاكم وهو الذي يحكم، ويفصل، ويقضي في سائر الأمور، والفعل حكم، يحكم، حكماً، والحكم: العلم والفقه، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص:١٤].

والحُكم هو القضاء بالعدل، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء:٥٨].

في محكمة الجنايات في دمشق كُتِب فوق رأس المذنبين: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ .

حتى يقرأها القاضي، وفوق رأس القاضي هناك لوحة كبيرة يقرؤها المذنبون كُتب عليها قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

والمحاكمة هي المخاصمة إلى الحاكم.

قال بعض العلماء: «الحَكَم؛ صاحب الفصل بين الحقِّ والباطل».

قد يكون للباطل جولةٌ وصولة، ربما يسمح الله له أن يعلو، ربما أرخى الله له، لكن إلى أمد. لأنه حَكَم؛ ولا بد من أن يزهق الباطل، لأنَّ الله موجود. لو أنَّ الباطل استشرى وامتدَّ وطغى وبغى إلى أمدٍ طويل، فهذه الفكرة تتناقض مع وجود الله، أن يستشري الباطل، وأن يمتد ويمتد وأن يطغى وأن يبغي، أن يضع كلَّ الخطط فتنجح، هذه الحقيقة تتناقض مع وجود الله؛ لا بد من أن يظهر الله آياته وما أكثر الآيات.

والله سبحانه وتعالى، ألقى على النبي ﷺ هذا القرآن الكريم، فهو آياته، وكلامه. وخلق الكون، والكون آياته. وأفعاله كلُّها آياته. أفعاله كلُّها تدلُّ على كمالاته، على عدالته، على حلمه، على رحمته، على قدرته، على علمه، فلك أن تعرف الله من آياته الكونية، ولك أن تعرفه من آياته القرآنية، ولك أن تعرفه من آياته التكوينية.

هو جل جلاله صاحب الفصل بين الحقِّ والباطل... أحياناً زوجان؛ كلٌّ يدَّعي أنه مظلوم، وكلُّ طرفٍ معه الحجج والبراهين والوقائع، لكنَّ المظلوم فعلاً يوفِّقه الله، والظالم يسحقه الله... شريكان؛ كلٌّ يدَّعي أنه على حقٍّ، وأنَّ شريكه الآخر ظلمه، ويأتي كلٌّ منهما بالحجج التي تؤيد حقَّه، وقد يفتري ويخترع أدلةً غير صحيحة، يوهم الناس، ولكنَّ الله هو الحَكَم. فالشريكان؛ الظالم يُهلكه الله، والمظلوم يوفِّقه الله. توفيق الله للمظلوم؛ هو حُكْمُ الله فيه. إهلاك الظالم حُكْمُ الله فيه، وكذلك زوجان افترقا، توفيق أحدهما في زواج آخر، حُكْمُ الله فيه. هلاك الثاني في زواجٍ آخر، حُكْمُ الله فيه.

إنسان يدَّعي أنَّه ورع، وأنه على حقٍّ، علامة حكم الله له أنه يوفِّقه، وعلامة حكم الله على آخر مبطل أنَّه يخذله... فالله صاحب الفصل بين الحقِّ والباطل، بين البارِّ والفاجر.

قد يُتوفَّى أبٌ ويترك أولاداً، أحد أولاده الأقوياء يأخذ المال كلَّه، ويحرم إخوته، تدور الأيام، هؤلاء المظلومون إخوة ذاك الأخ الباغي الظالم، يوفَّقون في أعمالهم، وهذا الذي أخذ المال الحرام، يُتلف الله ماله، وأحياناً يُضطرُّ إلى أن يعمل عند أحد إخوته... فالذي أخذ المال كلَّه وحرم إخوته منه، يخذله الله، ويتلف ماله، فيُضطرَّ إلى أن يعمل عند إخوته الذين حرمهم من إرث أبيهم، فالله هو الحَكَم.

وهناك حُكْمٌ نهائيٌّ يوم القيامة، لكنّ الحَكَم في الدنيا هو نصر الله أو خِذلانه، توفيقه أو عدم توفيقه، تيسيره أو تعسيره، وما أكثر الشواهد، حياتنا زاخرةٌ بهذه الشواهد... الذي كسب مالاً حلالاً قليلاً، يبارك الله له فيه. والذي كسب مالاً حراماً كثيراً، قد يتلِفُ الله ماله. الذي برَّ والديه يهبه الله أولاداً أبراراً. والذي عقَّ والديه قد يهبه الله أولاداً عاقّين؛ هذا حكم الله له.

فالله سبحانه وتعالى هو الحَكَم، صاحب الفصل بين الحقِّ والباطل، صاحب الفصل بين البارِّ والفاجر، المجازي كلَّ نفسٍ بما عملت، وهناك آيات كثيرةٌ جداً تؤكِّد

هذا المعنى... فقد قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الجاثية:٢١].

وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ ﴾ [السجدة:١٨].

وقال تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [القلم:٣٥-٣٦].

مثلاً شابٌّ مؤمنٌ مستقيمٌ، ويخاف الله ويرجو رحمته، ويتحرّى الحلال، ويبحث عن زوجةٍ صالحة، لا يكذب، تراه ضابطاً لجوارحه، ضابطاً لدخله وإنفاقه، وشابٌّ آخر متفلّتٌ لا عقيدة تردع، ولا دين يمنع، ولا استقامة، ولا عبادة، ولا حلال ولا حرام، يفعل ما يشاء. فإذا تساوى هذان الشابان في التوفيق وفي النصر والتأييد، وفي التمتُّع في الحياة الدنيا. إن تساويا ولم يكن هناك فرقٌ بينهما، هذه الفكرة تتناقض مع وجود الله ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الجاثية:٢١]. .

إنسان دخله حلال؛ أيعقل أن يُعامل كما يُعامل صاحب الدخل الحرام؟! إنسان ضبط سلوك أهله وأولاده وبناته؛ أيعقل أن يُعامل من قبلهم كما يُعامل إنسان تفلّت من أوامر الشرع، وأطلق لزوجته ولبناته العنان؟

هذا مستحيل فالحَكَم توفيقه حُكْمٌ، تيسيره حكم، تعسيره حكم، إلقاء الأمن في قلب المؤمن حُكم. إلقاء الخوف والفزع في قلب المشرك حكم. أن يُقدِّر للإنسان حياةَ ضنك؛ معيشةً ضنكاً حكم، إن دعوته فاستجاب لك فدعاؤك صادق ومخلص، وإن لم يستجب فهناك سببٌ حال دون أن يُستجاب لك وهذا حُكْم.

أب عنده ولدان، ولد بار، والثاني عاق، فإذا دخل البار رحَّب به وسأله عن أحواله كأن يقول: أين أنت وكيف حالك؟ وكيف أولادك؟ وكيف أهلك؟ هل تناولت طعام الغداء؟ أما إذا دخل العاق يتمنى ألا يدخل عليه، فانكماش الأب من

ولده العاق حكم، وترحيبه بولده البار حكم، التوفيق حكم والتعسير حكم، إلقاء الأمن في قلب المؤمن حكم، وإلقاء الفزع في قلب المشرك حكم.

لكن هذا المعنى أوسع مدى وأرحب بينَ مخلوقاتِ الله سبحانه... ولربما استعصى على المرء أن يصدق أنَّ شاةً قرناء لو نطحت شاةً أخرى جلحاء لاقتُصَّ منها، الحَكَم بين مخلوقاته لا بين بني البشر فحسب، ولا بين الإنس والجنِّ فحسب، بل بين كلِّ مخلوقاته أياً كانوا، اقرأ إن شئت قول الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران:١٧٩].

مؤمن مخلص، ومؤمن مقصِّر، هل هما عند الله سيّان؟ لا... لا بد من أن يُميِّز الله بينهما، يضع الأول في ظرف فيتألَّق، ويضع الثاني في ظرف فيسقط، امتحنهما وفرَّق بينهما.

قال أحد العلماء: «الحَكَم؛ هو الحاكم المحكَّم، والقاضي المسلَّم، لا رادَّ لقضائه، ولا معقِّب لحكمه».

في الدنيا قد يحكم القاضي، ولكنَّ محكمة النقض تنقُض حكمه، وقد يحكم رئيس محكمة النقض، ولا يُصدَّق حكمُه، لكنَّ الله سبحانه وتعالى لا معقِّبَ لحكمه، وإذا أراد الله بقومٍ سوءاً فلا مردَّ له، ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرعد:٤١].

لو التقيت رسولَ الله ﷺ وهو سيد الخلق وحبيب الحق، وعرضت عليه مشكلتك، وكانت خصومةً بينك وبين أحد الناس، وانتزعت من فمه الشريف حكماً لمصلحتك، ولم تكن محقّاً لم تنجُ من عذاب الله، فمن هو الحَكَم إذاً؟ هو الله.

قال العلماء: «الحَكَم؛ هو الذي لا يقع في وعده ريب»، إذا وعد وفَّى... لأنَّ ربنا عز وجل يطمئننا، إذا حدَّثنا عن المستقبل، جاء الفعل ماضياً ففي قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١]. ،

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾... لقد جاء... ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾، معنى ذلك أنه لم يأتِ، لكن ليقين وقوعه استخدم الفعل الماضي (أتى)، وعبر عن المستقبل بالماضي لأنه بمثابة الأمر الواقع الذي لا محيد عنه، وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي﴾ [المائدة:١١٦].

فالحَكَم إذاً؛ هو الذي لا يقع في وعده ريب، ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء:٨٧]، ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ [التوبة:١١١]، ولا في فعله عيب.... أكرر: لا في وعده ريب، ولا في فعله عيب.

«والحَكَم؛ هو الذي حكم على القلوب بالرضا والقناعة».. هذه الدنيا بمنزلة مرحلة إعدادية بالنسب للحياة الأبدية، والمؤمن عرف أنها حياةٌ دنيا، حياة إعداد، حياة تمهيد، لذلك رضي عن الله، رضي عن حياته، عن عقله، عن إمكاناته، عن دخله، عن بيته، عن زوجه، عن أولاده، عن بناته، فهو راضٍ.. من الذي ألقى في قلبه الرضا؟ الله سبحانه وتعالى، لقربه من الله ألقى في قلبه السكينة والرضا.

قال: «الحَكَم؛ هو الذي حكم على القلوب بالرضا والقناعة وعلى النفوس بالانقياد والطاعة».

من بعض معاني هذا الاسم العظيم: الحَكَم... النافذ حكمه، فالإنسان أحياناً يصدر تعليمات فلا تنفّذ، أو تنفَّذ في مركز المدينة، وفي أطرافها لا تنفَّذ، ما أكثر التعليمات التي تصدر والتي لا تنفَّذ. فبالطبع ليس كلُّ إنسان حكمه نافذ. ولو أن الإنسان أراد أن ينفذ حكمه، لاحتاج إلى جهاز كبير جداً، يعني الساعة الثالثة في منتصف الليل لا يوجد شرطي مرور، فإذا كانت الإشارة حمراء يمكنه أن يتجاوزها ويتخطّاها، وبذلك نكون قد خرقنا حكم قانون السير، فمن غير المعقول وضع شرطي عند كل إشارة ليلاً ونهاراً. إذاً الحُكْم لم يُنفَّذْ، فالإنسان أضعف من أن يُنفِّذ حكمه، أما الله سبحانه وتعالى، فالحَكَم النافذ حكمه، ولا يحول دون تنفيذه حائل.

لذلك عظمة الدين... أنَّ أساسه الوازع الداخلي، لأن المؤمن يعلم أن الله معه ويراقبه، وفي القصة المشهورة عن سيدنا عبد الله بن عمر والراعي... قال له: بعني هذه الشاة، قال: ليست لي، قال: خذ ثمنها، قال: ليست لي... والله إنني في أشدِّ الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدَّقني، فإني عنده صادق أمين؛ لكن أين الله؟

وإني أعتقد أنه ما من نظام وضعيٍّ، إلا ويعتمد على الرادع لا على الوازع. والردع مرتبط بأشخاص، أو بأجهزة، أو بآلات، يعني من الممكن أنه إذا انقطعت الكهرباء في إحدى المدن التي توصف بالرقي، والمجتمع الحضاري، فمن الممكن أن ترتكب في ليلة واحدة مئتا ألف سرقة، لقد انقطعت الكهرباء في إحدى مدن الغرب ولمدة ساعات معدودة وارتكبت مئتا ألف سرقة في تلك الليلة، فلا يوجد الوازع، ولكن هناك الرادع. والرادع أساسه المراقبة، فلما انقطعت الكهرباء أُلغي الرادع فتفلَّتت النفوس، أما عظمة هذا الدين فهي أنه مبنيٌّ على الوازع.

أرسل لي أخٌ أراد ألا أعرفه رسالةً قال لي فيها: والله لقد أرجعت لورثةٍ عشرين مليون ليرة، وهم لا يعلمون عنها شيئاً، وقد مات أبوهم فجأةً وأبوهم من النوع الذي لا يُعلِم عن أمواله إطلاقاً، وقد رددت المبلغ لهم كاملاً. ما الذي جعله يردُّ هذا المبلغ؟ الوازع أم الرادع؟ فالرادع غير موجودٍ، فليس هناك إيصال بالمبلغ، وليس مداناً بشيءٍ أمامهم إطلاقاً، ولا هناك علمٌ لأحد بالمبلغ، ولا عند أحدٍ خبرٌ أبداً، لكن الوازع الديني حمله على أن يردَّ هذا المبلغ.

تجد عند المؤمنين مواقف لا تصدق، لكنها معقولةً جداً؛ لأنَّ المؤمن يراقب الله عز وجل. إنسان متزوج شعرت امرأته كأنَّه متزوج من أخرى، هكذا شعرت وبعد أن تقصَّت فإذا توقُّعها في محلِّه، ولم تفاتحه في هذا الأمر، ثم توفِّي هذا الزوج؛ فمن شدة ورعها أرسلت حصَّة ضرَّتها بعد الوفاة، ومن شدة ورع الثانية قالت: والله طلَّقني قبل أن يموت. ولم تأخذ شيئاً، هذا هو الإسلام.

الحَكَم؛ هو النافذ حكمه، الذي لا رادَّ لقضائه، ولا معقِّب لحكمه، والذي يفصل بين الحقِّ والباطل.

ولدى متابعة شرح هذا الاسم الحَكَم تبرز لدينا نقطةٌ مهمة جداً... فلو أنَّ أباً ارتكب ابنه غلطاً ما، فضربه ولم ينطق ببنت شفة، فالضرب لم يُفِدْ.. فمن لوازم إقامة العدل، ومن لوازم التربية الصحيحة، أن يُبيِّن الأب لابنه لماذا ضربه، ماذا فعل؟ فعل كذا وكذا فاستحقَّ العقاب، لكن قال العلماء: الحَكَم؛ هو الذي يبين لكلِّ نفسٍ ما عملت من خيرٍ أو شر، كيف يبيِّن؟... أحياناً الإنسان يُلقى في روُعه، فعندنا وحي للأنبياء، وهناك وحي إلهام فقد قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص:٧٨].

وهناك وحي غريزة، فقد قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل:٦٨].

وأيضاً هناك وحي أمر لقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ [الزلزلة:٥].

أما الوحي إلى النبي؛ فهذا وحي الرسالة، وليس لنا علاقة به في بحثنا هذا، لكن الإنسان تأتيه أحياناً مصيبة، ويلقى في قلبه أنَّها من أجل كذا فيعرف حقيقة ما يجري له ولعله يعتبر!

فمعنى الحَكَم: الله عز وجل مربٍّ، يعاقب، ويُلقي في روع الإنسان لماذا فعل معك كذا وكذا.

أحد الأشخاص تأخَّر في أداء زكاة ماله ولم يؤدّها، فسيارته أصيبت بحادث وهذا شيء طبيعي. أما أن تأتي أجرة التصليح مع الطلاء مع قطع الغيار مطابقة لمبلغ الزكاة بدقة على مستوى الليرة الواحدة، وهو نفسه مبلغ التصليح، فهذا تعليم من الله... بخلت بزكاة مالك فدفعت المال بلا طائل، فالله عز وجل حكَم يعاقب، ويُلقي في روع الإنسان أنه فعل كذا كذا وهذا جزاء وناله.

إن عملت عملاً طيباً، يُلقي في روعك أنه راضٍ عنك، وإن عملت لا سمح الله عملاً سيئاً، يريك مناماً مخيفاً أحياناً، أو انقباضاً فتشعر بضيق، والدنيا كلُّها لا تسعه،

فضيق القلب، أو انشراح الصدر هو من أساليب ربنا التربوية، فهو يربي، فإن كان عملك طيباً تجدك منطلقاً، والناس قد يكونون في همّ وغم، وأنت مستثنى وليس لك علاقة بشيء، وإذا لم يكن عملك طيباً فهناك انقباضٌ ومرارة وضيق.

أما من أجمل الآيات دلالةً والمتعلقة بهذا الاسم فهي قوله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا ﴾ [الأنعام:١١٤].

أحيانا يكون مع شخص وثائق... فيقول لك: إن لديه ومعه وثائق، والقاضي يعرفه، ويترافع عنه المحامي فلان، وما أدراك ما فلان، وهو مطمئن، فهل اتخذ هذا الإنسان الله حكماً؟ لا... لقد اتخذ القاضي حكماً، فقد يفاجأ بحكم غير متوقع ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾.

فالإنسان ليس له الحق في أن يحتكم إلى غير الله، فإذا احتكم إلى غير الله فقد حكَّم في أموره مَنْ ليس حاكماً، فأحياناً الذي اعتمدت عليه يخيب ظنَّك، وقد قال تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [يونس:١٠٩].

لذلك أجمل دعاء أن تقول إذا ألمَّ بك مكروه، أو نزلت بك ظُلامة: حسبي الله ونعم الوكيل.

فالله ينصرك، والله عز وجل من أسمائه الحق... فما معنى الحق؟ معنى الحق أنه لا بد من أن يظهر الحق، لا بد من أن يظهر الحق لأنه هو الحق، فلا تخشَ أحداً، فالعاقبة للمتقين، والأيام تدور ولا تستقر إلا على إنصاف المظلوم، وعلى إهلاك الظالم، وعلى رفعة المؤمن، وعلى إذلال الكافر، وهذا التاريخ أمامكم.

أصحاب النبي رضي الله عنهم الذين التفّوا حوله، وعزّروه ونصروه، ودافعوا عنه، وآمنوا به، وأحبّوه، وافتدوه بأرواحهم، أين هم الآن؟ في أعلى عليين، والذين حاربوه وخذلوه وأخرجوه، وقاتلوه وكذّبوه أين هم؟ في أسفل السافلين، هذا هو التاريخ.

وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران:١٣٩].

قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾، معنى ذلك؛ أنَّ هناك وقتاً أمضيته فيه ظلمٌ ويكون الإنسان مظلوماً. فالسيدة عائشة ألم تُظلم؟ فلماذا أخَّر الله الوحي شهراً؟ من أجل أن تُكشف النفوس. أخَّر براءتها شهراً بأكمله، المؤمنون ظنُّوا بأنفسهم خيراً، والمنافقون روَّجوا لهذا الخبر وأشاعوه وأرجفوا في المدينة، والله عز وجل كشف النفوس على حقيقتها. لو أنَّ هذا الخبر أُشيع في المدينة، وفي اليوم التالي جاءت البراءة، فبذلك يكون أربعة أخماس الناس لم يمتحنوا، لكن لا، والخبر كان ينتشر ويزداد انتشاراً، والتهمة كبيرة جداً فهي تهمة الفاحشة! وهي زوجة رسول الله ﷺ وابنة الصديق، الطاهرة العفيفة والبريئة، ولكن الخبر شاع، والنبي ﷺ مقيَّد ليس معه دليل إثبات ولا دليل نفي، وزوجته، وهي أقرب الناس إليه، وهي عِرضه وما زال الخبر ينتشر ويشيع، فانظروا إلى دقَّة قول الله: ﴿وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ حتى حرف غاية... أي أن هناك وقتاً فقد تكون مظلوماً، وقد يكون المبطل هو الأقوى، وكلمته هي النافذة، وأنت لا أحد يسمع لك، والناس كلُّهم ضدَّك، ممكن ذلك فعليك أن تصبر ﴿وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾، وبعد ثلاثين يوماً نزلت براءتُها.. وفصل الله القضية واتضحت الحقيقة.

والآية تقول: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ [التين:٧-٨].

كأنه من سنن الله مع خلقه؛ أنه يُرخي الحبل لك، بإمكانك أن تفعل ما تشاء، أو تعصي الله، وأن تقول كلاماً غير معقول، وأن تأتي بالإفك والإثم، وأنت قوي وصحيح، والفحص الدموي مئة بالمئة، مالك يزداد، قوَّتك تزداد، ولكن هذا الشيء لا يستمرُّ إلى ما لا نهاية، بل استمراره إلى حين، فالحبل مرخَى إلى أجل، ففي أيَّة لحظة يُشدُّ الحبل، فإذا أنت في قبضة الله.

هذه القصة تتكرَّر كلَّ يوم.... ومن الممكن لإنسان أن يؤذي الناس، ويكون شديد الذكاء ويحتال عليهم إلى حين، ثم يقع في شرِّ عمله، ثم يفضحه الله، فدائماً وأبداً؛ الطائع لله هو الفائز.

هناك مقولة نصها: «كفاك على عدوِّك نصراً؛ أنَّه في معصية الله»، لو كنت أضعف منه وهو الأقوى، لو كان هو الأغنى، وأنت الأفقر. لو كان هو الأذكى، وأنت الأقل ذكاءً. فالعاقبة للمستقيم.

انظروا في هاتين الكلمتين من الآية: ﴿ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ ﴾ أي: اصبر إلى أن، فحتى حرف غاية... ﴿ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ﴾ حتى يتصرف، حتى يقصم ظهر الظالم، وينصر المؤمن ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

سيدنا يوسف... ماذا حكم عليه إخوته؟ أن يقتلوه، ألقوه في غيابة الجب ليموت... بعد حين ماذا كان النتيجة؟ دخلوا عليه فإذا هو عزيز مصر، مقامه كبيرٌ جداً، فمصر كانت أكبر مملكة وهو رئيس وزرائها فقالوا له: ﴿ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف:٩٠].

وقال أبوه سيدنا يعقوب: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [يوسف:٦٧].

لذلك: إذا أردت أن تكون أقوى الناس، فتوكَّل على الله. وإذا أردت أن تكون أغنى الناس، فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك. وإذا أردت أن تكون أكرم الناس، فاتقِ الله.

هناك حكم كوني وحكم شرعيّ؛ فالحكم الكونيُّ واقع لا محالة، فكلُّ شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق، ولا يليق بألوهية الإله العظيم أن يقع في ملكه ما لا يريد، وفي

الحديث: «ولكل شيء حقيقة وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه» [أخرجه الطبراني عن أبي الدرداء].

جعل هذا عقيماً، جعل هذا وسيماً، جعل هذا دميماً، جعل هذا متألقاً، جعل هذا محدوداً، هذا حكم إلهي.

لكن حينما يكشف الله للإنسان يوم القيامة الحكمة مما ساق له من شدائد، أو الحكمة من الحظوظ التي منحه إياها، حينما يكشف الله لهذا الإنسان يوم القيامة لماذا زوى عنه هذا؟ ولماذا أعطاه هذا؟ ينبغي أن يذوب كالشمعة محبة لله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس:١٠].

هذا حكم كوني، أي جعلك ذكراً ولم يجعلك أنثى، جعلك من هذا الأب وهذه الأم، جعلك في هذه البلدة، جعلك في التسعينيات، في الثمانينيات، من اختار لك زمن الولادة؟ ومكان الولادة؟ والأب والأم والجنس؟ هذه أشياء أنت مسير بها، هذا حكم إلهي، لكن حينما تكتشف الحقائق، تكشف الحكمة من القضاء والقدر يوم القيامة، المؤمن يقول كلمة واحدة: يا رب لك الحمد على ما سقت لي.

لذلك من الأدعية النبوية: «اللهمَّ ما رَزَقْتَني مما أُحِبُّ فاجعَلْهُ قُوَّة لي فيما تُحِبُّ، وما زَوَيْتَ عني مما أُحِبُّ فاجعَلْهُ فَرَاغا لي فيما تُحِبُّ» [أخرجه الترمذي عن عبد الله بن يزيد الخطمي].

وفي الحديث: «عَجَبا لأمر المؤمن! إنَّ أمْرَه كُلَّه له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابتْهُ سَرَّاءُ شكر، فكان خيراً له، وإن أصابتْهُ ضَرَّاءُ صَبَر، فكان خيراً له» [أخرجه مسلم عن صهيب الرومي].

هناك حكم ثانٍ هو الحكم التشريعي، أو التكليفيّ، يوجد فرائض، ويوجد سنن، هناك مستحبات، هناك مكروهات، هناك افعل، هناك لا تفعل، هناك مئات الألوف من الأحكام، المنهج الإسلامي منهج واسع جداً، مثلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة:١].

الله عز وجل أمرنا بأمر صريح، أن تلتزم بالعقد الذي أبرمته مع المسلم، المسلمون عند شروطهم، هذا أمر إلهي.

وإليك بعض أحكام الله في حقِّ العباد:

قال العلماء: حُكم الله؛ أنه ليس للإنسان إلا ما سعى... الله عز وجل ليس عنده تمنّيات، ولا محاباة، ولا تمييز فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [النجم:٣٩-٤٠].

هذا من حكم الله.. ومن حكم الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار:١٣-١٤].

وكذلك قول الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧].

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النساء:١٢٤]... حكم الله... ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل:٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ [طه:١٢٤]... حكم الله... ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾، وقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾ [طه:١٢٣]... حكم الله... ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه:١٢٣]، من لم يتبع هدى الله عز وجل، حُكْمُ الله؛ يضلُّ عقلهُ، وتشقى نفسهُ.

﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾... حكم الله... ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة:٣٨]... هذا حكم: من لم يتبع هدى الله عز وجل يندم على ما فات ويخشى من ما هو آت.

هذا هو القرآن بين أيديكم، أي أنَّ الله عز وجل أعطانا أحكاماً جاهزة، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [المائدة:١٢]... حكم، وقال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد:٧]... حكم، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ [النور:٥٥]... حكم.

ما قولكم أن نقرأ القرآن ونتبع أحكام الله في خلقه، كلها قوانين فقد قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [يونس:٣٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر:٣].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [يوسف:٥٢].

أي: أية خيانةٍ على وجه الأرض؛ لا يمكن إلا أن تُكْشَفَ، هذا حكم الله، أية مخادعة تعود على صاحبها؛ فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢].

وأيُّ مكرٍ يعود على صاحبه فقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر:٤٣].

هذه كلها أحكام الله عز وجل... إن الله مع الصابرين، إن الله مع المتقين، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة:١٥٣].

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة:١٩٤].

حكم الله على المعتدين؛ أنه لا يستجيب لهم لأنه لا يحبهم، هذا حكم الله عز وجل... فقد قال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف:٥٥].

كان ﷺ يدعو بهذا الدعاء: «اللهم فَاطِرَ السماوات والأرضِ، عَالِمَ الغَيبِ والشهادَةِ، أنتَ تَحكم بَينَ عِبادِكَ فيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفون» [أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن عائشة أم المؤمنين].

«كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد، قال: ' اللهم لك الحمد، أنتَ نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، اللهم بك آمنت، ولك أسلمت وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت، وما أخّرت، وما أسررت، وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت، ولا إله غيرك» [أخرجه مسلم وابن خزيمة عن عبد الله بن مسعود].

نصيب المؤمن من اسم الله الحكم

قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأحزاب:٣٦].

هذا هو حكم الله، فالمؤمن مذعِن لحكم الله، قضية أعطى الله فيها حكماً، إن وضعتَ هذه القضية على بساط البحث، فلست مؤمناً... ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ ﴾. هذا حكم الله عز وجل وكفى، نعم أكرر وأقول: إن وضعتها على بساط البحث فلست مؤمناً.

إعجاز الخلق يقابله إعجاز للتشريع، فالحكم الإلهي في القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ليس هذا التشريع منتجاً بشرياً، إنه منتج سماوي، وحي السماء، هذا التشريع الإلهي لا يخضع للبحث ولا للدرس، لا يخضع للتعديل، ولا للتطوير، ولا للتحديث، لا يخضع للحذف ولا للزيادة.

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ ﴾ [الأحزاب:٣٦].

شيء حكم الله به في القرآن حكماً قطعياً، لا يمكن أن يكون هذا الموضوع قابلاً للبحث، التشريع الإلهي وحي السماء، لا يقبل لا البحث، ولا الدرس، ولا التعديل ولا التطوير، ولا الزيادة، ولا الحذف، إنه من عند الله جل جلاله، يقول تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

القلب السليم هو القلب الذي لا يشتهي شهوة لا ترضي الله، القلب السليم الذي لا يصدِّق خبراً يتناقض مع وحي الله، القلب السليم الذي لا يحتكم إلا لشرع الله، القلب السليم الذي لا يُحكّم غير شرع الله، ولا يعبد إلا الله.

اسم الله الحَكَم، يقتضينا أن نحتكم إلى الله فهذا أول موقف... أما إذا حُكِّمنا.. فعلينا أن نحكم بالعدل، يجب أن نحتكم إلى الله لأنه يعلم كلَّ شيء، يعلم السرَّ وأخفى، ويقتضينا إذا حُكِّمنا في قضية ألا ننحاز مع أحد. ،

عن خَلَف بْنِ خَلِيفَةَ حَدَّثَنا أَبُو هاشِمٍ قالَ: لَوْلا حَديثُ ابْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبيهِ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قالَ: «القُضاةُ ثَلاثَةٌ اثْنانِ في النَّارِ وَواحِدٌ في الجَنَّة، رَجُلٌ عَلِمَ الحَقَّ فَقَضَى بِهِ فَهُوَ في الجَنَّةِ، وَرَجُلٌ قَضَى للنَّاسِ عَلَى جَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ جارَ فِي الحَكَمِ فَهُوَ في النَّارِ»، لولا أن النبي قال ذلك لقُلْنا: إنَّ القاضِيَ إذا اجْتَهَدَ فَهُوَ فِي الجَنَّةِ [سنن ابن ماجه].

أي قاضيان إلى النار... إنسان حكم بلا علم، وإنسان حكم على علم ظلماً، كلاهما في النار... والذي عرف الحقَّ فحكم به فهو في الجنَّة.

أحد القضاة وكان معروفاً في مدينته أنه يحبُّ الرُّطب في بواكيره، طُرِق بابه، فتح الغلام الباب، رأى رجلاً معه طبقاً من رطب -وهذا شيء نفيس جداً في بواكيره، وهو غالٍ كثيراً، ومن نوع جيد- فرجع إلى القاضي قال له: يا سيدي بالباب رجل ومع طبقُ رُطب. فقال له: صفه لي. قال: صفته كيت وكيت. فعرف أنه أحد المتخاصمين عنده، فقال: رُدَّ الطبق إليه. بعد حين قابل الخليفة وطلب إعفاءه من منصب القضاء. قال: ولِمَ وأنت الورع النزيه العالم الفقيه المجتهد؟ قال: لقد جاءَني قبل أيام رجل أهداني طبقَ رطبٍ، وفي اليوم التالي جاء مع خصمه ليحتكما إليّ، تمنيتُ أن يكون الحقُّ مع صاحب الطبق الذي قدَّمه إليّ، هذا مع أني رددته فكيف لو قبلته؟... كان القضاة هكذا يحاسبون أنفسهم.

أنت حَكَم بين ابنتك وصهرك، وتكلَّمت البنت وفق هواها، فزمجرتَ وأرعدت وغضبت وقلت: هذا الصهر ليس عنده أدب، وسوف أقوم بتربيته وحرمانه من زوجته ستة أشهر... فهل سمعتَ منه قبل أن تحكم.

قال أحدهم لأحد الشيوخ: يا سيدي قد لطمني أحدهم على وجهي، فلطمته، أعليَّ شيء؟ قال له الشيخ: لا ليس عليك شيء. ثم ظهر أنَّ الذي ضربه هو أبوه. فالفتوى على قدر الوصف.

سمعت من ابنتك حديثاً وتكلَّمت على زوجها في حديثها وأطالت، ألا يقتضي الحكم العدل أن تسمع من زوجها، ماذا فعلت به؟ سمعت من والدتك، فاسمع من زوجتك فأنتَ أحياناً تكون حكماً بين زوجتك وأمك، وبين ابنتك وصهرك، هؤلاء أقرب الناس إليك، أو تكون رئيساً لدائرة وعندك موظفان يتشاجران دوماً، فإذا سمعت من واحدٍ منهم، فاستمع للآخر، ولا تعاقب على الفور بعدما سمعت من الأول، فماذا تعلَّمنا من سيدنا سليمان؟ فقد قال تعالى: ﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [النمل:٢٧].

فإذا كنت حكماً يجب أن تحكم بالعدل، وإن احتكمت فلا تحتكم إلا لله، فكيف تقول لله: يا ربِّ! أنا حكَّمتك؟ كيف تحتكم لله؟ ثم لا تنصاع للحق. الأحكام لله يعني أن تنصاع لكتابه، والاحتكام لرسوله يعني أن تخضع للسنَّةِ، فقد قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء:٦٥].

وعند النزاع في قضية ما... قال تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النساء:٥٩]... فردُّوه إلى الله، أي إلى قرآنه، وإلى رسوله أي سنَّته. فإذا كنت مؤمناً، فتردُّ الأمر المتنازع فيه إلى الله ورسوله.

وبعد، فإن التجربة والاطلاع على أحوال الناس أظهرت أنه إذا كانت قضيَّته تُحل بالقضاء المدني، يقول لك أحدهم: نحن في بلد فيه قانون وقضاء؛ فيذهب إلى المحكمة. وإذا كانت القضية لا تحلُّ لصالحه في القضاء المدني، ويعلم أنها تحل عند العلماء فيذهب إليهم ويقول لك: أنا أريد حكم الشرع. فلماذا تريد أن تحتكم مرةً للشرع، ومرة للقانون؟ إذا كنت مؤمناً صادقاً، تحتكم إلى الله دائماً، إلى كتاب الله وإلى سنَّة رسوله ﷺ. واعلم أن الله سبحانه قال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة:٥٠]. فالزم كتاب الله وسنّة نبيِّه.

الجواد

ثبت هذا الاسم في السّنَّة الشريفة، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله جل جلاله جواد يحبُّ الجود، ويحبُّ معالي الأخلاق و يكره سفاسفها» [أخرجه البيهقي عن ابن عباس].

من معاني اسم الله الجواد

الجواد اسم فاعل من الفعل جاد يجود، والمصدر الجود، والجود أن تأتي بالقول الحسن والخلق الحسن، والفعل الحسن، والجود أيضاً هو الكرم، فالجواد معطاء سخيّ، تسخُو نفسه في العطاء، أريحيٌّ يرتاح للعطاء.

ورجل جواد أي كثير العطاء.

لكنَّ الجود بالنفس يعني أن تلزم نفسك بالجهاد في سبيل الله، والجود بالنفس أقصى غاية الجود، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [آل عمران:١٦٩].

فالشهيد بذل أثمن ما يملك؛ بذل حياته.

إنَّ الله جل جلاله جواد، منح الخلائق نعمة الوجود، فأنت موجود، ووجودك منحة من الله، لكن هذا الذي لا يفقه حقيقة وجوده إنسان شارد، لقد أوجدك ليسعدك ويرحمك، قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود:١١٩].

خلقهم ليسعدهم، خلقهم ليرحمهم، خلقهم ليسلمهم، خلقهم ليجعل لهم جنتين: جنة في الدنيا وجنة في الآخرة.

يقول ﷺ فيما رواه الإمام البخاري من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «يَدُ الله مَلْأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ» .

وفي الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ البَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ الله، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ» [أخرجه مسلم عن أبي ذر].

لكن الشيء المهمَّ، أن الله سبحانه وتعالى عليم بموقع جوده، فقد تجد إنساناً جواداً سخيّاً، لكن يعطي عطاء عشوائياً، والله سبحانه وتعالى وهو أحكم الحاكمين، يأتي عطاؤه بحكمة بالغة، وباستحقاق، وبحكمة، وبخيريَّة.

النّبيّ ﷺ عقب بعض الغزوات استعرض الأسرى، كانت من بين الأسرى امرأة وقفت وقالت: يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن علي منّ الله عليك، وخلِّ عني، ولا تشمت بي أحياء العرب فإن أبي كان سيد قومه، يفك العاني، ويعفو عن الجاني، ويحفظ الجار ويحمي الديار ويفرج عن المكروب، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ويحمل الكَلَّ، ويعين على نوائب الدهر، وما آتاه أحد بحاجة فردَّه

خائباً، أنا سفَّانه بنت حاتم الطائي، فقال النبي ﷺ: «يا جارية، هذه صفات المؤمنين حقاً، ثم قال: ارحموا عزيز قوم ذل وغني افتقر، وعالم ضاع بين الجهال» .

فمنّ النبيّ ﷺ عليها، وأكرمها، وحملها بما تحتاج، وأرسلها إلى قومها، فحينما رأت هذا العطاء وهذا الكرم، استأذنته بالدعاء فقالت:أصاب الله ببرك مواقعه، ولا جعل الله لك إلى لئيم حاجة، ولا سلب نعمة عن كريم قوم إلا جعلك سبباً في ردِّها [ذكر هذه القصة ابن هشام في سيرته، والطبري في تاريخه].

ورد عن سيدنا علي رضي الله عنه: والله والله مرتين لحفر بئرين بإبرتين، وكنس أرض الحجاز في يوم عاصف بريشتين، ونقل بحرين زاخرين بمنخلين، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين، أهون عليّ من طلب حاجة من لئيم لوفاء دين.

وسُئل أحدهم: ما الذّلُّ؟ قال: أن تقف بباب اللئيم ثم يردّك، يقول الفرزدق مادحاً الحسين بن علي:

ما قال لا قطُّ إلا في تشهُّده   لولا التشهُّد كانت لاؤه نعم

هو جواد هداك إلى طريق يفضي إليه، هداك إلى طريق طاعته، هداك إلى طريق الجنة، هداك إلى سلامتك، هداك إلى سعادتك، قال تعالى: ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ [المائدة:١٦].

المؤمن في سلام مع نفسه، ما عنده اختلال توازن، ما بنى مجده على أنقاض الآخرين، ما بنى غناه على إفقارهم، ما بنى عزّه على إذلالهم، المؤمن في قلبه من الراحة النفسية ما لو وزعت على أهل بلد لكفتهم، قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴾ [يونس:٢٥].

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) ﴾ [هود:٥٦].

يرى ابن القيم رحمه الله، أن الجواد، أعطاك الأوامر والنواهي لترقى بفعل الأوامر، وترقى بترك النواهي، بيّن لك الحلال والحرام، لترقى بأخذ الحلال وترك الحرام، الله عز وجل جواد أرادك أن تكون في جنة عرضها السماوات والأرض.

من معاني الجود: سهولة البذل، أحياناً الشحيح تقنعه، تأتيه بالأدلة، ترجوه، تتوسَّل إليه أن يساهم بمشروع خيري، بصعوبة بالغة، بجهد جهيد، ثم يعطيك النزر القليل لكن من معاني الجود: سهولة البذل والإنفاق، وتجنُّب ما لا يحمد من الأخلاق.

أنا لا أصدق أن ترى مؤمنا شحيحاً، لا أصدق أن ترى مؤمناً جباناً، البخل والجبن يتناقضان مع أخلاق المؤمن، المؤمن كريم وشجاع، كريم لأنه يرى المعطي.

«أنفق بلال، ولا تخشَ من ذي العرش إقلالا» [رواه الطبراني، عن ابن مسعود].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: إِنَّ الله قَالَ لِي: «أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ» [متفق عليه].

نصيب المؤمن من اسم الله الجواد

إنَّ الله جل جلاله جواد، يحبُّ الجود، وما أزال أركز على هذه النقطة، يمكن أن تعبد الله بأن تتخلَّق بكمال مشتقٍّ من كماله، هو جواد، يحبُّ الجود، يحبُّ العطاء، فالمؤمن يبني حياته على العطاء.

تقسيمات الأرض لا تنتهي، دول الشمال، ودول الجنوب، العرق الآري، العرق الملوّن، الأغنياء، والفقراء، الأقوياء، والضعفاء، الأصحاء، والمرضى، تقسيمات البشر لا تنتهي، أمَّا البطولة فأن تعتمد تقسيمات خالق البشر، خالق البشر عنده مؤمن أو كافر، مستقيم أو منحرف، يعطي أو يأخذ، ينصف أو يجحد، يصدق أو يكذب، فإن الله جواد يحبُّ الجود، فإذا أردت أن تتقرب إلى الله فتخلَّق بالكمال الإلهي.

المؤمن يحبُّ أن يدعو إلى الله، يحبُّ أن ينفق ماله، ووقته، وخبرته، وجهده، بنى حياته على العطاء، بالتعبير المعاصر استراتيجيته العطاء، يعطي وهو في قمة السعادة هل أنت مؤمن؟ تعطي من وقتك، من خبرتك، من جهدك، من معلوماتك، فإذا

أسعدك أن تعطي فأنت من أهل الآخرة، وإذا أسعدك أن تأخذ فأنت من أهل الدنيا، ببساطة بالغة يمكن أن تقيّم نفسك ما إذا كنت من أهل الدنيا أو من أهل الآخرة، فما الذي يُسعِدك أن تعطي أو أن تأخذ؟ إن الله جواد يحب الجود.

هناك إنسان ذو هموم عالية جدا، وهناك إنسان تافه.

﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف:١٠٥].

لا يبالي الله بأي أودية الدنيا هلك الإنسان الشارد، لأنه غارق في ملذاته، غارق في سفاسف الأمور، في أشياء لا تقدم ولا تؤخّر، والضابط في هذا أنك حينما تُقبل على شيء فهذا الشيء هل يصل معك إلى القبر؟ أو يبقى عند شفير القبر؟

هناك إنسان يعتني ببيته عناية بالغة، لم يرتكب معصية، لكن هذه العناية البالغة التي امتصّت كلَّ وقته، هل تكون معه في القبر؟! لكنَّ العمل الصالح يدخل معه في القبر.

القضية قضية مهمة جداً، أنا ما الذي ينفعني في المستقبل؟ عمل صالح، طاعة لله، تلاوة للقرآن، دعوة إلى الله، تربية للولد، إعطاء من المال، ما الذي يدخل معي في القبر؟ إنّ الإنسان حينما يأتيه ملك الموت يقول: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠].

البطولة ألا تندم، وذلك إذا عملت لأُخراك، و متى تندم؟ إذا عملت لدنياك، لأن الدنيا تغرُّ وتضرُّ وتمرُّ، قال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان:٣٣].

الدنيا تغر، تظنُّها بحجم أكبر من حجمها، هذا الحجم الكبير في مقتبل الحياة، بعد حين تراها بحجم أقلّ من حجمها، لكنك عند مغادرة الدنيا لا ترى الدنيا شيئاً، لا ترى إلا الله.

البطولة أن تصحّ رؤيتك وأنت في مقتبل حياتك حتى يأتي عملك صحيحاً.

عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ كَانَتْ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ الله غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ الله فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ» [الترمذي].

بشكل منطقي وحتمي الذي يتَّصل بصاحب الأسماء الحسنى يجب أن يكون أخلاقياً، الصفة الصارخة في المؤمن أنه إنسان أخلاقي، وإن صح التعبير كلمة الإيمان مرتبة، مرتبة علمية، ومرتبة أخلاقية، ومرتبة جمالية، المؤمن صادق لأنه موصول بالله عز وجل، يشتقُّ منه الكمال، هذا المعنى ورد عند ابن القيم رحمه الله فقال: «الإيمان هو الخلق، فمَن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان».

لذلك في بعض الأدعية عَنْ عَبْدِ الله بْنِ يَزِيدَ الخَطْمِيِّ الأَنْصَارِيِّ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: «اللهمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يَنْفَعُنِي حُبُّهُ عِنْدَكَ، اللهمَّ مَا رَزَقْتَنِي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ، اللهمَّ وَمَا زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغًا لِي فِيمَا تُحِبُّ» [الترمذي].

وهذا مستنبط من قوله تعالى: ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ ﴾ [القصص:٧٧].

آتاك علماً فابتغ به الدار الآخرة، آتاك خلقاً فابتغ به الدار الآخرة، آتاك فصاحة فابتغ بفصاحتك الدار الآخرة، آتاك مالاً، آتاك جاهاً، آتاك خبرة، آتاك وسامة، أيّ شيء آتاك الله به فابتغ به الدار الآخرة.

يروى أن عالماً سأله رجل عن الزكاة، فقال: عندنا أم عندكم؟ قال: سبحان الله! ما عندنا وما عندكم؟ قال: عندكم الزكاة ربع العشر، أما عندنا فالعبد وماله لسيده، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٦٢].

إذًا هناك شيء تحبه، وما سمح لك أن تأخذه، فالفراغ الناشئ عن انشغالك به ليكنْ في سبيل الله.

الإنسان يطمح أن يكون ذا دخل غير محدود، لكن مشيئة الله والحكمة بالغة جعله ذا دخل محدود، فالمال الذي كان يمكن أن يشغله عن الله، والوقت الناتج عن عدم انشغاله بهذا المال الوفير ليكنْ في سبيل الله، ليطلب العلم.

إذاً: «إِنَّ لله مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى» .

«وَكُلٌّ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ».

السبوح

ورد هذا الاسم في السُّنَّة المطهَّرة، ففي صحيح مسلم عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ: «كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ» [رواه مسلم وأبو داود، والنسائي].

من معاني اسم الله السبوح

السُّبُّوح من التسبيح، والتسبيح هو التعظيم والتنزيه.

ولا بدَّ من وقفة متأنيَّة هنا؛ إذ إنَّ الله سبحانه وتعالى حينما قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ [الأحزاب:٤١].

فالأمر في الآية لا ينصبُّ على الذِّكر فحسب، بل على الذِّكر الكثير، لأنَّ المنافق يذكر الله، يقول الله عز وجل واصفاً حال المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء:١٤٢].

فالمطلوب هو الذِّكر الكثير، وإذا أُمرنا أن نسبِّح الله فالمقصود هو التعظيم والتنزيه.

السُبُّوح: هو الذي يُسبَّح ويُقدَّس، و السُّبُّوح، مبالغة مِن سبّح يسبِّح تسبيحاً، أي أنَّه مهما سبَّحتَه فلا يمكن أن تصل إلى ما ينبغي من تعظيمه وتنزيهه، لأنَّ السُّبُّوح من صيغ المبالغة.

وإذا قال واحد منا: فلان سبَّح، أي أكثر من تسبيح الله، لكن في هذه اللغة العظيمة التي اختارها الله لغة لكلامه، بكلمة يمكن أن تعبِّر عن جملة، هذا اسمه النحت، فإذا قلت: سبحان الله، فيقال: فلان سبحل، فإذا قلت: أدام الله عزك، فيقال: فلان دمعز، فإذا قلت: لا حول ولا قوة إلا بالله يقال: فلان حوقل، فإذا قلت: لا إله إلا الله يقال: فلان هلّل، فإذا قلت: الله أكبر فيقال: فلان كبّر.

التسبيح، هو التعظيم، تعظيم الله في كلِّ كمالاته، هو غني عن تعظيمنا، لكنَّنا إذا عظَّمناه سعدنا بقربه في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [إبراهيم:٨].

لكن إذا سبَّحناه فمن أجلنا، من أجل سعادتنا، من أجل سرورنا، من أجل طمأنينتنا، من أجل أن نكون موفَّقين في حياتنا، قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى:١].

هذا أمر إلهي بالتسبيح، فحينما تسبِّح الله فأنت في عظائم الأمور، لا في سفاسفها.

قد يشتغل الإنسان بالسفاسف، ثم يندم حينما يرى أنَّه ضيَّع حياته في سفاسف الأمور، ونسي الآخرة التي هي العطاء الكبير، فإذا فات الإنسانَ هذا العطاءُ فاته كلُّ شيء، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر:١٥].

حينما تفكِّر في كمال الله، في رحمته، في حلمه، في قوَّته، في قدرته، في لطفه، في جبروته، في انتقامه، هذه كلُّها كمالات الله، والله عز وجل يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].

إنَّ جزءاً كبيراً من عبادتك أن تسبِّح الله عزَّ وجلَّ، فلو حدَّثتنا عن عظمة الله في الكون، فحديثك تسبيح لله، إن قرأت كتاباً في الفقه، وعظَّمت هذا الأمر الإلهيَّ فأنت بهذا تسبِّح الله، فأيّ شيء يقرِّبك من الله فهو تسبيح، أي ذكر لله تسبيح، أيّ ذكر لآياته تسبيح، أي شرح لقرآنه تسبيح، والسبح هو الفراغ، قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾ [المزمل:٧].

معك مجال لا ينتهي، المال ينتهي، تأكل فتشبع، ترتدي ثياباً جديدة، تنام على السرير، هذا هو السَّقف، لو كانت معك المليارات، لو أنَّك تملك أموال أهل الأرض، لا يمكن أن تأكل إلا وجبة تملأ بها معدتك، ثم تنام على سرير واحد، وترتدي ثوباً واحد.

الدنيا محدودة، ولها سقف، لكنَّك إذا خرجت من ذلك لمعرفة الله فهناك اللانهاية، هناك تتَّصل بخالق السماوات والأرض.

والتَّسبيح تنزيه الله عن الصاحبة والولد، قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن:٣].

والتَّسبيح تنزيه الله عن كلِّ ما لا ينبغي له، فقد يقول لك أحدُهم: فلان خَلَقه الله كافراً، وكتب عليه الكفر، وجاء إلى الدنيا، وحقَّق إرادة الله، فاستحقَّ النار إلى أبد الآبدين، هذا عكس التسبيح، لأنه وصف لله بما لا يليق به، قال تعالى: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ۝١٧﴾ [سبأ:١٧].

وقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ۝١٤٨﴾ [الأنعام:١٤٨].

أن تتوهم أنَّ الله أجبر عباده على أفعالهم، فكيف يحاسبهم وقد أجبرهم؟ لمن الحجَّة إذاً؟ قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ﴾ [الأنعام:١٤٩].

ومن التَّسبيح أن تنزِّهه عن الظُّلم، قال تعالى: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر:١٧].

﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ [التوبة:٧٠].

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [النساء:٤٩].

﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء:٤٧].

التَّسبيح أن تنزه الله عن الصاحبة والولد، وأن تنزه الله عن كلِّ ما لا ينبغي له، بل أن تنزِّهه عن الشَّريك والنِّدّ والضِّدّ.

السُّبُّوح له أوصاف الكمال والجمال، فالإنسان يحبُّ الكمال والجمال والنَّوال، وهو العطاء، والله سبحانه وتعالى مصدر للجمال والكمال والنَّوال، أفعاله كاملة، والاتصال به يسعد، فله أوصاف الكمال والجمال بلا نقص، وله الأفعال المقدسة عن الشّرّ والسّوء، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران:٢٦].

لم يقل: والشّرّ، لأنَّ الشَّرَّ المطلق لا وجود له في الكون.

ويقول تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ﴾ [الإسراء:٤٤].

ألا يستحي الإنسان أن يكون كلُّ شيء في الكون يسبِّح الله عزَّ وجلَّ، وهو غافل عن الله؟!

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ﴾ [الحج:١٨].

﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ﴾ [البقرة:٤٧].

حجر يهبط من خشية الله بنصِّ القرآن الكريم، والإنسان قلبه كالحجر، لا يتأثَّر ولا يرحم، ولا يبكي، ولا يخشع.

إنَّها آيات قرآنية تتحدَّث عن تسبيح الكون لله، فإذا كان الإنسان غافلاً فما موقفه يوم القيامة؟

ألا يستحي الإنسان أن يكون كلُّ ما في الكون يسبِّح الله عزَّ وجلَّ وهو غارق في شهواته ونزواته؟!

يقول ﷺ فيما رواه الإمام مسلم عنه ﷺ: «حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ».

سُبُحات وجه الله هي أنوار وجهه جل جلاله ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ [الأعراف:١٤٣].

لذلك قال تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [الأنعام:١٠٣].

لكن العقول تصل إليه من خلال الكون، تعرفه، وفي الدنيا لا يستطيع كائناً من كان أن يرى الله إلا في الآخرة، قال تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾ [القيامة:٢٢-٢٣].

هذا الإله العظيم ألا يُخطب ودُّه؟! ألا تُرجى جنَّته؟! ألا تُخشى ناره؟!

والصلاة تسبيح، قال تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ﴾ [الروم:١٧].

ينبغي أن تسبِّح الله في المساء؛ في صلاتي المغرب والعشاء: ﴿وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧﴾ [الروم:١٧].

وهي صلاة الفجر.

﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا ﴾ [الروم:١٨].

﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم:١٨].

الظهر والعصر.

قالوا: سبِّحْه بأسمائه، ونزِّهه عن الأسماء التي لم يسمِّ نفسه بها.

وما من طريق أقرب إلى تسبيحه جل جلاله من أن تتفكَّر في مخلوقاته.

فكلَّما فكَّرت في خلقه ازددت تعظيماً له، لأنَّ التَّفكُّر في خلق السماوات والأرض أقصر طريق إلى الله، وأوسع باب ندخل منه على الله، ولأنَّ التَّفكُّر في خلق السماوات والأرض يضعك وجهاً لوجه أمام عظمة الله.

مَن منَّا يصدِّق أنَّ في الدِّماغ مئة وأربعين مليار خلية لم تُعرف وظيفتها حتى الآن، وأربع عشرة مليار خلية قشريَّة فيها المحاكمة، والذاكرة، والذَّاكرة مساحتها بحجم العدسة فيها سبعون مليار صورة، الذاكرة، والمحاكمة، والتفكر، والاستنتاج، والاستنباط، والاستقراء، والحكم، والانفعالات، والرؤية، والسمع، والبصر، كلُّها في هذه القشرة الدماغية، فإذا قرأت هذا الموضوع ألا تعظِّم الله عز وجل؟ ألا تقول: سبحان الله.

في الغدة النخامية هرمون للكظر، إذا كان الرجل يمشي في الطريق، أو في بستان ورأى ثعبانا، هذا الثعبان تنطبع صورته على شبكية العين إحساساً، فالشبكية لا تقرأ الصورة.

ثمَّ تنتقل الصورة إلى الدماغ، وهناك تقرأ، هناك ملفات الثعبان، ومفهومات الثعبان، جاءته من دراسته، ومن مشاهداته، ومن قصص سمعها، الدِّماغ ملك الجهاز العصبي ويدرك الخطر، فيلتمس من ملكة الجهاز الهرمونيّ وهي الغدَّة النُّخامية أن تواجه الخطر، الغدَّة النُّخامية وزنها نصف غرام، وهي من أخطر الغدد، هي ملكة

الغدد، الملكة تفرز هرموناً إلى الكظر فوق الكلية، فالكظر يعطي خمسة أوامر، أمراً إلى القلب فيرتفع النبض إلى مئة وثمانين نبضة، أمراً إلى الرئتين، فيزداد الوجيب، أمراً إلى الكبد لإطلاق كمية سكر إضافية، أمراً إلى الكبد ليطلق هرمون التَّجلُّط، أمراً إلى الأوعية المحيطيّة كي تضيق لمعتها، فالدم يذهب إلى العضلات لا إلى الجلد، فالخائف يصفرُّ لونه.

لذلك يمكن أن تسبح الله عن طريق التفكر في خلق السماوات والأرض، والله سبحانه وتعالى أتقن كل شيء، قال تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [الملك:٣].

السُّبُّوح من التسبيح وهو التعظيم والتنزيه، ومعنى السُّبُّوح هو الذي يُعظَّم كثيراً، ويُنزَّه كثيراً، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾﴾ [الحاقة:٣٣].

العبرة أن تُعظِّم الله، أن تعظِّم أمره، أن تُعظِّم حرماته، أن تُعظِّم كتابه، أن تُعظِّم دينه.

أراد الله عز وجل أن تأتيه طائعاً، أن تأتيه مختاراً، أن تأتيه بمبادرة منك، بيّن لك الله عز وجل أنّه يحبُّك، وينبغي أن تحبَّه، يقول ابن القيّم رحمه الله: (من أعجب العجب أن تعرفه ثم لا تحبَّه، ومن أعجب العجب أن تحبَّه ثم لا تطيعه) وما عبد الله من أحبَّه ولم يطعه، وما عبد الله من أطاعه ولم يحبَّه.

ويقول تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة:٧٤].

التَّسبيح ينصبُّ على التعظيم أولاً، والتنزيه ثانياً، وما لم تعظم ربك فلا يمكن أن تنتفع من الدين بشيء، قال تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج:٣٢].

هل من الممكن أن تلخص مشكلات المسلمين في العالم الإسلامي اليوم بكلمات؟ هان أمر الله على المسلمين فهانوا على الله، الإنسان حينما يشرد عن الله لا يقيم الله له يوم القيامة وزناً.

البطولة أن تأتي مقاييسك التي تعتمدها وَفق مقاييس القرآن الكريم، يقول الله عز وجل: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب:٧١].

ليس الفوز العظيم أن تشتري أرضاً، ويرتفع سعرها مئة ضعف، ولا أن تملك شركة عملاقة دخلها فلكي، ولا أن تستمتع بمباهج الدنيا حتى قِمَّة رأسك، الفوز العظيم أن تعرف الله، الفوز العظيم أن تطيعه، الفوز العظيم أن تزحزح عن النار، قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران:١٨٥].

والنّبيُّ ﷺ كان يقول عند الكرب: «لا إله إلا الله العظيمُ الحليم، لا إله إلا الله ربُّ العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم» [متفق عليه من حديث ابن عباس].

ماذا نفهم من هذا الثناء الذي هو في معرض الدعاء، فالثناء دعاء:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني ... حياؤك إن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوماً ... كفاه من تعرضه الثناء

وحينما كان سيدنا يونس في بطن الحوت نادى في الظلمات قائلاً: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾... قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ فالثناء دعاء، وذلك ورد في الآيتين الكريمتين: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨].

فالنبي ﷺ حينما كانت تشتدُّ به الأمور يقول:

عَنِ الحَارِثِ عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: «ألا أُعَلِّمُكَ كَلِماتٍ إذا قُلتهنَّ غَفَرَ اللهُ لَكَ وَإِنْ كُنْتَ مَغْفُوراً لَكَ؟ قالَ قُلْ: لا إِلَهَ إلا اللهُ العَلِيُّ العَظِيمُ، لا إِلَهَ إلا اللهُ الحَلِيمُ الكَرِيمُ، لا إِلَهَ إلا اللهُ سُبْحَانَ الله رَبِّ العَرْشِ العَظِيمِ» [سنن الترمذي].

ماذا يعني هذا الدعاء؟ يعني شيئين، التوحيد والتسبيح، أي: أنَّ أمرك بيد جهة واحدة وهذه الجهة كاملة، هل من حقيقة تُلقَى في نفس الإنسان أشدُّ طمأنة له من هذه الحقيقة، أمرك كلُّه بيد الله ولا يستطيع أحدٌ غير الله أن يتدخَّل في أمرك مع الله، والله - سبحانه وتعالى- صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفُضلى، رحمن رحيم، عليٌّ عظيم، حليمٌ كريم، فنحن إذا عرفنا الله وصلنا إلى كلِّ شيء.

نصيب المؤمن من اسم الله السبوح

السُّبُّوح من التسبيح والتسبيح هو التعظيم، والبطولة أن تعظِّم ما ينبغي أن يُعظَّم، وأن تحتقر ما ينبغي أن يُحتقَر، البطولة أن تكبِّر ما ينبغي أن يكون كبيراً، والبطولة أن تصغِّر ما ينبغي أن يكون صغيراً.

الإنسان العظيم يتمتَّع بقلب كبير، يتضاءل أمامه كلُّ كبير، بينما الإنسان إذا شرد عن الله عز وجل وغفل عنه فله قلب صغير، هذا القلب الصغير يصغر أمام كلِّ صغير، وبين أن يصغر كلُّ كبير أمامك، وأن يكبر كلُّ صغير أمامك، فرق كبير.

قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ٣٥﴾ [فصلت:٣٥].

فالمؤمن له من الله حظٌّ عظيم، اشتقَّ من كماله، اشتقَّ من رحمته، اشتقَّ من عدله، اشتقَّ من حبِّه، اشتقَّ من لطفه، اشتقَّ من غناه، المؤمن غني بالله، قويٌّ بالله، عزيز بالله، المؤمن شخصية فذَّة، نصيبك من الله عظيم فكنت عفيفاً، نصيبك من الله عظيم فكنت منصفاً، نصيبك من الله عظيم فكنت عفواً، نصيبك من الله عظيم فكنت متواضعاً، نصيبك من الله عظيم فكنت رحيماً.

فالحظُّ هو النَّصيب، وأنت بقدر ما تشتقُّ من الله معرفة وكمالاً تكون ذا شأن عظيم بين أقرانك.

فهرس

القدوس ٥
السلام ٢١
المؤمن ٤٣
المهيمن ٦٣
الجبار ٨٧
المتكبر ١٠١
الخالق ١١٥
البارئ ١٣٣
المصور ١٤١
القادر ١٥١
الكريم ١٦٣
الودود ١٨٣
الأعلى ٢٠٥
الأكرم ٢٠٩
الأحد ٢٢٧
الصمد ٢٣٥
الوتر ٢٥١
الجميل ٢٥٩
الحيي ٢٧١
الستير ٢٧٧
المقدم ٢٩١
المؤخر ٣٠٧
المسعر ٣١٩
القابض ٣٣١
الباسط ٣٤٩
الرازق ٣٥٥
الديان ٣٦٥
المنان ٣٧٩
المالك ٣٨٧
المحسن ٤٠٣
الشافي ٤١٣
الرفيق ٤٢٩
المعطي ٤٣٩
السيد ٤٥٣
الطيب ٤٥٩
الحكم ٤٦٧
الجواد ٤٨٥
السبوح ٤٩٣

موسوعة

أسماء الله الحسنى

وصفاته الفضلى

من الكتاب والسنة

المجلد الرابع

الدكتور
محمد راتب النابلسي

مؤسسة
الفرسان
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

موسوعة

أسماء الله الحسنى

وصفاته الفضلى

من الكتاب والسنة

جميع الحقوق محفوظة لدى
مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع

ويحظر نسخ و/أو طبع و/أو تصوير و/أو ترجمة و/أو إعادة صف وإخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه و/أو تسجيله على الأشرطة و/أو وسائل تحميل الصوت أو الصورة و/أو الأقراص المدمجة أو الممغنطة و/أو إدخاله على الكمبيوتر أو قواعد البيانات و/أو استغلاله بأي شكل من الأشكال إلاّ بموافقة خطيّة من الناشر.

All Rights Reserved ©
Al Fursan Est.
Publishers & distributors

No part of this publication may be reproduced or distributed in any form or by any means, or stored in a database or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

الطبعة الأولى
2014 م /1435 هـ

مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع
الأردن – عمان – العبدلي
هاتف 00962 6 5607386
فاكس 00962 6 5653470
صندوق بريد 240664 عمان 11124 الأردن

Al Fursan Est.
Publishers & distributors
Jordan – Amman – Abdaly
Tel : 00962 6 5607386
Fax: 00962 6 5653470
P.O. Box 240664 Amman 11124 Jordan

E-mail: alfursan111@yahoo.com

الكتاب: موسوعة أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى من الكتاب والسنة
4 مجلدات
المؤلف: الدكتور محمد راتب النابلسي
التخريج والتدقيق: بلال نور الدين
المراجعة النهائية: بلال نور الدين
الخطوط: الخطاط / يعقوب إبراهيم
الإشراف العام: م. حسن صالح

مؤسسة
الفرسان
للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة
All Rights Reserved ©

ISBN: 9789957570576 ردمك
رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية: 3 / 1 / 2014

من صفاته وأفعاله
جل جلاله

الإرادة

من صفاته جل جلاله: الإرادة.

قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النساء:٢٦].

وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [النساء:٢٧].

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء:٢٨].

وقال تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد:١١].

من معاني الإرادة

الإرادة: من مادة الرَّوْد، والرَّوْد معناه الطلب، أراد، أي: طلب، والفِعْل راد يرود، والإرادة أيضاً هي المشيئة؛ شاء وأراد بمعنى واحد، والإرادة من معانيها الفرعية السعيُ في طلب الشيء.

قال بعض العلماء: «الإرادة في الأصل إرادةٌ مركبة من شهوة وحاجةٍ وأملٍ؛ هدفٌ أمامك وشهوة تحرِّكُكَ وحاجةٌ أنت محتاج إليها»، شهوةٌ وحاجةٌ وأملٌ؛ أو بتعريفٍ آخر، الإرادة: نزوع النفس إلى شيءٍ، فمثلاً أردتُ أن أذهب إلى حلب، وتاقت نفسي أو نزعَتْ أو مالت أو اتَّجهَتْ إلى أن تُسافِر إلى حلب، إذاً نُزوع النفس إلى شيء ما يعني إرادة.

والمعنى الثاني: الحكمُ على الشيء، والإرادة بمعنى النزوع إلى الشيء، هذا المعنى يليقُ بالإنسان، ولكن لا يليق بالواحد الديان؛ شيءٌ بعيدٌ عنك تتجهُ إليه، شيءٌ ليس بين يدَيْك تبحَثُ عنه، مكانٌ بعيد تسافر إليه، ومَنْصِبٌ رفيع تسعى إليه، ومكاسب كبيرة تمشي في طريقها، نزوع الإنسان إلى شيء هو معنىً أساسي من معاني الإرادة ولكن لا يليق إلا بالإنسان. أما الواحِد الديان فلا يمكن أن نقْبل هذا المعنى بالنسبة إليه عز وجل، إذ بالنسبة لله جل جلاله؛ إرادَتُهُ، أي: حُكْمُهُ، فإذا أراد الله كذا حَكَمَ على هذا الشيء بكذا قال تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۝١١ ﴾ [الرعد:١١].

إذاً: إذا قُلنا الإنسان أراد، أي: نزعَ إلى شيءٍ واتَّجهَ إلى شيءٍ وأقْبل على الشيء، وأغْلَبُ الظن أنَّ هذا الشيء بعيد عنه، ولا بدَّ له من وسيلة؛ فالله عز وجل منزَّهٌ عن العلَّة الغائيَّة، أي: أن يتخذ إلى غاياته وسيلةً، أمَّا الإنسان فيُكمِّلُ ضعفَهُ بوسيلةٍ؛ فمثلاً من أجل أن يصل إلى بلدةٍ بعيدة يتَّخذ سيارة أو طائرة، ومن أجل أن يصل إلى الماء يجب

أن يحْفِر البئر، ومن أجل أن يأكل يجب أن يزرع، وهذه هي العلَّة الغائيَّة، أمَّا ربنا جل جلاله فهو منزَّهٌ عن العلة الغائية.

إذاً: من معاني الإرادة نُزوع النفس إلى شيء، وأن هذا الشيء بعيد ولا بدَّ لكي أصل إليه من وسيلة، والوسائل لا تُعَدّ ولا تُحصى، فإذا كان النزوع مكانياً فإنه يحتاج إلى مركبة، وإذا كان النزوع علمياً فهو يحتاج إلى دراسة، وإذا كان النزوع مالياً فهو يحتاج إلى عَمَل. فالإنسان حينما ينزِع إلى شيء يبحث عن وسيلةٍ يُكمِّل بها نقْصَهُ، أنا أريد أن أرى الخلية، فأنا عاجِز، فأستخدم الميكروسكوب لأرى الخلية، فهنا نَزَعَت نفسي إلى أن أرى الخلية فاحتجت إلى ميكروسكوب، فالنَّفْس التي نزعَتْ إلى شيء تتَّخِذ وسيلة، وهذا من ضعفِ الإنسان. أمَّا ربنا عز وجل فإنه إذا أراد شيئاً حَكَمَ عليه أنه هكذا، قال تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾، فإرادة الله هي الحُكْم.

إنّ أُناساً كثيرين تختَلِط عليهم الأمور، الكون فيه أشياء مسخَّرة وأشياء مخيَّرة، والإنسان مُخيِّر، والجماد مسخَّر، والحيوان مسخَّر، وكذا النبات، فإرادة الله في المسخَّرات هي نفوذ حُكْمِه. أما إرادة الله في المُخيَّرات فهي تعني السماح، لأنَّ الله عز وجل حينما جاء بالإنسان إلى الدنيا حمَّلَهُ الأمانة، والأمانة من لوازِمها حرية الاختيار، والفِعل بيد الله عز وجل، فكيف نوفِّق بين أن الفعل بيد الله وأن الإنسان مخيَّر؟ نقول: إذا تعلَّقت إرادة الإنسان بشيءٍ بمعنى أنه اختار، تعلَّقت إرادة الله بتحقيق هذا الشيء فإرادتُهُ سماح، أَيُعقلُ أن يسرق سارقٌ في الأرض خلافَ مشيئة الله؟ لا يمكن، وهل يُعقلُ أن الله أمرهُ أن يسرق؟ قال تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأعراف:٢٨].

كيف نوفِّقُ بين المعنيين؟ أيقع في مُلْكِه ما لا يريد؟ حاشا لله، هناك شر يقع، كيف يقع هذا الشر؟ إرادة الله مع المُخيَّر إرادة سماح، لكن مع المسيَّر إرادة أمر، فإذا اقترف

أحدٌ معصيةً معنى ذلك أن الله تعالى سَمَحَ له، ولماذا سمح له؟ لأنه مخيَّر، ولأنه جاء إلى الدنيا ليفعل أفعالاً اختيارية، والاختيار يُكمِّل عمله، إذاً يليق بالله عز وجل أن تكون إرادتُه في الكون إرادة حُكْم، إلا أن إرادتَهُ مع الكائن المخيَّر من الإنس والجن إرادة سماح.

وهذا شيء آخر، وهو معنى من معاني الإرادة، قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [البقرة:١٨٥].

الله عز وجل يأمركم أن تكونوا ميسِّرين، أريد منك كذا يعني آمُرُك بكذا، فأول معنى عندنا هو: النزوع وهو متعلِّق بالإنسان، والمعنى الثاني: الحكم وهو متعلِّق بالله تعالى، والحكم مع المسخَّرات أمرٌ ومع المخيَّرات هو السماح، والآن هذا معنى فرعي من معاني الإرادة أراد الله كذا، أي: أمر بكذا.

وإليك معنىً آخر من معاني الإرادة وهو القصد، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص:٨٣].

فالقصد والأمر والحُكْم والسماح والنزوع هذه هي معاني الإرادة. لكن هناك آياتٌ كثيرة في كتاب الله توضِّحُ تفاصيل هذا المعنى؛ يقول الله عز وجل: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [الأنعام:١٢٥].

أنت إذا قرأت هذه الآية لعلك تظن أن الله شرح صدر إنسانٍ للإيمان فآمن، وضيَّق صدر إنسانٍ آخر فلم يؤمن، وكأنَّ المعنى يوحي بالجَبْر، والحقيقة خلاف ذلك كما قلنا قبل قليل، إذا أراد الإنسان شيئاً تعلقت إرادة الله بالسماح بأن يفعل هذا الشيء، إذا أراد الإنسان شيئاً، ولأنه مُنِح حريَّة الاختيار، ولأن الإرادة من صفات الإنسان، فإذا أراد الإنسان شيئاً تعلقت إرادة الله بالسماح بأن يفعل هذا الشيء، إلا أن هناك تحفُّظاً واحداً وهو أن الإنسان مخيَّرٌ أن يفعل ما يشاء، ولكنه لا يستطيع أن يصُبّ

اختياره على من يشاء، فله أن يسرق ولكن ليس له أن يسرق ممن يشاء، يسرق ممن يُسَيِّرُهُ الله تعالى لسرقتِهِ لحكمة بالغة، وهذا من معاني قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الأنعام:١٢٩].

وهناك معنىً فرعيٌّ آخر يجب أن أضيفَهُ لهذا المعنى؛ لو أنَّ إنساناً أراد شرّاً؛ أراد أن يعصي مثلاً أو أن يأخذ مالاً ليس له، أو أراد أن يفعل فاحشةً، فماذا يفعل معه ربنا سبحانه وتعالى؟ إن لم تكن هذه الشهوة مستحكِمةً، وإن لم تبلُغ هذه الشهوة درجة الحِجاب، فالشهوات تتنامى في نفس الإنسان، وهناك حدٌّ إذا وصلت إليه هذه الشهوة بَلَغَت حد الحجاب وحجبَتْهُ عن كلِّ شيءٍ؛ حُبُّكَ الشيءَ يُعْمي ويصمُّ، فإذا بلغ الإصرار على شهوةٍ منحرفة درجة عالية جداً تعلقتْ إرادة الله بهذا العبد بأن يسمح له بأن يفعل ما اختار، أما إذا كانت إرادتُهُ ضعيفةً، فالله سبحانه وتعالى لا يسمح له، بل يُنَبِّهُهُ ويُحذِّرُهُ فصار هناك قضيتان: القضية الأولى أن الله لا يطلق إنساناً وفقَ إرادَتِه إلا إذا كانت الحكمة المطلقة أن يفعل هذا الشيء، إذ السماح بيد الله عز وجل، فأنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد.

إذاً الإرادة التي يريدُها الإنسان إن كانت ليست في صالِحِهِ فربنا سبحانه وتعالى لا يسمحُ له أن يفعلَها، أما إذا بلغتْ إرادتُهُ درجةً عاليةً من الإصرار فعندئذٍ ربنا سبحانه وتعالى يسمح له أن يُنفِّذها، لا على من يشاء الإنسان ولكن على من يشاء الله عز وجل، فكن مطمئناً، ولو أن إنساناً شريراً يبدو لك أنه مخيَّر وأنه طليق اليدين وأنه يفعل ما يشاء، فالله جل جلاله لن يُسْلِمَكَ لأحدٍ، فهذا الشرير طليق اليدين لا يستطيع أن يفعل شيئاً إلا إذا أراد الله عز وجل، والله يسوق ظالماً لظالم ومنحرفاً لمنحرف، أو يسوق إنساناً لا يعرفُهُ ليؤدِّب من يعرفُهُ؛ فالإنسان مخيّر والفعل فعل الله وإرادة الله مع غير المخيَّر إرادة أمر لأنه مسخَّر، أما إرادة الله مع الإنس والجن فهي إرادة سماح، لأن الإنسان مخيَّر؛ سماحٌ أن يفعل حينما تعلو الشهوة ويعلو الإصرار إلى درجة أن الحكمة المطلقة تنقلب إلى عملٍ، أما إذا لم يكن هناك إصرار، فربنا عز وجل يصرف عنه هذه الشهوة المنحرفة رحمةً به، أما إذا أصرّ عليها فإنه يطلقُهُ إليها.

والمعنى الثاني: أنه حينما يطلق الله هذا العبد لفعل شيءٍ ما يطلقه على من يستحق أو على من يكون التسليط عليه حكمةً في حقه فهذا هو فعل الله عز وجل.

في ضوء هذه المقدمة قوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ ﴾.

الإنسان أراد الهدى ابتداءً؛ بحث عن الحقيقة وطلب معرفة الله عز وجل، وحيثما عُزِيَت إرادة الهداية أو إرادة الضلال إلى الله عز وجل فهي إرادة جزائية تأتي عقب طلب هدايةٍ شخصيٍّ، أو إضلال جزائي مبنيٌّ على ضلال اختياريٍّ.

إذا عُزيت إرادة الهداية أو إرادة الإضلال إلى الله عز وجل فهي الإرادة الجزائية المبنية على إرادة اختيارية وفي ضوء هذا التفسير: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ ﴾ الإنسان أراد الهدى فشاءت إرادة الله أن يهتدي؛ كيف يعينُهُ الله على هذا الطلب الرفيع؟ قال: ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ لأن القلب بين أصبعين من أصابع الرحمن فيشرح الله صدرهُ للإسلام، وماذا نسمي هذا الشرح؟ إنه معونةٌ من الله تعالى؛ مثلاً أبٌ عنده ولدان أحدهما طلب أن يدرس فأفرَدَه بغرفة خاصة وأعفاهُ من بعض المال وشجَّعه وكافأه فهذا تشجيعٌ من الوالد لولده. والإنسان حينما يريد الهداية ويصدُق في طلبها تتعلقُ إرادة الله في أن يهتدي، والله يشجِّعُ على ذلك ويشرح صدره للإسلام وهذا شيءٌ ثابت فبمجرد أن تبحث عن الخير وعن الهداية، وبمجرد أن تعمل عملاً صالحاً تشعر براحةٍ كبيرة جداً، وهذه الراحة تشجيعيّة من الله عز وجل، وقوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾.

طبعاً يضلُّهُ الضلالَ الجزائيَّ المبنيَّ على ضلال اختياريٍّ؛ أراد الضلال فسمح الله تعالى له به لأنه أصرَّ عليه، فيجعل صدره ضيقاً حرجاً، وهذا أيضاً تربية، لو أنه شرح صدره للضلال لكان الله تعالى معيناً لهذا العبد على الضلال، أمَّا الأمر فهو عكس هذا، لو أراد الإنسان الضلال تضيق نفسُهُ وتتعسَّرُ أمورُهُ ويؤدَّب ويعاتَب ويوبَّخ، قال تعالى:

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾.

عرفتم الآن ما حكمة الله في أنَّ قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن؟ الحكمة أن القلب إذا كان بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه لصالح عبده المؤمن كما يشاء، شاء الهدى فشرح الله صدره للهدى، وشاء الضلالة فضيَّق الله له صدره.

إذاً: شرح الصدر وتضييق الصدر لصالح العبد، فأنت مخيَّر إذا أصبتَ في اختيارك شجَّعناك ودعوناك إلى متابعة الخير، وأما إذا اخترتَ شيئاً سيئاً وبَّخْناك وضيَّقنا عليك من أجل أن تكُفَّ عن هذا الشيء، فهذه الآية أساسية: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾.

آيةٌ أخرى وهي قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النساء:٢٦].

قد يبحث الإنسان عن موقف إنسانٍ آخر منه ويقول له: ماذا تريد أن تفعل بي؟ وماذا تريد مني؟ فربنا عز وجل يُطمئِن عبادهُ قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [النساء:٢٧].

يعني إرادتُهُ متعلقة بهدايتكم، فقوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ ولأنكم مخيَّرون فدورُ المربي مع المخيَّر التوضيح، فالداعية مثلاً بالنسبة للمدعوين؛ عليه أن يتركهم لاختيارهم فهم مخيَّرون؛ يستجيبون أو لا يستجيبون، يؤمنون أو لا يؤمنون، يستقيمون أو لا يستقيمون؛ فما دور الداعية في الدعوة إلى الله حيال إنسانٍ مخيَّر؟ عليه أن يُقنعهُ بالإيمان، فالإنسان مخيَّر ليس عليك هُداهم، وإنك لا تهدي من أحببت، ولستَ عليهم بمسيطر، وما أنت عليهم بوكيل، ولا يوجد إجبار، إلا أنَّ مهمَّة الأنبياء

والرسل ومهمَّة الذين ينوبون عن رسول الله ﷺ في تبليغ الحق؛ البيانُ والتوضيح لتحمل الإنسان على أن يقبل الحقَّ.

أحياناً البائع يعرض على المشتري بضائع كثيرة، ولو أنَّ البائع استحسن أن يبيعه نوعاً من البضاعة وهي جيدة جداً وسعرُها رخيص وهذا الذي يشتري يحبُّهُ، فإن البائع يعينه على أن يختار ويقول له: اختر ما شئت، هذه هي الأنواع وهذه هي الأسعار، وأنت مخيَّر، أما البائع الرحيم فيقول له: أنا سأنصحُكَ خُذْ هذه وهي جيدة جداً وسعرُها مناسب وعلى الاستعمال متينةٌ، فالبائع هنا تدخَّل، فربنا عز وجل أعطانا حرية الاختيار وأعطانا عقلاً في رؤوسنا، وكوْناً ينطق بوجود الله وعدْلِهِ ورحْمتِهِ وكمالاتِهِ، وأعطانا شرعاً وشهواتٍ نرقى بها، وحرية اختيار نثمِّن بها عملنا، فلو تركنا لضاع منا كلُّ شيء، وعلى الرغم من أنه أعطانا كلَّ شيءٍ فإذا اتَّخذنا قراراً صحيحاً شرح صدورنا وشجَّعنا وكافأنا وأكرمنا، وإن اتَّخذنا قراراً خاطئاً ضيَّقَ صدرنا وعسَّر أمرنا وعاقبنا ونبَّهنا، فالله هو رب العالمين يُربِّينا، ومن هنا كان القلب بيده من أجل أن يُربِّيَ عبْدَهُ، فإذا اتخذ قراراً صحيحاً شرح الله صدره، فإذا أردت أن تعرف ماذا يريد الله جل جلاله منك؟ فاسمع ما قاله الله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

لذلك كن من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف:٢٨].

هذا كلام رب العالمين، فالله تعالى يقول: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

ويطالعنا كذلك شيءٌ آخر؛ وهو أن الإنسان أحياناً يُحمِّل نفسَهُ ما لا تُطيق، ويحمِّل نفسَه من الأعباء والذنوب والخطايا ما لا يُطيق أن يواجِهَ بها الله يوم القيامة، فهو لا يدري، وهو غافِل، فجاءت الآية الكريمة: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء:٢٨].

قد يحمل الإنسان من الأوزار ما لا يطيق وهو غافل، لكنَّ الله يعلم، فلو أنك رأيت إنساناً يشتري من بلدٍ آخر بضاعةً ممنوعاً نقلُها إلى داخل البلاد ولن يستطيع إدخالَها وبقيتَ ساكتاً تكون من الذين خانوهُ، أمَّا إذا أردت أن تنصحه ونبَّهْتَهُ إلى أن هذه البضاعة غير مسموح أن تنقلها إلى بلدِك فقد خفَّفْتَ عنه، لأنه سيدفع ثمنها وسوف تصادر من قبل موظفي جمارك بلاده، فالله عز وجل إذا رأى عبداً يُحمِّلُ نفسه ما لا يطيق من المعاصي والانحراف فهو الآن غافل، أما حينما يأتيه ملكُ الموت فإنه يُصعَق قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

ثلاث آيات في سورة النساء ﴿ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾، و﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾، و﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ ﴾، يبين لكم كي تتوبوا، وإذا تُبْتُم خفَّف عنكم.

هناك آيةٌ أساسيةٌ في هذا الموضوع، يقول الله عز وجل: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [يونس:١٠٧].

الشيء الذي يلفتُ النظر هو قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ ﴾، وقوله: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ ﴾ فالخير مراد من قبل الله عز وجل أما الشر فليس مراداً، لذلك لم تأت كلمة يُردْك بشرٍ إنما قال: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦۚ ﴾، مثلاً مدير مدرسة يمكنُهُ أن يعاقب طالباً ويمكن أن يفصِله، لكنَّ الأصل في المدرسة هو تعليم الطلاب وليس طرْدَهُم؛ أردنا من إنشاء هذه المدرسة

تعليم الطلاب، أما إذا شذَّ طالب فنفصِلُهُ، فالفَصْل غير مُرادٍ من قبل مدير المدرسة، لكن الفصل أحياناً علاجٌ طارئ نستخدمُهُ ولا نريدُهُ. وهذا الأب تجدُهُ يحبُّ ابنه حباً جماً فإذا أخطأ الولد خطأً كبيراً يحتاج إلى تأديب فيضربُهُ، لكنه يتمنى ألا يضربَهُ، يضربُهُ ليؤدِّبَهُ، وهو يتألم أشدَّ الألم حينما يضربُهُ، فالحكمة اقتضت أن يضربه وهذا هو معنى قوله الله عز وجل: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

يروى عنه ﷺ: «اطلُبوا الخير دهْرَكُم كله وتعرَّضُوا لنفحات رحمة الله تعالى» [رواه البيهقي في شعب الإيمان، من حديث أنس بن مالك]، يعني طول دهْرِكم وهذا من أنْدَرِ الشواهد؛ وهو أن ظرف الزمان قد يأتي له نائب، فدهركم تنوب عن ظرف الزمان والتقدير يعني: اطلُبوا الخير طوال دهرِكم، وتعرَّضوا لنفحات رحمة الله؛ إن طلبتم الخير تعرَّضتُم لنفحات رحمة الله عز وجل: «إن لربكم في أيام دهرِكم لنفحات ألا فتعرضوا لها» [رواه الطبراني في الأوسط عن محمد بن مسلمة]، فإن لله نفحاتٍ من رحمتِهِ يصيب بها من يشاء من عبادِهِ، واسألوا الله أنْ يسْتُر عوراتِكم وأنْ يؤمِّن رَوْعاتِكم، والرَّوْعات جمع رَوْعة وهي الخوف، فنعمة الأمن لا تعدِلها نعمةٌ على الإطلاق، فإذا كان هناك خوفٌ وقلقٌ تنقلب معيشتُهُ إلى معيشةٍ ضنْك والله عز وجل قال: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾ [قريش:٤].

ويقول الله عز وجل في سورة هود: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [هود:١٠٥].

الاستثناء هنا عائد إلى العصاة من المؤمنين، لأنَّ النَّار يدخُلُها العصاة منهم ولا خلود لهم فيها، أمَّا الخلود فهو للكفار، لكن من كان فيه ذرَّة من إيمان ففي النهاية يخرج من النار.

قال تعالى: ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [النجم:٥٩-٦١].

الإنسان في النهاية إمَّا إلى شقاءٍ أبدي وإمَّا إلى سعادةٍ أبدية، وهناك حالات خاصَّة؛ مؤمنٌ مقصِّر ومات عاصياً يدخل النار، ولكن إلى حين، وهذه الآية تؤكد هذا المعنى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

فمن كان في قلبِهِ مثقال ذرةٍ من خيرٍ يخرج في النهاية من النار وقد يبقى ملايين السنين وقد يبقى آلاف ملايين السنين، لكنه لا يخلد في النار إلا من شرد على الله شرود البعير.

وفي سورة النحل قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النحل:٤٠].

حتى العلماء قالوا: «كن هي حركة. فيكون حركتان. وهناك ثلاث حركات، إلا أن أمر الله تعالى أسرع من هذا وليس فيه زمن، فكلمة كن لمجرد أن تتعلق مشيئة الله في أن يكون شيءٌ هو كائن بلا تأخُّر»، ولكن الأمر تقريب لأذهاننا قال تعالى: إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾.

نصيب المؤمن من معرفة صفة الإرادة

التطبيق العملي لهذه الصِّفة هو أنك إذا تعامَلْت مع الأشخاص فهم محْدُودُو القدرات، فقد يتمنَّوْن أن يُعْطوك شيئاً ولا يستطيعون، لكن الله سبحانه وتعالى إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، فإذا كنت مع الفعال لما يُريد تحقَّق لك كلُّ شيء، واسمع قوله تعالى: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾ [البروج:١٦].

وهناك شيءٌ آخر تطالعنا به الآية الكريمة: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الإسراء:١٦].

فالقرية حينما تفسُد يعاقب أهلها، وبعض معاني هذه الآية أن آخر علاج قبل أن يُهْلِك الله هذه القرية يُؤَمِّرُ مُتْرَفيها، فهو آخر علاجٍ وهو علاجٌ مُرٌّ؛ أن يتأمَّر المُتْرَف الغافل المُنْحَرِف.

روي عن رسولُ الله ﷺ: «إذا كَانَ أُمَرَاؤُكُم خِيَارَكُمْ، وَأَغْنِيَاؤُكُم سُمَحاءَكُمْ، وَأُمُورُكُمْ شُورَى بَيْنَكُمْ، فَظَهْرُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ منْ بَطْنِهَا، وإذا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ شِرَارَكُمْ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ بُخَلاءَكُمْ، وَأُمُورُكُمْ إلى نِسَائِكُمْ، فَبَطْنُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِها» [رواه الترمذي من حديث أبي هريرة].

المعنى الأول: أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يُهْلِك قريةً لعِصْيانِها وانْحِرافِها واسْتِغْنائِها عن منهج الله، فهناك قراءةٌ بتشديد الميم (أَمَّرنا) وهي قراءة شاذة، وهي قراءة علي وأبي العالية وأبي عمرو وأبي عثمان النهدي وهي تُناسِب هذا المعنى وهي: (أَمَّرْنا مترفيها) جعلنا مُتْرَفيها أُمراء ففسقوا فيها، وبالتالي هؤلاء الذين أُمِّرَ عليهم المُتْرَفون وساموهُم سوء العذاب لم يتوبوا، وقد تعجَبُ أحياناً من مصيبةٍ طاحِنة حلَّتْ ببلدٍ ثم ترى أهلها بعد ذلك أشدَّ تفلُّتاً مما كانوا عليه من قبل، وقد قيل: من لم تُحْدِث المصيبةُ فيه موعظةً فمصيبتُهُ في نفسهِ أكبر، فقرية انحرفت واستحقَّت الهلاك وضلَّتْ عن سواء السبيل بحسب قوانين الله عز وجل، وآخر علاج: أَمَّرْنا مُتْرَفيها ففسقوا فيها، ولم يتب الذين كانوا متلبسين بالفسق والفُجور، ولم يعودوا عن ضلالتهم، فحقَّ عليهم القول فدمَّرناها تدميراً.

والمعنى الثاني: وإذا أردنا أن نُهْلِك قريةً قبل أن نُهلِكها ننذِرُها ونأمر مُتْرَفيها أن يستقيموا فلا يستقيمون، ولِمَ قال الله مترفيها؟ المترفون هم المُبَذِّرون الذين يعيشون لشهواتِهم والأغنياء الذين ينفقون أموالَهم على المعاصي والآثام والعلوِّ في الأرض، والترف في آياتٍ ثمانية اقترن بالكفر، والمُتْرَف هو إنسان يعيش للدنيا فقط، وهؤلاء المُتْرفون معقِدُ أنظار الناس، والناس تَبَعٌ للأقوياء والأغنياء؛ ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾، وهو المعنى الثاني فإذا أردنا أن نُهْلِك قريةً لا نُهْلِكها ابتداءً إنما نُنْذِرها قبل أن نُهلِكها، والإنذار أمرْناهم أن يستقيموا من خلال كتابهِ وسُنَّةِ نبيه ونصيحة الناصحين ودعوة الداعين وخُطَب الخطباء وكتب المؤلِّفين أمرنا مُتْرَفيها ففسقوا فيها؛ أمرْناهم بالطاعة ففسقوا فيها فحقَّ عليها القول فدمَّرْناها تدميراً.

ثم إن الشيء الذي يمكن أن تستفيد منه كثيراً من خلال البحث أنْ تُنَزِّهَ الله عما لا يليقُ به، بمعنى: إذا خطر ببالِك معنىً أنّ الله أراد الضلال للناس، قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً ﴾ هذه الآية تحتاج إلى شرحٍ؛ أراد الهلاك أو أراد الضلال يجب أن تعلَم أنَّ الإرادةَ إذا كانت مُنصَرِفةً إلى الإنسان فهي إرادة سماح أو تأديب، أما إذا عُزِيَ الإضْلال إلى الله عز وجل فهو الإضْلال الجزائي المبني على ضلالٍ اختياري.

وهناك شيءٌ آخر في هذا الموضوع وهو أن كلَّ شيءٍ أرادَهُ الله تعالى وقع وهو الفعالُ لما يريد، أما نحن فنتمنى ونريد ولا يحققُ مما نريد إلا اليسير، لأننا ضعفاء ومحدودون، وكلُّ إنسانٍ له قدرةٌ محدودة، أمَّا ربُّنا عز وجل فهو فعالٌ لما يريد، المعنى الثاني أنّ كل شيءٍ أرادَهُ الله وقَع، وأنَّ كل شيءٍ وقع أرادَهُ الله فالأول واضِح، اقرأ قولَه تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد:١١].

أما الثاني فأيُّ شيءٍ وقع أرادهُ الله، فالعبارة هذه تُعكَس أراد ووقع ووقع وأراد، فإن أراد وقع وإنْ وقع الشيء أرادهُ الله، فهذه الفكرة على إيجازها تملأ قلبَكَ رضا، إنسان ارتكب حماقة كبيرة وسافر بوقتٍ معين، فأُصيب بمشكلة لا نقول: لو لم يسافِر لم يُصَب، إنما نقول: ما دام هذا الشيء وقع في مُلْك الله إذاً أرادَهُ، فإذا كان مع الجماد أرادهُ فعلاً، ومع المخيَّر أرادَهُ سماحاً.

لذلك قالوا: لكلِّ واقعٍ حكمة، وقد يكون الإنسان غيرَ حكيم، لكن ربنا عز وجل لحكمةٍ بالغة يوظِّفُ شر الناس لخير مطلق، فالشر لا وجود له إلا في النفوس، أما في العالم الماديِّ فالشرُّ هو مداواة، والشرير يريد أن يفعل شيئاً مزعجاً ويريد أن يؤذي، لكنه لا يؤذي إلا من يستحقّ الأذى، أو لا يؤذي إلا من يستحقّ التأديب، أو لا يؤذي إلا من يكون إيذاؤُهُ حكمةً بالغةً، ففي الواقع المادي لا يوجد شرٌّ مطلق، والشرُّ يأتي من مخلوق مخيَّر مقطوع عن الله في نفسه فقط، أما الأفعال فهي أفعال الله عز وجل، وكلُّها توظِّف الشر في الخير المطلق.

لذلك: كلُّ شيءٍ وقع أراده الله، وهذه المقولة تُلغي كلمة لو، ولكلِّ شيءٍ حقيقة، وما بلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أنَّ ما أصابَهُ لم يكن ليُخطِئهُ، وما أخْطأَهُ لم يكن ليُصيبَهُ، وكلُّ شيءٍ وقع أرادَهُ الله وكلّ شيءٍ أرادهُ الله وقع، وإرادة الله متعلِّقةٌ بالحكمة المطلقة، والإنسان أحياناً يريد شيئاً لا حكمة فيه، والسبب إمَّا أنه وقع تحت إغراءٍ شديد فطاشَ صوابُهُ أو تحت ضغطٍ شديد فاختلَّت رؤيتُهُ، أو لأنه يجهل، والجهل والإغراء والضغط هذه تلغي حكمة الإنسان، لكنَّ هذه المعاني التي تقع من الإنسان لا تليق بالله عز وجل، لذلك يجب أن نقول إرادة الله متعلقةٌ بالحكمة المطلقة، وحكمتُهُ المطلقة متعلقةٌ بالخير المطلق. وإذا عقلْتَ هذا فالمقولة ستجدها في آخر البحث مريحة ومطمئنة لنفس المؤمن. فإذا نظرت إلى كلِّ ما يجري في العالم بادئ ذي بدء تشعر براحةٍ كبيرة، والسبب أنَّ كلَّ شيءٍ وقع أراده الله، ومعنى أن الله أرادهُ: أنه لو لم يقع على نحو ما وقع لكان الله تعالى ملوماً في ذلك، ولكان الذي وقع على نحوٍ آخر نقْصاً في حكمة الله عز وجل فالذي وقع أراده الله، والذي أرادَهُ الله وقع، والإرادة الإلهية متعلِّقةٌ بالخير المطلق، والحكمة المطلقة متعلِّقةٌ بالخير المطلق.

وآخر شيءٍ أشير إليه أنَّ لكل واقعٍ حكمةً قد تُكشف بعد حين، قد تنشأ مشكلة من سببٍ بسيط، والإنسان لضعف إيمانِهِ يقول: ليت هذا لم يقع؛ فالله عز وجل أراد شيئاً كثيراً مثلاً السيدة عائشة رضي الله عنها كانت في إحدى الغزوات مع رسول الله ﷺ، وكما ورد في «صحيح البخاري» كانت خفيفة الوزن، فلما قادوا جملَها ظنوها في الهَوْدَج وساروا وقد خلَّفوها وراءهم، فلما فاتَها الجيش التَفَتَ أحد الصحابة المتأخرين خلف الجيش وهو صفوان بن المعطِّل السّلميّ ثم الذكواني فرآها فعامَلَها كأُمِّهِ وغضَّ بصره عنها وسار بها حى أدرك الجيش، فأراد المنافقون أن يثيروا فتنة، وحديث الإفك معروفٌ وهو مذكور في سورة النور، قد يقول أحدكم لو أن الذي قاد الجمل تَفَقَّدَها، ولو أنَّها استيقظت ولو لم تغفُ لما كان هناك حديث إفك؛ مشكلةٌ طويلة عريضة بقيت قرابة شهر وبعض أهل المدينة يُرْجِفون فيها، والمنافقون وجدوا مادة دسمة جداً، وتكلَّموا وأخذوا حُرِّيَتَهُم، والمؤمنون سكتوا وتألَّموا ووقعت مشكلة وفتنة، هذا

الحديث وهذه القضية الكبيرة سببُها غفلةٌ من السيدة عائشة رضي الله عنها، والذي قاد الجمل لَيْتَهُ تفقَّدها، ولما استيقظت وجدتْ نفسَها بعيدةً عن الجيش، صفوان ابن المعطل في أعلى درجات الأدب والحياء، فعل ما ينبغي أن يكون، فصارتْ هناك مشكلة، فماذا قال الله عز وجل؟

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النور:١١].

فالله تعالى امتحن الناس، وكانت عملية فرز وهذا هو الأمر الأول، فالمؤمن ظنّ بنفسِهِ خيراً والمنافق عبَّر عن حِقْدِهِ وضغينتِهِ وفرَحِهِ، والمؤمن سكت، والكافر تكلَّم. والأمر الثاني: لئلا نتوهَّم أن الوحي قضية متعلقة بالنبي ﷺ وأنه أمرٌ سهل، فلو أن النبي ﷺ يملِك أمر الوحي لحلِّ المسألة بدقيقة واحدة وبآية واحدة، فالوحي تأخَّر قرابة شهر، وليس مع النبي ﷺ أدلة إثبات وليس معه أدلة نفي، والمنافقون يمرحون ويتكلمون ما يشاؤون، والنبي ﷺ يتألَّم أشدَّ الألم، والسيدة عائشة أصابَها مرضٌ شديد، وأُمُّها مرتبكة وأبوها مضطرب، وكذلك رسول الله ﷺ في حيرة؛ أيُعقلُ أنْ تفعل زوجتُه ما يقولون؟ وما شعور الزوج إن تحدث الناس عن زوجتِهِ أنها زانية؟ وما شعور والدة الفتاة ووالدُها؟ وما شعور المؤمنين؟ تقول: يا رب! لو أنها ما غفلت لما وقع حديث الإفك كلِّه؛ فما دام الشيء وقع نقول: قد أرادَهُ الله، وقد يبدو لك أنَّ شيئاً كبيراً وقع لسببٍ يسير وهذا السبب الصغير مقدَّر من الله عز وجل؛ فقد امتحن المؤمنين وفرزَهُم وارتقى بعضهم وسقط بعضُهُم وظهرت نُبُوَّة النبي ﷺ، وظهر أنَّ الوحي شيء مستقلٌّ عن إرادة النبي ﷺ ولا يملك له جلْباً ولا دفعاً، وتأخُّرُ الوحي أربعين ليلةً فيه حكمةٌ بالغة وقِسْ على هذا كلَّ شيءٍ.

وفي صلح الحديبية أُمليتْ على النبي شروط غير معقولة، وافق عليها النبي ﷺ لكن الصحابة ما ارتاحوا لهذه الشروط، سيدنا عمر قال: أوَلَسْنا مؤمنين؟ قال النبي: بلى. قال: أوَلَيْسوا مشركين؟ قال النبي: بلى؛ قال عمر: فعلام نُعْطي الدَّنِيَّة في دِيننا؟!

[رواه البخاري، عن المسور ومروان] ثم ظهر فيما بعد أن وثيقة صلح الحديبية كانت فيها حكمة ما بعدها حكمة، وكان فيها سياسة ما بعدها سياسة، وانعكس الأمر على كفار قريش.

أردت من هذا كلِّه أنَّ الشيء إذا لم يعجبْك فانتظر ولا تتعجَّل في إبداء رأيك، وما دام أنه وقع فقد أرادهُ الله، وقُلْ هذه المقولة: لكلِّ واقعٍ حكمة وقد يكون الذي أوْقع هذا الأمر من الناس ليس حكيماً وقد يكون أحْمَق ومنحرفاً فلأنه وقع فقد أراده الله، أمَّا عظمة الله عز وجل فتتبدَّى في أنه يوظِّف الأشياء غير الحكيمة في حكمةٍ لا تعلمُها أنت ولحكمةٍ مطلقة.

فإنسان يفحص صدر فتاة تطلب التوظيف ويُعطي الفتاة نتيجة فحص فتاة أخرى مصابة بالسل، فهذه الفتاة حينما تعلم أنها مصابةٌ بهذا المرض، وقد ابتعد عنها أهلُها بسبب ذلك، وعزلوها عنهم، واسودَّت الدنيا في وجهها، فهذا الذي أعطى النتيجة متسرِّعاً ألم يقع في خطأ كبير؟ بلى، لكن هذه الفتاة حينما علمت بهذه النتيجة انهارت أعصابها، ثم أرادت أن تتوب إلى الله عز وجل فتابَتْ وصلَّت وتحَجَّبَتْ ثم علمت بعد حين أنها صحيحة وليست مريضة، فربنا وظَّفَ خطأً هذا الموظف في الخير المطلق، فهذه نقطة مهمّة جداً، لكل واقعٍ حكمة وما دام أنه وقع فاطْمَئِن، الله عز وجل لا يريد إلا الخير، أما الشرُّ المطلقُ في الكون فهو غير موجود، ولا يمكن أن يكون مع الله شرٌّ مطلق، لكن يكون شرٌّ نسبي موظَّفٌ للخير المطلق.

العدل

من صفاته تعالى: العَدلُ.

قال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف:٤٩].

﴿ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [فصلت:٤٩].

من معاني العدل

العدل صفة من صفات الله تعالى، وهي مصدر عَدَلَ يَعْدِل عدلاً فهو عادل، فالله تعالى هو الحَكَمُ العَدْلُ.

الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى عدْل في خلقه، وعدْل في تشريعه، وعدْل في أمره التكويني، وفي أفعاله، أي: عدل في خلقه، وعدل في أمره، وعدل في فعله، خلق، وأمر، وفعل، فمن صفاته العدل.

هو عدْل في خلقه، فمكان اليد مناسب جداً، وفي موقع متوسِّط، والشيء المعتدل الذي هو بين الإفراط والتفريط، فمفتاح الكهرباء مثلاً إذا وضع في مكان يتناسب مع أهل البيت، فالأب يحرِّك يده إلى مستوى معين فيستخدمه، والأم والابن وجميع من في البيت يستعملونه براحة فهذا المكان معتدل، لو كان مرتفعاً لاحتاج الأمر إلى سُلَّم، ولو كان منخفضاً مع الأرض لاحتاج الأمر إلى أن ينبطح الإنسان ليتألَّق المصباح، أمّا أن يكون هذا المفتاح في مكان معتدل بين الارتفاع والانخفاض فهذا المكان اسمه مكان معتدل، والاعتدال من العدل والاعتدال هو التوسّط، ودائماً التَّوسُّط هو الموقف الأكمل بين الإفراط والتفريط.

ولو أنَّ الإنسان رأى في كأس الماء كلَّ الكائنات الحية لما شرب الماء، فلو أنَّ العين بلغت من الدِّقَّة بحيث ترى كلَّ شيء لاستحالت حياتنا شقاءً، ولو أنَّ العين بلغت من ضَعْفِ الرؤية ألا ترى الشيء الخطِر لهلكنا، إذاً في الحالة الأولى إفراط وفي الثانية تفريط، فعتبة الرُّؤية لها حدٌّ معتدل، فالله سبحانه وتعالى عدُل في خلقه.

وأمّا عن عتبة السمع، فهناك أصوات لا تسمعها، ولو سمعتها لما نمت الليل، فالموجات الصوتية تخمد، وليست كالأمواج الكهرطيسية التي لا تخمد، وقد أطلقت مركبة إلى كوكب المشتري وبقيت مركبة الفضاء تطير في الفضاء بسرعة أربعين ألف ميل في الساعة، فقضت ست سنوات إلى أن وصلت، وأرسلت منه رسائل بالراديو، وكما يقولون: فإن الأمواج الكهرطيسية لا تخمد بل تبقى سَعَتُها هيَ هيَ، لذلك فهذه الأمواج الكهرطيسية هي سبب البث الإذاعي، فالأمواج الصوتية العادية تتخامد، ولو كانت كالأمواج الكهرطيسية، لسمعت في دمشق مثلاً كلَّ صوت في الأرض، كصوت أمواج البحار، ومعامل الفولاذ، وانفجارات البراكين، ولأصبحت الحياة مستحيلة، إذاً عتبة السمع وتخامُد الأصوات خلق معتدل.

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ [القمر: ٤٩].

إذاً فبصرك بقدر، وسمعك بقدر ورؤيتك بقدر، والإنسان أحياناً تُجرَح يده فلو أمسك باب الثلاجة عندئذٍ لأحسَّ بلسع الكهرباء الساكنة، ولو تناول طعاماً فيه حمض لتألم، فيقال لك: عرق ملح، ولو أنَّ الأعصاب الحسية نمت أكثر مما هي عليه لأصبحت الحياة مستحيلة، وكذلك أعصاب الضغط وأعصاب الحس والسمع والرؤية والحركة.

فمفصل المرفق في مكان معتدل بحيث يمكن أن تأكل، ولو لم يكن هذا المفصل أو كان في مكان آخر فلا بدَّ أن تضع الصحن على الأرض وتنبطح وتأكله بلسانك، ولا يوجد طريقة ثانية فمكان المفصل معتدل.

وضع اليد على الكتف، فلو كانت على الورك إلى الأسفل مع القدم لفسد كثير من أمرك، أو لو أنَّ العين في قِمَّة الرأس أو في الظهر أو في الكتف، لاختلَّ نظام حياتك وعملك، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار:٦-٨].

أي: خلقك أيها الإنسان بحواسك وأعضائك وأجهزتك والغدد الصماء وجهاز الهضم والقلب والرئتين، وكل ذلك باعتدال، إذاً: فسوّاك فعدلك.

وكذلك تجد الاعتدال بخيوط النسيج، فلو أنَّ الثوب يهترئ من لبسة واحدة لشقَّ الحال على الناس، فليس معقولاً أن تتصوَّر إنساناً اشترى قطعة جوخ وفصّلَها، وأخذ قياسات، الحين بعد الحين، وبعد شهر تسلَّمها صاحبها، ثم لبسها لبسةً واحدةً واهترأت! فترى الخيط له متانة معتدلة تلبسها سنة أو سنتين وتهنأ بها، ثم تهترئ، إذاً فالخيوط تماسكها باعتدال.

وهذه الدجاجة تعطي كلَّ يوم بيضة، فلو أعطت كلَّ شهر بيضة لكان البيض غالي الثمن كثيراً، ولو كان ثمن العلف للبقر يفوق ثمن حليبها فلا يُربي أحد بقراً، إذاً كميَّة الحليب الذي تنتجه البقرة بالقياس إلى ثمن العلف معتدل.

ويمكن أن تتفكَّر في مخلوقات الله، فتشعر وتتحقق: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾، لا إفراط ولا تفريط ولا تهوَّر ولا تقصير، ولا مبالغة ولا إيجاز، بل كلُّ شيء خلقه الله باعتدال، فهو عدل في خلقه.

بُعد الأرض عن الشمس باعتدال، فلو أنَّ الشمس أقرب لأصبحت الأرض فرناً، ولو أنها أبعد لأصبحت قبراً جليدياً، إذاً الشمس والقمر بحسبان والمسافات بمنتهى الدراسة الدقيقة.

والطفل يبقى في بطن أمه تسعة أشهر، ولو بقي خمس سنوات فأمر لا يُحتمل، ولو كان الحمل أسبوعاً واحداً لأصبح عندك مئتا ولد، وهذا شيء لا يُحتمل أيضاً، ولو كان المبيض عند المرأة ينتج البويضات إلى ما لا نهاية كالرجل لكنت تراها في الخامسة والثمانين حاملاً يجيئها المخاض، وهي عجوز بلا أسنان، فعدد البويضات معتدل، وحينما تنفد هذه البويضات في سن اليأس، أي: في الخامسة والأربعين إلى الخمسين فلا حمل من بعد، فهذه رحمة الله بالمرأة، فهو عدل في خلقه.

هذه أمثلة من خلق السموات والأرض والشمس والقمر والليل والنهار، ولو كان النهار خمسين ساعة وطاقتك ثماني ساعات، تفتح المحل وتغلقه، وتذهب إلى البيت، وتنام في النهار وغيرك يعمل، تعود وتعمل مرة ثانية فحياة لا تحتمل، ولو جعل النهار خمسين ساعة والليل خمسين ساعة تنام وتستيقظ، وتعمل، وتنام، وتستيقظ، وتعمل، ولعمّ الخلل، وانعدم النظام، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص:٧١-٧٢].

إذاً: يجب أن تؤمن بأنَّ طول الليل وطول النهار وبُعد الشمس والقمر عن الأرض، وحجم القمر والأرض كلُّه عدل وبقدر.

ولو أنَّ حجم الأرض خمسة أمثال حجمها الحالي، فوزنك يتضاعف خمسة أمثال، وتصبح حركتك أشغالاً شاقة لأنَّ وزن الإنسان متعلق بحجم الأرض، والدليل وزن الإنسان على سطح القمر سدس وزنه الحالي يهبط من ستين كيلو إلى عشرة.

إذاً: حجم الأرض وكثافتها وقوة جذبها وبُعدها عن الشمس وعن القمر وهي تجري وتدور، كل ذلك باعتدال، فسبحان من خلق فسوَّى.

وأمَّا المحاصيل، فلو أنَّ القمح ينضج تباعاً كالبطيخ، لاحتجنا إلى أن نمسك سنبلة سنبلة لنتبين هل نضجت فنقطعها أم لا فنتركها؟ لكنَّ السنابل تحتاج ثلاثة أشهر، ثم تُحصد كلُّها دفعة واحدة، وتجمع القمح في يوم واحد، أمَّا الفواكه فتنضج تباعاً.

إذاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار:٦-٨].

فالله سبحانه وتعالى عَدْلٌ في خلقه، أي: خلقه في درجة مناسبة حكيمة معتدلة مدروسة كما يقولون.

إذا استيقظت صباحاً وصليت الفجر، وجلست كي تفكِّر في مخلوقات الله، فيمكن أن تمشي في هذا الباب الطيب الذي يزيدك معرفةً بالله إلى مسافات طويلة، فانظر كلَّ شيء تر أمره إلى الاعتدال!

تصوّر لو كان قِشرُ البندورةِ للبطيخ، فلن تأكل بطيخة في حياتك لأنها لا تنتقل معك من مكان إلى آخر، وتصور قشرَ البطيخ للبندورة، فتصير كلُّها قشراً.. القشر معتدل والحجم والقِوام والطعم معتدل والحلاوة معتدلة فخلق ربنا عجيب.

وقد يصنع الإنسان حلويات بعيارات غير مدروسة فتنبو على الذوق، أما ربنا عز وجل فقد خلق فقدر فتأكل التفاح والإجاص والكمثرى والعنب والتين والبلح، وكلُّه باعتدال.

إذاً: أول معنى من معاني العدل عدل في خلقه، يعني خَلَقَهُ بحكمة بالغة، وهذه آية أخرى تعبر عن هذا المعنى نفسه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ (٧٣) ﴾ [الأنعام:٧٣].

يعني بالحق بالدرجة الحكيمة، المعتدلة التي لا تزيد ولا تنقص، فتأمَّل خلقك، ثمَّ تأمَّل طعامك؛ وكذلك أجِل نظرك في خلق الإبل قال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ (٢٤) ﴾ [عبس:٢٤].

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ (٧) إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ (٨) ﴾ [الطارق:٥-٨].

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) ﴾ [الغاشية:١٧-٢٠].

هذا في خلقه فاعتبروا يا أولي الألباب.

والآن من صفاته جل جلاله أنَّه عدل في أمره: أمرك أن تصوم ثلاثين يوماً في العام فلو أمرك أن تصوم ستة أشهر، فشيء فوق طاقة البشر، فثلاثون يوماً هذا هو الحدُّ المعتدل، وأمرك أن تُصلي خمس مرات فلو كانت خمسين صلاة، وكلُّ صلاة خمسون ركعة لما أطقنا ذلك فالأمر معتدل، قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦].

فالصيام إذاً معتدل، والحجُّ في العمر مرة، والزكاة ربُع العشر، مقدار معتدل، الشريعة عدل إذاً، ولكن انظر في قوانين البشر إنَّ بعض الضرائب بالمئة ثمانون إلى ثلاث وتسعين، فكم يشعر الإنسان أنه مغبون؟ أمَّا الزكاة فربُع العشر، النسبة المعتدلة بالألف خمس وعشرون ليرة وبالمئة ليرتان ونصف، وفي مئة ألف ألفان وخمس مئة، وفي مليون

خمسة وعشرون ألفاً فالرقم مقبول، ومعه راحة نفسية، فالزكاة، والصيام، والحجُّ كلٌّ باعتدال، وحتى الأوامر فمثلاً غُضّ من بصرك، قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النور:٣٠].

ولو قال: غضوا أبصاركم لَهَلَكنا جميعاً، ولكن جاء الأمر: «من أبصارهم» فإذا حصلت مفاجأة غير متوقعة وبأقل من عُشر الثانية غضضت بصرك فلا شيء عليك، فالأمر معتدل.

أمرُ غضِّ البصر معتدل، وأمر الزكاة معتدل، وأمر الصوم معتدل، فإن سافرت رخّص لك بألا تصوم: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٤].

وإن كنت على سفر فصلِّ ركعتين فقط في الرباعية، اقصُر من الصلاة.

وأنت على موعد مع السيارة ومع الطائرة ومع المطار وفكرك مضطرب، فقال لك: صلِّ الظهر ركعتين، واجمع جمع تقديم وجمع تأخير، فالشرع معتدل، والله عَدْلٌ في خلقه، وعَدْلٌ في أمره.

وبعد، فلنا وقفة عند العدل في أفعاله، لقد تحدثنا عن العدل في خلقه وعن العدل في أمره، وبقي العدل في فعله، فيجب أن تعلم علم اليقين أنَّ في الكون عدالة مطلقة، لكن قد تُفاجأ بسؤال، إنَّ فلاناً مستقيم بعمله التجاري، فمحله التجاري كله منضبط، أسعاره مسجلة، ومعتدلة، ولديه مستندات كاملة، فجاءه موظف وافتعل مخالفة، وكتب ضبطاً، وزجّه في السجن، أليس هذا ظلماً صريحاً؟

الجواب: هذه الحادثة بحد ذاتها هي ظلم ظاهري، أما لو ربطت حياة هذا الإنسان في بيته، مع أهله وجيرانه، ومع من هم دونه ومع من هم فوقه، وجمعت الحسابات كلَّها بعضها إلى بعض، لرأيت في هذا البلاء منتهى العدل، وبالتعبير التجاري هناك حساب

جارٍ وهناك حساب السندات، في حساب السندات كل حساب على حدة، أما في الحساب الجاري فتضم الحسابات بعضها إلى بعض.

حادثة جرت من عشر سنوات، اثنان تشاجرا في سوق من أسواق دمشق، أحدهما معه سلاح فأطلق رصاصة، فأخطأت خصمه، وهناك من سمع الشجار فمدَّ رأسه من دكانه فجاءت الرصاصة في عنقه قريباً من عموده الفقري، فشُلَّ فوراً.

فاستوقفني رجل وقال: أنت تحدثنا عن عدالة الله، فما صنع هذا؟ إنه رجل صالح فتح دكانه ليسترزق ويسعى على عياله وهو يبيع أقمشة، ولا ذنب له، سمع شجاراً، فمدَّ رأسه فجاءت هذه الرصاصة في عنقه قريباً من عموده الفقري فأصبح مشلولاً، فأين عدالة الله؟ قلت: والله أنا أعرف أن الله عادل، ولكنك أطلعتني على فصل من فصول هذه الحادثة، ولعل لها فصولاً لا نعرفها، لا أنا ولا أنت، وأنا أسلم لعدالة الله.

فوالله الذي لا إله إلا هو؛ إنها من غرائب الموافقات: وهي أن صديقاً لي من حي الميدان حدثني بعد عشرين يوماً عن حادثة غريبة فقال: لنا جار كان وصياً على أموال أولاد أخيه الأيتام، وبقي لهم معه عشرون ألفاً -ثمن بيت- والحادثة قديمة، وكان البيت ثمنه عشرون ألفاً، فرفض أن يعطيهم هذا المبلغ فشكوه إلى أحد علماء الميدان، وهو الشيخ حسين خطاب رحمه الله تعالى، فاستدعاه واستدعى أولاد إخوته، فأصرَّ على عدم دفع المبلغ الذي عليه فقال الشيخ حسين رحمه الله بالحرف الواحد: «يا بني هذا عمكم، فإياكم أن تشتكوا عليه للقضاء، هذه الشكوى لا تليق بكم، ولكن اشكوه إلى الله» هذه الواقعة تمَّت الساعة الثامنة مساءً، في اليوم الثاني مدّ رأسه من الدكان فأصابته الرصاصة فشُلَّ جسمه.

وقال لي رجل: هل من المعقول أن يعاقبني الله على ذنب لم أفعله حتى الآن؟ قلت: هذا العقاب جزاء ذنب قديم، فيجب أن تؤمن بعدالة الله المطلقة.

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء:٧٩]: عقوبة بذنبك يا ابن آدم. وقال ﷺ: والذي نفسي بيده ما توادَّ اثنان فيفرق بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما. [أخرجه البخاري في «الأدب المفرد»، وأحمد في «مسنده» من حديث أنس].

ويقول ﷺ: ما اختلج عرق ولا عين إلا بذنب وما يدع الله عنه أكثر [رواه الطبراني عن البراء].

ويقول ﷺ: لا يصيب عبداً نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر [الترمذي من حديث أبي موسى الأشعري].

يجب أن تبلغ درجة من اليقين، لأن رسول الله ﷺ يقول: «اعمل ما شئت كما تدين تدان» وتمامه:

«البِرُّ لا يَبلَى والذنب لا يُنسى والديّان لا يموت، اعمل ما شئت، كما تدين تدان» [مصنف عبد الرزاق عن أبي قلابة مرسلاً] تكون باراً بوالديك فالله عز وجل يلهم أبناءك أن يكونوا بررة بك وإن تخدِم تُخدم، «أنفق بلال! ولا تخش من ذي العرش إقلالاً» [البيهقي في «شعب الإيمان» من حديث أبي هريرة]، «أَنفقْ أُنفقْ عليك» [رواه الشيخان وأحمد من حديث أبي هريرة >] ولا أعتقد إلا أن أكثر القراء لديهم من مثل هذه الوقائع والأحداث الكثيرة، والعبرة منها كلِّها: أنه كما تدين تدان، وكذلك اعمل ما شئت فإنك مجزي به.

طبعاً هذه حكايات لكن؟ نحن نقتنص ما بها من عبرة، وأنا متيقن أنه لا يقع شيء في الأرض إلا وفق عدالة مطلقة، فدائماً إذا سمعت حكاية أو حادثة فيها ظلم، فسأنصحك هذه النصيحة: قل لنفسك: لقد سمعت فصلاً أو عدة فصول من هذه الواقعة وبقي فصل لا أعرفه، ولو عرفته لرأيت العدالة المطلقة، فاعرف الفصل الأخير دائماً ولا تتسرع، وتمهل ولا تحكم وقل: الله أعلم، وكفى بربك بعباده خبيراً بصيراً، الله يعلم ونحن لا نعلم.

فاعلم علم اليقين أن الله عز وجل عدل في خلقه، وعدلٌ في أمره وعدلٌ في فعله، أفعاله كلُّها عادلة.

شيء آخر: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى:٣٠].

﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ﴿٥٩﴾﴾ [الكهف:٥٩].

وتقرأ عن زلزال أصاب البلدة الفلانية، فلعلك تفهم الزلزال فهماً مادياً من أنه اضطراب القشرة الأرضية، هذا الزلزال قوته ثماني درجات بمقياس رختر، فأغادير في شمال إفريقيا كانت من أجمل مدن المغرب، تقع على البحر الأطلسي لكن فيها من الفسق والفجور ونوادي العُرْي، والملاهي الليلية، ودور البغاء والفنادق الغارقة في الإثم حتى قمتها مما لا سبيل إلى وصفه، فبمدة ثلاث ثوان أصبحت أغادير قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، فاعتقدْ جازماً أن الزلزال بحكمة ولحكمة يريدها الله سبحانه، قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل:١١٢].

نصيب المؤمن من صفة العدل

إذا أراد إنسان الزواج، فإنه يخطب عشر سنوات حتى يجد من يطمئن إليها، لأنه كما يبدو له أنه سيبقى معها العمر كلَّه، أربعين أو خمسين سنة، وقال أحدهم: لمّا بدأت والدته تخطب له بقيت تخطب خمسة عشر عاماً، ثم استقرَّ الرأيُ على فتاة كانت قد ولدت يوم خرجت والدته لأول مرة للخطبة؛ ويقولون: الزوجة رفيقة العُمر ولا بد من الأناة والتروّي لاختيارها، فأنت سوف تعيش في جوار الله ورحمته إلى الأبد، وهل هناك ذاتٌ تستحق أن تعرفها غير الله عز وجل؟ وهل هناك موضوع أخطر من أن تتعرَّف إلى الله تعالى، فلذلك ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ [الأعراف:١٨٠] فإذا قلت: يا لطيف، يا رحيم، يا غني، يا قدير، ألا ينبغي أن تعرف ما معنى قدير؟

وهناك أشخاص كثيرون يصابون بمرض، فيقول الطبيب لأحدهم: ليس لك أمل في الشفاء، فتراه ينهار! لأنه لا يعرف أن الله قادر على شفائه مهما يكن المرض عضالاً، ومهما يكن كلام الأطباء قطعياً، يخلق من الضعف قوة، ومن الضيق فرجاً، ومن اليأس مخرجاً، وعندما يقول الإنسان: يا قدير وييأس فهو لا يعرف القدير، والذي نريد أن نقوله: هو أنك إذا عرفت القدير زالَ عنكَ اليأس، وأنا أؤكد أنك إذا أيقنت أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يشفيك من أخطر مرض وبِلا سبب فأنت ذو إيمانٍ حقاً، ولا يأس مع الإيمان، يقول العلماء: «يا رب لا كرب وأنت الرب»، هل يتألم الإنسان والله موجود؟ وهل يخاف والله موجود؟ فهو يطمئنه، ينصره ويقويه ويشفيه فاسمعوا كلام سيدنا إبراهيم في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الشعراء:٧٥-٨٥].

يخلق، ويهدي، ويرزق، ويشفي، ويحيي، ويميت، ويغفر؛ ذلكم الله رب العالمين لذلك أنت تقول: «يا رب لا كرب وأنت الرب»، وأكرر وأعيد هذا الكلام الدقيق؛ لا يحق لمؤمن بالله أن يحزن، فالله معك فأحسن الظن وثق بالله، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ ﴾ [المائدة:١٢].

فمثلاً إذا كان هناك شخص قوي نسبياً في المجتمع وقال لآخر: أنا معك فلا تخف، وهذا رقم هاتفي، فقد يمنعه وقد لا يمنعه، وقد، وقد،... ومع ذلك يطمئنُّ قليلاً، لكن المؤمن إذا طمأنه الله فالأمن محقّق وقال سبحانه: ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ

مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ [المائدة:١٢].

وبعد، فلماذا تتعلم أسماء الله وصفاته الفضلى؟ من أجل أن تسعَدَ بها، فتعرف أن الله رحيم، لتعلم أن الله يعلم، فهل تراقب نفسك؟ ولتعلم أن الله قدير وأنه غني...إلخ، إذاً حينما تعلم أن الله سبحانه وتعالى قادر على شفائك من مرضك وأنت مؤمن إذاً فلا تيأس.

ولماذا كانت نِسَب الانتحار في أعلى مستوياتها في بلاد الغرب، لأنهم لا يعرفون الله من خلال أسمائه، ولكنها في بلاد مظاهرها المدنيَّة متواضعة، والحياة فيها خشنة والأمور صعبة، ومع ذلك فالانتحار فيها نادر جداً!! والسبب هو الإيمان بالله عز وجل.

كان لنا أستاذ في الجامعة في علم النفس، فحضر مؤتمراً لأمراض النفس في أوروبا، وقال لنا: لقد قلت في المؤتمر: إنَّ نِسَبَ الأمراض النفسية في بلادنا قليلة جداً، والسبب أننا نؤمن بالله ونرضى بقضائه وقدره، والحقيقة أن المؤمن يسلم قياد نفسه لله ويقول: هكذا يريد الله، هذه مشيئة الله، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وهذا ما يحول بينه وبين التوترات النفسية، وأجمل حديث:

عَنْ أُسامَةَ قالَ: كُنْتُ عِنْدَ النبيِّ ﷺ وسَلَّمَ إِذْ جاءَهُ رَسُولُ إِحْدَى بَناتِهِ وعِنْدَهُ سَعْدٌ وأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ ومُعاذٌ أَنَّ ابْنَها يَجُودُ بِنَفْسِهِ فَبَعَثَ إِليها «لله ما أَخَذَ ولله ما أَعْطَى، كُلٌّ بأَجَلٍ فَلْتَصْبِرْ ولْتَحْتَسِبْ» [متفق عليه].

الذي أخذه له، والذي أعطاك تفضَّل به عليك، فإذا أيقنت أن لله ما أعطى وله ما أخذ فلا مشكلة إذاً.

موت طفل صغير في أسرة إيمانها ضعيف يسبب آلاماً لا تحتمل، بينما صحابي جليل له ابن مريض بمرض عُضال، فجاء من السفر وهو قلق عليه قال: كيف ابني؟ قالت: له: ما كان منذ اشتكى أسكن منه الساعة وأرجو أن يكون قد استراح، ففهم منها أنه قد شُفي، فأعدت له الطعام، وفي بعض الروايات أنها تزينت له وفي الصباح قالت له: لو أنَّ قوماً أعاروا قوماً عارية لهم فسألوهم إياها أكان لهم أن يمنعوهم؟ قال: لا. قالت: فإن الله كان أعارك ابنك عارية ثم قبض إليه فاحتسب واصبر، لما قالت له: في أهدأ حال، يعني هو ميت، يقولون: إنه ذهب إلى النبي ﷺ وقصّ عليه الأمر الذي جرى كله، فقال ﷺ: «بارك الله لكما في غابر ليلتكما» [الطيالسي، البيهقي، ابن حبان، أحمد، والبخاري ومسلم مختصراً] وتروي الأخبار أنه أنجب غلاماً من ذريته عشرة كلهم صاروا حفظة للقرآن.

إذاً ذاك حادث وفاة الابن في أسرة مسلمة، ولكن حادث وفاة الابن بأسرة غير مؤمنة، كثيراً ما تُجنُّ الأم فوراً، أو تكاد.

إذاً: معرفة أسماء الله من أجل أن نسعد بها، وأنت مع الله إلى أبد الآبدين فإذا عرفته في الدنيا فهذا عين العقل، ولك أن تعرفه قبل فوات الأوان، أن تعرفه وأنت في حياتك الدنيا معافى صحيح الجسم، مسرور.

فأما حظ العبد من صفة العدل فهو أن يحترز عن طرفي الإفراط والتفريط، فلا إفراط ولا تفريط، ففي أفعال الشهوة يحترز عن الفجور الذي هو الإفراط وعن الجمود الذي هو التفريط.

وقد نجد إنساناً كما يقال: «زير نساء»، إنه غارق في الشهوة إلى قِمَّة رأسه، عدواني، ينتهك أعراض الناس، هذا فجور، وقد تجد إنساناً كما قالت المرأة: «يا أمير المؤمنين! إن زوجي يصوم النهار ويقوم الليل، لم ينتبه سيدنا عمر رضي الله عنه فقال: نِعْمَ الرجل زوجك، فقال له كعب بن سُور: إنها تشكو زوجها في أمر مباعدته إياها عن

فراشه، فجاء به ونصحه، وقال له كعب: إن لك ثلاثة أيام بلياليهن -يعني للعبادة- ولها يوم وليلة»[(١)] [رواه عبد الرزاق في المصنف عن الشعبي].

وعن أبي موسى الأشعري قال: دخلت امرأة عثمان بن مظعون على نساء النبي ﷺ فرأينها سيئة الهيئة فقلن لها: ما لك؟ ما في قريش رجل أغنى من بعلك؟ قالت: ما لنا منه من شيء أما نهاره فصائم وأما ليله فقائم. فدخل النبي ﷺ فذكرن ذلك له.

قال: فلقيه النبي ﷺ فقال: «يا عثمان أما لك فيَّ أسوة؟» قال: وما ذاك يا رسول الله! فداك أبي وأمي. فقال: «أما أنت فتقوم بالليل وتصوم بالنهار وإن لأهلك عليك حقاً، وإن لجسدك عليك حقاً، فصلِّ ونمْ وصم وأفطر» قال: فأتتهم المرأة بعد ذلك عطرة كأنها عروس فقلن لها: مه؟! قالت: أصابنا ما أصاب الناس [رواه أبو يعلى والطبراني بأسانيد بعض أسانيد الطبراني رجاله ثقات].

فإذاً: نحن حينما نعرف صفة العدل، نعرف كيف نتخلَّق بالأخلاق التي ترضي الله في ضوء هذه الصفة، قال العلماء: أن نحترز عن الإفراط وهو الفجور، والتفريط وهو الجمود، ونبقى في الوسط وهي العفَّة، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ ﴾ [المؤمنون:٥-٧].

هذا الموقف العدل في علاقتك بالزوجة.

أما مع الأولاد، فإياك أن تعطيهم عطاءً يفسدهم أو أن تحرمهم حرماناً يحقدون به عليك، فأعطِ الواحد منهم المبلغ الكافي، وأعطه حاجته، ولو أعطيته فوق حاجته

---

(١) ذلك أنه هجرها لانشغاله بالعبادة وقد كان قال له:

زهدني في فرشها وفي الحلل ... أني امرؤ أذهلني ما قد نزل
في سورة النمل وفي السبع الطول ... وفي كتاب الله تخويف نزل

فقال ذلك القاضي: إن الله تعالى أحل لك من النساء مثنى وثلاث ورباع.. لك ثلاثة أيام... القصة!

فإنك قد أفرطت، ولو أعطيته أقلَّ من حاجته فإنك قد فرَّطت، وقال ﷺ لهند بنت عتبة وقد قالت له: إن أبا سفيان رجل شحيح، وليس يعطيني من النفقة ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم، فقال: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف» [متفق عليه من حديث عائشة].

وفي أفعال الغضب يُحترز من التهوُّر الذي هو الإفراط والجُبن الذي هو التفريط، ويبقى في حدٍّ وسط وهو الشجاعة، وفي العقل يُحترز من الدهاء والخبث والمكر والخداع أو من البلاهة والغباء، ويبقى في حدٍّ كما قال سيدنا عمر رضي الله عنه: «لست بالخبِّ ولا الخبُّ يخدعني»، أي: لستُ من الغباء بحيث أُخدَع ولا من الخبث بحيث أخدع. حينما قال الله عز وجل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة:١٤٣] أي: في وضع معتدل بين الإفراط والتفريط.

وفي تربية الأولاد من السهل أن تكون عنيفاً، والعنف لا يحتاج إلى بطولة، ومن السهل أن تكون ليناً، واللين لا يحتاج إلى بطولة.وقد ورد: علموا، ولا تعنفوا، فإن المعلِّم خير من المعنِّف.

وأيضاً لا ترخِ له الحبل فيتجاوز حدَّه، فالاعتدال أن يبقى ابنك راغباً فيك خائفاً منك «رغباً ورهباً»، وهذا حد دقيق جداً فدائماً الحالات المتطرفة سهلة، فلا تكن ليناً فتُعصر، ولا تكن قاسياً فتُكسر «مثل المؤمن مثل السنبلة تستقيم مرة وتخرُّ مرة، ومثل الكافر مثل الأرزة لا تزل مستقيمة حتى تخر ولا تشعر...» [بنحوه أخرجه مسلم من حديث كعب ابن مالك]، والخير أن تكون بينك وبين الناس شعرة إن شدوها أرخيتها وإن أرخوها شددتها فهذه هي الحكمة، الحكمة أن يكون الذين حولك في حَيرة من أمرك، هم يرجونك ويخافونك في وقت واحد، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣].

إذاً: فالله سبحانه وتعالى عدل في خلقه، وعدل في أمره وعدل في فعله ونحن «المؤمنين» ينبغي أن نقف بين الإفراط والتفريط، وأن نكون معتدلين في كل أفعالنا.

البقاء

من صفاته جل جلاله: البقاء.

قال تعالى: ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه:٧٣].

وقال تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

من معاني البقاء

البقاء ضدُّ الفناء، شأن الخلق الفناء، وشأن الله البقاء، شأن الخلق أنَّ كلَّ من عليها فان، وشأن الخالق أنه باقٍ على الدوام، إلا أنَّ كلمة (بقيَّة) قد تعني طاعة... قال تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ ﴾ [هود:٨٦].

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾... أي: طاعته خيرٌ لكم.

الله جلَّ جلاله أودع في الإنسان الشهوات، وهذه الشهوات حياديّة يمكن أن نستخدمها وفق منهج الله وبخلاف منهج الله، إن مارستَ الشهوات وفق منهج الله

فأنت قد أخذت بقية الله، كسب المال أنواعٌ كثيرة محرمة، يكون اغتصاباً، سرقةً، تدليساً، كذباً، غشّاً، خداعاً، أمّا التجارةُ الشرعيةُ عن قبولٍ ورضا وصدقٍ وأمانةٍ فهذه بقية الله وهي خيرٌ لكم، هذه المرأة الأجنبية محرَّمٌ أن تنظر إليها، وهذه وتلك، إلا أن الزوجة والمحارم بقية لك من النساء فلك أن تنظر إليهنَّ.

فالبقية هي الطاعة... وسرُّ تسمية البقية الطاعة أن الله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان شهوات يمكن أن نتحرَّك من خلالها على نحو واسعٍ جداً، إلا أنَّ من هذا التحرُّك الواسع تحرُّكاً منهجيّاً، تحرُّكاً شرعيّاً، تحرُّكاً وفق ما أمر الله، ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٌ لَّكُمۡ﴾... لذلك فالمؤمن لو عرض عليه مالٌ كثير إن لم يكن شرعياً يركله بقدمه يقول: الله هو الغني، ويسأل الله الغنيَّ أن يغنيه مالاً حلالاً من فضله.

أحياناً تدعو امرأةٌ ذات منصب وجمال شابّاً طائعاً لله يقول: معاذ الله: إني أخاف الله ربَّ العالمين، بقية الله لهذا الشاب هي زوجته.

إذاً البقاء ضدُّ الفناء، وبقية الله طاعته وانتظار ثوابه... أحياناً الطاعة تكون مجهدةٌ ومتعبة وفيها كُلفة، وما سُمِّيَ التكليف تكليفاً إلا لأنه ذو كُلفة، لكنَّ هذه الكلفة تمضي ويبقى الثواب، أمَّا المعصية فممتعة، والمتعة تمضي ويبقى العقاب، فهذا كلُّه شيء عابر، متاعب الطاعة عابرة، ولذائذ المعاصي عابرة... ما الذي يبقى إلى أبد الآبدين؟ ثواب الطاعة، وجزاء المعصية. فالمؤمن يفكر فيما سيبقى، لا فيما سيفنى.

وقد قيل: ألا يا رُبَّ شهوة ساعةٍ أورثت حزناً طويلاً، أحياناً شهوة ساعةٍ تسبِّب مرضاً جلدياً مزمناً إن لم يكن قاتلاً فيصيب قلبَ هذا الإنسان المنحرف: الآلامُ والحزن والغمّ والضيق والقلق والخوف، وما لا سبيل إلى وصفه. اللذة انتهت في ربُع ساعة، وبقيت الآلام إلى عشرين عاماً.

لذلك فالعاقل هو الذي يتحرَّك وفق منهج الله، فلدينا آيةٌ في هذا المعنى وهي قول الله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القصص:٥٠].

هناك معنى مخالف لهذا المعنى؛ أي أنك إذا انطلقت وفق هدى الله عز وجل فلا شيء عليك، وفق منهج الله لا حرج عليك ولا إثم.

تتوق نفسك إلى النساء فتزوَّج، لا شيء عليك، يمكن أن يلتقي بأهله، وأن يصلي قيام الليل، وأن يبكي في قيام الليل، لأنه لم يفعل شيئاً خلاف منهج الله، يمكن أن تكسب مالاً حلالاً تشتري به طعاماً وشراباً وثياباً لنفسك ولأهلك ولأولادك ولزوجتك، ويمكن أن تستمتع بجمال الطبيعة وأنت تصلي وتُقبلُ لأنك وفق منهج الله، إنك تتبع الهوى وفق ما أمر الله عز وجل... ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾... المشكلة أن تتبع الهوى دون منهج الله، أن تتحرَّك حركةً عشوائية، أن تنطلق إلى حيث تريد دون أن تنظر إلى قواعد الشرع.

وهناك معنى ثالث للباقيات وهي الباقيات الصالحات، وهي نتاج الاستقامة مع الله... البقاء ضدُّ الفناء وهذا ورد في اللغة، وقد عرفت أيضاً أن بقية الله طاعته أو انتظار ثوابه، أما الباقيات الصالحات: فالإنسان يجتهد ويجتهد ويؤدي امتحاناً وينتظر النتائج... ينتظر التكريم، ينتظر احتفالاً تكريمياً له، ينتظر أن يدخل إلى الجامعة، ينتظر أن يصبح ذا مرتبة علمية عالية، ينتظر أن يكون مرموقاً في المجتمع، هذا الذي ينتظره... لذلك قال ﷺ في كلام عميق ولطيف جداً: «أوصيكم بالأنصار، فإنه كرشي وعيبتي، وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئتهم» [رواه البخاري من حديث أنس بن مالك].

الأنصار أدَّوا الذي عليهم وبقي الذي لهم... والشاب التائب قد أدى ما عليه من صلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ وطاعةٍ لله وتلاوةٍ وذكرٍ وغَضٍّ للبصر وصدقٍ في الحديث، وعفةٍ عن المحارم وتحريرٍ في الدخل، وإنفاقٍ شرعي... أدى الذي عليه... والذي بقي له؟ كلُّ خير.

وأنت -أيُّها المؤمن- تعيش في زمنٍ صعبٍ، في زمن الفتن، في زمن النساء الكاسيات العاريات، في زمن الشهوات المستعِرة، في زمنٍ القابض فيه على دينه

كالقابض على جمر، في زمن ترى أنَّ كلَّ ما حولك يدعوك إلى المعصية، في زمن ترى أنَّ استقامة الإنسان على أمر الله مجهِدة.

أنت إذا فعلت هذا وضبطت نفسك، وحملت نفسك على طاعة الله ماذا بقي لك؟ بقي لك ثواب الطاعة، بقي لك الإقبال على الله، بقي لك التوفيق.

ولنعلم جميعاً أن هناك خيراتٍ لا يعلمها إلا الله تنتظر المؤمن... لذلك قال ﷺ:

«اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا، واعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلاةَ، وَلا يُحافِظُ عَلَى الوُضُوءِ إلا مُؤْمِنٌ» [سنن ابن ماجه من حديث ثوبان].

أي لن تستطيعوا أن تُحصوا الخيرات التي سوف تأتيكم من طاعتكم لله.

أنا أخصُّ بكلامي هذا؛ الإخوة الشباب... شاب في ريعان شبابه، لا أحد في الأرض يمنعه من أن يطلق بصره في الحرام، وأذكر في هذه النقطة أنَّ هناك في منهج الله عز وجل محرَّمات، وفي القوانين الوضعية لكلِّ مجتمع محرَّمات، أحياناً تنطبق بنود المحرَّمات في منهج الله على بنود المحرَّمات في قوانين العباد.

فالسرقة حرَّمها الشرع والقوانين الوضعية تحرِّمها، والرشوة حرَّمها الشرع والقوانين تحرِّمها، وهناك كثير من البنود تتفق فيها القوانين مع الشرع، فترك السرقة قد يكون خوفاً من الله وحده، وقد يكون ترك السرقة خوفاً من العقاب الأليم الذي ينتظر السارق بحسب القوانين، إلا أنَّ الله سبحانه وتعالى شاءت حكمته أن يبقي في الدين بنوداً لا تتفق مع القوانين أبداً، منها غضُ البصر... فليس في الأرض كلِّها قانونٌ يمنعك أن تنظر إلى امرأة لا تحلُّ لك... فإذا غضضتَ بصرك عن محارم الله فالدافع إلى هذا خوف الله وحده.

فهناك حالات... كأن تكون في البيت والنافذة مفتوحة، وامرأة الجار خرجت إلى الشرفة بثيابٍ متبذِّلة، ليس في الأرض كلِّها جهةٌ يمكن أن تحاسبك إذا نظرت إليها، لا

هي تعلم ولا أحد يعلم، لكنك إذا قلت كما قال سيدنا يوسف... قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف:٢٣].

لو قلت: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾... وغضضتَ البصر، فأنت بهذا تخاف ممن؟ من الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

ثق -ولا أتألَّى على الله- وفي هذا الزمن الصعب أنَّ كلَّ غضِّ بصرٍ يرقى بك إلى الله.

أما الباقيات الصالحات فهي الأعمال الصالحة التي تبقى، وما سواها يفنى.

... بيتك مهما كان فخماً عند الموت تتركه، زوجتك مهما أحسنت اختيارها عند الموت تتركها، الإنسان في الدنيا له ثلاثة أشياء: ماله، وأهله، وعمله... ماله يبقى في البيت، وأهله يشيِّعونه إلى شفير القبر ثم يرجعون، أما الذي يدخل معه فعمله.

ورد في الأثر: يا قيس إن لك قريناً تدفن معه وهو حي، ويدفن معك وأنت ميِّت، فإن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك، ألا وهو عملك [الأربعين الودعانية لابن ودعان، عن قيس بن عاصم المنقري].

قالوا: «القبر صندوق العمل، إن كان العمل كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك».

الآية الكريمة: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف:٤٦].

﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾... تقام وليمة فيقول لك: كلَّفتني مئات الألوف شيء نفيس، يدعو الناس ويفتخر بماله وبأذواقه، يشتري مركبةً فخمة جداً؛ يتيه بها على الناس، يسكن في بيت فخم ويعرضه على كلِّ زائر ويتكلَّم على مساحته وأبهائه، وغرفه، وأثاثه... المال والبنون، أولاد يرتدون أجمل الثياب متألِّقون، وهو

يقول لك: هذا ابني، وهذه ابنتي... ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾... فقد عرَّف الله المال والبنين أما قوله تعالى: ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ فهي محط الرجاء... وفي القرآن ما يسمى بمفهوم المخالفة... فقد قال لك: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾ لم يقل لك تبقى أو لا تبقى، فالفناء ضمني، لأنها ليست باقيات ولكن قال: ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ أي الذي يبقى الأعمال الصالحة.

بعد أن تعرف الله حقاً، وبعد أن تستقيم عقيدتك، وبعد أن تستقرَّ قناعاتك فليس أمامك إلا العمل الصالح، ويتفاوت الناس عند الله بأعمالهم الصالحة والدليل قول الله عز وجل: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢) ﴾ [الأنعام:١٣٢].

أنت لك عند الله درجة بقدر عملك الصالح... أي أن حجمك عند الله بحجم عملك، وكلما كنت صادقاً في خدمة الخلق أجرى الله على يديك الأعمال الصالحة.

أقول مرةً ثانيةً وثالثة... كلُّنا ضعفاء، كلُّنا فقراء، كلُّنا عاجزون، إلا أن الله سبحانه وتعالى يمنحنا من الأعمال الصالحة بقدر سلامة توجهنا نحوه، وبقدر صدقنا، فقد قال تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا (٢٣) ﴾ [الأحزاب:٢٣].

إنَّ الدنيا لها سقف، فمهما كان حجمك المالي كبيراً، لا تستطيع أن تأكل إلا ما تملأ به معدتك، لا تستطيع أن ترتدي إلا ثوباً واحداً، لا تستطيع أن تنام إلا على فراشٍ واحد، لا تستطيع إلا أن تكون في مكانٍ واحد في وقتٍ واحد، ففي الدنيا سقف، إلا أن العمل للآخرة بلا سقف، يمكن أن يهدي الله بك رجلاً، أو رجلين، أو ثلاثة، أو أربعة، أو خمسة، ولكل أجر فأنت في مزيد.

نبيّنا محمد ﷺ كان رحمةً للعالمين، سيدنا الصديق كان المؤسس الثاني للدولة الإسلامية، حينما ظهرت حروب الردة وقف الموقف الحازم فكان بحقٍّ المؤسس الثاني،

سيدنا عمر فتحت أكثر هذه البلاد في عهده، وكلُّ هؤلاء المسلمين في شتى أقطار البلاد في صحيفته، فأنت كن طموحاً فبإمكانك أن تصل إلى مراتب عالية، فإلههم إلهنا، وإلهنا إلههم، والمنهج واحد... الكتاب واحد، والنبي ﷺ واحد، وما عليك إلا أن تسير في طريق الإيمان... ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾.

وهناك تفسير آخر ولكنه مركَّب... الباقيات الصالحات هي: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أي إذا سبَّحته، وحمدته، ووحدَّته، وكبَّرته، معنى ذلك أنك عرفته، وإن عرفته أطعته، إن أطعته سعدت بقربه.

أما الباقي حقيقة فهو الله عز وجل... فسبحان من له البقاء، أما نحن فلنا الفناء.

فهل هناك أعظم من سيدنا رسول الله ﷺ فقد مات... ماذا فعل الصديق؟ وأنا لا أعتقد أنَّ في الأرض إنسانين أحب أحدهما الآخر كما أحب الصديق رسول الله ﷺ، وكما أحبَّ النبي الكريم الصديق، أحبَّه حباً لا حدود له، إلا أنَّ هذا الحب ما حمله على أن يشرك، حينما كشف عن وجهه الشريف وقبَّله، وقال: طِبت حياً وميِّتاً يا رسول الله، ثم خرج وقال: من كان يعبد محمداً فإنَّ محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حيٌّ لا يموت [البخاري، عن عائشة].

أرأيت إلى التوحيد!! فأعلى درجات الحب لم تنقل هذا الصديق إلى الشرك، فالتوحيد هو الأصل...

فالله سبحانه وتعالى له البقاء، والبقاء صفةٌ من صفات ذاته... فنحن نعرف صفات الذات وصفات الأفعال... البقاء صفةٌ من صفات ذاته.

فأنا وأنت وأي شخص غيرنا باقٍ ولكن بإمداد الله له، فإذا قطع الله الإمداد حصلت الوفاة، فوازن بين إنسان حيّ ينظر ويتحرَّك، عيناه تتألَّقان، وينطلق لسانه، ويحرِّك يديه، ويمشي، وكلُّه آذان، وشعور وإحساس، يفكِّر، يلقي محاضرة، فإذا مات يصبح جثَّة هامدة، لا شيء، مسافةٌ كبيرة جداً بين إنسان يتحرَّك أمامك وجثة هامدة، إن لم تدفنها في أقرب وقت فإنَّها تتفسَّخ.

أحياناً يدفع الإنسان مليون ليرة لإصلاح شريان بقلبه، أما إذا مات فقد انتهى كلُّ شيء، وبعد أيام تتفسخ هذه الأجهزة.

فمن شأن الله عز وجل البقاء، ومن شأن الإنسان الفناء، أما الباقي فهو الله، أما نحن فممكنو الوجود، فإذا كنا موجدين فوجودنا لا بذواتنا بل بإمداد الله لنا، أوضح من ذلك أن وجودنا متوقفٌ على تناول الطعام والشراب.

سمعتُ أن بعض المساجين في تركيا أضربوا عن الطعام ثمانية أسابيع، مات منهم أكثر من عشرة أشخاص، فمن دون طعام تموت فهل يعدُّ الوجود ذاتياً؟ إنَّ وجودك متعلِّق بكأس الماء، وباللقيمات اللاتي تأكلها واللاتي يقمن صلبك، فمن كان وجوده متعلِّقاً بالطعام والشراب فليس وجوده ذاتياً، فحركتك متعلِّقةٌ بسيولة دمك، فلو تجلَّط الدم لانتهت الحركة، يقولون: جاءته خثرةً في دماغه، أو احتشاء في الدماغ، أو جلطة في الدماغ، أو نقطة في الدماغ، أصبح جثةً هامدةً.

وجودك متوقفٌ على إمداد الله لك، وفي أية لحظةٍ يقطع الله عنك الإمداد.

مثلاً: إذا كانت آلة تعمل على الكهرباء وعندك المفتاح الذي به تعمل أو تتوقف فإذا تبجَّحت الآلة مثلاً، وقالت: انظروا إلى حركتي. فإنك تضغط يدك على الزر فتتوقف، فهذا شأن الآلة الكهربائية، وهناك ألعاب للأطفال منها سيارات كهربائية لها حركة طائشة، فتجد صاحب الملعب يضغط ضغطة قليلة على مفتاح الكهرباء، يقطع الكهرباء عن هذه السيارات، فتثبت كل واحدة في مكانها وانتهى أمرها إلى السكون.

هذا تعريف... وهناك تعريف ثان... الدائم الوجود، الموصوف بالبقاء الأبدي والأزلي، أزلاً وأبداً، هو الأول بلا بداية، وهو الآخر بلا نهاية، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، هو الموجود أزلاً والموجود أبداً.

وقال بعضهم: «هو الموجود من أزل الأزل إلى أبد الآبدين». فكما أنه لا بداية فهو بلا نهاية كذلك، أما نحن فلنا بداية ولنا نهاية.

لكن البشارة أن المؤمن أثير عند ربِّه، فإذا حسن عمله في الدنيا وتوفَّاه الله عز وجل فهو في جنَّة الخلد إلى أبد الآبدين، في داخل الإنسان رغبة جامحة لأن يعيش طويلاً، فلا يوجد إنسان على وجه الأرض إلا ويتمنى أن يعيش مئة عام، أو مئة وعشرين، ولا يرغب أن ينتهي أجله، فلدينا شيء فطري... نحبُّ وجودنا، ونحبُّ سلامة وجودنا، ونحبُّ استمرار وجودنا، ونُحبُّ كمال وجودنا.

فإذا آمن الإنسان واستقام على أمر الله وجاءته منيَّته وهو مؤمنٌ فقد حقَّق استمرار وجوده، هو في جنات الله إلى أبد الآبدين، والمشكلة الخطيرة أنَّ الذي لا يستقيم على أمر الله يستحقُّ النار قال تعالى: ﴿ وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الزخرف:٧٧].

أصعب شيء أن تكون في حالة لا حرب ولا سلم، لا يموت فيها ولا يحيا، فالموت مريح، لا يحيا حياةً مريحة، ولا يموت فيستريح، هذه هي المشكلة، فهذه المعاني الخطيرة التي جاء بها القرآن كيف نغفل عنها؟ كيف نتحرَّك في الحياة دون أن نحسب حساباً لهذه الحقائق؟ شيء خطير، فالله هو الذي خلق ويقول لك: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القمر:٥٤-٥٥].

ويقول لك أيضاً: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحاقة:٢٥-٣٢].

هذا كلام خالق الكون، والله الذي لا إله إلا هو لو قيل لك: تعالَ إلينا يوم الخميس للتحقيق معك لا تنام ليلتين، وهو إنسان سيسألك لكنَّه قوي فلا تنام الليل، فكيف إذا قال الله عز وجلَّ: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الحجر:٩٢-٩٣].

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم:٤٢].

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ [إبراهيم:٤٧].

أحد العلماء يقول: «الباقي هو الموجود»... ولكنَّ إذا أضيف إلى المستقبل فهو الباقي... وإذا أضيف إلى الماضي سُمِّيَ قديماً.

من زاوية الماضي قديم، ومن زاوية المستقبل باقٍ، هذا معنى أن الله قديم وباقٍ.

فالسيارة تحتاج إلى وقود، فإذا قطع عنها الوقود تتوقف عن الحركة، فهل حركتها ذاتية؟ لا... حركتها متوقِّفة على إمداد خارجي.

الباقي المطلق هو الذي لا ينتهي تقدير وجوده في الاستقبال إلى آخر، يعبَّر عن أنه أبديٌّ، والقديم المطلق هو الذي لا ينتهي، تمادى وجوده في الماضي إلى الآن، وسيستمر ويعبر عنه أنه أزلي... غير قابل للعدم، ففي المنطق هناك شيء واجب الوجود، وممكن الوجود، ومستحيل الوجود، إذاً مستحيل، وواجب، وممكن... كلُّ ما سوى الله ممكن، ومعنى ممكن أي: ممكنٌ أن يكون وممكنٌ ألا يكون.

ومستحيل الوجود يستحيل عقلاً أن يكون... والله سبحانه وتعالى غير قابل للعدم بوجه من الوجوه.

فكلُّ ما كان ذاتيَّ الوجود في الأزل والأبد فدوامه في الأزل هو القدم ودوامه في الأبد هو البقاء، فالله قديمٌ وباقٍ، أزليٌّ وأبديٌّ.

وقيل: «الباقي هو الذي لا ابتداء لوجوده، ولا نهاية لوجوده». فكلُّ شيء من الخلق له بداية وله نهاية، فأنت لك بداية، فقد قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ ﴾ [الإنسان:١].

تمسك كتاباً طُبع قديماً، وأنت مولود في سنة الأربعين والكتاب قد انتهى طبعه عام ثمانية وثلاثين مثلاً، معنى ذلك أنهم حينما انتهوا من طبعه، أنت لم تكن في الأصل موجوداً، ليس لك وجود... ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾... وبعد أن يموت الإنسان تُقام له التعازي ثلاثة أيام، وتُلقى كلمة تأبين يتحدَّث فيها المتحدثون عن أعماله، وبعد فترة من الزمن يطويه النسيان وكأنَّه ما كان، فأنت بين عدمين، بين عدمٍ يسبق وجودك، وعدمٍ ينتهي به وجودك... إذاً الإنسان فانٍ.

الإنسان بضعة أيام، فقد تجد من يعيش ثلاثين سنة أو أربعين، أو خمسين أو ستين سنة، فلو عاش ستين سنة وضربنا هذه السنين في عدد أيام السنة، وكذلك نستطيع حسابها بالساعات، ويمكننا أن نعدَّ وجبات طعامه التي تناولها، وكم نزهة ذهب إليها، وكم احتفالاً حضره، وكم تعزية حضرها، وقد أنجب أربعة أولاد وزوَّجهم، كلُّه محدود ويعدُّ عدَّاً، فالإنسان بضعة أيام كلَّما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منه.

فالتعريف العميق للإنسان أنه زمن، ومشكلة الزمن أنه يمضي، وتحرُّك الزمن يستهلك الإنسان، كائن يتحرَّك نحو هدف ثابت، كلَّ ثانية يقترب من هدفه، فمعنى ذلك أنك زمن، أنت فانٍ.

الباقي الذي لا ابتداء لوجوده ولا نهاية لوجوده، الباقي هو الأول بلا ابتداء، الآخر بلا انتهاء، والحقُّ باقٍ ببقائه، والخلق باق ببقائه.

فأنت موجود لا لأنك ذكيٌّ، ولا لأنك تعتني بصحَّتك، ولا لأنَّ أجهزة جسمك تعمل، أنت موجودٌ لأن الله يمدُّك بالوجود، فإذا أوقف إمداده بالوجود كنت لا شيء... كن فيكون، زُل فيزول...

ففي الحديث القدسي يقول رب العزة:

«يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً فَلا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلا مَن

أطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إلا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يا عِبادِي إنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بالليلِ والنَّهارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لكمْ، يَا عِبَادِي إنَّكُمْ لَنْ تَبْلغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبادِي لَوْ أنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً، يا عِبادِي لَوْ أنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كانُوا عَلَى أفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شيئاً، يَا عِبَادِي لَوْ أنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فسَألُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إنْسانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البَحْرَ، يَا عِبَادِي إنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيها لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ» [صحيح مسلم، من حديث أبي ذرٍّ].

قال العلماء: «الباقي هو الموجود الدائم الذي لا يقبل الفناء، ومنه استمداد البقاء، والذي لا ابتداء لوجوده، هو الذي يكون في الأبد على ما هو عليه في الأزل».

يكون الإنسان طفلاً صغيراً ثم يكبر، فما دام يتطوّر فليس باقياً، ثم يصبح هرماً... ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾... فقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [الحج:٥].

منذ سنوات كان الناس يعرفون إنساناً رياضياً لو أمسك بمركبة -مهما كانت قوية- لوقفت في مكانها ولم تتحرك، ولكن عندما أصبح في أرذل العمر صار ضعيف البُنية هزيلاً يئنُّ ويشكو... كلُّ حالٍ يزول، فما دام هناك تطوُّر فلا بقاء معه.

وهذا معنى جديد... الباقي: هو الذي يكون في الأبد على ما هو عليه في الأزل... فأنت كلَّ يوم تتطوّر، يضاف إلى معلوماتك معلومات، ينمو جسمك وتزداد خطوط وجهك، ويشيب شعرك، وينحني ظهرك، ويضعف بصرك، أي: تتطور، أما ربنا عز وجل فهو باقٍ لأنه كما هو في الأزل هو في الأبد.

الآيات التي وردت فيها صفة البقاء

قال تعالى: ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾ [طه:٧١-٧٣].

تعال معي إلى مثل أضربه لعله يقرب الفكرة، فلو خُيِّرت أن تركب سيارة لمدة ربع ساعة، وبين دراجةٍ تتملَّكها، فماذا تختار؟ لا شك أنك تختار الدراجة لأنها أبقى، ولو خيِّرت بين مركبتين الأولى تركبها ربع ساعة، والثانية تتملَّكها، فماذا تختار؟ تختار المركبة الثانية التي يبقى ملكها لك... فكذلك الآخرة... ﴿ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾ إذا اخترت ما عند الله خير إلى درجة غير معقولة وأبقى، الدنيا دار ابتلاء وإنها فانية، لذلك فكل إنسان يختار الدنيا على الآخرة متهم في عقله... والآية الثانية تقول: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

مَن العاقل؟ أهو الذي يتعلَّق بالفاني أم بالباقي؟ إن تَعَلَّقْتَ بإنسانٍ فهو فانٍ، إن تعلَّقت بمتاع الدنيا فهو فان، إن تعلَّقت بالغرائز والشهوات فهي فانية، أما إذا تعلقت بالواحد الديان فهو أبديٌّ باقٍ، وما لك عند الله فهو خير وأبقى.

وفي سورة طه قال تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾ [طه:١٣١].

﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾... ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾... فعطاء الله عز وجل للمؤمن خيرٌ وأبقى.

وفي سورة الشورى قال تعالى: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الشورى:٣٦].

والمؤمن تقوده رجاحة عقله إلى أن يختار الآخرة فيعمل لها، وعندئذٍ ربنا عز وجل يكرمه في الدنيا والآخرة.

وفي سورة مريم قال تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾ [مريم:٧٦].

نصيب المؤمن من معرفة الله الباقي

أما التطبيق العملي لصفة البقاء فقد قال العلماء: حظُّ العبد من ذكر الله الباقي أنك إذا أكثرت من ذكر بقاء الله كاشفك الله بالحقائق الباقية وأشهدك الآثار الفانية.

فمعنى ذلك أنَّ في هذه الحياة شيئين: شيئاً باقياً، وشيئاً فانياً، فهناك شيء مهما كان الإنجاز عظيماً ينتهي عند الموت، وهناك شيء يبدأ عند الموت، العاقل هو الذي يتعلَّق بالذي يبدأ بعد الموت: (الباقي)، ولا يعبأ بالذي ينتهي عند الموت.

فمثلاً يمكنك تزيين بيتك تزييناً عالياً، مهما كنت ذا ذوقٍ رفيع في تزيين البيت، فهذا التزيين حينما يموت الإنسان ينتهي مفعوله، يمكن أن تأكل أطيب الطعام، وأن تجلس في أجمل مكان وهذا كلُّه ينتهي عند الموت.

أما إذا دعوت إلى الله، إذا أسهمت في نشر الحق، إذا أسهمت في ترسيخ الفضيلة، إذا أسهمت في إصلاح ذات البين، إذا أسهمت في تعليم العلم، إذا أمرت بالمعروف، إذا

نهيت عن المنكر، إذا كنت سبب سعادة الأُسر، إذا بثثت الحق بين الناس، إذا كنت موفِّقاً بينهم، تجمع ولا تفرِّق، تحببهم بالله ولا تنفِّرهم، هذا كلُّه باقٍ بعد الموت ويكبر حجمه ومردوده، أحدكم يضع لقمةً في فم زوجته يراها يوم القيامة كجبل أُحد، فإذا هديت إنساناً فكلُّ الخير الذي يأتي من هذا الإنسان إلى يوم القيامة في صحيفتك، قد تتفاجأ في أن آلاف النَّاس مثلاً من ذرية هذا الذي هديته إلى الله كلُّهم في صحيفتك.

فلذلك لا يليق بالإنسان أن يكون لغير الله، لا يليق به أن يعمل لغير الله، لا يليق به أن يتوجه لغير الله، لا يليق به أن يكون محسوباً على غير الله... لا يليق بك أن تكون تابعاً لغير الله، لأنه هو الباقي وسواه فانٍ.

إذاً إذا توجَّهت إلى الله صادقاً أشهدك الله الباقيات والفانيات، فتعلَّقت بالباقيات وتركت الفانيات.

فلو كان عندنا فقاعة من الصابون وألماسة، فالفقاعة بحركة واحدة تتلاشى وتفنى، أما الألماسة فثمنها ثمانية ملايين ويزداد سعرها يوماً بعد يوم وعلى الدوام غالية... فكل إنسان يتعلَّق بالفانيات كمن يتعلق بفقَّاعة الصابون ويدع قطعة ألماس.

أرجحكم عقلاً أشدُّكم لله حباً... فالقصد من هذا الشرح أن تتعلق بالباقي، وألا تهتم بالفاني، أما إذا نظرت إلى عامة الناس فسوف تجد العجب العجاب، كلُّهم متعلِّقون بالفاني، معرضون عن الباقي... شهوات، أجهزة لهو، تفاخر، انهماك في الملذَّات، هذه كلُّها فانيات، أما الباقيات فقد أداروا لها ظهورهم، وأشاحوا بوجوههم فدفعوا ثمن جهلهم فاللهمَّ أعطنا ولا تحرمنا، أكرمنا ولا تهنَّا، آثرنا ولا تؤثر علينا، أرضنا وارضَ عنا، وصلى الله على سيدنا محمدٍ النبيِّ الأميّ وعلى آلهِ وصحبه وسلَّم.

عالم الغيب والشهادة

قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٧٣ ﴾ [الأنعام:٧٣].

وفي سورة الرعد قال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ٩ ﴾ [الرعد:٩].

وفي سورة المؤمنون قال تعالى: ﴿ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [المؤمنون:٩٢].

وفي سورة السجدة قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٦ ﴾ [السجدة:٦].

وفي سورة الزمر قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٤٦ ﴾ [الزمر:٤٦].

وفي سورة الحشر قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحشر:٢٢].

وفي سورة الجمعة قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الجمعة:٨].

وفي سورة التغابن قال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [التغابن:١٨].

من معاني عالم الغيب والشهادة

العالم من مادة العِلْم، والعِلْمُ إدراك الشيء على ما هو عليه مع الدليل، أو هو مقولةٌ مقطوعٌ بصحتِها تطابِق الواقع عليها دليل، فلو لم يكن عليها دليل لكانت هذه المقولة تقليداً، ولو لم تُطابِق الواقع لكانت هذه المقولة جهْلاً، ولو لم يكن مقطوعاً بصحتِها لعُدَّت هذه المقولَةُ وهْماً أو شكاً أو ظناً، فالعِلْم ليس شكاً ولا ظناً ولا وهْماً ولكنَّه قطْعي.

وإنني لا أُبالِغ إذا قُلت: إنَّ من أخَصِّ ما يختصّ به الإنسان العلم، وأكثر صفات الإنسان مشتركةٌ بينه وبين بقية المخلوقات، إلا أنه يتميز بقوةٍ إدراكيّة، وكرَّمَهُ الله بالعلم، وفي أثناء الحديث عن الكرامات يعدّ العلم أعظم كرامة ينالُها الإنسان من الله عز وجل، مع أنَّ هذه الكرامة ليس فيها خرْقٌ للعادات.

وبعد، فإن الله عالم يُحِبّ كلّ عالم، والناس رجلان: عالمٌ ومُتعَلِّم ولا خير فيمن سِواهُما، كن عالِماً أو متعلِّماً أو مسْتَمِعاً أو مُحِباً ولا تكن الخامسة فتهْلك. فالعلم إدراك الشيء على ما هو عليه بدليل، لو أنَّ الناس أدْركوا الحقائق على ما هي عليها، لما اختلفوا ولما تحاربوا ولما تخاصَموا ولما عاشوا في شقاءٍ ما بعْده شقاء.

فالقضية قضية علم بل إن الإنسان الكافر وهو في النار يتلوَّى من الحريق ينادي ويقول: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الملك:١٠].

فالذي بينك وبين أهل الدنيا هو العِلم، لذلك إذا أَرَدْت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردْتها معاً فعليك بالعلم، والعلم لا يُعطيك بعضَهُ إلا إذا أعطيتَهُ كُلَّك، فإذا أعطيتَهُ بعضك لم يُعْطِك شيئاً، ويظلُّ المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظنّ أنه قد علِم فقد جهِل.

قال العلماء: العلم عِلمان: إدراك ذات الشيء، والحكم على الشيء، تقول هذه الطاولة؛ فأنت تُدْرِك ذات الطاولة. أو تقول: هذه الطاولة متقنةٌ فأنت بهذه العبارة أطلقت حكمك عليها، إذاً: فإما أنْ تُدْرِك حقيقة الشيء وكُنْهَ الشيء وهويته، وإما أن تحكُم على هذا الشيء فالعلم عِلمان: إدراك الذات، وإدراك الصفات.

والعلم عِلمان أيضاً: علم نظريٌّ، وعلم عمليٌّ؛ علم تقتبسُهُ بإلقاء السمع أو إعمال الفكر أو قراءة الكتاب أو سماع المحاضرة. وعلم تستنبطه من الحركة والعمل، فالعلم الذي تستنبطه من الحركة والواقع العملي هو العلم العملي، والعلم الذي تستقيه من الدروس والكتب وإلقاء المحاضرات هو العلم النظري.

والعلم علمان مرة أخرى: عقليٌّ وسمعي؛ إمَّا أن تصل إليه بذاتِك وعن طريق التأمل، وإما أن تُصيخ السمع إلى غيرك عن طريق التلقّي، فإما أن تفكّر وإما أن تُصْغي، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠﴾.

تفكِّر، وتتأمل، وتتدبَّر، أو تصغي؛ تأخُذُهُ جاهزاً عن طريق السمع وتصْنَعُهُ عن طريق العقل، فعلمٌ يؤخذ عن طريق العقل، وعلمٌ يؤخذ عن طريق السمع، وعلمٌ تتلقّاه نظرياً، وعلمٌ تستنبطُهُ عملياً، وعلم أساسُهُ إدراك ذات الشيء، وعلمٌ أساسُهُ إدراك صفات الشيء.

وبالمناسبة أقول: هنا قيمٌ كثيرة يتفاضل بها الناس؛ فالمال قيمةٌ تفاضلية بين البشر، والوسامة والذكاء والقوة والوجاهة والنَّسَب فهذه كلُّها قيمٌ تفاضلية ولكنَّ الله تعالى لم يعتمِدها في تنزيل الناس المنازل، بل إن الله جلّ جلاله اعتمدَ قيمة العِلم، وهي

التي رفع شأنها، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر:٩].

وقال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [المجادلة:١١].

وقيل: رتبةُ العلم أعْلى الرُّتَب، والدليل أنَّ أقْوى إنسان فيما يبدو لك في الأرض لا يستطيع أن يتَّخذ قراراً إلا إذا سأل الخبراء؛ يؤلِّف لجنة من كبار العلماء في موضوعٍ ما، ويطرح عليهم سؤالاً فيُعطونَهُ خياراتٍ فيختار من بين هذه الخيارات، فمن الذي يحكم العالم إذاً؟ هم العلماء؛ فالذي بيده إصدار القرار يحتاج إلى خبرة العالم.

وقد قال العلماء: «هناك فرقٌ بين أن تُعْلِم وأنْ تُعَلِّم»، فالإعْلام إلقاء الفكرة بسرعة. ولكن علَّمْتُهُ: إلقاء الفكرة مع التكرار ومع الإتقان ومع التعليم والتحفيظ.

وقال بعضهم: التعليم تنبيهُ النفوس لتصوُّر المعاني، أما التعلُّم فتنبُّهُ النفس لتلك المعاني، فالتَّنبُّه الذاتي تعلّم، والتنبيه القسريُّ تعليم، وقد حلَّت نظريات التعلُّم مكان نظريات التعليم، فالإنسان لا يتعلَّم إلا إذا أراد أن يتعلَّم. وعنصر الاختيار أساسيٌّ جداً في التعلم، لذلك بعض الجامعات الآن تعلِّم الحقائق لا عن طريق التلقين، بل عن طريق البحث الذاتيّ، والبحثُ العلميُّ ينمو في الجامعات المتقدمة.

قال تعالى: ﴿ الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ ﴾ [الرحمن:١-٢].

أيُعْقَل أن يُعلَّم الإنسانُ القرآن قبل أن يُخلق؟ قال بعضهم: قُدِّم تعليم القرآن على خلق الإنسان تقديماً رُتَبياً لا تقديماً زمنياً بمعنى أنّ الإنسان لا معنى لوجوده دون منهجٍ يسير عليه. فالإنسان الشارِد الضائِع الذي لا يعْلم هو دابَّةٌ مُتفلِّتة، وقيمة الإنسانِ بالعلم. دخل على مجلس عمر بن عبد العزيز وفودُ المهنِّئين، وتقدَّمَهُم وفد الحجازيين، وتقدَّم هذا الوفدَ غلام يافع لا تزيد سِنُّهُ على اثنتي عشرة سنة، فانْزَعَجَ الخليفة من هذا

الغلام الذي يتقدَّم هذا الوفْد فقال: أيها الغلام اجْلِس أنت وليتقدَّم من هو أكبرُ منك سِنّاً، فقال هذا الغلام: أصْلَح الله الأمير؛ المرءُ بأصْغَرَيْهِ: قلبِهِ ولِسانِه، فإذا وهب الله العبْدَ لساناً لافِظاً، وقلْباً حافِظاً، فقد استحقَّ الكلام، ولو أنَّ الأمر كما تقول لكانَ في الأمة من هو أحقُّ منك بهذا المجلس، فدُهِشَ الخليفة.

درواس بن حبيب وهو ابن ست عشرة سنة دخل على هشام بن عبد الملك فانْزَعَج الخليفة وقال لحاجِبِه، ما شاء أحدٌ أن يدْخل عليَّ إلا دخل، حتى الصِّبْيان؟! فقال هذا الصبيُّ الناشئ: أيها الأمير إنَّ دخولي عليك لم يُنْقِص من قدْرِك شيئاً ولكنه شرَّفني، أصابتنا ثلاث سنين: سَنَةٌ أذابت الشَّحْم، وسَنَةٌ أكلت اللحم، وسَنَةٌ دقَّت العظم، ومعكم فضول مالٍ، فإن كانت لكم فَتَصَدّقوا بها علينا فإنَّ الله يجزي المتصدقين، وإن كانت لنا فعلام تحبسوها عنا ونحن أولى بها؟ وإنْ كانت لله فنحن عِبادُه، فقال هشام بن عبد المِلك: والله ما ترك هذا الغلام لنا في واحدةٍ عُذْراً.

لذلك قالوا: جمال الرجل فصاحَتُهُ، وسيدنا عمر بن الخطاب عملاق الإسلام والخليفة العظيم، كان إذا مشى في الطريق من شدة هيْبَتِهِ تفرَّق الناس أمامهُ، بل إنَّ الصِّغار إذا رأوْهُ تفرَّقوا ودخلوا إلى بيوتهِم، وذات مرةً مشى في سكك المدينة ورأى غِلْماناً صغاراً، فلما رأوْهُ هربوا إلا عبدالله بن الزبير بقيَ رابط الجأش، فلما وصل إليه قال: يا غلام لِمَ لم تهرب مع من هرب؟ فقال: يا أمير المؤمنين لستَ ظالماً فأخشى ظُلْمَك، ولستُ مذْنِباً فأخشى عِقابَك، والطريق يَسَعُني ويَسَعُك، فأعجب الخليفة بجرأته وحسن كلامه، ثم إن الله عز وجل يقول: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [العلق:١-٥].

قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء:٧٠] ولكرامة الإنسان على الله علَّمَهُ البيان (اللغة)، والشيء الذي يألَفُهُ الناس لا يثير اهتمامهم لألفته لديهم، ولا يوقظ فيهم حسَّ تعظيم الله الذي تكرَّم به عليهم. فأنت باللغة تتصل مع كلِّ الناس، فأنت صباحاً

تستمع لنشرة الأخبار فتعرف ما يجري في العالم فيتجمّع لديك الكثير من المعلومات، فمثلاً: هنا سقطت طائرة وهنا مذبحة وهنا قامت حربٌ أهلية وهنا خُطِفت طائرة وهنا عُقد مؤتمر وهنا... أليس كذلك؟ بهذه الأُذُن وبهذا النُّطْق بدقائق معدودات أحطت بالمعلومات كغيرك وفي بلاد متعددة، فاللغة أداة اتصال بين أفراد النوع، ويمكن أن تُعبِّر عن مشاعرِك وعن أفكارك باللغة قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام:٩١].

وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة:١٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [البقرة:٣١].

فهذه كلُّها أفعال العِلم التي وردت في القرآن الكريم، وسيدنا موسى لما التقى بالعبد الصالح استأذنه في مصاحبته ليتعلَّم منه مع نبوته وفضله، قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف:٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة:١١].

ومن الجدير أن أذكر هذه الفكرة: وهو أنَّ الله سبحانه وتعالى من أسمائه العليم، ولكرامة الإنسان على الله أعْطاهُ قوةً إدراكية يصبح بها عالِماً، ولقد بلغت كُشوفات الإنسان العلمية حدّاً يفوق الخيال.

فآينشتاين هذا العالِم الفيزيائي الذي اكتشف ما يسمى بالنظرية النسبية، وهي أن الخطوط في الفراغ ليست مستقيمة لكنها منحنية، وأنَّ كلَّ جسم يسير بسرعة الضوء يصبح ضوءاً، والضوء كتلتُهُ صفر وحجمُهُ لا نهائي، فأيُّ جسمٍ سار بسرعة الضوء صار ضوءاً، بل إنه إنْ سبق الضوء تراجع الزمن؛ وإن سار الجسم بسرعة الضوء صار ضوءاً وتوقَّفَ الزمن، فإن قصّر عن الضوء تراخى الزمن، فلو أمْكَنَك أن تنطلق من موقِع معركة اليرموك مثلاً وأن تصْعَدَ إلى الفضاء الخارجي بسرعة أعلى من سرعة الضوء بعد حين ترى المعركة وهي تقع، لأنها حينما وقعت صدر عنها موجات ضوئية إلى الفضاء الخارجي قبل ألف وأربعمئة عام تقريباً، فلو أنك سبقتَ الضوء لرأيت هذه المعركة كما هي وكأنها تقع الآن أمامك، ولو سِرْتَ مع هذه المعركة لصارت هذه المعركة أبديةً وتوقَّف الزمن، ولو قصَّرْت عنها لكانت رحلةٌ في الفضاء ساعة كالفِ سنةٍ على الأرض، وهو بعض معاني قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحج:٤٧].

فإذا ركِبْتَ مركبةً فضائية وسِرتَ بسرعة أقل من الضوء قليلاً عندئذ تساوي الساعة في الفضاء الخارجي مئة عام في الأرض، فالله عز وجل سمَح لهذا الإنسان أن يعْلم، وإنَّ الله عالِمٌ يُحِبُّ العالِمَ ورتبةُ العِلْم أعْلى الرُّتَب، فلذلك حينما يُغْفِل الإنسان قيمة العلم في حياته أو حين لا يعتني بإدراكِهِ ولا يعتني بالعلم ولا يطلُبُهُ يهْبط عن مستوى إنسانيته إلى مستوى لا يليق به، يقول تعالى: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [يوسف:٧٦].

وأحياناً يكون الإنسان في مجلس لا يستطيع أحدٌ أنْ يرُدّ عليه فيتكلَّم بما يشاء، فإذا اكتشف أنّ في المجلس من هو أعْلم منه يسكُت ولسان حاله يقول: سكَتُّ إجْلالاً لعِلْمِك، والإنسان من حِكْمَتِهِ البالغة أنه إنْ كان في المجلس من هو أعلم منه عليه أن يلزم الصمت، فإذا تكلَّم في حضرة من هو أعلم منه فقد أساء الأدب، ولكن الذي يعلم قد زانه أدب العلم، فتراهُ يُصغي للحديث بسمْعِهِ وبقلبِهِ ولعله أدرى بِه.

والله تعالى عالم الغيب، والغيب مصدر غاب، أي: استتر عن العين، غابت الشمس، أي: استترت وراء الأفق... بل إنَّ الغيب يعني كلَّ غائبة تغيب عن الحواس، وكلُّ شيء غاب عن علم الإنسان فهو غيب... لكنَّ هذه الكلمات، وتلك التعريفات بالنسبة إلى الإنسان ليس غير.

لو أنَّ إنساناً وقف خلف حاجز، فهذا الحاجز يُغيِّبُ عنه ما وراءه، أمَّا الذي يقف أمام الحاجز فإنه يرى كلَّ ما غيَّبه ذلك الحاجز، نقول: هذا المكان غيبٌ بالنسبة لمن يقف وراء هذا الحاجز، أمَّا الذي وقف أمامه فليس غيباً بالنسبة إليه، هذا كلام سوف ينفعنا كثيراً بعد قليل.

عالم الغيب، بالنسبة إلينا مُغَيَّب عنا، فلا أحد من بني البشر يعلم الغيب، والغيب أنواع... نوعٌ من الغيب استأثر الله به، لا يُعْلِمهُ أحداً من خلقه كائناً من كان... من هذا الغيب أن الله عنده علم الساعة، ومن هذا الغيب قيامة الإنسان الصغرى: الموت، ولحكمةٍ بالغةٍ جداً أنَّ الإنسان لا يعلم متى يموت، وهذا لصالحه، فلو علم لتباطأ بالتوبة وخسر الآخرة... فكلُّ شيءٍ يغيب عن علم الإنسان غيب، لكنَّ ربنا جل جلاله عالم الغيب والشهادة.

مثلٌ بسيطٌ جداً من يقف في غرفة ما لا يعلم ما يجري في الغرفة التي تليها، أمَّا ربُّنا جل جلاله فكلُّ شيء أمامه مكشوف ولا تخفى عليه خافية، فهو عالم الشهادة التي تشهدها، وعالم الغيب الذي يغيب عنك.

في بلدٍ مجاور وقعت حرب أهلية سببت مآسٍ كثيرة، استمرت هذه الحروب أكثر من ستة عشر عاماً، أكلت الأخضر واليابس، أعرف واحداً من أبناء دمشق يسكن في ذاك البلد المجاور وله معمل، وله تجارة، وقبل أن يقع أي حادث ضاقت عليه نفسه، وضاق به ذلك البلد أشدَّ الضيق، وتعثرت أموره، إلى أن انتقل إلى الشام هو وتجارته ومعمله، وبعد أن انتقل، بدأت المشكلات واحترقت المعامل وأُتْلِفَ المال، وانتهى كلُّ شيء إلى دمار وخراب.

مَن الذي علم ما سيكون؟ الله جل جلاله، فإذا كنت معه ألهمك رشدك، ألهمك تصرفاً يحفظك به، أو ألهمك تصرفاً ترضى بنتائجه، لأنَّ الغيب معلوم لديه، فأنت لا تعلم الغيب، قد تشعر بحاجة إلى أن تغادر هذا المكان، فتغادره، وبعد أن تغادره تنشأ مشكلة أنت عاجز عن مواجهتها، كذلك قد تشعر بانقباض في أن تسافر على هذه الطائرة، فتُحْجِم عن السفر عليها، فتسقط الطائرة، من الذي يعلم الغيب؟ الله وحده، إذا كنت مع الله فهو الذي يعلم الغيب ويحفظك بهذا العلم، يعلم الغيب ويوفِّقُكَ، يعلم الغيب ويلهمك رشدك، يعلم الغيب ويكيد لك، يعلم الغيب ويدبِّر أمراً يحفظك به... الغيب عند الله كالشهادة، عَلِمَ ما كان وعَلِمَ ما يكون، وعَلِمَ ما سيكون، وعَلِمَ ما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

إذاً لا يَعْزُبُ عن الله جلَّ جلاله مثقال ذرةٍ في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر... إذا كنت معه وهو الذي لا يغيب شيءٌ عن علمه فإنَّه يوجِّهك إلى الخير ويدفع عنك الشَّرَّ قبل أن يقع.

شيء لا يصدق أحياناً، أحداث خطيرة تقع، أنت قبل أن تقع يحفظك الله منها، يلهمك أن تغادر، يلهمك أن تنقل مالك من مكان إلى آخر، من جهةٍ إلى جهة، من عُملةٍ إلى عُملة، وأنت لا تدري، لأن الله يعلم الغيب، فإذا كنت معه وتؤدي حقوق العباد، وتقيم منهج الله يحفظك، وعلمه للغيب تنتفع به إذ ربنا جلَّ جلاله يصرِّف الأحوال ويقلِّبها لصالح عباده المؤمنين.

أما الشهود والشهادة، أي: الحضور مع المشاهدة، عالمِ الغيب والشهادة، أي أنت حاضر وتشهد أو غائب وتجهل، عالمِ الغيب، أي: غاب عنك، عالمِ الشهادة حضرت وشهِدت، إما بالبصر أو بالبصيرة، البصر رؤية العين، والبصيرة رؤية القلب، وعالم الغيب: حُجبت فجهلت .

الحضور والشهود هو الأصل، أما العلم والشهود فهو فرع، قد تحضر وتشاهد بأمِّ عينك، وقد تعلم وكأنك تشاهد.

لكن من اللطائف في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١﴾ [الفيل:١].

مع أن هذا الحادث لم نره نحن، فالله سبحانه وتعالى قال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾... قال بعض العلماء: «يجب أن يقع إخبار الله لك موقع الرؤية لمصداقية الله عز وجل».

شهدت فعلمت وغبت فجهلت، شهدت الحفل فعلمت وقائعه أو غبت عنه فجهلت وقائعه فهناك عالم الغيب، وعالم الشهادة، والله جل جلاله عالم الغيب والشهادة.

ويقول تعالى: ﴿الم ۝١ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة:١-٣].

أي أن الله جل جلاله لا تدركه الأبصار، غابت عنا ذاته وبقيت آثاره، نحن من آثاره نتعرَّف إليه وهذه مهمَّة العقل... أدواتٌ ثلاث للمعرفة، إمَّا أن ترى بحواسك، وإمَّا أن تدرك بعقلك، وإمَّا أن تتلقى خبراً بأذنك، هذه هي أدوات المعرفة وليس هناك أداةٌ أخرى.. إن كان هناك أداةً أخرى كالرؤيا الصالحة فيجب أن تكون مقيدةً بالشرع ولا نقبل رؤيا ولا إلهاماً، يخالف الشرع قيد أنمُلة... ديننا دينٌ كاملٌ تام... قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

لو أنَّ رجلاً رأى النبي ﷺ -طبعاً في المنام- هكذا قال العلماء، وأمره بما يخالف الشرع، تردُّ الرؤيا، ويثبت الشرع... بل لو أنَّ قاضياً رأى في الرؤيا أنَّ هذا الشاهد كاذب لا تقبل شهادته، وهو عنده في اليقظةِ صادقٌ فيجب ألا يأخذ بالرؤيا.

الرؤيا يستأنس بها ولا يعتمد عليها إطلاقاً، لا في حكم شرعي، ولا في إثبات قضية، ولا في تصحيح حديث، ولا في تقييم إنسان... الرؤيا والإلهام مصادر فرعية للمعرفة، إلا أنها يجب أن تنضبط بالشَّرع.

من معاني الغيب أيضاً، يؤمنون بالغيب، يؤمنون بشيءٍ غاب عنهم، ذات الله لا نراها لكن نرى خلق الله، مصير الإنسان لا نراه، لكنَّ الله أخبرنا عن مصير الإنسان إمَّا في جنةٍ يدوم نعيمها، أو في نارٍ لا ينفد عذابها.

الخلاصة أنَّ الغيب بالمعنى الثاني هو ما لا يقع تحت الحواس أبداً، الشيء الذي يقع تحت الحواس عالم الشهادة، والشيء الذي لا يقع تحت الحواس عالم الغيب، لكنَّ الله عالم الغيب والشهادة.

فإذا لم يؤمن الإنسان بالغيب أصبح كافراً له، ومن لوازم المتقين أنهم يؤمنون بالغيب، أي: عقلك يعطيك دليلاً قطعياً، على أنه لا دخان بلا نار، النار لا تراها، لكنك رأيت الدخان، وعقلك يعطيك دليلاً قطعياً على أنَّ في المسجد كهرباء وأنت لا ترى الكهرباء ترى آثارها، ترى حركة المراوح وتسمع تكبير الصوت، وترى تألُّقَ المصابيح فقط، تحكم على سريان تيار الكهرباء من آثاره.

بعضهم قال: إنَّ الغيب هو القرآن الكريم أو إنه القدر، لكن الغيب -حقيقة- كلُّ شيء غاب عن حواسِّك، أو كلُّ شيء غاب عن علمك، وعالم الشهادة كلُّ شيء شهدته فعلمته.

لقد ذكرت في بداية البحث أن الغيب أنواع، نوع من الغيب استأثر الله به، ونوعٌ أطْلَع بعض أنبيائه عليه.

قال الله تعالى: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الجن:٢٦-٢٧].

لذلك فإن النبي ﷺ، في أحاديث كثيرة، حدثنا عن أشراط الساعة، الكبرى والصغرى، وحدثنا عن آخر الزمان، كيف أن الأَمَةَ تلد ربَّتها، وكيف أن الحفاة العراة، رعاء الشاة يتطاولون في البنيان، وكيف يوسَّد الأمر إلى غير أهله، وكيف -كما روي عنه- يكون المطر قيظاً والولد غيظاً ويفيض اللئام فيضاً، ويغيض الكرام غيضاً. وكيف

يُؤمَر بالمنكر، ويُنهى عن المعروف، وكيف يُصدَّق الكاذب، ويُكذَّب الصادق، ويُخوَّنُ الأمين، ويُؤتمن الخائن.

هناك أحاديث كثيرة جداً عن أشراط الساعة، من أين جاء بها النبي ﷺ؟ هو لا يعلم الغيب بذاته إلا أن يعلمه الله به، وأكبر دليل على ذلك أنه لما جاءه وفدٌ من رعل وذكوان وعصية وبني لحيان فزعموا أنهم قد أسلموا، أعطاهم النبي ﷺ سبعين قارئاً ثم غدروا بهم في الطريق عند بئر معونة وقتلوهم [البخاري (٣٠٦٤) عن أنس]، ولم يعلم النبي ﷺ بهذه الواقعة، التي لها دلالة كبيرة جداً، أي أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب بذاته إلا أن يُطلعه الله عليه... بل إنه حينما اختار موقع بدر، جاء صحابي جليل اسمه الحُباب ابن المنذر، قال: يا رسول الله، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة، فقال هذا الصحابي الجليل انطلاقاً من غيرته على الإسلام والمسلمين: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل [السيرة النبوية، لابن هشام].

الله عز وجل أطلع النبي ﷺ على آلاف القضايا التي هي أقلُّ من هذا الموضوع، ولكن شاءت حكمته أن يعلِّمنا النبي ﷺ أدب الإصغاء إلى النصيحة، يعملنا النبي ﷺ وهو قدوتنا وأسوتنا أدب الإصغاء إلى النصيحة فلما سأله أين الموقع الذي اخترته؟ قال: هناك يا رسول الله، وأشار إليه، وأعطى الرسول ﷺ أمراً بالانتقال إليه.

إذاً: الغيب لا يعلمه إلا الله، الشهادة يعملها الإنسان في حدود إمكانه... فالغيب الذي يمكن أن يُطلع الله نبيه ﷺ عليه، أنواعٌ ثلاثة: غيب الماضي، وغيب الحاضر، وغيب المستقبل... غيب الماضي قبل الوقت الذي تعيش فيه، وغيب المستقبل بعد الوقت الذي تعيش فيه، وغيب الحاضر غير المكان الذي تكون فيه.

مثلاً: أنا في دمشق لا أدري ماذا يجري في حلب، حلب بالنسبة إليّ غيب حاضر، أما دمشق قبل مئة عام فغيبُ ماضٍ، وبعد مئة عام غيبُ مستقبلٍ، والله سبحانه وتعالى، يعلم غيب الماضي، وغيب الحاضر، وغيب المستقبل.

قال الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [آل عمران:٤٤].

هذا غيب الماضي... أما غيب الحاضر... فقد قال الله تعالى: ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال:٣٠].

أما غيب المستقبل... فقد قال الله تعالى: ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [الروم:٢-٤].

أريد أن أركِّز على هذه الحقيقة وأوضِّحها؛ فأنت إذا كنت مع الله، والله يعلم الغيب، يعلم غيب الحاضر، فالطرف الآخر وهم خصومك؛ يعلم ماذا سيفعلون بك، كما يعلم ماذا سيخططون لك، وهو يعلمهم، ويلْهمك شيئاً يقيك تخطيطهم، يلهمك تدبيراً يحميك من غدرهم، يلهمك خطّةً تنجو بها من مكرهم، فأنت إذا كنت مع الله فأنت مع عالم الغيب والشهادة الذي يفسد على الآخرين مكرهم، وما أحداث ليلة الهجرة بمجهولة لديكم... لذلك قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [التوبة:٥١].

لكن قد توجد مفاجآت، فهناك آلاف الوقائع والأحداث يفاجأ بها الإنسان، والإنسان البعيد عن الله قد يفقد كلَّ ماله في بضع دقائق، وأحياناً في دقائق قد يفقد أهله أيضاً، أما الإنسان المتوجه إلى ربّه عالم الغيب والشهادة، الذي يعلم ما كان، ويعلم ما سيكون، ويعلم ما هو كائن في أي مكانٍ آخر، فقد ينجيه من كلِّ كرب.

ذكر لي أخ أن دماراً كبيراً جداً وقع في مكان ما، وكان هو في المكان نفسه، قال لي: والله الذي لا إله غيره قبل خمس دقائق من وقوع الانفجار، أُلهمت أن أخرج من المكان

لكي أشتري الخبز، وما إن ابتعدت مئات الأمتار، حتى سمعت صوت انفجار أصمَّ الآذان، شيء مدمِّر، فإذا كنت مع الله كان الله معك، والله عز وجل إذا قال: إن الله مع المؤمنين، أو مع المتقين، أو مع الصابرين... فهذا يعني أنه معهم حفظاً، وتأييداً، ونصراً، وتوفيقاً.

لذلك فعلى الإنسان إذا همَّ بعمل شيء أن يصلِّي صلاة الاستخارة، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما، قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِي الأُمُورِ كُلِّهَا، كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ القُرْآنِ، يَقُولُ: «إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ، فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللهمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلاَ أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلاَ أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ، اللهمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِي الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ أَرْضِنِي» قَالَ: «وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ» [البخاري].

هو يعلم أنَّ هذه المرأة لا تُسعدك فيصرفها عنك ويصرفُك عنها، هو يعلم أنَّ هذه التجارة لا تُغنيك بل تفقرك، هو يعلم أنَّ هذا السفر ليس في صالح إيمانك... هو يعلم الغيب وأنت لا تعلم، فإذا فوَّضت، فقد فوَّضَ الذي لا يعلم لِمَنْ يعلم... وهذا ذكاء وتوفيق.

قد تقف عند بائع تثق به وتقول له: أنت اختر لي، فقد سلَّمت أمري إليك، واختر لي ما يُعجبك، فيختار لك أحسن ما عنده... هذا مع إنسان تثق به تفوِّضه فكيف مع الواحد الديان؟!

بالمناسبة... كلما ارتقى الإنسان في سُلَّم الإنسانية يخاف بالغيب، وكلما هبط إلى مستوى البَهيمية يخاف بالشهود، كلما ارتقى انسان في سُلَّم الإنسانية يخاف بعقله، وكلّما

هبط إلى مستوى البهيمية يخاف بعينه، أي إلى أن يرى الخطر ماثلاً عندها يخاف، علماً بأنَّ الخطر يُدرك مسبقاً بالعقل.

فمثلاً يقول الأطباء: إنَّ الدخان يسبب سرطان الرئة، وهذا النيكوتين الموجود فيه يسرِّع القلب، ويزيد من خفقان الرئتين، ويضيِّق الأوعية، فيرفع نسبة السكر في الدم، ويرفع نسبة هرمون التجلُّط، فاحتمال التجلُّط في دم المدخِّن كبيرٌ جداً، الأمراض القلبية عند المدخنين عشرة أمثالها عند غير المدخنين، هذا كلُّه بالعقل يُدرك، أمَّا المدخِّن الذي يخاف بعينه فإنه لا يقلع عن التدخين إلا بعد أن يُصاب بمرض عضال، كلما ارتقى مستواك الإنساني خفت بعقلك، وكلما تدنّى مستوى المرء الإنساني خاف بعينه.

قد تجد الدابة إن رأت حفرة في الأرض تقف، لقد رأت بعينها...، وقد يجد إنسان طريقاً واسعاً وممهَّداً ومعبَّداً ويجد لوحة كتب عليها: انتبه! الطريق مغلق، فالإنسان العاقل لا يتابع السير، فالطريق تراه بعينيك مفتوحاً أمامك، ولكن قراءتك للوحة صغيرة تفيدك أن الطريق بعد قليل مغلقٌ فلا تتابع المسير، فأنت الآن لم ترَ الإغلاق ولكن رأيت فكرة الإغلاق، فكلما ارتقى الإنسان يتعامل مع الأفكار، أما إذا هبط إلى مستوى لا يليق به فإنه يتعامل مع الصور.

قد ترى دُوراً للهو ذات فخامة كبيرة، فيها أجمل أنواع الثريات والتزيينات والأناقة لكن المعاصي كلّها تُرتكب فيها، فالمؤمن يكرهها بعقله، على حين أن ضعيف التفكير يقدِّرها ويُعظِّمها بعينيه فيمدح فخامتها... فكلما ارتقى الإنسان تَعامل مع الأفكار بعقله، وكلما هبط مستواه تَعامل مع الصور بعينيه.

إذاً فأخطر شيء على الصغار أن تريهم قصة ممثَّلة... فلو أريناهم إنساناً متديِّناً أحمقَ أو امرأة متديِّنة حمقاءَ مهملة أولادها، فهذا الصغير يكره الدين بلا سبب، فهو في كلِّ الأحوال لا يتعامل مع الأفكار، فليس عنده إدراك أو عمق أنَّ هذه تمثيلية والذي كتب هذه التمثيلية أراد تشويه صورة الدين، فهو قد رأى أنَّ الإنسان الذي يمثِّل الدين غير جيد، على حين أنَّ الإنسان الجيد هو الذي أسبغ عليه الكاتب كلَّ صفات الرجولة

فهو إنسان شجاع ووفيٌّ إلا أنه يشرب الخمر، فخطورة أجهزة اللهو مع الصغار مدمِّرة جداً، لأنَّ الصغير لا يتعامل مع الأفكار بل يتعامل مع الصور، فيكفي أن تريه امرأةً سيئةً جداً بزيٍّ إسلامي، فيكره الإسلام كلَّه، ويكفي أن تريه امرأةً تحبُّ أولادها حبّاً جمّاً، لكنَّها متفلِّتة من الدين فيحبُّ الصغير التفلُّت من الدين، هنا الخطورة أن نسمح لأطفالنا أن يشاهدوا كلَّ ما هبَّ ودبَّ، فالطفل الصغير يتعامل مع الصور، وقد نستطيع أن نفسد عقيدته بالصور، وأن نشوِّه له كلَّ شيءٍ يعرض عليه بالصور.

لدينا غيب وكذلك شهادة... وهناك أمثلة كثيرة جداً... إنسان ينتظر إلى أن تأتي موجة من البرد القارس فيهيِّئ المدافئ ويشتري الوقود السائل للتدفئة، وإنسان آخر تجده وهو في أشهر الصيف يهيئ المدافئ ويشتري الوقود السائل اللازم، ويجهِّز كلَّ شيء لفصل الشتاء دون مشقَّة ودون ازدحام على الوقود، أمَّا حينما تأتي الموجة القارسة فجأةً فلسوف تجد صعوبة بالغة عند شراء الوقود السائل، فالذي يتعامل مع الأشياء بإحساساته فهو ذو إدراك ضعيف، أمَّا الذي يتعامل معها بإدراكه فهو ذو عقل راجح.

كتاب الله -جلَّ جلاله- أشار إلى كلمة عالم الغيب والشهادة في آياتٍ كثيرة... فقد قال تعالى: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام:٥٩].

ذكرت في أبحاث سابقة حكمة... ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ ﴾، لو قال الله تعالى: ومفاتح الغيب عنده، أي هي عنده وقد تكون عند غيره، أما حينما يقول الله عز وجل: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ ﴾، فمعنى ذلك أن مفاتح الغيب عنده حصراً.

وفي سورة الفاتحة ورد قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة:٥].

فلو قال: نعبد إياك يا رب، فهذا يعني أننا قد نعبد غيرك أيضاً، أما قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فمعناه أننا نعبدك وحدك يا رب، هذا هو القصر، فالتَّقديم يفيد القصر والحصر.

﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ ﴾. إن كان لديك مجلَّة قديمة صدرت قبل عشرين سنة، فاقرأها فستجد أنَّ الأحداث التي وقعت بعد إصدار هذه المجلة لو عشت في تاريخ صدورها لا يمكن أن تتصوَّر أن الذي وقع يمكن أن يقع، كان غيباً، حينما تُهدُّ عروش، وحينما تدكُّ معسكرات عملاقة، فاقرأ في هذه المجلة القديمة وتصوَّر أن الذي وقع، لو تنبّأت به قبل أن يقع لأودعوك في مشفىً للمختلّين عقلياً لكنه وقع فعلاً... فمن يعلم الغيب؟ الله جل جلاله هو وحده يعلم الغيب.

فقد يقول لك أكثر الناس: قد عُرض عليّ شراء أرض مساحتها مئتا دونم وسعر الدونم ليرتان فقط ولكنني لم أشترها، والآن ثمن الدونم الواحد مليونان... لو أنك تعلم الغيب لكنت الآن من أغنى أغنياء العصر... أراضٍ شاسعة وواسعة ومئات الدونمات بثمن بخس، فقد ذكر لي شخص أنه قد باع خمسين دونماً بدابة صغيرة كان بحاجة إليها وهذه الأرض ماذا يفعل بها فهي عبء عليه، أما الآن فسعر الدونم الواحد مليونان... هذا كان في علم الغيب.

التُّجَّار يقولون كلمة لطيفة: تاجر ومنجِّم لا يجتمعان... لا أحد يعلم ما سيكون، أحياناً تجد الأمور تسير في طريق مسدودة إلى أن ييأس من لا ثقة له بالله، فقد كان في بلادنا جفاف مخيف كاد حوض دمشق يجفُّ، وكادت دمشق تعاني من العطش ولكنَّ الله جل جلاله أنزل أمطاراً غزيرةً في الأعوام التالية، وهذا كان غيباً... فموضوع الغيب مهمٌّ جداً.

فأحياناً يُقال لك: إنهم تمكّنوا من معرفة الجنين ذكراً أو أنثى، فأين قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴿٣٤﴾ ﴾ [لقمان:٣٤].

﴿ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ ﴾ فلم يقل الله: يعلم من في الأرحام ذكراً كان أو أنثى. قال: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا﴾ فالحوين المنويُّ يوجد على النُّويَّة فيه ملايين المعلومات المبرمجة، هذا الجنين

هل سيكون عالماً كبيراً، أو أستاذاً في الجامعة، أو مؤلِّفاً خطيراً، أو بائعاً متجوِّلاً، أو مجرماً، أو سجيناً، أو مصلِحاً، أو مفسِداً مثلاً، وهل يا ترى سيكون صاحب ملهى أم صاحب دار للنَّشر، مَن سيكون؟ من سيتزوَّج؟ من سينجب؟ ما دوره في الحياة؟ هل يكون دوراً هامشيّاً أو دوراً قصيراً فمن يعلم هذا؟ إذا وُجد على النويَّة هذه المعلومات المبرمجة لا يعلمها إلا الله، فما نسبة معرفة ذكورته أو أنوثته إلا واحد لخمسة آلاف مليون.

أحياناً تجد أباً لديه خمسة أولاد، لا يعلم من هو المتفوِّق، وبعد ثلاثين سنة تجد ولداً منهم قد تألق تألُّقاً كبيراً جداً، وولداً آخر أصبح في الدرجة الدنيا من المجتمع، مَن الذي يعلم الغيب؟ الله وحده يعلم الغيب... علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، فقد قال تعالى: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾.

هل أنت مرتاح إلى أنَّ الله الذي تعبده يعلم كلَّ شيء، وعلمه لصالحك فقد قال تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد:١١].

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾.

فأحياناً يقول لك أحد الأشخاص أثناء قيادة مركبة: لو تقدَّمت سنتيمتراً واحداً لكان وقع لي حادث أليم، فمن يعلم الغيب؟!

الله عز وجل يصرفك أحياناً عن شيء مدمِّر، فيلهمك رشدك... إنسان له تجارة معيَّنة، والبضاعة موجودة، والطلب عليها شديد، والتصدير ميسَّر ولكنه قال لي بالحرف الواحد: والله! شعرت بضيق وانقباض بصورة غير معقولة، وبلا سبب أو تعليل، واشتدَّ الضيق عليَّ إلى درجة أنني أحجمت عن تصدير هذه البضاعة، ثم كان

الذي كان، فُرِض على الذي قاموا بالتصدير في ذلك العام ضرائب أكلت أخضرهم ويابسهم، ونجَّاه الله من هذه الضرائب التي لم تكن في الحسبان، والسبب أنه أنفق مالاً وفيراً في خدمة بيوت الله عز وجل... ولأنَّ الله عز وجل يعلم الغيب صرفه عن هذا العمل، وهناك آلاف الشواهد المشابهة، فأنت حينما تعبد الذي يعلم الغيب، فعلمه للغيب كلُّه لصالحك وأنت لا تدري... من هنا قال الله عز وجل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة:٢١٦].

سألني أخ ذات مرة عن قضية، فأخبرته بأن فيها شبهة، فقال لي: ليس لي دخل إلا منها. فقلت له: هذا شأنك لا شأني وقد سألتني فأجبتك. ولكن يبدو أن خوفه من الله غلب عليه فامتنع عن هذه الطريقة في التعامل وكان امتناعه لله، في حين أنها كانت رائجة جداً وتدرُّ عليه دخلاً كبيراً جداً، فلمّا امتنع عن هذه الطريقة المشبوهة في التجارة التزاماً بشرع الله سبحانه، ومضى عليه أكثر من ثلاثة أشهر ودخله قليل جداً ثم مُنِعت هذه الطريقة من أصلها قسراً، فجاءني وقال: الحمد لله الذي تركتها لله، بعد حين كنت سأتركها مقهوراً ومجبوراً مع الإثم والوزر، أما الآن وقد تركتها رجاء مرضاة الله وأنا في الأوج، ثم كافأني الله بأن فتح لي باب رزقٍ وفير لم يكن بالحسبان.

موضوع أنَّك تعبد الذي يعلم الغيب موضوع مهمٌّ، فأنت في راحة لأنَّ كلَّ ما سيكون هو في علم الله، لذلك يوجِّهك الله توجيهاً لصالحك، فالمؤمن يُلهِمُه المَلَك، والمنافق يدفعه الشيطان، يدفعه إلى أن يبخل، يدفعه إلى أن يحقد، يدفعه إلى أن يخاصم زوجته، يدفعه إلى كلِّ المشكلات.

آيةٌ ثانية قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنعام:٧٣].

﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ﴾ الحكيم كما تعلمون يضع الشيء بالقدر المناسب، وفي المكان المناسب، وفي الوقت المناسب، و كلُّ شيءٍ وقع أراده الله.

و﴿ٱلْخَبِيرُ﴾: الخبرة هي العلم الذي يتعلّق بالمستقبل... فأحياناً تقوم ببناء آلة بمعرفة وعلم عالٍ جداً، لكن مع الاستعمال تكشف أنَّ فيها أخطاء لم تكن في الحسبان، فالعلم مع المستقبل يصبح خبرة.

وفي سورة التوبة قال تعالى: ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [التوبة:٩٤].

وفي السورة نفسها قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [التوبة:١٠٥].

نصيب المؤمن من معرفته بعالم الغيب والشهادة

يمكن أن نُلخِّص المواقف العملية للمؤمن من خلال هذا الاسم: إذا استقمت على أمر عالم الغيب والشهادة فلن تفاجأ بغيبٍ مدمِّر، أنت إذا استقمت على أمر عالم الغيب والشهادة كان علم الله للغيب لصالحك، يحميك من كلِّ سوء، يقيك شرَّ أعدائك، يُلهمك رشدك، يُلهمك الخير وأنت في حرزٍ حريز.

حينما تعلم أنَّ الله يعلم... وهذه الحقيقة وردت في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق:١٢].

أي إنك إذا علمت أن الله يعلم استسلمتَ وارتحت، لذلك يقول المؤمن أحياناً: اللهمَّ خِر لي واختر لي... أي يا رب! أنت اختر لي.

روي أن من أدعية النبي ﷺ ما رواه عبدُ الله بْن يَزيدَ الخَطْمِيُّ الأنْصارِيُّ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي دُعائِهِ: «اللهمَّ ارْزُقْنِي حبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يَنْفَعُنِي حُبُّهُ عِنْدَكَ، اللهُمَّ ما رَزَقْتَنِي مِمَّا أُحِبُّ فاجعَلْهُ قُوَّةً لي فيما تُحِبُّ، اللهمَّ وَمَا زَوَيْتَ عنِّي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَراغاً لِي فِيمَا تُحِبُّ» [رواه الترمذي].

قال تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦ ﴾ [البقرة:٢١٦].

وأقول مرة أخيرة... أنت تقف هنا، لا تعلم هناك ما سيكون، فقد يكون لك عدو كبير خطير مخيف يدبِّر لك أمراً ما، لكن الله يعلم ما أنت فيه ومن خصمك فيه، فإذا كنت مع الله عز وجل ألهمك رُشدك، ألهمك الخلاص من هذا العدو، أو ألهمك تدبيراً مضاداً لتدبيره، أو ألهمك سلوكاً يُعطِّل عليه مَكْرَهُ لأنه يعلم الغيب، وهذه هي أهمُّ فكرة في هذا البحث، أنت إذا كنت مع الله فأنت مع عالم الغيب والشهادة، الغيب لصالحك فلا توجد لديك مفاجأة، فتجد المؤمن الصالح كلُّ شيء يسيِّره الله به لصالحه والغيب يكشف له الحقيقة.

وتجد الإنسان غير المستقيم يخطِّط... فذات مرة فكَّر إنسانٌ وأكثرَ من التفكير الجادِّ ثم باع كلَّ ما يملك واشترى به عملة لبنانية، فمن يعلم أنَّ هذه العملة سوف تصبح متدنية وسيصل سعر كل دولارٍ واحدٍ إلى ثلاثة آلاف وثمانمئة ليرة لبنانية؟ باع كلَّ أملاكه وتاجر في العملة الصعبة فكانت خسارته دماراً ووبالاً، فمن يعلم الغيب؟ الله عز وجل وحده هو الذي يعلم.

فحينما يكون الإنسان مع الشيطان ومنحرفاً عن المنهج الإسلامي الصحيح فالغيب ليس في صالحه، فيفكِّر ثم يفكِّر حتى يجهد نفسه تقليباً للأمور واستكشافاً لخفاياها، ثمَّ يجعل الله تدميره في تدبيره لأنَّه لا يعلم الغيب، وتخلَّى عمن بيده الخير.

أحياناً تجده يضع كلَّ أمواله في مشروع غير ناجح، لو علم الغيب لما أقدم على هذا المشروع، أمَّا المؤمن فهو لا يعلم الغيب ولكنَّ الله يدافع عنه، لكن الله يسيِّره، لكن

الله يحفظه، لكن الله يلهمه، لكن الله يصرفه عن هذا الشيء، وقد قال تعالى: ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ ﴾ [الحج:٣٨].

فأهمُّ ما في بحثنا هذا النقطة الآتية: إذا كنتَ مع الله فهو يعلم الغيب، ويعلم ما سيكون فلذلك يلهمك رُشدك حيال ما سيكون، فاللهم اجعلنا من هؤلاء الذين يستسلمون لك يا رب، ويفوِّضون إليك كلَّ أمورهم.

اللهم! أعطنا ولا تحرمنا، أكرمنا ولا تهنا، آثرنا ولا تؤثر علينا، أرضنا وارضَ عنا اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تبلِّغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهوِّن به علينا مصائب الدنيا، ومتِّعنا اللهمَّ بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل الدنيا أكبر همِّنا ولا مبلغ علمنا، ولا تُسلِّط علينا من لا يخافك ولا يرحمنا، وصلَّى الله على سيدنا محمدٍ النبي الأميّ وعلى آله وصحبه وسلم.

نور السموات والأرض

قال تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النور:٣٥].

وقال تعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الزمر:٦٩].

وفي سورة الصف: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الصف:٨].

من معاني النور

النُّور في اللغة هو الضوء أياً كان، أو شعاعه، موجاته أو سطوعه، تألُّقه، هناك موجات لا تُرى بالعين، النور هو الضياء والسناء الذي يُعين على الإبصار، أنتم موجودون، ولكم أعين ولكن هذه الأعين لا قيمة لها دون هذه الضوء الذي يُعَدّ وسيطاً بينكم وبين المرئيات، النور والضياء والسناء الذي يعين على الإبصار.

النُّور نوعان: دنيوي وأخروي.

الدنيوي نوعان:

١- معقول بعين البصيرة.
٢- محسوس بعين البصر.

معقول بعين البصيرة: أحياناً تكون الفكرة الواضحة أو الأسلوب الذي تعلَّمه الإنسان في حلِّ المشكلات، يُعدّ نوراً مجازياً، أحياناً يعاني إنسان من مشكلة في آلة وعنده خبرة، يجعل هذا الشيء مكان هذا الشيء، ويصل هذا الشيء بهذا الشيء فتعمل هذه الآلة، هذه الخبرة التي يملكها، أو هذا الأسلوب الجاهز في حل هذه المشكلة يمكن أن نسميه نوراً.

فالنور نوعان: نوع معقول بعين البصيرة، قد يواجه الإنسان مشكلة لا يستطيع أن يفعل شيئاً إزاءها كأنه في ظلام، ثم تلمع في ذهنه فكرة فتحلُّ تلك المشكلة بهذه الفكرة، فإذا شبَّهناها بالنور فالتشبيه صحيح، فالنور معقول بعين البصيرة، ومحسوس بعين البصر، من هنا قالوا: العلم نور، العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو بالإنفاق.

العقل نور، القرآن الكريم نور، أوضح مَثَلٍ قارورة تحوي مادة كيميائية أنت لا تعرف هذه المادة، يا ترى أهي مادة تلتهب؟! تنفجر! سامة! مادة مؤذية! نافعة! مخدّرة! مسرطنة! مادة في قارورة إذا كُتب على هذه القارورة لُصاقة كلور الصوديوم، هذه

الكلمة كأنها نور كأن شيئاً لا تراه سلّطت عليه ضوءاً فعرفته، كذلك هذه اللُّصاقة نور، فالنور مادي: محسوس، ومعنوي: معقول.

المحسوس كنور القمر وضوء الشمس، ومن النور المعقول قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ ﴾ [المائدة:١٥].

﴿ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ ﴾، الإنسان خُلق في الأرض، لماذا خُلق؟ ماذا يجب أن يفعل؟ أيأكل ويشرب وينام وانتهى الأمر؟! أم عليه مهمة لا يعرفها؟ متى يموت؟ لماذا يموت؟ لماذا يعيش؟ يُحسن، يسيء، يصدق يكذب، يؤتَمن، يخون، ماذا يفعل؟ يأتيه كتاب من الله يقول له: أنت خُلقت لجنة عرضها السموات والأرض، أنت خُلقت في الدنيا لتعمل عملاً صالحاً يدخلك الجنة، أنت لا يُسعدك إلا أن تتصل بالله عز وجل، لا تَسلم إلا إذا أطعت الله، لا تسعد إلا بالتقرب إلى الله، الله الذي خلق السموات والأرض هو إلهٌ عظيم، ربٌّ كريم، سميعٌ بصير، عليم قوي، مُجيب، هذا القرآن عرّفك الله، عرّفك الكون، عرّفك حقيقة الحياة، عرّفك حقيقة الإنسان، قال لك: افعل ولا تفعل، بيّنَ لك الحلال والحرام، الخير والشر، الحق والباطل، ما ينبغي وما لا ينبغي، نشأة العالَم ومصير العالَم، قصص الأنبياء، مشاهد يوم القيامة.

إن النور للمؤمن يورثه راحة لا يعرفها غيره أبداً، كلُّ الأمور واضحة عنده وجليّة، كلُّ شيء واضح، يعرف أنَّ لهذا الكون خالقاً، ويعرف أنَّ لهذا الكون مربّياً، وأنَّ لهذا الكون مسيِّراً، وأن الله موجود وواحد وكامل، وأنَّ أسماءَه كلَّها حُسنى، وأنَّ صفاتِه كلَّها فُضلى، وأنَّ الله عز وجل سميعٌ قريب، مجيبٌ رحيم، ودود، الدنيا مزرعة الآخرة، الإنسان يسعد بطاعة الله، ويشقى بمعصية الله، هذا الكتاب الذي بين أيدينا يقدِّم لنا راحة لا تُوصف، راحةَ التوازن، أحياناً يعتري الإنسانَ غموضٌ فيبقى في قلق

منه، فإذا اتضح تبدَّد القلق، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [المائدة:١٥].

هذا الكتاب هو النور، أحياناً تشتري آلة ولها تعليمات، مثلاً: اضغط على المفتاح يحدث كذا، ثم الثاني، ثم الثالث، فتظهر على الشاشة هذه الكلمة، افعل كذا، افعل كذا، كأنك تمشي على طريق واضحة مستقيمة، فذلك القرآن الكريم نور، ومن النور المحسوس قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [يونس:٥].

﴿ جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾، والإنسان قد يقف عند الشمس قليلاً، يُقدر علماء الفلك أن عمر الشمس لا يقل عن خمسة آلاف مليون عام، وأنها لن تنطفئ قبل خمسة آلاف مليون عام، وأنها تُصدر من الطاقة الحرارية والضوئية ما لا سبيل إلى وصفه، فبيننا وبين الشمس مئة وستة وخمسون مليون كيلومتراً، ومع ذلك لا تستطيع أن تتعرَّض لأشعة الشمس طويلاً في الصيف، فكيف أشعتها هناك؟ لسان اللهب لا يقل عن مليون كيلومتر، الحرارة ستة آلاف درجة على سطحها، في حين أنّها في مركزها تصل إلى عشرين مليون درجة، وتتسع الشمس لمليون وثلاثمئة ألف أرض، وكنت أذكر دائماً أنَّ في برج العقرب نجماً أحمر اللون اسمه قلب العقرب يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ [يونس:٥].

من أبدع أصل النور؟ الله عز وجل.

إنَّ النور تفاعُل يجري في مادة في بُنيتها النووية، هذا التفاعل يُنتج موجات، هذا النور ينتشر، هل له وزن؟ ليس له وزن، حجمه لا نهائي، كتلته صفر، بل إنَّ بعض علماء الفيزياء يقولون: إن أي جسم لو سار بسرعة الضوء، -الضوء سرعته ثلاثمئة ألف كيلومتر في الثانية- أيُّ جسم، لو أتينا بكتلة حديد استطعنا أن نقذفها بسرعة

الضوء فتصبح نوراً، وكتلتها صفر، وحجمها لا نهائي، موضوع النور يحتاج إلى جلسات علمية خاصة.

على كلٍّ النور المحسوس كضوء الشمس والقمر، فنورهما نور محسوس، والقرآن الذي فيه تعليمات الصانع نور معقول، التعليمات النظرية نور، البيان نور، الدليل نور، التفصيل نور، التوجيهات نور، النور شيءٌ ظاهر، أحياناً ضوءٌ ضئيل جداً في الظلام الدامس يكون ظاهراً جداً، فالنور الشيء الظاهر. أيُّ شيء ليس له إشعاع ليس ظاهراً، أحياناً يقود الإنسان سيارته في الليل يصدر ضوءاً عالياً، يرى نُقاطاً مضيئة في بعضِ الحيوانات هي عيونها، فالنور الشيء الظاهر، لذلك قيل: «هو الظاهر الذي به كلّ ظهور، ظاهر مُظهِر»، لعل النور الخافت جداً ظاهر لكنه ليس مُظهِراً، أحياناً قطعة فحم متأججة واضحة لكن هذه القطعة المتأججة لا تنير غرفة، أما المصباح الكهربائي فينير غرفة.

وقيل أيضاً: النور هو الشيء الظاهر الذي به كل ظهور، فالنور هو الشيء الظاهر في نفسه المُظهِر لغيره، مصباح تُسلِّطه على مكانٍ فترى السّجاد والكرسي والقلم والوردة والمِحبرة والمُسجّلة، فهذا المصباح أظهر غيْرَهُ.

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ ظاهر بذاته مُظهِرٌ لغيره، ظاهر بذاته، مُنزَّه عن العدم، بل عن إمكان العدم، مُظهِرٌ غيرَه من ظلمة العدم إلى نور الوجود، إنَّ الذات الظاهرة المُظهِرة هي النور وهي الله عز وجل، والوجود نورٌ فائض على الأشياء كلها من نورِ ذاته، إذاً هو نور السموات والأرض.

النور الهادي الرشيد الذي يُرشد بهدايته من يشاء فيُبين له الحق، ويُلهمه اتباعه، هناك أشياء عويصة جداً، يأتي مخترع فيُعمِل ذهنه سنوات طويلة، وفجأة تلمع أمامه فكرة جديدة، هذه الفكرة التي لمعت أمامه في رأي أهل الدين من إلهام الله عز وجل، لأن الله قذف في قلبه وذهنه هذه الحقيقة فالتَمَعتْ، فسُمِّي عند الناس مُكتشفاً أو مخترعاً، وفي الحقيقة لقد تلقّى هذه الومضة من الله عز وجل. فالاختراع إذاً بارقة.

حدثني صديق عما يسمى زَرْعَ الأسنان، جسم الإنسان كما تعلمون يرفض الأجسام الغريبة، مرةً وضع عالم مِلقطاً من معدن معيّن على قطعة عظم ونسيه في المخبر، بعد حين التأم العظم حول المعدن فانتبه هذا العالم إلى أن هذا المعدن يمكن أن يدخل في فك الإنسان ويلتئم النسيج العظمي حوله، هذه بارقة، فلقد أمكن الآن زراعة الأسنان بأن نضع وَتَداً ضمن الفكّ فنبني عليه سِنّاً، فهذه إذاً بارقة، نظر هذا العالم إلى هذا المِلقط وقد وُضع على قطعة عظم، بعدَ حين نما العظم عليه، لذا يقولون: إن الاختراع أو الإبداع قفزة في المجهول، لمعة في الذهن، إلهام من الله عز وجل

معنى ذلك أن كُلَّ اختراع، وكُلَّ اكتشاف هو في الحقيقة إلقاء من الله عز وجل في ذهن هذا العالم كبارقة أو ومضة، إلا أن هذا الإلقاء يحتاج إلى ثمن، الثمن هو الصدق في البحث، لذلك قال بعض العلماء: العبقرية تسعة وتسعون بالمئة منها جهد وعرق وواحد بالمئة إلهام، فثمن هذه البارقة، ثمن هذه الومضة، ثمن هذه الفكرة الرائعة، ثمن هذا الاكتشاف هو البحث الدؤوب، فالبحث الدؤوب هو ثمن هذا الاختراع.

وهذا ينتهي بنا إلى معنى آخر، هو معنى الصدق، الله عز وجل لا يتعامل مع الناس بتمنياتهم، ولكن يتعامل بصدقهم وإخلاصهم، لو أن إنساناً أضاع إبرة في الليل ولا يوجد ضوء فلن يراها في الليل، أما في النهار فسوف يراها لأنه اهتدى بنور الشمس، إذا اهتديت إلى حقيقة الإنسان وإلى سرِّ وجوده، وإلى غاية وجوده، فمن الذي هداك؟ هو الله، إذاً الله نور السماوات والأرض، ولا يعلَم العباد إلا ما علَّمهم الله عز وجل ولا يُدرِكون إلا ما يسَّر الله لهم إدراكه.

قال بعض العلماء: «الله نور السموات والأرض هو الذي نوَّر المعالم فأوجدها من العدم»، فَنَقْلُ الشيء من العدم إلى الوجود نور، فالشيء له خصائص، كُلُّ نبات، كُلُّ حيوان، كُلُّ جماد، كلُّ المعادن؛ لها خصائص، الله عز وجل الذي أبدعها من عدم وأظهرها إلى حيِّز الوجود وأعطاها خصائصها: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه:٤٩-٥٠].

الذهب مثلاً لا يتأثر بكل العوامل المحيطة به لا بماء ولا بملوحة ولا برطوبة، ولا يتأكسد، ولا يتأثر.

قرأت مقالة عن سفينة غَرِقَتْ قبل مئة وعشرين عاماً، وعليها خمسة أطنان من الذهب استطاعوا أن يصلوا إليها الآن، وأن يستخرجوا تلك السبائك، ولما استخرجت هذه السبائك نظرت إلى صور السبائك فكأنها صُبَّت الآن، مئة وعشرون سنة في قاع البحر والذهب هو هو لم يتأثر، الله عز وجل أعطى الذهب خصائص، أعطى الماس خصائص، أعطى الفضة خصائص، أعطى الرصاص خصائص، أعطى الحديد خصائص، هناك شيء جديد، بالنور أظهَر وخصَّص. الحديد لا يُصهر إلا في ألف وخمسمئة درجة، لكنَّ الرصاص يُصهر في مئة درجة، على موقد عادي ينصهر معدن الرصاص، فكل معدن ظهر وخُصِّص، نُقِلَ من العدم إلى الوجود فأُعطيَ خصائصه، والله تعالى نوَّر الموجود الظاهر بالشمس والكواكب، ونوَّر عالم الأرواح برسول الله ﷺ، أحياناً تجد إنساناً موصولاً بالله عز وجل تشعر بأُنسٍ معه وبسرور كأنه يُنعِشُك، هذا نور الله عز وجل، الله عز وجل خلق نوراً محسوساً نور الشمس والقمر، وفي الليل عندنا إضاءة اصطناعية، لكنه إذا تجلّى على قلب الإنسان تألّق هذا القلب، طبعاً هناك آيات، وأدعوك ألا تقبل مني شيئاً ما دون دليل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنفال:٢٩].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحديد:٢٨].

فإذا طلبت مني أن أوجز الدين كله في كلمة قلت: المؤمن ذو نور، والكافر أعمى، قال الله: ﴿ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٨﴾ ﴾ [التحريم:٨].

أما هؤلاء الكفار فهم في ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يكد يراها، فالكافر في ظلام: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه:١٢٤].

ما كان أعمى العينين في الدنيا؛ فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور، نوَّر القلوب برسول الله ﷺ لذلك: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [التوبة:١٠٣].

الذي شعر به أصحابُ رسول الله ﷺ شيءٌ لا يوصف، كانوا إذا جلسوا معه ارتاحت قلوبهم، واطمأنت نفوسهم، وكأنهم في جنة.

عَنْ أبي عُثْمانَ النَّهْدِيِّ عَنْ حَنْظَلَةَ الأُسَيِّدِي قالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فَذَكَّرَنا الجَنَّةَ وَالنَّارَ حَتَّى كأنَّا رَأْيَ عَيْنٍ، فَقُمْتُ إلى أَهْلِي فَضَحِكْتُ وَلَعِبْتُ مَعَ أَهْلِي وَوَلَدِي، فَذَكَرْتُ ما كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ فَخَرَجْتُ، فَلَقِيتُ أبا بَكْرٍ، فَقُلْتُ: يا أَبا بَكْرٍ، نافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: وَمَا ذاكَ؟ قُلْتُ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ فَذَكَّرَنا الجَنَّةَ وَالنَّارَ حتَّى كَأَنَّا رَأْيَ عَيْنٍ، فَذَهَبْتُ إلى أَهْلِي، فَضَحِكْتُ وَلَعِبْتُ مَعَ وَلَدِي وَأَهْلِي، فَقَالَ: إِنَّا لَنَفْعَلُ ذَاكَ، قالَ: فَذَهَبْتُ إلى النبيِّ ﷺ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: «يا حَنْظَلَةُ لَوْ كُنْتُمْ تَكُونونَ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا تَكُونونَ عِنْدِي لَصَافَحَتْكُمُ المَلائِكَةُ وَأَنْتُمْ عَلَى فُرُشِكُمْ وَبِالطُّرُقِ.. يا حَنْظَلَةُ ساعةً وساعةً» [رواه أحمد في مسنده وأصله في صحيح مسلم].

فالله نور السموات والأرض، إن اتصلت به أخذت من نوره المعنوي، وشعرت براحة، لك رؤية صحيحة، الأمر كلُّه؛ أنَّ إنساناً مؤمناً يرى رؤية صحيحة وإنساناً كافراً أعمى، فالأعمى في متاهة، والذي يرى رؤية صحيحة يتحرك على هدى من ربه، قال العلماء: نوَّر الله عالم الأرواح برسول الله ﷺ ونوَّر القلوب بأنوار العلوم، ونوَّر قلوب الصادقين بتوحيدهم، ونوَّر أسرار المحبين بتأييده، وقيل: هو الذي حسَّن الأبشار بالتصوير -فأعطاك شكلاً جميلاً- وقيل: هو الذي

أحيا قلوب العارفين بنور معرفته وأحيا نفوس العابدين بنور عبادته، وقيل: هو الذي يَهدي القلوب إلى إيثار الحق واصطفائه، ويهدي الأسرار إلى مناجاته واجتبائه قال الله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٣٥)﴾ [النور:٣٥].

المشكاة: كُوَّةٌ في الجدار، فيها مصباح، المشكاة هي الصبر والمصباح هو القلب؛ لا قلب الجسد بل قلب النفس: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ (٤٦)﴾ [الحج:٤٦].

﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾.

أرجو الله سبحانه وتعالى أن ينوِّر قلوبنا بنوره، المؤمن رؤيته واضحة تماماً مرتاح من أيِّ مشكلة، يُحسن التصرف، يملِك زِمام الأمر، ينظر بنورٍ ساطع يكشف دقائق الأمور وملابسات الحوادث، يقف الموقف السليم، ينطق بالكلمة المناسبة، يفعل الفعل المناسب، مرتاح ويُريح الآخرين، الإنسان إذا كان في عمىً أساء التصرف، أساء الكلام وأساء الحركة وأساء الموقف، يتخبط خَبْطَ عَشْواءَ، وهذا كله واضح.

لقد وصلنا إلى موضوع أَعُدُّهُ من أخطر الموضوعات، فأنت لك عين ترى بها الأشياء، ولك عقلٌ تدرك به الحقائق، فإذا قلت لك: المعادن تتمدَّد بالحرارة، فأنت ترى ميزان الزئبق، ضَعْ يدك عليه فالخط يرتفع، وترى بعينيك أنَّ هذا المعدن الرجراج الزئبقي يتمدد بالحرارة، لكن تقول: رأيت العلم نافعاً فكيف ترى العلم؟ لا يُرى بالعين لكن تَرَى إنساناً متعلماً مُتَّزناً يحسن التصرف، حكيماً سعيداً في بيته، يحسن معاملة زوجته، يُحسن كسب المال، يُحسن معاملة الناس، مورده المالي حلال، تراه صادقاً أميناً محبوباً معززاً مبجلاً، لأنه مُتعلِّم، لأنه حَصَّل علماً دينياً، لأنه عَرَفَ الله عز وجل فهو في

سعادة، فتقول إذاً: رأيت العلم نافعاً، أما إنْ رأيت معدن الزئبق يتمدد فهذه رؤية حسية، أما رأيت العلم نافعاً فهذه رؤية قلبية.

لذلك رأى نوعان: القلبية تتعدى إلى مفعولين، والحسية تتعدى إلى مفعول واحد، رأيت الشمس ساطعةً، ماذا تُعرب كلمة ساطعةً؟ حال، رأيت العلم نافعاً، ماذا تُعرِب نافعاً؟ مفعول به ثانٍ، لأن رأى القلبية تنصب مفعولين، لكن رأى البصرية تنصب مفعولاً به واحداً، والاسم المنصوب الثاني يُعدُّ حالاً، فالرؤية الحسية أساسُها ضوء الشمس أو القمر أو الكهرباء، والرؤية العقلية المعنوية أساسُها نور الله عز وجل.

شكَوْت إلى وكِيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأنبأني بأن العلم نور ونور الله لا يُهدى لعاصي

إذاً أنت بحاجة إلى نور الشمس، لترى عَينك الأشياء، وأنت بحاجة إلى نور الله ليعرف عقلك حقائق الأشياء، ماذا نستنبط من هذا؟ أنَّ الإنسان مهما كان ذكياً، مهما كان عبقرياً، مهما كان ألمعياً، إن لم يستعن بنور الله، فهو في عمى، لذلك تجد بعض الناس وهُم في أعلى درجات الذكاء يرتكبون حماقات لا تُوصف.

سبحان الله! فإذا اتصل الإنسانُ بالله عز وجل وجدت على وجهه نوراً وقد يكون ملوناً، لكن يوجد نور في وجهه، فالنور الذي في وجه الإنسان ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الفتح:٢٩] بعضهم يفهم أن في جبهته أثراً، لا، ثم لا، كان النبي ﷺ له وجه كالشمس، وتصف بعض الأحاديث الشريفة: «لو أن امرأة من أهل الجنة لو اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءَت ما بينهما -أي: ما بين السماء والأرض-، ولملأته ريحاً -أي: عطراً- ولنصيفها -أي: خمارها- على رأسها خير من الدنيا وما فيها» [البخاري عن أنس بن مالك].

وفي «مسند أبي حنيفة» عن أم هانئ، قال رسول الله ﷺ: «لو أن واحدة من الحور العين أشرفت، لأضاءت ما بين المشرق والمغرب، ولملأت ما بين السماء والأرض

من طيبها» وقد روى الطبراني والضياء عن سعيد بن عامر مرفوعاً: «لو أن امرأة من نساء أهل الجنة أشرفت إلى الأرض لملأت الأرض من ريح المسك، ولأذهبت ضوء الشمس والقمر».

ثم ها نحن قد انتهينا إلى معنى ثالث، و أن العبادة تُكسب الوجه نوراً، لذلك: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة:٢٢-٢٣].

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس:٣٨-٤٢].

إذاً العبادات تنوِّر الوجه. قالوا: الطاعة هي زينة النفوس والأشباح، والمعارف زينة القلوب والأرواح، والله عز وجل يزيد قلب المؤمن نوراً على نور، يؤيده بنور البرهان، ثم يؤيده بنور العرفان، قال تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور:٣٥].

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ﴾ [النور:٣٥].

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «الله هادي السماوات والأرض»، مَثَلُ هُداه في قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار، فإذا مسته النار ازداد ضوءاً على ضوء، فيزداد نوراً على نور، في سورة التوبة قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة:٣٢].

إذا أراد إنسان أن يقاوم الحق فكأنه أراد أن يطفئ نور الله عز وجل، وفي سورة الزُّمر قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر:٢٢].

وفي السورة نفسها: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الزمر:٦٩].

وفي سورة الصف: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الصف:٨].

عَنْ داوُدَ بْنِ عَلِيٍّ ابْنُ عَبْدِ الله بْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ أبيهِ، عَنْ جَدِّهِ ابْنِ عَبَّاسٍ قالَ: سَمِعْتُ نَبِيَّ الله ﷺ يقولُ لَيْلَةً حينَ فَرَغَ مِنْ صَلاتِهِ: «اللهمَّ اجْعَلْ لي نُوراً في قَلْبِي، ونُوراً في قَبْرِي، ونوراً من بَيْنِ يَدَيَّ، ونوراً مِنْ خَلْفِي، ونوراً عَنْ يَميني، ونوراً عَنْ شِمالي ونُوراً من فَوْقِي، ونوراً مِنْ تَحْتِي، ونوراً في سَمْعِي، ونوراً في بَصَرِي، ونُوراً في شَعْرِي، ونوراً في بَشَرِي، ونوراً في لَحْمِي، ونوراً في دَمِي، ونوراً في عِظَامِي، اللهمَّ أعْظِمْ لِي نوراً، وأعْطِني نوراً، واجْعَلْ لي نوراً» [رواه الترمذي].

إقبالُكَ على الله، اتصالُكَ به، دعاؤك له، طاعتك إياه، يُكسبك هذا النور، وهذا النور من أثمن عطاءات الله عز وجل، إنسان منوَّرٌ يرى الحقيقة، أي: أن قلبه مُنير، كذلك شخص سمعه منوّر، فإذا استمع إلى كلام ما، فكأن عنده ميزاناً فيقول لك: هذا الكلام غلط، وهذا صواب، بصره منوَّرٌ إذا نظر إلى الجبل يرى عظمة الله عز وجل على حين أن الكافر ينظر إلى أعلى جبل يرى مناسيبه جميلة جداً كي يتزحلق على الثلج، لا يتعامل مع الأشياء إلا بالنفع، أما المؤمن فإنه يتأمل معها بالمعرفة، فإذا رأى نوراً إذ في نظره عِبرة، إذا استمع قيَّم تقييماً صحيحاً، فما كلُّ شيء يسمعه يقبله، إذا تحرك فإلى الخير، في يده نور إذا أعطى يعطي بالعدل، في رجله نور إذا مشى مشى إلى طاعة الله عز وجل، فمعنى النور أن يهديك إلى ما يُرضي الله، وثانياً: ويكون عندك ميزان، فالنور ميزان وهدىً.

ذو الجلال والإكرام

قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن:٢٧].

وعن عائشةَ رضي الله عنها قالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إذَا سَلَّمَ لَمْ يَقْعُدْ، إلا مِقْدَارَ ما يَقُولُ: «اللهمَّ! أَنْتَ السَّلامُ وَمِنْكَ السَّلامُ تَبَارَكْتَ ذَا الجَلالِ والإِكْرَامِ» وَفِي رِوايَةِ ابْنِ نُمَيْرٍ: «يا ذَا الجَلالِ والإِكْرَامِ» [رواه مسلم].

ذو الجلال

في اللغة: جَلَّ يَجِلُّ، أي: عظم قدره؛ والجليل من له الجلالة والعزُّ والغنى والنزاهة، والجليل: هو العظيم الذي يتنزَّه عما لا يليق به. وذو الجلال: كاشف للقلوب عن أوصاف جلاله، فقد يكشف قلب المؤمن بإذن الله عن بعض أوصاف جلال الله، فهو سبحانه يكشف للقلوب المنيبة بعض أوصاف جلاله، ويكشف للأسرار بعض نعوت جماله. وكل ما في العالم من جلال وكمال وحسنٍ وبهاء؛ فهو من أنوار ذاته، وآثار صفاته. وكلمة: جلّ جلاله، أي: عظُم قدره وتنزّه عما لا يليق به.

وقال بعض العلماء: «ذو الجلال: هو المستَحِقُّ للأمر والنهي، فهو وحده الذي يأمر وينهى، هو الذي يُشرِّع. وهو الذي يصغُر دونه كلُّ جليل، ويتّضِعُ معه كلُّ رفيع».

وقيل: هو الذي جلّ قدره في قلب المؤمن بالله، فلو شققتَ عن قلب المؤمن لرأيت فيه تعظيماً لله لا حدود له وخشيةً لله لا حدود لها، ولقد عظم خطره في قلوب المحبين.

لو قال تِيهاً قف على جمر الغضا لوقفتُ ممتثِلاً ولم أتوقفِ
أو كان من يرضى بِخَدِّيَ مَوطِئاً لَوَضَعْتُهُ أرضاً ولم أَسْتنكف

هذا إذا كان إنسانٌ يحبُّ مخلوقاً، فكيف إذا كان المؤمن محبّاً لله عز وجل؟ قال العلماء: هو الذي جلّ قدره في قلوب العارفين، وعظم خطره في نفوس المحبين، وهو المستحِقُّ للأمر والنهي الذي يصغر دونه كلُّ جليل، ويتَّضع معه كلُّ رفيع.

وهو الذي جلَّ في علوّ صفاته، وتعذّر بكِبريائه أن يُعرَف كمال جلاله؛ فعَظَمته أعظم من أن تُعرف، أو أن يحاط بها. أحياناً تلتقي بإنسان عدة لقاءات فتكشف بها كلَّ جوانبه، وتسْتَوعِب كلَّ إمكاناته، لكن لا يمكن لمخلوقٍ أن يحيط بقدْر الله عز وجل، ولقد تحدّث بعض الأئمة عن الفرق بين الجليل، والكبير، والعظيم.

فذَكر العلماء «أن الجليل: هو الموصوف بنعوت الجلال، وهي: الغِنى، والمُلك، والتقديس، والعلم، والقدرة»، فهناك بعض الصفات تُحدِث في النفس تعظيماً. الجليل: هو الموصوف بنعوت الجلال، والجامع لصفاتها جميعها، وهو الجليل المطلق، والجليل المطلق هو الله تعالى. والكبير: هو الذي يرجع في صفاته إلى كمال الذات. فهناك كمال للذات وكمال للصفات، مجموع الصفات التي ترتبط بكمال الذات: الكبير. ومجموع الصفات التي تتعلق بكمال الصفات: الجليل. وأما العظيم: فهو الذي جمع صفات كمال الذات، وصفات كمال الأفعال.

إنّ الإنسان حينما يذكر الله سبحانه وتعالى يحبُّ أن يُعبِّر عن تعظيمه له، فيقول: جل جلاله حيث ما ذُكِر اسم الله العَلَم على الذات، يُذكر بعد اسم الذات، أي: يقول المؤمن بعد اسم العَلم على الذات كلمة جلّ جلاله.

حينما يُدرِكُ الإنسان الصفات الظاهرة بعَيْنِه فهذا هو البصر؛ ببصرك تدرك الجمال الظاهر، وببصيرتك تُدرك الجمال الباطن. أحياناً تستمتع بفعلٍ كامل؛ هو في حدِّ ذاته جميل، والجمال ليس متعلِّقاً بالنواحي المادية فحسب، بل قد يمتدُّ إلى النواحي المعنوية، فالموقف الكامل، هو من زاوية موقفٌ كاملٌ ومن زاوية أخرى هو موقفٌ جميل. تقول: فلان يتمتع بجمال الخُلق. لذلك قال بعض العلماء: إن صفات الحق أقسام؛ صفات الجلال وهي العظمة والعِزّة والكبرياء والتقديس، وكلُّها ترجع إلى معنى الجليل، وصفات الجمال؛ وهي صفات اللُّطف والكرم والحنان والعفو والإحسان؛ وهذه هي صفات الجمال.

إذا اجتمعت ببعض من ذهبوا لأداء فريضة الحج يقولون لك: كنت وأنا في مكة المكرَّمة أشعُر بالجلال، فإذا ذهبت إلى المدينة المنوَّرة أشعر بالجمال، فهناك صفات الجلال، وصفات الكمال. صفات الجلال؛ صفات العظمة والعزة والكبرياء والتقديس، وكلُّها ترجع إلى معنى الجليل. وصفات الجمال؛ هي صفات اللُّطف، والكرم والحنان، والعفو، والإحسان، وكلُّها ترجع إلى معنى الجميل.

يقول بعض العلماء: صفات الكمال هي الأوصاف الذاتية التي دونها جميع العقول والأرواح، مثل اسمه القدوس، وصفات ظاهرها جمال وباطنها جلال مثل اسم المعطي، وصفات ظاهرها جلال وباطِنها جمال مثل النافع والضار، سأُوَضّح هذا بالتفصيل:

إن الإنسان إذا أخذ من عطاء الله ولم يَستَقِم على أمر الله، ولم يوَظِّف هذا العطاء في الحق فوراء هذا جلال، أي: قد يكون هناك عقاب، أو شيء يدعو إلى الخوف. وهناك صفات ظاهرها جلال، وباطِنها جمال؛ أحياناً يوقع ربنا الضَّرر بإنسان لكن هذا الضرر ينتهي به إلى التوبة، والإقبال على الله. فالله سبحانه وتعالى له صفات جلال، وله صفات جمال، وله صفات ظاهرها جلال وباطنها جمال، فإذا أعطاك فهذا شيء جميل، لكن إذا لم يكن مع هذا العطاء استقامة، سيكون بعد هذا العطاء تأديب. فيأتي الجمال أولاً

والجلال ثانياً. أما إذا جاء التأديب فالإنسان يخاف، ويشعر بالرهبة، وأن الله تعالى كبير، وأنه ينبغي أن يُرْهَب جانِبه، وبعد هذه الرهبة يأتي الجمال.

كان الإمام الثوري يقول: «إن هذه الدنيا دار التِواء لا دار استِواء، ومنزل تَرَحٍ لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء، قد جعلها دار بلوى، وجعل الآخرةَ دارَ عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بَلْوى الدنيا عِوَضاً فيأخذ ليُعطي، ويبتَلي لِيَجزي».

يجب أن تعتقد كما ورد في القرآن الكريم أن أسماء الله تعالى كلها حسنى، حتى اسم الجبار، القهار هي أسماء لله حسنى، لو عرفْت حقيقتها لذابت نفسك محبَّةً لله عز وجل، لكن هناك أسماء متعلقة بالجلال وأخرى بالجمال، وهناك أسماء ظاهرها جلال وباطنها جمال وله أسماء ظاهرها جمال وباطنها جلال.

يقول بعض العلماء: «ذو الجلال: هو المستحق لأوصاف العُلُوِّ والرِّفعة». ويقول بعض العلماء: «واعْلَم أنه تعالى يُكاشِف القلوب مرَّةً بوصف جلاله» فأحياناً يشعر الإنسان بحالٍ طيبة وسرور وانطلاق وفرحة؛ فالله جل جلاله يتجلَّى عليه باسم الجميل. وأحياناً يشعر بالخوف والقلق على مصيره هل له عند الله المكانة التي يتمناها؟ وهل عملُه كما يرضي الله عز وجل؟ وهل نياته على النحو الذي يرضى الله عنه؟

أحياناً يقع الإنسان في موقف أقرب إلى الخشية منه إلى الطمأنينة، فإذا تجلى الله على الإنسان باسم الجليل امتلأ القلب خشيةً. وإذا تجلى الله على عبده باسم الجميل امتلأ القلب فرحةً، وربنا عز وجل يُقلِّب هذا القلب البشري بين الخشية والطمأنينة، إن ازدادت طمأنينته يخيفُه، وإن ازداد خوفه يُطَمْئنه، قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [النور: ٢١].

هناك منهج؛ كتاب مبارك وسنّة، وهناك آيات تدل على عظمة الله، كل هذا شيء طبيعي، ولكن لولا أن الله يتولى معالجة القلب باستمرار لما زكا من عباده من أحدٍ أبداً،

قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

كل إنسان قريب من الله يدرك أنه إذا بدرت منه كلمة تدلُّ على اعتداد بالنفس فبعدها تأديب الله تعالى، وإذا بدرت منه كلمة تدلُّ على افتقار إلى الله فبعدها عطاء، فالمُفتقِر إلى الله يَنْعُم باسم الجميل. وبعض الصحابة قالوا: لن نُغلب من قلَّة، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [التوبة:٢٥].

فعلى الإنسان أن يراقب قلبه، فليس الإنسان عقْلاً وحده، ولا قلباً وحده، فالعقل غذاؤه العلم، والقلب غذاؤه الذِّكر والحب، فالإنسان إذا شعر أنَّ قناعاته قويَّة، واطمئنانه بالله زاد على الحدِّ المعقول فإن الله جل جلاله يتجلَّى عليه بصفة الجلال فيَخاف، وحينما يزداد خوفه إلى درجة قد يُقْعِده الخوف عن متابعة الطريق، يتجلى الله عليه باسم الجميل، وما سُمِّيَ الحال حالاً إلا لأنه يحول ويزول، والإنسان يتقلَّب في الحال الواحدة، كما قال بعضهم: المنافق يثبت على حالٍ واحدة أربعين عاماً، على حين أن المؤمن من شدَّة خشيته، وشدة حِرصه، على طاعة ربه، وقَلَقِه على مصيره عند ربه، يتقلب في اليوم الواحد أربعين حالاً.

مُلَخّص هذا الكلام؛ أن هناك صفات لله عز وجل ترجع إلى العظمة والقوة والقداسة والغِنى؛ هذه الصفات تجمعها صفة الجلال. وهناك صفات كالرحمة والإحسان واللُّطف والعفوِ والكَرَم؛ فهذه الصفات يجمعها اسم الجميل. والإنسان بين جمال الله وجلاله. بين الخوف والترقب، وبين الطمأنينة والقلق، وعلى الإنسان أن يتأدب مع الله عز وجل، لا يحمله حاله مع الله على أن يتساهل لا بأقواله ولا بأفعاله، وينبغي ألا يحمله الجلال الذي يرهبُه على أن يتراجع أو ينكمش ويقنط، فالحكمة أن تجمع بين الخوف والرجاء.

قال بعض العلماء: «الجليل يُحتَمَل أن يكون بمعنى المُفْعِل؛ الجليل: الذي يجل المؤمنين ويكرِّمهم. فالمؤمن مُكَرَّم، أحياناً تجد إنساناً مهاناً معذّباً خنوعاً ذليلاً يُحْوِجه الله إلى أتعسِ خلقه وأشقاهم»، ألم يقل سيدنا عليّ رضي الله عنه: «والله والله مرتين لحَفْرُ بئرين بإبرتين، وكنس أرض الحجاز في يوم عاصفٍ بريشَتين، ونقل بحرين زاخِرين بمُنخُلين، وغسْل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين، أهون عليَّ من طلب حاجة من لئيم لوفاء دَيْن».

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

لقلعُ ضِرسٍ وَضَربُ حَبسٍ ... ونَزعُ نَفسٍ وَرَدُّ أمسِ
وَقَرُّ بَرْدٍ وَقَوْدُ فَردٍ ... وَدَبغُ جِلدٍ بغَيرِ شَمسِ
وأكلُ ضَبٍّ وَصَيدُ دُبٍّ ... وَصَرْفُ حَبٍّ بأرضِ خِرسِ
وَنَفخُ نارٍ وَحَملُ عارٍ ... وَبَيعُ دارٍ برُبعِ فِلسِ
وَبَيعُ خُفٍّ وَعَدْمُ إلفٍ ... وَضَربُ ألفٍ بحَبلِ قَلسِ
أهوَنُ مِن وَقفَةِ الحُرِّ ... يَرجو نَوالاً ببابِ نَحسِ

فالله عز وجل قد يُحْوِج الإنسان أحياناً لعبد لئيم فيردّه ويقنطه هذا اللئيم ليعرف إحسان ربّه إليه. «سُئِل سيدنا عليّ رضي الله عنه: ما الذلّ؟ قال: أن يقف الكريم بباب اللئيم ثم يردّه» فالله ذو الجلال يُجِلُّ المؤمن عن أن يُحْوِجه إلى لئيم، ألم يقل الله عز وجل: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء:١٤١].

هؤلاء الأشخاص الشريرون، هؤلاء عِصيٌّ بيد الله عز وجل يسلِّطهم على من يشاء من عباده، والآية الكريمة: ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود:٥٥-٥٦].

لذلك قلت مرة: هؤلاء الذي يُذَلون ويُسْحَقون، ويسوق الله لهم من الشدائد ما لا يطيقون، هم في الغالب هان أمر الله عليهم، فهانوا على الله. وإذا أردت أن تعرف ما لك عند الله، فانظر ما لله عندك، هل أمر الله عندك عظيم؟

حدثني أخ كان في بلدٍ من البلدان الأوربية الشرقية، وخرج من الفندق ليَلْتَحق بالمطار الساعة الثانية بعد منتصف الليل وكان الفصل شتاءً قارساً، والثلج يزيد على مترين، الشيء الذي لا يصدَّق أنه رأى رتْلاً من الأشخاص يزيد طوله على خمسمئة متر وكان هؤلاء واقفين ينتظرون أن يوزّع عليهم اللحم غداً الساعة الثامنة؛ من الساعة الثانية ليلاً إلى الساعة الثامنة صباحاً، وكلُّ هذا من أجل أن يأخذوا قطعة لحم صغيرة يأكلونها مع أسَرِهم، فأحياناً تجد إنساناً مقهوراً ومعذّباً ومهاناً وذليلاً ومصيره بيد عدوٍّ له ويتفنَّن بإيقاع الأذى به. فماذا نقول؟ نقول: الله يجلُّ المؤمن من أن يُذيقه هذا العذاب، ومن أن يحوِجه إلى لئيم؛ ومن دعاء عليٍّ رضي الله عنه في هذا المقام:

«اللهم صُن وجوهنا باليسار ولا تبذِلها بالإقتار، فنسأل شر خلقِك، ونُبْتلى بحمد من أعطى، وذم من منع، وأنت من فوقهم وليّ العطاء، وبيدك وحدك خزائن الأرض والسماء».

وإذا كنت مع الله فَلَك العِزّ، ولك الكرامة؛ لأنه يُجِلّ المؤمنين ويعظمهم ويكرمهم، وأرجو الله أن أوضِّح للقراء الكرام هذه الحقيقة، المؤمن غالٍ على الله وليس بهيِّن، وحياته مقدسة، وعمله مقدّس، وحركاته وسكناته في حفظ الله، ويكفينا قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأنفال:١٩].

﴿ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [التوبة:١٢٣].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [البقرة:١٥٣].

وهذه المعيّة الخاصة التي تعني: النصر والتأييد والحفظ والتوفيق. بصراحة: فللمؤمن خصوصية من الله عز وجل؛ ومِن كمال تربيته أن يجعل للمؤمن خصوصية؛ وهي خصوصية النصر والتأييد والحفظ والطمأنينة، قال تعالى: ﴿ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام:٨١-٨٢].

النبي ﷺ في مرضِه أُعْطِيَ دواء ذات الجنب فقال: «كنتم ترون أن الله كان يسلط عليَّ ذات الجنب؟ ما كان الله ليجعل لها عليَّ سلطاناً» [أخرجه ابن سعد في الطبقات من حديث عائشة]، وهذا من إحسان الظنّ بربه، فالمؤمن لا يتألى على الله ولكنه يُحسن الظنَّ بالله. والتألي على الله موضوع آخر. مثلاً: هنيئاً لك أبا السائب لقد أكرمك الله [البخاري من حديث خارجة بن زيد]، فهذا تألٍ على الله. أن تقول فلان مصيره إلى الجنة من غير العشرة المبشّرين هذا تألٍ على الله. نحن نرجو له الجنة. فأكبر إنسان ليس ممن شهد لهم النبي ﷺ بالجنة. نقول: نرجو له الجنة. فالرجاء هو الأدب. أما أن تقول: هو في الجنة، أو هو في النار، فمن أنت؟ أنت عبد، والتألي على الله ليس من خلق المؤمن، ولكن من أخلاق المؤمن أن يدعُوَ لإخوانه بالمغفرة والجنة. ألم يقل الله عز وجل: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ ﴾ [الشرح:٤].

فالله يرفع اسم المؤمن عالِياً. المؤمن متألّق. وكلُّ حظوظ النفس حيادية، فلَكَ أن ترتفع بالباطل، والقهر، وبالقوة، والاستعلاء، والغِنى، ولك أن ترتفع بالكمال، كلاهما رِفْعَة، ولكنَّ رِفعة الدنيا آيلة إلى زوال، ولكنَّ رِفعة الكمال إلى استمرار. فالقويُّ مرهوب الجانب، ويخافه الناس لكنهم يخافونه ما دام حياً، أما إذا مات فإنَّ اللعنات تأتيه من كلِّ جانب إذا كان يؤذي العِباد. مثلاً تجد معلِّماً قاسياً جداً. طلاب الصّفِّ كلُّهم يخافونه طوال السنة الدراسية، أما حينما ينتهي العام الدراسي، وينصرف الطلاب فإنهم يسخرون منه. قال الحكماء: الأقوياء ملكوا الرِّقاب، والأنبياء ملكوا القلوب. وأنت بقوتك تملك رِقاب الناس، ولكن بكمالك تملك قلوبهم. مُلك الرِّقاب يزول، ولكنَّ ملك القلوبِ لا يزول. أوضح مثل أن تذهب إلى المدينة المنورة، وانظر هؤلاء الناس الذين جاؤوا من كل حدب وصوب، يقفون أمام رسول الله ﷺ بكل أدبٍ وحُبٍّ وبكاء وما عرفوه وما رأوه.

فلذلك الأنبياء ملكوا القلوب، وملكوها مُلْكاً مستمِراً. والأقوياء ملكوا الرِّقاب وملكوها زمناً مؤقتاً، فبهذا يشعر الإنسان بالطمأنينة قال تعالى: ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا

نَنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود:٥٥-٥٦].

قال العلماء: وذو الجلال ينبغي أن يعترَف العاقل بجلاله، وكِبريائه، وعظمته وقدسيَّته، وتنزّهه عن كلِّ ما لا يليق به، فالعاقل يجب أن يقول: جلَّ جلاله، وعزَّ نواله، بمعنى المفعول، أي: المُجَلُّ المُعَزُّ.

وهناك معنى ثالث في اللغة: أي: هو الموصوف بالجلال، فإما أنه موصوف بالجلال فهو فاعل، أو يجب أن يُجَل فهو المفعول، أو بمعنى مُفْعِل يُجِلّ المؤمنين، ويرفع قدرهم، والله عز وجل إذا أحبَّ عبداً ألقى محبَّته في قلوب الخلق.

يُنادى له في الكون أنَّا نحِبُّه فيَسْمع من في الكون هذا الأمر، ويُلْقَى حبُّه على أهل الأرض فيُحَبُّ. ولتعلمْ يقيناً أنه إذا أحبَّك الله جل جلاله، سخَّر عدوَّك اللدود لخدمتِك. وإذا غضِب الله على إنسان، الهَم أقرب الناس إليه بالتَّنكُّرِ له. زوجته تتنكَّر له، وابنه الذي من صُلْبِه قد يضربه. إذا أحب الله عبداً، ألقى حبَّه في قلوب الخلق. والإنسان لا يُعلِّق أمله لا بزوجتِه ولا بوَلَده ولا بمخلوق، يقول ﷺ: «لو كنت متخِّذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكرٍ، ولكن أخي وصاحبي» [البخاري عن ابن عباس]. وهذا هو التوحيد، أحياناً تجد أباً يُعلِّق كلَّ آماله بابنه، ثم لا يكون من هذا الابن إلا أن يذهب إلى بلدٍ أجنبي وينال جنسيَّة ذلك البلد، ويتزوج بأجنبية، ويقطع علاقته بوالدِهِ، وقد يُغيِّر دينه، وقد لا يستقبل أباه إن زاره، لذلك على الإنسان أن يعلِّق كامل ثقته بالله.

وهل يقال لفلان: جليل القَدْر؟ نعم لا يمنع أن نقول هذا، وتقول: فلان له قدر جليل وفلان جليل القدر، قال العلماء: يقال هذا لمن حسُنت صفاته الباطنة التي تستَلِذها القلوب أما الصفات الظاهرة فهي أقلُّ قدراً، فمن حسنت صفاته الباطنة؛ تجد هناك أدباً، وحِلماً، ورحمةً، وإنصافاً، وتواضعاً، وغيرةً، ومؤاثرةً، يمكن أن نصفه بأنَّه جليل القدر.

فالله عز وجل ذو الجلال، فإذا كنت مستقيماً وترفَّعت عن النقائص، وعن اللغو، وعن كثرة المزاح، وعن سَفْسَاف الأمور صِرت في نظر الناس جليلاً، يقولون: الأستاذ الجليل كما يقال، وكذلك الأخ الكريم. فالإنسان حينما يترفع عن السَّفْساف وصغائر الأمور وعن الدنيا الدنيَّة وعن حظوظه الدنيوية، وعن القيل والقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال، وعن الجزئيات. وعن إضاعة الوقت؛ مثل هذا الإنسان له قدر عند الناس جليل.

الإمام الرازي يقول: «الجليل من العباد من خلا من العقائد الزائعة والأخلاق الذميمة» فعقائده صحيحة، وأخلاقه كاملة. فإذا أُصيب بخلل بعقيدته لم يصبح جليلاً، وإذا كان هناك انحراف بسلوكه لم يصبح جليلاً كذلك، فاستقامة العقيدة مع استقامة السلوك، تجعل الإنسان جليل القدر. الحقيقة عندما يكون الإنسان سخيفاً وخفيفاً وثرثاراً ويَحْشُر أنفه في موضوعات لا تعنيه ليس له قدر عند الناس إطلاقاً. أما إذا كان هناك وقار، واستقامة، وضبط للسان، والجوارح، واعتِناء بمظهره، وانضباط بعَملِه، هذه الصفات الكاملة ترفع قدره، وتجعله جليلاً في نظر الناس. إذاً براءة الإنسان من العقائد الباطلة والأخلاق الذميمة تجعله جليلاً. واتِّصافه بالمعارف الحقّة، الأخلاق الفاضلة تجعله جليلاً.

ومن بعْدُ فها نحن أمام أدب المؤمن مع ذي الجلال: فعليه أن يتحلى بالكمال لأن الله عز وجل كامل ويحبّ الكامل، وهو عُفوّ ويحب العفو، وكريم يحب الكريم، فإذا أردت أن تقترب من الله عز وجل، فاقترِب من صفاته وأسمائه وتذكر أنه هو الذي أفاض عليك الجمال، سواء أكان جمال صورة، أم جمال حِسّ، أم جمال نفس. والإنسان إذا حدّثته نفسه بما لا يليق بالله عز وجل، وَوَسْوَس له الشيطان شيئاً، فليَذكُر ذا الجلال. ويجب أن تستحيي من الله حق الحياء، عن عبد الله بن مسعود ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «استحيوا من الله حق الحياء» قال: قلنا: يا نبي الله! إنا نستحيي والحمد لله، قال: «ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما

وعى، وتحفظ البطن وما حوى، ولتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء» [الترمذي].

فإذا كان الإنسان يستحي من الضيف، ويضبط كلامه، وصوته معتدل، ويرتدي لباساً جميلاً، وبيته مُرَتّب، فعليه ألا يجعل الله عز وجل أهْوَن الناظرين إليه، فإذا كان الإنسان بخَلْوة فلا يتكلم بكلام غير لائق ولا يتبذل إلى درجة غير معقولة بثيابه، ولا يعمل أعمالاً لا تُرضي الله! فَمِن أدب المؤمن مع ذي الجلال؛ أن يوَقِّر الجليل في خلوته، والمؤمن الصادق يشعر دائماً أن الله معه، وقد جاء في الحديث:

ما الإِحْسانُ قالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإِنَّهُ يَرَاكَ..» [متفق عليه من حديث أبي هريرة].

ذو الجلال والإكرام

صار معلوماً عند القارئ الكريم أن أسماء الله الحسنى كلَّها تدل على صفاته، لكنَّ اسماً واحداً هو (الله) عَلَم على الذات، ويدلُّ على كلِّ أسمائه، فإذا قلت: يا الله، معناه؛ يا رحيم، يا رحمن، يا غني، يا ودود، يا قوي، يا متعال، يا قدير، يا حسيب، يا لطيف... إلخ؛ فاسم (الله) اسم علَم على الذات، ويشير إلى كلِّ أسمائه الحسنى؛ لكنَّ أسماءه الأخرى تدلُّ على صفاته، أو على كمال صفاته، الغني القوي الحسيب المجيد المعطي، تروي السيدة عائشة: أن النبي ﷺ كان إذا سلم لم يقعد إلا مقدار ما يقول: «اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام»، هناك نقطة مهمّة وهي؛ أن أسماء الله الحسنى يمكن أن تقسم إلى قسمين: قسم يشير إلى قوته، وقسم يشير إلى كماله. أنت المؤمن تُؤخَذ بالقوي، وتؤخذ بالرحيم. فالكمالات بكل أنواعها تجمعها صفة (الإكرام)، والقوَّة بكلِّ مظاهرها تؤكِّدها صفة (ذو الجلال). مثال ذلك: قد تحترم أشخاصاً احتراماً كبيراً وأنت لا تحبِّهم، ينتزعون إعجابك بقوَّتهم، أو بذكائهم، أو بخبراتهم، أو بتحصيلهم، أو بفطنتهم، وبالمقابل فإنَّ هناك أشخاصاً آخرين يملؤون قلبك حبّاً، وقد لا ينتزعون إعجابك. الإنسان يميل قلبه لأمه، وقد تكون أُمِّيةً. يمتلئ

قلبه حباً لها، لكنَّ علمها وثقافتها وخبرتها وفطنتها وذكاءها لا ينتزع إعجابه. وقد يحب أستاذاً في الجامعة على علم وفهم وثقافة؛ ولكن حينما يتعامل معه لا يميل قلبه إليه. إذاً هناك صفات تُعجب بها، وهناك صفات تحبها. الصفات التي تُعجب بها، مجموعة في صفة (الجلال). والصفات التي تحبها، مجموعة في صفة (الإكرام). فإذا قلت: «تبارك ذو الجلال والإكرام» فهذا يعني؛ أنَّ كلَّ صفات القوة والعظمة والجبروت يتَّصف الله بها. وكلَّ صفات الإكرام والرأفة والرحمة يتَّصف الله بها. فكأنَّ هذه العبارة جمعت الأسماء الحسنى كلَّها من زاويتين: زاوية القوة وزاوية الإكرام.

يقول أحد الأئمة الكبار: إن معنى (ذو الجلال والإكرام) هو الذي لا جلال ولا كمال إلا وهو له، لا جلال ولا كمال ولا كرامة ولا مكرمة؛ إلا وهي صادرة منه؛ فالجلال له في ذاته، والكرامة فائضة منه على خلقه، كلُّ أفعاله تجاه خلقه إكرام ظاهر جليٌّ، أو باطن خفي. وهذا معنى قول الله عز وجل: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:٢٠].

النِّعم الظاهرة هي الإيجابية، والنعم الباطنة هي ما يدفع الله عنه من المصائب. وفنون إكرامه لخلقه لا تكاد تنحصر أو تتناهى. قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾﴾ [البلد:٨].

عينان صغيرتان ترى بهما الأشياء على حجمها الحقيقي بألوانها الدقيقة؛ الرؤية فَوْرية، شبكية العين تحوي مئة وثلاثين مليون عصية ومخروط، من أجل نقل أدق الصور، وبالعينين ترى جمال الكون، بالعينين ترى جمال الأشخاص، بالعينين ترى المظاهر التي تأخذ بالألباب ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾﴾ فالعينان هما إكرام من الله عز وجل. هذه القناة الدمعية التي هي من أدق القنوات في الإنسان؛ لو أنها سُدت وصار فائض الدمع يسيل على الخدين -على صغر هذه المشكلة فهي ليست خطراً- إلا أنها تجعل حياة الإنسان جحيماً، وسيحتاج دائماً إلى مسح خديه، مما سيؤدي إلى تخريش الخد. فهذا إكرام من الله. العينان إكرام، والأجفان إكرام، والمحجر إكرام، والعضلات التي تحرك العينين يميناً وشمالاً إكرام من الله عز وجل.

كذلك جعل الله لهذا الإنسان أُذنين يستمع بهما إلى أدق الأصوات وأدق النبرات. يستمع بهما إلى الصوت، وإلى جهة الصوت، وإلى هوية الصوت؛ هذا إكرام. مفصل يدك إذا أُلغيَ كيف تأكل؟ إلغاؤه سيؤدي إلى وضع الطعام على الأرض، والانبطاح من أجل أن تأكل الطعام كالهِرَّة تماماً. وهذا الرسغ، وهذه الأصابع، وهذا الأنف، وهذه الأسنان، واللسان، ولسان المزمار، والحنجرة، والأمعاء، كلُّ هذا إكرام من الله. قال تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الرحمن:٧٨].

وردت هذه العبارة مرتين في كتاب الله، المرة الأولى في قوله تعالى: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرحمن:٢٧].

والمرة الثانية: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الرحمن:٧٨].

نقف عند هذه المفارقة الدقيقة: ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام: ذو من الأسماء الخمسة مرفوع بالواو. لماذا جاءت الآية الأولى بالرفع، والثانية بالجر؟ الآية الثانية ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ الاسم عَرَض وليس جوهراً فجاءت ﴿ذِى﴾ تابعة لربك؛ ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ أما الوجه فهو من الذات. ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ هذه من دقائق اللغة العربية. قال تعالى: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الشعراء:١٩٥].

لأنَّ الاسم ليس جوهراً في الإنسان بل عَرَض، إذ بإمكانه تغيير اسمه، لكنَّ وجهه جزء من ذاته ولا يمكن تغييره، فإذا قال الله عز وجل: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ﴾ قال: ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾. أما إذا قال: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ فالوجه من الذات، لذلك قال: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾.

هذه الآية توحي لنا بأن أسماء الله صنفان: صنفٌ يشير إلى قدرته، وكمال قدرته، وقهره، وجبروته، وقوته، وصنف يشير إلى كمالاته؛ فكلُّ الأسماء المتعلقة بالقوَّة يمثِّلها

الجلال. وكلُّ أسمائه المتعلِّقة بكمالاته، وإكرامه، وإحسانه، ورحمته، ولطفه، ورأفته، يمثلها الإكرام. فإذا قلت: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ فقد جمعت أسماء الله الحسنى كلَّها.

لذلك يقول الغزالي رحمه الله: لا جلال ولا كمال إلا وهو له، ولا كرامة ولا مكرمة إلا وهي صادرة منه؛ فالجلال له في ذاته، والكرامة فائضة منه على خلقه؛ فلو كان شخص ذو هيبة أمام الخلق؛ فهي من الله. ولو أراد الله نزعها، لصار حقيراً أمام الخلق جميعاً. فرعون قال: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النازعات:٢٤] فلما أغرقه الله عز وجل، أنجاه ببدنه، وقذف ببَدَنِهِ إلى الشاطئ، ليكون آية للعالمين ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗ ﴾ [يونس:٩٢]. ولو أنه غرق لما صدق الناس أنه غرق ولكن شاءت حكمة الله أن يبقى بدنه بعد غرقه كما هو، وأن تقذفه الأمواج إلى الساحل.

فنونُ إكرامه لخلقه كثيرة لا تكاد تنحصر ولا تتناهى:

﴿ ۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء:٧٠].

﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴿٤﴾ ﴾ [التين:٤].

بدْءاً من جهازه العظمي هناك مفصل نحو الداخل. الركبة مفصل نحو الخارج، والرأس يدور. والعمود الفقري يَتَمَفْصل تَمَفْصُلاً محدوداً. الجمجمة مفاصلها ثابتة، وعندما يصاب الشخص بضربة على رأسه فإن تداخُلَ هذه الأجزاء يقي كسر الجمجمة؛ فكل هذا من إكرام الله له. وأتمنى لو يتفكَّر كل واحد منا بإكرام الله له.

النوم إكرام، تنام بعض ساعات وبعدها تشعر بالقوة والنشاط، هضم الطعام إكرام تأكل وتتلذذ وانتهى الأمر؛ لكن لو أنَّ الله أوْكل إليك هضم الطعام فإذا تناولت وجبةً امتنعت عن مقابلة أي شخص كان ثلاث ساعات أو أربع ساعات، لماذا؟ لأنَّك مشغول بهضم الطعام. فيضيع وقتك.

فوجبة الإفطار تحتاج إلى أربع ساعات لهضمها، ووجبة الغداء تحتاج إلى خمس ساعات، ووجبة العشاء تحتاج إلى أربع ساعات. فأنت تقضي خمسَ عشرة ساعة للهضم. نقلت اللقمة إلى المريء ثم إلى المعدة. أُمرت الغدد بالإفراز. أُمرت البنكرياس بصب الأنسولين في الدم. أمرت الصفراء بأن تفرز. نقلت اللقمة والطعام إلى الاثني عشري. إلى الأمعاء. ولكن كأنه قال لك: كُلْ ولا تَهْتَمَّ بالباقي. كلُّ ما يجري من تفاعلات الهضم والانحلالات لا دخل لك فيها. هَب أن الله أوكل إليك التنفس، لن تستطيع أن تنام الليل أبداً، فالنوم يعني الموت. ولكن أنت نائمٌ والقلبُ يعملُ، والرئتان تعملان ولسان المزمار يعمل بلا كلل ولا ملل؛ كل هذا وأنت نائم. وزن جسمك الجهاز العظمي والعضلات التي فوقه، تضغط على ما تحت الجهاز العظمي؛ فتضيق لمعات الأوعية وجعل الله عز وجل في الجسد أماكن للإحساس بالضغط؛ وهذه الأماكن والمجسات تعطي إشارة للدماغ، فالدماغ يأمر الجسم بالتقلب وأنت نائم، فالإنسان يتقلب أربعين مرة في الليلة تقريباً، حتى لا يشعر الإنسان بتخدُّر جسمه، ذلك أنَّ ضيق لمعات الأوعية تسبب ضعف التروية، وضعف التروية يشعرك بالخدر، أمَّا التقليب فهو من آيات الله.

إفراغ المثانة إكرام؛ لها عضلات، ولولا العضلات لاحتاج الأمر إلى تنفيس هواء. أمَّا بالعضلات فأنت تُفرغها بثوانٍ. فالمثانة هي من إكرام الله؛ إذ إنَّه في كل عشرين ثانية تقطر قطرة بول من كلِّ كلية، وتُجمع في المثانة، خلال ساعتين، أو ثلاث، أو أربع، ثم تفرَّغ تلك الكمية في بضع ثوانٍ، ولولا وجود المثانة لاحتاج الإنسان إلى قماش يلفُّ به نفسه كالأطفال. فإكرامات كثيرة من الله عز وجل؛ الزوجة إكرام، والابن إكرام، والطعام والشراب إكرام... أنواع متنوعة لا تعدُّ ولا تحصى قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾﴾ [البلد:٨-١٥].

قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء:٧٠].

الإمام الرازي من كبار علماء المسلمين المفسرين يفرق بين لفظ الجليل، ولفظ الكريم، لفظ الكريم يكفي فيه الإكرام، والإكرام قريب من الإنعام ولكنه أخصُّ منه، فكلُّ إكرام إنعام، وليس كلُّ إنعام إكراماً، كيف ذلك؟ قد تجد أنَّ فلاناً من الناس، له كذا من الأولاد يأكلون جميعاً على مائدته ولكن أحد هؤلاء الأولاد بارٌّ ومطيع، فأنت تجد أنهم إذا صاروا على مائدة الطعام، فهذا الولد البار له معاملة خاصة من أبيه، فالأب يقدم له شيئاً استثنائياً ويبتسم في وجهه، ويرضى عنه ويدعو له؛ فالطعام وحده إنعام، أما الإطعام مع التكريم اللفظي والعملي فهو إكرام.

فالإمام الرازي يقول: ليس كل إنعام إكراماً، ولكنَّ كلَّ إكرام إنعام، قال: وفي تقديم لفظ الجلال على لفظ الإكرام سِرّ، قال تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الرحمن:٧٨].

فلماذا قدم الله لفظ الجلال على لفظ الإكرام؟ لأنَّ الجلال يعني التنزيه، تقول: جَلَّ جلاله؛ أي: تنزهت ذاته عن كلِّ نقص، وإن الإكرام الصادر من الله عز وجل إكرام منزَّه عن كلِّ غرض. قد تُدعى لطعام الغداء من قبل أحد الأشخاص، وبعد أن تنتهي، قد يطلب منك حاجة؛ فهذه الدعوة إذاً ليست خالصة، وإنما دعوة هادفة، وهي مشوبة بمكسب، وغرض وتأمين حاجة؛ لذلك قدم الله صفة الجلال على صفة الإكرام؛ لأن إكرامه منزَّه عن كل غرض.

«يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً» [أخرجه مسلم من حديث أبي ذرّ].

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ [إبراهيم:٨].

﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ ﴾ [الزمر:٧].

ويذكر بعض العلماء: أن جلال الله منزَّه عن الأنصار والأعوان. أحياناً يستمدُّ الإنسان هيبته ممن حوله، ومن أنصاره، وأعوانه، وجماعته، ومن القوَّة التي بيده، ومن الأشخاص الذين حوله؛ لكنَّ الله عز وجل منزَّه في جلاله عن الأعوان والأنصار. أما الإنسان؛ فجلالته قد تكون من ماله، أو مكانته من علمه، أو مكانته من سلطته. هذه المكانة مشوبة ومفتقرة إلى شيء، قالوا: من أحبك لشيء، كرهك لفقده. فجلال الله عز وجل منزَّه عن الأسباب؛ لأنَّه ذو جلال بذاته دون سبب منفصل عنه. جلاله يعني الرِّفعة والعزّة والعلوَّ. والإكرام كما قال الإمام الرازي: قريب من الإنعام، إلا أنه أخص منه؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد ينعم جل جلاله على من لا يكرِّم؛ فهو سبحانه لا يحبُّ الكافرين لكن يمنحهم المال والصحة، والأولاد والبيوت، والمتع والسيارات والمباهج؛ فكلُّ هذا إنعام وليس إكراماً. لكنه جل جلاله يكرم المؤمنين. فكل إكرام إنعام، ولكن ليس كلُّ إنعام إكراماً ذلك لأنه ينعم على من لا يُكْرِم، ولا يُكْرم إلا من يُنعم عليه. وقالوا: إكرام الله عز وجل نوعان: نوع معجَّل في الدنيا، ونوع مؤجل إلى الآخرة. فالإنسان إذا لم يكن له في الدنيا ما يريد، بل كانت دنياه مدبرة لا مقبلة، فهو ينتظر إكرام ربه بعد الموت.

وقال بعض العلماء: ذو الجلال والإكرام؛ هو صاحب الجلالة، لأنه لا شرف، ولا مجد، ولا عزَّة، ولا قوة، إلا وهي له، فهي له وبه ومنه، أحياناً يهب الله تعالى لبعض الأشخاص هيبة، جلالة، مكانة، وأحياناً يسلبها منهم فجأة. هو الأصل. فلا شرف، ولا مجد، ولا عزة، ولا قوة إلا وهي له وبه ومنه ولا كرامة ولا فضل ولا نعمة ولا إحسان، إلا وهي من مَدَدِهِ جل جلاله؛ هذا معنى ذو الجلال والإكرام.

وقال بعضهم: هذه العبارة جامعة للجلال والجمال؛ فإن الله تعالى له جلال رهيب، وجمال عجيب.

وبالمناسبة أقول: إن المؤمن المتصل بالله جل جلاله له هيبة.

عَن ابن مَسْعُودٍ قالَ: أَتى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ فَجعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ فَقالَ لَهُ: «هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ إِنَّما أنا ابْنُ امْرَأَةٍ تأْكُلُ القَديدَ» [رواه ابن ماجه].

كان ﷺ من رآه بديهة هابه، ومن عامله أحبه. فالنبي ﷺ وأصحابه والمؤمنون الصالحون الصادقون المخلصون؛ هؤلاء يأخذون من الجلال نصيباً وهو الهيبةُ؛ فمن اتَّقى الله هابه كلُّ شيء. وأيُّ إنسان اتصل بالله عز وجل كانت له هيبة.

روي أن الحجاج بنى داراً بواسط، وأحضر الحسن البصري ليراها، فلما دخلها قال: الحمد لله إنَّ الملوك ليرون لأنفسهم عزّاً، وإنا لنرى فيهم كلَّ يوم عبراً، يعمد أحدهم إلى قصر فيشيده، وإلى فرش فينجده، وإلى ملابس ومراكب فيحسنها، ثم يحفُّ به ذباب طمع وفراش نار وأصحاب سوء، فيقول: انظروا ما صنعت، فقد رأينا أيها المغرور فكان ماذا يا أفسق الفاسقين؟ أما أهل السموات فقد مقتوك! وأما أهل الأرض فقد لعنوك! بنيت دارَ الفناءِ وخربت دارَ البقاءِ وغُرِرْتَ في دار الغرور لتذلَّ في دار الحبور، ثم خرج وهو يقول: إن الله سبحانه أخذ عهده على العلماء لَيُبَيِّنُنَّه للناس ولا يكتمونه، وبلغ الحجاج ما قال فاشتدَّ غضبه، وجمع أهل الشام فقال: يا أهل الشام أيشتمني عبد من عبيد أهل البصرة وأنتم حضور فلا تنكرون؟ ثم أمر بإحضاره فجاء وهو يحرك شفتيه بما لم يسمع حتى دخل على الحجاج، فقال: يا أبا سعيد! أما كان لإمارتي عليك حق حين قلت ما قلت: فقال: يرحمك الله أيها الأمير! إن من خوَّفك حتى تبلغ أمنك أرفق بك وأحبُّ فيك ممن أمنك حتى تبلغ الخوف، وما أردت الذي سبق إلى وهمك، والأمران بيدك العفو والعقوبة فافعلِ الأوْلى بك، وعلى الله فتوكل، وهو حسبنا ونِعْمَ الوكيل، فاستحيا منه واعتذر إليه وأكرمه وحباه.

وفي رواية أخرى فلما دخل قال له الحجاج: ها هنا، فأجلسه قريباً منه، وقال: ما تقول في علي وعثمان، قال: أقول قول من هو خير مني عند من هو شرٌّ منك، قال فرعون لموسى ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ﴾ [طه:٥١-٥٢] علم علي وعثمان عند الله، قال: أنت سيد العلماء يا أبا سعيد!

ودعا بغالية وغلف بها لحيته فلما خرج تبعه الحاجب فقال له: ما الذي كنت قلت حين دخلت عليه؟ قال: قلت: يا عُدَّتي عند كربتي، ويا صاحبي عند شدتي، ويا ولي نعمتي! ويا إلهي وإله آبائي إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب! ارزقني مودته، واصرف عني أذاه، ففعل ربي عز وجل.

صدقوني أيها القراء الكرام: هذا لكلِّ مؤمن، وفي كلِّ زمان وفي كلِّ مكان، للمؤمن هيبة. لا يستطيعون أن يتجاوزوا حدَّهم عندك إن كنت مؤمناً مستقيماً، فمن اتقى الله، هابه كلُّ شيء، ومن لم يتق الله، هاب كلَّ شيء.

أَخْبَرَنا جَابِرُ بْنُ عَبْدِ الله أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «أُعْطِيتُ خَمْساً لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبلي: نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسيرَةَ شَهْرٍ، وجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِداً وطَهُوراً، فأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ فَلْيُصَلِّ، وأُحِلَّتْ لِيَ المَغانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلي، وأُعْطِيتُ الشَّفاعَةَ، وكانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إلى قَوْمِهِ خاصَّةً وبُعِثْتُ لى النَّاسِ عامَّةً» [رواه البخاري ومسلم].

فالنبي ﷺ نُصر بالرعب وحينما تركت أمته سنته؛ هُزِمَت بالرعب؛ من اتقى الله هابه كلُّ شيء، ومن لم يتقِ الله هاب كلَّ شيء.

وقال العلماء: ذو الجلال والإكرام؛ هو المنفرد بالجلال والإكرام والعظمة، المختص بالإكرام والكرامة؛ فكلُّ جلال له، وكلُّ كرامة منه سبحانه، له الجلال في ذاته، والإكرام فيضٌ منه على خلقه؛ فما من نعمة تأتيك إلا وهي من الله؛ حتى لو أن عينيك رأتا أن هذا الإنسان -فلان الفلاني- هو الذي أكرمك؛ إذا كنت موحداً ترى أن الله ألهمه، وسمح له، وأن الله مكَّنه، وألقى حبَّك في قلبه فأكرمك. لذلك -المؤمن الصادق- إذا أصابه خيرٌ، بادئ ذي بدء يشكر الله عز وجل، إنّ السيدة عائشة حينما خاض الناس في أمرها وقال لها أهل الإفك ما قالوا، واتهموها زوراً وافتراءً، وبقي الوحي منقطعاً قرابة شهر، والنبي ﷺ في أشد حالات الضيق والحزن، ثم جاءت براءة الله عز وجل للسيدة عائشة -رضي الله عنها- فقالت لها أُمُّها: قومي لرسول الله فاشْكُرِيهِ فقالت: «لا والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله» [متفق عليه من حديث عائشة].

ما دامت كلُّ كرامة من الله، وأيُّ إكرام مهما بدا لك أنه من فلان، فهو من الله، لذلك أنت يجب ألا تشكر على الحقيقة إلا الله. فالمؤمن الصادق يُعَوِّدُ نَفسَهُ سجود الشكر، فأحياناً يُسمَح له، وقد كان ممنوعاً، يُمنح، ينال درجة أو شهادة أو مالاً، ويرى كلَّ نعمة من زوجة وولد ومال وعطاء، ونجاح، هي منه سبحانه وتعالى، وهو المنفرد بصفات الكمال والعظمة والجلال، المختصُّ بالإكرام والكرامة؛ فكلُّ جلال له، وكلُّ كرامة منه سبحانه، له الجلال في ذاته، والإكرام فيض منه على خلقه. عندي مثل أحب أن أطرحه على مسامع القراء الكرام:

في معامل الحديد الضخمة، هناك رافعات كهربائية، مساحة كبيرة من الحديد؛ مربعة أو دائرية محاطة بوشيعة كهربائية، فإذا سرت الكهرباء في هذه الرافعة، تصبح ممغنطة. وهذه الرافعة ربما حملت خمسة أطنان. والآن وهي ترفع هذا الثقل؛ لو ضغط العامل مفتاحاً بمقدار ربع ميلمتر بحيث قطع تيار الكهرباء، فكل هذه الأوزان تسقط، أردت بهذا المثال أنه مهما كنتَ ذا هيبة، أو كنتَ ذا شخصية متألقة، ومحظوظاً ومحبوباً؛ فهذا من الله عز وجل، بدليل أنه أحياناً يُفقدك هيبتك، ويأتي أحقر الناس فيتطاول عليك، ويسيء إليك. فإذا شعرت بالمكانة والهيبة وأنك محبوب فهي من الله، والنبي ﷺ علَّمنا أن الله كلما زاد في إكرام عبده؛ فالعبد الكامل يزيد في تواضعه لله عز وجل. لذة النصر لا توصف، فكفار مكة المكرمة بالغوا في الإساءة إليه ﷺ وإيذائه، وحاربوه ثلاث مرات في بدر وأُحد والخندق، وحاولوا قتله وأخرجوه، ونكَّلوا بأصحابه وعذبوهم وقتَّلوهم، حتى إن سهيل بن عَمْرٍو لم يرض أن يكتب: هذا ما اتفق عليه محمد رسول الله قال: امحُ رسول الله -غطرسةً وكِبْراً- [انظر البخاري: (٢٦٩٩، ٣١٨٤، ٢٧٣١-٢٧٣٢، ٤٢٥١)] ثم فتحت مكة، عشرة آلاف سيف متوهجة تأْتمر بأمر النبي وقد دخلها منتصراً، كيف دخلها؟ دخلها مطأطئاً رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح حتى إن لحيته لتكاد تمسُّ واسطة الرحل [سيرة ابن هشام، ٤/ ٣٨].

وعن أنس، قال: دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وذقنه على رحله متخشِّعاً

[أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة»].

نصيب المؤمن من معرفته بذي الجلال والإكرام

الله ذو الجلال والإكرام، وكلُّ الجلال منه، وله، وبه، وكلُّ الإكرام منه وله وبه. فإذا تمتعت بهيبةٍ فاذكر؛ أنَّ الله هو الذي رفع لك ذكرك، وإذا تمتعت بإكرام فاعتقد أنه منه.

وها نحن بصدد معنى جديد؛ فكوْنه ذا الجلال فيجب أنْ تُجلَّه. ولأنه ذو إكرام فيجب أن تحبه، وأن تكرم عباده؛ فَرَدُّ الفعل عندك أن تجله، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحج:٣٢] بعض الأحيان يتأدب الإنسان مع كتاب الله، ويضعه في مكان عالٍ، ولا يجعل رجليه باتجاهه، وإذا قرأه قرأه جالساً، ويضعه على وسادة، فكل تعظيم لشعائر الله وكتابه وبيوته وأوليائه، هو من إجلال الله.

عَنْ أبي موسَى الأشْعَرِيِّ قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إنَّ مِنْ إجْلالِ الله إكْرامَ ذي الشَّيْبَةِ المُسْلِمِ، وحامِلِ القُرْآنِ غَيْرِ الغالي فيهِ وَالجافِي عَنْهُ، وإكْرامَ ذي السُّلْطانِ المُقْسِطِ» [رواه أبو داود].

«إن من إجلال الله إكرامَ ذي الشيبة المسلم» رجل متقدم بالسن، نشأ في عبادة ربه، ذو شيبة؛ إكرام هذا الشيخ هو من إكرام الله، إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم. وإكرام العالم العامل، والإمام العادل، كل ذلك من إكرام الله وإجلاله، فالمعنى الجديد الذي مرّ معنا هو: ما دام الله ذا الجلال والإكرام؛ فينبغي أن تجله، وأن تكرمه بإكرام خلقه، وهو ردّ الفعل.

وبعد فقد ورد أنَّ النبي ﷺ، كان ماراً في طريقه فسمع أعرابياً يقول: اللهم إني أسألك باسمك الأعظم العظيم الحنان المنان، مالك الملك، ذي الجلال والإكرام، وعَنْ أَنسِ بْنِ مالِكٍ قالَ: سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلاً يقولُ: اللهمَّ إِنِّي أسْأَلُكَ بأنَّ لَكَ الحَمْدَ، لا إلَهَ إلا أنْتَ وَحْدَكَ لا شريكَ لَكَ، المَنَّانُ، بَديعُ السَّمَواتِ والأرْضِ، ذُو الجَلالِ والإكْرامِ، فقالَ: «لَقَدْ سَأَلَ اللهَ باسْمِهِ الأعْظَمِ الذي إذا سُئِلَ بِهِ أعْطَى وَإذا دُعِيَ بِهِ أجابَ» [رواه أبو داود، وابن ماجه، والترمذي، والنسائي].

وعن عَبْدِ الله بْنِ المُبَارَكِ عَنْ يَحْيَى بْنِ حَسَّانَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ المَقْدِسِ وَكَانَ شَيْخاً كَبيراً حَسَنَ الفَهْمِ عَنْ رَبيعَةَ بْنِ عامِرٍ، قالَ: سَمِعْتُ رَسُولِ الله ﷺ يقولُ: «أَلِظُّوا بِيَا ذا الجَلالِ والإِكْرَامِ» [رواه أحمد].

وعن أنس بن مالك، قال: كان النبي ﷺ إذا كربه أمر قال: «يا حيُّ يا قيومُ برحمتك أستغيث». وبإسناده قال: قال رسول الله ﷺ: «ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام» [الترمذي، وقال: هذا حديث غريب].

أَلِظّوا بيا ذا الجلال والإكرام؛ أيْ التجئُوا، فإذا حلت بالمؤمن مشكلة، أو ألمت به ملمة، أو دهمه خطب، أو حلَّت به محنة، دعا وقال: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث. أَلِظّوا: أيْ التجئوا وادعوا، قال ابن الأثير أيْ: الزَموه واثْبتوا عليه، وأكثروا من قوْل ذلك في دعائكم.

التطبيق الثاني: من عرف جلال الله تواضع له، لذلك لا يجتمع كِبْرٌ ومعرفة الله عز وجل. تقول: أنا؛ فمن أنت؟ أنت لا شيء. لا تقل: أنا. متى أكثر العبد من ذكره، ولاح نوره على سره، صار جليل القدر بين العوالم. ومن عرف جلال الله، تواضع له وتذلل، فالإكرام أن تكرم الناس، وأن تجعل أساس حياتك العطاء، وأمّا الجلال فأن تترفَّع عن سفساف الأمور. فمن كثر مزاحه، قلَّت هيبته، لا تتعلق بالجزئيات والتفاصيل. لا تكن سخيفاً. إن الله يحب معاليَ الأمور، ويكره سفسافها ودَنِيَّها. فاعتدالُك في الأمور وتوازنك واهتمامك بالقضايا الكبرى، وتعلقك بالآخرة، وترفعك عن السفساف والدَّنايا، وترفعك عن السَّفاهات، وعن كثرة القيل والقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال، وتعلقك بالآخرة، يجعلك ممن تخلق بأخلاق الله، وصار لك هيبة أساسها الاعتدال والسلوك الحسن، والترفع عن الدنيا والسفساف والسقطات والزلات والثرثرة والتعليقات والتدخلات الجانبية، وأن تحشر نفسك فيما لا يعنيك. هذا كله يضعف مكانتك. والإنسان الناضج له إحساس دقيق جداً؛ فيشعر أن هذه الكلمة تصغّر شأنه، وهذه النظرة تقلل قدره، وأن هذا السؤال يجعله دنيئاً، وأنَّ هذا التذلُّل

يجعله خنوعاً، وأنَّ هذا التصرف يجعله طامعاً. فكلُّ عملٍ يجعلك أمام الناس صغيراً، عليك أن تترفَّع عنه. والنبي ﷺ قال: «إياك وما يُعتذر منه» [أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عمر].

أيُّ تصرفٍ يدفعُك إلى الاعتذار وتقول: لا تؤاخذوني، فلا تفعلْه، إذا فعلت هذا صارت لك هيبة، والهيبة نوعان: نوع كسبي، ونوع وهْبي.

النوع الكسبي: التزامك بالأدب وضبط اللسان؛ فمَن كثر كلامه كثر غلطه، اضبط لسانك وجوارحك وكن معتدلاً، لا تتكلَّم كلاماً لست متأكداً منه، ولا تتَّهم أحداً قبل أن تتحقق، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ۝٦﴾ [الحجرات:٦].

فعدم التسرّع وعدم الثرثرة، وفهم الأمر بتريُّث، وترك الدنايا، يجعلك ذا جلال. وإذا جعلت أساس حياتك العطاء والسخاء والدعْم، صرت ذا إكرام. إذاً ومرة ثانية أذكر أن نصيبك من ذي الجلال والإكرام: كسْبي ووهْبي، إن أقبلت على الله واتصلت به، وهَبك الجلال. وإن اعتدلت في سلوكك، وترفعت عن الدنايا والسفساف وأقللت من المزاح ومن الثرثرة، والتدخل فيما لا يعني، كنت كبيراً في نظر الناس. فكلمةٌ ترفعك، وكلمةٌ تجعلُك أسفل السافلين. إن الرجل يقول الكلمة في سخط الله لا يلقي لها بالاً، يهوي بها سبعين خريفاً في جهنم. فما دام الله عز وجل ذا الجلال والإكرام، يجب أن نجِلهُ وأن نحبَّهُ، ومن جهة ثانية؛ فباستقامتنا واعتدالنا وترفعنا عن السفاسف، نكتسب هيبة. وباتصالنا بالله عز وجل.

أجل نكتسب هيبة. الأولى كسبية، والثانية وهبية. والله عز وجل أكرمنا فيجب أن نحبه، وأن نكرم عباده. إذا أردتم رحمتي فارحموا خلقي.

جاء في بعض الأدعية: أنت ذو الجلال والإكرام، صاحب الطَّوْل والإنعام، لك جلالٌ يَدُكّ الجبال، ولك جمالٌ يفتح باب القبول والوِصال.

أيها القارئ الكريم: كلُّ صفات القوة والعظمة منطوية في يا ذا الجلال، وكل صفات الكمال والإكرام منطوِية في الإكرام؛ فإذا قلت: يا ذا الجلال والإكرام، فكأنك جمعت بهذا أسماء الله الحسنى كلَّها، ولكن من زاويتين؛ زاوية القوة، وزاوية الكمال، والنبي ﷺ ما كان يجلس بعد الصلاة إلا بمقدار قوله: «اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام» [رواه مسلم من حديث عائشة]، ومعنى يا ذا الجلال والإكرام ينبغي؛ أن تعظِّمه بالقدْر الذي تحبه؛ فإذا كان في حياتنا كما قلت في مطلع هذا البحث أناس نحبهم كثيراً ولا نقدرهم كثيراً، وأُناس نقدرهم كثيراً، ولا نحبهم كثيراً، فالله عز وجل ذو الجلال والإكرام بقَدْر ما هو عظيم في قلبك، بقَدْر ما هو كريم في تعامله معك.

الاصطفاء

من أفعاله: الاصطفاء.

قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [آل عمران:٣٣].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [آل عمران:٤٢].

وقال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الأعراف:١٤٤].

وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحج:٧٥].

من معاني الاصطفاء

الاصطفاء في اللغة: تناول صفو الشيء، كما أنَّ الاختيار: تناول خيره، فأنْ تأخذ أصفى ما في الشيء فهذا اصطفاء، وأن تأخذ أَخْيَرَ ما في الشيء فهذا اختيار، وصفوة الشَّيء: ما صفا وخلص، والنبي ﷺ صفوة الله من خلقِه؛ من الذي اصطفاه؟ المصطفي الله جل جلاله هو الذي اصطفى النبي ﷺ وجعله صفوة خلقِه، وتقول: صفا الجو، أي: ليس فيه لطْخَة غيْمٍ، سماءٌ صافيةٌ زرقاء، واصطفاه أخذ منه صفوه، أي: خيارَه.

ولو اصطفيت الفاكهة فقد أخذت أطيبَها وأكبرها، إن كان الحجم فيها له ميزة، أو أصغرها إن كان الصغر له فيها ميزة، أو أشدها زُهُوّاً إن كان اللون أجمل ما فيها، والصّفيُّ هو الحبيب المصافي، وصافاه مصافاةً صدَقَه في الإخاء والمودة، والعسل المصفَّى: الذي أزيل عنه الشمع والقذى، واصطفيت كذا على كذا، أي: اخترتَ كذا على كذا، هذه بعض معاني الاصطفاء في اللغة.

اصطفاء الله بعض عباده قد يكون بإيجاده صافياً وقد يكون باختياره من بين عباده المتفوقين، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [آل عمران:٣٣].

لو أنَّ الله سبحانه وتعالى خلق في الإنسان الصَّفوة والخيرة عن غير قصد من الإنسان، وعن غير إرادةٍ واختيار، لما كان لكلمة الاصطفاء معنىً، لكن لأنَّ الله خلق الأنفس واحدة بخصائص واحدة، ومن جِبِلَّةٍ واحدة، ومن فطرةٍ واحدة، ولأنَّ الله عز وجل خلق البشر جميعاً من طبيعة واحدة، وخصائص واحدة وانطلقوا بحَسَب اختيارهم وأهدافهم، فإن الله تعالى بعد ذلك اصطفى منهم خيارَهم قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

إذاً هناك في الاصطفاء شيء كسْبي وشيء وهْبي، وأوضح مثلٍ على ذلك: لو أردنا أن نعيِّن إنساناً في وظيفة مرموقةٍ جداً، وهذه الوظيفة تحتاج إلى لغةٍ وإلى قدراتٍ وقوة شخصية وإلى ثقافة عامة وإلمام بالعلوم والحقوق، وأجرينا مسابقة واشترطنا فيها

إجازة في اللغة الإنكليزية وإجازة في العلوم والحقوق وهيئات معينة ومَلَكات معينة وخصائص، فمِن كلِّ هذا الحشد نختار من بين المئة شخصاً واحداً، وهذا كلُّه كسْبي كسبه المتسابقون، أما حينما نختار أحدهم ونُعْطيه مهمة ومركبة وراتباً ضخماً وصلاحيات كبيرة فهذا وهْبي.

في الاصطفاء هناك جانب كسبيٌّ وجانب وهبيٌّ، ولو أنَّ الاصطفاء كلَّه وهبيٌّ لفَقَد معناه، فمثلاً لو أعطينا الأسئلة لطالبٍ ثم طرحنا السؤال على كلِّ الطلاب، فإذا بهذا الطالب ينال الدرجات الكاملة ثم عندئذٍ نقول: هذا نصطفيه! فهذا الاصطفاء لا معنى له، إذ ليس هناك تكافؤ فرص وليس هناك تساوٍ بين الطلاب، أمَّا حينما يتساوى الطلاب جميعاً في عدد الأسئلة ونوعيتها ويفوز أحدهم بالدرجة الأولى عن جدارة وأهلية فعندها نقول: فلان اصطفيناه ليتابع تعليمه في جامعات مرموقة.

فهذا الاصطفاء له معنى، إذاً عندما ينعدم تكافؤ الفرص ولا يتحقَّق التساوي بين الأفراد، ولا تتوفَّر خصائص مشتركة فالاصطفاء لا معنى له، أكرر: الاصطفاء فيه جانب كسبي وآخر وهبي، فالجانب الكسبيُّ أنَّ الله سبحانه وتعالى عَلِم من بين خلقه أكثَرهم معرفةً، وأكثَرهم استقامة وتضحيةً وإيثاراً، وأكثرهم قرباً وأكثرهم إقبالاً فاصطفاه وجعله نبياً؛ لذلك روي عنه ﷺ:

«إن الله اختارني واختار لي أصحاباً، واختار لي منهم أصهاراً وأنصاراً، فمن حفظني فيهم حفظه الله، ومن آذاني فيهم آذاه الله» [رواه الخطيب البغدادي في تاريخه، عن أنس].

الاصطفاء فيه جانب كسبي وآخر وهبي، فإذا ألغَيْنا الكسبي أبطَلْنا معنى الاصطفاء، وإذا ألغَيْنا الوهبي أبطَلْنا ميزات الاصطفاء.

الآيات التي ورد فيها الاصطفاء

يقول الله عز وجل: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [البقرة:١٣٢].

فما معنى هذه الآية؟ معنى ذلك أن الدين صافٍ من كلِّ شائبة ومن كلِّ ريبٍ وشكٍّ وتطرفٍ وغُلُوّ ومن كلِّ بعدٍ عن الحقيقة، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [البقرة:٢].

وقال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣].

كلُّ من يعتقد أنَّ هذا الدين يحتاج إلى تبديل، إلى إضافة أو تعديل، أو حذف أو تغيير؛ هو إنسان يَرُدُّ كلام الله عز وجل؛ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون، أي إنَّ القضايا التي عالجها الدين قضايا تامة وطريقة المعالجة طريقة كاملة.

وفي آل عمران قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

أَيَّةُ قصة تنال من الأنبياء وتجعلهم كبقية البشر ينحرفون ويرتكبون المعاصي والآثام كما ورد في الكتب القديمة المقدسة التي حُرِّفت وأُضيف عليها وحُذف منها، فهذه قصصٌ باطلة لا تقوم على أساس لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

اختارهم على علم، أيضاً اصطفى النبي ﷺ ليكون سيد البشر وخاتم الأنبياء وليكون صفوة البشر، لذلك فالنبي حبيب الله وخليل الله وصفيُّ الله وخيرة الله من خلقه.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [آل عمران:٤٢].

فأول اصطفاءٍ صار واضحاً جلياً، ولكن هناك اصطفاء ثانٍ فما معنى الاصطفاء الثاني؟ إن الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين.

قال بعض المفسرين: «الاصطفاء الأول هو اصطفاء القرب من الله، والاصطفاء الثاني أن هذه السيدة اختصها الله بأن تُنجب ابنها دون زواج»، أنى لكِ هذا؟ قالت: هو من عند الله.

وقال تعالى: ﴿ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الأعراف:١٤٤].

لو أردنا أن نوسِّع الدائرة؛ فأنت حينما تُخْلِص لله عز وجل، وحينما تطلب العلم حثيثاً، وحينما تعمل بما علمت وتتقي الشبهات وتنطلق إلى الله بهمَّة عالية، فلعل الله يصطفيك ويسمح لك أن تُعرِّف به وتدعو إليه، وهذا شرفٌ عظيم، فالإنسان الصادق إذا دعا إلى الله لا يرى إلا أن الله تعالى تفضّل عليه وسَمَح له أن يدعُوَ إلى الله، وأن يتحدَّث عن الله وإلا كان في وضعٍ آخر.

﴿ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾.

هذه آية عميقة في مفهومها ودلالاتها، أي إنَّ مهمَّة العبد تنتهي حينما يطيع الله عز وجل ثم يتلقَّى الخير بالشكر والامتنان؛ تنتهي مهمتُك عند الطاعة والشكر وما سوى ذلك فهو من شأن الله لا من شأنك.

﴿ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾.

طبِّق ما أمَرْتُك به، ويؤيِّد هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الزمر:٦٦].

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [هود:١٢٣].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح:١٠].

﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ [البروج:٢٠].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾ [الزخرف:٨٤].

وقد يقول أحدكم: ما علاقتنا نحن بهذا البحث، إذ الاصطفاء للأنبياء ونحن لسنا أنبياء ولا صديقين؟ فاستمِع وأبشِر بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الحج:٧٥].

لا تجد إنساناً دعا إلى الله إلا وسمح الله له؛ فإن كانت دعوتُه صادقة يوفِّقُه ويصرف قلوب الناس إليه، ومن ثم تهفو إليه القلوب وتستفيد منه، وتنعقِد صِلتُها بالله عن طريق توجيهه، فهذا نوعٌ من الاصطفاء، قال تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾﴾ [النور:٣٦].

أي أذِن الله تعالى أن تُرْفَع وأذِن لمن فيها أن يذكروا اسمه، بعض الأشياء التي تخصّ الأنبياء يمكن أن توسَّع الدائرة لتشمل كلَّ صادقٍ ليعمل مثل عملهم، ولعل الله سبحانه وتعالى يُطلِق لسانك ويُلْهِمك الصواب والكلام السديد والحكمة وقلباً متأجّجاً بالمشاعر الصادقة وتهفو إليه القلوب، كل هذا نوعٌ من الاصطفاء وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الحج:٧٥].

آيات الاصطفاء فِعْلها بصيغة الماضي إلا هذه الآية الله (يصطفي) ففعلها بصيغة الحاضِر، وهو فعل مضارع يدلُّ على الاستمرار، فالله دائماً يصطفي، فإذا كنت من عباد

الله الذين اصطفاهم الله عز وجل، وسَمَح لهم أن ينطقوا باسمِه، وأن ينقُلوا للناس الحقائق وأن يكونوا دعاة هداية لا دعاة ضلالة، ومفاتيح خير لا مفاتيح شر، فهذا من أعظم العطاءات.

سمعت عن الذين اختَرعوا برامج الحاسوب وتفوَّقوا جداً في مجالها، كان أحدهم شاباً في مُقْتبَلِ العمر يمْلِكُ ما يقارب التسعين مليار دولارٍ، أما حينما يصطفيك الله عز وجل لتنطِق بالحق وليكون عمَلُك في خدمة الخلق، فإن هذا الاصطفاء هو العطاء الكبير الذي يربو على كلِّ المليارات قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾﴾ [الشرح:١-٨].

وقال تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى:١-١١].

هذا اصطفاء، وقال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر:٧٢].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة:٦٧].

ولم يقل يا محمد! بل خاطبه وناداه يا أيها الرسول! كلُّ هذا اصطفاء، ولقد أُسْرِيَ بالنبي ﷺ إلى بيت المقدس وعُرِج به إلى السماء، وعَلِم وهو في السماء أنه سيد الخلق وحبيب الحق، هذا كلُّه من الاصطفاء، بل قل: غاية الاصطفاء.

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِ بْنِ العاصِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يقولُ: «إذا سَمِعْتُمُ المُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ ما يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ فإنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِها عَشْراً، ثُمَّ

سَلُوا اللهَ لِي الوسيلَة فإنَّها مَنْزِلَةٌ في الجَنَّةِ لا تَنْبَغِي إلا لِعَبْدٍ مِنْ عِبادِ الله، وأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أنا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الوَسيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ» [رواه مسلم].

أما البشارة، أليس بعد النبي ﷺ علماء أجِلّاء، أليس هناك دعاة مخلصون وفقهاء ومحدِّثون، أليسَ هناك من دعوا إلى الله، كلُّ هؤلاء بالمعنى الواسِع اصطفاهم الله وأجرى على أيديهم الخير وأنطَق لِسانهم بالحق، وجعل قلوب الناس تهفو إليهم؛ هذا نوعٌ من الاصطفاء.

لعلَّ من أعظم طموحات المؤمن أن يصطفيَهُ الله عز وجل ليكون داعيةً إليه؛ فليقل كلُّ داعية: يا رب! لقد شرَّفْتني بمعرفَتِك والدعوة إليك، فإن علمْتَ صِدْق نيَّتي فاحفظْها لي واحفظني لها، وإن علمتَ خِلاف ذلك فعالِجْني قبل أن أموت، فعلى الإنسان أن يطْمَح؛ ما دوْرُكَ في الحياة؟ هل هو الأكل والشرب والنوم والراحة واللهوُ واللعب؟ أم هو معرفة الله؟ فلنُشَمِّرُ من أجل أن نُطيعَهُ ونتقرَّب إليه؛ هذه بشارة: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾.

هؤلاء الذين عكفوا على العِلْم وتَرَكوا مؤلَّفاتٍ قيِّمة تجدها في كلِّ بيتٍ، الإمام النووي رحمه الله تعالى ألَّفَ كتاباً في الفقه يُعَدُّ فريداً في بابه وهو المجموع، وألَّف مُغْني المحتاج وألَّفَ كتاب الأذكار ورياض الصالحين، وهذا الإمام الشافعي رضي الله عنه أول من ألَّف في أصول الفقه وله كتاب الأم، فهؤلاء الذين اصطفاهم الله ومكَّنهم من العلم وجعل لهم بَصَماتٍ واضحة في الحياة، فهؤلاء أيضاً بالمعنى الموسَّع ممن اصطفاهم الله عز وجل.

إذا كنت ممن اصطفاه الله عز وجل فلقد علم فيك الإخلاص والصدق والحب والطاعة والوَرَع فكنت ممن اصطفاهم الله عز وجل، ماذا ينتظرك في الدنيا والآخرة؟ قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النمل:٥٩].

فإذا كنت ممن اصطفاه الله عز وجل فأنت في سلام؛ في سلامٍ مع نفسِك، وفي سلامٍ مع مَن هم حولَك، وفي سلامٍ مع ربك، وحياتك سلامٌ، وتنتقل بعدها إلى دار السلام، وتتصل نِعَمُ الدنيا بنِعَم الآخرة.

ومن تكْرِمَة الله للنبي ﷺ أن الله اصطفاه واصطفى له أصحابَه، فإذا كنت تعيش ببلد وحولك مؤمنون أطهار طيبون وأتقياء مخلصون ومحبون، فهذه حياةٌ متميزة وهذه الحياة قدَّرها الله لك، وليس هناك إنسان أسْعَد مِن مَنْ يعيش مع أناس يتفاهمون فيما بينهم تحدوهم في علاقاتهم مرضاة الله. ومع من يكون على شاكلَتِه ومع الذي يقدِّر ما يُقدِّر ويُبْغِض ما يبغض، لا تصاحب من لا ينهضك حاله، ولا يدُلُّك على الله مقالُهُ، ولا تصاحب من لا يرى لك من الفضل مثل ما ترى له.

فمن نِعَم الله الكبرى على المؤمن أنه يعيش بين المؤمنين؛ هو طاهرٌ بين الأطهار، وهو صادق بين الصادقين، وهو محبٌّ لله ورسوله ﷺ وهو بين المحبين، فأجمل ما في الحياة أن تعيش مع إنسانٍ على شاكلتك؛ يفهمك وتفهمه، هذه هي الحياة الحقيقية، لذلك حينما اختار النبي ﷺ سيدنا الصديق لصحبته في الهجرة بكى من شدة الفرح [السيرة النبوية، لابن هشام]، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

وإذا كانت مودتُك وحبُّك وطاعتُك لله عز وجل فهذا خيرٌ لك، أما أن تكون مودتك لإنسانٍ لئيمٍ قويٍّ لا يعرف حجم تضحيتك من أجلِه فالفرقُ كبير؛ ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾؟ هذا استفهام إنكارٍ، ولسي هناك شيءٌ يجمع بين متضادين، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ [القصص:٦١].

وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ ﴾ [السجدة:١٨].

وقال تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [القلم:٣٥].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر:٩].

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فاطر: ٣٢].

فإذا أكرمك الله بالكتاب تلاوةً وفَهْماً وتطبيقاً؛ فقد أُوتيت خيراً كثيراً، ومن أوتي القرآن وظن أن أحداً أوتي خيراً منه فقد حقّر ما عظَّمَهُ الله فالقرآن غنىً لا فقر بعْده.

من العباد حِيال الكتاب مَن هو ظالمٌ لنفسه، ومنهم مَن هو مقتصد في فعل الخيرات، ومنهم مَن هو سابقٌ بالخيرات بإذن الله، أتُلاحظون الاصطفاء؟

مثلاً لدينا مئة طالبٍ على وشك أن يتخرَّجوا من الجامعة، ونريد أن نصطفي واحداً منهم ليكون في منصبٍ رفيع ليكون عميد كلية مثلاً، أو أستاذاً في الجامعة، أو رئيس المجمَع العلمي العربي، فحينما يُصطفى من بين المتفوقين فهذه هي الجهة الكسْبِيَّة، ويُمنح اختصاصات ومكافآت وميزات وهذه الجهة الوهبية، وقد ذكرت وأعود وأذكر: ففي الاصطفاء جانبٌ كسبي وإلا لا معنى للاصطفاء، وفي الاصطفاء جانب وهبي وإلا لا ميزة له عندئذٍ.

وفي القرآن الكريم يتحدث الله عن الأنبياء الكرام في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾ [ص:٤٧].

الأنبياء مُصْطَفَوْنَ فهم قممٌ في الكمال ونخبةُ البشرية وأعلام المجتمع البشري وملوك البشر، وهؤلاء الصحابة الكرام، إنهم ملوك المسلمين بالمعنى الروحي، الأنبياء والمرسلون صفوة الله من خلقه، قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [ص:٤٥].

رؤيتهم عميقة وأعمالهم طيبة؛ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار، فهم بقدر ما هم متفوِّقون في رؤيتهم بقدر ما هم طيبون في أعمالهم.

عُلُوّ الهمة من الإيمان، حينما يسمح الله لك أن يصطفيك أو أن يقرِّبك أو أن يُلهمك أو أن يجعلك تنطق بالحق أو أن يجعل هداية الناس على يديك، أو أن تهفو قلوب المؤمنين إليك فهذا نوعٌ من الاصطفاء، وما عند الله لا يُنال بمعصية الله، ألا إنّ سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة، وينبغي أن تتيقنوا أيها المؤمنون من أنه لا بد من الابتلاء، والإنسان كما تعلمون يمر بمراحل ثلاث:

- مرحلة يؤدّب فيها.
- مرحلة يُبْتلى فيها.
- مرحلة يُكَرَّم فيها.

ففي مرحلةٍ يؤدّب، وفي مرحلةٍ يُبْتلى، وفي مرحلةٍ يُكرَّم، وهذه المراحل قد تتداخل وقد تتمايز، لكن لا بد من التأديب ولا بد من الابتلاء ولا بد من الإكرام والعطاء، لأن هذه سُنّة الله في خلقِه وقد ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن:٤٦]:

جنة في الدنيا وجنة في الآخرة.

نصيب المؤمن من اصطفاء الله

موقف المؤمن أنه يطمح في اصطفاء الله له لخدمة خلقِه، ومن هنا قال الله عز وجل: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ [التوبة:١١١].

حينما اصطفى الله عبده المؤمن، فهذا المؤمن باع نفْسَه لله، أريد أن أُوسِّع الموضوع؛ الأنبياء مُصطَفَون والرسل مصطفون وهم قِمَم البشر وصفوة البشر، ولكن المؤمنين لهم قَدْرٌ يسير على قدْر إخلاصِهم وعلى قدْرِ طاعتِهم لله، فالله يُكلِّف الإنسان أعمالاً يُجْريها على يديه ويرْفعُهُ بها، فهذا نوعٌ من الاصطفاء.

أعرف شخصاً قرأ القرآن في الخامسة والخمسين من عمره وحفِظَه وكان طموحُهُ أن يكون إماماً في مسجد، وسبحان الله فلما قرأ القرآن وحفظه وعُيِّن إماماً لمسجد جيِّد موقعه وروادُه كثيرون، صار يصلي بالمصلين الصلوات الخمس، ثم أكرمه الله بأن صار يلقي بعد الصلوات كلمةً على الناس تعظهم، هذا طموحُهُ فاصطفاه الله عز وجل، فالمعايير دقيقة عند الله تعالى، وبحسب صدق الإنسان وطاعته لله يصطفيه، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة:٢٤].

فالصبر إذاً طريق الاصطفاء هذا أولاً، وقوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة:١٢٤].

فتطبيق الأمر والطاعة مع الإخلاص؛ سبيلٌ إلى الاصطفاء هذا ثانياً، وقوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [يس:٢٠-٢١].

فالترفُّع عن حُطام الدنيا وعن متاعِها ومالِها وعن مكتسباتها سبيلٌ إلى الاصطفاء؛ هذا ثالثاً، وقوله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٨].

فطلبُ العلم طريق إلى الاصطفاء، تصوَّر إنساناً درس التعليم الأساسي والثانوي ونال درجاتٍ عالية جداً ثم دخل كلية الطب وتخرَّجَ بها، ثم تابع دراستَهُ العليا، وعاد

بأكبر شهادة، ماذا ينبغي أن يفعل هذا الإنسان بعد أن تخرَّجَ ونال الدرجة العليا؟ ينبغي أن يُطَبِّب الناس ويفتح عيادة وإلا فلا معنى لهذه الدراسة.

أمعن النظر وتأمل: أنت حينما تطلب العلم فإنك تؤهِّل نفسَك لماذا؟ للدعوة إلى الله ومن الذي سوف يسمح لك أن تدعُوَ إليه؟ هو الله، فالله عز وجل بطريقةٍ أو بأخرى، على نحوٍ معروفٍ أو غير معروف يُيَسِّر لك طريق الدعوة إليه؛ لأنك تعلَّمْت العلم فصِرْتَ مؤهَّلاً أن تدْعُوَ إلى الله، فكلُّ إنسان يطلب العلم بإخلاص، ويسعى لطاعته تعالى بإخلاص، ويحرِص على رضوان الله وعلى القُرْبِ منه يصطفيه الله عز وجل، ويُجري على يديه الخير.

عندما يتعلَّم الإنسان علماً صحيحاً، ويلزَم مجالِس العلم، ويجلس على رُكْبَتَيْه، ويطلُب العلم، فلا بد من أن يصطفيه الله عز وجل بالمعنى الواسع، فيجعله بطريقة ما باباً للخير، لذلك روي أن من أدعية النبي ﷺ: «اللهم! ارزقْني طيباً، واستعْمِلني صالحاً» [ذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، من حديث حنظلة].

ما معنى: واستعملني صالحاً؟ أي: الله يصطفيك لعملٍ صالح، وما معنى الحكمة القائلة: إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيمَ استعْملك؟ يعني أن الله اصطفاك، قد تجد شخصاً آتاه الله حكمة يتصرَّف في ضوئها، وفهماً دقيقاً وخبرات معيَّنة وعلماً ودعوة وجاهاً وقوةً وطلاقة، فكلُّ إنسان يهيئ نفسه لفعل الخير، فالله جل جلاله لا بد من أن يجْبِر كسْرَه ويُجري على يديه فعل الخير، قد تقول: أنا من أنا حتى أُصطفَى؟ أنت إنسان ومؤهَّل أن تكون من المُصْطَفَيْن، هذا بالمعنى الواسع؛ إن قلت بالمعنى الواسع هذا للمؤمنين، وإن قلت بالمعنى الضيق فهم الأنبياء والمرسلون لأن الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس، فلِمَ يطلق الله تعالى لسانك ويجعل قلوب الناس تهفو إليك؟ فهذا هو معنى الاصطفاء وهو المعنى الموسَّع، فإذا مكَّنَكَ الله من بناء مسجد فهذا نوع من الاصطفاء، وأن تُطْعِم الناس من مالك الحلال فهذا نوع من الاصطفاء كذلك، وإذا سَمَحَ لك أن تُعْطي وقدَّر لك مَن يأخذ وسَمَح لك، فهذا

كذلك نوع من الاصطفاء، تكون في بيتٍ من بيوت الله وليس في ملهى من ملاهي الشياطين، فهذا تكريم واصطفاء.

أنا لا أنسى أني كنت مدْعُواً ذات مرة لافتتاح مسجد، وجلس بجانبي مدير الأوقاف الذي سيفتتح هذا المسجد، فقلت له: اشكُر الله عز وجل على أنه قد قدَّر على يديك أن تفْتَتح هذا المسجد، إذ هناك من يفتتح الملاهي ودور القِمار، قد تسعى وتهنأ فيكون عملُك مع العلماء، فهناك من يعمل مع الساقطين ومع طبقات أخرى من الناس لهم انحرافاتهم فيشقى بهم ومعهم، وهناك من يرعى شؤون المساجد فليحمد الله، وهناك من يرعى شؤون الملاهي، وآخر يُفكِّر كيف يدعو إلى الله، وذاك يفكِّر كيف يدعو إلى الشيطان وإلى المعاصي والآثام، فحين يجنِّد الإنسان نفسه لطاعة الله يصطفيه الله تعالى، فالله إذا أعطى أدْهَش.

هل تجد إنساناً في الأرض أعزَّه الله كالنبي ﷺ؟ شيءٌ غير معقول، ملايين الناس يذهبون إلى العمرة والحج كلَّ عام ويزورون النبي ﷺ، ويقفون أمام مقامِه يبكون ولم يلتقوا به ولا سمِعوا من كلامه مباشرة ولا نالوا من ماله، وبينه وبينهم آلاف الكيلومترات، فما الذي هداهم إلى أن يأتوا إلى مسجده الشريف؟

وطلب العلم وتبليغه طريق الاصطفاء، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ [الأحزاب:٣٩].

فعليك ألا تخشى إلا الله، فهذا طريق الاصطفاء؛ لا أريد أن يكون كلامي هذا نظرياً وإنما أريده عملياً؛ كن طموحاً، لقد قلت مرة كلمة مفادها: أحياناً يتوهَّم الإنسان أنَّ الدعاة هم خطباء المساجد دون غيرهم! لا... أنت لديك أقرباء وأصدقاء وجيران وزملاء وأولاد وإخوة وأخوات... ألا تستطيع أن تنصَحهم وأن تجلس معهم وأن تُعلِّمهم، وبهديةٍ تكسب ودَّهم وقلوبهم وإصغاءهم لحديثك، ولك أن تكون من المصطفين الأخيار إذا كنت مخلصاً لله الكبير؛ إذاً طريق الاصطفاء يقوم أولاً على طاعة

الله ثم على طلب وصدق نية وإخلاص، ويحتاج هذا إلى حبٍّ وإلى شجاعةٍ وإلى جُرأة فلعلَّ الله تعالى يصطفيك قال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ ﴾ [السجدة:١٨].

وقال تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [القلم:٣٥].

إنسان همُّه الوحيد أن يرسِّخ الحق في المجتمع، ويُدخل السعادة على المؤمنين، وآخرُ هدفُه أن يبني مجْدَه على أنقاض الآخرين، وغِناه على فقْرِهم، وحياته على موتِهم، وأمْنَه على خوفهم، شتانَ بين هذا وهؤلاء! فلذلك ضَعْ نفسَك موضعاً يصطفيك الله. وليس الوليُّ الذي يطير في الهواء، ولا الذي يمشي على وَجْه الماء، ولكن الوليَّ كلَّ الوليِّ أن يجدك الله حيث أمرك ويفْقِدُك حيث نهاك، فإذا كنت في مجلسٍ وكانت هناك غيبة قُمْت وفارقت أهل المجلس، فأنت الآن تتوسَّل أن يصطفيك الله عز وجل والله تعالى، فهو إذا يصطَفي، وإذا اصطَفَى مؤمناً فهو في سلامٍ معه، والمؤمن في سلام إذا كان الله عز وجل قد اصطفاه لكن الله قال: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [العنكبوت:٢].

لا بد من الابتلاء.

الله تعالى يصطفي من يشاء، وهذا مرتبط أشدّ الارتباط بالمؤمنين، وكلما جهدوا بطاعته والفوز برضاه اصطفاهم وكرَّمهم وأجرى على أيديهم الخير، والغِنَى الحقيقي أن يجعلك الله مفتاحاً للخير مِغْلاقاً للشر.

التسخير

من أفعاله: التَّسخير.

قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الجاثية:١٣].

وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٖ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلّٞ يَجْرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الرعد:٢].

وقال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمْرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [النحل:١٢].

من معاني التسخير

التسخير هو سِياقةٌ إلى الغرضِ المختصِّ قهراً، والمسخِّر هو المقيِّد للفعل، والتَّسخير هو التذليل، وكلُّ ما ذلَّ وانقاد وتهيَّأ فهو مسخَّرٌ، وسخَّره، أي: ذلَّلهُ وكلَّفه،

وكلُّ مقهورٍ مدبَّرٍ لا يملِك نفسه يُعَدّ مُسَخَّراً، وقبل أن نتابع الحديث عن موضوع التسخير لا بد من حقائق أضَعُها بين أيديكم تُلْقي ضوءاً على سِرّ التسخير.

أولاً: جعل الله الإنسانَ المخلوق الأول، قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب:٧٢].

فالإنسان قَبِل حملَ الأمانة، لذلك كرّمه الله، قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء:٧٠].

لأنه قَبِل حمْل الأمانة كرَّمَهُ الله أعظم تكريم وقد كلَّفَهُ أن يعْبُدَهُ، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات:٥٦].

فأوّلُ مقوِّمات العبادة أنه سخَّر له الكون، فالمسخِّرُ هو الله والمُسَخَّر هو الكوْن، والمسخَّر له هو الإنسان، والشيء البديهي أن المسخَّر له وهو الإنسان أكرمُ من المسخَّر، فالكونُ مسخَّر أما الإنسان فمسخَّر له، فالإنسان مسخَّرٌ له الكون، والدليل قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الجاثية:١٣].

فالله عز وجل ذلَّل؛ فالجَمَلُ مُسَخَّرٌ لنا ووزنُهُ خمسة أطنان، والفيل والحوت الأزرق والبقرة وحيواناتٌ أخرى ضخمة، فلو أنها كانت متوحشةً فهل نستطيع أن نتعامل معها؟ ومن المعروف أن مرضاً أصاب بعض البقر في بعض البلاد، وهو عبارة عن اعتلالٍ دماغي إسفنجي، وبنتيجته صار سلوك البقرة عدوانياً، إذ أصبح عندها اهتياج عضليٌّ، فهذه البقرة حينما جُنَّت فمن المستحيل أن تنتفع بها، أحد إخواننا حدثني عن بقرةٍ جُنَّت في غوطة دمشق قتلت رجلين وعطبت الثالث، فاضطرّ صاحبها إلى أن

يقتلها بالرصاص، فحين يقول ربنا عز وجل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ وحين يقول سبحانه: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [يس:٧٢].

فإنما يشير إلى نعمة كبرى أنعم بها على الإنسان، فمثلاً عقربٌ صغير من شدة خوفِك منه تكاد تخرج من جلدك، وهذه الأفعى ترتعد ساعاتٍ طويلة من رؤيتها، أما الجمل فإنك لا تخاف منه، وكذلك البقرة، فالتسخير نعمة، وهذه الحيوانات سخَّرها الله لنا نألَفُها وتألَفُنا. أما الحيوانات غير المسخرة فإنها تُعرِّفنا بقيمة التسخير.

لو أنَّ الله سبحانه وتعالى ركَّبَ في الغَنَم أخلاق الضبع، فهل نستطيع أن نذبَحها وأن نأكل من لحمها وأن نسخِّرَها لنا؟ إذاً فالله عز وجل تكريماً لهذا الإنسان الذي قَبِل حمْل الأمانة سخَّرَ له ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه، والله عز وجل سخَّر لنا الحديد، فكيف سخَّرَهُ لنا؟ جعَلَهُ فِلزاتٍ، فلو جعله حديداً صِرْفاً لكان من المستحيل الاستفادةُ منه، لكنه جعله مع التراب، تُعَبِّئ التراب وتنقُلُه إلى الفرن العالي وهذا الفُرْن يصهر الحديد وينقِّيه من الشوائب، فالحديد مسخَّر، والبحر مسخَّر، فكيف سخَّرَهُ الله لنا؟ إنَّ في هذا الماء قوةً تدفع نحو الأعلى، ولولا هذه القوة لما أمكننا أن نركب البحر، قال الله عز وجل: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرحمن:٢٤-٢٥].

فهذه السُّفن كالأعلام فلولا قوة الدفع إلى الأعلى لما كان البحر مسخَّراً لنا، ومن جعله مالِحاً؟ ملوحتُهُ تسخيرٌ لنا، والسمك كذلك، كيف تصطاد السمك؟ توضَعُ الشبكة على شكل جدار والسمك لا يرجع إلى الوراء فإذا جذب الصياد الشبكة التي كانت باتجاهه، جمَّعَ كل هذا السمك وكان صيده وفيراً، ولو أنَّ السمكة ترجع القهقرى لما أمكنك أن تصطادها فكيف سُخِّرت لك؟ سخرت بهذه الواسِطة؛ إذ ليس في

استطاعتها الرجوع، ولو تدبَّرت كلَّ شيءٍ سخَّره الله لك لوجدت أمراً عجباً وتكريماً خصّك الله به.

تجد كلَّ الأشياء أحجامها معتدلة، فالثمار دانية فلو كانت الأشجار عملاقة لما أمْكنك أن تجنِيَ ثمارها، ولو كانت هذه الفواكه تحوي كلَّ المواد المغذِّية؛ وكان طعمُها مُرّاً، لكانت بهذه الحال غيرَ مسخَّرة؛ لكنَّ الله تعالى جعل طَعْمَها طيباً وشكْلها جميلاً ورائحتها عَطِرةً ومذاقَها حُلْواً، وفيها معادن وفيتامينات وسكريات، وغيرها من الفوائد، فموضوع التسخير أمر جليٌّ واضح، والكونُ كلُّهُ مسخَّرٌ لنا، وكذلك المياه مسخَّرة لنا، ومن جعل الماء الأُجاج عذباً ومستساغاً؟ عن طريق التبخُّر والأمطار والأنهار والينابيع، إنك لو فكرت في خلق السموات والأرض لوجدتَ الهواء مسخَّراً لك، فالله جعل نِسَب الهواء حكيمةً جداً.

لو رُفعتْ نسبة الأكسجين أكثر لأحرق الهواء كلَّ شيء، ولو كان للهواء حركةٌ عنيفة لدمَّرت كلَّ شيء، لكنَّ الله تعالى جعل الهواء يتحرَّك أحياناً حركةً عنيفة ليريك حكمته أثناء سكونه! فالهواء مسخَّر والماء مسخَّر والنبات مسخَّر والمحاصيل مسخَّرة لك، والفواكه تنضج تباعاً، أمَّا المحاصيل فإنها تنضج في يومٍ واحد، ولو أنَّ المحاصيل تنضج تباعاً لكانَ من المستحيل أن تجْنِيَ المحاصيل، ولو أنَّ الفواكه تنضج في يومٍ واحد لكان من المستحيل أن تنتفِع بها؛ يوجد إلهٌ عظيم يُبدع كلَّ شيء، وهذا هو معنى سخَّر لك النبات والماء والهواء وهذه الحيوانات.

إذاً: التسخير هو التذليل، والإنسان أحياناً يمرُّ على الأشياء مرور الكرام، ولا يَنْتَبِهُ لِحِكْمَتِها البالِغة، فهذا عُنْقود العِنَب لو أردْتَ أن تَقْطِفَهُ وجذبته نحوَ الأسْفل لعُصِرَ في يَدِك ولما انْقَطع، ولكن لو جذبته عند قطفه نحوَ الأعلى أصْبَحَ بيَدِك بيسر وسهولة، فمن سخَّرَهُ؟ وهذا البطيخ كلُّه ماء من جعل له هذه القِشْرة السميكة ليمكن نقله من مكان لآخر، ومن جعلَهُ بهذه القشرة الكروية القاسية فلا يسيل ماؤه؟ الله عز وجل، فالتسخير قضية واسعة جداً.

آيات ورد فيها التسخير

وردت مادة (سخر) في مواضِع كثيرة من كتاب الله تعالى، ففي سورة الرعد قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الرعد:٢].

هل نستطيع أن نحْمِل هذا السقفَ بغير أعمدة؟ وهل هناك هندسةٌ تتيح لنا أن نبنيَ سقفاً بغير أعمدة؟! وإذا كان الأمر كذلك لكلَّفنا هذا الكثير؛ سقفٌ بلا أعمدةٍ ولا جدران يعتمد عليها هذا فوق طاقة البشر، والله تعالى يقول: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾ هذه قوى التجاذب، فالأرض مربوطةٌ بالشمس بقوة جذبٍ تساوي مليوني طن ضرب مليون مليون طن، أي رقم اثنين أمامه ثمانية عشر صفراً، وهذه القوة تمثل مليون مليون حبل فولاذي، وقُطْر الحبل خمسةُ أمتار، وكلُّ حبل يقاوِم من قوى الشّدّ مليوني طن، وكلُّ هذه القوة لا نراها، فهل تستطيع أن تسير داخل هذه الدِّعامة؟ أعوذ بالله، وهل بإمكانك أن تصنع دعامةً لا تُرى وتسير في داخِلها؟ دعامةٌ لا تُرى! هكذا قال الله عز وجل: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾.

يعني بعَمَدٍ لا ترونها، وأنَّ الكون كلَّه مترابطٌ بقوى التجاذب، ولولا هذه القوى لأصبح الكون كلُّهُ كتلةً واحدة؛ قوى تجاذب وقوى نَبْذ، حركةٌ شكَّلَتْ قِوى نبْذٍ، والجاذبية هي التجاذب بين الكتل التي في السماء بحسب حجومها ومسافاتها وأبعادِها وحركاتِها وسكناتِها ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ ﴾ أرضُنا مسخرةٌ لنا فلو أنَّها تفلَّتَتْ من جاذبية الشمس لانتهت الحياة عليها، لو أنها تفلَّتَتْ من جاذبية الشمس لأصبحت حرارتُها مئتين وسبعين تحت الصفر، وهو يعني الموت المطلق لكلِّ الكائنات الحية.

ما معنى مسخَّرة لنا؟ أي: مربوطةٌ بالشمس، فبسبب هذا الجذب تنحرف الأرض في كلِّ ثانية ثلاثة ميليمترات باتجاه الشمس حتى يكون مسار الأرض مغلقاً

حول الشمس، ولولا أنَّ مسارها مغلقٌ حول الشمس لما سُخِّرت لنا، حسناً، لو أنها دارتْ بسرعةٍ كبيرة وصار الليل ساعةً والنهار ساعةً لكانت غير مسخَّرة، ولو أنَّ الدورة خمسُ سنواتٍ لصار الزمنُ خمسَ سنواتٍ نهاراً وخمس سنواتٍ ليلاً ولكانت غير مسخَّرة، الحرُّ الذي بجهة الشمس ثلاثمئة درجة فوق الصفر وفي الجهة الأخرى مئتان وسبعون تحت الصفر، لانتهتِ الحياة عندئذٍ، فمعنى مسخرة أنها تدور، ومعنى مسخرة أنها تدور باعتدال، ومعنى مسخرة أنها تدور بمحور مائل، ومعنى مسخرة أنَّ خصائصها ثابتة: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾.

العلماء يقولون: الشمس مُتَّقِدة منذ خمسة آلاف مليون عام، وقالوا: سوف تستمر -بحسب دراستهم- إلى خمسة آلاف مليون سنة أخرى، ولسان اللهب من الشمس طوله مليون كيلومتراً، هذه الطاقة من أين؟ هل توجد مدفأة تعمل بلا وقود؟ وهل هناك مركبة تسير بلا وقود؟ وهل يوجد شيءٌ يشتعل بلا وقود؟ خمسة آلاف مليون سنة مضت ولخمسة آلاف مليون سنة قادمة، وحرارتُها في باطنها عشرون مليون درجة وعلى سطحها ستةُ آلاف! فمن أين هذه الحرارة؟ ومن سخَّرها لنا؟ ضوء الشمس فيه دفءٌ وثانياً نور وثالثاً تعقيم؛ إذ يتعقم بشعاع الشمس كلُّ ما يحتاج إلى تعقيم في محيطنا.

وذكر الله سبحانه الشمس والقمر لأنهما أظهرُ الكواكب السيارة، والتي هي أشرف وأعظم من الكواكب الثوابت، فالشمس أمامنا مشاهدة، والقمر أمامنا نراه، والليل مسخَّر، والنهار مسخَّر، الله تعالى سخَّر لنا الليل، فهو سكينةٌ لنا وظلام وهدوء وراحة ونومٌ وسِتْرٌ، والنهار معاش، ولولا دورة الأرض حول الشمس لما كان ليلٌ ولما كان نهار.

وفي سورة إبراهيم قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [إبراهيم:٣٢].

أرأيتم إلى التسخير؟ جَمَعَ المسخِّر، والمسخَّر، والمسخَّر له بآيةٍ واحدة: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

كلمة ﴿لَّكُمْ﴾ بحثتُ عنها في القرآن الكريم فوجدتُ أنها وردت في أكثر من مئتين وثمانين آية؛ أنت أحياناً تقيم مأدبة على شَرَفِ إنسان، فهذا الإنسان يجلس على هذه المأدبة ويأكل، فإذا طُرق الباب وكان القادم ضيفاً تقول له: هلُمّ وكُلْ معنا فيأكل، لكن هذه المأدبة أُقيمت خصيصى لضيف الشرف، أما الثاني فقد أكل عَرَضاً، فكلمة ﴿ لَّكُمْ ﴾ تعني أن هذا الكون مسخَّرٌ خِصِّيصَى لكم، وليس المعنى أنك عشتَ على هذه الأرض فاستفدْت مما فيها! بل كلُّ ما في الأرض من شيءٍ مسخَّرٌ للإنسان خصيصاً، وكلمة ﴿لَّكُمْ﴾ تفيد هذا المعنى؛ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

طبعاً الفُلْكُ مسخَّرة حسب قانون أرخميدس، والأنهار مسخَّرة من خلال هذه الجبال التي جعلها الله مستودعاتٍ للمياه، قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

فالله هو المسخِّر وأنت دائماً مسخَّرٌ لك؛ والمسخَّر له أشرف وأعظم من الشيء المسخَّر.

وورد التسخير أيضاً في آيات كثيرة والنبي ﷺ يقول فيما روى أبو أُمامَةَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كَانَ إذا رَفَعَ مائِدَتَهُ قالَ: «الحَمْدُ لله كَثيراً طَيِّباً مُبارَكاً فِيه، غَيْرَ مَكْفِيٍّ، وَلا مُوَدَّعٍ، وَلا مُسْتَغْنًى عَنْهُ رَبَّنا» [رواه البخاري].

قال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان:٦٣].

طبعاً؛ العباد جمعُ عَبْدٍ، والعبيد جمعُ عَبْدٍ، أما العباد فجمعُ عبدِ الشكر، وأما العبيد فجمعُ عَبْدِ القَهْر، ونحن كلُّنا عبيدٌ لله، بمعنى أننا مقهورون، وبمعنى أن حياتنا متوقِّفَةٌ على إمداد الله، وكذلك وجودنا، وأن حياتنا وأرزاقنا لا تقوم إلا بالله، وأننا بحاجةٍ إلى الهواء، ونحن مفتقرون إلى الله.

إذاً نحن عبيدٌ له، أما العباد فهم الذين عرفوه وأتوْهُ طائعين وأحبُّوهُ وأقبلوا عليه وتقرَّبوا إليه، وهذه العبودية لله عز وجل لها معنىً آخر، فالنبي ﷺ يُخبِرنا أنه لا يستغني عن ربِّه أبداً.

قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ (١١) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ (١٣) ﴾ [الليل:٥-١٣].

بعض الناس يظنُّ أنه يستغني عن الله فهو بحُمْقِهِ أو بغبائِه أو بكُفْرِهِ أو بجَهْلِه يرى أنَّه قويٌّ وغَنِيٌّ عن الله، لكن الله سبحانه وتعالى يؤدِّبُه ويُحجِّمه، أمَّا المؤمن فمفتقرٌ دائماً إلى الله عز وجل، ولا تنسوا أنّ الإنسان حينما يستغني عن الله بحسب ظنِّه يلقَ أشدّ أنواع التأديب وليكن كائناً من كان، ففي بدْرٍ أعلن الصحابة الكرام فقْرَهُم إلى الله قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) ﴾ [آل عمران:١٢٣].

ومعنى الذُّلِّ هنا الضعفُ والقِلَّةُ مع الافتقار إلى الله تعالى، أما في حُنَيْن فبدا لهم وكأنهم كثرةٌ لا تُهزم، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥) ﴾ [التوبة:٢٥].

فأنت حينما تستغني ولو كان استغناءً خفياً، ولو كان اعتداداً بالصحة أو المال أو القوة أو الذكاء، فهذا كلُّهُ في ظاهره نوعٌ من الاستغناء، والاستغناء من لوازِمه التخلِّي، فالله عز وجل يتولاك أو يتخلَّى عنك، يتولاكَ إذا افتقرتَ إليه، ويتخلَّى عنك إذا

استغنيتَ عنه، وليس شرطاً أن تقول: أنا مستغنٍ عن الله، فحينما تعتمد على شيءٍ من قدراتك الخاصة وتنسى أن الله تعالى سخَّرَها لك وأكْرَمَك بها فهذا أحد أنواع الاستغناء، وتأديبُهُ سريع ولا سيما المؤمن، فالله عز وجل لا يسمحُ للمؤمن أن يغفُلَ عنه لأنه يحبُّهُ ولا يسمحُ له أن يشرِك به، فالله تعالى يخبر أنه أغنى الأغنياء عن الشرك والقلب المُشْتَرَكُ لا يُقبِلُ الله عليه والعمل المُشْتَرَكُ لا يقبلُهُ الله.

لذلك أخطر شيء في الإيمان قضيةُ الشرك الخفيِّ، فالإنسان أحياناً يشعرُ أنه يملك شيئاً، قد يشعر أنه يملك المال أو القوة أو الذكاء أو طلاقةَ اللسان، فهذا الذي تشعرُ أنك تملكُهُ هو أحد أسباب الاستغناء عن الله وأحد أسباب الشرك الخفيِّ، فبمجردِ أن تشعر أنك قادر على شيءٍ وأنك تملِك قدرةً ذاتية إما علمية أو مالية، وقوةً تستعلي بها على الناس، فالله عز وجل سريعاً ما يؤدِّبُك ويتخلَّى عنك، فهذا التخلي هو التربية، فكلما كنت أكثر تبحُّراً في الدين وأكثر توحيداً لله وإخلاصاً له تجعل من نفسِك أكثر افتقاراً دائماً، وهذا الافتقار الدائم يجعلُ الله منه سبباً لمعونَتِك.

ورد في الأثر أن النبي داود قال يا رب: كيف أشكُرُك وشكري لك نعمةٌ منك عليَّ؟ وسؤال داود يذكرنا بهذه الحكمة أيضاً: «إذا أراد ربك إظهار فضْلِه عليك، خَلَقَ الفضل ونَسَبَهُ إليك»، بعد حين يشعُر الإنسان أنه لا شيء، وكلما ازددت افتقاراً إلى الله زادك الله إمداداً وقوةً وعلماً وصحةً ويقيناً وقدرة على التمييز، وكلما اعتدَدْت بقدراتِك الذاتية تخلَّى الله عنك؛ كيف أشكُرُك وشكري لك نعمةٌ منك عليَّ؟ فقال الله تعالى: الآن شكرتني يا داود، لأنَّ العَجْزَ عن الإدراك إدراك، وحين يقول الإنسان: سبحانك لا نُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسِك. فهذا شُكْر، فحينما تعجزُ عن الشكر فأنت شاكِر، وحينما تعجزُ أن تُعبِّر عن شكرِك لله عز وجل فأنت عندئذٍ تشكُرُهُ، أما الغافِل فهو الكافر.

والتسخير كذلك ورد في سورة النحل قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢﴾ [النحل:١٢].

فلو أنَّ الله تعالى جعل لكم النهار سَرْمَداً إلى يوم القيامة من إلهٌ غير الله يأتيكم بليلٍ تسكُنون فيه؟ ولو أنه جعل لكم الليل سرْمَداً إلى يوم القيامة مَنْ إلهٌ غير الله يأتيكم بنهار تنتَشِرون فيه؟ إنه الله، فالليل مسخَّر والنهار مسخَّر، وهذه دَوْرة الشمس والأرض آية صارخة، وكذلك فلَو دارت الأرض على محْوَر مُوازٍ لمستوى دورانها لما كان هناك ليلٌ ولا نهار فالدِّقة التي جعلها الله بينهما تدلّ على حكمةٍ بالغة وخلقٍ دقيق، ولو أن المحور عمودي على مستوى الدوران لما كان هناك فصول، ولكنه مائل وهذا الميَلان يُسبِّب الفصول وهذا هو التسخير قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

فالله جعل القمر نوراً والشمس جعلها سِراجاً وهاجاً، قرأت أن القمر يُعطي ثمانية عشر بالمئة مما تعطيه الشمس فيُمكِن للقمر أن يؤدي وظيفة إضاءة تساوي ثمانية عشر جزءاً بالمئة من الشمس، وذات مرةً كنت مسافراً بالطائرة فرأيت في ليلةٍ مُقْمِرة من علٍ بلاداً، قرىً ومدناً وسهولاً، واستطعت أن أتبين كثيراً من مناظرها على ضوء القمر، فالقمرُ مسخَّر وجعله الله تقْويماً للإنسان فالآية الكريمة: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

قد تكونُ نجمةٌ متألِّقةٌ حجمُها يزيد مئة مليون مرة على حجم الشمس وهناك نجوم تتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما، وهناك نجوم تبعُد عنا ثلاثمئة مليون سنة ضوئية ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَمَا ذَرَأَ﴾ أي: وما خلق ﴿لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا﴾ في الفواكِه تجد لوناً أصفر مع خدٍّ أحمر، أو أحمر داكِن وأخضر غامِق أو فاتح، فالفاكهة ألوانُها من آيات الله الدالة على عظمتِهِ وألوان الخُضَر والأشجار والجبال وزرقة البحار، فهذا كلُّه من فضل

الله عز وجل، قال تعالى: ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [النحل:١٣].

فالبحر أربعة أخماس الكرة الأرضية، وعمقه في أخفض نقطة اثنا عشر كيلو متراً، فالكَمُّ المائي كبير جداً، فإذا كان أربعة أخماس الكرة الأرضية على عُمْق متوسِّط خمسة كيلومترات، فكم هي كتلة الماء في البحار؟ فالبحر الأبيض المتوسط يعدّ بُحَيْرة إذا ما قيس بالمحيطات. أما المحيط الهادي والأطلسي وغيرهما فهي محيطات كبيرة جداً قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [النحل:١٤].

فالسمك مخلوق خِصِّيصَى للإنسان، وهناك مليون نوع من السمك في البحار، ولولا أن الأسماك الكبيرة تأكل الصغيرة لصار البحر كلُّه أسماكاً، وقال تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ هذا اللؤلؤ شيء دقيق الصنع والتكوين؛ هناك حيوانٌ إذا شعر أن في محارِهِ جسماً غريباً مهما كان دقيقاً أفْرز عليه مادةً فوسفورية كلْسِية يُدافِع بها عن نفسِه ويُحجِّم هذا الجسم الغريب، وهذه المادة الفوسفورية الكلسية هي اللؤلؤ، واللؤلؤ غالٍ جداً قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

أغلب البضائع هذه الأيام استيراد وتصدير، تُنقل عبر السُّفُن وهناك الآن بواخر وناقلات نفط تحمِل مليون طن؛ مدن تسير في البحار، وهناك الآن معامِل لصنع الستانلس هي بواخر تأخذ المواد الأولية من استراليا وفي طريقها إلى الشرق الأوسط تُصَنِّعُها وتبيعُها مصنَّعةً خالصةً، فالبواخر مدنٌ تمشي في الماء قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي

سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

أذكُر مرةً أننا كنا في سَفَرٍ وكان الطريق طويلاً وساحلياً ومن الممكن أن نقْطَعَهُ في البحر، كانت تقف على مرأى منا بواخر تُستعمل ناقِلات للسيارات فيها سيارات كبيرة وشاحنات، تحمل عدداً كبيراً من السيارات؛ كيف تتحرك هذه الباخرة بهذا العدد؟ وكيف يحْمِلها الماء؟ إذا قلتَ: البترول؛ قلنا لك: من خلق البترول؟ الله جل جلاله، قال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

وقال: ﴿ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ [النحل:١٥].

فالجبال يبدو أنها موزَّعة توزيعاً دقيقاً جداً، حيث إن الأرض تدور دورةً مستقرة؛ تجد بناءً عمره سبعمئة سنة ليس به بأس، ولو كانت هناك حركة تلامسه لانْهدم، فالأرض متحرّكة وكأنّها ساكنة، وهذا من آيات الله الدالة على عظَمَتِه، استقرارٌ مطلق مع حركة عجيبة قال تعالى: ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [النمل:٦١].

من جعلها مستقرة؟ ومن جعل الأشياء تستقرُّ عليها؟ الله جل جلاله قال: ﴿ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [النحل:١٥-١٦].

كلُّ شيء له علامة تميّزه، وتعلن عن حقيقة بواطنه، إذا كان هناك جرثوم في جسم الإنسان، فإنه ترتفع حرارته، فارتفاع الحرارة علامة، وإذا نضجت الفاكهة يصْفَرُّ لونُها، وهذا اللون الأصفر علامة، وأحياناً الزيتون يسودّ، والحبُّ يشتدُّ،والعنب

يصْفَرّ، وكلُّ شيءٍ خلقه الله عز وجل جعل له علامةً تدلُّ على باطنِهِ، حتى الأمراض كلُّها لها علامات، ولولا هذه العلامات لما عرف الأطباء الأمراض، وكلُّ شيء باطن له علامةٌ ظاهرة، قال تعالى: ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾ [النحل:١٦].

وقال تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [النحل:١٨].

أي أنتم عاجزون عن إحصاء النِّعم، فلأن تكونوا عاجزين عن شُكرِها من باب أولى، ولذلك ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾.

وفي سورة الأنبياء قال تعالى: ﴿ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء:٧٩].

أيضاً هذه الآية وما بعدها تبيِّن تسخير الله تعالى لهذا النبي الكريم.

وفي سورة الحج قال تعالى: ﴿ وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [الحج:٣٦].

فهذه الناقة؛ قرأت عنها بعض المقالات في مجلاتٍ علمية أنها تستطيع أن تستغني عن الماء ثلاثة أشهر، فهي تستطيع أن تستهلك ماء خلاياها، وتستطيع أن تستغني عن الطعام أكثر من ستة أشهر لأن سنامها مُدَّخَرٌ غذائيٌّ لها، فهذا الحيوان مسخَّرٌ للإنسان ولا سيما في الصحراء، أخْفافُها آية، ولها رُموش تمنع دخول الغُبار إلى عينيها، وعينُها آية تُريها البعيد قريباً والصغير كبيراً، فعين الناقة كالميكروسكوب تماماً، فعينُها آية، وشفتاها آية، وأعضاؤها آية، وتجلس جلسةً نظاميةً وترتاح، ولها ثفنة في بطنِها وعلى يديها ورجليها، جلستُها النظامية تتيح لك أن تُحمِّل عليها، وهي دانية من الأرض.

وربنا عز وجل يقول: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴾ [الغاشية:١٧].

إن بحثنا يتناول كل حركةٍ من حركاتِك؛ ويريك كلَّ ما سخره الله لك من خلال ذلك، لبِسْتَ حذاءك من جلد الأنعام فهذا الجلد مسخَّرٌ لنا، ركبتَ مركبةً تتحرك بالبترول فالبترول مسخّر لنا، دخلت إلى البيت وشربت كأساً من ماء فالماء مسخَّرٌ لك، ومن جعلهُ عذباً فُراتاً؟ وكان من قبل مِلْحاً أُجاجاً فالماء مسخَّرٌ لنا، رأيتَ زوجتَك فمن سخَّرها زوجةً مطيعةً لك، ورأيتَ أولادك واستلقيت على فراشٍ وثير فمن خلق الصوف؟ فكيفما تحركت وجدت الأشياء مسخَّرة لك أعظم تسخير، ألا تستحيي من الله؟

إلى متـــى أنـــت باللّـــذات مشـــغول وأنـــت عـــن كـــلِّ مـــا قـــدَّمتَ مســـؤول

وفي سورة العنكبوت قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [العنكبوت:٦١].

وفي سورة لقمان قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [لقمان:٢٠].

أذكُر مرةً أنني كنت في الخليج، وكان هناك سباق للهُجْن يعْتنون به كثيراً، ولكن الذي لَفَت نظري أنَّ الذي يركَب على هذه الناقة طفلٌ صغير، وهذا الطفل من شدة الاهتزاز يَنْعَطِب عمودُهُ الفقري ورأيت العكس في هذا الموقف، فالإنسان هنا مسخَّرٌ لهذه الناقة، والأصل أن الناقة هي المسخّرة للإنسان، فالإنسان حينما يسخَّر لمخلوق أدنى منه ما عرف قيمة نفسه وإنسانيته لذلك الله عز وجل قال: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [البقرة:١٣٠].

هناك أشياء كثيرة قد ترفُضُها لأنها لا تُعْجِبُك ولأنك تحتقرها، إلا أنك إذا رفضت الدين فإنك تحتقر نفسك قال: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾.

حينما يحتقر الإنسان نفسه يُعْرِض عن الدين، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾.

وفي سورة الزمر قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾﴾ [الزمر:٥].

وفي سورة الزخرف قال تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الزخرف:١٢].

وهذه لفتة ألفت نظرك إليها فيما سخر الله أيها الإنسان، لتعتبر وتشكر:

فمِن أجل أن تعرف قيمة البترول؛ سيارة فيها خمسة رُكاب وتحمِل أغراضاً وأمتعة، وتسير في طريق صاعِدة، فلو أنها وقفَت وأُطفِئ مُحرِّكُها وكلَّفْناك أن تدفعَها في مسارها إلى الأعلى مع رُكابِها فهل تستطيع؟ فلو كان هناك خمسة رجال أقوياء لما استطاعوا تحريك هذه السيارة بطريقٍ صاعدة، لكن هذا البترول كيف ينفجر، وكيف يدفع هذا الوزن الثقيل من المركبة مع ما فيها من ركاب بطريقٍ صاعدةٍ على نحو ما تعرف وتشاهد؟ فسبحان الذي سخَّر لنا هذا، وإذا ركِبت باخرة من الذي جعل الماء يحمِلها؟ الله عز وجل، وكذلك الطائرة في الهواء، وهناك دعاء قرآني كلما ركِبْت مركبةً أو دابةً أو سيارةً تقول:

كما روى عليٌّ الأزديُّ أنَّ ابنَ عُمَرَ علَّمَهُمْ أنَّ رسولَ الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفرٍ كبَّر ثلاثاً ثم قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [رواه مسلم].

فكُلُّ شيء تراه أمامك مسخَّرٌ لك، وكل ما تراهُ أمامك هو من نِعَم الله عز وجل، وقد سخَّره لك، ولولا أنك ذو شأنٍ عند الله عز وجل لما سَخَّر الكون من أجلِك قال تعالى: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ ﴾ [النحل:٥].

نصيب المؤمن من التسخير

الكون مسخَّرٌ تسخيرَيْن:

- تسخير تعريف.
- وتسخير تكريم.

ورَدُّ فِعْلِ التعريف أن تؤمن به، وردُّ فعل التكريم أن تشكُرَهُ، فإذا آمنْتَ به وشَكَرْتَهُ حققتَ الهَدَفَ من وُجودِك، لذلك يقول الله عز وجل: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ۝١٤٧ ﴾ [النساء:١٤٧].

وبالمناسبة بمجرَّدِ أن تعرِف هذه النعمة أنها من الله فهذا نوعٌ من الشُّكْر فأهلُ الدنيا تجد أحدهم يستمع إلى نشرة الأخبار الجوية مثلاً أنّ منخفضاً جوياً في طريقِهِ إلى الشرق الأوسط، فإذا لم يخطُر ببالِهِ أنَّ الله تعالى رحمةً منه بالبَشَر ساق هذه المنخفضات لتكون في النهاية أمطاراً تروي الزرع ويشرب منها الإنسان ويسقي بهائمهُ، فهذا التصور بأن هذا منخفضٌ يسير بسرعة كذا إلى المكان الفُلاني ولا يذْكُر الله معه فذلك نوعٌ من الشرك، لذلك فلا بد من أن تعترف بأنَّ كلَّ شيءٍ يحيط بك نِعْمَةٌ عُظْمى ينبغي أن تحمَدَ الله تعالى عليها.

استنشاق الهواء نعمة، وكم من جهازٍ في الإنسان يعملُ بانتظام، فمثلاً هذه العينُ تعملُ بانتظام، وهي من أكبر النِّعَمِ التي أنْعَمَ الله بها علينا، ترى الألوان كلَّها والأشياء بحَجْمِها، وتُفَرِّق بين درجتين من بين ثمانمئة ألف درجة من تدرّجات اللون الواحد، فهي حساسةٌ جداً، فالعين نعمة والشمُّ نعمة والسمع والنطق نعمة والقلب والرئتان

والأوعية والأمعاء كلُّها نعم كذلك، فالإنسان مغمورٌ بالنعم، وكلما فكَّر في هذه النعم أحبَّ الله عز وجل. والنبي ﷺ يروى عنه:

«أَحِبُّوا اللهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ مِنْ نِعَمِهِ، وَأَحِبُّونِي بِحُبِّ الله، وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي بِحُبِّي»

[رواه الترمذي من حديث ابن عباس].

«أحِبوا الله لِما يغْذوكم من نِعَمِهِ»، وحالةُ المؤمن دائماً الشُّكْر لأنّ الله عز وجل سخّر له جِسْمَهُ وأنت شيء غير جِسْمِك، والدليل قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [فصلت:٢١].

فَجِلْدُكَ خلايا، والخلايا نفْسٌ لها مسؤولية وتنطِق يوم القيامة وتشْهد، فجِسْمُكَ مُسَخَّرٌ لك، وعظْمُ عُنُقِ الفخذ يتحمَّل مئتين وخمسين كيلو حُمولَة، فالعظْمان يتحملان نصف طن، وهذا الحُوَيْن المَنوي الذي هو كالماء من أين جاء بهذه القساوة في العِظام؟ هذا يعني أن هناك في العِظام كِلْس قاس فَمَن أعطاه هذه القساوة؟ فالمواد الكِلْسِيَّة تترسَّب في العِظام وبطريقةٍ لا يعْلَمُها إلا الله تعالى، يصبِح هذا العظم قاسياً، بل إن ميناء الأسنان يأتي بعد الماس في قساوَتِه، والعِظام لها متانَةٌ كبيرة.

انْظر إلى القصاب يرْفَع الساطور إلى أعلى ويَهْوي به بكُلِّ قُوَّتِه ليَكْسِرَ عظْماً من عِظام الخروف ما معنى ذلك؟ أي أنّ الله عز وجل أعْطاك هَيْكَلاً عظمياً قوياً وعضلاتٍ تتحرَّكُ بها، ولولا العضلات لما كانت هناك حركة ولا مشْي ولا تَكَلُّم ولا نُطْق ولا تَنَفُّس ولا نَبْض قلب ولتوقف كلُّه، فالله تعالى أعْطاك عضلاتٍ تتحرك وهيْكَلاً عظمياً هو قِوامُ جِسْمِك، وأعْطاك الله عز وجل أجْهِزةً حسّاسة جداً.

ولقد ذكرت مرةً أنَّ في الدِّماغ خاصة تكشف تفاضُل وصول الصوت إلى الأذُنَيْنِ، فإذا دخل صوتٌ من جهة اليمين قبل جهة الشمال مثلاً بقدْر واحد على ألف وستمئة جزء بالمئة حينها يعلَم الإنسان أنَّ الصوت جاء من اليمين، فإذا كان يقود

سيارة مثلاً فإنه ينْحَرِف نحو اليسار استجابة لذلك الصوت، وهناك جهاز توازن السوائل، وجهاز ضبط، فالإنسان ينطوي على آلاف الأجهزة؛ الغُدَّة النُّخامية وزنها نصف غرام تُفْرِز اثني عشر هرموناً.

هل علمت أنَّ التسخير يعني أنَّ جِسْمَكَ مسخَّرٌ لك، والطعامَ مسخَّر، والشرابَ مسخَّر، والأنعامَ مسخَّرة، والبحارَ مسخَّرة، والأمطارَ مسخَّرة، والرياحَ مسخَّرة، ولولا الرياح اللواقح ما أنتجت النباتات، ولا أثمرت الأشجار، قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحجر:٢٢].

لذلك فمُلخص البحث: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نِعَمِه، وأحبوني بحب الله، وأحبوا آل بيتي بحبي» [رواه الترمذي من حديث ابن عباس]، فإن فعلت كنت عبداً شكوراً.

المنع

من أفعاله تعالى: المنع.

قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس:١٠٧].

وفي الحديث: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ مَكْتُوبَةٍ: «لاَ إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللهمَّ لاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلاَ يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ» [البخاري عن المغيرة بن شعبة]

من معاني المنع

المنعُ في اللغة ضدُّ الإعطاء... في البلاغة ما يسمى بالطباق... كأعطى ومنع، ضرَّ ونفع، خفض وأعلى، قبض وبسط، هذا طباق في الأفعال، أما في الأسماء: حرٌّ وقر، عدلٌ وجور، صالحٌ وطالح، كريمٌ وبخيل... إلى آخره... إذا جاءت الكلمات متعاكسة في معانيها فهذا ما يسمى بالطباق، فإذا جاءت مجموعة كلمات تعاكس مجموعة كلمات في جملة واحدة فهذا ما يسمَّى بالمقابلة.

فالمنع ضدُّ الإعطاء، ومنع ضدُّه أعطى، والمنع ضدُّ العطية، يعطي أو يمنع، والمعنى الذي قد لا يخطر في البال: هو المانع بمعنى الحماية... يمنعك من خصومك، يمنعك من أعدائك، يمنعك من أن ينزل بك شر، يمنعك من الأشرار، يحميك،

يحفظك، أنت في حمايته، أنت في مَنَعة، لا أحد يصل إليك، لا أحد يستطيع أن ينال منك، فهذا معنى آخر من معاني المنع.

المانع: هو الذي يمنعك من كلِّ ما يؤذيك، يمنعك من العطب في دينك ودنياك، الله عز وجل مانع للمؤمنين، يدافع عنهم ويحفظهم ويوفِّقهم، ويؤيِّدهم.

المانع مطلقاً... هو الذي يجعل الحيلولة بين شيئين، إنسان هجم على إنسان لينال منه، فاحتمى بإنسان قوي، فهذا القوي منع الأول من أن يعتدي على الثاني، فهو مانع، أي: جعله في منعة وحماية، وهذا غير معنى المانع ضدُّ المعطي، فالمانع بهذا المعنى هو الحافظ.

وقولهم: حصنٌ منيع، أي: لا يستطيع أحدٌ أن يصل إليه، فلانٌ في عز ومنَعة، أي هو عزيز ممتنِع على من يرومُه، الشعور بالمنَعة شعور رائع جداً، تشعر أنك في حماية الله، أنَّ الله معك، أنَّ الله يحفظك، أنَّ الله يؤيِّدك، أنَّ أحداً لا يستطيع أن يصل إليك، هذا الشعور يقابل الطمأنينة، يقابل الشُّعور بالأمن.

الإنسان أحياناً يركب مركبة حديثة جداً فيتأكد من عدم وجود مشكلة فيها وأنَّها لن تتعطَّل في الطريق، وأحياناً يركب مركبةً قديمة جداً وقد يصل بسلامة لكنَّه قلِق طوال الطريق، فالمنعة شعور بالأمن والاطمئنان، وعدم توقُّع المصيبة... وقد قيل: توقُّع المصيبة مصيبةٌ أكبر منها.

وقالوا: أنت من خوف الفقر في فقر، وأنت من خوف المرض في مرض. لذلك فالله -عز وجل- إذا أراد أن يعاقب المعرِضين ينزِع من أحدهم شعور الأمن، هم أغنياء وأقوياء وأذكياء ومع ذلك خائفون، يقذِف الله في قلوب المشركين الرُّعب بسبب شركهم، وعلامة الإيمان الطمأنينة لأنك مع الله، والله معك، ومن كان مع الله لا يخشى أحداً إلا الله، وللأنبياء مواقف في هذا المعنى فهذا سيدنا هود يخاطب قومه قائلاً لهم: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦)﴾ [هود: ٥٥-٥٦].

أنت -في المحصِّلة- لك مشاعرُ نفسيَّة، هذه المشاعر النفسيَّة مهمَّةٌ جداً في حياتك، وفي معادك إلى الله، لأنَّ هذه المشاعر الراقية تقودك إلى أن تعمل عملاً صحيحاً، والعمل الصحيح سبب سعادتك في الدنيا والآخرة، والمشاعر السوداويَّة تثبِّط عزائمك، الإنسان أحياناً يُصاب بمرض نفسيٍّ، هذا المرض يُقعده في البيت، ويمنعه من العمل، فيلجأ إلى التدخين، إلى المخدرات أحياناً، وبهذا المرض النفسي يتوهَّم أنَّ الناس كلَّهم أعداؤه، فالحالة النفسية مهمة جداً، أهم شيء تعيشه حالتك النفسية، فالمؤمن له حالة شعوريَّة عالية جداً، وأساسها أنه ممنوع، أي: أنَّ الله منع خصومه أن يصلوا إليه، ومعنى قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور:٤٨]. أي: بحفظنا وتوفيقنا ورعايتنا.

والله جلَّ ذكره هو الذي يمنع من يستحقُّ المنع، فما كلُّ واحدٍ من الناس يستحقُّ المنع، فهناك إنسان لا يستحقُّ المنع، بل يستحقُّ أن يتورَّط، يستحقُّ أن يكون مكشوفاً، يستحقُّ أن يصل أعداؤه إليه، فقد قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الممتحنة:٥].

إذا لم يستقم الإنسان فإنَّه قد يُفتَن بالكفار، قد ينالون منه، بل لهم عليه ألف سبيلٍ وسبيل، لأنَّ الله لم يمنعه، لأنَّه لم يستحقَّ المنع، استحقَّ أن يصلوا إليه، استحقَّ أن ينالوا منه، استحقَّ أن يتحكَّموا فيه، استحقَّ أن يقهروه، أما إذا كنتَ مطبِّقاً لمنهج الله، إذا كنت مع الله عز وجل فأنت ممَّن يستحقُّ المنع، عندئذٍ يمنعك الله عز وجل.

وبعد، فالعوامل المُمْرِضة موجودة في الدنيا، إنسان يُصاب، إنسان آخر لا يُصاب، الذي لم يُصب ممنوع من قبل الله عز وجل، والذي أُصيب سمح الله لهذا الجرثوم ولهذا المرض أن يفعل فعله، كلمة (ممنوع) شيء عميق الدلالة جداً، يعني أنت تحوطك رعاية الله، لا يسمح الله لأحدٍ أن يصل إليك، إنك معه، وهو يحميك... فقد قال تعالى: ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يوسف:٦٤].

سبق أن ذكرت كيف أن النبي ﷺ اتَّجه إلى بني النَّضير مع ثُلَّة من كبار أصحابه ليطالبهم بما عليهم من عهدٍ وقَّعه معهم، فجلس في مكانٍ في حيِّهم وأسند ظهره إلى جدار بيت فائتمروا به بأن يصعد أحدهم إلى السطح ويلقي عليه صخرةً يقتله، فجاءه

الوحي بالخبر فنهض النبي ﷺ من مجلسه وتبعه أصحابه، وفوّت الله على العدو تدبيرهم [السيرة النبوية لابن هشام]، وأنت - أيُّها المؤمن - لن يأتيك الوحي ولكن يأتيك من الله إلهام.

امرأة صالحة تطهو طعامها في قِدْر تعمل بالبخار المضغوط يبدو أن فيها خللاً وصارت على وشك الانفجار، وإذا انفجرت شيء مخيف جداً، وقبيل أن تنفجر بدقيقة واحدة قُرع الجرس، ذهبت لتفتح فلم تجد أحداً، كان طفل صغير يلهو فقرع الجرس وهرب، في أثناء فتحها للباب انفجرت القِدر، فالله مانع، منع المرأة أن تُصاب بأذى.

إخوةٌ كُثُر... حدَّثوني كانوا في طريقهم في سفر، وبعد أن قطع أحدهم ألفاً وخمسمئة كيلومترٍ من الطريق وأوقف السيارة أمام البيت، تفككت بعض قطع السيارة وتساقطت على الأرض لو أنها أصابها الخلل أثناء السير لهلكوا كلُّهم، من الذي منع وقوع الحادث؟ الله جل جلاله... الله يمنعك من الحوادث.

قال لي أحد الطلاب الذين يدرسون الطب... ركب سيارة عازماً على السفر إلى محافظة إدلب... فجاء إنسان فظٌّ غليظ وشأنه غير معقول، هو كالوحش، فتح الباب وبدلاً من أن يقول لهذا الطالب اسمح لي بهذا المقعد، وهذا الطالب حجمه صغير، فحمله ووضعه على الأرض وركب بدلاً منه وأخذ مكانه، فقال لي هذا الطالب: امتلأت غيظاً إلى حد كبير وغير معقول، ومضت ساعة ونصف حتى تمكَّن من ركوب سيارة أخرى، وعند قرية تفتناز -وهي إحدى قرى محافظات الشمال- وجد السيارة الأولى قد تدهورت وفيها أربعة قتلى من ركابها الخمسة، والناس متجمِّعون حولها... كان أحد ركاب تلك السيارة المنكوبة لكنَّه أُرغِم على النزول... من الذي منعه وأنزله منها؟ الله جل جلاله، إما عن طريق إلهام، أو عن طريق سبب آخر.

ولقد وقع قديماً حادثٌ بمكان سمعت أنَّ كل من كان في هذا المكان قُتلوا، ولي صديق موظَّف في المكان نفسه، وتوقَّعْت أنَّه في عِداد القتلى، ثم فُوجئت به في الطريق بعد أيام فسألته عن أحواله فقال لي: قبل خمس دقائق من الحادث خطر لي أن أشتري الخبز من مكان قريب فخرجت، وأثناء غيابي وقع الحادث.

قد يحدث حريق أو انفجار لأسطوانة الغاز، أو يكون الشخص بمطعم فتنفجر أسطوانة الغاز ويكون مقدَّراً لها أن تقتل عشرة أشخاص وفيهم شخص ممنوع فيخطر في باله الخروج لشراء شيء ما وأثناء خروجه تنفجر، فليس هناك شيء يقع مصادفةً في الكون كلِّه أبداً، فالله عز وجل يمنع الخطر.

لذلك فالمؤمن يشعر بطمأنينة لا يعلمها إلا الله، لأنه لم يؤذِ أحداً، ولم يكن سبباً في ألم إنسان أو ترويعه، ولم يكن سبباً في ابتزاز إنسان، أو سبباً في إدخال الرعب على قلب أحد، لم يبنِ مجده على أنقاض الآخرين، ولم يبنِ غناه على فقرهم، بل هو محسن في كلِّ عمل فالله عز وجل يمنعه، وفي هذا المجال توجد أكثر من ألف واقعة وحادثة... فأحياناً يكون سنتيمتر أو مليمتر أو دقائق بينه وبين الخطر... فالله يمنعه وينجيه، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

قال العلماء: «هو الذي يمنع من يستحقُّ المنع»، فكن أنت مستحِقّاً للمنع، ما رأيت دعاءً يقطر أدباً كدعاء النبي ﷺ:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى الأَسْلَمِيِّ قالَ: خَرَجَ عَلَيْنا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ إِلَى اللهِ أَوْ إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ فَلْيَتَوَضَّأْ وَلْيُصَلِّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: لا إِلَهَ إلا اللهُ الحَلِيمُ الكَرِيمُ سُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ العَظِيمِ، الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مُوجِباتِ رَحْمَتِكَ، وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ، وَالغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بِرٍّ، وَالسَّلامَةَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ، أَسْأَلُكَ ألا تَدَعَ لِي ذَنْباً إلا غَفَرْتَهُ، وَلا هَمّاً إلا فَرَّجْتَهُ، وَلا حَاجَةً هِيَ لَكَ رِضاً إلا قَضَيْتَهَا لِي، ثُمَّ يَسْأَلُ اللهَ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مَا شَاءَ فَإِنَّهُ يُقَدَّرُ» [سنن الترمذي].

أي كنْ أهلاً للمنع فيمنعك الله من خصومك، لن يسمح بك، فسيدنا سُراقة بن مالك قبل أن يُسلم أراد قتل النبي ﷺ ليأخذ مئة ناقة، وُضعت مكافأةً لمن يأتي به حيّاً أو ميّتاً، هل استطاع أن يصل إليه؟ اقترب منه... غارت قوائم فرسه في الرمال، مرة أولى، وثانية، وثالثة... فعرف أنه ممنوع من الله تعالى [انظر السيرة النبوية، لابن هشام].

فإذا كان الله مع أحد فهنيئاً له، فلا يخشى أحداً، ولكن بأدب وليس بوقاحة كأن يقول: أنا لا أخاف من أحد... فهذا من سوء الأدب، اجعلها بينك وبين ربِّك.

فإذا كنت مع الله كان الله معك، إذا كنت مع الله أشعرك بالأمن وأشعرك بالمودة... إذاً هو الذي يمنع من يستحقُّ المنع.

قال العلماء: هو يمنع أهل دينه... هل تجد إنساناً ينتمي إلى جماعة متنفِّذة وليس له ميزات؟ مستحيل... فكيف إذا انتميت إلى أهل الله؟ أو إلى الدين، ليكن انتماؤك إلى الله فهو الرُّكن الرَّكين.

أحد العلماء المشاهير في إحدى الدول العربية، أراد أن يجري عملية في بريطانيا، فوُضعت أربع طائرات في خدمته ليختار إحداها، وصل إلى بريطانيا وأُجريت له العملية، ولم يلبث أن وصلت إليه هواتف كثيرة ورسائل بأعداد غير معقولة، وبالآلاف مما لفت إليه أنظار المسؤولين وأجرى معه مذيع من إذاعة لندن مقابلة، قائلاً له: ما هذه المكانة التي تتمتع بها، الأمر غير معقول كأنك أسمى مكانة من الملوك، بماذا أجاب؟ هل سيقول: لأنني مخلص أحظى بهذه المكانة، أو لأنني عالم، أو لأنني محبوب؟... هذا افتخار وادعاء... ولكنه قال: لأنني محسوبٌ على الله.

كلمة فيها أدب بالغ جداً، فهو قد قال: أنا لست أهلاً لذلك، ولكنني محسوبٌ لا على أهل الأرض ولكن على رب السماء، أنا محسوبٌ على الله.

المؤمن ربَّاني... فقد تجد شخصاً ينتمي إلى فلان أو فلان أو فلان، أي ينتمي إلى شيء مآله إلى الزوال... انتهى أمره فهو مجيَّر لصالح فلان، معروف كم هو ثمنك، أما أن تكون محسوباً على الله؛ فمكانتك مكانة عَلِيَّة. لا يليق بالإنسان أن يكون لغير الله، ولكن كونوا ربَّانيين، لا تكن لمصلحة زيد أو عبيد، لمصلحة فلان أو علاَّن، لا تكن محسوباً على أهل الأرض، ولا على جهات الأرض، ولا على قوى الأرض، ولا على تجمُّعات الأرض، كن محسوباً على الله... لكن الذي يحسب على الله يجب أن يكون مطيعاً لله.

إذاً هو الذي يمنع أهل دينه... أي: يحوطهم وينصرهم...

وقيل: هو الذي يردُّ أسباب الهلاك والنقصان في الأديان والأبدان... كما كان يدعو النبي ﷺ: «اللهمَّ! أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي

التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كلِّ خير، واجعل الموت راحةً لي من كلِّ شرّ» [رواه مسلم من حديث أبي هريرة].

قد يكون الإنسان مستقيماً ويمشي ببطء إلى الله... والله عز وجل سيمنعه من التقصير... وهذا معنى جديد... فالمعنى الأول... يمنع، أي: لا يُعطي، والمعنى الثاني: يمنع، أي: يحفظ من الشر.

وإليك المعنى الثالث: يمنعك من التقصير... فقد يكون أب حريص على أن ينال ابنه الدرجة الأولى، ليس حريصاً على أن ينجح ابنه فحسب... لا... حريص على أن ينال الدرجة الأولى، أكثر معالجات المؤمن أن يمنعه من التقصير، فكلما قصَّر يأتي الله له بمشكلة، كلما قصَّر يلوح له شبح مصيبة، كلَّما قصَّر يحبط الله بعض عمله فيفرُّ المؤمن إلى الله عندئذٍ يتوب ويضرع.

وقيل: «هو الذي يمنع البلاء حفظاً وعنايةً، ويمنع العطاء عمن يشاء ابتلاءً وحمايةً».

لا يُعطي لأنه يعلم، كما أن الأب الطبيب الماهر الذي يعلم أنَّ ابنه مصابٌ بالتهابٍ في معدته، وأنَّ هذه الأكلة تؤذيه، يمنعه من هذا الطعام بحزمٍ وقسوةٍ، والطعامُ شهيٌّ وطيِّبٌ، وإخوته يأكلون في حضوره، لكنَّ الأب مُصِرٌّ على منع هذا الابن من هذه الأكلة الشهيَّة الطَّيِّبة لأنها تؤذي معدته، فهو يمنعه... فهذا المنع كان لحكمةٍ بالغة.

يقول ابن عطاء الله: «متى فتح الله لك باب الفهم في المنع، عاد المنع عينَ العطاء».

أحياناً قد يُبعِدك الله عز وجل عن مجال معين، لأنَّ هذا المجال فيه دنيا، كأن يعمل شاب في محلٍّ تجاريٍّ فخم، والراتب مُغرٍ جداً، والبيع للنساء، وهو شاب في أول نشأته، ومقاومته هشَّة ضعيفة، فلسببٍ أو لآخر يصرفه صاحب العمل، ما وافق وضعه صاحب المحل فوضع دونه شرطاً تعجيزياً، أو لعدم التزامه صرفه، فيبدو آنياً أنه قد مُنِعَ من هذا المرتب الضخم، ولكن هذا المكان مكانٌ موبوء وهذا الشاب طاهر ومقاومته هشَّة لا تحتمل هؤلاء الغاديات والرائحات، فالله عز وجل صرفه عن هذا

العمل، وهو في ظاهر الأمر وباطنه منعه... والأمثلة في هذا المجال كثيرة لا حصر لها، كيف أنَّ الله سبحانه وتعالى صرف عن أحبابه ما يبدو لهم أنه منعٌ وهو في الحقيقة عطاء... صَرفُه عنهم عين العطاء.

قد تجد ابناً نشأ بالنعيم، والأب غنيٌّ ومتساهل مَرِن فيعطي ابنه ما يشتهي، وأحياناً ينشأ ابن يتيم في حرمان وفقر وله أم حازمة مربية، ودخلُهم قليلٌ جداً، فتحضُّه على الدراسة، لا تنيمه الليل، تحثُّه، ليس في البيت مغريات أو ملهيات ولا ماديات، فبحسب الظاهر أنَّ الأول مدلل وابن أسرة غنيَّة، يأكل ما يشتهي ويذهب إلى حيث يشتهي ويريد، والثاني طفلٌ يتيمٌ ومحرومٌ، ولكن بعد حين ترى أنه شتَّان بين الاثنين، اليتيم في تألُّق كبير ورفعة، والآخر في شقاءٍ وتراجع، فاليتم والحرمان مع أمٍّ حازمةٍ مربيَّةٍ، دفعته إلى أن يبني نفسه بناءً صحيحاً، إذ غَرست فيه القيم الأخلاقية فأصبح إنساناً عظيماً بهذه النشأة المتقشِّفة، وذاك الطفل الذي نشأ برخاء منقطع النظير، ينام في غرفة خاصّة فيها كلُّ ما يشتهي، كما حوت غرفته كلَّ الألعاب، وقد يشحن أبوه سيارته من الخليج إلى الشام ليستمتع بها في المصايف والمنتزهات، دون أن يكلِّف نفسه عناء قيادتها ومتاعب السفر.

فهناك شاب يعيش حياةً خيالية، يحمل أجهزة نادرة ثمنها مئات الآلاف، وله هاتفان أو ثلاثة، وسيارتان أو ثلاث، وشاب نشأ في أسرة فقيرة، ولكنَّ فيها الكثير من القيم، تجده إنساناً عظيماً... لذلك لو كُشف الغطاء لاخترتم الواقع.

يقول سيدنا علي رضي الله عنه: «والله لو كُشف الغطاء ما ازددتُ يقيناً»، يقينه قبل كشف الغطاء كيقينه بعد كشف الغطاء.

وكذلك يقول سيدنا علي رضي الله عنه: «والله لو علمت أنَّ غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي»... لشدة مسارعته إلى الله.

إذاً العطاء قد يكون منعاً، ولكن هذه تحتاج إلى ثقة بالله، وإلى إيمان، وإلى يقين بحكمة الله، وبمحبة الله.

فالإنسان يخطئ في تصوُّره... فإذا اجتمع للإنسان مال، وكانت صحَّته سليمة وهو بعافية، وفي حال مبسوط النفس، وبيته ممتاز، فإنه يظنُّ أن الله يحبُّه، وإذا كان بيته دون المستوى، ودخله قليلاً وصحَّته معلولة ظنَّ أنَّ الله لا يحبُّه، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾ [الفجر:١٥-١٧].

﴿كَلَّا﴾... كلا، كلامكم غير صحيح، ليس عطائي إكراماً، ولا منعي حرماناً، إنَّ عطائي ابتلاء، وحرماني دواء.

لا بد من أن تعلموا علم اليقين أنَّ الفقير المؤمن أفضل عند الله ألف مرة من الغني العاصي... لأن الدنيا عرضٌ حاضر يأكل منه البرُّ والفاجر، وعندنا أدلة قوية جداً... منها قارون، قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [القصص:٧٦].

أعطى الله سبحانه وتعالى المال لقارون وهو لا يحبُّه، وأعطى فرعون الملك وهو لا يحبُّه... الدنيا لا قيمة لها.

إذاً... هو الذي يمنع البلاء حفظاً وعنايةً، ويمنع العطاء عمن يشاء ابتلاءً أو حماية... ويعطي الدنيا لمن يحبُّ ولمن لا يحب، ولا يعطي نعيم الآخرة إلا لمن يحب.

أجل يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب... فقد قال تعالى على لسان سيدنا إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة:١٢٦].

تجد بعض الناس يقع في غلط فاحش فيقول: لأن الله يحبني أعطاني هذا البيت، فيجعل عطاء الدنيا مقياساً لمحبة الله، فالله أعطى شخصاً كافراً منزلاً أكبر من منزلك بمئة مرة، يوجد ملوك الحديد والصُّلب، وملوك المعامل الضخمة في أوروبا وأمريكا، معهم أموال خيالية، وبيوتهم مدن بأكملها، قصره في غابة، فهل معنى ذلك أنه يحبه؟!

لا تجعل الدنيا مقياساً للمنع والعطاء، فالدنيا لحقارتها عند الله، لم يشأ أن يجعلها علامة رضوانه، ولا علامة بغضه، إن الدنيا لصغر شأنها عند الله أبى أن يجعلها علامة رضوانه، وأبى أن يجعلها علامة سخطه، فلا علاقة لها برضوانه ولا بسخطه، لكن لها علاقةٌ بحكمةٍ يريدها الله عز وجل.

وهو جل جلاله الذي يدفع عن أهل طاعته المصائب، يدفع عنهم البلايا، ويحوطهم وينصرهم، يمنع ما يريد من خلقه مما يريد.

فمثلاً في اليابان منطقة صناعية فيها أضخم المعامل والشركات، وقد قاموا بتركيب أجهزة للإنذار المبكر للزلازل مربوطة بحاسوب، فالله سبحانه أنزل بها أضخم زلزال وتعطل الحاسوب عن أداء وظيفته، فهل من مُدّكر؟

يمنع من يريد ما يريد، لا مانع إلا الله، من الذي يمنعك من المرض؟ من الذي يمنعك من حادث في الطريق؟ من الذي يمنعك من شرير؟ من الذي يمنعك من الخوف؟ إنَّه الله، يمنع من يريد ما يريد، ولا مانع إلا الله.

ولا تنسَ أن الله جعل نواميس وأسباباً... أي: يمنعك ولكن لا يمنعك بلا سبب، بل إن هناك للكون نظاماً، فالكون فيه نظام، وكلُّ ما يقع له أسباب، فقد قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الكهف:٨٣-٨٥].

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾ فإذا أراد الله -عز وجل- أن يمنع إنساناً وأن يكون نظامه سائداً في المجتمع وفي الحياة، يلهم هذا الممنوع من هذا الشرِّ أن يأخذ بالأسباب... فكذلك منعُ الله بحكمةٍ وليس منعاً عشوائياً، وفي بعض الحالات يمنع بلا سبب كما ورد في قوله تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [النمل:٦٢].

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾... أما الأصل فهو أنه إذا أراد أن يمنعك يلهمك أسباب المنع.

فمن فهم معنى الحفيظ فهم معنى المنع، المانع هو الحافظ... قد يتبادر للمرء أن المانع هو الذي لا يُعطي، فهذا معنى، وكذلك المانع هو الحافظ، أنت في حصنٍ منيع، أنت في حرز حريز، لا أحد ينالُك.

قال بعض العلماء: «المنع يضاف إلى السبب المهلِك، والحفظ يضاف إلى المحروس عن الهلاك»، أي لو وجدت إنساناً محروساً من أن يهلك فهذا محفوظ، وإنسان يمكن أن يهلِك فهذا ممنوع... فقد قال تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [يوسف:٦٤].

وقد قالوا: «كلُّ حافظٍ مانع، وما كلُّ مانع حافظ».

كلُّ حافظٍ مانع... ما دام أنَّ الله حفظك فهو يمنعك من خصومك، وليس كلُّ منع حفظاً... أحياناً يكون المنع عقوبة، فقد يُحرم المرءُ بعض الرزق بالذنب يصيبه، قد يُحرم المرءُ بعض العلم بالذنب يصيبه، الذنب يمنعك من العلم ويمنعك من الرزق.

يقول بعض العلماء: «المانع يعني أنَّ الممكنات بالنسبة إلى تأثير قدرته على السوية... فدخول بعضها في الوجود دون البعض يكون بتخصيصه أو ترجيحه»، كل شيء بيد الله عز وجل، والله دائماً قادر على أن يمنعك من أعدائك.

فدخول بعضها في الوجود دون البعض يكون بتخصيصه أو ترجيحه... كلُّ المؤثرات بيد الله عز وجل، فإذا أطلق واحدة ومنع واحدة فهناك ترجيح عند الله لحكمة، فلو أن شخصاً في جسمه ثلاثة أنواع من الجراثيم حرَّك الله واحدة منها والاثنتان لم يحرِّكهما، أجل ثلاثة أنواع من جراثيم، فربما واحدة فعلت فعلها، فكلُّ الممكِنات بيد الله عز وجل، وكلُّ الأسباب بيد الله، أطلق جرثوماً ومنع جرثومين.

وبعد، فالمانع في وصفه سبحانه وتعالى منع البلاء عن أوليائه، أو منع العطاء عمن شاء مطلقاً، فإما أن يمنع العطاء تأديباً، أو تحصيناً، أو وقايةً، بحسب الممنوع منه، أو يمنع البلاء عن أوليائه.

الأولياء يُمنعون من البلاء فهو مانعهم، وهو المانع، أي: الحافظ، أما المخطئون فيُمنعون من العطاء تأديباً لهم، والمؤمنون يُمنعون من بعض حظوظ الدنيا وقايةً لهم،

تأديباً للعصاة ووقايةً للمؤمنين، هذا المنع الثاني، وقد عرفنا من قبل أن المنع الأول: الحفظ.

قال العلماء: «إذا منع البلاء عن بعض أوليائه كان ذلك لطفاً جميلاً، وإن منع العطاء عنهم كان ذلك فضلاً جزيلاً»، منع البلاء لطف، ومنع العطاء فضل.

عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ قَاعِدٌ مَعَ أَصْحَابِهِ إِذْ ضَحِكَ فَقَالَ: «أَلا تَسْأَلُونِي مِمَّ أَضْحَكُ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ الله وَمِمَّ تَضْحَكُ؟ قَالَ: «عَجِبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، إِنْ أَصَابَهُ مَا يُحِبُّ حَمِدَ اللهَ وَكَانَ لَهُ خَيْرٌ، وَإِنْ أَصَابَهُ مَا يَكْرَهُ فَصَبَرَ كَانَ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ أَمْرُهُ كُلُّهُ لَهُ خَيْرٌ إِلا الْمُؤْمِنُ» [مسند الإمام أحمد].

بعض العلماء قال: «الله -جلَّ جلاله- يعطي كلَّ شيءٍ ما هو في مصلحته، بمعنى أن حكمة الله مطلقة، يمنع ما هو سبب فساده، يغني من يشاء بالعطاء ويمنع من يشاء بالابتلاء، سبحانه يغني ويفقر، يسعد ويشقي، يعطي ويحرم، يمنح ويمنع فهو المعطي المانع».

إنسان عقيم لا يترك طبيباً إلاَّ قصده للمعالجة، ولكن لا جدوى فالمنع إلهي، إنسان آخر رزقه الله ذكوراً فقط، وإنسان آخر نسله إناث فقط، وهناك إنسان رابع نسله ذكور وإناث.

وقد قال لي أحد الإخوة الكرام يوماً وقد أقسم بالله: إن مات ابنه فلسوف يقيم احتفالاً بمناسبة موت ابنه لشدة عقوقه، فابن يكون بلاءً ونقمة، وابن يكون عطاءً ونعمة قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ﴾ [الأنعام:٨٤].

والله سبحانه وتعالى يعطي الدنيا من يحبُّ ومن لا يحبُّ، ولكنه لا يحمي قلب عبدٍ عن المخالفات إلا وهو من خواصِّ أوليائه.

قد تكون غالياً على الله وقريباً منه، وفي ساعة غفلة تفكِّر بعمل لا يرضي الله، تجد أن الله عز وجل وضع أمامك العراقيل، منعك، ولم يوافق المسؤولون لك على السفر مثلاً، فهناك منع قاسٍ وظاهره من البشر لكن حقيقته من ربِّ البشر، فالمؤمن محفوظٌ

من المخالفات، فلعله بهذا السفر تضعف مقاومته، أو عنده هشاشة في مقاومته، فالله عز وجل يعلم سرَّه وعلانيته.

قال بعض العلماء: «المانع هو الذي يدفع أسباب الهلاك والنقص في الدين والدنيا، وذلك بخلق الأسباب التي تحفظ من الهلاك والنقصان».

يمنع الهلاك بأسباب النجاة من الهلاك، ويمنع النقصان بأسباب النجاة من النقصان، المنع بأسباب... الله عز وجل يخلق بعض الممكنات، ويمنع وجود بعض الممكنات، يعطي الله لشخص مؤهِّلات ليتفوَّق، وقد لا يعطيها لآخر، فيعطي لحكمة ويمنع لحكمة، مرة أخرى: يعطي كلَّ شيءٍ ما هو في مصلحته ويمنع ما فيه فسادٌ لدينه فقد قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الشورى:٢٧].

أريد في هذا البحث أن أبيِّن أنَّ المؤمن المتَّصل بربه يتلقى المنع برضا، والمؤمن المتفتح يرى يد الله فوق أيديهم، يرى يد الله تعمل في الخفاء، يتلو قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾ [الأنفال:١٧].

المؤمن البصير يذكر الحديث الشريف وهو قوله ﷺ:

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ» [مسند الإمام أحمد].

لا يندم ولا يحقد ولا يتألَّم ولا يتذلَّل ولا يتضعضع، ولا يستخزي ولا يُلحّ، اطلبوا الحوائج بعزَّة الأنفس، فإن الأمور تجري بالمقادير.

وما كان لمؤمنٍ أن يهون، بل لا ينبغي للمؤمن أن يُذِّل نفسه، هذا بسبب إيمانه أنَّ العطاء من الله والمنع من الله، فقد قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ [فاطر:٢].

الشيء المهمُّ في هذا الموضوع... ما ورد عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ الله ﷺ يَوْماً فَقَالَ: «يَا غُلامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِماتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجاهَكَ، إذا سَالت فَاسْأَلِ الله، وَإِذا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» [سنن الترمذي].

هذا هو التوحيد...

وقال بعضهم: «المانع، هو الذي يمنع من شاء ما يشاء، وقد يكون باطن المنع عطاء» قد يمنع العبد كثرةَ الأموال ويعطيه الكمال والجمال، وقد يمنع العبد صحّة الأجسام ويعطيه الرضا عن الأحكام... المانع هو المعطي فقد يكون باطن المنع عطاءً وقد يكون في ظاهر العطاء بلاء.

كثيراً ما يطغى الإنسان في حال الغنى قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق:٦-٧].

النبي ﷺ عدَّ الغنى بلاء فقد روي: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «بَادِرُوا بالأَعْمالِ سَبْعاً، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فَقْراً مُنْسِياً، أَوْ غِنىً مُطْغِياً، أَوْ مَرَضاً مُفْسِداً، أَوْ هَرَماً مُفَنِّداً، أَوْ مَوْتاً مُجْهِزاً، أَوِ الدَّجَّالَ، فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوِ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ» [سنن الترمذي].

نصيب المؤمن من هذا الفعل

وبعد... فينبغي لمن فهم هذا الفعل الإلهي ألا يسأل غير الله، لأنه هو وحده المعطي المانع، لا أحد يمنعك، ولا أحد يعطيك إلا الله، فالتخلُّق بهذا الاسم يعني أن تعقد الأمل على الله، وألاّ ترجو غير الله، وألاّ تغترَّ بإعطاء الإنسان، لأن عطاء الإنسان من عطاء الله.

لذلك فالنبي الكريم ﷺ كان يدعو: «اللهم لا تجعل لفاجر عندي نعمة أكافئه بها في الدنيا والآخرة» [أخرجه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، من حديث معاذ بن جبل]، لأنَّ العطاء

من الله عز وجل، وفي ساعة غفلة ترى أن العطاء أتى من زيد أو عبيد، والمؤمن إذا مُنِع شيئاً لا يرى هذا المنع إلا من الله، ولو رآه من زيد أو عبيد لوقع في حرجٍ شديد، اللهم لا معطيَ لما منعت، ولا مانعَ لما أعطيت.

ويجب ألا تحقد على الناس لأنهم منعوا عنك شيئاً، فالله هو الذي منعه، العطاء من المعطي الحقيقي وهو الله، والمنع من المانع الحقيقي وهو الله، هذا ملخَّص الملخص للبحث.

العطاء... مطلق العطاء من المعطي الحقيقي وهو الله، والمنع مطلق المنع من المانع الحقيقي وهو الله، علاقتك مع الله فلا تحقد على أحد... لا تحْمَدنَّ إنساناً على فضل الله، ولا تذمنَّه على ما لم يؤتك الله، إذا منعك إنسان لا تحقد عليه هو مانع صوري، أما المانع الحقيقي فهو الله، الله هو المعطي وهو المانع الحقيقي، وأحياناً يعطي مباشرةً ويمنع مباشرةً، وأحياناً يعطي من خلال عباده، ويمنع من خلال عباده، إن وافق لك المسؤول على السفر أو لم يوافق لك فقل: حسبي الله ونعم الوكيل، ولكن كُنْ على يقين أن المانع والمعطي هو الله سبحانه، ولا يقع شيء إلا بإذن الله، قال تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ [النور:٣٦].

ملخص البحث أنَّ المعطي الحقيقي هو الله، والمانع الحقيقي هو الله، قد يعطي مباشرةً، أو عن طريق خلقه، وقد يمنع مباشرةً، أو عن طريق خلقه، المؤمن موحِّد إن أُعطي مباشرة يحمد الله، وإن أُعطي عن طريق خلقه يحمد الله، إن مُنِع يرضى بقضاء الله، إن مُنِع عن طريق خلقه يرضى بقضاء الله، والمؤمن لا يحقد أبداً، وهذا هو التوحيد، وما تعلَّمت العبيد أفضل من التوحيد.

حين أرسل أبو سفيان رجلاً ليقتل النبي ﷺ... لما رآه رسول الله ﷺ قال: إن هذا الرجل ليريد غدراً وإن الله مانعي... وحين انكشف أمر الرجل قال: والله! يا محمد! ما كنت أخاف الرجال فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلي وضعفت نفسي ثم إنك اطلعت على ما هممتُ به مما لم يعلمه أحد فعلمت أنك ممنوع. وذلك سبب سرية عمرو ابن أمية الضمري إلى أبي سفيان [سبيل الهدى والرشاد، لمحمد بن يوسف الصالحي الشامي].

وروى سعيد بن منصور في «سننه» عن عمران بن سُلَيْم، أن رجلاً انقعر -أي: مات عن مال له- فأتت ابنةُ أخته رسول الله ﷺ تسأله الميراث فقال: «اللهم من منعت ممنوع» أي: من حرمت فهو محروم لا يستطيع أحد أن يعطيه.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج:١٨].

سبحانك فإنه لا يذِلُّ من واليت ولا يعِزُّ من عاديت... أي أنْ ليس لنا إلا الله عز وجل، فلا تبذل ماء وجهك أمام أحد، كن عزيزاً، لا تبذل ماء وجهك إلا أمام ربِّك، لا تبذل دموعك إلا لله، إلا في السجود لله عز وجل، لا تبكِ أمام الناس لن يعطوك ولن يمنعوك، المانع هو الله، والمعطي هو الله، صُنْ ماء وجهك، احفظ ماء وجهك، لا تتضعضع لغني، تضعضع لله عز وجل، تذلل له، مرِّغ جبهتك في أعتابه، أما أمام الناس فكن عزيز النفس.

هذا هو ملخص البحث، واعلم علم اليقين أن الله عز وجل مانع بمعنى يمنعك من كلِّ ما يؤذيك، يحفظك، ويمنعك من كل ما يطغيك، ويمنعك تأديباً لك، فهو مانع بالمعاني كلِّها، وإذا أراد أن يمنعك مما يؤذيك ألهمك أسباب الحفظ والمنع، ووجهك وجهة الخير وقذف في قلبك الرضا.

النفع والضرّ

يقول تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النحل:٥٣].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الروم:٣٣].

الله تعالى يضرُّ لينفع، ويذلُّ ليعز، ويمنع ليعطي، ويخفض ليرفع، ويقبض ليبسط، ولو كُشف الغطاء لهذا الإنسان الذي ساق الله له من الشدائد ما ساق -والله الذي لا إله إلا هو-، لَذاب كما تذوب الشمعة إذا أُشعِل فتيلها، حُبّاً لله عز وجل. ولو عُرفت حكمة الشدائد التي يسوقها الله لعباده، لذاب الإنسان حباً واستحياءً من الله عز وجل، كما تذوب الشمعة إذا أُشعل فتيلها.

يقول التابعي الربيع بن خثيم: والله لو كُشِف الغطاء، ما ازددت يقيناً. وهذا الإيمان وهذا الشعور هو أحد أكبر الأسباب في سعادة الإنسان.

هم الأحبة إن جاروا وإن عدلوا فليس لي معدِلٌ عنهم وإن عَدَلُوا
وإن فتَّتوا في حبهم كبدي باقٍ على عهدهم راضٍ بما فعلوا

شعور الرضا أيها القارئ الكريم لا يوصَف؛ أي أن ترضى عن الله.

عن بعض السلف: إن الله تعالى إذا قضى في السماء قضاء أحبَّ من أهل الأرض أن يرضوا بقضائه، وقال أبو الدرداء: ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر، وقال عمر رضي الله عنه: ما أبالي على أيِّ حال أصبحت وأمسيت من شدّة أو رخاء، وكان الفُضيل يقول: إذا استوى عنده المنع والعطاء فقد رضي عن الله تعالى.

لا تُصدِّق أن يكون الامتحان في الرخاء؛ إنما الامتحان في الشدة. ولا يظهر إيمانك إلا في الشدة، ولا ترقى عند الله إلا في الشدة، لذلك فالمؤمن يُوطِّن نفسه على أن يُمتحَن. وقد سُئل الإمام الشافعي: أندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين؟ فقال: لن تُمكَّن قبل أن تُبتَلى، قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [آل عمران:١٧٩].

في سورة القلم قصّة أصحاب الجنّة، قال تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [القلم:١٧-٣٣].

فأصبحت كالصريم، أي: تلفت وانتهت. نتيجة ما أصابها من الصقيع ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾، القصة طويلة ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾﴾ ليس هذا بستاننا، فلما تأكّدوا من الأمر قالوا: ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾، ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾، فلضَعف إيمانكم بالله بَخِلتم؛ فلمّا بَخِلتم عوقِبْتُم ﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ انتهت القصة، والآن إلى التعقيب: قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ﴾؛ أي إنه؛ أي عذاب أسوقه للعباد؛ فمن أجل هذا، ومن أجل أن أردَّهم إليّ، ومن أجل أن أحملهم على الصواب، ومن أجل أن أحملهم على التوبة، ﴿ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ﴾، والمؤمن الصادق يعتقِد اعتقاداً راسخاً أنَّ كُلَّ شِدَّة وراءها شَدَّة إلى الله، وأن كل مِحنة، وراءها مِنحة، وأن كُلَّ شيء وقع أراده الله، وأنَّ كلَّ ما أراده الله وقع، وأنَّ إرادة الله متعلِّقة بالحكمة المطلقة، وأنَّ حكمته المطلقة متعلِّقة بالخير المطلق. ومعنى الحكمة المطلقة؛ أنَّ الذي وقع لو لم يقع، لكان الله ملوماً؛ ولكان عدم وقوع الذي وقع نَقْصاً في حكمة الله عز وجل، وحاشا لله جل جلاله.

لذلك يقولون: لكلِّ واقعٍ حكمة، فطالما أنَّ هذا الشيء وقع؛ فمِن ورائه حكمة ما بعدها حكمة، ولو أنَّ الذي أوقعه كان أحمقَ أو مجرماً، ولو أنَّ الذي أوقعَه لم يكن حكيماً، ولو أنَّ الذي أوقعه كان شريراً، ولو أنَّ الذي أوقعه كان جاهلاً؛ لكان الأمر مختلفاً ولكن لكلِّ واقعٍ حكمة، لأنه لا يمكن أن يقع في كون الله إلا ما أراده الله، وإرادته متعلقة بالحكمة المطلقة، هذه الفكرة وحدها، يمكن أن تنفِيَ عن الإنسان كلَّ أمراضه النفسية. يعني إذا كان هناك صحّة نفسيّة ففي عالم الإيمان كلُّ السلامة النفسيَّة في علاقتك مع الرحمن الرحيم، مع الحكيم، ومع العليم، علاقتك مع ربٍّ كريم، بيده كلُّ شيء، ويعلم كلَّ شيء، ولا تخفى عليه خافية.

لنمعن النظر معاً؛ فمتى يُنافق الإنسان؟ متى يرائي؟ ومتى يخاف؟ ومتى ينهار؟ ومتى يخْنع؟ ومتى يقبل الضيم؟ إذا شعر أن إنساناً يمكن أن ينفعه، أو يمكن أن يضرَّه،

أمّا إذا أيقن أنه لا ينفع إلا الله، ولا يضرُّ إلا الله، عندها يرفع رأسه ويقول: لا، بملء فمِه، واعتقدْ أنَّ الله لن يُسلمه، ولن يتخلّى عنه، وأنَّ كلمة الحق لا تقطع رزقاً، ولا تقرِّب أجلاً. فكلُّ أسباب القوّة والمنَعة، وكلُّ أسباب العزَّة والجُرأة، تتأتّى من إيمانك أنه لا ينفع ولا يضرُّ إلا الله، ألا يكفيك قوله تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ ﴾ [فاطر:٢].

ألا يكفيك حديث رسول الله الذي روي عن ابن عبَّاسٍ قالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسولِ الله ﷺ يوماً فقالَ: «يا غُلامُ إنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِماتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجاهَكَ، إذا سَالتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وإذا اسْتَعَنْتَ فاسْتَعِنْ باللهِ، واعْلَمْ أنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أنْ يَنْفَعُوكَ بشيءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلا بشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أنْ يَضُرُّوكَ بشيءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلا بشيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» [رواه الترمذي].

يقول علماء اللغة: «إن الضُّر ضد النفع»، واللهُ جل جلاله يضرّ؛ لكن ينبغي ألا يغيب عن ذهنك كيف يكون ذلك، فمثلاً إنَّ الأب الطبيب الجراح يُمسك بالمِبْضَع، ويفتح البطن، ويخرج الدم، ويربط الأوعية، ويأتي إلى هذه الزائدة -التي جعلته يكاد يخرج من جلده من شدة الألم- ويستأصلها، ثم يُضمِّد الجِراح. أب طبيب جراح مُفعم قلبه بالرحمة، وممتلئ عقله بالعلم، أصيب ابنه بالتهاب الزائدة، ماذا يفعل معه؟ يستأصلها؛ استئصالها مؤلم، فهناك فتح بطنٍ وتخدير، وبعد انتهاء المخدِّر هناك آلام، لكنَّ هذا الأب يفعل كلَّ ذلك لصالح ابنه. لا يمكن أن نفهم الضَّرَّ من الله إلا هكذا، وأيُّ فهمٍ آخر قد يؤدي إلى الكفر.

إنَّ المؤمن مستسلم وصابر لحكم الله. وحينما يصبر المؤمن لحكم الله عز وجل فإن الله جل جلاله يتجلّى على قلبه بالسكينة. فالله سبحانه وتعالى يُفقر؛ وقد يكون الإفقار هو عَيْن العطاء. والله سبحانه وتعالى يُمرض؛ وقد يكون في المرض الصحة النفسية التامة. والله سبحنه وتعالى يخيف؛ وقد يكون في الخوف الالتجاء إلى الله عز

وجل. والله حكيم يعلم كيف يداوي، ويعلم أسباب الألم، ويعلم ما الذي يحمل عبده على التوبة.

أنا أعرف رجلاً مُتَفَلِّتاً تفلتاً كاملاً من منهج الله، وعقيدتُه فاسدة، ويستهزئ بالدين، ولا يُطبق شيئاً من أوامر الله عز وجل. وزوجته كذلك. أصيبت ابنته بمرض عُضال وخبيث في دَمها، فقام ولم يقعد، وأنفق كلَّ ما يملك، واضُطرَّ إلى بيع بيته، وأخذها إلى بلاد غربية ليعالجها لأنه متعلق بها تعلُّقاً شديداً، ثم جاءه خاطر، أنْ يا فلان لو أنك تُبت إلى الله أنت وزوجتك، لشفاها الله، فهذا الخاطر حمله على أن يتوب؛ فحَجَّب زوجته، وبدأ يصلي، وحضر مجالس العلم فشفا الله ابنته. وبعد سنوات عدة -هو زميل لي في العمل- زارني في مركز عملي ودعاني لحضور عقد قران، فقلت له مداعباً: أهي هي؟ فقال: هي هي، هي التي مَرِضت وردَّت أباها وأمها إلى الله، هذا المرض كالضيف؛ جاء فحَمل أباها وأُمها على التوبة، ثم انسحب.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ لا يمكن أن نفهم عذاب الله إلا بهذه الطريقة، العذاب ضيف، ولكنه ضيف مؤلم، يدخل ويخرج وقد حَمَلَ الإنسانَ على التوبة. لكن المصائب أنواع، فهناك مصيبة قَصم، وهناك مصيبة ردْع، وهناك مصيبة دفع، وهناك مصيبة رفع، وهناك مصيبة كشف. فالأنبياء إذا ساق الله لهم المصائب، فهي لكَشف حقائقهم التي تفوَّهوا بها. والمؤمنون إذا ساق الله لهم المصائب، فلِدفْعهم إلى بابه، أو لرفعهم إلى جنابه. أمَّا الكفار إذا ساق الله لهم المصائب، فإما قصماً إنهاءً لحياتهم، وإما ردْعاً إذا كان فيهم بقية خير؛ فالقصم والردع للكفار، والدفع والرفع للمؤمنين، والكشف للأنبياء، ولكلِّ مصيبة حكمة ما بعدها حكمة.

لو أمعنت النظر في أب أهمل ابنه، يأكل كما يريد، وينام إلى أي وقت يريد، ولا يدرس ولا يذاكر، ويصاحب رفقاء السوء، هذا الابن سيكون في مؤخِّرة الرَّكب. أمّا الأب المربي الذي حمل ابنه على الدراسة، وضبط سلوكه، وقسا عليه أحياناً؛ فقد يكون

هذا الابن شخصية لامعة في المجتمع. هذا الابن عندما رأى نفسه في أعلى مقام، وذا مكانة اجتماعية، ويحمل شهادة عليا، وله بيت وزوجة، معززٌ ومكرّم، ألا يدعو لأبيه طوال حياته؟ ألا يقول: جزى الله عني أبي كلَّ خير؟ لولا شِدَّتُه لما كنت فيما أنا فيه. لذلك أيّ إنسان على الإطلاق، يُلخص علاقته بالله كلَّها يوم القيامة بكلمة: الحمد لله رب العالمين. قال تعالى: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [يونس:١٠].

يُروى أن سيدنا العباس كان مقيماً في مكة، وكان قد أسلم سراً، وبقي عين النبي ﷺ. تروي بعض كتب السيرة أن النبي ﷺ أمر أصحابه ألا يقتلوا عمَّه العباس، ثم إن الحقيقة انكشفت، فبعضهم ظن أن النبي مِن باب التعصب ينهى أن يُقْتَلَ عمُّه؛ لكن النبي ﷺ يعلم أن عمه قد أسلم، ويعلم أيضاً أنه إذا ذكره كُشف أمرُه، وإذا لم يُشارك عمه في المعارك كشف أمرُه.

قال ابن إسحاق: وحدثنا العباس بن عبد الله بن معبد عن بعض أهله عن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال لأصحابه يومئذ: إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أُخرجوا كرهاً ولا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله، ومن لقي العباسَ بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنه إنما أُخرج مستكرَهاً. قال: فقال أبو حذيفة بن عتبة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخوتنا وعشيرتنا ونترك العباس؟! والله! لئن لقيته لألحمنه السيف - قال ابن هشام: ويقال لألجمنه السيف - قال: فبلغت رسول الله ﷺ فقال لعمر بن الخطاب: يا أبا حفص -قال عمر: والله إنه لأول يوم كناني فيه رسول الله ﷺ بأبي حفص- أَيُضرب وجه عمِّ رسول الله ﷺ بالسيف؟ فقال عمر: يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه بالسيف فوالله لقد نافق، فكان أبو حذيفة يقول: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفِّرها عني الشهادة فقُتل يوم اليمامة شهيداً [أخرجه الحاكم في «المستدرك وابن هشام في السيرة النبوية»].

فالإنسان إذا توهَّم أن الله يسوق الشدائد تَشَفِّياً فقد تنكَّب سبيل الإيمان وساء ظنه بالله؛ فالله سبحانه أسماؤه حسنى، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ⁽٨⁾﴾ [إبراهيم:٨].

ولكن يقول الله عز وجل: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ⁽١٤٧⁾﴾ [النساء:١٤٧].

دعا بعضهم فقال: يا رب امنحني عيون التوحيد، حتى لا أطلب دفع الضر إلا من جنابك.

وبعض الأدعية تقول: اللهم صُنْ وجوهنا باليسار -بالغنى- ولا تبذلها بالإقتار؛ فنسأل شر خلقك، ونُبتلى بحمد من أعطى، وذم من منع، وأنت مِن فوقهم ولي العطاء، وبيدك وحدك خزائن الأرض والسماء؛ فامنحنا اللهم عيون التوحيد حتى لا نطلب دفع الضرِّ إلا من جنابك، ولا نقف إلا عند أعتابك، أنت على كلِّ شيء قدير.

الإنسان عندما يتضعضع أمام إنسان ليتلافى الضّرّ، فقد أشرك. وحينما يمتلئ قلبه حباً لفلان لأنَّ خيراً أصابه منه، فقد أشرك. والحكمة أن تعتقد أنَّ أحداً في الكون ليس بإمكانه أن ينفعك أو أن يضرك.

ونفع الله لعبده لا يقتصر على الدنيا وإنما على الدنيا والآخرة؛ فالذي يمنحك الصحة ينفعك، والذي يمنحك الغنى والسعادة والحياة والهداية والتقوى ينفعك، وهو الذي أوصل كل هذه النِّعَم إلى خلقه، ووصل نِعَمَ الدنيا بنعَمِ الآخرة؛ فالنفع يشمل منافع الدنيا، ومنافع الآخرة. ألم يقل النبي ﷺ: «اللهم! أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي» [رواه مسلم من حديث أبي هريرة]، معنى ذلك أن الدنيا تُكمل الآخرة، والآخرة تكمل الدنيا. والمؤمن يطلب حسنة الدنيا والآخرة، ومن أكثر الأدعية التي دعا بها النبي ﷺ.

عَنْ أَنَسٍ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يقولُ: «اللهمَّ رَبَّنا آتِنَا في الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» [رواه البخاري ومسلم].

ما الذي يمنع أن تسأل الله حسنة الدنيا وحسنة الآخرة؟

والإنسان عندما يستقيم على منهج الله، يهديه الله سُبُلَ السلام. فسبحانه لا يُرضيه أن يُعذِّبك. تصوّر حالة أبٍ، له ابن يحبُّه حباً لا يُوصف، ووجد معه خمساً وعشرين ليرة، فيقول له: من أين لك هذه؟ فيقول: أخذتها من رفيقي وهو لا يدري (يعني سرقها)، هذا الأب العاقل ألا يجد نفسه مضطراً إلى أن يؤدِّب ابنه؟ أنا والله أعتقد أن الأب الرحيم حينما يؤدب ابنه، يتألم عشرة أضعاف آلام ابنه، ومع ذلك فلا بد من إيقاع العقوبة، أو التجربة المؤلمة. فالإنسان الرحيم يرى من الضرورة أن يوقع في الذي يحبُّه ألَمَاً رادعاً، لا أدري مَن مِنَ القراء الكرام ذاق هذه التجربة، وهو أن يؤدِّب ابنه ويتألَّم أشدَّ من أَلَمِ ابنه لرحمته. فالله عز وجل لا يُرضيه أن يُذِلَّك، ولا يرضيه أن يُفقِرك، ولا يَرضيه أن يحبِس حرِّيتك، ولا يُرضيه أن يُمرضك، وأن تكون في مؤخِّرة الركب. الإذلال، والإفقار، وحبْس الحرية، والخوف، والهم، والحزن؛ هذه لا تُرضي الله عز وجل؛ لأن الله «حيِي كريم يستحيي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً خائبتين» [رواه أبو داود والترمذي واللفظ له من حديث سلمان الفارسي، والحاكم] وفي رواية للحاكم عن أنس ابن مالك: «ثم لا يضع فيهما خيراً»

لكنَّ الله سبحانه وتعالى لحكمته البالغة، لا بدّ من أن يسوق لعَبده العاصي بعض الشدائد. مثلاً زارني رجل عَقِب خروجي من المسجد ذات يوم وقال لي بالحرف الواحد: أنا يا أستاذ لقد تربيت عند رجل مُلحد، وذلك أنه كان يشتغل عنده. فكان يقول له: ليس هناك إله، وليس هناك آخرة، وافعل ما تشاء. وبناءً على كلامه؛ ما من معصية تعرفها إلا فعلتها، عدا القتل فلم أقتل، أما ما سوى ذلك فقد قارفت يداي كلَّ شيء! والأموال بين يديَّ كثيرة، واللذائذ وفيرة، والمباهج متلاحقة، وأنا منغمس في كلِّ المعاصي والآثام إلى قِمَّة رأسي؛ قصة طويلة جداً، ولكني أسوقها ملخَّصة للقارئ الكريم، ثم قال:

وفجأة سُحب البساط من تحت قدميّ، خُتم المحل من قِبَل السلطات، أودع شريكي في السجن بتهمة كبيرة جداً. وانقطع دخْلي فجأةً، وعليّ ديون كنت أسددها من دخْل المحل، وكُشف أمري، فاضطررت إلى أن أعمل عملاً دون مكانتي بكثير، كي أُؤمن طعامَ يومي، وساق الله لي الأمراض والشدائد، وقد وصف لي حالته وكأن مطرقة على رأسه، وقال أخيراً: والله لا أملك ثمن الدواء، ولا ثمن الطعام، وأذلني الله ذُلاًّ شديداً، ودخلت المسجد أول مرة بحياتي كي أُصلي، وتُبت إلى الله، واصطلحت معه. والله بعدما خرج دمعت عيناي، وقلت: يا رب ما أحكمك وما أرحمك، لو تركت هذا الإنسان مكباً على وجهه إلى نهاية عمره ضائعاً تائهاً، لاستحقَّ النار؛ ولكن من رحمتك به أنك سُقت له هذه الشدائد، حتى حملْته على التوبة فأنت الرحمن الرحيم سبحانك.

وكلَّما كان الانحراف أشدَّ كانت الضربة قاسية. فتجد أحياناً إنساناً بنظرة قاسية يرتجع، والآخر بالكلام الناصح، والآخر بضرب العصا، وهناك من لا ينفع معه إلا الضرب المبرّح، والآخر بالتعذيب، فكلما كانت لديه حساسية ورِقَّة كان العقاب أخفَّ، قال أحدهم: يا رب عصيتك فلم تعاقِبني! فوقع في نفسه أن قد عاقبتك ولم تدرِ؛ ألم أحرِمك لذة مناجاتي؟ فهناك من إذا وجد نفسه في صلاته غير خاشع، يشعر وكأنه عوقب عقاباً أليماً. وهناك من لا يهتزُّ حتى تأتيه المصيبة الكبيرة لعله يتَّعظ.

قد يركن الإنسان إلى الأغنياء والأقوياء، وقد يركن إلى من يظن أنه ينفعه، وينسى ربه. أما من كان في قلبه بصيص إيمان فلا يَرْكن إلا إلى الله، لأنه لا يرى إلا الله عز وجل وحده ينفعه، ومن بعض العقاب الإلهي، أن يسوق الله لك بعض الخير، عن طريق بعض عباده، فتَركن إليهم، وتُحبهم وهم مُسَخرون لك فاحذر الزيغ، وقل: واجعلني نافعاً لجميع عبادك، راضياً عنك في جميع مُرادك، إنك على كل شيء قدير.

قال بعض العلماء: «لا ضرَّ ولا نفعَ ولا شرَّ ولا خيرَ إلا بإرادة الله»، هذا الكلام لو نعقِله حقَّ العقل، ونصدِّقه حقَّ التصديق، لأُزيلت من أنفسنا كل المتاعب، وكلُّ الهموم، ولذلك يقول الله عز وجل: ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء:٧٨].

النّفع من الله، والضّرّ من الله. وها نحن في الأسطر الآتية نلج عتبة موضوع جديد من خلال سؤال ملح علينا، لكن سبب الضر ممَّن؟ فقد علمنا أن الفاعل هو الله. مثلاً لو أصدر الأستاذ قراراً بترسيب طالب، فالذي أصدر هذا القرار هو المدرِّس أو المدير، لكن لماذا رسَّبه؟ السبب من الطالب. لذلك ينبغي أن تُراعَى الحقيقة في هذا الموضوع، فيجب أن تنسُب الضر لنفسك من حيث السبب، ويجب أن تنسب النفع إلى الله عز وجل وحده، والدليل وله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء:٧٨-٨٢].

قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ ولم يقل: وإذا أمرضني؛ لأن أصل المرض خروج عن منهج الله، والآية الكريمة: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ [النساء:٧٩].

فالحسنة من الله فعلاً، ومن الله تفضلاً. والسيئة من الله فعلاً، ومن العبد سبباً. لذلك عُزيت السيئات للإنسان.

والنقطة عميقة الدلالة أنّ كلَّ عملٍ منسوب إلى الله، حتى فاعلية الأشياء منسوبة إلى الله، فالله تعالى لو لم يشأ للسكين أن تقطع لما قطعت، لذلك فالنار التي وُضع بها إبراهيم لم تحرِقه. ويجب أن نعتقد أن فاعلية الأشياء بيد الله، لذلك فإن علماء التوحيد لخَّصوا هذه الحقيقة بكلمة: «أن الأسباب هو ما يحصل الشيء عندها لا بها»، أي الأشياء تفعل فعلتها بمشيئة الله لا بقوة فيها، حتى الدواء لا يفعل فِعله حتى يشاء الله، لكلِّ داءٍ دواء فإذا أصاب الدواء الداء، بَرَأ بإذن الله، أجل، حتى الدواء لا يفعل فِعله إلا بمشيئة الله. وقس عليه كلَّ الأشياء.

يقول الإمام الرازي: إن الضار النافع وصفان: إما أن يُعتبرا في أحوال الدنيا، أو في أحوال الدين. أما الأول فهو أن الله تعالى مُغنٍ هذا، ومُفقر ذاك، ومعطٍ الصحة لهذا

والمرض لذاك. وأما في أحوال الدين فهو يهدي هذا إذا شاء الهداية، ويُضِل ذاك إذا أصر على الضلال، تطلب الهدى فيَهديك، وتطلب الضلال فيُضلك.

يقول أحد العلماء: «لا يصيب عبداً ضرٌّ ولا نفع ولا خيرٌ ولا شرٌّ إلا بمشيئة الله، وقضائه وقدرته؛ فمن استسلم لحكمة الله، عاش في راحة، ومن أبى وقع في كل آفة»

نصيب المؤمن من معرفته بمن بيده النفع والضر

وختاماً فمن علم أنَّ النَّفع والضّرّ بيد الله وحده فيجب أن يكون نافعاً لعباد الله، وينبغي ألا يتماسَّ بالمنحرفين لئلا يصيبه منهم الضُّرُّ، قال تعالى: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة:٥٤].

إنَّ المؤمن ينبغي ألا يرجو أحداً، وألا يخشى أحداً، وأن يكون اعتماده على الله كلياً. ومَنْ عَرَفَ أنَّ الله مولاه، وقد تفرَّد سبحانه بالإيجاد، وتوحَّد في الإنعام، فوَّض أموره إليه، فعاش في راحة، وبذل النصح لكلِّ أحدٍ، ولم يجد في قلبه غِشاً، ولا خيانةً لغيره.

ومن علم أن الله وحده يضرّ وينفع فوَّض أمره كلَّه إلى الله، واستسلم لله عز وجل، فكانت المشاعر المُسعِدة التي هي ثمرة الإيمان بالله عز وجل.

فالله خير حافظاً

قال تعالى: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [يوسف:٦٤].

من معاني الحفظ

الحافظ في اللُّغة هو: الحارس، وحفِظَه حفظاً، أي: حرسه حراسةً، وحَفِظَ المال: رعاه، وحَفِظَ القرآن: استظهره، وهذا حافظٌ من قومٍ حُفَّاظ، أي: من الذين رُزِقوا حفظ ما سمعوا.

والحقيقة أنَّه من نِعَم الله الكبرى على الإنسان أن تكون له حافظةٌ قويَّة أو ذاكرةٌ قويَّة، لأنَّ الإنسان إذا استمع كثيراً ونسي، فماذا يستفيد ممَّا سمع؟! حينما تجلس في مجلس، أو حينما تُلقي كلمة، أو حينما تتحدث إلى صديق، فإذا خانتك ذاكرتك فلم تحفظ النصوص ولا القصص، ولا الوقائع، ولا الأفكار، ولا التحليلات، ولا

التعليقات كيف تستطيع أن تصول وتجول؟ إنَّ نعمة الذاكرة القويَّة من أعظم النعم على الإنسان، إلا أنَّ العلماء يرون أنَّ الذاكرة متعلِّقةٌ بالاهتمام، وهذا تعلُّقٌ عادل فالشيء الذي تهتمُّ به تحفظه.

ادخل إلى محلٍّ تجاري فيه خمسون ألف قطعة، وكلُّ قطعة لها اسم ولها قياس ولها سعر، ولها وضع معين، ولها مصدر، ولها منشأ، فتجد صاحب المحل -لأنَّ رزقه متعلِّقٌ بهذه البضاعة- يحفظها جميعاً، يحفظ حالاتها وأنواعها، وقياساتها، ومصدرها، ومنشأها، وأسعارها، كلُّ ذلك في ذاكرته، بل قد يقول أحياناً لغلامٍ في المحل: اصعد تجد قطعةً واحدةً بقيت من هذا الصنف فائتني بها... معنى ذلك أن المحل كلَّه في ذاكرته.

فقل لي: ما الذي تهتمُّ له؟ أقُل لك: إنك تحفظه، ففي ذلك عدل، فقد قال الله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧﴾ [الأعلى:٦-٧].

كان ﷺ إذا أنزل الله عليه سورةً من كتاب الله حفظها من أولِّ مرة، والذي يحفظ فهذا دليل على أنَّه مهتمٌّ بما يحفظ، فالأشياء التي لا تعنيك لا تحفظها بل إنك تنساها، بل إن الذاكرة أمرها عجيب، فالذاكرة كما قال لي بعضُ الإخوة العلماءِ المختصين في علم التشريح والفيزيولوجيا -علم وظائف الأعضاء-: «إنَّ مكان الذاكرة في الدماغ يتسع لسبعين مليار صورة، وهذه الصور مبوَّبة ومصنَّفة، والذَّواكر أنواع كثيرة لا حصر لها منها الذاكرة السمعية، والذاكرة الشمية، والذاكرة البصرية، وذاكرةٌ للألوان، وذاكرة للوجوه، وذاكرة للأسماء، وذاكرة للأرقام، وإنَّ هذه الصور مرتَّبة ترتيباً زمنياً»، فالذي تحتاج إليه كلَّ يوم موضوع في أقرب مكان، والذي قلَّما تحتاج إليه يُوضَع في مكان متوسِّط، والذي نادراً ما تحتاج إليه في مكان بعيد، والذي لا تحتاج إليه أبداً قد يُمحى من الذاكرة، بل إنَّ طريقة الحاسوب في قراءة المعلومات تقليدٌ لطريقة الذاكرة في استرجاع المعلومات.

أنت إذا شممت رائحةً تحاول أن تتعرَّف إلى هذه الرائحة، فما الذي يحدث في الذاكرة؟ إنَّ أثر هذه الرائحة يمرُّ على كلِّ ذاكرات الشَّمِّ، أكثر من عشرة آلاف ذاكرة

شميَّة، فحيثما يكن التوافق تقل: إنها رائحة الياسمين، أو الفلّ مثلاً... وإلى آخره من الروائح.

الذَّاكرة وحدها من آيات الله العجيبة الدَّالة على عظمته، وأنت تتذكَّر الشَّيء الذي تهتمُّ به، وهذا عدلٌ من الله عز وجل.

قد تجد إنساناً كثير النِّسيان في موضوعات لا تعنيه، أمَّا في الموضوعات التي تعنيه فكأنَّ ذهنه مسجِّلة، سريعاً ما يحفظ، فلذلك إذا اهتمَّ أحدنا بكتاب الله عز وجل يحفظه، وإذا اهتمَّ أحدنا بالحديث الشريف يحفظه، وإذا اهتمَّ أحدنا بالمعاني المتعلقة بكتاب الله تعالى والتي هي كنزٌ ثمين يحفظها.

وقد يقول أحدهم: والله ما سمعت معنىً متعلِّقاً بكتاب الله إلا حفظته، وهذا الإنسان نفسه قد ينسى أشياء واضحة جداً وقريبة جداً لأنها لا تعنيه، فالمؤمن مشغول بموجبات الإيمان.

والقاعدة: اكتب أجمل ما قرأت، واحفظ أجمل ما كتبت.

لذلك، فالإنسان أحياناً يأتي إلى مجلس علم، فلماذا يطرب لما سمع؟ لأن هذا الذي أُلقي شفاهاً من الذَّاكرة أجمل ما كُتب، والذي كُتب أجملُ ما قُرئ، والذي قُرئ أجملُ ما سمع... فهناك كلام يسمع، وهذا المسموع كلام فيه الشيء الحسن، فيه أيضاً كلام يُلقى على عواهنه، ولكنَّ المكتوب أرقى لأنه مدروس وهو خلاصة المسموع، وخلاصة المكتوب يُحفَظ.

فأحياناً تجد إنساناً يصغي إلى درس إصغاءً تاماً، لأنَّ الأمور كلَّها التي تُطرح في الدرس هي أجملُ ما تحويه ذاكرة المتحدِّث، وهي أجمل التحليلات، وأجمل التعليقات، وأجمل الإرشادات.

فقد حدثني أخٌ قال لي: كنت في أمريكا وهم الآن يسجِّلون الكتب الثمينة على أشرطة بصوت يحبُّونه، فالإنسان أحياناً يكون لديه وقت ميّت؛ وهذا تعريف للوقت

الضائع بالتعبير الاقتصادي، وهذا الوقت هو وقت انطلاقه بمركبته إلى عمله، ووقت الرياضة أيضاً، فأصبح هناك بين كلِّ الناس سلوكٌ شائعٌ، وهو أن يمضي هذا الوقت في طريقه إلى عمله وفي عودته من عمله وفي ساعات الرياضة في سماع شيءٍ ثمين، وهذا الشريط المسجَّل من نعمة الله على الناس، فيمكنك أن تستمع إلى درس علم، أو إلى تفسير، أو حديث، أو إلى درس سيرة، وأنت في بيتك، وأنت تعمل، وأنت في مركبتك، وأنت في السفر، المؤمن الموفَّق لا يضيِّع ثانيةً من وقته، فبإمكانه حتى في الأوقات الميتة أن يستفيد منها في طلب العلم.

قالوا: هناك رجلٌ حافظُ العين، أي: لا يغلبه النوم، لأنَّ العين تحفظ صاحبها، فهو أثناء جلوسه في مكان، يكون هذا المكان تحت سيطرة عينيه، أمَّا في الليل فالمكان يصبح تحت سيطرة أُذنيه، أرأيتم إلى نعم الله عز وجل، لذلك أصغِ بسمعك للآيات التي قال الله تعالى فيها: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص:٧١-٧٢].

﴿ٱلَّيْلَ﴾ إن الحاسة الأولى فيه السمع... لذلك قال: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾ والعكس.. الحاسة الأولى في ﴿ٱلنَّهَارَ﴾ هي العين ولذلك قال: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

أنت في النهار مسيطرٌ بعينيك... وفي الليل مسيطرٌ بأُذنيك، فإذا دخلت فويسقة إلى بيتك -الفأرة- وقد سماها النبي ﷺ فويسقة [انظر البخاري (٣٣١٦)، وسنن أبي داود (١٨٤٨)]، وماتت تحت السرير فلا تراها عينك ولا تسمعها أُذنك، الحاسة الثالثة التي تكشفها لك هي حاسّة الشّمّ، فأنت بالحواس الخمس مسيطِرٌ على العالم الخارجي، والآلات الحديثة استطالةٌ للحواس... فالمجهر استطالةٌ للعينين، وكذلك المنظار.

فمن منكم اطّلع على كتاب الإحياء الذي تركه الغزالي رحمه الله تعالى، فالإحياء يعدُّ أول كتاب في علم النفس الإسلامي، ففيه أحوال النفس، وأمراض النفس،

وفضائل النفس، ومناهج لتحلية النفس بالكمال، وهو من أروع ما كُتب، ولكن هل تصدِّقون أن الإحياء كتبه الإمام الغزالي من ذاكرته وهو في بلاد الشام؟! وكذلك زاد المعاد على ما فيه من التحريرات الفقهية والدراسات الحديثية ألَّفه ابن القيم في حال السفر لا الإقامة، والقلب -كما قال- بكل وادٍ منه شعبة وليس في حوزته المصادر التي ينقل منها ما يحتاج إليها.

إذاً من أوتي حافظةً جيدةً فقد أوتي خيراً كثيراً... وقد علَّمونا ونحن في الجامعة أنَّ الذكاء شيء والذاكرة شيء آخر، فما كلُّ ذكيٍّ ذا ذاكرةٍ قوية، وما كلُّ ذي ذاكرةٍ قوية ذكياً... قالوا: إلا أنَّ هناك منطقةً مشتركةً بين دائرتين متداخلتين وهذه المنطقة هي القاسم المشترك بين الذكاء والذاكرة، فكلُّ إنسان يتمتَّع بذكاء فلا بد من أن يستعين بذاكرة، وكلُّ إنسان عنده ذاكرة جيدة لا بدَّ من أن يكون على شيءٍ من الذكاء، إلا أنَّ الذاكرة شيء، والذَّكاء شيءٌ آخر.

قيل مرةً لشيخ: إن فلاناً حفظ كتاب كذا. فتبسَّم وقال: زادت نسخةُ نسخةً. فالحفظ وحده لا يقدِّم ولا يؤخِّر، لكن العقل والتدبُّر والفهم العميق هو الذي يرقى بالإنسان.

الحافظ هو الذي يثبّتكَ على الطريق البيِّن المستقيم الذي لا ينقطع، ويحفظك على المواظبة عليه، أما الحَفَظَةُ الذين يحصون أعمال العباد ويكتبونها عليهم هم من الملائكة، والمحافظة: المواظبة على الأمر.

المحافظة تصنع تراكم المعلومات أو غيرها، والإنسان بلا تراكم لمعلوماته لا يحقِّق شيئاً.

عَنْ عائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «سَدِّدوا وَقَارِبُوا، وَاعْلَمُوا أَنْ لَنْ يُدْخِلَ أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ الجَنَّةَ، وَأَنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إلى الله أَدْوَمُها وإِنْ قَلَّ» [صحيح البخاري].

فلو ثَبَتَّ على المجيء لحضور درس ما من دروس العلم لتراكمت لديك الحقائق، وإذا ثبتَّ على صلاة أو على صدقة، أو ثبتَّ على ذكر، أو على تلاوة... فأحبُّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قلَّ.

المحافظة... أي: المواظبة على الأمر، ومنه قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة:٢٣٨].

وقيل: المحافظة هي المراقبة، والمحافظة الذَّبُّ عن المحارم، أي: الدفاع عن المحارم، والمحافظة على العهد: الوفاء به والتمسُّك بالودِّ... هذه اللغة، فإذا قلنا الله جل جلاله هو الحافظ، فقد حفظ خلقه وعباده من كلِّ سوء، وحفظ عليهم ما يعملون، وحفظ السموات والأرض بقدرته... ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ فقد قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة:٢٥٥].

أحياناً يقول أحدهم: هذا الأمر فوق طاقتي، لا أستطيع أن أستوعبه، ولا أن أُحيط به، ولا أن أديره فهو يحتاج إلى خمسة أشخاص لإنجازه، ولكن الله جل جلاله يقول: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾.

وقد قال تعالى في سورة يوسف: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [يوسف:٦٤].

ويقول الشاعر:

وإذا العنايةُ لاحظتك عيونها ... نَمْ فالمخاوف كلُّهنَّ أمانُ

واصعد بها العنقاء فهي حبالُه ... واقتدْ بها الجوزاء فهي عنان

وقيل: قم -للعمل- فالمخاوف كلُّهنَّ أمان.

إذا حفظك الله عز وجل سخَّر لك كلَّ شيء؛ حتى أعداؤك هم في خدمتك، ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

فالإنسان قد يُحكم الأقفال... كما حدثوني عن أحد الصّاغة، وهو يُعَدُّ الأول في صنعته وليس له شبيهٌ، قام بصنع صندوقٍ من الحديد بحيث لا يمكن أن يُفتح، وبقدرة قادر دخل اللصوص وفتحوه وأخذوا كلَّ ما فيه... فهو قد ظنَّ أنَّ هذا الصندوق ﴿خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾.. لكن الله هو خير حافظٍ... ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

الإنسان كثيراً ما يأخذ بالأسباب إلى حدّ غير معقول ويعتمد عليها، ينسى أن الله هو خير حافظاً فيُؤتى من مأمنه، يُؤتى وهو في أعلى درجات اليقظة، يُؤتى الحَذِر من المنطقة المطمئن إليها، وهذا من آيات الله فقد قيل: عرفت الله من نقض العزائم... إنه من الواجب عليك أن تأخذ بالأسباب وأن تأخذ الاحتياط، ولكنَّ الواجب أيضاً أن تعتمد على الله الواحد القهّار، أن يكون اعتمادك على الله حقاً مع الأخذ بالأسباب.

أحياناً يقولون: قمنا بعمل مراجعة كاملة على السيارة فاطمَئِنّ، فتقطعه في الطريق، وأحياناً تُجرى عليها مراجعة كاملة ويقول صاحبها أنت يا رب الحافظ؛ فاعقل وتوكل. فيجب أن تأخذ بكلِّ الأسباب وألا تعتمد في حفظها لك إلا على الله عز وجل.

﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ إعراب حافظاً: تمييز... أي: اللهُ خيرٌ، خيرٌ معطياً، خيرٌ آخذاً، خيرٌ حافظاً و﴿خَيْرٌ﴾ لفظٌ مبهم، لولا التمييز لصدق على أشياء كثيرة ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: حفظٌ مطلق.

قد يسافر الإنسان؛ فهل في الأرض جهةٌ يمكن أن ترافقه وأن تخلفه في بيته وسفره معاً وفي وقت واحدٍ؟ مستحيل ذلك إلا على الله، فإذا سافر الإنسان يقول: اللهمَّ أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل.

وقد يتعرَّض طفل صغير لحادث؛ كأن يقع على رأسه إبريقٌ من الشّاي السّاخن ويشوَّه وجهه، وكلما ألقى الأب على ابنه نظرةً شعر بحرقةٍ في قلبه، فالإنسان أثناء سفره يفكِّر هل أهله بخير، ويضرع إلى الله ألا تكون هناك مشكلة لديهم، ويسأل هل هم مستقرون في البيت، وهل حدث لهم حادث مزعِج... فمن الذي يحفظ أهلك في

غيبتك؟ إنَّه الله جل جلاله. فأنت إذا سافرت حتى تكون مطمئناً فوّض الأمر إلى الله وادعُ بهذا الدعاء: اللهمَّ أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم اصحبنا في سفرنا واخلفنا في أهلنا.

كلام ربنا كلام رائع جداً: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ يحفظ لك صحّتك، ويحفظ لك مالك... وقد يسافر المرء إلى بلد بعيد ومعه أموال طائلة، وفيه يقظة وحرص وانتباه ولا ينقصه شيء، فتُسرق محفظته، وفيها كلُّ لوازمه الشخصيَّة من جواز للسفر، للشيكات المصرفية والمعاملات والوثائق الضرورية، وبطاقة الطائرة، فيصبح شريداً متسكِّعاً في الطرقات ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ أي يحفظ لك صحتك، ويحفظ لك أهلك وأولادك، ومالك، وبيتك، ومحلَّك، ومستودعك، وبضاعتك، وسمعتك، ومكانتك ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾.

كن لي كما أريد أكن لك كما تريد... كن لي كما أريد ولا تُعْلِمني بما يُصلحك.

وهذه الآية الكريمة وردت على لسان سيدنا يعقوب فقد قال تعالى: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ أي فالله خيرٌ حافظاً يحفظ ابني يوسف، وسيرحم كِبَري وضعفي ووجدي بولدي، وأرجو من الله أن يردَّه علي ويجمع شملي به إنه أرحم الراحمين.

لذلك فاليأس من رَوْح الله كُفر، اليأس والقنوط يساويان الكفر، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف:٨٧].

الآيات التي ورد فيها الحفظ

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر:٩].

هذا قرآننا الكريم الذي نزل على سيد المرسلين هو هو الذي بين أيدينا، ليس فيه حرفٌ زائدٌ ولا حرفٌ ناقصٌ، وجميع المحاولات التي جرت لتغيير كلماته أخفقت، فقد

طُبع في العهد العثماني خمسون ألف نسخة حذفت منها كلمة واحدة من سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران:٨٥].

وقد حذفوا كلمة واحدة ولم يطبعوها وهي كلمة ﴿غَيْرَ﴾ فأصبحت الآية: (ومن يبتغ الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) فأتلفت النسخ وأحرقت، فالله -عز وجل- تولى بذاته حفظ كلامه، فلا يمكن لجهةٍ في الأرض أن تُبدِّل أو أن تغيِّر فيه، وليس معنى هذا أنه لا تجري محاولات بل تجري وما أكثر ما تجري، ولكنها لا تنجح، ولن تنجح بإذن الله.

وقد قال العلماء أيضاً: «من لوازم حفظ القرآن الكريم حفظ سنَّة رسول الله ﷺ لأنها مبيِّنة»، فالقرآن قانون والسنَّة معه كمرسوم تفسيري تشريعي، إذا حافظنا على القانون ولم نحافظ على المرسوم لم نستفد من ذلك شيئاً، لأن القانون مُقنِّنٌ والمرسوم مفسِّر... فمن لوازم حفظ كلامه حفظ سنَّة نبيِّه ﷺ.

لذلك هؤلاء العلماء الأجلاَّء أمثال البخاري ومسلم وابن ماجه والترمذي والإمام مالك وغيرهم، هؤلاء العلماء الذين شمَّروا ودرسوا حديث رسول الله ﷺ ودرسوا أحوال الرجال، وصنَّفوا، وعدَّلوا وجرّحوا، واعتمدوا قواعد صارمة لتدوين الحديث، هؤلاء أعانهم الله على أعمالهم، ويسَّر الله لهم عملهم، لأنه تولَّى بنفسه حفظ كتابه وحفظ سُنَّة نبيه ﷺ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾.

وفي سورة الأنبياء، يقول الله عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنبياء:٨٢].

أي مراقبين لهم فيما يعملون. والحفظ له معنيان: إما أن أحفظ كلَّ ما تفعله وكلَّ ما تقوله، وأسجِّل عليك كلَّ ما تفعله وكلَّ ما تقوله، وإمَّا أن أحفظك من كلِّ

مكروه... فالمعنى الأول هو العلم، والمعنى الثاني هو التربية أي: حفظٌ في الذاكرة وإحصاء، وحفظٌ من كل مكروه وأذيّة.

قال الله تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد:١١].

وفي سورة البروج، قال الله تعالى: ﴿ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ﴿٢١﴾ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴿٢٢﴾ ﴾ [البروج:٢١-٢٢].

فهذا اللوح المحفوظ، اختلف العلماء في تفسيره، فأقرب ما يكون أن المبادئ الكبرى التي خلق الله الخلق وَفقها، والسنن العظمى التي سنَّها الله في تعامله مع خلقه، هي في اللوح المحفوظ، ومن باب التقريب والتوضيح؛ أن أمة عظيمةً لها دولةٌ كبيرة ولها أجهزةٌ بالغة الأهمّيّة، لا بدَّ لها من دستورٍ فيه كلُّ الأمور الأساسية، ويصدر مع هذا الدستور قوانين كثيرة ومراسيم تشريعية، ومراسيم تفسيرية، ومراسيم تنظيمية، إلا أن الأصل أن كلَّ القوانين تنطلق من الدستور، مثلاً حرية الكلمة، حرية العمل، حرية التعلُّم، حرية التعبير هذه كلها في الدستور، ثم القوانين تفسرها وتوضّح كيفية الأخذ بها، فاللوح المحفوظ يضم المبادئ العظمى، والسنن الكبرى التي يتعامل الله بها مع خلقه في اللوح المحفوظ.

الإمام الحسن البصري يقول: «إن هذا القرآن المجيد عند الله في لوحٍ محفوظ، يُنزِّل منه ما يشاء على من يشاء من خلقه».

ويقول الله تعالى في سورة النساء عندما يتحدث عن الأسرة وقوامة الرجل في بيته وأهلِهِ: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ

نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [النساء:٣٤].

فأرقى صفة في المرأة أنها تحفظ زوجها، تحفظ عرضها في غيبة زوجها، وتحفظ مال زوجها في غيبته، وتحفظ سرَّ زوجها، وتحفظ نفسها.

المرأة الصالحة تحفظ نفسها، لا تسمح لأجنبيٍّ أن ينظر إليها، لا تلين ولا تخضع بالقول للبائع إذا اشترت، لا تضرب برجلها ليظهر ما يُخْفى من زينتها، كلامها جادٌّ، مشيتها جادَّة، نظراتها مستقيمة، لا يزيغ بصرها، لا تسمح لأحدٍ أن يطمع فيها... فقد قال تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأحزاب:٣٢].

وقال تعالى: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النور:٣١].

أما هذه التي تبدو بأكمل زينة، تثير كلَّ الناس حولها، لسان حالها يدعو الآخرين إلى التحرُّش بها، هذه المتبرِّجة، المتفلِّتة التي لا ترعى حقَّ الله في خروجها، فلسان حالها يدعو الناس إلى الدّنوِّ منها والطمع فيها، فالمرأة المؤمنة تحفظ نفسها، وتحفظ مال زوجها، وتحفظ سرَّ زوجها.

روي في الحديث الشريف «إني لأبغض المرأة تخرج من بيتها تجرُّ ذيلها تشكو زوجها» [الطبراني عن أم سلمة].

عَنْ ثَوْبَانَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْمُخْتَلِعَاتُ هُنَّ الْمُنَافِقَاتُ» ورُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ اخْتَلَعَتْ مِنْ زَوْجِهَا مِنْ غَيْرِ بَأْسٍ لَمْ تَرِحْ رائِحَةَ الْجَنَّةِ» [سنن الترمذي].

وعن ابن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينظر الله تبارك وتعالى إلى امرأة لا تشكر لزوجها وهي لا تستغني عنه» [رواه النسائي في الكبرى].

حدثني أخ يعمل في طلاء البيوت قال لي: كنا مجموعة من العمال نعمل في البيت وبه غرفة مغلقة من الداخل، الرجل حريص على أهل بيته وفي تلك الغرفة زوجته، قال: في أثناء غيبته خرجت بثيابٍ لا يعقل أن يراها فيها إلا زوجها، ثياب شفافة، إنها متفلّتة خرجت بين الشباب في غيبة زوجها، فإن هذا السلوك لا يكون من مؤمنة، المؤمنة تحفظ نفسها، وتحفظ سرّ زوجها، وتحفظ مال زوجها، وتحافظ على سمعته وكرامته من خلال حشمتها وصونها لذاتها.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خير النساء التي إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك» قال: وتلا هذه الآية ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ إلى آخر الآية [أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده].

والحفظ أيضاً ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾ [الصافات:٦-٧].

أي إذا استرق الشيطان السمع أتبعه شهابٌ ثاقب.

ما منا واحدٌ إلا ويتمنى أن يحفظه الله... إلا أن النبي ﷺ كان أديباً مع الله كان يدعو ويقول:

«مَنْ كانَتْ لَهُ حَاجَةٌ إِلَى اللهِ أَوْ إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ فَلْيَتَوَضَّأْ وَلْيُصَلِّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: لا إِلَهَ إلا اللهُ الحَلِيمُ الكَرِيمُ، سُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ العَظِيمِ، الحَمْدُ للهِ رَبِّ

العَالَمِينَ، اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مُوجِباتِ رَحْمَتِكَ، وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ وَالغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بِرٍّ وَالسَّلامَةَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ، أَسْأَلُكَ أَلا تَدَعَ لِي ذَنْباً لا غَفَرْتَهُ، وَلا هَمّاً إِلا فَرَّجْتَهُ، ولا حَاجَةً هِيَ لَكَ رِضاً إِلا قَضَيْتَهَا لِي، ثُمَّ يَسْأَلُ اللهَ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مَا شَاءَ فَإِنَّهُ يُقَدَّرُ» [سنن ابن ماجه من حديث عبد الله بن أبي أوفى].

والحفظ له موجبات؛ احفظ الله يحفظك، هذا هو أهم ما في البحث الذي نحن بصدده، احفظ أمر الله يحفظك الله عز وجل... إذا سألت فاسأل الله، وإن استعنت فاستعن بالله... أمّا الأساس فهو أنَّك لن تستطيع أن تصل إلى حفظ الله عز وجل إلا إذا حفظت أمره، يراك حيث أمرك ويفقدك حيث نهاك، إن حفظت أمر الله -عز وجل- فالله يحفظك، وحفظ الله شامل يحفظ لك عقلك من أن يصيبه الخلل، يحفظ لك حواسَّك وأعضاءك، يحفظ لك زوجتك وأولادك، يحفظ لك بناتك، يحفظ لك مالك، يحفظ لك سُمْعتك، يحفظ لك دينك، يحفظ لك كرامتك.

يا ابن عمر، لا يغرنك ما سبق لأبويك من قبل، فإن العبد لو جاء يوم القيامة بالحسنات كأمثال الجبال الرواسي ظن أنه لا ينجو من أهوال ذلك اليوم، يا ابن عمر، دينك دينك إنما هو لحمك ودمك، فانظر عمن تأخذ، خذ الدين عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا.

والإنسان حينما يرى كلَّ شيء له محفوظاً فهذه هي الاستقامة، وعزَّة الاستقامة، الاستقامة عين الكرامة، أنت إذا استقمت على أمر الله حفظ الله لك كلَّ شيء، أنت في ظل الله، فقد قال الله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الطور:٤٨].

هذه الآية موجَّهةٌ للنبي ﷺ وكلُّ آيةٍ موجهةٍ للنبي ﷺ للمؤمن منها نصيبٌ على قدر استقامته وإيمانه وإخلاصه... ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾... وإذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك، وحفظ الله يغني عن كلِّ شيء.

فالنبي ﷺ وهو في غار ثور كان دمه مهدوراً، مئة ناقة لمن يأتي به حيّاً أو ميتاً، ودخلا إلى غار ثور، قال الصديق: لو نظر أحدهم إلى موطئ قدمه لرآنا. قال النبي الكريم ﷺ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠] [البخاري، عن البراء بن عازب]، حفظه الله، فقد تبعه سراقة على حصانه، غاصت قوائمه في الرمل، طلب الأمان لكنه عاد ثانيةً فغاصت قوائم فرسه في الرمل ثانيةً فاستسلم لأمر النبي ﷺ [السيرة النبوية لابن هشام].

فإذا كان الله معك فمن عليك؟ إذا حفظك الله فأي شيء يضرك؟! والله ليس في الأرض كلّها جهةٌ مهما قويت تستطيع أن تصل إليك، وإذا تخلّى الله عنك، فقد أسلمك لعدوك، فقد قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة:٢٥].

أنت في كلّ يوم لك حالان مع الله، حال التولّي، وحال التخلّي، إذا قلت: أنا، أصابك التخلّي، وإذا قلت: الله؛ نالك التولّي، أي إذا وحّدت الله تولاّك الله، وإذا اعتددتَ بنفسك، بمالك، بقوّتك، بعملك، بذكائك، بخبرتك تخلّى الله عنك. تخلّى عن أصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين وفيهم النبي ﷺ.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾، بينما في بدر قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران:١٢٣].

فقد كانوا يوم بدر في غاية الضراعة والذِّلَّة بين يدي الله عز وجل فنصرهم وأيّدهم.

أما ملخص الملخص... فإنه ما منا واحدٌ دون استثناء إلا ويتمنى أن يحفظه الله، أن يحفظ له صحته، هناك أمراض عُضالة إذا ألَمّت بالإنسان جعلت حياته جحيماً لا

يطاق، يتمنى كلٌّ منا أن يحفظ الله له صحته، وأهله وأولاده وبناته وأصهاره وبيته وماله وتجارته وسمعته ومكانته.

قد تسمع أخباراً كأنها الصاعقة يرتجف منها كل إنسان عاقل... قال لي رجل ابنتي حاملٌ من ابني. أين مكانته أمام الأسرة، الابن في السجن والبنت في المشفى هذه مشكلة، مشكلة كبيرة جداً، وإني أعقّب على هذا فأقول: لقد قصّر في تربية أولاده ومراقبتهم والالتجاء إلى الله ليعينه على توجيههم، وتخلَّى عن الله، فتخلى الله عنهم وعنه! وهنالك إنسان سمعته طيبة، بيته نظيف، علاقاته كلُّها إيجابية، وعمله جيّد، محفوظ في مكانته وسمعته، موفَّق في عمله، ولعلّه حفظَ اللهَ فحفظ اللهُ عليه بيته وأهله فقد قال يعقوب لأولاده كما حكى الله عنه: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [يوسف:٦٤].

لا تعتمد على غير الله في الحفظ ولا في أي أمر من أمورك، أما القول الفيصل: احفظ الله يحفظك، أي: كن لي كما أريد، أكن لك كما تريد.

قائماً بالقسط

قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٨].

من معاني المقسط

في اللغة... أقسط فلانٌ إذا عدل، وقسط فلانٌ إذا جار... أقسط: عدل، وقسط: ظلم وجار... المقسط: العادل، والقاسط: الظالم، قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الجن:١٥].

قال بعض علماء اللغة: «المقسط هو العادل في حكمه، قال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الرحمن:٩]: أي: بالعدل، والقِسْطُ أيضاً هو النقيض»، القِسْطُ... أقساط، أجزاء، أنصبة.

ذكر بعض علماء اللغة أنَّ القسْطَ: «هو أن يأخذ الإنسان قِسطَ غيره، أي: يظلم»... القسط مصدر... أي: يأخذ نصيب غيره، أن يأخذ ما ليس له فهو ظالم.

والإقساطُ أن يُعطي قسط غيره فهو عادل... أن تعطي حقَّ الناس إلى الناس فأنت عادل، أن تأخذ ما ليس لك بحق فأنت ظالم... أن تأخذ قِسْطَ غيرك هذا ظلم، أن تعطي الآخرين قِسْطَهم هذا عدل... هذا الفرق بين قَسَطَ وأقْسَطَ.

ودخلت امرأة على هارون الرشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه فقالت: يا أمير المؤمنين! أقر الله عينك، وفرَّحك بما آتاك، وأتمَّ سعدك، لقد حكمت فقسطت، فقال لها: من تكونين أيتها المرأة؟ فقالت من آل برمك ممن قتلت رجالهم، وأخذت أموالهم، وسلبت نوالهم! فقال: أمَّا الرجال فقد مضى فيهم أمر الله، ونفذ فيهم قدره، وأمَّا المال فمردود إليك، ثم التفت إلى الحاضرين من أصحابه فقال: أتدرون ما قالت هذه المرأة؟ فقالوا: ما نراها قالت إلا خيراً، قال: ما أظنكم فهمتم ذلك، أما قولها: أقر الله عينك، أي: أسكنها عن الحركة، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت، وأما قولها: وفرحك بما آتاك فأخذته من قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً ﴾ [الأنعام:٤٤] وأما قولها: وأتم الله سعدك، فأخذته من قول الشاعر:

إذا تــــمَّ أمــــرٌ بــــدا نقصُــــه ... ترقَّــــبْ زوالاً إذا قيــــل: تــــمّ

وأمَّا قولها: لقد حكمت فقسطت فأخذته من قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ١٥ ﴾ [الجن:١٥] فتعجَّبوا من ذلك.

فكلمة «قاسط» لا تعني مدحاً، بل تعني ذماً.

المُقْسِطُ في حقِّ الله تعالى هو العادل في الأحكام، الذي يتصرَّف في العوالم بكلِّ نظام.

يعقوب بن يوسف الكوفي «وكان قد روى الأشعار والأحاديث عن أبيه» قال: حججت ذات سنة فإذا أنا برجل عند البيت، وهو يقول: اللهمَّ اغفر لي وما أراك تفعل. قال: فقلت: يا هذا ما أعجب يأسك من عفو الله، قال: إنَّ لي ذنباً عظيماً، قال: فقلت: أخبرني قال: كنت مع يحيى بن محمد بالموصل فأمرنا يوم جمعة فاعترضنا المسجد، فنرى أنا قتلنا ثلاثين ألفاً ثم نادى مناديه: من علَّق سوطه على دارٍ فالدار وما فيها له، فعلَّقت

سَوطي على دار ودخلتها فإذا فيها رجل وامرأةٌ وابنان لهما، فقدَّمْت الرجل فقتلته، ثم قلت للمرأة: هاتي ما عندك وإلا ألحقت ابنيك به، فجاءتني بسبعة دنانير ومتيع، قال: فقلت: هاتي ما عندك، فقالت: ما عندي غيرها، فقدمت أحد ابنيها فقتلته ثم قلت: هاتي ما عندك، وإلاَّ ألحقت الآخر به، فلما رأت الجدَّ مني قالت: ارفق فإنَّ عندي شيئاً كان أودعنيه أبوهما، فجاءتني بدرع مذهبة لم أرَ مثلها في حسنها، فجعلت أقلِّبها فإذا عليها مكتوب بالذهب:

إذا جـــار الأمـــير وحاجبـــاه ... وقـــاضي الأرض أسرف في القضـــاء
فويـــلٌ ثـــمَّ ويـــلٌ ثـــمَّ ويـــلٌ ... لقـــاضي الأرض مـــن قـــاضي الســماء

فسقط السيف من يدي وارتعدت، وخرجت من وجهي إلى حيث ترى...

أحياناً يكون الظالم زوجاً يقول لنفسه: إنَّ زوجتي ليس لها سند، ومقطوعة من الأهل... فيظلمها أشدَّ الظلم، ويضغط عليها أشدَّ الضغط، فنقول له:

فويـــلٌ ثـــم ويـــلٌ ثـــم ويـــلٌ ... لقـــاضي الأرض مـــن قـــاضي الســماءِ

أحياناً تكون في وظيفة يمكن أن تؤذي الناس من خلالها، تستخدم هذه الثقة التي مُنحت إياها لحفظ مصالح الأمة في سبيل ابتزازِ أموال الأمة، فيقال لك:

فويـــلٌ ثـــم ويـــلٌ ثـــم ويـــلٌ ... لقـــاضي الأرض مـــن قـــاضي الســماءِ

وما أكثر أنواع الظلم، والظلم ظلماتٌ يوم القيامة، والله سبحانه وتعالى مُقسط، لذلك فالمؤمن يعدُّ للمليون قبل أن يظلم إنساناً، لأنه يعلم أنَّ الله أقدرُ عليه منه على هذا الإنسان... وقد ورد هذا في نصِّ حديث رسول الله ﷺ عندما رأى أحد أصحابه يضرب غلاماً له فقال: «اعلم أبا مسعود! لله أقدر عليك منك عليه، فالتفت فإذا هو رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله! هو حرٌّ لوجه الله، فقال: أما لو لم تفعل للفحتك النار أو لمستك النار» [رواه مسلم من حديث أبي مسعود الأنصاري].

وقال بعضهم: إذا دعتك قدرتك إلى ظلم الناس فتذكَّر قدرة الله عليك.

ذات مرة أراد الحجاج أن يحاكم إنساناً ليقتله فقال هذا الإنسان: أسألُك بالذي أنت بين يديه أذلُّ مني بين يديك، وهو على عقابك أقدرُ منك على عقابي، فتفكَّر الحجاج ثم عفا عنه. فالإنسان كلما ازداد علماً ازداد خوفاً من الله، إذا ظنَّ أنه قوي وأنه يفعل ما يريد فاستخدم هذه القوة في غير العدل فقد استوجب سخط الله عز وجل، وإذا سخِط الله عليه بطش به، كما ورد في الآية الكريمة قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾ [البروج:١٢-١٣].

ويوم أرسل النبيُّ الكريم ﷺ عبد الله بن رواحة إلى اليهود ليأخذ منهم ما اتُّفق على أن يعطوه للنبي ﷺ من ثمارٍ وزروع، فأراد هؤلاء أن يرشوا عبد الله بن رواحة لعله يترفَّق بهم في قِسمة الزروع بينهم وبين النبي ﷺ، فقال عبد الله بن رواحة: يا أعداء الله تعطوني السحت والله لقد جئتكم من عند أحبِّ الناس إليّ -من عند رسول الله ﷺ- ولأنتم أبغض إليَّ من القِردة والخنازير، ولا يحملني حبّي لرسول الله وبغضي لكم على ألا أعدل، أو أن أفعل معكم غير الحق. فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض، وبهذا تغلبوننا [الطبراني في المعجم الكبير]... فأنا أشعر أنَّ قيمة العدل هي أخطر قيمة في المجتمع.

يروي التاريخ المعاصر أنَّ بريطانيا عقب الحرب العالمية الثانية دُمِّرت مواردها كلياً، وقف أحد زعمائها (تشرشل) في مجلس العموم يسأل وزراءه وزيراً وزيراً: كيف الصناعة عندك يا فلان؟ يقول له: المعامل مدمَّرة، كيف الزراعة عندك يا فلان؟ يقول له: لا ثمار ولا غلال، كم في الخزينة عندك يا فلان؟ يقول له: لا شيء، خواء. فكل ما عندهم دُمِّر... فالتفت إلى وزير العدل وقال كيف العدل عندك يا فلان؟ قال: بخير. قال: كلُّنا إذاً بخير.

يبدأ هذا العدل من داخل أسرتك؛ لا تظلم، لا تميِّز ولداً على ولد، لا تميِّز زوجةً على زوجة إن كانت لك زوجتان، لا تميِّز أخاً على أخ، السموات والأرض لا تقومان إلا بالعدل، والعدل أساس الملك، أن تملك زمام أولادك، فأساس هذا الملك العدل،

أن تملك قيادة الموظفين العاملين عندك فأساس هذا الملك العدل، قيمة العدل هي أفضل قيمة يمكن أن تأكل أخشن الطعام، وأن تلبس أخشن الثياب، وأن تشعر أنك قد أخذت حقَّك، أما حينما يشعر الإنسان بالظلم عندئذٍ تنقلب حياته إلى جحيم، من هنا قال الله عز وجل في الحديث القدسي:

عَنْ أبي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ: «إِنِّي حَرَّمْتُ عَلَى نَفْسِي الظُّلْمَ وَعَلَى عِبَادِي ألا فَلا تَظَالَموا، كُلُّ بَنِي آدَمَ يُخْطِئُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرُ لَهُ وَلا أُبَالِي»، وَقَالَ: «يَا بَنِي آدَمَ كُلُّكُمْ كَانَ ضَالاً إلا مَنْ هَدَيْتُ، وكُلُّكُمْ كَانَ عَارِياً إلا مَنْ كَسَوْتُ، وكُلُّكُمْ كَانَ جائِعاً إلا مَنْ أطْعَمْتُ، وكُلُّكُمْ كَانَ ظَمْآناً إلا مَنْ سَقَيْتُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، وَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، وَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، وَاسْتَسْقُونِي أَسْقِكُمْ...» [مسند الإمام أحمد].

الظلم ظلماتٌ يوم القيامة، الظلم مرتعه وخيم، والله عز وجل مقسط، قال أحد الحكماء: «المقسط هو الذي ينتصف للمظلوم من الظالم» وكلما عرفتَ عدله تأدَّبتَ معه، وكلما أكبرتَ عدالته ازددت معه أدباً.

قد يكون المظلوم هرَّة... وكلنا سَمِعَ حديث الهرة:

عن هَمَّامِ بنِ مُنَبِّهٍ، قال: هذا ما حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ فَذَكَرَ أَحَادِيثَ مِنْهَا، وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ مِنْ جَرَّاءِ هِرَّةٍ لَهَا أَوْ هِرٍّ، رَبَطَتْهَا فَلا هِيَ أَطْعَمَتْهَا، وَلا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تُرَمْرِمُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ حَتَّى مَاتَتْ هَزْلاً» [صحيح مسلم].

وكلُّكم يستمع إلى آلاف الوقائع والحوادث عن إنسان تعدَّى على حيوان... فقد بصره، أو فقد حركته، بشلل أصابه، إنسان غضب من هرَّة فألقاها من الطابق السابع، بعد حينٍ اختلَّ توازنه في المشيْ، وأمضى حياته كلَّها على عُكَّازين... فالظلم ظلماتٌ يوم القيامة.

أحد العلماء يقول: «المقسط هو الذي ينتصف للمظلوم من الظالم، وكماله في أن يضيف إلى إرضاءِ المظلوم إرضاء الظالم».

الله عز وجلَّ ينتصر للمظلوم من الظالم، وبعد ذلك يرضي الظالم، بعدما قام بتأديبه ورجع إلى الحق يكرمه، والدليل الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [القصص: ٤-٦].

فإذا طغى عبدٌ على عبد، انتصر للمظلوم من الظالم، فإذا رجع الظالم عن ظلمه وتاب إلى الله أكرمه الله.

أهمُّ نقطة أنَّ الله جلَّ جلاله لا يُبغض الكافر، ولكن يُبغض عمله، فإذا قال الله عز وجل ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٢]، فإن العلماء أجمعوا على أنَّ الله عز وجل لا يُحبُّ عملهم، فإذا تابوا وأنابوا أحبَّهم، والمؤمن الصادق المخلص... لو أنَّ له خصماً عنيداً كافراً فاجراً منحرفاً إلى آخر هذه الأوصاف، إذا أناب إلى الله وتاب إليه واصطلح معه فبأقل من ثانية ينقلب حاله فيكون أقرب الناس إليه، والدليل على ذلك:

عُمَيْر بن وَهْب كان شيطاناً من شياطين قريش وكان يؤذي رسول الله ﷺ وأصحابه ويلقون منه عناء أذاهم بمكة، وكان ابن عُمَيْر بن وهب في أسارى أصحاب بدر، قال: أقبل عمير بن وهب حتى جاء صفوان بن أمية في الحِجْر، فقال صفوان: قبَّح الله العيش بعد قتلى بدر، فقال عمير: والله! ما في العيش خير بعدهم، صدقت، والله! لولا دين عليَّ ليس عندي قضاؤه، وعيالي أخشى عليهم الضيعة بعدي، لركبت إلى محمد حتى أقتله فإن لي فيهم عِلَّة، ابني عندهم أسير في أيديهم، قال: فاغتنمها صفوان فقال: عليّ دينك، أنا أقضيه عنك وعيالك أسوة عيالي في النفقة إن يسعني شيء وتعجز

عنهم، قال عمير: اكتم عني شأني وشأنك، قال: أفعل، ثم أمر عمير بسيفه فشحذ وسم، ثم انطلق إلى المدينة فبينما عمر ﷺ بالمدينة في نفر من المسلمين يتذاكرون يوم بدر وما أكرمهم الله به وما أراهم من عدوهم رأي عمير بن وهب لما أناخ بباب المسجد متوشحاً السيف فقال هذا الكلب والله عمير بن وهب ما جاء إلا لشر، هذا الذي حرش بيننا وحزرنا للقوم يوم بدر، ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله هذا عمير بن وهب قد جاء متوشحاً بالسيف، قال: فأدخله، فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلببه بها، وقال عمر لرجال من الأنصار ممن كان معه: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده واحذروا هذا الكلب عليه فإنه غير مأمون، ثم دخل على رسول الله ﷺ به عمر آخذ بحمالة سيفه فقال: أرسله يا عمر، أدن يا عمير فدنا، فقال: أنعموا صباحاً -وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم - فقال رسول الله ﷺ: قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، السلام تحية أهل الجنة، فقال: أما والله يا محمد إن كنت لحديث عهد بها قال: فما جاء بك؟ قال جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم، قال: فما بال السيف في عنقك؟ قال: قبحها الله من سيوف فهل أغنت عنا شيئاً؟ قال: اصدقني ما الذي جئت له؟ قال: ما قدمت إلا في أسيري، قال: بَلْ قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر فتذاكرتما أصحاب القليب من قريش، فقلت: لولا دين عليّ وعيالي لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحمل صفوان لك بدينك وعيالك على أن تقتلني، والله حائل بينك وبين ذلك، قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني أعلم ما أنبأك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق فقال رسول الله ﷺ: فقهوا أخاكم في دينه وعلموه القرآن وأطلقوا له أسيره، ثم قال: يا رسول الله! إني كنت جاهداً على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله، وإني أحب أن تأذن لي فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله وإلى الإسلام، لعل الله أن يهديهم وإلاَّ آذيتُهم كما كنت أؤذي أصحابك في دينهم، فأذن له رسول الله ﷺ فلحق بمكة، وكان صفوان حين خرج عمير بن وهب

قال لقريش: أبشروا بوقعة تنسيكم وقعة بدر، وكان صفوان يسأل عنه الركبان حتى قدم راكب فأخبره بإسلامه فحلف أن لا يكلمه أبداً، ولا ينفعه بنفع أبداً، فلما قدم عمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام، ويؤذي من خالفه أذى شديداً، فأسلم على يديه ناس كثير [رواه الطبراني مرسلاً وإسناده جيد].

واستمعوا إلى ما قاله عمر -كما في الرواية عن عروة بن الزبير مرسلاً- قال: لخنزيرٌ كان أحبُّ إليَّ منه حين طلع، ولهو اليوم أحبُّ إليَّ منْ بعض بَنِيَّ.

المؤمن ليس له عدو، فإن كره الكافر يكره عمله فقط، إن كره الظالم يكره ظلمه، إن كره الفاسق يكره فسقه، إن كره المعتدي يكره عدوانه، أما إذا عاد المعتدي إلى جادَّة الصواب، وترك الفاسق فسقه، وترك الكافر كفره... صار أقرب الناس للمؤمن.

قال: لا يقدر على الانتصاف من الظالم للمظلوم ثم إرضاء المظلوم والظالم إلا الله، هذا من اختصاص الله... إليكم هذه القصة:

روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذا رأيناه ضحك بدت ثناياه فقال له عمر: ما أضحكك يا رسول الله؟ بأبي أنت وأمي! قال: «رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة فقال أحدهما: يا رب! خذ لي مظلمتي من أخي، فقال الله تبارك وتعالى للطالب: فكيف تصنع بأخيك ولم يبقَ من حسناته شيء؟ قال: يا رب فليحمل من أوزاري» قال: وفاضت عينا رسول الله بالبكاء ثم قال: «إن ذاك اليوم عظيم يحتاج الناس أن يحمل عنهم من أوزارهم فقال الله تعالى للطالب: ارفع بصرك فانظر في الجنان، فرفع رأسه فقال: يا رب! أرى مدائن من ذهب وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ، لأي نبي هذا أو لأي صديق هذا أو لأي شهيد هذا؟ قال: هذا لمن أعطى الثمن، قال: يا رب! ومن يملك ذلك؟ قال: أنت تملكه، قال: بماذا؟ قال: بعفوك عن أخيك، قال: يا رب! فإني قد عفوت عنه، قال الله عز وجل: فخذ بيد أخيك فأدخله الجنة» فقال رسول الله عند ذلك: «اتقوا الله، وأصلحوا ذات بينكم، فإن الله تعالى يصلح بين المسلمين» [أخرجه الحاكم في «المستدرك»].

فالله عز وجل مختصٌّ بهذا وحده، وهو الذي يستطيع أن ينتصر للمظلوم من الظالم، فإذا رجع الظالم عن ظلمه أرضى الظالم أيضاً وشملته رحمته... هذه ليست لغير الله... لأنَّ بعض العلماء يقول: «إنَّ أكمل درجات الإقساط؛ العدل أن تعامل كلا الطرفين معاملةً يرضيان عنها».

حقيقة تملأ جوانحي... المؤمن لا يحقد!! لأنه يرى الأمراض التي أمامه من بني البشر هي أمراض وليست سجايا، هي أعراض الإعراض، فكما أنَّ الطبيب لا يحقد على مريضٍ مصاب بمرضٍ معدٍ، كذلك يعلم المؤمن أنَّ هذه الأخطاء والرُّعونات والانحرافات هي أعراضٌ لمرضٍ واحد هو الإعراض عن الله عز وجل، وأكبر دليل أنَّ الإنسان عندما يقبل تراه لطيفاً ومنصفاً، وقَّافاً عند حدود الله، فسبحان من يغير ولا يتغير.

وسرعان ما نعود إلى المُقسِط فقد ورد المعنى في بعض آيات القرآن الكريم ففي سورة المائدة قال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [المائدة:٤٢].

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

وعن النعمان بن بشير أن أباه أتى به إلى رسول الله ﷺ فقال: إني نحلت ابني هذا غلاماً فقال: «أكلَّ ولدك نحلت مثله؟» قال: لا قال: «فأرجعه». وفي رواية: أنه قال: «أيسرك أن يكونوا إليك في البر سواء؟» قال: بلى، قال: «فلا إذن». وفي رواية: أنه قال: أعطاني أبي عطية فقالت عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تشهد رسول الله ﷺ فأتى رسول الله فقال: إني أعطيت ابني من عمرة بن رواحة فأمرتني أن أشهدك يا رسول الله، قال: أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟ قال: لا قال: «فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم». قال: فرجع فردَّ عطيته. وفي رواية: أنه قال: «لا أشهد على جور» [متفق عليه].

روي أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ وَالمَرْأَةُ بِطَاعَةِ الله سِتِّينَ سَنَةً، ثُمَّ يَحْضُرُهُمَا المَوْتُ فَيُضَارَّانِ فِي الوَصِيَّةِ فَتَجِبُ لَهُمَا النَّارُ» [سنن الترمذي، من حديث أبي هريرة].

وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «قَارِبُوا بَيْنَ أَبْنَائِكُمْ» يَعْنِي سَوُّوا بَيْنَهُمْ. [مسند الإمام أحمد].

من أعجب ما سمعت أن أسرةً توفي منها الأب وترك أولاداً وبنتاً وحيدة متزوِّجة، وهذه البنت الوحيدة نصيبها من الميراث ستَّة عشر مليوناً لم يُعطها إخوتها شيئاً، لأنها متزوجة، فطلَّقها زوجها فوراً، فأهلُها ظلموها، وزوجها ظلمها، أعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه... لا علاقة لك بغنيٍّ أو فقير، فموضوع الحقّ ليس له علاقة بالغنىِّ أو الفقر.

﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ لو ظلمتْ ابنتُك زوجَها وجارت عليه، فكن عادلاً وأنصف المظلوم، وإذا بغى ابنك على صديقه فردَّ الباغي: كن عادلاً، وخذ بيد المظلوم.

لكن أكثر الناس مع ابنه على حقٍّ أو على باطل، ومع ابنته على حقٍّ أو على باطل، ما الذي يميز المؤمن من الكافر؟ العدل...

ساعة عدل.. كلمة عدل خير من الدنيا وما فيها. النبيُّ ﷺ استعرض أسرى بدر فإذا صهره أبو العاص بن الربيع زوج زينب بين الأسرى... أُلقي عليه القبض وأسر لأنه كان في عِداد المحاربين يريد أن يقتل المسلمين، ولما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص، فلما رآها رسولَ الله ﷺ رقَّ لها رقة شديدة، وقال: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردّوا عليها قلادتها» ففعلوا [الإصابة، عن عائشة]. وروي أنه ﷺ قال: «ما ذممنا صهر أبي العاص» [الطبقات الكبرى لابن سعد] وثبت في الصحيحين من حديث المسور بن مخرمة أن النبي ﷺ خطب فذكر أبا العاص بن الربيع فأثنى عليه في مصاهرته خيراً وقال: «حدثني فصدقني، ووعدني فوفَّى لي» إذ عندما تمَّ إطلاق سراحه مع أسرى بدر

اشترط عليه رسول الله ﷺ أن يرسل زينب إلى المدينة، ففعل ذلك، ثم قدم في عير لقريش، فأسره المسلمون، وأخذوا ما معه، فأجارته زينب، فرجع إلى مكة، فأدَّى الودائع إلى أهلها، ثم هاجر إلى المدينة مسلماً، فردَّ النبي ﷺ إليه ابنته [الإصابة في تمييز الصحابة]. فهو صهر ممتاز... هذه الكلمات التي أنصفه بها فعلت فيه فِعل السحر وانتهت به إلى الإيمان.

من السهل جداً أن تُحبَّ إنساناً محبَّةً عمياء... ومن السهل جداً أن تبغضه بغضاً أعمى ولكنَّ الإنصاف يفرض عليك أن تحبَّه وأن تبغِضه بالعدل، أن تحبَّه منصفاً وأن تبغضه منصفاً، معظم الناس إذا أحبوا إنساناً ستروا كلَّ عيوبه، وإذا أبغضوا إنساناً ستروا كلَّ فضائله، فهذا ظلم، قال عمر: لا يكن حبُّك كلفاً ولا بغضك تلفاً فقلت -أسلم، وهو الراوي عن عمر- كيف ذاك؟ قال: إذا أحببت كلفت كلَفَ الصبيِّ، وإذا أبغضت أحببت لصاحبك التلف.

تعامل أحد أولادك معاملة جيدة وتسيء لأخيه هذا ظلم، وتعامل إحدى بناتك بغير ما تعامل أُختها هذا ظلم، تعامل موظَّفاً في المكتب بغير ما تعامل الموظَّف الآخر فهذا ظلم... ثم وسِّع الأمر كما شئت.

وفي سورة الحجرات قال تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجرات:٩].

كثير من الناس يرى أن معاملتك للكافر الفاجر الفاسق الملحد لا غبار عليها مهما أسأت إليه، فلا عليك مثلاً أن تأخذ ماله وأن تضطهده وأن تظلمه، أن تغُشَّه، هذا هو الجهل بعينه، وهذا هو الخطأُ بعينه، وهذا هو الظلم بعينه، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة:٨].

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ﴾... يخاطب الله المؤمنين ويحضهم على العدل. من هم أعداء المؤمنين التقليديّون؟ الكفار، الفجّار، العصاة، الفاسقون، المارقون، هؤلاء الكفار، الفجّار، العصاة، المارقون، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ﴾... مع هؤلاء ﴿ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾... إن عدلتم معهم قرّبتموهم إلى الله، وإن عدلتم معهم قرّبتموهم إليكم، أما إن ظلمتموهم فقد زدّتموهم بعداً، زدّتموهم كفراً.

يسألني أخ وهو في حيرة من أمره: لي ولدان... أحدهما فاسق والآخر طائع، أريد أن أُعطي الطائع نصيباً أوفر من أخيه. أقول له وبلا تردد: لا تفعل... إنك إن ظلمت الثاني زِدته عقوقاً، اعدل بينهما والله -سبحانه وتعالى- يبارك للبارّ بما أعطيته.

أنا وقّاف عند كلمة «يبارك» لأنني أطرب لسماعها ويهزني معناها... يقولون: رجل مبارك، رزق مبارك، زوجة مباركة، بيت مبارك، بارك الله لك، هذه الكلمات... تستخدم على أوسع نطاق في العالم الإسلامي، ما معنى بركة؟ الخير الكثير، ما معنى تبارك الذي بيده الملك؟ أي ما أعظم خيرَه وأكثره!

الله -عزّ وجلَ- يبارك لك أحياناً بمالك، أي: ينتج لك من الشيء القليل الخير الكثير، مال يكون قليلاً فتنتفع به ببركة الله، تتزوَّج به، تأكل منه، تشرب، تلبس، وهو مال قليل، وأحياناً المال الكثير يمحق الله بركته فإذا هو نقمةٌ على صاحبه.

أما المستقيم فالله عز وجل يبارك له في ماله، وأحياناً يبارك لك بوقتك، في الوقت القليل تفعل الشيء الكثير.

الإمام النووي ترك كُتُباً من تأليفه وعُدَّت صفحاتها وقسّمت على سنيِّ حياته فكان نصيب كل يوم تأليف تسعين صفحة(١)، وقد ورد أنه من أخَّر الصلاة عن وقتها، أذهب الله البركة من عمره، وإنَّ أحبَّ الأعمال إلى الله الصلاة على وقتها.

---

(١) ويكفي أن له: المجموع وشرح مسلم والروضة والمنهاج والأذكار وتحرير التنبيه والإيضاح والفتاوى والتقريب ومناقب الشافعي وتهذيب الأسماء واللغات، وأنه ألّف في الفقه والحديث وشرح الحديث =

فهناك وقت مبارك... أنت إذا صلَّيت، إذا اقتطعت من وقتك الثمين وقتاً لخدمة الخلق، وقتاً لنشر الحق، وقتاً لنصرة الضعيف، وقتاً لمواساة المسكين، هذا الوقت الذي اقتطعته من وقتك كأنَّه زكاة وقتك... ومن أدَّى زكاة ماله حفظ الله له بقية ماله... حصِّنوا أموالكم بالزكاة، ومن أدى زكاة وقته حفِظ الله له بقية وقته، تجد فيما تبقى له من وقت يفعل خلاله الشيء الكثير على الرغم من أنه قصير.

أحياناً تتعسَّر أمور الإنسان، يطلب أحد أصدقائه فلا يجده، أو بعد أن يقوم بإصلاح محرِّك لآلة فينسى أن يضع قطعة صغيرة في محلّها، فيفكّ أجزاءه مرةً أخرى وقد أخذ من وقته الساعات الطوال، أحياناً الله عز وجل يذهب لك زبدة وقتك وخلاصته وخيره في أتفه الموضوعات، فقد ينقصك قطعة تبديل لآلة معطّلة، والعُمّال ينتظرون إحضارها، فتقوم باستيرادها وقد تأتي ناقصة من الخارج، وذلك بأنك ضننت بوقتك على أن تصلِّي أو على أن تحضر مجلس علم، أو أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر أذهب الله البركة من وقتك... وضيعه سُدىً بلا طائل.

دائماً نعجب من المؤمن... فالله يوفِّقه بأن يبارك له بوقته؟ يفعل أشياء كثيرة في وقت قصير هذه هي البركة، ومن هنا كان دعاء القنوت: «اللهم! اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولَّني فيمن تولَّيت، وبارك لي فيما أعطيت» [الأربعة والدارمي من حديث الحسن بن علي].

يعطيك دخلاً يكفيك ويغطي جميع نفقاتك، يكفي أن يكون الإنسان معافى في صحَّته، فقد خلّص نفسه من الذهاب إلى الأطباء والمشافي والتصوير الإشعاعي والطبقي المحوري والمرنان، والتحاليل، والذهاب للخارج وتبديل دسام قلبه، أو الكلية، كل ذلك بمئات الألوف، بالملايين.

= والمصطلح واللغة والتراجم والتوحيد وغير ذلك وكان يكتب حتى تكل يده فيعجز... هذا ولم يطلب العلم إلا في سن الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة...!!

إذا استقام الإنسان على أمر الله حفظ الله له صحته، إذا أدَّى زكاة ماله حفظ الله له ماله، فلا حريق، ولا ضياع، ولا مصادرات، ولا مخالفات، ولا استملاك، والله ينجّيه من كلِّ ذلك.

فقد سمعت عن رجل والشيء بالشيء يُذكر... له دكّان صغير في سوق شعبي وهو مستقيم طوال حياته، لم يأكل مالاً حراماً إطلاقاً، جاءه رجل وبتطفُّل وبأسلوب عدواني يريد شراء دكانه، والرجل يرفض بيعها لأنها مورد رزقه. فقال له: أحببت هذه الدكان ويجب أن تبيعني إياها... فقد وقعت في قلبي، وإلا أحسدك، وما زال به حتى باعه إياها بسبعمئة ألف. وهي في سوق شعبي في طرف دمشق، قبض الثمن منه، وبعد عشرة أيام استُملك السوق، فأعطوا المشتري الجديد سبعة آلاف ليرة تعويضاً!!

فالمالك الأول كان صادقاً طوال حياته مع الناس ولم يكذب عليهم، ولم يغشَّهم... فكافأه الله سبحانه بأن حفظ له ماله، سأجعل هذه الدكان تحلو بعين فلان... فما زال به يلحُّ إلى أن باعه إياها بسبعمئة ألف، ثم قبض الآخر تعويضاً لهذه الدكان سبعة آلاف ليرة!!

فلذلك أركِّز على البركة... فإذا اتقيت الله عز وجل بارك الله لك بوقتك، وبارك لك بصحتك، وبارك لك بمالك، وبارك لك بزوجتك.

فقد حضرت تعزية بوفاة امرأة، وزوجها حيٌّ وعمره يقارب السبعين، وزوجته المتوفاة في الستين، فقد بكى بكاءً غير معقول على الإطلاق... فهو في السبعين وزوجته المتوفاة في الستين... فلما انتهى وقت التعزية وذهب المعزّون جرى حديث بغية التخفيف عن الزوج، وأن عليه أن يصبر ويحتسب. فقال: والله عِشتُ معها خمسةً وأربعين عاماً ما نمت ليلةً واحدة وأنا غاضبٌ عليها.

فقد بارك الله له بزوجته... وقد تجد شخصاً يقول لك: لم أرتح يوماً واحداً معها، فالزوجة وكذلك الزوج إما بلاء من الله وإما أنها هي الدنيا وزينتها كما في قوله تعالى:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [البقرة:٢٠١].

العلماء فسروا حسنة الدنيا بالزوجة الصالحة، التي إن نظرت إليها سرَّتك، وإن أمرتها أطاعتك، وإن غِبت عنها حفظتك في مالك ونفسها... وهي ستِّيرة، وإذا خلا بها بذلت له ما أراد منها، فبارك الله لك في مالك، وبارك الله لك في وقتك، وبارك الله لك في زوجتك، وبارك الله لك في أولادك.

تجد ابناً باراً مع أبيه دائماً، فوالله أرى هذه نعمة كبرى، هو في خدمته، وبأدب وتواضع هذا من فضل الله، فأشعر أن هنالك أسراً ناعمة البال، راغدة العيش، ببر بعضهم بعضاً، ففي حياتهم بركة.

فإذا استقام الإنسان على أمر الله ينال البركة من الله... وإذا مُحقت البركة يصبح المال نقمة، قد يُقتل من أجل ماله، وقد تكون الزوجة شؤماً قد ينتحر من أجلها وبسببها، وقد يكون الابن شؤماً كذلك، وقد يكون الزوج بلاء، وهكذا تقلب له الحياة ظهر المجن.

أحياناً يكون لك قريب تقول عنه: لا دين له، إنه لا يصلي ومغموس في الملذات إلى قِمَّة رأسه، لكنه يحترمك كثيراً، ويُكبر فيك إيمانك واستقامتك، ولك مكانة عنده، فيأتي المؤمن الجاهل أحياناً يسيء إلى هذا الإنسان غير الملتزم بدعوى أنه غير ملتزم، فاستمع إلى هذه الآية، قال تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة:٨].

هو لا يعارضك ولا يحاربك، ولا يطعن بك، ولا يذُمُّك بل يقدِّر فيك استقامتك وإيمانك وصلاتك، وهو مقصِّر وغارق في الشهوات، هذا الإنسان ينبغي أن يرى منك كل استقامة وكلَّ بِر وكل إقساط كما في الآية السابقة.

وهأنذا أؤكِّد أن آلاف الحالات... حالات التوبة أساسها عمل ذكي بسبب إحسان بادر به مؤمن، قال الله عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) ﴾ [الشورى:٣٩-٤٠].

يسألني أحياناً أحدهم: هل أستطيع أن أعطي صدقة لقريب لا دين له؟ فأقول: إن غلب على ظنِّك أنَّ إعطاءه هذا المال يقرِّبه منك ومن الدين فافعل... أما إذا كان هذا المال يزيده بُعداً عنك وعن الدين فلا تفعل... فالضابط المنظِّم لهذا العمل هو: ما إذا غلب على ظنِّك أنَّ إحسانك إليه يزيده قرباً من الله.

فدائماً وأبداً... العدل العدل، فقد قال رسول الله ﷺ: «اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فإنَّها لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الله حِجابٌ» [صحيح البخاري من حدث ابن عباس].

الأبلغ من ذلك... أنك إذا ظلمت مسلماً، المسلم أبغضك، أي: أبغض ذاتك، أما إذا ظلمت غير مسلم، فإن المظلوم يبغض دينك، ويقول: الإسلام ظلمني... ينسى الإنسان ويتَّهم الدين كلَّه بالظلم، لذلك يجب أن يشعر المؤمن الصادق دائماً: «أنه على ثغرةٍ من ثُغر الإسلام، فلا يؤتَيَنَّ من قبله».

قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧) ﴾ [الأنبياء:٤٧].

قالوا: أوفر الناس حظاً من هذا الفعل من ينتصف من نفسه، فلو أخطأت وأنت القوي جداً مع إنسان ضعيف جداً وظلمته فقل له: أنا أخطأت معك وسامحني. فهذا أرقى ما يتصف به أحد بالعدل، أن تنتصف من نفسك لمن هو أضعف منك، أن تنتصف من نفسك وليس لنفسك، أن تنتصر لمن هو أضعف منك.

أحياناً يكون الزوج في البيت هو كلُّ شيء، وعنده زوجة ضعيفة إذا أخطأ قال لها: أنا أخطأت وهذا خطئي... فهذا أعلى درجات الإنصاف.

وقد يكون عندك صانع يعمل لديك في الدّكان، وهو شاب وإخراجه من المحل ممكن بكلمة واحدة: اذهب ولا تعد... وأخطأت معه والصانع خاف منك، عليك أن تقول: أنا أخطأت وهذا الخطأ خطئي. هذه أعلى درجة من أنواع الكمال والإنصاف.

فقد يكون الإنسان في موقع لا أحد يستطيع محاسبته، فكماله أن ينتصف من نفسه، وأن يعترف بخطئه.

سمعت عن طبيب في مصر، وصف دواء لطفل صغير، الجرعة منه تُعطى لكبير، وبحسب علمه لو تناول هذه الجرعة لمات الطفل من فوره، فماذا يفعل؟ لا يوجد عنده عنوانه وهو في مستوصف عام فاتصل بوسائل الإعلام، وقال: أرجو أن تبلغوا المواطنين أن رجلاً وابنه دخلا إلى المستوصف الفلاني، وقد أعطيتهما وصفة فليمتنعا عن أخذ الوصفة وإلا يموت الطفل، فهو إذا سكت لا أحد يعلم وقد يموت الطفل دون أن يكون مُداناً، لكنه أعلن على الملأ أمام خمسين مليون أنني أخطأت، والشيء الذي لا يصدق أن الذي أخذ هذا الدواء وصله الخبر قبل أن يعطي لابنه الدواء، فالذي حصل عكس ما تصور الطبيب، فإنه اكتسب سمعة وشهرة تفوق حدَّ الخيال.

أحد العلماء يقول: «إن أوفر الناس حظاً من هذا الاسم من ينتصف أولاً من نفسه ثم ينتصف من غيره، أولاً من نفسه ثم من غيره».

يهودي دخل على سيدنا عمر يشكو سيدنا عليّاً، فقال له: قم يا أبا الحسن فقف إلى جانب الرجل... فأصبح عليّ خصماً في قاعة القضاء وهو من المقربين لعمر... فوقف، وتغيَّر لون سيدنا عليّ، فلما حكم له وانصرف اليهودي قال له: أَوجدتَ عليَّ يا أبا الحسن؟ فقال: نعم. فقال له: لِمَ؟ فقال: لأنك قلت لي يا أبا الحسن ولم تقل لي يا علي، لقد ميَّزتني عليه... لِمَ لم تقل لي: قم يا علي فقف إلى جانب الرجل، قلت لي: قم يا أبا الحسن؟ فقبَّل عمر رأس عليّ وقال: لا أبقاني الله بأرض ليس فيها أبو الحسن، بهذا قامت السموات والأرض، نعم قامت بالعدل.

وأنت تقوم وتقوى بالعدل، وتسقط بالظلم... ألا ترون معي أنَّ العالم كله يئنُّ من أن الظُّلاَّم يكيلون بمكيالين، ومن أنهم يقيسون بمقياسين، يشددون النكير على من يُتَّهم بقتل إنسان ولا يحاسبون من يُتَّهمون بقتل شعب، ألا يشعر بالظلم كلُّ العالم اليوم؟!

لذلك كما قال سيدنا رسول الله ﷺ:

«تُمْلأُ الأرض جوْراً وَظُلْماً، فَيَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ عِتْرَتِي يَمْلِكُ سَبْعاً أَوْ تِسْعاً فَيَمْلأُ الأَرْضَ قِسْطاً وَعَدْلاً» [مسند الإمام أحمد من حديث أبي سعيد الخدري].

لا تصلح الدنيا سواء أكنت زوجاً، أو تاجراً، أو موظفاً إلا بالعدل، والعدل أساس المُلك، والعدل يزيدك قوةً، والعدل أن تنتصف من نفسك قبل أن تنتصف من غيرك، أن تقول أخطأت على الملأ فهذا الذي يرفعك عند الله عز وجل.

إلهي أنت المقسط في الأحكام، المتفضِّل بالإسلام، عدلت في أقدارك الأزلية، وتفضَّلت في حِكَمِك العلية.

البعث

من أفعاله جل جلاله: البَعْث.

قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنعام:٦٠].

وفي سورة النحل قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النحل:٣٦].

وفي سورة الإسراء قال تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [الإسراء:٧٨-٧٩].

وفي سورة الكهف قال تعالى عن أهل الكهف: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الكهف:١٢].

وفي سورة الحج: ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ۝٧ ﴾ [الحج:٧].

وفي سورة التغابن قال تعالى: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧ ﴾ [التغابن:٧].

من معاني البعث

البعث في اللغة... الإثارةُ والإنهاض... يقال: بعث بعيره فانبعث، أي: استنهضه فنهض... أنهضه، وبعثه: أرسله، وانبعث فلانٌ لشأنه، أي: سار لشأنه، بعث الناقة: أثارها، بعث فلاناً من نومه: أيقظه، ومنه بعث الجنود إلى الغزو، فالبعث هو الجيش، والبعث: الإحياء من الله عز وجل، والبعث: النشر. هذا ما ورد في معاجم اللغة حول معنى كلمة البعث.

وأما البعث في حق الله تعالى... فمعناه أنَّ الله سبحانه وتعالى باعث الخلق يوم القيامة كما يقول في سورة الحج، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٧ ﴾ [الحج:٧].

أي إنَّ الله سبحانه وتعالى يُنهض الموتى من قبورهم ليحاسبهم، وقد قال تعالى في سورة الزلزلة: ﴿ إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ۝١ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٦ ﴾ [الزلزلة:١-٦].

هذا هو البعث... فالمؤمن يؤمن بيوم البعث.

المعنى الآخر أن الله جلَّ جلاله باعث الرسل إلى الخلق، يقول تعالى في سورة النحل: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا ﴾ [النحل٣٦].

إنهاض الناس من قبورهم بعث، وإرسال الرسل إلى الناس كافة بعث.

والمعنى الثالث أنه تعالى يبعث عباده على الأفعال المخصوصة، أي: أنَّ الله عز وجل يُلهم الإنسان في حركاته وسكناته... وذلك بالطبع لصالحه مكافأةً أو تأديباً... قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [يونس:٢٢].

ألم يقل النبي ﷺ: «إنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ» ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنا عَلَى طَاعَتِكَ» [رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو].

هذا التقليب لصالح العباد، فالإنسان أحياناً يُلهَم أن يتحرَّك، يُلهَم أن يسير في هذا الطريق، يُلهم أن يشتري، يُلهم أن يبيع، وقد يستجيب أحياناً لوسوسة الشيطان. والله سبحانه وتعالى لا يسمح لفعلٍ إلا إذا كان فيه صالحٌ للعبد نفسه، الله تعالى يُقلِّب قلوب العباد بين إصبعيه.

فمثلاً لو أنَّ الإنسان اختار طريق الحق أو اختار طاعة الله عز وجل، أو اختار التوبة النصوح، ربُّنا سبحانه وتعالى يشرح له صدره، شَرْحُ صدره إعانةٌ لهذا العبد على طاعة ربِّه، فقد قال تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ ﴾ [الكهف:١٣].

فالإنسان مثلاً إذا تحرَّك نحو الله قليلاً فالله سبحانه وتعالى يبارك حركته ويشجِّعه ويشرح له صدره ويُعينه على طاعته، ألم يُجمَع القرآن كلُّه في الفاتحة؟ ألا تُجمَع الفاتحة في آية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾.

ولو أنَّ الإنسان اختار طريق الباطل، أو طريق الشهوة، أو طريق المكاسب المادية، أو طريق الأذى، فالله سبحانه وتعالى كيف يُعينه على أن يبتعد عن هذا القرار؟ يجعل صدرهُ ضيِّقاً حرجاً كأنَّما يصَّعد في السماء كما ورد في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن

يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [الأنعام:١٢٥].

فهنا وقفة... إن اتخذت قراراً صحيحاً شرح الله لك صدرك وهو بهذا أعانك على متابعة هذا القرار، وإن اتخذت قراراً خاطئاً ضيَّق الله عليك نفسك، ﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ لعلَّك ترتدع عن متابعة هذا القرار.

فالله سبحانه وتعالى حينما جعل قلوب العباد بين إصبعيه ما جعلها كذلك إلا ليعين عباده على الخير، وليبعدهم عن الشرِّ، فالله تعالى أحياناً يبعث هذا الانشراح، ويبعث له هذا الضيق، فالله سبحانه وتعالى يبعث عباده على الأفعال المخصوصة.

هناك معنى آخر: أن الله سبحانه وتعالى أمر ونهى وكلَّف، وأعطى الإنسان حرية الاختيار، ولو أن الإنسان اتخذ قراراً خاطئاً وتابع خطأه إلى ما لا نهاية حتى جاءه الموت وهو متلبِّسٌ بالمعصية والكفر، لاستحقَّ جهنم إلى أبد الآبدين، هذا محض العدل، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى يربِّي هذا العبد، فلو أنه اتخذ قراراً خاطئاً وأراد أن يؤدِّبه بعثه إلى عملٍ يستحقُّ عليه عقاباً شديداً... فإذا أراد ربُّك إنفاذ أمرٍ أخذ من كلِّ ذي لبٍّ لُبَّه.

فمثلاً: إذا اتخذ إنسانٌ قراراً في أن يؤذي الناس، كأن يَغُشَّهم في بضاعته وأن يغتصب بعض أموالهم، وحاز هذا المال؛ فلو أن الله تركه إلى نهاية المطاف لاستحقَّ النار، لكنه يتحرَّك حركةً خاطئة فيبعثه إلى عملٍ يستحقُّ عليه العقوبة كي يؤدَّب، فقد قال تعالى: ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الأنعام:١٤٧].

إذاً إنَّ الله تعالى يبعث عباده على الأفعال المخصوصة إما تحقيقاً لاختيارهم، أو تأديباً لهم، أو مكافأةً لهم، فلو أن إنساناً أدَّى زكاة ماله يبعثه لشراء صفقةٍ رابحة، يُعوِّض عليه كلَّ ما دفع، بينما إنسان آخر بخل أن يُزكِّي ماله يبعثه إلى صفقةٍ خاسرة.

فالله عز وجل يبعث... بالمعنى الأول يحقق لك اختيارك، وبالمعنى الثاني يكافئك على حسن اختيارك أو يؤدِّبك على سوء اختيارك، هذا التسيير الأول... لتحقيق الاختيار... أما الثاني فهو لدفع ثمن الاختيار.

التسيير الأول هو أن تحقق اختيارك... أما التسيير الثاني فهو تسيير تربوي، فإما أن يُشجِّع وإما أن يعاقِب، وهذا هو معنى يبعث عباده على الأفعال المخصوصة.

يبعث من في القبور... ينهضهم.

يبعث الأنبياء والمرسلين... يرسلهم.

يبعث عباده على الأفعال المخصوصة... أي: يخلق الإرادات والدواعي في قلوبهم.

والمعنى الرابع... أنَّ الله سبحانه وتعالى يبعث عباده عند العجز بالمعونة والإغاثة.

فالإنسان بين حالين لا ثالث لهما، حال الاعتداد بالنفس كما حدث للصحابة الكرام يوم حنين فقد قال تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [التوبة:٢٥].

وحال الافتقار إلى الله مثلما كان حال الصحابة الكرام في بدر، فقد قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران:١٢٣].

أنت بين حال الاعتداد بالنفس أن تقول: أنا، وبين حال الافتقار إلى الله أن تقول: الله، إن قلت: أنا، تخلَّى عنك، ﴿ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ [التوبة:٢٥].

والحالة الثانية أن تقول: الله، وعندها يتولاَّك الله بالرعاية والتوفيق. في حياة كلٍّ منا كلَّ يوم عشرات الدروس إن قلت: أنا، تخلَّى الله عنك، وإن قلت: الله، تولاَّك ورعاك وأيَّدك ونصرك وأعانك وألهمك وحفظك ودافع عنك، شتَّان بين أن تقول:

الله، وأن تقول: أنا، ولا يخفى عليكم أنَّ... أنا، ونحن، ولي، وعندي أربع كلماتٍ مهلكات، فقد قال إبليس: أنا، فأهلكه الله، ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [ص:٧٦].

وقال قوم سبأ: «نحن» فأهلكهم الله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ [النمل:٣٣].

وقال فرعون: «لي» فأهلكه الله: ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ ﴾ [الزخرف:٥١].

وقال قارون: «عندي» فأهلكه الله: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص:٧٨].

فالمعنى الرابع... أنَّ الله سبحانه وتعالى يبعث عباده عند العجز بالمعونة والإغاثة، وعند الذنب بقبول التوبة.

والله تعالى يبعث مَن في القبور، باعثُ الساكنِ، ساكنٌ يبعثه الله فيتحرَّك، كلُّ شيءٍ ساكن يبعثه الله فيتحرَّك، فالنبات في الشتاء ساكن يكون حطباً، ويأتي الربيع فيبعثه الله فيزهر ويورق ويُثمر، بعض الحيوانات تنام في الشتاء فإذا جاء فصل الربيع بعثها الله.

البذرة... فيها رُشيم، فيها جُذَير، فيها سُويق، فيها حياةٌ يمكن أن تخزِّنها آلاف السنوات، القمح الذي وُجد في الأهرامات زُرع فأنبت وقد مضى عليه ستة آلاف عام، فلما وضعت هذه البذرة في الأرض بعثها الله، نبتت.

والله تعالى يبعث الهمم، فالإنسان أحياناً تضعف نفسه، فإذا استعان بالله عز وجل أعطاه همةً، وأعطاه قوةً وأعطاه اندفاعاً، لذلك فالمؤمن الصادق يدعو ويقول:

«اللهمَّ! تبرَّأت من حولي وقوَّتي، والتجأت إلى حولك وقوَّتك يا ذا القوة المتين».

يقول أحد العلماء: هو الذي يحيي الخلق يوم النشور، ويبعث من في القبور، ويحصِّل ما في الصدور».

كلُّ أعمالك مسجَّلةٌ عليك، سوف تبعث وتراها أمامك واحدةً واحدة فقد قال تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء:١٤].

والبعث هو النشأة الآخرة، فالنشأة الأولى في الدنيا، والنشأة الآخرة يوم القيامة.

قال بعض العلماء: «الإنسان أحياناً يتوهَّم أنَّ الموت عدمٌ، وأنَّ البعث إيجاد ابتداءً»، والحقيقة غير ذلك، الإنسان يموت ولكنَّه في القبر إما أن يكون من أهل النعيم، وإما أن يكون من أهل الجحيم، إما أن يكون القبر روضةً من رياض الجنة، وإما أن يكون القبر حفرةً من حفر النيران، والدليل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [آل عمران:١٦٩].

الموت ليس فناءً ونهايةً ومن ثم يوم القيامة فيه بدءٌ جديدٌ، لا، بل هناك حياة برزخية، ألم يقل الله عز وجل في فرعون وقومه يصفهم في قبورهم: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [غافر:٤٦].

مضى على عذابهم أكثر من ستَّة آلاف عام وإلى يوم القيامة غُدوّاً وعشياً، هذه الآية أصلٌ في عذاب القبر أو عذاب البرزخ مطلقاً.

الموتى إما أن يكونوا أشقياء، وإما أن يكونوا سعداء، إن كانت أعمالهم سيئة كانوا أشقياء في القبور وإلى يوم القيامة، وإن كانت أعمالهم صالحة كانوا سعداء في القبور وإلى يوم القيامة، لذلك فإن القبر روضةٌ من رياض الجنة، أو حفرةٌ من حفر النيران.

ورد في بعض الآثار: «أنَّ روح الميت ترفرف فوق النعش تقول: يا أهلي ويا ولدي لا تلعبنَّ بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال من حِلِّه ومن غير حلِّه، ثم خلفته لغيري فالمهناة له والتبعة عليّ فاحذروا ما حلَّ بي».

عن أبي طلحة عن النبي ﷺ: «كان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال» [البخاري، من حديث أبي طلحة]. وعن أبي طلحة قال: «لما كانَ يومُ بدر وظهَرَ عليهم نبيُّ الله

ﷺ، أمَرَ ببضعَة وعشرينَ رجلاً -وفي رواية؛ بأربعة وعشرينَ رجلاً- من صناديد قريش، فألقوا في طويّ من أطْواءِ بدر خبيث مُخْبث، وكان إذا ظَهَرَ على قوم أقامَ بالعَرْصَة ثلاثَ ليال، فلما كانَ ببدر اليومَ الثالث أمرَ براحلَته فشُدَّ عليها رَحلُها، ثم مشى، واتَّبعَهُ أصحابُهُ، قالوا: ما نُرَى يَنطلَقُ إلا لبعض حاجته، حتى قامَ على شَفَة الركيِّ، فجعل يناديهم بأسمائهم، وأسماء آبائهم: يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، أيَسُرُّكم أنَّكم أطعتمُ الله ورسولهُ؟ فإنَّا قد وجدنا ما وَعَدَنا ربُّنا حقّاً، فهل وجدتُم ما وعدَ ربكمْ حقا؟ فقال عمر: يا رسول الله، ما تُكلِّم من أجساد لا أرواحَ لها؟ فقال النبيُّ ﷺ: والذي نفس محمد بيدِه، ما أنتُم بأسمع لما أقولُ منهم. قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قولَهُ، توبيخاً، وتصغيراً، ونقيمة، وحسرة، وندماً» [أخرجه البخاري، ومسلم].

قالت عائشة لَمَّا أمَرَ النبيُّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ بأُولَئِكَ الرَّهْطِ فَالقُوا في الطَّوِيِّ عُتْبَةُ وَأبو جَهْلٍ وَأصْحَابُهُ وَقَفَ عليهمْ فقالَ: «جَزَاكُمُ اللهُ شَرّاً مِنْ قوم نَبِيٍّ، مَا كَانَ أَسْوَأَ الطَّرْدِ وَأَشَدَ التَكْذِيبِ» قالوا يا رسولَ الله: كَيْفَ تُكَلِّمُ قَوْماً جَيَّفُوا؟ فَقَالَ: «مَا أَنْتُم بِأفْهَمَ لِقَوْلِي مِنهُمْ أوْ لَهُمْ أفْهَمُ لِقَوِلِي مِنْكُمْ» [مسند الإمام أحمد].

إذاً الإنسان يحيا، والموت عملية انفصال نفسه عن جسده عن روحه... روح الإنسان هي القوة المحرِّكة، وجسده وِعاؤه، ونفسه ذاته. النفس خالدةٌ إلى أبد الآبدين، إما في جنات النعيم وإما في أعماق الجحيم، فقد قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف:٧٧].

فأنت خُلقت لتبقى، إما في نعيم مقيم وهذا ما نرجوه إن شاء الله تعالى، وإما في جحيم لا تطاق ولا تحتمل، فلذلك عندما يؤثر الإنسان الدنيا على الآخرة يكون أحمق وغبياً.

مَن آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً.

إني وجدت ما وعدني ربي حقاً، فهل وجدتُّم ما وعد ربُّكم حقاً؟ خاطبهم... رايموند ماودي ألَّف كتاباً عنوانه الحياة بعد الموت... وكان الباعث على تأليف هذا

الكتاب أن مريضاً توقف قلبه أمداً طويلاً ثم عاد ونبض، فذكر هذا الإنسان كيف أنّه تصوَّر أعماله كلَّها، وكيف أن نفسه ابتعدت عن جسده، وكيف أنه ندم على أعماله السيئة، هذا الوصف جعل مؤلِّف الكتاب يتحرَّك إلى أكثر المشافي، وأراد أن يأخذ تقارير مشابهة عن هذه الحالات، وقام بجمع هذه التقارير وألَّفها في كتاب.

والملخَّص... أن الإنسان حينما يموت تبتعد نفسه عن جسده، المؤمن يستعرض أعماله كلَّها طوال حياته، ويُقيِّم أعماله كلَّها وفق مقياسٍ واحد هو مدى ما ينتفع بها عباد الله، ويرى أن أعماله ولو عظمت إن لم ينتفع بها أحد فلا قيمة لها فإن خير عباد الله أنفعهم للناس.

فالإنسان حينما يعلمُ علم اليقين أنه سوف يدخل في القبر، وأنَّ هذا القبر حياةٌ برزخية تسبق الحياة الأُخرويَّة، وأنَّ هذه الحياة في القبر نعيمٌ أو جحيم، ينبغي أن يعدَّ ألف مرة قبل أن يقترف المعصية.

العمل أساسه إرادة، الإرادة تتحرك بالباعث، والباعث هو الله سبحانه وتعالى يبعثنا إلى أعمالٍ اخترناها صالحة، أو إلى أعمالٍ اخترناها سيئة، فلذلك قال الله عز وجل: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة:٢٨٦]، ما هو الكسبُ؟ أنت حينما تقول: أنا سأُصلِّي، هذا هو الباعث، هذا هو الكسب. الله سبحانه وتعالى يُمِدُّك بقوةٍ منه، فالله جلَّ جلاله حينما يراك تريد أن تصلِّي يعينك على أداء الصلاة، هو الذي يحقق أفعال العباد، الأفعال بيد الله، والإنسان يملك الانبعاث، يملك الإرادة، يملك الاختيار، يملك الكسب، وما سوى ذلك من خلق الله عز وجل، وهذه هي العقيدة الصحيحة.

وقيل: «هو الذي يبعث الهمم إلى الترقّي في ساحات التوحيد».

فالإنسان أحياناً إذا وصل إلى مستوى معيَّن ولم يتجاوزه إلى مستوىً أعلى قد يُصاب بالسأم والضجر والملل... من لم يكن في زيادة فهو في نقصان، فقرار الهدى قرارٌ مستمرٌ فكلما ازددت علماً ارتقيت عند الله، وكلما ارتقيت عند الله ارتفع مستوى

عملك، وكلما ارتفع مستوى عملك زاد إقبالك، فهي سلسلة متتابعة، فالذي يبقى في مرتبةٍ واحدة هذا معرَّض لأن يقول: مللت، والله سبحانه وتعالى لا يملّ حتى تملّوا، فإذا لم يكن هناك ازدياد علميّ وازدياد عمليّ فلن يكون رقيٌّ حقيقيٌّ، ولن يكون هناك عمل صالح ترقى به. وربما انعكس هذا سلباً على مكانة الإنسان عند الله عز وجل.

وقيل: «هو الذي يبعثك على عليّات الأمور»، أي إذا أراد ربُّك إظهار فضله عليك خلق الفضل ونسبه إليك.

الحقيقة أن هناك في الدين حقيقة خطيرة جداً، أنت لا شيء، أنت ضعيف، أنت فقير، أنت جاهل، ولكنك إذا أقبلت على الله أصبحت عالماً، وإن أقبلت على الله عز وجل أمدَّك بقوةٍ من عنده، إن أقبلت على الله علَّمك ما لم تكن تعلم.

فالإنسان بذاته ضعيف، أما بالله فهو قوي، بذاته جاهل، أما بالله فهو عالم، بذاته فقير، أما بالله فهو غنيّ.

وبعد فملخص التوحيد ألاّ ترى مع الله أحداً، وألاّ ترى لنفسك شيئاً، حينما تفتقر ذاتُك إلى الله، فإنّك تستحقُّ كلَّ مكرمة... لذلك قالوا: الأبواب إلى الله كثيرة، وباب الانكسار: هو أعظم هذه الأبواب، فكلما ازددت افتقاراً إلى الله، رفعك الله إلى أعلى المراتب، والأمر متعلق بالتوحيد. كلما رأيت أن الله هو الإله العظيم الذي لا نِدّ له وهو الواحد، وهو المعطي، هو المانع، هو المغني، هو الممد هو القابض، هو الباسط، هو المعز، هو المُذل، تتوحّد وجهتك.

وبعد... من أين يأتي الإخلاص؟ من التوحيد، هناك علاقة بين التوحيد والإخلاص، كلما ازددت توحيداً ازددت إخلاصاً، لأنه ما دام هناك جهات أخرى تعطي وتمنع، ترفع وتخفض، تعزُّ وتذلُّ، فأنت موزّع بين ما تعتقده في هذه الجهات من أنها تعطي وتمنع، أمّا إذا أيقنت يقيناً قطعياً أن كلَّ الجهات عاجزة وهي لا تعطي ولا تمنع، لا ترفع ولا تخفض، لا تعزّ ولا تذلّ، وأيقنت أن الله هو وحده لا شريك له، وبيده كلُّ شيء، إليه يرجع الأمر كلُّه، فعندئذ تعبده وتتوكَّل عليه.

إذاً... ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، قال الله عز وجل: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٣].

أحدُ أكبر أسباب عذابات النفس، أنْ تدعوَ مع الله إلهاً آخر، وأحد أكبر أسباب الخوف أن تشرك بالله ما لم ينزِّل به سلطاناً، فمثلاً قال الله تعالى: ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ [الأحزاب:٢٦].

الرّعب متعلِّقٌ بالشرك، فهذا قانون إلهي، أنت تخاف بقدر ما تبتعد عن التوحيد، فإذا وحَّدت الله عز وجل نُزع من قلبك الخوف، لأن أمرك كلَّه بيد الله، والله وليّك، فلا خوف، ولا حزن... ولذلك فالإنسان إذا وحَّد أخلص، وإذا أخلص ارتقت همّته.

ورد: أن اصنعِ المعروف مع أهله، ومع غير أهله، فإن أصبت أهلَهُ أصبت أهله، وإن لم تصب أهله فأنت أهله.

الموحِّد لا يعلّق أهمية على ردود فعل الناس، أما غير الموحِّد فإن أسدى إليهم معروفاً ولم يتلقَّ منهم استحساناً أو ثناءً فإنَّه يتألَّم، أمَّا الموحِّد فإنْ أسدى إلى الناس معروفاً فهو يدرك أنه ما فعل ذلك إلا ابتغاء وجه الله... قال الله تعالى: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [الليل:١٩-٢١].

وبعد، فليعلم المؤمن أن التوحيد طريق مختصر، والإخلاص مسرِّع، إلا أن التوحيد كلمة واحدة، وتلخِّص الإيمان كلّه، وتلخص العمل كلَّه، وتلخِّص مجاهدة النفس والهوى كلَّها، والتوحيد ملخص معرفتك كلِّها بالله، وهو الهدف الكبير لهذا الدين، يقول تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٥].

إذاً: الباعث أيضاً هو الذي يبعثك على عليَّات الأمور، ويرفع عن قلبك وساوس الصدور.

وقيل: «هو الذي يصفِّي الأسرار عن الهوس، ويسمو بالأفعال عن الدَّنَس»، أي إنَّ الله عز وجل إن أقبلتَ عليه طهَّر قلبك من الأدران.

وإني لأذكر هذه الآية: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران:١٥٩]، فأجد فيها معنىً مهمّاً... ذلك أن الله سبحانه وتعالى حينما قال: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ الباء باء السبب، أي: بسبب رحمةٍ استقرَّت في قلبك يا محمد، من خلال اتصالك بالله لنت لهم، فلما لنت لهم التفّوا حولك، وأحبّوك وأقبلوا عليك.

لو أنَّ الإنسان انقطع عن الله خلا قلبه من الرحمة، فكان فظّاً غليظاً، فلما كان فظّاً غليظاً انفضَّ الناس من حوله، فهل بالإمكان أن نستنبط قانوناً؟ القانون: هو اتصالٌ... رحمةٌ... لينٌ... يعني التفافٌ من حولك، انقطاعٌ... قسوة... غلظة... يعني انفضاضاً عنك، هذا هو القانون.

إن اتصلت بالله عز وجل تستقر الرحمة في قلبك، مُنْعَكَسُ هذا الرحمة لين وتواضع وإيناس وذوق، عندئذٍ يجتمع الناس حولك، فلو أن القلب أقفر من الاتصال بالله عز وجل، أصبح قاسياً وعندئذٍ يصبح فظاً غليظاً، وينفض الناس من حوله.

هناك حقيقة: هي أن الدعوة إلى الله ليست المعلومات وحدها، بل هي الشرط اللازم لها، إن المعلومات شرط لازم وغير كافٍ، لكنَّ القلب الكبير الذي يسع الخلق، القلب الكبير الذي يرحم الخلق، والقلب الكبير الذي يتواضع للخلق، القلب الكبير الذي يعطف على الخلق، هذا القلب هو أساس الدعوة إلى الله، لأن أصحاب النبي ﷺ أحبوه حباً لا يوصف.

سيدنا ربيعة بن كعب الأسلمي حينما كان يخدم الرسول ﷺ، وانتهت خدمته ذات ليلة وأمره أن ينصرف، بقي على عتبة داره حتى الفجر من شدة التعلُّق به [مسند الإمام أحمد]، ما معنى ذلك؟ التعلُّق له علاقة بالكمال، كلما كنت أكثر كمالاً تعلَّق الناس بك، وكلما ابتعدت عن الله عز وجل انخفض مستوى الكمال، وعندئذٍ ينفضُّ الناس من حولك.

وقيل «الباعث... باعث الرسل بالأحكام، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وباعث الموتى بالقيام».

قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ [البقرة:٥٦].

وباعث النيام بيقظةِ الأجسام... الإنسان ينام، والنوم موتٌ مؤقّت، قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ [الزمر:٤٢].

النوم موت مؤقت، لهذا كان ﷺ يقول: «إذا قام أحدكم عن فراشه ثم رجع إليه فلينفضه بصنفة إزارة ثلاث مرات، فإنه لا يدري ما خلفه عليه بعدُ، فإذا اضْطَجَعَ فَلْيَقُلْ: باسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ، فإنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا وإنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْها بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبادَكَ الصَّالِحِينَ، فإذا اسْتَيْقَظَ فَلْيَقُلِ: الحَمْدُ لله الذِي عَافَانِي في جَسَدِي، وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي، وأذِنَ لِي بِذِكْرِهِ» [سنن الترمذي من حديث أبي هريرة].

وكان ﷺ إذا استيقظ يقول:

«الحَمْدُ لله الذِي أَحْيانا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وإلَيْهِ النُّشُورُ» [البخاري من حديث حذيفة بن اليمان، ومسلم من حديث البراء بن عازب].

وقد قيل: «ما من يومٍ إلا وينادي يا ابن آدم! أنا خلقٌ جديد، وعلى عملك شهيد، فتزوَّدْ مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة».

فالله هو الذي يبعثك من نومك، فإذا استيقظ الإنسان ينبغي أن يعلم أنَّ الله تعالى سمح له أن يعيش يوماً جديداً... إذاً فهو يبعث الموتى، ويبعث الرسل، ويبعث النيام، ويبعث كلَّ ساكن.

عند بعض العلماء تجد أن حقيقة البعثِ... هي إحياء الموتى بإنشائهم نشأةً أخرى.

في الدنيا قد يعاقب الله بعض المسيئين عقاباً تربوياً تأديبياً لبقية المسيئين، وقد يكافئ الله بعض المحسنين مكافأةً تشجيعيةً لبقية المحسنين، ولكن قد تجد مسيئاً لا

يعاقب، ومحسناً لا يكافأ، لأن الحياة الدنيا دار عمل ودار ابتلاء، ودار تكليف، أما الجزاء الأوفى، والحساب الكامل، والرصيد فهو في الآخرة... قال الله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [آل عمران:١٨٥].

أي فأنت في دار عمل، ثم هناك دار جزاء، هنا عمل ولا جزاء، وفي الآخرة جزاء ولا عمل، أنت في دار تكليف، والآخرة دار تشريف، فإذا اختلطت عندك الأمور، وإذا ظننت أن الدنيا دار تشريف، وأنَّ القويَّ مكرَّمٌ، والغنيَّ مكرمٌ، وقعت في وهمٍ كبير.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى الله لأَبَرَّهُ مِنْهُمُ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ» [سنن الترمذي].

أنت في دار ابتلاء، لا دار قرار، الآخرة هي دار القرار، والآخرة هي دار الجزاء، الآخرة هي دار النعيم، الآخرة هي الدار التي تُؤتى فيها ما تشتهي دون عمل... قال تعالى: ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [ق:٣٥].

أما الدنيا فهي دار سعي، لا بد من أن تسعى حتى تصل، لذلك الله عز وجل قال: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النجم:٣٩-٤٠].

فحقيقة البعث عند بعض العلماء: هو أن الله سبحانه وتعالى يحيي الموتى بإنشائهم نشأةً أخرى.

وقد قيل: «الجهل هو الموت الأكبر»، أي: الجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به، والعلم هو الحياةُ العُليا، أي أعلى درجات الحياة أن تعرف الله، وأدنى درجات الموت أن تجهله فلا تعرفه، وقد ذكر الله تعالى العلم والجهل في القرآن وسماهما، حياةً وموتاً: قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال:٢٤].

﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ أي: كنتم موتى بالجهل ثم أحياكم بالعلم، وكنتم موتى بالبعد وأحياكم بالقرب، كنتم موتى بالضياع فأحياكم بالوجدان، كنتم موتى بالإدبار فأحياكم بالإقبال، كنتم موتى بالتفلّت فأحياكم بالانضباط.

لذلك فإن العلماء يقولون في تفسير هذه الآية: «إن أعلى درجات الحياة أن تعرف الله وأن تتصل به»، فقد قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾.

ليس مَنْ مات فاستراح بميِّتٍ إنَّما الميْتُ ميِّتُ الأحياءِ

سيدنا علي يقول: «العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم يزكو على العمل، والمال تنقصه النفقة، العلم حاكم والمال محكوم عليه، وصنيعة المال تزول بزواله ومحبة العالم دين يدان بها، العلم يكسبه الطاعة في حياته وجميل الأحدوثة بعد مماته، مات خزان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة».

يقول أحد العلماء: «الجهل هو الموت الأكبر، والعلم هو الحياة العليا، وقد ذكر الله تعالى الجهل والعلم في القرآن فسماهما حياةً وموتاً».

هناك معنى يضيفه أحد العلماء: «أنه مَنْ رقَّى إنساناً من الجهل إلى العلم ومن البعد إلى القرب، ومن الإدبار إلى الإقبال، فقد أنشأه نشأةً أخرى»، هناك نشأة حيوانية: جسم، قلب رئتان معدة أمعاء فم سمع بصر، يتحرَّك، يأكل، ينام، يتزوج، هذه حياة لا تليق بالإنسان، إلا أن هناك حياة أرقى، أن تفكِّر وأن تعرف الله وأن تعرف منهجه وأن تعرف من أين... وإلى أين... ولماذا؟ هذا أكبر سؤال، فعندما يعرف الإنسان سرَّ وجوده وغاية وجوده ويعرف ربّه ويعرف منهج ربّه، وأن هذه الحياة حياةُ دنيا إعدادية لحياة عليا أبدية عندئذٍ يصبح في أعلى درجات الحياة... قال تعالى: ﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾.

قالوا: هذا هو التعليم الحقُّ... نقل الناس من الموت إلى الحياة، من الجهل إلى العلم، من الإدبار إلى الإقبال، من الضياع إلى الوجدان، فهذه رتبة الأنبياء والمرسلين، ومن ينوب منابهم من العلماء الصادقين؛ لذلك قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [فصلت:٣٣].

ثم إن هناك نقطة عميقة الدلالة، فالله عز وجل عندما قال: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾ [الفيل:١].

من منا رأى هذه الحادثة؟ لا أحد، لعل أحدهم يقول: لو أن الله عز وجل قال: ألم تصدق، ألم تسمع، بدل قوله: ألم ترَ.

العلماء قالوا: «إنَّ إخبار الله عز وجل -لمصداقيته المطلقة- ينبغي أن يقع منك موقع الرؤية، إن مصداقية الله عز وجل في أخباره ينبغي أن توقع هذه الأخبار منك موقع الرؤية، بل إن الفعل الماضي الذي يستخدم في القرآن الكريم في التعبير عن المستقبل كقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ ﴾ [المائدة:١١٦]».

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾... هذا لم يقع بعد ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ ﴾، استخدام الفعل الماضي من أجل أن يقع هذا الخبر في نفسك موقع الوقوع الحتمي اليقيني، أتى أمر الله فعل ماضٍ فلا تستعجلوه إذاً: لم يأتِ. أتى أمر الله فلا تستعجلوه، الفعل الماضي حينما يعبر به عن المستقبل وحينما يقول الله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾، أي يجب أن تقع أخبار الله التي أخبرك بها في كتابه موقع اليقين الشهودي.

نصيب المؤمن من فعل البعث

كيف أن الله سبحانه وتعالى يبعث الموتى؟ والإنسان قبل أن يعرف اللهَ، ميتٌ، فإذا أحيا قلبه بالمعرفة، وبالطاعة فكأنه تخلّق بكمالات الله هذا أول معنى... ففي الآية الكريمة قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٢٢].

وفي سورة النحل قال تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾ [النحل:٢].

فالعبد إذا سعى لمعرفة الله، وطاعته والإقبال عليه، والاستنارة بنوره، فقد بعث نفسه من الموت إلى الحياة.

التخلّق الثاني: المؤمن ينبغي أن يبعث نفسه دائماً كما يريد مولاه فعلاً وقولاً؛ أي أنْ تأتي أفعاله مطابقة لكتاب الله.

عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ قَالَ: سَالتُ عائِشَةَ فَقُلْتُ: أَخْبِرِيني عَنْ خُلُقِ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَتْ: كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ [مسند الإمام أحمد].

قالوا: الكون قرآنٌ صامت، والقرآن كونٌ ناطق، والنبي ﷺ قرآن يمشي.

فمِن تأدُّبِ العبد مع الله الباعث أن يبعث نفسه بما يُرْضي ربَّه، وأن يجعل أعماله متوافقةً مع منهج ربِّه.

الأدب الثالث: أنه إذا تحقق وأيقن، أن الله سبحانه وتعالى يبعث الناس بعد الموت ثم يجزيهم بالثواب والعقاب، فعندئذٍ يشغل وقته كلّه بطاعته، والتزود للدار الآخرةِ وتصفُّحِ أعماله ومحاسبة نفسه حساباً دقيقاً.

رسول الله ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه وضع يده -يعني: اليمنى- تحت خدِّه ثم قال: «اللهم! قني عذابك يوم تبعث عبادك» [رواه أحمد والترمذي والنسائي من حديث البراء بن

عازب]، وكان ﷺ يقول عند الاستيقاظ: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور» [البخاري من حديث حذيفة بن اليمان، ومسلم من حديث البراء بن عازب].

وأخيراً فملخص الملخص... يبعث الله الرسل، يبعث الله من في القبور، يبعث الله العباد لأعمالٍ تحقق اختيارهم ثم تربيهم، ويبعث الله تعالى كلَّ ساكن، وأدب المؤمن مع الله عز وجل أن يبعث نفسه دائماً كما يريد مولاه فعلاً وقولاً.

تأخير العقوبة

الله تعالى لا يُعجِّل بالعقوبة لِمَنْ عصاه فهو يُمهل ولا يُهمل، وقد ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة جداً تتحدث عن هذا المعنى، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾ [فاطر:٤٥].

الإنسان أحياناً، إذا تولَّى أمر عشرة أو أكثر، فحينما يغضب منهم يتمنَّى أن يُنزل بهم أشدَّ العقوبة، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ﴾ فتأخير العقوبة من أفعال الله تعالى، يقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾ [طه:١٢٩].

يعني كان لِزاماً أن ينزل الله بالعُصاة أشدَّ العقاب، وأن يُنهيَهم ويبيدهم، ولكنَّ كلمة سبقت من الله عز وجل هي التي تجعل العقوبة متأخرة. فما هذه الكلمة؟ هي: إن

رحمتي سبقت غضبي، ما الكلمة؟ إن الله خلق الخلق ليرحمهم، ما الذي يؤخر إنزال العقوبات الحاسمة؟ هو رحمة الله عز وجل؛ يعني كأنَّ الله عز وجل يعطي الناس فرصةً ليتوبوا، يعطيهم فرصةً ليرجعوا، لِيُنيبوا، ليصحِّحوا، ليستغفروا؛ لذلك قال الله عز وجل: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال:٣٣].

فما دام الإنسان في استغفار فرحمة الله قريبة منه ومغفرته واسعة، حيث إن القصد هو إصلاحه، والقصد هو إسعاده، والقصد هو إكرامه، ولو أنَّ القصد تطبيق القوانين لما ترك على ظهرها من دابة، لو أنَّ كلَّ إنسان عصى الله عز وجل أنهاه الله عز وجل بعقوبة قاصمة ما ترك على ظهرها من دابة، فتأخير العقاب من فعل الله تعالى، قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾.

وهذه آية أخرى تدل على المعنى نفسه، وهي قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ [الرعد:٣٢].

آية ثالثة تؤكد مفهوم تأخير العقوبة؛ وهي قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج:٤٨].

فالإنسان أحياناً يختلُّ توازنه حينما يرى كافراً قوياً شديداً عتيداً مستعلياً يزداد قوة ومنعة وغنىً وسيطرةً، وقد يسأل الإنسان نفسه: أين الله؟ ربنا عز وجل بماذا يجيب عن هذا السؤال؛ إذا رأيت الكافر يزداد قوةً وغِنىً وسيطرةً واستعلاءً وجبروتاً ويتحدَّى ويسخر ويستهزئ فاذكر فرعون، ألم يقل فرعون: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النازعات:٢٤] بماذا أجاب الله عز وجل في القرآن الكريم عن هذا السؤال؟ قال الله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران:١٩٦-١٩٧].

إجابة أخرى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام:٤٤].

جواب ثالث قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم:٤٢].

الله عز وجل ليسَ غافلاً، فاللهُ عز وجل من أجل أن يكشف الإنسان على حقيقته يُملي له، ويعطي له من القوة، ومن الشأن ومن الوجاهة ما يكشفه على حقيقته، فهل يطمئنُّ الإنسان العاقل إلى قوَّته؟ هل يطمئنُّ إلى ماله الوفير؟ هل يطمئنُّ إلى مركزه القويِّ؟ العاقل يطمئنُّ إلى طاعة الله، يجب أن تطمئنَّ حينما تطيع الله عز وجل. أمَّا إذا كنت قويَّاً أو إذا كنت غنيَّاً أو إذا كنت وجيهاً فهذه أشياء تُسلَبُ في لحظة واحدة. عطاؤه عجيب، وأخذه عجيب.

زارني طبيب وذكر لي قصة وقعت قبل يومَين من زيارته، أن فتاة متخلِّفة عقلياً تأخَّر كلامها سنتين، وفيها عِلّة في دماغها، وهذه العلَّة ظهرت في مشيتها العرجاء، تشكو من ضعف في أعصابها الحركية ومصدره الدماغ، وتشكو من تأخُّر في نُطقِها، وهذه آفة مصدرها الدماغ، ويكاد يكون الشفاء مستحيلاً، قبل يومين أو ثلاثة كُسرت رجلها، فأُخذت إلى مستشفى العظام، وأعطيت مخدراً لشدة الألم الذي انتابها حين تجبير عظمها، بعدما انتهت العملية انطلقت في الكلام ومشت مشياً طبيعياً فجاء أبوها وقال: ما هذا؟ ما علاقة ما جرى لها بما صلح من نُطقِها ومن حركتها؟ فالله على كل شيء قدير، كسرُ هذه الرجل كان سبباً، ولعل هذا المخدر أيقظَ مكاناً في الدماغ كان في سبات، فربُّنا عز وجل يعطي ويدهش، ويأخذ ويُدهش.

وإليك آيةً أخرى تدل على تأخير العقوبة؛ وهي قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [الأعراف:١٨٢-١٨٣].

ذات يوم سألتُ أحد الإخوة المتخصصين عن كلمة متين؛ فقال: إن كلمة متين تستعمل في الفيزياء للتعبير عن مقاومة قوى الشّدّ، والقساوة تستعمل للتعبير عن مقاومة قوى الضغط، فالشيء الذي يتحمَّل قوى الضغط يقال له: قاسٍ، والشيء الذي يتحمَّل قوى الشّدّ يُقال له: متين، فما وجه العلاقة بين كيد الله عز وجل ومتانته؟ قوله تعالى: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) ﴾ [الأعراف:١٨٣].

فالإنسان لا يمكن أن ينجو من قبضة الله؛ كأن كيد الله حبل متين لا يمكن أن ينقطع أبداً.

وهذه آية خامسة هي قوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا (٥٨) ﴾ [الكهف:٥٨].

وبعد، فهل مرَّ معنا في السيرة موقف بدا فيه هذا المعنى واضحاً؟ لعله في الحديبية عندما أُبرم صُلح الحديبية؟ حيث إنَّ الله عز وجل يعلم أنَّ في كفار قريش رجالاً مؤمنين، ونساءً مؤمنات، يكتمون إيمانهم، ولا يعلمهم المؤمنون؛ فربنا عز وجل رحمةً بهم وتأخيراً للعقوبة عن الكفار، أخَّرَ فتح مكة من أجلهم، وقد أمرنا الله تعالى بالصبر، فقال: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥) ﴾ [الأحقاف:٣٥].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) ﴾ [الأنعام:٣٤].

ما معنى: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) ﴾ [المدثر:٧].

هناك صبر لغير الله؛ قد تكون إنساناً مستضعفاً ولك عدو يُنكّل بك، ولا تستطيع أن تفعل شيئاً، فأنت صابر لا لأنك صبور، بل لأنك لا تستطيع أن تفعل شيئاً، فليس هذا من الصبر الذي أمرنا الله تعالى به. إنما الصبر أن تكون قادراً على أن تفعل

شيئاً ولكنَّ إيمانك بالله عز وجل يلجمك وتصبر، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ وأحياناً يتوهم الإنسان أن بإمكانه أن يصبر، فإذا هو في بعض الحالات لا يصبر، كان يبدو أن بإمكانه أن يصبر، فإذا هو ينفجر، كيف نحلُّ هذه المشكلة؟ قوله: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝١٢٧﴾ [النحل:١٢٧].

أنت لا تصبر إلاّ إذا أعانك الله على الصبر، فهل هناك آية يرتفع بها الصبر إلى أعلى مستوى؟ نحن عندنا قاعدة، وهي أن العطف يقتضي التجانس؛ إذ لا تستطيع أن تقول: اشتريت بيتاً وملعقةً، لعدم التناسب، هذا ولقد جُمع الصبر مع الصلاة، وجُمع الصبر مع الحظ العظيم، وجُمع الصبر مع الجزاء بغير حساب، وجُمع الصبر مع الحق.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر:٣].

وإذا قرأنا الآية التي وردت في آخر آل عمران فلعلنا نتبين شيئاً من ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٢٠٠﴾ [آل عمران:٢٠٠].

فالصبر معروف، أما المصابرة فهي: أن تعينَ أخاك على الصبر، لذلك قالوا: لا تكن عوناً للشيطان على أخيك، وكن عوناً لأخيك على الشيطان؛ أي: أنت إذا أعنته وبيّنت له وخففت عنه مصابه، وواسيته بمالك؛ فلعل في ذلك معاونةً لأخيك على الصبر، وقال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٢٨﴾ [الأعراف:١٢٨].

﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾.

أما أوضح آية متعلقة بالصبر والتي معناها يُثلج الصدر فهي قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ

﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

هذه المصائب لمن؟ للمؤمنين، هذه المصائب للمؤمنين خاصة... لنبلونَّكم أيها المؤمنون بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وبشر الصابرين الذين إذا إصابتهم مصيبة قالوا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾، إذاً الصابر هو الذي يصبر على تربية الله له، فما معنى أنك صابر؟ يعني أن الله يُربيك، وأنت تفهم عن الله عز وجل وتصبر، إذاً من الصابر؟ هو إنسان راشد مثلاً يجلس على كرسي طبيب الأسنان فيعلم علم يقين أنه مُتقِن لصنعته، وأنه عليم باختصاصه، وأن بحوثاً عديدة اطلع عليها، وأن أناساً كثيرين أثْنوا عليه، وأنه تعلَّم عِلماً صحيحاً، وأن يده فيها مرونة كبيرة، وعنده وسائل جيدة، وأنَّ كلَّ ما يفعله بك طبيب الأسنان هو في صالح أسنانك؛ لذلك ولو آلمك في بعض الأحيان فلا بد أن تصبر، فمن الذي يصبر إذًا؟ هو الذي فهم على الطبيب، وَثِقَ من علمه ومن خبرته ومن نصيحته، وهو يتحمَّل معالجة هذا الطبيب لأسنانه، هذا بشكل مبسط.

إذاً هناك إنسان صابر، فنحن في واقع الحياة لدينا عِلل كثيرة، وربنا عز وجل يتولى تربية هذه النفس.

النهاية السعيدة أن تصل إلى دار السلام بسلام، النهاية الموفَّقة أن تقول من أعماق أعماقك: الحمد لله رب العالمين، النهاية التي ليس بعدها ولا قبلها؛ أن ترث جنة عرضها السموات والأرض، إذاً فالصابر إنسان فَهِمَ عن الله عز وجل مراده.

تروي كتب السيرة أنه بعد وفاة النبي ﷺ، حدثت هناك اضطرابات وفتن وبدت بوادر رِدَّة كبيرة جداً؛ بل أصبحت المدينة مهددة بالخطر والنبي ﷺ كان قد جهز جيشاً لفتح بلاد الشام أمَّر عليه أسامة، ورأى أصحاب النبي ﷺ أنه من الحكمة ألا ينفذ أبو بكر الخليفة بعث أسامة؛ لأن البلاد مقبلة على فتنة اضطرابات

داخلية، أيُعقل أن تذر الاضطرابات قرنها، ونرسل جيشاً لفتح الشام؟ فهذا منطق غير مقبول؛ فأصحاب النبي ﷺ اضطربوا وتمنوا على سيدنا الصديق ألا يرسل هذا الجيش، وتهامسوا فيما بينهم، وانتقل الخبر لسيدنا عمر، فسيدنا عمر جاء ليُبلّغ سيدنا الصديق هذه الرغبة وتَبنَاها، ولكن سيدنا الصديق أراد أن يربي الأصحاب تربيةً حاسمة، فما كان منه إلا أن أمسك بلحية عمر وهزَّها هزاً شديداً وقال: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب؛ أَجَبار في الجاهلية خوّار في الإسلام؟! فلما رأى أصحاب النبي ما فعل الصديق بعمر ارتعدت فرائصهم، وندموا على خواطرهم، وانصاعوا لأمر سيدنا الصديق، لماذا صبر سيدنا عمر على أخذ الصديق بلحيته وهزَّه هزاً شديداً، وقال له: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب أجَبار في الجاهلية خوّار في الإسلام؟ لأنه فهِم عن سيدنا الصديق مراده البعيد.

قال ابن عطاء الله السكندري: «إذا كَشَفَ الله لك حكمته في المنْع عاد المنع عين العطاء»، فربما كان الإحسان من الله حرماناً، وربما كان المنع من الله إحساناً، فمتى يصبر الإنسان؟ من الذي يصبر؟ الذي يعرف الله عز وجل، أما الذي لا يعرف الله عز وجل فلا يصبر، بل بالعكس يُزمجر ويتكلم كلاماً سيئاً يسجل عليه، علامةُ معرفتك بالله صبرُك على قضائه وقدره، لكن كلُّ حسنةٍ بعشرِ أمثالها، وكلُّ شيء له حساب، إلا أن الصابرين كما قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الزمر: ١٠].

فأما الصابرون فإنهم يوفَّون أجورهم بغير حساب؛ فهذا المحسن حينما صبر كأن لسان حاله يقول يا رب: عالجني كما تريد، وأنا أصبر يا رب، أنت ربي لا إله إلا أنت، أنت وليّي في الدنيا والآخرة، عالجني كما تريد أنا أصبر على معالجتك، كأن لسان حال الصابر يقول: يا رب أصبر في الدنيا ولا أصبر في الآخرة، القضية في الدنيا مقبولة، أما في الآخرة فالخزي لا يُحتمل؛ والنبي ﷺ قبيل وفاته وقف بين أصحابه وخَطَبَ خطبةً مؤثرةً:

عَنْ أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه أنَّ رَسُولَ الله ﷺ جَلَسَ على المِنْبَرِ فَقَالَ: «إنَّ عَبْداً خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيا ما شاءَ وَبَيْنَ ما عِنْدَهُ فاخْتارَ مَا عِنْدَهُ»، بكى أبو بكرٍ وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا [رواه البخاري].

مثلاً لو أنَّ طالباً سرق قلم حبر، وكُشف أمره أمام رفيقه فهذا شيء قد يهون، أما إذا كُشف أمره أمام طلاب الصف كلِّهم فهذا شيءٌ آخر، فضيحة صارخة، أما إذا كُشف أمره في الباحة أمام ثلاثين شعبة فهذا شيءٌ أكبر وفضيحة تنتشر كالنار في الهشيم.

الفضيحة في الدنيا أهون، أنت ساكنٌ في مدينة، في حيٍّ من الأحياء هناك من يعرفك وهم قلة، أما على رؤوس الأشهاد إذ يقف هؤلاء الفُساق والفجار مواقف الخزي والعار.

عن أبي ذرٍّ قالَ: قُلْتُ: يا رسُولَ الله ألا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قالَ: فَضَرَب بيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي ثمَّ قالَ: «يا أبا ذَرٍّ إنَّكَ ضَعِيفٌ، وإنَّها أمانَةٌ، وإنَّها يَوْمَ القِيامَةِ خِزْيٌ ونَدامَةٌ إلاَّ مَنْ أخَذَها بحَقِّها وأدَّى الذي عَلَيْهِ فِيها» [رواه مسلم وأحمد].

فالصابر كأنه يقول: عالجْني يا رب قبل أن أموت، يا رب لا تمتني حتى تطهرني من ذنوبي ومن عيوبي ومن أدراني، فالإنسان العاقل يجتهد لتنقية نفسه من كلِّ مرض، لأن الله عز وجل يقول: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

إذاً: إنما يوفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب والآية التي تتحدث عن الصبر قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال:٤٦].

هذه معيّة خاصة أم عامة؟ إنها معية خاصة؛ لأن المعيّة الخاصة تعني التأييد والنصر والتوفيق والحِفظ، حيثما وردت في القرآن الكريم معيّة خاصة، تعني التأييد

والنصر والتوفيق والحفظ، ﴿ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ وقال جلَّ شأنه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [آل عمران:١٤٦].

مع الصابرين بالرعاية والحفظ والتأييد والتوفيق، والله عز وجل يوفيهم أجورهم بغير حساب، والله يحبُّهم ويوفِّيهم أجرهم بغير حساب، لأنهم قَبلوا معالجته، أحياناً أنسب شيء هو معالجة المرض من دون مخدّر، أما إذا رفض هذا الإنسان وصاح وتكلم كلاماً قاسياً، فإنه عندئذٍ يضطر الطبيب أن يسلك معه الطريق الأطول الأخطرَ في العلاج، ربنا عز وجل حينما يرى عبداً صابراً معنى ذلك أن هذا العبد قد رضي بمعالجة الله له، وأن يستسلم لقضائه وقدره، هذا هو معنى الصبر.

الصبر شيء عظيم، والإنسان الغربي من شدة بُعدِه عن الله يقف في حياته موقفين: إما أن ينال ما يصبو إليه وإما أن ينتحر؛ فإذا فقد الشيء الذي يصبو إليه إضافةً إلى بُعده عن الله، فإما أن ينال طلبته، وإما أن يصاب بأمراض نفسية إذا لم ينتحر؛ أمراض الإحباط، الكآبة السوداوية، انفصام الشخصية، هذه كلُّها أمراض نفسية، أساسها إنسان تعرض لمصائب وهو لا يعرف الله عز وجل، والأمراض النفسية أساسها عدم معرفة الله عز وجل.

إذاً الخلاصة بتمامها: إياك أن تصبر لغير الله، فعندئذ ليس لك من أجر، فمثلاً قد يضايقك شخص قوي متسلط وأنت صابر، فالله عز وجل يقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الرعد:٢٢-٢٤].

دخلتم الجنة، ووصلتم إلى أعلى درجة يتمناها كل إنسان على وجه الأرض، وصلتم إلى دار السلام، إلى جنةٍ عرضُها السموات والأرض، وصلتم إلى سعادة الأبد،

وصلتم إلى نعيم مقيم، وصلتم إلى دارٍ لا خروج منها ولا قلق فيها، ولا مرض، ولا منافسة، ولا تحاسد، ومن بعد فهذه الجنة مهيأة لك ما ثمنُها؟

قال: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ ﴾، صبركم كان ثمن الجنة ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ ﴾، انظر إلى صبر المؤمن، فالمؤمن دائماً في صبر، على المرض صابر، مشكلة في بيته صابر، يعامَل بقسوة صابر، دَخْله قليل صابر، منغِّصات في عمله صابر، إنه يرى قدرة الله عز وجل، والإنسان إذا كان بإمكانه أن يمنع عنه الأذى ولا يمنع عنه الأذى فهو عاصٍ، وليس بصابر، الصابر إذا كنت لا تستطيع أن تزيل عنك هذا الأذى، الصبر عند استنفاد الجهد.

هناك قضية مزعجة وبإمكاني أن أعالجها، فقد يقول قائل: هذا الأمر أو البلاء من قضاء الله وقدره، فمن قال لك ذلك؟ إن كان من قضاء الله وقدره فالحلّ يتم بقضاء الله وقدره كذلك.

فهذا سيدنا عمر عندما قدم على الشام أيام وجود الطاعون بها فامتنع عن دخولها فقيل له: يا أمير المؤمنين: أتفِرُّ من قضاء الله؟ قال: نعم أفرُّ من قضاء الله إلى قضاء الله، وقال: لو كنتَ تملك قطيعاً من الغنم، وهناك أرض مُجدِبة وأرض مخصِبة، أين سترعى غنمك؟ إن رعَيْتها بالأرض المجدبة فبقضاء الله، وإن رعيتها بالأرض المخصبة فبقضاء الله. أنا أفِرُّ من أرضٍ مُجدبة بقضاء الله إلى أرضٍ مخصِبة بقضاء الله، هذا هو التفكير العلمي، فإذا أمكن علاج الابن عند طبيب فلا يجوز الاستسلام بحجة أنه صابر، لا، بل نقول له: أنت مُقصّر؛ إذ ليس هذا هو قضاء الله عز وجل، فحينما لا تملك حيلةً فعندئذٍ أنت معذور.

ماذا روي عن النبي ﷺ في الطائف: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس» [الطبراني في الدعاء من حديث عبد الله بن جعفر]، لقد اجتهد حينما خرج من مكة إلى الطائف لعلهم يؤمنون، لكنه شكا قلة حيلته، وأنت كونك إنساناً تقف

أمام بعض الأمور عاجزاً؛ لكن إذا أمكنك الحركة فيجب أن تتحرَّك، إلا أنك حينما تفقد الحيلة يأتي دور الصبر، إذاً الصبر يأتي حينما تنعدم الحيلة.

سيدنا عمر أشار إلى أن الصبر نعمةٌ من نِعَم الله الكبرى، كان إذا أصابته مصيبة قال: «الحمد لله ثلاثاً؛ الحمد لله إذ لم تكن في ديني، والحمد لله إذ لم تكن أكبر منها، والحمد لله إذ ألهمت الصبر عليها»، إن الله عز وجل يقول: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [النحل:١٢٧].

﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ ﴾ وإليك الآية الثانية أيها القارئ الكريم: ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٢٦].

سيدنا أيوب ثبتت فيه آيةٌ -سبحان الله- أتذوَّق منها الشيء الكثير، قال تعالى: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [ص:٤٤].

﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ ﴾، أحياناً يبعث الله لك بلاءً ليرى موقفك.

على كُلِّ إنسان أن يعرف معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ ﴾، فالله يمتحن الإنسان، يُتلف له شيئاً من حاجياته، يحبط له بعضاً من مساعيه، لا تتحقَّق له بعض غاياته، هو تحت المراقبة! سيدنا أيوب ما كان وضعه؟ قال تعالى: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ ﴾ أجمل موقف يقفه المؤمن حينما يتلقى خبراً سيئاً أن يقول: الحمد لله رب العالمين، يا رب لك الحمد هذه حكمتُك، وهذا قضاؤك، وهذا قدرك، وأنا راضٍ بحكمتك، اللهم ألهمني الصبر، هذا أعظم موقف يقفه المؤمن، لا تظنَّنَّ أن الإنسان أياً كان لن يتعرض لمواقف فيها امتحان، لكنه حينما يقول: الحمد لله فقد نجح.

الإيمان كلُّه صبر يقال: «الإيمان نصفان؛ فنصف في الصبر ونصف في الشكر»، ثم إني وجدت حديثاً شافياً جداً: سئل: ما الإيمان؟ قال: «السماحة والصبر» [أخرجه أحمد في مسنده من حديث عبادة بن الصامت].

في الأساس الجنةُ لها ثمنٌ، وثمنها أن الله عز وجل ركّبَ في الإنسان طبعاً، وكل التكاليف عكس طبعه، ركّبَ فيك حُبَّ المال وأمرك بإنفاق المال، وركّبَ فيك حُبَ الراحة، وأمرك بصلاة قبل طلوع الشمس، وركّبَ فيك فضولية في أخبار الناس، وأمرك أن تسكت عن الغيبة والنميمة، لو تتبعت أوامر الشرع لوجدت أنك لن تستطيع تطبيقها إلا إذا خالفت طبيعة نفسك، إذاً الدين كلُّه صبرٌ، فمن الكافر؟ هو إنسان ينساق مع شهواته ومع أهوائه ومع ميوله وحظوظه ومصالحه، ومن المؤمن؟ هو الذي عاكس هواه وشهوته وميوله وحظوظه وطبّقَ منهج ربه.

فإذا أردت أن تقول لي: الدين كلُّه صبر؟ أقول لك: نعم الإيمان هو الصبر والسماحة، الصبر سلبي، السماحة إيجابية، أن تصبر عن المعصية، وأن تصبر على الطاعة، وأن تصبر على الأمر التكويني ثلاثة مناهل: صبر عن المعصية، وصبر على الطاعة، وصبر على الأمر التكويني، فلذلك من السذاجة أن تظنَّ أن الفقير فقط عليه أن يصبر، فمن قال لك هذا؟ إذا كان صبر الفقير عن موضوع واحد فالغنيُّ أشدُّ حاجةً إلى الصبر من الفقير، لماذا؟ لأنَّ الغنيَّ يمتلك خيارات كثيرة جداً لغناه وسَعة دنياه، مثلاً إذا قلنا للضعيف: اصبر، فالحقيقة أنَّ القويَّ أشدّ حاجةً ألف مرة إلى الصبر من الضعيف، لأن الضعيف قدرته ضعيفة، أما القوي فبإمكانه أن يفعل كلَّ شيء، لكنه إن خاف من الله عز وجل لم يفعل شيئاً يغضبه، فهذا الدليل: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٣٥].

﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ ﴾، بالخير أنت مُمتحَن، بالمال ممتحن، بالقوة ممتحَن، بالشباب ممتحن، والنتيجة أنَّ الدين كُلَّهُ صبر، فمثلاً الشجاعة صبر، لكن الهروب انسجام مع حب الحياة، إن الجسم يحتاج إلى استلقاء وراحة، جاء للبيت مساءً مُتعباً أكل ونام، هكذا كثير من الناس، أمَّا المؤمن فعليه صلاة العشاء؛ أكل وتوضأ وصلى الفرض والسنّة والوِتر فهذا صَبَرَ ثم نام، في الساعة الواحدة ليلاً والفراش وثير، والجو شتوي، والفراش دافئ، وغداً يومُ عطلة؛ فسمع أذان الفجر، الآن سيصبر على ترك

الفراش، وينهض للصلاة، لو تتبعت الأمور فأنت ممتحن في كلِّ لحظة، مرت امرأة جميلة بثياب فاضحة، إذا نظرتَ إليها فقد انسجمت مع شهوتك إلى النساء، أمَّا إذا غضضت بصرك عنها غضَّاً حازماً فقد عاكست شهوتك، إذاً أنت صابر، فالصبر هو مخالفة شهوات النفس وأنت مكلف أن تصبر في كلِّ دقيقة.

قال بعض العلماء: إذا أقامك الله في مقام الشكر فكُنْ من الشاكرين، وإذا أقامك في مقام الصبر فكُنْ من الصابرين، المؤمن في الرخاء شكور وفي الزلازل صبور.

فأنتَ بين الشكر والصبر، لا بد من التنويه إلى أن المؤمن يجب أن يطلب من الله العافية، وهذا مأخوذ من رسول الله ﷺ:

عَنْ أَنَسِ بنِ مالِكٍ قالَ: أَتى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فقالَ: يا رَسُولَ الله أيُّ الدُّعاءِ أفْضَلُ؟ قالَ: «سَلْ رَبَّكَ العَفْوَ والعافِيَةَ في الدُّنْيا والآخِرَةِ»، ثم أتاهُ في اليَوْمِ الثاني فقالَ: يا رَسُولَ الله أيُّ الدُّعاءِ أفْضَلُ؟ قالَ: «سَلْ رَبَّكَ العَفْوَ والعافِيَةَ في الدُّنْيا والآخِرَةِ»، ثُمَّ أتاهُ في اليوْمِ الثَّالِثِ فقالَ: يا نَبِيَّ الله أيُّ الدُّعاءِ أفْضَلُ؟قالَ: «سَلْ رَبَّكَ العَفْوَ والعافِيَةَ في الدُّنْيا والآخِرَةِ؛ فإذا أُعْطِيتَ العَفْوَ والعافِيَةَ في الدُّنْيا والآخِرَةِ فَقَدْ أفْلَحْتَ» [رواه الترمذي].

اللهم إنا نسألك العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة.

وفي الطائف قال ﷺ: «إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أُبالي غير أن عافيتك أوسع لي» [الطبراني في الدعاء من حديث عبد الله بن جعفر].

عزيزي القارئ: سل ربك العفو والعافية في الدنيا والآخرة، فإذا أُعطيت العافية في الدنيا وأُعطيتها في الآخرة فقد أفلحت وأنجحت إن شاء الله.

ذو انتقام

من أفعاله جل جلاله: الانتقام.

يقول تعالى: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢٥)﴾ [الزخرف:٢٥].

ويقول أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٤)﴾ [آل عمران:٤].

إذا وُصف إنسان بأنه منتقم فالأمر يختلف عما إذا كان هذا الوصف لله تعالى، لأن الله سبحانه وتعالى أسماؤه كلُّها حسنى، وصفاته كلُّها فضلى، والدليل قول الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].

وقد يتصف إنسان بالانتقام فلا نحبُّه، لكنَّ الله سبحانه وتعالى حينما يضع للظالم حدَّاً، ويحجزه عن أن يؤذي الآخرين، فهذا المعنى يليق بكمال الله جل جلاله، والنقمة هي العقوبة، والله جل جلاله يعاقب ليؤدب، ويؤدب ليسعد.

وقد ذكرت من قبل أنَّ الشَّرَّ المطلق لا وجود له في الكون بالنسبة لله سبحانه وتعالى؛ لأنَّ وجوده يتناقض مع وجود الله، ولأنَّ الله جل جلاله ذات كاملة، ولله

الأسماء الحسنى، ويمكن أن نصف هذه الذات الكاملة بالوجود والوحدانية والكمال، فأيُّ صفة اتصف الله بها، وأيُّ اسم سمَّى نفسه به، يجب أن نفهمه فهماً يليق بكمال الله.

من معاني المنتقم

المنتقم من الانتقام، والنِّقْمة هي العقوبة، والمنتقم الذي يعاقب من يشاء مهما علا، أما الإنسان فلا يستطيع أن يعاقب من يشاء، إذ لا يعاقب إلا من هو دونه، ولا يستطيع أن يعاقب نِدّاً أو مساوياً له، وأمّا أن يعاقب من هو أعلى منه فهذا مستحيل، لكنَّ الله سبحانه وتعالى ينتقم ممن يشاء؛ أي: يعاقب من يشاء، فإذا كنت مع القويّ فأنت قويٌّ، مهما يكن عدوُّك كبيراً، أو قويّاً أو جبّاراً، أو طاغياً، أو متطاولاً، فالله جل جلاله أكبر، ينتقم منه، ويوقفه عند حدّه، ويحجزه عن أن يؤذي خلق الله عز وجل، وبهذا المعنى نفهم الانتقام.

فلو أنّك في الدنيا رأيت إنساناً شارداً مجرماً عاتياً يقتل ويسرق ويفعل ما يحلو له، فحينما يُلقى القبض عليه وتُحجز حريته يشعر الناس جميعاً بالراحة لأنّه حُجز عن أن يؤذي خلق الله عز وجل، فالانتقام في هذا المعنى يليق بكمال الله جل جلاله.

قال بعض العلماء: «المنتقم في حق الله تعالى هو الذي يقصم ظهور الطغاة ويشدد العقوبة على العصاة، والانتقام أشدُّ من العقوبة العاجلة التي لا تمكن صاحبها من الإمعان في المعصية، لكن المنتقم هو الذي يعاقب عقوبة تمنع المعاقَب من أن يقع في المعصية»

وقد تجد إنساناً فتسأل كيف يصلح هذا الإنسان، ويعود إلى الله ويستقيم على أمره، فتجد أن الله جل جلاله عاقبه بعقاب أو ساق له شدةً تحار فيها العقول فإذا به يقف عند حده، ويرتدع ويعود إلى ربه ويسلك الطريق القويم، فالله هو الرّب، ينتقم ليؤدب، ويؤدب ليسعد.

قالوا: المنتقم له معنى آخر، «هو الذي عُرفت عظمته فخشي العباد نقمته»، وتقريباً للمعنى؛ دولة عظمى لديها سلاح نووي قد لا تستخدم هذ السلاح إطلاقاً، لكنها مرهوبة الجانب، فلا يفكّر أحد أن يعتدي عليها، فالله سبحانه وتعالى لأنه إذا أراد أن يعاقب عاقب ولا رادّ لإرادته: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢﴾ [البروج:١٢].

فإذا عرف الإنسان عظمة الله عز وجل تأدّب، معه، فكان تعظيم الله سبباً لطاعته ولخشية نقمته، فالنقمة هي العقوبة، ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الأعراف:١٣٦] أي: عاقبناهم، ولكن أريد أن أوضح بعض المعاني، الكلمة كما تعلمنا في اللغة هي كائن يولد وينمو ويهرم يموت، وهناك كلمات ميتة كثيرة جداً، وأضرب لكم بعض الأمثلة، قال النابغة الذيباني:

مقذوفــةٍ بــدخيسِ الــنَّحْضِ بازلُهــا لــه صَرِيــفٌ صريــفَ القعــو بالمســد

هل فهمت شيئاً؟ لا أعتقد، فهذه كلمات لا ينتفع بها إلا المختصون.

وأحياناً، للكلمة معنى رفيع، وبعد حين تكتسب معنى آخر غير المعنى الذي وُضعت له، كنت أضرب على ذلك المثل التالي، الجرثومة في اللغة أصل الشيء، وقد وقف أبو تمام يمدح المعتصم يصفه بأنه جرثومة الدين والإسلام والحسب، وهذا بيت في المديح، والخليفة تقبّل هذا البيت بنفس رضيّة.

قال أبو تمام:

خليفــة الله جــازى الله ســعيك عــن جرثومــة الــدين والإســلام والحســبِ

أما كلمة جرثومة فهي في هذا السياق كلمة ذم، إذ تأخذ الكلمة معنى غير المعنى الذي وضعت له في أصل اللغة.

وكلمة استعمار؛ من إعمار الأرض، يعني أنت مثلاً إذا بنيت الأبنية وبنيت الجسور، وأنشأت المدارس والمستشفيات وشققت الطرق فأنت مستعمِر، أما حينما

جاءت قوة غاشمة واحتلت البلاد وسلبت ونهبت وقهرت وطغت وبغت فقد سميت استعماراً، فكلمة استعمار لها وقع سيِّئ في النفوس.

وكلمة عصابة: تعني الجماعة، قال ﷺ قبيل معركة بدر: «إن تهلك هذه العصابة لا تُعبد في الأرض» [مسلم، عن عمر بن الخطاب]، أما إذا قلت الآن: عصابة فهي تعني عصابة المجرمين أو عصابة قطاع طرق، فلها معنى آخر، فينبغي لك أن تفهم الكلمة كما هي في أصل اللغة، فالمنتقم هو المعاقب.

ولعلنا نفهم المنتقم من البشر الذي يحقد والذي يعاقب ليتشفى، هذه المعاني التي نفهمها من كلام الناس اليوم لا علاقة لها بهذا الاسم إطلاقاً، والمنتقم هو الذي يعاقب، أو هو الذي يعاقب عقوبة تردع صاحبها عن أن يعصي الله عز وجل، والمنتقم هو الذي يعاقب ليوقف الباغي والظالم عند حدّه، والناس جميعاً يرتاحون إذا ألقي القبض على مجرم عاتٍ باغٍ ووُضع حدٌّ لإجرامه.

والمعنى الفرعي الذي ذكرته قبل قليل، هو الذي عُرفت عظمته فخشي الناس نقمته، ومن عرف رحمته رجا نعمته، فإن عرفت عقوبته خشيت معصيته، وإن عرفت رحمته رجوت نعمته.

وسيدنا عمر قال له بعض أصحاب رسول الله ﷺ: إن الناس خافوا شدتك وبطشك، فبكى وقال: لو يعلم الناس ما في قلبي من الرحمة لأخذوا عباءتي هذه، ولكن هذا الأمر لا يناسبه إلا كما ترى.

وربنا عز وجل أحياناً يريك من رحمته الشيء الكثير، فترتاح راحة كبرى، وتطمح، وتطمع وتسترخي أحياناً، وتتساهل وتقصِّر، ويريك من شدَّته فتخاف، فهو يعالج الناس، إن أقبلوا على رحمته، وإن قصَّروا أو تساهلوا أراهم من شدته.

ويقول بعض العلماء: إن المنتقم هو الذي يقصم ظهور العتاة، وينكّل بالجناة، ويشدّد العقاب على الطغاة.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٨].

إنه النمروذ فتروي الأخبار أن بعوضة دخلت إلى أنفه واستقرت في أعلى خيشومه فأحدثتْ من الألم ما لا يطاق، والإنسان ضعيف، فلو أن قناة الدمع سُدت لأصبحت حياته لا تطاق، ولو أن المستقيم أصيب بالشلل أو أصيب بورم خبيث واستؤصل، وإذا استؤصل فسوف تحوّل الفضلات إلى فتحة في جدار البطن، وهذا شيء لا يُحتمل... ولو أن هذه الجفون أطبقت بعضها على بعض ولم ترفع إلا بيدك، لغدا الأمر فاجعة، وربنا عز وجل لديه آلاف الأدوية بل مئات ألوف الأدوية لعلاج العصاة والعتاة، فإذا كنت في طاعته فأنت في ظله وحفظه ورحمته وفضله.

والمنتقم هو الذي يقصم ظهور العتاة، وينكل بالجناة، ويشدد العقاب على الطغاة، ولكن بعد الإعذار والإنذار، إن الله جلت حكمته لا يبطش من أول مرة، بل يعطي فرصة، وزمناً كي تتوب، وترجع.

وبعد الإعذار والإنذار، فالله يعطي تنبيهاً، وهناك من يقود مركبته في أحد طرق دمشق، فأصيب بأزمة قلبية فانكبَّ على المقود وزوجته إلى جانبه فصرخت، ومن غرائب الموافقات، أو من توفيق الله عز وجل أن صديقه خلفه بسيارته، فخرج من مركبته وحمله على المقعد الخلفي وأخذه إلى المشفى فأدخل إلى غرفة العناية المشددة، وبعد يومين أو ثلاثة، شعر بالخطر وقال: ائتوني بآلة التسجيل، فقال: المحل الفلاني لأخي وليس لي لقد اغتصبته منه، والبيت الفلاني لفلان، والأرض الفلانية لفلان، وكلّ الأراضي والبيوت والحوانيت التي اغتصبها اعترف بها على هذا الشريط، وبعد يومين أو ثلاثة، شعر أنه عاد إلى ما كان من عافية، وغدا طبيعياً جداً، فقال: أين الشريط؟ ائتوني به، فكسره وعاد إلى ما كان عليه، وبعد ثمانية أشهر جاءت النوبة القاضية.

فالله عز وجل متى يبطش؟ ومتى يهلك؟ ومتى ينتقم؟ بعدما يعذر وينذر، وبعد الإعذار والإنذار وبعد التمكين والإمهال.

بعض العلماء يرى أن الانتقام نتيجة الكراهية، كراهية وعقوبة، لكنك إذا قلت: إن الله يكره، فالله لا يكره الإنسان لأنه إنسان بل يكره عمله فقط، فلا يغضب منه ولا يغضب عليه، ولا يكرهه بل يكره عمله، وتقريباً للمعنى أضرب هذا المثل، فالأب مع ابنه المنحرف يكره انحرافه وهو ابنه، فإذا عاد إليه عاد إلى مكانته الطبيعية، إذاً فالكراهية لشيء والعقوبة عليه أيضاً كراهية وعقوبة، إلا أن كراهية الله عز وجل لكماله ولحرصه ورحمته، يكره العمل الذي يفضي بصاحبه إلى النار، فانتقام الله تعالى من العصاة على ما كره منهم ليصلحهم وليوصلهم إلى أبوابه وأبواب طاعته، والكراهة في حق الله تعالى ذمُّ الفاعل والحكم عليه بالعقوبة، أمَّا أن يكره الله عز وجل إنساناً فيتحمَّل مشقة منه، فهذا لا يليق بالله أبداً، إذ لا نفع ولا ضرر يصل إليه ولا شيء ينال منه، إنه فوق كلِّ شيء.

وإذا غضب الله عز وجل فلا يغضب لنفسه ولا يغضب على خلقه، بل يغضب لأعمالهم التي سوف تشقيهم، إنه غني عنهم، ولو أن العباد جميعاً على أتقى قلب رجل واحد منهم ما زاد في ملك الله شيء.

وقيل: المنتقم هو الذي يشدد العقوبة على الظالمين، ويسلط البلاء على المجرمين، وهو الذي يرسل رسله بالآيات والإنذارات، فمن لم ينتفع بالإنذارات سلط عليه العقوبات.

وشيء مألوف؛ أن يقول لك الطبيب مثلاً: لا تدخن فالدخان يسبب الأمراض الخبيثة، وأمراض القلب والأوعية، وأمراض الموات «الغزغرين»، فإن لم تستجب لهذه النصيحة يداهمك المرض المزعج وتقع فريسة له.

وقال بعضهم: هو الذي يرسل رسله بالآيات والإنذارات، فإن لم ينتفع بها الإنسان سلط عليه العقوبات والانتقامات.

ورود الانتقام في القرآن الكريم

الانتقام مادة لغوية؛ وردت في القرآن الكريم في آيات كثيرة قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ ﴾ [المائدة:٩٥].

ومن عاد، واستمرأ المعصية، وبالغ فيها، ولم يرتدع، فينتقم الله منه، أي: يعاقبه، يعاقبه ليرحمه.

كما وردت كلمة انتقمنا منسوبة إلى الله جل جلاله في الأعراف: ﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٣٦].

موسى رسول كريم جاء فرعونَ ليدعوه إلى رب كريم، جاء بالبينات والمعجزات والآيات، جاء لينهاه عن قتل أبناء بني إسرائيل واستحياء نسائهم، فما كان من فرعون الطاغية إلا أن جمع جنوده ولحق بموسى ومن معه، قال: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الشعراء:٥٤-٥٥].

تصور فئة قليلة خائفة وجِلة وضعيفة مستضعَفة، وراءها فرعون بجبروته وقوته وطغيانه وجنوده، والبحر أمامها، وفرعون وراءها، والهلاك محقق: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء:٦١-٦٢].

ثم قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الشعراء:٦٦] أي: فرعون وقومه.

ولحكمة بالغة، أنقذ الله جسده إلى الشاطئ، لأن هذا الجسد لو لم يصل إلى الشاطئ لما صدق الناس أنه غرق، وهو يدعي الألوهية، قال جل شأنه: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يونس:٩٢].

والذي سمعته أنه محنط في متحف مصر، وأغلب الظن أن هذا المحنط في متحف مصر الفرعوني هو نفسه فرعون موسى، لأن آثار الملح موجودة في فمه، هكذا يقول بعض العلماء: ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) ﴾ [الأعراف:١٣٦].

﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ (٧٩)﴾ [الحجر:٧٩].

الأنبياء على صراط واضح مستقيم:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ بكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أهلِ الكُتُبِ فَقَرَأَهُ على النَّبِيِّ ﷺ فَغَضِبَ فَقَالَ: «أَمُتَهَوِّكُونَ فيها يا ابْنَ الخَطَّابِ؟! وَالذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى كانَ حَيّاً مَا وَسِعَهُ إلا أنْ يَتَّبِعَنِي» [مسند الإمام أحمد].

وفي سورة الروم: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾ [الروم:٤٧].

ويقول الله عز وجل: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات:١٧٣].

كن جندياً لله وانتظر وعد الله بالنصر، فلا يمكن لمن كان جندياً لله أن يُهزم، وإذا هزم الإنسان فذلك يرجع إلى خلل في جنديته لله عز وجل، وليس معنى أن يكون جندياً لله أن يحارب فحسب، فالكلمة لها معنى واسع جداً، فأنت إذا وظَّفت علمك وخبرتك في سبيل الله، في سبيل إحقاق الحق فأنت جندي لله، أحياناً تقول لإنسان كبير: نحن جنودك، وليس هناك حرب، ونحن أعوانك، ونحن في خدمتك، وطاقاتنا مرهونة لديك، فكيف إذا كنت جندياً لله، والمؤمن الصادق، علمه وخبرته وماله ولسانه قلمه واختصاصه وحرفته ومهنته ومكانته وميزاته وخصائصه كلُّها موظَّفة في

سبيل الله، ومعظم الناس يأكلون يشربون ويعملون ويتَّجرون ويربحون إلا المؤمن، كلُّ هذه الأفعال الاعتيادية التي يفعلها كلُّ الناس ولا أجر لهم، لكن إذا فعلها المؤمن تُحسب له أعمالاً صالحة لأنه يبتغي بها وجه الله.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٠٤) ﴾ [النساء:١٠٤].

وعندما يسهر الكفار ويخططون ويبذلون الجهود الكبيرة والجبارة ليطفئوا نور الله عز وجل، وليضيقوا على المؤمنين، ليضعفوا دوائر الحق، فهذا جهد ووقت وطاقة وذكاء وعلم وإمكانات وأموال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) ﴾ [الأنفال:٣٦].

ومما ينبغي على المؤمنين فهمه: ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ﴾، لكن: ﴿ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٠٤) ﴾.

أضرب لكم مثلاً آخر؛ شابان أزمعا على أن يتزوجا، هل من السهل تأمين بيت، لقد غدا حال الشاب أنه لا يصل إلى مفتاح بيت إلا بشق النفس، وقد يكون بيتاً مؤلفاً من غرفة واحدة في أطراف المدينة البعيدة، فإذا ملك هذا المفتاح فكأنه ملكَ مفتاح الجنة، هذا الشاب الذي يسعى للزواج يبذل جهداً كبيراً جداً، فإذا أراد من الزواج المتعة واللذة فقط، فهو يألم كما يألم أيُّ شاب مؤمن، ولكنَّ المؤمن يرجو من الله في زواجه ما لا يرجوه غير المؤمن، فالمؤمن يطمع في أن يرزقه الله ولداً صالحاً ينفع الناس من بعده، ويطمع في زوجة يأخذ بيدها إلى الله، وأن يؤسس عشّاً إسلامياً نموذجياً لكلِّ من يقتدي به، وهذه هي النقطة الدقيقة، فالأعمال الاعتيادية التي يفعلها معظم الناس

مكرهين لا أجر لهم عليها عند الله عز وجل، إلا أنَّ المؤمن كلُّ نشاطاته، وكلُّ طاقاته وإمكاناته موظَّفة في خدمة الحق.

وجاء في سورة الزخرف: ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢٥) ﴾ [الزخرف:٢٥].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثاً، ثم أتاهم، فقام عليهم، فناداهم، فقال: يا أبا جهل بن هشام، يا أميَّةَ بن خَلَفَ، يا عُتبةَ بن ربيعةَ، يا شيبة بن ربيعة، أليسَ قد وجدتُم ما وعدَ ربكم حقّاً، فإني قد وجدتُ ما وَعَدني رَبي حقّاً؟ فسمِع عمرُ بن الخطاب قولَ النبيِّ ﷺ، فقال: يا رسولَ الله، كيف يَسْمَعُوا؟ وأنّى يُجِيبُوا، وقد جيَّفُوا؟ قال: والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمعَ لما أقولُ منهم، ولكنهم لا يَقْدرُونَ أن يجيبوا، ثم أمر بهم فسُحِبوا، فالقوا في قَليب بدر [أخرجه مسلم].

﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) ﴾ [الزخرف:٥٥].

تلاحظون طغياناً وبغياً وعدواناً وكبراً وغطرسة، وقد سمعتم قبل سنوات كيف أن اليهود أرادوا في ليلة القدر أن ينفذوا عدواناً مجرماً على لبنان، وكيف انتقم الله منهم، إنهم مئة من نخبة الضباط لا يمكن أن يعوَّضوا في أقل من عشر سنين، سمعوا ما في الصندوق الأسود فقال الطيار في الطيارة العليا المحلقة، إنني أسقط ولا أدري لم أسقط! نزل فوق الطائرة السفلى التي ترافقها فاحترقتا ونزلت الطائرتان فوق مستعمرة فأهلكت هؤلاء. لقد أرادوا أن يعتدوا في ليلة القدر... ﴿انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾، ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢)﴾، ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) ﴾.

وفي آل عمران: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ (٣) مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤) ﴾ [آل عمران:٣-٤].

هناك نقطة عميقة الدِّلالة، يجب أن يكون في قلبك خوف من الله، وتعظيم، وحب له سبحانه في وقت واحد: «قال يا رب: أي عبادي أحب إليك أحبه بحبك؟ قال: أحب عبادي إليّ تقي القلب، نقي الكفين، لا يأتي إلى أحد سوءاً، ولا يمشي بالنميمة، تزول الجبال ولا يزول، أحبني وأحب من يحبني وحببني إلى عبادي، قال: يا رب إنك لتعلم أني أحبك وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى عبادك؟ قال: ذكرهم بآلائي وبلائي ونعمائي»

فالدعوة إلى الله يجب أن تتحرّك في هذه المتوازيات الثلاثة، ويجب أن تبين للناس عظمة الله عز وجل، من أجل أن تطيعه تعظيماً، وينبغي لك أن ترى فضله عليك من أجل أن تحبه، وينبغي لك أن ترى بطشه وشدته وانتقامه أحياناً من أجل أن تخاف منه، ولا بد من أن يجتمع في قلب المؤمن الصادق تعظيم عن طريق الآيات، ومحبة عن طريق النعم، وخوف عن طريق العقوبات، فالعقوبات لها معنى، والنعم لها معنى، والآيات لها معنى، تعظمه وتحبه وتخاف منه، والآية الكريمة: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنبياء:٩٠].

رغباً راغبين ورهباً خائفين، نرجو رحمتك ونخشى عذابك.

ثم انظر في هذه الآية الكريمة في سورة إبراهيم: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ [إبراهيم:٤٧].

﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾، يرخي الحبل، فيظنُّ الإنسان أنَّ أحداً لن يستطيع أن يوقفه عند حدِّه، يُشَدُّ الحبل فجأة فإذا هو في قبضة الله، فمن العاقل؟ ومن الموفَّق؟ إنَّه من يدخل في حساباته عظمة الله عز وجل، وقوَّته وبطشه.

قال بعض العلماء: «صفة الانتقام من صفات الجلال والقهر»... أما الرحمن الرحيم المنان؛ فهذه أسماء الرحمة... وأمَّا الجبار المتكبر القوي؛ فهذه من أسماء الجلال والقهر.

وإن البحر جميل جداً إذا كان هادئاً، فإذا هاج الموج فهو يمثل اسم الجبار، والله عز وجل يتجلّى على شيء باسم الجمال، فإذا هو يأخذ بالألباب، ويتجلى على شيء آخر باسم القهّار... فانظر إلى الزلازل، فهناك شيء مخيف رهيب: ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الحجر:٧٤].

بين الحين والحين هناك زلازل، يقال: ثلاثة آلاف متشرد، ألف وخمسمئة قتيل، في أربع ثوان، ست درجات على مقياس رختر، انتهى كلُّ شيء إلى قتل ودمار، أبنية انهارت وأنابيب تفجرت وحرائق اشتعلت. ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ ﴾.

وفي الزمر: ﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الزمر:٣٧].

والناس يستهزئون أحياناً بكلمة: إني سأشكوك إلى الله، وحبذا لو تعرفون أبعاد هذه الكلمة، ويقول لك أحدهم: سأشكوك إلى الله ولن أسامحك، والله لو تعرف أبعاد هذه الكلمة لارتعدت فرائصك.

وهذه امرأة كانت تنتقد عمر بن الخطاب، فاستدعاها في اليوم التالي وأعطاها مبلغاً كبيراً وكتبت له براءة من تقصيره، فقال: ضعوها في كفني، فأنا استسمحت منها.

والإنسان حينما يعرف الله عز وجل ويقف عند حدوده، لا يؤذي أحداً من خلقه لأن الله منتقم، ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الأعراف:١٣٦].

والإنسان حينما يكون جاهلاً يتطاول ويتجاوز حدوده، وقد سمعت مئات الحوادث والحكايات حول هذا الموضوع، فعندما يتجبّر الإنسان ويتكبّر ويتعالى ويتغطرس، الله جل جلاله لا بدَّ من أن يرى الناس فيه يوماً، ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [السجدة:٢٢].

ولو رأيت إنساناً يبيع ويشتري ويربح ملايين ويركب أفخر المركبات ويستطيل على خلق الله، ويتحدى عظمة الله عز وجل، ولم يعبأ بشيء من أفعاله، وعشت أمداً طويلاً فلم ترَ فيه يوماً يسوؤه، فتذكر أن الله عز وجل يقول: ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الزخرف:٤١].

ولا بد من أن ننتقم منهم، سواء أرأيت هذا أم لم ترَ، وكفاك نصراً على عدوك أنه في معصية الله: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الدخان:١٦].

وهذه بلدة في الساحل الأطلسي اسمها أغادير كانت من أفسق البلدان في المغرب، كلُّها نوادي عراة وخمور وزنى، ترتكب فيها كلُ أنواع المعاصي، وخلال عشرين أو ثلاثين ثانية جعلها الله رأساً على عقب... ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾.

ومن لم يعرف أسماء الجلال وأخلاق الكبير المتعال وقع في الضلال والنكال، فإن عرفت أنه كريم رحيم فاعرف أنه منتقم شديد عظيم... دققوا النظر في هذه الآية: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الحجر:٤٩-٥٠].

زرت مرةً رجلاً في مرض شديد فقال لي: والله -ويكاد قلبه يعتصر آلاماً- أنا مصاب بمرضين، فأدوية هذا المرض تؤذي الآخر وأدوية الآخر تؤذي الأول ولا أدري ماذا أفعل.

وأحيانا تتلاحق المصائب من كلِّ جانب وتحيط بالإنسان، ولكن الخوف له وظيفة تربوية. قال الفضيل رحمه الله:

«من خاف الله دلَّه الخوف على كلِّ خير».

ونحن مؤمنون بأن هناك خوفاً مقدساً، فأروع أنواع الخوف أن تخاف من الله، والنبي ﷺ سيد الرسل، أرسل خادمه بحاجة فغاب طويلاً، فلما عاد، قال له: «لولا

القصاص لأوجعتك بهذا السواك» [ابن سعد في الطبقات، عن أم سلمة]، وهل السواك يؤلم الطفل؟ لكن الإنسان بنيان الله، وملعون من هدم بنيان الله.

نصيب المؤمن من معرفته بالله المنتقم

المؤمن الكامل ينتقم من أعداء الله تعالى، فلا يجاملهم ولا يعينهم على معصية، ولا يغطي انحرافهم، ولا يباركه، ويقف أمامهم بجرأة ويتعالى عليهم.

وفي الآية التالية يصف الله عز وجل المؤمنين قال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) ﴾ [المائدة: ٥٤].

فلا تكن عوناً لإنسان منحرف، فمن أعان ظالماً سلطه الله عليه، ومن شرك في دم حرام بشطر كلمة، جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه «آيس من رحمة الله» [الطبراني في الكبير، عن ابن عباس].

تخلق بكمالات الله، فهذا إنسان منحرف، فاسق فاجر، لا تبجِّله ولا تعظِّمْه، ولا تقل فيه كلاماً لست مقتنعاً به.

إلهي! أنت المنتقم من أعدائك الظالمين، القاهر بسطوتك المجرمين، قد انتقمت من النمرود وفرعون وهامان ومحقت أهل الظلم والطغيان.

فإذا خفت من الله وصلت إلى كل خير، وأعظم خوف أن تخاف الله، ورأس الحكمة مخافة الله، والإيمان قيد الفتك، ولا يفتك مؤمن.

تصور هرة ينتقم الله لها!

حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ رَسولِ الله ﷺ فَذَكَرَ أَحَادِيثَ مِنْهَا وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ مِنْ جَرَّاءِ هِرَّةٍ لَهَا -أَوْ هِرٍّ- رَبَطَتْهَا فَلا هِيَ أَطْعَمَتْهَا، وَلا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تُرَمْرِمُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ حَتَّى مَاتَتْ هَزْلاً» [صحيح مسلم].

إنك جامع الناس

من أفعاله جل جلاله: الجمع.

قال تعالى: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٩﴾ ﴾ [آل عمران:٩].

وفي سورة النساء قال تعالى: ﴿ وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾ [النساء:١٤٠].

ويقول أيضاً: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾ ﴾ [النساء:٨٧].

وفي سورة الأنعام قال تعالى: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٢].

وفي سورة الكهف قال تعالى: ﴿ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ ﴾ [الكهف:٩٩].

وفي سورة سبأ قال تعالى: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سبأ:٢٦].

وفي سورة الجاثية قال تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الجاثية:٢٦].

وفي سورة الشورى قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الشورى:٢٩].

وفي التغابن قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ [التغابن:٩].

من معاني الجمع

الجمع هو الضَّمُّ، جمعتُ يديَّ، أي: ضممتُهما، تجميع أجزاء الشيء بعضها إلى بعض هو الجمع، ويوم الجمع هو يوم القيامة، حيث يجمع الله عز وجل كلَّ الخلائق للحساب، فالله سبحانه وتعالى في هذا اليوم يجمع الأولين والآخرين، ويجمع الإنس والجن، ويجمع أهل السماء وأهل الأرض، ويوم الجمع أيضاً يجمع الله سبحانه وتعالى العبدَ وعملَه.

قد تلتقي بإنسان في مكانٍ ما يقول لك: اسمي فلان، وأحمل الشهادة الفلانيّة، ولي المؤلَّف الفلانيّ، فلو طلبت إضبارته في دائرته لوجدت هناك عقوبات وأعمالاً لا تُرضي، فأنت لم تكتشف حقيقته، أما إذا جُمع مع أعماله فإنَّ التقييم يكون صحيحاً.

أعود وأقول: يوم الجمع يوم القيامة، يجمع الله فيه بين الأولين والآخرين، بين الإنس والجن، بين أهل السماء وأهل الأرض، يجمع بين العبد وعمله فقد قال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء:١٤].

الإنسان أحياناً يُفتضَح في مكان فينتقل إلى بلدة أخرى، وفي هذه البلدة لا أحد يعرفه، أمَّا إذا انتقلت المعلومات عنه إلى تلك البلدة فقد جُمع مع عمله، شيءٌ مخيف أن يُجمع الإنسان مع عمله، أن يكون عمله كلُّه مسطوراً في كتاب، وأنَّ هذا الكتاب يرافقه إلى أيِّ مكانٍ انتقل إليه.

وسُمِّيَ يومَ الجمع؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى يجمع بين الظالم والمظلوم، بين القوي والضعيف، بين المعطي والآخذ، بين المتكبِّر والمتواضع، بين القوي الظالم والمستضعف المظلوم، يجمع بينهم ليقتصَّ الله للضعيف من القوي، للمظلوم من الظالم، للمستضعَف من المستكبِر، ويجمع الله سبحانه وتعالى في هذا اليوم بين كلِّ نبيٍّ وأمَّته، كلُّ نبيٍّ يأتي مع أُمَّته ليكون شهيداً عليهم فقد قال تعالى: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [المائدة:١١٧].

ويجمع الله عز وجل في هذا اليوم بين ثواب أهل طاعته، وعقاب أهل معصيته، وسمّى الله سبحانه وتعالى يوم القيامة يومَ الجمع، لأنَّه يجمع فيه كلَّ هذه الخلائق من أوَّلها إلى آخرها، يجمع الإنس والجن، يجمع أهل السماء وأهل الأرض، يجمع كلَّ عبدٍ مع عمله، ذلك يوم الجمع.

فأحياناً تقف عقبة في سبيل إحقاق الحق، ذلك أنَّ الطرف الآخر لم يُبلَّغ لعدم وجود عنوان معروف للتبليغ عليه، فماذا يفعل المظلوم؟ أقام دعوى، فكيف يحضر الطرف الآخر ويأتي به إلى ساحة القضاء وهو ليس له عنوان وإبلاغه مستحيل؟ لكن الله سبحانه وتعالى ولله المثل الأعلى يجمع، يجمع القوي مع الضعيف، والظالم مع

المظلوم، والمستكبر مع المستضعَف، هذا معنى... لأنَّ يوم القيامة هو يوم الجمع، فالله سبحانه وتعالى -جامعٌ، يجمع كلَّ هذه الخلائق ليحاسبها.

والله سبحانه وتعالى جمع الكمالات كلَّها، ذاتاً، وصفاتٍ، وأفعالاً، وكما تعلم أنَّ كلَّ إنسانٍ يتفوَّق في جانبٍ من جوانب الكمال، أمَّا أن يجمع الكمالات كلَّها فهذا مستحيل، أما أن يجمع الاختصاصات كلَّها فهو أشدُّ استحالةً، أمَّا أن يجمع الحِرف كلَّها فمستحيل، أما أن يجمع الخبرات كلَّها فمستحيل أيضاً.

فالإنسان له حرفةٌ واحدة، واختصاصٌ واحد، وتفوُّق واحد، واهتمام واحد، ونشاط واحد، أما أن يجمع كلَّ الكمالات، يجمع كلَّ الاختصاصات فلا، فعندما يتقن الإنسان عملين يُدهشنا... نقول: ما شاء الله! هذا له اختصاص علمي وحرفة يدوية، أو تجارة وتدريس، يعجبنا أن يجمع الإنسان بين شيئين.

لكنَّ الله سبحانه جلَّ في عُلاه جمع الكمالات كلَّها، أجل جمع كل ذلك، أسماؤه كلُّها حسنى... فالإنسان لا يستطيع أن يتفوَّق إلا في جانب، إلا أنَّ النبي ﷺ جمع الكمالات كلها، جمع الكمالات البشرية كلَّها، وكلُّ صحابيٍّ من صحابته -حاز على بعضها، فهذا تفوَّق في شجاعته، وهذا في حلمه، وهذا في جوده، وهذا في عفوه، وهذا في عبادته، وهذا في قيادته، لكنَّ النبي ﷺ كان بطلاً في كلِّ الاختصاصات، فلذلك مُدح فقيل فيه:

وأجمل منك لم ترَ قطُّ عيني وأكمل منك لم تلِدِ النساءُ

كان ﷺ في أعلى درجات الأدب، في أعلى درجات الحلم، في أعلى درجات الرحمة... في أعلى درجات الوقار، في أعلى درجات الهيبة، في أعلى درجات العلم.

يا أيُّها الأُميُّ حَسْبُكَ رتبةً في العلمِ أن دانت لك العُلماءُ

فالنبيُّ ﷺ جمع هذه الكمالات البشرية كلّها، والله سبحانه وتعالى جمع الكمالات كلَّها في ذاته، وفي صفاته، وفي أفعاله.

وكمثالٍ في حياتنا الواقعية أن يجمع إنسان مئة ألف من الناس دفعة واحدة فهذا مستحيل فقد يجمع خمسة آلاف، ثلاثة آلاف، فجمع الناس يحتاج إلى طاقات كبيرة جداً، يحتاج إلى ملكات قيادية، يحتاج إلى تفوُّقٍ، من أجل أن تجمع الناس إليك.

كم من إنسان في هذه الأرض؟ ستة آلاف مليون كلُّهم من بنيةٍ واحدة، والدليل أنَّ الدواء الذي يُصنع في كندا يستعمل في أستراليا، وأنَّ المسكِّن الذي صنع في فرنسا يؤثِّر في اليابان، وأنَّ الدواء المضاد للالتهاب إذا صنع في اليابان يؤثِّر في البرازيل، فمعنى ذلك أنَّ بنية الخلق واحدة، فالله تعالى جمع بين المتماثلات، إلا أنه من سعة الله عزَّ وجلَّ أنَّ كلَّ إنسانٍ نسيج وحده، فالإنسان لكرامته على الله عز وجل جعله فرداً فهو فردٌ في شكله، فردٌ في قِوامه، فردٌ في ملامحه، فردٌ في لونه، فردٌ في قُزحيَّة عينه، فردٌ في تركيب دمه، فردٌ في بصمته، فردٌ في نبرة صوته، فالله عز وجل جامع وواسع، جمع المتماثلات وواسعٌ جعل كلَّ إنسانٍ نسيج وحده، وله طابعٌ خاص لا يُشركه فيه أحد.

أما المتباينات... فقد جمع بين السماء والأرض، والطول والعرض، وجمع الماء... البحر واليابسة... فعند الساحل تجد هذا هو البحر وهذه هي اليابسة، يجمع بين المتباينات... ماءٌ ويابسة، بحرٌ ونهرٌ، جبلٌ وسهلٌ، سهلٌ وغورٌ، ساحلٌ وداخل... فالأشكال متباينة، والطعوم متباينة، فكم لوناً موجوداً في الكون؟ لو نظرت إلى باقة من الورد فكم لوناً فيها؟ قرأت قبل أيام أنَّ في البحر وحده مليون نوع من الأسماك أي ألف ألف نوع من السمك، هذا جمع بين المتباينات.

فتجد سمكة شفافة صغيرة من أسماك الزينة، وسمكة سوداء، وأخرى عملاقة طولها ثلاثون متراً، وتزن مئة وخمسين طناً وهو الحوت الأزرق ويعيش في المحيط الجنوبي، ويستخرج منه تسعون برميلاً من زيت الحوت، وخمسون طناً من الدهون، وخمسون طناً من اللحم، ويزن لسانه أربع مئة وخمسين كيلو غراماً مثلاً... وإذا أرضع وليده فالرضعة الواحدة تبلغ ثلاث مئة كيلوغرام، وإذا أراد أن يأكل فإنه يلتهم في الوجبة المعتدلة أربعة أطنان، فبداخل البحر حوت وتعوم فيه سمكة سوداء طولها سنتيمتر واحد تزيينية.

وهناك سمكةٌ كأنها باقة من الورد، وهناك سمك يمشي على أربعة أرجل في أعماق المحيطات وقاعها، وهناك سمكٌ يدافع عن نفسه بشرارة صاعقة كهربائية تبلغ ستة آلاف فولط، وهناك سمك يهرب من عدوِّه عن طريق سحابة سوداء كأنها حبر أسود، وهذا الذي يستخرج منه حبر المطابع، وهناك سمك له ضوء يهتدي به أثناء سيره في أعماق المحيطات ويجذب إليه فريسته ليأكلها، فإذا قرأ الإنسان موسوعة عن البحار يرى العجب العجاب، وهناك سمكةٌ من نوع الأفعى طولها سبعة وعشرون متراً، وهناك خنزير البحر، وقنفذ البحر، والدلفين وهو من أذكى الحيوانات وهو صديق الإنسان، فسبحانه وتعالى جعله في السواحل ومهمته أن يُنقذ الغرقى، وأن يدُلَّ ربابنة السفن، فهو كالقائد، وهو أليفٌ للإنسان بدرجة غير معقولة وصديقٌ له، فإذا ما رأى غريقاً أنقذه، أو تائهاً أرشده وهو مشهور.

فكم نوعاً من الأسماك؟ وكم نوعاً من الأطيار وكم نوعاً من الأزهار؟ كم نوعاً من الأبصال؟ الجواب أنه كثير كثير... فقد جمع الله بين المتماثلات كالإنسان، فهو متماثل في بُنيته مختلف في طباعه، والمتباينات كذلك... فتخيَّل كم شكلٍ لورقة النبات... فهناك ورقة مثل الإبرة وورق دائري، وورق مثلَّث الشكل، وورق مستطيل، وورق له طرف مسنن، وورق له طرف مستقيم، وورق له ثنيَّات كورق بعض نخيل الزينة، فلو حاولت أن تستقصي أشكال أوراق النباتات فلن تنتهي منها، فورق صغير، ونبات دائم الخضرة، ونبات متساقط الأوراق، ونبات جذري، ونبات ساقي، ونبات أساسه الورق، شيء لا يُعدُّ ولا يُحصى، فإذا دخلنا في شرح نبات واحد كالقمح مثلاً فكم نوعاً له؟ ثلاثة آلاف وخمس مئة نوع... والعنب له ثلاث مئة وثلاثون نوعاً... فليس هناك فاكهة أو محصول زراعي لا ينقسم إلى مئات بل بضع مئات من الأنواع.

وبعد،... فالله تعالى جمع بين المتباينات، وجمع بين المتماثلات، وجمع بين المتضادات، فأحياناً هناك شيءٌ مضادٌ للشيء الآخر... كالحرارة والبرودة، ظلامٌ دامس ثم بعد حين شمسٌ مشرقة.. يا رب أين الليل إذا جاء النهار؟! ففي العصر شمس جميلةٌ

جداً وهي شمس الأصيل، وفجأةً غابت وأصبح الظلام دامساً، وأين النهار إذا جاء الليل؟ ويقال: درجة الحرارة أربعون درجة مئوية، وفجأة تأتي موجة من البرودة فتلطّف الجو كثيراً، موجة من الحر فيتخفَّف الناس من ثيابهم وفجأة تعقبها موجة من البرد... فحرٌّ وبرد، ورطوبة ويبوسة، هذه كلُّها متضادات يجمع بينها.

فهو سبحانه يجمع بين المتضادات، وبين المتباينات، وبين المتماثلات.

شيء آخر... الجمع مع الوساطة... فمثلاً الحجر، وهو أساسي في حياتنا، فبناؤنا من الحجر، والحديد هذا أساسي كذلك في حياتنا، فكيف تستطيع أن تجمع بين الحديد والحجر؟ لو أردت أن تُثبت سوراً حديدياً على جدار حجري فكيف ذلك؟ خلق الله لك معدناً للجمع بينهما وهو معدن الرصاص، فتجد الرصاص ينصهر ببساطة عند الدرجة مئة مئوية ويصبح سائلاً، فإذا حفرنا حفرةً في الجدار الحجري كشكل ثمرة الكمثري -الإجاصة- وسكب فيها الرصاص الذي من خصائصه التمدُّد بعد البرودة، فإذا تمدد ليس في الأرض جهةٌ تستطيع قلع هذا القضيب الحديدي من الحجر إلا بقطعه بالمنشار. فكيف جمع بين الحجر والحديد؟ عن طريق معدن الرصاص.

وقد تجد متضادات جُمعت بعضها مع بعض من خلال أجسام ثالثة وسيطة.

هناك شيء آخر... فأحياناً سبحانه وتعالى يجمع ولكن مع الجمع هناك تنسيق... فليس من السهولة أن تكون مديراً لمؤسسة ويعمل لديك مئتا موظَّف، وكلُّهم في مكان واحد، وكلُّ إنسان يعمل في عمله دون أن يتضارب عمل مع عمل آخر، أو أن يتناقض عمل مع عمل، أو يزدوج عمل مع عمل، وهذا هو الجمع مع التنسيق.

فكذلك الحيوانات والحشرات... فالنحل يتحرك نحو حقول الأزهار، فكيف يتحرك؟ تجد النحلات المستطلعات تتعرف بادئ ذي بدء إلى موقع الحقول وتعود وترقص، وطريقة رقص هذه النحلات يُحدِّد بُعد الحقل عن خلية النحل، وتواتر الرقصة يحدِّد غزارة المحصول، وجهة الرقصة تحدِّد جهة المحصول، فهذه النحلات

تنظر إلى الراقصات فتعرف جهة الحقل، وبُعد الحقل، وغزارة الحقل، فتنطلق النحلة وتقع على الزهرة وتمتصُّ رحيقها، وبينما هي تمتصُّ رحيقها تُلقِّحها، فالنحل له وظيفة التلقيح أيضاً، ولعلَّها من أخطر الوظائف، النحلة حينما تعود إلى خليَّتها... إذا كان موسم الأزهار كثيفاً فلا تدخل إلى الخلية بل تُعطي حمولتها من الرحيق وحبوب اللقاح لنحلةٍ على باب الخلية من أجل توفير الوقت... وهناك نحلةٌ حارسة، ونحلةٌ وصيفة، ونحلةٌ منظِّفة، تنظِّف الخلايا، ونحلات تصقلها، ونحلات تُلمِّعها... تنظيف، وصقل، وتلميع.. هناك نحلات مستطلعة، وهناك نحلات مغذِّية، وظائف رائعة جداً وتنسيق بديع، فهناك ملكة واحدة في كلِّ خلية فإذا نافستها ملكةٌ أخرى قُتِلت، والذكور لها وظيفة، والإناث لها وظيفة، والحارسات لها وظيفة، ونحلات موكَّلة بتهوية الخلية، والنحلات الحارسات لا تسمح لنحلة بالدخول للخلية إلا إذا ألقت كلمة السر وإلا تُقتل... فكيف جُمعت هذه النحلات؟ كيف كان التنسيق بينها؟

أحياناً الإنسان إذا كان عنده عشرة موظفين فإذا استطاع أن يجعلهم جميعاً يعملون بتنسيق فيكون إدارياً ناجحاً جداً، أحياناً يكون العاملون كثُراً وهم قليلو الإنتاج، أو قليلو العدد كثيرو الإنتاج، أحياناً القدرة على تشغيل أعداد كبيرة من الأشخاص دون أي تضارب أو ازدواجية ومع التنسيق فهي قدرة عالية جداً، فالله عز وجل جمع الأجزاء ونسَّق بينها.

فمثلاً الإنسان حرٌّ في اختيار مهنته أليس كذلك؟ فتجد مدينة مثل دمشق كم خطاطاً فيها؟ لو أنَّ فيها مثلاً عشرة آلاف خطاط لماتوا من الجوع.. ولكن ليس فيها سوى خمسة أو ستة خطاطين، فمن الذي حدَّد عددهم؟ تجد المهن النادرة أصحابها قلائل، وتجد المهن كثيرة جداً وكلُّ إنسان حر في اختيار مهنته، ولكنك تجد في النهاية تنسيقاً عجيباً، والمهن موزَّعة توزيعاً بالتساوي، فتجد هذا له اتجاه لمهنة الميكانيك، وهذا للدراسة بالجامعة، وهذا للبيع والشراء، وهذا مهندس، وهذا طبيب، وهذا محام، وفي النهاية تجد المحصِّلة أن لدينا أطباء ومهندسين ومحامين وأصحاب حِرَف

ومدرسين ودعاة، فتجد في هذا الكون تنسيقاً عجيباً مع أن الإنسان مخيَّر، فبالرغم من أنه مخيَّر هناك تنسيق عجيب، فالله تعالى جمع عباده وألَّف بينهم، ومعنى التأليف هو التنسيق.

وإليك معنى آخر... أنَّ الله سبحانه وتعالى جمع قلوب الأحباب فقد قال تعالى: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأنفال:٦٣].

فقد جمع القلوب... فزوج وزوجة... فهذا من أسرة وهذه من أسرة، هذا من بيئة وهي من بيئة أخرى، هذا له ثقافة مغايرة وهي لها ثقافة، يتزاوجان، فتجد أقرب إنسان إلى الرجل في الحياة زوجته، وأقرب رجل في حياتها زوجها، فمن ألَّف بين القلوب؟ فقد قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم:٢١].

من آياته الدالة على عظمته، أنّ الإنسان يلتقي مع شبيهه، مع مثيله أو صنفه، مع من يلتقي؟ يلتقي مع من يشبهه في فكره وفي قيمه وفي أخلاقه فمن ألّف بين القلوب ومن جمع بين الشتات؟

لو افترضنا أنَّ طائرة احترقت ومات فيها إنسان، فكيف يجمع الله رفاته؟ رفاته التي احترقت تُجمع يوم القيامة فقد قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿٤﴾ ﴾ [القيامة:٤].

كيف؟... وقد قال تعالى: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [المرسلات:٣٨].

الجمع واسع جداً... جمع خلقه، جمعهم في الدنيا، فقهرهم على أن يجتمعوا... ولننظر متأملين... قهرهم على أن يجتمعوا، فالإنسان مهما يكن ذكياً فهل بإمكانه أن يعيش وحده؟ فهو يحتاج إلى خبزٍ ليأكله، فلو كان يعيش وحده لاحتاج إلى أن يزرع، أن يحرث الأرض وأن يسمِّدها ويقلِّبها ويحصد محصولها، وأن يطحن وأن يخبز فمعنى ذلك أنه

يبذل جهداً مستحيلاً، ويحتاج إلى ثياب، لكنَّ الله سمح لك أن تُتقن حاجة وأن تفتقر إلى الكثير من الحاجات، فأنت مقهور، أن تجتمع فهو الذي جمعنا، قال تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) ﴾ [النساء: ١٤٠].

﴿ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) ﴾.

وقيل: «الله تعالى هو الذي يجمع أجزاء الخلق بعد تفرُّقها عند الحشر والنشر للحساب والجزاء، أو يجمع الخلق في موقف القيامة».

وقال الإمام الرازي:

«هو الذي يجمع قلوب أوليائه إلى شهود عظمته، ويصونهم عن ملاحظة الأغيار برحمته».

يجمع الخلق ليحاسبهم، وأنت من أجل أن تعرف عظمة هذا الاسم حاول أن تدعو مئة شخص لعقد قران، فهذا يحتاج إلى اتصال هاتفي وهذا ليس لديه هاتف، وهذا ذهبت إليه فلم تجده، فالأمر صعب ولا يعرف قيمة الجمع إلا من أراد أن يجمع حتى يخبر المئة مدعو يقول لك: هلكت... فقد بذلت جهداً فوق طاقتي... وهذا فقط للإعلام، فكيف أن يأتوا جميعاً إليك؟ أما ربنا عز وجل فكلُّ هؤلاء الخلق يجمعهم يوم القيامة ليحاسبهم في وقت يسير وعلى صعيد واحد.

قال أحد العلماء: «الجامع في وصفه تعالى بمعنى الحاشر للخلق والناشر لهم يوم القيامة للثواب والعقاب»... يجمعهم ويُحاسبهم... بل إنه يجمع لحومهم المتفرِّقة.. هذا مات في البحر غرقاً، وهذا مات في الجو احتراقاً، وهذا دُفن في صحراء، وذاك دُفن في سفح جبل، حتى لحوم هؤلاء الموتى نفسها تجمع يوم القيامة... وجلودهم المتمزِّقة،

وعِظامهم النخرة، وهو الجامع بين الأشكال والأمثال، وبين المختلفات والأضداد كالجماد والنبات والحيوان.

فمثلاً الماء... فاسأل كلَّ علماء الفيزياء والكيمياء يقولون لك: أوكسجين وهيدروجين وهما غازان، ولكن الهيدروجين شديد الاشتعال والأوكسجين غاز يساعد على الاشتعال، والماء جمع بينهما وبه تُطفأُ النار... فبالماء تطفأ النار، والماء أساسه غازان أحدهما شديد الاشتعال، والثاني يساعد على الاشتعال وقد جُمِعا في الماء، والدليل إذا كان لديك مدفأة تعمل على الوقود السائل، ضَعْ عدَّة نقاط من الماء مع الوقود يجعل الشعلة تتألَّق ويحدث شبه انفجارات لتحلل الماء إلى غازين، وهذان الغازان ساعدا على الاشتعال، حتى أعلمني بعض الإخوة في بعض الأفران يضعون نقطة من الماء بنظام معين مع الوقود السائل ليزداد اشتعاله... فكيف جُمع الأوكسجين والهيدروجين في الماء؟

نضرب لكم أمثلة بسيطة لا تحتاج إلى بحوث علمية... فالدجاجة ماذا تأكل؟ تأكل كلَّ شيء حتى الفضلات، وحتى فضلات الإنسان، وتعطيك بيضاً، وهذا البيض شيء مدهش فهو يحتوي على أربعة عشر فيتاميناً، وبروتينات، ومواد دهنية، مواد كلسية، والدليل أنَّ هذه البيضة تنقلب إلى فرخ صغير، معنى ذلك أنَّ فيها خلقاً كاملاً ففيها من العناصر التي يتكون منها هذا المخلوق كالمنغنيز والحديد والكالسيوم والمواد البروتينية والمواد الدهنية والعديد من المواد... فلو أنَّك قمت بجمع طعام الدجاجة ووضعته بين أيدي أكبر علماء الأرض وأعظم المخابر وتركتهم يعملون ليلاً نهاراً؛ يطحنون ويضيفون مواد كما يشاؤون ولكن في النهاية هل يستطيع الخلق جميعاً أن يصنعوا من هذا الطعام التي تأكله الدجاجة بيضة؟

الأبقار ماذا تأكل؟ تأكل مواد نباتية وتعطينا حليباً، فهل في إمكان أهل الأرض جميعاً أن يصنعوا من هذه الحشائش التي تأكلها البقرة حليباً خالصاً سائغاً للشاربين؟ مستحيل أن يفعلوه... فكيف جمع هذه المواد؟ فقد أطلعني أخ يعمل في هذا المجال على

بحث عن حليب الأبقار، فثدي البقرة عبارة عن غدّة كالقبّة مغطاة بشبكة من الأوعية الدموية بالغة الدقة، وهذه القبّة مجموعة من الخلايا تسمّى الخلايا الثديية، وهذه الخليّة تأخذ حاجتها من الدم، والدم فيه مواد كالبروتين والعناصر المعدنية الكالسيوم والمنغنيز والحديد، وفيه مواد سكرية ومواد دهنية وشحوم، وحمض البول وهو الفرث، فالفرث يطلق على أنواع ثلاث... فرث سائل، وفرث صلب، وفرث غازي، فالإنسان عندما يستنشق الأكسجين، وهذا الأكسجين يتفاعل مع الدم، فتحترق المواد بهذا الأكسجين، والناتج عن هذا الاحتراق هو غاز الفحم، أي: ثاني أكسيد الكربون، وهذا الغاز هو فضلات، أي: فرثٌ غازي، وحمض البول فرثٌ سائل، والروث فرثٌ صُلب فقد قال الله عز وجل: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [النحل:٦٦].

هذه الخلية الثديية، كيف جُمعت هذه المواد فيها بنسب رائعة تتناسب مع حاجة الإنسان؟!

قيل: «وهو الجامع قلوب أوليائه إلى شهود تقديره، ليتخلصوا من أسباب التفرقة فيطيب عيشهم، لأنهم لا يرون الوسائط ولا ينظرون إلى الحادثات إلا بعين التقدير».

وقيل: «الجامع سبحانه هو الذي جمع بين الكثيف واللطيف، جمع بين قلوب المؤمنين، ألَّف بين أرواح المحبين، هو الذي جمع في الإنسان روحاً من نور وجسماً من ظُلمة، ونفساً أمَّارةً وعقلاً مستضيئاً».

فأوضح شيء نأخذه اجتماع القلوب... الأمُّ وابنُها... ما هذا الجمع؟ فقد لا يهدأ لها عيش إلا إذا كان معافى، لا تشبع إلا إذا شبع، ولا تنام إلا إذا نام، لا تسعد إلا إذا سعد، من جمع هذه العواطف والقلوب، ووحّد بينهما؟

أحياناً يجمعك الله جلَّ جلاله مع إنسان على غير ميعاد، فقد تركب سيارة بعد انتظارك لها لفترة ثم تمشي على قدميك فإذا بهذا الإنسان تراه تجاهك، فكيف حرَّكَ الله

هذا الإنسان وحرَّك الآخر وكيف التقيا في ذاك المكان؟ وأحياناً هذا اللقاء قد ينتج عنه خير كثير، وهذا من تسيير الله عز وجل أن يجمعنا على غير ميعاد.

فقد ذكر لي أحد الإخوة وكنا في دعوة فوجدته مهتماً اهتماماً كبيراً بما أقول، فقال لي: في إحدى المرَّات كنت أسير أمام مسجد الشيخ عبد الغني النابلسي، فأذَّن المغرب، فدخلت لأُصلِّي، فوجدت جمعاً غفيراً، فجلست لأستمع إلى درس كنتَ تلقيه... وكنتُ أعاني من مشكلة وأقسم بالله لو أنني حدثتك عن مشكلتي مئة مرة، وكلّفتك أن تضع لها حلولاً، ما سمعت معالجةً لمشكلتي مع طرح حلولها كما سمعتُ في هذا الدرس... وأنا والله لا أعرف هذا الأخ من قبل، فقلت: سبحان الله! كيف ساقه الله إلى باب هذا المسجد؟ وكيف دخل إليه، وكيف أُلهمتُ أن أُعالج قضيةً يعاني منها، وأن أطرحَ حلاً لها؟ هذا الجمع من قبل الله عز وجل... فهذا الموضوع يمكن أن نذكر عليه ألف قصة أو أكثر، كيف أنَّ الله جمعك مع فلان ومع فلان، فقد قال تعالى: ﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) ﴾ [الأنفال:٤٢].

﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ﴾... فأحياناً الإنسان قد يضيع منه شيء يقول: اللهمَّ يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع بيني وبين حاجتي... فيلتقي بحاجته ويجدها.

وأخيراً فإن من آداب العبد إذا عرف أن الله تعالى هو الجامع أن يجمع بين الآداب الظاهرة في الجوارح، والحقائق الباطنة في القلوب، فمن كمُلت معرفته، وحسُنت سيرته فهو الجامع.

لذلك قيل: الكامل من لا يُطفأ نورُ معرفته، ونور ورعه، والجامع من جمع بين البصر والبصيرة، من جمع بين الحقِّ وأهله، والدنيا والآخرة.

وكل شيء أحصيناه كتاباً

من أفعاله تعالى: الإحصاء.

قال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ۝٢٩﴾ [النبأ:٢٩].

وفي سورة مريم: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤﴾ [مريم:٩٣-٩٤].

وفي سورة يس: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ۝١٢﴾ [يس:١٢].

من معاني الإحصاء

حتى نفهم معنى الإحصاء سأذكِّر القارئ الكريم بحديث لرسول الله ﷺ: عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ لله تِسْعَةً وتِسْعِينَ اسْماً مِئَةً إلا واحِداً مَنْ أحْصاها دَخَلَ الجَنَّةَ» [رواه البخاري ومسلم].

يتوهم البعض أنَّ الإحصاء هو العد؛ فمن عدَّها دخل الجنة، وهذا خطأ في فهم كلمة أحصاها، وهناك قاعدة وهي أن الشيء العظيم لا يصح أن يتوقف على شيء

ضعيف، فهذه التفسيرات والتأويلات السطحية لهذا الحديث ليست صحيحة، فدخول الجنة التي خُلق الإنسان من أجلها، والتي كُلِّف أن يعرف الله، وأن يستقيم على أمره لا تكون فقط بِعَدِّ هذه الأسماء، فليس معنى الإحصاء هو العَدّ، وهناك قاعدة في اللغة وهي: الاختلاف في المبنى دليل على الاختلاف في المعنى، قال الله: ﴿ لَقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾ [مريم:٩٤].

فالعدُّ شيء والإحصاء شيء آخر، فالعدُّ معروف تقول: عندي ثلاثون كتاباً، أما الإحصاء فأن تقول: قرأت كلَّ هذه الكتب وفهمتها صفحةً صفحة، قيَّمتها، وعرفت أخطاءها وصوابها وفوائدها؛ فالإحصاء يعني العِلم الدقيق، ولو سألت عن عدد الموظفين في مؤسسة وقيل لك: مئة وثمانون فهذا عَدٌّ، أما إن ذُكرتْ لك أوصافُهم؛ قدراتهم وكفاءاتهم، أوضاعهم المعاشية، والاقتصادية والفكرية صار إحصاءً، فالإحصاء هو الذي يفيد العلم، وهناك مع الإحصاء جزئيات وتفاصيل ومعلومات دقيقة جداً، فالذي يملك معلومات كلية وإجمالية شمولية شيء، والذي يملك أدق المعلومات مع فروعها شيء آخر، فهذا الأخير هو الإحصاء، لذلك قالوا: الإحصاء هو الإحاطة بتفاصيل كثيرة للأشياء وليس هو التعداد، وإذا قلت: هذا أمر لا أحصيه، أي: لا أطيق ضبطه، والله سبحانه وتعالى هو الذي يحصي الأعمال ويعدها يوم اللقاء، فالإنسان لا يستطيع أن يعدَّ كم يوماً عاشه، وكم نزهة قام بها وكم كلمة لفظها؟ لكن الله سبحانه وتعالى يعلم كلَّ أعمالك بدقائقها وتفاصيلها ومناسباتها ودوافعها وأهدافها، كلُّ هذا تراه يوم القيامة رأي العين، وهذا هو معنى الإحصاء.

الله تعالى هو الذي يحصي الأعمال ويهيئها بتفاصيلها ليوم القيامة أو ليوم الحساب أو ليوم الجزاء أو ليوم الثواب والعقاب، وهو العليم بدقائق الأمور وبأسرار المقدور، هو بالمظاهر بصير وبالبواطن خبير، وهو المحصي للطاعات والمحصي لجميع الحالات، والمحصي لأنفاس الخلائق والخبير بخفي الوساوس، وهو العليم بجميع الموجودات

وعدد حركاتها وسكناتها وشؤونها، قال تعالى: ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام:٥٩].

فالإنسان إذا أيقن أنَّ الله عز وجل يحصي عليه كلَّ حركاته وكلَّ أنفاسه وكلَّ أفعاله وكلَّ وساوسه وكلَّ ما تنطوي عليه نفسه من نيات وبواعث وأهداف وصراعات كان شأنه مع الله شأناً آخر.

أحياناً تسأل شخصاً سؤالاً فيقول لك: لا أعرف، وآخر تسأله عن تقدير عدد الطلاب مثلاً فيقول لك: لا بد من أن أراجع السِّجلات، فأكثر الناس لا يستطيعون -طبعاً إذا كانوا صادقين- الإدلاء بمعلومات دقيقة، لأنهم يفتقرون إلى سجلات ومحاسبين، لكن الله سبحانه وتعالى عالمٍ بكل شيء بدقة.

العبد إذا أمكنه أن يُحصي بعلمه بعض المعلومات فهو يعجز عن أكثرها، قال الله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم:٣٤] لم يقل الله تعالى وإن تعدوا نِعَم الله وإنها جاءت بالمفرد، والسؤال هل النعمة الواحدة تُعدّ؟ استنبط العلماء أن النعمة الواحدة لو أمضيت كلَّ حياتك تَعُدُّ خيراتها وبركاتها ومنافعها تنقضي حياتك ولا تنقضي منافعها، فهذا من بلاغة القرآن الكريم ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾؛ فأنتم عاجزون عن إحصائها فلأنْ تكونوا عاجزين عن شكرها من باب أولى، كلكم يعلم أنَّ الإنسان إذا رُزِق مولوداً تتابعت الهدايا الكثيرة، يتمكَّن بسهرة واحدة أن يحصي مجموع هذه الهدايا، أما مكافأة أصحاب هذه الهدايا فيحتاج إلى مال كثير، وإلى جهد كبير، وإلى أمد طويل، ففرق كبير بين إحصاء هذه الهدايا والمكافأة عليها، فربنا عز وجل أثبت لنا عجزنا عن إحصاء النِّعم، فما بالُكم عن شكر النِّعَم! فأنتم عاجزون عن إحصائها، فلأنْ تكونوا عاجزين عن شكرها من باب أولى، لذلك فالإنسان في موضع الإحصاء يبدو ضعيفاً جداً، فأيُّ مدير مثلاً أراد أن يتخذ قراراً مهماً في مؤسسة يحتاج إلى طاقم من المحاسبين والمستشارين، فمعنى الإحصاء في حديث رسول الله هو العلم، عن أبي

هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ لله تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً مِئَةً إلا وَاحِداً مَنْ أَحْصاها دَخَلَ الجَنَّةَ» [رواه البخاري ومسلم].

وقيل: أحصاه الله أي هو المحيط بكل شيء جملةً وتفصيلاً لا تخفى عليه خافية لا في الأرض ولا في السماء، وقال بعض العلماء: هو الذي بالظاهر راقب أنفاسك وبالباطن راقب حواسك، وقيل: هو الحافظ لأعداد طاعتك، العالِم بجميع حالتك، فأنت أمام الله مكشوف ولا تخفى عليه من خلقه خافية أبداً ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ فمن باب أولى كل حركاتك وسكناتك بعلم الله عز وجل، فلما أمر الله عز وجل أم موسى رضي الله عنها أن تلقي ابنها في اليم، كانت حركات الموجات وحركة الصندوق بعلم الله عز وجل، وسَوْقه إلى الشاطئ كان بعلم الله عز وجل، ونزول امرأة فرعون بالذات في هذه اللحظة بعلم الله عز وجل، فهذا هو الإحصاء؛ علمٌ بالدقائق والتفاصيل، فأكثر الناس علمهم بالكليات والإجمال، أما التفاصيل فيقول لك: لا أعرف، فتركيب الدواء مثلاً يمكن أن يقال عنه: هو نافع لكذا، أما عن تفاصيله فعليك الرجوع إلى التعليمات الموجودة بالوصفة، إذاً العالِم بالدقائق هو الذي يستلزم الإحصاء، الإمام الرازي يقول: إن هذا الإحصاء راجع إلى علم الله سبحانه وتعالى بعدد أجزاء الموجودات وعدد حركاتها وسكناتها.

﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾ [هود:٦].

فالدابة وردت نكرة في الآية، والتنكير هنا تنكير شمول، أيُّ دابة على وجه الأرض؛ نملة، حشرة، جرثومة، فيروس، الذي لا يُرى حتى بالمجهر الإلكتروني، فأي شيء يدبُّ على وجه الأرض فهو دابة، فكلمة: «مِن» تفيد استغراق أفراد النوع، رِزقها على الله ويعلم مستقرها ومستودعها، هذه الدابة أين مستقرها ومستودع رزقها؟ إذا كان رزقها قمحاً فأين هو؟ بالجزيرة مثلاً أو ببلد ما أو مستورد؟ يعلم مستقرها ومستودعها هذا هو الإحصاء.

ومن المعاني المهمة للإحصاء أنَّ الله عز وجل يحصي لك أعمالك؛ الصالحة والطالحة فكلُّ شيء مسجَّل خيراً وشراً، أعمالك الجليلة مسجلة والصغيرة مسجلة، وهذا المعنى يجعلك إذا أحسست أنك مراقب، وكلُّ حركاتك مسجَّلة فهذا يستدعي أن تكون منضبطاً.

نصيب المؤمن من إحصاء الله لأعماله

يقول تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾﴾ [مريم:٩٣-٩٤].

وفي سورة يس: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿١٢﴾﴾ [يس:١٢].

وفي سورة النبأ: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا ﴿٢٩﴾﴾ [النبأ:٢٩].

فكلُّ هذه الآيات ورد فيها فعل الإحصاء، لذلك حظ العبد من هذه الآيات هو: أنه متى علم أن الله يحصي عليه كلَّ حركاته وسكناته وخواطره وأنفاسه ونياته شعر أن الله عز وجل بالمرصاد، وعليه أن يكون في وضع يستحي فيه من الله عز وجل، فيجب أن تراقب قلبك، ولتعلم أن الله عز وجل يراقبك، لذلك سيدنا عمر يقول: «فتعاهَدْ قلبك»، فنحن دائماً نتعاهد أجسامنا، بحيث نسرع لوقاية أي عضو أُصيب، أمَّا المؤمن فإنه يتعاهد قلبه كذلك ويخشى أن يرى الله عز وجل في قلبه شيئاً لا يرضيه، ومن الآداب التي يجب أن يتحلَّى بها المؤمن أن يحصي هو أيضاً أخطاءه ويحصي أفعاله ويحصي أيامه، ويحصي نِعَمَ الله عليه، فهناك شخص أعرفه يسجِّل أخطاءه ليستغفر الله عز وجل عند تذكرها ويقابل كلَّ خطيئة بعمل صالح، مع أنَّ الإحصاء بين العبد والرب فيه فرق وبَون شاسع، لكن يجب أن تُعلِّمَ نفسك أن تُحصي أيامك، يقول: مضى من عمري كذا، فهل بقي لي بقَدر ما مضى؟! والله هذا سؤال نافع جداً، وهو سؤال محرج؛ كيف مضَتْ

هذه السنوات الأربعون، أو الثلاثون، إذاً مضى من عمري أكثر مما بقي، وهذا الذي مضى كلمح البصر، فالذي بقي أقلّ، فكيف أشغل هذه الأيام والليالي؟ كيف سأُنظِّم برنامجي؟ وكيف سأطلب العلم؟ وما العمل الذي سألقى به الله تعالى؟ فالعبد إذا أحصى أخطاءه واستغفر الله منها كان هذا حافزاً إلى طاعة ربه وابتعاده من الغفلة.

يدبر الأمر

قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [يونس:٣].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس:٣١].

آية ثالثة: قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الرعد:٢].

وقال تعالى في سورة السجدة: ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ﴾ [السجدة:٥].

من معاني التدبير

التدبير هو النَّظر في عواقب الأمور؛ وتدبَّر الأمر، أي: نظر في عواقبه؛ والعاقل يتدبَّر الأمر وينظر في عواقب الأمور؛ قد تُعجِبه امرأة حسناء رقيق دينُها فتجده يرفض هذا الزواج! لأنه تدبَّر عاقبة الأمر فهي أمُّ أولاده مستقبلاً وستُربيهم تربيةً فاسدة وسيخجلون بأُمِّهِمْ إذا كَبِروا، فتدبُّر الأمر: هو النَّظر في عواقبه.

قد يذهب الإنسان إلى بلدٍ غربيٍّ ويجد بحبوحة كبيرة: جمال طبيعيٌّ ما بعده جمال ورخاء في المواد والأسعار، ورُخْصٌ في المركبات، وبيوت فخمة جداً، فطبيعة الحياة تُغريه أن يذهب إلى هناك ويستقرَّ فيه، فالعاقل يتدبَّر عاقبة هذا الأمر، سوف يكبر أبناؤه هناك، وسوف ينشؤون نشأةً لا تُرضي الله، وسيجد مع ابنته صديقاً فماذا يفعل؟ وماذا يفعل إذا كبر أبناؤه في مجتمعٍ فاسدٍ وسيئ ولا حرج على أحدهم أن يمارس الزنا فالأمر سهل كشربة الماء؟ فإذا أردت تنفيذ أمْرٍ فتدبَّرْ عاقبته.

قد يسافر الإنسان فما عاقبة هذا السفر؟ وقد يعمل عملاً ما فما عاقبة هذا العمل؟ وقد يقبض المال الحرام فما عاقبة هذا المال؟ وقد يتزوج هذه المرأة اللعوب فما عاقبة ذلك؟ فالتدبُّر هو التَّفكُّر في عواقب الأمور، والتفكر في نتائجها، فالمؤمن لا يُقبِل على أمر حتى يتدبَّر عاقبته، وهناك أناس كثيرون يُغريهم العمل بما يخالِف القوانين فيربحون ثم يخسرون كلَّ شيء، ولو أنَّهم تدبَّروا عاقبة الأمور لما فعلوا ذلك، ولما وقعوا في سوء أفعالهم.

أمثلة كثيرة، لو أنَّ الإنسان رفض أن يتعلَّم فإذا تدبر عاقبة هذا الأمر ورأى نفسه جاهِلاً تائهاً وشارِداً وضعيف الشأن في المجتمع لما أحجم عن التعلُّم. فالإنسان العاقل هو الذي يفكِّر في عاقبة الشيء قبل أن يصل إليه فهو يخاف بعقله؛ والإنسان الأقلُّ عقلانيَّة أو ضعيف العقل أو الذي يُعطِّل عقله يخاف بعينِه، وهذا هو الفرق بين الإنسان والحيوان؛ فالإنسان يخاف بعقلِه والحيوان يخاف بعَيْنه، فالذي يُدخِّن ولا يُقْلِع عن التدخين حتى يصاب بمرضٍ عُضال، فعند فحص العينة بالمخبر ويأتي الجواب:

مرض خبيث، بسبب الدخان عندئذٍ يُقْلِع عن التدخين، أما العاقِل فيعرف عاقبة التدخين قبل أن يصل إليها، فالعقل يريك النتيجة قبل أن تصل إليها، وتصل إليها بعقلك قبل أن تصل إليها بجسمك، فإذا كان هناك طريق مغلقة بعد خمسة كيلومترات فهل تُكْمِل المسير؟ فالذي يتحرك بعينه يقول: الطريق سالكة، ويسير، فإذا به بعد قليل يجد الطريق محفورةً ومغلقة، فلو قرأت اللوحة لوَصَلْتَ إلى هذه النتيجة بيسر وأرحت نفسك فاللوحة تعطيك النتيجة قبل المجازفة، فهذا هو العاقل. أما غير العاقل فإنه يقرأ اللوحة ويكمل سَيْرَه لأنه يرى الطريق سالِماً إلى أن يجد الحفر فيقول: لا حول ولا قوة إلا بالله ويعود راغماً، فإذا تحرَّكتَ بحواسك الخمس فأنت دون مستوى البشر أما إذا تحركت بعَقْلِك ووصلت إلى النتائج مسبقاً فأنت عاقل حقّاً.

إنسان ذهب إلى بلدٍ وزلَّت قدمه فعانى من مرضٍ جنسي عشرين عاماً وهو يتمزَّق كي يُخْفِيَه عن أولاده وزوجته وكيف يُعالجه؛ فهذا لو تدبَّر الأمر قبل أن يفعله لما فعله فهذا هو التَّدبُّر؛ التفكر في عواقب الأمور والتفكر في نتائجها ومؤداها وعقابها، أحياناً يكون الإنسان في أوْج شبابه يعيش لحظته يأكل ويشرب ويستمتِع ولا يتعلَّم ولا ينضَبِط ولا يسأل عن شيء، فإذا تقدَّمت به السن يجد نفسه بعيداً عن مراتب البطولة وفي مؤخرة الرَّكْب وفي الدرجة الدنيا في المجتمع فهذا عطّل عقله ولم يفكر، وتجد آخر يفكر ويتروَّى ويبني مستقبله لبنةً لبنة ويجعل لنفسه بدايةً مُحْرِقة فتكون له نهاية مشرقة.

التدبر هو النظر في عواقب الأمور وأدبارِها، والتدبير هو أن يحسن المرء التدبُّر والتفكُّر، وهو النظر في عاقبة الأمر، أو ما يؤول إليه وعاقِبتُه أي مؤداه ومنتهاه، والتدبر قريب من التفكر، أما الدَّبْر فهو النَّحْل والزنابير سِلاحها في أدبارها، وقيل سميت دَبُراً لتدبيرها وتألقها في العمل العجيب، ومنه بناء بيوتها فلذلك سميت بهذا الاسم في اللغة، فإذا قلنا: الله جل جلاله مُدَبِّرٌ كان لدينا معنى آخر قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [يونس:٣].

فما معنى يدبِّر الأمر؟

هنا التدبير إذا عُزِيَ إلى الله عز وجل كان له معنىً آخر؛ قال: هو التوفيق بين أوائل الأمور وعواقِبها، فإذا طلب المرء الزواج فالزواج يبدأ بنيَّة؛ فهذا نوى أن يتزوَّج فمن الذي يُيَسِّر له البيت والزوجة الصالحة وأن يملك المهر والمال كي يؤسِّس بيتاً يضمُّهما، وأن يقترِن بهذه المرأة وأن يُنْجِب منها أولاداً صالحين، وبعد حين يجد نفسه في بيت يزدان بزوجة وأولاد، وغدا ذا مكانة في المجتمع، وقد كان بالأمسِ شاباً لا يملك من حطام الدنيا شيئاً، فمن دبَّر أمره؟ ومن أوْصَلَه من مبتدأ رغْبَتِه بالزواج إلى نهاية المطاف؟ إنه الله عز وجل.

وذاك أراد أن يتَّجِر فمن يسَّر له رأس المال ومكان العمل والرُّخص وشراء البضاعة والبيع والرِّبْح وتأمين الحاجات فمن يدبِّر الأمر؟ هو الله تعالى، وهذه كلمة واسعة جداً، وأنت تنام وتذهب إلى فراشك فمن يُحرِّك الأرض حول ذاتها من أجل أن يُشْرِق الصباح؟ هو الله سبحانه، ومن الذي يجعلها على خطٍّ سيرِها حول الشمس؟ هو الله سبحانه، ومن الذي يُنزِل من السماء ماءً فيحيي به الأرض بعد موتِها؟ هو الله سبحانه. وأنت ما عليك إلا أن تُلقي حبة في الأرض فهذه الحبة من الذي أعطاها شروط النمو ومن الذي أودع فيها هذه القوة؟ حبةٌ صغيرة تصبح بعد حين شجرةً كبيرة فمن نمَّى هذه الحبة ومن الذي جعل لها سُوَيْقاً وجُذَيْراً وكذلك الرُّشَيْم؟ هو الله سبحانه، فهو يدبِّر الأمر في النبات والحيوان والإنسان، فإذا تمَّ اللقاء بين الزوجين خرج الماء وتم لقاح في البويضة وما عليك بعد ذلك من شيء، فأنت في حالك وزوجتك في حالِها، إن الله هو الخالق للنطفة والمدبِّر لها ثم يخرجه طفلاً.

فكيف لُقِّحت هذه البويضة؟ وكيف انقسمت؟ وكيف سارت إلى الرحم.؟ وكيف انغرست في جدار الرحم؟ وكيف جاء الدم الكثيف؟ وكيف نمت هذه البويضة فأصبحت على شكل ورقة؟ ثم كيف اتَّضح الدماغ والجِذع؟ وكيف نبتت الأطراف؟ وبعد تسعة أشهر تجد طفلاً كامل الخَلق؛ رأسٌ وجمجمة وبصر وأعصاب حِسٍّ وأعصاب

حركةٍ، عضلات وعِظام وجهاز هضم وجهاز تنفّس وجهاز دوران وإفراز وغدة صماء وغدة درقية وغدة نخامية وغدة البنكرياس؛ في تسعة أشهر وعشرة أيام من نطفة لا تُرى بالعين إلى طفلٍ كامل الخلق، فمن يدبِّر الأمر؟ يدبِّر الأمر يعني يوصِل المقدِّمات إلى النتائج، فالمقدِّمات نطفة والنتائج طفل، المقدمات رغبة في الزواج والنتائج زوجة وأولاد وبيت، المقدمات مشروع تجاري والنتائج تجارة رابحة؛ يدبِّر الأمر، إنه الله.

قالوا: التَّدبير إذا عُزِيَ إلى الله عز وجل فهو التوفيق بين أوائل الأمور ومبادئها وأدبارها وعواقِبها؛ فالطِّفل في بطن أمِّه مُعرَّض إلى أخطار كبيرة وكثيرة، فإذا به يُولد سليماً ومعافىً، فمن دبَّر أمره؟ هو الله جل جلاله، والمقدِّمات يجعلها الله تؤدي ما يجب من الغايات.

شيء آخر وهو أنه يدبِّر الأمر، أي: يهدي عباده إلى ما أراده لهم فهذا تدبير روحيٌّ؛ يدبِّر أمرهم في إمدادهم بما يحتاجون بالهواء والماء والطعام والشراب والحاجات والمعادن وما إلى ذلك فهذا التدبير المعيشي، لكنه أيضاً يدبِّر أمرهم الروحيَّ بإيصالهم إليه، أحياناً يبعث إليه من ينصحه، وأحياناً يبعث إليه من يضغط عليه، ويسوق له شدةً ويُخيفه ويريه مناماً مزعِجاً، ويجمَعُهُ الله مع إنسانٍ طيب ويرزقه رزقاً وافِياً كي يستحيي ويُقتِّر عليه في الرزق ويحيطه بخوفٍ شديد ويطمئنه ويمرِضُه أحياناً ثم يشفيه؛ فمن الذي يدبِّر أمره حتى يصل إليه؟ هو الله.

والحقيقة أن أعمق المعاني هو أن الله يدبِّر أمر عباده أي يهديهم إليه، فأحياناً تجد إنساناً أشرك بالله، وهذا الذي أشرك به يُلهِمُه أن يتخلَّى عنه تأديباً لمن أشرك بالله، فمن الذي لقَّن هذا الإنسان المشرِك درساً قاسياً؟ هو الله عز وجل، فهو تعالى يدبِّر الأمر؛ يعطي هذا مالاً، وذاك علماً، فالأول ينفعه المال فيعطيه المال، وذاك ينفعه العلم فيعطيه العلم، وهذا ينفعه الذكاء فيعطيه الذكاء، وذاك يضرُّه المال فيجعله فقيراً، من يدبِّر الأمر؟ ومن الذي يعطي الإنسان الشيء المناسب في الوقت المناسب بالكمِّ المناسب ومن النوع المناسب؟ هو الله جل جلاله.

هناك شيء مهمٌّ بالنسبة لمفهوم التدبير، وهو أنَّ الله عز وجل خلقنا لنعرفه ونسعد بقُرْبِه، فكلُّ أفعال الله هي سَوْق العباد لهذا الهدف، يدبِّر، أي: يسوقهم من بداياتهم إلى الغايات التي أرادها لهم.

هناك بعض الكلمات يقولها بعض الإخوة لها معنى لطيف: توكَّل دبِّر أو لا تُدبِّر واستسلم لله عز وجل فهو المدبِّر. وهو الذي يدبِّر أمور عباده، والحقيقة أن الوحي الذي جاءنا من السماء هو من التدبير، وإرسال الرسل من التدبير، وإلهام الدعاة إلى الله لإيصال الحقِّ إلى الناس من التدبير، وأن تجِفَّ السماء من التدبير، وأن تنهمر أمطارٌ غزيرة من التدبير؛ يدبِّر الأمر، قال تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ﴾ [السجدة:٥].

ويقول الله عز وجل في ختام هذه الآيات: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [يونس:٣] أي: أتجهلون أن هذا هو الحق المبين؟

قال بعضهم في معنى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الحديد:٤].

أي توحَّد بالجلال، بالكبرياء، في وصف الملكوت، كما قال الإمام مالك: الاستواء معلوم والكيف مجهول؛ هذا لا نعلمه إلا أن الذي نعلمه هو أنه استوى على العرش، أحياناً كلُّ شيءٍ جاهز وما علينا إلا الضغط على مفتاح التشغيل وتتحرَّك كلُّ الأمور، فهذا تخطيط وتشغيل وتهيئة وفِعْل.

أيضاً يدبِّر الأمر، أي: أنَّ كلَّ الحوادث تصدر عن تقديره وحاصلةٌ بتدبيره، وهذا شيء أساسيٌّ في التوحيد، وهو أنَّ كلَّ شيء وقع في الكون أراده الله، ولا يقع حادث إلا بأمر الله ومشيئته لأنه المدبِّر.

هناك معنىً إضافي وهو أنَّ الله هو المحدِث فلا يقع حادِث إلا بأمر الله، أما المدبِّر فيسوق الحوادِث إلى أهدافها الصحيحة، أحياناً تجد حركة عشوائيَّة دون هدف، فلُعَبُ

السيارات الكهربائية تمشي دون هدف، أما الإنسان فإنه إذا أقلع بسيارته فهناك هدف يريد أن يصل إليه، فالحركةُ تعني أن الله هو المحدِث. أما إذا قلنا: المدبِّر فهذا يعني أن هذه الأحداث تتجه كلُّها إلى غاياتٍ أرادها الله، أحياناً تجد اهتماماً بليغاً من الأب لدفْع ابنه إلى الدراسة فتجده يكافئِه مرةً ويؤنِّبه أخرى ويدفع له ما يشاء من أجل تحصيل التفوق في الدراسة، فكلُّ هذه الأفعال المختلفة الصادرة من الأب، وذات الهدف الواحد هي من أجل تحصيل مستوى في الدراسة.

التدبير له معنى بلوغ الهدف. أما المحدِث فله معنى الحركة فالحادث له محدِث هو الله عز وجل، أما المدبِّر فهو أن يساق هذا الحادث لما خُلِق له ومن هنا قال ﷺ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ» [رواه الترمذي من حديث علي بن أبي طالب].

كلُّ إنسان خُلِق للجنة فهو ميسَّر لها، فإما أن يأتيها طائعاً وإمّا أن يُساق إليها بالسلاسل، قال ﷺ:

عَنْ أبي غَالِبٍ عَنْ أبي أُمامَةَ، قالَ: اسْتَضْحَكَ رَسُولُ الله ﷺ يَوْماً فَقِيلَ لَهُ: يا رَسُولَ الله مَا أَضْحَكَكَ؟ قَالَ: «قَوْمٌ يُسَاقُونَ إلى الجَنَّةِ مُقَرَّنِينَ في السَّلاسِلِ» [رواه أحمد].

إمَّا أن تأتِيَها طائعاً مُبادِراً، وإمَّا أن يسوقك الله إليها بالسلاسل بالامتحانات والتأديبات والشدائد.

قال بعض العلماء: «يدبِّر الأمر لا شريك له تعبدُه، وما قضى فما أحدٌ يَرُدّه ما من شفيعٍ إلا من بعدِ إذنه، وهو الذي ينطِق من يخاطِبه وهو الذي يخلق ما يشاء على ما يشاء إذا التمس يطالِبُه»، هذا من معاني تدبير الأمر، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

وفي سورة يونس عليه السلام: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس:٣١].

أحياناً تأتي موجة حرٍّ في الربيع؛ فهناك بعض النباتات لا تنضج إلا بهذا الحرِّ فمن يدبِّر الأمر؟ إنَّه الله جل جلاله، ذهبنا مرةً إلى بلدةٍ في محافظة القنيْطرة، ووجدت أنواعاً من الديدان لا تُعَدُّ ولا تُحصى وعددها غير معقول، فسألت فقيل لي: هذا العام لم يأتِ ثلج كافٍ فحينما ينزل الثلج بشكل كاف تموت الديدان هناك تدبير إلهي، وحينما يداهم الحرُّ هناك تدبير إلهي، وحينما تأتي الرياح هناك تدبير إلهي، وأحياناً لا بدَّ من تلقيح النباتات فتأتي الرياح اللواقح، فالحرُّ له وظيفة في إنضاج الثمار، وهناك بردٌ له وظيفة في قتل الحشرات، وهناك رياح لها وظيفة في تلقيح النباتات فمن المدبِّر؟ الله هو المدبر فهو -تعالى- يسوق كلَّ شيء إلى هدفه.

قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

وقوله: ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ هذا من التدبير، وقوله: ﴿ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ هذا من التدبير، وقوله: ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ وملخص كل هذا: من يدبِّر الأمر؟ فالخلق تدبير، والهداية تدبير، والرزق تدبير، والمصائب تدبير، قال تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ ماذا تنتظر؟ فما دام الله هو المدبر، فأنت ماذا تفعل؟ ومن الذي يمنعك من أن تطيعه؟

أحد العلماء يسأل: أين كانت تكمُن السنبلة في الحبة؟ أحياناً تجد حبةً صغيرة، بذرة خيار، يقول لك البائع هذه البذرة تُنتِج خياراً طوله ثمانية عشر سنتمتراً، لونه أخضر داكن، ومُلَمَّع، وإنتاجه كثير وغزير، ومديد، فهذه الكلمات التي ينطق بها بائع البذور، لو أمْسَكت هذه البِذرة أين ترى هذه الخصائص؟ قد تجد عشرين خاصية لبذرةٍ فهل عندما تأتي البذور في الأغلفة أيكون مكتوباً عليها هذه الخصائص؟ فلو أنَّك فتحت هذه البذرة وقمت بتشريحها؛ هل ترى هذه الخصائص؟ ما عليك إلا أن تزرعها وهي تنبت مواصفات عالية كثيفة وغزيرة ومديدة، بحجمٍ معيّن، وبلونٍ معين، وبخصائص

معينة، وتقاوِم أمراضاً معينة، فمن جعل هذه الخصائص في هذه البِذرة؟ الله جل جلاله؛ يدبِّر الأمر.

قال: أين كانت تكمن السنبلة في الحبة؟ وفي النواة أين يكمن اللّب واللحاء؟ فالتين مثلاً كم تحوي الواحدة من بذرة؟ وهل تستطيع عدّها؟ فهناك ما يقرب من عشرة آلاف حبَّة، البذرة الواحدة يمكنُها أن تُنْبِت شجرة تين بكاملها، لها ساق معين وجذع معين ولون معين وأغصان معينة وشكل معين وأوراق معينة وطبائع معينة فقد تجدها تحمل أوراقاً متساقطة أو دائمة الخضرة، كلُّ هذه الخصائص في البذرة التي لا تُرى بالعين وتحوي كلَّ خصائص التين، وهذا تين بعْل وذاك تين أسود، وهذا حجمه كبير وذاك حجمه صغير وهذا سكّره جارح، وذاك سكّره قليل، فكلُّ هذه الخصائص أين هي؟ وهذه البيضة التي تحوي صفاراً بعد عشرين يوماً تصبح فرخاً صغيراً فيه عينٌ وأُذن ومِنقار، وقالوا: هذا الصوص حينما يأتي وقت خروجِه من البيضة ينبت على مِنقارِه نتوءٌ كالإبرة تماماً، وبه يكسر البيضة ويخرج، وحين تنتهي مهمة هذا المِنقار يرجِع إلى وضعه الطبيعي.

ومن أوضح آيات التدبير أنَّ الجنين في بطن أمه ليس لديه تنفّس فالرئة معطلةٌ، عنده دورة دموية إلا أن التنفس معطَّل، فربُّنا عز جل خلق ثقباً بين الأذينين فالدم بَدَل أن ينتقل من الأذين إلى الرئتين ثم إلى البُطَيْن ينتقل من أُذين إلى أُذين لأن طريق الرئتين مسدود، فما دام الطفل في بطن أمه فالهواء منعدم، لكن بعدما يولد الطفل قال الأطباء: فتأتي جلطة تُغلِق هذا الثقب في الوقت المناسب وإلا يصاب هذا الطفل المولود حديثاً بمرضِ الزَّرَق، فلا يستطيع أن يتحرَّك لأنَّ دمه أزرق، ولا يذهب الدم للرئتين ليطرح غاز الفحم ويأخذ الأكسجين، ويبقى في الدم غاز الفحم وبذلك تنعدم القدرة على الحركة، وأغلب هؤلاء الأطفال يموتون في عشر سنوات تقريباً ما لم تُجْر لهم عملية باهظة التكاليف، لإغلاق هذا الثقب بين الأُذَيْنين فمن المدبِّر؟ الله عز وجل.

وهذا الكائن البشري أين هو في البويضة؟ أين كانت تكمُن ملامِحه؟ وأين كانت تكمن نبرات صوته؟ ونظرات عينيه، ولفتات جِيدِه، واستعدادات الأعصاب، ومُوَرِّثات

الجنس؟ أين كانت تكمن كل هذه الصفات، في البويضة وفي الحوين؟ فمن المدبِّر، ومن الذي أخرجها إلى حيز الوجود؟ هل تصدقون أن على الحوين ملايين المعلومات المبرمجة؟ وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴿٣٤﴾ ﴾ [لقمان:٣٤].

ويسوق الحوادث إلى غاياتها، يسوق الإنسان إلى ما خُلق له، ويحرِّك الشمس والقمر ويولج الليل في النهار، وينزل الماء من السماء، وينبت الزرع، لقد كان وزنك ثلاثة كلغ عند الولادة، فإذا وزنت نفسك عند الكبر ربما تجدها ثمانين كلغ فكيف تمَّ لك هذا الوزن؟ ومن حوَّل الطعام والشراب والتفاح والخبز والجبن والسكر إلى لحمٍ وعظام ونُسُجٍ وأجهزةٍ؟ إنه المدبِّر.

وهناك أمر آخر في هذا الباب فلو أنك دخلت عالم النَّحل لوجدت العَجَب العُجاب أيضاً؛ ولو دخلت عالم النمل لوجدت العجب العُجاب؛ تعقيدات اجتماعية لحشرة النحل والنمل لا تصدَّق، وشيء لا يصدَّق أن تبني هذه النحلة بيتاً بشكل سداسيٍّ، والسداسي هو الشكل الهندسي الذي لا يأخذ فراغات بينِيَّة ويُكتفى بالسداسي بأقصر ضِلع، ومعنى ذلك أنه متين كلما طال الضلع ضعفت المتانة، فهناك مواصفات رياضية للشكل السداسي، فمن الذي ألهم النحلة أن تبني بيتها على شكلٍ سداسيٍّ؟ ومن الذي ألهمها أن تذهب للحقول وتمتصّ رحيق الأزهار؟ ومن الذي ألهمها رقصة بها تحدِّد جهة الأزهار وبُعدها وكثافتها؟ الله جل جلاله. ومن الذي ألهم النحلة أن هذه الزهرة ممتصة الرحيق، فلا تقع عليها لأنها قد امتُصَّ منها الرحيق؟ من الذي يدبِّر الأمر؟ وهل تعتقد أنَّ النحلة لها عقل؟ لكنها تقوم بعملٍ رائع في عقلانيَّتِه وتعقيداته، إذاً من الذي يدبر أمر النحلة؟ هو الله عز وجل.

وفي سورة الرعد: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الرعد:٢].

فالله تعالى كلما أورد التفاصيل وساقها للإنسان أوجزها بكلمة يدبِّر الأمر؛ فخلقهُ تدبير، ورزقه تدبير، وهدايته تدبير، وفي النهاية يدبِّر الأمر، قال تعالى: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه:٤٩-٥٠].

رجل كان في بستان فرأى قنفذاً يأكل أفعى، كلما أكل جزءاً ذهب إلى نباتٍ وأكل ورقاً من هذا النبات، فهذا البستانيُّ كان ذا فضول فقام لهذا النبات واقتلعه، فلما عاد القنفذ وأكل جزءاً من تلك الأفعى ذهب ليأكل من هذا النبات فلم يجده فمات! من الذي ألهم هذا القنفذ أنَّ لهذا النبات أثراً متوازياً مع لحم الأفعى؟ الله جل جلاله، قال تعالى: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه:٤٩-٥٠].

وفي قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق:١٢].

فقوله: ﴿ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾؛ هذا من التدبير، يجب أن تعلموا أن الله تعالى هو الذي يسوق كلَّ شيء لكلِّ شيء.

نصيب المؤمن من معرفته بمن يدبر الأمر

إذا رأيت يد الله تعمل في الخفاء فهو المدبر، وإذا رأيت يد الله فوق أيديهم فهو المدبِّر، وإذا رأيت أنَّ كل شيء لا يقع إلا منه تعالى فهو المدبِّر.

لذلك توكَّل على الله الحكيم الرحيم العليم القدير، فهو حكيم في كلِّ تدبيره، رحيم عليم قدير بيده الأمر كلُّه قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [هود:١٢٣].

قال أمية بن أبي الصلت:

حنانيك إن الجن كنت رجاءهم ... وأنت إلهي ربَّنا ورجائيا
رضيتُ بكَ اللهم ربّاً فلن أرى ... أدينُ إلهاً غيرَك اللهُ ثانياً
وأنت الذي مِنْ فَضْلِ مَنٍّ ورحمةٍ ... بعثت إلى موسى رسولاً مُنادِيا
فقال أعني بابن أمي فإنني ... كثيرٌ به يا ربُّ صِلْ لي جناحيا
فقلتَ له فاذهب وهارون فادعُوا ... إلى الله فرعونَ الذي كان طاغِيا
وقولا له أأنتَ سوَّيْتَ هذه ... بلا وَتَدٍ حتى اطْمَأَنَّت كما هيا
وقولا له أأنت رفَّعْتَ هذه ... بلا عَمَدٍ أرْفِقْ إذاً بك بانِيا
وقولا له أأنت سَوَّيْتَ وَسطَها ... منيراً إذا ما جَنَّه الليلُ هادِيا
وقولا له من يرسِل الشمس غدوةً ... فيُصبِح ما مسَّت من الأرض ضاحِيا
وقولا له مَنْ ينبتُ الحَبَّ في الثرى ... فيُصبح منه البقلُ يهتزُّ رابِيا
ويُخرِجُ منه حَبَّه في رؤوسِه ... وفي ذاك آياتٌ لمن كان واعِيا
وإني لو سَبَّحتُ باسمكَ ربَّنا ... لأُكْثِرُ إلاّ ما غفرتَ خَطائِيا
فربَّ العبادِ الْقِ سَيْباً ورحمةً ... عليَّ وباركْ في بنيَّ وماليا

والحقيقةُ أنَّ كلَّ ما في الكون ينطق باسمه خلْقاً وتصرفاً ومصيراً؛ نباتاً وحيواناً وإنساناً وجماداً وشمساً وقمراً وكواكبَ ومجرَّات ومذنبات وليلاً ونهاراً ورزقاً وهداية وتوفيقاً، أليس في القرآن الكريم:

﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ [هود:٨٨].

فمن الذي يستطيع أن يسوق الحوادث إلى غاياتها؟ هو الله عز وجل.

ومن ثم فإنه يمكننا أن نستنبط استنباطاً أن الله جل جلاله جعلك خليفةً في الأرض، وينبغي أن تدبِّر أمورك فأنت أبٌ وعليك أن تُدبِّر أمر أسْرتِك؛ بناتك

وأولادك وأعمالك، وأنت طبيب فعليك أن تدبِّر أمر مرضاك، وأنت محامٍ فعليك أن تدبِّر أمر موكِّليك، فالذي يُهمِل عمله لا يدبّر أموره.

فالمدبر يوحي بحكمة بالغة، أذكُر أنني اشتريت مرة عِنَباً من منطقة باردة وظننته من شكله حُلْوَ المذاق، فلما سألت البائع لِمَ لمْ يكن حُلْوَ المذاق؟ قال: لم يأتِنا حرٌّ في هذا العام، فالحرُّ هو الذي يرفع كثافة السكر في الفواكِه، فمن المدبِّر؟ إذاً يتضح لكم أنه تعالى هو المدبِّر وأنت خليفته في الأرض، واللهُ وكَّلَك بهؤلاء الناس فعليك أن تدبِّر أحوالهم.

تجد أحياناً أباً يعتني بأولاده في أجسادهم وأفكارهم ودراستهم ودينهم، هذَّبهم وعلّمهم وأحسن علاقتهم بغيرِهم، ومنحهم بعض الإمكانات إلى أن يُزوِّجهم؛ نقول: هذا الأب مُدَبِّر، وكذلك الأم فهي مدبِّرة ترعى أولادها وتخيط لهم وتطبخ لهم وتعتني بأخلاقهم وتحاسِبهم وتراقِبهم وتسهر على راحتهم وتعالِجهم إن هم مرضوا، فكما أن الله تعالى يدبِّر فإذا وكَّلَك بأسرةٍ كُن لها مدبِّراً، ووكَّلك بطلابٍ فكن مدبِّراً لهم، جاء ليشتري من متجرك فأعطِ له الشيء الجيد.

فمن التطبيقات العملية لهذا الاسم؛ كما أن الله تعالى دبَّر أمر عبادِه وأنت خليفته في الأرض، ما عليك إلا أن تدبِّر أمر من دونك، فمدير المدرسة والمستشفى والمؤسسة كلُّ من حوله ومن دونه تحت سمعه وبصره؛ فلان زوجته حامِل فهو يحتاج إلى مساعدة، وفلان يحتاج إلى توجيه، والآخر إلى طبيب، فأنت إذا كنت في منصبٍ أعلى كُن مدبِّراً، كما أن الله تعالى يدبِّر أمور عباده، فهذا من التطبيقات العملية لاسم المدبِّر، وكلما كنت من الطراز الرفيع كنت أكثر إيماناً وإتقاناً، فإتقان العمل هو التدبير، والمؤمن يتقِن عمله، وليكن لك حظُّك من التدبير.

يهدي من يشاء

قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾ ﴾ [يونس:٢٥].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإنسان:٣].

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الأعلى:١-٣].

قال تعالى: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه:٤٩-٥٠].

الله سبحانه وتعالى خَلَقَ ثم هدى.

شققنا الطريق، ثمَّ وضعنا الشاخصات، صنعنا الآلة، وأصدرنا كُتيِّب التعليمات، الله سبحانه وتعالى خلق الكون ثم نوّره.

يعني: خَلقك ليُسعِدَكَ، لا سعادة تنقطع عند الموت، بل ليُسعدَكَ إلى الأبد، وما الحياة الدنيا إلا إعداد لهذه الحياة الأبديَّة، إذاً: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ

﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢٥﴾ الصراط هو الطريق، الله عز وجل أعطى الإنسان حرية الاختيار؛ فمن شاء الهُدى هداه إلى صراط يؤدي إلى دار السلام، خُلقت لدار السلام، دار السلام هي الجنة، خلقت لدار السلام وأنت مُخيَّر، فإذا اخترت دار السلام هداك الله إلى الصراط المستقيم الذي يوصلك إلى دار السلام، آيةٌ عميقة المعنى جداً، لا تظنوا كما يظنُّ بعض الناس أنَّ الله سبحانه وتعالى خلق الناس ليعذِّبهم، لا تظنُّوا أنَّ هذه المصائب عشوائيَّة؛ بل إنَّ هذه المصائب مقرَّرة من قِبَل الله عز وجل لإلجاء العباد إلى بابه، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢٥﴾ [يونس:٢٥].

من معاني الهداية

الهداية: الإمالة، هداه، أي: أماله، أي: وجَّهه نحو الحقِّ، فالهداية في اللغة معناها الإمالة، وتسمى الهديَّةُ هديَّةً لأنَّ من شأنها أن تُميل قلب المُهْدى إليه.

يقول الجنيد رحمه الله: «اهدنا الصراط المستقيم؛ يعني يا رب مِلْ بقلوبنا إليك، وأقم هِمَمنا بين يديك، واجعل دليلنا منك عليك»، النقطة المهمَّة هي أن الإنسان مخيّر، ومعنى مخيّر أن أمامه عدة خيارات، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان:٣].

الداعية هو الذي يقنعك بأن تتَّجه إلى طريق الحق عن طريق الإقناع، وعن طريق الدليل، وعن طرق التبيين، وعن طريق التوضيح؛ فربنا عز وجل هو الهادي.

طرائق الهداية

بادئ ذي بدء الله سبحانَه هدى الإنسانَ إليه عن طريق الخَلْق، والله قوي، وفي الكون مظاهر قوته، وهو الغني وفي الكون مظاهر الغِنى، وهو عليم وفي الكون مظاهر العلم، وهو رحيم وفي الكون مظاهر الرحمة، يعني بإمكانك أن تقول: إنَّ الكون مظهر

لأسماء الله الحسنى ولصفاته الفضلى، فإذا أردت أن تفكّر في الكون وصلتَ إلى الله، إنَّه صنعته، منه تصل إلى الصانع، إنه خلقه، منه تصل إلى الخالق، إنه كونه، منه تصل إلى المكوّن، إنه تنظيمه، منه تصل إلى المنظِّم، به ترى العلم، به ترى الحِكمة، به ترى القدرة، به ترى اللطف، به ترى العطف، به ترى الرحمة، به ترى الخبرة، كل ما في الكون يدلُّ على الله عز وجل.

وقد تنظر إلى وردة فكأنَّ الله سبحانه وتعالى تجلّى عليها باسم الجميل، فإذا رأيت البحر هادئاً، تجلّى الله عز وجل على البحر باسم الجبّار، تارةً ترى اسم الجبار، تارةً ترى اسم القهار، تارةً ترى اسم العليم، تارةً ترى اسم الحكيم، تارةً ترى اسم العليّ الكبير، فكلُّ مظهر في الكون؛ يدلُّ على اسمٍ من أسمائِه؛ أو على كلِّ أسمائه فكيف هدانا الله؟ قال: ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يونس:١٠١].

﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [عبس:٢٤].

﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [الطارق:٥-٨].

فإذا أردت أن تهتدي إلى الله فحسبُكَ الكون، وقد قيل: «حسبكم الكون معجزة».

هذا أول باب، ولكني أقول للقارئ الكريم: إنَّ باب الكون أوسع أبواب الهدى، وأقرب طرق الهدى؛ لأنَّ الكون يضعُك أمام قدرة الله، أمام عظمته، وأمام حكمته، وأمام رحمته، وأمام عِلمه وأمام خبرته، فالله سبحانه وتعالى هداك بخلقه.

أيها القارئ الكريم يمكنك أن تتأمل آلة وتقول: المهندس خِبرته رفيعة المستوى، وتقول: هذه الألوان التي أعطاها للآلة لطيفة فيها ذوق رفيع، تكتشف علمه،

وتكتشف ذوقه، وتكتشف خبرته، لكن أحياناً مع الآلة نشرة، الآن ربنا عز وجل يهدي الإنسان لا بخلقه فحسب بل بكلامه، قال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٧٥﴾ [الحج:٧٥].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝٧٨﴾ [التوبة:٧٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٧٧﴾ [النحل:٧٧].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٨٢﴾ [البقرة:١٨٢].

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤﴾ [البروج:١٤].

﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝٩٠﴾ [هود:٩٠].

وفي الآيات التالية تبيّن الهدى بكلامه سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢﴾ [الرعد:٢].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ۝٢٩﴾ [الشورى:٢٩].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ۝٢٢﴾ [الروم:٢٢].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ۝٢٥﴾ [الروم:٢٥].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝٣٧﴾ [فصلت:٣٧].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾﴾ [الشورى:٣٢].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت:٣٩].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الروم:٤٦].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم:٢١].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الروم:٢٠].

أحياناً تنظر إلى شيء رائع، ويقول لك صانع هذا الشيء: هذه صنعتها لكذا، وهذه لكذا، وهذه المادة الأولية من أعلى مستوى، وهذه الآلة لأجل كذا، قد أعطاك تعليمات من عنده مباشرةً، فالله سبحانه وتعالى يهدي بكلامه.

اقرأ القرآن، القرآن يبين لكَ أصل الخليقة، حقيقة الحياة الدنيا، ما بعد الدنيا، كما بيّن لك أسماء الله عز وجل، بيَّن لك صفاته، بيَّن لك أنبياءه السابقين واللاحقين، بيَّن لك حكمة الوجود، أمَرَكَ بالصلاة في القرآن، أمرَكَ بالصوم وبالزكاة وبالحج، بيَّن لك لماذا تصلي.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ [العنكبوت:٤٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة:١٨٣].

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة:١٠٣].

فالله سبحانه هو هادٍ، الله هداك بكلامه، فإذا أردت أن تقرأ القرآن؛ فالقرآن باب إلى الله عز وجل. والكون باب؛ لكن الكون لغة عالمية، يعني يراه ويقرؤه ويفهمه المسلم وغير المسلم، العربي وغير العربي، إفريقي، صيني، أمريكي، أوروبي، من أي مكان، الشمس ساطعة، النجوم زاهرة، الكواكب متألّقة، الماء عذب زلال، من جعله عذباً زلالاً بعد أن كان مِلحاً أجاجاً؟ الكون يقرؤه كلُّ إنسان، لكنَّ القرآن يقرؤه العربي.

على كُلٍّ؛ إذا تعمّق الإنسان في معرفة الله عز وجل، تعلَّم العربية حُبّاً بالله عز وجل، وقد تجد شعوباً من غير العرب أتقنوا العربية لا لشيء إلا حُبّاً بالله عز وجل، كيف أنك اليوم إذا أردت أن تأخذ شهادة عليا من بلدٍ أجنبي، بادئ ذي بدء تتعلَّم لغة ذاك البلد، يقول لك: سنتان لغة، أي: تتعلم لغة البلد الأجنبي الذي قصدته لمدة سنتين.

طالب من طلابي نالَ بعثةً إلى تشيكوسلوفاكيا، قال: تعلمتُ لغتهم خلال سنتين، من أجل شهادة دنيوية، من أجل حياة محدودة، تعلمتَ لغة هؤلاء القوم كي تتعلم عِلمهم، لذلك إذا عرفت الله عز وجل، ورأيت أن كلامه شيء ثمين جداً فلا بد إنْ كنت غير عربي، أن تجدَ نفسك مسوقاً إلى تعلم اللغة العربية، والإخوة الأكارم الأفارقة مثلاً، والأتراك الذي وفدوا إلى هذه البلدة الطيبة لتعلُّم أمور الدين؛ تراهم يتقنون اللغة العربية، بل إنهم ينزعجون انزعاجاً شديداً لو تكلمنا بكلمة واحدة باللهجة العامية -خلال الدرس كلِّه، لا يفهمون إلا اللغة الفصحى.

إذاً، إذا بلغ حُبُّكَ لله عز وجل حداً معيناً؛ ترى نفسك مسوقاً إلى تعلُّم اللغة العربية، إذاً فالقرآن؛ باب آخر من أبواب الهدى، الكون؛ هداك بخلقه، والقرآن؛ هداك بكلامه، وأرجو ألا تنسوا أن الله عز وجل -جعل الكون كلَّه في كفة، وجعل القرآن في كِفَّة، قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام:١].

فهذه الآية صريحة في ذكر خلق الكون.

لأنهما: الكون والقرآن يدلان عليه، لأنهما يشيران إليه، لأنهما يُظهران أسماءه الحسنى، وقال سبحانه في حديثه عن القرآن: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ [الكهف:١].

فالكتاب؛ هدىً بيانيٌّ؛ والكون؛ هدىً استدلاليٌّ.

لاحظ نفسك، أحياناً تشتري آلة دون نشرة تعليمات تنظر إليها، تستنبط، تحرِّك بعض مفاتيحها، تُشغِّلها، تحرِّك هذا المفتاح، انقطع التيار، تحرِّك هذا المفتاح علا الصوت أو انخفض؛ إذاً هذا المفتاح للصوت، تحرّك هذا المفتاح فيصبح الصوت صافياً، إذاً هذا للتصفية، تكتشف خصائصها بالتأمل والملاحظة، لكن إذا رأيت معها نشرة باللغة العربية تقرؤها... مفتاح رقم واحد للصوت، الثاني للتصفية.. تطابُق، يمكن أن تتأمل في هذه الآلة فتصل إلى بعض خصائصها؛ لكنك إذا قرأت التعليمات التي أصدرها الصانع تصل إلى خصائصها الكاملة، إلا أن هناك ملاحظة؛ فأنت من طريق التأمل تصل إلى أشياء كثيرةٍ جداً، لكن ما كلُّ شيء تصل إليه من خلال الكون.

الكون، يدُل على وجود الله، يدل على عظمته، يدل على أسمائه لكن الكون لا يَدُلُّك على الصلاة، مهما تأملت في الكون أين الصلاة؟ أين ذكرُ خمس صلوات؟ أين الفرائض؟ أين السنن؟ أين الزكاة؟ أين الحج؟ أين الصيام؟ أين غضُّ البصر؟ هذه لا بد لها من منهج أنزله الله على نبيه ﷺ، من اكتفى بالكون فقد أخذ شطر الدين لكن لا بد من أن تهتدي بالكون جزئياً، ومن أن تهتدي بالقرآن كلياً.

القرآن يشتمل على أحكام، كما يشتمل على أوامر، وعلى نواهٍ، وفيه منهج كامل، وفيه أخبار السابقين، وأخبار اللاحقين، فيه بيان للمستقبل البعيد، وفيه بيان عن ذات الله عز وجل. لا يكفي الكون وحده، بل لا بدَّ من أن يتكامل الكون مع القرآن.

دخلتَ إلى جامعة، تأملت في قاعاتها الفسيحة، تأملت في قاعات المحاضرات الكبيرة، تأملت في حدائقها الرائعة، تأملت في بيوت طلابها، تأملت في مخبرها، تأملت

في مسرحها، تأملت في مكتبتها أخذك العجب العُجاب، لكن مهما تأملت في هذه الجامعة وفي أقواسها وقاعات محاضراتها، مهما تأملت في بيوت الطلاب وفي حدائقها وفي مكتبتها، لا يمكن أن تصل إلى نظامها الداخلي، لا يمكن أن تصل إلى طريقة النجاح والرسوب، لا يمكن أن تصل إلى أسماء الأساتذة، تأمل في الجدران من هم مدرسو هذه الجامعة؟ لا بد من كتاب تقرؤه في بيان الكليات، أقسام الكليات، رؤساء الأقسام، عُمداء الكليات، أسماء الأساتذة، اختصاصاتهم، ميزاتهم، موقع كلِّ كلية، نظامُها الداخلي، طريقة النجاح، طريقة الرسوب، طريقة الانتقال، طريقة الدرجات: مقبول، امتياز شرف، جيد، جيد جداً، هذا شيء لا بد من أن تقرأه في النظام الداخلي.

أنا أقول هذا الكلام وأريد منه أنك إذا فكرت في الكون عرفت عظمة الله عز وجل، أما إذا أردت أن تعرف منهجه، فلا بد من قراءة القرآن، والقرآن في أساسه موجز، فيه كليات الدين، جاء النبي ﷺ فشرحه وبيّنه، فإذا فكرت في الكون عرفت أن لهذا الكون خالِقاً عظيماً كبيراً عليماً قديراً حكيماً لطيفاً... إلخ.

لكنك إذا أردت أن تعبده، إذا أردت أن تتقرب إليه، وإذا أردت أن يُحبك، فماذا تفعل؟ أنت الآن بحاجة إلى تعليمات من قِبَل الخالق يقول لك: صُمْ شهرَ رمضان، أدِّ زكاة مالك، غُضَّ بَصَرَك، أحسِن إلى أخيك، اعفُ عنه، أنت الآن بحاجة إلى تعليمات هذا الخالِق، أنت بعقلك عن طريق الكون آمنت بالخالق، لكنك إذا أردت أن تعرف منهج الخالق، أمره ونهيه، أخبار الأمم السابقة، ماذا يريد منك، لماذا خُلقت؟ فلا بد من أن تقرأ كتابه.

إذاً الكون؛ يدُلُّكَ على وجود الله وعلى أسمائِه الحسنى، والقرآن يدُلُّكَ على منهجه، يعني إذا أردتَ أن تؤمن به ففكّر في الكون وإذا أردت أن تعبده فاقرأ القرآن، بالكون تعرفه، وبالقرآن تعبده، لا يغني أحدُهما عن الآخر، إذا قرأت القرآن ولم تفكر في خلق الواحد الديّان كأنك ما قرأت القرآن لماذا؟ لأن القرآن يأمُرُكَ أن تفكر، فإذا لم تفكر فقد عطّلت آيات التفكر في القرآن، إذا فكرت في الأكوان ولم تقرأ القرآن عرفت

الصانع، لكن كيف تصلي وكيف تصوم؟ أين أمرُه؟ ما عباداته؟ ماذا يريد منك، فلا تعرف ذلك إلا بمطالعة نهجه المكتوب.

ومن ثم فبعدَ أن خَلَقَ الكون، والكون دلّكَ عليه، وأنزل القرآن والقرآن بيّنَ لك منهجه، وأمره، ونهيه، وهناك حوادث، كما أن هناك تصرفات، شيء ما يحدث، أمطار تنهمر سماء تمطر، سماء لا تمطر، تأتي موجة صقيع: ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [القلم:١٩].

ترى محصولاً ثمنه مئات الملايين بثلاث دقائق يتلف بالصقيع، ونعوذ بالله من الصقيع، إذاً له أفعال، منها صقيع، ومنها رياح عاتية وأعاصير، وفيضانات، وبراكين، وزلازل، وكذلك أمراض وبلاء وقهر، وفقر، هذه أفعاله. خلقُهُ يدلُّ عليه، وكلامه يدل عليه، كما أن أفعاله تدل عليه: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [هود:١١٧].

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى:٣٠].

استطلت في أعراض الناس، فالناس استطالوا في عرضك، هذه بتلك، تكبَّرت؛ فأهانك الله، تواضعت؛ فرَفَعَكَ الله، أنفقت، فعوّضَ الله عليك، بَخِلت، فأتلف الله مالَك، غضضت بصرك عن محارم الله، أسعَدَكَ الله في بيتك، أطلقت بصرك أشقاك في بيتك، كنتَ مع الناس صادقاً، وثق الناس بك، كذبت عليهم، فَضَحَ أمركَ.

أفعال الله وحدها تُعلِّمُكَ، مرةً ثانية؛ المعلم ساكت لم يتكلم كلمة واحدة حينما رآك وكزت زميلك وأنت خارج إلى الباحة ضربك على رأسك، في الساعة الثانية وكزته فضربك، في الساعة الثالثة وكزته فضربك المعلم وهو ساكت، سكوته كافٍ، وفِعلُه يُعلِّم، أليس كذلك، طبعاً على هذه الفكرة ينطبق آلاف الوقائع، أفعال الله

وحدها تعلِّمُك، خلقُه يعلِّمُك، وكلامه يعلِّمُك، ربنا عز وجل قال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [النمل:٦٩].

شخص غشَّ الناس فصودرت بضاعته، فلماذا صودرت؟ دليل على أذيّته، هذا الذي نصحهم لماذا نمّى الله ماله؟ هذا الذي أكرمهم لماذا أكرمه الناس؟ هذا الذي أعطاهم لماذا أعطاه الله؟

إذاً: يهدي بخلقه، ويهدي بكلامه، ويهدي بأفعاله، لا أعتقد أنَّ واحداً من الإخوة القراء إلا وعلَّمَهُ الله بالأفعال... صليتَ الصُّبح في جماعة، فشَعَرتَ طوالَ النهار أن كلامك سديد، وأن عقلك رشيد، وأن أحوالك عالية، وأن قلبَكَ عامر، وأن الناس قد هابوك، وأن الأمور ميسَّرَةٌ.

في اليوم التالي لم تُصلِّ الصبح، فاتتك صلاة الفجر، فواجهتك مشكلات كثيرة: أول مشكلة في الطريق، الثانية في المحل، الثالثة جاءك موظف تطاول عليك، الرابعة ذهبت إلى فلان فلم تجده.

لقد علّمَكَ بأفعالِهِ، يوم صليت الفجر في جماعة؛ فأنت في حفظ الله وفي ذمته، فلما فاتتك صلاة الفجر، تلاحقت المشكلات في الطريق وفي العمل وفي البيت، هذا تعليم، الله يهديك إليه بأفعاله، تصدقت جاءتك دفعة لم تكن بالحسبان، سألك إنسان سؤالاً فأعطيته، رغم أنك مضطر إلى المال فتح الله عليك رزقاً.

ذكر لي أخ كريم فقال: اتصلت بي أختي صباحاً، قالت لي: أريد خمسة آلاف ليرة، قال: معي المبلغ ولكني في ضيق شديد وعليّ دفعات كبيرة، نشأ صراع في نفسه، ثم غلب نفسه وذهب إلى بيت أخته وأعطاها المبلغ، وعاد إلى دكانه في سوق البزورية، فجاءه شخص، وقال: أريد هذه السلعة وسمّاها، قلت: ليست موجودة لديّ، قال: أين توجد؟ قلت: في المعمل الفلاني، فطلب مني أن أدلّه عليه، فذهبت معه ودللته عليه وعدت إلى محلي، مساءً أتاه صاحب المعمل، وأعطاه مبلغاً من المال «طبعاً هذا إذا

أضافها على المشتري فيه شبهة أما إذا أعطاه من ربحه فلا شيء فيه» قال: أخذت ضعف ما قدمت لأختي صباحاً، ولا أعتقد أن أحداً ممن يقرأ هذا الكلام إلا ويلمس أن الله يوماً عامله بما يشبه معاملة ذلك الشخص، قال ﷺ: «أَنْفِقْ بلالُ، ولا تخشَ من ذي العرش إقلالاً» [البيهقي في «شعب الإيمان» من حديث أبي هريرة].

وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «قالَ اللهُ: أَنْفِقْ يا ابْنَ آدَمَ أُنْفِقْ عَلَيْكَ» [أخرجه البخاري].

أجل، علّمَكَ الله عز وجل بأفعاله، هو يعلِّمُك باستمرار، لذلك قال: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾ ﴾ [البقرة:٢٨٢].

يعلمك بأفعاله، لكنَّ الإنسان حينما يفهم عن ربه ما يأمر وما ينهى، وحينما تنعقد صلةٌ مباشرة، إدراك مباشر، تجد أن هذه بتلك وهذا الصنيع لذاك الفعل.

شخص له استقامته، وله انضباطه، وله ورعه، سافر في أول رحلة بالطائرة، زلت قدمه فأطلق بصره، وصل إلى البلد الآخر فركب سيارة أجرة، وأعطى السائق أجرته، فأخذه السائق إلى المخفر، العملة مزوّرة، فقال: أنا عضو وفدٍ ومدعوٌّ إلى مؤتمر في أعلى درجة، إذا به في قفص اتهام. قال: والله دمعت عيني وكأن ربي عاتبني، قال: وقع في قلبي «لماذا أطلقت بصرك يا عبدي»، بالأفعال عاملك، هداك بالخلق، وهداك بالقرآن، والآن هداك بالأفعال.

لقد أبدعك الله إبداعاً عظيماً، مثال ذلك في بعض المحالِّ التجارية تجد على البضاعة قسيمة بالسعر، ويوجد مادة على لصاقة السعر، إذا أخرجت هذه البضاعة دون أن تؤدِّ ثمنها وأنت خارج تحت قوس معين يصدر صوت عالٍ، أما إذا أديت ثمنها يعطل الموظف مفعول هذه المادة بمادة أخرى، فلو رأى واحد شيئاً، قليل الحجم غالي الثمن وضعه في جيبه ولم ينتبه، وخرج من هذا المحل، هذا القوس الذي يخرج من تحته يُصدر صوتاً مزعجاً، كأنه يقول: هذا سارق خذوه؛ هذه البضاعة مصنَّعة بحيث إنك

إذا أخذتها دون أداء ثمنها تصيحُ بك، هذا من صنعة الإنسان فالله سبحانه وتعالى خلق لكَ نفساً إذا أسأت تشعُر بالضيق، تُسميه وخز ضمير، تسميه كآبة، تسميه ضيقاً، ضاقت عليّ الأرض بما رَحُبَت، لأنَّ فِطرتك عالية، فأنتَ حينما أسأت خرجت عن قانون فِطرتِكَ، هكذا علّمَكَ بالفطرة، علمك بخلقه، وعلمك بكلامه، وعلمك بأفعاله، والآن علمك بالفطرة والدليل: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّنهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَنهَا ﴿٨﴾ ﴾ [الشمس:٧-٨].

يعني؛ إذا فَجَرَتْ، تعرف أنها فَجَرَتْ، وإذا اتقت، ارتاحت.

وبعد فإن القارئ الكريم وأنا لا أُبالغ يحس براحة نفسية لا تقدر بثمن، لأنه مطيعٌ لله فكيف يعرف ذلك؟ لو أنه زلّت قدمه لا سمح الله، لو أنه أطلَقَ بَصَرَهُ، ولو أنه فاته فرض صلاة، لو أنه كذب في كلمة، لو أنه اغتاب، لشَعَرَ كأنه سقط من السماء إلى الأرض، يشعر بالضيق، يُحس بالحِجاب، يحس أنَّ الله أبعده، أنَّ الله قلاهُ، أنَّ الله لم يقبلْهُ، هذا التعليم الرابع! هداية الفطرة، الآية الكريمة: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم:٣٠].

إقامة وجهك للدين حنيفاً؛ هو نفسه فِطرة الله التي فَطَرَ الناس عليها، فلا ترتاح إلا إذا عرفتَ الله، لأنك إذا عرفته آويت إلى ركن وثيق، إذا وُجِدَ موظف في دائرة من الدرجة الخامسة، على أساس الشهادة الثانوية، لكن المدير العام صهرُه زوج أخته، ترى أنَّ هذا الموظف له وضع خاص، مطمئنٌّ، يحسُّ بأمن عجيب بهذه الدائرة، لا يخشى لا من رئيسه المباشر ولا ممن هو أعلى من رئيسه ولا من المدير المعاون، كلهم مرتبطون بالأعلى، والأعلى يضفي عليه ظله، فهذا إنسان مع إنسان يحسُّ بالأمن؛ فكيف إذا كنتَ مع الله، إذا كنت مع الله فمن عليك؟ وإذا كان الله عليك فمن معك؟ علَّمَكَ بالفطرة، الإنسان متى يرتاح؟ إذا آوى إلى الله، إذا شعر أن الله يحبه، إذا شعر أنه بعين الله إذا شعر

أنه بحفظ الله، إذا شعر أنه يحب الخلق إكراماً لله، إذا نام مساءً ولم يؤذِ مخلوقاً ولم يكن لأحد حق في عنقه، لم يبنِ مجده على أنقاض الناس، لم يبنِ ثروته على فقر أحد، لم يبنِ أمنه على خوف الناس، لم يبنِ حياته على موت غيره، كان مِعطاءً، كان خيّراً. إذاً أنت لك فطرة قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس:٧-١٠]، إذا فجرت تعرف.

كنتُ في حفل عقد قِران تبعني شاب كريم، سألني سؤالاً حول موضوع حاك في صدره، فهو حينما فعل هذا الشيء المنكر جاء بمسوِّغات غير صحيحة، لكنه حينما عاد إلى بلده، قال: والله ما أعجبتني هذه المسوِّغات، كأنني رسبت في امتحان الله عز وجل، لم يعلِّمه أحد، ولا سأل أحداً، ولكنه أدْرَكَ من تلقاء نفسِهِ، أعني أدرك بفطرته.

إذاً: الله عز وجل هداكَ بخلقه، وهداكَ بكلامه، وهداكَ بأفعاله وهداكَ بالفطرة. الله عز وجل له أساليب كثيرة في الهدى، بل أحياناً يهديك بالإلهام قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص:٧].

هذا وحي إلهام، يقول لك: اللهُ ألهني أن أسفار، الله ألهمني ألا أشتري هذه الصفقة، الله ألهمني ألا أشارك فلاناً، الله ألهمني ألا أشتري هذا البيت، ما عندي دليل، بل هو إلهام، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾.

مرةً في أحد أيام الأعياد، عندي فراغ ونويت أن أذهب لأزور صديقي غربي دمشق، لكني فجأة وجدت نفسي أنساق إلى بيتي بصورة لا شعورية، وبلا سبب، ولا مسوِّغ، فما إن وصلت إلى البيت حتى فوجئت برجلٍ يأتيني من مكان بعيد من بلد في الشمال جاء لزيارتي في فترة العيد، وليس له في الشام بيت آخر يبيت فيه، هذا إلهام، عندما يستسلم الإنسان لله عز وجل يُلهمه الله، وإلهامات المؤمن كلُّها لصالحه، لكن إلهامات الكافر، أقول إلهامات الكافر مجازاً ومثله الفاسق، المنحرف وهي وساوس شيطانية،

كلُّها لغير صالِحِهِ، يوسوس له أن يعقد هذه الصفقة يُفلس من خلالها، يوسوس له أن يشارك فلاناً ينهبُهُ، يوسوس له أن يفتتح مصلحة أو ينشئ مشروعاً فيكون سبب دماره وخسرانه، هذا وسواس شيطاني، أنت بين إلهام الرحمن أو وسوسة الشيطان، فإذا كنت مع الرحمن ألهمك، وإذا كان المرء مع الشيطان وسوَس إليه، هذه طريقة أخرى في الهدى، الله يُلهمك، لذلك قال تعالى: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ۝٤٠﴾ [طه:٤٠].

أحياناً يُلهمك أن تزور مثلاً هذا المسجد، أنا أتكلم عن سابق تجربة، إذ ليس من أخٍ اهتدى إلى الله عز وجل عن طريق هذه الدروس إلا وكنت أسأله سؤالاً صغيراً، أقول له: كيف اهتديت إلى هذا الجامع؟ فأسمع قصصاً عجيبةً، مثلاً دخل شخص ليصلي المغرب مصادفة فرأى جمعاً فجلس، فكان هذا أول درس يحضره وما ترك بعده درساً، هناك إنسان اهتدى عن طريق صديق، عن طريق قريب، عن طريق صاحب عن طريق موعد أحياناً، هذا إلهام.

إذاً بخلقه، بكلامه، بأفعاله، بالفطرة، بالإلهام.

الآن بالرؤيا الصالحة، هناك أشخاص إذا رأوا رؤيا صالحة واضحة، صارخة، بارزة، هذه الرؤيا تحمِلُهم على طاعة الله عز وجل، وهذا شيء مؤيِّد، لأن النبي ﷺ يقول «الرؤيا الصالحة جزءٌ من ست وأربعين جزءاً من النبوة» [أخرجه البخاري في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري، ومسلم من حديث أبي هريرة]، أي إنّ الله عز وجل إذا أراد أن يُعلِّمَكَ شيئاً ما بطريق مباشر، بلا استنباط ولا تأمل ولا إدراك، ولا من طريق الأفعال ولا من طريق الخلق ولا من طريق القرآن.

لا تفكر في الكون ولا نظر في الأفعال ولا تدبر في القرآن، لكن يريد الله عز وجل أحياناً أن يعلمَكَ إعلاماً، مباشراً، سريعاً، حازماً، واضحاً، فقد ترى نفسك تسير في طريق الهاوية، كأن الله يُحذِّرُكَ، أحياناً تتساءل عن سؤال كبير، الله عز وجل يُجيبك عن هذا السؤال في الرؤيا.

كثير من الإخوة الكرام تكلّموا معي: قبل أن ينام أحدهم نشأ عنده سؤال فقال: أسألك يا رب أن تلهمني الصواب، فرأى رؤيا صالحة كأنها إجابة عن هذا السؤال، إذاً هذا هدى عن طريق الرؤيا، لكن هنا نقطة مهمة جداً، أيةُ رؤيا خالفت أوامر الشرع؛ اسمعوا ما أقول؛ اركِلها بقدمك لأنَّ الشرع هو الثابت وكلُّ ما جاء في الرؤيا خلاف القرآن الكريم من الشيطان، لو أن أحداً رأى رجلاً صالحاً، ويعتمُّ بعمّةٍ خضراء ووجهه يشعُّ نوراً وقال له: لا تصلِّ، نقول له: هذه الرؤيا اركِلها بقدمك، لا تصدق، كل ذلك كلام فارغ، نحن عندنا مقياس الشرع، أية رؤيا تخالف أوامر الله تخالف شرعَ الله عز وجل، لا تعبأ بها، ولا تقم لها قيمة، ولا تأخذ بها، ولا تحفل بها فإنها، قطعاً، من الشيطان.

لكن الرؤيا التي من الرحمن لها خصائص، إذا كنت لا سَمَحَ الله منحرفاً، ورأيت رؤيا مخيفة، فهذه من الرحمن قطعاً، وإذا كنت محسناً، ورأيت رؤيا مبشِّرة، هذه من الرحمن قطعاً.

فإذا كنتَ محسناً، ورأيت رؤيا مخيفة؛ هذه من الشيطان لكي تخاف، وإذا كنتَ لا سمح الله مُسيئاً، ورأيت رؤيا مبشِّرة؛ هذه أيضاً من الشيطان، الأصل الشرع واستقامتك، فهذه ثوابت.

بالمناسبة؛ الرؤيا لا يمكن أن تكون قاعدة، ولا يمكن أن تكون دليلاً. إنها اتصال مباشر بين العبد وربه فقط، هي شيء لا يجبر على فعلٍ ولا يُنقل أثره إلى غيره إنما هي شيء شخصي مَحض، هذه الرؤيا.

أحياناً يهديك عن طريق خلقه، لا عن طريق مخلوقاته عن طريق الأشخاص، فمثلاً، يجمعك مع شخص يحكي لك موضوعاً، فحينما ألتقي مثلاً بإنسانٍ ويتكلم هذا الإنسان، أشعر بطريقة أو بأخرى وأتساءل: من الذي جمعني بهذا الإنسان؟ هو الله، من الذي ألهمه؟ هو الله، من الذي أنطقه؟ هو الله، حينما تكون في طريق غير صحيح، ويأتي إنسان يبين لكَ الصواب، فإني أعتقد اعتقاداً صحيحاً أن هذا الإنسان قد ساقَهُ الله إليك ليُبلِّغَك وليُعرِّفَكَ، هذا أيضاً هدى عن طريق الخلق.

وهناك هُدى من نوعٍ آخر، هذا الهُدى الانقباض والانبساط يقول لك: انقبضت، أزمعت أن تسافر إلى جهة ما فشعرت بانقباض، أو شعرت بانشراح، أو الأمور تيسَّرت أو تعسّرت، فالانقباض والتعسير والانشراح والتيسير هذا تعليم أيضاً، فإذا كان الله راضياً يكون هناك انشراح وتيسير، الله غير راضٍ وأنت مؤمن، عندكَ حساسية، وعندَكَ إدراكٌ دقيق أنت مؤمن، فأصبحَ هناكَ انقباض وتعسير، إذاً هذا شيء لا يرضي الله عز وجل.

وكخلاصة أوجز بها الموضوع أقول: أحياناً يسلب الله سبحانه وتعالى لُبَّ عبده أي: عقله ويُسيّرهُ تسييراً سلبياً في جهة ما، هذا أيضاً هدى. هدانا بخلق الكون، وهدانا بالقرآن وهدانا بأفعاله وهدانا بالفطرة، وهدانا بالإلهام، وهدانا بالرؤيا، وهدانا عن طريق الأشخاص، وهدانا عن طريق الانشراح والانقباض والتيسير والتعسير، ثم هدانا عن طريق التسيير المباشر. هذه كلها تعني أنَّ الله هو الهادي.

أنواع الهداية

العلماء لهم تفسيرات عميقة للهدى الإلهي، الهدى أربعة أنواع:

- الهُدى العام: الله عز وجل زوّدَكَ بحاسة الشم، تقول: رائحة غاز، كيف هداك إلى وجود غاز وفيه خطر على البيت؟ عن طريق الشم، أحياناً تسمع صوتاً في الغرفة الثانية، كيف هداك أن هناك حركة في البيت؟ عن طريق السمع، أعطاك ملكة الاستدلال والتفكير، أعطاك علماً، أعطاك خِبرة أعطاك حواس خمساً، هذه كلُّها القدرات التي أودعها الله في المخلوقات هداهم إلى مصالحهم.

ائت بنملة ضع أصبعك أمامها تقف وتغير طريقها، يعني أن الله أعطاها بصراً، أعطاها إدراكاً بأن هنا خطراً وهو حاجز، الله عز وجل هدى كلَّ الحيوانات؛ عن طريق الغريزة إلى مصالحها.

أحد الأشخاص كان في بستان، فرأى قنفذاً يأكل أفعى، أكل قطعة منها ثم تركها وذهب إلى نبات وأكل منه ورقة، ثم عاد، وأكل قطعة ثانية ثم ذهب إلى هذا النبات

وأكل ورقة ثانية، فهذا البستاني أمسك بالنبات وقلعه، وأكل القنفذ قطعة ثالثة ثم ذهب إلى النبات فلم يجده، فمات القنفذ، من هداه إلى أن هذا النبات يتناسب مع هذا الطعام؟ الله عز وجل.

مثلا: لو أحضرنا أمهر رُبان في العالم، أعلى رُبان على وجه الأرض في علمه ومهارته يحمل شهادات عليا وعنده ألفا ساعة قيادة سفن، وعنده دراسات وعنده اختصاص، وعنده خبرات، لو وضعناه على سفينة بلا بوصلة على ساحل فرنسا، وقلنا له: اتجه بها إلى مصبِّ نهر الأمازون، لا أُبالغ إذا قلت ربما جاء البرازيل في جزئها الجنوبي، فلا مجال بدون البوصلة ولا إمكانية، ولو انحرف درجة في بدء مساره لانحرف في النهاية مسافة خمسمئة كيلومتر، أما سمك السلمون فإنه يتجه من سواحل الأطلسي إلى مصبات الأنهار في أمريكا، كلُّ سمكة وُلدت بمنبع نهر تتجه إلى مصب النهر، وهذه السمكة المتجهة ليست هي التي قدمت عند بدء الرحلة بل أمها هي التي جاءت إلى هنا، ثم وضعت بيضها وربما ماتت في مكانها الجديد، أما السمك الجديد فبعد أن يخرج من البيوض يتجه نحو الشرق إلى سواحل فرنسا إلى حيث بدأت رحلة الأمهات، فإذا كبرت عادت إلى مصبات الأنهار، قال تعالى: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه:٤٩-٥٠].

هذه هداية، فأول هداية: هداية عامة، هُديَ الإنسان إلى طعامه ولباسه إذ صَنَعَ نسيجاً ولبس، صَنَعَ بيتاً، طهى الطعام، طهي الطعام شيء معقد جداً، أكل الأكلة فإذا كان فيها خلل تتضايق منها، من هداك لوضع ملح وطحينة وكمون وفلفل وعصفر؟ مَن؟ إذاً لدينا هُدى، هُدى إلى كسب الرزق، هُدى إلى تأمين المعاش، هُدى إلى تأمين الحاجات، فهذا الهدى الأول هداية عامة.

- الهدى الثاني هداية الوحي، يهديك إليه، يهديك إلى كتابهِ يهديك إلى الحق.

- الهدى الثالث: هداية التوفيق، قال تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ ﴾ [الكهف:١٣].

- الهدى الرابع: هداية الجنة، قال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾ [محمد:٤-٦].

إذاً هناك هداية عامة، وهداية الوحي وهداية التوفيق والهدى إلى الجنة.

في ختام هذا البحث لا بد من بيان قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾ [البقرة:٢٨٢] هذه الواو تفيد أن الجملة ليست شرطية، ليس اتقوا الله يعلمْكم بل: ... واتقوا الله، لماذا لا تتقونه؟ لأنه يُعلمكم، يعلمكم دائماً بالخلق، وبكلامه وبأفعاله وبالفطرة وبالإلهام وبالرؤيا، وبالخلق، وبالقلب وبالانقباض والتيسير وبالتعسير وما إلى ذلك ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾.

ولعله صار واضحاً أنه بتقوى الله تتحقق كلُّ مفاهيم الهداية ومقوماتها للإنسان فيهتدي إلى ربه ويسعد إلى الأبد.

يضل من يشاء

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النحل: ٩٣]

ويقول تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ [الرعد: ٢٧]

من معاني الضلال والإضلال

لا بدَّ من مقدِّمة لغويَّة: الكلمة تحتمل من المعاني بقدر ما يملك الإنسان من خبرات، وكأنَّ الكلمة مِشجبٌ يعلِّق عليه كلُّ إنسانٍ ما يملكه من خبرات حول هذه الكلمة، لذلك هناك خطرٌ كبير هو أن نملك مفهوماً خاطئاً عن كلمة، فكلما ذكرنا هذه الكلمة حمَّلناها ذلك المفهوم.

مثلاً... كلمة جرثومة في استعمالاتنا اليومية تشير إلى المرض، أمَّا أن يقف شاعر كأبي تمام يقول وهو يخاطب خليفةً كبيراً كالمعتصم «محمد بن هارون الرشيد»:

خليفـةَ الله جـازى اللهُ سـعيَكَ عـن جُرثومَـةِ الـدِّينِ والإسـلام والحسـبِ

فمعنى ذلك أن كلمة «جرثومة» وقت أن مدح الشاعرُ الخليفةَ بها كانت تعني شيئاً حميداً، كانت تعني «أصل الشيء»، فلما سمينا تلك الكائنات المجهرية التي هي سبب الأمراض جراثيم، فلم يعد من المناسب أن تمدح إنساناً وتصفه بأنَّه جرثومة، إذاً هذه الكلمة حملت معنىً في حقبةٍ ما غير المعنى الذي تحمله الآن.

كلمة استعمار، هذه الكلمة ليست محبَّبة، لأن أقوياء منحرفين معتدين احتلُّوا بلاداً كثيرة ونهبوا ثرواتها وقهروا أهلها واستعبدوهم فسمُّوا أنفسهم مستعمرين بمعنى أنهم أرادوا أن يُعَمِّروا الأرض، فالممارسة المؤلمة الخاطئة والتي أُلصقت بهذه الكلمة أعطتها معنىً لا يُقبل الآن أن يمدح به إنسان، ومن أجل أن يقف القارئ الكريم على إيجابية كلمة «استعمار» فليقرأ قوله تعالى في سورة هود: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١].

أردت من هذه المقدمة أن نحرر مفاهيم الكلمات مما لصق بها من خبرات. فربما كانت الكلمة لها معنىً في اللغة غير هذا المعنى.

ربما من خلال الممارسات وجدنا أن إنساناً يُضلُّ إنساناً آخر، فهذا العمل ليس محبوباً عندنا، ليس عملاً مستحسناً أن يُضلَّ إنسانٌ إنساناً، إنه عملٌ مخالفٌ للفطرة، مخالفٌ للقيم الإنسانية الرفيعة، أما إذا قلنا: إن الله يُضِلُّ فلا بدَّ من معنى يليق بكمال الله.

الضَّلالُ: النِّسيان والضَّياع... فقد قال تعالى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه:٥٢].

وضلَّ الكافر... إذا غاب عن علة وجوده الذي خُلق من أجلها.

إنسان ذهب إلى بلد غريب لينال الدكتوراه، فتنته تلك البلاد بمسارحها ومقاصفها ونواديها وحدائقها وشهواتها فانغمس في هذه الشهوات، وضلَّ عن هدفه

الذي سافر من أجله، فيقال: هذا الطالب ضالّ، أي: غاب عن الهدف الذي جاء من أجله، وقد يكون الضلال هو الانحراف عن الطريق المستقيم... فالطريق المستقيم إذا خرج الإنسان عنه فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً.

وأضلَّه: جعله ضالًّا، أما إذا قلنا: الله جلَّ جلاله أضلَّ فلاناً فمن معانيها: وجده ضالاً وعلِمَه ضالًّا.

والضَّلالُ: كلُّ عدولٍ عن المنهج عمداً أو سهواً، يسيراً أو كثيراً.

قال بعض العلماء: «إنَّ إضلال الله تعالى للإنسان على أحد وجهين، أحدهما أن يكون الإنسان ضالاًّ»... أي: اختار الضلال فقدَّر الله عليه الضلال الجزائيَّ المبنيَّ على ضلال اختياريٍّ، فإذا عُزِيَ الإضلال إلى الله فهو الإضلال الجزائي المبنيُّ على ضلال اختياريٍّ، إذا قلنا: إنَّ رئاسة الجامعة قد طردت هذا الطالب من الجامعة فليس معنى هذا الكلام إلا أنَّ الطالب رفض أن يدرس، ورفض أن يداوم، ورفض أن يُقدِّم الامتحان، ورفض أن يجيب عن الإنذارات، وتجاهل كلَّ دعوةٍ إلى العودة إلى الجامعة، عندئذٍ لم تجد رئاسة الجامعة بداً من أن تصدر قراراً يجسِّدُ سلوك الطالب، يُجسِّد اختيار الطالب، فإذ عُزِيَ الإضلال إلى الله فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري.

لو فتحنا معجم اللغة وأردنا أن نستشفَّ معنى فعل أفْعَلَ، فعندنا فِعْلُ (فَعَلَ) وهو فعل لازم، وأما (أفْعَلَ) فقد يأتي للتعدية، ضلَّ: تاه، أضَلَّ... من معنى الفعل الثلاثي المزيد بهمزةٍ في أوَّله «أفْعَلَ» فأضل تفيد الوجدان أو العلم، كأن نقول: اختبرتُ هذه القبيلة فما أجبنتُها... أي ما وجدتها جبانةً، أو نقول: عاملتُها فما أبخلتُها... أي ما وجدتها بخيلةً، إذاً هناك معنى آخر، أي: أنَّه وجده ضالاًّ، علمه ضالاًّ، أعطاه الخيار، فاختار الضلال فحكم الله عليه بالضلال فأضلَّه.

لو أخذنا الجامعة مثالاً؛ فليست البطولة أن ينجح جميع الطلاب بعلاماتٍ تامَّة، ولكنَّ كمال هذه الجامعة أن تأتي علامات الطلاب مطابقة لمستوياتهم العلمية، فتطابقُ

النتائج مع المقدِّمات هو الكمال، أمّا أن ننتظر من جامعةٍ ما أن يكون طلابُها جميعاً في الدرجة الأولى فهذا يتنافى مع طبيعة الإنسان المخيَّر، إلا أنَّ النتائج إذا جاءت مطابقةً للمقدِّمات فهذا هو الكمال.

فالإنسان حينما يختار الضَّلال يذكِّره الله فلا يذكُر، يُنذره فلا يتأثَّر، يدلُّه فلا يسلك، يخيفه فلا يتوب، يكرمه فلا يشكر، والله جلَّ جلاله يهدي الإنسان بياناً، ثم يهديه تأديباً، ثم يهديه إكراماً... لم يستجب في البيان، ولا في التأديب تَضَرَّعَ، ولا في الإكرام شكر، فإذا أصرَّ على الضلال فبحسب قوانين الله عز وجل وبحسب سُننه في الكون هذا الإنسان الذي اختار الضلال بمحض مشيئته سوف يسلك الله به إلى النار ليدفع الإنسان به ثمن اختياره.

الشيء الثاني... معنى الإضلال كما قلت قبل قليل: الحكم على هذا الإنسان بأنَّه ضالٌّ والعدول به عن طريق الجنة إلى النار وهذا العدول حقٌّ وعدل.

وهناك معنى ثالث... هو أن الله سبحانه وتعالى جَبَلَ نفسية الإنسان جِبِلّةً بحيث إذا اختارت طريقاً فإنَّها تألفه ويصعب أن تحيد عنه، فمن شبَّ على شيءٍ شاب عليه، ومن شاب على شيءٍ مات عليه، ومن مات على شيءٍ حُشِر عليه، فلو أنَّ الإنسان اختار طريق الضلال، وألِفَ الضلال ومارسه، وانغمس في المعاصي والآثام وألِف هذه الحياة، فإنه يصعب عليه بناءً على جبلَّته أن يغير ما ألفه، هذه الجبلَّة التي يصعب عليها أن تُغيِّر المألوف عندها، هي في الأصل لمصلحة الإنسان.

في علوم الفيزياء قانونٌ يسمى: «قانون العطالة»، فالأشياء المتحرِّكة ترفض السكون، والأشياء الساكنة ترفض الحركة، فلو كنتَ تركب مركبةً وأوقف السائقُ المركبةَ فجأةً فأنت ترفض أن تقف فتتابع الحركة، هذا الذي يدفع صانعي السيارات لوضع أحزمة الأمان في المقاعد لتكون مرتبطاً بالمركبة ولست حراً، فالمركبة حينما تقف فجأةً يبقى الراكب مندفعاً نحو الأمام، وقد يتأذى بهذا الاندفاع، فلا بدَّ من حزام الأمان، وهذا أساس مبدأ العطالة، والأشياء الساكنة ترفض الحركة، فلو كنت جالساً

في مركبة وأقلعت تشعر أن شيئاً دفعك نحو الخلف، فالمقعد دفعك من جهة الخلف لأنك ترفض الحركة والمركبة تحرَّكت... فهذا القانون لصالح الإنسان. فلو أن الإنسان هُديَ هدايةً كبيرة جداً ولسببٍ تافهٍ يعدل عن هذه الهداية، فهذه مشكلة كبيرة تواجهه وتحدث عنده خللاً.

فأنت جبِلَّتكِ تقترب من مبدأ العطالة، فإذا ألفت الهدى تابعت الهدى، وبالمقابل؛ فإذا ألف الإنسان الضلال تابع الضلال، فهذا القانون قانونٌ ذو حدَّيْن لمصلحة المؤمن، كذلك ليس لمصلحة الكافر، المؤمن يزداد به إيماناً، والكافر يزداد به كفراً، والحياة أساسها الاختيار، فكلُّ شيء حياديٌّ، فهذا القانون يمكن أن يكون لمصلحة المؤمن، ويمكن أن يكون لغير مصلحة الكافر.

ففي جبلَّة الإنسان، أنَّ الإنسان إذا سلك طريقاً محموداً أو مذموماً ألفه واستطابه ولزمه وتعذَّر عليه صرفه أو انصرافه عنه، لذلك أهون شيءٍ أن ترشد الصغار لأنهم ليِّنو العود، أما الكبار فقد ثبتوا على طريقةٍ معينة فمن الصعب جداً أن تغيِّر سلوك الكبير لأنه ألف شيئاً يصعب عليه أن يتركه.

فالإنسان الجاهل بالله عز وجل، والجاهل بمعاني الكلمات قد يفهم الإضلال فهماً لا يليق بكمال الله عز وجل، قد يفهم أنَّ الله أضلَّه، أي: جعله ضالاً وخلق فيه الضلال، يا ربِّ إذا خلقت فيه الضلال فلماذا تحاسبه؟ هذا المعنى لا يليق بالله عز وجل... فبناءً على أنَّ المقدِّمات لا بدَّ لها من نتائج متوافقة معها. فمن اختار الضلال بمحض مشيئته وأصرَّ عليه خلقه الله فيه جزاءً لا ابتداءً.

والمعنى الثاني أنَّ طبيعة الإنسان ذات عطالة، فإذا ألفت الخير ثبتت عليه، وإذا ألفت الشر ثبتت عليه، فهذا القانون حيادي يمكن أن يكون لمصلحة المؤمن وقد لا يكون لمصلحة غير المؤمن.

لذلك إن الإنسان إذا انتبه للهدى في وقتٍ مبكِّر، فهذا من نعم الله العظمى لأنه سيبني بيتاً إسلامياً، وسيختار عملاً إسلامياً، أمَّا إذا تأخَّر في البداية، فقد يجد نفسه

ضائعاً فبيته ليس إسلامياً، وعمله ليس إسلامياً، وقد ألف حياة التفلُّت؛ عندئذٍ يصعب عليه أن يعود إلى الله كما لو كان شابّاً.

يقول الله عز وجل: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ [التوبة:١١٥].

فعندما يختار الإنسان الهدى، واللهُ سبحانه ييسِّر له سبيل الهدى يستحيل على كمال الله عز وجل أن يضلَّه بعد أن اهتدى إليه... لذلك: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ ﴾.

قال تعالى: ﴿ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ ﴾ [محمد:٤-٥].

معنى آخر... إنَّ الكافر أحياناً يُضلُّه الله لا عن ذاته تعالى، بل عن شركائه، فلو أنَّ إنساناً أشرك جهةً مع الله أيَّةَ جهةٍ، فمن تربية الله له، ومن تأديب الله له، أنَّ هذه الجهة التي أشركها مع الله يسخِّرها الله لتخييب ظنِّه، ويجب أن يُحبَط عملُ هذ الإنسان الذي اعتمد فيه على شريكٍ لله عز وجل، كأنَّ الله أضلَّه عنه ولم يبقَ له إلا الله.

والحقيقة: ما أكثر ما يقع هذا الشيء. فكلما علَّقتَ الآمال على جهةٍ أرضية؛ على ابنٍ مثلاً، أو على زوجة، أو على أخٍ، أو على صديقٍ، علَّقتَ عليه الآمال ونسيت الله عز وجل فلا بدَّ أن يخيِّب ظنَّك، هذا الذي علَّقتَ عليه الآمال، قد يكون وفياً، لكن يُلهمه الله أن يخيِّب ظنَّك ليضلَّك عنه، كي تتَّجه إلى الله وحده، لا إلى أحد في الأرض.

فلو أنَّ إنساناً له صديقٌ قويٌّ يعمل في منصبٍ حسّاس، وقال له: أنا في خدمتك، فأية قضيةٍ ألمتك فتعالَ إليّ، فهذا الإنسان يتكئ على هذا الصديق ويشعر بالأمن والقوة، أشرك وهو لا يدري، ونسي الله وهو لا يدري، فلو أنه استجاره مرةً، وطرق بابه ووجد منه خلاف ما يظن فيرى أنه قد تخلّى عنه، ووقف منه موقفاً سلبياً قاسياً، فهذا التخلي أو تلك القسوة بإلهام الله لهذا القويِّ كي يضلَّ هذا المشرك عن الشريك ليوحِّدَ الله عز وجل.

فإذاً، كلما قلت: أنا، أو نحن، أو زيد، أو عُبيد تخلَّى الله عنك، وإذا قلت: الله... تولاّك، فأنت دائماً وأبداً بين التولي والتخلي، إذا وحَّدت الله تولى أمرك، وإذا أشركت معه تخلى عنك... وهذا الدرس نحتاج إليه كلَّ يوم.

كلُّ إنسان له عمل، له خبرات، عنده مال، يستند إلى مراكز قوة، عنده إيجابيات، عنده قدرات، عنده ملكات، إذا اعتمد على ملكاته، على قدراته، على أمواله، على جماعته، على أقربائه، على إمكاناته، على شأنه، على وجاهته، على ذكائه، على رصيده، كلما اعتمد على شيءٍ أرضي تخلَّى الله عنه.

أضلَّه عن هذا الشريك ليوحِّد، فالمؤمن لو أنه أخذ بالأسباب فعليه ألا ينسى مسبِّب الأسباب، ولو أنه وسَّط فلاناً في قضيةٍ ما فعليه ألاّ ينسى أنَّ الله هو الملهم وأن الخير والتوفيق بيده... فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾﴾ [محمد:٨].

لماذا لم يرد في القرآن أنَّ الله أضلَّ مؤمناً؟ فهذه النقطة نقطة إيجابية دقيقة... لأنَّ المؤمن آمن فقد قال تعالى عنه: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾ [مريم:٧٦].

وقال تعالى عن أهل الكهف: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ [الكهف:١٣].

أي إنَّ قضاء الله وقدرَه مع المؤمن ومع الكافر، فالمؤمن إذا اختار الهدى يزداد هدىً، إذا آمن يُلقي الله في قلبه السكينة ليزداد إيماناً مع إيمانه، إذا اتخذ قراراً يرضي الله عز وجل شرح الله له صدره، أما إذا اتخذ قراراً يُسخط الله عز وجل فلسوف يضيق صدره ويصبح حرجاً ضيقاً كأنما يصَّعد في السماء كما قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا

﴿يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢٥﴾ [الأنعام:١٢٥].

من هنا قال النبي ﷺ: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشاءُ»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «اللهمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنا عَلَى طَاعَتِكَ» [رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو].

الله جلَّ جلاله هو الكامل، فأيُّ فهمٍ لكلام الله عز وجل على غير الكمال الذي يليق بالله فهذا فهم خاطئ.

في معجم ألفاظ القرآن الكريم قال: أضلَّه جعله ضالاً، وأضلَّه: وجده ضالاً، كما يقال: أحمدته وأبخلته، أي: وجدته محموداً وبخيلاً، وبهذين المعنيين يمكن تفسير ما ورد من إسناد إضلال الضالين إلى الله تعالى في مثل: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ [إبراهيم:٤].

قد يتوهَّم البعض أن معنى أضلَّه أي: خلق فيه الضلال... كما قيل في بيتين من الشعر:

ما حيلةُ العبد والأقدار جارية ... عليه في كلِّ حال أيها الرائي
ألقاه في اليمِّ مكتوفاً وقال له ... إيَّاك إيَّاك أن تبتلَّ بالماء[1]

---

(١) البيت من كلام الحلاج وقد ردَّ عليه الشيخ عبد الغني النابلسي في قصيدة مطلعها:

قد قال من قال من جهل وإغواء ... عن حكم تكليف ربي عبده الثائي
ما حيلة العبد والأقدار جارية ... عليه في كل حال أيها الرائي
ألقاه في البحر مكتوفاً وقال له ... إيَّاك إياك أن تبتل بالماء
جنى عليه فتى من أهل ملتنا ... قد قال في رده نظماً بإنشاء
إن حقّه اللطف لم يمسسه من بلل ... وما عليه بتكتيف وإلقاء
وإن يكن قدر المولى له غرقاً ... فهو الغريق وإن ألقي بصحراء

عقيدة الجبر عقيدةٌ زائغة، مرفوضة، لا تليق بكمال الله عز وجل، وتتناقض مع تكليف الإنسان، ومع حرية اختياره، ومع كسبه، ومع الثواب والعقاب، ومع الجنة والنار، عقيدة الجبر تنفيها آيةٌ كريمة صريحة قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام:١٤٨].

قال علماء اللغة: «أضلَّه... وجده ضالاًّ»، كأن تقول أحمدته أي وجدته محموداً، وأبخلته أي: وجدته بخيلاً.

عندنا قاعدة في أصول الفقه: الآيات المتشابهات مهما كثُرت تُحمَل على الآيات المحكمات مهما قلَّت، فالكلمة المتشابهة تشبه معنىً ومعنىً آخر، إذا قلنا: القمح مادةٌ خطيرة، فما معنى خطيرة؟ فالقنبلة خطيرة لأنها مدمِّرة ونقول عنها سلاحٌ خطير... واللحم مادة خطيرة، أي: أساسية في حياة الإنسان، فيا تُرى كلمة خطيرة التي وُصف بها القمح أو اللحم هل تعني أنها مدمِّرة أم أساسية؟ فلو قلنا: القمح مادةٌ خطيرة ماذا نقصد بها؟ لو قلنا بعد حين: القمح مادةٌ مهمةٌ في حياة الإنسان، فكلمة مهمَّة تعبير محكم واضح جليٌّ، كلمة القمح مادةٌ خطيرة كلمة متشابهة، كيف نفهم كلمة خطيرة، إذا قرأنا جملة ثانية أن القمح مادة أساسية، فنحمل كلمة خطيرة على أنها أساسية، لأن الكلمات المتشابهة تُحمل على الكلمات المحكمة... هذه قاعدة.

فإذا جاء في القرآن الكريم بأن الله سبحانه وتعالى خلقنا ليرحمنا، وخلقنا ليهدينا، وإنَّ الله لا يأمر بالفحشاء فقد قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ [إبراهيم:٨].

والله سبحانه ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ قال تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾ [الزمر:٧].

ما دامت آيات كتاب الله تؤكِّد أنَّ الإنسان مخيَّر، وأنَّ الشرَّ ليس إيجابياً بل هو شيء سلبيٌّ، وليس مقصوداً لذاته فهو موظَّف للخير المطلق، عندئذٍ يجب أن نفهم معنى الإضلال لا على أنَّ الله خلق في الإنسان الضلال، بل على أنه أعطاه حرية الاختيار، فاختار الضلال فوجده الله ضالاً، ولأن هناك قوانين إلهيَّة فالضلال له نهاية والهدى له نهاية.

يضلُّ الله من يشاء... عندنا آية تقوِّي هذا المعنى، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الصف:٥].

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟﴾ زيغاً ابتدائياً مختارين فأزاغ الله قلوبهم زيْغاً جزائياً.

وأذكِّر مرة ثانية بمثل الجامعة، طالب بمحض اختياره ترك الدوام، فإنه لم يداوم، ولم يؤدِّ الامتحان، ولم يشترِ الكتب، ولم يردّ على الإنذارات التي وُجهت إليه، ولم يستجب للدعوة للعودة إلى الجامعة، أصر على هذا الموقف، وبعد ذلك يصدرُ من إدارة الجامعة قرار بترقين قيده، هذا القرار تجسيدٌ لإرادته الحرة، نقول: الجامعة طردته، الجامعة رقَّنت قيده، الجامعة جهةٌ خيرةٌ حكيمةٌ أُنشئَت الجامعة ليتعلَّم الطلاب، لا لتطردهم منها، ولا لتُرقِّن قيودهم منها.

إذاً: نفهم ترقين القيد والطرد من الجامعة فهماً جزائياً لا فهماً جبرياً، فهناك فرقٌ بين الفهم الجزائي والجبري... ﴿ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ ﴾، ومن يشاء الهدى يهديه الله.. ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾... فقد قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ ﴾ [المدثر:٣١].

هناك معنى آخر للإضلال... إنسان يتَّجه إلى حمص، وقبل حمص رأى طريقين بلا لافتات، ورأى رجلاً فسأله قائلاً: مِن فضلك: مِن أين طريق حمص؟ قال له الرجل: من هذا الطريق. فقال هذا السائل لهذا المسؤول: جزاك الله خيراً، بارك الله فيك، فلما قبل هذه النصيحة، وقبل هذا الإرشاد، قال له الآخر: انتبه فهناك حاجز، وهناك طريق فرعي، وهناك مقطع من الطريق شديد السوء فانتبه واحذر... عندما قبل منه هذا الإرشاد أمدَّه بكثير من التفاصيل... ولو أنَّ إنساناً آخر وصل لهذا المفترق الذي دون لافتات وسأل هذا الرجل: من أين طريق حمص؟ قال له: من هنا. قال: أنت كاذب، فهذا الذي يقف على مفترق الطرق هل بإمكانه أن يعطيه تعليمات تفصيلية؟ وقد رفض دعوته كلياً، ورفض نصيحته كلياً، رفض دلالته.

معنى ذلك أنَّ الإنسان حينما يرفض أصل الدين، وأصل الشريعة، حينما يرفض منهج الله عز وجل فلن يستفيد من منهج الله وكأنَّ الله أضلَّه.

هناك ألف ميزة لطالب الجامعة... مكتبة مجانية، وإعارة كتب وتعويض، ولباس مجاني، وبطاقات تخفيض للمطاعم وفي السفر وفي الطائرات، إذا رفض الإنسان دخول الجامعة فهل يتمتَّع بهذه الميزات؟ إذاً هو حُرم منها كلياً... فهذا إذاً معنى سادس للإضلال... أنت حين ترفض أصل الدين فلن تقبل من الله توجيهاته، لن تقبل شرعه، لن تقبل أمره، لن تقبل نهيه، لن تقبل القيم التي أرادها لخير الإنسان، فأنت الذي رفضت الدين فرفضت إذاً كلَّ ميزاته وكلَّ ثمراته.

إذاً ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ من يشاء الضلالة يضلُّه الله، يشاء الضلال اختياراً فيضلُّه الله جزاءً، أي: يُحرم من ثمرات الدين.

وقد قال تعالى في الآية الكريمة: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر:٢٣].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ أي أنَّ الإنسان حينما يختار الضلال لا يستطيع أحدٌ في الكون أن يهديه... أبو لهب مثلاً ألم يعش مع رسول الله ﷺ؟! ألم يرَ دلائل نبوَّته، ألم يرَ كماله؟!! هو رفض الحقيقة كلياً، فلا تتعب نفسك فقد قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص:٥٦] ما الهداية؟ الهداية قرار داخلي.

ويجدر بي بعد هذا أن أذكِّر بهذه الكلمة... أنت إذا أردت الحقيقة فكلُّ شيءٍ في الكون يدلُّك عليها، وإذا رفضتها فلن تقبل من أحد أن يرغمك عليها، فقوم موسى رأوا البحر وقد أصبح طريقاً يبساً، ورأوا العصا وقد أصبحت ثعباناً مبيناً، فلما أتوا على قومٍ يعكفون على أصنامٍ لهم، قالوا: يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة... وهذا ما ورد في قصة سيدنا موسى مع قومه في الآية الكريمة: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف:١٣٨].

فالإنسان إذا لم يتخذ قراراً داخلياً بالبحث عن الحقيقة، فليس في الكون كلِّه جهة يمكن أن تهديه إليها، أُناس عاشوا مع رسول الله ﷺ في الوقت الذي كان القرآن يَنزل عليه والمعجزات تتوالى، والآيات واضحة، والدلائل كثيرة، ومع ذلك ناصبوا النبي ﷺ العداء.

إذاً... ومن يضلل الله، أي: من يتخذ قرار الضلال، من يُرد الشهوات، من يرد الدنيا، من يعرض عن الله عز وجل فلن يستطيع أحدٌ في الأرض ولا الأنبياء أن يهدوه إلى الله، لأن الهدى ذاتي، وهو قرار داخلي.

أضرب مثلاً... الإنسان قد يكون شديد الذكاء، وقد يكون عبقرياً وقد يكون كآنشتاين، هذا الذكاء يشبه آلة للتصوير عالية التقنية، فهناك آلات ثمنها ألوفٌ، وآلات أخرى ثمنها ملايين من الليرات كالآلات التي تستخدمها محطات التلفزيون وقد يصل

ثمنها إلى أكثر من مليونين من الليرات، فلو كانت هذه الآلات ليس في داخلها فيلمٌ فما قيمتها؟

فالإنسان إذا أراد الحقيقة يجعل في داخل آلته فيلماً ينطبع عليه كلُّ شيء، أما إذا لم يرد الحقيقة فآلته غالية الثمن جداً ولكن دون فيلم... إذاً فما قيمة التصوير وضبط العدسة وضبط المسافة والسرعة؟ لا قيمة لهذه الآلة كلِّها، أمّا إن أردت الحقيقة فمعناه أنك وضعت في داخل آلتك فيلماً، فكلُّ شيء تلتقطه، وإذا لم ترد الحقيقة فمهما تكن آلتك غالية الثمن ولكن من دون فيلم في داخلها فلن يجديك نفعاً، هذا معنى قول الله عز وجل ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾... في الآية الكريمة: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾.

إذا أضلّ الإنسانُ نفسه عن الله فأراد الدنيا وأراد الشهوات فلن تجد له في الأرض من يهديه.

أمّا المؤمنون فقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [التوبة: ١١٥]، مستحيل ذلك فكلّكم يعلم أن هذه الصيغة (ما كان) من أشدّ صيغ النفي، فهذا نفي الشأن وفرقٌ كبير بين نفي الشأن ونفي الحدث... ما كان له أن يسرق... لا يسرق، ولا يحبُّ أن يسرق، ولا يريد أن يسرق، ولا يتمنّى أن يسرق، ولا يفكّر أن يسرق، ولا يرضى أن يسرق، ولا يرضى لأحدٍ أن يسرق... ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾.

كن في طمأنينة، الله جلَّ جلاله ينمّي الخير القليل فيجعله كثيراً، ينمّي الطلب القليل ليجعله طلباً كبيراً.

وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ ﴾ [محمد:٤-٥]، أي فأنت رأس مالك أن تبحث عن الحقيقة، فإذا اتخذت قراراً صادقاً مخلصاً في البحث عن الحقيقة وصلت إليها وربِّ الكعبة، وزوال الكون أهون على الله من أن تبحث عنها فلا تصل إليها.

فقد قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٩].

وقال تعالى في آية أخرى: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الأعراف:١٥٥].

أي أن الله عز وجل دائماً من سننه في معاملة خلقه، أنه ما كان ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب كما في قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [آل عمران:١٧٩].

فلا بد من فرزٍ مستمر... فحديث الإفك فرزٌ للمؤمنين، فمنهم من صدَّق ومنهم من كذَّب، منهم من سكت توقيراً للنبي ﷺ وزوجه المصون، ومنهم من خاض في حديث الإفك... قصة الإسراء والمعراج فرزٌ للمؤمنين، منهم من ازداد إيماناً برسالة النبي ﷺ، ومنه من انتكس بهذا الخبر... فهذا الفرز دائم، فإذا كنت أمام خمسين طالباً دون إجراء مذاكرات وامتحانات فهناك مشكلة، فتجدهم كلُّهم يرتدون ثياباً موحَّدة،

وكلُّهم يطلبون العلم، ولكن بعضهم لا يدرس مطلقاً، وبعضهم في راحة من عناء الدراسة، وبعضهم عبء على أهله... فلا بد من مذاكرةٍ من حين لآخر، فهذه المذاكرة تفرز الطلاب ومن خلالها يتمُّ إعلام الآباء بمستويات أبنائهم، فهذا كسلان في الدراسة، وهذا علاماته متدنية في الرياضيات مثلاً فبذلك يتلافى التقصير، ونشجع المجتهد... أما أن يكون كامل العام الدراسي بلا مذاكرات، وبلا فرز، وبلا تقييم فهذه مشكلة.

فلحكمةٍ أرادها الله دائماً هناك امتحانات قال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾... الفتنة: الامتحان... ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ أي أن الضال الذي يخفي الضلال ويظهر الهداية نفاقاً يكشفه الله، والمهتدي الذي ينطوي على هداية، وعلى استقامة وعلى إخلاص لله عز وجل يكافئه... هذا معنى من معاني الآية.

وقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧)﴾ [الرعد:٢٧].

هنا معنى مخالف ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧)﴾ من يضلُّ إذاً؟ من أعرض. فالمنيب يهديه الله، أمَّا المعرض فلا يهديه الله عز وجل، وقال تعالى: ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١)﴾ [الإنسان:٣١].

وهذا معنى آخر.. من يشاء هكذا؟ قال: ﴿وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١)﴾ معنى ذلك يشاء الله غير الظالمين، وهذا بالمقابل.

وقال تعالى:﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧)﴾ [الإسراء:٩٧].

آياتٌ كثيرة يُعْزَى فيها الإضلال إلى الله، فالإضلال الإلهيُّ هو الإضلال الجزائيُّ المبنيُّ على ضلال اختياري، أو أنَّ الله يضلُّ الإنسان المشرك عن شركائه، فهذا الإنسان متجه نحو شريك ضعيف فيضلُّه الله عن شركائه ليهتدي إلى الله.

هناك أشياء قد تقع كثيراً وقد يكون عند الإنسان منافذ لمواجهتها... فإذا ضاقت به الأمور يقول: سألجأ إلى فلان أو فلان، وإذا كان ابنه مسافراً مثلاً يلتجئ إليه ويقول له: ابعث لي مالاً أستعين به، ويلتجئ بعضهم إلى أخيه، أو صديقه، أو إلى شيء يبيعه ليفرِّج أزمته المالية التي ألمت به، إنه يركن إلى الدنيا، ويتمسك بأهدابها على ضعفها وتقلب أهلها، ويبقى غافلاً عن الله الذي يقدر وحده على ردِّ لهفته.

وأحياناً يقع في شدَّة فيسأل ابنه فيعتذر إليه الابن، ويطرق باب فلان فيعتذر، يحاول السفر فلا يُسمح له، يعرض البيت للبيع فلا يأتيه أحدٌ ليشتريه منه، يغلق الله عليه كلَّ المنافذ ليتجه إلى الله، أي أضلَّ الله هذا الإنسان عن شركائه... فهو مشرك متكئ على فلان وعلى زيد وعلى عُبيد وعلى مال وعلى وساطة وعلى وجاهة ونسي الله، فإذا قلنا: فلان أضلَّه الله، أي أضلَّه عن هذه الجهات الأرضية ليتجه إلى الله خالق البرية.

وبعد، فإن حسن الظن بالله ثمن الجنة... إن أردت أن تصل إلى الجنة فعليك أن تحسن ظنَّك بالله، وأن تفهم أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى وأفعاله الحكيمة على نحوٍ يليق بكماله، ويليق بجلاله، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [الأعراف:١٨٠].

ويقول أيضاً: ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ ﴾ [الفتح:٦].

وقال أيضاً: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ

﴿ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٥٤].

فكلما ازددت معرفةً بالله ارتاحت نفسك وانعقدت صلتك به وأقبلت عليه وسعدت بقربه، وكلما ابتعدت عن حُسْن الظن به صار حجابٌ بينك وبينه، لذلك:

روي عَنْ أَنَسِ بْنِ مالِكٍ قَالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، وَوَاضِعُ العِلْمِ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ كَمُقَلِّدِ الخَنازِيرِ الجَوْهَرَ وَاللُّؤْلُؤَ وَالذَّهَبَ» [سنن ابن ماجه].

فليس للإنسان عذر إن أساء الظنَّ بالله أن يظل ساكتاً، فقد حضَّنا الله على أن نسأل... ﴿ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾ ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الفرقان:٥٩].

إذاً، إذا أشكل عليك مفهوم من مفهومات دينك، فاسأل أهل الذكر لعلك تخرج من حيرتك وتهتدي سواء السبيل.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النحل:٤٣].

أرجو الله سبحانه وتعالى منيباً وضارعاً أن ينفعنا بما علَّمنا، وأن يلهمنا الحقَّ والخير والسداد في الأمر كلِّه.

يُحيي ويُميتُ

قال تعالى: ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ ﴾ [الروم:٥٠].

وفي سورة فصلت قال تعالى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ (٣٩) ﴾ [فصلت:٣٩].

وفي سورة البقرة: ﴿ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ (٧٣) ﴾ [البقرة:٧٣].

وفي سورة آل عمران قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ (١٥٦) ﴾ [آل عمران:١٥٦].

وفي سورة الأعراف قال تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ

ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ [الأعراف:١٥٨].

من معاني (يحيي ويميت)

المعنى الأول أنَّ الله سبحانه وتعالى يحيي الأجساد بإيجاد الأرواح فيها، فالعلقة في رحم الأم تنمو، لكن بعد أن تنمو يلقي الله فيها الروح، فتتحرك والقلب ينبض، والأجهزة تتكامل إلى أن يصبح الجنين طفلا سويّاً، دماغ، جمجمة، أعصاب للحس، أعصاب للحركة، جهاز هضم متكامل، جهاز للتنفس، جهاز دوران، جهاز لطرح الفضلات، عظام، عضلات، أربطة، طفل صغير كان قبل تسعة أشهر نطفةً من ماء مهين، كان حويناً من ثلاثمئة مليون حوين بعد تسعة أشهر والأم غافلةٌ عما في بطنها إذا هو طفلٌ يخرج من رحم أمّه سويّاً مكتمل الخلق... من أودع فيه الروح؟ قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء:٨٥].

يعني لو درسنا مكونات الحليب وجئنا بكلِّ هذه المكونات، هل نستطيع أن نصنع حليباً؟ لو جئنا بكل مكونات البيضة هل نستطيع أن نصنع بيضةً؟ ماذا يجري في بطن الدجاجة؟ وماذا يجري في الخلية من الخلايا الثديية للبقرة؟ هذه الروح.

الكبد... ما دامت الروح في الإنسان له خمسة آلاف وظيفة، فإذا مات الإنسان أُلقي في المهملات، كبد الدجاج... والدجاج حيّ له وظائف خطيرة، فإذا ذُبِحَ الدجاج أصبح طعاماً يؤكل، فما سر هذه الحياة؟

هذه المعدة... ما دامت الحياة فيها فإنها لا تهضم نفسها، أما إذا ذبح الخروف فإنك تأكلها وتهضمها، هناك أمثلة لا تُعدُّ ولا تحصى.

وردة صُنعت من مادة بلاستيكية، ولها ألوان زاهية تجد أنَّ النفس تعافها، بينما الوردة الطبيعية تشعر وتحسُّ بتعاطف معها عجيب، فيها حياة، فالطبيعي فيه حياة، أما الوردة البلاستيكية فلا يوجد فيها حياة.

وقد نرى في واجهات المحال التجارية أجساماً توضع عليها الأقمشة، تشعر أنها بلاستيك أو شمع ليس فيها حياة، أمّا أن ترى إنساناً أمامك يتكلّم، يتحرَّك، يتفاعل، يبتسم، يضحك، يفكِّر، يعتقد، يناقش، يأكل، يهضم، يتنفَّس، فذلك إنسان... فرقٌ كبير بين الدُّمية والطفل، من الذي أوجد الروح في الإنسان؟ الله جل جلاله هو المحيي، فهل هناك أحد من الحاضرين ليس له أبٌ أو أم أو لا يعرف قصة خلقه؟ قصة خلقه هو أن أباه تزوج أمَّه وخرج واحد من ثلاثمئة مليون حوين ولقَّح البويضة، هذا الحوين خلية لها غلاف وفيها نواة وفي النواة عدد كبير من الجينات وعليها معلومات مبرمجة تصل إلى الآلاف، ويدخل الحوين إلى البويضة وتبدأ البويضة الملقحة بالانقسام؛ تنقسم البويضة الملقَّحة إلى عشرة آلاف قسم وهي في طريقها إلى الرحم دون أن يزداد حجمها، لو ازداد حجمها لوقفت في الأنبوب وتعثَّر سيرها، كيف تُغرس في الرحم؟ كيف تأتي الدماء غزيرةً إلى الرحم؟ كيف يتكون هذا الجنين؟ بدءاً من دماغه إلى قلبه إلى أحشائه إلى أطرافه إلى أن يكون في الشهر التاسع طفلاً مكتملاً، يتثاءب، يضحك، يبكي، يتنفس، يهضم الحليب، فيه حياة، فالمحيي هو الذي يوجد الأرواح في الأجسام.

والله تعالى خالق الحياة ومعطيها لمن يشاء، هناك إنسان تجده في بيته مصدراً لسعادة البيت كلِّه، إذا دخل تجد البيت كأنه في عيد، الأولاد يتراكضون إليه، يتعلقون به، يجلسون في حضنه، الزوجة تستقبله، الضيوف يرحِّب بهم، فإذا مات خاف أقرب الناس إليه من الدخول إلى غرفته، فأين هو؟ أقرب الناس إليه زوجته، أولاده، الضيوف، ما الذي فقده؟ لو وزناه قبل أن يموت وبعد أن يموت لوجدنا وزنه كما هو، انسحبت الروح فأصبح مخيفاً، هناك من يخاف أن ينظر إلى ميت، من الذي أودع فيه الروح؟ الله جلَّ جلاله.

الله عز وجل خالق الحياة في كلِّ شيءٍ حي، في النبات... الشجرة حطب يابس يأتي الربيع تزهر، تورق، تثمر، من أَوْدَعَ فيها الحياة؟ هرَّة تلد أمامك أربع هرر صغيرة تنمو، ترضع، من أودع فيها الحياة؟ الله جل جلاله هو المحيي، أتعبد مخلوقاً يحتاج إلى من يحييه؟ أتعبد مخلوقاً سوف يموت؟ أم تعبد الخالق المحيي المميت؟

خالق الحياة في كلِّ شيء، النبات فيه حياة، لو توسَّعنا أكثر: هذه الطاولة التي تبدو لكم جماداً لا يتحرَّك، ولا يدرك، ولا يسمع، ولا ينظر، اسألوا علماء الفيزياء هل فيها حياة؟ هذه الطاولة تتألف من ذرات، والذرة هي نواة وكهارب تدور حول النواة، وكلُّ ذرة لها عدد معين من الكهارب ومسارات معينة وسرعات معينة، وقد ينتقل العنصر من الطبيعة الغازية إلى الطبيعة الجمودية باختلاف كهروبٍ واحد على السطح الخارجي، فحتى الجماد فيه حياة، قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس:٤٠].

كلُّ ما في الكون يسبح في أفلاك مغلقة، بدءاً من الذرة وانتهاءً بالمجرة، من الذي أودع الحياة في الجماد؟ الجماد حيٌّ، والنبات حيٌّ، والحيوان حيٌّ، والإنسان حيٌّ، والله هو المحيي.

أمَّا الجماد فإنه يشغل حيزاً له طول وعرض وارتفاع، لكنَّه لا ينمو ولا يتحرَّك، أمَّا النَّبات فإنه يشغل حيِّزاً وله وزن إلا أنه ينمو، والحيوان يشغل حيزاً وينمو ويتحرَّك.

أمَّا الإنسان فله وزن ويشغل حيِّزاً، وينمو ويتحرَّك ويفكِّر. قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن:١-٤].

من الذي أودع الحياة؟ هو الله جل جلاله هو المحيي.

الآن... يحيي الخلق من العدم، ويحيي الخلق بعد الموت... إحياءين. قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [غافر:١١].

الإحياء الأول الإحياء من العدم، والإحياء الثاني الإحياء بعد الموت، أمتَّنا اثنين وأحييتنا اثنين، معنى الإحياء أنه يحيينا من العدم، سبقنا عدم في بطون أمهاتنا، والإحياء الثاني يحيينا يوم القيامة، يبعثنا من قبورنا ونحيا مرةً ثانية.

الآن. في الحياة معنى آخر، تجلس مع إنسان كتلة من لحم ودم لا يعي هدف وجوده، يريد أن يأكل وأن يشرب وأن يتمتَّع، لا يعبأ بقيمة ولا بخلق ولا بمبدأ ولا

بدين ولا بعقيدة، كائن يبحث عن طعامٍ وشراب وعن لذَّةٍ يقتنصها، فتشعر بكلِّ خليةٍ في جسمك وبكلِّ قطرةٍ في دمك أنَّ هذا الإنسان ميت، أمَّا قلبه فهو في أعلى درجة، ونبضه نظاميٌّ، تنفسُّه جيد، ضغطه جيد، لو فحصته فهو في أحسن حال مئة في المئة، لكنَّه ميِّت، قلبه ميِّت.

معنىً جديد للمحيي هو الذي يحيي القلوب بمعرفته والاتصال به، يحيي الأجسام بالأرواح، ويحيي النفوس بمعرفته وطاعته... تجلس مع مؤمن فيه حياة، فيه مبدأ، فيه خُلق، فيه حياء، فيه رحمة، فيه إنصاف، فيه تواضع وعلم، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام:١٢٢].

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾... بالمعنى الثالث.

أول معنى: يحيي الأجسام بإيجاد الأرواح فيها وهي من عدم.

المعنى الثاني: يحيي النفوس بعد موتها.

المعنى الثالث: يحيي القلوب بمعرفته والإقبال عليه.

المؤمن حيّ..يقول سيدنا علي رضي الله عنه: يا بُنيّ مات خُزَّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة وأمثالهم موجودة.

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾... هذا المعنى الثالث... تجد المؤمن حيَّ القلب، إذا قرأ القرآن تدمع عينه، إذا قرأ القرآن يقشعرُّ جلده، يَجِفُ قلبه ويضطرب، يحبُّ ربَّه، يحبُّ طاعته، يحبُّ الخير، يصغي إلى الحق، ينطق بالحق، يذكر الله، يذكِّر بالله، يدعو إلى الله، يفصِّل، يبيِّن، يشرح، له أهداف كبيرة سامية جداً، يسعى إلى مرضاته.

يحيي الأجسام بإيجاد الأرواح فيها، ويحيي القلوب بمعرفته والإقبال عليه، قال تعالى: ﴿يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد:١٧].

﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [النحل:٦٥].

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ ﴾ [فاطر:٩].

﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الجاثية:٥].

﴿ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾... بإنزال المطر.

والمحيي كما قال بعض العلماء: «يحيي العوالم بسرِّه»، العوالم جمع عالم كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾... جمع عالَم، عالَم الحشرات، عالَم الفيروسات، عالم البكتيريات، عالم الأحياء الدقيقة، الآن توجد بحوث جديدة تشير إلى أنَّ هناك مسببات للمرض هي كائنات حية أقلُّ من الفيروس، أصغر مخلوق هو الفيروس، الآن هناك مسببات تسببها هذه الكائنات التي هي أصغر من الفيروس تسبب مرض جنون البقر، أقل من الفيروس وهو كائن حي.

أحياناً ترى على صفحة الكتاب نقطة تمشي أقل من عُشر المِّليمتر، فلو قسمنا المليمتر إلى عشرة أقسام لكانت هذه الدويبية عشر المليمتر تمشي، ولو وضعت يدك أمامها لوقفت، ومعنى ذلك أنها أدركت أنَّ هناك حاجزاً أمامها، والجرثوم أصغر منها، والفيروس أصغر من الجرثوم، وبعض مكونات الأمراض أصغر من الفيروس، أودَعَ فيها الحياة.

وهناك الحوت الأزرق يزن مئة وخمسين طناً، ووجبته المعتدلة أربعة أطنان، وإذا أرادت أنثاه أن ترضع وليدها ترضعه في الرضعة الواحدة ثلاثمئة كيلوغرام من الحليب،

أي طناً من الحليب في الرضعات الثلاث، يستخرجون منه تسعين برميلاً من الزيوت، خمسين طناً من اللحم، خمسين طناً أخرى من الدهون، ودماغه كتلة كبيرة جداً، وهذا الفيروس فيه حياة، أقلُّ من الفيروس فيه حياة، والحوت الأزرق فيه حياة، هو المحيي.

إذاً أحيا العوالم بسرِّه... عالم الأسماك، عالم الطيور، عالم الحشرات، عالم الفراشات، عالم البكتيريات، عالم الفيروسات، عالم الإنسان، عالم الحيوانات البرية، عالم النباتات، كلُّ شيء بيده.

الله تعالى أحيا العوالم بسرِّه، وغمر الموجودات بوافر برِّه، فهل هناك مخلوقٌ لا يأكل أو لا يشرب؟ في بعض قمم جبال هيمالايا توجد ينابيع ماء، فما معنى أن تجد ينبوع ماء في قمَّة جبل، بحسب قانون الأواني المستطرقة؟ ما معنى وجود ماء في جبل؟ هناك مستودعات للمياه في جبل أعلى وهناك تمديدات إلى الجبل الأدنى، لأن هناك أنواعاً من الوعول تعيش في قمم الجبال، رحمةً بها جعل الله لها بعض الينابيع في قمم الجبال.

إذاً... هو الذي أحيا العوالم بسرِّه، وغمر الموجودات بوافر برِّه، فلو أمسكت بسنبلة من القمح فهي غذاء كامل، ساق هذه السنبلة غذاء كامل للحيوان، وهو أرقى أنواع العلف، وأغلى أنواع العلف، كيف أنَّ القمح غذاءٌ كامل، ساق السنبلة غذاءٌ كامل، من جعل السنبلة للإنسان وساق السنبلة للحيوان؟ قال تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ ﴾ [عبس:٣١].

الفاكهة للإنسان، والأبُّ للحيوان.

وجمَّل نفوس المخلصين بالمجاهدة.

الحقيقة أنَّ المؤمن حيّ تنجذب نحوه، ما الذي يَجذبُ فيه؟ ضع في إناءين طاقة (باقة) من الورد الاصطناعي وطاقة (باقة) من الورد الطبيعي وانظر إليهما تجد نفسك منجذباً للطبيعي تشمُّها وتنتعش، تنظر إليها وتستمتع، فيها حياة، نضارة، ألوان رائعة، كذلك المؤمن كالوردة الطبيعية.

فقد تجد إنساناً ذكياً وعاقلاً ومتجمِّلاً وأنيقاً لكنه كالوردة البلاستيكية. النفوس لا تنجذب إليه، لذلك أمدَّ أحبابه بنور المعرفة والمحبة، منح المخلصين أنوار القربات، أوصلهم إليه بعد الغربة، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام:١٢٢].

أنت بإمكانك أن تملأ قلبك حياةً بالاتصال بالله، أن تملأ قلبك غنىً بالاتصال بالله، أن تملأ قلبك طمأنينةً بالاتصال بالله، أن تملأ قلبك قناعةً بالاتصال بالله، أن تملأ قلبك أمناً بالاتصال بالله، القلب الموصول حيٌّ، والاتصال ثمنه الطاعة، فقضية سهلة بسيطة جداً، أطع واتَّصل، فأنت مؤمنٌ حيُّ القلب، وفي المقابل -لا سمح الله- اعصِ وانقطع. القلب ميِّت، حقدٌ على ضغينةٍ على لؤم على كبر على أنانية، على استعلاء، على كذب على جحود، على خيانة، القلب مقطوع وميت.

وأدب المؤمن مع الله تعالى هو الإكثار من ذكر الحيّ، حتى يحيي القلب بنور المعرفة، وتُضيء النفس بأسرار المكاشفة، والإكثار من ذكره ولا سيما في جوف الليل، أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، الحي القيوم مصدر حياة قلوبنا، مصدر حياة أجسامنا.

روي عن حبيبة العدوية أنها كانت إذا صلت العتمة على سطح لها، وشدت عليها درعها وخمارها ثم قالت: إلهي قد غارت النجوم، ونامت العيون، وغلقت الملوك أبوابها، وخلا كل حبيب بحبيبه، وهذا مقامي بين يديك، ثم تقبل على صلاتها، فإذا طلع الفجر قالت: إلهي هذا الليل قد أدبر، وهذا النهار قد أسفر، فليت شعري أقبلتَ مني ليلتي فأهنا، أم رددتها عليَّ فأعزَّى، وعزتك لهذا دأبي ودأبك ما أبقيتني، وعزَّتِك لو انتهرتني عن بابك ما برحت لما وقع في نفسي من جودك وكرمك.

إذا لم يكن للإنسان مع الله مناجاة وصلة في جوف الليل، في الصلوات المكتوبات، في السجود، فالقلب قاسٍ. فليس هناك شيء أجمل من أن تناجي خالق الكون، من أن

تتصل به، لكن الله عز وجل كلُّنا عباده، وليس هناك فرقٌ بين عبدٍ وآخر إلا بالطاعة، أطعه وادخل عليه، أطعه وأقبل عليه، أطعه وناجِه، أطعه وابتهل إليه ترَ بابه مفتوحاً لك أبداً.

كان رجل من أصحاب ذي النون يطوف في السكك يبكي وينادي أين قلبي أين قلبي من وجد قلبي؟ فدخل يوماً بعض السكك فوجد صبيّاً يبكي وأمه تضربه ثم أخرجته من الدار فأغلقت دونه الباب فجعل الصبي يلتفت يميناً وشمالاً ولا يدري أين يذهب ولا أين يقصد، فرجع إلى باب الدار فوضع رأسه على عتبته فنام، فلما استيقظ جعل يبكي ويقول: يا أماه من يفتح لي الباب إذا أغلقت عني بابك، ومن يدنيني من نفسه إذا طردتني، ومن الذي يؤويني بعد أن غضبت عليّ؟ فرحمته فقامت فنظرت من خَلَلِ الباب فوجدت ولدها تجري الدموع على خده متمعكاً في التراب، ففتحت الباب وأخذته حتى وضعته في حجرها، وجعلت تقبله وتقول: يا قرة عيني وعزيز نفسي أنت الذي حملتني على نفسك، وأنت الذي تعرضت لما حل بك، لو كنت أطعتني لم تلق مني مكروهاً. فتواجد الرجل ثم قام وصاح وقال: قد وجدت قلبي، قد وجدت قلبي.

سبحان الله لو صبر الناس على باب الله لفتحه لهم، سلعة الله غالية، سلعة الله لا تأخذها مباشرةً إلا بعد جهد حقيقي، لذلك قال محمد بن يَسير البصري:

أخلِقْ بذي الصَّبرِ أن يحظَى بحاجته ... ومُدْمِنُ القَرْعِ للأبوابِ أن يَلِجا

ليس هناك أعظم من إنسان له صلة بالله، فأحياناً إذا كان هناك إنسانٌ عظيمٌ ينادونه قائلين: سعادة فلان... وقديماً: دولة فلان، فالله سمى إبراهيم: أمَّة.

وإذا كان المؤمن له صلة بالله، فالصلة فيها علم، فيها حلم، فيها توازن، فيها طمأنينة، فيها حكمة، فيها رحمة، فيها إنصاف، فيها عدل، فعلاً صار أمة ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل:١٢٠]، فالقضية بسيطة جداً، لا يكلِّف الله نفساً إلا وسعها، أطعه واتصل به فأنت حيٌّ.

لو تفلّتَّ من منهجه وانقطعت عنه فأنت ميِّت، ولو كنت في أوج حياتك، في أوج شبابك، في أوج نشاطك، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [فاطر:٢٢].

مرة التقيت بإنسان من بلد أجنبي فقلت في نفسي لعلي أذكِّره بالله، فذكرت له بعض الكلمات فقال لي: هذه المعلومات لا تهمُّني ولا أبحث عنها ولا تعنيني، أنا يعنيني امرأةٌ جميلة، وسيارةٌ فارهة ومنزلٌ واسع. وانتهى الأمر. لم أشعر بإنسان ميت كهذا الإنسان، فأحياناً يأتي الطبيب فيجسُّ النبض فلا يجد نبضاً، فيطلب مرآة فيضعها أمام الأنف فلا يجد بخاراً خارجاً مع التنفس، ويأخذ كاشفاً للضوء فيفتح عينه ويسلط عليها الضوء فلا تصغر الحدقة، إذاً هذا ميت انتهت حياته، فقد تكلَّمت معه عن عظمة الله وعن خلقه المعجز، فقال: هذه المعلومات لا تعنيني ولا أعبأ بها ولا أكترث لها، فقط ثلاثة تعنيني: امرأةٌ جميلة، وسيارة فارهة ومنزلٌ واسع... وقد مات منذ حوالي سنتين بحادث... قال تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف:١٠٥].

كلٌّ منا يتمتع بصحته والحمد لله، هل يدري متى سيموت؟ وفي أي مكان سوف يموت؟ وبأي سببٍ سوف يموت؟ يموت في بلده أو في بلدٍ آخر؟ يموت ليلاً أو نهاراً؟ يموت صبحاً أو مساءً؟ يموت وحوله أهله أو يموت وحده؟ من يدري... يحيي ويميت، وما دام الإنسان لا يدري متى يموت، فينبغي أن يستعدَّ للموت، فقد قال الله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ﴾ [آل عمران:١٠٢].

أي لا يأتيكم الموت إلا وأنتم في أعلى درجات الاستسلام لله عز وجل.

الآن الموت ضد الحياة، ماتت الريح إذا ركدت وسكنت، مات الإنسان إذا نام، سمي النوم موتاً لأنه يزول معه العقل والحركة تمثيلاً وتشبيهاً لا تحقيقاً، والأرض الموات التي لم تُزرع... من أحيا أرضاً مواتاً فهي له، وفلان مَوْتانُ الفؤاد أي بليد غير ذكي، قال عدي بن الرعلاء:

لـيس مـن مـات فاسـتراح بميِّـتٍ إنـما المَيْـتُ مَيِّـتُ الأحيـاء

والله تعالى هو مُقَدِّرُ الموت على كلِّ من أماته، ذكرت قصة، جلست مع إنسان ساعة تقريباً حدثني عن طموحاته إلى عشرين عاماً قادمة... سيسافر من البلد الفلاني إلى البلد الفلاني إلى البلد الفلاني إلى الفلاني، وسيعود وسيفتح محلاً تجارياً، ويكبر أولاده، وفي اليوم نفسه رأيت نعيه على الجدران مساءً.

لا أحد منا يعرف متى سيموت؟ هل سيموت في الستين من عمره أم في الخامسة والخمسين أم في الثامنة والأربعين، أم في الثالثة والسبعين، أم في التسعين من عمره؟ لا أحد يعرف، فهناك شبابٌ يموتون.

إنسان مات قبل عامين ترك ألف مليون، أحد الورثة نصيبه تسعون مليوناً، أغلق محلَّه التجاري وبدأ في متابعة المعاملات فذلك أربح من كلِّ عمله، وستة أشهر بالتمام والكمال من دائرة إلى دائرة لاستخراج الوثائق اللازمة، ودخل إلى الحمام فإذا به يموت فجأة قبل أن يقبض قرشاً واحداً، فيا ترى وهو يبحث من مكان إلى مكان، هل كان يتصوَّر أنه سيموت قبل أن يقبض هذا المبلغ؟

من منا يعرف متى سيموت؟ تجد شخصاً في ذهنه خطط، يستغرق عشر سنوات لتحقيقها، ويأتي الموت فجأةً:

كـم مـن عـروس زيَّنوهـا لزوجهـا وقـد قُبِضـت أرواحهـم ليلـة القـدر

ليلة العرس ماتت... فما دام الموت ليس بيدنا فالإنسان العاقل هو الذي يكون مستعداً للموت، فالموت ليس معناه ألا يعمل الإنسان، ولكن إن أدخل الموت في حسابه يستقيم، فإذا قال: أنا سوف أموت فجأةً سيستقيم، أيةُ ساعة جاء الموت أهلاً وسهلاً، مرحباً بالموت.

واحزناه! -قالتها امرأة بلال له حين حضرته الوفاة- فقال: بل واطرباه.. غداً نلقى الأحبة محمداً وحزبه.

شيء عند معظم الناس مصيبة، ولكنه عند المؤمن عرس إنه الموت، والله سمّاه في القرآن مصيبة الموت لأنَّ الإنسان في حياته الدنيا ينمو، قد يكون طالباً فيحصل على الليسانس ثم الدكتوراه، يوظَّف بوظيفة ويشتري بيتاً ويتزوج، ثم ينتقل إلى بيت أكبر، ثم يضع جهازاً للتكييف، ثم يشتري سيارة، وبعد ذلك يأخذ بيتاً في المصيف، ينمو ويكبر، من بيت كانت مساحته مئة متر إلى بيت مساحته مئتان من الأمتار وبمنطقة جميلة، فهو ينمو، يحسِّن أثاثه، ويزين بيته بالسجاد فهو ينمو، ثم يأتي ملك الموت ويخلِّصه من الدنيا وينزعه منها في أقل من ثانية التي قام بجمعها في خمسين سنة أو بثمانين سنة درجة درجة، ويقبض روحه في ثانية واحدة ولا يأخذ شيئاً معه، حتى لو كان في فمه سنٌّ من الذهب ربما نزعه من طمع به.

فالله تعالى مقدِّر الموت على كلِّ من أماته، ولا مميت سواه... يجب أن تعتقد اعتقاداً جازماً أنه ليس في الكون جهةٌ تقرر إنهاء الحياة إلا الله، ولو بدا لك بالعين أنَّ فلاناً أنهى حياته، مهما بدا بالعين القاصرة والعقل الضعيف أنَّ فلاناً أنهى حياة فلان، فلاناً قتل فلاناً، لا يموت الإنسان إلا بأجله الذي حدَّده الله له.

كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرِّب أجلاً، الذي أودع الحياة هو الله وحده الذي يقرِّر الموت، علاقتك مع الله، إن آمنت هذا الإيمان تغدو شجاعاً، تغدو جريئاً، تغدو صادقاً، تعتمد على الله، لا تخاف أحداً، أما إذا توهَّمت أنَّ فلاناً يمكنه أن ينهي الحياة فقد عبدته وأنت لا تشعر، عبدته من دون الله، وأرضيته بسخط الله وأشركته مع الله.

ولا مميت سواه... قَهَر عباده بالموت، مهما كبر الإنسان وعلا سيموت.

فقد قرأت كتاباً لطبيبٍ لامع فيه زُهاء مئتي مقالة، كل واحدة أروع من الأخرى، كيف يجب عليك أن تتجنَّب الملح، وكيف تقوم بأداء التمارين الرياضية، والمحافظة على المفاصل، الجلد، المعدة، الأمعاء، القلب، والفيتامينات، والمواد السيليلوزية، الفواكه، الخضراوات، نضارة الجلد، قوة القلب، فمعنى ذلك أنه لو قرأ أحد الكتاب وقام بتطبيق ما فيه من تعليمات فلن يموت أبداً... لكنَّ المؤلِّف بعد ذلك مات.

فسبحان الذي قهر عباده بالموت، فالطغاة يموتون، الأنبياء يموتون، كذلك الصالحون، الأشرار يموتون، الأذكياء يموتون، الأغبياء يموتون، النساء يمتن، والرجال يموتون أيضاً، فسبحان من قهر عباده بالموت.

فقد قرأت كتاب قصص العرب وهو كتاب ممتع جداً، فيه قصص واقعية وقعت في العالم العربي، وبعد ما قرأته نظرت نظرة كانت بالغة الموعظة، قلت: كلُّ هؤلاء ماتوا، الأغنياء والفقراء، الأقوياء والضعفاء، الأصحاء والمرضى، الأذكياء والأغبياء، الظُلاَّم والمظلومون كلُّهم ماتوا، وسيأتي يومٌ بعد حين كلُّ من تراه عينك في الطريق سيموت... فنحن الموجودون هنا بعد مئة سنة لن تجد واحداً هنا، وكلُّنا تحت أطباق الثرى، وقبل مئة سنة لم يكن أحد منا موجوداً... فسبحان المحيي المميت، سبحان من قهر عباده بالموت.

الإنسان يكون كلُّ شيء بيده، وكلُّ الأطباء في خدمته، أي دواء من أي مكان يأتي فوراً ومع ذلك يموت الإنسان، فالله قدَّر الموت على العباد، فالأنبياء ماتوا وسيدنا محمد ﷺ مات، فالموت مما قهر الله به عباده.

فعادوا إلى الأرض وطواهم التراب... فأكبر موعظة إن كان لديك وقت فراغ ورأيت جنازة فامشِ وراءها، فلاحظ عندما يضعون النعش على القبر ويرفعون الغطاء ويحملون الميت، وينزل شخصٌ إلى القبر ليمسكه ويضعونه ويكشفون عن وجهه، ويطلع الحفَّار من حفرة القبر، ويضع بعض الأحجار ويهيل عليها التراب، ويقف أولاده يتقبلون التعازي في والدهم وانطوت صفحة... وفي بيته لا أحد يسأل: لماذا فلان لم يَعُد؟ لن يرجع، وانتهى الأمر بموته، أما إذا كان حياً فإنهم يسألون عنه وعن سبب تأخره حتى الساعة الثانية عشر فأين هو؟ وإن كان يزور أخته فيخبرونه ويسألون عنه، أما إذا مات ودفن فلن يسألوا عنه، حتى ملابسه لكي لا يتذكروه يعطونها للفقراء على الفور، فأكثر الأسر لا يتركون له حاجة من حاجاته من ألبسة أو من أحذية أو أي شيء له حتى لا يتذكَّروه، فكأن صفحة قد انطوت.

فالإنسان عندما يُولد كلُّ من حوله يضحك وهو يبكي وحده، وإذا مات كلُّ من حوله يبكي... فإذا كان بطلاً فليضحك وحده، فالآن يجب علينا جميعاً أن نعمل ونشتغل بطاعة الله وبذكره، بالعمل الصالح، بطلب العلم، بتعليمه، بالأمر بالمعروف، بالنهي عن المنكر، بالأذكار بالأوراد، بالتلاوة للقرآن، فباب الله مفتوحٌ للكلِّ... يجب أن نستعدَّ للموت بطاعة الله، أن نستعدَّ للموت بالتوبة إلى الله، أن نستعدَّ للموت بالعمل الصالح، ومفهوم الغِنى والفقر بعد العرض على الله، أن الغنى هو غنى العمل، والفقر فقر العمل.

هو المميت... فأحياناً تجد أرضاً ميتة لعدم هطول الأمطار... فقد رأيت صورة من إفريقيا. شيء مخيف، الأشجار يابسة والحيوانات كلّها نافقة، والشعب هجر الأرض، تركها لعدم سقوط المطر، فأمات الجماد وأمات الحيوان وأمات النبات وهجَّر الإنسان، تجد فلاحاً يملك بقرة ثمنها سبعون ألفاً وتموت فجأةً، ففي ثانية واحدة أين ثمنها؟ فقد ذهبت وذهب ثمنها... فالحياة بيد الله عز وجل.

لذلك الله عز وجل يميت، ليعلم الناس أنَّ الله قادرٌ على التصرُّف بالإحياء وبالإماتة متى شاء ومتى أراد.

جاء من أمريكا وهو يحمل شهادة الدكتوراه والبورد، أنزل حقائبه من السيارة ولم يكن السائق منتبهاً فرجع للخلف فصدمه وحصره بين السيارة والجدار، ومات.

أو يموت يوم عرسه، أو يوم أخذ شهادة، فالقصص غريبة واعظةٌ مؤثرة.

هناك إشكالٌ في موضوع المميت.. إذا كان الله تعالى هو المميت، فما معنى قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [السجدة:١١].

ومعنى قوله تعالى: ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ [الأنعام:٦١] أيضاً: يجيب بعض العلماء عن هذا التساؤل: خَلقُ الموت في الحقيقة من الله عز وجل، خلق فعل الموت من الله، لكن الموت في عالم الأسباب مفوَّضٌ إلى ملك الموت.

الفاعل في الحقيقة هو الله، أحياناً يضاف ملك الموت إلى فعل الموت، أو يضاف إلى الأعوان... ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾.

إذا قال الله عز وجل.... ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ ﴾... الفاعل الحقيقي هو الله، أما في عالم الأسباب فعن طريق ملك الموت أو... ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾.

ففي الحقيقة الله المتوفِّي، وفي المجاز توفَّاه ملك الموت، أو تفوَّته رسلنا، إلا أنَّ الموت ورد في القرآن الكريم بمعانٍ متعددة، وهي خمسة معانٍ تقريباً.

أولاً: الموت: انعدام القوة النامية في الإنسان والحيوان والنبات لقوله تعالى: ﴿يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد:١٧].

حينما تنمو الأرض بالنبات فهذه هي الحياة، وحينما لا تنمو بالنبات فهذا هو الموت... وهذا هو المعنى الأول للموت.

المعنى الثاني: زوال القوة الحساسة في الإنسان كما جاء في القرآن الكريم على لسان السيدة مريم: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ [مريم:٢٣]. يا ليتني لم أُحِسَّ بهذا الحمل.

المعنى الثالث: زوال القوة العاقلة كما قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢)﴾، كان مغفَّلاً وكان جاهلاً فاستيقظ وأصبح حيّاً، فعدم النماء موت، عدم الإحساس موت، عدم الإدراك موت.

المعنى الرابع: الحزن والألم والكدر، والضيق موت، قال تعالى: ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ [إبراهيم:١٧].

الطريق مسدود، ففي البيت جحيم، والعمل متوقِّف، أصدقاء تخلوا عنه، ويأتيه الموت من كل مكان ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾... انعدام السعادة انعدام التوفيق، انعدام

الحفظ، انعدام النجاح في الحياة، الطرق كلُّها مسدودة... موت، يقول لك: الحياة مثل الموت هذا المعنى الرابع.

المعنى الخامس: النوم، فالنوم موتٌ خفيف، والموت نومٌ ثقيل: عن أبي هُرَيْرَةَ قالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إذا أَوى أَحدُكُم إلَى فِراشِهِ فَلْيَنْفُضْ فِراشَهُ بِداخِلَةِ إِزَارِهِ فَإِنَّهُ لا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ ثُمَّ لِيَضْطَجِعْ عَلَى شِقِّهِ الأَيْمَنِ ثُمَّ لِيَقُلْ: باسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإنْ أَرْسَلْتَها فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبادَكَ الصَّالِحِينَ» [صحيح البخاري].

فأحدنا إن نام إما أن يصحو من النوم أو لا يصحو، فإذا لم يصحُ من نومه نسأل الله أن يرحمه، وإذا صحا من نومه نسأل الله أن يحفظه من المعاصي، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر:٤٢].

حظُّ المؤمن من هذا أن يذكر الموت كثيراً، قال ﷺ: «أكثروا من ذكر هاذم اللذات، فإنه ما ذكره أحد في ضيقٍ من العيش إلا وَسَّعَه عليه، ولا ذكره في سَعَةٍ إلا ضَيَّقَهُ عليه» [البزار في مسنده من حديث أنس].

قال: جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ فقال: «يا محمد، عش ما شئت فإنَّك ميت، وأحببْ من شئت فإنَّك مفارقه، واعمل ما شئت فإنَّك مجزيٌّ به» ثم قال: «يا محمدُ، شرفُ المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس» [الحاكم في المستدرك، من حديث سهل بن سعد].

وعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، والعَاجِزُ مَنْ أَتبعَ نَفْسَهُ هَوَاها وتَمَنَّى عَلَى الله» [سنن ابن ماجه].

إنَّ أكيسكم -يعني أعقلكم- أكثركم للموت ذكراً، وأحزمكم أشدَّ استعداداً له، وإنَّ من علامات العقل التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والتزوُّد لسكنى القبور، والتأهُّب ليوم النشور.

يعز ويذل

قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران:٢٦].

تمهيد

حينما فطر الله عزَّ وجلَّ الإنسان؛ فطره على أسس فيها قيام عيشه وحياته، من هذه الأسس أنه خَلَقَ فيه دافع الجوع، وهذا الدافع هو سبب بقائه وسبب استمرار الحياة بالنسبة إليه، لولا هذا الدافع لترك الطعام والشراب، ولانهار جسمه، ولمات دون أن يشعر بحاجة إلى تناول الطعام، فدافع الطعام والشراب هو الذي يدفعه دائماً إلى التزوُّد بهما حفاظاً على وجوده أو حِفاظاً على حياته، هذا الدافع الذي أودعه الله في الإنسان معروف لدى الجميع.

أمَّا بقاء الجماعة، بقاء الجنس البشري فإنه يحتاج إلى دافع آخر، إنَّه دافع الجنس، فقد أودع الله في الرجل وفي المرأة على حدٍّ سواء ما يدفع كلاً منهما إلى أن يتَّجه إلى

صاحبه إلى أن يتمَّ الاتصال، وقد شرع الله له الزواج، هذا دافع آخر يدفع الإنسان إلى الحفاظ على بقاء النوع، فالطعام والشراب يضمن بقاء الفرد، أما دافع الجنس فيضمن بقاء النوع.

لكنَّ علماء النفس وجدوا أنَّ في الإنسان دافعاً قوياً جداً لا يقلُّ عن دافع الطعام والشراب، ولا يقل عن دافع الجنس، هو دافع ما يسمى بالشعور بالأهمية، أو تحقيق الذات أو تأكيد الذات، ويمكن أن ندرجه تحت عنوان العزَّة، فكلُّ مخلوق لو توافر له الطعام والشراب، ولو توافرت له الزوجة، يشعر أنَّه لا بدَّ أن يكون مهماً، لا بد أن يعتزَّ ولو بجسمه، ولو بماله، ولو بنسبه، ولو بخبرته، ولو بحرفته، ولو بقدرته على الأذى، ولو بجبروته، هناك دافع فطريٌّ يدفع الإنسان إلى الاعتزاز، أن يؤكد ذاته، أن يُشعر الآخرين بأنه إنسان خطير، بأنه متفوِّق أو بأنه عزيز.

والسؤال المطروح هو: لماذا أوجد الله في الإنسان دافع الطعام والشراب؟ الإجابة سهلة، حِفاظاً على بقاء الفرد، ولماذا أوجد الله في الإنسان دافع الجنس؟ حفاظاً على بقاء النوع وإعمار الأرض.

أمَّا لماذا خلق الله في الإنسان دافع الاعتزاز؟ دافع تأكيد الذات، دافع الشعور بالأهمية؟ فالإجابة عنه أيضاً سهلة، هذا عون من الله عز وجل للنفس البشرية، لعلَّ هذا الدافع يقيها من الانحراف.

الإنسان أحيانا يخاف على سمعته، يخاف على شرفه، يخاف على مكانته، يخاف على مرتبته، يخاف على جاهه من أن يُخدش وأن يُمرَّغ في الوحل، وأن يتحدث الناس عنه بالمكروه، يخاف أن يُفتضح، ويخاف أن يسقط من عين الناس ويهون عندهم، لولا هذا الدافع، دافع الاعتزاز، لهان على كلِّ إنسان اقتراف المعصية، ولهان سقوطه ممرَّغاً، ولهان عليه انحرافه، ولهان عليه انغماسه في الوحول، طبعاً ليس معنى هذا أنه ليس في بني البشر من هانت عليه نفسه، الفطرة قد تشوّه والعزَّة قد تمرَّغ بالوحل، هذه حالات شاذة وحالات استثنائية ليست مناط الحكم، نحن حينما نقول الإنسان هكذا نقصد في

الأعم الأغلب وفي الخط العريض، إلا أن هناك لكلِّ حالة استثناءات وخصوصيات في الطرف الأول والطرف الثاني، ولنضرب مثلاً: لو أنَّ طفلاً في مدرسة رأى قلماً وأعجبه فوضع القلم في جيبه، صاحب القلم اشتكى، والمدرس سأل، فلا أحد يجيب، ولو فرضنا أنَّ هذا المدرس منع الطلاب من الخروج من الصف، وفتَّش الطلاب واحداً واحداً، وضبط هذا القلم في جيب أحد الطلاب، حتى لو أنَّ هذا الطالب في الصف الأول أو في أي صف، فإنَّه يشعر وقد كشف وكذب بآلام لا توصف، وبخجل شديد، ويتمنى أن تبتلعه الأرض، فما هذا الشعور؟ هذا شعور الاعتزاز الذي أودعه الله في الإنسان.

أودع الله في الإنسان هذا الشعور من أجل أن يبتعد عن المعصية ترفُّعاً واعتزازاً وتأثُّماً، فنحن بادئ ذي بدء نقول: أودع الله عز وجل في الإنسان دافع الطعام والشراب ودافع الجنس ودافع الاعتزاز، ويمكن أن نطلق على هذا الدافع الأسماء المتنوعة التالية: الشعور بالأهمية أو تأكيد الذات أو إثبات الذات أو دافع الاعتزاز.

فلو جلست إلى أي إنسان يقول لك مفتخراً: أنا لي موقف لا يُنسى، هذا يقول لك: أنا فعلت كذا، أنا في مصلحتي الأول، صنعتي متقنة، لن تجد إنساناً إلا ويعتزُّ إما بحرفته أو بمهنته أو بماله أو بصحته أو بقوته أو بنسبه أو بكذا وكذا.

إذاً ما أودع الله في الإنسان هذا الدافع إلا من أجل أن يقيه السقوط، إلا من أجل أن يقيه الانحراف، إلا من أجل أن يقيه الفضيحة، وهذه واقعة أرويها سريعاً للقراء الكرام، دعماً للفكرة، وعسى أن يجدوا فيها العبرة والعظة:

رجل منحرف متبذِّل متحلِّل من كلِّ قيد اقتنى آلة تصوير فيديو وصوَّر نفسه مع زوجته، بأوضاع مبتذلة، وأعاد الشريط إلى مكتب إعارة الأشرطة بالخطأ، إذ وضعه خطأً في علبة من نوع علب الإعارة، ففوجئ صاحب هذا المكتب بشريط جديد، طبع منه نسخاً كثيرة ووزعه إلى أن وصل الشريط إلى أحد إخوة هذا الإنسان، نظر فإذا أخوه وامرأة أخيه في أوضاع مبتذلة يندى لها الجبين، أعلم أخاه، هذا الإنسان ظروفه جيدة، ودخله وفير، مطمئن في بيته، اضطرُّ هذا الإنسان إلى أن يبيع بيته في دمشق، وأن ينتقل

إلى مدينة أخرى فِراراً من الفضيحة، ما الذي حرّك هذا الإنسان؟ اعتزازه، فهذه فضيحة كبيرة جداً، حين تنكشف الأشياء الخاصة لدرجة أن تصبح منشورة بين الناس.

لمثل هذه الحال يقال: طوبى لمن وسعته السنَّة، ولم تستهوه البدعة، هذه بدعة، وهنا أحاديث شريفة كثيرة جداً تؤكد أن هذه العلاقات الحميمة الخاصة لا ينبغي أن يجاهر المرء بها، فكيف إذا صُوِّرَت؟ فما الذي دفعه إلى أن يهجر بلده؟ الفضيحة، وقد يندفع الإنسان إلى الانتحار إذا شَعَرَ بالفضيحة، أحداث كثيرة جداً، يكتشف المرء أنه تلاعب أو أنه سرق، وسوف يُفضح على الملأ وعلى صفحات الجرائد، فقد ينتحر.

إذاً: ينبغي ألا يستخفَّ أحد بهذا الدافع، دافع الاعتزاز ودافع الشعور بالأهمية، دافع العزة، دافع تأكيد الذات، دافع إثبات الذات فهو دافع كبير جداً وخطير، وما أودعه الله في الإنسان إلا رحمة بالإنسان، وما أودعه الله في الإنسان إلا حصناً له، ما أودعه الله في الإنسان إلا سياجاً منيعاً يحول بينه وبين السقوط في براثن القيل والقال.

كيف يعزك الله؟

الحقيقة أنّك تكون عزيزاً لمجرد أن تطبق أمر الله، مثلاً حينما تغضُّ بصرك عن محارم الله، حينما لا تخلو بامرأة أبداً، حينما لا تكذب، لا يستطيع الناس أبداً أن يضعوك في موضع التهمة والذّلّة، لو أنَّ إنساناً دخل إلى بيت صديقه، وصديقه ليس في البيت، ولو كان بريئاً يتحدَّث الناس عنه، يجرحه الناس، إذاً أنت لمجرد أن تُطبّق أمرَ الله عز وجل، تكون نزيهاً عفيفاً مستقيماً ملتزماً بالشرع فتكتسب عزَّة الشرع، هذه أول نقطة، فأنت عزيز لأنَّك مطيع لله عز وجل والله تعالى حينما أمرك بهذا المنهج حصَّن سمعتك.

النبيُّ ﷺ، لا ينطق عن الهوى، قال: «لا يخلون رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما» [رواه الترمذي من حديث عمر].

فأنت ما دمت ملتزماً وعاملاً بنصِّ هذا الحديث فلا يستطيع أحد في الأرض أن ينال منك، ولا أن يتهمك، ولا أن يمرِّغك في الوحل، ولا أن يلهج بين الناس بما

يشينك، لأنك عملت بأمر الله عز وجل، في تطبيق أمره سبحانه حفاظاً على سمعتك وعلى كرامتك وعلى عزَّتك وعلى مكانتك وعلى شأنك.

إذاً: إذا طبَّقت أمر الله عز وجل واستقمت عليه، ووقفت الموقف الشرعي في كلِّ حالاتك فأنت عزيز، والنبي ﷺ علمنا أشياء كثيرة، كان مع زوجته صفية رضي الله عنها، مرَّ رجلان من الأنصار فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال النبي ﷺ: «على رِسلِكُما، إنها صفيَّة بنت حيي» فقالا: سبحان الله! يا رسول الله! قال: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً» [رواه مسلم من حديث صفية بنت حيي]، فالبيان يطرد الشيطان، فأنت أدركت أن هذه حرام، وهذه حلال، هذه تجوز، هذه لا تجوز، وعزمت مثلاً ألا تدخل بيتاً ليس فيه رجل حتى لو كنت من أصحاب الحِرف التي تستدعي العمل داخل المنازل، إذا وجدت أنَّ في الدخول لهذا البيت كإصلاح صنبور الماء، خلوة، فأنت لأنك مؤمن عليك ألا تدخل، ولك أن تضحي بأجر ذلك اليوم حِفاظاً على سمعتك وعلى عزتك وعلى كرامتك، هذا هو المعنى الأول، فأنت أمين، فالأمين عزيز، عفيف؛ العفيف عزيز، صادق؛ الصادق عزيز. تصور نفسك أنك تكلّمت بكلام فيه كذب في مجلس فدخل رجل يعرف الحقيقة، فقال: ما الموضوع؟ فقال أصحابك: والله فلان حدثنا كذا وكذا، فقد ينظر إليك، ويقول: لقد كنت معك حين ذاك، والأمر غير صحيح... فيبهت الذي كذب...

إذاً لن تكون عزيزاً إلا إذا كنت صادقاً، لن تكونَ عزيزاً إلا إذا كنتَ عفيفاً، لن تكون عزيزاً إلا إذا كنت أميناً، والدليل، لو أنَّ ابنك رَجاكَ أن تردَّ على أصدقائه إذا اتَّصلوا به بالهاتف وتقول: إنه غير موجود، وهو موجود حقيقة، وكذبت، فإنه لو لم يطّلع إنسان على هذه الكذبة، وتمت، يعلم ابنك، بل هو الذي طلب منك ذلك، فإنك تشعر أنَّ هناك ضعفاً في شخصيتك، تشعر بانهيار جزئي، لا، بل قل له: ابني مشغول، وهو يعتذر عن لقائك، هذا هو الصحيح، فأنت لن تكون عزيزاً إلا إذا كنت مستقيماً على أمر الله، العفيف عزيز، الأمين عزيز، المستقيم عزيز، الصادق عزيز، المخلص عزيز، الواضح عزيز.

إن أيَّ انحراف يتبعه ذُلُّ الفضيحة، عرف أحدهم أنك لست بصادق، لحقك الذل، عرف أنك لست بحكيم جاءك اللوم، كشف أنك لست بأمين فسحب الثقة منك، كُشِفَ أنك لست بعفيف فتشكَّك الناس فيك.

فالذي أنزل على نبيه ﷺ كتاباً وأنطقه ببيان، ونظّمَ نظاماً، وقنّن قانوناً، وسنَّ سُنَناً، وشرع شرائع إذا طبقتها بحكمة وبحذق، فأول ثمرة من ثمارها أنك تعيش بين الناس عزيزاً، لا يستطيع أحد أن يلوك سمعتك بلسانه، لا يستطيع متَّهِم أن يتهمك، لا يستطيع لأنه ليس لديه دليل، أما إذا كانت هناك انحرافات، هناك اختلاط، وأماكن مشبوهة، وعلاقات مريبة، وهناك تداخلات وقد تكون بريئاً، ولكن الناس يمضغونك بالأفواه، هذا المعنى الأول: أن الله عز وجل يعزُّك من خلال شرعه، يكفي أن تطبّق شرعه فأنت عزيز، وإذا كنت عزيزاً حققت ثلث وجودك، الأول: الطعام والشراب، الثاني: الزواج، الثالث: تحقيق الذات، تأكيد الذات، الشعور بالعزة.

مثلا: أذكر أن أحد إخواننا الأكارم صاحب محلٍّ تجاري، عيَّن موظفاً، ذلك الموظف ضعيف الوازع الديني، ضعيف الانضباط، فمنذ الساعة الثامنة صباحاً وحتى الساعة الحادية عشر، وحده في المحل، وهو متزوِّج حديثاً، وزوجته لها طلبات كثيرة، ضعف أمام نفسه فمن حين لآخر يضع مبلغاً في جيبه دون أن يعلم صاحب المحل، صاحب المحل بالفراسة، بالحاسة السادسة شعر أن المحل فيه نقص في البضاعة، وفيه نقص في الغلة، فماذا فعل؟ رجا صديقاً له أن يأتي محله التجاري الساعة التاسعة ويشتري حاجات بخمسمئة ليرة ويدفع ثمنها نقداً، ثم يعود في الساعة الخامسة ليعيد البضاعة لسبب ما، فجاء صاحب المحل في الساعة الحادية عشرة، وسلم على موظفه الكريم وسأله: ماذا جرى في هذه الساعات الثلاث، فأخبره ألا شيء، قال: أما جاء أحد واشترى؟ قال: لا، حينما دخل ذاك الذي اشترى بضاعة في الصباح يريد أن يعيدها الساعة الخامسة وكان صاحب المحل وراء الطاولة، والموظف حاضر فأخذت الموظف الخائن رعدة كاد أن ينهار على إثرها، ووالله لو نظرت إلى وجهه لرأيت دماً، قفز إلى وجهه ثم تبدَّد ليعلو الوجه شحوب المهانة، وذلُّ الخيانة.

أذلَّه الله ليحمله على التوبة، فإذا تاب واستقام على أمر الله صار عزيزاً، فالله عز وجل لا يضع الإنسان في موضع ذليل إلا من أجل أن يعالجه كي يعزَّه، فاعلم إذاً أن الله عز وجل يعزُّ ويذلُّ، وينبغي أن تعتقد جازماً أنه إذا أذلَّ فمن أجل أن يعزَّ، لكنَّ الإنسان الحكيم لا يحتاج إلى أن يُذلَّ كي يُعزَّ.

ذكرت من قبل أن الإنسان يمكن أن يكشف الحقائق بنفسه، ولكن قد يكشفها بعد فوات الأوان، وقد يكشفها وقد دفع حياته ثمناً لها، وقد يكشفها وقد أضاع سعادته الزوجية وأردى نفسه وأهله.

إنسان تزوج امرأة، دفعها إلى أن تعمل خارج البيت طمعاً براتبها، دفعها إلى التحرر الزائف، دفعها إلى الاختلاط المريب، فهو إنسان عصري، إنسان متفتّح العقل كما يقال، إنسان واثق من زوجته إنسان... إنسان... إنسان، وبعد أن دفعها إلى الانفتاح، وإلى الاختلاط، وإلى التبذّل، وإلى أن ترتدي ثياباً وفق أحدث الصرعات، صار اهتمامها به قليلاً، صار غيابها عن البيت كثيراً، اتصالاتها مريبة، فوجئ أنها اشترت بيتاً آخر، من دخل خاص جاءها، فوجئ أنها استغنت عنه، فقال بالحرف الواحد: يلزمني ذبح على هذا التصرف الذي فعلته مع زوجتي، يحبها فدفعها نحو التحرر فأحبت غيره، وانساقت مع غيره، واستغنت عنه، هذا الإنسان بربكم أيها القراء الكرام لو أنَّ في دمه كريات حمراء وبيضاء لرأى أنه كان مخطئاً في عمله بداية، لقد عرف أنه كان مخطئاً لكن بعدْ فوات الأوان، بعد أن ضحّى بسعادته الزوجية، بعد أن ضحّى بأم أولاده، بعد أن افتقر إلى العُش الإسلامي الحاني الدافئ.

أنا لا أريد لك هذه التجربة، ولا أريد أن تكون حكيماً بعد أن تدفع الثمن باهظاً، لكنك إذا اتبعت كتاب الله وسُنَّةَ رسولِه ﷺ في مقتبل حياتك فأنت تهتدي برأي الخبير، وبحِكَمِ الخبير العليم، أنت تستعمل هذه الآلة وفق هواك، فيصيبها العطب، ثم تُصلح العطب، وتدفع الثمن باهظاً، ويهبط مستواها ومردودها، فلو أنك استعملت تعليمات الصانع لصُنتَ هذه الآلة وأخذت منها أكبر مردود، فليست الحكمة أن تعرف الحقيقة بعد فوات الأوان، ولكن الحكمة أن تعرفها في الوقت المناسب.

إذا: يمكن أن تكون عزيزاً إذا اتبعت كلام الله، ويمكن أن تكون عزيزاً إذا أذلك الله عز وجل إثرَ انحراف ثم تبت من هذا الذنب، فأنت بين أن تكون عزيزاً بعد ذل، وبين أن تكون عزيزاً بعد علم، والفرق كبير، تعلّم منذ البدء وكن عزيزاً، وإياك أن تدفع ثمن عزتك ذلاً ومهانةً وإيلاماً.

الإعزاز والإذلال صفتان من صفات فعله جل جلاله، والله عز وجل له ذات وله صفات وله أفعال، إذاً له أسماء ذات وله أسماء صفات وله أسماء أفعال، فإعزازه للعبد يكون في الدنيا والآخرة، لكن إياك أن تغترَّ بعزِّ الدنيا، فقد يكون عزُّ الدنيا استدراجاً، لذلك.

رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا، جائعة عارية يوم القيامة. ورب نفس جائعة عارية في الدنيا، طاعمة ناعمة يوم القيامة. ورب مكرم لنفسه وهو لها مهين. ورُبَّ مهين لنفسه وهو لها مكرم. ورب متخوِّض متنعِّم فيما أفاء الله على رسوله، ما له عند الله من خلاق. ألا وإن عمل الجنة حزن بربوة. ألا وإن عمل النار سهل بسهوة. ألا يا رب شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً. [هذا حديث أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، من حديث أبي البجير، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ].

أحياناً ترى شخصاً حياته ناعمة جداً، منزل واسع مفروش بأجمل الأثاث، التكييف، التدفئة، التزينات، الثريات، لا تُضاهَى أناقته، مركبته، مكتبه، دخله، تجارته، مكانته، ثيابه الأنيقة من أعلى مستوى، ما شاء الله، هذا طاعم شارب ناعم، وقد يكون مصيره إلى النار، وقد تجد إنساناً خشن الثياب خشن الطعام خشن الشراب، منزله ضيق، حياته من الدرجة الخامسة، لكنه طائع لله عز وجل، العبرة في النهاية، «ألا يا رب نفس طاعمةٍ ناعمةٍ في الدنيا جائعةٍ عارية يوم القيامة، ألا يا رب نفسٍ جائعةٍ عاريةٍ في الدنيا طاعمة ناعمةٍ يوم القيامة».

لكن: «ألا يا رُبَّ مكرم لنفسه وهو لها مهين، ألا يا رُبَّ مهين لنفسه وهو لها مكرم» أحياناً الإنسان بدافع من عزته الباطلة يعصي الله ليحافظ على مكانته، فلو كُنت

بين أُناس فُجّار، بين أناس منحرفين وأردت أن تماشيهم في معصية حِفاظاً على مكانتك عندهم، فقد أكرمت نفسك أمامهم، ولكنك سوف تجعلها في الوحول يوم القيامة، «ألا يا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين، ألا يا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم».

قد تضع نفسك في الدنيا حفاظاً على دينك وحفاظاً على استقامتك، وحفاظاً على مرضاة ربك وحفاظاً على آخرتك، وحفاظاً على اتصالك بالله، قد تضع نفسك في موضع صعب جداً، قد تقول: لا أفعل، وهناك ضغط كبير من أجل أن تفعل، قد تقول: لا أفعل وهناك إغراء كبير من أجل أن تفعل، حينما ترفض تأتيك عبارات التقريع والسخرية والتعليمات والاتهامات، «ألا يا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم».

قد تكون عضواً في لجنة يعرض عليك كذا وكذا، تقول: لا أفعل هذا، حينما ترفض أن تفعل هذا، تُعزَل من هذه اللجنة، ويأتيك اللوم الشديد، ويقال لك: إنك مجنون، ضيّعت فرصة العمر في أن تكون غنياً، «ألا يا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم».

إذا أردت أن تفعل أمراً فتدبّر عاقبته، مرة قرأت بحثاً لطيفاً، سألوا مئة زوج في بلد غربي: لماذا لا تخون زوجتك؟ هذا اسمه استبيان في علم النفس، يعني هذا الذي لا يخون زوجته ما الذي دفعه إلى ذلك؟ فجاء الجواب متنوعاً، بعضهم قال: لا أستطيع، لأنه يعمل معها في مكان واحد فهي تراقبه، فقالوا: هذا أسخف جواب، هو يتمنى، ولكنه لا يستطيع.

أحياناً لا يستطيع تحمل الإثم، ولو كان بينه وبين نفسه، إذا فعل الإنسان فعلاً شنيعاً، ولم يعلم به أحد، يواجه نفسه بمرارة التعنيف يواجه اللوم الداخلي، يواجه التحقير الداخلي، يواجه السقوط الداخلي، فجاءت بعض الأجوبة: إنني لا أستطيع تحمل هذا الإثم، وجاء جواب آخر: إنني أكره الخيانة، فالثاني إذاً لو أنه تحمّلَ ألم الشعور بهذا الإثم لفعلها، لكن ابتغى راحة نفسه، لكن الثالث قال: أنا أكره الخيانة، هذا أرقى جواب.

فالإنسان حينما يضع نفسه في مواطن صعبة حِفاظاً على عزته البعيدة يفلح، فالأغبياء دائماً يعيشون وقتهم، الأغبياء يعيشون لحظتهم، يعيشون ساعتهم، أما الأذكياء فيعيشون مستقبلهم، فإذا أردتَ أن تجري فحص ذكاء ترى إنساناً يعيش وقته، يهمل صحته، يهمل واجباته، تأتيه المتاعب، تأتيه الهموم، تأتيه الأمراض، لكن الإنسان الأعقل هو كما قال في وصفه النبي ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمِل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسَهُ هواها وتمنى على الله الأماني» [أحمد والترمذي وابن ماجه عن شداد بن أوس].

عاش في العصور العباسية أديب اسمه ابن المقفع، له كتاب كليلة ودمنة، وهو كتاب مترجم عن اللغة الفارسية، كتاب فيه قصص على ألسنة الحيوانات، وهي مواعظ بالغة، من هذه القصص حديث عن سمكات ثلاث، قال: كيّسة وأكيس منها وعاجزة، هناك غدير ماء، فيه سمكات ثلاث كيِّسة، يعني: عاقلة، وأكيس منها يعني: أعقل؟ وعاجزة، هذا الغدير له فتحة يتصل بها مع نهر، فقال: اتفق أن مر بهذا المكان صيادان، فأبصرا الغدير، وأبصرا ما فيه من السمك، فتواعدا أن يرجِعا ومعهما شباكهما ليصيدان ما فيه من السمك، فسمعت السمكات قولهما «القصة رمزية طبعاً»، أما أكسيهن، يعني أعقلهن، فإنها ارتابت وتخوفت وقالت: العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها، هذا العاقل، خذ هذه القاعدة واعمل بها «العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها»، والأقل عقلاً حين وقوعها، والأحمق بعد وقوعها، هذه الكيّسة قالت: العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها، ولم تعرج على شيء حينما سمعت هذه الكلمة، وسارعت حتى خرجت من المكان الذي يدخل منه الماء من النهر إلى الغدير فنجت واستراحت، وأراحت، وانتهى الأمر وهذا شأن العاقل من الناس.

وأما الكيِّسة الأقل عقلاً، فبقيت في مكانها حتى عاد الصيادان، وبسذاجة قالت: سوف أخرج من هنا حين يقدمون، فلما أرادت أن تخرج من حيث خرجت رفيقتها فإذا بالمكان قد سدّه الصيادان، فقالت: فرطت وهذه عاقبة التفريط، لكنها لم تستسلم، وقالت: إن العاقل لا يقنط من منافع الرأي، ذكية ولكنها أقل ذكاء من الأولى، ثم إنها

تماوتت، فطفت على وجه الماء منقلبةً تارةً على بطنها وتارة على ظهرها، فأخذها أحد الصيادين فوضعها على الأرض بين النهر والغدير فوثبت في النهر فنجت «ولكن تحطمت أعصابها ودفعت ثمناً باهظاً»، وأما العاجزة، فلم تزل في إقبال وإدبار حتى صيدت وأكلت، وهذا حال العاجز من الناس «تراه مرتبكاً يتلجلج جسماً ونفساً» فالعاقل إذاً يحتاط للأمور قبل وقوعها، الأقل عقلاً يبادر الأمور مع وقوعها، العاجز يعرف الحقائق وعواقب الأزمات بعد وقوعها فيردى.

إن الله عز وجل يُعزُّ الإنسان استدراجاً، كأن يسوِّل له بعضهم: إن فعلت كذا نضعك في هذا المكان ونمنُّ عليك بكذا وكذا، شيء مغرٍ، مما يرفع شأنك عالياً بين الناس، مبلغ كبير جداً تحلُّ به كلَّ مشاكلك، تشتري بيتاً فخماً ومركبة تزهو بها بين الناس، نبوئك منزلة رفيعة تمكنك من الهيمنة على الآخرين، فكل هذا عِزّ، ولكن هذا العز استدراج، فإياك أن تفعل هذا، قل: الله الغني، لو كنت في دائرة مظلمة، لو كنت في زوايا النسيان وكنت طائعاً للواحد الديّان فأنت العزيز وأنت الرابح.

قالوا: فأما في الدنيا فقد يكون العِز إما بالمال أو بالحال؛ بالمال، وبالجمال، وبالغنى، وبالقوة، وبالأعوان والأولاد، وبالزوجات، وبالمناصب، وبمتع الدنيا، وبالبيوت وبالبساتين، أحياناً قد يكون للإنسان منتجع جميل، أو بستان وارف الظلال، يدعو أصدقاءه، ما شاء الله، ما هذا الجمال؟ يشعر عندئذٍ بعزّ، يزهو بهذا المنتج، ويشمخ بهذا البستان، وما علم أنه فيض عطاء من الله سبحانه، وأخذته عزة الدنيا زهواً.

اجعل لربك كلَّ عزِّك يستقر ويثبت
فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزَّك ميت

فحينما يعتزُّ بشيء من متاع الدنيا فإنَّ عزَّه باطل، بل يعتزُّ أحياناً بشخص قد مات، أو بمتاع فانٍ، لذلك من علامات قيام الساعة أنَّ المرء في آخر الزمان قيمته متاعه فقط، كلُّ مكانتك من ثيابك المستورة، أصرت عظيماً بذلك؟ أصرت عظيماً من مساحة

بيتك الواسع، أو من موقع بيتك في شارع كذا أو حي كذا فمن استمد عِزّهُ من الدنيا فقد وقع في متاهة كبيرة.

قال بعض العلماء: «عزُّ الدنيا بالمال وعز الآخرة بالحال»، لك حال فيه طهر ونقاء واستقامة وشوق ومحبة وقرب، هذا عِزّ الآخرة، أما المال فهو عز الدنيا، والمال والدنيا إلى زوال.

قيل: إن فتحاً الموصلي، كان قاعداً، فسئل عمّن يلهث وراء الشهوات كيف صفته؟ وكان بقربه صبيان، مع أحدهما خبز بلا إدام، ومع الآخر خبز وإدام، فقال الذي لم يكن له إدام لصاحبه: أطعمني مما معك، فقال: بشرط أن تكون كلبي، فقال صاحبه: نعم، فجعل خيطاً في عنقه يعطيه اللقمة في فمه ويجرُّه من عنقه كما يُجَرُّ الكلب، فقال فتح الموصلي للسائل: أما إنه لو رضي بخبزه من دون إدام ولم يطمع في إدام صديقه لم يصر كلباً له. قال أبو موسى: فهكذا الدنيا.

إنها حكاية بليغة حقاً.

قصة ثانية، وهذا حديث ورد على لسان سيدنا داود، أن الله تعالى أوحى إليه أن يا داود، حذِّر وأنذر أصحابك الشهوات؛ فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة.

وحُكِي عن بعضهم أنه دخل على تلميذ له فقدَّم التلميذ خبزاً قفاراً ولم يكن له إدام، فأخذ يتمنى بقلبه؛ أن ليت كان له إدام يقدِّمه إلى أستاذه، فأدرك الأستاذ أمنية الطفل فقام وقال: تعال معي، فحمله إلى باب السجن، فرأى الناس يُضربون وتُقطع جلودهم ويُعذبون، فقال الأستاذ لتلميذه: ترى هؤلاء الذين لم يصبروا على الخبز وحده ماذا حل بهم؟ إنهم سرقوا ووقعوا تحت السياط.

وقيل: إن رجلاً خرج من السجن وفي رجله قيد يسأل الناس، ويقول: أعطوني كسرة خبز، فقال له أحدهم: لو قنعت بالكسرة لما وضع القيد في رجلك.

وهذه قصة رمزية، يُروى أن رجلاً وقف بباب أمير، فرأى خادماً يدخل بلا استئذان، فعلم أن عفَّة هذا الخادم هي السبب في أن الحجاب قد رفع بينه وبين الأمير، فلا شيء يدق أعناق الرجال كالطمع ولا شيء يذل الرجال ويحقرهم كالجشع.

الله عز وجل يعزّك إذا طبقت شرعه، وإذا استغنيت به عمّن سواه، لذلك يروي الترمذي: عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي للمؤمن أن يذلَّ نفسه»، قالوا: وكيف يذل نفسه؟ قال: «يتعرض من البلاء لما لا يطيق».

«اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس؛ فإن الأمور تجري بالمقادير».

وأخرج الطبراني في الأوسط بسند حسن عن سهل بن سعد قال جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد! عش ما شئت فإنك ميت، واعمل ما شئت فإنك مجزيٌّ به، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل، وعزه استغناؤه عن الناس.

فالعزَّة صفة أساسية من صفات المؤمنين، لقوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون:٨].

إذا كنت مؤمناً حقاً فأنت عزيز لأنك مع العزيز، ولأنك على شرع العزيز، ولأنك مفتقر للعزيز، ومعتمد على العزيز، والعزيز لن يخيِّب ظنك.

قال بعضهم: إعزاز الله لعباده يكون بصحة قناعتهم، فإنَّ الذُّلَّ كلَّه في الطمع.

وخلاصة البحث الإعزاز والإذلال صفتان من صفات أفعاله، وموقف العبد من هذين الصفتين أنه إذا طبق أمر الله صار عزيزاً، حكيماً، وبمصطلح الفقهاء تحصيل حاصل، يعني أمر الله فيه بذور عزه المطبق، والله عز وجل بأمره التكويني يعزُّك إذا اعتززت به واعتمدت عليه وأخلصت له وأقبلت عليه ولم تشرك به.

يخفض ويرفع

يقول تعالى: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ [البقرة:٢٥٣].

ويقول أيضاً: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنعام:٨٣].

ويقول: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الأنعام:١٦٥].

ويقول ﷺ: «قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه...» [مسلم عن أبي هريرة].

ويقول ﷺ: «إن الله تعالى يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين» [مسلم عن عمر].

من معاني الخفض

الخفض أو الوضع في اللغة: ضد الرفع، والخفض: الانكسار واللِّين

والانخفاض: الانحطاط، وتُوصَف به الواقعة، قال تعالى: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ ﴾ [الواقعة:١-٣].

الناس يتمايزون بمقاييس أرضية، مقاييس المال، القوّة، والذكاء، وتحصيل العلم، والوجاهة، وغيرها من الأمور، فإذا وقعت الواقعة، تبدَّلت هذه المقاييس، وتحكّمت في الخلق مقاييس رب العالمين، يُقاس الإنسان بعد الموت بقدر استقامته وطاعته لله عز وجل، وإحسانه للخلق. فلذلك تنقلب المقاييس فجأةً، فالذي كان في القمم ربما صار في الحضيض، والذي كان في الحضيض ربما صار في القِمم.

الخفض من صفات الواقعة، والواقعة اسم من أسماء يوم القيامة. أي أن الواقعة تخفض أقواماً بمعاصيهم فيصيرون إلى النار، وترفع أقواماً بطاعاتهم فيدخلون الجنة.

ومادة الخفض وردت في القرآن في سورة الحجر، قال تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨ ﴾ [الحجر:٨٨].

ووردت في سورة الشعراء قال تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٥].

هذا الفرق بين الآيتين هل يفيد معنى ثالثاً؟ ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢١٥ ﴾ وقوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨﴾؛ فالإنسان يميل إلى جماعته وإلى أتباعه؛ فإذا مال إليهم، وتعصَّب لهم، وأنكر من سِواهم، وانحاز انحيازاً أعمى إلى من يلوذ به، فهذه نقيصة في الإنسان. فالله سبحانه وتعالى أمر نبيَّه ﷺ أن يخفض جناحه تارةً لمن اتبعه، وتارةً لكلِّ المؤمنين. أما نحن فما علاقتنا بهاتين الآيتين؟ عليك أن تحبَّ إخوانك في المسجد، وإذا كنت مؤمناً حقاً فيجب أن تحبَّ كلَّ مؤمن في الأرض، من أية جهة كان، وهذا هو الموقف الذي يليق بالمؤمن.

إذاً مادة الخفض وردت في قوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ ووردت في سورة الإسراء: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾﴾ ووردت -كما سبق وذكرت- في سورة الشعراء، قال تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾.

ابن الأثير يرى: أن الله تعالى هو الذي يخفض الجبّارين والفراعنة، أي: يضعهم ويهينهم، ويخفض ما يستحق أن يخفضه -وها نحن قد دخلنا في موضوع جديد- الإنسان له كيان مادي له جسم، وله كيان معنوي، الكيان المعنوي يرتفع وينخفض. فمثلاً إذا نجح الإنسان، ونال شهادةً عليا، يرتفع مقامه بين الناس. وإذا رَسب، انخفض. وإذا نجح في عمله، يرتفع. وإذا أخفق، انخفض. وإذا نجح في زواجه، ارتفع. وإذا أخفق، انخفض، وإذا ظهر صدقه للناس، يعْتزُّ بأخلاقه، فإذا ظهر كذبه، ينكمش. وإذا كُشفت أسراره البيتيَّة ولم تكن على ما يرام، انخفض. فالإنسان بين أن يرتفع وأن ينخفض. لكن صدِّقوا أن الإنسان حينما يرتفع بالحق يدخل على قلبه من السرور ما لا يُوصف. النَّجاح مُسعِد في كلِّ شيء. وحينما ينخفض ويُكشف كذبهُ، ويُفتَضَح في بيته، وتظهر عدم كفاءته، أو حينما يسيء الاختيار، وينال عِقاباً نظير عمله السيئ ويصبح ذكرى سيئة بين الناس، ينكمش وينخفض. وقد يأتي على هذا الإنسان من الآلام ما لا يوصف، لذلك فالإنسان أكثر ما يعيش بسُمْعَتِه. بل إن العرب حينما ذكروا العرض، عرَّفوه بأنه موضِع المدح والذم في الإنسان. قد تكون فقيراً لكنك تقيٌّ مرفوع الرأس. قد يكون مريضاً ولكن نظيف الكَفَّين، لا انحراف بحياته وسلوكه، ولا دَجَل ولا تطاول، ولا يخاف، لا لأنه من جنسٍ آخر، وإنما هو من البشر، لكن لا يخاف لأنه مستقيم، وما خالف شرع الله في عمل، ولا خالف القانون، لذلك أحدُ أسباب العزة الإحسان في القول والعمل، وقال تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [يونس:٢٦].

إذا أتقنت عَمَلَك، وأدَّيت وظيفتك على خير وجهٍ، تشعرُ بعزة الإنجاز وعزة الإتقان والتفوُّق. أما إذا أدَّيت عملك بغير إتقان، وكان عملك سيئاً ومرتجلاً، وذا عيوبٍ كثيرة، واكتُشفت الأخطاء عاتبك الناس، كَمَثَل الذي وصف دواءً لطفلٍ صغيرٍ أودى بحياته، ولما وُوجه هذا الذي وصف الدواء صار صغيراً ومنكمشاً، ويتمنى أن تنشقَّ الأرض وتبْتَلِعَه كما يقول العوام، فالإنسان يعتزُّ حينما يُتقن عمله، ويؤدي واجباته، ولكنه حينما يكون واضحاً، وتكون سريرَته كعلانيته، وخلْوتُه كجَلْوَتِه، وحياته الخارجية كحياته الداخلية، وأسراره كحياتِه المعلنة يسمو ويعلو، فالوضوح يرفع الإنسان. وتشعُر هذا من الواقع حيث يجد الإنسان في بعض الأحيان انقباضاً من جراء عَمَلٍ منْحط أو كلام بذيء، فلما انكشف الغطاء وجد نفسه في انكماش وصَغار وما من إنسان إلا ويتمنى أن يرتفع؛ ولا أقصد أن يرتفع كبراً وتطاولاً وإنما بإتقان العمل وحُسن السيرة يصير عزيزاً، فالصدق والأمانة يجعلانك عزيزاً، وأحياناً تتعرض لتَفْتيش مفاجئ في مَحَلِّك ومعملك، فإذا كانت المواد الأولية كلها صحيحة وبمواصفات جيدة والأمور في بيان ووضوحٍ، وبعيدة عن الغشِّ والفساد فتشعُر بعزَّة ونشْوة، فكلُّ إنسان يطمع في أن يحقِّق مكانته.

نحن -المسلمين- لو أننا أيقَنا أن رِفْعتنا بطاعة الله، وباستقامتنا، وانضباطنا لاستقمنا في حياتنا، إنسان يشغل منصباً اجتماعياً رفيعاً لكنه جَلَب أبقاراً مصابة بمرض عضال، وسَبَّب حالات مرضية شديدة، فلما كُشف أمره سيق إلى السجن مُكَبَّل اليدين، وأُدخل قصر العَدْل لينال جزاءه العادل، فهذه المكانة التي كانت لهذا الشخص انهدرتْ، والذُّل لا يُحتَمل، وكذا الإهانة والانكماش، وعاقبتهما ضياع.

أعجب من هذا الذي يأكل مالاً حراماً، ويَغُشُّ المسلمين في غِذائهم، وهذا الذي يستَوْرِد لحوماً للكلاب ويبيعها للبشر، وهذا الذي يضع أصبغة البلاط في حلويات الأطفال، وفي المواد الغذائية فما جزاء هذا الذي يُكشف اختِلاسُه؟ سيُصيبه صغار وذلّة وهوان.

شعور الإنسان بالاستقامة والرِّفعة والنظافة والخلْفِيات الواضحة هذا شعور لا يوصَف؛ وهو شعورٌ يرقى بالإنسان عالياً، وما منّا واحدٌ إلا ويتمنى أن يكون أمام الناس نظيفاً ومزهوّاً، ومرفوع الهامة. فالله سبحانه وتعالى هو الذي يخفض ويرفع كما يقول ابن الأثير: «هو الذي يضع الجبارين والطغاة ويُهينُهم»، وسبحان من قهر عباده بالموت. الله عز وجل يخفِض الجبابرة، وكقاعدة عامة أقول: الإنسان إذا كان صُعوده سريعاً وحاداً فسيكون انخفاضه مُريعاً، والإنسان إذا تكبَّر بغير الحق وصعد صعوداً حاداً ومفاجِئاً، فالله جل جلاله يجعله عِبرة لكلِّ من اعتبر، ويخْفِضه ويذِله ويهينه؛ هناك عذاب شديد، وهناك عذاب مهين. بربِّكم هل يتمنى مسلم أن يتردَّى في الفضيحة والذُّلِّ والإهانة؟ أقول هذه الحقيقة، وأتمنى أن تكون واضحة لكل ذي لبٍّ: أية خيانة على الإطلاق، منذ خلق الله آدم وإلى يوم القيامة، لا بد من أن تُفْتَضح والدليل: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [يوسف:٥٢].

والخائن حينما يُفْتَضح، لا يُفْتَضح بذكاء البشر بل بتقدير خالق البشر. فإذا أيقن الإنسان بأنَّ الله لن يسمح لإنسان أن يغُشَّ الناس إلى أمدٍ طويل، ولا أن يغُشَّ مجموع الناس إلى أمدٍ قصير، عندئذٍ يستقيم على أمر الله؛ لأن الفضيحة، والانكشاف تجعلانه قالة سوء، هذا شيء لا يُطيقه حرٌّ كريم؛ لكن كيف علاجُه؟ لا تفعل شيئاً تستحي منه، ولا تفعل شيئاً تضطرُّ إلى أن تعتذِر منه، قبل أن تفعل شيئاً فكِّر جيداً، وتأمل ملياً، وعُدَّ للآلاف قبل أن تأخذ ما ليس لك، وقبل أن تدخل إلى هذا البيت، وليس في البيت إلا امرأة؛ سل نفسك لعلك تُسأل لماذا دخلْت البيت؟ وأنت تعلم أنَّ الزوج غير موجود؟

فالإنسان حينما يتسرَّع ويتحرَّك عشوائياً بلا نور، وبلا منهج، وبلا أحكام شرعيَّة، يقع في شرِّ عمَلِه، يتردى وينخفض هواناً، والله هو الذي يخفضه؛ فأحياناً يكون الإنسان بأعلى درجة؛ ثم ينهار ما تحت قدميه ويهوي، أحد علماء المسلمين في أمريكا تناظر مع أحد أكبر القساوِسة. وهذا الرجل الخصم بعد حين، كُشف يمارس علاقة جنسيَّة شائنة فصار يبكي على شاشة التلفزيون، فالإنسان حينما تُكتَشف عثراته وسقطاته،

ينكمش ويتردَّى، والحقُّ أن الله خفضه. على كلِّ حال هذا من الفطرة الإنسانية. مثلاً لو فُقِد قَلَم غالي الثمن في غرفة الصفِّ، فمَنَع المُدرِّس خروج الطلاب، وفَتَّش الطلاب واحداً واحداً؛ فإذا القلم عند أحدهم، فقبل أن يعاقبه، وقبل أن يضربه، وقبل أن يستدعي والده، وقبل أن يفصِله لمدة ستة أيام، ماذا يشعر هذا الطفل؟ يشعر بألم وخِزي، فشُعور الخزي والعار لا يُحتَمل، فلْتستقم، ولتعملْ عملاً لا تستحي منه.

مرةً سألوا ألف زوج في بلد غربيّ: لماذا لا تخون زوجتك؟ فجاءت الإجابات كثيرة جداً ومتنوِّعة. صُنِّفت هذه الإجابات في زمرٍ أخلاقية، وكانت إجابة أخفض صنفٍ: لا أستطيع، لأنها تخونه بالمثل، وإجابة الذي أعلى منه: لا أحتمل الإحساس بالخيانة، الإحساس بالخيانة ضاغِط، والأرقى قال: لا أحبُّ الخيانة، وصنْف أجاب بأنه يحبُّها ولكنّه لا يحتمل وخز الضمير، الأول يخشى خيانة زوجته إن خانها، والأخير يخشى وخز الضمير، وليس بينهم من قال: تمنعه الخشية من الله تعالى، فعندما يتحرَّك الإنسان حركة واضحة ونظيفة، يشعر براحة، وهذه الراحة لا تُقدَّر بثمنٍ. قد تجد شخصاً يرتدي أغلى الأثواب، ويركب أجمل المركبات، ويسكن في أفسح القصور والبيوت، ومع ذلك فهو من داخله مُنهار؛ لأنَّ نفسه تُحاسِبه حساباً عسيراً. يعاني الانقباض، والكآبة، والشعور بالذنب ومُركَّب النقص، وهذا كلُّه من الأعمال الخسيسة والدنيئة التي لا تُرضي الله. ففطرة الإنسان متوافقة مع الإيمان؛ فإن حادَ عن الإيمان وعن منهج الله عذَّبتْه فطرته، مثَلاً: مرْكبة حديثة جداً مُصنَّعة لتسير على الشوارع المعبدة، لو ركِبتها في الطرق الوَعْرة، وفي طرق جبلية فيها وهدات ومنعرجات وذات أتربة ورمال، تشعر بتَعَبٍ شديد وانزعاج وبقلق، وتشعر أنَّ هذه المركبة ليست لهذا الطريق. ونفسك البشرية مخلوقة لمنهج الله، ومخلوقة لتكون على مستوى الشرع؛ فإذا حِدت عن الشرع، تعثَّرت نفسك وشعرت بالكآبة والضيق وما إلى ذلك.

والله تعالى يخفض بالإذلال مَنْ تعاظم وتكبَّر، وشمخ بأنفه وتجبَّر، يخفضُ أقواماً ولا يخفض إلا أهل الباطل: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء:٨١].

ضربت مثلاً فقلت: ليتر من اللبن يحتمل خمسة أكيال ماء ويصبح شراباً لذيذاً ويُهدِّئ النفس ويشعر الإنسان براحة بعد شربه، ليتر لبن يتحمل خمسة أكيال ماء، ولا يتحمل نقطة نفْط واحدة أبداً، فهذه القطرة الواحدة تُفسِده، أمَّا خمسة أكيال من الماء فتُطَيِّبُه، كذلك الإيمان: فذرَّة كِبْر واحدة تتناقض مع العبودية، ومن صفات المؤمنين الأساسية التواضع لله، ترى المؤمن عزيزاً إلى أقصى درجة، ورافع الرأس إلى العلاء؛ ولكنه أمام الله ذليل؛ ويُبالِغ في التذلُّل أمام عَتَبة ربه، ويبالغ في رفع رأسه شامخاً أمام أعداء الله، لذلك وصف الله المؤمنين في كتابه بقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤].

بقَدْر ما هو متواضع ومتذلِّل بينه وبين الله، يكون بينه وبين الخلق عزيز النفس.

لو أننا تتبعنا تاريخ النظريات الوضعية التي ابتُدِعت خِلاف منهج الله، فهل نجد نظرية بقيت شامخة إلى ما لا نهاية؟ وهل هناك نظرية إلا ونزلت في الوَحْل وسقطت؟ ولاكَتْها الأفواه وتناولتها الألسن؟ وخاضت فيها الأقلام؟ والأدلّة أمامنا كثيرة، والتاريخ الذي بين أيدينا يصدّق ذلك، فسبعون عاماً في اعتزاز بالباطل، واعتزاز بالإلحاد، ثم أصبح هذا الإلحاد خُرافةً، وأصبح المجتمع المُلحِد في مؤخرة الشعوب على الإطلاق: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ العَرَب في الأندلس أسَّسوا حضارة من أكبر الحضارات في العالم؛ فلما التفتوا إلى القِيان وشرِبوا الخمور، واستمعوا إلى المعازف، ومالوا إلى اللهو والتَّرَف، أُخرجوا من هذه البلاد، وكان آخر ملوكهم أبو عبد الله الصغير يبكي، وهو يخرج من قصرِه في غرناطة (قصر الحمراء) قالت له أمه عائشة:

ابكِ مثلَ النساء مُلكاً مُضاعاً لم تُحافظ عليه مثل الرجال

فالله يخفض العصاة المتكبرين والمتجبرين.

والله تعالى يَخْفِض الكفار بالإشقاء، ويخفض أعداءه بالإبعاد، عدوٌّ يُخفَض، ومتجبِّر يُخفَض وطاغِيَة يُخفَض ومستعلٍ يُخفَض، قالوا: أنا، ونحن، ولي، وعندي، أربع كلمات

مهلكات، قال تعالى عن إبليس: ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ۝٧٦ ﴾ [ص:٧٦]. فأهلكه الله.

﴿ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ۝٣٣ ﴾ [النمل٣٣]. قالها قوم بَلْقيس فأذلهم الله عز وجل.

﴿ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ ﴾ [الزخرف:٥١] قالها فرعون فغَرِق.

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ ﴾ [القصص:٧٨] قالها قارون فدمَّره الله عز وجل، وخسف به الأرض؛ فالله يخفض أعداءه، ويخفض المتجبرين ويخفض الطغاة، ويخفض الظالمين، ويخفض الباطل، ويخفض أفكار الباطل فتصبح في الوَحْل ولا يعتَدُّ بها أحد، بعد أن كانت متألِّقة، يخفض الكفار بالإسقاط وأعداءه بالإبعاد والذل.

وقيل: هو الذي خفض أهل الكفر بعِزِّه، وخفض أهل الكِبْر بجلاله، وخفض أهل الزور بإظهار تكذيبهم، والكاذب لا بد من أن يفضحه الله؛ وحينما يفضحه، ينسى الحليب الذي رضعه من أُمِّه. والكذب شر ولا سيما الكذب في البيع والشراء، تجد الكاذب يُقسِم بالأيمان المُغلَّظة، أنَّ كُلفة هذه البضاعة يفوق هذا السِّعر، ثم تُكشَف الأوراق فإذا رأس ماله قليل جداً، وقد أقسم أيماناً كاذبة؛ فهذا الإنسان سَقَط، سقط من عين أهل الفضل والكمال.

ويخفض الله عز وجل كلَّ خارج عن شريعته مهما كان غنياً بالمال، أو عزيزاً بين الرِّجال. وقد ذكر العلماء أن الله تعالى يخفض من قَصُرت مشاهداته على المحسوسات، يعني ما آمن بالغيب، وإنما آمن بالأشياء المادية، والذي يراه بعينه يؤمن به، أما الآخرة فما رآها ولذلك هو يُنكِرها، وكذلك عقاب الله ما رآه فأنكره. فقال: يخفض من قَصُرت مُشاهداته على المحسوسات، وقصَر هِمَّته على ما تفعله البهائم من شراب وأكل ونكاح، وقد خفضه إلى أسفل سافلين، ولا يفعل ذلك إلا الله رب العالمين.

نصيب المؤمن من فعل الخفض

من أراد أن ينال نصيبه من فعل الخفض، فعَليه أن يخفض نفسه قبل أن يخفِضه الله، اخفِضها طواعيةً لله وتواضعاً لله.

انظــر إلى الأكحــال وهــي حجــارة لانَــت فصــار مَقرُّهــا في الأعْــيُن

تواضع قبل أن يضعك الله، فالتواضع عبادة والتكبر نقيض العبادة؛ لذلك من عرف أن الله تعالى هو الذي يخفض، فعليه أن يخفض نفسه بالتواضع، فيراها أقلَّ من جميع العباد، وهذا رسول الله ﷺ وقد دخل عليه رجل فارتعدت مفاصله فهوَّن عليه: عن ابن مَسْعُودٍ قالَ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ فقالَ لَهُ: «هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ إِنَّما أنا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ القَدِيدَ» [رواه ابن ماجه].

وكلّما تواضعت، رفعك الله. وهذه علاقة عكسية فكلما تكبَّرت، خفضَك الله، والعالِم الحقيقي متواضِع، والإنسان الذي يُعتدُّ به متواضع، ومتى سلِم العبد من شبهة الكِبْر فكلُّ شيء بعد ذلك يزول ويهون، قال ﷺ: «لو لم تكونوا تُذنبون لخِفتُ عليكم ما هو أكبر من ذلك». فما هو الذي أكبر من الذنب؟ «العُجب العُجب» [البيهقي في شعب الإيمان عن أنس].

وقال ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر» [مسلم عن ابن مسعود].

كلما نزلت متواضِعاً إلى الله، رفعك الله. أنا لا أعتقد أنَّ على وجه الأرض إنساناً أشد تواضُعاً من رسول الله ﷺ؛ كما أنني لا أعتقِد أنَّ هناك من أعزه الله ورُفِع ذِكره وشأنه كرسول الله ﷺ، فبالقَدْر الذي تتواضع لله ترتفع إلى مراتب العُلو، ألم يقل الله عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ [الشرح:٤].

فإذا ذُكِر الله في الأذان؛ ذُكِر معه رسول الله ﷺ.

فالتطبيق الأول: أن تخفض نفسك بالتواضع، والتذلل، والانصياع، ولين الجانب، ولين العريكة، وأن ترى نفسك واحداً من الناس، لا أن ترى نفسك فوقهم.

كن واحداً منهم، تكن سيِّدهم. أما إذا جعلت نفسك فوقهم، يجعلونك في الحضيض. كن واحداً منهم وبأخلاقك الفاضلة يرفعونك إلى الأوج. سيدنا عمر رضي الله عنه أراد أن يُعَيِّن والياً فقال: أُريد رجلاً، إن كان أميراً، بدا وكأنَّه واحد من قومه، وإن كان ليس بأمير عليهم، بدا وكأنه أميرهم. غيرةً وحِرصاً على مصلحة قومه.

التطبيق الثاني: أخفِضْ إبليس بعدم الإصغاء لوسوساتِه. فإذا أصغى الإنسان إلى وسْوَسَة الشيطان يكون قد رفعه. أما إذا أعرض عنه، وسفَّه وسوسته، وابتعد عنه، ولعنه وأعرض عن كلِّ ما يُلقيه في روعه، يكون قد وضعه وانتصر على نفسه. فالتطبيق الثاني أن تخفض إبليس وأعوانَه وكلَّ وسْوَساته، وألا تُعَظم أهل المعصية، وألا تحترِمهم احتراماً بالِغاً، فهل يجوز أن يشرب الخمر إنسانٌ وتستقبله وتعانِقه، وتُرَحِّب به، وتثني على ذكائه وعلمه وخبرته، وتجعلُه في صدر المجلس، وهو تارك صلاةٍ وشارب خَمْرٍ؛ بهذا تكون قد فعلت شيئاً لا يُرضي الله، ينبغي أن تُخْفِضه وأن تُشْعِره أنه عاصٍ لله عز وجل، إلا في حالة واحدة وهي أن تتوقع منه الخير فتتألَّف قلبه بالتكريم. فالإنسان مُقصِّر لكنّ فيه خيراً، ولا يكره الحق، وليس بعيداً عن الحق، فعلى افتراض أنه مقصِّر ورَحَّبْت به دون أن تُشعِر الناس أنَّه على حقٍّ، فصار إكرامك هادِفاً ويسمى إكرام التأليف، وهو مسموح به بشكل استثنائيٍّ. هذا وهناك التذلل والانخفاض للوالدين، قال تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

كتب لي أخ كريم يوماً بينما كنتُ في أحد مساجد دمشق، وذكر حكاية مؤلمة، عن أحد أقربائه، وطلب مني أن أُلقيَها على الناس لما فيها من العبرة البالِغة؛ فقد كان له قريبٌ عاقٌّ لوالديه، وجاء مرةً لأبنائه بالموز فقالت له ابنته: إن جدتي أكلت موزةً؛ فَمِن شدة بُخلِه دفع أمه من أول الدرج إلى آخره، وبيَّنت له أمه أنها أكلت شيئاً فَضُل عن ابنته، وماتت بعد ذلك بشهرين، وعندما وافاه الأجل بَقِيَ ميتاً في بيته أربعة أشهر، دخلوا عليه بالمُعَقِّمات وكانت الجرذان قد بدأت تأكله. شيء أليم لا يوصف، فالله أذله إذلالاً ليس بعده إذلال. فالإنسان ربما يكون عاقاً لوالديه ولمن رباه، أو عاقاً لإنسان كبير في السن.

عَنْ أبي مُوسَى الأشْعَرِي قالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إنَّ مِنْ إجْلالِ الله إكْرامَ ذي الشَّيْبَةِ المُسْلمِ، وحامِلِ القُرْآنِ غَيْرِ الغَالِي فِيهِ والجَافِي عَنْهُ، وإكْرَامَ ذي السُّلْطَانِ المُقْسِطِ» [رواه أبو داود].

لقد علمنا في القسم الأول من هذا البحث أنّ الجبابرة والطغاة والمتكبرين والظُلاَّم والعُتاة؛ هؤلاء يخفضهم الله عز وجل. وأنت يا أخي المؤمن اخفض نفسك تواضعاً لله، واخفض أهل المعصية والفجور واخفض الشيطان وأعوانه قبل الإصغاء لوَسْوسَتِهم، هذا من عمل المؤمن، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾ [التحريم:٩].

أنت تخطئ عندما تحترم إنساناً غارقاً بالمعاصي أمام أولادك -فالطفل بريء- ينظر فيرى أباه يُبَجِّل ويُكَرِّم أهل الفجور؛ فبهذا العمل كأنك أوْحيت لابنك أنّ هذه ليست معاصي، والدليل التكريم المبالغ به لهؤلاء، فيجب أن يكون لك موقف سليم.

من معاني الرفع

الله تعالى يرفع من يشاء وما يشاء، والرفع يقال تارةً في الأجسام الموضوعة إذا أعْلَيتها عن مقرِّها نحو قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ﴾ [النساء:١٥٤].

الشيء المادي إذا رفعته نقول فيه: رفع، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ﴾ [الرعد:٢].

ويقال: الرفع للبناء إذا أعليتهُ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة:١٢٧].

قال تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾﴾ [النور:٣٦].

أن ترفع: أي: تعلو، وإذا عظّمْتَ إنساناً ونَوَّهْت بفضائله وذكرت شمائله فيقال: ﴿ورَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح:٤]، فالمعاني متعددة؛ معنى مادي: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ﴾ [النساء:١٥٤]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد:٢]، ومعنى الإطالة: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾، ومعنى رفعة الشأن والتنويه بالذِّكر: ﴿ورَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾، هذه في المنزلة. والنبي ﷺ قال: «أنزلوا الناس منازلهم» [أبو داود من حديث عائشة].

فإذا استقبلت أخاً مؤمناً، وأثنيت عليه فلا مانع من باب التشجيع له والتنويه بفضْله. والإنسان المغرور والحسود هو الذي يُعَتِّم على الآخرين. فإذا تفوّق أخ مسلم ونال شهادة عليا فعليك أن تُنَوِّه به، كأن تقول: هذا له أيادٍ بيضاء، وخدمات جُلّى للمسلمين، ومتفوِّق في اختصاص مُعيّن، هذا إذا عَرَّفت به، وذكرت فضائله، يكون من باب تأليف القلوب، والنبي ﷺ ذكر ذلك:

عَنْ أَنَس بْنِ مالِكٍ قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وأَشَدُّهُمْ في أَمْرِ الله عُمَرُ، وأَصْدَقُهُمْ حَياءً عُثْمانُ، وأَقْرَؤُهُمْ لكتابِ الله أُبَيُّ بنُ كَعْبٍ، وأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثابتٍ، وأَعْلَمُهُمْ بالحَلالِ والحَرامِ مُعاذُ بنُ جَبَلٍ، ألا وإنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أميناً وإنَّ أمينَ هذِهِ الأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرّاحِ» [رواه الترمذي].

وصف خالداً بأنه سَيْف الله وأبا عُبيدة بأمين هذه الأمة، وابن الزبير بحوارِيِّ هذه الأمة، وعمر بقوله: لو كان نبي بعده لَكان عمر، وأبا بكر بأخ ولو كان متخذاً خليلاً لاتخذه، وما من صحابي إلا نوّه النبي ﷺ بفضْله وبيَن شأنه؛ لأن هذا من أخلاق النبوة. فإذا كان لأخٍ لك إنجاز جيِّد، وفضيلة مأنوسة؛ ونوّهت بفضْله؛ فسيَشعرُ بقيمَتِه عندك، وأنه محترم؛ وهذا الفعل من فضائل المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٣٢﴾ [الزخرف:٣٢].

والله جل جلاله في كتابه الكريم لم يخاطب النبي ﷺ باسمه بل قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ [التحريم:١].

وقال: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ ﴾ [المائدة:٤١].

ما خاطب الله النبي ﷺ إلا بلقَب النبوة أو الرسالة؛ لكن ذكر اسمه في الخبر، ففي الخبر ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ [الفتح:٢٩] وفي الخطاب قال تعالى: ﴿ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة:١١٠].

وقال أيضاً: ﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى ﴾ [الأعراف:١٤٤].

وقال أيضاً: ﴿يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾ [مريم:١٢].

خاطب الأنبياء بأسمائهم؛ لكن النبي ﷺ ما خاطبه الله إلا بألقاب النبوة والرسالة، وهذا تكريم من الله تعالى لنبينا محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشرح:١-٤].

لما عرَجَ الله بالنبي ﷺ إلى السماء، وأراه من آياته الكبرى، فهذا أعلى رفع لشأن النبي ﷺ وقدره، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ [النجم:١٨].

وهو الذي يرفع الأولياء وينصرهم على الأعداء. ويرفع الصالحين إلى أعلى عِلِّيين، ويرفع الحق، ويرفع المؤمنين بالإسعاد، ويرفع الأولياء بالتقريب والنصر، وكلَّ من تولاه حقاً وعدْلاً، وهو الذي رَفَع السماء بغير عَمَد. إذاً الرفع مادي ومعنوي؛ يرفع السماء بغير عمد، ويرفع ذكر رسول الله ﷺ، فعندما يستقيم الإنسان ويُخلِص لله عز وجل، تصبح له مكانة كبيرة في المجتمع، تفوق مرتبته العلمية واختصاصه وحِرفَته، فالعلماء قديماً كان أحدهم نجاراً، والآخر قصاباً، ومن ثم أصبحوا ذوي مكانات رفيعة القدر في المجتمع.

والله تعالى رَفَع السموات بغير عَمَدٍ ورفع الغَمام على متن الهواء ورفع الطيور في الفضاء، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰٓفَّـٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَـٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ [الملك:١٩].

وهو الذي رفع مقام الأولياء في الحياة؛ بخضوع القلوب لهم، وما أخلص عبدٌ لله، إلا جعل قلوب المؤمنين تهفو إليه بالمودة والرحمة؛ فهذا رفع، فهناك إنسان لا أحد يلتفت إليه، لا تتمنى دعْوته، ولا الجلوس معه فهو منبوذ، ملعون، مُبْعَد، أمَّا المؤمن فبإخلاصه لله إقباله عليه واستقامته على أمره يخلق الله مودَّة له في قلوب الآخرين. إذا أحب الله عبداً أوْدع في قلوب العباد محبته، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه:٣٩] أي: أحبك الخلق بحُبي لك.

أقسِم بالله! ولا أحنث إن شاء الله، ما من أحد يطيع الله كما أراد، ويُخلص لله عز وجل كما يحب إلا رفع الله ذِكره؛ وفي كل شؤون حياته، وهو من إكرام الله تعالى، وكافأته بعض الردود الإلهية الكريمة على إخلاص المؤمنين واستقامتهم، فهو جل جلاله المدبِّر لشؤون خلقه، يرفع من تولاه إلى أُفُق المقربين، كما يخفض من عصاه إلى أسفل سافلين. يرفع شأن المستضعفين. لما خافت أم موسى عليه السلام أن يُذبح ابنها موسى والقَته في اليَم بأمر الله عز وجل، فالتقطه آل فرعون ورباه فرعون في بيته، ما من طفلٍ كان يولد في بني إسرائيل إلا ويُذبح، إلا هذا الطفل فقد أراد فرعون أن يقتل كلَّ أبناء بني إسرائيل، لأنه رأى في الرؤيا أنَّ طفلاً منهم سيقضي على مُلكِه، والطفل الذي سيقضي على مُلْكِه رباه في قصره وهو لا يشعر، قال تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾﴾ [القصص:٨].

واللام هنا لام المآل أو لام العاقبة وليست لام التعليل.

يرفع من تولاه إلى أُفق المقربين، كما يخفض من عصاه إلى أسفل السافلين ويرفع شأن المستضعفين، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾﴾ [القصص:٤-٥].

كم من مستضعفٍ علا شأنه وتألّق نجمه، وارتفع مكانه؟ وكم من فقير صار غنياً؟ وكم من مستضعفٍ صار قوياً؟ وكم من مهمَلٍ صار ذا شأنٍ؟

يقول تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الأنعام:١٦٥].

فهناك مجند، وهناك رئيس أركان، وهناك ممرض وطبيب، وهناك معلِّم بقرية وهناك أستاذ جامعة، كما يشاهد بائع متجوِّل وهناك رئيس غرفة تجارة؛ ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾. فإذا رفعك الله تعالى فيجب عليك أن تشكره على هذه الرِّفعة، وينبغي أن توظِّفها في طاعة الله. وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الأنعام:١٦٥].

والمؤمن كما قلت في أبحاث سابقة يمرُّ بأطوارٍ ثلاثة: طوْر يؤدَّبُ فيه على تقصيره وبعض مخالفاته، وطورٍ يُبتلى فيه ويُمتحن؛ فإذا نجح في الطورين بلغ طور التكريم، وأظن هذا يناله في الدنيا أو في الآخرة: وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل:٩٧].

نصيب المؤمن من فعل الرفع

نصيب المؤمن من معرفته بأن الله تعالى هو الذي يرفع أن يسعى لينال الرفعة وعلوّ المنزلة والتكريم كما ينال منه أيضاً القرب والدنوّ، وأيَّةُ آية يختص بها النبي ﷺ فلكل مؤمن منها نصيب بقدْر إخلاصه وطاعته كما قال ذلك بعض العلماء، انظر في قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾ من معانيها: أن كل مؤمن يقتدي برسول الله ﷺ، ويقتفي أثره، ويتبع سنته، يناله شيء مما نال النبي ﷺ من رِفْعة شانٍ، وعلُو قدْر،

وسيرة العلماء العاملين الصالحين الصادقين والمخلصين في التاريخ الإسلامي تؤكِّد هذه الحقيقة.

نسأل الله أن نستحِقَّ أن يرفعنا الله عز وجل رَفْعاً مادياً ومعنوياً حتى نقطف ثِمار الإيمان الحق الذي هو في الحقيقة التزام واستقامة ومؤاثرة.

يبدئ ويعيد

يقول الله عز وجل: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأعراف:٢٩].

يقول ابن القيم رحمه الله: «الشريعة عدلٌ كلُّها، رحمةٌ كلُّها، مصلحةٌ كلُّها، فأية قضيةٍ خرجت من العدل إلى الجور، من المصلحة إلى المفسدة، من الرحمة إلى خلافها فليست من الشريعة، ولو أُدخلت عليها بألف تأويلٍ وتأويل».

وفي سورة الأنبياء قال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنبياء:١٠٤].

وفي سورة النمل قال تعالى: ﴿ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [النمل:٦٤].

وفي سورة العنكبوت قال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [العنكبوت:٢٠].

وفي سورة الروم قال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الروم:١١].

وفي السورة نفسها قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم:٢٧].

وفي سورة البروج قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾ [البروج:١٣].

فالإنسان أحياناً يقول: والله قد فعلت هذا الأمر ولكنّي لا أستطيع أن أُعيده. أي جاءته معونةٌ خاصة خارجةٌ عنه، فإذا كلَّفته أن يعيده لا يستطيع، فالإنسان من ضعفه أحياناً تأتيه بوارق، حالات استثنائية، إشراقات، فهو لا يملك هذا الإشراق دائماً، فكلُّ من يعمل في أعمال الفكر أو الإبداع، يعرف أنَّ الإبداع لا يأتيهم متى يشاؤون، الإبداع قد يوافي الرجل، وقد لا يوافيه، فمعنى ذلك أن الإنسان مفتقِر، أحياناً يُبدع في إلقاء كلمة، يُبدع في قراءة، يبدع في فكرة، يبدع في اكتشاف، لكن قد لا يُبدع أحياناً.

قال بعضهم: «العبقرية تسعٌ وتسعون بالمئة عرق، واحد بالمئة إلهام»، وهذا الشيء ثابت فكل الأدباء والكُتَّاب والشعراء، حتى كلُّ الأعمال التي تتسم بالإبداع أصحابها يعترفون أنه في بعض اللحظات يأتيهم إشراق، في بعض اللحظات تأتيهم معونة، في بعض اللحظات يتألّقون، ولكن هذه اللحظات لا يملكونها، تأتيهم أو لا تأتيهم، ولذلك الذي فعلته اليوم بإشراقةٍ أو بإبداعٍ أو باستثناءٍ لا تملك أن تعيده وهذا من ضعف الإنسان، لكن الله سبحانه وتعالى كلُّ شيء خلقه يعيده مرةً ثانية كما ورد في الآية الكريمة: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ [الروم:٢٧].

في اللغة العربية بدأ وابتدى بمعنى واحد... ولكن لي تعليقٌ على هذا الكلام هو أن كلَّ زيادةٍ في المبنى تدلُّ على زيادةٍ في المعنى وهذا في أصل اللغة، فسوف غير السين، فكلمة سأفعل كذا، غير: سوف أفعل كذا، ولا شك في ذلك، مثلاً: كتب غير اكتَتَبَ.. فكتب أي كتب رسالة، واكتتب أي اتخذ الكتابةَ مهنةً له.

بدأ الله الخلق... أي خلقهم وأوجدهم، فلانٌ لا يبدي، ولا يُعيد، أي: ليست له حيلة، لا يفعل شيئاً بادئ ذي بدء، وليس بإمكانه أن يعيده، إذاً هو ضعيف ولا حيلةَ له، قاصر.

وفي سورة سبأ قال تعالى: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ [سبأ:٤٩].

الباطل ضعيف، الباطل زهوق وقد قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء:٨١].

والله عز وجل عندما قال ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ زهوق على وزن فعول، أي: شديد الزهوق، وصغية المبالغة دائماً في اللغة تعني شيئين، تعني الكمَّ وتعني الكيف، أي أن أكبر باطل زهوق، وأكثر باطل زهوق، فلو أن هناك مليون باطل، وبالطبع هناك باطل اعتقاديٌ، وباطل فكري، وباطل سلوكي، أي شيء خلاف المنهج فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام:١٥٣].

فالحق واحد لا يتكرر، الحقُّ واحد كما أنّ بين نقطتين يمرُّ مستقيم واحد فقط، ولو مررنا مستقيماً آخر لانطبق على الأول، فبين نقطتين يمرُّ مستقيم واحد، والحق كذلك واحد، فالحقُّ لا يتعدد، أما الباطل فإنه يتعدد... فبين نقطتين يمرُّ ألف خط منحنٍ، وألف خط منكسر، فالباطل يتعدَّد أمَّا الحقُّ فلا يتعدَّد.

والآية الكريمة التي وردت في سورة البقرة أيضاً تؤدي المعنى ذاته قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة:٢٥٧].

الظلمات جمع... والنور مفرد، فالحقُّ واحد، فهذا الذي لا يبدئ ولا يعيد هو ضعيف، مفتقر، ولا حيلة له، لكنَّ الله سبحانه وتعالى يبدئ ويعيد.

الحقيقة كلمة يُبدئ... تشير إلى معنى المبدع... فالإنسان حينما يخترع شيئاً لا يخترع من فراغ بل من مثال سابق، حتى إنَّ الذي اخترع العجلة وكما قال بعضهم لا بد أنه رأى شجرة تتدحرج على الأرض فاستنبط من الشجرة العجلة، والذي اخترع

الغوَّاصة رأى السمكة في أعماق البحر، فعلى مستوى البشر ليس هناك إنسان اخترع شيئاً وأبدع شيئاً إلا على مثالٍ سابق، حتى إن الكُتّاب الخياليين إذا أرادوا أن يصوروا قصة خيالية في العالم الآخر، يصورون أشخاصاً وهؤلاء الأشخاص على مثال سابق، فيصوِّرونه له رأس وله يدان وله رجلان وله جذع، ولكن مع بعض التعديلات.

والمهندسون الذين يرسمون الأبنية هناك عدة أشكال في ذهنه، فأول شكل، والثاني والثالث والرابع والخامس وبعد السادس مثلاً تجده يعيد الشكل الأول، فالقدرة على إحداث شي من غير مثال سابق عند الإنسان محدودة للغاية، فلا بد من مثال سابق، لكن ربنا عز وجل عندما قال عن نفسه إنه يبدئ، أي: خلق الكون على غير مثالٍ سابق.

فمثلاً فكرة النبات... فأنت إذا أردت أن تصنع شيئاً يتكرر فكيف؟ تقول: نكثِّرهم. لكن ربنا سبحانه وتعالى جعل بداخل الثمرة بذرة، وهذه البذرة تزرع وتنتج شجرة، والشجرة تثمر هذه الثمار، فمبدأ البذور في الكون هذا إبداع وهو على غير مثالٍ سابق، مبدأ الألوان كذلك... فهناك ألوان والعين تحتاج إلى نور، فالله خلق كلَّ شيء على غير مثالٍ سابق.

فكلمة يبدئ فيها معنى الإبداع، فالإنسان له رأس وجذع وله أطراف، وله يدان ورجلان، وهو يرى ويسمع، وينطق ويتحرَّك، وهو ينام ويجوع ويعطش، من قال: إنَّ الإنسان بحاجة إلى أن يشرب؟؟ الله عز وجل... من خلق هذا الإنسان على أنه يحتاج إلى أن يشرب؟ من خلق الماء؟ فالإنسان خلق على أن يشرب، أوجد الله ماء، فهو مخلوق كذلك على أن يتنفس وهناك هواء.

بل إن الجنين في بطن أمه له رئتان وليس بحاجة إليهما إطلاقاً لأنَّ دمه يتجدَّد عن طريق الأم، فهذا الأكسجين يأخذه من دم أمِّه عن طريق المشيمة، فمعنى ذلك أنَّ هناك خالقاً مبدعاً خلق له الرئتين ليستعملهما حينما يولد.

من جعل الكون كُرات؟ فالكرة شكل هندسي له خصائص، ومن جعل الكون يتحرك؟ هذه الحركات المغلقة، من خلق قوى الجاذبية؟ من خلق النور والظلام؟ من جعل الحياة أساسها الماء؟ فهذا كلُّه مُبدَعٌ على غير مثالٍ سابق.

نحن ألفنا الكون، ألفنا القوانين، ألفنا الخصائص، فإذا أردنا أن نتحرك نتحرك وفق مثالٍ سابق فقد قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون:١٤].

الله عز وجل سمَّى الإنسان الذي يصنع شيئاً سمَّاه مجازاً خالقاً، وسمح لذاته العلية أن يوازنها مع مخلوقاته فقال: ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾.

لكن بين خلق الإنسان وخلق الله بونٌ شاسع.

الإنسان يصنع من كلِّ شيءٍ شيئاً، لكن الله سبحانه وتعالى يصنع كل شيءٍ من لا شيء، فقال تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾، وربُّنا عز وجل سمح لذاته العلية أن يوازنها مع مخلوقاته فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (٦٢) ﴾ [الأنعام:٦٢].

الآن هناك حاسوب، وهذا الحاسوب الذي اخترعه الإنسان شيء مذهل، يقرأ أربع مئة وخمسين مليون حرفاً في الثانية الواحدة، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (٦٢) ﴾ أي أنه ليس هناك زمن، فهو القائل سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس:٨٢].

فهنا أردت أن أقف قليلاً عند كلمة يبدئ.. أي: يبدع، وأضيف على هذا المعنى معنىً آخر، وهو أنَّ الله سبحانه وتعالى لكرامة الإنسان عنده، هو مبدع الكون بطريقةٍ يستطيع الإنسان بها أن يبدع.

فمثلاً هناك نباتات مقزَّمة فهذا إبداع، وكذلك شجرة فاكهة ضخمة تقزَّم وتصبح في حجم صغير، وكثيرٌ من النباتات الآن مثل الليمون والبرتقال والرمان تُوضع في أُصص صغيرة جداً فهذا إبداع، ولكن ربَّنا عز وجل جعل الكون بطريقةٍ إذا أراد الإنسان أن يبدع، إنه يُبدع فيه.

اللغة مثلاً مؤلَفةً من حروف معدودة، ولكن من هذه الحروف المعدودة يمكنك أن تبدع كلمات غير محدودة، فمن معاني يُبدىء أنه جل جلاله أوجد الشيء على غير مثالٍ سابق، فليس هناك مثال سابق للمبدع سبحانه.

فالإنسان يمشي وله يدان... فهذا الشكل رائع جداً، لكن هناك أكثر من ستة آلاف مليون إنسان، فلا يوجد إنسان مثل الآخر... فالله يبدع، فبصمة الإبهام إبداع، وقُزحيَّة العين إبداع، وكيمياء الدم إبداع، ونبرة الصوت إبداع، ورائحة الجلد إبداع، فالإنسان متميز برائحة جلده، ونبرة صوته، وقزحية عينه، وبصمة إبهامه ينفرد بها، والآن اكتشف العلماء الزمر النسيجية وهي غير الزمر الدموية، فأثناء نقل الأعضاء لا بد من حد أدنى من التوافق النسيجي، وإلا فإن هذا العضو المزروع يُلفظ ولا يقبله الجسم، فكم زمرة نسيجية مكتشفة إلى الآن. اثنان ونصف مليار زمرة نسيجية، أي: ليس هناك سوى شخص آخر في هذا العالم يشبهك من حيث الزمرة النسيجية.

فأنت عندك زمرة نسيجية، وزمرة دموية، وبصمة إبهام، وكيمياء دم، ورائحة جلد، ونبرة صوت وقُزحية عين تتميز بها عمّن سواك، فالله عز وجل فرد، ومن تفضُّله على هذا الإنسان أن جعله فرداً لا مثيل له، فلك مكانتك عند الله عز وجل.

لو قلنا لك: ارسم لنا ورقة شجر. فإذا قمت بإجراء المحاولة فسترسم ورقة دائرية، أو ورقة مثلثة، أو مستطيلة، أو ورقة مسننة، أو ورقة نحيلة وطويلة، أو ورقة قصيرة وثخينة، عدة أمثلة ترسمها، ولكنك لو دخلت حديقةً وراقبت فقط أشكال أوراق النباتات لوجدت أعداداً لا تُحصى من أشكال أوراق النباتات، وأمعنْ نظرك في الأزهار هي كذلك لا تُحصى.

دخلت إلى أحد المعارض التي خصصت لعرض الفراشات بمصر وعلى ما أذكر فقد ضمّ المعرض أربع قاعات عُلِّقت على جدرانها كلِّها فراشات، وكلُّ واحدة غير الأخرى، وكلُّ واحدة أجمل من الثانية، شيء لا يُصدَّق، أشكال متباينة، وألوان مختلفة فهو سبحانه يبدع على غير مثالٍ سابق.

هذا الكون معرض لأسماء الله الحسنى، فكلما زدت هذا الكون نظراً وتأمّلاً تعرفت إلى الله أكثر فأكثر، إنَّ هذا الكون بابٌ واسع تدخل منه على الله، وطريقٌ قصيرة تصل بها إليه.

فالمعنى الأول لبيدئ هو المبدع الذي خلق فأبدع على غير مثالٍ سابق، أمَّا الإنسان... فقد قرأت موسوعة عن الطيور ففي المقدمة كتب المؤلِّف قائلاً: إنَّ أرقى طائرة صنعها الإنسان حتى الآن لا ترقى إلى مستوى الطائر. فأحد أنواع الطيور يطير ستة وثمانين ساعة طيران بلا توقف، ونحن إذا طرنا بطائرة سبع ساعات فوق مياه المحيط الأطلسي نقول: هذا شيء يفوق عجائب الدنيا السبع.

وبعض الطيور تقطع سبعة عشر ألف كيلومتر ولا تضلُّ الطريق بلا بوصلة ودون الاستعانة بمراكز البثِّ المنتشرة في أنحاء المعمورة، فالطائرة تعرف موقعها من خلال هذه المراكز وبالاتصال المستمر مع هذه المحطات الأرضية، ويعرف منها حوادث الطائرات بالساعة والدقيقة ومكان الوقوع إذا انقطع اتصال الطائرة بالأرض، ولكنَّ هذا الطائر الذي يطير من شمال الكرة الأرضية إلى جنوبها، من شمال بريطانيا إلى جنوب إفريقيا، وحينما يعود لو أنه أخطأ في زاوية العودة بمقدار درجة واحدة لهبط في هولندا، ولو أخطأ زاوية أخرى لجاء في ألمانيا.

والأغرب من ذلك هذه الطيور التي تبني أعشاشها... تُعشش في البيوت، والتي تهاجر إلى الجنوب وتعود، كطائر مثلاً وصل إلى جنوب إفريقيا وسيعود، وهو مثلاً في دمشق في بيت من بيوت الصالحية، لو أخطأ نحو اليسار درجة واحدة لجاء بمصر، ولو أخطأ نحو اليمين درجة لجاء بالعراق... لكنه إذا عاد فإنه يصل إلى عُشِّه الذي بناه في دمشق، فالله سبحانه وتعالى هو الذي يهدي.

كلما تأملت في خلق السموات والأرض ذابت نفسك خشوعاً لله عز وجل وتعظيماً له.

وقال بعضهم: «هو الذي ابتدأ العباد بالفيض والمدد، وهو نِعم السند».

أحياناً تُهدى هدية ابتداءً فتنتبه فتردُّ عليها، ولكن لمن الفضل؟ الفضل لمن بدأ... لأن ردَّ الفعل أقلُّ من الفعل... فربنا عز وجل أنعم عليك بنعمة الوجود، فأنت موجود، وبدأ فضله عليك بنعمة الإمداد ونعمة الهُدى والرشاد، وهو قد بدأك بالفضل فقد قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة: ٥٤].

لم يقل: يحبونه ويحبُّهم بل قال: ﴿ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾... حينما خلق الإنسان ولم يكن من قبل شيئاً مذكوراً بدأه بالفضل وقد قال تعالى: ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠].

إلى متى أنت باللذات مشغولُ وأنت عن كُلِّ ما قدَّمت مسؤولُ

أيضاً المبدئ... المُظهر. قال: أظهر جميع الخلق من العدم إلى الوجود.

فالمعنى الأول للمبدئ... هو المبدع. أي: خلق على غير مثالٍ سابق.

المعنى الثاني للمبدئ... هو الذي بدأك بالإحسان فأوجدك.

المعنى الثالث... هو الذي أظهرك، فقد كنت في حيِّز العدم، أي: عدماً فأظهرك.

وقال بعض العارفين بالله: «المبدئ هو الذي يقذف في قلب عبده النور فيشرق»، أي كان إنساناً خاملاً تافهاً بعيداً، ضائعاً شارداً ضالاً، فلما ألقى في قلبه النور انتبه وصار شيئاً مذكوراً، فالله عز وجل يرفع الإنسان ويسمو به، ألم يقل في كتابه الكريم: ﴿ أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشرح: ١-٤].

كان إنساناً خاملاً... فأحياناً تجلس مع إنسان تجد همومه سخيفة جداً، وأحياناً أخرى تجالس إنساناً آخر فتُدهش، فهناك أشخاص اتصالهم بالله ومعرفتهم باليوم الآخر وسعيهم إلى الدار الآخرة وبذلهم وتضحياتهم جعلت من شخصيتهم شخصياتٍ فذَّة.

فهذا الصحابي الجليل سيدنا ربيعة بن كعب الأسلمي مثَلٌ ناطق، فعندما خدم سيدنا رسول الله ﷺ وقد انتهى وقت الخدمة، فقد أذَّن العشاء وصلَّى النبي ﷺ وأوى إلى فراشه، ولكنَّ ربيعة لم يستطع أن يغادر بيت النبي، بل يبيت عند باب النبي ﷺ، ليناوله وَضوءه عندما يستيقظ [البخاري في الأدب المفرد].

وفي «مسند الإمام أحمد» أنه كان بعد أن يقضي حوائج النبي ﷺ في النهار، وبعد أن يصلي العشاء الآخرة، يجلس عند باب النبي ﷺ، خشية أن تحدث لرسول الله ﷺ حاجة، فيأتيه بوَضوئه وحاجته.

فهذا الاتصال بالله عز وجل، هذا النور الذي يسري إلى قلب المؤمن يجعله كالكوكب الدريِّ مشعاً من حوله، فسبحان الله المؤمن له هيبته وشخصيته ووقاره، وله الأنوار من حوله، فكلّ إنسان التقى بمؤمن صادق يسري في كيانه ما يشابه التيار الكهربائي، ويشعر برعشة، ووجل.

فقد دخل على النبي الكريم رجل فأصابته رعدة، فقال له: «هوِّن عليك إنما أنا ابن امرأةٍ من قريش كانت تأكل القديد بمكة» [ابن ماجه، من حديث أبي مسعود].

الظاهر بيبرس وهو بطل من الأبطال ردَّ التتار ومع ذلك قال: والله ما استقرَّ مُلكي حتى مات العزُّ بن عبد السلام، والعزُّ بن عبد السلام كان أحد العلماء في عصره بل سلطان العلماء، وقد كان له من قوة الشخصية والهيبة وقوة التأثير ما دعا الظاهر بيبرس إلى أن يقول هذا القول.

رُوي أنَّ الحجاج بنى داراً بواسط وأحضر الحسن ليراها فلما دخلها قال: الحمد لله، إن الملوك ليرون لأنفسهم عزاً، وإنا لنرى فيهم كلَّ يوم عِبراً، يعمد أحدهم إلى قصر فيشيده، وإلى فرش فينجده، وإلى ملابس ومراكب فيحسنها، ثم يحفُّ به ذباب طمع، وفراش نار، وأصحاب سوء، فيقول: انظروا ما صنعت، فقد رأينا أيها المغرور، فكان ماذا يا أفسق الفاسقين؟ أما أهل السموات فقد مقتوك، وأمَّا أهل الأرض فقد لعنوك، بنيتَ دار الفناء، وخربت دار البقاء، وغُررْتَ في دار الغرور، لتذلَّ في دار الحبور، ثم خرج وهو يقول: إن الله سبحانه أخذ عهده على العلماء لَيُبَيِّنُنَّهُ للناس ولا يكتمونه.

وبلغ الحجاج ما قال، فاشتد غضبه، وجمع أهل الشام، فقال: يا أهل الشام أيشتمني عبد من عبيد أهل البصرة وأنتم حضور فلا تنكرون؟! ثم أمر بإحضاره، وهو يحرِّك شفتيه بما لم يسمع حتى دخل على الحجاج، فقال: يا أبا سعيد أما كان لإمارتي عليك حقٌّ حين قلت ما قلت؟ فقال: يرحمك الله أيها الأمير! إنَّ من خوَّفك حتى تبلغ أمنك، أرفق بك وأحب فيك ممن أمنك حتى تبلغ الخوف، وما أردت الذي سبق إلى وهمك، والأمران بيدك: العفو والعقوبة، فافعل الأولى بك، وعلى الله فتوكَّل، وهو حسبنا ونعم الوكيل فاستحيا الحجاج منه، واعتذر إليه وأكرمه وحباه.

وفي رواية أخرى: فلما دخل قال له الحجاج: ها هنا، فأجلسه قريباً منه وقال: ما تقول في علي وعثمان؟ قال: أقول قول من هو خير مني عند من هو شرٌّ منك، قال فرعون لموسى: ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢ ﴾ [طه:٥١-٥٢] عِلْمُ علي وعثمان عند الله.

قال: أنت سيد العلماء يا أبا سعيد! ودعا بغالية عطر بها لحيته، فلما خرج تبعه الحاجب فقال له: ما الذي كنت قلت حين دخلت عليه قال: قلت:

يا عُدَّتي عند كُربتي! ويا صاحبي عند شِدَّتي! ويا وليَّ نعمتي! ويا إلهي وإله آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب! ارزقني مودَّته، واصرف عني أذاه ففعل ربي عز وجل [جمهرة خطب العرب، لأحمد زكي صفوت].

فالمؤمن له هيبةٌ كبيرةٌ جداً من اتصاله بالله.

وقد قيل للحسن البصري: بِمَ نِلت هذا المقام؟ قال: باستغنائي عن دنيا الناس وحاجتهم إلى علمي.

فعندما يكون العالم مريضَ النَّفس يستغني الناس عن علمه ويحتاج إليهم هو لدنياه... تسقطُ مكانته، وتسقط قيمته... فما نال الحسن البصري هذا المقام إلا باستغنائِه عن دنيا الناس وحاجتهم إلى علمه.

فمن بعض معاني كلمة يُبدئ أنَّ الله يُلقي على هذا المؤمن هيبةً، ويلقي في قلبه نوراً، مما يجعله كريماً عزيزاً.

أما كلمة يعيد ففي اللغة: العَوْدُ هو الرجوع، كالعودة... ومن كلمات السلف الصالح اللهمَّ! ارزقنا إلى بيتك معاداً وعودةً، والعَوْدُ: هو الرجوع إلى الشيء بعد الانصراف عنه، والمُعيدُ من الرجال العالم بالأمور. ففي الجامعة عندنا مصطلح اسمه المُعيد، وقد كان الطالب المتفوِّق يعيد الدرس على زملائه، فلتفوِّقه استوعب الدرس، فإذا كان هناك طالب ضعيف فيستمع من المعيد إلى الدرس، وهو يعيد الدرس على قُرنائه، فالمعيد هو العالم بالأمور.

والعائدة هي المعروف... اللهمَّ لا تحرمنا عوائد فضلك، فالعائد هو المعروف، أي: يعود نفعه على من فعله، فإذا فعل إنسان معروفاً فيعود عليه الخير... فالعود هو المعروف لأنَّ الإنسان إذا فعل المعروف عاد عليه الخير، والعائدة هي المعروف والصلة.

والمعاد... الآخرة: «اللهمَّ اصلح لي ديني الذي هو عِصْمَةُ أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي» [مسلم، عن أبي هريرة].

فالمعيد هو الذي يرجع بعد أن انصرف عن الشيء... والمعيد هو العالم بالأمور، والعائدة هي المعروف؛ لأنه يعود على صاحبه بالخير، والمعاد هو الدار الآخرة، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾ [القصص:٨٥].

﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ أي: سوف يرجع بك أو يعيدك، وقد قال تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه:٥٥].

أما المعيد في صفة الله تعالى فهو كما قيل: «هو الذي يعيد الخلق بعد الحياة إلى الممات».

كلُّ الناس هلكى، كلُّ من عليها فان، كلُّ شيءٍ هالك إلا وجهه، فالإنسان مهما علا لا بد من أن يعود إلى التراب، لا بد من دخول القبر، الليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر، والعمرُ مهما طال فلا بد من نزول القبر.

المعيد هو الذي يعيدنا إلى الموت بعد أن أحيانا، فالموت نهاية كلِّ شيء، فالموت يأتي فجأةً والقبر صندوق العمل، هذه هي النهاية والمصير.

قال العلماء: «ثم يعيدهم بعد الموت إلى الحياة»: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾﴾، فهو ينقُلك من الحياة إلى الموت، ومن الموت إلى الحياة، لو كان الموت نهاية كلِّ حي وهو فناء وانتهى أمر الإنسان بعده لكانت القضية إذاً سهلة جداً، ولكنَّ الموت بداية حياة فقد قال تعالى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر:٢٤-٢٦].

قال العلماء أيضاً: المعيد هو الذي يعيد الخلق للحساب... فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية:٢٥-٢٦].

هناك عودة، وهناك سؤال، ومحاسبة، وعرض للأعمال، والمعيد هو الذي يجازي كلَّ مخلوقٍ بعمله وقوله، ويحاسبه على نعمه وطوله.

ورأي الإمام الرازي في هذا الموضوع «أنَّ المعيد هو الذي يعيدُ الأشياء بأعيانها»، فهذا الجسم الذي فني إلى ذرّات، فالذرّات نفسها تجتمع ويعاد خلقها من جديد، فلو أنَّ الإنسان أُحرق كما في الهند، وأُلقي رماده في الآفاق، فهذه الذرات يعيدها الله سبحانه وتعالى، لو أنه أُلقي في البحر، أو لو أنه احترق في الجو، فذرات الإنسان التي خلقها الله يعيدها هي هي، وقد استنبط الإمام الرازي هذا من قوله تعالى: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس:٧٩].

فالذرات نفسها يعيد خلقها... وقد قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖۚ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [فصلت:٢١].

معنى ذلك أنَّ الجلدَ نَفْسٌ تَشهدُ على صاحبها ﴿ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾، فإذا ارتكب الإنسان معاصي بأعضائه، فهذه الأعضاء نفسها تُجمع ويُعاد خلق الإنسان منها ثانيةً وتشهد عليه.

يروى أنَّ سيدنا داود كان يبكي، فأوحى الله تعالى إليه قال: لم تبكي يا داود؟! إن كان بكاؤك خوفاً من النار فقد أمَّنتك، وإن كان رجاءَ الجنة فقد أعطيتك، وإن كان لحديث الخصم فقد أرضيتك، فزاد داود بالبكاء وقال: إنما أبكي لما فاتني من صفاء ذلك الوقت الذي ولّى، فاردده عليّ. فقال له ربُّه جلَّ جلاله: هيهات يا داود لا سبيل إلى ردِّ ذلك الوقت.

فالوقت لا يعود.. الدنيا ساعة اجعلها طاعة، فمستحيل أن تستعيد الوقت، فالوقت إذا مضى لا يستعاد، لذلك ما مضى فات والمؤمَّل غيب، ولك الساعة التي أنت فيها.

نصيب المؤمن من معرفته بمن يبدئ ويعيد

من أدب المؤمن مع الله تعالى الذي يبدئ ويعيد أن يُكثر من ترداد ذلك الفعل الإلهي كي يتذكَّر العودة إلى الله عز وجل، فهناك عودة إلى الله.

أحد الأشخاص اتَّفق مع شخص آخر على أن يقرضه ثلاثمئة ألف ويُسجِّل له بستاناً جميلاً جداً رهناً، فلمّا لم يستطع المستقرِض أن يرُدَّ القرض، قال له الآخر: كلُّ إنسان معه حقُّه، كان ثمن البستان مليوناً. فصاحب هذا البستان تألَّم ألماً شديداً لدرجة أنه أصيب بأزمة قلبية وشارف على الموت، فأوصى ابنه قائلاً: يا بني إني إن مِت سِرْ بالجنازة أمام هذا الذي اغتصب مني البستان، وأوقِف الجنازة أمام دكَّانه، وادخل إليه وأعطه هذه الرسالة، وبعد موت الرجل وكان بيته بطرف المدينة، فانتقلت الجنازة إلى الطرف الآخر، وسارت إلى جانب دُكَّان المغتصِب، وأوقف ابنه الجنازة أمام الناس ودخل إلى هذا المغتصِب وقال له: هذه الرسالة من هذا الميت، قبل أن يموت كتبها لك. ففتحها فقرأ ما كتبه المتوفَّى فيها قائلاً: إنني ذاهبٌ إلى الله، فإذا كنت بطلاً فلا تأتِ إلينا، سوف أُقاضيك هناك.

إذاً لا بد من أن نعود إلى الله وسوف نُحاسب، لذلك الغنى والفقر بعد العرض على الله ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾ [الغاشية:٢٥-٢٦]. وقد قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة:٧-٨].

وللمزيد من البيان أقول: إنَّ الإنسان إذ عرف أن بدايته من ماءٍ مهين، وأنه خرج من عورةٍ ودخل في عورة ثم خرج من عورة، هذه هي البداية، ثم بعد هذا الخلق سوف يعيده الله إلى الموت، وبعد الموت يعيده الله إلى الحياة، فالبداية أي أصل خلق الإنسان الأول من تراب، وأصل خلقه بالذات من ماء مهين، والنهاية موت وبعد الموت هناك حياة أبدية، فأدب المؤمن مع من يبدئ ويعيد أن يذكر بدايته ونهايته.

لذلك... طوبى لمن ذكر المبتدى والمنتهى... ذكر المبتدى، أي: أنه كان نطفة من ماء مهين، ثم صار طفلاً ضعيفاً، ثم كبر واشتدَّ عوده، ثم بدأ يقول: أنا وأنا، ثم يعود إلى ما كان عليه من الضعف والجهل، ثم يطويه الردى، ثم يعيده الله تارةً أخرى ليحاسبه على كلِّ أعماله... فالله يبدأ الخلق ثم يعيده لتُجزى كلُّ نفسٍ بما تسعى، فقد قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الروم:١١].

﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ [طه:١٥].

فالله عز وجل يبدئ ويعيد، بدأك بالإحسان إليك حيّاً، وأعادك إلى ما كنت عليه من العدم عند الموت، ثم أعادك من العدم إلى الحياة لتلقى جزاء عملك...

يؤتي الحكمة

قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩].

قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١)﴾ [البقرة:٢٥١].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢)﴾ [لقمان:١٢].

من معاني إيتاء الحكمة

الحكمة تَدُلّ على الترجيح، ولا ترجيح بلا مُرجِّح، يعني أنَّ هناك شيئاً يمكن أن يكون في أوضاعٍ كثيرة. وأنت اخترت هذا الوضع المناسب، فهذا العمل اسمه ترجيح؛ رجَّحت هذا المكان على هذا المكان، فهذا الترجيح يحتاج إلى مُرَجِّح، وأوضحُ مثلٍ

مفتاح الكهرباء في الغرف فيمكن أن يوضعَ في أسفل الحائط، ويمكن أن يوضع في أعلى الحائط، أما حينما وُضع في مكانٍ معتدل يتناسبُ مع طول الإنسان وحركة يدِه، فإننا نقول: هذا المكان فيه حكمة أو فيه ترجيح، ولا ترجيح بلا مُرجِّح.

ولعلَّ دليل الحكمة من أكبر الأدلة على وجود الله وعلى عظمته، فمثلاً الطير الصغير الذي في البيضة كيف سيخرج منها؟ في وقتٍ مناسبٍ جداً، وفي مكانٍ مناسب جداً ينمو على منقاره نُتوءٌ مدَبَّب ويثقب به جِدار البيضة، وبعد حينٍ يتلاشى هذا النُّتوء، ويعود مِنقارُه إلى ما كان عليه. ففي الوقت المناسب، وفي المكان المناسب وبالحجم المناسب، وبالشكل المناسب، ظهر هذا النُّتوء ونقول: هذا الترجيح يحتاج إلى مرجِّح، والعقل لا يقبل أنَّ هذا الشيء تمَّ وحدَهُ.

الماء إذا برَّدْناهُ -شأنُهُ كشأنِ أي عنصر- ينكمش حجمُهُ إلى درجة زائد أربعة، وعندها تنعكس المسألة، ولولا هذه الخاصة لما كان على الأرض حياة؛ يتمدَّدُ الماء إذا بلغ درجة زائد أربعة، حكمةٌ مطلقة ولولاها لما قامت حياة، فالحكمة ترجيح؛ ولا ترجيح بلا مرجِّح.

قد يذهب إنسانٌ إلى بلدٍ في أقصى الشمال من الكرة الأرضية وقد تصل الحرارة إلى سبعين تحت الصفر، كلُّ شيءٍ يمكن أن تغطّيه؛ تغطي يديك ورجليك وجهازك التنفسي وترتدي الألبسة الصوفية والمعطف والقُبَّعة؛ فكلُّ شيءٍ يمكن أن تغطيه إلا العين إذا غطَّيتها فقدْتَ القدرة على البصر بحجب العين، والهواء الذي يُلامِسُها في درجة سبعين تحت الصفر، إذاً لا بد من أن يتجمَّد ماء العين ويفقد الإنسان البصر؛ فمن جعل ماء العين لا يتجمَّد؟ هذه حكمةٌ مطلقة، ولولا هذه المادة لَفَقَد كلُّ الذين يعيشون في المناطق الباردة أبْصارهم، فلا ترجيح بلا مُرجِّح، ولا حكمة بلا حكيم.

فالله سبحانَه وتعالى هو الحكيم، فهو تعالى حكمتُهُ مطلقة، أما الإنسان فحكمتُهُ نسبيَّة، وأحياناً يفعلُ فعلاً غير حكيم بسبب ضغط أو إغراء أو بسبب جهل، فإمَّا أنه تعرض لضغط كبير، فتكلَّم كلمةً غير حكيمة، أو وقف موقفاً غير حكيم، أو سلك

طريقاً غير مشروعة، أو خضع لإغراءٍ شديد، فاختلَّ عقْلُهُ وانساقَ مع شهْوَتِهِ، أو أنه يجهل حقيقة هذا الشيء فيرتكب حماقة، فالإنسان إذا بدا لك حكيماً فهو حكيمٌ أحياناً، أمَّا الحكيم مطلقاً فهو الله عز وجل، لأنه منزَّهٌ عن الضغط والإكراه والجهل، فأفعالُهُ تعالى تلابِسُها الحكمة المطلقة.

وهذه الحقيقة أنَّ كل شيءٍ وقع فله حكمة، حتى إنهم قالوا: لكلِّ واقعٍ حكمة؛ فكرة مريحة جداً وبسيطة، وهي أنك لن تعاني أزمة نفسية ولن تعاني حقداً ولا ضيقاً ولا كراهية ولا ندماً، لا تقول: لو أنني فعلتُ كذا وكذا، فهذه الفكرة البسيطة خلاصتها أنَّ كل شيءٍ وقع أراده الله، لأنه لا يليق بالله أن يقع شيءٌ لا يريدُه، وكلُّ ما أرادَهُ الله وقَع، وأفعال الله متعلقةٌ بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقةٌ بالخير المطلق، وبهذا انتهى النَّدَم والحقد وانتهت كلمة: ليْتَ.

لا تقل: لو أنني فعلتُ كذا وكذا، ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل، فإنَّ كلمة لو تفتحُ عمل الشيطان. أترى ما يحدث في العالم، هناك شرور ومجاعات وآثام وزلازل وبراكين تنفجر وفيضانات وصقيعٌ لا يُحتمل، وإتلافٌ للمحاصيل وحروبٌ أهلية، فيجب أن تؤمن، وهذا الإيمان يحتاج إلى جهد، أنَّ كل شيءٍ وقع لحكمةٍ بالغةٍ مطلقة، وهذه كلُّها للخير المطلق، ولكنك ترى رؤيةً محدودة أنَّ الشر وقع مختاراً وتتألم ولكنَّ الله يريد من أفعاله كلِّها الخيرَ المطلق.

تصور أنَّ غلاماً يعاقبه أبٌ شديد حازم، وبعد أن عُوقب أكثر من مرة استقام وأقبل على دراسته، ثم أصبح هذا الغلام الطالب في مستقبله من ألمع الشخصيات، بالنظر القريب والقصير هناك قسوة وشر، وبالنظر البعيد هناك خير كثير، فبعد أن ضُبط هذا الغلام ودرس وأخذ شهاداتٍ عليا وشغل مناصب رفيعة وصار دخلُهُ وفيراً -من وجهة نظر دنيوية- فهذا حينما ينعَمُ ببحبوحة ومكانة اجتماعية وبيت مريح ومركبة وزوجة وتبجيل من قِبَل الناس، سيُقبِّل يد أبيه، فعلى المدى القصير قد يبدو لك الشرّ، أما على المدى البعيد فيبدو لك الخير المطلق، لذلك أيُّ إنسان على وجه الأرض

من آدم إلى يوم القيامة حينما يقف بين يدي الله عز وجل يُلخِّص علاقة الله به بكلمةٍ واحدة هي: الحمد لله، قال تعالى: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [يونس:١٠].

أرأيت إلى هذه الفكرة؛ إنها هي الحقيقة وإني بحكم المعاناة والمشاهدة أكاد أقول: إنَّ تسعة أعشار الأمراض الوبيلة أسبابها نفسية؛ ضغط نفسي وقلقٌ وخوفٌ وحيرة وحقد، فإن آمنت بهذه الحقيقة تُشفَ من كلِّ أمراضِك النفسية، ولا ترى إلا أنَّ يد الله تعمل في الخفاء ولا ترى مع الله أحداً وتقول: الله هو كلُّ شيء، وبالتعبير الدارج: ما في إلا الله، واللهُ كبيرٌ، وتتعامل معه وحده، وتُخْلِصُ له، وتمَحَضُهُ وُدَّك وحُبَّك وطاعتك، وتقدم في سبيله حياتك وشبابك ومالك وعلمك ولسانك وقلمك وخبرتك، وهذا هو الإيمان. فلكلِّ واقع حكمة، ولكنَّ هذه الرؤية يصعب أن تُنقل بصورتها اللفظية، فالإيمان والسلوك في طريق الإيمان ومجاهدة النفس والهوى ولُزوم مجالس العلم وتلاوة القرآن ومعرفة السنة والاستقامة والعمل الصالح، وفي نهاية هذا المطاف سترى أنَّ يد الله وحدها تعمل في الخفاء، وفي نهاية النهاية ترى أنَّ يد الله فوق أيديهم، قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأنفال:١٧].

لذلك لا ألم ولا خوف ولا قلق، والحكمة أن نضع الشيء المناسب في المكان المناسب، في الحجم المناسب، وفي الوقت المناسب، وبالقدر المناسب، وبالأسلوب المناسب، والله هو وحده الحكيم ولا حكيم سواه، وحكمةُ البشر مستنبطةٌ من حكمة الله؛ وحينما فتح النبي ﷺ مكة فماذا قال أبو سفيان؟ قال: بأبي أنت وأمي ما أوصلك وأحلمك وأكرمك [رواه البيهقي في دلائل النبوة، عن ابن عباس]، إنها كلمة لخَّصت صفات النبي ﷺ الإنسانية، من فم رجل كان بالأمس العدو الألد.

ومن بعد، فإن الله عز وجل يقول: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [البقرة:٢٦٩].

أجل إنه سبحانه يقول: ﴿خَيْرًا كَثِيرًا﴾، الخير الكثير لا بحجم رصيدك المالي، ولا ببيت فخم ولا بزوجة رائعة، ولا بدخْلٍ كبير، ولا بصحةٍ جيدة، إنما الخير الكثير أن تُؤْتى الحكمة لأنك بالحكمة تسْعد، وبالحكمة تُصلحُ الزوجة السيئة، وبالحُمْق تُفسِد الصالح، وبالحكمة تجلب المال، وبالحمق تبدد المال، وبالحكمة تكسب الأصدقاء، وبالحمق تفرقهم وتخسرهم: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾، فالله عز وجل حكيم ويؤتي الحكمة.

بعضهم قال: الحكمة ليست كسبيةً، فهي لا تُكْتسب ولكنها تُؤتى، وبعضهم قال: المؤمن حينما يستقيم على أمر الله ويُخلص له يكافئه بالحكمة، وإني لأستند فيما أقول على قصص من أزواج وزوجات، ومن إخوة وأخوات، ومن شركاء، حمقٌ ما بعده حُمْق، وانحرافٌ ما بعده انحراف؛ إنسانٌ يدمِّر نفسَهُ بيديه، ويُخرِّب بيته بيديه، ويدمِّر سعادتَهُ بيديه لعدم وجود الحكمة؛ كأن يتفوه بكلمةٍ غير مناسبة، وهذا الكلام مؤلم ويحمل نتائج قاسية، قيل:

إنَّ القلـــوب إذا تنـــافر وُدُّهــــا   مثـــل الزجـــاج كسْـــرُها لا يُجْبَرُ

هناك شيءٌ في الأدب يسمى التَّشْطير، هو أنْ يأتي شاعر فيجعل من شطر البيت الشطر الأول ويصوغُ شطراً ثانياً وشطراً ثالثاً ويأتي بالشطر الثاني ليجعله شطراً رابعاً:

إنَّ القلـــوب إذا تنـــافرْ وُدُّهــــا   مثـــل الزجاجـــة كسْـــرُها لا يُجْبَرُ

فأخذ أحدهم الشطْرَ الأول من هذا البيت ثم جعل من الشطر الثاني شطراً رابعاً، فقال:

إنَّ القلـــوب إذا تنـــافر وُدُّهــــا   عنـــد الأكـــارم جَبْرُهـــا لا يَعْسُـــرُ

وقُلـــوب أرْذال الأنـــام إذا التـــوت   مثـــل الزجاجـــة كسْـــرُها لا يُجْبَرُ

في بعض الأحيان كلمةٌ تُنْهي شركة، وكلمةٌ تُشرِّدُ أسرة، وموقفٌ تخسر فيه عملك، قال تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾.

أحياناً تجد إنساناً يعمل عملاً مرموقاً، وله مكانة رفيعة، ودَخْل كبير، فيَخون صاحب العمل فيُنهي عمله بسلوك غير حكيم، أو بكلام لا حكمة فيه، ويصبح متشرِّداً في الطرقات، ارتكب حماقة كبيرة، وأرجو من كل أخ أن يصدِّق معي فأنا أُصدِّق الله عز وجل: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾.

في بيتك قد تُؤتى الحكمة وتعيش مع الزوجة عمراً مديداً، تسعدُ بها وتسعد بك، أما بالحمق فتطلّقها وتخسرها وتخسرُك.

أحياناً تجد إنساناً يملك مالاً يُبدِّدُهُ بأساليب تافهة، ثم يقعد ملوماً محسوراً إذ بدّد ثروته، وأحياناً يغْضب المرء فيطلِّق زوجتَهُ ويتسكَّع على أبواب المُفْتين عسى أن يجدوا له حلاًّ، فالذي تساهَلَ معه منهم يشكُّ في علمه، والذي تشدَّد عليه يشكُّ في رحمتِه، ومن بابٍ إلى باب، ومن مُفْتٍ إلى مُفْتٍ، وكان يُغْنيك ألا تُطلِّق هذه الزوجة وأنْ تبقي عِصْمَتُها بيدك، أما حينما طلَّقْتَها فقد أصبحت عِصمتُها بيدها وأنت لا تدري؛ فالحكمة -كما ورد- علمٌ مطبَّق، والله عز وجل قال: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الجاثية:٢٣].

فقد تُحصِّلُ علماً كبيراً ولا تكون حكيماً، أمَّا الحكمة فهي أنْ تستفيد من علمِك، وأن تجعل من علمِك علماً عملياً؛ إذ هناك علم عمليٌّ وآخر نظريٌّ، فأنت حينما تستفيد من علمك تكون حكيماً، فالحكمة حقيقةٌ مطبقةٌ في حيِّز الواقع، والحكمة إصابة الحقِّ، والحقُّ ما طابق الواقع، إذ الضلال أنْ تتوهَّم شيئاً غير واقعيٍّ، وأنْ تظنَّ شيئاً غير صحيح، والمقياس هو الواقع، فالحكمة أن تكون واقعياً، والإنسان إذا ابتعد عن الواقع وقع في الوهْم وصارت أفكارُهُ وهْماً وظناً وشكاً وغلبة ظنٍّ، أمَّا الحكمة فهي أن تبلغ حد اليقين: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾

اسمع إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان:١٢].

الحكمة كلُّها أن تشكر الله، لأنَّ الله أنعم عليك بنعمة الإيجاد، وأنْعم عليك بنعمة الإمداد، وأنْعم عليك بنعمة الهدى والرشاد، فالحكمة أن تشكر الله، والكون مسخَّر تسخير تعريف ومسخَّرٌ تسخير تكريم، فإن آمنت وشكرتَ حققتَ الهدف من وجودِك، أليس الله بأحكم الحاكمين، فحكمة الحكماء مستمدَّةٌ من حكمة الله، يعطي الحكمة أو لا يُعطيها، والدليل أنه إذا أراد الله إنفاذ أمر أخذ من كلِّ ذي لُبٍّ لُبَّهُ، فهذا أبو لهب لو ذهب إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله أشهد ألاّ إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله لنجا إلى الأبد، ولما أنزل الله فيه، قوله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾﴾ [المسد:١-٥].

فطريق الإرادة لأبي لهبٍ بيد الله عز وجل، ومن أجل أن تعلم أنَّ كلَّ مخلوقٍ أمره بيد الله سبحانه، فانظر حماقة هؤلاء السفهاء، قال تعالى: ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ [البقرة:١٤٢].

فالله يخاطب الناس من أهل مكة واليهود، ويقول: أنتم سفهاء وسوف تقولون هذا الكلام، قال تعالى: ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾.

حسناً، هؤلاء الذين سُمُّوا سُفهاء؛ لو فكَّروا قليلاً ثم سكتوا، فلو أنهم سكتوا لأبطلوا كلام الله وردُّوه، ولكنَّهم تكلَّموا وقالوا كما أخبرت به الآية، من أجل أن تعلَم أنَّ الله بيده كلُّ شيء، وبيده ناصية كلِّ شيءٍ، وإذا أراد الله إنفاذ أمر أخذ من كلِّ ذي لُبٍّ

لُبَّهُ. والله عز وجل طليق الإرادة ولا شيءَ يقفُ أمامه سبحانه؛ فهذا السفيه الذي وُصف بأنه سفيه، ولأنه سفيه سيقول كذا وكذا، ولو أنه فكَّر قليلاً وسكت لالغى مصداقية القرآن الكريم ولكن حاشا وكلاَّ، إذاً الحكمة أنَّ كل شيءٍ بيد الله، يؤتي الحكمة من يشاء أو يؤتي الضلال من يشاء، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾﴾ [محمد:١].

فالكفار أعمالُهم لا تحقِّق أهدافَها، ولا تصل إلى غاياتها؛ فحركة الإنسان الكافر عشوائية، حركتُهُ كبيرة، ولكن عندما يأتيه ملَكُ الموت ليتوفَّاه ويخرجه من الدنيا بعد أن بدأت تنتظم حياته ويعلو شأنُهُ وبعد ما أخذ يزْداد مالُهُ وقد تمكَّن بعملٍ مرموق، ومكانة وأصحاب وأعوان، يقول له ملَكُ الموت: قم مستسلماً واصحبنا، فالحكمة أنْ تأتي أعمالك مطابقةً لأهدافِك، لكنَّ الإنسان أحياناً يُنْجِزُ عملاً كبيراً دون أن يكون له غاية في مرضاة الله، بل تكون غايته سمعةً شخصية، وعلواً في الأرض، لذا يقول ربنا عز وجل: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان:٢٣].

يقول الله عز وجل في سورة البقرة: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾.

كنتُ قد ذكرتُ من قبل أنَّ الله سبحانه قد يؤتي المال لمن يحبّ ولمن لا يحبُّ، فقد آتاه لمن لا يحب وهو قارون، وقد آتاه لمن يحبُّ وهو سيدُنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، فكان من أغْنى أغنياء الصحابة فقد جهَّز وحْدَهُ جيش العُسْرة، وهذا عبد الرحمن بن عوفٍ كذلك من أغنى أغنياء الصحابة، فالله أعطى المال لمن يحبُّ ولمن لا يحبُّ، وأعطى الملك لمن يحبُّ وهو سيدُنا سليمان، ولمن لا يحبُّ وهو فرعون، ولكنَّ العلم والحكمة لا يُعْطيهما إلا لمن يحبُّ، قال تعالى في الحديث عن يوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يوسف:٢٢].

فالإنسان إذا تلقى العلم الصحيح وتفقَّه بكتاب الله وقرأ سُنَّة رسول الله ﷺ وسيرَتَهُ، وقف على الحق وعرف موقِعَهُ، ولماذا هو في الدنيا؟ ومن أين أتى؟ وإلى أين سيذهب؟ وما غاية وجودِهِ وماهيَّتُهُ؟ فهذا أوتي الحكمة، فالمؤمن هدفُهُ واضح وهو مطمئنّ، لأنه عرف حقيقة الحياة الدنيا، وعرف حقيقة الكون وحقيقة الإنسان، وجوهرَهُ قال تعالى: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ [البقرة:٢٥١].

والآية الثانية هي قوله تعالى: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [البقرة:٢٦٩].

يدعو الإنسان ربَّهُ فيقول: يا رب سدِّدْ قولي ووفِّقْني والهِمْني الصواب، وما من دعاءٍ أرجو أن تدعو به أحب إليّ من هذا الدعاء: اللهم الهِمْنا الصواب؛ قد يقف الإنسانُ أياماً مواقفَ نبيلة سليمة، ويتكلَّم الكلمة الصحيحة، ويتحرَّك الحركة المناسبة، ويغْضب في موطن الغضب، ويحلُم في موطن الحلم، ويعطي في موطن العطاء، ويُمسِك عندما ينبغي أن يُمْسِك، فهذه المواقف المتنوعة إذا كانت متناسبةً مع عِلَلِها وأسبابها يشعر براحة؛ فماذا يقابِل الحكمة؟ الحُمق، فالحكمة يتْبَعُها راحة، أما الحمق فيتبعُهُ ندم، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ ﴾.

ولقد عرف كلُّ مؤمنٍ وسمع بدُعاء الصالحين: «اللهم اجعل تدميرهم في تدبيرهم»، فبعض الناس يفكِّر ويُفكر، ويفكِّر ويحْسب ويجمع ويطْرح ويقسِّم، ثم يرتكب حماقةً تدمِّرُهُ باختياره، لأنه ركن إلى ذاته واطمأن إليها.

فاعلم علم اليقين أنه: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾، فإذا دخل الإنسان المسجد قد لا يجد مقْعداً ولا يتوقَّع راحة ولا استضافة، ولكن ما الذي يعطيه الله في المسجد عند سماعه خطبةً أو درساً؟ الحكمة، تجد أنك إذا دخلت المسجد

تقول: اللهم افتح لي أبواب رحمتِك؛ تجد نفسك بعد حين وبعد المثابرة على لزوم المساجد أنك في بيتكَ حكيم، وتجد نفسك في تجارتك موفَّقاً وتعْقِد صفقة معقولة، وبالمقابل تجد من يعرض عن مجالس العلم وتلقِّي أسباب الحكمة، يعقد صفقة يخسر بها وتهْوي به ويدمَّر بتدبيره، فالإنسان حين يكون مع الله فالله معه، والحقيقة أنت أحدُ شخصين: «شخصٌ يُلْهِمُه ربه سبحانه صلاحه وخيره، لأنه انقاد لربه، وشخصٌ يوسوسُ له شيطان ويأخذ بناصيته الخاطئة»، فالشيطان يدُلُّك على الشر وعلى المعصية، ويُحبِّب لك الدنيا، ويلقي بينك وبين الآخرين البغضاء ويُزيِّن لك الحرام، قد تجد أشخاصاً كثيرين عندهم زوجات من الدرجة الأولى، ومع ذلك يلهثون وراء سقط النساء ويسقطون في مستنقعات الزنا، لأنَّ الشيطان يزيِّن الرذيلة والفجور بعد أن اختارها لنفسه ويُزَهِّدُه بزوجتِه، فهذا حُمْق ويدمِّر نفسَه بنفسه، يزهد بالطاهر والحلال والنقيِّ الذي لا شائبة فيه، ويلهث وراء الحرام، والدمار والعار، كلُّ هذا دليل على عدم وجود الحكمة التي يسلك مسالكها: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٦٩)﴾.

تجد الإنسان يتسرَّع دون تحقُّق، فإذا به يقعُ في شر عملِه، وقد يحكم حُكْماً سريعاً على بعض أعماله فيندم على ما فعل، وقد يكون ردُّه أكثر مما ينبغي فيُفجِّر الموضوع؛ أراد أن يصلح فأفْسَد، وأن يُرمِّم فدمَّر.

وبعد، فيا أيها المؤمن كن حكيماً، ومن علامة الحكمة فيك أنَّك لا تندم على فعل أو قول، والندم يُرافِق الحمق، وعدم الحكمة، وفقد الحكمة يعْني أنك مقطوعٌ عن الحكيم، ولا يوجد لك اتصال بربك، إذ لو كان هناك إقبال واتصال لآتاك الله من الحكمة، فالله هو الحكيم، وأيُّ عبْدٍ اتَّصل به يشتقُّ لنفسه من حكمته، الربيع بن خُثيم رضي الله عنه سُرق بعض مالِهِ فماذا قال؟ قال: اللهم إن كان غنيّاً فاغفر له، وإن كان فقيراً فأغنه. وهذا قول حكيم، يرجو من دعائه هذا العوض من الله، كما ينمُّ عن صفاء القلب والطّويّة.

إني أعْرِف إنساناً فَصَل موظفاً عنده عن العمل وانتقم منه انتقاماً شديداً، بل أدَّى به الأمر إلى قتْلِهِ من أجل قضْية تافهة؛ غضبٌ شديد حمله على ارتكاب جريمة قتل، وهذه الجريمة أوْدَت به إلى السجن ثلاثين عاماً، أما لو كان حكيماً لقال: قدَّر الله وما شاء فعل، والله يعوِّضني، ولرأى أن كلَّ ذلك من حكمة أرادَها الله، فلعله أكل مالاً حراماً من قبل، فالله تعالى عاقبَهُ وانتهى الأمر به إلى السجن ثلاثين عاماً، فالشيطان هو الذي يدفعه إلى الحركات العشوائية، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم:٨٣].

حركة عشوائية وطائشة ومؤذية وهدفُها الإيقاع بين الناس، ذكرتُ مرةً قصة فريدة: كانت امرأةٌ تعمل بالقضاء، وكانت ملمَّة بالقوانين، وكان لها بيتٌ تملكه شركةً مع أخيها، وكان معها وثيقة بملكية كامل البيت، فتوهَّمت أن بإمكانها أن تأخذ منه البيت بطريقة ذكية جداً وبأسلوب يحتاج إلى خبرة، والقصة طويلة جداً واستطاعت بمكرها أن تلقي به في الطريق هو وأولاده وزوجتُهُ، وأن تستولي على ملكية البيت وحدها، عندها أصيبت بمرضٍ خبيثٍ في أمعائها وانتهى بها الأمر إلى الموت العاجل، فكان أخوها الوارث الوحيد لها، فعاد إليه البيت، واستحقَّت لعنة الله والملائكة والناس أجمعين؛ من الذي دفعها إلى هذا العمل؟ فقدانها الحكمة، فافترسها الشيطان إذ أخرجت أخاها الذي أعطاها نصف ثمن البيت تماماً، ولكن ما خطر في باله أنْ يأخذ منها إيصالاً لاطمئنانه إلى علاقة الأخوة؛ آلاف القصص من هذا النوع.

فالإنسان وهو بعيدٌ عن الله تعالى أحْمق ويرتكب الحماقةَ تلو الحماقة، فإذا به يُدمَّر بسوء تصرفاته، فالخلاصة إذا كنت مع الله فأنت في ظلِّ الله ورعايته وحمايته وتربيته؛ تجد شخصاً حياتُهُ متواضعة، ولكنه حكيم، وشخصاً آخر حياته مترفة، ولكنه موزع النفس مبدَّد الذهن، ألا ترى أشخاصاً جمعوا أموالاً طائلة ثم كُشف أمرهم فإذا هم في السجن، فالقضية هي قضية توفيق من الله عز وجل: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾.

فالإنسان إذا خرج من بيته فليقل:

«بِسْمِ الله، رَبِّ أعوذُ بِكَ مِنْ أنْ أَزِلَّ أو أُزَلَّ، أو أَضِلَّ أوْ أُضِلَّ، أوْ أَظْلِمَ أوْ أُظْلَمَ، أوْ أَجْهَلَ أو يُجْهَلَ عَلَيَّ» [رواه الأربعة عن أم سلمة].

فقوله حكمة وصواب.

تحدثُ معك أمور فتقول بعدها ما انتبهت، لكن الله ألهمني وصحوتُ من غفلتي، الفكرة التي أريد أن أنبه إليها: أنْ تقف في الوقت المناسب وأن تراجع الأمر وأن تتريَّث وألا تحكم عشوائياً فكُنْ مع الحكيم تغْدُ حكيماً وكُنْ مع العليم تغْدُ عليماً وكُنْ مع الرحيم تغْدُ رحيماً، فكلُّ إنسان يرتكب حماقة يكون وقتها غافلاً، يعني أنه وقتَ ارتكابِه لها كان مقطوعاً عن الله عز وجل: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران:٨١].

الحكمة تُؤتَى تفضُّلاً من الله الحكيم، والعلماء قالوا: «الكتاب هو القرآن، والحكمة هي سُنَّة النبي ﷺ».

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾.

أيها المؤمن اطْلُبْ من الله عز وجل كلَّ يوم أنْ يُلْهِمَكَ الحكمة وألا تقع في شرِّ عملِك، وأنْ تفعل الشيء الصواب وأن يسدد مسعاك، والحكمة ضالَّةُ المؤمن، والحقيقة أنَّ الإنسان إذا افْتَقَر إلى الله ألهَمَهُ الحكمة، فإذا اعْتَدَّ برأْيِهِ تَخلَّى عنه فوقع في الشرّ،

ولكنك إنْ تسْتَلْهِم الله يؤتِك الحكمة، وإنْ تنْقَطِع عن الله ينفردْ بك الشيطان ويوسوس لك ثم يرديك.

بربِّكم هؤلاء المجرمون يوم قتلوا ضحيتهم أما فكَّروا في المصير؟ أربعة ذهبوا إلى صائغ في بعض الأبنية في دمشق وقَيَّدوه وأخذوا منه ثلاثة عشر كيلو ذهباً، وبعد أسبوع أُعْدِموا في قرْيَتِهم جميعاً، هل من المعقول أن يخْسر الإنسان نفْسه من أجل كمية من الذهب تبقى لديه سبعة أيام؟ لذلك فالمُجرم غبي، طبعاً صعبٌ أن ترتكب جريمة، فالقانون يرصدك ويلاحقك، ثم إن ربك لبالمرصاد يجزي شرَّ الجزاء.

أعْرف رجلاً هوايتُهُ أن يمشي في الطرق المزدحمة ويُمتِّع عينه بالحسناوات، فأُصيب بمرض ارتخاء الجفون، فلا يستطيع أن يرى إنساناً إلا إذا أمسك جفنه بيده، أين الحكمة؟ هل تصدقون، فمن الحكيم؟ الذي يطيع أمْر الله عز جل.

أَطِـعْ أمْرنـا نرْفـع لـك حُجْبَنـا ... فإنـا منَحْنـا الرضـا مـن أحَبَّنـا
ولُـذْ بِحِمانـا واحْـتمِ بِجنابِنـا ... لِنَحْميـك ممـا فيـه أشْرار خلْقِنـا
وعـن ذِكْرنـا لا يشْـغلَنَّك شـاغِلٌ ... وأخْلِـص لنـا تلْـقَ المَسَـرَّة والهنـا

اسْمعْ قصص الناس تَرَ العجب؛ أزواج متباغضون، وأعمال منحرفة وخصومات، ففي البيوت مشكلات لا يعلمُها إلا الله، ونفور وعصبية لأنه مقطوع عن الحكيم، فكلامُهُ قاسٍ وردود فعله عنيفةٌ جداً، فلا حبٌّ هناك ولا وِئام ولا تسامُح ولا سُرور، تجد بيتاً يحوي كلَّ شيء إلا الحبَّ، فهو بذلك خاوٍ من كلِّ شيء؛ فالإنسان بالحكمة يسعد ومن دون الحكمة يشقى، سمعتُ أن أحد العلماء ألَّف حَوْل هذه الآية كتاباً من دفَّتِه إلى دفَّته: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾.

وهناك زوجاتٌ بالحكمة أصْبحن أودّ وأرحم زوجات، كأنهن بالود والرحمة أمهات، وهناك زوجات بالحُمق أصبحن أسوأ زوجات كأنهن ثعابين، كلُّ هذا من

الزوج؛ فهذا كلَّ يوم يقسو على زوجته ويغلظ لها القول، وليله ونهاره وراء عيوبها ليحطّ من شأنها ويُحطِّمها حتى تصل إلى أن تجابهه وتردَّ عليه ردّاً عنيفاً، فيدمِّر الوُدّ الذي بينه وبينها، أمَّا المؤمن فيحمد الله على كلِّ شيء، فلن تجد إنساناً له كمال مطلق، أمَّا الحكمة فإنها تجعل النقص كمالاً، والحُمقُ يجعل الكمالَ نقْصاً، فانتبه؛ اتصالُك بالله يُعطيك الحكمة، وذِكْرك اللهَ عز وجل يُعطيك الحكمة، وتلاوة القرآن تعطيك الحكمة، والحكمة أن تسْعد في الدنيا والآخرة، والسعادة أن تكون مع الحكيم، وأنت تحتاج إلى الحكمة كلَّ ساعة، بل كلَّ دقيقة، وبلا حكمة يشقى الإنسان ويَردى.

اللهم يا ذا الجلال والإكرام آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً.

اللهم ألهمنا الصواب والحكمة في أقوالنا وأعمالنا وارْضَ عنا يا كريم.

بهذا نكون قد أنْهَينا الحديث حول هذا الفعل الإلهي وهو إيتاء الحكمة، والله الموفِّق، كما انتهينا من مجمل البحث الذي وفق الله إليه، وهو دراسة أسماء الله الحسنى، وبعض صفاته وأفعاله الفضلى كما مرَّ بكم، ونضرع إلى المولى سبحانه بالنفع والقبول.

وصلى الله على محمد الرسول وعلى آله وصحبه وسلم.

بحمد الله تم

فهرس

الإرادة ٧
العدل ٢٣
البقاء ٣٩
عالم الغيب والشهادة ٥٥
نور السموات والأرض ٧٧
ذو الجلال والإكرام ٨٩
الاصطفاء ١١٣
التسخير ١٢٩
المنع ١٤٧
النفع والضر ١٦٣
فالله خير حافظاً ١٧٥
قائماً بالقسط ١٩١
البعث ٢٠٩
تأخير العقوبة ٢٢٧
ذو انتقام ٢٤١
إنك جامع الناس ٢٥٥
وكل شيء أحصيناه كتاباً ٢٦٩
يدبر الأمر ٢٧٥
يهدي من يشاء ٢٨٩
يضل من يشاء ٣٠٧
يحيي ويميت ٣٢٥
يعز ويذل ٣٤١
يخفض ويرفع ٣٥٥
يبدئ ويعيد ٣٧١
يؤتي الحكمة ٣٨٥